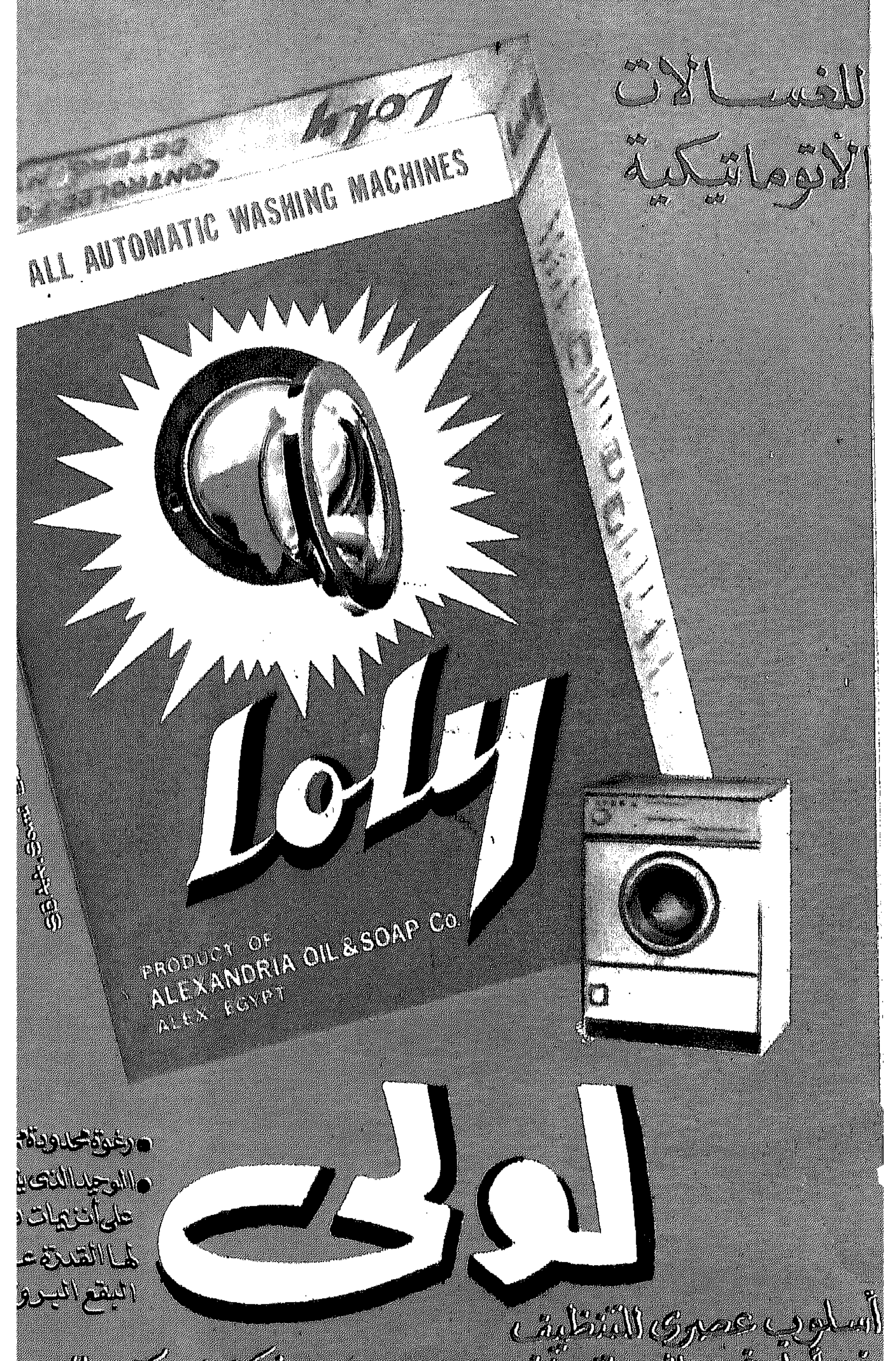
الهلال

العام المائة

عدد تذكاري




للغسالات
الأتوماتيكية
ALL AUTOMATIC WASHING MACHINES
لولى
PRODUCT OF
ALEXANDRIA OIL & SOAP Co.
ALEX EGYPT
لولى
أسلوب عصرى التنظيف

الهلال

مجلة ثقافية شهرية تصدرها دار الهلال
أسسها جرجى زيدان عام ١٨٩٢

السنة المائة • يناير ١٩٩٢ • جمادى الثانية ١٤١٢ هـ

رئيس مجلس الادارة
مكرم محمد أحمد

نائب رئيس مجلس الادارة
عبد الحميد حمروش

رئيس التحرير
مصطفى نبيل

المستشار الفنى
محمد أبو طالب

مدير التحرير
عاطف مصطفى

المشرف الفنى
محمود الشيخ

سكرتير التحرير (التنفيذى)
عيسى دياب

الادارة : القاهرة ـ ١٦ شارع محمد عزالعرب بك (المبتديان سابقا)
ت ٣٦٢٥٤٥٠ (٧ خطوط)
المكاتبات . ص. ب : ٦١٠ العتبة ـ
الرقم البريدى . ١١٥١١ ـ تلغرافيا
المصور ـ القاهرة ع . م . ع
مجلة الهلال ت : ٣٦٢٥٤٨١
تلكس : 92703 Hilal un
فاكس : FAX : 3625469

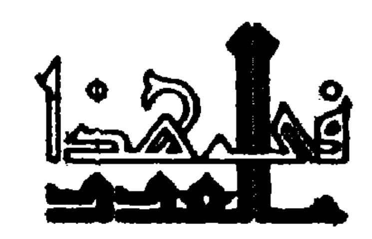
ضمن احتفال الهلال بمرور مائة عام على صدوره ، حرصنا فى هذا العدد التذكارى على تقديم الوان من الفكر المتميز الذى نشر بالهلال طوال رحلته المديدة ، هذا الفكر كان يتضمن المعارك والمساجلات الأدبية بين مفكرى وأدباء هذه الفترة ، خاصة بين

طه حسين ، ومصطفى صادق الرافعى ، وسلامه موسى وغيرهم .. ومن تلك المعارك النزاع الذى اشتد بين أنصار المذهب القديم وأنصار المذهب الجديد فى الأدب .. كما ننشر مقالا للعقاد يتحدث فيه عن المصريين وشيمهم العريقة التى يتميزون بها على كل شعوب الدنيا .

وما نقدمه فى هذا العدد مأدبة ثقافية تتضمن الحديث . كما تتضمن القديم ، ومن بين الحديث مايشغلنا الآن بدءا من قضية المياه ومستقبل الصراع العربى الاسرائيلى مرورا بمستقبل التعليم فى مصر وتضميد الجراح العربية بعد أحداث الخليج التى نعرفها ، والحديث عن النظام العالمى الجديد ، وهل هو وهم أم حقيقة ؟

وبالاضافة إلى الرسائل الصحفية من بيروت وواشنطن يجىء الحديث عن ابن سينا أبرز حكماء الشرق نتعرف من خلال سيرته على نبض العصر الذى عاشه عصر النهضة والاسلام ويبرز الفنان محمد أبو طالب كل ذلك ويجسده من خلال اختياره للشخصيات والاخراج المتميز لغلاف الهلال .

• مائة عام من الفكر والفن والعلم •





بريشة الفنان :
محمد ابو طالب

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) في جمهورية مصر العربية تسعة جنيهات وفي بلاد اتحاد البريد العربي والافريقي والباكستان عشرة دولارات أو مايعادلها بالبريد الجوى . وفي سائر انحاء العالم عشرون دولارا بالبريد الجوى .
والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال في ج . م . ع . نقدا أو بحوالة بريدية غير حكومية . وفي الخارج بشيك مصرفي لامر مؤسسة دار الهلال . وتضاف رسوم البريد المسجل على الاسعار الموضحة بعاليه عند الطلب .

ثمن النسخة

سوريا ٧٠ ليرة ، لبنان ١٥٠٠ ليرة ، الأردن ١٠٠٠ فلس ، الكويت ٧٥٠ فلسا ، السعودية ٨ ريالات ، الجمهورية اليمنية ٢٥ ريالا ، تونس ١,٥ دينار ، المغرب ١٥ درهما ، البحرين ٨٠٠ فلس ، قطر ٨ ريالات ، مسقط ٨٠٠ بيسة ، غزة والقدس والضفة ٨٠ سنتا ، ايطاليا ٢٧٠٠ ليرة ، لندن ١٢٥ بنسا ، نيويورك ٤ دولارات ، الامارات العربية المتحدة ٨ دراهم ، الجماهيرية العظمى ١ دينار .

مصابيح الظلام .. مائة عام فى

كل عام وأنت ياعزيزى القارىء بخير عميم ، ومقام كريم ، برغم تقلبات الدنيا ، وانتقال الأمور من حال الى حال ، وتراكم العجائب والغرائب فى أيامنا هذه التى ينطبق عليها قول القائل قديما : من يعش رجبا .. ير عجبا !!

وشهر يناير فى عامنا الجديد ، يوافق شهر رجب ، فلا غرو ان استدعى هذا التوافق بينهما الى ذاكرتنا ذلك المثل القديم عن عجائب شهر رجب !

فهذا هو عامنا الجديد - ١٩٩٢ - يستهل صارخا كالمولود ، أصابه الفزع من الدنيا التى تتلقفه يداها لاول مرة فيحس فيهما العنف والخشونة .

وفى مثل خفق البرق يندثر وجه العالم الذى عرفناه ، ويطل علينا وجه عالم آخر ، لا يوصف بالقبح ولا يوصف بالجمال ، حتى الآن - ولكن يوصف بالغرابة ، وتكتنفه الرغبة والرهبة ، فهاهى الامبراطورية العالمية الواحدة بلا شريك تعود الى الدنيا بعد طى صفحات الامبراطورية الرومانية التى كانت وحيدة الدنيا قبل ألفى عام !

وكذلك يجىء عام ١٩٩٢ بصورة جديدة للعالم ، لم يجىء بها اى عام سبقه خلال اكثر من عشرين قرنا ، حتى ان عام ١٩٩١ الذى حفل بالعجائب لم يكن فى بدايته يبشر أو ينذر بانقلاب تام فى ملامح عالمنا .. اما عامنا الجديد ، فهو بشير ونذير بملامح تاريخ جديد للجنس البشرى كله ، ولهذا يستحق عامنا هذا الذى يولد فى الثلوج والاعاصير ، ان يوصف بأنه بداية التاريخ لا نهاية التاريخ !

وفى عامنا هذا الجديد يستكمل "الهلال" عامه المائة ، ففى سنة ١٨٩٢ صدر العدد الاول من "الهلال" وخلال مائة عام بعد صدور ذلك العدد التاريخى ، حمل الهلال مشعل الثقافة للناطقين بالضاد فى مصر والبلاد العربية ، وفى المهجر البعيد فوق ارض امريكا الشمالية وامريكا اللاتينية ، وفى الجزر النائية فى المحيطات ، وفى آسيا واستراليا .

وعلى صفحات "الهلال" ظهرت أسماء أشهر الادباء والشعراء والفنانين والمفكرين ، ممن كان لهم أبلغ الأثر فى وجدان الانسان العربى وعقله وضميره . وهانحن اولاء - بعد مائة سنة - نعود فى هذا العدد الخاص المتميز من "الهلال"

لمراجعة تلك الاسماء العظيمة التى اضاءت فى سماء مصر والبلاد العربية خلال ذلك الأمد الطويل الممتد من أواخر القرن التاسع عشر الى أواخر القرن العشرين ، فكانوا مصابيح الظلام خلال مائة عام .

وذلك هو فحوى الاستبيان الشامل الذى تطالعه في هذا العدد من "الهلال" فى مستهل هذا العام الجديد الذى تحثنا بوادره على الالتفات الى ماضينا كما تدفعنا الى العمل لحاضرنا ومستقبلنا .

فمن هم أولئك الاعلام الذين يرى اهل الفكر الآن انهم كانوا اعمق تأثيرا فى الادب والعلم والفن وسائر ضروب الفكر ؟! ..

عزيزى القارىء

ان عالم الفكر عالم مائج هائج لا ساحل له .. ولا يمكن ضبط ما يجرى فى اعماقه او على سطحه بمقياس واحد ، وسترى مصداق ذلك فى اختلاف الاراء بين الاساتذة الذين اشتركوا فى هذا الاستبيان ، وان اختلافهم ليدل على اتساع البحر الذى خاضوه بحثا عن الاسماء الكبيرة ذات الاثر ، وانه ليدل على كثرة هذه الاسماء ، وعلى تنوع مجالات الثقافة والفكر التى عرفتها الامة العربية خلال القرن المنصرم .

عزيزى القارىء :

ان البحث عن النغمة الصحيحة فى عالمنا الجديد ، مهمة بالغة المشقة ، فقد تكاثرت النغمات الكاذبة وألحت على الاسماع لكى توهمها بأنها النغمة العذبة المطربة ذات الرنين الصادق ، فإلى اى الجهات يميل الانسان العربى بأذنيه فى هذا العالم الذى ضجت فيه الانغام الصحيحة والانغام الكاذبة ؟!

قديما ـ كما تروى لنا كتب الادب ـ كان بعض من يستبد بهم الطرب للالحان والانغام ، ينطحون الحائط برءوسهم من فرط الاندماج فى الطرب لما يسمعون !

فأى حائط ـ ياترى ـ يتقدم اليه الانسان العربى فى عالمنا الجديد لكى ينطحه برأسه تعبيرا عن طربه ، وكيف تكون العاقبة بعد ذلك ؟!

عزيزى القارىء

كل عام وانت بخير عميم ، ومقام كريم ، برغم تقلبات الدنيا ، وانتقال الامور من حال الى حال .





بقلم : عـاطف مصطفى

● نجيب محفوظ فى الرواية ● طه حسين فى النثر ● صلاح أبوسيف فى السينما ● سيد درويش فى الموسيقى ● نجيب الريحانى فى المسرح ● طلعت حرب فى الاقتصاد ● قاسم أمين فى العلوم الاجتماعية ● د . على إبراهيم فى الطب ● د . على مصطفى مشرفة فى العلوم الطبيعية ...

في سبتمبر ١٩٩٢ يتم « الهلال » عامه المئوى ، قدم فيه الإبداع الفكرى ، والثقافة العربية الرفيعة ، وكان على مدى الأعوام المائة منارة من منارات الثقافة العربية التى واصلت العطاء . ولم تتوقف وتخطى « الهلال » كل الحواجز ، وظل يلقى بلآلئه على شطآن المعرفة ، لم ترهبه الأنواء ، ولم توقف مسيرته ، إصدارات من هنا وهناك ، وظل « الهلال » الأب الروحى والرائد للثقافة العربية ، ضمت ملايين صفحاته مقالات وبحوث لصفوة المفكرين المصريين والعرب فى كل فنون المعرفة وألوانها المتباينة ، بما



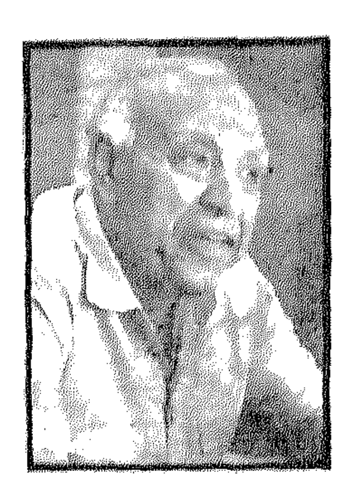
نجيب محفوظ

يتيح له أن يصبح مكتبة ثقافية وفكرية مستقلة تزدان بها كبرى المكتبات فى الوطن العربى .

وقد قامت « الهلال » بعمل استبيان « حول أبرز الشخصيات التى عاصرته منذ بداية صدوره فى سبتمبر ١٨٩٢ حتى الآن ، وتضمن الاستبيان الإشارة إلى أهم شخصية أدبية فى المائة عام الماضية (عمر الهلال) فى الرواية والشعر والنثر ، وأهم شخصية فنية في السينما ، الفن التشكيلى ، الموسيقى ، المسرح ، وأيضا فى مجال الاقتصاد والعلوم الاجتماعية ، ثم أهم شخصية فى الطب والعلوم الطبيعية والعلوم النظرية .

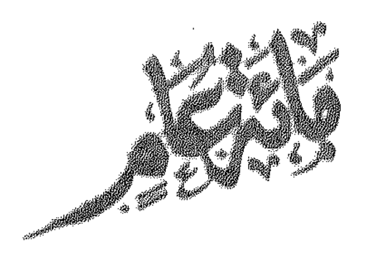
وحرصنا على إرسال الاستبيان إلى عدد كبير من العاملين فى مجال الفكر والثقافة ، وإلى عدد من كبار الأدباء ، وخاصة كتاب الهلال ، ومنهم على سبيل المثال لا الحصر :


د . طه حسين


صلاح ابو سيف

نجيب محفوظ ، يحيى حقى ، د . إبراهيم بيومى مدكور ، د . شكرى عياد ، د . سهير القلماوى ، د . مصطفى سويف ، كامل زهيرى ، د . شوقى ضيف ، د . يوسف خليف ، د . أحمد عبدالرحيم مصطفى ، د . أحمد حسين الصاوى ، حافظ محمود ، صوفى عبدالله ، د . أمين العيوطى ، د . جابر عصفور ، د . على شلش ، د . أنور عبدالملك ، حسين بيكار ، د . صبرى منصور ، صافى ناز كاظم ، أبوالمعاطى أبوالنجا ، حمدى قنديل ، إبراهيم فتحى .

وقد تبين من الإجابات أن الأديب الكبير نجيب محفوظ



قد حصل على أعلى نسبة فى الاستفتاء فى مجال الرواية يليه د . محمد حسين هيكل ثم محمد فريد أبوحديد وفى مجال القصة القصيرة د . يوسف إدريس .

وفى الشعر حصل أمير الشعراء أحمد شوقى على أعلى نسبة يليه صلاح عبدالصبور ويتساوى حافظ إبراهيم شاعر النيل وإبراهيم عبدالقادر المازنى ومصطفى لطفى المنفلوطى ثم محمود حسن إسماعيل ومحمد إقبال وبشارة الخورى وعمر أبوريشة وأمل دنقل وأضيف إلى الشعراء صلاح جاهين بالرغم من أنه كتب الشعر العامى وفى مجال النثر جاء فى المقدمة الدكتور طه حسين عميد الأدب العربى ، يليه عباس محمود العقاد ، ثم توفيق الحكيم ، والذى تم اختياره أيضا من أبرز الشخصيات التى أثرت فى المسرح وأثرته بما قدم من مسرحيات هادفة ، ويجىء بعدهم فى ترتيب اختيارات الاستبيان الدكاترة زكى مبارك ، أحمد حسن الزيات ، عبدالرحمن الشرقاوى ، سلامة موسى ، عبدالرحمن الخميسى ، مصطفى صادق الرافعى ، ولويس عوض ، ود . زكى نجيب محمود الذى اختارته مجموعة فى مجال النثر ، ومجموعة أخرى فى مجال العلوم النظرية .


سيد درويش

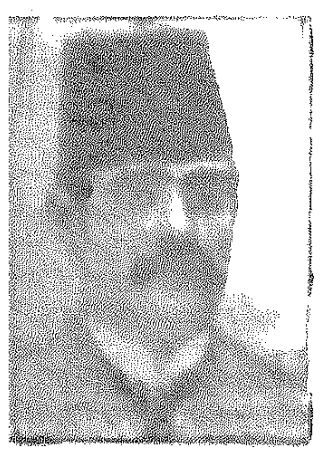

نجيب الريحانى

وفى السينما يحصل المخرج صلاح أبوسيف على أعلى نسبة فى الاستبيان يليه محمد كريم ، ثم شادى عبدالسلام ، وأنور وجدى وبهيجة حافظ وفاطمة رشدى وفاتن حمامة والمخرج يوسف شاهين وقد أختير شارلى شابلن كشخصية عالمية فى مجال السينما ، رغم أن الاستبيان لم يشر إلى شخصيات غير عربية .

أما فى الفن التشكيلى فقد أجمعت كل الآراء تقريبا على أن الفنان محمود مختار من أبرز الشخصيات التى عاصرت المجلة فى المائة عام الماضية وحتى وفاته (١٩٣٤) يليه الفنان السكندرى محمود سعيد وسيف


طلعت حرب

وانلى وحامد ندا وعبدالهادى الجزار وجمال السجينى ومنير كنعان ، وفى الموسيقى سيد درويش يليه محمد عبدالوهاب ثم رياض السنباطى وزكريا أحمد وأحمد صدقى وأبوبكر خيرت .



قاسم امين

وجاء نجيب الريحانى ثم يوسف وهبى وبعدهما زكى طليمات في مقدمة الذين أثروا المسرح المصرى منذ بدايته ، وعلى مدى صدور « الهلال » ، يليهم على الكسار وأحمد علام وروزاليوسف وأمينة رزق وزينب صدقى .

وفى الاقتصاد أجمعت كل الآراء على الدور الكبير الذى لعبه طلعت حرب وأشار الدكتور أحمد حسين الصاوى إلى أن عمر لطفى يعتبر "أبو التعاون" فى مصر ، كما تضمن الاستبيان فى مجال الاقتصاد د . وحيد رأفت ، ود . عبدالمنعم القيسونى والسيد ياسين ..



د . علـى ابراهـيم

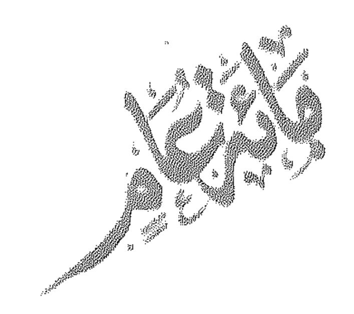
ويحصل قاسم أمين على أكثر الآراء فى العلوم الاجتماعية ، يليه د . شفيق غربال ، ثم د . محمد عوض محمد ، د . سليمان حزين ، د . أحمد عبدالرزاق السنهورى ، د . عبدالحميد العبادى ، د . فؤاد مرسى ، على الجريتلى ، إسماعيل صدقى ، د . على عبدالواحد وافى ، د . محمد إبراهيم كاظم ، د . عبدالرحمن بدوى ، مصطفى عبدالرازق ، د . سيد عويس .



على مصطفى مشرفة

فى الطب جاء د . على إبراهيم فى مقدمة الرواد فى هذا المجال على مدى مائة عام هى عمر « الهلال » يليه د . عبدالوهاب مورو ود . نجيب محفوظ ود . أنور المفتى ثم د .. ياسين عبدالغفار ثم د بول عليونجى ود . كامل حسين ، ود . مجدى يعقوب طبيب القلب المصرى العالمى .

وفى المائة سنة الماضية جاء د . على مصطفى مشرفة وهو عالم ذرة وموسيقى فى مقدمة العاملين والمبدعين فى



العلوم الطبيعية يليه د . أحمد زكى رئيس تحرير « الهلال » ثم أول مؤسس لمجلة العربى ، والتى خرجت من عباءة « الهلال » لتؤدى دورها الثقافى ، ثم يليه د . مصطفى نظيف أستاذ الطبيعة بكلية العلوم والذى أصدر كتابا مهما عن الحسن بن الهيثم ثم عالم الفضاء المصرى الشهير د . فاروق الباز ..

وأخيرا فى مجال العلوم النظرية جاءت نتيجة الاستبيان اختيار د . محمد مدور فى مجال الفلك ود . حسن صادق فى مجال الجيولوجيا ثم د . منصور فهمى ود . فؤاد زكريا .



الطريف أن الدكتور أمين العيوطى أجاب عن السؤال الخاص بأهم شخصية فى الطب والعلوم الطبيعية والعلوم النظرية ، باختياره للدكتور عبدالوهاب مورو فى مجال الطب وللدكتور على مصطفى مشرفة فى العلوم الطبيعية وفى العلوم النظرية اختار رفاعة الطهطاوى ومحمد عبده فيما قبل المائة سنة الأخيرة (توفى محمد عبده عام ١٩٠٥) واختار كل أعلام التطوير فيما بعد : طه حسين ، إبراهيم عبدالقادر المازنى ، عباس محمود العقاد ، أحمد لطفى السيد ، أمين الخولى والدكاترة زكى مبارك .

أيضا إختار الأديب أبوالمعاطى أبوالنجا عددا من الشخصيات الأجنبية ضمن الاستبيان نذكر منها : الكاتب اليونانى كازنتازاكسى والكاتب اليوغوسلافى إيفوأندروفتش فى الرواية ..

واختار شارلى شابلن فى السينما وسلفادور دالى وبابلوبيكاسو فى الفن التشكيلى .

وفى الاقتصاد والعلوم الاجتماعية اختار أيضا : دور كايم ، أوجست كونت ، ماركس ، لينين ، آدم سميث ، ثورو .

كما اختار د . أحمد عبدالرحيم مصطفى شارلى شابلن



احمد شوقي



د . محمد حسين هيكل



المنفلوطي

فى السينما ، وارنولدتوينبى ، د . شاخت (ألمانيا) بيفريدج (بريطانيا) والبرت اينشتاين فى العلوم الاجتماعية والنظرية ..


محمود سعيد

كذلك أشارت الكاتبة الصحفية صافى ناز كاظم فى اختيارها لأهم شخصية فى الرواية إلى أن الكاتب الكبير المغفور له محمد فريد أبوحديد رائد الرواية المصرية المعاصرة ورائد التجربة الحديثة فى الشعر والأسلوب السلس البسيط العميق فى النثر ، مؤلف « زنوبيا ملكة تدمر » التى سرقت عدة مرات تحت أسماء مؤلفين آخرين ، و« ابنة المملوك » من باكورة أعماله التى صدرت عام ١٩١٨ تقريبا ! ..... وصاحب ترجمة « ماكبث » بالشعر المرسل ، و« ميسون الغجرية » وهى تجربة رائدة فى كتابه الأوبريت بالشعر الحديث سبق بها شوقى وعبدالصبور والشرقاوى .


المخرج محمد كريم

وكما نرى فإن موضوع الاستبيان ليس له شطآن ، فالهلال على مدى ١٠٠ سنة كتب فيها مئات من أمثال من تضمنهم هذا الاستبيان ، وبالتالى نحن نبحث عن انعكاس هؤلاء على الهلال ، ولهذا اخترنا مقالات لعدد من تلك الشخصيات سبق نشرها فى الهلال على مدى رحلته الطويلة ، وهذه المقالات برغم قدمها فى النشر ، كأنها تخاطب العصر الراهن ، فضلا عن أن هذه الشخصيات من خلال مقالاتها تتحدث عن نفسها كما أختار بعض كتاب الهلال المعاصرين كتابة بعض المقالات التى تتناول هذه الحقبة الزمنية ، أو تتناول شخصية فكرية أو أدبية ومن المؤكد أن هناك شخصيات لها تأثير كبير فى حياتنا الفكرية والثقافية ، ولكن لا يتسع المجال للحصر ، ولكننا آثرنا الانتقاء من خلال الاستبيان الذى قمنا بعمله وتضمن آراء الكوكبة التى تكتب فى مجلة الهلال .


احمد حسن الزيات

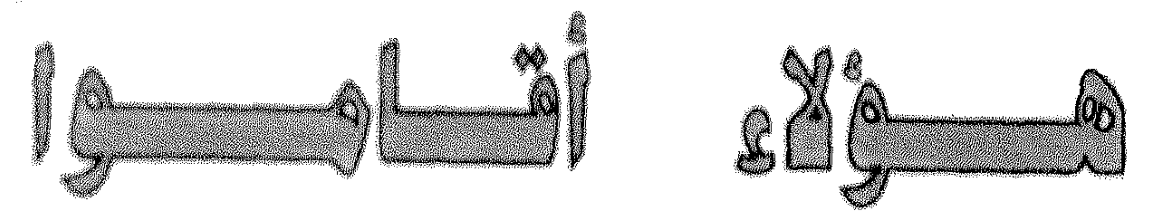
وبلا شك فإن هذه نقطة البداية فى جهد يستمر حتى سبتمبر القادم العيد المئوى للهلال ، حيث تتوحد مجلة الهلال مع الفكر والفن والثقافة خلال قرن من الزمان .


محمد عبد الرحيم المسلوب


عبده الحمولى



رياض السنباطى



هؤلاء أقاموا

بقلم: كمال النجمى

فى هامش "الاستبيان" الذى أجراه "الهلال" بين أهل الأدب والفن والعلم ، يمكن أن نفرد مساحة لمن كان يُطلق عليهم فى الماضى "طائفة المغانى" .. وهم ـ بلغة عصرنا ـ الملحنون والمطربون والضاربون على آلات الموسيقى والإيقاع .

هؤلاء كانوا ومازالوا منسيين إذا جرى الحديث عمن تركوا أثرا ظاهرا فى التكوين الثقافى للأمة ، مع أن صناعة الغناء هى أول ماينهض من الصناعات عند نهضة الأمة ، وأول مايكبو عند كبوتها ، كما زعم ابن خلدون قديما فى مقدمته ..

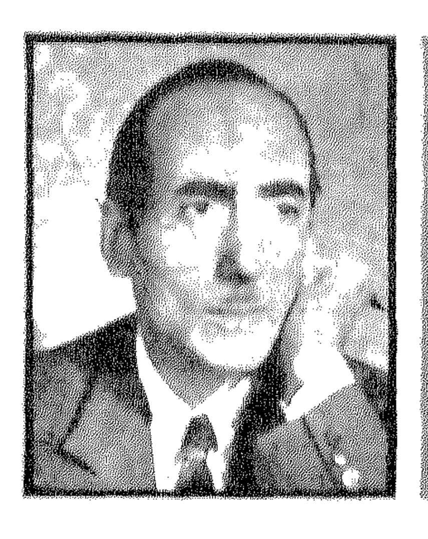
ولعل "الهلال" كان ومازال من المجلات الثقافية القليلة التى عنيت بهذه الصناعة وتحدثت عن أجيالها المتعاقبة منذ أيام عبده الحمولى المتوفى سنة ١٩٠١" .. إلى أيامنا هذه التى تدهورت فيها .

● مرآة المجتمع

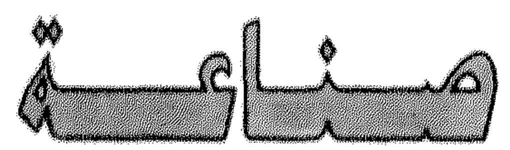
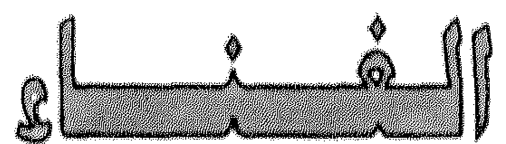
صناعة الغناء ، وانهارت أسس الغناء العربى المتقن ، واقتحمت الأسماع أصوات غربان الملاهى الليلية وأشرطة الكاسيت ! ..

وفى السنين الطوال التى عاشها





سيد درويش — زكريا احمد — محمد القصبجى

صناعة الغناء

"الهلال" تقلبت الدنيا واتخذت أشكالا وألوانا فى كل مجال ، وتخالفت شئون السياسة والاجتماع والأدب والعلم والفن ، وكان فن الغناء العربى فى مصر مرآة التطورات المتلاحقة منذ أواخر القرن التاسع عشر إلى أواخر القرن العشرين ..

لانتحدث عن هذا الفن فى عصر المماليك العثمانية ، ولكن لابد من الإشارة إلى أن فن الغناء الذى ورثه عصر عبده الحمولى كان من "مخلفات" أولئك المماليك ، أى من العصر العثمانى الذى استلب كل شىء جميل فى مصر ، وكان فن الغناء من أجمل أسلاب ذلك العصر الطويل الثقيل ..

وفى عصر محمد على بدأ البحث عن الطريق ، وشرعت الأمة تنهض ، فكان من علائم نهضتها مانشره الشيخ شهاب الدين محمد بن اسماعيل من شعره ونثره وكتابه المسمى "سفينة الملك ونفيسة الفلك" الحافل بالموشحات القديمة ، فوجد أهل الصناعة فى هذا الكتاب موردا يستقون منه أساليب الغناء العربى المتقن التى انقرضت فى العصر العثمانى ..

كان الشيخ شهاب الدين مصرى الميلاد والموطن ، حجازى الأصل .. اشتغل بالصحافة المصرية فى نشأتها الأولى ، وكان شاعرا موسيقيا ، وتمثلت فى شخصيته دلائل التطور الذى بلغته مصر فى عصر محمد على وخلفائه .

ولما توفى الشيخ شهاب الدين سنة ١٨٥٧ كان قد فتح الباب لتحرير الغناء

العربى من الرطانة العثمانية والغجرية ، ولكن هذا الباب لم يفتح على مصراعيه إلا فى عهد اسماعيل باشا بظهور جيل المطربين والملحنين والعازفين الجدد ، مقترنا بظهور جيل من الشعراء ثاروا على طريقة الشعر العثمانى ، وردوا الشعر المصرى إلى طريقة العصر العباسى الأول ، عصر الديباجة العربية الذهبية ، وكان رائدهم فى هذا المضمار محمود سامى البارودى ..

واكتملت بتحرير الغناء العربى والشعر العربى من الرطانة العثمانية المملوكية ، ثورة تاريخية مزدوجة لهذين الفنين العربيين ـ الشعر والغناء ـ ردت إليهما أسلوبهما العربى الذى أوشكت أن تتده أيدى الغرباء ! ..

وكان الشيخ محمد عبدالرحيم المسلوب طليعة "طائفة المغانى" فى الثورة على الرطانة العثمانية المملوكية ، ومن أوتار عوده انبعثت البدايات الأولى لفن "الدور" مع مجموعة من الموشحات لاتقل فى دقة صناعتها عن الموشحات الاندلسية ، حتى إن موشحه المشهور : "لما بدا يتثنى" أثار وأدهش بدقة صناعته ملحنى عصره فنسبوه إلى التراث القديم ، ولكن الشيخ المسلوب كان ـ بلا مراء ـ هو صاحب ذلك الموشح البديع ، وقد أثبتنا ذلك بالحجة فيما كتبناه عنه قديما ، مما لايتسع له المجال الآن .

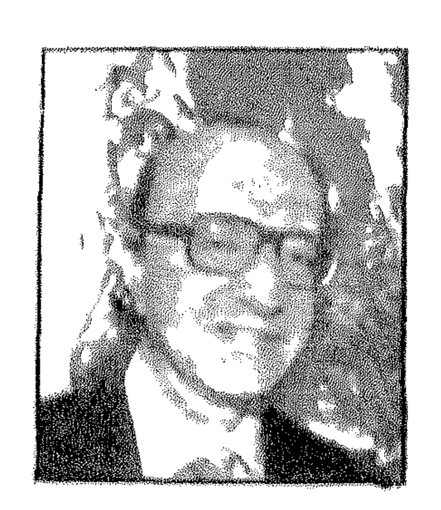
● المسلوب .. حياة حافلة

توفى الشيخ المسلوب سنة ١٩٢٨ بعد أن عاش أكثر من مائة وثلاثين عاما شهد خلالها عصر مراد بك وابراهيم بك ، وغزوة بونابرت ، وعصر محمد على بأكمله ، ثم عصر أحفاده إلى أيام الملك أحمد فؤاد الأول ..

وخلال هذا العمر الفسيح تتلمذ على يديه فحول الملحنين والمغنين ، وعلى رأسهم عبده الحمولى الذى كان أشهر أهل الصناعة ، وعلى يديه بدأ تطوير الغناء العربى وتوسيع آفاقه واستخراج المقامات والإيقاعات من مرقدها الذى لبثت فى كهفه منذ سقوط بغداد تحت سنابك خيل هولاكو سنة ٥٦ هـ ـ ١٢٥٨ م إلى آخر أيام المماليك العثمانية ..

وعاصر عبده الحمولى صديقه ومنافسه محمد عثمان .. ولم يكن صوته فائق الجمال كصوت الحمولى ، ولكن فنه فى التلحين كان أعلى وأسبق ، فكان الحمولى يتلقف الحان محمد عثمان ويغنيها استرضاء للجماهير التى افتتنت بتلك الألحان ..

وقد لحن محمد عثمان الموشحات والأدوار والقصائد والاناشيد ، ولما توفى سنة ١٩٠٠ ترك فراغا كبيرا لانه كان صاحب اكبر جهد فى تأسيس فن الغناء العربى المعاصر ، وفاق فى ذلك


محمد عبد الوهاب


ام كلثوم

زميليه المسلوب والحمولى .. فهو الذى أنطق المقامات العربية القديمة بلهجة غنائية جديدة ، واستنقذ هذه المقامات من رطانة الأتراك والفرس الذين أطلقوا عليها أسماء أعجمية ، مثل : راست ونهاوند وحجازكار وهزام وجهاركاه ، وغيرها من الأسماء التى لها أصل عربى قديم مطموس ..

وأدوار محمد عثمان وموشحاته يعتبرها أهل الصناعة حتى اليوم نماذج كلاسيكية رفيعة ، لاغنى عن دراستها واستيعابها بالحفظ والأداء لكل من يطلب صناعة الغناء والتلحين وقد سجل المطربون منها الكثير فى الأعوام المائة الماضية ، وعلى رأسهم المطرب صالح عبدالحى الذى حفظ بذاكرته القوية وأدائه الفذ معالم الغناء العربى فى صورتـه الكلاسيكيـة المعـاصرة ، كمـا رسمها محمـد عثمان ..

ويمكن أن يقال إن المسلوب والحمولى وعثمان أسهموا فى تشكيل وجدان الإنسان المصرى - ثم العربى - فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، وبقى أثرهم فى وجدان كل من سمع ألحانهم حتى النصف الثانى من القرن العشرين .. أما أثرهم فى بناء فن الغناء المتقن فممتد إلى آفاق المستقبل البعيد ..

يجىء بعد هؤلاء الثلاثة الكبار فنان متواضع اسمه محمد على لعبة .. كان ضارب إيقاع وعازفا للآلات وملحنا ، ولكنه لم يقفز إلى المقدمة إلا حين اخترع قالبا غنائيا جديدا هو قالب "الطقطوقة" ..

● **الطقطوقة .. فن جميل**

لم تكن الطقطوقة موجودة فى عصر المسلوب والحمولى وعثمان ، وليست لهم ألحان يمكن أن تسمى طقاطيق ، فلمـا اخترع محمـد على لعبـة

هؤلاء أقاموا صناعة الغناء

"الطقطوقة" اندلعت كالنار ، وطغت على كل ألوان الغناء ، وصارت عروس الأفراح والليالى الملاح ، فهى أغنية صغيرة ، ذات غصن واحد ، وجملة لحنية واحدة ، وإيقاع واحد .. لاترهق أصوات المطربين والمطربات ، وإن كانت تملأ قلوب المستمعين طربا ومرحا ..

وقد سيطرت "الطقطوقة" على الأسماع زمنا طويلا ، منذ اخترعها محمد على لعبة فى العقد الأول من القرن العشرين الى يومنا هذا .. وكل ماتسمعه الآن من أهازيج خفيفة سريعة فأصله قالب الطقطوقة ولا أصل لها سواه ، والفضل فيه للأستاذ لعبة ! ..

فلعل الأوان قد آن للاعتراف لمحمد على لعبة بدوره البارز فى تشكيل وجدان الإنسان المصرى الذى تحتل طقاطيق منيرة المهدية وأم كلثوم وليلى مراد وشادية وغيرهن ركنا منه يقتضى الإنصاف الاعتراف بأهميته ..

ومن عباءة الأستاذ لعبة خرج جميع ملحنى الطقطوقة الذين عاصروه أو جاءوا بعده ، لانستثنى منهم أحدا ولو كان فى حجم سيد درويش أو زكريا أحمد أو رياض السنباطى أو محمد عبدالوهاب ..

لقد كان محمد على لعبة أول ملحن مصرى يخترع قالبا لحنيا بعد انقضاء عصر الثلاثة الكبار ، وكانت الطقطوقة تعبيرا عن الشخصية المصرية المرحة الخفيفة الظل التى تحررت من بعض قيودها بعد الثورة العرابية سنة ١٨٨٢ وتخلصت من الغناء العثمانى والغجرى الذى أناخ على حناجر "أهل المغنى" دهرا طويلا .

وجاءت مع اختراع "الطقطوقة" حركة بعث الغناء الفلكورى المصرى الذى كان من الناحية الفنية شكلا من قالب الطقطوقة ..

وكان سيد درويش فى مقدمة هذه الحركة الجديدة التى أحيت أغانى الفلكلور واتخذت منها منطلقا لأسلوب جديد فى الغناء الفردى والغناء المسرحى على السواء ..

وعصر سيد درويش - على أهميته - كان أشبه بعاصفة سريعة ، فلم يعش إلا خمس سنوات ، من سنة ١٩١٨ إلى سنة ١٩٢٣ وهى السنوات التى عاشها سيد درويش فى القاهرة وعمل فى مسارحها ، وصنع فيها أدواره وموشحاته وطقاطيقه ..

ويمكن أن يقال إن سيد درويش قد تميز على معاصريه بفن التعبير فى تلحينه ، فقد كانت الألحان قبل عصره أشبه بأبنية هندسية يقل فيها التعبير وإن كثر فيها الطرب ، فجاء سيد

درويش فجعل التعبير والطرب فى وعاء واحد ، وهذه هى ميزته الكبرى التى التقطها منه جميع الملحنين الذين جاءوا بعده .

وإذا كان المسلوب والحمولى وعثمان هم الثلاثة الكبار الذين لامسوا وجدان الإنسان المصرى فى بداية نهضة فن الغناء المعاصر ، وكان محمد على لعبة هو اللاعب الرشيق الذى قدم الطقطوقة فخامرت كل وجدان .. وكان سيد درويش هو صاحب التعبير والتطوير ، فإن ورثة هذا كله هم الملحنون الكبار الذين اعقبوا هؤلاء جميعا وهم : زكريا أحمد ومحمد القصبجى ومحمد عبدالوهاب ورياض السنباطى ..

ومن هؤلاء الملحنين الأربعة الكبار الذين لم يجتمع مثلهم فى عصر واحد ، انطلقت بدائع فن الغناء العربى المتقن الحديث على حناجر المطربات والمطربين وعلى رأسهم أم

كلثوم التى لعبت دورا جوهريا فى توجيه مواهب الملحنين وصقلها وتوسيع آفاقها .

● **أم كلثوم ملهمة الملحنين**

لقد أسهم صوت أم كلثوم فى خلق أساليب التلحين العربى ، وأتاح للملحنين أن يجوبوا آفاقا باهرة ما كانت تخطر لهم على بال لولا وجود هذا الصوت الذى حملهم إلى تلك الآفاق العُلى ..

إن صوت أم كلثوم بمقدرته الفذة ، ومساحته الخصبة ، ومقاماته المصقولة ، وذبذباته السحرية ، ونبراته الوضيئة التى يتمثل فيها الجمال كله ، هو الذى أشعل مواهب

الملحنين ، وأثار التنافس بينهم ، وألهمهم الألحان التى حاولوا دائما أن تكون على مستوى صوت أم كلثوم ..

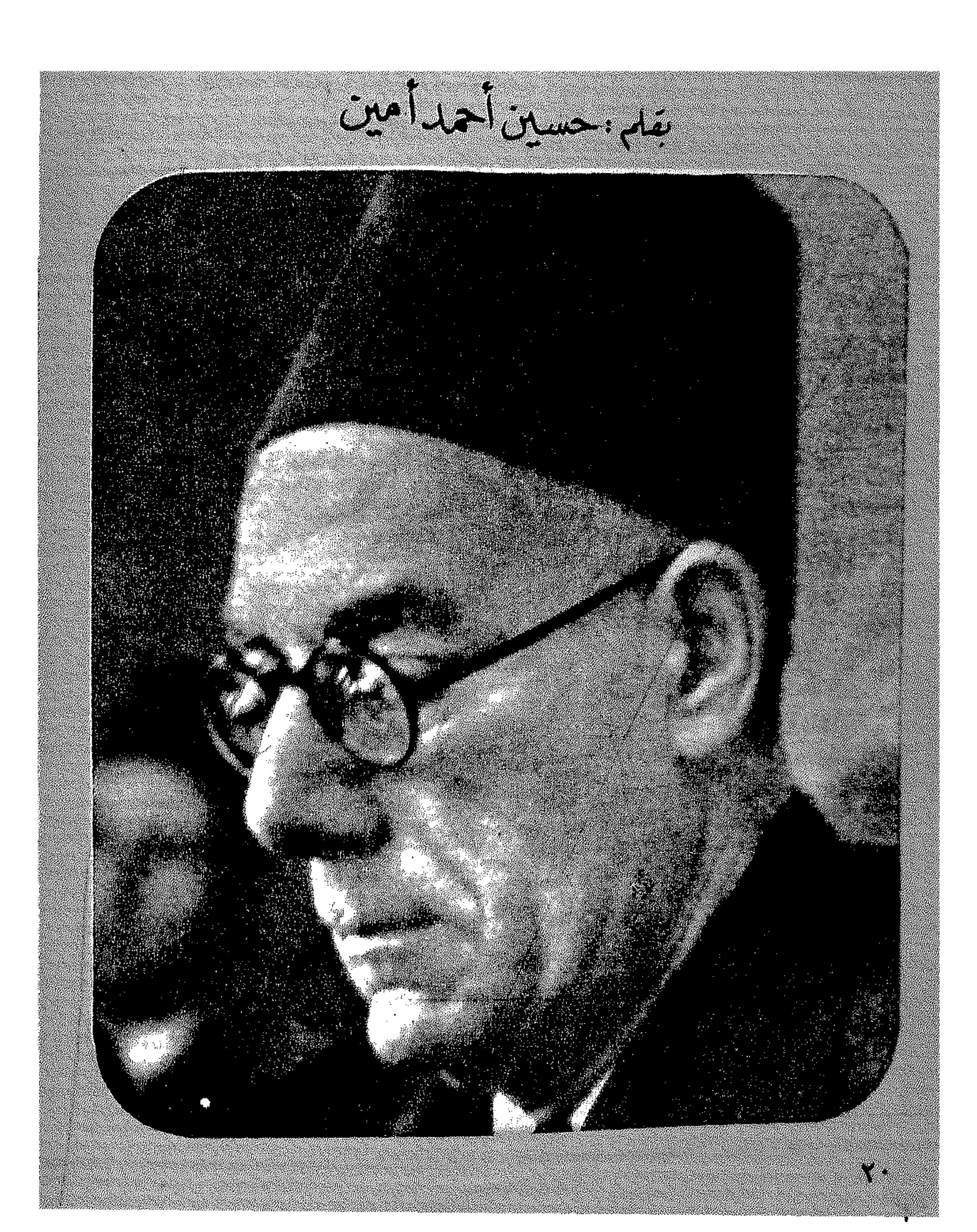
وقد لعب هذا الصوت العبقرى أعظم الأدوار فى تشكيل وجدان الإنسان المصرى والعربى منذ العشرينات إلى التسعينات ، وسيلعب دوره على مدار السنين ..

وبعد ..

فمعذرة ، لأن هذه السطور بالغة السرعة فى تصوير الأثر العظيم لفن الغناء العربى المتقن فى وجدان الأجيال التى توالت خلال مائة سنة ..

وتحية منا لهذه العبقريات التى تعاقبت فى سماء هذا الفن كتعاقب الشموس والأقمار ! ..

أحمد أمين



● ● الأديب الكبير أحمد أمين كان له تأثيره الواضح فى الفكر العربى ، ويعتبر من الرواد فى مجال الفكر الإسلامى ، خاصة كتبه القيمة فى هذا المجال « فجر الإسلام »، « ضحى الإسلام » « ظهر الإسلام » وغير ذلك من آرائه الجريئة ، والتى كان يرى أنها تناسب عصرنا .
نقدمه باعتباره من الذين أثروا حياتنا الفكرية على مدى الاعوام المائة الأخيرة ، ولدوره الهام كأديب ومفكر إسلامى كبير ● ●

قد أفردت كتابا مستقلا لأحمد أمين الوالد ، فكيف يسعنى فى ست صفحات أو سبع الإحاطة بأحمد أميـن الإنسـان ، والمـربـى ، والقـاضى ، والعالم ، والأديب ، والصحفى ، والإذاعى ، والمؤرخ للحضـارة الإسلاميـة ، والأستاذ الجامعى ، وعميد كلية الآداب ، وعضو مجمع اللغة العربيـة ، ومؤسس الجـامعـة الشعبيـة ، ورئيس لجنة التأليف والترجمة والنشـر ، وصـاحـب مجلـة « الثقافة » ، ومدير الإدارة الثقافية فى وزارة المعارف ، ومدير الإدارة الثقافية بالجامعة العربية ، ومحقق كتب التراث العربى القديم ، مالم أوجز العرض لبعض مساهماته الجليلة المتنوعة الباقية على مرّ الزمن ، ثم أتهم بعد ذلك ـ وعن حق ـ بالتقصير والإيجاز المخل ؟ .

● الإنسان

كان ناجحا فى حياتيه العلمية والعملية معا ، وكان نجاحه فيهما نجاحا للجد وانتصارا للفضيلة ، لأنه لم يعتمد فى شهرته العلمية على الإعلان والتهويش ، ولا فى مناصبه الحكومية على الاستخذاء والملق . وإنما كان يجرى فى عمله على الإخلاص ، وفى معاملاته على الحق ، وفى علاقاته على الشرف ، وما كانت حياته الحافلة العريضة إلا مثلا للحياة العاملة فى غير ضجيج ، الناصبة فى غير ملل ، المثمرة فى غير غرور ولا دعوى .. فمن الناس من يحدثون ضجيجا هائلا حين يصلون إلى فكرة جديدة أو يكتشفون معنى جديدا ، وكم وصل احمد امين إلى فكر ومعان ، بل لقد أنار عوالم كاملة من حياة العرب العقلية فى عصورهم المختلفة ، ومع ذلك لم يهول على الناس ، ولم يحدث جلبة ولا قرقعة ، بل كان مثال العالم الحق الذى ينكر نفسه ، ويترك للناس أن يكتشفوه ويعرفوه .

كتب إلىّ عام ١٩٥٠ وانا غائب فى لندن رسالة جاء فيها :

« رأيت أن قول الحق والتزامه ، وتحرى العدل وعمله ، يكسب الإنسان من المزايا ما لايقدر .. قد احتملت فى سبيل ذلك بعض الآلام ، وأغضبت بعض الأنام ، وضاعت علىّ من أجله



بعض المصالح ، ولكنى برغم ذلك كله قد استفدت منه أكثر مما خسرت ، استفدت منه راحة الضمير ، وثقة الناس بما أقول وأعمل ، وحسن ظنهم بما يصدر عنى ولو لم يفهموا سببه ، وقد استفدت منه ايضا ماديا أكثر مما استفاد غيرى ممن لم يلتزموا الحق ولم يراعوا الصدق والعدل ، لقد عشت فى أوساط كثيرة ، وعاشرت زملاء يرضون رؤساءهم أكثر مما يرضون ضمائرهم ، ويقولون مايعجب الناس لا ما يعتقدون أنه الحق ، ويرتكبون الظلم طلبا للجاه أو للعلو فى المنصب ، ومع هذا فقد ربحوا قليلا وخسروا كثيرا .. خسروا الفضيلة والضمير ، وفازوا بقليل من الحظ العاجل تبعه كثير من الفشل الآجل . فلو حسبت بالدقة ماكسبت وماخسرت ، وما كسب هؤلاء وماخسروا لوجدتنى أسعد حالا وأوفر حظا ، فإذا أردت أن تنتفع بتجربتى فالتزم الحق والصدق والعدل فى جميع أعمالك مهما تكن النتيجة .

« نعم رأيت من زملائى من تمسكوا بهذه الفضيلة فخسروا كثيرا وفشلوا فشلا ذريعا ، ولكن لم يكن عيبهم أنهم التزموا الحق والصدق والعدل ، بل عيبهم أنهم التزموا هذه الصفات فى سماجة فقالوا الحق فى غير أدب ، والتزموا الصدق فى غير لباقة ، وتحروا العدل فى غير لباقة ، فلم يكن الذنب ذنب الحق ولكن الذنب ذنب السماجة .. فتعلم من هذا أن تقول الحق فى أدب ، وتتحرى العدل والصدق فى لباقة ولياقة ، فمن غضب بعد ذلك كان الذنب ذنبه ، ولا ذنب عليك .. ولا تتعجلن النتيجة فقد تمس من الحق نارا ، ويهب عليك من العدل لفحة جحيم . ولكن ذلك أشبه مايكون بالامتحان ، إن صبرت له انقلبت النار جنة ، واللفحة الحارة نسيما عليلا .. »

● المربى

لم تكن التربية فى رأيه مجرد درس يلقى ومعلومات تشرح ، بل حرص الحرص كله على أن تكون تفتيحا للذهن ، وإيقاظا للانتباه والملاحظة ، وتعهدا للسلوك وتقويما للأخلاق ، وهو ماكان أبدا يتعبد الآراء التى يصل إليها ، بل كان يمرن طلبته ومريديه على خلافه ، وأن يروا الرأى مناقضا لرأيه ، يريد بذلك أن تكون لهم أصالتهم فى الفهم والحكم ، لا مجرد الجدل والمناقشة فى غير طائل ، وكان يسعى جاهدا إلى رفع الحواجز بين الطلبة الجامعيين وأساتذتهم ، وألا يكتفوا بما يدون فى المحاضرات ، بل يتحولوا إلى الأروقة وحجر البحث والمكتبة ، يتجادلون ويتحاورون ، لا فرق بين كبير وصغير ، ولا شيخ ولا شاب إلا بمقدار التجربة والسبق إلى معرفة الحقيقة .

كانت تربيته فكرية وروحية لا لأولاده ولطلبته فحسب ، وإنما أراد بها أن تشمل الشعب بأسره ، وتغذى المجتمع كله ، وقد قصد اليها عن

طريق مجالسه فى الأندية ، وأحاديثه الأسبوعية فى الإذاعة ، ومقالاته الكثيرة فى مجلات « الهلال » و« الثقافة » و« الرسالة » و« الأثنين » وغيرها ، ومحاضراته فى كل مكان ، يحلل التقاليد والعادات ، ويناقش الذوق والعرف ، ويعرض للمشكلات الحاضرة ، ويقارن بين الشرق والغرب ، ويوازن بين الحاضر والماضى ، ويرمى إلى وضع دعائم تربية اجتماعية استقلالية .. ورغم أنه كان يفضل الخلوة إلى نفسه ، ويلذ له التأمل الهادىء وتفكير المتوحد ، فقد كان يحرص من أجل أداء رسالته فى التربية على الاتصال بالناس ، فكان بيتنا مفتوحا لتلاميذه وأصدقائه ، وكانت جلسات لجنة التأليف والترجمة والنشر فى أيام الخميس مقدسة لديه ، لم يتخلف عنها إلا فى القليل النادر طوال الأعوام الأربعين التى رأس اللجنة خلالها .

وهو يدرك مع ذلك حتمية اختلاف كل جيل عما سبقه .. كتب إلىّ يقول :

« أى بنى : إنى لأعلم أنك قد خلقت لزمن غير زمنى ، وربيت تربية غير تربيتى ، ونشأت فى بيئة غير بيئتى .. لقد كنت فى زمنى عبد التقاليد والأوضاع ، وأنت فى زمن يكسر التقاليد والأوضاع .. وكنت فى زمن شعاره الطاعة لأبى ولأولياء أمرى ، وأنت فى زمن شعاره التمرد ، التمرد على سلطة الآباء وعلى المعلمين وعلى أولى الأمر .. وتعلمت أول أمرى فى كُتّاب صغير نجلس فيه على الحصير ، ويعلمنا مدرس جبار ، يضرب على الهفوة وعدم الهفوة ، ويعاقب على الخطأ والصواب ، ويمرن يده والعصا فينا كما تمرنون أيديكم على الألعاب الرياضية ، وأنت تعلمت فى روضة الأطفال حيث كانت تشرف عليك آنسة رقيقة مهذبة ، وتقدم لك تعليم القراءة والكتابة فى إطار من الصور والرسوم والأغانى وما إلى ذلك .. وكنت أعيش فى كُتابى على الفول النابت والفول المدمس ، وأنت تعيش فى روضتك على اللبن والشاى والبسكويت وما إلى ذلك أيضا ، ثم لما صبوت تعلمت فى مدارس نقلت إليك أساليب المدنية الغربية .. وتربيت أنا فى وسط كله دين : دين فى الكتب ودين فى الحياة الاجتماعية ودين فى أوساطى كلها ، وتربيت أنت فى مدارس أو جامعات لا يذكر فيها الدين إلا بمناسبات .. وكان يذكر الدين فى وسطنا دائما ليحترم ، وكثيرا ما يذكر الدين فى وسطك ليهاجم .. ونشأت فى وسط لاتذكر فيه السياسة إلا لماما ، ونشأت فى وسط كله سياسة وإضراب وأكثر من الإضراب .. ونشأت فى وسط لا يعرف المرأة إلا محجبة ، ولا يعرف الشاب فتاة إلا أن تكون قريبة ، ونشأت أنت فى وسط تجالسك الفتاة فى جامعتك وتشاهدها فى أوساطك وقد أخذت من الحرية مثل ما أخذت ..

« ولو عددت لك الفروق بينى وبينك فى زمنى وزمنك ، وتعليمى وتعليمك ، وبيئتى وبيئتك ، لطال الأمر .. ومع ذلك



فإن الفروق ـ مهما كانت ـ فروق جزئية ، ولايزال بينى وبينك وجوه شبه أعمق من هذه المظاهر ، فالاختلافات بين الناس مهما اختلفت الأزمنة والأمكنة اختلافات سطحية ، وأمور عرضية ، أما الإنسان فى جوهره والجمعيات البشرية فى نزعاتها الأصيلة فترجع إلى أصول واحدة . ومن أجل هذا كانت تجارب السلف مفيدة دائما للخلف . فلأقص عليك شيئا من تجاربى التى أعتقد أنها قد تفيدك مهما اختلفت بيئاتنا ومدارسنا وثقافتنا ..... »

● العالم والمفكر

كان متضلعا من علوم الدين واللغة كأكثر النابغين من المتخرجين فى الأزهر ، ولكنه كان من الأزهريين القلائل الذين أوتوا دقة النظر ، وحرية الفكر ، وسعة الأفق ، فكان فى الدين صاحب اجتهاد ، وكان فى اللغة صاحب رأى .. كان يرى أن الدين ستور للدنيا ، فلابد أن يتطور مع العلم ، وأن يتقدم مع الحضارة ، وأن يسهم فى توفير الحلول للمشكلات المستجدة ، وكان يرى أن اللغة أداة للفهم ، فلابد أن تطوع لألسنة الناس ، وأن تبسط قواعدها ، وأن تجدد على طول الزمن ، وإلا فإنها لا تلبث أن تموت أو تتخلف ، فتنحط إلى العامية ، أو تضيع بين ألسنة الأميين والجهلة .. وقد ساءه أن يسد الأوائل باب الاجتهاد فى اللغة كما سدوه فى الدين والشريعة ، وكتب يقول :

« نحن بين اثنين ، إما أن نقدس ماقاله العرب ونقف عنده ولانسمح لأنفسنا بوضع جديد ، وحينئذ يجب أن تكون اللغة العربية لغة أثرية كاللاتينية ، وإما أن تكون لغة حية ، وحينئذ يجب أن تخضع إلى قوانين الحياة فتنمو وتتجدد وتساير حياة الناس لتلائم الزمن ، وهذا الأخير هو الذى ينبغى أن يكون » .

وقد اجتمعت لأحمد أمين خصال إذا اجتمعت فى شخص كان حكيما على الحقيقة ، هى : حرية الفكر ، والبعد عن الدجماطيقية ، والترحيب بالنقد ، والجلاء والوضوح ، والعناية بالكل دون الأجزاء ، والبحث عن العلل .

كان حر الفكر إلى أبعد حدود الحرية ، لا يقول إلا ما يعتقد ، ولا يحفل إلا بالحق وحده ، لا يهمه مصانعة ذوى السلطان ، أو تملق الجماهير ، أو مشايعة الأهواء السائدة ، وتبدو هذه الحرية فى الجهر باعتقاداته الدينية على الرغم من مصادمتها لمشاعر الجمهور ، ومخالفتها للمألوف من التقاليد الطويلة الأمد .. جاهر بالانتصار لمذهب المعتزلة الذين اعتقد أنهم أهل العقل فى الإسلام ، ونادى بالرجوع إليه ، وتفسير الدين بالعقل ، مع أن المسلمين عارضوا ذلك المذهب منذ القرن الرابع الهجرى ، وحكموا على

أصحابه بالكفر ، وحرقوا كتبهم ، ومنعوا تدريس تعاليمهم فى مدارسهم وجاهر برأيه فى الشيعة ومعتقداتهم حتى كاد يصيبه من جراء ذلك محنة عظيمة حين كان ببغداد بعد أن أصدر « فجر الإسلام » . ومع ذلك فقد حاول المهادنة بين الشيعة والسنة حتى تتحد كلمة المسلمين ، وخصوصا أن موضوعات الخلاف بينهما أصبحت فى ذمة التاريخ البعيد ، كذلك فقد نادى بفتح باب الاجتهاد حتى لانظل عبيداً لأبى حنيفة والشافعى ومالك وابن حنبل ، وقد كانوا ملائمين لزمانهم ، أما اليوم فقد تغيرت الأحوال واختلفت المشكلات والتحديات ، وقد ثار علماء الدين على رأيه هذا ، كما ثار علماء اللغة على دعوته إلى تبسيطها والإطاحة بالكثير من قواعدها ، « حتى تكون لنا لغة شعبية ، ننقيها من « حرافيش » الكلمات ، على حد تعبير ابن خلدون ، ونلتزم فى أواخر الكلمات الوقف من غير إعراب ، وتكون هى لغة التعليم ولغة المخاطبات ولغة الكتابة للجمهور ، ولا تكون اللغة الفصحى إلا لغة المثقفين ثقافة عالية ممن يريدون أن يطلعوا على الأدب القديم » .

كذلك فقد أثار ثائرة المناصرين للعروبة حين كتب فى « فجر الإسلام » يقول :

« لسنا نعتقد تقديس العرب ، ولا نعبأ بمثل هذا القول الذى يمجدهم ويصفهم بكل كمال وينزههم عن كل نقص ، لأن هذا الخط من القول ليس نمط البحث العلمى ، وإنما نعتقد أن العرب شعب ككل الشعوب ، له ميزاته وفيه عيوبه ، وهو خاضع لكل نقد علمى فى عقليته ونفسيته وآدابه وتاريخه ، ككل أمة أخرى .. » .. وقد رد عليه خصومه يعتبون عليه الكتابة عن العرب كباحث بعيد عنهم ، ويذكرونه بآية (كنتم خير أمة أخرجت للناس) التى تكفى للإعلان عن القيمة الأصلية للعنصر العربى بين الأمم ، ويقولون إن رائده فى هذا الحكم هو ابن خلدون الذى لم يكن يرى للعرب فضيلة ولا فضلا .

● الأديب

كان همه من الكتابة أن يقرر ويقنع ، لا أن يؤثر ويمتع ، ولعل منشأ ذلك فيه أن عقله كان أخصب من خياله ، وأن علمه كان أكبر من فنه ، وأن حبه للحرية والصراحة كان يحبب إليه إرسال النفس على سجيتها من غير تقييدها بأسلوب معين ، وعرض الفكرة على حقيقتها من غير تمويهها بوشى خاص . ومع ذلك كان لأسلوبه طابعه المميز وجاذبيته القوية بحيث وصفه أغلب النقاد بالسهل الممتنع ، تقرؤه فلا تروعك منه الصور البيانية الأخاذة ، ولا الأصوات الموسيقية الخلابة ، وإنما تروعك منه المعانى المبتكرة الطريفة ، والآراء الصريحة الجريئة ، والشخصية القوية المهيمنة .. فأنت منه بإزاء عالم يبحث لينتج ، أو مصلح يصف ليعالج ، لا بإزاء مصور يلون ليعجب ، أو موسيقى يلحن ليطرب .



فالجلاء والوضوح هما سمة كتاباته كلها ، خاصة مقالاته التى جمعها فى كتاب من عشرة مجلدات ، هو « فيض الخاطر » الذى يضم كافة آرائه السياسية والاجتماعية والأدبية واللغوية .. وقد جاء هذا الجلاء والوضوح من أمرين : الأول وضوح الرأى فى ذهنه ، والثانى حرصه المتعمد على تجنب التزويق فى اللغة .. كان بوسعه أن يتقعر ، وأن يسجع ، وأن يجرى على أساليب الجاحظ وغيره من المتقدمين ، ولكنه آثر جلال المعنى على جمال اللفظ ، ورنين الفكرة على جرس العبارة ، ودرج على التعبير البسيط الذى يضرب فى المعنى إلى الصميم دون برقشة أو زركشة ، حتى يضرب للناس مثلا فى العناية بالأفكار ، والابتعاد على الصنعة التقليدية ، التى قتلت الفكر والأدب العربيين ، وأثقلتهما بهذه الزينة اللفظية ، وكان يوجه النقد والتهكم لمن التزموا النمط التقليدى فى تأليفهم أو تعبيرهم ، ويعد هذا فيهم من أسباب السطحية والفقر فى الحياة العقلية للعرب .. كتب فى وصف أحدهم يقول :

« أديب اللفظ ، فارغ الرأس ، قليل العلم ، قريب الغور ، قد ستر كل هذا بزخرفة القول كما تستر الشوهاء عيبها بالأصباغ ! »

● المؤرخ الإسلامى

على أنه ربما كان أخطر إنجازاته الفكرية على الإطلاق ، وأبقاها على الأيام ، هى كتبه « فجر الإسلام » و« ضحى الإسلام » و« ظهر الإسلام » التى عرض فيها بالتحليل للحياة العقلية للعرب والمسلمين تحليلا لم يتهيأ مثله لأحد من قبله ، وقد وصف المستشرق البريطانى سير هاملتون جيب هذه الكتب فى « دائرة المعارف الإسلامية » بأنها « أول محاولة شاملة لإدخال منهج النقد فى التأريخ الإسلامى العربى الحديث » وستظل هذه الكتب الخالدة شاهدة على الجهد الذى لم يكل ، والعقل الذى لم يضل .. حاول فيها أن يلتمس العلل البعيدة التى غذت العقلية الإسلامية ونمتها وصقلتها وشكلتها فى شتى الصور على مر العصور .. وقد أقتضى منه هذا التحليل أن يرجع إلى العوامل الدينية المستمدة من الإسلام ، وإلى العناصر الدخيلة على المسلمين من الحضارتين الفارسية والهندية ومن الفلسفة اليونانية ، وكيف تفاعلت هذه العوامل كلها فى بوتقة الحضارة الإسلامية وفعل أكثر من ذلك إذ نظر إلى العقل الإسلامى فشرحه تشريحا ، فى حرية شديدة ، وجرأة غير معهودة ، وانتقل من التحليل إلى الأفكار التركيبية التى انتهت إليها العقلية حتى تحققت فى الحياة ، واستوت فى مظاهر السلوك ، وبرزت فى الأقوال المسطرة ، والكتب المدونة ، والعلوم المنتشرة .

وقد ارتفع فى هذه الكتب إلى النظرة الكلية الشاملة ، وبسط الحياة العقلية فى الإسلام بنظره النافذ وأحال ما فيها من اضطراب إلى وحدة ، فلم يعد القارىء العربى يحس بإزاء تاريخه أنه فى متاهة لا يعرف كيف يدخل إليها ، وكيف السبيل إلى الخروج منها .

فقد درج العرب على تـأريخ حوادثهم فى حوليات ، كما نرى فى الطبـرى وابن الأثير وغيـرهمـا ، فيذكرون الأحداث من شتى نواحيها ، يختلط فيها التاريخ المحض السياسى بالأدب والعلم والدين ، ولم يعرف أحد من المتقدمين طريقة كتابته التاريخية الحديثة ، اللهم إلا ابن خلدون الذى صور فى مقدمته كيف ينبغى أن يكتب التاريخ ، حتى إذا شرع فى تدوين تاريخه سار على نهج القدماء .

أما تاريخ الحضارة بمعنى الكلمة فلم يعرفوا عنه شيئا ، فإذا أراد باحث اليوم أن ينهض لتصوير الحضارة الإسلامية فى مختلف عصورها ، مع بيان العناصر المكونة لها ، والظروف التى أدت إلى ظهورها ، كالعوامل الجغرافية والسياسية والاجتماعية والأدبية والاقتصادية ، فلن يجد شيئًا من ذلك واضحا فى الكتب القديمة ،

وقد كانت هذه هى المهمة التى أخذها أحمد أمين على عاتقه .. كتب فى مقدمة الجزء الأول من « ضحى الإسلام » يقول :

« لعل أصعب ما يواجهه الباحث فى تاريخ أمة هو تاريخ عقلها فى نشوئه وارتقائه ، وتاريخ دينها وما دخله من آراء ومذاهب ، ذلك أن مدار البحث فى المسائل المادية وما يشبهها واضح محدود ، وما يطرأ عليها من تغير ظاهر جلى ، أما الفكرة فإنك إن حاولت أن تعرف كيف نبتت ، وكيف نمت ، وما العوامل فى إيجادها ، وما العناصر التى غذتها ، وما الطوارىء التى طرأت عليها فعدلتها أو صقلتها ، أعياك ذلك ، وبلغ منك فى استخراجه الجهد » .

غير أن الرجل لم يبخل بجهده ، ووفق بفضل ثقافته العريضة ونظرته الثاقبة إلى أن يقدم ـ على حد تعبير طه حسين ـ « عرضا دقيقا صحيحا صادقا لتطور الحياة العقلية للمسلمين ملائما للعقـل الحديث .. وكـذلك استطاع ذلك الشيخ القديم الذى لم يجد نفسه فى الأزهر ، ولا فى مدرسة القضاء ، ولا فى الأعمال المختلفة التى تقلب فيها ، والذى كان شيخا ضائعا بين شيوخ ضائعين ، أن يفرض نفسه على الحياة العلمية فرضا ، وأن يظفر بإعجاب المواطنين والأجانب من العلماء ، وأن يصبح ثقة فى تاريخ الثقافة الإسلامية ، لا بالقياس إلى تلاميذه وزملائه فى مصر والعالم العربى ، بل بالقياس إلى كل من يعنون بهذا النحو من أنحاء العلم فى أقطار الأرض كلها .

أما بعد ، فإن هذا قليل من كثير ، وقطرة من بحر ، التزمت فيه بحدود الحيز الذى خصصته المجلة لهذا المقال ، وحدود صبر قارىء هذا الزمان . ■



الاتجاه العروبي في كتابات زكي مبارك

بقلم: د. حسين خريس (عمان)

شكلت العروبة في كتابات زكي مبارك المختلفة ظاهرة ميزته عن كثير من معاصريه ، لما اتصفت به هذه الكتابات من كثرة والحاح واتساع مجال مابين مقالة سياسية او اجتماعية او ادبية نقدية او دراسات اكاديمية . ولاشك ان موضوعا له مثل هذا الشمول والتعمق ، اذا تملك من صاحبه ، فلابد ان يظل موصولا بنشاطيه الفكري والعملي . وكذلك كان الاتجاه العروبي عند زكي مبارك نزعة سلوكية والتزاما ادبيا اخلاقيا .

ثم جاءت رحلته الى العراق سنة ١٩٣٨ منتدبا للتدريس فى دار المعلمين العالية ببغداد كاستاذ زائر حافزا جديدا له على التأكيد على ماكان قد نذر له نفسه وما كان يعتد به منذ عهد مبكر من حياته الادبية الحافلة ، اضف الى هذا كله ضعف الصلات نسبيا بين البلاد العربية حينئذ ، وكون زكى مبارك مصرى الجنسية ؛ مصر التى كانت قد انحازت عن الدولة العثمانية منذ عهد مبكر لتنعم بدولة ذات سيادة وهياكل حكومية بانماط عصرية جديدة مما اكسبها خصوصية متميزة عن بقية البلاد العربية سواء أكانت مشرقية أم مغربية تضطرب اما فى جحيم السلطة العثمانية او فى قبضة الاستعمار الغربى . وهكذا كانت حماسة زكى مبارك للعروبة المنقطعة النظير ليؤكد بها انتماء مصر الخالد للعروبة التزاما اخلاقيا او نزوعا ادبيا هذا مع وجود بعض المعارضين لاتجاهه هذا سواء من داخل مصر او خارجها ، اما عن سوء تقدير او عجز فى التفسير واما لهدم استعداد فطرى او ثقافى . لكن صوت زكى مبارك كان اعلى . فقد ظل ممتشقا حسامه البتار لسنوات طويلة من غير ان يفتر له اوار او يعتريه كلل ؛ حتى ان ما كتبه فى هذا الخصوص لو جمعت نصوصه ، لشكلت مجلدا ضخما يفيد الدارسين باعتباره احدى وثائق عصره التى لا غنى عنه لاى متتبع لهذا العصر من حياة امتنا .

يقول زكى مبارك فى اعتداد واضح لا يخلو من زهو وخيلاء وكأنه المنافح الوحيد عن بيضة العروبة :

وانت مع ذلك تعرف انى وقفت لاعداء العروبة والاسلام بالمرصاد فمزقت اوهام الخوارج على العروبة والاسلام شر ممزق ، ودحرت من سولت لهم انفسهم ان يتطاولوا على ماضى الامة العربية ، وكنت دليلك الى التعرف الى مآثر العرب فى المشرقين والمغربين .

اما اللغة العربية فقد كانت معبودته ، بل هى قدس اقداسه وحبه الذى لا يساويه حب اخر ، وكان يفاخر بهذا الحب متباهيا كأنما اللغة العربية لغته وحده ، وكأنه ابنها البار الوحيد ، وكان من اجل هذا الحب يقاوم بل يحارب كل من يحاول أن ينال منها او يتعرض لها بالتنكر او الذم او الاتهام ، وهكذا نراه يرد على من يرميها بالعجز عن وصف المخترعات الحديثة ومسايرة العصر بان العيب فيهم لانهم كسالى وهم العاجزون . (الذين لم يخلقوا من الالفاظ والتعابير ما خلق البدوى الضال فى الصحراء) ولذلك فهو يعتب على اساتذة الطب العربى لتأخرهم فى نقل علوم الطب الى العربية يقول : (لغة العرب لغة آبائنا وأجدادنا فليعرف من لم يكن يعرف ان خطأنا فيها افصح من الصواب واننا لن نستمع لاى اعتراض بعد ان ركزنا الراية فوق ناصية الخلود) . يريد ان

الشباب العراقي
في كتابات زكي مبارك

المصريين افصح او من افصح العرب .

وفي رده على من يدعو الى الكتابة بالحروف اللاتينية او اصطناع العامية او من كان يدعي ان اللغة العربية غريبة ليست لغة المصريين يقول زكي مبارك : (فاللغة العربية في مصر ارسخ من اللغة الفرنسية في فرنسا ومن اللغة الانجليزية في انكلترا ومن الالمانية في المانيا لان تلك اللغات بصورتها الراهنة لم تعش في بلادها ربع المدة التي عاشتها اللغة العربية في بلادنا ، والفرق بيننا وبينهم انهم سلموا من الدسائس وابتلينا نحن بها .

وهكذا حمل زكي مبارك على اتخاذ اللغات الاجنبية لغات تدريس في المعاهد والكليات لانه اعتراف خط بان لغتنا فقيرة واننا فقراء وقد حاربت هذه النزعة في مصر وانا احاربها في العراق .

● لابديل للعربية

وكان زكي مبارك دائم التحذير من اهداف المستشرقين ومن يدور في فلكهم في زعمهم بان مصير اللغة العربية هو مصير اللاتينية حين تفرعت الاخيرة الى جملة من اللهجات المحلية اصبحت من بعد لغات قومية وكذلك اللغة العربية تمثل لهجاتها المختلفة اليوم الفروع الاخرى لها . وقد استمرت هذه الفكرة لسوء الحظ بصورة او باخرى الى عهد قريب حين زعم باحث متأخر ان اللغة العربية لغة مقدسة كالسريانية لغة صلاة وتعاويذ وتلاوة . وذلك بقصد انحسارها الى ميدان الطقوس الدينية . وقد يكون زكي مبارك من اوائل من نبهوا الى هذا الخطر المحدق بنا والذي يمزق وحدتنا باعتبار ان اللغة العربية هي الام الرؤوم التي نرضع من ثدييها مواريثنا وتراثاتنا وكل ما يؤلف اشتات هذه الامة على وحدة المصير ولذلك كانت وحدة اللغة هي نفس وحدة الامة عاجلا او اجلا وحدة الامة العربية بالقوة او بالفعل فمادامت لنا لغة واحدة فالاساس في الوحدة باق لا يحول . من اجل هذا راينا زكي مبارك يمتدح الحاكم بامر الله لانه وحد اللغة في مصر وهي حقيقة تاريخية لا يعرفها كثير من المؤلفين (فهو الذي وحد الامة المصرية حين اصدر قرارا بقتل كل من يتكلم باللغة العامية) . وزكي مبارك يمتدح طه حسين لانه لم يكن يسمح بالتحرش باللغة العربية او العدوان عليها وكذلك يشيد بمحفوظ الشاعر حافظ ابراهيم من الادب العربي القديم الذي جعله اية في اللباقة والظرف وحلاوة الحديث كما ينوه بسخرية حافظ ايضا من الادباء الذين اتهموا اللغة العربية بالعجز والتخلف وذلك في قصيدته المشهورة .

رجعت لنفسي فاتهمت حصاتي
وناديت قومي فاحتسبت حياتي

وفيها يقول :

أرى لرجال الغرب عزا ومنعة
وكم عز اقوام بعز لغات
أتوا أهلهم بالمعجزات تفننا
فياليتكم تأتون بالكلمات
أيطربكم من جانب الغرب ناعب
ينادي بوأدي في ربيع حياتي

● مصر حصن العربية

وعن فضل مصر فى حماية اللغة العربية والدفاع عن بيضة العروبة يقول زكى مبارك : ولحكمة ارادها الله بالعرب والمسلمين ان مصر هى البلد الوحيد (الذى انقرضت لغاته القديمة لتحل محلها اللغة العربية . وهذا حظ لم تظفر به امة عربية اخرى) . فقد ظلت فى تلك البلاد لذلك العهد لغات اخرى . وكانت تطيب نفسه كلما رأى اشارة الى انتعاش اللغة العربية ، فهو يسعد ايما سعادة حين يسمع اطفال الاكراد فى شمال العراق يؤدون امامه نشيدا باللغة العربية لانهم سيكونون بإذن الله من سواعد العروبة بعد حين . لان العروبة فكرة لا جنس .

وكان زكى مبارك يرى ان مصر هى حصن اللغة العربية الحصين وكان اعتزازه بهذه العروبة لايساويه اعتزاز فقد كانت العروبة هاجسة المتصل وهو يرجع سيادة مصر فى الشرق وتقدمها لقوتين احداهما الاسلام والاخرى اللغة العربية الى درجة كان العرب فى مهد العرب ومهد النبى العربى الامين يبعثون بابنائهم الى مصر لتعلم اللغة العربية . يقول : (ومن مفاخر مصر ان العربية هى لغتها القومية الوحيدة ، والاسلام دين الاغلبية الساحقة) .

وهكذا ظلت راية الشعر (يحملها المصريون ولن تنتزع هذه الراية من ايدينا ولو سهر الليل الاخوان الاعزاء فى سائر الاقطار العربية) . وواضح انها دعوة الى المنافسة الشريفة بين الاشقاء كما يدل عليها لفظه النبيل : "الاخوان الاعزاء" وفى سبيل هذه المنافسة كان زكى مبارك يقول انتى لو بقيت فى العراق مدة وافية لخلقت للقاهرة منافسا خطيرا هو بغداد وما خنت بلدى بذلك لان وطنى لا يسره ان تخمد جذوة الحماسة العربية .

وهكذا يرىء زكى مبارك من داء الوطنية الضيقة او الاقليمية او العنصرية او الطائفية . وكان كثير الدعوة لتوثيق عرى المودة والمحبة بين البلاد العربية حتى رأيناه يعترف بانه ابن بغداد قبل ان يكون ابن القاهرة او باريس من ناحية الثقافة وكان لا يذكر العرب الا قال اسلافنا او اجدادنا مفاخرا (بانه اعد نفسه حتى يكون خادما من خدام العروبة وحارسا من حراس لغة القرآن وهو صوت مصر فى العراق) .

ويحس القارىء لاثاره ان غيرته على البلاد العربية ومصالحها لا تقل عن غيرته على مصر ومصالحها . وكان

الادب العربي
في كتابات زكي مبارك

يدرك ان الادب العربى والثقافة العربية من خلال اللغة هما الموثق لاواصر المودة مابين البلاد العربية ولذلك كان يهاجم كل من يتعرض للادب العربى بالقصور او التخلف فهو يهاجم سلامه موسى لانه يتهم طه حسين والزيات والعقاد وزكى مبارك لاهتمامهم بالاثار العربية التى يصفها بالعاديات . وكذلك يسخر من الشاعر ابراهيم ناجى الذى اخذ على زكى مبارك بعد عودتِه من باريس الكتابة عن اعلام الادب العربى ولم يكتب عن اعلام الادب الفرنسى . يقول زكى مبارك (انى لم اتعلم فى فرنسا لا تفرنس وانما كان المهم هو ان اخذ المنهج فى طريق البحث والتأليف) .

من اجل هذا كانت جل كتابات زكى مبارك موجهة الى خدمة اللغة العربية والثقافة العربية ولذلك ناضل احمد امين نضالا مريرا فى كتابه الموسوم بـ "جناية احمد امين على الادب العربى" وبسبب هذه الغيرة ناله من اساتذته فى جامعة السوربون ما ناله وحين نسب طه حسين الزخرفة فى الادب العربى الى اليونان ونسبه المستشرقون الى الفرس هب زكى مبارك يدفع هذه التهمة عن الادب العربى مستشهدا بالقرآن الكريم ويقول ان القرآن دل على حقائق ادبية واجتماعية كان يعرفها العرب عن اسلافهم ، لان القرآن "نثر وانه دليل على ان العرب كان عندهم نثر فنى قبل الاسلام فكان لهم بذلك وجود ادبى متين قبل ان يتصلوا بالفرس واليونان) . ولا يعقل ان يظهر كتاب كالقرآن فى اهميته وبلاغته بين قوم لم يفكروا فى الفصاحة وفى العروض والنقد . وطرائف التعبير . وظهور كتاب كالقرآن فى اى لغة يدل على انها تعدت طور الطفولة منذ ازمان) . ويستبعد زكى مبارك ان يظل العرب خالىّ الذهن من العلوم الادبية الى ان اتصلوا بالفرس والروم كما يستبعد (أن يكون ابو الاسود الدؤلى اول من فكر فى النحو ومن المضحك ان العرب لم ينتبهوا الى وقوع اللحن فى لغتهم الا بعد الاسلام .

وفى الجملة كان زكى مبارك شديد الاعتزاز بالذاتية العربية اعتزازا لا يعرف فيه المهادنة او المسالمة فقد نذر نفسه لهذه الغاية الشريفة كما تبينا فى هذه العجالة عن نضاله فى سبيل امته العربية ولغته العربية .

أقوال معاصره

● "الشعب هو القاضى ، وصندوق الانتخابات هو المحكمة"

الأمير سيهانوك

● "مجانية التعليم أكذوبة كبرى"

الدكتور سعد الدين ابراهيم

● "التاريخ لا يعيد نفسه ، انما فى حالة تغير دائم"

الدكتور سمير أمين
مدير منتدى العالم الثالث

● "المبدع لا يلتزم بحقائق التاريخ"

الدكتور عبدالقادر القط

● "الشعر فن صعب يخون الكسالى"

الشاعر محمد حسين آل ياسين

● "لم يعد الناس يهتمون بالأدب والفن ، وانما بالفضائح"

الناقد والناشر الألمانى أوفى فيشتوك

● "مرجع قوة الحياة الفكرية الى عدم وجود رقابة دينية"

الدكتور محمد زغلول سلام
عميد آداب بنها الأسبق

● "خيال الشىء أجدى من الشىء"

الناقد السورى حليم اليازجى

● "نصوغ حياتنا وفق ما نعرفه من الحكايات"

دافيد معلوف
الأديب الاسترالى المنحدر من أصل عربى

● "فلنتحد بسرعة ، والا فقدنا كل شىء"

أدوارد شيفرنادزه

● "الحب أوله هزل وآخره جد"

ناصر خمير
مخرج الفيلم التونسى طوق الحمامة المفقود

● "العدو هو عدم الاستقرار"

الرئيس الأمريكى جورج بوش

● "الاقتصاد الفقير، يزداد كل شهر فقرا"

اندرز آسلوند
مدير معهد استكهولم لشئون اقتصاديات أوربا الشرقية



د . عبد القادر القط



جورج بوش



ادوار شيفرنادزة

دعـــــــــــوة

□ كنت ومازلت ، مقتنعا بأن من اهم واجبات الكتاب والقائمين على امر الثقافة جميعا تذكرة المواطنين بسير قادة الفكر والعلم والادب والفن من ابناء هذه الامة ممن ملأوا تاريخها القريب بوجه خاص . وتاريخها خلال المائة عام الاخيرة بوجه اخص ، بعلمهم وباشراقاتهم الادبية والفنية . وبجهودهم لنشر هذا العلم وهذه الاشراقات والدفاع عنها ، فليس ادعى الى استنهاض همة الانسان الفرد من ان يدرك نفسه على انه عضو فى فريق قطع شوطا فى طريق بعينه ، وانه هو ومن حوله يبذلون الجهد فى السبيل الى مزيد من التقدم على الطريق نفسه ، وانه سوف يأتى من بعدهم آخرون يواصلون السير فى الاتجاه ذاته ، وبذلك يتكشف المنظور عن اننا بصدد جهود متكاملة بين اجيال متلاحقة ، وتكتسب حركة كل جيل وكل عضو فى هذا الجيل قيمتها ومعناها فى بناء يرتفع ويتكامل دوما .

● ثروتنا من العقول

وجدير بالذكر ان لدينا ثروة قومية كبيرة من الاسماء والأعمال تملأ هذا المنظور بدرجة من الثراء تفوق كثيرا مناظير مماثلة فى عدد من المجتمعات المحيطة بنا . غير اننا لاندرك القيمة الحقيقية لهذه الثروة الا اذا قدمت لنا بالصورة الواجبة بحيث تتيح لنا الاقتراب منها لنرى الوجوه عن كثب ، ولنقوّم الاعمال فى أناة وروية ، ولنقدر تقديرا تقريبيا حجم هذه الثروة ، وما تنطوى عليه من نفائس . سوف نفطن عندئذ الى انها ثروة بالغة التنوع ، وانها لذلك كفيلة ، اذا احسنا توظيفها ، بان تمدنا بمعين شديد الخصوبة لجهودنا المنصرفة الى البناء فى الحاضر والتخطيط للمستقبل ، وما أحوجنا الى مايشد ازرنا ويرفع من روحنا المعنوية فى هذه الايام العجاف ، وما احوجنا الى زيادة الجرعة ـ المشاعر القومية فى هذا الزمان الذى تنهال فيه الضربات المدمرة على تلك المشاعر حتى لقد بات خطر التهديد بإبادتها أمرا ممكنا ، واكاد أقول محتملا .

منذ مائة عام ، عندما كنا على مشارف القرن العشرين ، كنا حديثى عهد بالتحرر من السيطرة العثمانية ، وكنا فى الوقت نفسه حديثى عهد بالدخول فى اطار السيطرة البريطانية ، ومن احتكاك هذين

الحدثين الخطيرين فى وجدان الامة بدأت تتخلق وتتشكل روح الثقافة المصرية الحديثة ، متجسدة فى رجال دخلوا العشرين فى مطلع شبابهم أو فى بواكير طفولتهم ، وتقدمت بهم أعمارهم وقد وطنوا النفس على اداء مهمة محددة ، هى : انارة المشاعل على الطريق فى شتى نواحى الفكر ، وبكل الوسائل التى يمكن ان يرقى اليها خيال مبدع . كانت السمة الرئيسية فيهم جميعا هى علو الهمة ، والتفانى فى خدمة القضية ، كل من منظوره .

جاء احمد لطفى السيد يجتاز عقبة القرن العشرين ، وكان اذ ذاك فى مطلع شبابه ، وكذلك احمد شوقى ، وحافظ ابراهيم ، واحمد فتحى زغلول وجاء من بعدهم من اجتازوا العتبة وهم بعد اطفال صغار ، على عبدالرازق ، واحمد امين ، وطه حسين ، ومحمد ناجى ، ومحمود مختار ، ومحمود سعيد ، وحسن فتحى ، وغيرهم ، وتعاصرت كهولة هؤلاء مع شباب آخرين ولدوا فى رحابهم ، وتنسّموا نسمات الحياة الاولى على مشهد منهم ، نذكر فى هذا الصدد عبدالرحمن الشرقاوى ، ونعمان عاشور ، ويوسف ادريس ، وصلاح عبدالصبور ، ومحمد عويس ، وحامد ندا ، وعبدالهادى الجزار . ولايزال الموكب يتقدم وتتعاظم طاقاته .

● التاريخ الطبيعى للوجدان المصرى الحديث

وددت لو اننى استطعت كتابة التاريخ الطبيعى للوجدان المصرى الحديث . اذن لعكفت على النظر فى أمر ثورتنا القومية هذه ، المتمثلة فى جهود رجال الفكر والادب والفن جميعا ، كيف شقوا الطرق فى السبيل الى بلوغ اهدافهم ، وكيف اتصلت بعض انجازاتهم ، وكيف تعطل بعضها وتعثر ، وماهى انواع الصعوبات التى اعترضتهم والظروف المعاكسة التى فرشت بها الأرض امامهم ، وكيف تشابكت جهودهم سواء عن قصد او عن غير قصد مع ظروف الحياة السياسية فى مصر ، وكيف تعاملت او تعاركت مع ماهو متاح او مفروض من عناصر الحرية من ناحية والاستبداد من ناحية اخرى . بمعناهما الاجتماعى العريض لا السياسى الضيق فحسب ، وكيف يمكن الوصول بهذا التحليل الى وضع تقدير اجمالى (تقريبى بطبيعة الحال) لحساب المكسب والخسارة .

آن الاوان ، ونحن مقبلون على المائة عام التالية ، ان يقوم بهذه الدراسة من هم مؤهلون لها ممن يملكون ادوات البحث التاريخى المدقق ، ويستطيعون ترسيخ النظرة الشاملة ، ويحملون نصيبهم من الانشغال بالهم العام فى الحاضر والمستقبل .

د . مصطفى سويف





بعد ان نشر فى الهلال العدد السابع عشر حديث عن الثورة العرابية وعن زعيمها احمد عرابى وما نطقه من اسباب تلك الثورة .. فلما اطلع على المقالة ، بعث الينا برسالة يدافع بها عن نفسه وفيها ترجمة حالة واسباب الثورة ونتائجها على ما اشرنا اليه .
وهذا نص الرسالة التى بعث بها الزعيم احمد عرابى بنصها

فقد وصلنى الآن العدد ١٧ من هلالكم الاغر ، وبمراجعته وجدته مصدرا برسمى الأخير ورسمى العسكرى قبل عشرين سنة وفيه مختصر ترجمة حياتى مع مختصر النهضة الوطنية المصرية التى قدمت بها فى سنة ١٢٩٨ هـ طالبا من الحكومة المصرية اذ ذاك رفع المظالم ومنع التعصبات الجنسية ونشر اعلام العدل والمساواة بين جميع المستظلين بظل قوانين الحكومة .. فانعكست المرئيات وساء الحال حتى آل الأمر الى ما آل اليه مما هو مسطر فى بطون التاريخ ..

فاشكر حضرتكم على تهنئتكم لى بما نلته من فضل مراحم الحضرة الفخيمة الخديوية .. وعلى حسن ظنكم بى .. ولكننى رأيت ان الذى اخبركم بتاريخ نشأتى الاولى قد كذبكم الحديث وخلط فى روايته .. وحيث ذكرتم ان اخوانى المصريين مشتاقون الى معرفة ترجمة حياتى مع تاريخ الحادثة التى أدت الى الانقلاب العظيم فى مجارى الأحوال المصرية فصار حقا واجبا علىّ كشف حقيقة نشأتى تلبية لرغبتهم ..

فاقول :

نشأتى الاولى

ولدت فى ٧ صفر ١٢٥٧ هـ من ابوين شريفين من ذرية العارف بالله السيد صالح البلاسى البطائحى بالعراق ، وهو اول من قدم الى بلاد مصر من بلاد البطائح بالعراق فى اواسط القرن السابع للهجرة وهو من سلالة الحسين بن على بن ابى طالب ..

واسم والدى محمد عرابى بن السيد محمد وافى .. الى ان ينتهى نسبه الى الامام الحسين بن على ..

ومولدى كان بقرية هرية رزنه بمديرية الشرقية ..

وعشيرتى فيها نحو ربع تعدادها . وكان والدى شيخا عليها الى ان توفى فى

شهر شعبان سنة ١٢٦٤ هـ . عن ثلاث نسوة واربعة اولاد وست بنات .. وكنت ثانى اولاده الذكور وسنى ٨ سنوات وترك لنا ٧٥ فدانا من الاطيان الزراعية .

فلما بلغت سنى ٥ سنوات ارسلنى والدى الى المكتب ، فاقمت فيه ثلاثة اعوام ختمت فيها القرآن الشريف وعمرى ثمانى سنوات وبضعة اشهر ، فلما توفى والدى كفلنى اخى الاكبر الذى توفى فى ٢٠ شعبان سنة ١٣١٨ هـ . ثم بدا لى المجاورة فى الأزهر حين بلغت اثنى عشر عاما .. وبعد سنتين رجعت الى بلدى ..

● عهد سعيد باشا

وكان سعيد باشا قد تولى الحكومة الخديوية فى ١٥ شوال سنة ١٢٧٠ هـ وامر بدخول اولاد مشايخ البلاد واقاربهم فى العسكرية .. فدخلت من ضمنهم وانتظمت فى سلك الاورطة السعدية المصرية فى شهر ربيع الأول سنة ١٢٧١ هـ . وجعلت فيها وكيل بلوك امين من اول يوم سار انتظامى فى سلك العسكرية بعد امتحانى بحضور ابراهيم بك امير الالاى وحسن افندى الالفى حكيم الالاى ، ثم ترقيت الى بلوك امين فى نفس السنة بعد ان اعاد الامتحان .

وفى اوائل سنة ١٢٧٤ هـ امر سعادة راتب باشا بجمع الصف ضباط فاجتمعنا حوله فى فسحة قصر النيل وبلغنا ارادة المرحوم سعيد باشا وقال : ان افندينا بلغه انكم تقولون كيف يصير ترقى الصف ضباط الجدد وتأخير من هو اقدم منهم فى الرتب ، وانه امر الا يترقى احد بعد الآن الا بعد الامتحان فمن فاق اقرانه فى الامتحان ترقى الى الرتبة التى يستحقها . فمن اراد منكم الامتحان فليتقدم الى الامام .. فعند ذلك تقدمت واحجم الآخرون خوفا ظنا منهم انه يريد معاقبة من يتظاهر بذلك .. ولما كرر عليهم الطلب خرج آخر وآخر حتى بلغ نحو ٣٠ شخصا ، فصار امتحانهم بحضوره فكنت اول فائز فى الامتحان .

ثم صار جمع الضباط والصف ضباط بمعرفة راتب باشا .. ووضع فى صدرى نيشان الباشجاويش واعلن ترقيتى الى هذه الرتبة : وبعد سنة اى فى اول سنة ١٢٧٥ هـ صار امتحان الباشجاويشية .. فكنت الفائز الاول وترقيت الى رتبة الملازم ثانى ، ثم بعد سبعة اشهر صار امتحان الضباط فى القصر العالى فكنت اول الفائزين .

ولما عرض الجدول على سعيد باشا امر باعادة امتحانى وانتدب لذلك سليمان باشا الفرنساوى .. وبعد الامتحان التمس سليمان باشا الخروج الى ميدان الأمام الشافعى وهناك يصير الامتحان فى الميدان فسأله الخديو عن مقصده فقال انه يستحق لرتبة الاميرالاى .. وبعد ذلك احسن الى برتبة الملازم اول ، وبعد شهرين احسن عليّ برتبة يوزباشى .

وفى اول سنة ١٢٨٦ هـ ترقيت الى رتبة «صاغقول اغاسى» فى بنى سويف .

ثم اواخر سنة ١٢٧٦ هـ ترقيت رتبة بكباشى .. وفى اواخر سنة ١٢٧٧ هـ احسن الىّ برتبة القائم مقام .

وحاصل الأمر اننى دخلت العسكرية نفرا بسيطا فى اوائل سنة ١٢٧١ هـ وبلغت رتبة القائم مقام فى اواخر سنة

١٢٧٧ هـ بجدى واجتهادى .

وقال لى مرة سعيد باشا وأنا برتبة قائم مقام .. ان جميع الناس عادونى حتى اهلى بسبب مساواتكم بغيركم فحققوا امل فيكم . فاجبته : «ولكن الله سبحانه وتعالى يرضى عنك والامة المصرية ترضى عنك بمراعاتك للحق والانصاف» .

● نشاطى الفنية

ولما تولى الخديو اسماعيل وامر بانشاء ٦ أليات بيادة كنت قائمقام فى الالاى السادس ، وكان خسرو باشا اميرالاى على الالاى الثانى ثم ترقى الى رتبة لواء باشا .. وكان متعصبا لابناء جنسه تعصبا أعمى .

وترتب قومندانا على الالاى ٥ و ٦ ولما وجدنى وطنيا ، عظم عليه وجودى فى الالاى وسعى فى رفتى من الالاى لاجل اخلاء محلى لترقية احد ابناء المماليك وصار يترقب الفرص للايقاع بى الى ان صدر امر الجهادية بامتحان الضباط وكنت من ضمن اعضاء مجلس الامتحان ، وارسل لى عريضة احد الملازمين وطلب اخذ ختمى من عريضته والختم على عريضة ضابط آخر ، فشق علىّ هذا الأمر ، وقلت ان هذا ظلم لا افعله ، فحنق لذلك حنقا شديدا وذهب الى ناظر الجهادية اسماعيل باشا سليم واخبره اننى لا اطيع له امرا ولا اعبأ باوامر ديوان الجهادية . وناظر الجهادية عرض للخديو الاسبق بذلك . ثم صدر الأمر برفتى من الجهادية ، وحرمانى من المائتى فدان التى صدر امر الخديو بالاحسان بها على كل من القائمقامات الجهادية عقيب مناورة عسكرية حضرها الخديو وكنت من ضمن من حضرها .

وفى سنة ١٢٨٣ هـ صار تعيينى محافظا على بحر مويس بمديرية الشرقية زمن فيضان النيل .. وبعد انقضاء زمن النيل من غير ان يحدث ادنى ضرر فى مديرية الشرقية ، تم ترتبت مأمورالتشهيل بناء قناطر فم الاسماعيلية وقطع الاحجار فى معامل طره . والجبل الاحمر وشحنها بالمراكب الى هذه الجهات حتى ١٢٨٥ هـ فانتدبت لتشهيل بناء كوبرى ببنى سويف وكوبرى بمديرية الجيزة .

ثم احيل على عهدتى تمديد السكة الحديد من محطة المنيا الى محطة ملوى وبعد نهوها تصادف جعل المرحوم قاسم باشا فتحى ناظر الجهادية وكان يعرف قدر اعمالى فطلبنى وكلفنى الانتظام فى سلك العسكرية ثانية ، فأجبته وكان ذلك فى اوائل سنة ١٢٨٧ هـ وفى سنة ١٢٨٨ هـ انتقلت الى رئاسة ٢ جى الاى بادة برتبة القائمقام .

وفى سنة ١٢٩٢ هـ انتدبت الى ترتيب عساكر محافظين للقلاع الحجازية .

ولما عرضت انتهاء مهمتى على ناظر الجهادية حسين باشا كامل قال لى انى لاعتمادى عليك ووثوقى بك قد عينتك مأمورا للحملة الحبشية فاستعد لذلك . فانتخبت من اعتمد عليهم من الضباط والكتبة وسافرنا جميعا . وبعد انتهاء تلك الحرب عدت الى مصر .

● خاتمة امرى

ولما تولى المرحوم توفيق باشا مسند الخديوية وحضر الى الاسكندرية أحسن علىّ برتبة الأميرالاى على الالاى الرابع فتوجهت الى رأس التين وقدمت تشكراتى وامتنانى الى حضرته .

ولما صار المرحوم عثمان رفقى باشا الشركسى ناظر الجهادية فى وزارة مصطفى رياض باشا واستبدوا بالادارة .

واستخفوا بأمر الخديو وخصوصا عثمان رفقى لجهله ، خيلت له نفسه ان يمنع ترقية المصريين من العسكر ، والاكتفاء بما يتخرج فى المدارس الحربية وصدرت اوامره بذلك .

وكنت لا اعلم بشيء من ذلك ، وانما دعيت الى وليمة وسماع القرآن بمنزل نجم الدين باشا ، فجلست بجوار المرحوم نجيب بك وهو رجل كردى الأصل فأخبرنى نجيب بك بذلك .

وبعد تناول طعام المائدة حضر لى احد الضباط واخبرنى بان كثيرا من الضباط ينتظروننى بمنزلى ، فاسرعت اليهم وهم فى هياج عظيم وقد بلغهم صدور اوامر ناظر الجهادية . واخبرونى بذلك ، فقلت لهم قد سمعت من غيركم فماذا تريدون .. فقالوا كلهم قد فوضنا اليك هذا الامر وليس فينا من هو احق به واقدر عليه منك .. فقلت لهم لا فقالوا لا نبغى غيرك ولا نثق الا بك ..

وفى الحال كتبت عريضة الى دولة رئيس النظار رياض باشا مقتضاها الشكوى من تعصب عثمان رفقى لجنسه والاجحاف بحقوق الوطنيين .. والتمست فيها :

١ ـ تشكيل مجلس نواب من نبهاء الامة المصرية تنفيذا للأمر الخديو الصادر ابان توليته .

٢ ـ ابلاغ الجيش الى ثمانية عشر الفا تطبيقا لمنطوق الفرمان السلطانى ..

٣ ـ تعديل القوانين العسكرية بحيث تكون كافلة المساواة بين جميع اصناف الموظفين بصرف النظر عن الاجناس والاديان والمذاهب .

٤ ـ تعيين ناظر الجهادية من ابناء البلاد على حسب القوانين العسكرية التى بايدينا .

ولم اذكر قط رفت شيخ الاسلام كما ذكرتم بهلالكم الاغر لانه لا دخل له فى امر العسكرية .

ثم تلوت بعد ذلك العريضة هذه على مسامع الجميع فوافقوا كلهم عليها فأمضيتها بامضائى .. وامضاء على فهمى ايضا وعبد العال بك ..

وفى صحوة الغد ذهبت الى ديوان الداخلية وقدمت العريضة الى دولة رئيس النظار فقال لنا «سانظر فى هذا الامر واتكلم مع ناظر الجهادية» ..

وبعد يومين ذهبت الى الرئيس المذكور وسألناه عما تم فى هذا الامر فقال «ان هذا الطلب مهلك واشد خطرا من العرض الذى قدمه احمد افندى فنفى بسببه الى السودان» وكان بديوان المالية وتعرض لظلم حاق به .. فانصرفنا على ذلك .

ولما كان يوم غرة ربيع الأول سنة ١٢٩٨ هـ انعقد مجلس تحت رياسة الخديو .. حضره جميع الباشوات المستخدمين والمتقاعدين وكلهم من الترك والشراكسة والأوربيين : وقرروا فيه لزوم توقيف الثلاثة الذين امضوا على العريضة المتقدمة ثم اجراء محاكمتهم : فقال رياض باشا انى ارى انه اذا صار توقيف الأميرالات المذكورين يلزم ايضا توقيف ناظر الجهادية ، لأنه فى عدم توقيفه خطر عظيم ، فلم يوافق الخديو على ذلك ، وتعهد ناظر الجهادية المذكور بانه ضامن لاخذنا بسهولة .

وفى المساء ارسل لنا ناظر الجهادية

لكل منا تذكرة يدعونا فيها للحضور الى ديوان الجهادية فى سنة ١٢٩٨ هـ لنشهد الاحتفال بزفاف شقيقة الحضرة الخديوية . وكان وقت زفافها لم يحن بعد فتيقنا انه يريد خداعنا والبطش بنا فاخذنا حذرنا ..

وحين حلول الوقت المعين ذهبنا الى ديوان الجهادية فوجدناه غاصا بجميع الشراكسة ، وبأيديهم الطبنجات .. فلما حضرنا دعينا للحضور الى مجلس الهلاك فاجبنا طائعين .. وتلى الأمر الخديو ثم امرنا بتسليم سيوفنا فاطعناه .. وساقونا الى السجن .

وبعد اقفال السجن جاء خسرو باشا وكان رجلا صلفا جاهلا فوقف خارج السجن وقال (اية زنبيل لى هرقلر) يعنى فلاحين شغالين بالمقاطف .. وبعد غلق السجن جاءت اورتطان من الاى الحرس الخديوى بقيادة الشهم الهمام محمد افندى عبيد البكباشى واحدقوا بديوان الجهادية .. وفتحوا الابواب واخرجونا من السجن .. وقد فر ناظر الجهادية الغشوم هاربا وكذا رجال المجلس وغيرهم .

ثم سرنا جميعا الى قشلاق عابدين .. وكانت الأورطة الاولى من الحرس الخديوى واقفة امام سراى الخديوية .. وعزفت الموسيقى بالسلام الخديوى ونادوا جميعا «يعيش الخديو» وذلك كان اشارة واعلانا للقوم باننا على اخلاصنا للحضرة الخديوية وكان جميع الذوات الذين كانوا بديوان الجهادية مجتمعين يتشاورون فيما بينهم .. واثناء اجتماعهم حضر الالاى السودان من طره وانضم الى الاى الحرس ..

ثم بتنا على ذلك وفى الصباح حضر لنا المرحوم احمد خيرى باشا مهردار الخديو ومعه محمود سامى باشا ناظر الاوقاف من طرف الخديو ..

وقالوا لنا : ماذا تريدون .

فقلنا: «العدل والمساواة» .

قالا : ثم ماذا .

قلنا : استبدال ناظر الجهادية برجل وطنى .. وتشكيل مجلس نواب للامة ينظر فى مصالحها .. وتعديل قوانين العسكرية ، وابلاغ الجيش الى ثمانية عشر الفا .. ونحن طاعتنا للحضرة الخديوية .

فذهبا الى الخديو ثم رجعا وقال : «قد عزل عثمان رفقى فمن الذى تريدونه ناظرا للجهادية» .

قلنا : الذى يختاره الخديو من الوطنيين .. فذهبا وعادا ثانية قالا :

- ان الخديو يقول اختاروا انتم من ترضونه حتى لا يحصل منه مثل ما حصل من عثمان رفقى .

فقلنا قد اخترنا هذا محمود سامى باشا وهو من اولاد المماليك الأول ولكنه صدق معنا ولم يقصد الغدر بنا .. وهو براء مما نسب اليه بمجلتكم من نقل اخبار المجلس الينا .. ثم صدرت الأوامر الخديوية باعادة كل منا الى الايه وعزل عثمان رفقى .. وصار تولية محمود سامى على نظارة الجهادية مع نظارة الاوقاف .

واخذ فى سن القوانين العادلة . وتعديل القوانين الاصلية وتنقيحها .

وبعد ذلك اجتهدت الحكومة فى غدرنا .. واخذنا على غرة او بحيلة ..

ولما لم يوافقها ناظر الجهادية محمود سامى باشا على نواياها .. صار عزله وتعين بدله داود باشا يكن وهو عديل الخديو ولكنه رجل جاهل احمق فاسرع باصدار اوامر لا يستطاع قبولها فنفرت القلوب منه .

عرابى والهلال

فكتبت له فى ٩ سبتمبر ١٨٨١ م باننا سنحضر بجميع العساكر الى ساحة عابدين لعرض طلباتنا ، وكلفته عرض ذلك على الحضرة الخديوية .

وفى الوقت المعين اجتمعت الالايات البيادة والسوارى والطوبجية فى ساحة عابدين . وقد حيانا المرحوم الخديو باجابة تلك المطالب العادلة .

ثم صار استدعاء المرحوم شريف باشا من الاسكندرية وتعيينه رئيسا للوزارة على حسب اختيارنا له .. وتعيين محمود سامى باشا ناظرا للجهادية .. وصار توظيفى وكيلا للجهادية .

وفى تلك النظارة صارت الامتحانات وترقى كثير من الباشوات وامراء الالايات والقائمقام وغيرهم .. وانشئت القوانين العادلة وتعدلت الرواتب ..

وصرفت الحقوق الموقوفة من زمن مديد .. وانشىء مجلس النواب ، وعم العدل واستقامت الأمور .

وحين ذلك عرضت على رتبة لواء (باشا) فرفضتها لئلا يقال علىَّ اننى اشتغل لمصلحتى .. وبقيت فى رتبة الاى مدة .

وبعد مدةٍ عرضت علىّ مرة ثانية رتبة لواء فقبلتها من اجل المصلحة العامة والضرورة .. وقد انتظمت الأمور وهدأت الاحوال .

ولكن اوربا لا يروق فى نظرها انتظام حكومات الشرق . فبدأت تعد المكائد وتتحين الفرص .

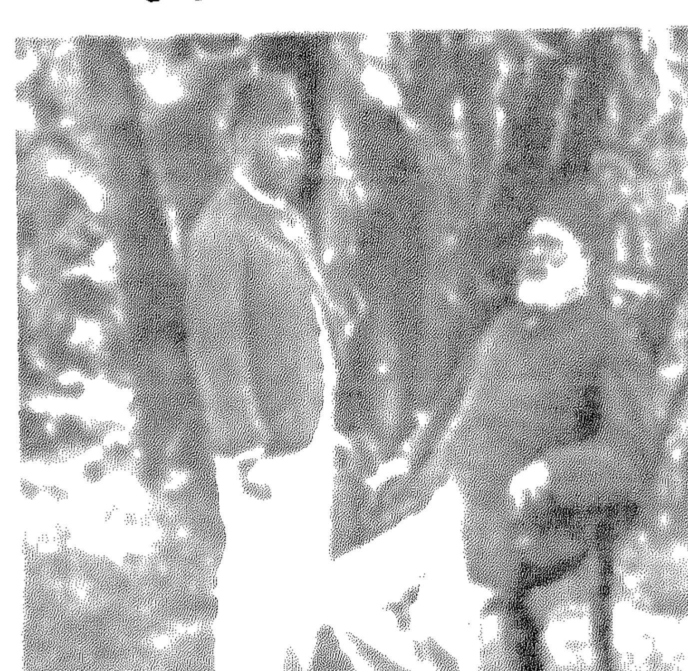
وفى شهر مايو سنة ١٨٨٢ م . جاءت الاساطيل الحربية الانجليزية والفرنساوية الى ثغر الاسكندرية .. وتقدمت للحكومة المصرية لائحة مشتركة من دولتى فرنسا وانكلترا مجحفة باستقلال الحكومة المصرية وحقوق الدولة العلية ، وتقدمت نسخة منها للخديو فرفضها مجلس النظار وقبلها الخديو ، فاستعفت النظارة من وظائفها .. وهاجت الافكار العمومية وطاشت العقول الذكية واجتمع مجلس النواب وجميع قناصل الدول يطلبون منى حفظ الامن ، فقلت لهم لا قدرة لى على ذلك لانى قد استعفيت ..

وفى ١١ يونية سنة ١٨٨٢ م حدثت حادثة الاسكندرية بتدبير ذوى الغايات لاجل تشويه اعمالى فى نظر اوربا .. وخدش تعهدى بالحفظ والامن فاسرعت بارسال العسكر الى الاسكندرية حتى انتهت الفتنة .

وبعد ذلك تشكلت الوزارة بمعرفة الخديو تحت رياسة راغب باشا وكنت من رجالها ايضا .

وفى يوم ١١ يوليو ١٨٨٢ م وردت افادة الى قومندان عساكر الاسكندرية من طرف

عرابى فى منفاه



اميرال الاسطول الانجليزى .. يقول فيها انه جارى تهديد العساكر الانجليزية بترميم القلاع والاستحكامات وانه يطلب تخريب القلاع وهدمها بايدى العساكر المصرية والا ضرب الاسكندرية ودمرها .

فعقد لذلك مجلس تحت رياسة الخديو ، واجتمعوا على رفض هذا الطلب والاستعداد للحرب . فاعطيت الأوامر بذلك ..

ومنذ اشراق يوم ١٢ يوليو بدأت مراكب الانكليز بالضرب على مدينة الاسكندرية وجميع سواحلها وانتشب القتال بين مصر ، والحكومة الانكليزية .

أما الاسطول الفرنساوى فاعتزل جانبا كالمتفرج .

وفى اليوم الثامن انهزمت العساكر فرجعت الى كفر الدوار واتخذت خطا دفاعيا ، وقد انحاز الخديو الى العدو المحارب لبلاده ، واستدامت الحرب الى ان قدر الله سبحانه وتعالى شأنه بالخذلان العظيم فى التل الكبير .

وتم الأمر بنفينا الى جزيرة سيلان ، وخرجنا من مصر فى يوم ١٦ صفر سنة ١٣٠٠ هـ ومكثنا بها تسع عشرة سنة .

وفى ٦ صفر سنة ١٣١٩ هـ صدرت الادارة الخديوية بالرخصة لى بالعودة الى مصر والاقامة فيها .

والله الذى لا اله الا هو انى ما خدمت بذلك دولة انكلترا ولا فرنسا ولا كنت آلة لدولة «ما» وانما كنت اجتهد فى حفظ استقلال بلادى مع نيل الحرية والعدل والمساواة لاهل بلادى .. وانا خادم لهم ..

وانى والله لا اكره شركسيا ولا روسيا لذاته وانما اكره الاعمال المغايرة للعدالة والانسانية . واحب العدل والمساواة بين جميع بنى الانسان . والحمد لله اولا واخيرا والشكر لله وللحضرة الفخيمة الخديوية التى منحتنى نعمة العود الى وطنى العزيز لأحظى برؤية ذاته الكريمة ورؤية ابناء وطنى الكرام قبل ان افارق هذه الحياة الدنيا والحساب على الله ..

وانى اضرع الى الله سبحانه وتعالى ببركة سيد الاولين والآخرين المبعوث رحمة العالمين ان يوفق الله بين الحكومة الانكليزية والحكومة العثمانية ويهديهما الى التوافق على اخلاء مصر من الاحتلال الانكليزى وتسليم مصر للمصريين وتعود المياه الى مجاريها كما كانت اولا .

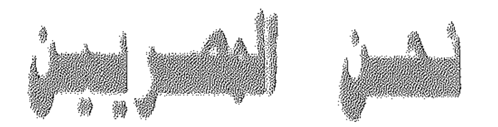
وأنا اسأل الله سبحانه بسعة رحمته وعظيم قدرته ان يوفقنى لما فيه رضاه مع حسن الثناء فى العباد وجميل الاثر فى البلاد وتمام النعمة وزيادة الكرامة وان يختم لى بالسعادة بجاه حبيبه المصطفى صلى الله عليه وعلى آله وسلم ..

خادم وطنه العزيز مخلصكم
احمد عرابى الحسينى المصرى
«الهلال»

ويجدر بنا فى هذا المقام الاشارة الى مالاقاه حضرته عند عودته من الاحتفاء ومواساة الاصدقاء . فان منزله لايكاد يخلو من عشرات منهم ليل نهار ، وقد تردد عليه كتاب الجرائد وخاطبوه واستطلعوه وكتبوا المقالات الضافية فى وصفه ووصف اخلاقه ونكاته . وقد حظينا بمقابلته مرارا وجالسناه وخاطبناه فحققنا ما تنبأنا به عنه فى مقالتنا المشار اليها فى صدر هذا الهلال .. ولم تزدنا المقابلة الا وثوقا بسلامة نيته واخلاصه فى الدعوة التى قام بها .. ويستدل على ذلك ايضا من فراسة وجهه ، فانك اذا جالسته وخاطبته تقرأ الاخلاص وصدق الطوية فى عينيه وتتحققهما من شفتيه .



بقلم الاستاذ / عباس محمود العقاد



نحن ابناء البلد الذى يتوسط القارات الثلاث ، ونحن فى بقعة من الارض لا يستقر العالم اذا اضطربت ولا يضطرب العالم اذا استقرت .

مر القرن التاسع عشر بالامة المصرية على حالة يرثى لها من هبوط "القوة المعنوية" كما نقول فى التعبير الحديث ..

كانت تنظر الى كل شىء اجنبى نظرة اعجاب وتعظيم ، وتنظر الى كل شىء مصرى نظرة اتهام وارتياب ، وكان المصرى يهاب ان يغشى الاماكن المخصصة للنزلاء الاجانب فى صميم بلاده ، وكانت الامتيازات الاجنبية تعمل عملها فى "تهبيط" هذه القوة المعنوية فوق هبوطها او تحت هبوطها على الاصح ، وجاء الاحتلال الانجليزى فى الربع الاخير من القرن التاسع عشر فمد الامتيازات الاجنبية بمدد جديد من التهبيط والتثبيط .

ووضح لذوى الرأى انه هزال نفسانى خطر ، وان الامة محتاجة الى "حقنة تقوية" عاجلة ، والا كتب عليها الفناء .

وتتابعت هذه الحقنة المقوية فى دعوات اليقظة وحركات البعث والاحياء ، وفعلت الحقن المتتابعة فعلها ، واوشكت ان تزيد على الحاجة اليها .

نعم .. اوشكت بعد الشكوى من الهبوط المعنوى ان نشكو من "المغالومانيا" او هوس العظمة والادعاء ، واخشى ان اقول بل هوس اخر اضر من هوس العظمة والادعاء ، وهو الافتتان بالذات الذى يسميه النفسانيون بالنرجسية ويحسبونه ضعفا يخاف منه على ذويه .

اننا نفخنا الغرور فى جيل من الناشئين حتى خيف عليهم وعلى الامة باسرها ، وما عملت الانسانية شيئًا منذ عرفت الحضارة الا انها عالجت غرور الناشىء وتمرد الجاهل بعلاج الاديان والاداب والعرف والشريعة ، فاذا غلب الغرور على الناشئين وغلب التمرد على الجهلاء فقد ضاع كل ما كسبته الانسانية بعد عشرة الاف سنة ، ولا نذكر ما غبر قبل ذلك .

اننا اليوم فى شعورنا الوطنى لا نشكو المالنخوليا والانيميا فلا لزوم لان نشكو المغالومانيا او النرجسية .

ولنضع انفسنا فى موازيننا بالقسط

نحن المصريين

اثار الدماثة بينة فيما لنا من المحاسن وما لنا من العيوب .

من غير مبالغة الى النقص او الى الزيادة .

وهذا هو الذى ننوى ان نصنعه فى هذا المقال عنا "نحن المصريين" .

(١) اخلاقنا

لو اردنا ان نلخص اخلاقنا نحن المصريين بكلمة واحدة لكانت هى كلمة "الدماثة" .

هذه الكلمة تلخص محاسننا وهذه الكلمة تلخص عيوبنا ولا نحاول هنا ان نستقصى اسباب هذه الخصلة التى تجمع كل محاسننا وكل عيوبنا فى كلمة واحدة .

فحسبنا ان نذكر دماثة التربة المصرية ، والجو المصرى ، والنيل وشاطئيه .

وحسبنا ان نذكر تاريخ الحضارة الطويل الذى سبقنا به كل امة متحضرة من اقدم العصور .

فلا حاجة بنا الى اسباب كثيرة غير هذه التربة "الدمثة" وغير هذه الحضارة العريقة . ولا غرابة مع هذه وتلك ان نكون قوما دمثين ، وان نرى

(٢) محاسننا وعيوبنا

من دماثتنا ان المصرى رضى الجانب لين العريكة ، حسن العشرة لجيرته وصحبه وضيوفه ، لطيف الخلق والمعاملة ، محب لاسرته وذويه .

ومن دماثتنا ان المصرى سهل الذكاء ، سهل العمل ، سهل السليقة وهذه كلها صفات تبدو فى المحاسن كما تبدو فى العيوب .

لو كانت ميادين العمل ثلاثة اشواط متتابعة ، وجرى السباق بيننا وبين الامم فى هذه الميادين الثلاثة ، فمما لاشك فيه اننا نسبق الامم جميعا فى الشوط الاول ، واننا نأتى فى الشوط الثانى بعد ثلاث أمم او اربع ، واننا ننظر وراءنا فلا نرى احدا فى الشوط الاخير ..!

ويصدق هذا على الفهم كما يصدق على العمل .

فالمصرى اسرع الناس الى الفهم من قريب ، ولكنه لا يصبر على التعمق ولا على الاستقصاء .

اذا نظر الى مسألة فى شوطها الاول فكل مافيها مفهوم مكشوف ويمضى خطوات من الشوط الثانى فيتراءى له الخلط والغموض .

ويكاد يعرض بعينيه عما امامه فى الشوط الثالث ، مخافة التعب والاعياء من النظر على غير جدوى .

سهل يستسهل ، ولو انه قسم كل شوط كأنه يبتدئه من الخطوة الاولى لاستسهل الصعاب .

(٣) سياستنا

وسياستنا ، كما قال المقريزى ، على كل لسان .

وهذا هو البلاء والعياذ بالله .

هذا هو البلاء لان السياسة التى على كل لسان يسمع فيها الخطأ الكثير والصواب القليل .

واننا لنعجب حين نسمع ما يقوله جميع القائلين ، ونعجب اكثر من ذلك حين نسمع ما يصدقه جميع المصدقين .

انهم يصدقون مالا يصدقه احد الا كان من الاغبياء ، وليس المصرى بالغبى ، بل هو فطن سريع الفطنة .

فما هى العلة فى اللغط والتصديق ؟

العلة هى طول العهد بالاستبداد مئات السنين ، فان المستبدين احتكروا الحكم وتركوا الناس يتكلمون كما يشاءون .

وانما يزن الانسان كلامه ويزن كلام غيره اذا كان يتكلم وهو مسئول عن عمل ينجزه ويحاسب عليه ، ولكنه اذا تكلم وهو غير مسئول فلا حاجة الى وزن الاقوال وتقدير الاعمال .

واذا طال هذا البلاء جيدا بعد جيل ، ومضت عليه مئات السنين بعد مئات السنين ، فليس باليسير ان نتخلص منه بين ليلة ونهار .

ولكننا نتخلص منه طائعين او كارهين بعد النهوض بتبعتنا فى الزمن الحديث ، فخير مافى الاستقلال انه يجعل الحكم عملا ومحاسبة ، ومتى اصبح الحكم عملا ومحاسبة قل فيه اللغو السخيف ، وقل فيه ما هو اسخف من اللغو ، وهو التصديق .

(٤) اهدافنا

واذا قرأ القارىء عنوان "اهدافنا" فربما خطر له انها هى الاستقلال التام والحرية القومية .

كلا ! ان الاستقلال التام امنية سلبية ، لانها تحقق بخلع سيادة الاجنبى اذا تسلط علينا .

وما من امة حية تجعل هدفها الا تكون مستعبدة وكفى .

وما من انسان رشيد يجعل هدفه ان يخرج من الوصاية وينتهى عند هذا الرجاء المحدود .

فالاستقلال التام خطوة ضرورية فى طريق اهدافنا القومية ، ولكنه اول

نحن المصريين

الطريق وليس بنهاية الطريق .

ماذا نعنى ؟ انعنى اننا نطمح الى السيادة على اناس اخرين ؟

كلا .. لسنا من اصحاب هذا الطمع بحمد الله . ولو جاءنى احد يعرض علىّ ان استعبده طائعا مختارا لما قبلت استعباده ، فاننى لانقبض اذا نظرت الى حيوان اجرب ، واحرى بى ان انقبض اضعاف هذا الانقباض اذا نظرت الى انسان ذليل .

لا .. ليس همنا وراء الاستقلال ان نجور على استقلال احد ، وانما همنا ان نكون فى العالم منتجين ولا نكون فيه على الدوام مستهلكين ، وان نشترك بسهمنا الراجح فى امانة الحضارة العالمية ، فلا نقصر فى الميدان عن امة ولا نقنع بما دون الطليعة فى ترقية الحضارة .

واقل من هذا الهدف غير جدير بأمة تعيش فى مجتمع الامم المتقدمة وتفهم معنى الحياة ..

(٥) عروبتنا

واذا نظرنا الى عروبتنا فنحن لا نتكلم عن التاريخ القديم ، لان العروبة قبل اربعة الاف سنة مثلا لم تكن فخرا لمفتخر من اهلها او غير اهلها ، وانما كانت "جاهلية" لا يرتضيها العاربون ولا المستعربون اننا ننظر الى العروبة بفخر ثقافتها وفخر لغتها وفخر حصتها الكبرى فى ترقية الحضارة ، ولنا والحمد لله من هذه المفاخر نصيب لا يفوقه نصيب ثم نحن بموقعنا واسطة العقد بين العروبة فى القارة الاسيوية والعروبة فى القارة الافريقية ، فعلينا من هذا التوسط امانة لا ينهض بها غيرنا ، ويضاعف هذه الامانة كثرة العدد وزيادة المادة من المال والتعليم .

وقد نلخص أمانتنا العربية فى توحيد مجال الثقافة العربية ورفع الحواجز الثقافية بين ابناء العروبة ان تقطيع جهات الثقافة العربية فيما مضى قد حال بينها وبين القوة التى

تستحقها ، ولا حاجة الى التفصيل فى هذا المقام .. لاننا حين نجعل مجال العروبة مجالا يشترك فيه خمسون مليونا نتقدم الى الطليعة بين اللغات العالمية ، وحسبنا ذلك اجمالا ينطوى تحته تفصيل طويل .

(٦) شرقيتنا

واذا كنا واسطة العقد بين العروبة فى القارة الاسيوية والعروبة فى القارة

الافريقية فنحن في الشرقين الادنى والاوسط ميزان السلامة والاستقرار نحن ابناء البلد الذى يتوسط القارات الثلاث ، ونحن في بقعة من الارض لا يستقر العالم اذا اضطربت ولا يضطرب العالم اذا استقرت .

ولم يحدث في الزمن الاخير حدث عالمى قط إلا كان له رده وصداه على هذه البقعة من الكرة الارضية .

فاذا ملكنا ارادتنا في هذه البقعة فهى حجاز الامان بين المشرق والمغرب وبين المتنازعين من كل وجهة .

وعندنا مصفاة الثقافات والدعوات ، فاذا استخلصنا شيئا من الغرب وشيئا من الشرق ، فليس اقدر منا على تصفية الخلاصة لبنى الانسان جميعا فى ثمرة لا شرقية ولا غربية ، تضىء وان لم تمسسها نار .

(٧) افريقيتنا

والمزية التى لا ينكرها علينا منكر هى مقامنا الاول فى القارة الافريقية فلا يتقدم علينا متقدم من ابنائها ، وسيأتى اليوم الذى يخرج فيه المستعمرون من جنوب القارة او يندمجون فيها ، ولا يطرق خيال احد ان يأتى اليوم الذى تتجلى فيه الامة المصرية من القارة الافريقية .

فليكن مقامنا انن مقام رحمة بهذه القارة ، ولا تكن ذريعة لاستعبادها بتسليمنا نحن فى حريتنا ـ فالقارة السوداء كلها مستعبدة ان لم تبلغ مصر حقها من حريتها واستقلالها .

ومصر اولا واخرا هى الامة "الدمثة" من اثر التربة والحضارة وهذه الدماثة تعد ذات محاسن وذات عيوب .. ومن الرجاء الصادق فى المستقبل ان هذه العيوب قابلة للزوال ، لان النيل الذى اكسبنا الدماثة على طول العهد بالزراعة والمحراث كفيل "بتصنيع" هذه البلاد فلا تغلب عليها صبغة الزرع ولا صبغة الصناعة : قوام بين الثمرة الجنية والحديد اليابس ، وحبذا القوام .

الفوارق موجودة

"الناس لايتفقون على استحسان الحسن من ثمار الاداب والفنون وهذا يخيل اليهم ان الامر فوضى لامقاييس له ولاضوابط فيه .

"ولكنهم كذلك لم يتفقوا على استحسان القبيح والاعجاب بالمبذول الوضيع . وهذا خليق ان ينفى الفوضى عن الاداب والفنون ، وان يدلنا على مقاييس لها ، تقيم الفوارق بين ماهو حسن وماهو قبيح ، وقد لاتكون محدودة ولكن وجودها لاشك فيه" .

عباس العقاد ـ الهلال ـ نوفمبر ١٩٣٤

العقاد والهلال

تجيء أهمية عباس العقاد أنه واحد من أهم من أستوعبوا المفهوم الحقيقي للثقافة ، فقبل العقاد اقتصر تعريف الثقافة على أنها مجموعة المعارف المتوافرة لدى الانسان إلا أن العقاد رأى أن الثقافة أوسع وارحب من هذه المعارف .

فالثقافة هي هذا الشيء الذى نرثه عن مجتمعنا بما فيه ادراكنا لانفسنا وسلوكنا ومواقفنا أزاء مايحيط بنا ولذا فإن أى مجلة ثقافية تكتفى بالمعارف والعلوم وتعزل نفسها عن قضايا الوطن الملحة ، تضع نفسها فى ركن هامشى من قضية الثقافة ذاتها .

* من هذا المفهوم قامت علاقة العقاد مع مجلة الهلال ، مع قارئه فى المقام الأول ، ومع المجلة باعتبارها كيانا حيا يؤثر فى المجتمع .

ولحسن الحظ ، فإن العقاد هو صاحب أكبر عطاء من بين الكتاب لمجلة الهلال . منذ أن كتب فيها فى مارس عام ١٩٢٣ وحتى وفاته فى مارس ١٩٦٤ . وقد أنعكس هذا من خلال مواهبه المتنوعة المتعددة المصحوبة بالقدرة على التأمل النافذ . وقد تميزت مقالات العقاد فى الهلال بالجوانية الصادقة . حيث جمعت بين الوضوح والتركيز وائتلاف بعض المنطق الصارم والحس المرهف وبين المثال المجرد والحقيقة الواقعة . فالعقاد على سبيل المثال هو أول من تنبأ ، على صفحات الهلال ، بسقوط الشيوعية فى يناير ١٩٤٦ فى مقاله : بعد عشر سنين تنتهى الشيوعية من العالم .. حدث هذا والشيوعية فى عنفوانها وقوتها .. وحدث ما تنبأ به العقاد بعد أربعين عاما بالضبط .

ومن الصعب حصر علاقة هذا العملاق بالهلال فى سطور قليلة . فقد كتب فى الدين والفلسفة والادب والفنون . وفى سيرته الذاتية . والسياسة والعلوم . وكان يعيش حاضره ويتنبأ بالمستقبل وكانه يحدث أمامه . فيخوض فيه ويستقصى ابعاده ويبحث فى أغواره .

من المعروف أن الهلال أصدر عددا خاصا عن العقاد فى ذكرى رحيله الثالث يعتبر من أهم المراجع للتعرف عليه .

بقلم الدكتور طه حسين

الخصومة بين القديم والجديد في الأدب

لقد اخذ النزاع يشتد بين انصار المذهب القديم وانصار المذهب الجديد فى الادب ، ففى احد اعداد الهلال نشرنا للسيد مصطفى صادق الرافعى دفاعاً عن المذهب القديم بمناسبة ماكتبه عنه الأستاذ سلامة موسى فى سلسلة "الصور الموجزة لادباء مصر" . وعلى اثر مطالعة مقال الرافعى فى الهلال كتب الدكتور طه حسين مقالاً نفيسا فى "السياسة" ضمنه رأيه فى هذا النزاع وقد راينا ان نثبته هنا لنفاسته ونعيد نشره من جديد فى "الهلال" اليوم لنرى كيف كان الادباء يهتمون بقضايا الفكر التى تشغلهم وتشغل كل المثقفين فى ذلك الوقت قال الدكتور طه حسين بعد مقدمة وجيزة ..

الحق أن ميدان هذه الخصومة أوسع من مجلة "الهلال" وأن أبطال هذه الخصومة أكثر من الأستاذين سلامه موسى ومصطفى الرافعى وإذا كان لنا الا نسرف فى استقصاء التاريخ وألا نذهب بالقارىء إلى مابعد به العهد فقد يكون لنا أن نذكر القارىء بأن مصدر هذه الخصومة فى هذه الأيام الأخيرة انما هى صحيفة الأدب فى "السياسة" ، ففى الصيف الماضى اشتدت الخصومة بين الاستاذ الرافعى وطائفة من الكتاب المصريين حول رسالة له بعث بها إلى "السياسة" تحت عنوان "أسلوب فى العتب" وذهب فيها مذهب المتكلفين من بعض الكتاب القدماء فانكر عليه بعض الكتاب المصريين جمال هذا الاسلوب ، وكانت حول هذا الانكار خصومة طويلة انتهت إلى الشتم والتنابذ ثم لم تكد تنتهى السنة الماضية حتى نشرت السياسة لكاتب أديب من كتاب فلسطين هو الاستاذ خليل السكاكينى رسالة حول الأسلوب القديم والأسلوب الجديد وحول الايجاز والاطناب تناول فيها بالنقد كاتبا أديبا من كتاب سورية هو الأمير شكيب أرسلان ، فرد عليه الأمير رداً طويلاً واشتدت المناقشة بين الكاتبين حتى انتهت إلى شىء من العنف ليس بقليل ، ثم عرض الأستاذ سلامة



موسى للأستاذ الرافعى فى مجلة الهلال فعده مع الأمير شكيب ارسلان من زعماء المذهب القديم وأشار إلى الكاتب الأديب خليل السكاكينى على أنه من انصار المذهب الحديث .

هذا هو التاريخ القريب لهذه الخصومة بين القديم والجديد فى الأدب ويخطىء من ظن أن هذه الخصومة ستنتهى غدا أو بعد غد ، ويخطىء من سأل نفسه عن قيمة هذه الخصومة وعن آثارها الحسنة أو السيئة ، فستستمر هذه الخصومة فى الأدب العربى كما استمرت فى الآداب الأخرى وكما استمرت فى الأدب العربى القديم نفسه ، وستنتج نتائجها التى انتجتها فى كل زمان وكل مكان فينتصر جديد على قديم ثم يصبح هذا الجديد قديما وتكون الخصومة حوله وحول جديد آخر ينتصر متى آن له الانتصار ، وستظل الحال كذلك مادام للغة العربية والأدب العربى حظ من الحياة .

● ● ●

هذه الخصومة إذن مشروعة ، سواء أكانت نافعة أم لم تكن ، فليس الأدب العربى بدعا من الآداب ، وليس الأدب العربى المصرى بدعا من الآداب العربية المختلفة ، فليختصم الاستاذان سلامه موسى ومصطفى صادق الرافعى ، وليختصم الاديبان خليل السكاكينى وشكيب أرسلان ، ولكنا نظن أن من حقنا نحن القراء على هؤلاء المختصمين أن نسألهم : فيم يختصمون ، وأن نطلب إليهم فى رفق ولين أن يتفضلوا فيحددوا لنا موضوع الخصومة حتى نتبعهم فيها على بصيرة من أمرها ومن أمرنا فقد يظهر لنا إلى الآن أن هؤلاء المختصمين يختلفون فى أشياء لم يستطيعوا بعد أن يحددوها وآية ذلك أنك تقرأ مقال الأستاذ الرافعى فتجده يسأل ما "المذهب الجديد" وما "المذهب القديم" ويحاول أن يتبين هذين المذهبين ومابينهما من فروق ، ولو كانت الخصومة بينه وبين صاحبه واضحة الموضوع بينة الحدود . لما كلف نفسه هذا التساؤل ولما احتاج إلى أن يكتب كل هذا الفصل الطويل وقل مثل هذا فى الخصومة بين الاديبين خليل السكاكينى وشكيب ارسلان فهما يختلفان فى الايجاز والاطناب والمساواة ، يرى أحدهما أن الاطناب خصلة من خصال اللغة العربية قد عمد إليها أكبر الكتاب وأرفعهم قدرا منذ كان النثر العربى إلى الآن ، فمن الحق أن يتبع طريقهم فى ذلك ، ويرى الآخر أن الاطناب خصلة من خصال اللغة العربية ولكن له مقامه فلا ينبغى أن يعمد إليه الكاتب ولاسيما فى هذا العصر إلاّ بمقدار وإلاّ حين تدعو إليه الحاجة الأدبية ، ويدور المختصون جميعا

الخصومة بين القديم والجديد فى الأدب

حول الذوق دون أن يحددوا هذا الذوق ، أليس من حقنا أن نسألهم عن حد هذا الذوق ماهو وماحده وما الذى يريدون منه ؟

ولا تقل لن الأستاذ الرافعى قد أجاب عن هذا السؤال ، فنحن نعترف بأن جوابه أدق من أن نفهمه وأشد غموضا من أن نظهر عليه ، وانظر إلى مايقوله فى الذوق : "وأنت تعلم أن الذوق الأدبى فى شىء انما هو فهمه وأن الحكم على شىء انما هو اثر الذوق فيه وأن النقد إنما هو الذوق والفهم جميعا .." نعترف بأنا لانفهم هذا الكلام ، بل نعترف بأنا نعتقد أن هذا الكلام ليس من شأنه أن يفهم ، فإذا كان الذوق الأدبى فى شىء انما هو فهمه وإذا كان الحكم على شىء إنما هو أثر الذوق فيه فكيف نستطيع أن نفهم أن النقد انما هو الفهم والذوق جميعا ؟ ذلك أن الجملة الأولى صريحة فى أن الذوق هو الفهم وإذن فالذوق والفهم لفظان يدلان على معنى واحد تدل عليه ألفاظ مختلفة .. نعترف كما قلنا بأننا لم نفهم هذه الجملة ولم نذقها ، وإذن فنحن لانستطيع أن ننقدها ولا نحكم فيها لأن الذوق هو الفهم ، والفهم هو الحكم ، والنقد هو الذوق والفهم معا وتستطيع أن تدور فى ذلك ماشاء الله أن تدور .. فمازال الأستاذ الرافعى مطالبا بأن يوضح لنا نظريته هذه فى الذوق ونحسبه يحتاج فى توضيحها إلى عناء كثير ، ذلك أن يخيل إلينا أن الذوق شىء والفهم شىء آخر وأن الاسراف أن نقول أن الذوق هو الفهم فقد نفهم أشياء كثيرة دون أن نذوقها ، وآية ذلك أن نفهم كثيراً من كلام الأستاذ الرافعى دون أن نذوقه أو نعجب به وربما كان لنا أن نذهب إلى أكثر من هذا فنزعم أننا قد نذوق أشياء كثيرة دون أن نفهمها وإثبات ذلك ليس بالشىء العسير ، فمانظن أن الذين يذوقون الموسيقى ويطربون لها يفهمونها جميعا ، بل نعتقد أن الكثرة المطلقة من الذين يستمعون للموسيقى فيطربون ويتأثرون وينتهى بهم ذلك إلى شىء يشبه الذهول لاتفهم الموسيقى كما يفهمها الموسيقيون الاخصائيون ، فأنت ترى أن الذوق والفهم شيئان مختلفان قد يجتمعان حينما تفهم قصيدة من الشعر أو فصلا من النثر وتعجب بهما ، وحينما تفهم قطعة من الموسيقى وتطرب لها ولكنهما قد يفترقان حينما تقرأ فصلا من فصول الكتاب المتكلفين أو قصيدة من نظم الشعراء المتكلفين فتفهم النظم وتفهم النثر ولكنك تكرهما وتسخط عليهما السخط الشديد ، وحينما تسمع قطعة من الموسيقى فتعجب وتطرب دون أن

تفهم ما أراد الموسيقى .

وللأستاذ الرافعى فى فصله هذا أراء كهذا الرأى محتاجة إلى شىء من المناقشة ، ومنها ما كان يحتاج إلى شىء من التواضع قبل أن ينشر ويطن إلى الناس ، انظر إليه مثلا يزعم أن المذهب الجديد فى الأدب ليس فى حقيقة الأمر إلا نتيجة لضعف فى اللغة والأدب العربى وقوة فى اللغة والأدب الأجنبى ... وأن الذين يزعمون أنهم من انصار المذهب الجديد انما هم قوم ضيعوا حظهم من لغة العرب وآدابهم وأخذوا بنصيب موفور من لغات الفرنج وآدابهم ، فكانت قوتهم فى هذه اللغات والآداب وضعفهم فى اللغة العربية وآدابها مصدر تورطهم فى فنون سخيفة من القول ، وكان اعتزازهم بالمذهب الجديد وإنكارهم للمذهب القديم ضربا من الاعتذار لانفسهم ولونا من الوان الغرور بأنفسهم أيضا نعتقد أن الأستاذ الرافعى مسرف فى هذا الحكم ولعل مصدر إسرافه فى هذا الحكم إن صحت نظريته السابقة ، أنه لخطأ الذوق أو هو انما اخطأ الذوق لانه لخطأ الفهم ، وتستطيع أن تدور مع الأستاذ الرافعى حول الذوق الذى هو الفهم أو حول الذوق الذى ليس هو الفهم ، والفهم الذى ليس هو الفهم حتى تتعبا فتسقطا معاً وقد بلغ منكما الكلال والإعياء ، ولكن الأستاذ الرافعى معذور على كل حال فما كان له أن يحكم فيحسن الحكم دون أن يفهم ويتذوق وهو قد يخطئه الفهم والذوق أحياناً فتخطئه الاصابة فى الحكم ونظن أن للاستاذ الرافعى حظا من الانصاف وأنه يرى معنا أن بعض أنصار المذهب الجديد أو الذين يسمون أنصار المذهب الجديد قد أخذوا من اللغة العربية وآدابها بحظ لابأس به وأن قوتهم فى اللغة الأجنبية وآدابها لم تحملهم على أن يضيعوا حظهم من اللغة العربية وآدابها ، فهم يستطعون أن يفهموا الجاحظ كما يستطيعون أن يفهموا "فولتير" وإذن فانتصار هؤلاء لمذهب جديد ليس ضعفا وليس اعتذارا لانفسهم وليس تعصبا للأدب الأجنبى الذى تفوقوا فيه ، وما نظن أن الأستاذ ينكر على خصمه سلامه موسى انه يفهم الأدب العربى كما يفهم الأدب الانكليزى ، ويستطيع أن يحكم فيهما عن فهم هو الذوق أو ذوق هو الفهم أو فهم ليس ذوقا أو ذوق ليس فهما .. وما نظن أن الاستاذ ينكر علينا نحن أنا نستطيع أن نفهم الأدب العربى وأن نفهم الأدب الفرنسى وأن نحكم فيهما أحيانا عن ذوق وفهم ، أو عن فهم دون ذوق أو عن ذوق دون فهم .. ثم هب سلامه موسى وغيره من خصوم الأستاذ الرافعى وأنصار المذهب الجديد ضعافا فى اللغة العربية وآدابها أقوياء فى اللغات الأجنبية وآدابها ، فهناك قوم ينصرون المذهب

الخصومة بين القديم والجديد فى الأدب

الجديد وليس لهم من اللغات الأجنبية وآدابها حظ ، وحظهم من اللغة العربية وآدابها موفور تدل عليه آثارهم وماينشرون فما رأى الأستاذ فى هؤلاء ؟ وما أصل مذهبهم الجديد وهم يجهلون اللغات الأجنبية ولايتعصبون لها ، ثم مالنا نذهب بالأستاذ بعيدا عن الموضوع الذى اتقنه وبرع فيه فلسنا نشك فى أن الاستاذ أتقن الأدب العربى وأحسن روايته وفهمه وتقليده وأسرف فى هذا التقليد وهو يناقض نفسه بعض المناقضة ، فيصرح بأن العرب عرفوا القديم والجديد فكان القرآن الكريم جديدا وكانت الآداب العباسية جديدة من بعض وجوهها ، وتجددت الآداب العربية وادبائهم لم يذكر مذهبا جديدا ولا قديما ، وإذن فقد تجددت الآداب العربية غير مرة دون أن يشعر العرب بهذا التجدد أو شعر العرب بهذا التجدد دون أن يذكروه .

والحق أن الآداب تجددت غير مرة وأن العرب شعروا بهذا التجدد وأنهم ذكروه واختصموا فيه كما يختصم فيه الأستاذ الرافعى وأصحابه الآن ، وقد كتبنا فى "السياسة" فصولا طوال فى العام الماضى فصلنا فيها بعض ماكان من الخصومة بين أنصار القديم وانصار الجديد أيام بنى العباس ، وإذا كان العرب لم يصطنعوا لفظة "المذهب الجديد" و "المذهب القديم" فليس ذلك دليلا على أنهم لم يعرفوا القديم والجديد ولم يذكروهما ولم يختصموا حولهما ، وما معنى لفظ "البديع" ؟ وهل كان البديع جديدا ؟ أم هل كان قديما ؟ وهل اختصم الناس حول البديع أم هل قبلوه دون مناقشة ولا جدال ؟ وهل امتاز بالبديع من الكتاب والشعراء قوم غلو فيه فرضى عنهم قوم وأنكرهم آخرون ؟ أم هل قبله الناس جميعا وأخذوا منه بحظوظ متساوية ؟ وإذا كان الأستاذ لاينكر أن العرب اختصموا حول القديم والجديد فى الشعر وفى النثر فهل يستطيع أن يعلل لنا هذا الاختصام ؟ فليس من شك فى أن أنصار الجديد من العباسيين مثلا لم يكونوا ضعافا فى اللغة العربية وآدابها ولم يعتذروا لانفسهم عن هذا الضعف بتملقهم بالجديد وغلوهم فيه ، أكان أبو نواس ضعيفا فى اللغة العربية وآدابها ؟ أكان أبوتمام ضعيفا فى اللغة العربية وآدابها ؟ أكان المتنبى ضعيفا فى اللغة العربية وآدابها ؟ ومع ذلك فقد جدد أبونواس وانتصر للجديد .

وقد جدد أبو تمام وانتصر للجديد ، وقد جدد المتنبى وانتصر للجديد ، وقد اختصم الناس حول هؤلاء الشعراء وتجديدهم فانتصر لهم قوم

وسخط عليهم قوم آخرون ونستطيع أن نؤكد للأستاذ الرافعى أن الأدباء الفرنسيين الذين كانوا يختصمون حول القديم والجديد كانوا يفهمون اللاتينية واليونانية ومنهم من يؤثر الفرنسية وكان منهم من يؤثر مذهب القدماء ومنهم من يؤثر مذهب المحدثين .

فليس المذهب الجديد قائما على جهل أو ضعف أو تعصب وانما هو قائم على شيء آخر غير هذا كله .. قائم على الفهم قبل كل شيء ، قائم على أن الذين ينصرون هذا المذهب الجديد يحسون مالايحسه أنصار المذهب القديم ويرون ما لايراه أنصار المذهب القديم ويشعرون بأنهم يحيون فيريدون أن يأخذوا بحظهم فى الحياة ، يريدون أن يفهموا الناس وأن يفهمهم الناس ، يعيشون مع الجيل الذى هم فيه دون أن يقطعوا الصلة بينهم وبين الأجيال الماضية .

★★★

ورأى آخر للأستاذ الرافعى يحسن أن نناقشه ولو قليلا . فهو يرى أن من الخير لانصار المذهب الجديد أن يولدوا من جديد وأن يتعلموا الأدب العربى من جديد ليأخذوا منه بالحظ الموفور فيسلكوا فيه سبيل القدماء ذلك خير لهم من أن ينتحلوا مذهبهم الجديد ولغتهم الجديدة فيدخلوا فى اللغة والأدب ماليس من حقهم أن يدخلوه ، ذلك لأن اللغة موروثة وهى ملك لملايين من الأعمار ولطائفة طويلة من العصور فيجب أن نقبلها كما ورثناها دون أن ندخل فيها شيئا من عند انفسنا ونحن نعترف بأننا نخالف الاستاذ كل المخالفة فى هذا الرأى ونسمح لأنفسنا أن نراه عقيما ونسمح لأنفسنا بأن نزعم أن لنا فى هذه اللغة التى نتكلمها ونتخذها أداة للفهم والافهام حظا يجعلها ملكا لنا ويجعل من الحق علينا أن نضيف إليها ونزيد فيها كلما دعت إلى ذلك الحاجة أو قضت ضرورة الفهم والافهام أو كلما دعا إليه الظرف الفنى ، لايقيدنا فى ذلك إلا قواعد اللغة العامة التى تفسد اللغة إذا تجاوزناها فليس لاحد أن يمنعك أو يمنعنى أن نضيف إلى اللغة لفظا جديداً أو ندخل فيها أسلوباً جديدا مادام هذا اللفظ أو هذا الأسلوب ليس من شأنهما أن يفسدا اصلا من أصول اللغة أو يخرجا بها عن طريقها المألوفة ، ولولا هذا وأن اللغة ملك لأبنائها يضيفون إليها

ويدخلون فيها لما نمت اللغة ولما عاشت ولما استطاعت أن تفى حاجات اهلها التى تتجدد وتتنوع بتجدد الأزمنة وتبدل الظروف ، والكتاب والشعراء فى كل عصر وفى كل مكان يضيفون إلى لغاتهم ويدخلون فيها ويجددونها فمنهم من يسعده الحظ فتروج ألفاظه وأساليبه ويقبلها الناس ويتهالكون عليها حتى تشيع وتصبح

الخصومة بين القديم والجديد في الأدب

جزءا من اللغة المألوفة ، ومنهم من يخطئه هذا الحظ فلا يحفل الناس بما أدخل ولا بما أضاف .

★★★

ومما يحسن أن ينبه إليه الاستاذ الرافعى فى رفق ولين ايضا انه يسرف فى سوء الظن بأوربا وأمريكا وفى سوء الحكم عليهما ولعل مصدر ذلك أنه لا يقرأ لغة أوربا وامريكا ولايفهمها ولايذوقها فهو يخطىء فى الحكم على أوربا وأمريكا وهو مسرف حين يظن "أن فى أوربا وأمريكا من الغفلة مذهبا ومن الرقاعة مذهبا ومن تسفل الشهوات مذهبا ومن الجنون مذهبا ومن كل شذوذ مذهبا ومن غير المذهب مذهبا .. هو مسرف فى ذلك فليست أوربا وأمريكا من السوء بحيث يظن ولو قد بلغتا من السوء هذا الحد لما كان لهما التفوق على غيرهما من بلاد الله ، ثم إن اختلاف المذاهب وتنوعها فى أوربا وأمريكا ليس شيئا جديدا وإنما هو شيء عرفه الانسان منذ تحضر ومنذ فكر ، ويسوغنا أن نقول أن الانسان قد عرف الديانات منذ تحضر ومنذ فكر أيضا فما استطاعت الديانات أن تقضى على اختلاف المذاهب ولا استطاع اختلاف المذاهب أن يقضى على الديانات وإنما الانسان إنسان فيه الخير وفيه الشر . فيه الايمان وفيه الالحاد ، فيه الفضيلة وفيه الرذيلة ، فيه الاباحة التى لاحد لها وفيه التحرج الشديد ، والاستاذ الرافعى كغيره من انصار المذهب القديم مشفق كل الاشفاق على القرآن الكريم وعلى الاسلام أن يصيبهما من المذهب الجديد شر أو ينالهما ضيم ، ونظن من السخف والاطالة التى لاتجدى أن نهون على الاستاذ ونهدىء من روعه فليس مايدعو إلى هذا الإشفاق ونظن أننا ونحن من أنصار المذهب الجديد المتشددين فى نصره نستطيع أن نفهم القرآن الكريم ونذوقه كما يفهمه الأستاذ وأصحابه ويذوقونه ، ذلك أن مذهبنا الجديد لايقتل اللغة ولا يصرف الناس عنها ولا يغير من أصولها وقواعدها وانما يريد أن تكون اللغة حية نامية ، ومن ذكر الحياة والنمو فقد ذكر التطور ومن ذكر التطور وآمن به فهو من أنصار المذهب الجديد سواء أرضى ذلك أم أنكره .

الهلال وطه حسين

إنه مصباح الفكر والتنوير فى القرن العشرين . روائى ، وشاعر . ومترجم . وباحث مدقق وعبقرية فذة . وعطاء لم يتوقف يوما . بدا فكره أشبه بالزلزال الذى هز حياتنا الفكرية والاجتماعية فى دعوته الى أن يكون التعليم من حق كل مواطن كالماء والهواء . وكان طبيعيا ان تثار من حوله الزوابع والمعارك الضارية لاسباب فكرية أو لأسباب اخرى .

وقد بدأت علاقة طه حسين بالهلال فى زمن مبكر .. ففى مارس ١٩٢١ نشر مقاله المعنون : "صحف مختارة من الشعر التمثيلى عند اليونان" وفى مقالاته المنشورة على صفحات الهلال ، وضع طه حسين كل فلسفته وافكاره التنويرية . والمتحررة ضد التخلف والرجعية . وقد تنوعت كتاباته التى تعكس موهبته التى لاحدود لها . فكتب عن قادة الفكر كما نشر بعض القصص التمثيلية .

وقد كان الهلال ساحة خصبة خاض فيها طه حسين معاركه الأدبية والفكرية والعقائدية ، وقد جمع الكاتب على صفحات المجلة بين الكلاسيكية والتطور ، فالى جانب حديثه عن الثقافة اليونانية وفنون الاقدمين . فإنه فى يناير ١٩٥٣ يكتب عن "جناية العصر الحديث على الاديب" . كما تحدث عن قضية الديمقراطية اكثر من مرة .

طه حسين قدم للمكتبة العديد من الكتب منها "الأيام" و "دعاء الكروان" و "اديب" . كما ترجم اعمال اندريه جيد . ومن المعروف أن الهلال قد اصدر عنه عددا خاصا فى فبراير ١٩٦٦ وكان من ابرز المقالات التى كتبت عنه . "استاذى طه حسين" للدكتورة سهير القلماوى ، وتحية من محمود تيمور بالاضافة الى مجموعة نادرة من الصور الخاصة .



بقلم الاستاذ/ مصطفى صادق الرافعى

رسم الحبيبة

كنت ساعة اجلس للكتابة اليك أراني كالمصور غير اني انقل من عالم في داخلي . اما الآن ورسمك يملأ عيني فقد اضيف الى عالمي المضطرب بأخيلته الكثيرة عالم من الخيال الصافي هو فوق ذلك كالسماء فوق الأرض تحيبها بالشمس والقمر ، وهو من وراء ذلك كالآخرة وراء الدنيا تصفها بالجنة والخلد .

لكدت والله يا حبيبتي أتخيل هذا الرق (١) الموضوع امامي يبرق بصورتك ويشرق بوجهك - نافذة سحرية فتحت بيني وبين عالم الجمال الأزلي فأطل فيها وجه حوراء من حور الجنة ينظر الىّ وانظر اليه . يحمله جسم خلق ليكون فتنة للجنة ذاتها وكأنه بجماله ومعانيه حقائق . ذلك النعيم جاءت تترجم لذة الخلد للنفس البشرية في بلاغة مصورة اختاروا لها رسمك انت .

وهل في الحسن احسن من هذا الوجه الذي يرف على القلب بانداثه ويتلألأ بنضرته حتى لكأنه خلق من نور الفجر وكأن علامة الفجر فيه انما هي هذا الروح الذي يحيط القلب من وجهك بمعان كنسمات الصبح . عليلة من شدة الرقة ذابلة من فرط الجمال مملوءة من روح الندى بما يجعلها حول النفس كأنها جو من شعور فرح لانسمات في الجو .

وجه منضر يفزع لروعة حسنه من يراه كأن شيئا بدعا لم يكن ممكنا فأمكن . او كأن في حمرة خديه وشفتيه خمر القلب ، رؤيتها شربها وفيها السكر بالجمال والنشوة بالهوى ، فما هو الا ان ينظر وجهك حتى يخالط قلبه وانى لألمح فيه سرا عجيبا يكون فقدان العبارة عنده هو ابلغ العبارة في وصفه ، اذ لا تتكلم روعة الحس بالجمال ولا هي تنزل في صور الالفاظ وانما تغمز على القلب غمزة تشعر الناظر ان روح المنظر خامرت الروح ، وان حياة الشكل انسكبت في الحياة . وان المعنى الغامض في السر قد اتصل بالمعنى الغامض في النفس ويمثل هذا السر الذي يطالعنى من جمال وجهك اصبح الجمال على الحقيقة هو علم افراح النفس واحزانها ، وعاد الشخص الجميل المعشوق وما هو بكل معانيه الا الفن الفلسفى الكامل لنفس اخرى تحاول بالحب ان تكون كاملة .

ومن هذا السر يظل وجه الحبيب جديدا على كل نظرة من محبه وإن طال

رسم الحبيبة

ترداد النظر وتكراره ؛ كأن الوقت لا يمضى مع الاشياء ، وكأن الحب ابدى على قدر ما تحتمل الدنيا ولذا فهو يضغط على القلب لا بالساعة ولا باليوم بل يجثم بقطعة ضخمة من الزمن كأنها عمر كامل فرحها شديد شديد وحزنها شديد شديد .

ومن بعض هذا السر تلك الابتسامة الواقفة على ثغرك ترق فيها الروح مرة وتتكاثف مرة حتى كأنها وهى فى الرسم لون روحى يتموج على شفتيك فما اقلب فيه عينى الا شعرت ان روحى تذوب فيه كما يتمازج لونان فى السماء على الشفق الأحمر .

ونظرة ساحرة تجعلنى ارى كل شىء فى رسمك محدودا ومع ذلك اراك انت غير محدودة فى شىء كأن لك فيضا من الجمال والسحر يستغرق العالم ويغمر الكون .

أنه لجمال اكبر من الجمال اذا كانت فيه القوة والفتنة والحب جميعا والجمال وحده من شأنه ان يعجب ولكنه فيك يصبى ويدله ، وبذلك يعجب ويفتن ، وبذلك يتسلط مسوغا الحق ، وبذلك لا تكون له الا الطاعة .

[عن الهلال ١٩٣١]

الرافعى .. والهلال

مصطفى صادق الرافعى واحد من الرواد الحقيقيين الذين غيروا خريطة الفكر العربى فى النصف الأول من القرن العشرين . وقد ساعدته نشأته الدينية والمرض الذى اصابه فى صغره ان يتجه لدراسة الفكر والادب . فقد بدأ حياته الادبية شاعرا . وفى عام ١٩٠٠ صدر الجزء الأول من ديوانه وعرف كشاعر . بدأت علاقته بمجلة الهلال فى عام ١٩٢١ حين نشر مقالا عن "النفاق" فى عدد شهر مارس من نفس العام . وكان مهموما ببحث "نهضة الشرق العربى" على صفحات الهلال . فكتب عن "رايى فى الحضارة الغربية" و "ماذا ارى فى التجديد والمجددين" .

من المعروف ان الرافعى من مواليد قرية بهتيم فى عام ١٨٨١ . وقد عمل فى اول حياته كاتبا بمحكمة طلخا الشرعية . وظل يتنقل من محكمة الى اخرى حتى استقر به المقام فى محكمة طنطا الاهلية التى ظل يعمل بها حتى وفاته فى عام ١٩٣٧ .

من اهم كتبه "راية القرآن" و "رسائل الاحزان" و "وحى القلم" و "على السفود" و "اوراق الورد" . واغلب فصول هذه الكتب منشور على صفحات الهلال .

لغويات

● يخطىء بعض الكاتبين فى كتابة الاسماء الموصوفة بلفظ «ابن» فيقولون مثلا : ان خالدا بن الوليد قد صنع كذا وكذا .. والصواب ان يقولوا : ان خالد بن الوليد الخ .. بفتح الدال بلا تنوين ، لان القاعدة هى حذف التنوين من الاسم المنون (مثل خالد وعلى ومحمد) اذا كان هذا الاسم موصوفا بلفظة «ابن» مضافة الى اسم اخر ، مثل «خالد بن الوليد» كما تقدم .. وهذه القاعدة مطردة فى حالات الرفع والنصب والجر ..

● سمعت متحدثا فى الاذاعة يقول : «هذه منة من منن الله ..» وينطق كلمة «منة» بضم الميم ، وهو خطأ ، والصواب الكسر ، اى «النعمة» .. اما «المنة» بضم الميم فمعناها «القوة» وقد يكون معناها «الضعف» فهى من الاضداد ، وقد اشتهر لحافظ ابراهيم الملقب بشاعر النيل قوله يصف احدى «المظاهرات» النسائية فى ثورة ١٩١٩ او بعدها :

فتضعضع النسوان .. والنسوان ليس لهن مُنة .

والمنة فى هذا البيت بضم الميم ، ومعناها : القوة .

● يقول الرجل للمرأة التى يكرهها : «غورى من هنا» .. اى اذهبى بعيدا ، وهو تعبير صحيح ، وأصله السير فى الغور ، اى فى الأرض المنحدرة ، ولم يكن قولهم «غورى» مقصودا به الطرد كما هو الآن ، ولكن كان مقصودا به السير فى الأرض المنحدرة او الوطئة ، كقول البحترى فى الغزل بمحبوبته :

حلى سعاد غروض العيس او سيرى

وانجدى فى التماس الحظ او غورى

فهو هنا لا يطرد محبوبته ولا يشتمها بل يتغزل بها .. ولكن تقادم الزمن على هذه اللغة الغزلية جعلها تبدو مضحكة !



بقلم : د . محمد حسين هيكل باشا

الاحياء العربى

اتيح لى ان اتحدث الى قراء العدد الاخير من الهلال عن الاحياء العربى وما يجب القيام به من بعث آثار السلف فى العصور الماضية .. وقد اشرت الى الغزالى وابن سينا ، وذكرت ان اعادة طبع الكتب القديمة له فائدته ، لكنها فائدة محدودة اغلب الاحيان لانها تقف عند طبقة معينة من المثقفين الذين يطيقون بطبيعة دراستهم مراجعة هذه الكتب القديمة والاستفادة منها ، وذكرت لذلك ان الاحياء المثمر يقتضى الباحثين والجامعيين تلخيص هذه الكتب واعادة نشر ما فيها بلغة هذا العصر واسلوبه . ورجوت ان يتعاون أهل البلاد العربية فى هذا الاحياء المثمر .

لقد اتيح لى بعد ان نشرت الهلال هذا الفصل فى العدد الماضى ان أتحدث الى غير واحد من أهل البلاد العربية المختلفة ، فعاد بنا الحديث الى التعاون فى الأحياء كيف يكون ، وعاد بعضهم يذكر هذه الحواجز السياسية القائمة بين البلاد العربية ، والى ضرورة تذليل ما تقيمه هذه الحواجز من عقبات فى سبيل الأحياء .. اما أنا فمازلت على الرأى الذى قلت به منذ سنوات . ذلك أن التكييف السياسى لبلاد ما لا يمكن ان يحول دون الأحياء الفكرى فيها ، وهو كذلك بصورة أكثر وضوحا اذا كان التكييف السياسى خاضعا لظروف غير عادية وكان مشكله لبلد ما أو لبلاد عده على صورة لا تدل على حرية لختيار أهل هذا البلد أو هذه البلاد إياها . فالتكييف السياسى صائر حتما وبقوة الطبيعة الى الشكل الذى يرضاه من يذعنون إلى هذا التشكيل ، عاجلا أو آجلا وهو يصير إلى هذا الشكل الذى يحوز رضى الناس على نحو أسرع كلما قويت الحركة الفكرية واشتد التيار العقلى والروحى ، والحركة الفكرية لا يمكن ان تخضع لحاجز من الحواجز أو تحول دون سيرها عقبة من العقبات . بل هى تسمو بطبيعتها فوق الحواجز والعقبات وتتغلب عليها . وهى كلما ازدادت قوة وازداد تيارها اندفاعا كانت أرفع فوق الحواجز تحليقا وأسرع على العقبات تغلبا . فأما ان بقيت الحركة الفكرية وبقى التيار العقلى فى ركودهما وحاولنا مع ذلك

الاحياء العربي

التغلب على الحواجز والعقبات فلن يكون مثل ذلك إلا كمثل الرجل الواحد يحاول زحزحة صخرة لا يقوى على زحزحتها ، فهو يدور حولها لعله يجدها الين فى ناحية من نواحيها ، فاذا هو عاجز عن درك غايته ، وإذا هو يزداد بما ينفق من مجهود ضائع اعياء . ولو انه استعان بقوى العلم أو بأمثاله من الرجال لما أصابه الاعياء ، ولتغلب على الصخرة وزحزحها ، والتعاون الفكرى والروحى لاحياء ماضينا هو الطريقة المثلى للعود بنا كمجتمعات الى الحياة الطبيعية فى تكييفنا السياسى وفى توجيهنا الى الكمال الاجتماعى .

وهذا الرأى الذى قلت وأقول به انما يستند الى قاعدة أساسية بسيطة . تلك أن من لا ماضى له لا مستقبل له . هذه قاعدة تنطبق على الاحياء جميعا . وهى اشد انطباقا على الجماعات منها على الأفراد ، كما انها اشد انطباقا على الأفراد فى الاحياء العليا منها فى الاحياء الدنيا . والأمة التى تنسى مالها من ماض مجيد لا يحق لها ان تطمع فى مستقبل مجيد . ومجد الامم ليس اكثره فيما لها من غلب سياسى يطوع لها فى النضال ان تتحكم فى غيرها عصورا أو قرونا ، وإنما أكثر مجد الأمم فيما لها من آثار فكرية وروحية تنتقل ميراثا باقيا من جيل الى جيل ومن قرن الى قرن . فاذا نسيت الأمم مالها من هذه الآثار التى تشكل الحضارة الانسانية فى بعض عهودها ، ولم تبذل ما يجب بذله من المجهود لجعل هذه الآثار حيه دائما متطورة دائما سائرة مع الحياة مؤثرة فيها متأثرة بها ، واقتصرت على ترك نفسها ، رفعها تيار الحضارة الحاكمة ، ولو كان مما يحاوله هذا التيار ان يطمر آثارها وان يعفى على ماضيها ، فقد حق على هذه الأمم ان تعنو لغيرها جبهتها وان يخضع لسلطانه مجموعها .

والحق ان الأمم التى تعيش فى الحاضر وحده ، ناسية ماضيها مقتصرة عن الاستفادة المادية جهد الطاقة ، انما هى الأمم الضعيفة المتخاذلة التى يعيش كل فرد فيها بنفسه لنفسه ، لا يصل بين ماضيه وحاضره ، ولا يقدر الحقيقة الأزلية الخالدة التى صورها الشاعر القديم فى قوله :

وتزعم انك جرم صغير
وفيك انطوى العالم الأكبر

ولو ان الفرد أراد ان يبلغ على الحياة ما يجب عليه ان يبلغه لذكر انه حلقة فى هذه السلسلة المنظمة ، سلسلة الحياة ، حلقة متصلة فى المكان . بأمثاله من الافراد الذين يعيشون معه فى أمة واحدة وبأمثاله من أفراد الانسانية جميعا ، متصلة فى الزمان بالذين سلفوا جميعا منذ الأزل والخلق الأول ، فهى واياهم وحدة يسرى فيها التيار الذى يسرى فيهم وتنتظمها وحدة الوجود التى تنتظمهم .

وكما ان الأرض التى استثمرها الأجداد على طريقتهم لا يجود اليوم ثمرها إلا إذا زرعت على طريقة العصر وبأسلوبه ، وكما اننا نرى انفسنا مضطرين لتنقيح ما ترك لنا أسلافنا من مساكن لتتفق وطلبات اليوم ، فنحن مطالبون كذلك باحياء تراثنا الروحى والعقلى على طريقة العصر وأسلوبه .

وهذا التراث عظيم حقا ، جسيم جدا . هو يتناول كل ما تتناوله البحوث العلمية الحاضرة على طريقة أولئك السلف . فهو يبحث فى الكلام والنقد والفلك والرياضة والجغرافيا والطب والعلوم الكونية والعناصر وكل ما يمكن ان يدور بخاطر ابن اليوم . وهو يتناولها احيانا فى كتاب واحد لمؤلف واحد يقع فى بضعة أجزاء أو فى عشرات الأجزاء . ولو ان الرجل الواحد منا فى هذا العصر أراد ان ينفرد باحياء ما ترك واحد من هؤلاء السلف لا ضطر فى كثير من الاحياء الى ايجاز الاحياء فى ناحية والافاضة فيه فى ناحية أخرى . ذلك اننا بحكم العصر قد ملنا إلى التخصص ولم نعد نستريح الى ان يكون الرجل منا واقفا على المعارف الانسانية جميعا ، لأن هذه المعارف الانسانية قد بلغت من التفصيل والكثرة حدا جعل تقسيم العمل والتخصص فيه الوسيلة اللازمة لاتقان البحث والابداع جديد فيه .. وهذا يدعونا الى القول بأن الاحياء بالنسبة لواحد من كبار الكتاب والمؤلفين من السلف ربما اقتضى ان يتعاون عليه أكثر من واحد منا ، لان هذا الاحياء لن يقتصر على تحديد ما كتب هذا المفكر او المؤلف بأسلوبنا نحن . بل هو يتناول دراسة مقارنة أكثر الأحيان ، ويقتضى كذلك تتبع الفكرة أو الموضوع أو العلم أو البحث أيا كان نوعه مما طرق هذا المفكر أو المؤلف وكيف كان أثره فيمن جاء بعده سواء من الغربيين الذين تناولوا البحث أو من المتأخرين من أهل شرقنا . واذا كانت الفكرة أو الموضوع قد درس اقتضى ذلك تتبع أسباب فنائه ، وهل يرجع فناؤه الى انه غير صالح للبقاء ، مثلا ، أو الى ان الذين تناولوه بعد الباحثين الأولين تناولوه على طريقة كانت سبب القضاء عليه مع صلاحة للحياة وامكان بعثه من جديد اليها .

الاحياء العربي

إذا كان احياء المؤلف الواحد أو المفكر الواحد قد يقتضى تعاونا وقد يقتضى ان تتألف جماعات كالتى تتألف فى اوربا تحت اسم أصدقاء روسو أو أصدقاء موليير أو أصدقاء كونت ليكون التعاون ادنى إلى ان يؤتى ثمرته ، فما اعظم مبلغ هذا التعاون الذى يجب توافره اذا صدق عزمنا على الاحياء العربى حقا ، واذا صدق عزمنا عليه على الطريقة التى قدمت . اننا نكون اذن بحاجة الى تعاون ينتظم العالم العربى كله ويجعل الجماعات

التى تتألف اصدقاء للغزالى أو لابن رشد أو للجاحظ أو للمتنبى أو لهذه العشرات والمئات من المحدثين والمتكلمين والكتاب والفلاسفة والعلماء والادباء بحيث لا تقف فى دائرة حدود مصر أو الشام أو العراق أو تونس ، بل

تتخطى حدود كل واحدة من هذه الأمم وتحلق فوقها وتصل بينها جميعا وتجعل الجماعة الواحدة تشمل ابناء كل واحدة من الأمم العربية جميعا .

ولن يستطيع حائل من الحوائل ان يقف فى سبيل هذا التعاون على الاحياء ، لن يستطيع حائل سياسى او غير سياسى . وكيف يمكن ان يرد بخاطر انسان من الناس ان يحول بين جماعة فى مصر ومثلها فى الشام وثالثة فى العراق ورابعة فى الحجارة وخامسة فى تونس وسادسة فى مراكش ، تريد ان تتعاون كلها لاحياء

المعرى أو ابن سينا وابن خلدون أو غير هؤلاء من الذين خلفوا التراث العقلى العظيم للانسانية كلها لا للناطقين باللغة العربية وحدهم واننى لعلى ثقة بان هذا التعاون سيكشف عن كنوز سمينة جدا ، وسيبعث الحياة إلى آثار مطوية اليوم ، فهى لذلك لا تحرك

الناس ولا تحدث فى الحياة ما يجب ان تحدثه فيها من آثر . وسيكون لهذا التعاون الى جانب ذلك مزية اخرى هى هذا التعارف الفكرى والروحى بين امم يجب ان يتم التعارف بين المثقفين من ابنائها على خير وجه . واى وجه للتعارف خير من هذا التعاون لانبل مقصد وأسمى غاية ؟

ولو ان عقبة خيف ان تقوم فى وجه هذا التعاون لكانت هذه العقبة رغبتنا

عنه وعدم حرصنا عليه . ولقد كانت هذه العقبة هى الحائل الصحيح عن القيام بالعمل المثمر فى عصور الانحلال التي مضت . فاذا كان حقا ما نعتقد من ان هذه العصور قد آن أن تنتهى وان يبدد فجر هذه النهضة الحديثة ظلمتها ، فآية ذلك من الناحية العملية قيامنا بهذا التعاون فى سبيل الاحياء العربى ، نخدم به الحقيقة ونخدم به الانسانية ونخدم به هذا الشرق العربى نخرجه به من حالته الحاضرة ، حالة الاعتماد على غيره ، ليبدأ عصرا جديدا هو عصر الحرية والنور والتضامن مع سائر اجزاء

الانسانية فى سبيل خير الانسانية جمعاء .

(الهلال - ابريل ١٩٣٥)

د . محمد حسين هيكل :

ولد الدكتور هيكل عام ١٨٨٨ فى السنبلاوين لابوين ريفيين ، ولكن متيسرين ، حصل على البكالوريا فى القاهرة عام ١٩٠٥ ، ثم التحق بمدرسة الحقوق .. وبدا يكتب عن « تحرير المرأة » ، هو اول روائى عربى .. فقد نشر روايته الاولى « زينب » فى عام ١٩١٤ فى جريدة « الجريدة » بتوقيع فلاح مصرى .. حصل على الدكتوراه فى القانون من الجامعة الفرنسية وهو فى الرابعة والعشرين من العمر .

تميز عطاؤه فى الفكر الاسلامى والمقال الادبى .. والنشاط السياسى ، نادى بالتجديد والتحرر اجتماعيا ، وعلى المستوى الادبى ايضا .



بقلم الأستاذ / توفيق الحكيم

العالم سنة ٢٠٠٠

قصة من صميم التقدم

قصة سنة ٢٠٠٠ اذا كتبتها فى تلك السنة ستستمد حوادثها من صميم التقدم الذى تصل إليه البشرية فى تلك السنة . فاذا لم تقع حرب فى خلال الأربعين سنة القادمة ، وأمكن للقوى المتصارعة فى العالم أن تسخر العلم فى خدمة البشرية بدلا من دمارها ، فان البشرية ستسعد كثيرا .

فى ذلك العالم السعيد سيظهر الكثير من الاختراعات التى تهدف الى رفاهية بنى البشر ، وربما قامت الدولة بتوزيع الغذاء المادى والعقلى على الناس فى صنابير ، كما صورت فى مسرحيتى «رحلة الى الغد» . وسوف يكون كل شىء فى متناول اليد ، وتسخر الآلة فى خدمة الانسان ، ويتيسر السفر بين الأرض والكواكب .

وفى ذلك العالم السعيد ستختفى مناظر الفقر والجهل والمرض ، وستزول محاولات السيطرة على بنى البشر واستغلالهم .

اما اذا وقعت الحرب ، فقد يرجع العالم عدة قرون الى الوراء ، وربما الى الأحوال التى كانت سائدة فى القرون الوسطى ، أو إلى سيطرة رجال الدين ، بعد أن يكفر الناس بالعلم الذى جر عليهم الكوارث ، وانتهى به الأمر إلى أن نسف نفسه !

أما وصيتى للشباب فلا أريد أن أقول لهم أكثر مما قلت .

الهلال - يناير ١٩٥٩

الحياة .. على القلم

"أحس كأنى فجعت فى شىء عزيز لدى ، الايمان بنزاهة الفكر الحر . ولقد كنت أحيانا التمس الاعذار لفولتير . وازعم انه قال ماقاله لاعن مجاملة أو ملق . بل عن عقيدة وحسن طوية استنادا على علم خاطىء بأخبار النبى . ولكن كتابه الى البابا كان يتهمه اتهاما صارخا . لايدع مجالا للشك فى مخيلة أمره" .

"ان الدفاع عن شخصيتنا وعقيدتنا دفاع عن حياتنا . وان الكتابات التى توجه لهذا الفرد النبيل ينبغى ان يكون لها علينا حق المؤازرة والتعضيد وانى لست بنائد منقطع للنظر فى أعمال المؤلفين وتقدير قيم مايكتبون" .

(توفيق الحكيم - الهلال ٨ اغسطس ١٩٧٨)

فى مقال "محمد .. دفاع عنه"

توفيق الحكيم

.. والهلال

"الحلم والحقيقة . أحدهما شيخ الآخر" هو عنوان أول قصة نشرها توفيق الحكيم فى الهلال فى اغسطس ١٩٣٤ . وقد فتح الهلال ابوابه دائما لابداع ومقالات الحكيم مما عكس كافة جوانب موهبته المتميزة . وشخصيته الفريدة . وفكره المتجدد الذى ينبغى أن يكون . فتوفيق الحكيم هو أول مفكر فى تاريخ العرب قرر ان يعيش عن فكره وكتاباته . لقد قرر أن يكون فى عالم الغرب شبيها ببرناردشو و أناتول فرانس ومارسيل بروست وأمثالهم فى عالم الغرب .

فهؤلاء جميعا يقفون فى عالم الغرب رموزا على الفكر المستقل القوى الذى يعيش على فكره . ويحدث التغيير الضخم فى المجتمع بفكره . فهم نماذج لقوة الفكر وجلال قدره وقدرته على تغيير المجتمع .

وتكريما لهذا العطاء المتجدد ، أصدر الهلال عددا خاصا عن الحكيم فى فبراير ١٩٦٨ كتب فيه عبد الرحمن صدقى عن "الانثى الخالدة عدو المرأة وشهرزاد" كما تتبع صلاح عبد الصبور المنابع الشرقية "عند توفيق الحكيم" وتحدث د . زكى نجيب محمود عن "تعادلية الحكيم" وكتب رجاء النقاش عن "مصر فى أدب الحكيم" وتابع كامل زهيرى رحلة الحكيم مع السياسة . كما فتح كل من د . على الراعى وفؤاد دواره ابواب مسرح الحكيم .

بقلم : أحمد زكى باشا

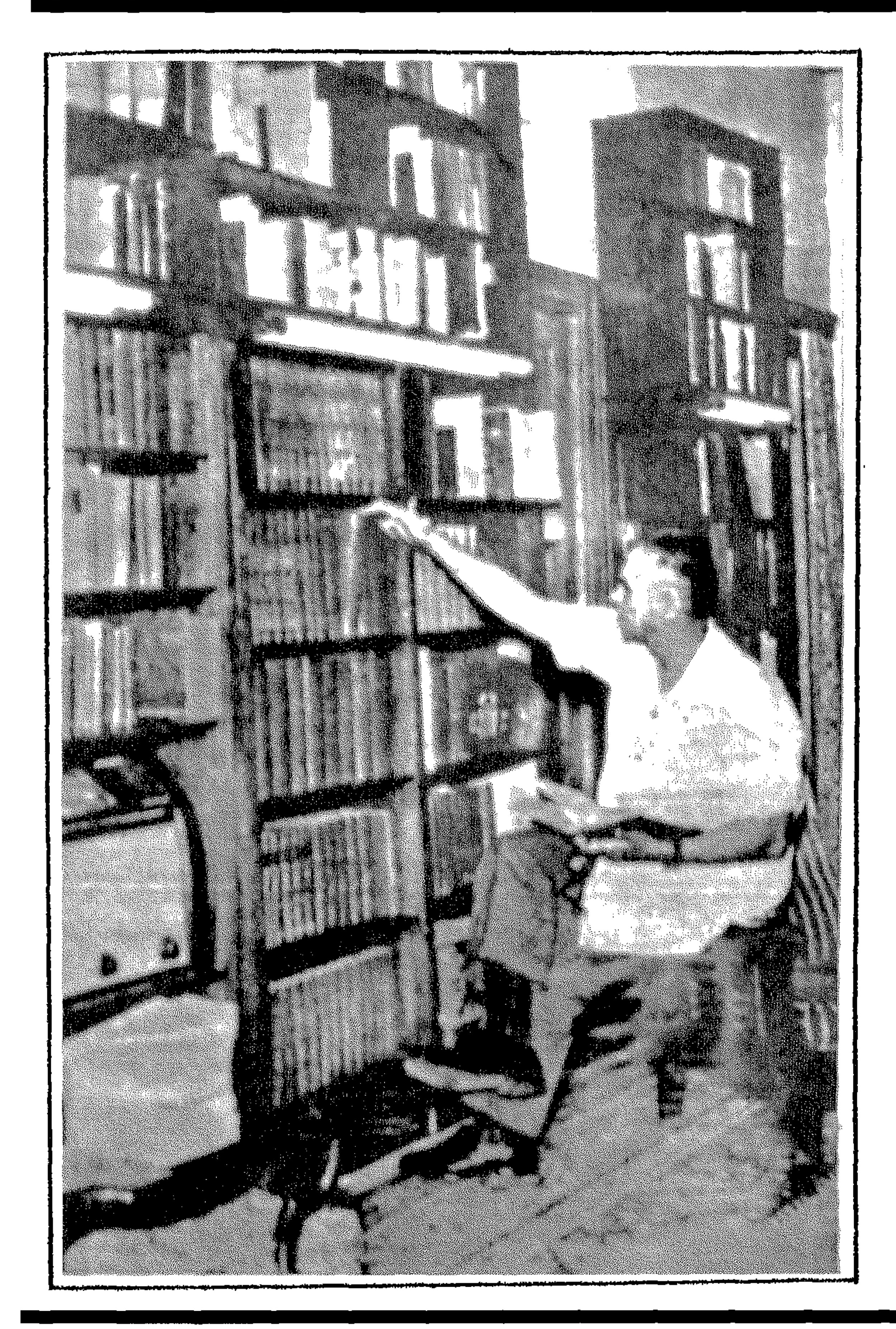
أخلاق العلماء

الاخلاق قواعد رسمها العرف أو الدين لسلوك الانسان فى الحياة . والانسان حسن الاخلاق ما اتبع هذه القواعد ، وهو سيئها اذا تنكب عنها فى أفعاله . ولكل فعل من هذه الافعال ناحيتان ، ناحية ظاهرية تتعلق بالظروف الخاص الذى وقع الفعل فيه ، وناحية باطنية تتعلق بالذى جرى فى رأس الفاعل او فى قلبه او فى عصبه قبيل وقوع الفعل -- والناحية الثانية تسبق الناحية الاولى دائما . والناس تقول لرجل انقذ طفلا عن حريق انه شجاع ، وهو حكم يسير بسيط على حدث ظاهر ، ولكن الأصول النفسانية التى صدر عنها هذا الحدث ليست فى هذا اليسر ولا فى تلك البساطة .

على ان هذه الاصول النفسانية تتألف من حيث نشأتها ومادتها من اصول أبسط ترد بدورها الى أخرى اكثر بساطة هى الغرائز الانسانية الأولى . يولد الانسان بهذه الغرائز وهى أشبه ما تكون بغريزة الحيوان ، ثم تتفاعل هذه الغرائز مع البيئة التى بها الطفل فتزيد وتقل ، وتقوى وتضعف ، وتتغير وتتحور ، وينشأ منهما عادات مركبة مجملة لا تتبين فيها كيف نشأت ، ولا من أى العناصر تركبت ، وتزيد هذه العادات الباطنية تعقدا بتفتح ذكاء الطفل واتساع نطاق بيئته ، وتزيد كذلك عددا . فهذه هى أصول سلوكه فى الحياة ، ثم تتيقظ فيه انسانيته السامية بالتعلم ومخالطة الناس فتأخذ المثل تتكون فيه فتكون هى الهدف الذى يرمى اليه فى سلوكه وتخلقه ، والعلم من الأمور التى تؤثر فى هذه العادات وهذه المثل تأثيرا كبيرا .

ويدخل فى نطاق هذه العادات كثير مما يسميه الناس خلقا . فالصدق المطلق عادة ، والغضب عادة ، واليأس عادة ، والامانة عادة ، والصبر عادة .

ولنضرب لذلك مثلا عالما كيماويا يأخذ فى درس مسألة علمية ، وهى تختص بتطبيع طائفة من المواد وتخلقها ، وهى مواد لم يسبق لها فى الكون وجود ، فهى من تصورات العالم ، وله عليها وعلى انها ممكنة الوجود ما عرفه من طبائع العناصر والاجسام عند تفاعلها . فهذا العالم اول ما يفعل ان يرجع الى مراجع كثيرة بها الآلاف المؤلفة من الاجسام ، مما



صنعته الطبيعة ومما صنعه الانسان ، يبحث عن مواده عسى ان يكون قد سبقته الطبيعة الى خلقها ، او الانسان الى صناعتها . فان كان هان الأمر ، واغلب الظن ان لا يكون . فيبدأ يتجهز ويقضى الاسابيع والاشهر لتحضيرها وخلقها مما خلق الله . فهذه الخطوة الاولى من البحث لابد فيها من الحذر واليقظة والا ضاع على الباحث جهد كبير وزمن طويل .

ثم اذا استقر الكيمياوى الى طريقته على الورق وفى الخيال ، وقف امام منضدته يستفتى الزجاج والنار والبخار فيها . فيعمل الايام والايام فلا يخرج شىء . ثم هو يعيد الكرة ، المرة بعد المرة ، ثم يأخذ يدرس ظروف التجربة فيزيد من هذا الظرف وينقص من هذا الظرف ، ويظل يجرب ثم يجرب الاسابيع فالاشهر حتى يحصل على مادته عندئذ يؤمن بان النجاح لمن صبر ، لا يؤمن به من الكتب ولا من موضوعات الانشاء يستكتبها فى المدرسة ، ولكن يؤمن به من اسوداد الدنيا فى عينيه مائة مرة ، ومن الخيبة تحز فى السويداء من قلبه مائة حزة ، وهى حزات عميقة تترك بعد التئامها اخاديد دائمة الوجود ويحملها معه فى الحياة كيف دار وأينما طلع .

تذكرنى هذه الخيبة التى لابد منها لكل باحث فى العالم بيوم فى بلد اجنبى ، كان من سنوات بعيدة ، اذ كنت قائما الى جهاز فيه دورق كبير يسع خمسة التار ، وضعت فيه مادة أغليها بأخرى ، وكنت صرفت فى هذه المادة أسابيع احضرها ، ثم ذهبت من المعمل الى ركن غير بعيد ، فما كدت أصله حتى سمعت طقة ، فتلفت وهرعت الى الجهاز فاذا بالدورق انفتح بطنه وانكب حشوه ، فوقفت دقيقتين جامدا عنده لا أفوه بكلمة ولا يظهر على ملامحى غضب ، وفى نفسى من الغيظ المكبوت ما لو أسلمت له القياد لانحى بيدى على بقية الجهاز تكسيرا وتحطيما .

والحق أنه ما أزمتنى بعد ذلك فى الحياة أزمة ، او حزبتنى فيها حازبة الا وتصورت الدورق فيها يطق ، فان فعل فأمر توقعناه ، وان لم يفعل فمخرج يسره لنا الله فحمدناه .

والصدق والامانة لابد منهما لكل عالم تجريبى ، والكذب ان أنجح حينا فهو يخذل من بعد ذلك طول الدهر . كذلك التعصب ليس من شيم العلماء ، فهم ان أحبوا قصدوا ، وان كرهوا قصدوا ، ولا يغريهم حب مهما حلا ان يناصروا حبيبا مهما عز على باطل ، ولا

أخلاق العلماء

يقريهم بغض مهما غلا ان ينازعوا خصيما فى حق . أو هكذا يجب ان يكون العلماء . فالطبيعة آخر الأمر لا تنصر الا الحق شايعه حبيب أو خصيم .

هذه بعض سجايا العلماء مما يكتسبونه من ممارسة العلم . وهناك أخرى ، ولا يحسبن حاسب ان العلماء كلهم على هذه السجايا ، فممارسة العلم لا تكون الا بعد ان ينشأ ممارسه ويشب وتجمد أخلاقه بعض انجماد . فالذى يحدث فى الاغلب هو صراع بين عادات كسبها ممارس العلم من بيئته ، وعادات يكسبها اياه العلم بممارسته فهما قوتان متنازعتـان ، فالغلبـة لاقواهما . لذلك تجد من العلماء قوما يتحلون بكل السمات التى يتسم العلم بها على احسن ما يشتهى القلب ، وتجد آخرين لا تتراءى فيهم هذه السمات الاسئلة او تتراءى فيهم سمات للشر بارزة بينة .

ومن الاخلاق ما لا يتناوله التدريب العلمى بقليل أو كثير ، اللهم الا مسا من بعيد .. لذلك كان من العلماء سكيرون ، وكان منهم دساسون ، وكان منهم من جرى فى حياته وراء الرائجة ، ونافق وراء النافعة ، فلما كسدت ولى عن كاسبة الامس الى كاسبة اليوم .

والناس أجمع ، من علماء وغير علماء ، من مارسوا العلم ومن لم يمارسوه منهم ، قد أفادوا من العلم الشىء الكثير . ولست أشير بذلك الى ما أصابوه من مدنية وحاجات مادية ، ولكن أريد ان العلم بما طلع عليهم به من نتائجه ، وبما اشاعه فيهم من طرائقه ، قد اثر فى نظراتهم ، وغير من معتقداتهم ، فتكونت فيهم مثل للحياة تخالف المثل الاولى . ثم أصبحت هذه المثل مرماهم ، فغيرت من سلوكهم وتطيمهم فى حقير الامر وجليله .

[عن الهلال ١٩٢٨]

أحمد زكى .. والهلال

فتح الهلال كل ابواب المجلات الثقافية العربية المعروفة . وقد بدا هذا واضحا فى استعانة حكومة الكويت بالدكتور أحمد زكى لاصدار مجلة شبيهة بالهلال فى عام ١٩٥٨ وهى مجلة "العربى" .

من المعروف أن الدكتور أحمد زكى قد تولى رئاسة تحرير مجلة الهلال مرتين بين عامى ١٩٤٧ ، ١٩٥٠ وبدا فيها مدى اهتمامه بكتابة العلم بروح الاديب . وكتابة الادب بروح العالم . ثم فى عام ١٩٥٧ .

وأحمد زكى ليس فقط علامة من علامات رحلة الهلال الطويلة ومسيرتها عبر قرن من الزمان بل هو واحد من الشخصيات المعاصرة التى اشتركت فى بناء النهضة الحديثة . فقد عاش فى المملكة المتحدة عشر سنوات درس فيها العلوم التطبيقية . وحصل على درجة الدكتوراه من جامعة ليفربول . ثم نال دكتوراه ثانية من جامعة لندن عام ١٩٢٨ .

وعقب عودته الى مصر شغل وظيفة استاذ الكيمياء المساعد بكلية العلوم وتتدرج حتى انتخب بالاجماع عميدا لها . ثم أنتقل الى وظيفة مدير لمصلحة الكيمياء المصرية عام ١٩٣٦ .

وقد عمل أحمد زكى (١٨٩٤ ـ ١٩٧٥) فى مناصب عديدة . فهو الذى أنشأ المركز القومى للبحوث العلمية . كما تولى وزارة الشئون الاجتماعية لستة أعوام . وعين مديرا للجامعة عام ١٩٥٣ . وذاعت شهرته ككاتب فى مجلات "الرسالة" و "الثقافة" و "المختار" قبل أن يتولى رئاسة تحرير "الهلال" .

من أهم كتبه "مع الله فى السماء" ، "بواتق وانابيب" و "بين المسموع والمقروء" يعتبر أصغر من نشر فى مجلة "الهلال" فى عام ١٩١٦ ـ ولد احمد زكى فى السويس عام ١٨٩٤ ـ وقد كتب فى هلال يناير ١٩٤٧ "إننا نعود فنتذكر أن مجلة الهلال مجلة العالم العربى كله . وأنه ليسرنا أن يساهم فيه أدباء الاقطار الشقيقة فى إطار الخطة التى رسمناها" .



بقلم الدكتور/ علي مصطفى مشرفة

أين يسير بنا العلم إلى العمران أم إلى الدمار؟

أريد أن أشير أولا الى أن العنوان وإن كان مفهوما في ذاته كسائر العبارات التي نكتبها ونفهمها - أو نظن أننا نفهمها - إلا أن الفلتة إذا نحن دققنا فيها وجدناها تنطوي على شيء من المغالطة التي يمتاز بها الأسلوب الأدبي الجذاب على الأسلوب العلمي الواضح ، وهذا العنوان يشبه لنا العلم بقائد أو بزعيم يسير بنا تحت لوائه في الطريق الذي يرسمه هو لنا ويختاره وكأننا نحن جنده وأتباعه نأتمر بأمره وننقاد لزعامته . ثم يتساءل أو نتساءل نحن الى أين يسير بنا ذلك القائد وإلام تجرنا سياسته : إلى العمران أم الى الخراب ؟ فهذا التصوير ينطوي كما ذكرت على مغالطة بابتعاده عن حقيقة الواقع ، إذ من الواضح أن العلم إن هو إلا أثر من آثارنا نحن وشيء من صنعنا . فوضعه موضع القيادة وتسليمه دفة السفينة البشرية قلب لأوضاع الأمور . إذ السفينة سفينتنا ونحن وحدنا المسئولون عن قيادتها

على أن هذا التشبيه إنما تنعكس فيه صفة قديمة من صفات الانسان وغريزة من غرائزه ، فقديما صنع الناس تماثيل وأصناما ثم عزوا اليها قوة التحكم في مصيرهم وأسندوا اليها القدرة على تكييف شئونهم ، ومازالوا يخدعون أنفسهم في أمرها حتى عكفوا على عبادتها وخروا لها سجدا . وتاريخ العقائد البشرية حافل بالأمثلة على ذلك من أجل هذه الظاهرة البعيدة عن كل منطق ، من أجل هذه النزعة المتأصلة في نفوسنا والتي ورثناها عن اجدادنا الأول ، كان موضوع هذا المقال موضوعا له أهميته وله خطره في تطور الجنس البشري ، فلا يكفي أن نجيب عن السؤال المطروح علينا بأن العلم لايسير بنا الى شيء ما وإنما نحن الذين نسير بأنفسنا . فهذا الجواب وإن انطبق على المنطق الصحيح إلا انه يتحاشى الهدف المقصود ويحيد بنا عن جادة الطريق فيتركنا حيث نحن ولم نتقدم خطوة الى

إين يسير بنا العلم

الامام لاشك أن زيادة المعرفة البشرية ولاسيما فى العصور الحديثة قد أدى إلى تغير عظيم فى حياتنا المدنية والاجتماعية ، ولا حاجة بى إلى أن أبين المظاهر المختلفة لهذا التغير فما على المرء إلا أن ينظر حوله لكى يدرك مدى هذا الانقلاب الذى أصبح رمزا على المدنية الحالية . فمن طائرات الى غائصات الى إذاعة لاسلكية الى ناطحات للسحاب الى ألف جديد وجديد مما كان أجدادنا يحسبونه فى عداد المعجزات . كل هذا شائع معروف للناس والعام كما أن من المعروف للخاص والعام ايضا أن هذه المستحدثات إنما هى ثمرة العلم الحديث ونتيجة من نتائجه . فالعلم قدرة تمكننا من استخدام القوى الكامنة فى الطبيعة وتسخيرها لاغراضنا المختلفة .

على أنه لابد من التمييز بين العلم وبين نتائج تطبيقه ، بين العالم الأكاديمى وبين المهندس أو المخترع . فالعالم أو الباحث الاكاديمى إنما يطلب المعرفة لذاتها فهو يريد أن يستطلع حقيقة ماهو كائن ويقف على سر تركيبه . هذه الرغبة فى المعرفة غريزة من غرائز البشر ، وقديما كانت شجرة المعرفة مغرية للانسان بحيث لايقوى على مقاومة استهوائها لنفسه . أما المهندس أو المخترع فيستخدم العلم كوسيلة لتحقيق غرض يرمى اليه ويسعى اليه ويسعى وراءه ، فمكسويل وهرتز ولودج إنما كانوا يطلبون تفهم حقيقة الاشعاع اللاسلكى ودراسة أسبابه وكيفية حدوثه وارتباطه بسائر الظواهر الكهربائية والضوئية والمغناطيسية التى تتصل به . أما ماركونى فكان يرمى الى استخدام هذا الاشعاع - بعد أن كشف عنه غيره - فى نقل رسالات البشر وأصواتهم . وكذلك فرداى ولتنز وأوهم وجول وأمبير أنما كانوا يدرسون خواص التيارات الكهربائية وأثرها الحرارى والمغناطيسى من الناحية الطبيعية والفلسفية أما جراهام بيل وأديسون فكانا يستعينان بعلم هؤلاء وغيرهم على استخدام التليفون والانارة الكهربائية . أردت أن أميز بين العلم البحت والاختراع أو نطبق العلم لاننا أزاء تحديد المسئولية . فالعلم لا يمكن أن تقوم ضده جريمة التخريب أو التدمير ، لأن ركن النية ، أو القصد الجنائى غير متوافر ، والعلم كما بينا بعيد عن كل ريبة فيما يختص بالغاية التى يرمى اليها . وأية غاية أشرف أو أنبل من الرغبة فى إحلال نور العرفان مكان ظلام الجهالة ؟ لعل بعض القراء يظن أننى إنما أحاول بشىء من المهارة أن أتخلص من موقف محرج بدلا من مجابهة الحقائق ومجابهة الموضوع . لعل هذا البعض يظن أن

التفرقة بين العلم البحت والعلم التطبيقى إن هى إلا تفرقة طفيفة وهى على أية حال تفرقة لا تهم الشخص المثقف العادى الذى ينظر الى طائفة العلماء والمخترعين ومن اليهم كأسرة واحدة بعضهم لبعض ظهير ، فكما أن المخترع يستخدم نتائج عمل المستكشف فى تنميق مخترعاته كذلك المستكشف يستخدم آلات المخترع وعدده فى زيادة الكشف والبحث العلمى ، فهم شركاء وأعوان ، مايصدق على الفرد منهم يصدق على الجماعة . الى هذا البعض من القراء أقول إننى أقبل هذا الموقف الذى يريدنى أن أقفه ، فالعلم سواء أكان بحتا أم تطبيقاً هو العلم وشجرة المعرفة بأصولها وفروعها وثمارها وحدة لاتتجزأ وهى أما شجرة طيبة تؤتى أكلها ويمتد فيؤها فتكون خليقة بأن تنمو وتترعرع أو هى شجرة خبيثة وأذن يتعين أن تجتث من جذورها .

فلنتناقش الموضوع على هذا الاساس . إلام ينتظر أن يؤدى بنا تقدم العلم والاختراع ؟

أظن أن من المعقول أن نسأل أولا إلام أدى بنا فعلا هذا التقدم . هل العالم اليوم أكثر هما أم أكثر خرابا ودمارا مما كان عليه منذ مائتى سنة مثلا ؟ لا أظن هذا السؤال مما يختلف فيه اثنان .

وما على المكابر إلا أن يبتعد عن مرافق الحياة الحديثة ويكتفى بعيشة أهل القرون الوسطى فيضىء منزله بمصباح الزيت ويسافر على ظهور الخيل والبغال والحمير ، ويمتنع عن قراءة الكتب المطبوعة والجرائد اليومية ، ويرسل خطاباته الى أصدقائه مع رسول يقطع الفيافى والعقار على متن دابة ، ويكتفى بطرق العلاج التى كانت معروفة فى القرون الوسطى . فهذا كله ميسور لمن يريده ، ولكن لا أظننى مخطئا إذا قلت إنه لايوجد واحد فى الألف ممن يتمتعون بتمام قواهم العقلية يريد حقيقة أن يعيش على ذلك النمط .

من الجلى إذن أن تقدم العلم والاختراع قد أدى بنا فعلا إلى حالة من العمران تفضل فى نظرنا ما كانت عليه حالة العمران من قبل .. وكما أن الحكم على الرجل أنما يكون بأعماله ، فإن كان ماضيه مقترنا بخدمة المجتمع والاخلاص له جاز لنا أن ننتظر منه خدمة المجتمع والاخلاص له فى مستقبله كذلك ، يجوز لنا أن نحكم من ماضى العلم على مستقبله فننتظر منه الاستمرار فى توفير سبل الرفاهية للاسرة البشرية ومحاربة المرض والفقر والجهالة التى هى ألد أعداء البشر وأقوى أسباب آلامهم وبؤسهم .

أين يسير بنا العلم

وهنا أخالنى أسمع همسا عن أهوال الحروب الحديثة . عن الغازات الخانقة والطائرات المدمرة وما إلى ذلك من المخترعات التى يستخدمها الانسان فى محاربة أخيه الانسان ولاشك فى أنه من الممكن أن ننظر الى هذه الناحية من نواحى تقدم العلم بعين التشاؤم ولكن هذا التشاؤم إنما يكون معناه الحكم على الأسرة البشرية بالجنون الوراثى . فالأسرة البشرية يمكن تشبيهها بصبى قد بدأ يقوى ويشتد ساعده كما بدأت مداركه تتسع . فيزداد علما بأسرار القوى الطبيعية التى تحيط به . فهو يستخدمها لاغراضه المختلفة . وهو ولاشك واجد يوما ما طريقة أو أكثر من طرق الانتحار . وأصدقاؤنا المتشائمون يريدوننا على ان نعتقد أن طلب الهلاك غريزة من غرائز هذا الصبى أو نزعة فى تركيبه الجنونى . فهو بمجرد أن يعثر على طريقة مثلى للانتحار سيبادر إلى استخدامها لانهاء حياته الصحية . وكل ما استطيع أن أقوله لهؤلاء إنه إذا كان الأمر كما يزعمون فالأولى بهم ان ينتحروا من الآن اختصارا للوقت والمجهود أما إذا تغلبت غريزة حب البقاء لهم فكرهوا مشورتى فليسمحوا لى أن أعتقد أن هذه الغريزة ذاتها وهى من أقوى الغرائز فى الجنس البشرى اذا اضيف اليها التعقل والحصافة اللذان سينشأن حتما عن زيادة المعرفة البشرية . فمن شأنها جميعا ان تخول لنا النظر الى مصيرنا بعين المتفائل المطمئن .

د . مشرفة والهلال

هو اصغر عالم حصل على درجة الدكتوراه فى العلوم على المستوى العالمى . حدث ذلك فى عام ١٩٢٤ . حين نال الدكتور على مصطفى مشرفة (المولود فى يوليو ١٨٩٨) على درجة الدكتوراه فى فلسفة العلوم من الكلية الملكية بلندن .

هو عالم واديب وموسيقار . وهو اول عميد مصرى لكلية العلوم عام ١٩٣٦ . له خمسة وعشرون بحثا فى نظرية "الكم" ونظرية النسبية لاينشتاين . و "الطاقة الذرية" كما اشترك . مع آخرين . فى تاليف العديد من الكتب العلمية . كما انه اول عالم مصرى اشترك فى الموسوعة العالمية للشخصيات العلمية وطبعة نيويورك .

حوار مثقفين

بقلم: د. شكري محمد عياد

كان موضوع الندوة "كيفية ايجاد جسر بين الآداب الغربية والادب المصرى فى الوقت الحاضر" . وكانت الندوة نفسها مثالا عمليا لذلك الجسر ، فالمتحدث الاول فيها هو الكاتب السويسرى "ادولف موشك" ، والداعي هو المؤسسة الثقافية السويسرية "دبرو هلفسيا" ، وهى مؤسسة رسمية ، او شبه رسمية ، على نمط المجلس البريطانى ، ومكان الندوة قاعة فى احد الفنادق الكبرى بالقاهرة ، وموعدها ساعة الظهر ، لكى تعقبها مادبة غداء .

ذهبت الى هذه الندوة بمزيج من التطلع وعدم الاطمئنان ، ولعل هذا هو شعور قسم كبير من المثقفين المصريين نحو الغرب وما يأتى من الغرب . فمنذ وعينا ونحن ندرك ان الغرب متفوق علينا ، ونحاول جهدنا ان نمد الجسور لنصل اليه ، ولكن هذا الغرب لا يكاد يمد الينا بيده حتى نشعر بالشك ، فنحن نعرف ان هذا الغرب لم يسع الينا ، منذ البدء ، الا جريا وراء مصالحه الخاصة ، ولم يكن ليبلغ ما بلغ من السطوة والغنى لولا ما استغله من مواردنا ، فاذا مد إلينا يدا ظاهرها الاحسان "وما اقسى هذه الكلمة !" فنحن نعلم ان باطنها الاستعباد ، ثقافة او لا ثقافة ! هذا الشعور الدفين من العداوة والخوف لا يفارقنى ابدا ، لم يفلح فى محوه ذلك المدرس الايرلندى الذى كان يعلمنا اللغة الانجليزية فى سنة ١٩٣٦ ، ونحن فى البكالوريا ، وكان يشاطرنا حماستنا الوطنية ، ويحدثنا عن بارنل ، ويسألنا عن سعد زغلول ، ولم يفلح فى محوه ما قرأته بعد ذلك من مسرحيات جالسورزى ، ومن قابلته على صفحاتها من فقراء الانجليز . لم يفلح شىء فى محوه ، لان بعض الغربيين مازالوا ينفخون فى جمره كلما اوشك ان يخبو . ومازلت كلما ضمنى وبعضهم مجلس اشعر ان فى باطنى ذلك الصبى الصغير الذى كان يتوهم ان البشر كلهم اما أولاد عرب واما انجليز ، وان الانجليز هم اولئك الجنود الذين يراهم احيانا مطلين من نوافذ القطار الذى يمر بقريته ، ويسأل

نفسه متعجبا : كيف يمكن ان يعرف بعضهم بعضا وهم جميعا سحنة واحدة .

هأنذا جالس فى بهو الفندق انتظر ابتداء الندوة ، وافكر جديا فى الهرب ، عن اى جسور نتكلم وهذه الجسور ممدودة فعلا ومعها موائد الطعام ؟ اذا كان من الضرورى ان أتكلم فليس عندى الا كلمة واحدة ستبدو نابية جدا بل مناقضة لموضوع الندوة (وربما للغرض منها ، هكذا قلت لنفسى) ، نحن فى حاجة الى جسور تربطنا بقومنا . اكثر من حاجتنا الى جسور تربطنا بثقافة الغرب . فالصبى الريفى الذى يقبع فى داخلى بالغربة والتعاسة ، وينظر باستنكار مؤدب الى ما يفعله الجالس فوقه والذى سيتحدث طبعا باللغة الانجليزية ، فكم تكون المصيبة اذا تحدث مثلا عن حركة الترجمة وتبادل الزيارات وعقد الندوات والمؤتمـرات والمهرجانات ونسى ان اكثر من نصف المصريين لا يفكون الخط ، وان طلبة الجامعات لا يقرءون سوى مذكرات الاساتذة ، وان اديبا مبدعا راسخ القدم فى فن الكتابة مثل ادوار الخراط الذى يدير الندوة ، والذى يخطو بتؤدة ووقار نحو السبعين ، لا يزال يجد صعوبة فى نشر كتبه ؟

● البحث عن الخصوصية

ولكن ماهذا ؟ هل كلنا فى الهم مثقفون ؟ فالاستاذ موشك ، الذى كتب ست روايات ، وعددا كبيرا من القصص القصيرة والدراسات النقدية ، ليس كاتبا متفرغا ، بل هو يأكل عيشه من التدريس مثلنا ، ثم انه عندما تكلم ، فاجأنا بانه لا يريد ان يتكلم عن الجسور ، بل عن الاختلاف !

هل هو الاتجاه السائد الآن فى الثقافة الغربية ، البحث عن "الخصوصية" ، وتأكيدها ، والاعتزاز بها ، الى حد ان الامريكيين مثلا لم تعد تكفيهم خصوصية الهجرة ، وكراهية الاستبداد ، واقتحام المجهول ، فهم يضيفون اليها خصوصية زائدة من تاريخ الهنود الحمر الذين احتلوا ديارهم ، أهو رد الفعل العالمى ضد تكنولوجيا الثقافة التى عبرت الحدود وحطمت السدود ، وهددت بالقضاء على الثقافات الوطنية ، والبقايا الفلكورية ؟ ام هى "خصوصية" الثقافة السويسرية نفسها ، رغم انتمائها الى ثقافة الغرب ، بل وقوعها فى قلب هذه الثقافة ، وعند ملتقى تياراتها ، بحيث تعد معرضا كاملا لها ، وتلخيصا وافيا لكل ما فيها ؟ وهل يمكننا ان نتحدث عن "خصوصية" اهم سماتها الجمع والتأليف ؟

لقد أوجز مـوشك دور سـويسرا الحضارى منذ قيام الاتحاد السويسرى حوالى منتصف القرن الرابع عشر حتى وقتنا هذا فى جملة واحدة "كانت سويسرا معقلا للثورة فى عصور المحافظة ، ومعقلا للمحافظة فى عصور الثورة" ، ولهذا الدور المتميز خلا تاريخ سويسرا من الانقلابات العنيفة ، وان لم يخل من الصراع ، بينما لجأ اليها الثوار فى منعطفات التاريخ المهمة ، فكان فولتير فى فرنى ، على مقربة من حدودها ، يشن هجومه المستمر

على رموز الاستبداد المدني والديني في اوربا القرن الثامن عشر ، وكان لينين في جنيف يحضر للثورة البلشفية في ١٩١٧ . ولهذا الدور المتميز ايضا ، وبفضل سياسة "الحياد المسلح" التي نفذتها سويسرا بحرص غير معتمدة على تعهدات الدول الاوربية المتحارية ، تقدمت سويسرا تقدما مطردا حتى اصبحت من اغنى بلاد العالم رغم ضعف مواردها الطبيعية ، وحافظت على استقلالها ووحدتها رغم "كنتوناتها" الستة والعشرين المختلفة جنسا ولغة ودينا . (يدهشني ان بعض العرب يستعيذ بالله من ان يصبح لبنان كنتونات هو الآخر ، وليته يصبح حقا كنتونات متحدة مثل سويسرا !) .

وهموم المثقفين من هموم بلادهم . فاذا كان همنا في مصر هو الديون والتنمية (الاسم اللطيف للفقر والتخلف) فسويسرا همها هو الغنى ، أو على الاصح ان تعرف كيف تحافظ في عالم موحد على غناها الذي كسبته من عالم منقسم . وموشك يشعر بالخجل "لخصوصية" كل منا في هذه الناحية ، وقد هممت ان اقول له ان هذا الشعور غريب جدا من جانبه ، ولا يجب ان يزعجه على الاطلاق ، فمثل هذه "الخصوصية" موجودة بجميع درجاتها بيننا نحن العرب ، ونحن نقول ببساطة اننا أمة واحدة ، ولا احد منا يشعر بالخجل .

● هموم المثقفين !

ولكن المثقفين لهم هموم اخرى تتعلق بصنعتهم ، وقد سأل الحاضرون الاستاذ موشك ، هل تعد نفسك كاتبا المانيا ؟ وكان السؤال جوهريا بالنسبة لقوم تشغلهم قضية "الهوية" ، والانتماء ، وان لم يشغلوا كثيرا بقضية الخصوصية . ولا عجب ، فالمرء يبحث عما يفتقده ، والى ان نعرف هويتنا وانتماءنا معرفة يقين واطمئنان فسنظل نبحث عنهما بجد واستماتة ، وسنظل نتساءل عن تراثنا ، هل نجده في أرض مصر وتاريخها أم في لغة العرب وثقافتهم وتاريخهم ؟ ومع ان الحاضرين لم يكن لديهم شك في انتمائهم اللغوي فلعل بعضهم كان مترددا في انتمائه الثقافي . اما الكاتب السويسري فلم يكن لديه شك ولاتردد ، بل ان المسألة لم تكن مطروحة بالنسبة له اصلا . فلكل انسان - لا للكاتب فقط - انتماءات متعددة ، لا يلغي انتماؤه الوطني انتماءه الثقافي او السياسي او الديني الخ . وله هوية يصنعها بخبراته وارادته ، ولا تعطى له كمركب كيماني من عند الصيدلي ، ولكن الكاتب - بما هو كاتب - له عالمه الخاص الذي يركبه كما يشاء له خياله ، لا يسأل نفسه - ولا ينبغي ان يسأله احد - عن مكونات الثقافة أو الدينية او السياسية الخ . ولا عن مصادره في تراثه المحلي او الوطني او القومي او الانساني ، الا ان يريد ناقد ابراز "خصوصية" عالم المبدع من خلال هذه العموميات . وبدا من المناقشة حول العلاقة بين الابداع والمعطيات الخارجية ، سواء سميناها انتماء ام ثقافة ام تراثا ام غير ذلك ، اننا مازلنا نتكلم عن امور نظرية مثل المحاكاة واستقلالية الادب كما لو كانت خيارات حاسمة امام المبدع والناقد ، في حين ان هذه المقابلة كانت تصبح عديمة المعنى في نظر الكاتب الغربي .

وعلى العكس من ذلك قضية اللغة ، فنحن فيها سواء ، الكاتب المصري الذي يكتب بالعربية "الفصحى" ، والكاتب السويسري الذي يعيش ويعمل في

المنطقة الناطقة "بالالمانية" من سويسرا ويكتب بالالمانية "العليا" فكلاهما يكتب بلغة تختلف قليلا او كثيراً عن اللغة الجارية ، ولكن بدا من كلام الزائر السويسرى ان التطور اللغوى فى بلده يسير فى اتجاه مضاد لما نلاحظه عندنا ، فنحن نلاحظ ان اللهجات العربية تتقارب ، وانها تقترب فى مجملها من لغة الكتابة شيئا فشيئا ، كما ان لغة الكتابة تتطور من جهتها بحيث لا يصعب فهمها على الشخص الأمى ، مع انها لاتكاد تفقد شيئا من "اللغة الفصحى" ـ لغة الكتابة فى القرن الثالث او الرابع الهجريين ـ سوى تهاون بعض الكتاب فى الاعراب ، وهذه ظاهرة لافتة ولكنها ابعد ما تكون عن ان تعد سمة عامة ، اما فى سويسرا الالمانية فاللهجة الجارية تتباعد تباعدا سريعا عن الالمانية العليا ، حتى ليذهب الاستاذ موشك الى ان الوضع اللغوى ختلف اليوم اختلافا بينا عما كان عليه قبل عشرين سنة . فالالمانية السويسرية اليوم تكاد تستقل عن الالمانية العليا ، كما هو شأن اللغة الهولندية مثلا ، فلها مطبوعاتها ولها صحافتها ولها ادبها ، وتكاد الالمانية العليا تصبح غير مفهومة لدى الشباب ، فهم يفضلون ان يتفاهموا مع الاجانب ، وربما مع الالمان ايضا ، باللغة الانجليزية .

● فيم نحن مختلفون ؟!

هل نأسى ام نفرح ـ اذن ـ لاننا اخذنا هذا الوقت الطويل فى البحث عن هويتنا او خصوصيتنا ، وهل نجرؤ على الامل فى ان يكون تعلقنا بالروابط المعنوية بين طوائفنا وشعوبنا عوضا ـ فى المدى القريب على الاقل ـ عن اهمالنا المشين للروابط المادية ؟ واذا كانت الأمور المعنوية هى "خصوصيتنا" وقوتنا ، فهل تعترف المعنويات بالحوائل والسدود بين شرق وغرب ، أو شمال وجنوب ؟

قد يقول صديقنا القادم من الغرب : ان واقعنا هو الاختلاف ، فلننتظر اولا فيم نحن مختلفون ، كى نعرف من بعد اين نقيم الجسور ، هو مخلص لثقافته ، وهو يقترب منا من موقع هذه الثقافة ، فثقافة قامت منذ العصور القديمة حتى عصرنا الحاضر على الترابط بين عناصر متعددة ومختلفة ، بل ومتناقضة فى كثير من الاحيان ، تتصارع تارة حتى يكاد يفنى بعضها بعضا ، وتتآلف تارة فتسقط تناقضاتها فى أعماق اللاشعور . لماذا لا اقترب من موقع ثقافتى انا ، وهى التى قامت منذ اقدم العصور ايضا على مبدأ الوحدة (كنيستى القبطية كنيسة موحدة ، مثل الاسلام) ، وتشعبت ما تشعبت ولكنها تمسكت دائما بالأصل الواحد ، وقاومت كل نزعات الاختلاف حتى كادت تفقد روح التسامح والتصالح ، وكاد يفنى بعضها بعضا باسم الوحدة ، فلا تتحقق وحدتها الا فى العدم .

ثقافته تعددية تصطنع الوحدة عند الازمات لكى تحافظ على حياتها وثقافتى موحدة ظلت تتجاهل الاختلاف ، حتى كاد الاختلاف يفتتها .

لننس النظم السياسية مؤقتا ، لننس العادات والأعراف . لننس المسرح

والسينما والاوبرا والباليه والموسيقى السمفونية والفنون التشكيلية . لننس الرواية والقصة الكلاسيكية والرومانسية والواقعية والرمزية . الخ . الخ . لننس هذا كله مؤقتا ولننظر اولا فى الجذور .
اما ان تلتقى الثقافتان ؟

سبحانك ربى ! هأنذا قد انتقلت من النقيض الى النقيض . اريد ان اتكلم عن الوحدة ، على عكس ما فكرت وقدرت !
كانت مساهمتى فى الحوار منحصرة فى الفكرة التالية :

اذا كان ضيفنا العزيز قد فاجأنا بأن اقامة الجسور بين الثقافات تقتضى ابراز الفروق أولا ، فاسمحوا لى ان افاجئكم بان اقامة الجسور بين ثقافتنا والثقافة الاخرى تقتضى اولا ان نتعمق فى ثقافتنا نفسها ، ولو اننى اقول ايضا اننا لن نستطيع ان نفهم ثقافتنا فى اعماقها الا اذا امكننا ان ننظر اليها من الشاطىء الآخر ، اى من منظور الثقافة الأخرى .

والذى استطعت ان افهمه عن ثقافتنا انها كانت فى عصور ازدهارها منفتحة والى أقصى حد ممكن على غيرها من الثقافات . وقد تكلمت عن الدور الاخير من هذه الثقافة وهو الدور العربى الاسلامى . وقلت ان الثقافات المصرية القديمة والهلنسية والرومانية وحتى ثقافات الشرق الاقصى دخلت شبه الجزيرة العربية من قبل البعثة المحمدية ، واسهمت كلها فى تكوين الحضارة الاسلامية ، التى كان لها فى اوج ازدهارها مسلماتها الخاصة ومسلكها الخاص فى بناء الانسان وفهم الكون وتنظيم المجتمع والتصرف فى مواد العيش . وقد دب الفساد فى هذا كله فاصبح ميراثنا من تلك الحضارة ـ كما نمارسها فى حياتنا المعاصرة ـ مبتورا مشوها . وانطلقت الحضارة الغربية الحديثة من مسلمات مختلفة واقامت أبنية مختلفة ، وحققت ماحققته من انجازات عظيمة ، ولكنها تقف الان ـ ربما بسبب هذه الانجازات نفسها ـ امام طريق مسدود . واصبح بقاء الجنس البشرى نفسه مهددا بخطر جسيم .

طرق الحضارة لا يمكن ان تكون محصورة فى الطريق الذى سلكناه ، والطريق الذى سلكتموه من بعدنا . وقد كانت البداية عندنا وعندكم مشتركة . اخذنا منكم واخذتم منا ، ومن البدايات الاولية الغامضة ظهرت مسلمات مختلفة ، وقامت حضارتان مختلفتان . ودخلنا فى صراع طويل . ومرت كلتاهما بمراحل مختلفة ، ولكن الاختيار الاول حدد المسار لكل منهما . وانتهت كل منهما الى عقدة مستعصية ، بينما اصبح الخطر واحدا والمستقبل واحدا .

هى اذن نقطة غامضة جديدة فى تاريخ الجنس البشرى . تقف عندها حضارتان ـ او اكثر ـ تعيد النظر فى مسلماتها ، وتتامل حاضرها ، وتتخيل ما يمكن ان يكون عليه مستقبلها . وقد يكون فى مقدورها ان تبدأ بداية جديدة مشتركة ، وان تبنى حضارة جديدة ، وقد تعلمت من دروس الماضى ان الوحدة يجب ان تكون وحدة اصيلة لا تمليها الضرورة ، وطوعية لا تحظر الاختلاف .

عام جديد وإنسان جديد

بقلم: البابا شنودة الثالث

قبل أن نبدأ العام الجديد ، ينبغى أن نقف قليلا لنتأمل العلم الماضى ، وكيف مضى ؟ وماهى مشاعرنا حياله ؟

اولا : نبدأ العام الجديد بالشكر ..

نشكر الله الذى احيانا إلى هذه الساعة ، واعطانا عمرا جديدا لعلنا نمجده فيه . نشكره على كل إحساناته الدنيا ، وهى كثيرة لاتحصى ، سواء بالنسبة إلى بلادنا ، اوبالنسبة إلى كل منا كفرد ..

قال احد الآباء « ليست موهبة بلا زيادة ، إلا التى بلا شكر » . والعجيب أن صلوات الناس ، غالبيتها طلبات لاشكر ! ! إننا باستمرار نطلب من الله شيئا جديدا ، دون أن نشكر كما ينبغى على ما سبق أن اخذناه .. باستمرار ننسى ما فى ايدينا ، ناظرين إلى ما نريده ..

هل شكرنا الله كما ينبغى على إعفاء مصر من ديون تبلغ عددا من المليارات ؟ هل شكرناه على اختيار مصرى ليكون أمينا عاما لجامعة الدول العربية ، مع انتقال مقر الجامعة لى القاهرة ؟ هل شكرناه على اختيار صرى آخر ليكون امينا عاما لهيئة الأمم المتحدة ؟ هل شكرنا الله على إنحسار الإلحاد من روسيا ودول الاتحاد السوفييتى (سابقا) ، وعودة عشرات الملايين من الناس إلى الإيمان ، مع تقدمهم السوس إلى الممارسة الديمقراطية فى حياتهم .

هل شكرنا الله على كل هذه الأمور وغيرها ، أم تمر علينا عابرة كمجرد اخبار صحفية نعلق عليها ، دون ان نبصر يد الله فى الأحداث ؟ !

وهل شكرنا الله من قبل على رجوع سيناء وطابا إلى ملكية بلادنا ، الأمر الذى قد تحسدنا عليه كثير من الدول الشقيقة ، أم مر هذا الأمر دون شكر ، ونسيناه .. كما نسينا ما انعم الله به علينا من اكتشاف كثير من ابار البترول ، حتى أصبحنا نحصل على ما نحتاج إليه منه ونصدر الباقى ..

وهل شكرنا الله على عودة الحياة إلى قناة السويس ، والعائد الضخم الذى تدره على بلادنا ، والذى تقوم به فى نهضة اقتصادنا .. يبدو أننا نسينا ولم نشكر ، كما نسينا الشكر على حفر هذه القناة ذاتها ..

ما اكثر أحداث التاريخ التى تستحق الشكر .. كيف لنا أن نحصيها ؟ !

على انه فى الحياة الخاصة لكل منا ، توجد امور عديدة تستحق ان نشكر عليها ، فى بداية العام

الجديد ..

ليتنا نتذكر كل إحسانات الله إلينا ، واحدة فواحدة ، ونقول مع داود النبى فى المزمور « سبحى يا نفسى الرب ، ولا تنسى كل إحساناته » .. ليس فقط لنا كأشخاص ، وإنما أيضا لأقربائنا وأحبائنا وأصدقائنا ، ومعارفنا ، وكل من يفرحنا فرحه ، ويسعدنا نجاحه ، ويسرنا شفاؤه ..

بل نشكر الله أيضا على مغفرته العجيبة لنا ، وكيف أنه « لم يصنع معنا حسب خطايانا ، ولم يجازنا حسب آثامنا » مثلما قال المرتل فى المزمور .

نذكر فنشكر ، ليس فقط إحسانات الله فى العام الماضى ، وإنما فى كل ما سبقته من أعوام ، والنعمة التى نعيش فيها الآن .

★★★

أمر آخر نحتاج إليه فى نهاية كل عام وبداية عام جديد .. وهو أن نجلس إلى أنفسنا ، ونفحص ذواتنا .

ما أكثر ما ينشغل الناس بحفلات رأس السنة وبرامجها والإعداد لها ، بحيث يكونون فى مشغوليات ولقاءات واهتمامات ، لاتعطيهم فرصة على الإطلاق للجلوس إلى أنفسهم ، جلسة لتفتيش النفس وفحصها هى وظروفها كلها .. جلسة حساب ، وربما جلسة عتاب ، أو عقاب .

إن بداية عام جديد هو مناسبة هامة لمحاسبة النفس ، سواء من جهة أخطائها ونقائصها ، أو من جهة طباعها وعاداتها الثابتة فيها ، أو من جهة علاقاتها مع الله والناس . وإن كانت هناك أخطاء ، مع من كانت ؟ وما أسبابها وما طرق تفاديها ؟ وهل هى أخطاء عارضة أم ثابتة تحولت إلى عادات أو طباع ؟ وهل هى مقصورة على الذات أم تمتد إلى الآخرين ؟ وهل هى كامنة فى القلب والفكر ، وفى المشاعر والأحاسيس ، أم هى مكشوفة للناس ينتقدونها ؟ !

ليت جلستك يا أخى مع نفسك ، تكون مرآة روحية لك .

تعطيك صورة صادقة عن نفسك ، صورة طبيعية تماما بغير رتوش ، بغير دفاع ، بغير تبرير ، بغير مجاملة للذات ، بغير تدليل لها .

إنك قد تستاء ، إذا كشفك إنسان ، وأظهر لك أخطاءك التى تجرحك معرفة الناس لها ، ولكن لا يكون لك هذا التأثر ، إذا ما كشفت نفسك بنفسك ، لكى تعرفها فتصلحها ، ولكى تعرف أمراضها فتعالجها .

ولتكن جلستك مع نفسك جلسة ضمير نزيه ، أو قاض عادل يحكم بالحق .

جلسة صريحة وحازمة وحاسمة ، حاسب فيها نفسك على كل شىء ، على الخفيات والظاهرات ، ليس فقط على الأخطاء فى السقوط ، وإنما أيضا على توقف النمو ، فالمفروض أن تنمو باستمرار ، فى حياتك الروحية ، وفى معرفة الله ، وتنمو فى محبتك للناس ، وفى خدمتك للمجتمع الذى تعيش فيه . تنمو فى الفضيلة ، وفى المعرفة ، لاتكن حياتك واقفة ، ولا متجمدة فى

وضع معين ، إنما حياة متحركة ، سائرة دواما إلى الأمام ، نحو الخير والكمال ..

حاول في جلستك مع نفسك أن تخرج بخطة جديدة للعام الجديد .

خطة عمل ، أو خطة عملية ، ومنهج حياة ، وأسلوب تنفيذ ..

أقول هذا ، لأن كثيرا من الناس يعيشون في دوامة ، لا يعرفون فيها إلى أين يسيرون ، أو كيف يسيرون ؟ ! يسلمهم الأمس إلى اليوم ، ويسلمهم اليوم إلى غد ، وهم في متاهة الأمس واليوم والغد ، لا يعرفون إجابة على من يسألهم : إلى أين ؟

إناس يعيشون في غيبوبة عن روحياتهم وأبديتهم ! !

وخط سيرهم ليس واضحا أمامهم ، وربما يهتمون بتفاصيل كثيرة ، ولكن الهدف تائه عن أعينهم ، والخطوط التي تشدهم إلى واقعهم هي خطوط قوية ، كأنها سلاسل لا ينفكون منها ، لذلك هم في حاجة إلى جلسة هادئة وهادفة مع أنفسهم ، يفحصون فيها كل شيء ، بكل تدقيق ، وبكل صراحة ، ويصلون إلى حل .

في جلسة تخطيط للمستقبل ، وفي تفكير فيما يجب أن يكونوا عليه في العام الجديد .. تفكير في جو من الصلاة ، وعرض الأمر على الله ، لكيما يمنحهم نعمة وإرشادا وقيادة روحية في كل ما ينوون ويعتزمون ..

لتكن جلسة مع نفسك لتقييمها ، وإعادة تشكيلها من جديد إذا لزم الأمر :

راجع حياتك كلها ، لا تقل « هذه هي طباعي » أو « هذه هي طبيعتي » . كلا ، فالذي يحتاج فيك إلى تغيير ، ينبغي أن يتغير ، وليست طباعك شيئا ثابتا ، فكما اكتسبتها يمكن أن تكتسب غيرها ، بالعزيمة والتدرب والممارسة . وثق أن كل مافيك من أخطاء هو أمور عارضة يمكن أن تزول ، وإن أردت تصحيح شيء في نفسك ، فلن تكون وحدك ، بل سوف تسندك نعمة الله ، لأنه يريد لك الخير ويساعدك عليه . إنه تبارك اسمه « يريد أن جميع الناس يخلصون ، وإلى معرفة الحق يقبلون » ..

وليكن العام الجديد عاما منتصرا في حياتك :

تنتصر فيه على نفسك ، وعلى أهوائك وعاداتك ، وتنتصر في حروب الشياطين ، وعلى كل العثرات التي تأتيك من خارج ، مصمما أن تحيا حياة النصرة ، وأن يقودك الله في موكب نصرته ، ويمنحك الوعود التي وعد بها الغالبين ، الذين بقوة من الله غلبوا الخطيئة والشيطان .

وفي الوقت نفسه استخدم جميع طاقاتك ومواهبك استخداما سليما ..

إن كان الله قد منحك مثلا موهبة ذكاء ، استعملها للخير ، ولا تتخذها للإضرار بغيرك ، ولا للفخر والخيلاء والكبرياء ، ولا لمجرد الانتصار على الغير ، ولا لتنفيذ رغبات خاطئة ، واعلم أن كسب محبة الناس أفضل بكثير من الانتصار على الناس ، أو في جدل أو في منافسة ..

وإن كان الله قد وهبك طاقة حب، فلا تجعلها تنحرف، وإنما اجعلها حبا للخير، وخدمة للناس، وليكن حبك طاهرا وللكل وبعيدا عن الذات. ولا تحب البعض على حساب البعض الآخر، كن عادلا فى توزيع محبتك على الناس، ولتكن محبتك لخيرهم.

★ ★ ★

وليكن العام الجديد، جديدا فى كل شىء، يشعر فيه الكل انك قد صرت إنسانا جديدا، متميزا فى كل شىء.

ولا يكون مجرد عام جديد فى التقويم، يميزه أنه عام ١٩٩٢، بل ليكن جديدا بالنسبة إليك، تحيا فيه بقلب جديد، وبفهم جديد، أفضل من ذى قبل.

هذا التجديد يشمل عملية تنقية الفكر والمشاعر. ولايحدث هذا إلا إذا دخلت إلى قلبك محبة الله ومحبة الخير.

وليسأل كل إنسان نفسه بصراحة: ما سر عدم الثبات فى حياته؟ لماذا تعلو حياته وتهبط؟ ولماذا يتوب ويسقط؟ ذلك لأنه يتعامل مع الأخطاء من الخارج فقط، بينما القلب ليس خالصا لله، يقاوم الأخطاء من جهة الفعل، مع بقائها من جهة الحب، ويوجد فى القلب إثنان أو ضدان، يقاوم أحدهما الآخر ويقاسى الإنسان من هذه الثنائية التى يعيشها.

إن محبة الله، ومحبة الخير، هى مثل نار تطهر النفس وتنقيها، ولنضرب مثلا بالفحمة والجمرة.

تصوروا مثلا قطعة سوداء من الفحم، كل من يلمسها يتسخ بها، هذه الفحمة دخلت فى المجمرة، وتحولت من فحم إلى جمر، وأخذت حرارة لم تكن لها من قبل، وشع منها نور وضياء لم يكن لها، بل حتى لونها الأسود صار يحمر ويتوهج.. وصارت لها طبيعة جديدة تختلف تماما عن ذى قبل. إنه التجلى العجيب الذى تتحول به الفحمة إلى جمرة، بعد أن دخلتها النار.

فهل العام الجديد بالنسبة إليك، سيكتسب هذا التجلى؟

هل تشعر فيه أن حرارة قد دخلت إلى قلبك، وجعلت نفسك تشع بالنور، وتنتقل حرارتك إلى إرجاء الوسط المحيط بك، وتعطيه دفئا.. ليت الأمر يكون كذلك.

اطلب إلى الله أن يسكب محبته فى قلبك، وقل له فى صلواتك:

«لا أريد يارب أن يكون الخير وصية أجاهد للوصول إليها، إنما أريد أن يكون الخير متعة فى قلبى أحبها، وتلقائية فى حياتى أعيشها».

أعطنى يارب أن أحبك، وأن أحب وصاياك، وأن أرتل مع داود النبى فى المزمور «محبوب هو اسمك يارب، فهو طول النهار تلاوتى»... وحينما تسكب يارب محبتك فى قلبى، سوف أحب الخير، وأحب الناس جميعا، وأصنع الخير مع كل أحد بدون تفريق، بل أحب كل الكائنات، لأنها كلها من صنع يديك، إنها خليقتك..



بهاء طاهر



خالتي صفية والدير

أسطورة سياسية !

بقلم : د. سيد البحراوى

فى هذه الرواية ، لانستطيع أن نعتبر أن العودة إلى مرحلة الطفولة ، أو الكتابة من منظور الطفل أو الصبى سوى مدخل لحكى الأسطورة الواقعية أو التاريخية . أقصد أسطورة صفية وحربى التى يتداخل فيها الصبى كمشاهد محب واليك القنصل كقامع وحارف ومكون اساسى لتعقيد الأسطورة ، ثم الدير وخاصة المقدس بشاى كحامٍ ومعلم ورابط بالجذور . وهذه الاسطورة تنبت وتعيش فى واقع حى ومعروف تماماً ، سواء على المستوى الاجتماعى أو على المستوى السياسى ..

إذا أردنا أن نعرف الاسطورة ، الكامنة فى الرواية ، فإن علينا أن نتجاوز المستوى الأولى للحدث والذى يبدو وكأنه قصة ثأر تقليدية فى صعيد مصر رغم التطورات (الحضارية) التى عرفتها هذه العادة فى عقدى الخمسينات والستينات ، نتجاوز هذا المستوى لنقف عند نصين أساسيين ، أو لنقل أنهما نص واحد جاء فى بداية الرواية ، ثم جاء مع بعض التعديل فى

نهاية الرواية .

فى ص ٣٨ من الرواية وفى فصل معنون بـ "خالتى صفية" جاء بعد فصل أول يبدأ الحكى من منظور الطفل وتجربته ، نجد النص التالى : "تقول ورد الشام إن صفية تضرج وجهها لما حمل أبى إليها الخبر وسألته بصوت خافت "حربى قال ذلك ؟" فرد أبى مستسلماً وهو يزفر "نعم يابنتى حربى قال ذلك" .. تقول أختى أن صفية رفعت بعد ذلك رأسها وكانت عيناها نصف وجهها وكان فيهما البريق الغريب وقالت لأبى بهدوء : أنا موافقة ياوالدى .. سأتزوج القنصل وسأعطيه ولداً" .

وفى الفصل الأخير من الرواية ، قبل النهاية بقليل ، نجد النص التالى : "وكنت أزورها مع أبى فى تلك الأيام ولم تكن وقتها تتعرف على أحد . ولكنها ذات يوم أفاقت من غيبوبتها وتطلعت إلى أبى الذى كان يقف الى جوار سريرها .. ظلت تنظر اليه فترة بعينين متعبتين ، لم يغب جمالها رغم كل ذبولها ، وقالت بصوت خافت ، صوت طفولى : نعم ياوالدى . اعذرنى .. لا أستطيع أن أقوم .. ولكن إن كان حربى يطلب يدى فقل للبك إنى موافقة .. أنت وكيلى ياوالدى ... وأنا موافقة على أى مهر يدفعه حربى .. لا تشغل بالك بالمهر .. ثم أغلقت عينيها مرة أخرى ودخلت بعدها فى غيبوبتها الأخيرة" .

فى كل من النصين جملة محورية تشكل بؤرة الأسطورة جملة النص الأول هى "أنا موافقة ياوالدى ، سأتزوج القنصل وسأعطيه ولداً" وجملة النص الثانى "ان كان حربى يطلب يدى ، فقل للبك إنى موافقة" فى كل من الجملتين المتكلم هو صفية ، والمخاطب هو الوالد (المستعار) وموضوع الحديث هو الزواج من شخصيتى البك وحربى . غير أن سياق كل من الجملتين مختلف عن الآخر . سياق النص الأول سياق حياة : حربى حى والبك حى وصفية فتاة فى قمة جمالها وتألقها . وسياق النص الثانى سياق موت : حربى والبك ماتا ، وهى فى طريقها الى الموت .. ومع ذلك فإن محتوى القول فى الجملة الأولى هو محتوى موت ، ومحتوى القول فى الجملة الثانية هو محتوى الحياة ، أى أن ثمة صراعاً حاداً بين سياق كل جملة ومحتواها . كان يفترض أن تقال الجملة الثانية فى سياق الجملة الأولى والعكس أيضاً صحيح . ولكن هذا لم يحدث وهذا هو الذى شكل الأسطورة ... والرواية .

إن ما أسميته ـ من قبل ـ بالأسطورة يخرج عن إطار المعنى الاصطلاحى الضيق والدقيق ، ولكنه لايبتعد عنه تماماً . الأسطورة ـ هنا ، علاقات خفية وكامنة ، وغير منطقية ، ولكنها من القوة بحيث تصبح هى المحرك الأساسى للسلوك والفعل ، كما هو الحال فى هذه الرواية ، وهذه الاسطورة ليست شيئاً ميتافيزيقيا ، وإنما هى بنت كوابت الواقع وقواهره ، تلك التى تمنع حركة الحياة والعلاقات

من أن تكون منطقية ومفهومة ، ومن هنا ، كانت تسميتى لها من قبل أيضاً ، اسطورة واقعية .

● صفية .. جمال اخاذ !

فى هذه الرواية ، يبدو كل من حربى وصفية شخصيتين أسطوريتين كما يتصورهما الإنسان العادى ، كلاهما يصلح بطلاً شعبياً ، لأنه يتمتع بخصائص جسدية ونفسية متميزة عن غيره من البشر المحيطين به .

ومنذ الصغر كانت صفية تلفت الأنظار بجمالها . كانت دقيقة الملامح . صغيرة الفم والأنف ، وكلما قصت حزة من شعرها الأسود نما واسترسل على ظهرها ناعماً وغزيراً حتى يتجاوز الطرحة السوداء التى كانت تغطى كتفيها وظهرها . أما عيناها فكان جمالهما فريداً وكانتا ملونتين ولكنى لا استطيع أن أصف لونهما ، أقرب وصف لهما أنهما كانتا عسليتين فاتحتين فى الظل ، أما فى الشمس أو فى النور فكانت هاتان الحدقتان الآسرتان تصبحان ذهبيتين وتميلان إلى الخضرة وتمتزج فيهما ألوان كثيره أخرى .. كثيراً ما رأيت فى صغرى رجالاً ونساء يبترون حديثهم حين تتطلع خالتى صفية من خلال أهدابها الكثيفة إلى من تحدثه .. وكانوا يتمتمون بافتتان بعد لحظة صمت "بسم الله ماشاء الله" .

ومثلما كانت خالتى صفية جميلة بين البنات ، كذلك كان عمى حربى جميلاً بين الرجال ...

كان حربى طويل القامة ، بشرته خمرية ، ولكن فى خديه دائرتين مشربتين بحمرة الدماء يحددهما شاربه الأسود الذى يزيده وسامة بطرفيه المفتولين باستمرار ، وكانت تبرز فى رقبته العالية تفاحة آدم بشكل واضح ارتفاعاً وانخفاضاً كلما تكلم أو غنى . فقد كان صوته القوى هو أجمل مافيه" (ص ٢٦ ـ ٣٠) .

هاتان الشخصيتان مؤهلتان ، فى القص الشعبى ، بأن يتحابا ويتزوجا ، أو تقوم بينهما العوائق التى تحول دون تحقيق هذا الزواج أو الحب .. وعلى غير العادة فى المجتمع التقليدى ، فإن الجماعة تبدو متقبلة تماماً للعلاقة المحتملة : الزواج بين حربى وصفية . ومن ذلك تسيران الحبكة فى اتجاه العوائق التى تحول دون الزواج .

تبدو صفية محبة لحربى ، ورغم أن الراوى لايستطيع أن يجزم بهذا ، فإن هناك ـ فى الرواية ـ من الشواهد مايشير إلى أنها بالفعل تحبه وتتطلع الى الزواج منه :

.. هل كانت صفية تحب حربى ؟

لا استطيع أن أجزم ، غير أنى أتذكر من بدء طفولتى أنها ، وبقية أخواتى ، كن فى العادة يتلصصن عليه من خلال الأبواب المغلقة ... ولا أذكر إن كانت هى أو واحدة من أخواتى التى قالت عنه حين فاجأتهن مرة وهن يختلسن النظر اليه "سبحان الله ... مثل فلق القمر" ...

واذكر فى مرة أخرى انى رأيت خالتى صفية جالسة وحدها فى صحن

الدار ولم يكن في البيت سوانا وهي تغني بصوت خافت "حاربي قلبي" . ومع أن أغنية أمونة البيضاء كانت أغنية مرحة راقصة اللحن ، إلا أن خالتي صفية كانت تجلس يومها على الأرض مقرفصة ، ممسكة رأسها بين يديها وهي تغني الكلمات ببطء ، بلحن التعديد الحزين" . ص ٣٠ - ٣٢

أما حربي فليس هناك من الدلائل ، مايشير إلى أنه يحب صفية . أو العكس . والمؤشر الوحيد على أنه يحب غيرها هو أنه كان على علاقة بالغجرية أمونة البيضاء التي عشقته وغنت تلك الأغنية الغزلية تعبيراً عن هذا العشق . غير أن هذه العلاقة التي تعترف بها الجماعة "لمن لم يتزوجوا أو حتى لبعض المتزوجين الذين فلت عيارهم" ، "لم تكن سبباً يمنع حربي من التقدم لصفية لو أنه أراد" ، لأن مجمل ظروف الشخصيتين ، والخصائص التي أشرنا اليها والتي سترد فيما بعد ، أهلتهما ، في نظر جميع أفراد الجماعة للزواج ، إلى حد أن تقدم البك لخطوبة صفية أخذ - في البداية - من قبل الجميع ، على أنه خطوبة صفية لحربي ، ولكن المفاجأة كانت أن حربي هو الذي جاء يخطب - برضاه وبحكم العلاقات العميقة الودية (القهرية ضمنا والتي ستتفتح قهريتها فيما بعد) - صفية للبك . وعلى أساس هذا الفعل الانقلابي ، غير المعتاد ، تتبنى جميع أحداث الرواية المفجعة على كافة المستويات ، لا الخاصة بالشخصيات الرئيسية فحسب ، وانما بمجمل الشخصيات في الرواية ، وبمجمل الأماكن ، بما فيها المكان الأكبر .. الوطن

● صراع بين صفية وحربي !

تتزوج صفية من البك وتنجب له "حسان" وتبدأ الوساوس والدسائس في إقناع البك أن حربي يريد قتل حسان حتى لاينافسه في الوراثة مما يدفع البك لمعاداة حربي ، ومطاردته ثم الإمساك به وتعذيبه إلى حد الاقتراب من الموت ، وفي تلك اللحظة لم يكن أمام حربي إلا أن يقتل البك ويهرب ثم يسلم للبوليس ويسجن ثم يخرج من السجن ويعيش في الدير ، وتتحول صفية إلى وريث لشخصية البك ، وليس فقط لأمواله ولابنه ، فتعادي حربي وتصر على قتله وتستأجر حنين ليقتله فينجح حربي في قتله ، ولكنه يموت بعد ذلك مريضاً ، وبعده مباشرة تموت صفية وهي تعلن موافقتها على الزواج من حربي ، مثلما دخلت الحياة وهي موافقة على رأي حربي بالزواج من البك ..

وتحيط بهذه الأحداث مجموعة أخرى من الأحداث الصغيرة ، لا أعتقد أن لها أهمية سوى خدمتها لتلك الأحداث الفاجعة . ولذلك ، فإن معظم هذه الأحداث ، المرتبطة بالشخصيات

الأخرى تنتهى أيضاً نهاية مأساوية . ولعل أبرز هذه الأحداث هو انتهاء المقدس بشاى ، تلك الشخصية الرقيقة الجميلة ، إلى الجنون ، ومنها أيضاً وفاة الأب وتحول الأم إلى امرأة وحيدة مهجورة ، مع الابن (الراوى) فى القاهرة بعد أن تركوا منزل الأسرة يتهدم وتعشش فيه العناكب ، مثل قصر البك القديم ـ فالمقدس بشاى هو حلم جميل بالنسبة للراوى ، ولكن أهميته تكمن فى أنه حامل الإطار الثقافى للقرية ـ أو هكذا يبدو فى الفصل الأول ، وهى أهمية خلفية تثبت الأهمية المباشرة فى الأحداث ألا وهى حمايته لحربى حينما خرج من السجن . وأفراد الأسرة (الأب والأم والراوى والأخوات) تكمن أهميتهم فى بعد حنين الراوى إلى طفولته ، ولكن الأهمية الحقيقية تتمثل فى علاقتهم بكل من صفية ، وحربى ، والبك ، فالأسرة هى الإطار الأسرى الوحيد المعروف لكل من هؤلاء الثلاثة ، والذى ينتمى إلى عسران بك الكبير ..

فالبك هو حفيد عسران بك الكبير وأكبر وارث له ص ٣٣ ، وحربى هو ابن أخته ، وهو ـ اذن ـ ابن عم لأبى الراوى .. أما صفية فهى بنت خال أم الراوى . وهما ـ معاً ـ مات أهلهما ، بحيث لم يصبح لهما عائلة سوى عائلة الراوى .. فقد كانت صفية تعيش مع هذه العائلة ص ٢٦ وكان حربى يتردد على بيتها باستمرار ويعتبره الأب أخاه الأصغر ص ٢٧ وهكذا ، فرغم الأصول الطبقية العريقة لكل من صفية وحربى ، فإن الكاتب قد حرص على أن يعطيهما ـ من البداية ـ مؤهلات لشخصيات اسطورية ، حيث أفقدهما الأهل وهما فى سن مبكرة ، وربطهما معا بأسرة واحدة ، لتنمو بينهما علاقة ، لايسمح لها القهر الطبقى ، رغم أنهما ينتميان الى نفس الطبقة ، بأن تكتمل على النحو الطبيعى ، فتتحول الى هذا العداء ذى النتائج الفاجعة ، بحيث يمكن القول إن فقدان كل منهما لأهله قد حوله الى فقير أو على نحو ما ، ومقهور على كل حال ، من قبل البك رمز الطبقة الأغنى وذى العلاقات الواسعة بالسلطة ، سواء أيام الملكية ، أو بعد الثورة التى طبقت عليه قانون الاصلاح الزراعى ،

وحددت ملكيته بمائتى فدان ، ومع ذلك فقد ظل غنياً واستطاع ، أن يقيم علاقة طيبة مع رجال الثورة . وقد ظل أبى يفخر لوقت طويل بأن المرحوم صلاح سالم زار السراى ومعه وفد من أعيان السودان ـ وبأنه كانت هناك يومها تشريفة من الجيش بالبريهات الحمراء تحيط بسراى القنصل" ص ٣٦ .

● حكاية شعبية

وهكذا يمكن القول إن الكاتب ، قد استطاع ـ عبر حبه العميق للصعيد وللحدوته ـ أن يخلق شخصيات تحمل إرث الشخصية فى الحكاية الشعبية ، وأن يخلق صراعاً قريباً من الصراع فى الحكاية الشعبية أيضاً ، بحيث

يمكن القول أنه قد قدم لنا حكاية شعبية ولكن بأسلوب كاتب روائي مقتدر ، ورؤية فنان ـ فرد ـ معاصر يحمل موقفاً مما يحدث في العالم ، حاول أن يقدمه من خلال رؤيته لما حدث في الصعيد ... إن تفسيراً سياسياً ما هو أمر ضروري ، في ضوء ما حرص الكاتب على أن يقدمه من تلميحات وإشارات مباشرة للأحداث السياسية التي مرت بها مصر ، منذ بداية الرواية . فالمقدس بشاى يلعن اليهود الذين حرموا الناس من أن تتقدس في فلسطين ، والعلاقة بين البك ورجال الثورة سبق أن أشرنا اليها ، (في الفصل الثاني) وفي الفصل الثالث (المطاريد) يتحدثون عن رغبتهم في المشاركة في تحرير سيناء فترفض السلطة ، فتحدث (النكسة) في الفصل الرابع والأخير . وهي ليست نكسة ١٩٦٧ فقط وإنما نكسة لكل الشخصيات في الرواية كما سبق أن أشرنا الى النهايات الفاجعة ..

وعلى هذا الأساس ، فربما كان الكاتب يدفعنا إلى اعتماد تفسير سياسي لأحداث الرواية التي انتهت بالنكسة . ولاشك أن الجذر الأساسي الذي سبب هذه النكسة هو زواج صفية من البك ، وتخلي (حربي) عنها . وإذا صح الفهم الطبقي لكل من البك ولحربي وصفية ، يصبح منطقيا أن زواج صفية من السلطة سواء الملكية أو الناصرية باطله ، كما أن تخلي حربي النبيل عنها ، كان خطأ فادحا وكلاهما أدى الى النكسة .

مثل هذا التفسير وارد ، دون أن يكون ضرورياً أو وحيداً ، لأن العلاقة سلطة / شعب ، ليست واضحة الحدة في الرواية ، لا بشأن الثورة ، ولا بشأن البك القنصل ، فثمة علاقات ودية كثيرة تتبادل بين الطرفين (مثلما هي ملتبسة العلاقة بين جيل الستينات والثورة) غير أن مايقوي مثل هذا التفسير ، هو انتماء الكاتب الى منطق الحكي الشعبي نفسه الذي سبق أن أشرنا اليه .. فالكاتب الذي يحب الصعيد والحكايات الشعبية ، والذي استطاع عبر هذا الحب أن يخلق مثل هذه الشخصيات ، وهذا الصراع ، وأن يتنازل عن كثير من خصائصه الأسلوبية الجميلة والتي كانت قد تبلورت في أعماله الأربعة الأخيرة ، لصالح أسلوب القص الشعبي المركز على الحدث أكثر من الغناء ، هذا الكاتب يعلن ـ عبر كل ذلك ـ انتماءه الى الشعب ـ فنياً ـ وفي الغالب سياسياً ، كما يمكن أن يفهم من شهادته في آخر الرواية . ومن ثم ، فإن ما أحب أن أسميه ـ محتوى الشكل ـ يضيف نوعاً من التدعيم للتفسير السياسي الذي أشرت اليه . ولكن دراسة أكثر عمقاً ، ربما تستطيع تقديم تفسيرات أخرى .

تميمة عنخ

لغز مفتاح الحياة

بقلم: د. سيد كريم

ارتبطت عقائد قدماء المصريين منذ نشأتها بالعالم الآخر ، آمنوا بالخير المتمثل فى تعاليم رسالة التوحيد التى ظهرت مع فجر الانسانية على ارضهم المقدسة لتفتح تاريخ الحضارة المصرية ، كما آمنوا بالشر المتمثل فى السحر والحسد وعيون الشر أسلحة الشيطان .

وقد لازم تلك العقائد قوى مضادة وهى قوى التمائم التى تدفع الاذى ، وتمنع الشر لتحمى الانسان فى حياته الاولى التى اطلقوا عليها اسم حياة التجربة التى يمتحن فيها الانسان فى صراع الحياة بين الخير والشر وفى رحلة العالم الآخر الى حياة الخلود .

● والتمائم عبارة عن اشارات رمزية اصطلاحية لكل منها تعبير خاص وفاعلية مرتبطة بما تعبر عنه سواء عن الصحة أو الشباب أو القوة أو الحكمة ألخ ولايقل عدد التمائم الاصلية التى امكن جمعها وحصرها عن ثمانين تميمة بخلاف التمائم المركبة التى تجمع بين اكبر من تميمة فى تكوين او تشكيل واحد .

بالبحث عن تاريخ التمائم وعلاقتها بتاريخ الحضارة الفرعونية تطفو على القمة تميمة عنخ (مفتاح الحياة) وينطق اسمها بضم العين ، كما هو واضح بالكتابة الهيروغليفية فى اللغة المصرية القديمة ، لابفتحها كما تم الاصطلاح عليه فى مختلف المراجع القديمة والحديثة التى سبق الكشف عن منطوق حروف اللغة على حقيقتها .

كما كان المعبود "تحوت" رسول المعرفة وحامل الكلمات الالهية وصاحب الصيغ السحرية ، فقد اعتبره قدماء المصريين حامل التمائم وحارسها ونسبوا اليه وضع الكثير من رموزها واشكالها وطلاسمها السحرية والى قرويه يرجع تفاعل اثرها فى الحفظ ودفع الشر والمناعة والعلاج واستجلاب الخير .

● اول تميمة

تعتبر تميمة عنخ التى وضفت بانها


عنخ مفتاح الحياة في
الإشارات المقطعية
الهيروغليفية
FONOGRAMS

لغز مفتاح الحياة

مفتاح الحياة اولا تميمة ظهرت ضمن عقائد ومعتقدات المصريين القدماء فكانت اول تميمة قدمها "تحوت" الى البشر ، فنسب بعض المؤرخين تاريخ نشأة ظهورها مع ظهور الكتابة الهيروغليفية الاولى وكلماتها المنطوقة التى ظهر بينها اسم عنخ فى صورة رجل واقف على قدميه باسط ذراعيه . كما احتلت مكانها فى جميع برديات نصوص العقيدة ومتونها وكتب الموتى ونقوشها وترمز فى كثير منها الى بداية خلق الحياة او مفتاحها وصورت البرديات "تحوت" رسول المعرفة المقدسة . وهو يحمل تميمة عنخ بيده ويقربها من انف الانسان لينفخ عبرها انفاس الحياة ـ وهو التقليد الذى ظهر فى كثير من نقوش المعابد والتى يظهر فيها الاله وهو يقدم العنخ لانف الملك لكى يعطيه الحياة فى الدنيا وقوة البعث فى رحلة الآخرة .

اختلف المؤرخون ومفسرو المصريات فى التوصل الى المصدر او الاصل الذى اتخذ منه الفراعنة شكل مفتاح الحياة الذى يقرب من صورة رجل واقف على قدميه باسط ذراعيه كما ظهر فى بعض النقوش البدائية القديمة . فاذا حاولنا البحث عن نشأة مفتاح الحياة فى رموز ماقبل الاسرات نجد ان "العنخ" قد اخذت شكلها عند بداية نشأتها من علامة رمز التاو T وهو اقدم تعبير عن خلق الحياة فى مراجع مخطوطات ماقبل الاسرات ويتكون رمز التاو من خطين متقاطعين يعبر الخط الافقى عن خط السماء "نوت" والراسى عن خروج الحياة من الارض وصعودها نحو السماء . وتطورت "التاو" لينقش فوق خط السماء بيضة الخلق ، وفى نماذج اخرى ظهر قرص الشمس بدل بيضة الخلق وهكذا ظهر اول شكل متكامل لتميمة الحياة التى اتخذها بعض المؤرخين رمزا لحضارة الفراعنة .

كما ذكر المؤرخ وعالم المصريات المشهور "بروجش" فى دراساته عن "العقائد والمعتقدات فى مصر القديمة" ان كهنة المصريين القدماء اتخذوا شكل مفتاح الحياة من شكل فقرة العمود الفقرى الذى اطلقوا عليه اسم "عمود الحياة" كما اتخذوا العمود الفقرى نفسه رمزا للخلق وشكلوا منه ثانى تميمة ظهرت فى قائمة التمائم وهى تميمة "زد" رمز الخلود تجمع بين العمود الفقرى الكامل واعمدة الكون او الحياة الاربعة والتى اطلق عليها القدماء اسم "تميمة اوزوريس" .

كما كشفت بعض البحوث استنادا الى بعض النقوش والبرديات القديمة بالاضافة الى بعض النماذج لتميمة عنخ التى يعبر شكلها عن عضوى التناسل (الذكر والانثى) التى ترمز الى بعث الحياة وتجددها واستمرارها

على الارض اى التطور العضوى للخلق والاستمرار . كما وجد بين حفريات الواحة البحرية نموذج *لتميمة عنخ التى تكسب حاملها الاخصاب وتمنع العقم فى تكوين تشكيلى يجمع بين عناصر الحياة واعضاء التناسل .

إلحاقا لجميع تلك البحوث والدراسات المضيئة المرتبطة بها التى قام بها قدماء الباحثون نفاجأ باجماع كثير من كتاب المصريات الاجانب بان مفتاح الحياة اتخذ شكله من "رباط الحذاء" الذى يعبر عن ترابط الحياة .

● ويقول المؤرخ ابينيفى ABENEPHI (علوم الفراعنة واساطير الاسرائيليات) ان علامة عنخ أوحاها الملك رازيال لابينا آدم ونقلها عنه نوح وكان يحملها فى سلسلة على صدره ، ثم استعملها حام فى السحر حتى اتم بها ايات كثيرة ، ثم تركها لابنه مصرايم الذى اورثها للمصريين فاصبحت من المقدسات التى يحتفظ بها الكهنة فى المعابد لفتح ابواب المعرفة واسرار الوجود بالسحر والتنجيم .

● اطلق على تميمة عنخ فى اللغة المصرية القديمة عدة اسماء منها (شا واوجا وحكت) اى الحجاب الذى يعطى حامله الحياة والقوة ويحميه من الشر والاذى والمكروه .

● التميمة والسحر !

لعبت تميمة عنخ دورا هاما فى



الحياة تنبعث من الشمس

الطب السحرى وخاصة فى الدولة القديمة حيث وصفت برديات الطب السحرى ان تميمة عنخ المعدنية كانت تشفى من لدغ الثعابين والعقارب اذ وضعت مكان اللدغة وتليت عليها بعض التعاويذ السحرية حيث تعمل التميمة على امتصاص السم وسحبه من الجسم ، لذا فكانت التميمة لاتفارق عمال المناجم فيحملونها على صدورهم اويربطونها حول معصمهم ومن الخصائص التى عرفت عن تميمة عنخ انها اذا زين بها مدخل البيت مع

ادماجها مع تميمة "واز" عين حورس ـ تحمى سكان البيت من عيون الشر والحسد كما انها اذا وضعت تحت عتبة الدار تمنع دخول الحشرات السامة والضارة من تخطى عتبة الدار .

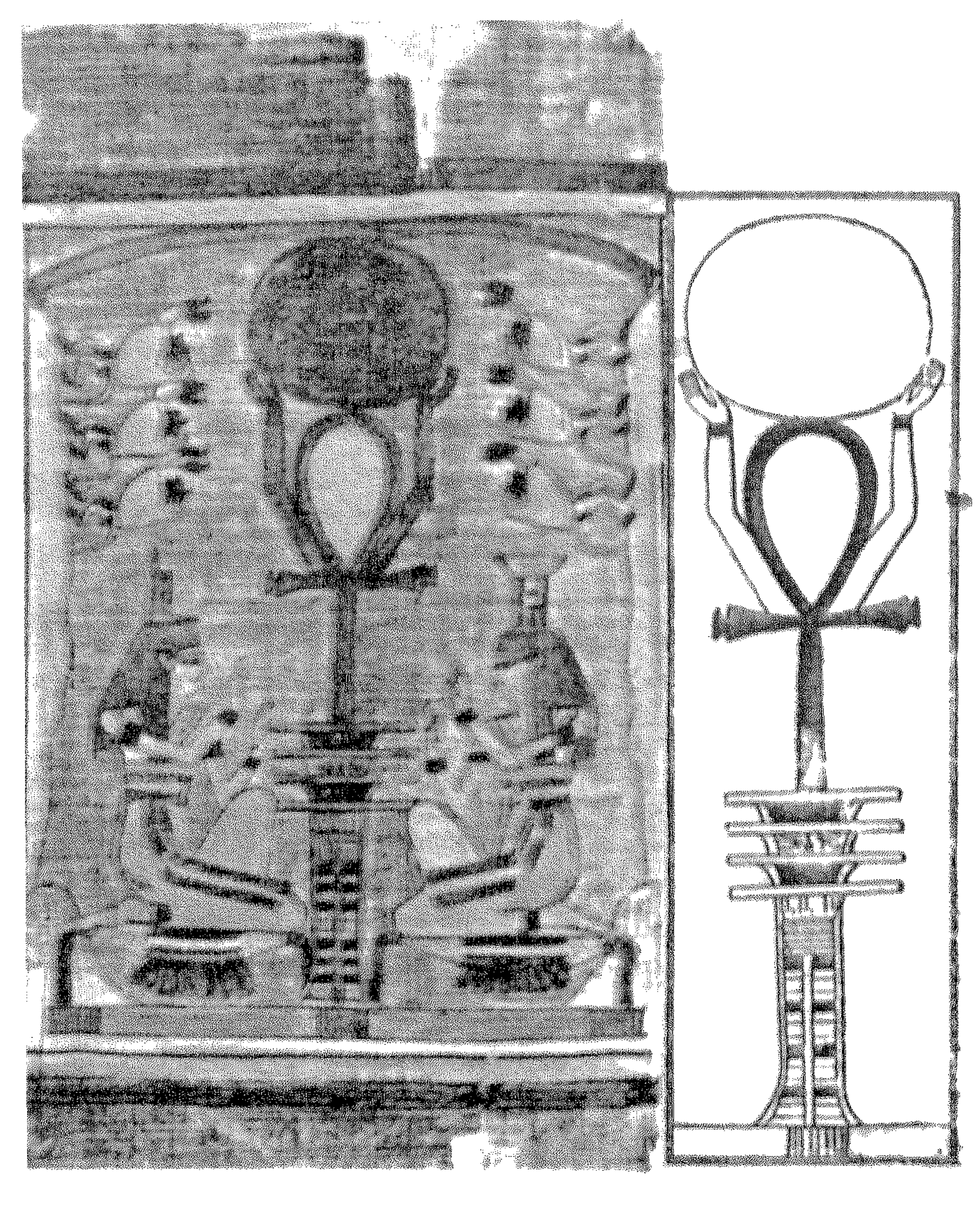
● استعمل قدماء المصريين "مفتاح الحياة" كبندول للعلاج

صليب المسيحية ومفتاح الحياة عنخ حفريات العصر المتاخر .. نشأة الصليب



والكشف عن الأمراض لعلاقته الوثيقة بين شكلها التكوينى وتأثره بالموجات الاشعاعية التى يصدرها جسم الانسان فامكن بواسطة البندول وحركته الدائرية والتعرف على نوع الاشعاعات الصادرة من الجسم والوانها وموضعها فى اعضائه وعلاج الامراض بتوازن وتعادل قواها فى الجسم ، وقد احتل العلاج بالبندول الفرعونى مكانة فى الطب العالمى الحديث وانشئت له معاهد علمية خاصة فى كثير من الدول بعدما ثبتت فاعليته العلمية اسوة بالابر الصينية التى ثبت ان كهنة قدماء المصريين كانوا يمارسون العلاج بالابر فى الدولة القديمة وكان العلاج بواسطتها يعتبر من معجزات الطب السحرى الذى نسب الى "ايمحوتب" الكاهن والعالم المصرى ساحر معبد منف والذى اطلق عليه الاغريق اسم "اله الطب" وكانت الابر المصرية القديمة تصنع من العاج وتنقش على قبضتها صورة مفتاح الحياة وبعض التعاويذ السحرية المرتبطة بفاعليتها .

● للمادة التى كانت تتألف منها التميمة تأثير كبير على قوة فاعليتها . فالذهب المعدن المقدس وصفوه بانه من لحم الاله او شعاع الشمس المتجمد والذى يرمز الى الخلود والبقاء لانه المعدن الوحيد الذى لايبلى ولايفنى فكان يصنع منه مفتاح الحياة المقدس الذي يحمله كبار الكهنة والملوك كما اعتبروا ان لكل



نظرية الخلق (برديات كتاب الموتى) مفتاح
الحياة يتوسط العمود الفقرى (حب) والسماء
حاملاً قرص الشمس رمز الوجود .

لغز مفتاح الحياة

مادة من المواد التى تصنع منها التميمة فاعليتها الخاصة فى الدور الذى تقوم به فدخل فى صبغها الاخشاب المقدسة والعاج والابنوس والاحجار الكريمة على انواعها .

كما كان للألوان الخاصة بالخامات التى تصنع منها التميمة تاثير فى فاعليتها فاللون الازرق لمنع الارواح الشريرة وعيون الحسد واللون الاخضر للصحة والشباب واللون الابيض للطهارة والاخلاص واللون الاسود لجلب الحظ .

اما اللون الذهبى فانه اللون المقدس لانه يجمع بين جميع الوان الطيف وخاصية فاعليه كل منها مع المحافظة عليها من الفناء فاطلق على التميمة التى تصنع من الذهب بالتميمة الجامعة لان فاعليتها تجلب جميع عناصر الخير من الصحة والقوة والحظ والحب والحكمة وتقاوم أو ترد جميع عناصر الشر من الحسد والمرض والفقر الخ .

وكانت التميمة الذهبية المقدسة تزين بتطعيمها بالاحجار الكريمة بأختلاف الوانها الطبيعية الفعالة .

كما لعبت تميمة مفتاح الحياة دورا حيويا فى صناعة المصاغ وادوات الزينة والاثاث وكانت لها بصماتها الواضحة فى معالم الطراز فى الفنون بانواعها امتدادا الى الطراز المعمارى وعناصر زخرفته فى مختلف العصور .

فى اعياد الحصاد صنع المصرى القديم من سيقان عيدان القمح نماوذجا خاصة لتميمة مفتاح الحياة كانوا يعلقونها على اغصان الاشجار المطلة على حقول القمح ومزارعه ويرفعونها على ابواب منازلهم تيمنا بالخير ووفرة المحصول وتعبيرا عن شكرهم للاله كانت تميمة مفتاح الحياة تصاحب القرابين المقدمة للمعابد فيظهر حامل القرابين وتمائم عنخ تزين أياديه حاملة القرابين ، وكانت التمائم التى تقدم مع القرابين تصنع من المعادن النفيسة التى يحتفظ بها فى القاعات المقدسة بالمعابد ويحمل كل منها أسم مهديها الى الالهة .

فى الحرب كان القادة العسكريون يحملون مفتاح الحياة معلقا على صدورهم او منقوشا على اساور معاصمهم كما وجد بعضها منقوشا على الدروع كمفتاح للنصر والحماية .

انتقل تقليد حمل القادة العسكريون من مصر الى اوروبا مع عودة الجنود والقواد الرومان من مصر فحملها كثير من الملوك والقواد العظام وتحتفظ المتاحف العالمية باكثر من تميمة من التمائم المصرية التى كان يحملها قواد الغرب من بينها التميمة التى كان يحملها شارلمان فى معاركه المشهورة

والتى اهداها له احد الكهنة المصريين .

● من لوحات الآثار الخالدة لمفتاح الحياة التى تظهر فيها ايادى اشعة شمس الاله اتون تحمل مفتاح الحياة لاخناتون .

● الصليب .. ومفتاح الحياة

اختلف مؤرخو العقائد والاديان فى المرجع الذى اتخذ منه الصليب رمز المسيحية ـ شكله . فنسبه البعض الى الصليب الذى حمله السيد المسيح فى طريق الالام ليصلب عليه . بينما نسبه البعض الآخر الى بعض الرموز المصرية القديمة المأخوذة من كتاب الموتى التى تعبر عن البعث والخلود والصعود من الارض الى السماء والممثل فى علامة "التاو" اصل مفتاح الحياة .

ان مصر .. مهد عقيدة التوحيد ومهبط الاديان والارض الآمن الذى أوى اليه جميع الرسل والانبياء كان كهنتها الموحدون اول من تنبأ بنبوة السيد المسيح حيث تضمنت احدى اساطير العقيدة انتظار عودة المعبود حورس منقذ البشرية من الشيطان ست ـ عودته مع امه ايزيس التى حملت به من روح اوزير .

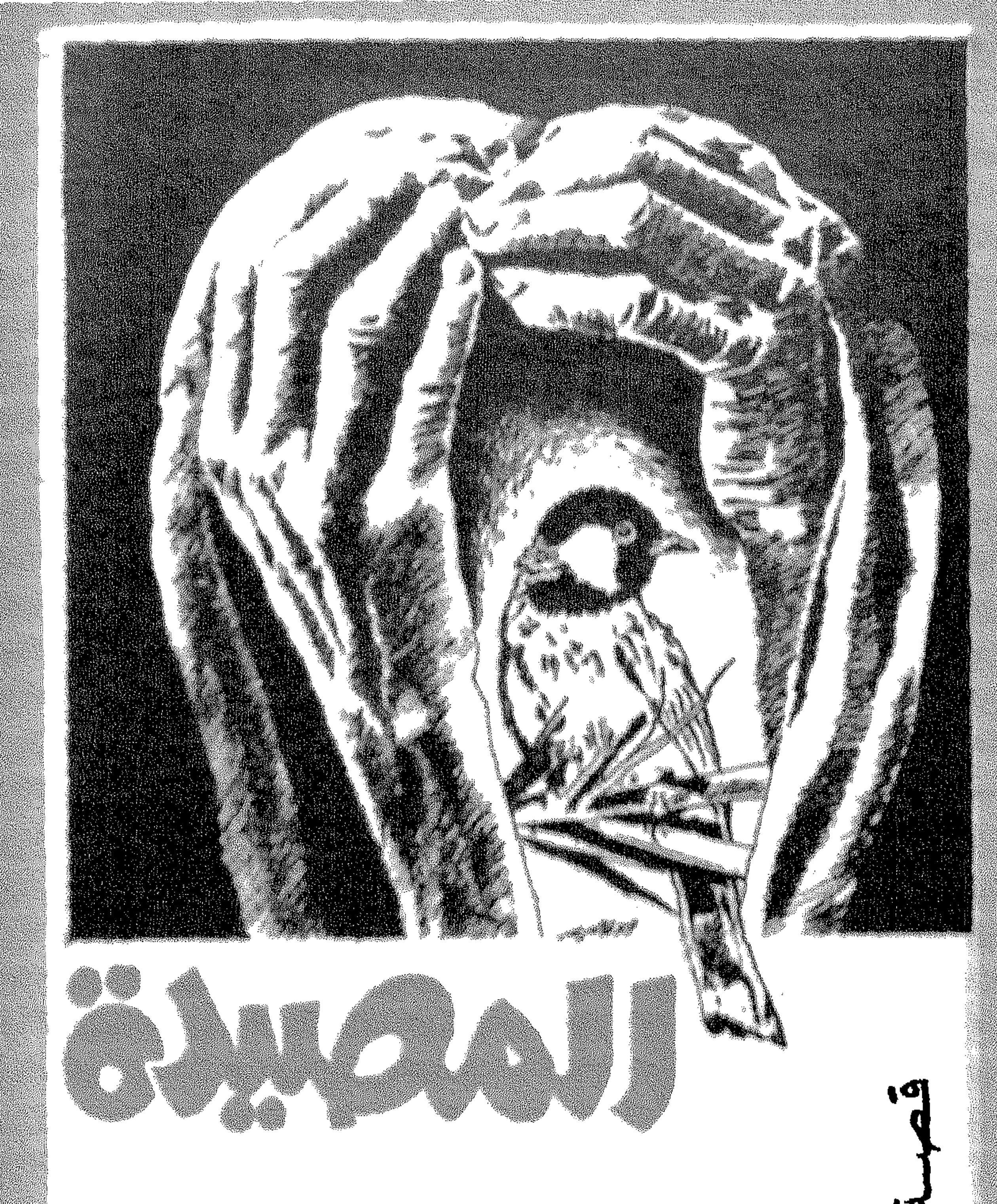
عندما بلغ الكهنة اخبار وصول الطفل المعجزة الذى تحمله امه من بلاد بعيدة من البلاد التى حملت فيها ايزيس بحورس من روح الاله اوزوريس على شواطىء بيبلوس وقد صحبت الطفل وامه الكثير من المعجزات من بينها معجزة شجرة البلسم المقدسة بغابة اون بالمطرية والتى انحنت اغصانها لتخفيه ، وتحميه من جنود هيرودس الذين تبعوه للقضاء عليه ، بالاضافة الى ما وصفه الكتاب والمؤرخون عن المعجزات التى ظهرت فى المزارات والمعابد التى قام بزيارتها اثناء رحلة الهروب والتى انتهى المطاف بها الى معبد (الدير المحرق) حيث اقام به حتى بلغ سن الشباب وغادره الى بيت المقدس للدعوة الى رسالته السماوية المقدسة .

عند مغادرته ارض مصر وضع الكهنة على صدره تميمة عنخ (مفتاح الحياة) لتحميه فى الدنيا والاخرة .

وظهرت صورة السيد المسيح الطفل فى احدى الايقونات القديمة وتميمة مفتاح الحياة تزين صدره كما ظهر فى احدى اللوحات القديمة حيث تزين صدره صليبا اتخذ شكلا يجمع بين تميمة عنخ واضلاع الصليب المروحية المثلثة والذى ظهر فى بعض النقوش القديمة من العصر القبطى الاول وبعض نقوش الدولة القديمة .

وهكذا الصليب او تميمة مفتاح الحياة رمزا للمسيحية وهو يعبر عن صعود السيد المسيح وخلود حياته لا عن صلبه كما شبه لهم .

فالصليب رمز المسيحية خرج من مصر قبل صلب المسيح وانتقل الى العالم الغربى عن طريق الكنيسة المصرية .



المصيدة

قصة قصيرة

بقلم : احمد عبد الله متولى

وريشة الفنان : محمد ابو طالب

يمشي على الرصيف .. بين موجات من اللحم البشري .. الساخن .. اللزج يشعر بغربة رغم الزحام .. يمشي متهدلا .. يحمل طائر الحزن على كتفه .. تتصفح عيناه لافتات الدكاكين ، والمشارب ، والحوانيت المتزوية في اشتباه .

يقطع الطريق منحنى فجائي ، إالعين لا تعي هذا السيل من الصور . لا يدري كيف وصل الى هذه البقعة الصغيرة من العالم ، هذه البقعة الهائلة .. الفاصلة بالاسواق والهمهمات ، والوجوه البليدة ، المتخشبة .

غابات من الاسمنت .. وحين اراد شقة لم يجد .. الارقام المطلوبة فوق طاقة اى موظف ، ارقام فلكية .. ولحل المشكلة . كان النفى الى الخارج لخدمة الاخرين او النفى الى الداخل .. وحين عرض على خطيبته ان يعيش فى الواحات .. او فى الصحراء .. اتهمته خطيبته بالجنون وهاجمته حماته .. وقالت لابنتها : اما قلت لك .. انه مجنون رسمي ! .

سيل من المطر الاسود ينهال على قلبه ، وعلى المدينة ، والذى يؤلمه كل الالم .. هو انه لا يعرف الحل ! .. اتهمه زملاء العمل بانغلاق التفكير .. وانه "لا يتفاهم" .. ماذا لو تغاضى عن بعض "الشكليات" . "ياخي عش ودع غيرك يعيش" ، "الدنيا قرش" العالم كرش .. همهمات جهنمية .. همسات هي مسامير فى نعش الفؤاد ..

يمشي فى دروب طويلة .. يطرد هواجس الهاموش .. يمنع اللون الرمادى ان يتسلق الى ضميره !

كيف انتهى به البحث عن شقة .. الى لاشىء .. غرفة مفروشة صغيرة فوق السطوح .. غرفة على شكل حرف ل .. وصالة صغيرة .. مستديرة مثل حبل المشنقة .. صاحبة العقار سيدة نشطة تعرف ما تريد .. وكثيرا ما ترتطم به على السلم اثناء انقطاع التيار الكهربائى .. الامر صدفة !

انزوى فى ملابسه .. تنكمش اعضاؤه فى داخله .. ياتى متاخرا كل يوم لانه يمشي بلا هدف .. يجوب المدينة الفسيحة .. ويعود كل ليلة وقد دب الارتخاء فى قدميه .. يضع الجريدة اليومية تحت ابطه . وربما كتاب شعر . وكيس به بعض العشاء الخفيف جبن ، زيتون اسود ، زيتون اخضر ، جبنة رومي .. واحيانا بسطرمة .. او قرطاس به بيض .. وقليل من الخبز .. ياكل حتى تمتلىء معدته .. وهو يتناول الطعام وعيناه على الجريدة .. واذناه مع الراديو .. يستمع إلى "دشيش" الاقطار البعيدة . ويمزج ملح طعامه باخبار الهزائم والنكسات ، والتبريرات العقيمة .. وربما استوقفه خطف طائرة .. عرب .. يخطفون عربا ! .. وصور لمضيفات جميلات مقتولات ! وكانت تصعد الى سطوح المنزل .. امراة اربعينية .. لاشك انها صاحبة المكان .. هل جاءت تطلب الهواء النقى .. ام تطل من فوق

المصيدة

قصة قصيرة

السطح على واجهة البيوت الاخرى .. واحيانا يجلس فى يوم الاجازة .. ياتى بالكرسى وكاس الشاى .. والجريدة ولكنه يستمتع اكثر برؤية النمل وهو يجرى فى الشوارع . وعلب صغيرة .. تقطع اشارات المرور ..

واحيانا تفتعل الصدفة نفسها .. وتاتى السيدة الجريئة .. تطلب من يؤنس وحدتها !! . كانت لديها الجراة .



العينان تلتهمان كل شىء .. الوجه الممتلىء .. الساعد الابيض .. الملىء بالأساور الذهبية وخاتم ماسى .. ولون شعرها الاسود يحيط بوجهها العريض .. يعلوه إشارب احمر .. لا يدرى .. ربما يتوهم ان لديه دائما فرصة متاحة ، لكنه لا يعرف لماذا يخاف .. انها إمراة جميلة .. غنية .. سهلة .. تاتى اليه مثل رشاوى الصباح ، لكنه اعلن الصوم عن الطعام واللحم .. شىء فى داخله يدعوه لرفض دعوة عالم متاكل .. اختلطت فى اعماقه معانى الطموح .. والاستشهاد . كان يجرى وراء اوهام .. العلم بلا حدود .. الفن بلا تخوم .. الفكر هو المستقبل .. ولكن قدميه متورمتان .. نعم حفيت قدماه على سكن يصلح لعائلة وهمية .. يمكن ان يكوّنها فى المستقبل .. الكل يطلب جزية تقصف الظهر .. لا يدرى .. لماذا يتقزز من عالم متهالك .. رغم انه ابن تاجر بسيط ينحدر من سلالة فلاحين

بسطاء .. جاءوا للمدينة هربا من انغلاق القرية .. وربما وراء سراب وأوهام .. وربما وراء الخبز القمحى الطازج .. او السهر .. او نساء اهل البنادر .. وكانت النتيجة .. مخيبة للبعض وباهرة للبعض الأخر .. انفصل البعض عن البعض .. ابوه كان دائرة تدور في التيه .. وراح يلحق ـ الأب ـ اوهام السعادة مع لقمة دسمة .. محمولة بيد امرأة جميلة .. ويتقلب فى فراش ناعم .. افضل بكثير من النوم على حصيرة جافة فوق الفرن .. فى حوارى طينية .. وليالى شتوية وهو من صلب رجل لا يعرف طعم الخصوصية .. فلا مانع عنده ان يعيش مع عدة اسر .. فى شقة واحدة . نظام الثكنات .. مما جعل صاحبنا يمقت هذه اللزوجة .. واختلاط الانفاس .. والاجسام التي لا تمنع يد لامس .. واضحى صاحبنا يعانى ويتنفس الغربة والغرابة والاستغراب .

ماله يتنفس الماضى المعبق برائحة الغبار .. ماله لا يتوقف عن ذكريات سرطانية .. وخلايا خبيثة .. انه دائما كان يبحث عن الخصوصية ..

انه يمشي .. يطول به الطريق .. تطالعه عشرات الوجوه ومئات الأسماء والاف الامكنة وملايين الالوان وتهاديل التفاصيل ..

ولكن هل ابتعد كثيرا .. أم ان الأشياء هي التي ابتعدت عنه ؟

سألته صديقته فى الجامعة . ذات يوم مشمس .. تحت شجرة جميز عتيقة :

ـ الا تضع لمستقبلك خطة ؟

ـ لا يدرى ماذا يقول لها .. ولا يدرى لماذا تحرك فكره ..

قال : المستقبل بيد الله ..

ابتسم .. لكنها راحت تقلب السؤال بجدية

ـ الا تؤمن بخطة ؟ الا توجد عندك خريطة ؟

ـ لا امل فى التوقف

قال : ماذا تعنين بخطة ؟ وهل حياتنا نهندسها بخطط ؟ .. لا اعرف هل هندس ابى زواجه من امى .. ولا ادرى لماذا اخترت هذا المكان لاجلس فيه دون غيره !

ضمت كتبها على صدرها الصغير .. وقالت وقسمات وجهها الجميل يقطر جدية :

ـ حينما يدخل الطالب كلية الطب .. يعنى ذلك انه اختار مهنة الطب وانه لن يعمل فى الهندسة أو المقاولات او تصنيع الجبن .. هناك دائما تصور لما تعمله .. اليس كذلك ؟

ـ لا ادرى ما اقول لك .. ولكنى عرفت من درس الطب ثم اشتغل بالأدب واشتهر بالشعر والقصة . وعرفت من درس الهندسة واشتغل بتجارة الأجبان والألبان ..

وكأنها وصلت إلى نقطة معينة .. فقالت : ولماذا نتخذ الشواذ قاعدة ـ الطريق ممتد .. واللافتات مكتوبة بحروف عربية ولاتينية .. يتوارى خلفها او امامها الوجه الجميل ..

وذات مرة سألته صديقته : اراك تهتم بالأدب وهو ليس تخصصك ؟

ـ هواية تستبد بى !

تذكر الأدب هواية ..



قصة قصيرة

وليس مهنة !

– اترين ذلك ؟ .

– بكل تاكيد .. من قال ان الانفعالات مهنة !

– هناك من يحترف الادب .

– لا اتكلم عن المطبعجية !

يتوارى مرة اخرى الوجه الجميل ، الذكى المثقف .. الوجه الجميل ، ونسى القوام الجميل .. كان غيره اذكى منه .. لقد راها بعد سنوات التخرج .. تجرى فى حديقة مع اربع اطفال .. تلاعبهم بالكرة .. ويجلس الى جانبهم رجل ممتلىء .. عرف انه زوجها ..

صاحب معرض سيارات .. كم تغيرت صديقته .. اصبحت بدينة .. ثقيلة .. قوية . اصبحت امراة ! . دخل سوبر ماركت .. تذكر ان الثلاجة خاوية .. لكنه لا يكف عن تامل الوجه .. شراهة الناس .. السيدات جميلات .. شرسات .. لهن خبرة هائلة فى اللحوم .. يقلبن البضائع باصابع مدربة ! .. والناس زحام .. الكل يختزن اكبر كمية من البضائع .. على قدر ما فى جيبه من نقود .. كان الحرب معلنة وهو لا يدرى .. كانهم سيموتون غدا !

خرج من المحل الفاخر المكيف .. يتصبب عرقا .. انه لا ينسى اتجاه البيت .. وصل .. راح يصعد سلالم عتيقة ، لكنها نظيفة .. كانت صاحبة البيت .. الاربعينية .. ترمقه من وراء الباب الموارب .. ترتدى افضل ثيابها .. راحت تسوى شعرها وتضع الروج على الشفتين فى اتقان .. سمعت المراة صوت خشخشة فى المطبخ . اه الفار الملعون .. انه يلعب على مهله هنا وهناك .. لابد ان اضع الطعام الجيد له فى مصيدة جديدة .. ابتسمت للفكرة "ساضع له طعما لذيذا" .. لن يفلت من يدى مرة اخرى .

ارهفت .... الاذن .. سمعت الرجل وهو يصل الى غرفته فوق السطوح .. لابد انه سيجد الضوء الكافى امام الباب .. ويجد قصرية الزهور .. والترتيب الجميل . فى المدخل .

الهدوء النسبى .. الناس مشغولون فى برامج التليفزيون الملون .. امتدت يدها الناعمة لتلتقط قارورة عطر غالية الثمن .. راحت تسكب على صدرها .. وعلى تفريعة النديين .. وتحت الابط وخلف الاذنين .. وقررت الصعود لتجميع الغسيل ..

ربما تمطر السماء فى الصيف ! من يدرى .. وربما تهب موجة غبار ! فتحت الباب .. سمعت باب المصيدة يرتطم بشدة .. وخلفت الفار المتمرد .. ابتسمت .. وقررت الصعود إلى اعلى ..

الجامعة الأمريكية فى بيروت

من: عبود عطيه

أنشئت خلال الحرب الأهلية الأمريكية واهتزت خلال الحرب الأهلية اللبنانية

بعدما استمرت فى الدوران على مدى قرن وربع تقريبا ، توقفت عقارب الساعة الشهيرة فى برج الجامعة الأمريكية فى بيروت عند الرابعة إلا ربعا من فجر يوم الجمعة ٨ اكتوبر ١٩٩١ . اذ اقتلع انفجار سيارة مفخخة جزءا من ماضى الجامعة ، وانشطر مبنى "الكوليدج هول" إلى نصفين ، هوى احدهما ارضا بكل مايحمله من اثقال تربوية وثقافية وحضارية ، ودفن تحت انقاضه رمز المصنع الذى خرج جيوشا من اعلام الفكر والادب والعلم والسياسة ليس فى لبنان فقط ، بل فى دول المشرق العربى كله . وكان من اكبر مهندسى الثقافة والتربية والتعليم فى الوطن العربى على مدى قرن وربع تماما . اذ تزامن التفجير مع الاحتفال الذى كان يقام فى نيويورك لمناسبة مرور ١٢٥ سنة على تاسيس الجامعة ، وبفارق لايزيد على الساعات المعدودة .

● أول خريجى الجامعة سنة ١٨٧٠ كانوا خمسة من بينهم يعقوب صروف وفارس نمر .

رسالة بيروت

ويكاد تاريخ الجامعة الأمريكية أن يكون امثولة أو مثلا لما يجب أن يكونه التطور. ففى منتصف الستينات من القرن الماضى ، وفيما كانت المدن الأمريكية تتخبط فى حربها الأهلية الشهيرة مابين الشمال والجنوب ، كان الأمريكى دانيال بلس يجوب هذه المدن بهاجس مختلف هو جمع التبرعات لانشاء جامعة فى بيروت .

وفى سنة ١٨٦٣ ، صدر عن ولاية نيويورك ترخيص بانشاء ما أسمى آنذاك "الكلية السورية الانجيلية" . وبعد ثلاث سنوات ظهرت كلية الآداب والعلوم كنواة اولى لهذه الجامعة ، وكانت تقع فى منزل صغير مؤلف من خمس غرف يملكه المعلم "بطرس البستانى" وانضم صاحب المنزل الى هيئة التدريس التى كانت تتألف من ثمانية أساتذة ينتمون الى اربع

صف التخرج الأول سنة ١٨٧٠ مع احد الاساتذة ، ومن بينهم يعقوب صروف وفارس نمر .



● ١٩ شخصا من واضعى ميثاق الأمم المتحدة والموقعين عليه هم من خريجى الجامعة .

جنسيات مختلفة وهم : الأمريكي دانيال بلس ، اللبنانيون ناصيف اليازجي ، أسعد الاشدودي ، ولويس الصابونجي ، السكوتلنديون ستيوارت دودج ، جون فرايزر ومستر روبرتسون ، والفرنسي موريس فيرن . أما عدد الطلاب في السنة الأولى من عمر الجامعة فكان ١٦ طالبا .

في سنة ١٨٧٠ تخرج خمسة طلاب من أصل الستة عشر طالبا ، وهم أول حملة شهادة بكالوريوس من الكلية . وكان من بينهم "يعقوب صروف" و "فارس نمر" اللذان أسسا في وقت لاحق جريدة "المقطم" ومجلة "المقتطف" في القاهرة ، الأمر الذي يعتبر مؤشرا واضحا على الدور الكبير الذي لعبته الجامعة الأمريكية في تاريخ الثقافة العربية الحديثة .

وبعدما تمكن بلس من جمع مايكفي من التبرعات في أمريكا وبريطانيا ، انتقلت الكلية الى الحرم الرئيسي (الحالي) في منطقة رأس بيروت ، حيث اشترى مؤسسها قطعة أرض بمحاذاة الشاطىء بثمانية آلاف دولار . وراحت الكلية الصغيرة التي بدأ تمويلها بمائة الف دولار واربعة آلاف جنيه استرليني ، تنمو وتكبر لتتحول الى جامعة دولية فعلا ، بلغت موازنتها للعام الماضي حوالي ٨٥ مليون دولار .

وحول مسيرة الجامعة التاريخية ، يقول مدير الاعلام والعلاقات العامة فيها "رضوان مولوي" إنه في السنة



دانيال بلس مؤسس الجامعة الأمريكية

التالية لتأسيس كلية الآداب والعلوم ، تأسست كلية العلوم الطبية مع مستشفى يضم اربعة أسرة فقط .

وفي سنة ١٨٧١ تأسست كلية الصيدلية وفي تلك الفترة وتحديدا سنة ١٨٨٠ ، تغيرت لغة التدريس من العربية الى الانجليزية "بسبب صعوبة ترجمة المصطلحات العلمية" .

وتوالى تأسيس الكليات : التجارة (١٩٠٠) ، التمريض (١٩٠٥) ، طب الاسنان (١٩١٠) .. وفي سنة ١٩٢١ ، وافق مجلس الامناء في نيويورك على تغيير اسم الكلية ليصبح "الجامعة الأمريكية في بيروت" . ورفعت الجامعة شعارا حفرته على مدخلها يقول : "من أجل أن تكون لهم الحياة ، وتكون حياة افضل" .

ويضيف مولوي : "وكان كل شيء

رسالة بيروت

يسير نحو الافضل ففي سنة ١٩٤٣ ، سمح لأول مرة بقبول الفتيات في كلية الآداب والعلوم . واستمر انشاء الكليات الجديدة للهندسة والعمارة (١٩٥١) ، والعلوم الزراعية والصحة (١٩٥٢) ...

أما المركز الطبي المعد أساسا ليكون مكانا لتدريب الطلاب فقد تحول الى مستشفى حقيقي وكبير . تمكن الاطباء العاملون فيه سنة ١٩٥٨ من اجراء أول عملية قلب مفتوح في الشرق الأوسط ، وبذلك أصبح لبنان الدولة الرابعة في العالم التي تجرى فيها هذه الفئة من العمليات .

فمن مستشفى بأربعة أسرة تطور المركز الطبي الى مستشفى عملاق يضم ٤٤٠ سريرا أفتتح سنة ١٩٧٠ . ولعب هذا المستشفى دورا حيويا وضخما في تضميد أجراح الحرب اللبنانية ، اذ كان يستقبل في الفترات الساخنة أعدادا من الجرحى تصل أحيانا الى مائة جريح يوميا يحتاج أكثر من نصفها الى عمليات جراحية .

وخلال الغزو الاسرائيلي للبنان وحصار بيروت سنة ١٩٨٢ ، استقبل هذا المستشفى وحده ٥٦٠٠ من جرحى الحرب وعالجهم في ثلاثة اشهر فقط .

قبل ٢٥ عاما ، ولمناسبة الاحتفال بالذكرى المئوية لتأسيس الجامعة ، قال مدير عام الأونيسكو آنذاك ريتيه ماهو : "لم يقتصر الدور الحاسم الذى قامت به الجامعة الأمريكية على تحديث الشرق الأوسط عن طريق ترجمة المؤلفات العلمية الغربية ، ولا على اعداد عدد لايحصى من الاخصائيين والمعلمين وحسب ، بل اسهمت أيضا في تعريف سائر البشر تعريفا أوفى بالثقافة العربية المميزة . إن هذه الجامعة هي جامعة دولية حقا .

فمن مفاخر الجامعة التى ترد في كل كتيباتها هو أنه لدى تأسيس هيئة الامم المتحدة عام ١٩٤٥ ، تبين آنذاك أن ١٩ خريجا من الجامعة الامريكية كانوا من بين ممثلى الدول الذين وقعوا على شرعة الامم المتحدة أو ساهموا في وضعها . ولم يكن لأية جامعة أخرى في العالم مثل هذا العدد من المندوبين . إضافة الى ذلك ، فمن بين الستة والعشرين الف متخرج تقريبا ما بين تأسيس الجامعة والعام الماضي هناك حشد من رؤساء الجمهوريات ، ورؤساء الحكومات ، ومئات الوزراء والقادة السياسيين المبعثرين من اقصى اليسار الى اقصى اليمين بسبب المناخ الليبرالى الذى يسود أجواء الجامعة وبرامجها وحرمها . كما يصعب الحديث عن

حرجه تحرر عربية واحدة فى القرن العشرين لم يكن من بين قادتها خريج واحد من الجامعة الأمريكية .

واليوم يبلغ عدد طلاب الجامعة حوالى خمسة آلاف طالب وطالبة ينتمون الى حوالى خمسين جنسية ويمثلون ١٩ ديانة . وقد تزايد عدد الطالبات فى السنوات الأخيرة حتى بات مماثلا لعدد الطلاب . أما الاساتذة فهم حوالى ٥٠٠ أستاذ .

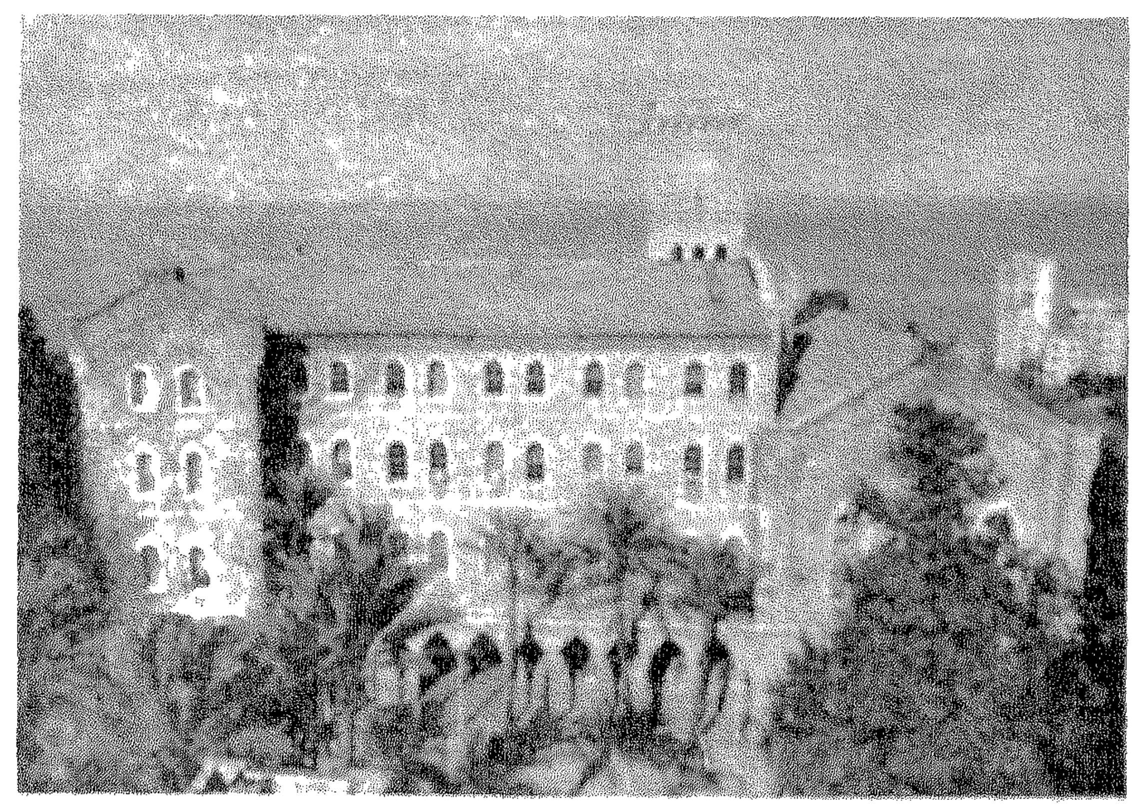
أى ما معدله واحد لكل عشرة طلاب . وهى النسبة التى تتمتع بها أرقى الجامعات فى العالم . والكل ينتشر . وسط مبان قديمة يغطيها القرميد الأحمر ، وتتبعثر بدورها وسط حدائق تشكل المساحة الخضراء الوحيدة المتبقية فى بيروت بالمعنى الحرفى الكلمة .

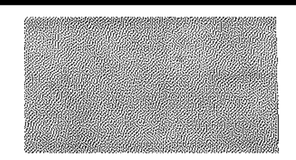
● الزلزال اللبنانى

الجامعة التى أنشئت خلال الحرب الأهلية الأمريكية ، اهتزت بعنف خلال الحرب الأهلية اللبنانية . حتى انها فى اوقات كثيرة حبست انفاس اللبنانيين خوفا من أى قرار باقفالها .

فإضافة الى القصف الذى كان يتعرض له حرم الجامعة على فترات متقطعة خلال سنوات الحرب، برزت مشكلة جديدة وخاصة ما بين عامى ١٩٨٤ و ١٩٨٧ وهى ارتماء عدد من الطلاب اللبنانيين فى احضان الاحزاب . الأمر الذى ماكان ليعتبر

مبنى الكوليدج هول وساعته الشهيرة قبل الانفجار





رسالة بيروت

ظاهرة سلبية لو بقى كما كان خلال سنوات الحرب الأولى . ولكن تأثير هذا الانتماء على الوضع داخل الجامعة دفع بمجلس امنائها الى افتتاح برنامج تدريسى فى منطقة بيروت الشرقية للطلاب الذين لايستطيعون الالتحاق بالحرم الرئيسى لأسباب عديدة ومن بينها صعوبة اجتياز المعابر ما بين شطرى العاصمة . وأثار افتتاح الفرع الشرقى للجامعة خوفا عليها من تقسيمها .

وبعده

ولكن الجامعة التى بدت حريصة على وحدتها وجدت فى فتح المعابر ، وحل الميليشيات المناخ الملائم لاقفال فرعها فى بيروت الشرقية وحصر التدريس فى الحرم الرئيسى فسقط واحد من الاخطار التى كانت تتهددها .

ولكن حوادث أخرى الحقت اضرارا بالغة بالجامعة ، ومنها اغتيال رئيسها الدكتور مالكولم كير سنة ١٩٨٤ . ووسط تفشي عمليات خطف الاجانب ، اختفى مدير المستشفى ، وعميد كلية الزراعة (اطلق سراحه اخيرا) ، واحد موظفى المكتبة .. الأمر الذى ادى الى انخفاض مستمر وسريع فى عدد الاساتذة الأمريكيين والاجانب

حتى وصل الى حدود الصفر . وادى أيضا الى هجرة عدد من الاساتذة العرب أنفسهم ومنهم على سبيل المثال لا الحصر الدكتور "احسان عباس" والدكتورة "وداد القاضي" من قسم الادب العربي فقط" .

إلا أن الزلزال الاعنف الذى ضرب الجامعة الأمريكية كان ولاشك تفجير مبنى الكوليدج هول أخيرا .

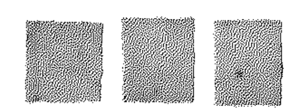
فالخسارة المادية جسيمة : ١٢٥ مليون دولار حسب تقديرات المسئولين اذ تهدم المبنى التاريخى بكامله وتشردت الادارة وقسما الادب العربى والتاريخ اللذان استقر مؤقتا في مبنى المرصد الفلكى التابع للجامعة (؟!) ودمر قسم كبير من المتحف وهو أكبر متحف خاص في الشرق الأوسط ، كما دمر جزء من المكتبة ، وهوى من على رفوفها حوالى مليون كتاب .

إلا أن الخسارة المعنوية هى ولاشك أكبر من ذلك . ولعل خير معبر عنها هو استاذ الادب العربى المعروف الدكتور محمد يوسف نجم الذى تهدم مكتبه ، ودفنت الانقاض قسما كبيرا من مكتبته الخاصة ، ومن جملة ماتضم صندوقا يحتوى على مخطوطات ، إضافة الى طبعات نادرة لبعض المراجع مثل "تاج العروس" و "لسان العرب" (طباعة بولاق) ، كما خسر أيضا مراجعه عن المسرح العربى الذى يستحوذ على اهتمامه الرئيسى حاليا .. وعلى الرغم من ذلك ، يقول الدكتور نجم أن اسفه على المبنى هو أكبر من أسفه على كتبه . فقد دخل المبنى طالبا . درس وعاش فيه ، وبقى فيه أستاذا من عام ١٩٥٤ وحتى ٨ اكتوبر ١٩٩١ .

فما هو أرضا هو جزء من الذاكرة ومن التاريخ الثقافى لآلاف الخريجين وللمنطقة برمتها ، وبشكل خاص لمنطقة رأس بيروت التى تدين بوجودها لوجود الجامعة الأمريكية فيها .

المسئولون فى إدارة الجامعة يؤكدون اصرارهم على إعادة بناء ماتهدم وعلى الطراز القديم نفسه . ولكن الاصرار الاكبر هو ذلك البادى على الطلاب . الطلاب الذين حرصوا على رفع الانقاض حجرا حجرا بحثا عن ورقة هنا أو كتاب ممزق هناك ، الطلاب الذين اصدروا ملحقا فوريا بواسطة الآلة الناسخة كتب عليه "تحيا الجامعة الأمريكية فى بيروت" .

ربما كان ذلك حنينا الى ماض يجسده خير تجسيد مبنى "الكوليدج هول" الذى لم يعد موجودا ، وربما كان ذلك "من أجل أن تكون لهم الحياة ، وتكون حياة أفضل" .





البحث عن سيد مرزوق فيلم اثار الاعجاب

المهرجان الحائر بين الرقابة والحرية

بقلم : مصطفى درويش

انتشرت مهرجانات السينما ، وتضخمت حتى وصل الأمر الى تداخل ايام بعضها مع ايام البعض الآخر ، بحيث اصبح من العسير فك ذلك الاشتباك .

ولعل تداخل ايام مهرجانى دمشق والقاهرة ، خير دليل على هذه الفوضى ، التى لابد وان تؤدى ان عاجلا او آجلا الى انهيار عدد غير قليل من تلك المهرجانات .



التشكيلات الرائعة في الفيلم الياباني (السماء والأرض)

فقبل ايام من افتتاح مهرجان القاهرة السينمائى الدولى الخامس عشر ، بدات دمشق مهرجانها الذى ما ان انتهى باعلان فوز «الكيت كات» وممثله «محمود عبد العزيز» بجائزتى افضل فيلم وتمثيل ، حتى هرول اغلب المشاركين فيه من سينمائيين عرب ، وغير عرب ، صوب القاهرة للحاق بعروض مهرجانها الكبير .

وليس من شك ان هذا التداخل بين المهرجانين ليس فى صالحهما ، بل ليس فى صالح السينما العربية من الخليج الى المحيط .

وكان من اولى نتائجه حرمان السينما العربية من المشاركة ، بافلامها المنتجة خارج مصر ، فى مسابقة مهرجان القاهرة ، ذلك انه من شروط قبول دخول الفيلم فيها ، الا يكون قد سبق عرضه فى اى مهرجان .

ومن هنا غياب افلام عربية عن المسابقة مثل «شاشات الرمال» وهو اول فيلم روائى طويل تبدعه المخرجة اللبنانية ، «راندا شهال» ومثل «طوق الحمامة المفقود» لصاحبه المخرج التونسى الموهوب «ناصر خمير» .

● طوق الحمامة

فقد سبق لفيلم «شهال» ان عرض

فى اكثر من مهرجان ، اما فيلم «خميس» فقد جرى عرضه قبل اربعة شهور فى مهرجان «لوكارنو» حيث اثار الاعجاب على كل صعيد ، مما كان سببا فى خروجه متوجا بجائزة لجنة التحكيم .

و«طوق الحمامة المفقود» كما هو ظاهر من اسمه مستوحى من التراث الاندلسى المجيد .

وهو الفيلم الثانى لمخرجه الذى سبق له ان ابدع قبل خمسة اعوام «الهائمون» ، ذلك الفيلم الذى نجح فى انتزاع جائزة مهرجان «نانت» الكبرى حيث تردد اسم صاحبه باعتباره كشفا جديدا .

وفيلمه الاخير «طوق الحمامة المفقود» ، يرتد بنا الى عصر الحضارة الاندلسية ، وهى فى اشد حالات الازدهار ، وبالتحديد القرن الحادى عشر حيث تجرى احداث مدارها معاناة البحث ممتزجة بشطحات الخيال .

ومن مزايا الفيلم انه يتكلم باللسان العربى الفصيح شانه فى ذلك شأن رائعة شادى عبد السلام «المومياء» او «ليلة حساب السنين» .

● صعوبة الاختيار

وشرط ان يكون الفيلم جديدا ، لم يسبق له المشاركة فى اى مهرجان ، هذا الشرط جعل من اختيار حتى الافلام غير العربية ، امرا من الصعوبة بمكان .

فأين ، والسنة على وشك الرحيل ، ذلك الفيلم الممتاز الذى لم يسبق له العرض فى مهرجان او اكثر ؟

وبفرض وجود مثل هذا الفيلم ، فلاشك انه مدخر من اصحابه للعرض فى واحد من المهرجانات السبعة الكبار ، امثال كان وفينيسيا وبرلين ، تلك المهرجانات التى لها حق اقامة مسابقات ، ويعتبر مجرد المشاركة فيها ، شرفا عظيما للفيلم ، ودعاية له لا تقدر بمال .

وعلى كل ، فقد نجح مهرجان القاهرة فى ان يختار للمسابقة ثمانية عشر فيلما من جميع قارات العالم ، فيما عدا امريكا اللاتينية واستراليا وافريقيا ، اللهم الا اذا اعتبرنا الفيلمين المصريين المشتركين فى المسابقة «البحث عن سيد مرزوق» للمخرج «داود عبد السيد» و«يامهلبية يا» .. للمخرج «شريف عرفه» ، ممثلين للقارة السوداء !!

ونظرة طائرة على الافلام المشاركة تبين منها ان بعضها لا يرقى الى مستوى المسابقة بأى حال من الاحوال .

واذكر هنا على سبيل المثال الفيلم الفرنسى «سارق الاطفال» للمخرج

كـريستيان دى شـالونـج والفيلم الأمريكى «شىء جميل» للمخـرج «مـايكيـل لنـدس هـوج» والفيلم السويسرى «حجر يحترق» وعنده اقف قليلا لاقول ان صاحبه المخرج «ليو كاتمان» اداره حول بطل يهودى تائه حائر «دانييل» (ميشيل البرتينى) ، نكتشف فى نهاية الأمر ان والديه يعيشان فى المجر حيث ذبح معظم اليهود على ايدى النازيين داخل معسكرات الاعتقال وعذابات الافران !

ولا اعرف كيف نجح صاحبه فى التسلل به ، بحيث اصبح واحدا من افلام المهرجان القليلة المبشـرة بجائزته الكبرى «الهرم الذهبى» .

ومهما يكن من امر هذا الفيلم ، وهو خال من اية براعة فنية تسترعى الانتباه ، وافلام المسابقة الأخرى ، فالقدر المتيقن من استعراض الاعمال السينمائية التى جرى عرضها على امتداد ايام المهرجان هو فقر الفكر فى الافلام القادمة اليه ، فباستثناء ما تيسر مجيئه من افلام لنفر من المخرجين السود ، وافلام اخرى قليلة وارد مصنع الاحلام فى هوليوود ، ودولة او دولتين صغيرتين من اوربا . وفيلم يتيم من اليابان ، باستثناء ذلك لا شىء جديدا .

● السفه والتبذير

هذا أولا .. أما الأمر الثانى فهو فاجعة السينما العربية متمثلة فى سفاهة التبذير وسوء التقدير .

ولعل خير دليل على ذلك «ناجى العلى» لصاحبه «عـاطف الطيب» «وطبول النار» لصاحبه المخرج «سهيل ابن بركة» ذلك الفيلم الوحيد الذى انتجه مركز السينما المغربية تحت رئاسة هذا المخرج منذ انشائه قبل ثلاثة اعوام .

واعجب العجب ان ما انفق على «طبول النار» بلغ ثلاثين مليون دولار ، اى كل ميزانية المركز التى كانت معتمدة لانتاج ثلاثين فيلما روائيا او يزيد .

وصاحب الفيلم ، وهو يسارى سابق ، اضاع كل هذه الملايين فى الانتقال بين عدة دول اوروبية وامريكية حيث حشد جمعا من كبار النجوم ، زين باسمائهم فيلمه الذى لم تتح له فرصة العرض تجاريا خارج المغرب حتى الآن .

والظاهر ان احدا حتى يومنا هذا ، لم يره فيلما جديرا بالشراء رغم كل ما بذر فى انتاجه من ملايين الدولارات .

ولن اقف عند اجمل افلام المهرجان بالتفصيل ، فهذا امر يكاد ان يكون اقرب الى المستحيل .

وانما اكتفى بالوقوف ، عند ما هو متميز من تلك الافلام بشىء يجعله منتميا الى فكرة او موجة جديدة .

ولعل اكثر الافلام استحقاقا للوقوف عندها ولو قليلا لهذا السبب هو «صمت الحملان» "حمى الادغال" "سيرانو

دى برجراك" "الين فيرى" "السماء والأرض" "الـدورز" واخيـرا «المحتالون» .

و«صمت الحمـلان» لصـاحبـه المخرج «جوناثان ديم» بطلته «جودى فوستر» وهى نجمة ومخرجة الآن بفضل فيلمها الأخير "تيت الرجل الصغير" الذى عرض بدوره فى المهرجان .

● الأمريكي القبيح

وأحداث صمت الحملان تبدأ بها مكلفة من رئاستها فى جهاز المباحث الاتحادية بزيارة سفـاح عشوائى متوحش ، متعطش للدماء ، الدكتور العالم النفسانى «هانيبال ليكتـر» (انطونى هويكنز) ، زيارته فى زنزانته الغريبة العجيبة المحكمة البناء بحيث يمتنع التماس بينه وبين الناس ، والا يحدث ما لا تحمد عقباه للحراس او الزوار .

وتكليفها بذلك كان الغرض منه اكتشاف امر سفاح اخر «بفلوبيل» كان العالم السجين يقوم بعلاجه قبل ان يتحول الى سفاح اكل للحوم البشر .

وبفضل لقاءات متكررة معه تنجح «جـودى فوستـر» (كلاربس) فى الوصول الى حيث يقيم «بفلوبيل» السفاح المطلق السراح ، فاذا به يكره رجولته ، ويتمنى لو يولد من جديد بنتا من بنات حواء ، ويعيش فى بيوت اشبه ببيوت الاشباح حيث يحبس فرائسه من النساء ليعذبهن قبل ان يسلخ جلودهن التى كان له فيها مآرب كثيرة .

والغريب من امر «صمت الحملان» هروب العالم «هانيبال» .. وهو شيطان واسع الحيلة والذكاء ، من زنزانته بعد ان قضى على حراسه بوحشية منقطعة النظير .

وينتهى به الفيلم متنكرا فى ثياب سائح ، متحدثا الى «كلاريس» من جزيرة «هـايتى» لا لسبب سوى السخرية منها بتحديد موعد معها على العشاء !!

وكأنى بالمخرج يريد بهذه النهاية ان يقول ان السفاح العشوائى ان هو الا هدية امريكا الى العالم الثالث ، بمعنى اخر قنبلتها الزمنية القابلة فى اى وقت للانفجار .

● الأبيض والاسود

و«حمى الادغال» لصاحبه المخرج الاسود «سبايك لى» يكشف العنصرية فى المجتمع الأمريكى من خلال شخصياته الرئيسية التى هى اما سوداء من حى هارلم او بيضاء من حى «بيسونهيرت» الأكثر رقيا .

وبطل الفيلم مهندس اسود ناجح «ديزلى سنايبس» متزوج من امرأة جميلة نصف بيضاء تعمل فى احد محلات الازياء ، وله منها ابنة صغيرة يصطحبها الى المدرسة بانتظام .



المحتلون فيلم قاس ارعب الرقابة

وهو رجل سعيد فى حياته الزوجية الى ان يلتقى فى مكتبه بسكرتيرة بيضاء منحدرة من اصل ايطالى «انابيلا شيور» فتبدأ قصة حب تكون سببا فى هدم عش الزوجية ، وفى خروج السكرتيرة ، من منزل عائلتها مودعة من ابيها وشقيقيها باللعنات .

ومع ذلك فقصة الحب هذه تنتهى هى الأخرى بالفراق ومن عجائب «حمى الادغال» خلوه من لحظة ملل واحدة بدءا من العناوين المبتكرة المتداخل معها صوت المغنى الزنجى الشهير «ستيفى وندر» وانتهاء بلقطات الختام نرى فيها الاب بعد عودته الى عش الزوجية مصطحبا ابنته الى المدرسة ، وعلى ناصية الشارع فتاة سوداء تعرض جسدها من اجل شمة هيروين وفيما بين العناوين ولقطات الختام تمر مشاهد ابدا لا تتمحى من على شاشة الذاكرة مثل المشهد الاول بين البطل وزوجته يمارسان الحب الذى نفاجأ به ما ان تنتهى العناوين

ومشهد الحب الاول بينه وبين السكرتيرة البيضاء فى مكتب الشركة حيث يعملان .

ومشهد «تاج محل» ذلك المكان الفسيح حيث يتجمع المعذبون بالادمان .

وبعض هذه المشاهد يفكرنا بفيللينى ساحر السينما الايطالية ، لاسيما المشهد الأخير .

● الفارس النبيل

فاذا ما انتقلنا الى الافلام الأخرى لوجدنا انفسنا بداعة امام «سيرانو دى برجراك» لصاحبه المخرج الفرنسى «جان بول رابينو» .

وهو فيلم مأخوذ عن مسرحية «ادمون روستان» التى بنفس الاسم . ويمثله نجم فرنسا الاعظم «جيرار دى بارديو» وقصة حب الفارس النبيل ذى الانف المشوه الطويل فى تلك المسرحية «لروكسان» (ان بروشيه) التى تعلق قلبها بحب شاب تافه يبثها الغرام بصوت واشعار «سيرانو» هذه القصة معروفة للقاصى والدانى على السواء .

ولقد نجح «رابينو» فى ترجمتها الى لغة السينما باسلوب جذاب ، رصين .

ومما يؤسف له ان فيلمه الاخاذ قد مر عرضه فى المهرجان مر الكرام .

ولعلى لست بعيدا عن الصواب اذا ما قلت ان الفيلم اليابانى واحد من اكثر افلام المهرجان تكلفة (٣٢ مليون دولار) واحداثه تدور فى اليابان قبل ثلاثة قرون ، حيث تتفجر العداءات ، والحروب المدمرة للناس والمتاع .

واهم ما يميزه ، هو تحريك مجاميع الجيوش المتحاربة ، والتشكيل الجميل لجميع اللقطات دون اى استثناء .

ولو اجرينا مقارنة عادلة بينه وبين جميع الافلام الأمريكية فى المهرجان ، لوجدناه متفوقا عليها فى الاتقان والجمال ، شأنه فى ذلك شأن الفيلم الهولندى - البلجيكى «الينى فيرى» لصاحبه المخرج البلجيكى «هارى كومل» ذلك الفيلم الذى يذكرنا بدقته فى مراعاة تفاصيل حياة المتعمين فى الأرض قريبا من نهاية القرن الماضى ، يذكرنا بروائع المخرج الايطالى الراحل «لوكينو فيسكونتى» وبخاصة «الفهد" و "الموت فى فينيسيا» .

أما «الدورز» - الابواب - فصاحبه المخرج الأمريكى اوليفر ستون الذى قد ينتهى بعد ايام من اخراج فيلمه المستوحى من سيرة الرئيس الأمريكى الاسبق «جون كيندى» .

«والدورز» يدور هو الآخر حول سيرة امريكى شهير فى عالم المغنى انه «جيم موريسون» (فال كيلمر) الذى مات فى عز الشباب ، ودفن فى مقابر «بيرلاشيز» بباريس حيث قضى ايامه الأخيرة ، ضائعا مثقلا بحمل الادمان .

واحداث الفيلم تدور فى معظمها داخل ولاية كاليفورنيا خلال فترة من اكثر فترات امريكا سوادا ، عندما كان

الصراع مريرا بين قوى الحب والسلام ، فى مواجهة قوى الشر والفناء .

والدورز - فى رأيى - اهم فيلم موسيقى انتجته هوليوود فى غضون الاعوام الاخيرة .

ويصعب على الصغار تحت الخامسة والعشرين الذين لا يعرفون عن مأساة فيتنام شيئا .

وعلى المسنين فوق الخمسين الذين فقدوا الاحساس بصخب الحياة ، يصعب عليهم تذوق وتقدير انجاز «ستون» الذى اراه انجازا كبيرا .

يبقى «المحتالون» لصاحبه المخرج الانجليزى ستيفن فرير ، وهو فيلم يعرض للعلاقات الخطرة بين ثلاثة ام «انجليكا هوستون» وابنها «جون كوساك» وعشيقته «انيت بيننج» انهم نصابون ، دائمو الاحتيال حتى فيما بينهم ، وبطبيعة الحال لا يثق اى منهم فى الآخر ، وكل واحد منهم لا يحمل للآخر الا العداء .

وفى نهاية المطاف الدامى تتعقد الامور ، بحيث تقتل الأم العشيقة ، ومن بعدها الابن ، كل ذلك من أجل حفنة من الدولارات .

● روح العصر

ويبدو ان «المحتالون» ، وهو من اكثر افلام المهرجان قسوة ، قد الم الرقابة التى افزعها مقتل الابن بيد الام الما شديدا .

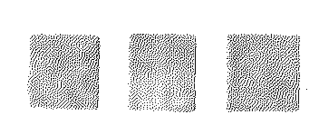
فكان ان قصرت عرضه على الكبار فى حفلتين يتيمتين لا ثالثة لهما .

وهنا وبمناسبة موقف الرقابة من هذا الفيلم وروائع سينمائية أخرى حرمت الجمهور من مشاهدتها حتى فى المهرجان ارى من اللازم ان اقول انه لا يكفى لنجاح مهرجان القاهرة ، وارتقائه على مر السنين ان تجيئه روائع الافلام من جميع انحاء العالم شرقا وغربا ، وان يتحقق له ربح وفير يؤهله لمواصلة المشوار ، وان يحج اليه سينمائيو ونقاد العالم لاهجين بالشكر والثناء .

كل ذلك لا يكفى ، اذا لم يكتب له ان يتحرر من رق الرقابة .

«فكان» وغيره من المهرجانات الكبرى ، لا تخضع افلامها لرقابة سابقة لها القول الفصل .

واستمرار الرقابة ، فضلا عن انه يشكل خروجا على السائد الآن فى عالم المهرجانات ، فهو يخالف روح العصر . عصر ثورة المعلومات ، وسقوط الاسوار .



عندما تنام القاهرة

شعر : جليلة رضا

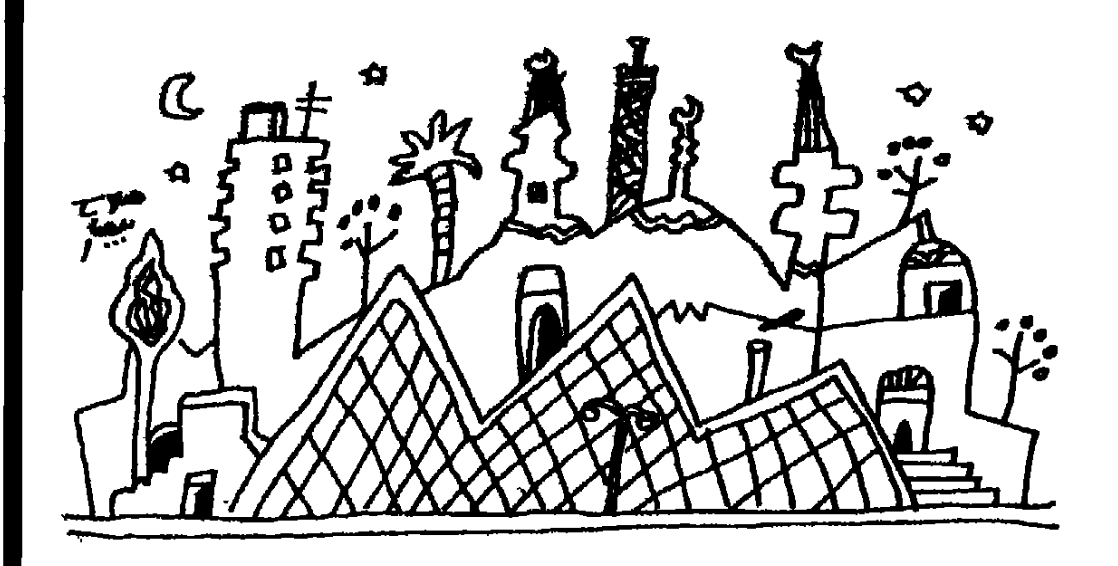
منذ وقت مضى بعيدا بعيدا غابت الشمس فى الدروب الدجية
هبطت سلم الفضاء عروسا تتهادى فى حلة ذهبية
وتوارت فخلفت فى سمائى حزن أمٍّ على فراق صبية
منذ وقت مضى ومازلت وحدى والخيالات فى عيونى حية
ارقب الارض والفضاء وليلا من ربيع المدينة القاهرية
اى سحر واى نورق عطر سكبته يد الملاك النقية
ايه يالنت يامدينة شعبى ومهاد الحضارة الأزلية
كل شىء عليك يبعث سحرا وغموضا ونشوة وحمية

★ ★ ★

هاهى "القلعة" الرهيبة تبدو من خلال المآذن الروحية
جثمت خلفها الجبال سجودا لتواريخ أمة عربية
هاهو النيل قد تمطى كسولا .. مستظلا بالأنجم الفضية
ان نجما وراء نجم تهاوى ، كالضحايا فى ساحة حربية
والعمارات تستطيل وتكبو ، كعفاريت قصة وهمية
والدروب التى تضج حياة قد تراءت فى وحشة قفرية
وبقايا الأشباح تمضى سراعا مثل طيف الرجاء والأمنية
والملاهى التى تفيض ضلالا .. افرغت جوفها ونامت تقية !
والبساتين من بعيد تراخت واستراحت من الرؤى الآدمية
كل شىء على المدينة يغفو بين احضان غيبة حسية
بح صوت العملاقة الآن .. كلت قدماها . ونامت الجنية ..!

★ ★ ★

كل شىء ينام غير غلام ، يذرع الدرب فى خطى ملكية
حاملا سهمه الرشيق ، جميلا وعلى الثغر وردة قرمزية
بعيون هدب وشعر جثيل ، ضاحكا للظلام فى سخرية
انه الحب ! (ياكيوبيد) رفقا ، ياملاك المشاعر القلبية



ايهذا المليك حسبك فخرا ان حكمت الوجود والبشرية
كل قلب حللت فيه مشوق كل روح لمستها .. سرمدية
الشياطين فى حماك استحالوا منبع الهدى والدروب السوية
والغزاة الوحوش صاروا عبيدا قد غزتهم سهامك الوحشية
وقلوب الصخور والشوك لانت وتجلت قطيفة مخملية
ولك الله ! كم تخطيت ياحب حدود الاماكن الزمنية
فغدا الكهل فى يديك غلاما وغدت جدة الصبى .. صبية
وغدا الثلج والصقيع على القطب الشمالى نارا افريقية !

★ ★ ★

لهف نفسى لكم أسائل نفسى وانا ارقب البيوت حبية
ما الذى خلف هذه الجدر الصم ؟ وراء النوافذ الخشبية
كلها ـ كلها تخبىء احلاما ونجوى وصورة فنية
كم حياة بها كموت وموت كحياة ، وكم رؤى عكسية
كم عراء مقدس وبكاء ثمل ، كم من ضحكة دموية !
انها قصة الحياة تجلت فى ظلال السكون والحرية
فامض ياحب نحو كل بناء وابعث النور تحت كل حنية
انت أنت الربيع فى كل قلب ومثار الالهام والشاعرية
ها انا اسكب التامل لحنا تحت أقدام ظلمة قدسية
إن روحى تنساب بين شفاهى وهى سكرى بالوحدة الأبدية ..!

حـــول

القراءة المعاصرة للقرآن

بقلم: د. محمد شحرور

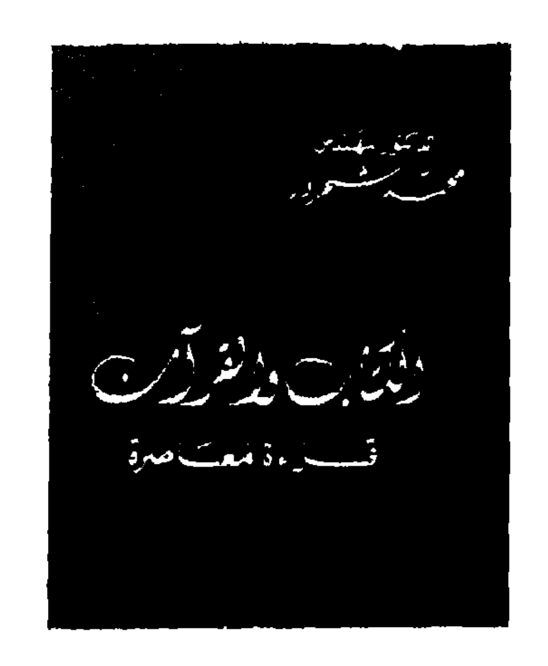
نشرت « الهلال » فى عددها الصادر فى اكتوبر من علم ١٩٩١ مقالا للدكتور نصر حامد ابو زيد بعنوان (لماذا طغت التلفيقية على كثير من مشروعات تجديد الاسلام . تعليقا على كتاب صدر فى دمشق عن دار الأهالى بعنوان (الكتاب والقرآن ـ قراءة معاصرة) للدكتور المهندس محمد شحرور .

وقد جاءنا من دمشق هذا الرد من مؤلف الكتاب ..

يتألف كتابنا الذى تتناوله الناقد من ٨٢٢ صفحة تحتوى على مواضيع متعددة الجوانب ، وهو ليس كتابا فى التفسير او الفقه او الفيزياء ، بل هو نظرية اسلامية للوجود الالهى والكونى والانسانى ، اجتزأ منها الناقد نصوصا مبتورة لاتزيد فى مجموعها عن نصف صفحة من أصل ٨٢٢ صفحة ، معتمدا على عدم دراية القارىء بهذا الكتاب بشكل اساسى .

ـ لقد ذكر الناقد مصطلحات التاويل المنتج والتلفيق والتلوينية المغرضة ، وصنف الكتاب مع التلوينية المغرضة ، ولم يذكر لنا ماهى مواصفات التلوينية غير المغرضة ، وما الفرق بينهما ، وماهى مواصفات التاويل المنتج ...

ـ كما ذكر أن من خصائص تلك القراءة المغرضة (بصفة عامة) انها تسعى الى التلفيق بين طرفين احدهما صلب ثابت راسخ ـ يمثل نوعا من البداهة الفكرية والعقلية وهذا هو العصرى من منظور القراءة ـ اما الطرف الثانى فيمثله التراث وهو الطرف الرخو المتحرك القابل للتشكيل واعادة التاويل وذلك ليوافق الطرف الأول ... لقد اخطا الناقد فى هذا وعكس الأمور تماما وذلك حين اعتبر ان الكتاب الموحى به الى محمد (صلى الله عليه وسلم) نص من التراث ، بينما يعتبر المؤلف ان الكتاب الموحى به الى محمد (صلى الله عليه وسلم) بشقيه الرسالة والنبوة هو ليس من التراث ، وأن كل ما قيل عنه من قبل الناس تفسيرا وشرحا انما هو تفاعل تاريخى لعصور متعاقبة مع هذا



الكتاب ، يدخل ضمن التراث ، حتى ولو كان من عصر صدر الاسلام ، لذا فإن الثابت والمحفوظ هو للنص الموحى الى محمد (صلى الله عليه وسلم) الموجود بين دفتي المصحف (الذكر) ، والمتحول هو فهم الناس لهذا النص على عصور متعاقبة ، وان لهذا النص الثابت قدسية لا تتاتى لأى نص آخر ، وقد انطلق المؤلف من مصداقية الآيات الأربع التالية :

١ ـ (قل يا ايها الناس إنى رسول الله اليكم جميعا الذى له ملك السموات والأرض ......) (الأعراف ١٥٨) .

٢ ـ (وما ارسلناك إلا رحمة للعالمين) (الانبياء ١٠٧) .

٣ ـ (ما كان محمد ابا احد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شيء عليما) (الاحزاب ٤٠) ..

٤ ـ (فاقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التى فطر الناس عليها لاتبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن اكثر الناس لايعلمون) .... (الروم ٣٠) .

فاعتبرها المؤلف صادرة من حي الى احياء . فالله حي والناس فى القرن السابع احياء ، والله حي الآن ، والناس فى القرن العشرين احياء ، فكيف نفهم مصداقية هذه الآيات الأربع فى القرن العشرين مع ما نراه من تخلف العرب والمسلمين المرعب ؟

لقد بحث المؤلف عن مصادقية هذه الآيات الأربع فى القرن العشرين على اساس احتمالات ثلاثة لارابع لها :

١ ـ ان الكتاب الموجود بين دفتى المصحف هو من تاليف محمد (صلى الله عليه وسلم) .

٢ ـ ان الكتاب الموجود بين دفتى المصحف هو من عند الله ولكنه مرحلى ذو سياق تاريخى ، زمانى ومكانى ، زمانا : القرن السابع ، ومكانا : شبه جزيرة العرب ، اى انه على غرار التوراة والانجيل ، زمانا ، قبل الاسلام ، ومكانا : فى الشرق الأوسط . فموسى الى بنى اسرائيل ، وعيسى الى بنى اسرائيل ، وبالتالى محمد الى العرب بنى اسماعيل ، وتنطبق على هذا الكتاب الآيتان (وانزل التوراة والانجيل من قبل هدى للناس) فهو هدى فى القرن السابع للعرب لايصلح فى القرن العشرين لاكثر من كتاب فى اللاهوت صالح للتمائم والتعويذات والزينة وحلاوة النغم والتطريب فى التلاوة .

● كتاب من عند الله

ـ ان الكتاب الموجود بين دفتى المصحف هو من عند الله ، الى الناس كافة والى ان تقوم الساعة ، اى ان علينا كقارئين له ومؤمنين به ان نبرهن على مصداقية الآيات الأربع الواردة



اعلاه فى القرن العشرين .

ويبدو أن الدكتور أبا زيد فى مقاله ، ينتمى الى الاحتمال الثانى ، هذا إن احسنا الظن به ، بينما نحن وصاحب « الكتاب والقرآن » ننتمي الى الاحتمال الثالث . وهنا يكمن بيت القصيد فى المقال كله . ففى الحالة الأولى والثانية الكتاب هو التراث ، بينما فى الحالة الثالثة الكتاب لاينتمى الى التراث وانما التراث هو ما قيل عنه من قبل الناس .

والبرهان على الحالة الثالثة ، أى عالمية النبوة والرسالة وأنها الخاتم ورحمة للعالمين ، انطلق المؤلف فى البحث عن الخصائص التى تجعل من هذا الكتاب (الموحى الى محمد (صلى الله عليه وسلم) هكذا فعلا ، من المنطلقات التالية :

١ - خلوه البتة من الحشوية والعبث .

٢ - دقة المصطلح فيه ، فلا يمكن لطبيب أن يكتب كتابا فى الطب فيه دقة المصطلح الطبى ادق من الله فى التعبير عن مصطلحاته الواردة فى المصحف وهى : الكتاب - القرآن - الذكر - أم الكتاب - الفرقان - الكتاب المبين - تفصيل الكتاب - اللوح المحفوظ - الأمام المبين - السبع المثانى - الرسول - النبى ... منطلقا من خصائص اللسان العربى وهى :

أ - ان اللسان العربى خال من المترادفات .

ب - لايفهم اى نص لغوى إلا على نحو يقتضيه العقل .

جـ - إن المخاطب يشارك المتكلم فى صنع المعنى وهنا يكمن بيت القصيد .

وخلص بعد تحديد تلك المصطلحات الى أن النبوة هى القرآن والسبع المثانى وهى الآيات المتشابهات ، وأن آيات تفصيل الكتاب هى الآيات اللا محكمات واللا متشابهات ، وأن الرسالة هى الآيات المحكمات ، كل ذلك بامثلة واضحة وشواهد من الذكر الحكيم على هذه الأنواع الثلاثة .

● خاصية التشابة

وقد تم بيان صلاحية القرآن والسبع المثانى لكل زمان ومكان بخاصية التشابه ، والتشابه كما فهمه المؤلف يحتوى على جدلية التماثل والأختلاف ، فالتماثل فى النص الثابت (الذكر) والأختلاف فى تفاعل الناس مع هذا النص ، كل حسب ارضيته المعرفية ، فقال ان القرآن صيغ بشكل متشابه عن قصد ، وأن القرآن يؤول ولا يفسر ، ووضع ست قواعد صارمة للتاويل لم يعلق عليها الناقد نهائيا ... وخاصية التشابه هذه تسمح بشكل مؤكد للسامع بمشاركة المتكلم فى صنع المعنى ، فالمتكلم مطلق ، والسامع نسبى ، وهنا تكمن جدلية التماثل والأختلاف وجدلية سياق التاريخ على الأرضيات المعرفية ، ولعل مقصدنا يتضح إن أوردنا مثالا حول تفاعل الناس بحسب ارضيلتهم المعرفية مع النص فنقول :

قال زيد وهو انسان عربى : (مجموع زوايا المثلث يساوى ١٨٠ درجة) فسمعه ثلاثة اشخاص من العرب ايضا : الأول راعى غنم ، والثانى طالب فى الثانوية العامة ،

والثالث عالم مختص في علوم الفضاء والفيزياء ، نجد أن الأول لايفهم شيئا ، والثاني يقر بذلك ، والثالث يقول : هذا صحيح عند اقليدس ، أما عند ريمان ولوباتشوفسكي فإن مجموع زوايا المثلث لايساوي ١٨٠ درجة ...

ومن هنا فإننا اذا اردنا أن نتفاعل مع النص القرآني الذي يمثل النبوة ، نستطيع ان نفهم القرآن فهما معاصرا على اساس ثبات النص (قدسيته وانه ليس بتراث) وحركية المحتوى ، أي جدلية ثبات النص وحركية المحتوى ، ثبات النص الآلهي وحركية المحتوى في ضوء تطور المعارف الانسانية على مر العصور ، وهو ماسماه الكاتب جدلية التماثل والأختلاف ، وعلى هذا الاساس نستطيع تماما ان نميز بين المعاني الحقيقية والمجازية لمصطلحات القرآن لأن التفريق بين الحقيقة والمجاز ليس تفريقا مطلقا كما وصفه السلف ضمن اطار ثابت مطلق .. لقد اصطلح المفسرون لمعنى الترتيل في قوله تعالى (ورتل القرآن ترتيلا) (المزمل ٥) على انه التانق في التلاوة ، وهنا استعمل الترتيل استعمالا مجازيا ، أما المعنى الأصلي للترتيل وهو الصف على نسق متتابع فقد استعمله المؤلف في موضعه الحقيقي بعد أن تبين له ان مواقيع القرآن المختلفة مبعثرة ضمن السور وليست على رتل ، فلذا اردنا ان نفهم آيات خلق الكون ، علينا ان نجمع هذه الآيات من السور المختلفة ونصفها في رتل لنفهم موضوع خلق الكون ، فعند استعمال المعنى المجازي للترتيل لمدة مئات السنين لم يستفد المسلمون من هذا الاستعمال شيئا . أما في الاستعمال الحقيقي ، فقد ساعدنا فعلا على فهم مواضيع القرآن .. وفي هذه الحالة لانكترث بمن قال عن الترتيل أنه استعمال مجازي حتى ولو كان القائل سيبويه وكل الفقهاء ..

واللافت للنظر أن المؤلف لم يعد بكتابه ولم يتوعد ، ورغم أن شواهده كلها قرآنية ، فهو لم يطلب من قارئه أن يؤمن أو لايؤمن ، لايمانه من جهة بعدم جدوى الوصاية الفكرية من أحد على احد ، ولايمانه من جهة اخرى بأن التشريع الاسلامي مدني انساني ضمن حدود الله ، وأن الديمقراطية احدى دعامات الممارسة الاسلامية الحقيقية ، وان الاسلام قادر على أن يتعامل مع كل الآراء والأفكار الانسانية ويتفاعل معها ايجابيا ، وذلك من خلال تعريف المؤلف للتشريع الاسلامي تعريفا معاصرا يرى أنه يحل به مشكلة الفقة المتيبس .

● مغالطات ؟

لقد اعطى الدكتور نصر في نقده انطباعا بأن مؤلف « الكتاب والقرآن » يزعم بأن العلوم الحديثة موجودة كلها في القرآن ، كما لو ان القرآن يحتوي على اسس صناعة الصواريخ والغواصات ومحركات الديزل والمضادات الحيوية ، وهذه مغالطة مقصودة من الكاتب لأنها تعني لو كانت غير مقصودة أن الناقد لم يفهم الكتاب بتاتا ..

لا يحوي القرآن صناعة الصواريخ ولا محركات الديزل ولا المضادات الحيوية ، فمواضيع القرآن هي نظرية خلق الكون ابتداء من الانفجار الكوني



الأول وانتهاء بالساعة واليوم الآخر ، اى قوانين تغير الضرورة المادية ، والقوانين العامة الناظمة للكون ، اى نظرية الوجود الالهى والوجود الكونى والوجود الانسانى وهذا ما جاء فى باب جدل الكون وجدل الانسان فى كتاب الدكتور شحرور ..

وتحتوى نظرية الوجود الانسانى التى تم شرحها فى فصل « جدل الانسان » ، على جدل الانسان والمعرفة الانسانية وهى النقطة القاتلة فى تخلف العرب والمسلمين بشكل عام ، فالقرآن يحتوى بالتأكيد على نظرية المعرفة الانسانية ، اى المنهج الذى تستنبط معتمدة عليه المعارف الانسانية ، وهذه المعارف الانسانية تتصف بالتواصل ، بدأت بالمشخص وانتهت بالمجرد ، وقد ربط المؤلف كل آيات المعرفة ربطا محكما فى جدل الانسان .. هذه النظرية المعرفية فى القرآن هى التى تفتح للانسان الخط العلمى الذى يصل من خلاله الى اختراع الصواريخ والمحركات وما تنعم به الانسانية من تقدم .. ومن خلال هذا الخط من التطور المعرفى فهم المؤلف القصص القرآنى على انه خط تطور المعلومات بالنبوات (المعارف) وخط تطور التشريع بالرسالات . فى حين نجد الناقد ينظر الى القصص القرآنى على انه اساطير ، فيقول فى مقالته ان المؤلف استبدل الأسطورة بحقائق التاريخ الناصعة ، ونحن نحتج ولا نظن ان الناقد يحتج على بعض التفاسير التى جاءت حول القصص القرآنى كعبارة (قال الله مسليا نبيه) اى ان القصص حواديت لتسلية النبى والترويح عنه ، وكان القصص القرآنى فى احسن الاحوال ليس اكثر من مجموعة قصص اطفال بقلم كاتب شهير مثل (هندرسون) .

● الشريعة الاسلامية حدودية

اما صلاحية الرسالة (الأحكام) لكل زمان ومكان ، فقد بين المؤلف انها جاءت بالحدود ، وان الطبيعة ونواميسها تقوم على الحدود ، كما بين ان الشريعة الاسلامية حدودية والشرائع التى قبلها عينية حدية ، وان صلاحية التشريع الاسلامى تقوم على اساس انه تشريع إنسانى ضمن حدود الله ، وقد بين ان الناسخ والمنسوخ والتعليمات المرحلية تحمل الصفة التاريخية ، فالرسالة من هنا تنظر الى التاريخية تماما ، والناقد لم يفرق بين قوله تعالى (ياايها الرسول) وقوله (ياايها النبى) فهما سيان عنده ، لكن بينهما عند المؤلف فرق كبير ، فنحن نجد التاريخية التى يقول عنها الناقد فى آيات سورة التوبة ، لكننا لا نجد اية تاريخية فى قوله تعالى (اذا الشمس كورت واذا النجوم انكدرت) ، ولا فى قوله تعالى (الذى علم بالقلم) ، وبآيات الحدود فى التشريع وانما التاريخية فى فهم وتطبيق هذه الآيات .

ولابد فيما يتعلق بالتاريخية من ان ننوه الى النقطة التالية للناقد والقارىء معا :

ان حركة التاريخ تتصف بالديمومة التى هى وحدة التقطع والاستمرار

فالاستمرار فى الوجود التاريخى لنا نحن العرب المسلمين .. والتقطع يتجلى فى طرق استنباط المعرفة ، ولنحافظ على استمراريتنا التاريخية علينا ان نقوم بقطيعة معرفية لا مناص منها مع السلف ، وفى هذه النقطة محط الجمل ، فكل ما وصلنا عن الاسلام وحتى عن العصر الجاهلى تمت كتابته وتاطيره فى عصر التدوين ابتداء من النصف الثانى للقرن الثانى الهجرى والقرن الثالث على احسن الاحوال ، وفى هذا العصر تم تاطير الاسلام عقيدة وسلوكا واخلاقا وتشريعا ، وتعريف السنة وتاطير اللغة العربية ايضا ، لذا فان ما نفهمه من الاسلام اليوم تم وضعه ضمن منهجية معرفية على مستوى ذلك الوقت ، وما ندافع عنه اليوم على اساس انه اسلام تم تاطيره فى ذلك الوقت ، اى اننا ندافع عن طرق استنباط المعرفة والتشريع والالاهيات السائدة فى ذلك الوقت ، وبدون قطيعة معرفية مع ذاك العصر . وهذه القطيعة التى قامت بها كل الشعوب المتقدمة دون انقطاعية تاريخية ، ونحن الى الآن لم نقم بها ... هذا هو الفهم التاريخى للاسلام ..

ان الدكتور « ابازيد » يدافع دون ان يدرى عن طرق استنباط المعارف السائدة فى عصر التدوين على انها تاريخية الاسلام ، فاستنتج ان مابقى من الاسلام هو الأخلاق فقط وان الاسلام الذى بين ايدينا الآن غير صالح لأنه تاريخى ...... لكنه اخطأ ودمج النص الالهى نفسه مع التراث والتاريخ ، واغفل خاصية التشابه فى القرآن (النبوة) وخاصية الحدود فى ام الكتاب (الرسالة) .

فاذا كان الدكتور « نصر » يبحث عن التاريخية فى نصوص المصحف على اساس انها تراث ، فلن تفيده كل اللغة العربية بنحوها وصرفها وحقيقها ومجازها فى الوصول الى شىء ، الأمر الوحيد الذى سيصل اليه تحت كابوس التاريخية هو ان المصحف تراث ، بقى منه الأخلاق فقط على غرار الكتاب المقدس القديم والجديد ويبقى منه الفرقان فقط .

أما اذا اراد الناقد تاريخية الاسلام حقيقة ، فعلية بالسنة النبوية ، فهى التى تمثل الجانب التاريخى واللحظى الفعلى الأول للاسلام ، وهى التى تحمل المفهوم النسبى الانسانى للاسلام فى القرن السابع وفى شبه جزيرة العرب ماعدا العبادات ، ولقد تم وضع تعريف جديد للسنة فى كتاب القراءة المعاصرة ، فما فعله النبى (صلى الله عليه وسلم) فى شبه جزيرة العرب هو الاحتمال الأول للاسلام (الثمرة الأولى) وليس الوحيد وليس الأخير .. ومنه تم تحديد الفرق بين الطاعة المتصلة للرسول فى حياته وبعد مماته (واطيعوا الله والرسول) والطاعة المنفصلة للرسول فى حياته فقط (واطيعوا الله واطيعوا الرسول) .. فقد تعامل النبى (صلى الله عليه وسلم) مع الواقع العربى بكل ابعاده القبلية والسياسية والاقتصادية والأجتماعية والثقافية وبكل اعرافه وتقاليده . ولم يكن فى يوم من الأيام حالما ولا متوهما كما قال الدكتور شحرور فى كتابه .

لقد شرحت القراءة المعاصرة



خاصية التشابة فى النبوة وخاصية الحدود فى الرسالة وتصدت من خلالهما لمعضلتين من اهم معضلات العرب المعاصرة هما :

١ ـ نظرية التطور وتغير الضرورة ، فهل التطور شيء تمنعه العقيدة الاسلامية ؟ أم انه من اساسياتها وعمودها الفقرى ؟؟

٢ ـ نظرية الحرية والديمقراطية : هل الحرية والديمقراطية هى من اساسيات السلوك الاسلامى ومن اركانه ؟ نعم أم هى شيء لا تمانع به الممارسة الاسلامية ؟

فجاءت الأولى فى القرآن (النبوة) ، وجاءت الثانية فى أم الكتاب (الرسالة) .

● تحرير العقل العربي

وختم الناقد مقاله منادياً بتحرير العقل العربي من عبادة النصوص ولم يقل كيف ، ولكن القراءة المعاصرة بينت انه لاسبيل الى تحرير العقل العربي واطلاقه الى الابداع الا بصياغة نظرية معرفية انسانية اصيلة معتمدة على القرآن الكريم حصراً ، مستثمرة أخر وسائل استنباط المعرفة المعاصرة .

ثم دعا الناقد الى تحرير الانسانى من المعوقات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التى تحاصره ودعا الى ثورة شاملة ... هذه التعابير والمصطلحات المكرورة فى كل مهرجان خطابى وفى كل مناسبة سياسة واجتماعية وسمعناها من اناس مارسوا الوصاية الفكرية والسياسية والديكتاتورية تحت هذا الشعار ...

لقد حددت القراءة المعاصرة المعوقات الاساسية لكبوة الانسان العربي ونومه وهو الايمان المطلق للغالبية العظمى للناس بثبات الاعمار والأرزاق والأعمال وانها مكتوبة على كل فرد من الازل قبل ان يولد ، فكيف يمكن لهؤلاء الناس ان يثوروا ؟؟ وعن اية ثورة يمكن ان تتحدث مع هؤلاء الناس ؟؟ انها ليست مشكلة دونية او فوقية .... انها أكبر من ذلك .

إننا ندعو الى تحرير العقل العربي ، والى تحرير الانسان العربى اقليس فى الدعوة الى التفكر والتدبير فى كتاب الله تحرير للعقل ، وفى التحرر من اطر تفاسير القرون الماضية تحرير للانسان ، أم ان العقل هو مناط النشاطات كلها ، ماعدا فهم القرآن والكتاب ؟؟

فالطوائف والمذاهب عوائق ، والعالم الاسلامى حافل بها ، ولقد نشأت وتشكلت تاريخياً من منطلق فهم اسلامى معين للقرآن ونصوصه ، وليس بالامكان حتماً تجاوزها الا من منطلق فهم اسلامى معاصر ، ولن تنفع امامها كل شعارات المناسبات الكلامية بتحرر العقل وتحرير الانسان بدناً ونفسها وروحاً ..

بقلم: د. محمد بهائي السكري

الأندروفينات : مورفين الجسم الداخلي

لعل الألم هو ابغض المشاعر الانسانية واكثرها ضراوة وفتكا .. وإذا استبد بالمرء أحال قوته ضعفا، وسعادته تعاسة وشقاء .. وهو كالوحش الاسطورى متعدد الاشكال والصوره فهو تارة نافذ كالسكين وتارة معتصر كالقبضة الاسرة ، وقد يكون محرقا كالنار او متماوجا كاسنان المنشار . وقد يكون احساسا مبهما يصعب معرفة كنهه او تحديد مكانه ، أو ثاقبا محددا لايخطىء الانسان فى معرفة مصدره

ولكن الألم بالرغم من كل ذلك لايخلو من فائدة ، فهو نذير الخطر ، ولاينبعث من منطقة من مناطق الجسم الا اذا كان هناك ما يتهدد سلامتها وأمنها . ولذلك فهو حقا عذاب باطنه الرحمة .

ومستقبلات الاحساس بالألم واسعة الانتشار فى الجسم ، ولايكاد يخلو منها نسيج حى . ولكن عددها فى مناطق الجسم المختلفة يتفاوت حسب تفاوت احتمالات التعرض للخطر . فهناك الكثير من مستقبلات الألم بالقرب من سطح الجسم الخارجى وفى الجلد حيث تكثر احتمالات الاصابة والتلف نتيجة لعوامل آتية من البيئة الخارجية المحيطة بالجسم . ويقل عدد مستقبلات الألم فى الأحشاء وأجزاء الجسم العميقة .

● اشارات كهربائية

فإذا تعرض اى نسيج حى للأذى تطلق مستقبلات الألم الحسية اشارات كهربائية تنطلق فى الاعصاب الطرفية متجهة الى الجهاز العصبى المركزى (الحبل الشوكى والمخ) حيث تدخل فى مسارات محددة متجهة الى منطقة عليا فى قشرة المخ الرمادية تعرف بمنطقة الاحساس بالألم .

فإذا استثيرت منطقة الاحساس بالألم تبدأ ردود فعل فى العمل تستهدف حماية الجسم من الخطر المحيق ، وفى نفس الوقت تبدو على الكائن مظاهر الاحساس بالمعاناة .

ومن الاستجابات للألم عندما يتعرض الانسان لوخزة فى منطقة من سطح الجسم أن ينسحب المرء بعيدا

كيف نشعر بالألم واللذة ؟!

عن مصدر الوخز كما تتلاحق دقات القلب وتتقبض الأوعية الدموية ويعلو ضغط الدم .

ولو تركت استجابات الجسم للألم بلا حدود لعصفت بالانسان . فالألم كما ذكر احساس بغيض . وبالرغم من أن وجوده ضرورة مدام كان هناك خطر يتهدد الانسجة فإن وجوده يثقل على النفس ، ويشكل عبئا على الجهاز العصبى ، وقد يشل قدرة الانسان على العمل والتفكير .

ومنذ فجر تاريخ البشرية والانسان يبحث عن دواء للألم . وعلى قدر تنوع صنوف الألم وبمقدار معاناة الانسان فهناك الكثير من المعالجات وطرق التحايل على الآلام ، كالتبريد والتسخين والوخز بالابر والكمادات والضاغطات والأشربة والعقاقير ومنقوعات الاعشاب والخلاصات النباتية ، حتى الرقى والتمائم والتعاويذ .

ومن الخلاصات النباتية شديدة الفاعلية فى مقاومة الألم مادة الأفيون التى استخدمها الاطباء والجراحون القدماء فى تخفيف معاناة المرضى والمصابين .

● وسائل لمقاومة الألم

وفى العصر الحديث استخلص عقار «المورفين» من الأفيون ... واستخدم على نطاق واسع لتسكين آلام الذبحة الصدرية ، والمغص الكلوي ، وبعد اجراء العمليات الجراحية ..

وكانت العقبة الكئود التى تمنع تكرار وصفه للمريض الواحد مرات عديدة القابلية الشديدة للادمان على تعاطى هذا العقار الفعال .

وقد بينت الأبحاث الحديثة فى السنوات الأخيرة أن الخلايا العصبية فى بعض مناطق المخ والحبل الشوكى معدة لاستقبال المورفين . فاذا حل فيها هذا العقار نشطت تلك الخلايا العصبية وارسلت اشارات كهربائية تهبط فى مسارات محددة لتعترض مسارات الألم وتثبط موجاته الصاعدة الى المخ وبمعنى آخر تغلق الباب فى وجه الألم أو تجعله مواربا لاينفذ منه الكثير .

وأثارت هذه الاكتشافات الاهتمام . فلم يوجد فى الجسم مستقبلات لعقاقير لا توجد فيه أصلا ؟ ومع تعمق البحث واطراده تبين أن هناك فعلا مواد شبيهة بالمورفين يفرزها الجسم عرفت بالاندورفينات .

ان الله الرحيم سبحانه قد هيأ للجسم وسائل مقاومة الألم . فإذا كان الانسان بحاجة الى هذا الشعور البغيض لينذره بالخطر فليكن هناك أيضا فى الجسم قدرة على تخفيف وطأة الألم ومجابهته .

ولعل احتياج الجسم لهذه الاندورفينات هو السبب فى قابلية ادمان المورفين . فإن تعاطى هذا

العقار يثبط قدرة الجسم على تكوين الاندورفينات ويصبح لامفر للانسان من حصوله عليها من مصدر خارجي وبجرعات متزايدة .

ويأتي اكتشاف وجود الاندورفينات بالجسم ليفسر ظواهر كثيرة مثل الطريقة التي يؤدى بها الوخز بالابر الصينية الى تخفيف الالم .

والوخز بالابر علاج تقليدى قديم استخدم منذ آلاف السنين وأحاط به الغموض والابهام ولم يكن له تفسير علمى مقنع مما حدى بالبعض الى انكاره والحاقه بالشعوذة والدجل ، وحدى بالبعض الاخر الى المبالغة فى تقدير فعاليته وتعظيم شأنه .

وقد أثبتت التجارب العلمية أن الوخز بالابر يؤدى الى زيادة افراز الاندورفينات كما يعلو منسوبها فى السائل المخى الشوكى الموجود بين أغلفة خاصة من أغلفة المخ والحبل الشوكي، ويمكن بذل هذا السائل من الجزء الاسفل من سلسلة الظهر اذا فالوخز بالابر له تأثير مثل تأثير جرعة صغيرة من المورفين .. انه ينشط الخلايا العصبية التى تسد مسارات الالم وتغلق بابه أو تضيف فرجته ..

وشبيه بالابر أى معالجة أخرى للمناطق الحساسة من سطح الجسم عن طريق تنشيطها بتيار كهربائى ضعيف أو بمواد كيميائية مهيجة مثل خلاصات بذور ثمار الشطة التى يكثر استخدامها فى مراهم تدلك بها الاجزاء المصابة بآلام روماتيزمية .

● اهمية الرياضة

ومن الملاحظات المثيرة للاهتمام أن مزاولة النشاط الرياضى تزيد من افراز الاندورفينات بالجسم مما يقلل من احساس الرياضى بالاصابات وفى نفس الوقت يؤدى السعى وراء زيادة منسوب الاندروفينات بالجسم بطريقة لاشعورية الى الادمان على مزاولة الرياضة بحيث لايرغب الرياضى فى التخلي عن مزاولة نشاطه حتى ولو كان هناك عائق صحى يعوقه !

وتبقى التأثيرات الأخرى المختلفة للاندورفينات فى الجسم كحقل واسع كبير للاكتشاف والبحث العلمى .

فقد لوحظ على سبيل المثال أن للاندورفينات تأثيرا على نشاط الفص الامامى للغدة النخامية الموجودة عند قاعدة المخ وهى الغدة القائدة التى تتحكم فى نشاط كثير من الغدد الاخرى مثل الغدد الجنسية والغدة الكظرية (الجاركلوية) ..

وتؤدى الاندورفينات الى تثبيط افراز هرمونات الخصوبة من الغدة النخامية وبالتالى يقل نشاط الغدد الجنسية ، وتكوين هرمونات الأنوثة والذكورة . كما تزيد الاندورفينات افراز هرمون الغدة النخامية المنشط لقشرة الغدة الكظرية فتفرز تلك القشرة هرمونات تساعد الجسم على تحمل الضغوط النفسية والجسمية ومجابهة المواقف الطارئة .

إن الجسم البشرى لا تفنى عجائبه الا بفناء جسم الانسان ! ●

رســالــة
واشــنـطـن

بعد مرور نصف قرن على « بيرل هاربر » :

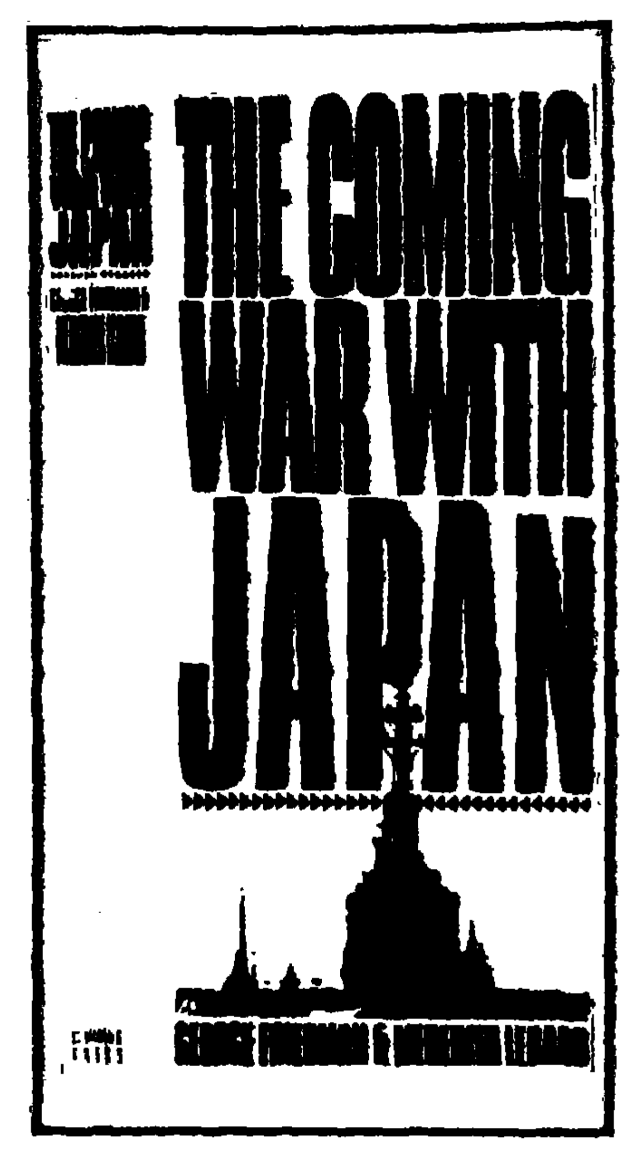
قبل نصف قرن تماما ، وفى صباح يوم الاحد ٧ ديسمبر عام ١٩٤١ ، تسللت الطائرات التابعة لسلاح الجو الامبراطورى اليابانى من طراز "ميتسوبيشى ا ـ ٦ ام زيرو" والقاذفات من طراز "نكاجيما ـ ٩٧" لتهاجم ـ على حين غرة وبضربة صاعقة ـ الاسطول الامريكى العامل فى المحيط الهادى والذى كان يرسو مستكينا فى ميناء "بيرل هاربر" بجزر هاواى .

كانت حصيلة الهجوم ، الذى نفذته الطائرات اليابانية على موجتين .. اولاهما فى الثامنة الا خمس دقائق والثانية فى التاسعة الا ربعا ، اغراق واصابة ١٨ سفينة حربية امريكية وتدمير او اعطاب ١٨٨ طائرة ومصرع ٢٣٣٠ من العسكريين الامريكيين واصابة ١٣٤٧ آخرين . اما اليابانيون فقد فقدوا فى الهجوم ٢٩ طائرة فقط .. ولم تتجاوز خسائرهم فى الرجال ٦٤ من افراد القوة المهاجمة .

وظلت ذكرى "بيرل هاربر" ، بطبيعة الحال ، محفورة فى الذاكرة الامريكية طوال هذه السنين ، وخلال الاسابيع القليلة الماضية ، وبمناسبة مرور ٥٠ عاما كاملة على هذه الذكرى ، ازدحمت شاشات التليفزيون بالبرامج .. وملأت الكتابات اعمدة الصحف .. واتخمت الاسواق بالكتب ـ الجديدة والقديمة ـ كلها يتنافس فى عرض وتحليل ما جرى فى ذلك اليوم الذى يطلقون عليه اسم "يوم الاحد الدامى" .. وان كانت التسمية الاكثر شهرة بين الامريكيين ، هى : "يوم العار" « day of Infamy » !

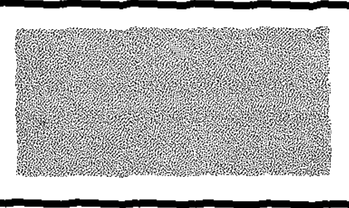
■ ذكرى « يوم العار » الأمريكى .. وتساؤل يبدو اليوم غريبا : من الذى انتصر .. ومن الذى انهزم ؟

بقلم:
محمود أحمد



وبسبب كثافة التغطية الاعلامية ، والتى كان قد اعد لها منذ وقت طويل ، فقد طغت ذكرى "يوم العار" الامريكى على احداث كثيرة داخلية وخارجية وخارجية ... بما فى ذلك الاستفتاء الذى اجرى يوم الأول من ديسمبر على استقلال جمهورية اوكرانيا السوفييتية .. ولم تكد تنافسها سوى انباء الاستعدادات لعقد الجولة الثانية من محادثات السلام للشرق الأوسط التى كانت العاصمة الأمريكية تتاهب لاستقبالها فى الأسبوع ذاته . كما ان فيض الكتابات والبرامج التليفزيونية لم يقتصر ، بالطبع على يوم الذكرى نفسه ، وانما ظل الامريكيون أسابيع عديدة ـ قبل حلول السابع من ديسمبر وبعده ـ يتابعون المناقشات والاراء التى تثيرها ، ويحاولون الاجابة على ما

■ مستقبل العلاقات المعقدة بين امريكا واليابان .. فى ظل « النظام العالمى الجديد » !



تطرحه من تساؤلات .. ربما كان من اكثرها غرابة تساؤل حول : من الذى انتصر .. ومن الذى انهزم فى الحرب العالمية الثانية ؟!

ولاشك ان مثل هذا التساؤل ، الذى طرحته صحيفة "الواشنطن بوست" ، يبدو اليوم غريبا ـ بعد خمسين سنة من الحدث ـ أو ربما غير مبرر بالمرة على ضوء الحقيقة التاريخية المعروفة للجميع .. وهى ان اليابان قد استسلمت بلا قيد ولاشرط بعد ٤٥ شهرا من هجومها على "بيرل هاربر" اثر إلقاء قنبلتين ذريتين على مدينتى "هيروشيما" و"ناجازاكى" فكانت اليابان بذلك هى البلد الوحيد فى التاريخ ـ حتى اليوم ـ الذى ذاق ويلات الهجوم الذرى .

ولم يعرف عن الامريكيين انهم "اقاموا مناحة" على هزيمتهم فى "بيرل هاربر" صحيح أن الهزيمة كانت صدمة مروعة ، وانها سببت جرحا أصاب صميم الكبرياء الامريكى ، ولكن ذلك كله كان جديرا بأن يصبح الآن مجرد ذكرى : فقد خرجت الولايات المتحدة منتصرة من الحرب العالمية الثانية التى جرتها اليابان اليها ، بل انها خرجت من هذه الحرب لكى تنشر نفوذها على اتساع العالم كله وترث امبراطوريات العالم القديم .. وتفرض قيادتها على الجميع .

● غزو يابانى مضاد !!

ومع ذلك ، فان الدنيا قد تغيرت ، خلال نصف القرن الذى انقضى منذ الهجوم اليابانى على "بيرل هاربر" خاصة بالنسبة للدولتين المعنيتين مباشرة بهذا الحدث ، وهما الولايات المتحدة واليابان ، اللتان تطورت العلاقات بينهما وتعقدت وتشابكت على نحو لم يكن فى الحسبان ولم يخطر فى خيال احد ، فمنذ "يوم العار" وحتى اليوم ، تطورت هذه العلاقات التى بدأت من أرضية عداء سافر ومرير ـ كان الامريكيون يرفعون خلاله شعار "اقتل مزيدا من اليابانيين" .. ويرفع اليابانيون فى مقابل ذلك شعار "مزقوا الغربيين البرابرة" ـ الى حالة تكفى فيها الاشارة الى ان البلدين أصبحا يتقاسمان التربع على قمة الدول الصناعية الاكثر ثراء فى العالم كله ، فاليابان "المهزومة" رفضت الاستسلام للوقوع تحت براثن اعتى القوى التى تمخضت عنها الحرب العالمية الثانية ، بل هبت لكى تعمل بكل جدية وتصميم مما وصل بها الى المركز الرفيع الذى تحتله اليوم ،

وكانت النتيجة هى ان الشركات الكبرى والاستثمارات الامريكية الضخمة التى سارعت الى "غزو" اليابان فور انتهاء الحرب ـ مثل "سفن اليفن" ، ومركز روكفلر ، واطارات

"فايرستون" وغيرها - اصبحت اليوم مملوكة بالكامل لرؤوس الاموال اليابانية ، وليس هذا فقط ، ولنما اصبحت سيارات الهوندا والتويوتا والميتسوبيشى تحقق معدلات مبيعات تتزايد باستمرار داخل الولايات المتحدة - مهد صناعة السيارات فى العالم - بينما يتراجع امامها انتاج ومبيعات العمالقة من امثال فورد وجنرال موترز وغيرهما ، بل ان راس المال اليابانى اخذ يعبر المحيط الهادى ، فى موجات عاتية ، ليشترى كل ما يمكن للمال ان يشتريه على الارض الامريكية : من ناطحات السحاب الى استوديوهات السينما .. ومن اللوحات الفنية باهظة الثمن الى صناعة الدواء التى اصبح اليابانيون يملكون ٤٠ فى المائة منها . وانتبه بعض الامريكيين - فى انزعاج - ليجدوا ان اليابانيين مضوا يقيمون المصانع ومحطات توليد الكهرباء ، بل والمدارس اليابانية ، على الارض الامريكية .

وفى المحصلة النهائية ، فإننا نجد اليوم ام الميزان التجارى بين البلدين يحقق فائضا هائلا لصالح اليابان يصل الى ١٣٤ مليار دولار سنويا ، واصبحت الخزانة الامريكية فى وضع يضطرها - كما يقول الصحفى الامريكى "ت . ر . ريد" خبير الشئون اليابانية فى صحيفة "الواشنطن بوست" - الى ان تمد يديها الى طوكيو كل شهر ، لتتوسل اقتراض المزيد من مليارات الدولارات .. وهو وضع يبرر ، فى نظر الصحفى الامريكى ، ذلك التساؤل الذى اثير فى ذكرى مرور نصف قرن على "يوم العار" الامريكى : من كان الطرف المنتصر فى تلك الحرب .. ومن كان المهزوم ؟!

● زواج على الطريقة اليابانية !

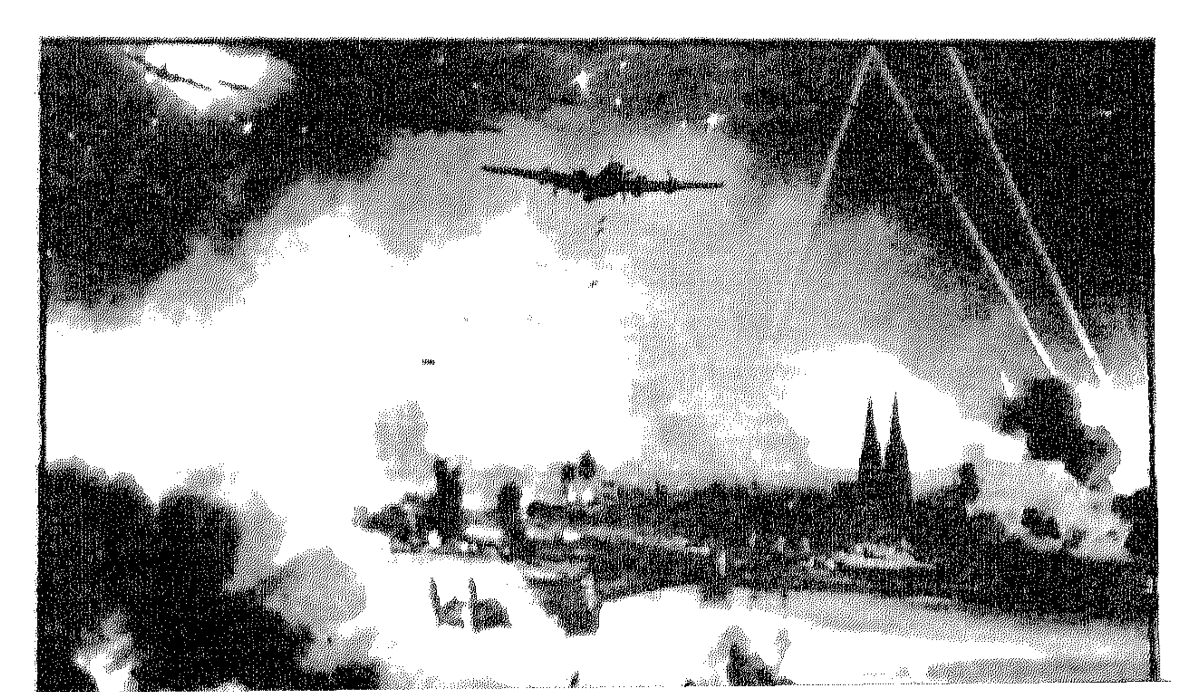
ولكن لا يمكن القول ان هذا هو راى كل الامريكيين ، فهناك كثيرون ممن لا ينظرون الى الامر من هذه الزاوية . وعلى الرغم من ان هؤلاء يسلمون بكل الحقائق التى تنطوى عليها "الظاهرة" فى عالم اليوم عموما ، وفى العلاقات الامريكية اليابانية على وجه الخصوص ، فإنهم يشيرون الى ان هناك وجها آخر للعملة نفسها يتمثل فى ان قدوم الاستثمارات اليابانية الى السوق الأمريكية يحمل فى حد ذاته خيرا وبركة - رواجا وفرص عمل جديدة - على نحو ما أكده عدد من رجال الأعمال الذين ناقشهم النائب الديمقراطى البارز "لى هاملتون" فى هذه المسألة .. خاصة فى ظروف الكساد الاقتصادى الذى تعانى منه الولايات المتحدة فى السنوات الاخيرة .. ولهذا ، فان هناك من الأكاديميين والدبلوماسيين ورجال الأعمال الامريكيين واليابانيين على السواء من يؤكد انه من الخطأ أساسا طرح التساؤلات التى تثار حول "من المنتصر . ومن المهزوم" .. لأن هذه التساؤلات تضل عن رؤية النتيجة

رسالة واشنطن

الجوهرية التى اسفرت عنها الحرب ، وهى ان الولايات المتحدة واليابان ـ كلتيهما ـ قد ارتبطتا معا بشبكة من العلاقات المتشعبة والمعقدة التى جعلت كلا منهما لا يستطيع إلا ان يعتمد على الاخر بصورة كبيرة ، ويزداد هذا "الاعتماد المتبادل" ويقوى بمرور السنين ، وهو ما يتاكد فى المرحلة الحالية بصورة خاصة حيث يوشك العالم ان يشهد مولد او بزوغ مايسمى بـ "النظام العالمى الجديد" ... رغم ان ذلك ينطوى بوجه خاص ، على تنامى الدور اليابانى على الساحة الدولية سياسيا واقتصاديا ـ وحتى فى مجالات الدفاع ـ على نحو لم يكن يخطر على بال احد قبل سنوات معدودة فقط .

ويرى أصحاب هذا الرأى انه سيتعين على الولايات المتحدة واليابان ان يعملا معا فى المستقبل المنظور ، وعلى نحو ربما يكون أوثق مما كان عليه فى الماضى ، ليس على مستوى العلاقات الثنائية فقط وانما على اتساع الساحة الدولية بأكملها . ويقولون انه إذا ارادت الدولتان الاحتفاظ بدورهما القيادى ، المميز والبارز فى عالم اليوم ، وان تظلا معا على رأس قائمة اكثر دول العالم ثراء .. فان عليهما القبول بهذه الحقيقة وهى انهما ستكونان دائما فى حاجة الى بعضهما البعض . وفى هذا الصدد يشير "كنت كالدر" استاذ العلوم السياسية بجامعة "برنستون" الأمريكية ، فى حديث أجرى معه فى خضم احياء ذكرى معركة "بيرل هاربر" ، الى ان الولايات المتحدة

معركة بيرل هاربر



واليابان قد ارتبطتا معا بشبكة من العلاقات التى تشبه خيوط العنكبوت والتى لم يعد ممكنا فض تشابك خيوطها المعقدة .. فهى شبكة تمتد لتغطى مجالات لا حصر لها : من التجارة والاستثمار الى الدفاع والشئون السياسية ، ومن ابحاث العلوم والفضاء الى العلاقات الثقافية .. الى غير ذلك من مجالات اخرى لا تحصى . ويؤكد ان هذه العلاقات قد أصبحت حقيقة واقعة ، هى أهم كثيرا من كل مجالات أو حتى احتمالات "المواجهة" التى قد تفرض صداما ، بين الصين والآخر ، على البلدين .

ومن هذا المنطلق ذاته ، يرى "ت . ر . ريد" انه عندما اطلقت طائرات "الميتسوبيشى" نيرانها على الاسطول الامريكى فى "بيرل هاربر" قبل ٥٠ عاما ، فانها انما كانت تسجل فى الحقيقة ـ على عكس كل التوقعات فى ذلك الوقت ـ بداية لما يمكن اعتباره الان "زواجا ناجحا فى مجمله" على حد تعبيره . والحقيقة ان كثيرين يوافقون على وصف العلاقة اليابانية الأمريكية بأنها اشبه بالزواج .. رغم ان البعض يعتبره "زواجا على الطريقة اليابانية" حيث الكلمة العليا للزوج ـ اليابانى ـ فى كل الامور ! وان كان اخرون ـ مثل "كارل جاكسون" خبير الشئون الآسيوية بالبيت الابيض ـ يردون على ذلك بالقول : "وهل ننسى اذاً ، ماتراه بأعيننا من اعتناق اليابانيين للافكار والثقافة بل ولاسلوب الحياة الامريكى ؟ .. بل هل لنا ان نتجاهل الى اى حد ظلت اليابان حليفا مخلصا للولايات المتحدة على مدى نصف القرن الذى انقضى منذ "بيرل هاربر" . كما ان هناك من اليابانيين انفسهم من يرفض القول بان الولايات المتحدة كانت ، كما يتضح الان وبعد ٥٠ عاما من هذا الحدث ، هى الطرف المهزوم . وفى ذلك يقول استاذ العلوم السياسية اليابانى "ناجيو هوما" : ان هذا القول ، وكذلك الادعاء بأن الولايات المتحدة قد كسبت الحرب بينما كسب اليابانيون السلام ، لا يعبر عن الحقيقة الواقعة ، فالولايات المتحدة ـ كما يؤكد ـ هى التى كسبت على طول الخط ، من وجهة النظر الايديولوجية ، وهى التى لاتزال تكسب .

● هل يتلاشى العداء القديم ؟!

ولعلنا نتوقف هنا لحظة ، لنستمع الى اصوات اخرى تطرح واقع العلاقات اليابانية الامريكية من زاوية مختلفة ولكن يجب التنبه اليها نظرا لما لها من اهمية ومغزى كبيرين .. فاصحاب هذه الأصوات يحذرون من ان "العداء" الامريكى اليابانى ـ ذلك الذى تولد وتكثف اثناء سنوات القتال فى الحرب العالمية الثانية ـ لم يتلاش ولم تخف حدته ، مع مرور السنين ، وانما بقى متأصلا فى النفوس .. ساخنا ونابضا .. ويؤكد هؤلاء ، فضلا

عن ذلك ، ان نشأة اجيال جديدة من الامريكيين واليابانيين لم تساعد الا قليلا على التخفيف من مشاعر العداء القديم الذى يسفر عن نفسه بين الحين والآخر . وفي مناسبات معينة ربما يكون أوضح مثال لها هو ما جرى عند حلول ذكرى معركة "بيرل هاربر" .. ويقولون ان التعبير عن العداء يحدث على كل المستويات ، من قمة السلطة .. والى مستوى رجل الشارع العادى .

فعندما حلت ذكرى "بيرل هاربر" ، لفت الانظار فى حديث ادلى به الرئيس الامريكى "جورج بوش" الى محطات التليفزيون الامريكية واليابانية ، ان "نبرة" حادة ظهرت بوضوح فى أقوال الرئيس الأمريكى وهو يؤكد انه ليس هناك من مبرر لاعتذار الولايات المتحدة لليابان بسبب قصفها بالقنابل الذرية فى نهاية الحرب ، لان ذلك قد انقذ أرواح مئات الآلاف من الشباب الامريكى التى كان يمكن ان تهدر لولا ان السلاح الذرى قد وضع نهاية للحرب ، ثم تأكيده ، بعد ذلك انه لن يكون هو الرئيس الامريكى الذى يمكن ان يقدم مثل هذا الاعتذار على اى حال .

اما على مستوى رجل الشارع العادى ، فربما تكفى الاشارة إلى تلك المظاهرات التى قام بها بعض الشباب الامريكى فى أوائل الشهر الماضى ـ ديسمبر ـ وخاصة فى ولاية "كاليفورنيا" ، والتى رددوا فيها شعارات ملتهبة معادية لليابان ولكل ما يرمز اليها .. وبالذات البضائع اليابانية ! ثم قاموا بتحطيم الاعلانات الضوئية الملونة عن هذه البضائع ، بل وبعض السيارات اليابانية التى صادفتهم فى الطريق !

وربما يكون هناك قدر من المبالغة ، فيما يطرحه اصحاب هذه الاصوات أو ما يحاولون التحذير منه فيما يتعلق باستمرار روح العداء القديم ، ولكن من الواضح ان ما يطرحونه يشكل جزءا من واقع لا يمكن تجاهله او تجاوزه على اى حال فى سياق هذا العرض للعلاقات الفريدة بين الولايات المتحدة واليابان .

وبالاضافة الى ذلك ، فإن هناك جانبا من الصورة يتمثل فيما يجرى داخل اليابان نفسها من تصاعد فى "الحس القومى" والدعوة الى استقلالية اليابان والبعد بها عن النفوذ الامريكى وتأثيراته .. ولا يخفى الامريكيون المتابعون للشئون اليابانية انزعاجهم من تنامى هذا التيار الذى اخذ يعبر عن نفسه ، على نحو اخص ، بدفع النواب "القوميين" الى مقاعد البرلمان اليابانى "الدايت" ، والرواج الملحوظ للكتب التى تنادى بالافكار القومية والاستقلالية .. كالكتاب

الشهير اليابان تستطيع ان تقول : "لا" وغيره .. وعلى الرغم من فوز أحد الشخصيات الأكثر موالاة لواشنطن اخيرا برئاسة الحكومة اليابانية ـ وهو "كييتشى ميازاوا" ـ فإن ذلك لم يخفف من الشعور بالقلق الذى يتزايد فى الولايات المتحدة ، على الجانب الآخر من المحيط الهادى ، بسبب اشتداد قوة التيار القومى بين اليابانيين .

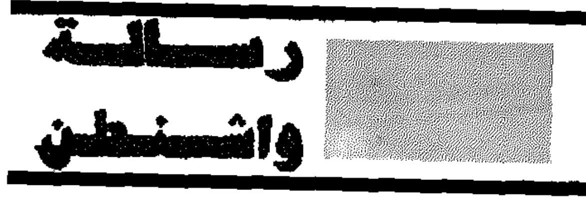
● وهل تندلع حرب اخرى ؟!

واذا كانت هذه المناسبة ـ اى مرور ٥٠ عاما على الهزيمة الامريكية فى "بيرل هاربر" قد اثارت كل هذا الجدل واللغط حول العلاقات الامريكية اليابانية ، بالأمس واليوم وغدا ، فإن هناك من لا يخفون قلقهم من ان هذه العلاقات قد تندفع ـ بسبب المنافسة العنيفة التى تزداد قوة يوما بعد يوم ـ نحو صدام محتوم .. وليس باتجاه مزيد من التعاون كما يتوقع ، أو يأمل ، البعض ولعلنا نشير فى هذا الصدد ، بصورة خاصة ، الى كتاب صدر منذ بضعة اشهر ولفت الأنظار بقوة لاثنين من الكتاب الامريكيين هما "جورج فريدمان" و "ميريديث ليبارد" اللذان اجريا دراسة "فى العمق" ـ على حد تعبيرهما ـ للعلاقات الدولية فى عصر ما بعد انتهاء الحرب الباردة .

ويحمل الكتاب عنوانا ذا مغزى هو "الحرب القادمة مع اليابان" ! وفيه يؤكد المؤلفان فكرة قوامها ان الصراع الرئيسى فى العالم ـ الآن وفى المستقبل ـ سيكون بين الولايات المتحدة واليابان . بل انهما يذهبان الى حد توقع ان هذا الصراع "سوف يتصاعد خلال السنوات العشرين القادمة . وسيشمل احتمال ـ أو امكانية ـ مجابهة مسلحة .. أو بمعنى أصح حربا امريكية يابانية أخرى يكون المحيط الهادى هو ساحتها الرئيسية !

اذا نحن نحينا ذلك كله جانبا ، فاننا نستطيع ان نسجل "لقطتين" رافقتا حلول ذكرى معركة "بيرل هاربر" احداهما على الجانب الامريكى والاخرى على الجانب اليابانى ، ورغم انهما تجسدان بعض المشاهد التى تبدو هامشية لأول وهلة ، فإنها مشاهد قد تساعد على اظهار الصورة على نحو اكثر وضوحا نظرا لما تنطوى عليه من دلالة :

فعلى الجانب الامريكى : سنجد ان الصحف والمجلات وسائر المطبوعات التى اصدرت اعدادا خاصة فى ذكرى "بيرل هاربر" ، قد افتقدت سيل الاعلانات المعهود عن السلع اليابانية الذى يغطى صفحات كثيرة من هذه المطبوعات ، ويكاد يشكل الجانب الاهم من دخلها ، وتساءلت احدى الصحف الأمريكية بفزع ، اين ذهبت كل تلك السيارات الهوندا والتويوتا وتليفزيونات السونى ؟! والحقيقة ان المطبوعات الأمريكية قد خلت من الاعلانات اليابانية على نحو يثير الدهشة ! فعدد مجلة "نيوزويك" الصادر عن المناسبة ، والذى حمل غلافه عنوان "فى ذكرى بيرل هاربر" لم تكن به صفحة إعلان واحدة عن



سلعة يابانية . اما عدد مجلة "تايم" الصادر بالمناسبة نفسها ، والذى كان عنوانه الرئيسى على الغلاف هو "يوم العار" ، فلم يتضمن سوى صفحة اعلان واحدة عن سلعة يابانية .. بينما اختفت هذه الاعلانات كلية من عدد مجلة "يو . اس . نيوز اند ، وورلد ريبورت" الذى صدر يحمل عنوان "بيرل هاربر" : امريكا ترد .

وكان التفسير الذى ذكرته الصحف الامريكية هو ان المعلنين اليابانيين رأوا انه ليس من مصلحة سلعهم ان تقترن ـ امام نظر القارىء والمشترى الامريكى ـ بهذه الذكرى الاليمة ، وان كانت تعود الى ٥٠ عاما مضت ، فهى فى النهاية ذكرى "يوم العار" ، وهكذا حجب المعلنون اعلاناتهم وفضلوا اخفاء سلعهم عن عيون الامريكيين حتى تمر هذه المناسبة المقترنة بالالم والهزيمة فى الذاكرة الامريكية . وربما كانت مجلة "ناشيونال جيوجرافيك" هى اكثر المتضررين ، حيث فقدت اعلانات تقدر قيمتها بنحو ١,٨ مليون دولار كان مقررا نشرها على صفحات المجلة خلال عدديها الصادرين فى نوفمبر وديسمبر الماضيين اللذين كانت "بيرل هاربر" موضوعا رئيسيا فى كل منهما .

اما على الجانب اليابانى : فإن "اللقطة" التى امكن رصدها ، ومن واقع ما نشرته الصحافة الامريكية ايضا ، كانت تجسد ظاهرة غريبة وفريدة حقا ! ذلك ان السوق اليابانية اغرقت ـ بمناسبة حلول ذكرى "بيرل هاربر" بفيض من الكتابات والقصص الخيالية التى تدور حول ما كان يمكن ان يحدث لو ان الامور سارت ، قبل نصف قرن ، على نحو آخر . فمثلا : ماذا كان يمكن ان يحدث لو ان التكنولوجيا اليابانية الحديثة كانت هى المتوافرة فى ذلك الزمان ؟ ماذا لو ان الطائرات والغواصات من انتاج اليوم ، استطاعت ان تقطع الزمان الى الوراء لتشارك فى الحرب ؟ وكيف كانت الصورة ستتغير لو ان المخابرات اليابانية ـ التى كانت محدودة القدرة ايام "بيرل هاربر" ـ قد تمكنت من تأدية دور افضل وراء خطوط "الاعداء" داخل امريكا ؟ ثم ماذا لو ان اليابان ، بدلا من غزو جيرانها الاسيويين واستثارة عدائهم ، اتبعت تجاههم سياسة مسالمة فضمنت تعاونهم او حيادهم ؟ وبالطبع ، فان الاجابة المنطقية على هذه الاسئلة هى ان اليابان كانت هى التى ستنتصر فى الحرب العالمية الثانية !

وعلى هذا النحو ، استغرق اليابانيون فى الخيال ـ واستمتعوا به ـ وخاصة مع القصص الخيالية التى ذاع صيتها للمؤلف اليابانى المشهور "يوشياكى هياما" الذى اصبحت سلسلته التى نشرها بعنوان "العودة الكبرى" اكثر الكتب انتشارا فى اليابان مع حلول ذكرى "بيرل هاربر" !

أجمل هدية لأسرتك

اشتراك سنوى فى مجلة



- ● ملتقى الفكر والإبداع .
- ●● تقدم ثقافة شيقة ورفيعة .
- ●●● تغنيك عن قراءة عشرات الكتب والمجلات .
- ●●●● مرآة العقل العربى خلال قرن .

الأسعار

●● ١٢ عددا فى جمهورية مصر العربية تسعة جنيهات

●● ١٢ عدد فى اتحاد البريد العربى والافريقى والباكستانى عشرة دولارات أو مايعادلها (بالبريد الجوى)

●● ١٢ عددا فى اتحاد العالم - ٢٠ دولارا (بالبريد الجوى)

- تسدد القيمة مقدمة لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى ج . م . ع نقدا أو بحوالة بريدية غير حكومية وفى الخارج بشيك مصرفى لامر مؤسسة دار الهلال وتضاف اليها رسوم البريد المسجل على الاسعار الموضحة اعلاه عند الطلب ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد .

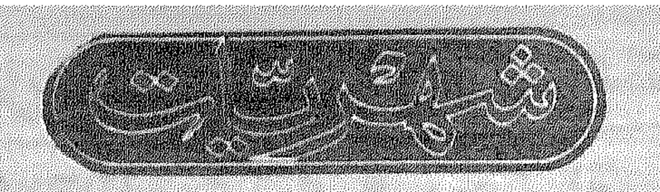
قسيمة الاشتراك

الإسم : ______________________

المهنة : ______________________

العنوان : ______________________

____



يحيى الطاهر عبدالله وداء النسيان

بقلم : عبده جبير

سألنى صديق زائر : أين يمكننى العثور على أعمال يحيى الطاهر عبدالله ؟ فأخذنى السؤال على غرة ، وكأننى تلقيت صفعة غير متوقعة على وجهى .
قلت : هيا نحاول العثور عليها ؟
وبالفعل قمنا برحلة طويلة عبر كل المكتبات الممكنة فى وسط القاهرة ، وفى أطرافها ، لكننا بعد عناء ، لم نجد سوى جملة واحدة جابهنا بها أصحاب المكتبات هى : لقد نفدت منذ سنوات طويلة .

عدت إلى نسختى من المجلد الذى يضم كتابات يحيى الطاهر عبدالله ، وفوجئت بالتاريخ الذى تحمله ، (عام ١٩٨٣) وقلت فى نفسى : هكذا مرت السنوات سراعا ، وفى خطواتها المرتجلة أكملت الأيام بعضها ، وبالفعل ، فإن هذه الأعمال قد نفدت بعد صدورها بعدة أشهر ، ونحن الآن فى بداية عام ١٩٩٢ ، أى أنه مرت ثمانى سنوات كاملة على نفاد هذه الأعمال ، ولم يعد بالتالى ، يحيى الطاهر عبدالله موجودا بين يدى من يريد أن يقرأه طوال هذه السنوات الثمانى ، وطبعا ، يمكن أن تمر عشرات السنين الأخرى ، وشيئا فشيئا يتلاشى وجود يحيى الطاهر ، أمام سمع وبصر الجميع ، وينتهى به الأمر إلى النسيان .

إننى لا أستطيع أن ألوم شخصا بذاته ، ولا هيئة بعينها ، عن هذا التقصير ، ولكننى فى نفس الوقت ألوم الجميع ، لأنه يبدو أننا جميعا نتمتع بقدرة هائلة على نسيان مواهبنا الكبيرة ، وبالتالى ، فإننا نضرب المثل فى ، التخلف ، الذى هو التفسير الوحيد لعدم الاهتمام الذى لم يبده أى منا لحقيقة أن أعمال هذا الكاتب لم تعد موجودة ، وهو مايعنى أن أعمالا هامة ، هى من صميم تراث هذه الأمة ، قد مسحناها من ذاكرتنا ، وأهلنا عليها التراب ، مع سبق الاصرار والترصد .

أذكر أنه حين مات ، يحيى الطاهر عبدالله ، فى ذلك اليوم المشئوم (٩ إبريل ١٩٨١) ارتفع الصراخ عاليا ، وأمطرتنا الأقلام بسيل من كتابات الرثاء ، تنعى

للامة كلها موت هذا الكاتب الذى وصف وقتها بالعبقرى ، حتى وصل الامر إلى ان تصدرت صورته اغلفة بعض مجلاتنا ، وكاننا كنا نحتفل بموته ، لابقيمته التى ها نحن نتناساها بإصرار وترصد .

لقد كتبت هنا ، على صفحات الهلال منذ نحو عامين (يونيو ١٩٩٠) كلمة تحت عنوان « النشر للمرة الاخيرة » انكر فيها بهذا الداء اللعين ، داء النسيان ، وذكرت بالاسم ، ضمن من ذكرت (راجع العدد) يحيى الطاهر عبدالله ـ ولكن أحدا لم يتحرك ، وهاهى ذى السنوات تمر ، وكان الجميع قد انسوا لهذا الداء الذى يبدو انه لاشفاء منه .

وإذا كنت اتهم ، بسبب علاقتى الشخصية بيحيى الطاهر عبدالله بالتحيز له ، فإننى يمكننى ان احيل إلى عشرات المقالات ، والدراسات ، وكثير من الكتب التى رصدت بالبحث والدراسة للرواية والقصة فى الستينيات ، وكلها يؤكد على قيمة هذا الكاتب ، واحيل هنا ، على وجه الخصوص ، إلى كلمة يوسف إدريس التى رثى فيها ، رحمه الله ، يحيى الطاهر مؤكدا على قيمته الكبيرة ، حيث قال (بعد ديباجة) : .. ومن اول سطر ، عرفت انى امام كاتب قصة ، وليس اى قصة ، قصة جديدة طوع لها شاعرية الوجدان المصرى الذى حمصته شمس الصعيدة جديدة الموسيقى ، جديدة اللغة ، جديدة المحتوى ، بل واكاد اقول ليست مصرية فقط ، ولكنها انغام صعيدية عالمية تماما .

فرحت به كالكنز ، اخذت منه القصة الاولى ونشرتها فى مجلة الكاتب ، ايام كانت مجلة الكاتب ، وقلت كلمة الفت بها الأنظار التائهة إلى الظاهرة : إلى يحيى الطاهر عبدالله .

.. كتب خمس مجموعات من عيون القصة العربية الحديثة .

ثم وفى نهاية الكلمة ، يصفه إدريس بانه واحد من انبغ كتابنا هاهو إذن يوسف إدريس ، رحمه الله ، يؤكد على قيمة يحيى الطاهر عبدالله ، وهو من هو فى عالم القصة : سيد لايشق له غبار .

لكن إذن كانت القضية التى اثيرها هنا تخص تراث يحيى الطاهر عبدالله ، وضرورة إعادة نشره ، وتوفيره للقراء ، فإن المسالة تحتاج إلى ماهو اكثر من حل فردى لهذا الكاتب أو ذاك ، فهناك تراث عريض وهام يكاد يتلاشى بفعل هذه « الخصلة » التى نسير عليها ، هناك تراث عريض وهام للغاية لعدد كبير من الكتاب والمبدعين لايجد من يلتفت إليه ليُحييه من العدم . هناك تراث عباس احمد ، ومحمد قاسم جودة ، وسليم حسن ، ومصطفى عبدالرازق ، وحسين فوزى ، وغنيمى هلال ، وعبداللطيف حمزة وغيرهم وغيرهم من الكتاب .

ماذا يحتاج الامر ؟

هيئة ؟

مؤسسة اخرى تكون مهمتها إحياء تراث الراحلين .

شيئا من هذا القبيل ؟

الامر يحتاج إلى نقاش لحل هذه الاشكالية التى تديننا جميعا ، بل ربما لحقت بنا جميعا .



ندوة جامعة القاهرة

التحليل السياسي لأدب نجيب محفوظ

على مدى يومين ، وبمناسبة بلوغ كاتبنا الكبير "نجيب محفوظ" عامه الثمانين اقام مركز البحوث والدراسات السياسية بجامعة القاهرة ، يومى ١١ و ١٢ ديسمبر الماضى ندوة خاصة عن الجوانب السياسية فى اعمال الكاتب الكبير الروائية والقصصية .

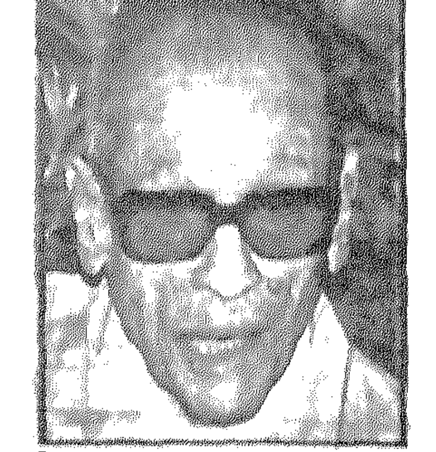
وفى بادرة غير مسبوقة قام نجيب محفوظ ، الذى لم يعتد حضور ندوات تناقش اعماله ، حضر الكاتب الكبير الجلسة الافتتاحية للندوة حيث رحب به الدكتور على الدين هلال رئيس مركز البحوث وكذلك الدكتور احمد الغندور استاذ العلوم السياسية ، اللذان بينا ، قيمة ما تضمنته أعمال محفوظ من شهادات سياسية للعصر الذى كتب عنه وفيه .

وقد بدأ الشاعر فاروق شوشة الجلسة الاولى مؤكدا على دور نجيب محفوظ التنويرى ، من حيث ان عبقريته نابعة من علاقته الحميمة بعراقة المجتمع المصرى ، مدا وجزرا ، فأدبه مرتبط بقاع المجتمع اخذا وعطاء .

اما كامل زهيرى فقد اكد ان القراءة الداخلية لاعمال محفوظ هى وحدها التى تمنح الناقد والسياسى وعالم الاجتماع الامكانية لقراءة المجتمع الذى كتب عنه محفوظ قراءة عميقة .

د. مصطفى كمال السيد أكد على تعدد قراءات نجيب محفوظ ، حيث يمكن لكل من السياسى او الناقد او عالم الاجتماع ان يجد قراءة مختلفة ، وقال انه نتيجة لذلك تنسب احيانا لمحفوظ مالا يقله ، لذا فإنه من الضرورى إلتزام الدقة فى قراءته قراءة تتزامن مع سياقها الاجتماعى والسياسى والتاريخى .

د. غالى شكرى بدوره قال ان هناك علامات استفهام عديدة ترتفع امام القراءة السياسية لاعمال محفوظ ، مؤكدا على ان "محفوظ لم يستكشف سقوط معادلة النهضة التى قامت على اساس التوفيق بين التراث والعصر ،


نجيب محفوظ



وان محفوظ من ناحية موقفه من ثورة ٢٣ يوليو ظل مخلصا لانتماءاته الوفدية قبل الثورة ، كما ظل امينا لدعوات وافكار سلامة موسى وطه حسين ولويس عوض وحسين فوزى والتى رأت فى الغرب اساسا لها .

الاستاذ محمد على ابراهيم قدم استعراضا لنماذج الشخصيات السياسية التى تضمنتها اعمال الكاتب الكبير ، مؤكدا على ان معظم الشخصيات السياسية التى قدمها محفوظ تنتمى اساسا للطبقة الوسطى ، وهى من جهة ثانية شخصيات تؤمن بمبدأ أو عقيدة .

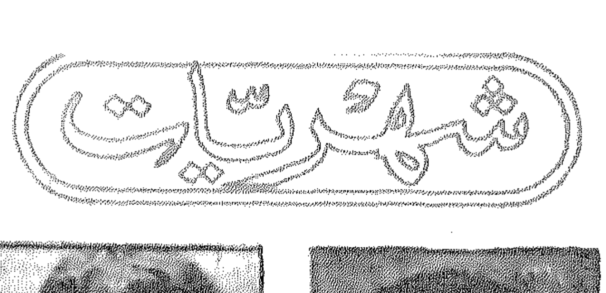
د. سيد عشماوى تناول رؤية نجيب محفوظ السياسية فى عمل واحد هو "المرايا" التى تدخلت فيها الرؤية السياسية العامة على امتداد تاريخ مصر المعاصر منذ ثورة ١٩١٩ وحتى اعقاب هزيمة ١٩٦٧ لهذه الشخصيات النمطية التى جسدت متناقضات عصرها من خلال الدلالات المباشرة التى فرضت أسبقية الافكار الكلية على الواقع الموضوعى .

الاستاذ على فهمى قدم تحليلا سيسيولوجيا عن انعكاس الحياة السياسية بمصر المعاصرة على رسم بعض الشخوص الروائية فى ادب محفوظ ، وقال ان ابداعه هو ظاهرة بشرية ملغزة ، والظواهر البشرية لا يحكمها قانون علمى ، ومن ثم فان اشكالية الابداع عند محفوظ اشكالية مركبة ان لم نقل هى بالغة التعقيد .

القاص جمال الغيطانى تتبع فى ورقته بشغف الاماكن التى كتب عنها نجيب محفوظ فى القاهرة القديمة وبين بمعرفة ودقة حقيقة هذه الاماكن . وهل هى الاماكن الواقعية ام هى من نسج الخيال ، مما يعد تحقيقا علميا لهذه القضية الهامة من قضايا ادب محفوظ .

سمير فريد تعرض فى ورقته لمنحى هام من مناحى ابداع الكاتب الكبير هو علاقته بالسينما — وقدم مسحا علميا للافلام التى ظهر عليها اسم محفوظ مؤكدا ان محفوظ كتب السيناريو لـ ١٤ فيلما وكتب قصة وسيناريو ٣ افلام ، واشترك فى كتابة سيناريوها ٣ افلام ، وكتب قصصا سينمائية لم ينشرها لـ ٨ افلام ، اما الافلام المعدة عن رواياته فقد بلغت ٢٧ فيلما ، والافلام المعدة عن قصص قصيرة له فبلغت ٩ افلام .

كانت ندوة حاشدة ونحن فى انتظار ان تصدر قريبا بما جاء فيها من مناقشات فى كتاب .





صبحى ولينين وديمقراطية المسرح

بقلم: فوزية مهران

أتابع مسيرة "محمد صبحى" منذ البداية (أحس به مشحونا طوال الوقت ... متوهجا ... مليئا بالمسرح) له رؤية شاعر ... ورسالة مفكر .... وقلب فنان محب وطموح .

- رجل مسرح بكل معنى الكلمة .

يناضل ويخاطر .. يشقى ويمكن أن يستشهد من أجل تحقيق رسالة المسرح .

- يؤمن أن باستطاعة المسرح مساعدة المجتمع ليعثر على نفسه من جديد .

وبنفس القدر من الاهتمام والحب أتبع انطلاقة "لينين الرملى" - التأليف المسرحى لديه رؤية فى العمق ورسالة مجاهدة ومحاولة نفاذ إلى قلب المشكلات .

يجدد ويجرب فى لغة المسرح وصورته - يريد ليضعه فى حياة الناس كوسيلة تحرر وتقدم ويعلى من طاقة السخرية والفكاهة الدافعة للتطوير وتحسين الأداء ..



لقطة من مسرحية بالعربي الفصيح

لايمكن تصور لقاء أجمل من لقاء هذين الصديقين - مشاركة وتفاهم وخلفية فكرية واضحة ... ورؤية طموح لمسرح جديد - يكون متعة ويقظة وثراء للعقل والوجدان .. وللجميع - ويجمعهما فهم عميق لرسالة المسرح - وظيفته بين الناس - لتحقيق التواصل بدفء المشاركة ..

● مسرح النقد الاجتماعي - والاحتجاج الصاخب .. والتزامه بهموم الناس معاناتهم وتنمية لديهم بذرة الغضب النبيل ..

(توسيع قاعدة الديمقراطية .. والمشاركة بالحوار .... وحرية الابداع والقدرة على التعبير) .

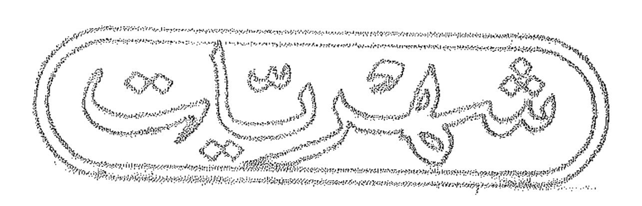
● بالعربي الفصيح

يقدمان لنا الآن تجربة جديدة .. ويحققان ظاهرة فريدة .. يرسمان علامة ظافرة في تاريخ المسرح المصري والعربي .

اقاما لنا معملا مسرحيا فائقا ..

(هذا الثنائي المسرحي الجميل يجمعهما أيضا الايمان بقدرة الشباب على إقامة مسرحهم الجديد) .

ومن حقهم تقديم مسرحية "بالعربي الفصيح" - وهي غوص في قلب عالمنا العربي وضرورة تنقية



أجوائه من أدران الفرقة والخلاف واحتراف تعليق الشعارات وضرورة كشف الخطايا والسوءات .

وهو جهد لابد أن يدعمه جهد الشباب ليقيموا البناء من جديد .. ويغرسوا أسس الوحدة والتعاون والتفاهم من أجل مستقبل أفضل .. وحياة أكثر أمنا وحرية . وكان لابد من تعليم وتدريب لصياغة "نجوم المستقبل" .

(هكذا دعاهم محمد صبحي - وهو يقدمهم بنفسه بعد انتهاء العرض المثير) - نجوم الغد ... وأبطال المستقبل ... رصيدنا البشرى لعملية التقدم والترقى - لابد من جهود مشتركة .. وجمع مستنير .... ونبذ فكرة "النجم الأوحد" والبطل الخرافى المستطير .

وليس هناك من رصيد .. أو دعم مادى من دولة أو هيئة ... والنقود المتوافرة قليلة .. (ولكن لاتعوزنا الثقة ... ولا الجهد الطموح .. والايمان بقدرة الإنسان المصرى البسيط على التحدى والتفوق فى مواجهة التحديات والعقبات) .

(أسطورة محمد صبحى هو نفسه .. رصيده من الحب العظيم فى قلوب الجماهير تأتى من أنه بجسده الناحل وإحساسه النافذ وروحه المرحة الساخرة يمثل لديهم صورة المتمرد الجميل ... الذى يواجه المصاعب والآلام وينفذ من الأحزان والآلام ويحولها طاقة مرح وإرادة تحد وتصميم على الاستمرار والعناد وتحقيق الحلم والآمال) .

- إنه نغمة تمرد ... وروح تحد .. رمز وتجسيد حقيقى لإنسان مصر البسيط .

وكانت البداية إعلانا صغيرا بالصحف - وكل من يجد فى نفسه من الشباب رغبة للعمل بالتمثيل .

وتقدم الف وخمسمائة شخص . تم اختيار خمسين منهم ..

وأقيم معسكر صغير .. معمل مسرحى داخل مسرح صبحى ... وكتيبة عمل وتدريب من الشباب الواعدين .

خليط من العمال المهرة والفنيين .. طلبة جامعيون .. وتلميذات صغيرات .. وفتيات ناضجات .

- المال قليل .. والعزم كبير .. والحب متسع والوقت متاح .. والآمال واعدة .

واستمر التدريب لمدة ثمانية اشهر او يزيد

محمد صبحى ولينين الرملى .. يشتركان فى التعليم والتمرين .

(صبحى حاضر البديهة .. شديد الذكاء .. فائق الملاحظة .. تتجلى مواهبه فى الاخراج والتمثيل) لابد أن صحبته والأخذ منه والتدريب على

عينه كانت متعة وعبورا إلى عالم جديد .

لينين يجمع بين الخبرة الأدبية للتأليف المسرحي وخبرات نظرية وعملية في التمثيل والأداء وتوصيل علامات النص جيدا .

أسلوب نادر فى العمل والجهد .. فعل خارق لهدف التعليم والتنوير وخدمة المجتمع وديمقراطية الفن من أجل الكشف عن مواهب حقيقية .. وعقول تفكر بأسلوب عصرى وعلى نسق جديد .

الدراسة الحرة ونشر مبدأ الثقافة للجميع والتوجه إلى الشباب لدفع حركة العمل والتنمية وإتاحة فرصة العمل والتعبير يعيدان الحيوية والاشراق لوجه المسرح من جديد .
(انجاز أكبر من طاقة فردين .. لكن صبحى ولينين قوة جامعة .. وطاقة مفجرة) أقدما على التجربة الخطرة والعسيرة بروح المغامرة وحب الكشف والمعرفة وبروح نضال واعية .

كأنى بهما إيزادورا وهى تعلم أبناء مدرستها تأمل كل حركة فى الطبيعة ورعشة غصن صغير أو تفتح زهرة على عودها .. كانت تقف ساعات تدريبهم جعل أجسادهم آلة نورانية يسهل الطرق عليها وإرسال النغمات من خلالها ـ كانت تقول لهم "تأملوا ذلك النور الكامن بأعماقكم .. أنصتوا للموسيقى العذبة المتصاعدة من الداخل .. اتبعوا حركتها ودعوا جسدكم يعبر عنها ويصدح بأعلى نغماتها" .

من حظهم أن يدربهم ـ محمد صبحى .
وأن يؤصل لهم التجربة لينين الرملى .

صبحى وله طريقته الخاصة فى الأداء .. يتمثل روح الشخصية .. يمسك بها تستوعبها حركته العضوية والخارجية .. تعبر عن حركة الشخصية الداخلية .. يجعل من أصغر إيماءة رسالة وبث وإشعاع للآخرين .

قفزاته على المسرح ـ مشيته .. ميله أو تجمده كلها تعبير مدهش وقدرة اتصال (حتى فى صمته يشحن الجو بالحركة والحيوة والنطق البليغ) .

إنه يعرض عليهم تجاربه .. لحظاته الدافئة المبدعة على المسرح .. سيرته الذاتية والمسرحية .. ينمى لديهم صفات كامنة ويشد أوتارها ويوقظها من جديد .

ـ وهو فى نفس الوقت يوالى تدريب نفسه .. ويواصل ابتكاره .. واكتشافه لقوى الخلق داخله .

يتيح لديهم أثمن ماالديه وذلك التواصل بينه والجمهور وكيف ينفذ إلى قلوب الناس وذاكرتهم ووعيهم .

يقول محمد صبحى عن المسرحية "لست أدرى لماذا أسميناها ـ بالعربى الفصيح ـ مع أنها باللغة



العامية يطلقها دعابة ذكية .. ويلفت نظرنا إلى مفارقة مؤلمة وضاحكة .

"بالعربي الفصيح" يشير العنوان إلى معنى هام وعميق .. "اللغة العربية الجميلة لغة الكتاب والبيان والحكمة والفكر العميق ..

لغة غنية بليغة تحمل للناس رسالة محبة وتسامح وسلام للجميع ..

لغة مشتركة .. توحد الفكر والوجدان .. ورابطة واتصال ..

اللسان العربي المبين .. عبر عن حضارة وأصالة وتراث عريق ..

لماذا اتخذ العرب لغتهم الناطقة "مهجورة" لماذا ادبروا عن البيان والفصاحة والفعل النافع والعمل القويم - لماذا غابت عنهم مفردات "التوحيد" ... والقربى والمودة ..

وصلات إقامة الكلمات للحق والعدل والخير .

"بالعربي الفصيح" مسرحية تنفذ إلى قلب أمة العرب .. وتفصح عما أصاب الشخصية العربية وتكشف عن العيوب والنواقص .

مسرحية ساخرة ... كاشفة وناقدة ... فائقة البساطة ... بليغة المعنى .

لينين الرملي - يبحث عن لغة جديدة في المسرح يرسم بعناية شخصيات شابة عربية تتجمع في نزل في قلب بلاد الغرب - بلندن - وأتت من كل فج عميق لطلب العلم .

- هم ثروة المستقبل حقا - لكن الأبناء هنا على دين بلدهم - كل واحد فيهم رمز لدولته فيهم سمات مشتركة لكن لكل تفرده وغرابته .

كل شخصية كأنها رسم كاريكاتيرى للشخصية العامة الوطنية في بلدها .

ورغم فرقتهم - تشابهت قلوبهم - ساعة الخطر وفي الموقف العصيب .

- وأعمق من النكتة في خلق النموذج وتجسيده .. والاضحاك على عيبه الظاهرى والباطني .. يبرز عنصر المأساة ويجعله ضحكا أمر من البكاء .

(أروع أنواع الضحك وأنضجه هي القدرة على الضحك على النفس بذلك نكتشف العيوب ونعرف موطن السوء .. ويشفينا الضحك من استفحال المرض .. ومن الهروب من المواجهة .. والحماية بكبرياء زائف أو جمود مميت) .

لم يتبع لينين البناء التقليدي المسرحية .. بدأ من قلب الحدث وفي لحظة المواجهة .. من داخل الموقف ذاته .

تجمع عربي شبابي في الخارج - وكأن عين المجتمع الدولي مفتوحة علينا ترقب حركتنا وتشهد تصرفنا وردود افعالنا .

وتتبدى الأخطاء .. وأسلوبنا المعتاد في ستر العيوب بدلا من مواجهتها (يتركون الخطر القائم ويقيمون محاكمة لأنفسهم ويمزقون وجوههم ويمضون الوقت الثمين في جدل عقيم وسفسطة - وعلى أحسن

الفروض ترتفع كلمات إنى أشجب وأعترض)

- قد يحلو للبعض الإشارة إلى سطحية المعالجة واعتمادها على اللفظه الخارجى وتبسيط الصراع وتحريك رسوم الكاريكاتير والتعليقات اللاذعة .

ولكن لينين الرملى يتعمد الضحك والتنكيت ومن خلال الفكاهة يكشف عن أوجه المأساة ... وخطورة الأوضاع ..

ويتميز دائما بهذا المزج بين الكوميديا والترجيديا ...

● دور هام لصبحى

تجلت موهبة محمد صبحى فى الاخراج .. وتبدت رؤيته العميقة . كان يهتم بالحركة ويجعل منها زيا شفافا يكشف مابداخله . مرن مجموعة الشباب على الإجادة وجعل لكل منهم "دالة" وإيماءة فى الحركة أو نبرة الصوت أو خروجه أو مشيته .

تجلت أفكاره وتأثيره الدرامى على المسرح حيث مازج بين الحركة الفردية ورسم الحركة للمجموعة كلها .

كل يؤدى دوره ثم يتكتل الجميع فى لوحة ووحدة فنية بديعة التكوين .

بدأ الجزائرى عنيفا مشتدا ولديه استعداد فطرى للقتال .

والسورى فى دور المؤلف لمسرحية - داخل المسرحية - ملىء بالامكانات والالتزام والنضال . لغة المال تتحدث وسط النقاش . وتبرز وجه العملة السيىء . والاعتماد على قوة المال وقدرته لشراء أى شىء - وكل شىء - وترك النفس للترهل والخمول . الفتاة المصرية ذات حياء وكبرياء وروح مرحة مشعة .

البحرانية متحدية وراغبة فى المعرفة والتجربة وتود الزواج على الطريقة التقليدية .

المصرى أوسع حركة وإدراكا وفهلوة .

الطالب العراقى عريض المنكبين .. تصادميا متجهما ..

السودانى يفضل القعدة بركن قصى ويعلق على مايجرى بخفة دم نادرة (وكان الجمهور يستقبله بالضحك بمجرد ظهوره - وانتظروا نجما متألقا للكوميديا فى المسرحيات والأيام القادمة) .

الطالب الليبى مستفز ومستنفر طوال الوقت .

الأردنى قصير ومكير ويشهد الموقف بترقب وحذر .

أخوان من لبنان .. "جعجعة ولا طحن" ونقاش جانبى منفرد ..

المغربى متأنق يبدى التحضر - يفسد أى مناقشة - بطلب نقطة نظام دائما - ولا يقول شيئا مطلقا .

الانجليزية إيفا - فاتنة العرض .. وعين على الطلبة .. وكل يحاول إقامة علاقة معها بطريقته - يتظاهرون بالهلع عندما تعلن عن إصابتها بالايدز من خطيبها الانجليزى ويكتم كل منهم



فرحته داخله لفشله فى إقامة علاقة معها ـ وتزدرى جهلهم فكيف ينتقل المرض بلمسة يد أو قبلة عابرة .. وتتبدى الخيبة واضحة . منتهى السخرية والتجريح من جانب المؤلف ليست بقصد القسوة والإيلام بقدر ماهى برغبة الكشف ونفض الزيف ..

المذيعة جادة ومتحمسة تريد أن تظهر الحقيقة كاملة وترضى ـ نظرا للظروف ـ بنصف الحقيقة وتجاهد لتحتفظ ولو بنسبة ضئيلة منها .

المذيع قلب المجموعة كلها ـ معلق ذكى ومن طلاب الحقيقة ويعانى فى مهنته .. (لفت نظرى فى دور الطبيب فى مسرحية جان دارك أو المخاطرة) وقد أطلق محمد صبحى حركته وأنضج تحركه ..

كذلك خطيبة الطالب المخطوف أو المختفى (ظهرت بنفس وجهها البرىء وعفوية أدائها فى مسرحية جان دارك أيضا وقلت عنها إنها جاءت بزيها المدرسى إلى المسرح مباشرة) ومازالت تحتفظ بنفس الأسلوب الطبيعى الجميل .

أجمل مافى إخراج صبحى تلك اللحظات التى تجمد فيها الحركة بين المجموعة وتصبح لوحة ساكنة مجمدة وإن كانت تنطق بذاتها وتتيح فرصة تأمل حركتها ومضمونها ـ كأنها رقصة شعبية معلقة على حائط قديم عريق .. أتت بالصدفة وغير متعمدة .. وإن كانت مليئة بالدلالة والرمز ومعدة مسبقا ـ مباراة للتمثيل والأداء الصادق المعبر .

وكان علىّ أن أذكر أسماءهم جميعا لكنى فضلت التحدث عنهم "كجمع" وذكر عملهم كمجموعة رائدة . واعتبارهم كتيبة جديدة من فرق المسرح الجديد .

تصميم الديكور للفنان "حسين العزبى" يقوم على البساطة والوضوح .. مع عمق فى الصورة ودلالة اللون .

جسد طبيعة العرض الدائرى .. فالصالة مستديرة فى النزل يتراصون فيها فى استرخاء أو توتر .. صممت لتكون فى حركة دائمة أو كامنة ـ أو كأنها تدور بهم مثل وضعهم على كوكب الأرض .. وربما تشير لهم ألا يدعوا حركة الأيام تدور بهم يسلمون قيادهم دون أن يملكوا زمام أمورهم .

والحفل التنكرى صاخب الألوان والأقنعة .. والموسيقى تتبع الضجيج والخمود وتشتعل .

مضى وقت طويل ولم نجتمع هكذا حول عمل مؤثر ويثير النقاش ويستدعى التفكير والتحليل .

اجتمعنا .. وتوحدت منا المشاعر والأحاسيس وحدنا كيان هائل .. وتوقدت الوجوه حماسا ورغبة فى مواصلة البحث والسعى والعمل . تحية لهذه الجوقة المبدعة ـ كتيبة المسرح القادمة ..

"نجوم المستقبل" حقا .



مكتبة الهلال



الكتاب : ضراعة من قلب عربي
شعر : مصطفى بهجت بدوي
١١٢ صفحة
طباعة : دار الهلال

هذا هو الديوان الثامن للشاعر الكبير الاستاذ مصطفى بهجت بدوى ، ولا نذكر هنا رقم الديوان استكثارا لعدد دواوين الشاعر ، فربما كان بعض الشعراء او كثير منهم فى عصرنا قد اصدروا عددا اكبر من الدواوين ، ولكن العبرة ليست بكثرتها بل بمادتها ، فالشعر الان كثير ولكن القليل منه ، بل القليل جدا هو ما يمكن اعتباره شعرا ، سواء اكان منظوما بالبحور المتكاملة الشطرات ، او بالتفعيلات المتفرقة على السطور ، ولا شأن لها بما يكتبه بعض الادعياء من النثر الخالص زاعمين انه شعر تجديدى يحمل اسم "القصيدة النثرية" !

والاستاذ مصطفى بهجت بدوى ينظم الشعر منذ خمسين عاما واول دواوينه صدر سنة ١٩٤٧ وهو فى السادسة والعشرين من عمره ، وكان حينذاك ضابطا ناشئا فى الجيش ، فانضم بديوانه الى جماعة الضباط الشعراء الذين كان اولهم فى عصرنا محمود سامى البارودى ، وكان منهم حافظ ابراهيم واخرون من الشعراء المجيدين .

أما الديوان الجديد فيدل على حياة صاحبه وفكره وهمومه ، يبدو ذلك من عنوانه "ضراعة من قلب عربى" .. كما يبدو فى كل بيت من ابياته الى اخر صفحاته .

ان مصطفى بهجت بدوى شاعر مهموم بوطنه المصرى ووطنه العربى الكبير ، تؤرقه مأساة فلسطين بوجه خاص ، لهذا تجد صدى هذه المأساة الدامية فى كل دواوينه ، صارخا فى البرية ، او باكيا على اطلال القضية ، او عازفا لحن الامل فى انبعاث العرب وانتصارهم فى حطين وعين جالوت مرة اخرى ، على صليبيى هذا العصر ومغوليه وتتاره الذين غزوا فلسطين تحت راية الصهيونية والامبريالية ، ومازالت غزوتهم تستكمل اهدافها حتى اليوم ، فى مشاهد بربرية رهيبة لا يعرف التاريخ لها مثيلا .

والضراعة التى يبعثها الشاعر فى ديوانه ليست موجهة الى



الاعداء الذين قدت قلوبهم من صوان ، ولكنها موجهة الى العرب والمسلمين الذين يحارب بعضهم بعضا ، بل يشرب بعضهم من دماء بعضهم الآخر ، تاركين العدو ينفذ الى اهدافه وهو سعيد طليق اليدين يفعل ما يشاء !

وفي هذه النكبة "الداخلية" يرسل الشاعر شواظ غضبه على الجماعات التى يقاتل بعضها بعضا ، فيقول :

ماساة باتت ام ملهاة ؟
.. أليس ببابكم الاعداء ؟
لم اشهد اهلا ينتحرون فلم تغنون صباح مساء ؟!
ملعون حقد العصبيات اللاتى كفرن بغير حياء
وعصفن بعصمة حبل الله فامسى الاخوان الاعداء
والجسد الواحد كالمسعور تعض الاعضاء .. الاعضاء

هكذا يرى الشاعر موقف العرب والمسلمين فى مواجهة الغزوة الصهيونية الدموية ! لقد تركوا عدوهم حرا وراء ظهورهم وانطلقوا كالجسد المسعور تعض الاعضاء فيه الاعضاء ، وتاكل خلاياه خلاياه !

ان الاستاذ مصطفى بهجت بدوى هو احد الشعراء الذين اخلصوا لفن الشعر ، فلم ينصرفوا عنه بعد جولة أو جولتين ، ولم ييأسوا من جدواه وينفضوا منه ايديهم ، وهذا الاخلاص لفن الشعر ارتبط بالاخلاص لقضية الشاعر التى وهب لها حياته ، وهى قضية الوطن المصرى والامة العربية والاسلامية .

وينعكس فى هذا الديوان الجديد حال الوطن وحال الامة العربية والاسلامية فى السنوات العشر الاخيرة التى اندلعت فيها الحرب بين ايران والعراق ، وتصاعدت ثورة الحجارة فى فلسطين ، ثم ما كان من مأساة حرب الخليج .

لقد وقف الشاعر على هذه الاحداث الجسام شاهدا عليها ، يعزف فى وهج نيرانها الحانه الشعرية ، ويسجل اختلاج ضميره وينبض قلبه بما تركته من اثار على الوطن والامة .

ان ديوان "ضراعة من قلب عربى" نادر فى مضمونه الذى يقدمه الى القارىء العربى فى هذا الزمن الذى انصرف فيه عن الشعر ، واوشك اليأس ان يصرفه عن متابعة ما يجرى حوله من احداث خطيرة تؤثر فيه وفى مصير امته اثارا تمتد الى مئات السنين القادمة .

وقد اثبت شاعرنا

مصطفى بهجت بدوى باصداره هذا الديوان اخلاصه لفن الشعر، واخلاصه للمضمون النبيل الذى حمله فنه الشعرى على امتداد خمسين سنة تقريبا .



الكتاب : على الكسار بربرى مصر الوحيد
تأليف : ماجد الكسار
الناشر : كتاب اليوم
عدد الصفحات : ٢٠٠ صفحة

الاستاذ ماجد الكسار مؤلف هذا الكتاب هو نجل المرحوم على الكسار فنان الكوميذيا الذى افتتن به جمهور المسرح المصرى ثلاثين سنة أو اكثر، كما افتتن به جمهور السينما المصرية فى افلامه الكوميدية التى تتابعت فى الثلاثينات وبداية الاربعينات .

وعلى الكسار كان توأم نجيب الريحانى فى عهد ازدهار المسرح الكوميدى فى العشرينات والثلاثينات، ورواياته التى قدمها على مسارح القاهرة والاسكندرية والمدن المصرية والعربية، كانت نموذجا للكوميديا فى ذلك العصر، وبلغت فى اخراجها وديكوراتها ونواحيها الفنية الاخرى غاية ما بلغته فنون المسرح ايامئذ، حتى صار على الكسار فى الصدارة بين المسرحيين، والتف حوله الجمهور، وارتفع شأن العاملين فى مسرحه من الممثلين والممثلات وسائر الفنيين، وكتبت عنه الصحف فى مصر والبلاد العربية واوربا .

وعلى مسرح الكسار عرضت المسرحيات الاستعراضية الغنائية التى لحنها سيد درويش وزكريا احمد وغيرهما من كبار الملحنين فى العشرينات والثلاثينات .

وعلى مسرح الكسار غنت ام كلثوم فى بدايتها الفنية كما غنى محمد عبدالوهاب، وفى هذا المسرح اشتهر اسماعيل يس ومحمود شكوكو وحامد مرسى وعقيلة راتب وبشارة واكيم وعشرات ممن اشتهروا فى المسرح والسينما فيما بعد .

كانت شخصية الخادم النوبى هى التى يقدمها على الكسار وينتقد من خلالها احوال المجتمع حينذاك، ولم يكن يخلو قصر من قصور الباشوات والبكوات من خدم نوبيين، كذلك كان "بواب العمارة" فى القاهرة والاسكندرية هو دائما من النوبيين، فكانت هذه المجموعة من المواطنين ذات وضع خاص فى المجتمع آنذاك، وقد عاش الكسار فترة من



حياته يعمل بين هؤلاء المواطنين ولهج بلسانهم ، واندمج في عاداتهم . فلما اشتغل بالتمثيل كانت شخصية "البربري" .. اى شخصية الخادم ذا اللون الاسود القادم من جنوب مصر ، هي الشخصية التي تتفجر منها كوميديا على الكسار ، نقدا للمجتمع ، وطلبا للضحك على مفارقاته !

وقد نجح الكسار واستمر ناجحا لمدة طويلة ، ولكنه تعثر في آخر الامر ، فانكمش كأنه طوى تاريخه الفني الحافل الذي كان فيه صنو نجيب الريحاني ، ولكن الريحاني اتيح له ان يبقى ويستمر ، ولم يتح ذلك للكسار ، ولذلك اسباب كثيرة يبينها نجله ماجد الكسار .

ان هذا الكتاب يلقى الضوء على جوانب من حياة الكسار وفنه ، ومؤلفه اقدر من يقوم بهذه المهمة فهو نجل على الكسار ، وقد رأى حياة أبيه من داخلها وخارجها ، وصحبه في السراء والضراء ، وشهد ايامه الجميلة ، كما شهد يومه الاخير في الحياة عندما اسلم روحه في مستشفى قصر العيني سنة ١٩٥٧ .

لقد كان على الكسار علامة بارزة في الكوميديا المصرية ، وقلده الكثيرون في عصره وبعد عصره ، ولكنه بقى متفردا بفنه وطريقته .



الكتاب : كوميديا الحكم الشمولي
تاليف : ابراهيم فتحي
الناشر : هيئة الكتاب
١٣٦ ص ، ١٧٠ ق م .

يتناول الناقد المعروف ابراهيم فتحي بالدراسة عددا من المسرحيات الفكاهية ليوسف ادريس وعلى سالم وجمال عبد المقصود ، من منظور المقاربة بين اعمال هؤلاء الكتاب وبين ينابيع الفكاهة الشعبية التي تقف في مواجهة الاستبداد ، مؤكدا على ان الفكاهة الشعبية طابعا خاصا ، طابعا غير رسمي يطلق العصيان على ما هو تام الصنع ، مصقول ، مغطى بالطلاء ، وتلك الفكاهة تستمد جذورها من التقليد الفلكلوري في تطوره» .

وعالم الاشكال الفكاهية الشعبية ، كما يؤكد ابراهيم فتحي ، ينتصب في مناهضة النبرات «الجدية» المنتفخة ، العابسة المتجهمة ، لعالم الحكام الطغاة الاجانب في معظم الاحيان ، وعالم عساكرهم وجلاديهم ، وعلمائهم الذين يحرفون الكلم عن مواضعه ، فالفكاهة الشعبية نمت خارج اطار الاستبداد الرسمي وتحاول ان تبنى عالما ثانيا وحياة ثانية في

مواجهة عالم التخويف والارهاب .

وهذا العالم الذى يشترك فيه الجميع ويتحررون داخله خلال فترة قصيرة ، يمارسون فيها حياة مبتهجة طليقة يتحقق فى الاعياد والاحتفالات والموالد العامة وطقوسها المرحة ، وشخصياتها البعيدة عن الوقار من مهرجين وحواة ولاعبى حظ .



الكتاب : الديوان الأخير
تاليف : عبد الحكيم قاسم
الناشر : دار شرقيات ، القاهرة ١٩٢ ص ، ٧ ج م

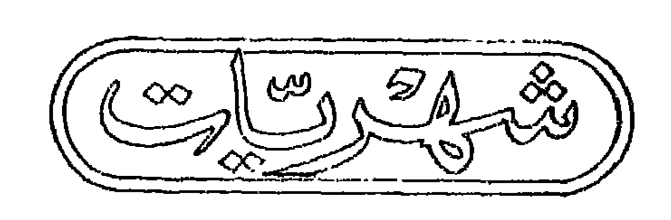
فى ثوب قشيب ، يأتى هذا المجلد الذى يضم آخر ما تركه لنا الكاتب الروائى البارز الذى فقدناه فى نوفمبر ١٩٩٠ عبد الحكيم قاسم ، وهى سبع عشرة قصة قصيرة ، وفصل من رواية «كفر سيدى سليم» التى لم يكملها ومات دونها ، بالاضافة الى مسرحيته الوحيدة التى اذاعها البرنامج الثانى للاذاعة المصرية لأول مرة عام ١٩٨٨ ، وهى طبل وفانوس ورجال» .

وعلى هذا الاساس تكون قائمة أعمال عبد الحكيم قاسم قد ضمت : ايام الانسان السبعة ١٩٦٩ ، وقدر الغرف المطبقة (١٩٨٢) والاخت لاب وسطور من دفتر الاحوال (١٩٨٣) والمهدى (١٩٨٤) الاشواق والاسى (١٩٨٤) والهجرة الى غير المألوف (١٩٨٥) الظنون والرؤى (١٩٨٦) وطرف من خبر الآخرة (١٩٨٦) ومحاولة للخروج (١٩٨٧) ديوان الملحقات (١٩٩٠) والصغيران وافراخ اليمامة (١٩٩٠) وهى حكاية للاطفال .

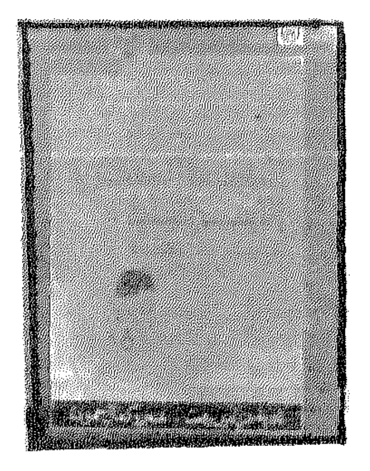
ومن ابرز ما فى هذه المجموعة قصته القصيرة المعنونة العقاب ، ففيها نشهد الملامح الاساسية لطريقة حكى عبد الحكيم قاسم المنفردة ، فنجده يقفز من الجملة الاولى ليصور لنا المشهد بدقة وذكاء وقدرة خارقة على التعبير اللغوى الفنى بمفرداته ذات الايقاع الموسيقى المترابط ، والذى يتفرد به دون غيره من الكتاب ، يقول :

واليوم فى هذه الدار جنون ، خوار الابقار والجواميس ، ثغاء الشياه ، قراق الفراخ ، صراخ النساء والعيال ، البخار من القدور ، الدخان من الكوانين والأفران ، والحمارة السوداء - فى هذا الصخب المجتاح ، اربعة قوائم واهنة ملتوية ، وبطن ضامرة يغطيها شعر شاب سماره بياض كثير ، وذيل نامى كالعصا ، ورقبة مهزولة تثقلها هامة هائلة هاوية متدلية الأذنين ، وعيناها الكبيرتان تحدقان فى الأرض بلا تألق .

فاذا ما جن الليل وكبست الزريبة بالظلام ، وصمت فى الشقوق والقيعان حياة غريبة : صرير متواصل مكتوم ، زفرات قلقة متألمة ، رفة جناح منزعجة مقاطعة وصرخة موجزة نهائية ، تهاويل مبهمة تتقلب فى جوف الليل ، والحمارة السمراء تحدق تحديقا



مرتجفا فى الظلام الدامس ، لكنها لا تزال قادرة على كد الطريق المترب ـ متقلة بالاحمال ـ فى الشمس الحارقة .



الكتاب : المؤسسة العسكرية الاسرائيلية
تاليف : نادية رفعت ، وعمرو حمودة
الناشر : سينا للنشر ـ القاهرة ١٧٦ ص .

هذه دراسة جادة بذل فيها الكثير لتاتى على هذه الصورة الناضجة مستفيدة مما سبقها من دراسات ، وان كانت قد اضافت بترابطها هذه الصورة الدقيقة والعلمية للمؤسسة العسكرية الاسرائيلية التى يرى المؤلفان انها مؤسسة «وضعت» ونمت على «العنف» كوقود لآلتها الشرسة فى فرض امر واقع وحقائق ضد ارادة شعب عربى فى فلسطين من اجل ابادة ثقافته وكينونته ومصادرة تاريخه ومستقبله . هو كتاب اذن يتناول جذور العنف فى الايديولوجية الصهيونية واثرها على تركيبة المؤسسة العسكرية فى كافة مستوياتها ، وفى بنائها الداخلى وفكر قيادة اركانها .

كذلك يتناول الكتاب السيطرة «الاخطبوطية» للمؤسسة العسكرية على مجريات الحياة اليومية فى اسرائيل ، وعلى القرار السياسى للنخبة الحاكمة ، ليوضح فى النهاية ان حياة الاسرائيلى مرهونة بارادة النخبة الحاكمة ، لتلك المؤسسة ومصالح المشروع الصهيونى .

والكتاب ينشر فى اطار مشروع طموح تزمع دار «سينا» متابعته مستهدفة تقديم «رؤية ديناميكية» للمجتمع الاسرائيلى ، بعيدا عن التقريرية .او المتابعة الوصفية والباردة ، انما تسعى الى تقديم المجتمع فى حركته وتفاعلاته دون اغفال ارتباطاته الايديولوجية وعلاقته بجذوره الصهيونية القوية ، ومدى سيطرة هذه الارتباطات والعلاقات بحاضر ومستقبل هذا المجتمع .



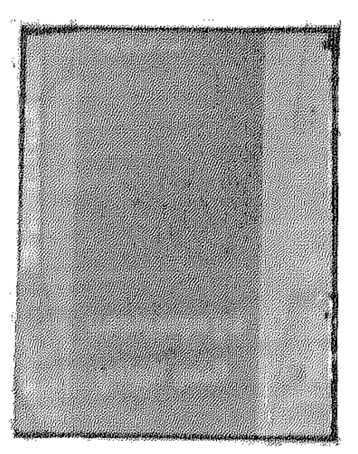
الكتاب : بلقاس
تاليف : ممدوح المغربى
الناشر : سلسلة جزيرة الورد الادبية

بعد ايام قلائل من صدور مجموعته القصصية المذكورة ، التحق الاديب وموجه الصحافة المدرسية ببلقاس ممدوح المغربى الىّ بارئه تاركا وراءه

مجموعة كبيرة من القصص والمقالات والمشاريع الادبية المفتوحة .

يقول فى قصة العصفورة الشاردة : يحس دائما ان الزمن يحاربه ، وأن الليالى الحبالى لا تأتى الا وتنتهز فرصة أخرى ، لتلد له من احشائها هما جديدا ، وحرجا كبيرا . محاربة الزمن له يراها لا هوادة فيها مطلقا ، فكلما وجه بصره الى شيء ، ورأى فيه اعوجاجا وقومه ، أو اسدى النصيحة فأخذ مساره القديم لا يرى بعد ذلك الا انقلابا مخيفا ، فاخلاصه يقابله شر محقق ، واذا كان الزمن معه رحيما ، صار جفاء ابديا ، الخير ينقلب عليه بشيء أخر ، الزمن اذا تسامح معه ، ورق له حرمه من حظه ، دون أن يلحق به اضرارا جديدة .

تذكر «تاور» يوم وجدها فى الطريق ، وبجوار احد المحلات ، عصفورة صغيرة ، رقيقة الحجم والتكوين ، خرجت الى الحياة أخيرا ، لم يكتمل نمو ريشها ، حمرة ظهرها مازالت موجودة ، ومع ذلك رآها محتشمة غاية الاحتشام ، مستغلة كل الفرص المتاحة لها ، واحس رغم ذلك انها تتوارى خجلا من حمرة جسدها ، وتظن ذلك فتنة لذكور جنسها ، وتقضى وقتها او جله ، فى الشدو والتغريد ، لتطرب البشر ، ومن يستطيع من العوالم الأخرى ، ترجمة اغانيها ومزاميرها .



الكتاب : فى سوسيولوجيا النص الروائى
تأليف : د . عبد الرازق عيد
الناشر : الاحمال - سوريا ٢٣٢ ص ، ٨٠ ل . س

يضم هذا الكتاب مجموعة من الدراسات المتفرقة التى يعتبرها كاتبها .. محاولة منهجية تطبيقية تسعى للعثور على الشكل فى المضمون ، والمضمون فى الشكل ، عبر وحدتهما فى تفاعلهما الجدلى ، باعتبار ان النص الابداعى لا يمثل بنية محددة للعالم فحسب بل رؤية وموقف المبدع نفسه ، من اجل اعادة الاعتبار للنص ومنتجه .

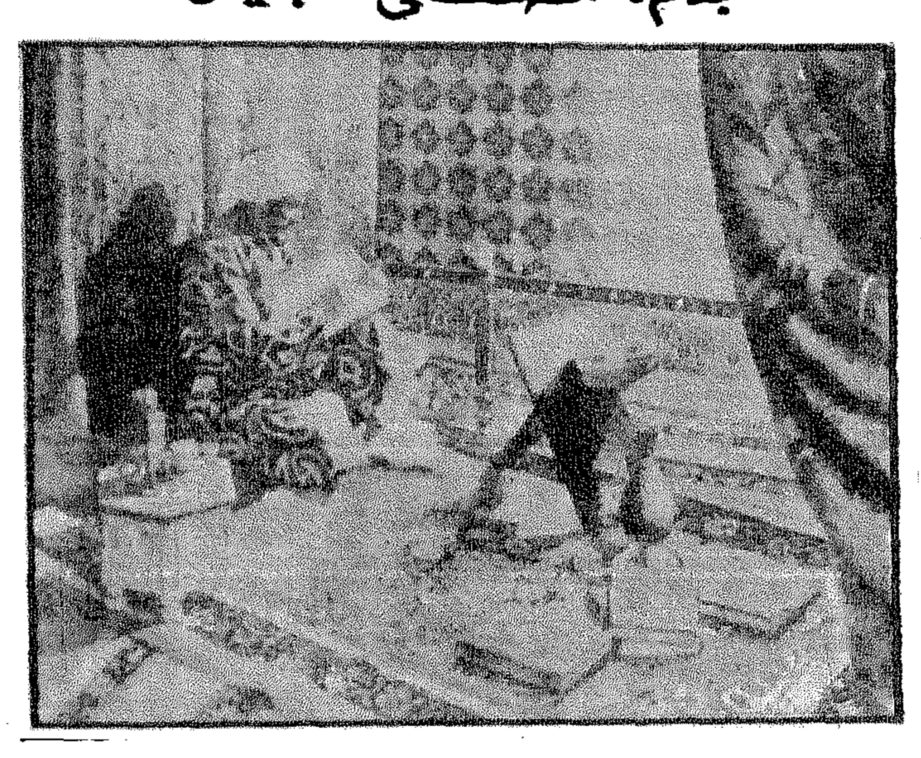
وبهذا المنهج يتناول الدارس كلا من الاعمال التالية ، اللجنة لصنع الله ابراهيم ، وقلوب على الاسلاك لعبد السلام العجيلى ، والربيع والخريف لحنا مينا ، والحنظل الاليف وزهرة الصندل لوليد اخلاص ، والف ليلة وليلتان لهانى الراهب ، ورجال فى الشمس ، ومن قتل ليلى الحايك ، وما تبقى لكم ، والعائد الى حيفا ، لغسان كنفانى ، ونشيد الحياة ليحيى يخلف ، والرب لم يسترح لرشاد ابو شاور ، بالاضافة الى تأملات نظرية ودراسات عامة لاعمال حنا مينا وغسان كنفانى .

أبو علي بن سينا

سيرة ذاتية ٣٧٠ هـ - ٤٢٨ هـ

حكيم الشرق : يعالج البدن وينير العقل

بقلم: مصطفى نبيل



الشيخ الرئيس ، أبوعلى بن سينا ، أبرز حكماء الشرق ، اهتم به الكثير من الباحثين ، وكتبوا عن انجازاته العديد من الكتب ، ابرزوا خلالها مكانته فى تاريخ الفكر والعلم .

ونقدم هنا سيرته الذاتية التى لاتتجاوز بضع صفحات ، ولكنها تقود إلى عالمه الرحيب ، نقدم خلالها نبض العصر الذى عاشه ، وننقل لغة وثقافة القرن الرابع الهجرى ، عصر النهضة فى الإسلام .

البداية للدخول إلى عالم ابن سينا ، هى التعرف على ابن سينا نفسه ، قدرته على التحصيل والتأليف ، وهل تنطبق صورته فى المخيلة العربية على صورته الواقعية ؟

كان ابن سينا عظيم الذكاء ، عظيم النشاط ، حاد الذاكرة ، ممتلئا بالحياة والجسارة العقلية ..

وهو لايقل عن أفلاطون أو أرسطو فى العبقرية ، وفى التفكير وملكة الخيال ، اتسمت أعماله بالموسوعية ، وهى ليست مثل موسوعية القلقشندى أو النويرى ، الذى يصنف معارف غيره ، ولكنه موسوعى بتعدد اهتماماته وقدراته ، فقد قرأ كثيرا وأنتج كثيرا ، وعاش حياة عريضة ، وعمل بالسياسة ، وتولى الوزارة ، ولم يتوقف أبدا عن الإنتاج الفكرى الغزير ، كتب فى الفلسفة والدين واللغة والفلك والموسيقى ، حتى أن له فى الموضوع الواحد أكثر من كتاب .

وهو شديد الاعتداد بنفسه ، وهو يروى سيرة حياته ، فالناس « عجبوا من علو تحصيله » وبالفعل كان أشهر أطباء عصره ، وأشهر الفلاسفة ، حفظ القرآن الكريم قبل بلوغه العاشرة من عمره ، وأتقن الطب وهو دون العشرين .

فاقت قدرته على التحصيل قدرته على التدوين والتأليف .

وكان يردد لأصدقائه .. « إنى أوثر عيشا قصيرا رحبا على حياة طويلة ضيقة » ، وقد عاش حياة فكرية راقية ، وحياة واقعية يتلمس من تفاصيلها خبرته ، فهو محب للحياة ومولع بالنساء ومتذوق للموسيقى والشعر والغناء .

يقول عن الشراب .. « إنه محرم على الحمقى والمغفلين ، ومحلل للعقلاء .. » فإذا كانت صورة المفكر والعالم فى المخيلة العربية ، تتسم بالهيبة والوقار ، فصورة ابن سينا كما تقدمها حياته غير ذلك ، فقد روى تلميذه الجوزجانى ، أنه يحب الحياة ومتعها ، يقبل عليها ويخوض غمارها ، ويستمتع بمباهجها ، وتوزعت حياته بين الفكر والسلطان والشهوة ، رغم ما بينها من تعارض ، ولكنه لا يرى بأسا فى الجمع بينها ، فكان يصرف أمور الوزارة بالنهار ، ويجمع طلبته ويملى عليهم فى الليل .. « فإذا فرغنا حضر المغنون على اختلاف طبقاتهم ، وهيىء مجلس الشراب بآلاته » ، وينصح طلبته .. « أما اللذات فيستعملها على إصلاح الطبيعة ، وإبقاء الشخص أو النوع أو السياسة ، أما المشروب فإنه يهجر شربه تلهيا بل تشفيا وتداويا .. » .

فهو القائل :

فى الشرب لاتقض إلى الكثير
واقنع من النبيذ باليسير
لاتدمن النبيذ كل يوم
ولاتكن تشرب بعد الصوم
إياك أن تسهر طول الدهر
إن لم يكن قمرة فى الشهر



ويضيف تلميذه .. « كان قوى القوة كلها ، وكانت قوة المجامعة فى قواه الشهوانية اقوى واغلب » .

ورغم ذلك نجده يقول .. « اللذات مراتب بحسب سلم القيم .. فلذة الشهوات من طعام وشراب أدنى مرتبة من لذة الغلبة وحب الرياسة والسلطان ، ولذة الحياة العقلية أشرف وأتم من اللذات الشهوانية ، ثم إن لذة المعقول أدوم من لذة المحسوس ، ولذلك كانت اللذة الدائمة أرفع من اللذة المتغيرة ، والعلة التى تجعل الإنسان لا يبلغ اللذة العقلية هى اتصاله بالبدن ، وانغماسه فى الرذائل ، ولا سبيل له إلى تحصيل اللذة الشريفة إلا بأن يخلع ربقة الشهوة والغضب عن عنقه ، فيطالع عندئذ لذة المقولات وما فيها من بهاء .. »

وربما كان تفسير التعارض فى اقواله ، أنه مثل الفنان الذى يخوض تجاربه لكى تزيد معارفه ، فجولاته فى واقع الحياة ، لم تكن إلا مغامرات فى سبيل المعرفة .

● الفكر الإنسانى

ابن سينا أحد علامات الفكر الإنسانى .

فالكندى والفارابى وابن سينا هم أساطين الفلسفة الإسلامية ، يحتاج كل منهم إلى مجلدات للإحاطة بما اضافه ، ولكن هذه محاولة سريعة للإلمام بما يمثله الشيخ الرئيس .

استوعب ابن سينا كل معارف عصره ، وأحاط بجوانب الحياة تجربة وفكرا ، وبذل جهدا كبيرا للتوفيق بين الإسلام والفلسفات السابقة عليه ، بين كل من افلاطون وأرسطو وافلوطين من جانب ، وكل من الفارابى وبعض فرق الاسماعيلية وبعض الفلاسفة من قدماء الهند وفارس من جانب آخر .

وأهم ماجاء به ، دعوته إلى « العقلانية » ، فأخذ يفسر جميع الظواهر من خلال المنهج العلمى ، يقول .. « قد تبلغك عن العارفين أخبار تكاد تأتى بقلب العادة ، فتبادر إلى التكذيب ، وذلك مثل ما يقال إن عارفا استسقى للناس فسقوا ، واستشفى لهم فشفوا .. ومثل ذلك مما لا يأخذ فى طريق الممتنع الصريح ، فتوقف ولا تعجل ، فإن لأمثال هذه أسبابا فى أسوار الطبيعة .. »

والمدينة الفاضلة عنده .. « يحرم فيها الحاكم البطالة والتعطل .. ويقاوم فيها الحاكم الفساد ، ويمنع الميسر والربا والزنا ، ويلتفت إلى أعداء المدينة ، أى الطابور الخامس .. »

لذلك كان طبيعيا مع بشائر نهضة الشرق فى أواخر القرن الماضى ، أن يجد السيد جمال الدين الأفغانى فى كتب ابن سينا المعين للدراسات الفلسفية .

● الحكيم ..

ويجدر ملاحظة أنه فى التراث العربى تطلق صفة الحكيم على

الطبيب ، وعلى الفيلسوف معا ، فلكى تكون طبيبا لابد أن تكون مفكرا ، وارتبط الطب منذ نشأته بالفلسفة ، ويكاد يكون معظم فلاسفة الشرق أطباء ، من الكندى وحتى ابن رشد ، وفاقت شهرة ابن سينا كطبيب شهرته كفيلسوف .

ويبدأ المفكر بالطب الذى يختص بالأبدان وأمراضها وعلاجها ، ثم ينتقل للبحث فى النفوس والعقول ، فما معنى كثرة المعارف إذا عجزت عن علاج الأبدان والنفوس ؟ ! ..

واتبع ابن سينا فى دراسة الطب منهجه فى السؤال والبرهان ، وكان كتاب « القانون » فى الطب ، هو الكتاب الذى استمر يدرس فى أوروبا مدة ستة قرون ، وأورد فيه ابن سينا قائمة تضم ٧٦٠ عقارا ، كان العطارون يبيعونها فى زمانه ، ولم يكن غريبا أن التقى وسط صحراء موريتانيا بطبيب تقليدى ، مازال يعتمد فى علاجه على ماجاء فى كتاب ابن سينا .

وعلاوة على العلاج بالأعشاب ، كان أول من اهتدى للعلاقة الوثيقة بين الانفعالات النفسية وأوجاع جسم الإنسان ، وعرف الدواء لداء عضال ، أعراضه ارتعاش الشفتين وذوغان العينين ، والحمى وارتفاع الحرارة ، وهبوط الوزن ، والسرحان حتى التوهان ، أما المرض فهو فقدان الحبيب ، أما العلاج ، فهو الجمع بين المحب ومحبوبته .

ولم يكن غريبا على ابن سينا وهو العارف بالموسيقى ، أن يتبين آثار النغم على المرضى جسديا ونفسيا ، ومن منجزاته التى يذكرها له تاريخ الطب ، دعوته للتخدير عن طريق الفم فى العمليات الجراحية ، ويقال إن المرقد (البنج) قد تم استخراجه على أيامه من الشيلم ، كما وصف الأمراض التى تنتقل بالعدوى ، وأول من أوصى باختبار العقار الجديد عن طريق تجربته على الحيوان قبل الإنسان .

وكلما طالعت مصنفاته فاجأتك ابتكاراته ..

ومنها أنه قبل « بافلوف » الروسى ، اكتشف العلاقة بين كثرة النشاط والمهام التى يقوم بها الإنسان وبين النسيان الذى يرجعه إلى ما يطلق عليه التداخل الرجعى والتداخل اللاحق ، وله أيضا فضل بيان تأثير التغذية والمناخ على الصحة ، وانتشار الأمراض بسبب القذارة والمياه الملوثة .

● ماذكره عن نفسه

وابن سينا أحد الذين دونوا سيرة حياتهم ، وهى سيرة مشهورة أملاها على تلميذه أبوعبيدة الجوزجانى ، وهو فى الثانية والثلاثين من عمره ، ثم أكمل التلميذ بقية قصة حياة أستاذه ، وسجلها كتاب أبو أصيبعة .

يقول القفطى فى أخبار الحكماء .. « سأل أحد التلاميذ ابن سينا أن يحكى له تاريخ حياته ، فأملى عليه ما سطره » ، ويحتفظ المتحف البريطانى

أبو علي بن سينا

بهذه الترجمة ضمن مخطوطاته ، ونشر المستشرق البريطاني موللر هذه الترجمة في المطبعة الوهبية في مصر عام ١٣٠٠ هـ .

ويطرح الدكتور فؤاد الأهواني في دراسته عن ابن سينا السؤال التالي : هل السيرة الذاتية كافية للتعرف على كل جوانب الشخصية ؟ .

ويجيب : « نحن نعلم ان ابن سينا من القلائل في الإسلام الذين كتبوا سيرة حياتهم .

وقد تصور الكثيرون أن هذا التدوين ألقى الضوء على حياته وصور لنا شخصيته . على أن الشيخ لم يذكر إلا ما أراد أن يفصح عنه ، وقنع المؤرخون بهذه السيرة ، ولم يسع أحد إلى الحديث عنه إلا بما ذكره هو عن نفسه ، غير أنه لم يصور – في رأيه – سوى المظهر الخارجي من شخصيته ، وبخاصة شخصيته العلمية والسياسية ، أما نوازعه الباطنة ، وخوالجه الخاصة ، وصفحات نفسه من آمال ومخاوف ، ورغباته في الحياة ، وما يؤثره ويحبه ، فلم يذكر عنه شيئا .

ويرى د . الأهواني أن هناك مصدرا آخر نجده في شعره ، أبان خلاله الشيخ أنه لم يكن من الزهاد ، بل أقبل على الحياة وخاض غمارها ، واستمتع بما فيها من مباهج .

● الشيخ الرئيس

ولكنه كان في سيرته صادقا ، ويكفي للتدليل على ذلك أنه ذكر أنه يسترد حيويته بالشراب ، ونعرف من خلال سيرته الذاتية ، أنه أبو علي ابن سينا ، ولد في إفشنه سنة ٣٧٠ هـ – ٩٨٠ م ، وهي قرية قرب بخارى ، ومن أسرة فارسية ، وقد أبدى الفتى منذ نعومة أظفاره ، قدرة كبيرة على التحصيل ، حفظ القرآن وهو في سن العاشرة ، فمواهبه ظاهرة حتى أصبح حجة في الفلك والطب والفلسفة والرياضة ، ولما يبلغ العشرين ، وتتلمذ على يدي إسماعيل الزاهد ، ثم اشتغل بالمنطق والهندسة وتتلمذ على يدي عبدالله الناتلي ، ثم أقبل على دراسة الطب وقرأ ما ترجم عن اليونان والهند ، وكان لايترك ميدانا من ميادين المعرفة إلا وألف فيه ، وأخذ في معالجة المرضى وهو ابن ستة عشر ربيعا .

ولقب في عصره بالشيخ الرئيس (وهي تسمية ليست عفوا) ، فالشيخ لقب علمي ، والرئيس لقب سياسي ، بعد ان جمع بين الاشتغال بالعلم والسياسة معا ، ويلاحظ على العصر الذي بزغ فيه ، أن التفاعل كان قائما بين كل ثقافات العالم ، وكانت الدولة العباسية هي أقوى دول العالم ، تبسط نفوذها على منطقة شاسعة تصل إلى ماوراء النهر وأفغانستان ، وبلاد فارس وجزيرة العرب والعراق والشام ومصر ، وكانت



الحضارة الإسلامية وريثة كل حضارات العالم القديم .

ورغم أن هذه الدولة بدأت تتفكك إلا أن التفاعل الثقافي داخلها كان متواصلا ، فقامت الدولة الفاطمية في مصر ، والدولة الصفاوية في سجستان ، والدولة السامانية في بخارى (٢٦١ هـ ـ ٣٨٩ م) ، وبقيت المنافسات بينها في الفكر والعلم والأدب .

وتبين سيرته الذاتية ، أن اللغة العربية كانت هي لغة الفكر والثقافة في كل أرجاء العالم الإسلامي ، يؤثر مثلا ما يقوله المذهب الاسماعيلي في مصر عن النفس والعقل في بقية الدول ، ومن بينها بخارى مسقط رأس ابن سينا ، كما تظهر السيرة الدور الكبير الذي يقوم به « المعلم » ، ومدى انتشار المكتبات والحرص عليها ، ولم تكن ثقافة العصر ، تقتصر على الفقه والتفسير والحديث ـ كما يتصور البعض ـ ، بل شملت الفلسفة والفلك والرياضة والموسيقى .

★★★

وحان الوقت لنتابع معا نص الجزء الأول من سيرته الذاتية :

« كان ابي رجلا من اهل بلخ ، وانتقل منها إلى بخارى في ايام الأمير نوح بن منصور الساماني ، واشتغل بالتصرف ، وتولى العمل اثناء ايامه بقرية يقال لها خرميثن من ضياع بخارى ، وهي من امهات القرى وبقربها افشنة ، تزوج ابي منها بوالدتي وقطن بها وسكن ، وولدت منها بها ، ثم ولدت اخي ، ثم انتقلنا إلى بخارى ، واحضرت معلم القرآن ومعلم الأدب ، واكملت العشر من العمر ، وقد اتيت على القرآن وعلى كثير من الأدب ، حتى كان يقضي مني العجب ، وكان ابي محمد اجاب داعي المصريين ويعد من الاسماعيلية ، وقد سمع منهم ذكر النفس والعقل على الوجه الذي يقولونه ويعرفونه هم ، وكذلك اخي ، وكانوا ربما تذاكروا بينهم وانا اسمعهم ، وادرك ما يقولونه ولا تقبله نفسي ، وابتدلوا يدعونني ايضا إليه ، ويجرون على السنتهم

أبو علي بن سينا

ذكر الفلسفة والهندسة وحسب الهند . وأخذ أبى يوجهنى إلى رجل يبيع البقل ، ويقوم بحساب الهند حتى أتعلمه منه ، ثم جاء إلى بخارى أبوعبدالله الناتلى ، وكان يدعى المتفلسف وأنزله أبى دارنا رجاء تعلمي منه . وقبل قدومه كنت أشتغل بالفقه والتردد فيه ، إلى إسماعيل الزاهد ، وكنت من أجود السالكين .

وقد ألفت طرق المطالبة ووجوب الاعتراض على المجيب ، على الوجه الذى جرت عادة القوم به ، ثم ابتدأت بكتاب « إيسا غوجى » على الناتلى ، ولما ذكر لى حد الجنس أنه هو المقول على كثيرين مختلفين بالنوع فى جواب ماهو ؟ .. أخذت فى تحقيق هذا الحد بما لم يسمع بمثله . وتعجب منى كل التعجب ، وحذر والدى بشغلى بغير العلم ، وكان أى مسألة يقولها أتصورها خيرا منه ، حتى قرأت ظواهر المنطق عليه ، وأما دقائقه فلم يكن عنده فيها خبرة ، ثم أخذت أقرأ الكتب على نفسى وأطالع الشروح حتى أحكمت علم المنطق ، وكذلك كتاب « إقليدس » ، قرأت من أوله خمسة أشكال أو ستة عليه ، ثم توليت بنفسى حل بقية الكتاب بأسره ، ثم انتقلت إلى المجسطى ـ كتاب بطليموس ، وهو فى علم الهيئة والنجوم وحركات الكواكب والأفلاك ـ ، ولما فرغت من مقدماته وانتهيت إلى الأشكال الهندسية ، قال لى الناتلى : تول قراءتها وحلها بنفسك ، ثم أعرضها على لأبين لك صوابها من خطئها ، وما كان الرجل يقوم بالكتاب ، أخذت أحل ذلك الكتاب ، فكم من شكل ما عرفه إلى وقت ما عرضته عليه وفهمته إياه ، ثم فارقنى الناتلى ، واشتغلت بتحصيل الكتب من النصوص ، والشروح من الطبيعى والإلهى » ..

ثم يروى الشيخ الرئيس كيف تكونت معارفه ، فخلال نحو عامين قرأ المنطق والفلسفة ـ كما رأينا ـ بفروعها المختلفة ، بعد أن استغنى عن المعلم وأخذ يعلم نفسه ، وإذا استعصى عليه شىء فى يقظته وجد حله فى منامه ، كما كان من عاداته أنه إذا استشكلت عليه مسألة أن يتردد إلى الجامع ويصلى ، حتى ينفتح له ما يصعب عليه ، ويتيسر له حلها .

واحترف ابن سينا مهنة الطب ، فكان لكل كاتب أو مفكر حرفة يعيش منها ، ومنحه الطب المكانة الاجتماعية ، ومن خلالها عمل بالسياسة ، ووصل إلى ضالته من الكتب النادرة .

وعندما تعمق فى الفلسفة وانتقل إلى الإلهيات أى ماوراء الطبيعة ، قاده الفارابى المعلم الثانى ، ووجد لديه حل كل المسائل المستعصية

ولنتابع معا هذا الجزء من سيرته الذاتية ، كما يرويها ..

« وصارت أبواب العلم تنفتح عليّ ، ثم رغبت في علم الطب ، وصرت أقرأ الكتب المصنفة فيه ، وعلم الطب ليس من العلـوم الصعبة ، فلا جرم أني برزت فيه في أقل مدة ، حتى بدأ فضلاء الطب يقرءون على علم الطب ، وتعهدت المرضى ، فانفتح على من أبواب المعالجات المقتبسة من التجربة مالا يوصف ، وأنا مع ذلك اختلف إلى الفقه وأناظر فيه وأنا في هذا الوقت من أبناء ست عشرة سنة .

ثم توفرت على العلم والقراءة سنة ونصف ، فأعدت قراءة المنطق وجميع أجزاء الفلسفة ، وفي هذه المدة ما نمت ليلة واحدة بطولها ، ولا اشتغلت في النهار بغيره ، وكلما كنت أتحير في مسألة أو لم أكن أظفر بالحد الأوسط في قياس ، ترددت إلى الجامع وصليت وابتهلت إلى مبدع الكل ، حتى فتح لي المغلق وتيسر المتعسر ، وكنت أرجع بالليل إلى داري ، وأضع السراج بين يدي وأشتغل بالقراءة والكتابة ، فمهما غلبني النوم أو شعرت بضعف عدلت إليَّ شرب قدح من الشراب ، ريثما تعود إلى قوتي ..

● الحل في المنام

ثم أرجع إلى القراءة ، ومهما أخذني أدنى نوم أحلم بتلك المسائل بأعيانها ، حتى أن كثيرا من المسائل اتضح لي وجوهها في المنام .

ومازلت كذلك حتى استحكم معي جميع العلوم ، ووقفت عليها بحسب الإمكان الإنساني ، وكل ما علمته في ذلك الوقت فهو كما علمته الآن ، لم أزد فيه إلى اليوم ، حتى أحكمت علم المنطق والطبيعي والرياضي .

ثم عدلت إلى الإلهي وقرأت كتاب ما بعد الطبيعة ، فما كنت أفهم مـا فيـه ، والتبس على غـرض واضعه ، حتى أعدت قراءته أربعين مرة ، وصار لي محفوظا ، ومع ذلك لا أفهمه ولا أفهم المقصود منه ، وأيست (يئست) من نفسي ، وقلت هذا كتاب لاسبيل إلى فهمه ، وإذا أنا في يوم من الأيام حضرت وقت العصر في الوراقين ، وبيد دلال مجلد ينادى عليه ، فعرضه علي ، فرددته رد متبرم ، معتقدا أن لا فائدة في هذا العلم .

فقال لي : اشتر مني هذا ، فإنه رخيص ، أبيعكه بثلاثة دراهم ، وصاحبه محتـاج إلى ثمنـه ، فاشتريته ، فإذا هو كتاب لأبي نصر الفارابي في أغراض كتاب مابعد الطبيعـة ، فرجعت إلى بيتي ، وأسرعت في قراءته ، فانفتح على في الوقت أغراض ذلك الكتاب ، بسبب أنه كان محفوظا على ظهر قلب ، وفرحت بذلك وتصدقت في ثاني يوم بشيء كثير على الفقراء شكرا لله تعالى .

● العالم والسلطان

وكان سلطان بخارى في ذلك

أبو علي بن سينا

الوقت نوح بن منصور (توفى سنة ٣٨٧ هـ - ٩٩٧ م) اتفق له مرض تلج (تردد) الأطباء فيه ، وكان اسمي اشتهر بينهم بالتوفر على القراءة ، فاجروا ذكرى بين يديه ، وسالوه إحضارى ، فحضرت وشاركتهم فى مداواته ، وترسمت بخدمته ، فسألته يوما الإذن لى فى دخول دار كتبهم ومطالعتها وقراءة مافيها من كتب الطب ، فاذن لى ، فدخلت دارا ذات بيوت كثيرة ، وفى كل بيت صناديق كتب منضدة بعضها على بعض ، فى بيت منها كتب العربية والشعر ، وفى آخر الفقه ، وكذلك فى كل بيت كتب علم مفرد ، فطالعت فهرس كتب الأوائل ، وطلبت ما احتجت إليه منها ، ورأيت من الكتب مالم يقع اسمه إلى كثير من الناس قط ، وماكنت رأيته من قبل ، ولا رأيته أيضا من بعد .

فقرأت تلك الكتب وظفرت بفوائدها ، وعرفت مرتبة كل رجل فى علمه ، فلما بلغت ثماني عشرة سنة من عمرى ، فرغت من هذه العلوم كلها ، وكنت إذ ذاك للعلم احفظ ، ولكنه اليوم معى انضج ، وإلا فالعلم واحد لا يتجدد لى بعده شىء » .

● ابن سينا فى محبسه !

ونأتى إلى الجزء الثالث من سيرته الذاتية ، عندما كانت حياة « الشيخ الرئيس » عاصفة مضطربة تخللتها أسفار عديدة ، ولايكف عن كتابة مؤلفاته ، يكتب أحيانا خلال السفر ، وأحيانا خلال محبسه ، وأحيانا أثناء الفراغ من عمله الوزارى ، وكثيرا ما كان يختفى من الجميع .

وتتسم العلاقة عادة بين العالم والسلطان بالدقة والحساسية ، يجذبه ابهة السلطان والنفوذ الذى يحيطه ، ويبعده الرغبة فى التحرر من هذا النفوذ ، والتفرغ لعلمه ، وعندما يحصل على النفوذ يزهد فيه لكى ينصرف إلى المتعة العقلية ، ثم يعود ويخشى سطوة السلطان وجبروته .

وفى ظل صراع السلطة نفى مرة ، وسجن أخرى عندما اتهمه شمس الدولة بمكاتبة علاء الدولة ، وحرص عليه فسجن فى قلعة فردجان ، ونظم قصيدته :

دخولى باليقين كما تراه
وكل الشك فى أمر الخروج

ولنتابع الجزء الثالث من سيرته كما يرويها :

« وكان فى جوارى رجل يقال له أبوالحسين العروضى ، فسألنى ان اصنف له كتابا جامعا فى هذا العلم الفلسفى ، فصنفت له « المجموع » ، أتيت فيه على سائر العلوم عدا الرياضة ، ولى إذ ذاك إحدى وعشرون سنة من عمرى ، وكان فى جوارى أيضا رجل يقال له أبوبكر البرقى فقيه النفس متوحد

فى الفقه والتفسير والزهد ، مائل إلى هذه العلوم ، فسألنى شرح الكتب له ، فصنفت له كتاب الحاصل والمحصول فى قريب من عشرين مجلدة ، وصنفت له فى الأخلاق كتابا سميته كتاب « البر والإثم » ، وهذان الكتابان لايوجدان إلا عنده ، إذ لم يعد أحد ينتسخ منهما .

ثم مات والدى وتصرفت بى الأحوال ، وتقلدت شيئا من أعمال السلطان ، ودعتنى الضرورة إلى الإخلال ببخارى والانتقال إلى كركانج ، وكان ابوالحسين السهلى المحب لهذه العلوم بها وزيرا ، وقدمت إلى الأمير بها وهو على بن مأمون ، وكنت على زى الفقهاء .

وأثبتوا لى مشاهدة داره بكفاية مثلى ، ثم دعت الضرورة إلى الانتقال إلى نسا ومنها إلى ابيورد ومنها إلى طوس ومنها إلى شقان ومنها إلى سمنان ومنها إلى جاجرم رأس حد خراسان ، ومنها إلى جرجان ، وكان قصدى الأمير قابوس ، فاتفق فى أثناء هذا أخذ قابوس وحبسه فى بعض القلاع وموته هناك ، ثم مضيت إلى دهستان ، ومرضت بها مرضا صعبا وعدت إلى جرجان ، وانشأت فى حالى قصيدة فيها بيت القائل :

كما عظمت فليس مصر واسعى
لما غلى ثمنى عدمت المشترى

● المشهد الأخير

يصف تلميذه المشهد الأخير بقوله .. « صار أمره فى السنة التى حارب فيها الأمير فى الفراش على باب الكرخ إلى أن أخذه قولنج - قرحة المعدة - ولحرصه على رفقة الأمير اشفاقا من هزيمة يدفع إليها ، ولا يتأتى له المسير فيها مع المرض حقن نفسه فى يوم واحد ثمانى كرات ، فتقرح بعض أمعائه ، فكان ينتكس ويبرأ كل وقت .. وعلم أن قوته قد سقطت وأنها لاتفى بدفع المرض ، فأهمل مداواة نفسه .. » .

ولعل الخطر الذى يخشاه « الشيخ الرئيس » هو الوشاية والمكيدة ، فحرص رغم مرضه على حضور مجلس الأمير ..

وعندما جاء أجله .. « اغتسل وتاب وتصدق بما معه على الفقراء ، ورد المظالم على من عرفه ، وأعتق مماليكه ، وجعل يختم القرآن كل ثلاثة أيام ختمة ، ثم مات » ..

ويا لسخرية القدر ، توفى أشهر الأطباء وأعظمهم نتيجة خطأ فى العلاج ، فقد مات نتيجة إسرافه على نفسه ، وإكثاره فى علاج قرحة المعدة المصاب بها ، فقد أسرف حتى تقرحت أمعاؤه !

وكانت وفاته فى همذان يوم الجمعة من شهر رمضان سنة ثمان وعشرين وأربعمائة ، ولم يتجاوز عمره الثمانية والخمسين .

الشركة الشرقية « ايسترن كومبانى »
وانجازات كبيرة خلال حكم الرئيس مبارك

تعتبر الشركة الشرقية « إيسترن كومبانى » من الشركات الرائدة فى مجال الصناعة ، وفى لقاء مع المهندس / محمد صادق رئيس مجلس ادارة الشركة اشار إلى ان فترة حكم الرئيس مبارك تميزت بالمعدلات العالية فى الانتاج فى مختلف القطاعات وتنفيذ مشروعات عملاقة ، وبالنسبة لنا فى الشركة الأرقام توضح ذلك ، واضاف قائلا : إن الشركة حققت انجازات كبيرة خلال عشر سنوات هى فترة حكم الرئيس مبارك ، فقد ارتفعت قيمة الانتاج الكلى للشركة من ٥٦٣ مليون جنيه عام ٨٠ / ١٩٨١ إلى ٢٧٨٧ مليون جنيه عام ٩٠ / ١٩٩١ بنسبة تطور ٤٤٥٪ ، كما بلغ إنتاج الشركة من أصناف السجاير وهى الانتاج الرئيسى للشركة ٤١,٨ مليار سيجارة خلال عام ٩٠ / ١٩٩١ مقابل ٣٣ مليار سيجارة عام ٨٠ / ١٩٨١ بنسبة تطور ١٢٧٪ ، وارتفعت قيمة منتجات الشركة من ٣٨٦ مليون جنيه عام ١٩٨٠ إلى ٩٨٢ مليون جنيه عام ١٩٩٠ بنسبة تطور ٢٥٤٪ ، أما الصادرات فقد بلغت ١١,١ مليون جنيه عام ٩٠ / ١٩٩١ مقابل ٢,٤ مليون جنيه عام ٨٠ / ١٩٨١ ، واوضح المهندس محمد صادق إلى انه تم تطبيق مركزية تحضير الدخان بالشركة بعد إدماج شركة النصر للدخان والسجائر فى الشركة الشرقية مما حقق درجة عالية من التجانس والجودة فى الانتاج . واكد سيادة المهندس محمد صادق انه فى السنوات العشر الماضية تمتع العمال بالشركة بالرعاية الاجتماعية الكاملة مما كان له اكبر الاثر فى زيادة الانتاج ومن امثلة ذلك :



المهندس / محمد صادق

١ ـ الاستمرار فى تقديم وجبة غذائية للعاملين بثمن رمزى (١٥ مليما) لم تتغير رغم ارتفاع الأسعار .

٢ ـ الاستمرار فى تطوير الخدمات الطبية وصرف الأدوية للعاملين بالمجان .

٣ ـ توفير الأنشطة الرياضية والاجتماعية لجميع العاملين بأندية الشركة .

٤ ـ التوسع فى خدمة كل العاملين بالأوتوبيسات من مناطق التجمع إلى مقر العمل والعكس .

٥ ـ تم انشاء صندوق تامين خاص للعاملين اعتبارا من ١ / ٤ / ١٩٨٢ بما يكفل صرف مكافأة ولاء لهم عند تقاعدهم .

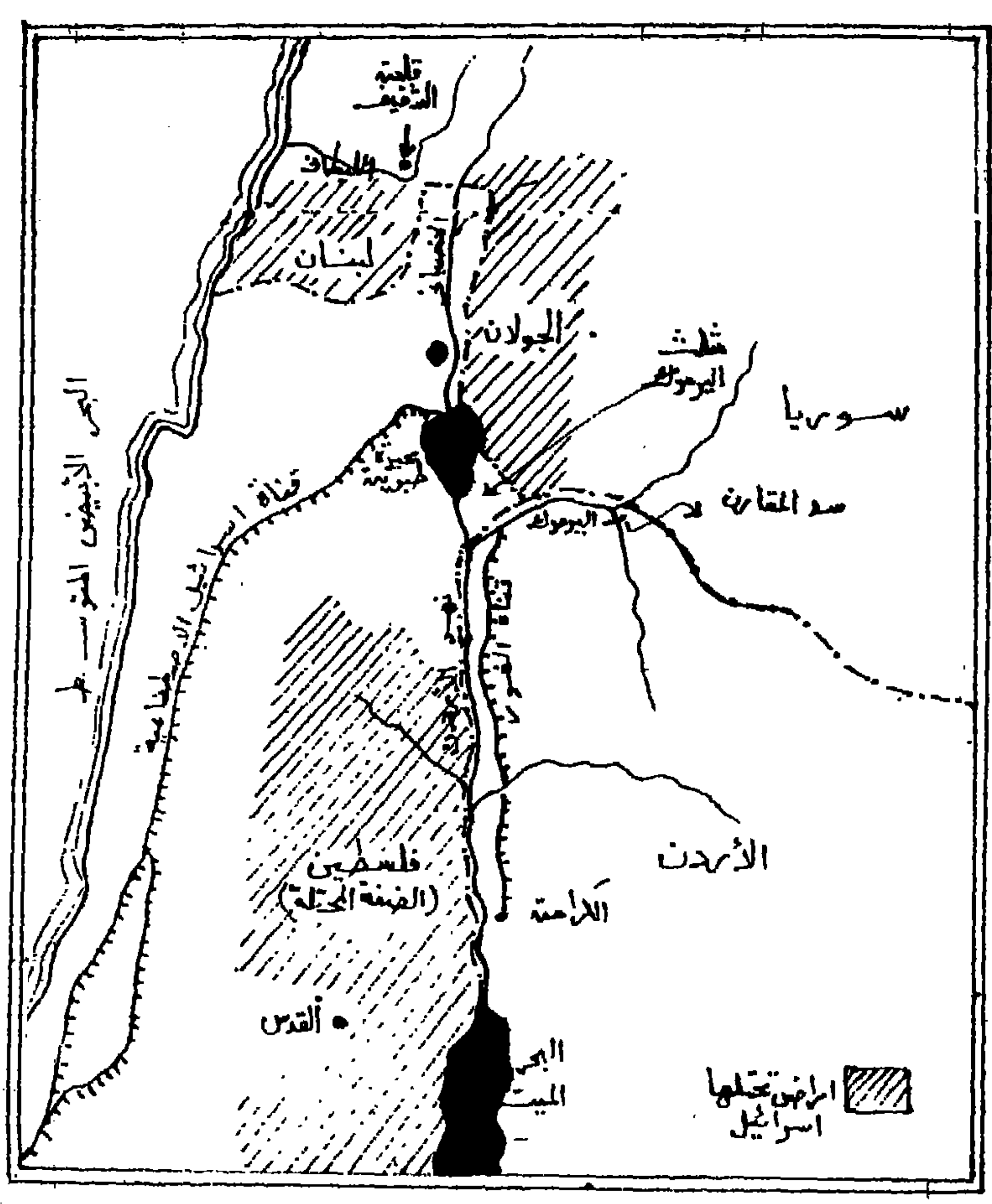
٦ ـ تم انشاء صندوق رعاية اجتماعية لصرف إعانات للعاملين فى حالات الكوارث .

٧ ـ تعمل الشركة باستمرار على تنمية مهارات العاملين عن طريق التدريب الفنى والادارى !

مصطفى البسيونى

المياه
ومستقبل الصراع العربى الاسرائيلى

بقلم: د. رشدى سعيد



المياه

ومستقبل الصراع العربى الاسرائيلى

منطقة الشرق الاوسط هى واحدة من مناطق العالم القليلة الأمطار ، والتى تقع فى معظمها فى حزام الصحارى المدارية وجل اراضيها إما قاحلة أو شبه قاحلة ، وتعتبر مشكلة تيسر الماء العذب فيها واحدة من اهم القضايا المثيرة للتوتر والمؤثرة على مستقبل استقرارها ومستوى حياة سكانها ، وقد أصبحت هذه القضية محل الاهتمام إثر الإعلان عن وضعها امام مائدة مفاوضات مؤتمر السلام بين دول المنطقة والتى اعلن عن انعقادها ، فى موسكو فى آخر شهر يناير الحالى .

●●●

هذا المقال حديث عن مصادر المياه بمنطقة الشام المقسمة الآن إلى خمس دول هى إسرائيل وفلسطين والأردن وسوريا ولبنان وما يثيره موضوع نقص المياه فيها من صدام وتوتر وأطماع وفى فهمه معرفة لأبعاد قضية الشرق الأوسط .

وعلى الرغم من أهمية هذه القضية فإنها لا تشكل بالنسبة لمعظم الدول العربية الإلحاح الذى تشكله لدولة إسرائيل التى تهدف إلى زيادة سكانها عن طريق الهجرات الجماعية التى لا يمكن لها أن تتم دون تأمين مصادر جديدة من المياه غير تلك المتاحة لها فى الوقت الحاضر ، وفى الجدول التالى بيان بكمية المياه المتيسرة لدول هذه المنطقة سواء ما يجيئها من داخل حدودها أو ما يصلها من خارجها وكذلك كمية المياه المستخدمة منها :

(انظر الجدول فى الصفحة المقابلة)

ويتضح من الجدول أن إسرائيل تستفيد من مصادر المياه المتاحة لها سواء ما تيسر لها من داخل حدودها أو ماجاء من خارجها استفادة تكاد أن تكون كاملة فهى تستخدم ما يقرب من ٨٨٪ منها ـ ولما كان جزء كبير من الماء المتاح لإسرائيل ـ يجيىء اغتصابا كما سنبين فيما بعد فإن إسرائيل فى حاجة لاستخدام القوة ليس فقط لحماية هذا الماء بل لإيجاد مصادر جديدة تواجه بها مستقبل نموها وحاجات سكانها المتزايدة فضلا عن حاجات المهاجرين الجدد الذين يفدون عليها ، وهذا بالضبط هو مايحرك سياسة اسرائيل ويدفعها إلى التوسع وقبول الجلوس فى المؤتمرات النوعية التى ينوى عقدها ضمن مؤتمر السلام شرط عدم ربط هذه القضية بأى تنازل عن الأراضى التى تحتلها ، فإحكام القبضة على الضفة الغربية وهضبة الجولان وجنوب لبنان هو أحد أهداف السياسة الإسرائيلية وذلك للتحكم فى مياه نهرى الليطانى والأردن وروافدهما وتحويل معظم

	كمية المياه المتيسرة (بليون متر مكعب)			كمية المياه المستخدمة		
الدولة	من داخل حدود الدولة	من خارج حدود الدولة	مجموع	كميـــة المستخدم	نسبته من المياه المتيسرة	المستخدم للفرد (متر مكعب فى السنة)
إسرائيل	١,٧	٠,٥	٢,٢	١,٩	٪٨٨	٤٤٧
الأردن	٠,٧	٠,٤	١,١	٠,٤	٪٤١	١٧٣
لبنان	٤,٨	–	٤,٨	٠,٧	٪١٦	٢٧١
سوريا	٧,٦	٢٧,٩	٣٥,٥	٣,٤	٪٩	٤٤٩

مياهها إلى أراضيها ، فدولة إسرائيل تحتاج بالاضافة إلى كل هذه المصادر إلى مصادر أخرى تأمل فى الحصول عليها من دول المنطقة الغنية بالمياه (كالعراق وسوريا) عن طريق مؤتمر السلام الذى تريد أن تكرسه لحل هذه المشكلة دون التنازل عن الأرض التى تحتلها

● الضفة الغربية المحتلة (فلسطين) :

يقع تحت أراضى الضفة الغربية مخزن المياه الأرضية الذى تتحرك مياهه ناحية الغرب إلى البحر الأبيض المتوسط فتحت سطح الضفة طبقتان تحملان المياه الأرضية ، الضحلة منهما من الحجر الرملى ، والعميقة من الحجر الجيرى تشحنان بالمياه من الأمطار أو من تسرب نهر الأردن وتتحرك فى كليهما المياه ناحية إسرائيل التى تتصيد مياههما بشبكة كثيفة من الآبار التى دقت بين حيفا وتل أبيب ، وتزود هاتان الطبقتان إسرائيل بحوالى ٢٠٪ من جملة احتياجاتها من المياه العذبة وهذه الكمية تشكل حوالى ٨٠٪ من جملة مخزون المياه الأرضية بالضفة الغربية .

وتمنع إسرائيل أهل الضفة من دق آبار جديدة أو الاستفادة من المياه تحت أراضيهم او القيام بأى عملية تنموية قد تحتاج إلى مياه فى مستقبل الأيام حتى تحافظ على انسياب المياه من الضفة إلى أرض إسرائيل لاستخدامها ولحفظ الضغط داخل الآبار المدقوقة على ساحل البحر الأبيض المتوسط حتى تمنع زحف المياه المالحة إليها .

هضبة الجولان

تحصل إسرائيل فى الوقت الحاضر على ٢٥٪ من جملة استخداماتها من بحيرة طبرية التى تضخ منها المياه إلى ارتفاع ٣٧٠ مترا فوق الجبال لكى تغذى القناة الاصطناعية التى حفرتها

المـيــــــــــاه

ومستقبل الصراع العربي الإسرائيلي

حتى حدود مصر لكي تزود الاجزاء الوسطى والجنوبية منها بالمياه العذبة ويبلغ طول هذه القناة حوالى ٣٠٠ كيلومتر وهى من الأعمال الهندسية المعقدة التى تتكون من سلسلة من محطات الضخ والأنابيب والقنوات بُدىء العمل فيها عام ١٩٥٣ وجهزت للتشغيل عام ١٩٦٤ ، ويقع مأخذ هذه القناة عند ساحل بحيرة طبرية عند قرية كفر ناحوم التى تقع على مرمى حجر من هضبة الجولان التى تطمع إسرائيل فى ضمها إليها ، حتى تضمن الحفاظ على سلامة مأخذ القناة ولكى تمنع سوريا من استخدام اراضيها لتحويل مجرى نهر الحصبانى (الذى ينبع فيها ويصب فى بحيرة طبرية) إلى موقع آخر .

وقد حاولت سوريا بالاشتراك مع الدول العربية فى الستينات وقت ان اوشكت إسرائيل على الانتهاء من حفر قناتها الاصطناعية ان تحول مياه نهر الحصبانى عن بحيرة طبرية التى يصب فيها لكى يصب فى نهر اليرموك عبر هضبة الجولان إلا ان الغارات الجوية المكثفة التى قامت بها اسرائيل على مواقع العمل فى هذا المشروع ، ثم استيلاءها على هضبة الجولان بكاملها خلال حرب ١٩٦٧ ، قد اوقفا المشروع كلية .

وقد كان للاستيلاء على الجولان اثره فى منع أية تنمية لنهر اليرموك الذى يصب فى نهر الأردن إلى الجنوب من بحيرة طبرية حتى يصل إلى إسرائيل بكامل تصريفه وفى عام ١٩٦٧ قام الاسرائيليون بتدمير خزان خالد الذى بنته الأردن على النهر عند بلدة مخيبة كما قاموا بعد ذلك بتدمير مأخذ قناة الغور على النهر وبذا أصبح عند ملتقى نهرى اليرموك والأردن من المياه ، ما يكفى لدفعها بمضخات ونقلها عبر خط الأنابيب إلى تل أبيب والنقب .

ولاتوجد حتى الآن أية اتفاقيات تحكم توزيع المياه بين الأردن وإسرائيل فقد رفضت الدولتان مقترحات إريك جونستون فى الخمسينات لتنظيم الاستفادة من مياه نهر اليرموك ولكنهما يتعايشان بترك النهر على حاله دون إقامة أية منشآت عليه والسماح للأردن بالحصول على ما يستطيع الحصول عليه بعد حجز ٢٥ مليون متر مكعب لرى مثلث اليرموك (وهو الجزء الذى يقع إلى الشرق من نهر الأردن بداخل دولة إسرائيل فيما بين نهرى اليرموك والأردن وبحيرة طبرية) وترك مياه الفيضان التى تأتى فى موسم الأمطار

لكى تذهب إلى إسرائيل فتضخها إلى بحيرة طبرية لاستخدامها ، ولم تسمح إسرائيل للأردن بإقامة أية خزانات على النهر وأوقفت محاولة بناء خزان المقارن فى أعالى اليرموك نتيجة التهديد العسكرى .

● جنوب لبنان

وإذا كان الاستيلاء على هضبة الجولان يضمن لإسرائيل حصة المياه الواصلة إلى بحيرة طبرية فإن استيلاءها على هضبة جنوب لبنان فيه إمكان لزيادة حصتها من المياه لاستخدامها المستقبلى ففيها يقع نهر الليطانى الذى كان مطمعا للحركة الصهيونية منذ بداية القرن وظل أمل الاستيلاء عليه حيا ، وفى مذكرات موسى شاريت اشارة إلى أن الليطانى كان موضوعا دائما على جدول أعمال مجلس الوزراء الاسرائيلى منذ الخمسينات إلا أن هذا الحلم لم يتحقق إلا بعد أن أعطت الولايات المتحدة الضوء الأخضر عام ١٩٨٢ لاسرائيل بالاستيلاء على جنوب لبنان كما شهدت بذلك مذكرات الكسندر هيج وزير الخارجية الأمريكى حينئذ .

وباستيلاء اسرائيل على جنوب لبنان يصبح أمر تحويل نهر الليطانى إلى إسرائيل أمرا هينا فهذا النهر يتجه من منبعه إلى الجنوب حتى نقطة تقع بجوار حد إسرائيل الشمالى وقلعة الشقيف (بوفورت) الشهيرة ، والتى كانت حتى وقت قريب تشكل موقعا حصينا للحركة الفلسطينية ، فى جنوب لبنان ، ومن هذه النقطة يتجه النهر فجأة وبزاوية قائمة إلى الغرب فى خانق عظيم حتى يصب فى البحر الأبيض المتوسط ، وعند نقطة تحول النهر إلى الغرب يمكن تحويل مجرى النهر إلى الجنوب عن طريق قناة لايزيد طولها على عشرة كيلومترات فيدخل بذلك فى إسرائيل لكى يغذى بحيرة طبرية والقناة الاصطناعية .

ونهر الليطانى من الأنهار القليلة التى لم يتم استغلالها بالكامل فمازال جزء كبير من مياهه قد يصل إلى ٣٠٠ مليون متر مكعب يلقى فى البحر ، وقد كان للبنان مشروع لاستغلال هذه المياه إلا أن تهديد إسرائيل وتدخل السلطات الأمريكية منعا من تنفيذ المشروع ، إن نقص المياه فى إسرائيل هو أمر بالغ الخطورة على الرغم من جهودها الكبيرة فى الاستفادة من كافة المصادر المتاحة لها بما فى ذلك إعادة استخدام مياه الصرف استخداما يكاد أن يكون كاملا ، واستغلال مياهها الجوفية للدرجة الحرجة ، فإن حاجتها للمياه تزداد ولا يبدو أن تحقيق حلم الدولة الصهيونية التى ستجمع شتات اليهود إلا بالعدوان على مصادر مياه جيرانها ومنع نموهم أو استخدام مصادر ثروتهم الطبيعية .



مستقبل التعليم المصرى

لكن الرد الفورى ، هو ان التعليم ، اذا اقتصر على هذه الوظيفة ، فسوف يؤدى بالمجتمع الى الجمود وجمود حركة المجتمع ، يعنى فى الترجمة العملية ، رجوعا الى الخلف ، ومن ثم تكون النتيجة ، حكما بالاعدام التدريجى البطىء على هذا المجتمع .

بل إننا لنذكر القارىء بأن ابناءنا الذين يدخلون المدارس فى أولى مراحلها الآن ، لن يتخرجوا اعضاء فاعلين فى المجتمع ، الا بعد ما لايقل عن خمسة عشر عاما ، حيث يحيون عالما آخر وظروفا مباينة لكثير مما هو قائم الآن ، مما يحتم أن يستشرف الذين يعلمون ، المستقبل دائما ، والا فسوف ينتجون شخصيات غير صالحة للتعامل مع مجتمع الغد ، وبالتالى ، فنحن ، فى التعليم ، لانقوم فقط بمهمة نقل الموروث الحضارى وانما لابد ـ بالاضافة الى ذلك ـ من (الابداع) ومن (الابتكار) ، عن طريق عملية (استشراف) للمستقبل : معالم تغيره ، وملامح احتياجاته ، وابرز تطلعاته .

ثم أن عملية نقل الموروث الحضارى نفسها لايقوم فيها التعليم بمجرد النقل الآلى ، كما تقوم بذلك وسائل النقل بالنسبة للبضائع والناس ، وإلا فقدت نكهتها (التربوية) و (الانسانية) . ان ما يعطيها هذه النكهة ، التى هى ضرورة حياة وحتمية وجود ، أن تتناول هذا الموروث من خلال عمليتين ثقافيتين أساسيتين : عملية (الانتقاء) ، وعملية (النقد) ، فليس كل موروث يصلح للتعليم ، فمن هذا الموروث عناصر هادمة سلبية مخجلة ، لابد من إهالة التراب عليها ، أو على الاقل قصر الاهتمام بها على من يقومون بعملية (التاريخ) وهناك عناصر مضيئة مشرقة ايجابية ، تحتاج الى

كلما هل علم جديد ، اشتد شوق الانسان تطلعا الى المستقبل .. واذا كانت تلك "مقولة" تصدق على كثير من المجالات ، فإنها بالنسبة للمشتغلين بالتعليم تكتسب درجة إلحاح اكثر ومستوى من الاهتمام اعلى ، ذلك لان التعليم ، بحكم وظيفته ، عملية مستقبلية .

وقد يحتج البعض بأن ما نقوم به فى عملية التعليم ، إنما هو عملية (نقل) للموروث الحضارى الى الاجيال الجديدة ، وبالتالى فهو عملية (ماضوية) .

بقلم: د. سعيد اسماعيل على

تكثيف الاهتمام بها لمدها بأسباب الاستمرار ، مع التحسين والتطوير .

واذا كان هذا يتم فى مرحلة التعليم الأولى بصفة خاصة ، فإننا فيما بعد هذه المرحلة نحتاج الى عملية (نقد) لهذا الموروث الحضارى ، فإذا كانت هناك سلبيات ، فما طبيعتها ؟ وكيف ظهرت ؟ وما العوامل المسئولة ؟ وكيف يمكن تجنبها ؟

بل إننا فى عمليتى (الانتقاء) و (النقد) اللتين تتجهما الى (الموروث) ، نحتاج الى (معايير) ، والمعايير هنا ليست مجرد معايير (فنية) ، وإنما لابد كذلك أن تكون معايير اجتماعية /ثقافية /تربوية ، أى لابد وأن تستند الى حاضر الأمة : مقوماتها ، مشكلاتها ، احتياجاتها ، ولابد أيضا أن (تستنبىء) المستقبل ، وإلا ، فعلى أى أساس نختار هذا ونترك ذاك إن لم يكن من أجل حاضر الامة ومستقبلها ؟!

وهكذا يصبح التفكير فى المستقبل (هاجسا) دائما للتعليم والمشتغلين به ، إن أراد المشتغلون به لأمتهم الحياة والاستمرار ، حياة متطورة متغيرة ، تجرى فى عروقها دماء القوة وتتبنى انسجتها بخلايا التقدم .

لكننا ، ونحن نطلع الى المستقبل ، لابد لنا من دليل ... لابد من خريطة ..

فى كل الدول المتقدمة ، عندما يهم الانسان بزيارة دولة أخرى ، أو منطقة جديدة بالنسبة له ، لايقف ليسأل هذا أو ذاك عن المكان او كذا ، وإنما هناك مئات الالوف من الخرائط التى لابد من الاستعانة بها حتى يتحسس طريقه ويصل الى الهدف المطلوب فى أقصر وقت وأقل جهد .

والتطلع الى المستقبل هو زيارة للمستقبل .. لمنطقة مجهولة نحتاج فيها الى خريطة ، والخريطة التى نعنيها هنا ، ذلك الاطار الفكرى العام

مستقبل التعليم المصرى

مشروع النهضة القومى .. الهوية الحضارية .. أيا ما كانت التسمية ، فالمسمى واحد .. وهو (البوصلة) التى ترشد السائر .. (القبلة) التى توجه (العابد) .. الشراع الذى يوجه المركب .. الى غير ذلك من تشبيهات ، أعددها ، حتى أضمن أن يصل ما أريد تكثيف الضوء عليه أمام القارىء .

هنا مشكلة المشاكل حقا بالنسبة للمشتغلين بالتعليم فى مصر . فمن الناحية العملية الفعلية ، نحن مطلوب منا أن نزور المستقبل بغير خريطة : ومن هنا يمكن أن نجد أنفسنا بعد عدة سنوات قد عدنا من حيث بدأنا ، ويمكن أن نتجه الى مكان ، فإذا بنا فى مكان آخر .

● مطلوب أن نزور المستقبل

إن المشتغل بالتعليم ، تغلب على عمله صبغة (التنفيذ) .. تنفيذ ما يريده المجتمع منه . المجتمع لابد له من تصور لما يريد أن يكون عليه شأن الأمة فى مستقبل السنين والأعوام .. صورة للمواطن الذى يأمل ان يكون قوام هذه الأمة وعلى أى نحو يريد ان يكون عليه .. عندها يستطيع المربى ويمكن له أن يرسم ويخطط ويعمل ويعلم ، فماذا اذا غاب (النموذج) أو (الموديل) عن الصانع ؟ كل منهما سيجتهد باجتهاده الخاص ، وبالتالى يكون مشروعا لكل من يأتى ، أن يحكم بأن ماسبقه ليس هو المطلوب ، وبالتالى لابد من إعادة الانتاج .. وهكذا نسير فى طريق دائرى ، يوصل السائر عليه الى نقطة البداية ، وليس على طريق مستقيم ، كل يوم يمر ، نخطوا عليه خطوة الى المستقبل ، فيكون تقدما ويكون رقيا .

ولكى يكون حديثنا (تطبيقيا ، لا تحليقا فى أجواء التجريد والتنظير ، نعرض القضية التالية : الدستور عادة هو الوثيقة الرسمية التى من المفروض أن تمثل العقيدة الاجتماعية والسياسية والثقافية والاقتصادية للدولة ..

والدستور الذى نعمل به الآن ، تم إعداده عام ١٩٧١ . وفى هذا العام ، لم تكن قد مضت عل فترة الستينات إلا شهور تقل جملتها عن العام الواحد ، بحيث كانت (النغمة) السائدة هى هى .. إن هذا المجتمع الذى نحن أفراده (اشتراكى) ، أو يسعى الى أن يكون كذلك . وتحت هذه اللافتة الفكرية ، هناك العديد من التفصيلات والتطبيقات التى يمكن الاشارة الى بعضها (ترجمة) لهذه المقولة ، حياة وعملا فى مجال مثل مجال التعليم :

- كان منها أن تقوم الدولة بالاشراف على التعليم كله وتوجيهه .
- وكان منها أن تقدم الدولة التعليم

لكل المواطنين فى جميع المراحل (مجانا) .

- وكان منها أن يتم القبول فى مراحل التعليم عامة والعالى خاصة عن طريق تنسيق وتوجيه من الدولة ، فى ضوء احتياجاتها من القوى العاملة .

- وكان منها أن تتكفل الدولة بتشغيل الخريجين .

أن القضية أشبه بما نجده لدى الرياضى عندما يقول أنه اذا كانت ا = ب ، و (ب) = جـ ، فلابد أن تجىء ا مساوية لـ (جـ) .

وفى أعقاب حرب اكتوبر عام ١٩٧٣ ، بدأت المؤشرات والتوجهات تسير فى اتجاه آخر .. خطوة خطوة .. نحو "الخصخصة" على طريق راسمالى . وعندما كان أحد منا ، أو من غيرنا ، يشير إلى ما يعنيه اجراء ما بأنه ابتعاد عن الهوية المعلنة ، كان يجابه دائما بأنه (لامساس) بالمجانية - مثلا - ولاتفكير فى الجامعة الأهلية .

حتى بدأت الساحة العالمية منذ عام ١٩٨٩ تشهد تحولا تاريخيا كبيرا نتج عن الانهيار المدوى لمنظومة الدول الاشتراكية . تساقطت الأطراف ، وبقى المركز ، ليشهد عام ١٩٩١ علامات ومؤشرات تؤذن بأنه هو الآخر بسبيله الى التفكك والانهيار ، هذا المركز هو الاتحاد السوفييتى .

هنا ، اختفت عبارة (لامساس) . بدأت التصريحات الرسمية من قيادات مسئولة تقول بما كان يستنكر منذ عامين فقط .

أقول الحق ، أنا واحد من الناس ، لست أسفا على هذا الانهيار التاريخى المدوى لمنظومة الكتلة الأشتراكية ، لكنى مفزوع .. مفزوع من هذه التداعيات التى بدأت تطل برأسها على يد البعض

عندما بدأ التحول الاشتراكى فى مصر - مثلا - منذ الستينات ، بدأ بعض السذج والأغبياء ، يفهمون من ذلك أن الدولة - ستقوم بتوزيع الرزق بالتساوى على الناس وهم على الأرائك ينظرون !! فكان توكلا "بغيضا" متناسين أن هذا الرزق المنتظر من الدولة أن توزعه ، ليست هى المنتجة له ، وانما هم الناس أنفسهم ، فإذا لم يجدوا فى الانتاج ، فلن يتم توزيع عادل .

وفهم بعض السذج والأغبياء أن مركزية السلطة تعنى مركزية الرأى ووحدانية الفكر ، متناسين أن هذا هو الاستبداد بعينه ، والقهر وإن تزيا بزى براق يسر الناظرين .

نفس الشىء يتكرر الآن ، على الوجه الآخر من الاسطوانة ..

انهيار النموذج الاشتراكى ، بدأ يعنى عند كثيرين من الخبثاء والشياطين ، أنه اطلاق للاستغلال .. و اللى تغلب به ، العب به" (اخطف واجرى) .

وهكذا انطلقت وحوش ضارية من القمقم .. وحوش يستحيل أن تظهر

مستقبل التعليم المصرى

على حقيقتها أمام الجماهير بأنيابها الحادة ، والسياط التى بيدها ، ونهمها لامتصاص الدماء ، وانما لابد من التخفى .. ولابد من المناورة ... ولابد من المداراة ..

انطلقت مدارس خاصة عديدة تحاول أن تظهر انها تقدم خدمة تعليمية متميزة لايحصل عليها الطلاب فى مدارس الحكومة ، وفى نظير ذلك ، بدأت المصروفات ترتفع تدريجيا حتى وصلت الى ألوف الجنيهات .. فى الحضانة ورياض الأطفال .

وبدأت الدولة نفسها تشجع على هذا ، وإن كان ذلك يتم عن غير قصد ، تقول إن العبء ضخم عليها ، والمهمة ثقيلة على أكتافها . وما دامت هناك مدارس خاصة وآباء يدفعون ، فلماذا تزيد من الانفاق الحكومى ؟

وتراجعت معدلات الانفاق على التعليم بالنسبة للدخل القومى ، وتراجعت مؤشرات عديدة ومقومات مختلفة للعملية التعليمية لتتدنى فى مدارس الحكومة عن الحد الأدنى ، حتى فى بعض الدول المتخلفة ، فبدأ آباء وأمهات يهربون بأبنائهم من المدارس الحكومية إلى المدارس الخاصة ، تماما كما يضطر الانسان الى الهرب عندما يرى السفينة التى يركبها قد كثرت فيها مظاهر الخلل ، خوفا من الغرق بها . وفى المدارس الخاصة ، يطالب الآباء والامهات بما يزيد كثيرا عن طاقاتهم ، ويبدأ الاستغلال بصوره البشعة .

ولم تكن وزارة التعليم صادقة مع جماهير الناس فى القول بأنها ملتزمة بالدستور . وبدأ الالتفاف حوله ، خروجا عليه ، لا استمساكا به . ظهرت نوعية من المدارس ذات لافتة جديدة اسمها (المدارس التجريبية) ، حكومية ذات لغة أجنبية ، تزعم أنها تقدم خدمة متميزة ، وفى سبيل ذلك تحصل مصروفات عالية من الطلاب ، وفى ذلك خروج عن المتعارف عليه عالميا من أن مرحلة التعليم الأولى ينبغى أن تخصص للتعليم ذى الصبغة القومية العامة والتركيز على اللغة القومية لتوفير الحد المشترك المكون للوحدة الثقافية بين أبناء الأمة ، وفى ذلك أيضا قول غير الحق ، لأن (التجريبى) له معناه الشهير فى عالم التربية والتعليم ، يعرفه كل من درس الف باء العلوم التربوية ، بل لايخفى على كل من أوتى فهما عاما بصيرا بدلالة الألفاظ والمسميات وهذه المدارس ليس بها أى صورة من صور التجريب .. فهى إذن عملية التفاف ، لتقرير مصروفات بدءا من المرحلة الأولى ، باسم القانون الذى صدر عام ١٩٧٩ .

وهل أتحدث عن الدروس الخصوصية ؟ لا أظن أنى مستطيع

ذلك ، والا لاحتجت إلى ضعف هذه الصفحات .

● الجامعة المفتوحة ودورها

ومنذ سنوات تعد على أصابع اليد الواحدة ، لا ، بل اقل ، عندما ظهرت فكرة الجامعة الخاصة فى مجلس الشعب ، انبرى المرحوم د . رفعت المحجوب ليستنكر ، بل وينفعل انفعالا حادا ، وهو يمثل السلطة التشريعية ، ويعد الرجل الثانى بعد رئيس الدولة ، وها نحن الآن نسمع عن سعى عملى للوزير الكفراوى لاخراج هذه الفكرة الى حيز التنفيذ ، بل ويعرض مبانى ضخمة أنشئت بالمال العام فى مدينة السادات ، ويبارك وزير التعليم هذا التوجه ويشجعه .

وعلى نفس الطريق يجىء مايسمى (بالتعليم المفتوح) ..

ويحار المرء حقا .. كيف يمكن ان تعمل الدولة على التقليل من المقبولين بالجامعات والمعاهد العليا تدريجيا كل عام ، بسبب الشكوى الشهيرة من بطالة خريجى الجامعات ، وفى نفس الوقت تبارك وتشجع ظهور جامعة خاصة وتعليم مفتوح لايتقيد بقبول أعداد محدودة ، بل يفرز الى السوق آلافا من الطلاب عاما بعد عام ؟

– سيقولون ان هذين التعليمين يتوجهان الى تخصصات جديدة ، السوق فى حاجة اليها .

وهنا نرد بتساؤل آخر : وما المانع أن نطور ما بالجامعات القائمة ؟ إن مايعجزها هو الامكانات ، فما المانع أن توجه هذه الأموال لهذه الجامعات التى هى ملك الأمة جميعا وليست ملكا لفئة دون أخرى ، لتجدد من برامجها وتزيد من أعداد المقبولين بها ؟

ليس المقصود هنا هو مناقشة قضية الجامعة الخاصة والتعليم المفتوح ، وإنما قضيتنا الاساسية فى هذا المقال ، هذا هى التناقض الصارخ بين (فلسفة) و (بوصلة) معلنة فى الدستور ، وحركة فى واقع التعليم .. فلسفة و (بوصلة) تعلن الاشتراكية ، وحركة واقع تسير فى الاتجاه المضاد .

كيف يمكن للمشتغلين بالتعليم أن يخططوا ويرسموا المستقبل للتعليم والخريطة التى بين ايدينا وايديهم هى لمدينة أخرى ، غير المدينة التى يعيشون فيها ؟

تخيل أن تمسك بخريطة عليها – مثلا النيل فى جهة الشرق ، فإذا بك عندما تتجه اليه تجد صحراء ! تخيل عندما تمسك بخريطة تشير الى أن المتجه الى شارع (ا) ، عليه أن يدخل اليه من نهاية شارع (ب) يمينا ، فإذا بك عندما تفعل ، تجد أن الواقع يحتم عليك أن تتجه الى الشمال فى بداية الشارع (ب) !

اننا بحاجة الى امتلاك شجاعة المواجهة والحسم ، بدلا من اللف والدوران ، الى درجة تقرب من التحايل .. الدستور يرفع لافتة بالنسبة لجميع المراحل ..

فإذا كنا نتنكب الطريق، فلنعلنها

مستقبل التعليم المصرى

صراحة وبوضوح . "ان الحلال بين والحرام بين وبينهما أمور متشابهات" فهل يحكم علينا أن نعيش التعليم فى معظم الأحوال فى منطقة المتشابهات ؟

● مجانية التعليم بين التاييد والرفض

ولأننا لاتملك شجاعة المواجهة ، تبرز تفسيرات : المجانية ، إنما هى متعلقة بعملية (التعليم) ، ومن ثم فيمكن تحصيل مصروفات الكتب . ونتساءل : من يضحك على من ، وهل يكون تعليم بلا كتب ، إن الكتب هى وعاء التعليم وواسطته الأساسية . ويجىء تفسير من هنا وتفسير من هناك ، لتجد التعليم فى النهاية وقد أصبح الآباء والامهات يدفعون عنه مصروفات باهظة تحت أسماء مختلفة .

دليل المجتمع الرسمى يقول .. مجانية .

وحركة التعليم تسير فى اتجاه الخصخصة !!

انها لصعوبة بالغة فى الوقت الحالى ، أن نبرز مخاطر عديدة تنتظر (مستقبل التعليم) المصرى فى ظل (الخصخصة) ، خاصة وهذا الاتجاه يعيش فى أوج انتصاراته الدولية التاريخية الكبرى ، ولكننا لانستطيع التغافل عن بعض الحقائق الاجتماعية الخاصة بمصر والتى تجعل هذا التوجه يحمل أخطارا عدة .

إن (التنافس) الذى يشكل فلسفة الخصخصة هو أنسب لمجتمع الوفرة ، أما مجتمع (الندرة) والاختلال الطبقى ، فإنها تتحول الى عملية (افتراس) ، من القادرين لغير القادرين .

ولنأخذ مثالا ، مايتم حاليا فى عمليات الانتقال من مرحلة تعليمية الى أخرى :

أنها عملية (فلترة) ، وترشيح ، وغربلة ، تضع سدا أمام البعض ، وتفتح الباب للبعض الآخر . على أى أساس ؟ يقال : مجموع الدرجات ..

لكن السؤال الذى تطرحه هنا : كيف يحصل الطالب على مجموع عال من الدرجات ؟

منذ سنوات ، كانت هناك مدارس (أميرية) تستوفى الكثير من مقومات التعليم من مبان ومنشآت وأنشطة وقلة كثافة طلاب ويوم مدرسى طويل ، كان هناك تعليم فعلى ، بالمجان ، فكان يمكن للطالب أن يذاكر جيدا لينجح بتفوق ، بحيث يفرز الامتحان ذوى الكفاءة عن غيرهم ، بمعيار العلم وحده .

ثم افتقدت المدارس الرسمية معظم المقومات اللازمة لعملية التعليم وأصبحت أمكنة (للايواء) بغير تعليم حقيقى ، او حتى نصف حقيقى .

هنا كان لابد للآباء ان يبحثوا عن سلعة التعليم فى السوق (الحرة) - بثمن باهظة ، فمن الذى يستطيع المنافسة فى الامتحانات اذن ؟ طلاب

المدارس الخاصة وطلاب الدروس الخصوصية !!

● سلعة التعليم فى السوق

التعليم الآن سلعة باهظة التكاليف ، وهناك الوف قادرون عليه عقليا ، عاجزون عنه (ماليا) . وفى الوقت الذى تحول فيه التعليم إلى مجرد (خزن المعلومات) ، اصبح بالامكان الحصول على (نتيجته) دون حاجة الى استخدام مهارات واستعدادات التفكير والذكاء وانما بالمال وحده فى كثير من الاحيان ، وآية ذلك ما تراه من رسوب مايقرب من ٧٠٪ مثلا لطلاب الاعدادى فى كلية الهندسة التى هى من كليات القمة وفقا للتسمية الشائعة بين الناس !! .

وهكذا تتم عملية (الفلترة) و (الترشيح) و (الانتقاء) بغير معيار (الجدارة) و (الاستحقاق)، وإنما بمعيار قوة المال .

ومرة أخرى . ان المال ليس لعنة ، فهو من زينة الحياة الدنيا حقا وصدقا ، ولكنه فى مجتمع معظم أفراده يعيشون حول خط الفقر ، يصبح التنافس افتراسا .. وتصبح "الخصخصة" وحشا خطرا ينتظر آمالنا فى مستقبل التعليم لينقض عليها .

أن هذا يفترض منا الا نسرع بالاستجابة الى هذا التوجه العالمى ونطبقه على التعليم ، لابد من ترتيب الأولويات ، ولنتمهل فى هذا المجال ، إلى أن تبدأ المعضلة الاقتصادية فى الانفراج ، حتى تخفف وطأة الفقر وحتى تخف وطأة المعاناة ، فيشتد ساعد وعود فريق الفقراء فى حلبة المنافسة مع فريق الاغنياء ، ويمكن بالتالى أن تكون القدرة العلمية هى معيار الفوز فى التنافس .

بل إننا اذا شئنا الأولويات ، فلنقل أن سياسة الخصخصة تستوجب أن تمتد أولا الى مجالى السياسة والفكر ، وترجمتها العملية فى هذا وذاك ، أن يكون هناك تداول للسلطة وتعددية فى الفكر ، وتداول السلطة لايقف عند حد تغيير أفراد فى مواقع مسئولية فقط ، بل يعنى كذلك تغيير جماعات وقوى . وتعددية الفكر لاتترجم فى أحزاب تحاصر وأحزاب شكلية ، وإنما فى السماح كذلك لجماهير متعددة التوجهات أن تكون لها تنظيماتها الفعلية العلنية الرسمية ، وتترجم فى حرية اصدار الصحف والمجلات ، وتترجم فى المشاركة فى أجهزة الراى أو الاعلام .

إن الفلسفة فى معناها العلمى ، لابد أن تتسم بالشمول والاتساق والتكامل ، ويستحيل أن يكتب لها نجاح إذا سرنا على طريق نجد انفسنا فيه نرفع شعار الخصخصة فى الاقتصاد وننادى به فى التعليم ، ونتساه فى مجالى السياسة والفكر ، أو نتذكر القليل منه ، ونسير فيهما على الطريق الاشتراكى .

وفى يقينى أن أولوية خصخصة السياسة والفكر من شأنها أن تمهد الطريق لان يجىء التعليم بناء (للأصلح) لا (للأقوى) .

الطبقة الوسطى وأزمة المجتمع المصرى

بقلم: د. محمود عبد الفضيل

يا لها من مبادرة طيبة من جانب مجلة الهلال ان تفتح نقاشا واسعا حول ازمة وهموم ومسار « الطبقة الوسطى » فى المجتمع المصرى . ولقد ساهم فى هذا النقاش الهام حتى الآن : د . جلال امين ، د . محمود عودة ، د . عاصم الدسوقى من زوايا ورؤى اقتصادية ـ اجتماعية ـ تاريخية مختلفة ، والحقيقة ان معالجة موضوع هام مثل ازمة الطبقة الوسطى فى مجتمعنا لابد ان تكون بالضرورة معالجة شاملة ذات ابعاد : تاريخية ، اقتصادية ، واجتماعية .

ولقد طرحت هذه المجموعة من المقالات قضايا تعريفية متعلقة بحجم العناصر المكونة لهذه الطبقة عبر المراحل والازمنة التاريخية المختلفة ، وكذا مشاكل **النمو الكمى** والتغير الذى يرافقه فى **الخصائص الاقتصادية ـ الاجتماعية** ..

والانعكاسات السياسية لكل هذه التطورات . كذلك تناولت هذه المجموعة الهامة من المقالات مسائل متعلقة بأزمة الطبقة الوسطى وهمومها الراهنة ودورها المستقبلى فى المجتمع المصرى . وتمثل هذه المقالة مساهمة متواضعة فى هذا النقاش الدائر لكى يمتد الحوار وتتسع دائرته ، من ناحية ، ولاستجلاء بعض نواحى الغموض فى الصورة المرسومة للطبقة الوسطى ومشاكلها ، من ناحية أخرى .

● المشاكل الحدودية بين الطبقات

لعل المشكلة الاولى التى تواجه الباحث فى هذا المجال هى رسم الحدود الفاصلة بين الفئات الاقتصادية ـ الاجتماعية المختلفة ، لكى نعرف : « **اين تبدأ طبقة واين تنتهى اخرى ؟** » . ومن الواضح ان هذه المسألة لها شقان :

(أ) شق منهجى : يتعلق بطبيعة المعايير التى يتم الاستناد اليها **للتصنيف والتدريج الطبقى** بين : طبقة عليا ، ووسطى ، ودنيا . اذ لم يعد من الممكن اجراء عملية التصنيف والتدريج الطبقى هذه بالاستناد الى **معيار وحيد** مثل : الدخل والثروة ، مستوى التعليم ، المكانة الاجتماعية

والسياسية (الحسب والنسب) الممارسات الثقافية والسلوكية ، إلخ بل عدنا فى حاجة الى معيار مركب يشمل كل هذه الخصائص وبأوزان مختلفة .

(ب) شق احصائى : يتعلق بتوافر ودرجة الثقة فى البيانات المتاحة حول احجام الفئات الاقتصادية ـ الاجتماعية ـ الاقتصادية المختلفة عند نقطة زمنية معينة . فعادة ما تجيء البيانات الاحصائية (وافضلها بلاشك بيانات تعداد السكان) فى شكل تصنيف لفئات مهنية « Occupa-tional groups » غير ملائمة لاغراض التصنيف الطبقى ، وفقا لمعايير مركبة (تجمع عدة خصائص) على النحو السابق بيانه .. الامر الذى يحتاج لعمليات اعادة تصنيف وملاءمة شاقة حتى نصل إلى صورة تقريبية للاوضاع والمواقع الطبقية المختلفة .

ولذا فانه رغم بساطة التصنيف الثلاثى المعتاد للاسر والافراد فى المجتمع الى : طبقة عليا ، وطبقة وسطى ، وطبقة دنيا ـ تظل المشاكل المنهجية والاحصائية مشاكل شائكة تحول دون الوصول الى رسم خريطة طبقية يعتد بها فى التحليل والنقاش العام .

وفى ظل احسن الاحوال تفاؤلا ، ومهما كان حجم نجاحنا فى حل تلك المشاكل المنهجية والاحصائية ، تظل هناك بالضرورة مشاكل تلك المناطق الرمادية التى تحتمل التصنيف هنا او هناك ، وهى قد تضيق او تتسع حسب الظرف التاريخى والاجتماعى ، ودرجة « السيولة » و« الحراك » الطبقى السائد فى مرحلة تاريخية معينة ، ومن هنا ينشأ المفهوم « الضيق » والمفهوم « الواسع » للطبقة . وبالتالى تختلف الاوزان النسبية لكل طبقة فى اطار الخريطة الطبقية العامة للمجتمع ..

● الطبقة الوسطى فى مصر

اذا كنا بصدد تحليل عملية نمو واتساع مراتب الطبقة الوسطى فى مجتمع مثل مجتمعنا . فالافضل ان نتخذ « عدد الاسر » . وليس « عدد الافراد » ، بمثابة الوحدة الاساسية فى التحليل ، حتى لا تضطرب معايير القياس ، باعتبار ان « الاسرة » هى « الوحدة الدخلية » الأساسية وبؤرة النشاط الاقتصادى والاجتماعى والثقافى .

ويرى الدكتور جلال امين (فى مقاله المنشور بمجلة الهلال ، اغسطس ١٩٩١) ان « حجم الدخل والثروة هو اكثر المعايير ملاءمة لتصنيف المجتمع الى الطبقات الثلاث ، مع عدم تعليق اهمية كبيرة على طبيعة المصادر التى يأتى منها الدخل ، على اساس ان المجتمع المصرى ، هو اقل اهتماما الان بالسؤال عن مصدر الدخل والثروة » واختلف مع الدكتور جلال امين حول عدم الاعتداد بالسؤال عن مصدر الدخل او الثروة ، عند اجراء عملية التصنيف والتحليل الطبقى فى ظروف مجتمع مثل مجتمعنا . فبالرغم من ان « النقود ليس لها رائحة » كما يقول بعض الاقتصاديين الفرنسيين ، فانه يوجد فى مصر الان نوعان من الدخل :

الطبقة الوسطى وأزمة المجتمع المصرى

(أ) الدخل الدورى القابل للتجدد المرتبط بانشطة اقتصادية لها صفة الدورية ، والديمومة مثل : الانشطة الزراعية ، الصناعية ، التجارية ، والخدمية .

(ب) الدخل الطارىء (او الاستثنائى) القائم على الصدفة ، الشطارة ، المضاربة ، العمولة ، الصفقة غير المتكررة .. الخ .. وهى دخول استثنائية وطارئة تتولد من خلال عمليات « التداول » وليس من خلال عمليات « الانتاج المتجدد ».

ولذا فان الفئات التى قفزت الى مواقع « الطبقة الوسطى » ، من حيث حجم الدخل ، من خلال الحصول على دخل طارىء واستثنائى (دون ان يتحول بالضرورة الى ثروة مادية دائمة مولدة للدخل هى فئات ذات وضع مؤقت فى اطار الطبقة الوسطى .. قد يمتد لحقبة من الزمان ، وليس لجيل كامل . ولدينا سابقة تاريخية فى مصر فى هذا المجال وهى ظاهرة « القرنص » اثناء الحرب العالمية الثانية ، ومانتج عنها من دخول استثنائية وبعض السيولة الطبقية المؤقتة .. لم يكتب لها الدوام والاستمرارية لانها بنيت على ظروف استثنائية ومؤقتة .

وهكذا فان تحديد معالم « الخريطة الطبقية » وفقا لمعيار الدخل دون السؤال عن المصدر ، يتوقف على ما اذا كنا بصدد اخذ « صورة فوتوغرافية » للمجتمع عند لحظة زمنية معينة .. ام اننا نحاول التعرف على عناصر هذه الخريطة من منظور مستقبلى ديناميكى ، بمعنى ، هل تلك « الخريطة الطبقية » التى نرسمها ذات معالم ثابتة ومستقرة نسبيا .. ام انها تعبر عن اوضاع خاصة ذات طبيعة مؤقتة ..

ويرتبط بذلك اعتماد نمط الاستهلاك السائد ، او نوعية ملكية السلع المعمرة كمعيار يسترشد به لتحديد الحدود الفاصلة بين الطبقات والشرائح الاجتماعية المختلفة . فقد تنجح اسرة من الاسر فى تحقيق دخل استثنائى (غير قابل للتكرار) من خلال عمليات الهجرة للخليج مثلا ، تساعدها على اقتناء اغلى السلع المعمرة : سيارة خاصة ، جهاز فيديو ، اجهزة تكييف ، ولكن قد تعجز فى المستقبل عن تدبير نفقات تشغيل وصيانة تلك الاجهزة المعمرة .. مصدر المكانة والوجاهة الاجتماعية التى تؤهل للدخول فى مصاف عناصر الطبقة الوسطى .

وفى ضوء ما تقدم ، اود ابداء بعض الملاحظات على الرقم الذى تفضل به الدكتور جلال امين حول الحجم المطلق والنسبى للطبقة الوسطى فى اطار الخريطة الطبقية للمجتمع المصرى فى النصف الثانى من الثمانينات . فلقد قدر الدكتور امين هذا الحجم بنحو ٢٥ مليون شخص ،

اى نحو ٤٥٪ من السكان ، واعتقد ان هذا الرقم متحيز لأعلى ، لانه يشمل النمو الطفرى والمؤقت فى الدخول عند لحظة تاريخية معينة .. وليس له صفة الدوام والاستقرار ..

واذا ما اتفقنا مع الدكتور امين على ان مستويات الدخل الشهرى التقريبى للاسرة التى تناظر الاوضاع الطبقية هى كالتالى : الحد الفاصل بين الطبقة الدنيا والطبقة الوسطى هو الحصول على دخل شهرى قدره **ثلاثمائة جنيه شهريا** ، وان الحد الفاصل بين الطبقة الوسطى والطبقة العليا هو الحصول على دخل شهرى لاسرة قدره **عشرة الاف جنيه** (شاملا المزايا العينية) تظل الصورة شديدة العمومية وينقصها العديد من التفاصيل الهامة . فمن المعروف ان الطبقة الوسطى ـ ان صح التعبير ـ تنقسم الى مراتب وشرائح دخلية ، وانه من الضرورى التمييز بين ثلاث شرائح :

(أ) الشرائح العليا من الطبقة الوسطى .. وهى اقرب ما تكون فى طموحاتها ونظام قيمها وانماط معيشتها من الطبقة العليا ..

(ب) الشرائح الوسطى من الطبقة الوسطى .. وهى مايمكن اعتبارها الوعاء الحقيقى للطبقة الوسطى بالمعنى الضيق .

(ج) الشرائح الدنيا من الطبقة الوسطى .. وهى اقرب ماتكون فى نظام قيمها وانماط معيشتها من الفئات الدنيا .

ان مثل هذا التصنيف الداخلى لمراتب وشرائح الطبقة الوسطى المصرية ، يعتبر ضروريا للغاية . واذا ما اعتمدنا معيار الدخل لبساطته ، ودون اخلال كبير للحدود الدخلية الفاصلة التى سبق الاتفاق عليها ، يمكن تركيب الصورة التالية للتناظر بين الاوضاع الدخلية والاوضاع الطبقية فى مصر عند مطلع التسعينات . كما فى الجدول رقم (١) :

واذا ما انتقلنا الى بعض الاحصاءات الواردة فى تعداد ١٩٨٦

الشريحة الطبقية	متوسط الدخل الشهرى* (باسعار عام ١٩٩١) لاسرة مكونة من زوج وزوجته وطفلين
١ ـ الطبقات الدنيا	٣٠٠ جنيه فى الشهر
٢ ـ الطبقة الوسطى	
(أ) الشرائح الدنيا	٣٠٠ ـ ٩٠٠ جنيه فى الشهر
(ب) الشرائح الوسطى	١٠٠٠ ـ ٣٠٠٠ جنيه فى الشهر
(ج) الشرائح العليا	٣٠٠٠ ـ ١٠٠٠٠ جنيه فى الشهر
٣ ـ الطبقة العليا	اكثر من ١٠٠٠٠ جنيه فى الشهر

(*) شاملا المزايا والتحويلات والمنافع العينية

الطبقة الوسطى وأزمة المجتمع المصرى

للسكان فى مصر ، دعونا نلقى مزيدا من الضوء على بعض المؤشرات الهامة ذات الدلالة الطبقية ، لعلنا نصل لتقدير مستقل لحجم الطبقة الوسطى فى مصر فى النصف الثانى للثمانينات من منظور آخر .

وتتركز اهم تلك الشواهد والدلائل فيما يلى :

(أ) عدد الذين يملكون اكثر من شقة او فيللا بأكملها يمثلون نحو ٢٪ من جملة الاسر فى الجمهورية . وفى المقابل ، هناك ٢٣٪ من جملة اسر المناطق الحضرية يعيشون فى غرفة او اكثر بوحدة سكنية ، او فى عشة او خيمة .

(ب) عدد الاسر التى تمتلك **تليفزيون ملون** هى نحو ٢ مليون اسرة (اى نحو ٢٠٪ من جملة الاسر فى الجمهورية) ، مقابل نحو ربع مليون اسرة (أى ٣٪ من جملة الأسر) تمتلك **ديب فريزر وجهاز فيديو** .

(ج) عدد الاسر التى تمتلك **غسالة كهربائية وتليفزيون ابيض واسود** فى حدود ٥٠٪ من جملة اسر الجمهورية ، مقابل ٣٨٪ فقط من الاسر تمتلك **ثلاجة كهربائية** .

(د) عدد الاسر التى تمتلك **سيارة واحدة** نحو مليون اسرة (اى ١١٪ من جملة اسر الجمهورية) مقابل ٨٨٪ من جملة الاسر لا تمتلك اية سيارة خاصة . ذلك فى الوقت الذى كان هناك نحو ٦٠ الف اسرة تمتلك سيارتين او ثلاث سيارات (نحو ٠,٦ من جملة الاسر بالجمهورية) .

(هـ) بلغ عدد الاسر الحائزة على مسكن تمليك نحو ٣٧,٤٪ فى جملة المناطق الحضرية (مقابل ٢٢٪ فى محافظة القاهرة ، ٢٥٪ فى محافظة الاسكندرية) ، حيث ان العبرة (فى مساكن التمليك) بالمناطق الحضرية .. لان (مساكن التمليك) تعتبر هى النمط السائد تاريخيا فى المناطق الريفية ، والايجار هو الاستثناء ، مع ملاحظة ان من بين حائزى شقق التمليك فى المناطق الحضرية اسرا تنتمى الى الشرائح الدنيا (خاصة فى حالات البناء العشوائى فى المناطق الشعبية ، وفى اطراف المدينة).

وإذا قمنا بتجميع كل تلك المؤشرات ، ووضعها جنبا الى جنب ، يمكن ان تتضح لنا الصورة التشريحية للطبقة الوسطى فى مصر فى النصف الثانى للثمانينات . اذ انه بدلالة هذه البيانات ، يمكن لنا استخلاص بعض المؤشرات الاحصائية الخاصة بالوزن النسبى التقريبى للشرائح الطبقية المختلفة فى المجتمع المصرى :

(١) ان الوزن النسبى **للطبقة العليا** يتراوح مابين ٣٪ ــ ٥٪ من جملة الاسر فى المجتمع المصرى (نحو ٣٠٠ الف الى نصف مليون اسرة) . اذ ان هذه الاسر هى التى تمتلك سلعا استهلاكية متقدمة وترفيهية : ديب فريزر ، اجهزة فيديو ،

اكثر من سيارة خاصة .

(٢) الشرائح العليا من الطبقة الوسطى : تمثل ١٠٪ من جملة الاسر فى المجتمع المصرى (اى نحو مليون اسرة) وهى تلك الاسر التى تتميز بامتلاك اجهزة تليفزيون ملون ، وسيارة ملاكى واحدة لكل اسرة .

(٣) الشرائح الوسطى من الطبقة الوسطى تمثل ٢٢٪ من جملة الاسر فى المجتمع المصرى (اى نحو ٢,٢ مليون اسرة) وتتميز بتملك ثلاجة كهربائية وشقة تمليك (فى المناطق الحضرية) عن دونها من الشرائح الطبقية الادنى .

(٤) الشرائح الدنيا من الطبقة الوسطى وتمثل ١٥٪ من جملة الاسر فى المجتمع المصرى (اى نحو ١,٥ مليون اسرة) ، وتتميز بامتلاك غسالة كهربائية وجهاز تليفزيون ابيض واسود ، عن دونها من الشرائح الدنيا فى المجتمع .

(٥) الشرائح الاجتماعية الدنيا : وتمثل ٤٧٪ من جملة الاسر فى المجتمع المصرى (اى نحو ٤,٥ مليون اسرة) ، من بينها النصف تقريبا (٢,٥ مليون اسرة) تعيش فى ظروف بالغة البؤس ، اذ لا يوجد لديها اية سلعة معمرة على الاطلاق وتعيش فى غرفة مستقلة (او غير مستقلة) فى وحدة سكنية او فى عشة او خيمة او مدفن .

وهكذا نخرج بالصورة الاجمالية التالية للتركيبة الطبقية فى المجتمع المصرى فى النصف الثانى من الثمانينات :

الطبقة العليا : ١ ـ ٥,٠٪ من جملة الاسر (٣٠٠ الف الى نصف مليون اسرة)

الطبقة الوسطى : ٤٨٪ ـ ٥٠٪ من جملة الاسر (٤,٧ مليون اسرة) .

الشرائح الدنيا : ٤٧٪ من جملة الاسر (٤,٥ مليون اسرة).

ويلاحظ ان هذه التقديرات تقترب بشدة من التقديرات التقريبية التى اوردها الدكتور جلال امين فى دراسته ، باستخدام معيار الدخل . ولكننا نعتقد ان الشرائح الدنيا من الطبقة الوسطى (١٥٪ من جملة الاسر فى المجتمع المصرى) مهددة بالانحدار الى مصاف الطبقات الدنيا بفعل الازمة الاقتصادية القادمة . **ولذا فان نحو ٣٥٪ من جملة الاسر فى مصر يمكن اعتبارها فى صفوف الطبقة الوسطى بصفة دائمة ومتجددة ..**

● الازمة القادمة للطبقة الوسطى فى مصر

ان المتأمل فى التاريخ المصرى الحديث منذ بداية هذا القرن ، يكتشف ان تلك الطبقة الوسطى ـ على تنوع فئاتها ومراتبها ـ قد شكلت العمود الفقرى لحركة المجتمع المصرى السياسية والفكرية منذ ثورة ١٩١٩ ، ومرورا بثورة ١٩٥٢ ، وحتى الان . فلقد شكلت تلك الفئات الوسطى ، العمود الفقرى للحركة السياسية والتنظيمات الحزبية المصرية ، والنقابات المهنية ، ومن بين صفوفها انحدر اهم المفكرين والكتاب والفنانين : كطه حسين ، وعباس

الطبقة الوسطى وأزمة المجتمع المصرى

العقاد ، واحمد امين ، وتوفيق الحكيم ، ومحمد مندور ، ولويس عوض ، ومحمد حسنين هيكل ، واحمد بهاء الدين ، والاف اخرين .

وهى ذات الفئات التى ملأت الحياة العامة جلبة وضجيجا منذ عام ١٩١٩ وحتى الان ، بما نالته من حظ طيب من التعليم والوعى السياسى ، وما كانت تتمتع به من وقت فراغ يسمح لها بالحركة والحضور السياسى والحيوية الفكرية .

كذلك اذا عدنا قليلا الى الوراء نجد ان الجانب الاكبر من مكاسب الخمسينات والستينات ذهبت ، فى معظمها الى ابناء تلك الطبقة ، لاسيما : مجانية التعليم ، والاصلاح الزراعى ، وتثبيت الاسعار ، وتعيين الخريجين ، وتوسع رقعة القطاع العام . ثم جاء الانفتاح وموسم الهجرة الى الخليج ليحدث بعض الانتعاش المؤقت فى الاحوال المالية والمعيشية لتلك الطبقة ، التى اخذت تصارع غول التضخم والغلاء قبل ان يصرعها .

ولكن الاوضاع الاقتصادية والاحوال المالية والمعيشية للطبقة الوسطى اخذت تترنح بشدة عند منتصف الثمانينات . فرغم الغلاء والتضخم ، منذ منتصف السبعينات ، فقد نجحت فئات عديدة تنتمى الى الطبقة الوسطى من التنفيس عن ازمتها الاقتصادية من خلال عمليات الهجرة الواسعة النطاق الى بلدان الخليج منذ منتصف السبعينات .. وحتى بداية الثمانينات بشكل ناجح .

ولكن اليوم ، وبعد ان اوشك موسم الهجرة الى الخليج على الانتهاء ، وتضاءلت الامال المعلقة على الحصول على عقد عمل فى الخارج ، ليكون بمثابة جواز المرور للخلاص من الاوضاع المتردية للطبقة الوسطى فى المجتمع ، فان الطبقة المتوسطة هى المرشحة لان تكتوى اكثر من غيرها ، بنيران التضخم نظرا لطبيعة نمطها الاستهلاكى وضيق ذات يدها . فمع ارتفاع تكلفة الدروس الخصوصية ، ونفقات تعليم الابناء عموما . وارتفاع تكاليف البنزين وتكلفة المواصلات وارتفاع اسعار وشرائح استهلاك الكهرباء .. يصبح من الصعب على عناصر الطبقة الوسطى الحفاظ على المستوى المعيشى الذى تمتعت به خلال الخمسينات والستينات والسبعينات والنصف الاول من الثمانينات .

ففى ظل نيران التضخم المضطرمة .. اخشى ان يتحول العديد من عناصر الطبقة الوسطى من مصاف مساتير الناس[١] الى مصاف مساحيق الناس .

. ولذا فاننى اعتقد ان الطبقة الوسطى تواجه اكبر ازمة فى تاريخها منذ بداية هذا القرن (ازمة تفوق الازمات التى عاشتها فى الثلاثينات والاربعينات) وتجىء هذه الازمة فى

لحظة بدأت تفقد فيها هذه الطبقة بعضا من هويتها الوطنية ودورها فى عملية البناء الوطنى . اذ ان تريّع[٢] اقسام واسعة من هذه الطبقة فى ظل موسم الهجرة للخليج وفوضى الانفتاح ، ساعد على عزلة هذه الطبقة عن وسطها الانتاجي والكفاحى الطبيعى .. واضعف لديها عنصر الانتماء للوطن ، وخضعت تدريجيا لمؤثرات التدويل والدولزة . وهكذا شهدت فترة السبعينات والثمانينات بداية نكوص الطبقة الوسطى على دورها الوطنى والكفاحى .

ورغم كل ذلك ، فاننى لست من القائلين بان عناصر الطبقة الوسطى لم تعد قادرة او مؤهلة على لعب اية دور مهم فى مسيرة بناء الوطن ودعم مقومات استقلاله (على النحو الذى ذهب اليه الدكتور عاصم الدسوقى فى مقاله المنشور فى الهلال - عدد ديسمبر ١٩٩١).

نعم قد لا تستطيع عناصر هذه الطبقة ان تلعب ذلك الدور القيادى فى الكفاح الوطنى على النحو الذى حدث فى العشرينات والثلاثينات والاربعينات او فى البناء الوطنى على النحو الذى شهدناه فى الخمسينات والستينات . ولكنها فى ظل الازمة الاقتصادية والاجتماعية القادمة فى التسعينات (نتيجة الجفاف التدريجى لمصادر الدخول الريعية والطفيلية) ، فانها لن تعد قادرة على الهروب الى الامام من خلال الهجرة الى الخارج او التحول الى طبقة اعمال متريّعة ، فى الداخل كما فعلت من قبل . بل ستجد نفسها وجها لوجه مع الازمة تتفاعل معها وتشدها مرة اخرى الى مواقع اكثر تقدما .

نعم قد يكون سقط العديد من مفكرى تلك الطبقة ، حينما تحولوا الى مجرد سماسرة فكريين يتنقلون بحقائبهم المنتفخة الاوداج من ندوة الى ندوة فى فنادق الخمس نجوم ، تاركين جمهرة الناس فى المقاهى وفى القرى والدساكر يرتعون فى ظلام مبين ويعانون من فقر ثقافى وسياسى مدقع . لايقدمون لهم سوى التحليلات المنمقة ، وكأنها اصوات الغناء الاوبرالى لا يستمع اليها سوى رواد صالة مغلقة من صالات دار الاوبرا . ولكن اذا غاب المثقف العضوى من ابناء الطبقة الوسطى عن ساحة الوغى ، فليس معنى ذلك غياب او استمرار غياب العناصر الحية والواعدة من ابناء الطبقة الوسطى فى مصر فى مواقع الانتاج ومرافق الحياة المصرية المختلفة .

(١) تعبير مساتير الناس هو تعبير جاء فى تاريخ الجبرتى ليقصد به هؤلاء الناس الذين تعتبر احوالهم المعيشية والمالية مستورة بشكل عام ، ولكن ليست بالضرورة ميسورة . واذا ما ترجمنا فئة مساتير الناس ، بلغة الجبرتى ، الى مصطلح جديد بلغة العصر الحالى .. نجد ان المقصود به اليوم هم الشرائح الوسطى من ابناء الطبقة الوسطى ، الذين تعتبر احوالهم المعيشية وسطا بين تبذير وتقتير .



تضميد الجراح العربية

بقلم : د. أحمد صدقي الدجاني

المؤتمرات العربية .. هل تصلح لتضميد الجراح ؟

« تضميد الجراح العربية » شعار ارتفع في سماء وطننا العربي في اعقاب زلزال الخليج وما اكثر ما تردد هذا الشعار منذ مطلع آذار/مارس ١٩٩١ في المحافل العلمية والسياسية العربية . وكان واضحا عند مردديه ان الجسم العربي والنفس العربية مثخنان بالجراح . وان بعض هذه الجراح عميق ومتقرّح وبحاجة عند تضميده الى عناية فائقة . فالأمر يتطلب إعمال فكر كي نصل الى اجابة صحيحة عن سؤال كيف نضمد هذه الجراح ؟

وننظر فى جراحنا العربية التى نريد تضميدها فنجد ان بعضها مادى فى الجسم والمال يؤدى الى الم معنوى . كما ان بعضها الآخر معنوى فى النفس والفكر يؤدى الى الم مادى . وقد تعددت أسباب هذه الجراح فمنها اولا ما وقع بين دولتين جارتين عربيتين من خلافات تصاعدت الى حد قيام اكبرهما العراق باجتياح الكويت . ومنها ثانيا ما اقترن بهذا الاجتياح من انتهاكات لحقوق الانسان على صعد كثيرة .. ومنها ثالثا دعايات اعلام الأزمة التى حفلت بالشتم والقدح والمضح ، ولم تترك مقدسا من شيمنا وتقاليدنا إلاّ مسّتة .. ومنها رابعا اجراءات رسمية جرى اتخاذها فى عدة اقطار عربية اصابت ملايين العرب باضرار . ومنها خامسا قتال اثناء الحرب الطاحنة التى استمرت ستة اسابيع وكلفت العراق والكويت خسائر فادحة . ومنها سادسا اقتتال بعد الحرب فى العراق نجمت عنه آلام حادة ونتائج وخيمة وتفاعلت عدة ظروف فى حدوثه . ومنها سابعا تصفيات لآثار الحرب فى الكويت تتخذ عدة اشكال . ونجد ايضا ان هذه الجراح وقعت على المستويين الرسمى والشعبى ، وان بعضا منها مصدره اجنبى والبعض الآخر مصدره الدائرتان العربية والاسلامية للاسف الشديد .

نبحث فى تضميد هذه الجراح ، فنقف اولا عند دلالة اللفظ لنستلهمها . فضمد الجرح شدّه بالضماد وهى العصابة . والتضميد يتطلب الصبر وقد قال طلحة «ضمد عينيه بالصبر» . والضمد (بسكون الميم) الظلم والحقد اللأزق بالقلب ، وقد نهى عنه الخلق الحميد . ويقول النابغة .. ومن عصاك فعاقبه معاقبة /تنهى الظلوم ، ولا تقعد على الضمد» .

واضح ان التضميد يتطلب تحركا سريعا لعصب الجراح . وعملية العصب هذه تتطلب من المجروح صبرا على الم الشد وتمالك النفس . ولابد عند القيام بالتضميد من استحضار الخبرة التاريخية .. وتعلمنا هذه الخبرة ان الجراح الناجمة من ظلم ذوى القربى تكون شديدة الوقع على النفس «وظلم ذوى القربى اشد مضاضة/على النفس من وقع الحسام المهند» ، وان الجراح الناجمة من عدوان اجنبى تبقى غائرة فى النفس وما اسرع ما تنكأ وقد ختم عمر ابو ريشة قصيدته عروس المجد بقوله «ضلت الأمة ان ارخت على / جرح ماضيها كثيف الحجب» كما تعلمنا هذه الخبرة التاريخية ايضا ان مما يساعد على شفاء الجراح الخروج من وطأة التمزق النفسى ومن وطأة التشوش الفكرى .

● ايقاف الحملات الاعلامية ؟

ثلاثة أمور يجب القيام بها فى تحركنا لتضميد جراحنا العربية ، بدا

تضميد الجراح العربية

لى أن الحوار الفنى فى الندوات واللقاءات بلورها : اولها على صعيد الاعلام وهو ايقاف دعايات اعلام الأزمة التى تفرق بين شعوب الأمة على أساس جنسيا تهم . وتنشر «الفاحشة» وتبث روح الشقاق . وتوالى العدو الاجنبى ، وتؤدى الى الانهزام ، وتتصف بالاثارة المسببة للتوتر. وبالمباشرة المؤدية للسطحية وبالانتقائية المحكومة بالنظرة الجزئية وبأنها تابعة تردد ما يبثه مصدر خارجى . واستبدال هذا الاعلام الشرير باعلام الكلمة الطيبة التى مثلها كمثل شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء«تؤتى أُكلها كل حين بأمر ربها ، وهو اعلام يستهدف البناء ، ويعبر عن روح الانصاف ، ويحاول شرح الظروف المحيطة بمنطق التفسير لا منطق التبرير ، ويتطلع الي المستقبل ، ويواجه الخطر المحدق بالأمة كلها .

الأمر الثانى هو تحقيق تواصل واسع بين أهل الحل والعقد بخاصة وابناء الامة بعامة من خلال اللقاء المباشر الذى يشهد احتدام الجدل والنقاش والحوار . فهذا اللقاء هو الذى سيخرج ما كمن فى النفوس على السطح ويتيح للمشاركين فيه ان يروا الصورة من جميع جوانبها ويستكمل كل منهم معلوماته عن نفسه وعن أخيه ويصل الى نقاط لقاء يكون الانطلاق منها الى كتابة صفحة جديدة . ومن هنا تشتد الحاجة الى تكثيف اللقاءات العربية على مختلف الصعد فى شتى المجالات رسميا وشعبيا . وما اعظم خطأ أولئك الذين يخشون هذه اللقاءات تحسبا من حدوث تفجرات فيها . وقد رأيت بعينى من خلال عدة امثلة كيف كانت تنتهى بالتوافق على امور محددة .

الأمر الثالث هو اعادة النظر فى الاجراءات الاستثنائية التى اتخذتها حكوماتنا العربية على الصعيد القطرى ابان الأزمة والحرب بشأن المواطنين العرب فيما يخص العمل والاقامة والتنقل ، لمتطلبات أمنية . وايقاف العمل بهذه الاجراءات صيانة للأمن وانهاء للخسائر المادية والمعنوية الباهظة التى حدثت بسببها .

هذه الأمور الثلاثة مطلوبة بالحاح من أجل تضميد الجراح العربية وهى تستحق منا ان ننظر فى كل منها متأملين فى كيفية تحقيقه .

واتساءل ما مدى الأثر السلبى لدعايات اعلام الازمة علينا كأمة ؟

يستطيع المتابع ان يقطع بأنه «واسع وخطير» على الصعيدين الشعبى والرسمى . وقد تفكرت فى هذا المدى اثناء زيارتى لعاصمة عربية اخيرا ، وانا أصادف واقعتين متتاليتين لم تلبث ان تكررت مثيلات

لهما . ففى زيارة لصديق دبلوماسى نذر حياته لخدمة أمته ووحدتها ، وجدته مهموما بعد ان عاد من زيارة لسفير كان الغرض منها تضميد الجراح العربية فاذا بالسفير يخرج له ورقة فيها نسخة مصورة لمقال فى جريده وجده حين مر بعينيه على سطوره حافلا بكلام غير مسئول تناول بلد السفير واهله وتاريخه وماضيه وحاضره ومستقبله ومدّ لى صديقى الدبلوماسى الورقة فنظرت فيها ورأيت نموذجا لما اسميه «دعايات اعلام الأزمة» بلغ فى هبوطه درجة دنيا ودركا اسفلا . وقرأت اسم الجريدة التى نشرت هذا المقال فوجدت اسما لم اسمع به من قبل . وعرف صديقى ما اود ان اعلق به فاسرع بالقول «أنا ايضا لم أسمع بهذه الجريدة الا اليوم . ليست المشكلة هنا وانما فى وقع هذا المقال على نفس السفير ، وما حمله من دلالات على الموقف الرسمى للبلد وقيادته ، الأمر الذى جعل الحديث عن تضميد الجراح بالغ الصعوبة» .

لماذا يبلغ الأثر السلبى لدعايات الازمة هذا المدى الواسع الخطير ؟

يتراوى للمتابع ان الحساسية فى اوساطنا العربية على الصعيدين الرسمى والشعبى تجاه الكلمة حساسية مرتفعة سواء اكانت هذه الكلمة مسموعة أو مقروءة .. وقد حدث اثناء مصادفتى الواقعتين اننى كنت اقرأ فى اليوم نفسه فى مجلة اجنبية واسعة الانتشار تقريرا عن الحملات الاعلامية المتبادلة بين صحف فرنسية وبريطانية بمناسبة نشر تصريحات لرئيسة الوزراء الفرنسية عن رجال بريطانيا ، وكان مما لفت نظرى انه على الرغم من حدة هذه الحملات فانها لم تؤثر على الثوابت السياسية فى العلاقات الفرنسية البريطانية ، وبدا لى ان حساسية القراء ازاءها كانت محدودة . والأمر نفسه حدث على المستوى الرسمى اليابانى أخيرا حين صدر عن رئيسة الوزراء الفرنسية تصريحا وصفت فيه اليابانيين بأنهم نمل ومسّت فيه مشاعرهم ، ولم يتعد التصريح اليابانى الذى تولى الرد اشارة من بعيد للموضوع . وشتان بين هذا الحد من الحساسية وحساسية ذلك السفير العربى الذى اعتبر تلك المقالة فى تلك الجريدة وكأنها قاصمة للعلاقات . واذا نحن نظرنا فى اسباب هذه الحساسية المرتفعة فاننا نقف امام تراث عربى يحرص على تجنب جرح اللسان ، كما نقف امام حداثة مفهوم الدولة عند عدد من الكيانات العربية الصغيرة .

كيف السبيل اذن لايقاف اعلام الازمات ؟ !

يبدو للمتابع ان الحاجة ماسة فى اقطارنا العربية الى توجيه على مستوى القيادات الفكرية والسياسية . والحاجة ماسة ايضا الى محاسبة معنوية لاولئك الذين يمسون المقدسات القائمة بين ابناء الامة الواحدة . والحق اننا نفتقد فى كثير من أقطارنا الرؤية القيادية التى تحيط بابعاد هذا الأمر ، وتقدم نموذجا لكيفية التعامل

تضميد الجراح العربية

الصحيح مع دعايات اعلام الأزمة واعلام الكلمة الطيبة . كما اننا نفتقد القيام بالمحاسبة المعنوية لاولئك الذين يسيئون للكلمة فى كثير من الاحيان . وقد آن الأوان ان ننقل من حساسيتنا ازاء مـا يقال ويكتب ونتشبث بالثوابت ونصب اعيننا أن الكلمة الخبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار .

المطلوب على صعيد التواصل بين أهل الحل والعقد هو تكثيف اللقاءات وانهاء القطيعة . والتأمل فى هذا الأمر يبرز ثلاثة اسئلة تصل بنا الاجابات عنها الى المطلوب .

ما مدى الأثر السلبى للقطيعة القائمة بين أهل الحل والعقد فى الدول العربية التى نشب الخلاف بينها ؟

يستطيع التابع أن يقطع فى اجابته بانه «اثر سلبى واسع وخطير» . فالقطيعة تجعل التهاب الجراح مزمنا وتبقى كل طرف اسير عالمه وافكاره ومعلوماته والصورة التى يحملها لاخيه .. والمتأمل فى الصور التى تتكون عبر القطيعة يرى كم هى بعيدة عن الواقع الوانها داكنة وخطوطها حادة .

لماذا تستمر القطيعة بالنسبـة لكثيرين ؟

يتراءى للمتابع ان مرارات الخلاف كانت شديدة ، وان البعض يخشى من التواصل ان يثير هذه المرارات ، وان دعايات اعلام الأزمة تفعل فعلها فى تصوير عدم جدوى التواصل . واذكر كيف كان البعض يتحسب من فكرة عقد أى اجتماع لبعض مؤسساتنا العربية ابان الأزمة والحرب خشية ان يتفجر الاجتماع ، أو ان يتعرض المشاركون لما يسيئهم اذا سافروا هنا أو هناك .

كيف السبيل لتحقيق التواصل وانهاء القطيعة ؟

يبدو للمتابع ان الحاجة هنا ايضا ماسة للتوجيه القيادى . ولابد ان تبادر جميع المؤسسات العربية الى دعوة اعضائها من مختلف الاقطار ، وكذلك ان تبادر المؤسسات القطرية للقاء بنظيرتها فى مختلف المجالات . والحق ان ما تحقق فى فترة ما بعد الحرب من خلال التئام شمل بعض مؤسساتنا العربية كان عظيما على صعيد ازالة ما علق بالنفوس واستكمال الرؤية الشاملة

ومثل على ذلك ما حققه المؤتمر العربى الثانى وما حققه اجتماع مجلس امناء المنظمة العربية لحقوق الانسان . وقد رأينا كيف انعقد مجلس الجامعة العربية بجميع اعضائه وكذلك اجتماع وزراء الثقافة العرب واجتماع البرلمانات العربيـة على مستوى رئاساتها فأثمر ذلك تحسنا فى تطهير الجراح .

● لماذا تخريب الجهود ؟!

المطلوب على صعيد الاجراءات الاستثنائية هو اعادة النظر فيها ومن ثم ايقاف العمل بها صيانة للأمن ووقفا للخسائر المادية والمعنوية الباهظة التى تنجم عنها .

لقد رأينا من هذه الاجراءات الاستثنائية على مدى عام بطوله العجب العجاب . وما أكثر ما يلح على المتابع وهو يستذكرها بأنواعها المختلفة واشكالها سؤال لماذا ؟ لماذا اتخذت تلك الأجراءات التى تنتهك حقوق الانسان فى الكويت لاهلها والمقيمين فيها بابشع صورة اثر اجتياح العراق لها ؟ لماذا اتخذت اجراءات تمس مصالح بشر كثيرين فى عدد من الدول العربية ، الأمر الذى ادى فى الحالين الى تشريد خمسة ملايين من الناس ؟

لاتزال بعض هذه الاجراءات الاستثنائية مستمرة بعد مضى شهور على انتهاء الأزمة والحرب تفعل فعلها فى تخريب الجهود لتضميد الجراح العربية . وقد وصل الأمر احيانا الى ماسمى بحرب المطارات التى تستهدف ابناء الأمة للتعبير عن الاستياء من مواقف حكومية ولتصفية حسابات رسمية ، ويلاحظ المتابع آثر هذه الاجراءات الاستثنائية على تردى الأوضاع الاقتصادية فى الدول التى غالت فى اتخاذها ، وذلك بسبب توقف السياحة العربية فيها . كما يلاحظ ماتهيجه من مشاعر عدائية تعرقل شفاء الجراح .

لعل اخطر ما ينجم عن هذه الأجراءات الاستثنائية التى اتخذت بحجة متطلبات الأمن ، وهو مرض فقدان المناعة الامنية وسيادة مناخ أمنى ثقيل الوطأة على المواطن والمكلف بحماية الأمن على السواء .

إن اعادة النظر فى الاجراءات الاستثنائية تتطلب رؤية قيادية تمتد ببصيرتها الى الآفاق الرحبة ، وتنفذ ببصرها الى جوهر الأمور ، ولا تقع اسيرة «المكتبة الامنية» وهنا تبرز فكرة جمع المسئولين الأمنيين فى ندوة فكرية غير رسمية مع عدد من المفكرين للبحث فى جوهر الأمن والنظر فى جدوى الاجراءات الاستثنائية واذكر انه جرى تقديم هذا الاقتراح لمؤسسة عربية اهلية طوعية لعلها تعمل على تنفيذه .

واضح ان منطقتنا تشهد هذه الأيام تحركا سياسيا يحرك سطح البركة الهادىء ويتطلب منا جهودا كبيرة لدفع ما يمكن ان يقترن به من مخاطر وجلب ما يمكن ان يثمره من منافع . وهذا يقتضى تكثيف الجهد لتضميد الجراح العربية التى حدثت ابان الازمة والحرب . لنكون قادرين على ان نحشد كل اوراقنا العربية بعد حصرها كى نوظفها لصالح امتنا وقضيتها الاولى فلسطين وقدسها .



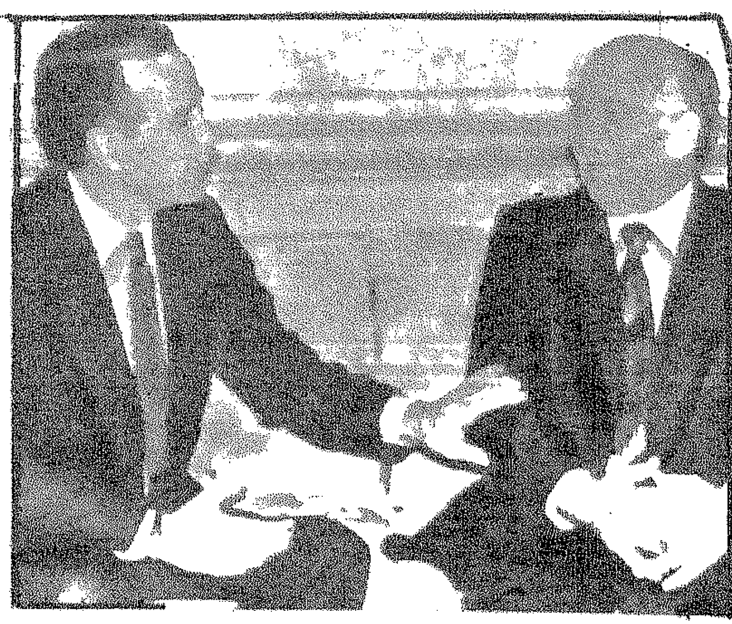
ليس هناك مايمكن ان يسمى بالنظام العالمي الجديد ! لقد كان ذلك وهما اطلقه الرئيس الأمريكي جورج بوش حينما نجح في تشكيل التحالف الدولي المعادى للعراق في حرب الخليج ، ولم يعارضه في ذلك الاتحاد السوفييتي ولا ماكان يسمى بالمعسكر الاشتراكي في العالم أنذاك . كل ماهنالك ان هذا المعسكر الأخير قد تفكك ، واشرف زعيمه الاتحاد السوفييتي على الانهيار ، فلم يعد يعارض المعسكر الآخر الرأسمالي بزعامة الولايات المتحدة الامريكية في كل شيء كما كان يفعل من قبل ، حينما كـان يعتبرهم أعداء ، وهو الآن يعتبرهم اصدقاء يرجو مساعدتهم . ولكن ليس معنى ذلك بالضرورة ان نظاما عالميا تتزعمه الولايات المتحدة الأمريكية قد قام واستقر ...

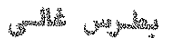
●●

لقد كان انهيار المعسكر الاشتراكي وتفسخ الاتحاد السوفييتي نهاية للحرب الباردة « ونظام » انقسام العالم إلى معسكرين ، ولكن ليس معنى ذلك ان فكرة « النظام » هذه فكرة مؤبدة ، لابد وان تستمر على صورة او اخرى ، إن ماحدث في المعسكر الاشتراكي السابق ، ومايحدث الآن في الاتحاد السوفييتي الذى يوشك ان يكون سابقا ، هو تحول سياسي اجتماعي ، وتحول سياسي جغرافي هائل جدا ، تبعته وسوف تتبعه على مستوى العالم تحولات اخرى كبيرة ، نشهد بعضها الآن ، ولكن ليس من المؤكد ان يتبعها قيام نظام عالمي جديد ، في المستوى المنظور على الاقل .

● التحول السياسي الاجتماعي

لقد كان مؤدى التحول السياسي الاجتماعي في دول شرق اوربا والاتحاد


بوش مع جورباتشوف



بطرس غالى

السوفييتى هو سقوط الأنظمة الشيوعية التى كانت حاكمة هناك ، ولكن ليس معنى ذلك أن فكرة الاشتراكية أو حتى نظام حكم الحزب الشيوعى وتفرده بالسلطة قد خرج إيهما تماما من التاريخ ، أو استتبت الأمور تماما للرأسمالية وديموقراطيتها الليبرالية ، فلا تزال الصين ينفرد

بحكمها الحزب الشيوعى رغم تعاونها الوثيق اقتصاديا وربما سياسيا مع الدول الرأسمالية وأخذها بالكثير من أساليب هذه الأخيرة لاصلاح اقتصادها ، ولا تزال الفكرة الاشتراكية تعشش فى إرهاب ديموقراطى تقليدى فى معظم دول غرب أوربا ، ومهما يكن من محدوديتها الاصلاحية فقد كانت على الأقل واحدة من أكبر نقاط الخلاف فى مشروع الوحدة الأوربية المقترح مابين أغلبية الدول الاثنى عشر بزعامة فرنسا والأغلبية الممثلة فى بريطانيا العظمى وحدها التى لا تزال ترفض أن تفرض عليها الجماعة الأوربية التزاما بالحد الأدنى لأجور العمال وحقوق العاملين ! أما فى شرق أوربا والاتحاد السوفييتى فرغم إطلاق شعار التحول إلى اقتصاد السوق فليس من المؤكد أن يتم فيها تفكيك البنية الاشتراكية لاقتصادها بالكلية ولا أن تنمو فيها رأسمالية جديدة قادرة على الأخذ بناصية الحياة الاقتصادية كما يحلم كثير ممن يرفعون هذا الشعار ، وربما كان الأخذ بما يعرف باسم نظام « الرأسمالية الشعبية » كما يحدث الآن فى بعض دول شرق أوربا ، الذى يحل فيه تمليك أسهم المؤسسات الاقتصادية لجموع العاملين فيها محل ملكية الدولة لها ، مجرد شكل جديد من أشكال الملكية العامة أقرب إلى نظام « التسعير الذاتى » الذى كان ينادى به تيتو فى يوغوسلافيا ويتحدى به ماكان مطبقا فى الاتحاد السوفييتى وسائر المعسكر الاشتراكى السابق ، ويعتبره إحدى مقدمات الهدف الشيوعى البعيد



المدى في تحقيق ذبول الدولة وتلاشيها !

كما أن الركود الاقتصادي في الولايات المتحدة الأمريكية قد أصبح حديث الساعة هناك ، وأصبح يهدد مكانة الرئيس بوش واحتمالات انتخابه لدورة رئاسة ثانية . ويعود هذا الركود أساسا إلى المديونية الأمريكية الهائلة والعجز في ميزان المدفوعات . في نظام كان مصدر الرواج الظاهر فيه هو الطلبات الحكومية على الأسلحة المتطورة ، بحيث تعمل شركات صنع السلاح ومن ورائها ألوف الشركات المنتجة للمواد الخام والمواد المساعدة .. الخ ، أيام الحرب الباردة .

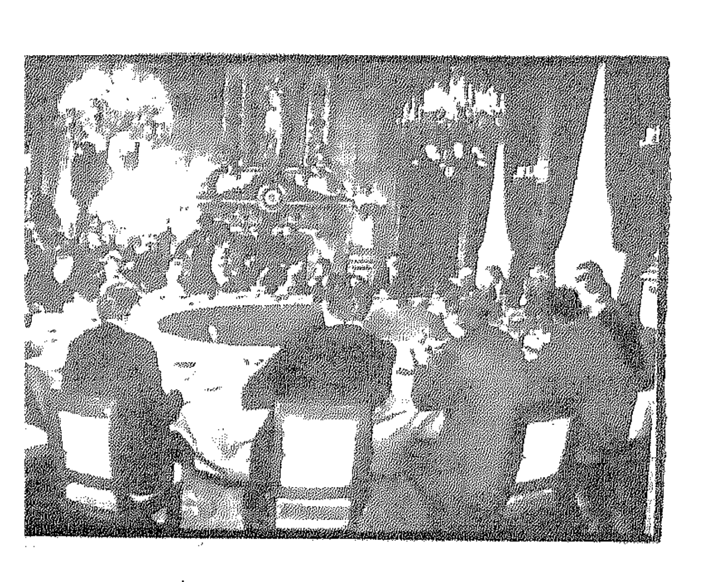
لكن هذا الوضع أصبح من المتعذر الاستمرار فيه الآن بعد انتهاء تلك الحرب ، والتفت الناس إلى ما يصيب مستوى معيشتهم من تدهور ، إما لنقص الانفاق الحكومي على الخدمات مثل الصحة والاسكان وما إليهما ، واما لزيادة الضرائب على الشرائح الوسطى من المواطنين ، في الوقت الذي تطالبهم فيه الحكومة بزيادة الانفاق لتنشيط الطلب على المبيعات وبالتالي استعادة الرواج ! إن شعورا بضرورة إعادة النظر في الهيكل الاقتصادي برمته يجتاح الولايات المتحدة الأمريكية الآن ، ويكشف عن طبيعة الخلل الأساسي ليس في النظام الاشتراكي الذي كان يسود الاتحاد السوفييتي وحده ، بل في كلا النظامين في القوتين العظميين ، وهو فداحة أعباء تكريس الجانب الأكبر من موارد الدولتين لانتاج السلاح ، وخطورة ذلك على المستقبل الاقتصادي للدولة المعنية ، وإذا كان قد اتخذ شكل مصاعب ظاهرة في الاقتصاد الأمريكي ، فقد بلغ في الاتحاد السوفييتي حد الكارثة التي أفضت إلى سقوط النظام برمته ، بل والتفكك السياسي لتلك الدولة العظمى .

● القوى الصاعدة

لقد كانت استعادة الوحدة الألمانية هي أوضح ثمرات التحول السياسي والاجتماعي الذي حدث في المعسكر الاشتراكي ، بحيث مثلت تحولا سياسيا جغرافيا على مستوى أوربا والعالم بأسره . فبالنسبة لأوربا أصبحت ألمانيا الموحدة من أهم محركي حركة التوحيد الأوربية في تحالف ظاهر مع فرنسا التي كانت هي العدو التقليدي لألمانيا منذ القرن الماضي إلى أواسط هذا القرن ، ونشبت الحروب الأوربية والعالمية بسبب من هذا العداء أو مضافا إليه أسباب أخرى . ولكن الدولتين وعتا الدرس تماما وهما تدركان الآن أن الفرصة قد سنحت لهما

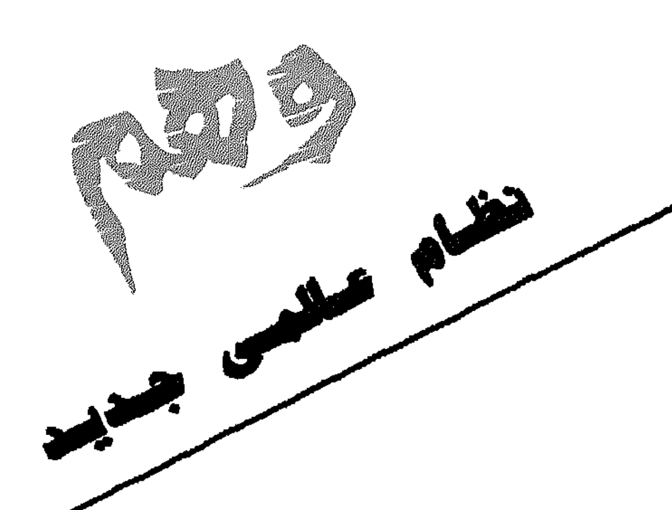
لاستعادة الصدارة العالمية ، فى ظل تقوض الاتحاد السوفييتى ومعسكره الاشتراكى السابق ، والاستغناء عن الاعتماد على الولايات المتحدة الأمريكية فى مواجهته ، فهما تسعيان الآن لمزيد من توحيد أوربا وصولا إلى الولايات المتحدة الأوربية كقوة موازية لنظيرتها الأمريكية ، إن لم يكن على حساب تقليص نفوذ هذه الأخيرة إلى حد كبير ، بسبب الميزة التى تتمتع بها أوربا ، وهى قربها الجغرافى من العالم القديم ، وربما لاتقتصر الوحدة الأوربية فى مستقبلها على الدول الاثنى عشرة فى غرب أوربا ، بل قد تضم إليها فى المستقبل دولا من شرق أوربا ، مثل تشيكوسلوفاكيا والمجر وبولندا ، وبحكم التفوق التكنولوجى الذى تملكه قد يتحول « الكومنولث السلافى » الذى يحل الآن محل الاتحاد السوفييتى إلى منطقة نفوذ اقتصادية وسوق هائلة لأوربا الموحدة .

ان عالما جديدا من توازنات القوى السياسية الجغرافية ، يتمزق هنك واتحادا هناك ، وصعودا هنا وهبوطا هناك ، هو الذى يتشكل الآن وليس نظاما عالميا جديدا ، بل إن مرحلة التحولات السياسية الجغرافية السائدة الآن ، تجعل العالم أقرب إلى الفوضى منه إلى النظام ، خذ على سبيل المثال لذلك مصير الترسانة النووية الضخمة التى كانت فى حوزة الاتحاد السوفييتى السابق ، وقد أصبحت الآن عرضة للتوزع بين دول أربع مستقلة هى روسيا الاتحادية وأوكرانيا ، وبيلوروسيا وكازاخستان .



اجتماعات السوق الأوروبية المشتركة

وبالنسبة لهذه الأخيرة ، وهى جمهورية كازاخستان السوفيتية ، فلو تحقق الانشطار السوفييتى الذى يتمثل فى قيام كومنولث آخر فى الجمهوريات السوفييتية الآسيوية فى مقابل الكومنولث السلافى بين روسيا وبيلوروسيا وأوكرانيا ، فإن دورا هاما ينتظر كازاخستان بحكم السلاح النووى أو الذخيرة النووية التى تملكها فى هذا الكومنولث الاسيوى الجديد الذى يضم أساسا جمهوريات سوفيتية أغلبية سكانها من المسلمين . إن السعى الحثيث من جانب الغرب ، والقوى الصهيونية ذات النفوذ الواسع فيه ، لتحريم أن يمتلك العرب ، أو المسلمون سلاحا نوويا ، قد يصيبه الاخفاق بسبب تلك التحولات الدرامية التى يشهدها الاتحاد السوفييتى ، وقد تصبح كازاخستان أو هى ومجموعة من الجمهوريات الاسلامية السوفيتية ،



أول دولة اسلامية تمتلك سلاحا نوويا . ومن شأن ذلك ان ينعكس على كثير من الأوضاع ، بما فيها أوضاع منطقتنا العربية وتوازنات القوى فيها او حولها .

فإذا تجاوزنا منطقتنا وما حولها الى الشرق الأقصى ، فإن القوة الاقتصادية والتكنولوجية لليابان مضافا إليها السوق الهائلة للصين ، فضلا عن امتلاكها السلاح النووى ، قد يجعل من الشرق الأقصى ليس القوة الثالثة او الثانية فى العالم بعد الولايات المتحدة الأمريكية وتلك الأوربية (تحت التكوين) بل ربما القوة الأولى فى عالم فقد توازناته السابقة وأصبح أشبه بالسدم الهلامية المتحركة بحثا عن توازن جديد .

● الأمم المتحدة

وربما كان من المتعذر محاولة تصور المستقبل القريب لعالم الغد إذا لم يوضع فى الاعتبار زيادة الدور المنوط بهيئة الأمم المتحدة ، وخاصة ان أحد مواطنينا وهو الدكتور بطرس غالى قد اختير أمينا عاما لتلك الهيئة يبدأ ممارسة عمله مع العام الجديد .

إن ازدياد أهمية دور الأمم المتحدة مصدره الأساسى هو انتهاء الحرب الباردة بين المعسكرين بحيث أصبح من الممكن أن تتفق الدول الخمس الكبرى دائمة العضوية فى مجلس الأمن على توجه معين وتملك القدرة على تنفيذه وربما تشهد هذه الدورة زيادة فى عدد الأعضاء الدائمين إن اقرت الجمعية العامة إعادة النظر فى ميثاق الأمم المتحدة وقررت منح العضوية الدائمة لكل من المانيا واليابان بالنظر إلى قوتهما المتصاعدة وأهمية الدور الذى يؤديانه فى الحياة الدولية .

سوف يكون على الأمم المتحدة الجديدة ، ان تواجه اول ماتواجه الفوضى النووية المترتبة على انهيار الاتحاد السوفييتى كدولة موحدة ، وعليها ان تستعد من الآن لاحتواء اى احتمال لقيام صراع داخلى فى هذا الاتحاد السابق قد يكون السلاح النووى بكل أخطاره واحدا من أدواته ، كما سوف يكون عليها بالمثل احتواء أية منازعات دولية او إقليمية اخرى قد يعمد أحد أطرافها إلى شراء السلاح النووى من سوقه المفتوحة فى الاتحاد السوفييتى المنهار !

وفى حقيقة تلك المنازعات بالطبع ، مايسمى بنزاع الشرق الأوسط بين العرب وإسرائيل ، وإذا كانت الولايات المتحدة الامريكية تزعم حاليا ،

بمشاركة أسمية من جانب الاتحاد السوفيتي السابق محاولة لانهاء هذا النزاع . فربما يأتي يوم يكون على الأمم المتحدة فيه أن تتدخل للوصول إلى وضع حد فعلي لهذا النزاع بإرادة أكثر حزما من إرادة الولايات المتحدة الامريكية وحدها .

ولكن الخطر النووى واحتمالات التعرض له بسبب منازعات إقليمية اقل شأنا من الحرب الباردة السابقة بين المعسكرين السابقين ، إنما هو مجرد عنصر واحد من عناصر تلوث البيئة الذى تتعرض له الكرة الأرضية وسكانها ، بسبب الفوضى الصناعية والاقتصادية التى تسود العالم ، والتى لا تقل الأخطار المترتبة عليها عن أخطار الفوضى السياسية والمنازعات الدولية والاقليمية .

إن مواجهة أخطار التلوث البيئى ونقص الموارد يقتضى أن تتحول الأمم المتحدة أو بعض أجهزتها إلى سلطات فعلية تملك أن تملى إرادتها باسم الجنس البشرى على كافة الدول بما فيها الدول الكبرى . وتلك مسئولية ضخمة لاندرى إذا ماكان فى وسع الارادة البشرية بعامة أن تنتظم وأن ترتفع إلى مستواها .

ولكن لكى تبلغ الارادة البشرية الموحدة هذا القدر من الحسم ، فينبغى أولا أن يزول الشعور بالقهر والغبن لدى شعوب كثيرة وخاصة شعوب العالم الثالث التى كانت عرضة للنهب الاستعمارى طوال القرون الماضية وفرض عليها الجهل والتخلف والمرض ، وكافة الادواء الاجتماعية ، وفى ظل الحرب الباردة كانت موضوعا للصراع حول مناطق النفوذ السياسى والعسكرى وأسواقا لفائض انتاج السلاح على حساب أمن شعوبها وطاقاتها الاقتصادية المحدودة ، والتى أصبحت مديونيتها الباهظة للدول الصناعية الكبرى أداة جديدة لاستعبادها لاتقل ضراوة وفحشا عن الغزو الاستعمارى العسكرى القديم .

إن إعادة النظر فى أوضاع العالم الثالث المتردية جميعها ، والخروج بها من محنة الديون ومن مشاكل المجاعة والفقر ، قد أصبح ضرورة ملحة لصنع مستقبل إنسانى موحد أكثر أمنا واستقرارا . وسوف تقع على عاتق الأمم المتحدة الجديدة مسئولية أن تضع برامج صادقة للتنمية الاقتصادية والعلمية والتكنولوجية فى بلدان العالم الثالث . يجعلها شريكا كامل الأهلية فى بناء عالم متحد متحضر ،

وليست مجرد هوامش أو توابع لعوالم أخرى ، وذلك لن يتحقق إلا من خلال تضافر الجهود المحلية فى دول العالم الثالث وتوجهها نحو تحقيق هذا المطلب ، وتجاوب فعال من جانب من يؤمنون فى العالم المتقدم بأن مستقبله يتوقف على قيام الديموقراطية الحقة من ناحية والعدل الاجتماعى على مستوى العالم من ناحية أخرى .

وبعد ذلك ، وليس قبله ، يمكن الحديث عن نظام عالمى جديد !



تشكلت نفسي

تناولنا في مقال نشر في اكتوبر الماضى فترة الصبا والارهاصات والتداعيات التي عشتها . وهي فترة الاعداد للحياة العملية ، وبدأتها وانا طالب في المرحلة الثانوية ، وبعدها في الجامعة .

وهاأنذا في هذا المقال اواصل رحلة التكوين والدخول في معترك الحياة .

● مواصلة السيره :

واحتفظت بعد التخرج بصداقاتى التي نعمت بها ايام التلمذة ، غير انها فترت مع الايام ، وربما انتابها الضعف لتفسح المجال لصداقات اخرى جديدة لم تكن تقل بهاء ولا رقيا عن سابقتها ، لكنها كانت تختلف عنها في توجهها وفيما تمسه من جوانب في نفسى . فقد تخلقت في حياتى منظومتان جديدتان من الصداقة ، احداهما تضمنى مع احمد بهاء الدين ، وفتحى غانم ، وعبدالرحمن الشرقاوى ، وتجمع الاخرى بينى وبين مجموعة من المشتغلين بالفن التشكيلى ، محمد حامد عويس ، ونبيه عثمان ، ويوسف سيده ، وكان الجديد الذى يجمع بين هاتين المنظومتين من ناحية ، ويفصل بينهما وبين صداقتى ايام التلمذة هو التوجه نحو الانتاج . وهكذا وجدتنى مع احمد بهاء الدين وصاحبيه نكتب في مجلة "الفصول" التي كان يصدرها الاستاذ محمد زكى عبدالقادر ، ووجدتنى من ناحية اخرى ارتاد معارض الفن التشكيلى ، واهتم بما يصوره محمد عويس وزميلاه في مراسمهم اعدادا لهذه المعارض ، واشارك فيما يدور بينهم من مناقشات تقنية احيانا ، وفلسفية احيانا اخرى حول قيمة هذه اللوحة او تلك او حول طبيعة فن التصوير المعاصر وما يفرق بيه وبين التصوير التقليدى او الاكاديمى كما كانوا يسمونه ، او حول الدور الحقيقى الذى اداه سيزان في نشأة هذا الفن المعاصر ، وايهما كان اسهامه اكبر وزنا في دعم هذا التيار بيكاسو ام ماتيس ؟

● التخصص في علم النفس

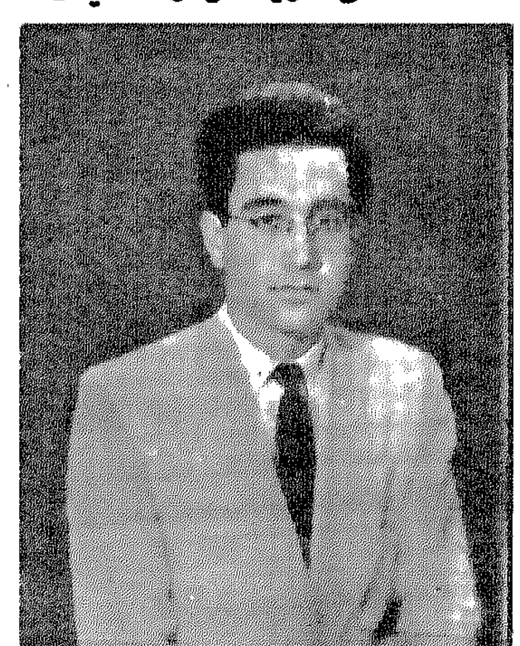
وفى تلك الفترة كنت اعمل بنشاط

يا الفكر وما الذي اراه اسئلة تراودني ؟!

فى دراسة الأسس النفسية للابداع الفنى فى الشعر ، وكان يوسف مراد قد اسس بالاشتراك مع مصطفى زيور "مجلة علم النفس" ، وكان النشر فى هذه المجلة احد همومى ، ثم لم يلبث ان اصبح همى الاول ، وسرعان ما تبلورت صورتى امام نفسى باعتبارى متخصصا او ساعيا الى التخصص فى علم النفس فى المقام الاول ، ومثقفا مهتما بالمشاركة فى الثقافة العريضة فى المقام الثانى ، ومنذ ذلك الوقت لم اسمح بالخلط بين هذين الشقين فى شخصى ، وما سمحت لاحدهما ان يطغى على الاخر او يفسده .

وفى فبراير سنة ١٩٤٩ حصلت على درجة الماجستير . وكان احد الممتحنين فى لجنة المناقشة هو الاستاذ امين الخولى ، وكان حديثه يشف عن قدر كبير من الرضا عن البحث ونتائجه . ويبدو انه تحدث بذلك الى تلاميذه ومريديه فى قسم اللغة العربية وادابها . ومن ثم فقد بدأت اتلقى مظاهر الترحيب والتقدير من حيث لم اتوقع . ثم اتيح للبحث ان ينشر فإذا به بعد النشر يلقى مزيدا من الاقبال بصورة لم تكن تخطر لى على بال .

د . مصطفى سويف اوائل الستينات



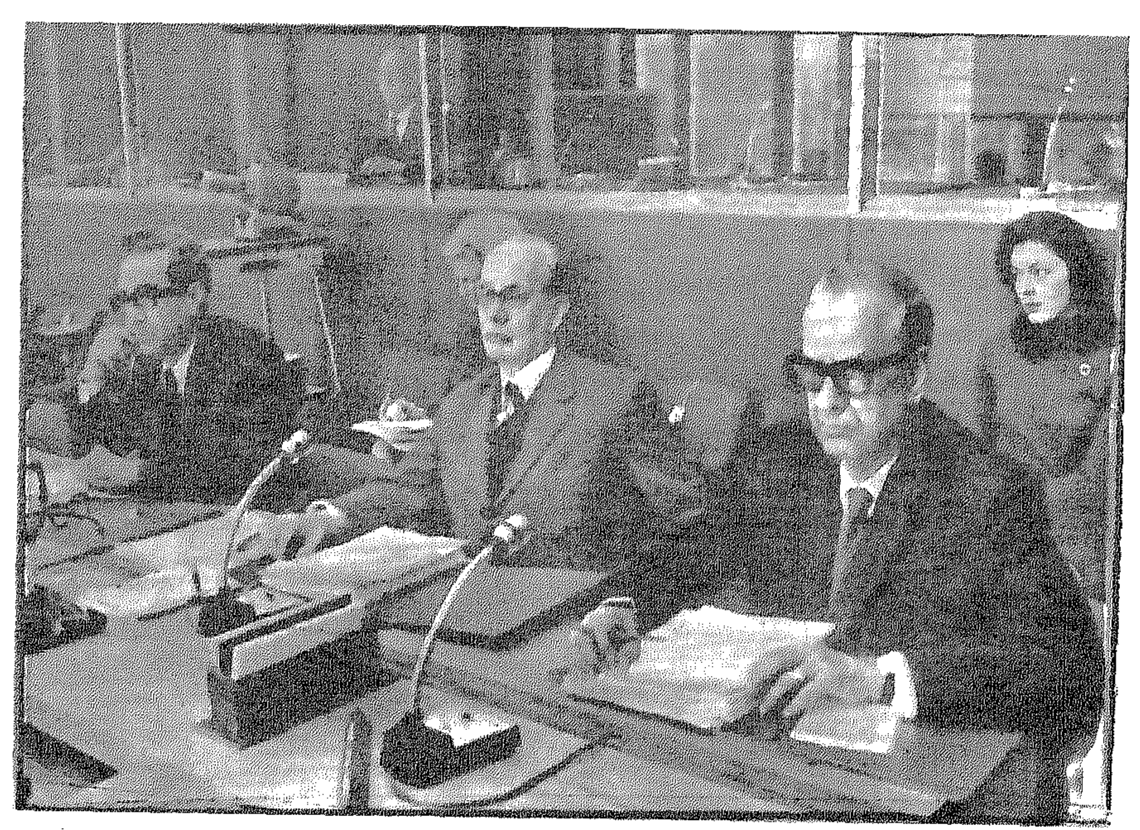
● المخاض الاجتماعي

وكانت مصر ، منذ تخرجت فى سنة ١٩٤٥ تموج بتيارات الفكر الاجتماعى والسياسى تغطى الساحة من اقصى اليمين (حيث "شباب محمد" و"الاخوان المسلمون") الى اقصى اليسار (حيث التنظيمات الشوعية باجنحتها المتعددة) . وكان العالم كله يضطرب بتيارات مماثلة اذا كان يعيد ترتيب اموره بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية ، وكان نصيب مصر من تلاطم هذه الامواج وفيرا ؛ لانها جمعت بين طليعة مثقفة طموحة ، واحزاب تتصارع باساليب تتراوح بين التهييج الاعلامى المتصل والاغتيال او



التصفية الجسدية من حين لآخر . وقصر ملكي رائحته عفنة بينما هو يفسد بامواله الذمم ويشترى الاقلام والافواه ، وقوى اجنبية يتراوح تدخلها بين الاختراقات المستورة واستعراض القوة فى شوارع القاهرة وميادينها . ثم بالاضافة الى هذا كله غرست اسرائيل غرسا على حدودنا الشمالية فى مايو سنة ١٩٤٨ ، واصبحت بذلك عاملا يدخل فى حسابات الحركة على مسرح الاحداث المصرى ، وفى هذه الفترة زادت الصحف زيادة ملحوظة ، فظهرت جريدة "الزمان" ، و"اخبار اليوم" ، و"الوادى" ، و"الجماهير" ، و"النداء" ، و"الطليعة" . ونشط الادب السياسى نشاطا ملحوظا ، وكنا نقبل على مقالات طه حسين ، ومحمد مندور ، وكنا نقرأ لغيرهما كذلك ، ومع هذه الفورة نشطت الحركة الثقافية بوجه عام ، فصدرت عن دار المعارف سلسلة "اقرأ" ، وصدرت عن دار الكاتب المصرى "مجلة الكاتب المصرى" ، وكان يرأس تحريرها طه حسين ويكتب فيها مقالات بالغة الدلالة ، ويستكتب الى جانب ذلك اشخاصا ذوى اسماء لامعة ، من امثال سهير القلماوى وسليمان حزين ، وكان ينشر الى جانب ذلك سلسلة من الترجمات من نفائس الادب العالمى .

فى هذا الاطار عشت مع اصدقائى طوال النصف الثانى من الاربعينيات ، ولم نكن بمعزل عما يجرى حولنا ؛ فقد فتحنا نوافذنا فكانت الاحداث تمسنا على اكثر من مستوى ، وكانت نفوسنا تضطرم بالافكار والانفعالات بما يناسب جيشان البلد والعالم بالافكار والتيارات من حولنا . وفى تلك الفترة نشر يوسف الشارونى اول قصة قصيرة له من طراز لم نشهده من قبل ، كان يوسف ينشر من قبل ، ولكنه نشر فى هذه المرة شيئا جديدا كل الجدة ، قصة "المعدوم الثامن" ، ونشر فتحى غانم رواية "الجبل" . ونشر طه حسين "عثمان او الفتنة الكبرى" . كان البلد فى حالة مخاض يمضى الى الابداع الجماعى والفردى ، وجاءت هيلدا زالوشر الى مصر ، وكانت كاتبة مرموقة فى فلسفة الفن ، وقد نشرت مقالا او مقالين فى مجلة "الكاتب المصرى" ، وكنت معهم ، واحتدم النقاش بيننا ، وكان عبدالرحمن الشرقاوى مستمرا فى نظم الشعر ، ولم يكن راضيا عما ينظم ، واتيح له يوما ان يسافر الى فرنسا ، واذا بخطاباته تنقل الينا نبأ اكتشافه لشاعر فرنسى قديم لم يكن قد سمع به من قبل ، هو فرانسوا فيون ، وكان عبدالرحمن سعيدا بهذا الاكتشاف اذ كان يرى فيه ثائرا يصلح للتوحد معه ،

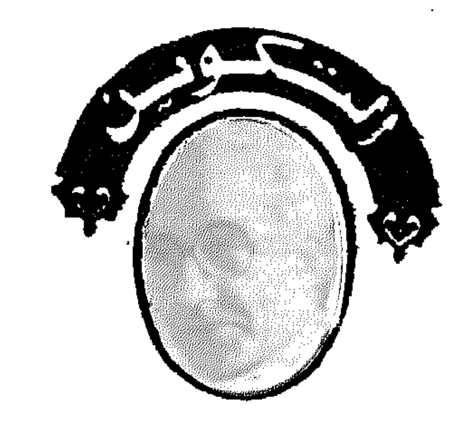


د . مصطفى سويف فى احد الاجتماعات بهيئة الصحة العالمية سنة ١٩٧٢

وكانت احداث الحرب الكورية قد بدأت تتداعى وتزعج الضمير العالمى ، وكان الاعلام العالمى شديد الاهتمام بالنشر عنها . ولم يكن العالم قد افاق بعد من هول الصدمة التى اصابته بالقاء القنبلة الذرية الاولى على "هيروشيما" ، حدثت الواقعتان فى مدى زمنى محدود ، مدى الرئاسة لرئيس امريكى واحد ، هو الرئيس هارى ترومان . ومن فرنسا تلقى احمد بهاء الدين خطابا من عبدالرحمن الشرقاوى يحمل المخطوطة الاولى لقصيدته "من اب مصرى الى الرئيس ترومان" ، وفى بيتى جلس أحمد بهاء الدين يقرأ القصيدة على مسمع منا ، انا وفتحى غانم وفاطمة موسى ، وكنا قد تزوجنا فى اوائل سنة ١٩٤٩ . وعندما فرغ بهاء من قراءته كنا على يقين من ان عبدالرحمن قد فتحت امامه ابواب الشعر الحديث .

وفى نوفمبر سنة ١٩٥٠ عينت معيدا بقسم الفلسفة بكلية الاداب ، فى جامعة القاهرة ، وسعدت بهذا التعيين لانه يزيد من تأكيد هويتى كما اريد لها ان تتشكل ، التخصص اولا ، ثم افاق الثقافة الرحبة بعد ذلك ، وكانت احداث السياسة فى الشارع تزداد غليانا يوما بعد يوم ، وكان واضحا ان المخاض يؤذن بالدخول فى منعطف جديد .

وفى يوم ٢٦ يناير سنة ١٩٥٢ وقع حريق القاهرة ، بدأت احداثه منذ الصباح ، وجبت الشوارع لاشهد بعينى ما كان يحدث فيها ، وادركت اننا مقبلون على شىء خطير . وكانت كل جوارحى تتساءل : اهذا



المنعطف ؟ وفى مساء اليوم نفسه اعلنت الاحكام العرفية . وفى صباح اليوم التالى اقيلت حكومة الوفد ، حزب الاغلبية فى ذلك الوقت ، وفى ٢٣ يوليه سنة ١٩٥٢ اعلن الجيش انه تسلم زمام الامور .

وكنت قد قطعت شوطا لا بأس به فى دراسة الموضوع الذى اخترته لانال به درجة الدكتوراه . وفى يناير سنة ١٩٥٤ نوقشت الرسالة واجيزت . وشعرت حينئذ بان السنوات التى قضيتها فى اعداد هذه الرسالة قد انضجتنى بصورة لم اعهدها من قبل . استمرت صداقاتى ، ولكن اعترتها كثير من مظاهر الفتور ، ودب فى بعضها دبيب التحلل ، وتمزقت كثير من علاقاتى الانسانية فى الجامعة ، فلم يبق منها الا ما يمليه التأدب الاجتماعى . اخذت على البعض مآخذ بحت ببعضها ولم ابح بالبعض الاخر . واخذوا على ميلى الى العزلـة ، والافراط فى الاكاديمية .

● فى الطريق الى تجويد العلم

وفى صيف سنة ١٩٥٥ استأذنت للسفر الى انجلترا فى مهمة علمية لاتفاق بعض طرق البحث الجديدة فى ميدان التخصص ، واذنت لى الجامعة مادام الامر على نفقتى الخاصة ، وقصدت مباشرة الى معهد الطب النفسى بجامعة لندن اطلب المزيد من العلم على يد الاستاذ هانز ايزنك ، وكانت هذه الخطوة بمثابة ميلاد جديد ، لباحث يتقن المنهج الى جانب ما يحمله من فكر او خيال علمى ، هناك تتلمذت على اساتذة فضلاء ، وتعلمت كيف اتصل بالعلماء حيثما كانوا ، ونعمت بصداقات مع باحثين جاءوا من مختلف انحاء العالم ، من الهند واليابان ومن المانيا وهولندا وامريكا ، جاءوا يدرسون مثلى ، وبدأت اكتب للنشـر فـى دوريـات التخصص بالانجليزية .

● العودة

وفى سبتمبر سنة ١٩٥٧ عدت الى مصر احمل علما ، ومع العلم اصرار بان يصل بصورة او باخرى ، ورأيت ما الت اليه الاحوال فى الجامعة ، وتذكرت حريق القاهرة ، واستعدت ما كان وراء وجومى وانقباضى حينئذ ، كانت فى النفس نبوءة مبهمة ، وقد اخذت تصدق شيئا فشيئا ، وانغمست فى العمل العلمى بحثا وتدريسا ، بصورة لم اعهدهـا ولم يعهدهـا المحيطون بى من قبل ، ولسان حالى ان ابشر بالعلم طريقا لمعالجة الهم العام . ومضيت امهد الطريق شبراً شبراً ، حرصت فى كل خطوة على ان استوضح صيغة للعمل تجمع شتات

جهدى . كانت طموحاتى متشعبة . وكنت ومازلت اخاف كل الخوف ان تجرفنى اخطار التوزع ، كان همى الاول ان انتج علما حقيقيا ، ووضعت نصب عينى معيارا للجودة التزم به هو ان اكثر من النشر فى دوريات التخصص العالمية ، وتلت ذلك هموم اخرى ، ان يكون بعض هذا العلم ذا فائدة قريبة للتطبيق ، وان اصنع تلاميذ متميزين ، وان اظل على صلة ايجابية بالحياة العامة على ان تظل بيدى مفاتيح هذه الصلة الى حد كبير . وقبل هذا وبعده ان ابقى فى مصر لا اهجرها هجرة بائنة ولا مقنعة ، فذلك شرط لابد منه لمصداقية هذه الصيغة المركبة .

وبدأت اكتب بالانجليزية ، للخارج ، علما شديد التخصص ، واكتب بالعربية للداخل ، كتابة تتراوح بين العلم المتخصص اوجه الرسالة فيه الى التلاميذ ، وبين تقديم العلم بصورة شيقة لغير طلابه النظاميين ، وقد تمتد هذه الكتابات احيانا لتشمل موضوعا من الموضوعات العامة . وجاء هذا التنقل المتصل بين الكتابة بالانجليزية والكتابة بالعربية ، وكذلك بين الكتابة العربية الصارمة صرامة التخصص والكتابة الرفيقة بالقارىء والمعنى معا ، ايذانا بمستوى جديد من مستويات العناية باللغة ادق واشق وارقى من كل عناية سابقة .

● فى الستينيات

وظلت مصر تعانى من تقلصات منهكة طوال فترة الستينيات : فى سنة ١٩٦١ صدرت قوانين التأميم ، وفى سنة ١٩٦٥ جرت عمليات اعتقال واسعة النطاق وقع معظمها على جماعات تدور فى فلك "الاخوان المسلمين" ، وتناثرت انباء صراع تجرى وقائعه فى دوائر السلطة العليا ، وتعالت اصوات التهديد بالحرب بين مصر واسرائيل ، وفى كل ذلك كانت الاحداث تقع كمفردات القدر ، لم نكن نحن المواطنين العاديين ندرى لماذا ، لماذا هذه الاحداث ؟ ولماذا هذا التوقيت ؟ وعنيت فى هذه الفترة بمزيد من التجويد فى بحوثى ، الخارجية والداخلية ، اداء وكتابة . واتسعت رقعة هذه البحوث حتى استقرت حول ثلاثة مجالات لظواهر السلوك البشرى ، احدها ظواهر المرض النفسى . والثانى تعاطى المخدرات . وكان ثالثها ما بدأت به حياة التخصص ، الابداع الفنى ، ولكن على اطلاقه . وعرفت فى هذا السياق طريقى الى العمل العلمى الجماعى ،

فى مجال التعاطى ، اتاحه لى المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية ، وفى مجال الابداع الفنى ، اتاحته لى جامعة القاهرة ، وفى مجال المرض النفسى ، اتاحته لى وزارة الصحة .

وفى الساعة التاسعة صباح يوم ٥ يونيه سنة ١٩٦٧ كانت مجموعة من الشباب العاملين معى فى بحوث تعاطى المخدرات ، تطرق باب سجن طنطا ومعها الاذن بالدخول لدراسة حالات مجموعة من النزلاء المحكوم



عليهم فى قضايا التعاطى ، وجاءهم الضابط المسئول لينبئهم بان السجن مغلق لان الحرب مع اسرائيل قد بدأت . وبعد خمسة ايام كانت الهزيمة العسكرية معلنة ، على ان تسمى "بالنكسة" . وبدأت تداعيات النكسة تتوالى . وبعد خمسة ايام اخرى كنا نستأنف العمل فى سجن طنطا ، ومن بعده سجون الجمهورية جميعا ، ولم تصبنا الهزيمة بالانكسار ، ولكنها اصابتنا بعبء ثقيل من شعور المهانة .

● بعد الهزيمة

وفى يوليه سنة ١٩٦٧ نشر لى اول مقال فى الخارج عن بحوث تعاطى المخدرات ، ظهر المقال فى النشرة الرسمية لهيئة الصحة العالمية ، المعروفة "بنشرة المخدرات" . وكان هذا النشر اول اعتراف دولى بقيمة العمل الذى اقوم به فى هذا المجال . ومع ذلك فلم تكن سعادتى به كافية لكشف الغمة التى حلت بنفسى من مهانة الهزيمة . بل تولد فى اعماقى مع المهانة حزن ممتزج بالغضب شق له طريقا يختلف عن مسار التعامل بينى وبين بحوثى التى لم تنقطع . وكنت كلما توقفت عن العمل البحثى طلبا للراحة افقت على رنين ذلك المزيج المقبض من الانفعال بداخلى . وكنت فى الوقت نفسه اجتر كثيرا من الافكار وكثيرا من الاسئلة تروح وتجىء على مشهد منى بغير جواب . وفى اواخر العام بدأت اكتب سلسلة مقالات وانشرها فى مجلة "الكاتب" بعنوان "نحن والعلوم الانسانية" ، اقدم فيها منظورى عن الكيفية التى يلزمنا ان نستوعب بها بعض الدروس من ٥ يونيه .

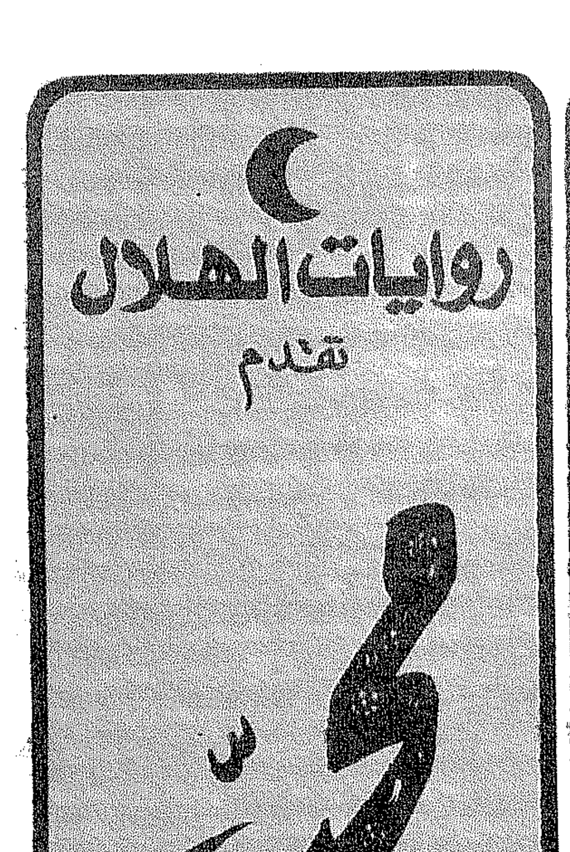
● حوار الفكر والعمل

وتشابكت بعد ذلك فى حياتى امور الفكر والعمل على مستوى من الجدية والكثافة لم اعهده من قبل ؛ بدأ ذلك بتجربتى فى وزارة الثقافة حيث قبلت الدعوة الى المشاركة فى انشاء اكاديمية الفنون وتقنين العمل بها ، ثم اعقبت هذه التجربة مباشرة تجربتى فى هيئة الصحة العالمية حين قبلت دعوة المنظمة الى عضوية عاملة فى لجنة الخبراء الدائمين لبحوث تعاطى المخدرات ، وتعاصرت هذه التجربة فى مراحل منها مع تجربتى فى انشاء قسم مستقل لعلم النفس فى الجامعة . وفى نهاية المطاف جاءت تجربتى فى رئاسة لجنة المستشارين العلميين للمجلس القومى لمكافحة وعلاج الادمان .

واحيت هذه التجارب فى نفسى امالا عديدة ، واثارت فى الوقت ذاته اسئلة تفوق الامال عددا ووزنا . ولعلى قد استطعت ان اعاين هوية بعض هذه الامال . اما الاسئلة فلا تزال تردنى عاجزا عن معاينتها او حصرها واستيعابها .

كتاب
الهلال
يقدم
كناسة
الدكان
سيرة ذاتية
بقلم:
يحيى حقي

يصدر
٥ يناير ١٩٩٢



بقلم:
عبد الفتاح الجمل

تصدر
١٥ يناير ١٩٩٢

• المجلات الثقافية ومعلوماتها •

• فى جريدة "الشرق الاوسط" فى ٢٣ نوفمبر الماضى نشر الدكتور على شلش مقالا عنوانه : "اعداء المجلة الثقافية يكمنون فى داخلها" تناول فيه ظاهرة تستحق النقاش ـ حول خفة المادة المنشورة ببعض المجلات تقول ان مجلة تنشر مقالا عن رئيس التحرير او عن غياب المعلومات الدقيقة مثلما حدث فى مجلة الهلال فى عدد شهر نوفمبر ١٩٩١ .

ولما كنت انا صاحب المقال الذى اشار اليه الدكتور شلش فمن المهم ان اوضح بعض النقاط . اولها اننى اشكره لانه تكلم عنى كعدو للمجلة التى اعمل بها ـ والتى فتحت لى بابها لاكون واحدا من كتابها ، وهى التى لا تفتح ابوابها إلا للمجيدين من الكتاب ومنهم الدكتور على شلش نفسه وهو الغيور على ان تنشر الهلال المعلومات الدقيقة عن موضوع ما .

السؤال المطروح هو : ماهو مقياس ان تكون معلومة ما دقيقة ؟

المقياس الاول هو المراجع التى يرجع لها الكاتب . فهى المسئولة الاولى عن ذلك . وحينما يرجع كاتب الى مجموعة من المراجع الخاصة بحياة كاتب مغمور فى وطننا العربى ـ فانه لا يملك سوى ان يذكرها . ولا يمكن بالطبع ان يحورها ـ خاصة انه ليس من صالحه ان يحورها .

والمعلومات الخاصة بالكاتبة نادين جورديمر منشورة فى مجلات عديدة . وقصاصات هذه المجلات احتفظ بها فى ملف خاص موجود فى ارشيفى .

ومن المعروف دائما فى الصحف الغربية ـ الاشارة الى هوية الكاتب اليهودى الى جوار اسمه ـ وهذه السمة قد لاحظتها بشكل ملح وانا اعد كتابى عن الرواية اليهودية الحديثة فى الولايات المتحدة وفرنسا .

اذن ، فالاشارة الى يهودية الكاتبة ، او عدم يهوديتها لم يكن يغير من خط المقال . لان جورديمر قد نالت الجائزة ككاتبة بيضاء تدافع عن البيض .

النقطة الثانية ان الدكتور شلش يصحح معلوماتى بمعلومات اخرى ، فمن اصدق . اهل اصدق المراجع الاجنبية التى رجعت اليها ـ وهى موجودة فى ملفى شاهدا على ذلك . ام اصدق المعلومات التى رجع هو اليها ؟! ..

فالمعلومات التى لدىّ . وهى منشورة فى سنوات سابقة عن كل المعلومات التى رجع اليها الدكتور شلش ، على ما اعتقد ، تؤكد صحة ما نشرته فى مجلة الهلال . وعلى سبيل المثال فإن المقال الذى كتبته آن يونس فى مجلة لوبوان – اول اغسطس ١٩٨٥ . تقول ان نادين جورديمر سليلة احدى الاسر الافريكانية القادمة من هولندا فى القرن الثامن عشر . وان هذه الاسر قد شكلت مع الاسر البريطانية ما يسمى بالبيض الذين صنعوا الابهارتهايد فى جنوب افريقيا .

ومثل هذه المعلومة اكدتها ايضا جريدة لوموند فى ملفها الاسبوعى المنشور فى ١٤ مارس ١٩٨٦ ان نادين جورديمر من الافريكانيين . اما مسألة ثرائها فان الكاتبة نفسها تؤكدها فى الحديث المنشور معها فى ٢١ يونية ١٩٨٥

وقد كنت محدد العبارة حين اشرت الى ان جورديمر كانت من اوائل الكتاب البيض الذين وقفوا ضد التفرقة العنصرية فهناك ادباء اخرون من هؤلاء الاوائل . وليس فقط الآن باتون . بل هناك ايضا دوريس ليسنه صاحبة رواية "الحشائش تغنى" التى ترجمتها روايات الهلال قبل ثلاث سنوات والتى عاشت فى جنوب افريقيا حتى عام ١٩٤٩ .

بقى ان اقول ان اللغة التى تكتب بها نادين جورديمر ليست انجليزية خالصة . وابلغ دليل على ذلك ان روايات الهلال قد دفعت بواحدة من اهم روايات الكاتبة "ابنة برجر" الى ثلاثة من كبار المترجمين فى مصر لاصدارها باللغة العربية . فتفضلوا باعادتها ، بعد ان جربوا فيها عشرات الصفحات قائلين ان هذه ليست رواية انجليزية خالصة .

فى النهاية ، فإننى اشكر غيرة الدكتور على مجلة الهلال لكن قد زادت حدة الغيرة لدرجة قد تصور ان بعض من يعملون فى المجلة هم اعداء لها . لا اعرف من اين جاءه هذا التصور ، لاشك أنه شعور مرهف اكثر من اللازم . وهو يعلم ايضا ان مثل هذا النوع من المقالات غير موجود كثيرا فى الصحافة الادبية العربية وان قليلين هم الذين يحملونه على كاهلهم ونتمنى ان يدخل الدكتور على شلش هذا الميدان اذا كانت لديه المصادر الموثوق بها فعلا .

محمود قاسم

● مصطفى حمام الشاعر المنسى ●

● فى تاريخ الادب المعاصر شعراء لم ينالوا حقهم احياء واموات
ومنهم الشاعر المطبوع ذو الديباجة البحترية النقية الاستاذ محمد
مصطفى حمام رحمه الله . وكان الى جانب شاعريته الخصبة يملك من
خفة الظل مالايملكه احد سواه فى ايامه ، وكان سمير المجالس
محبوبا من كل عارفيه ، وفى اخريات حياته حج الى بيت الله ، فرفع
صوته فى المسجد النبوى مؤذنا ، فقد كان له صوت جميل ومعرفة
بالمقامات والضروب ، وقال :

وصدحت فى حرم الرسول مؤذنا
والشعر اطلق بالمديح عقال
فكاننى فى مدحه "حسانه"
وكانما انا فى الاذان "بلاله"

ولد الشاعر محمد مصطفى حمام فى قارسكور فى ١٨ اغسطس عام
١٩٠٤ وكان والده موظفا بالسكك الحديدية .

تعلم فى مدرسة فارسكور الابتدائية نظم الشعر وانتقل الى
المدرسة الخديوية الثانوية . ثم عمل بادارة التعاون فى وزارة الزراعة
ثم عمل مراقبا بالصحافة .

عمل صحفيا باخر ساعة . والمصور ثم سافر الى السعودية وكان
المراقب اللغوى للاذاعة العربية السعودية ثم عمل خبيرا بالقسم
الادبى لاذاعة الكويت .

كان محمد مصطفى حمام غزير الانتاج ، ولكنه لم يترك الا اربعة
دواوين :

١ ـ ديوان حمام
٢ ـ ديوان من المحيط الى الخليج
٣ ـ ديوان الكويت
٤ ـ الديوان الاخير .

وله مقامات اسماها (الجدية والهزلية) نشرها بمجلتى الشباب
والرياض وكان الشاعر مصطفى حمام ظريفا مجددا ، يقلد اساليب
الشعراء فى اتقان لا مثيل له فقلد اسلوب "شوقى ـ الجارم ـ حافظ
ابراهيم) ، وغيرهم .

وهذه ابيات قالها على الشاعر محمود حسن اسماعيل بعنوان

"الطبيعة" وارسلها الى حيث الدستور فنشرتها على انها من شعر محمود اسماعيل الا انها كانت احدى فكاهاته ومداعباته ، حيث قال :

رقص البدر على لحن الصخور
ياسماء في جبال من بحور
ونحورا في ثغور من زهور
قد حبسنا الجو فيه فانطلق
نامت الامواج في حضن الفلك
وارتمى الشيطان في جوف الملك
وانتشى الطاووس من ماء الحلك
واستراح الفل في جحر الشفق

وكان حمام شاعرا مسلما ملتزما عاش حياته في طاعة الله ومناجاته .

وهذه ابيات من مناجاته حيث يقول :

يامن يجيب التائبين دعاك من
صدق المتاب فهل يجاب سؤاله
المسلمون ودينهم في محنة
لم يخف حالهمو عليك وحاله
واراهمو متفرقين كأنهم
جسم سوى مزقت اوصاله

وهذه ابيات اخرى يصف بها سعادته بحجه حيث يقول :

انست نور الله جل جلاله
ومشيت حيث مشى النبي واله
وبلغت احسن ما تمنى مسلم
واعز ما يسمو اليه خياله
مكنت من حظي فليس بشاغلي
ادباره عني ولا اقباله
من يختتم سفر الحياة برجعة
لله طاب ختامه وماله
فضل من الرحمن كرمني به
وهو الذى لم تجفني افضاله

وهذا دعاء توجه به الى الله تعالى فى محنته فقال :

يارب الزمنا صراطك تنصرف
عنا ماسى يومنا ووباله
يامن ينير الروح باهر نوره
ويزف الوان الجمال جماله

واخيرا لا اجد ما ارثيه به غير قوله :

ياشاعر الوطن الغالى كرمت على
مصر فهاك عقودا من تحيات
ياشاعر العرب والاسلام يا علم
"م" الفصحى وسيد اصحاب المروءات
ارضيت ربك فاستقبل مثوبته
وانعم بروح وريحان وجنات

صلاح عبدالستار الشهاوى
دمشيت ـ طنطا

● طيف ●

وكلما اقول يوما اقترب
ازداد من قربك بعدا
اعود احصى ما يجب ، مقلبا دفاترى
اليوم القاه هنا !
طيف جميل سوسنة
سحر يناغى مهجتى
اشتاقه بخاطرى فهل ترى وجدته ؟
كالشمس نورا ، كالهواء الطلق ، فى هذا الفضاء الغامر
يشيع فى قلبى السكون
اقول قد انسك او ربما القاك !
مالى حيلة ؟
اعود احتمى بالصمت فى حنايا الكتب .

ابوبكر محمد محمد حسانين
مدرس اول لغة انجليزية بابوتشت الاعدادية

● واحة المستحيل ●

لملمي شوقنا
اخرجينا من القفر
ياواحة المستحيل
وعند الغروب
تملى قليلا زوال النهار
واعلنى بوح هذى العيون
لعل الفؤاد الذى لا يميل
يرتخى فوقها وينام
يهدهد خارطة
قسمتها الحمامة بينى وبين الهديل
فامسحى الان عنى غبار السنين
وكونى بشارة حلم
لعل على ضفتيك الامانى
التى اجدبتها المسافة
وفى ساحة القفر كونى مياها
وفى الجدب كونى اخضرار النخيل

فارس عبدالشافى عطية
الاصلاب ـ بحيرة

● فهم واسع لمشكلة الأمية ●

● طالعت بكل التقدير مقالة الدكتورة سهير القلماوى "محو الامية .. الى متى ؟" .. فى هلال نوفمبر الماضى ، وهذه المشكلة مازالت ملحة فى ديارنا بالرغم من سيرنا فى طريق التقدم .

والامية ليست مجرد مشكلة تعليم الكبار ، ولكنها من صميم مشكلات التعليم العام .

واننى اختلف مع الذين يتحدثون عن محو الامية بمعنى تعليم القراءة والكتابة للكبار ، او من فاتهم قطار التعليم ، او تسربوا منه ، فقبل هذه المشكلة تأتى مشكلة اخطر ، وهى مشكلة امية التفكير ،

وامية فهم الفرد للمجتمع وعلاقته بمؤسساته وهذه الامية تؤدى الى عدم التعاون ، او الفتور بين الفرد ومجتمعه ، وتصل به الى عدم الانتماء ، وهذا ما يسمى بالامية الايديولوجية ، وهى امية لا يمكن محوها الا بتضافر وسائل الاعلام والجامعات والمؤسسات التربوية والاحزاب وغيرها .

ثم تأتى الامية العلمية ، والمرء دون ثقافة علمية يصبح عبئا على نفسه ، بل على مجتمعه .

وبعد الامية الايديولوجية والعلمية تأتى الامية الحضارية ، اى انعدام الدراية والمعرفة وانعدام القدرة على معرفة حقيقة الامور وفهمها ، وانعدام الاقتناع بان المزيد من العلم معناه زيادة رفاهية الانسان وتقدمه ، من خلال تحويل هذه المعرفة العلمية الى تكنولوجيا ، بتطبيق العلوم المختلفة على العمل من اجل انتاج سلع وخدمات ذات قيمة ونفع للانسان ، تطبيق العلوم النظرية وتطويعها فى المعامل ومراكز البحوث ، لتأخذ منها شيئا ملموسا محسوسا فى مجال الانتاج المادى ، الحضارة هى تلك العناصر الثقافية التى يتناولها الانسان بالتفكير والتهذيب ويحولها الى وسائل تدفعه قدما الى التقدم والرقى والنهوض .

اذن مشكلة الامية لو تعمقنا فيها وجدناها ابعد ما تكون عن القراءة والكتابة ، فكم من امى رغم حصوله على اعلى الدرجات العلمية ، وكم من عاجز عن القراءة والكتابة يصعب اعتباره من زوايا كثيرة أميا ، ولا يعنى ذلك ان الامية لا صلة لها بالقراءة والكتابة ، وانما يعنى ان صلتها بالقراءة والكتابة ، ليست صلتها الواحدة ، او بعدها الاوحد ، وانما الجهل بالقراءة والكتابة مجرد بعد واحد من ابعاد كثيرة .

الذى نريد ان نقوله فى هذه الكلمة المتواضعة : انه من اللازم ان نتخذ وباقصى سرعة من واقعنا الحضارى منطلقا فى محو الامية بكل انواعها ، وان نتفهم بوعى برامج محو امية التى نصممها على هدى ومنطلق من واقعنا ، فيجب ان تلعب هذه البرامج دورا هاما فاعلا فى تحديث المجتمع ، ورفع أميته كلها ، بقدر ما يفعل بالنسبة للفرد ، بتعليمه القراءة والكتابة ، فالمسألة ليست مسألة تعليمية مجردة ، وانما هى مسألة تنمية شاملة ، لابد وان يفضى الى صورة جديدة ، صورة من العمل والموقع والنشاط حيث ان الحضارة ، تنتقل فى سيرها الى الامام وليس للخلف ، من جيل الى جيل فى الامة الواحدة .

مطلوب منا ان نكثف جهدنا ، ان نتعاون جميعا من اجل مشاكلنا

التربوية ابتداء من تحديد برامج التعليم واهدافها وانتهاء بمحو الامية ، الامية الابجدية ، الامية الحضارية ، الامية العلمية ، الامية الايديولوجية .

هذه كلمة بسيطة اتمنى ان تكون هامشا متواضعا لمقالة استاذتى الدكتورة سهير القلماوى - حفظها الله لنا .

يسرى عبدالغنى عبدالله - هيئة الكتاب

● مع اصدقائنا ●

مصطفى محمود مصطفى - خريج دار العلوم - كفر ربيع منوفية

- ماقرأناه من قصيدتكم فى تحية دار العلوم يدل على شاعريتكم ولكنا لم نستطع قراءة معظم القصيدة بسبب الخط .

محمد محمد فرغلى عثمان - وكيل ادارة اسيوط التعليمية :

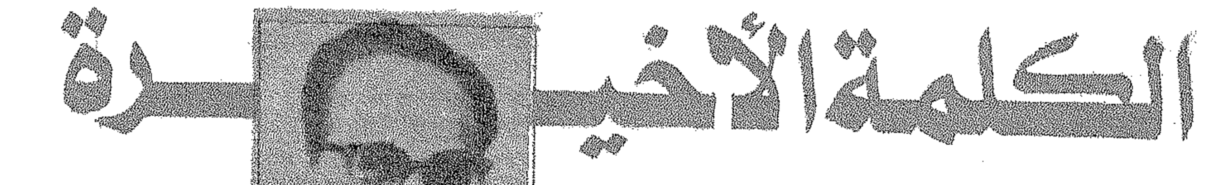
استمتعنا بقراءة قصيدتكم "الوردة الشاعرة" ونرجوا ان تستمروا فى الكتابة الينا

سمير محمد البهواش - اوسيم :

- مسرحيتكم ذات الفصل الواحدة اطول من ان تستوعبها صفحاتنا ، وكذلك قصتكم التى عنوانها "الفنان وعمدة اخر الزمان" .

السادة الشعراء : حامد عبداللطيف حامد .. مصطفى خليل ابوبكر .. رمضان عبداللطيف حامد .. سيد الحسينى .. زينب حامد .. ياسر المرسى .. رمضان الهجرسى .. سومة خليل حسين .. عماد رفعت السيد ..

نرجو ان نتلقى دائما رسائلكم ، وان نجد فى كل رسالة ما يدل على التقدم المطرد لكم فى امتلاك ادوات الشعر ونشكر لكم حسن ظنكم بنا .



بقلم :
كامل زهيري

« بعض الكتب تبقى ، وبعض الدول قد تزول »

هذا ما كتبته في عنوان فرعي لمقال نشرته منذ اكثر من ربع قرن فى عدد خاص من الهلال عن الفكاهة .. وقد اتخذت هذه الكلمات مظهر الحكمة ، مع انها جاءت عفو الخاطر ، ولم اقصدها اصلا ، وكنت اكتب عن الفكاهة المصرية فى كتاب « الفاشوش فى حكم قراقوش » وهو كتاب بلاشك فريد لانه بقى فى ذاكرة المصريين عدة قرون . والفه فى الاصل الوزير ابن مماتى وزير مالية صلاح الدين الايوبى سخرية بالوزير بهاء الدين قراقوش وزير الضبط والربط او ما نسميه الان وزير الداخلية ، ويبدو ان كثيرا من الظلم وشيئا من الشطط اصاب الناس على يديه ، فانتقم منه ابن مماتى بكتابه ، وقد يكون الانتقام لنفسه او النقمة من الشعب ، ولكنى توقفت كثيرا عند مغزى ان يكتبه صاحبه بالعامية ليتداوله الناس بغير عناء لانه الف كتابا اخر بالفصحى عن الشئون المالية والاقتصادية ..

وقد بقى كتاب الفاشوش فى حكم قراقوش ، وتجددت صفحاته وتطوع مؤلفون مجهولون فى اضافة المفارقات والقفشات ، وتعدل الكتاب وتجدد حتى وصلت الينا بعض الحكايات ، بل اصبح قراقوش رمزا لحمق الظالمين .

وحين تلطف الصديق مصطفى نبيل رئيس تحرير الهلال ليطلب هذه الصفحة منى تحية حب لمجلتى الهلال ، تذكرت تلك الحكمة التى كتبتها عفوا ولم اقصدها قصدا . واذا بها تتعدل الان لتقول ان بعض المجلات ايضا . وليس الكتب فقط ، هى التى تبقى بينما تزول بعض الدول ! فقد بلغت الهلال مائة علم ، واستمرت مزدهرة كاعرق مجلة ثقافية عربية . ومن كان يظن ان ماكتبته عفو الخاطر تؤكده الاحداث فيما بعد ، لان بعض الكتب ، والمجلات ايضا ، تبقى . وبعض الدول تزول !

ولو شئت التحية الصادقة اكثر من مجرد تحية عابرة لتمنيت مع الصديق رئيس التحرير مصطفى نبيل ان يكمل احتفاله ببلوغ الهلال مائة علم بان يصدر عددا جديدا يكمل ويضيف الى العدد الماضى الذى كنت قد اصدرته عام ٦٧ احتفالا بمرور ٧٥ عاما ، وقد انتقيت فى مائتين وخمسين صفحة مقالات لعرابى وطه حسين وعباس العقاد وسلامه موسى وتوفيق الحكيم ، ومصطفى صادق الرافعى وجورجى زيدان واحمد شوقى وحافظ ابراهيم وخليل مطران وعبد الرحمن صدقى وابراهيم ناجى وفكرى اباظة وعلى مصطفى مشرفه ومحمد حسين هيكل وسهير القلماوى واحمد امين ولويس عوض ومحمود تيمور وزكى مبارك ومحمد فريد ابو حديد وعبد الرحمن شكرى ونقولا حداد ومحمود عزمى وامينة السعيد .. وقلت فى تقديم هذا العدد الماسى :

ـ لعل خير احتفال بالهلال فى عيدها الخامس والسبعين ان تحتفل الهلال بالذين اضاءوا صفحاتها بعصارة قلوبهم ، ووهج افكارهم ، ولولا فضلهم لما اصبحت للهلال حياة تتصل اعواما من بعد اعوام .. وهى فكرة تمنيت ـ بكل الحب ـ ان تكون اكثر من تحية عابرة .. ولو شئت تحية الهلال ايضا لتمنيت تحية هذا القارىء الكريم الذى احاط الهلال بحبه ، فكانت لها تلك الحياة المديدة الكريمة ..

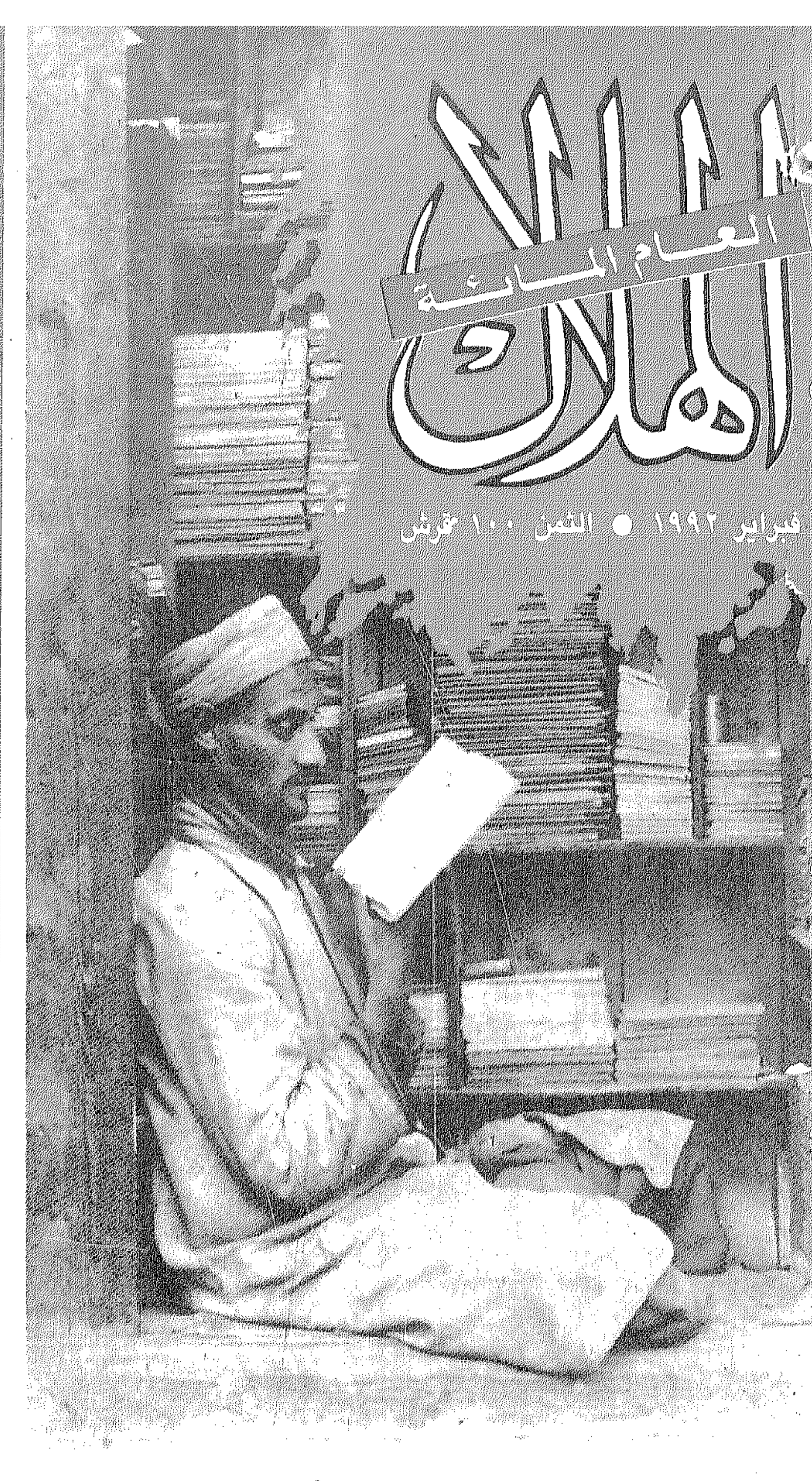


مصر للطيران

أهلاً بكم فى عالمنا ...



كليوباترا
تفوقت
محليًا
وعالميًا
CLEOPATRA
التدخين ضار جدًا بالصحة
الشركة الشرقية (ايسترن كومبانى)



وثائق مصر في خطر!

دار الكتب.. جزء خاص..



إنتاج
شركة الاسكندرية للزيوت والصابون

منذ ايام قليلة انتهى معرض الكتاب الدولى ، والذى قدمت فيه الاف العناوين الجديدة بكل لغات العالم ، وجاء هذا المعرض ليضفى على القاهرة مزيدا من العبء فى تحمل مسئوليتها تجاه الثقافة بشكل عام .. ونحن هنا لا نتحدث عن الدور الذى يقوم به هذا المعرض الذى أصبح الثانى على مستوى العالم ـ كما يقولون ـ من حيث عدد دور النشر المشاركة فيه ، وعدد عناوين الكتب الجديدة ، وعدد رواد هذا المعرض ، برغم إحجامهم عن الشراء بسبب الغلاء الرهيب فى اثمان الكتب وتفاوت اسعارها مابين دار نشر وأخرى .

الذى يهمنا هو ماحرصنا على عرضه داخل هذا العدد ، من تدهور رهيب لدار الكتب ، حتى انها فقدت دورها الهام فى حياتنا الثقافية ، بعد ان كانت تغنى الكثيرين عن المعاناة فى الحصول على الكتب الجديدة لقراءتها سواء من خلال الاستعارة او الاطلاع .

يشارك عدد من كبار كتابنا ومفكرينا ويدلون بشهاداتهم حول دار الكتب .. الماضى والحاضر والمستقبل ..

لكن السؤال الذى نطرحه هنا .. كم من الكتب تم شراؤها لتزود بها دار الكتب ، وكانت عشرات الالاف من العناوين بين ايدينا ؟ وكيف تم الاختيار ، إن كان قد حدث الشراء والاقتناء ؟ إن اصلاح مسيرة دار الكتب يحتاج الى ثورة فى نظامها الحالى ، والى جراة لمواصلة دورها الثقافى الهام فى حياتنا جميعا ..

ترى هل تحتاج الى قرار جمهورى ، ام يتحرك المسئولون ويثبتون حسن النوايا بهدف الرقى والاعتراف بالخطأ الجسيم الذى وقعوا فيه ؟

السنة المائة • فبراير ١٩٩٢ • رجب ١٤١٢ هـ

الهلال

مجلة ثقافية شهرية تصدرها دار الهلال
اسسها جرجى زيدان عام ١٨٩٢

رئيس مجلس الإدارة
مكرم محمد أحمد
نائب رئيس مجلس الإدارة
عبد الحميد حمروش
رئيس التحرير
مصطفى نبيل
المستشار الفنى
محمد أبو طالب
مدير التحرير
عاطف مصطفى
المحرر الفنى
محمود الشيخ
سكرتير التحرير التنفيذى
عيسى دياب

الادارة : القاهرة ـ ١٦ شارع محمد عزالعرب بك (المبتديان سابقا)
ت : ٣٦٢٥٤٥٠ (٧ خطوط)
المكاتبات : ص. ب : ٦١٠ العتبة ـ
الرقم البريدى : ١١٥١١ ـ التلغرافيا
المصور ـ القاهرة ج . م . ع .
مجلة الهلال ت : ٣٦٢٥٤٨١
تلكس : 92703 Hilal un
فاكس : FAX : 3625469

فكر وثقافة

في هذا العدد

دار الكتب - جزء خاص ..

الغلاف تصميم الفنان :
محمد ابو طالب

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى ١٢ جنيها في ج . م . ع . تسدد مقدما نقدا او بحوالة بريدية غير حكومية - البلاد العربية ١٢ دولارا - امريكا واوربا واسيا وافريقيا ٢٥ دولارا - باقي دول العالم ٣٥ دولارا .

والقيمة تسدد مقدما بشيك مصرفي لامر مؤسسة دار الهلال . ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد .

الأبواب الثابتة

● دار الكتب.. جزء خاص ●

● فنون ●

● شعر وقصة ●

● رسائل صحفية ●

ثمن النسخة

سوريا ٧٠ ليرة . لبنان ١٥٠٠ ليرة . الاردن ١٠٠٠ فلس . الكويت ٧٥٠ فلسا . السعودية ٨ ريالات . الجمهورية اليمنية ٢٥ ريالا . تونس ١,٥ دينار . المغرب ١٥ درهما . البحرين ٨٠٠ فلس . قطر ٨ ريالات . مسقط ٨٠٠ بيسة . غزة والقدس والضفة ٨٠ سنتا . ايطاليا ٢٧٠٠ ليرة . لندن ١٢٥ بنسا . نيويورك ٤ دولارات . الامارات العربية المتحدة ٨ دراهم . الجماهيرية العظمى ١ دينار .

عودة قابيل وهابيل !

تسقط الدول مهزومة من الخارج بأسلحة أعدائها ، أو تسقط من الداخل بدسائس العملاء والجواسيس وغفلة الشعوب .. وقد حدثنا التاريخ كثيرا عن هزائم الأمم من الخارج والداخل ، إلا ان ما نشاهده بعيوننا الآن يفوق كل ما تحدّث عنه التاريخ المكتوب في أكثر من خمسة آلاف سنة ..

فهاهى ذى دول باذخة لم يُخلق مثلها فى البلاد ـ على حد التعبير القرآنى ـ تنقلب على ظهرها تحت سنابك خيل لم تتحرك من مربطها ، وتمد أعناقها لشفرات سيوف لم تنصلت من أغمادها !.. ومن عجب أن المهزومين بلا هزيمة يطلبون الرحمة من المنتصرين بلا انتصار !..

الدنيا تدخل تاريخا جديداً من ابواب متفرقة لا من باب واحد ، فعندما يتحطم أمن الناس ورخاؤهم وأملهم ، يأكل الناس بعضهم بعضا على النحو الفاجع الذى سجله المؤرخون فى صفحاتهم !..

لقد كتب المقريزى وغيره من المؤرخين صفحات مروعة ببساطتها وصدقها عن المجاعات الكبرى التى اجتاحت القرون الوسطى ، وجاءت معها بالأوبئة والطواعين .. ووصف المقريزى والآخرون وحشية الإنسان القديم عندما جاع فأكل ابنه أو أخاه ، أو أباه ، أو أصدق الأصدقاء ، وأعز الاعزاء !..

وبعد الكشوف العلمية والأعمال التطبيقية التكنولوجية فى النصف الثانى من القرن العشرين ، وبلوغ المجتمعات المتقدمة درجة عالية من التنظيم ، قال الإنسان لنفسه مفتخراً بأعماله : لقد انتصرت على الطبيعة ، وأخضعت نواميسها ، وصرت سيدها !..

وأعلن رجل غارق فى الخمول والأحلام اسمه ليونيد بريجينيف سنة ١٩٨٠ أن "موسكو" قد أصبحت مدينة الوفرة التامة فى الانتاج ، ينطبق عليها الشعار القائل : من كل حسب قدرته ، ولكل حسب حاجته !..

وأمر الرجل الخامل الحالم بتوزيع الخبز مجانا ، وجعل أجور المساكن والمواصلات رمزية ، أما التعليم فبالمجان من بدايته إلى نهايته ، وأما الكتب والتسجيلات الغنائية والموسيقية فبلا مقابل !..

وفجأة ، بعد سنوات قلائل ، انفجرت المجاعة فى عاصمة الخبز المجانى ، والتسجيلات الغنائية والموسيقية التى بلا مقابل !..

وانهار الكيان الضخم الذى كانت موسكو عاصمته المهيبة ، ولم يبق إلا أن يجىء المقريزى بأوراقه وأقلامه ليسجل فصولا جديدة يضمها إلى كتابه القديم عن مجاعات القرون الوسطى التى وقعت عندما كان الإنسان ضعيفا عاجزا لا يملك تكنولوجيا الفضاء ، ولا أساليب استخراج الطعام من الماء والهواء والهباء !..

هل تمخضت أسطورة انتصار الإنسان فى دنيانا على الطبيعة ، عن ردة اجتماعية وسياسية وحضارية تعيد إنسان القرن الحادى والعشرين إلى ماكان عليه إنسان القرن الحادى عشر من عجز وقصور وجهل واستسلام للمقادير حيال الضربات التى تكيلها له صروف الزمان ؟!..

لقد كان كل شىء فى النصف الأول من القرن العشرين يبشر بتقدم فكرى وحضارى لا يتوقف ، ولكنا ونحن على مشارف القرن الواحد والعشرين نرى ارتدادا طفوليا للبشرية التى زعم الزاعمون أنها نضجت وتطورت وانتصرت على الطبيعة !..

وبعد الهبوط على سطح القمر ، وبلوغ المركبات الفضائية أرض المريخ والزهرة ، أثبت البشر المتحضرون أنهم أبناء شرعيون لقابيل وهابيل .. القاتل والمقتول فى أول ساعة من فجر الزمان !..

واشتدت مع مجاعة المهزومين وضياعهم ، عنجهية المنتصرين ولا مبالاتهم ، مصحوبة بعنصرية الصهيونيين ووحشية أطماعهم ، واصطبغت الأعمال الأدبية والفنية والثقافية الحديثة جدا فى بلاد المنتصرين والمهزمين جميعا ، بدماء الضحايا فى كل مكان ، وكثرت رصاصات "الرحمة" المرصودة لأبناء "العالم الثالث" وفى صميمهم أبناء عدنان وقحطان !..

ومع ذلك يبقى الأمل فى شىء لا نراه الآن ، ويستمر التعلق الإنسانى العفوى بالأدب والفن وكل عمل ثقافى يبحث عن الطريق بلا يأس ، بالرغم من جميع بواعث التقزز والغثيان !..

لقد كان الرومان الأقدمون يحيون ذكرى أعزائهم الراحلين ، ويتطهرون من الآثام فى شهر فبراير من كل عام ..

فياشهر فبراير .. كن شهر التطهر والذكرى للناس الآن كما كنت لهم أيام الرومان !..

وياشهر فبراير .. كن كما كانت تسميك أمة السريان قديما : شهر "شباط" .. أو شهر "السبات" والرقاد .. فالبشرية فى حاجة إلى التطهر والتفكر وترقيد جراحها بعد يقظتها المروعة !..

المحرر

مشاكل العلم في مصر

بقلم : د. سمير حنا صادق

لكي نواجه مشاكلنا في مصر بموضوعية فعالة ، لابد لنا ان نعترف اولا باننا متخلفون باكثر مما نستحق عن ركب الحضارة في العالم .. فباى مقياس من مقاييس التقدم ، سواء كان ذلك بنسبة التعليم والأمية او بمستويات الثقافة والفنون ، او بمتوسط العمر والصحة العامة ، او بالانتاج الزراعي والصناعي ... باى من هذه المقاييس او بغيرها ، فإننا سنجد انفسنا غير بعيدين عن قاع العالم الثالث .

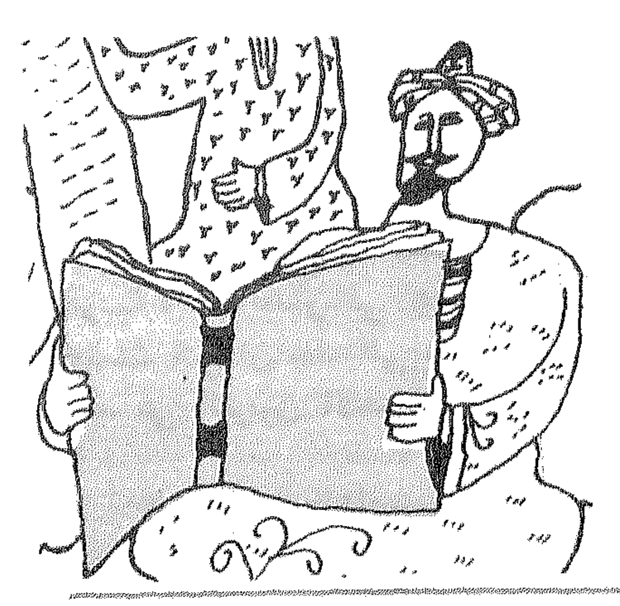
ويكفي ان تقرير هيئة برنامج الأمم المتحدة للتنمية « U.N.D.P. » قد وضع مصر في جداوله عن التنمية البشرية في عام ١٩٩١ بترتيب ١١٤ من ١٦٠ دولة فى موضع متخلف عن الجابون وبتسوانا وفيتنام .. بل وكل البلاد العربية ماعدا اليمن والسودان .

ولعل الكوارث التى تحل بنا يوما بعد يوم ، هى انعكاس لهذا التخلف فى كافة المواقع .. هناك طبعا بعض قشور التقدم البراقة المتناثرة هنا وهناك ولكنها واضحة الهزال .

ولن يجدى فى هذا المجال البكاء على الأطلال ، والفخر بالحسب والنسب ، فعالم اليوم عالم نشط يتطلع الى المستقبل ، وهو عالم لايرحم الكسول ولا يعفو عن الجاهل المتخلف ، ليس امامنا اذن الا النهوض والتقدم ، والا انتهينا ، والعياذ بالله الى كوارث التحلل والتفكك .

والنهضة والتقدم لا تتم الا بتنمية شاملة ، تنمية فى كافة اوجه التخلف الواضحة ، تنمية فى الخدمات ، تنمية فى الانتاج الزراعى والصناعى ، تنمية فى

● استاذ بطب عين شمس



السلوكيات ، تنمية فى التعليم والثقافة والتدريب ، تنمية فى كافة اوجه الحياة .

والتنمية الشاملة عملية ارادية تحتاج الى تخطيط واع ، يدرس احتياجات المجتمع ، ويدرس قواه ، ويعبىء قدراته لخلق مجتمع اكثر تقدما وحضارة ، ولقد لعب العلم والتكنولوجيا دورا هاما فى التنمية الصناعية والزراعية منذ الثورة الصناعية ، كما اصبح اتباع المنهج العلمى (كما سنوضح فيما بعد) هو الطريق الاساسى لحل المشكلات الاجتماعية المرافقة للتنمية ولتنظيم الخدمات .

لابد لنا اذن من تنمية شاملة مخططة ، ولابد للتنمية المخططة من المنهج العلمى والعلم والتكنولوجيا .

● **اسباب التخلف**

وأداؤنا فى هذه المجالات (المنهج العلمى والعلم والتكنولوجيا) أيضا سيىء .. بل ان أداءنا السيىء فى هذه المجالات قد يكون هو السبب الرئيسى لتخلفنا .. وتكفى العودة الى اى من الدراسات الموثقة : واقترح فى هذا المجال " استراتيجية تطوير العلوم والثقافة فى الوطن العربى " ★ لكى نرى بوضوح موثق بالجداول والأرقام والبيانات ، مدى تقصيرنا فى هذه المجالات حتى عن الكثير من بلدان العالم الثالث .

ولكن البيانات والارقام لا تكفى لايضاح الصورة .. فالأرقام الخاصة بالنشر العلمى مثلا تقارن بين الاعداد ، ولكنها لا تناقش الجودة ، وبيانات اعداد اعضاء هيئات التدريسى تحدد الكمية ولاتحدد النوعية ، وكل هذه الأرقام لاتعبر عن القاعدة الشعبية الضخمة المثقلة بالجهل والمعبأة بالخرافات والدجل ، فى بلد كان منشأ الحضارة ومنبع الديانات .

وكاتب هذه السطور ، وقد عاش لمدة نصف قرن ، بين طالب جامعة ، وباحث علمى ، واستاذ جامعى ، يرى ان كثيرا من الصخور قد وضعت فى طريق

● استراتجية تطوير العلوم والثقافة فى الوطن العربى ١٩٨٩ ، مركز دراسات الوحدة العربية ، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم .

تقدمنا الى القرن الواحد والعشرين ويرى ان ازالة هذه العقبات عملية معقدة لابد لها من تكاتف كافة القوى لازالتها .. فهناك عقبات تتحمل فى تفهم طبيعة العلم ، وهناك مشاكل تتعلق باللغة ، وهناك سوء استعمال للألقاب العلمية .. عشرات من المشاكل والعقبات .

وغنى عن البيان اننا لن نستطيع ان نناقش كل هذا فى مقال أو مقالين .

ولكن .. كما قال الصينيون : ان مشوار الألف ميل يبدأ بخطوة .

● العلم والمنهج العلمى والتكنولوجيا

العلـم :

يختلف الفلاسفة فى تعريف العـلـم « Science » ★★ ويصل بعضهم مثل بوبر « Pauper » الى حد تعريف العلم بأنه « ما يقبل التكذيب » ولكن هناك شبه اتفاق علم بأن كلمة « علم » (بلفظها الأجنبى) تعنى ماتراكم من المعلومات الموضوعية التى اجتازت حد الشك بالتجربة والقياس والمناقشة والمناظرة .. وهو نظام لم يعرفه العالم الا فى أيام الحضارة الاغريقية وازداد تألقا أيام مكتبة الاسكندرية .. ثم أفل نجمه بأفول نجم هذه المكتبة ، ثم عرف لفترة ما أيام الحضارة العربية ، ثم اندثر فى عصور الظلمات الى ان عاد الى سابق مجده فى القرنين الأخيرين .

● المنهج العلمى

والمنهج العلمى هو الطريق الى العلم : باجراء التجارب وبالمشاهدة المحايدة ، وبالمناقشة الموضوعية .. وقد جرت الأمور فى وقت ما على اعتبار أن دراسة العلوم الانسانية والطب لاتسرى عليها قواعد وأساليب المنهج العلمى ، على عكس العلوم الطبيعية .. ولكن باكتشاف قوانين علم الاستنتاج الاحصائى Statistical Inference وقوانين الاحتمالات Laws of Probability وباكتشاف ان الحتمية العلمية Scientific Determinism لايمكن تطبيقها حتى فى العلوم الطبيعية ، اتحدت العلوم الطبيعية والعلوم الطبية الاكلينيكية والعلوم الانسانية فى أسلوب دراستها واصبحت جميعا تخضع لمنهج واحد وكما قال C.P. Snow فى ثقافة واحدة .

ولا مفر من تطبيق المنهج

العلمى تطبيقا دقيقا على مختلف مشاكلنا حتى الاجتماعية منها اذا كنا نبغى فعلا الوصول الى مزيد من التقدم والتنمية .. فلو اخذنا مثلا مقولة ما مثل « لقد فشلت علوم العقاقير فى علاج الادمان فى حين نجح العلاج بوضع حجاب أو تميمة » فان هذه العبارة لا قيمة لها ولا فائدة اذا اكتفينا باثباتها باقوال السلف الصالح او بقصص متناثرة من هنا وهناك ، ولامفر لكى نثبت صحتها أو خطأها (رغم بعد محتواها عن العلم) الا بالتجربة العلمية ، وتطبيقها دون ذلك خطر على الهدف الأسمى وهو التقدم والسعادة والصحة للبشر .

ولكن امتنا قد ابتليت بكل اسف بمن يجيدون خلط الأوراق ويرتدون ثوب العلماء وهم أبعد ما يكونون عن العلم والمنهج العلمى .

● التكنولوجيا

أما التكنولوجيا فهى استعمال ماتحصلت عليه البشرية من علم فى صناعة اجهزة ومعدات تخدم أهدافا معينة .. وتحتاج التكنولوجيا منا الى وقفة طويلة وتفصيل دقيق .

بعد ان القى فاراداى (١٧٩١ - ١٨٦٧) محاضرة عن أبحاثه العلمية فى ميدان العلاقة بين الكهرباء والمغنطيسية ، سألته احدى الحاضرات « وما فائدة كل هذا ؟» ورد عليها فاراداى قائلا : « سيدتى ، ما فائدة الطفل عند ولادته ؟ »

ولقد ادت اكتشافات فاراداى هذه التى تساءلت السيدة عن فائدتها الى اختراع آلاف مؤلفة من الآلات التى لايخلو منها مصنع او منزل أو طائرة أو سيارة أو مستشفى ، فكل آلة تحتوى على موتور وكل جهاز يحتوى على مؤشر وكل عملية تعتمد على مولد كهربائى هو تطبيق لتلك العلاقة بين الكهرباء والمغناطيسية التى اكتشفها فاراداى .

وكما فجرت دراسات فاراداى فيضا هائلا من التكنولوجيا ، كذلك تسببت النظريات العلمية الأخرى فى ظهور التكنولوجيا الحديثة ، فالنظرية النسبية ، ونظرية الكم هى الأساس العلمى لكافة استخدامات الطاقة الذرية ولكافة الأجهزة الالكترونية كذلك فان نظرية التطور هى الأساس الذى بنيت عليه تكنولوجيا الوراثة والعلوم الطبية والهندسة الوراثية وعلوم الاشارة والاتصال وعلوم اللغات ... الخ ؟ بل ان بعض علماء الطبيعة مثل هوكنج فى كتابه الرائع "تاريخ موجز للزمن" قد لجأ

● ديمتى طريف الخولى - فلسفة كارل بوبر - الهيئة المصرية للكتاب

الى نظرية التطور لتفسير تفهم الانسان للظواهر الطبيعية .

العلم اذن هو اساس التكنولوجيا ، وبدونه لاتوجد .. واذا استوريت فى غيابه فانها لابد ستذوى وتندثر وآلاف الأجهزة الميتة كالجثث فى مستشفياتنا ومعسكرات جيوشنا ومدارسنا والمستوردة لارضاء المظهرية الذاتية لمشتريها لتاكد هذه الحقيقة .

ومن العبث تصور أن أى بلد آخر من بلدان العالم سيحل لنا مشاكلنا بتصدير تكنولوجيا خاصة بنا تنفعنا ان كل مانستطيع ان نستورده من تكنولوجيا هو مايحقق اهداف الشركات المصدرة ، وهى فى العادة لاتتفق .. بل تضاد أهدافنا .

التكنولوجيا اذن لاتستورد .. بل تستوعب ، لتدرس وتغير وتطور (كما صنعت اليابان) الى مافيه خيرنا ونفعنا ، ولايمكن استيعاب التكنولوجيا فى بيئة يغيب عنها العلم .

والتكنولوجيا ليست ترفا مكلفا ، انما هى وسيلة يؤدى استعمالها الرشيد الى توفير الصحة والسعادة للبشر بتكاليف منخفضة ، فيمكن لآلة الكترونية لتشخيص الأمراض ان توفر الآلاف من الجنيهات كانت ستصرف على اوجه علاج مبنية على تشخيص خاطىء والقاعدة الذهبية فى استعمال أى تكنولوجيا هى فى دراسة معادلة التوازن بين التكلفة والمنفعة : Cost Benefit .

ولبعض قادتنا عداء طبيعى للعلم ، ولذا فهم يحاولون اقناع شعبنا بأن التكنولوجيا هى العلم أو انها بديلة عنه ، ويطلقون عليها لتحقيق هدفهم اسماء رنانة مثل « العلم التطبيقى » أو «العلم المناسب » لاحتياجاتنا وتقاليدنا وتراثنا .. وهو طبعا خلط للأوراق ضار بنا ومعطل لتقدمنا .

وكما ينتزع وحش جاهل طفلا من صدر أمه التى يعتمد عليها ويستمد حياته منها فيتحول الطفل فى يده الى جثة هامدة ، كذلك يصنع قادتنا .. فالتكنولوجيا تعيش على العلم وتستمد حياتها منه ، تبتكر او تنتقى بالعلم وتستعمل وتطبق بالعلم ، تصان وتنمو وتتطور بالعلم ، وفى غياب قاعدة علمية مؤهلة ومسلحة بالمنهج العلمى وقادرة على استعمال التكنولجيا ، فسوف تذوى تكنولوجياتنا المستوردة وسوف يفرض وحوش التجارة الاتهم واجهزتهم التى

لاتقع لنا بها علينا .. ثم نسيء نحن استعمالها ، ثم لانستطيع صيانتها فتموت وتتحول الى جثث تملأ مصانعنا ومدراسنا ومعسكرات جيوشنا .

ونتيجة لغياب قاعدة علمية قادرة على الاختيار العلمى للتكنولوجيا ، فان توزيـع التكنولـوجيا على مؤسساتنا ومنشآتنا لا منطق له .. فقد اصبح مظهريا وليس وظيفيا .. ادخل الى غرف القيادات العليا لوزارات مثل وزارات الصـحة أو التعليم او الثقافة وسوف ترى احـدث تكنولـوجيا المعلـومـات والاتصالات والتكييف .. الـخ .

ثم اذهب الى فصول المدارس او حجر المرضى بالمستشفيات العامة او دورات الميـاه فى المسارح ولسوف تعجب لغياب ابسط مظاهر تكنولوجيا التعليم والتمريض والمراحيض .

وهكذا فبدلا من ان تكون التكنولوجيـا المستوعبـة علميا اساسا لتقدمنا ورخائنا ، اصبحت عبئا على نمونا وازدهارنا لأننا صدقنا قادتنا الذين حدثونا عن الالكترونيات والمستقبليات وتحولت التكنولوجيا التى استوردناها الى جثث هامدة مشوهة وتحول ثمنها الى عبء جديد اضيف الى ديوننا ، وكـل هذا لاننـا نسينـا انـه لا تكنولوجيا بدون العلم والمنهج العلمى .

نحن اذن فى مصـر نكثر من استيراد التكنولوجيا دون ان « تتلـوث » بـالعلم والمنهـج العلمي .. ونستخدم التكنولوجيا في شكل مكبرات صوت وفي شكل سيارات فارهة لايوجد مثلها فى بلاد منتجيها .. ناسين ان اهم استعمالات التكنولـوجيا هى الحقيقة فى المساهمة فى تقدم العلم .. فبفضل التكنولـوجيا المتقدمة امكن التعرف على الكثير من خواص الكوكب الذى نعيش عليه وعلى طبيعة من يشاركنا الحياة فيه من كائنات حية ، وعلى جانب كبير من طبيعة اجسادنا ، وما يمرضها ويسقمـهـا ، ومـا يصحـهـا ويقـويـهـا .. بـل وامكـن للتكنولوجيا ان تساهم فى تقدم العلم الذى يستطيع ان يساهم بالتالى فى تقديم التكنولوجيا .

وبعـــد ..

هذه هى بعض النقاط الأولية التى لابد من الاتفاق عليها .. فى مقال مقبل نناقش بعض المشاكل الأخرى الهامة .

Hawking S.W. 1988 a brief histary of time Bantam Press

الأدب
وإعادة بنـاء الإنســـان


يوسف إدريس


توفيق الحكيم


طه حسين

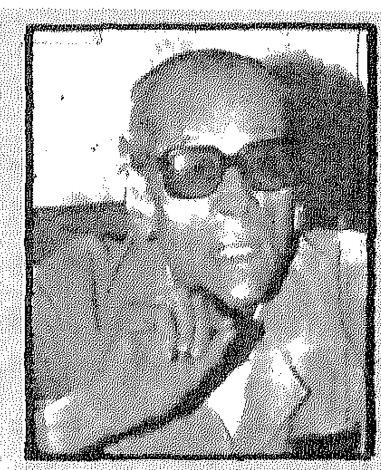
وليس من الصدق مع النفس أن ندفن رءوسنا ونخفى سلبياتنا ، ونكتفى بالتفاخر بالماضى المجيد والتاريخ البعيد . فنحن ـ بعد هذا الماضى وذاك التاريخ ـ نعيش حاضرا لايشبه من قريب ولا من بعيد هذا الماضى، وإنما هو شىء يوشك ـ لما أصابه ـ أن ينبت عن أصوله ويتنكر تماما لجذوره ..

ولسنا هنا فى مقام بحث الأسباب القريبة والبعيدة ، أو رصد المقدمات التى أوصلت إلى هذه النتيجة . وإنما نحن أمام واقع مؤلم أصاب الانسان بألوان من التمزق النفسى ، والتصدع الروحى ، والهبوط المعنوى . وهذا يدعو بإلحاح إلى معالجة الداء و « إعادة البناء » .

ولما كان الأدب رصدا للحياة وإدراكا لحقيقتها بإيجابياتها وسلبياتها ، ولما كان ـ فى الوقت نفسه ـ ريادة للحياة إلى آفاقها السعيدة وغاياتها الرشيدة ، ولما كان الأديب

لاشك ان اعظم الآمال التي تخفق بها قلوبنا في هذه المرحلة من حياة بلادنا ، ان نعيد بناء الإنسان على أرضنا . فقد عملت الأحداث الجسام التي مرت بهذا الانسان فى ثلث القرن الأخير عملها فى إصابته بالوان من التمزق النفسي والتصدع الروحي والهبوط المعنوى .. وقد تجلى ذلك في كثير من السلبيات المؤسفة ، وعديد من الانحرافات المقيتة . بل وصل الأمر عند البعض إلى حد عدم الانتماء ، والشعور إزاء الوطن بالاغتراب او مايشبه العداء .

بقلم : د. أحمد هيكل


نجيب محفوظ


عبدالرحمن الشرقاوى

إنسانا ذا موهبة خاصة تستوعب الحياة بدقة الحس ونفاذ النظر ، وترود الناس بصدق التعبير عنهم وقوة التاثير فيهم . لما كان الأدب والأديب كذلك ، كان من بديهيات الأمور - ومن اول الواجبات - ان يرتبط الأدب بالحياة ، وان يحمل الأديب مسئولية الانسان الذى لم يوهب موهبته ولم يمنح ملكته ، ثم يقوم برسالته نحو هذا الانسان ، فى إضاءة الطريق له ، وتعبيد سبيل السعادة امامه .

وقد عرفت الآداب الكبرى فى تاريخها كله بارتباطها بالحياة وعملها على إسعاد الانسان ، وذلك بالحفاظ على نسيجه النفسي ، وتحقيق طموحه الروحى ، وإعلاء بنائه المعنوى . وبهذا استمر وجود الانسان وتحقق رقيه فى ظل تلك الآداب ، واستطاع أن يحقق لنفسه وللحضارة الانسانية ازدهارا لايمكن ان يجحد .. وهكذا ايضا ازدهر الأدب نفسه فى ظل ارتباطه بالحياة والانسان ، وظهرت

الأدب
وإعادة بناء الإنسان

المذاهب الأدبية نتيجة لهذا الارتباط العضوى والصدق الفنى ، بالاضافة إلى عوامل أخرى ليس هنا مجال تفصيلها .. فنتيجة لقصد الآداب الأوربية إلى تعميق إحساس الانسان بالقيم الموروثة ، ظهرت « الكلاسيكية » واستجابة لمطلب الحرية لدى هذا الانسان ، ظهرت « الرومانتيكية » وتلبية لحاجة الانسان نفسه إلى التعبير عن واقعه وتجسيم مشكلاته وتحليل قضاياه ، ظهرت الواقعة .. وهكذا كانت النظرة إلى احتياجات الانسان والرغبة فى بنائه ، سببا أساسيا من أسباب نشاط الأدب وازدهاره ، وتشكيل اتجاهاته وتحديد مساره ..

وللانسان دائما احتياجات روحية وأشواق نفسية وضرورات معنوية ، لا تغنى فى سدها الأمور المادية .. ولاشك أن الأدب أعظم وسائل إشباع الروح وتغذية النفس . ولذا كان هو المسئول الأول عن الانسان فى أهم جوانبه ، وهو الجانب المعنوى .. فإذا ماعملت الوسائل الاقتصادية والسياسية والصناعية والزراعية والصحية ، على تهيئة مايحتاجه الانسان فى حياته المادية ، وإذا مانشطت الوسائل التعليمية على توفير متطلباته العقلية والفكرية ، يقى أن يعمل الأدب على تقديم مايحتاج الانسان فى حياته الروحية والنفسية ، فليس بالخبز وحده يعيش الانسان ، بل ليس بالعلم وحده ينهض أى إنسان . وإنما يكون عيشه الكريم ونهوضه الراقى بتلبية احتياجات الروح ، وإرضاء اشواق النفس وتصحيح مسار العقل . وذلك يأتى عن طريق الثقافة والفن . والأدب أهم روافد الثقافة وأعلى ضروب الفن ..

● سلبيات واضحة !

فإذا ماوجدنا الانسان على ارضنا قد ران على جوهره فى السنوات الأخيرة مالا يرضى من سلبيات ، كالأنانية والفردية واللامبالاة وضعف الاحساس بالغير وقلة الحفاظ على القيم والتحايل على القانون والتمرد على النظام ، أقول إذا وجدنا مالايرضى من هذه السلبيات التى تصل عند البعض إلى حد عدم الانتماء ، لم يعد المقام مقام كتابة أدب للتسلية والترفيه ، ولا للامتاع والمؤانسة ، ولا لاظهار البراعة فى معرفة أحدث الاتجاهات الفنية أو آخر الصيحات الأدبية ، كذلك لم يعد المجال مجال التغنى بالماضى المجيد أو الحلم بالمستقبل السعيد . لأن التغنى بمجد الماضى لايخفف آلام الحاضر ، ولأن صبح الغد لن يأتى إلا من فجر اليوم ، وإذن فالالتفات إلى الواقع المعيشى ينبغى أن يكون الميدان الأول للأدب والأدباء ، وخاصة



يوميات نائب فى الأرياف

فى مرحلة إعادة البناء .. وإذا كان الواقع يعانى من التمزق والتصدع والهبوط ، فليس من الامانة مواصلة التشدق بفضائل موهومة وأمجاد مزعومة وخوارق معدومة ، وإنما الأمانة تكون بمواجهة الواقع مواجهة صادقة شجاعة بصيرة ، كمواجهة الطبيب للمريض .

وإذن فعلى الأدب الجاد فى تلك المرحلة من حياتنا أن يقوم برصد تلك السلبيات التى تراكمت فى السنوات الأخيرة على الانسان المصرى ، فحجبت حقيقته وأخفت أصالته . ثم عليه أن يعرف أسباب تلك السلبيات ، وما أدى إليها من مقدمات . وأخيرا عليه أن يبحث عن العلاج الشافى والدواء الناجع لكل تلك الأدواء .

فلو عولجت السلبيات التى يعانى منها الانسان المصرى ، فى أعمال أدبية ناجحة ، من قصص وروايات ، وأشعار ومسرحيات ، وفى أشكال فنية كتمثيليات إذاعية وتليفزيونية وافلام سينمائية ، لو تم ذلك بصدق وفنية على أيدى أدباء موهوبين متمكنين ، لاستطعنا أن نعالج أخطر جوانب التصدع فى الانسان المصرى ، ولأعدنا هذا الانسان من جديد صحيح الوجدان قوى البنيان .

● دعـــوة

إنها دعوة إذن إلى الارتباط من جديد بالواقع المصرى ، على أن يكون أساس هذا الارتباط ، هو تشخيص

الأدب
وإعادة بناء الإنسان

الداء المعنوى فى الانسان ، والبحث له عن دواء .. وليس معنى ذلك انها دعوة إلى معالجة الانسان وإعادة بنائه بالكلام ، فالكلام وحده ثرثرة لاتجدى ، أو بلاغة لفظية لاتسمن ولاتغنى من جوع .. وليس معنى تلك الدعوة آخر الأمر ، توظيف الأدب توظيفا سياسيا أو دعائيا أو وعظيا .. ليس المراد شيئا من ذلك على الاطلاق .. لكنها دعوة إلى أن يتعرف الأدباء على احتياجات الانسان الحقيقية ، تلك الاحتياجات التى سبب حرمانه منها تلك السلبيات ، التى وصلت به إلى حد التصدع الذى يحتاج معه إلى إعادة بنائه .. وبعد التعرف على تلك الاحتياجات يكون الالحاح فى تحقيقها والمساعدة فى الوصول إلى أقرب الطرق إليها .. ومن هنا يحس الانسان المصرى أن أدباءه يتكلمون باسمه وينوبون عنه ، ويعملون على تحقيق آماله وإرضاء طموحه وإشباع أشواقه . وبهذا يطمئن إلى هؤلاء الأدباء ، ويحسن الاصغاء إليهم والاستجابة لدعوتهم ، وبهذا يسهل التوجيه ويتم التنوير ، ويستطيع الأدباء النهوض بالجماهير ، لكى تعود إلى أصالتها وتصدر عن حقيقتها ..

على أن هذه الدعوة ليست طلبا لشىء جديد أو غريب لم يعرفه أدبنا من قبل ، فقد أسهم روادنا الكبار منذ أكثر من نصف قرن فى تأصيل هذا الاتجاه البناء الهادف فى أدبنا الحديث . ونستطيع أن نتذكر هنا من أعمال طه حسين « المعذبون فى الأرض » و « دعاء الكروان » ومن أعمال توفيق الحكيم « يوميات نائب فى الأرياف » و « الطعام لكل فم » .. كما مضى أدباء الجيل الثانى من أدبائنا على نفس الدرب . وهنا نستطيع أن نتذكر « الثلاثية » لنجيب محفوظ و « الفتى مهران » لعبدالرحمن الشرقاوى ، و « شىء من الخوف » لثروت أباظة ، و « أرخص ليالى » ليوسف إدريس ..

فهذه الأعمال وكثير غيرها قد مثلت الالتحام بالانسان المصرى ومشكلاته الملحة وهمومه المعيشة ، فى محاولة للصراخ عنه حينا ، وتضميد جراحه حينا آخر ، والحفاظ على جوهره الأصيل فى كل الأحايين ..

غير اننا نلاحظ فى السنوات الأخيرة ، أن الأدب قد ابتعد — أحيانا — عن الانسان المصرى ، أو اكتفى — أحيانا أخرى — بطرح مايضاعف مرارته ويزيد حسرته ، أو سكت — فى كثير من الأحايين — عما فى هذا الانسان من سلبيات وصلت فيه إلى حد التمزقات والتصدعات ..

وقد آن الأوان ليخوض أدبنا بكل طاقاته معركة البنيان ، وأول ماينبغى أن يعنى فى تلك المعركة ، هو « إعادة بناء الانسان » .

أقــوال معاصــرة


يحيى حقى


احمد هيكل


جورباتشوف


نزار قبانى

● « أحس ان صرختى ضاعت هباء »
الأديب يحيى حقى

● « الدين ليس جلبابا قصيرا ، ولحية كثيفة »
الدكتور احمد هيكل
وزير الثقافة السابق

● « الاقتصاد بدون فن لايساوى شيئا »
الدكتور حامد السايح
وزير الاقتصاد الأسبق

● « السينما الجيدة ، دعاية جيدة »
مارسيل مارتين الناقد الفرنسى

● « إعادة النظام الملكى ليس أمرا مستحيلا »
فلاديمير كريلوفيتش
المطالب بعرش رومانوف الروسى

● « لم نتعلم بعد كيف نمارس الديمقراطية »
ميخائيل جورباتشوف
رئيس الاتحاد السوفييتى سابقا

● « عوام الناس يعرفون ان المال الذى ينفق على السلاح هو ، على الارجح ، مال مضيع »
ويليم كوانت
مستشار الأمن القومى الامريكى المساعد الاسبق

● « لأنى لا امسح الغبار عن احذية القياصرة ، يشتمنى الاقزام والسماسرة »
الشاعر نزار قبانى

● « للشر جمع : شرور ، اما الخير فسيظل مفردا »
الاديب المصرى محمد مستجاب

بقلم: د. شكري محمد عياد

صور أخرى للوجه اللامع

عندما التقيت بالشاعر فاروق شوشة فى ندوة بالبرنامج الثانى حول ديوان "لغة من دم العاشقين" ، أبديت له دهشتى من هذا العنوان ، فهو مأخوذ من القصيدة الثانية فى الديوان وعنوانها "جاء عصر الشتات" ، وفيها يقول :

احبك
واخجلى حين اهتف باسمك
كل النداءات لغو تكرر
وصوت قديم تناسخه العابرون
وعُرس تقلص ضوء الذبالة فيه
وعشش وجه السواد
فكيف أوافيك فى سحنة الاخرين
وفى لغة من دم العاشقين
وهذا دمى فى شعاب البلاد
يسيل انتحارا وعشقا
ويومض فى جلوات الشروق
وينسل فى لغة تتخلق عبر المنافى
وتمرق من رحم القهر
من قبضة الذكريات السجينة
من زخرفات الطقوس العقيمة
تفلت من اسن فى الحلوق
وترمى بنا فى خضم ليالى الحداد .

فاروق شوشة

هو اذن يريد ان يفلت من قبضة اللغة الشعرية المتداولة ، اللغة التى سبكت حروفها فى مسابك العشاق ، ليخاطب محبوبته ـ مصر ـ بلغة أخرى ،

لغة تتخلق فى رحم القهر ، لغة حزينة ولكنها صادقة ، فلماذا عنون ديوانه بتلك الالفاظ التى تدل على لغة يريد ان يتخلص منها ؟ وهل تخلص من هذه اللغة فى الديوان كله ؟ وكيف كانت علاقته بها فى دواوينه السابقة ؟

إن الاجابة عن هذه الاسئلة تحتاج الى النظر فى الشاعر وشعره من ناحية ، وفى العصر ـ واللغة ـ او اللغات الشعرية السائدة فيه من ناحية اخرى .

● شاعر متفرد

فأما الشاعر فهو ذلك الوجه اللامع الذى يعرفه مشاهدو التليفزيون ويعجبون بلباقته فى التقديم والعرض ، والابتداء والانتهاء والتخلص ، كما يعجب مستمعو الاذاعة بصوته الحنون الشجى حين يستمعون اليه قبل نشرة اخبار الساعة الحادية عشرة وهو ينشد الشعر العاطفى او يلقى فرائد الحكمة بنبرات هادئة عذبة لا اثر فيها من عنجهية المعلم او شراسة الخطيب ، وربما حسده الشعراء المعاصرون على حسن حظه الذى لازمه ـ فيما يبدو ـ من البداية بل من قبل البداية . فمن منهم ولد فى قرية اسمها "الشعراء" ؟ ومن منهم امتلك منبرا ـ او اكثر ـ فى اعظم اجهزة الاعلام انتشارا وتأثيرا ؟ وكم منهم ـ غير شعراء الاغانى الذين يكتبون بالعامية ، وغير نزار قبانى بالطبع ـ سمع وسمع الناس بعض شعره يميس دلالا ويهتز نشوة ويختال اعجابا وهو ينساب مذويا بالسحر من ثغر مطرية رائعة الحسن ملائكية الصوت مثل ميادة الحناوى ؟

وهو يعرف ما يعرفه الناس عنه . فهو يقول فى احدى قصائد ديوانه الثانى "العرى" فى "العيون المحترقة" :

"من اجلك اصبح هذا الفاتك فى ليل الاسطورة
هذا الوجه اللامع فى قلب الصورة
هذا العارى فى هذى الصفحات المنشورة"

ويستطيع ـ ببساطة وتلقائية ـ ان يكون شاعر صالونات كما فى قصيدته "للعبير اختناق" (لغة من دم العاشقين) وقد قالها حين وجد نفسه الرجل الوحيد فى فندق ضم عددا من المشتركات فى مؤتمر نسائى ، وختمها بهذين البيتين الظريفين :

ماالذى الآن اشتكى ؟ رب نعمى .·. قتلتنى ، وللعبير اختناق
قد يطاق الجمال فردا ، ولكن .·. كل هذا الجمال كيف يطاق ؟

واذا كان حافظ ابراهيم قد قال ان نصف ديوانه فى الرثاء ، فربما كان اكثر من نصف ديوان فاروق شوشة فى الحب ، وشعر الحب عند فاروق شوشة

هامس ناعم رقيق ، فى معظم الاحيان ، لا يوغل فى وصف الجسد ، ولا يصور عرام الشهوة ، فاذا تعرض لشىء من ذلك ـ وقلما يفعل ـ فبالكنايات البعيدة ، والاشارات المرهفة ، كما فى هذه السطور من قصيدته "قبل الوصول" (فى انتظار مالا يجىء) :

"ماذا لو اننى خطوت ، ما انتظرت ان يطل وجهك
الصغير من ستارة الاحزان
اتيت دون موعد ،
وربما بقيت عامدا ،
اداور اللحظة استعيدها ،
الح فى اجتياز هوة المضيق بيننا ،
وفى اكتشاف هذا العالم المدثر القناع ،
خلف وجهك الغريق فى متاهة النسيان
مرتعشا اتيت ،
يامواقد الشتاء لا تكابرى
وياعطية السماء لا تناورى
فالرغبة الحبلى تفور
فى تأهب الخطى تفور
فائذنى ، وافصحى
كم اشتهينا ـ صامتين ـ جلوة النيران !"



● لأجلك !

ولعل قصيدته الوحيدة التى "تعرى" فيها حقا هى قصيدة "العرى" التى استشهدنا منها ببيتين اشار فيهما الى انه اصبح "الوجه اللامع" وقد يوحى ذلك بالنرجسية كما يمكن ان يوحى العرى بالافحاش ، ولكن الشاعر لا يخرج عن طوره ابدا ، فمع انه يصف نفسه بالفتك والجسارة فهو يوحى الينا بانه لم يزد على ان استجاب لدعوة الطرف الاخر ، لهذا يكرر كلمة "لأجلك" . واذا لم يستجب الشاعر لمثل هذه الدعوة فهل يستحق أن يكون الوجه اللامع ، وهو يليق فى هذا العصر أن يقع فى غلطة سلفه على محمود طه :

شاعر الحب والجمال ، فقال ما عليه اذا أحب جناح !؟

ولعل شاعرنا فكر فعلا فى ان يكون شاعر الحب والجمال . مثل على محمود

طه ، او شاعر المرأة مثل نزار قباني ، مع اضافة فرق الزمن ، ولعله كان يختار عناوين دواوينه متأثرا بهذه الرغبة ، ولكنه لم يحسب حساب فرق اخر ، وهو فرق الشخصية ، وشخصيته كانت تتخذ ، رغما عنه ، صورة بل صورا أخرى غير هذه الصورة اللامعة .

فقصيدة الحب عنده لا تصور دائما ذلك الشاعر المفتون بسحر الجمال ، المتنعم بلذات الروح والبدن ، بل انه فى كثير من الاحيان شاعر منقسم على نفسه ، يقول فى احدى قصائد ديوانه الاول "الحصاد" (الى مسافرة) :

"لاقيد يكبل روحينا
الا قيد فى روحينا"

ويبلغ اختلاط المشاعر اقصى درجاته فى قصيدة اخرى "الصمت" حيث يمتزج الحب والاحباط والتشاؤم وتختم القصيدة بادانة للزمن كله ، لولا امل ضعيف لا يكاد يبين :

"الصمت منطق الحياة فى زماننا
لأن كل شىء فى شفاهنا نباح
الصمت مجدنا وعارنا
صمودنا الجليل وانكسارنا
لان بيننا الذى قضى
وبيننا الذى اصاب ، فاستراح
الصمت مهما طال تيهنا ، ملاذنا
لاننا مغللون بالجراح
الصمت يأسنا الكبير .. وانتصارنا
لان شيئا قادما .. كأنه صباح !"

ويقول فى احدى قصائد ديوانه الخامس : "لا مفر" (الدائرة المحكمة) :

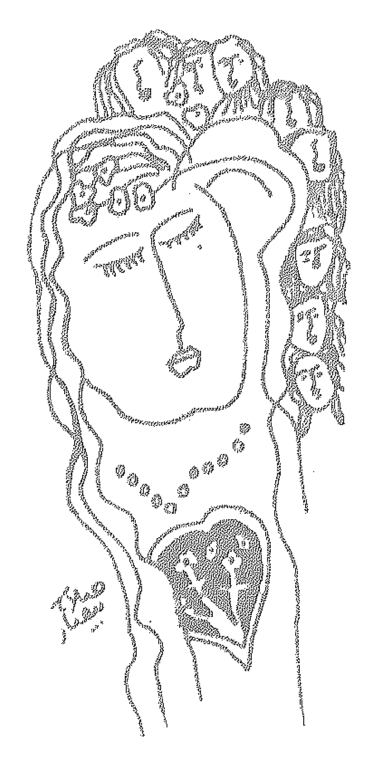
"اغرق حين ارتوى
فنبعك المعطاء دافق ، بلا حدود
وومضة الحنان تفتح الكوى
وتجعل الغرقى يرومون المزيد
لكن شيئا قائما ، يرسب فى قلوبنا
شيئا ثقيلا داهما ، كقبضة الحديد
يخنق فينا حلمنا المزغرد السعيد
ياويلنا ، ياويلنا

من وخزة في الصدر تنهي لحظة الامان
العمر لا يسعفنا
والخوف كم يتلفنا
هل من مزيد ياهمومنا ، ترى هل من مزيد !"

● سيرة شعرية

لقد كتب فاروق شوشة في مقدمة اعماله الشعرية الكاملة ما يمكننا ان نسميه سيرة شعرية موجزة ، ولكنه كتب سيرته العاطفية بوضوح اكبر في قصيدته "اعترافات العمر الخائب" (في انتظار مالا يجيء) حيث يسترجع ايام الطفولة والصبا في حين يستقبل الكهولة بازماتها الروحية العميقة :

"عندما ارجع بالتذكار استدني الذى فات ،
اجيل الطرف ، القاك عزيزا ،
وضئيلا ، وقصيا ،
حافيا ،
تستلهم الارض ، طريحا ، نزق الاسمال ،
خجلان حييا
وارى حولك غلمان الحمى ، يستطلعون الغيب ،
يستجلون في عينيك سرا غامض اللمحة ،
مشحونا ، عتيا
يرحل العمر وئيدا ،
تسقط الاعوام في الهوة ،
يلتف الصبايا حول ناى الحب
تغريهن بالترنيم منضورا فتيا
عاشقا ، طلق المحيا
يرحل العمر ،
وتمضى سلة الاعوام لا تحمل شيا
يسقط السر ، يدوس الناس ،
يتهال التراب الصلد ، يدنو القيد
يهوى الناى ملتاعا ، شجيا
من جديد ،
ها انا القاك في عصف الذهول المر



تجتاز الفجاج السود مخبولا
شقيا
وبعينيك سؤال اخرس الدمعة ،
مازال عصيا :
ما الذى سدد في قلبك سكينا
وفى عينيك حزنا ابديا ؟"

● الوجدان الجماعي

ان موضوع "الحب" فى شعرنا المعاصر جدير بدراسة موسعة ، واول ما يلفت النظر فيه ان قصيدة الحب كادت تندثر بعد شعراء ابولو : ابراهيم ناجي وابوالقاسم الشابي وعلى محمود طه ، ولعل في شعر فاروق شوشة دليلا واضحا على ذلك اما غزليات نزار قباني الخفيفة فلا تدخل فى هذا الباب ، قصيدة الحب افلت بافول الرومنسية ، وقد دخل الشعر العربى فى عصر جديد منذ اواخر الاربعينيات ، اذ كان كل شىء يتغير فى عالمنا العربى ، وكان الشعر ـ فى اول الامر ـ يرهص بهذا التغير ويقود خطاه ، ولكن التغيرات السياسية والاقتصادية والاجتماعية لم تلبث ان سبقته ثم حاولت ان تجره معها ، ليصبح تابعا بعد ان كان متبوعا . ان اقدم القصائد التى يضمها ديوان فاروق شوشة ترجع الى اواخر الخمسينيات ، وفى ذلك العهد كانت الغلبة للشعر "الواقعى" ذى الموضوع السياسي او الاجتماعى ، ولم يكن من الممكن لشاعر ناشىء ان يعبر عن عالمه الخاص ، او نظرته الخاصة الى الكون او المجتمع ، وظهرت عبارة "الوجدان الجماعى" وصفا للموجة الجديدة ، وقد شارك فيها فاروق شوشة بعدد غير قليل من القصائد ، وبوجه لا تكاد ملامحه تختلف عن ملامح غيره من الشعراء الشبان .

وعندما ظهر عوار الواقع السياسى والاجتماعى كان الشعراء والقصاصون هم اول من شعروا بذلك ، واخذوا يعبرون عنه باساليب مختلفة ، وربما كان اختلاط المشاعر فى قصيدة مثل "الصمت" نوعا من الانكار لزيف الواقع ، صادرا عن استحالة الشعور بالحب فى عفويته واندفاعه حين وقع الشاعر تحت سنابك الزمن الخارجي ، قبل ان يكون اسلوبا فنيا للالتفاف حول دعامة الواقع التى كان الجميع يحاولون انكارها ، على اننا نجد فى شعر شوشة الغرامي نغمة اخرى تكررت كثيرا ، وهى تصوير "الحب" على انه حصن وملجأ من عدوان الزمن الخارجى ، وهنا نشعر بان للارادة دورا اكبر فى تشكيل العاطفة :

فى ظلك الوريف احتمى

في روضك الظليل ارتمي .. وانتمي
في دفئك الوثير انسج الامان والاشعار
وانت مأواى الوحيد والفريد" .
("الرغبة المعتقة" - لؤلؤة فى القلب)

على ان نغمة الانكار تتصاعد بقوة في قصائد مثل "الخلاص" ، "فلتنزل الستار" "من سفر ايوب" "الى مسافرة" ، وتزداد ارتفاعا مع المجموعات التالية ، ممتزجة بسوداوية الحزن واليأس فى كثير من الاحيان ، وشيء من ادانة الذات ، وفي ذلك كله تبدو صورة الشاعر اصدق ما تكون ، بما انعكس عليها من ظروف الزمان والمكان :

بشرنا حين لمحنا ثمة شيئا يولد ،
لكنا حين رأيناه ، وعرفنا وجه دمامته ،
عدنا فعكفنا ،
اغلقنا في وجه الاعصار معابدنا ،
وتصوفنا"
("بشرنا ثم تصوفنا" فى انتظار مالايجيء)

قد يدهش الذين لا يعرفون فاروق شوشة الا من التليفزيون والاذاعة حين قول لهم ان هذه الصورة هى الغالبة على شعره ، وهم معذورون ، فنحن ، ى سعادتنا التى نصطنعها كل يوم ، تجتهد لننسى هذه الصورة ، ونستبقى فقط صورة الوجه اللامع :

"كان يؤدبني ويقول :
هذا قدرك
ان تحيا في سيرك العصر ، ولا تنجو
تتعثر في قبضة مهمازيه ، وسطوة جلاديه
تسقط مابين الاهة والتصريح
في زيف اللغو ولغو الزيف ..
.. ما اجمل ان تتزيا كل الالوان
فلعل الله يبارك في عمرى ، واراك
انسان العصر المأمول ..
اللامع فى كل زمان ومكان !"
("مواجهة" - لغة من دم العاشقين)

إسلامية المعرفة

من معالم مشروعنا الحضاري

بقلم: د. محمد عمارة

لعل مما يزيد العقل الاسلامي ثقة في خطر قضية : اسلامية المعرفه ، واطمئنانا الى توافر امكانات النجاح فيها ـ غير القياس على انتصار اسلافنا العظام على الوضعية القديمة والدهرية القديمة .. ان كثيرا من دوائر الفكر الغربي ذاته قد اخذت تفيق من خدر الاطمئنان الذى خدعتها به موجة المعرفة الحسية خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين .

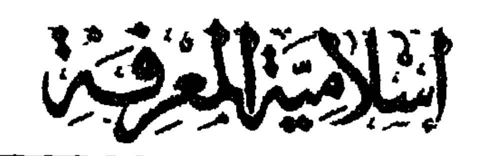
لقد شهد العلم الغربي ، منذ العقود الاولى للقرن العشرين ، العديد من الاكتشافات العلمية ، التى يعدها المؤرخون له بمثابة "الثورات" التى كشفت عورات افتقار المعرفة الحسية والمادية الى التوازن ، ومن ثم افتقادها لمقومات "الصدق المعرفى" .

ففى الفيزياء مثلت ابحاث ونظريات ومكتشفات اينشتاين Einstein "١٨٧٩ ـ ١٩٥٥ م" وبور Bohr "١٨٨٥ ـ ١٩٦٢ م" .. وهايزنبرج Heisenberg "١٩٠١ ـ ١٩٧٦ م" ثورة كبرى ..

● وفى مبحث الاعصاب مثلت ابحاث ومكتشفات شرنجتون Sherrington "١٨٥٧ ـ ١٩٥٢ م" .. واكلس Eccles "١٩٠٣ ـ " .. وسبرى Sperry "١٨٦٠ ـ ١٩٣٠" .. وبنفيلد Penfield ثورة جديدة ..

● وفى علم النفس ، مثلت ابحاث ومكتشفات فرانكل Frankl .. وماسلو Maslow وماى May ثورة اخرى .

● وفى علم الكونيات ، كانت نظرية "الانفجار العظيم" ، و"المبدأ الانسانى" فتحا علميا جديدا ، مثل مع الثورات العلمية فى الفيزياء .. والاعصاب .. وعلم النفس الاسس الجديدة لمعرفة غير حسية ـ وبمعنى ادق لا تقف على "ساق الحس" وحدها .. وبعبارة اهل الاختصاص من علماء الفيزياء ، الذين يحللون مغزى هذه الثورات العلمية ، ويؤرخون لها : "فإن هذه المكتشفات لم تقلب التصور الحديث ـ الذى كان سائدا فى العلم



الغربي ـ للانسان ولمكانته في العالم فحسب ، بل هي تقدم تفسيرا جديدا .." .

لقد كان التصور السائد في دوائر العلم الغربي ، ابان حقبة الموجة المادية والحسية في المعرفة ، هو "ان لا وجود الا للمادة ، وان الاشياء جميعا قابلة للتفسير بلغة المادة فحسب ، وهكذا يتحتم ان تكون حرية الاختيار وهما من الاوهام مادامت المادة غير قادرة على التصرف الحر . ولما كانت المادة عاجزة عن ان تخطط او تهدف الى اى شيء ، فلا سبيل الى العثور على حكمة وراء الاشياء الطبيعية ـ "عالم الغيب" ـ بل ان العقل يعتبر نتاجا ثانويا بالنشاط الدماغ ..

ولقد وصف برتراند رسل Bertrand Rassell "١٨٧٢ ـ ١٩٧٠ م" هذا التصور المادى الذى ساد دوائر المعرفة والعلم الغربى فقال : "لان يكون الانسان نتاج اسباب لا تملك العدة اللازمة لما تحققه من غايات ، ولان يكون منشؤه ونموه ومخاوفه وصبواته ومتعقداته مجرد حصيلة ارتصاف ذرات عرضي ، ولان تعجز اى حماسة مشبوبة او بطولة ، او اى حدة في التفكير او الشعور ، عن الابقاء على حياة فرد واحد فيما وراء القبر ، ولان يكون الاندثار هو المصير المحتوم لكل عناء الاجيال ، ولكل التفانى ، ولكل عبقرية الانسان المتألقة تألق الشمس في رابعة النهار ، كل هذه الامور ان لم تكن حقا غير قابلة للجدل فإنها مع ذلك تقترب من اليقين الى حد يستحيل معه على اى فلسفة ترفضه ان يكتب لها البقاء ، وعلى ذلك لا يمكن بناء موطن الروح بامان الا في اطار هذه الحقائق وعلى اساس راسخ من القنوط المقيم" ! ..

نعم .. لقد سادت "دهرية القنوط المقيم" مما وراء المادة .. في حقبة النهضة الحديثة للمعرفة الغربية ـ الحسية ـ والعلم الغربى ـ المادى ـ .. الذى عمم هذه النظرة على جميع العلوم . المادية منها والانسانية ..

لكن المؤرخين الجدد ، للعلم الغربى ، الذين رصدوا الثورات المعاصرة في هذا العلم ، يقولون ان ذلك التصور "الدهرى ـ القانط" قد طويت صفحته بهذه الثورات العلمية المعاصرة وبمعطياتها في نظرية المعرفة .. وبعبارة عالم الفيزياء هنرى مارجينو Henry Margenau ان العقيدة الاسسية للمذهب المادى ـ وهي ان الحقيقة كلها تكمن في المادة وهذا رأى كان مقبولا بعض القبول في اواخر القرن الماضى ـ التاسع عشر ـ غير ان امورا كثيرة حدثت في هذه الاثناء تكذب هذا الراى" ..

وبعبارة عالم الفيزياء فيرنر هايزنبيرج : "ان الفيزياء الذرية المعاصرة قد نات بالعلم عما كان يتسم به من اتجاه مادى في القرن التاسع عشر" .(١)

اذن .. فنحن امام جديد .. وبازاء تحولات في مذهب المعرفة الغربية .. تحولات عن النزعة المادية البحتة والحسية الصرفة ..

لقد قال الامام الغزالي قديما : "طلبنا العلم لغير الله ، فأبى ان يكون الا لله ؟!" .. لقد بدأ جراح الاعصاب "ويلدر بنفيلد" تجاربه على الدماغ ، بهدف اثبات النظرة التي كانت سائدة ـ النظرة المادية ـ "الدماغ يفسر العقل" ـ .. لكنه وصل ـ عبر دراسة ما يربو على الف حالة ـ الى اثبات عكس هذه النظرة المادية .. وصل الى ان العقل غير الدماغ .. فالدماغ هو مقر الاحساس والذاكرة والعواطف . والقدرة على الحركة .. لكنه ليس مقر العقل او الارادة .. والعقل .. لا الدماغ ، هو الذي يراقب ويوجه في آن معا .. هو الذي يتخذ القرارات وينفذها . مستعينا بمختلف اليات الدماغ" .

لقد وصل بنفيلد الى هذه الحقائق .. ورتب عليها معطياتها في نظرية المعرفة .. فكتب في كتابه "لغز العقل" .

"انه اقرب الى المنطق ان نقول : ان العقل ربما كان جوهرا متميزا ومختلفا عن الجسم !" وامام هذا الذي قاله .. نتذكر تعريف الاسلاميين للعقل ، بكلمات الشريف الجرجاني "٤٧٠ ـ ٨١٦ هـ ـ ١٣٤٠ ـ ١٤١٣ م" : هو جوهر مجرد عن المادة في ذاته ، مقارن لها في فعله .. جوهر روحاني خلقه الله تعالى متعلقا ببدن الانسان .. نور في القلب يعرف الحق والباطل" ..

ونتذكر ايضا ، تعريفه لـ "القلب" الذي يعقل ويفقه ـ كما جاء في القرآن الكريم ـ والذي يقول عنه : انه "لطيفة ربانية لها بهذا القلب الجسماني الصنوبري الشكل المودع في الجانب الايسر من الصدر ، تعلق ، وتلك اللطيفة هي حقيقة الانسان .. ويسميها الحكيم : النفس الناطقة .. وهي المدرك والعالم من الانسان ، والمخاطب والمطالب والمعاتب .." !

انه التعريف الاسلامي ، الذي لم يرى الانسان مجرد مادة تفرز الفكر بالتفاعلات لجزئيات هذه المادة ..

ومن هذا المعنى يقترب العلم الغربي المعاصر ، بتجارب علمائه على الاعصاب !

بل لقد خطا ويلدر بنفيلد خطوة اخرى ، هامة ، عندما قال ـ متعجبا ـ وهو الذي بدأ ابحاثه بهدف دعم النظرة المادية والحسية للمعرفة ـ قال : "فياله من امر مثير ، اذن ، ان نكتشف ان العالم يستطيع ، بدوره ، أن يؤمن عن حق بوجود الروح ، واذا كان العقل والارادة غير ماديين ، فلاشك ان هاتين الملكتين ـ على حد تعبير "اكلس" ـ : "لا تخضعان بالموت للتحلل الذي يطرأ على الجسم والدماغ كليهما .." ؟! (٢) ..

...... الله أكبر ؟! ..

اننا بإزاء ايمان "بالروح" .. وايمان بخلودها .. وايمان بأن تحلل الجسم وفناء المادة ليس نهاية المطاف ..

وهنا تضاهي هذه "التجريبية الجديدة" ـ ان جاز التعبير ـ "التجريبية الاسلامية" المؤمنة ، فيما انتهت اليه من معطيات .. لكن يبقى "البديل الاسلامي" متميزا .. فهو لا ينطلق في المعرفة ، فقط من "الواقع .. والحس .. والتجريب" . وانما ينطلق ايضا من "كتاب الوحي" . وهو ما يفتقده ويفتقر اليه هؤلاء "التجريبيون الجدد الغربيون" !..

لقد اكتشف بنفيلد "امرا مثيرا" ! .. اما العالم المسلم ، الذي ينطلق من "كتاب

الوحى" و"كتاب الكون" ، فإنه يكتشف بالتجربة فى "كتاب الكون" : الاسرار التى اودعها "صاحب الوحى" وخالق "الوجود" .. فهو ينطلق من الايمان الدينى .. ينطلق من "الشرعى" لاكتشاف "المدنى ـ الكونى" ، ثم يوظف ثمرات العلم "المدنى ـ الكونى" فى دعم الايمان "الدينى ـ الشرعى" ، ويكون لذلك اكثر خلق الله خشية لله .. "انما يخشى الله من عباده العلماء" ! (٣)

فالتطور الذى يحدث فى العلم الغربى المعاصر .. ومعطياته فى نظرية المعرفة .. هو مما يدعم ثقتنا فى "البديل الاسلامى" .. ويزيد من الحاح هذه القضية على العقل المسلم .. لتنقية علومنا من اثار الموجة المادية للعلم الغربى الحديث .. ولصياغة هذه العلوم وفق منهاج اسلامية المعرفة .. وللاسهام ، بعد ذلك فى تزكية وترشيد هذا التوجه لجديد والوليد عند الغربيين ! ..

* * *

ان الاسلام الذى صاغ امته ، عندما صبغ حضارتها بصبغة الله ـ باقامته العلاقة بين "الشرعى" و "المدنى" فى المعارف والعلوم ..

ان هذا الاسلام ، الذى صاغ الامة ، ومناهجها فى المعرفة ، هذه الصياغة الايمانية المتميزة .. هو الذى صاغ ـ تبعا ذلك ، وبسبب ذلك ـ علماء هذه الامة صياغة متميزة كذلك ! ..

"تجريبيون ـ مؤمنون" .. و"روحانيون ـ ماديون" ! .. فنجت حياتنا الفكرية والعلمية من ذلك "الفصام النكد" بين "النظر" و"التجريب" .. بين "العمل الذهنى" و"العمل اليدوى" .. بين "الشرعى" و"المدنى" ..

فالدين : وضع الهى .. يسوق الانسان لعبادة الله ولعمران الكون ، مستعينا فى ذلك كله بكتابى "الوحى" و"الوجود" .. ومن هنا :

كان ابوالوليد ابن رشد "٥٢٠ ـ ٥٩٥ هـ ـ ١١٢٦ ـ ١١٩٨ م" يفزع الناس الى فتواه فى الفقه كما يفزعون الى فتواه فى الطب !.. فهو الطبيب المجرب .. والفقيه الاصولى .. المتكلم الحكيم !.. انه صاحب "كتاب الكليات" ـ فى الطب و"بداية المجتهد ونهاية المقتصد" ـ فى الفقه وفلسفته و"مناهج الادلة فى عقائد الله" و "فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال" ـ فى علم الكلام والتوحيد .

وكان ابن سينا ابوعلى الحسين بن عبدالله "٣٧٠ ـ ٤٢٨ هـ ـ ٩٨٠ ـ ١٠٣٧ م" "الشيخ الرئيس" فى "الشرعى" و "المدنى" .. فى "الالهيات" و "الطبيعيات" .. فى "التصوف" و"النبات والحيوان" و"الهيئة" .. فمن اثاره فى الطب "القانون" .. وفى الحكمة والالهيات "الشفاء" و"المعاد" و"اسرار الحكمة المشرقية" .. وفى التجريب والطبيعة : "النبات والحيوان" و"الهيئة" و"اسباب الرعد والبرق" ! .. الخ .. الخ ..

وكان البغدادى ، ابومنصور عبدالقاهر

بن طاهر "٤٢٩ هـ ١٠٣٧ م" ـ وهو الذى اشتهر بابداعاته المتميزة فى اصول الدين ـ المبرز فى الحساب .. وفى الهندسة ! .. حتى لقد قالوا : انه كان يدرس فى سبعة عشر فنا ؟! .. ومن اثاره فى "اصول الدين" و"تفسير القرآن" و"معيار النظر" "والتكملة فى الحساب" و"رسالة فى الهندسة" .. الخ .. الخ ..

وكان الخيام ابوالفتح عمر بن ابراهيم "٥١٥ هـ ـ ١١٢١ م" اللغوى .. الشاعر .. والفيلسوف .. المؤرخ .. والرياضى .. الفقيه .. والمهندس .. الفلكى ؟! .. ولقد بقيت لنا من اثاره "مقالة فى الجبر والمقابلة" و"شرح مايشكل من مصادرات اقليدس" و"الاحتيال لمعرفة مقدارى الذهب والفضة فى جسم مركب منهما" و"الرباعيات" و"الخلق والتكليف" .. وغيرها من الاثار الشاهد تنوعها وتكاملها على هذا المذهب الاسلامى فى تكامل مصادر المعرفة وتكامل ادواتها ، ومعرفة علمائها ..

وكان الفخر الرازى ، ابوعبدالله فخر الدين محمد بن عمر "٥٤٤ ـ ٦٠٦ هـ ـ ١١٥٠ ـ ١٢١٠ م" الامام فى علوم الدين والدنيا جميعا .. حتى لقد قال مؤرخوه : "انه كان اوحد زمانه فى : "المعقول .. والمنقول .. وعلوم الاوائل" ؟! .. ومن بين اثاره الكثيرة والجامعة لاقطار المعرفة وتخصصاتها نجد : "مفاتيح الغيب" ـ فى تفسير القرآن الكريم ـ و"معالم اصول الدين" و"لوامع البينات فى شرح اسماء الله الحسنى والصفات" و"الخلق والبعث" ـ فى التوحيد واصول الدين و"محصل افكار المتقدمين والمتأخرين" و"نهاية العقول" و"البيان والبرهان" ـ فى الفلسفة و"المباحث المشرقية" ـ فى التصوف ـ و"السر المكتوم" ـ فى الفلك ـ و"النبوات" ـ فى النبوة والرسالة ـ و"النفس" ـ فى علم النفس ـ كما ابدع فى الهندسة "كتاب الهندسة" و"كتاب مصادرات اقليدس" ؟! .. الخ .. الخ ..

هكذا تجسد توازن وتكامل مصادر المعرفة ، فى المنهج الاسلامى ، وتوازن وتكامل ادوات وسبل تحصيلها ، فى هذا المنهج .. هكذا تجسد فى العلم الاسلامى وفى العقل الاسلامى .. وفى تراث علماء الاسلام .. فكان الاشتغال بجميع العلوم ، "الشرعى" منها و"المدنى" ، "النظرى" منها و"التجريبى" عبادة وقربة الى الله .. وامتثالا لاوامره وتكليفاته .. فبالعلوم الشرعية تعرف المقاصد الالهية فى العمران البشرى ، وبالعلوم المدنية يقيم البشر العمران الذى استخلفهم خالقهم لاقامته فى هذا الوجود .. وفيهما معا ، وبهما جميعا يكتشفون ايات الله ، سبحانه وتعالى ، فى الانفس والافاق .. فيظل العلم ، بهذا المنهج فى المعرفة ، الباب المفتوح دائما وابدا لاكتشاف الحقيقة فى عالم الشهادة ، ودعم قواعد الايمان بالله وعالم الغيب ! .. وصدق الله العظيم "سنريهم اياتنا فى الافاق وفى انفسهم حتى يتبين لهم انه الحق .." (٤)

---

(١) جورج ، ن ستانسيو ، روبرت م اغروس "العلم فى منظوره الجديد" ص ١٥ ، ١٦ ـ ترجمة كمال خلايلى .. طبعة الكويت سنة ١٩٨٩ .

(٢) المرجع السابق . ص ٣٩ ، ٤٢ ، ٤٣

(٣) فاطر : الاية ٢٨

(٤) فصلت : الاية ٥٣

يوميات هذا الزمان

هدية بهاء لنا فى عيد ميلاده !

بقلم : صافي ناز كاظم

● ● في هذا الشهر يتم الأستاذ احمد بهاء الدين الخامسة والستين حيث ولد في ١١ فبراير ١٩٢٧ .. اتذكر دائماً عيد ميلاده واشاكسه بانه اكبر منى بعشر سنوات ونصف ، واجلس شاعرة بطفولتى وانه هو الكبير .. هذا منذ ان قابلته اول مرة فى علم ١٩٥٦ ، وكان فى التاسعة والعشرين رئيسا لتحرير صباح الخير ، وكنت وقتها صبية بحق لم تكمل بعد التاسعة عشرة ● ●



● كنت أحمل إليه قطعة من كتاب قديم لتوفيق الحكيم بعنوان « عصر الآلة » واقوم بعمل موضوع أشبه بالفخ لمجلة الجيل التى كان يراسها الأستاذ موسى صبرى .. كنت أدعى أن القطعة من كتابتى وأريد رأى الكتاب الكبار فيها لاعرف من خلاله هل أحكامهم النقدية موضوعية أم لا ، فهل هى حكم على القطعة المكتوبة أم حكم على عدم خبرة سنى الصغيرة .. ونجحت وقتها فى خداع الأستاذ العقاد والأستاذ إحسان عبدالقدوس ، لكننى ما أن قدمتها للأستاذ بهاء حتى قال لى قافشاً : صحيح عاوزة تعرفى رايى فى أسلوب توفيق الحكيم ؟! وكتبت الموضوع بعنوان « آراء صريحة جداً فى أسلوب توفيق الحكيم » !



● استاذ دهاء

وأطلقت على الاستاذ بهاء لشدة ذكائه لقب استاذ دهاء ! ومنذ ذلك الحين نشأت بيني وبينه صداقة متينة امتحنتها الايام فاثبتت قوتها ، وكنت دائما أشعر فيها امامه انني طفلة مشاكسة وهو الكبير ، وكان من قفشاته انني كلما ذهبت أسأله رأيه في معضلة يقول رأيه فأعارضه وأصر على رأيي فكان يسألني بضجر مفتعل : « إنت جاية تاخدي مني رأيي والا رأيك ؟ » ورغم تلك الصداقة التي امتدت ستة وثلاثين سنة حتى الآن فانني لم استطع مرة أن أناديه بسوى « أستاذ بهاء .. حضرتك !»

في عيد ميلاده العلم الماضي ذهبت اليه في منزله أقول له « كل سنة وانت طيب » وأراد أن يصافحني فقلت له : « هل نسيت أنا أسلم ولا أصافح ! » فقال بمرحه المعهود : « حتى أنا ؟!» نعم إنه يكاد يكون شقيقي : هو يعرف ذلك وأنا أعرف ذلك .

● استقامة .. وسلام

قابلني في نيويورك عام ١٩٦٦ وقد نلت شهادة الماجستير في النقد المسرحي ووجهتي مصوبة نحو استراليا أريد السفر إليها لاكمال دورتي حول الكرة الأرضية ، فاستنكر خطتي وقال : كفى اغترابا وعودي .. وكان شرط عودتي أن أعمل معه فانتقلت من أخبار اليوم الى دار الهلال ومن شدة استقامته وخشية أن يقال : « انحاز لاصدقائه » نسي ادارياً ومالياً أنني حاصلة على شهادة الماجستير في النقد المسرحي وكتب قرار تعييني « محررة بدار الهلال » بدلاً من « ناقدة مسرحية بمجلة المصور » والغى الموقف وشعرت بالظلم ، خاصة ماترتب عليه بعد ذلك من خسارات وسوء استغلال وتنكيل من آخرين بعده ، لكن هكذا هو الأستاذ بهاء : إنه يفضل أن يقال عنه : « ظالم أصدقائه » عن أن يقال عنه : « حابي أصدقائه » ومع ذلك لم يسلم من التهمة ولم نسلم منها لكنه قال لنا : « يكفي أننا في سلام مع أنفسنا » هذه الاستقامة وهذا السلام مع النفس يشعان مع كل سطر في كتاباته كلها ومنها « يوميات هذا الزمان » انه يكتب بحماس واستقامة متوجها مباشرة صوب فكرته المحورية وتختلف معه وتتفق معه لكنك تشعر أن هذا القلم نظيف لايحكمه سوى عقل حر وقلب أمين .. اختلفت معه كثيراً حتى الخصام ليوم أو أكثر بسبب بعض كتاباته فيضحك ويقول : كنت أعرف أنك ستغضبين ، على الأقل

دعيني أثار لغيظي من بعض كتاباتك .. ونضحك ونعرف أن الجسر بيننا هو الأمانة والصدق والسلام مع النفس والجمال الذي يتولد مع كل هذا .

● طبق الصباح الشهي

حين تقرأ « يوميات هذا الزمان » تستدعي طبق الصباح الشهي الذي كان يطالعك كل يوم على اليمين في صفحة جريدة الأهرام الأخيرة ، الأستاذ بهاء يطل عليك بصيغة تجمع بين الألفة والاحترام .. إنه يطرق باب كل مايهمك ويحدثك بأسلوبه الممتع البسيط بلا كلفة .. لكنك تشعر أنك في مكتبه تشرب القهوة مستعداً بملابس لائقة مريحة .. لايمكن أبداً أن تكون الشبشب والبيجامة .. فهو منضبط متحضر محفورة فيه سمات وتقاليد الأسر المصرية المحافظة الطيبة .. وفوق هذا هو لم ينس لحظة أنه رجل قانون : رجل نيابة ، رجل قضاء ، رجل محاماة .. كلها مسئوليات تستوجب المظهر المحافظ اللائق مع تغلغل كل هذه المسئوليات في صميم حياة المواطن المصري .. أحيانا في يومياته نجده ممثل الادعاء ، غاضبا أشد الغضب من المخالفات والمراوغات والجرائم ، وأحيانا نجده ممثل الدفاع مستبسلا إلى حد الاشفاق واستثارة الدموع نحو الشعب المسكين الذي يستكثرون عليه اسرافه في أكل الخبز رغم أنه علامة الفقر ، وشربه الشاي المحلي حتى نصف الكوب بالسكر لأنه مصدر الطاقة الوحيد .

وأحيانا نجده القاضي الذي يحكم أحكاما قطعية نهائية يضع بعدها نقطة النهاية بلا نقض أو ابرام .. ومع نبرة القاضي نجده مع ذلك لابد أن يوازن الرزانة مع الدعابة المصقولة التي لاتهز شيئاً أو وقاراً .

● عذوبة متصلة

كتابة عمود يومي أصعب من السير فوق حبل .. قليلون الذين ينجحون في حفظ التوازن وجذب العين للقراءة اليومية ، والأستاذ أحمد بهاء الدين هو قلة من القليلين يستطيع أن يشدك بحضوره شديد الجاذبية لتقرأه من الكلمة الأولى حتى التوقيع .. جمل متتابعة مختصرة مرتاحة .. يقول الكثير في موجز محكم ، لاشحوم .. ولاشفت ، ولاعسر هضم .. في الصيف تشعر أنك تشرب ماء مثلجاً بعد ظمأ ، وفي الشتاء هو الشراب الدافيء المطلوب للطقس البارد .. حيوية بلا صخب وهدوء بلا ملل وجيشان بلا لهاث ورقة بلا ضعف وقوة بلا عنف .. عفيف في عدائه موضوعي في محبته : هذا هو أسلوب بهاء : الأستاذ أحمد بهاء الدين في الحياة .. وعلى الورق .



يحيى حقي

ذلك العاشق

مها محمود صالح

يحيى حقى والذى بلغ من العمر ٨٧ عاما إحتفى به محبوه من الأدباء والمثقفين فى الخامس من يناير الماضى .

ومن جانبها احتفت الهلال به حيث أصدرت له كتابين «خليها على الله» و«كناسة الدكان» ..

إنه أديب مبدع يستحق منا كل تقدير لما قدمه للفن العربى من فكر خلاق وإبداع له مذاقه الخاص والمتميز .

عاشق !

نعم ، هى حالة عشق تلك التى تدفع استاذنا الكبير ، يحيى حقى إلى أن يقدم لنا عصارة فكره ونوب روحه وخفقات قلبه العاشق دوما . يقدمها لنا - نحن قراءه ومحبيه - كما تقدم النحلة عسلا شهيا ، تبذل الجهد لتحصل على الرحيق فتمزجه بروحها ثم تخرجه من حشاها نقيا جميلا فى بساطة وتلقائية وبمنتهى الحب ، كأنما لم تعرف بداخلها آلام الابداع ، ولا اقول الخلق حتى لايكرب استاذى !

ماذا اقصد بالعشق ؟

إنه شعور صوفى حميم يربطه بكل ما حوله .. إنها رغبة حارقة ومحاولة دائبة للنفاذ الى الجوهر جوهر المشاعر والكلمات ، جوهر الناس والاشياء .

هو يعشق الحياة والروح المصرية بوجه خاص ، وكل التفاصيل والشخوص التى تنتظم فى خيط هذه الروح ..

وهو عاشق اللغة .. يصبو منها الى جوهرها الوضىء وقدرتها المذهلة على التعبير عن دخائله ، ويكره منها الابتذال والزينة الرخيصة .

● إيمان بالحياة

« إن الحياة فى أبشع صور الدمامة جميلة ولكننا لا نراها ، هذه العبارة من كتابه فى السيرة الذاتية « خليها على الله » توضح ذلك الايمان الشديد بالحياة .. بجمالها الداخلى رغم ما قد يغطيها من قبح . إنه الجمال النابع من قدرتها على الاستمرار والتحايل على عوامل الفناء ومن ذلك التفاعل الذى لايكف عن توليد الجديد بين المتناقضات .

هذا الهيام الشديد يتبدى فى محاولات يحيى حقى الدءوبة للوصول الى اعماق الانسان .. بل والحيوان ! انه يبحث عن شخصيات الظل ويقدمها لنا بحنان وود فى كتاب كامل هو « ناس فى الظل وشخصيات أخرى » .. وهو يهتم بالحيوان ونجد ان من اوائل القصص التى كتبها قصة « فله .. مشمش .. لولو » التى نشرت عام ١٩٢٦ وأبطالها ثلاثة كلاب ، وهو يصف الحيوان فى مواضع متعددة مثل قصة « عنتر وجوليت » ورواية « صح النوم » بل إنه يفتتح ذكريات عمله



كمعلون للادارة فى منفلوط بعنوان « وجدت سعادتى مع الحمير » يتلو ذلك فصول عن الحمير انواعها ودرجاتها ومشاعرها وتكاتها ! وفيها مقارنة طريفة بين عيون الجمل والحصان والحمار والبقرة ! ويبدو أن عيون الحيوانات كانت لها دائما سحرها فى نظر كاتبنا الكبير ، فقد سمعته فى برنامج تليفزيونى يقول إنه يشعر عند رؤية عيون الحيوانات بالذات القطط والكلاب ان وراءها ارواحا حبيسة تهفو الى الانطلاق ..

ويبدو بديهيا ان طبيعته العاشقة تلك ، بما تتضمنه من حميمية فى علاقته بالمخلوقات ، جعلت القصة القصيرة ، كما يقول هو نفسه ، هواه الأول .. وذلك « لان الحديث فيها عندى يقوم على تجارب ذاتية ، او مشاهد مباشرة . وعنصر الخيال فيها قليل جدا ، دوره يكاد يكون مقصورا على ربط الأحداث ولايتسرب الى اللب ابدا .

● الإرادة

ولأنه عاشق للحياة فهو يهتم فى قصصه بموضوع الأرادة .. التى بدونها تفقد الحياة الانسانية سموها واحترامها .

ففى قصة « نهاية الشيخ مصطفى » التى نشرها عام ١٩٢٧ ، يحدثنا يحيى حقى عن الشيخ مصطفى القارىء والمنشد الذى يعاقر الخمر وتقصر إرادته عن هجرها رغم احساسه بالذنب وخوفه ان تنكشف سقطته للناس وعندما يقيض الله له شخصا ماكرا شريرا يكشف امره تقصر إرادته مرة اخرى عن الدفاع عن نفسه ومحاولة كسب الناس إليه فى مواجهة غريمه ، فيجزره الناس جزرا على حد.تعبير المؤلف .

وفى قصة « احتجاج » التى نشرت علم ١٩٣٤ نرى نموذجا لآخر لغياب الارادة . إنها « بمبة » الخادمة التى تعدت الأربعين من العمر وتامل فى الزواج من الاسطى « حسن » النجار المستاجر لغرفة الدور الأول فى منزل مخدومتها . لكن « بمبة » تسمع افراد الاسرة وهم يتناقشون فيمن تصلح زوجة له من بنات الحى والمعارف ، فلا تند عنها إلا صيحة احتجاج بسيطة تعود بها الى طبيعتها البليدة المستسلمة .

أما قصة « الفراش الشاغر » (١٩٦١) فهى تجسد التدنى الذى يمكن ان تصل اليه النفس البشرية إذا غابت اهم مقوماتها : الارادة الواعية والقدرة بل والرغبة فى تحمل المسئولية .

تدور القصة حول اسرة من زوج وزوجة وابن وحيد يعيشون فى عزلة عن العالم ، ليس ضنا بسعادتهم ان يشاركهم فيها احد او خوفا ان يطلع

الآخرون على سوء حالهم ، وانما تجنبا لأى مسئولية او فعل ايجابى قد يكون عليهم القيام به اذا سمحوا لانفسهم بما اعتاده الناس من علاقات منها القائم على المودة والتراحم ومنها ما يقوم على البغضاء والتشاحن ، ونلاحظ منذ البداية إنحراف نفسية افراد الاسرة فالأب ينادى الأم بيامي وهى تقول له يا ابتى والصبى يقول لامه ياعروستى ، بينما لا يوجه الكلام لأبيه ابدا . وينمو الفتى وتنمو معه سلبيته وشخصيته المضطربة ، ويفشل فى دراسته رغم تقلبه بين الكليات فيقرر ان يتزوج يختار من يظنها بسيطة خجولة لن تنهكه بطلباتها لكنها تواجهه بعد ليال ثلاث بعجزه وتتكره غير اسفة .

ويظل بعد ذلك الموقف الكاشف فى ترد مستمر .. يبحث عن متعة لايتحمل اى مسئولية تجاهها ، ويحلم بكائنات خالية من الارادة يتواصل معها ! وهكذا يصحب الساقطات حينا ؛ ثم يتحول عنهن الى صبى الحانوتى الذى يعلمه كيف يساعد فى غسل جثث الموتى الغائبة الارادة فلا تصده ولا تضيق به .

وينتهى الأمر بالفتى الى الشذوذ الصريح فى احط درجاته .

لقد تحول الى « روح تحطمت وتعفنت وغابت عنها رحمة الله » .

والمقام لايتسع لذكر القصص الكثيرة التى ترتكز على موضوع الارادة ، ومنها على سبيل المثال قصص : « أم العواجز » ١٩٤٧ ، « إزازة ريحه » ١٩٣١ ، « السلحفاة تطير » ١٩٣٩ ، « وقصة فى سجن » .

● التأمل

وحبه .. بل عشقه للحياة هو الذى يجعله مغرما بالتامل فى حياتنا اليومية ، ملاحظة تلك المتناقضات والطرائف التى تزخر بها الحياة وتقديمها ، احيانا على شكل قصة قصيره ، وأحيانا على شكل مقال ساخر يكاد يقترب من القصة القصيرة . ومن النوع الأخير كتابه « فكرة .. فابتسامة » .. هو عبارة عن لوحات متتابعة ساخرة بعضها يخفى وراءه مرارة شديدة مثل تلك اللوحة التى تعرض لنا خادمة فقيرة تقف امام سيدة قاسية متغطرسة تعرض عليها العمل عندها باجر بخس وبشرط ان تترك صغيرتها الرضيعة فاتن فى مكان آخر ولا تصحبها معها . فما يكون من الخادمة إلا ان تداعب صغيرتها وتتمتم فى حنان « لو كنت .. تموتى ! » وفى الكتاب لوحات اخرى فكاهتها أكثر صفاء وابتسامتها اقل مرارة مثل « الوصايا العشر فى سوق الخضار » .. التى يصف فيها الاعيب بائعى الخضر والفاكهة لتوريط الزبون فى بضاعة رديئة ، و « انا خرمان » التى تصف السيجارة وما تفعله بمغرميها ، و « فرتكة وقلة بركة » التى يتحدث فيها عن الوقت الذى لا ثمن له فى مجتمعنا .

يقول د . لويس عوض عن يحيى حقى فى ذلك الكتاب إنه نجا من مرض التشاؤم الذى يصيب كثيرا من الأدباء الساخرين ويضيف د . لويس عوض : « إن قلب يحيى حقى يحمل لنقائص الانسان ونقائضه عطفا كثيرا ورثاء غير قليل فهو يهجو الانسان ولكن هجاء



الانسان للانسان لا هجاء الانسان للحيوان ، وهو يهجو المدينة ولكن هجاء المتمدن المهذب العقل والنفس لابناء فصيله لا هجاء المتمدن المزدرى لانحطاط ابناء الفطرة وعبيد الغريزة » ..

هو إذن العاشق الذى لايخلو سلوكه ابدا من الحب والتعاطف .. حتى وهو يهجو وينتقد .

ولقد وجدت تلك الطبيعة المتاملة المغرمة بكل ما فى الحياة من تفاصيل ، وجدت ضالتها فى الحياة المصرية الزاخرة : شخصيات متباينة تضرب بجذورها فى عمق ارض سمراء عاشت آلاف السنين ، تراكمات تراث طويل من القوة والضعف ، العز والانكسار ، التمرد والخضوع ، وروح قوية صامدة قد تتخاذل احيانا او تتراجع لكنها ابدا لاتموت !

ورغم اصله التركى فقد التحم يحيى حقى بتلك الروح الخالدة منذ بداية طفولته ، ولم ينفصل عنها ابدا !

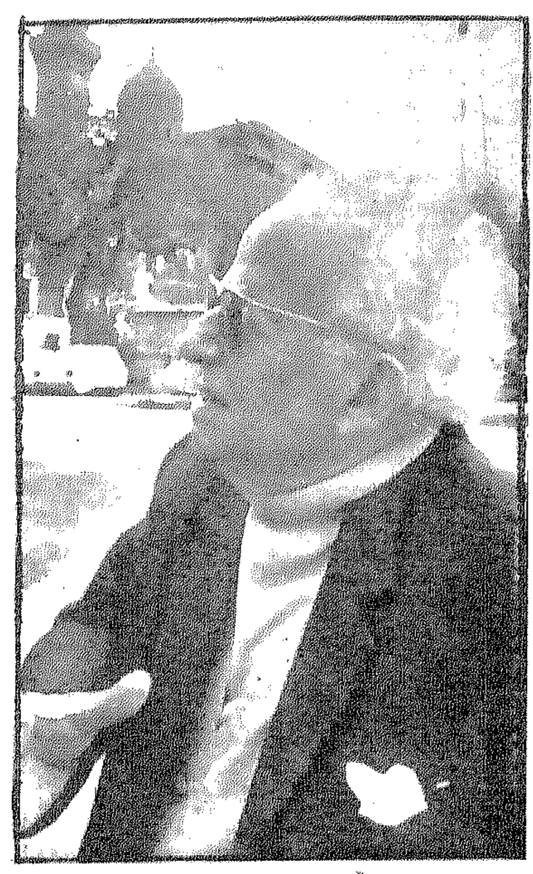
● يحيى حقى والواقع المصرى

ولد يحيى حقى ١٩٠٥ فى حارة الميضة الواقعة خلف مقام السيدة زينب ، ورغم انه ترك ذلك الحى وهو طفل فإن تاثيره على حياته لاينسى : مثلا ، ظلت شخصيات « الست ما شاء الله » بائعة الطعمية ، و « الأسطى حسن » حلاق الحى وبائع الدقة وجموع الشحاتين والدراويش الملتفين حول المقام ، ظلت تتحرك فى خياله حتى اعاد زرعها من جديد فى رائعته « قنديل ام هاشم » وبعد تخرجه من كلية الحقوق ١٩٢٥ عمل استاذنا محاميا ثم تم تعيينه معاونا للادارة فى منفلوط (محافظة اسيوط) حيث عاش هناك حتى نهاية ١٩٢٩ .. وقد كان لهاتين السنتين فى الصعيد اكبر الاثر فى ادبه فيما بعد .. يلخص الاستاذ يحيى هذا التاثير فى نقاط اربع استقلاله فى المعيشة ، واتصاله المباشر بالطبيعة المصرية والحيوان والنبات ، واتصاله المباشر بالفلاحين والتعرف على طباعهم وعاداتهم ، واخيرا اتصاله المباشر ايضا ، وبحرية ، بالجنس الآخر .

وفى اعتقادى ان هذه التجربة تمثل تطورا ايجابيا فى علاقة يحيى حقى بالواقع المصرى . فقد كان فى حياته القاهرية فى السيدة زينب وما بعدها مجرد جزء من كل ، لايتعدى وعيه حدود ذاته ، ينطبق عليه الوصف الذى قاله بعد ذلك عن اسماعيل بطل « قنديل ام هاشم » وهو فى ميدان السيدة : « تلفه الجموع فيلتف معها كقطرة المطر يلقمها المحيط ، صور متكررة متشابهة اعتادها فلا تجد فى روحه اقل مجاوبة لايتطلع ولا يمل . لايعرف الرضا ولا الغضب إنه ليس منفصلا عن الجمع حتى تتبينه عينه » .

تلك التجربة الخصبة في مجموعة القصص التي جمعت تحت عنوان « دماء وطين » . وقصة « البوسطجي » المتضمنة في تلك المجموعة مستقاة من حادث قتل حقيقي شارك في التحقيق فيه الاستاذ يحيى حقي معاون الادارة بمنفلوط . اما قصة « حصير الجامع » ١٩٣٢ والتي تناول فيها موضوع العلاقة بين الادارة الحكومية وأهل الريف ، فهي ايضا من وحي موقف حقيقي عاشه بنفسه عندما ارسلت الحكومة اعلانا للفلاحين تحذرهم فيه من طاعون الدجاج وتخبرهم بكيفية الوقاية منه .

إن كتاب « خليها على الله » من امتع الكتب التي يمكن ان يقرأها المرء ، فيعرف منها الكثير عن ريف مصر وتاريخها والكثير عن يحيى حقي كإنسان وكفنان .



يحيى حقي خليها على الله

● خبرات مكتسبة ..

اما في الصعيد فقد تكشفت لكاتبنا الكبير ، فيما يشبه الصدمة ، احوال الريف المصري في ذلك العهد : الفقر والجهل والتخلف وايضا مشاعر عدم الثقة التي يشعر بها الفلاح تجاه الحكومة ولايجرؤ على التعبير عنها إلا بالتمسك بأقصى درجات السلبية في مواجهة اوامرها .. يعلن أستاذنا دهشته لان تفاصيل هاتين السنتين لاتزال عالقة بذهنه منذ عام ١٩٢٩ وحتى تسجيلها في كتابه « خليها على الله » ١٩٥٩ ، رغم انه لم يحتفظ بأى مخطوطات تسجل لهذه الفترة ـ ولكنه في الحقيقة لم يكن ممكنا ان ينساها ، وكيف يفعل وهي تلح على ذهنه وتوحي له بالكثير من اعماله . لقد سجل

بعد سنتي منفلوط انتقل يحيى حقي للعمل في السلك الدبلوماسي فبدأ أمينا لمخطوطات القنصلية المصرية في جده ثم استانبول وبعدها روما ثم عاد إلى مصر ١٩٣٩ .

هذه الخبرة الجديدة من المؤكد انها اضافت الكثير الى وجدان استاذنا . إنها مرحلة جديدة في علاقته بمصر : الروح والشعب .

فإذا كانت تجربته في القاهرة ومنفلوط قدمته للواقع المصري ، فقد اتاح له السفر فرصة لرؤية جوانب الصورة الأخرى ..

ففي جده اكتشف تاريخ الجبرتي وفتن به اشد الافتتان حتى انه كتب دراسة عنه وعن الدعابة في المجتمع



يحيى حقى

المصرى فى عهده ، نشرت لأول مرة علم ١٩٣٠ . وفى تلك السنوات ايضا بدا اتصاله المباشر بالحضارة الاوروبية واخذ موقف التلميذ فى كافة الفنون التى لم تسمح له نشأته بالتعرف عليها من قبل ..

والأهم مما سبق ، ولعله نتيجه له ، هو أن كاتبنا الكبير عرف تلك الصدمة الحضارية المتوقعة بين الواقع الذى اتى منه ، والحضارة الجديدة التى اقتحمها ، انبهر يحيى حقى بتلك الحضارة الجديدة لكنه أبدا لم يفكر فى الاستغناء بها عن حضارته القديمة .

« كنت اشعر دائما ان فى داخلى شيئا صلبا لايذوب بسهولة فى حضارة الغرب .. انا وصلتها (يقصد روما) وعندى حضارة .. إن لم تفق .. فهى تماثل حضارتها ، وعندى دين هو نظام متكامل فيه الغناء » . اما ما كان يشغله حقا فهو مصر واهلها : « طوال تلك السنوات لم انقطع عن التفكير فى بلادى واهلها . كنت دائم الحنين الى تلك الجموع الغفيرة من الغلابة والمساكين الذين يعيشون رزق يوم بيوم » .

وعاد الاستاذ يحيى ليعبر عن تلك التجربة بشكل فنى محكم فى قصته الشهيرة « قنديل أم هاشم » .

ها هو يعلن فى تلك العبارة مبداه الذى لايتنازل عنه فى تعامله مع النماذج التى ينتشلها من اعماق المجتمع المصرى ويقدمها لنا بحب لايخلو من حكمة ونقد لايخلو من تعاطف . من هذه النماذج برهومه فى قصة « ام العواجز » وهو رجل تبدا به القصة بائعا للفجل وتنتهى به شحاذا عند مقام السيدة زينب ، وبمبه التى سبق ذكرها فى قصة- « احتجاج » والست زليخة فى قصة « تنوعت الاسباب » ، والمعلم شعبان فى قصة « ذكريات دكان » ، والفلاحين فى « حصير الجامع » .

اخيرا ، فيما يختص بعشق الروح المصرية ، اود ان الفت نظر القارىء الى مقال بعنوان « مسرح الريحانى » يضمه كتاب « خطوات فى النقد » وارى انه يعبر عن ذلك الفهم النفاذ والحب الصادق الذى يكنه يحيى حقى للشخصية المصرية . فالمؤلف بعد ان يعترف لنجيب الريحانى بموهبة الحضور المسرحى ، ينكر ما سمعه عبر الاثير من خلال حفل فى ذكرى وفاة الريحانى من ان « فنه خالد لانه فن مصرى خالص صادق قد انبعث من قلب مصر ودل عليها ، وترجم عنها وارخ بها « فشخصية كشكش بك » ، عمدة كفر البلاص ، التى قدمها الريحانى ، لم تكن فى موضع رثاء او عطف وانما كانت مصب سخرية مقذعة « كان كالمهرج الذى يصفع على قفاه فى مهازل اولاد بعجر » ! ولولا الحان سيد درويش المصرية الصميمة لما كان اسم كشكش

بك دار على كل لسان ، هكذا يرى يحيى حقي .

وعندما جاءت الأزمة الاقتصادية واختفت شخصية كشكش بك العمدة الذى يثرى من بيع القطن ويضيع منه ماله في اللهو والعبث ، اصبحت شخصيــة الــعصــر الجــديــدة « بالتشخيص » هى شخصية الأفندى المطربش اتخذ الريحاني تلك النموذج ليعبر عن متاعبه ومشاكله لكنه بدلا من أن يستمد تفاصيله وسماته من صميم الحياة المصرية ، اكتفى هو وبديع خيرى باستيراد اسوأ وأرخص ما فى المسرح الفرنسى .

يقول الاستاذ يحيى : « حرام ان يدمغ الشعب المصرى النبيل الأنوف الكريم الودود ، بمثل هذه الصورة البشعة » ، فالمصريون عند مسرح الريحاني « قوم طينتهم بلاهة ، وغزلهم تلعيب حــواجب ، يحبــون الحكم والمواعظ الفارغة ، سريع غضبهم لايتمالكون اعصابهم ، يثورون للتافه من الأمور ، فلو القيت على احدهم تحية الصباح .. لانحدر عليك سيل من الردح والتشليق !! » .

إذا عدنا لمفهومه السابق عن اللفظ الذى يسد قالبا معينا يهوى فى روح الكاتب لفهمنا مواقفه فيما يختص باللغة .

هــو على حد تعبيــره مهووس بالفصحى ويرى انها القالب الفنى الــوحيد للعمــل الكبير واهتمــامــه بالفصحى يظهر فى استخدامه احيانا لكلمات مغرقة فى الفصاحة حتى انها تحتاج الى ذكر معناها فى حاشية الكتاب . لكنه فى الوقت ذاته حائر بين عشقه للتعبير الصادق عن الحياة ، بما يستتبعه احيانا من استخدام لكلمات عامية ، وبين عشقه للفصحى التى تقصر احيانا عن التعبير الصادق عن تفاصيل حياة العاديين من الناس .. الحل عنده هو اولا السماح للكاتب باستخدام كلمات عامية بشروط اهمها فى هذا السياق هو ألا يجد فى الفصحى لفظا يؤدى كافة المعانى والايحاءات التى يقدمها اللفظ العامى . وثانى وسيلة يلجأ اليها استاذنا للقضاء على تلك الحيرة هى محاولاته للتعمق فى كل من الفصحى والعامية ، لعله اولا يزداد علما بالمساحة المشتركة بينهما ، وعلى امل ، كلما ازداد تعمقا فى الفصحى ، ان يجد كلمات جديدة فصيحة تعبر عن مشاعر ومعانى كان لايحسن التعبير عنها إلا بالعامية ، إقرأ مقالاته « آخر الضحايا » ، « فى اختلافهم رحمــه » ، و « لعل وعسى » ، وغيرها فى كتابه « عشق الكلمــة » لتعرف تفــاصيل محاولاته تلك .

لم يبق لنا ألا ان نذكر بشكل سريع دعوة يحيى حقى الى الالتزام بما اسماه الاسلوب العلمى الذى يتميز بطلب الحتمية والوضوح والدقــة (تجد تفصيله فى مقاله الهلم « حاجتنا الى اسلوب جديد » من كتاب « خطوات فى النقد ») وهذا يعنى باختصار ان يكون اللفظ فى موضعه بلا قلقلة فليس غيره يمكن أن يوضع مكانه ، وان يتخلص النص من السجع اللفظى والذهنى ومن التكرار وعائم الكلمات .

كل ما سبق ينتهى الى مصب واحد او لعله الأجدر بى ان اقول انه يخرج من نبع واحد : العشق ! البحث عن الجوهر . والمحاولة الدءوبة للنفاذ الى العمق .

المثقفون والسلطة فى مصر

بقلم : د. عبد العظيم أنيس

هذا كتاب هام للدكتور غالى شكرى يبحث فيه طبيعة العلاقة المعقدة والمتشابكة بين المثقف والسلطة فى مصر الحديثة اى ابتداء من محمد على مؤسس مصر الحديثة حتى عصر انور السادات ، ويستعين فى بحث تلك العلاقة المعقدة باستجواب لستة من المثقفين المرموقين الذين لعبوا دورا خاصا فى حياة مصر المعاصرة . اثنان منهم يمثلان المؤسسة العسكرية وإن وقفا على طرفى نقيض فى السنوات الاولى لثورة يوليو وهما خالد محيى الدين وعلى صبرى ، والاربعة الآخرون وصفوا فى القسم الثانى من الكتاب تحت عنوان "الشارع السياسى" وهم على الترتيب فتحى رضوان وتوفيق الحكيم وزكى نجيب محمود ولويس عوض .

ولقد تصورت ان غالى شكرى فى هذه الاستجوابات الستة عن تاريخ حياة المثقفين المصريين المرموقين السابقين متأثر بما فعله ميشيل لوى فى دراسته عن المثقف المجرى الكبير جورج لوكاتشى وعن تحوله المعقد والمتناقض من رؤية مأساوية للعالم الى رؤية ماركسية لينينية جعلته يلتحق الحركة العمالية والحزب الشيوعى المجرى ، فإذا كان تخمينى هذا صحيحا فإن استجواب توفيق الحكيم فى كتاب غالى شكرى لا يفى بالغرض ولا يفسر لنا شيئا عن تحولاته الفكرية ورؤيته للعالم والمجتمع المصرى ، بل انصرف كله الى محاولة الدفاع عن مواقفه وسلوكه فى المرحلتين الناصرية والساداتية ، وهو دفاع معروف لا يضيف شيئا جديدا على الأرجح .

إن غالى شكرى يبدأ الكتاب بمقدمة واعدة تشير الى تلك المشكلة التى يواجهها الباحث فى موضوع هذا الكتاب ، وهى ان الاطار المرجعى لاشكالية العلاقة بين المثقف والسلطة هى الفكر الغربى ، ومن هذا الاطار المرجعى تشتهر عادة المصطلحات والتعاريف . هناك مثلا موطنان لمصطلح "الانتلجسنيا" هما روسيا القرن التاسع وفرنسا دريفوس حيث قام المثقفون بدور "لم يكلفهم به احد" اعنى الدفاع عن الضابط الفرنسى دريفوس .

وهناك محطتان فى تطور هذا الاطار المرجعى الغربى لتلك القضية هما بحث سارتر فى كتابه "دفاع عن المثقفين" ثم دراسة جرامشى عن المثقفين ، ولقد وجدت كتابات سارتر وجرامشى ومصطلحاتهما استجابة كبيرة لدى المثقفين العرب ، وهكذا أصبح سارتر إطارا مرجعيا لاشكالية العلاقة بين المثقف والسلطة مع ان ظروفنا تختلف عن ظروف اوربا ومشاكلنا كثيرا ما تختلف وبالتالى فنحن فى حاجة الى اطار مرجعى آخر نابع من تطور تاريخنا نحن وظروفنا ننحت منه مصطلحاتنا وتعاريفنا .

لكن غالى شكرى لا يستخرج من استعراضه لتاريخ مصر الحديث الا تصنيف المثقفين الى ثلاثة انماط :

المثقف التقنى "الخبير" ، والمثقف الداعية "السياسى" ، والمثقف صاحب المشروع ، ويعطى امثلة على ذلك بعلى مبارك للنمط الاول وعمر مكرم للنمط الثانى ورفاعه رافع الطهطاوى للنمط الثالث . والذى يبدو لى هنا ان المصطلح المستخدم للتعبير عن النمط الاول "المثقف الخبير" موجود فى الغرب ويستخدم بكثرة وهو يشير الى نوع المثقف الذى يوظف خبرته ومعرفته لخدمة السلطة القائمة ، وأحيانا يسمى المثقف "الوظيفى" ، كما يبدو لى ان التفرقة بين المثقف الداعية والمثقف صاحب المشروع وهمية الى حد كبير ، فالمثقف الداعية "السياسى" هو عادة صاحب مشروع حتى ولو كان هذا المشروع غامضا فى وعيه ، فعبدالله نديم هو من هذا النوع .. المثقف الداعية ، وان كان صاحب مشروع فى الاستقلال الوطنى عن الاحتلال الاجنبى .

ولقد تجد فى تاريخ مصر الحديثة انماطا من المثقفين فيهم شىء من المثقف الخبير وشىء من المثقف الداعية وشىء ثالث من المثقف صاحب المشروع فى آن واحد . ولعل سيرة الامام محمد عبده تبرز هذا ، فهو المثقف الداعية لانه ناصر الثورة العرابية الى حد نفيه الى الشام ، لكنه هاجمها بعنف حتى ان العرابيين هددوه بالقتل ، وهو واحد من ابرز تلاميذ السيد جمال الدين الافغانى وان كان الفتور قد دب بينهما فيما بعد حتى فى فترة "العروة الوثقى" ، ويعرف التاريخ ان محمد عبده كان على صلة طيبة برياض باشا وبالمعتمد البريطانى كرومر ، ولاشك ان تعيينه مفتيا للديار المصرية كان محل رضاء سلطات الاحتلال ، وعلى ذلك فقد كان محمد عبده صاحب مشروع فى الاصلاح الدينى للتوفيق بين الدين والحداثة ، الأمر الذى أثار عليه ثائرة الازهر .

وربما كان اول خلاف فى الاطار المرجعى لفهم اشكالية العلاقة بين المثقف والسلطة بيننا وبين الغرب ،

ان تعريف المثقف والانتلجسنيا وجد طريقه الى النور هناك من خلال الدفاع عن قضية الديمقراطية بينما ينبغى ان نتلمس تعريف المثقف والانتلجسنيا المصرية تاريخيا من خلال الموقف من قضية الاستقلال الوطنى عن الاحتلال الاجنبى ثم امتدادا من خلال الموقف من قضيـة الاحتلال الصهيـونى لاراضى فلسطين والاراضى العربية الاخرى .

فالموقف من ثورة ١٩١٩ كان هو المحـك الحقيقى فى فـهم دور الانتلجسنيـا المصريـة الحـديثـة والمثقفين . كانت "الجامعة الوطنية" حديثة النشأة انذاك بعد سنوات طوال من رسوخ فكر "الجامعة الاسلامية" وبعد صراعات طائفية وصلت الى حد اغتيال بطرس باشا غالى عام ١٩١٠ على يد الوردانى من الحزب الوطنى والى عقد المؤتمر القبطى فى اعقاب ذلك ثم الرد عليه بمؤتمر المسلمين مما اشاع جوا من التوتر لعبت فيه العديد من العناصر دورا سلبيا وفى مقدمتهم الشيخ عبدالعزيز جاويش من الحزب الوطنى .

● فكرة القومية المصرية

وبينما كان المثقف الاوربى يعرف بأنه "يدس أنفه فيما لا يعنيه" كما يقول سارتر اشارة الى دفاع المثقفين الفرنسيين عن الضابط اليهـودى دريفوس فأن المثقف المصرى كان يعرف من خلال توحده بقضيـة الاستقلال الوطنى . ولعل هذه الحقيقة هى التى جعلت لمثقفى ثورة ١٩١٩ من امثال توفيق الحكيم وحسين فوزى ولويس عوض ونجيب محفوظ سمة واحدة هى التزامهم بفكرة "القومية المصرية" التى حاولوا تأصيلها من التاريخ الفرعونى . ولهذا لم تتسع صدورهم يومـا لدعـوة "القوميـة العربية" التى كانت مزدهرة فى المشرق العربى .

وفى هذا الاطار لعبت عوامل عديدة دورها فى ابعاد المثقفين المصريين عن دعوة العروبة السياسية ، وهى الدعوة الوحيدة التى كان يمكن ان توحد مجتمعات الشام الفسيفسائية والتى تتميز بوجود اقليات متعددة دينية وعرقية مثل السنة والشيعة والعلـويين والـدروز والمـوارنـة والارثـوذكس والـعـرب الاكـراد والارمن .. الـخ . ولان القضيـة الاساسية فى المشرق العربى كانت قضية التحرر من الاحتلال والاستبداد التركى فليس من الممكن ان يكون شعار "الجامعة الاسلاميـة" هو الشعـار المجمع للقـوى الوطنيـة المختلفة ، وانما كان شعار "القومية العربية" هو عنصر التوحيد وفى هذا السياق ايضا تطلع زعماء الحركات الوطنية فى المشرق العربى قبل الحرب العالمية الاولى الى تأييد فرنسا وبريطانيا لدعوتهم وهذا ما تظاهرت به الدولتان فعـلا . ويحكى التاريـخ

الحديث ان العديد من هؤلاء الزعماء كانوا كثيرى التردد على "المكتب العربى" بالاسكندرية ، وهو جهاز المخابرات البريطانية فى الشرق الاوسط الذى كان يتردد ايضا عليه لورانس . فليس من الغريب اذن ان ينظر المثقفون المصريون ـ ومشكلة مصر آنذاك كانت الاحتلال البريطانى ـ والى دعوة القومية العربية بالكثير من الشك والريبة .

فى كتاب لورانس "أعمدة الحكمة السبعة" يحكى كيف ان قوات ماسمى "الثورة العربية الكبرى" والتى كانت تحت قيادته احتاجت الى مدفعية بعيدة المدى لمواجهة المدفعية التركية التى تحمى خط سكة حديد "بغداد ـ المدينة" وانه اقترح على المسئولين البريطانيين ارسال وحدة مدفعية مصرية من الوحدات الرابضة فى الخرطوم . فلما ارسلت الوحدة بالفعل رفض قائدها وجنودها اطلاق النار على الاتراك لانهم مسلمون وكان ان اعيدت الوحدة مرة اخرى الى الخرطوم .

ثم كان هناك اعتبار آخر لعب دوره فى ابعاد مثقفى ثورة ١٩١٩ عن دعوة القومية العربية ، الا وهو الدور الذى اضطلعت به الجالية "الشامية" فى مصر ازاء الحركة الوطنية المصرية ، ولاشك ان تلك الجالية قد لعبت دورا تنويريا عظيما فى ميدان الثقافة والاعلام من صحافة وسينما ومسرح وتبسيط علوم .. الخ ، لكن كثيرا من قيادتها كان وثيق الصلة بالاحتلال البريطانى وفى خدمته سياسيا . ونحن نعلم ان العرابيين ـ وخصوصا عبدالله نديم ـ هاجموا مواقف الجالية الشامية بشدة ووصفوا قادتها بأشنع الأوصاف كما فعل نفس الشيء قادة الحزب الوطنى وخصوصا مصطفى كامل .

● التاكيد على عنصرى الأمة

تلك هى الظروف التى جعلت مثقفى ثورة ١٩١٩ فى مجملهم بعيدين عن الفكر العربى السياسى ودعوة القومية العربية . ولذا لم يكن غريبا ان يتخندق امثال توفيق الحكيم ولويس عوض وحسين فوزى وسلامة موسى فى خندق "القومية المصرية" او ان يسعى بعضهم لتأصيل هذا المفهوم فرعونيا وهو ما يتجلى فى رواية "عودة الروح" لتوفيق الحكيم وفى اعمال نجيب محفوظ الاولى وفى كل اعمال سلامة موسى . وفضلا عن ذلك فقد كانت هناك حاجة شديدة الى تلك الراية "راية الوطنية المصرية" للتأكيد على وحدة عنصرى الامة من مسلمين واقباط بعد الاحداث المأساوية التى جرت فى مصر قبل الحرب العالمية الاولى مباشرة . ولقد تمنيت على كتاب د. غالى شكرى ان يتعرض لهذا الجانب لانه يحكى جانبا هاما عن قصة المثقفين المصريين الحديثة .

ثم هناك أمر آخر ورد فى الكتاب ويتعلق بأزمة كتاب طه حسين "فى

الشعر الجاهلى" الذى صدر عام ١٩٢٦ ، فالدكتور غالى شكرى يرد هذا الموقف المعادى لحرية الفكر الذى تجلى آنذاك الى الاحتلال والاوتوقراطية الملكية ، وفى رايى لا يكفى هذا التفسير لان الاحتلال لم يكن اصلا طرفا فى النزاع الذى تفجر آنذاك حول الكتاب ، وانما الذى يلفت النظر هو موقف دوائر البورجوازية المصرية التى وقفت بشكل عام ضد الكاتب والكتاب واذا قورن هذا بموقف البورجوازيات الاوربية من احداث مماثلة فسوف نجد الفارق شاسعا . ويعود السبب فى ذلك الى عوامل عدة من بينها عدم نجاح حركة الاصلاح الدينى التى بدأها محمد عبده والى طبيعة النمو المشوه للبورجوازية المصرية وخروج معظم عناصرها من عباءة الاقطاع المصرى واثراء الفلاحين وافتقاد وجود صناعة مصرية نامية . على ان النقطة الاخرى التى تستحق الاهتمام هى ان المؤلف قد استنتج ان المجتمع المصرى عام ١٩٢٦ كان اكثر تسامحا فى قضية حرية الفكر منه اليوم وذلك لان طه حسين لم يحاكم ولم يسجن ولم يفصل من الجامعة .

ولقد اشرت من قبل فى مكان اخر الى قناعتى بان هذا غير صحيح . واذا كان صحيحا ان طه حسين لم يحاكم ولم يفصل من الجامعة ولم يسجن فقد كان ذلك يعود الى طبيعة التوازن الوزارى الذى كان قائما انذاك بين الوفديين والاحرار الدستوريين فى الحكم . كان طه حسين رجل الاحرار الدستوريين بلا منازع وكان الاهداء فى هذا الكتاب موجها الى عبدالخالق ثروت قطب الحزب المعروف ووزير الخارجية انذاك ، وكان عدلى يكن زعيم الحزب هو رئيس الوزراء بينما كان سعد زغلول رئيسا لمجلس النواب وكانت هذه الوزارة الائتلافية قد تشكلت بعد صراع طويل لاشتراك هذا الحزب الاخير فى وزارة غير دستورية بقيادة زيور باشا جاءت فى اعقاب استقالة وزارة سعد زغلول بعد الانذار البريطانى الشهير اثر حادث اغتيال السردار سيرلى ستال فى القاهرة عام ١٩٢٤ . وقد ثارت ضجة حول الكتاب بدأها نائب الجمالية الوفدى عبدالحميد البنان ، وهدد فيها عدلى يكن بطرح الثقة بالوزارة ان تقدم المجلس برسالة الى النائب العام حول الكتاب للتحقيق ورفعت الجلسة فى جو متوتر بين سعد زغلول وعدلى يكن ثم انتقلت الاجتماعات الى بيت الامة الى ساعة متأخرة من الليل بحثا عن حل . وكادت الوزارة ان تسقط وينخفض الائتلاف لولا الوصول الى حل فى اخر لحظة . وفى هذا الجو لم يكن امام وكيل النيابة الا ان يحفظ التحقيق بحجة عدم توفر القصد الجنائى . ومع ذلك فان قرار الحفظ امتلأ بالتهجم على طه حسين واتهامه بالجهل والتناقض الى درجة ان طه حسين قدم استقالته

من الجامعة عقب صدور قرار الحفظ لما فيه من اهانة له . لكن الوزير رفض الاستقالة .

ونستطيع ان نقارن هذا الموقف بما جرى للشيخ على عبدالرازق عند صدور كتابه "الاسلام واصول الحكم" قبل ذلك بعام اى عام ١٩٢٥ ، ومع ان المؤلف من عائلة عبدالرازق التى كانت احدى دعامات حزب الاحرار الدستوريين والذى كان ممثلا فى وزارة زيور باشا انذاك بثلاثة وزراء على راسهم عبدالعزيز باشا فهمى الذى كان وزيرا للعدل ، الا ان على عبدالرازق حوكم امام هيئة كبار العلماء التى سحبت منه شهادة العالمية الازهرية وفصلته من القضاء الشرعى ، اى انه لم يحاكم مدنيا وانما حوكم دينيا فى ساحة الازهر كما حوكم جاليليو من قبل فى روما . وما كان من الممكن ان يحاكم على عبدالرازق مدنيا اولا لان عبدالعزيز فهمى هو وزير العدل وثانيا لان الاتهام الموجه لعلى عبدالرازق لم يكن اتهاما بالكفر والالحاد كما هو الحال فى كتاب طه حسين . فاذا كان على عبدالرازق لم يحاكم ولم يسجن فالفضل فى ذلك يعود الى ان حزبا كاملا فى السلطة كان يقف وراءه ، والى ان عبدالعزيز فهمى قد استقال هو وزملاؤه احتجاجا على المحاكمة امام الأزهر "بايعاز طبعا من الملك فؤاد" الامر الذى ادى الى سقوط الوزارة كلها واجراء انتخابات جديدة ساعدت على اعادة التقارب بين الوفد وحزب الاحرار .

● تحالف قوى الشعب

واخيرا اشير الى ان هذا الكتاب الهام قد خصصت خاتمته لبحث الصياغات المعرفية التى عنيت بالعلاقة بين المثقفين والسلطة ، واولها عند المؤلف صياغة "المستبد العادل" على يد محمد عبده او "الكل فى واحد" على يد توفيق الحكيم ، وثانيها هى الصياغة التى تحاول اقامة جسر بين المثقفين والمؤسسة العسكرية ومن اقطاب هذه الصياغة انور عبدالملك ومحمد عودة ، وثالثها هى صياغة "تحالف قوى الشعب العامل" وهى الصياغة التى ازدهرت خلال المرحلة الناصرية خصوصا بعد الميثاق عام ١٩٦٢ .

على ان مايلفت النظر هو نسيان المؤلف لصياغة رابعة عن العلاقة بين المثقف والسلطة ، وهى الصياغة الدستورية والتى تعبر عن جهاد حزب الوفد ومثقفيه خلال العشرينات والثلاثينات ، وهى الصياغة التى كان عباس العقاد معبرا عنها عندما قال بأولوية الدستور على السلطان وادت به مقولته هذه الى السجن تسعة شهور عام ١٩٣١ .

ان هذه الصياغة ، صياغة الولاء لدستور ديمقراطى واولوية هذا الولاء على ولاء السلطان ، تأخذ اهمية خاصة فى ظروف العالم الجديدة وعلى ضوء الانهيارات الكبرى التى وقعت دوليا بل وعلى ضوء خروج مصر من مرحلة الحكم الشمولى والى مرحلة التعدد الحزبى والمعارضة السياسية .



لغز الحضارة
سر الرقم سبعة

بقلم : د . سيد كريم

لغز محير عاصر شعوب الحضارات الانسانية منذ نشاتها رقم عددى سيطر بسره وسحره على عقول البشر .

اتخذه البعض رمزا للخير والتفاؤل الذى بلغ الى حد التقديس بينما لمس فيه البعض الآخر ميلا الى الشر والتشاؤم .

اكتشفوا انه يرمز الى الاضداد اى الخير والشر فى اطار واحد فالسماوات وابواب الجنة اجمعت الكتب السماوية على ان عدد كل منها يخضع للرقم ٧ وفى نفس الوقت وصفت طبقات الارضين وابواب الجحيم وعناصر الشر وكيف بسيطر نفس الرقم على عددها .

فى عالم السحر الذى اشتهرت به مصر فى الدولة القديمة وانتقل عنها الى مختلف الحضارات القديمة اتخذ منه السحرة مفتاحا للسحر الأسود ووسيلة للاتصال بالعالم السفلى بينما استغله البعض الآخر سلاحا لدفع الشر ومفتاحا لعمل الخير فارتبطت طقوس السحر وتعاويذه فى مختلف حالاته بالرقم ٧ .

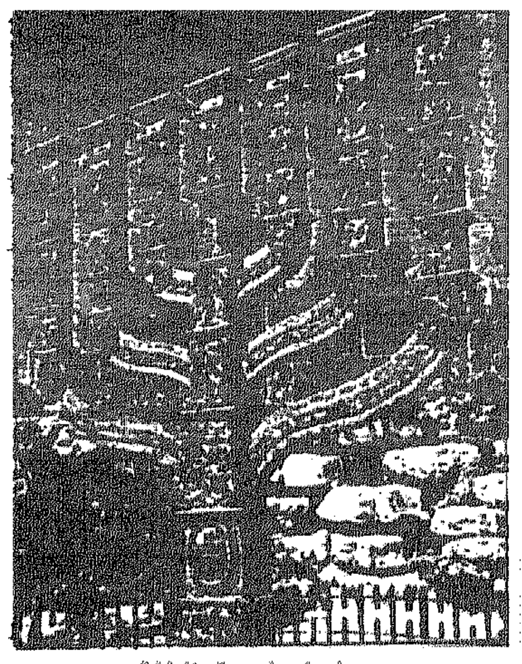
وفى تاريخ الحضارات عندما حاول الباحثون الكشف عن عناصر تكوين عمارة كل منها وجدوا ذلك الرقم السحرى يطل من بين اطلالها . وصفت متون العقيدة البابلية ان العمد التى ترتكز عليها قبة السماء عددها سبعة . كما ان عرش معابد كل من بابل والقدس وروما تتكون من سبعة تلال . وبرج بابل عدد درجاته سبع وحدائق بابل المعلقة عددها سبع كما ان هندسة بناء الاهرامات يلعب الرقم سبعة فى كثير من نظريات بنائها الانشائية والهندسية .

وسور الصين العظيم يتكون من سبعة اضلاع بكل منها برج للمراقبة

اطلق عليها ابراج الدفاع السبعة .
كما ان اسوار المدن التاريخية القديمة ومن بينها القاهرة لكل منها سبعة ابواب .
وعندما حاول مؤرخو الحضارات حصر صروح العالم القديم حددوا عددها مجتمعة بسبعة رغم تباعدها زمانا ومكانا واطلقوا عليها اسم عجائب الدنيا السبع وهي الأهرامات ومنارة الاسكندرية وحدائق بابل المعلقة وتمثال زيوس في اولمبيا وتمثال كلوراوس في رودس ومعبد ارتيميس وتمثال زيوس - ولا يخفى ان الأهرامات هي اقدم العجائب السبع كلها وهي الوحيدة التي بقيت صامدة حتى الآن ، ويليها تمثال كلوراوس في جزيرة رودس وكان مصنوعا من البرونز ويرمز إلى زيوس اله الشمس عند الفراعنة وقد اقاموه في مدخل الميناء كان ارتفاعه ١٠٠ قدم وانتهى امره الى الدمار بسبب زلزال وقع عام ٢٢٤ ق . م .

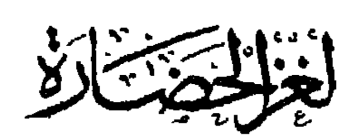
ولما كان الرقم سبعة قد ورد في كثير من الوصايا وتعاليم الشرائع بالكتب السماوية فقد انتقل ليحتل بدوره في اقوال الحكماء التي توارثتها الشعوب وتناقلتها الأمثال الشعبية التي تعيش في وجدانهم كما وجد له منفذا الى الادب القصصي واساطير من قديم الزمن .

ففي قصص الاساطير الفرعونية والاغريقية والبابلية يصبح الرقم ٧ عاملا مشتركا في كثير منها كاسطورة ملك الملوك والكلاب السبعة الحارسة والتي تعبر عن اله السماء والنجوم



● مشعل شجرة الخلق ..
شعلة النور الدائم ..

السيارة الحارسة وقصة جزيرة الشيطان والثعبان ذي السبعة رءوس وشجرة الحب ذات الاغصان السبعة والتي يقف على كل فرع من فروعها سبعة من الطيور المغردة وزهرات اللوتس السبعة التي تتراقص في بحيرة الحب عندما يحتضنها النسيم وينقل لها اخبار الحبيب الغائب ، وغيرها من قصص الحب الفرعوني .
وانتقل الرقم ٧ الى ادب القصة الحديثة ابتداء من قصة الأميرة والأقزام السبعة وقصص افلام جيمس بوند التي اختار لها مؤلفها فلمنج اسم العميل رقم ٧ وعندما سئل فلمنج عن سر اختياره لهذا الرقم قال انه يتفاءل بهذا الرقم لأن اسمه شخصيا مكون من سبعة احرف كما ذكر انه اكتشف ان روسيا اختارت نفس الرقم كشفرة في مخابراتها السرية وخط تليفونها الساخن .



وكان لسيطرة ذلك الرقم على معتقدات الشعوب منذ فجر الانسانية حتى يومنا هذا واجماع الكثير منهم على تاكيد قدسيته.

لقد جذب ذلك الرقم السرى اهتمام كثير من علماء العصر الحديث وهم يحاولون كشف اسراره بوسائلهم التكنولوجية فى مختلف مجالات تخصصهم العلمى

يتوصل عالم الفلك والطبيعيات سيرام فى ابحاثه الخاصة بكشف العلاقة بين الظواهر الطبيعية ومكونات الكون وفى مقدمتها مكونات الأجرام السماوية او خلق السموات وطبقات تكوينها والتى اجمعت الكتب السماوية على ان عددها سبعة. اكدت نتائج ابحاثه ان ذلك الرقم يعبر فعلا عن التقسيم الطبقى لدرجات المادة الكونية وهى طبقات:

الصلابة والسيولة والغازية والأثيرية وفوق الأثيرية ودون الذرية ثم الذرية وعددها الثابت سبعة ويشترك علماء الروحانيات كل من فردريك مايرز وكونان دويل عن طريق مخاطبة علماء موثوق بهم من الراحلين وتتفق ابحاثهما فى ان الأرواح تنتقل الى العالم الآخر خلال سبع مراحل عبر سبع سماوات وهى مستوى العالم الأرضى ثم مستوى انعدام الوزن ومستوى العالم الكوكبى وعالم الالهام وعالم الجوهر ثم العالم الالهى.

ويؤكد علماء المصريات بأن ذلك التقسيم يتفق مع الأوصاف التى وردت فى كتاب الموتى الفرعونى فى رحلة العالم الآخر.

● عقيدة التوحيد المصرية القديمة وسر الرقم ٧:

كان المصرى اول من قدس الرقم ٧ مع نزول اول رسالة للتوحيد عرفتها البشرية فى عصر ما قبل الأسرات فاتخذ الرقم ٧ رمزا للخلق ونشاة الحياة عندما خلق الاله الكون فى ستة ايام واستوى على العرش فى اليوم السابع والتى تصف المراحل السبعة بان الاله الأعظم (اتوم رع) خلق نفسه بنفسه. ومن انفاسه خلق عناصر الكون والوجود الستة فخلق الفضاء والأرض فى اليومين الأولين فاندمجا فامرها بالقوة والطاقة لينجبا عناصر التكوين الأربعة وهى العطاء والخصب والخير والشر وفى اليوم السابع انزل الروح لتبدأ الحياة.

« قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين وتجعلون له اندادا ذلك رب العالمين. وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها وقدر فيها اقواتها فى اربعة ايام سواء للسائلين.. ثم استوى إلى السماء وهى دخان ... » "فصلت" كما اجمعت جميع الكتب السماوية والرسالات التى نزلت فيما بعد على خلق الكون فى ستة ايام واستواء الاله الخالق على العرش فى اليوم السابع.

وارتبط الرقم سبعة المقدس بسر الوجود فعناصر الخلق ومكوناته فى وصفهم تخضع لذلك الرقم المقدس والاله خلق السموات وعددها سبع

واعطى لكل سماء اسما ووصفا وطبقات الارض مثلها والبحار العظيمة التى خرجت منها الحياة عددها سبعة والجبال أو أعمدة أركان المعمورة تحمل نفس العدد .

كما وصفوا البعث ورحلة الروح ومراحل انتقالها الى العالم الآخر وعددها سبع مراحل تمر خلالها عبر بوابات السماء السبعة حتى تصل الى البرزخ الذى ترسو عنده سفينة الروح (سفينة الشمس) وتدخل الروح منه الى قاعة محكمة الآخرة لتقف امام الميزان فى حراسة الشهود السبعة ومن بينهم .

تحوت - رننوت - ونبيت والقرد والوحش ويحمل كل منهم صفة من صفات تسجيل حركة الميزان ويجلس على احد جانبى قاعة المحكمة القضاة الاثنان والاربعون فى ست مجموعات تعبر عن ايام الخلق الستة وعدد قضاة كل مجموعة سبعة .

وينتقل كتاب التوحيد ليصف طبقات الجنة أو الجنات السبع :

١ جنة الموحدين اتباع حورس
٢ جنة الابرار والمطهرين
٣ جنة الحكماء والمعلمين ؟
٤ جنة شهداء حرب العقيدة
٥ جنة القديسين
٦ جنة الملائكة والرسل
٧ جنة النور (عرش الاله)

ووصفوا كل جنة من تلك الجنات وما بها من مغريات بما لا يختلف عما ورد ذكره ووصفه فى مختلف الكتب السماوية .

ويقف على باب الجنة الحور السبع المجيبة التى تستقبل داخل الجنة وتقوم بخدمته وتلبية رغباته ويعبر عن الحور فى كتاب الموتى بالبقرات السبع الجميلة .

وأبواب الجحيم سبعة يحرسها سبعة زبانية .

ولعنة السماء سبع سنين وهى سنوات القحط والجفاف وقد سجل التاريخ الكثير منها من بينها السنوات العجاف التى حلت بمصر فى عهد سيدنا يوسف .

● تقديس الذهب

وفى علوم المعرفة كان المصريون القدماء اول من كشف ان الوان الطيف سبعة التى تجمعها شعة الشمس والتى يظهرها نور الاله (قوس قزح) انفراج الاشعة الذهبية لذا قدسوا معدن الذهب لان لونه يجمع بين الوان الطيف السبعة لذا فهو المعدن الوحيد الذى لايبلى ولا يفنى كما انهم كانوا اول من كشف السلم الموسيقى ودرجاته السبع فصنعوا من اوتاره قيثارة الوحى ذات الأوتار السبعة . وناى غلب النيل بثقوبه السبعة .

وعلم الفلك الذى كانوا يحاولون بواسطته كشف اسرار الوجود وما يرتبط به من علوم المعرفة المقدسة التى تحتفظ باسرارها قبة السماء . كشف لهم علم الفلك الكثير من اسرار الرقم ٧ ودوره المؤثر فى الرياضيات والطبيعيات والهندسة والفنون .

ففى عصر الاهرامات الذى نادى فيه « ايمحوتب » الذى حمل القاب رسول العقيدة واله الطب والأب الروحى للعمارة والفنون . بدا رسالته بتوحيد الاله والجمع بين العلم والايمان فكان اول من استعمل الحجر فى البناء فى



تاريخ الحضارة المصرية ووضع نظريات فن البناء التى ترتكز على المعادلات الرياضية المستمدة من الفلك والتى تدور معظمها حول العدد ٧ المقدس .

كان ايمحوتب أول من استعمل الحجر فى البناء فى تاريخ الحضارات وبنى أول هرم رمز به إلى عقيدة التوحيد وهو هرم سقارة المدرج ، رمز بدرجاته الى ايام الخلق الستة وعرش الاله فى اليوم السابع ولذا فقد اطلق على الهرم المدرج فى برديات متون العقيدة اسم سلم الصعود الى عرش الاله والانتقال خلال السموات السبع .

كما وضع ايمحوتب نظريات بناء الاهرامات العظيمة جميعها وفقا لنظريات رياضية وانشائية علمية متطورة لازال علماء العصر التكنولوجى الحديث يحاولون كشف اسرارها وقد ذكر ايمحوتب فى مقدمتها أن الشكل الهرمى نفسه تمثل قاعدته المربعة أعمدة أركان المعمورة الاربعة وواجهاته المثلثة الشكل تمثل قوى الاله الكونية الثلاثة وبذلك يكون الشكل الهرمى الذى تتجه قمته نحو قبة سماء يرمز الى ايام الخلق السبعة تى تمده بالقوة الكونية التى يقاوم بها الهرم عاديات الزمن .

ولا يخفى ان الأهرامات وهى اقدم عجائب الدنيا السبع كلها هى الوحيدة التى بقيت صامدة حتى الآن .

وبالفلك رصدوا النجوم السيارة حارسة الشمس فوجدوا ان عددها سبعة فاطلقوا عليها اسم الملائكة السبعة التى تحرس الشمس وهى المشترى والزهرة وزحل وعطارد والمريخ وقائدى الحراسة الأرض والقمر وهى الكواكب التى تخط مصير الانسان خلال دورتها فى البروج السماوية ووضعت اساس علم التنجيم .

ومن نفس اسماء الآلهة السبعة التى اطلقها المصريون القدماء على الكواكب الحارسة اتخذ العالم الحديث فى مختلف لغاته الحية نفس الأسماء ليطلقها على اسماء ايام الأسبوع السبعة بترتيبها الذى لم يتغير .

انتقل الاهتمام بالرقم ٧ لقدسيته ، من العقيدة الى نظام حياة المجتمع نفسه ففى المعابد قسموا درجات الكهنوت الى ستة درجات يراسها الكاهن الاكبر والأب الروحى (اور - ملو) يتبعه ست مراتب من الكهنة ١ - حرعب (الكاهن المبجل) ٢ - واعب (المرتل) ٣ - ختم نتر (المرشد) ٤ - اتف نتر (المعلم) ٥ - ايموسيما (الأمين) ٦ - اودود (المؤقت) - وهو نفس التنظيم الذى انتقل الى اليهودية والمسيحية .

رقم ٧ فى العسكرية الفرعونية

فى مجال العسكرية فى مصر القديمة كان للرقم سبعة دور مرموق فى تاريخ الحضارة العسكرية مع بدء ظهور الجيوش وتنظيماتها العسكرية والتى بدات قبل عصر الأسرات . نصف الأساطير أول المعارك المصرية التى قام بها القائد نعرمر (مينا) بزحفه

المقدس بقواته المكونة من سبع فرق والتى وحد بها القطرين بتوحيد العقيدة فى سبعة أشهر فرض فيها عقيدة التوحيد فى المعابد السبعة بالوجهين القبلى والبحرى ونصب نفسه ملكا على مصر مؤسسا لأولى اسراتها .

فى عالم الطب الذى اشتهر به الفراعنة ونقله عنهم العالم القديم الذى اتصلت حضاراته بمصر نرى انهم قسموا الثقافة الطبية الى سبعة اقسام بدءا بالطب العضوى وامتدادا الى الطب النفسانى والبشرى والصيدلة - يدرس كل فرع من فروعها فى جامعة خاصة او بيت من بيوت الحياة .

كما وصف برديات ايمحوتب . اله الطب - فى الدولة القديمة : ان الجسم البشرى مكون من سبعة اعضاء مرتبط بعضها ببعض من ناحية الاصابة بالأمراض ووسائل العلاج كما ربطوا كيان الوجود الانسانى بالرقم ٧ المقدس فالجنين يتكامل تكوينه فى بطن الأم فى سبعة اشهر ومراحل تطور نموه من الطفولة الى الشيخوخة سبع مراحل طول كل منها سبع سنين بالتمام .

وفى طب العيون اكتشفوا ان شبكية العين تتكون من سبع طبقات وان حدقة العين تتغير بين سبعة اشكال يمكن عن طريقها تشخيص نوع المرض الذى يصيب الجسم .

وفى مجال التشريع كون الفراعنة اول مجلس للتشريع يتكون من سبعة من كبار الكهنة بمعبد اون لوضع التشاريع والقوانين المدنيـة وفقا لتعاليم السماء ويعتبر اول مجلس للشورى عرفه العالم وهو المجلس الذى نقل نظامه وعمله الحكيم سولون بعد عودته من مصر واطلق عليه اسم مجلس حكماء اثينا السبعة المكون من (سولون وتاليس وبيتاكوس - وبياس وكليوبولس وشيلون وبرياندر) ونسب مؤرخو عالم الغرب الى سولون بانه اول من وضع اسس مجالس التشريع والشورى للعالم بينما مجلس تشريع الفراعنة سبقه بالفى سنة .. وكون الاسلام مجلس فقهاء المدينة السبعة الذين اطلق عليهم رواة الفقه الاسلامى فكان اول مجلس للشورى والتشريع فى الاسـلام يقـول فيثـاغـورس عـالـم الرياضيات ان جميع الكائنات فى السماء والأرض يخضع نظامها لأرقام عددية يكمن فيها سر خصائصها وقد اعتبر المصريون الرقم ٧ مقدسا لارتباط اسرار القوى الكامنة والمحركة فى معظم الكائنات به وان الكثير من اسرار المعرفة المقدسة ومصدرها مرتبط بذلك الرقم المقدس الذى يحتفظ كهنة المعرفة باسراره .

رقم ٧ فى الاساطير

انها تحكى اساطير الاولين كيف حاول ابرهة هدم الكعبة بجيشه الذى تتقدمه سبعة افيال ضخمة فنزلت عليه لعنة السماء بصواعقها واعصارها التى استمرت سبع ليال وسبعة ايام انتهت بالقضاء على جيش ابرهه وافياله السبعة .

وقد ورد ذكر الافيال السبعة فى البوذية وهى الافيال المقدسة التى تحرس معبد الاله وتنقش صورتها على كثير من التمائم التى يتبارك بها البوذيون كما ورد ذكر الرقم ٧ فى كثير



من متون العقيدة وكتاب الاختام السبعة (كتاب بوذا المقدس) فيشرح ان بوذا خطا سبع خطوات عند مولده ثم سار سبع سنين في البحث عن الحقيقة حتى وجدها في زهرة اللوتس المقدسة ذات السبع ورقات والتي يتخذ منها البوذيون رمزا للتفاؤل .

تتكون جنة البوذيين من سبعة اسطح يرتكز سطح كل منها على طبقة من طبقات السماء العليا ، كما يتكون الجحيم من سبع طبقات سفلى تحت الارض وهو ما يتفق مع كثير مما ورد في كتاب التوحيد الفرعوني وورد ذكره في جميع الكتب السماوية التي نزلت فيما بعد .

ويحصر بوذا الخطايا في رسائله في سبع او الخطايا السبع وهي الحقد والحسد والغيرة والغضب والنميمة والجشع والغرور او التكبر كما يشترك الرقم ٧ في كثير من طقوس العبادة البوذية وتقاليدها .

● قصص الانبياء وكتب السيرة

ففي قصة سيدنا نوح استمر بناء السفينة سبع سنين وكانت ابعادها ومكوناتها التي تلقاها من السماء ترتبط جميعها بالرقم ٧ .

وانحسر الفيضان العظيم بعد سبعة ايام .

● هرم سقارة المدرج ٧ درجات ايام الخلق سلم الصعود الى عرش الاله في السماء . خلق الاله الكون في ستة ايام ، ثم استوى على العرش في اليوم السابع ليشع نوره على الكون وتبدأ الحياة بالحركة (كتاب الموتى)

وغابت حمامة نوح لتعود بعد سبعة ايام حاملة غصن الزيتون الذى اتخذ منه العالم رمزا للسلام .

ويلقى سيدنا ابراهيم الغدر والعذاب من قوم اهل كنعان سبع سنين امره الاله بعدها بالهجرة الى مصر .. البلد الامن لتقضى بها سبع سنوات قبل ان يغادرها حاملا رسالة التوحيد ليصبح "ابو الانبياء" . كما قضى لوط معه تلك السنوات السبع على ارض مصر .

وقد ساير الرقم ٧ قصة سيدنا يوسف حيث قضى فى السجن سبع سنوات خرج بعدها ليفسر حلم السنابل السبع والبقرات السبع السمان والسبع العجاف وسنوات القحط السبع ومثلها سنوات الرخاء .

وعاش يوسف فى معبد اون معبد العقيدة سبع سنوات تزوج بعدها من اسنات ابنة الكاهن الاكبر للمعبد . وقضى هود سبعة ايام فى بطن الحوت كما قضى يعقوب سبع سنوات فى البحث عن ليا وراشيل .

● الاسلام وخصائص العدد ٧

تعرض القرآن الكريم للعدد سبعة واحتواه فى اكثر من موضع وسورة وآية . بدأت فاتحة القرآن بالفاتحة وتتكون من سبع ايات . اعقبها بالشهادة «لا اله الا الله محمد رسول الله» وتتكون من سبع كلمات كل كلمة منها تغلق بابا من ابواب الجحيم السبعة .. والقرآن الكريم مكون من سبعة اسباع .

اما خاصية السبع فانها وقعت قدرا وشرعا فخلق الله عز وجل السماوات سبعا وفوقها سبع طرائق . والبحر يمده من بعده سبعة ابحر والأرضين سبعا والايام سبعا والانسان كمل خلقه فى سبع اطوار .

ويقول الحديث الشريف ان هذا القرآن انزل على سبعة احرف . وهى المعانى السبع فى كتاب الله . (الأمر والنهى والوعيد والقصص والامثال والمجادلة) بينما يفسرها البعض الآخر بانها تعنى اللغات السبع التى وردت بعض كلماتها فى القرآن وهى الفرعونية والسريانية والعبرية ولغة قريش الخ كما ينسبها البعض الآخر الى القراءات السبع المعروفة . وتشير جميع التفسيرات الى مكانة الرقم ٧ العددى وخصائصه فى كل ما يمت الى اسرار الوجود .

ولا يخلو العديد من احاديث الرسول من ذكر العدد سبعة من بينها فى حديث الصحيحين «من تصبح بسبع تمرات من تمر العالية لم يضره ذلك اليوم سم ولا سحر .

لقد انتقل الرقم ٧ الذى رمزت اليه الرسالات السماوية ومعتقدات الشعوب الى «الخلق واسرار الوجود» انتقل ادب الحكمة والامثال التى توارثتها الشعوب . انتقلت الى مختلف نواحى الادب الشعبى من حكم وامثال وقصص واساطير واغان مما لا يدخل تحت حصر لازالت جميع الشعوب تتداولها الى اليوم .

واتخذ العالم من الرقم ٧ علامة للتفاؤل ورمزا للنصر .

ليس من عادة "الهلال" أن يمتدح نفسه ، أو حتى يعدد مزاياه ، لكنه مضطر هنا ، وهو يعرض لهذه القضية التي اضحت مثارة على نطاق واسع ، أن يؤكد على عدة حقائق :

● أولى هذه الحقائق : أن "الهلال" انتبه لقضية دار الكتب المصرية ، والحال التي وصلت اليها ، منذ عدة سنوات مضت ، وحتى لاتصبح المسألة : "نرجسية مرذولة" ، نكتفي بالاشارة لمقالين :

- اولهما مقال لاحد كتابه الدائمين ، وهو عالم جليل يشهد له الجميع بالحيدة والانصاف ، والغيرة على قضايا الوطن الثقافية والادبية ، هو الدكتور الطاهر احمد مكي ، الذي نشرت له الهلال في سبتمبر ١٩٨٨ مقالا بعنوان : "دار الكتب ودورها الثقافي .. من ينقذها من الخراب والتخريب" ..

- ثانيهما : مقال لرئيس تحريرها "يوليو ١٩٨٩" يحمل عنوان "نحو نهضة فكرية اداتها العقل والخيال" ، تناول فيه قضية دار الكتب ، من منظورها الاعم والاشمل ، وفي اطار اشكالية النهضة الفكرية المرجوة .

● الحقيقة الثانية : أن الهلال حينما اثار هذه القضية في حينه ، اثارها من باب الغيرة الوطنية على احد معاقل ثقافتنا التى ظلت : "ولسنوات طويلة ، معلما شامخا من معالم مصر الحضارية ، شأن الاهرام وابى الهول والازهر والجامعة" .. ولم يكن يقصد قط الى توجيه سهامه الى شخص بعينه ، أو جهة ما .

● الحقيقة الثالثة : أن الهلال أراد وهو يستعرض جوانب المشكلة أن يذكر على الخصوص ، تردى ما أسماه "بالتقاليد" التى رأى أن لها "اثرا بالغا فى

الهلال يفتح ملف



الأدباء والمثقفون يقدمون شهاداتهم

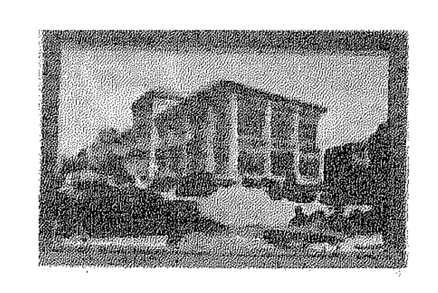
ماهى المشاكل ؟ ماهى الحلول ؟

سلوك العاملين ، وتسيير دفة العمل ، والحيلولة دون الخطأ والاهمال ، فهدمنا هذه التقاليد العظيمة فى دار الكتب ، ولم نقم على انقاضها ، تقاليد جديدة صالحة ، لأن من فيها يفتقدون القدرة ، وهي العامل الاول فى التقاليد العظيمة" ..

● الحقيقة الرابعة : أن الهلال وهو حتى يعرض للمشاكل التفصيلية التى آل اليها حال دار الكتب ، كالخدمات المتردية ، والاداء السيىء فى تقديم المساعدة للعلماء والباحثين ، وضياع دورها فى عدم تحديد من تقدم له يد المعونة ، هل هو مجرد القارىء العادى ، أم هؤلاء العلماء والباحثين وما آل اليه ايضا دورها العظيم السابق بالنسبة لتحقيق التراث ، ووضع الدوريات التى تضمها والتى تبدد اغلبها ، ولم ينم ماظل فيها بجديد ، نقول ، والهلال حين عرض لكل هذه المشاكل وغيرها ، إنما كان يدعو فى الاساس الى "اصلاح عاجل وجذرى يعيد لدار الكتب امجادها القديمة" ، فى اطار من أن دار الكتب ، فى اى بلد متحضر ، هى منارة العلم والثقافة ، ودليل تحققهما فى المجتمع ، وأن "الثقافة فى نهاية الامر تعنى تكوين نظام عقلى دقيق يعتمد فى المقام الاول على غرس الروح العلمية" ، وصولا الى أن "يرتفع فى المجتمع صوت العقل والحكمة ، ويتمدد طريق المنافسة والابداع والمبادرة من اجل الوصول الى حلول المشاكل القائمة" .

فى هذا الاطار ، العلمى والثقافى ، والمبنى على الغيرة الوطنية ، يقوم الهلال مرة أخرى بفتح ملف "دار الكتب المصرية" ، من جديد بمشاركة عدد لاباس به من المثقفين والعلماء ، الذين يقدمون شهاداتهم ، ليدفع بالقضية خطوة أخرى للامام .







جـزء خـاص

احب ان اعرفها باسمها التاريخي العريق ، الذى تحمله عشرات المصادر الرئيسية التى نشرتها ، والاف الاحالات فى الابحاث والكتب التى افادت منها ، عربية واجنبية ، والذى حملته منذ اعوامها الاولى ،واتمنى ان تظل عليه إلى الابد ، فالأغنياء المحدثون فى المجد والحضارة والثقافة ، هم الذين يغيرون اسماءهم والقابهم ، وحتى ضمائرهم ، ويهربون من تاريخهم الوقور العريق ، ربما إلى حاضر براق فى مظهره ، ولكنه خاو فى اعماقه ومحتواه .

دار الكتب المصرية إحدى القمم الشامخة فى بلادنا ، واراها إلى جانب مؤسسات ثقافية اخرى فى تاريخنا المعاصر اشبه بالاهرام ، وإن كانت هذه تذكر بامجاد خلت ، وتلك تصنع ، إذا حافظنا عليها وحميناها من العبث ، امجادا انية ومستقبلية .

وجيلى الذى شهد دار الكتب فى أوج مجدها ، وكون ثقافته بين قاعاتها ، وعاش على ماكانت تقدمه له من زاد ثقافى رفيع ، عن طيب خاطر وفى ود حنون ، يروعه ان يشهد ما انتهت إليه ، وأن يقف منها موقف اللامبالى وهو يرى العبث والاهمال والضياع والتخريب تتخطفها من كل جانب ، ومن هنا فقد أسعدتنى صرخة الدكتور شعبان خليفة ، فى كتابه « دار الكتب القومية فى رحلة النشوء والارتقاء والتدهور » سعادة بلا حدود ، بما قدم من معلومات باهرة عنها يوم كانت مجدا ، وماهى عليه الآن مخزنا معتما بلا صاحب ، وهيكلا ليس فيه من الحضارة إلا الجدران الخارجية التى تحيط به ، وسعدت اكثر واكثر بالايجابية التى اتسم بها الكتاب ، فهو صرخة عالية مخلصة ، من متخصص عارف ، آثر الا يصمت ، فالساكت عن الحق شيطان أخرس ، ومن عجب أن صرخته الأولى كانت قبل ذلك بعشرين عاما تقريبا ، ولكنها ضاعت ، ولو استجاب له أحد يومها ، لو فكروا معه ، لأنقذنا هذه الدار العظيمة من الخراب .

ولم تتوقف صرخات الآخرين المخلصين ، واذكر ان مجلة الهلال افسحت



بقلم : د . الطاهر أحمد مكى

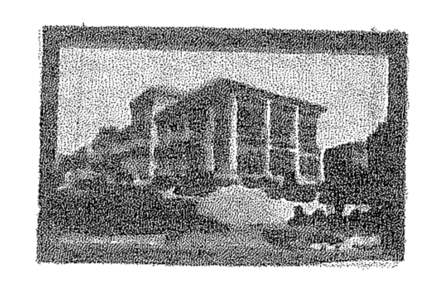
لى صدرها منذ أعوام قريبة ، لأذكر بما يجرى فى قاعات دار الكتب من إهمال مريع ، ومن استهتار بشع بجمهور المترددين عليها ، ومن إضاعة لوقت العلماء وطلاب البحث ، حين يمضون ساعات وساعات فى انتظار كتاب أو دورية أو مخطوطة ، ثم يجىء الرد بالسلب : لأن الكتاب فى التجليد ، أو بدعوى أنه متهالك ، أو مع قارىء آخر ، أو لايوجد ، وألف عذر وعذر لاتقوم على أساس ، ومنظر فرعها فى باب الخلق ، وكان الأصل ، فى شهور الصيف بخاصة ، والموظفات منهمكات فى شغل الابرة ، وأطفالهن يجرون فى القاعة بحرية كاملة ، ويعبثون بالكتب علانية ، يتخاطفونها ويلعبون بها ، دون أن تقول واحدة لابنها : « لاياولد عيب » ، جارح لمشاعر أى إنسان متحضر ، أو به بقية من ولاء لهذا الوطن ومايملك .

وهناك من العبث مايبلغ حد الاساءة إلى مصر نفسها ، وتشويه سمعتها ، وإلا فليفسر لنا أى عبقرى فى دار الكتب : كيف يرفض تصوير مخطوطة فى دار الكتب لباحث وافد ، عربى او اجنبى ، ومنها نسخ اخرى فى بقية مكتبات العالم ، إلا بعد موافقة مباحث أمن الدولة ؟ .

ماشأن جهة الأمن بتصوير المخطوطات ؟ . ولكن ذلك بعض مايحدث فى دار الكتب ، ولست أعرف أن هذا التظلم الغي ، وإن كنت أعرف أن الباحثين العرب قد انصرفوا فى جملتهم إلى مكتبات أخرى فى العالم . وحين تعوزهم الضرورة إلى مخطوطات دار الكتب فهناك أكثر من طريق ملتو ، ويسىء إلى سمعة مصر والدار نفسها ، ويمكنهم عن طريقه أن يحققوا كل مايريدون ، وهو طريق يلجأ إليه بعض المصريين أيضا ، وكاتب هذه السطور منهم ، حين يريدون تصوير شىء ، احتراما لوقتهم وحفاظا عليه .

● قبلة الدارسين

انشأ على مبارك دار الكتب المصرية عام ١٨٧٠ ، أى قبل دار العلوم بعام واحد ، وجمع فيها الكتب المبعثرة فى المساجد والزوايا والتكايا والمدارس



ومخازن الأوقاف ، وخصها الخديو إسماعيل بكامل رعايته ، وجعل من قصر أخيه مصطفى فاضل فى درب الجماميز مقرا ، وأوقف عليها عشرة آلاف فدان ، وأنشأ الخديو توفيق مبناها الجديد فى باب الخلق ، ولايزال قائما حتى يومنا هذا ، وانتقلت إليه دار الكتب عام ١٩٠٤ ، وأصبحت قبلة الدارسين من كل حدب وصوب ، ومعلما تحرص مصر على أن تضعه فى برامج كبار زائريها من الملوك والرؤساء .

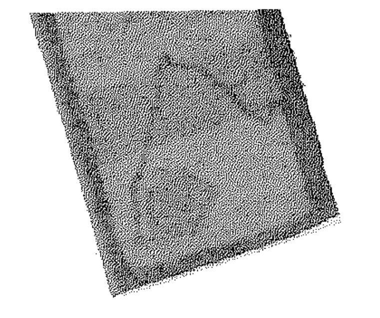
وحرصت الحكومات المختلفة فيما قبل الثورة على تنمية المكتبة وتدعيم مكانتها ، وتأكيد استقلالها ، ومضاعفة مقتنياتها ، حتى غدت مكتبة قومية لكل العالم العربى ، « تجمع تراثه الفكرى وتنظمه ، وتقدمه للعلماء والباحثين ، وتحفظه للأجيال المتعاقبة » .

● بداية التدهور

وكان يمكن أن تجد دار الكتب فى عهد الثورة من الرعاية ماوجدته مؤسسات أخرى كانت قائمة ، وأخرى قد استحدثت ، وكان الأمر كذلك فى السنوات الأولى ، وحدث أن أنشأت الدولة فى نطاق تحديث المؤسسات الثقافية « دار الوثائق التاريخية القومية » عام ١٩٥٤ ، وهى مؤسسة مهمة تأخر قيامها رغم الحاجة القصوى إليها ، لامداد الباحث المعاصر بما يحتاج إليه من وثائق وأرقام وإحصاءات ، ولكن شيطانا خفيا أراد أن يدمر دار الكتب ، فأوعز فى عام ١٩٦١ بدمج المؤسستين فى كيان واحد يحمل اسم « دار الكتب والوثائق القومية » وجاء ذلك فى الفترة العصبية من حياة مصر السياسية ، عام الانفصال وقيام اللجنة العليا لتصفية الاقطاع والملاحقات والاعتقالات ، فلم يجرؤ أحد على الاعتراض ، أو رفع صوته ضد هذا التخريب .

ويعلق الدكتور شعبان خليفة فى كتابه القيم الذى أشرت إليه على هذا الوضع فيقول :

« هذا الوضع الشاذ لانظير له فى أية دولة من العالم القديم والحديث على السواء ، ذلك أن للمكتبة الوطنية وظائفها وتخصصها ومصادر المعلومات التى



تتعامل معها ، ولدار الوثائق وظائفها وتخصصها والمحفوظات الصائبة التى تتعامل فيها . وكان هذا الضم معا أول كارثة تقع على دار الكتب المصرية ، فقيدت حركتها ، وشلت فاعليتها ، وأثقلت بأحمال وأعباء ناءت بها » .

وكأن هذه الكارثة لم تكف عباقرة تخريب كل ماهو جميل فى هذا البلد فأضافوا إليها كارثة أخرى بضم « الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر » إلى « دار الكتب والوثائق القومية ، وخرج من هذا المزج العجيب مسخ لا لون له ولا طعم ولا رائحة ولاهدف اسمه « الهيئة المصرية العامة للكتاب » .

« والوضع الجديد ليس شاذا فحسب ، ولامثيل له فى أى مكان فى العالم الشيوعى أو الاشتراكى ، أو الرأسمالى ، ويدعو إلى السخرية لعدم وضوح الرؤية والتخبط »

« فدار الكتب وظيفتها جمع التراث الفكرى المعنوى وتنظيمه ووضعه فى خدمة الباحثين والدارسين والقراء .

« ودار الوثائق وظيفتها جمع المحفوظات والمستندات الأرشيفية ووضعها فى خدمة المؤرخين الذين يكتبون تاريخ الدولة .

« أما الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر فوظيفتها نشر الكتب والاتجار فيها ، فكيف إذن تجتمع التجارة والخدمة فى كيان واحد .

« وكيف تجتمع المكتبة والأرشيف ومتجر الكتب فى كيان واحد ، وقعد الكيان الجديد بأعمدته الثلاثة قعودا تاما ، واختفت قلعة فكرية ظلت طوال قرن من الزمان (١٨٧٠ - ١٩٧٠) منارة للعالم العربى وذاكرة له .

« وفى ظل الانفتاح كان لابد للتجارة أن تطغى على المنارة ، وتنكمش خدمات المعلومات ، وتمتد خدمات المال وإدارة الأعمال » .

● توقف التجديد

وحينما تنهار مؤسسة ، وتعجز عن الحفاظ على كل ماورثته من مجد باذخ ، وماشادته على امتداد قرن من تقاليد عريقة ، وتتحول إلى مخزن كتب سيىء بلا صاحب ، فالنتيجة الحتمية أنها تعجز عن التفكير فى المستقبل ، وعن

تحديث أجهزتها وتطوير خدماتها ، والافادة من منجزات العلم الهائلة والتقنيات المذهلة فى الفهرسة ، والاعارة والتصوير والخدمات الأخرى المختلفة ، وهو أمر لم يعد وقفا على الدول العظمى وحدها ، ولايتطلب نفقات هائلة ، وإنما نجده فى مكتبات شعوب عربية لايزيد عمرها فى التحديث على عشرين عاما ، أعنى بذلك مكتبة الجامعة فى سلطنة عمان ! .

● امنيات بلا نفقات !

والآن ماذا نتمنى وسط الكوارث والخراب الذى يحيط بدار الكتب من كل جانب ؟

● نتمنى دار كتب قومية مستقلة فى إدارتها وميزانيتها ، وموقوفة على طلاب البحث من العلماء والدارسين ، وتقوم على العناية بالتراث القومى وحفظه ، وتيسير ماعند الآخرين ، وعلى رأسها شخصية عظيمة ، تتمتع بالمهابة العلمية والثقافة الواسعة ، وبصلاحيات واسعة ، ولابأس أن يكون فى درجة وزير ، ألا تساوى دار الكتب فى أهميتها محافظة الوادى الجديد مثلا ؟ .

● وأن يشمل نشاطها الكتاب والمخطوطة والدورية ، على أن يكون كل واحد منها مستقلا ، على رأسه متخصص فى طبيعة القسم ونشاطه ، وهذه الأقسام الثلاثة تتمتع فى نطاق دار الكتب نفسها بشىء من التميز ، ويضمها جميعها مجلس أعلى ، لأن متطلبات كل قسم تختلف عن البقية .

فالقسم الخاص بالكتب يقوم بتيسير الكتاب المطبوع فى مصر وتملكه ، وتصبح فهارسه دليلا عمليا على ماطبع فى مصر ، ولايكتفى بهذا ، وإنما يلهث وراء الكتاب أيا كان ، وفى أى لغة ، عن طريق الشراء أو التبادل أو الهدايا ، مع وعى بترتيب الأولويات .

ومصر تملك أكبر قدر من المخطوطات العربية فى العالم كله ، وبعضها يمثل ذخيرة لاتقدر بثمن ، ولا توجد فى أى مكان آخر ، ومن الضرورى أن تتجمع فى هذا القسم كل مخطوطاتنا ، حتى لو ظلت تحمل أسماء الأمكنة التى وردت منها ، وفى هذه الحالة يمكن أن نعوض الجهات التى وردت منها بمصورات لها .

ويأتى على رأس هذه المخطوطات تلك التى توجد فى مكتبة الأزهر الشريف ، فهى من الكثرة بحيث عجز الأزهر عن فهرستها ، ومن الندرة بحيث أصبحت هدفا للنهب والسرقة ، وفى وضعها الذى عليه خارج نطاق الافادة منها على أى وجه .

ومثل هذا القسم يمكن أن يوفر على طلاب البحث من المصريين عبء السفر إلى بلاد أخرى بحثا عن المخطوطات ، فيتولى هو بإمكاناته مسئولية تصويرها وتمكين الدارسين منها .

وتقوم الدوريات الآن بدور جوهرى فى تقدم البحث العلمى ، فهى تضم الأبحاث العلمية المتخصصة فى المجالات المختلفة ، وعادة هى غالية الثمن ، أو يصعب الحصول عليها ، فهى إجمالا فوق طاقة العلماء ماديا ، وسوف تكون مهمة هذا القسم الحصول على هذه المجلات فى كل اللغات ، وبعضها يمكن توفيره عن طريق المبادلة بالمجلات التى تصدر فى مصر ، وأن يقوم بدور جاد فى ترميم المجلات التى اهترأت أو تمزقت ، أو ليست فى دار الكتب أصلا ، عن طريق التصوير ، وأن تقلع عن إعارة أصول هذه المجلات إلا للضرورة ، مكتفين بوضع مصوراتها فحسب تحت تصرف الباحثين ، وأن يكمل المجموعات الناقصة من المجلات المختلفة ، فى اللغات المتنوعة ، عن طريق التصوير .

● أن يقوم قسم المخطوطات بالدراسات التى تتطلب قدرا من التطبيق ، فيتبعه معهد لتحقيق التراث ، وبذلك نعيد لهذا الجانب من تراث مصر الثقافى سمعته العالية التى كان يتمتع بها فى الأيام الخوالى ، وهو تحقيق لايستهدف النشر أو الربح فحسب ، وإنما غايته أن يصنع المحقق المقتدر ، وأن يقدم القدوة والمثل .

● أن تبدأ فى استخدام التقنيات الحديثة بتوفير آلات التصوير بدل النسخ باليد ، توضع فى قاعات المطالعة ، أكثر من واحدة فى جوانبها المختلفة ، آلات تصوير تعمل وتحاسب اليا ، دون حاجة إلى وسيط ودون أن تكلف الدار شيئا ، وأن تأخذ فى استخدام الكمبيوتر فى الفهرسة ، وفى البحث عن المصادر ، فعار أن تظل دار الكتب بعد قرن وربع قرن من الزمان تدار بالأسلوب الذى كانت عليه قبل أن يعرف العالم الكهرباء .

● إذن ...

إذا استقلت دار الكتب وكان على رأسها مسئول يستشعر أهميتها ، ويدرك خطورة رسالته ، وليس مجرد موظف كبير ، مهموم بالبحث عن وظيفة أكبر ، فلن تقوم المادة عائقا فى طريقه ، ويستطيع إلى جانب ماتخصصه لها الدولة من ميزانية أن يدعمها عن طريق الهبات والاعلانات والتبرعات ، وفيما صنعه الدكتور حلمى نمر حين كان رئيسا لجامعة القاهرة مثل وقدوة ، فقد وجد قاعتها الكبرى فى حالة يرثى لها ، والميزانية لاتتسع لاتفاق شىء عليها ، فدبر أكثر من ستة ملايين (تعادل الآن عشرين مليونا) عن طريق التبرعات من البنوك والهيئات الاقتصادية ، وجددها وزودها بكل إمكانات القاعات الحديثة ، وجعل منها شيئا يليق بالجامعة العريقة .

وقد آن الأوان لتكون الدار للعلماء وطلاب البحث وحدهم ، أما قراءات الثقافة فمكانها مكتبات فرعية ترعاها وزارة الثقافة ، ومجالس المدن ، وتعينها دار الكتب فنيا ، وفى هذه الحالة فلا بأس أن يدفع المترددون عليها اشتراكا محددا ، وليكن مثلا عشرين جنيها لكل ثلاثة شهور ، ينفق عائدها على الارتقاء بالخدمات ، وتطوير أجهزتها ، واستكمال الناقص فيما تملك من كتب أو دوريات أو مخطوطات ، وفى تقديم حوافز للعاملين بها ، لتحسين الخدمة والارتقاء بها ، وقد جربت مكتبة الجامعة الأمريكية فى القاهرة نظام الاشتراكات فنجح تماما ، واسهم فى زيادة دخلها ، وقصرها على الجادين الراغبين فى البحث فعلا .

● وللمؤسسات الأخرى دورها

إن التركيز على دار الكتب لايقلل من شأن المؤسسات الأخرى التى ضمت ليها ، أو التهوين من رسالتها ، فدار المحفوظات القومية ، وهى فى اولى خطاها ، لما ينتظم عملها ، وفى حاجة إلى رئيس فنى مقتدر متفرغ ، يعرف كيف يفيد من التقنيات العلمية الحديثة فى حفظ الوثائق وتصنيفها ، وتسهيل وصول الباحث إليها ، وأحسب أن من الخير أن تحتفظ كل محافظة بوثائقها ، وأن تقوم إلى جوار مكتبة المدينة دار للمحفوظات الخاصة بها .

والشىء نفسه يمكن أن يقال عن هيئة التأليف والترجمة والنشر ، فهى

● إن دار الكتب فى صورتها التى هى عليها الآن بلغت حدا ، السكوت عليه جريمة !!

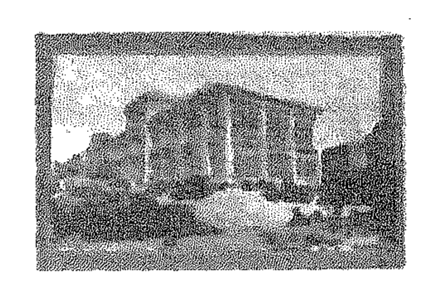
مؤسسة ثقافية منتجة للكتاب ، ورسالتها مختلفة ، ومهمتها أن تقوم بطبع ما لاتستطيعه دور النشر الخاصة من أمهات كتب التراث ، ذات العائد البطيء ، أو الدراسات المتخصصة جدا ، ذات الانتشار المحدود ، وأن تسخو على الترجمة التى أوشكت أن تتوقف مع أنها عماد التقدم فى أية دولة ، وبداهة سوف ترحمنا من السلاسل السخيفة التي تصدر عن الهيئة العامة الآن تحت أسماء مختلفة ، وغير ذات محتوى ، ومن مجلات لايقرؤها أحد ، ولو أنفقت الدولة ميزانياتها فى تشجيع المجلات غير الحكومية ، الناجحة والتى يصدرها أفراد ، بشراء كميات محدودة منها ، توزعها على مراكز الثقافة والمدارس والمعاهد ، لأحدثت ثورة ثقافية ، دون مزيد من النفقات أو الأعباء .

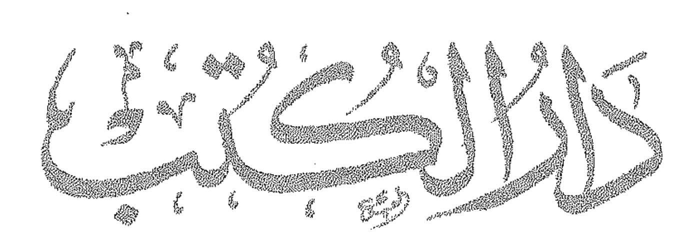
ومامن ضرورة الآن ، وقد تخلصت الدولة ، أو هى بسبيل التخلص ، من القطاع العام ، من الابقاء على احتكار الهيئة لتصدير الكتاب المصرى ، ويكفيها ما أضاعت من أسواقه ، ولن يترك ذلك كلية للقطاع الخاص ، والشيء نفسه يقال عن المكتبات التى تديرها . يكفى أن يكون لها فى عاصمة كل محافظة مكتبة واحدة ، أما أن تملك فى القاهرة مكتبة فى شارع عبدالخالق ثروت ، وأخرى على بعد أمتار منها أمام القضاء العالى ، وثالثة بالقرب من ناصية شارعى ٢٦ يوليه وأحمد عرابى ، ورابعة فى ميدان أحمد عرابى ، وخامسة هى أقدمها جميعا فى ميدان الأوبرا ، فشيء غير مفهوم ، ولون مذموم من التبذير ، لو كانت هناك إدارة يقظة لما أقدمت عليه ، ولتخلصت منه لو وجدته .

وتبقى مطبعة بولاق ، وأحب أن أذكرها باسمها العريق ، فعمل تجارى خالص ، وإن كانت غايته أن يخدم الثقافة ، قد تضع إمكاناتها فى خدمة دار الكتب ، أو هيئة التأليف والترجمة والنشر ، أو دار المحفوظات ولكن مامن ضرورة تجعلها ، على ضخامتها ، تتبع وزارة الثقافة ، والطبيعى أن تصبح هيئة مستقلة ، وأن تخضع لما يخضع له أى عمل تجارى ناجح .

● هل من يسمع ؟

إن دار الكتب فى صورتها التى هى عليها الآن بلغت حدا من التردى السكوت عليه جريمة ، وواجب كل ذى ضمير حى أن يصرخ بأعلى صوته : انقذوا دار الكتب قبل أن يأتى عليها الاهمال والتخريب ! .





شهادات

دار الكتب من المفروض انها اكبر دار للكتب فى مصر ، ولذلك فاسمها دار الكتب القومية . هذا معناه انها تستوعب كل ما يصدر ، من كتب فى مصر ولها قانون ييسر لها هذا الأمر ، وهو قانون الايداع ، وقانون الايداع معناه ان كل كتاب لكى يصدر ، لابد ان يأخذ رقما للايداع من دار الكتب ، يطبع عليه ، ويعرف به فيما بعد ، مقابل ان تكون هناك عشر نسخ من هذا المطبوع ، تودع فى دار الكتب ، لتكون تحت يد المنتفعين بالدار .

وللأسف الشديد فان هذا القانون لا يطبق ، لأن الجزاء الموضوع له جزاء هزيل للغاية ، فبدلا من ان يودع الناشر عشر نسخ ، اذا اقتضى الأمر اخيرا ، ان يدفع ثمن نسخة او اقل من ثمنها غرامة ، فلا بأس ، فهو الكاسب فى هذه الحالة ، ومع ذلك حتى هذه الغرامات لا توقع على من لا يثبت فى مطبوعه رقما للايداع ، بما يعنى انه لم يودع فى دار الكتب .

ونتج عن هذا ان قدرا كبيرا من الكتب والمطبوعات التى تصدر فى مصر نفسها ، لا توجد فى دار الكتب القومية ، وهى المآل الأخير الذى يرجع اليه الانسان ، عندما يعز عليه الحصول على اى كتاب او مطبوع ، انه يرجع الى دار الكتب ليجد الكتاب المطبوع المطلوب .

من هنا بدأت الكتب والمراجع لا تعبر عما هو موجود فى ساحة النشر المصرية ، ناهيك عن ساحة النشر العربية ، التى هى جزء لا يتجزأ من ثقافة المثقف فى مصر ، والتى تشكل ضرورة ملحة للتواصل الفكرى . بين المثقف المصرى والمهتم بالعلم فى مصر وغيره من نظرائه فى البلاد والاقطار العربية المختلفة .

فليس هناك اقتناء على الاطلاق للكتب العربية التى تصدر خارج مصر ، بل اكثر من هذا هناك قسم اسمه قسم التزويد ، هذا القسم كان يعمل لكى يغطى هذا الجانب من حاجة الدار الى متابعة الكتب والمطبوعات العربية والاجنبية ، كذلك فهو قسم من فرعين .. القسم الذى يتحرك فى الكتب الاجنبية وكانت ترد

... وكيف يبدأ الاصلاح ؟!

بقلم: د. عز الدين إسماعيل

اليه قوائم الناشرين الاجانب الكبار فى فروع المعرفة المختلفة بشكل متواصل ، وكان القائمون على هذا الفرع من القسم على دراية كاملة بما ينبغى اقتناؤه ، وما نحتاج اليه ، فكانوا يختارون من هذه القوائم كل عام قدرا كبيرا ، ممثلا لاحدث ما ينتج فى مجالات المعرفة المختلفة باللغات الاجنبية المطروحة فى مصر ، على الاقل الانجليزية والفرنسية ، ولذلك نجد فى دار الكتب من الكتب الاجنبية القديمة شيئا كثيرا وثمينا للغاية .

ولكن منذ مدة ليست بقصيرة ، توقف ـ تقريبا ـ هذا النوع من الامداد المتصل للدار بما يصدر من كتب على غاية من الاهمية ، بالنسبة لحركة الفكر فى مصر .

وبالنسبة لدور النشر الاجنبية قد تكون هناك عقبة تحول دون هذا ، او تعطل هذه الاستمرارية ، وهى عقبة الاستيراد والعملة الصعبة وتوافرها وما الى ذلك .. وهذه مشكلات ينبغى ان تكون لها اولويات دائما لانها اساسية ، وتشكل رصيدا معرفيا ، لابد من الحرص عليه ، مهما تكلف .

والسكوت على هذا من شأنه ان يجعل دار الكتب تتراجع مع الوقت ، وتتراجع من حيث ما تمثله من ثقافة وفكر وعلم ، والعالم يتقدم ، ويصبح الناس هنا محصورين فى هذه الدائرة المتراجعة ، التى لا تغنى اطلاقا ، لمن يريد ان يتابع ما يجرى فى الحياة من حوله .

● المحافظة على المخطوطات

من الضرورى ان تكون دار الكتب مهيأة تهيئة علمية للمحافظة على المخطوطات التى تمثل اهمية بالغة بالنسبة للدار وللعاملين فى حقل المعرفة العربية بشتى جوانبها وفروعها ، وضمان استمرارها دون ان ينالها العطب



والأمراض التى تصيب الكتب وتهرئها وتجعلها غير صالحة للتداول ، فضلا عما ينتاب المخطوطات وهى قديمة من هذا العطب المفسد لها .

فلابد ان يكون هناك تكييف مركزى لمخازن الكتب ولقاعات المطالعة ولابد من ان يكون هناك أجهزة لشفط الغبار والتراب وخصوصا الرطوبة ، لأن وضع دار الكتب على ضفة النيل يعرضها لتأثير الرطوبة البالغة فى وسط المدينة ، فهذه الرطوبة تعتبر من اشد اعداء الكتاب ، لانها تسارع بافساده . وأنا اؤكد على ضرورة متابعة ما يصدر من مطبوعات وكتب داخل مصر وعلى مستوى الوطن العربى والعالم كله من خلال حركة نشطة ، خاصة اذا علمنا ان كثيرين من ابناء الاقطار العربية يأتون الى القاهرة للاستعانة بدار الكتب فى دراساتهم وبحوثهم وخاصة تلك الثروة القديمة من المراجع ومن المصادر التى لا يجدونها فى مكان اخر ، ولكن مع مضى الزمن ، سينقطع هذا بالضرورة ، وتصبح هناك مراكز اخرى ، تحاول ان تجذب وتستوفى شروط العمل المكتبى بشكل عصرى وجاد وتيسر للمريد كل ما يساعده على الوصول الى اهدافه .

اذاً لكى نعيد لدار الكتب دورها القديم على مستوى مصر والوطن العربى ، فلابد ان نعيد لها صورتها التى كانت عليها ذات يوم فى انها المصدر الوحيد لكل ما يحتاج اليه المواطن العربى فى أى فرع من فروع المعرفة أو الثقافة .

ايضا من الضرورى استخدام اساليب جديدة فى الخدمة المكتبية بحيث يحصل المستعير على الكتاب فى أسرع وقت ممكن ، بدلا من ضياع يوم كامل وهو يبحث عن طريق الفهارس العتيقة او البطاقات المتهرئة ، لكى يصل او لا يصل الى الكتاب المنشود ، لان كثيرا من البطاقات تضطرب .. ويضطرب نظامها مع الاستعمال غير المسئول ، فلا تظل على ماهى عليه من تيسير

● من الضرورى أن تكون دار الكتب مهيأة للمحافظة على المخطوطات التى تمثل أهمية بالغة فى حقل المعرفة العربية .

الوصول الى الكتب المطلوبة .. هذا التهرؤ فى البطاقات واضطرابها يضيع وقت الباحث .

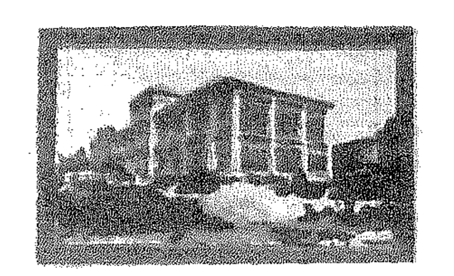
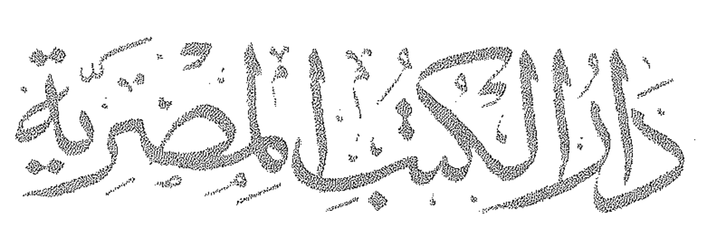
● نقص الدوريات الاجنبية

تعانى دار الكتب من نقص الدوريات الاجنبية وهى متوقفة ، ويدخل فى كلمة الاجنبية هنا الآن ، ليس الدوريات المكتوبة بلغات اجنبية ، ولكن ايضا الدوريات العربية والتى لا تكاد تحصى ، ومنها دوريات فى غاية الأهمية .. لابد من متابعة هذه الدوريات والاشتراك فيها وانتظامها بشكل مطرد فى دوريات دار الكتب ، استيفاء لما يجرى على الساحة العربية من دوريات تلزم لكل باحث عربى ، ايضا كما اشرت فالدوريات الاجنبية لها نفس الاهمية ولابد من الحرص على الاشتراك فى عدد كبير منها ، وان يكون وراء هذا الاشتراك والاختيار عقول تعى توزيع المعرفة التى تمثلها دار الكتب ، وألا يحدث تركيز على صنف معين من المجلات على حساب أخرى قد لاتكون لها نفس الاهمية .

فالعقلية التى تختار وتنسق وتنظم هذه العملية ، لابد ان تكون عقلية واعية تفهم دورها تماما ، وليست عقلية مجرد موظف على مكتب .

ان الدوريات القديمة كثير منها متهرىء الى ابعد الحدود ، ولا يكاد يحتمل الانتقال من مكتب الى مكتب آخر ، ومن رف الى رف ، وبعضها قد رمم ، ولكن كثيرا منها لم يرمم الى الان مع ان فى الهيئة مركزا للترميم ، وعمله الاساسى بطبيعة الحال هو ترميم المخطوطات التى تلفت ، وايضا هذه الدوريات التى تقادم بها الزمن ، ولابد من ادراكها قبل ان تنتهى نهائيا .

هذه فى تصورى العناصر الاساسية للنهوض من جديد بدار الكتب .

عندما قدمت الى القاهرة سنة ١٩٣٦ لالتحق بالجامعة ، كانت دار الكتب هى مقصدى الاول قبل الجامعة نفسها . كان لى قريب يعمل فيها ، وعد بأن يساعدنى فى الحصول على المجانية ، ووقع لى - فى الوقت نفسه - على استمارة الاستعارة الخارجية ، وكان الضامن الثانى - او لعله الضامن الرسمى فلا اظن ان الدار كانت تطلب ضامنين - هو الشاعر احمد رامى ، صحبنى قريبى الى غرفته التى كانت فى الحقيقة «قاطوعا» زجاجيا على يسار الصاعد الى دار الكتب ، اذ كانت الدار لا تشغل سوى الطابق الثانى من المبنى العتيق الذى لا يزال قائما حتى الآن فى باب الخلق ، بينما كان الطابق الاول مخصصا للمتحف الاسلامى وله مدخل خاص .

اذكر هذه التفاصيل لان دار الكتب بدت لى شيئا هائلا بعد مكتبة بلدية شبين الكوم الصغيرة .. والحقيقة انها مازالت فى ذاكرتى مكتبة عظيمة حتى بعد ان زرت المكتبة القومية فى باريس ، وقد بدا لى الشبه بينهما واضحا ولم يكن فى ذلك ما يستغرب اذا كانت مصر تحذو حذو فرنسا فى أمور الثقافة منذ عهد اسماعيل . وانا احلم بالمكتبات الحافلة كما يحلم الطفل بان يمتلك دكان حلوى . وتنطبع فى ذاكرتى صور للحظات باهرة وانا جالس امام رفوف الكتب لا ادرى بأيها أبدأ هل انسى مثلا انى جلست مشدوها امام ركن كامل - لا رف او رفين - خاص ببروست فى مكتبة جامعة هارفارد . (وطلاب الدراسات العليا والباحثون الزائرون يمنحون بطاقات خاصة لدخول مخازن هذه المكتبة ، وتخصص لهم فيها مناضد ينقلون اليها ما يحتاجونه من الكتب) وهل انسى لحظات مماثلة فى مخازن المكتبة البريطانية (مكتبة المتحف البريطانى - ولو ان الدخول اليها لا يكون الا بتصريح مؤقت ، ولغرض التفتيش عن المراجع فقط ، اذ ليست فيها امكنة مخصصة للجلوس ؟ الناس يذهبون الى عواصم الغرب للمتعة والراحة ، وانا اذهب اليها ولا هم لى الا الكتب والمتاحف .

لم تعد مكتبة بحث

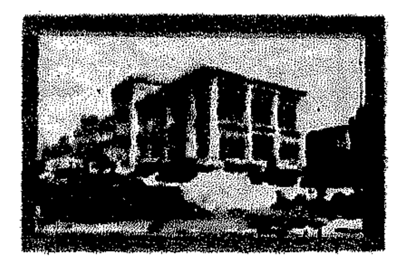
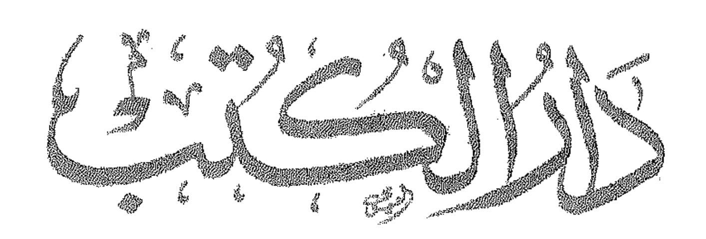
بقلم: د. شكرى محمد عياد

ولكن دار الكتب المصرية اغنتنى واشبعتنى فى عهد الصبا والشباب ، وامدتنى - مع مكتبة جامعة القاهرة - بالمصادر والمراجع حين تصديت لكتابة ابحاث فى الادب . كانت المكتبتان ، فى اول عهدى بهما ، بحرين اغترف منهما كما اريد ، فاستطعت ان ارسم لنفسى برنامجا للدرس لم اتقيد فيه بمنهج الجامعة ، وكانت هذه السياحات المنظمة فى شتى الوان الادب والمعرفة هى التدريب الثمين الذى نفعنى عندما قررت ان اكون باحثا وكاتبا .

لقد كنت طموحا ، لا ارضى بأقل من ان نكون فى ابحاثنا وكتاباتنا اندادا لنظرائنا من الغربيين ، ولا ادرى مبلغ ما حققت من ذلك الطموح ، ولكننى ادرى ان اعداد ثبت المراجع واستعارتها من مكتبة الجامعة او دار الكتب او الرجوع اليها فيهما كان يفى بمعظم حاجتى وفى تلك الايام كانت مكتبتى الخاصة متواضعة جدا .

عندى الآن مكتبة لا بأس بها ، تجمع كتابا احبهم الى جانب دراسات اساسية فى الفروع التى اعنى بها اكثر من غيرها . ولكننى اشفق من ان اقحم نفسى فى بحث معمّق . ولا اظن ان للسن دخلا كبيرا فى ذلك . ولكن السبب الاهم هو ان مكتبة جامعة القاهرة لم تعد مكتبة بحث ، ودار الكتب المصرية لم تعد مكتبة بحث . لقد تضاعف الانتاج الفكرى فى شتى فروع المعرفة ، بينما كانت مكتباتنا الكبرى لا تحصل من ذلك الانتاج الا على اقل القليل ، بل ان الكثير من مقتنياتها القديمة يتلف او ينهب .

وقد احببت الا اكتب هذه الكلمة قبل ان اقوم بزيارة وتجربة لدار الكتب ، فى مقرها الجديد . وجعلت التجربة بحثين : بحثا عن ترجمة للكاتب الانجليزى تشارلس مورجان لانى افكر فى ان اعيد طبع مقالاته النقدية التى اخترتها وترجمتها فى كتاب «الكاتب وعالمه» ، وبحثا عن كتاب ، «علم الاساطير» بالفرنسية - للفى شتراوس : كانت نتيجة البحثين صفرا . فدار الكتب فى مبناها الجديد العظيم وبموظفيها الكثيرين فقيرة فقرا مزريا .. والعذر الذى يعتذر به الجميع هو قلة الاعتمادات ، مع اننا ننفق على الالعاب والتسالى والمهرجانات اضعاف ما ننفقه على الكتب .

جامعتنا الأولى التى انارت امامنا طريق المعرفة ، والنبع الثقافى الغزير الذى طالما نهلنا منه ما أطفأ ظمأنا وشفى غلتنا . كانت مدرستنا الكلية التى سعينا إلى ساحتها فى سنوات الصبى المبكر ، وواصلنا التردد على قاعاتها فى أيام الشباب الأولى ، والتى وجهت عقولنا ووجداننا واثرت ايما تاثير فى تكويننا الثقافى وفيما إختط كل منا لنفسه من حياة ، مع اختلاف مشاربنا ونزعاتنا .

وفى تلك الأيام كان العمل بالدار يسير فى دقة الساعة الميقاتية ... انضباط تام فى مواعيد العمل بالقاعات والمخازن ، وخدمة المطالع أو المستعير تعلو على كل اعتبار ، والفهارس مرتبة فى نظام دقيق وبطاقاتها مدونة بخط جميل واضح .

أما فريق العمل بالدار فكان كل من أفراده يؤدى مهمته من موقعه المحدد على أكمل وجه ، ويتفانى فى هذا الاداء من أجل تحقيق الهدف الأسمى للمكتبة القومية ، اى مساعدة طالبى المعرفة على تحصيل مايرغبون من علم وفن وأدب ، أمناء القاعات لا يكفون عن التجول المستمر اليقظ بين جنباتها لمراقبة حسن سير العمل ، والعمال فى زيهم الموحد لا يكلون من الحركة جيئة وذهابا بين المخازن وقاعات المطالعة يحملون عشرات الكتب والمجلدات دون ما ضجر أو ملل .

وكان يحدث أحيانا أن يتقدم أحد الأمناء من مطالع يتكيء بمرفقه على صفحات مايقرأ لكى ينبهه فى لمسة رقيقة إلى أن يرفع ذراعه حتى لا يتلف الورق أو يشوهه وبهذا وغيره تعلمنا سلوكيات القراءة واحترام كيان مانقرا من مطبوعات . وكان من المألوف كذلك أن يبادر أمناء الفهارس بإرشاد القارئين الى طريقة الوصول إلى بطاقات الكتب المطلوبة حتى يسهل عليهم استعارتها .

وكانت دار الكتب تحفل بعشرات الألوف من المخطوطات الثمينة ، تحفظها



بقلم : د. أحمد حسين الصاوى

فى أعز مكان ، وترممها وتحافظ على سلامتها ، وتتيح الاطلاع عليها لمن يشاء

وكان من المألوف أن يشاهد المطالع فى القاعة الكبرى عددا من «النساخين» عاكفين على نقل بعض ماتحويه هذه المخطوطات ساعات طوالا ، فلم يكن التصوير الضوئى الحديث للمستندات قد عرف بعد فى تلك الأيام .

أما المكتبات الخاصة التى أهداها أصحابها لدار الكتب فكانت موضع رعاية كاملة من الدار ، تصونها وترتب مقتنياتها وتتيح الافادة من محتوياتها للباحثين .

وكان لدار الكتب فى تلك الأيام نشاط مرموق فى مجال النشر . فمن خلال مطبعتها العريقة قدمت عددا من عيون كتب التراث القيمة محققة منقحة ، فأسهمت بذلك إسهاما متميزا فى مجال العمل الثقافى الجاد .

وكان فرع الدار بالقلعة يقف شامخا فوق هضبة المقطم يقدم خدماته الجليلة لكل راغب فى الاطلاع على مجموعات الصحف القديمة ولكل باحث فى الوثائق والمحفوظات الرسمية ذات الطابع التاريخى الخاص .

وبعد ثورة ١٩٥٢ اضطربت أحوال دار الكتب ، فتنبش النابشون عن محفوظات العهد الملكى فى فرع الدار بالقلعة ، ونقل الكثير من مقتنيات هذا الفرع الى حيث لا يعلم أحد . ولقد أحسست بألم عميق عندما كنت أتردد على هذا الفرع للبحث فى مجلدات الصحف المصرية الأولى فلا أجد المجلدات التى كنت احفظ مكانها وأرقام تسجيلها عن ظهر قلب لتعدد مرات اطلاعى عليها من قبل ، أو عندما كنت أرى صور حكام الأسرة العلوية التى رسمها لهم كبار الفنانين فى أيامهم وقد ألقيت على الأرض وتمزق قماشها وتحطمت اطرها .

أما الدار الأم بباب الخلق فقد توقف ، أو كاد ، نشاطها فى التزويد والنشر ، واضطربت خدماتها وارتفعت اصوات المترددين عليها بالشكوى ومن سوء مايلاقون ومن عنت مايواجهون من متاعب فى تعاملهم مع الدار ، ولم يفلح العشرات من خريجى «الوثائق والمكتبات» الجدد بجامعة القاهرة الذين انضموا إلى اسرة العاملين بالدار فى تحسين خدماتها أو المحافظة على

تقاليدها العريقة ، فقد كان التدهور أقوى من محاولاتهم ، وانصراف المسئولين عن الاهتمام بهذا الجهاز الخطير أكبر أثرا من كل ماجاءوا به من علم وتقنيات .

مرت الأيام وتحولت تلك المنشأة العظيمة الى فرع متواضع من فروع المؤسسة الجديدة التى أطلق عليها «الهيئة المصرية العامة للكتاب» . وكان ذلك بكل المقاييس نكسة كبيرة فى تاريخ ذلك الصرح الثقافى الرفيع . ورغم مضى نحو ثلاثين عاما على تلك «التنظيمات» التى تناولت شئون الثقافة والنشر فى مصر وما يتصل بهما من طباعة وتوزيع ، فمازالت أحوال دار الكتب تسير من سيىء الى أسوأ . لقد تدهورت خدمة القارئين والباحثين والمستعيرين ، وأصبح من الأمور المعتادة أن الزائر للدار يقضى ساعة أو بعض ساعة ثم يأتيه الرد على ماطلب من مراجع أو مجلدات مخيبا لأمله : «المجلد مفقود» أو «المجموعة فى الترميم» أو «الضوء غير كاف» ... الخ .

ولم يعد للدار نفسها نشاط خاص فى مجال النشر الذى لا تستهدف من ورائه الربح كما كان الحال فى الأيام الخوالى . أما التزويد بالاصدارات الجديدة فيتم حسب التساهيل و ... على قد الحال ! وأما المخطوطات الثمينة التى كانت كنزا لا نظير له فى مكتبات العالم ، فقد اختفى كثير منها أو تلف أو اصابه البلى . وأصبح التصوير الضوئى لصفحة واحدة يكلف من الوقت والجهد والنفقة ما يصرف كثيرا من الباحثين عن اللجوء الى هذه الطريقة للحصول على مستنسخات يحتاجون اليها فى دراساتهم .

والنتيجة ... تخلف واضمحلال يدعو إلى أشد الأسى والأسف . ان مفهوم «دار الكتب» أو «المكتبة القومية» فى أى صورة من صورها ، وفى أى عهد من عهود الحضارة البشرية ، وفى أى مركز من مراكز العلم والتنوير التى عرفها تاريخ الإنسان ، ظل واحدا لا يتغير . وهو أن هذه المؤسسة هى مركز اشعاع ثقافى ، وانها هيئة «خدمية» تعطى ولا تأخذ وتقدم دون ماعائد أو مردود اما دور النشر والتوزيع وما اليها فهى مؤسسات تجارية تعطى وتأخذ ، ولانشطتها مردود وربح . والجمع بين أنشطة «خدمية» وأنشطة تجارية فى اطار واحد أمر بالغ التناقض .

فمتى تتحرر مكتبتنا القومية من ربقة هيئة الكتاب ؟ لعل استقلالها يعينها على أمرها ، ويعيد لها إشراقها القديم ، ويدفع بها دفعا إلى طريق التقدم والنهوض .

وكانت أيام !

● على باشا مبارك هو اول من فكر فى انشاء دار الكتب فى مصر ، بعد ان تنبه الى خطورة ترك الكتب والمخطوطات المصرية مبعثرة فى المدارس القديمة والكتاتيب والمساجد والأضرحة والزوايا .

● أسست المكتبة الوطنية المصرية طبقا للأمر العالى الصادر فى ٢٣ مارس عام ١٨٧٠ ، وافتتحت رسميا للجمهور للقراءة والاطلاع والنسخ والاستعارة فى ٢٤ ديسمبر ١٨٧٠ ، وتعتبر اول مكتبة وطنية ، فى العالم العربى .

● كان اول مكان لها هو درب الجماميز ، حيث استقرت بالدور الاسفل من قصر مصطفى فاضل باشا شقيق الخديو اسماعيل ، وقد بلغ عدد الكتب المخطوطة ، والمطبوعة التى وسعها المكان عند الافتتاح حوالى ٣٠ ألف مجلد جمعت من المساجد والكتبخانة الخديوية القديمة وخزائن وزارة الأوقاف ، وكتبخانة ديوان الاشغال ، وكتبخانة ديوان المدارس .

● بعد ان ضاقت هذه المكتبة بالمخطوطات والكتب ، ثم بناء دار مخصوصة لها ولدار الاثار الاسلامية (متحف الفن الاسلامى فيما بعد) بدىء فى تشييده ، عام ١٨٨٩ فى ميدان احمد ماهر بباب الخلق ونقلت اليه سنة ١٩٠٤ . وصدر امر سلطانى عدلت بمقتضاه لائحة الدار ، واصبحت الادارة تابعة لوزارة المعارف العمومية ، وشكل مجلس اعلى لدار الكتب برئاسة وزير المعارف .

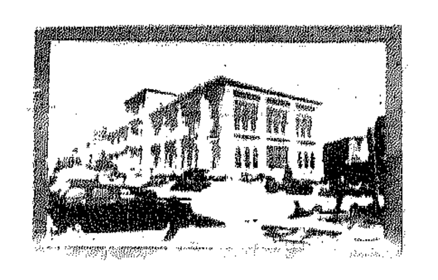
● من بين الذين تولوا الاشراف على دار الكتب منذ بدايتها حتى عام ١٩١٤ عدد من الألمان كان اولهم شتيرن وآخرهم شاده .

ثم تولى عدد من المصريين منصب مدير الدار بعد ذلك حتى عام ١٩٥٧ وهم احمد لطفى السيد (مرتين) محمد اسعد براده ، د . منصور فهمى ، احمد عاصم ، احمد مرسى قنديل ، توفيق الحكيم .

ثم تولى منصب مدير دار الكتب عدد من المديرين الذين تدرجوا فى وظائف الدار نفسها ، حتى وصلوا الى منصب المدير .. نذكر من بينهم محمد احمد حسين ، احمد عابدين ، حسين رشاد ، اسماعيل النحراوى ، نصر الدين محمد حسين ، سعيد رشيد .

● تضم دار الكتب المصرية مجموعات قام باهدائها عدد من الشخصيات المصرية المعروفة من بينها مجموعة خليل اغا ، المجموعة التيمورية ، الخزانة الزكية ، ومجموعة الشيخ الشنقيطى ، ومجموعة على جلال الحسينى ..

وفى سنة ١٩٧٠ وبعد قرن كامل من انشاء دار الكتب بلغت مقتنياتها ٥٥٩,٥١٥ كتابا مطبوعا باللغة العربية و ٩٠ الف مخطوط و ٧١٠٥ دوريات عربية وأجنبية .



دار الكتب

شهادات

فى أوائل الستينات أخذت طريقى إلى دار الكتب المصرية ، طالب علم يلتمس رزقه فى نسخ المخطوطات العربية . وكانت الدار يومئذ تقف فى ذلك المكان المعروف بميدان باب الخلق ، مهيبة شامخة ، فكان الداخل إليها لايملك إلا أن يُنشد قول الشريف الرضى ، وقد نظر إلى مدينة الحِيرة وآثارها :

شهدت بفضل الرافعين قبابها

ويبين بالبنيان فضل البانى

ثم يترحم على رافع الدار وبانيها « على باشا مبارك » .

وكنت بالغدو والآصال أمر على قسم المطبوعات بالدار ، فأجد أشتاتا من نفائس المطبوعات التى أخرجتها الدار وعرضتها بأبخس الأثمان . وكنت أرى الناس أفواجا ومن كل بقعة يتزاحمون على شراء هذه المطبوعات لنفاستها ورخصها .

وفى تلكم الأيام أيضا رأيت بقية من هذه الطائفة الجليلة من أشياخ العلم التى كانت تقوم على تصحيح الكتب بالدار ، فيما كان يعرف بالقسم الأدبى ، وكان هناك رجل من أفاضل الناس ، هو الأستاذ محمد أبوالفضل إبراهيم ، رحمه الله ، الذى كان يتعهد هذه الذبالة المرتعشة ، ويمدها بالزيت حتى لاتنطفىء .

ثم تمادت بى الأيام ، فنسخت وقرأت وأبصرت وسمعت وسألت . وكان مما عنيت به التأريخ لنشر التراث العربى ، فى ديارنا وغير ديارنا ـ على ضعفى وقلة حيلتى ـ وقد رأيت هذا التاريخ يسير فى مراحل مختلفة ، ورأيت مطبوعات دار الكتب المصرية تمثل من هذه المراحل مرحلة متميزة غاية التميز ، هى بالقياس إلى ماسبقها من مراحل تمثل مرحلة النضج والكمال ، من حيث استكمال الأسباب العلمية ، واصطناع الوسائل الفنية المعينة على إخراج التراث إخراجا دقيقا ، يقوم على جمع نسخ الكتاب المخطوطة ، والمفاضلة بينها ، ثم اتخاذ إحدى النسخ أمًّا أو أصلا ، وإثبات فروق النسخ

ونشر التراث في مصر

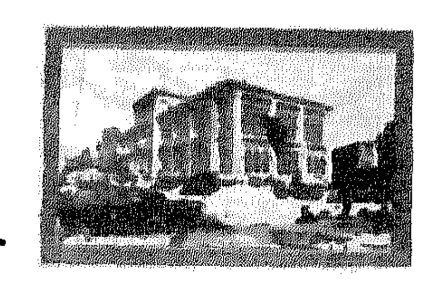
بقلم: د. محمود الطناحي

الأخرى ، ومايتبع ذلك من إضاءة النص ببعض التعليقات والشروح ، وصنع الفهارس التحليلية الكاشفة لكنوز الكتاب ، ومايسبق ذلك كله من التقديم للكتاب وبيان مكانه فى المكتبة العربية ، وموضعه من كتب الفن الذى يعالجه ، تأثرا وتأثيرا ، ثم الترجمة لمؤلفه .

ولابد من الاعتراف بأن ذلك المنهج الذى أصلته مدرسة دار الكتب المصرية للمحققين العرب ، قد تأثر إلى حد ما بمناهج المستشرقين الذين شغلوا بتراثنا ، ونشطوا لاذاعته ونشره ، منذ القرن الثامن عشر الميلادى أو قبله بقليل .

● المكتبة الزكية

وكان صاحب الفضل فى مد الجسور بين مصر واوربا ـ فيما يتصل بنشر التراث ـ أحمد زكى باشا ، الذى اتصل بعلماء الاستشراق ، ومثّل مصر فى مؤتمراتهم . وهذا أحمد زكى باشا رجل من رجال مصر الأفذاذ ، كان من كبار الكتاب والخطباء ، ولد بالاسكندرية عام ١٨٦٧ م ، وتخرج بمدرسة الحقوق بالقاهرة ، وأتقن الفرنسية ، وكان يفهم الانجليزية والايطالية ، وقام بفكرة إحياء الكتب العربية ، وأحكم صلته برجالات العرب فى جميع أقطارهم . وكان شديد الحب للعربية ، ولقب نفسه بشيخ العروبة ، وسمى داره بيت العروبة ، وجمع مكتبة فى نحو عشرة آلاف كتاب ، ووقفها ، فنقلت بعد وفاته إلى دار الكتب وسميت فيها : المكتبة الزكية . توفى سنة ١٩٣٤ م . يقول عنه شيخى عبدالسلام هارون ، رحمه الله : « ولعل أول نافخ فى بوق إحياء التراث العربى ، على المنهج الحديث فى مصر ، هو المغفور له أحمد زكى باشا ، الذى قلم بتحقيق كتاب « أنساب الخيل » لابن الكلبى و « الأصنام » له أيضا ، وقد طبعا فى المطبعة الأميرية ـ مطبعة بولاق ـ سنة ١٩١٤ م باسم لجنة إحياء الآداب العربية التى عرفت فيما بعد فى دار الكتب المصرية باسم القسم الأدبى ، ولعل هذين الكتابين مع كتاب « التاج » للجاحظ الذى حققه



ايضا في السنة نفسها ، من أوائل الكتب التى كتب فى صدورها كلمة « بتحقيق » كما أن تلك الكتب قد حظيت بإخراجها على أحدث المناهج العلمية للتحقيق ، مع استكمال المكملات الحديثة ، من تقديم النص إلى القراء ومن إلحاق الفهارس التحليلية . ويضاف إلى ذلك أنه أول من أشاع إدخال علامات الترقيم الحديثة في المطبوعات العربية ، وألف فى ذلك كتابا ، سماه : « الترقيم فى اللغة العربية » طبع فى مطبعة بولاق ، سنة ١٩١٢ م . ومما حققه شيخ العروبة ايضا كتاب « نكت الهميان فى نُكت العميان » لصلاح الدين الصفدى . ونشره بمطبعة الجمالية سنة ١٩١١ م ، ثم قدمه إلى أعضاء المؤتمر الدولى الرابع لتحسين حالة العميان .

وعلى وقع خطوات أحمد زكى باشا ، ويهدى من توجيهه وإرشاده ، تكون القسم الأدبى بدار الكتب المصرية ، امتدادا للجنة إحياء الآداب العربية التى أسسها شيخ العروبة ، وطبع تحت شعارها « أنساب الخيل » و « الأصنام » وقد قام هذا القسم الأدبى بعبء ضخم حين نشر عيونا مما تركه أهل العلم من آبائنا الأولين . ولقد كان هذا القسم مدرسة كبرى فى القدوة المثالية للمحققين المعاصرين ، وكان يضم مشيخة جليلة من العلماء الكرام البررة ، الذين أخلصوا لله فيما أسند إليهم ، اذكر منهم أحمد زكى العدوى ، والشاعرين أحمد الزين وأحمد نسيم وعبدالرحيم محمود ومحمد عبدالجواد الأصمعى ومحمد عبد رب الرسول ، والعالم الجزائرى الشيخ إبراهيم اطفيش ، ومما يستطرف ذكره هنا أن الشيخ محمد الخضر حسين ، العالم التونسى الجليل قد عمل زمانا مصححا بدار الكتب المصرية . وهذا الشيخ الخضر حسين التونسى المولد والنشأة قد تولى مشيخة الأزهر ، أول قيام الثورة المصرية . وهذا من أكبر الدلائل على أن مصر لاتعرف التعصب .

● عناية بالتراث

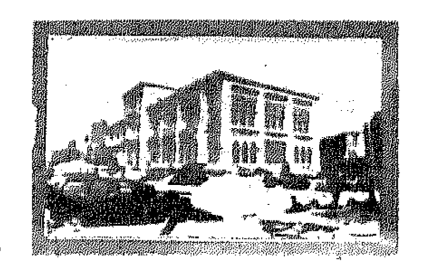
وقد بدأ القسم الأدبى نشاطه فى إذاعة التراث ونشره من خلال مطبعة بولاق الكبرى ، وكان من ذلك موسوعة « صبح الأعشى » للقلقشندى الذى ظهر فى ١٤ مجلدا سنة ١٩٢٠ م باسم دار الكتب المصرية . ثم انشأت الدار

● لماذا ألغى القسم الأدبى بدار الكتب بعد ما حققه من نشاط فى اذاعة التراث ونشره من خلال مطبعة بولاق الكبرى ؟

مطبعة خاصة بها ، جمعت لها كل أسباب الجودة والاتقان ، فخرج الكتاب التراثي من هذه المطبعة في أبهى حلة وفى أنق صورة ، وتستطيع أن تقول في اطمئنان إنها أول مرة تحظى كتب التراث بتلك العناية الفائقة ، واقتح جزءا من كتاب « الاغانى » أو « تفسير القرطبي » واعجب ماشئت لهذا السخاء في جمال الحرف وتنسيق السطور واتساع حواشى الصفحات ، ثم دقة التصحيح والمراجعة ، ولايكاد يشبه مطبوعات الدار هذه إلا مطبوعات لجنة التاليف والترجمة والنشر ، مثل « سمط اللآلى » و « إمتاع الأسماع » للمقريزى و « شرح الحماسة » للمرزوقى ، ومطبوعات دار المعارف فى أيامها الأولى .

ولعل أول كتاب صدر عن القسم الأدبى عن مطبعة الدار هو « نهاية الأرب » للنويرى الذى بدأت طبعه محققا سنة ١٩٢٣ وقد كانت الصيحة المدوية لدار الكتب المصرية تبنيها لطبع كتاب « الأغانى » لأبى الفرج الأصبهانى ، بعد طبعات سابقة فى مصر وفى أوربا ، وقد تكفل بنفقات طبعه رجل من أعيان مصر هو « السيد على راتب » المتوفى سنة ١٩٥٥ م . وصدر الجزء الأول منه سنة ١٩٢٧ م ، وحظى بعناية كاملة ، فى إعداد الأصول ، ودقة التصحيح ، وصنع الفهارس التحليلية ، فى نهاية كل جزء من أجزائه .

وفى مطبعة دار الكتب المصرية ، وعلى منهجها القويم ، خرجت هذه النفائس : تفسير القرطبي (عشرين جزءا) والنجوم الزاهرة فى أخبار مصر والقاهرة لابن تغرى بردى (١٢ جزءا) . وكان صاحب الفضل فى نشر هذا الكتاب ، عبدالخالق ثروت باشا رئيس وزراء مصر ، سنة ١٩٢٢ م ، فهو الذى اشار على الدار بطبع الكتاب ، وكان لهذا الوزير عناية بالعلم ونشره ، فقد كان عضوا فى تلك الجمعية الخيرية التى قامت على نشر كتاب « المخصص » لابن سيده ، سنة ١٩٠٢ م . ومن إصدارات دار الكتب فى ذلك الزمان : شروح سقط الزند ، لأبى العلاء المعرى (خمسة أجزاء) والتعريف بآثار أبى العلاء (مجلد ضخم) وعيون الأخبار لابن قتيبة (أربعة أجزاء) والطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الاعجاز ، ليحيى بن حمزة العلوى (ثلاثة أجزاء) وأساس البلاغة للزمخشرى (جزءان) والفاضل للمبرد ، والمعرّب للجواليقى - ومعجم ألفاظ القرآن الكريم للأستاذ محمد فؤاد



عبدالباقى ، رحمه الله رحمة سابغة . ومن دواوين الشعر : ديوان الهذليين (ثلاثة أجزاء) ودواوين : مهيار الديلمى (أربعة أجزاء) وزهير بن أبى سلمى ، وابنه كعب . وحميد بن ثور ، وسحيم عبد بنى الحسحاس ، وجِران العَوْد ، ونابغة بنى شيبان ، وتميم بن المعز لدين الله الفاطمى . ومن الموسوعات التى بدأت الدار طبعها ولم تتمه : مسالك الأبصار لابن فضل الله العمرى ، والمنهل الصافى لابن تغرى بردى .

وتدور الأيام ، وتضعف العزائم بضعف الرجال ، ويدعو الداعى إلى شىء نكر ، وهو إلغاء القسم الأدبى ، يقول شيخنا عبدالسلام هارون ، رحمه الله : « ثم ضعفت العناية بهذا القسم ، إلى أن تولى الأستاذ أمين مرسى قنديل إدارة دار الكتب ، فقام بمجهود ضخم جدا ، إذ حاول أن ينقذ هذا القسم من الفناء ، فدبت الحركة فيه ، ولكن الظروف لم تسعفه بتنفيذ فكرته النشيطة ، وكاد القسم الأدبى فى عهده يرتقى القمة فى نشر موسوعات التراث ، ولكن أطاحت بذلك فكرة خاطئة مغرضة ، تزعم أن ليس من وظائف دور الكتب فى أوربا ، أن تضطلع بنشر التراث ، وكأننا فى جميع خطواتنا إنما نترسم أوربا ، فى حقها وباطلها » .

قلت : وحين تولى الأستاذ محمد أبوالفضل إبراهيم أشلاء هذا القسم المذبوح ، حاول أن ينفخ فيه ، فصدر فى أيامه : إنباه الرواه على أنباه النحاه ، للقفطى . والخصائص ، لابن جنى ، ومعانى القرآن للفراء ، والمعارف ، لابن قتيبة .

وفى منتصف الستينات أراد القائمون على دار الكتب إعادة القسم الأدبى ، فيما سموه « مركز تحقيق التراث » وتكون غايته نشر أعمال تراثية ، ثم إعداد جيل يتلقى فن التحقيق بوجه عملى ، على يد بقية شيوخه وأعلامه ، فى رحاب دار الكتب حيث تتوفر المراجع : مخطوطة ومطبوعة . وقد وفق هذا المركز فى نشر بعض الكتب بتحقيق علماء لهم فى تحقيق النصوص سابقة ، ومعاونة نفر من الشباب أريد تدريبهم على تحقيق النصوص . ومن هذه الكتب : ديوان ابن الرومى (ستة أجزاء) ومقدمة ابن الصلاح فى علوم الحديث ، وكتاب الموسيقى الكبير للفارابى ، والمذكر والمؤنث للمبرد ، ولأبى

● ان من أوجب واجباتنا أن ننشر أمام هذا الجيل صفحاتنا المضيئة ، ومن أهمها تاريخنا وجهادنا فى طبع الكتاب العربى .

البركات الأنبارى ، وكتاب الجواهر وصفاتها ليحيى بن ماسوية ، ولايزال هذا المركز قائما ، ولكن نشاطه قل بصورة واضحة ، ولعل الله يهيىء له من يقيل عثرته .

وقد أفسحت مطبعة دار الكتب المصرية مكانا للهيئات العلمية من خارج مصر ، فطبعت لحساب دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد ـ الهند ، كتابين جليلين : أحدهما « معرفة علوم الحديث » للحاكم النيسابورى ، سنة ١٩٣٧ م ، وثانيهما كتاب « إعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم » لابن خالويه ، سنة ١٩٤١ م .

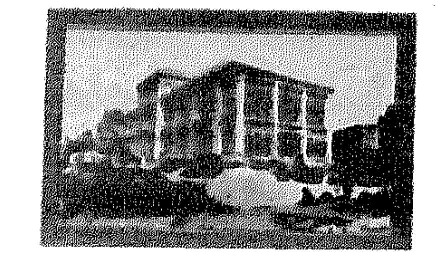
وبعد ... إن لدار الكتب المصرية تاريخا عريقا فى نشر الكتاب العربى ، ولكن عوامل كثيرة من الاستلاب والمسخ والتشويه تحجب هذا التاريخ أو تطمسه . لكن القضية أكبر من ذلك : إن تاريخ مصر يغتال ، وإن صفحات رجالها تطوى ، وإن أيامها تُغَيَّب ، وكل ذلك يتم بأيدينا وأيدى غيرنا ، ثم نقول : إن هذا الجيل ضعيف الانتماء لمصر ! واللهم لا . إن فى هذا الجيل خيرا كثيرا ، لكن الذين يعرضون عليه أمجاد مصر يقفون به أحيانا عند مظاهر هينة جدا من تاريخ الأيام والرجال ، ويذرون وراءهم أياما عظيمة ورجالا كبارا . وإن من أوجب الواجبات أن تنشر أمام هذا الجيل صفحاتنا المضيئة ، ومن أهمها تاريخنا وجهادنا فى طبع الكتاب العربى والاسلامى : فقد غبر زمان وجاء زمان وليس بين أيدى الناس ـ عربا وعجما ـ من جياد الكتب إلا ماطبع بمصر . ثم جاء الزمان النكد ، ودارت آلات الطباعة الغاصبة (الأوفست) تأكل تاريخ مصر أكلا وتغتال أيام الرجال اغتيالا ، فتنتزع من فوق الأغلفة ومن خواتيم الكتب زمان ومكان الطبع ، ثم تمادت فأسقطت أسماء المصححين والمحققين ، ليقال بعد ذلك إن الحركة الثقافية قد انتقلت من مصر إلى البلد الفلانى والبلد الفلانى ، ثم ليقال أيضا :

كلا أبويكم كان فرعا دعامة

ولكنهم زادوا وأصبحت ناقصا

ويعلم الله .. إنها ليست عصبية البلد تحملنا على مانقول ، ولكنها العصبية للحق المهدر ، والغضب للتاريخ المهان ، وربك يفعل مايشاء





مازلت اذكر لحظات الزهو التي انتابتني في كل مرة ذهبت فيها الى فرع دار الكتب بطنطا ، وانا بعد في العقد الثاني من العمر . كان المكان يقطر بالرهبة والوقار وكنت انا واثنان من رفقائي نشعر بالتميز ، حين نذكر زملاءنا الآخرين الذين لا يعرفون باب هذا المبنى الجليل .

كانت القراءات متناثرة ، يعوزها التوجيه والتنظيم ، وكان اغلبها للمنفلوطي والبشرى والرافعي ، واقلها لاسماعيل مظهر والعقاد وطه حسين . وكنا نسعد بالذهاب للدار ونحتشد له كما لو كنا نتوجه لحفل مهم في دار الاوبرا التي لم نكن قد عرفنا عنها شيئا في ذلك الزمان .

ثم انتقلنا الى القاهرة ، وكان الذهاب الى دار الكتب "الأم" فى باب الخلق نقلة كبيرة سواء من حيث القاعات والمراجع والدوريات أو من حيث استخدام هذه المكتبة الجليلة فى امور علمية أيضا : كتابة البحوث التى كنا نطالب بها أحيانا ، أو الاعداد للامتحانات أو ما الى ذلك ، وظل شعور الزهو والتميز يتملكنا هنا ايضا .

لكنى حين سافرت للدراسة فى الخارج ، ودخلت مكتبة الجامعة التى درست بها أصابنى الذهول ، القاعات ضخمة وعديدة ونظيفة ، والكتب والدوريات متاحة على أرفف الطوابق التسعة التى يتكون منها المبنى . وما عليك الا أن تستخرج رقم الكتاب ورمزه من الفهارس ثم تذهب لاحضاره بنفسك ، لا فراش يتحكم ، ولا أبواب مغلقة . فاذا ما صادفتك مشكلة من أى نوع فهناك فى كل قاعة وفى كل طابق طاقم كفء متعلم ومهذب ومفعم بالرغبة فى أن يذلل أى عقبة ويفسر كل غموض .

ثم حضرت الى القاهرة بعد عامين ، لاستكمال جمع المادة الدراسية فى فترة الصيف ، وذهبت الى دار المحفوظات بالقلعة للاطلاع على الدوريات التى كانت تحفظ هناك . وهالنى المنظر : اطنان من التراب تلف المكان كله ، الدوريات والمقاعد وكل شيء ، والخدمة طبعا لا تقارن . لكن ما اسعدنى كان الاقبال الكبير على القراءة ، اناس من كل الاعمار منكبون على ما أمامهم فى جد وحماس لا يرون فى كل ما حولهم أمرا غير عادى ، بل لعل بعضهم يشعر

ذكريات وآمال

بقلم : د. حمدى السكوت

بالزهو الذى كنت أشعر أنا به من قبل ، والذى حل محله الآن شعور بالتعاسة ، فقد ادركت أن كل شىء هناك كان يغرى بالقراءة ويدفع اليها على حين أن كل شىء هنا يصرف عن القراءة ، ويغرى بمغادرة المكان . وللحظة ، أحسست بأنه ربما كان من الخطأ أن توفدنا الدولة فى بعثات . لكنى سرعان ما تذكرت أن دار الكتب نفسها قد انشئت نتيجة ايفاد مصرى موهوب فى بعثة الى الخارج ، فقد شاهد ذلك الموهوب (على مبارك) المكتبة الأهلية فى باريس ، فاقترح على الخديو أن ينشىء فى مصر "كتبخانة خديوية" يضاهى بها "كتبخانة باريس" فوافق الخديو وانشئت دار الكتب .

وشعرت بشىء من التفاؤل والأمل فى أن يقوم الموفدون الى الخارج لدراسة "علم المكتبات" بتطوير الأوضاع وتحسين الخدمة فى دار الكتب وفروعها ، فهذا مطلب هين اذا ما قورن بعملية الانشاء من الأساس .

لكن السنين مرت ، وكثرت اسفارى الى الخارج ، وفى كل مرة كنت أجد طفرة فى أوضاع المكتبات فى الخارج .. البلدة التى كنت ادرس بها ــ وهى فى حجم مدينة بنها أو اقل ــ كان بها ثلاث مكتبات عامة (بجانب مكتبة الجامعة ومكتبات الكليات ، وهذه لها قصة أخرى) . وقد شهدت المكتبات العامة عبر السنوات توسعات كبيرة ، وانضمت اليها مكتبات متنقلة تذهب فى مواعيد ثابتة الى سكان أطراف المدينة ، بدلا من أن تقتصر المكتبات المتنقلة ــ كما كان الحال من قبل ــ على الذهاب للقرى والنجوع : استمر تزويد المكتبات بأحدث الكتب والدوريات ، وبالكتب "المسموعة" أيضا : الخدمة بالمكتبات عموما تطورت الى درجة أن القارىء يستطيع عن طريق المكتبات الآن استعارة كتاب ، أو حتى "رسالة جامعية" من مكتبات المدن أو الجامعات الأخرى .

وتخيل مثلا مدى سعادة باحث فى جامعة الاسكندرية عند استعارة "رسالة دكتوراة" نوقشت فى جامعة أسيوط أو المنصورة أو قنا منذ شهر مثلا ، وهو قابع فى مكتبة جامعته فى الاسكندرية . طبعا فى حالة الرسائل



تقوم المكتبة "المستعيرة" باتخاذ الضمانات الضرورية للحفاظ على الرسالة ولحماية حقوق المؤلف والمكتبة المعيرة . أما الفهارس فقد أصبحت الكترونية ، تضغط على زر أو اثنين فتحصل على كل ما تريد في ثوان قليلة .

يشهد المرء هذه التطورات وغيرها ، وفي مكتبات اقليمية ، (فأنا لا أتحدث عن مكتبة "المتحف البريطاني" مثلا التي هي المكتبة القومية لبريطانيا) . نقول يشهد المرء كل هذا ثم يعود الى القاهرة ليلاحظ أن المستوى المعقول والمتواضع والذي كان يناسب أربعينيات هذا القرن والذي كانت دار الكتب وفروعها قد وصلت اليه ، هذا المستوى قد هبط هبوطا شديدا على كافة الأصعدة .

● تصوير الدوريات

في أوائل السبعينيات بدأنا المشروع البيليوجرافي الذي تقوم به الجامعة الأمريكية ولاحظنا أن دوريات مثل "الجريدة" و "السفور" ، و "السياسة الأسبوعية" وغيرها في حالة يرثى لها من كثرة الاستعمال . وتقديرا منا لقيمة هذه الدوريات وأمثالها وخوفا عليها من أن تزداد تهرؤا ، عرضنا أن تقوم الجامعة الأمريكية بتصوير هذه الدوريات واعطاء نسخة للدار من كل دورية حتى يستخدمها المترددون على الدار حماية للأصل . وسمح لنا المسئولون بذلك في أول الأمر ، وصورنا ثلاث مجلات هي "السفور" ، و "البيان" ، و "الفجر" ثم صدرت الأوامر بوقف العملية لأن المشرفين على الدار رأوا أن يقوموا هم بالتصوير ، ويبيعوا نسخا لمن يرغب في شرائها ، وانتظرنا أن يتم هذا المشروع المهم ، ولكن انتظارنا طال حتى الآن دون أن يحدث شيء . والله ، وبعض القراء ، يعلمون الحالة المأساوية التي آلت اليها هذه الدوريات الآن .

وحين أدمجت دار الكتب مع الهيئة العامة للكتاب حدث خطأ جلل (ومن المفارقات أن الذي اتخذ هذه الخطوة ، التي طمست هوية دار الكتب وأوشكت أن تودي بها . أستاذ متخصص في "علم المكتبات" سافر الى الخارج مثل علي مبارك) أما هذا الخطأ الذي أشرت اليه فهو أنه كان من المنطقي أن تضم الهيئة الى دار الكتب وليس العكس : فالهيئة لا تعدو ـ كبرت أو صغرت ـ أن تكون دار نشر ، وقد كان بدار الكتب قديما قسم متميز للنشر قدم روائع من التراث ككتاب الأغاني وغيره ، وكان الشيء الطبيعي هو أن تنضم

● هل آن الأوان لتزويد دار الكتب بالمراجع الحديثة ..؟!

الهيئة لقسم النشر هذا ويصبح المنصب الكبير والرئاسى هنا هو منصب مدير دار الكتب ، لا منصب مدير الهيئة .

ولو أن هذا حدث ، لو أن كل مدير للهيئة ، عين بدلا من ذلك مديرا لدار الكتب ، تتبعه الهيئة لاختلفت رؤيته وأهدافه وبرامجه ، ولشعر منذ لحظة تعيينه أنه مسئول عن المكتبة القومية لجمهورية مصر العربية ، وهى مسئولية ضخمة كان من شأنها أن تدفعه لأن يصرف كل همه للارتقاء بهذه المؤسسة وتطويرها . اما أن يعين هذا المدير مسئولا فى الأساس عن هيئة الكتاب وهى كما ذكرنا "دار نشر" تنافسها بل وتتفوق عليها دور نشر كثيرة فى مصر ، فان من الطبيعى أن تنصرف كل جهود هذا المسئول ومحاولاته لتكبير هذا الشىء الصغير ، حتى يرتفع الى مستوى المسئول الذى هو عادة أستاذ جامعى مثقف ، يود بالطبيعة أن يتميز عن المشرفين على دور النشر الناجحة الأخرى الذين هم عادة تجار وأنصاف مثقفين ، ومن هنا تكثر الاحتفالات والمهرجانات الثقافية ... الخ حتى تخرج دار النشر هذه أى "الهيئة" عن جلدها الطبيعى ، بدلا من أن تنفق هذه الجهود على الارتقاء بدار الكتب ، التى هى مكتبتنا القومية . فهل آن الأوان لكى تنفذ الخطوات الجادة لاصلاح دار الكتب : لتزويدها بالمراجع الحديثة فى كافة التخصصات ، سواء فى ذلك الكتب – مقروءة ومسموعة – أو المخطوطات ، أو الدوريات العلمية والأدبية فى اللغات المختلفة ؟

وهل نأمل فى تحديث نظم الفهرسة بحيث تتمشى مع الأساليب التى بدأ استخدامها بالخارج منذ أواخر الستينيات ؟ وهل يمكن أن نوفر الميزانية لانشاء فروع لدار الكتب ، ليس فقط فى عواصم المحافظات وانما أيضا فى كافة المراكز والمدن الجديدة ، بل والقرى الكبيرة "ولو بارسال المكتبات المتنقلة اليها فى مواعيد ثابتة" كما يحدث فى الخارج ؟

وأخيرا فهل آن الأوان لكى يصبح اسم مدير الهيئة مدير دار الكتب والمكتبات القومية "أو شيئا من هذا القبيل" ، وذلك فى حالة استمرار ضم المؤسستين ، أو فصل دار الكتب عن الهيئة كلية ، وتعيين مدير لها يستطيع القيام بهذه المهمة الثقيلة ، مهمة اصلاح وتطوير وتحديث مكتبتنا القومية وفروعها ؟

آمال نرجو الله أن يُوفِق الى تحقيقها .

شهادات

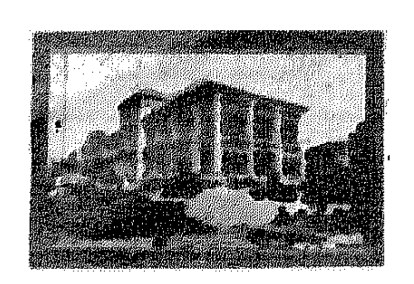
وثائق مصر في خطر

●● إن الاوضاع التى عليها دار الوثائق فى مصر تختلف تماما عن مثيلتها فى الخارج ، وهذا ما لمسته بالفعل من خلال معايشتى للوثائق المصرية على مدى خمس سنوات ، ذلك انه طيلة هذه الفترة ينتابنى اليأس والحزن على الحالة السيئة التى فيها وثائق مصر ، والواقع اننى فى خوف وقلق من ضياع وهلاك هذه الوثائق وبالتالى ضياع تاريخ بلادنا ●●

والحق يقال ، إن الحالة التى عليها الوثائق المصرية لا تجعل الباحث المصرى المخلص يحزن عليها فقط بل تدعوه ايضا الى الاستغاثة والصراخ فى آذان المسئولين عسى أن يهتم احدهم بهذه الوثائق قبل ان تضيع او تتلف تماما ، ووقتها لن ينفع الصراخ ولن تجدى الاستغاثة .

وتفاصيل الحالة السيئة التى عليها هذه الوثائق سوف اعرضها بشىء من الايجاز :

● اولا : وثائق المحاكم الشرعية ، وهى موجودة بأرشيف الشهر العقارى بميدان الاسعاف بالقاهرة ويوجد به اكثر من الفى سجل من الحجم الكبير ، وهذه السجلات تحتوى على مادة علمية غاية فى الاهمية لانها تتناول التاريخ السياسى والاقتصادى والاجتماعى فى مصر من القرن السادس عشر حتى اواخر القرن التاسع عشر ، والواقع أنه رغم الاهمية التاريخية لهذه السجلات فإنها محفوظة فى مكان ضيق ومظلم بعضها بالدواليب لكنه غير مرتب ومهلهل ، والبعض الآخر ملقى على الارض وسط الاتربة تلتهمه الفئران والحشرات المختلفة ، ورغم هذه الحالة السيئة فإن وزارة العدل ترفض تسليم هذه الوثائق لدار الوثائق .. وامام هذا الوضع السيىء اخذت على عاتقى انا وزملائى انقاذ مايمكن انقاذه من هذه السجلات مادامت مصلحة الشهر العقارى لاتود ترميمها ، ونحن نقوم بعملية الترميم عن طريق جمع التبرعات من الاخوة الزملاء الباحثين فى التاريخ العثمانى ، لكن هذا الترميم ماهو إلا حل مؤقت افضل من تركها للضياع .



بقلم: سليمان محمد حسين

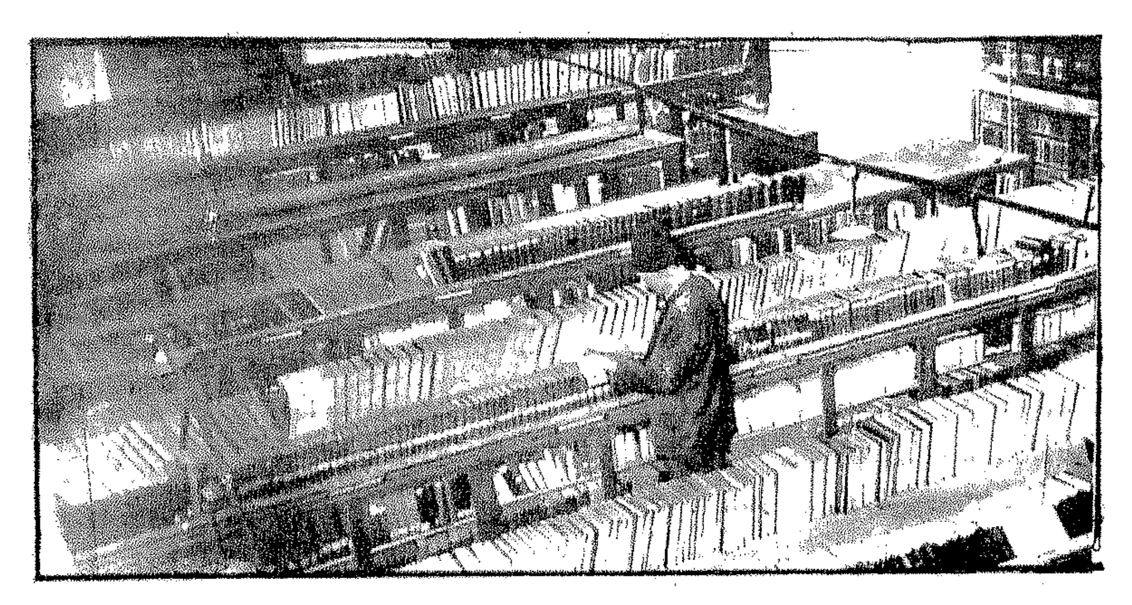
● ثانيا : سجلات محاكم الاقاليم : وهي تقدم مادة علمية مهمة عن الاقاليم المصرية في العصر العثماني والفترة الحديثة ، وقد نقل بعض هذه المحاكم الى دار الوثائق بالقاهرة لكن حالته سيئة وغير مرمم وتنقصه الفهرسة ، اما البعض الآخر فلايزال موجودا فى الاقاليم فى حالة سيئة وهناك مثالان على ذلك :

- المثال الاول : سجلات محكمة الاسكندرية وهي موجودة بارشيف الشهر العقارى بميدان المنشية وقد اطلعت عليها ووجدت بها مادة علمية مهمة جدا عن تاريخ مدينة الاسكندرية فى العصر العثماني وفي تاريخ الاسكندرية فى القرن التاسع عشر ، وبها حوالى مائتين سجل ورغم ان الموظف المسئول امين عليها إلا ان المكان الموضوعة فيه مكان ردىء تتكاثر فيه الحشرات وتجعل منه مرتعا لنفسها ويبلغ طول الحشرة ٥ سم من نوع غريب من الحشرات كنت اجدها بين ورق السجلات .

- المثال الثاني : سجلات محكمة رشيد وهى موجودة الآن بأرشيف الشهر العقارى بمدينة دمنهور وهذه السجلات تحتوى على مادة علمية غزيرة عن تاريخ مدينة رشيد لكن للأسف الشديد هذه السجلات موجودة فى بدروم تحيط بها المياه والرائحة الكريهة من كل مكان وبالتالى فهى مزرعة للحشرات لدرجة ان ورق الوثائق اصبح مثل الدقيق وبعض السجلات عند فتحها وجدتها خاوية لان الورق الموجود بها اكلته الفئران والحشرات لدرجة اننى ارى بعد معايشتى لهذه الوثائق انه اذا لم ننقذ وثائق مدينة رشيد باسرع وقت ممكن فإن تاريخ هذه المدينة سوف يضيع بعد عام او عامين على الاكثر ..

والغريب فى الامر اننى عندما شرعت فى اتخاذ اجراءات نقل هذه الوثائق إلى دار الوثائق بالقاهرة وجدت ان الموظف موافق فهو يريد التخلص منها هو الاخر ، ولكن وزارة العدل ترفض تسليمها مما يدعو الى التساؤل هل ترفض وزارة العدل تسليمها لكى يستفيد منها المؤرخون وتتركها غذاء للحشرات !!

● ثالثا : وثائق دار المحفوظات بالقلعة ، ويوجد بهذه الدار آلاف الوثائق الخاصة بتاريخ مصر الحديث ولكن للأسف يقل الاستفادة منها بسبب تراكم الوثائق فوق بعضها دون تنظيم او فهرسة ، خاصة مخزن ٤٦ الذى يوجد به



وثائق لاحصر لها ، ولكن هذا المخزن مزرعة جيدة للثعابين والفئران مما يجعل الاستفادة منه فى حكم المستحيل .

● وثائق دار الوثائق القومية وكان من المفروض أن ياتى ترتيبها فى المقدمة نظرا لاهميتها وهى احسن اماكن البحث على وجه الاطلاق ولكن بها مشكلتان : الاولى ضيق وقت العمل فيها حيث يبدأ العمل فى العاشرة صباحا حتى الواحدة ظهرا فقط ، المشكلة الثانية أن معظم الوثائق الموجودة بها غير مفهرسة وبعضها ينقصه الترميم خاصة سجلات محكمة الدقهلية وغيرها من محاكم الاقاليم .

ـ وبعد هذا العرض الموجز يتبين لنا ان الامر جد خطير لانه يتعلق بوثائق تاريخ بلادنا اعز مانملك ، لكننا نعلق الامل على الاستجابة للمطالب الآتية :

□ اولا : وقبل اى شىء انقاذ سجلات محكمة رشيد والاسكندرية من حالتها المحزنة وذلك بنقلها الى دار الوثائق بالقاهرة ثم ترميمها .

□ نقل سجلات ارشيف الشهر العقارى بالقاهرة الى دار الوثائق ثم تصويرها على ميكروفيلم ، او تغليفها بالبلاستيك ، فإذا تعذر ذلك نرجو نقلها الى الدور العلوى بالشهر العقارى بعيدا عن الظلام ، والحشرات .

□ ترميم سجلات محاكم الاقاليم الموجودة الآن بدار الوثائق وخاصة سجلات محكمة الدقهلية ثم تجليدها وفهرستها بطريقة افضل .

□ الاهتمام بنقل سجلات دار المحفوظات الى دار الوثائق الجديدة لحمايتها من التلف .

مكتبة الإسكندرية

أحياء اول مكتبة علمية فى التاريخ

بقلم: ربيع شتا

اذا كانت مدينة الاسكندرية ، التى أنشأها الاسكندر الأكبر عام ٣٣٢ قبل الميلاد ، تضم احدى عجائب الدنيا السبع : وهى فنار الاسكندرية الذى يقع فى مدخل مينائها ، فانها كانت تستمد مجدها من مكتبتها الشهيرة . ولقد ظلت هذه المكتبة طوال ما يقرب من ستة قرون تضم مجموعة فريدة من المصنفات العلمية والفلسفية والأدبية . وكانت المكتبة تشكل مركزا للتعليم ومعهدا للبحوث وتقدم زادا دسما يغذى عددا لا يحصى من العلماء الذين وفدوا اليها من كل حدب وصوب ووجدوا فيها واحة وارفة الظلال ونبعا فياضا للعلوم والمعارف . وهناك ازدهرت الحضارة الأغريقية الرومانية التى تعتبر الاسس الذى ترتكز عليه الثقافة الغربية واحد المصادر الثرية للثقافة العربية التقليدية ، لاسيما فى مجال العلوم والفلسفة .

ويروى لنا التاريخ ان شخصا يدعى ديمتريوس الفاليرونى كان تلميذا لارسطو وحكم اثينا قرابة عشر سنوات ثم فر منها والتجأ الى الاسكندرية قرب نهاية القرن الرابع قبل الميلاد حيث اصبح مستشارا للملك بطليموس الأول المعروف باسم بطليموس سويتر (اى المنقذ) الذى كان احد كبار القادة العسكريين لجيوش الاسكندر ثم اختص بحكم مصر بعد ان قسمت امبراطورية الاسكندر بين هؤلاء القادة عقب وفاة الاسكندر . وتذهب رواية دُوّنت فى القرن الثانى عشر الى ان ديمتريوس هذا هو الذى اقترح على مليكه بطليموس ان يقوم بجمع مجموعة من الكتب عن المملكة وعن ممارسة القيادة وأن يقرأها .. وهكذا ولدت مكتبة الاسكندرية التى انشئت على غرار مكتبة ارسطو فى اثينا ووفقا لتقاليدها وكان الهدف من انشائها طموحا للغاية حيث كان يتمثل فى جمع «كتب جميع شعوب العالم» .

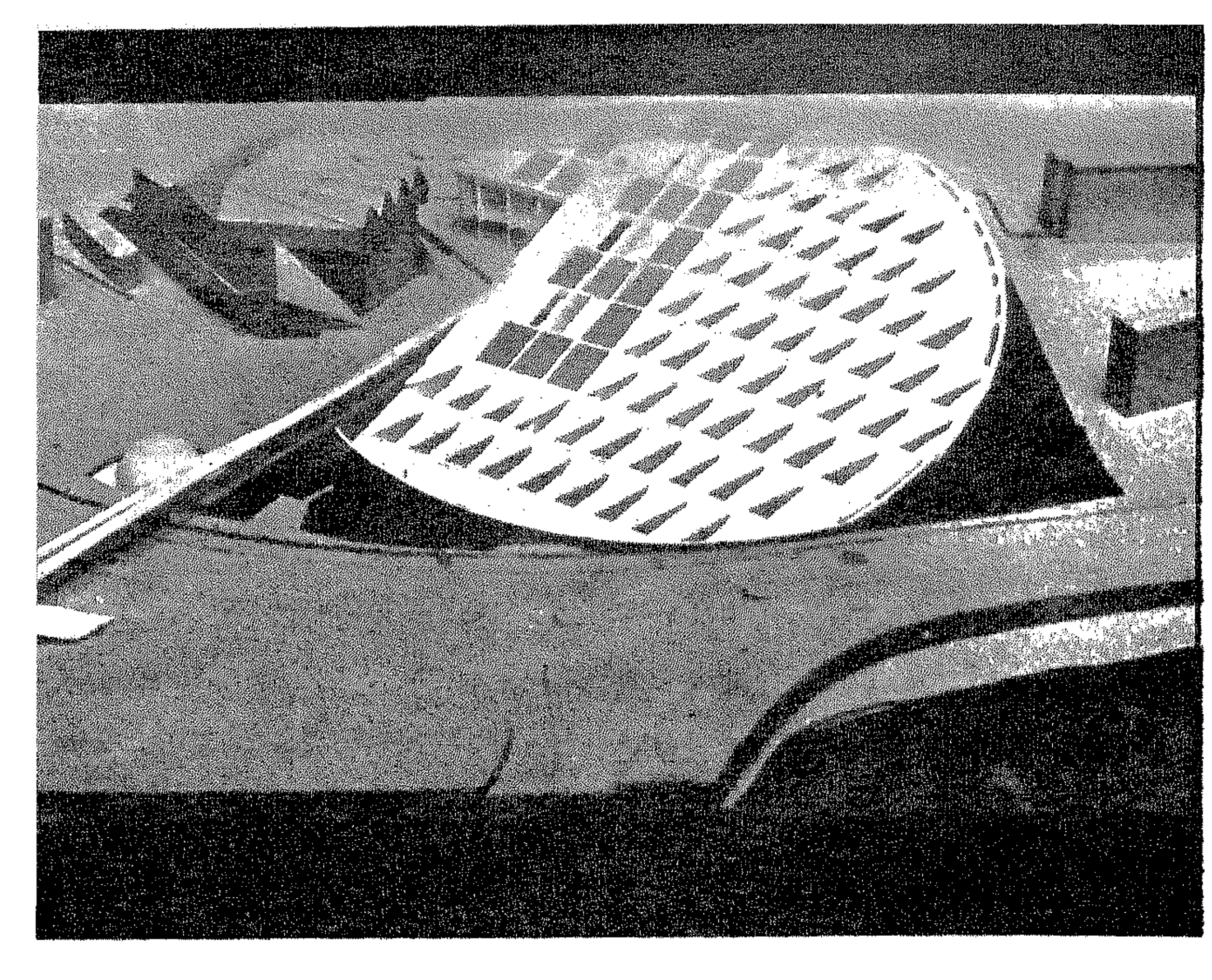
وتولى بطليموس الثانى المعروف باسم بطليموس فيلادلفوس (اى محب

اخته) توطيد دعائم مشروع ابيه . وبعد مرور قرنين من الزمان وبعد ان وصلت الاسكندرية الى ذروة مجدها واصبحت مدينة ذات طابع عالمى تضم اجناسا شتى من البشر وصارت المدينة الثانية فى الامبراطورية الرومانية ، أصبحت المكتبة تضم عددا يتراوح بين ٤٠٠٠٠٠ و ٧٠٠٠٠٠ لفافة من لفائف البردى تحتوى على قرابة ٣٠٠٠٠ مصنف وفقا لتقديرات مختلفة تتفاوت بتفاوت العصور . وحتى يتسنى انشاء مجموعة بهذه الضخامة ، كانت المكتبة تأوى جيشا من الكتبة الذين كانوا يمضون حياتهم فى استنساخ المخطوطات الواردة من المكتبات الأخرى . ذلك ان بطليموس الأول ، حسبما تقول الرواية الذائعة ، ارسل رسائل الى جميع ملوك وحكام العالم يطلب منهم فيها ان يعيروه مؤلفات « شعرائهم وكتابهم وخطبائهم وفلاسفتهم واطبائهم وكهنتهم ومؤرخيهم» . كما أن كل مصنف مكتوب كانت تحمله احدى السفن كان «يُصادر» دائما لكى يجرى استنساخه ، لتغذية المجموعة التى كانت تسمى «مجموعة السفن» .

وفضلا عن ذلك كانت تحشد من كل شعب من الشعوب مجموعة من العلماء الذين كانوا لا يقتصرون على اجادة لغتهم الاصلية فحسب بل كانوا يتقنون ايضا اللغة اليونانية اتقانا عظيما : وكان يعهد الى كل مجموعة منهم بالنصوص التى تخصهم لترجمتها وهكذا كانت تعد ترجمة من كل نص من النصوص على اختلاف لغاتها «وفى ذلك الوقت كانت هذه الشعوب متعددة ومتباينة للغاية ، حيث كانت الحضارة الاغريقية تمارس تأثيرها القوى على رقعة واسعة تمتد من جبل طارق حتى ضفاف السند ومن نهر الدانوب حتى صعيد مصر . وهكذا استدعى الى الاسكندرية ، وفقا للروايات التاريخية اثنان وسبعون حبرا من احبار اليهود ـ ستة من كل سبط من اسباط اسرائيل ـ ليقوموا بترجمة اسفار التوراة الى اللغة اليونانية ، فقاموا بهذه الترجمة فى اثنين وسبعين يوما . ولهذا سميت بالقراءة السبعينية للتوراة» . وللمرة الأولى فى التاريخ ، وربما الأخيرة ، كان زوار المكتبة يشعرون بذلك الشعور الرائع بأنهم يجدون فى متناول ايديهم جميع كتب العالم بأسره .

ولكن كيف يستطيع المرء ان يهتدى الى الكتاب المنشود بين هذا العدد الهائل من الكتب ؟

كان اهم تجديد يتمثل فى تصنيف وفهرسة جميع الوثائق بحسب الموضوعات وبحسب المؤلفين على «البيناكيس» وهى كلمة يونانية معناها «الألواح» وقد تمت فهرسة وتسجيل جميع الوثائق على هذه الالواح ، وقام



نموذج معمارى لما ستكون عليه مكتبة الاسكندرية

بهذه المهمة كاليماخوس القورينائى (٣١٠ ـ ٢٤٠) ، والاستاذ اراطوستينوس ، واريسطارخوس بتكليف من هذا الأخير وقد كانا من اوائل مديرى المكتبة .

ومع ذلك فان المكتبة لم تكن الا جزءا من مجمع اكبر واشمل : هو المتحف او «الميزيه» اى معبد رباب الفنون والعلوم (الميز) وقد انشىء هذا المتحف على غرار المدرسة التى اسسها ارسطو فى حى الليسية فى اثينا ، وكان هذا المجمع يضم الى جانب المكتبة التى ذاعت شهرته فى الآفاق ، مرصدا فلكيا وحديقة للحيوانات والنباتات ، وقاعات للاجتماعات . وطوال ستة قرون (ابتداء من القرن الثالث قبل الميلاد حتى القرن الثالث الميلادى) عاش او اقام لفترة من الزمن فى هذا المكان ، اعظم علماء العصر مما جعل من الاسكندرية القلب النابض والقوة الدافعة للحركات الفكرية فى جميع ارجاء حوض البحر المتوسط والشرق الاوسط ومن بين هؤلاء العلماء نذكر : هيروفيلوس (٣٤٠ ـ ٣٠٠ تقريبا) الذى أرسى قواعد التشريح والفسيولوجيا ، واقليدس (٣٣٠ ـ

٢٨٠) مبتكر علم الهندسة ، واراطوستينوس (٢٨٤ ـ ١٩٢) الذى استطاع ان يحسب محيط الكرة الأرضية ، واريستارخوس (٢١٥ ـ ١٤٣) ودنيس الطراسى (١٧٠ ـ ٩٠) اللذان وضعا قواعد علم النحو ، وبطليموس (٩٠ ـ ١٦٨) مؤسس علم رسم الخرائط ولكن تحرى الحقيقة التاريخية يدفعنا الى الاعتراف بأن الدافع الى هذا المشروع الضخم لم يكن هو الحب الخالص للمعرفة وحدها فلقد كان الهدف الأول من ورائه هو تزويد ملوك الاسكندرية بسلاح فريد للسيطرة ، عن طريق امدادهم بالمعرفة اللازمة لدعم سلطانهم ـ وهى معرفة مستمدة من الكتب فى المقام الأول ، وتشمل المعارف المتعلقة بالشعوب الخاضعة لسلطانهم التى كانوا يترجمون حتى كتبها المقدسة لكى يتسنى لهم فهمها على نحو افضل ، ثم معرفة حية ، حيث كان العلماء المعتكفون فى حرم القصر الملكى ـ وهو السبب الذى من اجله كان المتحف يسمى موطن ربات الفنون والعلوم ـ يقدمون للملوك المشورة فيما يستطلعون رأيهم فيه من الأمور يوما بعد يوم .

● اختفاء المكتبة

ويدفعنا نفس الشعور باحترام التاريخ الى التزام الحذر الشديد فيما يتعلق بالاسباب الحقيقية لاختفاء المكتبة ، التى ترجع فى اغلب الظن الى الحروب والغزوات وما اقترن بها من الحرائق . ففى عام ٤٨ قبل الميلاد قيل ان النار التى اندلعت فى سفن الاسطول المصرى الذى كان يحاصر يوليوس قيصر الذى كان يحتمى بالقلعة ، امتد لهيبها الى المكتبة بفعل ريح الشمال وبعد بضعة اعوام نقل مارك انطونى ، على سبيل التعويض الى الاسكندرية ٢٠٠٠٠٠ لفة من المكتبة الوحيدة المنافسة لمكتبة الاسكندرية وهى مكتبة برجامون (باسيا الصغرى) ثم اعقبت ذلك ـ ضمن احداث اخرى ـ الغزوات المتعددة على المدينة والتى قامت بها الملكة زنوبيا (٢٦٨) ثم الاباطرة الرومان اورليانوس (٢٧٣) ودقلديانوس (٢٩٥ ميلادية) والفرس (٦١٨) وعمرو بن العاص (٦٤٠) ثم الصليبيون وقد اقترنت هذه الغزوات فى اغلب الأحوال بعمليات السلب والنهب .

ولكن قد يمكن القول ايضا انه من المحتمل ان المكتبة قد اصبحت عتيقة عفا عليها الدهر ذلك ان لفات اوراق البردى تتلف سريعا بمرور الزمن كما ان استخدامها اصعب من استخدام مجموعات المخطوطات المدونة على اوراق مستطيلة الشكل والمغلفة بغلاف من الخشب او الجلد والتى تسمى

«كوديكس» والتى ظهرت فى نهاية القرن الثالث بعد الميلاد . وعلى اى حال ، فانه حتى دخول العرب الذين جعلوا من الاسكندرية قلعة حربية ، كانت هناك مخطوطات يونانية مازالت موجودة نظرا لان مضمونها قد وصل الينا بفضل الترجمات التى قاموا بها لتلك المخطوطات الى اللغة العربية .

● الحنين الى القديم

يهدف المشروع الى انشاء «مكتبة للاسكندرية» يمكن لمكتبة الاسكندرية ان تضاهى فى العظمة مكتبة الاسكندرية القديمة التى كانت قائمة منذ قرابة الفى عام . ولما كانت المكتبة القديمة لم يبق منها اى شىء فان الموضوع المطروح ليس موضوع صون او ترميم بل هو موضوع احياء واعادة انشاء مركز ممتاز للتدريب والتأهيل موجه على الاخص نحو مجالات المعرفة المتعلقة بالتاريخ والجغرافيا وبوجه أعم المتعلقة بحضارة الاسكندرية والمناطق المجاورة لها : اى بحضارة حوض البحر المتوسط والشرق الأوسط .

وستكون هذه المكتبة مزودة بأحدث الوسائل . ولن تقتصر على استقبال عامة الجمهور ، بل ستستقبل ايضا الباحثين فى مجالات علوم الاثار والتاريخ والعمارة واللغات والفلسفة وعلم اللاهوت المسيحى وعلم الكلام الاسلامى والعلوم الطبيعية وغير ذلك من المجالات . وفضلا عن ذلك فانها ستشتمل على مركز لصون المخطوطات الاصلية المهددة بالتلف ، وتيسير الاطلاع عليها ولاسيما عشرات الآلاف منها ، التى يرجع عهدها الى العصور الوسطى والموجودة فى المساجد والمتاحف والاديرة والصوامع المصرية والتى لا يوجد لها حتى اليوم اى فهرس شامل .

وسينفذ هذا المشروع على عدة مراحل ، على ان يتم انجازه فى بداية القرن المقبل .

وقبل تنمية المجموعة الاساسية من كتب العلوم الطبيعية والطب التى تضمها مكتبة جامعة الاسكندرية فى الوقت الراهن ، سيجرى التركيز اولا على العلوم الانسانية وستفتح المكتبة الجديدة ابوابها فى مبانيها الجديدة فى عام ١٩٩٥ بمجموعة اولية تقدر بـ ٢٠٠٠٠٠ مجلد ، ثم تنمى مجموعاتها تدريجيا ويتمثل الهدف فى الوصول الى ٤ ملايين مجلد ثم ٨ ملايين مع توفير امكانات التوسع فى البنى الاساسية وتزويدها بالمرافق التى اصبحت لا غنى عنها لمثل هذا المشروع .



وستجرى ادارة المكتبة بالحاسبات الالكترونية بصورة كاملة وستكون فهارسها تدريجيا فى متناول جامعات المنطقة بواسطة وسائل الاتصال السلكية واللاسلكية وفضلا عن ذلك ستشتمل المكتبة على قاعدة معلومات تختزن فيها المعلومات المتعلقة بوجه خاص بالعصر الهلينى وبالشرق الاوسط وبالتقاء الحضارتين المصرية والاغريقية ، وبنشأة المسيحية القبطية وبالتأثير الاسلامى مع التركيز بوجه خاص على العلوم فى العالم القديم . وسيكون فى وسع العالم كله الانتفاع بهذه القاعدة عن طريق وحدة خدمات اقليمية ، ومن الجانب الآخر ستكون المكتبة على اتصال بوحدات الخدمات فى سائر انحاء العالم ، التى تشكل مصدرا للمعلومات عن الموضوعات المماثلة أو المرتبطة .

ولما كان من اللازم توافر الموظفين المدربين على تقنيات خدمات المكتبة فسوف تنشأ فى موقع المكتبة مدرسة دولية لعلوم المعلومات وستقبل طلبة يقومون بالتحضير للحصول على دبلوم عال او دكتوراه متخصصة ، يمكن الاستفادة بخبراتهم المميزة فى سائر مؤسسات مصر والشرق الاوسط .

كما سيجرى توفير جميع الدعامات الحديثة للمعلومات : اجهزة عرض الشرائح المصورة والاستنساخ وقراءة البطاقات المصغرة والكاسيتات واشرطة الفيديو وغير ذلك . هذه كلها سيجرى توفيرها فى قاعات تتسع لقرابة ٢٥٠٠ شخص ويمكن ان تعقد فيها مؤتمرات دولية ، حتى تصبح المكتبة مركزا ممتازا لتبادل الافكار المطروحة فى العالم اجمع .

ولاشك ان تكاليف مشروع طموح بمثل هذه الضخامة ستكون مرتفعة حيث يصل مجموعها الى ١٦٠ مليونا من الدولارات . فضلا عن ثمن الارض (الذى يبلغ ٦٠ مليون دولار) فان انشاء المبانى سيتكلف ٦٠ مليون دولار ويتكلف تكوين مجموعات الكتب وشراء المعدات فى حدود ٤٠ مليون دولار .

وحتى قبل ان تفتح المكتبة ابوابها للجمهور سيلزم تدبير مبلغ ١٢ مليون دولار لتجميع المجموعات الاولية من الكتب ، و٣ ملايين دولار لتدريب العاملين وتحسين مهاراتهم ، ومليون دولار للاتصال بمراكز الخدمات الأجنبية .

الولد القروىّ

شعـــر :
عـزت الطـيرى

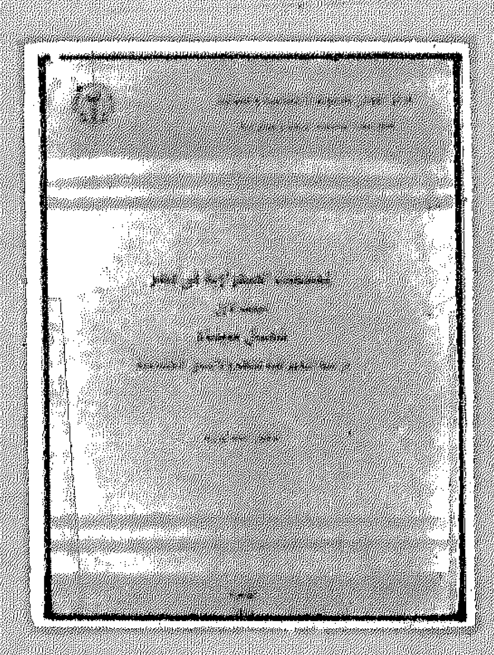
بشىء من الوجد
كان النسيم الطرىُّ
يدحرج أغنيةً
للفؤاد العجول .....
فأهمس
تلك الفتاة
تخبىء نرجسها فى سهولى .....
تخبىء حنطتها فى حقولى ......
تخبىء دهشتها
فى الكلام القليل ......
تخبىء بين القميص
مظاهرة للأنوثة
تغسل وجه الصباح الجميل ......
بماء عذوبتها ......
وتوزع بسمتها للعصافير ،
والولد القروى الخجول ......
الذى يقرأ الآن فى دفتر الغيم ،
نجماته ...
نجمة ...... نجمة ......
نيزكاً .... نيزكاً ......
جالساً فوق ربوة سوسنه المستحيل .....
ثم يمضى :
إلى شاطىء الأبيض المتوسط ..
ممتطياً خوفه الساحلى
بشىء من
الكبرياء البتول ......
بشىء ..
من الوجد ..
أيضاً ......



أول دراسة ميدانية لسيناء

سيناء

هذا القفر البديع الموحش



تأليف
د. أحمد أبوزيد

عرض
د. فاروق إسماعيل

سيناء هي عمق الأمن المصرى ، وهي ساحة الصراع على مر الأجيال ، والتي تستحق منا الاهتمام في قضايا كثيرة من بينها القاء الضوء عليها في مجالات التنمية ، والرعاية الشاملة للمشروعات المهمة التي تحقق الاستفادة من المخزون الاستراتيجي الهائل في صحرائها الشاسعة المترامية .

ونعرض دراسة مهمة للدكتور احمد ابو زيد ، اشتملت على مادة انثروبولوجية شاملة ، تناولت الحياة في سيناء وتعد نموذجا لأبحاث الصحراء والتي نفتقر اليها في هذا المجال

الدراسة في خمسمائة صفحة ، وترجع اهمية هذا العمل الأكاديمى الى ان البحوث التي تمت في مناطق صحراوية في مصر ، كانت بحوثا محدودة الى حد كبير ، لكن هذه الدراسة تتسم بالشمولية إلى حد بعيد .

تناولت الدراسة خصائص علاقة الإنسان بالبيئة .

ففى حديثه عن "شمال سيناء" المشكلة والمنهج اوضح د . احمد ابو زيد أن الهدف المباشر الاساسى هو اجراء مسح اثنوجرافى للحصول على اكبر قدر من المعلومات التى تعطينا صورة واضحة ومتكاملة عن البناء الاجتماعى والثقافى ... يمكن ان تفيد فى محاولة تحديد اسس ومعايير يمكن فى ضوئها رسم وتحديد عمليات التطوير ومشروعات التنمية ، بل وتقييمها وركزت الدراسة على نمطين اجتماعيين هما نمط الحياة الذى يعتمد اساسا على صيد الاسماك ، وقد اختير لذلك قرية التلول وتوابعها (مركز بئر العبد) ، وذلك النمط الذى يعتمد على مزيج من الرعى والزراعة ، وقد اختير لذلك قرية المقضبة وتوابعها (مركز الحسنة) ، ويؤكد المؤلف ان هذين النمطين اكثر تعقيدا مما يبدو لأول وهلة ، نظرا لتعدد الانشطة الاقتصادية رغم سيادة او غلبة نشاط اقتصادى معين ، فضلا عن تعدد الاصول القبلية ، وتعقد العلاقات القرابية ، وانعكاس ذلك على اتساق البناء الاجتماعى .

ولم تقف الدراسة عند هذا الحد فى اختيار العينة اذ اضيف الى ذلك مجتمع محلى ثالث يمثل نمط البداوة فى مدينة "نخل وتوابعها" بل وامتدت الى مدينة العريش ذات الطابع الحضرى او شبه الحضرى ، ومدن ساحلية اخرى ، وهذا هو الذى دفعنا منذ البداية الى القول بان هذه الدراسة شمولية تستهدف الوقوف على كل انماط الحياة الاقتصادية والاجتماعية الرئيسية ، وقد اقتضت ضخامة العمل وتعدد الجوانب التى يشارك فيها الباحثون جميعا كفريق متعاون تنسيق الانشطة المختلفة بين مجموعات البحث الفرعية الثلاث التى اختص كل منها بدراسة نمط اجتماعى واقتصادى من الانماط الثلاثة الرئيسية التى سبق الاشارة اليها .

وقد اعتمدت الدراسة على الملاحظة العلمية عن طريق المشاركة واستهدفت المشاركة على حد تعبير المؤلف الاندماج الكامل فى حياة المجتمع ، وهو امر لايتحقق إلا بعد مرور فترة طويلة من الزمن تكفى لأن يتقبل المجتمع وجود الباحث واعتباره جزءا منه ، وان هذا الاندماج يساعده من ناحية اخرى على فهم كثير من العادات الاجتماعية وانماط السلوك والتصرفات السائدة ، ولم تقتصر أدوات البحث على الملاحظة بل امتدت الى وسائل اخرى لاتقل عنها اهمية كالمقابلة والاستعانة بالاخباريين الذين يمثلون الاداة الاساسية للحصول على المعلومات والبيانات المتعلقة بالاوضاع المجتمعية التى يصعب اخضاعها للملاحظة ، من هنا جاءت مشكلة اختيار الاخباريين الذين

يتميزون بقدرة فائقة على التذكر ، وهنا يحرص الباحثون على تتبع تاريخ الحياة life history لمثل هؤلاء الاشخاص وتسجيله بدقة ،على اعتبار ان هذا التاريخ يمكن ان يزود الباحث بكثير من المعلومات الاثنوجرافية من خلال حياة فرد واحد فى اطار الثقافة العامة السائدة فى المجتمع ، مع فهمه الخاص للحياة ونظرته الى الكون وتقييمه لمختلف الامور والأوضاع والعلاقات ، وهكذا نجد ان هذه الدراسة اعتمدت الى حد كبير على الاساليب الانثربولوجية التقليدية فى حين نجد ان الاستعانة بالمعلومات او البيانات الرقمية جاءت بطريقة عارضة وفى اضيق نطاق

وقد اشار الباحث الى الصعوبات التى صادفها فريق البحث سواء تلك التى تجمعت عن طبيعة المجتمع من ناحية والموضوعات التى تناولتها الدراسة من ناحية اخرى ، وتلك التى ارتبطت بالاهالى انفسهم ومدى استجابتهم ، وصعوبات اخرى متعلقة بالباحثين انفسهم واعدادهم العلمى وقدراتهم على التعامل والاتصال .

وعن الانسان والبيئة يعرض المؤلف لحقائق جغرافية اساسية لها ابعاد اجتماعية هامة يرى ضرورة ان تؤخذ فى الاعتبار فى اى محاولة لدراسة البناء الاجتماعى

الحقيقة الاولى : تتمثل فى طول سواحل شبه جزيرة سيناء بالنسبة لمساحتها الكلية ، اذ يبلغ طولها حوالى ٧٠٠ كم اى مايشكل نحو ٢٩,١٪ من السواحل المصرية .

الحقيقة الثانية : تلك التى تؤلف مظهرا هاما من مظاهر النسق الايكولوجى فى شمال سيناء ، وامكانية التميز فى تلك المنطقة بين بيئتين جغرافيتين مختلفتين اشد الاختلاف وان كانتا متداخلتين بشكل يصعب معه التفرقة بينها تفرقة قاطعة ، وهما البيئة السلحلية والبيئة الصحراوية . وتتمثل البيئة الساحلية فى شمال سيناء فى السهول الشمالية المتاخمة لساحل البحر وتعكس اهم ملامحه الجغرافية والمناخية والنباتية ، ويمتزج بالساحل الرملى بعض الرواسب الطينية ، ثم البيئة الصحراوية التى تسود المناطق الوسطى من شمال سيناء ، وتزداد ملامح ومقومات هذه البيئة الصحراوية كلما ابتعدنا عن البحر ، واذا كانت السمة المميزة للسهول الشمالية هى الكثبان الرملية ، فالذى يميز البيئة الصحراوية هو وجود بعض المرتفعات المكونة من الحجر الجيرى والطفل والرمل ..

ولكن من الخطأ ان نتصور ان هاتين البيئتين متمايزتان او متخارجتان تماما ، فكل نمط من هذين النمطين اكثر تعقيدا مما قد يبدو عليه فى اول الأمر .

عينا من مختلف السعات او القدرات او التدفقات .

اما الحقيقة الجغرافية الثالثة : فتتمثل في ان المطر هو المصدر الاساسى ان لم يكن المصدر الوحيد للماء فى شمال سيناء ، اذا استثنينا ماء النيل الذى ينقل الآن عبر خطوط الى منطقة العريش ، لكن استخدامه مقصورة على استعمال المساكن ، اما المياه الجوفية (مياه الامطار) فيمكن الوصول اليها عن طريق حفر الابار السطحية او قليلة العمق ، وتذهب بعض التقديرات الى انه يوجد فى شبه جزيرة سيناء مالايقل عن ٢٥٠ بئرا او

اما الحقيقة الجغرافية الرابعة والأخيرة والتى تعتبر من اهم ملامح النثق الايكولوجى تتمثل فى وجود الوديان الجافة والتى يعتبر وادى العريش اكبرها وأهمها ،الذى تصب فيه مياه السيول عن طريق عدد كبير من الروافد .

والجدير بالذكر ان شمال سيناء ، بل وشبه جزيرة سيناء كلها تزخر بثروة نباتية طبيعية كبيرة ومتنوعة ، ويمكن تصنيف هذه الثروة على النحو التالى :



تحتل المرأة فى سيناء مكانة هامة وكان ذلك وراء انتشار الزواج .

ا ـ النباتات والاعشاب الطبيعية التى تستخدم كغذاء للماشية .

ب ـ النباتات والاعشاب الطبيعية الطبية .

ج ـ الاشجار المعمرة التى اعتاد الانسان زراعتها كالنخيل والاشجار (الزيتون) و(الكافور) .. الخ .

هذه الثروة النباتية الطبيعية تقدم فى الاساس الغذاء الرئيسى لثروة حيوانية كالاغنام والماعز والابل ، وعلى الرغم من ان تلك الاخيرة تلعب دورا هاما الا ان اعدادها كانت دائما اقل من اعداد الغنم والماعز هذا من ناحية ، ومن ناحية اخرى تعتبر البيئة الصحراوية فى شمال سيناء موطنا ملائما لانواع اخرى من الثروة البرية او غير المستأنسة ، والتى تلعب دورا هاما فى الحياة الاجتماعية والاقتصادية .

● الزمان والمكان

ثم ينتقل الباحث بعد ذلك الى معالجة مفاهيم الزمان والمكان وتداخلهما ويخلص الى :

١ ـ تداخل مفاهيم الزمان والمكان بحيث قد يقاس الزمان فى وحدات مكانية والعكس بالعكس .

٢ ـ الاعتماد الى حد كبير وبخاصة فى المناطق الصحراوية على الظواهر



التضامن القبلى اساس الحياة الاجتماعية فى سيناء .

الطبيعية والفيزيقية فى قياس الزمان والمكان ، وتحديد المناشط الاقتصادية بالاشارة الى التغيرات المناخيـة والظواهر الفلكية .. الخ .

٣ - ان البعد المكانى كما يقاس بالكيلومترات ليس من الضرورى ان يتفق مع البعد الاجتماعى القائم بين الوحدات القبلية المختلفة .

٤ - ان التغيرات الطارئة على المجتمع الصحراوى والمتمثلة فى انتشار التعليم وازدياد الاتصـال بالاجهزة والمؤسسـات ، وتكثيف عـلاقات التبـادل بين المجتمعات المحلية من ناحية ووادى النيل من ناحية اخرى ساعد على تغيير مفاهيم الزمان والمكان .

وكما يتبادل الباحث انماط الحياة الاقتصادية وفيه يعرض لاربعة مناشط رئيسية .

● اولا : الصيد والصيادون

فى هذا الصدد يذهب المؤلف الى القول بان ساحل سيناء كله يعتبر منطقة صيد ، اى المنطقة من رفح شرقا الى بالوظة غربا ،الا ان هناك مركزين هامين يرتبطان بهذا النشاط ارتباطا قويا وهما بحيرة البردويل وبالذات عند منفذ التلول وميناء العريش عند قرية ابى صقل التى تبعد بنحو ثلاثة كيلو مترات الى الشرق من العريش . ويعمل فى الصيد حوالى ٦٥٪ من مجموع سكانها ، ويمارس فى هذين المركزين اسلوبان مختلفان للصيد .

ثم ينتقل الى معالجة عملية الصيد والمؤثرات التى تتأثر بها كالبيئة الفيزيقية ، ودورة الحياة البيولوجية عند الاسماك فضلا عن القرارات الادارية .

ويتناول بعض القضايا الهامة كتلك التى تعالج الصراع ، او المنافسة بين القبائل على مهنة الصيد (الدواغر فى التلوك كمثال) فى علاقته بالعائد من الصيد على الرغم من المبدأ المعلن هو ان حق الصيد مكفول للجميع ، وكيف ان المصالح الاقتصادية تقرب احيانا بين القبائل فى عمليات الصيد ، ثم يشير الى التعاون والتكافل الاجتماعى والذى تحكمه ضوابط وقيود وجزاءات غير رسمية ، ثم يختتم الباحث هذا الجزء بالاشـارة الى الصعوبـات والمخاطر التى تواجه الصيادين .

● ثانيا البدو والمزارعون .

يؤكد تراجـع الرعى بـالمعنى التقليدى الذى يعنى الحل والترحال والتنقل بحثا عن الماء والعشب وابراز اهتمام الدولة بمشروعات التنمية فى مجال الصيد والزراعة وارتباط ذلك بالاستقرار والاقامة فى مراكز سكنية محدودة ، والجدير بالذكر ان الزراعة فى المناطق الشمالية من سيناء بدأت تخرج عن النطاق التقليدى لزراعة

الشعير او القمح الى زراعة الخضر والفواكه ، ويمكن ان نميز فى شمال سيناء بين اكثر من شكل واحد للزراعة وان كانت هذه الاشكال تؤلف فى مجموعها نسقا واحدا متكاملا من الناحيتين الاقتصادية والاجتماعية ، وترتكز على شبكة معقدة من العلاقات الاجتماعية والقرابية وبعض مبادىء تقسيم العمل والملكية ، الا ان هذه العلاقات والنظم والممارسات تتأثر فى اخر الأمر بنوع مصادر المياه التى تعتمد عليها الزراعة وامكانات الرى وأساليبه الا ان الباحث فى معالجته لمثل هذه الموضوعات يثير عددا من الملاحظات الهامة :

اولا : ان الزراعة نشاط تعاونى يقوم فى المحل الأول على العلاقات القرابية

ثانيا : ان الزراعة فى شمال سيناء لاتعرف نظام الدورة الزراعية بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة .

ثالثا : ان العمل فى الارض الزراعية يتطلب الكثير من الجهد والمعاناة ويكشف عن درجة عالية من الصبر والمثابرة بعكس الفكرة السائدة عن البدو ونظرتهم الى الزراعة والعمل اليدوى .

رابعا : مشاركة المرأة للرجل فى العمليات الزراعية ، حيث يحتاج الامر احيانا الى تكاتف كل اعضاء الجماعة القرابية المحدودة ، بل يتجاوزه الى الاقارب البعيدين والجيران والاصدقاء .

ثم ينتقل الكاتب الى مشكلة مياه الرى والمياه الجوفية وملكية الابار والأبار الاختيارية ، ومعرفة الاهالى وقدراتهم الخاصة فى مثل هذه الأمور كالاستدلال على وجود المياه من بعض تشكيلات الحصى التى تحمل الرطوبة او وجود اشجار "الغرقد" وما إليها .. ثم ينتهى المؤلف الى موضوع هام يتمثل فى ارتباط الزراعة والعمليات الزراعية بالتنظيم القرابى والتوزيع الاقليمى من الناحية الاخرى والعلاقة القائمة بينهما .

● ثالثا : الرعى والرعاة .

منذ البداية يؤكد الباحث ان الذى يتعرض حقيقة لخطر الانقراض هو الرعى فى شكله التقليدى وانه يتراجع سواء من حيث حجم القطعان ونقص الثروة الحيوانية او حجم المشتغلين به . وان الجماعات التى تعمل بالرعى هى جماعات مستقرة ، بمعنى انها لاتعيش على الرعى وحده ، وانها تزاوج بينه وبين الزراعة (اقتصاد مختلط) وكما سبق ان اشار بالنسبة للصيد وانه حق مكفول للجميع وكذلك الرعى فانه حق مكفول للجميع مادام لايتعارض مع الحقوق القبلية للآخرين ، وعدم الحاق الضرر بالزرع ، وان هناك مناطق معروفة للرعاة تتميز بوفرة اعشابها ونباتاتها الصالحة كمرعى والتى تخرج اليها القطعان غير المتجانسة .

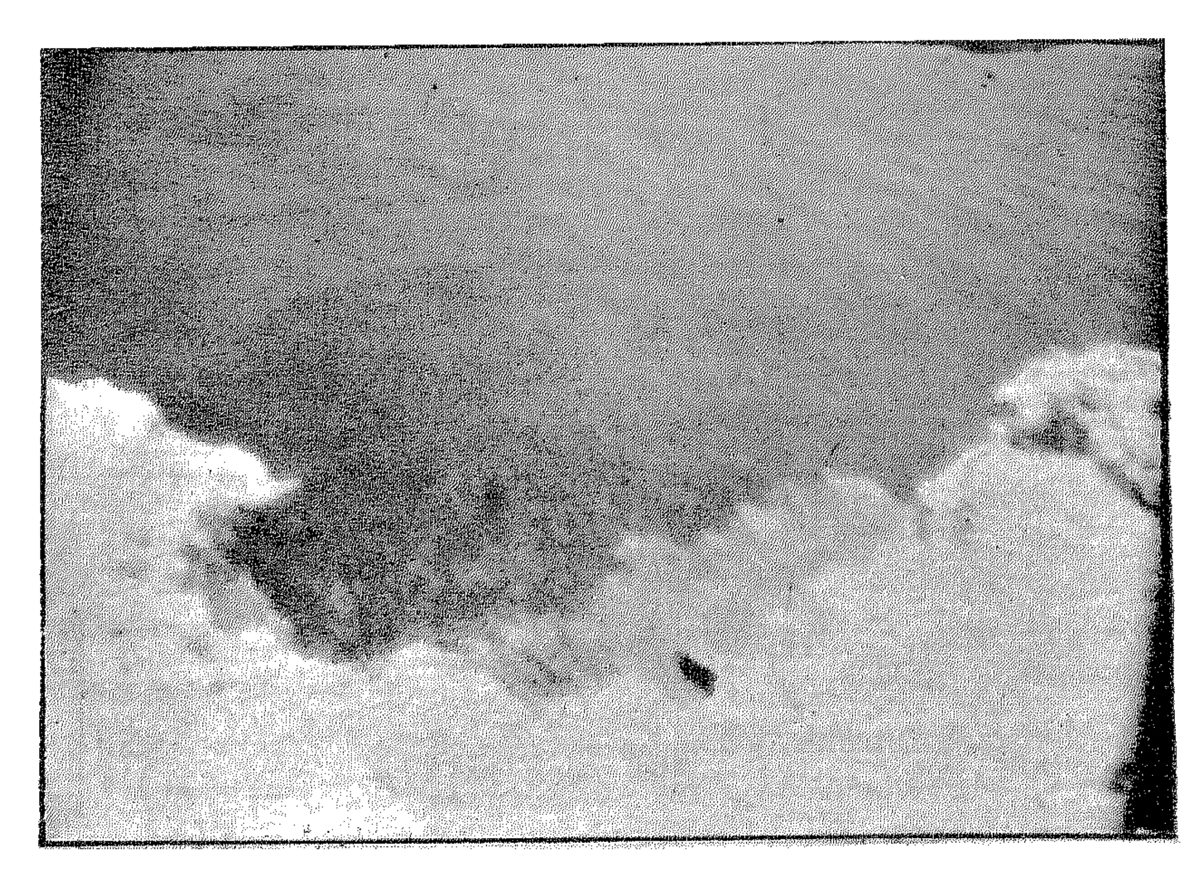
● العائلة .. النواة

وحول بناء العائلة واتساق القرابة يبدأ المؤلف حديثه بالاشارة الى ظهور العائلة النواة ، وان هذا الشكل من التنظيم بدأ يفرض نفسه فى العريش والى حد أقل فى بعض المراكز الحضرية ، الا انه يعود فيؤكد ان البناء القبلى والعائلى فى شمال سيناء مازال يقوم على اساس الروابط العاصبية فى خط الذكور ، بينما تحتل المراة وأهلها مكانة تالية ان لم تكن ثانوية ، بل ان الزوجة التى تنتمى الى جماعة قرابية غير جماعة الزوج تعتبر غريبة بين جماعة الزوج ، وربما كان ذلك احد الاسباب وراء انتشار الزواج الداخلى او الاندوجامى فى الجماعة القرابية او القبلية الواحدة ، وتفضيل الزواج من ابنة العم التى تعطى اولوية مطلقة من الناحيتين النظرية والعملية ، وبصفة عامة فإن البناء العائلى فى شمال سيناء يقوم على الزواج التعددى الداخلى وكلا العنصرين هما وظيفة مبدأ العصبة الذى يرتكز عليها البناء السياسى القبلى .. والاهالى انفسهم يرون تفضيل الزواج الداخلى الى عدة اسباب لعل اهمها الاسباب الاقتصادية (المحافظة على الثروة ، انخفاض المهر ..) واسباب سياسية تتعلق بالصراع الذى كان يسود بين القبائل المختلفة والرغبة فى احتفاظ القبيلة لنفسها بمصادر الخصوبة البيولوجية ، وتحكم الزواج الداخلى فى شمال سيناء مجموعة من القواعد والمبادىء التى تأخذ فى الاعتبار المكانة الاجتماعية والاصل والعراقة ، وان كانت كل جماعة تحاول تفسير الوضع بما يتفق ونظرتها الى نفسها والدفاع عن كيانها ، وتفضيل الزواج من ابناء العمومة لايعنى اجبار الفتاة على ذلك فى كل الاحوال فلها حق الاختيار بين ابناء عمومتها فى حالة وجود اكثر من ابن عم واحد .

اما مبدأ تعدد الزوجات فهو العنصر الثانى الذى يقوم عليه بناء العائلة فى شمال سيناء ، فالتعدد نظام اجتماعى معترف به حتى من الزوجة ذاتها على رغم من مشاعرها الخاصة اذ يجب ان تعترف به وتقره حتى قبل حدوثه ، هنا يقدم لها الزوج "كبارة" اكبارا لشأنها او يدفع "رضاوه" لارضائها ولهم فى ذلك اراء ونظريات تدور حول تبرير تعدد الزوجات وانه رخصة احلها الله ، ووسيلة مشروعة لزيادة عدد افراد الاسرة ... الخ .

● نظام الحكم المحلى

وعن الحكم المحلى والتنظيم السياسى التقليدى : يعرض الباحث لمحافظة شمال سيناء وتقسيماتها الادارية من مركز ومدن والقرى التابعة لها ، وماتشمله من توابع هى اقرب الى النجوع او الكفور ، وينعكس هذا



السواحل السيناوية طويلة بالنسبة لمساحتها الكلية

التقسيم فى نظام اوبناء الحكم المحلى ووحداته ومجالسه بشكل تدريجى من الوحدات الصغرى الى المحافظة ككل ، حيث المجلس الشعبى المحلى على مستوى المحافظة على قمة هذا التنظيم اذ تمثل فيه كل المراكز وفقا لعدد السكان .

وعلى الجانب الاخر يقف التنظيم الهيكلى لمحافظة شمال سيناء وجهازه التنفيذى الذى تتبعه مختلف الادارات وفروعها فى المراكز والقرى،، ويعاون هذا الجهاز التنفيذى عددا من اللجان لمساعدة الاجهزة التنفيذية فى العمل والمتابعة على كافة المستويات ، ويقف المحافظ على قمة ـ الجهاز التنفيذى للحكم المحلى .. الخ .. ويرى الكاتب ان هناك نوعا من التعاون القائم بالفعل بين الجهازين الاساسيين الادارى التنفيذى والشعبى المحلى .. ومع ذلك فهناك نوع من الصراع الخفى بين التنظيمين ، ويتمثل ذلك فى النقد المستمر الذى توجهه المجالس الشعبية المحلية الى الاجهزة التنفيذية والعاملين فيها من بطء الاداء ..

ثم ينتقل الباحث الى عرض للابنية القبلية فى شمال سيناء ، وتفرعات القبيلة الأم والمستويات المختلفة للاقسام القبلية داخل القبيلة الواحدة ويضرب العديد من الامثلة المستمدة من الابنية القبلية للدواغر ، والسواركة

والترابين وجميعها قبائل يرى الاخباريون فيها انهم جميعا جاءوا من شبه الجزيرة العربية ويرى المؤلف ان معالجته التفصيلية لهذه الابنية القبلية ليس الهدف منها تقديم حصر اثنوجرافى كامل للقبائل وتفرعاتها بقدر ما كان يستهدف القاء الضوء على خصائصها ومقوماتها .

● القانون والنظام

ويشير الباحث الى ان القانون العرفى يستحوذ على جانب كبير من اهتمام الاهالى انفسهم ، ويؤلف شطرا كبيرا من الثقافة البدوية والتراث البدوى وربما دفعهم الى ذلك ادراكهم انه نابع من احكام الشريعة الاسلامية ، وليس أدل على تفضيل الاهالى حتى الآن اللجوء الى المجالس العرفية ، من انه حين يأبى احد اطراف النزاع ذلك ويرغب فى رفع الأمر الى السلطات المحلية يتولى بعض اعضاء جماعته القرابية العاصبة عرض النزاع على القضاة العرفيين هذا من ناحية ومن ناحية اخرى فان العرف يقضي بفرض غرامة على من يقوم بالتبليغ عن اى شخص فى جريمة الى السلطات الادارية ، وتدفع الغرامة عن كل ليلة يمضيها الجانى فى سجنه ، وذلك لخروج المبلغ عن التقاليد والعرف .

وتكفل اجراءات التقاضى قدرا كبيرا من الأمان والعدالة لأطراف النزاع ويظهر ذلك بوضوح فى كل مراحل القضية من اختيار القضاه والمفاوضات الجانبية التى تتم خارج المجلس العرفى ، او عند اعادة عرض القضية على قضاة آخرين اذا تعارض الحكم مع مصالحهم الخاصة ، ويعرض المؤلف للتخصص القضائى وفقا لنوع القضية فهناك "اهل الديار" اولئك الذين يختصون بقضايا الارض والملكية ، وهناك "اهل العرايش" لمنازعات النخيل "والمنشد" و"المسعودى" للاعتداء على الشرف ، وهناك "الأحامدة" للنظر فى حرمات البيوت وهكذا ..

ثم ينتقل الباحث الى "التضامن القبلى" ويعرض لمفاهيمهم عن التضامن فى الغنم والغرم وكيف ان هذا المبدأ ينطبق على نتائج كل الافعال الجنائية باستثناء السرقة والاعتداء على العرض ، وان كان المبدأ يكشف عن تماسك الجماعة القبلية القرابية العاصبة ، وكيف يتم تحويل الجزاءات التى تصدرها مجالس القضاء العرفى او ترجمتها على حد تعبير المؤلف الى نقود بعد ان كانت فى الماضى جزاءات وعقوبات عينية فى شكل ابل واغنام وخدم وعبيد ، تترجم الى نقود مع بقاء المعيار .. وتخضع هذه المبالغ لكثير من التخفيض والتنزيل أو التفويت على

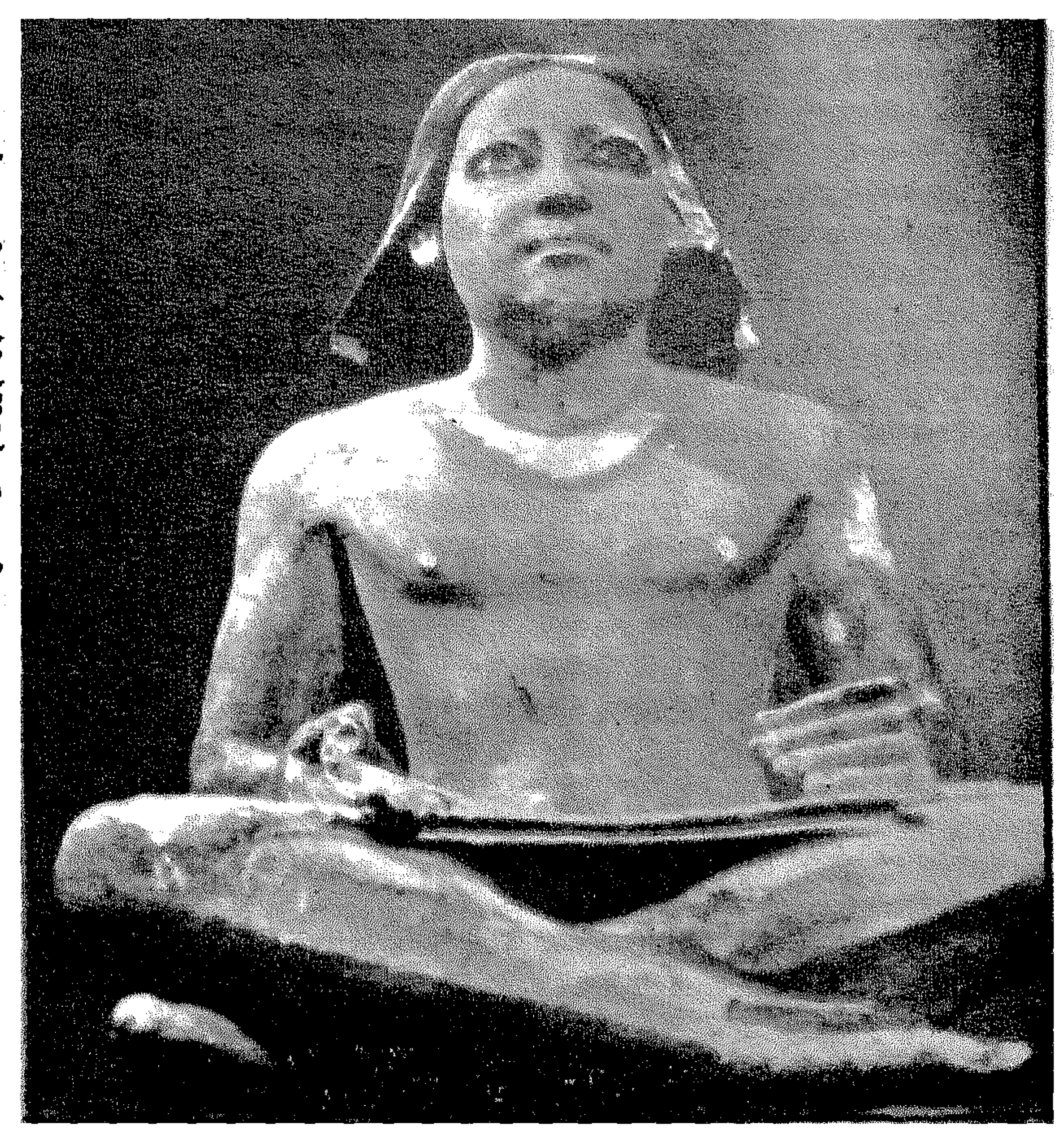
حد تعبيرهم بقصد التخفيف عن كاهل الجانب المعتدى بحيث يصبح مايدفع بالفعل نسبة صغيرة مما صدر الحكم به .. ويختتم الباحث معالجته بالاشارة الى الملكية ووضع اليد والصراع على الأرض والفصل فى قضاياها ، ويستشهد بين الحين والآخر بوثائق واحكام تجلى الغموض وتعطى صورة واقعية للاحداث والوقائع اليومية التى تحدث هنا وهناك

● الشعائر ونسق المعرفة

وعلى الرغم من ان الكاتب يذهب الى ان موضوعات الدين والشعائر والطقوس الدينية والممارسات السحرية من اكثر الموضوعات جذبا لاهتمام العلماء والباحثين ، فإنه ينتهى الى ان النسق الدينى فى مصر بوجه عام لم يلق مايستحقه من عناية الانثروبو لوجيين واهتماماتهم ، وان معظم ماتم فى هذا الصدد اقرب الى

الدراسات الفولكلورية منها الى البحوث الانثروبولوجية الدقيقة ثم ينتقل الى المجتمع السينائى والذى يدين كل سكانه بالاسلام وترد اصولهم القبلية الى الجزيرة العربية كما سبقت الاشارة ثم يتناول العديد من اركان الاسلام كالصلاة (المسجد ومدى انتشاره والمترددين عليه ..) والصوم ويرى انه الشعيرة التى تراعى بدقة فى شمال سيناء الا انه يشير الى ان الناس فى شمال سيناء لايتبعون فى صومهم رمضان المواعيد والتواريخ التى يقرها مفتى الديار المصرية ، بل يتبعون رؤية السعودية ،الأمر الذى يشير الى نوع من الهوة الثقافية او العزلة او الانفصال عن المجتمع الاكبر ، والزكاة التى لاتتعارض مع التنظيم القبلى او العشائرى انها تعبير عن الاحساس بالمسئولية التى تجد اصدق تعبير لها فى الاسهام فى المغارم تدفع الدية او التعويض او نفقات الزواج .. الخ

ثم يعرض لفئة رجال الدين ومكانتهم الاجتماعية ، وكيف ان انتماء هؤلاء الى قبائل معينة يضفى عليهم المهابة والاحترام كما هو الحال بالنسبة للسواركة عشيرة الجريرات ، وينتقل الباحث بين الاحياء والاموات من رجال الدين وكيف يقصد الناس ضرائحهم بين الحين والاخر لمزارات يتبعون اثناءها طقوسا معينة ، ثم يشير فى شىء من التفصيل الى ثلاثة متهم على اعتبار ان افعالهم وكراماتهم يشكل جانبا هاما من نسق المعرفة لدى سكان شمال سيناء .. ثم ينتقل الكاتب الى الدور الذى تلعبه الطرق الصوفية التيجانية والبرهانية والخليلية والخلوتية والدور الذى تلعبه فى الحياة الدينية والروحية .. ثم يتناول ظواهر وافكار ومظاهر سلوكية ترتبط بنسق المعتقدات والتفكير الغيبى



تمثال الكاتب المصرى (حجر جيرى) من الأسرة الخامسة

الإبداع الفنى المصرى

عطاء حضارى متواصل

بقلم : د. صبرى منصور

قطعة من نسيج القباطي ترجع الى القرن ٣ م بالمتحف القبطي



إن التواصل فى المجال الثقافى والفنى يعنى وجود سلسلة متدفقة من التحولات الفنية ، وحلقات مستمرة متنامية من الطرز والاساليب : وذلك لا يعنى ان فى ذلك استمرارية تخضع لقانون التطور نحو الارقى ، او التقدم نحو الافضل ، وانما يكون هنلك تحول نحو شكل اخر متغير ، ينحدر من الطراز السابق عليه ، ويكون استكمالا له ، ثم يصل به الى ذروة عطائه ، كما انه يحمل فى نفس الوقت ارهاصات التغيير التى تتاكد ملامحها فيما يليه من تحول الى طراز جديد .

ولاشك فى ان البحث والتقصى عن عناصر استمرارية التراث الفنى المصرى عبر عصوره المختلفة ، واستخلاص أسباب تميزه واختلافه ، ليكتسب دلالة هامة فى هذه المرحلة التاريخية التى يتضح فيها ضرورة السعى نحو تخليق فن مصرى له استقلاليته . وشخصيته المتميزة . يكون تعبيرا صادقا عن حاضرنا المعاصر ، وثيق الصلة بالجذور الممتدة عبر التاريخ ، محققا للانسان المصرى ذاتيته ، كاشفا عن روحه الاصيلة ، ورؤيته الخاصة فى الحياة والوجود .

وقد يعتقد البعض ان السعى الى اثبات وجود استمرارية فنية فى تراثنا هو عبث لا طائل من ورائه ، فالماضى - فى رأيهم - قد انتهى وزال ، وان العصر الحديث قد اتى بافكار وقيم ومفاهيم جد مختلفة ، وهى الاحرى باتباعها ، ومن ثم فإن هذا العصر يحتاج الى شكل فنى لا يتصل من قريب او من بعيد بكل ما يندرج تحت مفهوم التراث ، ولكننا نرى بأن مبدأ الاختلاف ونبذ الماضى اذا كان يصدق على المفاهيم العلمية والصناعية التى تتطور نظرياتها نحو الاكمل ، وينسخ الجديد منها ماسبقه من نظريات ، فان الامر فى ميدان الفنون يختلف اشد الاختلاف ، فالفنون بطبيعة نموها لا يحكمها قانون للتطور بهذا المعنى ، اذ لا تجب الاشكال الفنية الجديدة منها ماسبقها او تلغيها ، بل انها تشتق من ثناياها ، وفى نفس الوقت تكون اضافة عليها . وكما ان كل فنان يشيد فوق عمل من سبقه من الفنانين سواء ادرك ذلك ام لم يدركه ، فان الكيان الفنى لأمة ذات تاريخ موغل فى القدم - كبلادنا - انما هو حلقات متصلة لا يمكن فصل احداها عن الاخرى . ولا يمكن المفاضلة بينها من ناحية القيمة ، او البساطة والتعقيد .

● اشكال باهتة من الفنون

كان من قدر بلادنا ان اصيبت فى فترة تاريخية - استمرت قرونا - بجدب فنى ، وانقطعت سلسلة التواصل فى العطاء الفنى باحتلال الاتراك العثمانيين . الى ان تم الاتصال بالحضارة الغربية وهى فى طور نضجها وكامل عنفوانها ، فى حين كنا قد تحولنا الى امة اضمحلت فيها مقومات الابداع ، ومن هنا كانت الهوة الحضارية عميقة وخطيرة ، وعلى مستوى الفنون لم ينتج هذا اللقاء الحضارى سوى اشكال باهتة من الفنون الغربية ، وذلك امر طبيعى ، اذ ان التأثر والتأثير بين الحضارات والثقافات لا يكون ايجابيا الا بتكافؤ عوامل القوة والنضج فيما بينها .

وفى اوائل هذا القرن انشأ الاجانب ول معهد للدراسة المنظمة للفنون

الجميلة ، ووضعوا المناهج الدراسية ، بل وقاموا هم انفسهم بالتدريس فيها فى البداية ، وها نحن نتاج هذه المرحلة القريبة وقد بدأنا نشعر ان لنا كيانا له من العمق ما يجعله رافضا لمبدأ الذوبان ، فيسعى منقبا فى اغوار ذاته عن عوامل تميزه ، راميا لاستكمال طبقات البناء الثقافى والفنى لامته ، باضافة حلقة جديدة ربما كانت من اصعب حلقاته نظرا لظروف المرحلة المعاصرة ومايشوبها من تعقيد ، اذ يتم تخليقها من استحضار مراحل بعيدة ، وفى ظل تأثير الحضارة الغربية الغالبة ، بكل ماتتمتع به من وسائل متقدمة فى النشر والدعاية .

وتجدر الاشارة .. قبل استعراض حلقات تراثنا الفنى ـ الى ان مصر قد توفرت. لها منذ فجر التاريخ ظروف اقتصادية ، قوامها التجدد السنوى للخصوبة الناتجة عن نهر النيل ، كانت هى الاساس فى قيام ثقافة مستمرة

انعكس اثرها على الفن والدين ، وساعدت على احتفاظ الشخصية المصرية بعوامل ثباتها واستمراريتها ، تلك الشخصية التى كانت مجالا لدراسات العديد من الباحثين المصريين والاجانب ، والتى اكدو فيها توفر عنصر الاستمرارية فى هذه الشخصية . فيرى د. جمال حمدان "بأن بلدا من بلاد الارض لا تصدق على حضارته صفة الاستمرار كما تصدق على مصر ، وان مصر قد تعرضت للغزو لكن روحها لم تقهر ، لانها عرفت شيئا غريبا على التجربة الانسانية وهو الانسحاب الى داخل الذات »

● **مرتان فقط .. لتغيير الديانة**

ويسوق لنا د. حسين مؤنس دلائل عديدة يبرهن بها على عدم فقدان الشخصية المصرية لمقومات استمرارها ، اذ ان الديانة فى مصر قد تغيرت خلال حوالى خمسة الاف سنة مرتين فقط ، كما لم تتغير اللغة الا مرتين ايضا فى حين ان بلدا مثل بريطانيا التى لا يرجع تاريخها الى ابعد من الفين وخمسمائة سنة تغير الدين خلالها مرتين ، واللغة اربع مرات على الاقل ، واسبانيا التى يرجع تاريخها الى الفين وخمسمائة سنة قد تغير الدين اثناءها ثمانيه مرات ، واللغة ست مرات ، اما الجنس المصرى فلم يتغير فى جملته خلال هذه العصور سوى تغييرات طفيفة ، فى حين نرى ان بلدا كايطاليا قد تعاقبت عليه اجناس عديدة غيرت عنصر سكانه تغييرا تاما اكثر من مرة لذلك فان طبيعة الحياة فى مصر وجوهرها لم يختلفا كثيرا رغم مرور الاحقاب ، ومازالت العين تقع اليوم على مشاهد كانت موجودة ايام الفراعنة ، كما ان ملامح اجتماعية وثقافية عديدة ، وتقاليد والفاظ متوارثة وكذلك بعض العادات المتصلة بالزراعة والزواج والدفن ، مازالت مستمرة فى حياتنا حتى اليوم .

ويرى "روس" ان مصر قد شاهدت

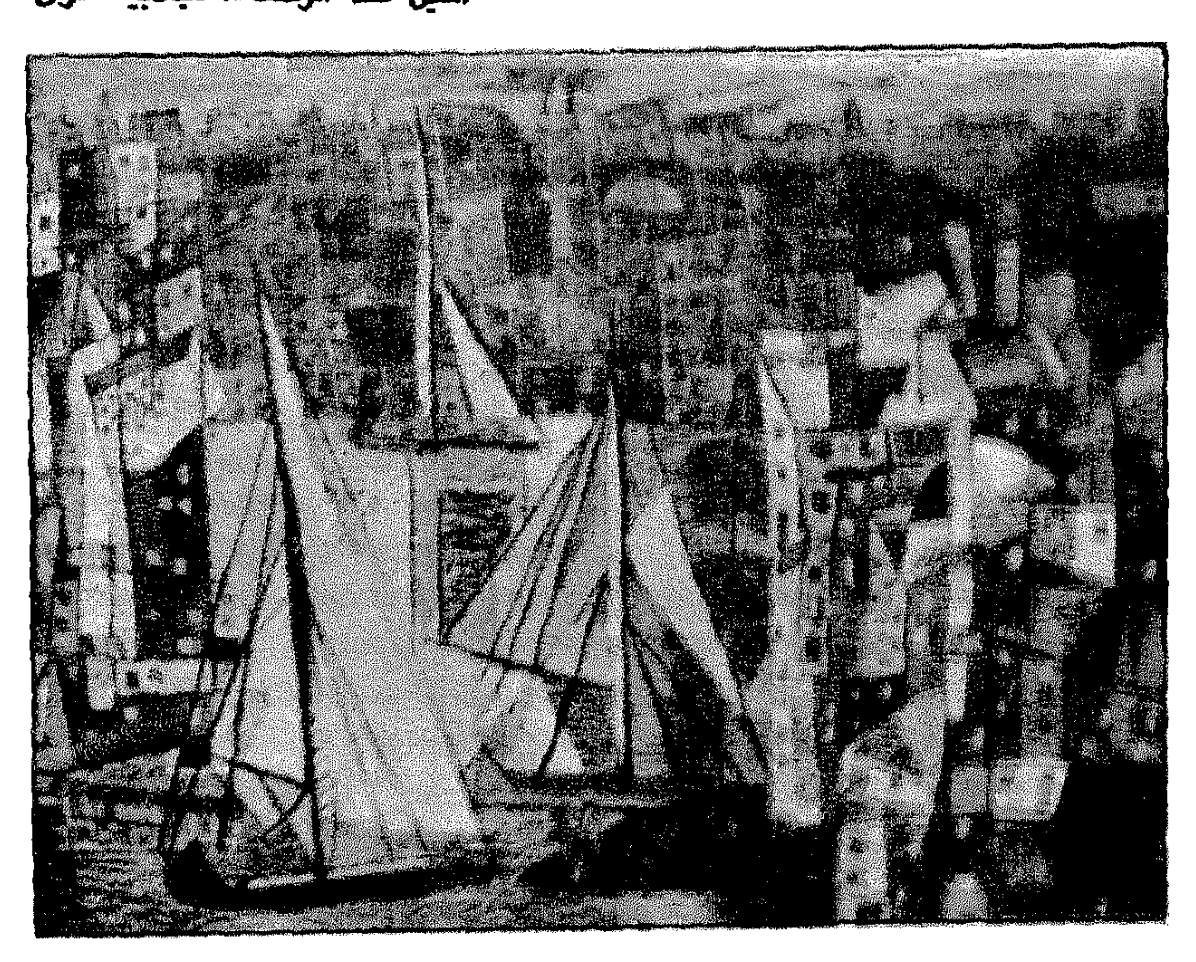
مجيء ورواح أنواع الغزاة الذين تركوا كثيرا من التأثيرات العميقة على روحها ذلك لان وادى النيل مسجل حقيقي للمراحل الناجحة في حياة الانسان وان هناك ملامح قومية واصيلة قد استمرت خلال هذه الحضارات المركبة .

اما "رينيه ويج" فيؤكد بان تاريخ مصر يكشف عن لوحة ذات غنى خارق ، تلاقت فيه واتحدت اكثر العناصر اختلافا .

وليس غريبا اذن على هذه الشخصية التى لم تفقد ابدا عوامل استمرارها ! ان تعكس هذه الاستمرارية ذاتها على الفنون التى انتجت على ارض مصر عبر القرون ولعل اطلالة سريعة على اهم خصائص التحولات الفنية الكبرى فى التراث الفنى المصرى ، لتساعدنا على الكشف عن الخيوط التى تصل بين كل انماطها .

وقد كان الفن المصرى القديم اول عطاء فني استمر لالاف السنين ، وكان هدف الفنان فيه دائما ابراز الاشكال فى اجمل واكمل اوضاعها ، كما كانت رغبته فى اظهار الاشياء ليس كما تراها عينه وانما كما هى موجودة فى الحقيقة ، ومن هنا جاء اهماله لقواعد

الفيل عند الزمالك .. لجاذبية سرى .



المنظور والبعد الثالث ، وقواعد المنظور تدرك بالعلم والمعرفة ، وليس لها قيمة فنية تشكيلية فى حد ذاتها .

وكان لطبيعة المكان تأثيرها على الحس الهندسى فى الفن المصرى ، فمن خصائص البيئة الزراعية المتبسطة اعتمادها على التقسيم ، وتحديد الارض فى اشكال هندسية ، ومن هنا جاء التصميم فى الفن المصرى قائما على تقاطع الخطوط العمودية والافقية .

كما كان طابع الجد والوقار والسكون من أهم سمات الفن المصرى القديم ، فلا تنطق اثاره فى اغلب الاحيان عن احاسيس اصحابها او دلائل الانفعال والعاطفة ، والحركة هادئة وئيدة لاتكاد تعدو اكثر من تقديم رجل عن الاخرى .

● الفن القبطى .. والفن اليونانى

وبالاضافة الى تمتع الفنان المصرى القديم بسهولة فائقة فى استعمال الخطوط - التى تخجل وتخزى معظم الخطوط فى التصوير الغربى الحديث كما يرى العالم الاثرى "بيترى" فانه كان يشى بقدرة عالية فى التلخيص والتبسيط ، واختصار التفاصيل الزائدة وغير المفيدة للعمل الفنى ، ومهارة فائقة فى المبالغات الذكية للاشكال والعناصر ، واجراء الحوار التشكيلى فيما بينها . فرغم مايبدو على الفن المصرى القديم



طبق من العصر الفاطمى من القرن ٥ هـ بمتحف الفن الاسلامى .

للوهلة الاولى من رتابة وسكون ، فإن الدارس المتعمق ليستكشف تلك الامكانيات الهائلة فى حبك التصميم واثرائه ، وتلك التوزيعات والايقاعات التشكيلية داخل التصميم الواحد .

ولقد اختفى الطابع المصرى القديم بعد ان اصبحت مصر جزءا من امبراطورية الاسكندر ، فتفاعلت مع الفن الاغريقى اكثر من ثلاثة قرون ، ونشأ فيها اثناء العصر البطلمى (٣٠٥ ـ ٣٠ ق . م) فن هو خليط من الفن المصرى القديم والفن اليونانى ، وكان هذا الفن الجديد ينم عن شيء من الحرية فى الحركات ، وليونة فى الاوضاع وهى من خصائص الفن اليونانى ، وبعض ملامح الوقار والصلابة المعروفة فى الطابع المصرى القديم .

وبدأ عصر الفن القبطى الذى يمكن اعتباره فنا وطنيا وانقلابا ضد الهيللينية منذ حوالى عام ٣١٣ م وحتى دخول العرب مصر عام ٦٤٠ م ، وعلى الرغم من انه كان فنا مسيحيا يعبر عن اتجاه جديد فى الحياة اخذ ينتشر انتشارا واسعا فى الشرق والغرب ، الا ان الفن المسيحى فى مصر ظل مصريا .

وقد انبثقت اسس الفن القبطى وخاصة فى التصوير من الفن المصرى القديم اذا ان هناك ارتباطا واضحا بين الفنين فى الاوضاع والتقاليد الفنية ، وكذلك فى الموضوعات ، وحتى فى طرق التصوير والتلوين .. ومما ساعد على الترابط المعنوى بين الفنين تلك التشابهات العقائدية . اذ كان المصريون القدماء اول من قدس الثالوث . حيث كان ثالوث طيبة من اهمها فقد عبدوا الاله "امون" وزوجته الالهة "توت" وابنها "خنو" . وايضا من التشابهات فكرة الولادة من الروح ، ففى الاسطورة الشهيرة للاله . "اوزريس" حيث تخيل القدماء ان اخاه اله الشر "ست" قد قتله ، وذكروا ان اخته وزوجته الالهة "ايزيس" سعت فجمعت اشلاءه وتلت عليها التعاويذ حتى عادت اليه الحياة وتزوجها عرفانا بجميلها ، فانجب منها ابنهما من الروح الاله "حورس" وكذلك نجد القيامة عند المصريين القدماء ، اذ انهم اعتقدوا بان الاله "اوزيريس" قد قام من الموت بعد ان هزم الشر . ومهدت تلك التشابهات بالاضافة الى العلاقة القوية بين اللغة الهيروغليفية والقبطية الطريق امام فنانى العصر القبطى للاقتباس والاستعارة من عناصر الفن القديم ، ولم يقف الامر عند حد الرسم على احدى الطرق المصرية القديمة وهى طريقة الرسوم الحائطية وتزيين اماكن العبادة بصور القديسين والقديسات بل تعدو ذلك الى صميم التقاليد والاوضاع ، فقد اباح الفنان القبطى

لنفسه فى العصور المسيحية الاولى ان يمثل السيدة العذراء فى بعض الرسوم وهى ترضع طفلها من ثديها وهذا الوضع لم يكن ليقدم على اظهاره فنانو البلدان المسيحية الاخرى . لقد استقى المصور القبطى مصدره من الرسوم والتماثيل المصرية القديمة التى تمثل الالهة "ايزيس" وهى تخرج ثديها لترضع ابنها "حورس" كذلك نجد ان كثيرا من فنانى العصر القبطى يخلطون بين علامة عنخ المصرية وبين الصليب .

● احياء الطقوس الدينية

يقول "جاييت" فى العلاقة بين الفن القبطى والفن المصرى القديم آمن الشرق منذ وقت بعيد بالخيالات المقدسة ، متبعا فى ذلك تعليم الشعوب التى تعتقد فى الارواح ، وهذه التعاليم اذ كانت مختنقة تحت الضغط الهيلليني ، فانها عادت تصحو اكثر قوة منها فى الايام الاخيرة من الدولة القديمة ، وفى مصر كان التصوير اساسا يلعب دورا خاصا جعله المترجم عن سمو الروحانيات القبطية ، ان الفن القبطى مثل الفن المصرى القديم يمثل لوحة خيالية لاحياء الطقوس الدينية ومع ذلك فان الفن القبطى اتسم بصفة الشعبية ، لان المسيحية دخلت مصر قبل ان تصبح الدين الرسمى للدولة الرومانية ، لهذا فقد نشأ بين جماعة من المصريين المضطهدين ، وافتقد الى التوجيه السياسى من الحكام والاباطرة الاجانب ، لهذا فانه لم يعد متصلا بالدين فحسب وانما ايضا متصل بالنواحى المدنية ، وسنجد ملامح البيئة المصرية الشعبية والانسان المصرى العادى ممثلا فى تراث الفن القبطى .

وقد تميز الفن القبطى باتجاهه نحو الرمزية ، واستخدام العناصر النباتية الزخرفية الى جوار الرموز الدينية ، اذ اننا غالبا مانرى الصليب يتوسط وحدات عناقيد العنب ، واوراقه مكررة فى نظام هندسى جميل ، وكما ابتعد الفنان المصرى القديم عن تقليد الواقع ، كذلك فعل فنان العصر القبطى حين جرد عمله من العمق ، واهمل التجسيم واستعمال الظل والنور كما ان عناصر عمله لم يكن يجمع بينها وحدة واقعية ، بل انها كانت تبدو منفصلة بعضها عن بعض ، وغير مرتبة ترتيبا منطقيا ، مما اضفى عليها طابعا زخرفيا ، تؤكده المهارة فى تنسيق العناصر ، وكثرة استخدام الوحدات الزخرفية وتنوعها .

ويرى اغلب الباحثين ان الفن القبطى قد ظل قائما بعد زوال الدولة الرومانية من مصر ، واستمر ازدهاره حتى القرن التاسع تقريبا ، وبانه يعد حلقة اتصال بين الفنون المصرية القديمة وبين الفن الاسلامى ، كما يؤكدون بان وجود التقسيمات الزخرفية والهندسية ، وعناصر الفن العربى "الارابسك" والزخارف التى تنتمى الى كل من الفنين القبطى

والاسلامى ، ليس الا دليلا قاطعا على اتحادهما وارتباطهما واستجابتهما لبعضهما .

● خصائص اساسية

ولم يكن الفن الاسلامى فى مرحلته الاولى الا مرحلة انتقال تتصف بالجمع بين التقاليد والعناصر الفنية السائدة فى مصر وبين الميول الاسلامية والذوق الاسلامى ، وسنجد استخدام العناصر الزخرفية التى كانت غالبة فى الفن القبطى مثل رسوم اشجار العنب وعناقيده ، وورق الاكانتس والنخيل والسمك والحمام تستمر فى الفن الاسلامى المصرى مع مراعاة انها ظلت كما كانت فى الفن القبطى مسطحة لا تجسيم فيها : واوراق الشجر التى استخدمت كعناصر زخرفية والتى وصفها "دريتون" بانها غالبا ما كانت مفرغة ذات حواف مسننة ومستمدة من الشكل الطبيعى ، وتحمل قيمة زخرفية عالية اصبحت تقليدا واصطلاحا فنيا ، وهذه المعالجة الهندسية لها قد مهدت الطريق لفن الارابسك الاسلامى .

ولقد استمرت من خلال الفن الاسلامى فى مصر وحتى مجىء التأثير القاتل للفن الاوربى على حد قول خربرت ريد فى القرن التاسع عشر الخصائص الاساسية التى سادت الفنين المصرى القديم والقبطى ، تلك الخصائص التى تمثلت فى الابتعاد عن المحاكاة الحرفية للواقع وتقليده ، والنزوع نحو خلق كيان مستقل عن الطبيعة ، وفق قوانين فنية خالصة ، كان اهمها تبسيط العناصر وتحريرها فى نسق هندسى ، ينحو احيانا نحو الزخرف المشتق من اشكال طبيعية ، ويصل فى احيان اخرى الى التجريد الكامل ، والاعتماد على لغة فنية تشكيلية خالصة فى صياغتها ، ذلك بالاضافة الى تلك المسحة الروحانية التى ترقى بالرائى الى عالم مطلق ولا نهائى ، نراها فى الفن المصرى القديم بايماءاته بالخلود بعد الموت ، وفى الفن القبطى بسموه على الواقع المادى ، وفى الفن الاسلامى باتجاهه نحو تمجيد الخالق والايحاء بعظمته وقدرته تلك هى الخيوط الرئيسية التى استمرت خلال مراحل تراثنا الفنى ، ونستطيع التأكيد بان معظمها يبدو واضحا حينا ، وخافتا فى احيان اخرى تحت سطح انتاج الفنان المصرى المعاصر حتى عند اولئك الفنانين الذين يدعون الى نبذ التراث وهجره الى اشد مذاهب الفن الغربى حداثة وتطرفا ، ولكن ما احرانا اليوم بان نتدبر – عن وعى واقتناع – هذه الخصائص ، وان نحاول الامتداد بها ، وانمائها بما يكفل استنباط تحول جديد يحمل روح هذه البلاد وتميز رؤيتها ، ويكون اثراء للطرز الفنية العالمية الكبرى ، واضافة حقيقية لها .

وجه من الفيوم مرسوم بالاسلوب التكعيبى



البحث عن طوق الحمامة المفقود وأشياء أخرى

بقلم: مصطفى درويش

هناك افلام تمر صورها امام أعيننا مر الكرام ودون ان تترك في حافظة ذاكرتنا اثرا، وهناك أفلام ما ان تراها حتى تبقى صورها في حافظة ذاكرتنا لا تنمحي ابدا، ومعظم الأفلام، لحسن حظنا، من النوع الأول، ما ان ننتهي من مشاهدتها على الشاشة صغيرة كانت ام كبيرة، حتى ننساها، وابدا لا نستطيع استرجاع صورها على شاشة الذاكرة، وقتما نريد.

أما أفلام النوع الثاني، وهي اقل القليل، فترسب في الاعماق. إنها دائما هناك، ونستطيع استرجاعها بكل تفاصيلها ودقائقها ساعة نشاء.

وفي اعتقادي ان فيلمي "طوق الحمامة المفقود" و"شاشات الرمال" من هذا النوع الاخير النادر، الذي ما ان تلتقط صوره عدسة العين، حتى نتذكره على الدوام.

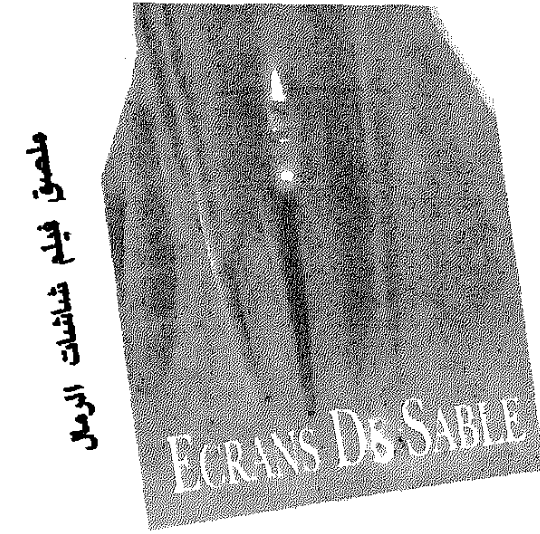
ولسوء الحظ، فكلا الفيلمين من الممنوعات، بل انهما في رأى نفر متعصب، معاد للفن، اكثر خطورة من اشد اصناف المخدرات هولا.

● قصة المدينتين

وأعجب العجب بالنسبة لهما، هو تضامن مهرجاني دمشق والقاهرة في اتخاذ موقف واحد منهما، الا وهو موقف العداء الذي انحدر الى حد التجريم فالتحريم.

وحتى الآن لا اعرف لهذا الموقف الغريب سببا، اللهم الا اذا سايرنا الشائعات التي عمل على نشرها نفر يتاجر بالقضايا المصيرية، ولا يحمل لحرية التعبير سوى المقت الشديد، وهي شائعات تقول فيما تقول إن الفيلمين قامت بتمويلهما مصارف غربية يتحكم في شئونها اليهود، فضلا عن ان احدهما، وهو "شاشات الرمال" يحقر من شان المرأة العربية على وجه مشين.

ولقد كان لهذه الشائعات تاثير كبير على مهرجاني العاصمتين فاذا بدمشق تجد نفسها محرومة من مشاهدة "شاشات الرمال"، وجميع الافلام التونسية، بما في ذلك رائعة "فريد



ملصق فيلم شاشات الرمال

بوغدير" "عصفور على السطح" او "الحلفاويين" و"شيشخان" بطولة الممثل المصرى "جميل راتب" الذى ادى دوره باتزان واتقان غير مالوفين ، يعود الفضل فيهما الى صاحبي الفيلم "محمود بن محمود" و"فاضل جعايبى" ، واولهما سبق له وان امتعنا قبل خمس سنوات بفيلمه الأول "عبور" .

واذا بالقاهرة بدلا من افتتاح مهرجانها الكبير برائعة عربية مثل "طوق الحمامة المفقود" لصاحبها "ناصر خمير" ، تفتتحه بفيلم ردىء فنيا وسياسيا اسموه "ناجى العلى" ، ولا تكتفى بهذه الكارثة ، بل تعمل جاهدة على ان يكون الختام بفيلم عربى اكثر رداءة اسمه "طبول النار" .

وفى هذه الاثناء ، اذا برائعة "ناصر خمير" تختفى من جميع دور العرض بسحر ساحر ، نبحث عنها مهتدين بارشادات برنامج المهرجان ، فلا نعثر عليها وكانها فص ملح وذاب .

● سور الصين

وبالمصادفة ، وبعد انتهاء المهرجان بيومين او ثلاثة ، وجدتنى اشاهدها فى عرض شبه سرى للنقاد ، لم يعلن عنه لا لشىء سوى ان "طوق الحمامة المفقود" كما سبق ان قلت ، انما يعتبر فى نظر نفر من الناس اكثر خطرا من اكثر اصناف المخدرات نكرا !!

اما "شاشات الرمال" رائعة المخرجة اللبنانية "رنده الشهال" ، فحدث ولا حرج عن منعها باعتبارها من المحرمات .

فهى اصلا لم يسمح لها باجتياز عتبات ديار مصر ، وبالتالى ففرصة مشاهدتها والاستمتاع بها لم تتح لى الا بفضل شريط فيديو ، ذلك الاختراع اللعين الذى فتح فى الأسوار نوافذ نطل منها على بساتين الفن السابع رغم انف سيف الرقباء .

● المجد التليد

وعلى كل ، وأيا كانت الأسباب التى تذرعوا بها لحمايتنا من مشاهدة الرائعتين ، باعتبارنا لانزال مراهقين ، فالأكيد أن "طوق الحمامة المفقود" ، فضلا عن انه وحيد نوعه بين الأفلام العربية ، فهو عمل سينمائى ساحر ، مستوحى من رسالة عن الحب "طوق الحمامة" ، كتبها العالم الأندلسى "ابن حزم" الذى فرغ لعلوم اللغة والدين فى عصر عصيب شهد انتقال السلطان من بنى امية إلى حُجّابهم ، ثم انهيار الأمر حول هؤلاء الحجاب ، وقيام ملوك الطوائف ، وتدخل البربر فى شئون العرب الأسبانيين .

والظاهر أن الحب كان يشغل الناس جميعا فى الأندلس لعهد هذا العالم

البحث عن طوق الحمامة المفقود وأشياء أخرى

الكبير ، ولعله كان يشغل المثقفين والممتازين أكثر مما كان يشغل غيرهم من الناس .

والبادى من سياق الفيلم انه الشغل الشاغل للخطاط "حسن" بطل "طوق الحمامة المفقود" .

فبدءا من اللقطات الأولى ، وهو ابدا يردد عبارة "ابن حزم" الشهيرة التى تغوص فى ماهية الحب ، عندما تصفه قائلة فى سخرية لاذعة "الحب اعزك الله اوله هزل ، وآخره جد" .

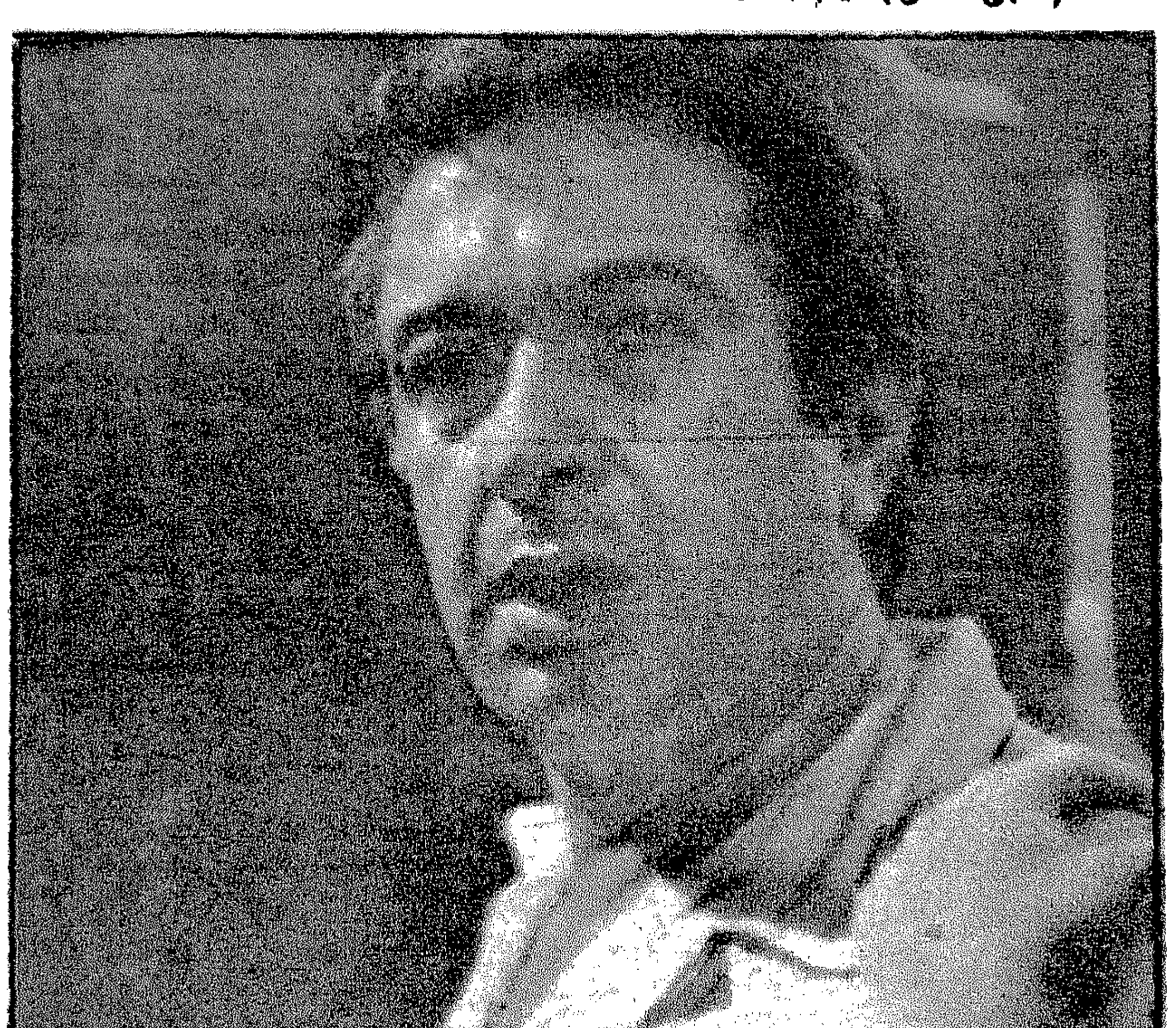
وهو أبداً يبحث عن مفردات كلمة حب ، وعددها ستون ، استطاع ان يجمع منها ثلاثا وثلاثين .

وفى سعيه هذا ، دائما ما يلتقى "بزين" مرسال الغرام فى قرطبة ذات الجلال ، والصبى الذى لا يُعرف له اب ، فاذا ما استفسر ملتاعا عنه من امه ، قالت له ضاحكة ، وهى فى حمام النساء ، انه جنى اصيل .

● الف ليلة وليلة

ومن خلال مغامرات الاثنين "حسن وزين" التى جرى حكيها باسلوب حكى قصص الف ليلة وليلة ، نجح المخرج فى تسليط الأضواء على ابداعات الحضارة الاندلسية .. فن كتابة الخط العربى ، المكتبات بمخطوطاتها

(ناجى العلى) فيلم بدا به مهرجان القاهرة بدلا من طوق الحمامة المفقود





البحث عن طوق الحمامة المفقود وأشياء أخرى

النادرة ، الساحات والباحات ملتقى المثقفين ، الجوامع بمآذنها وأعمدتها عنوانا على علو شأن المعمار ، ولا أقول الفنون جميعا .

باختصار شديد "طوق الحمامة المفقود" حدث جليل في تاريخ السينما العربية .

وهو فيلم لا يحكى لا لسبب سوى انه أقرب الى موسيقى الشعر منه إلى اى شيء آخر .

وكذلك حال "شاشات الرمال" ، فهو فيلم تصعب حكاية وقائعه ، ولو حكيت فهى لا تحكى الا فى كلمات معدودات .

ولقد جرى عرضه فى مهرجان فينيسيا الأخير ، ومن بعد فى اكثر من مهرجان .

● نساء لبنان

هذا ، ولم يسبق لصاحبته ان اخرجت افلاما روائية ، فجميع أعمالها السينمائية قبل "شاشات الرمال" من ذلك النوع المسمى بالتسجيلى فى قول ، وبالوثائقى فى قول آخر ، اذكر من بينها "خطوة .. خطوة" (١٩٧٩) ، "لبنان أيام زمان" (١٩٨٠) ، "لبنان ارادة الحياة" (١٩٨١) ، و"الشيخ امام" (١٩٨٤) .

وبفضل رائعتها الروائية الأولى ، استطاعت ان تلحق بزميلتيها المخرجتين اللبنانيتين "هيني سرور" و "جوسلين صعب" .

فالمخرجات الثلاث بدأن المشوار معا ابان عقد السبعينات ، بأفلام تسجيلية بعضها طويل ، والبعض الآخر قصير .

والآن لكل واحدة منهن فيلم روائى واحد لا يزيد .

ورائعة "شهال" بأسلوبها الذى قد يراه جمهور السينما التقليدية مفرطا في التجريد ، انما تذكرنا بأسلوب الأديبة الفرنسية "مارجريت دورا" فى الكتابة والاخراج .

ولا غرابة فى ان تتأثر "شهال" بأسلوب "دورا" ، فهى متخرجة فى معهد "لوميير" للسينما (١٩٨٥) .

● الاتصال والانفصال

وهى فى رائعتها ، انما تعرض لمأساة المرأة العربية على امتداد الوطن العربى من المحيط الى الخليج .

تلك المأساة التى تخلص فى فرض الانفصال عليها عن المجتمع العامل ، وبالذات مجتمع الرجال .

وهو انفصال شامل لجميع اجزاء هذا الوطن دون اى استثناء ، موجود فى كل مكان سواء أكان متقدما أم متخلفا ، مفروض على المرأة فى اقاصى الصعيد ، فى متاهات الصحراوات ، فى أعالى لبنان ، فى وديان المغرب والسودان .

اذا نحن بإزاء ظاهرة انفصال بين الجنسين جامعة لكل العرب ولسوء الحظ ، تزداد على مر الأيام سوءا .

ومن هنا ايثار "شهال" لوقائع رائعتها الا تجرى فى بلد عربى محدد بالذات .

فكل النساء عندها في الهم عرب ، لا فرق في ذلك بين مشرق ومغرب .

وهي تبدأ رائعتها بدءا غريبا كل القرب ، غريبا كل الغرابة ، فتفرض علينا ان نصحبها في الطريق التي تريد ان تمضي فيها .

فهذه امرأة جميلة "سارة" (ماريا شنايدر بطلة التانجو الأخير في باريس امام مارلون براندو) لم تتقدم بها السن ، ولكنها قد جاوزت الشباب قليلا انها داخل سيارة فارهة "رولز رويس" يقودها سائق ، يتبين لنا تلميحا فيما بعد انه لا يميل الى جنس النساء ولسبب لا نعرفه تصل بها السيارة الى المطار ، حيث لا يسمح لها بمغادرة البلاد .

فإذا ما عادت الى حيث تقيم ، رأيناها في قصر منيف ، به حمام سباحة كبير ، مغطى بستائر تحجب الرؤية عن أعين المتطفلين ، وبدوائر تليفزيونية مغلقة ، لا تترك شاشاتها صغيرة او كبيرة ، الا سجلتها حماية لشرف نساء البيت الكبير .

وسارة في وحدتها ، ورغم الثراء الفاضح ، امرأة تعيش حياة طفيلية ، ملؤها الملل والضياع .

● وليس عندها وسيلة للاتصال بالعالم الخارجي ، سوى تليفون مثبت به شاشة تكشف عن شخصية المتلقي للمكالمة ، لا تستعمله الا لقتل الفراغ .

وفي محاولة منها للانعتاق من اسر تلك الوحدة القاتلة ، ها هي ذي تلتقي بامرأة اخرى "مريم" اجبرتها ظروف الحرب الأهلية المستعرة الاوار ، الى مغادرة لبنان للعيش في هذا المكان الموحش ، حيث اسندت اليها مهمة اعداد مكتبة جامعية للنساء .

ولأمر ما ، تظل هذه المكتبة خاوية على عروشها ، بلا كتب ، و"مريم" تلح في الطلب ، ولا مستجيب .

وبعد حين تثوب هي الى نفسها ، حائرة اول الأمر ، ثم ساخطة ، ثم منكرة لهذا التصرف المريب .

ولا تزال تسأل ، وتبحث وتستقصي ، مستنجدة بأستاذ لبناني في جامعة النساء اسمه "طلال" تهرع الى الالتقاء به في احد المصاعد ، حيث يمارسان الجنس في لهفة ، تحت اعين كاميرات تعرض ما تلتقطه على شاشات يشاهدها رجال ساهرون على حماية حسن الآداب .

وسرعان ما نرى "طلال" ، وهو يلقى القبض عليه بواسطة جمهور من الناس غريب .

و"مريم" ، وهي هاربة ، بعدئذ استقر في نفسها انها متهمة بدورها ، وان لم تعرف طبيعة التهمة .

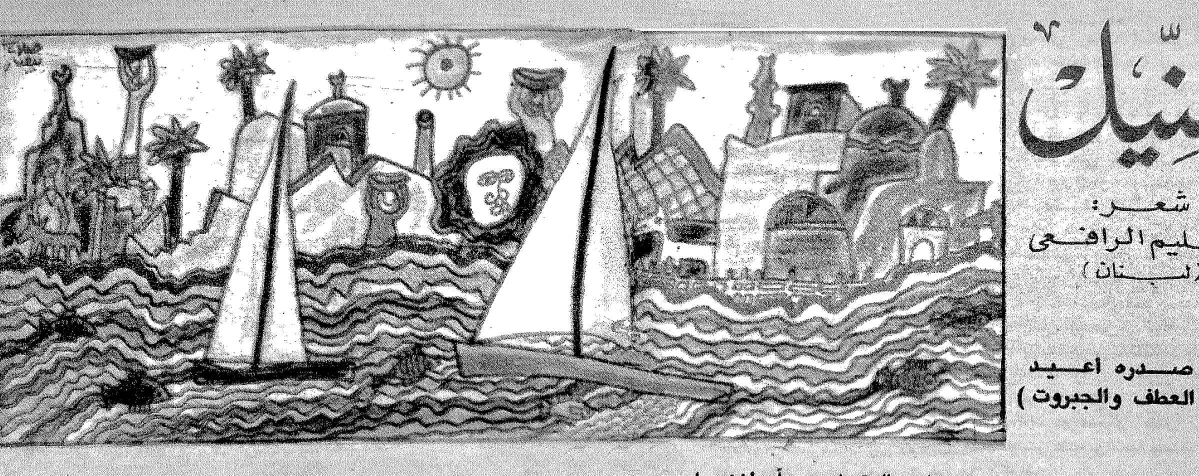
وفي الختام نراها واقفة بمفردها في صحراء شاسعة ، معلقة بين اليأس والرجاء .

وكأني بصاحبة "شاشات الرمال" تريد ان تقول بهذه النهاية ان المرأة في مجتمعاتنا تضيع حياتها في جهود مجدبة لا تغني عنها شيئا .

يبقى ان اقول ان "شاشات الرمال" تحفة سينمائية ، لا يعيبها ، رغم بعض الغموض ، الا انها متكلمة بالفرنسية ، أي بغير لغتنا الجميلة ، وهو عيب ، لو تعلم "شهال" كبير .

النِّيلُ

شعر: سليم الرافعي
(لبنان)



(الى صدره أعيد نبضات العطف والجبروت)

ليخفق فؤادك ملء القرى ... وملء الحقول دماً اخضرا
لومضة فجر بكى فى الدجى ... وغنى وعانق طيف الكرى
بنية فرعون .. معبودة ... ولدت من الخلد لا يفترى
من الروح والجرح ماذا حكى ... لنا التوامان وما فسرا ؟
هياكل رؤياك صخرية ... تسيل أشعتها مرمرا
يقولون : وادٍ ونهر بنى ... بأمواجه الهرم الاكبرا
فيا عجباً .. يادماً دافقاً ... تجمد .. ياموقفا حيرا
ينام الملوك على سفحه ... وقد نودى النهر كى يسهرا
فيا دمعة النهر محفورة ... على الصخر تستشرف الاعصرا

مع الركب اسعى ولا انثنى ... اذا نهض الركب او شمرا
أعانق أطيافهم تنحنى ... وتلك المعاول فوق الثرى
وقد سال من جسد خالق ... دم العبقرية مستبشرا
رفاقى فى الملك إيا أمةً ... اقدسها عرقاً خيرا
كتبتم قصائدكم كلها ... عمودية الروح فوق الذرا
أليست غناء الصحارى وقد ... تدفق صمت ونهر جرى ؟

فهل دمدم الصخر من نشوة ... يوحي اللغات وهل ثرثرا ؟
وهل قدس الروح أو ذمها ... بوقفته تلك مستكبرا ؟
أكان هجاءً ومدحاً معاً ... من الجبروت وما صورا ؟
فمازلت أسمعه منشداً ... لدى أسدٍ كاد أن يزأرا
تحدى الوحوش وقد زمجرت ... بكل الطلاسم واستنكرا
رويدا .. رويدا .. رفاقى فلن ... أحيد عن الشعر فيما يرى
عشقت القصيدة فى قمة ... تلوح مع الشمس أو انضرا
يرددها الفجر مستنشقاً ... ويحدو بها الليل ركب السرى
قصيدة مصر على شاهق ... ارق القصائد بين الورى

وقالوا : يروعنا لحنها ... فهل نظمتها أسود الشرى ؟
سلام على مصر موزونة ... بكل الرسوخ .. بكل العرا
بكل المواثيق مجبولة ... بشعب هو الكون إن فكرا
من السحر نهر بكى أو سقى ... جبالاً او اجتاح أو عمرا
من الأبدية أسطورة ... تفيض أهازيجها كوثرا
هى الأمل المرتجى كلما ... أطل بها النيل أو بشرا

مائة عام على الهلال



بقلم : د. رشدى سعيد

يزعم كاتب هذه السطور ان مجلة "الهلال" هى واحدة من المجلات القليلة فى مصر التى يحررها كتاب جادون يحترمون القارىء ويصرفون وقتا طيبا فى اعداد مقالاتهم كما يزعم أيضا ان "الهلال" مجلة مفتوحة على الثقافة العربية والعالمية تعرض لمختلف اتجاهات الفكر دون حساسية ففيها ابواب ثابتة عن الجديد فى الأدب والقصة والفن والسينما وتعرض لقضايا الساعة وتفتح ابوابها للكتاب على مختلف أعمارهم واتجاهاتهم . ولذلك فإنه على الرغم من صعوبة قراءة البنط الذى تطبع به ورداءة الورق الذى تستخدمه وعديد الأخطاء المطبعية فإن "الهلال" مصدر سعادة كبيرة لى عندما تصلنى فى محل إقامتى بالولايات المتحدة فهى خيط الأمل الذى يصلنى بوطنى العزيز كما احب أن أراه .

ولذلك فقد دهشت كثيرا من الاستبيان الذى استهلت به المجلة عامها المائة والذى جاءت نتائجه فى المقال "مائة عام من الفكر والفن والعلم" والذى قيل فيه إنه استبيان "لأبرز الشخصيات التى عاصرت الهلال منذ صدوره حتى الآن" فى مختلف المجالات . وتعود أسباب دهشتى إلى أن







د . احمد زكى — د. على مصطفى مشرفة — الدكتور ابراهيم حلمى عبد الرحمن

«استبيان لم يعد له الإعداد الذى يرفعه إلى مستوى استطلاع الرأى فلم يذكر الكاتب عدد الذين اشتركوا فيه أو هويتهم ويبدو لى ، إذا كان للقائمة المنتقاة من أسماء المشتركين التى جاءت فى المقال من مغزى ، أن معظمهم من الذكور الذين تجاوزوا الستين من العمر وأنهم من المشتغلين فى حقل الأدب والفن أساسا وليس بينهم واحد من المشتغلين فى حقل العلوم الطبيعية . وهذا فى حد ذاته نقص كبير فقصر العينة على هذا الركن الصغير من الفكر المصرى المعاصر فيه إجحاف بالهلال واقتراب من السياسة التى تنتهجها المؤسسة الثقافية الرسمية التى جعلت من لجانها ومجالسها منشآت مقفلة عديمة الجدوى ومن جوائز الدولة شيئا لا يؤخذ مأخذ الجد وكنت أتصور أن يمتد "الهلال" فيفتح صدره للعناصر التى تبحث عن مكان لها فلا تجده فى مؤسسة الثقافة الرسمية .

ويبدو من إجابات المشتركين أن هدف الاستبيان لم يكن واضحا كما تدل على ذلك اجاباتهم المتنافرة ففى حين قصر البعض إجاباتهم على قدامى المفكرين الذين شاركوا فى بناء نهضة مصر الحديثة فإن عددا آخر زاد على هؤلاء بعض المحدثين ولو أن الأمر قد اقتصر على اختيار أبرز الشخصيات التى عاصرت "الهلال" واكتتبت فيه بأقلامها لما احتاج الأمر إلى استبيان بل كان من الممكن أن يقوم بذلك واحد من محبى "الهلال" والمتابعين لتطوره عبر الأعوام . اما وقد اختلط الأمر وأصبح موضوع الاستبيان هو اختيار "أهم شخصية" فى مجال الأدب والفن والعلم فإن الأمر كان يحتاج أولا إلى وضع الأسس الموضوعية التى ينبغى أن تؤخذ فى الاعتبار عند الاختيار والتى كان من الواجب أن توضع أمام المشتركين حتى يصبح للاستبيان معنى .

وهذا هو نفس اعتراضى على الطريقة التى تمنح بها جوائز الدولة التقديرية بدءا من طريقة الترشيح لها وحتى منحها بما فى ذلك تشكيل اللجان التى تمنحها فليس لأى من هذه العمليات معايير محددة تهدى الطريق أمام متخذ القرار لترسخ اقدامه عند الدفاع عن موقفه . ولهذا لم يعد للكلمات الكبيرة التى تقال عن المنح معنى إذ لم يعد أحد يعرف بالضبط ماهو المقصود من المدارس العلمية التى انشأت أو من قيمة الابحاث التى تمت . ولا عجب لذلك أن يكون منح هذه الدرجات عن طريق جماعات الضغط والاعلان بل والتهويش فى الكثير من الأحيان .

فإذا عدنا إلى استبيان "الهلال" فاننا نجد أن أسوأ الاختيارات كانت فى مجال العلوم الطبيعية ومجال العلوم النظرية التى صنف تحتها علم الجيولوجيا لسبب غير مفهوم . فقد جاءت نتائج الاستبيان اقرب إلى الانطباع العلم عنها عن الحكم الموضوعى فقد اختلطت اسماء أوائل المشتغلين بالعلم مع أسماء بعض المحدثين الذين لا يوجد مبرر واحد لتمييزهم عن المئات من زملائهم الذين خدموا العلم فى صدق وبدون إعلان .

وربما عاد ذلك إلى أن الذين قاموا بالاختيار كانوا من غير المشتغلين بالعلم لم تجذبهم إلا الأسماء التى لمعت عن طريق الاعلان حتى أن أحد الذين اختيروا كان أقرب إلى النجم السينمائى عنه إلى المشتغل بالعلم . وهذا فى حد ذاته من الأمور التى تحتاج إلى إمعان ففضلا عن انها تثبت أن الاعلان والتهويش يمكن أن يخيل على مفكرى مصر وكبار أدبائها كما يخيل على عامة الناس فإنه يدل على جراة هؤلاء فى الحكم على أمور لا يعرفونها فمن المؤكد أن أحدا منهم لا يستطيع أن يذكر عملا علميا واحدا أفاد به هذا النجم السينمائى معه لتبرير اختياره .

وتختلف العلوم الطبيعية عن الفن والأدب فى أنها لا تعتمد على عبقرية فرد بعينه أو شطحات رجل فذ بل إنها تعتمد على العمل الجماعى فى مؤسسات منظمة ذات جو مناسب يطلق طاقات العاملين فيها . ولذلك فإن التقدم فى العلوم يأتى فى خطوات صغيرة يقوم بها علماء منضبطون إلا أنه يحدث بين الفينة والفينة أن تتجمع المعارف فتجد واحدا بذاته يقوم بتوليفها فى ...

جامعة تفتح آفاقا جديدة لجموع الباحثين الجدد . ولذلك فإن المعايير التى يمكن أن تصبح أساسا لاختيار "أهم" شخصية فى مجال العلوم الطبيعية هى فى رأيى ثلاثة يشكل النجاح فى أى منها مبررا للتميز فى مجال العلم :
أولها هو نجاح المشتغل بالعلم فى بناء المؤسسة العلمية التى تطلق طاقات المشتغلين فيها ووضع التقاليد والمعايير التى تحكم عملهم وتقييمه وتقدره . وفى هذا الميدان لا يفوق على مصطفى مشرفة عالم آخر فقد ساهم مساهمة فعالة فى بناء كلية العلوم على نمط أرقى الكليات الجامعية وكان أول من أكد أهمية البحث العلمى فى عملية التدريس الجامعى حتى ليمكن القول إن مولد كلية العلوم بالقاهرة كان مولد الجامعة ذاتها كجامعة بعد أن كانت معاهد للتدريس فقط . وقد وضع على مشرفة تقاليد منح الدرجات العلمية وترقية الاساتذة على أساس موضوعى وقد برزت كلية العلوم فى ميدان البحث العلمى فخرجت منها مدارس عديدة نالت شهرة عالمية .

ولم يكن حظ أحمد زكى كبيرا فى هذا الميدان فقد ساهم فى انشاء المركز القومى للبحوث الذى اقيم لخدمة الصناعة التى كانت وليدة حينئذ ولكن الظروف لم تسمح له بأن يحقق هذا الهدف وقد كانت فى حقيقتها ظروفا خارجة عن ارادته .

ويمكن أن أضيف فى هذا الميدان من بين المحدثين الدكتور ابراهيم حلمى عبد الرحمن فقد ساهم مساهمة أساسية فى انشاء هيئة الطاقة الذرية ومعهد التخطيط وكان أساسيا فى بناء الاتحاد العلمى المصرى .

وثانيها : هو نجاح المشتغل بالعلم فى بناء مدرسة علمية فى فرع من فروع العلم انتهت ابحاثها المفردة إلى تواليف وجد مكانه فى العلم العالمى بحيث أصبح مرجعا . والعبرة هنا ليست فى عدد الأبحاث التى نشرت ولكن فى عدد المرات التى رجع فيها بالمؤلفين الآخرين لهذه الأبحاث . وفى اللجان العلمية التى اجلس فيها لا ينظر أحد إلى عدد الابحاث بل ينظر إلى مبلغ استفادة الآخرين بالبحث الذى نريد أن نقيمه . وهناك كثيرون من جيل كاتب هذه السطور ممن نجحوا فى هذا الميدان ممن يستحقون أن يعرفهم الناس فهم المصابيح التى اضاءت وعملت بصدق دون اعلان .

وثالثها : هو نجاح المشتغل بالعلم فى عمل كشف أو اختراع يتم تطبيقه بنجاح يزيد ثروة البلاد أو يحسن الانتاج . وقد برز فى هذا الميدان كثيرون ولكنهم بكل أسف مغمورون لا يعرفهم الناس .

تجربتى مع نعوم تشومسكى

أسامة القفاش

فى أواخر السبعينات كانت مجموعتنا فى كلية طب الاسكندرية تمثل المحور الأساسى لجميع الأنشطة الطلابية ، فقد كانت تضم بين صفوفها السياسى والسينمائى والمغنى والرياضى والمسرحى . وكان المناخ العام فى مصر يتيح فرصا كبيرة للنشاط . فمن مراكز ثقافية نشطة إلى تجمعات سياسية توجد إلى موجودات مهنية تستقر وجمعيات أهلية تتزايد .

● وكنا قد اعتدنا على التجمع اسبوعيا فى منزل أحدنا للنقاش والمسامرة ، تمضى الأمسية ما بين حديث فى السياسة إلى نقاش فى آخر الأفلام المعروضة إلى استماع لغناء قديم على العود .

كان ضيوف الاسكندرية الثقافيون لابد أن يمروا بنا خاصة لو كانوا من شباب السينمائيين . وهكذا تعارفنا مع مجموعة كبيرة من شباب السينمائيين فى مصر وقتها ، وكان أحد أولئك الضيوف مخرجا مصريا أمريكيا يدعى شيرين الخادم . التقينا معه فى أشياء كثيرة فقد كان متمردا على دراسته الأصلية أى الهندسة وأحب السينما وعشقها بجنون وكذا كنا ، وكنا مثله نتجه غربا فى توجهنا الحضارى ، وهكذا تقابلنا وتصادقنا عند عودته إلى مصر لعرض أفلامه ، فى إحدى تلك الأمسيات وعلى العشاء فى حجرة الصالون بمنزل أسرتى تحلقنا أنا وإبراهيم الدسوقى وشيرين حول الصديق عامر وعوده وأغان من التراث القديم لسيد درويش ومحمد عثمان وصالح عبد الحى يؤديها عامر بصوت الدافىء - وفى فترة الراحة اخذنا نتجاور - كان معظمنا يساريين ، وقال شيرين كلاما كثيرا حول « الموجة الجديدة » للسينما فى أمريكا .

ثم قال شيرين إنه بنيوى ، استفسرت منه ، قال إن الأشياء سطوح ومحتويات ، وأن العالم يهتم بالمحتويات وقد حان الوقت للنظر إلى السطوح فى ذاتها ، كانت تلك كلماته بعربيتها المتلعثمة ، شدتنى تلك العبارات ، وبدأت بحثا دءوبا عن أدبيات البنيوية وكتابات البنيويين .

طبيب يعمل فى مجال الترجمة


Et derrière:
LE JUIF

وهكذا تعرفت على كلود ليفى شتراوس وميشيل فوكوه والتوسير وكريستيان متز وأمبرتوإكو وغيرهم . وشدنى علم اللغة كثيرا باعتباره أصل الفلسفة أو المنهج . وهكذا تعرفت على محمود السعـران واستبعـدت عبدالقـادر الجرجانى وابن جنى وابن سيده . وكان الاسم الذى يتردد كثيرا فى الأدبيات اللغوية الأجنبية هو نعوم تشومسكى .

جـاء أول شىء عـرفتـه عن تشومسكى من كتابات علماء اللغة عن نظرياته فى النحو التوليدى ، وكيف أنه يرى أن اللغة بنية سطحية وبنية عميقة وتعبر البنية السطحية عن نفسها باستخدام التحولات الصوتية وتمثل البنية العميقة التحولات المعنوية وأن العلاقة بين البنية السطحية والبنية العميقة هى عملية من التحولات المتتالية ولذا يسمى النحو الذى بناه تشومسكى أحيانا النحو التحولى .

● نظرية تشومسكى للغة

إن أهم ما يميز نظريات تشومسكى اللغوية هى نظرته للغة بوصفها عملية ابداعية فى استخداماتها اليومية ، الكلام العادى الذى يتبادله الناس فى الشوارع كل يـوم هو فى رأى تشومسكى إبداع وهو يقول فى هذا الصدد « من ثم فإن الاستخدام المعتاد للغة هو عملية إبداعية . وهذا الجانب الإبداعى لاستخدام اللغة المعتادة هو العامل الأساسى الذى يميز اللغة البشرية عن أى نسق اتصال حيوانى معروف » تلك النظرة تجعل الانسان هو محور الوجود ، وليس انتاجه فـالبشر أهم ممـا ينتجونه ، والبشر مبدعون وخلاقون باستمرار .

اندفعنا فى الحديث عن النظريات اللغوية ولكن من هو تشومسكى ؟

البروفيسور نعوم تشومسكى العالم البارز والمتميز فى حقل اللغويات حصل على درجاته العلمية الثلاث (البكالوريوس والماجستير والدكتوراه من جامعة بنسلفانيا وفى ١٩٥٥ بدأ العمل فى معهد ماستشوست للتقنية من أهم كتبه فى مجال اللغويات كتب « الأبنية السياقية » و« جوانب فى نظـريـة السيـاق » و« اللغـويـات الكاريتزية » و« اللغة والعقل » .

وقد عمل كمحاضر فى أكسفورد وجامعة كاليفورنيا بلوس أنجلوس وبركلى ومعهد الدراسات المتقدمة فى برنستون ومركز الدراسات المعرفية بهارفارد .

استقينا المعلومات السابقة من كتابه « السلام فى الشرق الأوسط » وكنت قد رأيت هذا العنوان بين الكتب التى أصـدرهـا تشـومسكى فى البيلوجرافيا الملحقة بنهاية كتابه « القـاعدة والتمثيـل » فأصـابتنى

الدهشة : السلام فى الشرق الأوسط ؟ كتاب سياسى إذن .

وهذا جانب آخر من جوانب الشخصية الاشكالية لنعوم تشومسكى .

● **من اللغة إلى السياسة**

فى الستينات من هذا القرن اشتهر البروفيسور نعوم تشومسكى ليس كمجرد عالم لغويات كبير ولكن أيضا بوصفه أحد قادة حركة « ڤاوم » الجذرية التى تشكلت فى الستينات من جماعات من الفوضويين واليسار الجديد لتأييد حركة التغيير الاجتماعى الشاملة ومعارضة حرب ڤيتنام .

وكان تشومسكى أحد أهم معارضى حرب ڤيتنام بشكل حقيقى ، حتى أنه صار يعتبر واحدا من أهم المثقفين الغربيين تأثيرا فى قضية السلام .

يدعو تشومسكى فلسفته السياسية باسم الاشتراكية التحررية . Libertarian Socialism ويحظى باحترام واسع وسط معظم قوى اليسار وكذلك معارضة شديدة منها ، فهو مثل الشخصيات الاشكالية العالمية كيان ميردال السويدى وتوم نارن البريطانى ولودفيج ڤاكوليك التشيكى يعصى على التصنيف والوصف التبويبى حتى أن معظم الفوضويين يرفضون اعتباره واحدا منهم .

ويلخص كارلوس اوثيرو و متيزورفات نظريته السياسية فى مايلى :

١ ـ مفهوم للطبيعة البشرية يضع الإبداع (وليس الاكتساب) بوصفه أولى حاجات الإنسان الأساسية ويدعو هذا المفهوم التحررية لتميزه عن الليبرالية المكتسبة) .

٢ ـ الاشتراكية فى مواجهة الرأسمالية .

٣ ـ التساوى فى مواجهة التربوية .

٤ ـ الإدارة الذاتية فى مواجهة أى شكل من أشكال السلقية .

وكما نرى فهو شخصية مذهلة متعددة الجوانب خصبة .

من هذا المنطلق أردت التعرف على تشومسكى . وبدأت البحث عن كتبه الأخرى ، فوقع فى يدى عام ١٩٨٥ كتابه « المثلث المدمر » وهو كتاب عن الغزو الاسرائيلى للبنان عام ١٩٨٢ .

وأثناء قراءتى للكتاب وجدت تلك العبارة « إن هذا لا يعنى أن الحكومات العربية حكومات محترمة فهى بالتأكيد ليست كذلك » .

شدتنى العبارة فوجدتنى أمسك بالقلم وأرسل له رسالة على معهد ماساتشوسيت التكنولوجى أقول فيها لم يكن ثمة داع لهذا فالشعوب العربية لاتعتقد أن حكوماتها حكومات محترمة ، وطلبت منه فى الخطاب إرسال الكتب السياسية الأخرى التى كنت أبحث عنها وأخبرته أنه من الصعب جدا الحصول عليها فى

مصر ، ولم أكن أنتظر ردا ، والمدهش أنه بعد مرور بضعة أيام على الخطاب وصلنى رد رقيق رسمى من سكرتيرته ماجى كارسينو تعتذر فيه عن الرد السريع من البروفيسور تشومسكى لأنه فى إجازة ويعدنى بالرد حالما يعود ، لم أكن أتوقع رد البروفيسور رغم هذا ، إلا أنه بعد أسبوع واحد من هذا الرد ، وصلنى رده يقول : أرسل لك كتاب السلام فى الشرق الأوسط أما عن الكتب الأخرى التى طلبتها فمن الصعب أيضا الحصول عليها فى الولايات المتحدة .

● الخطابات المتبادلة

كان هذا الرد مقدمة لخطابات متبادلة مستمرة حتى وقتنا هذا ، وزاد عددها على ٢٠ خطابا من جانب كل منا ، ناهيك عن المقالات والكتب التى أرسلها لى البروفيسور تشومسكى تتنوع الموضوعات التى نناقشها فى هذه الخطابات كتنوع شخصية تشومسكى . فنحن نتحدث عن النحو الكونى وهى نظريته اللغوية الحديثة التى يطورها الآن .

وهى تتكلم عن الأبنية الأساسية الموجودة فى العقل البشرى وباعتبار اللغة عملية إبداع مستمر وهذا بالطبع مثال شديد التبسيط للنظرية .

ونتحدث كذلك عن التغيير الاجتماعى وكيفيته ورأى تشومسكى فى اللينينية التى يعتبرها نظرية مجنونة قمعية أدت إلى تدمير الأبنية الديمقراطية التى أفرزتها الثورة الروسية سنة ١٩١٧ الا وهى السوفييتيات ، وأحلت محلها الحزب القائد الذى تحول إلى كيان دوجمائى متجمد بمرور الوقت ويعتبر تشومسكى أن فقدان البلاشفة لمصداقيتهم الثورية قد تأكد تماما مع قصف كرونشتادت على يد الجيش الأحمر ، حيث أصبحوا مدافعين عن السلطة لا الثورة . وتحدثنا أيضا عن التغيرات المتوقعة فى العالم ، وفى خطاب أرسله فى عام ١٩٨٩ توقع تشومسكى استقرار النظام العالمى فى شكل ثلاثى الأقطاب قطب غرب أطلسى بقيادة الولايات المتحدة وقطب أوربى متوسط بقيادة المانيا وقطب شرقى بقيادة اليابان ، وكذلك توقع عودة أوربا الشرقية إلى وضعها السابق كدويلات شبه مستعمرة تخضع لسيطرة واستغلال غرب أوربا ، كان هذا مثل التغييرات التى حدثت فى أوربا الشرقية .

وربما يلقى هذا الضوء على القدرة التنبؤية العالية للنموذج التفسيرى والإطار المعرفى الذى يتحرك من خلاله تشومسكى وهى نقطة سنعود إليها فيما بعد .

وكذا تحدثنا عن دور المثقف فى العالم والتزاماته الأخلاقية تجاه مجتمعه ، وعن الانهيار الأخلاقى والحضارى الذى يعانى منه المثقف

الغربى ، وعن الهيمنة الثقافية للولايات المتحدة على مثقفى أوربا الغربية وذلك من خلال نماذج متعددة تراوحت بين نان ليفنسون مراسل مجلة « فهرس عن الرقابة » Index on censorship اللندنية فى بوسطن وايرفنج هاو الكاتب الأمريكى التروتسكى الشهير والمؤيد المتعصب لإسرائيل واشعيا برلين الفيلسوف الغربى المشهور .

وهذه القضية تعتبر احدى القضايا المحورية عند تشومسكى اليوم . بيد انه كما يسهل الاستنتاج كانت القضية المحورية فى الخطابات المتبادلة بيننا هى أزمة الشرق الأوسط والقضية الفلسطينية ، فتشومسكى دائما يعتبر أن منطقة الشرق الأوسط هى أهم المناطق المؤهلة لبداية صراع عالمى قد يؤدى إلى دمار البشرية ، وهو يقول فى أخر خطاباته لى بتاريخ ١٩٩١/٨/٢٩ « أوافق تماما على ضرورة تغيير النموذج الثقافى العالمى ، ولكن هل يمكن أن يحدث هذا قبل أن يدمر العالم نفسه ؟ »

ولتشومسكى رأى خاص فى القضية الفلسطينية فعلى العكس تماما من الرأى السائد فى الإعلام الغربى وأحيانا العربى يرى تشومسكى أن جبهة الرفض تقودها الولايات المتحدة الامريكية وإسرائيل وليس الدول العربية وهو يبنى رأيه هذا على أساس من المنطق الصارم كعادته دائما ، وتتلخص أطروحته الأساسية فى هذا الصدد فى أننا لو قبلنا مقولة أن ثمة أرضا هى فلسطين يتنازع عليها شعبان الشعب العربى والشعب اليهودى بغض النظر عن أحقية أيهما التاريخية أو الأخلاقية يصبح القبول هو القبول بحق الشعب الآخر فى تقرير مصيره والرفض هو رفض هذا الحق .

وكما نرى فهى مقولة بسيطة ومنطقية ، من ثم وباستخدام كم رهيب من البيانات والمعلومات التاريخية والوثائق يكشف تشومسكى كيف أن الولايات المتحدة واسرائيل تعرقلان التسوية السلمية فى الشرق الأوسط وترفضان قبولها ، وهو يوضح لماذا يحدث هذا على أساس دور إسرائيل العدوانى فى المنطقة وطبيعتها كرأس حربة وقاعدة عسكرية للسيطرة الأمريكية وكذلك لتقوم بكل المهمات القذرة التى تطلبها منها الحكومة الأمريكية ، مثلا : مساعدة النازيين الجدد فى الأرجنتين ، وحكام جواتيمالا فى حربهم ضد الشعب الجواتيمالى ، وتهريب الأسلحة إلى إيران لاكتشاف العناصر العسكرية المؤهلة للقيام بانقلاب عسكرى ضد حكومة الثورة الإسلامية ومساعدة الجنرال سوهارتو فى إبادة شعب تيمور ، إلى آخر هذه القائمة من الأعمال التى لاتنتهى ناهيك عن مساعدة النظام العنصرى فى جنوب

افريقيا على اختراق المقاطعة وفك الحصار الدولى عنه .

وتشومسكى يوضح كيف يمكن أن يؤدى هذا العنت الأمريكى الإسرائيلى إلى تصاعد الأزمة ووصولها إلى مرحلة الصدام النووى وكيف أن هذا قد حدث أكثر من مرة وعلى سبيل المثال إبان حرب أكتوبر ١٩٧٣ .

ومن خلال خطاباتنا المتبادلة ومقالاته العديدة وكتبه الكثيرة أستطيع أن أحدد إطارا عاما لاسلوب نعوم تشومسكى فى الكتابة فهو شديد المنطقية صارم كما لاحظنا عند عرض رأيه فى قضية فلسطين ، وهو واقعى جدا يميل إلى التشاؤم وطالما امتد الجدل بيننا حول هذه النقطة ويقول تشومسكى فى خطاب له أن تشاؤم الذكاء هو تفاؤل الإرادة ، مستعيرا عبارة جرامشى الشهيرة ، وفى هذا الصدد يجدر أن نذكر وجهة نظره فى مسألة الدولة الفلسطينية فهو يتعجب من إدعاء إسرائيل أن تلك الدولة ستشكل تهديدا أمنيا لها ، ويطرح التساؤل التالى : ألا يجدر بفلسطين أن ترى أن إسرائيل المدججة بالسلاح والتى تملك ترسانة نووية ضخمة هى الخطر على أمن تلك الدولة ؟ ويسهب فى وصف الخطر الإسرائيلى والدور الذى تلعبه المياه فى المرحلة المقبلة .

وقد أختلفنا طويلا حول هذه النقطة فأنا أرى أن إسرائيل لديها مبررها القوى حيث أن فلسطين تعنى نفى وجودها المنطقى كما قالت جولدا مائير يوما أنها لاتدرى من هم الفلسطينيون ؟ فهى فلسطينية كما ادعت ، فلسطين تعنى وجود شعب وحضارة أى تنفى المقولة الأساسية للصهيونية أرض بلا شعب لشعب بلا أرض ، وأحيانا يكون الواقع واجهة تمنع رؤية الحقائق .

كذلك يتميز اسلوب تشومسكى بالسخرية المريرة مما يمكن أن ندعوه الكوميديا السوداء حيث نراه يتهكم المرة تلو المرة على هنرى كيسنجر وجورج بوش وكارتر وتشرشل وغيرهم ويفضح رياء ونفاق المجتمع الغربى ووسائل الإعلام هناك بقسوة شديدة ، مثلا فى كتابه عن السلطة والايديولوجية يستعير عبارة دين اتشنسون وزير الخارجية الأمريكى أبان الرئيس هارى ترومان التى قال فيها : « يجب أن ندافع عن مواردنا » ويشفعها بقوله : « نعم مواردنا الموجودة فى أراضى الغير » وهو يقول فى نفس الكتاب أن أهم التحديات التى تشغل الولايات المتحدة بخصوص العالم الثالث ، هى حرية النهب والاستغلال ويدعو تلك الحرية « الحرية الخامسة »!! ، إشارة إلى

إقرار الدستور الأمريكى لحريات أربع

كما تمتلىء كتابات تشومسكى بالاستعارات والمعلومات والإحالات التاريخية مثلما فى الفصل الأخير من كتابه « المثلث المدمر » والذى عنوانه : « الطريق إلى أرماجدون » حيث أرماجدون هى المعركة الفاصلة بين قوى الخير والشر فى التوراة ، وتشومسكى شديد الدقة والأمانة فى الرجوع إلى مصادره حتى أنه عندما استخدم بعض المعلومات الواردة فى خطاباتى أوردها كهامش فى مقاله عن نتائج حرب الخليج فى مجلة « Z » الأمريكية التى يكتب فيها باستمرار وقال إنها مراسلة شخصية مع مصرى .

● ● ●

يصعب جدا أن نضع تعريفا مبسطا لتشومسكى هل نقول عنه كما قالت جريدة فى هذه الأوقات : « إنه أحسن من يكتب الآن » أم نقول عنه ما قاله اليوت ابرامز فى خطاب إلى مجلة : فهرس عن الرقابة : « إنه شخصية مأفونة وحاقدة » يكفى أنه عندما كان شابا زار تشومسكى إسرائيل ، وبالمناسبة هو يعرف العربية والعبرية ولكن منظمة البناى بريث الصهيونية اليهودية الأمريكية ترى أنه واحد من أشد المعادين لإسرائيل فى أمريكا وتصفه بأنه يهودى يكره ذاته ، وعلى نفس المستوى تعاديه العديد من المنظمات العربية وتتجاهله لنقده الشديد واللاذع للأنظمة العربية التى تتبعها تلك المنظمات .

على أية حال أعتقد أن تعريف جريدة الجارديان البريطانية له أقرب التعريفات إلى الدقة :

« نعوم تشومسكى هو المعارض الأول فى الولايات المتحدة ، إنه مثقف جبار استطاع عندما كان فى الثلاثين من عمره أن يزعزع التفكير التقليدى فى مجاله الحرفى الا وهو اللغويات وأصبح تشومسكى واحدا من أشد محللى السياسة الخارجية الأمريكية دقة ونفاذا وكل كتبه موثقة بدقة ، وتحمل كلها غضب الإنسان ذى الأخلاقيات الصادقة ، إن رسالة تشومسكى التى لاتعرف التهادن تصل إلى قلب الصورة الذاتية للمؤسسة الأمريكية وخاصة صورة ذلك المثقف الذى يمد تلك المؤسسة بأهم أبعادها .

فى النهاية هل يمكن أن يأتى تشومسكى إلى مصر فى زيارة إلى وطننا العربى ؟ هل لنا أن نتساءل : أيمكن أن تتضافر جهود المؤسسات المعنيه سواء الأكاديمية أم السياسية ، الحكومية أم الأهلية لدعوة هذا الهرم الثقافى إلى مصر ؟

جمهوريات آسيا الوسطى ..
بين الأوربيين والمسلمين !

بقلم : عبد الرحمن شاكر

لايزال مصير الجمهوريات « السوفيتية » السابقة غامضا يثير التساؤل على جميع المستويات وفي مختلف الدوائر السياسية والاعلامية ، وذلك بالرغم من تحولها إلى « كومنولث » جديد لدواع اضطرارية ، أهمها الملكية المشتركة التي ورثتها تلك الجمهوريات لقوات عسكرية ضخمة هي الكبرى من نوعها في العالم ، وفي مقدمتها الترسانة النووية الهائلة ، وثانيها هو الاقتصاد المتشابك فيما بينها والذي نما على تلك الصورة عبر السنين الطوال ، سواء في عهد البلاشفة الذي دام أكثر من سبعين سنة ، أو سابقه عهد القياصرة الذي يقارب ثلاثة قرون .

إن من أسباب التساؤل حول مصير هذا « الكومنولث » النزاعات التي بدأت تطل برأسها بين مختلف الجمهوريات المشاركة فيه ، وفي مقدمتها النزاع بين أكبر جمهوريتين وهما الاتحاد الروسي وأوكرانيا حول القوات المسلحة ، فأوكرانيا تحاول الاحتفاظ بالأسطول « السوفييتي » الضخم ، الذي تحمل بعض قطعه أسلحة نووية ، ويرابط في موانىء البحر الأسود ، التي أصبحت تتبع أوكرانيا وحدها الآن ، ولم يعد هناك الاتحاد السوفييتي الذي كان يهيمن على تلك التبعية ، وترفض روسيا بالطبع هذه « التهيئة » العسكرية الكبرى ، وتطالب رجال الأسطول بعدم حلف يمين الولاء لأوكرانيا وكثير منهم بل معظمهم من الروس ، بل الجيش البرى الذي تحاول أوكرانيا أيضا الاستقلال بقواته على أراضيها ، طبقا للاتفاق المبدئي على اقتسام الجيوش ذات الأسلحة التقليدية فحسب ، حوالي أربعين في المائة من رجاله على أرض أوكرانيا هم من الروس !


يلتسين


جورباتشوف

● تدهور الاقتصاد

إزاء تلك المشكلة المتعلقة بالقوات المسلحة ، وتلك التى تتعلق بالمسألة الاقتصادية حيث أقدمت روسيا على إطلاق الأسعار طبقا لعوامل السوق ، فارتفعت أسعار السلع الأساسية فيها ارتفاعا كبيرا ، هدد الأوضاع الاقتصادية فى الجمهوريات الأخرى بمزيد من التدهور ، حيث بدأ التجار ينزحون ما لديها من سلع محدودة لبيعها فى السوق الروسية الغالية ، وهلم جرا إزاء تلك المشاكل ومايشابهها ، فإن التساؤل حول مصير الكومنولث يحيط به الغموض الكثيف ، ويجرى ، أحد اتجاهين : إما توقع انهيار هذا الكومنولث ، وتورط مختلف الجمهوريات فى منازعات قد تصل إلى حد الحرب الأهلية فيما بينها ، أو الانهيار السياسى لقادة هذا الكومنولث وفى مقدمتهم بوريس يلتسين رئيس الجمهورية الروسية ، عن طريق انقلاب عسكرى ، يعيد فرض وحدة « الاتحاد السوفييتى » من جديد باعتبار أن هذه البلاد لاتستطيع أن تبقى وأن تعمل أجهزتها، وخاصة قواتها المسلحة ، إلا إذا ظلت وحدة واحدة من جميع النواحى كما كانت من قبل !

ولكن نقطة الاستفهام الكبرى ، حول مصير تلك الجمهوريات ، إذا لم تفرض القوات المسلحة الوحدة « السوفيتية » من جديد ، سوف تبقى هى مصير جمهوريات آسيا الوسطى الاسلامية الست : كازاخستان ، وأوزبكستان ، وتركمانستان وطاجيكستان وقرغيزيا وأذربيجان ، وقد سبق أن كتبت على صفحات « الهلال » بعنوان « المسلمون السوفييت والبريسترويكا » (عدد نوفمبر ١٩٩٠) أن هذه الجمهوريات باستثناء الأخيرة منها وهى أذربيجان ، هى أحرص مكونات الاتحاد السوفييتى على بقائه متحدا ، رغم بزوغ النزعات الانفصالية فى مختلف أجزائه ، وذهبت فى ذلك إلى حد تشبيه المسلمين السوفييت ، بالأم الحقيقية فى القصة المشهورة عن

سليمان الحكيم ، التى رفضت تقسيم الطفل بالسكين كما اقترح سليمان ، بينما وافقت الأم الزائفة على ذلك ! أما الطفل فى هذه الحالة فهو وحدة « الاتحاد السوفييتى » التى زالت مؤخرا كما هو معروف .

لقد كثرت الاشادة بالكتاب الغربيين « العباقرة » الذى توقعوا منذ سنوات انتهاء هذه الوحدة وتفكك الاتحاد السوفييتى ! إن هؤلاء لم يكونوا يضربون الرمل أو يطالعون النجوم ، ولكنهم كانوا يراقبون المشكلة « الديموغرافية » التى بدأت تطل برأسها فى تلك الدولة الكبرى من أيام بريجنيف ، حيث لوحظت الحملات الصحفية السوفيتية التى كانت تحث النساء فى المناطق الأوربية من « الاتحاد السوفييتى » على زيادة الانجاب ، لأن التوازن الديموغرافى فى الدولة قد بات مهددا ، حيث معدل الانجاب لدى المرأة الأوربية ، التى تفضل أن تقضى أمسياتها فى الرقص وتناول المشروبات الكحولية والتردد على المسارح .. الخ كان قد أصبح طفلا واحدا لكل أسرة ، بينما بلغ فى الجمهوريات الآسيوية الشرقية « المسلمة » ثمانية أطفال لكل أسرة ، وترتب على ذلك أن أصبحت نسبة المسلمين فى الجيش السوفييتى حوالى الثلث من بين مجموع أفراده ، بحيث لو استمر الحال على ذلك وبقى الاتحاد السوفييتى وحدة واحدة ، ففى بحر أجيال قليلة كان المسلمون سوف يصبحون هم الكثرة الغالبة فى تلك الدولة الكبرى !

الاتحاد السوفييتى إذن قد انهار ، وكان من المحتم أن ينهار ، لأن الأوربيين الذى أسسوه ، أو بالأحرى قد ورثوه عن الامبراطورية الروسية ، التى ضمت إليها الاجزاء من اسيا الوسطى بقوة السلاح يرفضون أن يصبح أبناء تلك المستعمرات الروسية السابقة هم أغلبية سكان الدولة الواحدة والمتحكمين فى أقدارها بحكم توالدهم الكثيف !

تلك هى الحقيقة البلقاء ، التى تجُب أية ثرثرة أخرى عن أسباب انهيار تلك الدولة الكبرى على نحو غير مسبوق فى التاريخ ، وباختيار من كبرى جمهورياتها ، وهى الجمهورية الروسية ذاتها ، قاعدة الامبراطورية القديمة ، وهو الأمر الذى يرشح الجمهوريات الاسلامية الست المذكورة للتباعد المعجل عن الكومنولث الهش الذى تأسس أولا بين الجمهوريات السلافية الثلاث : روسيا وأوكرانيا وروسيا البيضاء ، وكان الذى قاد الجمهوريات الاسلامية للحاق به ، هو نور سلطان نزار باييف رئيس جمهورية كازاخستان ، حيث اختار هذا الحل بعد أن أصبح انهيار الاتحاد الكامل محتما ، وقد كان أحرص الجميع على بقاء الاتحاد بسبب واضح ، وهو أن ثمانية وثلاثين بالمائة ، من سكان جمهوريته هم من الروس !

ولست أقصد هنا اختيار هذه الجمهوريات ، لقد اضطرت إلى قبول ما فرضته « أكابر » الجمهوريات ، روسيا وأوكرانيا وروسيا البيضاء من تفكك الاتحاد السوفييتي ، واستبداله بصيغة « الكومنولث » التي تركت مفتوحة لكي تنضم اليها بقية الجمهوريات .

الاختيار الذي أقصده هو اختيار العالم ، الذي يراقب مايدور في الاتحاد السوفييتي السابق ، والذي تتنازعه المخاوف من تسرب القوى النووية السوفيتية إلى أماكن أخرى غير مرغوبة ، وأخيرا ، الذي يتدخل في تقرير مصير تلك المنطقة من العالم ، على حد ماذكر ميخائيل جورباتشوف قبل أن يغادر منصبه كآخر رئيس للاتحاد السوفييتي ، حينما قال صراحة إن الأمور لاتتقرر هنا ، أي في موسكو وحدها ، بل في أماكن أخرى كذلك ، قال ذلك تعليقا على اتصال يلتسين بالرئيس الأمريكي بوش ، ليخبره عن اتفاقه مع كل من رئيس اوكرانيا وروسيا البيضاء باقامة الكومنولث المذكور قبل أن يخطر به جورباتشوف ذاته !

الاختيار هو بين أن تعود صيغة الاتحاد مرة أخرى ، ولو في صورة جديدة ، بحيث يستمر ذات الخطر الديموغرافي ، أي أن يتحول الشرقيون الأسيويون المسلمون إلى أغلبية في دولة كبرى ، كالاتحاد السوفييتي السابق ، أو تترك لحال سبيلها لو ادت هشاشة الكومنولث إلى تمزقه وما حال سبيلها هذا ؟

إن مسألة الهوية السياسية بالنسبة لهذه البلدان قد أصبحت معقدة بعد انهيار الاتحاد السوفييتي ، لقد كانت تلك البلاد تشعر بأنها مغلوبة على أمرها حينما اجتاحتها جيوش القياصرة الروس والحقتها بامبراطوريتها ، وأن حقها كان أن تصبح مستقلة أو جزءا من كيان اسلامي كبير ، كالدولة العثمانية مثلا فيما مضى ، وبعد الثورة البلشفية عام ١٩١٧ ، وبالرغم من المحن التي تعرض لها المتمسكون بالعقائد الدينية على أيدي المتشددين من دعاة العلمانية فإن المساواة في الظلم عدل كما يقال ، فما أصاب المساجد من تحويل بعضها إلى متاحف مثلا قد اصاب الكنائس مثله وأكثر ، ومع قدر من التسامح الديني اضطرت إليه الدولة خلال الحرب العالمية الثانية لتعبئة المواطنين للدفاع عن « وطن الاشتراكية » زال كثير من قمع النزعات الدينية ، وتدرجت التسهيلات بهذا الصدد حتى عهد بريجنيف ذاته ، وخاصة حينما اضطر لأن يواجه بجيوش من المسلمين السوفييت ، حركة جهاد إسلامية في افغانستان ، التي ورط بلاده في حرب ضدها ، دفاعا عن نظام موال للسوفييت في تلك الجارة الصغيرة ، وكان الخراب

الاقتصادى والسياسى والمعنوى الذى جره هذا التورط واحدا من أهم دواعى التحول الكبير الذى قاده ميخائيل جورباتشوف تحت شعار البريسترويكا .

كان المسلمون السوفييت من أسعد الناس بهذا التحول الذى أعفاهم من حرب أفغانستان وأطلق الحريات السياسية والفكرية بما فيها الحرية الدينية إلى مداها ، وأصبحوا أصحاب ولاء حقيقى لايفرضه عليهم أحد للدولة التى تسع الجميع على اختلاف ألوانهم وعقائدهم ، وتفرض المساواة بينهم ، وينتظرهم فيها مستقبل هائل بفعل الزيادة المطردة فى أعدادهم . فضلا عن فرص التعليم التى قضت تماما على الأمية عندهم . وجعلتهم على اتصال بكافة العلوم الحديثة التى كان يحتكرها الأوربيون ، وقامت لديهم صناعات عصرية يديرها مواطنون لهم أمكنهم تحصيل تلك العلوم .

إلى أين يولون وجوههم الآن ، يلتمسون هوية جديدة لهم ، بعد سقوط الهوية السوفييتية عنهم ، بفعل القومية الروسية ، أو السلافية التى انبعثت تطلب الخلاص منهم ! وفى سبيل ذلك أطاحت بجورباتشوف الذى أعطاها حرية التعبير وعصفت بصيغة الاتحاد .

إن كلا من تركيا وإيران تحاولان مع تلك الجمهوريات خلق روابط لاجتذابها ، فيتحدث الأتراك من جديد عن الجامعة الطورانية ، بحكم العلاقة العرقية التى تربطها مع أبناء « التركستان » السوفييتى وهو الاسم القديم لتلك المناطق وتحاول أن تغريهم بأنها سوف تكون جسرا بين تلك الجمهوريات والولايات المتحدة الأمريكية ، وعينها ـ أى تركيا ـ على إمكانية الاستحواذ على بعض مالديهم من أسلحة أو أسرار نووية ، وكذلك تفعل ايران ولكنها لاتملك نفوذا حقيقيا إلا لدى الأقلية الشيعية ، مابين مسلمى آسيا الوسطى ، التى تسكن أذربيجان ، أما بقية المناطق الاسلامية وخاصة أوزبكستان ، فإن كلمة « السنة » لها دوى هائل لدى أهلها ، ففيها تقع بخارى ، موطن الامام البخارى ، الذى اعتاد المسلمون أن يصفوا صحيحه ، بأنه أصح كتاب بعد كتاب الله ...

الأكثرية المتدينة من أهل هذه البلاد تولى وجهها نحو قلب العالم الاسلامى ، وبالتحديد نحو العالم العربى ، الذى تعرف أنه المصدر الأصيل الباقى للعقيدة الاسلامية ، حيث كان النبى من العرب ونزل القرآن بلغتهم العربية ، وللعرب عندهم ، يعرف ذلك كل من زارهم ، نوع من القداسة ، لايشعرون به بالطبع إزاء أى من الفرس أو الترك ، الذين ليسوا من وجهة نظرهم إلا « أعاجم » مثلهم ، وكذلك الباكستانيون والأفغان ومن إليهم ، ممن تلقوا الديانة عن العرب


نزار باييف
رئيس جمهورية كازاخستان

ولم تتنزل بلغتهم !

ولقد نشرت « الأهرام » بتاريخ ٨ / ١ / ١٩٩٢ ، تقريرا غاية فى الخطورة كتبه عبدالملك خليل مراسلها فى موسكو ، موضوعه أن « المخابرات الغربية تثير المخاوف من الجمهوريات الاسلامية وتتحدث عن احتمالات كومنولث عربى مع المسلمين السوفييت ، ونزوح علماء الذرة المسلمين إلى العالم العربى »

وخلاصة العلاقة التبادلية التى يمكن أن تقوم بين العالم العربى والجمهوريات الاسلامية فى أسيا الوسطى أن العرب من جانبهم لديهم المال الذى يمكن أن يقدموه لاقالة اقتصاديات تلك الجمهورية من عثرتها ، التى هى جزء من عثرة الاقتصاد السوفييتى ككل ، إلى جانب الثقافة الاسلامية الأصيلة من منابعها العربية ، وبالمقابل يقدم المسلمون السوفييت ، ماينقص العرب من علوم عصرية كان يحتكرها الأوربيون وقد تلقوها ، ومنها مايتعلق بالأسلحة النووية وأسرار صناعتها .

وتتحدث تقارير صحفية أخرى عن أن إسرائيل تحاول احتواء هذا « الخطر » قبل أن يصبح واقعا وقبل أن ينجح المسلمون السوفييت فى سد الفجوة التى تقوم بينها وبين العرب فى القدرة العسكرية على النحو المذكور ، وذلك بمحاولة التقرب من جانبها ، أى من جانب إسرائيل إلى الجمهوريات المذكورة ، وعرضها عليهم كل مساعدة فى مقدورها ، وتذكيرهم بأن اليهود لم يكونوا مضطهدين أبدا فى المناطق الاسلامية من الاتحاد السوفييتى ، وأن الاضطهاد إنما كان يقع عليهم من « السلاف » سواء فى روسيا أو أوكرانيا ! ولنا أن نسأل : وهل كان اليهود مضطهدين فى العالمين العربى والاسلامى ، حتى يوقعوا بالعرب فى فلسطين وماجاورها ما أوقعه بهم الغزو الصهيونى ؟!

المهم أن العرب تواجههم مسئولية ضخمة إزاء مصير تلك الجمهوريات الاسلامية فى أسيا الوسطى وعليهم أن يتدبروا أمرهم معها قبل أن يفوت الأوان ، ويبقى هذا التدبير فى أيدى أعدائهم !

المقاهى الأدبية

لغة للناس .. ولغة للمقاهى .. ولغة للأدب

تأليف : جيرار جورج لومير
عرض : محمود قاسم

لا احد يعرف بالضبط من هو الشخص الذى اخترع "المقهى" .. ولا احد يعرف بالضبط متى جلس الناس يتسامرون فى مكان عام . ويحتسون المشروبات الساخنة لاول مرة . ولانه لا احد يعرف متى حدث هذا بالضبط . فقد تُرك الامر للاساطير تلعب دورها . وان تتداول بين الناس بعضها حقيقى . والبعض الآخر فى حاجة الى متابعة ومراجعة .



● وقد اثارت علاقة الانسان بالمقاهى ، وخاصة المقاهى الأدبية قريحة الكاتب الفرنسى جيرار جورج لومبير . فقدم كتابا ضخما بالغ الاهمية يحمل عنوان "المقاهى الادبية" تتبع فيه هذه الظاهرة منذ نشأتها وحتى الآن . وفى مقدمة الكتاب وتحت عنوان "خمر الاسلام" قال : "ان الباحث انطونيو نيرون قد أتى الى منطقة البحر الميت فى القرن الثامن عشر . وتأمل الماعز وهى تأكل بعض الاوراق الخضراء . اللامعة . واكتشف ان الماعز يتمتع بنشاط ملحوظ . وعرف ان هذا النبات يعطى من يتناوله نشاطا" ويردد الكاتب ان النبى محمد عليه الصلاة والسلام فى مرضه الاخير قد فوجىء بان سيدنا جبريل عليه السلام قد أتى اليه باوراق نباتية سحرية صنع منها الرسول مشروبا اعطاه النشاط لبعض الوقت . واطلق على هذا النبات اسم "خمر الاسلام" . هذا النبات هو القهوة الذى اصبح فيما بعد رمزا لثقافة جديدة . وحضارة مستمرة .

ويقول الكاتب ان الاسلام لم يغير فقط فى اقتصاد منطقة البحر المتوسط . بل فى مفاهيمها الثقافية . وان كلمة "قهوة" قد حورت بمنطوقها العربى . الى كل اللغات . وقد اكد الفيلسوف والطبيب العربى الكبير ابن سينا ان القهوة موجودة منذ ألف عام من عصرنا . وانه ليس صحيحا ان الغربيين هم اول من اكتشفها . كما ان المفكر جمال الدين الافغانى قد تحدث عنها . ويقال إنه نادى بادخالها الى الاراضى المقدسة .

ويؤكد لومبير ان اول نص آدبى مكتوب عن القهوة قد صاغه الاديب ـ عبدالقادر ـ لم يؤكد من يكون صاحب هذا الاسم حقيقة فى القرن الخامس عشر حين كتب مناجيا القهوة قائلا : "انت شراب احباب الله . انت تعطين الصحة للمنهكين كى تشفى حكمتهم" .

اما الشاعر التركى البليجى فقد غنى كثيرا من اجل المقهى "من دمشق لحلب للقاهرة كنا نجتمع فى دائرة واسعة وقد غمرتنا الفرحة ! ومعنا بذور القهوة التى تنبعث منها رائحة نفاذة" .

وقد انتقلت بذور القهوة عن طريق الرحالة الاوربيين الى الغرب فى القرن السادس عشر . وعرفت المقاهى لاول مرة بشكلها المتعارف عليه فى اسطنبول حيث بدأت من خلال حلقات تلاوة القرآن . وعرفت هذه الجلسات تحت اسم "مكتب المعرفة" . وكان يجلس عليها اصحاب الحكمة والعقول الراجحة .

وفى القرن السادس عشر ايضا تحدث الرحالة الفرنسى جان تيفنو فى

كتابه "رحلة الى الشرق" عن ظاهرة المقاهي في الشرق قائلا : هناك مقاه عامة تعد مشروبا قويا لكل الزبائن . وكل الناس يمكنهم ان يرتادوا هذه المقاهي . وليس هناك سبب يدعو للخجل من الذهاب اليها . وامام المقهى هناك مقاعد وكراسي من القش يجلس عليها المرتادون في الهواء الطلق وهم ينظرون الى المارة .

اما الكاتب الفرنسي المعروف بيير لوتي فقد جعل احداث روايته "الزيارة" تدور في مقهى شرقي يرتاده الشيوخ والشباب .

● المقهى ممر القلعة

في الفصل الاول من الكتاب يقول المؤلف لوميير ان "كارا مصطفى" هو اول من فكر في انشاء مقهى مماثل لما يحدث في الشرق عندما سافر الى فيينا عام ١٦٨٣ . وهكذا عرف اول مقهى في اوربا . وقد انتقلت فكرة المقاهي فيما بعد الى بيوت المحظيات خاصة مدام دوسيفيني اما اول مقهى عام فقد انشأها في باريس الارمني باسكال . بينما انشأ الايطالي فرانشيسكو بروكوبيو اول مقهى في مدينته باليرمو في اواخر القرن السابع عشر . وقد كان بروكوبيو صديقا للعديد من الادباء الايطاليين والفرنسيين الذين جاءوا يرتادون مقهاه بشكل منتظم . وهناك كان الشاعر يلقي قصيدته . ويتلقاها المعجبون اما الناقد فكان يبدي رأيه فيها .

وما ان بدأ القرن الثامن عشر ، حتى انتشرت ظاهرة المقاهي الادبية . خاصة في باريس . ووجد الموسوعيون ان من الافضل الجلوس على المقاهي بدلا من الاكاديمية الفرنسية ومن اشهر رواد تلك المقاهي كان هناك ديدرو ومونتسكيو . ثم بدأت الظاهرة تنتشر في بقية دول اوروبا خاصة فيينا لدرجة دفعت احد المهندسين المعماريين الى انشاء اول مقهى مخصص للادباء وتصميمه تصميما خاصا انتهى منه في عام ١٧٦٥ في باريس . وحول هذا المقهى كتب الشاعر كارلو فروجوني قصيدته المقهى "ممر القلعة" قال فيها :

منذ ان اصبح قصرك منتزها جميلا فانني احرر المهندس من كل اخطائه بعبقريته التي صنع منها قصرنا

● مغامرات كازانوفا على المقهى

يقول الكاتب ان الثورة الفرنسية قد ولدت في المقاهي . خاصة التي يرتادها الادباء كما ان الكاتب بنيامين فرانكلين الذي اصبح اول رئيس للولايات المتحدة قد كان من اشهر

رواد المقهى ومع بداية القرن التاسع عشر اهتم اشخاص بأعينهم لدعوة اصحاب الفكر للجلوس في المقاهي - مثل فرسكاني صاحب اشهر مقهى ادبي في تلك الفترة. ثم مقهى "ريش" .. التي كان يجلس عليها اونوريه دى بلزاك. وكان الاخوان جومكور يحرران صحيفتهما الشهيرة "لوجورنال" فوق موائدها .. وقد شهدت مثل هذه المقاهي اشهر الاحداث السياسية والاجتماعية في اوروبا.

لقد انتشرت ظاهرة المقاهي الادبية في القرن التاسع عشر لدرجة اصبحت شيئا اساسيا في حياة الكاتب. فهو يذهب هناك لالقاء قصائده اذا كان شاعرا، او لعرض لوحاته الجديدة اذا كان رساما، او لسماع التعليقات اذا كان روائيا او اديبا. وقد اصبحت بعض هذه المقاهي بمثابة مزارات فنية على مدى التاريخ وفي الفصل الذى خصصه الكاتب عن "متاحف المقهى" اكد ان اهم مقهى للادباء في روما يعرف باسم الجريكو وهو المقهى الذي ذكره كازانوفا في مذكراته المشهورة. وقد كتب الشعراء الكثير من القصائد تغزلا في هذا المقهى. كما كانت مصدرا للالهام لدى الكثير من الكتاب الاوربيين. وكان هذا المقهى مشهورا بالقهوة التركية ولهذا المقهى شهرة برج بيزا في ايطاليا. فالزائرون يأتون



جان بول سارتر وسيمون دى بوفوار
.. على مقهى سان جرمان

اليه. والرحالة يكتبون عن ذكرياتهم فيه. وقد اشتهر بفرقته الموسيقية التي كانت تعزف الحانا جميلة في المساء للزوار. وفي سجلات هذا المقهى اسماء اشهر الشخصيات الادبية المعروفة في القرن التاسع عشر. مثل الكاتب الدنماركي هانز كرستيان اندرسون. والناقد هيبوليت تين الذى كتب عن المقهى في كتابه "رحلة الى ايطاليا".

● سقراط .. في فيينا

اما مقهى الاوليمبيا فقد كان الاشهر في باريس ومن بين المقاهي العديدة التي كان يجلس عليها الادباء. تخصص هذا المقهى في انه

كان الاكثر اتساعا . وايضا المنتجع للمبدعين على شتى مشاربهم . فمن الرسامين كان يأتى مانيه . ومن المصورين نادار . ومن الادباء زولا . وقد كتب عنه زولا فى روايته "نانا" اما مانيه فقد رسم معالمه فى لوحة "داخل المقهى" .

وفى القرن التاسع عشر ذاعت شهرة مقاهى مونمارتر . خاصة مقهى "اليزيه مونمارتر" الذى اتسم باتساع ملحوظ . وحديقته الصيفية . وكان مكانا مفضلا لدى الاثرياء ومالبث ان تحول الى مقهى شعبى . وقد سرد كتاب "المقاهى الادبيـة" اسماء العشرات من المقاهى التى لعبت دورا ملحوظا فى الحياة الثقافية الاوربية فى القرن التاسع عشر واكد الكتاب ان هذه المقاهى كانت بؤرة لجذب كل الادباء من كل انحاء العالم . فلم يكن من الصعب على القراء ، وايضا على الكتاب مقابلـة ادبائهم المفضلين مادامو يعرفون اماكنهم . وكانوا يأتون اليهم لمصافحتهم . ولمعرفة اخبارهم الثقافية الجديدة .

ومع نهاية القرن التاسع عشر اصبحت هـذه المقـاهى بمثـابـة مؤسسـات اجتماعيـة يلتقى فيها الجميع . ولم تكن هذه المقاهى محصورة فى مكان دون آخر . ففى النمسا اشتهر مقهى سقراط فيينا وايضا مقهى "المتحف" الذى صممه ادولف لووس وجاءت شهرته انه كان ملتقى للعديدين الذين يعيشون على هامش الحياة . وهذا المقهى لايزال موجودا حتى الان . ومن بين رواده الكاتب الياس كانيتى الذى فاز بجائزة نوبل فى الادب لعام ١٩٨١ .

وقد صمم لوس مقهى آخر فى فيينا عام ١٩٠٧ على الطراز الامريكى وحول هذا المقهى نظم الشـاعر الالمانى بيتر التنبرج قصيدته التى يقول فيها :

كيف اشرح لك
ايتها الغبية العجوز
عندما منحت الوسام الرومانى
فان بيتر المجنون قد حصل على الوسام
آه .. ايها الضابط .

والقصيدة هى واحدة من القصائد المشهورة التى حاولت تحطيم الشعر الكلاسيكى . وهى مكتوبة بلغة غريبة تمتزج فيها الابيـات بالانجليـزية والالمانية والفرنسية . او كما يرى الشاعر هى اللغات التى يمكن ان تسمعها متداخلة وانت تجلس فوق نفس المقهى .

● الشمس .. تشرق على المقهى

خصص الكاتب فصلا عن مقهى

مـونمـارتـر المعـروف تحت اسم "مونمارتر التكعيبية" وهو بالطبع المقهى الذى كان يجلس عليه الفنانون التشكيليون المهتمون بالتجديد خاصة التكعيبيين امثال بابلو بيكاسو وماناخ ومانولو ، وكلهم قادمون من اسبانيا . ويكشف هذا المقهى ان المقاهى كانت تجمع بين ابناء الوطن الواحد . وايضا بين ابناء الفن الواحد والمدرسة الفنية . ومن هذا المقهى ، على سبيل المثال . انطلقت المدارس الفنيـة الحديثة وفى الحى اللاتينى كان مقهى "سان جرمان دوبريه" ملتقى للشعراء فى المقام الاول . وقد التقى فى هذا المقهى ابوللينير مع سالمون ورينيه داليتز . اما جان بول سارتر وسيمون دى بوفوار فقد بدآ يرتادان مقهى فلور فى عام ١٩٣٩ . كان المقهى مزحوما بالشباب من عاشقى الفلسفة . ورغم ان الاثنين كانا يرتادان الكثير من المقاهى فى باريس . فإنهما كانا يعشقان هذا المقهى . وقد جاء الى هـذا المقهى الكثير من الادبـاء البـريطـانيين والامـريكيين مثـل هيمنجواى وكابوت وداريل . ومن المعروف ان هيمنجواى قد استوحى احداث روايته "الشمس تشرق ايضا" من زياراته المديدة للحديقة وارتياده لهذه المقاهى . وفيما بعد كان الممثل آلان ديلون وبرجيت باردو والناقد رونالد بارت من اشهر رواد هذا المقهى .

● للناس .. لغة مشتركة

لم يقع جيرار جورج لومبير اسيرا للحديث عن المقاهى الادبية فى باريس فقط ، وهى الاكثر شهرة . بل تحدث عن مقهى "المنازل" بحى سوهو فى لندن . كما راح يترجم نصوصا شعرية ونثرية ، ومقطوعات من روايات عديدة كتبت عن الحياة فى هذه المقاهى الادبية . مثل قصة "بيوت زهرة النيـلا" للكـاتب الايطـالى جيتـو سيرفينى .. وفى نهاية كتابه خصص اكثر من خمسين صفحة تضمنت اشهر التصميمات الهندسية للمقاهى الادبية التى عرفت فى التاريخ فى اوروبا . وصورا من اهم المسرحيات القصيرة التى مثلت فى هذه المقاهى .

وبعد .. فهذا كتاب من الصعب عرضه ، لكن ايضا من الممتع ان يطالعه المرء . وان يعرف ان هناك لغات مشتركة ولدت بين الناس فوق هذه المقاهى . لا تتعلق هذه اللغات فقط بالمشروب الساخن . بل ايضا بالحوارات البالغة السخونة التى تدور بين روادها ، حوارات الكثير منها يحمل وجهات نظر مختلفة لكن شيئا واحدا يجمعها . هو حب الانسان للحياة واهتمـامه بـان يتحاور مع الآخرين .

حوارات الأب حانوت

قصة : محمد حافظ رجب   ريشة : سميحة حسنين

●● لايصح ان نسال من يذكر محمد حافظ رجب ! بل الاصح هو : من يخاف محمد حافظ رجب ؟ الذى سبق الجميع الى التجديد . وفى زمن هيمنة الاساتذة الكبار واجههم بالعبارة التى اصبحت شعارا بعد ذلك : نحن جيل بلا اساتذة .

صمت حافظ رجب بعد اعماله الاولى المتميزة (الكرة وراس الرجل) ، مخلوقات براد الشاى المغلى ، ولكن صمته تحول الى طريق للتجويد والمغامرة الفنية .

حافظ رجب الذى تحول مقدمة حقيقية لجيل الستينيات ثم قرر الصمت .

ها هو يعاود الكتابة مرة اخرى . وبعد ان انتهى من قصته الأولى بعد الصمت اختار ان ينشرها فى الهلال .

اللوحة الأولى

المنظر : مطعم صغير ـ موائد بمحازاة شريط الرصيف ـ قدرة فول ـ طاسة طعمية اوانى ـ المعلم ـ جرسون شاب يمسح الموائد ـ يروح ويجىء فى حركة ميكانيكية يواجه الجرسون النظارة .

يونس : ظهيرة كل يوم تقترب .. بعد قليل يحضر القطة من العمارات المجاورة .. يختبئون فى ملاحات الملح يختفى الملح وتستدير الارغفة نحوهم .. ظهيرة كل يوم المحرقة تقترب وعلىَّ اطفاء الحريق بأكواب من دمى .. وتبدا طاسة الزيت فى الغليان .. وتتناضل حيات الفول للخلاص فى القدرة الساخنة .. وانا ابن الحانوت عاجز الروح واليدين .. التصق بالحانوت وصاحبه لكنى لست بقادر على تلبية رغباتهم .. جسدى كسيح وروحى متعبة .

صوت : ولعنا النار فى عين الشيطان .. ياويلك ياظالم ياابن الحرام .

المعلم : (مصفقا) صلى على النبى .. صلى على النبى .



يونس : نحن انصاف الرجال تآكلنا .. حلمنا الخروج من القدرة الساخنة سجننا .. وتخطى الزقاق العتم .. لرؤية اشكال الحياة خارجه .. خلف الدكان البحر .. خلف الجدار الصور تهتز .. خلف القدرة حوذى وشيال يحمل حبات الفول مسجونة فى شوال فوق الكتفين .. امواج البحر تصطخب لانسمعها .. هدير المواقد اغلق اذاننا .. يتغير شكل الانفعالات يخرج رواد السينما يضحكون او يبكون .. يسير الحصان بعربته مطرق الرأس والأنين .. ووقوفنا هو هو مستمر الزقاق العتمة والقدرة فوق الموقد وصاحب الحانوت فوق الغطاء ..

(يدخل جرسون حاملا صينية شاى ويدير الملعقة فى الأكواب)

الجرسون : الشاى يارجاله

(يتجه يونس نحوه .. يأخذ كوبا له)

يونس : (يرتشف من الكوب عدة رشفات مشروبنا الشاى) واللفافات حريق الغضب

المعلم : (يصفق) على النبى صلينا على النبى صلينا .

يونس : هذا الذى يصلى على النبى يقولون عنه انه اتى .. ابنه ليس انا .. الحانوت ابنه ملاحات الملح والموائد والملاعق وطاسة الزيت والأوانى ملكه .. انا ملاحة ملح .. ايضا ملكه (للنظارة) وانتم فوق مقاعد المتابعة تذكرون رجال القدرة الفائرة .. وهم يتقلبون مع حبات الفول القاهرة .

يبدأ الفعلة فى الحضور .. يلبسون أقنعة تبرز من الاقنعة انيابهم مخيفة قاسية .. يحتلون الموائد جميعها .

يونس : "وهو يجرى ماسحا الموائد" ايوه جاى .. جاى حاضر .

المعلم : الخبز للرجال .. الخبز للرجال .. الخبز للرجال .. الخبز ياولد

يونس : : "وهو فى حركة دائبة الآن تبدأ دورة اقدامى تحت حريق الظهيرة الغاضبة" .. اطباق فوق كتفى .. اطباق فوق ظهرى .. اكواب ملء فمى والجسد محدود الطاقة والاحتمال (يحتل مائدة نقاش وبعض الفعلة) .

النقاش : "مصفقا غبطة" . هات .. وهات .. وهات

يونس : ايوه جاى .. ايوه حاضر (يقترب من مائدة النقاش والفعلة) عندنا .. وعندنا .. وعندنا .

النقاش : (للفعلة) .. ماذا تأكلون ياغيلان .

الفعله : (معا) نأكل مما تختار لنا ياأسطى

النقاش : هات لنا عين .. وشريحة من لحم الكتفين .. وارووينا بالاكواب اولا .

يونس : (منا‌ديا) هات لهم .. وهات لهم .. عين من العينين وشريحة من لحم الكتفين

المعلم : (يمسك بسوط طويل مثل الذى يروض به الحيوانات فى السيرك ـ يفرقع به عاليا) هيا ياولد .. هيا ياولد .

النقاش : (ليونس) اين الاكواب ياولد .. اين الأكواب ياصبى .. اين الانصناعة ، والطاعة والادب .

الفعله : (معا) اين الطلبات .. اين الطلبات ياولد

يونس : الصبر يارجال .. الصبر يارجال ..

المعلم : (يفرقع

بالسوط فوق ظهر يونس)
طلبات الاسطى ياولد ..
طلبات الرجال ياولد
النقاش : عطشان ياولد
.. عطشان ياصبى
الفعله : عطشانين
مثلك يا اسطى ..
عطشانين .
النقاش : يامعلم ..
يامعلم .. طلباتنا تاخرت ..
طلباتنا تاخرت
(يخرج يونس من داخل الحانوت مثقلا بالأطباق .. يدور سريعا حول الموائد ويلقى بالأطباق فى عجلة) .
يونس : لحم كتفى فى طبق .. حبة عينى فى طبق .. دمائى فى الاكواب قادمة
(النقاش يتذوق شيئا من طبق يلوكه فى تلذذ واضح) .
النقاش : ياسلام .. ياسلام .. وهات لى طبقا من عينك الأخرى وهات لهم طبقا من لحم الكتفين .
الفعله : يقهقهون .. هات .. وهات .. وهات .
يونس : (صارخا) حاضر .. حاضر .. قادم لكم .. قادم لكم
يدخل الحانوت .
النقاش : يامعلم اكرم زبائنك .
المعلم : يكرمنا ويكرمك ربنا .

النقاش : (وهويلوك الطعام) وصىّ علينا صبيك .
المعلم : عبدك بين يديك .
(يمضغ النقاش والفعلة طعامهم فى زهو ـ يخرج يونس حاملا بضعة اكواب مملوءة بالدم ـ يضع الاكواب امامهم) .
يونس : اكواب الدم .. عصرتها لكم .. طازجة .. طازجة .. تجرعوها جرعات قصيرة حتى تكفى لاروائكم .. حتى اتمكن من المواصلة .
(يرفع الجميع اكوابهم .. يتجرعونها مرة واحدة ـ يمد النقاش يده بكوبه الفارغ الى يونس) .
النقاش : املأه من جديد .. املأه من جديد
الفعله : املأ لنا اكوابنا .. املأ لنا اكوابنا .. املأها من جديد .. املأها من جديد
يونس : انه عصير دمى .
النقاش : دمك لايروينا .. دمك لايروينا .
(يتوقف يونس فى المنتصف والاكواب فارغة فى يده) .
يونس : (للنظارة) احاول ان اسرع لالبى كل الرغبات .. كل الرغبات ..

لكن دمى لايرويهم لايرويهم .. صنبور الدم فى عروقى لايكفى لرى الجفاف .. لو اشفق علىّ ابى لهان الأمر
(يصفق النقاش مستفزا .. يصفق الفعله معا فى رتابة وازعاج) .
المعلم : كل هذه الصرخات .. كل هذه النداءات والأصم لايسمع .. مات الاصغاء فى اذنيه ماتت الحركة فى قدميه (يفرقع بالسوط فوق ظهر يونس) حاضر جاى .. ايوه جاى .

النقاش : غير صبيك يامعلم .. اطرد صبيك يامعلم .

المعلم : ليونس حرك رجليك ياولد
الفعلة : الدماء للجفاف .. الدماء لاطفاء الحريق . اطرد عبدك اللئيم .. اطرد عبدك اللئيم .
المعلم : اتسمع مايقولون .. اتسمع مايقولون .
النقاش : وقاحة نظراته تعطل شهيتنا .
المعلم : حقكم فوق راسى .. حقكم فوق راسى وراسى ابى كمان .
الفعله : حقنا فوق

راسه وراس ابيه .. تعالوا نقطع فروة راسه واولاده اجمعين .

النقاش : لا .. لا .. المعلم عبدنا .. ينحنى لرغباتنا .. انه مطيع لنا .. راسه فوق كتفيه ذات فائدة لنا .

المعلم : نحن فى الظهيرة ـ عز الشغل ـ غدا سأتى بعبد اخر مطيع لنا

الفعله : (يتركون مقاعدهم ـ يتربعون على الأرض) اطرده الآن .. اطردهم .. اطرد عبدك اللعين .. لتفتح شهيتنا ـ وتلوك لحمة العجين .

يونس : (يمشى مترنحا والأطباق ملء يديه) .

المعلم : سأطرده من اجلكم . سأطرده من اجلكم .

النقاش : هات الأطباق هنا .. هات الأطباق هنا .

الفعله : انيابنا لاتنتظر ـ انيابنا لاتنتظر .

المعلم : (يفرقع بالسوط عاليا فوق ظهر يونس) ، قدم لهم طاعتك .. قدم لهم طاعتك الغوله امك سحرتك تريد طرد زبائنى . حاضر يجب ان تقولها .. اقولها انا .. وحذائى فوق راسى وراسى ابى

يونس : (صارخا فى عذاب) ارفع سوطك من فوق راسى وانا اقولها .

(يضع الأطباق فوق مائدة النقاش) .

النقاش : يامعلم .. سأذبح هذا الغبى .

الفعله : (ينهضون من فوق الارض) .. نحن معك .. نحن معك . سنلتهم لحمه وراسه الغبى .

يحيطون بيونس فى غضب ينزلق طبق فوق ملابس النقاش .

النقاش : هكذا .. هكذا تعملها معى .

(المعلم يهرول اليه).

المعلم : ماذا جرى .. ماذا جرى .

النقاش : ناولنى سكينك يامعلم .. سأذبحه

الفعله : ونحن سنلتهم لحمه .

المعلم : (مفرقعا بسوطه) اطردوا الشرير يارجال

يونس : يمسك كوبا يرش به وجه النقاش .

النقاش : (ممتقعا يمسح وجهه) ، ارايت .. ارايت يامعلم .. امامك يعمل عملته .

المعلم : (رافعا سوطه فوق يونس) يونس ياابن الحرام .. تريد طرد زبائنى .. تريد موت الدكان على يدك (للنقاش) سأمسح ملابسك بيدى يدع السوط جانبا يمسح له ملابسه .. يبكى الفعله فى نشيج خافت).

النقاش : ساقتله ..سأقتله .

الفعله : ونحن سنلتهم لحمه .

المعلم : (للنقاش) .. سأطرده من اجل خاطرك .. اخلع الفوطة ياولد

النقاش : يامعلم .. لك الشكر كله ..

المعلم : يهمنى رضاكم .

النقاش : راضيا .. ابقاك الله لنا .. ودكانك عامر

المعلم : يعز علينا غضبك ورجالك معك .

(الفعله يرقصون فى نشوة حول النقاش ـ يونس يخلع الفوطة ويلقى بها على الارض ـ يمتطى مائدة ـ يصفق ـ يهرول نحوه المعلم مستبشرا) .

المعلم : ايوه حاضر.

يونس : هات لى طبقا من مخ المعلم وشرائح من لحمه ـ سأدفع مقدما

(يخرج من جيبه نقودا يضعها فوق المائدة ، ليس هناك احد . احسن من احد)

المعلم : (مناديا) هات له طبقا من مخ المعلم ورطلا من كبده ـ سيدفع

الثمن مقدما ليس هناك احد احسن من احد ينتبه لنفسه كيدى لن تتوقه ابدا يا ابن القولة القولة امك عدوتى متاديا وقف الطلب (ليونس) انصرف من هنا .

يونس : العمله فى يدى . والمطعم للجميع .. لمن يمتلك الثمن .. لمن ليست يده فارغة .. لمن يركب كتفى المعلم المعلم تقدم نحوى انظر فى جيبى - القروش تلمع .. انحن .

المعلم ينحنى قبل يدى المعلم يقبل يده قدم لى الاطباق بيدك يناوله الاطباق ، قدم لى كوبا يروى عطشى (يناوله كوبا) امسح لى فمى يتناول فوطة) ويمسح له فمه .

المعلم : لتنصرف من هنا ؟

يونس : سأتناول طعامى وانصرف

(يرفع المعلم يده يهوى بها فوق وجه يونس - يظهر خط من الدماء تحت انفه - ينهض يونس متحسسا خيط الدماء - ملامحه تتغير بشكل مخيف - يتجه نحو الحانوت يخرج ممسكا بسكين - يتجمع الفعله حولهما) .

فاعل : من سيذبح من ؟

يونس : انا سأذبح الحانوت

النقاش : انه والدك

فاعل : هات السكين ياولد

يونس : ابتعد ادخل القدرة واختفى

الفاعل : سمعا وطاعة

المعلم : يرتعد ترفع السكين فى وجهى ياكلب

يونس : سأشق القلب بطعنة واحدة .. لابحث فيه عن وجه ابى

المعلم : انا سيدك . ابوك .. انا الاب ياغبى

النقاش : خذوا منه السكين يارجال

يونس : واترك الحانوت كما هو

النقاش : اخز الشيطان وانصرف

يونس : اخلع فوطته اولا .. لأرى القلب واضحا واتمكن من تمزيق لحمه

المعلم : يا ابن الحرام .. تأكل عيشى وتطرد زبائنى .. والآن ترفع السكين فى وجهى انا (للفعله) انتم شهود ماجرى

يونس : دعنى اراك خارج الحانوت ياابى .

ايتقدم النقاش من يونس متملقا ويتناول منه السكين دون مقاومة .

النقاش : انصرف الآن .. وغدا يحلها ربنا .

يونس : لهم غدا يموت الحانوت وتنهار جدرانه . ونعثر على جثته فى ملاحة ملح تأكله .

المعلم : يخلع فوطته - ثم يخلع قميصه ويشير الى قلبه . هنا اراد يونس الكلب طعنى فى المقتل

النقاش : (متزلفا) لم يعد فى العالم خير يامعلم - الكفر يملأ العالم كله ..

رجل : مات الآباءفى قلوب الابناء .

المعلم : (فى ذهول) فليته ـــــى مااراده .. فليطعننى فى المنتصف .. وينزف الدم من ثقبه .

النقاش : حد الله يامعلم .

المعلم : (لنفســه) ترى هل سيفعلها حقيقة ويضع قدمه فوق جثتى .

النقاش : لاتحــزن يامعلم .. جنون اطفال فلا تهتم .

المعلم : (لنفســه) سادخل التجربة ولو بطعنة سكين للحاضرين اغلقوا الحانوت .

النقاش : ماذا جرى يامعلم .

المعلم : الليلة يولد الحانوت من جديد او يموت .

النقاش : اخز الشيطان يامعلم .

المعلم : للحاضرين اجمعوا الكراسي والموائد
يجمع الفعلة الموائد والمقاعد ـ يشد المعلم باب الدكان ـ ينصرف الجميع .

اللوحة الثانية

المنظر : كوخ من الداخل ـ يونس يدور منحنيا باحثا عن شيء لايرى ـ بيده مصباح بترولي ـ يقف معتدلا يضع المصباح جانبا .
يونس : شعر راسى متناثر فى الأركان ادور التقطه شعرة شعرة منذ لحظات كنت معلقا فى خطاف حديدى يتدلى من سقف الكوخ وامرأة بنابين تجز جسدى بمذارة حادة .
تظهر امرأة وحشية المظهر بيدها مذراة .
المراة : انطلق امامى ـ انطلق تحرك احمل اكواب الدم لهم .. الفعلة فى انتظارك احمل الاطباق لهم التزم الطاعة والا اقتلك .
يونس : (برعب) اتركينى ابتعدى عنى .. لست بقادر على حملك .
المراة : سأدعه ياتى ليقتلك
يونس : لن افعل سأقاومك دمائى تسيل لكنى سأقاوم حتى المنتهى طرقات عنيفة على باب الكوخ .
يونس : انه فى الخارج انه فى الخارج .. انصرفى عنى
(تختفى المرأة الطرقات تشتد) .
يونس : (للنظارة) تجبرنى على الخروج لتعلقنى فوق النار ليأكل الفعله لحمى يضعونه فى الأطباق يأكلونى ساخنا .
(يفتح الباب . يدخل الفعلة باقنعتهم واشداقهم مفتوحة حمراء يرقصون حوله) .
يونس : لماذا جئتم هنا .. ماذا جئتم الى مكمنى لن استسلم لكم .
(تعود الطرقات على الباب ينصرف الفعلة يلوذ يونس باحد الاركان تشتد الطرقات يفتح يونس الباب . يدخل المعلم متجهما وخلفه زوجته يقفان فى منتصف الكوخ) .
المعلم : (بصوت متحشرج) اخرج من الركن (يخرج من جيبه مدية خذ المدية) .
الزوجة : (بفزع للمعلم) ماذا ستفعل له .
المعلم : ساعيد التجربة (ليونس) امسك المدية تناولها (يتناولها)
الزوجة : دعه فاللعبة خطرة
المعلم : والآن اطعنى .. اطعنى فى القلب
الزوجة : ليونس لا .. لا .. لاتطعنه
المعلم : اضرب .. اطعنى ولننته
الزوجة : للمعلم انا خائفة .. دعه فى حاله ولننصرف
المعلم : (ليونس) اطعنى اليس هذا ما تتمناه
يونس : (للزوجة) لو اقترب من سأطعنه .. سأطعن الأطباق والأكواب وجدران الحانوت والفعلة المتوحشين .
المراة : (صارخة) لا .. لا يايونس ارم المدية من يديك .. ارمها .
المعلم : اطعنى .. ولننته من كل هذا ..

اطعنى يابهيم

يونس : (للنظارة) فى كلماته الأخيرة رائحة ملل .. مل اللعبة ومع ذلك لو اقترب سأطعنه لن يهمنى وجود الثقب والدماء تنزف منه .. والجثة رمة ملقاة فى ملاحة ملح والرجال يشيرون : الابن قتل الاب . يجب الايقترب من المدية خطوة ، المدية حاميتى من جنونه .. السكين فى وجه القسوة .. المدية فى وجه الحانوت لو مدت القسوة اصابعها لتخنقنى . فساطعنها

الزوجة : انه ابوك يامجنون . الق بالمدية من يديك

يونس : اننى ميت من الرعب منه

المعلم : اقترب .. والرعب يفر

الزوجة : دعه وحده .. هيا نخرج من هنا

المعلم : لن نخرج حتى يفعل ما آمره

يونس : لاتضطرنى لأن اغمدها فى جسدك .. انت زوج الحانوت .. وانا زوج نفسى

المعلم : (لزوجته) من اجل اخوته شيدت الحانوت وهو يريد هدم جدرانة

يونس : اود ان اعانقك وابكى القى بالمدية فى عين الشيطان . ولكنك كوب ماء بشرية فاعل جائع يضع قروشا فى جيب الفوطة .. انت رعبى والمى انت

المرأة : ذات النابين المخضبتين بالدماء .. لكن المذراة فى يدى سأطعنك بها

الزوجة : انتما مجنونان (للمعلم) .. فلنخرج من هنا بسلام

يونس : لو القيت بالمدية .. يحطمنى بجنونه انت شاهدة على غرابة حالنا

المعلم : عليك ان تنهى مأزقك بيدى

(الزوجة تنتحب)

المعلم : كفى عن نحيبك وغادرى مكاننا .

يونس : (للنظارة) فجأة انتهت اللعبة كما بدأت .. مل الحانوت الانتظار .. اختفت المرأة ذات النابين سقطت المذراة من يدى

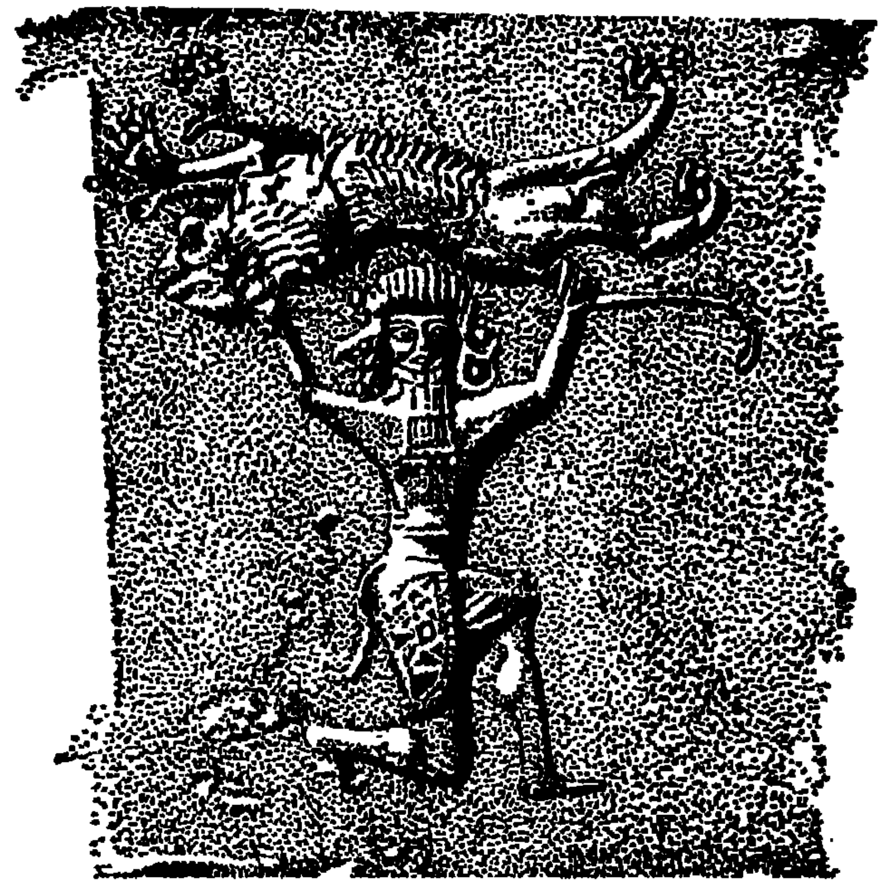
المعلم : اجمع ملابسك وغادر الكوخ الليلة .

(ينصرف المعلم ومعه زوجته يجمع يونس ملابسه ـ يطفىء النور ويغادر الكوخ من فوره) .

روايات الهلال
تقدم
منعطف النهر
تأليف
ف.س. نيبول
تصدر
١٥ فبراير ١٩٩٢

تجربتي مع جلجامش

بقلم: د. عبدالغفار مكاوى



تنعكس الأحداث والكوارث على المثقفين بشتى الصور والأشكال، فمنهم من يقاسي ويلاتها أو يذهب ضحيتها، ومن يحلل أسبابها وتطوراتها ونتائجها تحليلا سياسيا واجتماعيا واقتصاديا، أو يتتبع جذورها التاريخية الحديثة والقديمة، أو يستقصي دلالاتها الفكرية والثقافية ... وقد شاءت المصادفة أن ينشغل الكاتب قبل المحنة الأخيرة بسنوات بحضارة وادى الرافدين القديمة وبالحكمة البابلية بوجه خاص. وعندما وقعت "أم المحن" كان قد بدأ فى صياغة جديدة لدرة الأدب البابلي القديم وهى ملحمة "جلجاميش". فكيف انعكست الأحداث الأخيرة على وجدان أديب عربى معاصر؟ هذا هو الذى يتحدث عنه هذا المقال ...

وهل يمكن أن نجرب عملا تفصلنا عنه مئات ، بل ألوف السنين ؟ هل يستطيع إنسان يحيا "هنا والآن" أن "يدخل فى تجربة" مع ملحمة قديمة موغلة فى القدم ، مضى على أكتمال نسختها الأخيرة فى القرن السابع قبل الميلاد وفى العصر الآشورى الحديث مايزيد على ألفين وخمسمائة عام ، كما أنقضى مايقرب من أربعة آلاف عام منذ أن ابتدأ تدوين أجزاء منها ـ بالخط المسماوى على الألواح الطينية ـ فى العصر البابلى القديم (من حوالى ١٨٩٤ ـ إلى حوالى ١٥٩٥ق .م) وإذا كان من الطبيعى أن تتوافر لمثل هذه التجربة شروط منهجية وأدوات بحثية لايملكها غير المختصين فى علم "الآشوريات" من المؤرخين والأثريين وفقهاء اللغات الشرقية القديمة ، وفى مقدمتها السومرية والأكدية السامية ، فهل تتسنى تجربة من نوع آخر لأديب شدته هذه الملحمة الشهيرة فقرأها وعايش أحداثها وتعاطف مع شخصياتها حتى دفعه الطموح الخطر "لقراءتها" قراءة جديدة ، ومحاولة "إحضارها" فى بؤرة الوعى ، وبث الحياة القديمة المتجددة فيها ، ووضعها على "خشبة" تاريخنا العربى الراهن الذى أغرقته المحن والمآسى والهزائم والأحزان ؟! وهل تجدى هذه المحاولة مع غياب "جلجاميش" عن الوعى العام المثقف فى بلادنا العربية ـ باستثناء قلة من



العلماء المختصين الذين ذكرتهم ، وأقل منهم من خاصة المثقفين ـ ومع القطيعة أو الانقطاع المعرفى والشعورى عنها مع اتساع الفجوة الزمنية الهائلة ، وتتابع دول وشعوب ، وتراكم نظم وقيم وخبرات لاحصر لها على الوعى منذ انهيار الدولة الآشورية (٦٠٩ ق م) والسلالة البابلية الأخيرة أو الكلدانية (٥٣٩ ق م) حتى الفتح العربى الاسلامى ومنه الى العصر الحاضر (من الفرس الأخيمينيين ٥٣٨ ـ ٣٣١ق . م إلى المقدونيين والسلوقيين ٣٣٠ ـ ١٢٥ ق.م والأرزاسيين أو الفرثيين ٢٥٠ ـ ٢٢٨ ق.م الى الساسانيين من ٢٢٤ ق.م الى ٦٥١ ب.م) ـ أضف إلى هذا أن جلجاميش لم يستطع بعد أن ينفذ فى الوجدان العربى كما فعلت على نحو من الأنحاء شخصيات ورموز أسطورية أخرى من حضاراتنا القديمة مثل إيزيس وأوزوريس وتموز وعشتار ،



كما أن المبدع العربي - في تقديري على الأقل ! - قد قصر حتى الآن في أستيحائها واستلهامها وتوظيفها كما فعل مع الشخصيات والرموز السابقة ومع غيرها من التراث اليوناني بوجه خاص - على الرغم من أن جلجاميش قد أصبحت جزءا لايتجزأ من التراث الانساني والعالمي ، وأن "الآخر" الغربي لم يتوقف - منذ أكتشافها وفك رموزها وتحقيق نصوص ألواحها الاثنى عشر في أواخر القرن الماضي - لم يتوقف عن دراستها من كل جوانبها وأبعادها ، ولا عن ترجمتها الى لغاته الحديثة . ترجمات عديدة ، ولا عن استلهامها في أعمال أدبية وفنية وتشكيلية يصعب حصرها ..

كان أول لقاء لي مع جلجاميش - إذا صح تسميته بهذه الكلمة الدافئة الغنية بمعاني الحوار والمشاركة - والحضور - في سنوات الطلب قبل مايقرب من الثلاثين عاما .. فقد نبهني أستاذي الألماني إلى كتابين أكد أنهما من أهم الأعمال التي طبعت أثرا لايمحى في نفسه . كان العمل الأول هو كتاب الطاوية المقدس "تاو - تي - كنج" أو كتاب الطريق والفضيلة الصيني القديم الذي عكفت على نقله الى العربية عن بعض ترجماته الى اللغات الحديثة وظهر في أوائل الستينيات ، وكان العمل الثاني هو جلجاميش الذي قرأته في ذلك الحين في إحدى صياغاته الأدبية الحديثة التي عثرت عليها للأديب الألماني جورج بورخارت . لا أستطيع أن أصف تلك القراءة المتعجلة بأنها كانت تجربة ، إذ لم يتبق في ذاكرتي منها - حتى سنوات قليلة خلت - سوى بعض أحداثها وأشباح شخصياتها ، جلجاميش طاغية المدينة السومرية القديمة أوروك الذي حكم شعبها بالسخرة ودوى الطبل ، وبنى سورها الشهير وعددا آخر من معابدها وأبراجها ، وأخذ الابنة من أمها والأبن من أبيه والعروس من عريسها بالغصب والعسف حتى تضرع الناس لألهة السماء أن يخلقوا له ندا ينافسه في القوة والبأس ويشغله عنهم ، وإنكيدو وحش البرية الفطري البرىء الذي يرد الماء مع الحيوان ويرعى الكلأ مع الغزلان "وخوف الصيادين منه وشكواهم لطاغية أوروك الجبار الذي يعث اليه بإحدى بغايا المعبد لكي تستدرجه الى أوروك - أو الوركاء كما سماها العرب - فيصارعه على أبواب معبدها ويكسب احترامه وصداقته التي أصبحت مثلا نادرا في الأدب العالمي كله ، ثم انطلاقهما في مغامرات وأسفار يقتلان فيها مارد غابة الأرز وحارسها ، ويفجران غضب عشتار (إلهة الحب والحرب !) عليهما وعلى المدينة بعد أن صرعا الثور السماوي الذي أرسلته لتدميرهما أنتقاما من رفض جلجاميش عرضها

المغرى بالزواج منه - ربما حفظت الذاكرة كذلك آلام إنكيدو على فراش الموت ، وصراخ جلجاميش ودهشته وذعره من "حظ البشر" ، واغترابه عن أوروك وأهلها بحثا عن الخلود الذى استأثرت به الألهة وحرمت منه البشر .

لن أحاول إذن عرض "جلجاميش الجديدة" لأن هذا عبث لاطائل وراءه ، كما أنه أمر متروك للقراء والنقاد فى مستقبل الأيام ، ولذلك أكتفى ببعض الاشارات واللمحات التى يمكن أن تكون لها دلالتها على أشواك الحاضر المرة وجذورها البشعة الضاربة فى أغوار الماضى ..

● محاكمة جلجاميش !

يبدأ السطر الأول من اللوح الأول للملحمة كما هو معروف بهذه العبارة التى سميت بها : "هو الذى رأى" ولابد أن القارىء الذى اطلع على الملحمة يتذكر بقية العبارات التى تمجد جلجاميش وتبرز الوهيته التى غلبت على بشريته . فثلثاه إلهى - فى نظر الشاعر الأصلى الذى عاش حوالى سنة ١٢٠٠ ق.م - والثلث الباقى بشرى فان : هو الذى رأى كل شىء حتى تخوم البلاد ، هو الذى عرف البحار وأحاط علمه بكل شىء ، هو الذى تغلغل ببصره فى الهاوية المظلمة ، وأمتلك الحكمة وتعمق كل الأشياء ، ورأى الأسرار وكشف الخفايا ، وجاء بأنباء ما قبل الطوفان" ..

يحوى العنوان الجديد كل دلالات العمل ، فقد أصبح "هو الذى طغى" .. وتحته وضع عنوان فرعى هو "محاكمة جلجاميش" - ولذلك تبدأ اللوحة الأولى من لوحاته الدرامية العشر بمحاكمة شاملة تشارك فيها شخصيات وأزمنة متعددة : فالراوية الذى يظهر فى البداية وهو يقلب "ألواح الملحمة" ويعيد قراءة وتذكر بعض سطورها يعبر عن دهشة العربى المعاصر الذى يفاجأ بأصوات عميقة متداخلة تمجد جلجاميش : جلجاميش ! الملك الحكيم ، والبطل الوسيم ، أو تجسد رعبها الذى لم يقلل منه مر الألوف من السنين : جلجاميش طاغ جبار ، جذوة نار ، يقتل فى ثورة غضبه ، ويفيض الألم بشعبه - ويفصل صوت من الجموع التى تفد على الخشبة مظالم طاغية أوروك الذى أقترن تأليهه وتمجيده بصبٍّ لعنات المظلومين على رأسه : لايترك إبنا لأبيه ، ماض فى الظلم الفادح ليل نهار ، هو ثور هادر ، وحش غادر ... ويسأل الراوية هذه الجموع عما تريد فتجيب قائلة : جئنا لنحاكم جلجاميش ، نشكو للعصر الحاضر من ظلم العصر الغابر - ولكن من الظالم ومن المظلوم ؟ من سيحاكم ومن القائم بمحاكمته ؟ إن جلجاميش الذى يظهر بالقرب من السور أشبه بكومة بشرية يتصاعد منها الأنين على الحلم المستحيل والخلود الضائع ، ملتزم



بالصمت المطبق - والراوية - ابن الزمن الحاضر - يسأل شيوخ أوروك الذين شهدوا المحنة وجاءوا يحاكمون ملكهم وبطلم القديم : من سيحاكمه ؟ أنتم ؟ نحن ؟ فترد عليه الجوقة : سنحاكمه ونحاكم أنفسنا معه ، باسم العدل وباسم الظلم ، باسم الأرملة الثكلى والشيخ العاجز والأب والأم - ويبدأ الراوية فى سؤال شخصيات الملحمة التى تقدم نفسها واحدا بعد الآخر ، لعلها تعينه على فهم ما استغلق عليه من سطور الشاعر القديم الذى نسج مأثورا شفاهيا وكتابيا عمره مئات السنين فى نسيج عبقرى أصيل ، وفى لغة عفوية بسيطة تكتفى بالتلميح دون التصريح ... وتبدأ الشخصيات الهامة فى تقديم نفسها والادلاء بشهادتها على الزمن الذى عاشته وذاقت مغامراته ومآسيه ، كما تواصل جوقة الشيوخ تعليقاتها الحكيمة الغاضبة من برج "اللازمن" وكأنما تعبر عن "الضمير الجمعى" لهذه المنطقة من العالم وسكانها الأموات والأحياء ، أو كأنما تحذر وتنذر من رعب أكبر من هذا سوف يجىء" على حد قول المرحوم الشاعر الكبير صلاح عبد الصبور ...

بعد أن يستمع الراوية من أصوات الجموع الى قصة لجوئهم لآلهة السماء لتخلق منافس جلجاميش الذى سيشغله عنهم وينقذهم من ظلمه ، ثم قصة وحش البرية وخوف الصيادين منه على نحو ما ذكرت من قبل ، تظهر "شمخات" فى عمق المسرح فيهتف الجميع : شمخات ! بغى المعبد ! فترد عليهم قائلة ، بل قولوا كاهنة الحب قاربنى وحنوت عليه ، عانقنى فرويت العطش وأشبعت الجوع وهدهدت القلب ، يوما يومين ، سبعة أيام وليال نصل الصبح مع الليل ، والى أوروك قدت خطاه على الدرب ، كما تفعل أم مع طفل .. ثم تروى باختصار يليق بهذا التقديم المختصر كيف علمته أن يلبس الثوب ويأكل الخبز ويذوق مع الناس رحيق الخمر ، وكيف حولته من وحش الى انسان ، وعلّقت عليه آمالها وآمال أخواتها من بنات أوروك وأهلها فى "إنقاذ" المدينة من بطش الطاغية .. ثم كيف أحبته حبا صامتا لم يفطن إليه ، وحذرته من المستبد الأنانى الذى لم يشغله إلا "شهرة أسمه" ومجده وخلوده المزعوم ، فلم ينتصح ولم يكترث بالتحذير .. حتى تبدد حلمها وحلم أهالى أوروك فى إنكيدو المنقذ ، عون المظلوم التعس وأمل الشعب وذلك على النحو الذى سيفصل فيه القول بعد مشهد الاستهلال تفصيلا شديدا يساير مواقف الملحمة وأحداثها خطوة خطوة ..

وبعد أن يتطرق الشيوخ الى الخراب الذى حاق بأوروك بسبب جبروت جلجاميش ، ثم بسبب مغامراته العقيمة بحثا عن المجد الزائف

والخلود المستحيل ، يظهر شبح المسكين الطيب إنكيدو ، من عالمه السفلى المرعب ، ليقدم نفسه للجمع الحاشد الذى ستعرض أمامه الملحمة بأكملها ليحاكم ويحكم عليه أو له : أنا أنكيدو وحش البرية ، مازلت وفيا لعهود الحب وإن عهود القلب وثيقة ، وسواء سمانى الكتبة خادمه أو سمتنى الملحمة صديقه ، فلقد كنت ضحيته ، والسكين بيده ، والفأس المطروحة فى طرقات أوروك ، والنجم الثاقب يشتاق بريقه" .. ثم يتحسر من أعماق قلبه : آه كم حذرتك ياجلجاميش كم حاولت أردك لجموع الشعب لنبض القلب وأمر الحب .." ويتذكر رفيقه وصديقه الذى صاحبه فى مغامرات وأسفار لم تجلب عليه (أى على إنكيدو) غير الجراح التى أهلكته ، كما يشير من عالم الغيب الى الآلام التى عاناها هذا الصديق بعد موته ، وأنطلاقه وراء حلمه المستحيل فى الخلود الالهى : آه كان حبيب القلب رفيق الدرب وكنت رفيقه ، وبكانى حين مرضت ، ولما أختطف الطير الصاعق روحى ، شبت فيه النار فلم يطفىء مر الأيام حريقه ... ومضى كالثور الجامح ، والنسر الجارح ، خاض بحار الموت ، غريبا يبحث عن حلم لايدركه البشر ، وما من حى يملك تحقيقه . آه ! كنت المصباح أضاء طريقه ، وسفينته فى بحر التيه وكنت غريقه .."

غير أن جلجاميش – كما يعلم القارىء – لم ينتصح . تملكته الرغبة فى تجاوز الموت الذى أخذ منه صديقه (والانسان الوحيد الذى أحس به) وفى التوصل للخلود حتى رجع من رحلته خاوى الوفاض إلا من اليأس والكمد – لقد عرف بعد ضياع نبتة الخلود ، أو شوكته البحرية التى دله عليها جده الخالد (إذ التهمتها الحية التى سماها البابليون أسد التراب فجددت جلدها ومازالت تجدده إلى اليوم وضيعت على جلجاميش وعلى شيوخ أوروك وشبابها وربما على البشرية بأجمعها كل أمل فى الشباب الدائم !!) أقول عرف المعرفة التى تولد الحزن والحسرة أبداً . ووصل إلى الحكمة الأليمة التى يحتمل أن تكون قد قالت له كما قالت لسقراط وكهنة معبد دلفى من بعده : إعرف نفسك والزم حدك ! ربما قالت له ذلك أو شيئا شبيها به ، إذ جعله شاعر الملحمة أو شعراؤها المجهولون يصيح من اليأس الفظيع على أثر ضياع النبتة مباشرة : آه ! ماذا أصنع ؟ وإلى أين أوجه وجهى ؟ ضاعت منى النبتة ، راح الأمل وتاه ، لمن أضنيت يدى ، لماذا نزف القلب دماه ؟ آه ! ضاع العمر سدى ، لم أكسب شيئا ..

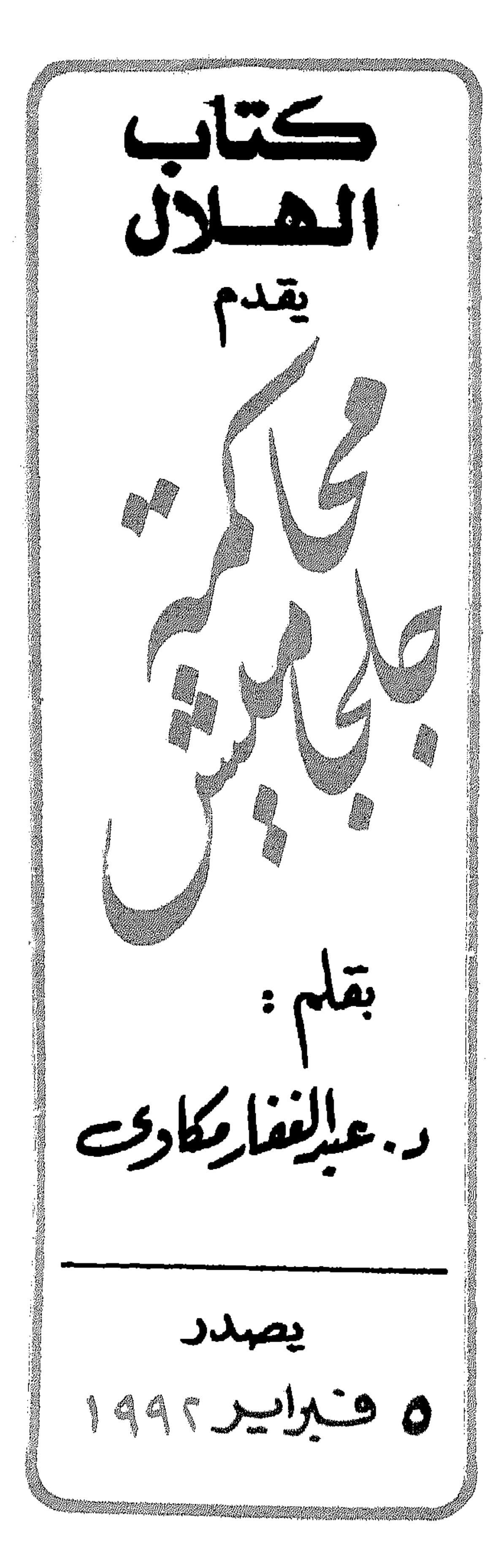
ويواصل العائدان – جلجاميش وأورشنابى – طريقهما إلى أوروك ويصيح جلجاميش مهللا بالفرحة الغامرة عندما يلمح من بعيد سور أوروك العظيم الذى اقترن باسمه حتى اليوم ، ويدعو صاحبه إلى تأمل بنائه الشامخ وتلمس أسسه وآجره المحروق

، وتحسس إفريزه النحاسي الذي يسطع في الشمس كبريق الذهب .. تلك هي الخاتمة التي فاجأتنا بها الملحمة . لكنني سألت نفسي . الا يمكن أن توجد للملحمة أكثر من نهاية ؟ ألا يحتمل أن يكون البطل الذي تبدد حلمه قد رجع لأوروك بعد غياب السنوات الطويلة في مغامراته الطائشة وبحثه الأناني عن الخلود والشهرة والمجد فوجدها مدينة مخربة مجدبة من الخضرة والحياة ، وفوجيء بتحطم سورها ومعابدها وأبراجها بعد غزو عدو من المدن المجاورة المعادية ؟ ثم ان ثمة احتمالاً آخر يمكن أن تضعه موضع الحسبان ، بدلا من الفرض السابق الذي يصور جلجاميش في صورة مغترب أو "لا منتم" عدمي لايملك في النهاية إلا البكاء والصراخ على مجد غابر لايستعاد .. لذلك فكرت في نهاية أخرى توحي بأن البطل قد "تطهر" بعد كل العذاب الذي قاساه ، وبعد أن تبدد حلمه المستحيل تحرر من الوهيته المزعومة التي نسبها إليه الكهنوت البابلي وحاولت أمه الحكيمة ان تنزع ثوبها عن جسده وروحه القلقة لترجعه إلى بشريته .. وتطهر من استبداده الأناني وانتقل إلى "التحن" كما يقول الفلاسفة وعلماء النفس .. وبذلك يكون في تقديري استثناء نادراً او ربما كان استثناء وحيدا بين طغاة الشرق القديم والوسيط والحديث .. لقد اقتنع طاغية أوروك في النهاية ـ كما يقول معظم الباحثين والمفسرين وليس لي فضل في ذلك ! اقتنع بأن الخلود الذي لهث وراءه مستحيل على البشر الفانين ـ وتأكد له خلال سفره الشاق الطويل أن الخلود الأبدي الذي كوفيء به جده أوتنابشتيم هو خلود ممل بلا حياة ، كما أن الخلود الذي قدمته له "سيدوري" مع كأس الخمر وبهجة لحظتها العابرة هو كذلك حياة بلا خلود ولا أبدية .. ولذلك انتهى على أرجح الآراء إلى أن الخلود الوحيد المتاح للبشر الفانين أثناء وجودهم على الأرض الفانية هو البناء الحضاري والعمل الذي ينفع الناس ويمكث في الأرض إن كان سيمكث فيها شيء .. ولعله قد عرف بعقله أو شعر بحدسه وإلهامه أن الذكر للانسان عمر ثان كما قال شوقي في رثائه لمصطفى كامل ، ولذلك يمد يده في هذه النهاية المحتملة إلى أيدي مستقبليه من أفراد الشعب الذي انتظر عودته طويلاً ومعهم أمه وكهنته وحراسه .. وبعد أن يقوم بطقوس التطهير الواجبة ، ويستدعي روح صديقه إنكيدو التي تؤكد له ألا مفر من حظ البشر البائس وتصف له الأهوال التي تلقاها أرواح الموتى الذين يعيشون على التراب والطين في العالم السفلي المظلم ـ كما تؤكد له أيضا أن الخلود الوحيد المتاح للبشر على هذه الارض هو العمل

الباقى ـ بعد هذا كله يتجه جلجاميش نحو بوابة المدينة ويده فى يد أمه ، ومن ورائه الشعب الذى يبارك العارف المتطهر .. ويسأله الراوية ابن العصر الحاضر أن يتوقف ولا يتركه فى ليل الحيرة ، فهل رجع رجوع اليائس يحفر بيديه قبره ، أم عاد ليتطهر من كل خطايـاه ويبنى أوروك العـادلـة الحرة ؟! .

ويرد عليه جلجاميش وكأنه يجيب على تساؤل الحاضرين والمعاصرين عن العبرة من الأمثولة التى عرضت عليهم ومثل هو فيها الدور الأكبر : أنا جلجاميش عدت ومن أعمق أعماق الماضى ، مثلت الدور أمامك مع أصحابى فكن الشاهد وكن القاضى ، أنا جلجاميش من بابل ، لكن رغم ركام السنوات ومر المحن عليكم والنكبات ، فمازلت أعيش وأتنفس فيكم ، نارى تتأجج تحت ثراكم ، يمكن أن تحرق حاضركم ، مستقبلكم ، والأمر يعود إليكم أنتم ..

ويسأل الراوية مدهوشاً : يعود إلينا نحن ؟ ـ فيتردد صوت جلجاميش الضخم أثناء دخوله من البوابة : يعود إليكم أنتم ، أن أحكمكم بدوى الطبل وأجعل منكم جيش السخرة والذل ، أو أزرع معكم زهرة أمل ، ونقيم سوياً بيت الحرية والعدل .





● زوايا النظر الى السيرة الذاتية

تتعدد زوايا النظر الى السيرة الذاتية ، ومن المؤكد ان بعض هذه الزوايا لها مشروعيتها القائمة على اسس موضوعية لا يمكن تجاهلها او التقليل من شأنها ، فالسيرة الذاتية تعتبر من وجهة نظر معينة قالبا ادبيا له مقتضياته ، يقف جنبا الى جنب مع الـروايـة ، والقصـة القصيـرة ، والقصيدة . وتعتبر من وجهة نظر اخرى وثيقة تاريخية اجتمـاعية ، تتشابك الأحداث الوارد ذكرها فيها مع احداث وتغيرات اجتماعية بعينها فتلقى عليها مزيدا من الأضواء وتكتسب منها معانى ودلالات اضافية . وتبدو من وجهة نظر ثالثة وثيقة نفسية تتيح لكاتبها قدرا من الاستكشاف المتروى لمعالم صورته الذاتية وما وراء هذه الصورة من عوامل اسهمت فى دعم هذه المعالم وتنقيتها من علامات كانت قائمة ثم لم تلبث ان تلاشت .

ولكن مهما تكن وجهة النظر التى تهم القارىء او الكاتب فمما لاشك فيه ان هناك امورا تشبه ان تكون مقامات مشتركة وراء وجهات النظر هذه . من شأنها ، اذا روعيت ، تعظيم الدور الذى تقوم به هذه السيرة . ولعل اكثر المقامات جذرية فى هذا الصدد هو ما يحقق متطلبات التعريف الذى اشرنا اليه من قبل ، من ان السيرة الذاتية حديث يتراوح بين الاعتراف والشهادة ، فى افضل صورة ممكنة .

● البناء والوظيفة

أن الميزة الرئيسية للتعريف الذى ارتضيناه أنه يقدم لنا اطارا على درجة عاليه من المرونة بحيث يسمح بتقبل اشكال مختلفة من السيرة الذاتية ، اشكال تختلف فيما بينها من حيث

في مقال سابق عن المقومات الاساسية للسيرة الذاتية قلنا ان افضل التعريفات المطروحة للسيرة الذاتية هو انها حديث يتراوح بين الاعتراف (اى الاقرار بامور على النفس) والشهادة (وهى الاقرار بامور على الغير والعصر) وقلنا كذلك ان المكونات التى تقوم عليها السيرة الذاتية متعددة ولكن اهمها اربعة ، هى الذكريات التعريفية ، والذكريات التاويلية ، والذكريات المتوهجة ، والانوار الكاشفة . واصبح السؤال الملح بعد ذلك هو ما ياتى : هل هناك صيغة مثلى لاقامة هذا المعمار ؟ وما الذى يملى هذه الصيغة ؟

التوجه الرئيسى الذى يحكم حركة الكاتب نحو مزيد من التركيز على ذاته فتصبح السيرة اقرب الى الاعتراف ، او نحو مزيد من التركيز على من حوله وما يحيط بهم فيصبح الحديث اقرب الى الشهادة . ومع ان التعريف الذى فضلناه يتسع ليقبل بداخله هذه التنوعات مهما بعدت المسافات بين بعضها البعض فان هذا لا يمنع من النظر فى هذه الاشكال وتحليلها من وجهة النظر الوظيفية ، وهو تحليل لابد ان ينتهى بنا الى الاجابة عن اسئلة تدور حول محورين .

احدهما محور الوظائف التى تؤديها مكونات السيرة نحو بعضها البعض ونحو البناء الذى يضمها جميعا ، اى محور الوظائف الداخلية .

والثانى هو محور الوظيفة او الوظائف الخارجية ، وهو المحور الذى يتعلق بما تقدمه السيرة للآخرين من القراء والمتلقين بوجه عام . ولن يتسع هذا المقال للحديث عن الوظائف الخارجية ، ومن ثم فسنرجىء الحديث عن هذه الوظائف الى مقال اخر . اما محور الوظائف الداخلية فلابد من تناوله فى المقال الراهن لأنه لا سبيل الى الحديث عن معمار السيرة الذاتية بدون الرجوع اليه .

تتضح قيمة محور الوظائف الداخلية اذا وضعنا نصب اعيننا منذ البداية ان كاتب السيرة يقصد منذ الخطوة الأولى الى استشفاف بناء او نمط او قالب يقوم وراء احداث حياته ، ثم يحاول ان يقدم لنا الاحداث وقد صبها فى هذا القالب . هذه حقيقة لابد من التسليم بها كنقطة بداية للتفكير فى هذا الموضوع . ولابد من التسليم بان هذه المحاولة انما يقوم بها كاتب السيرة بغض النظر عن مدى تنبهه لها واصراره عليها واتقانه اياها .. والدليل على ذلك أنه يختار ان يروى بعض احداث حياته دون البعض الآخر ،

تعاونه فى ذلك ذاكرة هى نفسها أداة انتخاب تسجل بعض ما يمر بصاحبها من وقائع وتسقط فى هوة النسيان بعضها الآخر ، كما ان كيفية التسجيل الذى تقوم به لا يكون محايدا تماما . وأذن فهناك اختيار اراد الكاتب ام لم يرد ، والاختيار معناه القصد ، فى نهاية المطاف ، الى تقديم صورة بعينها مهما يكن حكمنا على هذه الصورة او هذا الشكل او القالب . هذه هى نقطة البداية التى تملى بعد ذلك نوع التحليل الوظيفى الذى يلزمنا ان نقوم به . وهو بالتالى تحليل يقوم على الاجابة عن سؤال مؤداه : هل قامت الأجزاء بالتساند فيما بينها لتوضيح معالم القالب وتزويده بدرجة معقولة من التوازن والاتساق ؟ وكيف قامت بهذا التساند ؟ وهل كان ذلك على حساب الصدق ام على حساب الحشو ولغو الحديث ؟ فاذا قام التساند على حساب الحشو المبتذل فذلك امر مطلوب ، اما اذا تم على حساب الصدق فذلك امر مرفوض .. ولا يجوز ان نخشى فى هذا المقام من وقوع تعارض بين مطلب الصدق ومطلب التساند بين جزئيات السيرة كما نقدمها ، فالصدق لا يعنى بالضرورة رواية جميع الاحداث الجزئية ، انما الصدق يعنى ان يكون ما نختاره من بينها ممثلا فعلا للتوجه العام للاحداث ، ثم بعد ذلك يستوى ان اقدم من هذه الاحداث خمسة او خمسين او خمسمائة . هذا منطق واضح وبسيط وينبغى أن يكون مقنعا ، وهو هو المنطق نفسه الذى نتحدث عنه فى الدراسات العلمية تحت عنوان «صدق تمثيل العينات» لمجال بعينه من الظواهر التى ندرسها ، فليس المهم فى العينة بمعناها العلمى ان تكون كبيرة الحجم او متوسطة او صغيرة ، ولكن المهم ان تكون صادقة فى تمثيلها جمهور المشاهدات الممكنة فى هذا الميدان او ذاك . كذلك الحال فى اختيار ما نختار فى كتابة السيرة الذاتية ، ليس مهما ان نسرد اكبر عدد من أحداث الحياة ، لكن المهم (اذا كان الاختيار امرا لابد منه ، وهو كذلك فعلا) ان نحسن اختيار ما يمثل التوجه العام لهذه الاحداث ، وأن يأتى ما نختاره متساندا لامتضاربا ومتنافرا .

هل يكون فى ذلك اى افتئات على حقائق الحياة ؟ ينفر البعض من هذا الحديث خشية ان يؤدى بالكاتب الى فرض نظام او تنظيم على احداث حياته ليس فيها اصلا . وتلك خشية فى غير موضعها ، لان الكاتب الذى يبذل الجهد الواجب فى هذا المقام لن يفرض نظاما بعينه على احداث الحياة . بل سيوجه جهده الى اكتشاف النظام القائم اصلا بينها ، وهو جهد مماثل لما يقوم به العالم فى دراسته مجالا بعينه من مجالات الظواهر الحية او الظواهر السلوكية ، وهو جهد مماثل ايضا لما يقوم به الاديب او المصور او المشتغل باى فن من الفنون ، إنه يسعى الى اكتشاف النظام القائم بين التجليات

التى يركز النظر فيها ، ولا يمكن القول بانه يسعى الى فرض نظام بعينه على تلك التجليات . والا كان فنه او ادبه زائفا لا قيمة له . ولست ارى فرقا بين كتابة السيرة الذاتية وتصوير المصور للبورترية الشخصى ، إن المصور لا يقدم ما يمكن للكاميرا ان تقدمه ، بل يقدم ما يخفى على الكاميرا ، ومع ذلك فهذه هى صورته ، وقد زاد عليها وضوح القسمات والافصاح عن الدلالات . وكذلك كاتب السيرة الذاتية ، ليس مطلوبا منه ان يقدم ما تقدمه السجلات ، لكن المطلوب والمفروض أن يقدم ما تعجز عنه السجلات ، وما يشف فى الوقت ذاته عن السمات والتوجهات .

● الدلالة الاجتماعية للأحداث الشخصية

من الأمور التى يلزمنا ان نتذاكرها دائما فيما بيننا ان الأوزان التى نعطيها لاحداث حياتنا الشخصية كما نعيشها تختلف فى معظم الاحيان عن اوزانها فى نظر الآخرين ممن يحيطون بنا ، وان هذا الاختلاف لا يتجه بالضرورة وجهة واحدة ، نحو خفض هذه الأوزان او نحو زيادتها ، لكن الأمر يتجه احيانا الى الخفض واحيانا اخرى الى الزيادة فللمجتمع معاييره واعتباراته التى تختلف فى هذا الشأن عما يحرك مشاعرنا الشخصية بعنف او برفق . كذلك يلزمنا ان نتذاكر فيما بيننا ان المجتمع فى جبهاته او دوائره الثقافية عندما يطلب الينا ان نقدم له سيرتنا الذاتية فهو لا يطلبها لاهتمام بجزئياتها من حيث هى جزئيات على هذا النحو دون ذاك ، ولكن لما تدل عليه هذه الجزئية او تلك من دلالة او معنى او فاعلية خاصة فى توجيه الاحداث . فلا يهم المجتمع اننى التحقت فى صباى بمدرسة الظاهر الابتدائية او بمدرسة محمد على او مدرسة القربية ، ولكن قد يهمه اننى التحقت فى تنشئتى المبكرة بالمدارس المصرية مما كان له اثر فى تكوينى الفكرى ربما اختلف لو اننى كنت قد التحقت بمدارس اجنبية . هذا امر يلزمنا دائما ان نتذاكرة فيما بيننا عند كتابة السيرة الذاتية ، سواء كنا نكتبها تلبية لدعوة ، او تطوعا منا . وبالتالى

فان ما اسميناه فى مقالنا السابق بالذكريات العارية ، وهى الوقائع الخام التى تتألف منها احداث الحياة (كما نذكرها) انما تكتسب قيمتها بما يرتبط بها من دلالات وما تشف عنه من توجهات ، وهو ما يسلمنا مباشرة الى المستوى الثانى من مكونات السيرة . وهى الذكريات التأويلية ، ويقصد بها «الذكريات التى يقدمها كاتب السيرة محملة فعلا بالمعانى والدلالات لتستقيم بشكل ما مع الاتجاه العام للسيرة . وتتراوح هذه الذكريات التأويلية فى مجموع الاشكال التى ترد بها بين وقائع ينسج الكاتب حولها معانى تجعل منها رموزا او مؤشرات تشير الى امور تتحقق فى فترات من العمر مصاحبة او لا حقة ، وتأويلات

خالصة ليست معلقة على وقائع بعينها».

خلاصة القول اذن أن الوزن النسبى للذكريات العارية يجب ان يكون اقل من الوزن الذى نعطيه للذكريات التأويلية ، ولا يعنى ذلك بالضرورة ان يكون الفرق بين النوعين فرقا فى الكم ، ،ولكن يعنى انه يجب ان يكون اولا وقبل كل شىء فرقا فى الدور الذى يقوم به كل من النوعين فى تصميم المعمار الذى نشيده بسيرتنا الذاتية ؟ فالدور الاكبر لابد وان يكون للذكريات التأويلية ، اما الذكريات العارية فتأتى فى المقام الثاني ، وتكتسب معظم وزنها مما تقدم من دعم او توضيح واثراء لما تنطق به الذكريات التأويلية من دلالات . وقد يتراءى للبعض ان هذا من شأنه ان يقضى على خصوصية السيرة الذاتية كقالب ادبى ، فتصبح اقرب الى المقال الذى لا يقدم للقارىء احداث الحياة بقدر ما يقدم له استخلاصات مجردة ، وهذا توقع لا مبرر له ، لأن المشكلة التى نحن بصددها ليست فى ان نقدم الذكريات العارية او لا نقدمها .

انما المشكلة فى الكيفية التى نقدم بها هذه الذكريات ، وفيما ننتخبه من بينها وما لا ننتخبه ، وفى الدور الذى نسنده اليها داخل شبكة الادوار التى نسندها الى مختلف انواع المكونات الاساسية للسيرة الذاتية . نحن على بينه تماما من انه لا غنى للسيرة الذاتية عن الذكريات العارية ، ولكن الأمر المهم هو ان نكون على بينه ايضا من ان السيرة الذاتية ليست سجلا من سجلات الدفترخانه ، فاذا اردنا العثور على تشبيه يفيدنا فى امر هذه السيرة الذاتية فلنقل انها كيان ادبى يقع فى المسافة بين الرواية وسجلات التوثيق ، فهى اكثر عيانية من الرواية ، واقل احتفالا بالجزئيات من الوثيقة الرسمية .

فى هذا السياق تحتل الذكريات العارية المرتبة الدنيا فى الاهمية ، ويكون دورها الرئيسى مساندة الذكريات التأويلية التى تقوم بدور نقاط الربط والتجميع واكساب الدلالات . وفى هذا السياق نفسه تقوم الذكريات التى اسميناها فى مقالنا السابق بالذكريات المتوهجة بدور الربط والتجميع ايضا ، تماما كما تفعل سائر الذكريات التأويلية ، كل ما فى الأمر ان الذكريات المتوهجة تكون قدرتها على الربط والتجميع اقوى من كثير من الذكريات التأويلية ، بل انها تربط بين هذه الأخيرة بعضها البعض ، وبذلك تصبح وحدات تنظيمية عالية المستوى تتحكم فى مساحات واسعة من المعانى والدلالات المتشابكة .

● الدلالة الشخصية للاحداث الاجتماعية

ويبقى بعد ذلك المكون الرابع من بين المكونات الرئيسية للسيرة

الذاتية ، وهو ما سبق ان اسميناه الأنوار الكاشفة ويقصد به الاشارة الى مواضع الالتقاء فى ذكرياتنا التى نودعها السيرة الذاتية بين مضامين تتعلق باحداث شخصية اخرى تدور حول احداث اجتماعية قومية او دولية . مثال ذلك ان تتجمع امامى مجموعة الذكريات الشخصية التى كنت اعايشها لحظة ان سمعت من الاذاعة المصرية اول نبأ باندلاع حرب اكتوبر سنة ١٩٧٣ . او تلك التى اقترنت باللحظة التى قرأت فيها انباء هزيمة الولايات المتحدة الأمريكية فى فيتنام سنة ١٩٧٥ . وقد سبق لنا القول بأن تسجيل هذا الاقتران على شريط الذكريات يكون هو نفسه فى كثير من الاحيان مصدرا لتوليد طاقة ذات جهد عال فى تثبيت مجموعة من الذكريات الشخصية ، وتضخيم قدرتها على اجتذاب اعداد كبيرة من الذكريات المفردة (العارية او التأويلية) والحاقها بجسم النور الكاشف . وكأنها بذلك تزيد من قدرتها على مقاومة النسيان وعلى الافصاح عن ابعاد جديدة لما تحمل من معان او دلالات .

إن هذه النقطة شديدة الاهمية ، وترتكز اهميتها على عدة اعتبارات لا اعتبار واحد ، فهى من ناحية جزء مما يمكن ان نسميه البعد النفسى لاحداث المجتمع والتاريخ . وبقدر ما تلقى من عناية لدى كتاب السيرة الذاتية تتيح الفرصة لتعاظم هذا الجزء بحيث نأمل فى نهاية الأمر فى ان نلقى مزيدا من الضوء على جانب معتم من التاريخ كما نعرفه فى معظم كتابات المؤرخين . وهى من ناحية اخرى وسيلتنا الرئيسية التى نقترب بوساطتها من جعل سيرتنا الذاتية تقترب من قطب الشهادة (من حيث هى اقرار على الغير وعلى العصر) ليتوازن بصورة معقولة مع الاتجاه بها الى قطب «الاعتراف» (من حيث هو اقرار على ما يخص الذات) . وهى ناحية ثالثة يمكن ان تقوم كاساس هام لتجميع الذكريات وتصنيفها واكسابها دلالات ذات افاق اوسع من اشخاصنا . هذه الفئة من الذكريات ، فئة الأنوار الكاشفة «حيث الاقتران بين العام والخاص فئة بالغة الاهمية ، لا لشيء الا لانها واسطة العقد بين سيرتنا وسيرة مجتمعنا ، هى ملتقى طرق بين حركة الكون الصغير الذى هو نحن . والفلك الذى يسبح فيه الكون الكبير (الذى هو مجتمعنا او عالمنا) ، فاذا اضفنا الى ذلك انها بؤرة شديدة الفاعلية فى تجميع عدد كبير من الذكريات على اختلاف انواعها (العارية والتأويلية والمتوهجة) ادركنا الى اى مدى يلزمنا العناية بها لانها يمكن ان تقوم بدور الركائز التى تغرس البنيان فى اعماق الأرض التى نشأنا فى رحابها ، كما انها تقوم بدور الاطار العام الذى يضم السيرة برمتها او يضم قطاعات كبيرة منها فيرقى بها الى مستويات من الدلالة لم تكن لتتسنى لها لو لم تنتظم داخل هذا الاطار .

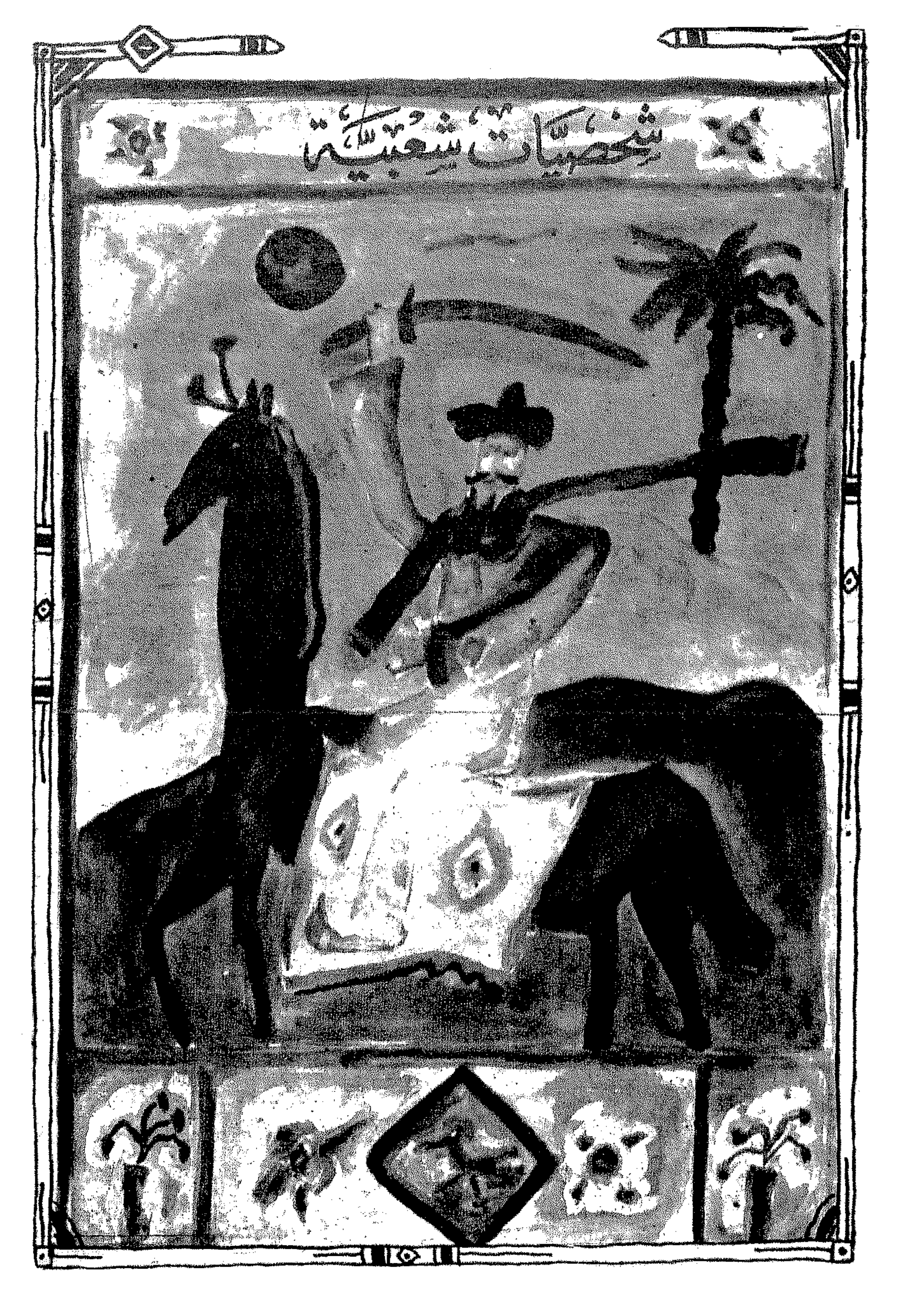
الفارس التائه

قيس بن زهير العبسي

بقلم: فاروق خورشيد



تكثر فى الحكايات الشعبية العربية والعالمية ، شخصية الرجل التائه .. او البطل الذى ينفصل عن واقعه المعاش ، وعن بيئته ومجتمعه ، ليظل غريبا تائها ، بعيدا فى الزمان ، وبعيدا عن المكان إلى حين محدد يعود بعدها او لايعود للالتصاق بواقعه ومجتمعه ، وربط نفسه من جديد بعجلة الزمن التى انفصل عنها حينا ، وقد توافق الحكايات الشعبية القصص التى ينقلها المؤرخون ، يثبتونها فى كتبهم باعتبارها حقائق تاريخية ثبت صدقها عندهم ، وهنا يلتقى الحس الشعبى المرهف فى استغلاله للشخصيات ، والرامز فى توظيفهم فى أحداثه الدرامية ، مع الشخصيات التى قبلها المؤرخون ، واثبتوا عنها هذه الغربة ، إما استسلاما لقوة الحكاية الشعبية وثباتها فى قلوب الناس والرواة ، واما استغلالا لها لاثبات معنى ، أو تحديد موقف من هذه الشخصية التاريخية والشعبية معا ، وهناك شخصيتان عربيتان متفقان فى وجودهما الشعبى والتاريخى على السواء ، واحدة من الجزيرة العربية قبل الاسلام هى شخصية قيس زهير العبسى او قيس الرأى ، والثانية من مصر الفاطمية هى شخصية الحاكم بامر الله الفاطمى ..


شخصيات شعبية

والحاكم بأمر الله الفاطمي شخصية عجيبة اختلف حولها المؤرخون ، سواء في رسم حياته وفكره ، أم في ذكر أمر موته أو اختفائه .. ولعله دخل دنيا الحكايات الشعبية بعد وفاته لما حفلت به حياته من أعاجيب تندر بها المصريون وذكرها المؤرخون . ولعل اختلاف المؤرخين في أمر وفاته ، فتح بابا لهذه الحكايات الشعبية لتزدهر وتزداد خصبا وتشابكا وغرابة .

أما بطلنا الجاهلي فهو قيس بن زهير ، أو قيس الرأى شيخ قبيلة عبس ورأسها المفكر .. وقد دخل قيس دنيا الأدب الشعبي العربي من أوسع الأبواب . حين استلفتت شخصيته اهتمام كتاب أشهر السير الشعبية العربية على الاطلاق - أعنى سيرة عنترة بن شداد ، ليدمجوا اسطورته المتداولة عند مؤرخي أيام العرب ، داخل أحداث السيرة الشعبية نفسها .. وهذا أمر يتكرر كثيرا عند كتاب السير الشعبية ، إذ يتابعون المحفوظ من الشخصيات التاريخية التي تدور حولها أحداث غريبة تقترب من الاضافات الشعبية والخيالية الى حد كبير فيلتقطونها ، ويبحثون عن مبرر روائي ، أو يخلقون هذا المبرر خلقا لتوظيف هذه الشخصية التاريخية ومايدور حولها من أحداث خيالية ، داخل أعمالهم الشعبية ، وداخل الأحداث الروائية لأبطال السيرة .. وقد فعلت سيرة عنترة هذا حيال العديد من الشخصيات المعروفة في التاريخ العربي قبل الاسلام .. وادخلت هذه الشخصيات ضمن نسيجها الروائي . فعروة بن الورد ، أو عروة الصعاليك كما كان رجال الأدب وكتاب الأيام يسمونه ، يصبح بكل ماحكته عنه الروايات القديمة جزءا متلاحما مع البطل عنترة . وكذلك الأمر بالنسبة للأبطال الصعاليك كالشنفرى وتأبط شرا ، ولمشاهير الفرسان كدريد بن الصمه والربيع بن زياد ، وزيد الخيل ، ولمشاهير عرفوا بحكايات متداولة لسلوك معين كحاتم الطائي ، أو زهير بن ابي سلمى ، أو النعمان بن المنذر ويوم بؤسه ويوم نعمه .. بل لقد وظفت السيرة الشعبية شعراء المعلقات جميعا في أحداث السيرة بمهارة روائية فائقة ، مستغلة كل مايمكن استغلاله مما عرف عن هذه الشخصيات لادماجه في النسيج الروائي لها ، وتوظيفه في الأحداث الدرامية لبطلها . ولم يكن كتاب سيرة عنترة في حاجة إلى البحث عن مبرر لادماج شخصية قيس بن زهير في أحداث السيرة .. إذ انه لعب دوراً هاماً في حياة عبس وذبيان ، وتكرر ذكر اسمه في أحداث الأيام الحربية التي تناولت حروب عبس ، وأيامها المتعددة .

● أيام العرب

والعرب قد حفظوا هذه الأيام ثم دونوها وغدت هي التاريخ الوحيد الذى نعرفه

عن تاريخ شمال الجزيرة قبل الاسلام . ويقول الدكتور حسين نصار فى كتابه (نشأة التدوين التاريخى عند العرب) ص ٥ : إذا أجهدنا أنفسنا باحثين عن أى نوع من الكتابة التاريخية فى العصر الجاهلى ، لم نكد نظفر بشىء ، حتى البلدان المتحضرة التى كنا نظن أنها تحرص على تسجيل حياتها ورقيها ، مثل اليمن والحيرة وغسان ، لم يصل إلينا منها كتب تاريخية أيضا ، وكان تاريخها نسيا منسيا لدى العرب ، سكانها أو غير سكانها ، ولذلك دخلت عليهم الأباطيل والخرافات عندما ارادوا الكتابة عنها بعد ظهور الاسلام ، وحلق بهم الخيال فى الأجواء ، حتى مانستطيع أن نركن إلى حقيقة مايقولون .. وإذا كان هذا هو الحال فى تواريخ المناطق التى اسماها الدكتور نصار بالبلدان المتحضرة فما بالك بأحاديث البادية ، واعلام المناطق البعيدة عن بؤر الحضارة التى عددها تلك ؟ ثم يقول الدكتور حسين نصار فى ص ٦ من كتابه هذا : ولكن العرب على الرغم من ذلك عرفت نوعا من التاريخ الشفهى ، فقد كانت القبائل تروى أيامها : حروبها وانتصاراتها ، لتفخر بها على القبائل الاخرى ، سواء كان ذلك شعرا خالصا أو نثرا تتخلله الأشعار .

من هنا دخل أبطال هذه الايام إلى سيرة عنترة بن شداد ، ومن هنا أيضا دخلها قيس بن زهير ، وقيس يلعب دوراً ثانويا فى أحداث سيرة عنترة الأولى ، إذ يتصدر القبيلة فى هذه الأحداث ابوه زهير العبسى ، ولكن قيسا يقفز الى الصدارة فى الأحداث بعد موت ابيه زهير .. إذ تتحدد أمامه مهمة خطيرة جدا ، هى الحفاظ على تماسك القبيلة ووحدتها فى مواجهة أعدائها .. ويظهر قدرة وحكمة وعدالة كأن كاتب السيرة يحاول أن يحقق صحة الأسم الذى اطلقته حكايات الأيام عليه وهو قيس الرأى .. وهو يشابه فى شهرة الحكمة والرأى السديد هذه زهير بن ابى سلمى شاعر المعلقات الذى سعى بالسلام وحقن الدماء بين المتحاربين من عبس وأعدائها .. وكذلك دريد بن الصمه حكيم العرب الذى استطاع أن يجمع العرب وقبائلهم المتفرقة لمواجهة الفرس فى واقعة ذى قار المشهورة ، التى سجلت أول انتصار للعرب على الفرس قبل الاسلام .. وقيس ينحاز إلى عنترة فى الخلافات التى تنشب بينه وبين كارهيه واعدائه من عبس .. ومن الواضح انه كان يرى فى عنترة أمل القبيلة فى التوحيد تحت لواء فارس مهاب يخاف سيفه الجميع ، ويتمتع بشهرة تسبقه الى ميدان القتال فتوقع الهيبة والخوف فى قلوب أعداء عبس ، كما كان يرى فيه أمل عبس فى التفوق على الأعداء من ناحية ، وفى خلود الذكر ونصاعة الصيت إذ كان عنترة شاعرا يعترف الجميع بشاعريته ، ويتفوق على اقرانه الشداد من ابناء القبائل الأخرى ، شاقا

طريقه بسرعة واصرار نحو الهدف الذى يسعى اليه كل شعراء الجاهلية ـ ان تكون قصيدة له واحدة من المعلقات التى تكتب بماء الذهب وتعلق على استار الكعبة ، وفى هذا شرف للقبيلة كلها وبقاء لاسمها وفخار لأبنائها .. وقد كان حكم قيس القاطع هو الذى الزم مالك بن قراد ابا عبلة وعم عنترة بالوفاء بوعده لعنترة بالزواج منها ان هو احضر النوق العصافير من مراعى النعمان بن المنذر فى الحيرة ، إذ كان فى انتصار عنترة على جنود وفرسان النعمان الذين يحرسون مراعيه ، انتصار للبادية على الحضر المسالم للفرس والخاضع لنفوذهم ، والحامى لمصالحهم واطماعهم فى الجزيرة نفسها .. وانتصاف قيس الرأى ، او قيس بن زهير لعنترة فى قضيته هذه ليس انتصارا للعدالة وحسب ، وليس ارغاما لمن بذل الوعد أن يفى بوعده فقط ، ولكنه انتصار للرؤية المستقبلية التى كانت ترى فى هذه المناوشة التى قام بها عنترة ، وانتصر فيها ، ارهاصا بانتصار عربى وشيك على الفرس واعوانهم من أهل الحيرة وفرسانها . فأحداث السيرة تجسد موقف قيس بن زهير الرافض للتبعية العربية فى الحيرة للفرس ، وفى الشام للروم . وتدخل السيرة قيس مع عنترة قائد الفرسان العرب الموحدين فى معارك مع الغساسنة مرة ومع المناذرة أخرى .. وتظهره الأصوات وكأنه العقل المدبر والرأس الحكيم الذى يوجه البطل فى معاركه ، ويحيلها من مجرد مغامرات فروسية يثبت بها البطل جدارته بالتفوق ، إلى صفحات دامية ومجيدة فى كتاب ضخم ينسج هو صفحاته ليكتب بها وحدة العرب ، وتكتلهم نحو هدف واحد ، هو خلاصهم من دول التخوم التابعة هذه ، ربما لخلاصهم من سطوة الروم والفرس التى تكبلهم ، وتوقعهم فى دائرة نفوذ هذه الدولة مرة ، وتلك الدولة مرة أخرى .

لقد حققت البعثة المحمدية هذا الحلم الذى يراود قيس بن زهير فى السيرة ، وكأن حلمه هذا ارهاص بما تحققه البعثة المحمدية من توحد للجزيرة ، ومن قضاء على دول التخوم التابعة ، ثم من القضاء على دولتى الفرس والروم جميعا .

لكن السيرة الشعبية تجهض هذا الحلم إذ يموت بطله عنترة ، ويموت بموته ماتحقق من وحدة اجتمعت على زعامته خوفا من سيفه وبطولته ، ويحاول قيس بن زهير عبثا أن يجمع ماتشتت ، وأن يعيد الروح إلى المعنى والأمل .. ولكن لم يفلح . فالتفاف القبيلة كان حول عنترة الذى يحميها من ناحية ويرهب اعداءها من ناحية ، ويرغمهم بقوة السيف على الانضمام الى القبيلة فى معارك موحدة تخوضها جموع العرب على اختلاف قبائلهم ضد الأعداء الدائمين للجزيرة وأهلها ، وموت عنترة يسمح للقبائل التى خضعت لزعامته أن تثور على هذه الزعامة وتتمرد عليها ، وتنصرف إلى شئون مجدها الخاص ، وتراثها الذاتى .. وموت

عنترة أيضاً يسمح للفرقة أن تدب من جديد بين بطون عبس نفسها فتتفرق القبيلة وينفرط عقدها ، ويقع قيس بن زهير بين شقى الرحا .. ويعرف المعنى الحقيقى اليأس والمرارة .. فيهرب قيس بن زهير ، ويترك عبسا كلها .. ويهيم على وجهه وحيدا تائها مغتربا فى الجزيرة العربية .

● الاحساس بالغربة

وهذا الحكم الدرامى القاسى الذى يحيل بطل الحكمة والعقل ـ قيس الرأى ـ إلى روح هائمة مغتربة فى الجزيرة ، تعنى أن الامل عنده قد مات .. وأن تفكك العرب بموت عنترة ، حاصره ، وجعله يحس بالغربة الكاملة بين هذه الاجساد المفككة التى فقدت الروح والهدف .. فغربته إذن ترمز فى السيرة الشعبية ، وربما عند مؤرخى الأيام ـ إلى مرحلة الشتات والتمزق التى عاشتها الجزيرة العربية كلها قبل البعثة المحمدية ـ ان غربة قيس بن زهير هنا تحكى الضياع الذى كان يحسه العربى الواعى الذى كان يعيش الغربة داخل الأرض العربية ويحسها ، وقد تمزق كل شىء ، وتحطم كل مثل .. فيكون كل هذا ارهاصا فكريا واجتماعيا وسياسيا بالبعثة المحمدية التى اتت الى ارض تنتظرها بشوق لتعيد للقلب امله ، وللعمل الفاعل الواعى معناه وحدته ومضاءه من جديد .

ولكن قيس بن زهير هو الذى دفع الثمن بضياعه الدرامى ، وغربته التراجيدية الفاجعة التى لم يعرف أحد ابدا .. أين انتهت ، ان كانت قد انتهت حقا .. ولكنها بتكوينها وبدايتها واستمرارها تعلن أن الادب الشعبى العربى لم يقصر ابدا فى القيام بدوره العميق والواعى فى التعبير الفنى الصادق عن هذه المرحلة الهامة من مراحل الحياة العربية .. مرحلة ماقبل ظهور البعثة المحمدية .. ويرسم بهذا الرمز الروائى تطلعها وشوقها الى رسالة توحدها ، والى بطل يأتى لها بالأمل ، ويجمع ماتفرق ، ويوحد ماتشتت ..

ويربط كتاب الأدب العربى ، وكتاب الأدب الشعبى العربى بين غربة قيس بن زهير وغربة مماثلة لبطل عربى قديم بل هو اقدم فى التاريخ من قيس بن زهير ، هو الحارث بن مضاض الجرهمى .. فيذكرون بيت الشاعر العربى :

غربة تقتض مغربه قيس بن

زهير والحارث بن مضاض

والحارث هذا .. او الجرهمى التائه حديث آخر فيه من التشويق والإثارة ، كما فيه من الابداع الشعبى الشىء الكثير .. من يدرى ربما عدنا اليه هو الأخر ، فهو يستحق وقفة متأنية إن لم يكن وقفات .



المُدن العربيّة الكبرى مشروع للمقارنة

بقلم : عبده جبير

●● لابد انك ستحس بالأسى العميق ، بعد ان تنتهى من قراءة هذا الكتاب ، خاصة إذا كنت من سكان احدى هذه المدن التى يعرض لتاريخها القديم ، فى العصر العثمانى "القرون الاربعة من ١٦ الى ١٩" لانك وانت تنظر حولك وتنظر ماجاء فى الكتاب ، ستجد المشكلة مجسمة امام عينيك . نعم ستحس بالاسى ، لان الروح الخاصة بهذه المدن ، فى ذلك العصر الذى لا يخلو من مثالب وعيوب ، كانت موجودة ، واضحة ، حية ، ونابضة ، والآن ، فإن هذه الروح قد تمزقت بين رحى عاملين لاشك هما واضحان للغاية .

الاول : هو ذلك الجانب ، او لنقل الهامش ، العشوائى الذى تغلغل فى اطراف واحشاء وقلوب هذه المدن من "المعمار" المشيد على عجل ، إن يكن عبر الهجرة المطردة من الريف الى المدينة نتيجة لسيادة روح الاستهلاك ، وتحول الانتاج من صيغة الصناعة والحرفة ، الى صيغة الخدمات التى تاكل الاخضر واليابس من اصيل العمل ، وقيمة العمل ، وهو مايبدو على هيئة ازمة عامة وشاملة ، لا فى المسكن فقط ، ولا فى التلوث فقط ، ولا فى المشكلات الاجتماعية العديدة "كالزواج والادمان" بل فى روح الانتماء التى يحس باختفائها كل ذى بصر ، وإن يكن - هذا البناء العشوائى - قد تزايد بفعل فوضى التخطيط ، او لنقل عدم التخطيط السائد لاسباب لايتسع المجال لذكرها هنا ، فهى احد اسرار الازمة .

الثانى : اعتبار النموذج الغربى المشوه ، الذى اقتصرنا فى الاخذ منه على جانب واحد هو البناء بالاسمنت المسلح ، دون جوانبه الايجابية الإخرى التى نراها ماثلة للعيان فى المدن الغربية المنسقة ، والمنظمة ،



المتحف الإسلامي .. استوحى عمارة القاهرة الإسلامية

النظيفة والهادئة ، والتى روعى فيها وبصرامة القوانين ، علاوة على جمالها ، كفاءتها وملاءمتها لحياة البشر .

فهذه الطريقة التى يتمسك بها "المقاولون" من تجار الازمة حتى يجدوا فى هذه الصيغة فى البناء ثروة سريعة وبارقام فلكية ، يغذيها التجار منهم بالاستيراد الذى لا ينقطع للمواد المشكلة لعناصر هذا البناء ، مما يزيد فى الازمة من جهة أخرى ، بتراكم الديون ، والاعتماد على الغير ، هذا علاوة على التشوه الحضارى الذى نعيشه كاقدح مايكون .

إنك إن اطلعت على هذا الكتاب الوافى فى موضوعه وجدت اعتقادا يتبناه مؤلفه "الباحث الفرنسى المرموق اندريه ريمون" يقول بان قيام هذه المدن العربية الكبيرة "القاهرة ، ودمشق ، وحلب ، وبغداد ، وغيرها" فى اساسه اعتمد على ماأسماه الباحث "قوة بنيانها الداخلى" وهو مايفسر قوة تأديتها لوظائفها واستمرارها ، مما يجعل لها منهجا حضريا ، وشخصية خاصة مميزة .

يقول - على سبيل المثال - إن القاهرة وحلب كانتا مدينتين عظيمتين للغاية خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر ، وقد جازت هاتان المدينتان على اعجاب الرحالة القادمين من الغرب والذين افتتنوا بجمالهما وعظمتهما وانشطتهما ، وكانوا يقارنون بينهما وبين المدن الكبرى فى ذلك العصر مثل باريس او لندن .

فقد كتب كوبان فى عام ١٦٤٠م بعد مشاهدته لمدينة القاهرة من اعلى القلعة :

"تعتبر القاهرة من اجمل الاشياء



التى يمكن مشاهدتها . إن المنظر العام ليس تماما مثل روعة عاصمة بلادنا الفرنسية ، ولكن يمكن القول انه يوجد شىء اكثر مرحا ويدعو الى الانشراح اكثر" .

كما ان فولني الصارم كتب عن مدينة حلب فى عام ١٧٨٥م قائلا : إنها احدى اجمل مدن سوريا ، بل قد تكون انظف مدينة فى الامبراطورية كلها وافضلها تشييدا ، اننا حين نصل اليها من اى اتجاه نجد حشدا من المآذن والقباب البيضاء التى تمتع العين المرهقة من السهل الداكن والممل .

لهذا فإن قارىء هذا الكتاب ستخطر له على الفور فكرة ، نسوقها كمشروع لبحث مقارن ، يتمه بعد هذا الكتاب ، عملان ، يكونان على مستواه .

الاول يتعرض لهذه المدن فى وضعها الراهن من جميع الجوانب العمرانية والسكنية والمعيشية علاوة على الكفاءة والنظام ، الجمال والصحة .

والثاني يقوم بعمل مقاربة تستخرج الفروق الاصلية ، حتى نعرف الى اى مدى نحن قد افترقنا عن هويتنا ، وهو الامر الاكثر الحاحا فى هذا الزمان ، كما اعتقد انه سيكون مفيدا فى النظر الى المستقبل .

انني لا انكر وجود محاولات آخرى تعرضت لهذين الجانبين ، ومنها مجهودات سابقة لريمون نفسه ، مثلا الحرفيون ، والتجار بالقاهرة ، فى القرن ١٨ ، (الاحياء الارستقراطية فى القاهرة ، اسواق القاهرة ، وغيرها) . إلا ان الفكرة هنا تتدرج في سياق دراسة متكاملة تنحو للمقارنة حتى نستخلص الجانب الاكثر مدعاة للوصول الى مغزى مفيد .

★ ★ ★

إنني لااستطيع بالطبع ان اعرض لكل ملجاء فى هذا الكتاب الفريد ، ولكنني أؤكد على انه كان محصلة جهود بدات عام ١٩٥٥ للباحث الفرنسي الذى جاء فى ذلك العام ليعمل بالبحث فى المعهد الفرنسى للآثار الشرقية بالقاهرة ، حيث تلقن المعرفة بالقاهرة العثمانية من خلال اطلاعه على اعمال المؤرخين المصريين الكبار فى اصولها "الجبرتى وعلى مبارك وغيرهما" ، ثم ينتقل للعمل فى المعهد الفرنسي للدراسات العربية بدمشق لمدة تقرب من عشر سنوات مما اتاح له الفرصة الوافرة لدراسة تاريخ دمشق وحلب "واعتماده على كتاب حوادث دمشق اليومية لأحمد البديرى واضح للغاية" ، كما تمكن من خلال بعثات عمل الى الجزائر ، وتونس ، وقسنطينة ، وفلس ، ومراكش ، وتطوان ، وطرابلس الغرب ، والموصل ، وبغداد ، من تحقيق الاتصال المباشر ، وهو مايصفه بقوله : الامر الذى لايمكن بدونه تحقيق اى انجاز حقيقى فى مجال ابحاث التاريخ الحضرى ، وذلك طالما بقيت هذه المدن الكبيرة متحفا رائعا "وحيا" للأشكال وللمنشآت المعمارية بالرغم من الغارات التى تشنها الحداثة على المناطق القديمة بالمدن .



« العوانس » فى القومى وتقفة مع الفنان الصديق

بقلم : مهدى الحسينى

انعام سالوسة وسناء يونس فى العوانس

شهريات

يشغل المخرج سمير العصفورى مكانا خاصا فى التاريخ الحديث للمسرح المصرى ، فبعد هوايات الصبا الباكر ونشاطات الشباب بين بورسعيد وجامعة عين شمس ، قرر احتراف الفن المسرحي بدراسته فى المعهد ، فعمل مخرجا بـ "المسرح العالمى" حيث بدأ باخراج "الدرس" للكاتب الطليعى "يوجين يونسكو" على مسرح الجمهورية سنة ١٩٦٤ ، وانتهى بتقديم "بيت العوانس" على المسرح القومى ١٩٩١ ، مسيرة خصيبة تربو على ربع قرن من زمان القلق والتحول الذى عاشته امتنا المصرية عامة ، وحياتنا الثقافية والفنية خاصة ، قدم فيها ٢٢ عملا مسرحيا لهيئة المسرح ، و ٩ للثقافة الجماهيرية منها ٥ لفرقة بنها ، و ١٢ للقطاع الخاص ، وواحدة للتليفزيون المصرى ، هذا عدا امسيات المناسبات وبعض المسرحيات التليفزيونية المعلبة .. والسهو والخطا .

برز من بين هذه الاعمال : "زيارة السيدة العجوز سنة ١٩٦٥ لـ "دورينمات" و"مأساة الحلاج" سنة ١٩٦٧ لـ "صلاح عبدالصبور" و"كلام فارغ" + "جدا" سنة ١٩٧٣ لـ "نبيل بدران" ، و"إيزيس" ١٩٧٥ لـ "توفيق الحكيم" ، و"ياعنتر" ١٩٧٦ لـ "يسرى الجندى" و"العيال كبرت" لـ "عبدالله فرغلى وسمير خفاجى" ، ثم "ابوزيد الهلالى سلامة" لـ "يسرى الجندى" ، و"فى زنزانة المجانين" سنة ١٩٨٠ اعدها عن قصة العنبر رقم ٦ لـ "تشيكوف" ، و"العسل عسل والبصل بصل" سنة ١٩٨٢ اعدها عن مقامات واشعار "بيرم التونسى" ، و"القاهرة ٨٠" التى اعدها مع سيد طليب سنة ١٩٨٩ عن قصة يوم ان قتل الزعيم لـ "نجيب محفوظ" والتى يقدمها الان على المسرح القومى مرة ثانية بعد ان توقفت العوانس فجأة لاسباب خارجة عن ارادتنا جميعا .

وعدا سنوات البعثة الثلاث الى فرنسا ، لم يتوقف العصفورى عن القلق .. اى عن العمل ، فهو فنان مبادر ومجدد يفاجئنا دوما بالاطروحات والقضايا والاشكال الفنية المستحدثة ، نختلف معه او نتفق ، الا ان حيويته الذهنية وخصوبية خياله تجذبنا الى اعماله ، حيث نشتبك معه فى عراك او خلاف او حوار .. او نشتبك معه فى اتفاق !!

وها نحن الان فى حالة اشتباك

معه ، نصارحه بما يحتمل بداخلنا من قلق عليه منه ، وقد وضعنا فى حرج ان نكون اشبه بالدبية التى ..... ، ولكن لا فرار من المكاشفة لانها الطريق الوحيد كى يكسب صدقنا كنقاد ، وكى نكسب تاريخه وجهده وابداعه كفنان .

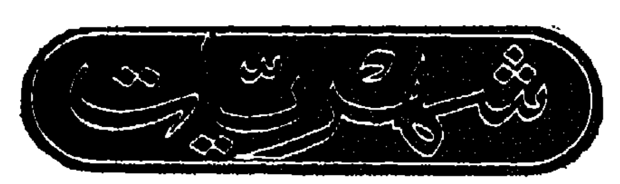
قام الكاتب وهو "احمد عفيفى" ومؤلف العرض وهو "العصفورى" باستيحاء اعمال فنية عديدة من اجل صياغة العوانس ، منها مسرحية "بيت برناردا البا" للشاعر الاسبانى "لوركا" وفيلم "طار فوق عش الوقواق" للمخرج التشيكى الاصل الامريكى الاقامة "ميلوش فورمان" الى قصة "تشيكوف" الفريدة "العنبر رقم ٦" ثم مسرحية "مارا صاد" للكاتب الالمانى "بيتر فايس" .. الى جانب مصادر عديدة اخرى منها ماهو سينمائى ومنها ماهو مسرحى ومنها ماهو ادبى ، غير ان الكاتبين لم يقوما بتمصيرها او الاعداد عنها مباشرة ، وانما استوحياها او تنسماها او استأنسا بها ، كى يقيما عرضا مسرحيا مصريا قحا خالصا .. او هكذا ارادا .

وليسمح لى اصحاب هذا العرض بخلاف اوّلى ، ليس على المصادر ، وانما على طريقة العمل ، فمادام المبدعان يعلنان انهما الا يقدمان سايكودراما وانما يقدمان دراما نفسواجتماعية ، اى انهما ينظران الى المجتمع من خلال نفوس شخصيات مختارة ودالّة منه ، فيقدمانها وهى فى



سمير العصفورى مخرج العوانس

حالة التهاب مرضى تفضح اسراره وتطرح حقائقه وفى ظنى ان طريقة العمل المناسبة لمثل هذا الطموح تبدأ كما يلى : (١) تحديد زاوية التناول (٢) تحديد القطاع - او القطاعات - الاجتماعى المقصود فحصه طبقيا ومهنيا وفكريا تمهيدا لطرحه (٣) تحديد النماذج الاجتماعية المراد تقديمها نفسيا وتحليلها كيما يكون مجموعها صوره جشتلتيه متكاملة فنستطيع ان نرى من خلالها كل المجتمع . هذا المنهج يتطلب القيام بعمل ريبورتاج درامى على الواقع "اوتشرك" ، بعد ذلك يتم عرض نص هذا الريبورتاج الدرامى على نوعين مختارين من الاخصائيين : (ا) سايكاتريست . (ب) سايكولوجيست (وجهى عملية القراءة العلمية للشخصية المريضة نفسيا ودلالتها الاجتماعية ، شرط ان يكونا علميا من نفس الاتجاه الاجتماعى والفكرى



الكاتب والمخرج) و ... بناء على ماسبق تبدأ عملية الصياغة المسرحية لهذه النتائج العلمية بواسطة المبدعين ، ومن ثم مجموعة العمل المسرحي : الديكوراتور والموسيقار ومصممة الازياء والممثلات .. الخ . مثل هذه الطريقة سوف تخلص الجميع من الافكار المسبقة والتحيزات ، سوف تؤكد رؤى صحيحة وتعمقها ، وسوف تحذف تصورات خاطئة ، سوف تركز وتختزل ، سوف تثرى وتنوع ، لاننا سوف نزاوج بين العلم وبين الفن ، خصوصا واننا ازاء مجال يتنافس فيه علماء الطب مع علماء الاجتماع والنفس كما يعتبره الفن ميدانه الرئيسى ، اى مكونات الشخصية الانسانية ومكتوناتها واسس دوافعها ومرامى حركتها .

وقد يقول قائل : ومن يدرك اننا لم نفعل هذا ؟ الذى يدريني هو النص ، ولنناقش جانبا منه لنأخذ مثلا شخصية فتاة السلخانة الغنية غير المتعلمة ، ومثلها نوعان : اما ان تذهب للتعليم فى الجامعة الامريكية بسيارة فارهة وتتزوج احد ابناء الطبقة الجديدة ، وإما محجمه عن التعليم فتتزوج معلما من ابناء جلدتها ، الاولى مريضة مرضا اجتماعيا خفيًا ، هو الطموح الاجتماعى والانسلاخ من الاصل الطبقى والتنكر له ، والثانية طبيعية لانها متآلفة ، اما "سكينة ابوساطور" التى فى العوانس فهى استثناء لذا لا تشكل نموذجا يمكن الخروج منه بمفهوم عام . ثم لنأخذ ايضا قصة الطبيبة وامها ، انها ابسط من هذا البنيان "المستشفى كبناء معنوى" فموت الاب فى سن مبكرة بعد ان يترك ارمله ذات افكار اخلاقية متشددة ، لا يخلق بالضرورة هذا الطموح المدمر لدى الابنة ، كما لايخلق جرثومة شرسة مثل "نور" ، بالطبع هناك نوع مامن العقد النفسية البسيطة سوف يظهر على الام وابنتها ، لكن ليس بهذا الدرجة البادية فى المسرحية لذا يبدو تحليل العلاقة بين الام وابنتها ـ الذى جاء متأخرا لايؤدى الى هذه النتائج سقوط الام سجينة لمرض نفسى مستعصى وسقوط الابنة فى الجريمة تجاه الزوج العجوز والسادية والتنكر تجاه الام ، علما بان هذا الخط ـ الطبيبة والام ـ هو بمثابة "المتن" الذى بنيت عليه باقى عناصر المسرحية والسياق المسرحى يتدفق بناء على اتباع مبدأ الضرورة ، او الترجيح فى اضعف الاحوال ، فهذا هو الملاط الذى يصف لبنات المسرحية من مواقف ولوحات ويغيره يتفكك البناء وتتبعثر الافكار ، وكذا نستطيع تفنيد باقى الشخصيات والعلاقات على النحو السابق

ايضاحه ، فضلاً عن أن المسرحية لم تضع فى اعتبارها تمييزا علميا واضحا بين المرض النفسى وبين المرض العقلى !!

● لماذا الامراض النفسية ؟

ان السؤال المبدئى عند القيام بالبحث ـ او حتى التأمل والتفكير ـ السابق على عملية الابداع الكتابى ، كان يجب ان يكون كالاتى : اذا كان المجتمع المصرى يعانى التخلف والفوضى لانه مصاب بامراض نفسواجتماعية ذات دلالات بعيدة ، فكيف ولماذا تم هذا ؟ اية امراض نفسية ذات طابع اجتماعى قد استشرت فى صميم البنية الاجتماعية المصرية فأصبنا بهذا الوضع السرطانى الذى نعانيه ؟ اية قوى اصابتنا .. واية قوى اصيبت ؟ اية اشخاص تمثل القوى المصابة تمثيلا نموذجيا ؟ هذه الطريقة كانت كفيلة بان نضع اصابعنا على ادق اسرار النفس البشرية المصرية من خلال اغوار شخصيات تدل دلاله حاسمة على ماهو اشمل منها ، وكفيلة ايضا ـ فى ذات الوقت ـ اذا ما وضعناها جنبا الى جنب ان تعطينا تشخيصا امينا لأمراضنا السياسية والاقتصادية والاجتماعية والنفسية والفكرية .

ومع ملاحظتى المتكررة لتعبيرات وجوه المشاهدين الخارجين عقب المسرحية ، ولتعليقاتهم الحائرة المقتضبة المتسائلة ادركت ان ثمة حاجزا زجاجيا شفافا وسميكا ، كان حائلا بينهم وبين شخصيات المسرحيات واطروحاتهن ، فهم لم يشاهدوا ـ وان شهدوا فجزء يسير ـ من انفسهم على المسرح ، لذا لم يتوحدوا ولم يختلفوا ، كما انهم لم يستغرقوا فى التفكير والتأمل ، الا انهم لا يملكون الرفض ، هم فى حيرة لان ثمة مسافة بعيدة بينهم وبين هذه الشخصيات ، هم لم يروها فى انفسهم ، او فى حياتهم الخاصة ، ولا فى حركتهم العامة .. اللهم الا لماما .

ولقد عوقت لغة الكاتب ـ ذلك النظم الذى اسماه شعرا !! شخصياته عن التعبير عن اغوار نفسها ، كن يتحدثن بلغته مضافا اليها مؤثرات المخرج السوداوية الساخرة ، بينما عالم "المستشفى النفسى" يعطى اكبر الفرص كى ينوّع فى لغته وبحوره ـ اذا كان شاعرا ـ ليغوص فى نفوس ابطاله المرضى ، فيخرج لنا قصائد النثر من ادب الاعتراف ، انها لفرصة فريدة كى نسمع همس هذه النفوس المعذبة ، لكل قصيدته المتفردة ، كل شخصية على حدى "لعل اهم مالم يلاحظه الكاتبان ان المرضى النفسيين يعيشون فى جزر ، حتى وهم مجتمعون معا ، فكل مريض عبارة عن عالم وحده" ، وعليه تكون الملفات التى قدمت كمونودرامات ـ غلب السرد عليها والوصف الخارجي والافيهات لا البوح ـ استغرقت ثلثي الفصل الاول ، مجرد استنطاق للشخصيات بلغتى



المؤلف والمخرج وبفرضياتهما ولو تم عكس ذلك لكانت اللغة اكثر شاعرية وتاثيرا وصدقا وحساسية ، وربما تم اختيار مواضع انسب من سياق العرض لعمليات الاعتراف هذه ، وفقا لتفجر الاحداث داخل هذه المصحة العجيبة .

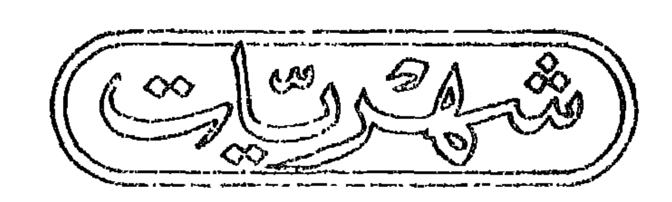
ونظرا لكل ماسبق ، بدا العرض اخراجيا ، كحلقات فى مسلسل منفصل متصل ، او كمسرح المنوعات ، كل لوحة مستقلة ، وكل "نمرة" لها شكلها الخاص داخل اطار عام من ديكور وملابس واضاءة وموسيقى وحالة مهيمنة وفكرة عامة فحسب ، دون اتصال عضوى وتساوق متجانس ، وفيما عدا الديكور والاضاءة اللتين صممهما الفنان المبدع "صلاح حافظ" وكذا الموسيقى والالحان والمؤثرات والاصوات التى صاغها الموسيقار الفذ "فتحى سلامة" فى توزيعات مهرمنة متقابلة متضادة متجانسة معبرة مصورة مصاحبة معا ، فانه لا يوجد رابط بصرى سمعى يربط اوصال هذه المسرحية ، فالملابس كروكية التصميم ، والرقصات رغم تفانى مصممها مجدى الزقازيقى ، فانه لم يدرك عالم النفس بعد ، لم يتصور حالة المريض نفسيا ، لم يتساءل كيف يرقص ؟ أظن انه لا يوجد رقص جماعى تقريبا، كل فرد له رقصته الخاصة ، وعلى حده ، ولا توجد سيمترية ولا صفوف ولا دوائر ، انما حركة حرة شديدة التمايز والتنوع والانفرادية .

الا ان الحالة المزاجية التى بثتها الروح الفنية والشخصية الانسانية للمخرج خلال ليالى البروفات الطويلة ، قد بثت حالة ابداعية خاصة لدى الممثلين : فقدمت انعام سالوسة نوعا رفيعا من الاداء افتقدناه طويلا منذ هجرت سناء جميل خشبة المسرح ، انها تذكرنى بشابلن وبيتر سيلرز وودى الان والاخوان ماركس ، اضف الى ذلك رقتها المميزة كأمراة وصوتها الجميل الصافى الواضح الرنان كصوت طفل مفعم بالسعادة ، ولست ادرى لماذا لا تكون هناك جوائز دولة فى التمثيل المسرحى لتنالها عن هذا الدور ، (فى المسيرة الطويلة لزوجها المخرج سمير العصفورى لم تعمل معه سوى ثلاثة اعمال اثنان منها عام ١٩٦٤ .. والثالث كان العوانس) . وكذا سناء يونس ـ التى تركت العرض لاصرارها على الخروج على النص وخطة المخرج ـ فهى ممثلة مسرحية عتيدة قادرة على الامساك بقياد الشخصية والسيطرة على الجمهور بحضور كوميدى وخفة ظل انسانية

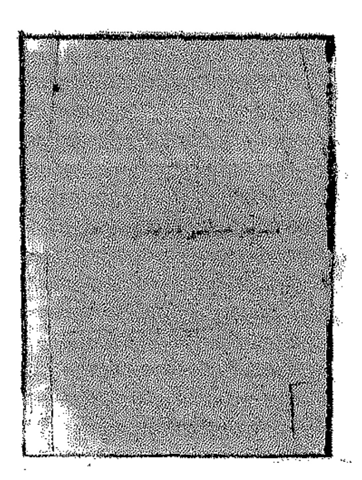
حميمية ، ولولا اصرارها على الانفراد بالخشبة دون زميلاتها لكانت قد اسهمت فى ان يقدم المسرح القومى موسما فنيا ناجحا .

اما سوسن بدر فقد سبق ان اشرت فى عدد ابريل الماضى من الهلال : "**ممثلة لم تاخذ حقها فى المسرح المصرى حتى اليوم ، لانها لم يسند اليها الدور الذى يحترم طبيعتها ويفهمها** .." وبالفعل كانت - قبل العوانس - تلعب ادوارا ثانوية مسطحة خلف عادل امام واحمد بدير ومحمد نجم ومحيى اسماعيل ، غير انها فى هذا العرض نالت البطولة اخيرا ، ولعبت دورا مركبا مليئا بالتفاصيل التى تستنفر طاقة الاداء عندها ، فقطعت منه شوطا شاسعا ، ومنحته حضورا مشعا باهرا ، حاز اعجاب جمهور القومى وانتباهه ، الا انها بحاجة الى الارتباط اكثر بالدور وبالمسرحية ، وان نتمسك بها ، وبهذا النوع من الاعمال الجادة لان فيها مستقبلها الفنى وتحققها الانسانى ، اما **نجاة على** التى بدأت الدور جادة متجهمة فقد طورت اداءها عبر ايام العرض ، فتجانست مع روح المسرحية ، واصبحت تفجر لحظات كوميدية رفيعة المستوى ، كذا **عفاف حمدى** التى كانت هجرت التمثيل المسرحى تقريبا ، فثمة فارق واضح بين ادائها فى البداية وبين ادائها بعد مرور شهر ، حين تبينت المفارقة الكامنة فى الشخصية ، فوصلت اوصالها المتناثرة عبر العرض ، وانشأت لها نسقا ادائيا حميما لا يخلو من خفة ظل حتى تواصلت مع الصالة .

اما **سهير طه حسين** فرغم صوتها الجميل وادئها الغنائى المعبر الدافىء ، فان الشخصية التى تؤديها ليست فاعلة وليست ذات وزن ، لذا قبل الجمهور حضورها المسرحى بصفة شخصية لا بصفة مسرحية ، وتجىء **فاطمة شوشة** كمفاجأة فى اداء هذا النوع الناكص الى طفولته من مرضى النفس ، وهى لفرط رقتها وشفافيتها ، تمهد لكارثة اغتيالها باسنان كلاب الحراسة فى نهاية المسرحية ، وحظت **رقية احمد** "الجزارة" بقبول جماهيرى مميز حيث طرحت اصولها الشعبية ببساطة وحرارة ونجحت رغم عدم اتساق بنية الشخصية التى تمثلها ، بينما لا تترك **سمحية عبدالهادى** فرصة للعمل على المسرح دون ان تملأها بحركة او بكلمة داخل السياق والشخصية ، فاكسبت دروها حيوية خاصة ، واكسبت شخصها حضورا خفيف الظلال لا يخلو من دفء ، وفى حين امسكت **صفاء الطوخى** بخيط البداية الصحيح ، الا ان دور الطبيبة المساعدة فى المصحة النفسية الذى تلعبه كان بحاجة الى مزيد من التحديد ، فسرعان ماذابت فى زحام المريضات فلم نعرف هل هى مثلهن ام لا !! وكذا كان شأن منى حسين وصافيناز فتحى وامانى مصطفى وشفيقة عثمان .



مكتبة الهلال



الكتاب : مصر التى نريدها .

تأليف : د . اسماعيل صبرى عبدالله .

الناشر : دار الشروق ـ ٢٦٠ ص .

العنوان الفرعي لهذا الكتاب يوضح بانه تقرير سياسي وبرنامج مرحلي ، تقرير سياسي يحلل من منطلق اشتراكية ديمقراطية لا تتخلى عن عملية النقد الذاتي كاحد مقوماتها ، الأوضاع العالمية فى المرحلة الراهنة ،

فيعرض بتبيان ابعاد البريسترويكا كمنحى طبيعي نتج عن تراكم المشكلات في الاتحاد السوفييتي ، (سابقا) الذى لم ير فيه المؤلف نظاما مثاليا ، وإنما تجربة معينة ، إن كانت قد وصلت إلى الفشل ، إلا ان النهج الأصيل ، ان المنهج الذى اعتمدت عليه هذه التجربة « مازال قادرا » على الرغم من فشل هذه التجربة الهامة .

ثم يتعرض لتحليل اوضاع الراسمالية العالمية المعاصرة ويرى انها ايضا تمر بازمة اقتصادية ، وليس أزمة عامة تحد من قدرتها على التجديد ، موضحا ، ان الراسمالية العالمية قد جددت نفسها سنوات ما بعد الحرب العالمية الثانية ، بعمليات استيلاء الشركات الكبرى على شركات اخرى ليتاكد الطابع العالمي للشركات متعددة الجنسية ، التى اعتمدت على الثورة العلمية والتكنولوجية وما حققته من ارتفاع مذهل فى انتاجية العمل اليدوى والذهني ومن فتح افاق لم يسبق لها مثيل لجمع وتحليل البيانات وللاتصال عن طريق الاقمار الصناعية .

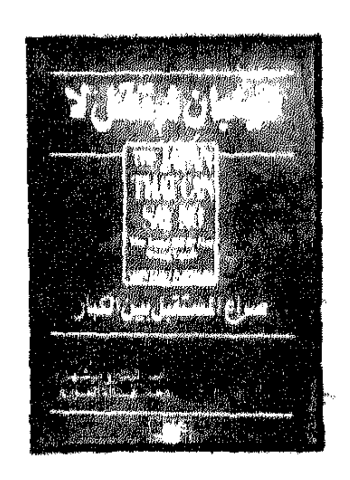
بعد ذلك ينتقل إلى ازمات العالم الثالث التنموية ، والقومية ، ويعرج لتحليل اوضاع الوطن العربى قبل كارثة الخليج ، وبعدها ، موضحا ان اهم القضايا والواجبات التى يجب التاكيد عليها هى ان القومية العربية حقيقة ثابتة ، وان مطلب التعاون والتكامل والوحدة يكتسب فى ظروف التطورات العالمية بعدا حاليا ومستقبليا مبنيا على مصالح حيوية وليس فقط على اعتبارات تاريخية او ثقافية او عاطفية .

كما يجب التاكيد على ان القوى التقدمية عليها

مهمة التفاهم حول رؤية مشتركة للوحدة القومية واسس النضال من اجلها وما يمهد لها السبيل من الاجراءات العاجلة ، وان الديمقراطية ليست مطلبا متروكا لدولة الوحدة ، بل انها ضرورة ملحة لنجاح أى مسعى وحدوى او تقدمى ، عن طريق إقامة « جماعة اقتصادية عربية » .

بعد ذلك يحلل الكتاب الأوضاع الداخلية من ناحية عجز ميزانية الدولة ، والديون المتزايدة ، ومسئولية الراسمالية المصرية ، وقضايا الفساد والعوز . خالصا إلى انه ليس امام مصر سوى التطلع نحو الاشتراكية كمجتمع للانسانية المزدهرة ، والتنمية المستقلة ، بعدها يعرض لبرنامج مرحلى مطالبا بحزب يسميه حزب التجديد الاشتراكى الديمقراطى الذى يجد فى النقد الذاتى سبيلا لتجديد قواه وافكاره .

وهذا الكتاب فى النهاية ، كما يقول مؤلفه ، ما هو إلا محاولة لفهم مايمكن ان يكون جديدا فى الفكر والممارسة ، ثم تحديد ابعاده الحقيقية وتكشف نتائجه المتوقعة وبيان المواقف الفكرية والسياسية فى ضوء ذلك ، وهو لا يذهب مذهب الجدل الفكرى ولا يدعى تاصيل مفاهيم عامة ، بل هو يتعامل مع كل المقولات والافكار والممارسات فى إطار سعى لتطوير الواقع المصرى والعربى بممارسة جادة إيجابية تستهدف الارتقاء باحوال الناس فى بلادنا من كل الوجوه .



الكتاب : اليابان لم تقل لا .
تأليف : شنتارو ايشاهارا .
ترجمة : هالة العورى .
الناشر : يافا للدراسات ، ١٤٨ ص .

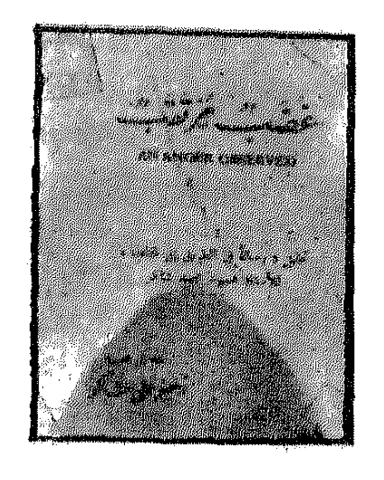
مؤلف هذا الكتاب « شنتارو ايشاهارا » عضو بارز فى المجلس التشريعى اليابانى ، واحد قيادات الحزب الليبرالى الديمقراطى فى اليابان ، واحد أكثر الشخصيات شعبية هناك ، وكتابه هذا وزع اكثر من مليون نسخة ، بالاضافة إلى ان له روايات عديدة تلقى رواجا كبيرا .

تقول مترجمة الكتاب فى تقديمها ان التقدم اليابانى الخارق لم يتحقق من فراغ ، فالابداع والعمل الجاد ثمرة لقيم حضارية واخلاقية رفيعة ، ذلك الولاء المطلق الذى يكنه العاملون تجاه مؤسساتهم ومصانعهم رد فعل طبيعى للنظام الادارى فى اليابان ، ذلك النظام الذى يعمل على جعل المؤسسة مجتمعا واحدا يحدوه مصير مشترك فالمسئولية الادارية فى اليابان لا ينحصر همها بحال على



تحقيق أكبر قدر من الربح ، بل يتقدم هذا الهدف ، العمل على تكوين مجتمع مترابط داخل الشركة من خلال الولاء والرعاية المتبادلة . فالعامل في اليابان ، ليس مثل نظيره العامل الأمريكي مجرد اداة للانتاج تقصى بعيدا في حالة تعرض الشركة للركود والانكماش ، كما ان رجال الأعمال اليابانيين لا تخطفهم او تفتنهم حياة البذخ والاسراف .

وهذا الكتاب وضعه مؤلفه ليحلل القضية العالقة بين امريكا واليابان ، مؤكدا على أن الأمريكيين قد اصيبوا بانزعاج شديد من ارائه المتعلقة بالتعصب العنصرى ، فقد كتب بصراحة ان العنصرية هى التى تقف وراء التعريض باليابان ، ومع ذلك فهو يؤكد على ان كتابه ما هو إلا محاولة لرأب الصدع بين اليابان وأمريكا عن طريق تفهم القضايا المشتركة ، وتبيان العيوب فى الجانبين من اجل الخروج من المواجهة الى التعاون .

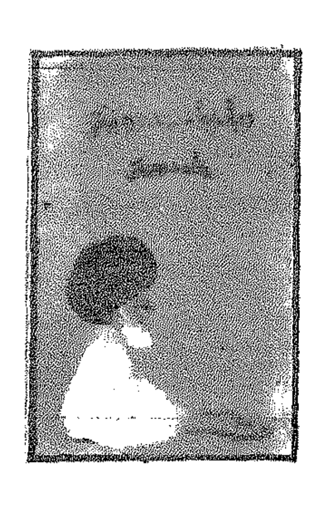


الكتاب : غضب مرتقب .
تأليف : د . مجدى وهبة .
ترجمة : زهير على شاكر .
الناشر : دار المدنى ، جدة .
٤٠ ص

كتب الدكتور مجدى وهبة هذا المقال فى اللغة الانجليزية عام ١٩٨٧ ونشره فى مجلة يوميات الأدب العربى التى تصدر فى بريطانيا بعد اشهر قليلة من صدور الطبعة الثالثة فى كتاب المتنبى من تاليف صديقه الأثير وزميله فى عضوية مجمع اللغة العربية بالقاهرة الأستاذ محمود محمد شاكر ، متضمنا مقدمة جديدة بعنوان رسالة فى الطريق إلى ثقافتنا (صدرت فى كتاب الهلال) ، وهو ، ان المقال ، جاء مناقشة نقدية لهذه الرسالة الزم مجدى وهبة نفسه فيها بالتزامين مختلفين ، الأول هو موقفه من القضية الأصلية التى يعرضها ، قضية الصراع بين الفكر العربى الإسلامى ، وبين الفكر الاستشراقى والغربى عامة . فقد التزم من هذا الصراع بموقف بالغ الصعوبة ، وهو موقف الحياد التام ، حياد ليس كحياد القاضى الذى لا يميل إلى اى من جانبى الخصومة ، بل حياد فوق حياد القاضى ، حياد يرتفع به حتى عن ارتقاء منصة القضاء ، او الوقوف موقف الحكم بين الخصمين ، وإنما يكتفى

بأن يترك كلا من الخصمين يعرض حجته عرضا دقيقا كاملا ، ثم يعطي الكلمة للآخر دون اضافة او تعقيب ، الالتزام الثاني هو في تقديره لقيمة العناصر المشاركة في هذا الصراع ، من اشخاص واقوال ومواقف . فهو هنا يضع نفسه في مكان ليس أيضا مكان القاضي ، بل مكان الناقد بالمعنى القديم للكلمة العربية ، المستمد من نقد المذهب ، حين كان « النقادة » تعرض عليه الدنانير ، فيتناولها ويقلبها ويتفحصها واحدا واحدا ، فما وجده زائفا او مخلوطا او خفيفا ـ نحاه ولم يلتفت إليه ، وما وجده صريحا صرفا نقيا ، زاده فحصا وتاملا ، ثم وزنه بميزان الذهب .

ويمعنى آخر ، فإن هذا المقال الذى تعرض بالعرض والمناقشة لآراء محمود شاكر ، من صديقه الذى رحل بعد عمر مديد من العطاء ، هو نقد الاحتفاء بقيمة هذا العمل ، وإن لم يوافق اراءه تمام الموافقة .



الكتاب : رباعيات درويش .
تأليف : على درويش .
الناشر : مطابع الاخبار .
١٢٨ ص

يصف الكاتب عمله هذا بقوله : هذا كتاب عن الحب ، ارقى وانقى انواعه ، إنه الحب الذى ينطلق من الارض إلى السماء كالبرق ليسجد تجت عرش الرحمن طالبا القرب وقرب القرب .

ويقول :

إن رباعيات درويش هى جزء مما أريد وليس كل ما اريد ان اكتبه ، فالوجد فى الصدر كالمحيط ، بل اكبر واعمق من المحيط ، يهز الكيان ويفوق قدر اللسان وابداع القلم ، وكما يقول الدرويش من ذاق عرف ، فالقلب قد ذاق فسكر وشكر .

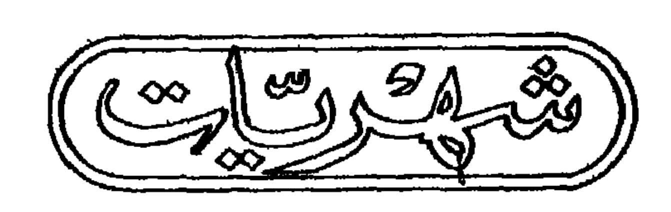
وفى موضع آخر يقول :

إن القلوب كالسفائن تبحر حيث تريد وتختار ، وفى رحلتها هذه تاخذ القلوب أصحابها معها ، فقد تبحر القلوب فى بحار الظلمات فتحكم على نفسها وعلى صاحبها بالعذاب والضياع وبفقدان الطريق .

إنها رحلة الظلمات التى تاخذ الانسان بعيدا إلى حيث يتمزق القلب وصاحبه فلا صحبة ولا صديق ولا نور ولا هدى ولا هداية اما القلوب التى تبحر فى بحار الانوار فهى قد اختارت طريقا ليس سهلا ولكنه مضىء .

طريق تفوح منه رائحة المسك وتغشاه الأنوار ، شمسه لا تغرب ، عواصفه وجد ، واحلامه رؤى ، كلامه ذكر ، وحركاته سعى إلى ما بعد البحر والبحور ، إلى حيث رب الأكوان .

هو إذن ديوان من شعر الحب الصوفى الذى يكاد يكون قل الانتاج فيه هذه الأيام .





الكتاب : الحرب الايديولوچية وسقوط الشيوعية السوفييتية
تأليف : سعد زهران
الناشر : العربي ،
١٤٠ ص ،
٤ . ج . م .

تعالج فصول هذا الكتاب موضوعات متمايزة ، كل منها متكامل بذاته يمكن أن يقرأ مستقلا ، أو يقرأ في السياق العام للكتاب .

في البداية يرفض المؤلف مايدعيه الامريكان ، والسوفييت "الذين افلسوا" من ان انتهاء الحرب الباردة يعني انتهاء الايديولوچية ، وذلك لان الانسان لابد ان يعيش بعقيدة ما ، دينية او قومية ليبرالية او اشتراكية ، فهي ضرورية للانسان الاجتماعي كضرورة الهواء .

ثم ينتقل الى تحليل الازمة الايديولوچية السوفييتية باعتبارها المفجر الاساسي للازمة الايديولوچية الشاملة التي يعاني منها عالم اليوم ، وبعدما يبين جوهر الايديولوچية الغربية السائدة ، وملامحها الاساسية في اصولها ، وذهب الى انها هي الصيغة الاحدث ، والاكثر تداولا لما اسماه "المحافظية" الغربية الحديثة .

في الفصول التالية يوجز تاريخ الحرب الايديولوچية الدائمة التي تشنها المحافظية الغربية على المذاهب والحركات السياسية الاجتماعية ، العقلانية والانسانية ، منذ الثورة الفرنسية في القرن الثامن عشر حتى الثورات الروسية والصينية وبلاد التحرر الوطني .



الكتاب : الاذاعات الغربية الموجهة للمسلمين العرب !
تأليف كرم شلبي

● حرص مؤلف كتاب « الاذاعات التنصيرية الموجهة الى المسلمين العرب » منذ بداية كتابه على التأكيد

بأنه لا علاقة لمؤلفه بالمسيحية دينا وعقيدة ، لأن موضوعه ينصب أولا وأخيرا على الاذاعات الدينية التى تنطق بالعربية وتبث إرسالها من خارج المنطقة العربية .

وكشف الدكتور كرم شلبى أستاذ ورئيس قسم الاعلام والمستشار الاعلامى بجامعة الأزهر دور تلك الاذاعات فى إغراء المستمع بصنوف شتى من الهدايا والمباهاة بما تحرزه من نجاح فى إقناع البعض بالارتداد عن دينهم .

وقد تناول الدكتور كرم شلبى فى هذا المؤلف الهام الاذاعات الناطقة بالعربية ولغات أخرى ، والتى تقوم بهذا الدور الغريب ، وهى : إذاعة حول العالم المؤسسة منذ عام ١٩٥٤ والتى تبث إرسالها بـ ٣٥ لغة ، واذاعة راديو الفاتيكان التى تأسست عام ١٩٣١ ، وتذيع بأكثر من ٤٧ لغة ، ومحطة (كى . جى . اى . إل الدولية الدينية) وتقدم برامجها بأكثر من ٣٠ لغة ، وشركة الشرق الأقصى وهى تملك ٢٥ محطة وتقدم برامجها بـ ٤٦ لغة ، وراديو صوت الانجيل الذى يبث من أديس أبابا بـ ١٢ لغة ! والمحطة الدينية المسيحية وتقدم برامج بـ ٣٥ لغة الى كافة بلاد أفريقيا ، وهناك ايضا محطتان فى كل من أنجولا وموزمبيق .

وقد سجل الدكتور كرم شلبى فى تجربته المثيرة كل مايثبت من مواد وبرامج فى الاذاعات الموجهة طوال عام كامل .

وكانت دهشته بالغة عندما أرسل بعض الخطابات الى هذه الاذاعات ، وردت إليه رسائله مزودة بعبارة « لم يستدل على العنوان » !

وهكذا لم يجد بد من السفر للبحث عن هذه الاذاعات فى عواصم العالم ، فسافر الى روما ولندن وباريس وقبرص وشتوتجارت وموناكو والخرطوم ، وكانت الحصيلة هذا البحث الشيق عن الاذاعات الدينية المسيحية الدولية الموجهة الى العالم العربى .

انصبت دراسة الدكتور كرم شلبى أساسا على ثلاث اذاعات رئيسية هى : راديو الفاتيكان ، واذاعة حول العالم ، واذاعة صوت الغفران ، وشمل كتابه سبعة فصول وخاتمة بنتائج البحث وملاحق تضم نماذج لعدد من البرامج ذات الدلالة التى قدمتها هذه الاذاعات .





الهوية اليهودية لفرانز كافكا

بقلم : د. عبدالوهاب المسيري

ولد ونشأ في تشيكوسلوفاكيا لأسرة يهودية مندمجة .. درس القانون وعمل في أحد مكاتب المحاماة ، ثم في شركة تأمين تابعة للحكومة ، ولم يكن يكتب الا في أوقات فراغه . كان أبوه شخصية متسلطة تركت أثرا عميقا على ابنه ، فلم يتزوج كافكا قط ، ومع هذا لعبت المرأة دورا مهما في حياته . كان كافكا يعاني طيلة حياته من الصداع النصفي والأرق ، وتم تشخيص مرضه في عام ١٩١٧ على انه السل ، فقضى بقية حياته في مصحة ..... وقد عهد بمخطوطاته لصديقه وكاتب سيرته ماكس برود ، ولكنه أوصى وهو على فراش الموت بأن تحرق أعماله بعد وفاته ، ولكن برود لم ينفذ رغبته .

فرانز كافكا (١٨٨٣ ـ ١٩٢٤) روائي ألماني يهودي .

وكثيرا ما تطرح قضية يهودية كافكا : فهناك من يرى أنه كان يهوديا بل صهيونيا حتى النخاع ، وهناك من يذهب الى انه كان غير مكترث بيهوديته بل معاديا للصهيونية ، ويورد كل فريق من الشواهد مايدل على صدق رؤيته . كما أن هناك تناقضا عميقا بين مذكراته من ناحية ورواياته من ناحية أخرى ، ففى المذكرات اهتمام شديد بالموضوع اليهودى ، على عكس الروايات التى تلتزم الصمت حياله فتوجد فى المذكرات اشارات الى المدينة اليهودية القديمة والجيتو والمشروع الاستيطانى الصهيونى (بل ويقال إن كافكا حضر أحد المؤتمرات الصهيونية) . أما رواياته فلا تكاد تشير الى الموضوع اليهودى ، ففى رواية أمريكا يوجد شخصيات من كل الجنسيات (ألمان ومجر وأيرلنديون وفرنسيون وروس وسلاف وايطاليون) ولايوجد سوى يهودى واحد .. ونعرف أنه يهودى من اسمه ، إذ لاتحمل شخصيته أى سمات من تلك التى تسمى «يهودية» ومع هذا ، فهناك من يقدم قراءة صهيونية لأعماله . ففى دراسة للكاتب العربى كاظم سعد الدين بعنوان «حل رموز كافكا الصهيونية» نجده يذهب الى أن رواية المحاكمة تسعى الى كشف فساد دار الحاخامية سليلة السنهدرين ، اى المجمع الديني الأعلى . ورواية المسخ أو التحول ؟ إنما تشير الى التاجر اليهودى المتجول . والقلعة هى حصن صهيون ، وترمز وظيفة المساح الى الحياة الدنيا لليهود ومعرفة قوانينها وعاداتها وايجاد نوع من العلاقة الجيدة بينها وبين القلعة التى ترمز الى السلطة العليا الدينية اليهودية ، ويرى كاظم سعد الدين أن كافكا قد أسقط رمز سور الصين على حدود الدولة المرتقبة، وأراد أن يقول أن سور الصين سيكون لأول مرة فى تاريخ العالم أساسا أمينا لبرج بابل جديد !! وأن بدو الشمال هم الشعب العربى ونبوختنصر . وأن أبواب الهند هى أبواب فلسطين ، وسيف الملك هو سيف داود ! .

ويشير الكاتب أيضا الى أن كافكا عارض اندماج اليهود فى الشعوب الأخرى إذ قال إن المدينة اليهودية القديمة غير الصحية ، اى الجيتو ، هى أكثر حقيقة بالنسبة لليهود من الشوارع العريضة للمدينة المبنية حديثا !! كما قال عن أرض كنعان أنها أرض الأمل الوحيدة .

● الاحساس بالغربة

وقد بينت الدكتورة بديعة أمين فى كتابها «هل ينبغى احراق كافكا ؟ أن هذين الاقتباسين الأخيرين قد نزعا من سياقهما ، اذ يتبع الاقتباس الأول الخاص بالجيتو عبارة «اننا لسنا سوى شبح زال ، أما أرض كنعان فهى ليست بأرض على الاطلاق وانما حلم وحسب» . وقد وصفت الدكتورة بديعة تفسيرات الأستاذ كاظم سعد الدين

بانها ضرب من المعادلات العينية التى استنبطها الكاتب من الكتب الدينية والتاريخية ، ثم اعتبرها معادلات موضوعية مادية/ حسية للرمز الكافكاوى استنادا لبعض العوامل الخارجية فى كتابات كافكا . ثم أضافت الدكتورة تحليلها لرؤية كافكا مبينة استحالة أن يتبنى مثل هذا الكاتب رؤية صهيونية ، فموضوعات أدبه هى الاحساس العميق بالغربة والعزلة الروحية حتى وسط الأهل والاصدقاء ، والوعى بالذات وما يؤدى اليه هذا الوعى ، وعلاقة الانسان بالسلطة وبيروقراطيتها القاتلة ، والانسحاب والانسلاخ الاجتماعيين ، واختفاء الهدف والاحساس بالهزيمة . وقد عبّر كافكا عن هذه الموضوعات بأسلوب غامض مغلق لايسمح بتسرب قطرة ضوء . والواقع أن أدبا يتناول مثل هذه الموضوعات بمثل هذا الاسلوب لايمكن أن يكون صهيونيا ، لأن الادب الصهيونى أداة أيديولوجية ووسيلة الى هدف واضح بطريقة واضحة ، ولذا فإن مثل هذا الأدب لابد وأن يتسم بالوضوح والايجابية . كما أن الادب الصهيونى يهدف الى الدفاع عما يسمى حقوق الشعب اليهودى الذى يحمل خصائص عرقية وإثنية خاصة ثابتة عبر الزمان والمكان ، بل ويركز على تقديس هذا الشعب . وغنى عن القول أن رؤية كافكا للطبيعة البشرية مختلفة تماما ، فهى بالنسبة له طبيعة متقلبة كالغبار غير مستقر ولاتحتمل أى قيود . كما أن اليهودى بالنسبة له شخصية هامشية تقف بين عوالم مختلفة لاتنتمى الى أى منها . أما كافكا ذاته ، فهو يؤكد عدم انتمائه الى أى عالم ، وهو لايخلع القداسة على أحد - يهودا كانوا أم غير يهود .

هذا بخصوص موقف كافكا من الصهيونية . ولكن ماذا عن المضمون اليهودى فى أدبه ؟ إن مثل هذه المسألة يمكن أن تحسم إن قبلنا التحليل السياسى والمباشر للمضمون ثم اضفنا اليه مستويات أكثر عمقا . ولعلنا لو قبلنا بصيغة تفسيرية مركبة تقبل المستويات المتناقضة المختلفة لفهمنا كافكا حق الفهم ..

● الاهتمام بالموضوع اليهودى

ولنبدأ بكافكا الانسان والكاتب . كان كافكا يهوديا مندمجا ، ولذا لم يكن فى البداية مدركا للكتابات الدينية اليهودية أو كتابات المؤلفين اليهود ، ولكنه بالتدريج بدأ يهتم بها وبالموضوع اليهودى ، وهو أمر طرحه

عليه عدة عناصر من أهمها أنه على الرغم من الرغبة الصادقة لقطاعات كبيرة من يهود وسط اوربا فى الاندماج بل والانصهار فى الحضارة الغربية ، وعلى الرغم من محاولة كثير من المجتمعات قبولهم ودمجهم وصهرهم ،

الا أن عملية مثل هذه لايمكن أن تتم فى جيل واحد أو جيلين . ولذا ، كان الجيل الأول والثانى من اليهود المندمجين يشعر أنه فقد الجيتو والأمن الذى كان يشعر اليهودى به داخله . ولكنه وجد نفسه فى عالم معاد له ، ولاشك أن حركات معاداة اليهود التى تصاعد نفوذها وازدادت شعبيتها قد عمقت هذا الاحساس لدى كثير من المثقفين اليهود . كما أن هجرة يهود اليديشية (أى يهود شرق أوربا) الذين كان يتزايد عددهم داخل الامبراطورية النمساوية المجرية ، ساهم فى خلخلة وضع اليهود المندمجين ، وهو الوضع الذى فرض على يهودى مندمج مثل هرتزل أن يبحث عن حل للمسألة اليهودية ، أى مسألة يهود شرق أوربا ، وأن يصوغ الحل الصهيونى .. ويعنى هذا أن الموضوع اليهودى قد فرض على كافكا فرضا . فبدأ يقرأ فى الكتابات الدينية اليهودية وكتابات المؤلفين اليهود العلمانيين . قرأ فى كتب القبالاه والحسيدية ودرس العبرية وقرأ كتابات صهيونية أو شبه صهيونية ، بل ويقال انه كتب دراسات يفهم منها تأييده للمشروع الاستيطانى الصهيونى .

ولكن المصادر الغربية لفكره أكثر تنوعا وعمقا وشمولا ، فقد تأثر بكيركجار ودوستويفسكى وفلوبير وتوماس مان وهيس وجوركى ، وبالفكر الاشتراكى والفوضوى فى عصره .

ويبدو أنه كان معاديا للرأسمالية ولاقتصاديات السوق التى تحول الانسان الى شىء .

● اختلاف فى الموقف !

هذه الازدواجية (اليهودى/ غير اليهودى) تعبر عن نفسها على كل المستويات .. فلنأخذ موقفه من الدين . من الواضح أن كافكا كان رافضا للدين حلا لمشكلة المعنى ، ومن هنا حداثة رواياته والاحساس الشامل بالضياع . وهو فى هذا ، يعبر عن موقف كثير من يهود عصره ، الذى كانت تعانى فيه اليهودية الحاخامية من ازمتها العميقة إذ أخذت تحل محلها العقائد العلمانية المختلفة مثل الصهيونية والداروينية والماركسية والنازية . ولكن موقف كافكا هذا لايختلف كثيرا عن موقف كثير من المثقفين الغربيين الذين ابتعدوا عن عقيدتهم وعن مجتمعهم بسبب تصاعد معدلات العلمنة وبسبب تآكل المجتمع التقليدى . لقد اندفعوا نحو المجتمع الجديد ، ولكنهم لم يجدوا فيه المعنى ، ولم تتحقق لهم الطمأنينة . بل إن أزمة اليهودية الحاخامية ، لم تكن إلا جزءا من أزمة العقيدة الدينية فى الحضارة الغربية ، كما أن كلا الأزمتين نتاج نفس الحركيات : انتقال من مجتمع تقليدي الى مجتمع حديث ، ولكنه انتقال لايأتى بالسعادة ، وإنما

يؤدى إلى عدم الاستقرار والغربة ومعنى هذا أن نفس الظاهرة يمكن أن تفسر على اساس يهودى خاص ، وعلى اساس غربى عام ، ثم نكتشف أن كلا من الاساس اليهودى الخاص والغربي العام هما نفس الشيء .

ولكن الموقف الدينى لكافكا يتجاوز مجرد الرفض فقد كان يمارس ايمانا دينيا عميقا من نوع خاص .. فكافكا كان يرى أن فعل الكينونة لايعنى الوجود المادى وحسب ، وإنما يعنى أيضا الانتماء الى الاله ، فالاله كامن فى أعماق الذات البشرية . وهذا الجزء فى الانسان هو الجزء غير القابل للدمار ، وهو ذاته عالم المطلق ، المتجرد من الخطيئة والكمال ، وهو العالم الذى يسميه المؤمن بالاله ولكن قرب الانسان من الاله يعنى ان يعيش حياة صحيحة . وهذا الموقف ينتج عنه رفض للعالم المحسوس (عالم السببية والمادة) . وإذا كان الموقف السابق

● شخصيات كافكا

ولكن يمكن القول إن مأساة أبطال كافكا هى ايضا مأساة كافة الشخصيات فى الأدب الغربى الحديث التى تشعر بحالة النفى والغربة ، فهى شخصيات فقدت الايمان إذ وجدت نفسها فى مجتمع متناثر ذرى لايربط أجزاءه رابط ، مجتمع تعاقدى الانسان منفى فيه دائما ، مجتمع ازدادت فيه معدلات الترشيد حتى أصبح كل شيء آليا أو شبه آلى تم التحكم فيه ، ولكنه ترشيد اجرائى لاهدف له .. ومن ثم ، على الرغم من تزايد تحكم الانسان ، لا أنه يشعر باحساس عميق الاختناق .

ويمكننا القول إن الموضوعات الاساسية عند كافكا هى موضوعات اساسية متواترة فى كل الأدب الغربى الحديث بصفة عامة ، وبالتالى فإن أصولها غربية ، ولايمكن فهمها الا على مستوى الحضارة الغربية ككل ، ولكن فى حالة كاتب من أصل يهودى مثل كافكا فقد يهوديته ، سنجد أن وضعه هذا يخلق عنده قابلية غير عادية لاكتشاف هذه الموضوعات وتطويرها ، كما انها تكتسب حدة خاصة فى أدبه ـ أى أن يهودية كافكا ليست هى مصدر الرؤية العبثية (فهو يستمدها ـ شأنه شأن أى كاتب غربى ـ من حضارته الغربية) ولكنها مع هذا تعمقها وتزيد من حدتها .

وقد ترك كافكا اثرا عميقا للغاية على الأدب الغربى الحديث مثل (مسرح العبث) . ويستخدم اصطلاح «كافكاوى» او «كافكوى» لوصف الاحساس بالضياع والسقوط فى شبكة متداخلة من الاحداث العبثية .. ولعل عمق اثره على الحضارة الغربية يبين مدى تجذره فى التشكيل الحضارى

الغربي ، وهامشية خصوصيته اليهودية ، الا باعتبار هذه اليهودية ذاتها تعبيرا عن شيء جوهري في الحضارة الغربية .

الرافض للدين يعبر عن كل من أزمة اليهودية الحاخامية الخاصة وأزمة المعنى في المجتمع الغربي ككل ، فإن هذا النوع من الايمان الديني يعبر هو الآخر عن رؤيتين متشابهتين واحدة يهودية (القبالاه) والأخرى غربية عامة (الغنوصية). وكلا الرؤيتين تطرح فكرة الاله الخفي (الديوس ابسكونديتويس في الغنوصية ، والآين سوف في القبالاه) الذي تبعثرت شراراته فاختلطت الشرارات بالمادة بحيث أصبح الاله موجودا في داخل البشر ، ولكنه يبعد عنهم تماما . ويحاول الانسان جاهدا عبر حياته أن يتجه نحو الالتحام به والعودة اليه ، ولكنها عودة أصبحت مستحيلة (ولذا يستحيل فهم «المحاكمة» ، ويستحيل دخول «القلعة») والتراث القبالي والغنوصي تراث منتشر في الحضارة الغربية بين اليهود وغير اليهود . فهناك قبالاه يهودية ، وهناك قبالاه مسيحية من أصل يهودي ومن ثم يمكن تفسير هذا الجانب أيضا على اساس يهودي خاص وغير يهودي أو غربي عام .

وسنلاحظ نفس الشيء في أهم جوانب روايات كافكا ، أي شخصياتها الاساسية . ان ابطال كافكا رجال بلا تاريخ ، رجال يعيشون خارج الزمان والمكان في فراغ لا اسم له ، وفي زمان لايمر به تاريخ ، يوجدون في كل الأوطان ولا وطن لهم ، شخصيات تبحث عن شيء ما لاتعرف هويته ويسقطون ضحايا شر لايفهمون كنهه .

وتبدأ رواياته عادة خارج نطاق التجربة اليومية . فافتتاحية المحاكمة تقدم لنا البطل يوسف ك .. وقد قدم للمحاكمة بسبب جريمة لايعرف ماهي ، كما أنه لايعرف شيئا عن طبيعة هيئة المحكمة التي تقرر اعدامه ، وتنتهي المحاكمة نهاية مأساوية . ولكن في الروايات الأخرى لكافكا لايوجد نهاية على الاطلاق ، ففي القلعة لايصل البطل الى أي هدف . ويمكن تفسير هذه العزلة من

منظور يهودي خاص ، فشخصيات كافكا ليسوا بعيدين عن تجربته كيهودي مندمج ، فهم أيضا تركوا حيز الشتت والزمان الشعائري اليهودي ودخلوا في وجود بلا زمان ولا مكان ، وهي حالة الدياسبورا بلا خلاص ، أو المصير اليهودي الذي يلحق باليهود الأذى دون ذنب اقترفوه ، فكأن حالة النفي والعزلة هي مصير دائم بالنسبة اليهم .

برلين

الحياة .. خلف جدران برلين


اجوتا كريستوف

أحس الكثير من أدباء المانيا الشرقية "سابقا" ان كسر حائط برلين قد حطم كل العزلة التى فرضت عليهم لسنوات طويلة . وفى الشهور الماضية اكتشف الاوربيون ان الجانب الشرقى من المانيا قد افرز ادباء متميزين يطالون فى الاهمية الادباء المعروفين الذين يكتبون بالالمانية مثل جونتر جراس وبيتر هاندكه وفالسر وآخرين .

ومن أهم هؤلاء الكتاب هناك امرأتان . الاولى تدعى اجوتا كريستوف . اما الثانية فهى كريستا فولف التى اثارت الانتباه حولها بروايتها "مشهد صيفى" عام ١٩٨٩ حيث صدرت باللغة الالمانية وذاع صيتها فى كل المانيا .

اما اجوتا كريستوف فقد نشرت لها رواية قصيرة تحمل عنوان "الكذبة الثالثة" التى تدور احداثها حول شقيقين فصلتهما الاحداث السياسية طوال أربعين عاما . انهما كلاوس ولوكاس . فبعد إربعين سنة من الجدران بين المانيا . هاهو كلاوس يعود الى مدينة طفولته . وهناك يتذكر ان له اخا لم يلتق به ابدا . لم يكن كلاوس حرا فى البلد الذى جاء منه بل كان مسجونا لا يعرف الحرية . وفى زنزانته كان يطل على فناء واسع لا يذهب اليه الا قليلا .. الزنزانة ضيقة مساحتها ١٥ م٢ . وفى الليل تمتلىء بالكوابيس . وهو عندما يعود الى مدينته يرى ان كل النوافذ مغلقة . والشوارع خالية من الناس . وفى الصباح رأى البعض يخرج من هذه البيوت لكن كل شىء لا يوحى ان هناك حياة . وكأن اصحاب هذه الاماكن يعيشون فى نفس السجن .

لقد عاش كلاوس طوال عمره محبوسا . ففى طفولته عاش خلف الجدران . ولم ينس ابدا وخز الحقن . ولا الممرضات . وروائح الدم .

فى النهاية يصل



كلاوس الى بيته ، ويفتح له الباب رجل عجوز ، انه أخوه التوأم . يتساءل الاثنان عمن يكون ذلك الشخص الآخر الذى امامه ويروح يتذكر معه سنوات الماضى .

روما

زمن .. تخفيف الابداع

فقدت الأوساط الادبية الايطالية فى شهر ديسمبر الماضى واحدة من كبريات الاديبات المعاصرات . انها الكاتبة ناتالى جانسبورج التى رشحت لنيل جائزة نوبل عدة مرات .

وناتالى كتبت الرواية والقصة القصيرة . لكن عطاءها البارز بدا فى مجال المسرح والاوبرا ، فهى من ابرز من كتبوا الاوبرات فى القرن العشرين . ولدت فى مدينة باليرمو



ناتالى جانسبورج

"صقلية" فى عام ١٩١٦ وتزوجت من ليون جانسبورج . وتصدت للنظام الفاشى اثناء الحرب العالمية الثانية . ونشرت كتابها الاول "طريق نحو المدينة" فى عام ١٩٤٢ . وهو عبارة عن مجموعة قصص سبق ان نشرتها تحت اسم مستعار غير اسمها .

ومن اهم اعمال الكاتبة "هكذا كانوا" عام ١٩٤٧ . ثم "كل البارحة" ١٩٥٢ ، "فالنتينو" ١٩٥٧ . و"صوت المساء" ١٩٦١ . وفى عام ١٩٦٣ حققت روايتها "امور عائلية" نجاحا منقطع النظير . وفى عام ١٩٧٣ نشرت كتاب "عزيزى ميشيل" ثم قدمت "شئون عائلية" عام ١٩٧٨ . اما سيرتها الذاتية فقد نشرتها عام ١٩٨٣ تحت عنوان "عائلة مانسونى" .. وفى رواياتها الأخيرة ، "المنزل والمدينة" عام ١٩٨٨ .

وكما هو باد من عناوين أعمال الكاتبة فانها مشغوفة بالجو الاسرى وبالمدينة فقد كانت تقدس الحياة العائلية . وقد دفعها هذا الى الاقامة مع زوجها بين عامى ١٩٥٩ ، و١٩٦٢ فى بريطانيا حيث كان الزوج يعمل فى المركز الثقافى الايطالى . واثناء هذه الفترة أحست كم هى بعيدة عن مدينة روما فراحت تكتب كثيرا عن المدينة .

تم انتخاب ناتالى جانسبورج عضوا فى البرلمان الايطالى منذ عام ١٩٨٣ وحتى وفاتها

وذلك بصفتها كعضو مستقل لا يحمل ايديولوجية معينة .

كتب عنها الناقد الايطالى شيزارى جاريبولى ان اعمالها تحمل صفاءً خاصا ، ونقاءً واخلاصا لكل ماهو سرى .

ستوكهولم

● الأشياء تختلف فى مقصورة العرض

هل يتحول المخرج المبدع إلى كاتب سيرة عندما تخمد شعلة عطائه ؟

يمكن أن نثير هذا السؤال بمناسبة صدور كتاب .. صور للمخرج السويدى انجمار برجمان الذى توقف عن الاخراج السينمائى منذ اكثر من تسع سنوات ومنذ تلك الاونة راح يقدم للناس تجارب اخرى ، فقد اخرج مسرحية لم تحقق نجاحا فى ستوكهولم ، ثم قدم سيرته الذاتية منذ اعوام قليلة تحت عنوان « المصباح السحرى » .

أما آخر كتاب قدمه إلى المكتبة فهو يحمل عنوان « صور »

من المعروف أن برجمان من المخرجين الذين يهتمون بعنصر الضوء فى أفلامه ، أما فى كتابه الجديد فهو يمارس نفس الهواية ، حيث يحول الكلمات إلى أشعة ضوئية خافتة عن أفلامه ، فبرجمان لا يشعر بالشيخوخة (٧٣ سنة) . فهو رجل ارتبط بالموت بشكل واضح عبر عنه فى فيلمه « الخاتم السابع » .. وفى كل فيلم كان يطرح منظورا خاصا حول العديد من مسائل الكون والفكر ، ومن أهم هذه الأفلام الأقرب إلى فكر المخرج هناك « الفراولة البرية » .. و« العار » و« برسونا » و « صـــراخات وهمسات » .

يقول برجمان فى كتابه : « كنت دوما مسكونا بالرغبة والخوف ، والمعاناة ، والنوايا السيئة » . وعلى سبيل المثال يقول عن فيلمه الصمت الذى قامت ببطولته ليف اولمان .. بدات فى التجول فى ستوكهولم وانا فى العاشرة من عمرى ، كان هدفى من التجوال هو إدراك مدى سحر المكان .. خاصة شارع دور العرض السينمائى .. لقد وجدت نفسى اغوص فى قاعات السينما مئات المرات لمشاهدة الأفلام الممنوعة على الصغار . وأتذكر يوم ان صعدت إلى مقصورة العرض ورأيت الأشياء تختلف تماما عنها على الشاشة .

باريس

السيرة الذاتية .. على الطريقة الارمينية

السيرة الذاتية .. على الطريقة الارمينية

" كم هى رائعة الكتابة "

هذه العبارة رددها المخرج الفرنسى

المعروف هنرى ترنوى فى عام ١٩٨٥ حين بدأ فى كتابة روايته الضخمة " مايرج " التى تعتبر بمثابة سيرة ذاتية منذ رحيل اسرته من ارمينيا الى جنوب فرنسا ، وحتى اصبح مخرجا مشهورا قدم اكثر الافلام الفرنسية اثارة فى الاربعين عاما الماضية .

عندما ظهرت الرواية لاول مرة فى عام ١٩٨٨ توقع الكثيرون ان ترنوى سوف يحول الرواية الى فيلم سينمائى ، لكن احدا لم يتصور ان المخرج ـ المؤلف سوف يصنع فيلما تبلغ مدة عرضه تسع ساعات ونصفا ، وبالفعل فقد عرض الجزء الاول من الفيلم فى ديسمبر الماضى ، اما الجزء الثانى فانه يعرض فى يناير الحالى .

مايرج رواية حول الشعب الأرمنى اكثر مما هى رواية عن رحيل



عمر الشريف بطل الفيلم .

اسرة ارمينية الى جنوب فرنسا قبل سنوات طويلة ، وحول هذا الفيلم اجرت مجلة « لوبوان » حديثا طويلا مع ترنوى قال فيه انه عندما صدرت الرواية لم يفكر فى ان يحولها الى فيلم .. رغم انه قد بيع منها مائة الف نسخة .. ثم ترجمت الى عشر لغات ، ولانه لم يخرج فيلما منذ عدة سنوات .. فانه عندما راح يفكر فى اخراج فيلم جديد ، وجد ان افضل « نص » هو " مايرج ".. خاصة ان مثل هذه التجربة قد قدمها الياكازان عن مهاجر من الاناضول الى الولايات المتحدة .. ومن هذه المنطقة ايضا هاجرت أسرة ترنوى عام ١٩١٥ ، والابن شود مليكان ـ الاسم الحقيقى لترنوى ـ فى الرابعة من عمره .. فى تلك الفترة كانت الامبراطورية العثمانية تحتضر .. وهاجر الكثير من الارمن الى فرنسا .

وقد جاءت أهمية هذه التجربة من ان ترنوى سافر الى مسقط رأسه ليصور الاحداث وهناك التقى بشيوخ مسنين كانوا يعرفون اسرته جيدا .. وراح يشركهم معه فى الفيلم الذى قام ببطولته عمر الشريف فى دور الاب .. وكلوديا كاردينالى فى دور الأم .

يقول ترنوى انه يعتزم اخراج الجزء الثالث من هذه السيرة الذاتية وانه سوف يركز على الشعب الأرمنى .. وليس عن حياته فى فرنسا .

الكتابة للمسرح

بقلم: د. على شلش

مازالت لندن عاصمة العالم المسرحية برغم متاعبها وتدهور خدماتها . ومع أن نيويورك تحتل ذات المكانة فى أمريكا فمازال مؤلفو المسرح هناك يحسبون للندن حسابا كبيرا ، ويتمنون أن تعرض مسرحياتهم على مسارحها . ولكن لم يحدث من قبل أن فضل مؤلف مسرحى أمريكى عرض مسرحية جديدة فى لندن قبل عرضها فى نيويورك . ولذلك شغل أرثر ميللر نقاد المسرح فى لندن ونيويورك على السواء حين قرر أن تعرض مسرحيته الجديدة « النزول بسيارة من جبل مورجان » على مسرح « وندام » العتيق فى حى المسارح بلندن ، وعندما استضافه أحد مقدمى البرامج فى التليفزيون التجارى كان أول سؤال وجهه إليه : لماذا تركت نيويورك وفضلت عليها لندن ؟ واقتضى الجواب عن هذا السؤال المختصر كلاما كثيرا عن المسرح الأمريكى وتدهور مستوى التأليف وتغير اهتمامات الجمهور .

وخلاصة هذا الكلام أن شارع برودواى - حى المسرح فى نيويورك - لم يعد كما كان فى الماضى القريب يوم كان يقدم مسرحيات للأعلام أمثال يوجين أونيل وتنيس وليامز وميللر نفسه . وأصبحت المسرحيات التى يقدمها المنتجون تجارية يسيطر عليها العنف والاسفاف والمتعة الرخيصة . بل لم يعد الجمهور تلك الطبقة البورجوازية التى تقدر الفن والفكر الصحيحين بعد أن تسربت إليه شرائح اجتماعية مختلطة لاتبحث إلا عن التسلية ، وفى الوقت الذى تدهور فيه مستوى المسرحيات والجمهور انكمشت التقاليد المسرحية الأصيلة ، وصار المنتجون لايسعون إلا وراء الربح السريع .

ولهذه الأسباب كلها ضاق ميللر - كما قال لمحدثه الانجليزى - ببرودواى ، فجاء إلى لندن ليقدم العرض الأول لمسرحيته الجديدة . ومن الواضح أن هذه الأسباب أيضا متفشية اليوم فى العالم الأول كله ، وفى العالم الثالث كذلك . ولندن نفسها تعرف هذا التدهور بدرجة ما . وربما لايعرف ميللر أن جمهوره الانجليزى

علـى مشـارف الثمانين

مشهد من احدث عرض لمسرحية "بعد السقوط" لميللر



نصفه من السياح الأمريكيين الذين رافقوا رحلته الأدبية والفنية منذ الخمسينات ونصفه الآخر من الانجليز الذين أعجبوا به من قبل وحافظوا على مشاهدة أعماله عبر السنين . وهذا مالاحظته حين شاهدت المسرحية فى عرض الماتينيه (يوم السبت) فقد كانت نسبة الشباب (والماتينيه يجذب الشباب عادة) محدودة جدا مقابل الغالبية المكونة من السياح الأمريكيين وعشاق ميللر الانجليز ، وهى غالبية تخطت الخمسين فى العمر على الأقل .

● مأساة أم ملهاة ؟

ليست هذه هى القضية الوحيدة التى تثيرها مسرحية ميللر الجديدة على أى حال . فهناك قضيتان أخريان لاتقلان أهمية عنها .

أما القضية الأولى فهى أن ميللر سيبلغ السابعة والسبعين هذا العام . ومع ذلك يبدو فى مظهره وحيويته – على الشاشة الصغيـرة – كابن الخمسين ، إن لم يكن أقل . وبالرغم من بلوغه هذه السن التى تميل فيها المواهب والطاقات إلى الاسترخاء أو التقاعد فهو مملوء بالفتوة ، متيقظ

الكتابة للمسرح على مشارف الثمانين

العقل ، صحيح البدن ، صاحى الفكر ، وهو أيضا يكتب بنشاط موفور ، ويعمل بورشة النجارة التى أسسها فى بيته الريفى - بعيدا عن نيويورك - كلما ضاق بالكتابة أو استعصت عليه مسرحية ، وهو أخيرا لايكف عن السفر والسياحة ، ومع أنه ازداد حكمة وسخرية عبر السنين فمازالت دهشة الطفل تطل من عينيه المشعتين بالذكاء .

وأما القضية الأخرى فهى تحوله فى هذه المسرحية إلى الكوميديا . ومع أن مسرحياته السابقة (١٥ مسرحية) غير محرومة من الفكاهة والسخرية فقد ازدادت فكاهته وسخريته هنا إلى درجة الهيمنة على فصلى المسرحية ومشاهدها القصيرة المتداخلة . ولما سأله محدثه الانجليزى عن سر هذا التحول أجاب بأن لكبر السن دخلا فيه . فنحن كلما كبرنا فى السن - كما قال - ازددنا سخطا واحتجاجا على الواقع . ومن ثمة تزداد الفكاهة والسخرية . ولكن هذه الفكاهة والسخرية - المرة أحيانا - ليستا فى الحوار وحده ، وإنما تسريان فى صلب الحدث الأساسى للمسرحية .

لاتوجد ستار على المسرح قبل إطفاء الأنوار أو بعدها ، وإنما يوجد ديكور هرمى الشكل يوحى بناطحة سحاب . وحين تخفت أنوار الصالة يتحرك الديكور آليا ، وتظهر فى باطن جدار الناطحة ذى الانحدار الهرمى غرفة فى أحد المستشفيات وعلى السرير يظهر رجل ملفوف فى الأربطة والضمادات ، مرفوع الذراع ، مكشوف الوجه ، وإلى جوار فراشه ممرضة سوداء تسلى نفسها بالقراءة ، ويبدو المنظر كله كأن الرجل خارج من حادث مروع . وهو حادث مروع بالفعل . فسرعان مانعرف من الحوار بينه وبين الممرضة السوداء أنه أبيض ، وأنه كان يقود سيارته بسرعة قادما من أعلى جبل مورجان فانحرفت السيارة بسبب عاصفة ثلجية وتحطمت ، وانكسرت ذراعه ، وراح فى غيبوبة ، وهاهو ذا يهلوس وهو راقد على فراشه مرفوع الذراع ، مربوطا بضمادات مثل أقمطة الرضيع .

وسرعان أيضا مانعرف الجانب الآخر للحدث . فإذا كانت الحادثة السابقة مأساة فالملهاة أن الرجل متزوج من اثنتين ، وكلتا الضرتين لاتعرف ضرتها . وتلك هى التراجيكوميديا أو المأساة المضحكة .

الرجل نفسه فى العقد الخامس غنى جدا ، اغتنى من العمل بالتأميز على الحياة وازدهار الاقتصاد فى عهد الرئيس ريجان . اسمه لايمان ، هاجر أبوه من ألبانيا ، واجتهد فى تربيته وتعليمه حتى صار ناجحا . وتزوج -

كعادة أبناء جيله - فى مطلع شبابه ، وأنجب ابنة يافعة تزوجت بدورها من فنان ناجح . ولكنه مثل القرويين عندنا الذين يتزوجون مرة أخرى عندما يغتنون أو يفتح الله عليهم بمحصول وفير . ومع ذلك فهو ليس مسلما حتى يجوز له أن يتزوج أكثر من واحدة . وعند ذاك نصل إلى البعد الأخلاقى لقضيته وقضية المسرحية كلها . فقد كذب على زوجته الثانية الشابة التى تزوجها عندما أصابه الثراء الريجانى ، وأنجب منها طفلا عمره عشر سنوات ، ووعدها بتطليق زوجته الأولى ، ولكنه لم يفعل !

وشيئا فشيئا تتكشف أحداث هذه الملهاة المبكية عندما تأتى الزوجتان أو الضرتان لزيارة الزوج المحطم . وتتخذ عملية الانكشاف وسيلة قريبة من وسيلة انكشاف أحداث أهم مسرحيات ميللر وأجودها : « وفاة مندوب مبيعات » ومادمنا ذكرنا هذه المسرحية فلابد أن نذكر بطلها لومان ، وهو نقيض لايمان فى كل شىء . أما وسيلة الانكشاف ذاتها فهى ذلك المستودع المثير الذى نسميه الذاكرة . فلومان ولايمان يستخدمان ذاكرتيهما فى بعث الماضى والموازنة بينه وبين الحاضر . ولكن ، إذا كان لومان ابن الماضى المشدود إليه باستمرار فلايمان ابن الحاضر المشدود إلى المستقبل . وإذا كان لومان خائب الرجاء ، فاشل الجهد فلايمان ناجح السعى كثير الطموح حتى وهو قعيد كسير . ومع ذلك فكلاهما - فى النهاية - نتاج ظروف اجتماعية واقتصادية متباينة فلومان نتاج الكساد الاقتصادى وضحيته فى وقت واحد ولايمان نتاج الازدهار الاقتصادى وضحيته فى وقت واحد أيضا .

لقد هزمت الحياة لومان . أما لايمان الذى حطم جسمه بتهوره وطموحه الزائد على الحد فقد أعطته الحياة أكثر مما يريد ، وجعلته يعبث بقلبى امرأتيه ، ويعيش على الكذب وخداع النفس . وفجأة صدمته الحياة ، أو صدمه تهوره وطمعه واستهتاره ، فوقع فى شر أعماله عندما انكشفت أسراره ، وانفضت عنه الضرتان مثلما كرهته ابنته من إحداهما . ومع أنه شعر فى النهاية بالسعادة لأنه تخلص من أسراره ، وأرضى ضميره لأول مرة ، وصدق مع نفسه برغم أنفه ، فقد انتهى إلى الوحدة بعد أن انفض عنه أقرب الناس إليه ، ولم يبق له سوى الرثاء لحاله .

● ثلاثية ميللرية

وعند هذا الحد نصل إلى أحد المعانى التى تبثها المسرحية تحت تلافيف مشاهدها المونتاجية المتداخلة والمتقاطعة . فالانسان الذى يريد أن يصدق مع نفسه لابد أن يدفع ثمنا غاليا . ولكنه هنا رجل واحد بين ثلاث

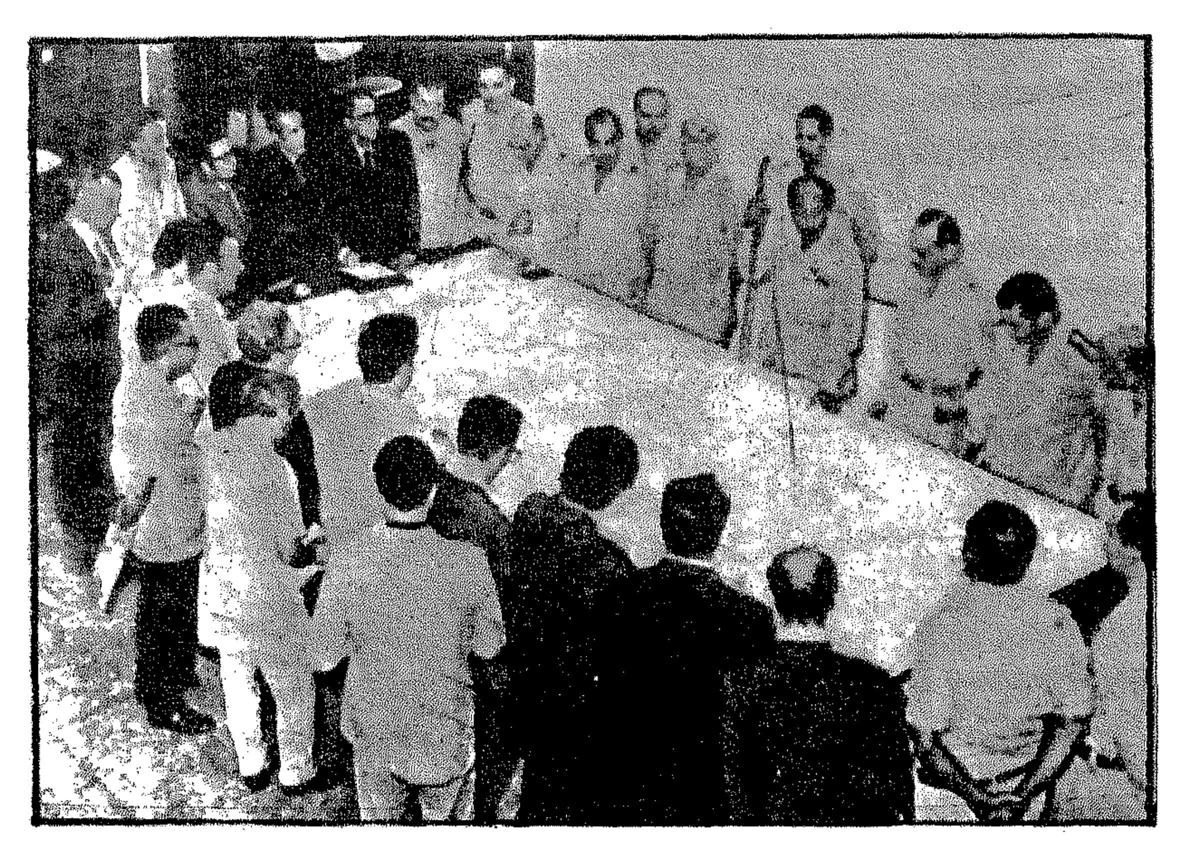
الكتابة للمسرح على مشارف الثمانين

نساء : زوجتان وابنـة ، ومع أن المجتمع الذى يفرز أمثاله واقع تحت سيطرة الرجال المادية والمالية فلابد للرجل فيـه من مشاركـة المرأة وسيطرتها المعنوية . وهذا معنى آخر يتوازى مع المعنى السابق . ولكن المجتمع نفسه ليس فكرة عشوائية أو كيانا بغير معنى . فالمجتمع يقوم على فكرة الأسرة . والأسرة هى خليته الأولى وهدفه فى آن واحد . ومالم تقم هذه الخلية الهدف على الحب والصدق فلاحياة لها ولا أمل فيها . والمال والثراء لايغنيان عن حاجة الانسان الأساسية إلى البراءة . وما البراءة إلا التحرر من الاحساس بالذنب . وهذا أيضا معنى يضاف إلى المعنيين السابقين ، ويصنع معهما ثلاثيـة ميللرية تتسق تمام الاتساق مع العالم المسرحى الذى شكله ميللر منذ رائعته « وفاة مندوب مبيعات » .

قد يقال ـ وهذا ماصرح به بعض نقاد المسرحية الانجليز بالفعل ـ أن هذه الدراما الميللرية الجديدة تصب حمولة فكرية ثقيلة داخل إطار فنى خفيف الوزن . وهذا صحيح . فالشكل الفنى للمسرحية بسيط تقريبا ، يقوم فى فصليها القصيرين على المراوحة بين الماضى والحاضر ، بين العود إلى الماضى على الطريقة السينمائية والثبات على الحاضر ، بين الحاضر المـؤلـم والمـاضـى المشحـون بالذكريات . وقد ظهر هذا الشكل ـ كما أشرنا ـ فى بعض أعمال ميللر السابقة ، مثل رائعته المذكورة ودراماه المسيرية « بعد السقوط » ولكنه فى هاتين المسرحيتين بـالذات كـان أنضج ، وأعمق ، وأحفل بالأحداث . والأحـداث بطبيعتها لب الـدراما المسرحية . فهل معنى هذا أن ميللر شاخ ، ووهنت موهبته إلى حد الارتكاز على الحوار وحده ؟ هل يمكن للحوار المشحون بالخبرة والحكمة ـ كما حدث هنا ـ أن يتحمل وحده عبء إنضاج الدراما ؟ مهما كان الجواب فلابد من الأخذ فى الاعتبار أن « النـزول بالسيارة من جبل مورجان » مسرحية قصيرة لاتحتمل كثرة الأحداث . ومع ذلك فالقصر ليس مبررا لأى شيء فى الدراما سوى اختصار الشخصيات . ولذلك نجح ميللر فى الاكتفاء بعدد محدود من هذه الشخصيات (لايمان وزوجتاه وابنته ومحاميه وممرضته) كما نجح فى رسم كل منها بحيث عوض المتفرج عن بساطة الحدث ، وأضفى على الموضوع المحدود بطبيعته (تعدد الزوجات) حيوية لاغنى عنها .

مذكرات موسى صبرى
٥٠ عاماً فى قطار الصحافة

بقلم: د. غالى شكرى



موسى صبرى مع بعض رجال الجيش والصحافة فى غرفة عمليات اكتوبر السرية

تحتل مذكرات الصحفيين الكبار أهمية خاصة تكاد تكون توثيقية لما تستطيعه هذه الفئة من الاستحواذ على كثير من الاسرار والمعلومات التى قد لا تتوافر لغيرهم . وتزداد اهمية هذه المذكرات اذا كان الصحفى يعمل فى "العالم الثالث" حيث يرتبط على نحو او آخر بالسلطة الحاكمة . اما اذا كان الصحفى مصريا وقد عاصر اربعة عهود متعاقبة ـ النظام الملكى فثورة يوليو الى عهد السادات والمرحلة الراهنة ـ فان أهمية المذكرات الصحفية تتضاعف . أما اذا كان صاحبها هو موسى صبرى ، وهو ظاهرة اشكالية بمختلف المقاييس ، فان مذكراته "خمسون عاماً فى قطار الصحافة" تكتسب وضعاً خاصاً .

مذكرات موسى صبرى

ولعل الملاحظة الاولى التى سجلتها خلال قراءتى لهذا الكتاب الهام ان بعضاً من صفحاته سبق لى التعرف على مضمونها او وقائعها فى كتب سابقة للمؤلف وخاصة فى "السادات : الحقيقة والأسطورة" و«وثائق ١٥ مايو» و«الصحافة الملعونة» . ولكن هذا التكرار لا يسلب الكتاب الجديد قيمته ، فقد حفل بدوره بالعديد من الاسرار والآراء التى تلقى الضوء على بعض الاحداث والشخصيات العامة مما يزيدنا فهماً للمرحلة التاريخية من ناحية ولموسى صبرى نفسه من ناحية أخرى .

وربما كان الجديد تماماً فى هذا الكتاب هو الفصل الاول الذى صور فيه نشأته العائلية والثقافية حيث نتعرف على أسرة قبطية متوسطة من صعيد مصر عانت منذ البدء تناقضا بين "الاصل" الذى تزهو به الام وتفاخر به ، والاصل شبه المتواضع للأب الذى يزهو به الابن ويفاخر . وهى اسرة متدينة فى اعتدال ، لأن علاقة الاب بزملائه من المسلمين كانت البوصلة التى اهتدى بها الابن حتى انه فى سن مبكرة كان يقرأ القران والانجيل معاً . وحين التهب قلبه بالحب الأول كان غرامه المشبوب بفتاة مسلمة . وقد ظل الاسلام فى تكوينه الثقافى موضع الاكبار والاجلال ، خاصة بعد لقائه المهم بالشيخ أحمد حسن الباقورى فى معتقل المنيا عام ١٩٤٣ ثم تواصل هذا اللقاء خارج الاسوار وخاصة بعد قيام الثورة عام ١٩٥٢ . ولكن المناخ العائلى وجمعية الشبان المسيحية فى اسيوط كليهما اثمرا بعض الضوابط والمعايير الدينية التى حكمت رؤية "الابن" للمشكلات الاجتماعية التى صادفها فى بواكير شبابه . غير ان الطموح كان يضغط احيانا على هذه المعايير فينفلت الشاب من قيودها سواء بارتياد اماكن العاهرات او التفكير بارتكاب جريمة قتل حين لم يستطع سداد المصروفات الجامعية . ولم ينقذه حينا سوى ان يبيع والده خاتم الزواج وحينا آخر ان يربح ورقة يانصيب . وكان الاب من مدمنى كتب التنجيم والسحر وتحضير الارواح ، بينما كانت الأم التى تؤمن بالحسد ترى فى هذه الكتب خطيئة بحق الكتاب المقدس . وكانت الأم ذات شخصية قوية ، اما الاب فكان ينصاع لأوامرها ويهرب كتبه الى بيوت اصدقائه وفيها يعقد جلسات تحضير الارواح . وقد انحاز موسى صبرى ـ وهذا اسمه المفرد المركب ـ الى الطرف الاضعف ، والده كامل شنوده "باشكاتب المحكمة" . وكان الطموح الطبيعى للاب ان يعدّ ابنه ليكون محاميا . ولكن الرحلة من الحلم الى الواقع غرست فى الابن سخطاً اجتماعيا على الاثرياء وسخطا وطنيا على الانجليز الذين يحمونهم .

وقد تلقفت هذا التكوين الباكر مجموعة من القراءات والاهتمامات والعلاقات . كانت الجامعة من جهة والسجن من جهة أخرى والصحافة بعدئذ بمثابة البيئة الفكرية والنفسية التى تفاعلت فيها هذه العناصر وافضت فى النهاية الى مسيرة موسى صبرى فى الكتاب وخارجه . كان مصطفى كامل هو النجم الذى يشعل حماسة الخيال ، وكان الحزب الوطنى بافكاره وتحليلاته وماضيه هو الحزب الوحيد الذى يتمتع بثقة قطاع من

الشباب . وكان حزب الوفد هو الحزب الشعبى الواسع النفوذ ، ولكنه لايتمتع بثقة هذا القطاع الذى لا حل وسطاً لديه فشعاره "لا مفاوضة الاّ بعد الجلاء" . انه الحزب المتهم عند هذا القطاع بالمرونة غير المبدئيه . وقد تأثر موسى صبرى تأثراً بالغا بافكار احمد حسين المعاصرة لمرحلته الجامعية ، وقد خصّه فى كتابه بفصل كامل (من ٩٥١ الى ٩٧١) هو مجموعة المراسلات بين زعيم "مصر الفتاة" والشاب موسى صبرى . ثم كانت العلاقة المباشرة والمؤثرة بأنور السادات فى المعتقل جنبا الى جنب مع جلال الدين الحمامصى عنصراً حاسماً فى توجهات موسى صبرى نحو فهم خاص للوطنية المصرية لايقتنع بالشرعية الحزبية والديمقراطية البرلمانية والقاعدة الشعبية . وانما هو يؤمن بالصفوة او المجموعة القليلة العدد التى تنجز ـ اساساً بالعنف المسلح ـ اهدافا محددة كارهاب جنود الاحتلال وبعض الباشوات . ولم يكن موسى صبرى عضواً فى اى تنظيم سرى او علنى ، ولكنه كان قريبا غاية القرب من تنظيمات "المغامرة الوطنية" حتى انه غامر بموجب خطة الحمامصى والسادات بالهرب من السجن الى أن أعادوه إليه .

هذا التكوين الذى يعادى الانجليز والوفد معاً لا يخلو من انفعالات اجتماعية عبر عنها احمد حسين بتحول حزبه الى "الاشتراكية" وقد عبر عن محتواها بمقالاته المعروفة "رعاياك يامولاى" او بافكار ابراهيم شكرى عن الاصلاح الزراعى . وكان تحول مكرم عبيد عن الوفد وصدور "الكتاب الاسود" الذى حرره جلال الحمامصى فى مقدمة الاسباب التى جذبت موسى صبرى الى "الكتلة" . كان مكرم عبيد قبطيا "يتخذ من الاسلام وطنا" ومحاميا بليغا وخصما للوفد بعد ان كان سكرتيره العام . وقد تجاوبت هذه الصفات مع المشاعر والرؤى الاساسية لموسى صبرى الذى لم يشتغل قط فى اية صحيفة وفدية ، وانما فى الصحف التى يدعوها "مستقلة" . وهى صحف تعادى الوفد من حيث المبدأ ، والباقى تفاصيل . وقد تجاوبت هذه المشاعر والرؤى مع اسلوب فى الكتابة وآخر فى الخطابة يعتمد البلاغة العاطفية الانشائية الانفعالية المتحمسة مع او ضد . وهذا هو الجذر الاصيل لما يعترف به موسى صبرى فى خاتمة كتابه قائلاً "ولا غرابة اذا حاسبت نفسى على اندفاعى فى معارك الرأى بعاطفة ساخنة يمكن ان تنفلت بها كلمات قاسية تجرى على الورق ، ولكننى اعترف بأننى لم استطع ان انسلخ عن هذا الاسلوب . انه جزء من طبيعتى العاطفية ، اذا ما ابيت واذا ما عارضت .." (١٠٠٨ و ١٠٠٩) . ولكن موسى صبرى لايكتشف علاقة هذا الاسلوب الانفعالى بفكره السياسى ، والاّ فى العلاقة بين "بلاغة" قادة الحزب الوطنى ومصر الفتاة وبين المغامرات السياسية والمواقف العملية التى اتخذوها فى تاريخ مصر المعاصر ؟ انه الاسلوب الانفعالى فى القول والفعل الذى يعتمد على العاطفة الساخنة ومن ثم الرؤية الاحادية الجانب ، الفردية غالبا ـ فردا واحداً او مجموعة من الافراد ـ والسرية غالبا بمعزل عن الشارع الشعبى دون احتفال كبير بالديمقراطية او التفكير والتدبير الجماعى .

وهكذا من "بلادى" و "اخبار الاسبوع" و "الاساس" و "الزمان" ـ هذه الصحف الصغيرة والمتوسطة ـ انتقل موسى صبرى الى مدرسة "اخبار اليوم" الكبرى . والقاسم المشترك بينها جميعا هو العداء للوفد حتى قيام الثورة ، واسلوب الاثارة الصحفية . لم يكن موسى صبرى "ينتقل" فى واقع الأمر ، وانما هو التكوين والاختيار الباكر فى امتداده الطبيعى . بل ان جلال الدين الحمامصى الذى كان يأخذ معه موسى صبرى اينما ذهب منذ تعرف عليه فى المعتقل اصبح ايضا من اركان "اخبار اليوم" .

ولكن التكوين والامتداد لايمضيان فى خط مستقيم ، يبقى الاتجاه العام تخلله التعاريج التى تتراكم احيانا فتصل إلى حد التناقض بين المقدمة التى كانت والنتيجة التى اصبحت . وعلى سبيل المثال فان موسى صبرى الذى تربى فى مدرسة التشدد الوطنى وما يدعوه بالنقاء والطهر ـ ابيض واسود ـ هو نفسه كغيره من ابناء المدرسة ذاتها الذين حققوا المرونة القصوى فى التعامل مع اسرائيل والانفتاح الاقتصادى . ولكن الموقف من الديمقراطية مثلا لم يتغير . ومن هنا كانت الموافقة الصريحة على الحزب الواحد للثورة والاجراءات الاستثنائية بدءا من الاصلاح الزراعى وانتهاء بالتأميم مروراً بالسجون والمعتقلات والفصل من العمل . ولاريب ان موسى صبرى كان مؤهلاً لاستقبال "الثورة" على النحو الذى جاءت به ، سواء فى جانبها العسكرى او فى جانبها الاجتماعى ، خاصة وانه وجد صديقيه الاثيرين السادات والباقورى . ولكن اعتراض الاتحاد القومى عليه فى انتخابات ١٩٥٧ وترشيح مجدى حسنين ثم نجاحه باغلاق الدائرة عليه ، تسبب ذلك فى "الغصة" الأولى التى اصابت موسى صبرى من النظام الجديد . ومع ذلك يقول "كنت متحمساً للقرارات الاشتراكية ، وانا اضع نفسى فى خانة اليسار غير الشيوعى" (ص ٣٩٦) . غير ان نقله الى جريدة الجمهورية عام ١٩٦٩ لخطأ عابر ـ وكان قد عمل فيها لفترة قصيرة عام ١٩٥٩ ـ ترك اثره العميق لأنه رأى نفسه دوما سمكة تموت بعيدا عن بحر اخبار اليوم .

وكتاب موسى صبرى يكاد يكون صورة لعلاقته بالسلطة . ولأنه يكتب باسلوب انفعالى فقد رسم فى عشرة مواضع جمال عبدالناصر على النحو التالى : فهو يخلو من التعصب الدينى "وكمواطن قبطى لم المس هذه النزعة ابدا فى سلوك عبدالناصر او قراراته" (ص ٢٣٣) . ويؤكد ان حادث المنشية كان محاولة اغتيال حقيقية من جانب الاخوان المسلمين (ص ٢١١) . وقد اتخذ عبدالناصر موقفاً الى جانب توفيق الحكيم حين تعرض لحملة نقدية عنيفة (ص ٣٧٦) ، وكان لطه حسين "مكانة خاصة لدى عبدالناصر" (ص ٣٨٠) . ثم كان ابراهيم نوار قد فصل حين نقلت عنه التقارير موضوعا اخلاقيا بشعا ، فما ان "وصلت الحقيقة الى عبدالناصر حتى الغى القرار" (ص ٣٨٦) . وكذلك الامر بالنسبة لمدير ادارى فى "الجمهورية" شاهد عبدالناصر عمارة يملكها فتساءل من اين له هذا ، ولكن الرجل قدم مايثبت

براءته من اية ظنون فى طهارة اليد فأعاد اليه الاعتبار (ص ٣٩٠) . وفى عهد السادات "بدأ مصطفى وعلى امين ينشران اخباراً وتحقيقات عن القهر والدكتاتورية فى حكم عبدالناصر .. وتدخلت اكثر من مرة لمنع اخبار غير صحيحة او مبالغات تفتقر الى الدليل .. ولكنهما كانا فى قمة الحماسة لهذه الموضوعات والاخبار .. وكان منها موضوع قتل الدكتور انور المفتى بالسم بامر عبدالناصر ، وهو موضوع خيالى جملة وتفصيلا" (ص ٦٨٩) . ويشهد "اننى لم احرم من مرتبى طوال حكم الرئيس عبدالناصر . وكان رأيه طبقا لما سمعته من شقيقه انى كفء فى العمل ولست خائناً للنظام ولست عميلا ، ولكن لى شطحات" .. بينما كان عبدالقادر حاتم هو الذى اقترح فصل موسى من العمل (الصفحة ذاتها) ، وكان رأى على صبرى انه "سافل وابن كلب" (حرفيا ص ٥٨٥) .

هذه هى الصورة التى يرسمها الكاتب لعبدالناصر الذى يأخذ عليه بصورة ضمنية على طول الكتاب اصطفاءه لمحمد حسنين هيكل دون غيره من الصحفيين . وهو يتناول هيكل تناولاً سلبيا منذ تعرف عليه فى اخبار اليوم وقال له البعض ان هيكل قد اعترض عليه الى من قال له بعد عشرين عاماً ان هيكل هو الذى دبر نقله الى الجمهورية . كلها اقوال للآخرين تراكمت فى الصدر وانفجرت فى فصلين كاملين من فصول الكتاب . احدها حول ازمة كتاب الجنرال زوكوف البطل السوفييتى فى الحرب الثانية بين الجمهورية والاهرام ، والآخر حول هيكل مباشرة . ولكن هذا لم يمنعه من اشارات ايجابية حين يقول مثلا "كان هيكل يحب كامل الشناوى ، وكان باراً به ، وكان دائماً العنصر الملطف فى ازمات كامل الشناوى" (٣٦٩) . وقد كان كلاهما فقط ـ هيكل وموسى ـ حول الشناوى لحظة وفاته فانخرطا معاً فى بكاء طويل . اما فى الجانب المهنى فهو يشيد بهيكل اكثر من مرة كاتبا كبيرا مؤثرا وصحفيا رفيع المستوى . وتبقى "الاقاويل" الشخصية من ناحية وعلاقة الرجل بعبد الناصر من ناحية اخرى هى السبب الاكيد فى الموقف السلبى الجامح لموسى صبرى من هيكل . لم ينتقده قط فى موقف سياسى او فى رؤية فكرية ، وانما كانت الظلال الشخصية هى مصدر الخصومة من جانب صاحب المذكرات .

غير ان مسألة الخصومة المستمرة مع هيكل ـ باستثناء فترات بالغة القصر اثناء المرحلة الاولى من حكم السادات ـ تعكس موقف الكاتب من قضية اكثر شمولاً هى علاقة الصحافة بالسلطة . واذا كان الاسلوب الانفعالى قد رسم صورة ايجابية لعبدالناصر ـ علاقته بهيكل هى التحفظ الوحيد ـ فان هذا الاسلوب يرسم صورة اخرى للرئيس السادات . وهى مفارقة حيث ان علاقة المؤلف بالسادات من المعتقل الى الحكم هى العلاقة الحميمة . ولكنه يذكر ان الرئيس الراحل هو الذى طلب حرمان جريدة "الشعب" من الورق حين اتخذت جانب المعارضة (ص ٦١٤) ، وانه هو الذى منع صديقه القديم جلال الحمامصى من الكتابة ، وكذلك منع مصطفى امين حين سخر من النواب الذين هرولوا الى الحزب الجديد برئاسته . وكان السادات هو الذى او شك على تحويل نقابة الصحفيين الى نادٍ اجتماعى

لاعضائها (ص ٩٤٥) و "كان هناك صحفيون مقربون الى السادات يتحدث اليهم طويلا ويمضى معهم اوقاتا فى منزله" (ص ٩٤٧) ولا يتحرج فى ان يطالب بالهجوم او الدفاع ، ويتصل بنفسه لاصدار التعليمات ومتابعتها ، ومعاقبة من يمتنع . ويعترف هنا موسى صبرى بأنه اعترض على فصل النائب الشيخ عاشور اعتراضا شفويا ، ولكنه لم يستطع ان يكتب رأيه . وانه اعترض على استفتاء يحرم الوظائف العامة على الخصوم السياسيين ، ولكنه لم يجرؤ على كتابة هذا الرأى . وانه همس بأن نتيجة ٩٩,٩ فى المائة لا تقنع احداً ، ولكنه لم يكتب هذا الكلام . وان هناك موضوعات اخرى لم يكتب فيها وكان واجبه المهنى يحتم عليه الكتابة . وهذه صورة للسادات افلتت خطوطها بعفوية الاسلوب الانفعالى . ولكن موسى صبرى لم يستكمل خطوط هذه الصورة بموقفه من احداث صحفية وسياسية مجلجلة ، كفصل اكثر من مائة كاتب وصحفى فى بداية عام ١٩٧٣ وتحويل البعض الآخر الى الهيئة العامة للاستعلامات ، لمجرد انهم كانوا اصحاب وجهات نظر مختلفة عن وجهة الحاكم . وتلك كانت البداية . وايضاً لم يشرح لنا حيثيات موقفه من احداث سبتمبر ١٩٨١ التى اعتقلت خلالها المع وجوه السياسة والدين والصحافة . والمعروف ان موقفه كان مؤيداً لقرارات الاعتقال . وكان جديرا به فى كتابه الجديد ان يدافع على الأقل عن هذا الموقف المضاد للديمقراطية . ومعنى ذلك انه فى الاحداث المصيرية كان يصمت اذا تناقض ضميره مع مايجرى ، وكان يؤيد اذا تطابق رأيه مع رأى الحاكم . وكان لذلك يغير من مواقفه ازاء الذين احبهم ورافقهم وتتلمذ عليهم وشاركوا فى صنعه . وهكذا فهو يذكر ان مصطفى امين كان يحرف فى كتاباته بالحذف والاضافة (ص ٦٦٤) . ويرى ان الفترة الطويلة التى قضاها فى السجن هى التى "وراءها حملاته العنيفة على جمال عبدالناصر وحكمه .. على الرغم من انه كتب ٨ مقالات فى صفحة واحدة بالاخبار مثل القبض عليه يدعو فيها الى انتخاب عبدالناصر باسم الحرية والديمقراطية وباسم الشباب والعمال" (ص ٦٧٥) . وكان ـ مصطفى امين ـ هو الذى استقر رأيه على ان يهرب امواله الى الخارج" (ص ٨٠٦) .

وهكذا فموقفه من هيكل فى حقيقة الامر ليس استثناء وان اختلفت البواعث . وربما كان عبدالرحمن الشرقاوى هو الاستثناء الوحيد الذى خاصمه وعاد اليه بعد يوم واحد ، لأن علاقتهما الشخصية تمتد الى ايام الشباب حين اختفى الشرقاوى فى بيته .

ولكن علاقاته باحسان عبدالقدوس واحمد بهاء الدين ويوسف ادريس لم تخل من هذا التوتر الذى يترك مراراته فى القلب . وهو يشيد بكل منهم ، ولكنه سرعان مايكتشف شخصا آخر يختفى فى حلقة المنافسة على القرب من الحاكم . غير انه يندم على اغضاب طه حسين ومحمد مندور ، فالاول ساعده حين كان يبحث عن عمل وزوده بتوصية الى وزير العدل ليعمل فى النيابة ، والثانى هو

الكاتب الوفدى الوحيد الذى كان يقرؤه ويغترف من علمه وحكمته . ومع ذلك اباحت له العاطفة الساخنة والاسلوب الانفعالى ان يغضبهما اثناء عمله فى "الجمهورية" . وهو يعتذر عن ذلك ، كما يعتذر لخالد محيى الدين لأنه سمح لنفسه بنشر رسالة كاذبة حوله .

وهو يعترف بأنه خصم للماركسية ، ولكنه يشهد للماركسيين الذين عمل معهم بأن بعضهم "كان يرى انه لاقيمة للقرارات الاشتراكية بغير الديمقراطية" (ص ٣٩٦) . وان خالد محيى الدين وفيليب جلاب ومحمد سيد احمد هم الذين ساعدوه على زيارة بعض اقطار اوروبا الشرقية فى وقت لم يكن يجد مكانا يتجه اليه وهو مغضوب عليه فى "الجمهورية" حتى ان احد الزملاء ـ محمد الحيوان ـ كتب فى صحيفة الحائط لا يرحب بوجوده .

وتبقى غصة فى حلق موسى صبرى على طول صفحات الكتاب (١٠٤٨ صفحة) وهى الغصة الطائفية التى لازمته طيلة حياته بالرغم من احترامه العميق للاسلام والمسلمين منذ كان طفلا الى تعرفه على الشيخ الباقورى . وما يؤكد ان الامر وصل لديه الى حد "العقدة" هو انه كان يكرر الحادثة التى يستشهد بها اكثر من مرة ـ وهى على اى حال من الصفات الشائعة فى عدة فصول ـ فيشير فى ص ٦١٣ الى انه فى احدى الدعاوى التى رفعها ضده احد المحررين طلب المحامى صاحب الدعوة رد المحكمة لأن القاضى مسيحى والمتهم ـ اى موسى صبرى ـ هو ايضا مسيحى . وهو يعود فى صفحة ٨٤٠ ليتذكر القصة من جديد . وفى انتخابات ١٩٥٧ وزع خصمه او احدى الجهات منشورات تقول "انتخبوا موسى صبرى كامل شنودة" ، وفى اخبار اليوم كانوا يوزعون منشورات اخرى تقول انه "يحابى الاقباط" (ص ٦١٩) فما كان منه الا ان اصدر امراً بمنع تعيين اى قبطى فى الادارة او فى التحرير او فى المطبعة . وقد كرر هذه الحكاية فى ص ٨٤٠ و ٨٤١ و ٨٤٢ . وزاد الطين بلة ان الصحفى الراحل مصطفى شردى ـ موسى صبرى هو الذى جاء به من مكتب بورسعيد الى اخبار اليوم فى القاهرة ـ علق على مقال لموسى حول الريان بأنه هجوم دينى ، وليس هجوما على النصب والاحتيال (ص ٨٦٠) .

هذه القصة لم تفارق خيال صاحب المذكرات ، وهى تتجاوزه الى ماهو اعمق ، فقد كان رد الفعل الانفعالى مثيرا : ان يحرم القبطى ايا كانت كفاءته من العمل ، وان يذهب فى الخصومة مع الكنيسة ـ اثناء ازمة سبتمبر ١٩٨١ـ الى آخر المدى .

ولكن هذا كله لا ينفى واقع الأمر ، وهو ان موسى صبرى قد اخلص لتكوينه المبكر فى الفكر والوجدان الاجتماعى ، وانه فى المهنة كان احد اساتذتها الكبار . وهو يهدينا فى هذا الكتاب خلاصة التجربة بصوابها واخطائها . ولعلها بأخطائها تفيد اكثر فى رؤية مرحلة شديدة التعقيد ، وتضع ايدينا على اخطر المسائل : وهى الديمقراطية التى تحرر الكاتب والصحفى من اعباء الوصاية ايا كان مصدرها .



• شهداء العبارة •

كُتب الممات على الجميع ... يا مصر يا أم الجميع
ماذا نقول وقد اتى ... هذا القضاء ولا رجوع
الصبر اوجب ما يليـ ... ـق وبئس ما ياتى الجزوع
من ذا يخلد فى الدنا .. ؟ ... الكل فى وقت صريع
سيان فوق فراشه ... من ينتهي ، واخو الدروع
ماذا نصيب من الحيا ... ة سوى المصاعب والدموع
وشرابنا ملح وما ... ر طعامنا مثل الضريع
من مات فاز بموته ... ونجا من العيش الوجيع
رحم الإله فقيدنا ... إن كان كهلا او رضيع
او كان شيخا زائرا ... او كان من زهر الربيع
رحم الإله جميعهم ... وحباهم النزل الرفيع
لاتجزعوا .. إن الشها ... دة تاج هاتيك الجموع
وعزاؤنا يا « مصرنا » ... أن الممات على الجميع

أحمد قاسم أحمد ـ قنا

• أغلاط مطبعية فى العدد الماضى •

● وقعت فى العدد الماضى من « الهلال » عدة أغلاط مطبعية بسبب السرعة فى تنفيذ العدد ، نذكر منها :

ـ عنوان كلمة « عزيزى القارىء » ظهر كالآتى : « مصابيح الظلام مائة عام فى .. » وصوابه : « مصابيح الظلام ، فى مائة عام » ..

ـ فى مقال « هؤلاء اقاموا صناعة الغناء » جاءت هذه العبارة : « سقوط بغداد تحت سنابك خيل هولاكو سنة ٥٦ هـ ـ ١٢٥٨ م » .. وصوابه : « سنة ٦٥٦ هـ ـ ١٢٥٨ م » .

ـ فى مقالة « عرابى والهلال » ص ٣٧ هذه العبارة : « نشر الهلال فى

العدد السابع عشر حديث عن الثورة العرابية » وصوابه : « نشر الهلال حديثا » ..

ـ في كلمة « الرافعي والهلال » ص ٦٢ وقع خطأ في اسم بعض كتب الأديب الكبير مصطفى صادق الرافعي ، ومن ذلك تسمية كتاب له « راية القرآن » وصوابه : « تحت راية القرآن » .. وتسمية كتاب آخر له : « على السفور » وصوابه : « على السفود » .. والسفود هو الحديدة التي يشوى بها اللحم ، أي « سيخ الكباب » ! .. وفي هذه الكلمة أيضا أن الجزء الأول من ديوان الرافعي صدر سنة ١٩٠٠ والصواب : سنة ١٩٠٥ .

وثمة أغلاط مطبعية أخرى نتركها لفطنة القارىء الكريم ، ونعتذر منها إليه .

● أمية المتعلمين ●

● كثرت الدعوات إلى الاهتمام بمحو الأمية كمشكلة خطيرة تقف في سبيل التنمية ووعي الفرد بمشكلات مجتمعه ولكننا في الوقت نفسه نتجاهل مشكلة أخرى وهي مشكلة أمية المتعلمين وجهلهم الثقافي بأبسط القضايا والأمور التي تعد من البديهيات ، ويرجع ذلك إلى قلة الاكتراث بالقراءة فإذا ما سألت بعضهم عن سبب إحجامهم عن القراءة تعللوا بارتفاع أسعار الكتب وبعدم وجود الوقت الكافي ، للقراءة وهذا ليس بالسبب المقنع ، فما أكثر أوقات الفراغ عندنا . أما أسعار الكتب فليس بالسبب الذي يدفع إلى البعد عن القراءة وخاصة أن لدينا قدرا كبيرا من المكتبات العامة تملأ بلادنا ، وكذلك يوجد عدد لا بأس به من المجلات الثقافية التي تباع بأسعار زهيدة وتحرر بأقلام ممتازة ، وتحرص على أن تعطي جرعات ثقافية في شتى فروع العلم والمعرفة وربط القارىء بأحدث التيارات الفكرية مع اهتمامها بقضايا التراث وعلى رأس هذه المجلات مجلة « الهلال » العريقة التي تشرف على الاحتفال بعيد ميلادها المئوي .

وفي النهاية أقول إننا في عصر يشهد ثورات في المعلومات ويشهد التقدم العلمي والتكنولوجي الذي يكشف لنا يوما بعد يوم أننا نحتاج في هذا العصر إلى الانسان المثقف الواعي والمتبحر في شتى فروع العلم والمعرفة والذي يعرف مشكلات مجتمعه ويسهم في حلها بما لديه من زاد ثقافي خصب .

خلف أحمد محمود
كلية الآداب ـ بسوهاج

● الدراجة .. وأنا ●

كتب الشقاء عليّ ، والدراجة ... علقت من ليست إليّ بحاجة !
ياويلتنا ! فى كل ناحية معا ... حتى نسيت من الخطى الديباجة
ومن الغرابة أننى فى هذه ... إن نوقشت ، فإجابتى .. بفجلجة !
لاشىء عندى يستهيم يحملها ... إلا أنا ، وهوايتى المزواجة !
قال الطبيب : لك المسير مجند ... ما بال نفسى عاندت بسماجة ؟!
أهو الدواء .. هو الدواء .. مبعض ... للنفس ؟! يا للنفس من لجلجة !
ما ذنبها .. تجرى بمثلى .. دائما ... فى الصبح .. عند الظهر .. فى الإدلاجة ؟!
فى الصحو حيث تطير مثل غزالة ... فى الطين حيث تدب .. دب دجاجة ؟!
لو أنها نطقت لقالت للورى ... قولوا له : لا تظلم الدراجة
قدر عليك ولا مفر .. حبيبتى ... سيرى .. بأمر الله .. لا مهتاجة !!

رمضان أبوغالية
رئيس التعليم الثانوى بإدارة قويسنا

● الهلال فى مائة عام ●
رد على تعليق

● لم أكن بمصر حين صدر عدد شهر نوفمبر من مجلة « الهلال » ، ومن ثم لم اقرأه إلا أخيرا ، وقد طالعت فيه كلمة الأستاذ أحمد حسين الطماوى تعليقا على مقالتى فى عدد سبتمبر بعنوان « مجلة الهلال .. بعد قرن من الزمان .. » .

وأود بادىء ذى بدء أن أشكر الأستاذ الكاتب على تنويهه بشخصى فى بداية كلمته ، أما ملاحظاته فإننى أعقب عليها بما يلى :

ـ فيما يتعلق بتاريخ « هجرة » الأستاذ جرجى زيدان إلى مصر وعمره وقتئذ ، فإن الأستاذ الطماوى محق تماما فى ملاحظاته على ماجاء بمقالتى ، ولكن سبب الخطأ فى العبارة هو سقوط سطرين كاملين من مسودة الأصول ، ويهمنى فى هذا الصدد أن أؤكد للأستاذ الطماوى أننى أعرف بالتفصيل سيرة مؤسس « الهلال » ، لا بوصفى مشتغلا بالتاريخ للصحافة المصرية فحسب ، بل كذلك بحكم إطلاعى على كل أعداد مجلة « الهلال » وما يتصل

بها من وثائق ، عندما أشرفت على إصدار « كشاف الهلال » بجزئيه الأول والثانى .

ـ أوافق الأستاذ الطماوى على أن مجلة « المقتطف » توقفت « رسميا » بعد ثورة ٢٣ يوليو بثلاثة أشهر ولكن التوقف الفعلى كان عقب صدور عدد أغسطس (مع شقيقتها اليومية : المقطم) ، ولم يتضمن عددا سبتمبر وأكتوبر ١٩٥٢ سوى بعض ما كان مختزنا فى إدارة المجلة من موضوعات ، كما أن كمية النسخ المطبوعة منهما كانت محدودة جدا ، وقد تبين فيما بعد أن أصحاب « المقطم » و« المقتطف » غادروا مصر نهائيا فى أغسطس ١٩٥٢ ، وعلى أى حال فإننى أعتذر للأستاذ الطماوى وللقراء عما ورد فى مقالتى خاصا بتاريخ توقف « المقتطف » من خطأ غير مقصود .

ـ أما دليلى على أنه كان لمجلة « الهلال » مشتركون ثابتون وقراء منتظمون فى استراليا وأمريكا اللاتينية .. الخ (من ابناء الجاليات العربية المهاجرة بالطبع) فهو مستقى من أعداد « الهلال » القديمة نفسها وما تضمنته من رسائل القراء وإعلانات عن الاشتراكات ووكلاء المجلة فى تلك « المهاجر » .. إلخ . فليرجع إليها الأستاذ الطماوى إذا شاء فى مكتبة دار الهلال .

ـ عندما ذكرت فى مقالتى أن مجلة « الهلال » تميزت بتوظيفها للرسم والصورة منذ صدورها ، وبأنها تضمنت بابا لعرض الكتب الجديدة .. الخ ، لم اقصد مطلقا أنها « تفردت » بهذا كله ، فالتميز يختلف عن التفرد وعلى ذلك فالقول بأن هناك مجلات أخرى فعلت ما فعلته مجلة « الهلال » لا يتناقض مع ماذكرته ، وأود أن أشير هنا كذلك إلى أن مجلة « الهلال » تميزت عن تلك المجلات القصيرة العمر المحدودة التوزيع « بالاستمرارية » فيما استحدثته من تجديدات .

ـ قول الأستاذ الطماوى .. على اعتبار أن ذلك فاتنى رصده ـ أن مجلة « الهلال » أول مجلة تؤرخ للصحافة العربية أمر لا علاقة له بما قصدت إليه من مقالتى ، فإنما أردت أن أرصد بعض المستحدثات « الحرفية » أو « المهنية » فى تقنية العمل الصحفى دون أن أتطرق إلى مادة « الموضوعات » التى اهتمت المجلة بنشرها ، فلذلك حديث آخر يخرج عن نطاق مبحثى .

ـ لم أستسغ قول الأستاذ الطماوى « كان عليه أن يستخدم التواريخ لتحديد الاتجاهات أو على الأقل تقريبها ... الخ » ، فإن هذا ـ فيما أرى ـ لايدخل فى إطار النقد المتعارف عليه ، وإنما هو يجاوز ذلك إلى محاولة التدخل والتوجيه المباشرين لكاتب اختار بنية معينة ومضمونا محددا لمقالته .

د . احمد حسين الصاوى

● كلمتان ●

(١)

هو النار عشقك
فارتحلى
عن دخان انهزامك
واقتربى من جمودى

(٢)

لو انى أملك دفة هذا العالم
لنسجت الدمعة في عينيك قصائد
ونثرت عنادك فى شعرى الحالم
وخرجت الملم للناس بقاياك
واعلن ...
إنى فى حبك ظالم

فارس عبدالشافى عطية
الأصلاب - شبراخيت - البحيرة

● رحيل طه حسين وأفكاره ●

● عجبت لمن احتفلوا بذكرى رحيل طه حسين ولم يجفلوا برحيل افكاره التي عاش يكافح لنشرها .. وأحرى بنا أن نذكر بأفكاره التى اضاءت فى كتبه وعشرات المقالات والقرارات والمواقف التى خلدت ذكره في تاريخ مصر الحديث .

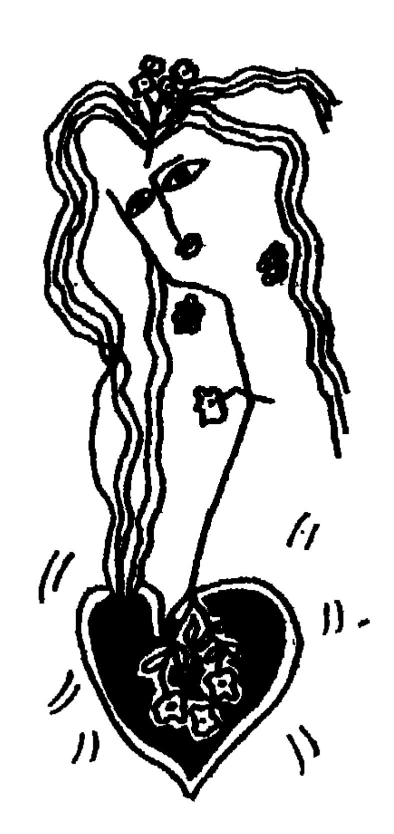
ودعا طه حسين إلى الاخذ بأسباب التفكير العلمى واصبحنا نسبح أو نغرق فى كل منقول ولا معقول .. ودعا إلى أن يكون التعليم كالماء والهواء ، وأصبح التعليم باهظ الثمن ضئيل الأثر بفضل ازدحام الفصول وتخلف المبانى والأجهزة وإحباط المعلمين وتزايد الرسوم المدرسية ، أى أصبح ملايين الناشئة محرومين من الماء العذب .. والهواء النقى داخل المدرسة وخارجها ودعا طه حسين إلى تحكيم العقل فيما نقرأ وما نكتب ، وغاب العقل عن كثير مما نقرأ وما نكتب ، واصبحت المعركة الحضارية معلومة النتائج منذ الآن ، بين عالم يملك وسائل التفكير ويظفر فى تطبيقها وإبداعها ، وعالم غائب الوعى يحلم بالماضى ويلوك العبارات الرنانة ولايدرك معالم العصر ..
هل يظهر بيننا رفاعة آخر ومحمد عبده آخر وننتظر بعد ذلك طه حسين جديد لعل وعسى أن يلحق بأحفادنا وقد ارتدوا إلى العصر العثمانى .. رحمك

الله يا طه حسين .. ورحم أفكارك التى تسارع إلى الرحيل اليك .. تاركة الأحياء بانتظار الرحيل .

زغلول توفيق
بنى سويف

• حلم •

من افق معترك سامى
اقبل رخ
يحمل نارا فى اجنحته
القى جمرا بين يدى
فى رائحته ..
المس طقسا
من نيران الهيكل انثى .. خرجت
فى شفتيها سحر أحمر
لثمت شفتى
فى نشوتها
صعق العالم
سكبت قبسا فى رئتى
احرق جسدى
صارت روحى فى موكبها
اعلم - اجهل هذا الموكب
القى كوم رمادى
يتبرعم شمسا
يصاعد افقا



نوبى حسانى محمود
كلية الآداب بقنا

• فى مقال للدكتور شكرى عياد •

● فى يدى العدد المائة من مجلة « الهلال » الشهيرة (أم المجلات العربية) .

قرأت فى هذا العدد مقالا للدكتور الفاضل (شكرى محمد عياد) دراسة لشعر الشاعر (حسن توفيق) يلقبه بالشاعر العذرى المعاصر ، ويذكر أبياتا

لهذا الشاعر ويقول أن أبياته هذه تذكره بأبيات مجنون بنى عامر ، وثبت الأبيات فإذا هما بيتان (لتوبة بن الحمير) صاحب (ليلى الأخيلية) وثبت البيتين على هذا الوجه :

ولو أن ليلى العامرية سلمت .·. علي ودونى جندل وصفائح
لسلمت تسليمه البشاشة أو زفا .·. إليها صدى من جانب البقر صائح

وقد وهم فى البيتين عدة أوهام :

أ ـ نسب البيتين إلى مجنون ليلى ، وهما لتوبة بن الحمير .

ب ـ غلط فى رواية البيتين ، كما رأينا فويق هذا وقال (ليلى العامرية) ، والصواب (الأخيلية) .

ج ـ صحف « زقا » فحولها « زفا » ولعله خطأ مطبعى .

وصواب البيتين هو :

ولو ان ليلى الأخيلية سلمت .·. على ودونى جندل وصفائح
لسلمت تسليم البشاشة او زقا .·. إليها صدىء من جانب القبر صائح

روكس بن زائد العزيزى
عضو مجمع اللغة العربية الأردنى
عمان

● القديم والجديد ●

● فتحت التليفزيون فوجدت فيلما قديما أبيض وأسود لعلى الكسار ، فقررت ألا أتابعه .. رغم حبى الشديد لهذه الأفلام القديمة ، فلقد ضعف بصرى فى مشاهدة التليفزيون ، وأنا كنت اتخذت قرارا بعدم مشاهدة الفيلم الذى سبق لى أن شاهدته ..

لكننى تثاقلت فى تنفيذ قرار عدم المشاهدة .. وأقنعت نفسى بضرورة التروى قليلا حتى أتأكد أننى شاهدت هذا الفيلم .. فمثل هذه الأفلام القديمة لا تعوض أبدا ..

ركزت اهتمامى فى الصورة والحوار .. فوجدت فنا جميلا أراه لأول مرة .. فجزمت بأننى لم اشاهد هذا الفيلم من قبل ، ولذا يمكننى أن أتابعه ، فالفن فى الماضى كان شيئا محترما ، بل إن كل شىء فى الحياة كان جميلا ، ويا طالما تمنيت أن أكون موجودا فى أى زمن قديم .

وارتاحت نفسى لقرار متابعة هذا الفيلم .. لكننى ذهلت جدا حينما وجدت الكسار يردد للمرأة التى يحبها فى الفيلم احد مقاطع أغنية (شوّقنا) لعمرو دياب ..

فكيف يمكن لفنان كبير مثل الكسار أن يردد فى استحسان هذه الأغنية التى تنضم إلى ما يطلقون عليه (الأغنية الشبابية) التى شوهت الغناء العربى ؟

ما هذا ؟ مالى قد تساءلت عن الفرع وتركت الأصل .. إن السؤال الأول والأخير هنا هو : كيف يمكن ذلك وحسب علمى أن الكسار قد مات منذ زمن بعيد قبل أن يولد مؤلف هذه الأغنية ؟

إذن ، فلابد أن مؤلف الأغنية قد سرق هذا المقطع ، هذا هو التفسير المنطقى الوحيد الذى لن يجادلنى فيه أحد ..

عدت ثانية إلى تركيزى فى الفيلم متناسيا تلك القضية لكنى ذهلت كثيرا فى أثناء مشاهدتى حيث تحولت الصورة إلى ألوان .. وهى ألوان حديثة تشى بأن الفيلم قد صور فى التسعينيات .

إذن ، فلابد من الرجوع إلى قضية (استشهاد الكسار بأحد مقاطع أغنية عمرو دياب فى موضع استحسان) فى ضوء هذه الحقيقة الجديدة فيطل علىَّ برأسه تفسير منطقى جديد ، هو أن الكسار قد اعتزل التمثيل ثم أشيع عنه أنه قد مات ، ثم عاد فجأة إلى التمثيل ، وعلى ذلك فلابد أن الكسار قد استمع إلى هذه الأغنية ، فأعجبته كثيرا فاستشهد بها فى فيلمه ، ولم يجد غضاضة فى أن يقولها متغزلا فى المرأة التى يحبها فى الفيلم .. وبالتالى يمكننا استبعاد اتهام السرقة الذى نسبناه إلى مؤلف الأغنية .

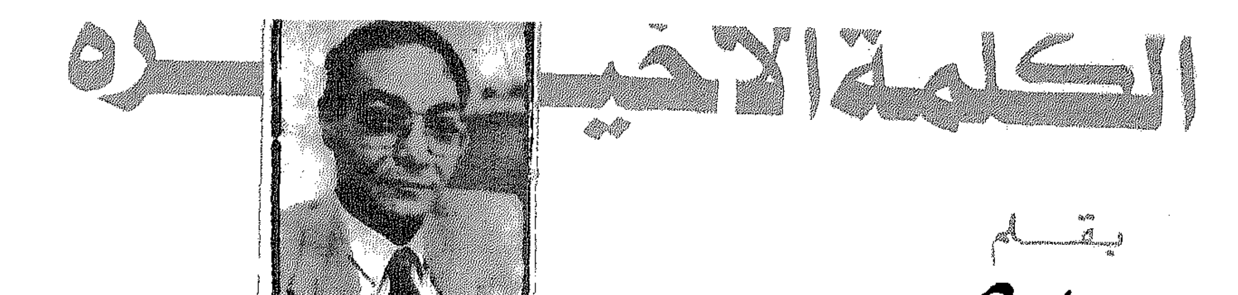
وأخيرا .. بعد انتهاء الفيلم بحثت عن هذه الأغنية ، واستمعت إليها باحترام لأول مرة .

عبدالعزيز محمد الشراكى
المنصورة

• الليالى •

الليالى يا حبيبى ذوبت روحى اغترابا
واستقرت فى رحاب القلب اشواكا وصابا
وانا اسالها عنك .. فلا تعرف شيئا
عن نهار تخذ الأشعار والأحلام فيئا
فعلا طائر قلبى بين كفيه وغنى
وتمنى ، ليته يعرف ماذا يتمنى
كان لايعرف غير الحب فاختار العطاء
فهوى محترقا ـ من عشقه ـ حين أضاء

عبدالرحيم الماسخ ـ سوهاج



في حكايات ألف ليلة موقف تقليدى يتكرر في أكثر من قصة : تقبل الدنيا على أحد الناس فيكثر أصدقاؤه ومريدوه ، ثم تدبر الدنيا فيتخلى عنه أصدقاء الأمس جميعا ، وكنت دائما ما ابتسم وأنا أقرأ عبارات ألف ليلة الساذجة ، وهى تصور نجم الأمس السعيد وحيدا فى بيته إلا من خادم وفىّ لا حيلة له يشارك سيده همومه . ثم شاءت الظروف فى منتصف السبعينات أن اكتشف أن هذا الموقف القصصى النمطى حقيقى تماما ، فى وقتها غضبت علىّ السلطة ففقدت منصبا كان أيامها مرموقا فى الإذاعة وقبعت فى بيتى ، وبين عشية وضحاها أنفض عنى كل من أعرفهم تقريبا غير حفنة من الأصدقاء الحقيقيين تعد على أصابع يد واحدة ، أما أولئك الذين كانوا يزحمون مكتبى من لحظة الحضور إلى الانصراف فقد اختفوا ، وأما الجرس الذى لايكف عن الرنين فقد خرس ولم يكن عندى أى خادم أختبر وفاءه أو يعزينى بمواساته .

وفى تلك الأيام من الوحدة القاسية (وماهو أمرّ منها) إذا بطارق على الباب دهشت حين رأيته ، لم يكن قد زارنى من قبل قط . كان أستاذا أجلّه وأحترمه وأديبا أحبه ولكننا لم نكن أبدا صديقين نتبادل الزيارات ، وكم كانت فرحتى بمجيئه فى تلك الليلة ! .. لم يقل أبدا كلمة عن مشكلتى .. تبادلنا حديثا عن الأدب والحياة وشربنا الشاى ثم انصرف .. ولكن مغزى الزيارة كان واضحا وكان بلسما لجرح حقيقى ، فهل يحق لى الآن أن أصرح باسمه دون أن أستأذنه وهو الذى يمنعه الحياء دائما من أن يعلن فضله ، فليغفر لى أستاذى شكرى عياد أن أفعل ذلك الآن !

أما الآخر فلن أذكره ولن ألمح إليه ، كانت معرفتى به أوثق من معرفتى بشكرى عياد على الأقل كان يشكو دائما أيام عملى فى الإذاعة من أنه مضطهد ، فكنت أحرص على استضافته وتقديم أعماله كما استضفته فى آخر برنامج أعددته للتليفزيون أيامها ، ثم إنه فى حراك السبعينات الانفتاحى صعد نجمه ، وما أن فقدت منصبى حتى انقلب حربا علىّ دون أن أدرى لذلك سببا .

وأنا بطبيعة الحال أحب شكرى عياد ، وأسعد حين أرى إنتاجه يزداد باستمرار عمقا ونضجا ، أعرف أن ذلك نتاج نفس صافية تنشد بالفعل الحق والخير والجمال . غير أنى لا أكره الآخر ، فأنا أعرف أن الكراهية تلتهم صاحبها قبل أن تصيب غيره ، وحين أرى قلمه يذوى يوما بعد يوم ولا يخط غير المرارة والضغينة والسباب للآخرين فإنى أدعو الله أن يلطف به !

الأقباط

فى السّياسة المصريّة

بقلم: د. مصطفى الفقى

● هذا الكتاب يرد على مزاعم دعاة الطائفية السوداء ويرد على الذين ينساقون وراء تيّار التعصب الأعمى، ويؤكد أن مصر العريقة تحمل فى ذاكرتها الوطنية أرحب تجارب الإنسان منذ التقت على أرضها الديانات وامتزجت فوقها الثقافات..

مع الباعة ومكتبات دار الهلال والمكتبات الكبرى

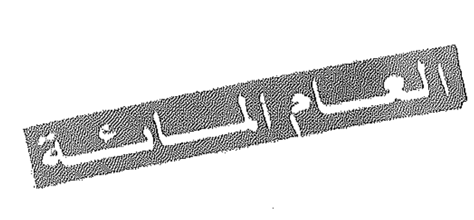
الثمن ٤ جنيهات



مصر للطيران

أهلاً بكم في عالمنا...

الحرية وحدود الله في الكتاب الذي دخل مؤلفه السجن



القرآن .. والتلاوة بالألحان

الطب و الصيام بلا جوع



بسم الله الرحمن الرحيم

يعلن مجلس الأمناء لجائزة ومعجم البابطين عما يأتى:

أولاً: فتح باب الترشيح لجائزة

عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعرى

فى دورتها الثالثة (١٤١٢هـ - ١٩٩٢م) وذلك فى المجالات التالية:

أولاً: جائزة الإبداع فى مجال الشعر

وقيمتها عشرون ألف دولار أو ما يعادلها، وتمنح لواحد من الشعراء الذين أسهموا بإبداعهم فى اثراء حركة الشعر العربى، من خلال عطائه الشعرى المتميز.

ثانيا: جائزة الإبداع فى مجال نقد الشعر

وقيمتها عشرون الف دولار أو ما يعادلها، وتمنح لواحد من نقاد الشعر ودارسيه من الذين أسهموا بنقدهم ودراستهم - النظرية والتطبيقية - حول الشعر العربى، فى اثراء الحركة الشعرية العربية.

ثالثا: جائزة أفضل ديوان شعر

وقيمتها عشرة آلاف دولار أو ما يعادلها، ويشترط ألا يكون قد مضى على صدور الديوان اكثر من خمس سنوات حتى ١٩٩٢/٤/٣٠.

رابعا: جائزة أفضل قصيدة

وقيمتها خمسة آلاف دولار أو ما يعادلها، ويشترط أن تكون القصيدة قد نشرت فى إحدى المجلات الادبية أو الصحف خلال عامى ١٩٩٠-١٩٩١.

جهات الترشيح: الجامعات، المؤسسات أو الهيئات الحكومية والأهلية، اتحادات الادباء، ويجوز أن يقوم الأفراد بترشيح انفسهم وسيتم عرض الانتاج على لجنة تحكيم من المتخصصين العرب فى مجال الشعر ونقده لاختيار الفائزين وفق الشروط التالية:

١- أن يكون النص باللغة العربية الفصحى.
٢- ان يكون النص منشوراً، ويرسل كما نشر، أو مصوراً عنه فى ثمانى نسخ.
٣- أن يرفق بالنص بيانات المتقدم كاملة بما فى ذلك الاسم الكامل والعنوان الدقيق ورقم الهاتف.
٤- ان يرفق بالنص موافقة خطية من المرشح على التقدم للجائزة وفق شروطها المعلنة.
٥- على المرشحين لجائزتى الابداع فى مجال الشعر ونقده ارسال كامل انتاجهم كل فى مجاله فى ثمانى نسخ.
٦- يحق للجائزة اعادة نشر القصائد الفائزة ومختارات من انتاج الفائزين.
٧- لا تلتزم الجائزة بإعادة الانتاج الذى تقدم به المشاركون سواء فازوا أو لم يفوزوا.
٨- يقفل باب الاشتراك فى المسابقة يوم ١٩٩٢/٤/٣٠.
٩- يتم اخطار الفائزين فى شهر سبتمبر ١٩٩٢ ويقام حفل توزيع الجوائز خلال شهر اكتوبر من ذات العام.

ثانيًا

البدء فى اعداد معجم البابطين للشعراء العرب المعاصرين.
ويدعو الشعراء العرب لارسال معلومات وافية عنهم مع صورة شخصية للشاعر وثلاث قصائد يختارها من شعره

المراسلات

جمهورية مصر العربية - القاهرة ص.ب (٥٠٩) الدقى - الرمز 12311
دولة الكويت: ص.ب ٥٥٩ الصفاة - الرمز 13006 ت ٢٤١٢٧٣٠
ويكتب على المظروف اسم الجائزة أو المعجم.

قضية حرية الرأى والأديان ، قضية دقيقة وحساسة وأنها تحدث جدلا واسعا لدى المثقفين ، وخاصة بعد الحكم الذى صدر على كتاب « مسافة فى عقل رجل » الذى كتبه علاء حامد ، ومصادرة مجمع البحوث الإسلامية لعدد من الكتب فى معرض القاهرة الدولى للكتاب مؤخرا ذلك جعل الجدل قائما والموضوع مثارا فى أوساط الرأى العام لم يكن هناك أحد يمكنه أن يقول كلمة فى هذا الموضوع الهام أكثر من الدكتور أحمد كمال أبو المجد الذى يجمع بين معرفة واسعة بالشريعة الإسلامية ، وهو أحد أساتذة القانون الدستورى ، كما أنه رجل فكر وعمل ، وكان له دوره السياسى وتولى وزارة الإعلام ، ونظرا لأهمية هذه القضية ، تفتح « الهلال » صفحاتها لأى صاحب رأى يدلى بدلوه فيها .

السنة المائة - مارس ١٩٩٢ - شعبان ١٤١٢ هـ .

الهلال

مجلة ثقافية شهرية تصدرها دار الهلال
أسسها جرجى زيدان عام ١٨٩٢

رئيس مجلس الإدارة
مكرم محمد أحمد
نائب رئيس مجلس الإدارة
عبد الحميد حمروش
رئيس التحرير
مصطفى نبيل
المستشار الفنى
محمد أبو طالب
مدير التحرير
عاطف مصطفى
المشرف الفنى
محمود الشيخ
سكرتير التحرير التنفيذى
عيسى دياب

الادارة : القاهرة - ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا)
ت : ٣٦٢٥٤٥٠ (٧ خطوط)
المكاتبات : ص . ب : ٦١٠ - العتبة - الرقم البريدى : ١١٥١١ - تلغرافيا المصور - القاهرة ج . م . ع .
مجلة الهلال ت : ٣٦٢٥٤٨١
تلكس . 92703 Hilal un
فاكس . FAX : 3625469

فكر وثقافة

في هذا العدد

الغـــلاف :
تصميم الفنان
محمد أبو طالب

الإشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى ١٢ جنيها فى ج . م . ع . تسدد مقدما نقدا أو بحوالة بريدية غير حكومية - البلاد العربية ١٢ دولارا - أمريكا وأوربا وآسيا وافريقيا ٢٥ دولارا - باقى دول العالم ٣٥ دولارا .

والقيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال - ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد .

ن النسخة
سوريا ٧٠ ليرة ، لبنان ١٥٠٠ ليرة ، الأردن ١٠٠٠ فلس ، الكويت ٧٥٠ فلسا ، السعودية ٨ ريالات ، الجمهورية اليمنية ٢٥ ريالا . تونس ٥ر١ دينار ، المغرب ١٥ درهما ، البحرين ٨٠٠ فلس ، قطر ٨ ريالات ، مسقط ٨٠٠ بيسة ، غزة والقدس والضفة ٨٠ سنتا ، ايطاليا ٢٧٠٠ ليرة ، لندن ١٢٥ بنسا ، نيويورك ٤ دولارات ، الامارات العربية المتحدة ٨ دراهم ، الجماهيرية الليبية العظمى ١ دينار .

أمل جديد .. وهلال جديد

كل سنة وأنت طيب يا عزيزى القارىء ، فها هو ذا شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن يعود إلينا بصيامه وقيامه وجهاده وذكرياته الممتدة على ألف وأربعمائة عام ، شاهد خلالها شهر رمضان فجر الإسلام ، ثم ضحى الإسلام ، ثم ظهر الإسلام ، على نحو ما كتبه المؤرخ الكبير المرحوم أحمد أمين فى موسوعته الشهيرة ..

وقد توقف المؤرخ الكبير عند ظهور الإسلام كأنه رأى أن الإسلام سوف يبقى متوهجا فى ظهيرة خالدة حتى يوم الدين ، ولن تميل شمسه بعد الظهيرة المتوهجة إلى العصر والأصيل ثم تذهب منحدرة إلى الغروب ! ..

إن أعداء الإسلام والمسلمين يتصورون أن ساحة التاريخ توشك أن تخلو من هذا الدين وأهله ، لأن أهل هذا الدين قد بلغوا بجموحهم وتخلفهم وعجزهم حافة الهاوية ، حتى ليظن من يرى حالهم هذه أنهم بقايا أمة انقرضت ، فلا يكون لأنفسهم نفعا ، ولا لأعدائهم ضرا ، ولم يبق لهم من وسيلة ولا حيلة إلا الإستسلام للمقادير التى حكمت عليهم فى نهاية القرن العشرين وبداية القرن الواحد والعشرين أن يعودوا القهقرى ، أسرى وسبايا وغنائم فى أيدى الدول الكبرى الاستعمارية كما كانوا عند انهيار الأمبراطورية العثمانية فى الحرب العالمية الأولى قبل بضعة وسبعين عاما .

إن هلال شهر رمضان الذى هو خير الأهلّة ، والذى يرتقبه المسلمون كل عام ، يطل عليهم هذا العام متسائلا :

– هل أعددتم شيئا من القوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم ؟ ! ..

ولعلهم أعدوا القوة ورباط الخيل ، ولكن العزائم خائرة ، والعقول حائرة ، والأيدى جائرة ، وإن كانت الألسنة ثائرة ، والأقلام فائرة .. ولا ينصر الله إلا من ينصره ! ..

عزيزى القارىء

فى شهر رمضان يلتفت المسلمون إلى تراثهم ، لأنه ديوان فكرهم ومفخرهم وتاريخهم ، ومرآة عبقريتهم وحضارتهم ، ولكن التراث يحتوى الجواهر والدرر ، كما يحتوى الخرز والحجر ! ومهمة المثقف العربى والمسلم الآن أن يعرض من التراث ما يساعد على نهوض العرب والمسلمين .

ومن هذا المنطلق يقدم إليك « الهلال » فى هذا العدد بعض كتب التراث بأقلام لفيف من المفكرين ذوى النظر الثاقب المستنير ، القادرين على أن يستخلصوا من التراث طاقة جديدة يتحرك بها هذا الجسد الهامد المتمدد بين المحيط الأطلسى والمحيط الهندى والمحيط الهادى ! ..

عزيزى القارىء

ترددنا كثيراً قبل أن نتحرك قليلاً بسعر هذا العدد والأعداد التالية من « الهلال » هذه الحركة اليسيرة التى جعلت سعره مائة قرش ، على أن هذه الزيادة لن تسد إلا أقل القليل من الخسارة المادية التى تحملناها طويلا فى سبيل الكسب المعنوى والأدبى لك ولنا ..

ولعلك - يا عزيزى القارىء - لا تتصور أن هذا السعر الجديد هو فى الحقيقة ثلث ما يتكلفه العدد الواحد من « الهلال » ، ويتحمل «الهلال» بقية النفقــات بالرغم من أنه لا ينزح المال من بئر بترول ، ولا يتلقى المعونة إلا من قارئه الذى يسهم بقروشه ، مدركا أن « الهلال » هى المجلة الثقافية الوحيدة فى مصر التى تناضل فى الميدان منذ مائة عام ..

إننا نعتمد على قارئنا غير أبهين بالأخطار التى يحملها الورق المصقول الذى يباع بالمجان تقريبا لكى يتحكم فى عقول جماهير القراء بمادته اللزجة الضارة ..

ونحن على ثقة من أنك يا عزيزى قارىء « الهلال » ستبقى دائما معه ، فإن ما بينكما هو المحبة الفكرية والروحية ، وإن هـذا النوع من المحبة هو الجوهر الثمين الذى لا يمكن أن تحصل عليه الأوراق المصقولة الخالية من الفكر والمحبة والصدق ..

وكل عام - يا عزيزى القارىء - وأنت بخير وعافية وأمل متجدد كتجدد هلال شهر رمضان كل عام .. ورمضان كريم ! ..

حرية الــــرأى..
واحترام الأديان..

بقلم : د. أحمد كمال أبو المجـد

من فروع المعرفة وفنون الأدب التى تفرد بها تراثنا العربى والإسلامى فرع سماه الأقدمون «أدب المناظرة» - وهو باب من أبواب العلم عالج به أسلافنا قضيتين نحتاج إليهما أشد الحاجة ونحن نتناول موضوع حرية الرأى وحدود تلك الحرية وكيفية التوفيق بينها وبين قيم أخرى تحرص الجماعة على حمايتها وتثبيتها ورد العدوان عنها ..

القضية الأولى : تحديد منهج الحوار وتبادل الرأى حول القضايا الخلافية ، عن طريق وضع عدد من القواعد الموضوعية التى تكفل الوصول بهذا الحوار إلى غايته من تجلية الحقائق ، ووزن الاعتبارات المتعارضة ، وتمحيص أوجه الخلاف ، على نحو يمكن الجماعة - فى نهاية الحوار - من الوصول إلى أفضل الحلول المتاحة لمشاكلها .

القضية الثانية : الاتفاق على عدد من «الآداب» التى تتصل بالحوار وسلوك أطرافه ، صيانة لكرامة أولئك الأطراف وحفاظا على الاحترام المتبادل بينهم ، بما يشجعهم على مواصلة الحوار وهم آمنون من سهام التجريح وقذائف الاتهام بالباطل، وهى قذائف تغرى كثيرا من أصحاب الرأى بإيثار السلامة ، وترك ابداء الرأى والابتعاد عن ساحات الحوار ،

مادام أصحاب الرأى يتعرضون – فى غيبة الالتزام بآداب الحوار – لسخائم التعريض والتجريح التى يجيد فنونها من تعنيهم الغلبة والظفر فى مبارزات الكلام .. أكثر مما تعنيهم خدمة القضايا العامة التى يدور حولها ذلك الحوار ...

* حرية الفكر والتعبير *

ولقد تذكرت هذا كله ، وأنا أتابع كثيرا مما كتب وقيل خلال الشهور الأخيرة . دفاعا عن حرية الفكر والتعبير .. فى مناسبة الحكم القضائى الذى صدر بتوقيع عقوبة جنائية على مؤلف كتاب «مسافة فى عقل رجل» وعلى من قام بتوزيعه بعد صدور القرار بمنع تداوله . ذلك أن أول أصول «الحوار» أن يحدد موضوعه وأن تحدد – على وجه الدقة – عناصر الخلاف حول ذلك الموضوع .

والسؤال الذى كان ينبغى على الكتاب والمتحاورين أن يطرحوه فى مناسبة هذه القضية هو البحث فى «تكييف» محل النزاع .. وهل تضعنا هذه القضية أمام حالة من حالات الحجر غير الدستورى على حرية الرأى .. أم تضعنا أمام حالة من حالات «القذف والسب» التى لم يدع أحد قديما ولا حديثا أنها من صور التعبير عن الرأى التى تتسع بالحياة الدستورية والسياسية ..

ولقد شغلنى هذا السؤال وأنا اتابع الحماس الشديد والانفعال الذى جرت به مناقشة الحكم القضائى الصادر بمعاقبة مؤلف ذلك الكتاب ، وكيف افترض أكثر المعترضين على الحكم القضائى . أن ذلك الحكم ينطوى على مصادرة لحرية التعبير ولحق المخالفة والنقد .. وأنه بذلك يمثل نكسة خطيرة وينفتح بها باب إرهاب الباحثين والمفكرين والأدباء والنقاد .. ويفرض بمقتضاها وصاية على عقول الناس وضمائرهم يمسك زمامها أفراد معدودون من رجال الدين والعاملين فى المؤسسات الدينية الرسمية ..

وبدا لى إزاء ذلك أن الحاجة ماسة إلى إلقاء مزيد من الضوء على جوانب قضية «حرية الرأى» التى اكتسبت فى العقل والوجدان العربى مفهوما «رومانسيا» غامضا يهتف الجميع باسمه ويشقون الحناجر صياحا بشعاراته دون أن يعنوا بدراسة وظائفه الحقيقية فى الجماعة . وفى ظل هذا الموقف العاطفى الخالص أمكن لكثير من أصحاب السلطان أن يجوروا على تلك الحرية ، كما أمكن لكثير من رافعى شعاراتها أن يسيئوا إليها وأن يجوروا باسمها على قيم وحريات أخرى ..

والتوفيق بين حماية حرية الرأى وبين قيم أخرى يحتاج المجتمع إلى حمايتها هى الأخرى ، يثير عددا من ادق مشاكل العلم

حرية الرأى واحترام الأديان !

السياسى والقانون الدستورى ، وهى مشاكل سوف تطرح نفسها بمزيد من التعقد على الرأى العام وعلى الجهات القضائية المسئولة عن حماية تلك المبادئ والحريات المتعارضة ..

وسنحاول فيما يلى أن نضع بين يدى الباحثين فى هذا الميدان عددا من الحقائق الأولية الكبرى التى تعينهم على إيجاد صيغ مقبولة للتوفيق بين هذه الحريات ..

الحقيقة الأولى

إن من المقرر فى الفقه الدستورى والعلم السياسى على السواء ضرورة الفصل بين حرية الاعتقاد والفكر من ناحية وحرية التعبير عن الرأى من ناحية أخرى .. فحرية الاعتقاد والفكر حرية مطلقة لا سلطان للدولة ومؤسساتها عليها ، إذ ان الفكر والاعتقاد أمران مستقران فى الفؤاد ، مستكنان فى العقل والضمير .. وما داما لا يخرجان إلى المجتمع من خلال التعبير له؟؟؟ فلا شأن للقانون بهما ، ولا سلطان للدولة على أصحابهما .. أما إذا اختار صاحب الفكر والعقيدة أن يخرجهما إلى الناس وأن يعبر عنهما بما يعن له من صور التعبير ، فإن نتاج هذه الممارسة يدخل « المجال الاجتماعى » ويلتزم - ضرورة - بقواعده وضوابطه .. ومن ثم لا يتصور أن تكون حرية التعبير حرية مطلقة، إذا ليس فى السلوك الاجتماعى بصوره المختلفة حرية مطلقة ..

الحقيقة الثانية

أن تجارب الأمم والشعوب على اختلاف ثقافاتها ومساراتها التاريخية قد دلت على ضرورة الإفساح لحرية التعبير ومنحها حماية دستورية خاصة .. كما دلت على أن هذه الحماية هى وحدها الكفيلة بانطلاق الفكر باحثا عن الحقيقة ومبدعا فى جنبات الكون .. كما دلت فى النهاية على أن هذا الانطلاق هو العاصم للجماعة من الزلل، وهو الهادى إلى الرشد ، والكفيل بتعلم الناس جميعا من تجاربهم وأخطائهم

وانطلاقا من هذه التجارب الطويلة ظهرت فى الفقه العام السياسى والدستورى نظرية تذهب إلى أن حرية التعبير تتميز بمركز ممتاز [illegible] بين سائر الحقوق والحريات .. باعتبارها مدخلا ومفتاحا لحماية سائر الحقوق والحريات .. وبناء على هذه النظرية ذهبت بعض أحكام القضاء فى الولايات المتحدة إلى أنه إذا كان الأصل فى جميع التشريعات افتراض أنها متفقة مع

نصوص الدستور ، ووجود قرينة أصيلة على هذا الاتفاق فإن الأمر يختلف فى خصوص التشريعات التى تمس حرية التعبير أو تنتقص منها إذ تقوم قرينة عكسية مؤداها أن هذه التشريعات تخالف الدستور حتى يتم إثبات توافقها مع الدستور (١) .

الحقيقة الثالثة

أن أى قيد تشريعى أو إدارى على حرية التعبير من شأنه أن يحدث أثرا تصاعديا فى الحجر على تلك الحرية ذلك أن من المألوف فى السلوك الإنسانى أن الفرد يتوسع عادة فى ابتعاده عن دائرة المحظور .. ومعنى هذا أن القيد الذى يهدف المشرع من ورائه إلى تضييق مساحة حرية التعبير بمقدار معين ، يؤدى فى النهاية إلى تقييدها بما يجاوز كثيرا ذلك المقدار . فإذا ذكرنا أن الإبداع والحوار الجاد حول القضايا العامة يحتاجان إلى توفر أكبر قدر من حرية التعبير لأدركنا خطورة الأثار السلبية التى تترتب على ترخص المشرع وتوسعه فى فرض القيود على حرية التعبير .

الحقيقة الرابعة

أنه فى مقابل الحقائق الثلاث السابقة فإن من المسلم به أن هناك صورا من التعبير لا تحميها الدساتير عادة ولا القوانين ما تمنحه لحرية التعبير كأصل عام من حماية دستورية .

ومن هذا النوع على سبيل المثال ألفاظ السب والقذف التى يبلغ مساسها بكرامة الأخرين وسمعتهم وأعراضهم ومشاعرهم مبلغاً يرجح على أى منفعة تعود على الجماعة أو على صاحب الرأى من تعبيره الجارح لكرامة الأخرين .. ولهذا لم يخل نظام قانونى من تقرير عقوبات جنائية لجرائم السب والقذف .. ولم يقل أحد أن فى عقاب مرتكبى هذه الجرائم ما يجور على حرية التعبير التى يحميها الدستور. ومن هذا النوع كذلك التعبيرات بالقول أو بالصور أو بالكتابة عن معانٍ خاشة للحياء وهو ما يطلق عليه لفظ «الفحش» odsenity أو صور الإثارة الجنسية Pornography .

وقد كان من أدق المشاكل التى واجهت المشرعين والقضاة فى العديد من الدول مشكلة وضع الحد الفاصل بين التعبيرات الجنسية التى قد يقتضيها البحث العلمى أو تتطلبها بعض صور الأدب الواقعى والتى تتمتع بالحماية الدستورية المقررة لحرية التعبير.. وبين التعبيرات الفاحشة فحشا مجرداً لا يخدم شيئاً من الأهداف العلمية أو الأدبية .. ولكن المبدأ المستقر فى

(١) ظهرت هذه النظرية فى القضاء الأمريكى للمرة الأولى فى عبارة أوردها القاضى ستون زفسيخها عضو المحكمة العليا عام ١٩٣٨ فى قضية Products Careolene .

حرية الرأى واحترام الأديان !

تشريعات عشرات من الدول وفى أحكام محاكمها التى تفسر نصوص دساتيرها هو أن الدستور لا يحمى «الفحش» وأن التعبير الفاحش أو الفاضح لا يدخل فى نطاق حرية الرأى، ولقد عبرت المحكمة العليا الأمريكية عن هذا المبدأ المستقر تعبيرا دقيقاً وقاطعا فى حكمين أصدرتهما عام ١٩٥٧ فى قضية روث ضد الولايات المتحدة، وقضية ألبرت ضد كاليفورنيا ذاهبة إلى أن جميع الأفكار تتمتع بالحماية الدستورية الكاملة حتى تلك التى لها قدر ضئيل من القيمة الاجتماعية ، وتلك التى تعتبر بغيضة فى ظل المناخ الفكرى السائد .. وذلك ما لم تتضمن اعتداء على قيم ومصالح أخرى أولى بالرعاية .. ولكن من الثابت والمستقر – فى ذات الوقت – رفض التعبير الفاحش هضف زذ ن دق بحسبانه تعبيرا مجردا من أية قيمة اجتماعية .. ولا يتمتع – لذلك – بالحماية الدستورية ومعنى هذا كله – وبدون استطراد إلى مزيد من التفاصيل حول تحديد مدلول الفحش – والأبحاث المستفيضة حول أدق المعايير التى يجب على المحاكم أن تستند إليها لتحديد ذلك المدلول – إن هناك صورا من التعبير لا تحميها الدساتير ، ولا يعتبر تقييدها – بالتشريع أو بأحكام القضاء ، عدوانا على حرية التعبير ..

ومن هذه الصور كذلك استخدام عبارات وعرض أفكار معينة فى مواجهة جمهور رافض لها تماما ، ومستثار بسبب عرضها على نحو يهدد باختلال الأمن ، وهو ما عرف فى الفقه الدستورى باسم مخاطبة الجمهور الرافض hostile audience .. ومعنى هذا أن طرح أفكار وتعبيرات تصدم الشعور العام وتستثيره على نحو يهدد بوقوع ردود أفعال تخل بالأمن والاستقرار يمكن أن يكون مدخلا لتقييد حرية طرح مثل تلك الأفكار والتعبيرات ..

فإذا أضفنا إلى ذلك كله فكرة النظام العام والآداب لما تعذر علينا فهم المبررات التى تسمح بتقييد بعض صور التعبير من الرأى ..

وفى ضوء الحقائق المتقدمة جميعا ، نستطيع أن نتصدى لوضع الحدود الفاصلة بين حرية النقد وحق مخالفة الأفكار السائدة ، وبين صور من التعبير تتجه مباشرة إلى خدش الحياء العام أو إلى تجريح المعتقدات الدينية السائدة تجريحا لا تقتضيه الضرورات الأدبية والفنية ، ولا تكون له أية قيمة اجتماعية هادفة ..

ولقد انتشرت خلال السنوات الأخيرقم كتابات أدبية وقصصية تنطوى على سخرية بالأديان وتحقير للأنبياء ، وتجريح فاحش للرسل بالعبارات الصريحة أحيانا أو بالرمز الواضح الذى لا يكاد يكون رمزاً أحيانا أخرى . وعز على النقاد والمحللين أن يجدوا هدفا – أى هدف – لهذا اللون من التجريح ، كما عز على كثير منهم أن يجدوا ضرورة أدبية أو فنية لاستخدام هذه التعبيرات أو تلك الرموز بحيث لم يبق من هذه التعبيرات إلا أنها تمس جمهور الناس فى صميم عقائدهم ومقدساتهم ، وأنها تجرح شعورهم كما يجرحه اللفظ النابى والصورة الفاضحة الفاحشة ..

وأنها لا تبدو لها أية قيمة اجتماعية تبرر استخدامها فهل تتمتع هذه التعبيرات – رغم ذلك كله – بالحماية الدستورية .. وهل يعتبر منعها أو تقيدها عدوانا على حرية الرأى يهدد المجتمع المفتوح ويصادر حق النقد ، ويؤذن بوصاية شاملة على الأفكار تهدد الابداع وانطلاق الأفكار وتؤذن بالعودة إلى نظام محاكم التفتيش ورقابة الرقباء الدينيين ؟ ! لا نظن ذلك أبدا، وما نظن الشرع المصرى قد تخطى حدود الدستور حين قرر فى المادة ٩٨ من قانون العقوبات عقاب من استخدم القول أو الكتابة .. بقصد إثارة الفتنة أو تحقير أو ازدراء أحد الأديان السماوية أو الطوائف المنتمية إليها . والضمان الحقيقى لكى لا تتحول هذه النصوص إلى قيد ثقيل على حرية النقد والابداع ، يتمثل فى توصل المحاكم إلى معايير منضبطه تحدد معنى ما اشتمل عليه ذلك النص التشريعى من عبارات ، مدخلة فى اعتبارها بمناسبة كل قضية – أن مفهوم الشعور العام ، مفهوم متحرك يختلف تقديره من عصر إلى عصر ومن ظرف سياسى واجتماعى إلى ظرف سياسى واجتماعى أخر ... وليت المتخصصين من كتابنا وأدبائنا ورجال القانون والسياسة يبذلون من الجهد فى وضع تلك المعايير ، ما بذله بعضهم فى الدفاع عن كتابات أدبية ، يعلم أصحابها أنهم تجاوزوا الحدود واقتحموا على الناس – بالعدوان – دائرة المشاعر الدينية والقيم الاعتقادية المستقرة ، دون أن تضطرهم إلى ذلك ضرورات خدمة هدف سياسى أو اجتماعى له حد أدنى من القيمة الاجتماعية وهو الحد الذى يمنحه الحماية الدستورية التى يتمتع بها الحق فى التعبير عن الرأى .

إن حرية التعبير تستحق منا جميعا أن نكون على أعلى درجات اليقظة والشجاعة دفاعا عنها وتأمينا لاستخدامها وحرصا على ألا يستخف أحد بالحماية الدستورية المقررة لها ... ولكن هذا كله ينبغى أن يبذل – بغير تراخ ولا تهاون – فى الميدان الحقيقى .. ميدان التعبير عن الأراء والمواقف السياسية والاجتماعية .. أما إثارة المعركة ودخولها بكل أنواع الأسلحة حين يكون الأمر فى حقيقته سباً وقذفاً وعدواناً على قيم اجتماعية وعقائد ، مستقره ، فليس من الحكمة ولا من حسن السياسة ولا من البطولة فى شىء .

التلاوة بالألحان

فى شهر رمضان

بقلم : كمال النجمى



يبدو لى أن تلاوة القرآن الكريم بالألحان كانت بداياتها الأولى فى شهر رمضان قبل ألف وثلاثمائة سنة ، لان إظهار الوجد فى التلاوة يكون على أشده فى ليالى هذا الشهر الوضئ ، ومن شأن الوجد أن يثير التغنى ، فإذا تغنَّى القارئ استدعت حنجرته بلا قصد ولا اعتمال محفوظها من الألحان - قَلَّ أو كثر - فإذا القارئ يصدح بالآيات صُدَاحَ الوجد والطرب ! ..

وفى زماننا يتلو جميع القارئين آيات الكتاب بالألحان ، وقبل زماننا بأزمان . كانوا أيضا يتلونها بالألحان ، ولكن قلائل من الجامدين المتزمتين مازالوا حتى اليوم ينكرون التلاوة بالألحان ، مع أنه لا يوجد الآن بلد إسلامى واحد يمنعها ، على اختلاف المذاهب بين أهل السنة والجماعة ، وغيرهم من الرافضة والشيعة والبقية الأخيرة من فرق الخوارج ..

إن التغنى بالقرآن الكريم فن قديم ، بدأ فى أيام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واستمر بلا انقطاع فى جميع العصور الإسلامية التى عرفت دولا كثيرة ، ونظما للحكم مختلفة ، ومذاهب وفلسفات لا تعد ولا تحصى ..

قال النبى عليه السلام : من لم يتغن به – أى بالقرآن – فليس منا ..

وسمع عليه السلام صوت سالم مولى أبى حذيفة يتغنى بالقرآن فقال : « الحمد لله الذى جعل فى أمتى مثل هذا » ..

وكان عليه السلام يحب سماع عبد الله ابن مسعود يتغنى بالقرآن ..

أما أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، فإنه لما سمع أبا موسى الأشعرى يتغنى بالقرآن ، قال لمن حوله : من استطاع أن يتغنى بالقرآن غناء أبى موسى فليفعل ..

وكان عبد الله بن مسعود وعبد الله بن عباس وعطاء بن أبى رباح ، ثم أبو حنيفة وأصحابه ، والشافعى وأصحابه ، وغيرهم من علماء السلف يرون أن تحسين الصوت بالقرآن ، وتحسين القرآن بالصوت ، معناهما إباحة الطرب الوجدانى بقراءته ، مع التزام أصول القراءة الصحيحة التزاما تاما ..

التلاوة بالألحان

ومن المعروف أن المسلمين فى العهد النبوى وعهد الخلفاء الراشدين ، كانوا يقرأون القرآن بحسب لغاتهم المتعددة ، وأفصحها سبع لغات ، أولاها لغة قريش ، وهى لغة النبى الذى نزل عليه الكتاب ، فكان الناس من قريش وغيرها متى قرأوا بلغاتهم تخالفوا فى بعض كلمات أو حروف أونطق ، فلما سئل النبى فى ذلك قال : إن هذا القرآن نزل على سبعة أحرف ..

فكانت القراءات تختلف باختلاف القبائل العربية ، ولم يخرج بهم هذا الاختلاف كثيرا ولا قليلا عن آيات الكتاب ..

ولما أُنشئت المدن الكبرى فى العراق كالبصرة والكوفة ، قرأ الناس فى البصرة بقراءة أبى موسى الأشعرى ، وقرأوا فى الكوفة بقراءة عبد الله بن مسعود ، وقرأ أهل الشام ومصر واليمن بقراءات أخرى . وقال أهل كل بلد إنهم أصح قراءة من سواهم ، حتى حسم أمير المؤمنين عثمان بن عفان هذا الخلاف إذ جمع المصاحف المتباينة من الناس ، وأمر بكتابة مصحف لا خلاف عليه ، يُقرأ بلغة قريش ..

لكن الخلاف بين الناس فى القراءة عاد بعد مدة ، فصار كل فريق يقرأ مصحف عثمان بقراءته التى يراها أقوم من سواها ، وبادر الحجاج بن يوسف الثقفى والى العراق فى عهد الخليفتين عبد الملك بن مروان وابنه الوليد ، فأمر بوضع النقط على حروف المصحف ، ولكن بقيت الكلمات غير مشكولة حتى تم شكلها على يد الخليل بن أحمد فى بداية العصر العباسى الأول ، فانقطع الخلاف إلا قليلا، واستقر الأمر على القراءات السبع المتواترة عن نافع بن أبى رويم ويزيد بن القعقاع – وكلاهما فى مدينة رسول الله – وعبد الله بن كثير فى مكة ، وأبى عمرو بن العلاء ويعقوب الحضرمى فى البصرة ، وعاصم بن أبى النجود وحمزة بن حبيب الزيات وعلى الكسائى وخلف البزاز فى الكوفة ..

ثم زيدت هذه القراءات فصارت عشرا ، واعتبرها العلماء كلها أصولا للقراءة ، جائزة كلها فى القراءة والصلاة ..

مصاحف بخط اليد

وفى عصرنا تنتشر فى مصر وفى أكثر البلاد العربية والإسلامية قراءة القرآن برواية « حفص » ورواية « ورش » ..

أما المصاحف المنتشرة فى ليبيا وموريتانيا وبعض جهات تونس والجزائر والسودان ، فإنها برواية قالون ، ورواية الدورى ، ويكتبها الناس هناك بخط اليد ، ولا يطبعونها فى المطابع ..

وقد انحصر الفرق بين القراءات آخر الأمر فى قليل من حركات الضبط والإمالة ونقط بعض الحروف وتصريف بعض الأفعال ، وعدد الآيات .. ومرجع

عـددها إلى تقسيم الآية الواحـدة إلى آيتين ، أو إدماج آيتين فى آية واحدة .. وأما الاختـلاف فى النقط ، فتجد فى سورة الأعراف والفرقان والنمل : « الرياح بشراً » .. تكتب وتُقـرأ برواية حفص : « نشراً » بالنون .. وفى سورة « يس » كلمة « سدا » بفتح السين فى حفص ، وتُقرأ بالضم فى « ورش » .. وفى سـورة « الحديد » قوله تعالى : « فإن الله هو الغنى الحميد » برواية حفص ، تُقرأ بحـذف « هـو » فى رواية « ورش » .. وفى سـورة « الشمس » برواية حـفص : « ولا يخاف » ، تُقرأ : « فلا يخاف » برواية ورش ..

ويعلّق البيـان الملحق « بالمصحف المعلم » الذى أشـرف الأزهـر عـلى إخراجه ، وطباعته على هذه الفروق الطفيفة قائلا : « كلٌ يتلو بحسب الزواية التى توارثها وحفظ عليها ، وجميعها صحيح ومُنزل مصـداقا لقـوله تعـالى : « ولقد يسرنا هذا القرآن للذكر » ..

إن ضبط قراءة الكتاب بلغة قريش قد تم سنة ٣٠ للهجـرة فى عهد الخليفـة عثمان ، وكتب منه أربع نسخ ، منها نسخة أرسلت إلى مصر ، وما زالت مصر منذ ذلك اليوم دارا للقرآن الكريم ، وموئلا لقرائه ، وفيها ظهر أعظم هؤلاء القراء ، وتوالت أجيالهم أربعة عشر قرنا بلا انقطاع ، وحسبك منهم فى عصرنا أمثال المشايخ محمـد رفعت ومصطفى إسماعيل وعبده عبد الراضى وعلى محمود وعبد الفتاح الشعشاعى ، ومن قبلهم أحمد ندا ومحمود الداخلى وإسماعيل سكر ، صعوداً إلى الشيخ الفيومى الـذى تحدثت عنه تقارير الحمـلة الفرنسية على مصر سـنة ١٧٩٨ودونت بعض قراءته بالعـلامات الموسيقية ..

القراءة بالألحان وضوابطها

سئل أحمـد بن حنبل : ما تقول فى القراءة بالألحان ؟ .. فقال لسائله : ما اسمك ؟ .. فأجاب : محمد .. فسأله ابن حنبل : أيسرك أن يقال لك : يا موحمد .. بالمد ؟ ! ..

إن ابن حنبل هنا لم ينكر إلا العبث بأصول النطق الصحيح للألفاظ ، فإنْ تغنّى القارئ بالآيات فى نطق صحيح فما وجه الاعتراض عندئذ ؟ ! .. ألا يرى المتشبثون بكلمات ابن حنبل أنه لم يعترض إلا على النطق غير الصحيح ، ولم يذكر شيئا عن الألحان بذاتها ، لأنه إنما أراد استنكار النطق غير الصحيح فى جميع حالاته ، ومنها حالة التغنى بالألحان ! ..

وفى « التبيان » للإمام النووى ، قال : أجمع العلماء من السلف والخلف ، من الصحابة والتابعين ، ومن بعدهم من علماء الأمصار ، على استحباب تحسين الصوت بالقرآن ، ودلائل هذا من حديث رسول الله

مستفيضة عند الخاصة والعامة ..

وفى « زاد المعاد » قال ابن القيم : كان عبد الرحمن بن الأسود بن يزيد يتتبع الصوت الحسن فى المساجد فى شهر رمضان .

وقال بعض معاصرى الإمام الشافعى: رأيت أبى والإمام الشافعى ويوسف بن عمر يستمعون القرآن بالألحان .. (أى .. ولا ينكرون ذلك على قارئه) ..

وكان أبو حنيفة وأصحابه يستمعون القرآن بالألحان ، فاتبعهم أهل العراق ، كما اتبع أهل مصر إمامهم الشافعى وأصحابه ..

وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لَلّهُ أشد أذَناً إلى الرجل الحسن الصوت بالقرآن من صاحب القينة إلى قينته » ..

وقال عليه السلام : « لم يأذن الله بشئ ما أذن لنبى يتغنى بالقرآن » ..

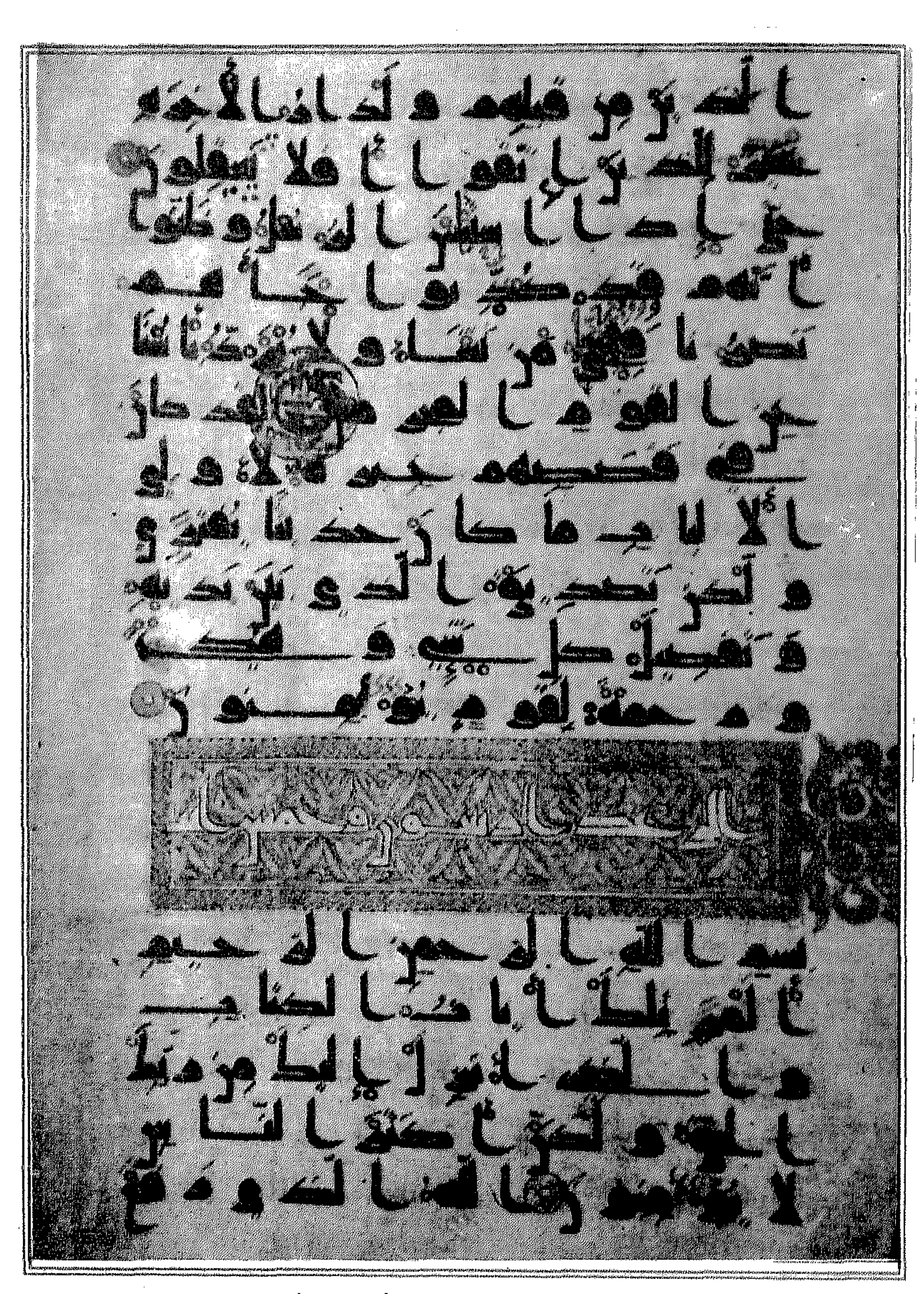
وعن أبى موسى الأشعرى أن رسول الله قال له : « لو رأيتنى وأنا أستمع لقراءتك البارحة ، فقال أبو موسى : أما والله لو أعلم أنك تستمع قراءتى لحبّرتها لك تحبيرا » .. أى لحسّنتها بصوتى أعظم تحسين ..

وعن جبير بن مطعم ، قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ فى المغرب بالطور ، فما سمعت أحداً أحسن صوتاً أو قراءةً منه ، فلما سمعته قرأ : « أم خُلقوا من غير شئ أم هم الخالقون » خلت أن فؤادى قد انصدع ، وكاد قلبى يطير ! ..

وكان جبير مشركا حين سمع هذا ، فكيف بالمسلم حين يسمعه ؟ ! .. وقد هدى الله جبيراً إلى الإسلام بما سمعه من ترتيل رسول الله ..

وعلى هذا يمكن أن يقال إن التغنى بالقرآن الكريم بالألحان ، أو بغيرها ، مستحب شرعا ، وقد حث عليه النبى والصحابة والتابعون وأئمة المسلمين ، إلا من خشى منهم أن يكون فى ذلك تبديل فى نطق الكلمات ، كالإفراط فى المد ، وإشباع الحركات حتى تصير الفتحة كالألف ، والضمة كالواو ، والكسرة كالياء ، أو يقع إدغام فى غير موضعه .. وهذا ما كان يشير إليه ابن حنبل فى قوله لسائله : أيسرك أن يقال لك : يا موحمد .. أى بمد ضمة الميم حتى تصير واوا ..

ويبدو أن ابن حنبل - رحمه الله - لم يستمع إلى القرآن مرتلا بالألحان إلا من قراء ضعاف ، يمدون الضمة والفتحة والكسرة ، ولا يُظهرون التشديدات ، ولا يوفون الغنات ، ولا يتمون الحركات ،



مصحف شريف مكتـــوب بقلم كـــوفي على رق

ولا يفخمون ما يجب تفخيمه من الحروف ، ولا يرققون ما يجب ترقيقه ، ولا يقصرون ما يجب قصره ، ولا يمدون ما يتعين مده ، ولا يقفون على ما يصح الوقوف عليه .. إلى غير ذلك من الآفات التى تعلق بقراءة بعض الدخلاء والجهلاء عند تلاوة القرآن بالألحان أو بغيرها ..

وعصر ابن حنبل كان يعرف مثل هذه الآفات حتى فى المغنين ، فكان إبراهيم بن المهدى - وهو من كبار المطربين الهواة ، وأخو هارون الرشيد - يمد الحروف ويمط الكلمات فى غنائه كيف شاء ، فعاب عليه ذلك إسحاق الموصلى ، وهو شيخ صناعة الغناء من عهد الرشيد إلى عهد المتوكل ، أى طوال العصر الذى عاشه ابن حنبل ، وشدد إسحاق الموصلى النكير فى ذلك على إبراهيم بن المهدى ، لأن هذه الطريقة فى أداء الأدوار الغنائية تكسر أوزان الشعر وتُخرج الألفاظ عن أوضاعها التى يعرفها العرب فتغدو كألفاظ الجرامقة والعجم الآخرين ! ..

فإذا كان إسحاق الموصلى قد استنكر هذه الطريقة فى الغناء بالشعر ، فإن استنكارها فى التغنى بالقرآن أوجب ، لأنها عدول عن نهجه القويم ، وابتعاد بلفظ القرآن عن صيغته بإدخال حركات فيه أو خراج حركات منه ، يلتبس بها المعنى ، ويستعجم المبنى .. فهذا جهل فاضح

لا يقترفه قارئ يميز الصواب من الخطأ ..

التهويل حول الألحان

وقد وضع علماء القراءات قواعد ، من التزم بها متغنيا أو قارئا بغير تغن ، كان على النهج الصحيح فى قراءة القرآن أو التغنى به ..

والألحان التى يتم بها تحسين الصوت فى القراءة لا تُخرج اللفظ عن وضعه قيد شعرة ، وليس فى هذه الألحان إيقاعات يمكن ضبطها على آلات الإيقاع المعروفة ، وإنما هى ألحان منسابة بغير إيقاع محسوس . وهذا اللون من الألحان معروف عند أهل الصناعة باسم « الألحان المرسلة » .. أى الخالية من الإيقاع المقسَّم على آلات النقر .. فالاعتراض على الإخلال بالنطق الصحيح للألفاظ لا وجه له مع ضبط اللحون على أدق ما يقتضيه النطق الصحيح طبقا لأصول القراءة ..

ولقد لبث الأمر فى قراءة القرآن الكريم بالألحان منضبطا تمام الانضباط حتى فى عصور التدهور التى مرت بها الأمة العربية والإسلامية بعد سقوط بغداد تحت سنابك خيل التتار سنة ٦٥٦ هـ - ١٢٥٨ م ودخول مصر والشام والحجاز واليمن وغيرها تحت حكم المماليك البحرية ثم المماليك البرجية ، ثم الأتراك العثمانيين الذين تدهورت فى عهدهم الأوضاع الثقافية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية

فى البلاد العربية والإسلامية ، ولكن تلاوة القرآن احتفظت بأصولها الموروثة منذ العصر النبوى كما أحصاها وتكلم عليها العلماء على امتداد العصور ، وانتقلت بالتلقى والتلقين من جيل إلى جيل ، ولم يقتصر العلم بها على مجرد النقل من الكتب المدونة فى علوم القرآن ..

ويقى التجويد علما راسخا لم تمسه يد التغيير والتبديل ، مع استحسان التغنى بالقرآن وفق المقامات اللحنية بلا إيقاع ولا آلات ، فى حفـاظ تام على النطق الصحيح طبقـا للأحكام الشرعية ، فازدادت أصوات القراء حُسنا ، واتخذ القرآن فى أسـماع المسلمين صورته الجميلة ذات التأثير الوجدانى العميق ، وزاد هذا من تأثير القرآن فى الناس ، مسلمين وغير مسلمين ..

وبعد ..

فإن التغنى الصحيح بالقرآن الكريم لابد له أن يلتزم بأصول التلاوة والتجويد التزاما لا تهاون فيه ، ويتم دخول الألحان على التلاوة من خلال توزينات الألفاظ العربية بطريقة لا تقل دقة عما يقع فى الترتيل الذى لا تدخله الألحان دخولا ظاهرا ، مع أن الترتيل الذى لا تظهر فيه الألحان تمام الظهور ، هو أيضا نوع من التغنى بالألحان ، بل إن تدوينه بالعلامات الموسيقية الأوربية « النوتة » أيسر من تدوين التغنى بالألحان .. فلا توجد نغمة مرتلة ولو أبسط ترتيل إلا دخلت تحت جنس من أجناس النغمات ، شأنها فى ذلك شأن النغمات الملحنة أعقد تلحين ، وقد وهم من ظن غير ذلك ، **وأخطأ من قال إن التغنى بالقرآن فى مقامات لحنية يُخرج القراءة عن أصولها ، فهذا لا يحدث إلا من قارئ جاهل لا يحق له أن يتغنى بالقرآن ، وهـذا القارئ لن يسلم من النطق الفاسد المشوِّه للألفاظ فى قراءته العادية الخـالية من الألحان .. فالعبرة فى جميع الأحوال هى بمقدرة القـارئ ومعرفته بأصول القراءة ، وعسى أن يكون القارئ بالألحـان أصح قراءة ممن يقرأ بغيرها .**

وقد جرى تهويل كثير من بعض الناس حول القراءة بالألحان ، وبالغوا فى التوجس خيفة من كلمة « الألحان » لجهلهم معناها ، إلا أن الحقيقة هى أن القراءة بالألحان مثل القراءة بغيرها ، تصح أو لا تصح طبقـا لالتزام القارئ بأصـول القراءة ، ولا تكون الألحان لعبا ولا لهوا ما التزمتْ بتلك الأصول ، بل تكون زينة مطلوبة مرغوبة تجمع الناس حول القرآن فى شـهر رمضـان ، وفى كـل زمان ومكان ! ..



● « الحرية الآن تعانى كثيراً من اختناق الجو العام المتمثل فى الآراء المتطرفة »

« نجيب محفوظ »

● « ليس من حق أحد أن يعطل الاجتهاد والقياس وإلا كان مقصراً »

« الدكتور السيد أبو النجا »

● « الشمولية العسكرية تؤدى إلى النظم الكهنوتية »

« المستشار سعيد العشماوى

رئيس محكمة أمن الدولة العليا

● « لا مكان لمتصيدين فى مياه الواقع العكرة »

« الشاعر الفلسطينى سميح القاسم »

● الأدب الشعبى احتجاج صامت ضد كل أشكال السلطة »

« الدكتور أحمد مرسى

أستاذ الأدب الشعبى »

● الرواية سباحة فى البحار المفتوحة »

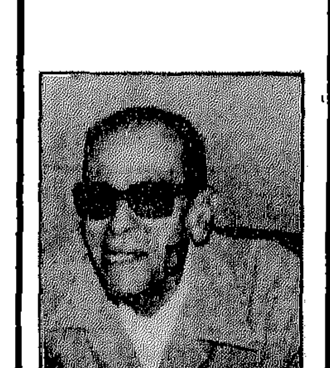
« الأديب الليبى أحمد الفقيه »

● عدد كبير من خريجى معهد السينما لا يفهم شيئاً فى السينما »

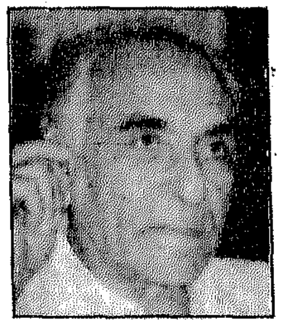
« المخرج كمال الشيخ »

● يجب ألا يكون العصر الذهبى وراء ظهورنا ، بل يكون فى موضعه الصحيح فى المستقبل »

« الدكتور زكى نجيب محمود »


نجيب محفوظ


نجيب محفوظ


كمال الشيخ

الهلال

فى عيده المئوى

للشاعر : فريد قرنى

مائةٌ مرتْ – ولا زلتَ هلالاَ .'. يا مناراً فى رُبَى الشرق تَلاَلا
أىّ ساحات انطلاقٍ رُدْتَها .'. فرس الفُصحى بها صال وجالا
وصروح شامخاتٍ شدْتَها .'. عبْر قرنٍ .. تتأبى أن تُطالا
لثقافات ثريّات .. بها .'. سعد القراء .. لم تتركْ مجالا
غرسُك الطيّب أثرى ينْعه .'. وتفيًا الكلُّ نُعماه ظلالا
أدبٌ سامٍ .. وفن رائعٌ .'. بلغَ الغاية .. شعرا ومقالا
قصصٌ حلو الجنَى .. أحداثُه .'. لا يرومُ المرء عنهنّ انشغالا
يطفُر السائح مسلوبَ النّهَى .'. فى مجاليهنّ .. إنْ حطّ وشالا
وبحوث فضّت السرَّ .. ولم .'. تُخبل العقلَ يميناً وشمالا
نبعك الثرُّ من الأمس وحتّى .'. اليوم .. لا زال سناه يتوالى
يرتعُ الظامئ فى شطآنه .'. مُولعاً يرتشف السّحر الحلالا
منبرَ الأعلام نادوا فوقَه .'. ما ونْوا جهدا .. ولا كلّوا نضالا
صفوةَ الأقلام قد حُزتَ فلمْ لاَ .'. تسحبُ الذّيلَ افتخارا واختيالا
طالبُ الحكمة يأتيكَ فلا .'. تُوصد البابَ .. وتُغنيه السؤالا
أنتَ سفْرٌ بضْعُ صفحاتٍ .. لها .'. أفردَ التّاريخ صفحات طوالا
تُومض المتعةُ فى طيّاتها .'. تخلبُ اللّبَّ .. وتحتلّ الخيالا
عجباً .. صرتَ كما البدرِ اكتمالا .'. ويسمّونك – لا زلتَ – الهلالا

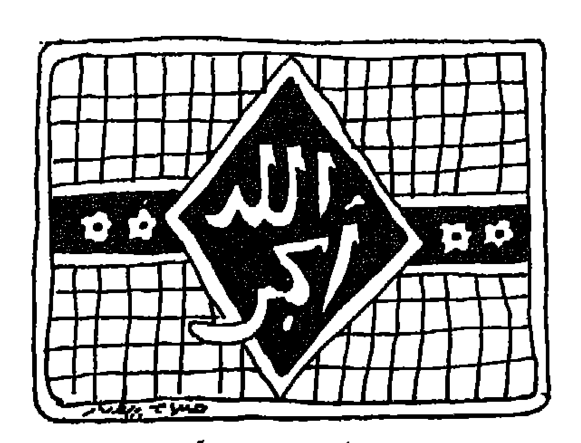
صَحِيحُ البُخَارِىِّ

بقلم : د. يوسف خليف

لم يُجمَع الحديث النبوى ولم يدوَّن فى عصر النبى صلى الله عليه وسلم ولا فى عصر الصحابة إلا من بعض جهود فردية قام بها بعض الصحابة لأنفسهم فى نطاق مجالات محدودة ، على نحو ما نعرف عن على بن أبى طالب الذى كان يدوّن لنفسه أحاديث الأحكام ، وابن عباس الذى كان يدوّن ما يسمعه من الرسول فى صحيفة له سماها « الصادقة » ، وإنما بدأ الجمع والتدوين مع مستهل القرن الثانى ، أو - كما كانوا يقولون - « على رأس المائة الثانية » ، مع الصحف التى دونها محمد بن شهاب الزهرى المتوفى سنة ١٢٤ للهجرة ، وهو أحد التابعين الكبار الذين كان لهم اهتمام كبير برواية الحديث ، وهى صحف لم تصل إلينا ، وإنما وصلت أحاديث منها وأخبار عنها تؤكد أنها كانت محاولة كبيرة ، وأن صحفها كانت محفوظة فى خزائن القصر الأموى ، مما جعل العلماء ينسبون الى الزهرى أنه « أول من دوّن العلم وقيّده » ، وبعدها اتسعت محاولات جمع الحديث وتدوينه وكثرت جهود العلماء فى هذا المجال فى شتى الأمصار الإسلامية.

وساعد على ذلك ما استشعره أئمة لفقه من حاجة الى الحديث النبوى المصدر لثانى للتشريع الإسلامى بعد القرآن الكريم . ولذلك نلاحظ أن الجيل الأول فى تاريخ تدوين الحديث الذى ظهر فى هذا القرن كان من الفقهاء الذين شغلوا بجمع الحديث وتدوينه ليكون بين أيديهم وهم يضعون أصول الفقه الإسلامى وأحكامه .

وقد توّج هذا الجيل بظهور الإمام مالك إمام دار الهجرة ، المدينة المنورة ، المتوفى سنة ١٧٩ للهجرة (٧٩٥ م) بكتابه « الموطأ » الذى يعد أول كتاب من كتب الحديث وصل إلينا كاملا ، والذى يمثل الخطوة الأولى الثابتة على الطريق الذى سلكه تاريخ جمع الحديث وتدوينه . ثم كانت الخطوة الثانية مع مطالع القرن الثالث ، « على رأس المائتين » ، حين ظهر منهج جديد من مناهج تصنيف الحديث، وهو منهج التصنيف على « المسانيد » الذى يقوم على تصنيف الأحاديث حسب روايتها من الصحابة ، وهى الخطوة التى يمثلها فى أدق صورها مسند الإمام أحمد بن حنبل المتوفى ببغداد سنة ٢٤١ للهجرة (٨٥٥ م). ثم كانت الخطوة الثالثة التى تمثل القمة التى وصل اليها تدوين الحديث ، والتى وقف بعدها هذا العلم ، واستقرت عندها مناهجه ، وتمثلها كتب الصحاح الستة التى صنفت على أساس قبول الأحاديث الصحيحة بعد تصفيتها تصفية دقيقة وفق القواعد والمقاييس البالغة الإحكام والضبط التى وضعها علماء الحديث . وهذه الكتب هى حسب ترتيبها التاريخى : صحيح البخارى (ت ٢٥٦ هـ = ٨٧٠ م) ، وصحيح مسلم (٢٦١هـ = ٨٧٥ م) ، وسنن ابن ماجه (٢٧٣هـ = ٨٨٦م) ، وسنن أبى داود (٢٧٥هـ = ٨٨٨م) ، وجامع الترمذى (٢٧٩هـ = ٨٩٢م) ، وسنن النسائى (٣٠٢هـ = ٩١٥م) وعلى رأس هذه الستة « صحيح البخارى » الذى يعد هو وصحيح مسلم أصح كتابين من بينها .



والبخارى أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بَرِدْزْبَه فارسى الأصل ، ولد فى مدينة بُخَارَى فى سنة ١٩٤ للهجرة (٨٠٩ م) . وكان أجداده الأولون من الفرس ، ثم اعتنق جده الثانى - المغيرة - الإسلام على يد والى بخارى - اليمان الجُعْفِى - أحد أبناء قبيلة جُعفىّ اليمنية ، فاكتسب ولاءها . ومن هنا كان البخارى يلقب بالجعفىّ نسبة الى هذه القبيلة ، كما كان يلقب بالبخارى نسبة الى بلده .

العناية بالحديث

وفى ظل أسرة إسلامية نشأ البخارى ، فقد كان أبوه إسماعيل من علماء الحديث فى بلده الذين يؤخذ عنهم الحديث ، وتروى له كتب الحديث عددا من الأحاديث ، ويضعه العلماء بين رجال الطبقة الرابعة من التابعين . ولعله هو الذى وجه ابنه منذ حداثته الى العناية بالحديث ، إذ نراه مشغولا به منذ صباه المبكر ، وفى هذه السن المبكرة قرّر أن يبدأ الرحلة فى طلب الحديث إلى الأمصار الإسلامية المختلفة حيث يوجد رواته وحُفَّاظه وعلماؤه ، يسعى إليهم ويلتقى بهم ويأخذ عنهم ، فرحل الى العراق والحجاز واليمن والشام ومصر ، ولم يترك بلدا سمع أن به رواة للحديث إلا قصده .

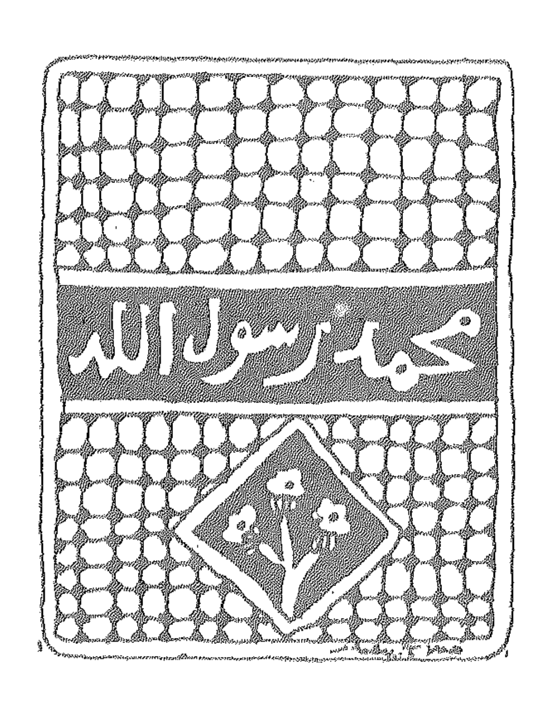
وامتدت رحلاته ست عشرة سنة ، يطلب الحديث من رواته المنتشرين فى أرجاء العالم الإسلامى ، يأخذ عنهم ويأخـذون عنه ، ويروى عنهم ويروون عنه . وعلى امتداد هذه الرحلات الطويلة لقى أكثر من ألف راوٍ من رواة الحديث - ألفا وثمانين راويا - وجمـع أكثر من ستمائة ألف حديث ، عاد بها الى بلده ، وعكف عليها فى تصفية دقيقة ، وفق شروط بالغة الدقة قائمة على أسس ومقاييس مما كان قد أصلّه علماء الحديث ، من أجل استخراج الصحيح منها ، واستبعاد ما لم تثبت صحته أمام قواعد البحث المنهجى الثابتة فى علوم أصول الحديث ومصطلحه. وقد روى عنه أنه قال : « صنَّفت كتاب الصحيح لست عشرة سنة ، خرَّجته من زهاء ستمائة ألف حديث ، وجعلته حجة بينى وبين الله »

قام البخارى بتصفية هذه المجموعة الضخمة من الأحاديث التى جمعها فى رحلاته التى امتدت هذه السنوات الطوال ، ثم أخذ يصنفها حسب موضوعاتها ، سواء أكانت موضوعات فقهية ، أم غير فقهية مثل بدء الوحى أو تفسير القرآن أو المغازى أو الفضائل أو علامات الساعة أو الفتن التى تحدث فى آخر الزمان أو غيرها من الموضوعات التى تناولتها الأحاديث ، وإن يكن من الطبيعى أن تكون الموضوعات الفقهية هى أهم هذه الموضوعات وأكثرها ، فأساس تقسيم البخارى لكتابه ليس - فى حقيقة أمره - أساسا فقهيا خالصا ، ولكنه أساس موضوعى ، فلكل موضوع من موضوعات الحديث - سواء أكان فقهيا أم غير فقهى - قسم مستقل فيه .

على هذا الأساس الموضوعى قسم البخارى كتابه الى كتب وأبواب : قسمه أولا الى سبعة وتسعين كتابا ، ثم قسم هذه الكتب الى أبواب فرعية بلغ عددها ثلاثة آلاف وأربعمائة وخمسين بابا . وأول كتاب فى البخارى هو كتاب الوحى ، ثم يأتى بعده كتاب الإيمان ، ثم كتاب العلم ، ثم كتب الطهارة ، ثم كتاب الصلاة ، ثم كتاب الزكاة ، ثم كتاب الحج ، وهكذا تتوالى الكتب وفق الموضوعات المختلفة التى تعرضت لها الأحاديث ، حتى يكون آخر كتاب هو كتاب التوحيد ، وهو الكتاب السابع والتسعون . وفى داخل هذه الكتب تتوالى الأبواب الفرعية ، فمثلا فى « كتاب القَدَر » ، وهو الكتاب الثانى والثمانون ، تتوالى الأبواب التالية : باب فى القدر ، باب جف القلم على علم الله ، باب الله أعلم بما كانوا عاملين ، باب وكان أمر الله قدرا مقدورا ، باب العمل بالخواتيم ، وهكذا حتى تكتمل الأبواب ستة عشر بابا . وفى « كتاب التعبير » مثلا آخر تتوالى الأبواب الفرعية : أول ما بدىء به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحى الرؤيا الصادقة ، ثم باب رؤيا الصالحين ، ثم باب الرؤيا من الله ، ثم باب الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جـزءا من النبـوة ، ثم باب المبشرات ، ثم باب رؤيـا يوسف عليـه السـلام ، ثم باب رؤيا إبراهيم عليـه

السلام ، وهكذا حتى تكتمل الأبواب ثمانية وأربعين بابا .

ولكن يلاحظ على كتب البخارى وأبوابه أن بعضها لا يضم إلا حديثا أو حديثين ، بل إن بعضها لا يضم أى حديث وإنما مجرد عنوان ولا شىء تحته ، وبعضها فيه آية من القرآن الكريم وليس فيه حديث ، بل إن بعضها يصعب فهم الرابطة أو الصلة بين عنوانه وما ذكر فيه من أحاديث ، على نحو ما نرى مثلا فى « كتاب اللباس » حيث نجد هـذه الأبواب الخمسة فى آخره : باب الارتداف على الدابة ، باب الثلاثة على الدابة ، باب حمل صاحب الدابة غيره بين يديه ، باب إرداف الرجل خلف الرجل ، باب إرداف المرأة خلف الرجل (الكتاب ٧٧ - الأبواب ٩٨ - ١٠٢) ، وهى موضوعات يصعب إدراك الصلة بينها وبين موضوع الكتاب ، وهو « اللباس » .



وقد وقف العلماء أمام هذه الظاهرة وحاولوا تفسيرها ، وفى أغلب الظن أن السبب فى ذلك يرجع الى أن البخارى لم تصح عنده أحاديث فى هـذه الأبواب الخالية ، وكأنما قام أولا بوضع خطة كتابه ، ووضع عناوين له ، ثم أخذ يملأ الأقسام التى قسم إليها بما يصح عنده من أحاديث تتصل به ، فإذا لم تصح عنده أحاديث فى بعض الأبواب تركها خالية على احتمال أن يجد بعد ذلك أحاديث صحيحة يضعها فيها . ومن هنا يظن العلماء أن نسخة البخارى كما خلفها صاحبها لم تكن قد وُضعت فى صورتها النهائية ، وأنه كان فى نيته أن يعيد النظر فيها ليستكملها ، كما يظنون أن بعض النساخ الذين قاموا بنسخ الكتاب قد تصرفوا فى بعض كتبه وأبوابه ، ويؤكد ذلك ما يذكره أحد علماء الحديث - الحافظ أبو إسحاق إبراهيم بن أحمد المستملى - وهو يتحدث عن النسخة التى نسخ منها صحيح البخارى ، والتى كانت عند أصحاب البخارى الذين كتبوها عنه ، حيث يقول : « انتسخت كتاب البخارى من أصله الذى كان عند صاحبه (أى صاحب البخارى) محمد بن يوسف الفِرَبْرِىّ ، فرأيت أشياء لم تتم ، وأشياء مبيضة ، منها تراجم لم يُثبت بعدها شيئا ، ومنها أحاديث لم يترجم لها ، فأضفنا بعض ذلك الى بعض » . ويقول أحد علماء الحديث : « ومما يدل على صحة هذا القول أن الروايات مختلفة بالتقديم والتأخير ، مع أنهم انتسخوا من أصل واحد ، وإنما ذلك بحسب ما قدر كل واحد منهم » .

صحيح البخارى

وعلى كل حال فهذه الظاهرة تدل ـ من بعض وجوهها ـ على الدقة البالغة التى فرضها البخارى على نفسه ، فهو لم ير فيما وصل إليه الصورة النهائية التى كان يريد أن تكتمل له ، ولم يجد فيما حدده لكتابه من خطة ، وما خططه له من منهج ، ما يملأ كل جزئياته من مادة يطمئن إليها ، فلم يغلق الأبواب أمامه ، ولم يضع السطور الأخيرة فيه ، وإنما ترك مواضع خالية على نية معاودة النظر فيه ، وعلى أمل إستكمال ما لم يتح له أن يستكمله فى تجاربه الأولى .

ولكن ليس هذا هو المظهر الوحيد لدقة البخارى فى كتابه ، وإنما هناك مظهر آخر أهم منه ، وهو تلك الشروط البالغة الدقة التى فرضها البخارى على نفسه واشترطها ملتزما بها التزاما كاملا .

وأهم هذه الشروط شرطان :

الشرط الأول أن البخارى لم يكن يقبل إلا الحديث الصحيح بمفهومه الاصطلاحى الذى اتفق عليه العلماء فى علم « مصطلح الحديث » ، وهو الحديث الذى اتصل إسناده برواية العدل الضابط عن العدل الضابط إلى منتهاه بشرط ألا يكون شاذا ولا معللا .

والعدل هو المسلم البالغ العاقل الذى سلم من أسباب الفسق وخوارم المروءة . والضابط هو الراوى الذى سلم له عقله ، وسلمت له ذاكرته ، ولم يثبت عليه فى روايته خطأ ولا غفلة ولا نسيان . والعدل الضابط هو الذى يسميه علماء الحديث «الثقة» .

والحديث الشاذ – فى أصح الأقوال ، وهو قول الإمام الشافعى – هو الحديث الذى يرويه الثقة ويخالف به ما روى الناس . وأما الحديث المعلل فهو الحديث الذى به علة خفية لا يعرفها إلا المختصون الخبراء بالحديث تقدح فى صحته وسلامته ، ولهذا يقولون : « معرفة العلل إلهام » .

لم يقبل البخارى من الأحاديث إلا الحديث الصحيح الذى تتوافر فيه هذه الشروط جميعا ، ولهذا لم يقبل «الحديث الحسن» على الرغم من أن علماء الحديث يقبلونه ، وأكثر أصحاب «الصحاح» يأخذون به ، وخاصة الترمذى الذى يعد كتابه «السنن» أصلا فى معرفة الحديث الحسن ، وكذلك «سنن أبى داود» .

والشرط الثانى أن البخارى يشترط فى روائه أمرين لابد من توافرهما لهم ، هما المعاصرة والسماع ، فلكى يكون الراوى عنده مقبولا لابد من أن يكون معاصرا لشيخه ، ولابد أيضا من أن يكون متصلا به سامعا لما يرويه عنه . وهو شرط لم يشترطه من علماء الحديث إلا البخارى ، حتى أن مسلما نفسه لم يكن يشترط السماع ، فحسبه أن يكون الراوى معاصرا لشيخه وما عليه بعد ذلك أن يكون قد أخذ الحديث عنه سماعا أو قراءة أو عرضا أو بأى طريق من طرق تحمل الحديث .

وعلى أساس هذا الشرط رتب البخارى رواته درجات ، وأعلى هذه الدرجات أن يكون الراوى ملازما لشيخه فى السفر والحضر – على حد عبارة البخارى نفسه ، أى أن يكون ملازما له ملازمة تامة . ثم تأتى بعد هذه الدرجة درجة أقل يكون الراوى فيها ملازما لشيخه مدة طويلة تكون

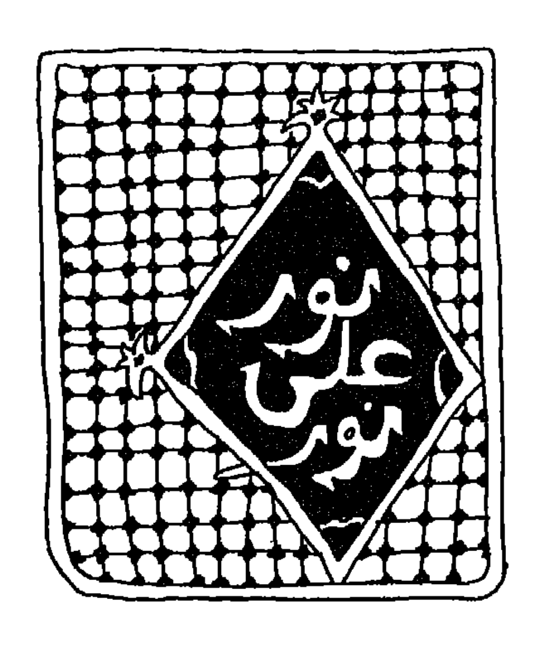
كافية للتعرف على شخصيته واسلوبه في الرواية ، وطريقته فى فهم الأحاديث التى يحدث بها . ثم تأتى بعد هاتين الدرجتين درجات أقل يتفاوت فيها مدى ملازمة الراوى لشيخه . ولم يكن البخارى يقبل إلا من رواة الدرجتين الأوليين ، أما سائر الدرجات فلم يكن يأخذ عن رواتهم شيئا ، ولكن الواقع أن أكثر أخذه كان عن رواة الدرجة الأولى ، وقليلا ما كان يأخذ عن رواة الدرجة الثانية .

وساعد البخارى على تحقيق هذا الشرط ، ويسر له هذا التصنيف للرواة ، سعة علمه برواة الحديث وأخبارهم ومستوياتهم فى الرواية .

وكل الأخبار التى بين أيدينا عن البخارى تؤكد أنه كان واسع العلم برواة الحديث ورجاله وأخبارهم ، وقد ألف كتابا عنهم سماه « التاريخ الكبير » عرض فيه لحياتهم وأحوالهم وأخلاقهم وسلوكهم فى حياتهم العامة والخاصة ، وقسمهم درجات من حيث التعديل والتجريح أو التوثيق والاتهام ، ثم عاد فاختصره وسمى المختصر «التاريخ الصغير» ، وكأنه وضع هذين الكتابين كمقدمة لجمع كتابه «الصحيح» . وكان البخارى يقول عن نفسه مسجلا ذلك العلم الواسع . « قلّ اسم فى التاريخ إلا وله عندى قصة »

ذاكــرة خـــارقة

وصفة أخرى ساعدت البخارى على الوصول بكتابه إلى ما وصل إليه ، وهى قوة ذاكرته ، وكل من تحدثوا عنه نوّهوا بقوة ذاكرته الخارقة للعادة ، وهم يقولون



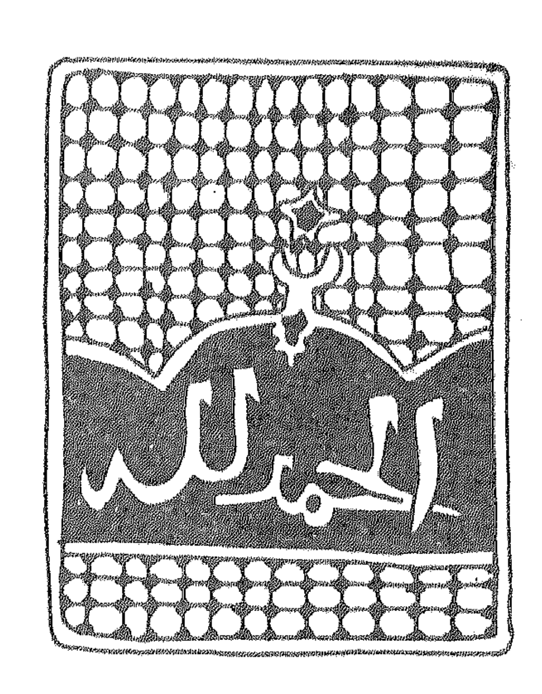
عنه إنه كان يستطيع أن يحفظ الكتاب كله عن ظهر قلب لأول قراءة ، ويذكرون أيضا أنه كان يحفظ كثيرا من الأحاديث بأسانيدها الكاملة .

فى ضوء هذه الشروط الدقيقة التى وضعها البخارى لنفسه ، والتزم بها ، وأخضع منهجه العلمى فى كتابه لها ، صفى تلك المجموعات الضخمة من الأحاديث التى جمعها فى أثناء رحلاته تصفية دقيقة بالغة الدقة انخفض معها عددها انخفاضا ملحوظا ، فعدد أحاديث البخارى بدون تكرار - كما حققه الحافظ ابن حجر فى مقدمته لشرحه عليه المعروف بفتح البارى - ٢٧٦١ حديثا ، فإذا أضفنا إليها الأحاديث المكررة واختلاف الروايات فإن العدد يرتفع إلى ٩٠٨٢ حديثا ، وهذا غير ما فيه من أحاديث الصحابة وأقوال التابعين . وبهذا يتضح أن عملية التصفية التى قام بها البخارى كانت عملية بالغة

صحيح البخارى

الدقة ، ولهذا نلاحظ أن صحيح البخارى أقل كتب الحديث من حيث عدد أحاديثه مع أنه أهمها وأشهرها .

والعلماء متفقون على أن البخارى - إلى جانب علمه الواسع بالحديث - كان فقيها . ويعده السبكي فى كتابه «طبقات الشافعية» شافعيا ، ولكن الظاهر - كما يرجح الاستاذ أحمد أمين فى كتابه «ضحى الإسلام» أنه كان مجتهدا ، فله آراء توافق مذهب أبى حنيفة ، وآراء توافق مذهب الشافعى ، وله آراء تخالفهما ، وهو أحيانا يختار مذهب ابن عباس ، وأحيانا يختار مذاهب غيره من الصحابة ، وفى بعض المواضع نراه مستقلا برأيه ، ينفرد باستنباطات خاصة لا يتقيد فيها بمذهب معين .



وقد شغل العلماء بكتاب البخارى ، وعنوا به عناية شديدة منذ أن وضعه صاحبه ، وتداولته أيديهم ، وتعددت نسخه فى الأقاليم الإسلامية المختلفة ، فكان طبيعيا أن تختلف هذه النسخ فى بعض مواضع منها نتيجة لتداول العلماء لها وتنقلها بين أيديهم . ولكننا لا نكاد نصل إلى القرن السابع الهجرى حتى نرى عالما من كبار علماء الحديث ، وهو شرف الدين اليونينى الحنبلى ، يُشغل بجمع كل ما هو موجود من نسخ البخارى ، ويتفرغ لمراجعتها وتحقيقها والمقابلة بينها ، ليخرج منها نسخة موحدة مصححة محققة تحقيقا دقيقا . حتى إذا ما تم له هذا العمل الضخم الذى يعد أول تحقيق علمى منهجى لنص من النصوص عرفته الثقافة العربية ، واستوت لهذا المحقق المبكر فى تاريخ هذه الثقافة نسخة دقيقة مضبوطة محققة من هذا الكتاب مسجلا عليها اختلاف النسخ الأخرى التى قابل عليها النسخة الأم ، متخذا لهذه النسخ - شأن المحققين المحدثين - رموزا تعرف بها ، عرضها على إمام النحو فى عصره ابن مالك صاحب الألفية المشهورة ، ليراجعها معه ، وليخرج ما فيها من آراء نحوية غير معروفة له ، وليصحح ما بها من تحريف النساخ .

وقام ابن مالك بمراجعة نسخة البخارى التى حققها اليونينى ، وصحح نحوها ، وخرج ما بها من آراء نحوية مختلفة ، وتم

ذلك فى واحد وسبعين مجلسا فى المسجد الجامع بدمشق كان يشهدها جماعة من العلماء الثقات ، ومع كل واحد منهم نسخة من الكتاب يراجع عليها ، مبالغةً فى الدقة والاطمئنان . وبعد الفراغ من هذه المراجعة والتصحيح سجل ابن مالك على النسخة المحققة سماعه لهـــا من أجل مراجعتها وتخريج ما فيها من مسائل نحوية ، وكتب عليها بخطه هذه العبارة التى لا تزال تحتفظ بها أول ورقة منها ، وختمها بتوقيعه توثيقا لها : «سمعت ما تضمنه هذا المجلد من صحيح البخارى - رضى الله عنه - بقراءة سيدنا الشيخ الإمام العالم الحافظ المتقن شرف الدين أبى الحسين على بن محمد بن أحمد اليونينى - رضى الله عنه وعن سلفه - وكان السماع بحضرة جماعة من الفضلاء، ناظرين فى نسخ معتمد عليها ، فكلما مر بهم لفظ ذو إشكال بينت فيه الصواب وضبطته على ما اقتضاه علمي بالعربية ، وما افتقر إلى بسط عبارة وإقامة دلالة ، أخرت أمره إلى جزء استوفى فيه الكلام مما يحتاج إليه من نظير وشاهد ، ليكون الانتفاع به عاما ، والبيان تاما ، إن شاء الله تعالى . كتبه محمد بن عبد الله بن مالك حامدا لله تعالى» .

وفى آخر النسخة سجل اليونينى هذه المراجعة أيضا ، فكتب بخطه : « بلغت مقابلة وتصحيحا واسماعا بين يدى شيخنا شيخ الإسلام ، حجة العرب ، مالك أزِمّة الأدب ، العـــلامة أبىْ عبد الله بن مالك الطائى الجيانى ، أمد الله تعالى عمره ، فى المجلس الحادى والسبعين ، وهو يراعى قراءاتى ، ويلاحظ نطقى ، فما اختاره ورجحه وأمر بإصلاحه اصلحته وصححت عليه ، وما ذكر أنه يجوز فيه إعرابان أو ثلاثة كتبت عليه معا ، فأعملت ذلك على ما أمر ورجح» .

وقد وفى ابن مالك بوعده ، فألف بعد ذلك كتابه المعروف : «شواهد التوضيح والتصحيح لمشكلات الجامع الصحيح» .

وبهذا تمت لليونينى أدق عملية تحقيق فى تاريخ الثقافة العربية ، واستطاع من خلالها أن يقدم أدق نسخة من «صحيح البخارى» ، وهى النسخة التى تداولتها أيدى العلماء بعد ذلك ، وأصبحت هى المعتمدة إلى الآن . وعلى هذه النسخة قامت شروح «صحيح البخارى» ، وأشهرها ثلاثة : فتح البارى لابن حجر ، وعمدة القارى للعينى ، وإرشاد السارى للقسطلانى . وأشهر الثلاثة وأهمها وأغزرها مادة على الإطلاق فتح البارى لابن حجر .

وهكذا استطاع الإمام البخارى - رضى الله عنه - أن يقوم بهذا العمل الجليل ، جمع حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتحقيق صحيحه من ضعيفه وموضوعه ، حتى استحق بكل جدارة تلك الصفة التى وصفه بها العلماء «شيخ الحديث ، وطبيب علله فى القديم والحديث» .



مختار الحكم ومحاسن الكلم لأبى الوفاء المبشر بن فاتك

بقلم : د. الطاهر أحمد مكى

يعد العصر الفاطمى من أزهى فترات تاريخ مصر فى العصر الوسيط ، سياسيا واقتصاديا واجتماعيا وعلميا ، وخلال النصف الثانى من القرن العاشر الميلادى كان اسم الخليفة الفاطمى يذكر فى خطب الجمعة فى جميع المساجد ، من المحيط الأطلسى إلى البحر الأحمر ، واليمن ومكة ودمشق ، وبلغ حتى الموصل ، وظفرت بأن تصبح الدولة الإسلامية الوحيدة ذات النفوذ العظيم فى شرقى البحر الأبيض المتوسط .

وكانت مصر هى الوحيدة من بين بلاد الإمبراطورية الفاطمية التى احتفظت بالطابع الثقافى الفاطمى ، ذى المميزات الخاصة ، رغم أن المذهب الشيعى انتهى بانتهاء الدولة نفسها ، وخلف وراءه حب المصريين لآل البيت ، دون اعتناء كبير بالعقيدة الشيعية نفسها أو الطقوس المرتبطة بها . وكان العصر الفاطمى بداية عهد جديد فى تاريخ البلاد ، مملوءا بالحيوية والاستقلال ، ويقوم على قواعد دينية منذ أيام الفراعنة العظام .

ولقد زار الرحالة الفارسى ، والداعية الاسماعيلى ، ناصرى خسرو مصر فى الفترة ما بين ١٠٤٦ و ١٠٤٩ م ، أى قبل سنوات التصدع السياسى والاقتصادى ، وترك لنا وصفا رائعا خلابا لما كانت عليه

مصر ، ولما شاهده فيها ، من قصور باذخة ، وعوامات ضخمة جميلة ترسو فى النيل ومساكن مبنية فى معظمها بالآجر ، وتتكون من خمس طبقات أو ست ، والشوارع الرئيسية مسقوفة ، ومضاءة بالمصابيح ، وأسعار الحاجيات محددة رسميا ، والأمن يسود العاصمة ، حتى أن باعة الجواهر والصيارفة كانوا يذهبون إلى الصلاة ويتركون محلاتهم مفتوحة دون غلق ، وتمتعت البلاد برخاء اقتصادى لم تعرفه البلاد إلاَّ فى العصر الفرعونى والعصر الإسكندرى

ازدهار العلوم

وشهد هذا العصر تقدما باهرا فى مجال العلوم بخاصة ، فعاش فيه علىّ بن يونس ، المتوفى ١٠٠٩م ، أكبر فلكى شهدته مصر ، وصحح الأخطاء التى كانت شائعة على أيامه فى الجداول الفلكية ، وابن الهيثم ، المتوفى ١٠٣٩ م ، ويعد أعظم علماء المسلمين فى الطبيعة والبصريات ، وخطَّأ نظريات إقليدس وبطليموس القائلة إن العين ترسل أشعة بصرية إلى الأشياء المرئية ، وأجرى عدة اختبارات لقياس زاوية الانكسار وزاوية الانعكاس ، وتوصل فى بعض تجاربه إلى اكتشاف نظرية العدسات المكبرة ، وسوف تصنع فى إيطاليا بفضله بعد ذلك بثلاثة قرون .

وكانت المكتبة الملكية على عهد الخليفة المستنصر تضم مائتى ألف كتاب ، بينها ما هو بخط الوزير ابن مقلة ، أشهر خطاط فى التاريخ العربى ، ويضم عددا من الكتب بخط مؤلفيها أنفسهم ، كتاريخ الطبرى ، وكتاب العين للخليل بن أحمد ، وتضم من كل كتاب هام عدة نسخ .

وندين لمصر فى هذا العصر بكتاب له من الأهمية بقدر ما ناله من الإهمال ، وقلة تعرف موطنه وقدره ، مع أنه نموذج فريد فى التأليف العربى ، وشهادة حية على تمكن المسلمين بعامة ، والمصريين من بينهم بخاصة ، من الفلسفة اليونانية ، وإحاطة جيدة بمحتواها ورجالاتها ، وكان مصدرا أساسيا لكل من تناول هذه القضايا من زملائه فى الوطن أو العقيدة ، وترك أثرا بينا فى الثقافة الأوربية فى فجر نهضتها ، فى إسبانيا أولا ، ثم فى بقية العالم الغربى من بعد ، ورغم أن مؤلف الكتاب مصرى فإن مخطوطات هذا الكتاب القيم استقرت كلها خارج مصر ، فى ليدن بهولندا ، المتحف البريطانى ، وبرلين ، واستنبول . وأحسب أننا لو راجعنا مخطوطات المكتبة الأزهرية وفهارسها ليست كاملة حتى الآن ، فقد نجد نسخة منه مهملة فى ركن منها لايعرف أحد من القائمين عليها قيمته ، ولا يعرف أحد فى العالم الخارجى أنه يمكن أن يوجد فيها ، وإلا لحازوه بطرقهم الخاصة من زمن بعيد ، كما حازوا الكثير من تراثنا تماثيل ومخطوطات .

وقدر لهذا الكتاب أن يظل منفيا حتى بعد تحقيقه وطبعه ، ومثل هذا الكتاب



العظيم ما كانت لتخفى قيمته علي عالم جليل ، هو الآخر بعيد عن وطنه ، رد الله غربته !

إما الكتاب فهو «مختار الحكم ومحاسـن الكلم» لأبى الوفاء المبشر بن فاتك ، وأما المحقق فهو الأستاذ الدكتور عبد الرحمن بدوى ، وأما المكان الذى نشر فيه فهو مدريد عام ١٣٧٧ هـ = ١٩٥٨ م .

المؤلف أصلا من دمشق ، ولكنه استوطن مصر حتى صار يعد من أعيان أمرائها ، وأفاضل علمائها ، وأحد العارفين بالأخبار والتواريخ ، المصنفين فيها .

ولاتذكر المصادر سنة مولده ، ولا تاريخ وفاته ، ولكننا نستطيع تحديد سنى حياته عن طريق شيوخه ومن درسوا عليه ، وفى ضوئها نفترض أنه ولد فى العقد الأول من القرن الخامس الهجرى ، وأن وفاته لابد أن تكون قد حدثت قبل عام ٤٨٠ هـ ، لأن بعض من أرخوا له يقولون إنه حضر خلافتى الظاهر ، وحكم من ٤١١ هـ ١٠٢١م . إلى ٤٢٧ هـ ١٠٣٥م ، والمستنصر، وحكم من ١٠٣٥م إلى ٤٩٥ هـ ١٠٩٤م ، ولم يحضر خلافة المستعلى الذى تولى الخلافة بعد المستنصر يوم وفاته .

درس المبشر علوم الهيئة والعلوم الرياضية وفروع الفلسفة ، وكان ابن الهيثم من بين أساتذته ، وكان كثير الكتابة ، ونسخ بخطه كثيرا من مصنفات الأقدمين ، كثير الاقتناء للكتب مكبا عليها ، وأدى به إدمانه للكتب إلى انصرافه عن زوجته ، حتى أنه حين توفى نهضت ومعها جواريها إلى خزائن كتبه وجعلت تندبه وفى أثناء ذلك ترمى الكتب فى بركة ماء كبيرة فى وسط الدار ، هى وجواريها ، ثم رفعت الكتب بعد ذلك من الماء ، وقد غرق أكثرها .

وقد حرر المبشر كتبا كثيرة فى الطب والمنطق وسيرة المستنصر ، والوصايا والأمثال ، ومن بينها الكتاب الذى نعرض له ، وهو الوحيد الذى وصلنا .

ليس للمؤلف فى الكتاب إلا فضل الجمع والاختيار ، ولكنه جمع أشياء لم تكن شائعة ، وقلة كانت تعنى بها ، وتدل على سعة إطلاعه بكتب الأوائل من اليونان ، وأن مصادرها كانت متوفرة فى مصر على أيامه ، واختار من مقولاتهم وآدابهم وأخبارهم ما لا نجده بهذه الصورة والافاضة عند آخرين .

فنحن نلتقى فيه بدءا بطائفة من كلام النبى شيث ، وهو الابن الثالث لآدم وحواء ، طبقا لرواية التوراة فى سفر التكوين ، يليه حديث عن ادميس وآدابه ، وهو إدريس النبى فى العربية ويقول عنه إنه ولد فى مصر ، فى مدينة منف منها ، ويسمى عند اليونانيين طرميـس ، وعند العبرانيين خنوخ ، خرج عن مصر ، ودار الأرض كلها، وعاد إلى مصر ، ورفعه الله إليه بها ، وذلك بعد اثنتين وثمانين سنة ، ثم يورد

طائفة من مواعظه ، ثم يعرض لابنه صاب ، وإليه ينسب «الصابئون» ، وتلميذه اسقلبيوس ، وكان قد رافق أستاذه فى رحلاته .

وبعد حديثه عن هؤلاء يعرض للحديث عن الأدباء والفلاسفة من اليونان ، فيتحدث عن هومير الشاعر ، وسلولون الحكيم وآدابه ، وزينون الفيلسوف وأخباره ، وأبقراط الطبيب وحكمه ، وفيثاغورس ورحلاته ومصنفاته ، وذيوجانس المتجرد وزهدياته ، وسقراطيس الزاهد وأخباره وحكمه ومواعظه ، وأخبار أفلاطون ومشوراته وآدابه ، وصفحات مطولة عن أرسطاطاليس وفلسفته وتاريخه وفكره .

لماذا الإهتمام بالإسكندر ؟

ويعقب الكلام عن أرسطو حديث عن تلميذه الإسكندر ، ويرى الدكتور عبد الرحمن بدوى أن هذا الفصل على جانب كبير من الأهمية لأنه بنى على كتاب حياة الإسكندر الذى ينسب تأليفه إلى كليثينس . ثم يتساءل : ترى هل ترجم هذا الكتاب إلى اللغة العربية ؟ يجيب على ذلك فيقول : إن أهتمام المسلمين بأمر الإسكندر المقدونى ذى القرنين يعود لوروده فى القرآن الكريم فى سورة الكهف ، وإلى أهتمام العصر الهلينى بأسطورة الإسكندر حتى نشأت قصصا خرافية تدعى قصة الاسكندر كانت واسعة الانتشار جدا فى بلاد الشرق الأوسط ، بيد أن المصادر لاتتحدث صراحة عن شىء من هذا . فلا هى تذكر اسم كليثينس وتنسب إليه القصة ، على حين أن مختار الحكم لايتابعها إلا فى أجزاء منها .

وكليثينس ، وولد حول ٣٦٠ ق م ، ليس بعيدا عن أرسطو ولا عن الإسكندر ، فقد كان قريبا للأول ، وكان أستاذا لهما هما الاثنان ، ويعلمهما معا واهتم بدراسة التاريخ ، وعندما انتصر الإسكندر على الفرس ، وانتشى بالنصر ، وأراد أن يقدس كما تقدس الفرس ملوكها رأى أن ذلك مناف لطبائع اليونان ، فعارض اتجاهه مما جعل الإسكندر ينقم عليه ، وانتهز فرصة مؤامرة عليه فتخلص منه .

نسبت إلى كليثينس قصة زائفة عن حياة الإسكندر ، هى الأصل فى أسطورة الإسكندر ، وانتشرت على نطاق واسع جدا ابتداء من القرن الرابع الميلادى ، رغم سوء كتابتها ، واضطراب الرد فيها ، واختلاط الواقع بالأساطير والخوارق ، وربما كان وراء ذيوعها ، بسبب عقليتها الساذجة النازعة إلى الإيمان بالمعجزات والخوارق ، حتى أنها ترجمت إلى الارمنية والتركية والعبرية والقبطية والعربية والفارسية والجورجية ، وقبلها إلى اللاتينية ، ثم صيغت على أساس ترجمة لاتينية متأخرة إلى اللغات الأوربية الحديثة : الفرنسية والألمانية والإيطالية والإسبانية والإنجليزية والسويدية والدانمركية والتشيكوسلوفاكية .

وإذن فلكتاب مختار الحكم قيمة عظيمة لأنه حفظ لنا إحدى الروايات عن قصة



الإسكندر هذه ، لأن الفصل الخاص به قد اعتمد إما على ترجمة عربية وإما على كتاب آخر اقتبس منه معالم هذه القصة من تاريخ الإسكندر .

وقد فقدت هذه الترجمة العربية مع الكثير الذى فقد من تراثنا فى سنوات الجهل والتردى والإهمال ، ولم يبق لدينا منها إلا ما يقدمه لنا مبشر ، وكانت هذه الترجمة العربية هى أصل الروايات اللاتينية التى انتشرت فى العصور الوسطى .

ويعد قصة الإسكندر يفصل القول عن بطليموس وحذقه لعلوم الهندسة والفلك ، وماألف من كتب فيها ، وأنه ولد ونشأ بالإسكندرية . ثم يصل إلى أخبار لقمان الحكيم ، وأنه أسود اللون ، أصله من النوبة ، ونشأ وتعلم ببلاد الشام ، وتوفى وقبر فى مدينة الرملة من أعمال فلسطين ، ويأتى بطائفة من وصاياه ، وينتقل منه إلى حكم مهاد رجيس وباسيليوس واللاهوتى غريغوريوس ، وجالينوس الحكيم ، أحد الأطباء الثمانية المقدمين المرجوع إليهم فى صناعة الطب قديما ، والذين هم رءوس الفرق ومعلمو المعلمين ، ويختم كتابه بباب جامع لأقوال جماعة من الحكماء «عرفت أسماؤهم ، ولم يوجد لكل واحد منهم ما يصلح أن يفرد له باب يجمعه فى موضع واحد ، وباب آخر لآداب لم يعرف قائلها فجمعت فى موضع واحد .

ترك كتاب مختار الحكم أثرا واضحا فى الفكر على أيامه وفيما بعدها ، فقد أفاد منه كثيرون وبخاصة أولئك الذين يعرضون لتاريخ الملل والنحل والمذاهب فى مختلف الأمم ، فقد نقل عنه الشهرستانى المتوفى ٥٤٨ هـ صفحات كثيرة فى القسم الخاص بحكماء اليونان، ونقل عنه الصوفى الشهير الشهرزوردى (شمس الدين محمد بن محمود) المتوفى ٦٤٨ هـ صفحات طويلة فى كتابه «نزهة الأرواح وروضة الأفراح » نقلا حرفيا دون تغيير ، أو مع زيادات غير ذات أهمية ، ولولا أنهما يختلفان اختلافا بينا فيما يوردان من الحكماء والأنبياء ، وأن ثمة إضافات ونقوصا بين الفصول المتناظرة لظنهما المرء كتابا واحدا . وكان ابن اصيبعة فى كتابه «عيون الأنباء فى طبقات الأطباء » ، أكثر أمانة ، فنقل عنه ، وأشار إليه فى المواضع التى نقلها .

فى أوربا كانت إسبانيا أول من ترجم الكتاب إلى لغتها فى عصر ألفونسو العالم (١٢٥٢ - ١٢٨٤) ملك قشتالة ، وكان مدرسة الترجمة فى طليطلة التى اضطلعت بترجمة الكثير من التراث العربى فى الأندلس إلى اللغة الإسبانية ، ومن بين ما خلفته كتاب «لقم من ذهب » ، تأليف بونيوم ملك فارس ، وعند دراسة الكتاب تبين للإسبان أنه اعتمد إلى ما يقرب أن يكون ترجمة لمختار الحكم ، وأن مبشراً اعتمد

فى جمع حكمه على كتاب «آداب الفلاسفة» لحنين بن إسحاق ، والحكم المنسوبة إلى الإمام على بن أبى طالب ، إلى جانب القدماء من اليونانيين ، وربما استعان ببعض الكتب المسيحية أيضاً . وفضلا عن العرب الذين تأثروا به ، فقد تأثر به أيضا سعدى وعبد الرحمن حامى شعراء الفرس، وبعض شعراء الترك أيضاً .

والواقع أن الكتاب كان موردا عذبا لكل الكتاب الإسبان الذين كانوا يبحثون عن المعرفة العملية التى تملأ مجموعات الحكم والأمثال لتربية الأمراء وتعليم الشعب ، وعند الذين اهتموا بجمع الأمثال أصلية أو مترجمة .

أما ترجمته إلى اللاتينية فقد قام بها يوحنا البروشيدى ، وكان حاكما لجزيرة بروشيدا وطبيبا ومتآمرا فى السياسة ، وتوفى عام ١٣٠٢ ، ويرجح الدكتور بدوى أن الترجمة اللاتينية تمت عن العربية لا عن الترجمة اليونانية ، لأن هذا الطبيب المترجم عاش فى بلاط فريدريك الثانى ، المتوفى ١٢٥٠ م ، وكان حافلا بمن يعرفون العربية ، وعلى أساس الترجمة اللاتينية تمت الترجمة الفرنسية ، قام بها جيوم دى تنيونفيل أحد أمناء قصر شارل السادس ، توفى ١٤١٤ م ، وكان محافظا لمدينة باريس ، فى لغة فرنسية ، وقد أغفل بعض العبارات ، وفى مواضع أخرى عدل فى الأصل اللاتينى تعديلا يتفق مع نزعاته ، وعن الترجمة الفرنسية هذه ترجم إلى اللغة الإنجليزية ، وإلى البروقنسالية ، ثم توالت ترجماته فى اللغات الأخرى .

أهمية خاصة لمختار الحكم

إن كتاب «مختار الحكم» هو أوفى كتاب فى العربية استقصى أقوال الفلاسفة والحكماء ، ومادته تزيد عشرات المرات عما ورد فى نظائره مثل «جاويدان خرد» لمسكويه ، و «الكلم الروحانية فى الحكم اليونانية» لأبى الفرج بن هندو ، والنصوص التى أوردها مبشر ذات ديباجة عربية خالصة ، لاتشتم منها رائحة ترجمة ، مما يقطع بأن قلما عربيا عالى الأسلوب جرى فى الترجمات اليونانية .

ظل كتاب مختار الحكم حبيس مخطوطاته الموزعة على مكتبات العالم الأوربى ، دون أن يعرف عنه العالم العربى شيئا ، على حين أنه كان معروفا جيدا لجمهرة المستشرقين الإسبان ، وقد نشر منه برونو ميسنر الفصل الخاص بالإسكندر المقدونى فى مجلة الجمعية الشرقية الألمانية ، فى ليبزيج عام ١٨٩٥ ، مع ترجمته إلى الألمانية .

ثم جاء الأستاذ الدكتور عبد الرحمن بدوى فأخرجه كاملا فى طبعة علمية ممتازة ، معارضا بين مخطوطاته المختلفة ، ومعلقا على غوامضه ، ومقدما له بدراسة عميقة ، غير أن هذه الطبعة العلمية الممتازة صدرت فى مدريد ، وما طبع منها كان محدودا ، وقد نفدت منذ زمن بعيد ، ومؤكداً أن أحدا فى القاهرة لا يعرف عنها شيئا .



لسان العرب لابن منظور

بقلم : د . محمود الطناحى

وابن منظور : هو أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرّم بن على الأنصارى الإفريقى المصرى ، ينتهى نسبه إلى الصحابى الجليل رُوَيْفِع بن ثابت ، رضى الله عنه . وقد ذكر ابن منظور هذا النسب فى مادة (جرب) من اللسان .

ولد ابن منظور يقيناً بالقاهرة سنة ٦٣٠ هـ ، ونشأ بها وتعلّم وصنّف ، وتوفى سنة ٧١١ هـ ودفن بقرافتها و« الإفريقى » فى نسبه معناها التونسى ، فقد كانت إفريقية فى ذلك الزمان يراد بها تونس الآن . وقد وُلد جدّ ابن منظور « على » فى تونس ، ثم غادرها إلى القاهرة ، وبها وُلد ابنه « مكرّم » والد ابن منظور ، ثم وُلد هذا وإخوته بها . وقد ذهب بعضهم إلى أن ابن منظور وُلد بتونس ، وذهب آخرون إلى أنه ولد بطرابلس الغرب . يقول الدكتور إحسان عباس : « وقد ثار فى السنوات الأخيرة جدل حول منتمى ابن منظور ، أملتْه النظرة الإقليمية ، أهو إفريقى أم مصرى .... ولو تأملت هذا الكلام من جميع هؤلاء الدارسين لتملكك العجب ، ودهشت لهذا الذى يجرى فى الدراسات والتحقيقات ، من استنامة إلى السهول والتساهل ، مع أن الأدفوى يقول فى البدر السافر : محمد بن مكرّم الإفريقى المحتد القاهرى المولد . وهذا ابن سعيد يروى نقلاً عن المكرم نفسه والد محمد ، أنه أى المكرّم - ولد بالقاهرة . فإذا كان الأب نفسه ولد بالقاهرة فبأىّ حق يفتش الدارسون عن عبقرية إفريقية (تونسية) ولدى ابن منظور ؟

ومهما يكن من أمر فقد عرف ابن منظور بالاشتغال بالأدب ، نظماً ونثراً ، مع معرفة بالنحو واللغة والتاريخ ، وتولّى كتابة الإنشاء بالدولة ، وكان كثير النَّسْخ ، ذا خطٍّ حسن . وقد شهر باختصار الكتب

التصنيف والتدوين

ومع هذا النشاط الظاهر فى الاشتغال بعلوم العربية واختصار مصنفاتها ، فما

● خرج من مصر - تأليفاً وطباعةً - أضخم معجمين فى تاريخ المعاجم العربية : لسان العرب لابن منظور المتوفى ٧١١ هـ ، وتاج العروس من جواهر القاموس للمرتضى الزَبيدى المتوفى فى سنة ١٢٠٥ هـ . ومع أن تاج العروس هو أغَزر المعاجم اللغوية مادة وأكثرها شمولا ، فإن لسان العرب قد ذهب بالشـهرة كلها ؛ لأسباب ودواعٍ يأتيك حديثها .



عرف ابن منظور وما شهر إلاّ بكتابه العظيم : لسان العرب .

وقد جاء ابن منظور بعد ما استقرّ التأليف المعجمىّ ، واتضحت طرائقه ومدارسه . وقد بدأ التصنيف المعجمى - كما هو معروف - موازيا للتدوين فى علوم العربية ، فى النصف الأول من القرن الثانى ، وتمثل ذلك فى تلكم الرســـائل الصغيرة التى تنــاولت موضوعات بعينها ، مثل ما كتب فى خَلْق الإنسان والبهائم والحشرات ، والإبل والخيل والنخل والنبات والمطر واللبن ، وما كتب في نوادر الأبنية ،ثم ما كتب فى غريب القرآن والحديث . قام بهذا اللغويون الأوائل ، مثل أبى خيرة الأعرابىّ ، وأبى عمر بن العلاء ، وأبى مالك الأعـــرابىّ ، وأبى زيـــــد ، والأصمعىّ ، وأبى عبيدة معمر بن المثنى ، وأبى عبيد القاسم بن سلاّم . وفى ذلك الزمان أيضا قام الخليل بن أحمد بتصنيف أول معجم متكامل ، وهو المعجم الرائد « العين » الذى رتّبه على مخارجِ الحروف . وبجانب هذا التأليف المعجمىّ الخالص الذى بدأه الخليل قام العلماء من النحاة واللغويين بصنع دواوين الشعراء وشرحها ، من أمثال الأصمعى وتلميذه أبى نصر الباهلى ، وأبى عمرو الشيبانى وابن السكيت وثعلب والسكّرى . وقد قدم هؤلاء مادة لغوية غزيرة من خلال شرح ما



صنعوه وما جمعوه من شعر . هذا إلى اهتمام علماء كل فن وعِلم باللغة ، يقّدمونها أمام كلّ بحث ، ويعنون بها قبل كلّ كلام . ولاعجب فى هذا فاللغة هى المدخل الحقيقىّ لمعرفة علومنا كلها وتاريخنا كله ، والاستهانة بها والتفريط فى قواعدها ورسومها إنما هى استهانة وتفريط بمعارفنا وعلومنا كلها .

وقد انتهى إلى ابن منظور حصاد طيب فى التصنيف المعجمىّ ، نظر فيه واستصفى منه خمسة كتب بنى عليها معجمه ، وهذه الكتب بحسَب ذكره لها : تهذيب اللغة للأزهرىّ (٣٧٠ هـ) . المحكم لابنِ سيدَه (٤٥٨ هـ) . الصحاح للجوهرى (حدود ٤٠٠ هـ) . والحـواشى عليـه لابن برّى المصرى (٥٨٢ هـ) تسمى هذه الحواشى : التنبيه والإيضاح ما وقع فى الصحاح . النهاية فى غريب الحديث والأثر لابن الأثير (٦٠٦ هـ) .

وتمثل هذه المراجع الخمسة ثلاث مدارس فى التأليف المعجمى : المدرسة الأولى ، مدرسة ترتيب المواد اللغوية وفق مخارج الحروف ، وهى مدرسة الخليل ابن أحمد ، ويمثلها من هذه الكتب : التهذيب والمحكم . والمدرسة الثانية : التى ترتب المواد على الجـذور اللغوية (أصل الاشتقاق) واعتبار الحرف الأخير منها باباً ، والحرف الأول فصلا ، مع مراعاة الترتيب الألفبائىٰ فيما بين حرفى الباب والفصل . ويمثل هذه المدرسة الصحاح وحواشيه . والمدرسة الثالثة : التي ترتّب الموادّ وفق الأول والثانى والثالث . ويمثلها النهاية .

وقد ارتضى ابن منظور من مناهج هذه المدارس منهج المدرسة الثانية ، مدرسة الصحاح ، ورتّب كتابه على أساسها ، وأخضع المدرستين الأخريين لها . وقد صدر ابن منظور معجمه بمقدمة أبان فيها عن منهجه ، وأنبأنا أنه تغّيا من تأليفه هذا غايات ثلاثاً : الغاية الأولى تعليمية ، وتمثلت فى نقده لطريقة ترتيب المواد وفق المخارج ، ويصف ذلك بقوله : إنه « مطلب عسر المهلك ، ومنهل وعر المسلك ، وكأن واضعه شرع للناس موردا عذبا وحلأهم عنه .

غيرته على العربية

والغـاية الثانية غاية دينية ، يقول : « إننى لم أقصد سوى حفظ أصول هذه اللغة النبوية وضبط فضلها ، إذ عليها مدار أحكام الكتاب العزيز والسنّة النبوية .

وتأتى الغاية الثالثة ، ويمكن أن نسميها غاية قومية وطنية ، باعثها الغيرة على العربية والعصبيّة لها ، بعد أن اطّرح الناس الحديث بالعربية ، وهجروها إلى اللغة الأعجمية – وهى التركية فى ذلك الزمان – يقول ابن منظور : « وذلك لما رأيته قد غلب فى هذا الأوان من اختلاف الألسنة والألوان ، حتى لقد أصبح اللحن فى الكلام يعد لحنا مردودا ، وصار النطق بالعربية من المعايب معدودا ، وتنافس الناس فى تصـانيف الترجمـانات فى اللغـة الأعجمية ، وتفاصحوا فى غير اللغة العربيْة ، فجمعت هذا الكتاب فى زمنِ أهله بغير لغته يفخرون ، وصنعته كما صنع نوح الفُلك وقومه منه يسخرون » . هذا ما قاله بن منظور منذ سبعمائة عام عن حال اللغة العربية بازاء اللغة الأجنبية ، فماذا نحن قائلون الآن ؟

ويصرِّح ابن منظور فى مقدمته بأن عمله فى معجمه لم يخرج عن حدود ما فى مراجعه الخمسة ، فيقول : « وليس لى فى هـذا الكتاب فضيلة أمُتّ بها ولا وسيلة أمسك بسببها سوى أنى جمعت فيه ما تفرّق فى تلك الكتب من العلوم .... فمن وقف فيه على صواب أو زلل أو صحة أو خلل فعهدته على المصنف الأول ، وحمدُه وذمّه لأصله الذى عليه المعوّل ؛ لأننى نقلت من كلّ أصله مضمون ، ولم أبدّل منـه شيئا فيقال : « فإنما إثمه على الذين يُبَدِّلُونه » . وقد أغرى هذا الكلام كثيراً من الباحثين ، وثبّت لديهـم أن ليس لابن منظـور فى « اللسان » إلاّ الجمع والترتيب . والحقيقة أن هذا الكلام جرى على لسان ابن منظور على سبيل التواضع وهضم النفس ، وهو نمط من الكلام معهود عند كثير من أهل العلم فينا الذين لا يذهبون عن أنفسهم ، ولا يتعلقون بالباطل فيضعون أنفسهم فوق هامات السابقين ، وإنما يظهر الكِبر ويفشو العُجْب بالنفس عندما تضعف العزائم وتصغر النفوس .

فابن منظور لم يقف عند هذه الكتب الخمسة وحدها ، فقد استطرد إلى ذكر فوائد من قراءاته وسماعاته ، وحكى عن معاصريه من العلماء ، ونقل نقد العلماء لما بين يديه من موادّ .

هذا وقد ضمّ « اللسان » قدرا هائلاً من الموادّ اللغوية ، ممزوجة بمعارف أخرى استمدّها من مراجعه الخمسة المذكرة بمناهجها واهتماماتها المختلفة : فقد أخذ من تهذيب الأزهرى هذا القدر الضخم من الأبنية والمترادفات والمشترك اللفظى ، وشواهد القرآن الكريم والحديث الشريف ، وأشعار العرب وأقوالها وأمثالها ، إلى جانب ذلك الاهتمـام المبكّر بالناحيـة البلدانية الجغرافية التى استوعب بها الأزهرى التعريف بكثير من بلدان ومواضع ومياه الجزيرة العربية ، ممّا كان أساساً للجغرافيين العرب من بعد ، مثل أبى عبيد



البكرى فى « معجم ما استعجم » وياقوت فى « معجم البلدان » وللغويين الذين اهتموا بالمواضع والبلدان ، من أمثال الفيروز ابادى فى « القاموس المحيط » ، وبالزّبيدِى فى « تاج العروس » .

ثم أخذ عن الجوهرى وابن سيدة ما ضمّناه معجميهما من التوجيهات النحوية والصرفية وقضايا الاشتقاق .

ومن ابن برّى أخذ عنايته الفائقة بتصحيح الشواهد الشعرية وتحريرها ونسبتها . ومن ابن الأثير شرحه لغريب أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكلام الصحابة والتابعين رضى الله عنهم أجمعين .

الأدب سبيل المعرفة

أخذ ابن منظور هذا كلّه ، وأضاف إليه قرَاءاته ومسموعاته ، وأحسن جمْعَه وترتيبه ، وأجاد عرضه ، وأعانه على ذلك اشتغاله بالأدب . وقد كان الأدب ولايزال خير سبيل لإيصال المعرفة ، وسرعة انصبابها إلى السمع ، واستيلائها على النفس . والبليغ يضع لسانه حيث أراد ، ويمّهد لنفسه طريقاً إلى كلّ قلب ، وإنك لتجد كثيراً من الدراسات قد جمعت فأوعت ، لكنها لم تبلغ مبلغها من النفع والفائدة لجفافها وعُسْرها وتجافيها عن الأدب .

وبذلك أصبح « لسان العرب » كتابَ العربية ، يجد فيه طالبه كلّ ما يريد ، وأصبحت قراءته متعة تطلب لذاتها ، إذ سلم من جفاف المعاجم التى تقف عند حدود الدلالة وشرح اللفظ المفرد أو التركيب المعزول عن سياقه ، وكم عرفنا من أدباء وعلماء يديمون قراءة « اللسان » كما يقرأ أحدهم كتاباً للشافعى أو الجاحظ أو أبى حيان . وقد أخبرنى شيخى محمود محمد شاكر – حفظه الله – أنه قرأ « لسان العرب » كله وهو تلميذ بالثانوى ، ثم أخبرنى أيضا أن أمير الشعراء أحمد شوقى قرأ « اللسان » كلّه . قلتُ : ولعل هذا يفسّر لنا « معجم شوقى الشعرى » – والنثرى أيضا فى أسواق الذهب – هذا المعجم الذى يدهشنا بهذه الألفاظ والتراكيب الضاربة فى الفصاحة بعُرُوقها . وما أحرانا أن ندفع أبناءنا فى كليات الدراسات العربية والإسلامية ، إلى قراءة المعاجم ، وكثرة التفتيش فيها والصبر عليها ، بدلاً من وقوفنا بهم عند حدود تلك الدراسات النظرية التى تتناول نشأة المعاجم ومدارسها ، ثم تنتقل إلى ذكر عيوب المعجم العربى . ولئن سلّمنا ببعض هذه العيوب فإنها مما لا ينبغى أن تعرض على طالب العلم فى مراحله الأولى

، بل يؤجل ذلك وأشباهه إلى مراحل الدراسات العليا ، لأنه لا يصح بحال أن نكشف لصغار الطلبة – وهم فى هذه المرحلة الجامعية الأولى – عن أبواب النقد هذه ، وأن ندلّهم عليها ، فإن مداركهم تقصر عن إدراك تلك المرامى البعيدة ، فضلاً عمّا يحدثه ذلك فى نفوسهم من زلزلة وبلبلة قد تُزهّدهم فى العلـم كلّه . ومن آدابنـــا فى ذلك ما ذكره أبو داود فى رسالته إلى أهل مكة ، قال : « إنه ضررٌ على العامة أن يكشف لهم كل ما كان من هذا الباب فيما مضى من عيوب الحديث ؛ لأن علم العامة يقصر مثل هذا » قال الحافظ بن رجب الحنبلى : « وهذا كما قال أبو داود ؛ فإن العامة تقصر أفهامهم عن مثل ذلك ، وربما ساء ظنهم بالحديث جملة إذا سمعوا ذلك » – شرح علل الترمذى ص ٥٣٤

طبعات اللســـان

كان من حظ كثير من آثارنا الكبرى أن تطبـــع فى ذلك الزمان الرخىّ المهنىء ، حيث كانت مصر تُشعّ علماً وحضارة ، فعلماؤها مستقرّون ، ومكتباتها زاخرة ، ومجالس العلم بها مشهودة ، واحترام العربية باسطٌ سلطانه ، والحياء عاصم ، والنقد بالمرصاد .

وكانت مطبعة بولاق الكبرى فى ذلك الزمان منارة علم باذخ ، ومركز ضوءٍ باهر ، وقد طبعت من أصول العلم وكبار الكتب ما أخرج الناس من الظلمات إلى النـــور

وكان من أجــلّ مطبوعاتـها « لسان العرب » ما بين سنتى ١٣٠٠ هـ – ١٣٠٧ هـ وقد اجتمع لهذه الطبعة من آيات الإتقان والكمال مالم يجتمع فى كتاب : فالنُسَخ المخطوطة جيدة ، والضبط كامل تغلب عليه السلامة ، والتصحيح دقيق ، حيث كان يتولى التصحيح بمطبعة بولاق مشيخة جليلة من علماء الأزهر الشريف . وقد جاءت هذه الطبعة فى عشرين مجلدا من القطع الكبير ، متوسط كل مجلد ٤٥٠ صفحة .

ثم كانت النشرة الثانية للكتاب بدار صادر ببيروت سنة ١٩٥٥م فى ٦٥ جزءاً صغيراً جُعلت بعد ذلك فى ١٥ مجلداً ، ويقول عن هذه النشرة شيخنا عبد السلام هارون ، رحمه الله « وكان من المتوقع أن تسلم هذه النشرة من كثير من أخطاء النشرة الأولى ، ولكن من المؤسف أن الأخطاء والتحريفات التى وردت فى النشرة الأولى ، أى طبعة بولاق ، قد زِيد عليها كثيرُ من أمثالها ، وإن كان من الحقّ أن بعض الأخطاء القديمة قد عُولج فيها بنســبة ضئيلة جدا » – تحقيقات وتنبيهات فى معجم لسان العرب ص ٤ ، ٥ .

وفى السنوات الأخيرة أصدرت دار المعارف بمصر طبعة ثالثة من اللسان ، بعد أن غيرت ترتيبه من نظام التقفية الباب والفصل الى الترتيب على الحرف الأول والثاني والثالث ، كما رتب الزمخشـرى معجمه « أساس البلاغة » والفيومى معجمه



« المصباح » وإن كان هذا الترتيب أقدم من الزمخشرى والفيومى ، وتفصيل ذلك فى غير هذا المكان .

عمل غير صالح !

وهـذا الذى أقدمت عليه دار المعارف ، فى نظرى عملٌ غير صالح : لأن فيه جرأة على أعمال السابقين ، وقد قال أصحاب دار صادر فى نشرتهم للّسان : « وأشير علينا أن نغّير ترتيب « اللسان » ولكنا آثرنا أن يبقى على حاله حفظاً للأثر من أن يُغَيّر وهذا هو الحق والصواب ، فإن ابن منظور – ومن قبله الجوهرى – قد رتّب معجمه على اعتبار آخر الكلمة وأولها بعد تجريدها من الزوائد ، لأسباب اقتضت ذلك ، ومن أهم هذه الأسباب أن آخر الكلمة ثابت تصريفاً واشتقاقا ،وإنما تطرأ الزيادة والتغيير على الأول والحشو (الوسط) . وإعادة ترتيب المادة المعجمية على الأول والثانى ينقض ذلك فضلا عمّا يحدثه من تعريض منهج المؤلف للاضطراب ، من حيث اختلال الإحالات والإرشادات تقديماً وتأخيرا ، فالمؤلف يقول وفق منهجه : تقدّم ذلك ، أو : سيأتى ، ولا يستقيم هذا على المنهج المقلوب ، فقد يكون المقدّم آتيا ، والآتى مقدّما .

ويرتبط بتلك الدعوة دعوة أخرى خطيرة ، وهى ترتيب المادة اللغوية داخل المعجم على ظاهر اللفظ ، دون رعاية التجريد والزيادة . وفى هذا إضاعة لعلم كبير من علومنا ، هو علم الصرف والاشتقاق . ومما ينبغى التنبيه عليه هنا : أن بعض علمائنا الأقدمين قد ذكر فى معجمه بعض الألفاظ على ظاهر لفظها لشيوع الكلمة بشكلها هذا ، لكنه كان ينبه فى كل مرة إلى أن أصل الكلمة هو كذا . ومن هؤلاء العلماء ابن الأثير المتوفى سنة ٦٠٦ هـ فى معجمه : « النهاية فى غريب الحديث والأثر » وهو من المعاجم المتخصصة التى رتبت المادة على الأول والثانى والثالث ، فقد ذكر فى باب الحاء والدال والهاء حديث « فجعلْتُه فى قبر على حدة » ثم قال : « أصلها من الواو ، فحذفت من أولها وعوّض منها الهاء فى آخرها ، كعدة وزنة من الوعد والوزن ، وإنما ذكرناهاَ هنا لأجل لفظها » .

لكننا إذا رتبنا معاجمنا كلها على هذا المنهج ، ونبهنا فى كل مرة على الأصل الاشتقاقى تضخمت تلك المعاجم جدا فيما لا غناء فيه ولاطائل تحته .

أما ما يقال عن التيسير والتسهيل فهو كلام من يظن أن أبناء العربية كلهم صاروا تلاميذ فى مرحلة التعليم الثانوى أو ما هو

دونه ، وأننا قد تحولنا جميعا إلى طبقة من العوام لا تقوى على المناهج الموروثة ، ولا تطول يدها الكتب الكبار ، واللهمّ لا ! ولا ينبغي أن يكون التيسير والتسهيل سبيلاً إلى طمس المعالم وهدم الحدود .

ومن وراء ذلك كله فإن السالك هذا السبيل لا يأمن العثرة بعد العثرة ، والزلّة إثر الزلّة ، وما أريد أن أطيل بذكر الأمثلة والشواهد ، لكنني أشير هنا إلى عملين تراثيين سلكا هذا المسلك ، وما كان ينبغي لهما ذلك ، أولهمـــا : كتاب « معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع » لأبي عبيد البكري الأندلسي المتوفى ٤٨٧ هـ وقد نشره الأستاذ مصطفى السقا رحمه الله سنة ١٩٤٥م. والكتاب في أصل وضعه مرتب على الأبجدية المغربية التي تخالف الأبجدية المشرقية في ترتيب الحروف ، وحين نشره الأستاذ السقّا أعاد ترتيبه على أبجديتنا المشرقية المعروفة ، وقد أدّى هذا إلى اختلال في إحالات المؤلف تقديماً وتأخيرا ، قد تربك القارئ الذي لم يقرأ مقدمة الأستاذ المحقق . ثم إنه رحمه الله قد تصرف في الكتاب تصرفا آخر أشار إليه في مقدمته .

ومن العجيب حقا أن الناشر الأول للكتـــاب ، هـــو المســـتشرق الألماني « وستنفلد » حافظ على ترتيب المؤلف للكتاب ، وذلك في نشرته التي صدرت بجوتنجن بألمانيا سنة ١٨٧٦م ، ثم أضاف إليه فهرسة على ترتيب أهل المشرق للحروف ، فأحسن كلّ الإحسان

والمثال الثاني : كتاب « الاستيعاب في معرفة الأصحاب » - الصحابة رضي الله عنهم - لابن عبد البر القرطبي المتوفى ٤٦٣ هـ . وقد رتب كتابه هذا أيضاً على ترتيب الحروف عند المغاربة ، فجاء ناشره الأستاذ علي محمد البجاوي رحمه الله ، وقلب هذا الترتيب ورده إلى الترتيب المشرقي ، وقد أدى ذلك إلى سقوط بعض التراجم التي استدركها الناشر في آخر طبعته .فالحق والصواب أن تترك الكتب كما وضعها مؤلفوها ، ثم يلجأ الى الفهارس والكشافات تيسيراً وتسهيلا ، كما فعل « وستنفلد » في نشرته لكتاب البكري ، وكما صنع شيخنا عبد السلام هارون ، رحمه الله في فهارس « تهذيب اللغة » للأزهري ، ومن الطريف هنا أن شيخي محمود محمد شاكر حفظه الله لا يزال حريصاً على ترتيب موادّ اللغة على طريقة الباب والفصل (أصل الاشتقاق) إن البِّر بتراث الآباء والأجداد ، واحترام التاريخ يقتضينا أن نأخذ بأيدي أبنائنا إلى ذلك الموروث ، نخوض بهم لججه ، ونسلك معهم دروبه ، ونفتح لهم مقفله ، وهكذا تتواصل أجيال المعرفة ، فيحرص اللاحق على إرث السابق ، ويصونه كما يصون كرام الأبناء ودائع الآباء . أما إذا لجأنا إلى إعادة الترتيب والاختصار وما أشبهما فإننا نباعد بينهم وبين تاريخهم ، ونتركهم كالذي لا يعرف من النهر الكبير إلاّ ما يأتيه به الجدول الصغير .

الحلاج ومحاولة تفجير اللغة

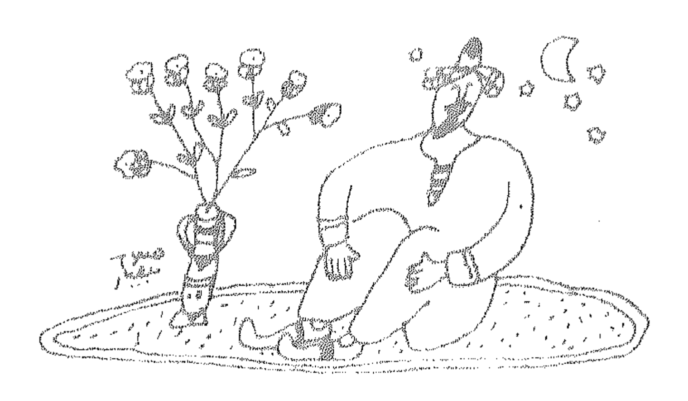
بقلم : د. يوسف زيدان

فى كل تاريخ - عام أو خاص - لحظات حاسمة ، تحدث معها التحولات الكبرى . وقد كانت سنة ٣٠٩ هجرية من أعظم السنوات حسماً وتحولاً فى تاريخ التصرف .. فى هذه السنة ، وبالتحديد : يوم الثلاثاء الرابع والعشرين من شهر ذى القعدة ، أخرج الحسين بن منصور (الحلاج) من سجنه ، فجُلد ، وقطعت يداه ورجلاه ، وشوه ، وصُلب ، وقطعت رأسه ، وأُحرقت جثته .

مع النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى ، أخذت مشكلة اللغة تطفو على سطح التصوف . فقد تعمقت الأحوال الصوفية ودقت المعانى وتفردت ، فلم يعد بإمكان اللغة العادية أن تصور الدقائق الصوفية التى يود أهل الطريق البوح بها . وتفاقم ذلك الإشكال التعبيرى حتى صار بمثابة «أزمة» تبدّت فى شطحيات أبى يزيد البسطامى (المتوفى ٢٦١) .

ويمثل الحلاج مرحلة متقدمة من مراحل «أزمة اللغة» عند الصوفية ، كما يمثل التضحية الكبرى التى قدمها الصوفية فى طريقهم نحو إقرار القاموس الصوفى الخاص .. فقد قدم الحلاج حياته ثمناً لمحاولته التعبير عن الأحوال التى يعاينها ويعانيها .

وُلد الحلاج حوالى عام ٢٤٤ هجرية (١)، بقرية تابعة لبلدة «البيضاء» الفارسية ، فدرس علوم الدين، ثم سلك طريق الصوفية على يد الشيخ : سَهل بن عبد الله التسترى. وطاف الحلاج فى البلدان، وصحب جماعة من كبار مشايخ العصر كالجنيد والنورى وابن عطاء وعمرو ابن عثمان المكى .. وجرت بين الحلاج وهؤلاء المشايخ وقائع كثيرة يضيق المقام هنا عن ذكرها لكنها فى مجملها تشير إلى نأى الحلاج وتفرُّده عن أهل الزمان ،



وتؤكد شعوره بذاته على أنه : نسيج وحده..

الغرق فى بحر النور الإلهى

عاش الحلاج التجربة الصوفية بكل ما فيها من صدق وروعة ، وغرق فى بحر النور الإلهى تمام الغرق . ولسوف نقتصر فيما يلى على ذكر فقرتين شهيرتين من سيرة الحلاج، تلك السيرة التى أفاض فيها المؤرخون والمترجمون له (٢) .. وهاتان الفقرتان تكشفان عن طبيعة الحياة التى عاشها الحلاج ، وطبيعة الموقف الذى تمت فيه إدانته :

الفقرة الأولى : قال ابن باكوية : سمعتُ الحسين بن محمد المذارى يقول : سمعتُ أبا يعقوب النهرجورى يقول : دخل الحسين بن منصور الحلاج مكة ، فجلس فى صحن المسجد لا يبرح من موضعه إلا للطهارة أو الطواف، لا يبالى بالشمس ولا بالمطر، فكان يُحمل إليه كل عشية كوز وقرص - ماء وخبز - فيعض من جوانبه أربع عضات ويشرب (٣) .

الفقرة الثانية : قال ابن زنجى : وحُملت دفاتر من دور أصحاب الحلاّج، فأمرنى حامد - الوزير - أن أقرأها والقاضى أبو عمر حاضر ، فمن ذلك قرأتُ : أن الإنسان إذا أراد الحج ، أفرد فى داره بيتاً ، وطاف به أيام الموسم ، ثم جمع ثلاثين يتيماً ، وكساهم قميصاً قميصاً ، وعمل لهم طعاماً طيباً ، فأطعمهم وخدمهم وكساهم ، وأعطى لكل واحدٍ سبعة دراهم أو ثلاثة ، فإذا فعل ذلك ، قام له ذلك مقام الحج ! فلما قرأت ذلك الفصل التفت القاضى أبو عمر إلى الحلاج وقال له : من أين لك هذا ؟ قال : من كتاب «الإخلاص» للحسن البصرى . قال : كذبت يا حلال الدم ، قد سمعنا كتاب «الإخلاص» وما فيه هذا (٤) .. فلما قال أبو عمر : «كذبت يا حلال الدم» ، قال له حامد : أكتب بهذا ! فتشاغل أبو عمر بخطاب الحلاج ، فألحّ عليه حامد ، وقدّم له الدواة ، فكتب بإحلال دمه ، وكتب بعده مَن حضر المجلس ، فقال الحلاج «ظهرى حِمىً ، ودمى حرام ، وما يحل لكم أن تتأولوا علىَّ ، واعتقادى الإسلام ، ومذهبى السنة ، فالله الله فى دمى» ولم يزل يردد هذا القول وهم يكتبون

الحلاج ومحاولة تفجير اللغة

خطوطهم ، ثم نهضوا ورُدَّ الحلاج إلى الحبس ، وكُتب إلى المقتدر - الخليفة - بخبر المجلس ، فأبطأ الجواب يومين ، فغلظ ذلك على حامد ، وندم وتخوَّف ، فكتب رقعة إلى المقتدر فى ذلك يقول : إن ما جرى فى المجلس قد شاع ، ومتى لم تُتبعه قتل هذا - الحلاج - افتتن به الناس ، ولم يختلف عليه اثنان . فعاد الجواب من الغد : «إذا كان القضاة قد أباحوا دمه ، فليحضر صاحب الشرطة ، ويتقدم بتسليمه وضربه ألف سوط ، فإن هلك وإلا ضُربت عنقه ..» فسر حامد (٥)

والآن ، لننظر قضـــية اللغـــة عند الحلاج !

* * *

حين أراد الحلاج أن يترجم بالألفاظ ما يمرُّ به من أحوال ، لم يكن بإمكانه أن يستعير أساليب تعبيرية من الصوفية السابقين عليه أو المعاصرين له . فالسابقون كانوا يكتفون بالتعريف الموجز لحقائق الطريق ، دون محاولة لتأسيس مفردات لغوية خاصة . والمعاصرون كانوا يراعون العامة والفقهاء ، فيكتفوا بالإشارات المقتضبة الموجزة ، كأن يجيب «الجنيد» عن سؤال حول المعرفة والعارف بقوله : «لون الماء لون إنائه ..» وهى عبارة خطيرة سوف يسهب الصوفية من بعده فى الكلام عليها ، لكنها من حيث الصياغة اللغوية ، خالية من أية محاولة لنحت لفظ صوفى متفرد .

هكذا لم يكن أمام الحلاج سبيل للاستفادة من التراث اللغوى الصوفى ، ومن ناحية ثانية لم يكن بإمكانه أن يسكت أمام طوارق الأحوال . فصار عليه أن يؤسس تراثاً لغوياً صوفياً ، وأن يجد مخرجاً يتجاوز به «أزمة اللغة» التى تحول دون التعبير عن حقيقة الحال الذى يعاينة .. بعبارة أخرى ، كان على الحلاج أن يجرب . خاصةً وهو القائل :

للعلم أهل وللإيمـان ترتيبُ
وللعلـوم وأهـليها تجاريبُ

* * *

ولما كان الشعر الموزون هو أحد السبل التعبيرية المتاحة أمام الحلاج ، فهو لم ير بأساً فى جعله مجالاً للتجريب . وقد تمخضت «تجاريبه» الشعرية عن قدر لا بأس به من المتناثرات الشعرية التى جمعها الدكتور كامل الشيبى فى مجلد واحد ، ونشره محققاً منذ سنوات ببغداد .. فمن تجارب الحلاج الشعرية ، قوله مبرراً ما يلبسه من ثياب رَثة (القشر) تخفى تحتها نفساً كريمة (اللُب) ، ومشيراً إلى الأمر الجسيم الذى يشعر أنه مُساقٌ إليه :

لئن أمسـيتُ فى ثوبىْ عديمٍ
لقــد بـــلَيَا علىِ حُرٍّ كــريمِ

فلا يحـزنك أن أبصرت حالاً
مغيـرةً عن الحـــال القديمِ
فلي نفسٌ ستذهب أو سترقى
لعمـــرك بي إلى أمرٍ جســـيم (٦)

تبدو هذه القطعة الشعرية على المستوى اللغوى ، فقيرة بلاغياً ، بسيطة التركيب إلى حد السذاجة التى لا تطمح إلا فى الاخبار عن حقيقة الحال . وهى على المستوى الصوفى ، تكشف عن مضامين متواضعة حين تؤكد بقاء الذات وتكتفى بالإشارة إلى إمكانية فنائها - والفناء درجة عالية فى سلم الترقى الصوفى - وليس هذا فحسب ، بل تصف الأبيات صاحبها بأنه «الحر الكريم» وهى مسألة تعدُ صوفياً : نوعاً من المدح المذموم للنفس .. وكان الصوفية آنذاك قد أدركوا ضرورة ما أسموه «كسر حدة النفس» كإحدى الرياضات الروحية التى يسعى من خلالها الصوفى - مهما بلغت مرتبته - إلى السيطرة على نفسه والخلاص من رعوناتها .. إذن ، لم يستطع الحلاج ، هنا أن يصل بالشعر إلى درجة من النضج اللغوى أو الصوفى ، بحيث يتجاوز «أزمة اللغة» التى أشرنا إليها .

ولم يقف الحلاج عند هذا الحد ، وإنما انجرف مع الشعر دون حذر، وترك الإيقاع يقوده نحو دليل إدانته .. فقال فى أبيات أخرى :

أنت بين الشغاف والقلب تجرى
مثل جرى الدموع من أجفانى
وتحلُ الضـــميرَ جوفَ فؤادى
كحلول الأرواح فى الأبـــدانِ
يا هـــــلالاً بدا لأربع عشـــرٍ
لثمـــــانٍ وأربعٍ واثنتـــان (٧)

ويقطع النظر عن البيت الأخير الذى لا يحمل - من حيث ظاهر اللفظ ولا باطن المعنى - أية دلالات ، ولا يمكن اعتباره إلا كدليل على انجراف الحلاج مع البحر الشعرى والقافية ، دون هدف محدد .. جاء البيت الأول حانياً ، رقيقاً ، مشتملاً على صورة فنية جيدة (سريان المحبوب = الله ، فيما بين القلب وما يغلفه = الشغاف) وتشبيه ذلك بانسياب الدمع من الجفن المغلف للعين . وهى صورة معبرة - صوفياً - عن فكرة امتلاء المحب بالمحبوب الذى هو حقيقة كل شئ .. لكن الحلاج يصدمنا فى البيت الثانى بكلمة «الحلول» الخطيرة ، تلك الكلمة التى لم يجربها فى الشعر الصوفى غيره . ثم يعيد ذكرها مرتين ، فى كل شطر مرة ، ويؤكد معناها فى أبيات تجريبية أخرى ، تقول :

مُزجت روحـك فى روحى كما
تمزج الخمرة بالماء الزلال (٨)

وكأن الحلاج لم يكتف فقط بذكر كلمة «الحلول» التى كان يمكن تأويلها صوفياً على أى وجه من الوجوه ، فإذا به يختم عليها بكلمة أشد خطراً «المزج» ثم يشبه هذا المزج بين روحه وروح المحبوب - الله - بمزج الخمر الحسية بالماء .. وكانت تلك

الحلاج ومحاولة تفجير اللغة

هى المرة الأولى التى تستخدم فيها كلمة «الخمر» فى الشعر الصوفى ، ولسوف يعود شعراء الصوفية لاستخدامها على نطاق واسع ، بعد إعطائها دلالة رمزية بحيث تشير إلى النشوة بتجلى المحبوب (خمر المحبة) أو إلى تذكر عالم الذر الذى كانت فيه الأرواح قبل خلق الأجساد تُقِرُ بالوحدانية لله (خمر التوحيد ، كأس : ألست بربكم) المهم الآن : أن الشعر جرف الحلاج فأتى بكلمتين من قاموس الممنوع العقائدى .. فهل كان الرجل بالفعل يقصد : الحلول والمزج ؟

فى شهادة - نثرية - للحلاج ، نراه ينفى بشدة ما أثبته فى شعره ! فيقول عن «المزج» مانصه : مَن ظنَّ أن الألوهية تمتزج بالبشرية ، فقد كفر (٩) . وعن «الحلول» يقول : إن معرفة الله هى توحيده، وتوحيده تمييزه عن خَلقه ، وكل ما تصور فى الأوهام فهو - تعالى - بخلافه، كيف يحل به ما منه بدأ (١٠) ..

مأزق جديد

القضية إذن ، أن الحلاج لم يستطع بالشعر أن يخرج من الأزمة . كما استطاع من بعده ابن الفارض وجلال الدين الرومى - بل وقع فى مأزق جديد عندما استسلم لوقع النظم ، وعندما جلب كلمات : الحلول ، والمزج ..

وقد أثارت كلمات الحلاج حفيظة المعاصرين له ، فأدانوه بكلمتى (الحلول - المزج) لما فيهما من دعاوى نصرانية بحلول الله بالبشر وامتزاجه بهم .. واستثقلوا كلامه حول (اللاهوت والناسوت) لنفس السبب ، ولم يقتصر الأمر على الفقهاء فحسب ، فقد روى المؤرخون أن مشايخ التصوف أنفسهم : كانوا يستثقلون كلامه (١١) .

ومن الألفاظ التى لجأ إليها الحلاج فى محاولاته الأولية هذه ، كلمة (شعشعانى) التى اعتبرت - لغرابتها - دليلاً على سوء الأدب .. فقد احتد عليه مرة الوزير على بن عيسى قائلاً له : كم تكتب - ويلك - إلى الناس «تبارك ذو النور الشعشعانى» ما أحوجك إلى أدب ! (١٢) .

وعلى هذا النحو ، فشل الشعر فى الوصول لصياغة مقبولة يعبر خلالها الحلاج عن مكنون ذاته ! وفشلت الكلمات التجريبية (حلول - مزج - لاهوت - ناسوت - شعشعانى) فى حمل معانيه .. فلم يبق أمامه إلا الصراخ !

حملت كتب التراجم ، العديد من صرخات الحلاج .. مثل زعقته فى أسواق بغداد : أيها الناس ، اعلموا أن الله قد أباح لكم دمى فاقتلونى ، اقتلونى تؤجروا

واسترح ، اقتلوني تكتبوا عند الله مجاهدين واكتب أنا شهيد (١٢) .

وفى غمرة هذا الانفجار الوجدانى ، لاحت للحلاج الوسيلة المثلى للخروج من المأزق .. وأدرك أن تأسيس اللغة الصوفية، لا يكون بالاسترسال مع النظم ، ولا يكون باستخدام الألفاظ المثقلة بالدلالات القديمة.. وإنما يكون بتفجير اللغة .

* * *

إن المراد بمحاولة الحلاج «تفجير اللغة» هو سعيه للتخلص التام من أساليب الصياغة اللغوية الشائعة فى عصره ، وطموحه الكبير إلى استبدال اللفظ الذى اهترئ من كثرة التداول بلفظ يتخلق بحرية خلال السياق الجديد .. وقد تجلى هذا التفجير للغة السائدة ، واكتشاف الحلاج لمعدن اللغة الصوفية الجديدة ، فى النص الوحيد – تقريباً – الذى بقى إلى اليوم من مؤلفاته . وهذا النص ، الذى كتبه الحلاج فى سجنه – وهربه تلاميذه – والذى يعدُ واحداً من أروع النصوص الصوفية على الإطلاق ؛ هو : كتاب الطواسين ..

* * *

فى كتاب الطواسين (١٤) يفجر الحلاج كل التراكمات اللغوية والدلالية ، ليعود إلى أصل اللغة : الحرف .. وإلى التجلى الأتم لها : القرآن !

أراد الحلاج أن يغوص نحو الحروف، التى هى المادة الأولية فى اللغة ، فجعل فصول كتابه (طواسين) أى أن كل فصل منها (طاسين) ، مستفيداً من الدلالة الصوتية العميقة ، الناشئة من جمع حرفى الطاء والسين ؛ وناسجاً فى الوقت ذاته على منوال النص اللغوى الأقدس (القرآن) باعتباره المجلى الأصلى لصياغة الكلام الإلهى صياغةً عربية .. فقد بدأت بعض سور القرآن بذكر الحروف، ومن بينها الطاء والسين اللذين بدأ بهما الحلاج.

ثم يأتى الحلاج بما يجلو الحرف، وذلك عن طريق «الإضافة» ليكشف عن مفهوم صوفى يساوق الجمع اللغوى بين لفظتين .. هذا المفهوم الصوفى هو باختصار : أن الحقيقة لا تدرك إلا من حيث النسب والإضافات ، فلا توجد حقيقة إلا من حيث نسبتها وإضافتها . بعبارة أخرى . لن تصير حقائق الوجود قائمة بالفعل، إلا بعد إضافة هذا الوجود لله .

وإضافات الحلاج للطاء والسين تكشف عن مستوى آخر من مستويات اللغة الصوفية عنده ، وهو مستوى الترميز .. فقد أراد الحلاج أن يبين للصوفية أنه لا يمكن التحدث عن حقائق الطريق إلا رمزاً . فأضاف للحروف رموزاً ، بحيث صارت فصول كتابه : (طاسين السراج ، وطا سين النقطة ، طا سين الدائرة .. إلخ) والسراج هنا هو محمد – صلى الله عليه وسلم – النبى الذى قد اقتبس كل الأنبياء

الحلاج ومحاولة تفجير اللغة

نورهم من نوره القديم الذى كان يتلألأ وأدم بين الطين والماء . أما النقطة والدائرة ، فهما من الاصطلاحات التى سوف تستقر فى اللغة الصوفية ، حتى يأتى ابن عربى . فى الفتوحات المكية - فيجوس فى مفاوزهما ، ويكشف عن دلالتهما الخاصة بالجدل المعرفى (الابستمولوجى) الكاشف عن العلاقة الوجودية (الانطولوجية) بين الله والإنسان الكامل .

ومن الحروف ، تتألف «الأسماء» التى هى الظهور الخاص لحقائق الأشياء .. كُلٌ على حدة . ولذلك ، فحين أراد الله تعالى أن يتميز آدم ، علمه الأسماء كلها ، ثم أظهره على الملائكة .. ولذا ، واصل الحلاج غوصه فى محاولة لكشف حقيقة الأسماء بوصفها مركبة من حروف . وضرب لذلك أمثلة فى سـياق كلامه ، منها قوله فى (طا سين الأزل والالتباس) ما نصُه . «اشتق اسم إبليس من رسمه» - يقصد : لأنه التبس عليه الأمر فى الأزل، (فغير عزازيل، العين لعلق أهمته) يقصد لأنه تعلق بالله على التجريد فلم يسجد لغيره - «والزاى لازدياد الزيادة فى زيادته» - يقصد لأنه أزاد على كونه طاووس الملائكة ، كونه الوحيد الذى لم يسجد لغير الله - «والألف ازادة فى أُلفته ، والزاى الثانية لزهده فى رتبته، والياء حين يهوى إلى سهيقته ، واللام لمجاولته فى بليته ، وقال له : ألا تسجد يا أيها المهين ؟ قال : محب ، والمحب مهين ، إنك تقول مهين ، وأنا قرأت فى كتاب مبين ، ما يجر على ياذا القوة المتين ، كيف أذل له وقد خلقتنى من نار وخلقته من طين «ثم يقول الحلاج : يا أخى ، سُمِىَ عزازيل ، لأنه عُزِلَ وكان معزولا فى ولايته ، مارجع من بدايته إلى نهايته ، لأنه ما خرج عن نهايته...» والمقصود بالنهاية هنا ، إدراك ابليس - وهو أعرف العارفين بالله - أن الأمر الإلهى له كان ابتلاءً ، وأن المعصية مقدرةٌ عليه فى الأزل ، وأنه لن يخرج عن دائرة المشيئة الإلهية التى اقتضت كل ما جرى !

على هذا النحو ، يسعى الحلاج إلى الرجوع لبكارة اللغة ومادتها الأولى (الحروف) وإلى دلالات المفرد المميز لحقيقة الشئ (الاسم) ليفتح بذلك باباً عظيماً ، سوف يعرف فى التراث العربى بعلم الحروف والأسماء .. وهو علم سوف يستهوى الصوفية بعد الحلاج ، فيحاولون الغوص وراء : سر الظرف المودع فى الحرف (وهو عنوان لأحد كتب عبد الكريم الجيلى) ولا يزال هذا الاستهواء ممتداً فى ثقافتنا المعاصرة ، وإلا .. فما الذى يفعله الشاعر المعاصر «حسن طلب» حين يغوص فى بحار حرف الجيم !

* * *

وبعد .. لقد كانت «اللحظة الحاسمة» التى قُتل فيها الحلاج ، كفيلةً بتغليف التصوف من بعده بجدار الصمت . لكن الرجل فتح أمام اللاحقين عليه باب اللغة الجديدة التى سوف تتجلى عند النفرى وابن عربى والجيلى ، وغيرهم من الصوفية .. ولقد كنت أود تبيان ملامح هذه اللغة الجديدة ، من خلال استعراض الخصائص اللغوية فى كتاب الطواسين. لكن المقام هنا لن يحتمل ذلك، فلنرجئ الأمر إلى دراستنا الموسَّعة - التى نرجو أن يمهلنا الأجل حتى نتمها - حيث نتناول بالتفصيل : مولد اللغة الصوفية وتطورها .

الهوامش

(١) ماسينيون : مادة «الحلاج» بدائرة المعارف الإسلامية ١٧/٨ .

(٢) راجع القائمة - المطولة - الخاصة بمصادر التأريخ للحلاج ، فى تحقيقنا لديوان عفيف الدين التلمسانى (مؤسسة أخبار اليوم ١٩٩١) ص ١٠١ .

(٣) ابن باكويه · أخبار الحلاج (نشرة ماسينيون وكراوس ، باريس ١٩٣٦) ص ٤٣ - الذهبى : سير أعلام النبلاء (مؤسسة الرسالة ، بيروت ١٩٨٣) ٣٢٨/١٤ .

(٤) هذا الكتاب غير معروف منذ زمن طويل .

(٥) سير أعلام النبلاء ٣٤١/١٤ - نشوار المحاضرة ٨٧/٦ - بتاريخ بغداد ١٣٨/٨ .

(٦) وردت الأبيات فى . ديوان الحلاج ص ١١٧ - تاريخ بغداد ١١٧/٨ - سير أعلام النبلا ٣٢٧/١٤ - البداية والنهاية ١٣٤/١١ .

(٧) ديوان الحلاج ص ٩٦ - أخبار الحلاج ص ١١٣ - طبقات الصوفية ، للسُلمى ص ٧٤ - سير أعلام النبلاء ٣٢٦/١٤ .

(٨) ديوان الحلاج ص ٨٢ - تاريخ بغداد ١١٥/٨ . (٩) أخبار الحلاج ص ٤٧ . (١٠) المرجع السابق ص ٣١ . (١١) سير أعلام النبلاء ٣٢٦/١٤ . (١٢) المرجع السابق ص ٣٢٧ .

(١٣) فى اليوم الذى صُلب فيه الحلاج ، نظر إلى السماء وقال : هؤلاء عبادك قد اجتمعوا لقتلى تعصباً لدينك وتقرباً إليك ، فاغفر لهم .. فإنك لو كشفتَ ما كشفت لى ، لما فعلوا ما فعلوا . ولو سترت عنى ما سترت عنهم ، لما لقيتُ ما لقيت .. فلك التقدير فيما تفعل ، ولك التقدير فيما تريد ! .

(١٤) هو كتاب صغير الحجم ، قام ماسينيون بنشره فى باريس سنة ١٩١٣ ميلادية ، وقد اعتمد على هذه النشرة معظم الذين كتبوا عن الحلاج بعد ماسينيون .. ومع ذلك ، فإن ما كتبه ماسينيون نفسه عن الحلاج (عذاب الحلاج) بالفرنسية ، يعدُّ إلى اليوم أروع البحوث فى هذا الباب .

المنهج النفعى

بقلم : د. نصر حامد أبوزيد

الدكتور المهندس
محمد شحرور
الكتاب والقرآن
قراءة معاصرة

مازال الحوار مستمرا بين د. نصر حامد أبوزيد ود. المهندس محمد شحرور مؤلف «الكتاب والقرآن»، وهو حوار خصب لعله يحرك الركود فى الحياة الثقافية

● أحسن الدكتور مهندس محمد شحرور صنعا باستجابته الطيبة لما كتبت فى هذا المكان تعليقا على كتابه «الكتاب والقرآن : قراءة معاصرة». أقول «استجابته الطيبة» مستثنيا بعض العبارات التى لم أكن أحب له أن يقع فى حبائلها، وذلك من مثل قوله : «يبدو أن الدكتور أبازيد فى مقاله ينتمى إلى الاحتمال الثانى - يقصد الإيمان بتاريخية النص القرآنى - هذا إن أحسنا الظن به» والتأكيد من عندى. ومن مثل قوله كذلك إننى لم أفهم الكتاب إطلاقا. وسأترك مسألة حسن الظن تلك، لأنها لا تقدم أو تأخر فى الحوار الفكرى، فللكاتب أن يسئ الظن أو يحسنه، تلك مشكلته هو الشخصية، والتى لا دخل للحوار الفكرى بها. وإنما هى عبارة ذات طابع إرهابى خفى ما كنت أحب لمن يقدم قراءة عصرية - لن ترضى الخطاب الدينى السلفى التقليدى - أن يتورط بقولها.

أما مسألة عدم فهمى للكتاب فهى عبارة تقع فى منطقة وسطى بين «الهجوم الشخصى» والخلاف المنهجى. وسأتجاوز عن الهجوم الشخصى فى العبارة، لأنها لا تضر الشخص المخاطَب - بفتح الطاء - بقدر ما تشير إلى ذهنية المخاطِب - بكسر الطاء. ولا شك أن فهمى للكتاب يختلف عن فهم

كاتبه، والمقصود هنا القضايا التى يطرحها الكتاب ويتناولها تحليلا وتفسيرا من منظور منهجى محدد. الخلاف المنهجى يحدث خلافا فى فهم القضايا وفى تفسيرها. هذا أمر طبيعى، وهو المحرك للحوار، أى حوار. واتهام أحد أطراف الحوار للطرف الآخر بأنه «لم يفهم» يعنى أن الطرف الأول يتجاهل الأسس الابستيمولوجية للحوار، ويعنى أنه يريد أن يدور الحوار فقط طبقا لمنظوره المنهجى، الذى يتماثل ذهنيا فى عقل صاحب العبارة بالحقيقة المطلقة، التى إما أنك تفهمها وتدركها. وإما أنك تجهلها. ولا أظن أن الدكتور شحرور يعنى تلك الدلالات المتضمنة فى العبارة.

الاختلاف المنهجى والفكرى

بقى أن أحدد بشكل واضح للدكتور شحرور وللقراء عناصر الاختلاف المنهجى والفكرى بينى وبينه وهنا أجد من الضرورى أن أشكره - مرة أخرى - للاستجابة الطيبة لما كتبت عن كتابه. ولن أترك الدكتور شحرور للحيرة بين «حسن الظن» و «إساءة الظن» فيما يتصل بانتمائى الفكرى وقناعاتى المنهجية. والخلاف الجوهرى والأساسى بينى وبين شحرور هو مسألة «التاريخية»، والتى يبدو أنها تسبب له قلقا ممضا. لقد فهم من حديثى عن «التراث» أننى أضع «القرآن» فى جانبه، وأننى من ثم أخضعه لمقولة التاريخية، واستنبط من ذلك أننى أذهب إلى أنه لم يبق من الإسلام إلا الأخلاق فقط، وأن الإسلام الذى بين أيدينا الآن غير صالح لأنه تاريخى. ولا أريد أن أحيل الدكتور شحرور لكتابى «مفهوم النص» ولكتاباتى الأخرى عن قراءة النصوص الدينية، بل سأطرح مفهومى للتاريخية بشكل واضح يزيل عنها الصفة «الكابوسية» التى تفزع كثيرا من الناس فى كتاباتى.

والسؤال الآن : هل ينتمى النص القرآنى إلى مجال «التراث» الذى تنطبق عليه مقولة التاريخية، أم أن للنص القرآنى صفة خاصة تخرجه من مجال التاريخية التراثية وتدخله فى تصنيف محايد مفارق ؟ ! والحقيقة أنه لا يمكن الإجابة عن هذا السؤال إلا بتحديد

مفهوم التاريخية ذاته، فالإنسان كائن تاريخى يقع فعله فى التاريخ ويتشكل بالتاريخ، لا بمعنى تتابع الوقائع فى الزمن، بل بمعنى السياق السسيولوجى العام للوجود الإنسانى. وأظن أن تاريخية الوجود الإنسانى مسألة لا خلاف عليها، إنما يتركز الخلاف حول «الفعل الإلهى» وحول علاقته بالتاريخ ولا شك أن ثمة أفعالا إلهية قد وقعت خارج التاريخ، أى خارج الوعى الإنسانى وسابقة عليه من المنظور الدينى، مثل فعل الخلق والتكوين ..إلخ لكن الفعل الإلهى هذا لا يخضع لشروط البحث العلمى من جانب الإنسان، وذلك يعكس الفعل الإلهى فى التاريخ الذى يتمثل فى إرسال الرسل وتنزيل النصوص الدينية .

هذا الفعل الإلهى فى التاريخ لا يتم تجاوزا لقوانين التاريخ ولا إلغاء لها، ذلك لأن الإنسان – الكائن التاريخى – طرف فى هذا الفعل . النصوص الإلهية رسائل من الله للإنسان، رسائل مهمتها تعديل مسار الإنسان، لذلك يختار الله لغة الإنسان. واللغة ظاهرة اجتماعية تاريخية ثقافية – ليخاطبه بها. إن الله – المطلق – سبحانه وتعالى يتنزل للإنسان – وتأمل صفة التنزل هذه – فى لغته ووفقا لمعايير ثقافته ومجتمعه. بل إنه الله يختار من البشر رسولا مثلهم ليوحى إليه بالرسالة ويطلب منه إبلاغها نحن إذن إزاء أربعة جوانب فى الرسالة مُرسل هو الله سبحانه، ومستقبل هو الرسول، ورسالة هى النصوص الدينية ، وشفرة هى لغة القوم الذين نزلت إليهم الرسالة ولأن الرسالة تهدف إلى سعادة الإنسان، فمن الضرورى أن يكون الإنسان هو المُخَاطب بها، وأن يكون «الإفهام» هو غايتها . ومعنى ذلك أن شروط المُخَاطَب – الكائن الاجتماعى التاريخى – هى المحددة أساسا لشفرة الرسالة ولآلياتها .

من هنا يمكن القول بأن النصوص الدينية نصوص تاريخية . وليس معنى التاريخية. أن دلالتها مرهونة بسياق التنزيل، لأن للغة – من حيث هى نظام رمزى – آلياتها الخاصة للانتقال من الخاص إلى العام، ومن الجزئى إلى الكلى، تلك خاصية فى النظام اللغوى ذاته، شفرة تلك النصوص ومن أجل هذه الخاصية تظل قصائد أمرئ القيس وأبى تمام والمتنبى والمعرى قصائد دالة بالنسبة للعصور التالية لحياة مؤلفيها، وحتى عصرنا الحاضر لكن دلالتها تختلف جزئيا من عصر لعصر تبعا

لتطور دلالة اللغة من جهة ، وطبقا لتغير الأفق الثقافى - الاجتماعى التاريخى - لفعل القراءة من جهة أخرى. نفس القانون ينطبق على النصوص الدينية ، من حيث هى نصوص لغوية تاريخية.

الدلالة والمغزى

وللإجابة على السؤال الخلافى نقول : نعم، النصوص الدينية - ومنها القرآن- نصوص تاريخية بالمعنى الذى حددناه للتاريخية. هى نصوص تاريخية الدلالة ، ولا يمكن استنباط دلالتها إلا بالعودة إلى السياق المنتج لهذه الدلالة. لكن تلك الدلالة ليست مرهونة بالسياق الثقافى/ الاجتماعى لأن طبيعة الشفرة - اللغة - تنقل الدلالة من الخاص إلى العام، ومن الجزئى إلى الكلى . لذلك نُفَرق فى دلالة النصوص بشكل عام بين «الدلالة» و«المغزى»، حيث ترتبط الدلالة بالسياق، ويتحرك المغزى مع تحرك السياق، سياق القراءة فى هذه الحالة. لذلك فرقنا بين القراءة «التلوينية» المغرضة وبين القراءة «التأويلية» المنتجة. وهى التفرقة التى وقف الدكتور شحرور متسائلا فى تهكم خفى عن معناها. وللإجابة عن هذا التساؤل نقول : القراءة التلوينية المغرضة هى القراءة التى تتجاهل السياق المنتج للدلالة - أى تتجاهل تاريخية النصوص بالمعنى السالف - وتقفز إلى إضفاء إيديولوجيتها الخاصة زاعمة أنها الدلالة التى تنطق بها النصوص. أما القراءة التأويلية المنتجة فهى القراءة التى تستنبط الدلالة من خلال العودة إلى السياق، وتنتقل انتقالا هادئا من الدلالة إلى المغزى وكلمة «تأويل» نفسها تعنى العودة إلى الأصل - آل بمعنى رجع - من جهة ، واكتشاف العاقبة والغاية من جهة أخرى. ولأن قراءة شحرور تنتمى للنمط الأول - الذى يتجاهل السياق ويرفض التاريخية - قلنا إنها قراءة تلوينية مغرضة ، وكشفنا فى مقالنا السابق آليات التلوين .

وأهم آليات التلوين التى وقفنا عندها خضوع التأويل عنده لأغراض نفعية مباشرة خاصة وذلك بجذب النصوص الدينية لتنطق بمفاهيم وتصورات معاصرة. وقد كرر الكاتب فى رده علينا نفس الآلية حين دافع عن فهمه «للترتيل» بالمعنى الحرفى المعجمى، ورفض المعنى المجازى الذى ورد به الاستخدام القرآنى. دافع عن ذلك بقوله : «فعند استعمال المعنى المجازى للترتيل لمدة مئات السنين لم يستفد المسلمون من هذا الاستعمال شيئا. أما فى الاستعمال الحقيقى، فقد ساعدنا فعلا على فهم مواضيع القرآن، وفى هذه الحالة لا نكترث بمن قال عن الترتيل إنه استعمال مجازى حتى ولو

كان القائل سيبويه وكل الفقهاء» .

الهدف إذن من القراءة محدد سلفا ، وهو الهدف النفعى كما يتصوره المؤلف، وهو استنطاق النصوص بما هو معروف وجاهز سلفا من إنتاج وعى الآخر الأوروبى وهذا هو «الطرف الثابت» كما قلنا فى مناقشـتنا السابقة. والطرف المتحرك الرخو هو النص الدينى الذى عليه أن يستجيب لهدف المؤلف. أليس ذلك تلوينا مغرضا» يتم فيه تجاهل السياق تجاهلاً تاماً ؟ ويتم الاختيار بين الدلالة الأصلية والدلالة المجازية بناء على هدف معلن مسبقا. هذه قراءة لا تهدف إلى الوصول إلى الحقيقة ، فالحقيقة مشروطة بالانتفاع، والشئ النافع يكون حقيقيا. هذا التصور النفعى الذرائعى يختلف عن القراءة التأويلية المنتجة التى ترى أن الحقيقة تنفع لأنها حقيقة ، وشتان بين المنطلقين، وشتان بين القراءتين .

تقسيم النصوص الدينية إلى القرآن - الرسالة – والكتاب . النبوة هو تقسيم ينتمى إلى القراءة التأويلية المغرضة ، ذلك لأنه تقسيم يهدف إلى جعل التاريخية جزءا فى بنية النص، ويجعل من باقى بنيته ميتافيزيقا. يستند المؤلف فى ذلك إلى قراءة تلوينية مغرضة لآية سورة آل عمران عن المحكم والمتشابة فيتجاهل السياق تجاهلا تاما ليحدد من عنده معانى الأحكام والتشابه ويتحدث عن شفرتين وتنزيل وإنزال. إلخ ويخوض المؤلف فى مسائل ميتافيزيقية لا برهان عليها إلا الارتباطات الذهنية التى تعتمد على موقفه الأيديولوجى .

يتحدى المؤلف القارئ – وهو العبد لله فى هذه الحالة – متسائلا : أى تاريخية فى قوله تعالى (إذا الشمس كورت وإذا النجوم انكدرت) أو فى قوله تعالى (الذى علم بالقلم) ؟ والإجابة عن هذا التساؤل بسيطة : هل تُفهم هذه الآيات دون معرفة السياق المكى لنزولها ؟ وهل تفهم إلا فى سياق طبيعة البيئة الصحراوية التى تمثل الشمس والنجوم فيها علامات أنطلوجية طبيعية ومعرفية فى نفس الوقت ؟ هل تفهم خارج إطار التهديد بيوم القيامة وأهواله ؟! إن للنصوص مستويات من السياق لا تفهم دلالة النصوص إلا من خلالها.. وبعد فهم الدلالة يمكن الانتقال إلى المغزى الملائم للعصر ولسياق القراءة. أما الوثب إلى «المغزى» دون المرور بالدلالة واكتشافها بقوانين علم تحليل النصوص فهو «التلوين» المغرض، أو القراءة النفعية التى تحول النصوص إلى نصوص معلقة فى الفراغ .

وفى النهاية نقول ليس الأمر هو ما نريده من النصوص، بل هو ما تقوله النصوص فعلا، وهل يلائم ما تقوله النصوص وتدل عليه سياق حاضرنا وعصرنا ويساهم فى تحريك واقعنا الراكد ؟ هذه هى الأسئلة التى يجب أن ننهض للإجابة عنها، وهى أسئلة تحتاج لوعى تام بالتاريخ وبالسياق المنتج للنصوص كما تحتاج لوعى تام كذلك بسياق الواقع الذى نحياه يتصور الخطاب الدينى أن التراث مخزن شامل، يتضمن حلا لكل المشكلات، مشكلات الماضى والحاضر والمستقبل. وفى فترات التأزم يكون اللجوء إلى التراث مهربا .

وكتاب الدكتور شحرور تعبير عن أزمة ، لكنه تعبير سلبى عاكس للأزمة ولا يقدم حلاً لها. والسؤال المُستفز، أو الذى يتصور صاحبه أنه مُستفز : هل القرآن جزء من التراث ؟ الإجابة عنه : نعم ، تراث تاريخى لا يفهم إلا بالعودة إلى السياق لكن هل هو بشرى أم إلهى ؟ هذا سؤال آخر فالتراث هو كل ما ورثناه عن الماضى، ومن المؤكد أن القرآن لم ينزل على أحد من المعاصرين، أى أنه ليس نتاج لحظة فى الحاضر، بل هو إنتاج لحظة فى تاريخنا وهو من هذه الزاوية ينتمى إلى التراث، بشرط أن تفهم التاريخية فهما صحيحا. هل هو بشرى؟ ليس بالضرورة ، هو إلهى من حيث الأصل والمنبع (المرسل) لكنه بشرى من حيث الرسالة ومن حيث الشفرة ومن حيث المتلقى الأول (الرسول) والمستهدفين بالرسالة (العرب والإنسانية من ورائهم). لكن الخطاب الدينى يقف عند (المرسل) فقط ويهدر جوانب الرسالة الأخرى. يدافع الخطاب الدينى فيما يتصور عن الله فى حين أن الله سبحانه هو الذى «يدافع عن الذين آمنوا» .

والوقوف عند الأصل/الإرسال فى دلالة النصوص الدينية يحول الرسالة كلها عن طبيعتها الأصلية ، فبدلا من أن تكون تنزلا من الله للإنسان، تتحول إلى صعود ومعراج من الإنسان لله وهو تحويل يتم على أساس التضحية بالإنسان – هدف الوحى وغايته – لمصلحة قوى إنسانية أخرى تستغله باسم الله والدين . ويتم هذا كله ربما من موقف حسن النية ، لكن النوايا الحسنة وحدها لا تنتج وعيا، بل ربما تساهم فى تعميق الأزمة : أزمة الواقع الراكد المتخلف الذى يجد فى تراثه عوضا يلوذ به ويحتمى من تحديات العصر.

قال الإمام على بن أبى طالب فى رده على المبدأ الذى رفعه الخوارج «لا حكم إلا لله» : «القرآن بين دفتى المصحف لا ينطق، وإنما ينطق به الرجال» هل كان الإمام يشير إلى

بشرية النص أم إلى بشرية الفهم والتفسير ؟! الإجابة واضحة ، لكن البشرية تلك لا يجب أن تعتمد على الأهواء الأيديولوجية ، بل لابد لها من الالتزام بأصول البحث العلمي وقواعده. ومن أخطر تلك الأصول فى فهم النصوص مراعاة السياق بمستوياته المختلفة والمعقدة. هذا ما ندعوا إليه ونلح فى الدعوة فى كل ما نكتب .

محور الاعتراض

التفسير العلمى للقرآن – وهو جانب من جهد شحرور فى كتابه – تفسير يعتمد على اكتشاف ما سبق أن قام باكتشافه الآخرون فى الطبيعة والمجتمع، ومحاولة تلمس تطابقات أو تشابهات بين ما سبق اكتشافه بجهد العقل الإنسانى وبين ما تنطق به النصوص. وهذا بالضبط كان محور اعتراضنا : لماذا ننتظر أن ينتج الآخر المعرفة فى مجال العلوم الطبيعية أو الإنسانية ، ثم نهرع إلى النصوص نستنطقها قسرا بما سبق اكتشافه ؟ لو كانت النصوص تدل على ذلك حقا لاكتشفها المفسرون قبل أن يكتشفها الأوربيون العودة إلى التراث والنصوص لاكتشاف ما سبق اكتشافه تعبير عن العجز العقلى والكسل الذهنى. وتلك حالة تساهم فى تثبيت حالة الركود العامة التى نعيشها. ولذلك دعونا إلى التحرر من سلطة النصوص وتحرير الإنسان من كل ما يكبل حركته وما يعوق نشاطه الإبداعى، وهى الدعوة التى شاء شحرور أن يسخر منها رابطا بينها وبين الأنظمة الشمولية. أرجو ألا تنسى ياصديقى العزيز أن «الشمولية» سمة ترتبط اساسا بعبادة النصوص، تستوى فى ذلك النصوص الدينية أو النصوص البشرية حين يتحول النص – أى نص – إلى قيد يؤخر الواقع المتحرك، يقع الإنسان فى نطاق «الشمولية» ، ويضحى به فى سبيل غاية ميتافيزيقية ، قد تكون الدين أو الحزب أو الطبقة .. إلخ. إنها حرية العقل وتحرير الإنسان مرة أخرى من كل القيود التى تكبله اجتماعيا واقتصاديا وسياسيا وفكريا : هذا طريق الخلاص ، ولا طريق غيره ،

لغويات

● "التنبل" فى الاصطلاح العامى هو الرجل الخامل الكسول المعتمد فى طعامه وشرابه على غيره ، والجمع "تنابلة" .. ويقال فى الأمثال : "تنابلة السلطان" .. وهم القاعدون فى ضيافته يأكلون ويشربون بلا عمل ..

● و"التنبل" و"التنابلة" من فصيح العربية ، ومعنى التنبل فى اللغة : الرجل القصير القمىء ، فاستعير اللفظ لتنابلة السلطان ، إذ كانوا أقزاما يتسلى السلطان بألعابهم الهزلية !..

● و"التنبل" و"التنابلة" معروفون منذ الجاهلية .. قال معبد الخزاعى وهو شاعر مخضرم شهد الجاهلية والإسلام :

من جيش أحمد لا وخش تنابلةٌ
وليس يُوصف ما أنذرت بالقيلِ

والوخش أراذل الناس وصغارهم ، أى "التنابلة" كما نعرفهم الآن :
وقال أبو الطيب المتنبى :

وقد أطال ثنائى طولُ لابسه
إنَّ الثناء على التِّنْبَالِ .. تنْبالُ

فاستعمل المتنبى كلمة "تنبال" وهى مثل "تنبل" وجمعهمَا "تنابلة" ! .

● يتحدث الآن بعض الاقتصاديين الإسلاميين عما يسمونه "المضاربة" ويرون أن المضاربة حلال ، بعكس "الفائدة" فهى حرام !.. وفى لسان العرب : "المضاربة أن تُعطِى إنساناً من مالك ما يتجر فيه على أن يكون الربح بينكما ، أو أن يكون له سهم معلوم من الربح" ..

● هذا معناه أن تحديد الربح بسهم معلوم منذ البداية ، ليس حراما ، وليس "العائد" أو "الفائدة" فى الاقتصاد المصرفى الحديث إلا تحديداً للربح بسهم معلوم منذ بداية الإيداع !..

ولو أخذ الفقهاء بالتحديد اللغوى العربى البحت لمعنى "المضاربة" لبطل الجدال الحاد الذى يدور الآن كما دار قديما الجدل البيزنطى !..

الطب والصيام بلا جوع !

بقلم : د. محمد بهائى السكرى

يولد كل هلال من أهلة الشهور العربية بمذاق خاص. ولكن هلال رمضان له مذاق فريد . فالشهر ليس ككل شهر، ونمط الحياة فيه مختلف، وأيامه ولياليه تقترن بشعيرة أساسية من شعائر الدين وهى الصوم.

وترنو القلوب إلى الهلال ، وتشرئب الأعناق، وترنو الأبصار تحاول استجلاءه من أعماق السماء ، وتبحث عنه فى كل الآفاق وراء السحاب.

ويبزغ الهلال مؤذنا بصيام النهار وقيام الليل، ويقظة القلب فى العبادة، وسياحة الأرواح فى بحار الصفاء والنور.

وتوجل قلوب ، قلوب الأبرار خشية التقصير وقلوب العصاة من الذنوب.

ويبقى رمضان شامخا فترة من عمر الزمان تفتح فيه أبواب السماء للصالحين والمذنبين. وتنبسط المائدة الربانية تدعو الناس إلى خيرى الدينا والآخرة.

ويتقدم مؤمن صغير أو حديث عهد بالصيام يريد الصوم ولكنه يخشى الجوع والعطش !

وإلى هذا القادم الجديد على الرحب والسعة تتوجه هذه الكلمات لتجيب عن هذا السؤال : كيف يصوم المرء دون أن يجوع أو يعطش ؟ .

إن الله سبحانه حين فرض الصيام فرضة على علم تام بقدرات الجسم البشرى «ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير» صدق الله العظيم .

فوائد جمة للصيام

وما كان الصيام ليؤذى البدن أو

يغيره، أو حتى يتسبب فى إيلامه وتعذيبه، بل قد يفيده ويشفيه من بعض أمراضه ..

ونعود إلى المراجع الطبية لنستفتيها فيطالعنا الباب الأول من كتب علم وظائف الأعضاء (الفسيولوجيا) بعنوان ضخم تدور حوله آليات العمل فى جسم الإنسان وهو «ثبات الوسط الداخلى» Homeostasis .

لقد حبا الله الكائنات الحية وعلى رأسها الإنسان بقدرة هائلة على المحافظة على ثبات الوسط الداخلى للجسم – أى السائل المحيط بالخلايا – لفترات طويلة .

فتحت مختلف الظروف من قلة الطعام والشراب، وتغير الطقس من الحرارة للبرودة يظل التركيب الكيميائى ودرجة حرارة السوائل الداخلية فى جسم الإنسان ثابتة إلى حد كبير.

وتعمل كل أجهزة الجسم وخلاياه بصورة متناسقة لتحقيق هذا الثبات من أجل صلاح الجميع .

فالجهاز الهضمى يهضم الغذاء ويمتصه، والجهاز الدورى يوزعه على أنحاء الجسم حيث يأخذ كل نسيج حاجته، ويختزن الباقى كاحتياطى استراتيجى فى الكبد والنسيج الدهنى فى مختلف أنحاء البدن. وترتوى الخلايا بالماء الممتص مع الغذاء ولكنها لا تختزنه لفترة طويلة بل إنها تستطيع أن تنتجه عن طريق احتراق الغذاء حيث يتأكسد إلى غاز ثانى اكسيد الكربون وماء .

والجهاز التنفسى يمد الجسم بالأكسجين اللازم للاحتراق فى الأنسجة ويخلصه من ثانى أكسيد الكربون الناتج عن تأكسد الغذاء.

والكليتان تخلصان الجسم من الماء الزائد، والفضلات القابلة للذوبان فى الماء .

وهكذا يوجد توازن دقيق بين معدلات الأداء، والإنتاج والاستهلاك فى أعضاء الجسم المختلفة مما يؤدى إلى تحقيق حالة ثبات الوسط الداخلى.

وبالتالى نجد دائما منسوب السكر والدهون والأملاح ، ودرجة الحموضة والقلوية، وضغط غاز الأكسجين وثانى أكسيد الكربون الذائب فى الماء، بل ودرجة الحرارة فى سوائل الجسم فى حالة ثبات مستديم لا تشوبها سوى تذبذب بسيط يعمل كمؤثر لتنشيط الآليات الخاصة التى تعيد الاستقرار دائما إلى الوضع الطبيعى .

ولا يختل هذا التوازن الدقيق إلا فى حالتين : الحالة الأولى عند المرض،

الصيام بلا جوع !!

والحالة الثانية عند الإسراف فى التعرض للضغوط .

والمريض معفى من الصيام والمسلم قادر على الصيام بسهولة ويسر إذا تجنب الإسراف في التعرض للضغوط. وبيان ذلك يتضح فيما يلى :

* يحتوى الكبد على قدر من النشا الحيوانى (الجليكوجين) يقدر بـ١٠٠ة مئات من الجرامات، وهو قابل للتحول إلى سكر يدخل الدم ليتوزع على جميع أنحاء الجسم، ويكفى الإنسان لمدة ما يقرب من نصف يوم.

* يختـــزن الجســـم قـــدرا من البروتينات على هيئة مخزون غذائى لا يدخل فى التركيب العضوى للخلايا. وهذه البروتينات المختزنة يمكن استدعاؤها على وجه السرعة لتستخدم كوقود فى حالة الحاجة .

* يحتوى الجسم على مخزون من الدهن يكفيه كوقود لمدة اسبوع أو أكثر. وبالطبع لا تمتد فترة الصيام أثناء النهار فى رمضان إلى هذا المدى الطويل .

* يظل منسوب الأملاح ثابتا فى الجسم لفترة طويلة مالم يتعرض الإنسان لحرارة جو مرتفعة لفترة طويلة أو مجهود غير عادى يتسبب فى عرق غزير .

* يتكون أثناء عمليات الاحتراق فى الجسم ما يقرب من ربع لتر من الماء فى اليوم تضاف إلى القدر من الماء الذى يتناوله الإنسان فى الطعام والشراب.

ومما سبق يتبين أنه لا يحدث تغير كبير فى الجسم أثناء صيام رمضان يقتضى الاحساس بالجوع أو العطش تحت الظروف العادية المعتدلة .

فلم إذن يشعر الإنسان بالجوع فى رمضان أو غير رمضان ؟ .

إن الإجابة عن هذا السؤال تكمن فى تفهم وظائف أجزاء معينة من الجهاز العصبى المركزى وبصفة خاصة أجزاء من قشرة المخ الرمادية، وجزء معين عند قاعدة المخ يعرف بتحت المهاد يحتوى على مركزين للإطعام والشبع .

كيفية الإحساس بالجوع

فعندما تخلو المعدة من الغذاء تبعث بإشارات حسية إلى قشرة المخ الرمادية لتثير إحساسا بالجوع. ويذكى

ذلك انخفاض منسوب السكر فى الدم الذى ينشط مستقبلات كيميائية خاصة فى منطقة تحت المهاد فتثير مركز الاطعام فيبعث أيضا بإشارات حسية منشطة لقشرة المخ الرمادية .

فإذا تناول الإنسان الطعام وامتلأت المعدة، وبدأ الهضم والامتصاص، وأخذ منسوب السكر فى الدم فى الارتفاع تسكن تلك المثيرات، وينشط مركز الشبع فى منطقة تحت المهاد ويبعث بإشارات لقشرة المخ الرمادية تثبط الإحساس بالجوع .

ويساعد الإفراط فى الطعام على الإحساس بالجوع بعد فترة قصيرة لا تتجاوز الساعتين ! ويرجع ذلك إلى أن الإفراط فى الطعام ينشط افراز هرمون الأنسولين من غدة البنكرياس ليحرق السكر الزائد فى الدم، ولكن زيادة إفراز هرمون الانسولين تؤدى إلى انخفاض السكر فى الدم بعد ساعتين مما يؤدى إلى الاحساس بالجوع من جديد . وهكذا قد يكون الإفراط فى الطعام فى السحور سببا فى الجوع أثناء الصباح الباكر ! .

ومما تقدم يتبين أن الإحساس بالجوع له ارتباط وثيق بحالة المعدة من الخلو أو الامتلاء بالغذاء ومنسوب السكر فى الدم . ولكن التدريب والتعود له أيضا دور كبير . فالجهاز العصبى ينظم نشاط الجهاز الهضمى، والمعدة تنشط انقباضاتها وإفرازاتها فى الأوقات المعينة التى تعود فيها الإنسان على تناول الطعام حتى ولو لم يتناوله. وكل ذلك بتأثير من الجهاز العصبى المركزى الذى يعمل وفق ساعة بيولوجية دقيقة موجودة فى جزء عميق منه. وبالتالى قد يعانى الإنسان من الجوع فى الأيام الأولى من الصوم لاختلاف مواعيد تناول الطعام فى أيام الصيام عن غيرها من الأيام، ولكن بمرور الوقت تقوم الساعة البيولوجية الدفينة فى الجسم بتعديل مواقيتها حسب النظام الجديد لتناول الطعام فيصبح الصيام أكثر سهولة بالتدريج مع مرور الأيام .

ومن هنا تأتى أهمية الاعتياد على الصيام من الصغر، والاستعداد لصوم رمضان بالتدرب عليه عن طريق صيام بضعة أيام تطوعا من الشهور التى تسبقه .

ولا ينبغى أن نغفل أيضا دور العناية الربانية التى تحف بالصائمين وتيسر عليهم كل أمر عسير فتمضى بهم أيام رمضان فى صفاء روحى، وسمو بالنفس فوق شهوات البدن .

حسن البنا

مشروع إسلامى للنهضة الحضارية

بقلم : د . محمد عمارة

على إمتداد أوطان الأمة الاسلامية ـ من "غانة" إلى "فرغانة" ـ ومن "حوض نهر الفولجا" إلى جنوبى "خط الاستواء" ـ بل وفى مواطن الأقليات الاسلامية خارج دار الاسلام ـ إذا نظر الباحث المنصف إلى ظواهر وحركات ومشروعات البعث والنهضة والتغيير والاصلاح .. فسيجد ظاهرة الصحوة الاسلامية ومشروعها الحضارى أقوى وأخطر وأكبر وأعمق ظواهر ومشاريع العصر الذى نعيش فيه .. يستوى فى ذلك التقييم الباحثون المؤيدون أو المناوئون لهذا المشروع ؟! ..

والحقيقة الثانية ، التى لن تجد عليها خلافا بين الباحثين ، ولا بين حركات وتيارات هذه الصحوة الاسلامية ، هى الأبوة والامامة والريادة التى يمثلها الامام الشهيد حسن البنا (١٣٢٤ ـ ١٣٦٨هـ ١٩٠٦ ـ ١٩٤٩م) بالنسبة لهذه الظاهرة الكبرى ـ التى تمثل أمل النهضة لدى الاسلاميين .. والقلق المخيف لأعداء الاسلاميين ! .

أما الحقيقة الثالثة ـ فى هذا المقام ـ فهى أن أبوة وإمامة وريادة حسن البنا لهذا الاحياء الاسلامى المعاصر ، إنما تمثل الحلقة "المعاصرة" فى سلسلة الاحياء الاسلامى "الحديث" .. إنها مرحلة متميزة فى "الكم" و "الكيف" ولكنها امتداد متطور ، لمرحلة النشأة" و "التبلور" التى تمثلت فى حركة "الجامعة الاسلامية" ، التى ارتاد ميدانها ورفع أعلامها إمام الاحياء الاسلامى فى العصر الحديث جمال الدين الأفغانى (١٢٥٤ ـ ١٣١٤ هـ ـ ١٨٣٨ م ـ ١٨٩٧م) والتى كان الامام محمد عبده (١٢٦٦ ـ ١٣٢٣هـ ١٨٤٩ ـ ١٩٠٥م) المهندس الأعظم لتجديدها الفكرى .. كما مثل الشيخ محمد رشيد رضا (١٢٨٢ ـ ١٣٥٤ هـ ١٨٦٥ ـ ١٩٣٥م) الامتداد الذى أسلم أمانتها الى حسن البنا ، الذى انتقل بها إلى هذا "الكيف" المعاصر الذى نعيش فيه ..

لقد بدأ المشروع الحضارى الاسلامى ، على يد الأفغانى ، حركة تجديد واجتهاد وإحياء ، تستهدف



تحرير العقل المسلم ليواجه ويتجاوز التخلف الموروث عن الحقبة "المملوكية ـ العثمانية" ، وليتمكن من مواجهة التحدى الحضارى الغربى ، الذى اقتحم حياتنا وواقعنا الاسلامى فى ركاب الغزوة الاستعمارية الحديثة .. وبعبارة محمد عبده ، فلقد "وجه الافغانى عنايته لحل عقد الأوهام عن قوائم العقول" ؟! .. أما مقصده السياسى "فهو إنهاض دولة أسلامية من ضعفها وتنبيهها للقيام على شئونها ، حتى تلحق الأمة بالأمم العزيزة ، والدولة بالدول القوية ، فيعود للاسلام شانه وللدين الحنيفى مجده" !

وفى هذا المشروع الحضارى "رابط" محمد عبده على "ثغرة الفكر" وجاهد فى ميدانها جهادا عظيما ، حتى جعله آجتهاده المهندس الأعظم لفكر هذا المشروع .. وبعبارته هو ، التى يتحدث فيها عن "الثغرة الفكرية" التى "رابط" عليها مجددا ومجاهدا .. يقول : "لقد ارتفع صوتى بالدعوة الى أمرين عظيمين : الأول : تحرير الفكر من قيد التقليد ، وفهم الدين على طريقة سلف الأمة ، قبل ظهور الخلاف ، والرجوع فى كسب معارفه الى ينابيعها الأولى ، واعتباره من ضمن موازين العقل البشرى التى وضعها الله لترد من شططه .. لتتم حكمة الله فى حفظ نظام العالم الانسانى ، وأنه على هذا الوجه يعد صديقا للعلم ، باعثا على البحث فى أسرار الكون ، داعيا الى إحترام الحقائق الثابتة ، مطالبا

بالتعويل عليها فى أدب النفس وإصلاح العمل" كل هذا اعده امرا واحدا . وقد خالفت فى الدعوة إليه رأى الفئتين العظيمتين اللتين يتركب منهما جسم الأمة : طلاب علوم الدين ومن على شاكلتهم ، وطلاب فنون هذا العصر ومن هو فى ناحيتهم '

أما الأمر الثانى : فهو إصلاح أساليب اللغة العربية فى التحرير .... .

وعلى امتداد مايقرب من أربعين عاما (١٣١٥ هـ ١٨٩٨م - ١٣٥٤هـ ١٩٣٥م) كانت مدرسة (المنار) - التى قادها رشيد رضا - هى ترجمان هذا التيار ، الذى وضع الأسس والمعالم للمشروع الحضارى الاسلامى ، والذى كون له "العقل - الصفوة - النخبة" - كما تمثلت فى تنظيماته - وأبرزها تنظيم (جمعية العروة الوثقى) ..

• تصاعد التحدى .. وعموم البلوى ؟!

فى أوائل هذا القرن العشرين حذر الامام محمد عبده من عواقب صراع "العرب" و "الأتراك" لأن "هذان الشعبان هما أقوى شعوب الاسلام .. ودول أوربة واقفة لهما بالمرصاد .. فإذا وهنت قوتهما فى الصراع ، وثبت دول اوربا ، فاستولوا على الفريقين ، أو على أضعفهما .. فتكون العاقبة إضعاف الاسلام وقطع الطريق على حياته . "!"

وبعد خمسة عشر عاما من هذا "التحذير - النبوءة" وقع المحظور ..

وبدا عموم البلوى يخيم على سائر بلاد الاسلام .. فالشريف حسين بن على (١٢٧٢ ٠ ١٣٥٠هـ ١٨٥٦ - ١٩٣١م) تمرد على الدولة العثمانية (١٣٣٤هـ ١٩١٦م) استجابة لعوامل داخلية ، ومدفوعا بإغراءات انجليزية ! .. ففتحت فى جدار دولة الاسلام الكبرى الثغرة التى أفضت الى تنفيذ الغرب لمعاهدة "سيكس - بيكو" السرية ، التى عقدوها (١٣٣٤هـ - ١٩١٦م) لتقسيم تركة الدولة العثمانية بين أقطاب التحالف الغربى .. ولوعد بلفور (١٣٣٦هـ - ١٩١٧م) بإقامة الكيان الصهيونى ، قاعدة غربية ، على أرض فلسطين .. واحتل الفرنسيون الشام ، وقال قائدهم "جورو" أمام قبر صلاح الدين الأيوبى : "ها نحن قد عدنا ياصلاح الدين" ؟! .. واحتل الانجليز فلسطين والعراق ، وقال قائدهم "النبى" عندما دخل القدس : "اليوم انتهت الحروب الصليبية" ؟!

وبعد أن رفرفت رايات الاستعمار الغربى على أوطان الأمة الاسلامية - من غانة الى فرغانة - أسقطت الخلافة الاسلامية (١٣٤٢هـ - ١٩٢٤م) .. فعمت البلوى ، التى جاهد ضدها الأفغانى .. وحذر منها محمد عبده ، وتيار الجامعة الاسلامية ، لأكثر من نصف قرن من الزمان ! ..

بل لقد حدث ماهو اخطر من احتلال الأرض ، ونهب الثروة .. حدث الاختراق للعقل المسلم ، وبدا صوت "التغريب" - على لسان نفر من أبناء الأمة - يبشر بأن الخلاص لن يتحقق إلا عبر تبنى المشروع الحضارى الغربى ، بخيره

وتسرد . بخلود ومرد بصوابه وحطته فنحن منه . لاننا ابناء حضارة البحر المتوسط وعقلنا يوناني . لم يغير القرآن من يونانيته . كما لم يغير الانجيل يونانية العقل الغربى - إذ القرآن مصدق للانجيل ".

والاسلام ليس إلا رسالة روحية . لاسياسة فيها ولا دولة ولا حكم بل يبعد مابينها وبين السياسة . وماكان محمد إلا صاحب سلطان روحي . كالخالين من الرسل . لم يقم دولة . ولم يراس حكومة . . فرسالته. كسابقتها . تدع مالقيصر لقيصر وما لله لله !".. وللمؤمنين ان يؤمنوا ماشاء لهم الايمان بقصص القرآن . لكن الباحثين لابدلهم من الشك فيه ! .. وليست العربية هي لغة النهضة والتقدم . لانها لغة القران والاخلاقيات العربية . لا لغة الديمقراطية والبرلمانات " .. ومعايير النضج الفكرى هى الايمان بالغرب والكفران بالشرق ".

نعم حدث هذا الاختراق .. وصدرت الكتب العربية الحاملة لهذه الافكار . وأمثالها . لنفر من أعلام الفكر العربى فى العقد الثالث من هذا القرن العشرين .. الامر الذى اهتز له ضمير الأمة كما لم يهتز فى منعطف من منعطفات التحديات التاريخية التى واجهتها .. فكانت الاستجابة الايجابية أمام هذا التحدى . تعبيرا عن نفاسة المعدن .. وتحقيقا للسنة الالهية (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) .. سنة . حفظ الاسلام بالمسلمين .. وتجديد دنيا المسلمين بتجديد دين الاسلام ؟! .

● الجامعة الاسلامية فى طور جديد

نعم كان الاسلام . على مر تاريخ الامه . هو حصنها المنيع عندما تهدد الملمات والتحديات وجودها . وكانت صيحة "وإسلاماه " " هى كلمة السر التى تتنادى بها الأمة . وتتداعى إليها عقولها وقلوبها . خاصتها وجماهيرها . كان هذا هو قانون "التحدى" و "التصدى" على مر تاريخ الاسلام والمسلمين ... ولقد عاد ليعمل عندما عمت البلوى أثناء وعقب الحرب الاستعمارية العالمية الاولى ..

● ففى ١٣٤٦هـ - ١٩٢٧م أجتمع صفوة علماء الاسلام بالقاهرة . وأسسوا (جمعية الشبان المسلمين) ..

● وفى العام التالى (١٣٤٧هـ - ١٩٢٨م) حدثت "اللحظة التاريخية" التى مثلت "التطور النوعى" لانجاز حسن البنا فى سياق تطور المشروع الإسلامى للنهضة الحضارية . عندما أدرك الرجل أن تصاعد التحدى .. وثغرات الاختراق .. وعموم البلوى . إنما تتطلب الانتقال بالقضية من إطار الصفوة والنخبة - الذى كانت عليه منذ (العروة الوثقى) وحتى الشبان المسلمين - الى الدائرة التى تشترك فيها "الأمة" مع "النخبة" وإلى المستوى الذى تسهم فيه "الجماهير" مع "الصفوة" فى مواجهة التحديات . .

لقد كان النصف قرن الذى مضى من عمر الجامعة الاسلامية : تاسيسا لمسروع النهضة الاسلامية .. وتكوينا

حسن البنا

"للعقل" القائد لهذا المشروع ... واماد تصاعد التحديات .. والاختراق من الداخل .. كان لابد من بلورة "جسم" لهذا "العقل" ؟! .. فكان للانجاز التاريخى لحسن البنا فى سياق الاحياء الاسلامى : "الانتقال بـ "البرنامج" المقدم "للجماهير" .. والانتقال بـ "التنظيم" الحامل للرسالة ، من إطار "الصفوة" - كما كان الحال فى (جمعية العروة الوثقى) - الى إطار "الجماهير" .

تلك هى اللحظة التاريخية لحسن البنا .. وذلك هو التطور النوعى ، والاضافة الكيفية لانجازه ، فى السياق التاريخى لحركة الاحياء الاسلامى الحديث .. وتلك هى "بصمته" الخالدة فى ظاهرة الصحوة الاسلامية المعاصرة ! ..

● ففى مواجهة "التغريب" .. الذى اخترق عقل الأمة ، وغدا له أنصار من بين أبنائها .. يقف مشروع الأستاذ البنا ليقول : "إن الحضارة الغربية ، بمبادئها المادية ، قد انتصرت فى هذا الصراع الاجتماعى على الحضارة الاسلامية ، بمبادئها القوية الجامعة للروح والمادة معا ، فى أرض الاسلام نفسه ، وفى حرب ضروس ميدانها نفوس المسلمين وأرواحهم وعقائدهم وعقولهم ، كما انتصرت فى الميدانين السياسى والعسكرى .. وكما كان لذلك العدوان السياسى أثره فى تنبيه المشاعر القومية ، كان لهذا الطغيان الاجتماعى أثره كذلك فى انتعاش الفكرة الاسلامية ... إن مدنية الغرب ، التى زهت بجمالها العلمى حينا من الدهر ، واخضعت العالم كله بنتائج هذا العلم لدوله وأممه ، تفلس الآن وتنتحر ! ... فهذه أصولها السياسية تقوضها الدكتاتوريات ، وأصولها الاقتصادية تجتاحها الأزمات .. وأصولها الاجتماعية تقضى عليها المبادىء الشاذة والثورات المندلعة فى كل مكان . وقد حار الناس فى علاج شأنها وضلوا السبيل ! ... ونحن نريد أن نفكر تفكيرا استقلاليا ، يعتمد على أساس الاسلام الحنيف ، لا على أساس الفكرة التقليدية التى جعلتنا نتقيد بنظريات الغرب واتجاهاته فى كل شىء ، نريد أن نتميز بمقوماتنا ومشخصات حياتنا كأمة عظيمة مجيدة ، تجر وراءها أقدم وأفضل ماعرف التاريخ من دلائل ومظاهر الفخار والمجد ! ..

● ولقد كان رفض "التغريب" فى مشروع الاستاذ البنا ، رفضا "للتقليد .. والتبعية" .. ولم يكن رفضا "للتفاعل - الصحى" بين الحضارات .. ولا دعوة "للعزلة .. والانغلاق .. والاكتفاء الذاتى" ؟! ..

فهو الذى يقول عن حضارتنا الاسلامية ، وأمتنا الاسلامية "لقد اتصلت بغيرها من الأمم ، ونقلت كثيرا من الحضارات ، ولكنها تغلبت بقوة إيمانها ومتانة نظامها عليها جميعا ، فعربتها أو كادت ، واستطاعت أن تصبغها وأن تحملها على لغتها ودينها بما فيهما من روعة وحيوية وجمال ، لم يمنعها أن تأخذ النافع من هذه

الحضارات جميعا ، من غير أن يؤثر ذلك فى وحدتها الاجتماعية أو السياسية .."

● وفى مواجهة "التخلف الموروث" .. وتيارات "التقليد" لهذا "التخلف" .. دعا حسن البنا إلى "التجديد" .. وحدد ، فى صراحة ووضوح ، أن دعوته هى واحدة من "الدعوات التجديدية لحياة الأمم والشعوب" . وطالب - فى النظرة النقدية للتراث والتاريخ - بالتمييز بين "الدين - الثابت" وبين "الفكر - المتغير" و "الممارسات - البشرية" .. ذلك "أن أساس التعاليم الاسلامية ومعينها هو كتاب الله ، تبارك وتعالى ، وسنة رسوله ، صلى الله عليه وسلم .. وأن كثيرا من الآراء والعلوم التى أتصلت بالاسلام وتلونت بلونه تحمل لون العصور التى أوجدتها والشعوب التى عاصرتها ، ولهذا يجب أن تستقى النظم الاسلامية ، التى تحمل عليها الأمة من هذا المعين الصافى ، معين السهولة الأولى ، وأن نفهم الاسلام كما يفهمه الصحابة والتابعون من السلف الصالح ، رضوان الله عليهم ، وأن نقف عند هذه الحدود الربانية النبوية حتى لانقيد أنفسنا بغير مايقيدنا به الله ، ولانلزم عصرنا لون عصر لايتفق معه والاسلام دين البشرية جمعاء ! "

ووقف موقفا نقديا من تاريخ الدولة الاسلامية ، عندما حدد العوامل السبعة التى أدت الى تحلل كيانها .. وهى :

أ - الخلافات السياسية والعصبية وتنازع الرياسة والجاه ..

ب - والخلافات الدينية والمذهبية

جـ - والانغماس فى الوان الترف والنعيم ..

د - وانتقال السلطة والرياسة الى غير العرب ، من الفرس تارة والديلم تارة أخرى والمماليك والأتراك وغيرهم ممن لم يتذوقوا طعم الاسلام الصحيح ، ولم تشرق قلوبهم بأنوار القرآن لصعوبة إدراكهم لمعانيه ..

هـ - وإهمال العلوم العملية والمعارف الكونية . وصرف الأوقات وتضييع الجهود فى فلسفات نظرية عقيمة وعلوم خيالية سقيمة ..

و - وغرور الحكام بسلطانهم والانخداع بقوتهم ، وإهمال النظر فى التطور الاجتماعى للأمم من غيرهم ، حتى سبقتهم فى الاستعداد والأهبة . وأخذتهم على غرة .

ز - والانخداع بدسائس المتملقين من خصومهم ، والاعجاب بأعمالهم ومظاهر حياتهم ، والاندفاع فى تقليدهم فيما يضر ولاينفع ! ..

● وفى مواجهة الذين أكتفوا من مقاصد "الاستقلال" بالاستقلال "السياسى" - الذى يقف عند "العلم والنشيد" ؟! .. دعا حسن البنا الى الاستقلال الذى يحقق "سيادة الأمة" .. "لأن الاسلام لايرضى من أبنائه بأقل من الحرية والاستقلال ، فضلا عن السيادة وإعلان الجهاد ، ولو كلفهم ذلك الدم والمال" .. والى الاستقلال الاقتصادى - للأمة - وليس لقطر واحد من أقطارهم .. فالهدف هو تحقيق "نظام أقتصادى استقلالى للثروة والمال والدولة والأفراد .. والنقد .. ذلك أن الرابطة بيننا وبين العروبة والاسلام تمهد لنا سبيل الاكتفاء الذاتى والاستقلال

الاقتصادى . وتنقذنا من هذا التحكم العربى فى التصدير والاستيراد وما اليها ! . والى "الاستقلال الحضارى" الذى يعيد لامة الاسلام وحضارته مكانة الامامة للدنيا وموقع الشهود على العالمين .. "فلقد كانت قيادة الدنيا . فى وقت ما . شرقية بحتة . ثم صارت بعد ظهور اليونان والرومان غربية . ثم نقلتها النبوات الى الشرق مرة ثانية ، ثم غفا الشرق غفوته الكبرى . ونهض الغرب نهضته الحديثة .. فورث الغرب القيادة العالمية . وها هو ذا الغرب يظلم ويجور ويطغى ويحار ويتخبط ، فلم تبق إلا أن تمتد يد "شرقية" قوية ، يظللها لواء الله ، وتخفق على رأسها راية القرآن ، ويمدها جند الايمان القوى المتين ، فإذا الدنيا مسلمة هانئة . وإذا بالعوالم كلها هاتفة (الحمد لله الذى هدانا لهذا وماكنا لنهتدى لولا أن هدانا الله)

إنه استقلال الحضارة "المتميزة" لا "المنغلقة" ولا "التابعة" - ذلك ان "الاسلام لاياب أن نقتبس النافع ، وان ناخذ الحكمة أنى وجدناها ، ولكنه يابى كل الاباء ان نتشبه فى كل شيء بمن ليسوا من دين الله على شيء ، وأن نطرح عقائده وفرائضه وحدوده وأحكامه لنجرى وراء قوم فتنتهم الدنيا واستهوتهم الشياطين ؟! ..

● وفى مواجهة المضمون الغربى ، الضيق الأفق ، والانعزالى ، لكل من "الوطنية" و "القومية" يقدم مشروع الأستاذ البنا الصيغة التى تحقق الانسجام بين درجات الانتماء . الوطنى .. والعربى .. والاسلامى والانسانى .. "فالاسلام قد وفق بين شعور الوطنية الخاصة وشعور الوطنية العامة .. ومصر هى قطعة من أرض الاسلام . وزعيمة أممه .. وفى المقدمة من دول الاسلام وشعوبه .. ونحن نرجو أن تقوم فى مصر دولة مسلمة تحتضن الاسلام ، وتجمع كلمة .. العرب وتعمل لخيرهم ، وتحمى المسلمين فى آكناف الأرض من عدوان كل ذى عدوان . وتنشر كلمة الله وتبلغ رسالته .. فالمصرية لها فى دعوتنا مكانها ومنزلتها وحقها فى الكفاح والنضال .. ونحن نعتقد أننا حين نعمل للعروبة نعمل للاسلام ، ولخير العالم كله ! " ..

● وفى مواجهة "الغلاة" .. الذين لايرون فى المجتمعات الاسلامية . وفى عقائد المسلمين المعاصرين إلا شوائب الكفر والجاهلية .. فيحكمون بهما على الأمة .. أو على النظم والمجتمعات .. يقدم مشروع الاستاذ البنا الموقف الموضوعى المتوازن .. فنحن "لانكفر مسلما أقر بالشهادتين وعمل بمقتضاهما وأدى الفرائض - برأى أو معصية - إلا أن أقر بكلمة الكفر ، أو انكر معلوما من الدين بالضرورة ، أو كذب صريح القرآن ، أو فسره على وجه لاتحتمله أساليب اللغة العربية بحال ، أو عمل عملا لايحتمل تأويلا غير الكفر .. "ولقد اندمجت مصر بكليتها فى الاسلام بكليته ، عقيدته ولغته وحضارته . ودافعت عنه وزادت عن حياضه وردت عنه عادية المعتدين .. ومن هنا بدت مظاهر الاسلام قوية فياضة زاهرة دفاقة فى كثير من جوانب الحياة المصرية ،

فسماؤها إسلامية . ولغتها عربية ، وهذه المساجد العظيمة يذكر فيها اسم الله ويعلو منها نداء الحق صباح مساء . وهذه مشاعرنا لاتهتز لشيء اهتزازها للاسلام وما يتصل بالاسلام" .. والمعركة قائمة بيننا وبين الشوائب التى وفدت الينا من الحضارة الغربية ، تلك "الحضارة التى غزتنا غزوا قويا .. فانحسر ظل الفكرة الاسلامية عن الحياة الاجتماعية المصرية فى كثير من شئونها الهامة ، واندفعنا نغير أوضاعنا الحيوية ونصبغ معظمها بالصبغة الأوربية . وحصرنا سلطان الاسلام فى حياتنا على القلوب والمحاريب ، وفصلنا عنه شئون الحياة العملية ، وباعدنا بينه وبينها مباعدة شديدة ، وبهذا أصبحنا نحيا حياة ثنائية متذبذبة أو متناقضة !.. فالمعركة معركة تنقية المجتمعات الاسلامية من الدخيل ، الذى أقام فيها الثنائية والتذبذب بين روح الاسلام وبين الروح المادية الالحادية ، روح اللذة والشهوة ، الذى تميزت به الحضارة الغربية .. وليست معركة مع مجتمعات ارتدت عن الاسلام ونوره الى الجاهلية وظلماتها ! ..

● وفى مواجهة المتعجلين لقطف الثمار .. الذين يريدون القفز سريعا الى القبض على صولجان الحكم .. والذين يستبطئون طريق التربية وتغيير الذات - ذات الفرد . فالأسرة ، فالمجتمع . ثم الدولة .. فى مواجهة هؤلاء يؤكد مشروع الاستاذ البنا على ضرورة اعتماد طريق المراحل .. ومنهج التربية وسياسة النفس الطويل فينادى الرجل قائلا : "أيها الاخوان المسلمون . وبخاصة المتحمسون المعجلون منكم اسمعوها منى كلمة عالية داوية .. إن طريقكم هذا مرسومة خطواته . موضوعة حدوده ولست مخالفا هذه الحدود التى اقتنعت كل الاقتناع بأنها اسلم طريق للوصول

أجل ! قد تكون طريقا طويلة ، ولكن ليس هناك غيرها إنما تظهر الرجولة بالصبر والمثابرة والجد والعمل الدائب ، فمن أراد منكم أن يستعجل ثمرة قبل نضجها أو يقتطف زهرة قبل أوانها فلست معه فى ذلك بحال ، وخير له ان ينصرف عن هذه الدعوة الى غيرها من الدعوات .. ومن صبر معى حتى تنمو البذرة ، وتنبت الشجرة ، وتصلح الثمرة ، ويحين القطاف ، فأجره فى ذلك على الله ، ولن يفوتنا وإياه أجر المحسنين . إما النصر والسيادة ، وإما الشهادة والسعادة ..

الجموا نزوات العواطف بنظرات العقول .. ولاتصادموا نواميس الكون فإنها غلابة . ولكن غالبوها واستخدموها وحولوا تيارها ، واستعينوا ببعضها على بعض ، وترقبوا ساعة النصر ، وماهى منكم ببعيد ! .. أريد أن أكون صريحا معكم للغاية ، فلم تعد تنفعنا إلا المصارحة .

اعدوا أنفسكم .. وفى الوقت الذى يكون فيه منكم ثلاثمائة كتيبة قد جهزت كل منها نفسها ، روحيا بالايمان والعقيد ، وفكريا بالعلم والثقافة ، وجسميا بالتدريب والرياضة ، فى هذا الوقت طالبونى بان أخوض بكم لجج البحار ، واقتحم بكم عنان السماء ، وأغزو بكم كل جبار عنيد ، فإنى فاعل إن شاء الله .

المستشرق الإسبانى ميجيل أسين بلاثيوس

وجهوده فى الدراسات العربية والإسلامية

بقلم : د . محمود على مكى

● فى شهر يناير الماضى (بين يومى ١١ و ١٤) أقامت ثلاثة أقسام من كلية الآداب بجامعة القاهرة احتفالاً كبيراً وندوة دولية تكريماً لذكرى المستشرق الإسبانى ميجيل أسين بلاثيوس . وكانت هذه الأقسام هى قسم اللغة الإسبانية وقسم اللغة العربية وقسم الفلسفة . واشترك فى الإعداد للملتقى الكبير - إلى جانب جامعة القاهرة - المعهد المصرى للدراسات الإسلامية بمدريد والمعهد الإسبانى للتعاون مع العالم العربى . وقدمت فيه أبحاث من نحو أربعين عالماً متخصصا من أساتذة الجامعات من بينهم خمسة عشر إسبانيا يمثلون الدراسات الإسلامية فى جامعات أسبانيا المختلفة : بمدريد وغرناطة وإشبيلية ومرسية وقادس وبرشلونة وسلمنكة ، ومن الجامعات المصرية : القاهرة ودار العلوم والأزهر وعين شمس والاسكندرية . كما ساهم فى اللقاء رئيس دائرة العلوم الفلسفية فى منظمة اليونسكو ممثلا للمدير العام للمنظمة . أما الأبحاث المقدمة فإنها تعد مساهمة كبيرة فى الدراسات الدينية والفلسفية الأندلسية . وهذان هما الميدانان اللذان عمل فى خدمتهما المستشرق الأسبانى العظيم .

الاستشراق الإسباني في القرن التاسع عشر :

يعد القرن التاسع عشر في تاريخ إسبانيا هو عصر الهزات العنيفة والأحداث المأساوية الهائلة ، فقد بدأ بغزو نابوليون لإسبانيا بما كان يعنيه ذلك من إذلال لإسبانيا وامتهان لكرامتها بعد أن كانت خلال القرنين السابقين الامبراطورية العتيدة التي لم تكن تغيب عنها الشمس ، وانتهى القرن بهزيمة منكرة لإسبانيا في حربها مع الولايات المتحدة وبضياع ما بقي من مستعمراتها الأمريكية ، وفيما بين الحدثين الشنيعين تقلبت أحوال البلاد ما بين ثورات وقلاقل وصراعات حزبية وضروب من الخلل الاجتماعي والأزمات الاقتصادية الخانقة .

ومع بداية القرن التاسع عشر تبرز شخصية أول مستشرق إسباني يتوفر على كتابة أول تاريخ شامل للأندلس منذ بداية فتح إسبانيا حتى نهاية دولة غرناطة (٧١١ – ١٤٩٢) ، ونعني به خوسيه أنتونيو كوندي Jose Antonio Conde (١٧٦٥ – ١٨٢٠) وبمؤلفه كتاب « تاريخ الحكم العربي لإسبانيا » وكان كوندي متعاوناً مع غزاة بلده الفرنسيين مما أساء إلى سمعته وجعل كثيراً من مواطنيه يتهمونه بالخيانة . أما كتابه فقد اتسم بما تتسم به المحاولات الأولى من الفجاجة والتعثر ، وكان المستشرق الهولندي رواينهارت دوزي – باعث الدراسات الأندلسية في أوربا – أقسى ناقديه وكاشفي ما وقع فيه من أخطاء .

ويأتي بعد كوندي مستشرق إسباني جليل يعد واضع البذرة الأولى في تربة الدراسات الأندلسية في إسبانيا وراعي هذه الدراسات وهو باسكوال دي جايانجوس Pascual de Gayangos (١٨٠٩ – ١٨٩٧) وكان منهجه أكثر علمية ودقة من منهج كوندي فقد رأى أن كتابة تاريخ الحضارة الأندلسية ينبغي أن يبدأ بنشر النصوص الباقية من تراث الأندلس ثم ترجمتها إلى اللغات الأوربية حتى تكون في متناول أيدي الباحثين من غير المتخصصين ، ولهذا فقد عمل على ترجمة الشطر الأكبر من كتاب «نفح الطيب» إلى الإنجليزية ، ثم اضطلع بنشر العديد من النصوص العربية أو التي ترجمت قديما من العربية ، وكانت هذه خطوة في الاتجاه الصحيح سيواليها تلاميذه بعده .

فرانسسكو كوديرا و « بنو » كوديرا :

وأعلى هؤلاء التلاميذ قامة خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر هو بغير شك فرانسسكو كوديرا زيدين FRancisco Codera Zaidin (١٨٣٦ – ١٩١٧) . وهو الذي واصل عمل

جايانجوس فى تحقيق النصوص العربية باعتبار ذلك مدخلاً لابد منه لكتابة التاريخ الأندلسى ، فأصدر بالتعاون مع تلميذه خوليان ريبيرا ما أطلق عليه اسم « المكتبة الأندلسية » فى عشرة مجلدات تضم سلسلة متكاملة من كتب التراجم الأندلسية، وكان كوديرا يرى أنه لا يمكن معرفة التاريخ الإسبانى الحقيقى إلا بمعرفة اللغة العربية وبتقويم للحقبة الإسلامية فى تاريخ بلاده على أساس من التجرد والنزاهة والإنصاف ، وفى ضوء هذه النظرة أصدر أيضا مجموعة من الدراسات التاريخية حول عصور الأندلس الأولى وحول دولة المرابطين إلى جانب دراسة للنميات (النقود) الإسلامية بالغة الأهمية .

وقد أحاط بكوديرا أيضا عدد من التلاميذ كانوا يدعون «بنى كوديرا Beni Codera » إشارة إلى صلتهم الحميمة بأستاذهم ، وهم الذين أعطوا الدراسات العربية فى إسبانيا دفعة كبيرة إلى الأمام

وكان أوثق هؤلاء صلة بكوديرا هو خوليان ريبيرا Julian Ribera (١٨٥٨ - ١٩٣٤) الذى يمكن اعتباره منتميا - إلى حد ما - إلى ذلك الجيل العظيم من المفكرين الإسبان الذى اصطلح على تسميته بجيل ٩٨ « Generacion del 98 » وهم طائفة من الكتاب والشعراء أثارهم ما أصاب بلادهم من تدهور ظلت حلقاته تتوالى طوال القرن التاسع عشر حتى انتهى إلى كارثة الحرب الإسبانية الأمريكية فى سنة ١٨٩٨ ، وفى ظل الهزيمة الساحقة التى منيت بها إسبانيا تكشف الخلل الذى أصاب أجهزة الحكم فى إسبانيا على مدى القرنين السابقين وراء واجهة تشعر فى الظاهر بالقوة والتماسك ، فقد ظلت إسبانيا حتى بداية القرن التاسع عشر امبراطورية « لا تغيب عنها الشمس » تحكم ثلاثة أرباع القارة الأمريكية بالإضافة إلى ما استولت عليه من أراضٍ واسعة فى قارتى أفريقيا وآسيا ، غير أن الفساد الإدارى وسيطرة الكنيسة والجمود الفكرى الذى انتهى إلى رجعية متحجرة والعزلة التى فرضتها هذه الرجعية على البلاد مما أدى إلى تخلفها عن التقدم العلمى الذى كان يسود جاراتها الأوربية ...

وكان من الطبيعى أن ينعكس هذا الفكر الجديد على الدراسات الاستشراقية فى إسبانيا ، وكان كوديرا و « بنوه » هم حاملى راية هذا الاتجاه الذى يدعو إلى إعادة النظر فى الحقبة الإسلامية من تاريخ إسبانيا على أساس علمى سليم بعيداً عما كان يسود المؤرخين ودارسى الحضارة خلال القرون الماضية من أفكار جامدة يمليها التعصب الدينى أو العنصرى المقيت .

وقد كان خوليان ريبيرا بعد أن اشترك مع أستاذه كوديرا فى نشر « المكتبة

الأندلسية » والعديد من النصوص العربية الأخرى هو أول من أطلق نظرياته «الثورية» حول التراث الأندلسى وفضله على حضارة إسبانيا وثقافتها ، ففى سنة ١٩١٢ نشر دراسته حول ما يدين به الشعر الغنائى الإسبانى والأوربى للشعر الدورى الأندلسى أى الموشحات والأزجال ، وفى سنة ١٩١٥ أطلق « قنبلة » أخرى إذ نشر فضل الشعر الأندلسى على الشعر الملحمى الأسبانى ، وكان العلماء الأوربيون من قبل يدينون بأن العـــرب لم يعرفـــوا الملحمـــة ولا الأدب الملحمى ، وتوالت دراساته حول تأثير الفكر العربى فى إسبانيا فى مختلف المجـالات ، من الفكر الصوفى للراهب الميورقى رامون لول Raman Lull إلى أساليب الفلاحة وتوزيع المياه فى منطقة شرق الأندلس .

فى هذا الجو الجديد الذى تغيرت فيه النظرة التقويمية إلى الماضى العربى الأندلسى نشأ ميجيل أسين بلاثيوس Miguel Asin Palacios الذى قدر له أن يقتحم ميدانا جديداً من ميادين الدراسات الاستشراقية الأندلسية وهو متشبع بهذا الفكر « الثورى » الذى حمل رايت٥٠ كوديرا وريبيرا .

ولـد ميجيل أسـين فى سـرقسطة Zaragoza يوم ٥ يوليه ١٨٧١ فى أسرة من طبقة متواضعة تشتغل بتجارة بسيطة ، وتوفى أبوه وهو لايزال فى سن الطفولة ، فقامت أمه على تربيته هو وأخويه الصغيرين ، وأتم دراسته الثانوية فى مدرسة يديرها الرهبان اليسوعيون ، وكان منذ صباه متفوقاً فى الرياضيات واللغة اللاتينية ، وكان يفكر فى الالتحاق بكلية الهندسة ، غير أن موارد أسرته لم تسمح له بمثل هذه الدراسة ، فالتحق بكلية الفلسفة والآداب بجامعة سرقسطة ، وفجأة استهواه سلك الرهبنة ، فأتم دراسته اللاهوتية فى سبتمبر ١٨٩٥ .

وكانت أولى صلاته بعالم الاستشراق والدراسات العربية حينما وصل إلى سرقسطة خوليان ريبيرا فى سنة ١٨٨٧ أستاذاً للغة العربية فى جامعة سرقسطة ، وكان ريبيرا يكبره بنحو ثلاث عشرة سنة ، وأعجب ميجيل أسين بأستاذه ريبيرا وأصبح من مريديه الملازمين له ، وفى سنة ١٨٩١ عين ريبيرا تلميذه أسين - وهو فى العشرين من عمره - مدرساً مساعداً له فى نفس المواد التى كان يقوم بتدريسها فى الجامعة ، وارتبط الاثنان : الأستاذ وتلميذه برباط وثيق من الإعجاب والتعاون لم ينفصم أبداً . بل إن أسين كان يقيم فى بيت ريبيرا أكثر مما كان يقيم فى ديره ، وانعكس تعاون الرجلين على إخراج عدد من الأعمال العلمية منها ما بقى من مجلدات المكتبة الأندلسية التى بدأها كوديرا والتعاون فى نشر عدد من النصوص الموريسكية المكتوبة بما كان

يسمى بالعجمية أى aljamiado الإسبانية القديمة المكتوبة بحروف عربية .

ووجه ريبيرا تلميذه الذى توسم فيه النجابة إلى دراسة الفكر الفلسفى والصوفى الإسلامى ، وكان هذا ميداناً لم يسبق للمستشرقين الإسبان خوضه ، إذ كانت دراساتهم لا تتجاوز المجالات التاريخية والأدبية واللغوية والأثرية ، ورأى ريبيرا أن دراسات أسين اللاهوتية تؤهله لهذا المجال الجديد ، ولهذا فقد أوصاه بقراءة الكتب التى كانت تصل إلى سرقسطة من القاهرة آنذاك مما كان متصلاً بالموضوعات الفلسفية والدينية ، مثل كتب الغزالى وابن رشد وابن حزم وابن عربى ، وكان الذى يقوم بإرسال هذه الكتب أحمد زكى (باشا) « شيخ العروبة » الذى انعقدت صلة صداقة بينه وبين كوديرا شيخ الاستشراق الإسبانى آنذاك .

وبعد أن قام أسين بإتمام دراسته التمهيدية للدكتوراه فى مدريد شرع فى إعداد رسالته لنيل هذه الدرجة وكانت حول « منهج الغزالى الفكرى » ، وحصل العالم الشاب على الدكتوراه بتقدير خاص من لجنة الامتحان فى ٢٣ أبريل ١٨٩٦ ، وكان من أعضاء اللجنة العالم الإسبانى الكبير مننديث بيلايو Menendez Pelayo الذى أوصاه بمواصلة العمل فى ميدان الدراسات الإسلامية متابعا العمل الذى كان يقوم به آنذاك عدد من كبار المستشرقين الأوربيين من أمثال نيكولسون وماكدونالد وناللينو وهورتن وماسينيون .

وفى سنة ١٩٠١ نشر أسين رسالته للدكتوراه بعنوان « العقيدة والأخلاق والزهد فى فكر الغزالى » ، وفى أبريل ١٩٠٣ تقدم أسين للاختبارات اللازمة لشغل كرسى الدراسات العربية فى جامعة مدريد وهو الكرسى الذى تركه له طائعاً أستاذه فرانسسكو كوديرا .

وفى السنوات التالية يتتبع أسين امتداد فكر ابن مسرة (المتوفى سنة ٣١٩ / ٩٣١) وتأثيره فى مفكرى الأندلس الذين تلوه ، فرأى ذلك التأثير يمتد إلى ابن عربى المرسى (المتوفى سنة ٦٣٨ / ١٢٤٠) مروراً بابن العريف المَرَوِىّ (المتوفى سنة ٥٣٦ / ١١٤١) . وقد حمله هذا التتبع إلى نشر كتاب « محاسن المجالس » لهذا الصوفى الذى يمثل حلقة الصلة بين ابن مسرة وابن عربى

التصوف والفلسفة

على أن أسين لم يقصر اهتمامه على التصوف بل رأى فى الفلسفة الأندلسية أيضا ما يستحق الدراسة ، فشرع فى دراسة فلسفة ابن رشد القرطبى ومهد لهذه الدراسة بأبحاث تناولت من سبقوا ابن رشد من فلاسفة الأندلس وأهمهم ابن باجة السرقسطى (توفى سنة ٥٣٣ / ١١٣٨) ثم تلميذه ابن طفيل (المتوفى سنة ٥٨١ /

١١٨٥) ، وتنبه أثناء ذلك إلى أن هذه التيارات الفكرية الإسلامية قد باشرت نفوذاً على مفكرى المسيحية الأوربيين ، أما التيار الصوفى الذى امتد من ابن مسرة إلى ابن عربى فقد ترك آثاره الواضحة على الإسكولاتيين المسيحيين مثل دنس سكوتوس Duns Scotus (ت فى ١٣٠٨) وروجر بيكون Roger Bacon (ت ١٢٩٢) والميورقى رامون لول Ramon Lull (ت ١٣١٥) وأما التيار الفلسفى الذى انتهى إلى ابن رشد فقد باشر نفوذاً كبيراً على القديس توماس الأكوينى St. Thomas Aquinas (ت ١٢٧٤) وقد كان لهذه الأبحاث التى أثبت فيها أسين تأثير الفكر الفلسفى والصوفى لا فى الفكر الإسبانى فحسب بل فى الأوربى أيضا أهمية كبرى . فقد كان الأوربيون بما تأصل فيهم من عنجهية عنصرية يتهمون إسبانيا بأنها عربية الطابع وأنها أكثر انتماءً إلى أفريقيا منها إلى أوربا ، فأتت أبحاث أسين بلاثيوس لتبين فضل الثقافة العربية على أوربا المتعجرفة ، وقد وصف بعض النقاد صنيع أسين فى ذلك بقوله : « بدلاً من أن يطالبونا «بأوربة» إسبانيا فإن علينا أن « نُعَرِّب أوربا » .

واستهوت هذه الدراسات المقارنة عالمنا الذى لم يمنعه كونه من رجال الكنيسة المسيحية مواصلة أبحاثه فى فضل الإسلام على ثقافة أوربا المسيحية .

ففى سنة ١٩١٩ أصدر بحثه الذى أثار ضجة كبرى فى الأوساط الأوربية ، وهو « أثر المعراج الإسلامى فى الكوميديا الإلهية لدانتى » ، وكانت بداية هذه الدراسة هى بحثه فى المعراج الصوفى لابن عربى المرسى ، فتبين له أن ابن عربى قد احتذى فيه خبر معراج الرسول (عليه الصلاة والسلام) إلى السموات العلى ، بعد أن أسرى به من البيت الحرام إلى المسجد الأقصى ، وكانت هذه الدراسة ثمرة المقارنات بين نصوص خبر المعراج ونصوص الشاعر الفلورنسى الكبير (المتوفى سنة ١٣٢١) الذى تعتبر قصيدته أعظم ما صدر فى عصر النهضة الأوربية ، فقد رأى أسين أن التماثلات بين النصين لا يمكن أن تعزى لمحض الصدفة ولا لمجرد توارد الخواطر ، بل لابد أن يكون دانتى قد عرف خبر المعراج النبوى ، واحتدم الجدل حول هذا البحث ، وكان الإيطاليون أشد الأوربيين رفضاً لما جاء فيه ، وكأنهم أخذتهم العزة بالإثم فاستنكفوا أن يكون للفكر العربى مثل هذا النفوذ على أديبهم الأكبر ، وطالب المعترضون أسين بإثبات الطريقة التى وصل بها دانتى إلى الاطلاع على خبر المعراج ، ولم يكن فى وسع العالم الإسبانى تقديم الدليل القاطع على ذلك ، إذ أن دراسته قامت على رصد أوجه التشابه فحسب ، غير أن الدليل أتى بعد

ذلك فى سنة ١٩٤٩ بعد وفاة أسين بلاثيوس بخمس سنوات ، فقد عثر الباحث الإسباني مونيوث سنديتو Munoz Sendino على المخطوطات التى ترجم فيها نص المعراج النبوى إلى اللاتينية والفرنسية والإسبانية (وإن كان هذا النص الأخير قد فقد) ، وقد ثبت أن برونيتو لاتيني Brunetts Latini أستاذ دانتي قد عرف هذه النصوص أثناء سفارة له إلى قشتالة (إسبانيا) وحملها معه إلى إيطاليا حيث عرفها دانتى وبذلك تأكدت صحة استنتاجات أسين بلاثيوس .

ويتابع ميجيل أسين دراساته المقارنة ، فيثبت فى بحثه لفكر الفيلسوف الفرنسى بسكال ما يدين به الصوفية المسلمين ولاسيما الغزالى ، ويدرس حياة أنسيلموا دى تورميدا Anselme de Tur- meda وكان راهباً من ميورقة رحل إلى تونس فإذا به يعتنق الإسلام ويؤلف كتاباً بالعربية بعنوان « تحفة الأريب فى الرد على أهل الصليب » ويشتهر بين أهل تونس باسم عبد الله الترجمان ، وكان قد ألف من قبل باللغة القطلانية كتابا طريفاً سماه « مجادلة الحمار للراهب أنسلمو تورميدا » ، فأثبت أسين أن هذا الكتاب مأخوذ من إحدى رسائل إخوان الصفا . أما كتابه العربى فى الرد على المسيحيين فقد نقل معظم مادته من كتاب « الفصل » لابن حزم ، وفى دراسته للصوفى الإسبانى سان خوان دى لاكروث San Juan de la Cruz (ت ١٥٩١) انتهى إلى أنه قد تأثر بفكر الصوفى الأندلسى الشاذلى ابن عباد الرندى شارح « حكم ابن عطاء الله السكندرى » (المتوفى سنة ١٣٨٩) الذى سبق نظيره المسيحى بقرنين من الزمان .

وفى سنة ١٩٣١ ينشر أسين كتابه الكبير « التفاعل بين الإسلام والمسيحية " El Islam Cristianizado وقد أفرده لدراسة محيي الدين بن عربى حياته وتصوفه ، وهو يعد من خير ما ألف عن هذا الصوفى العظيم .

ومن أضخم ما أنجزه ميجيل أسين كتابه الضخم عن ابن حزم القرطبى الذى نشره بين سنتى ١٩٢٧ و ١٩٣٢ فى خمسة مجلدات كبار أفرد الأول منه لدراسة ابن حزم حياته وآثاره ومكانه فى تاريخ الفكر الإنسانى ، وأما المجلدات الأربعة الباقية فقد خصصها لترجمة كتابه " الفصل فى الملل والأديان والنحل " ، كما يترجم أيضا رسالته البديعة فى الأخلاق والسير ، وينشر بعض رسائل ابن حزم المخطوطة مع ترجمتها إلى الإسبانية .

وفى سنة ١٩٢٩ يعود مرة أخرى إلى الإهتمام بالغزالى ، فيترجم إلى الإسبانية كتابه " الإقتصاد فى الإعتقاد " ثم يفرد أربعة مجلدات لدراسة المنهج الروحى لمفكرنا العظيم .

وإذا كان الشطر الأعظم من نشاط المستشرق الإسبانى الكبير موجها فى

المقام الأول للدراسات الفلسفية والصوفية فإنه لم يخل مجلات أخرى من إهتمامه ، فقد نشر على سبيل المثال سلسلة من المقالات القيمة عن الجاحظ وكتابه الحيوان ، وأفرز بحثا طريفاً لمنارة الإسكندرية وصفها لدى الرحالة والجغرافيين ، ودرس أصل اللغة لدى ثلاثة من مفكرى الإسلام هم الغزالى وابن سيده المرسى صاحب معجمى المخصص والمحكم وابن حزم القرطبى فى كتابه الإحكام ، وتناول مجموعة من الألفاظ الإسبانية ذات الأصول العربية ، وفى آخر حياته نشر كتابين متصلين باللغة أيضا : أولهما كتاب مجهول المؤلف فى الفلاحة ، وقد تتبع فيه بالدراسة الألفاظ الرومانسية.(أى اللاتينية الدارجة التى أصبحت اللغة الإسبانية فيما بعد) الواردة فى الكتاب مع تحليل واف لها ، وأما الثانى فهو الذى خصصه لأسماء الأعلام الجغرافية ذات الأصول العربية فى إنحاء شبه جزيرة إيبريا .

وآخر ما قام به قبيل وفاته هو دراسة الطريقة الشاذلية ومبادئها الصوفية وتأثيرها فى صوفية الغرب المسيحى ، ولم يقدر له أن يكمل هذه الدراسة التى نشرت أجزاؤها مسلسلة بعد وفاته فى مجلة " الأندلس " .

وهنا ينبغى أن ننبه إلى دوره فى تأسيس هذه المجلة فى سنة ١٩٣٣ ، وكان الهدف منها خدمة الدراسات الأندلسية فى شتى المجالات ، وكان صدورها موافقا لإنشاء مدرستى الأبحاث العربية فى مدريد وغرناطة على يد خوليان ريبيرا . وكانت المجلة تصدر عددين فى السنة ، وقد تحولت بمضى الزمن إلى مدرسة تخرج فيها نخبة من العلماء المتخصصين فى الدراسات الأندلسية . وكان يعاونه فى إدارتها وتحريرها تلميذه الأثير لديه إميليو غرسيه غومس Emilio Garia Gomcz الذى أصبح اليوم عميد الاستشراق الإسبانى وكبير شيوخه . وقد ظلت هذه المجلة التى تعد من أعظم منجزات أسس بلاثيوس تصدر عن مدرستى الأبحاث العربية فى مدريد وغرناطة على مدى نصف قرن لم تنقطع إلا خلال سنوات الحرب الأهلية (١٩٣٦ - ١٩٣٩) . ثم توقفت عن الصدور فى أوائل الثمانينيات . وإن كانت قد خلفتها مجلة أخرى تحمل اسم " القنطرة Alcantara " وتواصل نفس الإتجاه الذى خطته مجلة " الأندلس "

حياته كانت صافية كالبللور ، دقيقة كالساعة ، وأما ذهنه فقد كان رائعاً يعمل بإنضباط مذهل . وكثيراً ما كان أساتذته فى الدراسات الكلاسيكية وهو بعد فى مرحلة الطلب : « أى ذهن فقدته دراساتنا وكسبته الدراسات العربية » ! .

كان يكره التقليد والجمود وينفر من جعجعة البلاغة الجوفاء فلا يعمد إلا إلى التعبير الواضح الموجز المجرد من لغو القول والزخرف الزائف .

مهـــد مـــولد جامعـات الغـــرب الأوربيـــة ومنـار نشـــأة جامعات الشـــرق الإســلامية

بقلم : د. سيد كريم

● اختار الأوربيون مدريد عاصمة أسبانيا لتكون عاصمة أوروبا الثقافية أو عاصمة الثقافة الأوربية عام ١٩٩٢ لأن مدريد تختلف من حيث طابعها وشخصيتها عن العواصم الأوربية الأخرى ولان العرب كان لهم دور كبير فى ازدهارها ونشاطها قبل ظهور الثقافة الأوربية الجامعية .

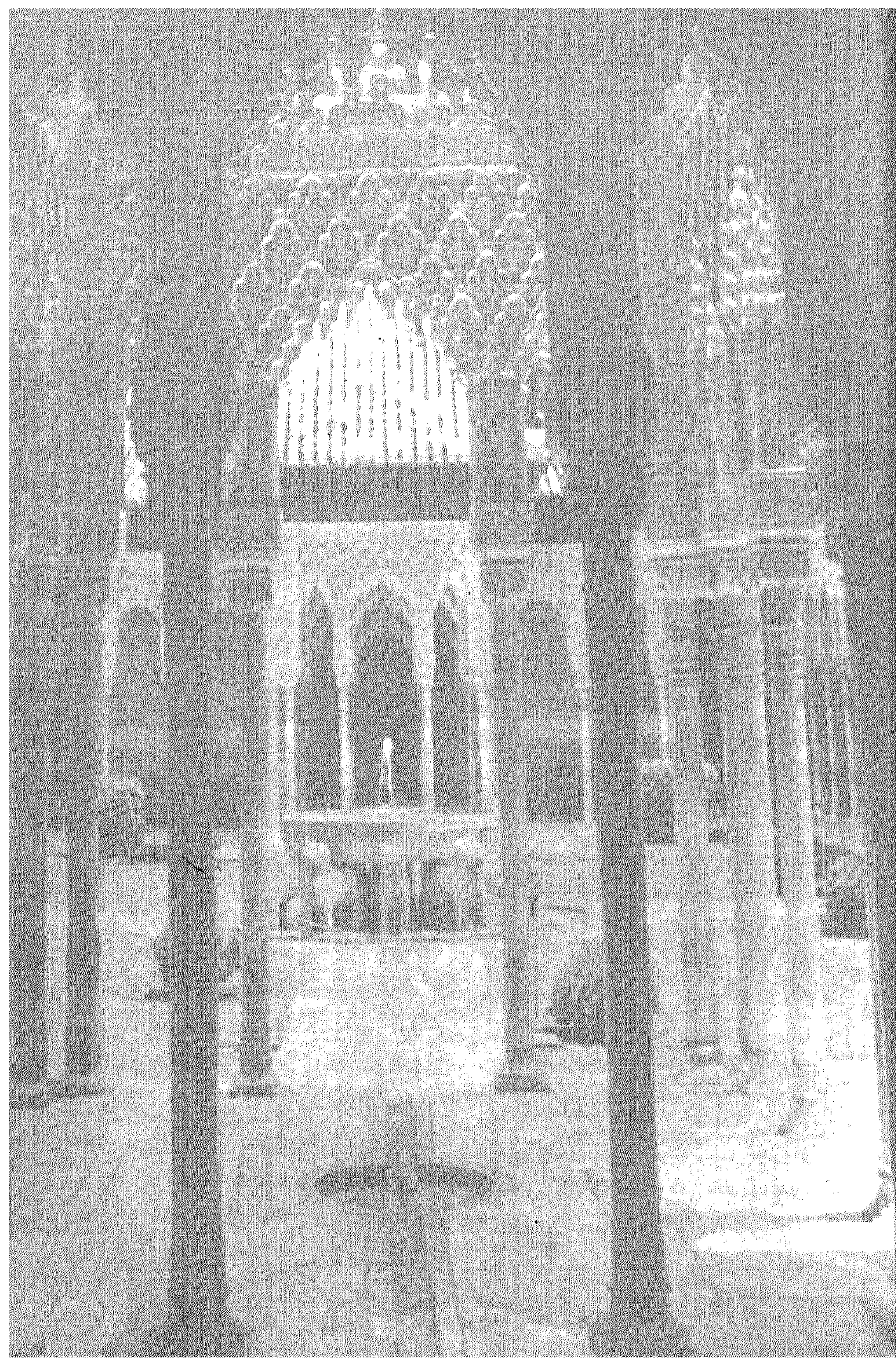
فالعرب تربطهم علاقات تاريخية قديمة بالأسبان ويقول أحد علماء الاسبان إن اللغة الأسبانية هى حلقة الاتصال بين أسبانيا وأوروبا والثقافات الاخرى من جهة وبين أسبانيا والعرب من جهة أخرى عن طريق الحضارة الاسلامية الأندلسية التى عبرت أوروبا عن طريق أسبانيا على حين أن الأسبان بدأوا فى تعلم اللغة العربية منذ القرن الثامن عشر وأنشأوا أقساما للغة العربية وآدابها فى الجامعات ودرسوها فى قسمى التاريخ والآثار .

فالاسبانيون يعترفون فى كتاباتهم ودراساتهم وأبحاثهم ومؤتمراتهم بالدور المشرف للاسلام وإسهاماته فى التكوين الثقافى لأوروبا وحضارتها الحديثة .

فأسبانيا مقتنعة تماما بدور الإسلام فى تكوينها التاريخى والثقافى والحضارى

البحث عن الحقيقة

● أين هى الحقيقة فى علاقة العرب بالاندلس ودور تلك العلاقة فى نشر الثقافة فى أوروبا ونشأة الجامعات الأوربية ؟ ذلك الدور الذى مهد للاعتراف بمدريد كعاصمة للثقافة الأوربية ؟



مسجد قرطبة الجامع

بدأت علاقة العرب بالأندلـــس عندما نجح عبد الرحمن الداخل عام ٧٥٦م في تأسيس خلافة أموية في الأندلس ظلت حاكمة ما يقرب من ثلاثمائة عام . تحت الخلافة الاموية ورعايتها أينع أسلوب فني عظيم مسمى بالأسلوب الإسلامي الأندلسي وكان مركز هذا الأشعاع المسجد الكبير الذي أقامة العرب في قرطبة وأطلق عليه أسم «المسجد الجامع» والذي اتخذت منه الجامعات أسمها .

يعتبر مسجد قرطبة الجامع أو جامعة قرطبة التي خرجت إلى حيز الوجود عام ١٧٠ هـ / ٧٨٦ م أول جامعة شهدها عالم الغرب وكانت تسمى بالجامع الأعظم دار العلوم ومجمع العلماء . وكعبة المعرفة .

● يعد جامع قرطبة أكبر المساجد الإسلامية في الاندلس وثالث المساجد الكبرى في الإسلام بعد مسجدي سامراء وإبي دلف . كانت مساحة مسجد قرطبة المتوازي الأضلاع حيث يبلغ طوله من الشمال إلى الجنوب في اتجاه القبلة ١٧٨ مترا وعرضه من الشرق إلى الغرب حيث أبواب مداخله المتعددة ١٢٥ مترا وتبلغ مساحته الكلية ٢٢٥٠٠ متر مربع وهو مايغطي مساحة قدرها خمسة أفدنة بينما كانت مساحة كل من مسجدي سامراء وأبي دلف ٣٨٠٠٠ ، ٢٨٠٠٠ متر مربع على التوالي .

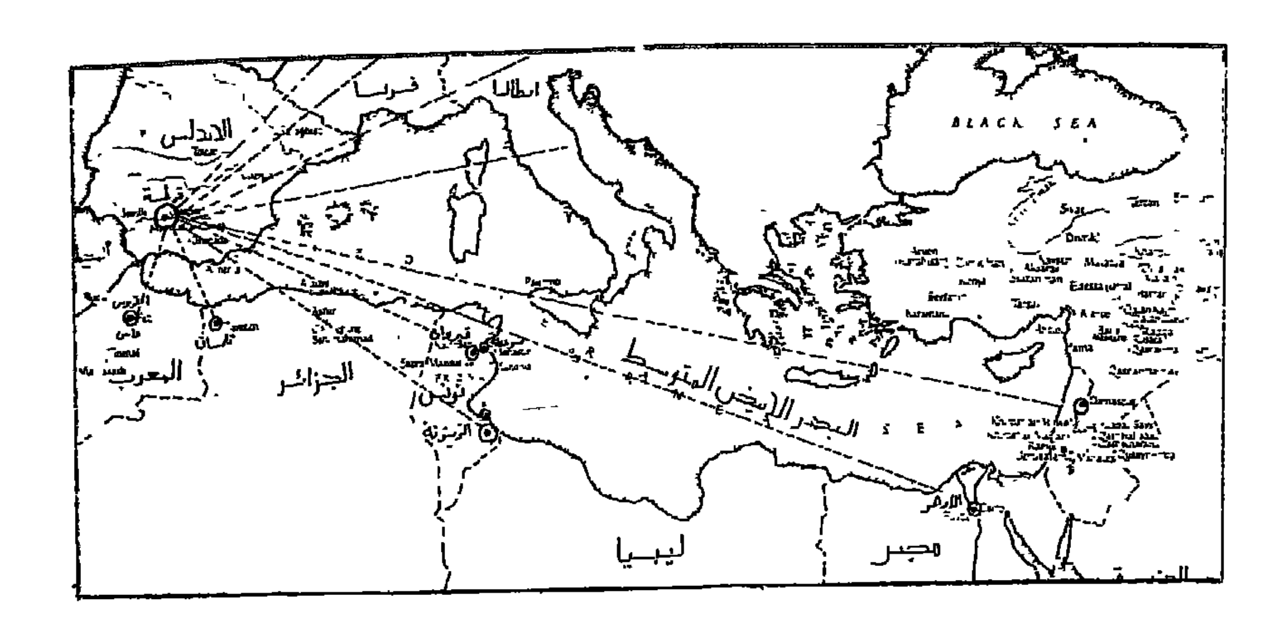
أشهر المساجد

ويعد مسجد قرطبة من أحفل مساجد الإسلام تاريخا وأكثرها أهمية معمارية في كلتا الناحيتين الانشائية والزخرفية بجانب تجانس مراحل تنفيذة واندماج الزيادات التوسعية في التكوين الأصلي .

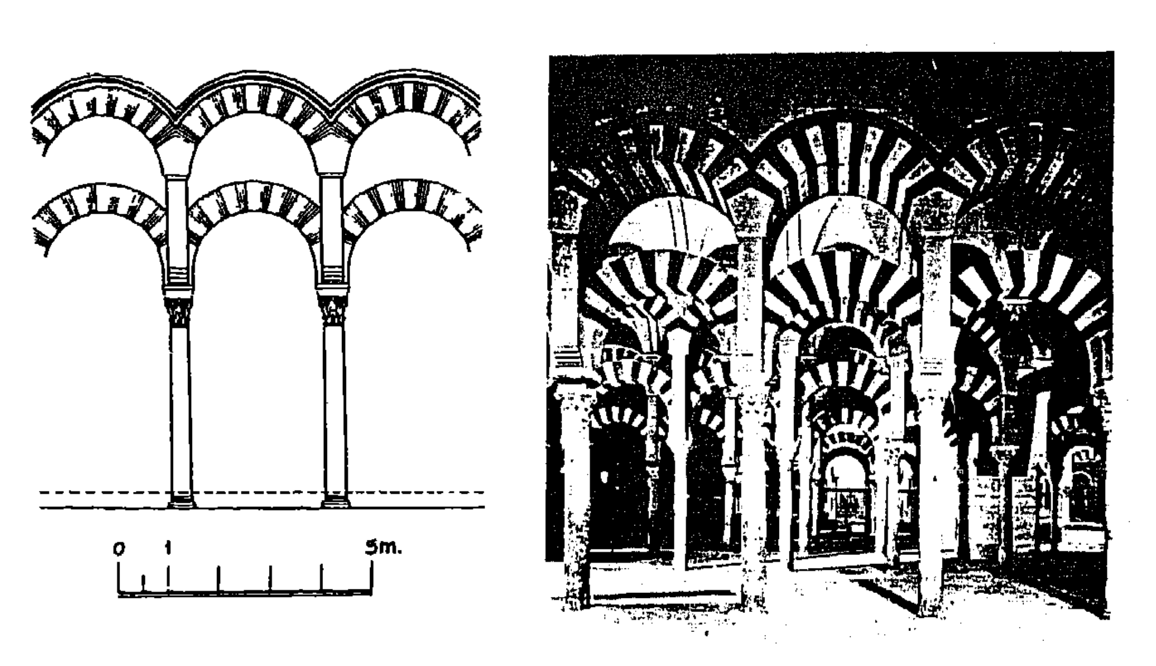
● تبدأ قصة بناء جامع قرطبة عندما انتصر عبد الرحمن الداخل في فتح قرطبة وأصبح أميرا على الأندلس وجعل من قرطبة عاصمة لملكه وبنى لنفسه قصر الرصافة . ثم قام بتحويل كنيسة قرطبة إلى مسجد للمسلمين بعدما عوض أصحابها بمبلغ كبير من المال وأقطعهم أرضا شاسعة لبناء كنيسة جديدة خارج المدينة ثم شرع في بناء مسجده العظيم سنة ١٦٩ هـ / ٧٨٥ م .

● مات عبد الرحمن الداخـل الذي لقب بعبد الرحمن الأول قبل أن ينتهي من إتمام بناء المسجد فقام ابنه هشام بن عبد الرحمن بإتمام بنائه وتوسعاته عام ٧٨٧ م وحقق أمنية والده في إتمام إقامة مالا يقل عن أربعمائة مسجد وبيت للعلم والصلاة لنشر الثقافة الإسلامية الدينية والعلمية بين مختلف طبقات الشعب في أنحاء البلاد .

وجعل اللغة العربية لغة التدريس في المدارس والمعاهد الأمر الذي أدى إلى دخول النصارى واليهود في الإسلام وخاصة من انضموا للتعليم الجامعي



الاشعاع الثقافى لجامعة قرطبة والذى امتد لقرون طويلة

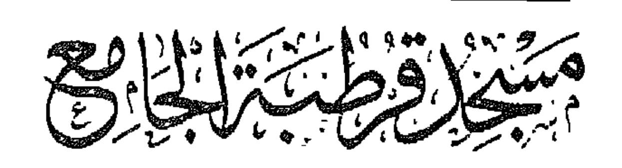


بهو مسجد قرطبة الجامع وشكل هندسى للاعمدة والعقود

بالجامع الكبير أو جامعة قرطبة .

مر بناء مسجد قرطبة الكبير خلال أربع مراحل .

قام بالزيادة الأولى أو المرحلة الثانية عبد الرحمن الثانى عام ٢٣٤ هـ / ٨٤٨ م، ومات عبد الرحمن الثانى قبل أن يتم زخرفة البناء المستجد فأتمه أبنه محمد بن عبد الرحمن عام ٢٤١ هـ / ٨٥٥ م وتركزت الأعمال على تجديد أشرطة الكتابات

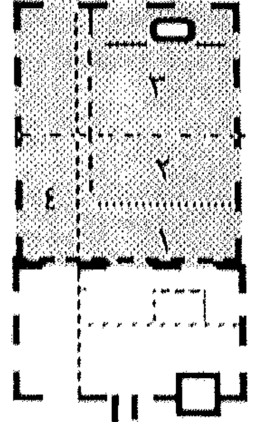
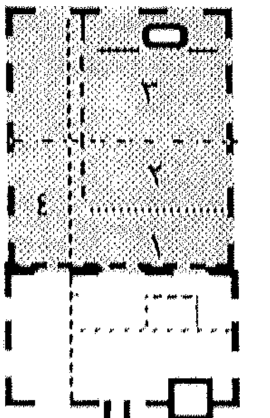


القديمة التى اشتهر بها المسجد والنقوش الزخرفية . كما سجل أعماله على أحد الأبواب الجانبية أسوة بمن سبقوه فى إقامة الأعمال الإنشائية والزخرفية عبر مراحل التنفيذ المختلة .

ولقد تضاعفت مساحة بيت الصلاة فى تلك المرحلة بعد هدم جدار القبلة وزيادة المسجد فى جهتها كما أقام أول مئذنة للمسجد على قواعد برج الكنيسة القديمة الذى تهدم .

مسجد قرطبة الكبير

مراحل التنفيذ

١ – عبد الرحمن الاول ٧٨٦ م

٢ – عبد الرحمن الثانى ٨٤٨ م

٣ – الحكم بن عبد الرحمن ٩٦١م

٤ – المنصور بن عامر ٩٨٧ م

● تمت المرحلة الثالثة فى توسعة المسجد فى عهد الحكم الثانى عام ٩٦١ م حيث هدم جدار القبلة للمرة الثانية وتم نقله مسافة أربعين مترا فى اتجاهها وعمل له محرابا جديدا وأكمل القبة الرئيسية الواقعة أمامه والتى تستند على سلسلة مثمنة من الأضلاع المتقاطعة والتى امتد استعمالها فى عمارة الغرب الأندلسى المسيحى ولعبت دورا معماريا فى طرازه .

ولما ضاق المسجد للمرة الرابعة بما يؤديه من خدمات للمصلين ولرسالة العلم التى يقوم بها شرع المنصور بن أبى عامر عامل هشام بن الحكم عام ٣٧٧ هـ / ٩٨٧ م فى زيادته وتمت الزيادة فى شرق المسجد بطول المراحل الثلاثة الأولى .

دور نشط فى نشر اللغة العربية

● يقول المستشرق دوزى كان الفضل لجامعة قرطبة وشبكة المساجد والمعاهد التى تشرف عليها . كان لها الفضل فى نشر اللغة العربية بين الكثير من الأسبان وسارع الكثير من أهل البلاد إلى اعتناق الإسلام طواعية دون ضغط أو اضطهاد مما كان له أكبر الأثر فى احتواء قاموس اللغة الأسبانية الحديثة على أكثر من خمسة آلاف كلمة عربية .

كما يذكر نفس المؤرخ دور الثقافة الإسلامية فى الأندلس فى ازدهار المجتمع ثقافيا وسياسيا مما كان له دور فعال فى تمتع الشعوب المسيحية بالحرية والاستقلال وتحرير الفلاحين من العبودية حيث كان الإسلام أكثر تعضيدا لتحرير الرقيق من النصرانية مما كان سببا فى

ازدهار الزراعة والعمال وانتقل أثرها إلى البلاد الأوربية المسيحية الأخرى .

وكان الفضـــل فى تلك النهضة لجامعة قرطبة التى أرســت تعاليم الإســـلام وتشـاريعه فى دعم الهيكل السياسى للحكم .

اشتهرت جامعة قرطبة بعلوم الكيمياء والطب والطبيعة والهندسة والفلك والحساب والترجمة والشعر والأدب ، والفنون والموسيقى بجانب الفقه والتشريع . فكان الرهبان يفدون من كل أوروبا للتعلم والدراسة فى جامعة قرطبة لينقلوا لبلادهم أحدث ما وصل إليه العلم فى ذلك الوقت .

انطلاق إلى العالمية

ومن جامعة قرطبة تخرّج علماء الغرب الذين وضعوا حجر الأساس فى إنشاء الجامعات العالمية الأولى فى مختلف أنحاء القارة الأوربية ونقلوا نظم التدريس ومناهج العلوم ونوعيات موادها التى كانت جديدة عليهم إلى الجامعات التى أقاموها .

كانت جامعة قرطبة تحوى أكثر من أربعمائة ألف مجلد ومخطوط وكتاب فى مختلف العلوم والفنون والآداب من بينها الكثير من المخطوطات باللغات القديمة التى كان العرب يجمعونها فى غزواتهم ويقومون بترجمتها وتدارك أسرارها وفك رموزها والغازها لقد انتقلت تلك التراجم العالمية إلى عالم الغرب عن طريق الترجمات العربية كما انتقل الكثير من تلك المخطوطات القديمة ومجلداتها وتراجمها التى جمعها العرب .. انتقلت من جامعة قرطبة إلى الجامعات الأوربية ومتاحفها بعد خروج العرب من الاندلس .

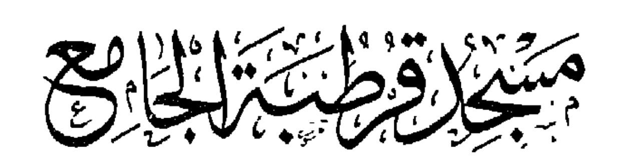
جامعة قرطبة والزى الجامعى

ومما هو جدير بالذكر أن علماء الغرب وأساتذة جامعاته قدر لهم أن يعترفوا رغم إرادتهم بفضل العرب والإســلام على ما يحصلون عليه من علم وما نالـوه من درجاته .

فحافظوا على تقاليد جامعة قرطبة بارتداء الزى الذى فرضته عليهم وهو الروب الجامعى الأسود اللون - العباءة العربية عباءة طبقة العلماء العرب ذات الوشاح الاخضر رمز الإسلام وهو الروب الذى كان يهدى لخريجى جامعة قرطبة عند حصولهم على درجة الأستاذية أو العالمية .

أما غطاء الرأس المربع الشكل الذى يحمله أساتذة الجامعات مع الروب الجامعى الأسود فهو بدوره من التقاليد التى كان معمولا بها فى جامعة قرطبة . فعندما يتقدم الطالب لتسلم شهادة التخرج يتحتم عليه أن يضع المصحف الشريف فوق رأسه ويردد القسم وهو يضع كفه فوق المصحف اعترافا بفضل كتاب الله - المصحف الشريف - على ما وهبه الله من العلم .

كانت تعلو منصة العلم بالجامعة لوحة رخامية تحمل الآية الكريمة « **يرفع الله الذيـــن آمنـــوا منكـــم والذين أوتـــوا العلم درجات** »



وقد وجدت تلك الآية منقوشة على إحدى شهادات التخرج التى كانت تصدرها جامعة قرطبة وترجع إلى عام ٨٩٠ م ويحتفظ بها متحف إحدى الجامعات البريطانية .

ولم يتوقف دور جامعة قرطبة التى حملت رسالة الثقافة خلال ثلاثة قرون من عمر الزمان أفسحت فيها المجال لنشأة الجامعات فى مختلف الدول الأوربية بل انتقلت شعلتها لتصبح منارا يمهد الطريق لقيام المساجد الجامعة فى العالم الإسلامى امتدادا من المحيط إلى الخليج وتعبره إلى البلاد الآسيوية فتقام المساجد الجامعة أو الجامعية التى ترفع راية العلم والإيمـــان فتظهـر جامعـة القرويين فى أقصـى الغرب وأصفهـان ودلهـى فى أقصى الشرق .

فى مقدمة تلك المساجد الجامعة التى اقتفت خطوات جامعة قرطبة سواء فى تخطيطها المعمارى ودورها فى نشر الثقافة العلمية الإسلامية . وتعمل على جمع شمل بلاد العالم الإسلامى وتقوية الروابط الاجتماعية والاقتصادية بين الشعوب بتوحيد العناصر الثقافية وارتباطها بالعقيدة الإسلامية أى الربط بين العلم والإيمان . تبدأ تلك السلسلة من المساجد الجامعة بمسجد قيروان فى تونس أول مسجد أقيم فى شمال أفريقيا ويعد مسجد قيروان فى تونس أقدم المساجد الجامعة فقد بدأ العمل فى بنائه الأمير هشام عام ١٠٩ هـ / ٧٢٧م أى قبل بناء مسجد قرطبة نفسه ولكن بناءه لم يتم إلا عام ٨٣٦ م أى مع مسجد قرطبة فى الأندلس .

كان فى المرحلة الأولى من بنائه قد أعد كمسجد للصلاة فقط وعلوم الفقه والشريعة ثم تحول إلى مسجد جامع تقليدا لمسجد قرطبة فى القرن التاسع بعد توسعته ومضاعفة مساحته الأصلية .

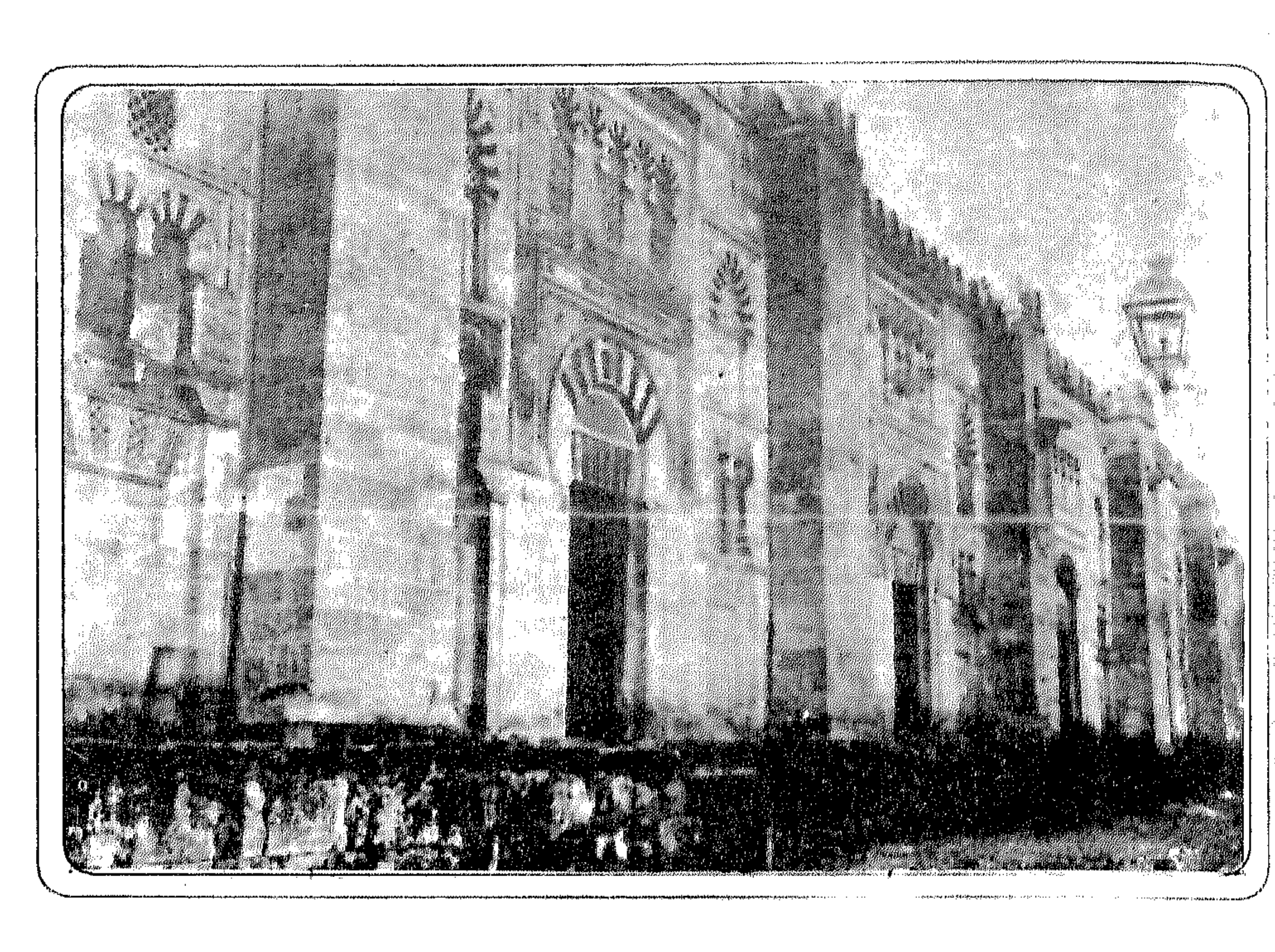
أما المساجد الجامعة أو الجامعات الإسلامية التى حملت رسالة جامعة قرطبة إلى العالم الإسلامى لتمتد من المحيط إلى الخليج وتعبره إلى البلاد الأسيوية فيمكن حصرها فيما يلى :

جامعة قيروان تونس ٧٢٤ – ٨٣٦ م

جامعة القرويين فاس ١١٣٦

جامعة تلمسان (الجزائر) ١٠٩٦

جامعة الزيتونه (تونس) ٧٨٥



مسجد قرطبة الجامع

جامعة الأزهر (مصر) ٩٦٩

جامعة سمرقند (إيران) ٨٩٠

جامعة أصفهان ١١٥٠

جامعة دلهى (الهند) ١٢٠٠

لقد انتهت رسالة قرطبة بانهيار الحكم الإسلامى فى الأندلس الذى دالت معه حضارة العرب الإسلامية العريقة . توقفت جامعة قرطبة عن تأدية رسالتها السامية التى استمرت ثلاثة قرون رفعت فيها شعلة الثقافة الإسلامية عالية لتلقى ضوءها ونورها على الغرب الأوربى والشرق العربى .

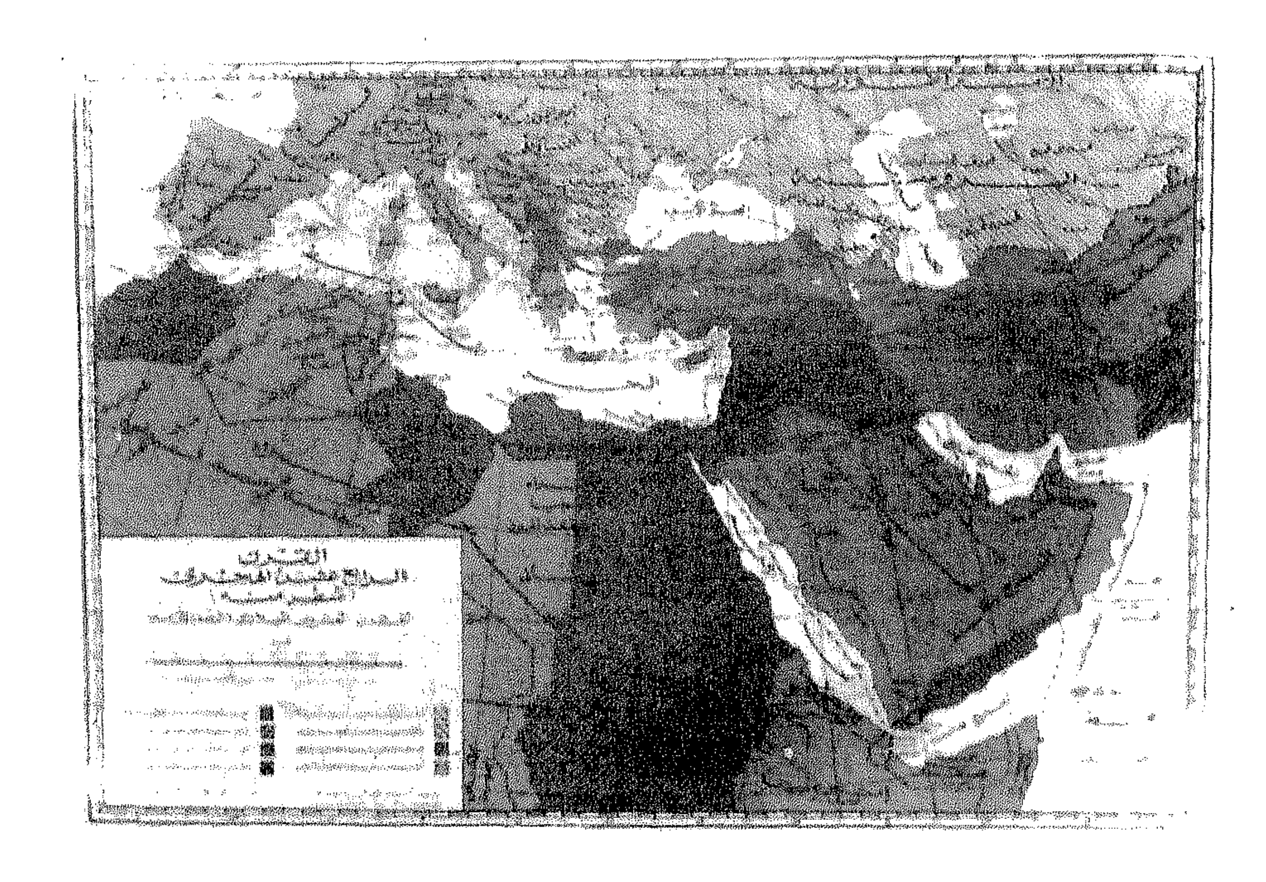
أما المساجد الجامعة فى شمال أفريقيا وبلاد الشرق فقد تعرضت بدورها فى مقاومة الاستعمار الأجنبى إلى الكثير من عوامل الدمار فانهار بعضها وصمد البعض الآخر كما هو الحال فى جامعة الأزهر التى تعرضت لأكثر من عدوان فى مختلف مراحل الاستعمار

نظرة تحليلية فى حاضر العالم الإسلامى

بقلم : د . أحمد صدقى الدجانى

● مرة أخرى يتجدد الاهتمام بالعالم الإسلامى فى العقد الأخير من القرن العشرين الميلادى . ويبرز هذا الاهتمام فى وطننا العربى . ودائرة الحضارة العربية الإسلامية وفى العالم الخارجى وبخاصة الغرب ، على السواء ، ولأسباب مختلفة ، ونجد فى خضم ذلك حديثاً عربياً مسئولاً معنيا « بالتضامن الإسلامى » ودور العرب فى تحقيقه ، وأحاديث غربية متنوعة يركز بعضها على ما اصطلح الغرب على تسميته « بالأصولية » تتسم فى كثير من الأحيان بالبعد عن الموضوعية .

الحاجة ماسة فى كل الأحوال إلى إلقاء نظرة تحليلية فى حاضر العالم الإسلامى فى مطلع التسعينات ، وقد سبق لأمتنا فى العشرينات أن شغلت بهذا الموضوع حين صدر فيها كتاب « حاضر العالم الإسلامى » الذى يضم ترجمة لكتاب مؤلف أمريكى هو لوثروب ستودادر عنوانه « عالم الإسلام الجديد » قام بها المرحوم عجاج نويهض « وتعليقات وحواش » مستفيضة عن دقائق أحوال الأمم الإسلامية وتطورها الحديث بقلم أمير البيان والمجاهد الكبير الأمير شكيب ارسلان – كما كتب على غلاف الكتاب . ويومها نال هذا الكتاب شهرة واسعة وطبع مرتان خلال بضع سنوات وكرّس مصطلح « حاضر العالم الإسلامى » . كما شغلت



أمتنا بهذا الموضوع بعد تجزئة الوطن العربى والعالم الإسلامى وقيام « الدولة القطرية » المستقلة منذ إنتهاء الحرب العالمية الثانية ، وتردد الحديث فى أوساطنا عن « التضامن الإسلامى » ، تماما مثلما يتردد اليوم حديث عن إمكانية قيام نظام اقليمى لدائرة الحضارة العربية الإسلامية ، يكون للنظام العربى دور أساسى فيه .

بغية إلقاء هذه النظرة التحليلية فى حاضر العالم الإسلامى اليوم ، نستحضر أطلس العالم الإسلامى بخرائطه كلها التى تضم خريطته الطبيعية وخريطته السكانية أقواماً ومللاً وخريطته الاقتصادية انماطه الحياتية وخريطته الاجتماعية وخريطة الحدود السياسية ، وحين نتأمل فى هذا الأطلس نخرج بعدد من الأمور :

تزايد أعداد المسلمين

١ - إن عدد المسلمين الذين تجمعهم وحدة العقيدة يتراوح اليوم بين ٩٥٠ مليوناً و مليار ومائة مليون نسمة يمثلون حالياً نسبة ١٩٪ من سكان العالم ، ومن المتوقع أن يصل هذا العدد سنة ٢٠٢٠ إلى حوالى مليار و ٧٠٠ مليون نسمة فتصل النسبة إلى ٥ر٢٠٪ ، وفق التقديرات التى اوردها مهدى المنجرة فى بحثه فى ندوة قضايا المستقبل الإسـلامى . وكان العدد قبل عقدين من السنين حين نشر جمال حمدان

نظـرة تحليليـة في حـــــاضر العالم الإسلامي

كتابه « العالم الإسلامي المعاصر » يتراوح بين ٥٠٠ و ٦٠٠ مليون نسمة بنسبة ١٥٪ من سكان الكوكب آنذاك ، وقد لاحظ حمدان يومها « أن الإسلام في توسع ديناميكي مطرد بعيد المدى ، بل لعله اليوم أكثر الاديان نمواً عددياً ، فهو من ناحية يكسب كل يوم ارضاً جديدة في افريقيا وربما آسيا المدارية الاضافة إلى العالم الجديد ، ومن ناحية أخرى .. لا تزال معدلات المواليد فيه مرتفعة » ، وأكثر من نصف المسلمين اليوم في قارة آسيا وربعهم في قارة افريقيا ، ويتوزع الباقون على أوربا والعالم الجديد

٢ – يتحدد محيط العالم الإسلامي جغرافياً « بنصف الكرة الشمالي أولاً وبنصف الكرة القديم ثانياً على حد تعبير جمال حمدان ، وهو في العالم الجديد « شظايا سديمية متطايرة » . ويمتد في قوس محدد من بكين إلى كازان إلى بلجراد في الشمال ، أو في قاطع من فرغانة إلى غانا كما يقول مؤرخو الإسلام ، أو في قاطع آخر من جبل طارق الاطلس إلى سنغافورة « جبل طارق الهادى » ، أو من ملقا بالاندلس إلى ملقا بالملايو (وكل من الاسمين مشتق من ملقى العربية) ، ويمكن أن نحدد قاعدة العالم الإسلامي في الجنوب بمحور يمتد من قبائل السنغال حتى قبائل التاجال بالفلبين .. أما بالطول فمن الفولجا والدانوب حتى الزمبيزى والليمبوبو » . ويبدو النمط الجغرافي للعالم الإسلامي نمط قوسٍ اساسي يبدأ بجناح أيسر عريض في افريقيا وينتظم غرب آسيا ووسطها وينحني في جنوب آسيا وجنوبها الشرقي ، ويسـميه جمال حمدان « هلال الإسلام » ، الذى يشمل الوطن العربي وأفريقيا المدارية ومن البلقان حتى باكستان ومن الفولجا حتى سينكيانج في قطاعه الغربي ، كما يشمل في قطاعه الشرقي شبه جزيرة الهند وهضبة التبت التي تكاد تخلو من المسلمين وبانجلاديش وجنوب شرق آسيا . ويتميز هذا الموقع الجغرافي للعالم الإسلامي بأهميته الاستراتيجية على صعيد كوكبنا الأرضي

٣ – يبدو هذا العالم الإسلامي الواحد وكأن دائرته تشمل في داخلها عدة دوائر سماها مالك بن نبر عوالم إسلامية وعدّد خمسة منها الأسود الأفريقي والعربي والإيراني (فارس وأفغانستان وباكستان) والماليزى (أندونسيا والملايو) والصيني المنغولي فالتنوع حقيقة قائمة فيه ضمن وحدة العقيدة . كما تبدو دائرة العالم الإسلامي الكبيرة من ناحية أخرى وكأنها تضم عدة دوائر متحدة المركز كالحلقات .

وقد صنّف جمال حمدان هذه الانحدارات الحلْقية - كما أسماها - على أساس خمسة عناصر هى عمر الإسلام فيها وكثافة المسلمين ونوعية التدين ونسبة العرب ونسبة العربية ، وأمكنه التعرف على حلقات ست متتابعة من الداخل إلى الخارج فهناك أولاً منطقة النواة وقلب الدائرة وهو الوطن العربى ثم حلقة ثانية تشمل أسبانيا التى سماها النواة الميتة ، ثم حلقة ثالثة سماها ظل العرب وتشمل إيران وحلقة رابعة سماها شبه ظل العرب تشمل تركيا « ولم تكن أصلاً تعدو قطاعاً من الحلقة الثالثة » وحلقة خامسة سماها صدى العرب تشمل وسط أسيا وباكستان وجنوب شرق آسيا وشرقى أفريقيا وحلقة سادسة سماها الأطراف الهامشية تضم الجماعات الإسلامية فى الصين وجزر المحيط الهندى وأوربا والعالم الجديد . واستحضار هذا التصنيف يساعد على تصور بنية النظام الإقليمى الإسلامى المطلوب وتحديد الأدوار فيه .

٤ - تتعدد الأقوام فى هذا العالم الإسلامي ، والألوان والألسنة ، من عرب وأمازيغ وكرد وترك وفرس وهنود وأفغان وماليزيين وسودان وأوروبيين وأمريكيين . وقد تحدث الجاحظ عن هذا التعدد كما كان فى عصره فى رسالته إلى الفتح بن خاقان « فى مناقب الترك وعامة جند الخلافة » فذكر العربى والتركى والخراسانى وفارس والتُّبت والزّابج (جزيرة فى أقصى بلاد الهند) والهند والروم وغيرهم .

وتتعدد الملل فى هذا العالم الإسلامى ، وقد أشار الشهرستانى إلى أن تقسيم العالم يمكن أن يكون بحسب الأقاليم السبعة ، وبحسب الأقطار الأربعة ، وبحسب الأمم ، وبحسب الآراء والمذاهب ، واعتمد التقسيم الأخير فى تأليف كتابه « الملل والنحل » . وغالبية المسلمين هم من السنة والشيعة وفيهم إباضيون ومذاهب أخرى وغالبية النصارى هم من الأرثوذكس الشرقيين . وتتعدد مذاهب اليهود . ويوجد أتباع ديانات أخرى .

دور خطير للاستعمار

٥ - تقوم فى هذا العالم الإسلامى دول كثيرة . وقد انتسب للمنظمة الإسلامية للتربية والثقافة والعلوم حتى عام ١٩٩٠ ثلاث وأربعون دولة . ولاحظ مهدى المنجرة أن عدد سكان اثنتين وعشرين منها يقل فى كل دولة عن خمسة ملايين نسمة ، الأمر الذى يشير إلى ما أصاب العالم الإسلامى من « بلقنة » على أيدى المستعمرين الغربيين الذين تسلطوا عليه . وتتباين خريطة الحدود السياسية هذه مع خريطة الأقوام فى أطلس العالم الإسلامي فى أحيان كثيرة . فالعرب وهم أمة واحدة يتوزعون بين اثنين وعشرين كيانا

نظرة تحليلية في حاضر العالم الإسلامي

و « جنسية » . وخمس من هذه الكيانات يقل سكان الواحد منه عن المليون ، ويقل سكان الواحد من خمسة كيانات أخرى عن الملايين الخمسة . ويتوزع الأكراد فى موطنهم الواحد بين خمس دول ، والهنود بين ثلاث دول ، والسودان الأفارقة بين دول كثيرة ، وهكذا . وقد نجمت بفعل هذه الخريطة السياسية مشاكل حدود تقوم بين الدول المتجاورة ، حول السيادة . وعانى الناس بفعلها أشد المعاناة على صعيد التنقل والإقامة والعمل ، بدواً وريفاً وحضراً ، وتبرز اليوم بعد انتهاء الاتحاد السوفييتى خمس جمهوريات غالبية سكانها من المسلمين أصبحت أعضاء فيما يسمى الكومنولث ، وبدأت تطلب الانتساب لمنظمة المؤتمر الإسلامى .

٦ – يمتلك هذا العالم الإسلامى ثروات كثيرة إنسانية وطبيعية . ويعانى فى الوقت نفسه من وقوع دوله فى أسر الاستدانة ، ومن ثم التبعية . وهناك تباين شديد فى توزيع الثروة بين هذه الدول يعود فى أحد أسبابه الرئيسية إلى الطريقة التى رسم بها المستعمر الغربى الحدود السياسية بعد أن قسم « الدولة الإسلامية الواحدة » التى حكمها « نظام الخلافة » . ولا تكاد توجد دولة بين الدول الإسلامية القائمة اليوم يتحقق فيها التوازن بين الثروة الإنسانية والثروة الطبيعية ، وهناك مشكلات جديدة قائمة بينها لم تعرفها من قبل كمشكلة المياه . وهكذا نجد مثلاً دولة بدون الحدّ الأدنى اللازم من السكان لديها ثروة طبيعية عظيمة يتحكم فيها آخر الأمر المستعمر الغربى الذى يتسلط عليها . ونجد دولة لديها عمالة زائدة لا تستطيع توظيفها داخل حدودها . ونجد جل هذه الدول يعتمد فى غذائه على مصدر خارجى بنسبة عالية تحرمه من الاستقلال وتفرض عليه التبعية .

صيغ كثيرة

٧ – تتعدد فى هذا العالم الإسلامى « أنظمة الحكم » التى تتبعها دوله ، من ملكية إلى جمهورية إلى جماهيرية ، وتعانى غالبيتها من نقص حاد فى « تداول السلطة » ، وفى « الشورى » و « المشاركة » و « التعددية » .

وتبدو هذه الأنظمة التسعة فى الحكم خليطاً بين ما هو موروث وماهو مستورد ، وبين ماهو نابع من البيئة وماهو مفروض عليها . وهى فى خطوطها الرئيسية من وضع المستعمر الغربى الذى تركها وراءه ، وتتميز غالبيتها بكثرة الصيغ التى جربتها

وتأثرها بالنظام الشمولى ومحاولة الدولة فرض هيمنتها على كل مناحى الحياة وتحسبها من العمل الطوعى الأهلى الذى يبرز فيه مايصطلح على تسميته فى الغرب بالمجتمع المدنى ، وقد نجم عن هذه الأوضاع صدع فى العلاقة بين الحاكم والمحكوم ، وأزمة فى القيم الاجتماعية والثقافية ، وخلل فى نمط التنمية تفاقم بفعل نقل أساليب مستوردة لا تلائم أنماط الحياة ، وضعف فى سيادة القانون ، وانتهاك لحقوق الإنسان .

٨ - يفتقد هذا العالم الإسلامى الذى يضم مسلمين تجمعهم وحدة العقيدة ، وجود المؤسسة المرجعية الواحدة ، منذ إنهاء نظام الخلافة . وتتباين أدوار روابط علماء الدين بين دولة وأخرى فيه . وقد تضاءلت هذه الأدوار فى دول كثيرة أمام تضخم دور الدولة ، وتحددت فى الغالب ضمن حدود الدولة القطرية . وأفقد حلول نظام تعيين المراجع الدينية الروحية محل نظام الانتخاب الذين يتولونها الكثير من استقلالية الرأى ومن ثم شعبيتهم . وتشهد دول العالم الإسلامى نشاطاً فى جمع علماء الدين فى محافل وضمن صيغ ، ولكن التنسيق بين هذه المحافل لا يزال فى حده الأدنى . وقد انبثقت عن منظمة المؤتمر الإسلامى مجموعة مؤسسات مختصة مازالت فى بدايات التحرك . وهناك حد أدنى من التواصل بين المرجعية الشيعية والمرجعية السنية فى بعض الدول بدأ مؤخراً ، وهو بحاجة إلى التكثيف والتأطير .

٩ - يواجه هذا العالم الإسلامى اليوم دخول الخطر الصهيونى الذى يتهدده مرحلة جديدة ، مع حملة التهجير الصهيونى لليهود من أوطانهم التى بدأت إثر التحولات فى أوروبا الشرقية منذ عامين ، ومع تحركه إثر حرب الخليج لتمكين الكيان الاسرائيلى من الهيمنة على المنطقة من خلال الدور الذى يقوم به لصالح التحالف الاستعمارى الصهيونى . وإذا كانت محاولة حرق المسجد الأقصى عام ١٩٦٩ من قبل صهيونى كانت رمزاً ومؤشراً لما ينتظر العالم الإسلامى ، فإن تبنى سياسة بناء الهيكل وإقامة المستعمرات الاستيطانية فى القدس والضفة والقطاع والجولان والمجاهرة بالسعى لإقامة إسرائيل الكبرى والتحرك الأمريكى لإنهاء المقاطعة العربية والإسلامية للكيان الإسرائيلى وإلغاء القرار الأممى لعام ١٩٧٥ الخاص بالعنصرية الصهيونية هى اليوم واقع قائم يؤكد عظم الخطر الذى يواجه العالم الإسلامي فى هذه المرحلة الجديدة .

وفلسـطين كما وصفها جمال حمدان « هى عين القلب من العالم الإسلامى ، لا

نظــرة تحليليــة في حـــاضر العالم الإسلامي

جغرافياً فحسب ، بل ودينياً أولاً وقبل كل شئ .. » وقد انطلق عالم الجغرافية السياسية العربي المسلم من هذه الرؤية في تحليل دقيق لخطر الاستعمار الاستيطاني الصهيوني في خاتمة كتابه عن العالم الإسلامي انتهى منه إلى القول « وتهديد الخطر الصهيوني لا يقتصر على العالم العربي وحده ، وإنما يمتد إلى العالم الإسلامي . وليس المسجد الأقصى وحرقه إلا رمزاً ومؤشراً لما ينتظر العالم الإسلامي جميعاً » .

١٠ – ان يواجه هذا العالم الإسلامي اليوم استراتيجية غربية تضعه نصب عينها هدفاً أولاً معادياً لها بعد أن تم توقيع معاهدة باريز في كانون أول – ديسمبر ١٩٩٠ بين « الغرب والشرق » الغربيين واستوعب الغرب الرأسمالي أوروبا الشرقية في « البيت الاوروبي » الذي جعلت سياسة إعادة البناء السوفيتية الدخول هدفاً اولياً لها ، وتتضمن هذه الاستراتيجية الغربية مخططات اعلامية لتصوير أي « نهوض إسلامي » على أنه خطر على الغرب ، وابراز ما تسـميه هذه المخططـات «الاصولية الإسلامية» على أنها « الغول » في عالمنا . كما تتضمن مخططات اقتصادية لاحكام السيطرة على اسواق الدول الإسلامية واغراق هذه الدول في الديون لوضعها في أسر تبعية دائمة ، ومخططات سياسية ليس لمنع أي تحرك نحو التوحيد فحسب بل لتشجيع التفكيك والتفتيت ، وما أكثر الأمثلة التي يمكن الاستشهاد بها على هذه المخططات قبل أزمة الخليج وأثناءها وعلى مدى حرب الخليج وبعدها .

١١ – يشهد هذا العالم الإسلامي منذ عقد من السنين « صحوة » قوامها « وعي الذات » ، « ومعرفة العدو » بجوانب قوته وضعفه ، و « الوثوق بقدرة الأمة على مواجهته والانتصار عليه في صراع النفس الطويل وتحقيق النهوض وبلوغ الأهداف واعـلاء كلمة الله في الأرض ، وقد جاءت هذه الصحوة بعد أن تبين للناس فشل التغـريب بكل اشـكاله واسـمائه وعظـم ما يسـببه من كـوارث ، وتجسـدت في « الانتفاض » الذي هزم « الوهن » ، وتَعُم روح الانتفاض اليوم مختلف أرجاء العالم الإسلامي بعد أن ضربت أروع الأمثلة في مواجهة العدوان الصهيوني ، وتشهد هذه الصحوة جهوداً بناءة على مختلف الصعد الفكرية والعملية ، وازدهاراً في العمل الطوعي الأهلي ، واعلاءً لكرامة الإنسان الذي جعله الله خليفة في الأرض .

كتابُ الهلال

يقـــدم

سيرٌ ذاتية عربيّة

”من ابن سينا حتى علي باشا مبارك“

بقلم

مصطفى نبيل

يصدر ٥ مارس ١٩٩٢



بقلم : مصطفى نبيل

• خروج جمهوريات آسيا الوسطى عن مدارها القديم

• هلال الخطر الاسلامى بين المارد الصينى وتفكك الامبراطورية السوفيتية .

خرجت جمهوريات آسيا الوسطى الإسلامية عن مدارها ، وأفلتت من الفلك السوفييتى الذى كانت تدور فيه ، وانضمت إلى دول الكومنولث الجديد ، ذلك الاتحاد الهش ، الذى يمكن أن يتطور نحو علاقات أوثق أو يضعف حتى يتفرق ويتلاشى . !

فما هو أثر استقلال هذه الجمهوريات على الموازين العالمية .. ؟ وأى المجالات قادر على جذب هذه الجمهوريات إليه . ؟ وما هى المعارك التى تدور بينها وحولها . ؟!

تحتل جمهوريات آسيا الوسطى الإسلامية هلالاً يمتد بين روسيا والصين ، وتسيطر على أحد المعابر التاريخية بين أوربا وآسيا ، وهى امتداد طبيعى لعالم الإسلام ، وليس لديها أى منفذ على البحار المفتوحة

وينذر هذا الوضع بقلب الموازين العالمية ، ويتركز فى اختياراتها العديد من النتائج .

وتحصل هذه الجمهوريات على استقلالها فى وقت تتصاعد فيه إدعاءات الغرب حول خطر «الإسلام » ، ويؤرق هذه الجمهوريات الحنين إلى الماضى ، ويتزايد

* التوق إلى الهوية الإسلامية منذ

* أن للصـــراع بين تيمور ولينين للانتهاء ،
تمثال ... الـ ـجانب أطلال قبر تيمور

وعيها بهويتها الحضارية ، وتوقها للعودة إلى جذورها .

ويتساءل الغرب . ماذا سيحدث عندما يلتقى الشرق الإسلامى بتراثه الحضارى مع التقدم العلمى الذى حققته هذه الجمهوريات ، والتى نجحت فى القضاء على الأمية ، وقطعت شوطا واسعاً من التطور المادى .. ؟ ، خاصة بعد أن انتزعت طويلاً من محيطها وأعطت ظهرها للشرق واتجهت إلى الغرب ، وخضعت لأوروبا وتخلت عن آسيا ودولها ، وانتزعت من الإسلام وفرضت عليها الماركسية .!

وسنعمل على إعادة قراءة هذا الحدث الهام ، من خلال تاريخ هذه الجمهوريات ، وما شهدته أخيراً من أحداث سريعة متلاحقة فى ظل عالم متغير ، لعل هذه القراءة تمدنا بمؤشرات تساعدنا على استشراف المستقبل ، وهل تعود إلى روابطها القديمة مع الشمال يشدها الاعتماد الاقتصادى المتبادل ، والذى نسج بدأب على مدى سبعين عاما متصلة . ؟ وما تأثير العامل الجغرافى السياسى والمتمثل فى كونها امتداداً جغرافيا لروسيا لاتجادية . ؟ خاصة وقد حققت هذه لجمهوريات تقدماً كبيراً مقارنة بمحيطها القديم ، وهى أكثر تقدما وتطوراً فى العلوم والتكنولوجيا من جاراتها مثل أفغانستان أو باكستان أو إيران . ولديها علماء على مستوى عال ومهندسون مهرة وعمال مدربون ، - وتملك قازاخستان (كازاكستان) صناعة نووية متقدمة كما تملك أسلحة نووية ، وتستحوذ أوزبكستان على صناعة الطيران السوفييتية .

وفى نفس الوقت هى أقل تطوراً من مثيلاتها الجمهوريات الأوربية فى الاتحاد السوفييتى المنهار ، وتحتل المراكز الستة الأخيرة فى ترتيب الجمهوريات السوفييتية فى مقدار نصيب متوسط دخل الفرد من الإنتاج القومى .

ولعل هذا هو السبب فى أن هذه الجمهوريات الإسلامية كانت آخر الجمهوريات التى سعت أو أيدت الاستقلال، وسبقتها جمهوريات الشمال فى طلب الاستقلال ، وإذا قارنت الجمهوريات الأوربية السوفييتية أوضاعها بالدول الأوربية ، فسترى فى الدول الأوربية نموذجاً يحتذى .

لذا طالبت الأغلبية الساحقة فى الاستفتاء الذى أجرى أيام الرئيس السابق جورباتشوف فى مارس عام ١٩٩١ بالبقاء داخل الاتحاد السوفييتى ، ولكنها سارعت بعد سقوطه بالانضمام إلى أسرة «الدول المستقلة» فى قمة الما - آتا فى ديسمبر الماضى .. !

وربما كان السبب أن قيادات هذه الجمهوريات من القيادات التقليدية ، عندما كان الحزب الشيوعى يحرص على ضم أبناء القيادات الدينية والعشائرية إلى صفوفه ، وأخذت هذه المناصب تتوارث على الطريقة الشرقية ! ، ولم تشهد هذه الجمهوريات تغييراً يذكر فى قياداتها القديمة ، رغم التغييرات الواسعة التى

• تجدد الصراع بين الصفويين والعثمانيين على دول ما وراء النهر

حدثت فى بقية الجمهوريات ، بل وانتخبت ذات القيادات السابقة ، وبقيت الأحزاب الشيوعية وإن غيَّر بعضها اسمه .

ويتردد بين أبناء المنطقة أن هذه القيادات من « المافيا » التي استأثرت بالامتيازات وبالثروة والثورة معاً .

ويبقى رغم أهمية كل هذه الوقائع أزمة حادة فى هذه الجمهوريات ، وهى أزمة الهوية المفقودة ، والحاجة الملحة للانتماء للشرق وحضارته ، بعد الحرمان الطويل فى ظل الاتحاد السوفييتى – ومن قبله أيام روسيا القيصرية – من هذا الشعور بالانتماء ، وهو رد فعل القهر القومى والدينى والثقافى ، ففى الوقت الذى يصبح فيه العالم قرية صغيرة ، يتزايد فيه الشعور بالانتماء الدينى أو العرقى فى كل أنحاء العالم .

وهذا ما دفع الكاتب البريطانى إدوارد مورتمر إلى أن يتساءل فى كتابه « العقيدة والسلطة » كيف فشلت كل الامبراطوريات القديمة مثل بريطانيا وفرنسا فى الاحتفاظ بمستعمراتها ، ونجحت روسيا فى الاحتفاظ بامبراطوريتها الآسيوية ! ..

فهل تعود هذه الجمهوريات إلى مكانها القديم جزءاً من آسيا وحضارة الإسلام ، وهى التى أضافت وساهمت فى ازدهار الحضارة الإسلامية ؟ .

وهل سنطبق على هذه الجمهوريات ، نظرية « البندول » أو « رد الفعل » ، ويندفع الأهالى لكى يحققوا ما حرموا منه طويلاً ، وهو مانشاهده مع انهيار الاتحاد السوفييتى وما صاحبه من تداعيات ؟ يدفع الجمهوريات الإسلامية إلى هذا الدرب ما عانته فى الماضى من حرمان روحى ، وتصبح الأولوية لديها لانتمائها الدينى والحضارى والثقافى ؟ .

ويقف على الجانب الآخر ، غياب التجارب والنماذج الناجحة فى الشرق ، وخاصة وهى ترى دول الشرق وقد قامت بينها المنافسة والصراع ، فأى من نماذجه قابل لكى يحتذى ويسود لديها ؟.

وتبحث هذه البلاد عن هويتها فى ظروف دولية دقيقة ، تنكفئ فيها جمهوريات الاتحاد السوفييتى السابق على ذاتها ، ويستغرقها حل أزماتها الاقتصادية الحادة وتوفير حاجة مواطنيها من الحاجات الأساسية ، ويولى الغرب اهتمامه بالمؤسسات المالية والاقتصادية بدول شرق أوروبا ، وتعتنى الدول الاسكندنافية ، السويد والنرويج والدنمارك وفنلندا بجمهوريات البلطيق لما لها من ارتباطات جغرافية وتاريخية معها ، وتركز دول السوق الأوربية على الجمهوريات السلافية – روسيا الاتحادية وروسيا البيضاء وأوكرانيا .

وتترك هذه الجمهوريات معلقة فى السديم تبحث عن فلكها !

عالم المسلمين السوفييت

ولم يعد أملها - من المنظور الغربي - سوى تركيا ، فلعلها تحول بين هذه الجمهوريات وبين غيرها من الدول الشرقية، وتساهم في إشعال المنافسة بين الترك والعرب والفرس ، وحتى لا يستفيد من هذا الوضع السياسي المارد السياسي الصيني الرابض على الحدود والذي يتاخم ثلاث جمهوريات إسلامية ، والذي يشبه بكثافته السكانية المياه خلف السد ..

ويأمل الغرب أن تكسب تركيا الجولة ، فالأتراك يماثلون من الناحية العرقية معظم سكان هذه الجمهوريات ، ويكتب للإسلام التركي الغلبة ، الذي يصفونه بأنه الإسلام الليبرالي الصديق للغرب ، والذي ينادي بالديمقراطية واقتصاديات السوق .

وتتجاهل العرب الذين حملوا مشعل الإسلام والحضارة إلى هذه المناطق ، والذين تحتضن بلادهم المقدسات الإسلامية ، ورغم ما لديهم من فوائض مالية يمكن لها أن تلعب دوراً بناءً إذا أحسن استخدامها .

ويستبعد الكل إمكانية قيام تنسيق وتعاون بين هذه الجمهوريات وروافد الحضارة الإسلامية الثلاثة العرب والفرس والترك.

الصوت والصدى

هذه هي المسائل التي يحاول هذا المقال تناولها ، مزوداً بحصيلة ثلاث زيارات قمت بها لجمهوريات آسيا الوسطى ، كان أولها في منتصف سنة ١٩٧١ وآخرها في نهاية عام ١٩٨٩ ، كما نقلب صفحات الماضي معاً بقدر ما يكشف عن اتجاهات المستقبل .

في البداية لابد أن تكون هذه الجمهوريات الآسيوية قد تأثرت بتجربتين إسلاميتين قد جاورتهما . هما الثورة الإيرانية ، واجتياح أفغانستان وحركة المجاهدين الأفغان ، ولايدعي أحد القدرة على رصد كل آثارهما ، عندما كانت التفاعلات الداخلية في هذه الجمهوريات مجهولة خارجها ، ولكن الجانب المعروف ، أن البعض في هذه الجمهوريات يتصور أن غزو القوات السوفييتية لأفغانستان ، كان المعول الأول الذي أدى إلى الزلزال السوفييتي . واتخذ السخط في الجمهوريات الاسلامية شكل المعارضة الصريحة ، وأثار المشاعر الدينية والقومية، عندما كان الأوزبك والطاجيك يقاتلون إخوانهم ، في أفغانستان ويضطر الجنود المسلمون في الجيش السوفييتي توجيه قذائفهم على إخوانهم في الدين وفي أفغانستان يعيش مليونان من الطاجيك ومليون من الأوزبك وأربعمائة ألف من التركمان ، كما أدت هذه الحرب الخاسرة إلى استنزاف جانب كبير من موارد الاتحاد السوفييتي .

كما لم يرصد أحد أثر احتلال إسرائيل للأراضي العربية ، ولا أثر عاصفة الخليج على مشاعرهم .

ولعل إلقاء نظرة على المسلمين داخل


* مع التقدم العلمي حافظ أهل آسيا الوسطى على معالم حياة الشرق

الإتحاد السوفييتي يساعد على رصد هذه الآثار .

تتكون هذه الجمهوريات الإسلامية في آسيا الوسطى من أوزبكستان وقازاخستان وتركمانيا وطاجاكستان وقيرغيزيا ، بالاضافة إلى أذربيجان التي تقع عند السفوح الجنوبية الشرقية لسلسلة جبال القفقاز وتطل على الساحل الغربي لبحر قزوين ، ويمتد الطاجيك والأذر إلى ماوراء الحدود ، يمتد الطاجيك إلى أفغانستان وتعيش الكتلة الرئيسية من الأذر في إيران، ويبلغ عدد المسلمين ٥٦ مليون مسلم يمثلون ٢٠٪ من سكان الاتحاد السوفييتي السابق .

ولا تقصر التجمعات الاسلامية على هذه الجمهوريات وحدها ، بل هناك مستوى آخر أقل درجة وهو الجمهوريات التي تتمتع بالحكم الذاتي ، مثل تتاريا في منطقة الفولجا وبشكيريا في منطقة الاورال وداغستان والتشيش في القفقاز ، والتي توجد داخل روسيا الاتحادية .

وترجع الأصول التركية لخمس من الجمهوريات المستقلة إلى جذور طورانية (تركية) ، أما الشعب الطاجيكي فيعود إلى أصول فارسية ، ويتحدث الطاجيك اللغة الفارسية ، وبقية الجمهوريات تتحدث لهجات تركية محلية ، أما داغستان فكانت تتحدث اللغة العربية حتى عام ١٩١٧ .

وحكاية المسلمين السوفييت طويلة ، تبدأ يوم حطم قياصرة آل رومانوف في النصف الثاني من القرن التاسع عشر الدول والإمارات والخانات الإسلامية ، وأصبح الإسلام بعدها أقلية في روسيا ،



أذربيجان :

المساحة : ٨٦,٨٠٠ كم٢

العاصمة : باكو (خامس عاصمة فى الاتحاد السوفيتى القديم) .

السكان : ٧ ملايين معظمهم أتراك شيعة .

التركيب السكانى : ٧٨ ٪ أذربيجانيون ، ٨ ٪ روس ، ٨ ٪ أرمن ، ٦ ٪ قوميات أخرى

الحالة الاقتصادية : تنتج البترول والقطن والحرير والفواكه .

الحالة السياسية : أعلنت استقلالها فى ٣٠ أغسطس ١٩٩١ .

قازاخستان :

المساحة : ٢٧١٧ مليون كم٢

الجمهورية الثانية فى المساحة بعد روسيا

العاصمة : الما - آتا (١.١ مليون نسمة)

السكان : ١٦,٥ مليون نسمة

التركيب السكانى : ٤١ ٪ روس ، ٣٦ ٪ كازاك ، ٦ ٪ أوكرانيون ، ٢ ٪ تتار .

الوضع الاقتصادى : تنتج البترول والفحم و$\frac{1}{3}$ إنتاج الاتحاد السوفييتى القديم من

القمح وبها صناعة نووية .

الحالة السياسية : استقلت فى اكتوبر ١٩٩٠ ودخلت الكومنولث .

أوزبكستان :

المساحة : ٤٤٧.٤٠٠ كم٢

العاصمة : طشقند (٢.١ مليون)

أهم المدن : بخارى – سمرقند .

السكان : ١٩.٩ مليون نسمة

التركيب السكانى : ٦٨ ٪ أوزبيك ، ١٣ ٪ روس ، ٤ ٪ تتار ، ٣ ٪ كازاك ، ٤ ٪ طاجيك

وتضم جمهورية تحكم حكماً ذاتيا فى الشمال هى جمهورية كارا كالباك .

الوضع الاقتصادى : تنتج ٦٧ ٪ من القطن فى الاتحاد السوفيتى القديم ، ونصف إنتاج الأرز .

الحالة السياسية : أعلنت الاستقلال فى ٣١ أغسطس ١٩٩١ .

تركمانستان :

المساحة : ٤٨٨.١٠٠ كم٢

العاصمة : اشخاباد (عشق أباد) ٣٩٨ ألف

السكان : ٣.٥ مليون نسمة (مسلمون سنة)

التركيب السكانى : ٦٨ ٪ تركمان ، ١٣ ٪ روس ، ٩ ٪ أوزبيك ، ٣ ٪ كازاك .

الوضع الاقتصادى : تنتج القطن ، أكبر مستودعات الكبريت فى العالم .

الحالة السياسية : أعلنت الاستقلال فى ٢٧ أكتوبر .

طاجكستان :

المساحة : ١٤٣ ألف كم ٢

العاصمة : روشابنى (٥٩٥ ألف نسمة)

السكان : ٥.١ مليون نسمة (مسلمون سنة)

التركيب السكانى : ٥٩ ٪ طاجيك ٢٣ ٪ أوزبيك ، ١٠ ٪ روس

(تضم إقليما يتمتع بالحكم الذاتى) (جورنا – باراخشان)

الوضع الاقتصادى : تنتج ١١ ٪ من القطن

الحالة السياسية : أعلنت الاستقلال فى ٢٤ أغسطس .

قيرغيزيا :

المساحة : ١٩٨,٥ ألف كم٢

العاصمة : فرونز ٦١٦ ألف نسمة

السكان : ٤.٣ مليون نسمة .

التركيب السكانى : ٤٨ ٪ قيرغيز ، ٢٦ ٪ روس ، ١٢ ٪ أوزبيك .

ومن وقتها وهو يتعرض لاضطهاد القياصرة ويمدهم البلاشفة ، ولم تنقطع يوماً محاولات الإسلام فى تحقيق الاستقلال ، ولم تتوقف ضده الحملات .

ونشأ بعد قيام الاتحاد السوفييتى موقف دقيق ومعقد ، وانعزل الإسلام السوفييتى عن عالم الإسلام ، وتعرضت المناطق الإسلامية إلى هجرة روسية كثيفة ، وهذه المناطق تشهد اليوم هجرة روسية معاكسة .

وطبق الاتحاد السوفييتى سياسته الخاصة بالمسألة القومية ، والتى يعانى اليوم من ردود فعلها ، وهى تقوم على الاعتراف بالقوميات والشعوب المختلفة ، وتقوم الوحدات السياسية لا على أساس التاريخ أو الجغرافيا أو الاقتصاد .

وعاش المسلمون أياما صعبة وظروفاً قاسية . ولم تستطع الماركسية أن تتجاوز الصراع التاريخى الذى كان قائما بين التتار والروس ، بعد أن حكم التتار الروس مدة ثلاثة قرون ودار الزمان وأصبحوا محكومين وخاضعين ، واختفت أمة لعبت دوراً هاما فى تاريخ الشرق على مدى خمسة قرون .

* عقد زواج فى طشقند ، فلم يكتف المسلمون بالعقد المدنى



أرض النور والنار

استرجعت ذكرياتي عندما كنت أتابع أحداث أذربيجان الدامية ، لأربط هذه الوقائع بخبرة مشاهداتي السابقة ، فهذه الصدامات العرقية إحدى نتائج معالجة المسألة القومية على الطريقة السوفييتية ، التي تقوم على دعم القومية الأضعف وإضعاف القومية الأقوى ، وهو ما أشعل القتال بين الأذر والأرمن . أما انقسام أذربيجان بين الاتحاد السوفييتي وايران ، والمنافسة بين الفرس والترك فهو أحد نتائج الحروب بين الدولة العثمانية والدولة الصفوية ، ثم تجدد الصراع بين روسيا القيصرية والامبراطورية البريطانية على الطرق البرية بين أوربا وآسيا التي تصل إلى المحيط الهندى .

ولا يفوت زائر أذربيجان - أرض النار والنور - أن يلاحظ ملامح الصراع بين حضارتي الشرق والغرب .

المباني الحديثة إلى جانب الأحياء القديمة ، وهي تضم مزيجا من آثار العرب والفرس والترك ، وعندما ترى ملامح وجوه أهل باكو أو تسمع موسيقاها الشرقية ، أو تشاهد عمارتها القديمة ، يخيل إليك أنك في أحد شوارع اسطنبول أو طهران ، أو تجلس على أحد مقاهي القاهرة .

وكانت أول بلاد في وسط آسيا يدخلها ، الإسلام في عهد الخليفة الثاني

• الفولكلور بدلاً من التاريخ



عمر بن الخطاب ، ويصعب اليوم التعرف على الكثير فى معالم الماضى ، فأسماء تغيرت أو محيت . وقد عزلت عن عالم الإسلام بعد ما يزيد عن ١٢ قرنا من الاتصال والتفاعل ، وكانت تعتبر حديقة الاتحاد السوفييتى الخلفية التى تمده بالفواكه والخضراوات ، وسميت أرض النار نتيجة لغناها بالنفط ، وكانت أول وأهم منتج للنفط فى الاتحاد السوفيتى ، وتتميز بزيادة نسبة المعمرين فيها .

وعندما خرجت أذربيجان من مدارها ، مزقت الحدود القديمة ، واتصل الأذر على جانبى الحدود بأقاربهم ، فعلى الجانب الإيرانى يعيش بقية الأذر ، والذين يحتل أية الله شريعتمدارى قيادتهم الدينية ، وهو صاحب أكبر منصب فى الحوزة الشيعية ويحول دون حصوله على مكانته ، أنه ينتمى إلى الأقلية التركية وليس من الفرس !

ومن جانب آخر انفجر الصراع القومى بين الأذر والأرمن على منطقة «ناجورنو كارا باخ» .

من باكو إلى طشقند

ومن باكو انتقلت إلى طشقند ، ومن يصل إلى المناطق الإسلامية ، لا يفوته أن يلاحظ الفروق الظاهرة بين الجانب الاوربى والجانب الآسيوى ، فعندما تصل إلى مطار طشقند تشعر على الفور أنك فى بلد شرقى ، بما يظهر من ملامح الوجوه الآسيوية ، وفى الأزياء وفي غطاء الرأس ، فالأرض من حولك صحراوية صفراء ، أما مطار موسكو فتحيطه غابات الصنوبر وينتشر حوله اللون الأخضر .

وعندما كنت أطوف بالمناطق الإسلامية، أنتقل بين مدنها ، وألتقى بأئمة مساجدها ، وأتجول بين آثارها ، كنت أسعى إلى التعرف على حياة المسلمين ، بعد مرور سنوات طويلة على قيام الثورة البلشفية ، وأبحث عما آلت إليه مناطق لعبت دوراً بارزا فى التاريخ .

وتستمد حركة الانتعاش الثقافى عندهم من الحنين الجارف إلى الماضى ، ومن وحى مدن تاريخية مثل بخارى وسمرقند ووادى فرغانة ، ومن قائمة زاخرة بالعلماء العمالقة حتى لايكاد يعادلها أى منطقة أخرى ، تشمل القائمة الفارابى وابن سينا والخوارزمى والبيرونى والرازى والفرغانى وأوليج بيك والإمام البخارى والطبرى والنسفى وغيرهم .

وأخذت أقلب صفحات التاريخ بعقلى ووجدانى ، أسمع نبض الإسلام الصامت والرابض فى قلوب أولئك الذين حافظوا على هويتهم بعد أن عصفت بهم خطوب الزمان .

● صراع أم تكامل بين الفرس والعرب والترك فى الجمهوريات الاسلامية

وعلمت أن الكتب والمجلات الصادرة فى المناطق الإسلامية تطبع وتتداول سرا ، ومنها مثلا كتاب «فى ظلال القرآن» لمؤلفه سيد قطب ، وكثرت فى المرحلة الأخيرة الجمعيات الإسلامية ، التى يسمح بها القانــون ، وتابعت حركة انتعاش خلاقة ، وتحديا من نوع خاص .

القهر القومى

وآسيا الوسطى هى موئل القوميات وفسيفساء اللهجات ، وهى تتطلع إلى التخلص من الهيمنة الثقافية الأوربية ، ويتنامى فيها التوجس من وجود هيمنة غربية تتخفى وراء علم الإنسانية ، وتعالت بها صيحات تطالب بإعادة التوازن بين حضارة الغرب وحضارة الشرق .

ومن أكثر أشـكال هذه الهيمنـة وضوحاً ، الهيمنة الثقافية وفرض اللغة الروسية على كافة الجمهوريات ، وتغيير الأبجدية العربية إلى الحروف الروسية الكريكية .

رغم أن أول من رفع صوته شاكيا من القهر القومى والاستنزاف هو روسيا وأوكرانيا ، اللتان أعلنتا أن الوقت قد حان لوقف الانفاق على الجمهوريات الأقل تطوراً . وأن أعباء المركز ومسئوليته عن الأطراف قد زادت ، وهى التى حالت دون تمتع روسيا بالرفاهية .

وأظهرت تجربة هذه الجمهوريات أنه لا شىء يعوض الإنسان عن حلمه الدائم فى حرية العقيدة ، وإمكانية التعبير عن الهوية القومية .

واتبع السوفييت سياسات ذكية فى معالجة المسألة القومية ، تقوم على تفتيت القومية الواحدة إلى عدة أقسام ، وعلى جانب الهوية يتعامل بطريقة انتقائية مع التراث ، يحتفى بالعلم بدلاً من الفقه ، وبالفلكلور بدلاً من التاريخ ، ومع القومية بدلا من الدين ، رغم أن العامل المشترك الذى يوحد آسيا الوسطى هو الإسلام ، وأن معظم سكانها ينتمون إلى العنصر الطورانى - كما سبق وذكرت - ، والقبيلة تتحول إلى بطون ، يتعاملون مع كل منها على حدة .

ويقوم التحليل السوفييتى على أن هذه القبائل قوميات لم يكتمل تشكيلها بعد ، ومن جانب آخر ، أقام السوفييت توازنا دقيقا بين القوميات يسانده على الجانب الاقتصادى التعاون المتبادل ، فالطاجيك (الفرس الأصل) لديهم مطالب أقليمية فى أوزبكستان ، وفى صيف ٨٩ روع وادى فرغانة صراع بين الأوزبك والأتراك (المسخيثيون) المهجرين من جورجيا ، وراح ضحيـة هذا الصراع أكثر من ١١٢ شخصا ، كما توجد فى قيرغيزيا أقلية أوزبكية تصل إلى ١٢٪ ، وشهد صيف ١٩٩٠ صدامات دموية بين القيرغيز والأوزبك راح ضحيتها حوالى ٣٢٠ قتيلا .

بلاد ما وراء النهر

ونمضى فى رحلة مع التاريخ ، قبل الوصول إلى إجابة سؤال فى أى فلك ستدور هذه الجمهوريات الإسلامية المستقلة

عُرِفَتْ هذه المنطقة في الكتب العربية ببلاد ما وراء النهر ، وهي المنطقة الواقعة في حوض نهر جيحون وسيحون (أموريا وسيرداريا)، وكانت معظم هذه الجمهوريات ماعدا أذربيجان جزءا من خراسان ، وشهدت التجمع العباسي بقيادة أبي مسلم الخراساني ، وشهدت هذه المنطقة زحف الهجرات التركية إليها ، وكانت تتبع حتى منتصف القرن التاسع عشر إيران ، إلى أن نشبت حروب بينها وبين روسيا القيصرية ، وهزمت إيران واحتلت هذه المناطق وكانت قبل الثورة ثلاث إمارات هي : بخارى وطشقند وخوقند .

ولم تنقطع في الإمارات الإسلامية حركات المقاومة ، ففي داغستان مثلا ، قامت حركة المريدين بقيادة الإمام شامل ، الذي قام بدور بارز في زعزعة دعائم القيصرية ، والذي تمتع حتى في روسيا بهيبة كبيرة .

وفي الصراع الذي اندلع في المناطق الآسيوية ضد الجيش الأحمر ، يذكر التاريخ انضمام أنور باشا أحد قيادات الاتحاد والترقي للمقاومة ، والذي قاوم الاحتلال الإيطالي لليبيا ، وانتقل يقاتل

* أطفال أزربيجان ، ينالون عناية فائقة ، ستحدد المستقبل



إلى جوار رفاقه المجاهدين حتى استشهد هناك .

ومن الماضي يتبين أن العرب والترك والفرس لعبوا في هذه المنطقة أدواراً متتابعة ومتكاملة ، واللافت النظر في طشقند قيام معهد بخارى الديني بإعادة تقييم تاريخ آسيا الوسطى ، ورفض التاريخ الرسمي لهذه الجمهوريات ، ويسعون إلى إعادة الاعتبار لتيمورلنك : مما يخالف رؤية المؤرخين السوفييت ، الذين يرون في تيمورلنك أحد الغزاة البرابرة ، ويكفيهم أنه سبق وأحرق موسكو، ويفضلون عليه أوليج بيك الذي آثر الاهتمام بالعلم وأقام مرصداً مازال مزاراً حتى اليوم .

أما أساتذة معهد بخارى فيرون في تيمورلنك بطلا قوميا ، كان يسعى إلى توحيد عالم الإسلام ، لمواجهة الأعداء صفا واحداً ، وقد تعددت عواصمه وكثرت إنجازاته .

الفرس

هل اقتربنا من الإجابة عن بعض الأسئلة التي طرحناها ؟ أم ازداد الموقف تشابكا ؟

فمنذ إعلان استقلال هذه الجمهوريات ، وتتزايد التحركات السياسية داخلها ومن حولها ، وآخر هذه التحركات رحلة وزير الخارجية الأمريكية بيكر ، وسبق هذه الرحلة التنافس بين أطراف عديدة ، فتعاني هذه الجمهوريات مصاعب فترة الانتقال ، والخلل الحاد بين الأجور والأسعار مع الأخذ بقوانين السوق دفعة واحدة ، وأعلنت هذه الجمهوريات استعدادها لإقامة المشروعات المشتركة وتقديم التسهيلات المطلوبة ، ويراقب الغرب الموقف وهو يبدى مخاوفه من التزاوج بين الإسلام والتقدم التكنولوجي ، ومن انتقال العلماء المسلمين من جمهوريات آسيا إلى بعض الدول الإسلامية الأخرى .

تقول مجلة النيوزويك الأمريكية .. « أصبحت اللعبة السياسية في هذه المناطق في غاية الدقة والخطورة ، فالإسلام الذى يبحث عن هويته يملك الأسلحة النووية .. » .

وأعلن متحدث باسم وزارة الخارجية الأمريكية في عبارات لاينقصها الصراحة قوله ..إنه يتجاذب جمهوريات آسيا الوسطى الإسلامية ، اتجاهان ، ويغريها نموذجان ، أحدهما علماني صديق للغرب وهو تركيا ، والآخر راديكالي معاد الغرب – وهو النموذج الايراني ، ولن تسمح تركيا ولا السعودية بانتشار هذا النموذج ، فذلك يمثل تهديدا لها أكثر مما يهدد الغرب » !!

فماذا فعلت إيران بعد استقلال هذه الجمهوريات ؟

سارعت إيران لإقامة سفارات لها في عواصم الجمهوريات الإسلامية المختلفة ، وأصبحت إيران طرفا فعالاً في الأحداث ، وسبق وكانت كذلك بالنسبة للقضية الأفغانية .

وأقامت إيران منفذا لجمهوريات آسيا الوسطى ، عندما تبنت مشروعا لإقامة طريق برى بين الما – آتا عاصمة

قازاخستان وبين طهران فى إيران ، لكى تنافس مشروعا آخر يقضى بمد طريق بحرى من الما- آتا حتى بكين بتمويل صينى .

وسعت إيران لإحياء اتفاقية قديمة لمنظمة التعاون الاقتصادى التى تضم كلا من إيران وباكستان وتركيا ، لكى تكون أساسا للتعاون بين هذه الدول الإسلامية والجمهوريات السوفييتية السابقة ، وضمت بالفعل إلى عضويتها كلا من أذربيجان وتركمانيا وأوزبكستان ، وتقضى هذه الاتفاقية بإلغاء الحواجز الجمركية وزيادة التبادل التجارى بين بلدانها .

وقد أشرنا من قبل إلى أحد صور الصراع الذى كان محوره أبجدية اللغات المحلية ، والذى نشب من جديد بعد الاستقلال ، فاللغة المحلية فى أذربيجان تنتمى إلى عائلة اللغة التركية ، وكانت هذه اللغة تكتب بالحروف العربية حتى عام ١٩٢٧ ثم تحولت مع تركيا إلى الحروف اللاتينية ، ثم تغيرت من جديد عام ١٩٣٧ إلى الإبجدية الكريكية التى تكتب بها الأبجدية الروسية ، وتختار بعد الاستقلال الحروف اللاتينية مرة أخرى ، وانتصرت تركيا فى المنافسة مع إيران .

ولا يخفى على أحد ما يحدثه هذا التغيير المتلاحق من اضطراب فى حياة أذربيجان الثقافية ، واتخذت هذه المنافسة منحى آخر فى طاجاكستان ، فبعد أن تغيرت الأبجدية العربية أيام الهيمنة السوفييتية إلى الحروف الكريكية ، عادت بعد الاستقلال إلى الحروف العربية وهى ذاتها الأبجدية الفارسية ، وأحرزت إيران الفوز ، وتدفقت الآلات الكاتبة وآلات صف الحروف العربية على روشانبى العاصمة من إيران .

ومازالت تركيا تسعى إلى إدخال الحروف اللاتينية إلى الجمهوريات الأربع ذات الأصول التركية .

الترك والعرب

عادت تركيا إلى المنطقة ..

بعد أن كانت أكبر طعنة وجهت لمسلمى آسيا يوم تخلت تركيا عن الخلافة ، وعن الأبجدية العربية ، ورجعت اليوم تمد خطوط طيرانها إلى عواصم هذه الجمهوريات ، تحمل منتجاتها الاستهلاكية بيد وتحمل أفكار الديمقراطية واقتصاديات السوق باليد الأخرى .

واعترفت باستقلال هذه الجمهوريات يوم ١٦ ديسمبر الماضى ، وقدمت مساعدات غذائية .

وتركيا حالة خاصة فهى جغرافيا تمتد بين أوروبا وآسيا ، وعاشت أزمة هوية بعد زوال الدولة العثمانية ، يتنازعها الشرق والغرب .. آسيا وأوروبا ، واختارت أن تصبح جزءا من الغرب ، وانضمت إلى حلف الأطلنطى ، ولم تنجح فى الانضمام إلى السوق الأوربية المشتركة ، وفقد حلف الأطلنطى مبرر وجوده بعد انهيار الاتحاد السوفييتى وقبله حلف وارسو .

● مصــــر هى الاقـــدر على إقـامة جســريـن مشرق الاســــــلام ومغــربـــه

ولم يقبلها الغرب قبولاً كاملاً ، ويدفعها ليوم للعب دور فى الشرق الأوسط والصراع العربى الإسرائيلى ودور آخر فى جمهوريات آسيا الوسطى الإسلامية ، وتعود وتخلع القبعة وتلبس العمامة من جديد ، مما يقوى الاتجاهات الشرقية فيها، ولم يلتفت أحد إلى تداعيات هذا الموقف داخل تركيا ذاتها !

أما البلدان العربية ، فقد قامت بعثة مصرية على أعلى مستوى لزيارة تلك الجمهوريات الإسلامية ، تسعى إلى تقوية العلاقات وتنسيق السياسات ، وبحث مجالات التعاون مع هذه الجمهوريات ، ومصر لها مكانة كبيرة فى هذه المناطق ، لا يعرفها إلا من زارها وتجول فى قراها ونجوعها ، والتقى بالأهالى فوق قمم الجبال . بل ويدهش الزائر القادم من مصر على المكانة التى يجد نفسه فيها ، وهو رصيد لو تعلمون كبير لمن يحسن التعامل معه . فمصر هى حلقة الوصل بين مشرق العالم الإسلامى ومغربه .

فمصر هى بلد الأزهر الشريف ، الذى حافظ على مشعل الثقافة متقداً على مر القرون ، ويلاحظ الزائر أن الجيل القديم من الشيوخ وأئمة المساجد من خريجى جامعة الأزهر ، لديهم حنين إلى أروقة جوامع القاهرة ، أما الجيل الذى يليه فهو خريجو جامعات الأردن ، ولعله يرجع إلى وجود الشيشين والشركس فى كل من جمهوريات آسيا الوسطى الإسلامية ووجودهم ضمن سكان الأردن أيضا .

وعلى الجانب الآخر هناك العديد من الدارسين المصريين ، الذين عاشوا فى هذه الجمهوريات ، ولهم معرفة جيدة ، ولايجوز تجاهل خبرتهم .

إن ما وقع من تغييرات فى آسيا الوسطى لا يمكن الرجوع عنه ، وهو يؤكد فرصة كبيرة وإضافة مؤكدة للدول الإسلامية ، وسيقلب الموازين الدولية ، يتوقف مدى الاستفادة منها ، على عوامل كثيرة ، أبرزها أن يتحقق التكامل لا التنافس ، والاتفاق لا التنافر ، بين روافد الحضارة الإسلامية ، العرب والفرس والترك .

وأن تعود دول الشرق الإسلامى نماذج تحتذى ، وتحقق التوازن المفقود بين التقدم المادى والروحى معاً .

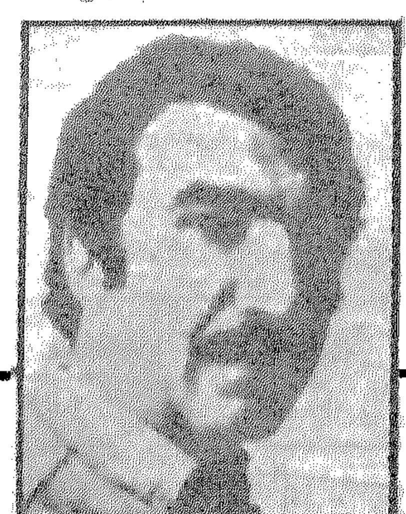
عالم محمد حجى بين المعرض والكتاب..!!

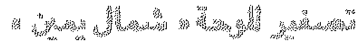
« وآتاكم من كل ما سألتموه » سورة الأنعام – من « رسام يقرأ القرآن »



بقلم : صلاح بيصار

الفنان محمد حجى





تصغير للوحة « شمال يمين »



(رسام يقرأ القرآن - شمال يمين - رسوم من ليبيا) .. ثلاثة كتب جديدة على المكتبة العربية للرسام محمد حجى .. تمثل ثلاث حالات تعبيرية لكل منها فكرها ومناخها الخاص ولغتها التشكيلية تخرج بنا من دائرة الرسم الصحفى الى لوحات مستقلة .. وكأننا نرتاد معرضاً .. لكن بدلاً من أن نذهب اليه .. يأتى إلينا فى صورة مطبوع أنيق يدخل كل بيت .. يساهم فى اتساع رقعة جمهور الفن التشكيلى .. أرفع الفنون وأقلها جماهيرية فى العالم الثالث .

عندما انتقل محمد حجى فى أواخر الخمسينيات من عمق الريف المصرى بوسط الدلتا (إحدى قرى المنصورة) الى القاهرة حيث التحق بكلية الفنون الجميلة يدرس التصوير .. كان فى هذا الوقت مشبعاً بعالم شعبى تتتابع صوره بداخله .. من رسوم وكتابات تلقائية يطالعها على واجهات البيوت الطينية ويدور معظمها حول عودة الحجيج .. ومستنسخات تباع بأسواق القرى .. فى الملاحم الشعبية والقصص الدينى .. تصاوير لأبى زيد الهلالى وعنترة وسيف بن ذى يزن و « سفينة نوح » .. و « آدم

عالم محمد حجى

وحــواء » و « كبش اســماعيل أو كبش الفداء » .. وكانت تلك الصورة الأخيرة تتصدر معظم منادر بيوت القرية .. يصفها الآباء للأبناء (ربما عمداً) لما تحمل من فكرة الامتثال .. امتثال سيدنا اسماعيل لسيدنا ابراهيم .

تعانقت كل هــذه الصــور التى جمعت بين الرمز والتشخيص مع أشواقه الفنية فى هذه الفترة .. وكان عليه أن يختار بين اللوحة التقليدية وبين أن يكون له حضور يواكب الصراع الدائر وقتها .. حيث كان المجتمع يمور بالتغيير .. خاصة وجمهور المعارض لا يتعدى مساحة صغيرة من جمهور الفنون الأخرى .. ولا يخرج عن دائرة القاهرة .. فاختار حجى أن يعمل بالصحافة والتى تنسخ من العمل آلاف المستنسخات حتى يكون حضوره موازياً للتشكيل الشعبى التلقائى وأيضاً ممتداً ومتناغماً مع حجم التغيرات والتحولات التى تشهدها مصر فى ذلك الوقت .

وكـانت البــداية حين شــارك فى تأسيس مجلة المنصــورة .. وهى تجربة صحفية متميزة خارج العاصمة وتعد نموذجا يحتذى فى الصحافة الاقليمية .. قدم خلالها وطوال فترة دراسته الكثير من الرسوم والتحقيقات الصحفية .. ثم انتقل عام ١٩٦٥ ليعمل رساماً بمجـلة الطليعة ثم رســاماً بمجلتى روز اليوسف وصــباح الخير .

ومنذ أواخر الستينات .. لم يعد حجى يقنع بأن تكــون رسومه مجرد زينـة لمقال أو قصة أو عمل فكرى .. فاتجه الى كتابة التحقيقات المرسومة .. لرحــلات قام بها داخل وخــارج مصر .. وقــدم رسوماً صاحبت نصوصــاً شارك فى اختيارها فرسم مسلسل قصص الأنبياء عام ١٩٦٩ .. ومع بداية السبعينات تحولت توجهاته نحو تقديم الفن من خلال المطبوع .

تسابيح تشكيلية ..
و .. « رسام يقرأ القرآن »

وبحكم نشأة حجى الريفية .. والقرآن الكريم هو الكتاب الذى يحكم حركة الحياة اليوميــة فى حيــاة المسلمين .. يتمثلونه ويحكمونه فى جميع قضاياهم وشئونهم الخاصة والعامة .. فكانت له اهتماماته وتأملاته ورؤيته تجاهه وهى رؤية رسام لا تنفصل عن رؤية أى مسلم .. باستثناء إجادته للغة تعبيرية يفهمه من خلالها .. كلغة الخطــاط والقــارىء وصــانع المشــكاوات الإسلامية .. مع اختلاف التعبير .. من هنا استلهم آيات من القرآن فى لوحات .. تواكبت مع مقــالات كـان ينشرها د. مصطفى محمــود فى عام ١٩٧٠ بمجلة صباح الخير حول « تفسير القــرآن تفســير عصرى » فنشرت مصــاحبة لهــا بخصوصيتها التعبيرية .. بعــدها استمر حجى فى تجربته من رسم تلك اللوحات التى تمثل اضافة تشكيلية وصوفية على مستوى التصوير الدينى

عموما .. ابتعد بها عن محاكاة الوجوه البشرية عند تمثيلها فى التصوير الذى ارتبط وتأكد مع الدعوة المسيحية منذ أن دعا القديس فرانسوا الى حب الله عن طريق حب مخلوقاته الأكثر قرباً للواقع .. كما ابتعد عن منطق التصوير الاسلامى الذى يعمد الى التشخيص فى اطار من الزخرفة والتخيل والتبسيط فجاءت أعماله بلغة رامزة تتمشى مع جلال الآيات .. استجابة للصور الصوفية والروحية الموجودة بالقرآن .

لقد أثار القرآن فى نفسه مشاعرا دافقة من الحب الصوفى فصور ٣٣ لوحة لـ ٣٣ آية جمعها فى كتاب أنيق من إخراجه .. تبنته دار المستقبل العربى وأعدته فى ثلاث طبعات بالعربية والانجليزية والفرنسية بمقدمة مطولة بقلم الدكتور ثروت عكاشة ويحمل (أى الكتاب) اسم « رسام يقرأ القرآن » بمعنى رسام يتمعن ويتمثل القرآن الكريم .

وبألوان الفلوماستر .. وهى ألوان شعبية ذات خاصية سيالة .. صعبة التحكم ولا تتعدى امكانياتها المعتادة أكثر من مسطحات لونية .. استطاع حجى أن يحقق من خلالها امكانيات هائلة بما يعد اكتشافا لها .. لوحات بمثابة تسابيح تشكيلية تتألق فيها جماليات اللون والايقاع والتكوين .. فى عالم يشع بالبهجة والفرح الصوفى .. عالم يعانق الآيات برموزه وينفذ الى عمقها بكائناته الحميمة من : نبتة صغيرة .. ورقة شجر .. طائر على إناء .. كتكوت .. عصفور على غصن .. سنبلة .. وردة .. أشكال فيزيقية وميتافيزيقية .. عضوية وهندسية .. كائنات سابحة فى فراغ ممتد تتداخل وتتشابك أو تظل وحيدة .. مثقلة باللون فى ملابس ناعمة تتناغم فى تآلف أو تضاد .. فيبدو الأسود مشبعاً بالأحمر الطوبى .. ويخترق الأحمر النارى فى جُرأة امتداد الأخضر .. ويتداخل الأصفر مع البرتقالى فى ارتقافات الأخضر السندسى الذى يسبح فى زرقة لا نهائية .

ساهم فى ثراء السطوح ووضوح العناصر بكثافتها الثقيلة .. استخدام حجى لأقلام الجاف الملونة مع الفلوماستر .. فكان هذا الحوار الناعم الشفاف بين الأضواء والظلال .

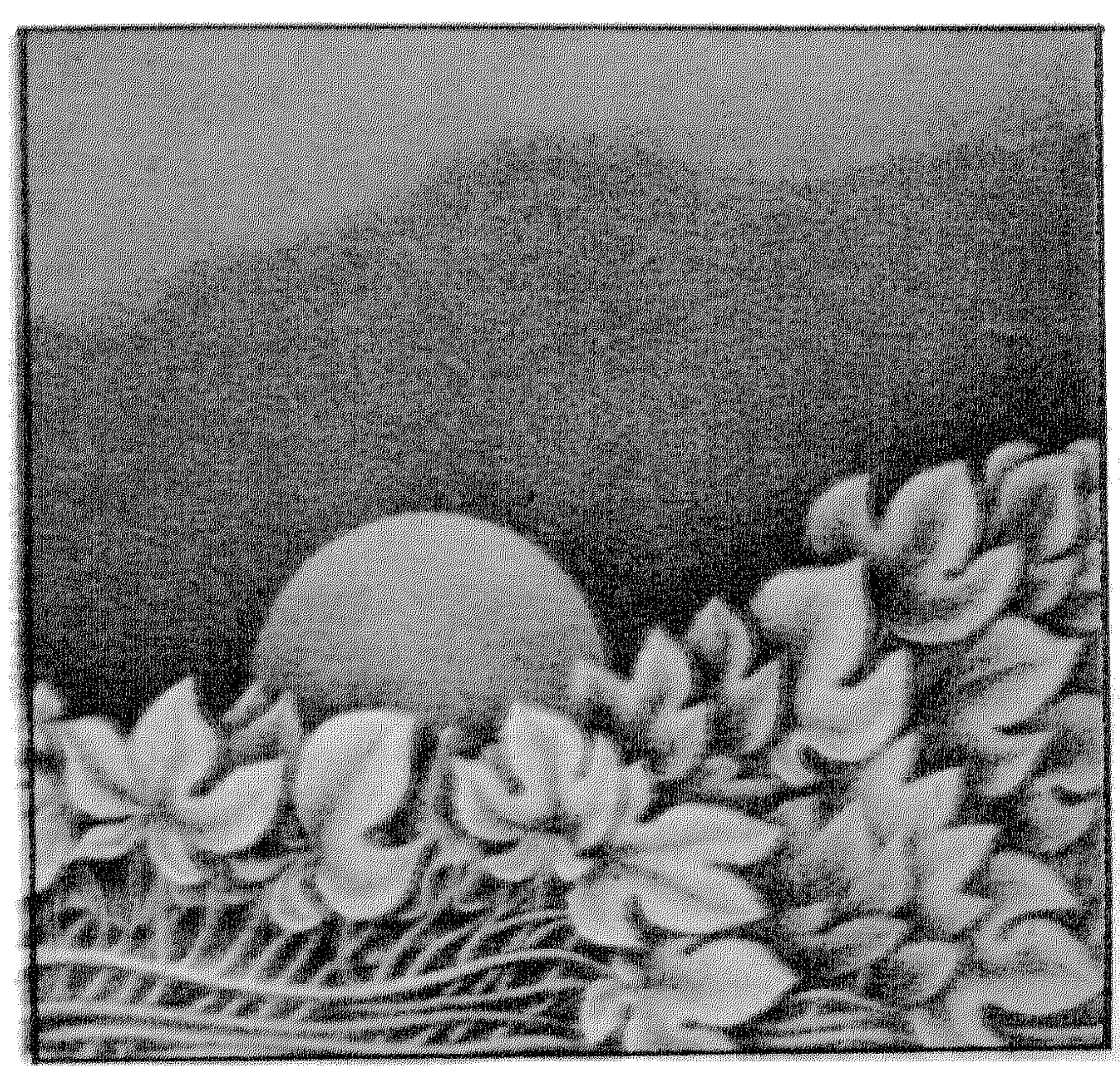
وعلى الرغم من أن الكتاب قد تمت تجهيزاته الفنية بطبعاته الثلاث من صف الحروف وفصل الألوان الى الاخراج الفنى وتصميم الغلاف .. وذلك من أوائل الثمانينات .. إلا أننا مازلنا فى انتظار الموافقة على طباعته .. خاصة والكتاب يمثل اضافة حقيقية فى التصوير الصوفى .. وقيمة رفيعة تلبى احتياجاً روحياً فى مواجهة أشكال طباعية عديدة من نتائج وبطاقات ولوحات تصور آيات القرآن الكريم بشكل لا يتمشى مع جلالها .. تتزاحم الآن على أرصفة الكتب وفى المكتبات .

« شمال يمين » ..
وثيقة احتجاج .. فى لوحات

من الفرح الصوفى حيث سلام الروح وطمأنينة النفس .. ينقلنا محمد حجى من صور الجمال والجلال فى « رسام يقرأ القرآن » الى حالة تعبيرية أخرى تفاجئنا بصدقها المروع .. فى زمن بلا عقارب أقرب الى أجواء ماركيز فى « خريف البطريرك » وعالم كافكا فى « المحاكمة » مع اختلاف صيغ التعبير .

عالم كابوسى مقبض جاثم كطائر أسطورى يسد السماء .. تغتال فيه البراءة

فالق الإصباح (الأنعام) من « رسام يقرأ القرآن »



احتفالية شعبية من « رسوم من ليبيا »



عالم محمد حجى

وتداس الحرية .. حيث تصادر الكلمة وتكمم الأفواه ويعصف بالفكر .. فى لوحات كتابة « شمال يمين » التى أنجزها بين عامى ١٩٧٦ و ١٩٧٧ وتمثل وثيقة من الفن الثورى ضد كافة أشكال الحكم القمعية من اليمين الى اليسار وما بينهما .. وإن تمثلها فى صورة رمزية لديكتاتور عسكرى يتربع على أنقاض ضحاياه فى بزته العسكرية منتفخاً مثقلاً بالنياشين والأنواط مجللاً بالنجوم والشارات .

فى صور تنوعت فى حدتها وقتامتها .. تشكيلات سوداء .. تضافرت فيها الرموز وتشابكت .. تتلاقى وتتنافر فى ديمومة وحركة دائبة لا تتوقف .. تعكس ثقل اللحظــة وبطء الزمن .. رموز من الغشم والجهالة مسلحة بكافة الأدوات فى مواجهة رموز البراءة والحـرية .. جاءت اللوحات بالأبيض والأسود أكثـر تعبيراً عن هذا المنــاخ المتســاوى المسكون بالصراخ الانسانى وأوجاع وآلام التعذيب .

وحيث يسيطر الأسود .. تنحسر مساحة الأبيض فلا تبقى إلا بقع ضوئية كالوميض تحدد حركة العناصر التى يعمد حجى الى المبالغة فى تحريف أشكالها ليؤكد صور التناقض التى تسكن هذا العالم بمفرداته المتزاحمة من : علامات وإشارات .. جنازير ومقارع .. قفازات .. بيارق وشارات .. فوهات مدافع .. أحذية باطشة وخوذ ضاغطة .. أسلاك شائكة وسياط .. أقنعة تنكرية وأجهزة تنصت .. مفاتيح .. زنازن .. كل هذا فى مواجهة هياكل آدمية تقترب فى شكلها من ديدان الأرض .. تتجمع أو تتناثر .. فى أشلاء وبقايا أطراف ورءوس .

ولا تخلو بعض الأعمال من الروح السيريالية التى تغلف هذا الكابوس .. حين نطالع الديكتاتور ممتطياً البراق المجنح ـ رافعاً سوطه فى عنف يشق السماء .. أو حين يبدو فى جسد امرأة عارية برأس رجل .. وفى أحد الأعمال نطالع جانباً من سترته تمتلىء بسحب من المفرقعات كبوابة مفتوحة على هذا الأفق الأسود .

ويلتقى التشكيل بالخطوط والمساحات مع الرسم بالكلمات فى « شمال يمين » حين تقترن كل لوحة بمقتطف من قصيدة لشاعر عربى يختاره حجى فتتداخل الكلمة والصورة فى نسيج واحــد حيث يمثلان وجهاً لحالة واحدة ٣٨ لوحة تتعانق مع مقتطفات من ٣٨ شاعراً معاصراً .. تصور هذا الارهاب الأسود الذى يقول عنه الشاعر محمود درويش فى مقدمة الكتاب :

« إنه إرهاب السلطة بميوعة صفاتها الطبقية وبوضوح تجلياتها فى تسليم الأرض وفى تحريم النبض وفى تعميم القبض » .

« رسوم من ليبيا » ..
و .. ملحمة تعبيرية ..

ولما كانت لوحات شمال يمين باللون الأسود فقط .. فقد جاءت بمثابة وقفة تشكيلية مقتصدة وحاذقة .. احتشد بعدها حجى ليقدم ملحمته التعبيرية فى صورة قصيدة تشكيلية طويلة متعددة المستويات .. تضافر فيها عنصرا الشكل واللون .. فى لوحات كتابه « رسوم من ليبيا » .

يقول الناقد والكاتب الليبى محمد خليفة التليسى فى مقدمة الكتاب :

« إننا هنا إزاء معرض لفنان كبير وظف طاقاته الابداعية فى اكتشاف المدهش والمذهل والرائع والمتميز والأصل فى حياتنا ، تسعفه فى ذلك ثقافة فنية عالية وقدرة على التذوق لكافة الألوان الغالبة على هذه الحياة فيضعنا إبداعه أمام صور يعتز بها الجميع ويهتز لها الجميع لأنها ترسم حياتنا وتعبر عن صور حبيبة الينا مألوفة لدينا رابضة فى أعماقنا هنا صورة لكل واحد منا فى لحظة من لحظات تعامله مع عاداتنا وتقاليدنا وملامحنا الموروثة ، انها عملية اكتشاف للبيت القديم الذى نسكنه فتحجب عنا الألفة اليومية أهمية ألوانه حتى اذا رحلنا عنه فى الزمان أو المكان تذكرنا مَا كان عليه من روعة وجمال » .

بعين نافذة ظل حجى طوال ٤ سنوات يفتش فى هذا الجانب الشعبى البدوى الصحراوى الذى صاغ حقيقة الانسان فى ليبيا .. يقتنص مناطق الجمال فى أكثر من ٢٠٠ لوحة .. تنوعت من الواقعية التعبيرية الى الغنائية الشعبية .. الى التلخيص الشديد الذى يقترب من التجريد .. هذا بالاضافة الى غلبة الملامس الحوشية التى سيطرت فى أعمال كثيرة وربما كان هذا التنوع والثراء التشكيلى لطول الفترة الزمنية التى أنجز فيها اللوحات التى امتدت بعمق الشخصية الليبية وتنوع البيئة هناك بخصائصها القومية والطبيعية .

انجذب حجى الى العمارة التلقائية المنحوتة فى المناطق الجبلية .. فقدم من خلالها أعمالاً عديدة غلب عليها هذا الحس السكونى الشاعرى المتألق بالجلال .. يصنعه حوارا أخاذا بين الأضواء والظلال التى تتنوع من مصادر عديدة .. كوى ومنافذ ودروب ومنحنيات وأقواس وتقاطعات .. وقد ساهم فى تعميق هذا السكون الجليل .. الملامس الحوشية الخشنة التى غلفت الأعمال .

ويلجأ الفنان فى بعض الأحيان الى التلخيص الشديد .. فلا تتعدى اللوحة مجموعة متناغمة من السطوح والمستويات

.. تتآكل فيها الخطوط من حدة الظلال والأضواء .. وفى أحيان أخرى تبهره التفاصيل الصغيرة فيقف عندها يتلمسها من خلال تداعى التشكيلات النحتية وفى ملامس المنافذ والفتحات .

ويبدو الانسان متوحداً مع العمارة .. مندمجا فيها .. تتشكل ملامحه بنفس منطق التكتل .. لكنه يضفى عليها بعداً انسانيا يتخلل هذا السكون .

ويستأثر الأسود والبنى بدرجاته العديدة بالجزء الأكبر فى هذه اللوحات فتسبح فى زمن ممتد يتجلى فيه أصالة وعراقة المعاصر .

والوجوه الانسانية عموماً فى « رسوم من ليبيا » تقترب من التماسك والبناء المعمارى حيث يصور فيها أبعاد القوة والجلد .. ارتباطاً بظروف البيئة المتقشفة وما قد يطرأ عليها من ظروف أخرى خارجية .. فتلمح فيها طابع الصرامة وملامح التحدى والإصرار .

ويمس حجى الحياة بتفاصيلها فيقدم لوحات لقطعة من الحلى أو جزء من ثوب أو غطاء .. وأخرى لرأس حصان أو رأس حمل .. كما يأخذنا الى هدير الحياة الشعبية من المقاهى والأسواق والحوانيت .. الى الصناعات اليدوية من مطرزات وأنوال ومشغولات نحاسية .. كما يعكس صور البهجة والفرح فى الأعراس والموالد الشعبية وسبوع المواليد .. والألوان هنا غنائية صداحة من الأحمر والأخضر والأزرق والأصفر .

أما الاسكتشات السريعة فتحمل نبضاً انسانيا .. متوتراً ومشحوناً .. فتنساب الخطوط سريعة وانسيابية على السطوح البيضاء .. تحمل كثافة التعبير رغم بساطتها الشديدة .

وفى النهاية يمكننا أن نقول إن محمد حجى فى كتبه الثلاثة والتى تمثل توجهاً خاصاً وتجربة جديدة على المكتبة العربية لم يبتعد عن اللوحة التقليدية ولكنه كثفها فى إطار ثلاثة معارض مطبوعة .. تتيح للمتلقى ما لا تتيحه المعارض العامة .. ربما تكون بداية لترسيخ هذا الاتجاه .. الذى يبدو متوافقا مع متغيرات العصر .. وأيضا معانقاً للثورة الطباعية التى نشهدها حاليا .

وجه بورتريه من « رسوم من ليبيا »



ميرال الطحاوى

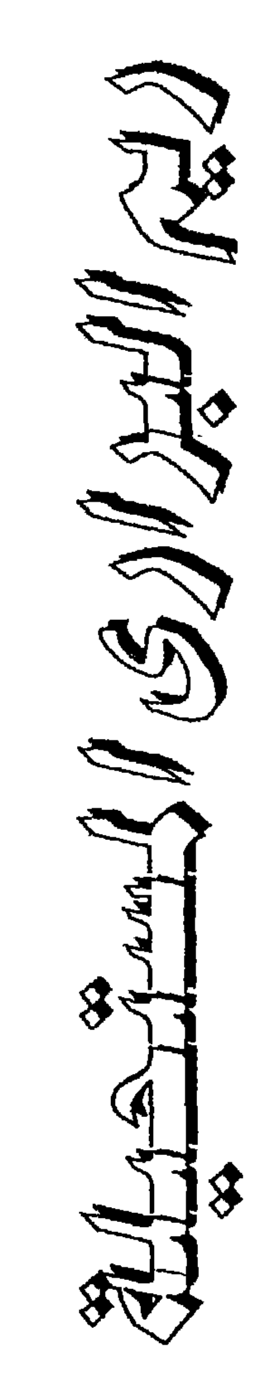
كاتبة الفرح الطفولى

والألم الغامض

« ميرال الطحاوى » اسم جديد فى عالم القصة القصيرة ، هى شابة فى الثالثة والعشرين وباحثة تحضر للماجستير فى الأدب العربى من جامعة الزقازيق ، لكنها روح طفلة تكتب وهى منغمسة فى دفء الشمس ترنو إلى الأفق ، إلى السحب تنسخ من تحولاتها تراكيب لها دلالات فى نفسها تفرح معها أو تتألم فى شجن غامض . لها أسلوب مغزول مثل زركشات فن الكروشيه تصنع أحيانا الدانتيل الرومانسى أو الجهامة المتوجسة

فى قصتها هذه « ريم البرارى المستحيلة » نجد مشغولية تكررت بمعالجات مختلفة فى انتاج ميرال الطحاوى - الكثير والذى لم تنشر منه سوى القليل - تتمحور حول الطموح والحلم والطاقة النشطة المبدعة داخل الإنسان، حين تحبط جميعها وتتهشم على واقع صلد غليظ لا مساحة فيه للتفهم والتعاطف والتحقق، ولقد بدت ميرال الطحاوى متخصصة فى التقاط هذا الإهدار وإبرازه فى إطار من العذوبة البريئة والألم البكر .

صافى ناز كاظم



قصة

ميرال الطحاوى

لا .. لم يعرف أحد لماذا طاشت يده فى السماء ثم انغرست أسهمها فى الخد المذهول من المفاجأة .. لا لم ينطق أحد .. بل تبللت ابتسامة أمها بالاعتزاز بكفه الناتئ بأعشاب الصحارى وتلقفه شارب أبيه بابتسامة زهو متلصصة تحاول الاختباء تحت مظاهر الحزم البادى على وجهه .. بينما تكومت هى على أول جدار طينى صادف قدمها ونزفت عيونها دما .. هى.. عيون تبرق كقطط الليل اللقيطة فوق الأسطح ودم متدفق بالحياة كالعشب تضحك ، تبتسم ، ترقص وتغنى وتقود الصغار فى رحلات استكشافية إلى أعماق الخليج الضحل بحثاً عن الأسماك الهارية وإلى شجرة النبق المتهارة على تلال الزمن .. توزع عليهم سبائك الشهد المنثور .. تعشق ضوء الليل الخافت وتدعى أنها رأت «أمنا الغولة» وصاحبت كل العفاريت .. بالليل وهى مدفونة فى أعشاب سطح الدار الخشنة كانت السماء صافية كليلة قدر وضاحكة وكان القمر يتدثر فى الضباب وفجأة انقضت النيازك من كل الجهات ، سقطت النجمة «أم نيل» تاركة وراءها شريطاً طويلاً من نار مشتعلة .. لم تخف بل ابتسمت لثوب العروس الحائمة حول القمر، وفى الصباح الباكر جمعت شمل تشردنا فى حلقة واسعة على حافة الحقل وأقسمت لنا ألف قسم بأنها رأت الحورية وهى تحوم حول القمر وتخنقه .. لا أنها كانت تحتضنه فقط لذا ظن البلهاء أنها تخنقه .. وغنت للقمر وحدها .. (يا بنات الحور الحور .. فكوا القمر المسحور) .. ولولا عصا أبيها المتروسة خلف الباب لتسلقت جدار البيت ونادتنا لنشاركها رؤية الحوريات .. وجلس بعضنا كثيراً ينتظر فى



ريشة سميحة حسنين

ريم البرارى المستحيلة

الليـــالي السوداء حتى أعيـــانا الندى الثلجى المتســرب عبــر مســـام قلوعنا المشرعة فى سماء الحـلم .. لكنهـــا ظلت وحـــدها تراه وتحكى لنا فى الصباح ..

وفى الليـــالى المقمرة كانت تغمس نفسها فى الدقيق الأبيض وترتدى ملفحـــة جدتهـــا الجوخ وتحفر بمحـــاريت اللهب الكـــالح فى الأفـــران خطوطـــاً طوليــــة على حاجبيهـــا وتتكئ على خشبة صدئة وتدمدم فى الضوء الخافت لترتعش كل عضـــلة فى وجودنا ونمتص عبق المفـــاجأة بالعـــويل والصـــراخ الملحون فى دموع الضحكات الوارفة .. لم تكن جميلة لكن شيئاً ما فى حضــــور سمرتهـــا جـــذاب ومتألق برائحة الانطـــلاق ونكهة الفرح الطفولى الذى يحف بل يزهر فوق الأسطح وأمام عتبات الدور وفى محافل العرس المخضبة بنقرات الدفوف .

يزهر وجودها دائماً سنابل المرح على وجوه العجائز والصبية . «ياالله يابنت غنى» وتغنى وينقلب الغنـــاء إلى واحة تتعطر بانفلات نهر صغير داخل تجاويف عطشها .. تجرى يداها الضامرتان على رقة مفرطة فى الجسد الهش المتراخي كعصفور أسير وتهرب حمرة سفوح وجهها المنبسطة لدى أول حفة لقدم فى الطريق .. طالما أقتلعها من بسطة الســـمر الليـــلى على مصابيح الضـــوء الكليلة ومن دفء الحجـــرات المختنقة بحـــرائق اللهب المطمورة فى دعاء النـــار ومن ضجيج الأفـــران الهـــائمة برائحة الخبز وحديث النسوة .. طالما جذبها أمامنا ومضت معه ككتلة من خشب تتسمر من الفجيعة وتبث خوفها إلى الرمال التى تعربد تحت قدميهـــا وتنطوى عليها نظراتها الكسيرة .. ونعــــود إلى ضحكاتنا محـــاولين أن نطمس

بداخلنا بكاء حضورها الـــذى غـــاب وتنطفئ حمـــاسة الأفواه المليئة بآلاف الحـــكايا ويلامسنا الفقـــد وتنطلق التهاويم (بنت شيطانة ..) (الله يخيبك يابعيـدة .. دمها خفيف) (اخوها عامل زى الـــديك منفـــوش على الفـــاضى والمليـــان) .. (حيموتوها .. ما يسبوها تضحك ..) (غلبانة .. بختها قليل ..) .

وحينما نظرت فى كفى وقالت : .. !! طويل وجميل ومتعلم .. يستاهلك ضحكت حتى ضـــاعت ملامح وجهى فى فيضان الضحكات ولامس وجهها سفائن حزن مسافرة .. لماذا يحـــاصرنا العجز كســيول الشتاء الغاضب ويختطف من على الشفاه وشماً صغيرا لينحت به فوق الجبين تلالاً من الخوف .. تبتسم ابتسامة كسيرة ثم تمضى حاملة معها النصيب . قرشاً مدوراً ، جلبـــاباً قديماء بضـــعة أرغفـــة صارت

ريم البـــــراري المســـــتحيلة

باهتة كشمس الخماسين الغاربة وصامدة كحافة بئر جافة .. تبحر عيونها فى الأحجار القرمزية المقامة على مشارف البيوت وترتجف ثم تخور بالنواح وتغرز رأسها فى طين البرك المطمورة وتجرى فى الحقول .. «ممسوسة» كما يقولون .. لا أحد يعرف ماذا ألم بها .. حينما غرس اظافره فى وجهها بعد أن أقتادها باللعنات من قلب العرس . النابض بالضجيج لم يلتفت إليه أحد وحين ركلها فى الطريق امام كل الفتيان الملتفين حول الضجة لم ينظر إليها أحد، ولم تصرخ وحينما ألقى على ضفائرها الكيروسين لم تستنجد بأحد بل تركت وجهها ينزف الاستعطاف بينما كف أبيه يدفعه عنها .. «محتروح فى داهية .. أحنا محتاجينك ....

ولم تعرف لماذا لا يحتاجها أحد ولماذا يضربها ؟ ولماذا جرجرها طوال الطريق باللعنات ولم تبك إلا حينما أشعل فيها نار الخير المسموم .. وكانت تحلم بصوت الناى الهادر فى قطيع الأغنام يطرق بابها لكن أمه . كما سمعت . قالت عنها كلاماً كثيراً واتهمتها بأنها «رعنة» وأنها لا تعرف كيف تمسك «بمطرحة» الخبز ، ولا تفلح إلا فى فشخ فمها بلا مناسبة .. صار الوجه العائد لنا ممصوصاً تتفجر عنه تضاريس جديدة .. يتجمع الجلد المكرمش فوق الجفنين المتهدلين كثوب مهترىء وتغلق فمها على الصمت وتهرب عيونها كحمامات برية ... الأحجار الوردية تعانق سواد الحجرات الطينية القديمة وصوت أزيز الآلة الصاخب يلطم الأثواب البالية وتتفجر الضحكات حول الصورة المغروسة فى صندوق فى ساحات بيتهم بينما هى تسرح مبهوتة فى الأرض المروية تحتضن الشال على ضفائرها وتتطوح فى الهواء وتدور حول نفسها . كالطاحونة وتزغرد وتصرخ وتنوح وتنادى على «أمنا الغولة» التى لفحتها ذات ليلة بوجه بومة والعفريت الذى شق حائط الجرن الخرب المستأنس بروث البهائم وبول الصبية وضربها على رأسها ثم أنسخط غرابا أسود .

.. لا لم أعد استطيع أن أدخلها بيتى لتمرح فيه كما كنا نفعل . أنا لا أبخل عليها بشىء فى الشهر الفائت حطت عينيها على ثوب حنتّى الذى يختبىء فى ركن الصوان .. لم أدر كيف لمحته .. لكنى أعرف نظرتها حين تشتهى شيئا



ما .. تكسرها فى الأرض وتصمت .. وكان الثوب غالياً على نفسى .. أنتم لا تدركون كم تلك الأشياء البسيطة تفلق حبة الذكريات المدفونة فى القلب .. لكنى حين تذكرت

وجهها وهى تختبىء لى وسط ثوبها الفضفاض صورته التى اختلستها من صندوق أخته ، وصحبتنى إلى شط الرياح حيث لمحته يلقى شباكه فى الماء الجارى ..

تعثرت قدماى أمامه فضحك بينما جذبت هى خيط سنارته ، وظلت تثرثر معه وهو يرجم سكونى بشهب سماء قلبه الخافق بعاصفة قريبة .. ثم حملت لى بعدها آلاف ، القصاصات المطوية التى صار يلقيها فى صندوق أخته لتحط رحالها ببابى معها ، .. هو أيضاً لم يبخل عليها بشىء قال مسكينة «ياترى ماذا فعلوا بها..» لكنها لم تضعه على جسدها قط . حملته معها إلى الجرن الواسع واشعلت فيه النار ورقصت حوله ثم بكت ولم أعاتبها .. أعرف أنها ممسوسة وذلك خارج عن إرادتها .. لكن أن تدخل بيتى .. لا مستحيل صغارى يخافون شرودها وأخاف عليهم هياج أحزانها المكبوتة .. قالوا إنها حين تغرد لها البومة ويحوم حولها الغراب تصبح كالوحش الكاسر تفرد شعورها . وتقذف

رزم البراري المستحيلة

كل شيء أمامها بالطمى والطين والروث وأعـواد الحطب الخشنة .. ضربت أمها .. «ممسوسة» ألم أقل لـكم ؟ ! حتى أمها العجـوز المنكمشة على الغصن لا يبرق داخلها إلا عيون مفتوحة فى فوهة تجاعيد دائرية متراكمة كالكثبان وأذن تتلقف من ضجيج الحيـاة سـداه البعيـد البعيـد وتترجم الحرف إلى لغة لم يسمع بهـا أحـد لم تفلت من نوبات جنونهـا .. إنها تضرب بشراسة الفتية الأشداء حتى تقع متورمة فى جراحها داكنة فوق كومـة قش تمتص عـرق حمتهـا ثم تفترش فى ذهولها لتبـدأ من جديد تدور حافيـة على عتبات الدور والمصاطب وجلسات السـمر شاردة واهنة كتيارات المـاء المنسابة على الجسر .. يقولون

إنهم عذبوها كثيراً .. حين ألقى تحت عجلات سـيارته الفخـمة رزمة أوراق ملونة كان يدفعها لتخـدم زوجته .. وتلك عذبتها كثيراً بل قالوا إنها كادت تخطف قلبه بضحكتها الفوارة بالندى لذا فقد كوت كل قطعة فى جسدها .. شوهتها وكان يعشق رائحة الشواء خاصة الأرانب البرية ، ويدفع نصف عمره ثمناً للحم غزال صغير هارب فى البرارى المستحيلة .. وقالوا إن صمتها ليس خدعة ولا تستجدى به أحداً وأنه ليس من الضـرورى أن يولد الإنسان بلا صوت فزوجتـه كانت تصعقها بالكهرباء حتى افقدتها الصـدمات الرغبـة فى معاشرة الحروف لا لم تشك لأحد قط يبدو أنها فقدت ذاكرتها أيضاً لكن

حينما تجيء عربة جديدة يزفها الصـبية وسط الحقول التى ربض فيها الفقـر وأطفأ قناديل خبزها المغموس فى ملح الرضـا تصيح شرسة كلبؤة تطارد قناصاً سرق منا عيـالها .. تضرب وتضرب ولا تهدأ إلا وهى مدفونة فى دمهـا اللزج وملح دموعها .. وتنطلق التهاويم أيضاً (سيبى كل حى يشـوف نصيبـه) (فاكرة كل الخلق خايبة زيك) وتمضى العربة ولا يعودون ممـا يؤكد أنها الخائبة الوحيدة ولا يحق لها أن تمنع غيرها من ممارسة التجربة لكن حين تصـارع شياطينها فى الليـالى السود وتصرخ وتولول .. لا يصـدق البعض أن كل ذلك لمجرد أنه ذات يوم جاءت عربة فارهة وحملتها فى ثوب عرس وألقت على أهداب الفقر الطالـة من البيت المطحون بالحاجة بضعة أوراق ملونة .

« معزوفة الحكاية »

شعر : د . صابر عبد الدايم

يدى فى يـــديْكِ إلى اللانهـــايهْ		وفى كل يــــوم نعيــد البــدايةْ

ونقطـــع فى لحظـــة ألف عــام		وفى لمحـــةٍ نســتعيد الحكـــاية

نجـدِّد دفء الليـــالى الوضـــاء		ونرحـــل فيهـا لأنبــل غـــايةْ

نســـافر فى دفتــر الأمنيـــات		ونعـــزف للقـــلب أحــلى روايةْ

● ● ●

نجـــدِّد مافــــات من عمــــرنا		ونشــــرَبُ فرحــــة ميـــلادنا

وإن شبّت النـــــار يوْمـــاً بنـــا		فلن تحْـــرق النـــور فى قلْبنـــا

وإن داهمتنــــا ريـــاح الخريف		فلـــــن تتــــغذّى بأثمـــارنا

ففـــى مهجتينـــا تغنى البـــذور		وتحيـــا الثمـــار بأعمــــاقنا

● ● ●

وإن حاصــــرتنا الثلوج فـــإنا		بـــدفء ليـــالى الهـــوى نتغنّى

ونصـــــهر ما حولنـــا من جليـد		ونحيـــا الحيـــاة كمـــا نتمنّى

الطبقة الوسطى الصغيرة وتطور دورها السياسى . !

بقلم : د. يونان لبيب رزق

بدأ الدور السياسى لمن شكلوا ما عرف فى بداية التاريخ المصرى الحديث بجماعة «الأفندية» يطفو إلى السطح منذ أواخر القرن التاسع عشر .

وعلى الرغم من أن لفظة الافندية قد أطلقت فى العصر العثمانى على الأمراء ومشايخ الإسلام ورؤساء الديانات الأخرى فإنها فى مصر كانت قد استقرت فى أواخر القرن التاسع عشر لتوصيف أولئك الذين تلقوا تعليما مدنيا وشغلوا على الأغلب وظائف الحكومة المتوسطة والصغيرة أو اشتغلوا ببعض المهن الحرة.

ونرى أن الأفندية قد استمروا منذئذ يشكلون العمود الفقرى لما يمكن توصيفه «بالطبقة الوسطى الصغيرة» فى مصر تمييزا لهم عن طبقة كبار ملاك الأراضى الزراعية من الباشوات والبكوات أو حتى بعض من اشتغلوا بالتجارة من المصريين فى هذا الوقت المبكر ممن كانت لهم ألقاب أخرى مختلفة لعل أشهرها لقب الخواجة !

وقد سجل الربع الأخير من القرن التاسع عشر متغيرا هاما لأبناء هذه الطبقة ..

فقد انتقلت القيادة فى العمل السياسى الذى كان حكرا على مشايخ لمشايخ الأزهر ورجال الحارات فى أوائل القرن إلى أبناء هذه الطبقة فى أواخره ، ووجدنا المطربشين وقد حلوا بشكل كبير محل المعممين ، عرابى ومصطفى كامل ومحمد فريد وأحمد لطفى السيد محل عمر مكرم والشيخ المهدى والشيخ السادات

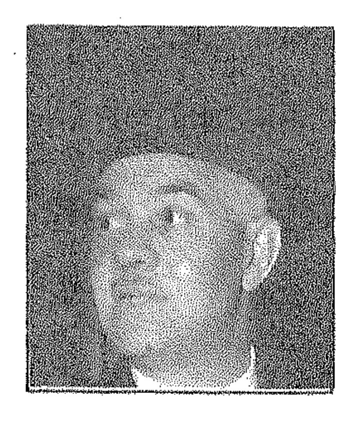




مصطفى كامل



مصطفى النحاس



إبراهيم عبد الهادى

وغيرهم من المشايخ .

غير أن هناك ملاحظتين على دور الأفندية أو أبناء الطبقة الوسطى الصغيرة فى العمل السياسى خلال تلك الفترة ..

الملاحظة الأولى : أن بعضهم ممن انحدر من أصول اجتماعية متفقة مع الطبقة التى نشأوا منها ولمع فى العمل السياسى ما لبث أن سعى إلى الانتقال إلى الشرائح العليا من الطبقة ، ليصبح من الباشوات والبكوات بل ويتنكر للطبقة الوسطى الصغيرة التى ولد فيها .

لن نتحدث فى هذه المناسبة عن مصطفى كامل (باشا) ابن المهندس الصغير، أو حتى عن مصطفى النحاس (باشا) ابن أحد تجار سمنود الصغار وإنما هناك هذا المثل الشهير الذى اكتسب مكانة متميزة فى التاريخ المصرى المعاصر باعتباره ابنا للطبقة الوسطى الصغيرة ، وقد تنكر لها ..

هذا المثل يتجسد فى نجيب الغرابلى أفندي المحامى الصغير من طنطا والذى لعب دورا ملحوظا فى قيادة العمل الثورى بالمدينة خلال ثورة ١٩١٩ .

هذا «الأفندى» أراد سعد زغلول لدى تشكيله لوزارته فى يناير عام ١٩٢٤ تعيينه وزيرا للعدل فاعترض الملك فؤاد على ذلك «لضعف مكانته وضخامة المنصب الوزارى عليه» ، غير أنه أذعن أخيرا لرغبة سعد باشا .

وبدلا من أن يكون تولى أحد أبناء الطبقة الوسطى الصغيرة لهذا المنصب محسوبا لتلك الطبقة فإن الرجل لم يلبث أن انسلخ عنها ونال لقب الباشوية واستمر يتولى الوزارة بطول الثلاثينات كلما شكلها الوفد ، الأخطر من ذلك أنه ما لبث أن انشق عن الوفد خلال عهد صدقى (١٩٣٠) وتولى وزارة الأوقاف فى وزارة عبد الفتاح يحيى باشا خصم الوفد عام ١٩٣٣ .

الملاحظة الثانية : أن أبناء الطبقة الوسطى الصغيرة من الأفندية قد سلموا لفترة غير قصيرة بدور الزعامة لطبقة الأعيان من الباشوات والبكوات ..

الطبقة الوسطى

حدث هذا فى الفترة السابقة على إعلان الحماية عام ١٩١٤، وحدث هذا أيضا خلال أحداث ثورة ١٩١٩، وبامتداد العشرينات ، فتؤكد الدراسات التى وضعت عن طبقة كبار الملاك الزراعيين أنها قد استمرت تحتكر الزعامة السياسية على مختلف المستويات ، فى الأحزاب والبرلمان والوزارة بامتداد تلك السنوات .

وكان أبناء الطبقة الوسطى الصغيرة قانعين بتشكيل كوادر الأحزاب وممارسة مختلف أنشطتها بالتظاهر أو بسائر أعمال العنف التى كانوا يتعرضون خلالها لصدمات مباشرة مع قوى الاحتلال أو السلطة الملكية ، بمعنى آخر كان صغار الأفندية وقود الحركة الوطنية وأدوات لطبقة الأعيان فى مواجهة خصوم هذه الحركة .

* * *

غير أن هذا الوضع أخذ فى التغير خلال النصف الأول من الثلاثينيات ونتيجة لمجموعة من المعطيات ..

١ - الأزمة الاقتصادية العالمية التى أثرت أكثر ما أثرت على أبناء هذه الطبقة وعرضتهم للبطالة على نطاق واسع .

٢ - نجاح الحركة الفاشية فى إيطاليا والحركة النازية فى ألمانيا بكل ما أثارته فى نفوس صغار الأفندية من انتعاش الآمال لوجود نهج يغاير هذا النهج الذى اتبعه الباشوات سواء بالنسبة لمشكلتهم الاجتماعية أو بالنسبة للقضية الوطنية .

٣ - الفشل الذى منى به النهج الذى اتبعه الأعيان فى معالجة القضية الوطنية خلال العقد والنصف السابق والذى تجسد فى إخفاق أكثر من جولة للمفاوضات التى جرت خلال تلك الحقبة .

ويمكن أن نعتبر أن قيام مصر الفتاة من مجموعة من الشبان الذين يصنفون بدون شك فى الطبقة الوسطى الصغيرة من الأفندية، على رأسهم أحمد حسين وفتحى رضوان .. يمكن اعتبارها حركة تمرد من أبناء تلك الطبقة على زعامة طبقة كبار الملاك من الباشوات والبكوات .

بدأ هذا التمرد فى رفض مصر الفتاة الانخراط فى أى حزب آخر من الأحزاب التى تزعمها كبار أبناء طبقة الأعيان ، صحيح أنهم عقدوا علاقات قوية مع الأحرار الدستوريين، ومحمد محمود على وجه التحديد، إلا أنهم فى هذه العلاقة تعاملوا مع الحزب والرجل من منطلق تبادل المصالح وليس بأن يكونوا أدوات لهما .

بدأ هذا التمرد أيضا فى رفض الأساليب السياسية التى اتبعتها زعامة الأعيان للحركة الوطنية ، الصحافة و الاجتماعات والمفاوضات ، وأخذوا فى اتباع أساليب أخرى بالعناية بالصناعة الوطنية التى تكفل حل أزمتهم الاقتصادية، وبتكوين ميليشيات على النسق الفاشى هى

التى عرفت بأصحاب القمصان الخضراء ، وهى التنظيمات التى تناسب أكثر مزاج أبناء هذه الشريحة من الطبقة الوسطى .

ويلفت النظر هنا أنه عندما أراد الوفد أن يواجه أصحاب القمصان الخضراء بتشكيل جماعات من الشباب ممن ارتدوا قمصانا زرقاء فقد جاءت قيادات هؤلاء من الأفندية من أبناء الطبقة الوسطى الصغيرة ، يمثل ذلك كل من زهير صبرى ومحمد بلال اللذين شكلا قيادة التنظيم الجديد الموالى للوفد .

* أزمة الأفندية ! *

وتمر السنون وتأتى الحرب العالمية الثانية لتتسع أزمة الأفندية وتتزايد معها رغبتهم فى التخلص من قيادات جماعات الأعيان ، وتزداد هذه الرغبة شدة مع ملاحظة ما جرى فى أعقاب معاهدة ١٩٣٦ من خروج كثير من رموز هذه الطبقة من الحزبا الشعبى ، مثل النقراشى وإبراهيم عبد الهادى فى الانشقاق الكبير الذى ترتب عليه قيام الهيئة السعدية أواخر عام ١٩٣٧ ، ثم بخروج مكرم عبيد عام ١٩٤٣ الذى لم يكن يحسب بحال على طبقة الأعيان ، فى الوقت الذى دخل الحزب كثير من رموز الأعيان على رأسهم آل سراج الدين وآل الوكيل وآل المغازى عبد ربه وغيرهم .

استتبع ذلك أن بدأت تنظيمات الطبقة الوسطى الصغيرة من الأفندية فى الاتساع، فتعاظم فى أواخر الحرب الثانية وفى السنوات التى تلتها حتى قيام ثورة يوليو ١٩٥٢ شأن الجماعات الماركسية التى تشكلت بالأساس من أبناء هذه الطبقة وليس من أبناء طبقة البروليتاريا كما هو مفترض ، كما تعاظم شأن جماعة الاخوان المسلمين التى ضمت فى صفوفها الكثير من الأفندية ، خاصة من أولئك الذين انخرطوا فى سلك التعليم المجانى فى مدارس المعلمين والمعلمات ودار العلوم والأزهر مما لم يتح لهم فرصة الاحتكاك الكافى بالحضارة الحديثة واشتد بين جوارحها الشعور الدينى ، ثم الحزب الاشتراكى بعد أن ارتدى رجال مصر الفتاة الرداء الجديد .. رداء الاشتراكية .

ولا يستطيع أى مراقب للحياة السياسية المصرية خلال تلك السنوات إلا أن يقر بأن الطبقة الوسطى الصغيرة ممثلة فى الافندية قد نجحت فى أخذ زمام المبادرة فى الشارع المصرى من الأحزاب الكبيرة التى استمر يتحكم فى قياداتها كبار ملاك الأراضى الزراعية .

ومع استحكام أزمة الطبقة الوسطى الصغيرة فى سنوات ما بعد الحرب العالمية الثانية ، ومع بقاء التنظيمات التى شكلتها ، رغم قوتها ، خارج إطار الشرعية السياسية التى صنعها الأعيان ، فقد كان منتظرا أن تتفاقم الأزمة السياسية التى تبدت فى الاضطرابات والمظاهرات ، فضلا عن التنظيمات السرية وأعمال الاغتيالات

الطبقة الوسطى

التى طالت عددا من رموز نظام الأعيان .

وتبدو الطبيعة الاجتماعية لأزمة الطبقة الوسطى الصغيرة خلال تلك الحقبة من ملاحظة أن مؤسسات الحكم لم تكن مغلقة أمام بعض من أنضم من طبقة الأعيان للتنظيمات التى شكلها أبناء هذه الطبقة .

يقدم الاستاذ إبراهيم شكرى نموذجا على ذلك باعتباره أبنا لأحد كبار الملاك من شربين ، فرغم مكانة الرجل المتميزة فى الحزب الاشتراكى (مصر الفتاة) فى تلك الفترة ، وهو الحزب الذى لم يدخل رئيسه أو رئيس أى من الجماعات الثلاث التى شكلتها تلك الطبقة إلى البرلمان فإن إبراهيم شكرى قد دخله .. ليس لسبب سوى أنه لم يكن ينتمى فى النهاية إلى الأفندية من أبناء الطبقة الوسطى الصغيرة !

ولم يكن هناك مناص من حدوث التغيير التاريخى لصالح هذه الطبقة فيما حدث فى ثورة يوليو عام ١٩٥٢، والتى قادها الضباط ممن كان ينتمى غالبيتهم فى أصولهم إلى هذه الطبقة ..

صحيح أنه كان هناك بعض استثناءات مثل آل محيى الدين ، زكريا وخالد، اللذين كانا ينتميان إلى طبقة الأعيان ، لكن يبقى فى النهاية أن خالدا على الأقل كان منحازا لتطلعات الطبقة الجديدة ، ثم الأهم من ذلك عبد الناصر الممثل الأمين لهذه الطبقة .

ولا شك أن السياسة التى تم اتباعها بامتداد الحقبة الناصرية انما كانت تسعى بالأساس إلى تحقيق مصالح هذه الطبقة بدءا من مجانية التعليم التى أدت إلى تخريج جحافل متتالية لتضخ فى الطبقة الوسطى الصغيرة إلى نظام القوى العاملة التى سعى إلى استيعاب هذه الجحافل والقضاء على الأزمة التى ظلت تعانى منها الطبقة فى ظل حكم الأعيان ، أو ضرب هؤلاء الأخيرين من خلال المصادرات الاقتصادية والسياسية المتتابعة التى استمرت سمة أساسية من سمات الفترة الناصرية ، وكان هذا الضرب يتم عادة لحساب الطبقة الوسطى الصغيرة ، فضلا عن المركزية فى التخطيط الاقتصادى والتى كانت تستهدف فى جانب منها توفير فرص الوظائف لأكبر عدد من أبناء هذه الطبقة المتعاظمة ، والذين لا يستطيعون الصمود فى عالم اقتصاد المنافسة الحرة .

وليس من تفسير لهدوء الشارع المصرى فى الحقبة الناصرية ، مهما تذرع البعض بالقول إن هذا الهدوء قد حدث تحت ضغوط العصا الناصرية الغليظة ، فالعصى وحدها لا تصنع هدوءا .. ليس من تفسير لهذا الهدوء سوى أن النظام الجديد قد نجح فى تحقيق مصالح الطبقة

الوسطى الصغيرة التى كانت المصدر الأساسى للقلاقل السياسية خلال سنوات ما قبل عام ١٩٥٢ .

* * *

ويذهب عبد الناصر ويأتى السادات وتقوم حرب أكتوبر عام ١٩٧٣ ، وما أعقبها من التحول من سياسات التخطيط المركزى ، التى حققت أساسا مصالح الطبقة الوسطى الصغيرة ، إلى سياسات السوق الحرة أو ما عرف بسياسات الانفتاح الاقتصادى والتى أصابت مع بداياتها أبناء هذه الطبقة بأضرار اجتماعية بالغة ، وبدأ أول تململ واسع قادته هذه الطبقة فى أحداث ١٨ و ١٩ يناير عام ١٩٧٧ ، صحيح أن شرائح من غير أبناء الطبقة الوسطى الصغيرة قد شاركت فى تلك الأحداث ، غير أن التنظيم والهتافات كانت تشى بقيادتها ، ثم أن الدراسة التى اجريت على من تم القبض عليهم بتهم القيادة والتحريض تؤكد هذه الحقيقة .

وتتزايد حدة الأزمة الاقتصادية التى تعانى منها الطبقة الوسطى الصغيرة مع تزايد أعدادها ، خاصة مع التوسع فى التعليم الجامعى وافتتاح عدد كبير من الجامعات الاقليمية الأمر الذى أثر كثيرا على توجهاتها السياسية ..

ومما ينبغى الاعتراف به هنا أن تلك التوجهات خلال الثمانينيات قد تحولت أساسا إلى الجماعات الدينية سواء فى شقها العلنى ممثلا فى جماعة الاخوان المسلمين ، أو شقها السرى ممثلا فى جماعة الجهاد والجماعات المماثلة .

ويمكن أن يعزى هذا التحول بالأساس من أبناء تلك الطبقة لسببين :

السبب الأول : الهجرة الواسعة لهؤلاء منذ النصف الثانى من السبعينيات وحتى يومنا هذا إلى الدول النفطية المحافظة التى عادوا منها وقد تأثروا تأثيرا شديدا بنمط المجتمع الدينى السائد فى تلك البلاد ، بل يلاحظ أن بعضهم قد تزيد فى هذا الاتجاه بشكل فاق ما عايشوه فى تلك المجتمعات، وهم فى الغالب قد ربطوا بين حل أزمتهم فيما حدث نتيجة للهجرة وبين طبيعة المجتمعات التى هاجروا إليها .

السبب الثانى : أن من لم يتمكن من الهجرة واستمر يعانى من الأزمة الاقتصادية فى مصر دون أن يجد ثغرة فى حائط اليأس الذى يواجهه قد أخذ بهذا الاتجاه على أمل أن يجد فيه الحل .

وتبقى مع ذلك الوضعية الاقتصادية للطبقة الوسطى الصغيرة من أهم العناصر التى تصنع التوجهات السياسية لغالبية أبنائها حتى يومنا هذا .

حنان عشراوي تسرق الكاميرا

بقلم : د. سلوى أبو سعدة

تابعناها وتعاطفنا معها جميعاً ، ليس فقط لكونها عربية فلسطينية ، صاحبة حق وقضية ، ولكن لحضورها الطاغي ، ولإبتسامتها المطمَئنة والمتَطمأنة ، ولبساطتها الراقية ، ولثقتها المتناهية بالنفس وبالقضَية ، ولقدرتها المذهلة على الإقناع ، وهى من أهم المستلزمات التى تحتاجها القضية الفلسطينية .

كانت حنان عشراوى المتحدثة الرسمية للوفد الفلسطينى كسباً لقضية قضايا العرب فى أحد أهم منعطفاتها ، فشدت الإنتباه ، ولفتت الأنظار ، بل وأقنعت بوضوحها وصراحتها العقول ، فسرقت « الكاميرا » فعلياً ، فى كل اللقاءات والحوارات الصحفية ، التى تحدثت فيها ، من كل المتحدثين الآخرين فى مدريد ، وواشنطن وموسكو وحتى فى داخل إسرائيل ذاتها ، مما جعل صحيفة « صنداى تلغراف » تصفها : بأنها ناطقة واضحة وواثقة من نفسها ، تطرح كلاماً معقولاً ، وكانت تلبى وبسرعة أى طلب لمقابلتها ... بينما كان أعضاء الوفد الإسرائيلى شخصيات بدون خيال ، كل همهم إلقاء اللوم فى كل شىء على العرب فإن حنان ورفاقها أمسكوا بكفاءة بالفرصة التى أُتيحت لهم .

إبنة رام الله

حنان عمرها من عمر القضية ، ولدت فى السنة التى تمت فيها أبشع جريمة إغتصاب للأرض فى التاريخ ، ابنة للطبيب الفلسطينى ميخائيل من القدس وهى أخت لثلاث شقيقات ، تعيش فى رام الله ، المدينة الفلسطينية التى تردد الإذاعات والصحف العالمية مقاومة أبنائها مع سكان الداخل فى أشجع وأطول إنتفاضة تعيشها الأرض المحتلة على إمتداد ما يزيد على أربع سنوات ، دونما ككل أو وهن ، رغم كل الأساليب القمعية والأحكام التعسفية التى يتفنن المحتل الإسرائيلى المدجج بأحدث وأكثر



الأسلحة فتكاً ، فى إتباعها ، لإجهاضها ،فلا تزيدها إلا اشتعالاً .

هذا العدو الذى تعودت وتمرست حنان منذ نعومة أظافرها على معايشته طفلة وطالبة وأستاذة للأدب الانجليزى فى جامعة « بيرزيت » حيث شغلت منصب العمادة لعدة سنوات ، بعد حصولها على الدكتوراة ، من جامعة فيرجينيا بالولايات المتحدة ، تعرف كيف تتعامل مع ألوان الارهاب الإسرائيلى ، وكذا التفتيش التعسفى الذى تتعرض له فى كل مرة تغادر فيها القدس ، فمن الوفد الفلسطينى لمفاوضات السلام . كيف وهى التى تعيش مع زوجها إميل عشراوى الفنان والمصور الذى التقت به فى امريكا وتزوجته فى عام ٧٦ ومع ابنتيها " أمل " ١٤ سنة ، و " زينه " عشر سنوات ، يعيشون معاً فى مسكن يجاور مباشرة مسكن الحاكم الإسرائيلى ذاته .

معرفتى بحنان عشراوى لم تقتصر على مشاهدتها عبر شاشات التليفزيون ، بل كان لقائى بها فى القاهرة فى الواحدة بعد منتصف الليل ضمن أعضاء الوفد الفلسطينى المسافر لمدريد للاشتراك فى مؤتمر مدريد .. وعند رؤيتى لها أحسست بحضورها القوى ، الذى شعر به الجميع عند رؤيتها وهى

حنان عشراوى

تدلى بتصريحاتها وتعليقاتها الصحفية ، فأدركت فى لحظتها لماذا أطلق عليها الإعلام الأمريكي والغربى " المرأة الأولى فى الإنتفاضة " ، وسيدة فلسطين الأولى ، وهو ما أكدته صحيفة " التريبيون " عندما كتبت : « أن السيدة ذات الشعر الأسود القصير كانت تتقاذفها أمواج الإعلاميين بحيث يفقد حراسها السيطرة فى كل مرة ، لكنها لم تتخل عن إبتسامتها فى أى وضع ، وما أن تصل إلى المنصة حتى تصبح لها السيطرة ... أن هذه الأستاذة الجامعية المثقفة والسياسية بالفطرة عرضت قضيتها على العالم بثقة هادئة ، وبوعى متبصر ، وبوضوح جلى ، لقد أعطت العالم صورة جيدة عن شعبها » .

فأهم ما تتسلح به حنان عشراوى ، وهى التى لم يسبق لها وأن تمرست على العمل السياسى أو العسكرى المنظم ، القناعة والإيمان بعدالة قضيتها وبشرعية مطالبها ، مدركة فى ذات الوقت بعدم قانونية وبعدم شرعية كل أسانيد وإدعاءات هذا العدو المحتل تاريخياً وجغرافياً وحضارياً . لذا جاءت تعليقاتها لا إنفعال فيها بعيدة عن أية بلاغة لفظية أو حذلقة لغوية ، وهى الاستاذة التى تملك ناصية اللغة الإنجليزية ، فلا كلمات معادة ، ولا مراوغات فى الردود ، فشهد لها الجميع بالصراحة والوضوح فى التعبير حتى عند تناولها لأكثر القضايا حساسية وأشدها خطورة . مما دفع السفير الإسرائيلى فى واشنطن " زالمان شوفال " إلى مهاجمتها فى أحد مؤتمراته الصحفية ، متهماً أياها بأنها تتطلع إلى وظيفة المتحدثة الرسمية بإسم الخارجية الأمريكية . ونسى شوفال أن منزل حنان عشراوى فى رام الله أصبح مزاراً للعديد من الوفود و الشخصيات الإسرائيلية المساندة للسلام الفلسطينى الجديد ، والمطالبة بالإعتراف بالمنظمة ، كممثل شرعى ووحيد للشعب الفلسطينى ، واخر تلك الوفود ، وفد من حركها النساء لدفع مسيرة السلام ، بل واجتمعت معها " يائيل ديان " أبنة موشى ديان الذى كان أحد صقور اسرائيل .

فلعقلانية ومنطق حنان عشراوى وتفهمها للقضية بخلاف كونها صاحبه حق ، يمكننا التعرف من خلال تصريحاتها على سياسات ومنطلقات التحرك السلمى الفلسطينى فى المرحلة الراهنة ، فنجدها فى تصريح لها تقول فى بعضه :

« غير مقبول وقف الإنتفاضة ، فهى غير خاضعة للمساومة ولا للتفاوض ،

لأنه حركة شعبية تلقائية ، ترد على القمع الإسرائيلى من خلال بناء بنية شعبية فلسطينية . الإنتفاضة لن تتوقف إلا بإنتهاء الأسباب التى أدت إلى تفجرها ، والأسباب معروفة وهو الإحتلال الإسرائيلى وللإنتفاضة هدف وبرنامج سياسى وهو بناء الدولة الفلسطينية .

وعن العمل داخل فلسطين ولجمع وتوحيد الصفوف بين فلسطين الداخل وراء المسيرة السياسية قالت عشراوى :

« زاد عملنا اليومى لأنه لايوجد لدينا راديو ولا تليفزيون ، والصحافة الفلسطينية مراقبة ، فالطريق الوحيد المفتوح أمامنا هو طريق التخاطب والحوار المباشر . فأعضاء الوفد سواء الرسميين أو الإستشاريين أو الإعلاميين يطوفون بمختلف المدن والقرى ، لشرح وتحليل المواقف والأحداث دون مبالغة سواء بالسلب أو الإيجاب للشعب الفلسطينى » .

وعن مدى تفهمها للعقلية الإسرائيلية وطبيعة المواجهة الحالية معها قالت :

« الموقف الإسرائيلى موقف متشنج ومتصلب وقائم على طرح أقصى المواقف ، وهذا الموقف يتجاهل حتى الشارع الإسرائيلى . وإسرائيل تحاول وستحاول تعويض وتدمير عملية السلام بأى شكل ، اسرائيل تحاول الهروب من حق السلام والهروب من مواجهة المفاوض الفلسطينى الذى يعرف جيداً كيفية مواجهة المفاوض الإسرائيلى » .

هذا المفاوض الفلسطينى الذى حدد فى كلمته فى مؤتمر مدريد الهدف الذى تؤمن به حنان عشراوى تؤمن به جموع فلسطين الداخل والخارج وإنه فى الشرق هناك دولة مفقودة ، وهى دولة فلسطين ينبغى أن تولد تلك الدولة على أرض فلسطين .... نود أن نخاطب الشعب الإسرائيلى الذى تبادلنا معه الآلام لفترة طويلة لنتقاسم الأمل بدلا من الآلام ... نحن على إستعداد أن نعيش جنباً إلى جنب على الأرض ونشاطر ونشترك معا فى صنع المستقبل »

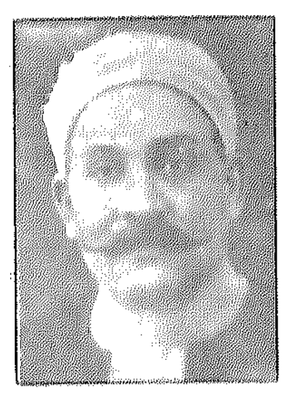
فهل تتحقق نبوءة أحد أعضاء الوفد الفلسطينى عندما صرح بأنه فى يوم ٣١ أكتوبر فى مدريد أسسنا الدولة الفلسطينية ؟! .

الأدب والتجديد

بقلم : د . أحمد هيكل

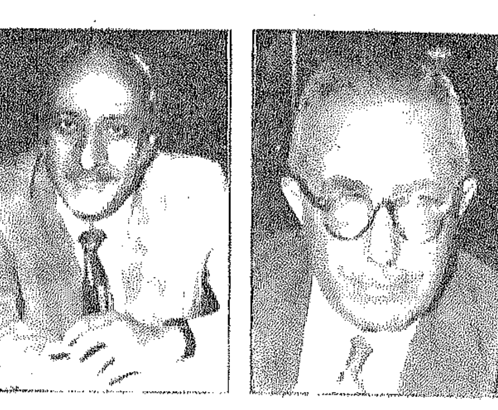
فحين انفتح وجدان أدبنا العربى على الفكر الاسلامى فى صدر الإسلام ، دخل هذا الأدب طورا مضيئا ، أشرق بالقيم الإسلامية المجيدة والتعاليم المحمدية الرشيدة ، وأصبحت لغته أكثر سماحة ، وأنصع فصاحة ، وصارت روحه أدنى إلى الإنسانية وأقرب إلى المدنية ، بفضل ما رفده من الروح القرآنية والبلاغة النبوية ، وهكذا حلت فى الأدب قيم السلام والوئام ، محل قيم الصراع والخصام ، وقامت فيه تعاليم الحب وطهارة الوجدان ؛ على أنقاض تعاليم الكراهية والزهو بالعدوان ، وأصبح هذا الأدب العربى - مع الإسلام - يمثل المدنية العالية والإنسانية السامية ، بعد أن كان - فى الجاهلية - يمثل البداوة المتخلفة ، والقبلية الخشنة .. وحين اتسعت رقعة الأمة العربية وأتيح لها أن تنفتح على حضارات وثقافات أخرى ، دخل الأدب العربى مرحلة جديدة من مراحل تطوره


محمود تيمور


مصطفى المنفلوطى

وتجدده ، وهكذا أخذ من فلسفة اليونان وحكمة الهند وفكر الفرس ، وعرف أشكالا من التعبير وفنونا من التصوير ، لم يكن ليعرفها لولا هذا الانفتاح للتطور والاقبال على التجدد .. وإذا تجاوزنا بهذا الأدب أقاليمه الشرقية وتتبعناه فى بيئته الغربية الأندلسية ، وجدنا آثارا باهرة لاستجابة هذا الأدب للتطور فى ذلك المناخ الجديد ، حتى لقد وصل الأمر به إلى إبداع ألوان من الفن القولى لم تُعرف فى الشرق ، ومن تلك الألوان مثلا : الموشحات فى الشعر ، والقصصُ الأخرويُّ فى النثر . وأقصد

● الأدب مثل كل كائن حى ، لا يمكن أن يعيش إلا بالتطور والتجدد ، لأنه إذا ظل على صورته أصيب بالتوقف والتجمد .. وقد عرف تاريخنا الأدبى هذا على امتداد القرون وتعدد البيئات فَكُلُّ ما كان من ازدهار لأدبنا العربى ، قد ارتبط بالاستجابة للتطور والتفتح للتجدد ، وكل ما كان من تخلف لهذا الأدب - فى بعض الفترات أو البيئات - كان أثرا من آثار الانغلاق والتقوقع .




د. محمد حسين هيكل   صلاح عبد الصبور

بالقصص الأخروى ، هذا القصص الذى يتخذ مسرح أحداثه عالما آخر غير عالمنا ، كعالم الجن والدار الآخرة والسماوات ، وما إلى ذلك .. فشكل الموشحات فى الشعر - هذا الشكل الذى يعد أكبر ثورة فى موسيقى القريض العربى - نتاج أندلسى خالص ، قد جاء نتيجة لتطور الشعر العربى وتجدده فى تلك البيئة الغربية الجديدة .. وشكل القصص الأخروى فى النثر - هذا الشكل الذى سَبَقَ بأول نماذجه الأديبُ الأندلسىُّ أبو عامر بنُ شهدُ كلٌ من كتبوا على منواله فى الشرق والغرب كأبى العلاء فى رسالة الغفران و « دانتى » فى الكوميديا الالهية - هذا الشكل نتاج اندلسى خالص كذلك ، قد جاء أيضا نتيجة لتطور النثر العربى وتجدده فى تلك البيئة الغربية الجديدة .. وعلى العكس من ذلك نرى أدبنا العربى قد تخلف وتجمد حين انغلق وتقوقع ، وذلك فى عهود سيطرة الأتراك والمماليك .. على أنه عاد إلى الارتقاء والحياة والازدهار ، حين تفتح من جديد واستجاب - فى العصر الحديث - للتطور والتجدد .. فبهذا التفتح خرج الشعر - منذ منتصف القرن الماضى - من الركاكة المطرزة بالبديع ، - والمشبهة للجثة الميتة المكفنة بالديباج - إلى البلاغة الحية والأصالة النابضة والشاعرية الحقة ، وكان ذلك مع أول حركة إحياء لشعرنا العربى فى العصر الحديث وهى الحركة التى رادها البارودى .

الأدب والتجـــــديد

موجات متتابعة للتجدد

ثم توالت خطوات التطور صاعدة إلى أعلى ، وتتابعت موجات التجدد دافعة بالفن الشعرى فى مدارج الرقى . فكانت أولا حركة التجديد بين الذهنيين ، الذين رسموا للقصيدة طريق الوحدة الفنية ، والتعبير بالصورة الشعرية ، ونادوا بالصدق الفنى ، واهتموا بالخيط الفكرى فى النسيج الشعرى حتى أصبح لنا مع هؤلاء التجديديين الذهنيين – وفى مقدمتهم العقاد العملاق – أصبح لنا شعر يخاطب العقل كما يخاطب القلب ، ويصور خطرات الفكر كما يرسم تموجات الوجدان ، وهو قبل هذا لا يضل فى نماذج الشعر المأثورة، وإنما يحاول أن يدل على صاحبه كما تدل عليه سماته وملامحه .. ثم جاءت بعد ذلك حركة الابتداعيين العاطفيين ، الذين ألهبوا القصيدة الحديثة بالعاطفة الجياشة، وأطلقوها محلقة بالخيال المجنح، وأنطقوها بلغة جديدة الصفات حديثة السمات فاتنة الملامح .. وهكذا أصبح لنا مع هؤلاء الشعراء الابتداعيين العاطفيين – وفى مقدمتهم ناجى العظيم – شعر عصرى واضح العصرية ، لا تقل نماذجه الممتازة عن مثيلاتها فى الأشعار العالمية .. ثم تلت تلك الحركة حركة أصحاب الشعر الحر ، الذين اهتموا بقضايا الإنسان المعاصر فى معاناته وعذاباته ، من أجل الحرية والعدل وسلام الروح ، والذين اعتمدوا فى موسيقى شعرهم على وحدة التفعيلة بدلا من وحدة البيت ، ولم يلتزموا تماثل القافية فى أواخر أسطر القصيد ، وإنما آثروا القوافى الحرة ، التى تأتى فى أواخر الأسطر متقاربة أو متوازية أو معتمدة على قافية رئيسية تأتى بين الحين والحين لتضبط الايقاع .. وهكذا أصبح لنا مع حركة الشعر الحر – التى رادها الشرقاوى وأصلها صلاح عبد الصبور – شعر أكثر معاصرة وأوضح حداثة . وأضافت نماذجه الجيدة وترا جديدا إلى قيثارة الشعر العربى ، وهو وتر أوسع استجابة لمقتضايات الأعمال الدرامية والقصصية التى تريد أن تتحدث بلغة الشعر وقد جاءت تلك الحركة كسابقاتها نتيجة للانفتاح الأدبى ، واستجابة لمقتضيات التطور والتجدد ، اللذين هما أساس التقدم والازدهار .

التأثر بالغرب

وبهذا الانفتاح الأدبى أيضا غَنِىَ أدبنا الحديث منذ أوائل القرن العشرين بفنون من النثر كان من قبل فقيرا فيها أو معدما منها ، وأهم تلك الفنون ، فنون القصة والرواية والمسرحية . فبفضل انفتاحنا على الأدب الغربى ، وبفضل تعرف روادنا الأوائل العظام على تلك

الفنون ، وبفضل تغير المناخ الثقافى والفكرى والأدبى تغيرا مستنيراً نتيجة لكل حركات الاحتكاك الثقافى بالغرب طيلة القرن الماضى ؛ بفضل ذلك كله ظهرت فى أدبنا القصة القصيرة مع محمد تيمور - بعد محاولات ممهِّده من المنفلوطى وغيره - كما ظهرت الرواية الفنية مع محمد حسين هيكل - بعد محاولات ممهدة كذلك من مترجمين وممصرين ومؤلفين آخرين - كما ظهرت المسرحية الناضجة ، شعرية مع شوقى ونثريه مع الحكيم .. (وتتابعت المؤلفات القصصية والروائية والمسرحية ، وتعددت الاتجاهات وتوالت الأجيال ، حتى تأصل الأدب القصصى والمسرحى عندنا ، وأصبح يتصدر فنون الأدب الأخرى ..)

فتح النوافذ الثقافية

وهكذا نرى أن حياة أدبنا ارتبطت بالتفتح والتجدد ، وأن جموده ارتبط بالانغلاق والتجمد .. (ومن هنا كان علينا أن نعى دائما أن فتح النوافذ الثقافية والأدبية ضرورة حتمية ، وأن التعرف الواعى على ما عند الآخرين فريضة قومية وأن الإفادة من النافع والملائم والجيد الذى لدى هؤلاء الآخرين ، إنما هو الدم الجديد الذى يعالج « الأنيميا » الأدبية .. ولكن علينا أن نعى فى الوقت نفسه أننا لا نستبدل دما بدم ، ولانفرغ أنفسنا من حقيقتنا لنقحم فى كياننا حقيقة أخرى .. علينا أن نعى دائما أننا حين نأخذ عن الغير أنفع ما عنده وأنسب ما عنده وأحسن ما عنده، إنما نأخذه لنضيف إلى ما عندنا ، لا تلغى ما عندنا . نأخذه لنطعم شجرتنا ، لا لنجتث تلك الشجرة . نأخذه لنجمل ملامح أدبنا بالتوليد الخصب والمزاوجة المثمرة ، لا لنمسخ تلك الملامح بالخلط العقيم أو الترقيع المشّوه .. والسبيل إلي ذلك - كما نقول دائما - هو معرفة تراثنا والارتباط به والإفادة منه والبناء عليه والإضافة إليه ، ولكن دون التكبل به والعبودية له .. كل ذلك على التوازى مع التطور والتجدد ، بالتعرف على ما عند الآخرين والانتقاء منه والتطعيم به والتقوىً عليه ، ولكن دون التّغرُّب به والفناء فيه .

وإن نظرة مراجعة فاحصةً لأعلام أدبنا الحديث لتُصَدِّق ما نقول . فالذى تصدر منهم المسيرة وبلغ القمة هو من بنى عظمته على دعامتى التراث والانفتاح على الجديد ، مثل شوقى وطه حسين والعقاد والزيات .. وأما من جعل همه التراث وحده، فقد كبله التراث وعوق مسيرته ، وأما من جعل وجهته الأدب الغربى وحده ، فقد غرّبه هذا الأدب وأفقده هُويّته .. وأدبنا لا ينهض أبدا بالمكبلين ولا بالمغّربين ، وانما ينهض بالرواد الحقيقيين ، الذين يؤمنون بأن أول التجديد هو قتل القديم درسا ، وان أساس كل نهضة إنما يقوم على الأصالة والمعاصرة ، والأصالة ركيزتها التراث ، والمعاصرة روحها الانفتاح والتطور والتجديد .

السيرة الذاتية وجذور الإبداع

بقلم : د . مصطفى سويف

تناولنا فى مقالين سابقين موضوع السيرة الذاتية ، وكان ذلك بالإجابة عن سؤالين رئيسيين ، أولهما : ما هى السيرة الذاتية ؟ والثانى : كيف تُكتب السيرة الذاتية ؟ وقد آن الأوان للإجابة على هذا السؤال الثالث : لماذا نكتب السيرة الذاتية ؟ ونحن لا ندعى هنا أن كل من يتقدم لكتابة سيرته الذاتية يبدأ بأن يطرح على نفسه هذا السؤال ، ولا ندعى كذلك بأن طرح هذا السؤال ضرورة لابد منها كنقطة للبدء وبدونه يكون الكاتب قد حكم على نفسه مقدما بالفشل، ولكننا نرجّح أن تكون إثارة هذا السؤال داعية لمزيد من إنضاج التصور السائد عن السيرة عند الكاتب والقارئ معاً ، وأن ذلك من شأنه أن يزيد من تجويد الكاتب لما يكتب ، كما أن من شأنه أن يزيد من قيمة العائد الذى يجنيه القارئ من قراءة هذه السيرة أيًا كانت القيم والمعانى التى يبحث عنها وهو يقرأ ، والتوجهات التى تملى عليه قراءته .



لماذا نكتب السيرة الذاتية

مهما تكن الأسباب الدافعة القريبة ، أو الأهداف المقصودة البعيدة ، الكامنة وراء كتابة السير الذاتية على اختلاف كُتّابها ، ومستكتبيها ، فهناك محور رئيسى يضم هذه الأسباب والمقاصد جميعا هو شعور صاحب السيرة ، أو حكم من يستكتبونه ، بأن سيرته تنطوى على قيمة عامة تستحق النشر وأنه من الخير أن تقدّم هذه القيمة لتحتل المكانة اللائقة بها فى نسيج الحياة الفكرية والاجتماعية .

على هذا النحو نفهم ما ورد فى المقدمة التى وضعها إدوين بورنج ، أحد أساتذة علم النفس الأفذاذ ، لمجموعة من السير الذاتية التى كتبها عــدد من كبار أساتذة هــذا العلم فى مجموعة كارل مرتشيزون الصادرة سنة ١٩٥٢ ، تلبية لطلب الجمعية الأمريكية لعلم النفس . قال بورنج : « إن بإمكان ما يحدّثنا به الكاتب عن نفسه ، وعن قيمه ، أن يمضى شوطا بعيداً فى تنبيه القارئ إلى الكيفية التى تتحرك بهــا الدوافع البشرية لتصنع التقدم العلمى » . وقال فى موضع آخـر : « وسوف يرى قارئ هذا المجلد إلى أى مدى يتبـاين هؤلاء الكتّاب فى طبيعة جهودهم » ، يعنى أن هذه الجهود مختلفة رغم أدائها لوظيفة واحدة هى الإسهام فى تقدم العلم . وقال فى موضع ثالث : « وقد بلغ هؤلاء الرجال ذلك العمــر الذى إذا توقفوا عنده ونظروا إلى الوراء كان ذلك مفيدا » .

وحول هذه المعانى نفسها قال تشارلز داروين فى مطلع سيرته الذاتية : « وأنا أعلم أنه كان من الممكن أن يثير اهتمامى أن أقرأ شيئا كتبه جـدى بنفسه عن تفكيره ، حتى ولو كان ما كتبه مجرد مخطط شديد الإيجاز ثقيل الظل ، لأعرف فيم كان يفكر ، وكيف كان ينتقل من الفكر إلى الفعل ، وكيف كان يؤدى أفعاله » . قال هــذا مشـيرا إلى جـده إرازموس داروين ، وكان عالما مرموقا فى علم

السيرة الذاتية وجذور الإبداع

الحيوان عاش فى القرن الثامن عشر .

وفى سياق مشابه يتمنى أحد كتاب الهلال الأفاضل ، الأستاذ زكريا سعيد على ، أن يكتب الأستاذ محمود شاكر ، الفقيه اللغوى الجليل ، سيرته الذاتية (راجع « الهلال » ، عدد ديسمبر سنة ١٩٩١) . يقول الكاتب : « فهل يوفر علينا الشيخ الجليل ذلك ويحدّثنا عن حياته ، ويفتح لنا من صفحته وتجربته ؟ إننى فى شوق لسماع مثل ذلك ورؤية أيامه الماضية مسطورة بمداده المنير ، وإن هذا لفيه من الخير العميم لناشئة هذه الأمة وأدبائها جيلا بعد جيل » .

فى هذه الأقوال جميعا نستطيع أن نستشف شعور الكاتب ويقينه بأن السيرة الذاتية التى يشير إليها تمثل قيمة إيجابية ، ومن أجل هذه القيمة ينبغى الحرص على نشرها بين الناس ، أو بين النشء بوجه خاص .

القيمة الأساسية التى تنطوى عليها السيرة

يمكن الحديث هنا عن عدة جوانب تتضمنها هذه القيمة ، ولا يعنى ذلك أن هذه الجوانب جميعا تتوفر فى كل سيرة على حدة مهما تكن طبيعة المجال الذى اهتم به صاحبها ، أو حدود المساحة التى شملها نشاطه ، ولكنه يعنى أننا إذا نظرنا إلى السير الذاتية فى مجموعها وجدناها تنطوى على هذه الجوانب جميعا ، وربما انطوت على أكثر منها ، أما نصيب كل سيرة فقد يكون جانبا واحدا ، كما قديكون أكثر من جانب .

الأبعاد أو الجوانب إذن متعددة فى مجموع السير المطروحة ، ومادمنا لا ننظر فى أمر سيرة بعينها ولا يعنينا إلى النشر العام لكل ما هو إيجابى فقد وجب أن نركز بقية الحديث فى مقالنا الراهن حول هذه النقطة ، ويصبح السؤال الآن : ما هى أهم هذه الجوانب ؟

يخيل إلينا أن هناك أربعة أبعاد رئيسية ، تنطوى عليها القيمة العامة للسيرة الذاتية ، هذه الأبعاد هى بمثابة مهام كبرى تقوم بها السير الذاتية المنشورة فى حياتنا الفكرية بوجه خاص والاجتماعية بوجه عام . وفيما يلى نذكر هذه المهام ونناقشها واحدة بعد الأخرى .

المهمة التربوية العامة

هذا هو أوضح جوانب القيمة الإيجابية للسيرة ، بمعنى أنه أقل المهام إثارة للجدل . أما كيف يتم أداء هذه المهمة هناك عدة قنوات ينفذ من خلالها تأثير السيرة إلى قرائها : يأتى فى مقدمتها قناة الاقتداء بمعنى أننا هنا بصدد شخص وصل فى إنجازه إلى مستوى يرشحه لأن يصير قدوة . فهذا وحده يستثير قدراً من حب الاستطلاع الذى يمتزج أحيانا بالإعجاب ، وهو ما يوفر لدينا دافعا فيه الكفاية لنقرأ سيرته الذاتية ، ويوفر لدينا فى الوقت نفسه استعداداً لأن نتأثر بما يرد فى هذه السيرة ، ويكون ذلك على

سبيل المحاكاة الساذجة حينا ، والتعلم الناضج حينا آخر .

جاء فى السطور الأولى للسيرة الذاتية لبرتراند رسل ما نصه : « ثلاث عواطف بسيطة لكنها بالغة القوة ، هى التى حكمت حياتى : الحنين إلى الحب ، والبحث عن المعرفة ، وإشفاق لا حدود له على الإنسان فى معاناته . وقد فعلت هذه العواطف بى ما تفعله الريح العاتية ؛ عصفت بى هنا وهناك فى طريق لا يستقر له قرار ، فوق محيط زاخر الأعماق بالألم ، حتى لقد وصلت بى إلى حافة اليأس والضياع أو كادت .. وبقدر ما تمكنت من الحب والمعرفة فقد وجدتهما يرقيان بى الى عنان السماء . لكن الإشفاق كان يردنى دائما الى الأرض . كانت أصداء صرخات الألم تجد لها رنيناً فى قلبى .. كنت تواقا الى تخفيف الألم ، لكنى عجزت ، ومضيت أنا نفسى أعانى . هكذا كانت حياتى . وقد وجدتها جديرة بأن تعاش . ولو أننى مُنحت فرصة حياة أخرى لعشتها مرة أخرى ، سعيدا بها » . هـذا نموذج لما ورد فى سيرة ذاتية تجبرنا على أن نفيد منها تربويا .

ومع ذلك فما تكشف عنه المهمة من وضوح يوحى بأن أمر تحقيقها ميسور دون عقبات أو محاذير يبدو نوعًا من الوضوح أو اليسر الخادع المحفوف بالمخاطر ؛ فقد يرد فى كثير من اليسر ذكر بعض الأعمال والعادات التى يرفضها من كان همُّه تربية النشء ، ويتردد أمامها كثيرا من كان مراده تربية نفسه . مثال ذلك ما يذكره كولريدج ، الشاعر الرومانسى الإنجليزى ، الذى عاش فى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر ، وقد ذكر فى خطاباته الشخصية (وهى تؤدى بعض مهام السيرة الذاتية) إدمانه تعاطى الأفيون . وفى بعض المواضع يبدو هذا الإدمان مغريا لنوع معين من القراء بمحاكاته لأنه (كما قدمه كولريدج فى بعض المواضع) كان وراء الإشراقات الشعرية المبهرة ، فى قصيدته كوبلاخان ، لكنه فى مواضع أخرى يبدو مصدراً لكثير من العذاب والتدهور الذى أصاب الشاعر ، هنا فى هذا الموضع ، وفى أمثاله ، وهى منتشرة بكثرة فى السير الذاتية وما يقرب منها من كتابات النابهين والعباقرة ، هنا تكون المشكلة الحقيقية ، أو بالأحرى إحدى المشكلات التى تواجه المهمة التربوية للسيرة الذاتية للنوابغ والمبدعين ، ولا يتسع المقام هنا للدخول فى هذا المجال ومناقشة قضاياه المتعددة والمعقدة ، ولكن حسبنا أن نقدم فى هذا الصدد تعليقا موجزا نختم به هذه الفقرة ، خلاصته أن السيرة الذاتية تعتبر أولا وقبل كل شىء نموذجا من نماذج الحياة المطروحة أمامنا ، والمطروحة علينا كصيغة للاسترشاد بها فى تنشئتنا الغير أو فى تربيتنا أنفسنا ، كل ما فى الأمر أن هذه السيرة نموذج مكثَّف من حياة شديدة الثراء بأنواع معينة من الخبرة ، وأن

تكون علاقته بالإنجاز النهائى علاقة السبب بالنتيجة فهذا غير صحيح ، فقد يكون الإنجاز الذى تم تحقيقه إنما تم بالرغم من بعض أحداث حياة صاحب السيرة لا بفضلها . وليس ثمة ما يمنع أبداً من تبنّى وجهة نظر متفتحة نحو هذه السير ، أو ما نسميه وجهة نظر انتقائية . على أن السؤال هنا مطروح على كل مشتغل بالتربية ، ومؤداه : كيف يمكن الإفادة تربويا من هذه السير ؟ وليس مطروحا الخيار بين أنْ نفيد أو لا نفيد .

المهمة التأريخية للحياة الاجتماعية العامة

تتراوح السير الذاتية من حيث نسيجها أو بنيتها الداخلية بين سير شديدة الذاتية ، يقدّم الكاتب فيها أحداث حياته الشخصية كما لو كانت تقع فى فراغ ، ولا يحركها إلا قراراته هو شخصيا ، وسير شديدة البيئية ، يتناول فيها صاحب السيرة أحداث حياته كما لو كانت محكومة تماما بظروف الحياة الاجتماعية التى أحاطت به .

وقد تحدثنا فى مقال سابق عن المكونات الرئيسية للسيرة الذاتية ، وذكرنا من بينها ما أسميناه (حسب بحوث علماء النفس فى قوانين الذاكرة البعيدة) باسم « الأنوار الكاشفة » ، وهى رواسب الذاكرة لدينا حول بعض الأحداث العامة المحلية أو العالمية ، وقلنا إن هذه العناصر تقوم عند الكثيرين منا بمثابة كيانات أو بؤر نفسية ذات طاقة عالية فى جذب كثير من الذكريات شديدة الذاتية نحوها وتثبيتها لفترات زمنية طويلة . وأنها لذلك تكون بمثابة نوع من الأعمدة الأساسية فى تثبيت بنيان الذاكرة البعيدة ، ومنها تنفذ بهذه الصورة نفسها الى معمار السيرة الذاتية . هنا فى هذا الموضع بالذات يبدو قدر كبير من القيمة التأريخية الاجتماعية للسيرة . ويصبح السؤال الوارد فى هذا الموضع ، هو : ماذا تضيف هذه السير الى التاريخ الاجتماعى ؟ ويمكن صياغة الإجابة على هذا السؤال على النحو الآتى : إذا أحسن المؤرخون استغلال هذه السير ، باعتبارها وثائق تاريخية تخضع لجميع أنواع التمحيص العلمى ، فسيكون فى ذلك تجديد لكتابة التاريخ ، وسيمضى هذا التجديد فى الاتجاه الى مزيد من صدق الرواية التاريخية من حيث إن الصدق هو مطابقة القول للواقع . فالتاريخ كما نجده فى معظم الكتب المتداولة يعانى من سوأتين ، إحداهما أن يقتصر فيما يروى على شريحة ضيقة من الأحداث التى وقعت فى المجتمع ، هى فى أغلب الأحيان أحداث تتعلق بجهاز الحكم وقراراته بدعوى أن هذه الأحداث هى المعالم البارزة لحركة المجتمع عبر الشهور والأعوام . هذه إحدى السوأتين ، والثانية هى أنه يقدّم هذه الأحداث مبتورة من سياقها فى حياة المجتمع ، فلا ذكر للمقدمات البشرية

الحقيقية التى أدت إليها ، ولا للانعكاسات البشرية الواقعية التى ترتبت عليها . والنتيجة أن الأحداث المسماة بالتاريخية تبدو وكأنها كيانات ميتافيزيقية منفصلة تتوالى كما تتساقط حبات السبحة من بين الأصابع فى يد لا نعرف شيئا عن صاحبها .

والنتيجة النهائية أن يترسّب فى ركن مظلم فى عقل الدارس شعور بأن أحداث التاريخ تحركها قوى لها صفات القَدَر ، فهى مجهولة الهوية من ناحية ، ومطلقة القوة من ناحية أخرى . وهكذا ، بدلا من أن تكون دراسة التاريخ أداة لتنمية الشعور بالإرادة الجماعية ، وبأن المجتمع يصنع تاريخه من خلال ضروب من الصراع والتعاون متلاحقة فى مواجهة قوى وقيود ضاغطة ، تصبح هذه الدراسة أداة لوأد هذا الشعور . وحتى عندما يحاول بعض المؤرخين أن يوسعوا دائرة النظــر قليــلا بتحليــل الحــدث الذى يقدمونه فهم يلجأون إلى أساليب غاية فى السذاجة ، كالرجوع إلى تصريحات رسمية أو خطب جماهيرية ، أو يرجعون إلى ذكر أحداث عامة أخرى سبقت الحدث الذى يعنيهم ، وكأنمــا الأحــداث التاريخيــة لا علاقة لها بهوية الأشخاص المؤدين لها والدوائر التى يتحركون بداخلها ، وما يتم داخل هذه الدوائر من فعل وانفعال

إن السيرة الذاتية المكتوبة من خلال إطار ذهنى يحدوه وعى رفيع المستوى بأمور الهم العام (إلى جانب الهموم الخاصة) كفيلة بأن تقدم المادة الخام التى يلزم المؤرخ المجتهد أن يحصل عليها لكى يكتب التاريخ بصورة تبرز بشرية الأحداث من خلال إلقاء الأضواء الواقعية على بشرية مقدماتها ونتائجها . وحتى إذا كنا لا ننتظر من المؤرخين أن ينهجوا هذا النهج فى المستقبل المنظور فمن حقنا على بعضنا البعض ، نحن المواطنين الكُتَّاب والقراء ، أن نعمل على تصحيح هذا الجانب فى التاريخ المكتوب ، من استطاع منا أن يكتب فليكتب ، موليا هذه « الأنوار الكاشفة » حقها من العناية ، ومن استطاع أن يقرأ فليقرأ هــذه السير ليستمد منها ما يسد به بعض ثغرات التأريخ التقليدى . فالتاريخ مسار بشرى ، يتقدم من خلال تلاطم وتلاحم آلاف الإرادات ، وكلما اقتربنا من مشهد هذه الإرادات فى واقعها قبل الحدث وبعده ازداد التاريخ إفصاحا عن حقيقة ماجرى . ولا يعنى ذلك أن يتمادى المؤرخون فى الاهتمام بالتفاصيل بحيث يغيب عنهم إدراك الحدث فى مجمله، ولكن لا يجوز من ناحية أخرى أن يتم الاهتمام بالحدث فى جملته على حساب المفــردات الإنسانيــة التى أسهمت فى صنعه . إن ما ندعو إليه من شأنه أن يلقى فى نهاية المطاف مزيدا من الضوء على مشكلة غاية فى الأهمية بالنسبة لعلماء التاريخ والاجتماع والفلاسفة على حد سواء ، وهى « دور الفرد فى التاريخ » .

« البقية فى العدد القادم »

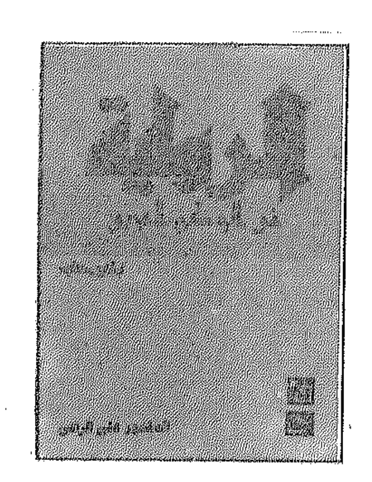
عن كتاب الدكتور على الراعى « الرواية فى الوطن العربى .. نماذج مختارة » :



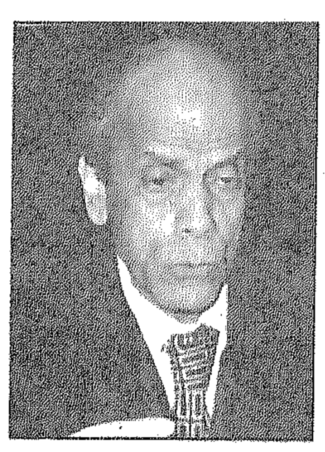
بقلم : فاروق عبد القادر

● فى تقديم كتابه « دراسات فى الرواية المصرية ، ١٩٦٤ » ، يذكر الدكتور على الراعى أنه سئل لماذا وجه اهتمامه إلى الرواية المصرية ، ولم يتجه - مباشرة - نحو دراسة المسرحية المصرية دراسة شاملة ، وكان جوابه الواضح : « إن أية دراسة للجهد العربى المعاصر فى المسرح لا يمكن أن تكون عميقة بعيدة الجذور ما لم تسبقها دراسة للرواية والقصة . ليس فقط لأن المسرح وثيق الصلة بفنون القصة .. (...) ، بل لأن كثيرا من المشاكل الفنية والفلسفية والوجدانية التى واجهت كُتاب الرواية قد واجهت كُتاب المسرح فيما بعد (...) ، من أجل هذا كان لابد أن تمسح الأرض القصصية أولاً ، قبل أن تدرس المسرحية دراسة ذات بال .. » ، ومن ثم كانت تلك الفصول ، قصد بها صاحبها أن تؤلف « الجزء الأول من دراسة شاملة عن الرواية المصرية » ..

لكن الذى حدث هو أن أضواء المسرح وقضاياه شغلت الأستاذ الكبير ، فتتابعت أعماله : « الكوميديا المرتجلة فى المسرح المصرى، ١٩٦٨ » ، « فنون الكوميديا من خيال الظل إلى نجيب الريحانى، ١٩٧١ » ،« مسرح الدم والدموع ، ١٩٧٣ » ، إضافة لكتابه عن توفيق الحكيم « فنان الفرجة وفنان الفكر ، ١٩٦٩ » .



غلاف الكتاب



د . على الراعى

وتوج الدكتور على جهاده فى ميدان المسرح بكتابه الكبير والشامل « المسرح فى الوطن العربى ، ١٩٨٠ » ، وفيه واجه « التحدى القوى الفاتن » المتمثل فى رسم صورة شاملة لواقع المسرح العربى المعاصر ، والحقيقة انه قد بذل جهداً هائلاً فى جمع مادته والعكوف على تحليلها ، فالتجزئة واقع قائم ، تعمل الممارسات السياسية اليومية على تأكيده وتعميق أشكاله ، ولعل هذا ما كان يعنيه بقوله فى تقديم كتابه : « من يقرأ هذا الكتاب سيجد نفسه دائما بين أهله ، أينما انتقل المؤشر من الخليج إلى المحيط : الهموم ذاتها ، الآلام بعينها ، الآمال ودواعى الاستبشار هى هى فى كل قطر عربى .. » ، واقع التجزئة هذا نفسه فرض على الباحث مادته وطريقة تناولها معاً ، وهو يقول بوضوح لا لبس فيه : « لم أتردد فى أن أثبت ما وصلنى من معلومات الغير عن مسارح عربية لم يتح لى أن أتعرف على إنتاجها تعرفا مباشراً ، مؤثرا فى هذا أن أكون ناقلاً عن أن أكون متجاهلاً والهدف العام لهذا الكتاب هو التعريف بالمسرح فى الوطن العربى ، وقد سلكت كل السبل المتاحة كى يكون هذا التعريف أوسع وأشمل ما تسمح به الظروف ، موقنا - مع هذا - من أن جهداً أكبر لابد أن يبذل فى المستقبل ، كى يكون هذا التعريف كاملاً » .

وبعد أكثر من عشر سنوات ، يقدم لنا الدكتور على الراعى كتابه التوأم الرواية فى الوطن العربى » .

النضال ضد الواقع

وأقول إنه توأم ، لأن الهدف منه هو ذات الهدف . فى تقديمه يكتب : « المجد

للرواية العربية . لقد جعلها أفضل المبدعين فيها لسان حال الأمة ، وديواناً جديداً للعرب ، ومستودعاً لآلام وآمال أمتنا العظيمة مقطعة الأوصال . لا تزال شعوب هذه الأمة ترنو إلى التوحد من جديد . لا تزال تناضل الحدود الزائفة ومؤمرات الأجنبى وقصر نظر الحكام المحليين لا تزال تستهزئ بالحواجز والكوارث وأسلحة البغى التى تحاول جاهدة الهيمنة على الشعوب .. » .

بعبارة أخرى ، يهدف الكاتب من كتابه أن يكون إسهاماً فى النضال ضد الواقع الذى يفرض التجزئة ويكرسها ، وهو يسعى لتحقيق هدفه برسم تلك « الجدارية الهائلة » للرواية العربية ، عبر تناول أكثر من ثمانين عملاً لكُتاب من مصر والمشرق والمغرب والسودان والخليج . هو التقسيم الجغرافى ذاته ، بكل ما ينطوى عليه من شرٍ وخير ، الذى سبق أن اعتمده فى كتابه عن « المسرح » وإن كنا نلمس داخل هذا التقسيم رغبة فى أن تشمل الأعمال موضوع المناقشة – فى هذا البلد أو ذاك – أكثر من جيل من أجيال المبدعين ، وأن تفسح للمبدعات مكانا إلى جوار المبدعين .

وإننى أشهد بالجهد الهائل الذى بذله الدكتور على الراعى فى جمع مادته الروائية ، لأكثر من عشر سنوات ، وحتى كتب فيه الكلمة الأخيرة (مارس ١٩٩١) لم يكن له هّم سوى هذا العمل ، يبحث وينقب ويقرأ ويوازن ويختار ، يدفعه حرصه على تمثيل " كل " البلاد العربية (لم يفلت منه سوى قطر ودولة الأمارات وموريتانيا) إلى مزيد من السعى والتقصى .

هل هى المصادفة التى جعلت الرواية المصرية تشغل من الكتاب نفس المساحة التى شغلها المسرح المصرى فى التوأم الآخر ؟ (شغلت الرواية المصرية ١٨٤ صفحة من مجموع ٦٩٢ ، أى حوالى ٢٧٪ وسبق للمسرح المصرى أن شغل ١٥٥ صفحة من مجموع ٥٥٨ ، أى حوالى ٢٨٪) ، على أى حال ، إن الكاتب يهدى كتابه كله لنجيب محفوظ " الذى فتح الأبواب أمام الرواية العربية " ورغم أن إهداء الأعمال يبقى ، دائماً ، ذا طابع ذاتى ، إلا أنه هنا يكتسب دلالة موضوعية تماماً ، فى الحقيقة ، يصعب تماماً تصور قيام الرواية العربية ثم ازدهارها دون إصرار ودأب وكدح هذا الراهب العظيم فى محرابها .

وإذا تذكرنا قول الدكتور الراعى فى تقديم « دراسات فى الرواية المصرية » الذى أشرنا إليه ، هل يمكننا اعتبار هذا القسم هو « الدراسة الشاملة للرواية المصرية » التى وعد بانجازها ؟

إنه يتناول سبعة وعشرين كاتباً وكاتبة (ثلاث كاتبات : لطيفة الزيات ، رضوى عاشور ، إقبال بركة) ، ويختار لكل عملاً واحدا (الاستثناءات قليلة) . فهو يناقش عملين لكلٍ من لطيفة الزيات وعبد الحكيم قاسم ومجيد طوبيا ، كما يختار لخيرى شلبى رباعية قصصية لا عملاً روائياً) . إذا أضفنا لهذا الحصاد الوافر النماذج العشرة التى اختارها فى « دراسات فى الرواية المصرية » (وهى تبـدأ بالمـويلحى و « حـديث عيسى بن هشـام » لتنتهى إلى « ثلاثية » نجيب محفوظ ، مرورا ضروريا بالدكـتور هيـكل و « زينب » ، والعقـــاد و « سارة » ، والمازنى و « إبراهيم الكاتب »، والحكيـم و « عـودة الروح » ، وطـه حسـين و « دعـــاء الـكروان » ويحيـى حقـــى ، « قنـديل أم هاشـــم » ومحمـــود تيمـور و « سـلوى فى مهب الريح » ، وعادل كامـل و « حليم الأكبر ») لرأينا أن الكاتب قد استطاع أن يرسم أمامنا لوحة كبيرة وشاملة للرواية فى مصر ، تبدأ بأعمال روادها ومؤسسيها ، وتنتهى إلى أكثر أجيالها شباباً (محمود الوردانى وفؤاد قنديل ومحمود حنفى وسيد سالم) .

نماذج مختارة فقط

والدكتور الراعى يثبت فى عنوان كتابه أنه يضم « نماذج مختارة » ، لكنه لا يحدد لنا الأسس التى تم بناءً عليهـا هذا الاختيار ، ومن ثم قلنا أن نلاحظ غياب أسماء لها أهميتها عن تلك اللوحة : فى كتابه الأول حضر عادل كامل ونجيب محفوظ ، وغاب من رفاقهما عبد الحميد السحار واحسان وعبد الحليم عبد الله وعبد الرحمن الشرقاوى ، ولكلهم أعمال جديرة بالمناقشة ، وفى كتابه هذا حضر سليمان فياض وصبرى موسى ، وغاب من رفاقهما أبو المعاطى أبو النجا وصالح مرسى وعبد الله الطوخى ومحمد جلال ، وممن جاء بعدهم حضر أصلان ويحيى الطاهر ومجيد والغيطانى .. إلخ ، وغاب من رفاقهم محمد البساطى ومحمد جبريل وعبد الفتاح رزق .. إلخ .

اننى لا أنتقص من الجهد الهائل الذى قام به الأستاذ الناقد ، لكننى كنت أتمنى أن أقرأ تحليلاً لبعض أعمال هؤلاء ، يتسم بما اتسم به تحليل أعمال رفاقهم من دقة ونفاذ .

هل ينصرف تعبير «النماذج المختارة» إلى أن الناقد قد اختار لكل كاتب عملاً واحداً هو الأكثر تعبيراً عنه ، ودلالة على مشروعه الروائى بوجه عام ؟

تصيب الاختيارات وتخطئ ، وعلى سبيل المثال فلو شئت أن تختار عملاً لنجيب محفوظ هو الأكثر تعبيراً عنه فى مرحلته الأخيـرة ، فربما جـاء هذا العمـل

« ملحمة الحرافيش ، ١٩٧٧ » ، أو « ليالى ألف ليلة ، ١٩٨٢ » ، أو حتى « حديث الصباح والمساء ، ١٩٨٧ » ، لكننى لا أعتقد أنه سيكون « يوم قتل الزعيم » الذى رأى فيه الدكتور الراعى ما ليس فيه ، وأغدق عليه من « كرمه النقدى » - لو صح التعبير . كذلك الأمر بالنسبة لفتحى غانم ، فرغم أهمية العمل الذى اختاره الأستاذ الناقد « حكاية تو » ، فإننى أرى أن لفتحى أعمالاً أخرى هى أدخل فى صميم مشروعه الروائى منه ، أعنى أعمالاً مثل « تلك الأيام ، ١٩٧٢ » أو « زينب والعرش ، ١٩٧٦ » ، أو « الأفيال ، ١٩٨١ » .

وقد احتفى الدكتور الراعى احتفاءً كبيراً برواية لويس عوض الوحيدة « العنقاء .. » ، ولا شك فى أن أهمية حضور لويس عوض فى مجالات أخرى غير فن الرواية ، وراء بعض هذا الاحتفاء . وبذات المنطق : ألم يكن يوسف ادريس - وما أنجزه فى مجال القصة القصيرة أعظم من أن يشار إليه - يستحق مكاناً صغيراً فى هذه اللوحة مترامية الأطراف ؟ ، ألم تكن « الحرام » أو « قصة حبى » أو حتى « البيضاء » جديرة بالمناقشة ؟

وفات عليك أن الأستاذ الناقد اختار ثلاث كاتبات فقط ، ومن ثم غابت كاتبات كثيرات من أجيال مختلفة : من أمينة السعيد وصوفى عبد الله وجاذبية صدقى إلى فوزية مهران وزينب صادق وسلوى بكر بل ان ثمة روائية جهيرة الصوت ، ذات حضور قوى ، وقضية ملتبسة ، كنت أتمنى أن أقرأ رأياً للدكتور على فى عمل من أعمالها الدالة عليها ، أعنى نوال السعداوى .

هل نثقل على الأستاذ الناقد ، ونحمله مزيداً من العبء ؟ لكن ما أنجزه هو ما يغرينا بطلب المزيد .

وقد أدى التقسيم الجغرافى الذى التزم به الكاتب إلى تفاوت درجة الاشباع التى تحققت لكل من البلاد العربية ، بقدر ما توفر من معرفة بكتابها ، وتوفر أعمالهم بين يديه ، وقد جاء حظ المشرق العربى - على وجه العموم - أوفى من مغربه (تعرض لسبع روايات من فلسطين ، وثلاث من الأردن ، وست من سوريا ، وخمس من لبنان - بينها أعمال ثلاث كاتبات - وخمس من العراق ، وأثنتين لكل من السعودية واليمن والبحرين والسودان ، وثلاث من الكويت . أما عن المغرب فقد تناول الباحث رواية واحدة من ليبيا ، وثلاثاً من الجزائر ، وخمساً من تونس ، وستاً من المغرب) .

فرضت الضرورة - إذن - أن تمثل ليبيا برواية واحدة (ثلاثية أحمد الفقيه

« سأهبك مدينة أخرى » ، وقد قرأها الباحث مخطوطة قبل صدورها فى لندن منذ شهور قليلة) ، وذلك أن أعمالاً أخرى لعلى المصراتى وخليفة التليسى وعبد الله القويرى ، ثم أخيراً إبراهيم الكوفى ، لم تتوافر للباحث ، ومن ثم يصعب اعتبار هذا العمل - على أهميته - ممثلاً للتعبير الروائى فى ليبيا من حيث علاقته بالواقع وقضاياه .

ومن الجزائر أحسن الدكتور الراعى الاختيار تماماً حين ناقش « الجازية والدراويش » لعبد الحميد بن هدوقه ، و « التفكك » لرشيد بو جدرة ، فكل من العملين يمثل صاحبه خير تمثيل أما اختيار « عرس بغل » للطاهر وطار فلست أظنه كذلك . إن ما أعطى للطاهر قدراً كبيراً من أهميته فى مجال الرواية العربية إنما هو تعبيره الفذ عن اندلاع الثورة الجزائرية وأحداثها ، وما أعقب الاستقلال من سيطرة التجار والانتهازيين والكتبة والعسكر على مقدرات الأمور فى البلاد ، من هنا كنت أفضل لو أن الدكتور على ناقش « اللاز » (ولها جزء ثان بعنوان « العشق والموت فى الزمن الحراشى ») أو « الزلزال » .

وفيما يتعلق بتونس والمغرب ، فلا شك فى أن عدم معرفة السياق الذى يضم الأسماء والأعمال ، ويصنفها حسب أجيالها واهتماماتها ، يجعل من العسير مناقشة اختيارات الباحث ، لكنه - فيما يبدو - تعمد أن يختار أعمالاً لأجيال مختلفة منهم ، حتى تتكامل الصورة قدر الامكان ، وإن كان يلفت النظر هنا أن المغرب العربى كله يخلو من كاتبة واحدة ! .

لكنهن حاضرات بقوة فى رواية المشرق : اثنتان من فلسطين ، واثنتان من سوريا ، وثلاث من لبنان ، وتسرى ذات الملاحظة حول حضور البعض وغياب الآخر هنا أيضا : حضرت غادة السمان وغابت كوليت خورى ، كذلك حضرت اميلى نصر الله وغابت ليلى عسيران وبالنسبة للروائيين فقد نفتقد بين السوريين فارس زرزور وصلاح ذهنى (من جيلهما نجد حنا مينه وعبد السلام العجيلى) ، كما نفتقد وليد إخلاصى (من جيله حضر الباقون : هانى الراهب وحيدر حيدر وخيرى الدهبى ونبيل سليمان) ، وبين الأردنيين قد نفتقد إثنين لا يقلان حضورا فى الرواية عن إبراهيم نصرالله (الذى ربما كان شاعرا أكثر منه روائياً) هما مؤنس الرزاز والياس فركوح .

رغم الغياب والحضور ، فإن اللوحات الداخلية التى يرسمها الأستاذ الناقد للرواية فى تلك الأقطار ، ومن ورائها الواقع بوجوهه الإنسانية والسياسية والاجتماعية ، لوحات متكاملة ومعبرة ، فقد توفرت المعرفة الكافية بالأعمال والسياق

معاً ، ومن ثم جاءت هذه الفصول إضافة ثمينة لنقد الرواية فى الوطن العربى .

كذلك الحال بالنسبة للعراق (وكما كان الأمر فى كتاب «المسرح» : يصر الدكتور على إدراج العراق بين بلاد الخليج ، وأراه بين بلاد المشرق) ، فقد اختار نماذج معبرة ودالة لعدد من أهم روائى العراق ، وعرض لها مناقشاً رؤاها وأفكارها وأدواتها الفنية جميعا . على أن هناك ملاحظة مدهشة استوقفتنى حول رواية فؤاد التكرلى «الرجع البعيد» (وهى عندى من أهم الروايات العربية جميعاً ، وهى - وحدها - وضعت اسم صاحبها بين الروائيين الكبار)

فى تقديم الكتاب يذكر الدكتور على : وفى «الرجع البعيد» يعتدى فؤاد على ابنة عمه منيرة ويغتصبها ..» (ص١١) ، وفى مناقشة الرواية ذاتها نقرأ : «لم تخطئ منيرة أبداً بمحض إرادتها ، لم تزل ، وإنما اعتدى عليها ابن خالتها اعتداءً فظاً ..» (ص ٤١٦) .

والحقيقة التى رفض الدكتور على .. بأخلاقياته الواضحة وحسه السوى . أن يراها هى أن عدنان الذى اغتصب منيرة ليس ابن عمها ، ولا هو ابن خالتها ، لكنه ابن اختها . ودلالة اختراقه حاجز المحارم حين اخترق عذريتها ، ووضع بذرة المأساة فى الرواية كلها ، دلالة لا تخطأ . وقد كانت هذه الشخصية بحاجة لمزيد من اهتمام الاستاذ الناقد ، فهو - من البداية - عدوانى عنيف ، لم يكمل تعليمه ، واندفع إلى حياة لاهية وعلاقات حزبية غامضة ، وحين أخرجته منيرة من عالمها بقى متشبثاً به ، فهو يطاردها فى بغداد بعد أن انتقلت إليها ، وهو الذى ينقل إليها فى النهاية النبأ الفاجع ، نبأ قتل مدحت ، ويحمل إليها بطاقة هويته ، بعد أن اغتلمت بغداد ثم هدأت ، وأعدم عبد الكريم قاسم، وسكت حوار الرصاص .

وفى ضوء معرفتنا بتاريخ العراق المعاصر ، يصبح عدنان نموذجاً لطراز سائد من الحزبيين الذين يغتصبون الناس والسلطة ، ويخترقون حاجز المحارم وكل الحواجز الأخرى . تلك إحدى الدلالات التى غابت فى «الرجع البعيد» . ثم أن التكرلى قد كتب كل حوارات روايته الكبيرة - والكثير من مونولوجات أبطالها - بالعامية العراقية (البغدادية) الصعبة ، من حيث مفرداتها وإبدال حروفها ، وقد كنت أتوق لمعرفة رأى الناقد الكبير فى هذا الأمر : هل أدت العامية المستخدمة إلى مزيد من صدق الشخصيات واستدارتها واكتمالها ، أم أنها وقفت عقبة فى سبيل تلقيها ؟

الهوايات المثبتة فى جوازات السفر أطالت قامة كلٍ من السعودية ، السودان ، فقد أضافت عبد الرحمن منيف إلى الأولى، والطيب صالح إلى الثانية ، وكلا الروائيين الكبيرين تجاوز حدود بلده نحو

العالم العربى كله ، ثم انطلق إلى العالم الواسع . وفى تحليله لرواية «عرس الزين» يبلغ الدكتور الراعى أفقاً رائعا وهو يشيد بهذا العمل الذى يراه «زغرودة طويلة للحياة ، أنشودة حب يرتفع بها صوت فنان كبير القلب قدر ما هو كبير المعرفة ، لعل أكبر قدراته وأهمها تتمثل فى أنه أزال نهائياً ذلك الحاجز غير المنظور الذى يفصل بين الفنان وبين ناسه ...

ورغم أهمية «شرق المتوسط» فى إبداع عبد الرحمن منيف (وقد عاد إليها من جديد، فنشر روايته الأخيرة حول ذات الموضوع، بعنوان «الآن .. هنا» أو شرق المتوسط مرة أخرى ، ١٩٩١) ، إلا أنها ليست ممثلة له قدر ما تمثله خماسية «مدن الملح» التى أراها درة فريدة فى الرواية العربية كلها ، أو رواية «النهايات» التى أراها رواية البادية بامتياز ، شهادة بدوى يعرف الصحراء والمواسم والخصب والمطر والقحط والجفاف والحيوان والنبات والطير، ويتشمم رائحة الغيم ويتعرف على نذر العاصفة، ويعيش مع أهل قريته – هى دائماً ذات القرية التى تقع على حافة الصحراء – متمثلاً أنماطها الثقافية وأصفى قيمها . إن أحد هذين العملين كان سيمثل إبداع عبد الرحمن منيف ، تماما كما مثل « عرس الزين » إبداع الطيب صالح .

ولا شك فى أن الفصول التى أفردها الدكتور الراعى للرواية فى الكويت واليمن والبحرين هامة من حيث إنها تقدم لمحات عن الرواية وصلتها بالواقع فى تلك البلاد . ولعل أهم القضايا المطروحة هناك هى التغير السريع فى شكل الحياة وإيقاعها بعد النفط ، من ناحية ، ثم القهر الذى توقعه نظم الحكم الجائرة بأهل تلك البلاد، من الناحية الأخرى . وفى هذا الضوء فان لى ملاحظة حول اعتبار الروائى إسماعيل فهد بين أهل الكويت ، وأنا أحسبه عراقياً أقام هناك ، ودليلى لا يتعلق بالبيانات المثبتة فى جواز سفره بطبيعة الحال ، لكنه يتعلق بأعماله الروائية الأولى التى نشرها أوائل السبعينيات (كانت السماء زرقاء – المستنقعات الضوئية – الحبل – الضفاف الأخرى) ، فقد كانت تنتمى – بوضوح – إلى الرواية العراقية ، وتدور أحداثها فى العراق ، بل إن بينها وبين أعمال العراقى عبد الرحمن الربيعى أكثر من صلة ونسب . وفى هذا الضوء أيضاً ، فانه بقدر ما تبدو رواية «بدرية» للكويتى وليد الرجيب ذات دلالة هامة فى تصوير ماضى الكويت وحاضرها ، قدر ما تبدو «المرأة والقطة» لليلى العثمان بعيدة عنه . لعل رواية ليلى التى تتسق وهذا السياق هى «وسمية تخرج من البحر» ، التى تحاول فيها استخلاص صورة الكويت القديمة الوادعة من قبضة العدم . وقد يكون بعض الدافع وراء هذه الملاحظة أن ليلى هى الكاتبة الوحيدة التى

المجد للرواية

تجد مكاناً صغيراً بين روائيّ العراق والخليج . وقد كان يمكن لصوت المرأة أن يتضح أكثر لو أن الاستاذ الناقد عرض لبعض أعمال العراقيتين لطيفة الدليمى وديزى الأمير ، أو البحرينية فوزية رشيد .

يستخدم الدكتور على الراعى – فى تقديم فصول كتابه الكبير – منهجاً يقول عنه إنه «يرسم صوراً فنية للعمل ، تتأتى بعد تحليل أجزائه ، وإعادة تركيبها وفق منظور الناقد الخاص ، بحيث يعرض العمل الفنى فى ثناياه الأحكام النقدية ، صريحة أو متضمنة ..»

وعندى ، إنه المنهج الصائب ، والملائم ماماً لموضوعه ، فبه استطاع الاستاذ الناقد تحقيق هدفيه معاً : اشرك القارئ معه فى التعرف على العمل ، وقاده بيسر نحو تكوين آرائه الخاصة فيه ، ثم قدم له – فى ذات الوقت – حكمه على العمل ، من خلال ما سبق من استعراض مواطن الجمال والقوة (أو النقص والضعف) فيه .

تزيد أهمية هذا المنهج حين نضع فى الاعتبار صعوبة الحصول على كثير من الأعمال موضوع المناقشة ، مما يجعل قارئيها أقلية قليلة ، أضف لذلك تلبية رغبة القارئ المشروعة فى التعرف على الأسباب والبواعث التى دعت الناقد لأختيار العمل أولاً ، ثم التى دعته لإصدار هذا الحكم أو ذاك عليه ، ثانياً .

ما أبأس أولئك النقاد الذين يبدأون قارئيهم بأحكام لا يعرفون كيف توصلوا لها ، يصوغونها فى مصطلحات جهمة لا يعرفون معانيها الدقيقة عندهم ، وما أقل جدوى ما يكتبون ! .

وقد وعد الدكتور الراعى قارئيه أيضاً بأن «تصبح الكتابة النقدية بهيجة وممتعة..» ، وقد أنجز وعده ، فجاء كثير من صفحات هذا العمل عبقة بعطر الفن الجميل .

بعد دراسات الاستاذ جورج طرابيشى المتصلة فى الرواية العربية (والتى تحويها كتبه المتتالية : «شرق وغرب» ، «رجولة وأنوثة» ، «الأدب من الداخل» ، «رمزية المرأة فى الرواية العربية» ، عقدة أوديب فى ...» ، «الرجولة وايديولوجيا الرجولة فى....» و «انثى ضد الانوثة..») التى يعتمد فيها التقسيم الموضوعى ، ويستخدم منهج التحليل النفسى بصفة أساسية ، تأتى دراسة الدكتور على الراعى الهامة والشاملة والمفيدة لتثبت ، حقاً ، أن الرواية قد أصبحت أهم قنوات التعبير فى أدبنا المعاصر .

نعم ، المجد للرواية العربية .

« غضب مرتقب .. ودروس في النقـد والترجمـة »

بقلم : عايدة الشريف

غضب مرتقب هو عنوان المقال الذى حلل فيه الدكتور مجدى وهبة كتاب « فى الطريق إلى ثقافتنا » للعلامة محمود محمد شاكر . ونشره بالإنجليزية بمجلة « يوميات الأدب العربى » التى تصدر فى بريطانيا ، ونقله إلى العربية وكتب له المقدمة الأستاذ زهير شاكر ، وظهر فى كتيب صغير عن دار المدنى .

يحمل هذا الكتيب الصغير كثيرا من دروس النقد والترجمة .. وكيفية إبراز مثل هذه الرسالة وسط مجالها الذى كتبت لأجله تأكيدا للأبعاد الغائرة بين سطورها ، ثم تقديم صاحبها كطرف أوحد للحوار مع الاستشراق الحديث إن أراد ذلك .

تسنى هذا كله للدكتور مجدى وهبة لأنه لم يسلك طريق من تصدى من قبل لنقد كتاب « رسالة فى الطريق إلى ثقافتنا » أولئك الذين انصبت كتاباتهم على الكتاب نفسه منفصلا عن المجال الذى كتب له ، فجنحت أحكامهم إلى تفاصيله وجزئياته ، وخلت من النظرة الشمولية التى تحيط بأبعاده . فبدت وكأنها ليست معلقة فى الهواء فقط بل وكأنها تدافع عن الاستشراق أيضا .

وقد لجأ هؤلاء الكتاب لهذا المنهج لأن أصحابها لم يلمحوا الخيط الدقيق بين كون هذا الكتاب رسالة وما تحمله هذه الصفة من صيغة تقترب من الترجمة الذاتية ، ومن ثم خلطوا بين الخاص فيها والعام ، ولأن همهم انحصر فى التصدى لآراء صـاحب الترجمة العلامة محمود محمد شاكر الذى

عرف بالتصدى ، فإنهم رضخوا للجانب الذاتى وتركوا عموم الوثيقة أو القذيفة وعلى من تطلق ، فطاشت سهامهم .

ولأن الدكتور مجدى وهبة يعرف المرسل والمرسل إليه معرفة محيطة ودقيقة فإنه استهل تحليل الرسالة وتجليتها برسم الخلفية التى تبرزها . فرصد أولا ردود أفعال كتاب « الاستشراق » لادوارد سعيد الذى سدد سهاما من الشجب والاستنكار إلى صميم قلب الفضـــول الثقافى الغربى (الاستشراق) يتهمه بأن له دوافع بعيدة ، لا تليق بالقيم الجامعية الخالصة ، ثم يلقى الضوء على المقالات الاعتذارية للاستشراق الحديث . كالمقالة التأريخية لبرنارد لويس وكذلك مقالات النقد الشخصى والموضوعى التى كتبها ألبرت حورانى ومكســـيم رودنســــون ، ونورمان دانيل ، وفحواها كلها التنصل من أغراض ودوافع الاستشراق القديم .

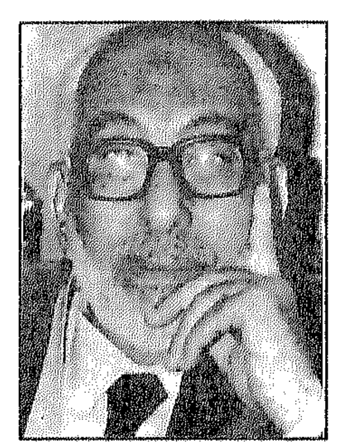
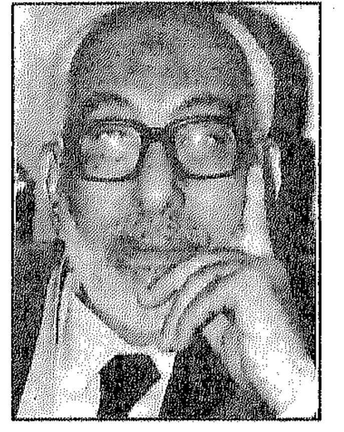
ولا يفوت الدكتور مجدى أيضا التنويه لى قلة ما لقيته دراسة ادوارد سعيد من هتمام فى الكتابات العربية ، خاصة من الكُتاب التقليديين أو السلفيين الإسلاميين وحتى بعد أن ترجم إلى العربية فإنه لم يحظ إلا بآراء كُتّاب يغلب على إطارهم الفكرى صبغة (التغريب) نشرت ببيروت .

ثم يتتبع الدكتور مجدى بزوغ الرغبة فى الحوار بين طرفى الصراع الذى وإن لن يصل إلى التوفيق بينهما .. سيصل حتما إلى سبر أغوار كلا الطرفين لنفسيهما ، حتى يتعرف كل منهما على ذاته ، التى يجب أن يعرفهـــا الجـانب الآخر عنه .

الصبغة الذاتية

ولمسة من هنا وإضاءة من هناك تتقدم الرسالة على يد الدكتور مجدى حتى تصل إلى البؤرة فتتألق وتشع . فنتبين الأسباب التى أعطتها الصبغة الذاتية ، ألا وهو ارتطام المرسل بنتائج الاستشراق ، « من الحروب الصليبية إلى حملة نابليون وبالذات رسالة نابليون لكليبر حتى الاستعمار الإنجليزى » ممثلا فى عملية تفريغ الوعى القومى من الارتباط بالتراث ومنابع الانتماء - التى وضعها دوجلاس دانلوب - موصولة بكل المذاهب المبتدعة فى ظلها ، كمذهب الشك الذى تناول به الدكتور طه حسين دراسة الشعر الجاهلى والحكم بانتحاله ، وكيف جفاها شاكر محيلا ذهنه إلى صفحة بيضاء برغبة إعادة كتابتها بما تمليه عليه دراسته لجذوره أو جذور الثقافة العربية الخالصة .

ولأن شاكر كمستكشف يرتاد رحلة مجهدة إلى ينابيع وكنوز تراثه القومى والدينى .. يريد أيضا أن يعبد طريق رحلته

محمود محمد شاكر

غلاف الكتاب

لمن يسير فيه من بعده . فوضع اللافتات الإرشادية والمنارات كلما اعتورت الطريق الصعاب، فاضطر إلى أن يكتب رسالته فى هيئة يوميات أى أوليات الشعر والأدب بجميع أنواعه والتاريخ وعلم الدين بفروعه المختلفة والفلسفة بمذاهبها المتضاربة ، وكل ما هو صادر عن الإنسان إبانة عن نفسه وعن جماعته ، وكان يرمى من ذلك كله إلى أن يكتسب السليقة العربية التى يكشف بها تراثه الأدبى .

ثم خلص من هذه الرحلة بطولها إلى حكم نقدى جاد يقتضى من صاحبه أن يجمع مادة النصوص ثم يخضعها للدراسة النقدية وهو ما أسماه قبل المنهج : ثم المنهج الذى يبنى عليه متسلحا بتجرد من الأهواء والمنازع الشخصية .

ولأن ما قبل المنهج أو ثقافة الأمة العربية شديد الوثوق بدينها الإسلامى الذى يرتضعه الإنسان من فطرته وتعليمه منذ كان وليدا حتى يصبح جزءا لا يتجزأ من الإنسان . أى أنه لا يوجد فهم بدون اعتناق .

ولأن المستشرق ليس لديه من كل هذه العناصر إلا لغة يتعلمها الواحد منهم بعد أن يستوى رجلا : وإلا نوازع متعصبة وليدة نظام وجدان أجنبى عن الإسلام . فلن يستطيع النظر بموضوعية علمية للعلوم الإنسانية .. ولا أن يتوصل من استكشافه هذا لأى نتائج جامعية ذات قيمة تفيد القارئ فى أى مكان من العالم . اللهم إلا اكتساب قوة تضاف إلى قوة أمته الغربية وثقافته هو نفسه ، أو لكى يبحث عن حجج يستعين بها فى الهجوم على التراث.

هذا باختصار هو الاتجاه الذى يراه شاكر وينبرى للدفاع عنه بكل ما أوتى من قوة . وهو اتجاه لا يقبل أى تنازلات ، متشكك إلى أقصى الحدود فى التفسيرات الأجنبية رافض فى الواقع لأى احتمال للفهم الحقيقى خارج النطاق المحدد للعالم الإسلامى نفسه . ويصف الدكتور مجدى صاحبه شاكر بأنه صوت أصيل معبر عن

الغضب والاستياء العربى بعد إثنى عشر قرنا من المواجهة مع الغرب .

ممثل متفرد

ولأجل ذلك كله يرشح الدكتور مجدى وهبة محمود محمد شاكر كممثل متفرد كطرف للحوار الواقعى بين المستشرقين الجدد والعرب المسلمين ، ثم يبرر اختياره بأنه لا جدوى من أن يمثل جانب الإسلام فى الحوار المرتقب نماذج مثل د . طه حسين أو المثقف شبه الماركسى الحديث ، أو حتى من يسمون بالإسلاميين المعتدلين ، حيث لا يمكن للنظام الثقافى الغربى أن يدخل فى حوار مثمر مع صورته فى المرآة .

وكان الدكتور مجدى وقد شعر بالموقف الحرج للغرب وتساؤله : كيف يمكن للمرء أن يتوصل إلى طول الموجة التى يمكن التخاطب عبرها مع وجهة النظر التى تعبر عنها الرسالة التى كتبها شاكر ؟ ولديهم تفسيرات مختلفة لحقائقهم التاريخية ؟ وفى التو يرشدهم : ليس من الضرورى أن تتقبل ما تقوله الرسالة التى كتبت بعاطفة مشبوبة ، ولكن بألمعية بارعة قبولا مطلقا . ولكن من الضرورى أن تلتحموا مع الغضب الذى تعبر عنه ، لأنه غضب ناتج عن التمسك المخلص للمعتقدات الإسلامية ، فهى سجل لما يستاء منه العديد من المفسرين المسلمين وما يؤمنون به ، وما يخشونه وما يثير غضبهم عندما يقفون موقف المواجهة مع الغرب الغاصب .

بعد هذه النصيحة يتناول الدكتور المشاريع التى يقترحها الغرب لبدء الحوار : كاقتراح أندريه ريموند ، و (المشروع الإسلامى) لهدجسون : حيث اقترح الأول أن يبدأ الحوار من منطلق نقاط الاتفاق بين الثقافتين العربية والغربية أعمال أرسطو ، والعلوم الطبيعية اليونانية ، تشرب فنون التصميم المعمارى، والمصطلحات الشعرية ، ويؤشر عليها بعدم الصلاحية ، وعدم الكفاية ، لا سيما والمسلمون - بنص القرآن - خير أمة أخرجت للناس وأن هذه الأمة هوجمت مرارا من جانب إناس ذوى عقيدة ذائغة أو بلا عقيدة .

أما الترياق الثانى أو مشروع هدجسون الإسلامى الذى يرى الحل فى إشباع حاجتى التخطيط الاجتماعى عند العرب ، وتثقيف الجماهير لدى المسلم : فإنه يهى بمجرد مضاهاته بآراء شاكر التى توضح أن إشباع هذين الاحتياجين هو بالضبط ما يحققه النظام الإسلامى والعمل فى محيط المجتمع الإنسانى المنظم الذى يقوم على الإيمان المبنى على أساس الوحى الإلهى .

ويكاد الدكتور مجدى يجزم باستحالة الحوار بين الثقافتين إلا إذا استطعنا أن نمحو من ذاكرة المسلمين كل الماضى

الاستعمارى ، وأن نجعل المسيحيين واليهود يسلمون بنبوة محمد . وهو جزء من العداء المتأصل بين العقيدتين المطلقتين وميراثين مثقلين بالتجريم . تقضى إلى أن تعتبر مشروع الحوار : محض أمنية معلقة أو خاطر غير تام الأدوات قد يحدث إثر تحقق شرطين هما : إنتهاء المرحلة الطويلة من الإقامة من الانبهار ، والانسحاب النفسى اللتين إتسم بهما المناخ الثقافى لموقف العرب من الغرب منذ نهاية الحرب العالمية الثانية ، وبدأوا يتفحصون التراث اليهودى والمسيحى بروح من التساؤل، ويعترف الجانب الغربى بماضيه الاستعمارى الآثم : ثم يتفحص التراث الإسلامى بأمانة . فالفضول وحده هو القادر بمرور الزمن على التغلب على الغضب .

هكذا جعل الدكتور مجدى الحركة تدب فى هذه الرسالة وتنمو لتظهر ليس كوثيقة هامة فى تاريخ الفكر فقط ولا باعتبارها شهادة على تاريخنا المعاصر فحسب ، وإنما لكونها جماعا للقضايا التى يثيرها العرب والمسلمون فى مواجهة الاستشراق وهى دروس يجب أن يعيها كل من يتصدى للتحليل لأى وثيقة .

أما الدروس المستفادة من هذا الكتيب للمترجمين فتتضح من المقدمة التى كتبها المترجم حيث أظهرت كم هو عليم بشخصيتى شاكر ووهبة وعلمهما وتوجهاتهما . وقد ظهر بجلاء فى الهوامش التى أثبتها فى ترجمته . والتى تدل على معرفته الممتازة لأصول الترجمة . فهو عندما وجد أن مؤلفات شاكر مذكورة فى صلب مقال وهبة وجد أن من الإخلال إضافة أى شئ إليها فى مقدمته . وعندما وجد أن المقال يعلق على صفحات من الرسالة .. لم يقم بترجمتها بل عاد يكتبها من النص العربى ، وعندما سها على كاتب المقال وكتب أن الرسالة كانت مقدمة للطبعة الثانية لكتاب المتنبى لشاكر .. مع أنها فى الحقيقة مقدمة للطبعة الثالثة .. عدل المتن بما يوافق الواقع . أما عندما ذكر الدكتور مجدى أن شاكر عارض مذهب الشك الذى تناول به الدكتور طه حسين دراسة حياة المتنبى وعصره فقد علق فى الهامش وبأدب شديد (هذا مما سبق به قلم الدكتور مجدى وهبة فقد كان هذا الخلاف حول شك الدكتور طه حسين فى الشعر الجاهلى لا فى المتنبى ووقع (ز ش) .

رحم الله المترجم زهير شاكر وكاتب التحليل الدكتور مجدى وهبة ومد الله فى حياة كاتب الرسالة محمود محمد شاكر . وجعل الهلال تصدر الطبعة الثالثة منه والرابعة والخامسة ... من « رسالة فى الطريق إلى ثقافتنا » .

ملاحظات حول بينالى الإسكندرية السابع عشر

محمود عوض عبد العال

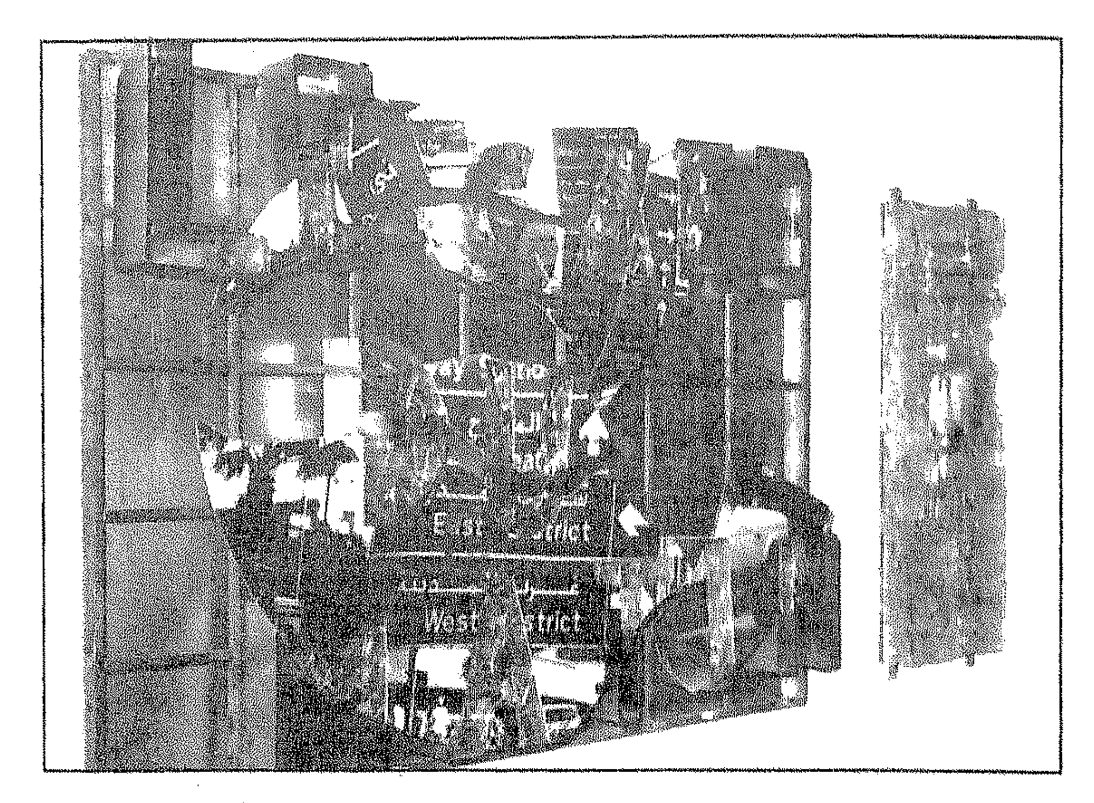
فى كل دورة لبينالى فنانى البحر المتوسط بالاسكندرية ، والذى يعقد كل عامين ، يثار الجدل حول هذا الحدث الفنى العالمى الكبير .. خصوصا الدورة الأخيرة ، وهى السابعة عشرة التى أكتنفتها عدة ظروف صعبة للغاية ، كان أبرزها تأخر انعقادها دورة كاملة ، فجاءت بعد أربع سنوات وهى اكثر ما تكون تراجعا عن جميع الدورات السابقة ، حيث أعتذرت عن الاشتراك دول عربية وغير عربية هامة مثل تونس والجزائر والمغرب وتركيا والأردن ، يضاف إلى هذه الاعتذارات ، قلة الأعمال الفنية من فنانى الدول المشاركة .

على سبيل المثال ايطاليا شاركت بمصور واحد (فينشنزوساتا) ومعروف أن إيطاليا بها قمم فنية عالمية فى مجالات الفنون المختلفة من تصوير ونحت وحفر ، وكذا فرنسا شاركة بخمسة شبان مصورين فقط ، وقبرص بمصورين فقط ، وليبيا مصور واحد ، فيكون مجموع الفنانين المشاركين من الدول التسع (مصر - اسبانيا - اليونان - ايطاليا - سوريا - فرنسا - فلسطين - قبرص - ليبيا) ٣٤ فنانا .

وقد كان البينالى يزدحم فى سنواته السابقة بأكثر من سبعين فنانا من ذوى السمعة والشهرة والمكانة المتقدمة فى بلادهم ، يضاف إلى ذلك وصول بعض أعمال الدول المشاركة بعد الافتتاح ، الأمرالذى حرمها شرف التواجد بالكتالوج الفخم الذى أعدته كلية لفنون الجميلة بالاسكندرية .

أسباب التراجع

داخل البينالى إلتقينا بالفنان الرائد



* من أعمـــال البينالى للفنـان رمزى مصـطفى - مصـر *

حامد عويس العميد السابق لكلية الفنون الجميلة بالإسكندرية ، والذى فجر قضية البينـالى بأبعادها الإيجابية والسـلبية فقال :

«إن التدنى والهبوط الذى حاق ببينالى الإسكندرية لدول البحر المتوسط فى دورته السابعة عشر ، ليس وليد اليوم ، ولكنه نتيجة حتمية لسلسلة من السلبيات والأهمال لازمته طوال السنين الماضية .

أولا عدم أحترام موعده ، أو الغاء لبعض دوراته ، ثم قلة ، ما خصص له من اعتمادات ، وتفاهة القيمة المخصصة للجوائز ، ويقف خلف كل هذا عدم إيمان المسؤلين عنه كظاهرة حضارية ، ولقد سخر لهذه الدورة الكثير من الطاقات والجهود والامكانات التى كان يمكن أن تجعل منه مهرجانا فنيا يليق بمصر ، فمثلا تدخل وزارة الثقافة ممثلة فى المركز القومى للفنون التشكيلية بالدعم المادى الجزيل وتدخل جامعة الإسكندرية ممثلة فى كلية الفنون الجميلة بتصميم جميع مطبوعات المعرض ، فظهر لأول مرة فى تاريخ هذا المعرض كتالوج يليق بجلال الحدث ، وازدانت شوارع الإسكندرية بملصقات للمعرض غاية فى الأبداع حتى بطاقة الدعوة تمت على مستوى فنى فاق

كثيرا من الأعمال التى حواها المعرض .

ولا يمكن أن نغفل فى هذا المجال الجهود الفنية التى قام بها كوموسير المعرض .. وبالرغم من كل هذه الإمكانات والطاقات التى بذلت لم نتمكن للأسف من ان ننقذ المعرض من الهبوط ، لأن المهم فى مثل هذه الأمور هو جدية اشتراك عدد من الفنانين المهمين فى بلاد البحر المتوسط فى المعرض ، وهذا هو ما لم يتحقق فى هذه الدورة لانعدام الثقة بين الفنانين الجادين وهذا المعرض الذى فقد أهميته وان كل ما نراه من أعمال فى المعرض لهى نوع من الاستجابة السياسية لبعض الدول مجاملة لمصر .

المنشـأ

وعن فكرة بينالى الإسكندرية وكيف ولدت يضيف الفنان حامد عويس :

كانت مصر بعد ثورة ١٩٥٢ تقود أكبر ثورة تحرر في منطقة الشرق العربي وأفريقيا ، وسيطر الأسلوب الثورى على كل ألوان النشاط الفنى فى مصر .

لقد كان تشييد مبنى خاص كمتحف للفنون الجميلة بالإسكندرية ، يعتبر ثورة فى حد ذاته ، فما أن وجد المتحف حتى فكر القائمون عليه في تدشينه بعمل ثقافى كبير يتوج هذا الأنجاز ويليق بالإسكندرية كأقدم مدينة حضارية تطل على البحر المتوسط ، ويقام كل سنتين بالتناوب مع بينالى البندقية الدولى بايطاليا .

ويضيف الدكتور حامد عويس : عقدت أول دورة للبينالى عام ١٩٥٥ وجاءت على عكس المتوقع، وأقوى مما كان منتظرا لها، وذلك لمساهمة بعض رجال المال والأعمال الأجانب المقيمين فى الإسكندرية بتقديم مقتنياتهم الفنية القيمة من أعمال فنانى القرن التاسع عشر والعشرين ورأينا فى المعرض لأول مرة أعمال راود الفن الأوربى طليعة الفن الحديث الذين تزين أعمالهم متاحف العالم ومجلدات تاريخ الفن .

وقد حقق نجاح الدورة الأولى عام ١٩٥٥ للبينالى ، ثقة فيه ، حتى إن بلدا كأسبانيا مثلا انشأت قسما خاصا ببينالى الإسكندرية فى وزارة الاستعلامات والسياحة ، وتوالت الدورات وتبارى فنانو دول البحر المتوسط فى تقديم إبداعاتهم ، وأكتسب البينالى ثقة الفنانين رغم تواضع جوائزه التى كانت غالبا لاتصل إلى مستحقيها بين الأجانب .. وللأسف .. وكأى عمل جميل وعظيم فى بلدنا نحيطة بالحماس والأهتمام عند نشأته ثم يفتر الأهتمام رويدا رويدا ، ، لولا الجهود الفردية التى قام بها حسين صبحى من أجل الابقاء على هذه الظاهرة إلى آخر أيام حياته .

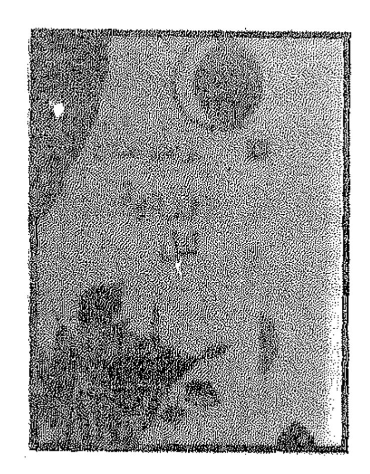
بدأ المعرض يعانى من الأهمال حتى وصل إلى ما وصل إليه فى هذه الدورة ، وبكل أسف لا أجد فى هذا المعرض ما

يمكن أن يقدم للناس فى مجال الفن الجديد ، إذا ما استثنينا الجناح المصرى لجديته والتزامه باحترام الحدث ، كما برزت مساهمة غير منصفة من جماعة الأتيلية بالإسكندرية فى تشتيت المعرض وكشف عيوبه بإستحوازها على الأعمال القليلة للجناح الفرنسى ليعرض فى قاعات العرض بالأتيلية ، فى الوقت الذى كانت فراغات متحف الفنون وصالاته تشكو من قلة ما تحويه من معروضات ، واننى لأشعر بالاشفاق لتورط لجنة تحكيم المعروضات ومنح الجوائز التى اضطرت لأن تعطى جوائز لاعمال لاترتقى لمستوى فنى رفيع حتى أنها منحت جائزة أحسن جناح للجناح الفرنسى ، وكنت أفضل إذا ما كانت هناك حتمية لمنح جوائز ، فإن الجناح المصرى وفنانيه هم الأجدر بكل الجوائز لجديتهم واحترامهم للمعرض .

وحول البينالى يتحدث أيضا الفنان الدكتور طارق زبادى ، وهو أحد المواهب البارزة فى مجال النحت المعاصر من بين جيل الشباب ، وله حضور فنى ممتاز فى دورات البينـالى التى إشترك فيها ، فيقول : نحن حريصون على نجاح بينالى الإسكندرية ، حرصنا على استمرارية تقدم الفنون التشكيلية فى مصر ، من خلال الاحتكاك الدولي ، ورؤية أنفسنا بعد ذلك عند التقييم والمقارنة ، ومن خلال هذا الحرص فإن مشكلات البينالى لن تنتهى وستظل تتجدد عند كل لقاء ، لكن يبقى معه حرصنا على استمراريته فى موعده وهو حـدث هام تميـزت به مصر فى المنطقة .

وازاء المشكلات التى تعترض الطريق يقترح الفنان طارق زبادى نقل تبعية البينالى من محافظة الإسكندرية إلى أى جهة أخرى تتولى تنظيمه بشكل أفضل ، وذلك لأن محافظة الإسكندرية تعتبر البينالى عبئا عليها، وليس فرصة لاستغلاله ولو سياحيا ، وتساءل الفنان طارق : لماذا لايكون هناك مكتب دائم لبينالى الإسكندرية كما تفعل بعض الدول الأوربية، ودول حوض البحر الأبيض ، كما أنه يمكن الترشيح من الآن لدورتين قادمتين ، فالفنان الذى يعرض فى أى بينالى فى حاجة إلى وقت وجهد واستعداد ، ايطاليا فى هذه الدورة واضح جدا أنها لم تهتم .

وأضاف طارق زبادي : مطلوب كتاب أحصائى شامل جامع عن جميع دورات البينالى ، يمكن من خلال تجميعة ودراسته والأستفادة منه ، ونحن قادرون على الدفاع عن البينالى ومعنا كل المثقفين لأنه صار جزءا حيا من وجداننا الفنى ، ولايمكن السكوت على محاولة تقويضة أو تشوية صورته ، وسوف يبقى البينالى مدرسة فنية ومعرضا عاما واحتكاكا دوليا .. طالما بقى فى الفنانين ذاك الهمّ الفنى الذى تشربوه من حب هذا البلد .



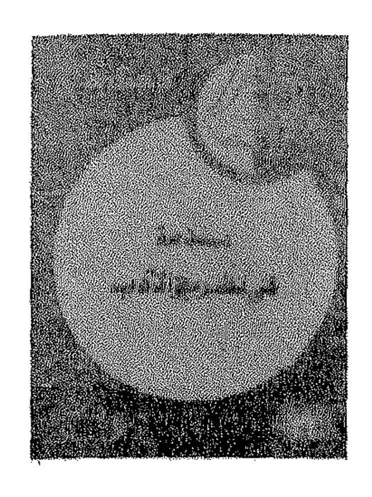
الكتاب : وردية ليل
تأليف : إبراهيم أصلان
الناشر : شرقيات - القاهرة
١١٢ ص ، ٥ ج م .

هذا هو الكتاب الرابع لإبراهيم أصلان ، سبقه « بحيرة المساء » مجموعة قصص ، « مالك الحزين » رواية ، « يوسف والرداء » مجموعة قصص .

وفى هذا الكتاب الجديد يقدم لنا أصلان مجموعة متواليات قصصية من عالم واحد ، هو عالم الليل الذى كان يشكل بالنسبة للبطل وقتا خاصا مشحونا بالذكريات التى لا يمكن الفكاك منها .

إنها مشاهد أولى يمد أصلان خلالها يده ليوارب الأبواب ، ويمضى بنا إلى تلك الحنايا المأهولة بنفر من أهل الليل ، الحنايا العامرة بدفء القلوب عندما تتجاور ، يلملم الأشجار والأحزان ونجوم الليالى ، ويجمع إبتسامات الرجال وآمالهم، ويلامس جراح الروح بأطراف الأصابع برفق ، ولكن دون وجل لينتهى بنا ، بقدرة الفنان ومهارة المبدع إلى عالم كامل غير مسبوق ، يغنينا ويملأ نفوسنا بفيض من الأسى والبهجة والتراحم .

يقدم الكاتب هنا تصورا روائيا يقوم على اختصار مساحات من الزمن ليتوقف عند أطوار مختلفة ومتباعدة من حياة هذا النفر القليل من الناس ، وحياة الوطن الذى يعيشونه ، ويجسدها فى مشاهد يكتمل كل منها على حدة وإن كانت ، فى تجاورها ، تمنحنا عقدا واحدا موصولا ، له حبات من النور ، ترتجف، لتهدينا إلى قلب العتمة .



الكتاب : مقدمة فى نظرية الأدب
تأليف : تيرى إيجلتون
ترجمة : أحمد حسان
الناشر : الثقافة الجماهيرية
٢٥٦ ص ، جنيه مصرى .

هذا الكتاب يطرح على نفسه مهمة تقديم تقرير شامل على نحو معقول عن نظرية الأدب الحديثة لمن تكون معرفتهم السابقة بالموضوع ضئيلة أو معدومة .

ورغم أن مشروعا كهذا يتضمن ، بالطبع ، ضروبا من الحذف والمبالغة فى التبسيط ، فقد حاول المؤلف أن يجعل الموضوع شعبيا ، لا مبتذلا ، وحيث إنه لا توجد ، فيما يعتقد النيات ، طريقة محايدة غير تقييمية لتقديمه ، فقد دافع طوال الوقت عن قضية بعينها .

على سبيل المثال فإن المؤلف يرى أنه ليس من المحتمل أن يقود التمييز بين الحقيقة والخيال إلى بعيد ، وليس السبب الوحيد لذلك أن التمييز نفسه موضع شك فى العادة ، فقد جادل البعض ، بأن التعارض الذى نقيمه بين الصدق التاريخى والصدق الفنى لا ينطبق على الإطلاق على أنواع بعينها من الأدب .

فى الأدب الإنجليزى وفى أواخر القرن السادس عشر وأوائل القرن السابع عشر يبدو أن كلمة « رواية » كانت تستخدم لكل من الأحداث الحقيقية والخيالية ، وحتى التقارير الصحفية لم تكن لتعتبر حقيقية ، أى ببساطة ، لم تكن تمييزاتنا القاطعة بين الخيال والحقيقة سارية .

على هذا المنوال ، من تتبع المدارس الأدبية ونظريات الدرس الأدبى وتبيان الفوارق الدقيقة بينها ، يمضى الناقد الإنجليزى الشهير تيرى إيجلتون فى كتابه هذا الذى يعد أحدث كتبه الذى تقرؤه كل الأوساط الثقافية النشطة فى العالم ، وهو يعد واحدا من الكتب الهامة فى مجال الفكر النقدى خلال العقد الأخير ، وقد حرص فيه المؤلف على اعتصار أبرز المناهج النقدية والفكرية المعروفة والمؤثرة.



الكتاب : ما رآه السندباد

شعر : حسن توفيق

الناشر : المؤسسة العالمية للطباعة والنشر قطر ، ١٦٠ ص

هذا هو الديوان الثامن للشاعر حسن توفيق يواصل فيه مسيرته الشعرية التى بدأت منذ الستينات دون انقطاع .

يضم الديوان عشرين قصيدة أغلبها من شعر التفعيلة وبعضها جاء على نظام الشعر الكلاسيكى العمودى .

من أجواء الديوان :

كلما قلت سأبقى فى
بلادى بين أهلى وصحابى
والعباد / دحرج القلب
على الأشـــواك تيـــار
الضجر .

فتشبثت بحزنى ،
وبحلم كاد يخبر ، وتذكرت
السفر . عندما كنت أرى
وجهى على مرآة موج
البحر معتزا بأن الوجه
وجه السندباد .

آه كـــم كنت أحب
الخوض فى قلب الخطر

آه كم كنت أغنى
عندما أكشف نارا
حوصرت حينا .

بأكداس رماد ورماد

ضجر شوك قلبى إذ
رأى نارا ولكن لا أرى
فيها إتقاد .

وأرى الضـــجـــر
يوافينى بأشياء تعاد

وأرى ناسا يضيقون
مع الفجر ، يروحون ،
يجيئون .

ولكن بابتســـامات
مريبة .



الكتاب : رجال فى حياة أم كلثوم
تأليف : عبـــد النور خليل
الناشـــــر : مطـــابع روزاليوسف
٢٣٢ ص ٤٠ ج م .

يتابع هذا الكتاب مسيرة أم كلثوم من زاوية أولئك الرجال الذين إرتبطت بهم مسيرتها الطويلة فى الفن العظيم الذى قدمته .

لكن لماذا أم كلثوم الآن ؟

يقول الزميل عبد النور الخليل الذى مارس النقد الفنى قرابة الثلاثين عاما فى إجابته عن هذا السؤال :

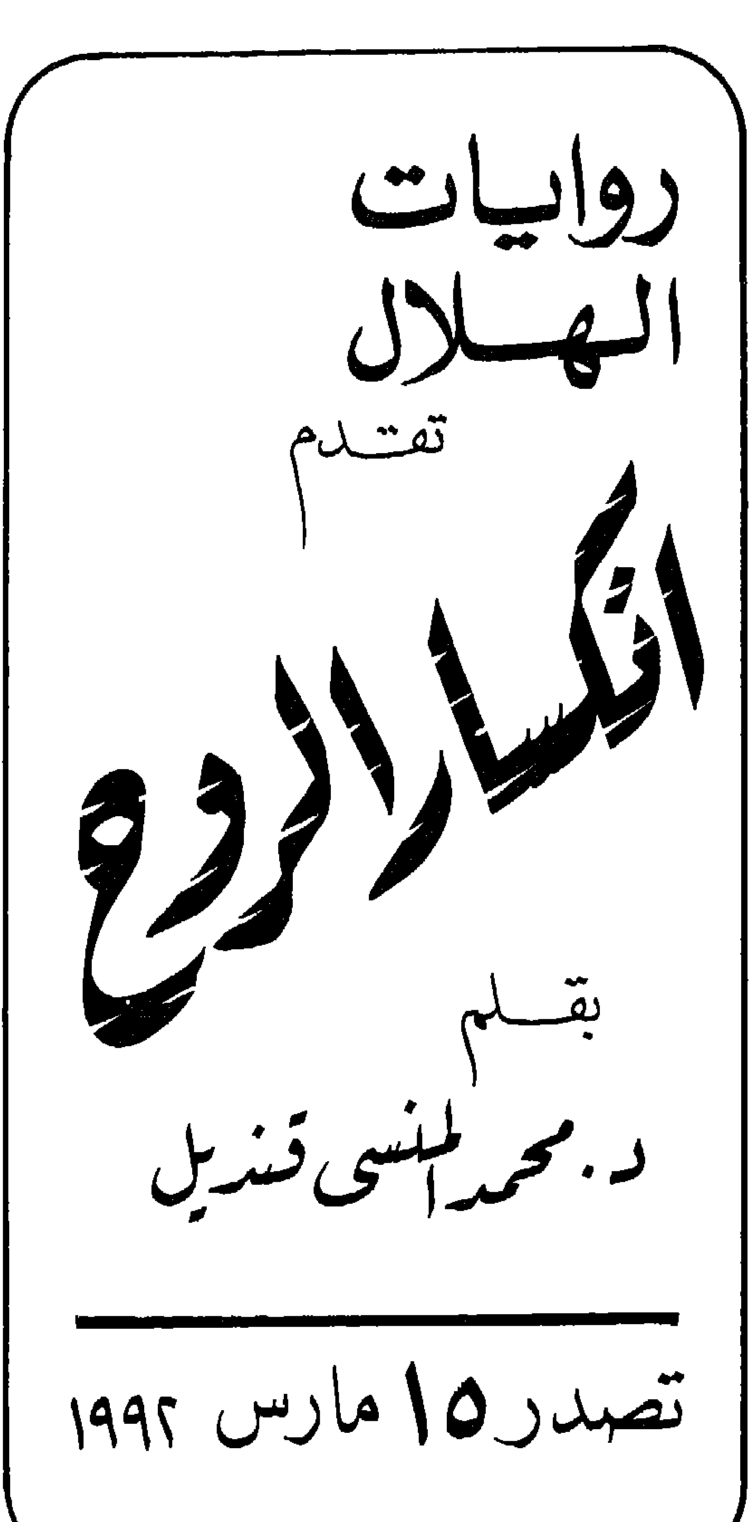
ببساطة .. لأننا مازلنا نعيش فى عصر أم كلثوم الذى بدأ فى مطلع هذا القرن ، ورغم انقضاء سبعة عشر عاما على رحيلها فلم ولن نشهد نهـــاية هـــذا العصر الكلثومى لسبب بسيط آخر هو أن صوتها الذى تنشره أغانيها وتراثها الغنائى جيلا بعد جيل ، لم يزل القمة المعجزة فى شرقنا العربى ، وليس هناك من الدلائل ما يشير إلى أن صوتا عبقريا جديدا ، ولد أو قد يولد ، لكى يصنع عصرا جديدا آخر للغناء العربى .

كل الأصوات فى ساحة الطرب والغناء فى عالمنا العربى شرقا وغربا عاشت وتعيش تحت مظلة صوت قيثارة السماء كوكب الشرق سيدة الغناء العربى الخالدة أم كلثوم .

على أى حال فإن المؤلف يسرد قصة أول رجل من الوسط الفنى تعرف على فناننا الموهوبة وهى فى مرتع الصبا ، وهو الشيخ أبو

العلا محمد الذى ما أن سمع صوتها حتى أصر على أن يدفع بها إلى قلب الحياة الفنية ، وكان لقاء المصادفة على رصيف محطة القطار فى السنبلاوين بين الشيخ وأم كلثوم أهم حدث فى حياتها ، فهذا اللقاء هو الذى حدد ملامح مستقبلها فيما توالى بعده من أيام ، فقد كان الشيخ أبو العلا هو الذى أقنعها بالنزوح إلى القاهرة وتعهدها فى البداية ، ولم يفارقها حتى آخر يوم من حياته ، وكان هو الذى مهد لها الوجود على خريطة ساحة الغناء والطرب فى القاهرة فى بداية العشرينات .

بالاضافة إلى هذه العلاقة ذات الطابع الخاص ، يسرد الكاتب علاقة سيدة الغناء بكل من أحمد رامى ، وزكريا أحمد ، والسنباطى ، ومحمود الشريف ، وغيرهم وغيرهم من الرجال الذين ربطت بينها وبينهم وشائج الفن الرفيع .



جاسوس فى قصر السلطان

بقلم : فوزية مهـــران

إذا كانت المسرحية من تأليف محمد عنانى يمكننا القـــول أيضــا إنهــا من خـلق كرم مطـاوع ومن إبـداع أشرف عبـد الغفــور ...

● التاريخ » دائما مادة خصبة وغنية للمؤلف المسرحى والأحداث التاريخية حافلة بألوان الصراع والمتناقضات وتضفى على المسرحيات المستمدة منها حيوية وواقعية وتشيع جوا حقيقيا لتأمل أحداث جرت بالفعل ، وقد يعيد الكاتب قصصا وأساطير اخترعوها من خيالهم وسرت مثل الاساطير بينهم .

إن جوردن شايلد المؤرخ الفيلسوف يقول عن التاريخ إنه علم التقدم وان المعرفة لدينا تتطور من خبرات الأجيال السابقة وإن تتبع الحدث التاريخى يضفى الكثير من الفهم والكشف وتجديد العلاقات الإنسانية .

علاقة متبادلة بين المؤرخ والمؤلف المسرحى .

المؤرخ يسجل الوقائع والأحداث والدرامى يلتقط لحظة .. أو حدثاً .. موقفاً .. شخصية يبرز بها معنى وفكرة ويناقش الواقع والحاضر من خلالها .

لقد أخذ شـكسبير مادته التاريخية من كتب توكيتدس وبلوتارخ « سـير الأعلام العظـام من اليـونان والرومان » .

(قال تشيرشل إنه تعلم تاريخ بلاده من مسرحيات شكسبير أكثر من كتب التاريخ) .

استلهام التاريخ

وعلى ذكر شكسبير فإن الدكتور محمد عنانى يحب ويعلم ويترجم مسرحيات



شكسبير ، ووجد ضالته المنشودة فى هذا العالم الرحب الجافل بعراقة التاريخ .. وعبق المسرح ومؤشرات الحكمة ولحظات التنوير .

وقد تأثر بالمعلم طه حسين الذى أقام الدعوة لاستلهام التاريخ .

(وهو واجب وطنى وقومى أن نحاول بعث تاريخنا ورصد حركة التحرر والتقدم فيه) .

وكانت الزيارة إلى التاريخ وأعمال التنقيب فيه فى عهد المماليك – فترة حافلة زاخرة بألوان المرارة والهزل وتألق روح السخرية والنكتة كسلاح مصرى قديم .

الجديد في الأمر أنه جعل المماليك فى مواجهة عموم المصريين – لا يوجد البطل الخارق أو المخلص العظيم . مجرد إنسان عادى من أهل الصنعة ومن قلب السوق .. محاط بالمئات مثله من النجارين . والحدادين والخياطين والنساء العاملات .. حركته من بينهم .. وتساؤله على لسانهم .. واندفاعه من أجلهم .. وتقدمه متبوع بحركتهم وحيرتهم واندفاعهم إلى المجهول هو أيضا لم يركز على واحد من المماليك بعينه – إنما ركز على إنسان بسيط من وسط السوق وظل يصعد به إلى البطولة وكأنه يسجله فى ذاكرة التاريخ – وفى تاريخنا الخاص والعام ، وهو دور مشهود لأشرف عبد الغفور ، مشهد البداية فى سوق القلعة .. فى قلب ساحة هموم المصريين .

فى الخلفية إحدى بوابات مصر القديمة .. تقف شاهدة . قباب شاهقة من العمارة الإسلامية . نتنزل إلى قلب السوق .. الركود فى النفوس وفى الحركة .. الأزمة والبوار وسوء الحال على الوجوه وفى الطريق العام يتحدثون عن شاعر كذاب مأجور يأتى كل حين ويزيد من وقع البلاء .. فهو يتحدث عن انتصارات ورخاء وسعة وحبور !

يتحدثون أيضا عن محمود « نجار » يرفع صوته ويتساءل بصوت مسموع متى تجئ الأخشاب وينتظم دولاب العمل والانتاج .

(لمحة أخذها من مسرح شكسبير .. التقديم للشخصيات قبل ظهورها على المسرح .. وتحريك الاستعداد للقائها) .

الناس يعيشون بأحلام اليقظة - يلعقون الخوف .. ويلعنون الشاعر ولكنهم يريدون أيضا أن يصدقوا أنباء الانتصار والرخاء القادم على الأبواب .

ويقسون على النجار العنيد « أشرف عبد الغفور » يقولون إن عقله أصبح خشبيا جامدا مثل مادة صناعته - (ربما يحصنونه بقسوتهم وسخريتهم من أعين البصاصين) يجترون الأحلام .

ممثل عموم المصريين !

أشرف عبد الغفور أو محمود - أجمل فتى فى السوق .. عاقل وجسور لا يرضى عن حال أصدقائه - فى أوقات المحن والفراغ والأزمة عندما يتوقف الابداع وتدور الشائعات وتنزل إلى السوق فنون الخداع والأكاذيب .

هو الرجل البسيط - ممثل لعموم المصريين - نجار فنان ومبدع - يريد أن يعثر على مادته الخام .. يبدع صنعها ويتقن عمل الأثاث وإقامة بيوت جديدة لو توافرت لديه .. الأحلام تتحقق .. يصير العمل والخلق والجهد المتقن أسلوب حياة (حقا فى ظل الإبداع والخلق تبنى المجتمعات والنفوس من جديد) يصمم أن يذهب إلى قصر السلطان .

بدلا من هذا الانتظار القلق المميت - قصر السلطان ملئ بالخيرات والأخشاب الملقاة بإهمال - يطلبها .. ليصنعها ويرمم بها حياة الناس وتبدأ العجلة فى الدوران .

هناك حكمة شعبية قديمة - إذا كنت تريد المواجهة أو الحقيقة فاذهب إلى عرين الأسد - لذلك يصمم محمود على الذهاب إلى عرين السلطان .

ويحاول أن يثنيه عن عزمه الحداد المجرب الحكيم (جمال الشيخ) ليحميه - فهى رحلة الهلاك واختراق الألف ميل من

المكائد والفخـاخ والشراك - والحقيقة ملقاة هناك بإهمال مثل أطنان الثروات والأرصدة المجمدة والأخشاب ومواد الصناعة والبناء) .

- إنها رحلة البحث عن الحقيقة ، وانتزاعها من قلب الأسد العجوز وبراثن الأساطير .

إبداع المخرج

تجلى كرم مطاوع وجعلها لوحات حية تنبض وتشع حركة داخلية وتنطق بذاتها .. بدأ بالساحة الشعبية وقلب منطقة الحرفيين - سر مصر الزاخر وكنزها المخبوء سر البسطاء المبدعين على مر العصور .

أدخلنا المخرج فى عمق الصورة والمشـهد .. عزف بكل المفردات لديه .. جعل السقا ينادى « اشرب ماء النيل الصافى » .

وظف النداء والغناء وتداخل الأصوات وتتابع جمل الحوار بحيث جعل السـوق يضج بالحركة وتتصعد الحكمة والشفرة الساخرة ، وحبكة النكتة ، وتباين النغمات وردد آهات وجع القلوب - حمل الكلمات الشاعرية للمؤلف بموسيقى تصويرية كامنة وصادحة .

المسرحية أطنان من الكلمات - كلام فوقه كلام - حوار كثير وتكرار لنفس المعنى والأقوال .

ويجعل المؤلف إحدى بطلاته - أم علية - لم يمسسها بشر ولم تتزوج - وهكذا اسمها وتتوهم أن بالبيت علية ابنتها حقا وعلى وش زواج . تقول عن العصر : إنه كلام فى كلام .

عندما يجئ نبأ غرق سفن الأخشاب يدرك محمود أنها لحظة المواجهة لابد من شحذ الطاقات - الخامات موجودة بالداخل « الخشبية والإنسانية » .

(لا تنقصنا الصنعة ولا روح الابتكار) - المعجزة لاتأتى من الخارج أبدا - لكنها فى الداخل من إبداع الحلول .. والعمل الجاد المتقن والايمان بحق العيش والعدل ، وهذه رسالة المسرحية .

وعلى عكس لوحة السوق والساحة الشعبية .. وبوابة مصر القديمة والقباب المشرعة نحو السماء .

تكون ردهة القصر المقبض .. وأبوابه الجانبية المغلقة تحوى خلفها الكثير من الدسائس والمؤامرات وتكمن القصص المريضة والأحلام المحبطة .

القصر يبدو فارغا فعلا ..

المخرج كرم مطاوع أراد لكرسى العرش ووسائد السلطان وفراش الترف والاسراف أن تكون معلقة فى الهواء .. تنزل من أعلى .. وتختفى فالكل يحلم بالسلطة .. بالكرسى ولا شئ له جذور أو ضارب فى عمق الأرض ومصلحة الناس أو النفع العام .

وهكذا بلمسات ذكية .. وتصور يقظ

أعطى خلفية سياسية عن عصر المماليك واهتزاز الملك .. وتهاوى النظام .

ساندته فى الرؤية التشكيلية « سكينة محمد على » وجعلت الستائر ونسيج المخمل الثقيل كأنها حواجز كثيفة تحجب عنهم الحقيقة .. ومشاعر الناس وفوران الناس والقلوب فى الخارج ، وكانت ذكية وجعلت التباين ملموسا وشاهدا .

من أحلى المواقف أيضا فى المسرحية لوحة السجن داخل القصر .

اندفعت أم علية بشهامة بنت البلد تنقذ النجار الذى اتهم بأنه جاسوس وتنقذ العامل لديها الذى تبعه هناك .

غرفة مغلقة موحشة مظلمة أكد بها كرم مطاوع عمق القهر والظلم فى القصور .

يقف كل فى ركن بعيد .

يناجى نفسه والواقع .

مديحة حمدى الأميرة أو الخاتون .. يرمونها بالجنون لأنها تحلم بفارس شجاع من الشعب يخطفها على حصان أبيض ويبعدها عن القصر المريع .. ووجدت فى النجار الجميل صورة حلمها .. وأقصوها عنه .

تنزل من أعلى بفراشها الحرير .. لكنها أسيرة ومعذبة مثلهم .

وفى الركن محمود النجار .. أدرك الحقيقة فى القصر الغريب .. كانوا ينتظرون الجاسوس ويعدون لاستقباله .. والاتفاق معه أيضا .. كل لديه خطة فى التعاون وفى رسالة إلى الأعداء .

والآن يتهمونه بقتل السلطان .

وكل ما يريده الأخشاب .. ليبدأ العمل .

وأم علية ملقاة فى ركن بعيد تعلن عن خيانة حبيبها الذى هجرها .. وارتكانها لصورة وهمية فيها دفء ومشاركة وزواج .

العودة إلى الحق

فى القصر أيضا توجد فتاة مصرية .. تخفت فى صورة أميرة « سلوى خطاب » تعرف خبايا القصر .. وكل الحكايات والتلفيق وتود الخروج والهرب بنفسها .. ومن النجار الموهوب تعرف أنها لابد أن تفكر بناسها فى الخارج وتحاول مساعدتهم وتحررهم .

كانت تتحرك بثقة وكلماتها تصدر من أعماق قلبها .. وتعيش دورها حقا وكأنه حقيقة .

الدكتور عنانى قدم السلطان فى صورة ساخرة هزلية .. (محمد أبو العينين) جعله يجمع بين البلاهة والمكر . ولعب الدور ببراعة وبدى فى صورة بهلوان يتخابث وكان معاونوه أكثر مكرا ودهاء وإن سخر منهم أيضا .

(حمزة الشيمى) فى دور سيف الدين بدا متآمرا طبيعيا يستفيد من كل الأحداث لصالحه ، و (مدحت مرسى) فى دور علم الدين أعطى حيوية أكبر للدور .. وخفة ، وكان يلون صوته وكأنه يسخر من النموذج وهو يقدمه .

جماعة القصر أبرزهم كرم مطاوع مثل الأراجوزات .. الكروش المتخمة .. والعقول المغلقة على مظاهر السلطة وإطالة مدة التمتع بها وألبستهم سكينة محمد على أكتافا مصنوعة عريضة ، وزينت الكروش بالماس والأحجار . جعلتهم بالفعل كالبالونات المنفوخة ، ورجال جوف تضيق ملابسهم على أرجلهم حتى لتكون حركتهم القفز والشقلبة وعدم التوازن أو الاتزان .

أشرف عبد الغفور يمتد تأثيره علينا حتى خارج العرض كان ممثلا لعموم المصريين ومندوبا عنا فى السوق .. ومتحدثا ببساطة أهل الديار ويحرك وجداننا وتفكيرنا .

ويظل يتبعنا بطريقة مشيته .. بحركته القافزة » داخل القصر .. بنغمة الصدق داخله .. ببساطة أدائه.. كان فردا .. وكان جمعا .

لدرجة لا أتصور هذه المسرحية بدونه .

ماذا يحدث لو أنه ليس النجار الموهوب .

مشهد النهاية . كان التشكيل فيه جميلا وبليغا ..

عودة إلى السوق .. مواجهة بين أطماع المماليك والناس .. محاولة احتواء وتزييف الحقيقة من جديد .. وصحوة بين أهل السوق .

سجلها كرم مطوع كأنها صفحة من كتب التاريخ ، ومن ذاكرة الشعوب .

لوحة جديدة أقامها كرم مطاوع من كتاب وصف مصر مصرية التكوين والإبداع .

المشهد الأخير .. وقد وجهت الطعنة الغادرة للنجار البديع .. محمود أو أشرف عبد الغفور .

يقول : لقد قتلت شعبا .

فالتتار على الأبواب .

يحيط به الصناع وأهل السوق – ويدخل البحار فلقد علم البحارة الشجعان بالحال وجاءوا يحرثون البر أيضا .

ينطلق دخان أبيض شفيف وكأنه أفق المستقبل القريب كان يمكن أن ينطق بتلك الحكمة الشاعرية البسيطة « عندما تطعن مصريا يقوم عنه عشرة أو ألف » .

وتظل اللوحة هكذا ساكنة .. صامتة .. محملة بالمعنى والأمل .

فقــر الفكــر
فى الســينما المصرية

بقلم : مصطفى درويش



عمر الشريف لم ينقذ اسمه فيلم « المواطن مصرى » من الفشل

نجاح الفيلم أو فشله ، إنما يرجع أساسا إلى السيناريو، هل هو مبتكر أم لا ، وإذا كان مأخوذا عن عمل أدبى فهل معالجته له سينمائية أم لا .؟ !

وفى كلا الحالتين هل هو محكم البناء ، يقدم المعانى التى يدور من حولها فى صور تتتابع بجلاء ومنطق واضح يترتب لاحقه على سابقه . أم بناؤه مترهل ومعانيه غامضة معتمة ، على نحو يوحى بالتخبط والتخليط .

وهذا القول فى أهمية السيناريو من الأمور البديهية التى لا خلاف عليها . أو بعبارة أخرى من المسلمات .

وإذن فلماذا تكرار الذكر له الآن ؟

كانت السنة الماضية فى أيامها الأخيرة عندما عرض «المواطن مصرى» و«يا مهلبية يا» .

ومع مطلع السنة الحالية ، جرى عرض عدد آخر من الأفلام لمخرجين لامعين أو واعدين ، أذكر من بينها «الصرخة» و «فارس المدينة» و «ناجى العلى» وتوقع الكثيرون لهذه الأفلام نجاحا منقطع النظير، ولا سيما أنها جميعا مرصعة باسماء كبار نجوم السينما المصرية والعالمية بدءا بعمر الشريف وعزت العلايلى ومحمود حميدة وانتهاءً بنور الشريف .

هذا إلى أنها نتاج فكر نفر موهوب قادر على التقاط ما تضطرب به صدور الناس فى أنين مبهم مكتوم، فتخرجه آخر الأمر افلاما .

مرّ الكـــــلام

ولكن الرياح جاءت بما لا تشتهى السفن ، فإذا بها – وبلا استثناء – تفشل فى الشباك فشلا ذريعا .

وحاول نفر من مدمنى التنظير الزائف ، والتبرير المتهافت، والمنطق المعوج، تفسير هذه الظاهرة بأن الأفلام ما سقطت تجاريا ، إلا لأنها عرضت فى ظل ظروف غير مهيأة لاستقبالها استقبالاً حاراً .

ومن بين هذه الظروف فى نظر هذا النفر، مهرجان القاهرة السينمائى الذى امتص فضول المشاهدين وجزءا كبيرا من مدخراتهم المخصصة للترفيه ، وهى مدخرات تنكمش على مرّ الأيام بسبب موجات الغلاء !

فضلا عن البرد القارس ، وما صاحبه من أمطار غزيرة ، ورياح صرصر عاتية ، لم تشهدها مصر منذ عشرات السنين .

وفوق كل هذا رفع أسعار تذاكر السينما ، ومحاصرة الأفلام المصرية بالأفلام الأمريكية القائمة على الحركة والإثارة ، مثل «روبين هود» و «سحالف النينچا» و «المدمر.. يوم الحساب» .

وغاب عن بال هذا النفر أنه لا المهرجان ولا الغلاء ولا البرد بأمطاره ورياحه ، قد أفلحت فى الحيلولة بين الناس وبين الذهاب إلى السينما للاستمتاع بفيلم «الرقص مع الذئاب» .

ولا ارتفاع أسعار التذاكر ، ولا غزو الفيلم الأمريكى لدور العرض ، قد نجحا فى منع جمهور الفيلم المصرى من الاقبال على مشاهدة «الكيت كات» .

صرخات وهمسات

واضح إذن أن الفشل له أسباب أخرى ، لعل أهمها فقر فكر الأفلام ، وانعكاس ذلك على السيناريوهات .

وأبدأ بالصرخة ، حيث يلعب نور الشريف دور شاب أبكم أصم «عمر الفرماوى» يعمل ميكانيكيا بورشة سيارات .

وما أريد أن أدخل القارئ فى متاهات تفاصيل الفيلم التى تصور حياة هذا الشاب فى سجن العجز عن الكلام .

وموقفه أمام الباحثة «تيسير» (معالى زايد) التى تعد رسالة دكتوراه فى علم الإشارات ، فتتخذ منه مادة للدراسة ومادة للاستمتاع بفحولته حين تراوده عن نفسه فى شقتها الفاخرة . إلا أنه يأبى ويتولى مخافة اقتراف الفحشاء .

ثم موقفه أمام زوجته «عزوزة» (نهلة سلامة) ، تلك المرأة الجشعة المدمنة التى كانت تعمل فى المقهى المجاور للورشة ، ولا هم لها من معاشرته إلا سرقة ما ادخره من مال .

فلما فشلت فى تحقيق مآربها ، كادت له بتحريض صديقة ساقطة على الادعاء بأنها حملت منه سفاحا .

وإنما اكتفى بالوقوف قليلا عند محاكمته عن تهمة اغتصاب هذه الفتاة الساقطة ، إذ تبين أنها قاصر ، وما تبع صدور الحكم فى تلك التهمة من آثار جسام .

فها هو ذا ينكر الجريمة ، ويطلب من هيئة المحكمة أن تكلف الباحثة «تيسير» بالقيام بترجمة ما يصدر عنه من إشارات .

السقوط .. لماذا ؟

وإذا بها تفاجأ بقوله ، وهو يرد تهمة الاغتصاب عن نفسه ، إنه ليس عبد الشهوات ، وآية ذلك امتناعه عن سماع نداء الجنس عندما همت به فى حجرة نومها ، وهى مستلقية فى وضع كله إغراء .

وطبعا لا تقوم بترجمة أقواله ، فيثور الحضور، وجلهم من الصم والبكم ، ولكن ثورتهم لا تغير من الأمر شيئا .

فلأمر ما فى ذهن صاحب الفيلم المخرج «محمد النجار» لم يسمع رئيس المحكمة لاحتجاجهم الصاخب ، وكان أن أصدر حكما يلزم «عمر» بالزواج من الفتاة المتهم باغتصابها زورا وبهتانا .

ولسبب ما من تلك الأسباب التى تدخل فى باب العجب العجاب شاء كاتب السيناريو «كرم النجار» لثورة الصم والبكم أن تستمر .

وإذا بهم يختطفون النسوة الثلاث بدافع الانتقام .. إلى أين ؟

إلى حجرة قياس السمع حيث يسلطون عليهم ذبذبات ذات تردد عال ، إلى أن يفقدوهن حاسة السمع نهائيا .

وبهذه النهاية الغريبة كل الغرابة ، ولا أقول الحمقاء كل الحماقة ، نخرج من الفيلم ، وقد امتلأت نفوسنا لا بغضا للنسوة الثلاث اللائى تسببن بمكرهن العظيم فى محنة الشاب الأخرس البرئ، وإنما بغضا لهؤلاء الخرس المتمردين بسبب جريمتهم النكراء ، تلك الجريمة التى سلبت البعض نعمة السمع ، دون أن تتيح لمرتكبيها وجودا جديدا ، أكثر تحررا .

مجـد الفـانيات

خلاصة القول إننا إذن إزاء فيلم يقوم على سيناريو حافل بمظاهر اختلال جسيم يجعله أقرب إلى تخليط المجانين ، والجمهور أعقل بطبيعة الحال من أن يجذبه مثل هذا التخليط .

وكذلك الحال بالنسبة لـ «يا مهلبية يا» فهو بدوره فيلم شديد التخليط ، شديد التعقيد .

فلقد اراد صاحباه الثنائى كاتب السيناريو «ماهر عواد» والمخرج «شريف عرفه» أن يبتدعا عملا سينمائيا من ذلك النوع الفريد الذى يتكون من شقين متداخلين ، كل شق يكاد يكون فيلما كاملا ، واحد يعرض حياة مخرج يعانى أزمة التعبير سينمائيا عما تحسه نفسه ، وواحد يعرض بعضا من أحداث الفيلم الذى من أجله يعانى هذا المخرج عناءً شديداً .

ولعل «ثمانية ونصف» رائعة المخرج الإيطالى الشهير «فيديريكو فيللينى» أعلى أفلام ذلك النوع العسير من الابداع شأناً .

وكم من المخرجين حاولوا الاقتداء بتلك الرائعة ، وهم يصنعون أفلاما تعرض لعملية إبداع فيلم فى أثناء مرحلة التكوين .

ولكن أكثرهم لم يستطع أن يحقق

من النجاح ، فى هذا الخصوص ، إلا القليل .

ولسوء الحظ أن الثنائى «عرفه ، عواد» لم يستطعا بفيلمهما «يا مهلبية .. يا» ، وهو محاولة من هذا القبيل ، إلا أن يصنعا عملا سينمائيا فجا شديد الافتعال ، كشف عن ثروة متواضعة فى الثقافة الذهنية ، الروحية ، حتى ما كان منها متصلا بتاريخنا القريب .

و «يا مهلبية .. يا» ، وهو رابع أفلامهما معا ، يبدأ بمخرج «عبد العزيز مخيون» وكاتب سيناريو «أحمد راتب» ، وهما على وشك بيع مخزن للدقيق ، ورثه الأول من عمه .

عملقة الأقزام

وبالمصادفة يكتشفان ، وقبل توقيع العقد مع أحد الاستثماريين ، انه ليس مخزنا ، وإنما استديو سينما قديم ، فلا يستكملان إجراءات البيع ، لأنهما قررا إبداع فيلم يجرى تصويره داخل هذا الاستوديو .

وحكاية هذا الفيلم التى وقع عليها الاختيار ، تقع أحداثها إبان عهد الملكية والاحتلال ، وبالتحديد سنوات الاربعينات التى جاءت لتكون مرحلة للتحول العظيم .

فما هى هذه الحكاية التى وقع عليها الاختيار؟

إنها حكاية غازية من بنات الهوى اسمها « عناب » (ليلى علوى) تدير مرقصا ليليا ، ولكنها فى حقيقة الأمر ، زعيمةِ وطنية تقود مجموعة من الأوباش ضد العسكر الانجليز، وضد الملك الذى تدبر مع اتباعها مؤامرة لاغتياله تارة بإطلاق الرصاص عليه ، وتارة بوضع السم له فى طبق مهلبية لذيذ .

حيرة وضياع

ولا نشعر بغموض وقائع الحكاية لأول وهلة ، ولكننا لا نلبث أن نحس شيئا من الغرابة فى هذا الذى نرى ، لأننا نرى أشياءً مسرفة فى السوقية ، ليس من شأنها أن ترتفع إلى حيث تكون فنا رفيعا ، وإنما هى من هذه الأشياء التى نراها فى أكثر المسرحيات ابتذالا .

وسرعان ما نسأل أنفسنا ما الذى يريده صاحبا الفيلم بكل هذا .

ما الذى يقصدانه بهذه الزعيمة البغى التى لا نعرف من ماضيها شيئا .

ونزداد حيرة عندما نكتشف أن




محمد خان
صاحب فارس المدينة

« يامهلبية ... يا » زعيمة الوطنية

كفاحها ضد السراى والاحتلال ، لا يعدو أن يكون تمثيلا فى تمثيل وأن كفاح اتباعها تحت قيادة عشيقها «مليم» (هشام سليم) من أجل تحرير فلسطين ، لا يعدو هو الآخر أن يكون وهما كبيرا .

لا شئ يهم

وما أن تنتهى وقائع الفيلم ، حتى تظهر على الشاشة كلمات لصاحبيه تقول لنا باستخفاف مميت إن جميع حروبنا فيما عدا حرب العبور !! عبث فى عبث .

وكأنى بهما يريدان أن يقولا لنا بأسلوب مشوش ثقيل على النفس ، إنه لا شئ يهم .

والآن إلى «فارس المدينة» لصاحبه «محمد خان» ، وهو إذا ما قورن من ناحية لغة السينما بجميع الأفلام المهزومة تجاريا فى ساحة الشباك ، لكان أكثرها رقيا .

ومع ذلك فقد كان حظه من النجاح قليلا .. لماذا ؟ هذا ما سأحاول تفسيره فى كلمات .

يهدى «محمد خان» فيلمه إلى زمن «أم كلثوم» باعتباره زمن الأصالة والجمال، ومفهوم ذلك بالمخالفة أن ما عداه أزمنة قبح وزيف .

الأزمنة الجميلة

ولو أخذنا صاحب «فارس المدينة» بظاهر كلامه ، لاعتبرنا هذه العهود الستة ، هى زمن الأصالة والجمال .

ولما فرقنا بين ما كان منها سابقا على إعلان الجمهورية وبين ما جاء بعد هذا الإعلان .

ولست أدرى إذا كانت نية «محمد خان» قد انصرفت إلى عدم التفرقة بين أى من تلك العهود أم لا .

فصوت أم كلثوم فى أثنائها كان أعجوبة بين الأصوات وأغانيها فى أثنائها تهون وتشحب أمامها أية أغنية لها خلال العشرين سنة الأخيرة من حياتها المليئة بالالحان والأشجان .

وفى اعتقادى أن صاحب الفارس ، لم يقصد إلى أى شئ من هذا .

ولكنها فوضى الإهداءات ، وفوضى إدعاء الحنين إلى ماضٍ ذهبى لا وجود له إلا فى شطحات الخيال .

وعلى كل ، فلنترك جانبا الاهداء بكل ما اثاره من مشاكل وتداعيات ، ولنسرع بالانتقال إلى «فارس» بطل الفيلم ، وياله من فارس .

المهرب الشريف

إنه تاجر عملة جاوز الشباب قليلا «محمود حميدة» . جمع ثروته ، وهى بالملايين ، من التهـــريب هو إذن بالعربى الفصيح ، رجل خارج على القانون .

ورغم ذلك ، فهو فى نظر نفر من الناس صعلوك إيجابى !! ، قوى ، عنيد، فاتن ، أحمق ، مسئول ، مغامر وفاهم .

وفى نظر نفر آخر فارس يحتفظ بقدر من « الجدعنة » فى التعامل ، وقدر ونصف من القدرة على العطاء ، وقدرين من الحب لصوت أم كلثوم وزمانها الجميل .

وفى نظر نفر ثالث إنسان لا يتنازل عن شهامته ، ورجولة تصرفاته ، يصفى كل تعاملاته ليبدأ من جديد من نقطة الصفر ، فهو فارس فى زمن السداح مداح .

وأعجب العجب أن تكتشـــف كل هذه الفضـــائل مجتمعة فى فـــارس «محمد خان» مع أنه فى حقيقة الأمر مهرب خطير جمع ثروته فى الحرام ، وإلى الحرام تعود .

وعنـــدى أنه لا تفســـير لهـــذا إلا فى انتشار التخليط بين القيم ، وهو تخليط أراد كاتب السيناريو « فايز غالى » وصاحب الفيلم أن يتفاداه ،

فإذا به يستهويهما فيما أظن ، وإذا بهما أشد إسراعا وغلوا إلى الوقوع فى مخالبه ، ومن ورائهما نفر من المعجبين والمعجبات بمتسلطات «محمد خان » .

التشابك والتعقيد

ومما زاد أمر الفيلم سوءا أن صاحبه ، وهو يرسم شخصية هذا الفارس المهرب على وجه يدفعنا إلى التعاطف معه ، لم يقنع إلا بخيوط متعددة ، معقدة ، شديدة التشابك .

فأولا : جعله هاربا من مسئوليات الزواج والتزاماته ، وبالتالى مطلقا ، والممثلة لدور المطلقة «سعاد نصر» له منها شاب لا يجيد إلا لعب البلياردو وامتطاء السيارات وشم الكوكايين بطبيعة الحال .

وثانيا : جعل له عشيقة « عايدة رياض » ، يضاجعها بين الحين والحين ، وثمنا لذلك يطالبها بالحصول له على معلومات عن الأعداء .

وزاد صاحب الفيلم من تعدد الخيوط وتشابكها ، فجعله أيضا واقعا فى حب ممرضة حسناء « لوسى » ، مطاردا من أحد عتاة الاجرام «عبد العزيز مخيون » ، ومنشئا لصداقة مع مدرس تاريخ عجوز لا يجيد سوى اجترار الماضى ، وإلقاء نفسه أمام السيارات الفارهة ، ابتغاء دخول المستشفيات الفاخرة حيث الحياة على حساب الغير طرية ، لذيذة .

وغنى عن البيان أن تعدد الخيوط وتشابكها على هذا الوجه ، قد زاد الأمور تعقيدا بالنسبة لنا ، نحن المتفرجين .

وهو مثل للشئ إذا زاد عن حده انقلب إلى ضده .

والحق ، إننا خرجنا من الفيلم ، ونحن أكثر جهلا بطبيعة عالم توظيف وتهريب الأموال ، وأقل قدرة على التفرقة بين الحرام والحلال !!

● ●

الشركة القابضة للأدوية

وإنجازات قطاع الدواء خلال عشر سنوات من حكم الرئيس مبارك من عام ١٩٨١ - عام ١٩٩١

● يسعى قطاع الدواء إلى توفير احتياجات البلاد من الأدوية . وقد أمكن لصناعة الدواء في مصر الوصول إلى إحلال إنتاجها محل العديد من المستحضرات المستوردة والتي بلغت ٣٤ مستحضرًا هذا العام .

ويغطي الإنتاج المحلي الغالبية العظمى من هذه الاحتياجات بنسبة ٩٢٫٢٪ واقتصر استخدام النقد الأجنبي على تمويل عمليات استيراد الخامات ومستلزمات الإنتاج اللازمة للصناعة المحلية .

هذا وتبذل شركات القطاع الدوائي جهدها لتحسين وتطوير الإنتاج ، والعمل على الاستفادة من كل الخبرات المتواجدة، وقد راعت الشركة القابضة للأدوية ضرورة العمل على توفير الأدوية بغض النظر عن ربحيتها مع ترشيد إستيراد الأدوية والخامات بحيث تكون الأولوية للأدوية الأساسية إنتاجًا واستيرادًا .

وتلتزم شركات القطاع بتوفير الأدوية الأساسية وعدم رفع أسعارها إلا في أضيق الحدود مع توفير الأدوية المستوردة الأساسية كأدوية القلب والأنسولنيات وأدوية السرطان وألبان الأطفال والتي مازالت تحقق خسارة .

ونعرض فيما يلي لأهم إنجازات القطاع الدوائي
خلال الفترة من عام ١٩٨١ - عام ١٩٩١

التطور في نشاط القطاع الدوائي

خلال الفترة من عام ١٩٨١ - عام ١٩٩١

تطور قيمة الإنتاج: بسعر بيع المصنع (بالمليون)

العام	٨٢/٨١	٨٣/٨٢	٨٤/٨٣	٨٥/٨٤	٨٦/٨٥	٨٧/٨٦	٨٨/٨٧	٨٩/٨٨	٩٠/٨٩	٩١/٩٠
شركات القطاع العام	١٧٨,٣	٢١٦	٢٥٣	٢٩٥,٢	٣٢٠,٦	٣٥٧,٢	٤١٧,٦	٥٢٤,٢	٥٤٣,٧	٦٠٨,٢
شركات القطاع المشترك والخاص	٧٧,٣	٩٠	١١١,٧	١٣٧,٤	١٧٠,٤	٢٣٢,٠	٢٩٨,١	٣٧٠,٤	٤٥٨,٧	٥٩٨,٦
الإجمالي	٢٥٥,٦	٣٠٦	٣٦٤,٧	٤٣٢,٦	٤٩١,٠	٥٨٩,٢	٧١٥,٧	٨٩٤,٦	١٠٠٢,٤	١٢٠٦,٨

تطور قيمة الاستهلاك: بسعر بيع الجمهور (بالمليون)

العام	٨٢/٨١	٨٣/٨٢	٨٤/٨٣	٨٥/٨٤	٨٦/٨٥	٨٧/٨٦	٨٨/٨٧	٨٩/٨٨	٩٠/٨٩	٩١/٩٠
المحلي	٣٣٤,٣	٤٠١,٨	٤٧٣,٣	٥٥٦,٥	٦٣١,٤	٧٥١,٧	٩٠٨,٥	١١٢٨	١٢٥٠,٨	١٥٧٦,٥
المستورد	٧٨,٩	٧٩,٣	٩٨,١	١١٦,٢	١٢٤,١	١٣٥,٩	١٤٦,٠	١٣٢	١٢٢,١	١٣٣,٦
الإجمالي	٤١٣,٢	٤٨١,١	٥٧١,٤	٦٧٢,٧	٧٥٥,٥	٨٨٧,٦	١٠٥٤,٥	١٢٦٠	١٣٧٢,٩	١٧١٠,١
نسبة المحلي إلى الإجمالي	٪٨٠,٩	٪٨٣,٥	٪٨٢,٨	٪٨٢,٧	٪٨٣,٦	٪٨٤,٧	٪٨٦,٨	٪٨٩,٥	٪٩١,١	٪٩٢,٢

تطور قيمة الصادرات: (بالمليون)

العام	٨٢/٨١	٨٣/٨٢	٨٤/٨٣	٨٥/٨٤	٨٦/٨٥	٨٧/٨٦	٨٨/٨٧	٨٩/٨٨	٩٠/٨٩	٩١/٩٠
قيمة الصادرات	٤,٢	٩,٥	٧,٩	٨,٦	١٠,٤	١٢,٦	٢٦,٢	٥١,٤	٣٩,٥	٦٨,٧

مع تحيات قطاع الإعلام والتصدير بالشركة القابضة للأدوية

بيروت

العقيدة السرية .. والكتابات المعاصرة

ما أقل اهتمام المثقفين العرب هذه الأيام بالثقافات العالمية المعاصرة . لا يتضح هذا فقط من انحسار الترجمة لدى دور النشر ، وما أكثرها ، فى العالم العربى ، بل انعكس ذلك على ماتنشره المجلات الثقافية القليلة التى تصدر فى كل أنحاء الوطن العربى . كما يتضح ذلك أيضا فى الصفحات الثقافية (!) التى تتابع حركة النشر والمثقفين لا أكثر .

ومن المعروف انه بعد حرب الخليج الأخيرة قد توقفت مجلات كانت تهتم بمتابعة الثقافات الحديثة . الأولى كانت تصدر فى الكويت « الثقافة العالمية » . والثانية كانت تصدر فى بغداد هى « الثقافة الأجنبية » .

الآن لم يعد يبقى فى العالم العربى سوى مجلتين . الأولى تصدرها وزارة الثقافة السورية وهى فصلية تحمل عنوان « الآداب الأجنبية » . ولا تصل إلى مصر بالمرة . اما الثانية فيصدرها الشاعر اللبنانى الياس لحور . وهى « كتابات معاصرة » التى صدر منها حتى الآن إثنا عشر عددا . وهى مجلة مهددة بالتوقف فى أى وقت لانها فى المقام الأول مجهود فرد واحد يعانى الكثير من أجل تمويل كل عدد جديد .

ومن عنوان المجلة نفهم أنها لا تهتم فقط بالثقافة الأدبية والابداعية بل أيضا بالثقافة العلمية المعاصرة . وفى الاعداد السابقة من المجلة بدا مدى اهتمامها بالقاء الاضواء على الكتابات المعاصرة عربياً وعالميا . وهى لا تعتمد على الدراسات المترجمة مثل بقية المجلات من صنوها . ولكنها تعتمد على المقالات المكتوبة . وفى العدد الأخير بدا هناك بعض التغير فى خط المجلة العام . فالى جانب الملف المفتوح حول « الحداثة أين ؟ » وملف آخر عن « السيمياء الصوفية » و« العرب والعلم » ثم ملف رابع عن « العلم الحديث والأدب » فإن المجلة راحت تتابع فى ملف خامس منفصل فلسفة الحكمة الشرقية من منظور العقيدة السرية للفيلسوف بلافاتسكي .

ومن أبرز الدراسات التى تضمنها العدد الأخير دراسة هلا سليمان حول « الآثار العلمية للحملة الفرنسية على مصر » . جاء فيها ان جهود علماء الحملة الفرنسية لم تقتصر على اكتشاف الآثار فى طول البلاد وعرضها . بل عنوا بجميع المعلومات الجغرافية والطبوغرافية الدقيقة التى تساعد على وضع خريطة مفصلة



للقطـــر المصرى . ويرى الكاتب أن من آثار الحملة علميـا دخول الطباعة وظهور الصحف فى مصر لأول مرة .

والعـــدد الأخيـر من « كتابات معاصرة » يحتوى أيضا على نماذج من الابداع الحديث فى الشعر العربى والسويدى والروسى . بالاضافة إلى متابعة للكتب المترجمة مثل « آفاق المستقبل » للمفكر الفرنسى جاك آتالى . ودراسة كتبها د . عبد السلام المسدى عن قضية « البنوية » .

نيويورك

فنان .. الفن الثامن



اندى وارول
(شوفتونى وانا ميت)

لم يثر فنان تشكيلى معاصر حوله من دهشة واهتمام واعجاب قدر ما فعل الفنان الأمريكى الراحل « اندى وارول » الذى توفى قبل خمس سنوات . ورغم رحيله فإنه موجود دائما فى وسائل الاعـــلام التى تعيـــد اكتشاف عبقريته وعطائه يوما وراء آخـــر . فلم يكن مجرد فنان تشكيلى عادى ، بل هو صاحب أشهر بصمة فنية تجعل المرء ما أن يرى ابداعه حتى يهتـف : « هـــذا وارول » . كما ان الفنان قد اقتحم فنون الابداع الأخـــرى كالموســـيقى والسينما وترك بصمته البارزة فى كل منها .

وحول « وارول » قدمت أخيرا مجلة لونوڤيل أوبسرڤاتور ملفا ضخما جاء فيه ان اندريه ابن أسرة تشيكية كبيرة العـــدد هاجـــرت إلى الولايات المتحدة مع مطلع العقد الثانى من القرن العشرين . وقد ولد اندى فى مدينة بطسبورج فى ٨ أغسطس ١٩٢٨ . وقد اهتمت أمه بتشـــجيع مواهبه . فراحت تصرف عليه الكثيـر من الميراث الصــغير الذى تركه الأب قبل وفاته . فدرس فى معهــد التقنيـــات . وبدأ حياته فى عمل ديكورات المحـــلات الكبـــرى فى المدينـــة . ثم ســـافر إلى نيـــويورك عام ١٩٤٩ وسرعان ما قابله النجاح فى كل مكان .

عمل اندى فى أول الأمر مخرجا صحفيا فى مجلات تعتمد فى المقام الأول على الاخراج مثل «فوج» . ثم راح يرسم للمجلة رسومات توضيحية لفتت اليه الانظار . فهو يلون الاشخاص بما لم يعتد الآخرون ان يشاهدوا وذلك مثلما فعل مع الفيس بريسلى وكافكا وترومان كابوت .

وتجئ أهمية وارول انه جعـــل من السريالية فنا شـــعبيا يراه الناس فوق الملصـــقات . وأيضا فـــوق علب المأكـــولات والمشروبات . وعلى يديه

تولد فن « البوب » الذى أطلق النقـاد عليه اسـم « الفن الثامن » .

وفى هـذا الفـن اسـتخدم وارول أدوات جديدة لم يستخدمها فنان من قبل . ثم اخترق مجال القصـص المرسـومة . والمجلات السينمائية .

كان وارول فنـاناً غريبا تماما . ففى قمة شهرته راح يرسم فوق علب الطمـاطم ويضـع فيها الزهور ويبيعها كما راح يصمم النقود وعلب الكوكا : « أود أن اصبح آلة » ونجح بالفعل ان يجعل من الفن الحديث عملية آلية . كما ان الناس كثيرا ما شاهدوه وهو يرسم جدران المنازل والأسوار

واسـتطاع ان يحول المصـانع إلى مؤسسات ثقـافية تهتم باللون . وفوجئ به الناس يخرج فيلمـا سـينمائيا يصنع ديكوراته ويصوره بنفسه ويقوم ببطولته .

كانت أمه جوليا هى حبه الأول . وعندما ماتت تعمد ألا يحضر جنازتها . وظل لسنوات يرد على الناس الذين يسألونه عن أمه : « انها لاتزال نائمة فى سريرها » . وفى مايو ١٩٦٨ أطلقت عليه إحدى الممثلات الناشـئات رصـاصات من مسدسها فظل فى غيبوبة لبضعة أيام . وما أن تنبه حتى ردد : خسارة لقد عرفت ان الكاميرا لم تصورنى فى هذا المشهد » .

وبعد وفاته فى فبراير ١٩٨٧ تم العثـور على مجموعة كبيـرة من رسوماته التى لم ينشرها . وذلك فى الفنـدق الذى أقام فيه طويلا .

لندن

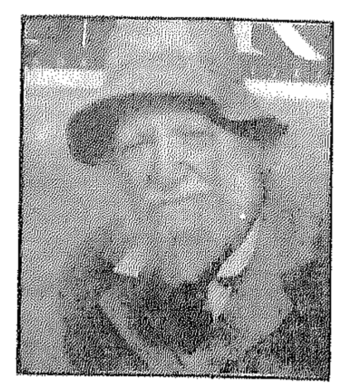
جولدنج .. فوق البحر

« درع السـفينة النارى »

عنوان الجـزء الثالث من ثلاثـية الكـاتب البريطانى ويليام جولدنج (نـوبل ١٩٨٣) التى صدرت الشهر الماضى . وكان جولدنج قد اصدر الجـزآن الأول والثـانى « طقـوس العبـور » و « طلقة انذار السفينة » عامى ١٩٨٢ و ١٩٨٦ . وتدور أحداثها فوق سفينة متجهة إلى اسـتراليا قادمة من لندن . وفوق هـذه السـفينة يدعى أدموند تالبوت . والرحلة تستمر عاماً بأكمله فى الثلاثية . وعلى السـفينة ان تمر بخط الاسـتواء . وعنـدما يحـدث ذلك على الركاب ممارسـة طقوس خاصـة تمليهـا عليهم الظروف .

لقـد ركب السـفينة بعض المغامرين والبحارة. وامرأتان جميلتان وأطفال وهـذه السـفينة تنقـل مجمـوعة ضـخمة من المـدافع الثقيلة . وطوال




جولدنج

الرحلة الطويلة يعانى الركاب من أحداث بحرية وحالات اختفاء غامضة .

وبمناسبة صدور هذه الرواية . اجرت جريدة لوفيجارو حديثا مع الكاتب أكد فيه « انه لم يكن ينوى ان يكتب جزءاً ثالثا لهذه الرواية . لكنه وجد تالبوت يستيقظ فى داخله كى يدفعه للكتابة مرة ثالثة عنه » .

وفى نفس الحديث أكد جولدنج انه لم يتبع فى حياته تقليداً أدبيا . وانه لا يستطيع ان يحدد ذلك فالآخرون هم الذين يفعلون . « لا اعتقد اننى انتمى إلى هذا . صحيح اننى مهتم بالدراما اليونانية ولكننى أخشى ان أضع نفسى فى شكل بعينه » .

وعن الشر الذى تمتلئ به أعماله تمتلئ بحوادث الشر . فإنه يقول : الشر هو الطبيعة الثانية للإنسان ولا يجب ان نغفلها . وليس فى امكان البشر ان يجعلوا انفسهم يعيشون مثل أقرانهم ولنأخذ النمل كمثال . فانا اشك ان هناك حدوداً لاتحادهم . واعتقد ان قدرة البشر هى التى تدفعهم لفعل الشر .

من المعروف ان جولدنج قد زار العديد من الدول . ويعتبر من ابرز كتاب البحر فى النصف الثانى من القرن العشرين . فقد زار روسيا وبرلين وجنوب افريقيا وأمريكا اللاتينية . ومصر التى ألف عنها كتابا تحت عنوان « وقائع مصرية » عام ١٩٨٥ . « مصر هى البلد الافريقى الوحيد الذى اعرفه . وانا اتعامل مع مصر كبلد من بلاد البحر المتوسط » .

احتفل جولدنج فى العام الماضى بعيد ميلاده الثمانين . نشر روايته الأولى « آلهة الذباب » عام ١٩٥٤ . وهى الرواية التى حاز بمقتضاها على جائزة نوبل . وقد ترجمت هذه الرواية لأول مرة فى روايات الهلال عام ١٩٨٤ . ثم ستصدر طبعتها الثانية فى الشهر القادم عن دار الهلال . ومن أهم رواياته الأخرى « السفينة » .. و« كريس مارتن » و « الهدف المتحرك » .

إيف سيمون

المطرب الذى حصل على جائزة أدبية

بقلم :محمود قاسم :

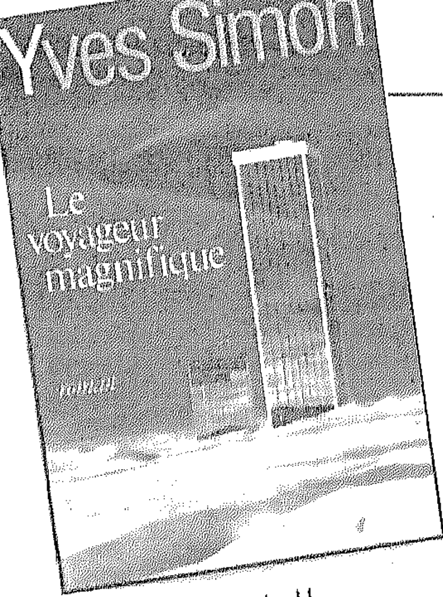
الشباب الذين يتابعون الأغنيات العالمية الحديثة يعرفون جيداً اسم مطرب فرنسى تتصدى أغانيه قائمة مبيعات الاسطوانات من شهر لآخر طوال السنوات العشر الماضية .. هذا المطرب اسمه « إيف سيمون » .

ومن المعروف فى عالم الغناء الغربى الحديث ان عمر المطرب أو الفرقة الغنائية الناجحة قصير للغاية وان القليلين من المطربين هم الذين يظلون يغنون فوق المسارح لسنوات طويلة ويحتفظون بنفس البريق . ولعل أشهر هذه الأسماء « جلبير بيكو » الذى اعلن إعتزاله الغناء فى الشهرين الماضيين وهو فى الثالثة والستين ، وهناك أيضا جونى هاليداى وميشيل ساردو .

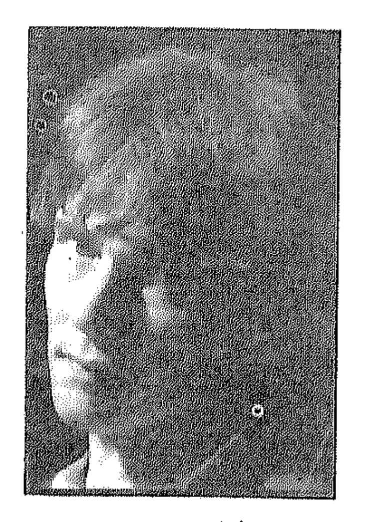
● ومن بين الاسماء الشابة التى ظهرت فى فرنسا خلال السنوات الماضية لم يلمع سوى عدد قليل منهم على سبيل المثال فانيسا بارادى .. اما أغلب الاسماء الأخرى فقد تبخرت بسرعة مثلما جاءت ، ولعل هذه الظاهرة كانت تقلق إيف سيمون الذى اختار ان يبحث عن طريق آخر للبقاء مشهوراً فاتجه إلى الابداع الروائى .

قد يكون هذا هو الإنطباع الأول





المسافر الرائع



ايف سيمون

بالنسبة لسيمون قبل ثمانية أعوام حين نشر روايته الأولى . فقد شهدت فرنسا طوال السنوات العشر الأخيرة ظاهرة لفتت الانظار حين قام الكثير من الممثلين ونجوم السينما بتأليف روايات إبداعية كانت مثاراً لطرح سؤال عن السبب وراء ذلك . وعلل البعض ان الإجابة قد تكون أشبه بتلك التى ذكرناها فى السطور القليلة الماضية . فمن المعروف ان نجوما من المشاهير مثل ليزلى كاروت وسيمون سينيوريه ، ومارى فرانس بيزيه ، وريشار بورنجيه ، وآخرين قد دخلوا مجال الإبداع الروائى .. بعضهم كتب رواية واحدة ، وممثلة واحدة فقط كتبت روايتين هى مارى فرانس بيزيه ، وقد سبق ان ناقشنا هذه الظاهرة فى عدد أغسطس ١٩٨٥ من الهلال .

الأول .. مطربا .. واديبا

لكن هذه الظاهرة تختلف فى تفسيرها عند إيف سيمون . ليس لأنه أول مطرب يدخل المجال ، فقط وليس لأن سيمون قد نشر حتى الآن ثلاث روايات ، ولـكن لأن الرواية الأخيرة لسيمون قد فازت بواحدة من أهم الجوائز الأدبية فى فرنسا على الاطلاق الأولى هى جائزة مرسيس .

تجئ أهميـة هذا الحـدث الأدبى ان جائزة مرسيس ، كما هو معروف ، تمنح سنويا للرواية من الأدب التجريبى الجديد ، الذى يعد بمثابة إضافة حقيقية للشكل الروائى والأدبى .. ولذا فهى أكثر جذبا للانتباه من جائزة جونكور نفسها التى حاولت فى السنوات الأخيرة ان تؤكد انها طليعية فاعلنت ، مثلا عن فوز الكاتب جان رووه عام ١٩٩٠ بروايته «ساحات الشرف»

موسم الجوائز الأدبية

التى نشرت فى رويات الهلال فى نوفمبر الماضى .

عنــدما اراد إيف ســيمون أن يغنى وضـع موهبـته كمطرب نصــب عينيــه كى يُطــرب الآذان . فكان هــو الذى يكتب اغنياته التى يلحنها لنفسه . ثم عندما أراد أن يكتب رواية أهتم ان يقدم نصاً أدبياً استطاع أن يحصل به على جائزة أدبية مرموقة . ليس فقط فيمـا يتعلق بجائزة مرســيس ١٩٩١ ، ولكن أيضــا بجــائزة المكتبات التى حصل عليها عام ١٩٨٧ عن روايته « المسافر الرائع » وجائزة المكتبات تجئ فى المرتبة السادسة من بين الجوائز الأدبية السنوية الهامة فى فرنسا .

دائما .. يحاول ان يفهم

ومنذ روايته الأولى ، وسيمون يهتم بالتجريب فى الشكل والمضمون معا ، ففى « المسافر الرائع » نجد تأثراً واضحا بفيلم « وردة القاهرة القرمزية » للمخرج وودى الن ، فنحن هنا أمام امرأة شابة قوية تجد نفسها فى قاعة سينما تشاهد فيلما لوودى آلن نفسه . مثلما فعلت بطلة هذا الفيلم حيث تخيلت نفسها عشيقة لبطل فيلم آخر تدور أحداثه فى القاهرة . نحن هنا أمام حوادث متداخلة كأنها الصندوق السحرى الذى يحوى بداخله صندوقاً به صندوق ثالث وهكذا ... وفى قاعة الســينما تفاجىء " ملينا " برجل يمد لها منديلا من الحرير تمسح دموعها . إنه ادريان الذى سرعان ما يصبح حبيبها بدلا من الحب الخيالى الموجود على الشاشة .

لكن الأشياء لا تمشى بشكل جيد ، مثل أغلب قصص الحب التى نعرفها . فالمرأة تود أن تنجب طفــلا من هذه العلاقة . الا أن الرجل حريص ، ومتردد . ويقول الكاتب فى روايته أن الرجال يخافون من إنجاب الأطفال لأنهم يفتقدون البنية .

وادريان بطل الرواية مصور شاب . وهو مفتــون دائمــا بما يطلق عليــه اســم " اماكن البدء " . هناك حيث يتحدى الإنسان المستحيل . فمثلا خلال علاقته بالكاميرا سافر إلى أماكن عديدة . وقابل



الكثير من البشر ، وإقتحم الأماكن بجغرافيتها وتاريخها . التقط الصور فى الاتحاد السوفييتى . وأيضا فى كينيا حيث أمكن " للإنسان الأول أن يسمع صخب العالم وينصت إلى جمال الافق " كما أن ادريان زار هيروشيما . والتقط صورا للقاعدة الفضائية " كيب كيندى " حين انطلق منها أول صاروخ يحمل رجالا سوف يمشون فوق القمر . لم يفعل ادريان ذلك من أجل التقاط الصور فقط . ولكنه كان دائما يحاول أن يفهم .

أما الفتاة ميلينا فهى تختلف . إنها امرأة حالمة . تعمل ممثلة . وتعيش تمثل مسرحيات تشيكوف ، ولذا فإن مفهومها للحب يختلف كثيرا عن مفهون الشاب الذى تحبه الذى يرى أن وجود طفل يزيد من الغاز العالم لغزاً جديداً . ولذا فإن هذه العلاقة التى تولدت فى قاعة سينما مظلمة محكوم عليها بالفشل وعلى ميلينا أن تبحث عن رجل آخر يملأ وعاء بطنها بطفل . وليس عن هذا المسافر الرائع ادريان .

الجدير بالذكر أن المسافر الرائع " لم تكن الأولى فى حياة إيف سيمون . ولكنها هى التى جذبت الإنتباه إلى موهبته . وقد بيع منها ٨٥ ألف نسخة فى طبعتها الأولى . ولعل ذلك يرجع إلى ان موهبة سيمون لم تكن قد نضجت بعد قبل ذلك ، وان الناس كانت تتعامل معه كمطرب فى المقام الأول . خاصة ان الأخبار المنشورة عن البومات إيف سيمون حتى تلك الفترة كانت من الكثرة أن الناس تصوروا ان عناوين كتبه هى فى الأساس عناوين لاسطوانات جديدة لم يعثروا عليها بسهولة فى محلات بيع الأشرطة والاسطوانات .

وقد علق سيمون على هذا التحول أنه يعى تماما أن الموسيقى لا تسعى إلى تغيير أفكار الناس ، ولكنها تنجح فى تجسيد مشاعرهم وعواطفهم ، وعندما يتعامل المرء مع الأفكار فإنه يؤلف كتباً ، أو يكتب مقالات وكلمات .

الحياة رائعة

بدت هذه المفاهيم فى رواية أخرى للكاتب نشرها عام ١٩٨٨ تحت عنوان « أيام عادية » ، ففيها اتضح مفهوم

سيمون للعالم الذى يراه أشبه بمدينة ملاه كبيرة يروح الناس فيها ينتظرون دورهم لركوب الأراجيح ، ثم ينتظرون دورهم أيضا للانتهاء من ركوب الأرجوحة ، « لسنا على ثقة فى شئ ، ونحن لا نعرف شيئا سوى مداعبة الجلد ، وتقبيل الفم ، والرواح والغداة بأجسادنا ، والتمتع بها ، ونحن نحمل المناديل الورقية فى أيدينا ، ونردد بعد مباراة كرة أو حفل موسيقى : كم كانت أمسية رائعة » هذه هى الأيام العادية التى نعيشها جميعا ، ويعيشها أيضا أبطال رواية إيف سيمون . فنحن أمام أشخاص عليهم ان يعبروا الحياة مثلما يعبرون جسراً فوق نهر . مهما طال الجسر فإن الرحلة يجب أن تنتهى ، وقد ينتاب بعضهم الرغبة فى عدم تكملة المشوار ، ويفكر فى القاء نفسه فى النهر أسفل الجسر .

ومثلما كانت « ميلينا » شغوفة بفيلم لوودى آلن فى رواية « المسافر الرائع » . فان بطل الرواية هنا مجنون بأفلام المخرج الألمانى ڤيم ڤندرز . فابطال أفلام ڤندرز مرهقين من كثرة التجول فى الشوارع الطويلة ليست لهم بيوت يسكنون فيها ، ولا نعرف من أين تأتى جذورهم بالضبط ، ولذا فهم فى حالة سفر دائم داخل المدن وخارجها .

والأيام العادية التى يقصدها إيف سيمون قد تبدو فى الكثير من الأحيان غير عادية بالمرة ، أو قد تبدو مثل صفحات الكتب البيضاء ، لا معنى لها بالمرة ، ولذا فإن « چيل رينار » ، واحد من ابطال الرواية يحب التطلع من النوافذ المفتوحة نحو الفضاء . تبدو المساحات أمامه فارغة بلا معنى ، وهو يجد هذا امراً مثيراً فهو لا يريد أن يرى شـيئا . بل ان يفـكر فى لا شئ .

والبطل الاساسى فى هذا الكتاب هو سيمون نفسه . فهو الذى يقوم بالجولة فى اماكن عديدة . فى المتاحف والشوارع ولذا فإن « أيام عادية » أقرب إلى الانطباعات الإنسانية منها إلى الرواية المتكاملة ، أو لعل سيمون قد سعى فيها ان يغير الشكل الروائى كى يؤكد انه ينتمى إلى مدرسة الرواية الجديدة .

الماضي .. قطع غيار

اما الرواية التى فازت بجائزة مرسيس عام ١٩٩١ فعنوانها « نفايا المشاعر » ، وهى نفس الجائزة التى حصل عليها من قبل الآن روب جرييه وكلود سيمون وميشيل بوتور . والبطل فى هذه الرواية يحضر مراسيم دفن صديقته ، وبينما جسدها يدخل المقبرة يتذكر صديقة أخرى أحبها طويلا . هذا الرجل مؤلف روائى ألف كتاباً واعطاه لصديق من أصل أفريقى كى يقوم بإعادة كتابته . انه كتاب عن مارى التى أحبها وحملت منه وارادت ان تجهض ، ولأن لهذا الكاتب إبناً من امرأة ثالثة فإنه لا يريد طفلاً جديداً ، وكما ترى فنحن ، من جديد ، أمام لعبة الصناديق المتداخلة المعقدة . لقد رحلت عشيقته أم ابنه وهجرته قبل أن تلد ابنه الذى لم يره حتى الآن ، ولذا فهو لا يريد ان يمر بنفس التجربة مرة أخرى « ترى ما هو الماضى ، انه ليس سوى مجموعة قطع غيار متناثرة وطعنات سكين » .

ويقول الناقد رينو ماتينيون - جريدة لوفيجارو ١٤ أكتوبر ١٩٩١ - ان « نفايا المشاعر » لا تمثل سيناريو فيلم ولا بحثا ، ولا طرداً بريدياً ، ولكنها رواية عن مشاعر البشر مصاغة فى كلمات لان الهياكل البنائية غائبة منها » .

ويقول ماتينيون أيضا ان صفحات الرواية تبدو متشابهة فى بعض الأحيان تشابه مشاعر الإنسان وتشابه ايقاع حياتنا اليومية ، ولكن أهمية تجربة سيمون الجديدة ليس فى الشكل التجريبى ، وانما فى اللغة التى يستعملها . انها لغة جديدة تتشابك كلماتها معا كأنها تصنع مشربية عربية ذات شكل جميل ومتناسق ، وقد اتضح هذا فى أولى صفحات الرواية حين أكد الرواية : « اننى اتكلم عن أمر لا أستطيع ان احيكه سوى بالكلمات وإذا لم أفعل ذلك علىّ ان التزم الصمت » .

بهذه الرواية اثبت إيف سيمون ان تجربته الروائية لم تكن أبدا حالات عابرة مثلما حدث مع أغلب الذين كتبوا الرواية من نجوم السينما خاصة فى فرنسا ، وانه ليس هناك أى تناقض ان يكون المرء مطرباً عذب الصوت ، ذا تأثير على مشاعر الناس وفى نفس الوقت يكون مبدعاً روائيا متميزاً يساعد فى بلورة أفكارهم وصناعتها . بل ويحصل على الجوائز الأدبية المتميزة .

دار
سعاد الصباح
للنشر

دار سعاد الصباح



.. ونافذة للعالم على الأمة العربية ..

"للفكر المستنير والإبداع الأصيل"

من سلاسل دار سعاد الصباح

- **الأدب العالمى :**

* للمؤلف العالمى لورانس داريل
رباعية الاسكندرية كاملة فى رواياتها الأربع لأول مرة بالعربية ..
ترجمة د. فخرى لبيب .
* للكاتب المكسيكى أوكتابيوباث الفائز بجائزة نوبل
متاهة الوحدة .. ترجمة د. نادية جمال الدين .

- **السيرة الذاتية :**

* عبلة الروينى الجنوبى .. الشاعر أمل دنقل

- **الرواية :**

* يوسف القعيد : بلد المحبوب
* جمال الغيطانى : أسفار المشتاق

• الشـعـر :

* د. سعـاد الصبـاح
• فتافيت إمرأة • برقيات عاجلة إلى وطني .
• هل تسمحون لي أن أحب وطني - في البدء كانت الأنثى .
* محـمد التهامي .. الحائز على جائزة الدولة التقديرية
دماء العروبة على جدران الكويت .

• الدراسـات :

* د. سعد الدين إبراهيم
تأملات في مسألة الأقليات. - الخروج من زقاق التاريخ .
إعادة الاعتبار للرئيس السادات
* د. حامد عمار : تطوير القيم التربوية في بناء البشر .
* د. حسن وجيه حسن : أزمة الخليج ولغة الحوار السياسي والإجتماعي .
* د. فايز مراد مينا : تطوير مناهج التعليم في الوطن العربي .
* د. عبد المنعم المشاط : التربية السياسية .
* د. محـمد قمبر : التربية وترقية المجتمع .
* د. ضياء الدين زاهر : التخطيط الشبكي للبرامج والمشروعات .

• التراث :

* للعلامة عبد الكريم الجيلي
شرح مشكلات الفتوحات المكية .. تحقيق د. يوسف زيدان
* للأمير الفارس الأديب أسامة بن منقذ
المنازل والديار تحقيق مصطفى حجازي
* لأبي حيان التوحيدي - الهوامل والشوامل - تحقيق أحمد أمين والسيد أحمد صقر

إلى جانب ثلاثين كتابًا للفائزين

بجوائز الإبداع

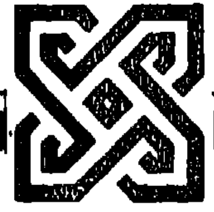
من بين الشباب العربي ..

تطلب المطبوعات من : دار سعاد الصباح
ص.ب ٢٧٢٨٠ الصفاة ١٣١٣٣ - الكويت أو ص.ب ١٣ المقطم - القاهرة
أو مكتبات دار الشروق بالقاهرة " ميدان طلعت حرب " - شارع البورصة
ومكتبات الهيئة المصرية العامة للكتاب والمكتبات الرئيسية بالكويت والعواصم العربية

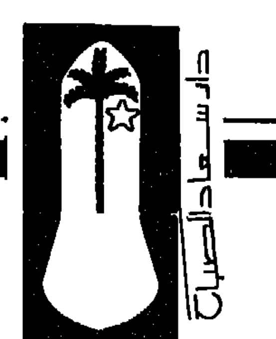
جوائز

المغفور له الشيخ عبد الله المبارك والدكتورة سعاد الصباح

للإبداع بين الشباب العربي لعام ١٩٩١



مركز ابن خلدون للدراسات الإنمائية





الهيئة المصرية العامة للكتاب

تم يوم ١١ يناير سنة ٩٢ حفل توزيع جوائز المغفور له

الشيخ **عبد الله المبارك الصباح** والدكتورة **سعاد الصباح**

للإبداع العلمي والفكري والفلسطيني بين الشباب العربي

لعام ١٩٩١ والذي أقيم بالمسرح الصغير بدار الأوبرا

في حضور السيد **فاروق حسني** وزير الثقافة

ود. **سمير سرحان** رئيس الهيئة المصرية العامة للكتاب

ود. **سعد الدين إبراهيم** مدير مركز ابن خلدون للدراسات الإنمائية

ومجموعة كبيرة من الأدباء والفنانين في الوطن العربي

يعلن

مركز ابن خلدون للدراسات الإنمائية والهيئة المصرية العامة للكتاب عن مسابقة عام ١٩٩٢ للإبداع بين الشباب العربي على أن يكون آخر موعد لتقديم الأعمال المتسابقة هو ١٩٩٢/٨/١ والهدف العام من الجوائز هو تشجيع المبدعين من الشباب العربي في العلوم والتكنولوجيا والآداب والدراسات الإنسانية والدراسات الفلسطينية، بمنحهم جوائز مالية ورمزية ومعنوية وتقديم نتاج إبداعهم للرأى العام العربي من المحيط إلى الخليج وهى على النحو التالى :

جوائز المغفور له الشيخ عبدالله المبارك للإبداع العلمى

مجالات المسابقة :

١ - الفيزياء (الطبيعة) .
٢ - الكيمياء .
٣ - الحاسبات الإلكترونية .
٤ - دراسات البيئة .

شروط خاصة :

- أن يكون المتقدم حاصلا على درجة جامعية أولى على الأقل .
- ألاّ تكون الأعمال المقدمة رسائل ماجستير أو دكتوراة ولكن في مستوى الماجستير والدكتوراة من حيث قواعد المنهج وأصول النشر العلمية .

مجموع الجوائز

١٢ جائزة ... بمعدل ثلاث جوائز في كل مجال .

جوائز الدكتورة سعاد الصباح للإبداع الفكري

مجالات المسابقة:

١ - القصة القصيرة «مجموعات قصصية».
٢ - الشعر «دواوين».
٣ - الرواية «مائة صفحة أو أكثر».
٤ - المسرحية «مائة صفحة أو أكثر».
٥ - الدراسات الإنسانية
حول موضوع «الوطن العربي
والنظام العالمي الجديد»
«خمسون صفحة أو أكثر»

مجموع الجوائز

١٥ جائزة - بمعدل ثلاث جوائز في كل مجال.

جوائز الدكتورة سعاد الصباح للإبداع الفلسطيني

مجالات المسابقة :

١- القصة القصيرة . ٢- الشعر .
٣- الرسم . ٤- المسرحية .
٥- الرواية . ٦- دراسات حول الإنتفاضة .

شروط خاصة :

- أن يكون المتقدم من أبناء الشعب الفلسطيني فى الأراضى المحتلة .
- يمكن للهيئات الفلسطينية فى الأراضى المحتلة أن تتقدم للحصول على إحدى الجوائز على مجمل نشاطها فى رعاية الإبداع ودعم صمود الشعب الفلسطيني .

مجموع الجوائز

١٨ جائزة .. بمعدل ثلاث جوائز فى كل مجال .

الشروط العامة للتقدم لإحدى الجوائز

١- أن يكون المتقدم شابًا لا يتجاوز عمره ٣٥ عامًا.
٢- أن يكون مواطنًا لإحدى الدول الأعضاء في جامعة الدول العربية.
٣- أن يكون العمل أو الإنتاج الذى يتقدم به مبتكرًا لم يسبق نشره أو تم نشره خلال العامين السابقين "١٩٩١/٩٠".
٤- ألا يكون المتقدم للمسابقة قد فاز بإحدى جوائز الإبداع فى نفس المجال فى سنوات سابقة.
٥- أن تقدم الأعمال للمسابقة فى موعد لا يتجاوز ١٩٩٢/٨/١ من خمس نسخ مكتوبة على الآلة الكاتبة لإحدى الهيئات الثلاث المنظمة للجوائز على العنوان المبين فى نهاية الإعلان.
٦- تقديم صورة للبطاقة الشخصية أو العائلية أو جواز السفر.
٧- أن يراعى الشروط الخاصة بكل نوع من أنواع الجوائز الثلاث « الإبداع الفكرى، الإبداع العلمى، الإبداع الفلسطينى ».

الجوائز

أولاً: جوائز مالية فى كل مجال من مجالات المسابقات الثلاث قدرها: ثلاثة آلاف دولار أمريكي للفائز الأول، وألفا دولار للفائز الثانى، وألف دولار للفائز الثالث.

ثانياً: شهادات تقديرية وميداليات رمزية.

ثالثاً: نشر أهم الأعمال الفائزة وتوزيعها فى معرض القاهرة الدولى للكتاب وفى أرجاء الوطن العربي.

رابعاً: دعوة الفائزين لحضور احتفال توزيع الجوائز فى الأسبوع الأخير من شهر يناير «كانون ثانى» خلال معرض القاهرة الدولى للكتاب.

العناوين التى ترسل إليها الأعمال المتسابقة

- **مركز ابن خلدون للدراسات الإنمائية**
  ١٧ شارع ١٢ ص.ب ١٣ المقطم - القاهرة
- **الهيئة المصرية العامة للكتاب**
  كورنيش النيل - القاهرة

التكوين

برع جيدى فى



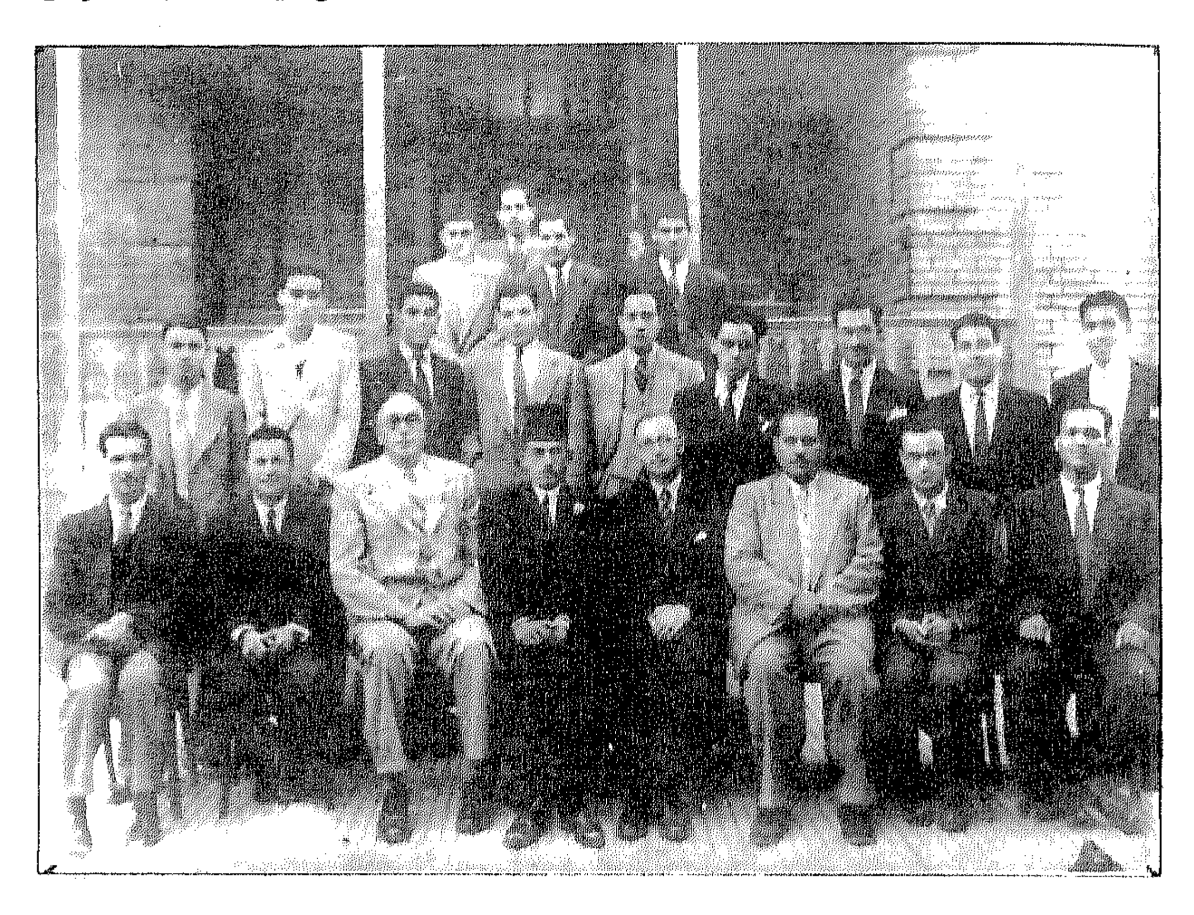
عبد العظيم أنيس

● ولدت فى شهر يوليو عام ١٩٢٣ فى حى الأزهر لعائلة لها ثمانية من الأبناء ، أربعة ذكور وأربع إناث ، وكنت أصغر الذكور وأصغر الإناث باستثناء واحدة ، وكان بيتنا يقع على بعد خطوات قليلة من الجامع الأزهر ، وكان هذا بيت جدى لأبى فى حقيقة الأمر الذى كان يعمل فى صناعة البناء ويطلق عليه من قبيل التجاوز لقب «مقاول» فقد كان لديه عدد محدود من المساعدين من بينهم أبى وشقيقاه يساعدونه فى بناء بيوت صغيرة أو مساجد متواضعة وقيل إن جدتى لأبى ساعدت جدى فى بناء البيت الذى كنا نسكن فيه بالأزهر .

كانت عائلة أبى جميعا من الحرفيين نزحت أصلا من إحدى قرى الشرقية واستقرت بجوار مسجد ابن بنت رسول الله تلتمس فى جواره البركة ، فمنهم من كان صاحب محل جزارة أو كان نجارا أو احترف صناعة البناء كما فعل جدى . ولقد تعلم أبى وشقيقاه خبرة صناعة البناء عن أبيهم ثم انفصل كل واحد منهم عن أبيه بعد الزواج ، وارتبطت أعمال أبى بوزارة الأوقاف خصوصا لتركيزه على بناء المساجد فى المراكز والعواصم المختلفة لمحافظات مصر ، بينما تخصص أعمامى فى عمليات ترميم المساجد الأثرية وبالتالى تركزت علاقاتهم بمصلحة الآثار .

صناعة البناء ولقب بـ "المهندس"

كم أحس اننى تغيرت الآن عن ذلك الزمان



وكانت عائلة أمى ذات صلة أيضا بصناعة البناء ، ومن هنا تم زواج أبى بأمى . فقد كان جدى لأمى مقاولا كبيرا نسبيا بمقاييس عصره ، وكان بارعا فى صناعتــه إلى درجـة أنه أطلق عليـه لقب « المهندس » وهكذا اكتسبت أسرته هذا اللقب من بعده . ولقد كسب جدى لأمى كثيرا وأضاع معظم ما كسبه فى أهواء الشرب والنساء ، على عكس جدى لأبى الذى كان شديد الحرص على ماله ، فضلا عن أنه كان شديد الإسراف فى منزله . وقد تزوج سيدة تركية الأصل هى جدتى لأمى لا أتذكر شيئا عنها وإن كنت أسمع دائما أنها من فرط سمنتها كانت عاجزة عن المشى فى السنوات الأخيرة من حياتها فكان أولادها ينقلونها على « صينية »

عشاء كبيرة إذا أرادت الانتقال من غرفة إلى أخرى أو الذهاب إلى الحمام .

التعليم والأزهر

وعلى عكس عائلة أبى لم يمتهن أحد من أخوالى صناعة أبيهم ، فقد كان الوضع التقليدى فى أسرة أمى هو التوجه نحو التعليم كطريق مضمون للحراك الاجتماعى . وكان التعليم آنذاك فى الأسرة يعنى الذهاب أولا إلى الأزهر لحفظ القرآن ثم من هناك إلى تجهيزية دار العلوم ثم إلى دار العلوم للعمل بالتدريس فى مدارس الحكومة . هكذا فعل خالى زكى المهندس ومن بعده شقيقه كامل ، وهكذا فعل من بعدهما شقيقى الأكبر إبراهيم . وكان أخوالى من الهمة فى التحصيل والتفوق فى الدراسة بحيث أرسل خالى زكى إلى بعثة لبريطانيا عام ١٩١٠ حيث قضى بها أربع سنوات وعاد للعمل فى تفتيش اللغة العربية كما أرسل شقيقه الأصغر كامل فى بعثة إلى بريطانيا عام ١٩٢٣ وبقى فيها سبع سنوات وعاد عام ١٩٣٠ حيث عمل رئيسا لقسم الفهارس العربية بدار الكتب المصرية . وكان لهما شقيق أكبر - من الأم فقط - عرف فى الأسرة باسم الشيخ على الشهداوى درس أيضا فى الأزهر وارتبط بالحزب الوطنى حتى أنه أرسل فى بعثة على نفقة الحزب إلى فرنسا لمدة ثلاث سنوات كان فيها معاونا لمصطفى كامل ومن بعده عبد العزيز جاويش .

ازدواجية الإسم

إنما أشرت إلى هذا الوضع داخل أسرة أمى بشئ من التفصيل لسببين ... أولهما أننى عندما ولدت عام ١٩٢٣ أرادت أمى أن تسمينى باسم « كامل » تيمنا بأخيها كامل الذى كان على وشك الذهاب إلى بريطانيا عندما ولدت . لكن جدتى لأبى - وكانت صاحبة شخصية قوية - اعترضت حتى لا يظن أحد أننى قبطى فاقترح والدى أن يكون اسمى فى شهادة الميلاد « عبد العظيم » منعا لأى لبس بينما ينادوننى فى البيت باسم شقيقها . وهكذا نشأت أحمل اسمين : واحدا فى شهادة الميلاد ولا يعرفه أحد فى العائلة وآخر فى المنزل وظل هذا هو الوضع حتى دخلت الجامعة مما أدى إلى مفارقات طريفة كثيرة فى حياتى ولم يختف هذا الازدواج فى اسمى من حياتى إلا عندما تخرجت من الجامعة وتزوجت فأصبح لى اسم واحد هو عبد العظيم .

أما السبب الثانى للاستطراد عن أسرة أمى فهو أن جو التعليم الذى اندمجت فيه أسرة أمى أدى بطبيعة الحال إلى انحيازات سياسية مختلفة . فقد كان خالى الشيخ على الشهداوى من أنصار الحزب الوطنى بينما كان خالى الأصغر كامل شديد الحماس للوفد ولسعد زغلول . وكثيرا

ما تصارع الاثنان حول شئون السياسة . وفى هذا الجو انحاز شقيقى الأكبر إبراهيم إلى جانب الوفد ، وكان وهو طالب فى دار العلوم كثير التردد على بيت الأمة ، يلقى القصائد الوطنية أمام سعد زغلول ومن بعده مصطفى النحاس ولهذا كان انحيازنا الأول – أنا وأشقائى – إلى الوفد بطبيعة الحال .

ولقد بقيت فى حى الأزهر حتى سن الخامسة وذهبت إلى الكُتّاب بعض الوقت وأنا فى الرابعة من العمر . لكنى لا أتذكر من هذا إلا أن الكُتّاب كان بجوار منزلنا ، وكانت هناك حنفية للحياة أمام الكُتّاب يتزاحم حولها الناس لملء صفائحهم وأوانيهم وكانت جدتى لأبى تأتى لزيارتى فى الفصل وتعطينى نكلة (مليمين) أشترى بها من المدرس بعض الكعك . غير أن جدى بنى منزلا فى العباسية الغربية قريبا من شارع الملكة نازلى (شارع رمسيس اليوم) . وكان البيت يتكون من دورين وبدروم سكنا نحن فى الدور الثانى وسكن عمى الأكبر فى الدور الأول بينما سكن عمى الأصغر فى البدروم . لقد تركنا حى الأزهر عام ١٩٢٨ فيما أظن وكانت أمى تقول آنذاك إننا « طلعنا » العباسية بعد موت سعد زغلول . وكنت أدهش من استخدامها فعل « طلع » فى هذا السياق وأتساءل إن كان هذا بمعنى أن العباسية كانت أعلى فى أرضها من أرض حى الأزهر ، أم أن « الطلوع » هنا بمعنى الصعود فى السلم الاجتماعى . ولقد تعودت أسر البورجوازية الصغيرة المقيمة فى حى الأزهر على مشروع الانتقال إلى حى العباسية بمجرد أن تسمح الظروف المالية ببناء منزل فى هذا الحى الجديد نسبيا . كانت معظم أراضى العباسية صحراوية ولذا كثر البناء فيها فى أوائل القرن وفى العشرينات وإليها انتقلت عشرات الأسر . وكانت القاعدة العامة هى أن الأسر الثرية تبنى لها فيلات فى العباسية الشرقية . أما أسر البورجوازية الصغيرة فكانت تبنى فى العباسية الغربية أو تستأجر لها مسكنا هناك . ويذكرنى هذا التاريخ بما حدث لنجيب محفوظ الذى انتقلت أسرته قبلنا من الأزهر إلى شارع رضوان شكرى بالعباسية الغربية . فى الحقيقة أن شارعنا لا يبعد عن شارع رضوان شكرى كثيرا .

ولقد كان انتقالنا إلى المنزل الجديد فى العباسية تحولا كبيرا فى حياتنا . فقد وجدنا أنفسنا نمشى ونلعب فى شوارع واسعة ونظيفة ، وبالقرب من منزلنا كانت هناك حدائق غمرة الجميلة التى كانت تجمع أطفال الحى وتمثل متعة ما بعدها متعة لهم ، وكانت منطقة شارع أحمد سعيد مليئة بالغيطان المخصصة لزراعة الخضراوات ، وكثيرا ما كانت ترسلنى أمى إلى هناك لشراء السبانخ أو الكرنب . وكانت هناك أراض فضاء واسعة نلعب فيها الكرة ، وبعد سنوات صار الاحتفال بالمولد النبوى يجرى فى صحراء العباسية وأصبح الموكب المحمل بالكسوة الشريفة ينتهى هناك . ومع أن صلتنا لم تنته بحى الأزهر لأن جدتى وجدى لأبى ظلا هناك ، فإن هذه الصلة

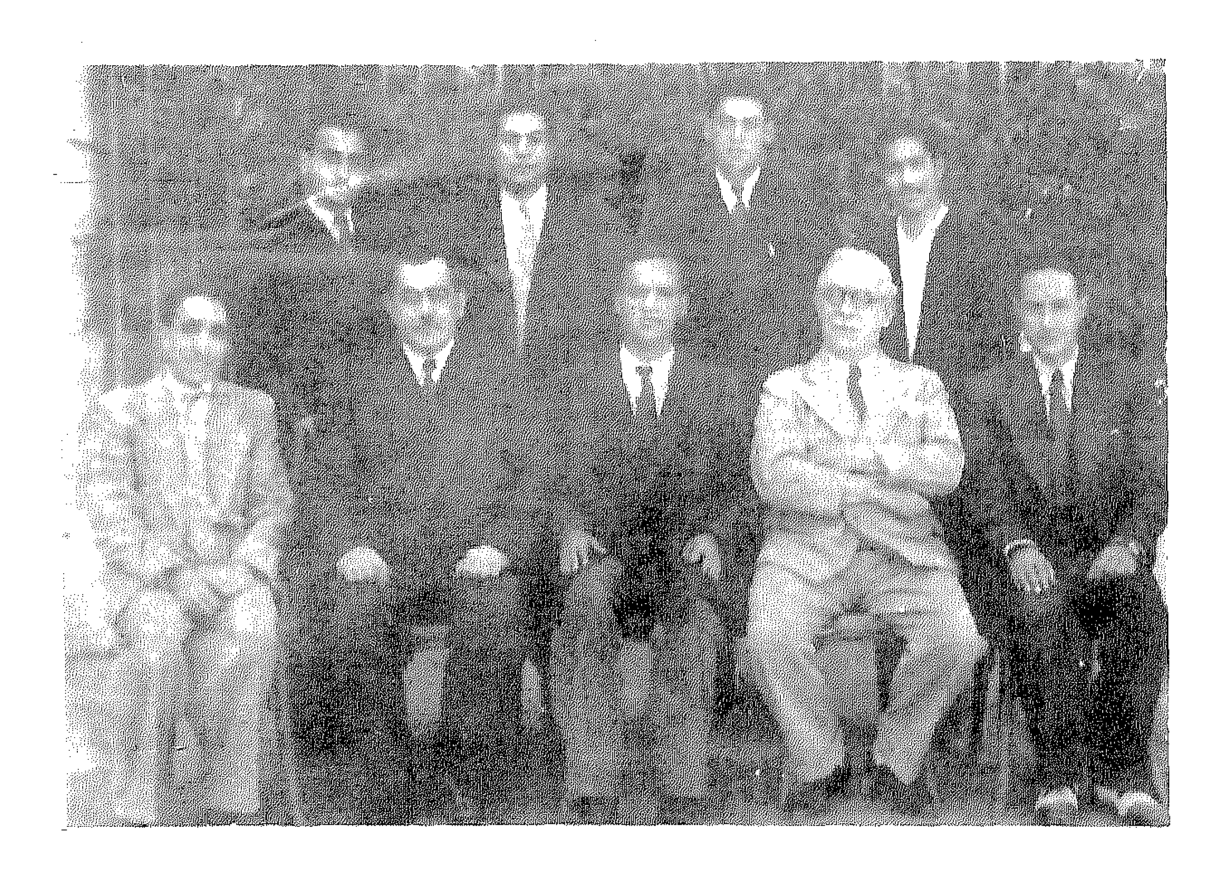
التكوين

بدأت تفتر تدريجيا خصوصا بعدما ماتت جدتى فجأة بالسكته القلبية عام ١٩٢٩ وانتقل جدى للإقامة معنا فى العباسية بعد ذلك بسنوات قليلة .

ألم فراق جدتى وأمى

ولقد كان حادث وفاة جدتى صدمة لى وأول مواجهة لمعنى الموت وأنا فى هذه السن الصغيرة ، فقد كنا نحبها حبا جما ، وبدا لى اختفاؤها المفاجئ أمرا شديد الصعوبة . وكنا قد تعودنا أن ننتظرها بالساعات عند موقف ترام غمرة حيث كان الترام رقم ٥ والترام رقم ٢٢ ينتهيان ، عندما نعرف أنها ستأتى لزيارتنا ، حتى إذا ما نزلت من الترام صحبناها أنا وإخواتى وأولاد عمى فى زفة كبيرة من موقف الترام إلى البيت ، ولا عجب فى ذلك فقد كانت تحبنا وتنفحنا بالنقود وأنواع الحلوى المختلفة ، وحتى اليوم مازلت أتذكر يوم هذا الحدث الجلل – حدث وفاتها – فقد دق بعض أقاربنا باب منزلنا قبل الفجر بقليل وهرول أبى وأمى بسرعة وهما يهمسان . فلما طلع الصباح أخذنا أخى حسن – نحن الاخوة الثلاثة الصغار – معه وذهبنا مشيا إلى الدراسة عن طريق شارع مصنع الطرابيش وعندما اقتربنا من منزل جدى سمعنا صراخا وعويلا وبكى أخى حسن وقال لنا الخبر الحزين . ولقد كانت الصدمة الثانية والأكبر فى حياتى إزاء الموت عندما ماتت أمى عام ١٩٤٠ نتيجة الاصابة بالحمى ، وكنت قد انهيت امتحان السنة التوجيهية وكان عمرى آنذاك سبعة عشر عاما . وكنت شديد التعلق بأمى وأدت بى هذه الصدمة إلى تحولى إلى إنسان نباتى لا أذوق اللحم لسنوات ولم أستطع أن أخرج من إسار هذه الأزمة إلا قرب تخرجى من الجامعة .

عندما انتقلنا إلى حى العباسية كان من الطبيعى أن يدخلنى أهلى مدرسة تناسب سنى ، ولقد دخلت مدرسة البرامونى الأولية وقضيت بها عامين قبل التقدم لامتحان القبول بالمدرسة الابتدائية ، وكانت هذه المرحلة – مرحلة المدرسة الأولية – تعيسة بالنسبة لى ، ولشرح ذلك ينبغى أن أوضح أننى قد تعرضت وأنا فى الثالثة لحادثة – ونحن مازلنا فى حى الأزهر – كادت تودى بحياتى ، فقد وقعت من على سلم منزلنا ونزفت من جرح فى الاسنان واللثة ، ولابد أن هذا الجرح قد أهمل أو عولج بالأساليب الشعبية مما أدى إلى حدوث غرغرينة فى اللثة العليا ، وذهب بى أهلى إلى المستشفى الايطالى بالعباسية وأجريت لى جراحة عاجلة أزيل فيها جزء من اللثة وعظمة الأنف وقضيت أياما بين الحياة والموت . فلما عوفيت اتضح لأهلى أنه ترتب على هذه العملية بعض التشويه فى الفم ، وفى المدرسة الأولية كان الاطفال وبعض المدرسين يعيروننى بهذا التشويه ،



فى ظنى ان إحدى النقاط الأساسية فى جامعاتنا هو الوضع الجـامد الذى لا يسـمح بالجمع بين الفلسـفة والرياضـيات .

وكان مدرس اللغة العربية ينادينى للاجابة فيقول « قوم يا أشرم » إشارة إلى هذا العيب ، وأعتقد أن الخجل والانطواء فى شخصيتى آنذاك إنما يعود إلى تلك الظروف ، ولقد أدى هذا إلى كراهيتى للمدرسة وللذهاب إليها وإلى شدة تعلقى بأمى وكان ذهابى إلى المدرسة كل يوم مشكلة فقد كنت أبكى وأصرخ إلى أن يحملنى الخادم على كتفه إلى باب المدرسة وهناك يتلقفنى الشيخ ناجى المسئول عن طابور الصباح فيأمر الفراش أن يخلع لى حذائى ثم يقوم هو بضربى على قدمىّ بضع خيرزانات لأكون عبرة للأطفال الآخرين ، وفى بعض الاحيان كنت أهرب من المدرسة فى فترة بعد الظهر .

معاناة الدراسة الأولى

ذكرت هذه الوقائع لأوضح أننى لم أتعلم الكثير فى المدرسة الاولية . وعندما تقدمت عام ١٩٣١ لامتحان القبول بمدرسة الظاهر الابتدائية لم أنجح فى الامتحان بل رسبت بجدارة ، وعندئذ أسرع أخى إبراهيم بتقديم أوراقى إلى مدرسة الحسينية الابتدائية ونجحت بالكاد فى امتحان القبول . وهكذا قضيت مرحلة

التكوين

التعليم الابتدائى فى الحسينية الابتدائية (وهى قريبة من ميدان الجيش وقد شغلت المبنى بعد الثورة شركة مصر للمستحضرات الطبية) من عام ١٩٣١ إلي عام ١٩٣٥ . كان التعليم الابتدائى بالمصروفات (عشرة جنيهات تدفع على ثلاثة أقساط) إلا للمتفوقين أو نسبة ضئيلة جدا يتم إعفاؤها بناء على تقديم شهادة فقر . ولم أكن من المتفوقين ، ومع أن الازمة الاقتصادية العالمية ١٩٢٩ - ١٩٣٢ قد أصابت أبى بضرر شديد وصل إلى حد الافلاس إلا أننا لم نكن نرغب أن نتقدم بشهادة فقر . ورغم هذه المعاناة فقد دفعوا لى المصروفات فى السنة الأولى وجزء من السنة الثانية ، ثم أعفيت بعد ذلك من المصروفات بمناسبة شفاء الملك فؤاد وصدور قرار بإعفاء الخمسة الاوائل من كل سنة من سنوات الدراسة . ومع بدايتى المتواضعة كان اهتمام أشقائى بى فى المذاكرة قد أوصلنى إلى أن اكون من الخمسة الاوائل فى نهاية السنة الثانية وظل هذا حالى فى السنتين الثالثة والرابعة وتميزت بتفوق خاص فى اللغة العربية والحساب . وربما يعود تفوقى فى اللغة العربية إلى طبيعة اهتمامات الاسرة التى تخرج العديد من أبنائها من دار العلوم . أما شغفى بالحساب فلا شك أن لمدرسى آنذاك - الأستاذ المرصفى - فضلا لا ينسى فيه .

وبشكل ما استطاعت الاسرة أن تجتاز تلك المرحلة بصعوبة ودون خسائر فادحة . ذلك أن أخى إبراهيم قد عين فى مدرسة خاصة بمرتب عشرة جنيهات . ومع أنه كان الثانى فى دفعة دار العلوم عام ١٩٣٠ إلا أنه لم يعين بمدارس الوزارة بسبب قرار صدقى باشا وقف التعيينات ، وكانت شقيقتى الكبرى عائشة تعمل مدرسة بالمدارس الابتدائية وساعدنا ذلك على تدبير أقساط المصروفات لى ولثلاثة من الاشقاء . لكننا اجتزنا هذه المرحلة بتضحيات وآلام نفسية غير قليلة . ولعل تلك المرحلة هى التى لفتت نظرى - ولاتزال - لمسألة الفقر فى الأوساط الشعبية والظلم الفادح الواقع على الملايين نتيجة الحرمان من التعليم ، والخسارة التى تصيب الأمة كلها نتيجة هذه الأمية .

الإبن القدوة

وينبغى أن أذكر هنا أن سلوك الإبن الأكبر فى العائلة فى طريق التعليم يكون له فى العادة أثر غير قليل على الابناء الأصغر ، فهو القدوة والمثل خصوصا إذا كان فارق السن كبيرا . وفى حالتنا كان لتفوق شقيقى الأكبر إبراهيم أكبر الأثر

عندى طوال مراحل التعليم . فبعد سنوات قليلة من التدريس أرسل فى بعثة إلى بريطانيا عام ١٩٣٤ . وطول المدة التى قضاها بالخارج كان يرسل لى كل فترة خطابات على المدرسة يشجعنى فيها على التفوق الدراسى ويطلب منى أن أبعث له بأخبارى ومشاكلى . أتذكر مثلا أننى عندما كنت فى سنة الشهادة الابتدائية بالمدرسة الحسينية أن دخل ضابط المدرسة يوما إلى فصلى ونادى اسمى ، فلما وقفت ناولنى خطابا من إنجلترا . وبالطبع كانت سعادتى وفخرى أمام زملائى فوق الوصف ، وقد حدث نفس الشئ لأكثر من مرة عندما دخلت مدرسة فؤاد الأول الثانوية وقضيت بها السنة الأولى والسنة الثانية .

فى المرحلة الثانوية (١٩٣٥ - ١٩٤٠) قضيت بمدرسة فؤاد السنتين الأولى والثانية فلما فتحت مدرسة فاروق الأول أبوابها عام ١٩٣٧ كنت من ضمن المنقولين إليها وفيها قضيت السنوات الثلاث الأخيرة من المرحلة الثانوية ومنها حصلت على الشهادة التوجيهية عام ١٩٤٠ . ولكن يحسن أن أشير إلى حادث هام فى حياتى وقع لى بمدرسة فؤاد الأول فى السنة الأولى من التحاقى بها . ففى العام الدراسى ١٩٣٦/٣٥ قامت فى مصر مظاهرات عارمة تهتف بسقوط وزير خارجية بريطانيا « صمويل هور » بمناسبة تصريح له ، ولقد خرجنا من المدرسة فى مظاهرة كبيرة إلى شارع العباسية حيث هاجمنا البوليس وضربنا بقسوة ، فعدنا إلى المدرسة وألقينا على قوات البوليس الطوب والأخشاب . وكان شقيقى محمد فى طليعة فرقة قذف الطوب ، وكنت أساعده ، وفى المساء جاءت قوات من البوليس إلى المنزل وسألت عنى لأنهم وجدو بعض كتبى على سطح المدرسة ، كنت فى الثانية عشرة وأخذت إلى قسم الوايلى حيث قضيت الليل مع ثلاثين آخرين فى زنزانة القسم ، وفى الصباح أخذونا إلى مبنى محافظة القاهرة حيث عرضنا على النيابة التى تولت التحقيق معنا ، ثم أفرجت عنى لصغر سنى . كان هذا الحادث أول مواجهة لى - وأنا مازلت طفلاً - لمسألة السلطة ، ولقد بكيت عندما جاءت أمى لزيارتى فى قسم البوليس لكنى عندما عدت إلى المدرسة فى اليوم التالى حاولت أن أتظاهر بالشجاعة أمام زملائى ، وبالطبع ترك هذا الحادث أثراً عميقاً فى حياتى بعد ذلك ، مازلت أذكره بتفاصيله كما أنى مازلت أذكر جنازة ويصا واصف التى مرت عام ١٩٣١ فى شارع رمسيس أمام منزلنا وهتافات شباب الوفد فى تلك الجنازة المظاهرة كقولهم « إشكى الظلم لسعد يا ويصا » .

تكوينى الثقافى

وفى هذه المرحلة - مرحلة المدرسة الثانوية - واظبت طوال

التكوين

الصيف على الذهاب إلى دار الكتب فى ميدان باب الخلق للقراءة واستعارة الكتب ، فقد كانت ظروفنا المالية لا تسمح بشراء كتب للقراءة العامة وإن كنت قد استفدت من مكتبة أخى إبراهيم بالمنزل التى تركها عند ذهابه إلى بريطانيا ومنها قرأت مقامات الحريرى وديوان المتنبى وديوان الحماسة لأبى تمام وكتاب قدامة بن جعفر فى نقد النثر وغيرها ، ولست أدعى أننى فهمت كل ما قرأت فى مكتبة أخى ، لكن ذلك كان مقدمة لمواظبتى على الذهاب كل يوم خلال الصيف إلى دار الكتب حيث أظل بها من العاشرة صباحاً حتى الواحدة ظهراً ، وساعدنى على هذا أن خالى الأصفر كان آنذاك رئيسا لقسم الفهارس العربية بينما كان الشاعر أحمد رامى رئيسا لقسم الفهارس الأجنبية فى القاعة المقابلة ، وكان موظفو قسم الفهارس العربية يرحبون بى ويساعدوننى ، وفى تلك المرحلة قرأت معظم إنتاج طه حسين والعقاد وأحمد أمين والمازنى وتوفيق الحكيم وعبد الله عنان كما قرأت ديوان شوقى ومسرحياته وحافظ إبراهيم والبارودى ، وكان العقاد يلفت نظرى ويستحوذ على إعجابى بصفة خاصة خصوصا كتابه «سعد زغلول سيرة وتحية» فى مطالعاته فى الكتب والحياة وتأملاته فى الفلسفة وكتابه عن ابن الرومى ، لكن كتب العقاد التى صدرت فى مرحلة متأخرة من حياته لم أجد فيها نفسه العميق القديم .

وفى تلك المرحلة أيضا حرصت على قراءة بعض الكتب العربية التى تتناول قضايا الفلسفة بصورة مبسطة وشغلنى على وجه الخصوص سقراط وأفلاطون فى الفلسفة اليونانية وأفكار المعتزلة فى الفلسفة الإسلامية كما عرضها أحمد أمين . وكان لكل هذه القراءات أثرها فى نشاطاتي بمدرسة فاروق الأول الثانوية . فمع مواظبتى على شراء مجلة « الثقافة » كنت مشتركا فى جمعية التمثيل بالمدرسة وأذكر أني قمت بدور الكاهن « أنوبيس » فى مسرحية كليوباترا لشوقى عندما قدمناها فى آخر العام ، وكنت ضمن هيئة تحرير مجلة المدرسة « الفجر » واشتركت مع آخرين فى تكوين « الجمعية الرياضية » تحت إشراف المدرس الأول للرياضيات بالمدرسة ، وقد شجعنى هذا النشاط على مواصلته فى مرحلة الجامعة حيث انتخبت

رئيسا للجمعية الطلابية للعلوم الرياضية والطبيعية بكلية العلوم جامعة القاهرة لعام ١٩٤٤/٤٣ .

ولقد واجهت مشكلة عسيرة عام ١٩٣٩ إثر حصولي على شهادة الثقافة العامة ، إذ كان عليّ أن أختار إحدى الشعب الثلاث للسنة التوجيهية (آداب ، علوم ، رياضيات) . فقد كنت محبا للغة العربية والأدب والفلسفة ، كما كنت محبا أيضا للرياضيات ومتفوقا فيها . ومع أنه بدا لي أن الجمع بين الرياضيات والفلسفة هو أمر طبيعي لأن أفلاطون كتب على باب أكاديميته : « لا يدخلها إلا المشتغلون بالهندسة » إلا أن نظام التعليم في جامعاتنا لم يكن يسمح بذلك ، فإما أن ألتحق بكلية الآداب لدراسة الفلسفة أو بكلية العلوم لدراسة الرياضيات ، ولقد اكتشفت فيما بعد أن الجمع بين الدراستين يتحقق بسهولة في الجامعات الأوربية والامريكية حيث تقوم الجامعة على الأقسام كالوحدات الاساسية وليس الكليات وحيث جدول الدراسة من المرونة بحيث يسمح بالجمع بين تخصصات تبدو متباعدة تماما في جامعاتنا ، وفي ظني أن إحدى نقاط الضعف الاساسية في جامعاتنا هو هذا الوضع الجامد الذي لا يسمح بالجمع بين الفلسفة والرياضيات معا أو بين الرياضيات والاقتصاد ... وهكذا .

وظللت في هذه الحيرة طوال صيف ١٩٣٩ ثم تصادف حضور أخي إبراهيم من لندن لزيارتنا فقام بإقناعي بدخول كلية العلوم لدراسة الرياضيات وقال آنذاك إن في مقدوري دراسة الفلسفة أو الأدب وحدي بالقراءة والمثابرة في أشهر الصيف بينما أنا أدرس الرياضيات بكلية العلوم ، لكن العكس صعب وإن لم يكن مستحيلا ، وأذكر أنه قال لي كآخر حجة في جعبته إن الفلسفة والأدب لا يطعمان أحداً !

واقتنعت ودخلت شعبة الرياضيات في السنة التوجيهية ثم قسم الرياضيات في كلية العلوم ولم أندم على ذلك أبدا . وفي مرحلة المراهقة والنزعات الافلاطونية بدت العلوم الرياضية - البحته لا التطبيقية - ذات جمال خاص ، وما كان يذهلني حقا هو معنى هذه الحقائق الرياضية في الهندسة والجبر التي بدت وكأنها مستقلة عن أي خبرة . إنه عالم المثل إذن كما كان يقول أفلاطون واحتضنت بقوة كتاب الرياضي الانجليزي الكبير هاردي « الرياضة البحتة » كما احتضنت أفكاره المثالية كذلك .

وعندما أتأمل اليوم نظرتي إلى هذا التاريخ القديم لأفكاري وآرائي كطالب بالمرحلة الثانوية ثم الجامعية أحس كم تغيرت الآن عن ذلك الزمان ، وربما كان السبب في ذلك دراستي للفكر الماركسي بعد تخرجي من الجامعة عام ١٩٤٤ وتعييني معيدا في كلية العلوم جامعة الاسكندرية .

لكن تلك قصة أخرى أرجو أن أتوفر على كتابتها ونشرها في مناسبة أخرى .

● تحية لشهر رمضان

هذا هـو الشهـر المعظم مقبلاً — فانهـض إليه مكـبرا ومهـللا
قـد لاح فى أفق السـماء هلاله — وبه يبشـر جـائلا متنقـلا
والصـوم فى رمضان فرض لازم — أدِّ الفريضـة لا تكن متـكاسـلا
وإذا السـفيه يعضنى بلسـانه — سـامحته لسـبابه متجـاهلا
وإذا جهـول قد أثـار حفيظتى — أهمـلته وتركتـه متسـائلا
والصـوم محسـوب لربك وحده — فاحـرص عليـه تنل جزاءً كاملاً
والله يغفـر بالصـيام ذنـوبنا — يا صـاح : ثق بالعفـو منه مؤملاً

مصطفى محمود مصطفى
كفـر ربيـع - منوفية

● رمضان والصبر

* قال صلوات الله عليه وسلامه : « الصوم نصف الصبر والصبر نصف الإيمان » .. والصبر كما قال عليه السلام : « ستر من الكروب وعون على الخطوب » وكما قال على بن أبى طالب « الصبر مطية لا تكبو والقناعة سيف لا ينبو ». وقال ابن عباس : « أفضل العدة الصبر على الشدة » فنحن فى حاجة إلى رمضان متجدد يذكرنا بأمجاد الإسلام ويصبرنا على الشدائد ويقوم نفوسنا ...

صلاح عبد الستار الشهارى - دمشيت - طنطا

● أمنية رمضانية

شوقى ، وشـــوق الناس من أمثـالى .·. للصـــوم مطـــردا رجـــاء غال
وهنـــــاك أســـماء تعللنـــا بها .·. وهى الجواب ، الفرد .. يوم سـؤال
(أيامنـــا بيض) ، وذاك (خميسـنا) .·. ولتلك .. فى العادات ... من (شوال)
أولم يكـــن خيــر البريـــة .. ينتهى .·. - إن لم يجد - للصوم دون كلال ؟!
والحق يشــــهد ، كيف أن صـيامنا .·. - فى غـالب - هرب من الاقــلال !
فى ذلك الـزمن ، المكبــــل بالأســـى .·. والبؤس ، والمصـــــفود بالإذلال
أصبحت.. فى صومى.. وليس لناظرى .·. قول ، عن المصـــفر من أحـوالى
فأنا ككل النـــاس ، لست بحـــاجة .·. لخفـــاء جوعى ، أو ظهـور وصالى
أرأيت يا رمضـــــان ، كيف سـترتنا .·. وأرحتنـــا من قـــالة الأنــذال ؟!
ياليت أنــك كنت طيــــلة عامنـــا .·. لتكـــون راحتنـــا بلا ترحـــال !!

رمضان أبو غالية - رئيس التعليم الثانوى بقويسنا

● أقصوصة — فرد الأحلام

* غيتى تربية الحمام .. وهى غية قديمة .. فى البداية كنت أظن أنى أربى الحمام ولكن فى النهاية .. تأكدت أن الحمام يبادلنى تربية .. بتربية .. فقد أخذ على عاتقه عبء تربيتى .. وتبصيرى ..

المفروض أن كل زوج من الحمام ملتصق أحده بالآخر . ذكر وأنثى .. الذكر يحب الأنثى .. والأنثى تعشق الذكر .. أنا أملك عشرين زوجاً ، وأعرف كل زوج ، وأستطيع تفرقته من غيره ، وكل الأزواج طبيعيون .. إلا هذا الزوج الذى لاحظت أنه مختلف تماماً عن اخوته ..

فالذكر مسكين .. يفعل مثل ما يفعل أى ذكر حمام .. يجمع الريش والقش ويساعد فى صنع العش وحضانة البيض ، ولكن الأنثى كانت ماكرة .. أول حمامة أراها ماكرة ! .. فما أن يأتى ذكر الحمام بالريش ويضعه فى القفص ويطير حتى تأتى هى وتبعثره ، بل وتداريه بعيداً عن عيون أى ذكر من ذكور المجموعة ، وهى أيضا تتقاعس عن إضافة أى جديد إلى العش ، فضلا عن ذلك .. فقد أخذت تشذ عما أعرفه .. وتعرفونه .. وعما تعود عليه جنس الحمام .. إنها تنقر الذكر من حين إلى آخر .. وتساهيه وهو راقد فوق البيض ، وتشد ريشه هو .. ريشة ريشة .. حتى أصبح غير قادر على الطيران .. فقط يرقد فوق البيض .. وعندما يحين دورها هى يقف على باب القفص ، وأقصى ما يفعله أن يقع على الأرض يلتقط بعض الحب .. ولا يقوى على الصعود حيث القفص إلا بعد لأى ..

والانثى مبسوطة ومنتشية ، حتى أن وزنها زاد ، أما هو فقد ذبل ، وكان كلما ذبل زاد انبساطها وانشرح صدرها ، وسمنت فهى قد قصت كل ريشه ، ولم يعد قادراً على الطيران .. فهو لن يلوف بغيرها .. حتى كان صباح .. أتت حمامة بنية اللون .. قوية .. راعها منظر الذكر المسكين رقت لحاله .. حملته .. وطارت به .. ومعه.. واليوم .. صدفة شاهدتهما معاً .. هو سعيد .. وسمين وقد ربي ريشاً جديداً .. جميلا وهى سعيدة تحوم حوله وهى ترقص .. وتغنى فقد لافت أخيراً بذكر أحلامها ..

د. سمير محمد البهواشى - الجيزة

• فى عمق اللحظة

فى بهو الحب الملكى جلسنا
اللون يُغنى بوجهينـــا
والهمــس يشـــكلُ فينا جوقة عــزف تُســحِر
نتفــاهم فى صــمتٍ يقطر بوحــا
ويفيض هيـــاما
ويسجل للعشق لغات أكثر

والعالم أجمع قد صار
سحائب عشقٍ تتفطرْ
تتأجج فينا الأشواق الحُبلى
تتفتح نوارا للحب وتثمر
نتسابق فى صيد فراشات الشمس
وهالات من بُقع الضوء المُبجِر
ونغازل أزواج الطير
المتعانق حبا أخضر
فى عمق اللحظة عشنا
وسكبنا العمر بعِرقِ اللحظة سَكبا
فاللحظةُ
صارت عمرا



رفعت عبد الوهاب محمد المرصفى
القاهرة - حدائق شبرا

● حــواء

وجهك يا ..
صفحة شعرٍ
كتبتها إصبعُ صُبحٍ خضراء
فوق غدير الضوءِ
صهيل الماء !
قرأتها عين الشمس الغراء
حرفاً .. حرفاً ..
كى يشرب منها عُشبُ الأرضِ ،
ظلال الفقراء !



يوسف عبد العزيز - قنا - كرم عمران

● الليل والأشياء



غربانُ الليـــل
تنعقُ ، ترتعدُ الأشــجار
تصــمتُ تتكمشُ الأوراق ..
الأطيارُ .. الأحـداقُ .. الأزهــار
يســودُ الموتُ
ياقُبحَ الأشياء
انطفأت كلُ الألوان
واشــتعلَ الأســودُ فى كل الأركان
يحرقُ خطــو القلب
يُلزِمُهُ الصــدرَ المفعمَ بالأشــجان

رمضـان عبد اللطيف حامد قنا - كلية الآداب

● أقصوصة ... النداء

* دخلت سكرتيرة المدير العام ..
ألقت التحية على الحاضرين .. ثم توجهت بالحديث إلى الجميع قائلة :
– يسرنى أن أحيطكم علماً بأن كريمة السيد رئيس مجلس الإدارة قد تم زفافها بالأمس ..
وقد رأى حضرة المدير العام شراء هدية تليق بمقام العروس ، ونَشْـر إعلان تهنئة بالصحف والمجلات ..
سوف نشترك جميعاً فى تلك التهانى تعبيرا عن مشاعر إدارتنا نحو سيادته .
كانت تضغط على المقطع الأخير من كلامها ، وعيناها تلمعان ببريق ذى مغزى لم يخطئ فهم مغزاه أى من الحاضرين ..

تصاعد اللغط ..

هزات متوترة تصدر من الرءوس ..

تطايرت الكلمات .. وتقاطعت بين .. تأييد .. سيادته .. طول عمر .. كريمته .. سعادتها .. الرفاء .. البنين ..

ذو الياقة المتهرئة لم يكن يجرؤ على التخلف ..

المشاركة مقدسة .. عليه أن ينتزع من راتبه عشرة جنيهات .. في استسلام قال لنفسه :

– الأمـــر للــه !

إنشاءات ، وتجهيزات كانت تجرى بالدور العلوى .. لم يتمالك نفسه من قشعريرة مست جلده .. ورجل نحيل ضامر يحمل الأسمنت على ظهره .

كيف لهذا المخلوق أن يصعد تلك الطوابق وهو محمل بهذه الأثقال ؟!!

كان الرجل الضامر ذو السحنة الباهتة يتحرك فى الرواق بصعوبة والأسمنت فوق ظهره ...

الكل شارك فى الهدية .. هنأوا المدير بحرارة بعد أن وقعت عيونهم على الهيكل العظمى البشرى ..

فى اليوم التالى .. جاءت السكرتيرة لجمع المبلغ .. أخذت من كل موظف عشرة جنيهات ..

جاء دوره ..

وقفت أمامه لتتسلم منه الورقة الحمراء ..

نظر إليها فى توجس .. اعتذر .. قفز الغضب من داخلها .. ارتسم على وجهها المكتنز .. فى عصبية ارتعشـــت أصـــابعها ذات الأظافر المدببة .. المصبوغة بلون الدم ..

كان يعلم خطورة الأمر .. وحرج الموقف ..

الضباع متربصة ..

تنتظر الفرصة لنهش لحمه ..

قال يحدث نفسه :

– ولو ...

عبد الحميد عيسى غازى

● قدوم المطر

يذيب الجمود قدوم المطر ∴ فيوحى إلىَّ بأسمى الفكر
فها هى ذى قد أفاقت طيور ∴ ترى القطر فى الأفق أحلى وتر
ورغم الوحول سعى الزارعون ∴ يذودون عن حصدهم ما غمر
فإن لهم فى الحقول عناءً ∴ وفى جودة الحرث أغلى وطر

بشير رفعت سعيد محمد - كفر الشيخ - الخادمية

●●●

● مع الأصدقاء ...

*** الأصدقاء الشعراء السادة : طارق محمود مراد .. سعيد عبد القوى محمد .. نوبى حسانى محمود ..**

– أشعاركم ذات أوزان صحيحة ، إلا أننا نرجو أن يتاح لكم من نضج المعانى ما أتيح لكم من نضج الأوزان ، وليس هذا بعسير ..

*** الأصدقاء السادة : عبد الحكيم طه .. أحمد عبد الحليم رزق .. السيد**

التحفة.. محمود عبد العظيم أبو سلام.. محمد عبد المنصف أحمد.. على عفيفى

– أشعاركم يختلط فيها الأوزان الصحيحة بالأوزان التى تحتاج إلى إعادة نظر .. نرجوا أن تتمكنوا من الأوزان بطول المران ..

*** وجيه عشم .. القاهرة :**

– قصتكم «بقايا الرمال الساخنة» محاولة طيبة تدل على رغبتكم فى مزاولة أدب القصة القصيرة ، إلا أن سرد «الحدوتة» يغلب على قصتكم ، وسيتم لكم النضج الفنى بالممارسة الطويلة ..

*** صلاح جميل – غزة :**

– الظرف الذى يحمل خطابكم مكتوب عليه أنه من « الكاتب حسب محسب » .. أما توقيعكم على الخطاب فهو : « صلاح جميل » .. فمن أنت وما اسمك ؟! .. أما أسئلتك فهى أسئلة غريبة كأنك تعيش فى الفضاء لا فى قطاع غزة الذى يضربه الصهيونيون بالقنابل والرصاص كل يوم ، فأنت تتحدث عن تحريم الرسم ووسائل الإعلام .. إلخ .. ألست لك ياهذا أية مشكلة مع من يحتلون أرضك ويقتلون أهلك ؟! .. هذا سؤال نوجهه إليك إن كنت عربيا من قطاع غزة فعلا ؟ ! ..

*** مجدى البدر – القاهرة :**

– حاول أن تجد موضوعات تهم القارئ لتكتب فيها ، فإن لك قلما لا بأس به ، ونرحب بك ..

*** سعيد عبد الله سعيد – عدن – الجمهورية اليمنية :**

– قصتكم التى عنوانها «البرئ» ينقصها الفن القصصى ، فهى فى الحقيقة «حادثة» تقريرية تفتقر إلى هذا الفن ، إلا أننا نرى أن بوسعكم التمكن من فن القصة بطول الدراسة والقراءة .

الكلمة الأخيرة

بقلم : صلاح أبو سيف

لا يمكن أن يقوم عمل فنى ناجح دون أن يتضمن هذا العمل فكرة أو رأيا أو مبدأ أو مشكلة تهم الانسان وتهم المجتمع المحلى والعالمى .

فإذا وجدت الفكرة الجيدة وجب معالجتها علاجا صحيحا دون مجاملة أو تستطيع أو تزييف لارضاء مجموعة من الناس أو خوفا من جهة ما .

والفكرة الجيدة والمعالجة الناضجة تحتاج إلى وضع وتقديم الحل الصحيح لهذه المشكلة ، فإذا لم يجد الفنان الحل السليم والصحيح كان عليه أن يعرض المشكلة فقط ويترك حلها للجماهير ، حتى لا يخطىء فيهبط بالعمل الفنى إلى الحضيض .

فإذا أحسن اختيار الموضوع وتمت معالجته سينمائيا علاجا صحيحا وجب الاهتمام بالنواحى الفنية كالاخراج والتصوير والديكور والمونتاج والموسيقى .. الخ من النواحى التى تساهم مساهمة فعلية فى تقديم العمل الناجح إلى الجمهور .

لذلك فهذه النقاط هى الهدف الأول لعملية الإصلاح ، إذ أن الأفلام الهابطة التى تسىء إلى فن السينما وتسىء إلى سمعة مصر وتسىء إلى الإنسانية ، أصبحت كثيرة العدد مما جعلها تطغى على الأفلام الجيدة .

وهناك وسيلتان للحد من هذه الأفلام الهابطة : طريقة الترغيب وطريقة الترهيب .

وتعتمد الطريقتان على عدة وسائل مختلفة بعضها ياتى قبل البدء فى العمل والبعض ياتى بعد الانتهاء منه .

أولا : الجوائز المادية والأدبية التى ابتدأت وزارة الثقافة (صندوق التنمية الثقافية) فى منحها للأفلام الجيدة ولاشك أن هذه الجوائز ستساعد المنتجين على إنتاج أفلام جيدة والبعد - عن الأفلام الهابطة .

ثانيا : محاولة منع عرض الأفلام الهابطة فى دور السينما حتى لا تزاحم الأفلام الجيدة ، بالرغم من أن هذه الأفلام لا تعرض فى دور السينما أكثر من أسبوع وأصحابها يهدفون أولا لتصديرها لأن جمهورنا لا يقبلها .

ثالثا : محاولة منع الأفلام الهابطة من التصدير للخارج إذ أنها تسىء إلى سمعتنا الفنية والوطنية .

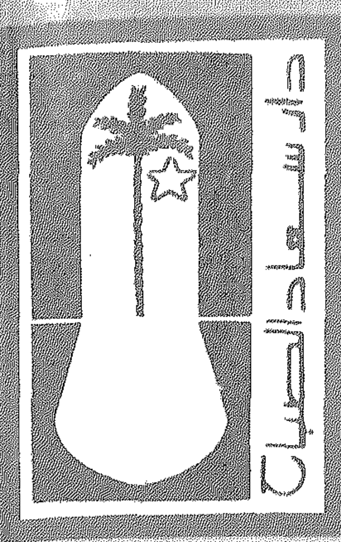
وهناك رأى يقول بضرورة معاقبة أصحاب الأفلام الهابطة أو على الأقل معاتبتهم حتى لا تترك المسألة دون رقيب ، فمنتجو الأفلام الهابطة يجب أن تحاكمهم غرفة السينما ، والفنيون يجب أن تعاقبهم نقابة المهن السينمائية ، والفنانون يجب أن تعاقبهم نقابة المهن التمثيلية وهو ما يحدث فى جميع النقابات المهنية التى يسىء أعضاؤها إلى مهنتهم

وكما يعطى الفنان المتميز جائزة على إبداعه الفنى ، لماذا لا يعاقب من يسئ إلى فنه ومجتمعه ووطنه .



مصر للطيران

أهلاً بكم في عالمنا...



دار سعاد الصباح للنشر

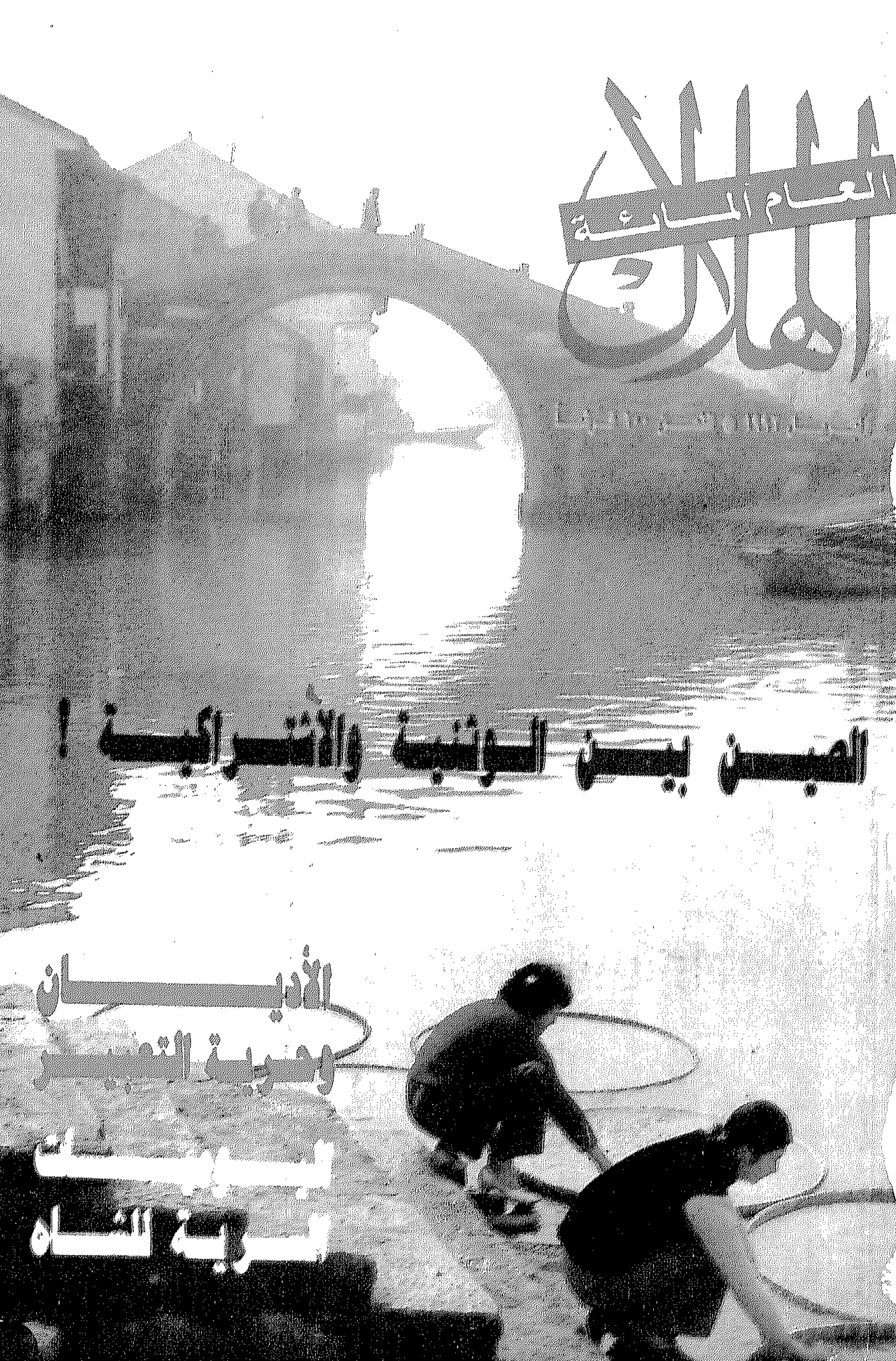
فذة للعرب على العالم
ونافذة للعالم على الأمة العربية

«الفكر المستنير والإبداع الأصيل»

- لنشر روائع التراث العربي والثقافة العربية المعاصرة والتجارب الإبداعية للشباب العربي من المحيط إلى الخليج
- لترجمة ونشر روائع الثقافات الأخرى

تطلب المطبوعات من:
دار سعاد الصباح

ص.ب ٢٧٢٨٠ الصفاه ١٣١٣٣ - الكويت أو ص.ب ١٣ المقطم - القاهرة
ومكتبات دار الشروق بالقاهرة "ميدان طلعت حرب - شارع البورصة
مكتبات الهيئة المصرية العامة للكتاب والمكتبات الرئيسية بالكويت والعواصم العربية


الهلال
العام المائة
الصين بين الوثنية والاشتراكية !
الأديان وحرية التعبير

المنظف الصناعي

نيول ...٢٠٠٠

ذو الرغوة الوفيرة
والرائحة الذكية

إنتاج:
شركة الإسكندرية للزيوت والصابون

الهلال

مجلة ثقافية شهرية تصدرها دار الهلال
أسسها جرجى زيدان عام ١٨٩٢

رئيس مجلس الإدارة
مكرم محمد أحمد

نائب رئيس مجلس الإدارة
عبد الحميد حمروش

رئيس التحرير
مصطفى نبيل

المستشار الفنى
محمد أبو طالب

مدير التحرير
عاطف مصطفى

المشرف الفنى
محمود الشيخ

سكرتير التحرير التنفيذى
عيسى دياب

الادارة : القاهرة – ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا)
ت : ٣٦٢٥٤٥٠ (٧ خطوط)
المكاتبات : ص . ب : ٦١٠ – العتبة – الرقم البريدى : ١١٥١١ – تلغرافيا المصور – القاهرة ج . م . ع .
مجلة الهلال ت : ٣٦٢٥٤٨١
تلكس : 92703 Hilal un
فاكس FAX : 3625469

السنة المائة – إبريل ١٩٩٢ ● رمضان ١٤١٢ هـ .

عالجنا موضوع الآثار ، ونبهنا أكثر من مرة إلى الخطر الذى يتهددها فى كل ربوع مصر بدءاً من الأقصر ، حتى المنطقة الأثرية فى الجيزة ، كما تناولنا الخطر المستمر والاعتداء اليومى على آثارنا الإسلامية الخالدة .

وحرصت « الهلال » على الدعوة المبكرة لحماية آثار مصر وكنوزها التى لامثيل لها فى العالم كله . ويبدو أن الأمر يحتاج وبشكل عاجل إلى حملة إنقاذ عالمية لتوفير المال اللازم والكفاءات العلمية لدرء الأخطار عن هذه الآثار التى تعد ملكا للبشرية كلها، كما ننبه بضرورة أن تبدأ حملة قومية داخل مصر ، لنوقف الاعتداء الصارخ على الآثار ، وبيان أهميتها .

وحتى نخلق رأياً عاماً قويا يبين الأخطار التى تهددها ننشر مقالين فى هذا العدد .. الأول بعنوان «أعظم آثار العالم فى خطر » والثانى بعنوان «انقذوا كنوز مصر المعمارية والأثرية» .

في هذا العدد

• فكر وثقافة •

الغلاف
تصميم الفنان
محمد أبو طالب

الإشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى ١٢ جنيها فى ج . م . ع . تسدد مقدما نقدا أو بحوالة بريدية غير حكومية - البلاد العربية ١٢ دولارا - أمريكا وأوربا وآسياوافريقيا ٢٥ دولارا - باقى دول العالم ٣٥ دولارا .

والقيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال - ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد .

سوريا ٧٠ ليرة ، لبنان ١٥٠٠ ليرة ، الأردن ١٠٠٠ فلس ، الكويت ٧٥٠ فلسا ، السعودية ٨ ريالات ، الجمهورية اليمنية ٢٥ ريالا . ترنس ٥ر١ دينار ، المغرب ١٥ درهما ، البحرين ٨٠٠ فلس ، قطر ٨ ريالات ، مسقط ٨٠٠ بيسة ، غزة والقدس والضفة ٨٠ سنتا ، ايطاليا ٢٧٠٠ ليرة ، لندن ١٢٥ بنسا ، نيويورك ٤ دولارات ، الامارات العربية المتحدة ٨ دراهم ، الجماهيرية الليبية العظمى ١ دينار .

أزهار أبريل

شهر أبريل – ياعزيزى القارىء – هو شهر الكذبة الشهيرة التى موعدها اليوم الأول منه ، فإذا جاء اليوم الثانى التزم الناس الصدق ، ولاشىء غير الصدق كأنهم ماثلون أمام المحكمة يؤدون القسم على قول الحق ولاشىء غير الحق ! ..

وأبريل أيضا هو شهر الأزهار والأثمار ، ويقابله عندنا شهر «برمهات» المصرى ، ومنذ القدم يقول الفلاحون المصريون بعضهم لبعض : « فى برمهات انزل الغيط وهات » أى أن الزروع تنضج فى برمهات وتملأ الحقول ، وما على الفلاح إلا أن ينزل إلى حقله ويقطف ثمار عمله الشاق فى طوبة وأمشير ، أثماراً ناضجة فى شهر برمهات ، أو شهر ابريل ، شهر الكذب فى أوله ، وشهر الثمرات اليانعات إلى نهايته ..

والشعراء يتغزلون بأزهار شهر أبريل .. يحدث ذلك فى البلاد العربية إذ يتغزل الشعراء لشهر نيسان الذى هو شهر ابريل ، ويحدث حتى فى انجلترا ذات الجو البارد إذ يتغزل شعراؤها فى « ليدى ابريل » أو « السيدة ابريل » .. أى أن ابريل عندهم يشبه المرأة الجميلة المختالة فى أجمل أزيائها الملونة ! ..

ولأبريل تاريخ قديم .. كان الرومان يحتفلون به بوصفه شهر « الزهرة المقدسة » .. واسمه فى اللاتينية « ابريليس » .. ويقابل فى اليونانية « فينوس » الزهرة الرومانية الجميلة .. وفى ٢١ أبريل ذات عام من الأعوام قبل الميلاد بدىء فى بناء مدينة روما الباقية على الزمان ! ..

إن اسم « نيسان » الذى نطلقه على ابريل هو أحق الأسماء بالتأمل والاعتبار ، فإن كلمة نيسان ذات الأصل السريانى معناها « الذبيحة » .. ولعل اسم « الذبيحة » هو الاسم الذى يتلقاه شهر ابريل فى هذا العام وهو مُقرٌ بمعناه ومبناه تمام الإقرار ، ناظرا إلى البلاد العربية من مشرقها إلى مغربها نظرة الرثاء ! ..

عزيزى القارىء

لانريد « تقليب المواجع » فى هذا الشهر الذى سمَّاه الشعراء شهر الحب ، وشهر الجمال ، وشهر الربيع ، وشهر الأزهار والأطيار ! ..

ونحن مع الشعراء نرحب بشهر الربيع قائلين :

مرحباً بالربيع فى رَيْعَانِهْ
وبأنواره وطيبِ زمَانِهْ

.. وأشعار نيسان

فإن الشعوب التى تشعر بمقدم الربيع ، وتنتعش أحاسيسها فى دفئه ، وترتفع معنوياتها فى ضوئه ، هى الشعوب التى مازالت تحتفظ فى أعماقها برغبة فى البقاء ولاشك أن الشعوب العربية من بين تلك الشعوب الراغبة فى البقاء ، المناضلة عن نفسها ضد عوامل الفناء ، وإن كان الزمان قد قلب لها ظهر المِجَنّ – كما كان يقول القدماء – وكشّر لها عن أنيابه ! ..

عزيزى القارىء ..

هانحن أولاء نلتقى بعد شتاء قارس جهم طويل ، فإن الحياة أشد حيوية مما يتصور أعداؤها ، والربيع ينتصر دائما ويعود على حصانه الأغر المحجل الذى تختلط فيه ألوان البياض والحمرة والدكنة ، كاختلاط الألوان فى حقول نيسان ، أو حقول برمهات التى تفتح صـــدرها للفــلاح المصــــرى ، وتدعوه قائله فى ترحاب صادق : انزل الغيط وهات ! ..

ومطلوب من كل إنسان مصرى وعربى أن ينزل إلى معترك هذا العالم الجديد الذى وجدنا أنفسنا فجأة نعيش فيه ، ومطلوب أن تأخذ الأمة العربية ماتقدر يداها على الوصول إليه من « الغيط » الذى صار حراسه خليطا من اللصوص والحرس الغلاظ الشداد وخيالات « الماته » المهزومة التى لم تعد تخيف العصافير ! ..

عزيزى القارىء

نشكرك على لقاء الشهر الماضى ..

كان لقاء مارس – آذار ، أول شهور الربيع لقاءً حميما بينك وبين الهلال فقد تضاعف إقبالك ، واشتدت حـــماستك لمجلتك التى تسعى إليك بانتظام منذ مائة عام وأنت تنتظر مقدمها فى كل الظروف وكلاكما يقول لصاحبه : أهلا ! ..

وندعوك – ياعزيزى القارىء – إلى جولة فى هذا العدد الذى يوافيك مع أثمار برمهات ، وحرارة أبريل وأشعار نيسان ! ..

« المحرر »

إخناتون

محو الأمية فى مصر الفرعونية

بقلم : د . سيد كريم

ماذا فعل الأجداد فى مصر الفرعونية فى أخطر المشاكل التى يعانيها مجتمعنا المعاصر . ؟ وكيف اهتدوا إلى طرق بسيطة ، ولكنها فعالة ، تقوم على تخطيط سليم ، للقضاء على الأمية . ؟

من البرديات المصرية ، نتعرف على هذا المشروع الفريد الذى استطاع به أخناتون ، خلال ثلاث سنوات القضاء على الأمية بمعناها الشامل فى مصر كلها ..

الحضارة مرآة الثقافة والثقافة نسيج علوم المعرفة من وحى العقيدة .. فالعلم توأم الايمان في جميع رسلات التوحيد .

معادلة ثابتة من ناتج حوار الحضارات الانسانية . معادلة حددت دور العقيدة فى بناء الثقافة . ودور الثقافة في بناء الانسان . ودور الانسان فى بناء الحضارة .

فعقيدة التوحيد المصرية القديمة هى أول عقيدة وحدت الخالق ، وأول توحيد للخالق عرفته البشرية مع مولد الزمان قبل نزول الرسل والأنبياء. حملت الرسالة الحرف والكلمة بالخط الهيروغليفى أول كتابة عرفتها البشرية ، بدأت بالقول بأن الأله الخالق انزل اليهم الحرف والكلمة ليقرءوا كلام الله ويتلقوا تعاليمه فيستمعوا إلى صوت السماء .

العلم أول أركان الإيمان

لذا فقد بدأت رسالة التوحيد الذى أطلق عليه المصريون القدماء اسم « كتاب النور » بقولها بأن العلم هو أول أركان الايمان بالإله ، وعن طريق المعرفة بالقراءة والكتابة يتفتح عقل الانسان لتقبل علومه



●اخناتون
١٣٧٠ ق . م

اخناتون اخن اتن
(عنخ أن ماعت)
«الذى يعيش فى
الصدق» رابع
رسل عقيدة
التوحيد ..
القراءة أول اركان
الايمان والجهل
كفر بالاله

المقدسة التى تميزه عن بقية الكائنات ، وتكشف له أسرار الوجود ، ويتفتح قلبه للإيمان بالخالق الذى وهبه نعمة المعرفة التى تمكنه من رؤية الإله فى كل آياته ، ويستمع إلى تعاليمه التى تمهد له عبور حياة التجربة بأمان ، وتمهد له حضارته

الطريق إلى عالم الخلود .

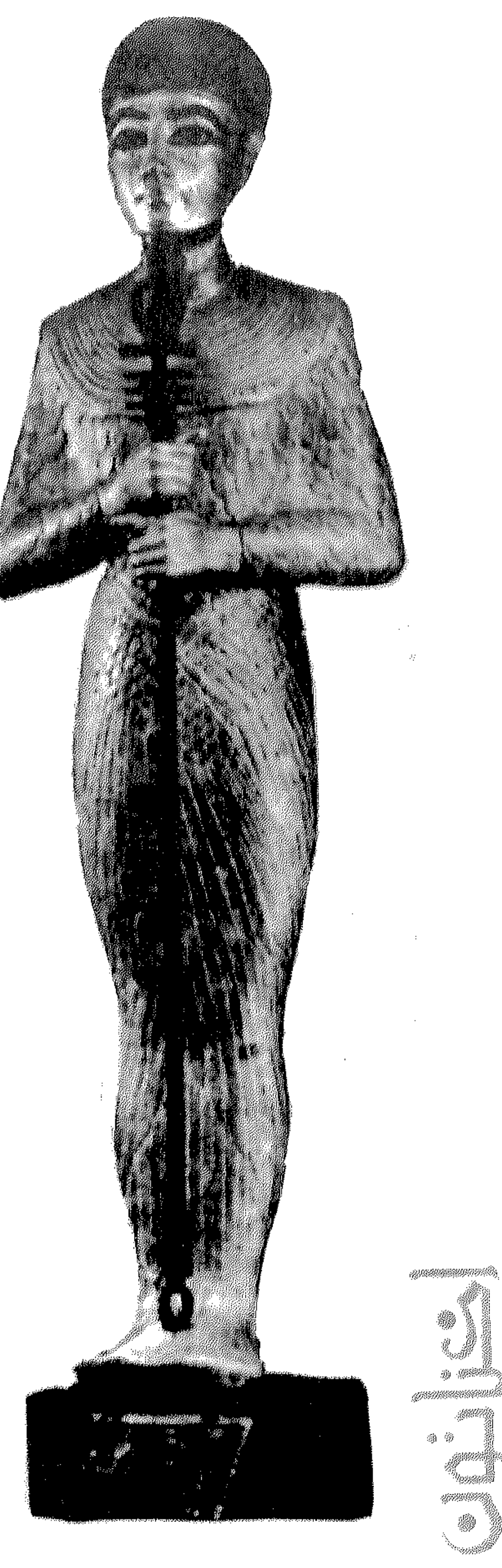
ان عقيدة التوحيد المصرية التى نزلت على أرض مصر فى عصر ما قبل الأسرات فى مدينة أون « مرصد الشمس » هى أول دعوة عرفتها البشرية لمحو الأمية ، دعوة ربطت بين العلم والايمان برباط مقدس .

فكانت الدعوة التى تصدرت جميع كتب التوحيد السماوية التى حملها الرسل والأنبياء عبر تاريخ الأديان السماوية وقيام الحضارات العالمية التى ارتبطت جذور نشأتها بالرابطة الوثيقة بين العقيدة والثقافة ، أو بين العلم والايمان .

فجوهر التوحيد الذى يمثل حجر الزاوية فى الايمان « الاوزيرى » المصرى القديم يرفض كل فصل بين العلم والعقيدة .

لم تنشأ عقيدة التوحيد عند قدماء المصريين الفصل بين الايمان الذى عبروا عنه « بالحكمة » والعلم ، فلم تقبل معالجة أى فرع من فروع العلم بمعزل عن العقيدة التى هى هدف فى ذاتها ، ومعنى للوجود نفسه ، فكل ما فى الطبيعة كما يذكر كتاب التوحيد هو مظهر من مظاهر وجود الاله ، فليست معرفة الطبيعة وعلوم معارفها الا شكلا من أشكال العبادة المقربة إلى الله .

فانطلق العلم فى عقيدة التوحيد المصرية من مبدأ الوحدانية حيث لا مجال للتفريق بين الطبيعة « آيات الله » ، وبين مختلف علوم مجالات الحياة من فنون



وآداب وعلوم وطب وفلك وهندسة وزراعة ، بل مختلف الحرف والصناعات وامتدادا إلى السياسة والاقتصاد وإدارة الحكم والقضاء ، وعلاقة كل منها بتشاريع السماء كما هو الحال فى جميع الكتب السماوية التى بدأت بالدعوة لمحو الأمية لتلقى تشاريع السماء وكلمات الاله .

ولم تغفل العقيدة المصرية علاقة العلم بالعمل ، والعمل بالتقنية ، فجعلت من العمل وممارسته واتقانه نوعا من العبادة التى تقرب الانسان من الاله كما يقول أخناتون فى احدى برديات العمارنة : « تعلموا لتتعلموا كيف تعملون فاتقان العمل صلاة تقربكم من الاله وعين الاله لا تغفل عما تعملون » .

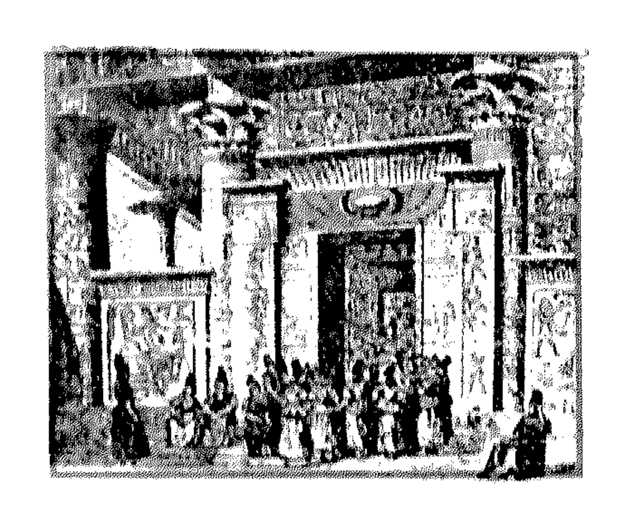
أربع مراحل لمحو الأمية

لقد مرت ثورة محو الأمية التى ارتبطت بنزول العقيدة بأربع مراحل عبر تاريخ مصر الزمنى الطويل ، حملها أربعة رسل من رسل العقيدة بدءا بأوزوريس الذى حمل أول رسالة للتوحيد عرفتها البشرية ، صاحبها نزول الكتابة الهيروغليفية أول كتابة مرسومة ومنطوقة عرفها الانسان ، ومنها ومن قواعدها استقت جميع اللغات السامية القديمة . ويأتى بعد أوزوريس « مينا » موحد القطرين بتوحيد العقيدة مؤسس الأسرة الأولى فى العصر العتيق ، وتبعه « ايمحوتب » برسالة التوحيد فى عصر الأهرامات الذى وصفه المؤرخون باله الطب ورب الهندسة والفنون ، يأتى بعده أخناتون الذى وصفه مؤرخو العصر الحديث بالخطأ بأنه أول من نادى بالتوحيد فى تاريخ الحضارة المصرية .

لقد سجلت كل تجربة من تلك التجارب الأربع صورة ناطقة لا تمحى عن الدور الذى قامت به العقيدة فى محو الأمية ونشر الثقافة ، ودور كل تجربة فى بناء الحضارة فى مصر القديمة ، وازدهارها فى مختلف عصورها وما سجله لها تاريخ الحضارات العالمية بخطوط من نور .

سأقتصر فى هذا المقال على شرح دور العقيدة فى محو الأمية على التجربة الرابعة التى ارتبطت بعقيدة التوحيد الاخناتونية التى قام بها الملك « امنحتب الرابع » أى الذى لنفسه أسما روحانيا عندما تولى الحكم هو « عنخ ان ماعت » أى الذى يعيش فى الصدق ، وعندما قام بثورته الدينية المعروفة أطلق على نفسه اسم أخناتون ، وحقيقة نطقه (اخن اتن) واخن معناها مبعوث أو مكرس ،واتن صفة من صفات الاله كما وردت فى كتاب أوزوريس ، ومعناها «القوى الآلهية» التى تهب الحياة وتحرك الكون ، أى أن اسم إخناتون أو اخن انت معناه مبعوث العناية الآلهية .

لاتختلف رسالة أخناتون فى مضمونها وتعاليمها وشرائعها عن الرسالات التى سبقتها إلا فى طريقة صياغتها وأسلوب



عرضها بما يتفق مع تطور ظروف حياة المجتمع المعاصر للزمان والمكان .

مشروع أخناتون

بدء اخناتون الرسالة عام ١٣٧٠ ق . م في المدينة التي شيدها لتكون عاصمة ملكه وحاضرة العقيدة في الأرض التي اختارها له الآله « أرض لم يدنسها بشر » اطلق عليها اسم « اخت اتن » أي افق الاله (تل العمارنة) .

في تلك المدينة وفي معبد الوحى الذى اقامة للآله تلقى أخناتون رسائل التوحيد التسع (تاسوع التوحيد أو وصايا السماء) كشفت حفريات العمارنة عن خمسة من تاسوع تلك الرسائل موزعة بين المتحف البريطاني واللوفر وبرلين وتورين ومن بينها رسالة محو الأمية ، وهى الرسالة الثالثة لتشاريع العقيدة وكان الفضل لاكتشافها وترجمتها العالم المصرى الكبير الدكتور سليم حسن والذى اكتشف في نفس الوقت صفحات من كتاب العقيدة الاخناتونية مماثلة لصفحات من التوراة التي ظهرت بعده بعدة قرون بجانب ما هو معروف عن مزامير داود المعروفة والتي وجدت أنها صورة طبق الأصل من أناشيد أخناتون التي كشفت حفريات العمارنة ، وأخيراً حفريات اخميم ، عن العديد منها وأعلن عنها حديثا في أكثر من بحث علمي .

الفهم الصحيح

تنص مقدمة الوثيقة التاريخية أو الرسالة الثالثة من تشاريع أخناتون بأن العلم أول أركان الإيمان والجهل كفر برب السماء .

تضمنت الوثيقة وصفا كاملا لمحو الأمية بمفهومها الحضارى الصحيح . فمحو الأمية في مفهوم العقيدة لا يقصد به محو الجهل بالقراءة والكتابة . بل محو الجهل بمختلف مقومات حياة الفرد وكيان وجوده ودوره الفعّال في خلية المجتمع ، ودور الثقافة في بناء الانسان ، ودور الانسان في بناء المجتمع المتحضر ، وبناء المجتمع في بناء حضارة الأمة والتاريخ .

جمعت الرسالة بين محو الأمية ونوعية التعليم وتشعب اتجاهات ومراحل تطوره ، بجانب دور أفراد المجتمع بأكمله في معركة محو الأمية أو معركة التطهير من الجهل .

معركة يشترك فيها الشعب بمختلف طبقاته وجميع طاقاته مع كهنة المعابد ورجال الدين وأهل المعرفة وسواعد العمال

فى تطهير الشعب ودخوله تحت مظلة التوحيد والايمان بالله .

تحولت المعابد ودور العباده تحت راية تلك الحملة ، بجانب دور السكن ومنتديات الشعب وساحات المدينة ، إلى خلية حية لمحو الأمية ومصنع للمعرفة ومحو الجهل . فأصبح العلم والعمل من طقوس العبادة التى يأمر بها الآله .

حددت الوثيقة موضع كل فرد من أفراد العائلة ، وكل عضو من أعضاء المجتمع فى معركة محو الأمية .. معركة التحرير من الجهل .

حددت دور الآباء والأمهات فى تنشئة الطفل وتعليمه قبل خروجه من البيت إلى الحياة . حددت دور محو الأمية فى علاقتها بالثقافة المهنية وتطويرها . والتقنية وتنميتها ، وذلك بالتركيز على توريث المهن والحرف التقليدية ، والعمل على تشجيع خبراء العاملين والمتخصصين فى المهن الفنية ، وذلك بمنحهم الألقاب الفخرية (والتى بعضها الانتساب للقصر) بينما حمل البعض مختلف الالقاب الكهنوتية وانتقلوا لممارسة أعمالهم وفنونهم داخل أسوار المعبد للحفاظ على أسرار المهن وسلامة العمل على توريثها .

البـــــرنـامج

يبدأ برنامج محو الأمية بتوريث المهن والتخصص فيها بالكاتب . وهى أرقى المهن المرتبطة بتعاليم السماء الخاصة بالمعرفة المقدسة . تبدأ بتعاليم ابن الكاتب فى المعبد القراءة والكتابة وفنونها ونقوشها انتقالا إلى ادب العقيدة والحكمة ، ويصل إلى أعلى درجات الكهنوت ليحمل لقب الحكمة المقدسة عنـدما يصور كتاب العقيدة ، « كتاب الموتى » كاملا على لفافة البردى برسومه التصويرية والنقش المقدس (الخط الهيروغليفى) مع احتفاظه بأسرار المعانى التى يعبر عنها بالرموز والطلاسم ويضاف إلى اسمه لقب حكيم ككل من آنى وحونفـر وانهـاى ممن نسبت اليهم برديات « كتب الموت » ! .

ويتخصص الكاتب الذى يعد للأعمال الوظيفية سواء فى القضاء أو الادارة أو التشريع فى الدراسات المرتبطة لوظيفته .

كما يحمل كبار الموظفين الذين يحتلون قمة مراكز القضاء أو التشريع أو التعليم وكذلك بعض المهن العلمية ، ألقابا كهنوتية مقدسة مبجلة بجانب ألقابهم المدنية ويستمر ارتباطهم بالمعبد الذى ينتمون إليه .

تنص وثيقة توريث المهن الاخناتونية على أن يتعلم صاحب أية مهنة من المهن المعروفة بجانب الدروس الدينية أو تعاليم السماء ، يتلقى البرنامج الخاص بمحو أميته وتنمية مواهبه علميا وعمليا وتقنيا .

تستمر علاقة الثقافة بتوريث المهن لتحدد برامج محو الأمية لكل مهنة وفئة من فئات الشعب كالآتى :

يتعلم ابن المزارع (ابن الأرض) القراءة والكتابة والحساب والزراعة ورعاية



الأرض المقدسة وما عليها من نبات وحيوان وضعهم الآله أمانة فى يده .

٨ يتعلم ابن العامل الحرفى القراء والكتابة والحساب واصول الحرفة التى يزاولها أبوه فهى هبة من الآله يورثها لأولادها ، وهو مسئول عن الحفاظ عليها ، فاتقانها يقربه من الآله وتوريثها أمانة فى عنقه .

يتعلم ابن الطبيب القراءة والكتابة والحساب وعلوم الطبيعة وأسرار الطب والعلاج ويتخصص فى نواحى تخصصه ويحافظ على أسرار مهنته المقدسة التى يتلقى تعاليمها من كهنة المعبد المتخصصين .

ويتعلم ابن المهندس القراءة وعلوم الهندسة والرياضيات والفلك واحجار المناجم .

ويتعلم ابن الفنان القراءة والكتابة والفنون المقدسة التى يتداولها بالوراثة أو الموهبة كفنون النحت والتصوير والنقش المقدس (الكتابة) والموسيقى والغناء .

أما العلوم الدينية ورسالة التوحيد فيتعلمها تلقائيا من تعلم القراءة والكتابة التى نزلت فى الكتاب المقدس الذى يأمرهم بقراءة كلام الآله ليتعلموا القراءة والكتابة عن طريقه .

تعليم المرأة

لم تغفل رسالة محو الأمية فى الرسائل الاخناتونية محو أمية المرأة ودورها فى المجتمع ، فوصفتها بأنها « مديرة مدرسة البيت » لأنه فرض عليها أن تجعل من بيتها مدرسة يتعلم فيها الأطفال منذ ولادتهم الوعى الاجتماعى السليم والمستقيم ، بجانب تعلم مبادىء الكتابة بتعلم رسم الحروف ونطقها حيث تمتاز الكتابة الفرعونية بالعلاقة بين شكل الحروف ونطقها الذى تميزت به حروف الكتابة الهيروغليفية التعبيرية وهو ما يعتبر من أحدث الطرق المتبعة عالميا لتعليم الأطفال فى دور الحضانة الآن ، وهو ما يعتبر أول مراحل محو الأمية قبل خروجهم من مدرسة البيت إلى مدرسة الحياة .

أما محو أمية المرأة نفسها فتبدأ بالقراءة والكتابة والحساب والتمسك بتشاريع السماء التى حددت حقوقها وواجباتها فى الحياة والمجتمع ، بجانب رعاية الطفل ، وتدبير المنزل ، بالإضافة إلى التدريب على الرعاية الصحية للعائلة والبيت وما يحيط به .

كما اشترطت ثقافة المرأة أن تتعلم أحد الفنون الترفيهية المقدسة وهى الموسيقى والرقص والغناء . وكانت النساء والبنات والأولاد يشتركون بتلك الفنون الجميلة فى المناسبات الدينية وأعيادها فى المعابد ، وساحات الأعياد ويدخل بعضها فى الطقوس الدينية .

لم تحرم المرأة من القيام بدورها فى المجتمع فى ممارسة بعض المهن التى تنتقل اليها بالتوريث كالطب والهندسة والحرف التقليدية وخاصة الصناعات المنزلية (ربات البيوت) ، فاحتلت المرأة المصرية مكانة فى مهنة التمريض والصيدلة ، وقد سجل التاريخ اسماء كثير من النساء ممن تولين أعلى المناصب فى الدولة سواء فى الطب والهندسة أو القضاء أو الكهنوت خلال كل من الدولتين القديمة والحديثة .

جدول زمنى

ويعلن أخناتون مسئوليته فى نشر عقيدة التوحيد وتعاليمها التى حمله الآله إياها والتى تبدأ بمحو الأمية ..أول أركان الايمان فوضع أخناتون جدولا زمنيا قال إنه تلقاه من رب السماء ذكر به المهلة التى حددها الآله للدخول فى طاعته . حددها بدورة سفينة عرش الآله دورة كاملة فى قبة السماء عبر بروجها وسمواتها وديكاناتها . دورة لا تغفل فيها عين الآله عن رؤية البشر ومراقبة أعمالهم . تبدأ الدورة بظهور النجم سبدت (الشعرى اليمانية) الذى يظهر مرة واحدة فى افق مصر مع شروق الشمس فيعلن بداية العام .

وهو النجم الذى اتخذه الفراعنة أساساً للتقويم الشمسى الفرعونى القديم والمعمول به فى العالم أجمع إلى اليوم .

أى أن أخناتون قد حدد موعدا لبرنامج محو الأمية يستمر طوال العام . لكن المشروع كله يكتمل خلال ثلاثة أعوام

لما كان الآله قد حمل أخناتون مسئولية تقصير دخول الناس فى الايمان وجهلهم بقراءة كتابه وتعاليمه فقد ارفق إخناتون بوثيقة محو الامية مختلف العقوبات التى يطبقها على المخالفين لتعاليم العقيدة ومحو الامية وتتفاوت العقوبات بين الجلد والسخرة والحرمان من الحقوق المدنية ومن بينها مصادرة أموال رب العائلة الذى يهمل ويقصر فى تعليم أبنائه للصرف منها على حملة التعليم ومحو الامية .

هكذا سجل تاريخ الحضارة لاخناتون بأنه تمكن من محو الامية بقوة العقيدة وربط العلم بالايمان فى مصر خلال فترة زمنية لا تغفل فيها عين الآله عن مراقبة البشر .

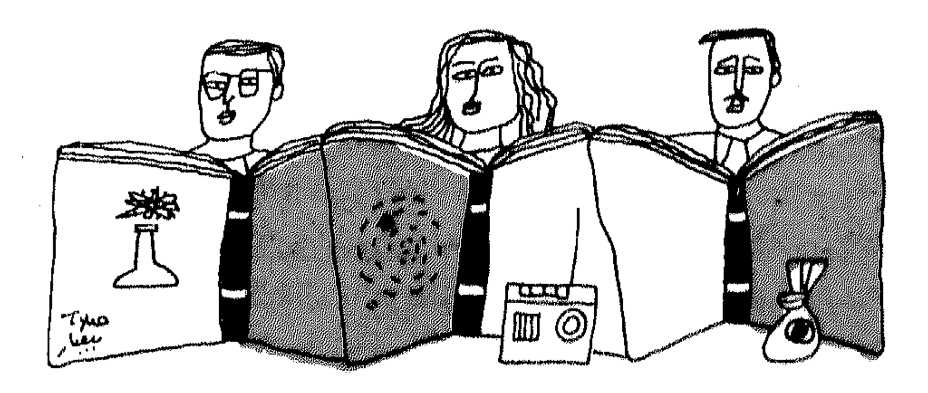
يقول المؤرخ سيرام فى كتابه « ذاكرة التاريخ » ان الملك الفيلسوف أخناتون تمكن من محو الامية فى عاصمة ملكه خلال ثلاث سنوات ، تركزت السنة الأولى على تعليم الكتابة والقراءة وحفظ وصايا السماء التسع وطقوس العبادة ثم عامين لإتمام محو الامية أو الجهل بالوجود والانتماء للمهن بالعلم والايمان تبعا للبرامج والتعاليم والوصايا التى حددتها الوثيقة .

الجامعة المفتوحة..
وديمقراطية التعليم

بقلم : د. شبل بدران

مع تزايد المعرفة الإنسانية ونموها بشكل مطرد ، وتزايد عدد السكان فى العديد من بلدان العالم ، اخفقت مؤسسات التعليم الجامعى والعالى وما قبله ، عن القيام بكامل دورها نحو إيصال العلم والمعرفة إلى المحرومين منه ، وكذلك إلى طلابه ومريديه . فتم استحداث صيغ جديدة ومبتكرة للتعليم العالى ، تسعى كلها نحو توصيل العلم والمعرفة إلى قطاعات واسعة من الطلاب .. فكان هناك «التعليم عن بعد» ، وهو نوع من التعليم يعنى بُعد المتعلم عن مكان الدراسة ، مدرسة ، أو معهدا ، أو جامعة ، وسواء كان البُعد اختيارياً كما هو الحال فى الدراسة أثناء العمل أو ربة البيت التى لا تستطيع التفرغ للدراسة . أو إجبارياً كما هو الحال فى عدم توافر الشروط التى تضعها الجامعة أو قلة الأماكن المتاحة بها أو عدم قدرة الطالب المادية على دفع تكلفة التعليم العالى .

كذلك يمكن أن يشمل «التعليم عن بُعد» أى مرحلة من مراحل التعليم : العام أو الجامعى أو التعليم المستمر .. كما هو الحال فى البلاد ذات المساحة الشاسعة مع قلة السكان مثل استراليا وكندا ، حيث يستغل اسلوب «التعليم عن بعد ، لإيصال الخدمة التعليمية إلى الطلاب فى مراحل التعليم العام أو العاملين فى المزارع البعيدة والنائية عن العمران ، وذلك شعوراً من الدولة بمسئولياتها عن تعليم كل مواطن



بأساليب ميسرة ، وبدون أية عوائق مادية أو جغرافية تحول دون تعليم الناس، على اعتبار أن تعليم المواطنين ضرورة مجتمعية وسياسية فى عالم متغير ومتجدد .

أما الجامعة المفتوحة فهى مؤسسة تربوية للتعليم الجامعى تتبع اسلوب «التعليم عن بُعد» ولا تتقيد بالشروط المحددة للقبول مثل الجامعات التقليدية ، بل هى «مفتوحة» للجميع مادامت هناك الرغبة والدافع للتعليم وما دام الطالب يداوم على نجاحه وتقدمه فى دراسته ، فهى بذلك تحقق ديمقراطية التعليم تحقيقاً كاملاً وتترك للطالب حرية اختيار الدراسة فى التخصص الذى يميل إليه ويرتبط بحاجاته وعمله ، إلا أن الجهد الأكبر فى هذا المجال يقع على عاتق الاساتذة والخبراء الذين تستخدمهم الجامعة لإعداد المادة التعليمية والوسائط التعليمية التى تكتب خصيصاً «للتعليم عن بُعد» لتلائم التعلم الذاتى الذى ينبنى عليه هذا الاسلوب من التعليم والتى تتضمن - فيما تتضمن - أساليب التقويم الذاتى والموضوعى لما اكتسبه الطالب من معلومات ويدعم بالمرشدين الأكاديميين فى المراكز الدراسية المنتشرة فى أماكن تجمع الطلبة والدارسين .

فلسفة التعليم المفتوح

تكمن فلسفة التعليم المفتوح فى كونه أحد دعائم ديمقراطية التعليم فى المجتمع، حيث تنبثق تلك الفلسفة من أن التعليم حق أساسى لجميع الناس على اختلاف أوضاعهم الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والجغرافية ، لذلك يجب توفيره بصورة أكثر كفاية وعدلا لجميع الأفراد الراغبين فيه ، ولا يحول بينهم وبينه عوامل السن والمؤهل الدراسى والامكانات المادية وغيرها من العوائق التى توضع أمام الناس وتحول بينهم وبين حقهم فى التعليم .

وتتبلور معالم التعليم المفتوح كصيغة «للتعليم عن بُعد» فى كونها تهدف أساسا إلى تحقيق ديمقراطية التعليم والتى تعنى بالدرجة الأولى توصيل العلم والمعرفة إلى

مستحقيهم الفعليين والمحرومين منهم أساسا، بصرف النظر عن العوائق الطبيعية والمادية التى تحول دون ذلك. ويمكن إجمال بعض أهداف التعليم المفتوح فيما يلى :

- خلق صيغ جديدة تعاون الصيغ القديمة فى تحقيق الهدف الكبير وهو إيصال التعليم إلى المحرومين منه أينما كانوا وبصرف النظر عن إمكاناتهم وظروف حياتهم المعيشية .
- الاستجابة أولا لاحتياجات الواقع المعاش والأفراد فى توفير العلم والمعرفة المطلوبة لتحقيق التقدم الاجتماعى والتكنولوجى وفق شروط ودرجة التطور الاجتماعى السائد فى المجتمع .
- الإيمان بأن التعليم والتعلم قائمان ومستمران مدى الحياة وليس هناك سن معينة للتعليم أو فترة معينة أو صيغة محددة ، حيث يبدأ بالميلاد وينتهى بالوفاة ، فحياة الإنسان هى رحلة طويلة فى دروب التعليم والتعلم .
- توفير الخبرة والمهارة والتدريب لهؤلاء الذين انخرطوا فى العمل ولم تسمح لهم ظروفهم بمواصلة التعليم ، ويحتاجون إلى تطوير معارفهم وعلمهم لكى يواكبوا التطور العلمى والتكنولوجى الحادث فى المجتمع المحلى والعالمى .

المسخ ... والتشويه

تلك هى صورة التعليم المفتوح وغاياته وأهدافه النبيلة ، والتى تسعى فى جملتها إلى تحقيق العدل التربوى وتوفير فرص التعليم للإنسان أينما كان وكيفما يكون .. فماذا حدث فى مصر ؟ وكيف استفدنا من تلك الصيغ ؟ وبأى معنى ولأى هدف تم ما تم فى جامعاتنا المصرية ؟

لقد تحمس نفر قليل من العاملين فى مجال التعليم العالى والجامعى فى تشويه تلك الصورة وتحويلها عن مسارها الطبيعى والذى وجدت من أجله .. فبدل أن يكون التعليم المفتوح فرصة وحقا للمحرومين منه ، أصبحت سلعة تباع لمن يستطيع أن يدفع ثمنها .. وأصبحت مفارقة لحاجات الواقع المعاش ولحاجات الأفراد .. وانحسرت فقط ، فى كونها نتوء تم صنعه فى الجسد التربوى والتعليمى ليتسلق عليه هؤلاء الذين يملكون القدرة المالية ، ويفتقدون القدرات المعرفية والدراسية ، ويحتاجون إلى سياج اجتماعى وبريق مجتمعى ، يعطيهم المشروعية فى كونهم من خريجى الجامعة ..

إن المحاولات التى تمت فى بعض جامعاتنا (القاهرة والاسكندرية) ساهمت فى الاجهاز على مجانية التعليم وتكافؤ

الفرص وديمقراطية التعليم برمتها ، وذلك بخلق تشوهات ونتوءات فى التعليم الجامعى، شكلت قنوات للتعليم المفتوح للطلاب الذين لم يوفقوا فى دخول الجامعة بسبب قلة الدرجات التى حصلوا عليها ، ويملكون فى ذات الوقت القدرات المالية التى تسمح لهم بدفع تكلفة التعليم الجامعى .

وإذا كانت التجربة قد بدأت بالدراسة فى كلية التجارة جامعة الاسكندرية ، وكليتى التجارة والحقوق جامعة القاهرة ، فإن العديد من كليات الجامعات المصرية سوف تتصارع فى تعميق التناقضات والانقضاض على ما هو قائم وباق من مجانية التعليم وتكافؤ الفرص وذلك بفتح شعب فى تلك الكليات لاستيعاب هؤلاء الذين لم تمكنهم قدراتهم المعرفية من دخول الجامعة ، بدخولها من الباب الخلفى وبمصروفات مالية .. وكان من نتيجة ذلك الصراع أن أعلنت كلية التجارة جامعة القاهرة ، عن فتح شعب للمحاسبة والإدارة يكون التدريس فيها باللغة الانجليزية ؟ ! بدعوى الاستجابة لاحتياجات الواقع (البنوك الاجنبية) وأصبح الذين فشلوا فى دخول الجامعة بالطريق الرسمى ، هم الذين سوف يخدمون الواقع ! وهم فى الأساس يخدمون مصالحهم ومصالح من يمثلون اجتماعياً .. ومن هنا ترسخت قيمة جديدة هى من يملك القدرة المالية يستطيع أن ينفذ إلى داخل الجسد التعليمى بشتى الطرق (ولعل ذلك ازداد بعد حالة الاخفاق من التحويل من جامعات رومانيا والمجر وغيرها) وبعيداً عن القوانين واللوائح التى وضعت لتنظم قبول الطلاب بالجامعات المصرية . ويتم ذلك تحت دعاوى تجربة التعليم المفتوح والصيغ الجديدة ، فى حين أن ذلك النوع من التعليم وضع أساساً لأهداف غير ذلك ، ووضع لخدمة الطلاب المحرومين من التعليم أساساً بسبب عدم مقدرتهم المالية ، وظروفهم الاقتصادية والجغرافية .

دعاوى قديمة فى أثواب جديدة

إن المجتمع المصرى يعانى من نسب مرتفعة للغاية من البطالة ، وليست البطالة على إطلاقها ، بل بطالة المتعلمين من التعليم العالى والجامعى ، حيث بلغت تلك النسب ١٧٪ ، بما يعادل ثلاثة ملايين شاب متعلم متعطل عن العمل ، غالبيتهم من خريجى الآداب والتجارة والحقوق وهم من دفعات ١٩٨٤ وللآن .. وإذا كانت مجالات العمل التقليدية ضاقت عن استيعاب عمالة متعلمة جديدة ، فما هى الجدوى من زيادة تلك الاعداد بتخريج أعداد جديدة من التعليم المفتوح فى كليات التجارة والحقوق.. وإذا كانت المبررات الواهية التى

تقول إنهم يدرسون علوما جديدة مثل الحاسوب واللغة الانجليزية وغيرهما .. ونحن نقول لهم ألا يمكن أن يتم تدريس تلك المواد للطلاب المتخرجين فعلا وفى انتظار فرصة للعمل من خلال مراكز خدمة المجتمع التى تتبع الجامعات وفى جامعة الاسكندرية والقاهرة وعين شمس مراكز كبيرة الغرض منها خدمة المجتمع ، فلماذا لا يتم تدريب هؤلاء تدريبا سريعا فى أشهر معدودة استجابة لاحتياجات الواقع.. هل ذلك المبرر الواهى يستلزم فتح شعب جديدة دون التقيد بالمجموع ووفق القدرة المالية وحدها .. ونُحمل الجامعة أعباءً جديدةً وهى التى فى حاجة إلى أموال هؤلاء لتطويرها وترقية أدائها خدمة للطلاب الموجودين فيها الآن .؟!

كما أن الشكوى تزداد من زيادة أعداد خريجى الجامعات للدرجة التى وصل بها الأمر ، إلى حد المطالبة بالحد من التعليم الجامعى وتضييق فرص الدخول إليه ، وتحويل الطلاب إلى مجالات العمل المهنية والفنية ، وهذه الشكوى تصدر عن جهات الاختصاص (وزارة التربية والتعليم والمجلس القومى للتعليم والمجالس القومية المتخصصة) بضرورة وأهمية تقليل العدد الداخل إلى الجامعات نظراً لعدم الحاجة إليه .. فما معنى أن توافق ذات الجهات المختصة بفتح تلك الشعب والقنوات – النتوءات – داخل جامعاتنا ؟ ! هل لتمنح هؤلاء الطلاب الصك – الشهادة – مقابل الآلاف من الجنيهات ؟ وتخلق متنفسا لأعضاء هيئة التدريس لزيادة أجورهم ودخولهم من وجود ساعات زائدة عن النصاب وتأليف الكتب والأشرطة والمكافآت التى تعينهم على العيش بشكل إنسانى وكريم ؟ وإن كان الأمر كذلك ، فكيف سيكون للبعض دون البعض الآخر ؟

التطوير الفعلى .. وليس الترقيع

إننا لسنا فى حاجة إلى تلك الصيغ، ولكننا فى حاجة ماسة فعلا إلى تطوير ما هو قائم وتنميته وربطه أكثر بحاجات المجتمع والناس ، شريطة أن تكون احتياجات المجتمع معلومة ومعروفة لدى جهات الاختصاص والتخطيط ، وذلك لأننا لم ننجح فى الصيغ التقليدية للآن .. ونستخدم الصيغ الجديدة لأهداف متعارضة ومتناقضة مع أهدافها وفلسفتها التى وضعت من أجلها . فمازال تعليمنا يعانى من توفير مكان مناسب للدراسة ووجود مكان إنسانى للطالب والاستاذ لكى تتم العملية التعليمية بكفاءة واقتدار ، ومازال يعانى من قصور فى التمويل .. والحاجة الفعلية هى تطوير ما هو قائم ودعمه ومساندته وليس التحايل عليه بدعاوى أخرى .

جامعة القدس وإسرائيل المفتوحة

لا شك أن هؤلاء الذين قاموا بعملية الخصخصة التعليمية ، وافقدوا ذلك النوع من التعليم أهدافه النبيلة وغاياته السامية فى توفير فرص التعليم للإنسان أينما وجد وبصرف النظر عن العديد من القيود .. انهم لم ينظروا أبعد من وقع أقدامهم .. ولم يتجاوزوا حدودهم الذاتية الضيقة والنفعية . وهناك جامعتان فى منطقتنا العربية تمثلان دليل عمل ومرشدا لكل من يسعى إلى إبقاء الاشياء على جمالها ونبلها ، وهى جامعة القدس المفتوحة .. وجامعة إسرائيل المفتوحة .

والجامعة المفتوحة فى إسرائيل ، هى إحدى المؤسسات الصهيونية التى اقيمت فى فلسطين المحتلة ، وهى تعمل على توحيد اليهود لغوياً وثقافياً وقومياً ، سواء منهم المقيمون فى المستوطنات فى فلسطين المحتلة أو اليهود الباقون خارجها فى مواقعهم الاصلية ، والذى أدرك أهمية تلك الجامعة وتحمس لها هو : «ايجال آلون» وزير التربية ، وذلك بالتعاون مع مؤسسة «روتشيلد» عام ١٩٧١ . وبنظرة ناقدة إلى تلك الجامعة سوف نجد ما يلى :

- إن ثلاثة أرباع الطلبة فى الجامعة المفتوحة ينضمون تحت اسم «القوة العاملة» فى البلاد .

- تتميز الجامعة المفتوحة عن غيرها من الجامعات التقليدية بتوفير فرص دراسية للشباب فى إسرائيل أثناء تأدية خدمتهم العسكرية الإجبارية ، لدرجة أنهم يمثلون ١٦٪ من مجموع الطلاب . كما يشكل المعلمون كتلة كبيرة أخرى من طلاب الجامعة المفتوحة .. فهناك حوالى ١٦٪ منهم يعملون فى مجال التربية والتعليم والتدريس .

- تتميز الجامعة المفتوحة أيضا بنشاطها الواسع بين أعضاء المزارع الجماعية فى إسرائيل (الكابوتزات) فحوالى ربع أعضاء هذه المزارع ملتحقون بهذه الجامعة وهى يشكلون حوالى ٨,٥٪ من مجموع الطلاب بها .

- تقدم الجامعة المفتوحة خدماتها إلى عدد من السجناء (ما بين سن ١٥ - ٢٠ سنة) كل فصل دراسى ، وحوالى ٢٠ طالبا فيما وراء البحار وطنهم إسرائيل ويعيشون فى الخارج .

فأين نحن من ذلك ؟ !! إن تلك الصيغة تنشر العلم والمعرفة على طول البلاد وعرضها وتقدم العلم للمزارع وللسجين وللمواطن خارج وطنه ، بهدف قومى وليس هدف مادى .. وتدريب العاملين فعلا ، ولا تزيد أعداد البطالة وتساهم فى تطوير

المجتمع ، وليس فى تعطيل قدراته وإمكاناته المادية والبشرية .

أما جامعة القدس فقد انشئت بتمويل من الصندوق القومى الفلسطينى واليونسكو والصندوق العربى للإنماء الاقتصادى والاجتماعى وكانت الفكرة عام ١٩٧٦، وتم التنفيذ عام ١٩٨٥، والأهداف التى من أجلها انشئت تلك الجامعة ، هى توفير الفرص التعليمية للطلاب الفلسطينيين المحرومين من التعليم والذين تحول ظروفهم المعيشية والاقتصادية والجغرافية من مواصلة التعليم العالى . وكذلك العمل على توحيد الشعب الفلسطينى وإيجاد قناة تعليمية تشرك الفلسطينيين فيها ، ومن خلالها يتم التواصل الفكرى والثقافى والحفاظ على الهوية الفلسطينية والعربية فى مواجهة المؤسسات الصهيونية التى تعمل على تزييف الوعى . ومن الخطط الدراسية والبرامج لجامعة القدس ما يلى :

- الأرض والتنمية الريفية .
- البيت والتنمية الأسرية .
- التكنولوجيا والعلوم التطبيقية .
- الإدارة والمبادرة الفردية .
- التربية وتأهيل المعلمين .

فأين نحن من ذلك أيضا ؟! فهذه هى البرامج والمناهج الدراسية التى تقوم بتدريسها جامعة القدس المفتوحة . ولو قارناها بشعب التعليم المفتوح بكليات التجارة والحقوق جامعة الاسكندرية والقاهرة ، والتى تم إنشاؤها ، سنجد أن تلك الشعب تنحصر فى : إدارة الأعمال ، الحاسوب ، الدراسات القانونية والتشريعات ، ولا نجد جديدا فى تلك المقررات عما هو سائد ويدرس فى ذات الكليات ، بل هو تكرار ومسخ وتشويه ، والجديد فقط فى طريقة التدريس من خلال استعمال أشرطة الكاسيت والفيديو والمطبوعات وغيرها .

أليس الذى نقوم به هو تحايل جديد لإعطاء أبناء المحظوظين والميسورين مادياً، شهادة لكى ينافسوا غيرهم فى فرص العمل المتاحة والتى سوف تكون من نصيبهم هم بحكم وضعهم الاجتماعى، وتكريس الهالة الاجتماعية حول المؤهل الجامعى والشهادة الجامعية ، فمن يملك القدرة على دخول تلك الشعب ، يملك وبنفس القوة القدرة على إيجاد فرص العمل قبل نظيره الذى سلك الطريق الرسمى التقليدى .. إنه تشويه لأهداف التعليم المفتوح وإهدار لمبدأ تكافؤ الفرص التعليمية وتغييب لديمقراطية التعليم التى نسعى إليها بشتى السبل .

أقوال معاصرة

● « لا أحب الجاهل ، لا كرامة له »

الأديب يحيى حقى

● « علانية عقوبة الإعدام فى ميدان عام مسألة جوازية وليست وجوبية »

الدكتور محمد سيد طنطاوى
مفتى الجمهورية

● « الأبحاث اللغوية لدينا موسوعة بعقدة الاستغناء عن علوم الغير »

الدكتور عبد السلام المدعى
عالم اللغات التونسى

● « لا يوجد أدب نسائى وأدب رجالى ، يوجد أدب ولا أدب »

الروائية السورية كوليت خورى

● « لو لم أكن ممثلا لأكلت نفسى حيا »

أنطونى هوبكنز
ممثل دور القاتل العشوائى فى صمت الحملان

● « الجسم البشرى معمل أدوية ضخم »

كانديس بيرت - المعهد القومى للصحة العقلية بالولايات المتحدة

● « التطرف فى دول الجنوب يخدم العنصرية فى دول الشمال »

بيير شيفينمان
وزير الدفاع الفرنسى السابق

● « الأشياء لا تهم ، فلا تحارب من أجلها أبداً »

الممثلة الامريكية كاترين هيبورن

● « العلم لا يعطى تفسيراً لسعى الإنسان نحو العلم »

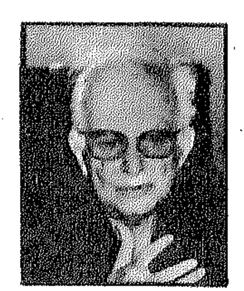
فرانسيس فوكوياما
العالم الأمريكى المنحدر من أصل يابانى

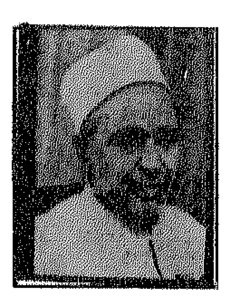
● « الشعر العربى اليوم فى أفضل حالاته !! »

الشاعر السورى / أدونيس

● « الاسلام ليس ملكا لأحد ، ولا حكرا على أحد »

الرئيس الجزائرى محمد بو ضياف


يحيى حقى


محمد سيد طنطاوى


بوضياف

الأدب العربي المعاصر

بقلم : د . محمود على مكى

« الحديقة صغيرة ، ولكن السماء هائلة الاتساع »

بهذا البيت من شعر أوكتافيو باث أديب المكسيك الذى نال جائزة نوبل للآداب فى السنة الماضية يقدم بدرو مارتينث لكتابه « الأدب العربى اليوم » ... والسماء التى يعنيها ليست إلا أدبنا العربى بامتداده الهائل فى الزمان والمكان ...

وبسبب هذا الاتساع لا يسهل على الباحث أن يأخذ بآفاقه المترامية ، أو يزعم أنه استطاع ارتياد كل مجاهله . ولهذا فإنه لا يلبث أن يقول فى التمهيد الذى وضعه بين يدى الكتاب :

« منذ أكثر من ثلاثين سنة اتخذ من دراسة الأدب العربى الحديث مهنة وعملا أنفق فيه بياض نهارى وهزيعاً من سواد ليلى ، ومع ذلك فما أكثر اللحظات التى أراجع فيها نفسى ، فإذا بى وقد غلب على إحساس عميق بأننى مازلت فى أول الطريق ، ولا يظنن أحد بكلماتى غير ما تعنيه ... لأقل إن هذا ليس إلا اعترافاً صريحاً لا مجال للتأول فيه ! » .

يروعنا حقا مثل هذا الاعتراف المتواضع صادرا عن عالم نشر عشرات الكتب والأبحاث عن الأدب العربى ترجمة وتأليفا ، وساهم بجهوده وجهود تلاميذه فى تعريف الملايين من قراء الإسبانية بنتاج فكرنا ، ثم ينتهى بعد هذه السنوات الطوال ليلقى إلينا بهذا الاعتراف ! ... هذا وما أكثر ما نجد بين من لم يبلغوا حتى أول الطريق أناساً تصور لهم أوهامهم أنهم قد أوتوا علم الأولين والآخرين ، وكأنهم يرددون مع شاعرنا العربى القديم قوله - ونعوذ بالله من غرور ما تزينه النفس الأمارة بالسوء - :

وعلمت حتى ما أسائل واحداً
عن علم واحدة لكى أزدادها

* * *

صاحب هذا الكتاب بدرو مارتينث مونتابث Pedro Martinez شخصية


بدرو مارتينث مونتابث

● المستشرقون الاسبان اعتبروا أن الاندلس جزء من تاريخهم الحقيقي

فريدة فى عالم الاستشراق الاسبانى . لست أصفه بذلك بسبب ما خطه قلمه من دراسات متميزة تكشف عن بصر ثاقب بآدابنا العربية قلما يتهيأ لأجنبى ، وإنما لأنه كذلك اختط طريقاً لم يسلكه غيره من قبل . لقد كان الاستشراق الإسبانى منذ أواخر القرن الثامن عشر حتى منتصف هذا القرن موجهاً اهتمامه الأكبر للدراسات الأندلسية، وهو أمر منطقى مشروع ، فقد كان من الطبيعى أن يهتم مستشرقو إسبانيا بالوجود العربى الإسلامى الذى ظل ماثلا على أرض شبه جزيرة إيبيريا قرابة عشرة قرون ، إذ أنهم اعتبروا ذلك الوجود جزءا لا يتجزأ من تاريخ بلادهم ، وعلى مدى القرنين الأخيرين برز من هؤلاء المستشرقين من قدموا للدراسات الأندلسية أجل الخدمات ، نذكر منهم باسكوال دى جايانجوس (١٨٠٩ - ١٨٩٧) وفرانسسكو كوديرا (١٨٣٦ - ١٩١٧) وتلميذه خوليان ريبيرا (١٨٥٨ - ١٩٣٤) وأسين بلاثيوس (١٨٧١ - ١٩٤٤) وجونثالث بالنثيا (١٨٨٩ - ١٩٤٩) وأخيراً شيخ مدرسة الاستشراق الأندلسى اليوم إميليو غرسية غومس (ولد سنة ١٩٠٥) .

والذى نوهنا به من اعتبار هؤلاء المستشرقين الإسبان الوجود الإسلامى فى الأندلس جزءاً من تاريخهم هو أحد الوجوه التى ميزت الاستشراق الإسبانى عن ضروب الاستشراق الأوربى . وهناك وجه آخر هو أن عالم القرن التاسع عشر الذى نمت فيه الدراسات العربية فى أوربا كان عالم الامتداد الاستعمارى فى بلاد الشرق الإفريقية والأسيوية ، وكانت أكثر بلاد الغرب شراهة إلى فرض سيطرتها على بلاد ما نسميه اليوم بالعالم الثالث هى بريطانيا العظمى وفرنسا ، تليها هولندا وبلچيكا ، ثم بدرجة أقل ألمانيا وروسيا . ومن هنا أصبح الاستشراق أداة ومدخلاً لهذا الاستعمار الأوربى . أما اسبانيا فقد كان ساستها مشتغلين بأمور بلادهم المتردية ، فلم يظفروا بطائل من تلك المأدبة الاستعمارية ، ولهذا لم يكن الاستشراق الإسبانى ليؤدى لساسة بلاده ما أداه الاستشراق الأوربى ، فلم نر لأعلامه جهوداً تذكر فيما يتعلق ببلاد المشرق العربى ، اللهم إلا ما كان يفرضه عليهم جوارهم للمغرب العربى من اهتمام بأحواله .

وهكذا ظل الاستشراق فى إسبانيا

بعيداً عن عالم العرب فى المشرق حتى الخمسينيات من هذا القرن حينما بدأت أول صلة ثقافية بين إسبانيا وبلاد الشرق العربى ، وذلك بإنشاء المعهد المصرى للدراسات الإسلامية بمدريد على يد طيب الذكر الدكتور طه حسين حينما كان وزيراً للتعليم (المعارف) فى سنة ١٩٥٠ ، وبعد ذلك بسنوات أنشأت حكومة إسبانيا « المعهد الإسبانى العربى للثقافة » فى سنة ١٩٥٦ (وهو الذى يدعى الآن « معهد التعاون مع العالم العربى ») ، كما أقامت مراكز ثقافية فى أهم عواصم المشرق العربى : فى القاهرة ثم دمشق وبغداد . واضطلع المعهدان كلاهما بجهود متواصلة فى التعريف بالأدب العربى الحديث والمعاصر إلى جانب مواصلتهما الخط التقليدى القديم فى خدمة الدراسات الأندلسية . وكان من مظاهر ذلك قيام غرسية غومس وهو شيخ الاستشراق الإسبانى التقليدى بترجمة « الأيام » لطه حسين ، و « يوميات نائب فى الأرياف » لتوفيق الحكيم .

غير أن تعريفه بأديبينا المصريين الكبيرين لم يكن إلا اظهاراً لاقتداره على ترجمة الأدب العربى الحديث بعد أن شهد له قراء الإسبانية بروعة ترجماته للنصوص الأندلسية . فقد ظل غرسيه غومس وفياً لخطه الأول فى الانقطاع للدراسات الأندلسية .

رائد ذو جهد متميز

أما البداية الحقيقية لذلك الاتجاه الجديد إلى أدبنا العربى الحديث فالفضل فيها يعود بغير شك إلى بدرو مارتينث مونتابث الذى أصبح منذ شبابه المبكر رائداً لذلك الاتجاه .

كان مولد هذا العالم فى سنة ١٩٣٣ فى قرية من قرى مدينة جيان تدعى شوذر Jodar . وجيان Jaen مدينة لها فى تاريخ الثقافة الأندلسية ماضٍ عريق فمنها خرج أول شاعر أندلسى اتسم شعره بالأصالة هو يحيى بن الحكم الغزال ، ومن إحدى قراها نبغ أعظم شعراء الأندلس فى عصر الخلافة هو ابن دراج القسطلى الذى لقب بمتنبى الأندلس ، وإليها ينتسب علم من أعلام النحو العربى هو ابن مالك صاحب " الألفية " ، وعالم آخر جمع إلى التبحر فى علوم العربية إحاطة بالتفسير والعلوم القرآنية هو أبو حيان الغرناطى صاحب « البحر المحيط » ونزيل مصر ، لعل هذه الخلفية من مكانة جيان فى ماضى الثقافة العربية كانت وراء إقبال بدرو مارتينث على الآداب العربية ، وكانت بداية تخصصه هو إعداده رسالة فى موضوع « تبدل أسعار القمح فى مصر المملوكية » (١٩٥٦) . ومن هذا المنطلق الذى يبدو بعيداً عن ميدان الدراسة الأدبية بدأ اهتمامه بشئون مصر ، فكان أن عين

● لم يكن بدرو من طراز المؤرخين الذين لا يعرفون من حياتنا إلا الظاهر

مديراً للمركز الثقافى الإسبانى فى القاهرة (١٩٥٨ - ١٩٦٢) ، وتعد هذه السنوات الأربع من أخصب فترات حياة هذا العالم وهو فى مقتبل عمره العلمى ، فقد أقبل على الحياة الأدبية فى مصر فى حماسة متعرفاً تياراتها وعاقداً أوثق الصلات بأعلامها ، بل إنه اندمج فى حياة المصريين من الداخل ، فعرف منها ما ظهر وما بطن . كان بدرو نموذجاً رائعاً للأوربى المتجرد من خنزوانة الاستعلاء التى تطبع سلوك كثير من الأوربيين الذين يعيشون بين ظهرانينا ويساكنوننا سنوات طوالاً ، فلا يعرفون من حياتنا إلا ظاهراً ليس بينه وبين الحقيقة سبب . وقد أكسبه هذا الاندماج فى حياة المصريين فضلا عن المعرفة العميقة حباً أشربه لمصر وأهلها . بل إن حياته بيننا فتحت له آفاق الإحاطة بأحوال الأمة العربية كلها لا فى مجال الثقافة والأدب فحسب ، بل بكل جوانبها المختلفة من سياسية واجتماعية واقتصادية ، ولم يقتصر الأمر عنده على تلك المعرفة العميقة الواعية ، بل تجاوز ذلك إلى تعاطف وإيمان بالقضايا العربية قلما نجدهما عند أوربى . وهكذا كانت هذه السنوات الأربع هى التى جعلت من بدرو مارتينث طرازاً فذاً يختلف عن كثير من المستشرقين ، فإذا به يتقن العربية حديثاً وكتابة على نحو رائع . وخلال هذه السنوات يصدر مجلة « الرابطة » التى كانت - مع مجلة المعهد المصرى فى مدريد - من أعظم جسور التواصل بين الثقافتين العربية والإسبانية .

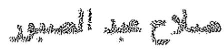
ويعود بدرو مارتينث إلى إسبانيا فلا يلبث بعد سنوات قليلة أن ينتخب رئيساً لجامعة مدريد المستقلة ، وهى جامعة جديدة فتية سرعان ما تحولت فى ظل إدارته إلى واحدة من أرقى جامعات إسبانيا . وهنا يبرز دور بدرو مارتينث بصفته محوراً وأستاذاً رائداً للاتجاه الجديد فى الاستشراق الإسبانى ، وهو الذى يوجه اهتمامه الأكبر إلى حاضر العالم العربى . ويتشعب نشاطه ، فهو إلى جانب الدراسات الكثيرة التى يصدرها حول أدبنا العربى الحديث والترجمات التى يقوم بها لروائع هذا الأدب شعراً ومسرحاً وفناً قصصياً يتبنى جهود مجموعة من تلاميذه الشباب ، فيوجههم إلى هذه الدراسات ، حتى يصبح هؤلاء فريقا يضم عشرات الباحثين ، ويتولاهم بالرعاية فى أبوة حانية ، ويصدر منذ السبعينيات مجلة تحمل اسم « المنارة ALMENARA » لكى تضم جهود هؤلاء الباحثين ، وينتخب نائبا لرئيس « جمعية الصداقة العربية الإسبانية » ، وإن كان فى الحقيقة هو رئيسها الفعلى ، وهى جمعية كان لها نشاط ملحوظ ، ولكنها توقفت مع الأسف لتنافر ممثلى الجانب العربى وقصر نظرهم وغلبة النوازع الفردية عليهم . وهذه هى آفة العرب دائما فى بعدهم عن تبين مصالحهم الحقيقية وعجزهم عن إدراك حقائق العالم المحيط بهم . ومع ذلك فقد بقى بدرو وفياً متسقاً مع ما يدين به من

مبادىء ، فظل مدافعاً عن القضايا العربية فى وعى بعيد عن التشنج الحماسى ، وما أكثر ما ساهم فى هذا الدفاع بقلمه فى الصحافة وبلسانه فى الحلقات الدراسية وفى الندوات الإذاعية والتليفزيونية ، على نحو عجز عن مثله كثير من العرب المقيمين فى إسبانيا . ومازال حتى اليوم مواصلا لهذه الجهود ، هو وتلاميذه بغير أن يفت عضده مايراه أحياناً من الجحود والفرقة والتشرذم فى صفوف العرب ، وما قد يخلفه ذلك فى نفوس أصدقائهم المخلصين من مرارة .

★ ★ ★

ونعود إلى كتاب بدرو مارتينث ، هذا الكتاب الذى يضم مجموعة من الدراسات حول أدبنا العربى المعاصر ، فنقرأ فى القسم الأول منه تسع دراسات مطولة أولاها عن العلاقات الأدبية العربية الإسبانية المعاصرة ، وفيها يتحدث عن ألوان من التشابه بين نتاج بعض المبدعين والمفكرين العرب والإسبان المعاصرين بغير أن يقتضى ذلك بالضرورة ما يمكن أن يدرج فى باب التأثير والتأثر . ويضرب على ذلك أمثلة بالتشابه بين العقاد والمفكر الإسبانى أونامونو Unamuno ، وبين الشاعر الغرناطى لوركا والعراقى بدر شاكر السياب ، والمراسلات المتبادلة بين جبران خليل جبران ومى زيادة ومثيلاتها الدائرة بين أنتونيو ماتشادو Antonio Machado ومن سماها « حبه العظيم الخفى » كما يورد دراسة قيمة حول « الرواسب الشرقية والعربية فى شعر لوركا »

وفى بحثه « الأندلس وشعراء المهجر الأمريكى الجنوبى » يتناول المؤلف مجالاً آخر من مجالات هذه العلاقة الحميمة بين إسبانيا والشعر العربى الحديث ، هذه المرة فى أدب عربى ظهر نبتة فريدة فى بلاد تبعد آلاف الأميال عن الوطن العربى ، ونعنى به أدب المهاجرين العرب إلى أمريكا اللاتينية الناطقة بالإسبانية والبرتغالية ، وهو الذى أنتجته الجماعة المعروفة باسم « العصبة الأندلسية » ، واسم هذه الجماعة نفسها يكشف عن حقيقة استلهامها لماضى العرب على أرض إسبانيا فى شعرها الذى طمحت به أن تجرى دماء جديدة فى عروق الشعر العربى الحديث ، هذا مع إلحاحها على كونها حلقة جديدة من حلقات الصلة بين العالمين العربى والإسبانى . ويختص المؤلف بالدراسة أبا الفضل الوليد وفوزى المعلوف الذى انعقدت




طه حسين


صلاح عبد الصبور

● هل الابداع العربى يفتقر الى الخيال والرؤية التى تتجاوز متناول اليد ؟

روابط الصداقة بينه وبين الشاعر المَروِىّ (نسبة إلى مدينة المرية Álmeria) فرانسسكو بيا إسبيسا Francisco Villa espesa صاحب العبارة المشهورة « إن الذى يحك بظفره بشرة الإسبانى التى تبدو بيضاء شاحبة مثل سائر جلود الأوربيين لا يلبث أن يجد تحتها أديم العربى الحى بلونه البرونزى المتوهج ، فالحقيقة أن أوربيتنا ليست إلا العرض الظاهر ، أما شرقيتنا العربية فهى الجوهر الباطن الخالد » . وقد كان هذا الشاعر الإسبانى الأندلسى هو الذى ترجم ديوان فوزى المعلوف « على بســـاط الريـــح » (المنشور فى ريودى چانيرو سنة ١٩٢٩) وقام بالتقديم له (مدريد ١٩٣٠) ، ثم يتحدث بدرو مارتينث بعد ذلك عن الملامح الأندلسية فى شعر الأخوين شكر الله الجر وعقل الجرنزيلى البرازيل والأخوين إلياس وزكى قنصل نزيلى الأرجنتين وچورچ صيدح وغيرهم من أعلام المهجريين .

والمقال الثالث دراسة فنية بديعة لصدى إشبيلية وصومعة مسجدها الجامع التى تدعى « النوارة La Giralda » فى الأدب العربى المعاصر ، محللاً ما كتبه نثراً حول المدينة الأندلسية الجميلة ورمزها العربى أمين الريحانى وعبد السلام العجيلى وحسين مؤنس وعيسى الناعورى ، وما نظمه شعراً نزار قبانى وابراهيم طوقان وعدد آخر من الشعراء المغاربة والتونسيين والعراقيين .

وفى المقالين الرابع والخامس يعود الكاتب لموضوع لوركا والشعراء العرب المعاصرين ، ويخص بالدراسة أولئك الذين رثوا لوركا واستحضروا ذكريات ذلك اليوم الذى شهد فجره مصرعه ، ثم مشهد الإعدام المشحون بالمأساوية وأبرزهم صلاح عبد الصبور وعبد الوهاب البياتى ومحمد جميل شلش وسعدى يوسف ، ثم الفلسطينى سميح القاسم .

والمقال السادس دراسة حول « الخيال والمتخيل فى الأدب العربى المعاصر » ، وهو يعالج فيه قضية شائكة خطيرة هى نصيب الأدب العربى من الخيال الشعرى الإبداعى ، وهو يستهل هذا البحث بشهادتين غريبتين تنكران على الفكر العربى القدرة على الإبداع الأصيل لأنه « يفتقر إلى الخيال والرؤية التى تتجاوز ما هو قريب فى متناول اليد » ، والغريب أن هاتين الشهادتين لم تكونا من نتاج أقلام المستشرقين الغربيين الذين ألفنا منهم مثل هذه الأحكام ، وإنما هما بقلم أديبين عربيين : الشاعر التونسى المرموق أبى القاسم الشابّى ، والكاتب المصرى الكبير توفيق الحكيم . والمؤلف يتخذ من هاتين الشهادتين مدخلاً للحديث عن الفن العربى الذى كان بعض الأوربيين مثل النمسوى أوليج جرابار Oleg Grabar أكثر إنصافاً له واعترافاً بقيمه . على أن مسألة الخيال والمتخيل من المسائل التى تثار دائما عند البحث فى طبيعة الإبداع العربى فى مجال الفكر والفن ومدى أصالتهما عند العرب ، وهى مازالت من

محاور الجدل الذى لم ينقطع بعد فى العالم العربى حول « الأصالة والتراث » ، وموضوعاً لمقولات متباينة مافتئ المفكرون والنقاد العرب يطرحونها حول « نحن والآخرون » . ويتتبع المؤلف فى معرض الحديث عن دور الخيال الإبداعى ما كتبه حول هذا الموضوع بعض المفكرين والمبدعين العرب من أمثال كاتب ياسين وعلى أحمد سعيد (أدونيس) وجمال الغيطانى وجمال الدين بن شيخ ، ويشعر فى نهاية المقال إلى أنه لابد من إعادة النظر فى هذه الآراء التى تنكر على العرب الخيال الإبداعى على أساس من الدراسة الواعية المتعمقة للتراث العربى فى مختلف ميادينه ، ويضرب على ذلك مثلاً بما كشفت عنه الأبحاث الأخيرة من قوة الخيال الإبداعى فى التراث الصوفى العربى مما نراه فى نتاج النفرى والسهروردى ومحيى الدين بن عربى على سبيل المثال ، كما ينوه بالعناصر التى يشتمل عليها التراث القصصى الشعبى الذى يجب أن يرد إليه اعتباره ، إذ نجد فيه من قوة الخيال ما يرد تلك التهمة التى طالما ألصقت بالفكر العربى .

التراث والحداثة

والمقالان السابع والثامن مواصلة لبحث المقال السابق ، فهو يدور حول « التراث والحداثة فى العالم العربى » ، وهو يتتبع هذين المفهومين بما يتضمنانه من تقابل ومواجهة هما فى الحقيقة نتيجة لمواجهة أخرى مازال العالم العربى يخوض غمارها بين « الاستعمار أو التدخل الأجنبى » من ناحية و« الاستقلال أو التحرر » من ناحية أخرى . وهو يستعرض هذه المواجهة منذ بدايتها فى كتابات الجبرتى ورفاعة رافع الطهطاوى وخير الدين التونسى وأديب إسحاق وأحمد فارس الشدياق وهم رواد الحداثة فى العالم العربى بجناحيه فى المشرق والمغرب . والمؤلف يلاحظ بعد عرضه للمصطلحات التى تستخدم اليوم بين المفكرين والمبدعين العرب للتعبير عن مفهومى التراث والحداثة أن تلك المواجهة قد ازدادت حدتها فى السنوات الأخيرة بسبب ما يتعرض له العالم العربى من أحداث وتغيرات سياسية واجتماعية تجعل مسيرة هذا العالم لا تتم فى يسر وانتظام ، وهو ما يجعل الحكم على هذا الحوار بين التراث والحداثة أمراً عسيراً لا يسهل التنبؤ بما سينتهى إليه .

والمقال التاسع حول « المثقف العربى اليوم وقضية الصراع من أجل الديمقراطية» وهو يرى أن الأزمة التى يعيشها المثقف العربى ليست إلا أزمة المجتمع العربى كله إجتماعيا وسياسيا . وقد ازدادت هذه الأزمة خلال ربع القرن الأخير أى منذ نكسة سنة ١٩٦٧ ، فقد أدت الأحداث التى بلغت ذروتها فى هذه النكسة إلى طرح الحوار من جديد حول الديمقراطية على نحو ملِحّ . ويدل على ذلك كثرة الندوات التى

● فشلت الناصرية لأنها ارادت أن تأتى بصيغة جديدة للديمقراطية الشعبية

عقدت والدراسات التى نشرت حول هذا الموضوع خلال السنوات الأخيرة ، ومن أهمها « الديمقراطية وحقوق الإنسان فى الوطن العربى » (نشر مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ١٩٨٣) ، و« أزمة الديمقراطية فى الوطن العربى » (نشر المركز نفسه ، بيروت ١٩٨٤) . ويبدو من هذا الحوار المحتدم اليوم أن هناك ثلاث صيغ للديمقراطية يختلف حولها المثقفون العرب فى الوقت الحاضر : الأولى هى الصيغة الإسلامية المتمثلة فى شعار « الإسلام هو الحل » ، والثانية هى الصيغة الليبرالية البورجوازية مثل تلك التى كانت سائدة فى مصر حتى ثورة ٢٣ يوليو ، والثالثة هى الصيغة التقدمية الاشتراكية التى أتت بها الثورة . والاثنتان الأخيرتان هما اللتان تم تطبيقهما حتى الآن فى العالم العربى المعاصر . وتأمل واقع العالم العربى يؤدى بنا إلى أن نحكم بفشل تجربتى هاتين الصيغتين ، وإن كان هذا الفشل يرجع لا إلى فساد الأسس النظرية التى قامتا عليها بقدر ما كان راجعاً إلى اختلال آليات التطبيق وإجراءاته . ومن هنا كان فشل الناصرية إذ أنها أرادت أن تأتى بصيغة جديدة للديمقراطية الشعبية الاشتراكية ، ولكنها لم تستطع أن تنجز ما وعدت به من إصلاحات اجتماعية بل تحولت إلى نقيض ما دعت إليه أى إلى ممارسة دكتاتورية صريحة . وتبقى بعد ذلك الصيغة الثالثة وهى الإسلامية . ويرى الكاتب أن الإسلام السنى يحتوى على كثير من العناصر التى تصلح قاعدة لديمقراطية سليمة ، غير أن المفكرين « الإسلاميين » لم يقدموا حتى الآن مشروعاً شاملاً يحقق هذه الديمقراطية ويمكن تطبيقه بشكل عملى قادر على حل المشكلات الاجتماعية والسياسية التى يواجهها العالم العربى ، ويختم المؤلف دراسته بطرح هذا السؤال : هل من طريق إلى الحل ؟

على أنه لا يكتفى بالتساؤل ، بل يُقدِّم – من واقع حبه للعالم العربى وإحساسه المتعاطف مع قضاياه – على طرح تصور للحل يقوم على أسس ثلاثة : الأول أن الصيغة الملائمة لا ينبغى أن تكون مستوردة من الخارج سواء من الشرق أو من الغرب ، فتطبق على المجتمع العربى تطبيقاً كاريكاتورياً لابد أن ينتهى إلى الفشل ، كما لا ينبغى أن تكون نقلاً لنماذج تراثية قديمة لم يعد تطبيقها فى عالم اليوم عمليا ولا ممكناً ، وإنما تكون صيغة تستجيب لمتطلبات جماهير اليوم ، ويجب أن يتم ذلك فى إطار القومية العربية الذى مازال صالحاً لضم الكيان العربى حتى وإن بدا هذا المبدأ فى نظر البعض مستبعداً بعد خيبة الأمل فيه منذ فشل المشروع الناصرى . والأساس الثانى هو أن « التطبيع الديمقراطى » لابد أن يتم فى إطار مشروع متكامل للإصلاح الاجتماعى حتى لا يكون مجرد طلاء خارجى أو « مكياج » سياسى ، أو بتعبير آخر : ظاهر ديمقراطى تقبع وراءه

دكتاتورية لم يعد لها مكان فى عالم اليوم . وثالث هذه الأسس هو أن يهتدى العالم العربى سريعاً إلى طرق جديدة ملائمة لممارسة الحريات والحقوق العامة ، ومن أجل الوصول إلى هذه الطرق يجب فتح حوار حقيقى صريح حول الحريات على مستوى المفكرين وأهل الرأى على اختلاف وجهات نظرهم .

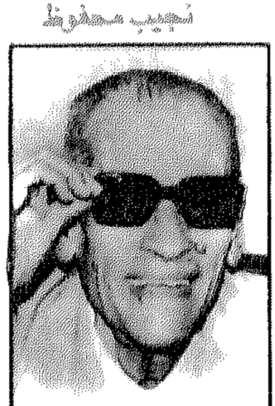
نجيب محفوظ واللقاء الأول

هذا هو القسم الأول من الكتاب ، أما القسم الثانى فهو يضم مجموعة من الدراسات يودع فيها الكاتب ملاحظاته وتعليقاته حول قراءاته فى الأدب العربى . وهو يفتتح هذه المجموعة بثلاثة مقالات حول نجيب محفوظ منذ لقائه الأول به فى سنة ١٩٥٩ ثم لقاءاته التالية عبر السنوات الثلاثين التى انقضت حتى حصول كاتبنا الكبير على جائزة نوبل سنة ١٩٨٨ ، والمقالات مزيج من ذكرياته عن نجيب محفوظ وعرض نقدى لأعماله الروائية والقصصية ، وهو فى أثناء ذلك يقدم لنا فى لمسات فنية رائعة صورة لأديبنا الذى عرف كيف يفرض للأدب العربى مكاناً مرموقاً فى خريطة الأدب العالمى .

ويأتى بعد ذلك فصل يفرده لأديبين عربيين لم يظفرا بجائزة نوبل وإن كانا لا يقلان مكانة عمن ظفروا بها ، وأولهما طه حسين الذى يدعوه « أبا الثقافة العربية المعاصرة » ، وهو يتحدث عن الدور الريادى لطه حسين ثم يجمل آراءه فى النقد الأدبى . والثانى هو جبران خليل جبران الذى ينوه بدوره « الثورى » فى الفكر العربى الحديث ويقول إن نتاجه الأدبى والنقدى مازال غضا يستحق أن يقرأ ويستمتع به على الرغم من مرور ستين سنة على وفاته .

ويضم الفصل التالى خمس مجموعات من المقالات النقدية التحليلية لعدد من الكتب : « الحركة النسائية فى مصر » وهو بقلم الدكتورة آمال كامل السبكي، و« اتجاهات الرواية العربية فى الجزائر » لواسينى الأعرج ، و « الإسلام فى نظر أربعة وعشرين كاتباً عربياً معاصراً » (نشر بالفرنسية ، باريس ١٩٨٦) ، والكُتّاب الذين يورد المؤلف شهاداتهم ينتمون لأجيال مختلفة أقدمهم توفيق الحكيم وأحدثهم سناً جمال الغيطانى ، و « الأدب الحديث فى الجزيرة العربية ، دراسة ومختارات » (صدر بالأنجليزية ، لندن – نيويورك ١٩٨٨) للشاعرة سلمى خضرا الجيوسى ، وهو كتاب يعرض الحياة الأدبية فى كل أنحاء الجزيرة : المملكة العربية السعودية واليمن بشطريه وعمان وبلاد الخليج العربى ، مع مختارات


جبران خليل جبران


نجيب محفوظ

كلما ندت منا زفرة على ضياع الاندلس
خلقنا من كل منفى اندلس جديدة

شعرية أو من القصص القصيرة .

ويلى ذلك فصل عن مأساة لبنان وانعكاسها على أدب الثمانينات . ومن أول آثار هذه المحنة انتحار الشاعر خليل حاوى . ومقال بدرو مارتينث حول هذا الحدث أشبه بمرثية رائعة لذلك الشاعر المناضل الذى كان يحلم بوطن عربي كبير واحد حر ، فإذا به يرى وطنه الأصغر لبنان تدوسه أقدام الغزاة البرابرة . فلا يجد من رد على هذه المهانة إلا أن يضع حداً لحياته بيده ، وكأنه بذلك يعلن إفلاس السياسة العربية : سياسة المداراة والنفاق والخيانة والخنوع والصفقات المريبة ، وكأن انتحار الشاعر رمز لما ستؤدى إليه تلك السياسة لو استمرت من انتحار الوطن العربى كله ، والأثر الثانى للغزو الاسرائيلى هو مقتل السفير الإسبانى « أريستيجى » وزوجته فى إحدى وقائع الحرب الأهلية سنة ١٩٨٧ ، وقد يبدو هذا الحادث بعيداً عن عالم الأدب العربى ، ولكن صلته بهذا العالم هو أن هذا السفير الذى لقى نحبه فى حرب صلى بها وإن لم يكن من جناتها هى أنه كان متزوجاً من ابنة الكاتب الروائى اللبنانى توفيق عواد . وقد اتخذ المؤلف من ذلك منطلقا للحديث عن عواد الذى يعد من أبرز رواد الكتابة القصصية فى لبنان ، ويلى هذا المقال تحليل لقصيدة نزار قبانى الطويلة فى رثاء بيروت ، وهى قصيدة قامت بترجمتها إلى الإسبانية المستشرقة النابهة كارمن رويث التى تعد من أبرز تلاميذ بدرو مارتينث ومواصلى مسيرته .

ويفرد المؤلف فصلاً للشعر العراقى الحديث فيعود لدراسة جوانب من شعر بدر شاكر السياب وعبد الوهاب البياتى ، ويضيف إليهما دراستين حول بلند الحيدرى وحامد سعيد .

ويختم الكتاب بفصل بعنوان : « مغامرتان » . أما الأولى فهى مغامرة المسرح المغربي ، ويعني بها ظاهرة جديدة من ظواهر النشاط الأدبي في المغرب ، وهى تجربة الطيب الصديقى فيما سماه « المسرح الاحتفالى » الذى بدأ عرضه فى مدينة مراكش فى أواخر السبعينيات ، وأما المغامرة الثانية فهى تلك التى خاضها الشاعر الفلسطيني حنا جاسر الذى ولد فى قرية الطيبة على ضفاف البحر الميت فى سنة ١٩٢٥ وألجأه العدوان الصهيونى إلى الهجرة إلى الأرجنتين فى سنة ١٩٥١، وفي قرطبة الأرجنتينية نشر ديوانه العربى « أمة وجراح » (١٩٨٠) ثم أتبعه بديوان باللغة الإسبانية يصور فيه مأساة شعبه فى قصائد تروع القارىء بجملها القصيرة النابضة بالألم الحادة كأنها خناجر ... قصائد يقول فى خاتمة إحداها

«والسلاح العربى/يتثاءب فى المخابىء»

وفى مرثيته لشاعر مات فى المهجر :

كلما ندت منا زفرة على ضياع الأندلس
خلقنا من كل منفى أندلساً جديدة

* * *

وهكذا تنتهى سياحتنا الطويلة فى كتاب بدرو مارتينث مونتابث الذى صدر عن دار كانتارابيا بمدريد سنة ١٩٩٠ ، هذا الكتاب الذى يعد من أهم حلقات السلسلة المتلاحقة من دراسات هذا المستشرق الإسبانى الصديق الذى وقف حياته على التعريف بأدبنا الحديث والمعاصر وإبراز قيمه وبيان مكانه من خريطة الأدب الإنسانى فى عالم اليوم .

مستقبل وأزمة

الطبقة الوسطى المصرية

بقلم : أحمد عباس صالح

من بين المشاكل المنهجية التى عانى منها الباحثون العرب ، مشكلة المصطلحات . ذلك أن الغالبية منها منقول عن اللغات الأجنبية وعن موضوعات ومشاكل أجنبية . وكانت التقسيمات الطبقية ومصطلحاتها واحدة من هذه المشاكل .

كنا نحاول أن نجد مقابلاً فى المجتمع المصرى مثلاً للطبقة الرأسمالية والطبقة الاقطاعية والطبقة العاملة والطبقة الوسطى ، ولغير ذلك من التفريعات المتعلقة بهذا التعريف أو ذاك . وكم ثار من جدل حول الفرق بين الزراعة الاقطاعية والزراعة الرأسمالية . وهل مرت مصر بما يسمى بالاقطاع الزراعى .

ذلك أنه بناء على هذه التعريفات تقوم التحليلات السياسية ، ويتم وضع التصور النهائى الذى يراه الكاتب فى موضوع بحثه .

ومع ذلك فإن الكتاب والقراء يشعرون – على نحو ما – بمن هم الطبقة الوسطى أو العاملة . أو الطبقات الغنية .

ويبدو أن الأفضل من كل ذلك ، هو ما جرى عليه الباحثون العرب فعلا ، وخاصة فى مصر ، فقد اتجهوا مباشرة إلى الواقع يفتشون عن تركيباته ، وأصبح لدينا دراسات جيدة عن تاريخ الملكية الزراعية ، وعن النظم الادارية ، وعن

● كيف لعب المثقفون المصريون الدور الأكبر فى الضغط على الحكومة ؟

الاشغال المختلفة للملكية ونظم الوقف وغيرها . وهذه الثروة العلمية التى لم تظهر إلاّ بعد ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، أصبحت فى متناول الباحثين دون حاجة لتركيبها أو تطويعها لهذا المصطلح أو ذاك . وبدون حاجة عاجلة لوضع تعريفات لها خاصة ، والكثير من الظواهر الاجتماعية فى مصر متداخلة ومركبة ووضع تصنيف دقيق وحاد لها يعد مخاطرة لا ضرورة لعاقل أن يخاطر بها . لأنها من الناحية العملية لا تقدم أو تؤخر فى استخراج الدلالات الاجتماعية أو الفكرية التى يبحث عنها الباحث .

ومع هذا فنحن لم نكف عن استعمال المصطلحات وخاصة مصطلح الطبقة الوسطى .

● تعريف خاص ●

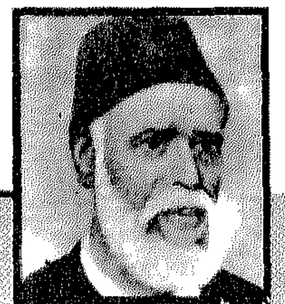
وليس من العقل أن نقع فى الخطأ الذى نحذر منه وهو إيجاد تعريف خاص أو تصنيف خاص لهذه الجماعة من الناس المصريين الذين درجنا على أن نسميهم الطبقة الوسطى . والأفضل من ذلك أن نتجه مباشرة إلى التاريخ لنحدد دور هذه الجماعة ، ولنحاول أن ندور حولها دون أن نضع لها إطاراً أو حدودا صارمة .

فإلى قبل الحملة الفرنسية ، كان المتعلمون هم خريجو الكتاتيب ومعاهد الأزهر ، ومنهم من يعمل بالتدريس أو القضاء أو الأعمال الادارية الأخرى . وكان هؤلاء هم الطبقة المستنيرة وكان البعض منهم يملك بعض العقارات أو الأراضى ، وربما كان يشارك أيضا فى تجارة هنا أو هناك . وهؤلاء لم يكونوا قوة سياسية ذات شأن ، وكان على شرائحهم العليا أن تقوم بتبرير الأوضاع السياسية والاقتصادية التى تطلبها القوة الحاكمة الممثلة فى الاتراك والمماليك .

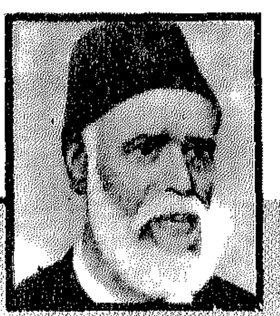
وعندما جاء نابليون أراد أن يستميل هذه الشرائح لمقاومة النفوذ التركى الذى كان يزعم حقاً ما على مصر فى إطار مفهوم الجامعة الاسلامية .

وفى عهد محمد على وجد الرجل أن سبع سنوات منذ قدوم الاحتلال الفرنسى قد دفعت بالمستنيرين المصريين وهم ملاك متوسطون أيضا ، إلى الصفوف الأمامية ،

محمد على



على مبارك



وقد كان من السهل عليه أن يجمعهم إلى جانبه لارغام السلطات التركية على توليته ؛ ولعب المثقفون المصريون الدور الأكبر إلى جانب القنصل الفرنسى الكبير فى الاستانة والحكومة الفرنسية التى كانت تضغط من أجل هذه التولية .

وها نحن نستعمل مرة كلمة المستنيرين ومرة كلمة المثقفين ومرة أخرى الملاك المتوسطين ، وهى كلمات مناسبة لوصف هذه الشرائح الاجتماعية التى نتحدث عنها اليوم تحت مصطلح الطبقة الوسطى .

وكانت بقية الشرائح الاجتماعية المصرية الأخرى مثل الفلاحين والحرفيين وعمال الخدمات المختلفة إلى جانب التجار هم باقى التركيبة الاجتماعية التى يتشكل منها المجتمع المصرى ، هذا بخلاف الحكام والمالكين الكبار والذين كانوا من الأتراك والمماليك .

ودفعت الظروف المختلفة بهؤلاء المستنيرين إلى أن يكونوا مشاركين إلى حد ما فى السلطة . ولكن الأمور لم تسر بهذه السهولة . كان لدى هذه « الطبقة » إحساس بأنها صاحبة البلد وكانت تريد أن توسع نفوذها ، وكان مفهوم « الوطنية » الجديد قد وصل إلى أسماعهم ، وأصبح لكلمة مصر معنى آخر ، لأنها تخص شعباً معيناً هو سكان هذا البلد الأقدمون ، ليسوا هم الحكام الاتراك أو المماليك . بل هؤلاء الرجال المتعلمون الذين انحدروا من اصلاب الفلاحين أو سكان المدن ، وبالتالى اكتشفوا أن من حقهم أن يمتلكوا بلدهم كما يمتلك الفرنسيون أو الألمان بلادهم .

ولكن محمد على كان رجلاً تركيا فى الأساس وكان يريد أن يحكم حكما فرديا وفق المفاهيم القديمة والتى ما زالت جارية فى الشرق . وفى سبيل أن يفعل ذلك قام بمحاولات ابعاد وتصفية دموية أحيانا لزعماء المستنيرين من المصريين والذين أصبحوا يفكرون وفق مفاهيم « الوطنية » الجديدة .

● صراع .. وأمل ! ●

وكان المصريون الجدد يريدون المشاركة وأن كانوا لا يترددون لو سنحت الفرصة أن يستولوا على السلطان الكامل على بلادهم ، فهذا حقهم .. وكانوا يعرفون أن ذلك سيوسع فى أرزاقهم ويحسن معيشتهم . وكانت القطاعات الأخرى من فلاحين وحرفيين وتجار تعلم أن ازاحة الملتزمين واتباعهم ستخفف الوطأ عليهم بطبيعة الحال ، وكانت الطبقة

● حكاية الطبقة التى أحست أنها صاحبة البلد وجعلوا لكلمة « مصر » معنى آخر

المستنيرة المصرية أقرب اليهم من هؤلاء الأجانب الذين ساموهم العذاب .

وكانت مشكلة محمد على الرئيسية هى الجيش ، ولم يكن ممكنا أن يجد عشرات الألوف من الجنود خارج القطر المصرى ، وبعد محاولات فاشلة لجأ إلى الشعب المصرى وبدأت عملية تجنيد واسعة وتدريب وما تبع ذلك من صناعات عسكرية وعلوم وطب وهندسة وفى خلال أربعة عقود تغيرت صورة المجتمع المصرى تماما ، وظهرت شرائح المتعلمين وفقاً لمتطلبات الحياة الجديدة . فالتعليم لم ينحصر فى الاطار الدينى السائد ، بل اتسع إلى الرياضيات الحديثة والفيزياء والكيمياء والتكنولوجيا المتعلقة بالصناعات الحربية ، وظهر نمط من التفكير الجديد يقوم على الخبرة المباشرة وما ينتج عنها من نظريات ومناهج .

وبعد سبعين عاما من وصول محمد على إلى الحكم ، كان المجتمع المصرى غير الذى كان . كانت هناك شرائح هائلة من العلماء والمهندسين والاطباء والمترجمين وضباط الجيش وموظفى الادارات والجنود والعمال . وأصبح لهؤلاء وجود بارز مع أنهم فى واقع الأمر لا يملكون إلا السلطات البسيطة المخولة لهم من صاحب السلطان . وكان البارزون من أبناء هذه الطبقة يعانون من إهدار الحقوق ، بل من الازلال أحيانا ما لا يستطيع أن يتصوره المعاصرون . فرجل مثل رفاعه الطهطاوى عانى من النفى والابعاد والتجاهل الشىء الكثير ، أما على مبارك ، فقد شرد وصودرت أملاكه وأبعد من الوظائف وأعيد عدة مرات ، وكان المثقفون المصريون لا ينعمون بأى حقوق وبخاصة البارزون منهم . وكانت هناك مواقف عدائية من جانب السلطان نحو هؤلاء المتعلمين ، وكان السلطان يحرص على التأكد من الولاء التام والخضوع الكلى له من جانب هؤلاء المتعلمين .

وفى إطار انحصار السلطة فى ايدى الحاكم تدرب المثقفون على كل الطرق التى تنجيهم من الاذلال والافقار بما فى ذلك النفاق وإظهار الخضوع .

ولقد ذكر عرابى فى مذكراته أن على مبارك كان ينقل ما يدور فى الاجتماعات الخاصة بالثورة إلى الخديو واتهمه بالجاسوسية .

• تحديث المجتمع •

ومن يقرأ سيرة على مبارك ويعرف جهوده الرائعة من أجل التعليم ومن أجل

• المثقفون من المنفى والمصادرة .. والاتهام بالتجسس إلى أعلى المناصب الادارية

تحديث المجتمع المصرى . ويعرف ما شهد على أيدى الحكام ، يقف محزونا – غير غاضب – على هذا الرجل المسكين الذى لم تساعده الظروف على أن يكون كما يريد .. فاضلاً ونافعاً ..

وأيا كان الأمر فقد احتاج المجتمع المصرى لحوالى سبعين سنة ليغير تركيبه ، ويظهر طبقة جديدة من المتعلمين والمتولين الوظائف المختلفة ، والذين تمكنوا من الامتلاك أو الادخار وأصبحوا يعتقدون أن من حقهم أن يمتلكوا حق سياسة بلدهم .

وكان هؤلاء جميعا هم الذين حركوا الجيش ليحصلوا على برلمان ، وليشرفوا على السياسة المالية الخربة لادارة فاشلة كادت أن تنسف كل ما بنته الطبقة الجديدة من رخاء ومن طموح .

وفى ظل هذه الطبقة نشأت الأفكار الجديدة . وكان هناك ادراك مبكر لأن جوهر التغيير المطلوب هو فى نظرية المعرفة . وأن المعرفة الصحيحة للظواهر المختلفة لا تتأتى إلاّ من خلال التجربة العملية وممارسات العقل الحر بعيداً عن أى خرافات متداولة من تراث عهود التدهور التى مرت بها مصر .

والعجيب ان الشاعر محمود سامى البارودى ورئيس الوزراء فى عهد الثورة له مقال كبير وجد مخطوطاً بين أوراقه – ونشره الدكتور محمود الشبطى أخيراً فى كتاب . يتحدث فيه عن نظرية فرانسيس بيكون الذى يعتبر أحد أهم بناة التحول فى المجتمعات الأوربية .. وهى منهجه فى المعرفة ، ذلك المنهج الذى عرف بالتجريبى ونقل المجتمعات الأوربية إلى العصور الحديثة .

ولم يكن المقال ترجمة خالصة ، بل رأى واضح للشاعر ، يسبق الكثيرين ممن يتحدثون عن الثقافة فى مصر والعالم العربى اليوم .

كانت ثورة الطبقة الوسطى لها أبعادها المختلفة .. كان لها نشاطها القانونى فى دستور اسماعيل .. وكان لها نشاطها العلمى فى طرق البحث والتفكير .. وكان لها رؤيتها فى تحديث مصر والوثوب إلى العصر الحديث .

ضربت حركة الاستنارة المصرية بواسطة الجيش البريطانى . وجردت الطبقة الوسطى من سلاحها بتصفية الجيش المصرى وإخضاعه للاشراف البريطانى . واستعمل الاحتلال الأدلاّء والجواسيس واتباعهم كقوة جديدة بديلة ، وأغدق عليهم الأراضى الزراعية والمناصب ، واستمال من استطاع استمالته

● لعب الجيش البريطانى دوره المنتظر فى تخريب الاستنارة المصرية .

من شرائح الطبقة المتوسطة المشاغبة وشتت الباقين .

● قوة عسكرية ضاربة ●

من وجهة النظر البريطانية بدا أنهم انهوا خطراً محتملاً بنمو هذه الدولة التى ظهرت كالصاروخ فى منطقة الشرق الأوسط ، بديلاً عن الدولة العثمانية (الرجل المريض) وكانت مصر فى عهد محمد على قوة سياسية كبرى تنافس الانجليز والفرنسيين وحلفاءهم الأوربيين فى منطقة يسعون كل السعى لإخضاعها . ومن يقرأ تقارير السفراء الانجليز والفرنسيين والأوربيين بعامة يعرف أن وضع مصر حينذاك كان مساوياً – من حيث القوة العسكرية والتقدم الحضارى – للقوى الأخرى المتنافسة . ولذلك فان تصفية محمد على لم تتم إلاّ باتفاق دولى كبير ومن أكبر خمس دول فى العالم حينذاك .

ومن وجهة نظر « الطبقة الوسطى » المصرية كانت هناك إشكالية خطيرة . فإما أن يتوجهوا إلى تركيا للتحالف معها ضد الاحتلال البريطانى وهو أمر له عيوبه الكثيرة ، أولها تخلف الرؤية الحضارية للدولة التركية التى مازالت رازحة تحت تراكمات ثقافة عصور التدهور ، والتى تخلص منها المصريون بصعوبة وجهاد مع قدر من الحظ التاريخى السعيد . وكان جهاد المصريين عموما هو للتخلص من السيطرة التركية فكيف يعود جهادهم مرة أخرى لإعادة هذه السيطرة ، فضلاً عن البون الشاسع الذى سبق فيه المصريون الدولة العلية من الناحية الفكرية والعلمية وبصفة خاصة حرية الفكر وحقوق الانسان .

وكان الخيار الثانى أن يتجاوبوا مع السيد الجديد وهو الاحتلال البريطانى ، والذى على الرغم من وضعه العدوانى ، يمثل فكرا جديداً يتفق مع المعطيات التى أحرزها المصريون إبان نشوء دولتهم الجديدة ولمدة تزيد على ثمانين عاما .

ومن الواضح أن الخيار الثانى كان لا يقل صعوبة عن الخيار الأول .

البارودى



محمد فريد



أما الخيار الأخير فهو الاعتماد على الذات فى مقاومة الاحتلال ، واستعداء العالم الأوربى على المحتلين ، وتوعية شرائح الشعب الأخرى بأبعاد الأزمة الجديدة .

والواقع أن الخيارات الثلاثة السابقة هى ما توزعت عليها الاحزاب المصرية فيما بعد ، وقد ظلت تتفاعل إلى اليوم فى قلب المجتمع المصرى .

ومن الواضح أن الذى كان يقود الشعب المصرى بشرائحه المختلفة هو هذه الطبقة التى نسميها الطبقة الوسطى المصرية .

وعلى الجانب الآخر كان الوطنيون المصريون الذين اضطروا إلى العمل الوطنى فى الخارج قد بدأوا يكتشفون اللعبة السياسية واضطر محمد فريد الزعيم الوطنى الأكثر شهرة للفرار من تركيا بعد أن علم بمؤامرة لقتله للتخلص منه . ذلك أن محمد فريد كان يظن أن الاتراك سيساعدونه لتحرير مصر من أجل الصداقة والأخوية ورابطة الدين ، ولكنه اكتشف أن كل أهدافهم تنحصر فى إعادة ضم مصر وهو الأمر الذى لم يقبله وشرحه فى مذكراته .

وعقب الحرب العالمية الأولى لم تكن هناك وسيلة إلاّ الاعتماد على الأفكار الجديدة بما فيها فكرة عصبة الأمم والحريات والمبادىء المشهورة التى أعلنها الرئيس الأمريكى ويلسن. ولكن الذى حسم الأمر هو تحالف الطبقة الوسطى مع الشرائح الاجتماعية الأخرى وقيام الثورة الشعبية فى كل أرجاء القطر المصرى .

ومع ذلك لم يظفر المصريون إلاّ بمشاركة فى السلطة مع القوة الرئيسية وهى قوة الاحتلال وقوة مؤسسة القصر التى عمد الاحتلال إلى تقويتها حتى يحد بها من جموح القوى الجديدة المتمثلة فى الطبقة الوسطى وزعامتها .

وربما كانت هذه أول ممارسة مباشرة لسلطة مصرية – على ما فيها من قصور – منذ الحكم المملوكى والتركى .

وهنا أيضا فشلت « الطبقة الوسطى » المصرية فى الاستئثار بالسلطة فى بلدها . وفى خلال أقل من ثلاثين سنة كانت زعامات الطبقة قد صُعِّدت ، وأصبحت تمتلك العديد من الثروة العقارية وأسهمت بقدر كبير مع القوة الأجنبية المتعددة الجنسيات التى استولت على نسبة عالية جداً من الاقتصاد المصرى ومصادر الثروة وانتهت تلك الجولة التى بدأت بعرابى ثم بسعد زغلول ومصطفى النحاس

• خياران أمام الطبقة الوسطى .. كل منهما أشد مرارة

لتبدأ جولة جديدة .

● سيرة الطبقة الوسطى ●

وهكذا يبدو أن سيرة التاريخ المصرى الحديث هى سيرة الطبقة الوسطى التى نشأت نتيجة التحولات التى حدثت فى عصر محمد على ونمت وتطورت حتى عهد اسماعيل والثورة العرابية حيث ضربها الاستعمار الخارجى ، ثم عادت عن طريق ثورة شعبية واسعة لتظفر بمشاركة فى السلطة تحت عين الاحتلال وعداوات القصر .

واتسعت دائرة ما يسمى بالطبقة الوسطى . وعلى الرغم من أن التعليم لم تتسع دائرته بالشكل الكافى ، إلاّ أن طبقة جديدة راحت تتزايد . وكان المجتمع المصرى قد انغلق على القيادات القديمة واستطاع استيعابها وإرضائها من حيث الثروة والمشاركة فى السلطة . ولكن الشرائح الجديدة بدأت تتزايد وأصبح المجتمع بتركيبته القائمة عاجزاً عن تلبية الأمانى الكثيرة التى ظلت تتصاعد خاصة بعد الحرب العالمية الثانية ، وخروج الدولة البريطانية ضعيفة ومتهالكة وقوة عالمية من الدرجة الثانية .

والواقع أن الطبقة المصرية المتوسطة كانت تتكون - فى الأساس - من جيش من المتعلمين من أبناء الموظفين والحرفيين وصغار التجار والفلاحين وضباط الجيش . وكان الطريق أمامهم مسدوداً . كانت الوظائف الأساسية فى أيدى الأجانب الذين يتحكمون فى الشركات ويسيطرون على اتحاد الصناعات ويمتلكون ما يقرب من ثمانين فى المائة من النشاط الاقتصادى . ولم يكن امام الخريجين الجدد إلاّ وظائف الحكومة - وكانت محدودة جدا - أو البطالة أو « عمل حر » لا يقدم عائداً معقولاً لشاب فقير من أسرة متوسطة .

ولذلك حين قامت ثورة ٢٣ يوليو كان هدفها الرئيسى هو « تمصير » الاقتصاد ، أى نقل الوظائف إلى المصريين . ومن يلاحظ الخطوات التى اتخذتها هذه الثورة فى وقت مبكر يجد أنها تركزت فى تمصير الوظائف وقد وصل الأمر إلى الالتزام بتشغيل كل خريج أو مؤهل للعمل ، ولم يكن هذا تمشياً مع الأفكار الجديدة الشائعة فى الفكر الاشتراكى أو دولة الرفاهية فى العالم الرأسمالى فحسب ، بل لحاجة أساسية كان يشعر بها القائمون بالثورة الذين كانوا ضباطاً فى الجيش والكثير

● يبدو أن سيرة التاريخ المصرى الحديث هى سيرة الطبقة الوسطى

منهم لم يصبح ضابطا إلاّ نتيجة ضربة حظ ، وكان الأخوة والأقارب يعانون من البطالة شبه كاملة .

وثورة ٢٣ يوليو فى أحد أبعادها ثورة طبقة وسطى كانت محرومة من الوظائف . وكان هاجسها الأول هو إيجاد وظيفة . ولذلك لم يكن من الصعب أن تتفق افكارها مع النظريات الشائعة عن التشغيل الشامل ، وكان فكرها الاقتصادى المفضل هو فكر كينز إلى جانب تلامذته الأمريكان وخاصة شومبيتر . هذا على الرغم من الأحاديث الكثيرة عن الماركسية والاقتصاد الماركسى .

ولم يكن إقامة نظام للاقتصاد الموجه مشكلة بالنسبة لثورة الموظفين هذه . إذ كان هذا الاقتصاد يتفق تماما مع الروح البيروقراطية التى كانت تحرك الفعل السياسى فى المجتمع ومنذ بداية الستينيات وحتى آخر عهد جمال عبد الناصر كانت الغالبية العظمى من الاقتصاد المصرى فى أيدى الموظفين المصريين من ضباط وتكنوقراط واداريين وتم اشباع الميل إلى شغل الوظائف ، وبدأ الاقتصاد المصرى يدور وراحت المشاكل الناتجة عن الاشراف البيروقراطى تظهر فى صورة مؤشرات صغيرة ، ولكنها كانت خطرة على أى حال .

وهذا الموضوع غاية فى التعقيد ويحتاج إلى رؤية فى المعالجة . وها هو ذا الاقتصاد الموجه فى الدولة الأم التى نفذته وأعطته قيمته العالمية ، وهى الاتحاد السوفييتى السابق ، تعلن إفلاس هذا النظام وعجزه عن النمو ، وسقوطه التام فى احضان الركود والجمود . ولا أظن أن الأمر يختلف كثيراً فى الدول الأخرى ومنها مصر .

وعلى كل حال وعندما استطاعت الطبقة الوسطى المصرية التى قامت قيادتها النشيطة بثورة ٢٣ يوليو ، أن تكون شيئا من المدخرات ، وعندما اكتسبت شيئا من الخبرة فى التعامل مع العالم الخارجى والتجارة الخارجية بصفة خاصة ، ادركت أن القيود التى قيدت بها نفسها لم تعد مناسبة ، ولابد أن تتغير الأسس التى قامت عليها الثورة لتتجاوب مع التحولات الجديدة التى طرأت عليها . ولذلك كان من السهل على أنور السادات أن يقود عملية تحول شاملة تتناسب مع الظروف الجديدة ووجد قوة اجتماعية كبيرة تؤيده على الرغم من أصوات المعارضة الأخرى والتى كانت تأمل فى بقاء الاقتصاد الموجه وتطويره ، وكانت تعتقد

● كانت ثورة يوليو طبقة وسطى محرومة من الوظائف . وهاجسها الأول هو ايجاد وظيفة

أن الفشل الذى يعانى منه هذا الاقتصاد راجع إلى أن الاداريين الذين يقودونه ليسوا عقائديين ، وكثيرا ما كان يتردد الشعار « لا اشتراكية بغير اشتراكيين » ولكن الأيام أثبتت بعد ذلك أن العيب كامن فى النظام نفسه أكثر من كمونه فى القائمين على تنفيذه .

● نظام الحزب الواحد ●

والواقع أن النظام المصرى شأنه شأن النظم الأخرى – حتى فى العالم الاشتراكى وغالبيتها خرجت من تحت عباءة الحكم العثمانى الشمولى – لم يمر بمرحلة الليبرالية لأسباب كثيرة ، وكانت الثورتان الليبراليتان المصريتان : ثورة عرابى وثورة سنة ١٩١٩ غير ناجحتين . وربما كانت ثورة ١٩١٩ التى ظفرت بنصف نجاح هى الأوسع تأثيراً وفى إشاعة الأفكار الليبرالية . التحديثية فى المجتمع المصرى . ولكن كان هذا لفترة قصيرة ولم تكد التجربة الديمقراطية المحكومة بقوة الاحتلال ومقاومة السراى


سعد زغلول


جمال عبد الناصر

أن تحقق أهدافها . ولذلك كان من السهل الانتقال من المراحل الشمولية التى مرت بها مصر منذ الحكم المملوكى والتركى واسرة محمد على إلى نظام الحزب الواحد الذى اختارته قيادات الطبقة المتوسطة وهو يتفق مع الطبقة البيروقراطية المتوارثة والذى لم يختلف ، إلاّ قليلا ، عن الحكم المملوكى القديم .

ومرة أخرى وبعد سياسة الانفتاح تكونت مدخرات هائلة فى أيدى الطبقة الوسطى من خلال الجهاز البيروقراطى ، والكثير من هذه المدخرات قد هرب إلى الخارج ، وقد سادا اضطراب كبير فى الحياة الاقتصادية فى مصر ، وهو أمر طبيعى ولن ينجو منه أى اقتصاد آخر يمر بنفس الظروف مثل اقتصاديات الدول الاشتراكية السابقة .

على أن مصر كانت سابقة فى ذلك ، وأصبحت هذه المدخرات تنشد العودة – بصرف النظر عن الأساليب اللا أخلاقية التى تم بها تجميعها – وهذا لن يتحقق إلاّ بتطبيق كامل لليبرالية . ولا مفر من ذلك فهو الحل الأوحد لتطور الاقتصاد المصرى وخروجه من أزمته . كما أن ما حدث فى النظام الرأسمالى العالمى واتساع دور الدولة ومسئوليتها نحو الضمانات

الاجتماعية المختلفة كحق التعليم وحق العمل وحق العلاج إلى جانب حقوق الانسان الأخرى . كل هذا يواجه النشاط الخاص فى مصر ولابد من التسليم به وتقنينه تقنينا سليما بما لا يمس حرية العمل الاقتصادى وحرية حركة رأس المال والضمانات الطبيعية التى يستلزمها .

والالتزامات الملقاة على عاتق الاستثمار الاقتصادى الحر فى الدول الكبرى كافية تماما - حين تطبيقها فى مصر - لقيام مجتمع مستقر لا تتصادم فئاته الاجتماعية صداما عنيفا أو مهددا للاستقرار .

وفى الوقت الذى ظهرت فئات من الطبقة الوسطى مالكة لمدخرات كبيرة ، اتسعت دائرة الطبقة الوسطى فى شرائحها الأقل ، وعانى جمهور الموظفين والذى يمثل أكبر شرائح هذه الطبقة معاناة شديدة إلى حد ما ولولا حاجة دول البترول إلى نشاط وخدمات جزء كبير من الطبقة الوسطى لواجهت مصر مشكلة انفجار مؤكدة .

والتحرك الذى تقوم به القوة الجديدة يأخذ طريقين ، الطريق الأول هو التحكم الكامل ، أو عودة للنظام الشمولى تحت لافتات دينية حتى تضمن هذه المدخرات أن تتحرك بأيديها وتحت حمايتها المباشرة معبئة وراءها الشرائح الأخرى وفقاً لثقافة تجعل « الطاعة » هى الشرط الأول .

على أن الأمر لم يمض بهذه السهولة لأن هذه التيارات لم تعد واحدة ، وقد جمعت - فى الواقع - أنواع المعارضة المختلفة التى كان يقول بها الشيوعيون والقوميون والدينيون ، ولذلك تتميز هذه الحركات بالإيمان بالحزب الواحد وترفض التعدد ، وتزعم ان هناك حقيقة واحدة ينبغى أن يخضع لها الجميع .

ونتيجة لما طرأ على هذه التشكيلات أصبحت المضاربة عليها خطرا ومرة أخرى يبدو الخيار الليبرالى هو الأنسب ، خاصة فى ظل التحولات الجارية فى العالم والتى تعتقد أن الديمقراطية هى الاسلوب الوحيد الذى يستوعب جميع ألوان السخط ، ويوصل إلى الحلول الوسطى الذهبية ، ويفتح الطريق لانتقال السلطات بطرق سلمية ، كما يحقق مشاركة لا جدال فيها للقوى الشعبية المختلفة .

والواقع أن الثورة الليبرالية التى قامت بها الثورة العربية فى ثمانينات القرن التاسع عشر مازالت مستمرة ، ولم تحقق أهدافها حتى اليوم ، ومن الطبيعى أن تعاود المحاولة فى ثورة ١٩١٩ ثم فى ثورة

● العيب كامن فى النظام نفسه أكثر من كونه فى القائمين على تنفيذه

٢٣ يوليو وفى تحولات السادات فى منتصف السبعينات .

وخلال هذه الرحلة الطويلة الشاقة تقلّبت أفكار متعددة على المجتمع المصرى ، خاصة وان منطقة الشرق الأوسط ليست متروكة لشأنها لأهميتها الاستراتيجية ولتواجد أكبر احتياطى للطاقة فى العالم فيها ، ولوجود المغامرة الصهيونية التى تضافرت لتحقيقها ظروف كثيرة معقدة كان من الصعب تجاوزها . وها هى ذى الآن تشكل مشكلة بالغة الخطورة ، لأنها بدلاً من ان تكون عامل استقرار تحولت إلى سبب لأزمات لا يستطيع أحد تحسبها .

● الدين والليبرالية ●

وعلى الرغم من التحولات الجارية فى العالم وميل النظام العالمى الجديد إلى إنهاء النزاعات الإقليمية فإن مشكلة إسرائيل – ربما أكثر من أى مشكلة أخرى فى العالم – شديدة التعقيد ، وإن كان لا مفر من حلها وفى القريب العاجل .

والطبقة الوسطى المصرية مشتتة أو موزعة بين مفاهيم كثيرة . وإن لم يبق فى الســاحة إلاّ المزاعم السياسية التى تتمحك بالدين ، والاتجاهات الليبرالية الجديدة وإن كانت مشــوبة بتراث هائل من الريبة والشك ، ومن الخوف من الانفتاح على العالم .

وعلى كل حال ليس أمام الطبقة الوسطى بشرائحها المختلفة – فإن تكتشف الحل الأوسط ، وأن تتدرب على تبادل التنازلات ، وإن تدرك إن هناك فئات إجتماعية أخرى شريكة لها وقريبة منها ، وإنه بدون تقدير المصالح المتبادلة والتى تبدو أحيانا تعارضة ، لا يمكن أن يتحقق سلام إجتماعى .

وعلى الرغم من أن البحث فى الأصول الفكرية الجارية فى المجتمع المصرى ، هو أشبه بالبحث فى غابة كثيفة متشابكة من الأفكار والأوهام والخدع والحقائق . فإن تصنيف الأفكار المطروحة وتحديدها بقدر الإمكان قد يقضى على الصداع الهائل الذى يعانى منه الناس بسبب تكاثف الأفكار وتشابكها وغموضها .. ومن المؤكد أنه سيريح الصدور التى يرهقها التعصب لفكرة لم تخضع لمناقشة حقيقية ، والقلوب التى اثقلتها المشاكل ، والعقول التى أنهكها البحث عن يقين .



● عودة للنظام الشمولى تحت لافتات دينية

الأدب والغناء

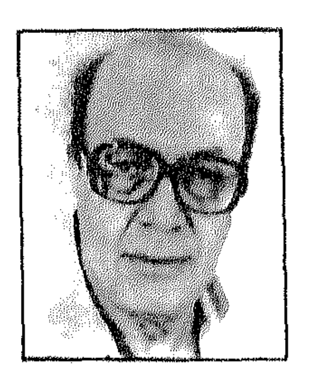
بقلم :
د . شكرى محمد عياد

لا أظن أحداً ممن يعرفون الأدب العربى أو يلمون به أدنى إلمام إن سألته عن أهم كتاب فى المكتبة العربية إلا سيجيبك أنه كتاب الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى . وربما استشهد بما روى عن الصاحب بن عباد أنه كان إذا سافر حملت له كتبه على عشرين بعيرا - أو كما قال - فلما ظهر كتاب الأغانى اكتفى به فـ« الأغانى » موسوعة شعر وأدب وأخبار ترسم أرقى صورة للحياة العربية منذ العصر الجاهلى إلى القرن الرابع ، حتى أن أحد الباحثين وضع كتاباً عن الحياة الاجتماعية فى العصر العباسى الأول مستخلصة من كتاب الأغانى ، فالغناء والشعر توأمان وهما الفنان العربيان الأصيلان ، وإذا كان الشعر ديوان العرب - كما يقال - فالغناء نبض وجدانهم وصدى أحلامهم .



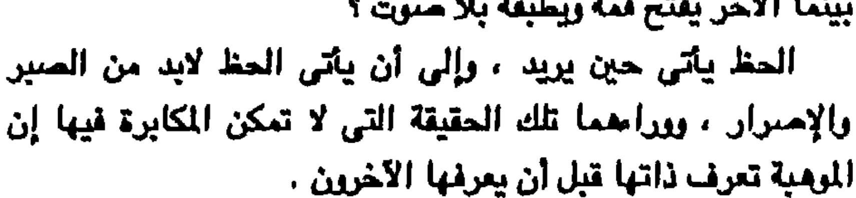
وقد أعاد لنا كمال النجمى صلة الأدب بالغناء منذ اختار أن يكون ناقداً موسيقيا فوق كونه شاعراً وأديباً وهاهو ذا يقدم لنا فى كتابه « محمد عبد الوهاب مطرب المائة عام » مزيجاً من السيرة الأدبية والنقد الموسيقى والنقد الاجتماعى فى لمحات كاشفة غنية بالايحاءات ، فيصاحب هذا العلم الشهير طوال رحلة حياته الطويلة العريضة ، منذ ولادته فى أواخر القرن الماضى فى بيت فقير بحى باب الشعرية ، حيث كان أبوه يعمل مؤذناً بمسجد الشعرانى ، إلى وفاته فى منزله بالزمالك ، وقد تربع على قمة الشهرة منذ أكثر من ستين سنة ، وأحرز ثروة طائلة وجاهاً عريضاً ، فجمع إلى الدكتوراة الفخرية عضوية مجلس الشورى ورتبة لواء فى الجيش . إنها قصة الموهبة النادرة عندما يرفدها الطموح والذكاء ويساعفها الحظ ،

● كان عبد الوهاب يـــرى فى « النجاح الجماهيرى » المقياس الصحـــيح للعمل الفنى


كمال النجمى

ولابد مــن قــدر من الحظ فى حــياة كل عظيم . ولكننا نمـيل إلى المبالغة فى دور هذا الحظ . فالمصـــادفات الحسنة والسيئة جزء من منطق الواقع .

ولقد كان من المنطقى أن يسمع شاعر كبير مولع بالغناء كأحمد شوقى ، خبراً عن ذلك البلبل الغريد الذى يغنى فى ملهى صغير بشارع الهرم ، وكان من المنطقى أن يُجرى عليه أمير واسع الثراء معروف برعايته للمواهب الشابة كالأمير يوسف كمال راتباً شهرياً سخياً . ولكن كم من المصادفات السيئة مرت على محمد عبد الوهاب صبياً وغلاماً ويافعاً ، قبل أن ينعم عليه القدر بهذه المصادفات السعيدة ؟ ألم يكن أحمد شوقى نفسه سبباً فى قطع رزقه عندمــا رآه على مســرح عبـد الرحمـن رشدى ، غلاماً هزيلاً يقف ليغنى بين الفصول ، فدعته شدة الإشفاق على ضعفه البادى أن يطلب من صاحب الفرقة إعفاءه من ذلك العمل الذى يكلفه سهراً لا تحتمله صحته ؟ ألم يكن موت سيد درويش المفاجىء كارثة على تلميذه الذى لم يشتد عوده بعد ، بحيث اضطر ، فى فترة ما ، أن يقف وراء شاب دعى فى صناعة الغناء ولكنه يملك بعض المال ، يغنى بدلاً منه بينما الآخر يفتح فمه ويطبقه بلا صوت ؟


الحظ يأتى حين يريد ، وإلى أن يأتى الحظ لابد من الصبر والإصرار ، ووراءهما تلك الحقيقة التى لا تمكن المكابرة فيها إن الموهبة تعرف ذاتها قبل أن يعرفها الآخرون .


كاتب عفيف

والسيرة العظيمة ، فى أى باب من أبواب الحياة ، تنطوى دائماً على شخصية عظيمة ، ولكن لكل شخصية عظيمة جوانبها المظلمة .

القفز على الأشواك

إذا وليت ظهرك للمنجزات الرائعة ورحت تبحث فى الزوايا فكم من صغائر قد يستحيى منها الشخص العادى ! وكتاب السير فريقان :

فريق يهتم بالأعمال أكثر من الشخص ، وفريق يهتم بالشخص أكثر من الأعمال ، ومعظم كتاب السير فى الوقت الحاضر هم من هذا الفريق الثانى ، تجذبهم إلى هذا اللون من الكتابة عوامل كثيرة ، قد يكون من أهمها انتشار الثقافة النفسية ، وشعور القارئ الحديث بالعزلة ، التى يحاول التغلب عليها بالتلصص إلى حياة الآخرين ، ومعلوم أن الأسرار - وخصوصاً تلك التى تنطوى على فضائح - هى الأكثر تشويقاً ، ولكن كمال النجمى كاتب عفيف القلم ، وشعوره بالكرامة الشخصية - وهو شعور يتخلل موضوعاته دون قصد - يجعله أحرص على كرامة بطل السيرة من أن يجعلها مادة لتسلية محبى الاغتياب . لذلك تراه لا يخوض فى حياة محمد عبد الوهاب الخاصة ، ولا صفاته الشخصية جداً ، إنه على سبيل المثال - يتكلم عن زيجاته الثلاث باختصار بل يحرص على أن يكتم اسم الزوجة الأولى - كما كتمه عبد الوهاب نفسه - وكيف تم ذلك الزواج ، وكذلك يصنع بالنسبة إلى الزوجة الثانية والثالثة ، ولا يذكر شيئا على الإطلاق عن غرامياته فيما بين هذه الزيجات الثلاث ، وهو الذى كان - كما يقول النجمى - أشهر دون جوان فى الوسط الفنى فى الثلاثينيات والأربعينيات ، وكانت هذه الشهرة تضايق دون جوان القصر الكبير نفسه !



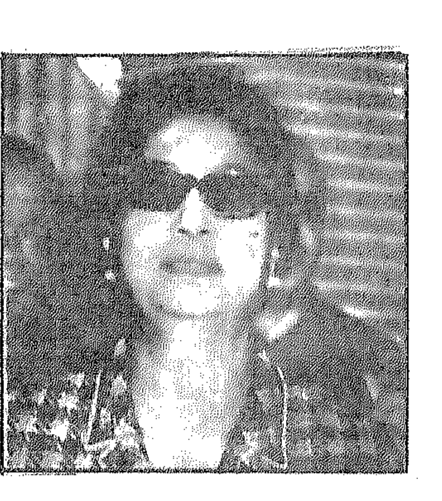
منيرة المهدية



عبده الحامولى

ضبط النفس

بعيداً عن هذه الجوانب التى تثير خيال المراهقين ، والتى تشغل حيزاً كبيراً - بل ربما الحيز الأكبر - من اهتمام ما يسمى بـ « الصحافة الفنية » ، هناك جانب آخر من حياة المشاهير - وقد لا ينفرد بها أهل الفن وحدهم - يثير نوعاً من الدهشة المستنكرة لدى مريديهم ذوى النزعة المثالية ، وهو الحرص على الشهرة لذات الشهرة ، لا لتبليغ رسالة ولا لتحقيق هدف عظيم ! فقد تدفع الشهرة



أم كلثوم

صاحبها إلى التآمر ، أو ما يشبه التآمر ، وقد ينزل إلى المداهنة والنفاق أحيانا ، وإلى الشراسة والعدوان أحيانا أخرى ، وقد تصبح الشهرة لديه نوعاً من الإدمان يستهلك الأعصاب ، وربما رفعته إلى أنواع أخرى من الإدمان أشد فتكا بالجسم والعقل ، ولعل تجارب الحياة قد علمت عبد الوهاب ضبط النفس ، ولكنه بعد أن تسنم قمة المجد الفنى أصبح حريصاً على ألا يتزحزح عنها .

يصف كمال النجمى كيف حاول عبد الوهاب « احتواء » عبد الحليم حافظ عندما لمع نجمه فى الخمسينيات ، أولاً بأن أسند إليه بطولة عدة أفلام من إنتاجه ، ثم بأن استعاد حماسته للتلحين والغناء بعد فترة تراخ طالت منذ الأربعينيات ، وكانت الصورة الجديدة التى حاول أن يرسمها لنفسه صورة شبابية رومانسية كتلك التى ظهر بها عبد الحليم حافظ ، ولكن عبد الوهاب أخفق ، « وظل عبد الحليم حافظ يرتفع ثم يرتفع حتى انفرد بالساحة الغنائية.أو كاد ينفرد بها دون جميع المطربين الذين أفنوا أعمارهم فى تثبيت أقدامهم فى تلك الساحة » .

ولعل عبد الوهاب لم يهدأ إلا حين التقت ألحانه بصوت أم كلثوم ، ونجحت هذه الألحان نجاحاً مدوياً تجاوز « السميعة » عشاق الصنعة إلى الجمهور الجديد من الشباب .

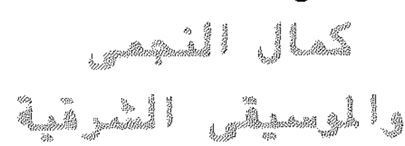
وأن يكون التشبث بالشهرة سبباً لمزيد من الإبداع ، هذا دليل على القدرة والحيوية والذكاء ، التى أتاحت لعبد الوهاب أن يجدد فنه مرة بعد مرة ، وهو ما يؤكده النجمى فى سيرته الفنية .

ولكنه لايستطيع إلا أن يعلن مخالفته لعبد الوهاب حين يتبين له أن هذا الفنان الكبير كان يرى فى « النجاح الجماهيرى » المقياس الصحيح للعمل الفنى ، و« النجاح الجماهيرى » ليس إلا اسماً آخر للولع بالشهرة . وكمال النجمى ناقد مرهف الذوق ، ومعيار « الغناء المتقن » – الذى يعرفه عبد الوهاب حق المعرفة !! – حاضر أبداً فى ذهنه ، ثم هو باعتباره مؤرخاً لفن الغناء يعرف أن مسيرة هذا الفن تتعرض للهبوط أحياناً حين يصبح « النجاح الجماهيري » هو

القفز على الأشواك

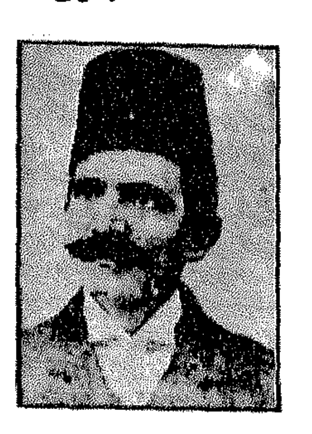
المقيـاس الأوحد ، أو المقياس الصحيح .

وتذوق الموسيقى والغناء – كما هو الشأن فى سائر الفنون – يتطلب درجة من العلم بأصولهما وأنواعهما ، والموسيقى بحرها واسع ، وقد كتب الدكتور حسين فوزى مرة – ومعروف عنه أنه تخرج فى طب العيون ولكنه هوى الموسيقى هواية أربت على الاحتراف – إن دراسة الموسيـقى أصـعب وأطـول من دراسة الطب ! وهذا الذى قاله يصدق على الموسيقى السمفونية الشديدة التركيب ، ولكن موسيقانا العربية لها أصولها وأنواعها وألوانها أيضا ، وإذا كان معـظم أعلامها حتى الماضى القريب قد فاتتهم فرصة التعليم المنظم ، فقد حصّلوا بالمشافهة والتدريب والخبرة العملية علماً غير قليل ، وكانوا ينتفعون بالتلمذة المباشرة لمن سبقوهم ، جيلاً بعد جيل، ويترقبون الفرص لالتقاط ما يمكنهم إلتقاطه من علم نظرى – ومن هؤلاء محمد عبد الوهاب ، فبعد أن لازم سيد درويش مدة من الزمن أتيح له أن يتلقى حظا من الدراسة المنظمة فى « نادى الموسيقى الشرقى » الذى أنشأه عدد من الوجهاء المعذبين بالموسيقى ومعهم بعض الموسيقيين المحترفين ، وجعلوا فيه قسماً لتعليم الغناء والعزف على العود ، ويقول كمال النجمى إن عبد الوهاب تعلم فى هذا « النادى » العزف على العود على يدى محمد القصبجى ، بـل أتقـن القـراءة والكتـابة أيضا ، وكأن هذا الفتى الطموح كان يعد نفسه لصداقة كبيرة صقلت ذوقة الأدبى : صداقته لأمير الشعراء أحمد شوقى :



كمال النجمى والموسيقى الشرقية

أما كمال النجمى كاتب سيرة عبدالوهاب وناقده فما أدرى كيف حصل كل هذا العلم بالموسيقى الشرقية . بل وبالموسيقى العالمية إيضا ! ولكننى استمتعت بكتابه وأفدت منه فى تثقيف ذوقى فى الاستماع كما أفيد من أحاديث حسين فوزى ورتيبة الحفنى وعمار



سلامة حجازى



محمد القصبجى

الشريعى ، سوى أننى أستريح إلى الكتاب أكثر مما أستريح إلى الحديث المسموع ، فالكتاب تستطيع أن تردد النظر فيه ، وأن تسترجع ما فات من صفحاته ، ولا تستطيع مثل ذلك مع الحديث المسموع ، وقد شعرت بعد أن فرغت من هذا الكتاب أن الغناء العربى والموسيقى العربية أصبحا أقرب إلى نفسى ووجدانى ، عرفت طريقة الموال وتلاعبه بالإيقاع والمقامات ، وعرفت شكل الدور وشكل الطقطوقة وشكل المونولوج ، وكيف تتمايز أو تتداخل ، وأعجبتنى المقارنة بين التحميلة والكونشرتو والمقارنات الكثيرة بين الموسيقى الشرقية والموسيقى الغربية ، وبين الغناء العربى المعتمد على الإنشاد الدينى ، والغناء التركى والغناء الهندى ، وأعجبتنى - كدارس أدب - المقارنة بين عبده الحمولى ومحمود سامى البارودى .

إن هذا الضرب من المعرفة ليس من قبيل « الثقافة العامة » التى يظنها من لا دراية له بالثقافة بمعناها الحقيقى أمشاجا من المعلومات لا يربط بينها رابط ، بل الثقافة الفنية التى تنصب على معرفة الأشكال هى سبيل الاستمتاع الحقيقى بالفن ، فالاستمتاع بالفن مبنى على التوقع ، وبراعة الفنان فى إشباع توقعاتك أو مراوغتها هى سر الخلابة فى الفن ، هل جمال القافية فى الشعر إلا أن تطابق توقعك أو تفاجئه بتوقع آخر كان غائباً عن بالك ؟ وهكذا أنت فى الموسيقى أيضا : أين طريقك للدور إن لم تتوقع المذهب ؟ وأين طريقك للتحميلة إن لم تتوقع الآلة المنفردة بإيقاعها الخاص ؟ وأين طريقك للموال إذا لم تستسلم للمغنى وهو يذهب بك يمينا وشمالاً وعلوا وسفلا ؟

إن كمال النجمى يطل بنا على تاريخ الذوق وهو يؤرخ للغناء العربى والموسيقى العربية من خلال محمد عبد الوهاب ، وتاريخ الذوق يضم تحت عباءته الفنون كلها ، ويشير إلى ما يسمى حساسية العصر ويرصد تقلباتها ، وحساسية العصر هى سر التغيرات الاجتماعية ، هى روحها !

القفز على الأشواك

يقول كمال النجمى فى ختام الفصل الثانى ، وقد خصصه لطفولة عبد الوهاب وحالة الغناء فى العقد الأول من القرن العشرين : –

« انقضى العصر المملوكي العثماني ، وطويت صفحة الغناء البدائي الذى لم يكن أربابه يحتفظون من أصول الغناء العربي المتقن إلا بالقليل ، وجاء عصر محمد على باشا الكبير ، فكانت فيه بداية النهضة التى شملت مرافق البلاد ، وأيقظت فى الأمة الرغبة فى النهوض وتعويض ما فاتها طوال العصر العثمانى ، وكان الغناء والشعر فى طليعة موكب النهضة منذ بداية عصر محمد على الكبير ، فهما أول ما يسقط عند سقوط الأمة ، وأول ما ينهض عند نهضتها .. وقديما أشار ابن خلدون فى مقدمته إلى هذا المعنى بقوله : « أول ما يتراجع عند تراجع عمران البلاد ، صناعة الغناء ! ... » وإذا كان ارتباط الغناء بالعمران – أو الحضارة – قضية صحيحة على إجمالها فى عصر ابن خلدون ، فإنها فى عصرنا هذا – عصر « وسائل الإعلام الجماهيرية » صحيحة إجمالاً وتفصيلاً – أعنى أن تقدم وسائل الإعلام يشكل نوع الارتباط بين الغناء والحضارة .

ويتابع كمال النجمى تطور فن الغناء مع تطور ظروف الاستماع ووسائطه ، من مجالس الطرب فى الأعراس وحفلات القصور ودور الملاهى إلى عصر الأسطوانة الذى دخل فيه الغناء معظم الدور متوسطة الحال ، ثم عصر الإذاعة وعصر السينما ، وأخيرا عصر التليفزيون ، كان التأثير المباشر بصوت المغنى يتوارى خلف الأسطوانة ثم خلف الميكروفون ، ثم يندمج مع مؤثرات السينما فى عرض منوع تشاهده مختلف الطبقات والفئات والأعمار من « سميعة » وغير سميعة ، وقد أدرك عبد الوهاب أواخر عصر المسرح الغنائى المزدهر – عصر سلامة حجازى ومنيرة المهدية وسيد درويش ، ولكن مجده الفنى بدأ مع مجد الأسطوانة وقام على استيعاب الغناء القديم المتقن ثم الابتكار والتجديد فيه حتى أصبحت

رتيبة الحفنى



العاطفة الفردية الرومانسية هى طابعه المميز . ولم يزل حريصاً على هذا الطابع فى ألحانه حتى آخر عمره ، لولا الكم الهائل من الأناشيد والأغانى الوطنية التى كانت تذاع على الناس من الإذاعة والتليفزيون لتواكب الأحداث المتلاحقة منذ حركة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ .

لعل التحليل الاجتماعى لدور الغناء طوال هذه الفترة التى بدأت قبيل ثورة ١٩ وأثناءها وعاصرت نظما سياسية مختلفة وتحولات جذرية فى التركيبة الاجتماعية – أقول لعل التحليل الاجتماعى طوال هذه الفترة لا يزال فى حاجة إلى دراسة مفصلة من ناقدنا ، وفى كتابه هذا لمحات كاشفة تنبىء بأن لديه الكثير مما يمكن أن يقال فى هذا الباب .

كيف تطور فن « الطقطوقة » الخفيفة الحابتة – إلى حد المجون أحيانا على يدى سيد درويش ومؤلفى أغانيه المسرحية لتعبر فى بساطة وصدق على الأحداث الكبيرة والصغيرة أثناء الثورة الوطنية الكبرى سنة ١٩١٩ ... « فلم يجعلوا الكلام عن الوطن والاستقلال والحرية خارجاً عن مألوف الكلام المتبادل بين الناس ... ... كلمات بسيطة لا يشوبها ادعاء البطولة أو عدم المبالاة بمطالب الحياة اليومية الخانقة ... إن الزعيق العالى المجرد من نبض الحياة لا يصنع أغنية شعبية ولا أغنية ثورية ، وإنما يصنعها هذا الأسلوب البسيط الصادق الذى كان سيد درويش ومؤلفو أغانيه يخاطبون به المستمعين » .

فإذا جاء ناقدنا إلى «عصر الأناشيد » فى تاريخ عبد الوهاب الفنى لم يجد ما يستحق التعليق ، وإنما هـى جـملة واحـدة تقول : « وأسهم عبد الوهاب فى (حرب الأناشيد) كما أسهمت أم كلثوم وعبد الحليم حافظ والآخرون . » ثم سرد لعناوين أناشيد عبد الوهاب .


سيد درويش

- والصمت عن التعليق أحيانا .. أبلغ من كل تعليق ، ويمكننا نحن أن نأتى بالتعليق من هـناك إلى هنا ، ثم نطالب ناقدنا الأديب بكتاب جديد يفرده لدور الغناء فى مجتمعنا ، منذ بدايات النهضة حتى اليوم ..



ابن حنبل وإسحاق الموصلى

بقلم : كمـال النجمى

فى هلال الشهر الماضى تحدثنا عن تلاوة القرآن الكريم بالألحان ، فأخذتنا السياقة إلى « مفارقة » تاريخية - إن صح أن تسمى مفارقة - بطلاها أحمد بن حنبل إمام أهل السنة العراقيين فى عصره ، واسحاق الموصلى إمام أهل صناعة الغناء فى ذلك العصر .. أما ابن حنبل فهو المشهور بالتشدد فى الدين ، وأما إسحاق الموصلى فكان ذا دين وعلم بالدين ، ولكنه كان مغنيا ملحنا ، احترف الغناء والتلحين سبعين سنة فى العصر الذى عاشه ابن حنبل ، فكان إسحاق علَماً على الدنيا ، وابن حنبل علما على الدين ، ولكن الغيرة على اللغة العربية جمعتهما على غير اتفاق ، فعاشا يدعوان إلى نطق ألفاظها نطقا صحيحا ، ويرفضان كل نطق غير صحيح !.

وعندما سئل ابن حنبل عن التلاوة بالألحان أنكرها لأنها تشوه نطق ألفاظ القرآن الكريم ، وقال لسائله : ما اسمك ؟ فأجاب : محمد .. فسأله ابن حنبل : أيسرك أن يقال لك : يا موحماد ؟ .. (أى بمد الميم المضمومة حتى تصير واوا ، ومد الميم المفتوحة حتى تصير ألفا) .. كأنه أراد أن يقول إن التلاوة بالألحان تشوه



نطق الألفاظ ، إذ يضطر صاحبها أن يساير إيقاع الألحان وأوزانها ..

والظاهر أن ابن حنبل لم يسمع قراءة بالألحان إلا من بعض الضعاف الجاهلين بأصول القراءة وأصول الألحان ، فظن – رحمه الله – أن النطق الشائه ملازم دائما للتلاوة بالألحان ، وهو ظن في غير محله ، فعسى أن يكون القارئ بالألحان أصح ممن يقرأ بغيرها ..

وابن حنبل عاش في القرنين الثاني والثالث للهجرة أكثر من سبعين عاما شهد خلالها عصر الرشيد والأمين والمأمون والمعتصم والواثق والمتوكل .. وهؤلاء الخلفاء العباسيون جميعا كانوا يسمعون الغناء ، وكان « الواثق » يلحن ويغني ويتولى تحفيظ جواريه بعض ألحانه . وبقي يغني ويلحن مدة ولايته للعهد ومدة خلافته .

وكانت بين المعتصم وكبير قضاته أحمد ابن أبي دُواد مناظرات حول الغناء ، فكان المعتصم يجلس للسماع ، وابن أبي دواد لايفعل ، ثم اقتنع آخر الأمر برأي أمير المؤمنين وجلس للسماع .

وابن أبي دواد هذا من غلاة المعتزلة ، وكان شديداً في عدائه لابن حنبل ، وقصة هذا العداء طويلة معروفة ، ولكنهما اجتمعا حينا – بلا لقاء – على كراهة الألحان ، في القرآن وغير القرآن ! ..

والآفة التي كان ابن حنبل يخشى أن تلحق بألفاظ الكتاب عند تلاوته بالألحان لم تكن وقفاً على بعض القراء في عصر ابن حنبل ، بل كان بعض المطربين الكبار مصابين كذلك بتلك الآفة ، ومنهم إبراهيم ابن المهدي ، أخو الخليفة هارون الرشيد .

كان إبراهيم بن المهدي كبير المطربين





الهواة فى عصره ، وكان صوته أجمل الأصوات حتى قال بعضهم إنه « أجمل الإنس والجن والوحش والطير صوتاً » ! .. ولكنه كان لا يلتزم فى كثير من غنائه بالنطق الصحيح ، فعاب عليه ذلك شيخ صناعة الغناء إسحاق الموصلى – وهو معاصر لابن حنبل من عهد الرشيد إلى عهد المتوكل – وشدد إسحاق النكير على ابن المهدى ، لأن هذه الطريقة تخرج الألفاظ عن أوضاعها الصحيحة ، وهو ما عابه ابن حنبل على ضعفاء القراء الذين سمع تلاوتهم الرديئة بالألحان ! ..

كلام العجم والروم

كان إبراهيم بن المهدى لا يفتأ يزعم أنه « يجندر » الغناء الموروث عن فحول مطربى العصر الأموى وبداية العصر العباسى ، فكان إسحاق الموصلى يقول له فى ازدراء :

– أيها الأمير .. إنك تفسد ولا تُصلح ، وتهدم ولا تبنى ، وتجاوز مالا تستطيع أداءه من غنائهم الجزل الكثير ، إلى شئ منه ، قليل خفيف ، تظن أنك تستطيعه ، وما أنت – أيها الأمير – فى هذه الصناعة بأعلم من أهلها ، وليس لك حق اللعب فى عملهم المتقن البديع ؟ ..

وطال جدالهما يوما فقال له إسحاق :

– أخبرنى أيها الأمير عن قولك فى أول قصيدتك التى تستعطف بها أمير المؤمنين المأمون :

ذهبتُ من الدنيا وقد ذهبتْ منى
هوى الدهرُ بى عنها وولّى بها عنى

أى شئ كان معنى لحنك الذى صنعته فى شعرك هذا ، وأنت تعلم أن هذا الكلام إذا غنيته بهذا اللحن لم تستطع إلا أن تقول : « ذهبتو » .. بالواو .. فإن قلت : «ذهبتُ» بضم التاء ولم تمدها فتجعلها واوا ، انقطع اللحن وانكسر الضرب ، وإن مددت ضمة التاء فجعلتها كالواو فسد الشعر وصار كلامك قبيحا ككلام النبط والعجم والروم ! ..

رد عليه إبراهيم بن المهدى ساخرا :

– لا تنكر نطقى يا إسحاق وأنت أعجمى جرمقانى الأصل ، تلقّن أبوك اللغة من جرامقة الموصل وتلقنتها أنت عنه ، وأما أنا فقرشى هاشمى ، فأين أنت منى ؟!

صمد إسحاق الموصلى لهذه الاهانة وقال :

– الجرمقانى والله منا ، أشبهنا بالجرامقة لغةً ونطقا ، وهو الذى يقول : « ذهبتو » .. ولو كان من قريش ! ..

الجهل بالصناعة

وغنى إبراهيم بن المهدى ذات ليلة لحنا من صناعة إسحاق الموصلى فأنكر عليه إسحاق أخطاء النطق ، فضلا عن أخطاء الصناعة ، وسأله محتدا :

– كيف تغنى هذا الصوت على غير الوجه الذى سمعته منى ؟! ..

قال ابن المهدى يحاول تهدئته :

ـ جُعلت فداك .. إنما أردت أن ألعب فى وسط هذا الصوت لعبا أعجبنى ! ..

استفز قوله إسحاق فصاح فيه :

– يا هذا .. إذا أردت أن تلعب فالعب فى غناء نفسك لا فى غناء الناس ، واصنع أنت إن كنت تُحسن أن تصنع ، والعب فى صنعتك كما تشتهى ، غير مُشاركٍ فى جد الناس بلعبك ، ومُفسدٍ له بما لا تعلم ! ..

قال ابن المهدى معاتبا :

– إنما جندرت لحنك هذا وهذبته ! ..

اشتد الغضب باسحاق فقال بصراحة :

– يا هذا .. إن لحنى الذى لعبت فيه ليس يتهيأ لك أن تمخرق علينا وتقول : جندرته ، كما اعتدت أن تقول كلما لعبت بصناعة القدماء الذين كانوا يحسنون تمام الصنعة ، ولم يعجزوا قط عما يكمل به الغناء ويتم ويحسن ، ولم يتركوا بعدهم أشياء لم يهتدوا إليها واهتديت إليها أنت بزعمك فجئت تنبه عليها وتجندر ما شئت ، جهلا بأصول الصناعة ! ..

ابن حنبل واسحاق

هكذا .. لم يكن ابن حنبل وحده فى ذلك العصر يستنكر الخطأ فى نطق القراء بالألحان ، بل كان إسحاق الموصلى أيضا يخوض معركة لا تنتهى ضد المغنين الذين لا يستوفون أصول النطق العربى فى غنائهم .. وكان العصر كله حافلا بالعلماء والفضلاء الذين يطاردون العبث باللغة .. وفى ذلك العصر ظهر أئمة اللغويين والنحويين ، ووضع الخليل بن أحمد علامات الشكل لضبط حروف القرآن ، ووضع العروض للشعر العربى ، حفاظا على لغته وأوزانها ونطقها ، وتابع عمله تلميذه سيبويه فوضع « الكتاب » وهو بحر اللغة الزاخر ، ولا نستطرد وراء ما صنعه علماء عصر ابن حنبل فليس هذا مقصودا





.. وحسبنا أن نقول إن هارون الرشيد كان يتظر من وقت إلى آخر فى الكتيب الذى وضعه له الكسائى عالم الكوفة ، عن الألفاظ التى يخطئ العامة فى نطقها أو فى فهم معناها .

فلا عجب أن اشتد إسحاق الموصلى على الأمير إبراهيم بن المهدى فى استنكار تهاونه فى نطق الألفاظ ، ومد الضمة حتى تصير واوا ، والفتحة حتى تصبح ألفا ، والكسرة حتى تنقلب ياءً .

وقد جرت بينهما مناظرات كثيرة شائقة ، ذكرها الأصبهانى وغيره ، وتنوقلت كلها بالرواية إلا مناظرة واحدة ذكرها الأصبهانى فى كتاب الأغانى مباهيا بأنه قرأ نصها مكتوبا بخط إسحاق ، وعلى ظهر الورقة رد ابن المهدى بخطه أيضا .

كان إبراهيم بن المهدى يرى « تحريك » الغناء – على حد تعبيره – ومعناه حذف التركيبات اللحنية الكثيرة ليصبح الغناء – فى رأيه – أخف على النفس ، وكان يقول : « إنما أنا ابن ملك ألعب بهذه الألحان » .. أى أن عمله فى تحريك الألحان وجندرتها لم يكن يعدو التسلية وتزجية الفراغ واستكمال الترف ! ..

أما اسحاق الموصلى فكان شديد الإحساس بمسئوليته حيال فن الغناء ، لأنه كان المقدم على جميع المغنين والملحنين .. وصفه أبو الفرج الأصبهانى بأنه « إمام أهل صناعته جميعا ، ورأسهم ، ومعلمهم .. يعرف ذلك الخاص والعام ، ويشهد به الموافق والمفارق » .. وأنه الذى « صحح أجناس الغناء وطرائقه ، وميزه تمييزا لم يقدر عليه أحد قبله ، ولا تعلق به أحد بعده » ..

ولما احتدم الخلاف بين إسحاق الموصلى وإبراهيم بن المهدى فى أواخر عهد الرشيد ، تدخل الرشيد بينهما واشتد فى تأنيب أخيه « ابن المهدى » وتعنيفه قائلا :

- أتستخف بإسحاق الموصلى وهو نديمى وابن نديمى ؟! .. هاه .. هاه ! .. وأنت مالك وللغناء ؟! .. وما يدريك ماهو ، ومن أخذك به وطارحك إياه ، حتى تتوهم أنك تبلغ فيه مبلغ إسحاق الذى غُذى به رضيعا ، وهو صناعته وصناعة أبيه ، ثم تظن أنك تخطّئه فيما لا تدريه ، ويدعوك إلى إقامة الحجة ، فلا تثبت لذلك وتعتصم بشتمه .. أليس هذا مما يدل على السقوط ، وضعف العقل ، وسوء الأدب ؟ .. مِنْ دخولك فيما لا يشبهك ، وَغَلَبَةِ ذلك على مروءتك وشرفك ، وإظهارك الغناءَ ولم تُحْكِمْهُ ، وادعائك ما لاتعلمه ، حتى ينسبك الناس إلى الجهل المُفْرِطِ » ! ..

المناظرة المكتوبة

وفى أواخر حياة إبراهيم بن المهدى الذى توفى قبل إسحاق الموصلى بعشر سنوات تقريبا ، جرت بينهما المناظرة المكتوبة التى سلفت الإشارة إليها ، والتى قال الأصبهانى إنه قرأها بخط إسحاق وخط ابن المهدى عند الورّاقين فى منتصف القرن الرابع الهجرى أى بعد وفاة إسحاق وابن المهدى بأكثر من مائة عام .

كان إسحاق وابن المهدى - كلاهما - من أعلى طبقات الأدباء والكتاب ، يبدو ذلك فى كتب إسحاق وشعره ، وفى شعر ابن المهدى وخطبه ، كما يبدو فى رسالتيهما هاتين اللتين نقلهما الأصبهانى بنصهما فى « كتاب الأغانى » وقد كتباهما عفو الخاطر ولكنهما جاءتا فى الغاية من طبقات البيان ، ويضيق المقام عن نقلهما ، ولكن أول الخلاف وآخره بين إسحاق الموصلى وإبراهيم بن المهدى ، أنَّ ابن المهدى كان ينطق الكلمات فى الغناء نطقا غير صحيح استجابة للمسار اللحنى الخاطئ الذى زعم أنه يحرك به الغناء أو يجندره ! ..

وهذا الخلاف على نطق الألفاظ ، هو نفسه الخلاف الذى كان بين ابن حنبل وبعض قراء عصره الذين كانوا يخطئون فى النطق عند تلاوة القرآن بالألحان ، وقد كانت صحة النطق مطلبا عاما فى ذلك العصر للخلفاء والعلماء والشعراء واللغويين والعروضيين ، وكان ابن حنبل - على طريقته الخاصة - واحدا من هؤلاء ، كما كان إسحاق الموصلى - على طريقته أيضا - واحدا منهم ، فكثر المتشددون فى طلب صحة النطق وصحة اللغة بين رجال الدين ورجال الدنيا .

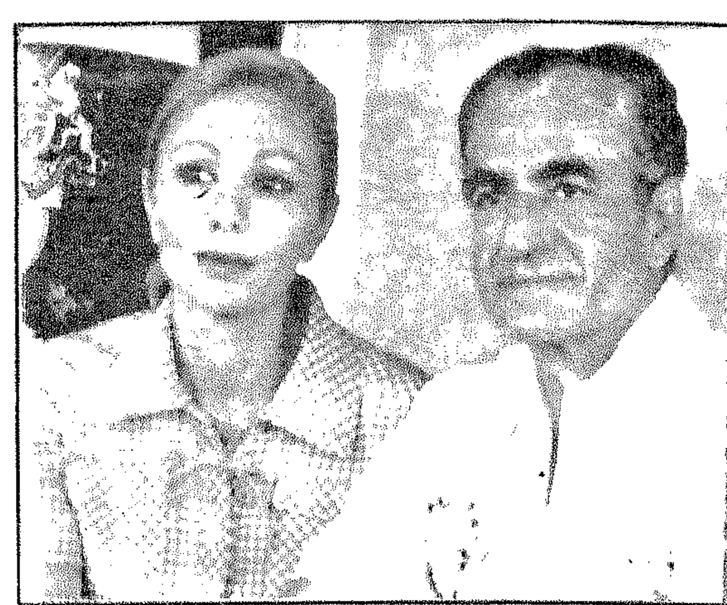
ولو صح النطق فى عصرنا الحاضر ، فى « نشرات الأخبار » فقط لكان ذلك إرهاصا ببعث جديد لهذه الأمة العربية التى لو مات لسانها لم تستطع أن تحيى ، ولصارت لضجتهما أندلسية ، كما كان يقول القدماء ، ولعلها أوشكت أن تصير كذلك ونحن لا ندرى ! ..



اليوميات السرية لرئيس وزراء إيران الأسبق وزير البلاط فى عهد الشاه أسد الله عَلَمَ

عرض وتقديم : حسين أحمد أمين

ثمّة صنفان من الكتب : كتب تكتسب أهميتها من طبيعة موضوعها ! وكتب تتوقف أهميتها على مؤلفها وطبيعة نظرته الفريدة إلى الموضوع الذى يتناوله ، مهما كان هذا الموضوع ... وقد يكون للكتب الأولى أهمية ضخمة حتى إن كان مؤلفوها أناسا عاديين أو سطحيين خالين من الموهبة ، كالكتب التى تتحدث عن رحلات إلى مناطق نائية غير معروفة ، أو ظواهر طبيعية غير مألوفة ، أو أحداث خطيرة شهدها المؤلف وساهم فيها ، أو شخصية مرموقة كان الكاتب صديقا حميما لها ، أو وقائع تاريخية قضى الباحث زمنا طويلا ، وبذل جهدا ضخما ، فى سبيل دراسة الوثائق الأصلية الخاصة بها .. أما الصنف الثانى فالغالب فيه أن يكون الموضوع عاديا أو مألوفا ، وإنما تعود قيمته الفذة إلى عبقرية الكاتب الذى يضفى رونقا وجدة على كل ما يتحدث عنه ، ويلقى ضوءا ساطعا على جوانب خفية من عواطف نخبرها جميعا ، أو أحداث عاصرناها وألممنا بتفاصيلها ، أو قصص طالما سمعناها من قبل .. وهل فعل إسخيلوس أو سوفوكليس أو يوريبيديز أو شكسبير مثلا غير أنهم تناولوا فى مسرحياتهم موضوعات كان مشاهدوها على علم سابق بها ؟



الشاه وفرح ديبا

الخمينى

والكتاب الذى نعرضه اليوم هو من الصنف الأول من الكتب .. قد يكون مؤلفه معروفا أو مجهولا لدى هذا القارىء أو ذاك ، وقد يتفق القراء بعد قراءة الكتاب على أن صاحبه خالٍ من الموهبة الأدبية ، أو حتى من الحنكة السياسية ، وعلى أنه لا يتمتع بأية صفة من صفات الشخصية النبيلة أو السويّة ، غير أن كل هذا لم يحل دون أن أعتبر الكتاب من أمتع ما قرأت من كتب خلال السنوات القليلة الماضية .

وهو وثيقة شائقة مذهلة من وثائق التاريخ السياسى والاجتماعى المعاصر . فهو لا يقتصر فى عرضه للأحداث فى السنوات ما بين ١٩٦٩ و ١٩٧٧ على كشف مجريات الأمور فى إيران وفى القصر الإمبراطورى ، وإماطة اللثام عن الأسباب الحقيقية التى أدّت إلى اندلاع الثورة الإيرانية والإطاحة بحكم الشاه عام ١٩٧٩ ، وإنما يكشف أيضا عن خفايا السياسة الدولية ، ولعبة الأمم ، والضغوط التى تمارسها الدول العظمى على دول العالم الثالث ، وعن حقيقة أنظمة سقطت وأنظمة لا تزال قائمة ، وشخصيات عالمية وملوك وحكام ، وعن دور إسرائيل فى منطقة الشرق الأوسط ، بالإضافة إلى مئات من الموضوعات التى تتراوح بين ماله أهمية دولية قصوى ، (كارتفاع سعر النفط فى أوائل السبعينيات وآثاره بعيدة المدى ، واتفاقية الجزائر عام ١٩٧٥ بين إيران والعراق حول شط العرب) ، وبين الحديث عن شخصية الشاه ومسلكه وغرامياته العديدة ، وعلاقته المتوترة مع زوجته فرح ديبا وابنته شاهناز ، وإخوته من ذكور وإناث وفضائح البلاط

المؤلف ويومياته

فأما المؤلف الأمير أسد الله علم (١٩١٩ - ١٩٧٨) فأرستقراطى نبيل ينتمى إلى عائلة من أعرق العائلات الإيرانية . وقد ظل لأكثر من عشرين عاما أقرب المقربين إلى الشاه محمد رضا بهلوى ؛ يجتمع به كل يوم تقريبا ، وكثيرا ما يتناولان معا وجبتى الغداء والعشاء ، وأحيانا الإفطار أيضا . وهو محط ثقة الشاه المطلقة ، سواء فى الأمور السياسية أو العائلية ، أو فيما يتصل بالمغامرات النسائية الشائقة .. وهما فى سن واحدة ، وهواياتهما واحدة (التنس وركوب الخيل) ، والإثنان يتمتعان بقدرة فائقة على العمل لساعات طويلة كل يوم . وإذ عيّنه الشاه رئيسا للوزراء عام ١٩٦٢ ، كان لأسد الله فضل إنقاذ نظام الشاه من أول محاولة يقوم بها آية الله الخمينى لتأسيس دولة إسلامية فى إيران ، وذلك حين أمر أسد الله الجيش بإطلاق النار على جموع الثائرين ، وقمع حركتهم بكل وسائل العنف ، ثم قضى بعد ذلك بنفى الخمينى من البلاد . وقد عُين بعد ذلك وزيرا للبلاط وهو منصب كان أكثر أهمية ونفوذا من منصب رئيس الوزراء ، وأضحى من وقتها المسئول الأول عن اتصالات الشاه بالدول الأجنبية ، والملوك والرؤساء ، وإبلاغ الوزراء وقادة الجيش بتعليمات سيّده ، وترتيب لقاءات الشاه بعشيقاته خفية عن زوجته الثالثة فرح ديبا ، إلى أن أضطر إلى الاستقالة عام ١٩٧٧ (أى قبل وفاته بسنة) لإصابته بالسرطان .

وقد كان أسد الله علم طوال توليه لوزارة البلاط يسجّل كل ليلة تقريبا قبل أن يأوى إلى فراشه يوميات سرية بكل ما حدث خلال اليوم ، وما دار بينه وبين الشاه أو السفراء الأجانب أو الملوك والرؤساء الزائرين لإيران من أحاديث . وهو بالرغم من حبّه وولائه الصادقين للشاه ، كان كثيرا ما ينتقد مسلك سيّده فى يومياته ، ويعبّر عن خشيته وقلقه من أن تؤدّى أو توقراطية الشاه ، ورفضه إتاحة الفرصة للشعب الإيرانى للمشاركة فى اتخاذ القرار ، وفساد الوزراء ورجال الحاشية وأفراد الأسرة المالكة ، ووحشية معاملة السافاك للمعتقلين السياسيين ، إلى نشوب ثورة تودى بنظام الحكم . غير أن أسد الله كان يخشى أن يطلّع على يومياته من ينقل الخبر بمحتوياتها إلى الشاه ، فكان يحرص عى أن يودع أجزاءها بين الفينة والفينة فى خزانة بأحد البنوك السويسرية . وقد ظل أمر هذه اليوميات سرا إلى أن أفشاه أسد الله إلى زوجته

حين أحس باقتراب أجله طالبا منها أن تؤجل نشرها إلى ما بعد انقضاء أمد حكم أسرة بهلوى لإيران .

وفى شهر يونيو ١٩٨٧ رأت أرملة علم أن الوقت ربما قد حان لنشر يوميات زوجها فدعت بها إلى علي غني علي خاني المدير الأسبق لجامعة طهران ووزير الاقتصاد لمدة ست سنوات فى حكومة أسد الله علم ، طالبة منه الإشراف على ترجمتها إلى الإنجليزية ونشرها في لندن ، مع اختصار الأصل الفارسى المكّون من ألف وخمسمائة صفحة إلى نحو الثلث . وكان أن نهض علي خاني بهذه المهمة ، حاذفا من الأصل كل الإشارات إلى أفراد لا يزالون مقيمين فى إيران خشية تعرضهم لما يكرهون من قبل السلطات الجديدة فيها .

شخصية الشاه

فالصراحة التامة إذن هى السمة الغالبة على هذه اليوميات . وبالرغم مما ذكرناه عن صدق ولاء علَم للشاه وحبّه له ، فإن الصورة التي يرسمها لسيده وصديقه هى صورة رجل كريه سطحى صلف ، شديد الإيمان بحكمة قراراته ، وبأنه لايمكن أن يخطىء ، عظيم الاحتقار لوزرائه وكبار القادة فى جيشه ، بل وللزوار الأجانب من ملوك وأمراء ورؤساء ووزراء ، يفتقر إلى كل الشروط التى تتطلبها إقامة علاقات أسرية دفيئة ، أو صداقة حميمة ، وإلى المبادىء الأخلاقية والعواطف الإنسانية ، ضعيف الثقة بقدرة شعبه «المتخلف» على أن يجاريه فى أحلامه وتطلعاته إلى أن يجعل من إيران «يابان الشرق الأوسط» ، وأن يبنى فيها «حضارة عظيمة بوسعها أن تلحق بالغرب فى ظرف عشر سنوات ، دائم التعبير عن استيائه من جحود شعبه وضعف إمتنانه لكل ما يبذله من أجل رفع مستوى معيشته ، والإعلاء من شأن دولته .

غير أن الواضح أيضا من خلال هذه اليوميات أن الشاه كان يخفى وراء عجرفته وغطرسته وصلفه ، شعورا عميقا بالضعف والإحساس بالقلق إزاء المستقبل . ولم تكن نوايا الاتحاد السوفييتى تجاه إيران هى مبعث هذا القلق كما ظن الكثيرون . فقد كان مطمئنا تماما إلى أن الغرب لن يسمح أبدا بسقوط إيران فى براثن الشيوعية . وإنما كان مبعث قلقه الأكبر هو خشيته من أن يفكر حلفاؤه الأمريكيون والبريطانيون فى يوم ما فى الإطاحة بنظامه متى رأوا أنه لم يعد يحقق لهم مصالحهم فى المنطقة ، أو أنه بات يهدّد هذه المصالح ، بالضبط كما أطاحوا بوالده رضا بهلوى عام ١٩٤١ لاتهامهم إيّاه بالميل إلى النازية ودول المحور .

وقد ظل الشاه إلى وقت نشوب الثورة الإسلامية مؤمنا بأنه لم يرتكب خلال سنوات حكمه الطويلة خطأ يذكر ، وبأن فضله على إيران لا يدانيه فضل أى حاكم لها على مدى ألفى سنة وخمسمائة ، وبأنه يحكم شعبا قوامه فلاحون سعداء بوضعهم ، وعمال راضون بحالهم ، يتمتعون بثمار ما وفره لهم من تعليم مجانى ، ورعاية صحيّة مجانية ، ورخاء مادى ناجم عن تمكنه بسياسته الحكيمة من رفع سعر النفط فى السوق العالمية . وقد كان يحيط نفسه دائما بمن يحرص الحرص كله على إخفاء حقيقة الأوضاع عنه ، وغضب الشارع الإيرانى على استبداده ، وفساد وزرائه ، وما يعانيه الشعب رغم عائدات النفط الكبيرة من ضائقة اقتصادية شديدة . وكثيرا ما تعرّض أسد الله علم نفسه لغضب الشاه وإهاناته حين حاول أن ينبهه إلى واقع الأمور وإلى ضرورة السماح بقدر أكبر من الديمقراطية وحرية التعبير . فالشاه لا يستمع إلا إلى ما يريد سماعه : المديح لإنجازاته ، والإشادة بخدماته للأمة ، وتقارير حكومته ومخابراته عن حال الرخاء والرضا التى يعيش شعبه فيها . وهو يصر على نسبة كل إنجاز إيجابى إلى نفسه ، فإن حقق وزير له قدرا معينا من النجاح فإنما حققه بفضل إرشادات الشاه وتوجيهاته له ، وإن أساء أحد المسئولين التصرف فبرغم أوامر الشاه ونصحه ، وإن اكتسب أحد كبار رجال الدولة شعبية كبيرة كتلك التى أكتسبها الوزير المسئول عن الإصلاح الزراعى ، بادر الشاه بتنحيته عن منصبه ونسبة الإصلاحات إلى نفسه .

فعلى أفراد تلك الحاشية إذن وغيرهم من المنافقين المتملقين داخل إيران يقع جانب من المسئولية عن سقوط نظام حكم الشاه . غير إنه كان ثمة إلى جانبهم من الأجانب من طمأنوه بمديحهم على حكمة إداراته ، وروعة سياساته وحنكته . فهناك الرئيس الأمريكى الأسبق ريتشارد نيكسون الذى نسمعه يقول للشاه خلال حفل استقبال بواشنطن : « إن كل ما أنجزتموه ياجلالة الإمبراطور وكل ما تنجزونه يحمل سمة الجلالة » . وهناك وزير الخارجية هنرى كيسنجر الذى صرح بقوله إنه «ليس هناك فى زمننا هذا من هو أعظم من الشاه» وهناك نلسون روكفلر الذى نقرأ عنه فى يوميات أسد الله ما يلى :

الجمعة ٢٦ مارس ١٩٧٦:

«غادر صباح اليوم نلسون روكفلر طهران فى طريقة إلى الشرق الأقصى وأستراليا وقد حادثته فى طريقنا إلى المطار فى موضوعات شتى ، وكان من بين ما قاله إنه ساخط على بطء عملية اتخاذ

القرارات فى الولايات المتحدة ، عكس الوضع فى إيران ، وأنه يتمنى لو أن إيران أعارت جلالة الشاه لمدة عامين أو ثلاثة إلى الولايـات المتحدة ليعلمنا كيفية حكم البلاد» !

فرح ديبا

كذلك يتضح لنا من قراءة هذه اليوميات كذب ادعاء البعض أن الشاه كان قد عقد العزم قبيل نشوب الثورة على إدخال قدر أكبر من الديمقراطية فى نظام الحكم . فالمؤكد أنه كان دائما شديد الاحتقار للمبدأ الديمقراطى ، قوى الإيمان بأن لم يجلب على الدول الغربية غير الفوضى ، وأنه لا يتفق مع التقـــاليد الإيرانية . وربما خرج البعض من قراءة الكتاب بالإحساس بأنه لولا إغفال الشاه للأخذ بنصائح أسد الله علم ونصــائح زوجته فرح ديبا ، وإيصائهما المتكرر له بتطبيق الديمقـراطية ، لما فقد عـرشه ، والغريب فى الأمر أنه بالرغم مما سطّره علم مرارا فى يوميـاته عن كـراهية فرح ديبا له لعلمها بأمر ترتيبه لمغامرات زوجها النسـائية واشتراكه معه فيها ، فإن الصورة التى تبدو بها الامبراطورة فرح فى هذه اليوميات صورة مشرقة حقا ، ومشرفة حقا .

يكتب أسد الله علم فيقول :

«إن لدى جلالتها موهبة وضع أصبعها على أخطر أوجه القصور والضعف فى النظام القائم . غير أنها للأسف – وكما أخبرتنى هى نفسها – لا تنظر هى والشاه إلى الأمور بعين واحدة ، ولا يكادان أن يتفقا على شىء أبـداً » .

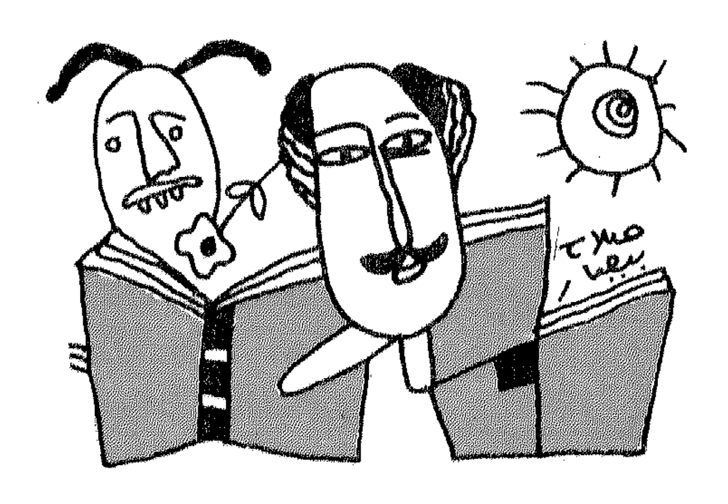
★★★

غير أن الفرصة كانت قد ولت حين أقر الشاه فى النهاية بالحاجة إلى إجراء «بعض الإصلاحات الصغيرة » !! ففى يناير ١٩٧٧ نسمعه يعترف لأسد الله علم قائلا :« لقد أفلسنا ، وغدا كل شىء مهدد بالتوقف » . كما نقرأ فى يوميات علم : «ثمة نذر رهيبة تنذر بكارثة محققة ، خاصة مع تدهور عائدات النفط ، والضغط المتزايد علينا من جانب الرئيس كارتر من أجل احترام حقوق الإنسان .. الأرض تميد بنا ، وكل شىء ينذر بالانهيار من حولنا » .

وقد كان أن انهار كل شى من حولهم مع بداية عام ١٩٧٩ .. غير أن أسد الله علم كان قد توفى قبل ذلك بتسعة أشهر ، وكان الشاه قد أضحى عاجزا تماما من أن يوقف المد الثورى فى بلاده .

حصـــــاد العمـــر

شعر : رشـــاد محمد يوســف



يا شعر ماعاد فى قلبى سوى ألمى .·. وذكرياتُ شبابٍ ملَّهـا قلمى
وحفنة من مواويـلٍ ... ملـونة .·. ألحانها فى الحَشَا مَشْبُوبة النغَم
وأمنيـاتٌ تـدانت فـى تعثـرها .·. وكنتُ أشتاق أنْ ترقى إلى القمم
وهـامةٌ لوحتها الشمسُ ما سجدتْ .·. ولا انثنى عزمُها يومـاً إلى صنم
وهمـةٌ لا تطيـقُ الضَيْم أثقلهـا .·. ما أثقلَ القلبَ من ضعفٍ ومن سقم
تمردتْ فى خطـاها واكتوتْ زمنـاً .·. بحـرقة الأسْر والأصفـاد والألم
لكنهـا وسـدادُ الـرأى يَعْصِمُها .·. عن زلّة الفكـر أو عن زلّة القـدم
عـزيزةٌ بجـلال الحـق شـامخةٌ .·. تسمُو إلى صَفْـوَةِ الأخلاقِ والشمم

ما عاد يا شعرُ من صحبى سوى كتبى .·. يحيطنى عطرُها بالــــود والكـــرم
تفيض أنفاســُها علمـــاً ومعـــرفةً .·. بــلا قيـــودٍ ولا مـــنٌ ولا نقـــم
سـميرةٌ فى الدجى والصبح صــادقةٌ .·. ذكيّةٌ النفــحِ عن صَخْـبٍ وعنْ رَحـمِ

ما عاديا شـعر للأشـوَاق بى شـغفٌ .·. إنْ قيلَ حبٌّ فحسـبى حُـرْقَةُ النَّدمِ
أرنـو إلى رحلة المـاضيِ ويُفْـزعُنيِ .·. زَيْفُ المشاعر والوجدان والـــذممَ

العــاذلون وكــمْ أحْصـــُوا بــلا مَللٍ .·. على الفؤاد فضـُولَ الخَطـْو والكلم
ســِــهامُهمْ فى حنـايا كلٌ جـارحةٍ .·. وكــلٌ ســـانحة من لَفطــةٍ لفــم
والله يعلم كـــمْ رَآبـــتْ ظلواهــرُنا .·. وفى جوانحنـا طُهْـرٌ من التهــــم
ياشـــعرُ والنـاسُ أهـــواءٌ موزعـــةٌ .·. وخَلْفَ أهوائهـم يَمْشــُونَ كالبهـم
تشــدُّ أعنـاقهم للـــزيف غـــايتهمْ .·. فلا تفـّــرقُ بين اللـــؤم والكـــرَمَ
مللّتُ يا شــعر غـدرَ النَّاس من زمنٍ .·. مللته بعد طـول الجَهْـــدِ والســـأمَ
من أُطعمِوا كِسـرتىِ أو أُشرِبوا عَسلَى .·. رحيقَ عَمْرٍ من الخيـــرات والنــعم
تـــراهم الآن والأحقـــادُ تأكلُهــمْ .·. والغيـــظُ يقـذفُ كالبــركان بالحَمـمِ
يعكّرِونَ صفـآءَ النبْعِ مـــا علمـوا .·. أنَّ المحبـــةَ يُنْبُوعٌ لكـــلِّ ظَــمِ

يا شــعرُ والعُمْرُ يَمْضى نحـــو غَاَيته .·. والخطْوُ يَرْكُضُ نحـو الشـَيْبِ والهرَمِ
هى الليــالى حصـادُ العُمــْر مَلحَمةٌ .·. وكــلُّ أبيـــاتها من لوعــــةٍ ودَمِ
يا شـعر حسبى وحسبُ العمر تَسْرِيَة .·. أنْ صُنْتُ فيه أصـولَ العهْدِ والقَســمِ
قـدمتُ شعـــراً كريمَ الأصـــلِ مَنْبِتُهُ .·. منْ أحْرُفِ النـــورِ أوْ من طَيِّب الكَلِمِ
قـدمت قلْبـــاً نقـــىَّ الوُدِّ شـــيِمَتُهُ .·. حبُّ الأخــلاء والأخْيـــارِ والشــّمَمِ

لماذا نكتب السيرة الذاتية ؟
التاريخ العلمى وجذور الإبداع

بقلم : د . مصطفى سويف

● تاريخ العلوم :

أوردنا فى الجزء الأول من هذا المقال والذى نشر فى العدد الماضى قول إدوين بورنج : إن بإمكان ما يحدثنا به الكاتب عن نفسه ، وعن قيمه أن يمضى شوطا بعيدا فى تنبيه القارىء إلى الكيفية التى تتحرك بها الدوافع البشرية لتصنع التقدم العلمى .

ويمكننا أن نضيف هنا أنه ينبه القارىء أيضا إلى أمور ، منها :

الكيفية التى ينتقل بها العقل (لا الدوافع فقط) من فكرة إلى أخرى ، ومن مجال من مجالات البحث خاصة أو الإنتاج عامة إلى مجال آخر ، والبدايات الأولى للتفكير فى حل المشكلات البحثية أو الفنية فى اتجاه جديد ، والمصادر التى أوحت بهذا التفكير وهذه البدايات ، وهذه اللفتات ، إلى آخر هذه الأمور التى من شأنها أن تعمّق فهمنا لتطور التفكير العلمى فى إحدى المشكلات البحثية أو الفنية عبر عدد من الشخصيات العاملة فى الميدان .

إن التاريخ المكتوب لتطور العلم (فى فروعه وفى مجموعه) لا يقل هشاشة عن التاريخ المكتوب لتطور الحياة الاجتماعية والسياسية . وقد أشرنا من قبل إلى سوأتين يعانى منهما هذا الأخير ، ونزيد فى هذا الموضع أن التاريخ المكتوب للعلوم والفنون يعانى من ذات السوأتين كما يمكن أن تكشفا عن نفسيهما من خلال المادة النوعية لهذه العلوم والفنون . ولا يمكن إبراء هذا التاريخ من هاتين السوأتين أو التخفيف من آثارهما الضارة إلا بالرجوع إلى ما قد يكون هناك من سير ذاتية للعلماء أو إلى كتابات تنتمى إلى هذه النوعية من التسجيل .

ومن الأمثلة الممتازة على حسن استغلال السيرة الذاتية لأحد العلماء

الأفذاذ فى إبراز بعض الحقائق التفصيلية فى تاريخ العلم ما فعله فرانسس داروين ببعض ما ورد من إشارات فى السيرة الذاتية لأبيه تشارلز ، إذ استعان بهذه الإشارات على متابعة مجموعة المفاهيم الرئيسية التى كانت تدور فى أوائل القرن التاسع عشر حول موضوع التطور فى عالم الكائنات العضوية والكائنات غير العضوية ، وكيف تجمعت هذه الأفكار ، ثم كيف توارى بعضها فى الظل وزاد البعض الآخر بروزاً وثباتا فى الصورة النهائية التى فرضت نفسها على كتاب « أصل الأنواع » ، بذلك استطاع داروين الإبن أن يؤرخ بصورة شديدة الإحكام لواحدة من أهم المنظومات الفكرية التى سيطرت على الفكر العلمى طوال القرن التاسع عشر . وما أوردناه هـنا عن تاريخ العـلم يصدق كذلك بالنسبة لتاريخ الآداب والفنون جميعا .

مهمة الكشف عن جذور الإبداع

فى النصف الثانى من هذا القرن العشرين الذى يوشك على الأفول ، ازدهرت البحوث العلمية الدقيقة فى سيكولوجية الإبداع كما لم تزدهر من قبل فى تاريخ علم النفس بصورته العلمية الحديثة ، وقد شمل هذا الازدهار الكم والكيف معاً . فتوالى نشر مئات الدراسات الصادرة عن عشرات المعامل السيكولوجية المنتشرة فى كثير من بلدان العالم ، وشملت هذه الدراسات فى تعددها جميع مجالات الإبداع فى العلوم ، والآداب والفنون والصناعة ، وغيرها . والشئ الجدير بالذكر هنا أن ازدهار هذه البحوث ارتبط فى بعض جوانبه بالسعى الحثيث فى بعض المجتمعات إلى التطبيق العملى لبعض نتائج هذه البحوث فى طريق التنمية الرأسية للطاقة البشرية المتوافرة لديها . فالمسألة إذن لا تقتصر أهميتها على أمور المعرفة الخالصة فحسب ولكنها تمتد لتشمل عالم التطبيقات العملية كذلك .

وهناك مناهج بحثية متعددة لإجراء بحوث الإبداع هذه .

ومن بين هذه المناهج ما يحتاج فى بعض مراحله الى الاستعانة بالنظر للسير الذاتية للمبدعين ، وما كان قريبا من طبيعته من هذه السير كالخطابات الشخصية التى كتبها هؤلاء المبدعون . فى هذه السير والخطابات (بالاضافة الى أنواع أخرى من الوثائق) نجد كثيرا من بذور الابداع كما كانت فى حالة الكمون التي سبقت فعلها فى عقول أصحابها . وقد حرص بعض الباحثين والناشرين النبهاء ، فى الفترة الأخيرة ، على أن يستكتبوا بعـض العلمـاء مـا أسـموه « القصص التى لم تنشر » عن بحوثهم فى ميادينهم المختلفة . ومن هذا القبيل ما نشره فى أواخر السبعينات اثنان من علماء النفـس همـا سيجـل وزايجلر تحت عنوان : « البحث السـيكولوجى : القصـة المُضمَرة » ، والاشارة فى هذا العنوان الى القصـة التى يعيشها العـالم بينه وبين

نفسه ، فى مقابل القصة الصريحة وهى البحث كما يرد فى شكل التقرير العلمى المنشور . فالقصة المضمرة هى قصة التفكير فى مشروع البحث منذ البداية ، والتردد ، والخطأ ، وطلب المشورة ، واكتشـاف الخطأ ، والتراجع عنه ، والفشل ، واليأس المؤقت ، وعـودة الحماس للعمل والاقتناع به ... الخ . وهى على هذا النحو مجرد فصل من فصول السيرة الذاتية للعالم وهو فصل شديد الالتصاق بنشاطه العلمى . فى هذا الكتـاب نجـد سيجل وزايجلر يستكتبان تسعة عشر عالما من علماء النفس التجزيبيين تسعةعشر فصلا ، يروى كل عالم فى الفصل الخاص به خبرته الحميمة بالتفكير والبحث فى أحد الموضوعات التى ملأت عليه حياته العلمية وحقق فيها انجازاً له وزنه . بعبارة أخرى كان المطلوب من كل منهم أن يكتب قصة ابداع أحد بحوثه أو قطاعاً من بحوثه ، كما عاشها فعلاً ، لا كما كتب نتائج البحث فى التقارير التى نشرها محكومة بتقاليد النشر العلمى . وبهذا الوصف جاء الكتاب مجموعة من الوثائق بالغة الأهمية فى الكشف عن دقائق النشاط العلمى لعقول العلماء اذ تصنع علماً . وفى مقدمة موجزة بقدر ما هى ثمينة يقول سيجل وزايجلر ، والخطـاب هنـا موجـه الى القـارىء : « سيثير انتباهك واعجابك حتمـا ، عنـدما تقرأ هـذه المختـارات ، سعة المـدى الذى تتنوع فيه الموضوعات القـابلة لأن تدرس بأساليب التجـريب السـيكولوچى . وسرعان ما تكتشف أن لكل معمل أسلوبه الفريد فى تناول موضوعاته . وبالتالى تصبح الأعمال الصادرة عن هذا المعمل لها طابعها المميز لها ... هذه الخاصية على وجه التحديد ، ونعنى بها الأسلوب الشخصى فى اجراء البحث ، ومواضع الاهتمام شديدة الفردية التى تتخلله ، هى السبب فى أنك سوف تقرأ هنا تسع عشرة قصة بحثية ، لا قصة بحثية واحدة تسع عشرة مرة ، ومع ذلك فبعد أن تفرغ من قراءة أربع قصص أو خمس من بين فصولنا سوف تبرز أمامك بعض التماثلات ... وربما كان على رأس قائمة التماثلات التى سوف تتكشف لك خاصية نسميها أحيانا المثابرة ، وأحيانا أخرى التكريس ، وأحيانا ثالثة مواصلة التأهب ... وأهم ما يميزها أن العالِمَ الموفَّق لابد له من مواصلة العمل حيث الاستمرار مشقة أكثر منه متعة . ومن التماثلات التى سوف تظهر لك فى حياة هؤلاء العلماء الموفَّقين أيضا الظاهرة التى نسميها أحيانا بـ « الإدراك الجانبى » ، أو الإدراك غير المقصود ، حيث تجد أمامك ما لم تكن تبحث عنه ... وهى (هذه الظاهرة) غالبا ما تقود العلماء الى ارتياد مجالات ما كان لهم أن يتوقعوا من قبل ارتيادها ... وغنى عن البيان أن حسن الحظ ليس وحده المطلوب هنا ، ولكن الأمر

يتطلب كذلك مستوى من التنبه الى أن شيئا هاما قد انكشف ، واستعداداً ايجابياً للتعامل مع هـــذا الشيء . ومن التماثلات كذلك ، التى تشيع فى فصول الكتاب ، صورة يبدو من خلالها تقدم العلم والتجريب شبيها بتفرع الشجرة ، فكل منعطف أو كل تجربة تزوّد العالِمَ بخيار جـديد للأفرع التى سوف يتسلقها بعـد ذلك . وليس لدينا أية وسيلة للتنبؤ مقدما ، عندما يكون الباحث فى بداية طريقه ، بأى فرع من فروع الشجرة سوف ينتهى به المطاف اليه » . وهكذا يواصل الناشران حديثهما عما سيجده القارىء فى فصول الكتاب من عناصر العملية الابداعية .

هكذا الحال فى هذه السير المحدودة ، وهكذا الحال فى السير الذاتية الموسعة ، سواء بالنسبة للعلماء والمفكرين والأدباء والفنانين ... الخ . نجد فيها معينا لا غنى عنه للباحثين فى موضوع الابداع ، ولايزال كاتب هذه السطور يذكر كيف أسفرت هذه السير عن نفائسها أمام عقله ووجدانه أيام بدأ دراساته فى الابداع الفنى وهو بعد فى بواكير الشباب ، عندئذ تبين له أن ما تزخر به أكبر كثيرا من كل ما أوتى من حول وطول فى اجراء بحثه ، فلم يكن أمـــامه بد من قـــرار للاكتفـاء بالقليل ، أما الكثير الباقى فأمره مرجأ الى مقبل الأيام ، وما قد تجود به عليه أو على غيره من الباحثين من فرص لارتياد هذا المعين الذى لايكاد ينضب .

والخلاصة

أن السيرة الذاتية انما تُكتب أو تُستكتب لما نتوسمه أو يتوسمه الغير فيها من أنها تنطوى على قيمة عامة . وأن هذه القيمة تتمثل فيما يمكن أن تقوم به من مهام فى الحياة الاجتماعية . وأن أخطر هـذه المهـــام شأنا أربع . هى : المهمة التربوية ، والمهمة التأريخية الاجتماعية ، ومهمة التأريخ لتطور العلوم والفنون ، ثم مهمة الكشف عن جذور الابداع فى العلوم والآداب والفنون وسائر المناشط الكبرى فى الحياة .

تلك هى المهــام الاجتماعية الرئيسية التى ينطوى عليها القول بأن سيرة ذاتية ما تقوم كقيمة عامة . ولا يعنى ذلك أنه لا وجود لمهام أخرى تندرج تحت هذه القيمة ؛ فليس هناك ما يمنع من قيام السيرة بمهمة استثارة بعض الخبرات الجمالية شأنها فى ذلك شأن كثيـــر من قوالب الكتـابة الأدبية ؛ ولا ما يمنع من قيامها بمهمة التعبير بكل ما يعنيه من معانٍ سيكولوجية بالنسبة لكاتبها ، ولا ما يمنع من قيامها بمهام أخرى إضافة الى المهمتين الجمالية والتعبيرية . كل ما فى الأمر أن الوظائف الاجتماعية للسيرة كما أوضحناها تبدو وظائف بالغة الأهمية ، وهى بذلك تستحق من كُتّاب السيرة مزيدا من الوعى بهذه الوظائف وبمقتضياتها .

* * *

حدث خطأ فى عنوان الجزء الأول من هذا المقال فى العدد الماضى للدكتور مصطفى سويف وصحة العنوان :

لماذا نكتب السيرة الذاتية .. القدوة والتاريخ الاجتماعى .

عن النصر والهزيمة .. يا صلاح



صلاح حافظ

بقلم : عبد الرحمن شاكر

من قال إن الحياة تنتصر على طول الخط يا صلاح ، وهاهو الموت ينتزعك من بين أيدينا ، وأيدى كل من أحبوك وأعجبوا بك ، وأنت تكتب كل أسبوع ، فى مطلع شبابك ، عن انتصار الحياة ؟

لكم أشفقت عليك منذ شهور ، وأنت تكتب « للهلال » فى الأيام الأخيرة للراحل قبلك بقليل يوسف إدريس ، تقول له لو كنت عبقريا حقا لاجتزت هذه المحنة ، محنة المرض ، ولكنه لم ينجح فى ذلك .. كنت تقول ذلك ضنا به على الموت ولكن من قال إن العباقرة لا يموتون ؟ مات يوسف إدريس ، وتبعه فجأة فيليب جلاب ، وهاأنت تلحق بهما يا صلاح .

ما أشد الفجيعة فيك وفيهما ، لكل من عرفوكم عن قرب ، أو من على سطور أوراقكم فحسب .

هل أمضى فى الحديث الفاجع على هذا النحو ؟ ما أظن ذلك يرضيك وأنت صاحب « انتصار الحياة » فلأذكر للناس بعض ما أعرفه عنك .

زرتك فى مكتبك فى منتصف السبعينيات مع بعض الأصدقاء وكانت تلك أول مـرة ألتقـى فيها بك ، كنت أعرفك عن طـريق ما تكتب ، وأظنك أيضا قد قرأت لى ، واتفقت معك على أن أكتب لك فى موضوع بعينه ، كان معركة قلمية بين الراحلين الدكتور عبد الحليم محمود شيخ الأزهر وقتذاك ، وعبد الرحمن الشرقاوى رئيس مجلس إدارة روز اليوسف أيام كنت رئيسا لتحريرها .

من يومها - ولأوجه الحديث إلى القارىء - عرفت صلاح حافظ عن قرب كان أعجب رئيس تحرير عرفته فى حياتى - على كثرة من عرفت من هؤلاء .

أول العجب أنه لم يكن له مكتب .. كان مكتبه عبارة عن حقيبة فى يده ، أضخم حقيبة أوراق رأيت إنسانا يحملها ويتحرك بها حيث يذهب .. كان اللقاء معه يتم بالمصادفة فى أى ردهة من ردهات روز اليوسف ، وأحيانا قليلة فى المكتب الوحيد الذى كان يجلس إليه غالبا رئيس التحرير الآخر لروز اليوسف . فتحى غانم .

تتبادل معه الحديث أثناء تجواله ، ثم تسلم المادة الصحفية التى تحملها إليه ، لكى يدسها فى حقيبته الضخمة ، وينظر فيها وقت أن يتاح له أن يخلو إلى نفسه وإلى حقيبته فى أى مكان ، والأرجح أنه بيته .

أما لماذا لم يشأ أن يكون له مكتب ، فذلك لسبب بسيط ، أنه كان لا يستطيع أن يرد أحدا يطلب لقاءه ، ولو لزم مكتبه لانهال عليه الزوار من كل صوب ، أقلهم من يقصدونه لسبب جاد ، أو يتعلق بالعمل الصحفى الذى يشرف عليه ، والأغلبية سوف تأتى للاستمتاع بالجلوس إلى صلاح حافظ والتحدث معه كان حديثه لايقل إمتاعا عن كتابته ، وكان يعرف نفسه .. كان يعرف أنه سوف يكون أشد استمتاعا من الحاضرين بالتحدث ، بل



والمحاضرة التى قد تستغرق ساعات طويلة ، فلا يبقى وقت ولا جهد لانجاز العمل الصحفى المنوط به ..

باختصار : لو لزم صلاح حافظ مكتبا فى روز اليوسف ، لتحول إلى مقهى ، أو ندوة دائمة .. ولم تكن روز اليوسف لتصدر على الإطلاق !

وماذا إذا أراد أن يكتب شيئا عاجلا لينشر فى المجلة التى يرأس تحريرها ؟ كان عليه أن يجد مكانا يختبئ فيه ، أى مكتب لا يتوقع أن يقصده أحد ، يتوارى فيه عمن يطلب لقاءه ، ويهرب إليه من شهوة الآخرين فى التحدث إليه ، ومن شهوته هو فى الحديث ...

نجاح متصل

ثم تصدر « روز اليوسف » فتتخاطفها الأيدى ، ويرتفع توزيعها إلى درجة ترفض معها الإدارة المالية طبع المزيد ، لأن الاعلانات التى تمولها ، لن تكفى لتغطية ثمن الورق الذى تستلزمه زيادة النسخ المطبوعة ، ويغضب صلاح ويصف ذلك بأنه « إصرار على الفشل » !

ولكن لماذا كل هذا الرواج الذى عرفته روز اليوسف فى عهده ؟

لم يكن صلاح حريصا على أن يكتب هو .. بل أن بابه " قف " ، لم يكن يصدر فى كل عدد ، كان يكتبه فقط ، حينما يحس أن لديه شيئا يريد أن يقوله ، ولا يهمه أن يطول « الباب » أو يقصر ، المهم أن يكفى للغرض الذى يكتب من أجله ، كان يحب لكل من يكتب ، أن يتوقف عن الكتابة حينما ينتهى المعنى الذى يريد إيصاله للقارىء .. ولا يضع تسويد الصفحات نصب عينيه .

جاءه فيليب جلاب ، وكان يحرر باب خارج الحدود ، وفيليب كان من علماء السياسة الدولية .. جاءه ذات صباح بمجموعة ضخمة من الأوراق المكتوبة يسلمها إليه . فنظر إليها صلاح ورازها (أى وزنها) فى يده ، ثم قال متظاهرا بالغضب :

« ما تكتبولنا على قد فلوسنا .. » ما أبدعك يا صلاح فى مداعباتك وسخريتك !

طلبه أحد الأصدقاء فى التليفون ، ودار بينهما الحوار التالى :

● لو لـزم صـلاح حافظ مكتبا فى روز اليوسـف لتحـول إلى مقـهى أو ندوة دائمة !

– أرسلت إليك مقالا .. هل وصلك ؟

– نعم وصلنى

– هل قرأته ؟

– نعم قرأته

– هل أعجبك ؟

– نعم أعجبنى

– هل ستنشره ؟

– كلا .. لن أنشره !

هـكذا كان صلاح حافظ ، وكان صادقا ، ولكن ليس كل مايعجبه يصلح للنشر ! وكان أفضل من يطبق شعار : انظر لما قيل لا لمن قال

جاءه شاب حديث التخرج من كلية الاعلام ، وقدم له موضوعا مثيرا ، فنشره فى الصفحات الأولى من روز اليوسف ، نفس المكان الذى كانت تنشر فيه مقالات عبد الرحمن الشرقاوى رئيس مجلس الإدارة ، وملأ بعنوان الموضوع غلاف روز اليوسف .. ثم أصبح هذا الشاب بعد ذلك عبئا على صلاح ، يتصور أنه هو صاحب الفضل فى نجاح روز اليوسف ، ويرى من حقه عليها أن تنشر له كل ما يكتب بنفس الطريقة التى نشر بها موضوعه الأول ! وأنتهى الأمر بأن ابتعد عن صلاح وعن روز اليوسف ..

اشتكى لى صلاح من أنه يجد نفسه مطالبا بأن يعيد كتابة كل المادة التى تنشر فى نصف العدد على الأقل ، وأن ذلك يرهقه أشد الارهاق فعرضت عليه أن أعاونه فى ذلك ، وقبل هذا العرض ، ثم راح يسلمنى مواضيع مما تقدم إليه لكى أعدها للنشر .

قبل ذلك لم تكن لى أية خبرة فى التعامل مع ما يكتبه الآخرون ، كانت صلتى بالصحافة مقصورة على ما أكتبه فحسب .

خبرة وحكمة

وعرفت منه كيف يكون تحرير الصحف ، حينما يتولى تحريرها فنان مثل صلاح حافظ حتى كـانت روز اليوسف تقرأ من « الجلدة للجلدة » فى عهده .

هل ذكرت إعادة الكتابة وما تعنيه عند صلاح ؟ أول شىء حذرنى منه حينما قدم لى موضوعات لأتولى إعدادها للنشر أن أعيد كتابة الموضوع بقلمى ، إن الذى



يفعل مثل ذلك بما يكتبه ، لا يستحق أن يكون كاتبا أو محررا ، لا يصلح ذلك إلا مع المخبرين الصحفيين فحسب ، ممن يأتى أحدهم بالخبر ولا يحسن صياغته .

إذن كيف تكون إعادة الكتابة على طريقة صلاح حافظ ؟

قدم لى " تحقيقا صحفيا " كتبه أحد ناشئة المحررين ، وقال لى : احذف ، وأنت مغمض العينين ، الثلث الأول من التحقيق .. فالمحرر عادة يتلكأ فى هذا الجزء حتى يصل إلى لب الموضوع الذى يستحق النشر ...

– ابحث عن أكثر جزء يكون جذابا من الموضوع وضعه فى المقدمة ، وليس من الضرورى أن تكتب مقدمة من عندك ، بل يمكنك أن تلجـأ إلى طريقة " القص واللصق " ، بحيث تتصرف فى الموضوع بإعادة ترتيبه حتى يصبح مقروءا ولا بأس من تعديل كلمة هنا ، أو عبارة هناك لهذا الغرض .

– فى الاختصار : عادة يحتوى المقال على ثلاث أو أربع أفكار .. أحذف أضعف فكرة منها ، ويبقى الباقى مقروءا وفى المساحة المحددة .

سلمنى ذات مرة مقـالا كتبه أحد كبار " المشايخ " ممن وصلوا إلى درجة الوزراء ، وكان يتضمن ردا على بعض ما نشر فى روز اليوسف ، وكان طويلا يحتاج إلى الاختصار .. قال لى صلاح :

أحذف منه القدر الذى تطلب المطبعة حذفه ، ولكن احتفظ بكل « الشتائم » التى يوجهها إلينا !

مرة أخرى سلمنى مقالا طويلا كتبه نائب وزير .. وقال لى اختر منه عمودا فحسب يصلح للنشر ، وبعد أن فعلت ، نشره صلاح فى بريد القراء ..! من يومها لم يرسل إلينا هذا النائب ، الذى أصبح بعد ذلك وزيرا ، ثم محافظا شيئا لننشره !

* * *

لا أستطيع إنهاء الحديث عن صلاح حافظ دون الاشارة إلى الأفكار السياسية التى كانت تجمعنا ، وأكتفى فى هذا الباب بنقطتين :

● كان أحد الجامدين المذهبيين يجادله فى

● سيبقى صلاح حافظ مدرسة يانعة الأزهار لأجيال تأتى بعده وبعدنا

مسألة « اشتراكية » عبد الناصر ، وكيف أنها تخالف كل مواصفات الاشتراكية عند الفكر الماركسي .. فقال له صلاح : إذا رأينا زهرة تنبت فى الصخر ، فهل ننكر أنها زهرة ؟

● فى الآونة الأخيرة حيث سقطت النظم الشيوعية فى شرق أوروبا والاتحاد السوفييتى ذاته .. رفض صلاح حافظ أن يسلم بأن ذلك هو نهاية قضية الاشتراكية والعدالة الاجتماعية ، وكان مما كتبه فى أواخر أيامه على صفحات أخبار اليوم ، فى باب « أوراق » أن أمريكا ذاتها فيها اشتراكية ، حيث يحصل العمال على أفضل الأجور ، وحيث لديهم تأمينات اجتماعية وطبية .. الخ ، ولعلى أضيف إلى ذلك أن حوالى ٢٥ مليونا من فقراء أمريكا يحصلون على كوبونات مجانية للطعام ، وأن المسألة الاقتصادية والمحافظة على مستوى معيشة الطبقات الوسطى ، ورفع مستوى معيشة الفقراء هى جوهر الصراع حول مقعد الرئاسة فى الانتخابات الأمريكية المقبلة .

هذا فى الوقت الذى يرجف فيه المرجفون بأن الاشتراكية ، قد هزمت على المستوى العالمى ، والواقع أن الذى هزم هو الاستبداد فحسب ، حتى ولو تلبس بصورة *العدالة الاجتماعية* ..

ظهرت بعض عيوب الاشتراكية التى طبقت بطريقة استبدادية .. وأعيدت بعض الأساليب الرأسمالية إلى البلدان الاشتركية ، أو التى كانت كذلك ، ولكن ليس معنى ذلك أن قضية العدل الاجتماعى قد سقطت إلى الأبد ، أو أن الرأسمالية سوف يكون من حقها أن تفرض على الناس البطالة والجوع والتشرد بشكل مطلق ، كما كانت فى أول عهدها ، قبل الاشتراكية .. الهزيمة الظاهرة للاشتراكية تتداخل مع انتصار جوهرها من خلال الربط ما بين الحرية السياسية وحق الجماهير فى الحياة الكريمة .

تداخل الهزيمة مع النصر ، هو من طبيعة الاشياء ، كما تتداخل الحياة مع الموت وكان الحديث عن صلاح حافظ ، الذى انتزعه الموت من بيننا ، ولكنه سوف يبقى فى وجداننا ، فالفن الرفيع الذى انطوت عليه كتاباته وكل عمله الصحفى لن يموت ، بل سيبقى مدرسة يانعة الأزهار لأجيال تأتى بعده وبعدنا ..

ووداعا يا صلاح .. يا صاحب انتصار الحياة !

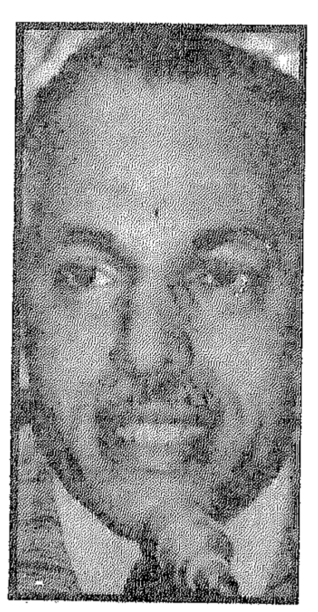
الأديان

واحترام حرية التعبير !

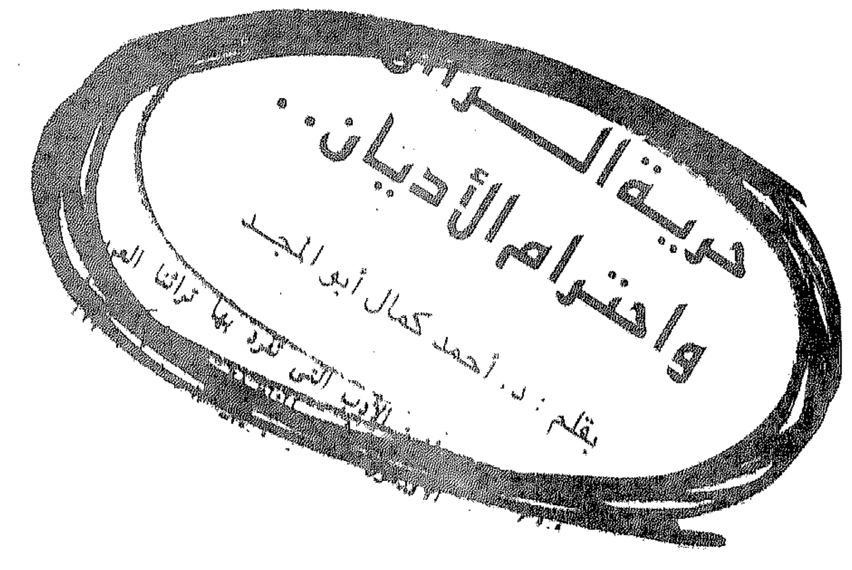
وجيـــــه دراز

فى كلمته عن « حرية الرأى واحترام الأديان » تجاوز الأستاذ الدكتور أحمد كمال أبو المجد عن موضوع مصادرة كتاب « مسافة فى عقل رجل » والحكم الصادر بالسجن على مؤلفه وناشره ؛ بل ومصادرة مجمع البحوث الإسلامية لعدد من الكتب فى معرض الكتاب كما جاء فى دعوتكم لسيادته لفتح باب المناقشة فى الموضوع . نحّى ذلك كله جانبا بكلمة استخفت بالقضية ومن حكم عليه بالحبس فيها ؛ ولم يقدم لنا سيادته « تكييفه » لمحل النزاع !

فإذا كانت القضية « قذف وسب » فليقل ذلك صراحة بدلا من تلميح يجرّم المحكوم عليه دون أن يلزم القائل ! وهل كان ذلك هو نفس « تكييف » الكتب المصادرة فى معرض الكتاب (بصرف النظر عن الرجـوع عنـه) ؟ وقد اخـتـار د.أبو المجد بدلا من ذلك أن يناقش قضـية « حرية الرأى » مناقشة هامة دافع فيها دفاعاً طويلا عن حرية التعبير : وضرورة إفساح المجال لها ، وحمايتها حماية خاصة منعاً من الزلل وهداية للرشد وأبان ما خصتها بها المحكمة العليا الأمريكية من افتراض أن أى قيد تشريعى عليها يخالف الدستور إلى أن يثبت العكس خلافاً للأصل



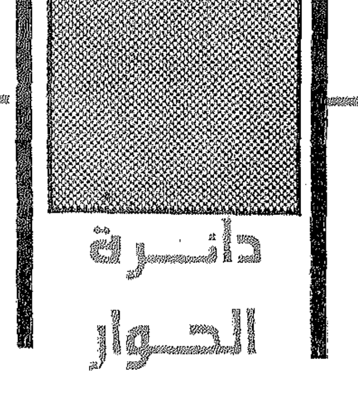
د . أحمد كمال أبو المجد



من افتراض مطابقة أى قانون للدستور إلى أن تثبت المخالفة . ونبّه سيادته إلى أن أى قيد محدود فى البداية يتجه إلى التصاعد مع خطورة الآثار السلبية الناتجة عن التوسع فى فرض القيود على حرية التعبير .

واستطرد سيادته إلى بعض صور التعبير التى سلم بأن الدساتير لا تحميها : وضرب مثلا « الفحش » Obsenity أو الإثارة الجنسيـــة Pornogrophy التى أخرجها عن نطاق حرية الرأى ، ووثّق سيادته ذلك – مرّة أخرى – استناداً إلى أحكام المحكمة العليا الأمريكية .

من هذه المقدمات يقفز بنا د . أبو المجد قفزة خطيرة : إذ يرفع الحماية الدستورية عن « استخدام عبارات وعرض أفكارمعينة فى مواجهة جمهور رافض لها تماما ، ومستثار بسبب عرضها على نحو يهدد باختلال الأمن » ! ! ! أين هذا التوسع والمنطق البوليسى – الذى لم يقدم د . أبو المجد هذه المرة أى توثيق له – من تحذير د . أبو المجد نفسه لنا من تصعيد الحجر على حرية الرأى استناداً إلى أى قيد يفرض عليها ؟؟ ومع تسليمى بأنى لست من رجال القانون ، إلا أنى سأكون فى غاية الدهشة إذا قدّم د . أبو المجد توثيقاً لما ذهب إليه من المذاهب القانونية الليبرالية الديمقراطية التى استند إليها سيادته فى توثيق مقدماته !!



الإخلال بالأمن

بل كيف تتطور المجتمعات إذا منعنا عرض أفكار معارضة أمام الجمهور الرافض تماما لها ؟؟ ألم يعرض الإسلام فى مواجهة « جمهور رافض تماماً » ؟ بل وقد أدت الدعوة للإسلام « إلى الإخلال بالأمن » فى المجتمع الجاهلى . هل يعنى د . أبو المجد أنه كان من الواجب ألا يعرض الإسلام على جمهور رافض ؟؟ ألم يكن الجمهور رافضاً تماما لادعاء جاليليو أن الأرض تدور حول الشمس وكان يؤمن بالعكس ؟ هل يقر د . أبو المجد قهر الكنيسة لجاليليو وإرغامه على إنكار علمه -الارتداد إلى رأى الجمهور ؟ إن رفض لجمهور لأية أفكار لا يستوجب منعها ، بل الواجب حماية المنادى بها ، ودعوة الجمهور للتسامح إزاءها ومناقشتها مناقشة موضوعية للتثبت من خطئها أو صحتها . إنى لا أشك فى أن د . أبو المجد يقصد إلى شئ من ذلك . غير أن تلك هى النتيجة المنطقية لإطلاقه إباحة تقييد « أفكار فى مواجهة جمهور رافض لها تماما » دون تحفظ . إذ أنه يعطى بذلك رخصة مفتوحة للمتزمتين الذين يقفون فى وجه التطور .

وهنا تعن ملاحظة – وأكرر ، أنها ملاحظة شخص من العامة وليس من دارسى القانون – يحسن إثباتها قبل الاسترسال فى الرّد . يشير د . أبو المجد إلى « ما عرف فى الفقه الدستورى باسم مخاطبة الجمهور الرافض hostile oudi-ence . ويخيل إلىّ أن الترجمة الأنسب لـ hostile oudience هى الجمهـــور المعــادى . إذ أن الجمهور الرافض ترجمة لـ reqecting audience ؛ واعتقـــد أن فارقاً بين الإثنين . هل نحمى الجمهور المعادى من المتحدث ؟ أم المتحدث من الجمهور المعادى ؟

وإذا استأنفنا قراءة د . أبو المجد بعد هذه الملاحظة العارضة نجد أنفسنا فى حيرة ! فبينما نجده فى فقرة يستبيح فرض القيـد على مجـــرد « عرض أفكار معينــة فى مواجهة جمهـور رافض لهــا تماماً » ، دون أى تحفظ ؛ نجده فى فقرة أخرى يفرق « بين حرية النقد وحق مخالفة الأفكار السائدة ، وبين صور من التعبير تتجه مباشرة إلى خدش الحياء العام أو إلى تجريح المعتقدات الدينية السائدة تجريحا لا تقتضيه الضرورات الأدبية والفنية ، ولا تكون له أية قيمة اجتماعية هادفة » . (التشديد من عندى) أين التزيد فى استباحة تقييد حرية الرأى فى الفقرة

الأولى من تضييق مساحة التقييد فى الثانية إلى درجة التحفظ فى إطلاق القيد حتى فى الحالات الجارحة ؟؟

مناقشة التفاصيل

ولكن مناقشة مثل هذه العموميات لا تساعد على رسم الحدود بين حرية التعبير المباحة التى يحميها الدستور ، وما يرى د . أبو المجد إلا حماية له . فإن مثل هذه العموميات لما يصعب الاختلاف عليه . ولكن المحك هو فى مناقشة تفاصيل حالات معينة . ولا شك فى أن أهلية د . أبو المجد لذلك هى التى دفعت الهلال إلى دعوته لافتتاح المناقشة . ولسنا فى حاجة لاختلاق حالات افتراضية تجرى حولها المناقشة ، ففى تاريخنا وذاكرتنا القريبة حالات فعلية وقعت فيها مصادرة الكتب باسم الإسلام والفضيلة :

– الإسلام وأصول الحكم : للشيخ على عبد الرازق .

– مقدمة فى فقه اللغة العربية : للدكتور لويس عوض .

– أولاد حارتنا : للأستاذ نجيب محفوظ .

– الإسلام السياسى (وكتب أخرى) : للأستاذ المستشار سعيد عشماوى .

– مسافة فى عقل رجل : للأستاذ علاء حامد .

– الفتوحات المكية : لابن عربى .

– ألف ليلة وليلة .

إن مناقشة هذه الحالات على اختلاف طبائعها وأسباب منعها ومصادرتها ، وما جرى فى بعضها من الرجوع عن المصادرة ، لكفيل بأن يوضح للرأى العام عامة والمثقفين خاصة أوجه الإباحة والمنع بما يمكنهم من الاشتراك الموضوعى فى المناقشة والإسهام فى تحديد حدود المنع عسى أن تجد سبيلها إلى التشريع آخذين فى الاعتبار احتمالات التوسع فى التقييد عند التطبيق كما أشار إلى ذلك د . أبو المجد .

وكما تقول الهلال – وبحق – فإن د . أبو المجد لعلمه بالشريعة والقانون الدستورى ودوره كمفكر إسلامى أحق بأن نسمع له فى هذه القضية . ولكن لنسمع الرأى فى الحدود والملابسات . لماذا وكيف . ولا نكتفى بمسلمات لا خلاف عليها نقف عندها دون توضيح لحكم أو دفاع عن ظلم ، وليس بكاف أن يحكم بالعدل ، بل يجب أن يرى الناس أن الحكم كان بالعدل ، وإلا مثّل ذلك – كما يقول د . أبو المجد « نكسة خطيرة ينفتح بها باب إرهاب الباحثين والمفكرين والأدباء والنقاد . وتفرض بمقتضاها وصاية على عقول الناس وضمائرهم يمسك زمامها أفراد معدودون من رجال الدين والعاملين فى المؤسسات الدينية الرسمية » .

حدود حرية التعبير

تعقيب على تعقيب

بقلم : د . كمال أبو المجد

تأكدت بعد قراءة تعقيب المهندس وجيه دراز على كلمتى التى نشرت فى العدد الماضى من الهلال بعنوان " حرية الرأى واحترام الأديان » مع أننى والمهندس دراز نقف من هذه القضية فى خندق واحد وهو خندق الحرص على هذه الحرية وتوفير الضمانات لممارستها ، والحساسية الشديدة نحو أى قيد يفرض عليها ويقيم « وصاية » عل عقول الناس وضمائرهم .

كما تأكدت من صحة ما أشرت إليه من أن المشكلة الحقيقية فى حماية حرية التعبير إنما تكمن فى صعوبة وضع المعايير التى يعتمد عليها فى التمييز بين صور التعبير التى يحميها الدستور والنظام القانونى وبين صور قليلة من صورها لا تستحق أن تتمتع بهذه الحماية . غير أن المهندس وجيه دراز قد أفزعه وأقلقه فيما كتبت أمران :

أولهما : ما أشرت إليه من حق المجتمع، فى أحوال معينة من رفع الحماية الدستورية عن استخدام عبارات وعرض أفكار معينة فى مواجهة جمهور رافض لها تماما ، وهو يصف هذا التوسع بأنه « منطق بوليسى » يعطى رخصة مفتوحة للمتزمتين الذين يقفون فى وجه التطور .

ويلاحظ - فوق ذلك - أننى لم أقدم



توثيقا له .

الأمر الثانى : أنه لا يرى فائدة كبيرة من مناقشة مثل هذه العموميات التى اشتمل عليها المقال ، إذ أن فى تاريخنا وذاكرتنا القريبة حالات فعلية وقعت فيها مصادرة الكتب باسم الإسلام والفضيلة كما يرى أننى قد تجاوزت فى كلمتى موضوع مصادرة كتاب « مسافة فى عقل رجل » والحكم الصادر بالسجن على مؤلفه وناشره كما تجاوزت مصادرة مجمع البحوث الإسلامية لعدد من الكتب فى معرض الكتاب » .

١ – فأما موضوع الجمهور الرافض أو المعترض أو « المعادى » كما يؤثر المهندس دراز أن يسميه ، فلا أريد أن أطيل الحديث فيه ، لأنه يمثل حالة استثنائية تتعلق بالإخلال بالأمن Brech of the Pasce أكثر من اتصالها بحدود حرية التعبير ، إذ أن ما قد يمنع فى إطار ظروف محلية وظرف خاص يمكن أن يباح تماماً إذا تجردت الملابسات من الاحتمال الراجح بوقوع إخلال بالأمن .. وأما توثيق هذا المثال فلم يكن يعنينى لأننى لم أشأ أن أحمل هذا المثال الاستثنائى فوق ما يحتمل أو أن أصرف القراء به عن جوهر البحث ، وهو الجوهر المتعلق بحدود حرية التعبير فى غير حالات الإخلال المباشر بالأمن والنظام .. ومع ذلك فإننى أحيل المهندس دراز إلى أحكام المحكمة العليا الأمريكية التى قررت هذا المبدأ وأهمها الحكم الصادر عام ١٩٥١ فى قضية فينز ضد نيويورك Feinsr V.N.Y. ، وفى هذا الحكم كتب القاضى فرانكفورتر وهو أحد الحريصين على حماية حرية التعبير رأيا مستقلا قال فيه : حينما يكون السلوك واختلاف نطاق التعبير المسموح به عن الرأى فإن رجال البوليس يكونون حراسا لأمن المتحدث وأمن السامعين على السواء . على أن سلطة المحافظة الفعالة على النظام لا يمكن تنحيتها بإعطاء المتحدث حصانة مطلقة ، (أنظر كذلك حكم المحكمة العليا فى قضية Kunz V. New York حيث سحبت الإدارة ترخيصا ممنوحا للمدعى Kunz بعقد اجتماعات دينية فى شوارع نيويورك لأنه تعرض بالإهانة لجماعات دينية أخرى كاليهود والكاثوليك) .

حدود حرية التعبير

٢ – وأما أننى لم أتعرض لتفاصيل وملابسات مصادرة كتاب « مسافة فى عقل رجل » وكتب أخرى كانت معروضة فى معرض الكتاب فلأننى لم أطلع على نص الحكم الصادر فى قضية الكتاب الأول وإنما قرأت الكتاب كما عرفت النصوص القانونية التى استند إليها الحكم وهى نصوص معروفة فى قانون العقوبات . فاكتفيت بالتعقيب عليها لأنها تعالج بعض حالات استخدام « التعبير » استخداما يقصد به صاحبه إثارة الفتنة أو تحقير أو ازدراء أحد الأديان السماوية .. وكان كل ما قررته أن العقاب على مثل هذا الاستخدام لا ينطوى على إهدار للضمان الدستورى المقرر لحرية التعبير .. أما أن يكون كتاب بعينه داخلا فى نطاق الحظر التشريعى الذى تتضمنه نصوص العقوبات فتلك مسألة « وقائع » تتحقق منها المحاكم فى كل حالة على حدة ..

وأما الكتب الأخرى التى جرت مصادرتها من معرض الكتاب كما يقول المهندس دراز فليس فى علمى أن منها ما ينطوى على الجريمة التى عالجها ففى المادة ٩٨ من قانون العقوبات » ولذلك لا أتردد فى الدفاع عن حق أصحابها فى عرض أفكارهم وآرائهم ، مؤمنا بأن الوسيلة الدستورية السليمة فى التعامل معها لابد أن تتم فى إطار حرية التعبير ذاتها عن طريق مناقشة العلماء والباحثين وأصحاب الرأى لما جاء فيها » ..

ولا أزال مع ذلك فى النهاية مؤمنا بأن صور التعبير عن الرأى التى تتجاوز عرض الرأى والموقف لتدخل فى باب القذف والسب فى حق الأشخاص ، أو التحقير والازدراء فى حق العقائد التى تدين بها الأمة .. مثل هذه الصور لا تتمتع بالحماية الدستورية لأنها « كما قلت » تقتحم على الناس – بالعدوان – دائرة المشاعر الدينية والقيم الاعتقادية المستقرة دون أن تضطر أصحابها إلى ذلك ضرورات خدمة هدف سياسى أو اجتماعى له حد أدنى من القيمة الاجتماعية » . ومع التسليم بأن هذا المعيار سيبقى دائما معيارا مرنا وتقريبيا ، فإن الضمان النهائى الممكن سوف يتمثل دائما فى قيام القضاء الطبيعى المستقل بتطبيق هذه المعايير بعيداً – بحكم حياده واستقلاله وتحصنه . عن كل صور الخضوع للإرهاب والابتزاز ، ومدخلا فى اعتباره مجموعة القيم الأساسية السائدة التى تمثل « النظام العام والآداب فى الجماعة » – وهى قيم لا يخلو منها نظام سياسى واجتماعى .. ولا يمكن أن تعتبر المحافظة عليها قيدا ثقيلا على الحرية يصادر انطلاق الفكر الحر أو يهدد الإبداع الذى ينمو ويزدهر فى ظلال الحرية ..

كتاب
الهلال
يقدم
الشخصية
اليهودية
فى أدب
احسان عبد القدوس
بقلم
د. رشاد عبد الله الشامى

يصدر
١٥ ابريل ١٩٩٢

روايات الهلال
تقدم
الحرية
أو الموت
تأليف
نيقوس كازانتزاكيس
ترجمة
سعد زغلول نصار
(٤ أعداد فى مجلد واحد)

تصدر
١٥ ابريل ١٩٩٢

دائرة الحوار

العصر القادم والثقافة العربية

محمد الفارس

لقد وقعت الحركة التجديدية بعد عام ١٩٤٨ – فى أغلب الأحوال – تحت سيطرة النظم العربية بشكل أو بآخر، وكانت هذه النظم تشجع أصحاب التجديد وتنشر لهم وتمنحهم المناصب ؛ من أجل تجميل وجه السلطة !! .. ورغم نجاح هذه الحركة ؛ فإنها انتكست فى بعض الأحوال وفى بعض البلدان لأسباب سنتعرض لها . ولكن حركة التجديد فى هذه المرة (بعد عام ١٩٩٠) ؛ سوف تتعلم من التجربة السابقة ومن المتغيرات العالمية ، فلا تقع فى أسر نظام ما أو سلطة ما – وسوف تقود الإنسان العربى المعاصر ؛ إلى عالم الغد .. على أقلام الشعراء والكتاب والنقاد ، وعلى أقلام المفكرين أولا وأخيرا .. كيف ؟ . بإنشاء هيئة مستقلة للمثقفين .. لا تخاصم الأنظمة أو تمالئها .. ليست من أجل السياسة ، وإنما من أجل الثقافة والفكر .. كيف ؟!؟ . فلندخل معا فى استقراء موجز ؛ لمسيرتنا الثقافية بأهم معالمها ؛ بقدر ما يسمح به المجال .

أزمة العقل العربى

عانت الثقافة العربية من :

١ – اجترار النقاش والجدل ؛ حول قضايا مستهلكة ، حسمت منذ القرنين الثالث والرابع الهجريين ؛ مثل القدرية والجبرية ومشكلات المعتزلة مع الأشعرية وغيرهم .

٢– مناصرة – نفر آخر – الأفكار الغربية، وقد أُتهِّم هذا النفر ، من الفريق الأول بالتبعية .

٣ – فريق ثالث .. أراد أن يجمع بين

مثلما حدث بعد ١٩٤٨ ... حركة تجديدية فى الفكر والفن ؛ لتجاوز المأزق التاريخى وقتذاك - سوف تحدث حركة تجديدية أخرى ، بعد مأزق العقل العربى فى عام ١٩٩٢ ؛ فالأرض ممهدة لظهور نظرية فى النقد وفى الفن لعالمنا العربى المعاصر ؛ ونحن على عتبات القرن القادم .

الحسنيين ؛ فنادى بالمزج بين الأصالة والمعاصرة - والنتيجة تخبط القارىء العربى بين منظرى الاتجاهات الثلاثة .

دور الريادة

إن المراقب لتاريخنا الثقافى الحديث والمعاصر ؛ يرى نموا مطردا بين الثقافة والسلطة سواء إلى أعلى أو إلى أسفل ؛ مع أن دور الثقافة دور الريادة لا الإنسياق - ولكن فى عصور التخلف تكون الثقافة هامشية ؛ فتكثر دعاوى باطلة متعددة !! .. مثل الدعوة إلى الفصل بين الدين والدولة ؛ باعتبار اللهجة العامية يجب أن تكون ، اللغة الأدبية المعبرة عن الشعب .. بينما اللغة الفصحى ليست - فى زعمهم - سوى لغة رسمية سلطوية ، وغير معبرة عن آمال الجماهير ؛ هذه الدعوة - بالطبع - باطلة .. إذ أنها كانت صحيحة فى حالة أوربا إبان العصور الوسطى ، حيث أقرت الكنيسة بالحق الإلهى للملوك . ولكن فى بلادنا العربية ليس ما يستدعى المناداة بهذا الفصل ؛ إذ أنهما ليس شيئا واحدا .. حتى فى النظم العسكرية فهى لا تستمد سلطتها من الدين ، إلى جانب أن (اللغة) العربية هى لغة العرب بقدر ما هى لغة القرآن ، أو العكس .

كذلك .. مثل الدعوة إلى لجوء الفصحى ، إلى استعارة لغة (التصوف) سواء من ناحية اللفظ أو التركيب اللغوى .. فإذا كان هذ اللجوء ، من مدرسة أو جيل ؛ فهى دعوة إلى الهروب والتقوقع داخل النفس !! .. وليس مواجهة الحياة بالفكر والفن - أما إذا كانت الصوفية (قناع فنى) لنفر من الأدباء ، وليس سمة لعصر ، فهى فى هذه الحالة مسألة نقدية ، تقبل

الجدل من خلال مفهوم الاغتراب ، وتيار الوجودية كتيار فلسفى .. ومدى العلاقة بين كل منهما وواقعنا الثقافى والفكرى ، وبمنظور عربى ، لا يرفض .. بالقطع النهائى ، وبدون تمحيص - لمجرد أنه غربى .

الرؤية العربية

إن الرؤية العربية يجب أن تمتزج بالجديد والتجديد ، وتكون أشبه بالنحلة تمتص رحيق الزهرة ، لتخرجه شيئا آخر تماما هو العسل .

وهذه الرؤية العربية لها ملامحها الخاصة ، المنبثقة من التراث الدينى ، والتراث الميثولوجى ، إلى جانب أن العربى القديم .. كان الكون فى نظره مجرد صحراء دون نهاية ، وسماء تعلوها - وكذلك فإن هذه الرؤية العربية تنظر للكون نظرة شمولية ، وانطلاقا من هذا المفهوم يمكن إعادة النظر فى (تهويمات الحداثية) ، و(منهج البنيوية) .

إن الحداثيين يتحدثون داخل شرنقاتهم ، مغتربين عن مجتمعاتهم ، دون الولوج إلى مشاكل العالم ، مؤثرين - بذلك - السلامة .. وتجىء قصائدهم صعبة الفهم ، إن لم تكن مستحيله على القارىء ، فضلا عن الأديب والناقد .. بينما يظهر فى النقد تيار هجر الأوربيون ، هو تيار (البنيوية) بمربعاته ودوائره ، واهتمامه بعدد الأسماء والحروف والأفعال ، لمحاولة فهم النص وتفسيره من خلال البناء .

ولأن أهم ملامح الرؤية العربية التعامل مع الواقع وليس الهروب منه ، فتجىء ضرورة خروج المثقف والفنان ، للالتحام بالقارىء العادى (ليس بمعنى النزول إلى مرحلة الدونية من الكتابة ، ولكن بمعنى الفن الواضح ، والفكر الواضح ، وعدم المباشرة) : فيكون الفن شكلا ومضمونا أشبه - على حد تعبير الناقد الإيطالى وأحد أهم علماء الجمال فى العالم .. بندتو كروتشه .. - بسكر مذاب فى كوب ماء ؛ فيتكون لدينا عنصر ثالث .. ليس الماء وليس السكر . ومن هذا المنطلق يمكن للفن أن يهتم بقضايا إنسان (منطقتنا العربية) التى هى جزء هام جدا من العالم الثالث ، فى ظل الظروف العالمية المعاصرة ، ويمكن أن يكون كذلك الفكر .

إن كلا من المنظورين (العربى والغربى) .. عينه - دائما - على جغرافية المكان ، لأن كليهما مدرك للأهمية الاستراتيجية لهذا المكان .. والمنظور العربى يحوى ثقافة أصيلة ذات جناحين ؛ أحدهما مستنير والآخر كتب فى عصور قديمة انتهت ظروفها تماما - وليس من مفر من الاعتماد على الجناح الأول ، وتحجيم الجناح الآخر عن طريق الفكر والحوار والحجة .. فقد أثبتت التجـــارب أن مجرد النبـــذ ليس كافيـــا .

دور المثقفين

دور المثقفين - إذن - الاعتماد على الجناح الأول ومحاربة الجناح الآخر ؛ لكن مع التواصل بدون حساسية .. مع الثقافات العالمية المختلفة ، مع الحذر الشديد من الوقوع فى عباءة ثقافة ما ؛ تبغى الهيمنة على ثقافتنا لكى تمحو هوية هذه الثقافة التى هى هويتنا . وبهذا المنظور العربى القومى ، يمكننا القضاء على القبلية والعرقية والطائفية ، فى بعض بلداننا العربية دون قهر الحديد والنار ، وبذلك يمكن تجاوز المأزق الحالى من كافة نواحيه .

كذلك فإن استفادة المادية الجدلية من النظام الرأسمالى ، واستفادة الرأسمالى من الاشتراكية ؛ فى عمليات تجديد كل منهما لفلسفته .. يدل على أن المنظور العربى فى الستينات بمصر كان على حق؛ حيث اعتمد - ومازال - المجتمع على ركيزتى القطاع العام والقطاع الخاص - هذا دليل على أن المنظور العربى ؛ كان أبعد نظرا من النظامين فى المعسكرين (الشرقى والغربى) وقتذاك . وعلى هذا فإن المنظور العربى فى ظل سيادة القانون وشرعيته ، لهو - أيضا - طريق للخروج من المأزق الحالى .

العالم الثالث الجديد

وقد حدثت عدة تغيرات فى السنوات الأخيرة .. فى العالم تتمثل فى :

١ - الرأسمالية تجدد نفسها .

٢ - الاشتراكية العلمية تجدد نفسها .

٣ - الوفاق الدولى .

٤ - ظهور فكرة الوحدة الأوربية (بما فيها الاتحاد السوفييتى) .

بينما فى عالمنا العربى .. ظل مستمرا تواصل النضال الفكرى ؛ أمام سيادة كل من الدوجماطيقية (عدم التمحيص) ، والديموجاجية (التعمية والتضليل) ؛ وأصبح على مفكرى وأدباء العالم الثالث ، وخاصة (عالمنا العربى) .. إقامة وخلق رأى عام مستتير ، لمواكبة العالم المعاصر القادم ؛ الذى يفرض بالضرورة أن يكون للعالم الثالث هويته ؛ بالاعتماد على النفس .. وببناء علاقات جديدة مع أوربا (وداخلها الاتحاد السوفييتى الجديد) ، وعلاقات مع أمريكا بما يتناسب مع المصالح المتبادلة .. باتباع الحوار الموضوعى ، والشرعية الدولية – خاصة أن الصورة المستقبلية تتحدد فى دول متقدمة ودول متخلفة .. الأولى متقدمة علميا وتكنولوجيا ، والأخرى هى دول العالم الثالث الذى سوف يُصدِّر أفراده كعمال أجراء للدول المتقدمة ؛ نظير أن يتعلم هؤلاء الأفراد التكنولوجيا (وبالطبع سوف تكون فتات التكنولوجيا) .

إن هذا الوضع سيكون الشغل الشاغل للعالم الثالث بما فيه المنطقة العربية ، وخاصة أن هذه المنطقة تمثل أهم شرايين هذا العالم الثالث ؛ الذى يجد نفسه أمام تساؤل ملح : هل يظل مواطنو العالم الثالث كعمال أجراء ، يصدرون كسلع بالثمن ؟! . هل سيصبح العالم كله مكونا من طبقتين فقط ؛ إحداهما بروليتاريا ، والآخرى سادة ؟؟! . أم يجب أن تلحق دول العالم الثالث بالركب الحضارى القادم ؟! . وهل سيكون القرن بعد القادم .. عالما من طبقة واحدة هى الأغنياء (أصحاب التكنولوجيا والسبرنيطيقا) ، والطبقة الآخرى عمال آليون .. بعد أن تكون شعوب العالم الثالث قد لحقت بالهنود الحمر ؟؟ ! .

دعوة للنهوض بالثقافة

تأسيسا على ما سبق ؛ فإن المثقفين العرب عليهم المناداة والدعوة و (التنفيذ) لإقامة مؤسسة أو هيئة مستقلة ؛ تجمع كل الكتاب والشعراء والنقاد والمفكرين .. على أن يكون التمويل من الآدباء أنفسهم ، خاصة الذين يستطيعون الإسهام ماليا (والدعوة فى الدرجة الأولى لنجيب محفوظ) .. ثم لكل صاحب قلم ؛ يسهم بقدر طاقته – دون النظر إلى هويته الأيدلوجية ، حيث أنها هيئة لا تعادى أى نظام عربى أو تمالئه .. عملها ينحصر فى الفكر والفن ، والثقافة عامة – وليس إنشاء محاور

سياسية أو التعاطف مع محاور .. همها الانفتاح على الفكر العالمى المعاصر ، مع التقدير الكامل للتراث المستنير (تراث محلى أو قومى أو عالمى) بموضوعية تامة ، وحيدة علمية بحتة .

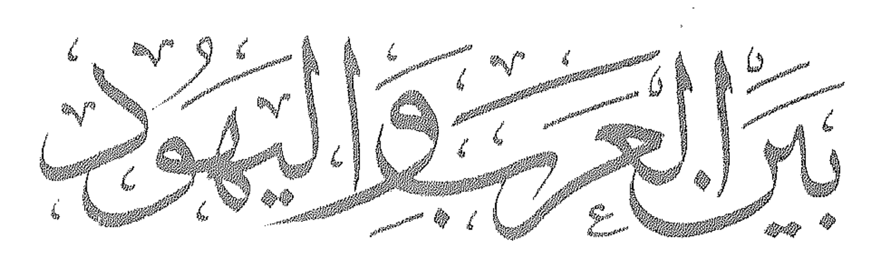
ينص دستورها فى افتتاحيته على الاستقلال الكامل ، عن السلطات كافة ، وعلى رفض المعونات وكل أنواع المساعدات (داخلية أو خارجية) حتى تستطيع أن يكون لها ذاتيتها ، دون تبنى وجهات نظر حكومة معينة ضد أخرى ، إذ أن شغلها الشاغل الإنسان العربى ، متفردة عن أى هوى إلا هوى الفكر وحده وحريته ، والرأى وحريته ، والعقيدة وحريتها .. مسئولة مسئولية كاملة عن حماية الكتاب فى حياتهم وبعدها .. من مكوناتها لجنة للدفاع عن الحريات ، وأخرى لحقوق الإنسان (المفكر والفنان) . وتستطيع الهيئة من خلال التمويل الذاتى ، أن تصدر جريدة أو مجلة تنشر آداب وفنون وعلوم هذه الأمة العربية وبالأنجليزية ، وتوزع كالأهرام الدولى مثلا .. ويمكنها إصدار البحوث والكتب وترجمتها ونشرها على نطاق واسع .. تقيم المهرجانات والمؤتمرات الفلسفية والفنية بعيدا عن سيطرة الحكومات أو فرض الرعاية .. هيئة تصر على الديموقراطية بين القاعدة والسلطة ، وعلى تعميق هذا المفهوم ؛ انطلاقا للنضال بشكله الحديث ؛ تمشيا مع المتغيرات العالمية .

هيئة مستقلة تؤكد على ضرورة حماية العقل العربى .. وحماية حريته ، ولن يكون للحرية كيان بدون الديموقراطية ؛ التى لن تتحقق إلا عن طريق النضال الذى يقوم على الحوار والموضوعية ، والمنطق المحض .. هيئة تحمى ولا تخاصم أو تمالىء .

وبذلك تكون قد تحققت الاستفادة من المأزق التاريخى ، كما تحقق مثل ذلك - مع اختلاف الظروف التاريخية وغيرها - من نكبة عام ١٩٤٨ ؛ وبذلك .. أيضا .. يمكن للعرب (مثقفين ونقاد) الدخول إلى العصر القادم .

مجلة الهلال

إن هذه الفكرة .. فكرة أنشاء هيئة مستقلة للمثقفين ؛ ياحبذا لو أن مجلة الهلال تبنتها على صفحاتها ؛ ودعت إليها نجيب محفوظ وغيره من المفكرين .. وكذلك كل المثقفين العرب للإسهام .. كل بقدر استطاعته - ومجلة الهلال مجلة عريقة فى تاريخ ثقافتنا العربية .. تستطيع بصفحاتها تبنى هذه الفكرة وإنجاحها .



تجربة خاصة ١٩٣٦ - ١٩٩٠

تأليف ج . ب ڤاتيكيوتيس (لندن : وايدنفلد ونيكلسون ، ١٩٩١)

بقلم : د . عبد الوهاب المسيرى

هذا الكتاب سيرة ذاتية يتناول فيه المستشرق الأمريكى (من أصل يونانى) ڤاتيكيوتيس ذكرياته مع العرب واليهود خلال فترة صباه وشبابه فى فلسطين ومصر ، ثم خلال فترة عمله كأستاذ جامعى متخصص فى الشرق الأوسط فى الولايات المتحدة وإنجلترا (من أهم مؤلفاته : الجيش المصرى فى السياسة والصراع فى الشرق الأوسط ، وناصر وجيله ، وتاريخ مصر الحديثة ، والإسلام والدولة ، وغيرها من الدراسات) . ويتمحور الجانب الأكبر من علاقته بالطرفين حول الصراع بين عرب فلسطين والتجمع الصهيونى فيها إبان فترة الانتداب البريطانى على فلسطين ثم الصراع اللاحق بين العرب وإسرائيل .

والكتاب فى تصورى ليس له قيمة أدبية على الإطلاق ، فالاسلوب سردى تقريرى ومباشر ، ولا توجد أى محاولة من جانب الكاتب أن يستخدم الآليات الأدبية المختلفة (المجاز - الرمز - تعديل بنية الجمل - الانتقاء الواعى للألفاظ) التعبير عن رؤيته وأفكاره . ولعل هذا هو السبب أننى وجدت قراءة هذا العمل عملية مملة إلى أقصى حد ، إذ أنه كان يتحول أحياناً إلى مجرد دردشة وقيل وقال (وإن



كانت آلية القيل والقال تستخدم أحياناً للهجوم المسموم على أعداء المؤلف الشخصيين مثل ادوارد سعيد) .

وإذا كانت هذه السيرة ليست عملاً أدبياً ، فما هي ؟ وكيف يمكن تصنيفها ؟ هل يمكن أن نعتبرها وثيقة اجتماعية كتبها أحد علماء الاجتماع والسياسة يقدم فيها حياته العامة كي يفهمها القراء ويعوا ما فيها ، إذ أن ما يهم في حياة مثل هذا المؤلف ليس أفراحه وأحزانه الخاصة ، وإنما رحلته العامة كعالم وباحث ؟ إن قبلنا بهذا التعريف سنجد أن القيل والقال يقفان في طريقنا ، كما أننا لن نجد نمطاً متكرراً وإنما سيلاً من الكلمات والحواديت .

لكل هذا فسنصنف هذه السيرة على أنها من قبيل ما يسمى بـ « الوصف المكثف » وهي آلية يلجأ إليها بعض علماء الأنثربولوچيا الذين يودون أن يتعاملوا مع مجتمع ما ولكنهم لا يودون أن يصدروا تعميمات عليه ، فيكتفون بوصفه وصفاً كاملاً (كثيفاً) بحيث تكون الدراسة هي هذا الوصف ، وحتى إن قام العالم الأنثروبولوچي باصدار حكم ما ، يظل الوصف الكثيف الذي قدمه العالم قائماً يتجاوز التعميمات التي أصدرها هو ذاته .

ولد ڤاتيكيوتيس في القدس عام ١٩٢٨ وكان عضواً في الجالية اليونانية الصغيرة في فلسطين حيث كان جده قد استقر في فلسطين في القرن التاسع عشر . وقد عمل والده ، مثل معظم أفراد الجالية اليونانية في فلسطين ، لدى إدارة الانتداب البريطاني في البلاد . ويقول ڤاتيكيوتيس، في رده على الانتقادات التي وجهت إليه بخصوص مواقفه وكتاباته حول العرب وحركة المقاومة الفلسطينية ، يقول إنه عاش وترعرع بين العرب ولم ينتم إلى مجتمع حاول السيطرة عليهم أو استغلالهم، ولذلك فهو لا يشعر بحرج أو ذنب عند انتقاده لهم .

ارتباط وثيق بالهوية

ولعل موقعه هذا (يوناني في فلسطين يقف بين « العرب واليهود ») هو النقطة المركزية في وصفه الكثيف ، ولعل النمط التحليلي يكمن هنا في هذه النقطة . يروي لنا ڤاتيكيوتيس بعض جوانب حياة الجالية اليونانية في فلسطين ، ومن أهمها ارتباطها الوثيق بلغتها وثقافتها اليونانية وبالعقيدة اليونانية الأرثوذكسية والتي



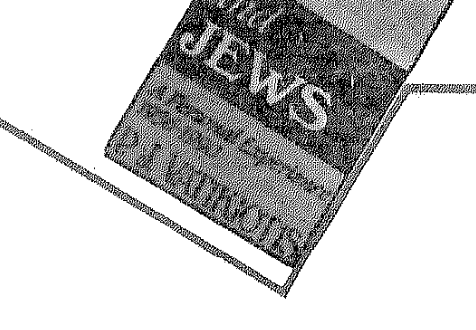
أصبحت فى فلسطين مرتبطة بالهوية اليونانية نفسها (أو هكذا كان يتوهم) ، وكان للكنيسة اليونانية الأرثوذكسية شبكة واسعة من المدارس فى جميع أنحاء البلاد تغرس فى نفوس طلابها الاعتزاز باليونان والعقيدة الأرثوذكسية والشعور بالتفوق على المجتمعات الأخرى فى فلسطين سواء المسلمين أو اليهود أو الإنجليز ، كما كانوا يكنون عداء للمسيحية الكاثوليكية ، وكان محرماً على اليونان التحدث بغير اليونانية فى بيوتهم فى حين كان أبناء أثرياء العرب ، وخاصة من الطوائف المسيحية الذين كانوا يتلقون تعليمهم فى المدارس الأجنبية العديدة فى فلسطين ، يتحدثون الفرنسية أو الإنجليزية فى بيوتهم ، ويقول ڤاتيكيوتيس إنه فى حين نجحت الإرساليات المسيحية البروتستانتية فى فلسطين فى تحويل بعض أعضاء الطوائف المسيحية الأخرى من العرب إلى البروتستانتية فإن نشاطها لم ينجح بين اليونانيين نظراً للارتباط الوثيق بين الهوية اليونانية والعقيدة الأرثوذكسية ، ويشير ڤاتيكيوتيس إلى أن كثيراً من العرب المسيحيين اعتنقوا البروتستانتية وانضموا إلى الكنائس الغربية لأن ذلك كان يحقق لهم حراكاً اجتماعياً واقتصادياً مما أكسبهم لقب « طائفة الشلن » ، ويشير بالفعل إلى أن العرب البروتستانت كانوا أكثر القطاعات العربية تعليماً وحراكاً وكانوا يرسلون أولادهم إلى المدارس الإنجليزية الخاصة ويسكنون فى أحياء راقية ويعملون فى المهن الحرة مثل الطب والمحاماة والتدريس ، كما كان يعمل عدد كبير منهم موظفين لدى حكومة الانتداب شأنهم فى هذا شأن أبناء الجالية اليونانية ، ويتصور ڤاتيكيوتيس أن سر عداء ادوارد سعيد له أن أسرة الأخير كانت من ضمن طائفة الشلن هذه ، بينما ظل هو متمسكاً بهويته الأرثوذكسية اليونانية ، ولعل استخدامه هويته اليونانية المتماسكة المستقلة (فى مقابل هوية ادوارد سعيد) يؤكد لنا أننا فى اختيارنا لهذه النقطة باعتبارها النمط التحليلى والتفسيرى الأكثر صلاحية وملاءمة لم يجانبنا الصواب كثيراً .

ويتناول ڤاتيكيوتيس موقفه وموقف الجالية اليونانية فى فلسطين ثم فى مصر التى انتقل للدراسة بها فى الجامعة الأمريكية عام ١٩٤٤ ، مع اشتداد واحتدام الصراع حول فلسطين ، فبرغم علاقات أو روابط الصداقة بل وأحياناً المصاهرة مع العرب الأرثوذكس لم يتبن أعضاء الجالية اليونانية موقفاً مؤيداً للعرب لأن ذلك كان سيعنى تهديد علاقاتهم بالسلطات البريطانية والتى كانت تمثل مصدر معيشتهم فى فلسطين ، وبالفعل مع رحيل البريطانيين عن فلسطين رحلت معهم الجالية اليونانية حيث اتجه بعض أفرادها للاستقرار فى اليونان ، والبعض الآخر-

وخاصة الشباب ، للدول الاستيطانية فى الأمريكتين وأستراليا وجنوب أفريقيا ، وقد اتجه هو إلى مصر مؤقتاً للدراسة فى وقت تصاعدت فيه الحركة الوطنية المصرية والقوى السياسية العديدة المناهضة للوجود البريطانى بالمنطقة ، ولا يذكر من قريب أو بعيد اشتراكه فى الحركة الوطنية المصرية أو تعاطفه معها (وهذا كله له دلالة كما سنبين فيما بعد) . ويعطينا عدداً لا بأس به من التفاصيل عن حياة الطلبة اليونانيين واليهود والفلسطينيين فى الجامعة الأمريكية فى القاهرة .

أى سيرة حياة هذه ؟ هل يمكن أن تكون حياة إنسان تفاصيل تتراكم فوق تفاصيل ؟ أم أن هناك نمطاً قد أفلت من يد صاحب السيرة ذاته ؟ كما أسلفنا قد يكون المفتاح فى الهوية ، والهوية هنا ليست هوية « يونانى فى فلسطين يقف بين العرب واليهود » كما يدعى ڤاتيكيوتيس لأنه لو كان يونانياً فعلاً لاتجه لليونان (وطنه الأصلى) للدراسة أو الاستقرار ، ولكن لنلاحظ أنه كان فى فلسطين بعد احتلال الانجليز لها وكان أهله جزءاً من جماعة تعمل فى خدمة الانتداب مرتبطة بها تماماً ، بل إن وصولهم فى نهاية القرن التاسع عشر تم فى إطار بدايات الزحف الغربى على المنطقة ، وترك أعضاء هذه الجماعة فلسطين مع حكومة الانتداب واتجه هو شخصياً بعد ذلك لا إلى اليونان وإنما إلى الولايات المتحدة ليعمل فى معاهد الاستشراق الغربى التى لا تنفصل كثيراً عن التشكيل الاستعمارى الغربى . ودراساته تبين مدى تعاطفه الشديد مع هذا التشكيل ، ولكنه يظل دائماً على هامشه إذ أنه يقوم على خدمته .

ولوصف هذا النمط البشرى طورت مفهوماً جديداً أسميته « الجماعات الوظيفية » استخدمته لتفسير ظاهرة مثل ظاهرة اليهود فى الحضارة الغربية باعتبارهم تجار ومرابين وظاهرة المماليك فى مصر باعتبارهم مرتزقة ، والجماعات الوظيفية (أو المتعاقدين الهامشيين الغرباء) هم جماعة من البشر تستجلبهم المجتمعات الإنسانية (التقليدية) من خارج المجتمع ، أو تجندهم من داخله ، وتوكل لهم بوظائف لا يمكن لأعضاء المجتمع القيام بها إما لأنها مشينة (مثل البغاء) أو متميزة وتتطلب خبرة معينة أو بضرورة ارتياد مناطق نشاط جديدة (الطب أو الاستثمار الصناعى) أو حساسة للغاية (الأمن - الوظائف القريبة من النخبة مثل الوزراء والمستشارين والخصيان) ، وبعض أعضاء الجماعة اليونانية فى مصر كانوا ينتمون للفريق الأول إذ أن كثيراً من البغايا كن يونانيات ، أو للثانى فقد كان منهم مستثمرون صناعيون أدخلوا صناعات جديدة ، ولكنهم لم ينتموا قط إلى الفريق الثالث إذ لا نعرف أنهم اضطلعوا بوظائف أمنية . أما فى فلسطين فيبدو أن حكومة الانتداب قررت تجنيدهم داخل الجهاز الحكومى كموظفين وغيره حتى يمكنها أن تبقيهم بمعزل عن الفريقين المتصارعين



وحتى يمكنها التحكم فى الفريق عن طريق عنصر مستورد يمكن الثقة فيه . ويبدو أن خكومة الانتداب قد نجحت أيضاً فى استقطاب بعض العناصر العربية البروتستانتية وأوكلت لهم نفس الوظيفة . ويبدو أنه لم تفعل ذلك مع العرب من المسيحيين الأرثوذكس أو الكاثوليك ، وهذا أمر بالغ الدلالة ، فالجماعات التبشيرية لم تكن توجه نشاطها لتنصير المسلمين ، وإنما زاولت نشاطها بالدرجة الأولى بين المسيحيين بهدف اخراجهم من كنيستهم الوطنية المحلية لتضمهم إلى كنيسة غربية مرتبطة بالتشكيل الاستعمارى الغربى ، فالتبشير هنا ليس لنشر الهداية وإنما محاولة لعزل عنصر بشرى محلى وتحويله إلى عنصر موالٍ للاستعمار الغربى .

ويتسم أعضاء الجماعة الوظيفية بما يلى :

١ – الحياد والموضوعية والتعاقدية : فأعضاء الجماعة الوظيفية مجرد أداة فى يد الحاكم والأداة لابد وأن تكون موضوعية ومحايدة لا تتخذ مواقف ، ولا تغضب ولا تفرح وإلا لما أصبحت أداة ، وعلاقتهم بالحاكم ليست علاقة حب أو كره وإنما علاقة تعاقد ، فهو يحتفظ بهم بمقدار نفعهم .

٢ – العزلة والهوية المستقلة : يحتفظ أعضاء الجماعة الوظيفية بهويتهم التى تأخذ شكل عقيدة مختلفة ولغة مختلفة وتوجه ثقافى وحضارى مختلف يعزلها عن محيطها الحضارى (ومن هنا كان يتحدث المماليك الشركسية وهناك كذلك لغة القوادين السرية) ، وهذه العزلة تجعلهم موضع رفض عميق من الجماهير ، وبالتالى ثقة من الحاكم ، إذ أن عزلتهم تسبب عجزهم ، وعجزهم يجعلهم غير قادرين على التمرد عليه أو استخدام ما يتراكم معهم من ثروات أو أسرار ضده .

٣ – الارتباط الوهمى بالوطن الأصلى : نقول « وهمياً » لأن أعضاء الجماعة الوظيفية لا يعودون قط إليه وإنما يستخدمونه كنقطة مرجعية تعزلهم عن الوطن الفعلى الذى يعيشون فيه ، ويعد ركيزة لهويتهم التى تعمق هذه العزلة .

٤ – الحركية : أعضاء الجماعة الوطنية يتسمون بحركية بالغة لأنهم غير مرتبطين بالمجتمع الذى بعيشون فيه ، وهم لا يعودون إلى وطنهم الأصلى وعلاقتهم بالقوة الحاكمة التى تستخدمهم علاقة نفعية تعاقدية . وهم لا يدينون بالولاء لأحد إلا لجماعتهم الوظيفية والقوة الحاكمة التى ترعاهم .

حيلة صهيونية

وفاتيكيوتيس ، المهاجر اليونانى الأزلى ، والمتعاقد الهامشى الدائم ، ينتمى إلى هذا التشكيل الذى ينكر التاريخ ، ولذا فرؤية فاتيكيوتيس لفلسطين تنكر تاريخها فهو يرى فلسطين لا باعتبارها بلداً يقع داخل التشكيل الحضارى العربى الإسلامى له هوية تاريخية محددة وإنما يراها « منطقة » تضم خليطاً من الأعراق والأديان والقوميات (عرب مسلمين - عرب مسيحيين { كاثوليك - أرثوذكس - بروتستانت } - أرمن - إيطاليين - يونان - بهائيين - دروز - يهود) ولا يذكر فاتيكيوتيس أن الأغلبية الساحقة عرب تضم أغلبية عربية مسلمة وأقلية عربية أساساً أرثوذكسية ، وهو يقدم البانوراما الإثنية والدينية على طريقة الكتالوج الذى يتساوى فيه الجميع . وهى حيلة صهيونية قديمة ساوت بين العرب (٩٧٪) واليهود (٣٪) فى مطلع القرن العشرن وتقرر إعطاء فلسطين لليهود (أى يهود العالم الغربى) ثم تقرر تقسيمها بالعدل بينهم وبين العرب . ولا يزال الصهاينة يشيرون إلى الشرق الأوسط بأسره باعتباره « المنطقة »

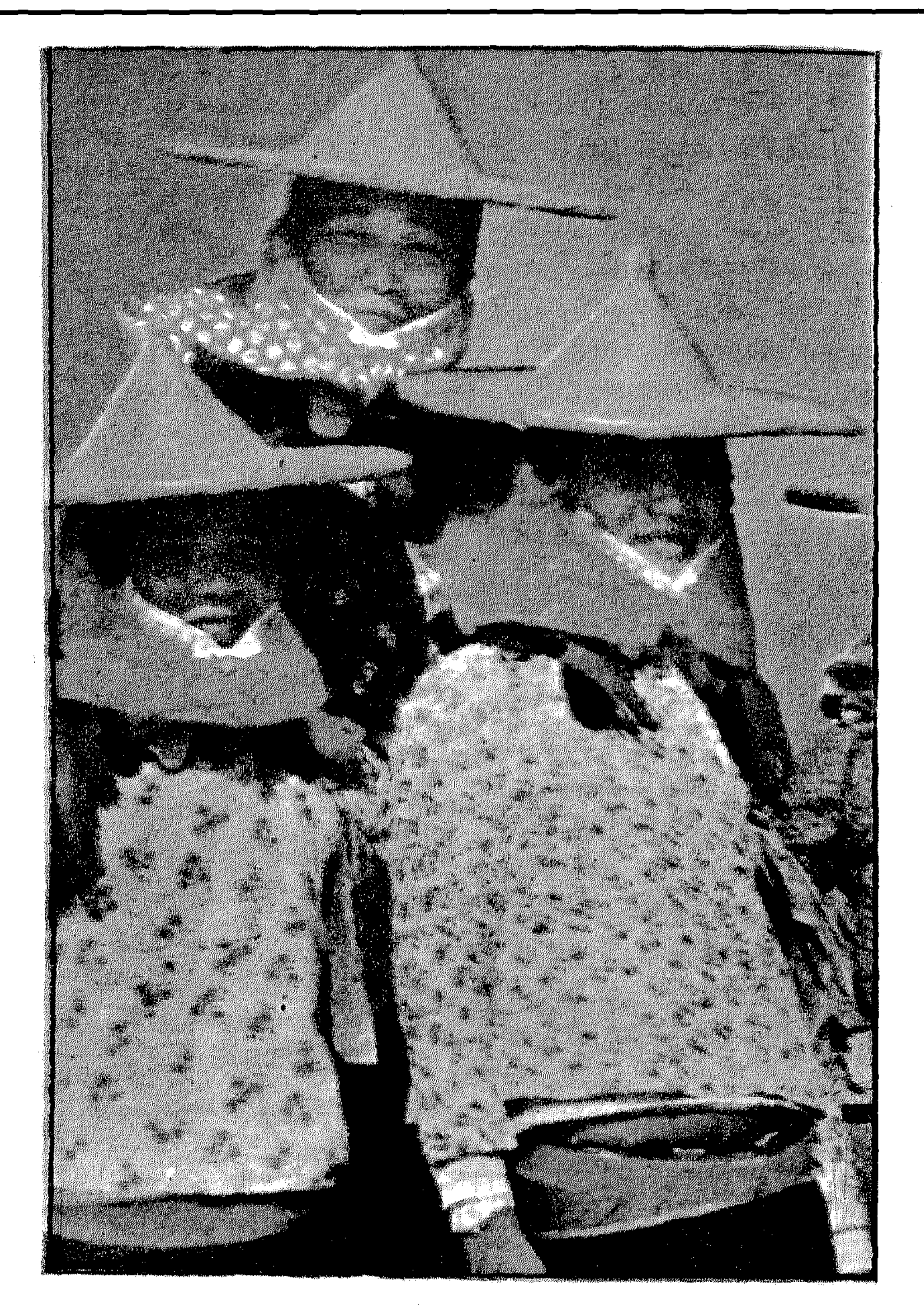
ولكن الشبه بين فاتيكيوتيس والصهاينة يتوقف عند هذه النقطة ، فاليونانيون لم يكونوا مثل الصهاينة لهم مشروع استيطانى مستقل ولم يكونوا يطمحون إلى تأسيس دولة فى فلسطين ، وإنجلترا القوة الاستعمارية التى كانت ترعى الجماعة اليونانية الوظيفية لم تكن تراهم باعتبارهم مادة استيطانية وإنما مادة ادراية وحسب ، لكل هذا ، رغم انكار فاتيكيوتيس لتاريخ فلسطين (العربى المسلم) فإنه لا يطالب بتهجير الفلسطينيين أو إبادتهم (على الطريقة الصهيونية) وإنما يكتفى عضو الجماعة الوظيفية من طائفة الباوند اليونانية أن يطرح الانتداب البريطانى باعتباره أفضل الحلول وأكثرها واقعية لحكم هذه الجماعات المختلفة ، ولذا يهاجم جميع المشاريع القومية المنادية بحق تقرير المصير أو إقامة دولة قومية ذات سيادة ليستمر هو وجماعته اليونانية الوظيفية فى إدارة « المنطقة » لحساب القوة الإمبريالية الراعية ، ومع كلٍ ، هذا هو ما استمر فى انجازه حين عمل مستشرقاً بعد ذلك ، يقدم الدراسات الوظيفية المحايدة التى تنظر للأرض دون تاريخ أو حضارة ، وهى رؤية تمكن داخلها جيوش أوربا الفاتكة . فإذا كانت الأرض بلا شعب ولا تاريخ ، فبقية القصة معروفة ، والملايين التى أبيدت فى الأمريكتين شاهد على ذلك ، والله أعلم .

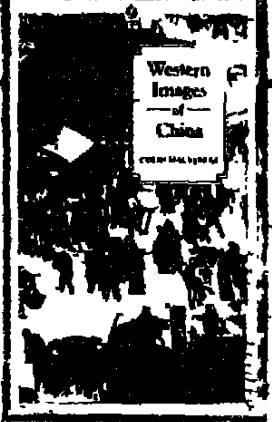
الصين
بين الوثنية والاشتراكية

تأليف : كولين ماكراس   عرض وتقديم : د. السيد أمين شلبى

الوطن واحد .. والرؤى متعددة

الصين هذا الكيان الجغرافى والبشرى والتاريخى والحضارى الضخم ، كيف تصوره ورآه الغربيون منذ البدايات الأولى لعلاقة الغرب بالصين ، وما هى المصادر التى صاغت هذه الصورة من رحلات وأسفار وكتب ودوائر معارف وروايات وأدوات ووسائل الرأى العام ، وأهم من هذا كيف تغيرت وتأثرت صورة الصين لدى الغرب بتغير البيئة السياسية والثقافية فى الغرب ودوافعه نحو الصين وبحيث بدت الصين لبعض المذاهب الفكرية كنموذج، وبدت للبعض الآخر كتمدن للحضارة الغربية ، وحيث جاءت الصورة إيجابية حساسة ، متفهمة وإنسانية حين كانت الدوافع هى مجرد اكتشاف الصين .





وجاءت سلبية مثيرة للشكوك والمخاوف وتركز على كـل ما هو سلبي مع بروز الإمبريالية في القرن ١٩ وتوجيهها نحو الصين . وإلى أي حد ينطبق على صياغة صورة الصين نظرية المعرفة والقوة والتي تصيغ بمقتضاها القوة المسيطرة دوليا الصورة الحضارية لغيرها من المجتمعات .

هذا ما يناقشه هذا الكتاب المهم الذي كتبـه بوضـوح وموضوعية وتجرد استاذ أسترالي عاش وعمل وحاضر في الصين منذ الستينات .

ماركو بولو والمصادر الأولى

لم يكن ماركو بولو (١٢٥٤ - ١٣٢٤) الأوربي الأول الذي يزور ويعيش في الصين ولكنه كان الأول الذي يعود لبلاده لكي ينقل رؤيته وخبراته وانطباعاته ، وبفضله يمتلك التاريخ الأوربي رؤية تفصيلية عن الصين ومجتمعها تقوم على أكثر من مجـرد التخمين ، وتجعل منه بذلك أول من صاغ الصورة الغربية عن الصين .

في عام ١٥٨٣ ، قرر البابا جورجي الثالث عشر وضـع تاريخ شـامل عن الصين ، واختار لهذا القس : خوان دو مندوثا الذي وضع كتابه الذي نشر في روما بالأسبـانية عام ١٨٨٥ تحت عنوان : « تاريخ مملكة الصين العظيمة » حاول فيه وبنجاح كبير جمع كل ما عرف عن الصين في الغرب . ومثل ماركو بولو وغيره من الكتاب الأوائل تأثر بحجم الصين ووصفها أنها أكثر بلدان العالم مساحة وسكانا ، كما كتب عن مدنها بعبارات تمجيدية مركزا على عظمة وفخامة مبانيها وروعة شوارعها والتي كانت ممهدة جداً وعريضة بحيث تسع ١٥ حصاناً يجرونها في وقت واحد ، كما وصف الصينيين في شوارعهم ومنازلهم بأنهم على قدر رائع من النظافة . وكتب بالتفصيل وبإعجـــاب عن النظـــام الحكومي والإداري وقال إن كبار الرسميين كانوا على قـــدر كبير من الفضـــائل الأخـــلاقية ، والصـــبر علـى الاستمـاع للشكوى ، كما تحمس لنظام الامتحان الذي يدخل به الفرد الخدمة العامة . ولكنه من ناحية أخرى انتقد بشدة النظام القضائي ولاحـظ العقوبات « الوحشـــية » التي تصدرها المحـاكم ووصف بالتفصيل ألوان التعذيب التي تســتخدم لاســتخلاص الاعترافات .

● فولتيـــر كـــان يرى أن حكــومة الصـــين اســـتبدادية متنـــورة

وشأن غيره من كتاب عصره ، تأثر متدوتا بنظام العائلة الصينية ، وبفضائل النساء وأمانتهن ، وناقش بالتفصيل نظام ربط أقدام النساء دون نقد .

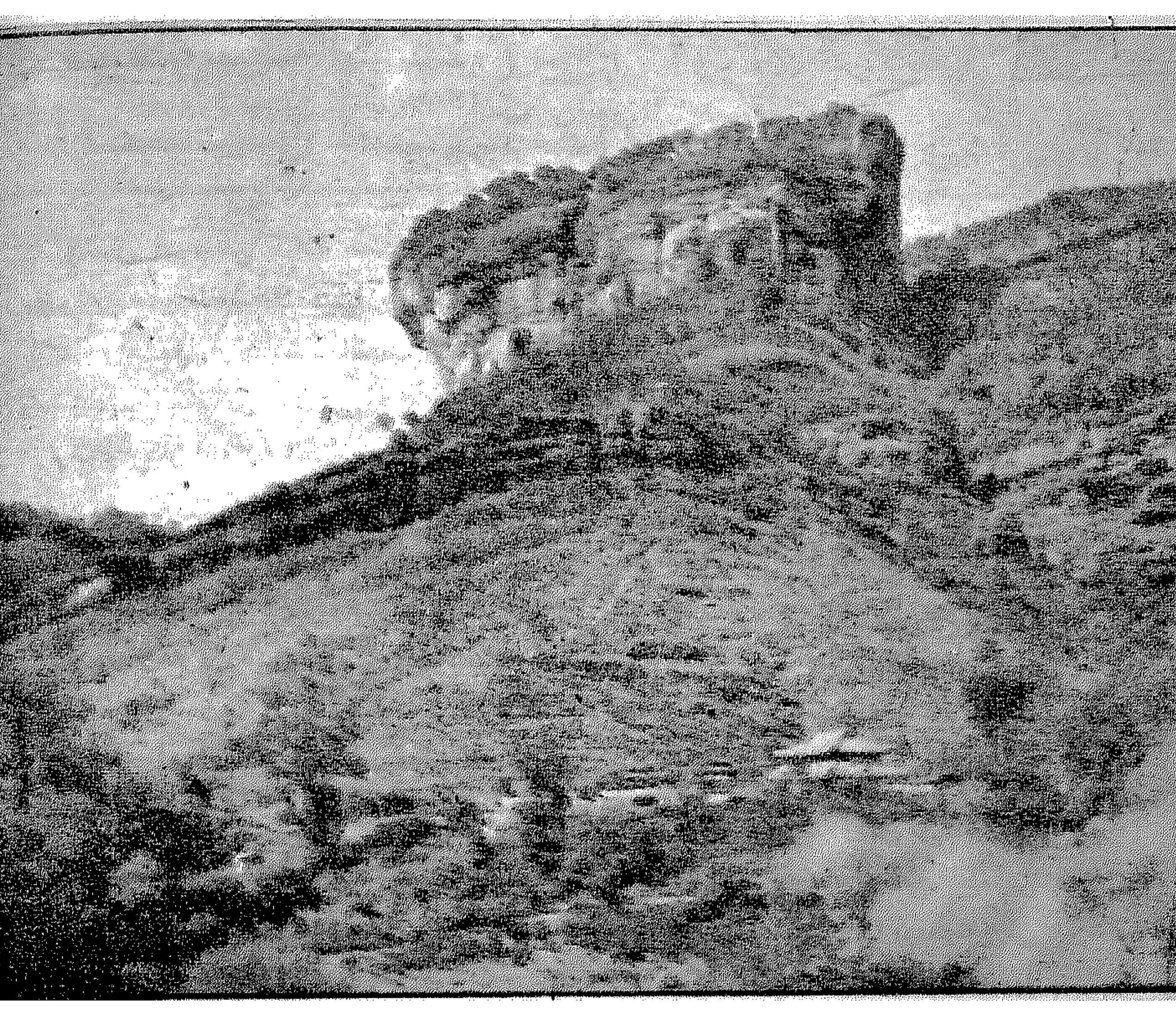
هكذا كان معظم الكتاب والقراء عن الصين في القرن ١٦ مهتمين بشكل حقيقى بالصين واكتشافها ، ولكنهم كانوا يتخذون منهـا موقفا إيجابياً موضـوعياً غير متحيز ، ورغم أن هدفهم الذى ثبت عقمه كان تحويل الصين إلى المسيحية ، فإن الإمبريالية وأهدافها لم تكن بعد قد وجهت نظراتهم .

الحكام . والدولة الصــالة السعيدة

أعجب معظم فلاسفة القرنين السابع والثـامن عشر بالعقليـة ، الكونفوشيسية حيث رأوها تتناقض بشكل قوى مع الصراع الدينى الذى كان يسود أوربا . ففى ألمانيا ، كان ما أفزع ليبنز (١٦٤٦ – ١٧١٦) اللاأخلاقية السائدة فى بلده وزمنه، واعتبر أن الصين « يجب أن ترسل البعثات لكى تدرس لنا هدف استخدام اللاهوت الطبيعى ، بنفس الطريقة التى بعثنا بها بعثات تعلمهم الوحى اللاهوتى » وكان يعتقد أن الصين وأوربا وهما على طرف قارة أراسيا ، هما أعظم مدنيات العالم ، ولذلك فقد شغل معظم حياته بالتبادل الثقافى بين الصين وأوربا .

كذلك كان فولتير (١٦٩٤ – ١٧٧٨) من أكثر مفـــكرى عصر التنوير الفرنسي نفوذاً واتجاهاً إيجابياً نحو الصين . وقد أثنى على حــكومة الصـــين واعتبرها استبدادية متنورة بل انكر أنها استبدادية على الإطلاق ، واعتقـــد فولتير أن حكم الصين يقوم على القانون والأخلاقيات واحترام الأبناء لآبائهم . وكان من أكثر ما استوقف فولتير ما اعتبره الطابع العلمانى للكونفوشيسية ، وأثنى على كونفوشيوس لأنه لم يعتبر نفسه نبياً وإنما قاضياً وحكيماً يعلم القوانين القديمة . وقد أنكر فولتير أن الصينيين ملحدون رغم أنه رأى عقيدتهم مهتمة بالفـــكر الأول بالعالم الدنيوى لا بتتبع الموت ويبدو أنه اعتبر نظرتهم هــذه نقطة في صالحهم . كذلك عقب فولتير إزدهار البـلد الملحوظ على كمية الطعام والفاكهة المتاحة للناس ، كما سجل أن الصينيين كانوا يعلمون الطباعة قبل أوربا بوقت طويل .

أما مونتسكيو (١٦٨٩ – ١٧٥٥) فقد كانت نظرته للصين مختلفة وسلبية ، فقد



الى هنـــا .. جـــاء ماركو بولو فى القـــرن ١٣

رأى أن الصين دولة إستبدادية إلا أنه لم ير فيها شيئاً حميداً . إلا أنه اعجب كثيراً بنظام العائلة القوى فى الصين ، فالعلاقة بين الحكام والشعب كانت كالعلاقة بين الآباء والأبناء ، « فالمشرعون يطلبون من الشعب أن يكون خاضعاً ومسالماً ومجتهداً فى عمله ، وكانوا يرون أنه حين يعمل كل فرد ، ويطيع حكامه فإن الدولة تصبح فى حالة سعيدة » .

بلد .. من زمن الوثنية !!

إذا كانت القرون السابقة قد تبنت وجهات نظر متنوعة عن الصين إلا أنها على الأقل تميزت بالتوازن بين الصورة الإيجابية والسلبية ، أما القرن التاسع عشر من هذا التوازن قــد تحــول بشكل حاسم بعيداً عن الصورة الإيجابية ونحو



الصين في عيون غربية



الصورة السلبية . وربما كان ثمة أسباب عديدة لذلك ، ولكن السبب الرئيسي كان هو حضور الإمبريالية الغربية وخاصة البريطانية منذ الثورة الصناعية ، وللمرة الأولى أصبحت بريطانيا من أكثر مصادر صياغة الصور الغربية عن الصين . وقد ظهر هذا التحول بالتحديد في منتصف القرن ١٨ حين عاد البارون چورج أنچون من رحلة طويلة حول العالم علم ١٧٤٤ ونشر مشاهداته عام ١٨٤٨ وتضمنت أوسع هجوم على الصورة الوردية عن الصين التي أشاعها الجيزويت الفرنسيون عن الصين ولأسباب داخلية ليس لها علاقة بالصين إلا بشكل ضئيل ، تحرك الرأي العام في كل من فرنسا وبريطانيا بشكل قوي ضد الصين .

وقد كانت بعثة اللورد ماكارتني إلى الصين عام ١٧٩٣ من أهم من عبر عن هذا الاتجاه الجديد نحو الصين ، ففي يومياته لاحظ أن نظام الصين السياسي هدفه إقناع الشعب بأنه يعيش في نظام كامل « وعلى هذا فهو لا يحتاج أن يتعلم شيئاً من الآخرين » ، وقد انتقد ماكارتني هذا بشدة واعتبر أنه أسلوب غير حكيم في الحكم « فالدولة التي لا تتقدم تعود إلى البربرية والبؤس » ، وملاحظته هذه سوف تعكس الاتجاه الذي تبناه الغرب تجاه الصين في القرن ١٩ ، والقائم على افتراض أن الصين يجب أن تتعلم من الغرب ، وأن التغير مرادف للتقدم ، وأن الصين لا يجب أن تكون بعد ذلك هي النموذج الذي رآه فولتير وآخرون .

وقد واصلت بعثات التبشير البروتستانتية في بداية القرن ١٩ ما بدأته بعثة ماكارتني وكانت هي مقدمات التوغلات البريطانية وغيرها في الصين بل أن المدفعية البريطانية هي التي قدمت لهم الدافع لفتح الطريق إلى الصين ، ورغم هذا فإن هذه البعثات البروتستانتية لم تترك إلا أثراً ضئيلاً من حيث عدد من استطاعت تحويلهم إلى البروتستانتية والذين بلغوا أقل من مائة عام ١٨٤٠ . وتجئ المفارقة هنا من أن هذه البعثات في الوقت الذي لم تترك إلا أثراً ضئيلا في الصين إلا أنها تركت أثراً جوهرياً في الغرب . وقد لعبت دورا كبيرا في تغيير اتجاه أوربا نحو الصين وشعبها ، هذا بالإضافة إلى أن هذا قد توافق مع أن بريطانيا كانت في هذا الوقت تعاني

• حكاية البارون التى أثارت الرأى العام الأوربى ضد الصين فى القرن ١٩

مخاض الروح المحافظة والتى تنسحب جزئياً كرد فعل لنظريات الثورة الفرنسية .

من أبرز المبشرين البروتستانت الذين كتبوا عن الصين ويلز وبليامز فى كتاب : « مملكة الوسط » ، فقد نظر هو وغيره من البروتستانت إلى الصين على أنها « بلاد الوثنيين الذين يفتقدون ضوء الله ويجب أن ينقذهم أحد من اللعنة الأبدية » . ورغم أن ويليامز اعتبر أن الصين هى أكثر الأمم الوثنية القائمة مدنية فى مؤسساتها وآدابها ، فإنه اعتبرها « مستعبدة وناقصة وتقوم على مبادئ خاطئة ، وقد يكون فيها عناصر الاستقرار ولكن لا تتقدم ، كى لا تلمس فى الناس الشرف أو الأخلاق أو الرحمة ، وباختصار فإن هذه المدنية آسيوية وليست أوربية ، وثنية وليست مسيحية » .

وقد تدعمت هذه الصورة السلبية عن الصين فى القرن ١٩ بفعل الموسوعات الكبرى وخاصة البريطانية والتى جاءت تعمتها عن الصين متعالية تنظر إلى الصين كبلد غريب ومتخلف وبربرى فى بعض الوجوه .

صحفى غربى فى معسكر الشيوعيين

لعبت الكاتبة الأمريكية . بيرل بيكى (١٨٩٢ - ١٩٧٣) دوراً بارزاً فى صياغة الصور الغربية عن الصين فى النصف الأول من القرن العشرين وذلك من خلال روايتها « الأرض الطيبة » بوجه خاص . وقد عبرت بيكى عن وضعها بين عالميها الأمريكى والصينى اللذين عاشت فيهما بقولها « لقد نشأت فى عالم مزدوج ، العالم الأمريكى الأبيض النظيف الذى يمثله والدى ، والعالم الصينى الكبير ، ولم يكن ثمة اتصال بين العالمين ، فحين كنت فى عالم الصين كنت أتصرف ، وأتحدث وآكل كما يفعل الصينيون وأشاركهم فى أفكارهم ومشاعرهم ، أما حين أكون فى العالم الأمريكى فإنى أغلق الباب تماما » .

وقد جاءت الصور التى قدمتها بيرل بيكى عن الصين أكثر إيجابية عن تلك التى سادت خلال انتفاضة البوكسر التى جاءت لكى تعكس مخاوف الغربيين وشكوكهم وهى الصور التى ركزت على القسوة والخيانة والكراهية للأجنبى .

وما يجب تسجيله عن هذه الفترة ١٩٠٠ - ١٩٤٩ أنها قد شهدت قمة



حين تكون في الصـــــين .. تصرف كمــــــا يفعل الصــــــينيون

النشاط التبشيري الغربي في الصين وخاصة من الولايات المتحدة ، ويهدف لرض القيم الأمريكية والغربية الخاصة على المثقفين الصينيين ، وهكذا انتشرت خدمات مثل المستشفيات ، والمدارس التعليمية ، غير أنه من الملاحظ أن الذين عملوا في هذه المجالات قد تأثر كثير منهم بالحضارة الصينية وبأدب وحماس طلابهم، وكما عبر أحد المبشرين « أنه جاء إلى الشرق الأقصى يحمل رسالة ولكن في عملية التحول فإن الشرق هو الذي أبلغ رسالته » ، وهكذا فإن الكثيرين الذين ذهبـوا إلى الصين لتغييرها هم الذين تغيروا .

كذلك لعب عـــدد من الصحفيين الأمريكيين ذوي الاتجاهات اليسارية دوراً في صياغة صورة الصين في عام ١٩٤٩ . فقد اهتمت آجنس سميدلي (١٨٠٥ - ١٩٥٠) بحياة الفلاحين لدرجة أنها خصصت كتاباً عن تاريخ حياة أحد القادة العسكريين الشيوعيين واعتبرت أنه بروايته لتاريخ حياته يصبح « أول فلاح يتحدث »



أبنـــــــاء وبنـــــات من « الأرض الطيبة »

كذلك كتبت سميدلى عن الصين شبه الإقطاعية الزراعية ، على أنها فاسدة وجاهلة ومتحللة وغير قادرة على تطوير نفسها أو اتخاذ خطوة واحدة يمكن أن تزيد القوة الإنتاجية أو الشرائية للجماهير الصينية ، كما اعتقدت حتى فى الثلاثينات أن الحزب الشيوعى هو القوة الوحيدة القادرة على تغيير المجتمع ، وأيدته بقوة وبشكل علنى وتنبأت بانتصاره .

أما الصحفية آنا لويس سترونج فقد جاءت زيارتها الأولى للصين فى نهاية العشرينات وأصدرت عنها كتابا من جزءين : « ملايين الصين » وكتبت حتى قبل إنشاء جمهورية الصين الشعبية رسمياً « أن الصينيين الذين تقرر مصيرهم فى القرن الماضى على يد كل دولة أخرى ، سوف يمتلكون بلدهم وسوف يتقرر مستقبل الصين بواسطة الصينيين » .

كما كان إدجار سنو (١٩٠٥ - ١٩٧٢) أكثر الثلاثة تأثيرا ونفوذا ، فقد ذهب إلى الصين عام ١٩٢٨ وحصل عام ١٩٣٦ على فرصة فريدة لزيارة قاعدة

في عيون غربيـــــــــة



الثوار العسكرية وقابل ماو تسي تونج الذي حكى له قصة حياته والتي سجلها سنو وربطها بانطباعاته الحية وخبراته في قاعـدة الثـوار ذلك يشكل الـكتاب الكلاسيكي « النجم الأحمر فوق الصين » والذي جاء لا لمجرد حوادث عابرة وإنما حقائق ذات تاريخ دائم ، « وكرسالة عن الصينيين الذين يكرسون أنفسهم وعملهم لتحقيق التـكافل الوطني والعـدالة الاجتماعية » .

الأرض الطيبة .. وقدر الإنسان

وما دمنا قد تعرضنا للروائية الأمريكية بيرل بيك وروايتها « الأرض الطيبة » كأحد المصادر الروائية في صياغة الصور الغربية عن الصين ، فإن ثمة روائيا آخر يبرز في هذا الحقل وهو المفكر الفرنسي أندريه مالرو (١٩٠١ - ١٩٧٦) وروايتـــه « قدر الإنسان » ، ولم تكن هي روايته الوحيـدة عن الصين فقـد نشر أيضـا : « الغزاة » التي نشرت عام ١٩٢٨ وركزت على انتفاضة جوانجهو عام ١٩٢٥ . وبينما كانت بيرل بيك مهتمة بالفلاحين وبالريف فإن خبرة مالرو واهتمامه قد تركزتا على المدن وسكانها ، ومع هذا فإن الصورة التي رسمها مالرو عن الصين في روايته الأولى هي أكثر قسوة من تلك التي قدمتها بيرل بيك .

كذلك من الكتاب الذين تفوقوا على بيرل بيك في وصف الصين الكاتب البريطاني سومرست موم (١٨٧٤ - ١٩٦٥) ، ورغـم أن أغـلب أعمــاله « الآسيوية » تقع في ماليزيا ، وبورينو ، وسنغافوره ، فإن بعضها يخص الصين مثل : « الحجاب المطبوع » و « شرق السويس » ، وهو بهذا يعتبر من أكثر الشخصيات الأدبية التي صاغت الصور الغربية عن الصين ، وكانت مجمل رسالته التي حملها لقومه في الغرب أن الصين رغم كل ما يبدو من أخطائها في نظرهم ، فإن لديها وجهة نظر تستحق الاهتمام والاستماع ، وأنها بلغت من الواقع لدرجة أنها استحوذت على الغربيين المقيمين فيها وجعلتهم سعداء أن ينظروا إليها كوطنهم .

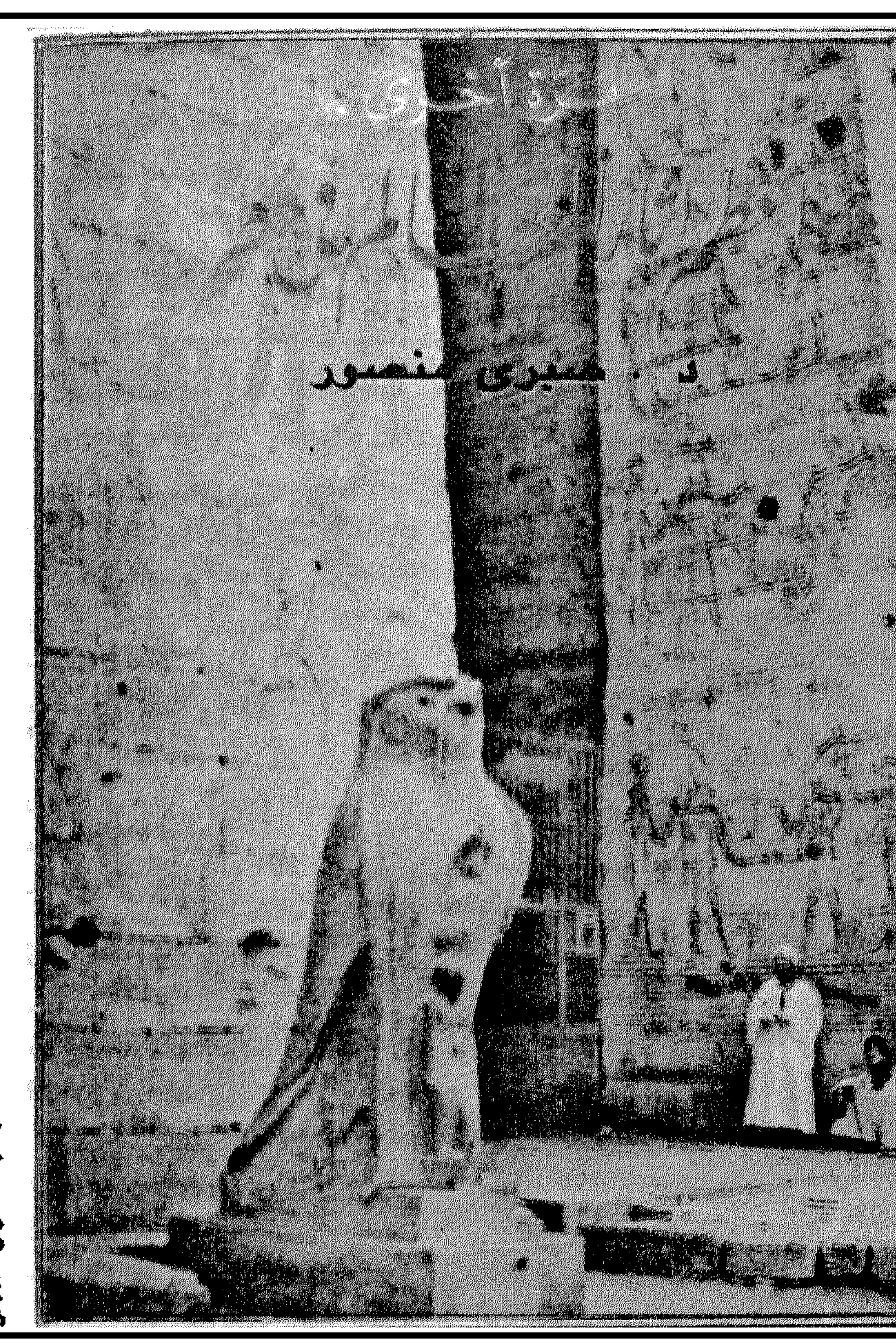
● سومرست موم من أكثر الشخصيات الأدبية التى تناولت الصين بكل الاهتمام

العالم تغير بعد ١٩٧٢

فى إطار نظرية « القوة والمعرفة » ، والتى تتولى بمقتضاها القوة ذات الثقل الدولى فى عصرها صياغة الصور الحضارية السائدة عن غيرها من المجتمعات ، ومثلما صاغت فرنسا وفقا لهذه النظرية صورة الصين فى القرن ١٨ ، وصاغت بريطانيا هذه الصورة فى القرن ١٩ ، فإن صورة الصين فى القرن العشرين قد صاغتها إلى حد بعيد الولايات المتحدة الأمريكية بفعل ثقلها ونفوذها الدوليين.

وكذلك قد لا يبدو مدى تأثر صورة الصين لدى الغرب بتأثر البيئة السياسية والثقافية مثلما بدا من الاتجاه الأمريكى نحو الصين بعد ثورتها عام ١٩٤٩ . فبعد الثورة وتولى الشيوعية السلطة فإن نشر ودعم الصورة السلبية عن الصين لم يكن مجرد ضرورة أيديولوجية بل سلاحاً فى المنافسة الدولية العريضة بين الغرب والشرق . غير أن الصورة السلبية التى تكونت عن الصين فى الولايات المتحدة خلال حقبتى الخمسينات والستينات سوف تتحول إلى صورة إيجابية لا لأن الأوضاع فى الصين قد تغيرت وإنما لتغير الاتجاهات السياسية الأمريكية نحوها .

وقد بدا هذا بوضوح على أثر زيارة الرئيس الأسبق نيكسون لبكين فى فبراير عام ١٩٧٢ والتى أراد بها أن ينهى حالة العداء والقطيعة التى سادت منذ الخمسينات وفتح بذلك خطا استراتيجيا جديدا وجعلته يصف هذه الزيارة بأنها « غيرت العالم » على أثر ذلك زاد الاهتمام فى الولايات المتحدة بكل ما هو صينى سواء ماديأ أو ثقافياً . وبمقارنة نتائج استطلاعات معهد جالوب التى قام بها للرأى العام الأمريكى فى الستينات حول الخصائص الإيجابية والسلبية الشعب الصينى باستطلاعات مماثلة قام بها عام ١٩٧٢ سوف نلمس صعودا ملحوظا فى تقرير الخصائص الإيجابية عن الشخصية الصينية مثل العمل ، والأمانة ، والشجاعة، والتدين والذكاء ، وهبوطا ملحوظا أيضا فى تقييم الخصائص السلبية مثل الجهل ، والقسوة ، والخيانة .



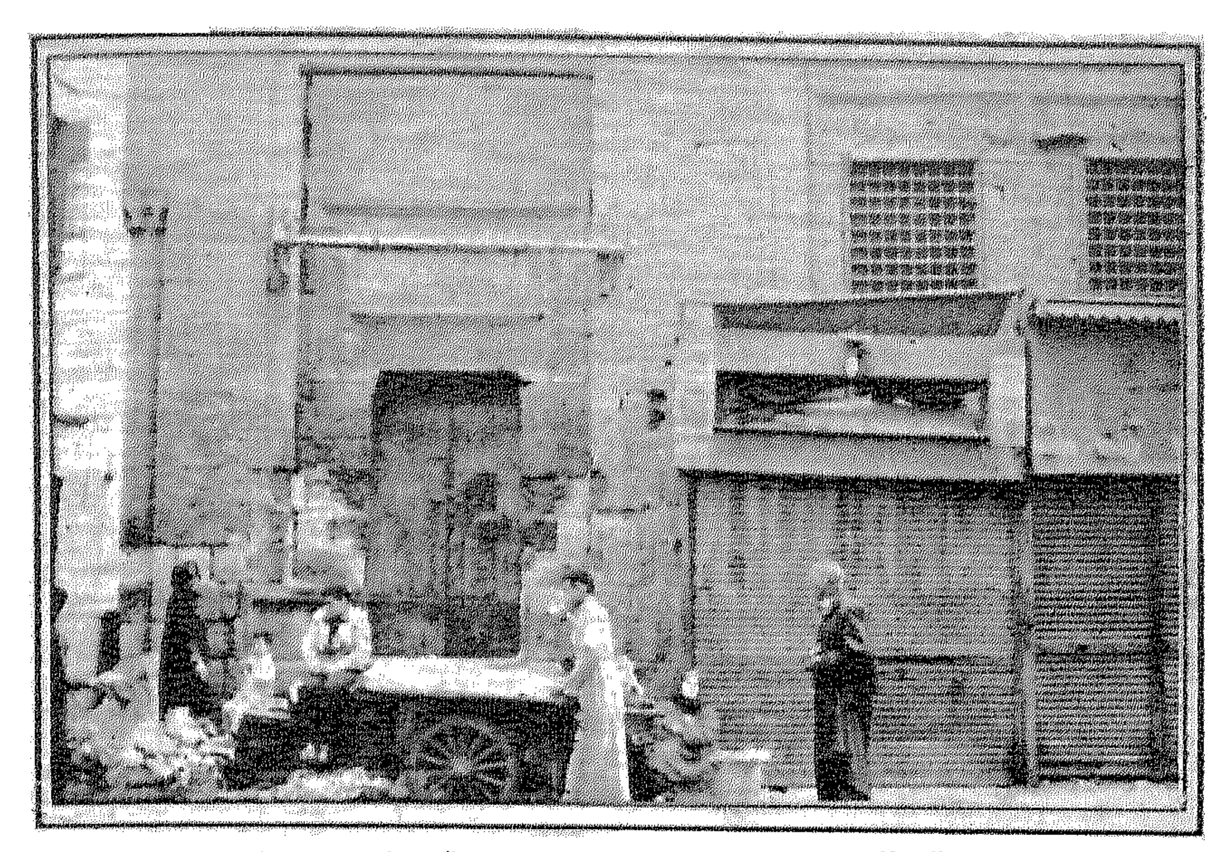
جزء من معبد الإله حورس - إدفو

لا نعتقد أن هناك بلداً فى العالم تزدرى آثارها - مهما كانت متواضعة القيمة أو حديثة العهد - مثلما تفعل فى مصر ، رغم أن آثارنا من جميع العهود والحقب هى الأعظم قيمة فى تاريخ البشرية . إننا بكل أسف لا نقدِّر الكنوز التى نملكها ويحسدنا الآخرون على أنها فى أرضنا ، فيقطعون آلاف الأميال ، ليأتوا إليها صاغرين متبتلين ، ليلقوا عليها نظرة متأملة مذهولة بإعجاز ذلك الشعب الذى عاش ذات يوم فى وادى النيل .. ونحن هنا لا ندرك لتلك الآيات معنى ، ونمرّ عليها مرّ الكرام ، فلا تثير فينا أىّ حافز . بل والأدهى من ذلك أننا لا نصونها كما يجب ، والأمرّ من كل هذا وذاك أننا بأيدينا ندمرها ، ونساعد عوامل الزمن على سرعة اندثارها ، فهل هناك مأساة حضارية تستحق الرثاء أكثر من مأساة الآثار المصرية مع المصريين ؟

كم يتعجب المرء من كيفية معاملة الإنسان المصرى لآثاره حين ينظر إليها دون تقدير. فلا يلمح فيها جوانب العظمة والابداع

وقد يبدو الحديث للبعض مبالغاً فيه ، ولكن علينا أن نمسح عن عيوننا تلك النظرة التى تعودت على الإهمال ، وتأقلمت مع آثاره ، وأن ننظر إلى ما فعلنا بآثار مصر نظرة جديدة واعية ، سلعتها سنتعرف إلى أىّ حد تمتهن آثار الأجداد على أيدى أحفادهم .

ولقد أصبح مألوفاً ذلك المنظر المفزع لانتهاك الآثار فى القاهرة الإسلامية وإن جولة سريعة بشوارع وأزقة القاهرة الفاطمية لتطلعنا على أثر الإهمال الذى يحيط بالمواقع الأثرية من كل جانب ، فالأهالى قد أقاموا أنشطتهم التجارية المتنوعة حول المبانى والمساجد الأثرية ، واستغلوا حوائطها وواجهاتها ، وأقاموا منشآتهم بتخريب جمالياتها ، بل أن هناك منهم من استغل أحواشها وأسقفها فى تخزين بضاعته ، تلك كانت بصمة الأحفاد على تراث أجدادهم . ولن تستطيع أن تحصى كمية الآثار المنتهكة والمستباحة ،



جامع جمال الدين محمود بالجمالية محلات وترنبيط نموذج للفوضى

إذ أنها وبدون أيّ استثناء أصبحت مرتعاً لكافة أنواع التعدى والإساءة . ففى حىّ الجمالية فقط ستجد جامع الحاكم ، ووكالة الأشرف قايتباى ، ووكالة قوصون ،، ووكالة بازرعة وقبة سنقر وقصر المسافر خانة وغيرها من الآثار النادرة للتراث الإسلامى الذى يندثر رويداً رويداً ونحن شهود مباركون .

ولا يمكن لآدمى أن يتخيل مسجداً يحاط منذ سنوات ببركة من المياه الآسنة (جامع الصالح طلائع ببوابة المتولى) وقد استغلها الجمهور فالقى فيها كافة أنواع القاذورات . ولا ندرى كيف ينام أىٌّ من المسئولين عن آثارنا قرير العين مرتاح الضمير ، ويهنأ بحياته اليومية ، ويؤم الحفلات ، ويتباهى بموقع مسئوليته بينما تلك الحقيقة البشعة ماثلة للعيان تفقأ العيون وتدمى القلوب ؟ إنها أكبر دليل على ما وصل إليه حال مسئولينا الذى لا يوجب فقط الإقصاء عن موقع المسئولية وإنما المحاكمة والإدانة .

المياه الجوفية خطر مدمر

وتلك قنبلة موقوتة لتدمير الآثار الإسلامية ، إذ تشكل أكثر العوامل الضارة خطورة ، وقد ازداد منسوبها خلال السنوات الثلاثين الماضية . مع ازدياد هجرة الأهالى إلى الأماكن الحضرية ، وتوصيل شبكات الصرف الصحى والمياه ، وما يسفر ذلك عن استخدام مسرف

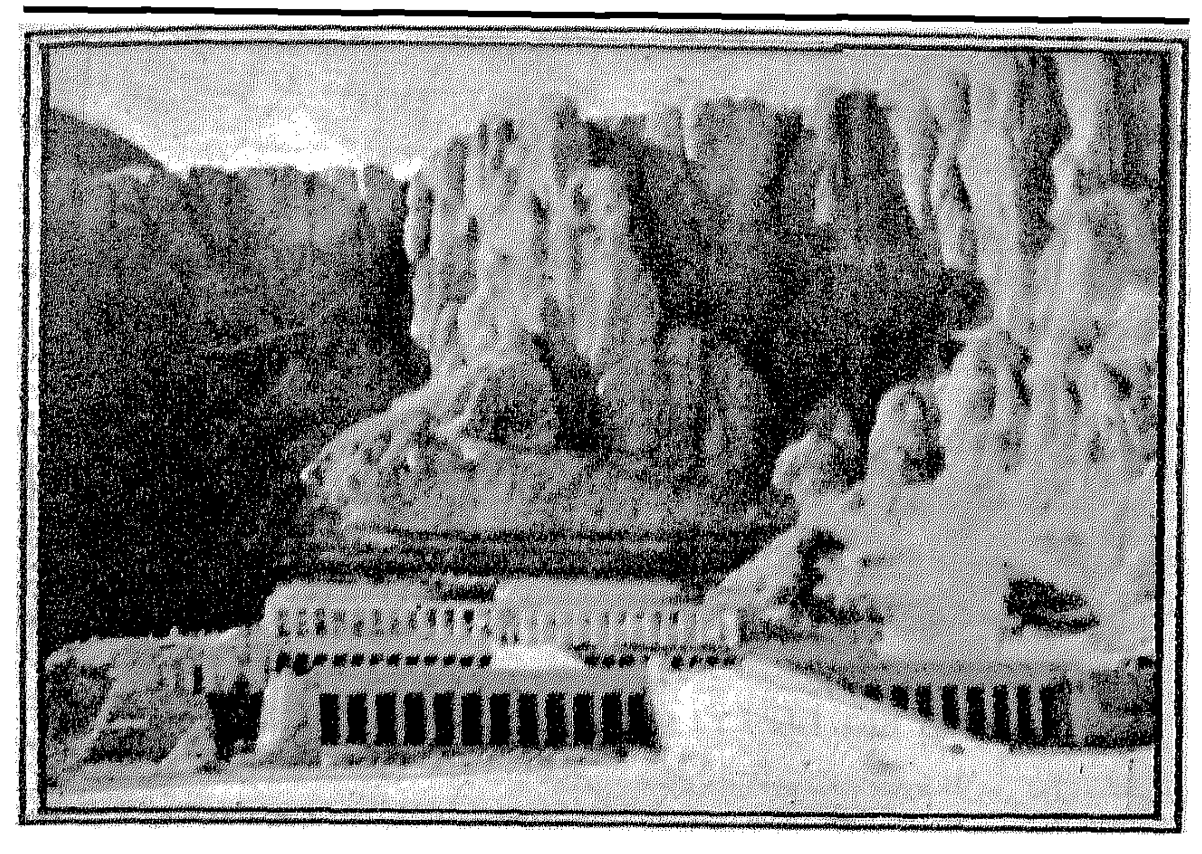
للمياه ، مع تصريفها على نحو غير سليم مما أدى لتجمع المياه في الأرض ووصولها إلى مستوى سطح الأرض تقريباً في أماكن عديدة ، بينما كان ذلك المنسوب (قبل عام ١٩٥٠) في حدود متر ونصف تحت سطح الأرض . لقد وصلت الرطوبة إلى حد لا يمكن إهماله وتركه ، فكثيراً ما يبلغ أربعة أو خمسة أمتار فوق سطح الأرض ، والمواد الحمضية تتفاعل مع المواد الكيميائية في المباني – في الأجزاء التي تعلو جدران الأساس – فتنتج من هذا التفاعل أملاح تضعف قوة مواد البناء وتفيض باستمرار على السطح إلى أن تؤدي في النهاية إلى انهيار المواد المكونة الحائط .

كل ذلك ولا نرى ولا نسمع عن مشروعات جادة وعاجلة تتصدى للظاهرة بالدراسة ووسائل المعالجة ، وتركنا المياه الجوفية تنخر في آثارنا ، متوقعين انهيارها بين لحظة وأخرى .

ولن يمتد حلمنا إلى التعرض لمعالجة العوامل الجانبية التي تشوه آثار مصر الإسلامية ، مثل ارتفاعات المباني الملاصقة للآثار والتي تؤدي إلى حجب الرؤية وتشوه من جمال التتابع الأثري ، وتؤثر على العلاقة الجمالية بين الأثر والمباني المحيطة به ، أو إلى تلك الأنشطة غير الملائمة لطبيعة المناطق الأثرية كورش الحدادة ومخازن البصل ومقالق الخشب ناهيك عن الباعة الجائلين من كل صنف ، ومثل ترك الآثار المهدمة وعدم ترميمها ، وكذلك انعدام المسطحات الخضراء الملائمة لإبراز الأثر في محيط جمالي مناسب .

ولم يكفنا ما حاق بالآثار الإسلامية ، وإنما امتدت يد الإهمال إلى أغلى كنوزنا الأثرية بصعيد مصر ، تلك الآثار التي يفد إليها الزائرون من شتى بقاع الأرض – دون هبوط بالقاهرة – ليملأوا عيونهم بجمالها وقراءتها . فمعابد الأقصر والكرنك ومقابر وادي الملوك ومعابد ادفو وكوم امبو وإيزيس وأبوسمبل هي درة الآثار العالمية وأكثرها شموخاً وأقدمها تاريخاً ..

لكننا ماذا فعلنا بها ولها ؟ لا شئ سوى أن تركناها تقاوم الزمن دون نصير أو معين ، بل وتقاومنا نحن المصريين ... ويتعجب المرء من كيفية معاملة الإنسان المصري لآثاره ، حين ينظر إليها دون تقدير فلا يلمح فيها جوانب العظمة والإبداع ، فهي بالنسبة إليه بقايا القدماء أو مدافنهم .. وكل ذلك ناتج عن عدم وعي وثقافة وتعليم ، فلم تزرع في جمهورنا تقدير الأثر ، ولا أسلوب مشاهدته وتتبع مواطن جماله . ومن أغرب الأمور أن أولادنا وحتى الشهادة الإعدادية ، أي لسن الخامسة عشرة لا يدركون حرفاً عن تاريخ بلادهم ، بينما يكون أول درس في التاريخ الطفل الأوربي هو عن حضارة مصر القديمة كأساس لحضارة الإنسانية .. لذلك فإن مصر وآثارها القديمة تشكل ملمحا رئيسياً من وعي الإنسان المتحضر ، وتمثل

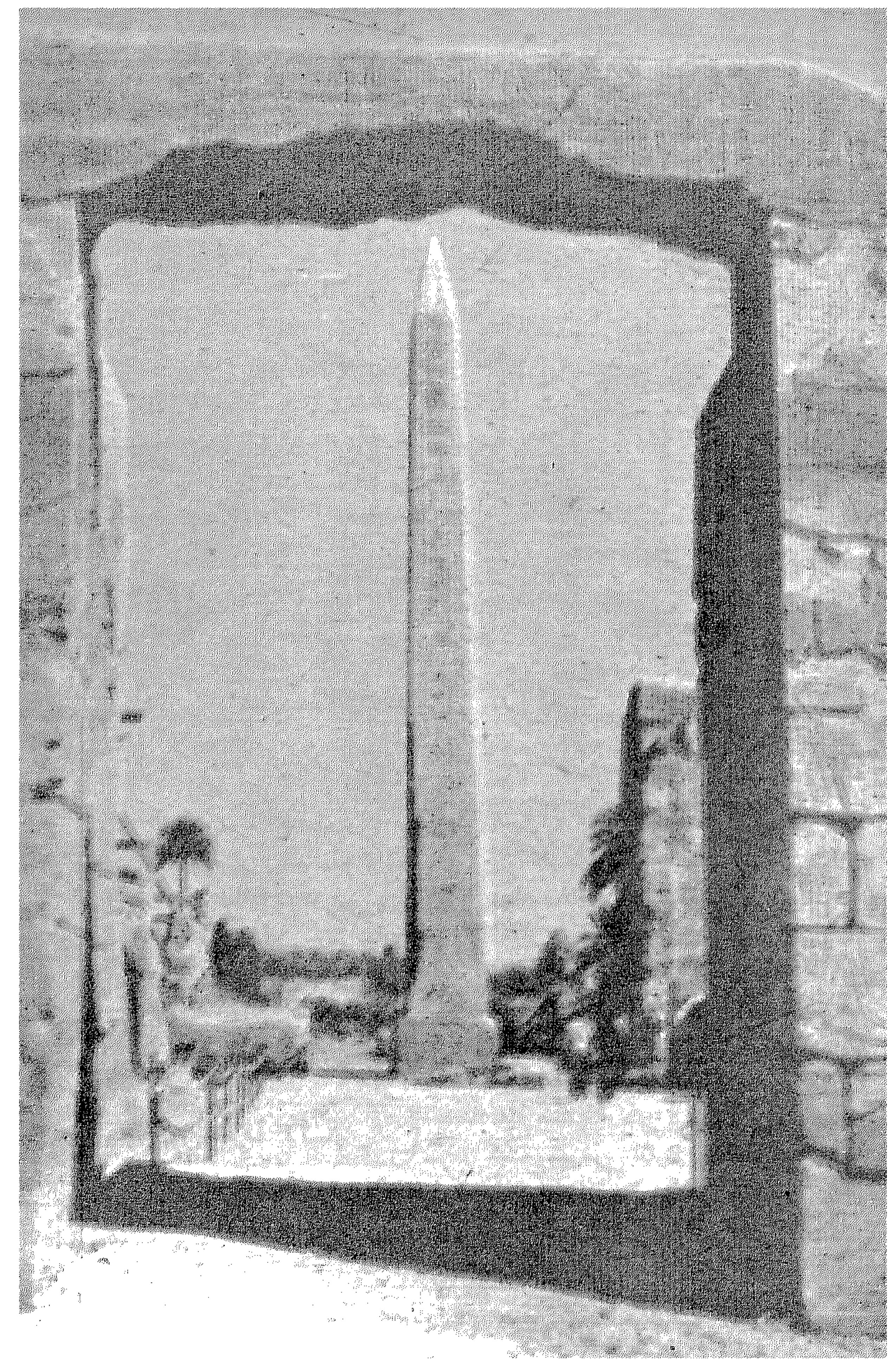


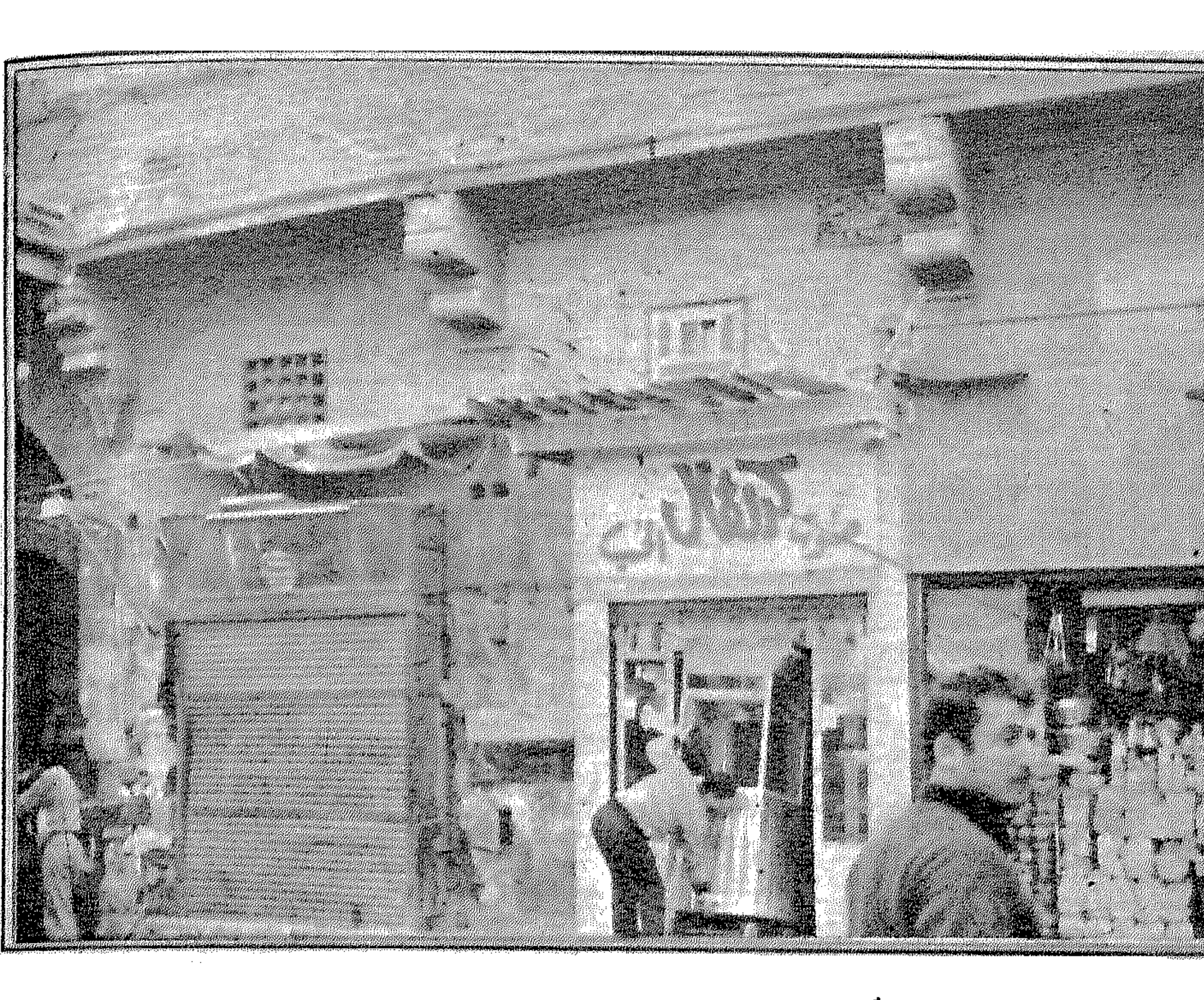
معبد الملكة حتشبسوت بالدير البحرى (موقع فريد المعبد فى حضن الجبل)

موقعاً ذا أهمية قصوى فى مجمل ثقافته ومعرفته .. ويتبدى ذلك فى نظرته الجادة ، وإحساسه العميق بجلال الأثر وهيبته ، وتراه فى زيارته الموقع الأثرى وقد أمسك دليلاً يسترشد به ، فلا يترك صغيرة ولا كبيرة فى الأثر إلاّ وعاينها عن قرب ، محاولاً استجلاء أسرارها .. أما نحن فلا يهمنا فى رحلاتنا إلا التقاط الصور التذكارية ، فترى مجموعات الرحلات - وحتى من الطلاب الجامعيين - وهم يتصايحون ويتنادون بأعلى الأصوات فى جنبات المعبد ، ويتقافزون فوق الأحجار فى محاولة لالتقاط صورة فريدة ، ولا تسلم الأحجار من لمس الأيدى ونقش الأسماء التذكارية ، كل ذلك ولا رقيب ولا حسيب ، فالمباني الأثرية متروكة يجول فيها من يشاء وكيفما شاء ..

وفى استعراضى الصوت والضوء بمعبدى فيلة والكرنك تجد العجب العجاب ، ففى الظلام ، ومع إضاءة صناعية مسرحية وموسيقى تصويرية يبدأ المذيع فى إلقاء جزء من تاريخ المكان بينما تهرول آلاف الأقدام لحجز مكان الجلوس ، محدثة جلبة وضوضاء تطغى على صوت التسجيل ، وفى الظلام الدامس يصبح المكان مرتعاً لكافة أنواع المخالفات ، إذ يستحيل مراقبة الآلاف وما يفعلون فى ساحة المكان المتسع .

إن الأمر بات يستوجب إعادة النظر فى استعراض الصوت والضوء ، خاصة



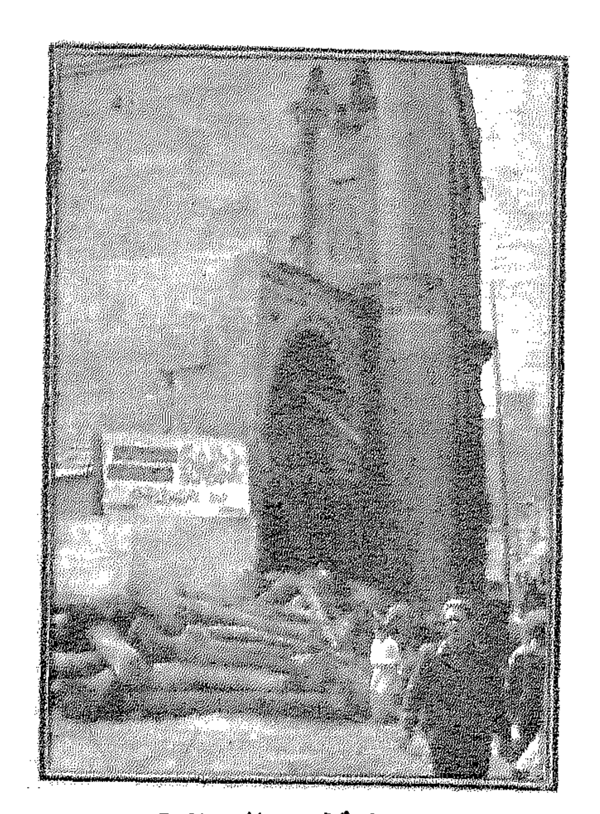


وكالة أودابلش – شارع الجمالية (محلات على الواجهات)

وأن التسجيل المذاع نفسه لا يضيف جديداً ، ويمتلئ بالمبالغات الأدبية ، والعبارات الانشائية ، وهو فى نهاية الأمر لا يفيد الأثر .. وإذا كانت هناك بعض الدول تفعل بآثارها نفس الشئ – رغم شكنا فى ذلك – فإن علينا أن نضع مصلحة الأثر والمحافظة عليه فوق أى اعتبار

سرقة الآثار

إن حجراً من الأحجار الملقاة فى ساحة المبانى الأثرية لجدير بأن يصان من العبث به ، وأن يتم تقديمه أحسن تقديم ، وأن تتم حراسته مهما كلف ذلك من أموال وبشر وخاصة بعد أن تفشت ظاهرة سرقة الآثار ، وعلينا أن نكون صارمين فى تلك الرعاية والحراسة . فتلك كنوز لا تعوض ، وانظر ما يفعل الآخرون بفتات آثارنا ، وليذهب المسئولون عن آثارنا ليشاهدوا كيف أحاطوا المعبد المصرى بمدريد ببركة مياه صناعية حتى لا تطوله يد ، وليروا كيف تعرض آثارنا بمتاحف اللوفر والمتروبوليتان وغيرها من متاحف العالم المتحضر .

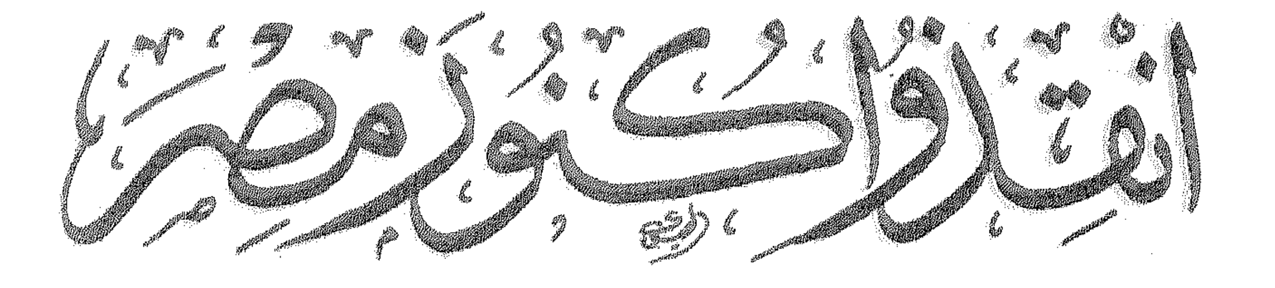


منزل أثرى بالجمالية
مستعمل كمخلق خشب

أما عن الترميم والمحافظة على رونق الأثر ، فتلك مأساة أخــرى ، إذ لا يشاهد - وفيما ندر - من يقوم بهذه العملية الدقيقة سوى عمال لا يمتلكون إلا الخبرة البدائية ، بينما تدر الآثار على مصر أموالاً بالعملات الحرّة تكفل صيانتها وترميمها على أفضل مستوى تقنى ، وعلى أيدى أقدر الخبراء المحليين والعالميين . ولم تسلم الأماكن المحيطــة بالمعـابد من مظاهــر الفوضى والقذارة ، فالباعة الجائلون يمهدون لزيارة الأثر ببيع أى شئ ، حتى أعواد القصب وما تخلفه من قاذورات . وتبحث عن مكان لتقتنى منه كتيباً عن الموقع الأثرى أو بطاقة تدل عليه وتذكّر به كما يحدث في المتاحف ومواقع الآثار في بلاد الدنيا ، فلا تجد شيئاً من ذلك ، كأن هذه الآثار ليس لها صاحب يدعو لها وينشر عنها ما يشبع غلة الزائرين .

إن وضع الآثار المصرية قد وصل إلى حدّ لا يمكن السكوت عليه ، ولقد عوملت فى السنوات الأخيرة من جانب المسئولين معاملة مزرية لا تليق بمكانتها ليس لمصر وحدها وإنما لتاريخ البشرية جمعاء . وأصبح الأمر يستدعى الدعوة لإنقاذها من بين أيدى من تولوا أمرها ، فمصيرها بين أيديهم إلى اندثار أكيد ، كما بات الأمر محتاجاً إلى نقل مسئوليتها إلى جهة قومية مستقلة لا تتبع وزارة الثقافة التى انشغلت بمهرجانات لا طائل من ورائها ، ولا هدف لها سوى الدعاية الزائفة ، ويكفى أن يقام مهرجان عالمى لما يدعى بالمسرح التجريبى فى بلد يكاد المسرح التقليدى فيه يلفظ أنفاسه ، ولو صح ما يقال عن أن جزءاً من دخل الآثار يقتطع لصالح ما أسموه بصندوق التنمية الثقافية الذى ينفق منه على هذه المهرجانات الدعائية لكانت مصيبة وكارثة مخجلة .

وإذا كانت مصر المعاصرة تعانى من مصاعب مادية واقتصادية قد تهدد مستقبلها ، وتؤخر من تقدمها ونموها ، فإن ماضى مصر فى حاجة إلى التفاتة جادة وخطة عاجلة من أجل إنقاذه ، فذلك الماضى - بالإضافة إلى كونه مصدر فخر لنا ومصدر رزق - هو أمانة غالية فى أعناقنا لا يجوز إهمالها ولا التفريط فيها قيد أنملة .



المعمـــارية والأثـــرية

ترجمة : جودت أحمد الحمد

«الأردن»

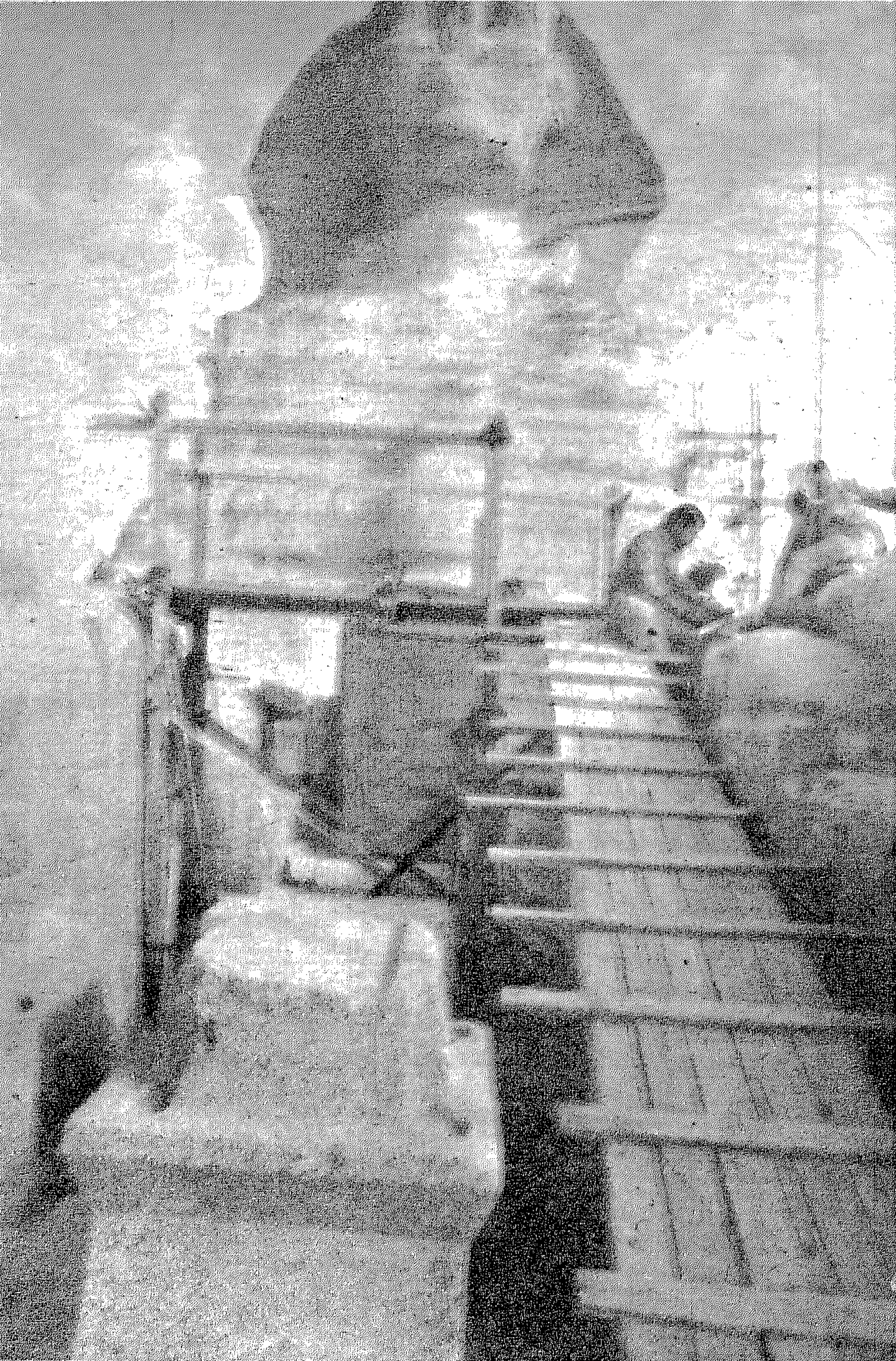
ستفقد البشرية كنوز مصر المعمارية الفريدة ما لم يتم تقديم المساعدة الفورية لإنقاذها

الآثـــار المصرية بما لها من أهمية خاصة تصبح محط أنظار العالم كله ..

ولأننا أهملنا هذه الآثار لفترات طويلة ، بدأ الحديث يعلو عن الأضرار التى لحقت بها .

هذا المقال ترجمه كاتبه عن مجلة « تايم » وأرسله إلينا من الأردن ، إن كان قد سبق نشره منذ فترة إلا أنه يعبر عن حرص القارئ العربى والرأى العام العالمى لما يهدد الآثار المصرية .

ترقدُ الأهرامات بهضبة الجيزة المشوية بحرارة الشمس بضواحى القاهرة بلا حراك ، تنتظر من عل يعد وكأنها لم تهرم فى أربعة آلاف وخمسمائة سنة منذ أن شيدت . أما عن قرب فتبدو أبعد ما تكون عن الخلود ، تجمع الركام وغبار الصخور المتفتت من هرم خفرع بأكوام فى أسفل الهرم . وفى هرم خوفو نخرت القشور



الملحية المتخلفة عن تبخر المياه الجوفية الفتة جدران غرفة المدفن . كما فقد أبو الهول ، على بعد عدة مئات من الأمتار من الأهرامات ، قطعة تزن ٥٠٠ رطل من كتفه الأيمن ، ورقبته ضعيفة جداً ورأس التمثال الهائل في خطر السقوط .

القصة هي نفسها تقريباً في كل أنحاء مصر . تشققت جدران معابد الأقصر بصورة كبيرة ، ودعا الرئيس حسني مبارك الذي زار الموقع في فبراير ١٩٨٩ ، للقيام بعملية ترميم كاملة لها . تلف حوالي خمس الرسومات المنقوشة على جدران مقبرة نفرتيتي بوادي الملكات بفعل الترسبات الملحية ، ويقول زاهي حواس من هيئة الآثار المصرية ، والمشرف على سهل الجيزة بأن " كل المعالم الأثرية معرضة للخطر بالفعل ، وإذا لم نقم بعمل عاجل ستختفي الكتابات خلال مائة عام، وستختفي المعالم المعمارية خلال مائتي عام » .

ويشعر آخرون بهذه المأساة خارج حدود مصر . في الوقت الذي تفتخر فيه مصر لاحتوائها على حوالي عشرة آلاف موقع أثري ، ويقول ميشيل جونز البريطاني المختص بالشئون المصرية : « هذه المعالم الأثرية مورد غير قابل للتجديد » . المقابر والمعابد والرسومات والنقوش تعد سجلاً لا يُضاهى لحياة ومعتقدات شعب في واحدة من أقدم الحضرات البشرية التي أثرت على تطور الثقافات الحديثة في كل أنحاء العالم .

ويقول علي حسن من هيئة الآثار المصرية : « نحن حماة تراث فريد » . مثل هذه الحماية مكلفة وتتطلب خبرة كبيرة لاتستطيع أي دولة منفردة — وخاصة من الدول النامية — توفيرها وذلك يتطلب إنقاذ المواقع الأثرية القديمة الفريدة تعاوناً عالمياً .

كانت هذه الأهرامات قديمة عندما دخل الرومان مصر ، وكان عمر أبي الهول المصنوع من صخور جيرية طرية سهلة الحتّ حوالي ألفي عام من التلف التدريجي ومحاولات الترميم . لكن فعل عوادي الزمن يأتي في المرتبة الثانية بعد الانسان ، في تدميره فقد تضافرت أعداد المصريين المتزايدة ، الذين يربو عددهم على ٥٥ مليون نسمة ، مع حشود السياح الذين يتوافدون على مصر في إحداث خراب لهذه الآثار في العقود القليلة الماضية أكثر من ذلك الخراب الذي تسببت فيه آلاف السنوات من التعرية .

ومع ازدياد اعداد المصريين يندفع الناس من المدن بحثاً عن المسكن . فبينما كان سهل الجيزة ذات يوم بعيداً عن الزحف المدني غير المنتظم ، يقع الآن في ظل البنايات السكنية الحديثة وبالقرب منها تلقي المركبات القديمة والمصانع بغيومها السامة من عوادمها التي تصبح مواد حاتة عندما تذوب في الماء . كما تسببت هزات ورجرجة المرور بتشقق في المعالم الأثرية .

والأكثر خطورة من كل هذا ، الدمار الذى تسببه المياه الجوفية حيث يتسرب مايقدر بحوالى ٨٠ ٪ من موارد القاهرة المائية من أنابيب المياه للأرض . كما يسهم فى هذه المشكلة نظام الصرف الصحى المتقادم الذى أنشىء قبل خمسة وسبعين عاما ليخدم نصف مليون نسمة والذى يختنق الآن بمخلفات ثلاثة عشر مليون نسمة حيث يدمر الارتفاع الحاصل على النطاق المائى أسس البنايات بالتدريج متسبباً بميلانها أو حتى بانهيارها . ففى عام ١٩٨٧ انهار مامعدله بيت قديم واحد كل يوم ، على الأقل ، فى القاهرة القديمة ، كما يقول لويس مونريل مدير معهد جيتى للحفاظ على الآثار بلوس انجلوس ، ويقــول : « لايمكن الحيلولة دون هذا الدمار » .

أسباب المشكلة

ويعتقد كثيرون بأن مشاكل المياه الجوفية قد تفاقمت مع إقامة السد العالى بأسوان . فقد أوقف السدّ ، الذى تمّ الانتهاء من بنائه عام ١٩٧٠ ، فيضان النيل السنوى وساعد على توفير أراضى زراعية أكثر . لكن الرى الزائد ، لجعل الأرض أكثر قابلية للزراعة ، بالاضافة للتصريف الردىء للمياه ساعد فى ارتفاع معدل منسوب النطاق المائى ، وعندما ترتفع المياه الجوفية فإنها تذيب الأملاح المعدنية من التربة والصخور الأديمية وقد صنع كثير من الأبنية القديمه من حجر جيرى مسامى كاسفنجة تمتص هذا الماء المالح مـن الأرض . تبقى الأملاح بعد تبخر الماء . وعندما يحدث هذا على سطح الحجر تتبلور هذه الأملاح لافات بيضاء مدمرة .

ومن بين المشكلات السياح

ويشـــكو حـــواس قـــائلاً : « الأهرامات هى المعالم الأثرية الوحيدة فى العالم التى تقود إليها سيارتك وتوقفها هناك . وحتى فى ديزنى لاند ، عليك أن توقف سيارتك على بعد ميل » . ففى سنة ١٩٨٨ وحدها قام ١,٩٦٩,٤٩٣ شخصاً بزيارة كنوز مصرية ولمسها والتنفس فيها ، وعندما يتنفس ستة أشخاص داخل ضريح لمدة ساعة ترتفع الرطوبة فيه بنسبة ٥ ٪ وبالتالى توفر الرطوبة العالية ظروفاً جيّدة للبكتريا والفطريات التى تنمو على الرسومات أيضا يزور ضريح الملك توت عنخ أمون ثلاثة الاف سائح يومياً ، يعرقون بداخله . وذلك له أثره السيىء أيضاً والمصريون فخورون حقاً بتراثهم الفرعونى ، فكلما أورد تقرير بأن المعالم الأثرية مهددة بالخطر كانت تتبع ذلك صرخة جماهيرية بسرعة . لكن ، وفى بلدة لايستطيع توفير السكن والطعام الكافيين لشعبه ، فإن الحفاظ على المعالم الأثرية أو ترميمها أبعد مايكون عن أولويات جــدول الأعمــال

السياسى المحلى حيث بلغت ميزانية الحفاظ على المعالم المعمارية لعام ١٩٨٩ ستة ملايين دولار فقط من الرسوم التى يدفعها السياح لزيارة تلك المعالم الأثرية والمتاحف .

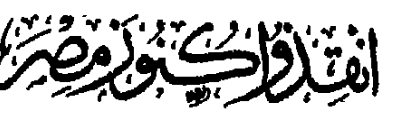
حلـول عـاجلة

قام المصريون بعمل رائع بالفعل تحت هذه الظروف . حيث أعدوا مشروعا ضخما يتكلف سبعة عشر مليون دولار لتنظيف موقع الأهرامات وترميم خمسة عشر ضريحاً فى سهل الجيزة وبدأ العمال بتنظيف أطنان من الرمل والنفايات وبذلك يقللون من مصدر التعرية المحمول جواً . كما بدأوا بإزالة حوالى ثلاثين قدماً من الحجارة المتفتتة عند قاعدة هرم خوفو وطبقاً للأنظمة الجديدة ، يمنُع قادة الجمال والباعة الجائلون الذين يتشاحنون مع السياح منذ أيام هيرودتس من دخول المناطق التى تحيط بالأهرامات . كما ستمنع السيارات من التوقف هناك حالما ينتهى العمل من مواقف مخصصة لها .

وسيركب السياح حافلات كهربائية تنقلهم للمعالم الأثرية . وتدعو الخطة أيضاً لتحسين تصريف المجارى لسكان يعيشون على بعد مئات الياردات من الأهرامات بعد أن وضعوا أيديهم على تلك الأراضى وابتنوا مساكن لهم عليها . وبعد كل ماقيل ، قد يستغرق تنفيذ ذلك المشروع خمس سنوات على الأقل لإتمامه . وفى هذه الفترة يُخطط المصريون لإيجاد طواقم من المعماريين والمهندسين ليقوموا بتقييم سنوى للمواقع التاريخية فى أنحاء البلاد لمعرفة أيّها أشد حاجة للعناية . تم انتقاء عدة مواقع للجولة الأولى من الدراسة ، من بينها :

أبو الهول : يتفتت الصخر الجيرى بسرعة عندما يلامسه الماء يقول سيد توفيق رئيس هيئة الآثار المصرية : « حتى المصريون القدماء كانوا يعرفون بأن هذا الصخر لم يكن بحالة جيدة » استخدمت الاصلاحات التى تم القيام بها فى أوائل الثمانينات الأسمنت مما ساعد الصخر الجيرى على الاحتفاظ بالماء بداخله واستخدم العمال ، مؤخراً جداً ، مسحوق الصخر الجيرى الجاف ، الذى يشبه فى تكوينه الصخر الأصلى ، لتقوية قاعدة أبى الهول ، ومن بين الاقتراحات معهد جيتى بمونتريال : يجب وضع التمثال بكامله تحت مظلة واقية لاشهر عدة على الأقل بينما يجرى الكشف عن بدائل أخرى لحمايته وقد صوتت وزارة السياحة لصالح تلك الفكرة .

معبد الأقصر : تم الاكتشاف فى هذا المعبد الذى يبلغ عمره ٣٢ قرنا ، قبل ست سنوات بأن الأعمدة فى ساحة امنحوتب الثالث كانت بصورة تنذر بالخطر وهذه الأعمدة مسنودة الآن بسقالات خشبية بينما يُقرر خبراء المحافظة على المعالم الأثرية الخطوة التالية التى يجب



القيام بها فضلا عن أن جدران المعبد الحجرية قد تشققت وبهتت نقوش معركة قادش المحفورة على بواباته الضخمة ، ويقترح التقرير طرقاً لتثبيت القاعدة تحت الأعمدة لإيقاف ميلانها الذى يزداد يوماً بعد يوم .

معبد الكهنة بواحة سيوه :

تداعت جدران هذا المعبد – الذى يعود تاريخه للقرن الرابع قبل الميلاد حيث كان يعتقد بأن الأسكندر الأكبر قد تُوِّج هناك ملكاً على مصر – وتعانى من خطر السقوط . يأمل المسئولون المصريون

بانقاذ هذا المعبد بنقله قطعة قطعة من مكانه الحالى على الرمال المتحركة فى الصحراء الغربية لأرض أصلب .

والسؤال هو أين سيوضع ؟

دير البحرى : يبلغ عمر هذا الضريح والمعبد ، الذى يقع بالقرب من الأقصر ، ٣٤٠٠ سنة ، وهو مهدد بالانهيارات الأرضية من الجبال القريبة . يتمثل أكثر الحلول احتمالية فى إقامة سياج متصل من السلاسل لحماية هذا المَعْلَم الأثرى من الصخور المتساقطة وفى نفس الوقت يقوم المركز المعمارى البولندى فى القاهرة بأعمال ترميم على أجزاء من المعبد ، ويشمل أحد المشاريع استخدام الجبس للترقيع ، واعطاء تمثال الآلهه اوزيريس وجهاً جديداً .

وحتى لو كان بالإمكان البدء بالمشاريع الإنقاذية الرئيسية لكل هذه المواقع حالاً ، فهناك مواقع أخرى كثيرة بحاجة للعناية الشديدة ففى معبد سيتى الأول الذى يعود تاريخه إلى ١٣٠٠ قبل الميلاد ، تتساقط الرسوم والنقوش البارزة من على الجدران الأسقف. وفى معبد سوبك وحورس الرومانى — الاغريقى فى كوم امبو أثرت الأملاح المتكوّنة على النقوش البارزة والكتابات المحفورة فى جدران المعبد وأعمدته . وحتى فى معبد ادفو (من القرن الثالث قبل الميلاد القرن الثانى قبل الميلاد) أحد أفضل المعابد المحافظ عليها ، فإن الكتابة المحفورة فيه مُهددة بخطر الزوال بسبب الرطوبة .

وبالاضافة للقيام بجهود هائلة لترميم معالم أثرية معينة ، يريد مسئولو دائرة الآثار المصرية تطوير استراتيجيات عامة للمحافظة على المواقع الأثرية والتاريخية من التلف أكثر من ذلك ويقترح زاهى حوّاس إقامة حزام حماية حول كل مَعْلَم أثرى قيّم ، ويقول : المواقع الأثرية فى مصر غير محمية على الإطلاق وعلينا أن نبعد عنها أى نشاط ميكانيكى بحدود ميلين أو ثلاثة أميال ويقترح سيد توفيق زراعة أشجار حول المعالم الأثرية الخارجية لحمايتها من الرياح . وكى تمتص الرطوبة . أما فى المعالم الأثرية نفسها فيقترح تركيب صفائح بلاستيكية شفافة لمنع السياح من لمس الرسوم والكتابة ، وتزويدها بأنظمة تنقية للهـواء لتخليصها من الرطوبة والغبار .

اقتراحـــــــات

ولاتمتلك مصر المال اللازم لمثل هذا البرنامج الترميمى الطموح بمفردها ولكنها تستطيع ايجاد أكثر أهمية بخطوة بسيطة واحدة هى رفع الرسوم التى يدفعها السياح ، والضئيلة جداً حالياً وزيارة الأضرحة مجانية فى الغالب ، ويدفع السياح الذين يزورون الأهرامات حوالى

دولار وربع فقط وهناك خطط لمضاعفة تلك الرسوم ، كما يمكن مضاعفتها مرة ثانية وتبقى مع ذلك متدنية .

وبالاضافة لذلك هناك حاجة لإحداث بعض التغييرات الحكومية . فيجب رفع هيئة الآثار المصرية ، التى تمثل دائرة فقط بوزارة الثقافة ، لمستوى وزارة . فلا تستطيع الدائرة أن تقف سياسياً فى وجه وزارة السياحة التى تفضل توسيع امكانية الوصول للمواقع القديمة وفى نفس الوقت يجب رفع أجور المعماريين المصريين الذين يعانون من تدنى مستوى أجورهم الحالى . وفى هذه الأثناء على المصريين أن يستمروا فى الاعتماد على الخبرة الأجنبية بالاضافة للمال الأجنبى . ويؤلد ذلك فى بلد نُهب كنوزه عن طريق دارسى ، وهواة جمع ، الآثار . وأصبحت مثل عمليات التهريب هذه نادرة . لكن لمعظم الزائرين اهتماما ضئيلا بالمحافظة على الآثار ومع هذا قامت مجموعات أجنبية قليلة باسهامات رئيسية فى هذا المجال .

ويقوم معهد الدراسات الشرقية بجامعة شيكاغو بتوثيق ، والمساعدة فى المحافظة على المعابد والأضرحة فى الأقصر منذ أواخر العشرينات ويتمثل ذلك فى المشروع النموذجى والمجهود الرائع لترميم قبر نفرتيتى وقد أغلق المدفن الذى يبلغ عمره ٣٣ قرناً ، والذى تم اكتشافه عام ١٩٠٤ ، رسمياً منذ أوائل الخمسينات بسبب حالته المتداعية وبدأ معهد جيتى بمشاركة هيئة الآثار المصرية عام ١٩٨٦ عملية انقاذ مُضنية ودقيقة لبقايا الرسوم الجدارية . ففى بادىء الأمر ، قام فريق دولى بتقدير الخراب الذى لحق بالمدفن وبمسح جيولوجى ومناخى محلى . ثم قام المُرمّمون بإلصاق ورق من لحاء شجر التوت والشاش القطنى فوق الرسوم الجدارية الأكثر تخلخلاً للتأكد من عدم تساقطها . وأخيراً تمت إزالة الأغطية وحُصنت الرسوم بالأكريل ونُظفت . ولحمايتها من خطر الماء سيلصق باحثو معهد جيتى بها مواد عازلة مقاومة للماء واستغرقت عملية معالجة ١٦٠ مدفنا حوالى السنتين ، وهذه الجهود لن توقف التلف الذى يلحق بالمعالم الأثرية مالم يُسارع المصريون للمحافظة عليها .

ولهذا كانت زيارة الرئيس مبارك للأقصر ، الأولى منذ أن تسلم السلطة عام ١٩٨١ ، مهمة جداً ولم يطالب الرئيس بترميم معبد الأقصر فقط ، بل طالب بوقف اعتداءات الزحف السكانى والعمرانى المدنى على كل المواقع المعمارية والأثرية ، وإذا ما ألقى الرئيس مبارك بثقله وراء عملية المحافظة على المواقع الأثرية ، فقد يشجع ذلك المصريين على تسلم مسئولية المحافظة على تراثهم الذى لايقدر بثمن بأنفسهم ، والأمم الأخرى على مد يد المساعدة كذلك . وبعد كل هذا سيخسر العالم بأكمله الحضارة الفرعونية وتراثها إذا ماسمح لها بالتداعى والانهيار .

"إنه في العام التاسع والأربعين"

قصة قصيرة

بقلم : سعيد سالم

بريشة : محمد ابو طالب

قد فرّ منى زمن طويل قصير فلم ألحق به . طالت مطاردتى له دون جدوى . مثلما امتنع عنى فإنه جاء يسعى إلىّ بقانونه الأزلى . يقف فى صمت وماهو بواقف . أرقبه فى ذهول العائد إلى رحمة أمه رغما عنه ، فأدخل وأخرج ويروح ويجيء من حولى والخلق يهرولون فى أيامهم والشمس والقمر . أطير بوجدى إليها فما عاد فى الوقت متسع لانتظار أو تأمل .

هيا ادخلى فى عباءتى فعندى كنز لم يمسّه إنس ولاجان من قبلك لم أكن أدرى أننى استبقيته لأجلك كل هذا العمر . قد بددتُ من نفسى الكثير فآه من عمر الغفلة الذى لاعاصم منه إلا الله . وأما ماتبقى فهو لك وخذى الحكمة ومعها شعرى الفضى وألقى بهما حيثما شئت .. فى النهر فى صدرك ، فى البحر فى قلبك ، فى الجبل فى عينيك – آه !!

– الدكتور بهاء كامل ؟

– نعم .

– البقية فى حياتك .

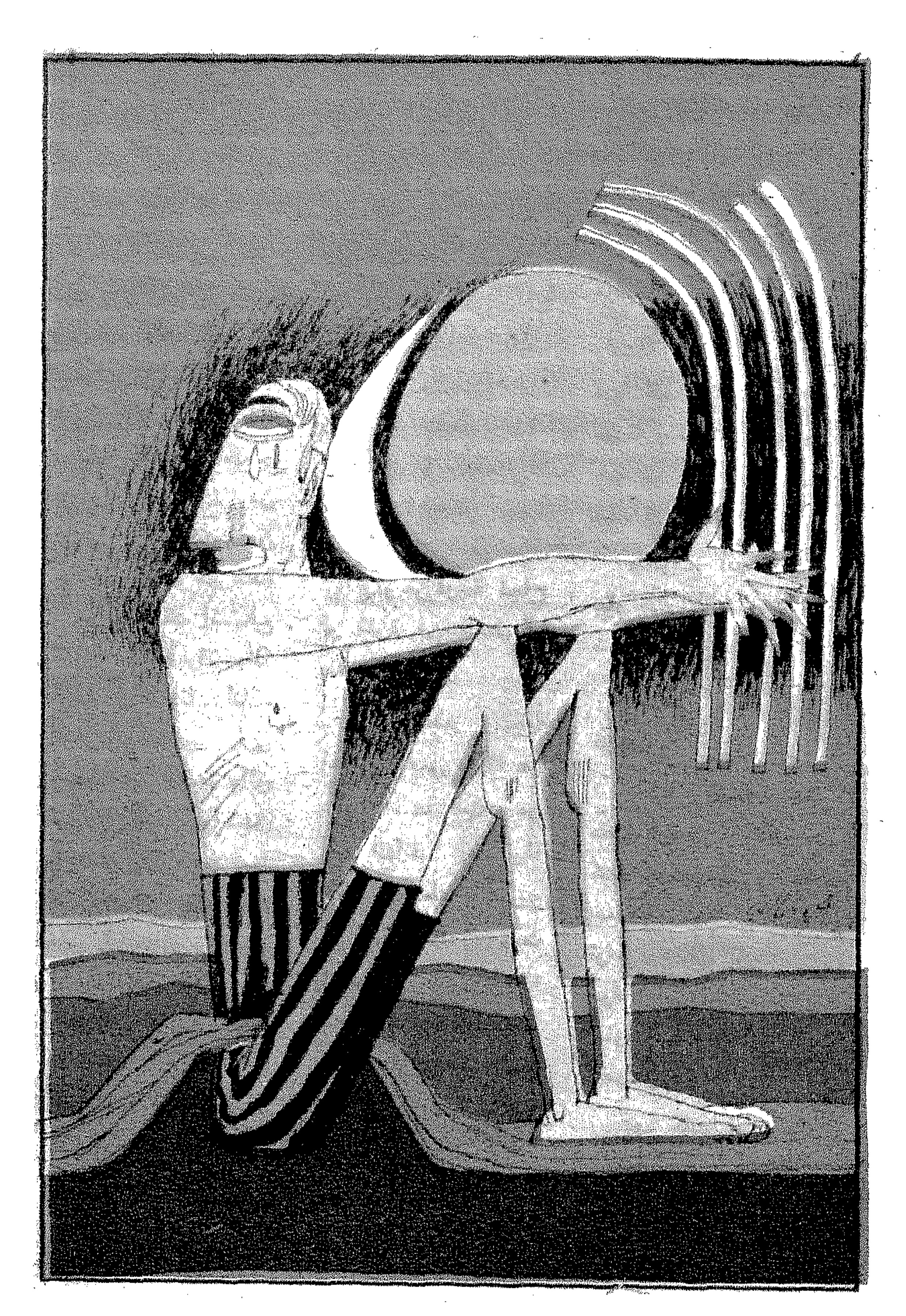
منذ خمسة وعشرين عاما جمعتنى به غرفة وعود وكمان ولحن وحلم وفرحة ودخان سجائر وكلسان مترعتان بالسعادة . منذ خمس وعشرين ساعة جمعتنى به غرفة وفراش وطبيب وصمت وعقاقير وعجز ودموع . كانت الغرفة الأولى خضراء . أما الثانية فكانت بيضاء .

فى كل دقيقة كنت أرجو الله أن يعطينا الخير ويدفع عنا الشر وينجينا من المهالك .. وبعد دقائق قليلة سوف أترك أعمالى ورغباتى وأمنياتى وتطلعاتى وأصدقائى وأعدائى ونزواتى وشهواتى وخيرى وشرى كى أذهب إلى هناك . فى الزمان هو الأمل الباقى والملاذ الأخير وفى المكان هو الحلم الغامض والنشوة المستحيلة .. وليكن مايكون ! ..

– الدكتور بهاء ؟

– نعم .

– ألم تعلم !؟



إنه فى العـــام التاسع والأربعين "

منذ ثلاثين عاما جمعتنا ليلة وكتب وموسيقا وطعام ومجون وشراب وفتوة وشباب . قالت إن الحب باهظ التكلفة وقلت إن العمر قصير وضحكت من غفلتى وضحكت من حكمتها وبكينا من شدة الجنون . كنت أستطيع أن أريد دون أعرف ماذا أريد . وكنت أنا .. أنا .. أشعر بجسدى وأرى البهجة فى عينيها وأثق فى الأشياء وأصدق وأندهش وتلقى بملابسها فى وجهى وتتشبث بالموت حتى النخاع فتتفجر ينابيع الحياة ونجرى فى الشوارع تحت المطر كالمجانين .. لنا الأرض والسماء والأيام القادمة والسنوات والنــــخل ذات الاكمال والروابى والشلالات .

منذ ثوان قررت ألا أعبأ بذكريات الهاتف اللعين لكن جسده الرمادى باقٍ أمامى يجسّد لى فناء الأحباب ، وكأنما لم يُسمعنى يوما خبراً بميلاد طفل أو حفل زواج أو عن فرحة نجاح أو قفزة فى العمل أو طفرة فى الرزق .

فى هذه الثانية أعتصر ذهنى باحثا عن مخرج ، هل أبتعد من أمام الهاتف إلى غرفة أخرى أم أحطمه واستريح أم أغادر المنزل إلى حيث لا أعرف ، فالذى أعرفه أنه سيدق بعد قليل معلنا سفر عزيز جديد ، وهذا ما قررت ألا أسمح به ولا أسمعه ، وإن سمعت وسمعت فلا أصدقه .

هيا ادخلى فى عباءتى فعندى دفء مقدس يترفع فى جلال عن الخطيئة . دفء طالما احتفظت به لأجلك من قبل أن أعرف أنك ستجيئين يوما إلى زمانى وقد نفضت عنه غبار الطيش والغفلة . وإياك أن تدق أيها الصنم الصغير إلا مؤذنا بصوتها الحبيب ، مجنون الجنون عقل مثلما نفى النفى إثبات .

ولتتوهج أيها القلب بنار حبك الأخير .

– دكتور بهاء كامل ؟

– نعم .. ولكنى غير موجود .

ياكتلة صماء من معدن أرضى – مثلى – كيف أموت وتبقى . كيف يستحيل جسدى إلى تراب وتظل نابعا فى موقعك تدق لغيرى وتعيش سنوات وسنوات رغم أنك تخلو من الروح ؟! .

يوم كنت فرحاً بك وقلت إنك سوف تغنينى عن ضياع الوقت والجهد

حتى أنفقتهما فى المفيد . لم أكن أعرف أن الوقت والجهد والفائدة أشياء لامعنى لها . آه .. لم أكن أعرف ، فقد بذلتهم جميعا بحماس أحيانا وفتور أحيانا فما جنيت شيئا أكثر مما كان مقدر لى أن أجنى ، وما فقدت غير ماكان مقدراً لى أفقد . وظلت تدق وتدق . وأجرى وألهث . وتصمت واستريح . وتدق وأعاود الهرولة واللهاث والضحك والبكاء والصمت والذهول .. ورغم ذلك لم أتعلم شيئاً ينقذنى من تلك الثوانى المرهقة التى تكاد الآن أن تزهق روحى بثقلها المميت .

هيا ادخلى فى حياتى فقد كنت ضننينا بظلها على غيرك من قبل أن أعرف من أنت أو ما الذى جاء بك إلى أرضى وقد أنهكتها خصوبتها فبات اخضرارها داكنا حتى السواد . بالله كيف عرفت أن أحدا قبلك لم يقترب من الكنز والدفء والظل مهما أتيح له أن يجوس فى أرضى ويصول ويجول ؟! .. ومادمت عارفة بسرى فلماذا لايدق هذا الصنم حاملا صوتك الحنون ؟!

– بهاء ؟

– هل تجيئين ؟

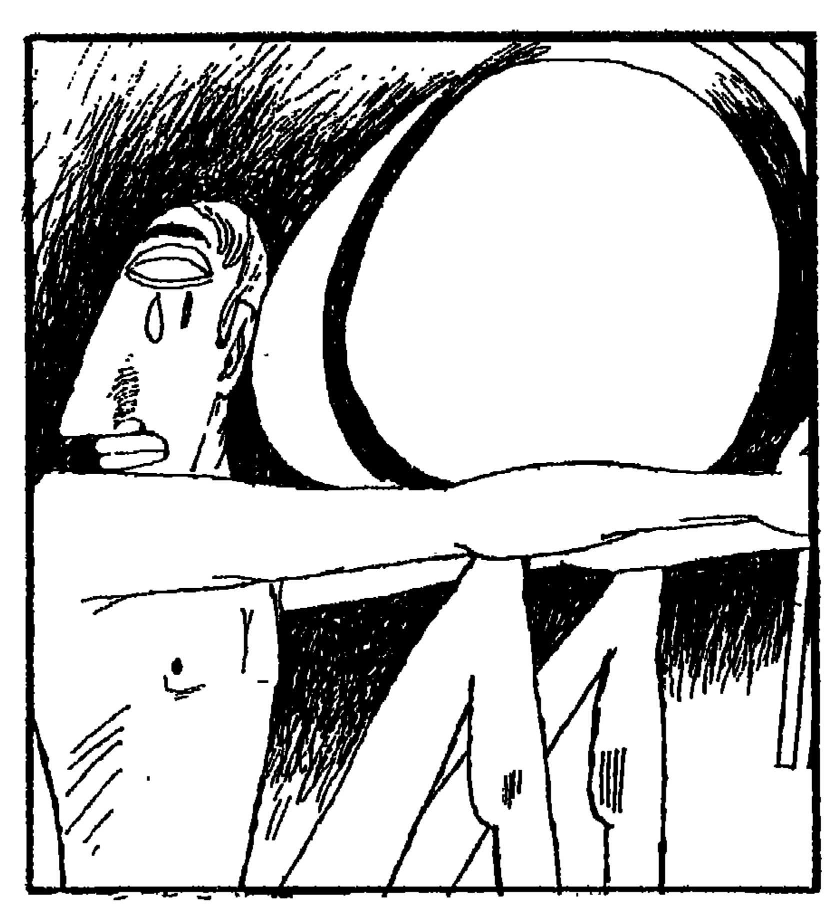
– صعب

– إذن أجىء أنا

– صعب أيضا

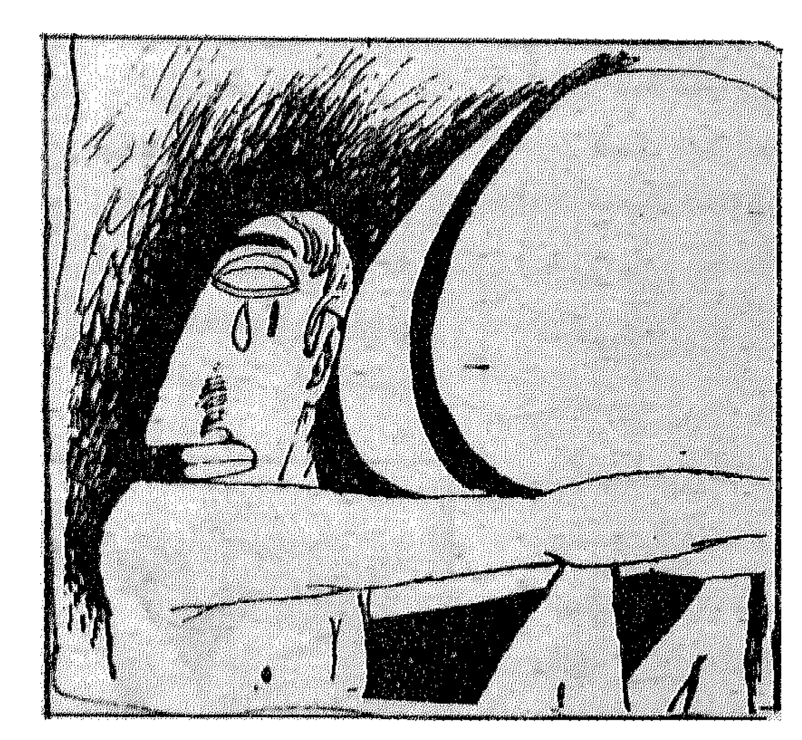
تسع وأربعون سنة .

رفاق سلاح تناثرت أجسادهم فى الهواء ورفاق دراسة هاجروا إلى بلاد الله البعيدة ورفاق زمان يعيشون على مقربة منى وأراهم لكنهم لايبصروننى وأبصرهم ولكنهم لايروننى فالعين تبصر لكن القلب يرى أو لايرى .. سيداتى آنساتى سادتى . مع الفرحة والمرح ولاتفكروا فيما



" إنه في العام التاسع والأربعين "





تسمعون .. عليكم بالرقص فقط ، فمن لم يعرف الرقص لم يعرف معنى الحياة ، ولايفنى فى الله من لايعرف قوة الرقص .

« ياللى وسطك وسط كمنجة .. وعودك مرسوم عالسنجة »

« أنا كنت باحب المشمش .. دلوقت باموت فى المنجة »

« المنجة .. المنجة .. المنجة .. المنجة »

فى معنى أعوام عشرة ضاعت فى بحث علمى حول حركة الكترونات وهمية فى مدارات أكثر وهماً وقراءات مراجع وسهر ليال واعداد جداول وجمع وطرح وضرب وقسمة للحصول على لقب يصحبه انتفاخ فى الوجه وجلطة فى القدم وربطة عنق ضيقة تبرز الشرايين وطالب يستمع إلى محاضرة مملة لمجرد أن يجلس بجوار فتاته فيتفقا على موعد اللقاء .

« ويقول لى وأقول له .. ويقولك وتقول لى »

« وتقول له ويقول لك .. وتقول لى ويقول لى »

« ويقول لك وتقول لى .. وأقول له ويقول لى »

فما جدوى أن تولد فى قرية فقيرة فى بلد فقير فى أمة ليلها قتال ونهارها قتال ، ولايقدس قومها إلا نصفهم الأسفل ولايعتزون إلا بحناجرهم التى تقول له ويقول لها حتى الصباح فى ضجيج الدولارات وتمايل الراقصات ورنين الدينارات وطرقعة التصريحات وانهيار الحدود والسدود والبنايات

.. وإيقاع الزار ونهب الأموال وقطع الأرزاق وجنة المشتاق فى أصول النفاق ؟! .

هـيا ادخـلى فى عبـاءتى وشاركينى فى جنتى حتى . ولئن كان المستحيل صعبا فليكن الصـعب ممكنا ولئن ترددت فـى الدخـول فاعلمى أن تسعة وأربعين عاما هى المحال ، وأننى سوف أحملك بذراعى لأخفيك تحت عباءتى من العيون وأحرسك بألف جندى من لحمى وجلدى ودمى وأعصـابى وعقـلى وجنونى .

كل سنة وأنت طيب يابهاء .

.. وهكذا فلن تزول الأزمة مادام الصراع التفكيكى بين القديم والحديث محتدما ومادمنا عاجزين عن تحويله إلى كيان تركيبى تكاملى سوف يسفر ولاشك عن حل هو المعجزة مثلما يسفر الإخصاب الذكرى عن خروج الوليد من رحم أمه ، وأنا شخصيا - يا اخوانى فى أزمة أعجز عن حلها ، فكيف تجيئون للاستماع إلى محاضرتى بهذه الثقة رغم أننى أحتفظ فى جيبى الأيسر بقائمة من أسماء الأصدقاء الذين عانوا من أزمات مماثلة وعاشوا والذين عانوا وماتوا والذين لا يعانون ولا يموتون والذين يموتون ولا يعيشون ويعانون أو لا يعانون ، سواء من أزمة الفكر العربى أو الفقر العربى أو الجهل العربى أو صابون الأستحمام .. ولكن ماجدوى قائمة ثابتة فى زمن متغير يخضع لمتغيرات تخضع لقانون إسمه العبث ؟ !

أنا أعلم أن الأولين سيتهموننى بأننى أبدع وحيـث أن كـل بـدعـة ضلالة ، فمصيرى إلى النار، أما أنصار الحديث فسـوف يتهمـوننى بالالتجـاء إلى الغيب والارتماء فى أحضـان المـوت والبعـث والقـدر، وأمـا الخبـثاء فسـوف يتهمـوننـى بالصفرية .. ألم أقل لكم أننى أزمة ؟ ! ..

إنصرفوا إذن بأمر الله فلا جدوى من بقائكم معى لأن الزمن لايتجمد .

- وأنت طيبة .. يحفظك الله

- هل أنت سعيد ؟

تحت عباءتى الآن يقبع سر السعادة . نعم تأخرت فى العثور عليه . نعم دفعت لقاءه ما يقرب من ثمانية عشر ألف يوم من الصمت والسكوت والبصر والاستبصار والدخول والخروج والحزن والفرح .. وكان النور أمامى فلم ألمحه . وكان الحلم فى سراديب صدرى ولم أفجره . وكان النهار طويلا والليل أطول فما شعرت إلا بلحظة ! .. فتعـالى إلـى عمـرى يـاصـاحبتـى إلـى السـر..الكنز فى أنتظارك فيها .. هيا إدخلى فى عباءتى .

السلطة والسلطان

قضية تلح على كتّـــاب المســرح المصرى

بقلم : مهدى الحسينى

ثمة مسرحيات مصرية عديدة طرقت هذا الموضوع الهام والحسّاس فى السنوات الثلاثين الأخيرة ، فبعد «السلطان الحائر» للرائد العبقرى «توفيق الحكيم» سنة ١٩٦٠ ، تلاحقت مسرحيات أخرى تدور حول نفس الموضوع منها «الفتى مهران» للشرقاوى سنة ١٩٦٥ ، ثم يكتب الراحل «مصطفى بهجت مصطفى» مسرحية « لعبة السلطنة » سنة ١٩٧١ ، التى لم يوافق المسئولون حينذاك على عرضها رغم جودتها ، وفى سنة ١٩٨٦ يقدم المسرح القومى «لعبة السلطان» تأليف «فوزى فهمى» ، وتفوز مسرحية «فارس فى قصر السلطان» تأليف «فتحى فضل» بجائزة الثقافة الجماهيرية سنة ١٩٨٧ ، ويقدم مسرح الشباب مسرحية سنة ١٩٨٩ «المتنبى فوق حد السيف» تأليف «محمد عبد العزيز أبو شنب» .. وأخيرا يكتب «محمد عنانى» مسرحية «جاسوس فى قصر السلطان» سنة ١٩٩٠ ليقدمها المسرح القومى فى فبراير من هذا العام .

ومسرحيات أخرى عديدة تدور حول «السلطان» !! فمن ياترى هذا السلطان ؟ وما هى القوى التى «سلطنته» علينا ؟ وما قضيتنا معه ؟ وما مطلبنا منه ؟ وهل هناك أزمة سلطة ؟ أو أزمة مع السلطة ؟ هل هناك مطالبون بالسلطة ؟ إن تكرار هذه العناوين ، والإلحاح على مثل هذه الموضوعات ، وتقليب مثل هذه القضايا ، إنما يعكس أزمة . غير أن التناول بالفن عامة .. وبالمســرح خاصة له أسس وأصول .



مشـهد من مسرحية لعبة السـلطان لدكتور فوزى فهمى ١٩٨٩

بالطبع يكون الميدان عصر السلاطين والمماليك ومصر العثمانية ، ويكون المصدر الأساسى سفرين كبيرين لابن تغرى بردى وابن إياس ، وغيرهما من كتب التراث الثقافى والفلكلورى والتاريخى المصرى ، ومنها أيضا ما أشار له المؤلف فى نشرة المسرحية كمصدر لعمله وهو كتاب «التحفة المملوكية فى الدولة التركية» من تأليف «بيبرس المنصورى» ، وهنا تختلف .. من كاتب لآخر - المسافات التى يقطعها المؤلف بين المصدر .. وبين يراعات الإبداع : من حيث الفكر والفكرة والتيمة والشخوص ووحدات التعبير والنسيج والأسلوب والحرفة والمزاج والطابع الشخصى والعام واللغة . أى بنية الموضوع الكلية الشاملة .

درس عميق

لماذا التاريخ إذن ؟ الكاتب لا يلجأ للتاريخ كى نستذكره للامتحان ، أو لكى يراوغ الحاكم أو الرقيب ، بل بحثا عن درس عميق ، والبحث يكون عن القانون المحرك لأحداث التاريخ ، بحث عن فاعليته وتجليه فى لحظة معينة تُشابه لحظتنا الحاضرة ، وهدف البحث هو خلق حالة ذكية من التوارد الدّال بين الآن وبين الماضى . هنا لا تهمنا الأحداث فهى ليست سوى شواهد وأدلة وسمت وملمس ، لا نلتزم بها حرفيا بل نستوحيها ، فهى فرصة الكاتب بالمشاهد عن واقعه كى يتمكن من رؤيته من زاوية نظر موضوعية ، متجرداً عنه ، يراه فى صورة بعيدة عنه نسبيا حتى يتسنى له أن يحكم عليه بموضوعية ، فيستلهم قانونه ليتعلم منه ، أو كما قال «الفريد فرج» «الاغتراب للاقتراب» . هذه هى الجدوى المسرحية - درامية وملحمية - للجوء للتاريخ ، أو للتراث كمصدر للإلهام .



على أن كاتبنا مثقف مرموق وأستاذ جامعى عميق الأثر ومترجم فذ وشخصية عامة لها حضورها البارز وأنشطتها ونفوذها . له كتابات فى النقد ومؤلفات فى المسرح ، والمسرحية التى نحن بصددها بالشعر الفصيح .

وكذا يكون مخرجنا الفنان الكبير «كرم مطاوع» بتاريخه الطويل المعروف ، وبأعماله المهمة المؤسِّسة فى مسار الوعى والذوق فى المسرح المصرى ، الشهير بمبادراته ومغامراته الفنية المعروفة .

رحلة بحث مضنية

ولكى أشرك القارىء - الذى شاهد المسرحية أو لم يشاهدها - فى هذا الحوار النقدى ، سأستعين بفقرات وردت فى نشرة المسرحية تلخص أحداث العرض «فالبطل محمود نجار مصرى عادى من أهل الصنعة ، حرفته ككل المصريين البسطاء ، تحويل الأحلام إلى واقع ، وصناعة خير الأمة وحضارتها .. يذرف عرقه فوق أخشاب الأشجار ليترجم أحلام الحب والتوصل إلى حقائق ملموسة ، إلى أثاث وأعراس وبيوت عامرة ... لكن الأخشاب تختفى فجأة ... ولا يبقى من صوت سوى نعيق الشاعر الرسمى ، يتغنى بانتصارات وهمية ورخاء مكذوب .. وحين يرى محمود عالمه يتصدع ، يشرع فى رحلة بحث مضنية ، ظاهرها البحث عن الأخشاب باطنها البحث عن الحقيقة ، فيذهب إلى القصر ظانا أنه سيجد مطلبه هناك ، ولكنه ما أن يدلف إلى عالمه اللامع ، حتى يجد أقدامه تغوص فى رمال متحركة تريد أن تبتلعه ، وإذ يجاهدها يتخبط فى متاهاتها بحثا عن مخرج ، فيدرك أن ما توهمه ليس سوى نسيج عنكبوتى من المؤامرات والأكاذيب ... وأشباح باهتة تحيا على خداع النفس والآخرين . وتصل المسرحية إلى نهايتها المحتومة ، وتتم المواجهة بين الوهم والحقيقة ، فإذا بالاشباح والأوهام والدمى تتساقط فى لهب المشاعل» .

وبالفعل يذهب محمود إلى القصر فيشتبك فى علائق مع السلطان والحكام والأميرة المقهورة «خاتون» والفتاة المصرية الثائرة «غازية» والعاشق الثائر الشاب «شهبندر» الملاح المصرى وحبيبته «حسنة» الجارية المغنية ، حيث يظنه الجميع جاسوسا تتريا ، ثم يُقتل السلطان ، ويتولى الحكم قائد جيشه ، ويتهم محمود بقتله ، على أنه الجاسوس التترى ، ويعرف أهل القاهرة الأمر فيذهبون لتخليصه ، إلا أن الحاكم يقتله أمامهم ، بينما لا يحركون

ساكنا !! حتى يصل الثائر «شهبندر» وجنود البحر كيما يخلصوا الشعب . ذلك هو الخط الدرامى الذى أراد المؤلف والمخرج أن يقدماه إلينا ، إذن فلنتناوله فى محاولة للتحليل :

فى أصول البنية

يرتكز المؤلف على نقطة هجوم درامية واهية ، وهى أن (محمود النجار) لا يجد أخشابا لأعراس العامة ، والسؤال هنا : من كان من الشعب ينام على أسرّة أو يستخدم دواليب ومناضد وكراسى فى أزمنة الترك والمماليك ؟ فى أزمنة الطاعون والجوع الفاتك ؟ هذا ترف لم تكن لتناله الطبقة الوسطى إلا استثناءً ومشقة ، أما الشعب (فلاحون وحرفيون وصغار التجار والصناع ومجاورون) فكان لا يستخدم إلا الحصير والبرش إذا لم تكن التفايات والمهملات والبقايا وقحوف النخيل ، أو كان ينام فوق الأفران الريفية ويجلس على المصاطب الحجرية والطينية ولا يستخدم الأخشاب اللهم فى صناعة صندوق العرس الأحمر ، خاصة وأن مصر بلد غير منتج للأخشاب إلا قليلا ، بل مستورد لها منذ الفراعنة ، وإذا كان المؤلف يقصد بالأخشاب رمزاً !! ، فالرمز يكثف الواقع ولا يخالفه ، يدل عليه من على مبعدة ولا يتعامل معه مباشرة ولا يفتئت عليه ، ويشمل الظاهرة كلها بلا استثناء ، فهل كانت تكفى كومة أخشـــاب مهملة فى فناء قصر السـلطان يحصـل عليها محمود النجار لتلبية حاجة الشعب ؟ وهل استغل الكاتب أزمة نقص الأخشاب تلك ، فى تفجير قوة دافعة للشعب كى ينزع أبواب القصر مثلا ليصنع أشياءه منها ؟ إن نقطة الهجوم التى اختارها المؤلف لاتكفى لصنع منحنى درامى قوى مشدود الأوتار كى يدفع بنا نحو الأزمة فالذروة . لذلك يظهر لنا محمود النجار - ممثل الشعب - كمستجد ساذج (رغم أن المؤلف حمله لسانه الذرب الواعى) وفى النهاية يقتل «ضحية» سهلة ، بينما لا يحرك أحد من أهله وعشيرته ساكنا !!!

هذا يسوقنا إلى ملحوظة أخرى عن الصيغة ، ففى ص ٤٥ من النص المطبوع تسترسل الفتاة (غازية) فى مونولوج - هو فى الحقيقة ليس بمونولوج بالمعنى الفنى ، إنما هو استرسال منظوم - تسرد فيه لـ (علم الدين) نائب السلطان (وكان قد سباهما معا عمه المتوفى ، فتحكى له حكايتها مع عمه وكيف علمها دخائل الحياة خلف أسوار قلعة الحكام ، وحب الشعب خارجها فى ساحة القلعة بين الصناع والحرفيين ... إلخ ، وثمة سؤال : ألا يعرف صنوها فى التربية هذه القصة ؟ أم أن هذا الكـلام (إلك ياجارة) أى

للجمهور ؟ أى أن ليس له ضرورة درامية ، بل ضرورة إعلامية أملتها أخطاء فى خطة التأليف ؟ ثم أية شخصية مسرحية (غازية) تلك بغض النظر عن أصلها التاريخى ؟ يشى بها (علم الدين) ابن عمها - بالتربية - للسلطان الذى يسجنها لأنها تقرأ ولأن لديها أفكاراً ثورية !! فى حين أنها تشكو من أنها قضت حياتها أسرى لـ (سجن الكتب) !! ، وفجأة تهرب من السجن المادى إلى القصر !! كيف ؟ ثم تعلن - لنائب السلطان وداخل القصر (!!) أنها عزمت على الرحيل هاربة من بطش السلطان والمماليك حيث إنها ثائرة ومصرية !! (لاحظ أنها لم ترحل بل ظلت تثرثر) وحين تنعى له ما آل إليه حال البلاد فإنه يتعلل بالحرب ضد التتار ، فيدور حديث وما تمليه لواجبات الوطنية !! ثم سيرة ذاتية !! ثم عتاب بين محبين !! ثم تعاهد بالزواج عن حب قديم !! كل هذا فى مشهد واحد ؟ ! ! ان بنية المشهد المسرحى عموما عليها أن تنجز مهمة واحدة لا أكثر ، وموضوعا واحداً لا أكثر ، وإذا كان هناك (ماهو أكثر) فإن هناك ما هو رئيسى طاغ بحيث ينظم باقى العناصر فى إساره وإطاره .

ولكن لنمض وراء (غازية) فهذا الخط أصيل وغنى وصالح لانشاء عمل مسرحى كبير ، إذا ما حققناه فى إطاره ، وتعمقناه وتقصّيناه ، وكشفنا عن أسبابه وملابساته ومصيره ، خاصة لنبرز جانب الاستثناء فيه ، فنجد أن هذه الفتاة (نصف چان دارك) ثائرة تتجول فى قصر السلطان الذى سجنها وخلفها حرس مقنّع دون أن يتعرض لها أحد !! هاربة من السجن دون مطاردة !! تتحدث عن الثورة والشعب دونما حرص أو حذر !! لها عيون ترصد أحوال الشعب وأحوال السلطان !! تدبر مؤامرة لقلب نظام الحكم !! .. وفى النهاية - وياللدهشة - يقتلها (علم الدين) بكل سهولة أمام حراسها المسلحين الملثمين الأشاوس دون أن يحركوا ساكنا !!! كيف ؟ ! ! ! . أعلم أن الغرض الفكرى للكاتب هو أن الثورة الفردية الناجمة عن أزمة شخصية لا تحقق النجاح ، وهذا غرض وجيه ، ولكن كيف ؟ كيف هربت غازية من السجن ؟ وكيف تجولت فى القصر بحراسها دون أن يتعرض لها أحد ؟ وكيف أخذت تثرثر بآرائها وأخبارها وخططها ونواياها ومؤامراتها (عمّال على بطّال) دون رعاية لقواعد السرية التى تتنكبها سليقة الثوار ؟ ومن أين أتت بالمال والرجال والسلاح ؟ والعجيب أن نكتشف فى النهاية أن المشهد الغرامى بينها وبين علم الدين كان مناورة

من كليهما ، وهذا فى لغة المؤثرات الحرفية الدرامية يسمى المفاجأة ، وهذه لها شروط تقنية كى تتم وتؤتى أثرها دونما لبس ، كأن يسبقها مفارقة درامية ، لهذا يكون ترتيب المشهد كالآتى : أن يعرف المشاهد مسبقا أن غازية تنوى الإيقاع بعلم الدين لأنه خانها وأرشد عنها السلطان ، ثم يجىء المشهد المشار إليه – مع تركيزه – بعد ذلك مباشرة ، ثم نعرف أن علم الدين ينوى الفتك بها ، هنا يتحقق عنصرا التعرف والإثارة معا ، وهنا يقع المشاهد فى حالة الإشفاق على غازية فيتمنى لها النجاة ، ويظل المشاهد هكذا حتى يقع المحظور فتكون الفاجعة ، وكان يمكن أن تقتل غازية بمكيدة تصمها زوراً بصلة بالجاسوس التترى ، وتلك فرصة تدبير مفارقة درامية أخرى أفلتت من يد المؤلف ، ان خط غازية هو الخط المحورى الذى كان يجب أن يرتكز على متنه طرفا الصراع . محمود .. والسلطة ، وكان الممكن أن تنشأ حوله المسرحية كلها : خاتون وحسنة وشهبندر وساحة الحرفيين والشعب وثوار البحرية ، تلك هى قضية النسيج الداخلى لمثل هذا الحدث خاصة وللمسرحية عامة ، لذا فقد بدت بنية النص وعناصره ، متجاورة لا متفاعلة ، وظهر أن عديداً من شخوص المسرحية لا تربطهم بالنص أى صلة ، ولنأخذ «خاتون» مثلا . هل تترك أى خلل عضوى أو فراغ بنائى إذا ما شطب دورها ؟

أخطار على فن المسرح

حسنا فعلت دراما الإذاعة والتليفزيون والمسرحية التجارية والعروض المحلية الدارجة ، إذْ رفعت عن كاهل الفن المسرحى ركام الكلمات ولجاجة النثرية روحا وقالبا ، فخلصته من الركاكة والتفاصيل التافهة ، أعفته فأعادته إلى بنيته الأصلية : روح وجوهر الفكر ، دُر الكلام وعميق المعانى وساحر الخيال هذا إنْ نثراً وإنْ شعراً ، عامية أو فصحى ، فالأمر لن يختلف : الشعر والتفلسف معا ، ومن هنا يستقل المسرح بمهمته النبيلة وبجمهوره فى حالته الرفيعة ، ومن هنا أيضا تقوم علاقة نوعية أخرى بين الفن المسرحى وبين جمهوره ، تلك العلاقة التى لا تتناقض مع الوسائط الإبداعية الأخرى ، غير أنها تختص وحدها بمهمة إعادة بعث الحياة فى لحظات منتقاة وعميقة وخاصة ودالة ومكثّفة ونموذجية ، أياً كان مصدر الإلهام ومنحى المبدع .

وطالما استلهمنا روح الشعر Paetry واستوحينا أعماق المعانى والأحاسيس واستخرجنا الجوهر ، فإن النظم Verse يشكل خطراً على المبدع والإبداع والجمهور سواء ، فهو كمعطف الجبس

هش وغير مرن ، كما يقعقع بجرسه النحاسى وإيقاعه الخارجى ، ليسرد علينا فى أبيات طوال ما يوحيه الشعر فى بيت واحد ، حيث يكثف موقفا وشخوصا ومعانى وخيالات فى ضربة ناجزة . إن عدم المرونة الذى يسببه النظم يعجز الكاتب عن تمثل المنعطفات والثنايا والغضون والتفاصيل اللامحة والأسارير والخلجات التى تعطى النبض للشخصية المسرحية ، هو خال من الهسّات والآهات واللمسات ، أجرد من الروح ، لذا يضطر الكاتب قسراً للعموم والتعبير الخارجى ، فبالنظم لا تستطيع أن تعبر عن جوهر شخوصك ، ولا أن تناجيها وأن تحادثها حديث السريرة ، لأنه يعوقك عن استبطان دخيلتها وسبر مكنوناتها ، ويضلك جرسه المصم فيحبط سعيك إلى أعماقها ويئد متعة مباغتتها وصيدها فى مواقـف عميقة مهمة ، حيث تتفجر مفصـحة عن دخيلتها بالبوح أو بالصراخ أو بالفعل معا ، فتتجلى عن سمتها وسحنتها ، وعن طريق هذه الحالة وحدها يعرف الممثل طريقه إلى الشخصية، كى يتمثلها ويعيد خلقها ، وبغير ذلك فإنه يكتفى بوصف خارجى فاتر لملامحها ، إن النظم يحبط طاقة الأداء - تقمصا أو تشخيصا - لديه ، فهو لن يخلق إلا شخصية جعجاعة لن توحى بالثقة حتى ولو صدقت ، ولن تفصح عن صدق حتى ولو كانت حقيقية ، فمثل هذه الشخوص الورقية التى تصاغ بالنظم ، لن تثير خيال مخرج فنان ، بل وتزعج أسماع المشاهدين بايقاعها الرتيب فيرغمون على النعاس .

وفى هذه المسرحية ، لا نستطيع أن نمايز بين لغة شخصية وأخرى ، فلو حجبنا هامش النص بورقة بيضاء لنخفى أسماء الشخصيات ، لقرأنا كلاما منظوما مرصوفا متواصلا لا مكان فيه لملامح مميزة ، ولا نفوس دفينة ، ولا بوح ، ولا فرح ولا بكاء ولا تحولات ولا إرهاصات ، ولا خصوصية فعند شكسبير يوجد لكل شخصية إيقاعها وقاموسها، وعند ترجمة مثل هذا النص تتبخر أوهام الشعر فيه ، فلا يبقى منه إلا خيوط النثر البائسة الهزيلة .

صور من بعدين ؟

لن أتحدث عن الممثلين والممثلات - وكلى أسف - فهل وجدوا طعاما للأكل ولم يأكلوه ؟ أو شرابا يبل ريقهم ولم يشربوا ؟ هم صور وخيالات من بُعدين لا من ثلاثة ، بلا ظللوا أوراقا مرسومة تتحرك فى وَهَنْ ،

فقد وقف المثّال عند حدود الكتلة ، ولم تهبها أصابعه حياة ، لم تعبث روحه فى ثناياها وبين جوانحها فتخلقها ، وقديما قال لنا حكيمنا «محمد مندور» الانسان مثل جراب الحاوى ملىء بالخبايا المدهشة ، فمهما مددت أصابعك وأخرجت منها .. فإنها لن تنفد أبداً . وحين مد الممثلون أيديهم فى الجراب .. لم يجدوا إلا أوراقا بلا حياة .

وفى صيغته لفن التمثيل هنا ، وقف «كرم مطاوع» بَيْنَ بَين ، بين الكـوميديا دى لارتى ، وبين التمثيل الشعبى المصرى، لكنه لم يعقد الصلة بينهما كى يقدم اكتشافا – بالفن – يغنينا عن عشرات البحوث ، كما طرح المخرج صيغة للشخوص حارت بين مبالغات المسرح السياسى البريختية ، وبين المدرسة الواقعية ، وبين روح الفانتازيا ، وهذا أسلوب جائز إذا تم عن سبيكة متجانسة ، وفى ظنى أن الذى دفعه إلى هذه الحيرة والتردد بين الصياغات ، أو عدم الاستقرار على صيغة ما ، أو خلق صيغة جديدة مبتكرة ، والسبب هو أنه تعامل مع مادة لم تكن مناسبة تماما لأصابعه الحسّاسة رفيعة الأداء .

أبدع كرم فى توظيف المجاميع ، لم يعتبرها – كما الآخرون – من الحشو والنوافل وسد الفراغات ، فلم يبتذلها ولم يهملها .. بل احترم وظيفتها الفنية ، كما احترم حضورها الانسانى على المنصة ، وأبدع فى تصميم حركة الجنود والحرس حين استخدمهم فى التعبير عن الأزمات والمناورات وعن الأخطار ، وأبدع فى مشهد أنشأه من تقاطعات مونولوجية حزينة – لم تكن موجودة هكذا فى النص المطبوع – للأميرة خاتون ، وأم عَلّيه ، وحُسنَه ، ومحمود ، كل هذا ليس جديداً على المخرج الكبير ، فقط طرح أجمل مهاراته الفذة القديمة ، وكلنا يعرفها ، وكلنا يحبها ، وياطالما أثرت فينا وأسهمت فى تشكيل ذوقنـا وتعلمنـا منهـا : نعومة الضوء ، سلاسة النقلات ، تصميم الحركة مذهل الجمال ، التحكم فى مساحة الخشبة ، توزيع الممثلين ، انسـيابية الدخول والخروج ، لوحات تشكيلية حيّة متلاحقة فى سياق بصرى خلاّب ، هذا الطفل بازغ الجمال ، ما أن تنسم أنسام الحياة .. حتى مات !! إيهام بالتمثيل بلا شخوص ، وإيهام بالدراما بلا صراع حقيقى وعميق ، وإيهام بالتشكيل بلا موضوع ، وإيهام بالحركة إيهـــاما تجـريديا هندسـيا بارداً ثنائى الأبعاد ، وأبعـاد هذا الفـن بلا نهاية .

قراءة فى أوراق ندوة إشكالية التحيز

رؤية معرفية ودعوة للإجتهاد

بقلم : عبده جبير

إن كانت الشهور الماضية قد شهدت ندوات جادة عديدة ، فى مجالات مختلفة ، فإن حظ هذه الندوة التى نعرض لها بقراءة أولية لأوراقها ، من الجدية ، والعمق بمكان ، من واقع الجهد المبذول فى هذه الدراسات التى لم توفر تقريبا « موضوعا » من الموضوعات التى تشغل المهتمين بقضايا الفكر ، إلا وتناولته ، نقول كان حظها من الجدية ، والشمول حظا كبيرا ، حتى لا نكون مبالغين إذا قلنا أنها تميزت حتى إنفردت لتعد واحدة من أخطر ندواتنا الفكرية التى جرت منذ زمن طويل فى مصر .

وجه الخطورة هنا يقوم على أساس واحد : عمق الدرس ، وجدية التناول ، و « التحيز » الواضح لفكر بعينه ، هو راغب فى نفس الوقت ، فى حوار جاد للوصول إلى هدف الإستقلال الفكرى ، بدلا من الضياع فى بحار الغربة التى لا منجاة منها .

يقول الأستاذ طارق البشرى حول الرغبة فى إنشاء حوار خلاق : « على أننا نود أن يتصل حبل الحوار فلا نتراشق بالحجج فيما هو أشبه بحروب الإستنزاف، ونود أن يتصل حبل التفاهم ليفهم كل صاحبه . فما أعظم مستقبل هذا البلد إذا انضمت قواه بعضها إلى بعض ، ولم ينطرح بعضها من بعض كما يحدث الآن » .

ونحن هنا ، نؤكد على أن هذه الروح الجميلة ، روح الحوار الخلاق والعقلانى هى أيضا قائدنا إلى الملاحظات التالية ، التى وإن إنطلقت من موقف مغاير للموقف العام للأساتذة الأجلاء المساهمين بأوراقهم فى هذه الندوة ، إلا أن الهدف المقصود واحد ، هدف الإستقلال الفكرى والبحث عن طريق خاص بنا للبحث ولقيادة أمور حياتنا .

هو هدفنا أيضا وإن كان يقوم على أرضية أخرى ، أرضية تنطلق من العروبة ، لا كمقولة تعصب أعمى ، بل كضرورة حياتية وسياسية ، فالعروبة لا شك تحتوى على ثقافة الإسلام ، لكنها تجعل أركان فكرنا وحياتنا المستقبلية تقوم على أساس محسوس ، بل وأكثر خصوصية .

وهنا ، وقد قادنى الإستطراد إلى هذه النقطة التى ترد إلى الذهن أولى ملاحظاتنا عن الأوراق جميعها ولا أريد أن أقول إنه كان هناك تواطؤ جماعى عليها ، ولكننى أقول إننى لم أقرأ ، ولا حتى إشارة عابرة واحدة فى الأوراق كلها (والتى بلغت خمساً وعشرين ورقة) إلى هذا المنحى العروبى ، وكأن الأساتذة الأجلاء جميعهم قد ولدوا وعاشوا فى فضاء لا يرتبط بالواقع ، ولا يرى ما هو قائم ، ولاحتى بالنظر إلى المستقبل الذى تفرض علينا كل الحجج الداعية للإستقلال إلى الإرتباط به ، حتى ولو كانت شريعة الإسلام هى الهدف المرتجى .

الإسلام فى كل مكان

إن عالم الإسلام يمتد على خريطة العالم ، كما يعرف الأساتذة الأجلاء جميعا ، حتى لا يترك قارة إلا وله فيها دائرة قد تتسع أو تضيق ، كما أن عالم الإسلام يضم فرقا ومذاهب شتى ، عند التطبيق ، أو حتى ممارسة الشعائر الدينية ، نجدها تختلط بالقيم المحلية الموروثة من المكان ، أى من واقع وتاريخ هذه الأمم العديدة المختلفة ، وأعفى نفسى من ضرب الأمثلة ، فهى معروفة .

ولا أريد أن آخذ أحدا بسوء النية ، لكن ألا يساهم هذا المنحى غير العروبى فى القضاء النهائى على فكرة القومية العربية بمعناها السياسى خاصة وأنه يراد لها الآن ، وفى هذه الفترة التاريخية التى نعيشها ، الشلل الكامل والنهائى ، الذى يدفع بالبعض إلى هدف معاكس لهدف المنتدين الأجلاء ، وهو الإرتماء فى أحضان الغرب ، بحجة أن العروبة قد تسببت فى كوارث .

إننى أتساءل ، ونوايا أصحاب الورقة من النبل تنفى هذه النتيجة ، لكننى أصر على هذا التساؤل ، وأدعوهم جميعا إلى الإجابة عنه .

لكننى وحتى لا أقع فى تعميم مخل أؤكد على إشارة نافرة من صلب ورقة الدكتور جلال أمين ، الذى يفاجئنا هنا بمفاجأة غير مسبوقة ، بإنضمامه إلى هذه

المنظـومة الفكرية التى لم تكن واضحة لديه من قبل ، لعلها ، تدلل على صحة توجهى أكثر مما تدل على صحة توجه جل الأوراق .

أخطاء غريبة !

ففى معرض إستعراضه لإشكالية التبعية ، وتجلياتها المختلفة ، يقول الدكتور جلال أمين :

« وقد إمتدت التبعية إلى لغتنا العربية فنجد فى كتاباتنا الإقتصادية والإجتماعية الإتجاه إلى استخدام الألفاظ الأجنبية فى الكتابات العربية حتى إذا كان لدينا مقابل عربى يؤدى إلى نفس المعنى أداء أفضل أو كثرة ذكر المقابل الأجنبى بجوار الكلمة العربية حتى فى الأحوال التى يكون فيها اللفظ العربى واضحا بذاته . وكأنه دليل على سعة الإطلاع وتنوع الثقافة ، ولكن الأخطر من ذلك هو إقحام عادات التعبير الأجنبية على اللغة العربية وإخضاع اللغة العربية لقواعد التعبير الأجنبى على نحو يذهب بسلامة الفكرة ووضوحها ويشوه جمال اللغة العربية ويخل بقواعدها ، وقد يقول البعض أن المهم هو مضمون العلم وليس اللغة التى يكتب بها أو يدرس بها ، وهذا إدعاء غير صحيح لأن التضحية باللغة القومية فى التعبير يؤدى فى النهاية إلى التضحية بطريقة كاملة فى التفكير والنظرة العامة للحياة ، فاللغة تعكس هى نفسها مواقف قيمية وتفضيلات خاصة للمجتمع الذى ابتدعها ولا تتمتع بتلك الدرجة من الحياد الذى يزعم لها » .

وإننى إذ أوكد على كل كلمة فى عبارة الدكتور أمين السابقة أستطرد فى هذه النقطة التى ليست بحال ، خاصة فى مواجهة أساتذة أجلاء هم جادون بالقطع فى توجههم المشار إليه ، أقول ليست بحال مسألة شكلية .

فأظن أنهم جميعا يتفقون على أن دراسة الإسلام ، أو عرض مفاهيمه بل نسقه العام ، تتوقف فى المقام الأول (وهنا أحيل إلى أوراق كل من طارق البشرى ، وعادل حسين ، وعبد الوهاب المسيرى نفسها) على فهم النصوص الأصلية (القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة المسندة) فهما صحيحا ، وأن هذا الفهم يتطلب معرفة دقيقة باللغة العربية وقواعدها ، ففهم النص يتوقف على هذه المعرفة ، لكن حين يفاجأ المرء بهذا الكم الهائل من الأخطاء النحوية واللغوية ، بل والإملائية للأسف (علاوة على الأخطاء الطباعية التى لا تقهر) وهى تنتشر فى أغلب الأوراق ، وحتى فى عناوين بعضها ، كما جاء فى عنوان ورقة الدكتور المسيرى (هاتان تفاحتان حمراوتان) بالتاء ، وتكرر هذا فى صلب الورقة ، فإنه لابد من التساؤل : هل تتسق هذه المعرفة البسيطة مع الإدعاء بفهم النصوص الكبرى ؟

سأسوق أمثلة قليلة :

يقول أحدهم : « ويمكن القول أنه بينما نمد « الدال » رأسيا سكونيا (كذا) يتسم بالإستمرارية والتزامن فإن المدلول أفقى ويتسم بالتعاقب .

ويقول نفس الكاتب : « ولذا فالتجربة العلمية مضبوطة إلى حد كبير ، حيد فيها بعدا الزمان والمكان إلى حد ما » وهو يقصد حيد بعداها الزمانى والمكانى .

ويقول آخر : « وتكرس ذلك بعد الحرب العالمية الثانية ، حيث ساد الإعتقاد بقدرة العلماء الإجتماعيون على إحداث إعادة تشكيل (هندسة) للمجتمعات » .

ويقول نفس الكاتب : وصاحب هذا التغير ... فقدان الأسرة لدورها فى التنشئة الإجتماعية ... حيث تولت ذلك المؤسسات الصحية المتطورة ، ودورها فى التوجيه النفسى حيث تولى هذه المهمة الخبراء النفسيين والتربويين المحترفين » .

ونحن بالقطع لانتسقط أخطاء نحوية ولغوية بسيطة ، من باب السهو ، بل ولو أنها كانت عابرة لما التفتنا اليها ، لكن إنتشارها بشكل وبائى فى كثير منها هو الذى دفعنا للوقوف أمامها ، فليس معقولا أن نكتب عن محنة والتبعية ، وخطأ التوجه التربوى السائد فى مدارسنا ، ونحن أنفسنا نعانى من نفس المشكلة ، فإنه ليعز على المرء أن يجد هذا القدر من الأخطاء فى الكتابات أناس يدعون للمعرفة الإسلامية .

فى العربية أيضا نوع من العيوب يسميه البلاغيون « التعقيد اللغوى » وآخر يسمونه « التعقيد المعنوى » وهما عيبان مرذولان فى العربية ، وإنه وإن كانت كثير من الأوراق قد اتسمت بوضوح العبارة ، إلا أن بعضها قد سلك طريق هذا التعقيد اللغوى والمعنوى ، الذى هو ليس من باب عمق العبارة ، لكنه الناشىء عن عيب كامن يقول أحدهم : وموضوع البعد الخامس بعد الاتساع قضية شائكة بين مدركات العقل ومحسوسات الأفئدة ، وتطبيقها فى مجال التشكيل ، ولقد هدانى الله فى كتاباتى المتواضعة شارحا فيها إبتكاراتى المدركة من ظواهر أحاسيس بظاهرة الاتساع .. قانونها موجود فى الطبيعة وما يجعلنى على يقين بوجوده إستنادى بقول الله تبارك وتعالى : « وإنا لموسعون » الآية ٤٧ الذاريات » وإلى آخره .

وأشهد أنني لم أفهم من هذه الجملة ولا من أغلب جمل هذه الورقة شيئا .

تعريف كلمة التحيز

أنتقل إلى ملاحظة تالية تنصب على مسألة إجرائية ، فالجميع تقريبا قاموا بجهد واحد متكرر فى مقدمات أوراقهم ، هو تعريف كلمة التحيز ، فى صيغتها اللغوية ، وهى مسألة تدعو للتفكير ، هل هو الإرتباط بطريقة واحدة فى البحث ، أم هى

رغبة فى الإتفاق على المعنى اللغوى ، أم هو نوع من إثبات الإنتماء للغة الأم التى منها ينطلقون إلى المفهوم الخاص بكل منهم فى تخصصه ؟

إننى أتساءل .

لكننى أمضى سريعا إلى لب الموضوع الذى تلخصه عبارة الأستاذ عادل حسين النابهة حين يقول :

« إن الأسئلة كافة ، والإجابات كافة ، نشأت عن المجتمع الغربى في مراحله المختلفة (وهو يقصد الأسئلة والإجابات التى سادت فى مجال البحث المعاصر) ونحن من موقع التاريخ الخاص لأمتنا ، ومن واقع التبعية والتخلف الإقتصادى نواجه أسئلة غير أسئلة الغرب ، ويتطلب هذا أن ننشىء مدارس تختلف عن مدارسه ، ويجب أن نفهم مجتمعنا ومساره الماضى وفى المستقبل فى ضوء المبادىء الإسلامية » .

وهنا فأننا بلاشك نتفق مع عادل حسين فى التشخيص الأول ، لكن مسألة « تاريخ أمتنا » التى أثارها هو نفسه ، فى هذه الجملة ، بل وفى جل ورقته ، ألا تدعو للتفكير فى هذا التاريخ بإعتباره تاريخا عربيا أيضا ؟ خاصة وهو يؤكد على أن « تراثنا هو المنطلق للتنمية » .

***

فيما قبل النهاية أعترف بأن قراءة هذه الأوراق قد إستغرقت منى وقتا طويلا وأثارت فى نفسى كثيرا من التساؤلات ، وبعضها ، كما فى أوراق الأساتذة ، راسم بدران ، ويوسف سلامة ، وفريال غزول ، ومحمد أكرم سعد الدين ، وسهير حجازى ، ومحمود الزواوى ، وسعيد عبد الرحمن ، ومحمد شومان ، وأسامة القفاص ، وصالح الشهابى ، أقول إن هذه الأوراق ، قد أفادتنى كثيرا ، ومنها تعلمت الكثير ، وإن كانت هناك نقطتان لم تتعرض لهما الأوراق ، وكنت أنتظر أن يتناولهما بعض الباحثين ، هما مسألة المرأة المسلمة ، وصورة الغرب لها ، أى مسألة التحيز فى الفهم الغربى للمرأة الشرقية ، ومسألة النموذج اليابانى الناجح الذى استفاد من إنجازات التكنولوجيا الغربية ، مع إحتفاظه بخصائص وقيم مجتمعه الأصيلة .

على أى الأحوال أعتذر عن تناول كثير من الأفكار النيرة التى وردت فى هذه الأوراق ، راجيا أن أعيد القراءة مرة أخرى ، ربما ، حين تصدر فى كتاب ، حتى أستدرك ما غاب عنى وهو كثير . لكننى لابد أن أشيد بالجهد المبذول فى تغطية جوانب العديد من قضايانا الملحة ، فى الأدب والفن ، وفى الفكر الاجتماعى والعلوم ، كما فى العمارة ومناهج الدراسة في جامعاتنا ومدارسنا ، راجيا أن يكون الحوار الخلاق قائدنا جميعا إلى نتائج محسوسة فى رحلة بحثنا عن المستقبل .

أين دور مجمع اللغة العربية
من لغة العصر ؟

عادل عبد الصمد

●● يتكالب على لغتنا العربية غزو غريب وشاذ من كل جانب ، لكى يقوض ارتباطنا بلغتنا .. لغة القرآن ، ويحولنا إلى أمشاج يسهل ابتلاعها . وتكييفها على النحو الذى يريد .

يرغب فى أن يقوض الدعامة الأساسية فى كياننا ، وسهل عليه بعد ذلك أن يقوض كل الدعامات الأخرى لتنهار واحدة تلو الأخرى .

وخطر هذا الغزو ، يتمثل فى لغة السح الدح ، ... ، والسيكى بن ...وولعها ولعها ، وشعللها شعللها ، ومن أول حكة ياكبريت ولعت فى قلبى ياعفريت ، وجرحونى وقفلوا الاجزاخانات ، وعملى فيها أبو التفاتيح وأنت طلعت فشنك وميح ، وجاى تانى هتنقر ، ده احنا اللى معانا المفاتيح .....

وما تقدم على سبيل المثال ، أجزاء من الأغانى التى تنتشر الآن وتتناقلها الألسنة واستطاعت هذه الأغانى أن تنتشر وسط الشباب بسرعة مخيفة ، تعمل جاهدة على إفساد الذوق العام بكل الوسائل الممكنة والمتاحة .

ووسط هذه العوامل الهدامة ، يكون هناك اجتماع سدنة وشيوخ العربية ، يدافعون عن اللغة العربية ويرفعون من شأنها وعقدت اجتماعات مؤتمر مجمع اللغة العربية فى دورته الثامنة والخمسين ، وفاء لحقوق العربية فى شهر يناير الماضى .

وكانت قاعة الاجتماعات قد ضاقت على سعتها بجموع الحاضرين من محبى

اللغة العربية وعشاقها من أعضاء المجمع .. كل منهم يحمل فى جعبته الكثير من الدراسات والأفكار التى يريد أن يطرحها على الأعضاء وعلى اللجان للدراسة والمناقشة ، ولحماية لغة الضاد من تيارات الغزو المختلفة ... ولكن لنا أن نتساءل : هل استطاع المجمع أن يواكب لغة العلم والحضارة على مدى دوراته الثمانية والخمسين ؟ أم أن المجمع اللغوى أصبح صومعة اعتزل فيها العلماء ؟ ..

فى الحقيقة ومما لا شك فيه أن لغة العلم والحضارة من المشاكل الكبرى التى عنى بها مجمع اللغة العربية منذ إنشائه ، ولقد ورد هذا صراحة فى المادة الأولى من مرسوم القانون الخاص بإنشائه ، فقد نص على :

« إن المجمع يضطلع بعبء مواجهة متطلبات العلم والحضارة » .

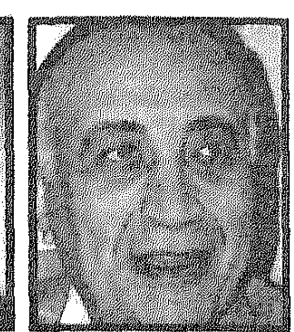
والمتتبع لدورات مجمع اللغة العربية وتوصياته وإنجازاته ، يدرك الجهد المبذول فى خدمة لغة « الضاد » والحرص الشديد عليها ، ولكن الأمر كله يتعلق إلى قرار واحد ، يصدره « صاحب القرار » كى تصبح التوصيات حقيقة واقعة لا سبيل إلى الرجوع عنها ، ويكون لها قوة التنفيذ والأخذ بها والالتزام بهذه التوصيات إجباريا فى جميع الأجهزة الثقافية والتعليمية ...

ونحاول هنا تتبع بعض مجهودات المجمع من خلال دورته الثامنة والخمسين لنرى قيمة الجهود المبذولة فى خدمة اللغة والعلم حيث قدمت فى المؤتمر العديد من الدراسات والبحوث منها دراسات حول مصطلحات فى الفيزيقا ... الجيولوجيا ، علوم الاحياء والزراعة ، الحاسبات وفى الرياضيات ، الجغرافيا ، العلوم الطبية ، التربية الرياضية .. الهندسة الميكانيكية ودراسات فى تاريخ الكلمة ، الإعراب مفهومه ودوره فى العربية ، العامى الفصيح من المعجم الوسيط ... التعريب قبل فوات الأوان ، الكلمة الأجنبية فى الوثائق الدبلوماسية العربية ، التعريب بين الفكر والعالم .

وقد أنجز المجمع خلال هذه الدورات عشرة معاجم علمية وحضارية تفيد فوائد كبرى ، فى تعريب العلوم ، ويجرى الآن الإعداد لإخراج معجمى النفط والقانون ، وشرف المجمع بإخراج معجم نفيس لألفاظ القرآن الكريم وله ثلاثة معاجم لغوية .

حماة اللغة

وهذه إنجازات تدل على جهود يقظة لا يعيش أصحابها فى بروج عاجية ، بل هم حماة اللغة ، يتعايشون معها ومع العصر ، ولذا اختار المجمع هذا العام قضية مهمة لتكون المحور الذى تدور حوله المناقشات .. هى « تعريب التعليم الجامعى» ، والعمل على إقراره فى الجامعات العربية ، وبيان العوائق التى تقف دونه .



حسين كامل بهاء الدين


د . شوقى ضيف

تعريب العلوم

وقد أوضح الدكتور شوقى ضيف أهمية التعريب ، وبين فى كلمته « أنه لايزال كثيرون من علمائنا فى الكليات العلمية يرون أن يظل تعليم العلوم فيها ، باللغات الأجنبية ، محتجين بأن المصطلحات العلمية فى كل علم غربى تتكاثر يوما بعد يوم ، بحيث تصعب متابعتها وحصرها ثم تعريبها ونقلها إلى لغة الضاد ، وهى حجة واهية ، إذ صعوبة شئ لا تمنع من تذليله ، والمعروف أن سوريا سبقت إلى هذا التعريب منذ فترة غير قليلة ، وحرى بشقيقاتها العربيات أن تحاكيها فيه حتى تعود لنا نهضتنا العلمية القديمة ، وحتى يتكامل للعربية فى عصرنا وجهها العلمى بجانب وجهها الأدبى ، وحتى ننقذ الشباب العربى من التمزق بين لغة قومية أو لغات أجنبية .

وتعميق مفهوم أن تعريب التعليم فى جميع مراحله ولا سيما الجامعية أصبح ضرورة حتمية لتحقيق أهداف أمتنا العربية ، فى اللحاق بركب الحضارة الحديثة والتخلص من التبعية الفكرية ، وذلك من خلال بناء تربوى يفضى بأمتنا إلى الإبداع العلمى ، وصنع تقنياته من ناحية ، ومن ناحية أخرى يفضى بها إلى المحبة والتآخى والوحدة .

وذكر الدكتور محمد رشاد الطوبى فى كلمته « إن تعريب التعليم الجامعى ليس بالصعوبة التى يتصورها البعض ، بل إنه فى غير حاجة إلى هذا الضجيج المفتعل ، الذى يثار حوله من آن إلى آخر ، وبالأخص من أولئك الذين يمجدون كل ما هو أجنبى .

وتحدث الدكتور حسين كامل بهاء الدين وزير التعليم قائلا :

« إن قضايا لغتنا القومية يجب أن تأتى فى مقدمات القضايا الأخرى ، فهى تتصل بماض عريق ، وتراث فريد ثرى يزهو على مر العصور بخلود شموخه وحاضر متجدد يتطلع إلى المزيد من البحث والاستقصاء ، وتنوع الدراسات والمعارف المواكبة لثورة العلم والمعلومات ، لتنطلق من القاعدة القومية لتراثنا المجيد للتحليق فى سماء العلم والمبتكرات والاكتشافات فى عديد من المجالات التى تنطلق منها ثورة التكنولوجيا ، والاتصالات فى العالم كله لتلحق بركب هذا التطور المذهل السريع .

مواكبة التطور

ولغتنا القومية بثراء تراثها ومستحدثاتها تمكنها من القبض على ناصية الأمور .. لا يجوز لها أن تتخلف عن ركب ثورة العلم والمعلومات .. فهى

البحر وفى أحشائها الدر كامن .... ولكن ما قيمة أن يبقى هذا الدر كامنا لا يستخدم ، ولا يطوع كما يطوع الذهب وبقية الجواهر الثمينة واللآلئ فى صنع عقود يتحلى بها جيد الزمن ، وتتدلى ثرياتها لتشرق على الدنيا بكل ما هو جديد ومفيد فى عالم الفكر والفن والأدب والعلم والتكنولوچيا الحديثة .

موقع اللغة من التطور

وناقش الدكتور عبد الكريم خليفة رئيس مجمع اللغة العربية الأردنية قضية التعريب متسائلا :

« أليس من الواجب علينا أن نتساءل أمام هذه الأحداث الكبار ، عن موقع أمتنا من هذا كله ؟ وعن دور لغتنا العربية كوسيلة للتعبير ، وأداة للتفكير ، وفوق هذا كله فهى لغة القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف ، وهى التى تعطى لأمتنا هويتها ، وتكون جوهر وجودها ، ولا سبيل لنا من أجل المشاركة الأصيلة فى هذه المرحلة التاريخية من التطور العلمى إلا بالتعريب ، وجعل العربية لغة العلم والتقنيات الحديثة ، ولا يتم هذا إلا بتعريب العلوم والنقل المستمر إلى العربية كل ما يجد فى جميع مجالات المعرفة منشورا فى المصادر والمراجع والدوريات العلمية وكما أنه لا خيار لقطر أو سلطة أو رئيس للانسلاخ عن هويته العربية الإسلامية ؟ فإنه لا خيار أمام التعريب الشامل بعامة وتعريب التعليم الجامعى بخاصة وإذا أردنا أن نستعيد دورنا العلمى والحضارى ، وأن تحيا أمتنا العربية الحياة الحرة الكريمة .

فقد بات من الضرورى الخروج من الأحاديث النظرية المكررة عن تعريب التعليم العالى والجامعى ، إلى البدء بالتنفيذ وفق خطة دقيقة ومفصلة تشمل جميع المجالات العلمية سواء أكان ذلك فى ميادين العلوم الإجتماعية والإنسانية أم فى ميادين العلوم النظرية والتطبيقية » .

وتأتى توصيات المؤتمر فى النهاية مؤكدة على أهمية التمسك بالفصحى وخاصة فى وسائل الإعلام المرئية والمسموعة ، وبتحفيظ القرآن للناشئة والتمسك بالحرف العربى ، فى كتابة لغاتها القومية ، وفى الكتابة باللغة الفصحى ، ويوصى المؤتمر بالحرص على ألا تكون اللغة العربية هى اللغة التى تلتزم بها جميع وسائل الإعلام .وغير ذلك من توصيات ..

وفى النهاية نجد أنفسنا أمام السؤال الملح والدائم ، لماذا لا تجد توصيات المؤتمر ونتائج دراساته العلمية والرسمية طريقها للتنفيذ وخاصة القضايا التى تتعلق بهوية أمتنا ولغتها ووحدتها وذوقها السليم ، وقضية تعريب التعليم الجامعى ، ولماذا أخفقت حتى الآن المؤسسات العربية عن تحقيق الأهداف التى وجدت من أجلها ؟

وكيف ننقذ شبابنا من الإسفاف المنتشر من أغانى الكاسيت التى تنتشر بسرعة وتسيطر الآن على الذوق العام ؟

مكتبة الهلال



الكتاب : تأملات فى مسألة الأقليات تأليف: د. سعد الدين إبراهيم
الناشر : دار سعاد الصباح
٢٥٢ ص

يعد هذا الكتاب واحدا من الكتب القليلة الجادة عن الطوائف والجماعات العرقية فى الوطن العربى ، وهو ، كما يقول مؤلفه ، موجز تلخيص لعمل أكبر وأكثر تفصيلا سيظهر قريبا ، يؤمل أن يسهم فى فهم أكثر عمقا وممارسة أكثر عقلانية فى التعامل المنصف مع المسألة العرقية فى الوطن العربى .

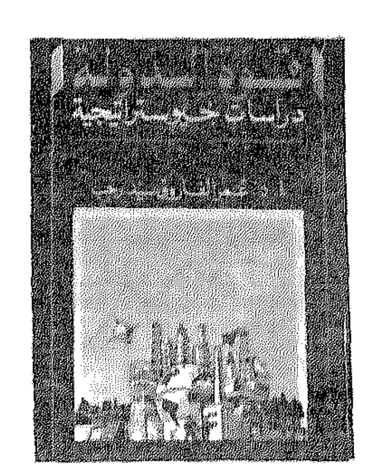
يقول الكاتب : لقد استغرق انجاز العمل التفصيلى الذى أقدم له موجزا فى هذا الكتاب ، أكثر من عشر سنوات ، بل إن الاشتغال بموضوع الأقليات والطوائف والجماعات العرقية فى الوطن العربى يشغل هذا الكاتب منذ ربع قرن على الأقل ، وقد بدأت معالجاتى الأولى للموضوع - باستحياء وتردد - على صفحات مجلة دراسات عربية فى أواخر الستينيات ، وخاصة بعد هزيمة ١٩٦٧ .

يقول الكاتب أيضا : يشهد العالم كله ما يمكن تسميته بصحوة الأقليات القومية والعرقية ، ورغم أن الشكل الدرامى لهذه الصحوة يتجلى منذ بداية التسعينيات فى كل من الاتحاد السوفيتى ويوغوسلافيا ، فإن هذه الظاهرة ليست جديدة على الوطن العربى ، فمعظم الصراعات الأهلية العربية المسلحة منذ نهاية الحرب العالمية الثانية كانت حول هذه المسألة بل إن ما نعتقد أنه الصراع الرئيسى فى المنطقة ، وهو الصراع العربى الإسرائيلى حول فلسطين ، لم يستنزف من الدماء العربية قدر ما استنزفته الصراعات الأهلية العربية المسلحة . فهذه الأخيرة قد استنزفت ثلاثة أمثال ما استنزفه الصراع العربى الإسرائيلى من دماء عربية . إن من استشهدوا فى كل حروب العرب مع إسرائيل يقدر بحوالى ١٥٠ ألفا ، بينما يقدر عدد من قتلوا فى الحرب الأهلية فى ثلاثة أقطار عربية فقط «هى العراق ولبنان والسودان» بحوالى

نصف مليون من مواطنى هذه الأقطار . ونفس الشئ ينطبق على الموارد المالية و المادية الأخرى .

وبعد كل الأزمات والنكبات فإن الكاتب أصبح يعتقد اعتقادا جازما أن أحد أسباب هذه النكبات هو عدم التصدى الموضوعى الجرئ لمشكلاتنا الداخلية والإقليمية ، فإذا كان لنا أن نعيد البناء وطنيا وقوميا لنواجه حقائق ومتغيرات عصرنا ، فلا ينبغى أن نتردد فى الاجتهاد .

* * *



الكتاب : قوة الدولة.
تأليف : د. عمر الفاروق
الناشر : مكتبة مدبولى.
٢٠٤ ص

تتضمن هذه المجموعة من الدراسات – كما يقول مؤلفها – عرضا لعدد من نظريات القوة ولبعض من مقوماتها وطرق قياسها المنهجية والتطبيقية ، متبنية لها مفهوما يتجاوز معناها العسكرى الضيق إلى إطارها الحضارى الأشمل ، وتتجلى القوة – فى هذا الإطار – كحركة تاريخية عميقة الجذور متنامية مستمرة ، منطوية دائما على مستوياتها ونماذجها هذه التى تختلف من مرحلة لمرحلة ومن منطقة لأخرى ، مرتبطة فى جميع الحالات بالسلم والحرب معا ، محليا وإقليميا وعالميا .

من هنا أصبحت قوة الدولة من الاهتمامات الأساسية فى الدراسات الجيوستراتيجية ، وذلك باعتبارها المحصلة الأخيرة لمجموع الموارد الطبيعية والفعاليات الاقتصادية ، والبيئة السكانية والثقافية ، ونظمها السياسية والإدارية ، وعلاقاتها الدولية ، وقوتها العسكرية ، وليست المحصلة – كما يؤكد المؤلف – مجرد مجموع العناصر فى حد ذاتها ، بل وأيضا فيما ينشأ بين تفصيلاتها من علاقات ، وما يتداعى عن تفاعلاتها – داخليا وخارجيا – من نتائج واحتمالات ، وغير ذلك مما يتصل بآلاف من العناصر التفصيلية والمتغيرات شبه اليومية .

* * *



الكتاب : الرابطة الخطرة .
تأليف : أندرو / لسلى كوكبورن
ترجمة : أحمد صدقى مراد .
الناشر : العربى للنشر .
٢٤٢ ص، ٤ ج، ٠ م .

يقول الدكتور محجوب عمر فى تقديمه لهذا الكتاب : أنه سيضاف إلى سلسلة الكتب التى تتكلم عن الاستخبارات الإسرائيلية والأمريكية ، ولكن قارئه سيتبين من الصفحات الأولى أن مؤلفى هذا الكتاب ليسا متعاطفين مع المخابرات الإسرائيلية إن لم يكونا بالفعل من خصومها .

وقد رختار الكاتب أن يبدأ الفصل الأول بمشهد سينمائى مريح يصور قافلة من خمسين سيارة ركاب تنقل سائحين من فنادقهم فى تل أبيب إلى معسكر إسرائيلى فى المنطقة الشرقية من مرتفعات الجولان . وأبلغ الكاتب القارئ بأن هؤلاء السائحين قدموا من أمريكا لزيارة معالم إسرائيل وأنهم سيشاهدون الجيش الإسرائيلى أثناء مناوراته .

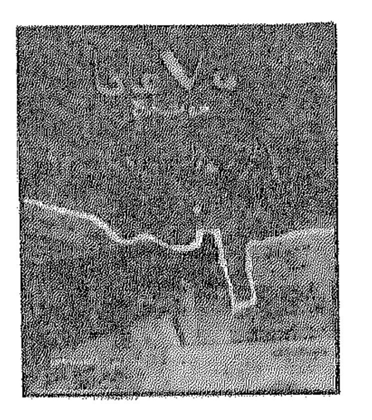
الذين يعرفون أن المناورات العسكرية الجدية لا تجرى أمام أنظار السائحين يتساءلون عن سر هذه الترتيبات الإسرائيلية والنتيجة هى أن هذه الاستعراضات التى تقدمها السلطات الإسرائيلية للسائحين الأمريكيين هى جزء من حملاتها لمواصلة التبرع لإسرائيل .

والكتاب أصلا منشور فى أمريكا ، والكاتبان أمريكيان ، «وسياق الرواية كله يركز على الوجه القبيح للموساد ، دون أن يعنى ذلك أنه يبرئ الطرف الأمريكى من الاشتراك فى الأفعال المذكورة ، ولكنه يميل دائما إلى تقديم الدور الإسرائيلى باعتباره الطرف المستعد دوما للقيام بالأعمال القذرة لحسابه الشخصى أساسا وليس لصالح الولايات المتحدة ، بل واستعداده للخروج حتى على ما يتم الاتفاق عليه بين الطرفين .

* * *

الكتاب : ٧٥ عاما من تاريخ الحركة النقابية .
تأليف : عبد المنعم الغزالى .

الناشر : العربي للنشر .
٤٥٢ ص .

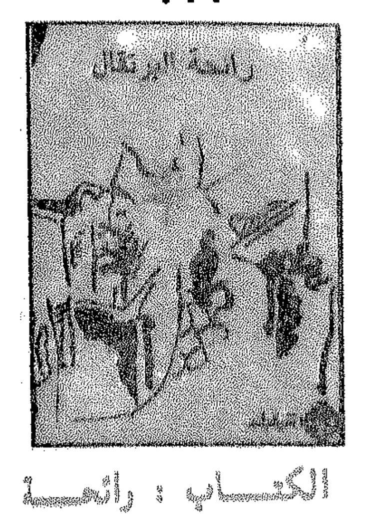


يعترف مؤلف الكتاب، وهو يحدد دوره بقوله : وأول ما أريد أن أؤكد عليه هو أن هذا الكتاب الذى أعالج فيه تاريخ الحركة النقابية العمالية ، ليس كتابة لتاريخ الطبقة العاملة المصرية ، لأن كتابة مثل هذا التاريخ تعنى كتابة تاريخ مصر الاقتصادى والسياسى خلال مائتى عام ، منذ ولاية محمد على وإقامته للصناعة المصرية «الحديثة» ، وعنايته بإنشاء وسائل الرى والصرف والقناطر والسدود والترع .. وكل منشآت كانت مملوكة للدولة .. المهم أنه كانت هناك طبقة عاملة لدى حكومة محمد على ، تعمل فى الصناعة وليس وفق نظام الحرف والطوائف والذى ظل يعيش جنبا إلى جنب مع الانتاج الصناعى الحديث المستخدم لعمالة لا تملك غير قوة عملها تبيعها للمنظم بالسعر الذى يفرضه ، أى الأجر .

ودراستنا لتاريخ الحركة النقابية تؤكد لنا أن الإدارة والسلطة الرأسمالية روجت دائما لأن يكون المصدر التسيير اليومى والذاتى للحركة هو من القمة ، أى بالقرار الصادر من القمة دون حوار مسبق يدور بين مختلف الأراء والتوجهات، وعلى نطاق التنظيم كله ، من قاعدته إلى قمته . شاملا كل مستوياته .

وتؤكد لنا الحركة النقابية المصرية ومن خلال كتابة تاريخها أنها سباقة بمواقفها الوطنية المعادية للاستعمار ، الأمر الذى جعلها دائما صاحبة تاريخ طويل من النضال من أجل وحدة كل القوى المناضلة ضد الاستعمار ، وهى ترفض كل دعوة لإحداث فرقة فى كلمة المصريين لأن مثل هذه الدعوة إنما تكون فى صالح الاستعمار .

***



الكتاب : رائحة البرتقال .
تأليف : محمود الورداني .
الناشر : شرقيات .
١١٦ ص .

فى هذه الرواية تمتد تجربة محمود الورداني الكتابية إلى الخطوة الأهم

فى مسيرته ، حيث تبدو الصورة الكلية مبنية من الدقائق الصغيرة للحياة اليومية ، وخلال هذه الرحلة التى تلتقطها عينا الفنان بعمد وتربص تتشكل الصورة لتجسد حركة الأشياء والأشخاص من حول الراوية الذى يبدو مندهشا ، مشتاقا للرواء الذى لا يجد من يمده إليه، سوى الملاحظة ، ملاحظة الحنايا المضــــنية ، والأشواق المعـــذبة التى تتكســـر على قســـــوة الحياة ، والخوف من الفناء الذى يتربص به .

يقول الراوية : خففت من سرعتى عندما وصلت إلى أول السور . كـــانت الدنيا أمامى خالية وسيئة يلفها الظلام، وكان البرد شديدا والرياح تحمـــل ترابا يملأ الحلق ويبعث على الاختنـــاق ، حملت الطفل . لا .. الطفلة . نعم الطفلة ، فى حضنى وجعلت وجههـــا فى صدرى، وكفى الأيسر يسند رأسها . ولما رفعت رأسى أصـــابنى الدوار وشككت فى أن هـــذا السور ، من ورائه تلك المدرسة التى قضيت فيها ردحا من الزمن ، لوكانت هى حقا ، لأمكننى أن أحدد أشياء كثيرة : على الأقل أن أسير مطمئنا ، مهتديا إلى الخطوة التالية التى على أن أحزم أمرى على اتخاذها .

ولأنهـــا رواية مجددة فإن عملية تلخيصها ، علاوة على استحالتها فإنها أقرب إلى تشويهها، ولذلك نحيـــل القـــارئ وندعوه لقراءتها فهى عمل جدير بالقراءة .

الكتاب : ما أبقت الأيام

منى (ديوان شعر)

تأليف : كمال عمار

الناشر : دار الضياء - القاهرة

٨٠ صفحة من القطع الصغير

الديوان صـــغير فى حجمـــه ، قليـــل فى صفحاته ، ولكنه كبير فى مادته ، كثير فى محتواه ، فهو لشاعر « مخضرم » ينظم الشعر منذ بضعة وأربعين عاما ، وإن كان يدعى أنه مازال فى شرخ الشباب ، وأنه من أبنـــاء « الموجـــة الجـــديدة » و« الجيل الصاعد » !

إن الشاعر المطبوع

– الذى ينظم عن طبع لا عن تكليف – كمال عمار هو أحد الشعراء القلائل فى مصر الآن الذين يهش المرء لرؤية دواوينهم لثقته بأنها تحمل اليه شعرا حقيقيا يستمتع به ، بعكس ما يحدث عندما يرى الانسان ديوانا لهذا الشاعر أو ذاك من أدياء هذه الأيام فإن الاكتئاب يسارع إليه ، فلا يملك إلا أن يرفع كفيه إلى السماء داعيا الله أن يكشف عنه هـذا البلاء الذى يصبه عليه هؤلاء الشعراء، كما صب نابليون بونابرت وابلا من «القنبر» على أهل القاهرة قديما فصاحوا فى ابتهال : يا خفى الألطاف، نجنا مما نخاف !..

وديوان شعره هذا الصغير الكبير يحتوى قصائد متكاملة الأوزان ، وأخرى من أوزان التفعيلة، وهو يجيد فى الحالتين ، وتنسجم شاعريته انسجام الماء العذب فى الأوزان وفى التفعيلات ، ولغته هنا وهناك عربية فصيحة لا عجمة فيها كلغة أدعياء الشعر الذين تكاثروا فى الزمن الأخير حتى صاروا أكثر من الهم والغم على قلوب الناس !

ومن الصعب اختيار قصيدة من هذا الديوان الممتلىء شعرا – بمعنى الكلمة حقا – فنكتفى بما تقوله قصيدته المسماة « زمن الحرية » :

أخرج مختاراً من دائرة الضوء
ويكامل كل قواى العقلية
أسقط من ذاكرة التاريخ
المصبوغ الفودين ..
المشبوه الجنسية ..
حتى لا أصبح خصمًا أو حكمًا
فى زمن محترف للقتل العمد
سوق عكاظ امتلأت بالكلمات
الشائبة الأشداق الكاذبة الصوت
بالرايات الزائفة النسبة
كل يغرق فيما هو فيه
لا يعنيه .. ماذا بعد
لن يصرفنا شىء عن تقسيم الفىء
وليذهب للشيطان الصوت الصارخ فى البرية
حين يكون الصمت كلامًا
لابد من الصمت !..
فى زمن يعطيك الحرية
كل الحرية ..
أن تختار الموت .. أو الموت ؟

هذا هو الشعر الحق فى التفعيلات النابضة بالحياة !.. إن الشاعر «المطبوع» كمال عمار يستعلن فى ديوانه هذا الذى يغنى بصوت حقيقى وسط حشد الأصوات الزائفة !..

لغـويات

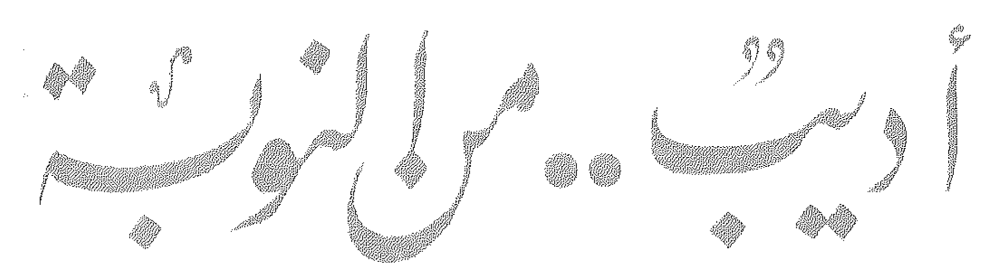
● فى تاريخ الدولة العباسية خليفتان ، أحدهما ، اسمه « الطائع » والآخر اسمه «المطيع» أما الطائع فمن الفعل « طاع » . . أى انقاد وسمع الأوامر ، وأما المطيع فمن الفعل « أطاع » والفرق بينهما الألف ذات الهمزة ، والمعنى واحد ! .. ويروى التاريخ أن هذين الخليفتين كان لهما من اسمهما أوفى نصيب ، فقد كانا طوع أوامر العساكر الأتراك المتحكمين فى دولة الخلافة ! ..

● سمعتهم فى اذاعة لندن يقولون : « صَمَّام الأمان » أو « صَمَّام الزجاجة » بفتح الصاد وفتح الميم وتشديدها .. وهذا خطأ ، والصواب « صِمَام » بكسر الصاد وفتح الميم التى بعدها بلا تشديد ، أما الصمام الذى تتحدث عنه إذاعة لندن فشىء آخر ..

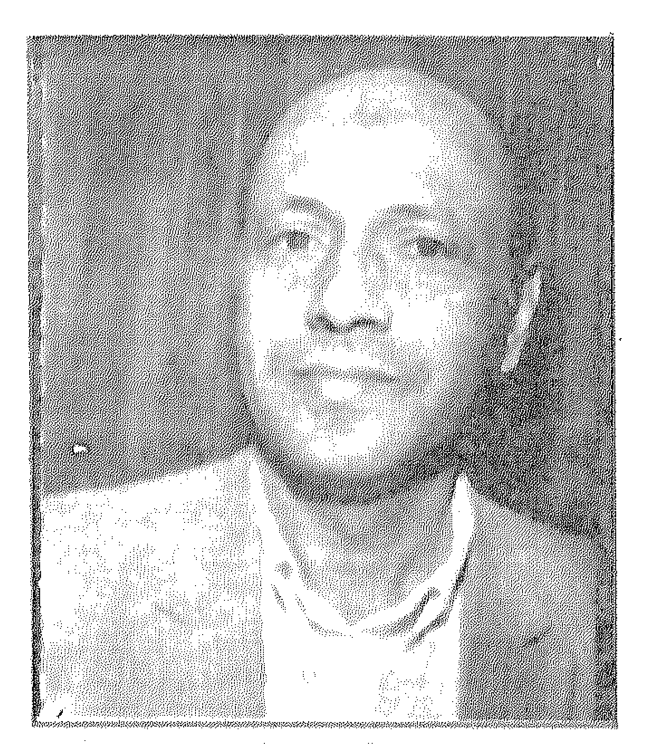
● يكثر الكلام الآن عن نهرى دجلة والفرات فى العراق ، ويُطلق عليهما من قديم اسم «الرافدين» .. وليس هذا الاسم بمثنّى فى حقيقته ، فلا يقال للواحد منهما «رافد» بل يُطلق اسم «الرافدين» عليهما مجتمعين فلا يفترقان .. ومن هذا القبيل الكلمة المشهورة : «الثَّقَلان» بفتح الثاء المشددة وفتح القاف .. وقديما اشتهر أبو العتاهية بقوله : « مات الخليفة أيها الثقلان » فإن الثَّقلَيْنِ هما الإنس والجن ، أو العرب والعجم، ولاتجىء « الثقلان » إلا فى صيغة المثنى وليس لها مفرد .. ومثلها «الخافقان» أى المشرق والمغرب ، فلا يمكن إفرادها ..

● العامة تسمى القطار البطىء الذى يقف على جميع المحطات كبيرها وصغيرها : «القَشَّاش» .. وهو استعمال صحيح فى رأينا، لأن الفعل «قش .. يقش» قريب المعنى من الفعل «جمع .. يجمع» .. ويقال : قش الجائع الطعام ، أى أكل كسر الخبز وجمعها من هنا وهناك ، وكبيرها وصغيرها والرجل الذى يجمع القُشاشة يُسمَّى القشَّاش ، وبينه وبين القطار القشاش نسب ظاهر ! ..

● كان اللسان الفصيح لايقل أهمية عند العرب القدماء عن السيف القاطع فقالوا : فلان ذَرِبُ اللسان ، أى حاد كالسيف ، لأن الذَّرَبَ صفة للسيف الحاد ، وقالوا : عضب اللسان ، أى قاطع كالسيف العضب الذى لانظير له ، وعكسه اللسان الكليل ، كالسيف الكليل الذى لايقطع .. واللسانُ الكَهَامُ كالسيف الكهام ، وهو عكس السيف الحُسَام القاطع .. ونخشى أن يكون العرب قد فقدوا اللسان والسيف معاً فى الزمن الأخير ! ..



بقلم : د . أحمد حسين الصاوى



● ما الذى يعرفه أبناء مصر المعاصرون عن النوبة ؟ إن الغالبية العظمى من المصريين « المتعلمين » لا تكاد معلوماتهم تزيد - فى أحسن الفروض - على أن النوبة إقليم يقع فى جنوب مصر ، وأنه موطن السد العالى ومعبد أبو سمبل ، وأن أهله سمر البشرة ، وأن آلافا مؤلفة منهم يعملون فى مختلف أقاليم مصر ، وبخاصة فى القاهرة والاسكندرية ، وقد يتحذلق البعض فيضيف أن للنوبة فنونها الشعبية ، وأن كثيرا من أهلها تم تهجيرهم إلى قرى « النوبة الجديدة » ، بعد أن أغرقت مياه السد العالى قراهم القديمة .

والحق أننا قد ظلمنا هذا الإقليم العزيز كثيرا . فنحن لا نعرف عنه ما يكفى ، مع أنه جزء لا يتجزأ من الوطن الواحد الكبير . ونحن أغفلنا العناية بأمره قرونا ، وأهملنا مساعدته على تنمية تراثه الخاص المتميز .

إن معظمنا ، حكاما ومحكومين ، لا يعرف أن النوبة (بلاد الذهب) بسماتها الحامية القديمة تمثل أحد الروافد الأساسية التى اشتركت فى تكوين بنية الشعب المصرى وحضارته منذ آلاف السنين . ومعظمنا لا يعرف كذلك أن النوبة لعبت طوال التاريخ المصرى القديم دورا فاعلا ومؤثرا فى حياة مصر ، وبرز دور النوبيين بوجه خاص فى بداية عهد الدولة الحديثة . وعلى سبيل المثال اشتركت قوات نوبية فى حركة الكفاح المسلح لطرد الغزاة الهكسوس . وكان «أحمس بن أبانا» - أحد قواد البطل أحمس - نوبيا من منطقة «الكاب» . وكذلك أصبحت أهم المدن النوبية مراكز ثابتة لعبادة أبى الآلهة المصرية «أمون رع» .

وكثيرا ما ننسى أن الأسرة الخامسة والعشرين من فراعين مصر التى حكمت نحو قرن من الزمان تتكون من ملوك نوبيين كان أولهم وأطولهم عهدا «بعنخى» ، وله تمثال رائع بالمتحف المصرى .

ولقد كانت النوبة هى الإقليم المصرى الوحيد الذى دفع أكبر ثمن وتحمل أفدح عبء فى سبيل إقامة بعض المشروعات الكبرى التى استهدفت رخاء باقى القطر المصرى ، عن طريق توسيع الرقعة الزراعية . فقد أغرقت مياه النيل جزءا من أراضى النوبة بعد إقامة « خزان أسوان » فى أوائل هذا القرن ، ثم أتت على كثير من القرى النوبية بعد إنشاء « السد العالى » فى الستينات .

إن النوبة بحضارتها الموغلة فى القدم ، وبتراثها المتميز عبر مختلف العصور ، وبدورها البارز فى حياة مصر منذ ما قبل الاسرات ، لتمثل نموذجا فريدا فى التاريخ البشرى . فبقدر احتفاظها بخصائصها الاثنوغرافية واللغوية وبموروثها الفولكلورى ، فقد ظلت دائما - مع هذا التفرد - جزءا لا ينفصل عن الكيان المصرى الكبير . واستطاعت على مدى العصور أن تحقق توازنا رائعا بين طرفى هذه المعادلة .

على أن ما مرت به النوبة من ظروف قاسية فى القرن الحالى ، وما أصاب شعبها من شدة ، قد أثر كثيرا على تماسكها ، وأحدث شروخا واضحة فى بنيتها ، مما أقلق كثيرا من أبنائها الذين تحركوا ليعملوا على تأكيد هويتها وتوضيح معالم شخصيتها ، وبخاصة بعد أن ارتفعت بينهم نسبة المتعلمين والمثقفين .

الحفـــاظ على الشخصية النوبية

ومن هنا اشتد اهتمام أبناء النوبة مؤخرا بدراسة تاريخ بلادهم وحضارتها . وحاول المبدع النوبى والفنان النوبى أن يقدما إلى مواطنيهما المصريين ما يبرز ذاتية ذلك الإقليم « المجهول » ، ويلقى الضوء على خصائصه ، ويرسم له أجمل اللوحات وأدق الصور .

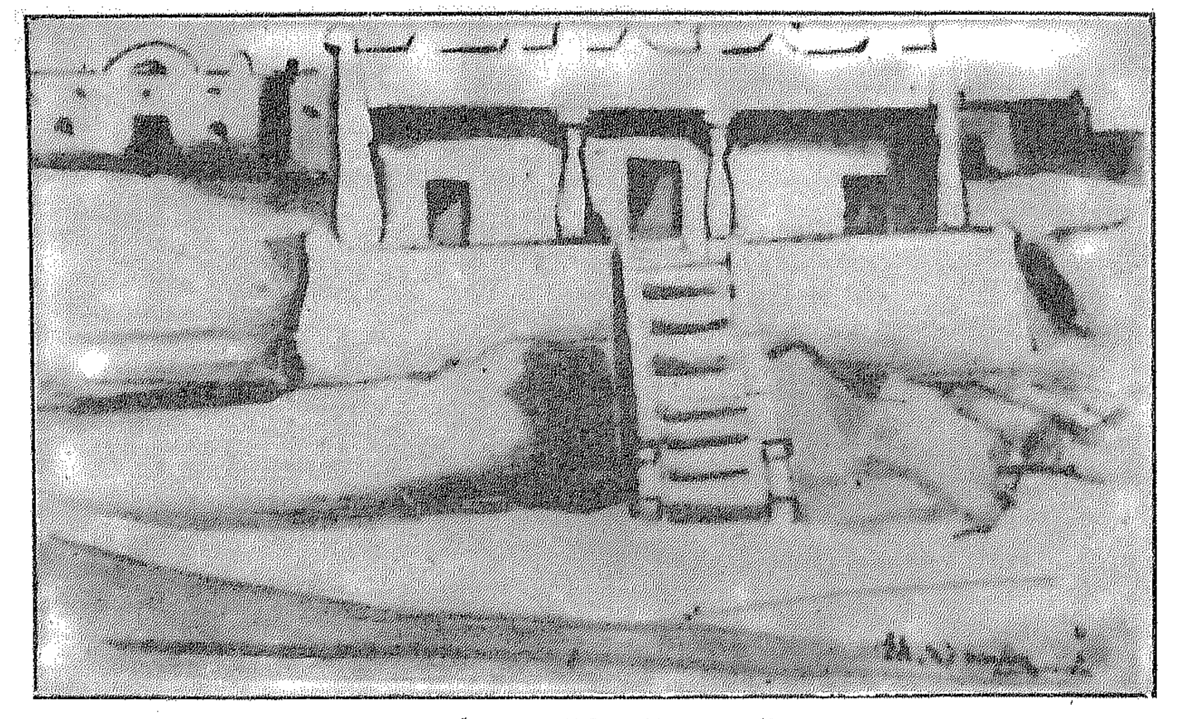
ويطول الحديث عن الجهود الجبارة لشباب النوبة الحديثة فى سبيل الحفاظ على الشخصية النوبية ، رغم ما توالى عليها من محن وأرزاء ، وفى سبيل إسماع صوت النوبة وعرض فنونها الأصيلة ، والسعى لتحقيق مكان متميز للابداع النوبى على الساحة المصرية .

ومن خلال تلك التطلعات النوبية النبيلة استمتعنا ، نحن أبناء سائر الأقاليم المصرية ، بمشاهدة فنون النوبة الشعبية ، وبقراءة أدب نوبى رائع ، وبالاستماع إلى غناء نوبى عذب . ولاشك أن أعمال الراحل محمـد خليل قاسـم وحجاج حسـن أدول وعلاء حمزة ومحمد منير ومحمد حمام وغيرهم وغيرهم قد استطاعت أن تجد لها طريقا سهلا إلى وجدان المتذوق المصرى وقلبه وعقله جميعا .

والأديب « يحيى مختار » هو أحد هؤلاء المبدعين من حملة المشاعل النوبية الذين يضيئون بإبداعهم طريق الرؤية الصحيحة لمجتمع النوبة ، بكل قيم هذا المجتمع وتقاليده وموروثاته ومشكلاته ، بل وبطبيعته الفطرية الساحرة وبنيته التى تفرد بها عبر الزمان .

لقد عرفت يحيى مختار فى صدر شبابه ، وكان طالبا طموحا وواعدا ونقيا . ولكنه ، مع نخبة من خيرة شباب مصر فى أوائل الستينات ، تعجل حركة التاريخ ، واندفع مع زمرته فى التفكير والتدبير ، فكان الصدام الحتمى مع قوى لا يطيقونها وأصابتهم المحنة . وكان على يحيى مختار بعد محنته أن يهدئ من إيقاع فكره وأن يطامن من فورة اندفاعه وأن يتلمس سبيلا آمنا لحياته يكفل له العيش المستقر ، فابتعد مضطرا عن طريق الكلمة المكتوبة ، وإن لم ينقطع عن القراءة والتأمل ، حتى آن الأوان أخيرا ليطلع على الناس بإنتاجه المتميز ، بعد أن اختزن فى أعماقه بذور هذا الإنتاج طويلا .

ولعل من أهم هذا الإنتاج قصته التى نشرها مؤخـرا فى إحـدى مجلاتنـا الأسبوعية بعنوان « الجدار الزجاجى والزمان النوبى » . وتقدم هذه القصة ، بلغتها البسيطة وأسلوبها الأخاذ ، صورة لأسرة نوبية حديثة . فالأب فنان تشكيلى له مرسم كبير ، وزوجته سيدة متمدينة ، وبناته الثلاث حصلن على قسط وافر من التعليم . وتحيا هذه الأسرة حياة « حديثة »



نموذج من مساكن بلاد النوبة للفنان « أدهم وانلى »

عادية فى القاهرة . غير أن المشكلة الكبرى التى تمثل ذروة الصراع بين مقومات هذه الحياة الحديثة وبين التقاليد النوبية التى يتمسك بها عثمان رب الأسرة ، كما يتمسك بها آلاف غيره من الآباء ، هى : لمن يزوج بناته ؟ هـل لشبان من أبنـاء مصر العاديين ، أم لشبان نوبيين ؟ وهذه المشكلة التى تؤرق عثمان وتقلق بناته ، كما تؤرق كثيرا من الآباء النوبيين وتقلق بناتهم ، بعد أن هجروا النوبة إلى القاهرة وغيرها حيث يحيون حياة عصرية ، بل لعلها تؤرق يحيى مختار نفسه (فهو يشغل وظيفة مرموقة فى العاصمة ووالد لثلاث فتيات) ، هى من أهم المشكلات الاجتماعية ذات الدلالة العميقـة التى تواجـه الأسرة النوبيـة الحديثة .

ولقد صدر للكاتب بعد ذلك مجموعة قصصية بعنوان « عروس النيل » تضم أربع قصص ، هى : عـروس النيـل ، واقعة ، الطرد ، حكاية للنسيان . والقصة الأولى تقدم لنا مأساة نوبية أليمة ، بطلتها فتاة راحت ضحية لتحالف الجهل والفقر وخلل البناء الاجتماعى . وفى هذه القصة استطاع الكاتب أن يوفق باقتدار بين مرارة الواقعية وشفافية الرمز . ففريدة هى فتاة القرية الساذجة التى غُرر بها ولقيت من العذاب أشده ، ثم ألقت بنفسها فى مياه النيل ، فتحولت إلى رمز أسطورى قديم ... عروس النيل التى كانت تفدى وفاء النهر بروحها . وهى النوبة نفسها التى جار عليها الوطن الأم . والكاتب يوظف لقصته لغة شاعرية عذبة يقدم من خلالها صورة حية نابضة للحياة فى قرية نوبية نائية .

والقصة الثانية « واقعة » ذات مضمون غريب غير مألوف . إنها تحكى قصة لاجئ

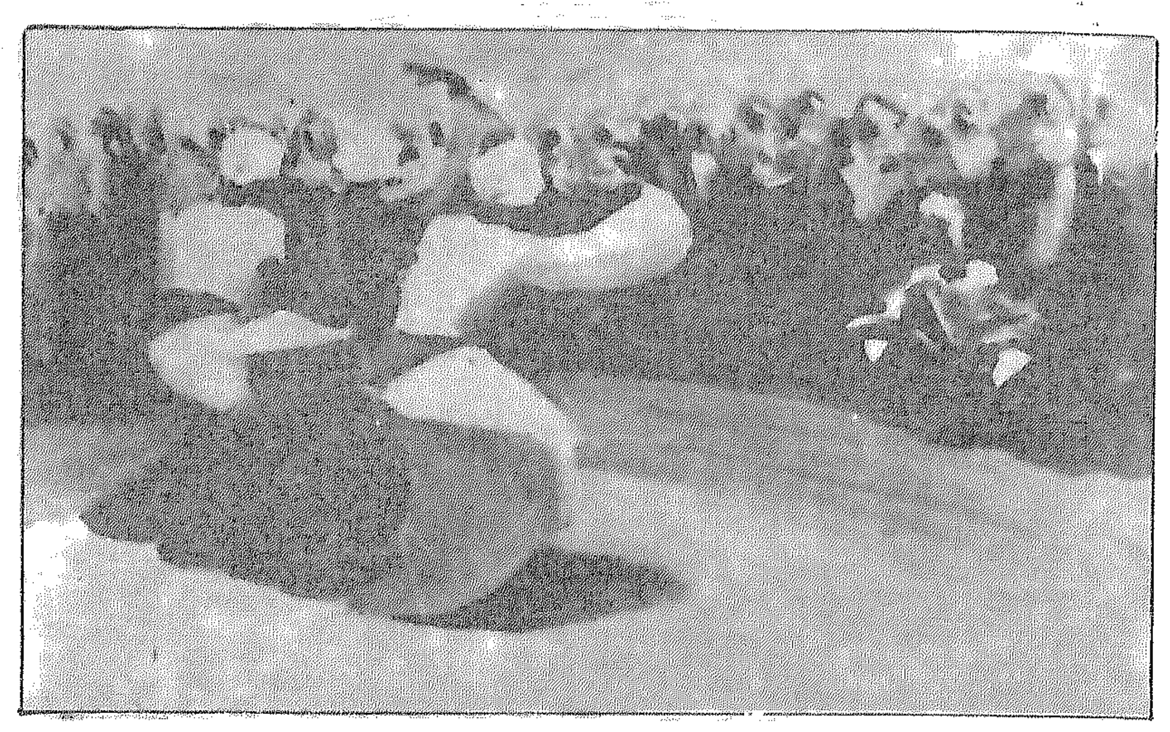
إلى النوبة من قرية فى الشمال (الصعيد) وما يلقاه هذا الغريب من معاناة فى مهجره الجديد الذى احتمى به من خطر مميت يحدق بحياته . ولكن مجتمعه الجديد ، القرية النوبية القابعة فى حضن النيل ، لم تتقبل مقامه فيها بسهولة ، فعاش شبه منبوذ ، ويكشف الحوار الذكى بين اللاجئ الصعيدى محمدين وصاحبه النوبى حسن عن ذلك الاختلاف الكبير - بل التناقض - بين بعض قيم الصعيد وتقاليده وما يقابلها فى النـــوبة . بين قسـوة الثـأر ودمويتـه ولا إنسانيته هناك وبين السماحة والتراحم والتعاطف هنا . ومع ذلك فقد ضحك القدر طويلا عندما أقام بعض شباب القرية على محمدين حدا استقوه من شرعة بدائية قديمة لجريمة لم يرتكبها ، فاغتالوا رجولته فى ليلة ليلاء ! ويثير ذلك الحادث الأليم الذى انتهت به القصة تساؤلا كبيرا ، فهل هو المعادل الموضوعى أو رد الفعل لمعاناة النوبيين فى مهجرهم بالنوبة الجديدة ؟

والقصة الثالثة « الطرد » تجسد معاناة الفراق بين الأب المكافح فى سبيل لقمة العيش فى القاهرة وأسرته الصغيرة فى النوبة ، التى تتلهف على أخباره وتنتظر فى لهفة واشتياق ما يبعث به إليها بين حين وآخر من مال يسير أو هدايا متواضعة أو حتى كلمات قليلة تبل الظمأ وتطفئ لواعج الشوق .

ونموذج أسرة «محمد حسن كاشف» فى هذه القصة هو نموذج نمطى مألوف عرفته النوبة منذ عشرات السنين ، عندما بدأ الجدب يجتاح القرى النوبية عقب إقامة « خزان أسوان » ، واضطرار الآلاف من الشباب النوبى إلى الهجرة للقاهرة والاسكندرية وغيرهما ، لالتقاط الرزق من شتى الأعمال التى عرفوا بإجادتها ، تاركين وراءهم زوجاتهم وأبناءهم يعانون شظف العيش ويأملون ويحلمون ، فلا يلتقون إلا لماما إذا سمحت الظروف ، أو عن طريق « البوستة » أى الباخرة النيلية الصغيرة التى تنقل الرسائل و « الطرود » بين الأسر وأبنائها .

وما أرق ما صورته القصة من مشاعر القلق والحنين واللهفة والتأسى والتمنى ... فى انتظار « البوستة » .

أما القصة الرابعة والأخيرة « حكاية النسيان » فتثير أعمق الأشجان حول المأساة الكبرى للنوبة الحديثة ... مأساة التهجير إلى النوبة الجديدة (كوم أمبو) عقب إنشاء السد العالى . إن هذه المأساة هى الجانب الإنسانى الوحيد فى مشروع السد العالى الذى لم يذكره أحد إلا أمثال يحيى مختار من مبدعى النوبة وفنانيها . والقصة تصور فى براعة واقتدار وشفافية تمس شغاف القلوب كيف أدارت مأساة التهجير عقول النوبيين وآذت نفوسهم ،



رقصة نوبية للفنان « ادهم وانلى »

فاختلطت لديهم الرؤى والأحلام والكوابيس وهم يحاولون التوائم مع حياة المهجر فى تلك « الحجرات الأسمنتية التى بنتها لهم الحكومة ، مفتقدين دورهم الواسعة الرطبة المطلة على النيل » ، ويسخرون فى دهشة بالغة مما يسمعون عن اعتزام بعض الدوائر المختصة « دراسة ظواهر التغيير التى طرأت على النوبيين فى أعقاب التهجير وأثر الـوطن الجـديد عليهم نفسيا واجتماعيا ... » كما لو كانوا فئران تجارب !!

وبعد . فقد استطاع يحيى مختار أن يقدم لنا فى قصصه لوحات تعبيرية بسيطة تصور المجتمع الذى تنتمى إليه جذوره ، مجتمع النوبة ، بتراثه ومآسيه وصراعاته ، كما استطاع بأسلوبه السلس وَلمساته الوصفية السريعة وألفاظه النوبية العذبة التى نثرها فى ثنايا عباراته ، أن ينفذ إلى وجدان القارئ ، ليستشعر صفاء جو النوبة ويسمع خرير مياه النيل على شواطئها ويشم عطورها ويتذوق طعامها ويستروح نسائمها الرقيقة . إن هذه « الخصوصية المحلية » الصارخة تذكِّر بتلك السمة التى كانت غالبة على القصص الروسى العظيم قبل الثورة الاشتراكية .

وعلى أى حال فإن هذا الأديب الذى تأخر «ظهوره» وإن لم يتأخر نضجه لجدير بأن يلتفت النقاد إلى إنتاجه .



تشكيل وزارى مصرى بالزى الفرعونى

صاروخان

نجوى صالح

« مازلت أعيش فى هذا البيت بروحه التى كانت تشع مرحا وبهجة . كان يحب الغناء . وكان له صوت عذب ، يغنى لشارل إزنافور ولمحمد عبد الوهاب ، وميراى ماتيو . ثروته دائما هى حب الناس ، وإقامة الحفلات . كان يحب المرأة بشكل خاص . وكانت للمرأة مكانة خاصة فى قلبه .»

بهذه الكلمات الدافئة عن أبيها حدثتنى ابنته الوحيدة حينما زرتها فى منزلها ، والذى هو أيضا بيت أبيها الفنان الراحل صاروخان ، قالت إن أباها كان يتمتع بإلقاء النكات اللاذعة عن النساء ، وكم ملأ مجالسه بالحيوية والبهجة .

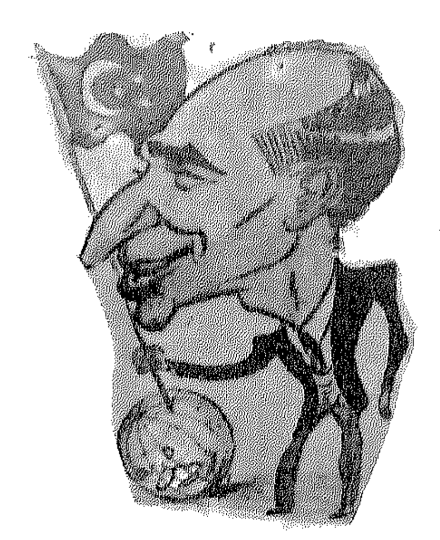


رسم اجتماعى ثلاث رءوس ثلاثة آفاق

مليون نكتة سياسية .. فى ٦٣ عاما

كان صاروخان فنانا بكل ما تحمله الكلمة من معنى . ليس فقط فيما يخص خطوطه المميزة ، وحيويتها المتدافقة التى كانت تلمس القلب والوجدان والعقل فى الصميم وبأسرع ما يمكن . ولكن أيضا فى اسلوب حياته . وطريقته فى ارتداء الملابس . فهو أشبه بالغجر (الچيپس) يرتدى أى شىء يشعر أنه مريح بالنسبة له . ففى الصيف كان يحس بمتعة كبيرة وهو يرتدى الشورت الكاكى وفانلة من القطن الخفيف .

ورغم أن صاروخان مخلوق ضاحك اختلطت فى جسده وروحه النكتة والتعليق الساخر ، فإنه كان عصبى المزاج . يركن إلى الاستماع إلى الموسيقى الكلاسيكية ، ويحرص على ممارسة الرياضة لمدة نصف ساعة يوميا . وكان يفضل رياضة المشى ، ويرى أن التأمل رياضة لا يستطيع سوى القليل من البشر أن يمارسوها . وأن يستفيدوا منها .



وزير الخارجية السابق محمود فوزى

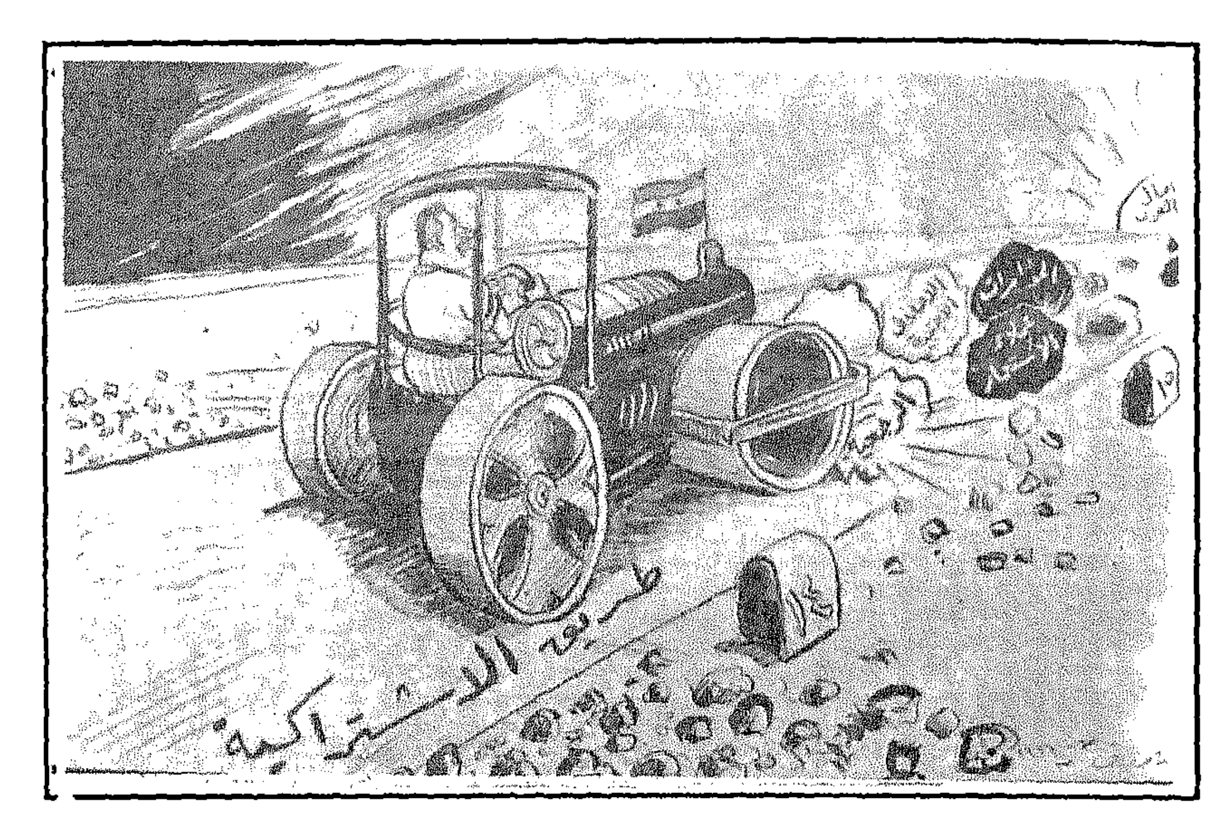
سبع لغات .. ساخرة

كان صاروخان فنانا مثقفا . يسعى أن يشمل الكون كله فى رأسه الصغير . فهو يجيد سبع لغات قراءة وكتابة . وقد حاول أن يحصد ثقافة البشرية من خلال إجادته لهذه اللغات لذا لم ينفصل يوما عن عصره بل كان مواكبا لجميع الأحداث المحلية والعالمية . يحب قراءة التاريخ . واستقراء المستقبل السياسى العالمى . وفى كثير من الاحيان كان حدسه يصدق . فصناعة النكتة السياسية مهنة ليست سهلة على الاطلاق . إنها تحتاج إلى مواهب عديدة تجتمع كلها فى صانع الكاريكاتير الذى تحبه الجماهير . فكى ينفذ إلى الحقيقة عليه مواكبة الاحداث السياسية والاجتماعية المتلاحقة . داخليا وخارجيا . ويختار الشخص الذى سيكون عليه عبء تحريك النكتة لدى المتلقى . ويضع على هذا الحدث من روحه الساخرة اللاذعة ويتضح ذلك جلياً فى رسم جذاب تصبح فيه الريشة وسيطاً جيد التوصيل . وطبقا لروح صاروخان الساخرة ، خفيفة الظل .

تستطرد ابنة الفنان قائلة : « لكى يجهز ذهنه لنكتة اليوم التالى . كان يدخل إلى حجرة نومه مبكراً . ويجلس إلى جهاز الرديو حتى الواحدة صباحاً . يواكب الأحداث فى العالم كله . وفى نفس الوقت يشرب كوب ألشاى . الواحد بعد الآخر . يقرأ كتابا أو يتصفح جريدة أو مجلة . ثم ينام ، ويستيقظ فى السابعة صباحاً كى يرسم النكتة . وحوله عدة أكواب من الشاى والكعك الشامى والجبن الأبيض . وهذا هو فطوره اليومى . وفى بعض الأحيان يقوم ليفتح الباب ليستقبل بائع اللبن أو العيش كى يأخذ رأيه فى الرسم . ويرى تأثير النكتة على وجهه .

خمسة قروش كل ليلة

هذا الانسان الفنان المتفرد فى غزارة فنه ، وفد إلى مصر فى صيف عام ١٩٢٤ ، وكان يبلغ من العمر آنذاك ستة وعشرين عاما ، جاء تلبية لدعوة من شاب مصرى قابله فى « فيينا » ، ودعاه للعمل فى مصر فى مجلة تدعى « الجريدة المصورة » ولكنه حينما نزل ميناء الاسكندرية لم يجد الشاب فى انتظاره ، وتحسس العنوان الذى يحتفظ به فى جيبه بجانب قلبه الذى يدق



نكتة تظهر آمال صاروخان فى الوحدة العربية

خوفا ، من مصير مجهول ينتظره فى مصر !! ويبدأ يتجول فى شوارع الأسكندرية وهو لا يملك مالا كافيا ليقضى الليل فى فندق ، فاختار أن ينام على كرسى فى حديقة عامة ..

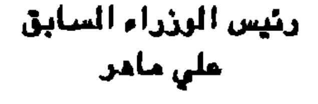
وفى الصباح بدأ فى البحث عن أى أرمنى يساعده ، وكان الثغر يعج بالأرمن فى ذلك الوقت ، ووجد ضالته ، وشرح له ظروفه فأقرضه بعض المال حتى يمكنه السفر إلى المنصورة مقر صاحب المجلة « وهناك » وجد المفاجأة ، فهذا الشاب ، وهو طالب فاشل ، قد أصدر من تلك المجلة عددين ثم أغلقها مما دفع صاروخان أن يتجه بالقطار إلى القاهرة ، واتصل ببعض الأرمن الذين أقرضوه مبلغ ثلاثة جنيهات ليسكن فى فندق بخمسة قروش فى اليوم !!

وتعرف على صاحب مطبعة أرمنى يدعى « بربريان » ساعده أن يجد له عملا كمدرس رسم فى إحدى المدارس الأرمنية .

كان صاروخان دائم التردد على صديقه صاحب المطبعة ، وكان بين المترددين على تلك المطبعة « على أمين » الذى كان يبلغ من العمر فى ذلك الوقت ثلاثة عشر عاما ، ويحضر لطبع مجلة مدرسية كان يصدرها مع بعض زملائه ، وتعرف على صاروخان .. الذى رسم لعلى أمين صورة كاريكاتيرية أهداها له إعجاباً به .

وفى نفس المكان التقى بالأستاذ محمد التابعى الذى أعجب بأسلوب رسم صاروخان ، وعرض عليه أن يشتغل معه





رئيس الوزراء السابق
علي ماهر

رسم أكاديمي بالزيت
صاروخان بريشته..

فى مجلة (روز اليوسف) ورسم الغلاف الأول ، وحاز إعجاب « فاطمة اليوسف » صاحبة المجلة وبدأ فى فيض من الإنتاج الغزير ، دفع المجلة أن تستغنى عن عشرة من رسامى الكاريكاتير !!

بعد ذلك بعدة سنوات التحق علي أمين مع محمد التـابعى فى مجـلة « روز اليوسف » وكونوا ثلاثيا رائعا مع صاروخان .

كانا يعطيانه الأفكار .. والتابعى يقوم بتمثيل الوضع أو الشكل ، الذى يود أن تبدو عليه الشخصية المراد تصويرها ويقوم صاروخان بالرسم ، كان هذا التوضيح الذى يقومان به أمام صاروخان يعطى دفعات متتالية لصاروخان لفهم الحياة السياسية ، فقد جعلوه يرسو على أول الطريق السياسى فى مصر ، وأفهماه ما يجرى فى الكواليس السياسية .وانتقل ثلاثتهم إلى أخبار اليوم والتى لم يتركها صاروخان قط إلى أن وافته المنية فى أول يناير ١٩٧٧ .

وراء كل ضحكة .. دمعة ساخنة

سألت ابنة صاروخان عن سر هذا الحزن الذى كان يعتصر قلبه ولكنه يحاول بشكل دائم أن يغطيه بابتسامة ؟؟

قالت ابنة صاروخان ولد أبى فى سنة



وزير الثقافة الأسبق
ثروت عكاشة

١٨٩٨ فى القوقاز فى مدينة باخوم على البحر الأسود ، وقد هاجر هو وأسرته إلى اسطنبول متوهماً أنه سيجد فيها عملا طيباً ، ولم يلبث الأب أن اكتشف أن الحياة فى اسطنبول أسوأ منها فى « باخوم » فعاد مع زوجته وشقيقات صاروخان الأربع إلى موطنه تاركا « الكسندر صاروخان » وشقيقه فى اسطنبول . كان هذا القرار مصيبة وقعت على رأس الأسرة .

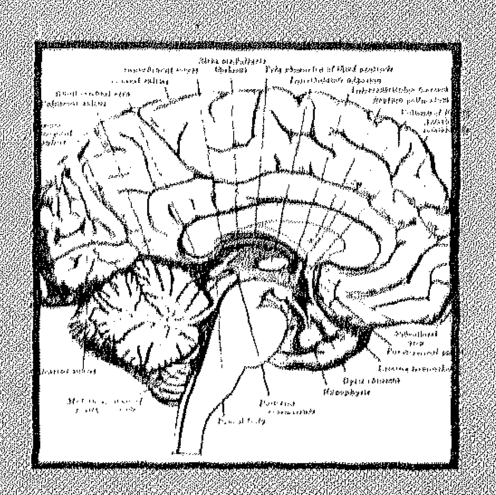
ومع أن الأب وبناته نجوا من مذبحة الأرمن البشعة على أيدى الأتراك ، فإن الأسرة قد عاشت فى آلام وأحزان وهم يبكون الأرمن الذين ذبحوا ابشع الذبح على أيدى الأتراك فماتت الأم بعد هذه المذبحة بقليل وهى تصرخ ، « ولداى ! ولداى » ثم مات والده بعد ذلك ولم ير صاروخان إخواته بعد ذلك أبداً .

لقد نبغ صاروخان فى الرسم وهو تلميذ فى مدرسة باخوم ، وكان أساتذته يعجبون برسومه ويتوقعون له مستقبلا كبيرا فى الرسم . وفى إسطنبول استطاع أن ينشر رسومه فى مجلة أرمنية كانت تصدر هناك ولم يكن يتقاضى مليماً واحدا ثمنا لرسومه ، وعاش سنوات من الضنك والجوع والرعب . ثم هرب من المذابح التى كانت تقع يوميا ضد الأرمن فى تركيا . وسافر إلى فيينا ، ودخل مدرسة الفنون بها لمدة عامين . وعرف هناك الجوع والتشرد والحذاء المثقوب الذى يدخل منه البرد القارص . هذا الفقر والتشرد والمعاملة الوحشية التى عاشها شعبه تركت فى قلبه مرارة لم يستطع أن يمحوها الزمن .

وعاش طول حياته يهتم بالأرمن فى كل مكان فى العالم . ويحاول أن يساعدهم ، ويدافع عن قضيتهم . وينتهز كل فرصة ليلعن هؤلاء الذين جعلوه يمضى شبابه فى الجحيم .

الساعة البيولوجية

الزمان فى جسم الانسان



بقلم :
د . محمد بهائى السكرى

ابريل ١٩٩٢

● بعض الناس يكون في أحسن حالاته وقمة نشاطه مع بزوغ الفجر

ظلت الأشياء قرونا طويلة توصف وتعرف بأبعادها الثلاثة طولها وعرضها وإرتفاعها حتى عصرنا الحديث عندما بدأ الانسان يأخذ فى اعتباره وجود بعد رابع لها وهو الزمن .

إن القطار عندما يتحرك من مكان لآخر يظل مظهره الخارجى دون تغيير إلى حد كبير . ولكن فى حقيقة الأمر هناك الكثير من التحولات تعتريه من الداخل والخارج ، ومحتوياته فى حركة دائبة وتغير مستديم .

والكائنات الحية أكثر قابلية للحركة الديناميكيـــة مع الثبـــات الاســـتاتيكى لمكوناتها حيث تقوم بإحلال لبنات بناء جديدة مكان اللبنات القديمة المستهلكة .

إنك لست نفسك بعد أن قرأت هذه السطور كما كنت قبل أن تقرأها تماما . فأحداث كثيرة طرأت فى جسمك ونفسك خلال هذه الثوانى القليلة ! .

والثانية الواحدة من الزمن فى عمر الخلية الحية تناظر عاما أو أكثر فى عمر مدينة آهلة بالسكان .

السرعة والبطء

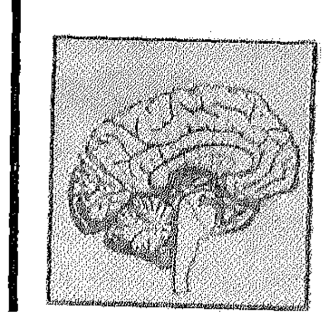
والزمن مسألة نسبية فى أحوال كثيرة واليوم الواحد يختلف طولا وقصرا على مدار السنة فى كوكب الأرض ، ويتفاوت حسب المواقع الجغرافية من قطبى الأرض إلى خط الاستواء . واليوم على سطح الكرة الأرضية يختلف تماما عن اليوم على سطح أى كوكب آخر يدور حول نفسه بسرعة مخالفة لسرعة دوران الأرض حول نفسها . فالزمن قابل للاسراع والابطاء حسب الحركة والمكان .

وإحساس الإنسان بالزمان حاسة فريدة وقد يستطيع المرء أن يقدر الوقت بدقة دون استخدام ساعة أو آلة أخرى للقياس ، ولكنه أيضاً قد يخطىء التقدير عندما تنتابه الانفعالات فتمر به الثوانى متباطئة أو تمضى به الساعات دون أن يشعر بها ! .

وأعضاء الجسم الداخلية وأجهزته الحيوية المختلفة تعمل بايقاع خاص وتسير وفق ساعة بيولوجية لا تخطىء كثيراً حتى وإن أخطأ الإنسان فى حساب الزمان .

فالقلب يدق بانتظام وتنشأ فيه موجة تنشيط كهربائية كل ثانية أو أقل من ذلك أو أكثر بقليل لتحدث انقباضا فى الأذينين فينتقل الدم منهما إلى البطينين ثم ينتشر التنشيط إلى البطينين فينقبضا ويدفعا الدم إلى جميع أنحاء الجسم . وموجة التنشيط هذه موجة تلقائية تبدأ من جزء من أذين القلب الأيمن يعرف باسم منظم إيقاع القلب . ولا يعرف كيف تنشأ هذه الموجة الكهربائية التى تسبب انقباض القلب بصورة منتظمة متوافقة مع احتياجات الجسم ، ولو عرفنا ذلك لعرفنا سر الروح ، ولكن الروح من أمر الله وما أوتينا من العلم إلا قليلا . وبالرغم من وجود أعصاب لا إرادية تغذى عضلة القلب تستطيع أن تزيد أو تقلل من سرعة دقاته فإنه قادر على العمل بصورة تلقائية حتى لو فصل تماما عن جميع الأعصاب المغذية له كما يحدث فى جراحات نقل القلب .

وفى الجهازالهضمى تنقبض العضلات اللاإرادية الموجودة فى جدران المعدة والأمعاء بصورة تلقائية بإيقاع خاص



الساعة البيولوجية

يختلف حسب احتياج الجسم أثناء هضم وامتصاص الطعام .

ويحدث التنفس بإيقاع رتيب يتناسب مع احتياج الجسم للاكسجين ، ومعدلات إنتاج ثانى أكسيد الكربون أثناء احتراق الغذاء فى الأنسجة . وتزداد سرعة التنفس بصورة تلقائية كلما زادت الحاجة للاكسجين ، وكلما تراكم ثانى أكسيد الكربون فى الخلايا .

إيقاعات متناسقة

فهناك إذن أكثر من ساعة دقاقة داخل جسم الإنسان وأكثر من بندول ، بل هناك أكثر من ذراع من أذرع الساعة فى الجسم مثلما تحمل الساعة أذرعا للساعات والدقائق والثوانى ويشعر الجهاز العصبى فى الإنسان بكل هذه الايقاعات ويتأثر بها ويؤثر فيها متفاعلا معها بصورة متناسقة ! .

ولقد كشفت الأبحاث الحديثة عن دور مهم تقوم به أجزاء معينة من المخ فى تنظيم ايقاع الأنشطة الحيوية بالجسم .

فلفت النظر وجود منطقة عند قاعدة المخ تعرف بتحت المهاد (هيبوثالامس) ترتبط ارتباطا وثيقا بالمناطق العليا من المخ الخاصة بالإحساس والحركة والذاكرة، والمراكز السفلى الخاصة بتنظيم الوظائف الحشوية اللا إرادية مثل إيقاع القلب وضغط الدم والتنفس ، كما تسيطر سيطرة تامة على الغدة النخامية المهيمنة على معظم الغدد الصماء فى الجسم .

وتبين بوضوح أن هناك علاقة وثيقة بين منطقة تحت المهاد والنوم واليقظة ، والنشاط والخمول ، والانفعال والتبلد ، والرغبة فى الطعام والعزوف عنه ، والميل للجنس الآخر والزهد فيه ، وأن هذه المنطقة تعمل بصورة دورية لتنشيط وظائف الجسم اللا إرادية المختلفة طبقا لاحتياجات الجسم الداخلية فى ضوء متغيرات الوسط الخارجى والبيئة المحيطة بالانسان .

ويمكننا القول إن تحت المهاد هو منظم المنظمات فى الجسم ، وهو أشبه ما يكون بغرفة تحكم رئيسية تصل إليها المعلومات عن طريق شبكة دقيقة تمدها ببينات كاملة عما يحدث داخل الجسم وخارجه . وفى تلك الغرفة توجد أجهزة كمبيوتر (حاسوبيات) تستوعب تلك البيانات وتستفيد منها طبقا لبرامج موضوعة ثم تقوم باتخاذ قرارات لا إرادية – أى ليس لسيطرة الانسان فيها دخل كبير – ويتم تنفيذ تلك القرارات عن طريق تحكم تحت

المهاد فى المراكز العصبية الدنيا فى المخ وفى أغلب غدد الجسم الصماء .

ويلفت النظر هنا أن معدلات الأداء فى منطقة تحت المهـاد تتباين فى كثير من الأشخاص كمـا تتباين فى الذكر والأنثى بوجه عام مثل اختلاف المواقيت فى بلدان الأرض من الشرق إلى الغرب . فكما يكون فى بعض مناطق الأرض ليل بينما يسطع فى أجزاء أخرى منها النهار ينشط تحت المهاد مع طلوع الشمس ويسكن مع حلول الظلام . ولكن ذلك يحدث بميقات مختلف فى كل انسان حسب طبيعته واستعداده . فبعض الناس يكون فى أحسن حالاته وقمة نشاطه مع بزوغ الفجر ، والبعض الأخر يتأخر ذلك عنده إلى وقت القيلولة أو بعد الظهر . وفى المرأة دورة أخرى بطيئة تتراكب مع تلك الدورة اليومية وهى دورة نشاطها الجنسى على مدار الشهر حيث يتزايد افراز الهرمونات الجنسية تدريجيا ويحدث انطلاق البويضة جاهزة اللاخصاب من المبيض ثم ينخفض منسوب الهرمونات فى الجسم عندما لا يحدث تلقيح لتبدأ الدورة من جديد .

●●●

ومن الطريف اكتشاف علاقة وثيقة بين جسم صغير فى المخ مجهول الكنه يعرف بالجسم الصنوبرى ومنطقة تحت المهاد .

ويقع الجسم الصنوبرى فى مكان متوسط بين كرتى المخ ، ناحية الخلف فوق المهاد . وقد ظن ديسكارتس أن روح الانسان تسكن هذا الجسم الصغير ، واعتبره البعض عين ثالثة تستشفً ما يحدث ناحية الخلف . وفى العصر الحديث أمكن فصل بعض الهرمونات منه كما تبين أنه ينشط فى الليل بتأثير من تحت المهاد مع انتشار الظلام ، ويفرز مواد تثبط الغدة النخامية القائدة فى الجسم أى أنه ترس صغير فى آلة الزمان داخل جسم الانسان .

وعكف الانسان على دراسة المسارات العصبية داخل الجسم التى تعطى قاعدة لفهم هذا الترابط الوثيق .

وتبين بجلاء أن شبكية العين الحساسة للضوء والظلام لها اتصال محكم بمنطقة تحت المهاد . فإذا ساد الظلام ساعات طويلة تأثرت تحت المهاد وأرسل إشارات عصبية للجسم الصنوبرى تؤدى إلى زيادة إفراز هرمون يسمى « الميلاتونين » . وينتقل « الميلاتونين » مع الدم وسوائل المخ إلى الغدة النخامية عند قاعدة المخ فيثبط إفرازها . ويحدث العكس أثناء النهار .

وتبين أيضا أن منطقة تحت المهاد لها سيطرة فعالة على الجهاز العصبى السمبثاوى الذى ينشط فى حالات اليقظة والعمل والانفعال والدفاع عن النفس ليزيد من كفاءة الجسم وقدرته ، ويخمد أثناء النوم وبالتالى يشحذ تحت المهاد سن السكين أثناء النهار ، ويغمده فى جرابه أثناء الليل . وكل ذلك فى دورة منتظمة إنتظام عقارب الساعة .

وتلك هى آلة الزمان فى جسم الإنسان التى تتوافق مع تعاقب الليل والنهار على سطح الأرض .

رسالة لندن

الصحافة العربية في بريطانيا

هل تبحث عن حرية التعبير أم تحقق الوجاهة ؟

بقلم : د . على شلش

● فى شهر واحد ، هو فبراير ، ظهرت مجلتان عربيتان جديدتان فى لندن ، ومع أن صدورهما فى وقت واحد مجرد مصادفة فهما تلخصان ملمحا أساسيا من ملامح صورة الصحافة العربية الراهنة في بريطانيا ، وهى صورة متعددة الملامح ، سريعة التغير ، تعكس الوضع العام فى العالم العربى فى النهاية ، ولاسيما بعد حرب تحرير الكويت ، وتحطيم قوة العراق العسكرية .

أما المجلة الأولى فتسمى « اليمن الكبرى » ، وهى من ١٦ صفحة ، تطبع بلون واحد ، وتضع على غلافها غير المنفصل شعارين : الجهاد ، الوحدة ، الديمقراطية « من نجران إلى عجمان .. أرضك أرضك يا كهلان » وتتوسط الغلاف صورة عبد الناصر تحدها من اليمين واليسار أبيات من قصيدة نزار قبانى فى رثائه . وعلى غلافها الأخير خارطة للجزيرة العربية عليها خط بارز يحدد اليمن الكبرى التى تتكون فى عرف المجلة من اليمنين المتحدين وأجزاء من المملكة العربية السعودية ، مع كل الإمارات العربية وسلطنة عمان ، وهذا هو مفهوم « من نجران إلى عجمان » ولكن ، لا يوجد على المجلة أو بداخلها تحديد لجهة الإصدار أكثر من عبارة « يصدرها مكتب لندن بالتعاون مع مركز لندن للدراسات الاستراتيجية اليمنية » ولا يوجد أيضا اسم لرئيس التحرير ولا أسماء لأى محرر أو كاتب ، فالموضوعات والأخبار التى تضمها قصيرة عموما . ولكن لهجتها العامة تقول إنها معارضة للسعودية والإمارات وعمان ، وتضيف فى افتتاحيتها إنها هاجرت من اليمن بعد أن ساء وضع الديمقراطية والاقتصاد هناك .

وهذه المجلة – كما هو واضح – تدخل فئة الصحف المعارضة من حيث الشكل ، ولكنها أقرب إلى فئة صحف الدعاية المضادة للسعودية بصفة خاصة ، والفئتان تسيطران على ما يمكن تسميته بالصحف الصغيرة ، وهى الجرائد والمجلات الفقيرة



الموارد ، البسيطة الإخراج ، المحدودة العدد المطبوع أو القابل للتوزيع . وهذا النوع – الصحف الصغيرة – هو الغالب والأقدم تاريخيا فى لندن ، ويضم ثلاث فئات أخرى غير المعارضة والدعاية المضادة هى فئة صحف الارتزاق أو الابتزاز ، وفئة الصحف التى تخدم الجالية العربية فى بريطانيا ، وفئة المجلات الثقافية ، وإذا كانت صحف الارتزاق من الأنظمة العربية والأثرياء العرب ، أو ابتزاز المال من الطرفين ، تعمر أكثر من صحف الجالية والمجلات الثقافية ، فهى أيضا متغيرة المزاج متقلبة الأوضاع ، ولكنها جميعا تعيش على الاحسانات – إذا صح التعبير – من الأنظمة أو الاثرياء أو أصحاب المصلحة فى صدورها .واذا كانت صحف الارتزاق والابتزاز يحررها – عادة – فرد واحد باسمه الصريح أحيانا ، أو باسم مستعار أحيانا أخرى ، فالمجلات الثقافية تنتشر فيها الأسماء الصريحة لمساهمين من بريطانيا والمهاجر الأوربية والأمريكية ، بل من العالم العربى .وبالرغم من ثراء بعض العرب من أبناء الجالية المقيمة ، أوالمهاجرة ، نجد أن صحف الجالية أضعف فئات الصحف الصغيرة فى بريطانيا ماليا وتحريريا ، وأكثرها اختفاء . وقد اختفت تماما قبيل حرب تحرير الكويت ، بالرغم من زيادة النازحين الكويتين أثناء الاحتلال .

وأما المجلة الأخرى فتسمى « الوسط » وهى من ٨٠ صفحة غير الغلاف المنفصل ، تطبع بالألوان على ورق فاخر وبأحدث الطرق . واذا كانت المجلة الأولى شهرية سياسية معارضة فهذه أسبوعية جامعة غير معارضة . ويرأس تحريرها الصحفى اللبنانى عبد الكريم أبو النصر الذى أسس مجلة « المجلة » الأسبوعية فى لندن عام ١٩٨٠ ، ثم أقيل منها بعد أربع

سنوات وعاش فى باريس على مراسلة بعض صحف الخليج . وقد جاء فى ترويسة « الوسط » أنها تصدر عن شركة بهذا الاسم ، وإن كانت تابعة لمجموعة شركات أخرى تصدر جريدة « الحياة » اليومية ، وهى مجموعة يمولها أمير سعودى شاب ، وتحتل أحدث وأفخر وأغلى مبنى لصحيفة عربية – وانجليزية أيضا – فى قلب لندن . وبالرغم من التعاطف الواضح مع سياسة السعودية فالمجلة تبدى توجها عربيا عاما واضحا أيضا . وبالرغم من رشاقتها وقربها من مجلة « تايم » الأمريكية فى التغطية الصحفية والإخراج فليس من السهل الحكم عليها الآن .

نوعان من الصحف

تأتى هذه المجلة لتعوض « النقص » الذى أصاب المجلات العربية فى لندن بسبب مغامرة النظام العراقى . فقد توقفت منذ بداية حرب تحرير الكويت مجلتان أسبوعيتان عراقيتا التمويل ، هما : « الدستور » التى سبق أن هاجرت من بيروت إلى باريس عام ١٩٧٧ ، ثم « تعرقت » ، وهاجرت إلى لندن بعد عشرة أشهر ، و« التضامن » التى ظهرت فى لندن مباشرة عام ١٩٨٢ . وكانت المغامرة العراقية سببا فى القضاء أيضا على مجلتين عربيتين فى باريس هما : كل العرب ، اليوم السابع . وتعويض هذا النقص مسألة مجازية بالطبع . فالصحف والمجلات العراقية التمويل والتوجه لم تكن أحسن حالا من غيرها ، أو متميزة بشىء غير الدعاية للممول والموجه !

ولكن هذه المجلة الجديدة تدخل فئة الصحف الكبيرة من حيث الشكل والمضمون . وتشكل هذه الفئة النوع الثانى من أنواع الصحف العربية فى بريطانيا ، وهو نوع يقابل النوع السابق الذى يضم ماسميناه الصحف الصغيرة . ومن الواضح أن الصحف الكبيرة هى تصدرها شركات أو مؤسسات كبيرة ، وتوفر لها أحدث الإمكانات وأكبرها ، وتعتمد على الدعم من الأنظمة المصدرة لها ، وكذلك على الإعلان الدولى والمحلى ، وتطبع كميات كبيرة تصل إلى ٥٠ ألفا فى المتوسط ، وتتوجه إلى قارىء منطقة الخليج أساساً .

يبقى نوع ثالث من أنواع الصحف العربية فى بريطانيا ، وهو نوع وسط بين الصغير والكبير ، ولايعتمد على التمويل العربى ، وإنما تموله الحكومة البريطانية ويحمل توجها بريطانيا . ولكن هذا النوع محدود جدا ، ويقتصر على مجلة واحدة شهرية هى « هنا لندن » التى يصدرها القسم العربى فى الإذاعة البريطانية . وكانت تطبع فى لندن ، ثم صارت تطبع فى القاهرة وتوزع من هناك توفيرا للنفقات .

من الملاحظ أن أنواع الصحف العربية الثلاثة فى بريطانيا تتركز فى لندن . وإذا كان من الصعب إحصاء صحف النوع الأول ، أى الصحف العربية الصغيرة ، لأن هذه الصحف غير مستقرة الصدور ، فمن باب التقريب أنها تزيد على ٢٠ صحيفة بين جريدة ومجلة ، معارضة ، أو دعائية ،

أو مرتزقة ، أو ثقافية . وهذا العدد التقريبي لاتوجد جهة لضبطه أو تحديده في بريطانيا . فمن المعروف أن إصدار الصحف في بريطانيا لايسلتزم تصريحا أو ترخيصا ، وأن تسجيلها في هيئة البريد ليس إجباريا . ولكن من السهل إحصاء صحف النوع الثاني ، أي الصحف العربية الكبيرة ، لأنها واضحة الظهور .

تبلغ هذه الصحف الكبيرة اليوم تسعا ، وتتراوح بين الجرائد اليومية والمجلات الأسبوعية . وتبلغ الجرائد خمسا ، وهي بترتيب ظهورها : العرب (١٩٧٧) ، والشرق الأوسط (١٩٧٩) ، والحياة (١٩٨٨) والقدس (١٩٨٩) ، صوت الكويت (١٩٩٠) والأخيرة انتقلت إلى الكويت بعد تحريرها ، وأبقت على مقرها اللندني لطبعتها الدولية . ومادمنا ذكرنا الطبعة الدولية فيجب أن نذكر أن هذا تقليد طارىء على الصحف العربية ، بدأته صحيفة « النهار» اللبنانية بعد الحرب الأهلية عام ١٩٧٥ . واتبعته بعد ذلك صحف : « القبس » الكويتية ، و « الأهرام » المصرية ، و «الثورة» العراقية ، أما المجلات الأسبوعية فتبلغ أربعا ، وهي بترتيب ظهورها : الحوادث (١٩٧٦) المجلة (١٩٨١) ، سيدتي (١٩٨٢) ، مجلة الشرق الأوسط (١٩٨٧) . والأخيرة لاتعد مجلة مستقلة ، فهي تصدر كملحق لجريدة الشرق الأوسط .

ومن الواضح أن الجرائد اليومية متباينة التمويل والتوجه ، وتتراوح بين أربعة أنظمة : الليبي (العرب) والسعودي (الشرق الأوسط والحياة) والكويتي (صوت الكويت) ولكن المجلات الأسبوعية منها ثلاث بتمويل وتوجه سعوديين ، وواحدة (الحوادث) يملكها الصحفي اللبناني ملحم كرم ، وليس لها توجه خاص أكثر من مراعاة المشاعر الرسمية في مناطق التوزيع الأساسية ، وعلى رأسها منطقة الخليج . ويجب أن نضع في الاعتبار هنا صعوبة الإعلان الصريح عن الولاء السياسي في هذه الجرائد والمجلات ، ولكنه لايخفى على المتابعة وتحليل الافتتاحيات والموضوعات الأساسية ، كما أن مرعاة المشاعر الرسمية في مناطق التوزيع الأساسية ليست وقفا على مجلة « الحوادث » ، وإنما هي مبدأ عام لاتستطيع الصحيفة العربية في بريطانيا أو غيرها مخالفته وإلا حكمت علي نفسها بايقاف الدعم المالي والمنع من الدخول إلى أسواق البلد الذي تمس مشاعره الرسمية . فجريدة « العرب » ، مثلا ، يملكها الصحفي الليبي أحمد الهوني ، وتعتمد أساسا على السوق الليبية ، فلابد أن تراعي المشاعر الرسمية الليبية ، ومعنى هذا أنها حرة بعد ذلك في التخفف من المبدأ المذكور ، شريطة أن تسمح السياسة الليبية الرسمية ذاتها بهذا التخفف . ولذلك إنحازات الجريدة وقت أزمة الكويت إلى صف العراق ، وهكذا .

من الناحية المهنية نجد أن الصحف والمجلات الكبيرة هذه تنتفع بأحدث طرق الطبع والإخراج . ولمعظمها جهاز تحريري محدود ، أشبه بالمطبخ ، ولكنها تعتمد أساسا على مكاتبها ومراسليها في العالم العربي ، وكالات الأنباء العالمية . وبعضها مثل « الشرق الأوسط» يرتبط باتفاقات مع وكالات ومراكز إعلامية أوربية وأمريكية ، ولاسيما في المواد المصورة . وتتفاوت

رسالة لندن

أجور العاملين فيها ومكافآت كتابها الخارجيين تفاوتا كبيرا . وبعضها يتحرر من قوانين العمل في بريطانيا ، فلا يتقيد بيومى العطلة ، ولايرفع الأجور والمكافآت سنويا لمواجهة التضخم ،ولاتوجد للعاملين فيه تنظمات نقابية لرعاية مصالحهم ولنا أن نتخيل بعد ذلك حال العاملين - إذا وجدوا - فى الصحف والمجلات الصغيرة . وبعضها لايملك مقرا خاصا فى معظم الأحيان ، ويصدرها أصحابها أحيانا من منازلهم .

تساؤلات

يثير الوضع العام لأنواع الصحف العربية الثلاثة فى بريطانيا عددا كبيرا من التساؤلات ، ولكننا سنكتفى هنا بثلاثة من أهمها :

هل هى صحف مهاجرة ؟

من جمهورها ؟

ما مستقبلها ؟

باستثناء مجلة « الحوادث » التى هاجرت من بيروت عقب تردى الأوضاع هناك فى بداية الحرب الأهلية لاتوجد صحيفة أو مجلة كبيرة مهاجرة من أي بلد عربى ، فجميع الصحف والمجلات التى ذكرناها بريطانى المولد والنشأة باستثناء مجلة « مواقف » الأدبية التى يحررها الشاعر أدونيس من مهجره فى باريس ، وتدار من لندن ، وتطبع فى بيروت ، لاتوجد جريدة أو مجلة صغيرة مهاجرة أيضا . ومع ذلك يوجد صحفيون عرب مهاجرون ، معظمهم من لبنان وسورية . ومع أن بينهم بعض الصحفيين من أبناء دول المغرب العربى فلا توجد أيضا صحيفة أومجلة ذات توجه مغاربى باستثناء جريدة «العرب» ذات التوجه الليبى ، ومجلة ليبية معارضة تعد من المجلات الصغيرة ، على العكس من باريس التى توجد بها بعض مجلات المعارضة التونسية والجزائرية والمغربية . فمصطلح « الصحف المهاجرة » إذن مجازى ، وغير دقيق ، لأنه ينطبق على الصحفيين لا على الصحف ، ويوحى بأن هذه الصحف كان المفروض أن تصدر فى بلادها ، ولكنها أختارت هذا المصير .

ومعنى هذا أن الصحف والمجلات الكبيرة ، بصفة خاصة ، يمكن أن تصدر فى الأقطار التي تمولها أو توجهها . وإذا قيل إن صدورها فى بريطانيا - أو غيرها - يقربها من مصادر الإعلان الدولى أو الإعلام الدولى فهذا قول مردود ، لأن المعلن يسعى وراء الجمهور والجمهور ليس فى بريطانيا ، فضلا عن أن الإعلام الدولى يمكن أن يهطل على البلاد العربية دون حاجة إلى تحرك العرب إلى الخارج . وإذا قيل أيضا إن هذه الصحف والمجلات تبحث عن حرية التعبير فهذا غير صحيح ، لأنها إذا تحررت يكون مصيرها المنع . وما دامت تريد دخول قطر عربى فلابد أن تدخله بشروطه لابشروطها كما هو معروف ولكن البحث عن حرية التعبير النسبية والمتفاوتة فى العالم العربى - كما هو معروف أيضا - ينطبق على الصحف والمجلات الصغيرة ، ولاسيما المعارض منها . وفى لندن صحف ومجلات صغيرة معارضة جميع أنظمة الحكم فى العالم العربى ، باستثناء الكويت ومصر وتونس

والمغرب وموريتانيا والصومال . وهذه الصحف والمجلات المعارضة تحتاج إلى حرية فى التعبير المكفولة فى بريطانيا ، ولكنها أيضا تحتاج إلى جمهور . والجمهور العربى فى بريطانيا محدود جدا ومن هنا تقع فى تناقض صارخ ، لأنها لاتصل إلى جمهورها الطبيعى ، ولاتحدث التأثير المنشود .

ليست بريطانيا على أى حال مطمحا جماهيريا للصحف العربية بالرغم من وجود ألوف العرب المهاجرين ، ولكن هؤلاء يهاجرون وفى نفوسهم وعقولهم روابط قطرية ومحلية تجعلهم يتفككون إلي وحدات صغيرة ، مصرية أو عراقية أو ليبية ، وغيرها وداخل هذه الوحدات القطرية الصغيرة يوجد قراء بالطبع ، ولكن أكثرهم غير منتظمين ، فإذا انتظموا التزموا بالصحف الواردة من أقطارهم لمعرفة أخبار الوطن والأهل ، فضلاً عن أن الصحف اليومية العربية الصادرة فى لندن تباع بضعف أثمان الصحف الإنجليزية . وهذا يشكل عائقا آخر أمام انتشارها . ولذلك يتراوح توزيع هذه الصحف فى بريطانيا كلها بين ٥٠٠ إلى ١٥٠٠ نسخة للصحيفة ، أى مايزيد قليلا على متوسط توزيع الصحف والمجلات العربية الصغيرة ومعظم هذه الصحف والمجلات الصغيرة لايحقق عائدا من التوزيع يكفى لتمويل إصداره ، ولكنه يحرص على الصدور مادامت توافرت له مصادر التمويل أو الدعم . ولذلك يكون الجمهور الحقيقى الأكبر داخل الأقطار العربية ذاتها ومع ذلك فباستثناء منطقة الخليج والمناطق النفطية الأخرى التى تنتمى إليها معظم الصحف والمجلات الكبيرة فإن توزيع هذه الصحف محدود جدا أيضا بالقياس إلى توزيعها فى بلادها الأصلية .

هل هى صحف ومجلات للوجاهة إذن ؟

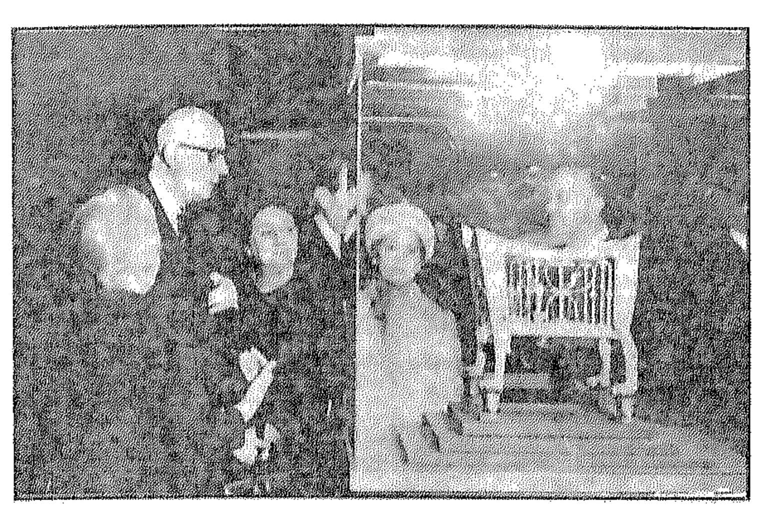
الحقيقة أن معظمها هكذا ، لأن مبرر الصدور من لندن لا محل له من المنطق ، من حيث تكلفة الإنتاج ونفقات الشحن . ومن المعروف أن عقد السبعينيات الذى عادت فيه هذه الظاهرة – بعد اختفائها فى أوائل القرن – شهد أحداثا مزقت العالم العربى وزادت فرقته . وكان على رأس هذه الأحداث اشتعال الحرب الأهلية فى لبنان فضلا عن القفزة الكبيرة فى أسعار النفط بعد حرب ١٩٧٣ . وأدى هذا كله إلى هجرة بعض الصحفيين اللبنانيين وإصدارهم صحفا فى باريس ولندن ، وهجرة بعض الصحفيين المصريين أيضا وإصدارهم مجلات صغيرة معارضة فى العاصمتين المذكورتين . وبعدها بدأ استقطاب هؤلاء وأولئك من جانب بعض الأنظمة النفطية العربية وعلى رأسها العراق . وكان من المتوقع أن يؤدى اغتيال الرئيس السادات إلى تفكك هذه الظاهرة واختفائها ، ولكن الحرب العراقية الإيرانية قضت على هذا التوقع . وكان من المتوقع أيضا أن تؤدى الكارثة العربية فى الكويت والعراق إلى هذا التفكك والاختفاء ، ولاسيما بعد توقف الصحف والمجلات ذات التمويل العراقى . ومع ذلك ، فهاهو ظهور مجلة أسبوعية كبيرة جديدة يخيب أملنا فى أى تغيير قريب ، مادام التمزق العربى مستمرا والفرقة العربية مزدهرة . ومالم تناقش هذه الظاهرة بجدية بعيدا عن المصالح الضيقة ، فسوف تظل لندن – إلى ماشاء الله – قلب العروبة النابض ، فى الصحافة على الأقل ، ولكنه قلب ينبض بالمزيد من الفرقة والتمزق !

القاهرة

امرأة فرنسية .. من النوبة

من يشرب من مياه النيل لابد أن يعود ثانية ليشرب منها مرة أخرى .. ومن شاهد آثار مصر وشم روائحها أسرته ووقع فى أسرها . وتملكته رغبة خاصة فى البقاء إلى جانبها ينقب فيها ، ويحاول أن يفك ألغازها..

هذا هو حال الباحثة الأثرية كرستيان ديروش - نوبكلور - ٧٨ سنة - التى سجلت تجربتها كباحثة آثار فى مصر فى كتاب ضخم يحمل عنوان «النوبية الكبرى» . ونتيجة لأهمية هذا الكتاب أجرت مجلة لوبوان الفرنسية (١٩٩٢/٢/٢٢) حديثا مع الكاتبة التى لعبت دورا كبيراً فى نقل معبد « أبو سمبل » من مكانه القديم . ونجحت فى كشف الكثير من أسرار مومياء الملك رمسيس الثانى . كما عملت على عرض آثار توت عنخ آمون فى فرنسا ..



معرض توت عنخ آمون فى باريس ١٩٦٧

تقول الكاتبة فى الحديث «إنه فى سنوات الثلاثينات لم يكن من المستحب على المرأة أن تعمل، حتى فى الأوساط المتحررة . لكن أبى نصحنى أن أعمل فى الأمن الاجتماعى . وأن أدرس الرسم فى القرن الثامن عشر . لكننى كنت أحب التاريخ . ورحت أدرس المصريات وأنا فى السابعة عشرة» .

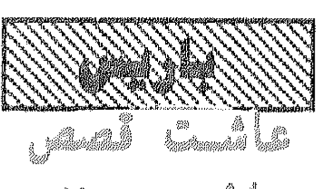
وترى الكاتبة أنها لم تعشق شخصا مثلما عشقت الملك الشاب توت عنخ آمون . فعندما كانت فى العشرين من عمرها عقدت أول مؤتمر علمى عنه . وفى عام ١٩٦٧ نجحت بواسطة وزارة الثقافة المصرية أن تقدم كنوزه للجمهور الفرنسى فى معرض ضخم زاره أكثر من مليون ومائتى ألف زائر .

جاءت كرستيان إلى مصر لأول مرة عام ١٩٣٧. وسط معارضة شديدة من اسرتها . ورغم أنها لم تكن تملك ما يكفيها من مال . «لم

أحس أبدا بأى متاعب فى تنقيب الآثار بصفتى امرأة يجب أن أقول أن المصرى لم يتغير منذ ثلاثة آلاف عام . إنه فى المقام الأول مسلم يتسم بالحكمة والطيبة».

وفى حديثها أشارت كرستيان أن الدكتور ثروت عكاشة ، وزير الثقافة الأسبق ، ومدير عام اليونسكو ، قدما لها أيدى المساعدة عندما عملت على نقل معبد «أبو سمبل» فى أوائل الستينات وقد فسرت سبب وجود هذا الكم الهائل من التحف الأثرية المصرية فى متاحف باريس خاصة اللوفر قائلة إن المصريين فى القرن التاسع عشر لم ينتبهوا إلى أهمية هذه الكنوز وتعاملوا معها على أنها مجرد تماثيل . لذا نشطت حركة نقل الآثار ، ما خف ثمنه وزادت قيمته ، خارج مصر .. لكن هذه النظرة تغيرت كثيرا فى القرن العشرين .

* * *



باريس عاشت قصص الحب .. !!

الأوربيون فى واد .. والأمريكيون فى واد آخر ..

فالروايتان اللتان تحققان أعلى المبيعات الآن فى فرنسا تنتميان إلى الرواية الرومانسية فى المقام الأول . الرواية الثانية هى «العاشق» للكاتبة مرجريت دوراس التى قفزت مرة أخرى إلى سلم الصدارة بعد تحويلها إلى فيلم أخرجه جان جال أنو يكتسح الآن الإيرادات فى غرب أوروبا .. وأحداث الفيلم عن تجربة الحب الأولى فى حياة الكاتبة مرجريت دوراس حين كانت تعيش فى الهند الصينية مع اسرتها عام ١٩٣٣ وأحبت شابا من الوطنيين .

أما الرواية الأولى فتحمل عنوان «عاطفة بسيطة» للكاتبة آنى ارنو. وهى واحدة من أبرز الأدبيات فى الفترة الأخيرة . والرواية أيضا تتحدث عن تجربة حب غريبة فى حياة الكاتبة .

والرواية تدور حول امرأة تعيش حالة انتظار للرجل الذى تحبه ووعدها أن يعود .. إنها لا تفعل شيئا سوى أن تنتظر وتنتظر . ثم تنتظر . تجلس أمام التلفاز لتشاهد المسلسلات وتبكى حين تستمع إلى الاغنيات العاطفية .

وليست البطلة هنا مجرد فتاة صغيرة فى أول سن المراهقة مثلما حدث فى «العاشق» . ولكنها امرأة ناضجة . وأم لأطفال كبار . وتقرر أن تتخلص من تجربة حبها بأن ترويها فى رواية «منذ بداية شهر سيتمبر فى العام الماضى . لم أفعل شيئا سوى انتظار رجل . أن يحدثنى فى الهاتف .



أنى ارنو

وأن يأتى لزيارتى»

الجدير بالذكر أن هذه الرواية التى تتصدر مبيعات الكتب فى باريس لا تتعدى صفحاتها الثمانين صفحة . وقد تفوقت فى نسبة توزيعها على كافة الروايات الحاصلة على جوائز أدبية لهذا العام . كما تفوقت على روايات لأدباء مشاهير مثل مرجريت دوراس ودومنيك فرنانديز وأثبتت تعطش الناس لأجواء الرومانسية لدرجة دفعت بروايات ستيفين كنج ، أشهر من يكتب قصص الرعب إلى ذيل قائمة المبيعات .

جوهانسبرج

مرض السرطان .. أرحم

التفت الناس فى الفترة الأخيرة إلى الأدب الأبيض المكتوب فى جنوب افريقيا عقب فوز نادين جورديمر بجائزة نوبل فى أكتوبر الماضى ..

ويعتبر ج. م. كوتيزى واحدا من أبرز الأدباء البيض الذين يدافعون عن قضايا الزنوج فى رواياتهم . وهو من مواليد عام ١٩٤٠ . ويعمل مدرسا للأدب الأمريكى فى جامعة «كاب» بجنوب إفريقيا . وهو كاتب متعدد الأنشطة . فهو مترجم وناقد . ويعمل فى اللغويات . وحصل على ثلاث جوائز عن روايته .. فى انتظار الهمج .. كما حصل فى فرنسا على جائزة «فيمينا» . وفى بريطانيا على جائزة «بودكر» ومن بين رواياته «مايكل ك» . وقد تحولت بعض رواياته إلى أعمال سينمائية .

«زمن الحديد»

هو عنوان الرواية الأخيرة لكوتيزى . وتدور أحداثها فى مدينة «كاب» بجنوب إفريقيا .. وبطلة الرواية تدعى إليزابيث . تحدث بمرض عضال أصابها منذ سنوات طويلة . إنها امرأة وقفت دوما ضد نظام التفرقة العنصرية «الأبارتهايده» .

وقبل موتها تقرر أن تكتب رسالة طويلة لابنتها التى تم نفيها إلى الولايات المتحدة تخبرها فيها أن عليها ألا تفتح الظرف إلا عقب وفاة أمها



ج . م كويتيزى

ويصبح على إليزابيث أن تنتظر أيامها الأخيرة . بينما على الأبنة أن تنتظر على أحر من الجمر لتعرف ماذا فى الرسالة ..

وبعد أن تموت الأم تقرأ الأبنة أن أمها إليزابيث قد اشتركت فى النضال ضد الرجل الأبيض من أجل حقوق السود . وكانت الجماعة التى انضمت إليها تحمل اسم «زمن الحديد». وأطلقوا عليها حركيا اسم «ملاك الموت» .. وتروى المرأة كم من المعاناة عرفت بهذا السبب . فكم جاء البيض يطرقون بابها . وكم جاء المتشردون لإرهابها ...

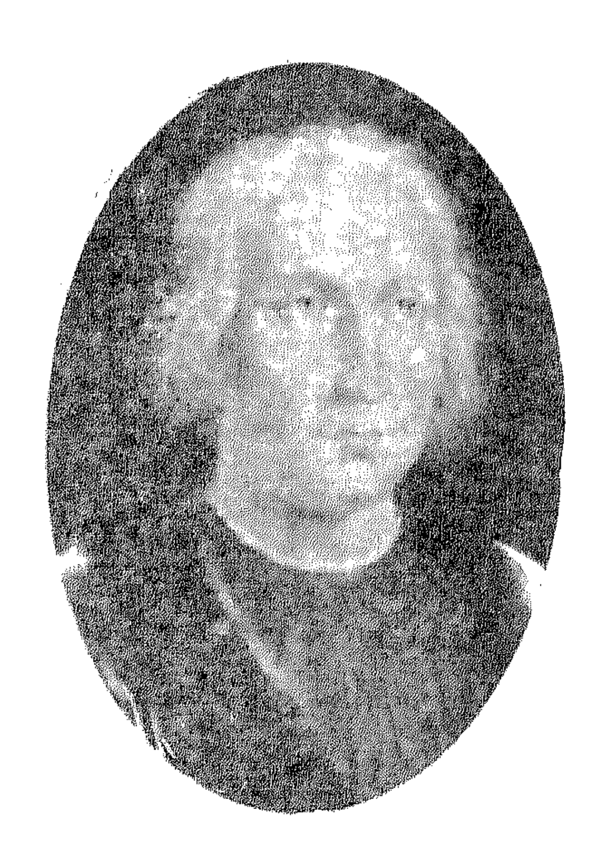


«كولومبس» والعربية أم اللغات

معروف أن العالم يحتفل على امتداد هذه السنة بمرور خمسمائة سنة على اكتشاف نصفه الآخر الذى كان مجهولا . ذلك النصف المسمى الآن بأمريكا .

والفضل فى هذا الاكتشاف يرجع إلى كريستوفر كولومبس ابن مدينة «جينوة» التى كانت فى ذلك الزمان ميناء له شأن كبير .

فلقد كان «كولومبس» أول إنسان من العالم القديم ، وبالذات أوروبا ، يعبر بحر الظلمات (المحيط الأطلسى) على سطح سفينة مجهزة علميا للاكتشاف .



ففى الثاني عشر من أكتوبر لسنة ١٤٩٢ لمست قدماه أرض جزر الباهاما ، وبالتحديد جزيرة «جوانا هانى» ، التى سرعان ما غير اسمها إلى «سان سلفادور» مع إعلان ضمها إلى أملاك صاحبى الجلالة ملك وملكة أسبانيا.

ومن بين ما كتب من مقالات وأبحاث ودراسات حول هذه الرحلة التى غيرت وجه التاريخ ، وما أكثرها ، ثمة مقال قصير مثير كتبته «إلين فنسنت باروود» – وهى أمريكية – جاء فيه أن «كولومبس» عندما نزل إلى شاطئ تلك الجزيرة ، توقع من سكانها أن يكونوا على دراية بلغة العرب ، فيستميلهم بتحية «السلام عليكم» .. لماذا ؟

لأن اللغة العربية ظلت اللغة العلمية التى تتعامل بها معظم الإنسانية زهاء همسة قرون من عمر الزمان ، وبالتحديد طوال الفترة ما بين القرنين الثامن والثانى عشر الميلاديين .

ولعله إلى ذلك السبب ترجع أولا تسمية كولومبس لها بأم اللغات .

وثانيا : اصطحابه ، فى رحلته الأولى إلى العالم الجديد ، «لويس دى توريس» بوصفه مترجما ، وذلك لأنه كان يجيد اللغة العربية .

فلقد كان «كولومبس» على ثقة ، وهو يركب المخاطر مجتازا المحيط ، أن أول أرض ستقابله هى أرض الهند التى سبقه العرب إليها عن طريق الشرق منذ زمن بعيد .

والأكيد .. الأكيد . إنه كان كذلك على علم واسع باكتشافات العرب على امتداد القرون السابقة على رحلته ، وبما كتبوه – وهو كثير – عن تلك الاكتشافات التى وصلت بالإنسان إلى أقصى حدود العالم الذى كان معروفا فى تلك الأزمنة .

ألم يدوروا حول إفريقيا ، وواصلوا الإبحار حتى الهند . وألم يغامروا على اليابسة عبر آسيا الصغرى ومصر وسوريا ، وقد كانوا أسواقا غريبة للشرق الذى كان مجهولا ، حتى وصلوا إلى قلب آسيا .

وألم يرسموا الخرائط للأرض ، ويتعقبوا مسار الأنهار ، ويوقتوا الرياح الموسمية ، ويقيسوا ارتفاعات الجبال ، فتصل بهم هذه الاكتشافات إلى الصين .

وإذا بهم ، بفضل ذلك ينشرون الإسلام واللغة العربية فى كل تلك البقاع .

ومن هنا ، فقد تكون أول مفاجأة لكولومبس، هى أن أحدا من سكان «جوانا هانى» الذين أطلق عليهم اسم الهنود خطأ ، لم يرد بالعربية على تحيته ، أو على أقل تقدير لم يفهم منها شيئا .

ومع ذلك فقد ظل أسير وهم أن الأرض التى وصل إليها هى أرض الهند .

فكان أن كتب فى مذكراته أنه على يقين من أنه ما أن يجتاز هذه الجزر المجاورة للهند حتى يصل إلى شواطئ سيبانجو (اليابان) والصين ، بعد رحلة فى البحر لن تزيد عن الألف ميل !!

رجل مجنون في الشارع

رسالة باريس من مصطفى درويش

● لو كنت فى باريس فى أثناء هذا الشتاء ، ولو تسكعت فى شوارعها قليلا ، لاسترعى انتباهك صورة لإنسان لا تعرف عنه شيئا .

ولو كنت من أهل مدينة النور أو كنت من المولعين بسحر الألوان وما توحى به من بيان ، لاستبان لك أنها من إبداع ريشة الفنان التشكيلى «ديودور جيريكو» صاحب اللوحة الشهيرة «طوف المادوزا».

وإنها ، أى صورة الإنسان المجهول ، ما انتشرت هكذا فى كل مكان ، إلا لأنهم فى فرنسا يحتفلون بمرور مائتى سنة على ميلاد هذا الفنان .

وأغلب الظن أن ريشته قد جرت برسم هذه الصورة قريبا من الربع الأول من عشرينيات القرن التاسع عشر .

والآن ومن دون رسومه جميعا هى التى وقع عليها الاختيار كى تكون أولا صورة الملصق المعلن عن معرض «جيريديكو» فى القصر الكبير الواقع بين شارع الشانزليزيه ونهر السين .

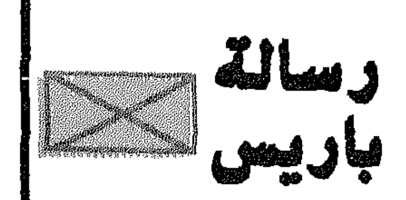
وثانيا : صورة غطاء المجلد الضخم (الكتالوج) المطبوع احتفاء بالحدث الكبير .

● لوحة نادرة ●

ولقد تم العثور على لوحة هذا الرجل المجهول ، مع أربع لوحات أخرى شبيهة فى علية أحد المنازل بالمانيا ، وذلك بعد أربعين سنة من موت صاحبها ، ذلك الموت الذى جاءه مبكرا .

واثر ذلك العثور ، أهديت اللوحة إلى متحف اللوفر الذى رفض الإهداء .

رسالة باريس



ولا غرابة فى هذا ، فهى إذا ما قورنت بدراما «طوف المانوزا» ، والضجة التى أثيرت حولها ، لا تعدو أن تكون صورة لرجل ما ، لا نعرف عنه إلا أنه كان نزيل سراى المجانين .

والعجيب أن هذه الصورة التى كانت مرفوضة من اللوفر قبل قرن من عمر الزمان ، هذه الصورة هى التى تختار كى تمثل جميع أعمال نفس الفنان .

فما الذى استجد حتى يحدث كل هذا ؟

لماذا أصبحت هذه الصورة الهزيلة فى رأى سدنة متحف المتاحف ، محط الأنظار، وذكرها على كل لسان ؟! فى محاولة من الناقد الانجليزى «جون بيرجر» لتفسير هذا التغيير الذى طرأ على الموقف إزاء صورة هذا الرجل المجهول ، المجنون .. قال : أى شخص وجد نفسه إلى جوار صديق على شفا السقوط فى هاوية الجنون، أحسبه على دراية بذلك الاحساس الغريب الذى يدفعه حتما إلى أن يصبح متفرجا . فهذا الإنسان الذى على وشك السقوط نراه على خشبة مسرح الحياة وحيداً ، وبجواره كالشبح يقف فشل

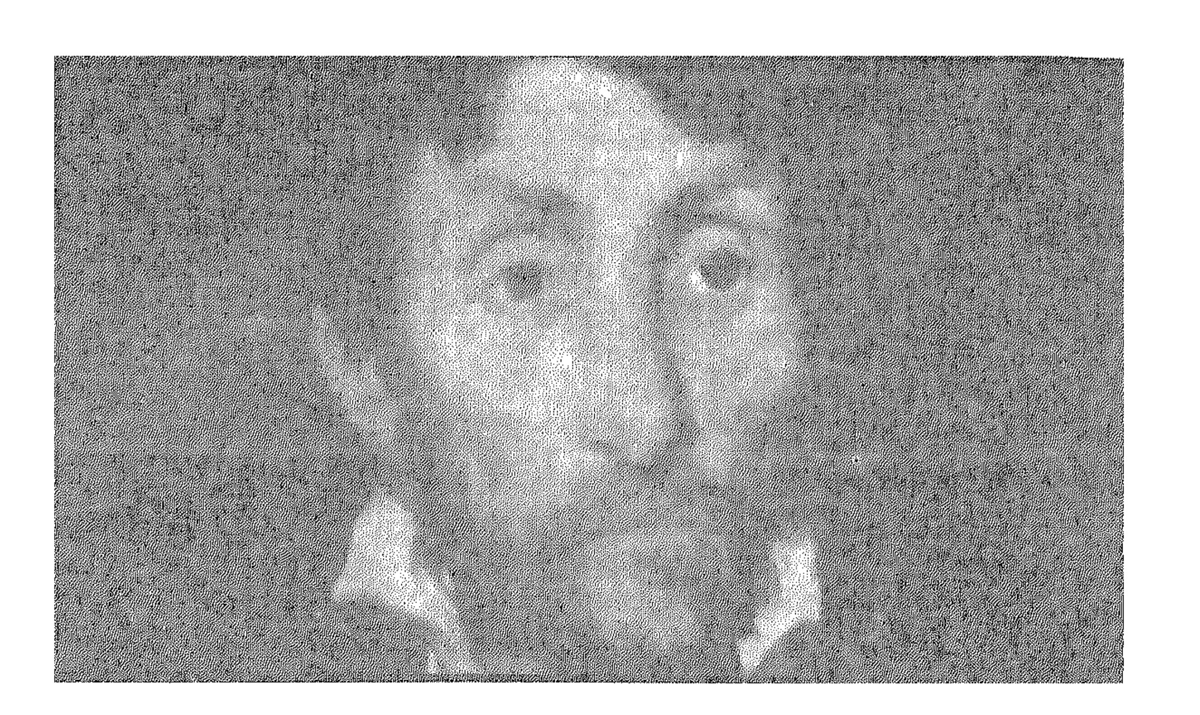
، ولا أقول عجز كل التفسيرات المطروحة شرحا للألم اليومى الذى منه يعانى عناءً شديدا . وها هو ذا يقترب من ذلك الشبح ، ويواجه الفضاء الرهيب بين ما يقال من كلمات وبين ما تعنيه فى حقيقة الأمر . والحق ، هذا الفضاء ، هذا الفراغ ، هو الألم . وفى نهاية الأمر ، وبالنظر إلى أن الطبيعة تمقت الفراغ ، فها هو ذا الجنون يندفع كى يملأه ، وإذا بالفارق بين المسرح والعالم ، وبين اللعب والمعاناة ، إذا به ليس له أى وجود .

إن المحنة الراهنة إنما تكمن فى اتساع ذلك الفراغ ، فى تلك الفجوة بين ممارسة الحياة بشكلها الطبيعى فى هذه اللحظة الحرجة من وجودنا على كوكبنا ، وبين الخطاب الإعلامى الموجه للرأى العام ابتغاء إعطاء معنى لتلك الحياة .

وبقدر ما تتسع هذه الهوة ، بقدر ما يزيد الأسى والشقاء .

ومن هنا استعداد حوالى ثلث سكان فرنسا للاستماع إلى ما يجئ على لسان «لوبان» زعيم أقصى اليمين من هراء .

فهذا النوع من الخطاب ، وإن كان يعزف على عدة أوتار كل منها أشد نشازا من الآخر ، إلا فإنه يبدو أكثر اتصالا بالاحداث الجارية فى الشوارع الآن .



الفنـــان بيـوردو جيـــريكو

فـــأى شــئ بـــدءا من التضــليل (الديماجوجية) وحتى الاستمناء المصطنع.. أى شئ يهون من أجل سد تلك الفجوة ، وغالبا ما يفقد الصواب .

● عيـون شـاخصة للمجهـول ●

ومما يلاحظ على اللوحات الخمس التى رسمها «جيريكو» فى لاساليبتيير (سراى المجانين الواقعة وسط باريس) أن عيون الجـالسين شاخصة ببصرها إلى مكان آخر .. متسائلة .

وهى كذلك لا لأن البصر مصوب إلى شئ بعيد أو متصور ، وإنما لأنها اعتادت ألا تسلط النظر على أى شئ ، متى كان قريبا .

فكل ما هو قريب يثير الدوار ، لا لسبب سوى أن هذا الشئ القريب غير قابل للتفسير حسب الشروح المطروحة ، وأغلبها مبنى على التمنى والتهويم ، ولا أقول الخداع فما أكثر ما نلتقى اليوم بنظرات شبيهة ترفض التركيز على الشئ القريب ، نلتقى بها فى القطارات ، أماكن وقوف السيارات ، طوابير الحافلات ، وساحات التسوق .

ثمة فترات تاريخية يظهر فيها الجنون على حقيقته .. بلوى شاذة ، نادرة الحدوث.

ولكن ثمة فترات أخرى ، مثل الفترة التى نعيشها الآن ، فيها يظهر الجنون وكأنه القاعدة ، وليس الاستثناء !!

أثارت مقالة الصديق سليمان محمد حسين فى هلال فبراير الماضى عن وثائق مصر شجونى ، وجددت أحزانى للحالة التى صارت عليها هذه الوثائق !.. وتبدو المشكلات التى تعانيها وثائقنا كما يلى باختصار :

دار الوثائق القومية :

ما إن انتهى تشييد البناء الجديد الذى تتوفر له إمكانيات أفضل نسبيًا من مقر الدار القديم المؤقت بالقلعة وبدأت عملية نقل الوثائق حتى ظهرت من جديد مشكلة عدم استيعاب هذا المبنى لكل الوثائق ، مما يجعلنا بإزاء نفس المشكلة القديمة الجديدة التى لا تراوح مكانها وهى حاجتنا الى مبنى ضخم يستوعب الوثائق التى تضمها الدار القديمة مع بقية الوثائق المبعثرة بين أمكنة كثيرة ، مثل سجلات المحاكم الشرعية الموجودة فى مخازن الشهر العقارى بالقاهرة والاسكندرية ودمنهور وغيرها مما قد يستجد وتدعو الحاجة الى ضمه مستقبلاً .

دار المحفوظات العمومية :

لاتزال دار المحفوظات تستأثر بجزء هام جداً من وثائق الدولة ، وكانت إلى عهد قريب الملتقى الذى يؤمه الباحثون ويجدون فيه بغيتهم دون عنت بحكم احتفاظها بعدد من الموظفين الأكفاء ، ولكنها فى السنوات الأخيرة أخذت تعانى من التدهور فى خدماتها ومرافقها وازدحام وضيق بنائها مما جعلها تستغنى عن جزء من وثائقها فى منتصف السبعينيات لدار الوثائق وهذا أمر طبيعى لا بأس به ، لكن غير الطبيعى هو بيعها لجزء هام من وثائق مصر فى القرن التاسع عشر كأوراق دشت بالطن الى باعة اللب وغيرهم ، وهو ما شاهده بعينى رأسه باحث زميل ، وهذا يعنى ببساطة أن بقية الوثائق قد تلقى نفس المصير المحزن ، مادامت موجودة بدار المحفوظات ولم تتحرك الجهات المسئولة لوقف هذا النزيف المستمر ، على الأقل بنقل ما تبقى من وثائق الى المبنى القديم لدار الوثائق بالقلعة وهو على بُعد خطوات من دار المحفوظات الى حين توفير مكان مناسب لحفظها ، لاسيما وأن دار المحفوظات لاتزال تحتفظ بجزء هام من وثائقنا .

أرشيف وزارة الأوقاف :

تحتفظ وزارة الأوقاف بحجج الأوقاف منذ العصر المماليكى ، وتقبع هذه الثروة التاريخية فى بدروم الوزارة وتعانى من عدم توافر طرق الحفظ والصيانة ، وقد تلف جزء هام منها نتيجة طفح المجارى منذ ثلاث سنوات ، وهذا خطر مازال يهدد ما بقى من محتويات هذا الأرشيف الهام اذا لم تمتد

يد المسئولين بالوزارة للاهتمام به وتصويره على ميكروفيلم أو نقله الى مكان أفضل فى طابق أعلى والاستعانة بالمتخصصين فى حفظ وترميم الوثائق وهى أمور تستطيع الوزارة مادامت تصر على التمسك بالوثائق وترفض الاستغناء عنها لجهة الاختصاص الوحيدة وهى دار الوثائق .

وأخيراً فإنى أعتقد أن اثارة قضية محنة الوثائق المصرية وما تتعرض له من مشاكل عدم توافر إمكانيات تصويرها على ميكروفيلم وحفظها وصيانتها والعناية بها وترميم ما قد يكون عرضة للتلف منها وضيق مبنى دار الوثائق الجديد فضلاً عن الإهمال والتسيب وخطورة فقدانها بدور الأرشيف غير المتخصصة سواء بأبنية الشهر العقارى ودار المحفوظات ووزارة الأوقاف لا تقل أهمية عن قضية دار الكتب إن لم تكن أولى بالرعاية والإهتمام .. وعلى أية حال فالقضية واحدة وهى خطر تعرض تراث الأمة الفكرى والثقافى للضياع .

محسن على شومان — مدرس مساعد بآداب الزقازيق

أم كلثوم فى ذكراها السابعة عشرة

مَضَيْتُ أسـأل فى دَرْبِ القنَــاديلِ عَنِ الشُّعَاعِ الَّذى من كَفِّ جبـريلِ
هَوَى إلى الأرْضِ مُخضلَّ الرُّؤى قَلِقًا كأنَّمــا ريعَ مِنْ وَجْـــدٍ وترْتِيلِ
فمَا سَمِعْتُ سِوىَ الإيقاعِ يُحفِزُنى إلى السَّماءِ بِتَرْجيـــعٍ وَتَهْليـــلِ

وأقبلتْ أمُّ كلثــوم وقــدَ أذنَتْ ... إلى الدُّعَــاةِ بتَطْوَافٍ وتقبيــلِ

وقــدْ حَطَطتُ على ركْنٍ تُحَــاوِرُنِى ... فيه البــدورُ مَحُوطًا بالأكاليــلِ

وَسَــامِرُ الحَىِّ جَوَّابُ المدَى أبَدًا ... قَدْ تَاه بَيْن تَوَاشــيح وتَرْسَــيلِ

فى كــلِّ عينٍ أرَى لى دَمْعــةٌ خفقَتْ ... وكــلَّ قلبٍ صَبِّى كــانَ يَصْبُو لى

قَدْ ناهَزَتْنى أغــاريدُ الهَــوَى يَفِعًا ... وكَبَّلَتْنِى بأنغــامٍ وتَرْتيــلِ

وتَيَّمَتْنى بأحْــلامى تُعَلِّلُنى ... باللَّحْنِ يَجْلُو تبَارِيحى وتَعْليــلى

وأمُّ كلثــوم مدّتْ بَيْنَنَــا شَفَقًا ... تَخْتَــالُ من فَوقه شتّى التّماثيلِ

فإنْ خطَوْتُ إلَيْهــا سَــامَنى شَغَفى ... وَجْــدًا مُمضًا وعَادَتْنى تَهاويلى

كأنّنى ذَلِكَ المجنُــونُ بَــادَرَه ... شَوْقٌ لليْلَى وَمَــا قلْبى بِمَأْمُولِ

د. حسين خريس

حيــرة وأمل

أىُّ ليلٍ فى مسائى ..

أىُّ نجمٍ بسمائى ..

صرتُ لا أعلمُ دائى من دوائى

باتَ ضحكى كَبكائى

وأنينى كَغنائى

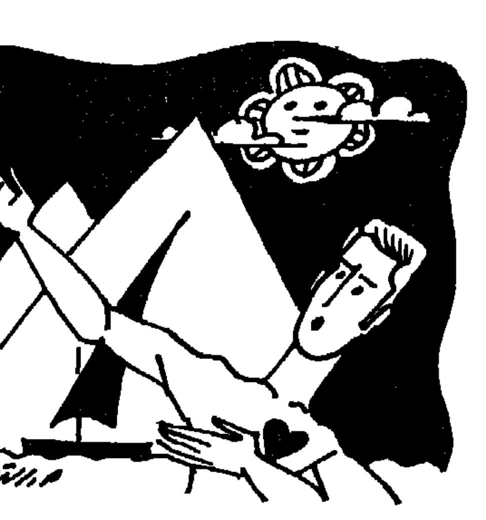
وشجونى غيمةٌ تكسو فضائى

فى دروبى تاهَ حلمى

اختفى فيها رجائى

وأنا فى ظُلمةِ الأيامِ أسرى

ومسيرى كَبقائى



غربةٌ ما نلتُ منها ، غير سقمٍ وعناءِ

موطنى أنتَ عيونى

لكَ حبى وولائى

لكَ إيماء قلبى

لكَ نبضى ووفائى

ولقد أقسمتُ أنى

سأوافيكَ عطائى

فإذا ما حارَ أمرى .. أنتَ نورى وضيائى

درهم جبارى – سان فرنسيسكو

أغـــلاط مطبعيـــة

فى مقالة « عزيزى القارىء » بعدد مارس الماضى من « الهلال » ، وقعت بعض الأغلاط المطبعية ، منها :

– « توقف المؤرخ عند ظهور الإسلام » .. وصوابها : « ظُهْر الإسلام » .. وهو عنوان الكتاب الذى أشارت إليه المقالة من تأليف المرحوم الأستاذ أحمد أمين .

– وفى فقرة أخرى : « إن أهل هذا الدين قد بلغوا بجموحهم .. » .. والصواب : « بجمودهم » .



أخشاك حبيبى ..

أرهب عينيك

الليل الكامن يسرى .. يتسلل داخل عمقى ..

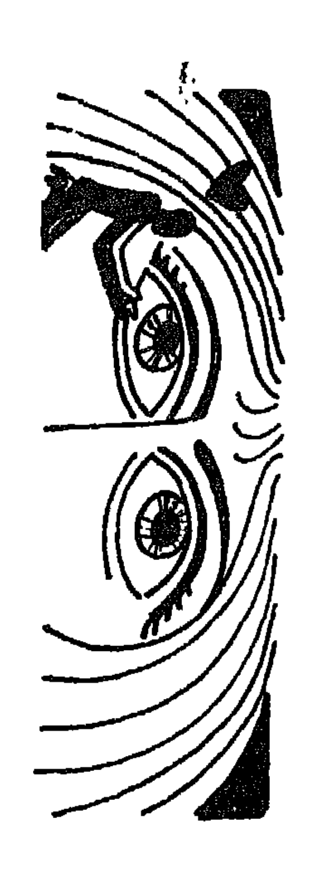
يطرق أبوابى .. يفتحها .. لا ينتظر الإذن ..

أعشق عينيك .. أتوغل داخل ليلهما ..

أتلمس هذا .. الشىء ..

هذا الشىء خرافى .. لم أعرفه ..

يغرق أحلامى فى نشوة ليل دافىء ..



أخشاك حبيبى .. أتراجع
دعنى أرجوك !..
ترنو .. فى صبر تغزونى .. وقلاعى لا تصمد
ما أنت دماء .. وعروق .. وعظام مثل الناس
بل أنت عيون سوداء ..
تدعو .. وتلح .. ولا تيأس ..
جمعت حبات الحب .. نظمت عقدا نورانيا
ما يعنى رجل يتمطّى فى عمق القلب ؟
ما يعنى العالم فى رجل ؟..
فى داخل هذا العالم خبئنى
مازلت أحب !..

سامية عبد السلام

العقاد وكارليل

● كان الأديب الكبير عباس محمود العقاد يذكر كثيراً أنه من المعجبين بالكاتب الانجليزى كارليل ، فمن هو هذا الكاتب ، وما سبب إعجاب العقاد به ؟!..

عبد الراضى حسن شديد - طالب ثانوى - أسيوط

- إسمه توماس كارليل ، وهو كاتب ومؤرخ انجليزى ولد فى العقد الأخير من القرن الثامن عشر ، ودرس القانون ثم كتب فى الأدب والفلسفة والتاريخ ، ونقد المجتمع الإنجليزى فى عصره نقداً شديداً ، وألف كتاباً عن الثورة الفرنسية باعتباره من معاصريها ، وهو من أهم المراجع عن تلك الثورة ، ولعل سبب إعجاب العقاد به كتابه المسمى « البطولة وعبادة الأبطال » فهذا الكتاب كان - فيما يبدو - يجد صدىً عند العقاد المعجب بالأبطال والبطولة ، والذى كان يعتبر نفسه أحد الأبطال .. وقد توفى كارليل سنة ١٨٨١ بعد أن عاش ستة وثمانين عامًا .

عندما كنت صغيرا



عندما كنت صغيرا
كان القلب رضيعا
يلهو بين الأطفال
يعزف أنشودات حمقاء
لكن ليس بها سفك دماء
كان البيت هو العالم
لكن .. حجرات البيت فسيحة
أركض فيها دون لغوب
أملؤها صيحات مرحة
كانت مدرستي دار غِنَاءْ
كنا نتلقن درس الإملاء
كنا نتخاصم .. نتصالح ..
عندما كنت صغيرا
كان الجسد بريئا
يحمل قلب العصفور
رويدك أيامي ... اتئدي ..
هل بعدُ تُراكِ تعودين ؟!

ياسر عبد البصير- آداب عين شمس

رياح أمشير

تهب في عيونِ طفلة كئيبة
وتصفعُ البيوت بالتراب
فتنحني وتكمش
كمثل عصفور الشتاء اليتيمْ
تهب كالجنودِ بالصيّاح والرعودْ
تحطُّ سُنبكَ الصقيعِ فوق هامة الشجرْ



ينّن بالحنين للربيعِ
ويَرقب الحياةَ فى الجذورْ
تهب فى « الجِرار » و « القُلَلْ »
فتلعن الشتاء فى سقيفة العراء والتعبْ
وتبتئسْ ..
كالهرِّ فى مُلاءَة الكَسَلْ
ترى .. متى تعمُّها الشموسُ بالشروقِ والأمَلْ

نوبى حسانى محمود – كلية الآداب – قنا

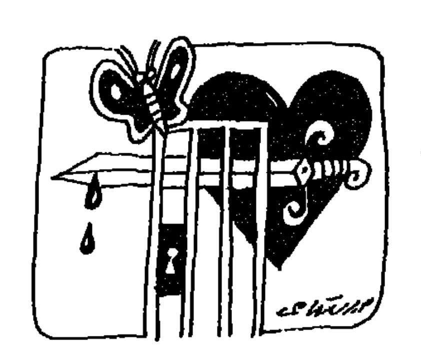
اختـــلاط المفـــاهيم

من المفاهيم التى اختلط أمرها على الناس فى أيامنا الحاضرة ، لقب « الشاعر » ولقب « الزجال » .. فأنا أشاهد على شاشة التليفزيون لقاءات يجريها المذيعون مع زجالين يؤلفون الأغانى فيقدمونهم الى المشاهدين بلقب « الشاعر » وأحيانا « الشاعر الكبير » .. ومن الواجب المحافظة على الفروق الفنية الدقيقة بين لقب « الشاعر » ولقب « الزجال » لكيلا يختلط الحابل بالنابل ، ولا تعرف الأجيال الجديدة الفرق بين هذا وذاك !..

عبد الوارث محمد أبو بكر – أسيوط

الرائـــــد

دَمٌ غِمْدُ كُلِّ السيّوف ، وقَلبٌ فراشَةُ حُبٍّ تَطُوفْ
كما يَسلُكُ الفَجْرُ بين الدُّجَى والصَّباح
ويرجعُ مُتَّشِحًا بالجراحِ كأغْنيَةٍ فى الخريفْ !!
ولم يَزَلِ العَقْلُ يَنْشُرُ ظِلَّ جناحَيْه ... ،
فى خُفْيَةٍ يُخْرِجُ الحَرْفَ مِن طَبَقاتِ الرَّماد
سماءً تُهَيْكِلُ شَمْسَ المدائنِ خارِطَةً للبلاد



ولا تستطيعُ اختِراقَ السّجونِ التى تحبِسُ الوَجَعَ ...

المُتَوَحّدَ بالليلِ ، لا تستطيعُ التّجلّى بحجمِ الهَوى السرمدِى

ولكنّها تتَلَمّسُ خَيْطَ الرُّقِى

لِتَهْدِى اليهِ العُيونْ !!!

عبد الرحيم الماسخ - سوهاج

مع أصدقائنا

الشعراء السادة : طارق عثمان عرابى .. السيد التحفة .. محمد عبد المنصف الزيبق .. الحسين محمود خضيرى :

- أشعاركم تحتاج الى مراجعة دقيقة من ناحية الأوزان ..

محمد عبد المطلب حامد - جراجوس - قوص :

- شعرك صحيح الأوزان ، ولكن أين المعانى الشعرية ؟!

رمضان عبد اللطيف حامد - كلية الاداب - قنا :

- أنت مازلت ناشئا فى الشعر ، ونحن نشجعك لتواصل طريقك حتى تبلغ درجة النضج ، ولكن يبدو أنك شديد الإعجاب بشعرك ولا تريد إلا أن ننشر قصائدك كاملة ، وهذا لا يفيدك ، والأفضل نشر الفقرات الجيدة منها فقط ، ولا تستسلم يا بنى لوسوسة الشيطان لك بالغرور ، فإنه يقتل الموهبة !..

اعتذار

ونعتذر الى أصدقائنا الكثيرين الذين كتبوا الينا ولم نستطع التنويه برسائلهم الكريمة ، نظراً لضيق المقام ، والمواعيد بيننا متجددة من شهر الى شهر ، ونرحب بهم دائماً ونسعد برسائلهم ..



بقلم : د . شكرى عياد

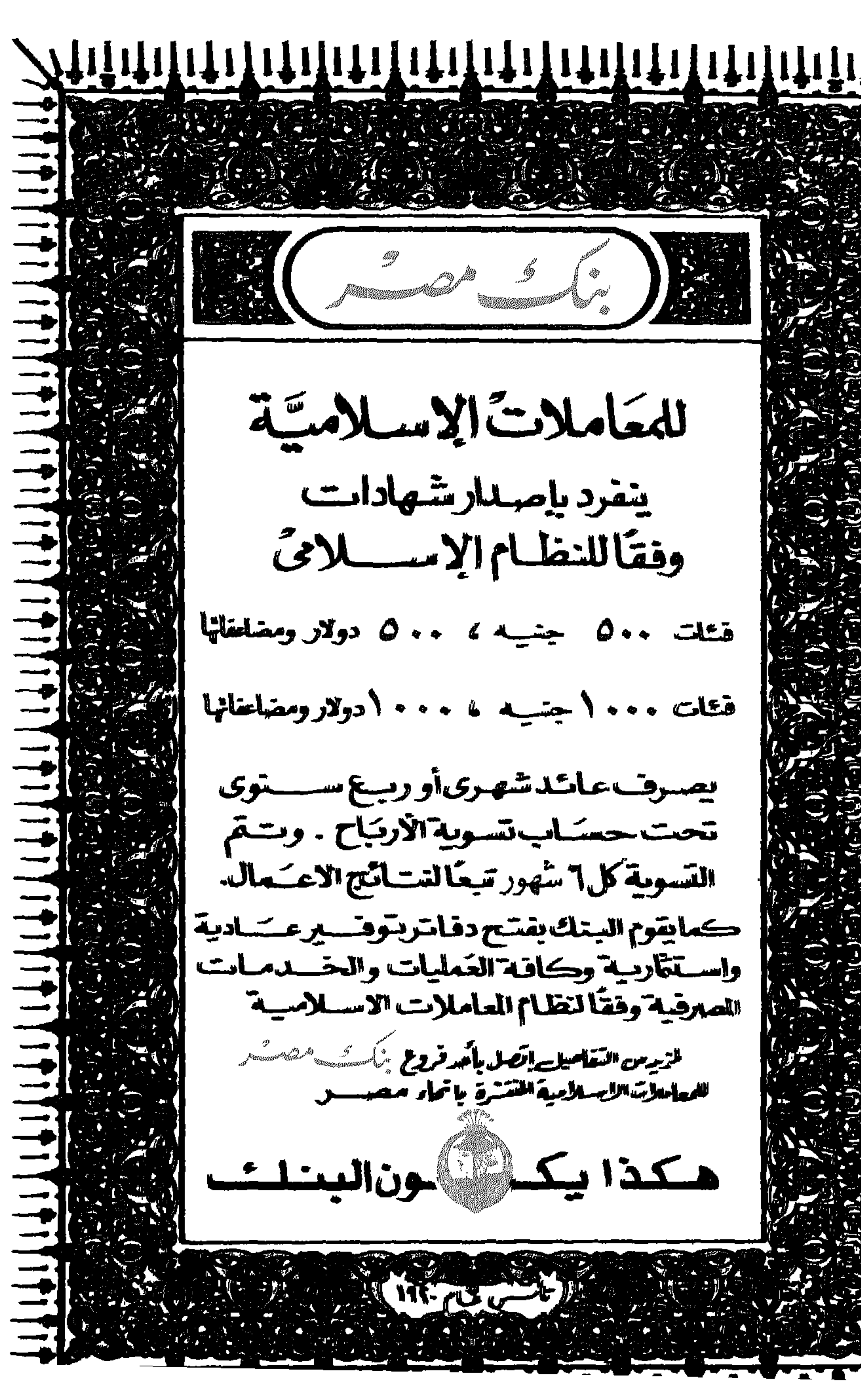
التعليم : المشكلة والحلول والمسئول

لست من المتشائمين . ولا أقول أيضاً إننى متفائل . فمشكلاتنا جميعا - ومنها مشكلة التعليم - هينة إذا نظرنا إليها نظرة موضوعية ، ولكنها عسيرة بل مستحيلة الحل مع فقدان الإرادة ، والإرادة المفقودة حالة يمكن أن نتجاوزها ، ولكنها مستحكمة فى الوقت الحاضر إلى درجة أشبهت « الإرادة السلبية » ، واستحقت عند بعض الكتاب إسم الانتحار الجماعى .

إليكم - على سبيل المثال - حلاً لمشكلة التعليم . أصعب عناصر المشكلة لأنه عنصر مالى فى المحل الأول - هو المبانى التعليمية . وواقع الحال أن مبانينا التعليمية لا تشغل بعملية التعليم إلا أقل من نصف العام . الحل البديهى - لولا فقدان الإرادة - هو أن تبقى مدارسنا مفتوحة للتعليم طول العام بعبارة . أخرى أن يدرس نصف الطلاب بصورة متصلة من أول أكتوبر إلى آخر مارس مثلا ، ونصفهم الآخر من أول أبريل إلى آخر سبتمبر . (مع حذف العطلات الكثيرة التى لا معنى لها ، وضغط امتحانات آخر السنة فى أسبوع واحد ، كما كان الحال قديما ، عندما كان التعليم تعليما) .

هذا هو الحل الأساسى ، وستترتب عليه تغييرات كثيرة فى تفاصيل « نظام » التعليم ، لا العملية التعليمية ذاتها ، التى أزعم أنها سوف تتحسن كثيراً ، ولكننى لن اتكلم عن التفاصيل ، لأن الأمر كله متوقف على « الإرادة » .

كما أننى لا أتقدم بهذا الاقتراح إلى وزير التربية والتعليم ، لأننى أعلم أنه ليس مسئولاً عن شلل الإرادة الذى أصبح مرضاً متوطنا بين المصريين ، ولو تبناه لثارت عليه ثائرة الإداريين والمعلمين والتلاميذ وأولياء أمور التلاميذ . ولكنى أتوجه به إلى هؤلاء جميعا ، وأدعو الله أن يوجد فى نقابة المعلمين مثلاً من يراه جديراً بمجرد التفكير ، ومن لا يخاف أن يتهمه الناس بالشذوذ حين يدعو إلى إعادة النظر فى المشكلة التعليمية من أساسها . فقد مضى الزمن الذى كنا نجد فيه « الحكومة » مسئولة عن كل شىء وأصبح من واجب كل مصرى أن يشعر بأنه مسئول عن مستقبل مصر كلها ، ولا سيما إذا كان قريباً من موقع الاختصاص !


بنك مصر
للمعاملات الإسلامية
ينفرد بإصدار شهادات
وفقاً للنظام الإسلامى
فئات ٥٠٠ جنيه ، ٥٠٠ دولار ومضاعفاتها
فئات ١٠٠٠ جنيه ، ١٠٠٠ دولار ومضاعفاتها
يصرف عائد شهرى أو ربع سنوى
تحت حساب تسوية الأرباح . وتتم
التسوية كل ٦ شهور تبعاً لنتائج الاعمال.
كما يقوم البنك بفتح دفاتر توفير عادية
واستثمارية وكافة العمليات والخدمات
المصرفية وفقاً لنظام المعاملات الاسلامية
لمزيد من التفاصيل إتصل بأحد فروع بنك مصر
للمعاملات الإسلامية المنتشرة بأنحاء مصر
هكذا يكون البنك
تأسس عام ١٩٢٠



مصر للطيران

أهلاً بكم فى عالمنا ...



الهلال
العام المائة
مايو ١٩٩٢ • الثمن ١٠٠ قرش

غسـالات
أتوماتيكية

Lolly
CONTROLLED FOAM
FOR ALL AUTOMATIC WASHING MACHINES

لولى

PRODUCT OF
ALEXANDRIA OIL & SOAP Co.
ALEX. EGYPT

SBAA. Sami Belal

لولى

• رغوة محدودة ممتدة المفعول.
• الوحيد الذى يتميز باحتوائه على أنزيمات فعاله ... لها القدرة على إزالـة البقع البروتينيـة

ب عصرى للتنظيف
داء فعـال ممتـاز

شركة الإسكندرية للزيوت والصابون

الهلال

مجلة ثقافية شهرية تصدرها دار الهلال
أسسها جرجى زيدان عام ١٨٩٢

رئيس مجلس الإدارة
مكرم محمد أحمد

نائب رئيس مجلس الإدارة
عبد الحميد حمروش

رئيس التحرير
مصطفى نبيل

المستشار الفنى
محمد أبو طالب

مدير التحرير
عاطف مصطفى

المشرف الفنى
محمود الشيخ

سكرتير التحرير التنفيذى
عيسى دياب

الادارة : القاهرة – ١٦ شارع محمد عز
عرب بك (المبتديان سابقا)
ت : ٣٦٢٥٤٥٠ (٧ خطوط)
المكاتبات : ص . ب : ٦١٠ – العتبة –
الرقم البريدى : ١١٥١١ – تلغرافيا
المصور – القاهرة ج . م . ع .
مجلة الهلال ت : ٣٦٢٥٤٨١
تلكس : 92703 Hilal un
كس : FAX : 3625469

السنة المائة – مايو ١٩٩٢ – شوال ١٤١٢ هـ

التصوف منزع علمى وعملى نزعت إليه الحياة الروحية الإسلامية منذ نشأتها فى صدر الإسلام ، وعلى تعاقب الأطوار التى مرت بها فى تطورها التاريخى ، والتصوف بهذا المعنى هو مرآة هذه الحياة الروحية الإسلامية التى يخضع فيها الإنسان لألوان من الرياضة والمجاهدة ، ويعد فيها قلبه لمعرفة الحقائق عن طريق الكشف والمشاهدة .

فى هذا الجزء الذى نقدمه نحاول إلقاء الضوء على التصوف فى مصر كظاهرة إجتماعية ، وكيف جاءت مفاهيمه لدى العامة ، مغايرة تماما لما كان ينبغى أن يحدث .

فهناك من يحاول جهده إيجاد صلة ما بين التصوف والإسلام على أساس ما يرد فى القرآن الكريم والحديث الشريف من نصوص تدعو إلى البر والإحسان والتقوى والورع ، وتحذر من الانغماس فى الدنيا .

وهنـاك من الباحثين من لا يرى أى صلة تربط التصوف بالإسلام ، وينفى وجود أى علاقة بينهما لأن الإسلام منهج إلهى متكامل للحياة ، أما التصوف فإفراز فكرى بشرى أحاطت به مؤثرات مختلفة ..

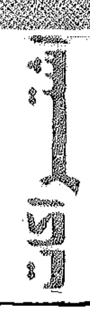
تناولنا « الطرق الصوفية فى مصر » ، والتصوف مع مسيرة التاريخ الإسلامى ، مجالس الإنشاد الصوفى ، محاولة قراءة المسكوت عنه فى خطاب ابن عربى ، كيف تكلم الشعرانى ، والقصة عند الصوفية ، « السما » وطريق الوصل بين السماء والأرض » فى محاولة لإلقاء الضوء على كيفية وضوح الرؤية لفكر المتصوفة وكيف أسيء فهمه لدى العامة والسذج !!

في هذا العدد

• جزء خاص : التصوف •

• فكر وثقافة •

الغلاف
بريشـة الفنـان
محمد أبو طالب



قيمة الاشتراك السنوى ١٢ جنيها فى ج.م.ع. . تسدد مقدما نقدا أو بحوالة بريدية غير حكومية - البلاد العربية ١٢ دولارا - أمريكا وأوروبا وآسيا وافريقيا ٢٥ دولارا - باقى دول العالم ٣٥ دولارا .

والقيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال - ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد .

• قصة وشعر •

• فنون •

• رسائل صحفية •

• شهريات •

الأبواب الثابتة

سوريا ٥٠ ليرة ، لبنان ١٠٠٠ ليرة ، الأردن ١٠٠٠ فلس ، الكويت ٧٥٠ فلسا ، السعودية ٨ ريالات ، الجمهورية اليمنية ٢٥ ريالا . تونس ١,٥ دينار ، المغرب ١٥ درهما ، البحرين ٨٠٠ فلس ، قطر ٨ ريالات ، مسقط ٨٠٠ بيسة ، غزة والقدس والضفة ٨٠ سنتا ، ايطاليا ٢٧٠٠ ليرة ، لندن ١٢٥ بنسا ، نيويورك ٤ دولارات ، الامارات العربية المتحدة ٨ دراهم ، الجماهيرية الليبية العظمى ١ دينار .

عزيزى القارئ

(دار الهلال

خطواتنا فى العام المائة من عمر « الهلال » تحظى منك يا عزيزى القارئ باهتمام يقظ ، ومتابعة حميمة ، ومحبة صادقة ، نلمسها فى رسائلك التى لا تنقطع عنا ، وفى زياراتك ومكالماتك وبرقياتك واقتراحاتك التى يتزايد عددها يوما بعد يوم فنحس نحن العاملين فى « الهلال » أننا مواطنون فى جمهورية واسعة للقراء العرب تمتد من المحيط إلى الخليج ، وتتواثب فيها أجيال جديدة تتعلم من الأجيال القديمة ، بحيث لا ينقطع الخيط الواصل بين الماضى والحاضر والمستقبل ، مع استمرار عمل القانون الأزلى : حلول الجديد محل القديم ..

إن أكثر من سبعين فى المائة من قراء « الهلال » فى سنة ١٩٩٢ - العام المئوى للهلال - هم من الشبان الجدد الوافدين إلى عالم القراءة لأول مرة ، والذين لم يلتقوا بالهلال إلا فى الآونة الأخيرة ، ولم يعرفوا أنه « أقدم » مجلة مصرية وعربية إلا فى المهرجان المئوى الذى وضع القراء فيه التاج المئوى على هامة الهلال .

إن « الهلال » الذى بدأ فى سنة ١٨٩٢ كمجلة شهرية وحيدة يصدرها فرد واحد هو جرجى زيدان قد تطورت مرحلة بعد مرحلة ، حتى صارت فى العشرينات - قبل سبعين عاما - دارا كبيرة تصدر مجموعة من الصحف على غرار دور الصحف الكبرى فى أوربا وأمريكا ، وكانت مجلة « المصور » هى أكبر شقيقة للهلال صدرت فى العشرينات ، وهى الآن ، بعد سبعين عاما تقريبا تتصدر المجلات الأسبوعية المصورة فى مصر والعالم العربى والشرق الأوسط ..

وإلى جانب « المصور » تصدر دار « الهلال » مجموعة من الدوريات العريقة الراسخة من بينها « حواء » و « الكواكب » و « سمير » و « ميكى » و « طبيبك الخاص » .. فضلا عن إصدارات النشر الخاص لطائفة من أهم المؤلفات العربية والمترجمة ..

عزيزى القارئ

إن دار الهلال بتاريخها المئوى تستعد كلها منذ الآن للاحتفال بالعيد المئوى بالمجلة التى تحمل اسمها الشهير العريق ، مجلة الهلال ، هرم الثقافة المصرية والعربية

تستعد لعيدها المئوى)

الذى تطل على القراء من فوقه مائة عام من الآداب والعلوم والفنون تواصلت بلا انقطاع ، جيلا بعد جيل .

وفى هذه المناسبة نشرت مجلة « المصور » فى أحد أعدادها الأخيرة كلمة عن العيد المئوى للهلال قالت فيها : « نحن ننظر من الآن لهذا الاحتفال بأكبر قدر من التفاؤل ، لأنه يقام فى زمن الرئيس حسنى مبارك ، حيث تتوهج فرص الإبداع ، دون قيد على فكر أو رأى ، الأمر الذى أدى إلى تواصل فريد بين الحكم والثقافة ، وفى هذا السياق فإن مناسبة « الهلال » فرصة لأن يصبح الاحتفال احتفالنا جميعا ، ابتداءً من رئيس الدولة الذى أعاد للثقافة اعتبارها وللعقل المصرى قيمته » .

ووزارة الثقافة أيضا ترى أن الاحتفال بالعيد المئوى للهلال ينبغى ألا يكون مقصورا على دار الهلال وأصدقائها وقرائها ، عل كثرتهم ، وقد قال السيد فاروق حسنى وزير الثقافة إن الوزارة ستقف طويلا أمام مناسبة مرور مائة سنة على صدور مجلة الهلال .

عزيزى القارئ

هكذا سيكون الاحتفال بالهلال فرصة لاجتماع وزراء الثقافة العرب مع الأدباء والشعراء والفنانين ورؤساء تحرير ومحررى المجلات الثقافية والمهتمين بالثقافة العربية فى كل أنحاء العالم ..

وستعقد الندوات وتلقى المحاضرات وتتم الاجتماعات فى هذا السياق ، ويلتقى رؤساء تحرير الهلال السابقون وهم خمسة من كبار الأدباء الذين مازالوا يمتعون القارئ بكتاباتهم فى مختلف الصحف وهم كامل زهيرى ورجاء النقاش د . على الراعى و د . حسين مؤنس وكمال النجمى أما رؤساء التحرير السابقون الذين توفاهم الله - وهم خمسة أيضا - (جرجى زيدان - أميل زيدان - أحمد زكى - على أمين - صالح جودت) فستتلألأ أسماؤهم الكريمة فى سماء الاحتفالات بالتكريم والتبجيل .

يا عزيزى القارئ ..

إننا ندعوك إلى احتفالاتنا التى سنعلن عنها فى موعدها .. وإلى اللقاء ! ..

« المحرر »

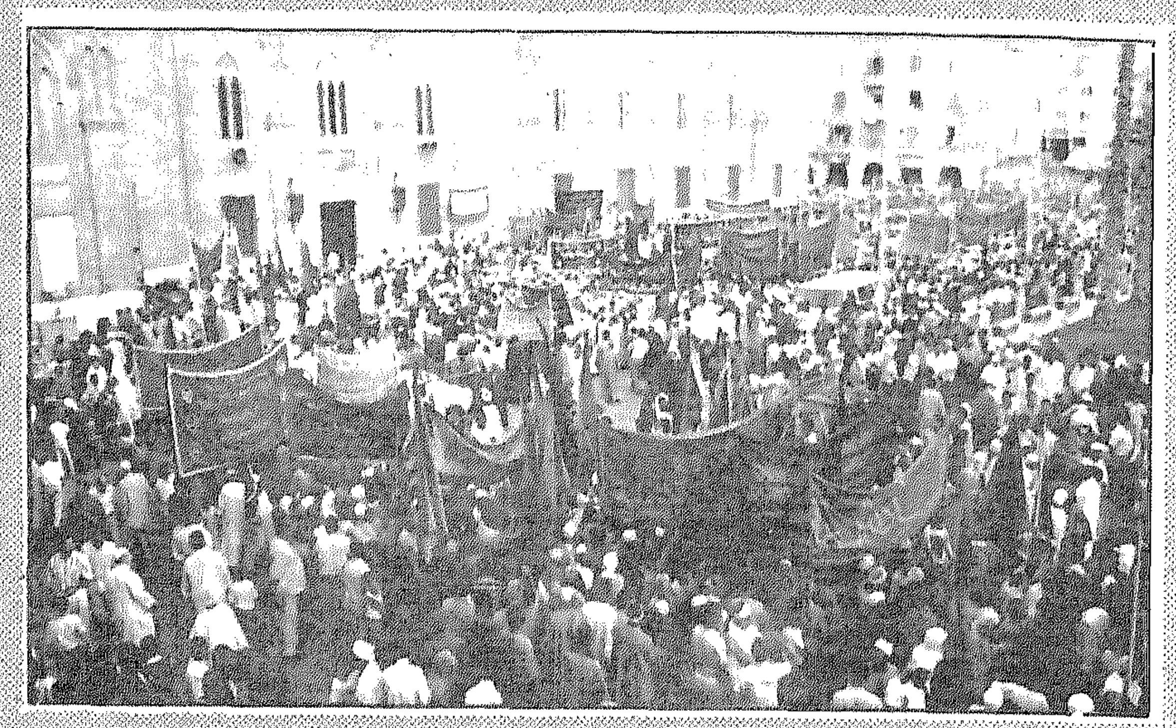


الطرق الصوفية في مصر

بقلم : د . السيد رزق الطويل

هذه دراسة موجزة موضوعية عن الطرق الصوفية فى مصر، أصل وجودها وتأثيراتها سلبا وإيجابا فى سلوكيات المجتمع المصرى ، وهذا يتطلب منا تمهيدا يكشف أبعاد العلاقة بين التصوف والإسلام ، يمكن أن ننطلق منه إلى الموضوع الذى نتصدى لدرسه.

وبادئ ذى بدء أريد أن أقرر أمرا ستؤكده هذه الدراسة هو أنى سأسير على نهج الحيدة التامة ، والتعامل النزيه مع النصوص والأحداث لنصل إلى نتائج كاشفة عن آثار الظاهرة الصوفية فى مصر .



المدافعــون عــن التصــوف يــرون أنه نمـط أعلى من التـديـن

التصوف والإسلام

هذه قضية شغلت الباحثين فى مسيرة التفكير الإسلامى .

فهناك من يحاول - جهده - إيجاد صلة ما بين التصوف والإسلام على أساس ما ورد فى القرآن الكريم والحديث الشريف من نصوص تدعو إلى البر والإحسان والتقوى والورع ، وتحذر من الانغماس فى الدنيا .

بل إنه يتكلف فى الأمر فيحاول أن يوجد بذورا للتصوف فى العصر الجاهلى مستندا إلى ظاهرة المتحنفين ، وإشارات بعيدة فى الشعر الجاهلى ، ومنه قول النابغة من رثاء النعمان :

إنى وجدت سهام الموت معرضة
بكل حتف من الآجال مكتوب (١)

وهناك من الباحثين من لا يرى أى صلة تربط التصوف بالإسلام ، وينفى وجود أى علاقة بينهما ؛ لأن الإسلام منهج إلهى متكامل للحياة وهداية الأحياء ، وأما التصوف فإفراز فكرى بشرى أحاطت به مؤثرات مختلفة ، ومحاولة إيجاد علاقة بينهما كمحاولة إيجاد علاقة توفيقية بين الدين والفلسفة على نحو ما اتجه إليه الكندى والفارابى وابن سينا ، وابن رشد وغيرهم من فلاسفة الإسلام .

كاتب المقال عميد كلية الدراسات العربية والاسلامية (جامعة الأزهر)

١ - أنظر نشأة التصوف الاسلامى د . ابراهيم بسيونى ص ٣٧ وما قبلها

ويؤكدون وجود علاقات وثيقة بين التصوف والبوذية ، والبراهمية وغيرهما من الديانات الوثنية من ناحية والفكر الإغريقى كالأفلاطونية الحديثة من ناحية أخرى [1]

ولكى تتضح تماما أبعاد هذه القضية أريد أن أسوق أمورا :

أولها : أن التصوف ظاهرة بشرية تظهر فى سلوك البشر بتأثير ظروف بيئية واجتماعية مختلفة ، وتنتهى بنظريات فلسفية أحيانا كالفناء ووحدة الوجود ، والاتحاد والحلول ، ومن هنا عرفتها الديانات الوثنية القديمة ، وعرفها الفكر الإغريقى ، كما عرفتها اليهودية والنصرانية .

ثانيها : ظهر التصوف بمقاييسه الفكرية والفلسفية فى البيئة العربية والإسلامية فى النصف الثانى من القرن الثانى للهجرة ؛ إذ تهيأت فى ذلك الوقت البيئة المواتية لاستنباته وتبدو البيئة مهيأة لنزعة التصوف فى أمرين :

١ - ظهور نزعة الزهد والعزوف عن الدنيا ، وهذه النزعة لم تأت بصورة طبيعية أو تعبيرا عن مقصد إسلامى يراد تحويله إلى سلوك عملى ، فلم ترد كلمة زهد فى القرآن الكريم إلا فى موضع واحد ، وفى معنى غير المعنى الذى يعنيه المتصوفة وهو قوله تعالى فى سورة يوسف (وكانوا فيه من الزاهدين) ، وكذلك لم يدع النبى صلى الله عليه وسلم إلى الزهد فى شىء إلا فى المحارم فحسب .

وكان ظهور هذه النزعة بمثابة رد الفعل للانحلال ، والتيار الحضارى الجارف فى عهد العباسيين .

يقول العلامة ابن خلدون : فلما فشا الإقبال على الدنيا فى القرن الثانى وما بعده وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية والمتصوفة [2] .

وعبارة ابن خلدون هنا تشير إلى أن اسم التصوف أطلق أول ما أطلق على أصحاب سلوك إسلامى فيه إمعان فى زهادة ، هذه الزهادة لم تكن من مقاصد الإسلام الرئيسية .

وهو فى هذا يتفق مع العلامة ابن تيمية فى وصفه هذه الطبقة من العباد بصوفية أهل العلم الذين كانوا يقولون : علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة [3]

٢ - الأمر الثانى الذى هيأ لظهور التصوف الفلسفى ظهور الفكر الدخيل فى هذه

---

١ - انظر الصوفية فى نظر الاسلام للأستاذ عاطف الزين من ص ١٤ - إلى ص ٣٢ ط لبنان سنة ١٩٦٩ وأنظر كتاب هذه هى الصوفية الشيخ عبد الرحمن الوكيل بتحقيقنا ١٩٧٧ .

٢ - مقدمة ابن خلدون جـ ٣ ص ١٠٦٣ شرح وتحقيق د . وافى ١٩٦٠ .

٣ - انظر الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان .

الفترة ، وتسلطه كالفلسفة اليونانية ، والديانات الشرقية حتى وجدنا الزندقة اتخذت طريقها لمجتمع المسلمين فى عصر العباسيين ، وفى عهد الخليفة المهدى الذى تصدى لها ، ووقف إلى حد ما فى مواجهة تيارها .

ثالثها : اصطلاح التصوف وافد على البيئة الإسلامية ، ولذلك لا نجد له أثرا فى معجم ألفاظ القرآن الكريم ، ولا فى حديث نبوى صحيح ، بل لم تأت فيهما إشارة للتصوف بلفظه أو معناه ، وهذان المصدران الصحيحان فى متناول الجميع ، ومن عنده ريب فى هذا التعميم فليأت ببرهان يقطع التشكك باليقين .

ولهذا اختلف الباحثون – سواء المؤيدون منهم للتصوف أم المعارضون – فى أصل هذا اللفظ واشتقاقه .

فالمتصوفة يرونه مأخوذا من الصفاء ، والصفوة ، يقول صاحب اللمع : إن العبد إذا صفا من كدر البشرية ، يقال له صوفى فهو صوفى (١)

وهذا الاشتقاق مرفوض لغويا حتى من أعلام المتصوفة ؛ إذ يقول القشيرى : هو بعيد من مقتضى اللغة (٢)

وهناك من المتصوفة من يرجع اللفظ إلى « الصفة » التى كانت فى مؤخرة مسجد النبى صلى الله عليه وسلم بالمدينة حيث كان ينزلها فقراء المسلمين الذين ليس لهم مأوى ، وكان هؤلاء يكتسبون أرزاقهم عند إمكان الاكتساب ولا ينصرفون عنه إلا إلى ماهو أوجب .

وهذه محاولة قصد بها وصل التصوف بعصر النبوة لإيجاد صيغة مشروعة له ترده إلى عهد الأسوة الحسنة . يقول السهروردى : قد اجتمعوا بمسجد المدينة كما يجتمع الصوفية قديما وحديثا فى الزوايا والرُّبط لا يرجعون إلى زرع ، ولا إلى ضرع ، ولا إلى تجارة .. (٣)

وهذا الوصف لأهل الصفة مع مجافاته لواقعهم وهم من أهل العمل والجهاد فإنها – أى النسبة للصفة – تخالف قواعد اللغة ؛ لأن النسب للصفة صفى لا صوفى .

تعبير عن الزهد

والذى ارتضاه جمهرة الباحثين وتسانده اللغة هو أن صوفى نسبة إلى الصوف الذى اتخذه هؤلاء شعارا لهم ، معبرا عن زهادتهم ورغبتهم عن الدنيا .

---

١ – اللمع لأبى نصر بن السراج ص ٤٧ ت د. عبد الحليم محمود ١٩٦٠
٢ – الرسالة القشيرية ص ١٢٨
٣ – عوارف المعارف ص ٤٧

وقد حاول بعض المتصوفه من جهه أخرى ان يوجدوا لهم رابطه مشروعه بعصر النبوة وما بعده من ناحية أخرى أعنى من ناحية اتخاذ الصوف ملبسا ، وذكروا فى ذلك مارواه ابن ماجه والحاكم عن أنس أن رسول الله صلى عليه وسلم أكل خشنا ، ولبس خشنا ، لبس الصوف واحتذى المخصوف (١)

وكذلك قول أبي موســى الأشــعرى : « يابنى لو رأيتنا ، ونحن مع نبينا صلى الله عليه وسلم إذا أصابتنا السماء وجدت منا ريح الضأن من لباسنا الصوف » (٢)

على أن لبس الصوف فى عصر النبوة وما بعده لا يعنى أنه شعار لفكر أو مذهب ، أو شارة لمسلك معين ، وإنما هو اللبس الميسور للعامة ، المناسب لحياتهم الخشنة فى بيئة تسودها حرفة الرعي ، وتعمل بتربية الإبل والأغنام .

على أن من المتصوفة من نظر إلى اتخاذ الصوف شعارا نظرة فطنة ورأى أنها إن قصدت كانت لونا من الرياء .

دخل رجل على قتيبة بن مسلم ، والى خراسان ، وعليه مدرعة صوف ، فقال له قتيبة : ما يدعوك إلى لباس هذه ؟ فسكت عنه ، فقال له قتيبة : أكلمك فلا تجيبنى ؟ قال : أكره أن أقول زهدا فأزكى نفسى ، أو أقول فقرا فأشكو ربى (٣)

وقد كان الحسن البصرى ممن لا تخدعهم الدنيا ، ويأخذ حظه منها بالمعروف ، وقد انتقد هؤلاء الذين اتخذوا الملبس شعارا لهم ، قال عن أصحاب الاكسية : لقد أكنوا الكبر فى قلوبهم وأظهروا التواضع فى لباسهم ، والله لأحدهم أشد عجبا بكسائه من صاحب المطرف بمطرفه (٤)

رابعها : الاتجاه الصوفى على النحو الذى يردده أعلام المتصوفة لم تعرفه البيئة العربية قبل الإسلام وإن أشار القوم إلى فترات التحنث التى كان يقضيها محمد بن عبد الله فى غار حراء قبل بعثته ، ومن قبله جده عبد المطلب ؛ فهذه كانت فترات عزوف عن المجتمع الفاسد فى وقت لم تتيسر الأسباب لمقاومته حتى أن النبى محمدا عليه الصلاة والسلام هجرها هجرا تاما عندما أمر بتبليغ الرسالة ، وانصرف إلى طريق الدعوة والجهاد ، وضرب أروع مثل للإيجابية فى المجتمع .

أضف إلى ذلك أن طبيعة الحياة العربية كانت قائمة على أساس التفاعل مع الحياة ، وأن الحنفاء كانوا رافضين للوثنية لا للحياة العملية .

خامسها : الدين الحق الذى أصطفاه الله لعباده منهاجا لحياتهم يقوم أساسا

---

١ - أنظر اللمع تحقيقات الأحاديث صـ ٥٧٤

٢ - الطبقات لابن سعد ج ٤ صـ ٨٠

٣ - العقد الفريد صـ ٦ ـ ٢٢٦

٤ - الطبقات لابن سعد صـ ٧ صـ ١٢٣

على التعامل مع الحياة والاندماج فيها في إطار ما جاء به من مثل وقيم ، وأن الخصومة مع الحياة ، والانعزال عن طيباتها إنما يعني ضعفا في عزم المسلم ويقينه، فالحياة ابتلاء بما فيها من خير وشر (ونبلوكم بالشر والخير فتنة) [1] والمؤمن الفطن يتجاوز ابتلاءاتها بالصبر على شرها ، والشكر على خيرها .

والعابد الذي يقتحم الدنيا أقرب إلى الله من عابد عاكف في محراب أو صومعة

ولذا حث القرآن الكريم الأمة على التماس طيبات الحياة وحلالها ، مع زهد كامل في محرماتها ، يقول سبحانه : (ولا تنس نصيبك من الدنيا) [2] كما يقول جل شأنه: (يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ، ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين ، قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق) [3]

التصوف مع مسيرة التاريخ الإسلامي

سارت حركة التصوف منذ ظهورها مع مسيرة التاريخ الإسلامي من زهد وإعراض عن الدنيا إلى تصوف نظري فلسفي احتوى الأفكار الملحدة التي سبقت إليها الديانات الوثنية ووجدت كما كبيرا من المصطلحات والتعبيرات التي يصعب على الباحث ربطها بالإسلام في صورته المشرقة والنقية مثل : المحو والفناء ، والحلول ، ووحدة الوجود ، وسقوط التكاليف ، ووحدة الأديان ، كما نسمع عن المواجيد ، والمجاهدات ، والمذاقات والجذب ، كما يروعك ما تسمعه من الهيكل الهرمي الذي يقود العالم بتفويض من الله كالأبدال ، والأوتاد ، والنجباء والأقطاب .

وهناك ملاحظ على الحركة التاريخية للتصوف منها أن انتشاره في العالم الإسلامي لم يكن بدرجة واحدة ، فبينما نراه متكاثرا في مكان نراه في حكم المعدوم في مكان آخر ، تبعا لتوافر الظروف المهيئة لوجوده وانتشاره ومنها أن انتشاره وغلبته يتزامنان مع عصور الاستبداد ، وفترات البغي ، وغياب الشخصية الإسلامية الواعية، والتسلط الأجنبي .

وهناك من ينتمون للتصوف على أساس أنه سلوك عملي يستهدف الإخلاص والورع ، واتقاء الشبهات ، والالتزام بالأخلاق الفاضلة ، وهذه كلها قيم إسلامية في غنى عن هذا الانتماء الذي يثير الشكوك ، ولهؤلاء مكانتهم في الإسلام .

وفلاسفة التصوف أو ملاحدته الذين تبنوا المذاهب الملحدة كانوا سببا في الحرب التي قامت بينهم وبين علماء الأمة وفقهائها حتى انهم اضطروا إلى القول بالحقيقة ، والتستر وراء الرمزية ، واتهموا الفقهاء بأنهم أهل ظاهر ، وأصحاب شريعة محجوبون عن الحقيقة فلم يذوقوا لكي يعرفوا .

---

١ - القصص / ٧٧ ٢ - الأعراف / ٣٢ ٣ - الأنبياء / ٣٥

ونلحظ أن المدافعين عن التصوف ، الحريصين على وصفه بأنه نمط أعلى من التدين الراقى لا ينكرون سلبيات التصوف ، ويعتذرون عن سادتهم الأوائل الذين ألحدوا بأنهم قالوا ما قالوا فى لحظات سكرهم وفنائهم ، كما وصفوا من وقعوا فى سلبيات التصوف بأنهم ليسوا صوفيين حقيقيين وإنما هم دخلاء وأدعياء [1]

لكن منهم من يدافع بحماسة وقوة عن خطايا صوفية لا يحسن السكوت عليها نراها فى فصوص الحكم لابن عربى وتائية ابن الفارض ، والطبقات الكبرى للشعرانى .

والظاهرة اللافتة للنظر فى انتشار الحركة الصوفية فى العالم هى التناقض فى الفهم والتفسير ، وأن العمل الصوفى يأخذ طابعا يكاد يكون شخصيا فترى صوفيا ينكر شيئا من أعمال الآخرين ويقره آخر ، بل يدافع عنه بشدة .

بداية التصوف فى مصر

يذكر بعض الباحثين أن فى مصر ظروفا مهيئة للاتجاه الصوفى ترجع إلى العصر الفرعونى وما ارتبط به من طقوس دينية تدل عليها النقوش الموجودة على جدران معابدهم ، مما يؤكد ارتباطهم بالحياة الآخرة ، وانشغالهم بها [2] ، ثم جاء الإسلام يحمل الدعوة إلى الدنيا والآخرة ، فساروا فى هدى تعاليمه راضين .

وهذا اجتهاد أو تصور لا يرقى لمستوى الحقيقة التاريخية ؛ إذ لو كان الأمر كذلك لرأينا بوادر التصوف فى مصر فى القرن الأول ، أو الثانى ، الأمر الذى لم يكن له أى وجود بصورة من الصور .

وإذا تحدثنا عن بدايات التصوف فى مصر فلابد أن نفرق بين ظهوره بصورة فردية ، وظهوره على شكل جماعى على هيئة فرق وطرق .

فعن الوجود الفردى للتصوف فى مصر يرى بعض الباحثين أن أول من غرس بذور التصوف فى مصر هو ذو النون المصرى المتوفى سنة ٢٤٥ هـ ، وكان يعد أول من تكلم فى المقامات والأحوال ، وكانت له شخصية مؤثرة حتى أن جميع الشيوخ من معاصريه أخذوا عنه ، واعتمدوا عليه ، وشاركه فى غرس بذور الفكر الصوفى فى القرن الثالث الهجرى صوفيان آخران هما أبو بكر الزقاق المصرى ، وأبو الحسن بن بنان الحمال المتوفى سنة ٣١٦ هـ ،

وعلى امتداد القرنين الرابع والخامس الهجريين أتى إلى مصر رجال

١ - أنظر التصوف والحياة المصرية صـ ٢٣

٢ - انظر التصوف فى مصر إبان العصر العثمانى جـ ١ صـ ٣٦ وما بعدها د. توفيق الطويل

متصـــوفون منهم أبو على الروزبـــارى المتـــوفى سنة ٣٢٢ هـ وأبو على بن الكاتب المتوفى سنة نيف وأربعين وثلاثمائة من الهجرة ، وأبو الحسن الدينورى الصائغ المتوفى سنة ٣٣١ هـ وأبو بكر الرملى النابلسى المتوفى سنة ٣٦٣ هـ ، وابن الترجمان المتوفى سنة ٤٤٨ هـ وأبو القاسم الصامت المتوفى سنة ٤٢٧ هـ (١)

ويبدو أن الوجود الفاطمى فى مصر من منتصف القرن الرابع حتى منتصف القرن السادس كان عاملا مشجعا على توافد الصوفية إلى مصر ؛ لأن السياسة الفاطمية وانتماءها الشيعى والباطنى الذى كان يستهدف إبعاد الناس عن مجال السياسة بالاغراق فى الزهد ، واختلاق المناسبات الشاغلة سواء أكانت دينية أم غير دينية ، وإقامة الأضرحة على قبور وهمية وغير وهمية لشخصيات لها مكانتها فى قلوب المصريين أوجد بيئة خصبة لوفود من المتصوفة تأتى من فارس ، والعراق ، والمغرب لتقيم لها ركائز فى مصر تجد حماية مبذولة من النظام الفاطمى المسئول تاريخيا عن إشاعة البدع والمستحدثات كما أنه مسئول عن حالة العجز والتواكل فى مواجهة البغى الصليبى حتى تم الإنقاذ على يد الأيوبيين أما بداية التجمعات الصوفية أعنى الفرق والطرق فقد اختلفت فيها آراء الباحثين .

سـجل المقـريـزى نشأة التصـــوف الجمعى فى مصر بأنه كان فى عام ٥٦٩ هـ (٢) ويرى على باشا مبارك أنه كان زمن صلاح الدين الأيوبى سنة ٦٥٩ (٣)

ورأى المقريزى أدنى للصواب ؛ لأن صلاح الدين الأيوبى توفى سنة ٥٨٩ (٤)

ويقول صاحب رسالة الطرق الصوفية فى مصر : فى القرن السادس الهجرى ظهرت مدرسة صوفية كبيرة بصعيد مصر وهى المدرسة التى أسسها الشيخ عبد الرحيم القنائى المتوفى سنة ٥٩٢ هـ والذى كان على ما يذكر الحافظ المنذرى أحد الزهاد المشهورين ، والعباد المذكورين ، ثم قام عليها من بعده صوفى مصرى له مكانته فى عصر هو الشيخ أبو الحسن الصباغ المتوفى سنة ٦١٣ هـ والذى أخذ عنه كثيرون جدا من صوفية الصعيد فى ذلك العصر (٥)

وهذا الاختلاف فى نقطة البداية لا يعد شيئا لتقارب التواريخ فهم أدنى إلى الاتفاق منهم إلى الاختلاف إذا استثنينا الوهم التاريخى لعلى باشا مبارك .

---

١ – الطرق الصوفية بالديار المصرية : تأليف الدكتور أبى الوفا التفتازانى ص ٢١ ، ٢٢ ، وانظر الرسالة القشيرية من ص ٢١ إلى ص ٢٧ وانظر حسن المحاضرة للسيوطى جـ ١ صـ ٢٩٠ وما بعدها .

٢ – خطط المقريزى صـ ٤ صـ ٢٧٣   ٣ – انظر الخطط التوفيقية جـ ١ صـ ٩٠

٤ – التصوف فى مصر د. توفيق الطويل صـ ٣٧

٥ – رسالة الطرق الصوفية فى مصر د . التفتازانى صـ ٢٢ .

كما تتضح لنا الصورة الجماعية التى أخذت المسيرة الصوفية فى مصر تلتزمها ، وتسير عليها . ومصر فى ذلك الوقت ومابعده كانت مهاجرا للأعلام من الشرق والغرب، إذ كانت الواحة الآمنة وسط الاضطراب الذى ساد العالم الاسلامى بتأثير الهجمات الصليبية ، ثم غزوات التتار فيما بعد والتى استهدفت المشرق الإسلامى ثم الاضطهاد الباغى من نصارى الأسبان الذى استهدف المغرب الإسلامى ودمر حضارته الزاهرة .

ويأتى القرن السابع

وتتكاثر الوفود المتصوفة لائذة بكنف مصر مع من لاذ بها من أعلام العلماء ، وتتسع الحركة الصوفية ، وكل شيخ وافد يؤسس طريقة ينسبها لشخصه ، ويجمع حوله المريدين الذين يستحوذ تماما على وجدانهم ومشاعرهم حتى لا نرى لهم مصدر إرادة .

فقد وفد إلى مصر الشيخ أبو الفتح الواسطى من العراق ، وأقام بالإسكندرية ودعا إلى الطريقة الرفاعية .

وجاء من المغرب السيد أحمد البدوى سنة ٦٣٤ هـ وأقام بطنطا وأسس الطريقة الأحمدية وتوفى ٦٧٥ هـ وكانت له مسالك مثيرة جعلت الباحثين ينظرون إليه نظرات متباينة بين الادعاء والخرافة والجاسوسية أو العلم والولاية (١)

وجاء بعده من المغرب أيضا الشيخ أبو الحسن الشاذلى سنة ٦٤٢ هـ ومعه جملة من تلاميذه ومريديه ، واستوطنوا الإسكندرية ، وأسس الطريقة الشاذلية .

وأبرز من قام عليها من بعده تلميذه أبو العباس المرسى المتوفى سنة ٦٨٦ هـ ، ثم خلفه عليها تلميذه ابن عطاء الله السكندرى .

كما ظهر فى دسوق الشيخ ابراهيم الدسوقى المتوفى سنة ٦٧٦ هـ وقام على تأسيس الطريقة البرهامية (٢)

ومن الواضح أن تكاثر النشاط الصوفى فى هذا القرن كان إفرازا للأحداث الأليمة التى عصفت بالعالم الإسلامى ، فدفعوا جميعا إلى سلبية الزهادة والتمس منهم السلاطين البركة عند الأزمات وكان هذا هو دورهم فى الجهاد القائم مما جعل بعض المعاصرين يتصور أن لهم ايجابية فى المقاومة ودورا فى التصدى لأعداء الأمة.

ويشير الدكتور أبو الوفا التفتازانى شيخ مشايخ الطرق الصوفية إلى أن أول تنظيم رئاسى للطرق الصوفية فى مصر يرجع تاريخه إلى عصر السلطان

---

١ – أنظر السيد البدوى ودولة الدراويش للأستاذ فهمى عبد اللطيف ، والسيد البدوى للشيخ محمود أبى رية ، والسيد البدوى بين الحقيقة والخرافة د. أحمد صبحى منصور .

٢ – أنظر الطبقات الكبرى للشعرانى جـ ١ ص ١٠٨ وما بعدها .

صلاح الدين الأيوبى ، وانه انشأ للصوفية خانقاه [1] هى المعروفة بسعيد السعداء ، وكانت تعرف بدويرة الصوفية بالقاهرة يقصدها الصوفية الوافدون إلى مصر ، وأجرى عليها أوقافا سنة ٥٦٩ هـ وكانت أول خانقاه أسست بمصر ، ولقب شيخ هذه الخانقاه بشيخ الشيوخ [٢]

وجاء العصر المملوكى فتهيأت الظروف لاتساع النشاط الصوفى ، وذلك لأنه كان مفعما بالبغى والتسلط ، وذهب الأمن وعم الأضطراب ، إذ كان حكم المماليك قائما على سلاح القوة سبيلا للحصول على السلطان ، والمستحوذ منهم على السلطة يبغى على الرعية ، ثم يستند إلى الطرق الصوفية لتبارك عمله ، وتسقط عنه تبعة مظالمه وقد يصحب بعضهم فى غزواته أو يستعين بهم على بعض أموره [٣]

وفى هذا العصر أخذ هيكل النظام الصوفى فى التكامل وظهرت مصطلحات الأقطاب والابدال ، والاوتاد والنقباء .

وكانت أماكن النشاط الصوفى منذ تحوله من نشاط فردى إلى نشاط جماعى منحصرة فى ثلاثة : الخانقاه - الرباط - الزاوية .

ولكل منها خصائص ، وأساليب استخدام ، وأنشطة معينة ، وكان ينشئها السلاطين ويجرون عليها الأرزاق ، والنشاط فيها أمشاج من الحق والباطل ، والدجل والخرافة والدين والعبادة والعلم والجهل .

وقد أفاض من وصف هذه الأماكن المقريزى من خططه ، وعلى مبارك فى الخطط التوفيقية ثم تحولت الخوانق إلى تكايا يقيم فيها دراويش الأعاجم ، ثم تطور الحال بالتكايا حتى أضحت أخيرا ملاجئ لإيواء المرضى ، ومن قعدت بهم الشيخوخة عن اكتساب القوت .

وأما الرُبط والزوايا فامتدت الحياة بها فترة ، واختلف أسلوب الحياة فيها ، وأوضاع نزلائها [٤]

وما أن شارف القرن التاسع على النهاية ، وبدأ القرن العاشر ، ودخلت مصر فى العصر العثمانى حتى انتشر التصوف انتشارا واسعا ، وتعددت طرقه ، وعظم تأثير شيوخه ودخله فساد كبير ، وتكاثرت سلبياته مما أساء إلى العقيدة ، وأشاع الفساد الاجتماعى والضلال الفكرى ، وعظم سلطان الدجل والخرافة .

---

١ - الخانقاه : كلمة فارسية معناها بيت العبادة .

٢ - أنظر الطرق الصوفية فى مصر ص ٢٥ ، والمقريزى جـ ٤ ص ٢٧٣ - ٢٧٤ .

٣ - أنظر بدائع الزهور جـ ٣ ص ٢٢ .

٤ - أنظر التصوف فى مصر جـ ١ جـ ٣٩ وما بعدها .

والقارئ للطبقات الكبرى للشعرانى يجد صورا بالغة السوء لسلطان المتصوفة وما كان يحدث منهم من كبائر ورذائل تحت شعار الكرامات حتى أن الناس فقدوا كرامتهم معهم .

وفى القرن التاسع عشر الميلادى أو ما قبله بقليل أصبح للطرق الصوفية مشيخة عامة تشرف على جميع الطرق ، وأصبح لكل طريقة شيخ ولكل شيخ خلفـــاء فى القرى ، ونواب فى المراكز والمديريات .

وعندما تولى السيد محمد توفيق البكرى عام ١٨٩٢ م مشيخة الطرق الصوفية استصدر لائحة رسمية لها وذلك فى ٢ من يونيو ١٩٠٣ م كما صدرت لها لائحة أخرى داخلية سنة ١٩٠٥ م وآخر لائحة صدرت لتنظيم الطرق الصوفية ، وتستهدف النهوض بها ، وتخليصها من الشوائب والنقائص جاء بها القانون ١١٨ لسنة ١٩٧٦ م وصدرت لائحته التنفيذية بالقانون رقم ٥٤ لسنة ١٩٧٨ (١)

الظاهرة الصوفية بمصر

لتقويم الظاهرة الصوفية فى مصر ورصد آثارها الإيجابية والسلبية فى الدين والمجتمع والسياسة نعرض نقاطا محددة تكشف الظواهر التى نريد رصدها ، وبيان حقيقتها :

١ - الحركة الصوفية فى مصر كانت بمنأى عن الغلو ، واعتناق الفلسفات الملحدة، تتسم بالاعتدال وتنأى عن الشطط ، يقول الدكتور التفتازانى : وقد لاحظنا بعد استقراء طويل لأقوال ومذاهب صوفية مصر من القرن الثالث إلى السابع الهجرى سواء منهم من كان مصريا أم وافدا إلى مصر أن أولئك الصوفية كانوا معتدلين فى تصوفهم ، فلم يكن واحد منهم قائلا بوحدة الوجود أو الحلول ، أو الاتحاد ، كما كان تصوفهم بمنأى عن العناصر الأجنبية البعيدة عن روح الإسلام ، وهذا راجع إلى أن مصر كانت بعيدة عن تيارات الأفكار والمعتقدات الأجنبية ، الفارسية والهندية ، وهذا على عكس تصوف أوائل الصوفية من الفرس ، الظـــاهرين بأمـــاكن عدة كخراســـان ، ومرو وبلخ ، ونيسابور ، ونهاوند ، والرى ، وأصفهان، وشيراز وغيرها ، والذين يرجع تأثرهم بما كان سائدا فى بيئاتهم .. إلى أن يقول : هذا إلى أن صوفية الطرق من المصريين يجمعهم جميعا طابع خاص هو العناية بالجانب العملى الخلقى من التصوف أكثر من العناية بالخوض فى المسائل النظرية الصوفية ، وهذا يفسر لنا عدم ظهور صوفية خائضين فى المباحث النظرية الفلسفية بمصر كالحسين بن منصور

١ - انظر الطرق الصوفية صـ ٢٩ وما بعدها .

الحلاج ، والسهروردى المقتول ، ومحيى الدين ابن عربى ، وصدر الدين القونوى وعفيف الدين التلمسانى ، وابن سبعين ومن اليهم ممن مزجوا تصوفهم بالفلسفة .

ثم يستدل على ذلك برفض المصريين لفكر ابن عربى والقونوى عندما قدما لمصر وعدم تقبلهم لطريقة ابن سبعين برغم مكثه فى مصر زمنا يدعو إليها .

ومع تأييدى لهذه الملاحظة المهمة ولتفسيرها فإن كلمة الدكتور التفتازانى تؤيد ما نقوله من وجود فكر إلحادى فى سلوك المتصوفة الذين سماهم ابن تيمية ملاحدة التصوف ، كما يؤيد ما نقوله أيضا من تأثير الديانات الوثنية والفلسفة اليونانية فى الفكر الصوفى حتى بدا غريبا عن الدين الحق الذى نعرفه فى الكتاب الحق والسنة الصحيحة ، وهذه الملاحظة تنتهى عند القرن السابع .

٢ - فى عصر المماليك كان التصوف عملية خلوة للعبادة فى الخوانق والربط ، ويجرى عليهم السلاطين الأرزاق ، ويخرجون فى مواكب للصلاة يوم الجمعة ، ويلتمس منهم السلاطين والناس البركة ، ويلجئون إليهم عندما يهمهم أمر .

فكانت آفة التصوف فى هذا العصر ماثلة فى هذه السلبية والعزلة ، وإن كانت هذه العزلة منحت بعضهم وقارا وهيبة جعلت لهم مهابة عند سلاطين المماليك .

إن وضع المتصوفة فى هذا العصر كان نتيجة للوضع الاستبدادى السائد فى العصر المملوكى ، وكان فى الوقت نفسه سندا لسفه هؤلاء الحكام وطيشهم .

فى أواخر العصر المملوكى اتسعت دائرة المتصوفة ؟ إذ رأوا فى التصوف ستارا يحميهم من المماليك ويمنحهم سلطانا على رقاب العباد فاعتنقه العوام والدجالون ليصلوا إلى هذه الغاية التى يريدونها وقد هيأ لهذا الأمر أن حكم السلاطين المماليك دب فيه الفساد وأدركه الاضمحلال .

يقول الدكتور توفيق الطويل : فى أواخر القرن التاسع وبداية القرن العاشر الهجرى انساق التصوف تحت تأثير الظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية إلى التدهور ، والاضمحلال ، ودخله العوام ، واعتنقه الوصوليون والادعياء ، وظهر فى كبار رجاله الأميون الجهلة حتى تتلمذ الشعرانى وهو عملاق عصره على سبعين شيخا لايعرف أحدهم علم النحو ، بل كان بعضهم أميين لايقرءون ولايكتبون [1] .

يؤكد الدكتور الطويل تأثر التصوف بالظروف المحيطة ، وأنه أصبح مطية لأصحاب الأهواء من المفسدين فى الأرض ، وأشد صور هذا الفساد التلمذة على الجهال بحجة أنهم علماء فى الطريق ومما يثير الأسى أن بعض متصوفة عصرنا يفخر بشيخه الأمى ويهوى على يده تقبيلا ، ولا أدرى كيف يستساغ ذلك فى رحاب الاسلام الذى يعد طلب العلم فريضة ، والسعى إليه جهاد ، وأن الكلمات الأولى المنزلة من الكتاب الحق كانت أمرا بالقراءة ودعوة للعلم ؟!!

---

١ - انظر التصوف فى مصر ج ١ ص ٤٧ .

بل وتتردى وتنتكس وسأسوق لذلك شهادة حق من شيخ مشايخ الطرق الصوفية الآن ، وهو فيما أعلم يعمل جاهدا على رد التصوف إلى الدين الحق ، والسنة الصحيحة ، يقول : إن مصر كانت تعاني في ذلك العصر اضمحلالا فكريا وحضاريا، وأصبحت عناية أصحاب الطرق فية منصرفه إلى الشكليات ، والرسوم أكثر من العناية بجوهر التصوف ذاته ، وسيطرت على جماهيرهم الأوهام ، والمبالغة في التحدث بالمناقب والكرامات التي لم يكن يأبه لها المحققون من أوائل شيوخ التصوف (١) .

هكذا كشف الدكتور التفتازاني عن صور التردى التي هوى إليها التصوف في ذلك العصر ويشير الدكتور توفيق الطويل إلى رأى المخضرمين من أهل التصوف من أن هناك فرقا بين العصر المملوكي والعثماني فالأول يتسم بالصدق في عبادة الله ، والتجرد لذكره ، والزهد في طلب الدنيا ، والإعراض عن مباهجها ، والآخر يتصف بالدجل والخداع والشعوذة (٢)

ويعقب الدكتور الطويل على ذلك بأن العصرين في هذا الفساد سواء سوى فارق ضئيل ، قليل الخطر يتمثل في قوة هذا التيار الفاسد أو ضعفه ، إذ أن هؤلاء المخضرمين من أعلام المتصوفة الذين أرخّوا للتصوف وكتبوا في الطبقات كالشعراني يذكرون المتصوفة الذين تحرروا من أوامر الدين ونواهيه في العصرين ، فيقولون في عصر المماليك إن الخواص والمتبولي ، والدشطوطي كانوا لايقيمون الصلاة أبدا ، وأن غيرهم كان يفعل الفاحشة على ملأ من الناس ثم يقولون في عصر العثمانيين إن فرق الأحمدية ، والبرهامية ، والقادرية وما إليها كانت لاتلتزم ، أوامر الدين ونواهيه ، فتهمل الصلاة وترتكب الفاحشة (٣) .

ويعرض الشعراني في طبقاته صورة مزرية لنفوذ المتصوفة الكبار على الأتباع والمريدين بعد أن فرضوه على السلاطين أنفسهم فخضعوا لأصحاب الولاية المزعومة وآمنوا بدجلهم ، واستحالوا أداة في أيديهم بصورة يعوزها العقل ، وينقصها الحس ... كان الشيخ على وحيش (٩١٧ هـ) كلما رأى رجلا يركب حماره أنزله من فوقها ، وقال له : أمسك رأسها حتى أفعل فيها الفاحشة .. !! فإن أبى الرجل تسمر في مكانه لايستطيع حراكا ، أو هكذا خيل إليه من فرط اعتقاده في الشيخ !! وإن استجاب لطلبه أدركه الحياء من سوء مايفعل الشيخ (٤) .

١ – انظر : الطرق الصوفية في مصر ص ٢٨ .
٢ – التصوف في مصر ص ٥٣ .
٣ – المرجع السابق : ص ٥٣ ، ٥٤ .
٤ – المرجع السابق وانظر الطبقات الكبرى للشعراني جـ ٢ ص ١٢٩ – ١٣٠ .

لا أظن أن هناك فسادا فى التدين ، وانحرافا فى الخلق ، وضلالا فى السعى أشد من هذا والمتحدث به واحد منهم ، ويسوقه على أنه من مظاهر الولاية ، وأنه لون من الكرامة إلى هذا المدى جنى المتصوفة على دين المصريين وأخلاقهم ، وأورثوهم الهوان بجانب فساد الحكم وضلال السياسة ، وبغى السلطان .

٤ – من مظاهر هذا التسلط الذى اتخذ هذه الصورة المهينة مافرضوه من إتاوات على الفلاحين والبسطاء ويؤدونها لمشايخ الطرق لتسلم لهم زراعاتهم وأنعامهم ، ويحفظوا لهم أولادهم وذريتهم ، ويقع هؤلاء فى أسر هذا الوهم نتيجة لفساد العقيدة ، واختلال الفكر ، وانحراف التدين .

٥ – أدت الظاهرة الصوفية فى مصر إلى الوقوع فى ألوان من التدين الفاسد .

أ – منها حلقات الذكر التى يلحدون فيها فى أسماء الله ، ويحولونها إلى صورة لاهية عابثة ويصبح الذكر – وهو عبادة كريمة – رقصات على دقات الطبول ، وأنغــام المزامير ، ويصدق فيهم قوله تعالى : (الذين اتخذوا دينهم لهوا ولعبا وغرتهم الحياة الدنيا)

ب – كان وراء المظاهر الشركية التى تكاثرت حـول قبور الأولياء كالطواف حولها، وتقبيل أعتابها كما شجعوا النهج الضال الذى سنه الفاطميون وهو بناء المساجد على القبور ، فكان كل شيخ يموت منهم يقيم مريدوه مسجدا على قبره مخالفين بذلك توجيهات رسول الله صلى الله عليه وسلم .

جـ – هم وراء الموالد التى شملت أكثر أيام العام ومايقع فيها من مفاسد وضلالات وانحرافات وأقرب صورة لذلك وصف الجبرتى لمولد العفيفى : « ينصبون خياما كثيرة وصواوين ، ومطابخ وقهاوى ويجتمع العالم الأكبر من أخلاط الناس وخـواصهم وعواممهم ، وفلاحى الأرياف ، وأرباب الملاهى والملاعيب والغوازى والبغايا ، والقوادين والحواة ، فيطئون القبور ، ويزنون ، ويلوطون ، ويلعبون ، ويرقصون ويضربون بالطبول والزمور ليلاً ونهاراً ، ويجتمع لذلك الفقهــاء والعلمـــاء ، ويقتدى بهم الأكابر من الأمراء والتجار والعامة من غير إنكار ، بل يعتقدون أن لذلك قربة وعبادة ، ولولم يكن ذلك لأنكره العلماء فضلا عن كونـهم يفعلونه ، فالله يتولى هدانا أجمعين » (١)

١ – أنظر تاريخ الجبرتي جـ ١ ص ، ٢٢٥ ، ط ١٣٢٢ هـ .

٦ – الإسهام فى الفساد السياسى ، والتخاذل أمام هجمات الأعداء حتى أن المستعمرين استغلوا هذه السذاجة التى شاعت ، وانغماس الناس فى الدجل والدروشة ، فشجعوا هذا الاتجاه وشاركوا فيه ليستقر لهم زمام الأمور .

وحين أغار الفرنجة على المنصورة قبل منتصف القرن السابع الهجرى اجتمع زعماء الصوفية لقراءة رسالة القشيرى ، والمناقشة فى كرامات الأولياء [١]

ويذكر المؤرخون أن نابليون كان يحضر حفلات المولد ، ويشهد حلقات الذكر مع المتصوفة وفعل مثل هذا فيما بعد المندوب السامى البريطانى .

يقول الدكتور فروخ : ومن أجل ذلك يجب ألا نستغرب إذا رأينا المستعمرين يغدقون على الصوفية الجاه والمال ، فرب مفوض سام لم يكن يرضى أن يستقبل ذوى القيمة الحقيقية من وجوه البلاد ، ثم تراه يسعى إلى زيارة حلقة من حلقات الذكر ، ويقضى هنالك زيارة سياسية تستغرق الساعات . أليس التصوف الذى على هذا الشكل يقتل عنصر المقاومة فى الأمم ؟ » [٢]

إلى هذا المدى وصلت الظاهرة الصوفية بمصر والمصريين . فساد فى الدين ، وخلل فى المجتمع ، وانحراف فى الأخلاق ، وتواكل وسلبية مهينة ، ومواكب صاخبة ، وقعود عن مقاومة العدو المتربص .

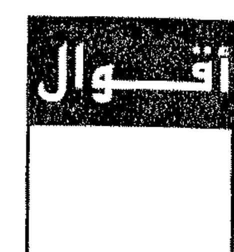
ومع هذا فإنى – إنصافا للحق – أقرر أمرين :

أولهما : أن هناك من انتموا للتصوف على درجة من الفضل وكمال الدين ، وأن تصوفهم لايعنى أكثر من الورع والتقوى والاحسان ، وكل ما يؤخذ عليهم الانتماء إلى ظاهرة متهمة تاريخيا وليست من صريح الإسلام .

والآخر : هو أن قيادة الطرق الصوفية فى الوقت الحاضر ، وفى ظل اللائحة الأخيرة تعمل جاهدة من أجل تخليص التصوف من الشوائب والنقائض ، والظواهر الفاسدة ، وتلكم مهمة شاقة ، لأن الأسلوب الصوفى ، والفكر الصوفى من حيث هو مناخ صالح لاستنبات بذور الفساد والانحراف .

١ – انظر الطبقات الكبرى جـ ١ ص ١١ ط صبيح .

٢ – التصوف فى الإسلام د . عمر فروخ .



● «المسلم لم يخلق لاقامة الشعائر فقط وإنما ليعمّر وينتج ويبدع »

الرئيس حسنى مبارك

● « غياب الايمان الحقيقى بالحرية هو إحدى الخطايا الكبرى التى تمارسها بعض الحركات الاسلامية »

الدكتور كمال أبو المجد

وزير الاعلام الأسبق

● « الشعر نهر يغيّر أمواجه فى كل لحظة ، ولكنه يبقى نهراً »

الشاعر نزار قبانى

● « مصر ليست المصدر الوحيد للثقافة العربية »

الدكتور على الراعى

● « جسد الأمة بخير ولكن السوءات تبرز فقط على مستوى النخبة »

الدكتور رشدى فكار

● « نظن أننا أذكياء ، ولكننا لسنا إلا آلات حاسبة ، لأننا فقدنا منطق البراءة البسيط »

المخرج السينمائى البلجيكى

جاكوفان دورمايل

● «السياسى اذا أراد اقتناء المثقف وتوظيفه بواقا ، فقد ناصحا»

على عقله عرسان

رئيس اتحاد الكتاب العرب

● « سيكون فى قدرتنا إطالة عمر الانسان بأكثر مما يظن الجميع»

بروس أمس

أستاذ الكيمياء العضوية بجامعة بيركلى

بولاية كاليفورنيا



الرئيس حسنى مبارك



نزار قبانى



د . على الراعى

التصوف • جزء خفى •

محاولة قراءة المسكوت عنه فى

خطاب ابن عربى

بقلم : د . نصر حامد أبوزيد



حفر يمثل نموذجا للرقص الصوفى

محيى الدين بن عربى متصوف أندلسى (ت ٦٣٨هـ) ولد فى مُرْسيه ونشأ فيها ، ولكنه ارتحل إلى أركان العالم الإسلامى الواسعة .. فأقام فترة فى مكة وجاور بها، وكانت نتيجة هذه الإقامة موسوعته الضخمة «الفتوحات المكية». كما زار أماكن أخرى عديدة ترك فيها تلاميذ ومريدين فى تركيا وفارس وسوريا ، وقد اجتمعت فى كتاباته كل معارف العصر الدينية والفكرية والفلسفية وذلك لاتساع مجالات تأثره ، فأقام من ذلك كله بناءً فكريا متميزا يصعب على الباحث من فرط دقة البناء وتماسك أجزائه وعناصره أن يرد العنصر إلى أصله ، والسبب فى ذلك يرجع إلى أن كل عنصر من تلك العناصر يكتسب فى بناء ابن عربى الفكرى وفى سياق مشروعه الفلسفى دلالة خاصة متميزة .



التعارض الواضح فى مشروع ابن عربى يحفزنا إلى معاودة قراءته من منظور مغاير لقراءاتنا السابقة له

والمشروع الفكرى الفلسفى الذى حاول ابن عربى أن يقدمه للعالم لا يمكن أن يفهم إلا فى سياق الصراع الدينى والعرقى الذى كان يسيطر على جو الأندلس ويحرك حياتها الاجتماعية والسياسية والفكرية . حاول ابن عربى ان يقدم مشروعا للمصالحة الدينية ، لا بين الأديان الثلاثة الكبرى - اليهودية والمسيحية والإسلامية - فقط ، بل بين تلك الأديان مجتمعة وبين كل العقائد الإنسانية على وجه الأرض ، وأبياته الشعرية الشهيرة التالية تلخص للقارئ هذا المشروع خير تلخيص :

لقد صار قلبى قابلا كل صورة
فمرعى لغزلان ، ودير لرهبان
وبيت لأوثان ، وكعبة طائف
وألواح توراة ، ومصحف قرآن
أدين بدين الحب أنىّ توجهت
ركائبه فالحب دينى وإيمانى

وإذا كان هذا المشروع الفكرى الإنسانى لم يجد من العالم الذى عاش فيه ابن عربى وأنتج خطابه فى سياقه أذنا صاغية ، فمرد ذلك من منظور مدخلنا فى هذه الدراسة الاستكشافية يعود إلى أن ابن عربى أراد أن يقدم مشروعه من داخل منظومة الإسلام ، والتعارض واضح بين مشروع يتجاوز الإسلام ويتعامل معه بوصفه جزءا من كل إنسانى وبين طموح صاحب المشروع لإضفاء صفة الإسلامى عليه ، وعلى ذلك لم يقتصر رفض المشروع على

المعاصرين لابن عربى فقط ، بل امتد الرفض إلى عصور التاري
الإسلامى كافة ، وليس ببعيد عن الأذهان تلك الضجة التى أثيرت ف
مصر حين أصدر مجلس الشعب المصرى قرارا بمصادرة فكر اب
عربى فى عام ١٩٧٨ م .

والتعارض الواضح هذا فى مشروع ابن عربى هو الذ
يحفزنا إلى معاودة قراءته من منظور مغاير لقراءتنا السابقة له

قراءتنا اليوم قراءة تتلمس الدلالات الضمنية الكامن
والمستترة وراء مستوى الدلالة الظاهرة للخطاب ، وهذه القراءة ا
تستمد مشروعيتها من بعض إشارات ابن عربى نفسه فحسب ، تلا
الاشارات المتكررة التى تحذر القارئ من الوقوف عند المستو
الدلالى السطحى للخطاب ، بل وتحفزه للانتقال من مستوى الدلا
الظاهرة إلى المستوى الباطن . إن تلك الإشارات على أهميته
تساهم فى عملية تضليل القراءة ، وذلك لأنها تحصر الدلالة ف
مستوى واحد فقط هو مستوى المنطوق فى الخطاب ، وتتجاها
المستوى الآخر الذى لا يقل أهمية عنه ، وهو مستوى « المسكو
عنه » والبحث عن الدلالات الباطنة من خلال تحليل المنطوق فقط
كما ينصحنا ابن عربى يدخل القراءة فى دائرة « الاستنباط
بالمعنى الفقهى التراثى التقليدى من جهة ، ويعطى لبُعد التأويل
« الذاتى » مركز الصدارة فى اليات القراء ة من جهة أخرى ، وقد
وقع باحثو ابن عربى - بدرجات متفاوتة بالطبع - فى شراك
تلك القراءة الاستنباطية التأويلية الذاتية ، بدءا من نيكلسون وهنرى
كوريان وآسين بلاثيوس وعابد الجابرى وكاتب هذه الدراسة .

تحليل مضمون الخطاب

لا تستمد قراءتنا هذه مشروعيتها من إشارات ابن عربى
وحدها ، بل تستمدها بشكل جوهرى من تحليل بنية الخطاب ،
متجاوزة مجرد تحليل المضمون الذى كان - ولايزال - محور اهتما
كل القراءات . إن التركيز على تحليل مضمون الخطاب وحده ، دون
الاهتمام ببنية الخطاب ، أمر يؤدى إلى إهدار الدلالة الكلية للخطاب
اكتفاء بدلالة المنطوق وحدها ، هذا من جهة ومن جهة أخرى يؤدى
التركيز على المضمون وحده إلى فك منظومة السياق المصاحبة
للخطاب والمنتجة للدلالة ، اكتفاء ببعض عناصره السطحية خاصة
تلك المنتجة للدلالة الأيديولوجية . ويثير التركيز على تحليل المضمون



صورة لأحد الأئمة الصوفيين المعروفين
تحت أسم « مولانا »

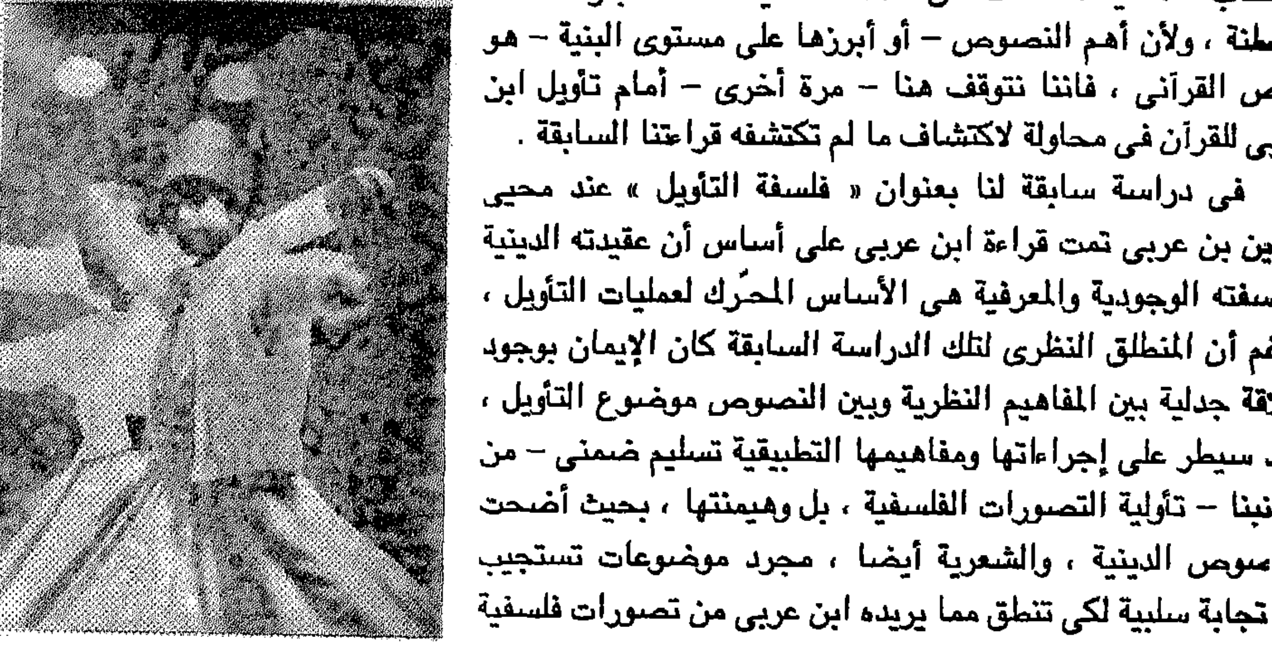
بعيدا عن تحليل البنية - سؤالا منهجيا حاسما ، ينال من
روعية التحليل ذاته ، وهل يمكن الوصول إلى المضمون أصلا إلا
خلال تحليل البنية ؟!

وبنية الخطاب - أى خطاب - تتحدد من خلال مستويات
يدة ، أهمها فيما نحن بصدده مدى توافق هذه البنية - أو
الفتها - لبنية الخطاب السائدة ، وخطاب ابن عربى ينتمى من
ث مجاله الأضيق الخاص داخل المجال العام إلى مجال الخطاب
سوفى ، خطاب العرفان حسب تقسيمات محمد عابد الجابرى ،
ا هو تصنيف بنية خطاب ابن عربى على مستوى المنطوق وحده ،
مستوى المسكوت عنه فيطرح بنية على مستوى أشد تعقيدا
مل تصنيف الخطاب أمرا غاية فى الصعوبة .

وكما تحيّر أهل مكة حين سمعوا القرآن فى تصنيفه داخل
رة البنى الخطابية السائدة فى ثقافتهم - الكهانة والسحر والشعر
كذلك يصعب على الباحث إدراج بنية نص ابن عربى تحت أى نمط
ى شائع . إن المسيطر على بنية الخطاب هو النسق التأويلى ،
ص ابن عربى طبقات من النصوص المتراكبة لا المركبة فحسب ،
ى المركبة بطريقة معقدة إلى الحد الذى يجعل عملية اكتشاف
دى طبقاته مغامرة غير مأمونة النتائج .

ولأن نسق « التأويل » هو المسيطر على مستوى البنية ، بوصفه
قا من العلاقات ، أى بوصفه فعل قراءة للنصوص المتراكبة ،
سبح تحليل هذا النسق مدخلا أقرب إلى السلامة لاكتشاف بنية
خطاب ، سعيا للكشف عن الدلالة العميقة ، لا مجرد الدلالة
طنة ، ولأن أهم النصوص - أو أبرزها على مستوى البنية - هو
ص القرآنى ، فاننا نتوقف هنا - مرة أخرى - أمام تأويل ابن
بى للقرآن فى محاولة لاكتشاف ما لم تكتشفه قراءتنا السابقة .

فى دراسة سابقة لنا بعنوان « فلسفة التأويل » عند محيى
ين بن عربى تمت قراءة ابن عربى على أساس أن عقيدته الدينية
سفته الوجودية والمعرفية هى الأساس المحرّك لعمليات التأويل ،
غم أن المنطلق النظرى لتلك الدراسة السابقة كان الإيمان بوجود
لاقة جدلية بين المفاهيم النظرية وبين النصوص موضوع التأويل ،
. سيطر على إجراءاتها ومفاهيمها التطبيقية تسليم ضمنى - من
نبنا - تأولية التصورات الفلسفية ، بل وهيمنتها ، بحيث أضحت
صوص الدينية ، والشعرية أيضا ، مجرد موضوعات تستجيب
تجابة سلبية لكى تنطق مما يريده ابن عربى من تصورات فلسفية



وجودية أو معرفية ، وبعبارة أخرى هناك فجوة ملموسة بين المنطلق النظرى لتلك الدراسة وبين المفاهيم الاجرائية التطبيقية الضمنية لها.

ولابد هنا من الإشارة للملاحظة النقدية الدقيقة والهامة التى طرحها الأستاذ ميشيل شودكيفيكس فى ختام عرضه لدراستنا السابقة حيث تساءل : « ألم يكن من الأفضل اتباع مدخل معاكس ... والانطلاق من الاشارات التى يستنبطها ابن عربى من الآيات القرآنية فى كل صفحة من أعماله تقريبا ، لكى نصل فى النهاية إلى إكتشاف القوانين التى تنظمها ؟ إن تفسير ابن عربى لايستنبط من عقيدته ، بل هو مصدر تلك العقيدة » .

التأويل والمفاهيم النظرية

لكن الملاحظة على أهميتها تريد الانتقال من مدخل منهجي قائم على الفصل بين « أفق المفسر » السابق وعملية التأويل ذاتها إلى مدخل آخر يقوم على نفس الفصل ، وإن كان يعطي الأولية لعمليات التأويل ، فيجعلها الأساس المحدد للمفاهيم النظرية . يرى الأستاذ شودكيفيكس أن تأمل ابن عربى للقرآن هو أساس عقيدته الفلسفية ويتناسى الجهد الخارق الذى يبذله ابن عربى فى كثير من الأحيان لكى يجذب النّص الدينى وكذلك الشعرى إلى أفقه المعرفى ، وليست المسألة على أية حال إعطاء الأولية لهذا الجانب أو ذاك فى دراسة ابن عربى ، فالحديث عن جانبين فى الواقع يعتمد على فصل إجرائى منهجى فى دراسة ظاهرة ليست منفصلة فى الحقيقة .

ولعله من المفيد أن نخرج قليلا من حدود إشكالية قراءة ابن عربى لنقرأ بعض آليات الثقافة العربية ، خاصة فى مجال إنتاج المعرفة ، ولا يحتاج الأمر إلي تدبر عميق لكى نكتشف أن إنتاج المعرفة فى الثقافة العربية يتمحور أساسا حول إنتاج النصوص اللغوية بشكل خاص ، وإذا كانت الثقافة فى تعريفها السميولوجى هى مجموعة النصوص – اللغوية وغير اللغوية – التى تنتجها الذاكرة الجمعية ، فان نشاط الذاكرة الجمعية العربية قد وجد تجليه الأعظم فى مجال إنتاج النصوص اللغوية . ففى البدء كان « الشعر » الذى وصف بأنه « علم قوم لم يكن عندهم علم أصح منه » . كان الشعر هو النص المسيطر والمهيمن والذى ضم تحت جناحه نصوصا أخرى مثل « سجع الكهان » و « تنبؤات العرافين » ، وفى قصة رؤيا ربيعة بن مضر الذى استدعى أعظم الكهان لتأويلها تأويلا صحيحا ،

التركيز على المضمون وحده يؤدى إلى فك منظومة السياق المصاحبة للخطاب

من البديهى أننا حين نتحدث عن «تولد» النصوص نشير إلى عملية تفاعل خصبة على درجة عالية من التعقيد

يرفض صاحب الرؤيا أن يقصها عليهم ، طالبا من الكهان التنبؤ بها ، وهذا الرفض من جانب ربيعة بن مضر لقص الرؤيا يفسر لنا أهمية « القص اللغوى » - أو بتعبير الرؤيا - فى تحديد دلالة الرؤى والأحلام ، وهى الأهمية التى يحدثنا عنها طويلا ابن سيرين فى كتابه . يقول ابن سيرين إن الرؤيا قد تأول بالخير أو بالشر وفقا لطبيعة المفردات أو الدوال اللغوية التى يستخدمها صاحب الرؤيا فى قص رؤياه ، ولعل فى نهى يعقوب يوسف ان يقص رؤياه على إخوانه ما يدعم وجود هذا القصور فى الثقافة العربية قبل الإسلام .

الرؤية التى يقدمها القرآن للوجود رؤية سميولوجية فى جوهرها ، فالوجود هو كلمات الله التى لا تنفد ، وعيسى عليه السلام كلمة الله وروح منه ، والموجودات كلها انبثقت من العدم بفعل الإرادة والأمر اللغوى « كن » ، والأهم من ذلك أن القرآن حين أمر الإنسان بالنظر والاعتبار أو بالتفكر والتدبر ، أو بالتعقل يأمره فى الواقع بالقراءة الواعية التى تتوجه صوب أمرين : الوجود الخارجى من جهة ، والنفس الإنسانية من جهة أخرى ؛ إذ هما « النصان » الأساسيان . وليس من قبيل الصدفة بأن تدل كلمة « آية » - وجمعها آيات - فى الاستخدام القرآنى على الظواهر الكونية والإنسانية - كما تدل على الوحدة اللغوية فى بناء السورة القرآنية ، ولعل هذا هو الذى سمح لابن عربى بابداع نظريته عن التوازى بين « النص » الوجودى و« النص » القرآنى من جهة ، والتوازى بين اللغة الالهية (= الابداع والخلق) وبين اللغة البشرية من جهة أخرى .

النص القرآنى

ولم يكن النص القرآنى وهو يطرح رؤيته للعالم يفعل ذلك بمعزل عن النصوص الأخرى السابقة عليه فى الثقافة العربية ، فقد انخرط النص القرآنى فى علاقات معقدة مع « سجع الكهان » و« نبوءات العرافين » من جهة ، ومع « الشعر » النص المسيطر من جهة أخرى ، وحين استطاع النص القرآنى أن يستوعب النصوص الأخرى فى مجاله - سواء بالإزاحة أو التأويل أو بالطمس والإبعاد - أصبح هو النص المهيمن والمسيطر ، أو صار النص « المعجز » إذا شئنا استخدام مفاهيم الخطاب الدينى ، وتحولت بذلك مكانته المعرفية من نص مُنتج (بفتح التاء) إلى نص منتج (بخفض التاء) ، أى صار

هو النص المولِّد للنصوص الأخرى فى الثقافة . كان أول النصو
التى تولَّدت عنه نص « السنة » ، وتولدت عنهما معا نصوص الث
العربية كلها .

من البديهى أننا حين نتحدث عن « تولّد » النصوص نشير
عملية تفاعل خصبة على درجة عالية من التعقيد ، عملية تف
متعددة الأبعاد فى القلب منها الوجود الاجتماعى الإنسانى ،
الموجود الذى تنبثق عنه كل ممارساته النوعية : اقتصادية وسيا
وثقافية .. إلخ ، بمعنى أننا لا نشير إلى عمليات تكاثر طبيعية ت
فى أتجاه واحد صوب حفظ النوع بالمعنى البيولوجى ، وكذلك لانش
إلى عمليات «انتخاب طبيعى» تؤدى إلى «بقاء الأصلح» . إن مس
«تولد» النصوص فى الثقافة لا تتماثل مع العمليات الطبيعية المش
إليها ، وإن تشابهت بعض آلياتهما ، فالفارق بينهما
الفارق بين « القوانين الطبيعية » وما تتضمنه من حتمية صا
تمكن من التنبؤ بتطوراتها ، وبين « القوانين الاجتماعية » التى
تتسم حتميتها بالصرامة المشار إليها فى القوانين الطبيعية .

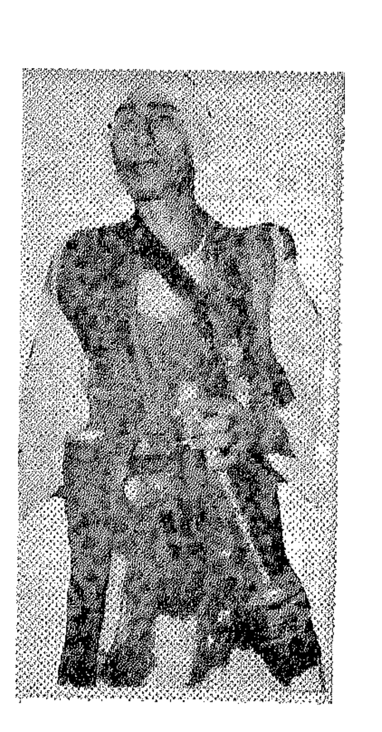
من هذا المنطلق – منطلق هيمنة النصوص اللغوية على غير
من النصوص فى الثقافة العربية ، يمكن لنا أن نفسر تلك المك
المقدسة التى تحتلها اللغة فى الضمير العربى ، وهى مكانة تج
جماليات اللغة هى مقياس الجمال فى الثقافة والفكر ، ومن الطبي
بعد ذلك كله أن يكون الفن التشكيلى العربى الأساسى هو فن الخ
ومن الطبيعى كذلك أن يرتبط جمال الأداء الصوتى وجمال ال
بقراءة القرآن ، وبعبارة أخرى من الطبيعى أن تنبثق الفنون العر
البصرية والسمعية من رحم جمال اللغة عامة وجمال النص القر
خصوصا .

مقارنة

محيى الدين بن عربى ابن لهذه الثقافة ، ونصه – كتاباته
نص ينتمى إلى نصوصها المتولدة عن النص الأساسى الأول ، ف
الضرورى إذن أن يكون لهذا النص الأول ولتأويله حضور نو
واضحا فى كل صفحة من صفحات نص ابن عربى ، ولا يحت
المرء إلى كثير عناء لاثبات ذلك ، فابن عربى نفسه يقارن بين ب
كتابه الفتوحات وبين بنية القرآن من حيث ما يبدو ظاهريا أنها ب
تعتمد على الانتقال من موضوع إلي موضوع دون رابط ظاهرى

منمنمات فنية تصور الاحتفال
بإحدى المناسبات الدينية





الموضوعين ، وهو في سياق كتابه « نصوص الحكم » يزعم أنه أملي عليه في مبشرة – رؤيا – رآها ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم هو الذى أملاه عليه ، وسواء كان الأمر بحسب ما يزعم ابن عربي فالحقيقة أن بنية النص القرآني – ترتيب الآيات – تمثل بنية النص العربي بشكل عام ، فالقصيدة الجاهلية مثلا تعتمد فى بنائها على الانتقال ظاهريا من موضوع إلى موضوع .

ولا يتوقف تأثر نص ابن عربي – أو بالأحرى تناصه – بالنص القرآني عند حدود البنية العامة الخارجية فقط ، بل يندمج النصان – يتراكبان – فى مستويات متعددة من السياق ، حتى ليصعب على القارئ فى كثير من الأحيان فصل صوت ابن عربي عن صوت القرآن ، وحتى ليبدو أن ابن عربي لا يحاول فحسب محاكاة جماليات النص القرآني ، بل يحاول إبداع نص جديد يدخل القرآن فى نسيج بنيته جزءا مؤسسا ، ولعل هذا الطموح الإبداعي هو الذى أثار – ولايزال يثير – غيظ الفقهاء ورجال الدين .

لا يستطيع الباحث أن يغفل مثل هذا الطموح فى نص ابن عربي ، وهو طموح من شأنه أن يجعل المنظومة اللغوية هى المنظومة الأم ونموذج الإبداع ، وإذا كانت اللغة تحتل فى الثقافة العربية المكانة التى حللناها وأشرنا إلى بعض أبعادها فيما سبق ، فإنها تحتل فى نص ابن عربي مكانة النموذج والمثال الذى ترتسم على نمطه وتتحدد التصورات الوجودية والمعرفية .

ابن عربي إذن لا يؤول القرآن ، أو ليس هذا هو همه الأساسي وإن بدا الأمر كذلك على مستوى البنية السطحية ، بنية المنطوق . إنه يرتد إلى الأصل المؤسس لكل النصوص – ومنها القرآن – وهو اللغة العربية ، ليؤسس من خلال بنيتها – صوتيا وصرفيا وتركيبيا ودلاليا – مشروعه الفكرى . من هنا نفهم حرص ابن عربي على تأكيد أن خطابه ليس من إبداعه هو ، بل هو من مصدر إلهى مقدس ، وابن عربي مجرد « مبلّغ » ، وهذا معناه أنه يرتد إلى الأصل والمنبع : الله اللغة ، وتصور ابن عربي للوجود يسمح لنا بهذا التوحيد . فالوجود هو كلمات الله التى تكونت فى النفس الالهى (العماء) المعبر عن شوق الذات الالهية للظهور فى معرفة الغيرْ (الخلق) تبعا للحديث القدسي الذي يحتفى به المتصوفة جميعا : « كنت كنزا مخفيا فأحببت أن أُعرف فخلقت الخلق فبى عرفونى » . تتركز قراءة ابن عربي على الدال « أحببت » ويحلل مشاعر الحب وما يرتبط بها من شوق يستدعى فى شكل إخراج النَّفس . هذه الموازاة بين اللغة

طموح ابن عربي من شأنه أن يجعل المنظومة اللغوية، هي المنظومة الأم ونموذج الإبداع

والوجود معناها أنهما من مصدر واحد . من هذا المصدر تنبع النبوة والولاية ، والنصوص وعلى رأسها القرآن ، وإذا كان نص ابن عربى ينبع من نفس المصدر . فهو لا يتمتع بنفس المستوى من المصداقية فقط ، بل هذا ما يسمح له بجعل اللغة نموذجا لتصور الوجود والعالم والإنسان .

علاقات منطقية وفلسفية

هذا التماهى بين نص ابن عربى ونص القرآن من حيث المصدر مهم من زاوية أخرى ، ذلك أنه يستدعى بدلالة المخالفة خطابا آخر يعتمد فى بنائه وتركيبه على العلاقات المنطقية ، وهو الخطاب الفلسفى عامة ، وخطاب ابن رشد معاصره الأندلسى بصفة خاصة هذا الاستدعاء بالمخالفة يهدف إلى تحديد هوية الخطاب من خلال التناص مع نقيضه ، وهو التناص الذى يبقى خطاب ابن رشد بوضعه فى دائرة البشرى غير المقدس . من خلال علاقة التناص هذه يمكن فك شفرة اللقاء الذى وصفه ابن عربى بطريقة رمزية مع ابن رشد فى هذا اللقاء سأل ابن رشد ابن عربى ، ابن رشد هو الأكبر سنا والفيلسوف المشهور فى حين كان ابن عربى - بحسب تعبيره - صبيا أخضر الشارب ، سأل ابن رشد ذلك الصبى قائلا : هل وجـدتم الأمر عنـدكم - أى فى التجـربة الصـوفية - على غرار ما وجـدناه ؟ فأجاب ابن عربى : نعم ، ولما أحس سرور ابن رشـد لهذا الاتفاق ، سارع قائلا : لا ، فاغتم ابن رشد ، لكن ابن عربى أضاف : وبين نعم ولا تطير الرقاب .

هذا اللقاء يدل على أن تناص ابن عربى مع النص الفلسفى تناص لا يعتمد على التناقض التام ، إذ يظل حضور النص الفلسفى ممثلا لاحدى طبقات نص ابن عربى ، وهذا أمر أثار ارتباك أبو العلا عفيفى مثلا ، وإذا كان خطاب ابن عربى يستوعب فى بنيته الدينى ويتقاطع مع الفلسفى ، فليس معنى هذا أنه خطاب صوفى عرفانى خالص ، لا يمكن وضع خطاب ابن عربى فى سياق واحد مع الغزالى أو السهروردى أو ابن سينا . إن له سياقه الخاص بوصفه نصا متميزا . والسياق المحتمل لتحديد بنية خطاب ابن عربى - وهو السياق الذى اقتربنا من حدوده فيما سبق - هو سياق دعوة ابن تومرت : « العودة للأصول » ، وهو سياق يستدعى بالضرورة سياق الوضع الأندلسى وإذا كانت دعوة ابن تومرت أدت على المستوى السياسى إلى إقامة دولة « الموحدين » بديلا للمرابطين،

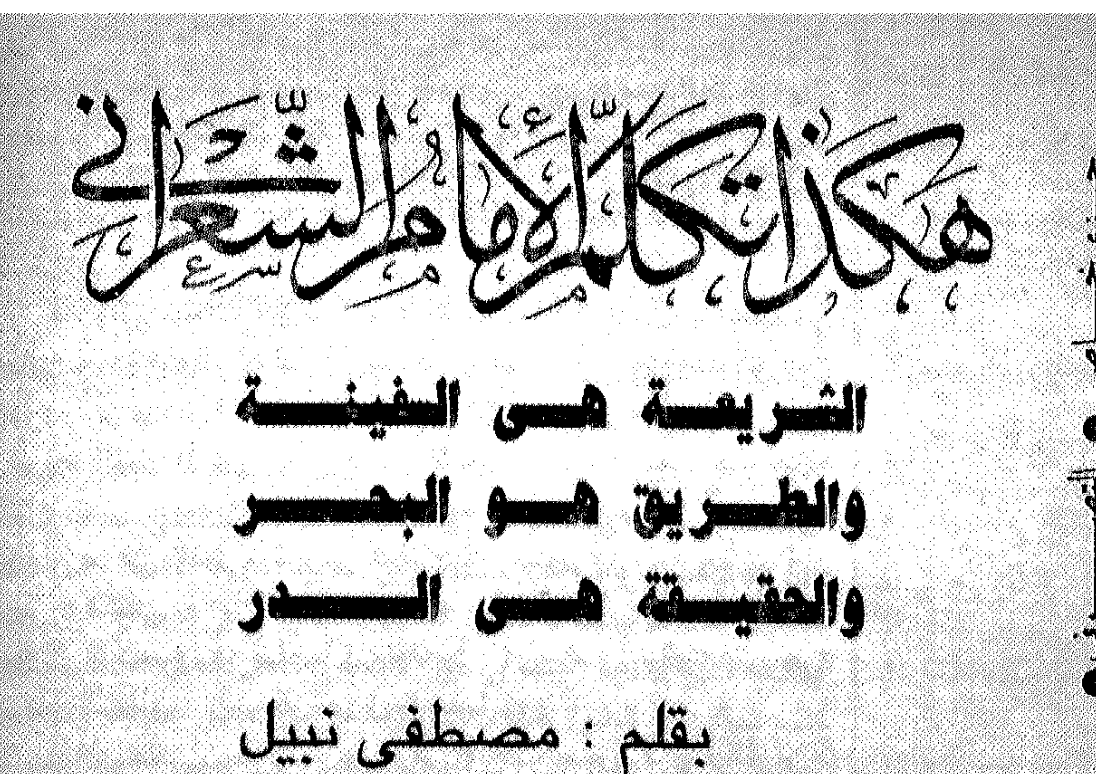
فقد كان أثرها على المستوى الفكرى القضاء على التعددية ، والتعـارض من ثم مع الوضع الأندلسى المتعدد على جميع المستويات .

هنا يأتى خطاب ابن عربى ببنيته الخاصة ليؤسس التعددية فى إطار الوحدة ، وهو بذلك لا يستجيب استجابة سلبية لسياق ابن تومرت ، أو لسياق الوضع الأندلسى . إنه يستجيب بالمسكوت عنه : « لم يعد النص الدينى ببنائه المغلق كافيا ، لابد من إعادة فتح آفاقه لانتاج نص جديد ، يستوعب كل نصوص الوضع الأندلسى ، ويتجاوزها فى نفس الوقت » . لهذا يمكن القول إن بنية خطاب ابن عربى لا تكتفى بعلاقة التشابه مع بنية الخطاب القرآنى ، بل تتجاوز ذلك إلى التناص معه تناصا إستيعابيا ، أى تناصا يحوله إلى جزء فى بنية الخطاب ، وإن يكن جزءا مؤسسا .

ومعنى ذلك أن خطاب ابن عربى لا يقدم مجرد قراءة القرآن ، ولا تأويلا له فقط ، بل يسـعى إلى تأسيس ذاته نصـا شاملا ، وليس هذا السعى مقصورا على نص « الفتوحات المكية » ، بل إن مفهوم « الفص » فى كتابه الآخر الهام « فصوص الحكم » يكاد يقترب إلى حد كبير من مفهوم الوحدة البنيوية فى نص شامل ذلك أن كل فص – أو فصل – يمثل مرحلة من مراحل النص الإلهى الشامل ، حيث يستوعب الفص التالى الفص الذى يسبقه ، ويتجاوزه مؤسسا بنيته الخاصة . هكذا تتدرج الشرائع من آدم – الفص الأول – إلى محمد – الفص الأخير – مكونة نصا شاملا يعتمد على علاقات الاستيعاب / التجاور بين اللاحق والسابق . لكن الذى اكتمل بالفصوص / الأنبياء هو نص الشريعة وحده من منظور ابن عربى ، أما نص « الحقيقة » فمازال قيد الاكتمال ، وهو الاكتمال الذى يطمح ابن عربى فى تحقيقه .

معنى ذلك أن خطـاب ابن عربى يدور فى الأفـق « المفتوح » - أفق الولاية - فى حين كان خطـاب الشرائع (= النصوص) يدور فى الأفق المغلق ، أفق النبوة . هذا التقـابل بين « المفتـوح » و « المغلق » - أو بين الولاية والنبوة وبين الحقيقة والشريعة - هو الذى يسمح لنا بالقول إن خطاب ابن عربى يسعى لتأسيس ذاته نصا شاملا يستوعب الخطاب القرآنى فى بنيته ويتجاوزه فى الوقت نفسه كانت تلك بعض جوانب المسكوت عنه - الجانب البارز ربما - فى خطاب ابن عربى ، والكشف عن باقى الجوانب يستحق إعادة قراءة شاملة نرجو أن تكون هذه القراءة الاستكشافية حافزا لها .

إبـن عـربى لا يـــؤول القـرآن ، إنه يـــرتـد إلى الأصــــل المؤسس لكل النصـــوص ومنها القرآن



أدهشنى التسليم بقيام مولد السيد البدوى ثلاث مرات فى العام الواحد ، فلا يوجد إنسان ولد ثلاث مرات ، كما أدهشنى ما يؤكده التاريخ حول تأخر معرفة المصريين عن منابع النيل ، الذى يعيش أهل الوادى على ضفافه والدور الحيوى الذى يلعبه فى حياتهم . ورغم ما عرف عن إزدهار الحضارة على ضفافه .

واقتصرت معرفتهم طويلا ، على أن النيل ينبع من القمر فى السماء ، وتارة أخرى ينبع من الجنة ويحمل إلى شعب مصر البركات .



فما معنى ذلك .. ؟ هل تعودنا التعامل مع الظواهر والنتائج وتجاهل الأسباب والمنابع ؟ وهل غابت لدينا لذة البحث عن الآفاق الجديدة ، ومتعة المغامرة والخوض فى المناطق المجهولة .

شغلتنى هذه الأسئلة طويلا ، وأخذت أتقصى أسبابها ، فهل الطرق الصوفية هى التى أشاعت فكرة الانصراف عن الدنيا وهمومها ، واحتقار ما انطوت عليه من علوم وفنون ! . ولعل هذا المقال يقدم جانبا من الإجابة .

فإذا كانت الحياة العقلية فى تمام عافيتها ، توارت الخرافات ، وحلق العقل والخيال يبحثان عن عمارة الأرض وبناء الإنسان ، فالحياة المصرية لا تفهم على وجهها الصحيح . إلا بدراسة الأثر الاجتماعى للتصوف ، فأرباب الطرق الصوفية لهم أكبر الأثر على الريف ، وتأثير عميق على تشكيل الوجدان العام ، حتى يكاد التصوف يترك أثرا فى كل فرد وعلى كل قيمة .. ولا يمكن القيام بأى دراسة اجتماعية بدون معرفة التصوف . الذى مازالت رموزه قائمـة على طول البلاد فى أضرحة الأولياء التى لا تخلو منها قرية أو نجع ..



ومدخلى إلى معرفة التصوف ، كتاب شيق سجل فيه عبد الوهاب الشعرانى سيرته الذاتية ، وأطلق عليه اسم «لطائف المنن والأخلاق» ، والذى أطلق اسمه على حى باب الشعرية والقادم من قرية سيدى أبى شعرة فى المنوفية والمتوفى سنة ٩٧٣ هـ - ١٥٦٥م .

وهذه السيرة تلقى الضوء على العديد من جوانب الحياة الاجتماعية فى البلاد ، وتقدم فكر المتصوفة بلا أقنعة ، فمن أقدر على وصف حياة من صاحب هذه الحياة نفسها ؟ ، ونتعرف من خلال تجلياته وإشراقاته على عالم شيق ينقل ما فيه من خير وما عليه من فساد .

عاش الشعرانى فى مرحلة دقيقة ، عاش خلالها عصرين ، فقد ظهر عندما قارب حكم المماليك على نهايته ، ذلك الحكم الذى يقسم أرض مصر إلى أربعة وعشرين قيراطا ، منها أربعة للسلطان ، وعشرة لأمراء المماليك ، وعشرة لأجناد المماليك ، أما أصحاب البلاد وأهلها ، فقد حرم عليهم حتى ركوب الخيل ، وتركت لهم الزوايا والتكايا والربط ، يمارسون فيه نفوذهم .

وتم فى تلك الأيام اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح ، وما أدى إليه من تراجع الحياة الاقتصادية ، وانطوت مصر على أهلها ، وتوالت عليها مواكب الظلم والجهل ، ثم هزم العثمانيون المماليك ، ولم تعد القاهرة عاصمة إمبراطورية إسلامية كبرى كما كانت ، وانتقل منها مقر الخلافة الإسلامية . فقد عاش الشعرانى حكم المماليك حتى بلغ الخامسة والعشرين ، وقضى بقية حياته فى ظل الحكم العثمانى ، وشاهد انحسار المجد عن بلاده ، ورأى أحوالها ، تضطرب ، وتابع خيرة صناعها يغادرونها إلى الأستانة ، وتخلى الوافدون الجدد عن عادة المماليك فى الاهتمام بالعلم ، ونشط الجهل، وتغلب التعبد على التأمل .

وكتب سيرته ، وهو المتصوف الزاهد ، فى شأن المتصوف بالسيرة الذاتية ، وهل يقصد التعريف بحياة صاحبها ، أم له هدف آخر ؟ .. يقول الشعرانى إنه أراد من كتابة اعترافاته ، أن يعرّف الكافة ، كيف يسلك المؤمن «الطريق» .وبالتالى فنحن أمام سيرة ذاتية من نوع خاص ، يصبح فيها العنصر الشخصى هامشيا ومحدودا .

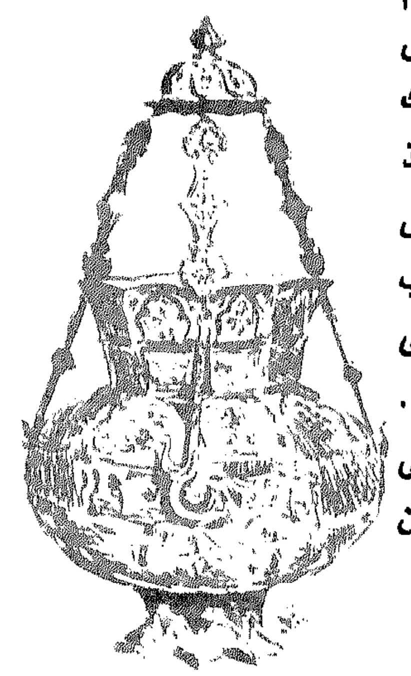
ولكن المتصوفة يزعمون القدرة على ملامسة الحقيقة برواية سيرتهم الذاتية . فأى أحداث يتوقفون عندها ، هل التفاصيل العادية ، أم تلك التى تؤكد ذاته التى يسعى إلى نكرانها . ؟ ! وهل يخترع المتصوف مثل غيره الأسباب والدوافع للأعمال التى صـــدرت عنه ؟ وهل سيكون صريحاً عارياً أمام القراء ؟

الشعرانى ـ روسو !

ويدهش قارىء هذه السيرة أنه أمام سيرة عارية تقدم صاحبها بسذاجة كبيرة ممزوجة بالدهاء ، وزعم الكثيرون أن السير الذاتية العربية ليست فى صراحة السير الذاتية الغربية ، وها هى ذى إحدى السير العربية التى لا تقل صراحة عن غيرها ، وربما أكثر صراحة وصدقاً من السير الذاتية الغربية ، فإذا كانت اعترافات جان جاك روسو ، هى قمة الصراحة ، فإنه تبين أن جانبا منها كان للتغطية على ما يريد اخفاءه ، فعندما ذكر أكثر المسائل الجنسية دقة . كان يخفى حقيقة أكثر إيلاماً ، وعندما ذكر أنه كان يرسل أبناءه إلى ملاجىء اللقطاء ، كان يخفى حقيقة أنه لم يكن قادرا على الإنجاب !

أما الشعرانى فقد قدم صوراً صريحة وتعبيراً قويا من عاطفة شكر الله على ما يتمتع به من نعم ، ومن أجل التطهر من ذنوبه وخطاياه .

وهو يكتب سيرته لكى يقتدى به مريدوه ، وباعثه ما قاله له أحدهم يوماً . « هذه الأخلاق التى نأمر بها لم نجد أحداً تخلق بها حتى نقتدى به . وهدف ما يرويه العمل بالآية الكريمة « وأما بنعمة ربك فحدث » الصفحة (١١) ، وقد سبقنى جماعة ذكروا مناقبهم ، ليأخذ الناس عنهم العلم والطريق ، تحدثا بنعمة الله لا افتخاراً على الأقران ، ولا طلبا للدنيا ... فإن المعارف لا تسلب وإنما تسلب الأحوال بسرعة استحالتها من حال إلى حال ، فهى كالثوب الذى يخلع ويلبس ، والمعارف كالذوات لا يدخل فيها محو ولا إثبات .. فطريق التصوف طريق علم وعمل ، والكامل إذا بلغ مقام الكمال فى العرفان صار غريبا فى الأكوان ، وقد صرحت فى الكتاب بأمور كان الأولى كتمانها ، لولا الأمر لى باظهارها (!) »



ولم يكن الشعرانى بعيداً عن التأليف ، ويكاد يساهم فى فروع المعرفة الدينية المختلفة ، وترك ثلاثمائة كتاب ، تناولت النحو والتفسير والفقه والتصوف ، وله فى دار الكتب نحو خمسين كتابا ، أغلبها لايزال مخطوطا ..

أحلام الفقراء

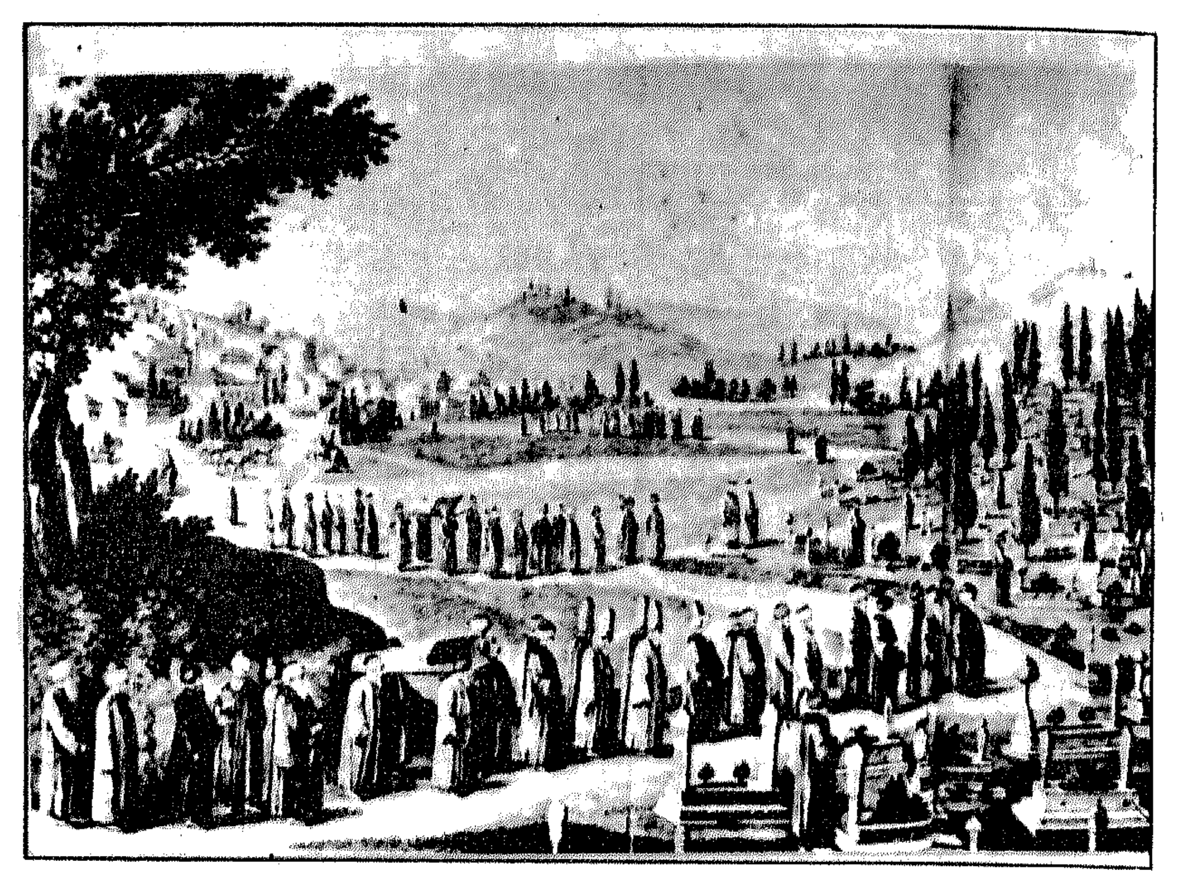
غدت الحركة الصوفية فى زمان المماليك والعثمانيين ، التنظيم الأهلى الوحيد ، البعيد عن مؤسسات الحكم ، وقسمت مصر الأهلية على شيوخ الطرق الصوفية ، وأصبحت الحرية الوحيدة الباقية للمريد أن يختار شيخه وزاويته ، وهى محدودة فيعقبها بيعة على التزام الطاعة تبدأ بالتوبة ثم ذكر ومجاهدة . ولكن اختزنت الحركة الصوفية أحلام المستضعفين والفقراء .

وأصبحت « زاوية » الشعرانى ذات تأثير كبير ، فقطبها صوفى كبير وكاتب بارز ، واسع النفوذ لدى معاصريه ، ويتساءل د. توفيق الطويل بعد وصفه للحياة فى زاويته ، كيف يتهيأ لهؤلاء الزهدة ما لا يتوافر لمعاصريهم من أهل الدنيا . ؟ الفاقة عن عامة الناس ، والترف عند الذين وقفوا حياتهم على الحرمان .. يتوافر لديهم عسل النحل والبطيخ واللوز والجوز .. فوق راحة البال واطمئنان النفس والخلو من كل تبعة . !

ويقول صاحب السيرة عن مصدر رزقه . !! لم يقسم الله لى عمل حرفة من خياطة أو تجارة أو ضفر خوص ونحو ذلك ، وكثيراً ما استأجر أرضا ، واستأجر من يزرعها ، فيأتينى منها بقوتى وقوت عيالى . بعد أن بلغت مقام الزهد إلى أن صار عندى الذهب والتراب سواء من غير ترجيح ، وبعد أن أحكمت هذا المقام ، رجحت الذهب على التراب عملا بما جعله الله تعالى فيه من الحكمة .

ويمكن من خلال سيرته رسم ملامحه الشخصية ، والتى جاءت فى صورة حكم ونصائح تختلط فيها التقاليد بالعادات بالقيم السائدة .

يعود نسب الشعرانى إلى الإمام على رضى الله عنه ، وقد نشأ يتيما فى قريته ، وأوضح الفارق الكبير بين الريف والعاصمة ، يقول

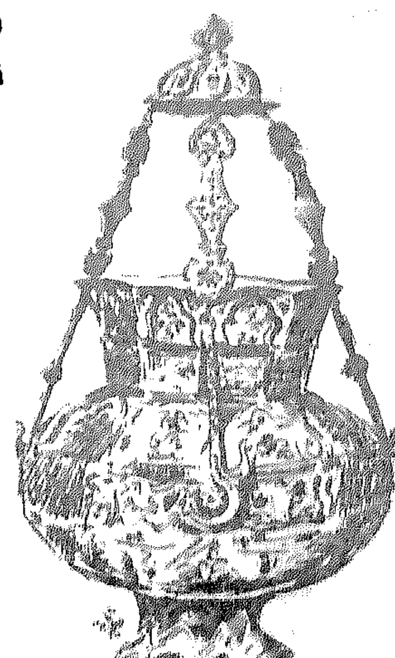


لوحة تركية للاحتفال بدفن سلطان العارفين فى الأضرحة المجاورة للمسجد الكبير فى القسطنطينية

وهو ينتقل من قريته إلى مصر القاهرة ... « ما جرنى من بلاد الريف إلى مصر ، انتقال من أرض الجفاء والجهل إلى بلد اللطف والعلم ، وكان مجيئى إلى مصر وعمرى إثنتا عشرة سنة ، وأقمت فى جامع سيدى أبى العباس ، وشاركت شيخ الجامع حياته حتى حفظت متون الكتب الشرعية .. وكان ذهنى بحمد الله سيالا لا يسمع شيئا وينساه .. »

ولم يذكر لنا لماذا غادر قريته ، وإن كان يقول .. « أنعم الله على حفظى من السرقة والخيانة منذ وعيت ، ما عدا مرة عندما أجلسنى شخص من بلدة الخانكا فى حانوته ، ومضى إلى حاجته ، فمر بى شخص يبيع حلاوة ، فأخذت من غلته ثلاث نقره واشتريت بها حلاوة ، واستحيت أن أذكر ذلك لصاحب الحانوت ، وكنت إذ ذاك دون البلوغ، فلما بلغت طلبت محاللته فوجدته قد مات » ويضيف . «ومن صغرى أنعم الله علىّ عدم مزاحمتى على شىء فيه رياسة دنيوية ،

ولا أنازع من يزاحمنى فى الرياسة قط ، وهو أمر أجد له فى مصر فاعلاً غيرى إلا القليل (!)



ويحمد الله .. إحساسى بمشاركة جميع المسلمين فى جميع البلايا والمحن حتى أنى أشارك المعاقبين فى بيت الوالى ، وأشارك المرأة إحساسها حال طلقها وولادتها ، وإذا استأجر منى شخص دولابا أو مركبا ولم ينتفع بها ، لا آخذ منه أجرة .. (أى أنه لا يقصر فى رزقه على ريع الأرض كما سبق وذكر) ، وتركت لذيذ الطعام ، ولبست الخيش والمرقعات من شراميط الكيمان نحو سنتين ، وأكلت التراب لما فقدت الحلال نحو شهرين ، ونفرت من جميع الناس ونفروا منى ، فكنت أقيم فى المساجد المهجورة ، والأبراج الخربة وسياحتى فى الجبال والبرارى ، حتى قطعت برارى ما أظن أحداً من أقرانى يعرفها ، ثم حبب الله إلى جبل المقطم ، ثم المساجد المهجورة فى القرافة ، ثم الخرايب فى مصر ، وما من فقير حتى له القدم فى الطريق إلا بعد سياحة ، ذلك لأن الأنس بالخلق حجاب عظيم ، فلا بد من قطع هذا الحجاب إما بالمجاهدة وإما بحزية إلهية . وضعفت بشريتى ، وقويت روحانيتى ، حتى كنت أصعد بالسرعة فى الهواء إلى الصارى المنصوب فى الجامع ، فأجلس عليه فى الليل والناس نائمون ، ثم إذا نزلت من السلم إلى الجامع أنزل بجهد وتعب لغلبة روحانيتى ، وطلبها الصعود إلى عالمها .. وربما نزلت بثيابى فى الماء البارد فى الشتاء حتى لا يأخذنى النوم .

ومن منّ الله علىّ .. .. شفقتى على كل دابة ركبتها ، وكراهة حملى سوطا إذا ركبتها خوفاً من أن تغلبنى حدة النفس فأضربها إذا حرنت ، وكذلك لا أسبها ، ولا أدعو عليها حال ركوبها ولا حال عثورها .. وعدم أكلى أو شربى شيئا إذا ركبت دابة بالكراء ، مدة غيبتى بها عن صاحبها ، لكونى أصير بالأكل والشرب ، أثقل مما كنت حال استئجارها .

فأهل الكشف تدرك من يفعل خيراً مع الدواب ، ومن يفعل معها شرا ، ولكنها لا تنطق .. وعدم شح نفسى على الهرة التى تستولى على الدجاجة ، وعدم تمكينى أحداً يتبعها إذا خطفتها (!)

و.. صبرى على مجالسة بعض الثقلاء ، وكتمى عنهم إدراك ثقلهم ، وعدم غيبتهم إذا قاموا .

أعظم النوافل

وبعد أن يقول الشعرانى .. « ومن منن الله على .. زهدى فى المطاعم والملابس والنساء والفرش الوطيئة ، وكثرة الروائح الطيبة الخارجة عن العادة ، وقناعتى بالكسرة اليابسة »

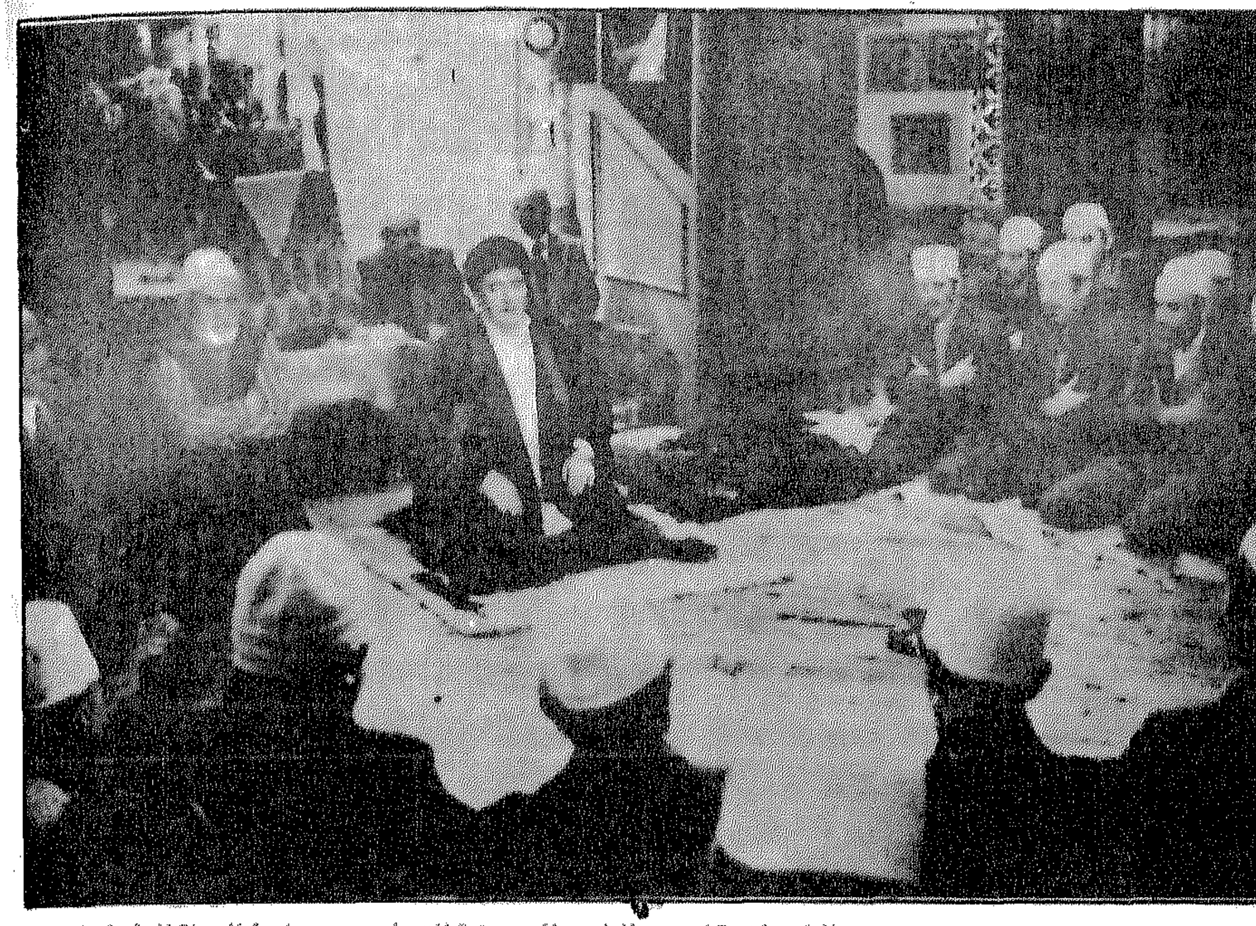
يعود فيقول .. «إن أعظم النوافل بركة الإكثار من النكاح لما فيه من الازدواج والإنتاج ، ولا أجامع وأنا غضبان أو وأنا مقبل على الدنيا ، ولا وأنا مخاصم أمهم ، فحضورى مع الحق فى حال إجتماعى بزوجتى ، فالاكثار من النكاح تتحقق فيه العبودية التى لا يشوبها دعوة قوة .. والنكاح يهيىء الزاهد لتلقى العلم اللدنى ، فإن كانت الزوجة على فتنة وجمال ، وجب تجاوز اللذة بالاستمتاع بها ، إلى رفع الهمة إلى التمتع بجمال من هى من آثار صنعته تعالى »

ويحكى رواية غريبة أنه لما تزوج فاطمة مكثت معه بكراً خمسة شهور ، إلى أن رأى السيد البدوى (فى المنام) ، وقد جاءه وأخذه ومكنه من إزالة بكارتها داخل ضريحه ، وفوق ركن القبة .. التى على يسار الداخل ، وتم ذلك بفضل كرامة وبركة السيد البدوى .

«وقد تمكنت من إصلاح زوجاتى الأربع اللاتى تزوجتهن على التعاقب ، وهن زينب وحليمة وفاطمة وأم الحسن إبنة سيدى مدين ، وعدم جمعى بين الضرتين ، وإقامة العذر لزوجتى إذا تزوجت عليها ، أو تسريت (إقتنى الجاريات) ، ولا أطالبها بالصبر لعلمى أنه لا تطيقه غالب النساء ، ومزحت مرة مع زوجتى أم عبد الرحمن وقلت لها : أن أسبق إلى الجنة بضرتك تفرش لك بيتك ، وتملأ لك الأباريق وتنتظرك حتى تجيئى إلينا ، فحلفت بالله العظيم أنها لو دخلت الجنة ورأت ضرتها هناك ، رجعت وقامت خارج الجنة أبد الآبدين» .

ويذكر أيضا ، أنه لم يعد يستحى من تعليم النساء الأجانب آداب الجماع ، فضلا عن تعليم الرجال .

ويشكر الله مرة أخرى .. « من عدم الوقوع فى شىء من أعمال قوم لوط . »



البكتاشية إحدى الطرق الصوفية التى اعتمدت عليها الدولة العثمانية

شطحات الصوفية

يقول البعض إن الطرق الصوفية لديها شفرة خاصة ، فهل تفسر هذه الشفرة ، ما يقولونه عن كراماتهم ، فالشعرانى قد طاف حول العالم فى محفة طائرة فلنصحبه وهو يروى عن كراماته ، يقول: إنه سمع تسبيح الجمادات والحيوانات ، وسمع من يتكلم فى أطراف مصر ، وسمع تسبيح السمك فى البحر المحيط . يقول ..

« عمت فى بحر النيل أيام «الوفاء» وأنا دون سن البلوغ ، فتعبت ونزلت فى قعر البحر لأموت ، فأرسل الله لى تمساحاً فوقف تحت رجلى حتى استرحت ، ثم حام حولى يساندنى حتى وصلت إلى ساحل البحر ، ليس هذا فقط ، بل كثرة حضور الملائكة والجن لدروسه ، وهرب التماسيح عند نزول البحر ، رغم كراهته .. « لوقوع الخوارق على يديه فى الدار الدنيا ، ولكن وقوع الخارق لابد منه ولو

مرة واحدة بشرى من الله ، وألف كتابا كشف فيه الحجاب عن أسئلة الجان وهى نيف وسبعون سؤالا سألنى عنها علماء الجان !!)

وأحصى ولاحظ د. زكى مبارك ، أن الشعرانى ذكر فى مؤلفاته أكثر من خمسين مرة عبارة «العاقل من عرف زمانه » ، فهل معنى ذلك أن الشعرانى قد عرف عقلية معاصريه ، فبلغ من ذكائه أن قدم إليهم ما يرضيهم ..

ولعل ما يفسر الكثير من هذه الخرافات ، قوله فى موضع آخر .. « أخذ علينا العهود أن ندور مع أهل زماننا ، وننخدع لهم كما ينخدعون لنا ، ونتلون لهم كما يتلونون لنا ، فنأمر إخواننا أن يدوروا مع الزمان وأهله كيف داروا .. »

ونقل الشعرانى صورة لما يجرى فى زمانه قال .. « كان إبراهيم العريان يصعد إلى منبر المسجد عاريا ، ويخطب فى الناس ، قائلا .. السلطان ودمياط وباب اللوق وبين الصورين ، وجامع طولون والحمد لله رب العالمين » فيحصل للناس بسط عظيم . !

وقد نقد الشعرانى فى كتبه أحوال زمانه وأحوال المتصوفة ، ويرى أن معظمهم دجالون يحتالون على أكل أموال الناس ، ويورد صوراً عن فساد أخلاقهم وتهافتهم على حطام الدنيا فهل يعنى الطرق الصوفية الأخرى فقط . ؟!

لقد أوتى الشعرانى خصوبة خيال وسرعة بديهة وذكاء ، فعبر عن أحلام المستضعفين والفقراء ، الذين يأملون فى الكرامات التى تدعو للفقير فيصبح غنيا ، ويقول للطبق « النحاس » صر «ذهبا» فيصير ذهبا .

ويذكر الشعرانى بعضا من هذه الكرامات ، فهذا شيخ يجتذب قلقاسا من الحلفا ، وهذه امرأة تشتهى جوز الهند ، فتذهب إلى الشيخ فتنبت شجرة فى خلوته تأخذ منه المرأة ما تشتهى . وهذا رجل يحتاج إلى المال .. فيأمره شيخه بالذهاب إلى ساقية بعينها يغترف منها ما يشاء من ذهب وفضة .

وهو لا يكتفى بحل مسألة الحياة والموت والقضاء والقدر ، بل ويضع حلولاً لكافة هموم الإنسان ويساعده على تحقيق أحلامه ، حتى لو استبدل الحقيقة بالخيال .

العاقل من عرف زمانه .. !

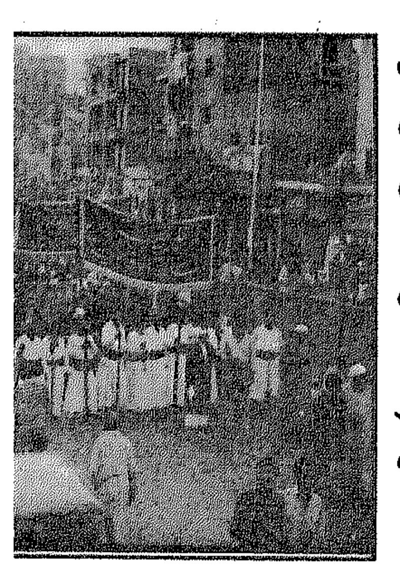
ولنقتصر فى سيرته الذاتية على البحث فى مسألتين ، رؤية المتصوفة للسياسة ، أى العلاقة بالحاكم فى الداخل وبالقوى الأجنبية فى الخارج ، وموقف المتصوفة من تحصيل العلم ..

فمن المآخذ على الطرق الصوفية فى مصر ، تأييدها المطلق للحاكم ، ومهادنة الغازى ، ويقدم الشعرانى فى نصائحه موقفا سلبيا، لا يتجاوز الشفاعة للمظلومين من الأهالى .

ويرى أن مقاومة الحاكم الظالم ، مجلبة للمتاعب والقلاقل ، لأن مثل هذا الحاكم الجائر لا يغفر لأحد عصيانه ، ولا يتسامح مع من يعمد إلى التنديد به ، لذا وجبت مداراته ، وتجنب العمل على إثارة حفيظته ، فالولاة عنده أتم نظرا من الأهالى ، فلهذا حكمهم الله فى رقابهم فكل ما يفعلونه يمكن حمله على الظن الحسن ، وترجيح نفعه للمسلمين وإن خفى وجه النفع فيه ، وأقصى ما يفعله التغيب عن حضور مشاهد الظلم ، حين يأخذ الولاة فى شنق المذنبين وشنكلتهم وخوزقتهم وخزمهم فى أنوفهم :

فاحترام الحاكم واجب حتى لو كان جائراً ، وإذا رفض الشفاعة وجب إحتمال رفضه ، وينصح بتملق الحكام إتقاء شرهم ، فالله هو الذى ولى على الناس الحاكم الفاسق الجائر ، والخروج عليه ، عصيان لله وتمرد على حكمه ، ويذهب أبعد من ذلك عندما يطالب قراءه بأن ينطووا على إحترام هؤلاء الظلمة ويضمروا لهم الحب سرا وجهراً ، ويحكى أنه يمرض إذا سمع بمرض أصاب الحكام ، حتى أنه أفطر فى رمضان عشرة أيام ، إبتهاجاً بشفاء السلطان العثمانى سليمان بن عثمان من ألم أصاب رجله ، كما أفطر فى فرص أخرى من أجل خاطر الوزير على باشا الذى كان نائبا فى مصر ..

وينصح بعدم إفشاء سر من صحبه من الولاة ، .. « إذا قربنى ، وصار يشاورنى فى أموره ، فلا أقول لأحد من أصحابى قط ، إن الأمير قال كذا ، أو شاورنى فى كذا ، فينبنى على ذلك مفاسد ، منها نفرة الأمير وأخذ حذره منى ، فليس للأمير أن يعفو على ثلاث: من قدح فى ملكه ، ومن أفشى سره ، ومن أفسد حريمه !



فمن جالس الملوك بلا أدب جره ذلك إلى العطب ، « وعندما أدخل على أمير لا أذكر أمامه بخير حديث الأمير الذى كان قبله ، خوفا من إثارته وكراهته قبول شفاعتي في المستقبل ، وهذا ما يتعين فعله مع ولاة هذا الزمان ، فإن غالبهم صار بحكم القانون ليس له عدو إلا أصدقاء الأمير الذى كان قبله ، وربما سلب نعمة جميع أصحاب من كان قبله» .

وأغرب ما يقول .. «ضرورة حفظى للأدب مع السلطان ، حتى لو ورد ملوك الفرنج ديارنا وأركبوهم الخيل . وخدمهم مماليك السلاطين، وطرقوا لهم الطرق ، فأحمل ذلك على كامل طيبه فربما ذلك لمصالح تعود على المسلمين ، كأن يرحمون ما عندهم من الأسرى، فالولاة أتم نظرا منا .. »

وهكذا نجد أن الطرق الصوفية تقف مع الحاكم فى كل الأحوال، وتقدم التبرير الكامل له ، وشيوع هذه القيم هى التى مازالت تعمل عملها فى تجربتنا السياسية ، وخاصة إذا عرفنا أن المنضوين تحت لواء الطرق الصوفية فى مصر أكثر عدداً من المنتمين للأحزاب السياسية !

إنتشار الأمية

ويقود هذا التفكير بالضرورة إلى أن يصبح الأمى أفضل من المتعلم ، فبعد أن أصاب الطرق الصوفية الكثير من الآفات ، ومن أهمها تقديس شيخ الطريقة ، وانسحاب أتباعها من معارك الحياة ، وقيام هيكل تنظيمى يخضع خلاله المريد لشيخه ..

وفيما يرويه الإمام الشعرانى عن تحوله من فقيه إلى متصوف ، تظهر تلك القيمة الدخيلة على الإسلام والمدمرة لأهله ، فلقد كان شيخه على الخّواص أميا ، وكان الشعرانى أكثر أهل عصره علماً ، وكان شيخه الأمى « ينطق بجوامع الكلم ، ويختصر على المريد الطريق .»

وفى أول الطريق طلب إليه شيخه أن يتخلص من كل كتبه وينفق ثمنها إحسانا على المعوزين ، وعاد يطلب منه أن ينصرف عن طلب العلم وحضور مجالسه عاماً كاملا ..

وقال له شيخه بعد إنقضاء العام : بقيت فارغا والفارغ يملأ ولا يتغير ما فيه ، ثم طلب إليه أن يعتزل الناس ويتحاشى مجالسهم ، وأن يطرد كل خاطر يهفو إلى ذهنه . فالعلوم الوهبية اللدنية تزاحم العلوم النقلية .

ويعترف الشعرانى ، أنه كان أحد أطراف إنقسام حاد ، بين أصحاب العلم العقلى الذى يمثلهم الفقهاء ، وأصحاب العلم اللدنى القائم على الكشف الذى يمثلهم المتصوفة ، وها هو ذا بحر العلم عند شيخه مبسوط الرحاب ، عميق القاع ، والذى لا يقوم سوى على الكشف الصحيح والتعريف الإلهى ، ولا يتصل بالفكر والنظر فى قليل أو كثير !

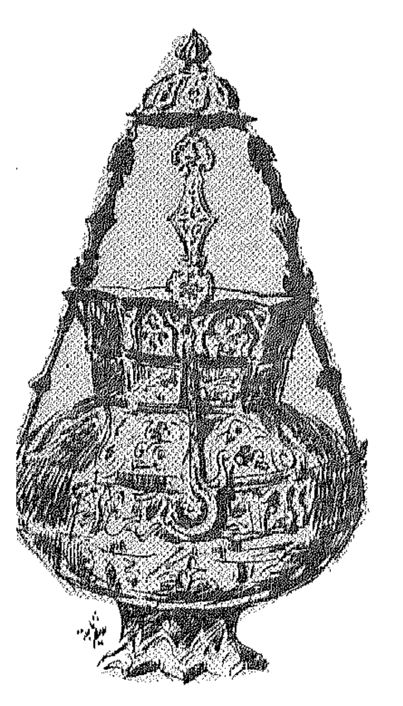
وغطس الشعرانى فى هذه المعرفة خمس مرات ، فالشريعة هى السفينة والطريق هو البحر والحقيقة هى الدر ، ووجد فى كل مرة غاص فيها صيداً من خزائن العلم اللدنى وأخذ يفيض فى تفسير القرآن والحديث، ويستنبط أحكام الدين ، حتى أغناه عن إستقاء العلم عن آثار المؤلفين قدامى كانوا أو محدثين ..

ولابد من الشيخ للمريد عند الشعرانى ، «فلو أن طريق القوم يوصل إليها بالفهم من غير شيخ ، لما إحتاج مثل حجة الإسلام الإمام الغزالى ، ولا الشيخ عز الدين بن عبدالسلام أخذ أدبهما عن شيخ . ! » ، وكان يقول لعلماء زمانه : لستم بعلماء ، وإنما أنتم تتلذذون بالمسائل ، ولو أنكم كلفتم نفوسكم بالعمل بما تعلمون لتجرعتم المرارات ، ولكبحت نفوسكم عن التعلم .

وينقل عن إبراهيم المتبولى قوله .. « ثلاثة من الناس لا يرجى فلاحهم لاستحكام المقت فيهم ، ، من يحب اللواط ، ومن يعمل بالكيمياء ، ومن يريد فتح المطالب» وهو هنا ياللغرابة يجعل اللواط كدراسة الكيمياء ، ويؤكد كراهيته لتعلم ، علم الحرف ، وعلم الرمل والهندسة والسيمياء ، وغير ذلك من علوم الفلسفة وهذه الأمور يفعلها المفلسون من صفات الصالحين !

إليس ذلك تحريض على الجهل وحض على الخرافة ، والرضا بالخروج من معترك الصراع الذى يشهده العالم من حوله ، إنها

يفطر رمضان إذا مرض السلطان !



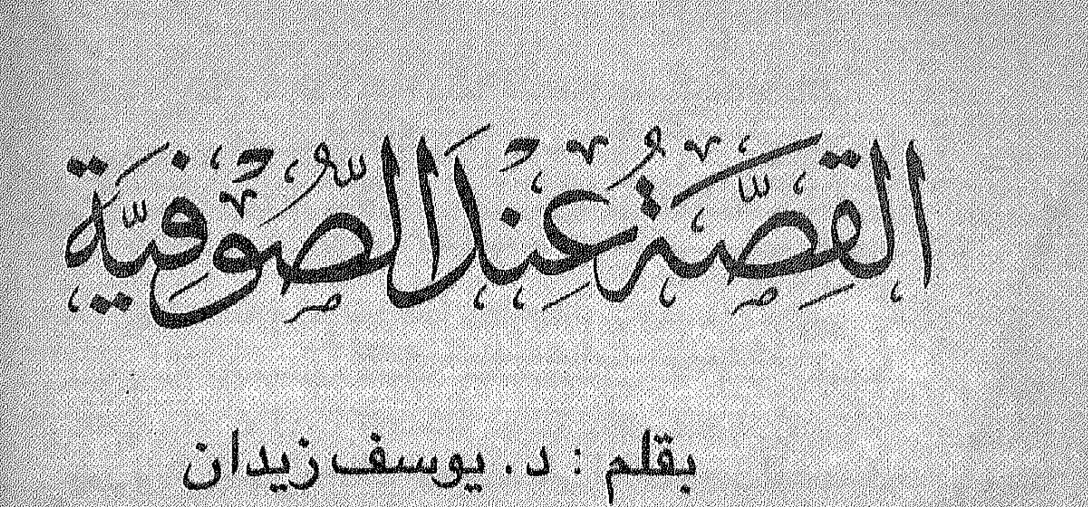
صور بالغة السوء لسلطان التصوف على أهالى مصر المحروسة ، ولابد هنا من ذكر تحفظ ضرورى ، حول الفارق بين العلم الدنيوى والعلم اللدنى، فربما كان يعنى الفارق بين العلم الذى يستوعب وبين العلم المحفوظ ، فالمعرفة الحقة هى الإستيعاب وليس الحفظ ، ولكن لا يمكن بحال إعلاء شأن الأمية وتجاهل العلوم والفنون والفلسفة .

وهناك تحفظ ضرورى آخر ، ألمح إليه فى كتاب المنن ، هو تزوير الأعداء والحساد لبعض كتبه .. « لما دسوا فى كتبى كلاماً يخالف ظاهر الشريعة ، وصاروا يستفتون علىّ زوراً وبهتانا ، وإدعى البعض علىّ أنى أفتيت بتقديم الصلاة على وقتها إذا كان وراء العبد حاجة ..

وحدث بعد تصنيفى لكتاب « البحر المورود » ، أن كتبوا منه نحو أربعين نسخة ، وغار من ذلك الحسدة ، فاحتالوا وكتبوا بعض الكراريس ، ودسوا فيها عقائد زائفة ، وسبكوا ذلك فى غضون الكتاب فى مواضع كثيرة ، ووقعت بذلك فتنة كبرى ..

فهل بعض آرائه الغريبة فى مصنفاته زودت بفعل فاعل . ؟ وكم هى هذه الروايات المنحولة .!

وعلى أية حال من الواضح أن نمو النشاط الصوفى كان إنعكاسا لأحداث العصر التى عصفت بالعالم الإسلامى ، وحان وقت التخلص من آثارها ، والتطهر من تلك الآثار السلبية التى تبقى على التخلف . ليحل محلها الإسلام الصحيح ، الذى يجعل التفكير فريضة، والذى يساوى بين البشر ، ويقوم على الشورى .

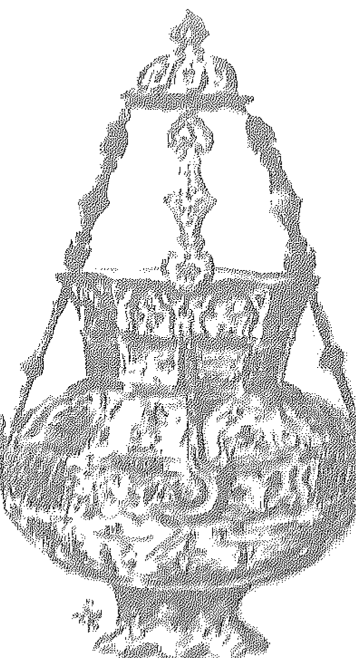


.. إذا انجرفنا مع تيارات الرؤى الغربية للأشياء ، ووقعنا تحت هيمنة الآخر الغربى ، صرنا نرى ذاتنا وفقاً لرؤية الآخـر لنا ، و نستعير منه صورتنا التى يقررها هو ! ومن هنا ، نرى مثقفاً مصرياً كبيراً ، يقف أمام حشد ثقافى أكبر ، فيعلن « إن القصة العربية ولدت يتيمة ، وكان اسمها زينب » فى إشارة واضحة إلى أن رواية محمد حسين هيكل الصادرة سنة ١٩١٤ ، كانت مسبوقة بالعدم الروائى .. وهذا وهم كبير ..

البذور الأولى :

لا يمكن – تاريخياً – تحديد الزمن الذى ابتدأت فيه القصة العربية ، فهى ذات أصول ضاربة فى القدم . كان عرب الجاهلية الأولى يتناقلون حشداً كبيراً من التراث القصصى الراوى لوقائع الأيام ، وسير أعلام الرجال ، وحكايات البطولة . وكان التراث الفارسى والاسكندرانى – وهو تراث اتصل به العرب قبل الإسلام – زاخراً بالأشكال القصصية المتنوعة ، بداية بالملاحم المطولة ، وانتهاءً بالقصة القصيرة ذات الطابع الرمزى .. هناك إذن بذور !

ومع فجر الإسلام ، نرى فى القرآن الكريم « أحسن القصص » وهى تروى عن الأنبياء ، وعن الفجرة والأتقيـاء ، وعن الأيام والأعمال . وما لبثت القرون الأولى أن حفلت بطائفة من الأدباء المعروفين باسـم « القُصّاص » وكانت لهم مكانةٌ خاصـة عند أهل الزمان وعند الحكام ، واشتهر منهم الكثيرون .. وبالقطع ، فلسنا هنا





الــــراوى فى القصـــــص الصـوفى هو المحور الذى تــدور حــوله الأحـــداث والـــوقـــائع

بصدد تحليل هذه الألوان المبكرة من الأدب القصصى العربى ، ولن نطيل المكث أمام عمل مثل « ألف ليلة وليلة » فكل ما فى الأمر أننا نود الإشارة الى أن هناك أصولاً وبذوراً أولى للقصة الصوفية ، التى هى بدورها أصولٌ وبذور أولى للقصة العربية المعاصرة .

بدء القصة الصوفية :

إن أول عمل أدبى يحمل طابع القصّ الصوفى ، هو تلك الترجمة المتميزة التى حكاها عن نفسه « الحكيم الترمذى » المتوفى ٣٢٠ هجرية ، وجعلها بعنوان : بدو الشأن . وفيها نراه وهو يروى تنقلاته الروحية العروجية ، عبر حشدٍ من الرؤى المنامية التى رآها هو ، أو رأتها له زوجه .

وتوالت من بعد ذلك ، أعمال قصصية لمتصوف كبير – وطبيب وفيلسوف أيضاً – هو الشيخ الرئيس : أبو علىّ بن سينا . وقد كتب مجموعة من القصص القصيرة التى حملت عناوين مثل : حىّ بن يقظان – سـلامان وأبسال – رسالة العشق .. وغير ذلك .. وعلى الجانب الآخر من العالم الإسلامى ، يعيد ابن طفيل الأندلسى ، صياغة قصة « حى بن يقظان » التى كتبها ابن سينا المشرقى ، فيكتبها ابن طفيل هذه المرة بالشكل الذى سيعرف باسم الرواية القصيرة Novela .

وتتعدّد أعمال شيخ الإشـراق « شهاب الدين السـهروردى

حاملةً عنـاوين مثل : قصة الغربة الغربية - أصـوات أجنحة جبرائيل .

أما مؤلفات الشيخين : محيى الدين بن عربى ، عبد الكريم الجيلى .. فقد امتلأت بما لا حصر له من تلك القصص التى تسمى الواحدة منها « قصة قصيرة جداً » وهى لون مميّز من الأدب القصصى المركز .

ولما كان المقام هنا لا يتسع لتقديم نماذج من تلك الأعمال القصصية المتنوعة عند الصوفية المسلمين فلا يبقى إلا استعراض الخصائص العامة للقصّ الصوفى ، وهى خصائص تتعلّق بالشكل وبالمضمون .



بكارة اللغة :

تميّزت الكتابات الصوفية عموماً ، والقصّ الصوفى خصوصاً ، بنوع من التفرُّد اللفظى ومحاولة استحداث صياغات جديدة تناسب التعبير عن المعانى الخاصة التى قصد إليها المتصوفة ولهذا نرى فى القصص الصوفى العديد من الكلمات والعبارات التى لا نراها عند غيرهم ، ففى قصة قصيرة جداً لابن عربى ، نراه وهو يقصُ رحلته مع « أحد الأبدال » إلى « جبل قاف » كى يلتقى بالحية « المُحْدقة بالجبل » .. ولم يقف الأمر بالقصص الصوفى عند محاولة توليد اللفظ الجديد من المنظومة العامة للغة ، بل تعدى ذلك الى اختراع ألفاظ جديدة لم تكن مستخدمة من قبل . فعندما أراد السهروردى أن يعبّر عن اللاموضع ، أو المدينة التى لا مكان لها ، اختار لفظاً خاصاً ، هو نَاسُحَجابَادْ !

غموض المصطلح :

كان لابدَّ للصوفية من تأسيس قاموس لغوىّ خاصٍّ بهم ، لأسباب فنية وتاريخية عديدة ، منها : التحرُّز من ترصُّد الفقهاء القشريين - الرغبة فى استيفاء معانيهم للخواص دون العوام - مناسبة اللفظ الخاص للتعبير عن الحال الخاص . وغير ذلك من الأسباب الداعية إلى استخدام طائفة من الاصطلاحات كالحال

والمقام والقبض والبسط والسُّكْر والمحق .. الخ .

وفى القصص الصوفى ، لن نجد اصطلاحات بينها ، يمكن الكشف عنها وعن مدلولها «الرسالة القشيرية» أو « اصطلاحات الصوفية»للقاشانى » وغير ذلك من المؤلفات الصوفية - فقد تجدَّدت الرموز الصوفية فى القصص ، وتعدَّدت دلالاتها بحسب السياق ، مما يجعلها فى معظم الأحيان ملفوفة بالغموض ، خاصة فى عين الخبير بلغة المتصوفة ، ولنضرب مثلاً :

يبدأ السهروردى قصة « أصوات أجنحة جبرائيل » بقوله « فى يوم ما انطلقت من حجرة النساء ، وتخلّصت من بعض قيود ولفائف الأطفال ، كان ذلك فى ليلةٍ ، إنجابَ فيها الغسقُ الشُّهَبىُّ الشكل مستطيراً عن قبة الفلك اللازوردى ، وتبدّدتْ الظُلمة التى هى أخت العدم على أطراف العالم السُّفلى ، وبعد أن أمسيت فى غاية القنوط من هجمات النوم ، أخذتُ شمعاً فى يدى متضجراً ، وقصدتُ إلى رجال قصر أمى .. »

ولكى نفهم تلك العبارات التى استهلّ بها السهروردى قصته ، لابد لنا أن نغسل الغموض المحيط بالمصطلح ، فنعرف أن « حجرة النساء » تعنى العلائق الحسية الجسمانية ، وأن « لفائف الأطفال » هى الأمور التى اعتادتها النفس الإنسانية فى العالم الأرضى ، وأن « الليلة » تعنى زمن العروج ووقت التجليات .. وهكذا .

التواصل مع التراث :

لقد صرنا نفهم كلمة « التراث » على أنها عالم قديم ، بائد ، نحن عنه شبه منفصلين . وربما كان ذلك نابعاً من انقطاعنا عن التواصل مع التراث فى العقود الأخيرة ، تحت تأثير الاستعمار والاغتراب الثقافى عن الذات . أما فى القرون السابقة ، فقد كان اللاحق يتواصل مع تراث السابقين ، دون أدنى شعور بوجوب القطعية معهم ! وقد ظهرت عملية « التواصل مع التراث » قديماً ، فى أشكال ثقافية لا حصر لها ، منها « مجالس التعليم الإسناد - سلاسل الطرق الصوفية - الشرح والتحرير .. » وظهر التواصل مع

لابد للصوفية من تأسيس قاموس لغوى خاص بهم لأسباب فنية وتاريخية.

التراث السابق أيضا ، في القصص الصوفى متمثلا فى قصة « حىّ بن يقظان » وفى غيرها .

حىّ بن يقظان والعالم النورانى :

هناك بعض الدراسات التي تسعى للكشف عن الأصول اليونانية والاسكندرانية لقصة « حىّ بن يقظان » التى كتبها ابن سينا ، لكننا يمكن أن نتتبّع مسار هذه القصة ابتداءً من صياغة ابن سينا لها ، حيث حاول تصوير عملية الخروج الإنسانى من (بلاد برزة) إلى العالم العلوى النورانى (قصر الملك) مشيراً بالعنوان الى الوجود الإنسانى (حىّ) الذى انتبه من رقدة الحواس وسيطرة المادة ، فصار (ابن يقظان) .

يتواصل السهروردى مع تراث ابن سينا ، فينتقد قصته نقداً لطيفا ، قائلا : إنى لما رأيت قصة « حىّ بن يقظان » صادفتها مع ما فيها من عجائب الكلمات الروحانية والاشارات العميقة ، متعريةً من تلويحات تشير إلى الطور الأعظم ، الذى هو الطامة الكبرى المخزونة فى الكتب الالهية .. المخفية فى قصة « سَلاَمان وأبْسال » التى رتّبها صاحب قصة « حىّ بن يقظان » .. فأردتُ أن أذكر منها شيئاً ، فى طرز قصة سَمَّيتها أنا : قصة الغربة الغربية .

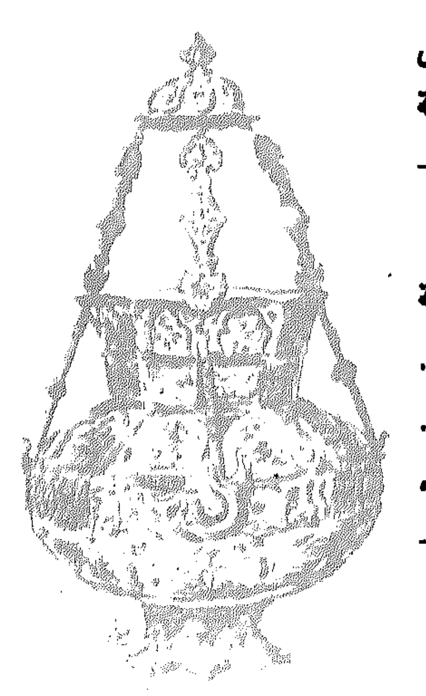
وفى « الغربة الغربية » يحكى السهروردى رحلته مع أخيه عاصم (العقل الانسانى) إلى العالم الاعلى ، مشيراً بالعنوان الجديد إلى غربة الانسان فى هذا العالم ، واغترابه – وهو على قيد الحياة – عن أنوار العالم العلوى الذى لايمكن له العروج اليه إلا فى لحظات تسنح كلمح بالبصر.

ويعود ابن طفيل إلى العنوان الأول ، فيكتب روايته القصيرة « حى بن يقظان » على نحو أكثر تفصيلاً يتناول نشأة « حى بن يقظان » وتطوُّر إدراكه وقواه العقلية والروحية حتى يصل إلى جوهر الدين وأصوله . وقد أفرغ « دانييل ديفو » المحتوى الفلسفى والصوفي من قصة ابن طفيل ، واستغل قالب النشأة وطبيعة الارتقاء فقط ، ودوّن قصته التى نالت شهرة واسعة ، َروبِنُسن كروزو .

ونعود لعملية التواصل مع التراث عند المسلمين ، فنرى العلاّمة علاء الدين بن النفيس وهو يستلهم الإطار العام لقصة « حى ابن يقظان » التى كتبها ابن سينا ، ويخالفه فى المضامين . فإذا كان ابن سينا قد أراد التعبير عن إمكانية وصول العقل الانسانى الفطرى إلى الحقائق العلوية – وهو مانراه أيضاً عند ابن طفيل ..فإن ابن النفيس يرى أن العقل لابد أن يهتدى برسالة سماوية ترشده .. ولهذا ، أحتفظ ابن النفيس فى قصته ببنية القصة الأولى ، وخالفها فى السياق ، وفى العنوان أيضاً .. ففى مقابل « حى » الذى يشير عند ابن سينا إلى مطلق الانسان « ابن يقظان » الذى يشير عنده الى يقظة العقل الانسانى استخـدم ابن النفيس عنوان « فاضل » كإشارة الى الانسان الاخلاقى « ابن ناطق » الذى يشير الى الوصلة مع الشريعة من خلال اللغة . وهكذا كانت قصة ابن النفيس « فاضل بن ناطق » تواصـلاً مـع التراث السابق المتمثـل فى قصـة ابن سينا « حىّ بن يقظان » وإن كان هذا التواصل لم يلغ اللاحق لحساب السابق .

أسلوب الإلتفات

الالتفات ظاهرة أسلوبية توقف عندها البلاغيون العرب كثيراً . وقد تكرّرت هذه الظاهرة فى آيات القرآن الكريم ، ثم استفاد منها المتصوفة فى أدبهم القصصى .. وفى « الالتفات » يتغير مافى مسار القص من الرواية الحاكية إلى الحوار ، ليعطى النص حركة درامية أعمق . وهذا ما سنراه فى هذه القصة – القصيرة جداً – التى صاغها ابن عربى على النحو التالى :



« ذهبتُ أنا وبعض الأبدال إلى جبل قاف ، فمررنا بالحية المُحْدقة به ، فقال لى البدل : سلّم عليها فإنها سترد عليك السلام . فَسلّمنا عليها ، فردّت ، ثم قالت : من أىّ البلاد ؟ فقلنا : من بجاية . فقالت : ما حال أبى مدين مع أهلها ؟ فقلنا لها : يرمونه بالزندقة ، فقالت : عجبا والله لبنى آدم ، والله ماكنت أظن أن الله – عزّ وجَلّ– يوالى عبداً من عبيده ، فيكرهه أحد .. »

الراوى فى القصص الصوفى هو المحور الذى تدور حوله الأحداث والوقائع ، وهو الشخصية التى لا تخلو منها قصة صوفية ولذا ، تتعدد (تاء المتكلم) فى النصوص القصصية للقوم ، أكثر من بقية الضمائر الأخرى .

والسر فى غلبة شخصية الراوى ، هو أن القصة الصوفية غالباً ما تكون تصويراً لمراحل الطريق الصوفى التى قطعها المؤلف ، أو تصويراً لمرحلة بعينها من هذا الطريق العروجى - والطرق إلى الله - كما يقول الصوفية - على عدد أنفاس البشر ! ومن هنا تتفرّد كل تجربة صوفية ، ويستقل بها صاحبها . وبالتالى ، تنفرد القصة الصوفية الواحدة ، وتستقلُّ عن غيرها .

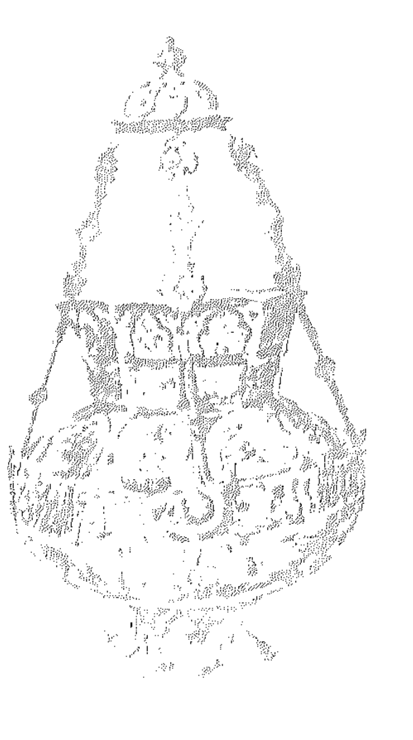
وثمة أمور أخرى قد يسعى إليها الصوفى فى قصته - غير الإخبار عن رحلة عروجه الخاص - فمن ذلك : الرغبة فى معارضة مضامين قصة سابقة ، كما هو الحال فى قصتى « الغربة الغربية » و « فاضل بن ناطق » .. أو تسجيل موقف الراوى من واقعة معينة ، كما هو الحال فى قصة ابن عربى السابقة التى سجّل فيها رفضه لاضطهاد الشيخ أبى مدين التلمسانى ، فلجأ لهذا الأسلوب الذى تغلب عليه سمة الفانتازيا .. وقد يسعى الصوفى بالقصة إلى تبيان أمر ذوقى خاص لمريديه أو صحبه ، ولذا ترد فى بعض الديباجات القصصية تعبيرات مثل « اعلموا يا إخوان » أو « معشر صحبى » وغير ذلك . وكل هذه الأمور نابعة من نفس الصوفى الذى تعبِّر عنه شخصية « الراوى » .

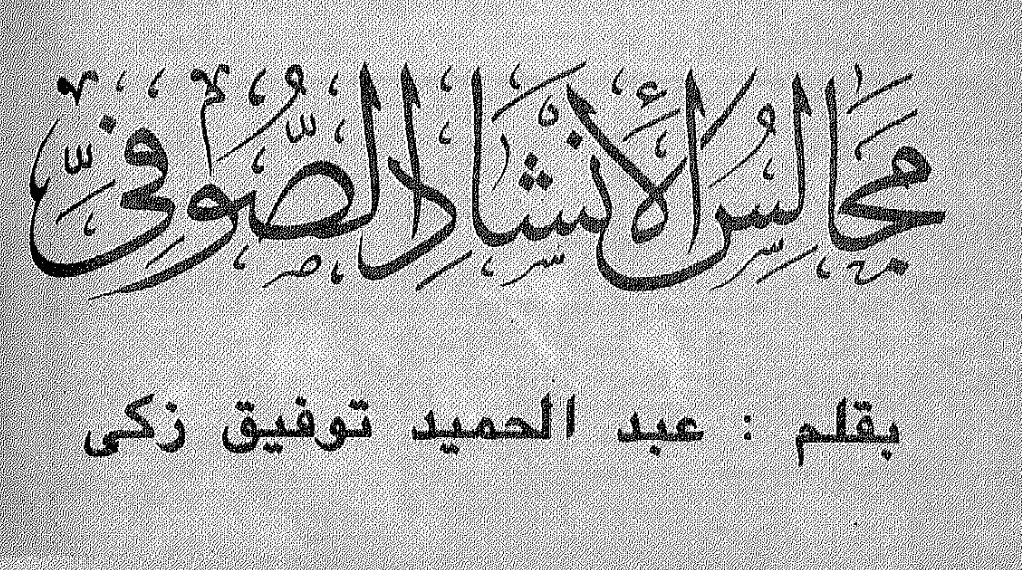
ويلجأ القصص الصوفى لتقنية فى الكتابة ، تشابه ما سوف يقوله « إليوت » تحت مسمّى « المعادل الموضوعى » .. فالصوفى غالباً ما يقوم فى قصته بتكوين عالم دراميّ يعادل العالم الحقيقى ، ويوازيه . ثم يعبِّر عن مضامينه الخاصة من خلال حركة « الراوى » فى هذا العالم الموازى ، وينتهى به الأمر إلى هدم ذلك العالم الموازى بعد أن يكون قد وصل بالقارئ إلى حالة خاصة . وهم يسمون العالم القصصى الموازى « القشر » فى مقابل الحقائق المراد الإخبار عنها

« اللب » ومن هنا نرى الصوفى يذّيل قصصه بعبارات مثل : فلا تقف عند هذه العبارات – خُذ اللب واتركْ القشر .. الخ.

التواصل مع الأدب الصوفى

لقد استفاد الأدب الحديث من تراث القصة الصوفية بشكل مباشر أو غير مباشر ولعل أقوى الشواهد على هذه الاستفادة ، وعلى تواصل الأدب المعاصر مع الأدب الصوفى التراثى ، هو ما نراه فى أعمال « جمال الغيطانى » الإبداعية ، خاصة فى عمله الروائى الضخم « كتاب التجليات » وفى غيره من قصص الغيطانى ورواياته .. لقد حقّق الغيطانى عملية التواصل الأدبى الأمثل مع التراث ، فاستقى منه ، البناء العام ، ووَقْع الألفاظ ، وسحر العالم الموازى ، والدفء ثم استقل هو بمضامين معاصرة ، ورؤى خاصة أراد التعبير عنها .. ولاشك فى أن دراسة الصلة بين أدب الصديق جمال الغيطانى ، وبين الأدب الصوفى بعامة ، هى دراسة سوف تكشف عن الكثير من الأمور والملامح الخاصة بتيار مهم فى الأدب العربى المعاصر ، وكم كان بودى أن أتوقف هنا عند هذه المسألة .. لكنها : قصةٌ أخرى .





الناس على اختلاف طبائعهم ، يغنون ويسمعون ، ويشغفون بالنغم الحلو ، والصوت الحنون ، إمتاعاً للحس.. وإشباعاً للنفس، واستجماماً لرحلة الحياة الشاقة المضنية ، أما المنشدون الدينيون ، على اختلاف أديانهم وعقائدهم ، فإنهم يغنون ويسمعون ، بل ويرقصون وجداً وحباً ، وهم فى غيبة عن حواسهم ونفوسهم ، يحدوهم إلى ذلك نار الشوق ونور العشق لإله الكون .



الأغانى الدينية ترتبط أوثق الارتباط بالمناسبات الدينية.

وترتبط الأغانى الدينية عامة ، أوثق الارتباط بالمناسبات الدينية التى يحتفل بها المجتمع الشعبى ، وتحظى هذه الأغانى بإحترام كبير ، ينبع من طبيعة المناسبة ، التى تغنى فيها ، وجوهر المعتقدات الدينية، المتأصلة فى ضمير المجتمع ، بل ويذهب الدارسون ، إلى أن الأغانى الدينية عميقة الجذور ، متأصلة فى التقاليد التاريخية للمجتمعات البشرية عامة .

وإذا أردنا أن نختص الصوفية ، فنقول كما يقول الغزالى (إن قلوبهم بها سبحات الجلال والهة حيرى ، وأرواحهم من تنسم روح الوصال سكرى ، فكل غايتهم أن يتحقق وجودهم فى الوصول إلى الله) .



يعتبر الصوفية الغناء والسماع طريق الوصل .

ذلك أن الصوفية يعتبرون الغناء والسماع أحد المقامات على الطريق فى الوصول إلى الله ، وهم يسمون هذا الطريق بسفر ، أو حج ، ولأجل تحقيق الوصول في هذا السفر ، لابد من المجاهدة فى قطع عدة مقامات ، كل مقام منها أشبه بمرحلة ، وكل مرحلة قائمة على التى تقدمتها ، وهى على التوالى مقامات : التوبة ، والورع ، والزهد، والفقر ، والصبر ، والتوكل ، والرضا .. وهذا المقام الأخير يسمونه ، راحة النفس ، أو السلام الروحى ، والتوصل إليه يكون بالوجد والحبور ، والغناء والسماع ، والحبور عندهم هو السماع ، وبهذا المعنى يفسرون قول الله تعالى :

(فهم فى روضة يحبرون) أى يسمعون .

ويفلسف الصوفية مأربهم من السماع فيقولون إنهم يسمعون (الهاتف السماوى) فى آية قرآنية ترتل ، أو شعر ينشد ، أو موسيقى تردد ، فإن الله أوحى إلى مخلوقاته كلها ، أن تسبحه بلسان الحال ، أو بلسان المقال ، فالإنسان والطير والحيوان والأشجار ، كلها تردد نشيداً عاماً به تسبح الله ، وعلى هذا فالموسيقى (هاتف سماوى) يحدو بالمرء إلى التوجه والسعى نحو الله ، فمن أعارها سمعه وهو راغب فى الله كان له ما أراد ، ومن أعارها سمعه وهو راغب فى الشهوات وقع فى الخطيئة ، وارتطم فى حماة الشهوات .



وجـــــودى أن أغيب عن الوجـــــود

بمـــــا يبدو على من الشـــــهود

الإنشاد والمنشدون

هذا فن له قواعده وأصوله فى المجتمعات الصوفية ، وفى نفس الوقت له روعته ومقامه ، فى عالم الغناء والفن .

ومن تقاليد الإنشاد ، أن يقف المنشد على رأس حلقة فى الذكر، فإذا ما بدأ الذاكرون فى ترديد لفظ الجلالة ترديداً هادئاً (الله ... الله ... الله) وهم فى مرحلة الاستعداد والاحتشاد ، بدأ المنشدون إنشادهم جماعة على طريق المذهب فى القالب الموسيقى المسمى (الدور) ، ويختتمون إنشادهم بمطلع (الخمس) الذى نظمه الفقيه الإريب أبو عبد الله الحيّان :

الله زاد محـــمـــداً تـــكـــريـــمـــا وحياه فضلاً من لدنه عظيما

واختصه فى المرسلين كريما بالمـــــؤمنـــــين رحيـــــما

صلوا عليه وسلموا تسليما

أشـــــهر المنشـــــدين رددوا أهازيج الســـــحر لتســـرى فى هـــــداة الليل حاملـــــة أشجى ألوان الطـــــرب الحنـــــون .

فترتفع الأصوات من كل جانب (اللهم صلى وسلم عليه) وبذلك تنتهى ما يسمى بالطبقة أو الحلقة من الذكر .

أما المنشد فى بداية الحلقة ، فيتغنى بجمل رائعة مثل تلك الاستغاثات (أغثنا .. أدركنا يارسول الله) أو (يارسول الله .. خذ بيدى) .. وما إلى ذلك من الأدعية .

أما فى السودان الشقيق ، فيسمون المدائح النبوية (بالحُوليّاتْ) جمع حُولية ، ويقال عن رئيس الحلقة المنشد لفظ المدّاح ، أما المجموعة فيقال عنها (الشيّالين) .

أغاني السَّحَرْ

يطلقون على أهازيج السّحَرْ ، أغانى السّحَرْ ، ويقصدون بها تلك التسابيح الشجيّة ، التى يرددها المنشدون والمؤذنون فوق المآذن



قبيل آذان الفجر ، فتسرى فى هدأة الليل ، ومع نسمات السحر ، حاملة إلى الآذان أشجى ما سمعت من ألوان الطرب الحنون ، وإلى القلوب ، أروع ما استشعرت من معانى الخشوع .

وهذا ما يحدث من اعتلاء أحد المنشدين مئذنة المسجد ، ويأخذ فى الغناء الدينى ، ويحدث هذا فى كثير من الدول العربية ، وعلى الأخص فى شهر رمضان .

ومن أشهر الفقرات التى كان ينشدها المنشدون من فوق المآذن :

يا من تحـل بذكره عقد النوائب والشدائد

يا من لديه الملتقى وإليه أمر الخـلق عائد

وكذلك قصيدة ابن الفارض التى مطلعها :

ته دلالاً فأنت أهـل لذاكا وتحـكم فالحـسن قـد ولاكا

أو قول ابن الفارض أيضاً ، ما نقتبس منه البيتين الآتيين :

ما بين معتـرك الأحـداق والمهج
أنا القتيـل بلا إثم ولا حـرج
ودعت قبل الهدى روحى لما نظرت
عيناى من حُسن ذاك المنظر البهج

ومن أشهر المنشدين فى الأمة العربية ، الذين أنشدوا أهازيج السحر ، الشيخ حمزة شكور بدمشق ، والشيخ صلاح كبارة بلبنان .. أما فى مصر ، فكان سلامة حجازى وعبده الحامولى ، وعلى محمود، ويوسف المنيلاوى .. ثم أحمد عبد القادر ، وسعيد حافظ .

يقول الصحفى الراحل محمد فهمى عبد اللطيف ، فى كتابه (الفن الإلهى) : (وفى الحق أن الصوفية ، قد أحاطوا السماع بحدود وقيود رهيبة من الآداب ، لا يحتملها إلا أولو العزم من الرجال ، منعا من الانزلاق فى ذلك مع هوى النفس ، ولذة الحس ، وفى مؤلفات الصوفية فصول مطولة عن هذه الحدود والآداب ، وخلاصة القول فى

ذلك أنه لابد أن يصحب الغناء والسماع انحلال الشهوات والرغبات ، وانصراف الذهن عن كل الموجودات ، والغيبة عن كل شئ ، ليتحقق الوجود مع الله) .

ويقول الراحل طاهر أبو فاشا فى كتابه (العشق الإلهى) مُفسراً الفرق بين المحبة والعشق (ألا ترى أنك تستسيغ أن تقول (أحب التفاح) مثلا ، ولكنك لا تستسيغ أن تقول .. «أعشق التفاح») .

وكلمة الحب تدل – من الناحية اللغوية – على الود .. والميل .. والرغبة .

والحب بحسب متعلقاته أنواع ودرجات ، فمنه حب الذات الذى ينتهى إلى ما نسميه (الأنانية) ، ومنه حب الغير الذى يصل إلى ما نسميه (الإيثار) .. ومنه حب الحياة ، ومنه حب الكون كله وهو صورة من صور الحب الإلهى ، لأن من صدق الحب أن تحب ما يصدر عن المحبوب .

أما العشق ، فهو – من الناحية اللغوية – إفراط المحب فى حب من أحب . وهو – أيضا – له متعلقات ومراتب ، تبدأ من الصورة المادية الحسية ، ثم تنتقل فى مدارج الصعود ، حتى تصل إلى الجمال المطلق والعشق الإلهى .



ويقرر داود الأنطاكى أن الحب يدل على أريحية فى الطبع ، ولطافة فى الشمائل ، لأن غاية العاشق أن يحصل على رضا معشوقته ، وهو لا يحصل على رضا المعشوق وإعجابه ، إلا إذا حصل على صفات الكمال التى تملأ نفس المحبوب وتقربه منه .

وبهذا يحدد الأنطاكى مفهوم العشق الإلهى ، فهو نزوع الروح إلى الروح الأكبر ، الذى منه المبتدى ، وإليه المنتهى ، ويوضح هذه الفكرة أستاذنا الفاضل الاستاذ الدكتور عبد الوهاب باشا عزام ، فى كتابه الممتع (فريد الدين العطار) المؤرخ الصوفى الكبير ، الذى يقرر فى نصوص متعددة من تلك التى نقلها الدكتور عزام عن الفارسية (أن روح الإنسان من روح الله) وأن الصوفية يحتجون لذلك

بقوله تعالى : «فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين» ، ولهذا فإن صلة الإنسان بربه أقوى من صلته بالعالم .. هكذا يقولون . ويشير الدكتور عزام هنا إلى قصيدة الشيخ الرئيس «ابن سينا» المشهورة :

هبطتُ إليك من المحل الأرفع — ورقـــاءُ ذاتُ تعـــزُّزٍ وتمنُّعِ
محجـــوبةٌ عن كل مقلة عارف — وهى التى سُـــفِرَت ولم تتبرقع
وصـــلتُ على كُرهٍ إليـــك وربما — كرهت فراقك وهى ذات تفجُّـع

فالورقاء هنا رمز للنفس الإنسانية التى هبطت من عالم الروح الأعلى إلى عالم الأرض ..

ولهذا يحن الواصلون من السالكين إلى الاتصال بالأصل والرجوع إليه ، ولا يزالون يتدرجون فى معارج الوصول ، حتى يصلوا إلى مقام العشق الإلهى .

يتغنى الصوفيون بأشياء كثيرة ، وبأشعار ألفوها ولحنوها ولكن ينشدون بعض ما أنشده أشهر عباد الله الذين قاوموا الفساد فى الأمة العربية ، فعندما صاح الحلاج وهاجم الانحلال والفساد فى غير هوادة ، والتفت له الجماهير ، واهتز عرش الخلافة ببغداد فى عهد المقتدر ، جاء الجند بالحلاج مكبلاً بالأغلال ، واشتطوا فى تعذيبه وانصب عليه الجلادون بسياطهم ، والحلاج يبتسم ويتواجد ويترنم قائلاً : ما ينشده الصوفيون حالياً :

عجبت منـــك ومنى — يامنيـــــة المتمنى
أدنيتنى منـــك حتى — ظننـــت أنـك أنى
وغبتُ فى الوجد حتى — أفنيتنى بـــك عنى

وإذا كان عجيبا ، فأعجب منه أنهم بتروا يديه ، وقطعوا قدميه وهو هو لم يجزع ولم يتألم ، ولم تفارق الابتسامة شفتيه وهو يترد ويتواجد ويقول :

كيف قاوم الحلاج الفساد ، ولم يأبه للتعذيب لإيمانه الشديد برسالته ؟ !

وحرمة الود الـــذى لم يكن يطمع فى إفســـاده الدهرُ
ما قُدَّ لى عضو ولا مفصـلُ إلا وفيـــه لكمـــو ذكرُ

وإنه لعجيب وغريب حقاً ألا تفارق الابتسامة شفتيه وأن يتواجد ويترنم ويرقص وهم يجلدونه ويقطعون يديه ورجليه .

القوّالون

الصـوفية يسمون المغنى الذى ينشـد الأشـعار فى المحـافل بالقوّال ، وقد آثر الصـوفية هذه التسـمية تحرزاً من اسـتعمال كلمـة المغنى ، التى اقتـرنت فى أذهـان النـاس بمعنى اللهـو والمتعـة الحسـية .. ولأنهم يسـتمدون الدليل على الشـغف بالغناء والسـماع من قول الله تعالى : «فبشـر عبـادى الذين يسـتمعون القـول فيتبعـون أحسـنه» . ويقـولون أن الألـف والـلام فى كلمـة القـول للتعميم والاسـتغراق فهى تشـمل كل قـول ، وقـد ذاع هذا الاصـطلاح الصـوفى بين جمـاعات الصـوفية فى جميع الأقطـار ، حتى وصـلت إلى الهنـد ، ومازالوا فى الهنـد إلى اليوم يسـمون مجالس الغنـاء والطـرب التى يعقـدها الصوفية (قوالى) وهى مأخوذة من كلمة قوال العربية ، وكم فى لغة الهـند من كلمات عربية دخلت إليها عن طريق الاتصـال والتمازج بين رجال الطرق الصُـوفية فى البيئـات الإسـلامية .

ابن عربى لم يقل بوحدة الوجود فحسب ، وإنما قال أيضا بوحدة الأديان

ويتغنى الصـوفيون بكلمات سـلطان العـارفين الشـيخ الأكبر (ابن عربى) الـذى أوغـل فى مفـازات وحدة الـوجـود ، وانطلق منها إلى آفـاق العـشق الإلهى وهـو القـائل :

أدينُ بدين الحب أنى توجهت ركـائبه فالحبُ دينى وإيمانى

ولم يقل (ابن عربى) بوحدة الوجود وحسب ، وإنما قال أيضا بوحدة الأديان ، فالدين كله لله ، وهى نظرة سمحة متقدمة .



ومن أشهر ما يتغنى به الصوفيون :

ليت شـــعرى هل دَرَوا　　　أيُّ قلــــب ملــــكوا
وفــــؤادى لو دَرَى　　　أيُّ شـــعب ســلكوا
أتراهم ســـــــلموا　　　أم تـــراهم هلكـــوا
حار أربــــابُ الهوى　　　فى الهوى وارتبكوا . ؟

ولعل أشهر من ساروا على هذا الدرب الذى تغنى به الصوفيون ، كلمات سلطان العاشقين : (شرف الدين أبو حفص عمر، المعروف بابن الفارض الحموى أصلاً ، القاهرى مولداً ونشأة ووفاة) فقد قدم أبوه من (حماة) إلى مصر ، وتولى عملاً يشبه عمل

(القاضى الشرعى) من بعض الوجوه ، إذ كان يقوم بإثبات ما يفرض للنساء من الحقوق على الرجال ، ولهذا لقب بالفارض .

وابن الفارض هو شاعر العشق الإلهى بغير منازع ، ولهذا لقب بسلطان العاشقين .. وقد سلك طريق المجاهدة والرياضة النفسية ، فساح فى وادى المستضعفين بالجبل المقطم ، كما ساح بأودية مكة ، حيث قضى خمسة عشر عاماً ، عاد بعدها إلى القاهرة ليعطر أجواءها بنفحات من طيوب شعره ، الذى لم يأخذ من جماله بعض التكلف الذى جعل يُثقل الشعر فى هذا العصر والعصور التالية .

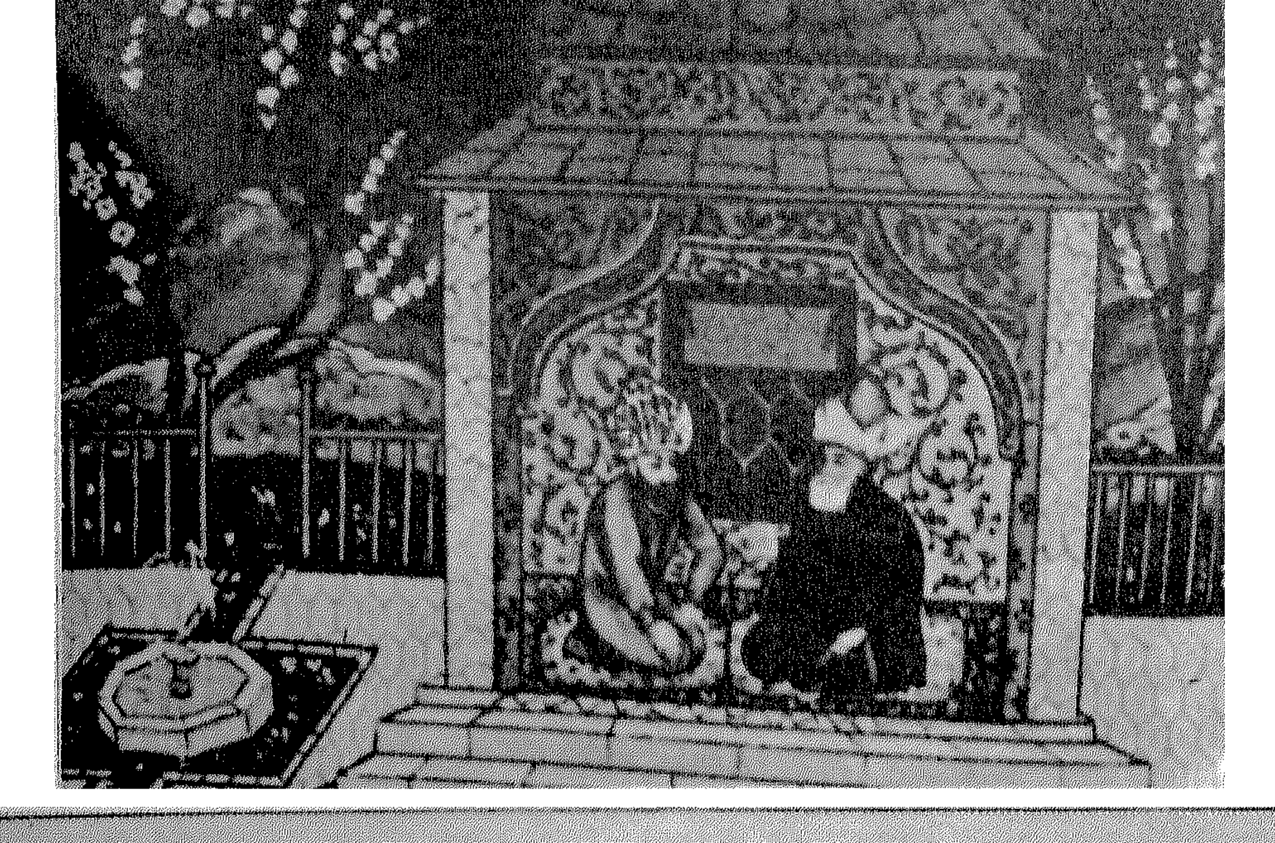
ولإبن الفارض ديوان شعر كبير ، جاء فيه نص قصيدة (الخمر الإلهية) اقتطف منه المنشدون الصوفيون الأبيات الآتية :

شـــربنا على ذكر الحبيب مُـدامة
سـكرنا بها من قَبل أن تخلق الكرمُ
ولولا شـــذاها ما اهتديتُ لحانها
ولولا ســناها ما تصـورها الوهمُ
إذا ذكـرت فى الحىِّ أصـبح أهله
نشـــاوى ولا عــارٌ عليهم ولا إثمُ
وإن خطـرتْ يوما على خاطر امرئٍ
أقــامت به الأفراحُ . وارتحل الهمُّ
ولو نضحـوا منها ترى قبـر ميت
لعـادت إليه الروحُ وانتعش الجسمُ

وهذه الأبيات غناها وسجلها فى عام ١٩١٠ ، الشيخ المبتهل وقارئ القرآن والمطرب الراحل أحمد ادريس .

ولقد سـار على درب هؤلاء العاشـقين كثير من الشـعراء المعاصرين، وفى مقدمتهم أحمد شوقى، ومحمود حسن إسماعيل، وعبد الله شمس الدين ، وطاهر أبو فاشا ، وأترابهم .

ابن الفارض هو شاعر العشق الإلهى بغير منازع ، ولذا فقد لقب بسلطان العاشقين .

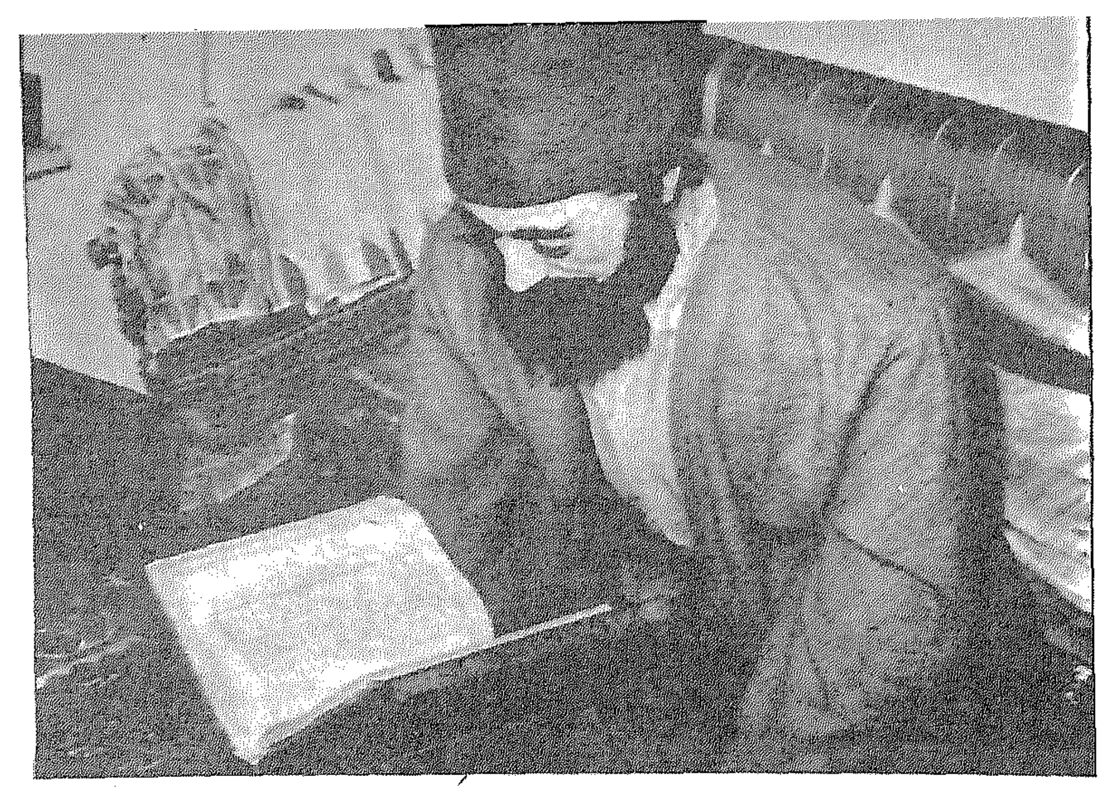


"السماع"

وطريق الوصل بين السماء والأرض

بقلم : ماجدة الجندى

يقول مولانا جلال الدين الرومى :
انصت للناي .. كيف يقص حكايته
أنه يشكو آلام الفراق قائلا
أننى منذ قطعت من منبت الغاب
والناس رجالا ونساء يبكون لبكائه
أننى أنشد صدرا مزقه الفراق حتى أشرح له ألم
الاشتياق



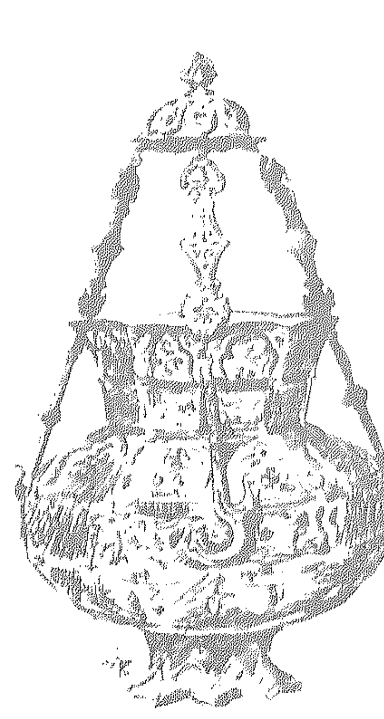
الطاقية البيضاء .. رمز مقدس عند الدراويش

ويقول :

إن صوت الناى هذا نار .. لاهواء
فلا كان من لم تضطرم فى قلبه مثل هذه النار
ويقول أيضا : عدة طرق تقود إلى الله .. وقد
اخترت طريق الرقص والموسيقى ..

« السما » .. احتفالية روحية .. أو فى محاولة للتبسيط هى إيقاع حركى يأخذ لحالة من الوجد .. مشهدها الأول ربما كان فى بغداد نحو ٨٧٠ هـ كما جاء عند « لوى ماسينيون » لكن كلاماً آخر يرجعها لذى النون المصرى نحو عام ٨٥٩ .. أو لعل مدرسة بغداد فى القرنين الثانى والثالث الهجريين توصل لها ..

والمهم أن لقاء مولانا جلال الدين بن الرومى بشمس تبريز كان نقطة تحول رئيسية ليس هذا مجال الخوض فيها إلا بقدر ما يقربنا ذلك من المعنى المراد من أن « شمس تبريز » لما ألقى بظلاله على



مولانا كانت « السما » واحدة من هذه الظلال .. وقبيل هذا اللقاء كان مولانا عابدا ناسكا .. متقشفا طريقه إلى الله لا يمشى عبر وقع الموسيقى ، وحركة الروح الراقصة ، لكن شمس تبريز أخذ بمولانا نحو النشوة فى إيقاعات « السما » التى تعطى كل حسب مقدرته فى السمو والصفاء .

وصل ما بين السماء والأرض

ولقد كانت دعوة شمس تبريز لمولانا واضحة « ادخل إلى « السما » فستجد فيها ما تبحث عنه أكبر وأوسع »

ولقد كان .. ما كان .. وصارت « السما » وصلا ما بين السماء والأرض يتم عبر واسطة تذوب منصهرة ملبية قطرة كانت عليها الروح قبل الحلول فى الجسد ، وليس تفاعل الروح مع الموسيقى إلا تعبير عن حنين قديم للميت ..

.. موسيقى « السما » وإيقاعات لغاتها تستحضر وحدة الجسد الأصلية .

والناى الذى خصه مولانا بأنشودته يترجم تماما حالة الشوق إلى الاتحاد ، ويقترب منه الرباب أحيانا والسانتور ..

وتنتقل موسيقى رقصة السما شفاهة .. أو بالنسماع ، ولكل شيخ طريقته وبصمته فى هذه الموسيقى ، وهناك أسر بأكملها تركية وفارسية هى وحدها الحافظ الأمين على سر هذه الموسيقى التى تسلم من أب لابن لكن الجوهر الواحد الجامع لهذه المدارس هو البعد الروحى الذى يحول صوت الناى أو السانتور إلى صوت آت من السماء يتلون بتلون حال المريد حتى تكاد الأذن ترى والعين تسمع والقلب يذوب مع الجسد والكل ينصهر مع الواحد ..

فى الساحة وصل السماء بالأرض

تسبق السما وتمهد لها آيات القرآن مرتلة والصلاة والتحيات والسلام على آخر المرسلين محمد المصطفى وآله وصحبه ... ثم تنساب أنّات الناى رهيفة متوجعة تضبطها إقاعات الدفوف حانية غير زاعقة .

والمسرح الذى يشهد محاولة البشر لوصل السماء بالأرض عبر رقصة السما .. أو الساحة يمكن أن تميز داخلها بين جزءين يفصل بينهما حاجز خشبى مثمن الأضلاع .. ولا يخفى هنا مدلول الرقم ثمانية الذى فسره البعض باللانهائية ، المهم أن هذا الحاجز اللانهائى المثمن يفصل بين جمهور العوام الذى قد يتابع دون مشاركة «السما» وبين الساعين « للوصل » والربط والمزج والاتحاد بين السماء والأرض .

« محراب » يشير إلى اتجاه القبلة . فى العمق .. فى المركز . تماما من ساحة الساعين . على يمينه متبر وفى مواجهته باب الدخول الذى يهل منه الساعون .. ليجلس القدامى على يمينه والجدد يساراً .. قطعة من جلد الغنم يفترشها « الشيخ » .

أعلى باب الدخول يصطف عازفو الناى وضاربو الدفوف فى المنتصف تماما من رواق يعلو الساحة قليلا .

وما أن تشرع هذه الباقة من إرسال أنات الناى وهبات الدفوف فى إيقاع منتظم حتى يبدأ الساعون أو الدراويش فى الوقوف صفا يتهلل ويتهيأ ليلف الساحة مرات ثلاث فى إتجاه دائرى يعاكس إتجاه حركة دوران عقارب الساعة أى من اليمين إلى اليسار، والشيخ جالس فوق قطعة جلد الغنم حتى إذا ما قاربت اللفة الثالثة على النهاية أو أوشكت يركع على اليمين ثم يجلس إلى اليسار .

أكبر الساعين ، أو أقدم الدراويش، أو ما يطلق عليه السمائى، يأخذ مكانه على يسار قطعة الغنم التى يفترشها الشيخ ويركع كل أثنين من الساعين فى مصافحة بعدها يستكملان الدوران

النغم المتصاعد

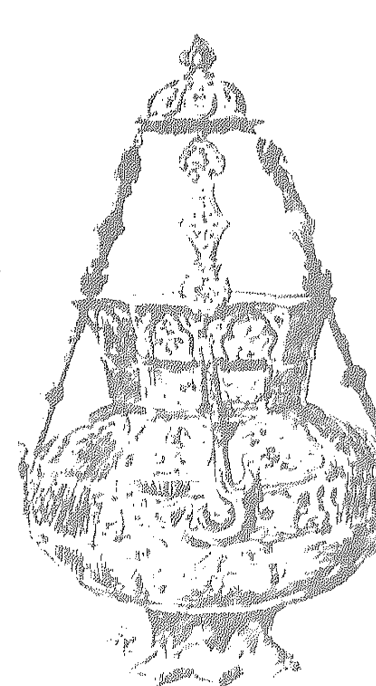
وفى الخلفية لا يبقى نغم الناى وضرب الدفوف أسير إيقاع واحد بل يأخذ فى العلو شيئا فشيئا مضفراً بالأنشاد غازلا عباءة لحنية فى حناياها يقف الساعون .. يلقون بعباءاتهم السوداء كاشفين عن أردية بيضاء لعل البعض رأى فيها رمزاً «للكفن » .

يأخذ أكبر الدراويش المبادرة والقيادة فى السير والدوران وأيضا فى المثول أمام الشيخ مقبلا يديه ويتبعه الباقون ، ولو دقق

الناظرون البصر ، بعد ذلك ، لتابعت عيونهم رفع اليد اليمنى ، أو الكف اليمنى ، فى أتجاه السماء وبسط الكف أو اليد اليسرى ، وتبقى رأس الساعى فى أتجاه اليمين على طول لفاته وأنطلاقة الدرويش أو الساعى ، حتى تأتى لحظة ترفرف الأردية البيضاء للساعين فى رقصة السما فى لوحة مروحية دائرية تكاد تشبه غماماً أبيض حلزونى الشكل يتصاعد مع ضفيرة النغم وضربات الدف التى يتعالى إيقاعها حتى إذا ما وصلت إلى ذروة معلومة عاد الساعون إلى أماكنهم واستردوا عباءاتهم وأستأنف أنشادهم والصلوات ولا يغادرون حتى يغادر الشيخ الساحة ..

فيما يشبه محاولة الترجمة يقال أن اللفات الثلاث الدائرية للساعين فى رقصة السما ما هى إلا تعبير عن حالة تدرج وسلم روحى يبدأ من العلم للرؤية للمعرفة ثم الاتحاد أو الوصول إلى حقيقة .. وقد لوحظ أن دائرة «السما» تكاد تنشطر بشكل غير منظور إلى جزئى دائرة واضحى المعالم يصلهما قطر .. هو الطريق إلى الله .. وهذا القطر يتجه من حيث يجلس الشيخ إلى باب المدخل ولا تلامسه الأقدام .. من ناحية أخرى يأتى تفسير يرى فى شطر الدائرة نوعا من حالات تطور الروح حتى تصل إلى التحقق النهائى فى الوحدة ..

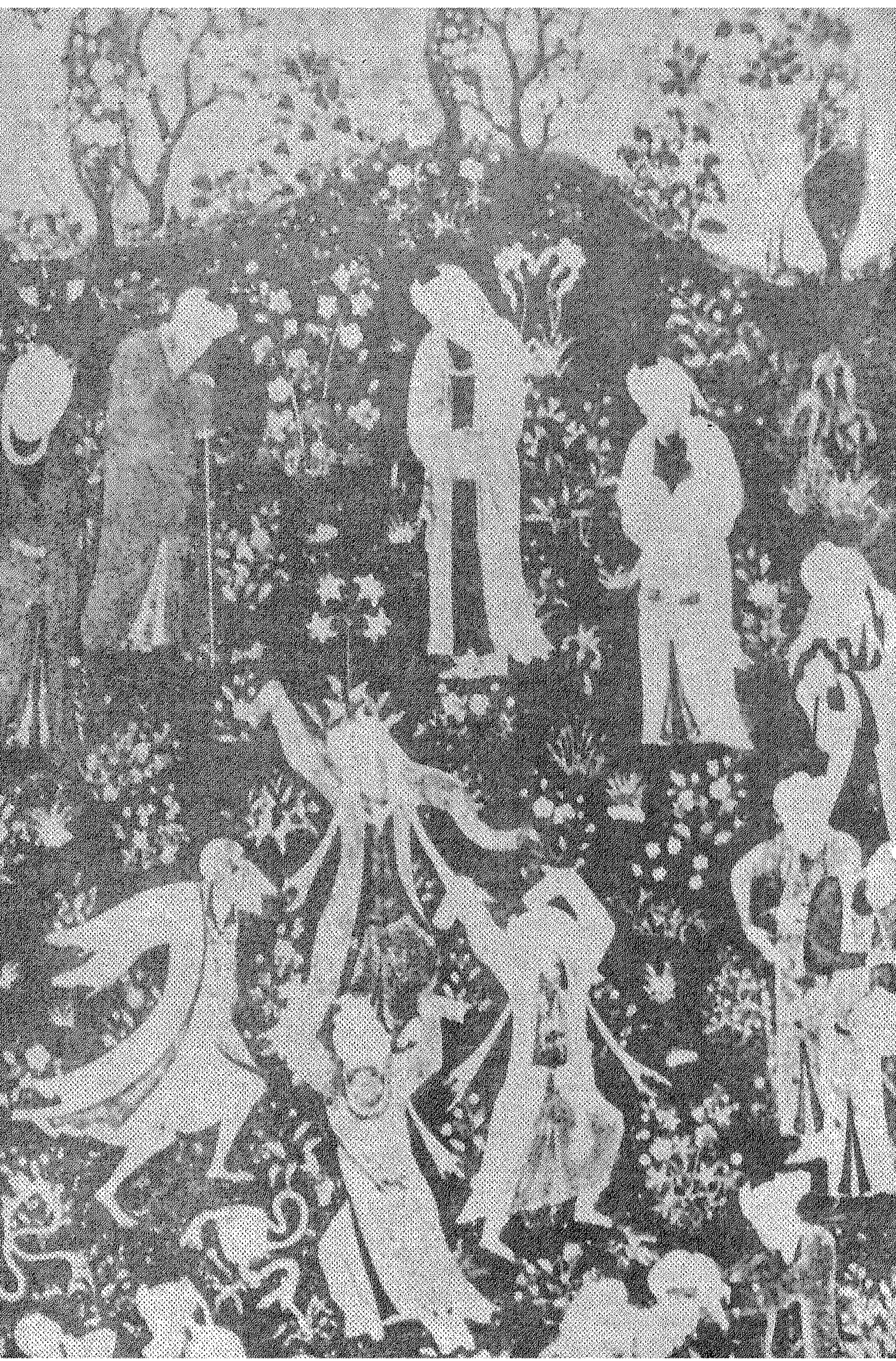
«السما» .. قراءة فى الرموز



وإذا أقترب المتمعن أكثر من حركات « السمائى » أو الساعى لرصد الكف اليمنى أو الراحة اليمنى المفتوحة بأتجاه السماء فكأنها تتلقى القوة والعطايا الروحية من السماء لتنقلها إلى الأرض التى تشير إليهما الكف اليسرى .

وهذا التحول ، أو المنح من السماء للأرض ، يمر عبر السمائى روحياً ونفسياً ، فهو الواسطة ما بين السماء والأرض وفى هذه الرؤية المفسرة لحركات مؤدى السما زاوية أساسية من زوايا «سيماء» السما وأسرارها ...

ليس كل من سعى للوصل بين السماء والأرض عبر رقص «السما» متساويا .. لا فى الخصال ولا فى الطبائع ولا فى درجات



السمو الروحى .. «فالسما» كلٌ فيها حسب مقدرته وخصاله ومرتبته وحاله وفى وسط هذه الرحابة هناك نوع من التميز لدرجات ثلاث أو مراحل :

أولاها يدخل فيها أولئك الذين لم يتمكنوا من الهيمنة على نوازعهم وعواطفهم وثانيتها ينطوى فيها من أستطاع الكشف والشعور بمتع السما الروحية .

فى « السما » نوع من النشوة مبعثها حالة من الاتحاد الصامت وتلك هى المرحلة الأرقى الثالثة من تلك التى تعبر فيها الدموع والصيحات .

هناك لحظة وجدانية فى السما .. تأخذ الدرويش أو الساعى أو السمائى إلى حد الذوبان والانصهار تماما .

وقد يواكب هذا الوجد نوع من التعبير الصوتى المسموع الذى يأتى بغير وعى أو إرادة ، وهناك البعض من الشيوخ حث على تجنب هذه الحال ، ويروى أن أحدهم وجه لمريد نوعاً من التوجيه يحثه على تجنب هذا التعبير المسموع مهما أخذه الوجد أو النشوة وكان هذا المريد يروح وتأخذه لفات السما حتى يسقط مرة ومرات.. مبتهجا متأوها .. صائحا .. باكيا .. فبما تلقى المريد توجيه الشيخ «لجم» انتفاضات روحه المنطلقة الوثابة إلى الأعلى ، وحاول كبحها بحزم وقوة ، حتى أتت لحظة أطلق فيها صيحة واحدة ومعها أنفاسه الأخيرة ..

لكن أرقى مراحل السما الثلاث هى التى تنساب فيها النشوة والوجد قوية رقراقة فى آن واحد وينصهر الساعى مع الواحد فى عذوبة ويأس معاً والتى يترادف فحواها مع المعنى الذى ردده ابن عربى .. لكل اسم لفة ولكل لفة عبارة ولكل عبارة إذن ولكن الذى يتكلم والذى يسمع واحد .. فحين يتحد المتكلم والمنصت والمرسل والمتلقى يشف التعبير ويقوى حتى دون بنت شفة ..

يقول مولانا جلال الدين الرومى « ليس كل قلب بقادر على ممارسة «السما» .. أنما القلب المنصهر فى محيط القلوب يذوب تحت هذا الهواء ويمنح السما ..

فالالتحام أو الانصهار أو الذوبان فى حالة « السما » له تجلة .. وحول النقطة الساكنة تدور كل الأبعاد ، وكل الأشياء فى حركة ، ففيها لا يوجد سوى الحركة .. سوى الحياة ..

فى لفات السما وحركة الدوران تعميق وتجل ، وهكذا كل ما فى الكون يدور .. الكواكب .. الزمن .

« والسما » ليست سوى انعكاس ومرآة لحركة أوسع ودوران أعمق وارحب لعوالم مرئية وأخرى غير مرئية .

ودرجة فدرجة تكون الرؤية للسمائى حتى تصل إلى اللانهائية والتحقق النهائى .

فى « السما » تتكشف أعتى الأسرار ويتجسد الفناء فى الذات ويفنى الموجود فى الواحد وجسداً ووجداً .

ويصير الموجود موجوداً بالحب منفتحا ومتجليا فيه .

ممارس « السما » والعاشق واحد .. كل منهما ساع إلى الكشف عن محبوبه والاتحاد به .

وهكذا ينشد مولانا جلال الدين الرومى .

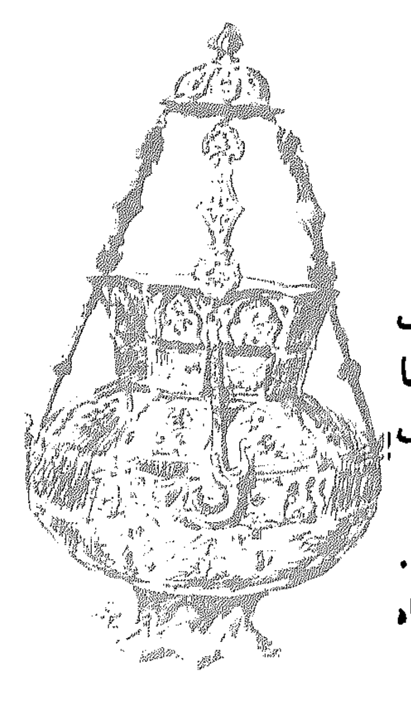
« السما ... السما .. السما ..

إنها النور .. والشعاع .. الشعاع .. الشعاع .

إنها الحب الذى نطيعه .. نطيعه .. نطيعه .

إنها وداع للعقل .. وداع .. وداع .

مائة موجة تتكسر على قلب فى قصة السما » .



« فى السما » تتحقق الوحدة بتجاوز السمائى كل صنوف الدرجات ، حتى يصل إلى مرحلة بإمكانه فيها عدم الحراك وكل ما بداخله يتحرك ، وكم من الساعين فى نقطة السكون حام وغام ولف ودار مكنونهم .

ويروى أن أحدهم ، وكان شيخا .. عتيدا ، توقف أثناء السما .. وجلس فلما سأله مريده الدرويش لم توقف ؟ أحاله إلى الجبل ودعاه لتأمل حاله الذى قد يبدو ساكنا على حين تتحرك السحب .



لقاء الشيخين أمام
ضريح جلال
الدين الرومي

فى درجة ما من درجات السما يكون الوجد داخليا والحركة أيضا فى الأعماق .

أيها النهار .. ألا أستيقظ

« السما » مبدئيا هى حالة من الحبور والنشوة للجسد والروح معا حركة واحدة يلتئم معها المكنون والظاهر ويرقص .. تماما كما ترقص كل ذرات الكون فى رقصة لا نهائية وصيرورة لا تتوقف للحياة .

وهكذا يدعو مولانا النهار للاستيقاظ .. فالذرات تتراقص والاعضاء والاتصال للموجود والواحد حادث فى كل لحظة .

ولنتأمل حال « راقص السما » الذى أوثر وصفه بالساعى لوصل السماء بالأرض .. أنه يدور حول نفسه إنه المركز والدائرة فى آن واحد .. أنه المحور والعالم عبره تتصل الأرض بالسماء فى حركة .

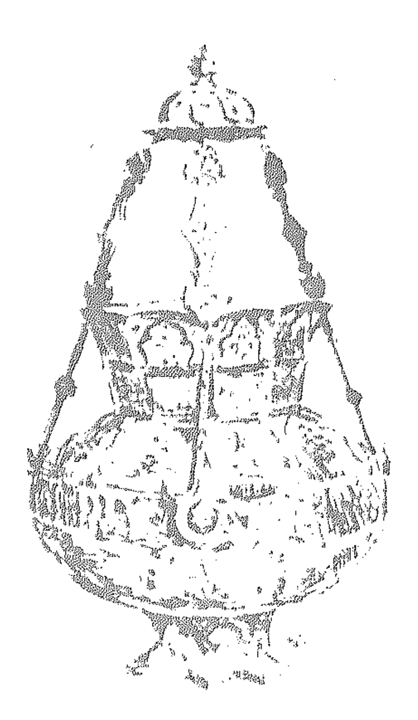
فالشيخ الذى يبقى ساكناً بلا حراك يدور الراقصون حوله .. يصير المركز .

حقيقة فى لف السمائى وحركته أنتقال من نقطة لأخرى لكن النقطة تنتقل على محيط الدائرة نفسها فالنقطة والدائرة واحد فى المركز والمحيط على إتحاد .

كما أن الموجود لا يذهب إلا من الله لله .. فكل نقطة على الدائرة تبرز حالا .. والمركز ساكن لا يتغير وفى النقطة المركز يندمج الوجود والموجود .

ويقول أحدهم لمريد :

«أعثر على مركز وجودك ثم أفعل ما تشاء .. درجة .. فدرجة يكون الأحساس بالكلية عبر الانفعال من نقطة لأخرى على محيط الدائرة » .



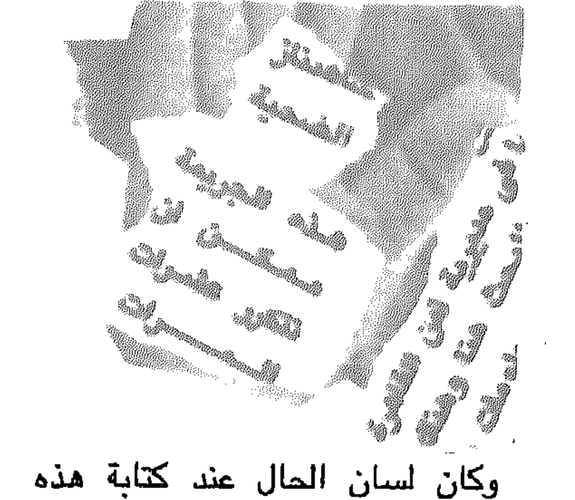
متى يعود الى مصر وجهها الجميل :

عود على بدء

بقلم : د. مصطفى سويف

فى شهر أبريل سنة ١٩٩٠ ، أى منذ سنتين على وجه التحديد، بدأت سلسلة من ثلاثة مقالات ، نشرت تباعا فى أعداد مجلة « الهلال » الوقورة ، حول بعض ما أصاب الشارع المصرى بوجه خاص ، والحياة العامة فى مصر بوجه عام ، ومن مظاهر التسيب ، وفساد الذوق العام ، والغوغائية ، والافتراء على الحق ، واللاقانونية ، وركزت حديثى بصورة خاصة على موضوع التسيب بمستوياته المختلفة : التسيب على مستوى الأفراد ، وعلى مستوى المؤسسات الاجتماعية ، وعلى مستوى الدولة . ثم ختمت الحديث ببيان بعض الأسباب المسئولة مسئولية مباشرة عن هذا التسيب ، وأردفت ذلك بإشارة إلى الطريق نحو العلاج .





وكان لسان الحال عند كتابة هذه المقالات أن ما يشهد من أحداث فى حياتنا الاجتماعية اليومية مما نعانى منه جميعا ، ويقع تحت عنوان « التسيب » أو « اختلال الانضباط » لا يجوز النظر إليه على أنه مجرد أحداث متفرقة ، ولكنه تيار له دلالته السيئة والخطيرة معاً ، ولا يجوز النظر إليه على أنه مجرد خروج على مقتضيات الذوق أو الواجب أو الأدب ، بالمعنى الرقيق الذى نقصده من وراء استخدام هذه الكلمات فى حياتنا اليومية المعتادة ؛ ولكننا هنا بصدد أحداث تعبّر عن تيار يشير إلى إصابات خطيرة فى نسيج حياتنا الاجتماعية ؛ وبصدد ما يشهد بأن هذا التيار لن يتوقف عند مستواه الذى هو عليه الآن ، بل سيزداد اندفاعا واتساعا ، وبالتالى سوف تزداد هذه النوعية من الأحداث المزعجة لنفوس المواطنين ، والمرهقة لمشاعرهم وضمائرهم ، ما لم نحزم أمرنا ونتدخل فى محاولة جادة للتغلب عليها بالفهم والتدبير اللائقين بهذا الطراز من الأحداث .

وتدور الأيام ، ويمضى عامان بالتمام والكمال ، وإذا بواحد من تلك الأحداث المزعجة والمرهقة يقع مساء ٢١ مارس الماضى ، وهو حادث « فتاة العتبة » ، ولأن هذا الحادث له دلالته المنذرة ، ولأنه آثار نفوس المواطنين بصورة عنيفة وأزعجهم فيما يتعلق بمستقبل الأمن والطمأنينة واقعا وشعورا ، فى هذا البلد الأمين ، ولأنه لا يجوز وليس من الحكمة أن نسمح بتكرار هذ النوع من الأحداث ، ولا بتكرار هذا المستوى من القلق العام ، فقد رأينا من واجبنا أن نقدم فى الموضوع وجهة نظر نسهم بها فيما ينبغى أن يتخذ فى هذا الصدد من خطوات على مستوى التدبير والتنفيذ العاجل ، ثم على مستوى التخطيط المتروى .

العناصر التى أثارت المخاطر فى حادث العتبة

بالنظر فى معظم المادة التى نشرت فى الصحف اليومية ، منذ وقوع الحادث وحتى كتابة هذه السطور ، نتبين أن أهم العناصر التى أثارت القلق والغضب فى نفوس المواطنين ، هى :

أولاً : وقوع الجريمة فى أحد الميادين العامة ، فى وسط المدينة ، وعلى مسافة تقل عن مائة متر من كل من قسم شرطة الأزبكية من ناحية ، ومقر قيادة شرطة النجدة من ناحية أخرى .

ثانياً : وقوع الجريمة فى وقت كان المكان فيه مليئا بالمارة .

ثالثاً : عدم ظهور أحد من رجال الأمن بملابسهم الرسمية الظاهرة . (ولا يغنى فى ذلك ما تبين من وجود أمين شرطة واحد بملابس مدنية . فالملابس الرسمية يمكن أن تقوم بدور لايجوز التقليل من شأنه) .

رابعاً : تأخر رد الفعل المباشر الصادر من الجمهور .

خامساً : إفلات بعض الجناة .

ويستخلص الضمير العام من هذه العناصر فى مجموعها أن الجناة فى هذا الحادث بلغوا من الجرأة الإجرامية مستوى خطيرا ، وأن عددا من الظروف الاجتماعية الرسمية وغير الرسمية ساعدتهم على ذلك ، والدليل هو إفلات البعض .

ولا شك أن الخروج بهذا الاستنتاج أمر مقلق ، وأسوأ ما فيه هو مسألة الظروف الاجتماعية التى يسّرت للجناة ارتكاب الجريمة ، ثم مكّنت بعضهم من الهرب .

ردود الأفعال الاجتماعية غير المباشرة

توالت بعد ذلك ردود الأفعال غيو المباشرة ، وقد تعددت صورها وإن اشترك معظمها فى التعبير العنيف عن القلق والغضب ، وكان من أهم هذه الاستجابات ما يأتى :

١ - مقالات صحفية تفاوتت فيما بينها فيما اتخذته هدفا تصب عليه غضبها ؛ فقد استهدف بعضها جمهور الحضور على مسرح الجريمة ونعته بأسوأ النعوت ، واستهدف البعض الآخر إجراءات الأمن الضعيفة فى المكان وفى شوارع القاهرة بوجه عام ، واستهدف البعض الثالث ملابس الفتيات على أساس أنها مثيرة فى أغلب الأحيان (علما بأن الفتاة الضحية كانت محجبة) ، واستهدف البعض الرابع الأخلاق العامة السائدة ونعى عليها التحلل والفساد .

٢ - أحاديث صحفية وتليفزيونية مع بعض الرسميين ، كان بعضها موفقا لأنه اعترف بحق الرأى العام فى الشعور بالصدمة ، كما أنه أشار إشارات معقولة فى تحليل الحدث وفى شأن التوجهات الواجبة للعلاجات السريعة ، (مثال ذلك حديث الأستاذ مكرم محمد أحمد) . بينما جاء البعض الآخر بعيدا كل البعد عن التوفيق ، بل ومستفزا فى بعض عناصره لشعور المواطنين إلى حد لم يكن لائقا ولا حكيما .

٣ - مناقشات عاصفة فى مجلس الشعب ، لم تختلف كثيرا عما جاء . فى الصحف ، سواء من حيث الشكل أو من حيث المضمون .

٤ - وفى ثنايا ردود الأفعال هذه

ظهرت الدعوة مرات متعددة إلى تشديد العقوبة ، وإلى العنف فى تطبيقها (فى الميادين العامة) ، وإلى الإسراع فى تطبيقها .

٥ – الإعلان عن مشروع قانون للعرض على مجلس الشعب ، بتشديد العقوبة فى هذا النوع من الجرائم .

إلى هنا ويمكن القول بأن هذه الفئة من ردود الأفعال الاجتماعية (وخاصة الردود الأربعة الأولى) تعتبر من قبيل الاستجابات المتوقعة ، لأنها صدرت متعاطفة مع جمهور مصدوم ، وجدير بالذكر فى هذا الصدد أن عددا من الكتابات الصحفية جاء فى باب بريد القراء ، أو جاء فى صورة مقالات كتبها مواطنون ليست مهنتهم التحرير الصحفى أصلا وهو أمر مطلوب ومرغوب فيه كوسيلة من وسائل التعبير عن آراء المواطنين ومطالبهم موجهة فى خطاب مباشر إلى رموز السلطة وصناع القرار .

تعليق خاص على بعض ما ظهر فى الصحف

نحن الذين نكتب فى الصحف دون أن نكون من أهل المهنة نحمل الكثير من الاحترام والإكبار للصحافة والصحفيين ، لذلك يعز علينا أن يظهر فى الصورة ما يخدشها . لكن الحق أعزّ .

فقد ظهرت فى بعض الصحف كتابات لا تليق بالمقام ، لا المقام الذى يجب أن يقترن بمهمة الصحافة والمشتغلين بها : ولا مقام الحدث ومشاعر المواطنين إزاءه ، ونحن نخص بالذكر هنا الأنواع الآتية على وجه التحديد :

أ – كتابات امتدت إلى مستويات من تفصيل القول ما كان يجوز الاقتراب منها ؛ فذكر اسم الضحية والوصف التفصيلى لكيفية ارتكاب الجريمة ، والحديث عن فقرات بعينها مما ورد فى تقرير الطبيب الشرعى ، هذه كلها أمور ما كان يجوز الخوض فيها بأى حال من الأحوال ، فذلك عدوان ثان على الضحية بكل ما تحمله هذه العبارة من معنى ، ولا عبرة هنا بالقول إن الحديث فى مثل هذه الأمور يرد بصراحة تفوق ذلك فى كتب القانون أو الشريعة والكتب العلمية وفى قاعات المحاكم . فالاحتجاج بذلك خطأ يتدنى إلى مرتبة المغالطة ، والرد المباشر عليه أن لكل مقام مقالا ، والصحيفة اليومية ليست المقام المناسب لمثل هذا المقال .، ومن أسف أن بعض هذه الأمور تورطت فيها صحف عزيزة على قرائها ، ومشهود لها غالبا بالوقار .

ب – ثم إن بعض ما نشر كان مليئا

بعبارات المبالغة التى تستفز مشاعر القارئ لتصل به إلى فائض من الغضب والغيظ بغير طائل ، والنتيجة مضاعفة شعور المواطنين بالإحباط بدرجة مؤلمة .

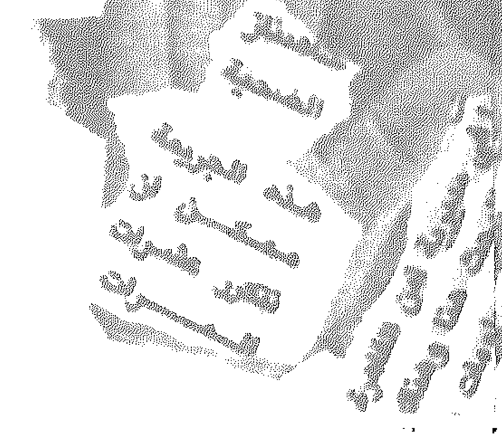
جـ - ثم إن الكتابات استمرت أياما وأسـابيع ، بدرجة من الإلحـاح لا معنى لها ، ولا تخدم هدفا واضحا .

د - ومن الملاحظ أن بعض الأقلام غير الصحفية تصـدت للموضـوع بالتعليق والتفسير بل والتنظير : ولم يكن قد مر على وقوع الحدث ثمانٍ وأربعون ساعة ، ولم يكن التحقيـق فيه قد وصـل بعد إلى قدر يذكر من الكشف عن حقيقة ما جرى ، ومن المؤسف أن أسماء بعض أصحاب هذه الأقلام أسماء يجب أن تظل موضع ثقة المجتمع ، لأنها لا تمثل نفسها فحسب ، ولكنها تمثل بالإضافة إلى ذلك قيما ومؤسسات يجب أن تظل موضع احترام الجميع .

مـا العمـل ، ومن أين نبدأ ؟

أمام كل هذا الذى حدث ، الجريمة ، وردود الأفعال الاجتماعية إزاءها ، يصبح السؤال الوارد هو : ما العمل ؟ ونحن لا ندعى أننا نقدم فى هذا المقال الإجابة الشافية ، لكننا نحاول أن نقدم عددا من النقاط نرجو أن تؤخذ بعين الاعتبار ، سواء عند المواطنين الذين يؤرقهم الهم العام ، أو عند صناع القرار أيا كانت مواقعهم :

أولاً : يلزمنا فى البداية قدر من وضوح الرؤية ؛ فقد قال البعض إن هذا الذى حدث إنما هو حادثة فردية ، وبالتالى فهى جريمة فردية لا تمثل ظاهرة متواترة فى عالم الإجرام ، وهذا تعليق لا محل له فى السياق الذى نحن بصدده ، إنما الذى له محل فعلا هو أن علماء النفس وعلماء الاجتماع وعلماء الأنثروبولوجيا يتكلمون عما يسمى بـ « الحادثة ذات الدلالة » ، وهى قد تكون فردية وغير مسبوقة ، ولكن لأنها تقع فى سـياق معين يكون لها معنى « المؤشر » أو « النذير » أو « النبوءة » ، أى أنها تنذر بأننا على مشارف تيار من الجرائم يمثل تصعيداً على مستوى العنف أو التخطيط أو التنظيم أو الاستهداف أو أى بُعدٍ آخر من أبعاد السلوك الإجرامى وهى متعددة ، وتقتضينا الأمانة أن نقول إن هذه الحادثة تبدو من هذا النوع الدال ، ويجدر بالذكر أنها تأتى فى سياق سلسلة من الجرائم توالت الواحدة تلو الأخرى على مر السنوات العشر الأخيرة ، كان لكل منها مواصفاتها المتفردة ، ولكن يجمع بينها جميعا جذر مشترك هو الربط بين العنف والشكل غير المعتاد فى مجتمعنا ، (خطف الأنثى ، الاغتصاب ، قتل الوالدين ، قتل الأزواج بوساطة الزوجـات ... إلخ) . كل حادثة على حدة تعتبر حادثة فردية ،



ولكن تواليها عل هذا النحو لابد أن يلفت النظر .

ثانياً : لا يزال الإعلام لدينا يحتاج إلى وقفة لإعادة النظر فى أمور عدة بدءا من المسلّمات وانتهاء بالغايات المستهدفة . إن النشر الإعلامى المكثّف والمفصّل والمتواصل عن الجريمة ، مهما قيل فى تفسيره من أنه مرآة تعكس الانزعاج الاجتماعى إزاء نوع الجريمة وملابساتها ، فإنه ليس مبررا كافيا للتمادى فيه بالصورة التى شهدناها ، والأهم من التبرير أو عدم التبرير أن هذا النشر المكثّف نفسه يكون له شديدة السوء ، تجتمع كلها فى اتجاه التشجيع على مزيد من الإجرام ، بعبارة أخرى إن آثاره الجانبية تأتى بعكس المطلوب تماما ؛ ذلك أنها تحدث نوعا من الاعتياد على وجود الجريمة معنا فى حياتنا اليومية ، ويصحب ذلك قدر من تبلّد المشاعر نحو سيرتها وسيرة مرتكبيها ، كما أن نشر التفاصيل يحدث لدى بعض الشباب قدرا من الإثارة غير السوية ، بل والتشويق ، يصحبه أقدار متنامية من تعلم بعض الجوانب الدقيقة فى مهارات السلوك الإجرامى ، وقد نبّهنا إلى ذلك مراراً ونحن بصدد الحديث عن تعاطى المخدرات وإدمانها ، وبالمنطق نعود إلى التنبيه إلى هذه الحقيقة ونحن بصدد الحديث عن الجريمة أياً كانت ، وعن جرائم العنف بوجه خاص ، وعن جرائم العنف المختلط بالجنس بوجه أخص .

ثالثاً : إلى أن يتم إحداث تغييرات جذرية نحو تحسين ظروف الحياة الاجتماعية عامة لابد من إجراءات عاجلة للتخفيف من وطأة العوامل المشجّعة تشجيعا مباشرا على اقتراف هذا النوع من الجرائم ، ويأتى فى مقدمة هذه الإجراءات ما يلى :

أ - **تكثيف الوجود الأمنى الظاهر والفعال** فى الطريق العام بكل الصور الممكنة ، ونعنى هنا الأمن الجنائى لا الأمن السياسى ، ونعنى الأمن المدرّب والمزود بما يحميه من العدوان عليه هو نفسه من قبل بعض المجرمين المغامرين ، والمزوّد أيضا برقابة فعالة من رئاسته حتى لا ينصرف إلى التراخى وربما ما هو أكثر من التراخى .

ب - كذلك لابد من **إعادة النظر فى تنظيم وسائل النقل العام** وتيسيرها بما يتيح خدمة آدمية للمواطنين تحفظ قدرا معقولا من كرامتهم البشرية .

جـ - ولابد من مراجعة دقيقة **لمستوى الإنارة فى الطرق ليلاً** ، ونعنى هنا الإنارة

المباشرة لا الإنارة غير المباشرة المترتبة على تشغيل المحال التجارية فإذا أغلقت ساد الظلام أو ما يقرب من الظلام .

هذه إجراءات يمكن البدء فيها فورا ، حتى يلمس المواطنون فى القريب العاجل أن هناك خطوات جادة اتخذتها الدولة لحمايتهم ولإدخال الطمأنينة على نفوسهم ، وحتى يتأكدوا من أن هيبة الدولة (على مستوى أمن المواطن العادى) لاتزال قائمة .

رابعاً : لابد من تشكيل لجنة عمل ، تجمع بين مختلف التخصصات التى تمس أحوال الطريق العام (الازدحام ، والضوضاء ، والمرور ، والجريمة المخصصة للطريق العام) تكون مهمتها دراسة الموضوع من جوانبه الرئيسية المتعددة ، واقتراح الحلول بعيدة المدى فى هذا الشأن ، بحيث تعرض فى ذلك لما يوشك أن يصير مشكلات مزمنة ؛ كالازدحام وكل مايرتبط به ، ومعاملة المواطن العادى فى أقسام الشرطة ؛ وكفاءة العمل كما يجرى فعلا فى هذه الأقسام لا كما نحب أن نصوره من خلال الشعارات البراقة ؛ وتعزيز جهاز السلطة القضائية بحيث يمكن للمواطنين أن يأملوا فى سرعة البت فى قضاياهم دون إرهاق قاتل لرجال القضاء ؛ وإصلاح الإعلام بحيث يصبح هدفه الإنارة لا الإثارة .

خاتمة :

أما بعد – فقد وصلنا إلى المرحلة التى أصبحت مشكلاتنا الاجتماعية تتفجر فيها من حين لآخر بصورة بالغة الإزعاج للضمير العام ، ولا جدال فى أنه ليس من الحكمة أن نضيف إلى ذلك مزيدا من الإثارة فى الحديث عنها .

ولكن ليس من الحكمة أيضا أن نبادر إلى « رش الماء البارد عليها » ، ففى ذلك استفزاز للشعور العام وتلميح إلى أن الأمور ستظل على ما هى عليه ولن يفعل المسئولون شيئا لتغييرها ، وهو مالا يُعقل أن يكون ولا نظن أنه سيكون .

لابد من اتخاذ خطوات عاجلة لإدخال تحسينات يلمسها المواطن فورا ، ولا يكفى فى ذلك تغليظ العقوبات ، فستظل النوعية الجديدة من الجرائم ترتكب ما لم نقض على عدد من العوامل الاجتماعية المباشرة التى تؤدى إلى أو تشجّع على أو تيسّر ارتكاب هذه الجرائم ، ولابد كذلك من المبادرة إلى الدراسة الموضوعية الأمنية والمتبصرة لوضع الخطط السليمة للإصلاح طويل المدى لكى يبدأ تنفيذها فى المستقبل غير البعيد ، ذلك أن التحسينات العاجلة مهما قيل فى قيمتها فهى فى نهاية الأمر محدودة الفاعلية ، وسيضعف مفعولها شيئا فشيئا حتى يتلاشى تماما ما لم نشفعها بالإصلاحات الجذرية بعيدة المدى .

نبيع مسرح الدولة ؟ نبيعه لماذا ؟ نبيعه لمن ؟

بقلم :

د . على الراعى

• فليصمت الدلالون فإن روح مصر ليست مطروحة فى المزاد !!

حين وقعت على رءوسنا جميعا هزيمة ٦٧ ، سارعت فرق المسرح الخاص الى إطفاء أنوارها ، وإغلاق أبوابها بأغلظ الاقفال . والسبب - ان جو الأحزان - حتى ولو كانت أحزانا كبيرة لأمة فجعت فى أغلى أمانيها لا يناسب نشاط مسرح القطاع الخاص . إنه مسرح يقدم الفرفشة والضحك الخالى العقل والقلب معا ، فكيف تُقام موالدُه فى مأتم كبير ؟ الشباك لا يسمح ، ورصيد البنوك لن يواصل التضخم . بل هو مهدد بالانكماش ؟ طيب ، وقضية البلد؟، أليس المشرفون على مسارح الفرفشة مواطنين صالحين، يفترض انهم يشعرون بالانتماء الى بلدهم وقضايا بلدهم؟ نعم نحن كذلك - يقول هؤلاء - ولكن القدرة لها حدود ، فنحن تجار مسرح ، وتجارة المسرح . أصبحت الآن كاسدة رمن ثم ؟ فنحن مضطرون الى التوقف فى انتظار الفرج !



زكي طليمات



سعد أردش

نبيل الالفى

مسرحية اهلا يابكوات عمل جاد قدمه مسرح الدولة

ومسارح الدولة ماذا فعلت بعد الهزيمة ؟ لم يغلق مسرح واحد من بينها ، بل حفزتها الهزيمة الى مواصلة البقاء ، دفاعا عن روح الأمة ، وحفزا لها الى التماسك ، وامتصاص الصدمة ، ثم تجاوزها الى مواقف اكثر ايجابية .

هذا هو الفارق الجوهرى بين مسرح الدولة ومسرح القطاع الخاص . الأول ملتزم بمبادىء ، والثانى ملتزم برصيده فى المصارف .



إنقلاب من مسرح جلال الشرقاوى

دعائم فن المسرح

وقبل أن أمضى إلى شرح دور مسرح الدولة فى حياتنا الثقافية والفكرية والفنية والاجتماعية والسياسية ، أريد أن أنبه الى أن مسرح الدولة قد كان النتيجة المنطقية لجهد اكبر وأوسع هو جهد الدولة فى خلق وارساء دعائم فن المسرح بصفة عامة . فهى الدولة التى أرسلت جورج أبيض الي فرنسا فى أوائل القرن ليتلقى تدريبا نظاميا على التمثيل ، وهى التى أرسلت من بعد زكى طليمات وفتوح نشاطى وسعد أردش وكرم مطاوع ونبيل الألفى وغيرهم من فنانى المسرح واطقمه الفنية الى عواصم العالم المسرحية لتلقى دراسات عليا فى فنون المسرح .

وهى الدولة أيضا التى شجعت زكى طليمات على انشاء ودعم المعهد العالى للفنون المسرحية ، ووقفت الى جواره تسانده فى مهمته الحضارية التى ازدهرت وأتت كثيرا من الثمار .

وهى الدولة كذلك التى انتقلت من هذه الجهود المتفرقة الى انشاء مؤسسة كاملة للمسرح وفنون الاداء المسرحى عامة ، فانتقل التفكير العلمى الذى بادر به زكى طليمات نقلة كبرى ، وجعلت من الحركة المسرحية ريادة فنية وقيادة واعية . وكان من أثر قيام هذه المؤسسة الكبرى ان اتسع مفهوم المسرح بحيث لم يعد يقتصر على فنون الكلمة وحدها ، بل تعدى هذا الى فنون الرقص الشعبى وفنون السيرك والعرائس والفن الاستعراضى والمسرح الغنائى .

ورغم تحفظاتى الكثيرة على نشاط فرق التليفزيون المسرحية ، فقد كانت هذه الفرق – فى الاساس ومن الوجهة النظرية البحتة – محاولة للوصول بفن المسرح الى جمهور التليفزيون الذى كان يُعَدُّ إذ ذاك بمئات الألوف . وكان هذا جهدا آخر من جهود الدولة وان شابته معايب كثيرة فى الممارسة ، وتعدى اثر هذه المعايب الخير القليل الذى قدمته فرق التليفزيون هذه .

ولما قامت فرق القطاع الخاص مثل فرق الفنانين المتحدين ، لم تجد من يمثل على خشباتها ويخرج لها الا فنانين تربوا فى احضان جهدالدولة المسرحى – معظمهم كانوا خريجين من معهد الفنون

المسرحية . ولما دخلت هذه الفرق الخاصة فى منافسة مباشرة مع فرق مؤسسة المسرح ، لم تلبث القيادة الفنية والفكرية التى كانت المؤسسة تقوم بها للحركة المسرحية عامة ، أنْ دفعت فرقة الفنانين المتحدين الى التخلى عن مسرحيات قليلة القيمة مثل « البيجاما الحمراء » « وعفريت مراتى » .. الخ والتقدم الى اخراج مسرحيات من نوع أرقى مثل : « سيدتى الجميلة » .

المسرح الخاص الذكى

وكانت هذه بداية لعملية ترشيد تمت بأثر مباشر من مؤسسة المسرح ، نتج عنها - فيما بعد - ما سميته المسرح الخاص الذكى تمثل فى جهود جلال الشرقاوى فى فرقته « مسرح الفن » واتخذ أرقى صوره فى مسرح لينين الرملى - محمد صبحى ، الذى وعى ، بحس مرهف وبصيرة شديدة الصفاء الدرس التالى : وهو أن الفن المسرحى الجيد يمكن ان يكون ممتعا ومفيدا فى وقت واحد ، وأن الناس تقبل على عنصرى الفكر والفرجة معا - لو وجدتهما - اقبالا شديدا ، وانها حين لا تجد الفكر الى جوار الفرجة ، فقد تتفرج سنة أو سنتين أو ثلاثاً ثم تنفض فجأة عن المهرجين الفارغى الرءوس .

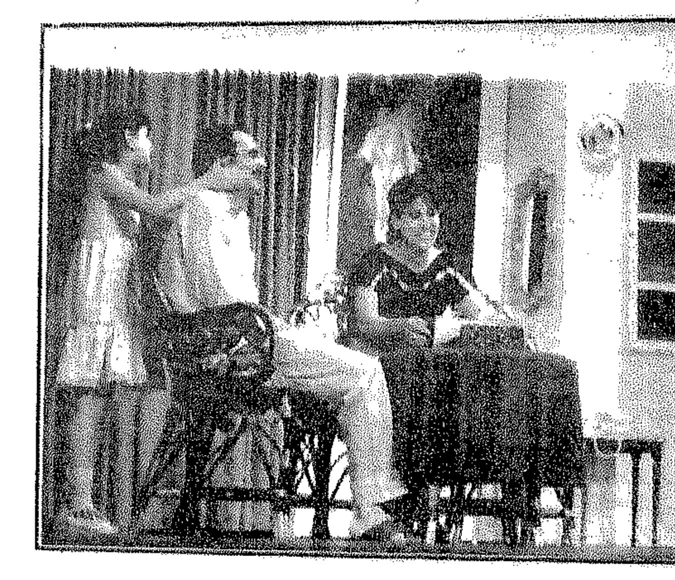
الى جوار هذا كله اقامت الدولة معاهد الباليه والفنون الشعبية والكونسرفاتوار ، التى أخذت جميعا تمد الفرق المسرحية بحاجتها من الأطقم والمواد الفنية . هذا الى جوار معهد التذوق الفنى الذى يتولى اخراج الناقد والمتذوق الواعى .

وحين ازدهرت الحركة الفنية المسرحية استطاعت مؤسسة المسرح ان تقيم أول عرض مسرحى فى منطقة الأهرام ، وهو العرض الذى أقيم فى أوائل الستينيات وقدمت فيه فرقة « الاولد فيك » البريطانية مسرحيتى : « روميو وجولييت » - لشكسبير ، « والقديسة جون » - لبرنارد شو . وكان هذا العرض بشيرا بأعياد مسرحية لاحقة تمت فى المنطقة ذاتها .

ولا أريد الإطالة فى سرد ما هو معروف للجميع ، يذكره الكل الاّ أصحاب الغرض ومدمنى تصفية الحسابات . وأخلص للحديث عن الاتجاه الخطر الذى ظهر بيننا فى الأسابيع الأخيرة ، والذى ينادى ببيع مسرح الدولة .

ظاهرة غريبة

والظاهرة أن بيع الأشياء التى تدخل فى إطار الملكية العامة أصبح هواية لدى البعض ، ما لبثت ان تحولت الى ادمان ! وقد بدأ الصراخ بطلب بيع اثار مصر لتسديد ديونها . وتلى هذا بيع المؤسسات الناجحة التى يملكها القطاع العام . وتفاقم الأمر فقرر نفر من محترفى البيع



مسرح صبحى ولينين نموذج جاد
للمسرح الخاص

ان يجرفوا أرض مصر ويبيعوها على شكل طوب أحمر ،، غير مبالين بأنهم يبيعون طعام مصر ، ورزق مصر ومستقبل مصر .

وانتقلت العدوى الى التعليم العالى ، فعادت الجهود تبذل لانشاء جامعة خاصة للقادرين ، سوف تتكلف مليار جنيه تجمعه نقابة القادرين ، لتعليم الأولاد الخائبين من ابناء القادرين - القادرين على القفز على الطوابير وسنوات الدراسة ، ومناهج التعليم !

وساء البعض ان يكون لمصر تليفزيون يمثل السيادة المصرية ، والطموح المصرى وأسلوب الحياة المصرية ؛ فاخذوا يلتفون حول هذه المؤسسة الكبرى بانشاء تليفزيون سريع الحركة ، غزير الاشعاع ، كريم الدفع يريدون به ان يشلوا فعالية تليفزيون مصر العتيد .

فى اطار هذه الدعوى العامة لبيع كل ما هو عام ، قامت المطالبة ببيع مسارح الدولة . وفى كل مطالبة من المطالبات بالبيع العام ، لا يسأل أحد نفسه : لماذا البيع ولم لا يتم الاصلاح ؟ وفى حالة المسرح ، لا يوجد سبب واحد يدفع الدولة الى التخلى عن جهدها فى رعاية ومساندة المسرح . فالمسرح يلقى المساندة والتمويل والدعم العتيد فى بلاد كل العالم ، وبالأخص فى البلاد الرأسمالية مثل امريكا وفرنسا وانجلترا والنمسا . فليس هذا الدعم تطبيقا لمبادىء اشتراكية يرى جمع المتنفعين من اوضاع العالم المتغيرة أنها زالت الى الأبد ، ومن ثم وجب الاختفاء بالايديولوجية الرأسمالية وحدها .

الايديولوجية الرأسمالية - على معايبها ومظالمها الكثيرة ، تبذل العون للفنون المختلفة سعيا وراء رقى الأمة والانسان معا ، وهذا فى حد ذاته يؤدى الى تحسين الإنتاج الذى يخطط له وينفذه الانسان نفسه . فإن ارتقى هذا ارتقى معه كل شىء . ومن ثم تغدق الاموال على المتاحف ، وتشترى الاعمال الفنية بالمليارات ، وتقام المهرجانات الموسيقية والمسرحية والاسواق الدولية للكاسيت والمصنفات الفنية ، وتخصص الجوائز الكبرى للمبدعين فى الآدب بأنواعه

وفى فنون الأداء من تمثيل وسينما وتليفزيون .

يتم كل هذا فى البلاد الرأسمالية ، ولايحتج عليه أحد ولا يطالب أحد بالغائه بل هم يطلبون منه المزيد .

لمن نبيع المسرح ؟

إذن لماذا يصرخ البعض منا فى هستيرية : بيعوا مسرح الدولة ؟ نبيعه لمن ؟ لمنتجى مسرحيات « حمرى جمرى » و « العسكرى الأخضر » و « جوز ولوز » وغيرهم من أصحاب الموالد المسرحية الموسمية التى تنتشر أيام الصيف وفى المواسم السياحية ؟ نبيعه لأبطال هز البطون والقحوف ، والعقول والضمائر ومغتصبى حق المواطن فى التفكير السليم والمتعة الفنية المتوازنة التى تخاطب العقل والوجدان ولا تقتصر على الأجساد ؟

لا ينكر أحد أن ثمة خللا فى مسارح الدولة . وهــذا الخلــل مرجعــه – فى الأساس – إلى سوء الإدارة ، وسوء التنظيم . ولا يعود أبدا إلى قلة المسرحيات الصالحة ، ولا إلى تقاعس الأطقم الفنية عن أداء واجبها .

فإلى جوار أفراد قليلين يقبضون مرتباتهم ويتهربون من التمثيل . هناك مئات من الشباب الواعد من الجنسين ، يتحرقون شوقا إلى التمثيل والإخراج والكتابة . لا يحجبهم عنها إلا النجوم المشهورون والمتقاعسون . وقد أثبتت تجربة لينين الرملى ومحمد صبحى فى مسرحية « بالعربى الفصيح » أن هؤلاء موجودون بالإمكانية وبالفعل ، لا ينقصهم إلا أن تتاح لهم الفرصة . وهم أهل لكل ثقة وجديرون بأن يحملوا عن النجوم المتقاعسين المتآكلين الآفلين عبء المسرح كاملا .

طريق الإصلاح

أن على مسارح الدولة أن تقدم على خطوتين رئيسيتين فى طريق الإصلاح . أولهما إنهاء نظام الفنان المسرحى الموظف والأخذ بمبدأ الفنان المرتبط بفرقة ما ارتباطا يحدده عقد يطول أو يقصر ، بحيث يتناول الفنان أجره إذا ما أتم عمله ويحرم منه بل ويجازى إذا ما تهرب من هذا العمل . وهذا أمر سهل التنفيذ .

أما الخطوة الثانية ، فهى أكثر صعوبة ، وإن كانت غير مستعصية على الحل .

لقد نبهت من سنوات إلى الوضع المتأزم الذى يجد فيه المسرح القيِّم – لنسمه كذلك حتى لا نقول الجاد ونجلب على أنفسنا خطيئة إشاعة سوء الفهم – يجد ذلك المسرح فيه نفسه منذ ظهور التليفزيون والفيديو . قلت على صفحات « الهلال » إن ما كان يقدمه المسرح القيِّم فى الستينات قد هاجر إلى الشاشة الصغيرة ، وأنه بفضل جهود كتاب واعين



مسرح التليفزيون فى الستينات

ومخلصين وجادين وواسعى الثقافة من أمثال أسامة أنور عكاشة ومحفوظ عبد الرحمن وغيرهما أصبح مضمون المسرح القيِّم يقدم بوسائل أفضل وأرخص ، وأوفر راحة ، واعرض بما لا يقاس من جمهور المسرح الحى . فى الستينات تباهى المسرح – ما بين قيِّم وغير ذلك ! – بأنه حقق إقبال مليون متفرج فى عام واحد ، عملت فيه كل فرق الدولة مواسم كاملة . اليوم يشاهد المسلسلات الجيدة جمهور لا يقل عن ثلاثين مليونا فى مصر وخارجها وذلك فى اليوم الواحد وفى كل يوم حتى انتهاء المسلسل .معنى هذا أن المسرح الحى عليه أن ينظر بعمق فى أساليبه الفنية وفى المسرحيات التى يختارها ، وأن يتعرف إلى صيغة مسرحية جديدة تشمل الفكر والفرجة معا . هذه دعوة قديمة تقدمت بها من سنوات ، والحاجة إلى التمسك بها وتعميق خلق الصيغة التى توفرها هى الآن أكثر إلحاحا من أى وقت مضى .

لا خوف على المسرح الحى من دراما التليفزيون ، بدليل نجاح مسرحيات اعتمدت صيغة الفكر والفرجة معا مثل : «أهلا يا بكوات» ، « وجهة نظر » ، «وبالعربى الفصيح» من مسرح لينين الرملى ومحمد صبحى ، « ومنين أجيب ناس » و « الملك هو الملك » من فرقة المسرح الحديث التابع للدولة : مسرحية : « انقلاب » ، من مسرح جلال الشرقاوى .

ولكى يصل مسرح الدولة الى ايجاد هذه الصيغة المهمة والضرورية لضمان بقائه ، عليه ان يشجع كتاب الشباب – يسعى اليهم ويوجههم ، ويبذل لهم الحب الذى يستحقون . وعليه كذلك ان يوسع رقعة الحرية أمامهم فلا تفتك بأعمالهم الرقابة الصارمة أو التدخل فى أمور المسرح من قوى ضاغطة تمد نفوذها ومالها من خارج مصر لتشكل أمور الثقافة والفن فى بلادنا حسب مصالحها هى ، واهوائها .

من بستان محبتها

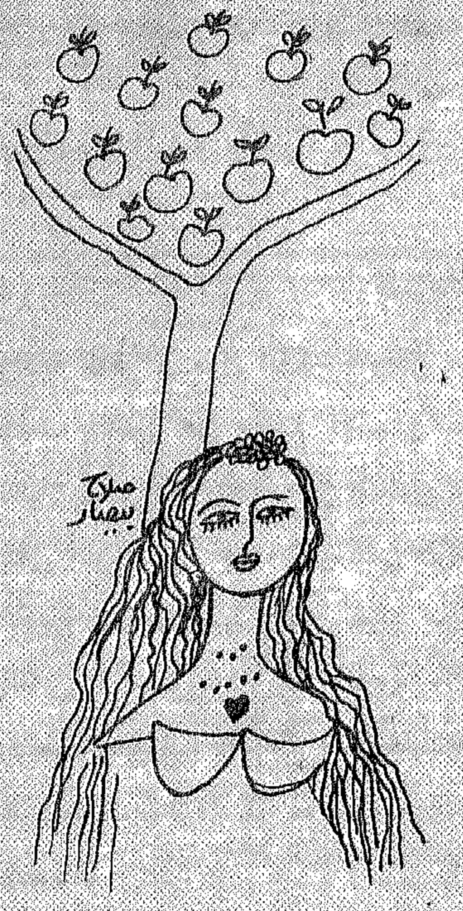
شعر :
صلاح والى

(١) تفاح

من قال بأن التفاح له أشجار ؟
هذي أشجار الدنيا
والتفاح تكون تحت قميصك
وتَلَوَّن من أسر ثيابك
وانْسَلَّ من الدفء اللهبي
وطَابْ
التصق من الشهوة بالأشجار
فاهتزت من رعب النشوة
فاحت رائحة التفاح

(٢) التين

التينُ جراحاتُ الناسِ
وعينُ جراحاتِ القلبِ
هذه التينةُ من عَتَقِها شوقاً شَبَقِياً
سَوَّاهَا وهَدَاهَا نحو الشمسِ
فصارَتْ قطرة وجدٍ أزلى
تَتَدلّى إذْ تَتَدَلّى نحو الأعلى
تَنْشَغِلُ بما فيها
وتَتِيبسُّ من الحمى
فإذا فَاض الشوقُ اشْتَعَلَتْ
شَقَّتْ قشْرتَها شَقاً طوليا
وتَعَرَّتْ
يتعالى صوتُ التينة
أن هُيِّئْتُ .... فهيَّا



حوار مع أديب شاب

بقلم : د . شكرى محمد عياد

سيكون الأدباء الشبان هم أول من يعترض على هذا العنوان ، خصوصاً بعد قراءة المقـال . فلن يعترف أحد بهذا الشاب الذى حاورنى ، ولا يبعد أن يتهمنى بعضهم بأنى لم أقصد بتسجيل هذا الحوار - وكان المفروض أن الشاب هو الذى يجرى الحوار معى ، لا العكس - لم أقصد بتسجيل هذا الحوار إلا أن أقدم صورة سيئة للأجيال الجديدة من الأدباء . وهذه الأجيال الجديدة لا تتكلم بلسان واحد إلا حين يهاجمون الأجيال السابقة ، وهم يترحمون على الذين ذهبوا ويستعجلون المتلكئين من الشيوخ . أما أشد هجومهم فعلى الكهول الذين ينتظر أن تطول إقامتهم واستبدادهم بأسباب الرزق والشهرة فى دنيا الأدب .

وللشباب خيال جموح يصور لهم أنهم إذا طبع لهم كتاب فسوف ينفد فى أيام أو على الأكثر أسابيع ولكن بشرط واحد ، وهو أن يكتب عنه عدد من النقاد الذين يتمتعون ببعض الشهرة .

وربما كان طلاب الرزق الواسع والشهرة العريضة من هؤلاء الشباب قد أخطئوا من أول الأمر حين اختاروا طريق الأدب ، وحرفة الأدب من قديم الزمان مرادفة للفقر وخمول الذكر ، ولكن من أصعب الأمور أن يرجع الإنسان عن اختيار خاطىء ، والغالب أن يتمادى فيه ويلقى اللوم على غيره ، ويمضى الزمن بالأديب الشاب وهو واقف حيث هو ، والناس لا يذكرونه ، إذا ذكروه ، إلا بوصف « الشاب » ، مع أن الشيب قد اغتال سواد شعره ، لأنه لم يجن بعد ثمار مجهوده .

لهذا أصبح من كنا نسميهم « الأدباء الشبان » يسمون أنفسهم « جيل السبعينيات » و « جيل الثمانينيات » ، ينسبون أنفسهم إلى الفترة التى اختاروا فيها طريق الكتابة ، وراحوا يحاولون نشر أعمالهم ، ولاشك أن هذه التسمية أقرب إلى الواقع ، ولو أنها تُشعر بالتحزب ، الذى يبلغ أحياناً حد التعصب ، وذلك حين يوجه جيل الثمانينيات هجومه ضد جيل السبعينيات ، أو حين تنشب الحرب الأهلية بين أبناء الجيل الواحد ، وإنها لحرب – علم الله – بلا انتصارات ولا غنائم ، كالحرب بين منظماتنا الفدائية ، والعدو قابع فى مكانه ، مستبد بسلطانه .

صاحبى هذا – كما بدا لى من أمره – ليس من عتاة المحاربين ، ولكنه قد حضر – على الأرجح – ندوة أو ندوتين ، وسمع كلاماً تتقاذفه الشفاه هنا وهناك ، وبعد أن تعلم لغة الندوات جاء ليحاورنى .

كيف يصنع الأديب !

أما لماذا سميته أديباً فأظننى فعلت ذلك لأنه ليس بأى شئ آخر فلا هو معلم ولا متعلم ، ولا هو عامل ولا هو عاطل ، ولا هو صحفى ولا غير صحفى . إنه باختصار واحد من ملايين الشباب الذين جنينا عليهم فخرجناهم فى الجامعات وألقيناهم إلى الشارع . وقد دعاه الفراغ إلى تلك الندوات فتبين له أنها يمكن أن تؤهله لعمل لا يتطلب الكثير من الجهد ، ففى القاهرة عشرات من دور الصحف أو المكاتب الصحفية التى تجمع مواد مكتوبة وتبعث بها إلى عشرات بل ومئات من الصحف والمجلات فى أنحاء العالم العربى وفى أوربا أيضا ، والله يعلم من أين تأتى بالمال لتدفع أثمان هذه المواد ، فليس فى العالم العربى طوله وعرضه ولا لدى المهاجر

العربية في شرق العالم وغربه ، ما يقوم بنصف هذا العدد من الصحف والمجلات .

هو على كل حال رزق ساقه الله إلينا فمن الأدب ألاَّ نسأل من أين جاء ، وكل ما عليك أيها الشاب النجيب هو أن تعدَّ سؤالاً أو سؤالين – تلتقطهما من هذه الندوات – وتلقي بهما واحداً من هؤلاء الذين يسميهم الناس أدباء أو نقادا وتكتب ما يمكنك أن تكتبه من كلامه وتحضره إلينا في المكتب وسننشره إن وجدناه صالحاً للنشر ونعطيك كذا .

وهذا ما كان . أما السبب في كوني أكتب هذا الحوار الآن بصرف النظر عما يمكن أن يكون الشاب قد صنع فيه ، فهو سببان في الحقيقة لا سبب واحد وأولهما أن أسئلة الشاب كانت تستفزني لأن ألقى عليه أسئلة مضادة ، وكذا خرج الحوار من الإطار العادي المكون من سؤال وجواب إلى شيء أشبه بالحوار التمثيلي المعبر عن شخصيات المتحاورين ، ورأيت هذا الأسلوب الجديد جديراً بالتسجيل لأنه لايخلو من طرافة وتسلية ، وإن كان عديم الفائدة بطبيعة الحال (هذا يجعله أكثر شبها بالفن) وبما أن الفتى كان يسجل أسئلته وأجوبتي – وهي الجانب الذي يخصه من الحوار ، فقد كان عليَّ أنا أن أقوم بتسجيل الجانب الآخر – أسئلتي وأجوبته – إذا أردت أن أحافظ على هذا الأثر الفني المبتكر . ويضاف إلى هذا السبب الأول سبب آخر وهو أن الفتى لم يكتف بعدم تدوين أسئلتي وأجوبته بل كان يتوقف عن الكتابة أحيانا وأنا أجيب ، ولا أدري هل كان ذلك لجهله وعدم خبرته أم عن سوء نية منه ، وهو ما أدعيته أنا ، منتهراً أياه بقسوة (لا داعي للشفقة فإنه لم يتأثر) وناسباً إليه أنه يمارس نحوي نوعاً عجيباً من الرقابة .

وهاأنذا أقدم إليك الحديث ملتزماً أقصى حدود الدقة والأمانة و غير مستسلم إلى مغريات الفن وإن كانت كثيرة .

حوار حول النقد

بعد أن شرب الفتى شايه واستقر – المجلس وجّه إليّ سؤاله الأول :

– هل تعتقد أن هناك أزمة نقد ؟

إلهي لماذا تركتني ؟ أنا مصلوب على هذا السؤال منذ سنين طويلة . منذ سنين طويلة وأنا لا أكتب إلا نقداً . تركت القصة كما تركت الشعر ، ولم أعد أكتب إلا نقداً ، وهناك نقاد غيري أيضا . وكلما لقيني أحد هؤلاء الشبان سألني عن أزمة النقد . إلهي لعلهم يقصدون أنها أزمة فرط إنتاج ؟ فهم بكل تأكيد لا يجدون وقتاً ليقرءوا ما نكتبه من النقد . ولكني أعلم يا إلهي أنهم

يقصدون العكس . فالأزمات عندنا تعنى دائما أن هناك نقصاً ما : أزمة سكر ، أزمة زيت ، أزمة بيض ، أزمة نقد . ولكنى بدأت أحاوره :

- أولاً : ماذا تعنى بأزمة النقد ؟

قال :

- النقد لا يتابع الإنتاج الجديد .

- أى إنتاج جديد ؟

- أدباء السبعينيات والثمانينيات .

اتهام سمعته مراراً وتكراراً . مرة يقال بصورة رجاء شخصى أو تنبيه مهذب ، ومرة يقال بصورة إدانة صريحة باسم طائفة « المبدعين » الناشئين لطائفة النقاد ، ووراء ذلك جهل أو تجاهل لوظيفة النقد . فأكثر هؤلاء يرون مهنة النقد مهنة خدمات مثل الطب والمحاماة : إذا مرضت استدعيت الطبيب أو ذهبت إلى عيادته فيفحص جسمك ويصف لك الدواء ، وإذا عرضت لك مشكلة قانونية استشرت المحامى ، كلاهما توجب عليه مهنه أن يلبى طلبك ، فـ « المبدع » أيضاً يبعث إلى الناقد بكتابه ليقول الناقد رأيه فيه . وفريق آخر لا يرى فى الناقد أكثر من وسيط تجارى أو « وكيل فنانين » ، عمله أن يقدم فنه إلى القراء محاطاً بألوان الإطراء . ولا أظلم الشباب فبين الكبار - كبار السن - من هم شر من ذلك ، وشرهم ذلك الأخ الذى عرض علىّ نقوداً لأكتب عن كتبه التى لا يقرؤها أحد (ولعله .. يقرأ هذا الكلام فيكف عنى) .

كتمت همى فى قلبى ، وقلت لجليسى الشاب :

- هذا غير صحيح . فالنقد لم يهمل أدباء السبعينيات والثمانينيات ، ولو أن اهتمامات الناقد قد تتعدى هؤلاء . ولكنك لا تجد كثيراً من هذا النقد فى الصحف اليوميـة . فإن كـان هذا هو ما يشـكو منه « المبدعون » فعليهم أن يتجهوا بشكواهم إلى محررى هذه الصحف ، وأنا ضامن لهم أنهم إذا أرادوا أن ينشروا نقداً أدبيا فسيجدون عدداً طيباً من النقاد المتازين والمستعدين لذلك ، أما وهذا موقف الصحافة من النقد ، فعليكم أن تنظروا فى المجلات الأدبية والثقافية قبل أن تتهموا النقاد .

ثم سألته سؤالاً مباشرا :

- هل تقرأ « أدب ونقد » أو « الهلال » أو « العربى » أو « إبداع » أو « فصول » ؟

لا . إنه لا يقرأ .

- ومع ذلك فأنت تتحدث عن مبدعى السبعينيات والثمانينيات ، وهؤلاء يقولون إن لهم مذهبا فى الأدب مغايراً لمذاهب الأجيال السابقة ، ويتهمون سابقيهم بالجمود والتحجر ، فماذا يريدون من هؤلاء المتحجرين ؟ إذا كانت الأعمال المعاصرة هى القادرة وحدها على أن تخاطب

الإنسان المعاصر ، فهل تحتاج إلى نقد ؟

- تحتاج إلى من يوضحها للقراء .

- ولكن النقاد المقصودين بالهجوم هم

أنفسهم أولئك الذين لا يفهمون الأعمال الجديدة ، فهل يمكنهم أن يجعلوها مفهومة لغيرهم؟

ولما بدا من سكوته أنه لا يجد حلاً لهذه المشكلة ، اقترحت عليه الحل :

- أليس من الطبيعي أن يتولى هؤلاء المبدعون شرح أعمالهم بأنفسهم ؟

ولكنه سأل بلهجة المعترض :

- هل يمكن أن يكون المبدع ناقداً في الوقت نفسه ؟

- الأمثلة لا حصر لها في الشرق والغرب ، في القديم والحديث والمشهور على كل حال إن المبدع لا يكون مبدعاً حقاً إلا إذا تميز بحاسة ناقدة . ولكن دعني أسألك : هل قرأت « فن الأدب » لتوفيق الحكيم؟

لم يقرأ .

- هل قرأت « قالبنا المسرحي » له ؟

لم يقرأ .

- هل قرأت « خطوات في النقد » ليحيى حقي ؟

لم يقرأ .

- أرأيت ؟ عندما تقرأ هذه الكتب ستجد نقداً عظيماً لمبدعين عظماء .

- ولكن كثرة القراءة تقتل الموهبة !

- نعم ، تقتل الموهبة الضعيفة ، وهذه تستحق القتل .

انتهينا من السؤال الأول ، وبقي السؤال الثاني الذي لابد منه .

- هل لدينا نظرية عربية في النقد ؟

سؤال أشد خبثا ، وإن يكن بريء المظهر فمعناه البسيط الصريح : هل لدينا نقاد ؟

- لأنه إذا كان لدينا نقاد حقيقيون ، لا مجرد أساتذة للنقد ، فلدينا بالضرورة نظرية نقدية . نحن نقول مثلاً إننا لا نملك فلسفات عربية ، وهذه في الواقع هي مشكلة المشاكل في ثقافتنا العربية المعاصرة ، لأننا لا نعرف فيلسوفاً عربياً واحداً في العصر الحديث ، وإن كان لدينا أساتذة كثيرون للفلسفة ، وبعضهم أساتذة عظماء . ولكن هل ينطبق ذلك على النقد أيضاً ؟

عدت أسأل :

- ألا يكفي أن يكونْ لدينا نقاد ؟

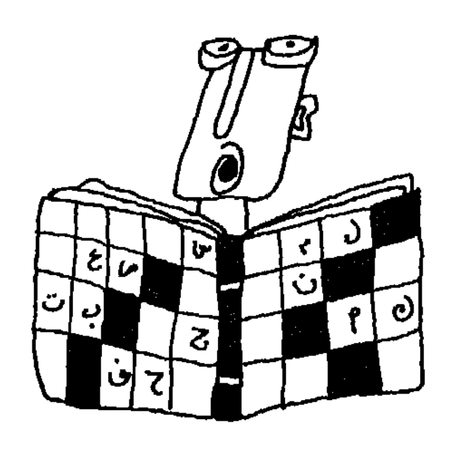
قال :

- ولكنهم يعتمدون على نظريات مستوردة من الغرب : بنيوية ، تفكيكية ، الخ .

قلت :

- وقبل ذلك : كلاسيكية ، رومنتيكية ،

واقعية ، واقعية اشتراكية ، الخ . ولكن هذا يتوقف على ما تقصده باستيراد النظريات إن كنت تعنى أننا نأخذ النظرية كما هى ، نعرضها تارة ، ونطبقها على أعمالنا الأدبية تطبيقا حرفيا تارة أخرى ، فنحن حقا لا نملك هذه النظرية ، ولكننا نستعيرها أو « نستدينها » ونستهلكها ، كما نصنع بأى منتج مادى . أما إن كنا نتصرف ، فيها (وقد يسمى البعض هذا التصرف تشويهاً) فإنها تصبح ملكاً لنا ، بقدر ما نجرى فيها من تعديل أو تحوير ، ولكن الفضل في إبداعها يكون لصاحبها الأول . أما إذا أخذناها ، وحللناها وعرفنا ما يرجع من عناصرها إلى ظروفها التاريخية ، وما يرجع إلى مسلمات فكرية مشتركة بين البشر جميعا ، أو إلى منهج عقلى ثبتت صحته بالتجربة ، أو إلى معطيات موضوعية يمكن أن تختلف مواقف المجموعات البشرية منها ، ولكنها



لا تملك نفيها فهنا تستحيل النظرية إلى مادة فكرية تمتزج بغيرها من المواد فى تفكيرنا حتى نصبح قادرين على صياغة نظريتنا نحن .

ثم قلت له : –

– أنت تستطيع أن تصف مشيتى إذا رأيتنى أمشى . ولكن هل تستطيع أن تصف مشيتك ؟

قال : لا

قلت : وإذا وقفت أمام مرآة ، وجعلت تبتسم ، أو تضحك ، أو تمشى مقبلاً ومدبرا ، حتى تعرف صورة ابتسامتك أو ضحكتك أو مشيتك ، فهل تكون عندئذ فى كمال عقلك ؟

قال : لا

قلت : وإذا رآك أحد فى هذه الحالة ، فهل يقول عنك إنك عاقل أو مجنون ؟

قال : أظنه يقول عنى إنى مجنون .

قلت : فكذلك نحن النقاد . قد تكون لنا نظرية ، ولكننا لا نعرفها ولا نصفها ، لأننا لاننظر إليها من خارجها . نحن ننقد فحسب . وعلينا فقط أن ننظر بعمق ، ونتكلم بأمانة . وإذا رأى من بعدنا أن ينظروا فى هذا النقد ، فقد يجدون فيه نظرية ، وقد لا يجدون ، وقد يعطون النظرية اسما ، وسنكون نحن – إن كنا بعد أحياء – أول من يتبرأ من الاسم ومن النظرية !

اعتقال الغرب فى

"علم الاستغراب"

بقلم : د. صلاح قنصوه

١ - الذات والموضوع :

لم أكن أعلم قبل أن أفرغ من مطالعة السفر الضخم «مقدمة فى علم الاستغراب» (٨٨٤ صفحة) للصديق الفيلسوف د. حسن حنفى ، أننى وزملائى وطلابى ، منذ عهد بعيد ، من الباحثين فى « علم الاستغراب ».

ولقد غمرنى شعور بالابتهاج ، أو على الأقل ، بالارتياح للتخفف من أثقال اسم مهنتى القديمة ، وهى الفلسفة ، التى غدت سيئة السمعة بين جماهير القراء . فلقد أهدانا د. حسن اسماً جديداً لعلم دقيق هو علم الاستغراب . والواقع أن سعادتى بهذا المصطلح كانت على مستوى سعادة «مسيو جوردان» ، فى إحدى مسرحيات «موليير»، عند اكتشافه بأنه يتحدث النثر منذ زمن طويل.

وقد ألح د. حسن على تذكير القارىء بأن مجرد العرض السريع لفلاسفة الغرب وتقد بعضهم لبعض بدءاً من الاغريق حتى اليوم ، وهو ما صنعه المؤلف فى مجلده ، إنما يتم عبر علاقة معرفية بين طرفين ، الأول هو « الأنا » (ويقصد بها الذات فى الفلسفة) ، والثانى هو « الآخر » (أى الموضوع) . والى هنا فليس ثمة جديد ، لأن طلاب الفلسفة فى الثانوية العامة يعلمون أن المعرفة أو البحث يتضمن أو يفترض ذاتاً باحثة أو عارفة ، وموضوعاً يخضع للبحث .

أما الجديد الذى يبشرنا به المؤلف فهو أن بحثنا ودراستنا لابداعات الغرب الفلسفسة إذا ما تمت تحت عنوان علم الاستغراب ، فإن « الغرب » أو « الآخر » كما يجب أن يسميه المؤلف ، سيغدو موضوعاً يذعن لى بوصفه مفعولاً به وخاضعاً رغم أنفه لأدوات بحثى . ولا ريب أن فى ذلك انتصاراً عظيماً عليه ، وإزالة لآثار عدوانه السابق عندما جعل من العرب

نعمت كثيراً فى صلتى الحميمة بالدكتور حسن حنفى بألوان خصبة من الحوار الذى لا يضيق صدره به ، بل يحث زملاءه وطلابه عليه . وهذه خصلة حميدة من بين خصاله العديدة التى أعتقد أن أروعها هو أحلامه النبيلة فى استعادة أمجادنا الشامخة ، ومسعاه الدءوب لتحقيقها بالبحث المتواصل الذى لا يكف عن تفجير الألغام فى مسلماتنا الراكدة .

وأرجو أن يفسح صدره لإحدى مشاغباتى التى اعتادها معى كصديق محب .



د. حسن حنفى

المذاهب فى الغرب تنشأ فى ظروف خاصة وتتوالد فيما بينها طبقا لقانون الفعل ورد الفعل

والمسلمين » موضوعاً « للاستشراق . وحان دورنا لكى نجعله موضوعاً لعلم الاستغراب ، ومن ثم تسقط هيبة الغرب فى أعيننا ، كما يقول د. حسن ، ونحس بالاستعلاء عليه . وعلى الفور نتسلم شعلة الحضارة ، ونتولى زمام أمورنا ، بل ونقود العالم كله وخاصة بعد أن أعلن بعض مفكرى الغرب سقوطه وأفوله .

ولئن نشأت مشكلات تخلفنا ، كما يقول المؤلف ، من جراء ادعاء الغرب أنه المركز الوحيد ، وأن سائر العالم أطراف ، فقد حان الوقت لحل تلك المشكلات بأن نضم كل تاريخ الفكر الغربى فى مجلد واحد ، وأن نثبت أن المذاهب (فى الغرب) تنشأ فى ظروف خاصة .. وأنها تتوالد فيما بينها طبقاً لقانون الفعل ورد الفعل ثم محاولة الجمع بين النقيضين فى مذهب ثالث » (ص ٧٨٦) ، وأن نقرر أن « التراث الغربى ليس تراثاً انسانياً عاماً يحتوى على نموذج التجربة البشرية ... بل

الكثير من الباحثين يواصلون إثبات أن ما وصل إليه الغرب من فكر وإبداع هو بضاعتنا ردت إلينا

هو فكر بيئى محض نشأ فى ظروف معينة هو تاريخ الغرب وهو نفسه صدى لهذه الظروف» .(ص ٣٦ – ٣٧) .

ويهدف بذلك علم الاستغراب « الى إقالة الثورات الحديثة من عثرتها ، واستكمال عصر التحرر من الاستعمار . والانتقال من التحرر العسكرى الى التحرر الاقتصادى والسياسى والثقافى ، وقبل كل شىء التحرر الحضارى . فطالما أن الغرب قابع فى قلب كل منا كمصدر للمعرفة وكإطار مرجعى يحال اليه كل شىء للفهم والتقييم ، فسنظل قاصرين فى حاجة الى أوصياء » (ص ٣٤) .

٢ – علم الاستغراب معسكراً للأسرى :

ولسنا فى حاجة الى اجهاد الذهن لنستنتج أن علم الاستغراب على نحو ما يطرحه د. حسن ، هو فرع من فروع وسائل العلاج التى تلحق بعلم النفس المرضى . فالمؤلف يصرّح بأن هدف هذا العلم هو « تجاوز عقدة النقص ... التى يشعر بها بعض الباحثين ... ويمكننى (أى المؤلف أو الباحث أو « الأنا ») أخذ كل فلاسفة الغرب وأضمهم فى طابور عرض وأكون أنا قائدهم أوجههم وأحركهم وأستعرضهم فى حركات وتشكيلات وتحيات كيفما أشاء ، وطبقاً لاستراتيچيتى وخططى وأهدافى . بل أن آخذ طوابير الأعداء بعد حصارهم وأضعهم جميعًا فى الأسر ، وأضع كل مجموعة منهم فى زنزانة ، وأغلق عليهم أبواب السجن . وبالتالى تضيع من نفوسنا رهبة الأعداء . لقد وقع العدو الذى كان بالأمس منتصراً فى أسرنا اليوم ، كما حدث مع العدو الاسرائيلى فى حرب أكتوبر ١٩٧٣ . وعلى هذا النحو قد تضيع من نفوسنا روح الرهبة أمام الفلسفة الأوربية ... كما يساعدنا كثيراً تجميعهم فى مذاهب وتيارات واتجاهات على أخذهم جميعًا فى شتلات كيفما أشاء ، فى سجن كبير ومذاهبه فى زنازين متجاورة حتى لا يتوه أحد منهم ونتوه معه فى اقتفاء الأثر ... كان لابد أولا من فك الأسر ، ويصبح السجن سجانًا والأسير آسراً » (ص ٧٨٧ – ٨) .

ونستخلص من هذه الفقرة الدالة أن جدة علم الاستغراب عند المؤلف تقوم على تجميع كل الفلسفات الغربية فى مجلد واحد حتى يتيسر اعتقالها جميعاً بدلاً من انفاق الجهد فى عمليات الملاحقة الفردية .

وهنا تصيبنى الدهشة ، فلا شك أن المؤلف غير غافل عن أن المكتبات العربية متخمة بالدراسات والرسائل الجامعية التى

تبحث على نحو مدقق فى المذاهب والشخصيات والقضايا الفلسفية الغربية التى تتصدى لها بالعرض والتحليل والنقد ، فضلاً عن مقارنتها بالفكر الاسلامي والعربى والشرقى بوجه عام . كما يعلم أن الباحثين المصريين منذ العقد الثانى من هذا القرن الذى أوشك على المغيب يدرسون ، وينقدون ، ويعلّمون الفكر الغربى لطلابهم .فليس ثمة جديد إذن فى أن الفكر الغربى كان ولايزال «موضوعاً» . بل ان الكثير من الباحثين العرب والمسلمين يواصلون مهمتهم التى وقفوا حياتهم عليها وهى إثبات أن ما وصل اليه الغرب من فكر وإبداع هو بضاعتنا ردت الينا .

فهل الجديد فى علم الاستغراب هو تجميع كل ذلك فى مجلد واحد ليكون سجناً كبيراً واحداً متجاور الزنازين ؟

حتى هذا ليس جديداً ، فالملخصات من هذا النوع كثيرة مبذولة فى الأسواق ، ولا تختلف فيما بينها إلا فى الحجم . إذن فالجديد الذى ينبغى أن نعترف به للمؤلف هو اطلاق التسمية .

ولكننا لو أخذنا بها ، على محمل الجد، فينبغى علينا إن نعيد تسميات المقررات العلمية فى مختلف فروع الطب والهندسة والفيزياء وغيرها منذ المرحلة الابتدائية حتى الجامعة والدراسات العليا ، فنسمى كل ما يدرسه الطلاب : « علم الاستغراب فرع كذا » على أن تستثنى من ذلك مقررات كليات أصول الدين والشريعة واللغة العربية بجامعة الأزهر لأنها العلوم الوحيدة التى لم ينتج فيها الغرب شيئًا .

ولننظر فى أمر هذه التسمية « الجديدة » . إن أى مفهوم أو مصطلح يشترط ، تبريراً لوضعه ، أن يقدم تمييزاً جديداً داخل سديم مختلط من المعارف بحيث يعاون فى فهم الفروق ويضم شتات المعرفة فى وحدات تصنيف منطقية ، وشرطه الثانى أن يضيف جديداً من المعرفة أو الفهم لم أكن أبلغه بدونه .بعبارة موجزة ، ينبغى أن يكون وجود المصطلح الجديد أفضل من غيابه ، وإلا كان فضولاً لا نفع فيه ، أو لفتًا للأنظار عما يجب معرفته ، أو العمل به .

٣ - علم الاستغراب وعقدة الاستشراق :

لا ينكر المؤلف أن ما دفعه الى صك هذا المصطلح الطريف هو المقابلة مع الاستشراق . غير أنه أغفل أن الاستشراق لم يكن علمًا بحيث يكون نقيضاً لعلم الاستغراب هذا . فقد كان جهداً وعملاً لاكتشاف المخطوطات وتحقيقها ، ونقد المخطوطات داخليًا كى تنسب الى مؤلفيها الأصليين ، وفهرستها ، وبيان أماكن الحصول عليها فى كل أنحاء العالم ، ووضع معاجم دقيقة لألفاظ القرآن الكريم والأحاديث الشريفة ، وكلها أمور شارك فى معظمها باحثونا كما أفدنا منها جميعًا دون استثناء . ولا يمكن بطبيعة الحال أن يزعم أحد أولئك أنه قادر على أن يجمع حصاد هذا الجهد والعمل المتواصل بين دفتى كتاب حتى ولو بلغ ٨٨٤ صفحة

الاستشراق ببساطة ضرب من إعادة الاكتشاف لما ران عليه النسيان من تراثنا

ككتاب علم الاستغراب ولكن تحت عنوان « مقدمة فى علم الاستشراق » .

لقد قدم المستشرقون اكتشافاتهم للكثير من تراثنا وتحقيقاتهم ومقارناتهم ، كما أدلوا بآراء مختلفة إزاء محتويات هذا التراث العظيم ولم يفرضوا علينا أن نلتزم بوجهات نظرهم ، التى اختلفت فيما بينهم، لأننا اقتنعنا بصحة بعضها وأنكرنا غيرها بالفعل . ولم يكف باحثونا قط عن مناقشة آرائهم ونقدها أو الدفاع عن بعضها ، وكل ذلك بمقتضى الروح العلمى البناء .

فالاستشراق ببساطة ضرب من إعادة الاكتشاف لما توارى عن التداول أو ران عليه النسيان من تراثنا ، وتقديمه لنا وللعالم أجمع .

إلا أن الأمر يختلف عما يسمى بعلم الاستغراب ، فليس الغرب فى حاجة الى أن نكتشفه أو نقدمه له ، أو لأنفسنا كأقاليم مجهولة لنفسه ، ولنا . فلقد اقتحمنا منذ زمن بعيد ، ورحلنا اليه طلبًا للعلم ، ونوافذ محلاته ومخازنه عريضة مكشوفة ، وليس فى حاجة الى من ينقب فيه ليستخرج منه مخطوطاته ودفائنه ، وحبذا لو أنفقنا جهدنا فى استكمال اكتشاف مخطوطاتنا ، والتنقيب عن آثارنا بأنفسنا وبدون طلب لعونه .

ولقد سبق مفكروه الى نقد بعضهم البعض ، وبيان النسبية التاريخية فى أعمالهم ، والافصاح عن العلاقة الوثيقة بين الأفكار والواقع الاجتماعى والاقتصادى والسياسى ، وهو ما حاول د. حسن أن يستعيده ، موجزًا سريعًا ، فى كتابه .

ما أهمية التسمية إذن ، إذا كانت لا تعنى سوى دراسة الغرب ، فليس فى هذا جديد إلا إذا كان الأمر متعلقًا فقط بمجرد « الاعلان » بأننا ندرسهم كما درسونا ، ولكن بأيسر السبل لأن مكتباتهم مفتوحة أمامنا ، ومطابعهم لا تكف عن الدوران ، ووسائل الاتصال ممدودة لنا نغترف منها دون رقيب .

وهل يجدى هذا « الاعلان » الذى جاء متأخرًا جدًا عما نقوم به بالفعل منذ وقت طويل ، هل يجدى فى أن يبرئ د. حسن من عقدة الاستشراق وكأن هناك ثأرا قديما ، أو كأن الغرب أثناء عمليات الاستشراق قد اعتدى على عفتنا الفكرية ؟ فليقرّ المؤلف عينًا لأننا صنعنا ذلك قبله فى قرون النهضة العربية الأولى عندما ترجمنا معظم فكر الاغريق الى لغتنا .

٤ — الهجوم أفضل وسائل الدفاع :

ماذا يبقى لعلم الاستغراب إذا ما أهملنا دوره العلاجى لعقدة النقص ؟

إن مهمتـــه كمـــا يعلن صـــاحبه هى « القضاء على مركب العظمة لدى الآخر الغـربى بتحـــويله من ذات دارسة الى موضوع مدروس » (ص ٢٩) ، « لذلك يظهـر الاسـتغراب كدفاع عن النفس ، وخير وسيلة للدفاع هى الهجـوم ، والتحرر من عقدة الخوف تجاه الآخر ، وقلب الموازين رأساً على عقب ، وقلب المـائدة فى وجه الخصوم » (ص ٣٠) . وسرعان ما يستخلص المؤلف فى الصفحة التالية «أن وعى هـذا الأنا الدارس المهاجم والمشاغب هو « وعى أقرب الى الشعور المحايد » وأن « أنا الاستغراب (أى المؤلف) أكثر نزاهة وموضـوعية وحيـاداً من أنا الاستشراق » (ص ٣٢) ما أجمل ذلك الحياد وتلك الموضـوعية التى تقلب المـوائد فى وجه الخصوم !

ولعلنا نتساءل من هذه « الأنا » النزيهة الموضوعية المحايدة التى ننتسب اليها والتى ستقوم بدور « الذات » الباحثة للغرب « الموضوع » ؟ لا يجيب المؤلف عن ذلك على النحو الذى يتيح لنا أن نحدد معالمها، أو نميز مواقفها المبدئية ، بل يجمع كل مانشر أو أذيع فى العالم الثالث سواء على مسـتوى السـلطة ، أو المعارضـة ، أو الجماهير ، دون تفرقة ، فى زمبيل واحد . وهو يقصد إلى ذلك عامدا لأنه ، لا يود أن يشعل خصومة بين المواقف المتناقضة التى نعلم جيدا أن وسائل الحوار بينها هى السلاح بكل أنواعه . وذلك لأنه يرى أن العدو الأوحد لنا جميعا هو الفكر الغربى . غير أننى أعتقد أن السر وراء هذا التجميع إنما يرجع إلى أن المؤلف لا يريد أن يفقد تعاطف أية فئة من الفئات السالفة الذكر حتى يذعن الجميع لقيادته من أجل تحريرهم وتحطيم عدوهم . فهو يصرح مثلا بأن كتابه « التراث والتجديد » يبشر بميلاد عصر جديد « لحضارة الأطراف » (ص ٦٠٧) . وهو يعلن أن تاريخا جديدا للبشرية يبدأ بعصر التحرر الذى يواكب أزمة القرن العشرين فى الغرب ، وبداية الانكماش الأوربى داخل حدود الغرب الطبيعية وانحسـار ثقافته وآثاره على الغير (ص ٣٤)

ثم ما يلبث أن يحصى بعض المؤسسات التى أنتجها وعن « الأنا » : الزنجية ، الوجدانية ، الوحدة الاسلامية ، القومية العربية ، الاشتراكية العربية ، الاشتراكية الأفريقية ، لاهوت التحرر فى أمريكا اللاتينية ، حركة ماو ماو ، فضلا عن منظمة التضامن ، اتحاد الكتاب ، ومؤتمر عدم الانحياز ومنظمة الوحدة الأفريقية ... (ص ٣٥) وتحت عنوان حركات التحرر الوطنى التى تمثل فى نظره « مظاهر أمل ودواعى تفاؤل فى وعى العالم الثالث ، يحشد كل شئ حتى ما كان منها على خصومة دموية مع الآخر ، أو مضاداً للحرية والديمقراطية ، أو تزييفاً للوعى . فيسمى تجربة الحزب الواحد تجربة فريدة لتجسيد قوى الشعب والتعبير عن مصلحة الجماهير . ويغازل الانقلابات

نقطة البداية للأنا عند د. حسن حنفى هى ظهور الإسلام وبداية الحضارة الإسلامية

العسكرية فيما يسميه « النظريات العديدة عن دور الجيوش فى البلاد النامية التى تشبه عصر الثورة الفرنسية ، نابليون يجسد روح الثورة !! (ص ٧٣٦)

ويثنى على المنظمات الرسمية مثل جامعة الدول العربية ، ومنظمة جنوب شرق آسيا ، ومجلس التعاون الخليجى ، ومجلس التعاون العربى (الراحل) والاتحاد المغربى . (ص ٧٣٧)

كما يتوجه بالتقدير لكل مشروعات وبيانات وتحليلات الأخوة العرب أو المسلمين ، على تناقض مواقفهم . فهو مع القوميين والاسلاميين ، مع اليمين واليسار ، مع الديمقراطية والحزب الواحد ، مع المنظمات الحكومية والشعبية ... فالأنا هو كل ذلك مادام « الآخر » هو الغرب وهو أيضاً كل شيء ، ولا فرق بين اغريقى ونرويجى ، أو بين ماركسى وليبرالى ، أو بين وجودى ولاهوتى ، فلقد حلت عليهم جميعاً لعنة الآخر ، أو الغرب ، والمعنى واحد عنده .

وكنا نتوقع من علم الاستغراب أن يدرس الغرب أو الآخر بمفاهيم وأدوات مختلفة – عما أنتجه الغرب . إلا أننا نصدم عندما نجد الدكتور حسن حنفى قد جمع مذاهب الغرب وتياراته بالطريقة نفسها التى يلجأ إليها أصحاب الملخصات والكتب العامة من الغربيين . ويصيبنا الفزع عندما نطالعه وقد استعار منظومة المفاهيم الغربية ، دون تمييز ، لكى يحلل بها ويناقش ، فيستخدم « الأنا والآخر » والإيديولوجية ، والطبقة ، والبنية ، والوعى ، واليمين واليسار ، والقطيعة المعرفية وغيرها وغيرها مما يستخدمه أصحاب المذاهب المتنافسة جميعاً ، وكأنه بذلك يعلن إفلاسه النظرى حتى قبل أن – يشرع فى القبض على الآخر وإيداعه سجن الاستغراب الكبير الذى احتل مساحة ٨٨٤ صفحة من القطع الكبير .

الأنا والآخر ومقياس القرون السبعة

يقدم د . حسن اجتهاداً خاصاً ونبؤة تتعلق بالقرون السبعة القادمة . ويعتمد ذلك على محاولة شخصية لتحقيب التاريخ بالنسبة للأنا والآخر على السواء .

فنقطة البداية للأنا عنده هى ظهور الإسلام وبداية الحضارة الاسلامية . ويفترض ذلك أن الأنا لم يكن له وجود فى الحضارات الشرقية القديمة . وربما هذا الحذف أو الاستبعاد لهذه الحضارات العظيمة لتطويع تاريخ الأنا للتحقيب العشرى الذى يجعل من كل سبعمائة عام وحدة زمنية لكل مرحلة من مسار الأنا أو الآخر .

فقد انتهت مرحلتان ، الأولى من القرن

الأول الهجرى حتى السابع ، والثانية من الثامن الهجرى إلى الرابع عشر ، وبدأت الثالثة – منذ عشرة أعوام ، كما يقول ، لتنتهى فى القرن الحادى والعشرين الهجرى التى يتنبأ بأنها ستشهد العصر الذهبى الثانى للحضارة الاسلامية .

وهو يصرح بأن يقينه من صحة نبوءته مستمد من استقرائه العلمى للماضى فقد كان ثمة إبداع فى القرون السبعة الأولى ثم توقف الإبداع السبعة التالية ، ولا مناص أن يلى ذلك نهضة فى السبعة القادمة . وكذلك حدث فى مراحل تطورالغرب ، فقد انتقلت الريادة من الفرس والروم إلى المسلمين ، ثم استردها الغرب ، لتعود ثانية فى القـرون القـادمة إلى المسـلمين (ص ٦٩٦ – ٧٠٨)

فإذا سلمنا جدلاً بمنطق الانطلاق ثم الانتكاس ثم العودة أو النهضة فى تاريخ الحضارات ، لترتب على ذلك أن الحضارة أو الريادة تعود إلى أصحابها الذين فقدوها منذ سبعة قرون ولكننا نعرف أن الفرس والروم لم تقم له قائمة حتى اليوم ، وأن ما سلف من أمم لم تستعد حضارة سابقة كانت لها .

أهناك سر خاص لسريان القاعدة على المسلمين وحدهم ؟ فالقاعدة لا تصدق على الحضارة المصرية أو الفارسية أو غيرهما من الحضارات القديمة المعروفة ولا نكاد نعثر على عاقل جاد يحلم باستعادة عصورها الذهبية لعل المقياس أو الشرط هو الدين . إذن لماذا لا نطبقه أيضاً على اسرائيل ، فنحقب تاريخ اليهود سبعمائة عام بعد سبعمائة لكى نكون منصفين ؟

ربما يرجح لدينا أن عجز تلك القاعدة السبعمئينية التى تعبر عن أحلام نبيلة عند مؤلفنا يرجع إلى اعتماد كل تحليلاته على مصطلحه الأثير « الأناو الآخر » واعتقاده أنهما يمثلان وقائع علمية يمكن رصدها واستخلاص نتائجها . على حين أن ذلك مجرد تصور فردى للمتغيرات والظواهر التاريخية والاجتماعية والثقافية وقد يصلح استخدامه فى فلسفات الوجود الذاتية أو علم النفس الفردى ، ولكنه لا يلائم تفسيرنا للوقائع التاريخية المعقدة .

وهو يشير إلى أسلوب تبسيطى اختزالى يجمع كل المتغيرات التى ينبغى أن نتعرف عليها ونميز بينها فى طرفين أو قطبين فقط . كما أنه يمثل توجها معياريا مبيتا . ولا شك أنه مفهوم فضفاض لا يميز شيئا ولا يضيف علما جديداً لأنه مضاد لكل مقاييس المنهج العلمى الذى يؤثر أستخدام المتصل أو التدرج أو التفاعل بين المتغيرات ، وبيان الشروط المكانية والزمانية، ويوشك مفهوم الأنا والآخر أن يكون مفهوماً لاهوتيا يتعامل مع أقانيم أو جواهر مستقلة ، فإما مؤمن أو كافر . ومن ثم لا يفضى إلى حوار حقيقى بقدر ما يعلن حربا باردة أو ساخنة بين الطرفين . بل نحن لا ندرى فى كتاب علم الاستغراب من هو الأنا ، هل هو العالم

أضحت مهمة كثير من مفكرينا إنفاق الجهد فى لصق بطاقات عربية وإسلامية على إبداعات الآخرين الفكرية !

الثالث ، أم الاسلامى أم العربى ، ولذلك يلحق د. حسن شعوب أمريكا اللاتينية بالمسلمين ويسميهم المؤتلفة قلوبهم الجدد ! ص ٧٣٣

فهذا المفهوم ، على أية حال ، تجريد مفرغ من المضمون ومن المتعذر التعرف عليه ، فليس ثمة كيان واحد متجانس فى التعامل مع البشر فى تنوعاتهم وتباين مواقفهم ومصالحهم ، وبالتالى لا يصلح اصطناع ما يشبه المتوسط الحسابى أو الاحصائى فى دراسة العلاقات بين الحضارات .

إن هذه المشروعات النهضوية أو الحضارية تحلق بعيدا وتكرس انفصالاً عن أية شبهة فى الدعوة إلى للتغير الجذرى أو التدريجى فى بنية المجتمع ، لأن مثل هذه الدعوة تحمل أصحابها تبعات المعركة وهموم البناء بينما الحديث عن الأنا والآخر ينقل المعركة إلى جمال الفكر والسلوك الفردى الذى يخلع على أصحابه رداء المهابة والرصانة . وبدلاً من منازلة المشكلات الحقيقية فى مجالاتها الواقعية يلوذ أصحابنا بمجال الوعى الذى يستمدون منه تعريفاتهم المستعارة للمشكلات بحيث تظل أيديهم نظيفة ناعمة ونائية عن المواجهة المباشرة للواقع الفعلى، أو لسلطات الضبط والتحقيق .

لقد أضحت مهمة كثير من مفكرينا انفاق الجهد فى لصق بطاقات عربية واسلامية على ابداعات الآخرين الفكرية مثلما نطلق تسمية « نصر » على السيارة « فيات » أو كما نكلف لجنة دائمة لمؤتمر الطب الاسلامى بانتظار ما يكتشفه الآخرون فى مجال الطب لكى نبحث له عن أصول فى القرآن أو السنة .

لماذا لا نبادر بالبحث والابداع بدلاً من أن نهنئ أنفسنا بعودة هويتنا الضالة أو ننعم بأحلام السيطرة على العالم حتى القرن السابع والعشرين !

وأخشى أن يجد طلابنا وشبابنا فى كتاب علم الاستغراب – ما يتملق كسلهم وجهلهم بما يزخر به الكتاب من استخفاف لفكر المبدعين بحجة نزع الهيبة من الغرب .

فالعلاج لا يكون بالتهوين من شأن « الآخر » بل بالمزيد من الإطلاع على ما لديه ثم سبقه إلى الإبداع . وليطمئن الذين يطالبون بأعلى أصواتهم بفكر أوعلم عربى، فإن أحداً لا يمنعهم من الابداع مثلما لا يمنعهم من الصراخ . ولن تفلح الطريقة السحرية القديمة فى إلغاء الخصم أو صرعه على الورق ، أو ترديد الرقى والتعازيم لترسيخ الإيحاء الذاتي ، لن تفلح فى رفع قاماتنا أصبعا واحداً ، فإعلان الأمانى لا يكفى وحده فى إنجازها .

كتاب
الهلال
يقدم
طوق الحمامة في الإلفة والأُلّاف
للإمام الفقيه
ابن حزم الأندلسي
حققه
وقدم له وعلق عليه
د. الطاهر أحمد مكي

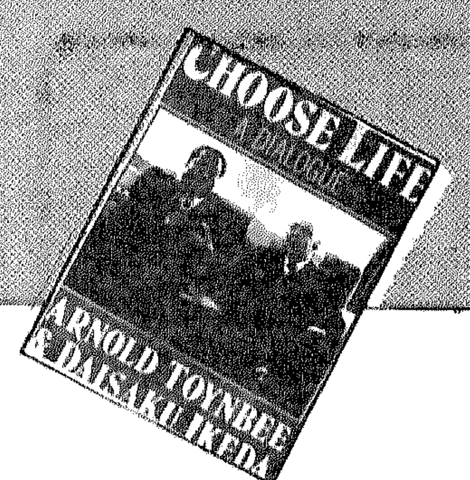
٥ مايو ١٩٩٢

روايات الهلال
تقدم
هاتف المغيب
بقلم
جمال الغيطاني

تصدر
١٥ مايو ١٩٩٢

• عرض كتاب •

اختر الحياة



• عرض : د . أمين العيوطى

فى هذا الكتاب يلتقي القارىء مع حوار بين ثقافتين جرى على امتداد ثلاث بين المؤرخ العظيم آرنولد توينبى وايساكا إكيدا رئيس منظمة بوذية عالمية تدعو إلى نشر التعليم والثقافة والسلام . وقد امتد الحوار ليشمل القضايا الحيوية التى تواجه الانسان المعاصر مثل تلوث البيئة ، تضاؤل الموارد الطبيعية ، طبيعة الانسان وعلاقته بالمخلوقات الأخرى والطبيعة والكون وغيرها ، ويجمع الاثنان على أن بقاء الانسان على قيد الحياة مهدد بقدرته على تدمير بيئته الطبيعية وعدم التوازن بين قدراته التكنولوجية وعدم نضجه الأخلاقى ، وأن الحل يكمن فى وحدة الانسان والكون وقد أخترت لك ، عزيزى القارىء ، بعض أهم القضايا التى يثيرها الحوار. لهذا العرض ، فى نهاية الأمر ، لن يغنى عن قراءة الكتاب نفسه .

أساسيات الحياة الانسانية

يبدأ الحوار عن الجانب الحيوانى فى الانسان فيطرح اكيدا موضوع التحرر الجنسى فى أوروبا وأمريكا واليابان الذى يهدد بتقويض المجتمع الانسانى . ويرى توينبى أن الانسان حيوان واع بوجوده الروحى الذى يسبغ عليه جلالا لا يتوافر للحيوان . لهذا تضعه الأعضاء الجسدية ووظائفها وشهواتها فى موضع محرج .

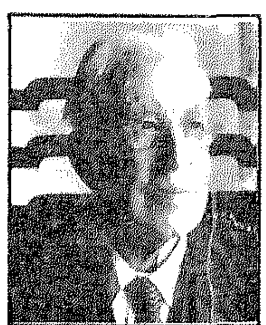
ولكى يحافظ الانسان على تميزه بالجلال فانه يلجأ إلى ابتكار أعراف ليميز طريقة تعامله مع أعضائه وليحمى انسانيته . وهكذا فان معيار التعامل مع الاتصال الجنسى هو أنسنة العلاقات الجنسية بالحب ذلك أن العلاقات الجنسية بخلاف الوظائف الحيوانية الأخرى لا تؤثر على الفرد فقط وانما على شخصين على الأقل أما التسيب الجنسى فيرجع إلى الحروب التى تعزل الجنود عن قيمة الحياة

حوار بين ثقافتين

• آرنولد توينبى
• دايساكا إكيدا

الانسانية وعن بيئتهم الاجتماعية . إلى هذا يضيف اكيدا أن التسيب الجنسى يتسبب فى اضعاف قوة الحياة الداخلية الذى نتج عن الحضارة المادية الحديثة ، وأن الحب وحده لا يكفى مالم يقترن بغرس الايمان بقوى الحياة التى تولد هذا الحب .

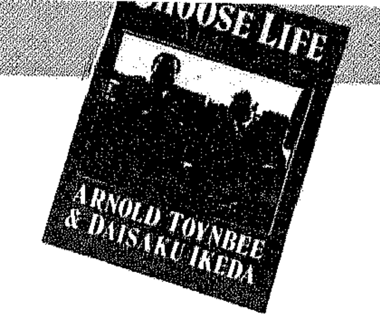
ويثير هذا الموضوع موضوع العلاقة بين العقل والروح والجسد ، فيقول اكيدا إن الروحانيين يؤكدون على الأخلاق والحب للحفاظ على انسانية المجتمع الانسانى ، فى حين يؤكد الماديون على الجانب المادى فى الحياة . كلاهما يؤكد جانبا واحدا ولهذا يفشل فى فهم العلاقة بين الروح والجسد . ويتفق توينبى معه فى الرأى بأن المادة والروح يشكلان وحدة لا تتجزأ ويشير اكيدا إلى أن البوذية تنظر إلى هذين الجانبين على أنهما وحدة واحدة وأن الحياة تتجلى فى أصدق أشكالها حين يصبح الاثنان كيانا واحدا حيا ، بل تذهب البوذية إلى أبعد من هذا فى تفسيرها لطبيعة




ارنولد توينبى دايساكا إكيدا

الحياة المادية فى علاقتها بالحياة الكونية فى سبيل توجيه العلاقة بين الجسد والعقل نحو خلق نوع جديد من الحياة .

وفى ضوء العلاقة بين الجسد والعقل تتضح أيضا العلاقة بين الوعى واللاوعى . ففى حين تركز الحضارة الغربية على دراسة الوعى ودوره فى تهذيب اللاوعى ، تركز البوذية على تكاملهما وعلى ضرورة التفكير العميق واستبصار طبيعة الحياة والتأمل للوصول إلى الحقيقة الروحية المطلقة ويصل توينبى إلى نفس الرأى فيقول إن وجهى الحياة النفسية لا يتجزآن وأن اللاوعى ، مصدر الشعر والبصيرة الدينية ، متطابق مع الحقيقة المطلقة التى تكمن وراء الكون كله ، وهى ما تعنى فى



البوذية قوة الحياة الكونية التى تتمثل فى ظواهر الكون . وهذا هو ما يحاول الفكر الغربى أن يصل اليه الآن من خلال دراسة وجود الروح .

البيئة

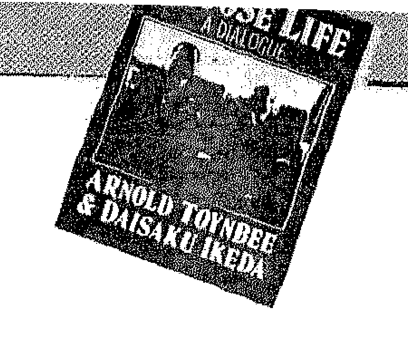
وكما أن جوانب الحياة الانسانية لا تتجزأ فكذلك العلاقة بين الانسان والبيئة ، فى هذا الاطار ترى البوذية أن هذه العلاقة ليست علاقة تضاد بل علاقة اعتماد متبادل . فالجسد الانسانى والبيئة كيان واحد . وأساس هذه الوحدة هو قوة الحياة الكونية . على هذه الفكرة يرد توينبى بأن هذه هى نفس الفلسفة التى توصل اليها الاغريق والرومان . وقد كان من جراء هذا الاعتقاد أن صاغ أسلاف الشعب اليابانى معايير للحد من تلوث البيئة . غير أن اليابانيين فى العقود الأخيرة قد وضعوا نصب أعينهم مسايرة الأمم الغربية المتقدمة ، وتخلوا عن دينهم التقليدى وموقفهم من الطبيعة والعلاقات الأخلاقية بين البشر كل هذا تحت تأثير الجشع المادى . وليس هذا قصرا على شرق آسيا بل تقاسمه معها البشر جميعا حتى راح الانسان الغربى يغير بيئته من خلال تصحير الأرض وقطع الغابات . ويرى توينبى أن الديانة اليهودية لعبت دورا فى هذا الشأن حين كرست القداسة فى الخالق وحده ، وسلبت الكون قداسته ، وأعطت الانسان فى استغلال الأرض ومواردها ، فى حين أن المسيحية رأت أن الجشع الاقتصادى يتعارض مع عبادة الله، وأن المسلمين الآن أكثر ترددا فى تبنى التكنولوجيا الحديثة وما تخدمه من أهداف .

وفى حوارهما حول هذه النقطة يصل الرجلان إلى أن التطورات الحضارية قد ضاعفت التلوث على أيدى المؤسسات الصناعية التى جعلت الناس ضحايا ولكنهم أيضا مذنبون بسبب اسرافهم فى استهلاكهم الخاص . ومن السهل القضاء على التلوث الصناعى من خلال التشريع ، ولكن من الصعب اقناع الأفراد بالعمل فى هذا الاتجاه بارادتهم . وحتى يصل الناس إلى مدى اسهامهم فى التلوث فلابد لهم أن يفحصوا حياتهم اليومية ليستبعدوا منها كل ما يسهم فى التلوث ، وألا يخضعوا للحملات الدعائية عن السلع المعمرة مثل السيارات ، وأن يضعوا حدا لاستخدام الأدوية والمنتجات الكيمائية والمواد المضافة إلى الأطعمة .

أن هدف التعليم هو مساعدة الانسان على أن يرى بوضوح ما يجب أن يكون عليه وكيف يعيش . غير أن الناس فى المجتمع الحديث ينظرون إلى التعليم على أنه يخدم المنفعة المادية ومع تقدم الحضارة التكنولوجية أصبح للتعليم أثران سيئان بأن جعل التعليم أداة للسياسة والاقتصاد ، كما أكد على المعرفة العقلية والمهارات التكنولوجية . كذلك فإن التعليم وحده غير كاف لتطوير الامكانيات الفردية وتثقيفها . ولهذا فإن أداء الطالب فى المدرسة لا يجب أن يكون الحكم النهائى على قدراته ، بل يجب أن يتبع التعليم فى المدارس التعليم الذاتى مدى الحياة . فالتعليم الأكاديمى وحده لا يكفى لأن يجعل الانسان حساس العقل والروح ، ولابد من ابتكار وسائل لربط الطلبة بالمجتمع وتزويدهم بالخبرات المتنوعة بحيث يسهم التعليم فى تطوير الكيان الانسانى كله .

وعن التعليم المختلط يقول توينبى إنه يخلق الآن مشكلة خطيرة ، هى مشكلة الاباحية الجنسية خاصة فيما بين سن الثالثة عشرة والثامنة عشرة . غير أن التعليم الذى يفصل بين الجنسين له أيضا مساوىء انتشار الشذوذ الجنسى خاصة فى المدارس الداخلية . ويرى أكيدا أن حل هذه المشكلة أن تقوم المؤسسات التعليمية بتعليم الطالب احترام حرية الحكم على الأشياء وتطوير شخصيته وإلا كانت المدرسة لا تقوم بدورها على ما يرام .

وعن دور الأدب فى الحياة العصرية يقول توينبى أن أعمال تولستوى أدت إلى تأثيرات عالمية فى ايقاظ ضمير القلة القوية من الأغنياء ، خاصة فى روسيا ، حتى يصلحوا المجتمع بطرق كثيرة بما فى ذلك اطعام الجائعين . ذلك أن تولستوى كرس عبقريته لترقية الرفاهية الانسانية وللأدب تأثير عملى إذا كان تعبيرا تلقائيا عن الحافز الابداعى للكاتب ، لا تعبيرا عن الاتجاه السياسى السائد فى الدولة . إلى هذه الرؤية يضيف اكيدا أن الآداب التى تحكمها العقائد السياسية أو الدينية لا يمكن أن تثير استجابة عالمية لما يحكمها من رقابة الدولة . ويذهب توينبى فى هذا إلى أن هناك دافعين لرفض السماح بحرية التعبير . فالرقابة اللاهوتية لها تأثير مدمر على الأدب وليس لها ما يبررها . أما الرقابة التى تقوم على أسس أخلاقية فانها تثير مشكلات عويصة . فهناك قلة من الناس ترى أن التحريض على الاباحية الجنسية وتعاطى المخدرات والشذوذ واستخدام العنف يجب أن يكون مباحا . وتعريض الشباب لتاثيرات مفسدة أمر غير مقبول . لكن ليس هناك اجماع على الخط الفاصل بين المسموح به والممنوع غير أنه لما كانت الرقابة فى أى شكل من أشكالها قد تمتد لتشمل أمور الفكر والعقيدة فإن توينبى يرى أنه ليس من حق المؤسسة السياسية أن تحظر العقائد الدينية والفلسفية ، فالفن لا يزدهر فى المجتمع



الشمولى لأن الفنان يتجنب الاشتباك مع الرقباء مما يقتل حريته الرقابية وتلقائيته . وفى رأى اكيدا أن الكاتب قد يلجأ تحت هذه الظروف إلى العدمية أو إلى الشغف بالأدب الاستبطانى الذى يسهم فى يأس الكتاب العدمى . غير أن توينبى يرى أن الأدب الاستبطانى له واحد من هدفين . فقد يكون انسحابا من الكاتب إلى داخل ذاته بعيدا عن الاتصال بالآخرين وبالكون ، وقد يكون بحثا داخل أعماق اللاوعى للاتصال بالحقيقة الروحية المطلقة . الهدف الأول سلبى والثانى ايجابى .

الصحة

فى هذا الموضوع يطرح اكيدا فكرة تقدم الطب فى العالم الحديث . غير أنه من المؤسف أن بعض الأطباء قد فقدوا احترامهم للحياة الانسانية وانحطوا بمعاييرهم الأخلاقية . ويؤكد توينبى هذا المعنى بقوله إن أولوياتهم انصبت على كسب الرزق ، وأن العلاقة الشخصية بين الطبيب والمريض قد اختفت . ولعل هذا يرجع جزئيا إلى تقدم العلوم الطبية التى وفرت وسائل فعالة للكشف عن الأمراض ، وهى وسائل تخضع الأشياء للنظرة الموضوعية . وهكذا فان الحياة الانسانية حين تتعرض للدراسة العلمية تصبح شيئا سقط عنه الاتصال الروحى مع الطبيب . وعلى الرغم من أن الطب يتطلب أساسا عقليا باردا ، فإنه لابد أن تكون هناك عاطفة انسانية دافئة . ويتفق الرجلان على أن الطبيب لا يمكن أن يكون طبيبا على المستوى الروحى والأخلاقى مالم يكن لديه موقف دينى أو فلسفى من الحياة الانسانية والكون الذى يعيش فيه الانسان .

وعن عمليات زرع الأعضاء يقول اكيدا أنها تثير جدلا من وجهات نظر دينية وأخلاقية وفلسفية . فهى تنطوى على موت الواهب . وفى ظل الأساليب الطبية والجراحية الراهنة لا يصبح اجراؤها ، بل يجب حظر زرع المخ على الأخص لأنه ينطوى على إحلال الجزء الأساسى من ذات المتلقى المفكرة . وفى حالة زرع الكبد والقلب فلابد من الامتناع عنها حتى نصل إلى أسس علمية لا يرقى اليها الشك لتقرير ثبوت الموت . بيد أن توينبى يرى من حيث المبدأ أن زرع الأعضاء لا يتنافى مع جلال الانسان وكرامته ، إذا كان هناك شخص قد توفى وأن قلبه يضمن انقاذ حياة شخص آخر ، أو أن شخصا حيا تبرع بتضحية حياته لينقذ حياة آخر ، أو إذا توفى شخص ورغب شخص آخر تلف مخه فى استبداله بمخ آخر . لكنه يتفق مع اكيدا أن الطب لايزال عاجزا عن وضع معيار علمى لتقرير لحظة الموت أو التنبؤ

بأثر زرع عضو ما . ويتفق الاثنان على أن يتخذ قرار زرع الأعضاء فريق من الأطباء وعلماء المناعة وجراحى المخ والمتخصصين، وأن تعلن خطـــوات العملية قبل الزرع وبعده ، وأن يكون الفريق الذى ينزع القلب غير الفريق الذى يزرعه ، وأن يكون هناك قدر من المسئولية الأخلاقية لدى جميع الأطراف .

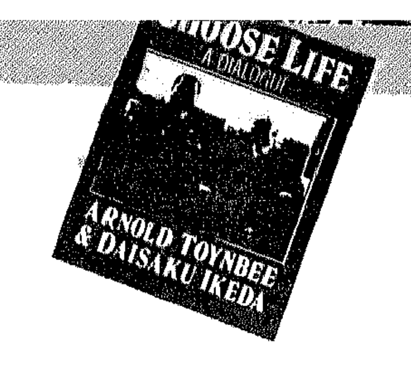
أصل الحياة

يبدأ اكيدا الحوار حول هذه النقطة بأن يشير إلى نظرية تطور الحياة من مواد غير عضوية إلى كائنات حية ، وأن ما يجب أن يشغل العلماء لا الكيفية التى ظهرت بها الحياة على الأرض وانما لماذا ظهرت فى عالم من المواد غير الحية . ويضيف رأيه بأنه على الرغم من أن الأرض غير حية إلا أن الميل إلى ظهور الحياة كان كافيا فيها ، وأن ما ندعوه أصل الحياة لا يعدو أن يكون النقطة التى ظهرت عندها الحياة . ويتفق توينبى مع اكيدا على أن كل شيء يوجد كان موجودا منذ البداية . غير أنهما يختلفان ، ففى حين يؤمن اكيدا بالتطور يؤمن توينبى بالخلق . ويبرر اكيدا رأيه بأن توليفة الحياة لا تعنى الخلق بل الطريقة التى أبدت بها الحياة نفسها فالوجود واللاوجود متلازمان فى البوذية بمعنى أن حالة اللاوجود تنطوى على امكانيات كامنة للوجود وحين تكون الظروف مواتية لميل الحياة إلى الظهور فإنها تتولد فى أى مكان أو زمان أما توينبى فيرى أن الحياة والواقع فى حد ذاته أمر غامض لا يمكن تفسيره فى ضوء التطور .

مسألة الخلود

فى مسألة الخلود يتفق المفكران على أن عودة الجسد إلى التراب لا تعنى نهاية الحياة ، بل استمرارها فى شكل وحدة نفسية لا جسدية . لكنهما يطرحان من وجهة نظر دينية تفسيرين مختلفين . فتوينبى يطرح التصور المسيحى بأن الجسد الذى يبعث ليس هو الجسد المادى بل هو جسد روحى ، وأن للكون بداية ونهاية لكنه سيكون خالدا فى شكل يختلف عن شكله الحالى . ويطرح اكيدا فكرة التناسخ البوذية ، أى أن الروح قد عاشت لفترة لا نهائية من الزمن قبل أن تولد فى هذا العالم فى شكل جسد وأنها ستواصل حياتها بعد الموت فى هذا العالم فى شكل جسد ، ومن خلال سلسلة من الولادات المتتالية تصل إلى نهاية من خلال محاولاتها الروحية فى هذا العالم .

ويحاول الاثنان الاجابة عما إذا كانت الحياة الخالدة تتحد مع الحقيقة الروحية المطلقة فى العالم الآخر ، وما إذا كانت كل الأرواح تتحد مع هذه الحقيقة بنفس الدرجة بغض النظر عن النتائج الأخلاقية لأفعال الفرد خلال حياته . على هذا السؤال يجيب توينبى بأن أعمال الفرد فى حياته لها نتائجها لا بالنسبة له وحده بل بالنسبة للبشر والكون والحقيقة الروحية



المطلقة . غير أن توينبى لا يؤمن بخلود الروح حيث إن هذا أمر لا يمكن التحقق منه كما أن التمييز بين الروح والجسد أمر افتراضى فى هذه الحياة فى بعدها الزمنى . ولما لم تتوافر لنا تجربة وجود أرواح منفصلة عن الأجساد فلابد أن نستخلص أن الروح تتوقف عن الوجود فى لحظة الموت ، لكنها تصبح وجودا خارج البعد الزمنى الذى نألفه . ولما كانت الحقيقة المطلقة لا توجد فى البعد الزمنى فإن الروح تمتص فى الحقيقة المطلقة . ويرد اكيدا قائلا إنه على الرغم من أن الجسد يموت ويتحلل فإن الخصائص الجثمانية التى تتضمنها الروح تستمر فى الوجود . وبهذا التصور فإنه من الخطأ أن نتصور أن الموت يفصل الروح عن الجسد . ولما كانت الحقيقة المطلقة ، كما قال توينبى ، تسمو على الزمان والمكان ، ولا ترى بالعين المجردة فاننا قد نظن أنها تشبه اللاوجود . غير أنها قادرة على أن تظهر فى أشكال منظورة وبهذا تصبح موجودة وجودا خالدا خارج الزمن لكنها تبدى نفسها كحياة ووجود وكموت ولا وجود . فالروح والجسد والحقيقة المطلقة هى فى واقع الأمر وحدة متناغمة لابد من فهمها على أنهما كل لا يتجزأ .

الخير والشر

من هذا يصل الرجلان إلى مناقشة الخير والشر فى الطبيعة البشرية فيدحضان فكرة الشر الفطرى الكلاسيكية وفكرة الخير الفطرى الرومانسية ، ويريان الانسان مزيجا من الخير والشر بنسب متفاوتة . هذا المزيج فى الطبيعة البشرية نتيجة للعلاقة بين الكائن الحى وبين الكون وهى علاقة تعطى الانسان القدرة على اختيار المواقف والسلوك . فإذا حاول الانسان استغلال الكون ليصبح مركزه فإنه يقترف شرا ، وإذا كرس نفسه لخدمة الكون وأهدافه فإنه يعمل خيرا . والميل الطبيعى للذات الأنانية هو محاولة السيطرة على الكون واستغلاله . لكنها قادرة أيضا على تكريس نفسها للآخرين وللأشياء . وعلى هذا الأساس يجب التحكم فى الأنا من خلال التحكم فى النفس وانكارها والتضحية بها إن أمكن من خلال الحب الكونى . لكن القادرين على هذا قلة ولهذا فإن المجتمع الانسانى فاشل أخلاقيا واجتماعيا إذا حكمنا عليه بمعايير السلوك التى يحددها الضمير والمجتمعات المتحضرة ليست متفوقة أخلاقيا على المجتمعات البدائية . فالتطور التكنولوجى

يأتى معه بمزيد من القوة التى تستخدم للخير أو الشر . والتطور التكنولوجى لا يصاحبه تطور أخلاقى بنفس القدر . ولن يستطيع الانسان تجنب الانتحار الجماعى من خلال امتلاكه للقنبلة الذرية مالم يرتفع بمستـوى سلوكه إلى معايير السلوك السامية . ولن يتأتى هذا من خلال ضغوط اجتماعية وغيرها بل يجب أن يجاهد الفرد ليصلح ذاته وهو ما يعد ثورة انسانية .

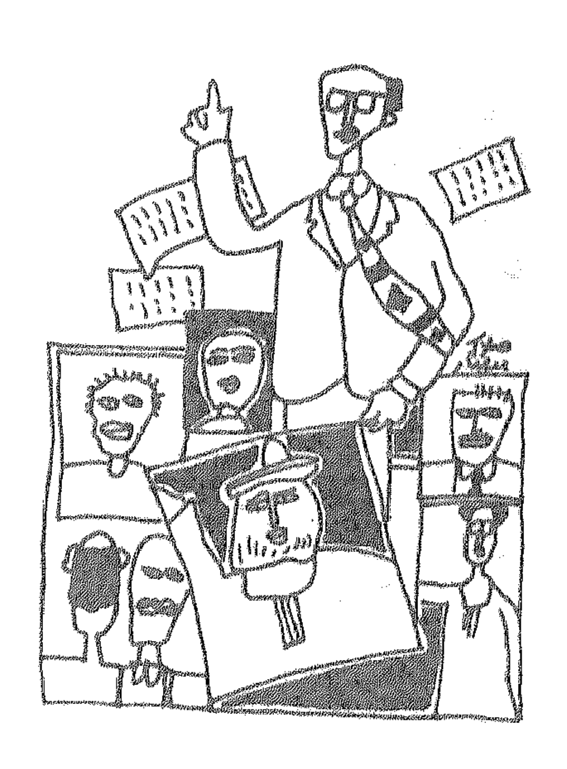
القيمة الانسانية الأسمى

ويؤدى الحوار إلى محاولة البحث فى القيمة الانسانية الأسمى . يرى اكيدا أنها لابد أن ترتبط بجلال الحياة بصفتها معيارا كونيا وأن أية محاولة لاعتبار أية قيمة مادة أو اجتماعية أعلى من هذه القيمة لا تجلب إلا قهر البشرية ولا يقصر توينبى هذه القيمة على الفرد بل يمدها لتشمل الكون الحى كله بل والأجزاء غير العضوية وغير الحية فى الطبيعة كالأرض والهواء والماء والصخور والينابيع والأنهار والبحار فإذا انتهك الانسان جلالها فانما ينتهك جلاله هو نفسه . مثل هذا التقليد فى احترام العوالم النباتية والحيوانية وغير الحية تقليد يابانى يصاحبه حس جمالى قوى وتقدير للحياة . غير أن اليابانيين منذ أن تبنوا خبرة الغرب التكنولوجية منذ قرن أخذوا ينتهكون جلال الحياة وجلال كل ما هو غير حى . واليوم يسود العالم رد فعل ضد تلوث الطبيعة نتيجة للتكنولوجيا الانسانية . فالجيل الحالى يرى أن الانسان بانتهاكه للطبيعة إنما ينتهك جلاله ذاته .

إلى هذا يضيف اكيدا أن قوة الحياة التى تسود كل الأشياء تحافظ على التناغم فى العالم الطبيعى . والانسان نفسه ليس الا جزءا من الكون ، وحين يصيب الكون بأذى فانما يصيب نفسه . وتفسر البوذية الطبيعة والكون على أنهما قوة حياة عظيمة واحدة ، وأن جلال الحياة لا تعادله أية قيمة أخرى .

مع هذه النظرة يتفق توينبى ويرى الجلال والشرف والكرامة قيما مطلقة لا نسبية ولا يمكن مبادلتها بأية قيمة أخرى . فالانسان يفقد احترام الآخرين له إذا باع نفسه ليكسب ثروة أو مكانة اجتماعية . والانسان يفقد كرامته إذا لم يحترم كرامة الآخرين . فطبيعة الشىء الذى يعلق عليه الفرد قيمة أعظم تميز موقفه من الحياة كلها . ولهذا فإن كرامة الانسان وجلاله يتمثلان فى الغيرية والتعاطف والحب وولائه للكائنات الحية الأخرى وللكون وموقف الانسان الحالى يجب أن يشعره بالتواضع الذى يستثيره إلى تحقيق الكرامة التى لا يمكن أن تكون للحياة قيمة بدونها . فهى لا تتحقق فى مجال التكنولوجيا والاستكشافات العلمية بقدر ما تتحقق فى مجال الأخلاقيات ، والانجاز الأخلاقى لا يقاس بالجشع والعدوانية بل بالتعاطف والحب .

قبل أن يحتكروا حق التفكير



بقلم :
د . يحيى الرخاوى

● من البديهيات التى نجب أن ننساها بديهية أن العلم ليس مرادفا للمعرفة

ترددتُ كثيرا قبل أن أستقر على عنوان هذا البحث ، حيث أنه كان فى البداية يحمل صفة " منظور إسلامى مباشر " إلا أننى خشيت أن يختزل إلى ما يسمَّى بالطب النفسى الإسلامى كما شاع أخيرا أو أن يشوه فى اتجاه الدعاية السطحية للدين تحت دعوى مقاومة الغرب ، الأمر الذى لم يعد يظهر فى أغلب الأحوال إلا كأطروحة سلبية تبرر البدائية والنكوص أو أن يقاس بمقاييس تقليدية : إما بالرجوع إلى نص جامد ، أو بالاحتجاج بمنهج علمى مغلق ، كما أننى خشيت أن يقرأه غير أهله بلغة غير لغته أو يطبق ما جاء به لغير ما يَنْفع له .

ما ليس كذلك

لكل ذلك قدرت أنه إبراء لذمّتى علىّ أن أبدأ بنفى أمور لم أقصد إليها أصلا كما يلى ، فالرأى الذى أقدّمه :

١ - ليس خاصًا بـ (أو مغلقا على) دين الإسلام الحنيف .

٢ - ليس خاصًا بتفسير سابق (ثابت) لدين الإسلام الحنيف .

٣ - ليس خاصًا بالأطباء النفسيين من المسلمين .

٤ - ليس خاصًا بالتطبيق العلمى السطحي واستعمال الدين للشفاء .

٥ - لا يتطرق أصلا لمسائل خارج نطاق مُا وضع له هذا الفرض .

ما هو كذلك

هو مدخل إلى المعرفة
وهو رأى فى المنهج

فإذا كان الأمر كذلك ، فلماذا قفز إلى ذهنى العنوان الأول يصف هذا المدخل أنه من : منظور إسلامى ؟ " أصلا .

لقد حاولت أن أحل محلها : منظور إيمانى أو منظور تطورى كونى أو منظور شرقى إخناتونى ، لكننى وجدتنى أخون أمانتى ، فهذا المنطلق فى الفهم والإبداع هو نابع من لغتى العربية دون سواها ، ومن دينى : الإسلام دون سواه ..

وأحسب أنه من أبسط درجات العرفان والأمانة أن أنسب الأمور إلى أصولها ، فكان العنوان الأول التزاما أخلاقيا ، وموضعة معرفيةً لا مفرّ منها .

مخاطر

ورغم هذا وذاك فمازلت أستشعر المخاطر من مصدرين أساسيين :

١ - المصدر الأول هو الزملاء الأطباء النفسيون الذين اعتادوا أن يفكروا بلغة أخرى ، وأن يمارسوا بلغة أخرى ، وأن يحلموا بوعى آخر .

٢ - المصدر الثانى هو المسلمون التقليديون الذين يتصوّرون أن تفسير ديننا هو حكر عليهم ، فهم إما أن يجتزئوا ما أقدّمه ثم يروّجوا به أفكاراً سطحية لم تخطر على بالى ، تحت عنوان مثل التفسير العلمى للإسلام أو للقرآن ، وإما أنهم سوف يرفضون ما ذهبت إليه باعتبارى غير مختص ولا يحق لى أن أفهم دينى كما ألقاه ربى فى وعيى الذى سوف يحاسبنى به وسوف يحاسبنى عليه ، فإذا قبلوا أن يعتبروا أن هذه الرؤية التى أعلن أنها من فضل إسلامى على عقلى ، إذا قبلوا أن تكون كذلك ، فلتكن ، ولهم الشكر ولوحدتى الكسر ، وإذا لم يعجبهم ما جئت به ورأوه تزيّدا ، أو فهما خاصًا فما عليهم إلا أن يلاحظوا الفرقَ بين " من منظور إسلامى » وبين « حالة كونه مسلما " كما حورت العنوان أخيرا .

تعدد وسائل المعرفة

من البديهيات التى نحب أن ننساها - لست أدرى لماذا - بديهية أن العلم ليس مرادفا للمعرفة ، ولا هو أفضل الوسائل للوصول إليها .

كما أن الفن ليس نشاطا تفريغيا أو جماليا مكملا وإنما هو - فى صورته الحقيقية - وسيلة أيضا للمعرفة .

وأيضا فإن الدين ليس فحسب طقوسا تؤدى أو معتقدا دفاعيا مشتركا ، وإنما هو بالضرورة وسيلة إنسانية للمعرفة .

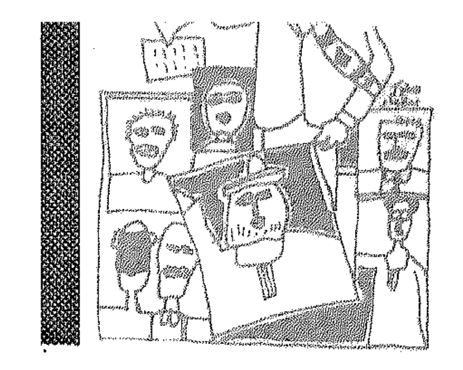
صحيحا (!!!!) فهو بذلك ، ورغم حسن النية ، يختزل الدين ويحرمه أن يكون سبيلا معرفيا فى ذاته لا يحتاج إلى اعتراف من خارجه .

تضفّر وسائل المعرفة

وأحب أن أنتقل بعد ذلك إلى علاقة هذه الطرق الثلاثة الرئيسية ببعضها كوسائل متضفّرة تختلف فى طبيعتها ومناهجها وأدواتها ، لكنّها تتفق فى غاياتها وتوجّهها ، وقد قدّرت فى البداية أن العلم والفن والدين هى طرق متوازية للوصول إلى الحقيقة ، لكننى رجعت فتحفّظت تجاه ذلك خشية أن يفهم - ضمنا - أن التوازى يتضمن ببساطة عدم التقاء المتوازيين . ثم خطر ببالى تعبير **التكامل** بين هذه الوسائل (العلم والدين والفن) إلا أننى أيضا شعرت بأن لفظ التكامل قد سبق سوء استعماله لدرجة بهتت معها قوتّه ، فرضيت مؤقتا بلفظ **التضفّر** على أن يشمل ذلك كلا من : **التفاعل الجدلى** ، **والتعدد الكشفى** ، **والتضام الغائى** فى آن واحد .

أما **التفاعل الجدلى** فهو النابع من العلاقة الحركية الحيوية الخاصة بين التناقض ، والتى هى قانون الحياة الرائع والذى مازال الفضل فى الكشف عنه يرجع لهيجل حقيقة وفعلا ، وإن كان لا يقتصر عليه بداهة .

وأما **التعدد الكشفى** ، فهو يشير إلى أن المعرفة تعنى بالضرورة تعميق الوعى (وليس مجرد زيادة المعلومات) بما يترتب عليه من توسيع مساحة الرؤية أى الكشف عن جوانب وأبعاد الظاهرة .



والوسائل التى أقدمها هنا هى على سبيل المثال لا الحصر ، لأن ثمة سبلا ومجالات أخرى للمعرفة لابد أن تأخذ مكانها المناسب ، فمثلا : أين تقع الأحلام (كوسيلة للمعرفة) ؟ ، وأين يقع النشاط الحركى الجسدى ؟ هل الجسد مجرد حامل للرأس الذى هو بدوره حاو للمخ أداة المعرفة الأولى ؟ أم أن كلا من الأحلام والنشاط الجسدى وغيرهما هما أدوات تلقائية وجيدة للمعرفة ؟

فهذا المدخل - إذن - ينفى بشكل مباشر ذلك الزعم القائل بالتفسير العلمى للدين ، وهو زعم كما ألمحت شاع أخيرا وكأنه دليل جديد معاصر لإثبات أن الدين دين ، أو أنه يستأهل أن نظل نعتنقه ، لدرجة أننى فى كثير من الأحيان لا أقرأ هذا المصطلح على أنه " **التفسير العلمى للدين** " بل على أنه " **التبرير العلمى للدين** "، وأحيانا ما أتصور أن العلم - بذلك - يرد دينا للدين أو هو يرد صفة له ، ففى عصور الظلام ، فى القرون الوسطى فى أوربا مثلا - كان على العلم أن يبحث عما يمكن أن يسمّى **التبرير الدينى للعلم** كجواز مرور حتى يمكن أن يُعلَن العلم أو يُتقبّل أو يُتداول ، وها هو العلم بدوره يدّعى أنه يردّ الجميل بأسطح ما يكون من الطبطبة على المقولات الدينية وكأنه يقول للدين " **برافو** " أنا وجدتك

أما التضام الغائى فهو يضيف تبريرا لكلمة التضفّر التى اخترتها مؤقتا كما أنه يؤكد على مفهوم الفكرة المركزية أو الغائية (الذى هو مفهوم تركيبى بالضرورة) بحيث لا يكفى أن تتفاعل وسائل المعرفة المشار إليها بقوانين الجدل مثلا ، كما لا يكفى أن تساهم كل وسيلة من ناحيتها بكشف الجانب الذى هو فى مجالها ، بل إن كل هذه الوسائل تصب - غائيا - فى توجّه مشترك يحدد اتجاه السهم رغم اختلاف الطرق والوسائل .

معايشة الجنون : شحذٌ للوعى

ثم نأتى بعد ذلك إلى مسألة معايشة الجنون ، وأين نضعها بين هذه الوسائل المعرفية المختلفة ؟

وهنا لابد أن أعترف بفضل ممارسة هذا الفرع من الطب على تعميق دينى ، وتوسيع معارفى فى آن ، وذلك أن الطب النفسى بوجه خاص ، هو ما أعاد غمرى ببديهيات ليست سوى الحقائق المطلقة التى أخفاها التنويم اليومى والعادية اللاهية المتراكمة ، ذلك أن الطب الذى أمارسه ليس علما خالصا ، لكنّه يستعمل العلم ، وهو ليس فنّا تماما مع أنه - فى أصوله على الأقل - هو فن اللأم ، ثم إنه كشف متبادل من المريض والطبيب لعمقٍ علاقة الإنسان بالكون والمابعد بما يحضر معه البعد الدينى فى بؤرة الممارسة .

لكنّ هذا الذب نفسه قد اختُزل أخيراً إلى معطيات جزئية ، وممارسات قمعية كيميائية ، يهون بجوارها أى قمع آخر عبر تاريخ البشريةِ فى الطب النفسى والحياة العامة على حدٍّ سواء .

وممارسة الطب النفسى فى مجتمع فقير غير نام مثل مجتمعنا يتيح الفرصة المعرفية الحقيقية لإعادة النظر فى اختزال هذا الفرع واختزال الإنسان إلى ما تسمح به وسيلة واحدة قاصرة للمعرفة وهى العلم .

رؤية ضرورية

ولابد أيضا أن أعرض ابتداء ما هى المنطلقات التى جعلت هذه الرؤية ضرورية فى هذه المرحلة من تطور العالم وتطور المعرفة وتطور الطب النفسى معا

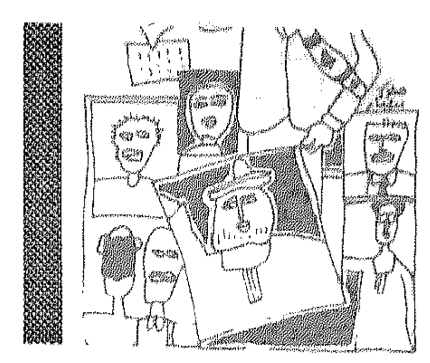
وابتداء أقول إن المتغيرات فى مجال الطب النفسى مرتبطة بالمرحلة التاريخية بقدر ارتباطها بالظروف السياسية والاجتماعية فى العالم بأسره وفى كل قطر على حدة .

كما أن الطب النفسى بمفهومه الحقيقى مرتبط أشد الارتباط باللغة كتركيب ، وبالدين كمحور وجودى .

وقد طرأ على منطقتنا وعلى العالم فى العام الأخير حدثان هامّان :

أما الحدث الأول : فهو كارثة الخليج ، وهى الكارثة التى لها فضل التعرية ، لا أكثر ، فهى لم تضف شيئا إلى واقعنا ، ولا حتى انقصت منه شيئا ، لكنّها قالت لنا من خلال الدمار والخراب والذل والغرور والاعتمادية (والـ CNN) قالت لنا : "من نحن " : الآن وكيف (نحن : على الجانبين) .

أما الحدث الثانى فهو : انهيار الاتحاد السوفيتى وأوربا الشرقية ، وهو



الذى قال لنا " من هم " (على الجانبين أيضا) .

وقد حدث هذا وذاك فوق أرضية الصراع الوهمى المسمى الصراع العربى الإسرائيلى إخفاء لاسمه الحقيقى الذى سيرد ذكره فيما بعد .

كما أن هذا وذاك قد أسرعا بإعلان (وليس بإنشاء) ما يسمّى بالنظام العالمى الجديد .

المواجهة

ونحن نواجه الآن الولايات المتحدة الأمريكية بلا منافس ، أقول نحن ، ولا أقول العالم ، فالقضية قضيتنا حتى لو شاركنا فيها الغير ، وإذا كنا أضعف من أن نواجه بالسلاح والاحتكار والدعاية والإنتاج فى المرحلة الحالية ، فإن ذلك لا يعنى أننا ليس عندنا ما نقوله فى الفكر والوعى قولا متفردا ينبع من تاريخنا وحاضرنا ومسئوليتنا مهما بدا أننا تابعون فى مجالات أخرى .

ذلك أنه إذا كانت أمريكا قد أثبتت أنها أقوى سلاحا وأمتن اقتصادا وأظهر حريّة وأخبث مخابرات وأعلى صوتا وأروج دعاية وأذكى نصبا ، فإن ذلك لا يعنى ذلك - تلقائيا - أنها الأقرب إلى الحق أو الحقيقة ، أي أنها ليست بالضرورة (إذن) هى التى تعرف قوانين التطور وحفزها ، ولا هى الأدرى بطرق المعرفة ، ولا الأحذق فى مناهج البحث ، ولا الأنجح فى طرق العلاج ولا الأعظم بمقاييس الحضارة ، ولا الأصدق بمقاييس التدين والأخلاق؟

فهل عندنا - حقيقة وفعلا - قول آخر نابع من وعى آخر ؟

تفسير المدّ الإسلامى

من البديهى أنه لا استمرار للحياة إلا فى جدليّة خلاّقة ، وبمجرد أن كشفت حرب الخليج بدائية غالبية العرب المعاصرين (كمثال لزيف قوّة الثروة غير الموجّهة) وبمجرد أن أعلن انهيار السوفييت ومن إليهم فشل الاشتراكية (كمثال للمثالية المتجاوزة للمرحلة الراهنة) تحرّك نداء ملح من كل ناحية يستلزم ظهور مشاريع بديلة فى مجال السياسة والاقتصاد أساساً ، وإلى درجة أقل فى مجال الفكر والفن . والمتتبع للحوار الأعمق بين أمريكا وأوربا لابد أن يلاحظ المشروع الأوربى فى السياسة المستقلة ، والمتتبع للحوار الأعمق بين أمريكا وجنوب شرق آسيا لابد أن يرى المنافسة المتنامية فى مجال الاقتصاد والمال .

لكنّ هذا وذاك ليسا هما نهاية المطاف ، فالسياسة ليست هى قضية الوجود وإنما هى بعض وسائله .

والمال بما يحقق من رفاهية يستحيل أن يقوم إلا بالمساعدة فى إتمام وإتقان وحسن توزيع البنيّة الأساسية لا أكثر ولا أقل .

ثم تأتى بعد ذلك تحديات الوعى بالوجود ، والعلاقة بالكون ، وتطور

الإنسان ، أقول بعد ذلك باعتبار أنها البنية الفوقية ، لكنّها مغروسة طول الوقت ، ومنذ البداية فى كل لبنة من لبنات البنية الأساسية ، وبتوضيح لا لزوم له إلا التذكرة بالبديهيات أقول : **إن قضايا الفكر والوجود ليست بديلة عن قضايا الإنتاج والسياسة ولا هى لاحقة لها ، وإنما هى عمق حركيتها ومصب نشاطها .**

هل الإسلام هو الفكر البديل ؟

لقد بدا لى ، وربما لهم ، فى ظاهر الأمر أن ظهور الحركات الإسلامية السياسية ، والتعصّبية ، والأصولية كان أحد مظاهر رفض السيطرة المستوردة والاستكبار والاستعلاء والاحتكار المعلن أو المستتر من جانب النظام العالمى الجديد .

فهل يا ترى هذا صحيح ؟

وإذا صحّ ، فهل هو المطلوب والمنتظر من فكر له كل هذا التاريخ ، وكل هذا الاختلاف النوعى ؟

وهل الفكر الإسلامى – كبديل – هو الجانب الحضارى والكيانى المُواكب لهذه التحركات (ولا أقول الحركات) الإسلامية فى مجالات السياسة والتدين ؟

وهل الفكر التدينى الغربى (المسيحية الكنائسية الغربية) يواكب أو يقابل ما يمثله الفكر الإسلامى البديل ؟

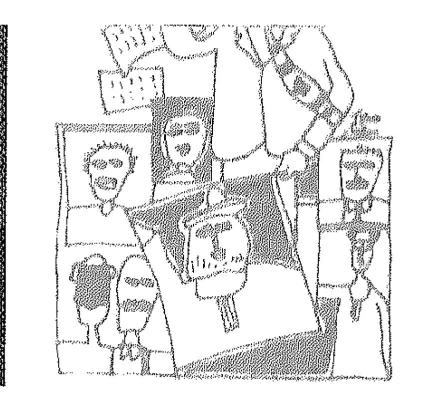
وهل إعادة الحياة للكنيسة الروسية – مثلا – هو أحد الأدلة على أن الدين يقع مع جانب الفكر (أو النظام) العالمى الجديد ؟

ذلك أن هذا النظام الجديد هو نظام متدين ، أو هو يقول ذلك ، وخطب السيد بوش ، وأسماء الأحزاب المسيحية فى ألمانيا ، ونشاط الكنيسة البولندية ، وتباريك البابا ، كل ذلك فى جانب إعلان أن النظام العالمى الجديد هو نظام متديّن ، وبالتالى فهو يبدو وكأنه قد جمع فأوعى (أو كما يقولون بالعامية ضرب وغطى وخد خانة) وعلى الباقين بما فى ذلك المتدينين من كل دين أن يتبعوا .

وأنا (من موقعى مسلما تعمّق إسلامه بمعايشة الحقيقة العارية من خلال مهنته) **أشك فى هذا النظام ، وأخاف منه ، وأرفض الاستسلام له** ، أرى كل ذلك من منطلق خصوصية الإسلام ، جنبا إلى جنب مع واقع معايشة الجنون .

وليس معنى الجزء الأخير من الفقرة السابقة أننى أحاول أن أعطى أية أهمية خاصة لما هو طب نفسى فى غير مجال الممارسة المهنية ، فأنا ضد وجود ما يمكن أن يسمى **الطب النفسى السياسى ، أو الطب النفسى الإسلامى** أو ما شابه ، كما أننى أيضا لست من أصحاب الرأى القائل أن المرض النفسى هو مجرد ضعف اعتقاد فى الدين وبالتالى فإن التدين بالمعنى السائد هو علاج كل الأمراض ، فلا يخفى أن نسبة المرض النفسى ، والجنون خاصةً هى نفسها فى كل بيئة وبين أهل كل دين ، ومعتقد .

وبذلك فإن ما أقدّمه هنا هو شئ آخر **غير الطب النفسى السياسى ، وغير الطب النفسى الدينى** ، إنه مدخل من واقع لغتى وإسلامى ، حالة كونى فى طريقة تفكيرى وممارستى مهنتى



متأثرا بهما فى عمق أعماق ذاتى .

مبررات هذه الرؤية

إذن ، فالمبررات لهذه الرؤية / الفرض يمكن أن توجز فيما يلى :

١ - إن الإسلام - كنموذج حياة - له خصوصياته - التى تصبغ كل نشاط حياتى ومعرفى صبغة مختلفة عما يعرضه علينا ما يسمى بالنظام العالمى الجديد .

٢ - إن مسايرة الحركات الإسلامية التى تسود العالم الإسلامى فى شكل الإسلام السياسى ، وتسود بعض أفراد العالم الغربى فى شكل التحوّل إلى الإسلام فرادى تلزمنا بالبحث عن البعد المعرفى والحضارى البديل فى هذا الفكر الذى يطل ويختفى وراء هذا الظاهر السياسى والدينى (وأحسب أنه البعد الذى أدخل جارودى الإسلام مثلا) .

٣ - إن الحركة المسمّاة بالطب النفسى الإسلامى - كمثال - إنما تركز على جانبين ليسا هما الإسلام بالمعنى المعرفى ، ولكنهما أقرب ما يكون إلى الفكر الاستثمارى الكمّى ، وبالتالى لم يصلنى إلا أنها وجه آخر لنفس النظام المادى القائم ، ولن يخرج منه إلا التسطيح والتسكين وأوهام الرفاهية ، ولكن باسم آخر : هو الطمأنينة .

٤ - إن علاقة الدين (والإيمان) بممارسة الطب النفسى وثيقة ، من خلال معايشة المعرفية للجنون حيث تتعرى الفطرة إلى عمق جذورها ولكنها لم تأخذ حقها إلا على المستوى السلوكى السطحى.

معنى الإسلام من هذا المنطلق

١ - الإسلام ليس تعصبًا أصلاً ، بل إنه يمثل جماعا ختاميا لوحى متكرر يمثّل خلاصة مسيرة الإنسان فى علاقته بالكون إذ يتلقى الوحى تلو الوحى من الحق تعالى ، وبالتالى فهو يحتوى ما سبقه بقدر يجعله والفا لمفهوم الإيمان عبر التاريخ المعروف للإنسان .

٢ - كما أن الإسلام ليس معتقدا مطمئناً ، والإعلاء من ترادف الإسلام مع « النفس المطمئنة » هو أمر يقلل من الالتفاف إلى دور الإسلام فى حركيته وقدراته التطورية التصعيدية ، إذ يخفت من بهر مفهوم الكدح المستمر ، وتحمل القول الثقيل (أمانة الوعى) ، وحتمية الجهاد المستمر ، والإبداع المجدد .

٣ - وليس الإسلام هو ما يدعو إليه الأصوليون فى مجال السياسة أساسا ، ولا هو ما يهاجمه العلمانيون فى محاولة جعل الدين نشاطا سرّيا فرديا خاصا بعض الوقت ، وبالتالى فالدعاوى المكررة على الجانبين مثل " أن الدين لله والوطن للجميع " ، أو " أن ما لقيصر لقيصر وما لله لله " أو " أن الإسلام دين ودولة " ، هى كلها أخطاء استقطابية شائعة قد تنتمى إلى اديان أخرى ، أو إلى نظم سياسية قهرية أخرى .

ثم إني أقرأ من لا يحكم بما أنزل الله باعتبار أن الله قد أنزل كل شئ بلا إستثناء بما فى قوانين الطبيعة وفلسفة الجمال ، والحكم بها هو تنقيتها ومَوْضَعْتها وتنشيط فاعليتها ، وهذا الموقف يستتبعه فهم للإنسان وطريقة المعرفة ومنهج للبحث قبل وبعد أى قانون سياسى أو قهر سلطوى .

فالإسلام الذى غمر وعيى – رغم إننى لست صاحب الفضل الأول فى اختياره – لا يمكن أن يقتصر على كونه معتقدا فكريا أساسا أو تماما ، ولا هو نشاط نصف الوقت (لا أيام الأحد أو الجمع) ، ولا هو علاقة خاصة بين الإنسان وربه ، ولا هو إضافة أخلاقية مناسبة لتحسين المعاملات ، ولا هو تسكين وتأجيل ، ولا هو ملاحقة ملحّة من الوعود والوعيد .

وإنما هو أساسا – دون التعرض لغير ذلك مما لا أنفى أهميته – هو :

١ – موقف شامل متكامل فى الحياة .

٢ – طريق (منهج) للمعرفة .

٣ – وعى " كيانى " بالذات والوجود .

٤ – امتداد " تكاملى " فى المابعد .

وكل ذلك إنما يتم من خلال التوحيد كفكرة مركزية ، كما يتحقق ويتدعم من خلال السلوك والعبادات ، ليصب فى تعميق الوعى ، وتوسيع دوائر المعرفة .

ويمكن أن يكون مسلما من انتمى إلى ذلك حتى ولو لم يكن دينه الإسلام ، وأنا أميل إلى تصديق الرأى القائل إن الآية الكريمة « إن الدين عند الله الإسلام » قد تشير إلى بعض ذلك .

ثم إن من ينتمى إلى هذا الموقف الحياتى الأساسى ، سوف يجد نفسه أقرب إلى دين يتصف بالمباشرة ، وعدم الوصاية ، وتنمية العلاقة بالطبيعة ، وبساطة العبادات ، ورفض الكهنوت ، والنهى عن الإنسحاب من الواقع والناس حتى لو كان يتصور أن هذا الإنسحاب هو إلى الله على حساب الناس .

والعكس صحيح : فمن بدأ بالإعتقاد بالفكرة المركزية : التوحيد (وفرق بين الاعتقاد وبين الانتماء) ثم مارس العبادات بتلقائية وانتظام وإبداع ، وأحسن المعاملات بكلية هادفة ، ووجّه طاقته خالصة لوجه الحق ، فهو واصل إلى اكتساب أدوات المعرفة الإيمانية إذ سوف يتعمّق وعيه ، وتزداد موضوعيته ، ويصبح هو فى ذاته آلة حسن صقلها وشحذها لسبر غور الحقيقة .

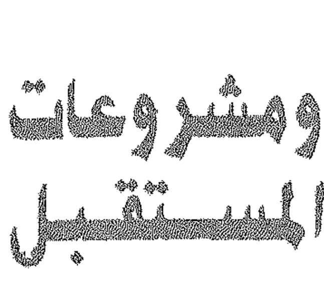
ولكن ما هى الأساليب العملية التى تجعل هذا النوع من الإسلام وسيلة معرفية ؟

وأين موقع هذا الزعم بين الوسائل المعرفية العصرية ؟ سواء بما يتعلق بفلسفة العلم ، أو ما يتعلق بالمناهج ؟

وهل ثمة أدوات تُستعمل فى بعض فروع البحث العلمى والمعرفى يمكن أن تميّز هذا السبيل المعرفى من غيره

والرد على بعض ذلك له حديث قادم .





قناطر مضيق جبل طارق

بقلم : د . سيد كريم

وجه الكثير من علماء البيئة تحذيرات قوية من ظاهرة ارتفاع مستوى مياه البحار والذى سوف لايقل مع مرور كل عام عن السنتيمترين حتى يصل إلى مايزيد على المتر قبل نهاية القرن التالى ووصفه البعض باسم الطوفان القادم .

نسب الخبراء تلك الظاهرة إلى ارتفاع درجة حرارة الأرض التى تؤثر على ذوبان جبال الكتل الثلجية بالقطبين الشمالى والجنوبى والتى أمكن رصدها فى السنوات الأخيرة . كما ينسب البعض الآخر ارتفاع حرارة الأرض إلى زيادة البقع الشمسية واختلال الغلاف الجوى للأرض وضعف مقاومته لاثارها المدمرة .

● مواجهة ارتفاع البحار وحماية البيئة .

● اقتصاديات تعمير دول شمال افريقيا .

● قناطر جبل طارق حماية البيئة لحوض البحر المتوسط



إن خطر ظاهرة ارتفاع منسوب المياه بالنسبة لحوض البحر المتوسط تتمثل فى غمر وتآكل بعض شواطئه وأراضيه تبعا لانخفاض منسوبها بالنسبة لمنسوب مياه البحار فى المستقبل . بجانب أثر التيارات المائية القادمة والمستجدة المرتبطة بسرعة تحرك المياه وارتفاع أمواجها وأثر تلك العوامل الهدامة على شواطىء المدن السكنية والسياحية بصفة عامة وبما تحويه من موان وارصفة بحرية .

مشكلة قديمة

ومشكلة ارتفاع مياه البحر المتوسط وأثارها على البيئه بما فى ذلك الحضارة والمحافظة على تراثها ليست بجديدة . فارتفاع مياه محيطات الكرة الأرضية والتى تشترك معها مياه البحر الأبيض المتوسط لاتصاله بها ليست وليدة اليوم عندما بدأت تشغل علماء البيئة بل انها مرتبطة بعمر الكرة الأرضية نفسها .

بدأت بتغيرات حرارة باطن الأرض وسطحها وما ارتبط بهما من ظواهر طبيعية كان من أقدم ظواهرها التى تعيها ذاكرة التاريخ القريب ماأطلق عليه عصر الجليد الذى كان يغطى مساحات شاسعة من البلاد الشمالية ودوره فى زيادة كميات المياه المتدفقة إلى المحيطات وبالتالى ارتفاع منسوب أسطح مياهها . وأنتقل بدوره إلى البحر الأبيض المتوسط الذى نعيش على شواطئه .

مما هو جدير بالذكر ولافت للأنظار تلك العلاقة المرتبطة بين ارتفاع منسوب مياه البحار والمحيطات بظهور البراكين والزلازل الناتجة من ضغط المياه على قاع البحار والمحيطات . ويؤكد تلك النظرية أختفاء جزر وقارات بأكملها فى المحيطات مع كل مرحلة من مراحل ارتفاع المياه كذلك انتقال حزام الزلازل والبراكين إلى حوض البحر المتوسط . وإذا راجعنا تاريخ ظهور البراكين المشهورة بحوض البحر الأبيض وحزام الزلازل الذى يربطها لوجدنا ان تاريخ ميلادها مرتبط بمراحل ارتفاع المياه ، لقد تأكدت تلك النظرية عند إقامة بحيرة ناصر بوادى النيل وظهور أول زلزال بالمنطقة نتيجة ضغط قاعها على طبقات الأرض أسفلها . كما كان لارتفاع منسوب مياه البحر الأحمر فى السنوات الأخيرة والذى تسبب فى غمر مساحات شاسعة من شواطئة السياحية أثره فى انتقال حزام الزلازل إلى المناطق المحيطة بشواطئه وسلاسل جباله .

كان لارتفاع منسوب مياه البحر المتوسط والزلازل الملازمة له عبر تاريخ الحضارات التى نمت على شواطئه ، دور

مؤثر فى تخريب كثير من المدن التاريخية وأثارها الخالدة من بينها مدينة الاسكندرية وكريت ومدن شواطىء مقدونيا وفينسيا والكثير من آثارها التى كانت تطل على شواطىء البحر المنخفضة مباشرة .

فبالنسبة للشواطىء المصرية حين نراجع الخرائط القديمة التى ترجع إلى عصر البطالسة فى القرن الثانى قبل الميلاد نجد ان شاطىء البحر الأبيض كان يبعد عن حدود شاطئة الحالى بمسافة تتراوح بين ١٥٠ ، ٢٠٠ متر .

فقد كان لارتفاع منسوب مياه البحر على فترات متباعدة عبر ذلك التاريخ ان طغت مياه البحر على جزء كبير من دلتا النيل واختفاء عدد من أنهارها القديمة السبعة التى كانت تصب فى البحر كما أتصلت بحيرة البرلس بالبحر بعد ما كانت تبعد عنه وتحولت من بحيرة نيلية إلى بحيرة بحرية . كما أختفى جزء كبير من مدينة الاسكندرية القديمة عروس البحر الأبيض التى أقامها الاسكندر الأكبر حيث أختفى الحى الامبراطورى بأكمله تحت الميناء الشرقى وقد ساعدت الزلازل على هبوط جزء كبير من المدينة الأصلية وأحيائها السكنية تحت البحر وكشفت الحفريات الحديثة أثار الحى الامبراطورى تحت مياه الميناء الشرقى وبعض أثار المدينة القديمة تحت سطح المدينة الحديثة بما يتراوح بين سبعة وعشرة أمتار .

وكان لارتفاع منسوب مياه البحر فى تلك الفترة من التاريخ والتى كانت سببا فى تعرض كثير من المدن القديمة للانهيار وأختفاء كثير من معالمها وأثارها التاريخية والتى يعمل علماء الأثار فى المحافظة على ما تبقى منها مما قد تتعرض له من ظاهرة الارتفاع المفاجىء فى مياه البحار بحيث يفكر خبراء البيئة والتخطيط الآن فيما يمكن اعداده من خطط ومشروعات لحماية المدن الحديثة ومواجهة ما سوف تتعرض له من أخطار يمكن توقعها .

أخطار مستقبلية

ان استمرار ارتفاع منسوب مياه البحر المتوسط هو فى مقدمة العوامل التى ستعمل على انهيار أكثر من مدينة من المدن الحديثة المطلة على شواطىء البحر الأبيض وفى مقدمتها مدينة فنيسيا عروس البلطيق التى يتسابق العلماء والخبراء فى دراسة وسائل انقاذها وقد فشلت جميع المحاولات التى وضعت لحمايتها وقدر لها بعض الخبراء أنها ستختفى من الوجود خلال قرن واحد من الزمان إن لم يتوصل الخبراء لاكتشاف طريقة عملية لانقاذ مبانيها وطرقاتها وميادينها من طوفان البحر .

وإذا كان ارتفاع منسوب مياه البحر

على مبانى ومنشآت المدن التى سيغمرها ويتعرض لزحفها والتى يحاول البعض حمايتها باقامة السدود وحواجز الأمواج والتى ثبت عمليا عدم فاعليتها ، فإننا نجد أيضا أن تأثير ارتفاع منسوب مياه البحر سيمتدد إلى ارتفاع منسوب المياه الجوفية ومياه الرشح تحت أساسات المبانى والتى ستحتاج بدورها إلى نوع أخر من الصيانة والحماية كما هو حــادث اليوم فى محــاولة حماية برج بيزا المائل من السقوط المحتمل .

وجميع المحاولات التى قامت فى أعقاب الحرب العالمية الثانية وما زالت مستمرة إلى الآن وصلت جميعها إلى طريق مسدود حيث كانت كل دولة تقوم بأبحاثها المنفرده المرتبطة بظروفها الاقتصادية وخبراتها المركزية والتى تركزت جميعها – خاصة فى الفترة الأخيرة – على مواجهة الظاهرة المفاجأة وتحذيرات علماء البيئه والتى تحولت فى بعض الدول إلى حد إعلان حالة الطوارىء عندما أعلن خبراء البيئة عن الخطورة الناجمة عن الزيادة المفاجئة فى ارتفاع منسوب سطح المحيطات وانتقالها إلى البحر الأبيض وتهديد شواطئه ومدنه وموانيه .

وفى مؤتمر حماية البيئة الذى أقيم مؤخرا فى جنيف تقدم أحد الخبراء باقتراح إقامة مشروع ضخم لبناء حواجز أو خزانات عند كل من جبل طارق وباب المندب لمنع دخول مياه المحيطات إلى البحرين الأبيض والأحمر والاحتفاظ بمستوى مياههما لحماية سواحل ٣٠ دولة أثنى المؤتمر على المشروع من ناحية جدواه وفكرته المبتكرة بينما فشلت جدواه الاقتصادية والعملية فى حل المشكلة المزمنة حلا جديا أو جذريا .

إن حماية شواطىء البحر المتوسط لن تكون بالمحافظة على منسوب سطح مياهه من الارتفاع بل ستتركز فى الخطوة الأولى على تخفيض منسوب مياهه التى تسببت فى تخريبه وتآكل شواطئه – أى العمل على علاجه وليس وقايته . وتتمثل تلك المحاولة أو التجربة العالمية فى إجراء عمليتين جراحيتين فى وقت واحد أحداهما لمنع مياه فيضان المحيطات القادم من الدخول إلى البحر الأبيض المتوسط والعمل على رفع منسوب سطح مياهه ثم عملية تخفيض منسوب سطح مياهه الحالية إلى ما كانت عليه من ألفى سنة والذى يقدر بما يزيد على متر ونصف عندما كانت حضارات دولة فى قمة نموها وازدهارها .

إن فكرة مشروع إقامة مضيق جبل طارق ليست وليدة اليوم فقد قمت بوضع

تصميم كامل لقناطر جبل طارق من نصف قرن من الزمان وبالتحديد فى أعقاب الحرب العالمية الثانية وذلك ضمن برنامج مشروعات تعمير البلاد النامية والذى بدأته أثناء عملى بجامعة زيورخ .

وقد تم إعداد المشروع وتقديمه للجهات المسئولة فى مصر والخارج بعد انتهاء الحرب .

فكرة المشروع

ونشرت تفاصيل المشروع فى مجلة العمارة التى كنت أصدرها فى عددى ٣ ، ٤ عام ١٩٤٦ .

تتلخص أهداف المشروع الأصلى فى عدة نقاط :

١ - ربط قارتى أوروبا وأفريقيا ببعضهما بريا عن طريق المواصلات البرية والسكك الحديدية .

٢ - تخفيض مستوى سطح البحر المتوسط لحماية شواطىء جميع الدول المطلة عليه .

٣ - تنمية اقتصاديات الدول الأفريقية النامية ودول شمال أفريقيا العربية .

٤ - تغيير المناخ الجوى وأثره على المناخ الاقتصادى فى القارة الأفريقية بذلك يمكن تحقيق الناتج الأيجابى لدراسة جدوى المشروع وهو مافشل فى تحقيقه المشروع المقدم لمؤتمر حماية البيئة .

يتلخص المشروع فى سد فتحتى البحر المتوسط عند كل من جبل طارق وبورسعيد بحاجزين كبيرين من القناطر ثم فتح مجار مائية إلى المناطق المنخفضة بالصحراء الكبرى - وقد دُرست الصحراء الكبرى دراسة شاملة بواسطة خبراء الجامعة الذين حددوا على خرائطها جميع المناطق التى يمكن غمرها بالماء وينخفض بعضها مايزيد على ٢٠٠ متر عن سطح البحر ويمكن الاستفادة من تحويل المياه إلى تلك المنخفضات بإقامة السدود عند مداخل أحواض خزاناتها ومساقط مياهها ويمكن إقامة محطات الطاقة الكهربائية والتى تفيد فى عديد من مشروعات الإصلاح الزراعى والتنمية الصناعية . بذلك سيكون لكل منطقة أو دولة من دول شمال أفريقيا مراكز خاصة للطاقة التى تحتاج إليها تبعا لعلاقة منسوب المياه فى البحر وعمق أحواضها الطبيعية فى صحرائها . هذا بخلاف الطاقه الكهربائية المركزية المرتبطة بتصميم القناطر والتى ستغطى وحدها تكاليف المشروع بالإضافة إلى العائد الناتج عن النقل البرى بأنواعه بين القارتين وعائد المرور البحرى خلال أهوسة القناطر .

وسيعمل تخفيض منسوب مياه البحر بتفريغها فى أحواض الصحراء الداخلية وبحيراته الصناعية على تشغيل محطات



الكهرباء بالقناطر الرئيسية ومساقط المياه الصحراوية .

كما وجد بدراسة التحول فى طبيعة الجو فى شمال أفريقيا بعد ظهور تلك البحار والبحيرات الداخلية بها أنها ستعمل على تحويل شمال أفريقيا باكمله بما فى ذلك القطر المصرى وجزء كبير من المناطق الصحراوية إلى مناطق أمطار مع تغيير كبير فى درجات الحرارة على مدار السنة . كما ستساعد عوامل التبخر فى مياه البحيرات الصحراوية المكشوفة على سقوط الأمطار وعودة الحياة للأراضى الصحراوية القاحلة والتى كشفت الحفريات فى كثير منها وجود بقايا أشجار متحجرة مما يثبت أنها كانت مغطاه بغابات الأجواء الممطرة . وقد وجد أن المناطق التى ستتحول إلى مناطق صالحة الزراعة فى دراسة الجدوى للمشروع ما يقرب من مليونى كيلومتر مربع كما ستساعد القوى الكهربائية المتحصلة من مساقط مياهها الداخلية والمحلية فى زراعتها ميكانيكيا وتعمير مشروعات إسكانها وتصنيع منتجاتها الزراعية التى ستربطها أقتصاديا بالدول الأوروبية المطلة على حوض البحر الأبيض والتى ستساهم بدور كبير فى تمويل مشروع السد والقناطر الرئيسية بجبل طارق كما ستتعاون مع دول شمال أفريقيا فى تنفيذ مشروعات الغزو العلمى والعملى للصحراء ذات الجدوى الإيجابية لتبادل التعاون الاقتصادى المشترك بين الدول الصناعية والدول الزراعية التى تتلاقى حول مائدة البحر المتوسط .

فيما يختص بعلاقة المناطق الصحراوية المنخفضة التى سيحولها المشروع إلى بحيرات مكشوفة تمدها بمياه البحر شبكات من المجارى المائية السطحية المكشوفة أو المواسير الأرضية لتصب فى البحيرات وتستغل مساقطها فى إنشاء محطات القوى الكهربائية فيشمل تخطيطها وتحديد مواقعها أربع دول من دول شمال أفريقيا وهى مصر وليـبيا والجزائر والمغرب .

وبالنسبة لمصر فقد وقع الاختيار على منطقة منخفض القطارة وقمت بعرض المشروع عام ١٩٤٥ على الوزارة وكان يرأسها حسين سرى باشا الذى اقتنع بفكرة المشروع بعد عرضه على لجان الوزارة وخبرائها وأمر بتنفيذه ... ثم توقف المشروع .

أما برنامج تحويل الصحارى والوديان المحيطة بالبحيرات التى تنشأ فى منخفضات الصحراء التى تملؤها مياه

تفريغ البحر المتوسط لتخفيض منسوبه والعمل على تحويلها إلى أراضى زراعية ، مع افتراض انعدام وجود مياه جوفية عذبة لريها أو حتى التفكير فى تحلية مياه البحر المالحة ، فقد أعد برنامج اشترك فى دراسته مجموعة من الخبراء الألمان . يعتمد المشروع على زراعة أشجار جوز الهند حول شواطىء البحيرات . ومن المعروف أن أشجار جوز الهند تنمو فى المياه المالحة ولا تحتاج لمياه للرى . كما أن من خصائصها اشعاع الرطوبة بكميات وفيرة مما يكون له أثر سريع فى تحويل جو المنطقة إلى جو ممطر ورطب مما يساعد على تحويل المناطق المحيطة بالغابات إلى أراضى صالحة للزراعة ، لقد وجد بدراسة جزر المحيط الهادى التى تغطى شواطئها أشجار جوز الهند أن التيارات البحرية وتيار الخليج جرفت الثمار من جنوب أسيا آلاف الكيلومترات حتى ألقتها على شواطىء تلك الجزر فنمت وحدها . وبمرور الزمن ظهر أثرها فى تنمية الأراضى الرملية والصخرية التى تحولت إلى أراضى زراعية خصبة تتوسط الغابات الكثيفة بمختلف أنواع أشجارها الخشبية ترويها الأمطار التى نتجت عن تغير طبيعة جو المنطقة كما ساعدت الأمطار على تكون المياه الجوفية التى لم يكن لها وجود فى ماضى الجزر .

إن أروع أمثلة تلك التجربة الطبيعية ما قامت به أشجار جوز الهند فى جزيرة هاواى إحدى جزر المحيط الهادى التى دبت فيها الحياة لتحولها من جزيرة قاحلة وصحراوية مجهولة ومهجورة إلى جنة عالمية للسياحة اشتهرت بحاصلاتها الزراعية من فواكه وزهور وخضراوات وأشجار خشبية تصدرها لجميع دول العالم .

ومشروع إقامة قناطر مضيق جبل طارق الذى تقدم به الخبراء فى مؤتمر حماية البيئة الذى جاء متأخرا بما مالا يقل عن نصف قرن ماهو الا مشروع مصرى كان سابقا لأوانه . وهو المشروع الذى تلافت جدواه جميع الأخطاء والاعتراضات التى واجهت حل المشكلة بإقامة القناطر الباهظة التكاليف والتى يجد البعض الاستغناء عنها ببناء الحوائط البحرية ومختلف الوسائل الأخرى لحماية الشواطىء بعد التأكد من فشل دراسة جدوى المشروع المقدم .

بينما المشروع الأصلى كما سبق وصفه فقد درست جدواه الكاملة بمقارنة التكاليف والمصاريف بالعائد ودوره فى التنمية الاقتصادية العامة ووجد أن المشروع فى الإمكان تغطية تكاليفه بالكامل خلال بضع سنوات مع استمرار عطائه بعائده المتضاعف فى تنمية دول شمال أفريقيا النامية وجنوب أوروبا الصناعية والسياحية فى ظل تعاونهما الاقتصادى .

قصة قصيرة

المتاهة

بقلم : ميرال الطحاوى

بريشة : سميحة حسنين



أختنق والترام العجوز، تتأرجح عرباته عابرة نفس الشريط الحديدى الذى أتسلقه ذهاباً وعودة ، أتنفس بصعوبة وألتصق بالعمود المعدنى المسيج لحافة المقاعد بعد أن فشلت فى مسابقة العدو اليومى نحو أول مقعد خال .

أتنفس بصعوبة وأشعر أن كل الوجوه الراكضة خلف العربات المحشوة بالأدميين تنبش دمى بأظافرها وتلهث فوق جسر أنفى الحاد كحافة نصل ، أتابع العيون الباحثة عن بارقة أمل مستحيلة فى الوصول إلى « أوكار همومهم » قبل أن يتسولوا إنسانيتهم ثم يبيعوها على الأرصفة ... تلفحنى الوحدة فاشعر برغبة مقتولة من الرعب فى البكاء عليه ... على وجهه الأسمر الذى اختزن تقاطيع وجهى ولون ابتسامتى وسابق خطواتى ببضعة أمتار واناجى ضحكته العذبة التى كانت تنتزع جذورى من حافة القلق والأحساس المبهم بأنى نبتة هشة يحاصرها الضياع .. ضوء الأمان الذى كان يبثه عبر ثقوب عيونه الصغيرة كان يهادن المجهول .. نعم ذلك المجهول الذى يترصدنى بلا رحمة والطريق أمامى مرقش بغابات غيم كثيفة إلى أين ؟! كل الطرق اعلنت حرمانى إلا من الخيبة ، وذلك ما بثه الفقر فى مرابع انتظارى حتى الآن فلا نجمه أفل ولا بزغ بل اختنق كصفحة وردة ذابلة ، وعزّت أمى نفسها بعد انتظاره بانتظارى وفشلت فى إقناعها بأنه مر زمن الأمنيات الجميلة وبقت الخيبة طعاما للجياع فى احراش الغابة .. حتى هو .. حلمها تحول إلى آكلة جيف يقذف وجهى

ووجهها بوابل الشتائم اليومية فتنصحنى بالابتسام وأنا ابتلع الملح المنساب على تضاريس وجهى واتذكر نصف الرغيف الذى كنا نقتسمه ونحن نسير فى عبق الأثواب المدرسية الملتاثة فى أجسادنا الضئيلة التى لا تحتل فجواتها ، تصر أمى على بضعة « أشبار » أضافية لنستقبل كل عام بفك ثنية من ثنيات الثوب حتى يئن من تعب الاستعمال فيتحول - بقدرة قادر - إلى أشكال متنوعة من وسائل التدفئة « بنطال - فانلة - خلقة » .. احتضن كفه الصغير بينما تستأسد نظراته وأنا أحتمى به من الضياع وسط ضجيج العربات المجنونة والأرصفة التى نما عليها المتسولون وتكاثر فوقها الباعة وضجت مساحات الأرض المتبقية من صدى الأصوات المتداخلة .. ألتصق به أكثر وأكثر وأهرب من فم المرأة التى تنتظرنى هناك وتنادى بابتسامة مسترسلة (تعالى .. تعالى حلوديك لأمك .. تعالى .. تعالى) أمسك بكفه لتهدأ ضربات قلبى النازفة من التعب والضجر وخيوط المتاهة الكبيرة تحاصرنى كأعشاب عنكبوت على ضعف فريسة تائهة .. يدقدق حذائى الرث فى الممر الواسع وتتلقفنى العيون من كل جانب فأتوارى داخل طيات ذاتى من انعكاس أشعة شفقة أو سخرية تعتصر ضآلتى قطرة قطرة فتتسرب نظراتى إلى الأرض وتنسكب فوق خشب المقاعد وفى قاعات المحاضرات وانكس كل ملامح وجهى وأحفر داخلى قنوات الحكم وأمضى (كل شىء يهون .. بكره لما تتخرجى ..) ترن فى أذنى كلماتها وأقاوم رغبة عارمة فى التقيؤ .. ثم تتكسر أضلاعى من الأختناق والعربات الفارهة ، رائحة



العطور ، الملابس ، ترمى عيونى الجائعة بألف نعل مدبب وتطقطق عظامى والأجساد تعجن جسدى المحشو فى صندوق يتأرجح على الخط الحديدى .. ألملم جسدى وأتكور على النافذة ... الوذ من خيطات تقات على جرح كرامة الآخرين بمزيد من الانكماش .. أشد برئتى خيط هواء نظيف .. نام .. نام وأنا أجيب لك جوز حمام .. غنوة لم أسمعها منذ زمن طويل .. استبدلتها أمى بغنوة جـــديدة (بكرة لّمـــا تتخرجى .. ؟؟) ماذا سأفعل ، اكتشفت أمى أخيراً ما كنا نصرخ فى وجهها لتدركه .. منذ أن جلس بجانبها وعلق على الجدار تلك الورقة المضمومة فى إطار وهو هائج ككلب أصابته طلقة طائشة ، .. ينفث الدخان الذى لون تقاطيعه بألف وجه غير الوجه الذى تعرفه .. ينفض غبار جيوبه الخاوية ويلعن كل شيء .. ثم يحتسى ضجره ويغازل الأوهام المستحيلة .. (عارفة يا أمه لما اشتغل .. ؟! .. حـــاجيب لك تـــوب وطرحة ، ..) لكنها تشوح بيدها وتصمت ، تعودت على طعم الخيبة ..

(كأنك يا أبو زيد ما غزيت ..) ترددها أمى لبنطاله المتسخ من عد القـــروش المعدنيـــة .. (شبــرا ، شبرا ، شبرا مين رايح شبرا) «منـادى ؟! وكان ليه العلام ؟ ! » .. تتساءل فى حسرة حقيقية منداة بالدموع بينما يخبط هو ملاليمه فى الأرض ويقسم أن يترك لها البيت كله .. وأنا أطارد ظله الذى كان يعبر بى الشوارع الصاخبة ويحرس قامتى التى تتصاغر داخل ظله المنقوش على الأرض وابتسم لعيونه المتوثبة لنظرات الصبية الحائمة حول غلالة شعرى .. ويبكى الظل على الجسد الخائر الذى ينفث الدخان ويرجم الجميع بوخزات حادة ومسنونة كالوجع .. أحمل باقات كتبى وأتركه يغط فى نومه وأصر على أن أرفع رأسى والأجساد الفائرة تسحقنى فى الضجيج ، فى لهاث رائحة العرق فى مستنقع المواصلة اليومية .. أواصل رغم الجرذان المتسلقة لأعشاش حلمى .. أتذكر أبى هذه الأيام كثيراً .. أسأل أمى عن تفاصيل صغيرة وأحاول صياغة ذاكرة حلمى عبر الموت ..

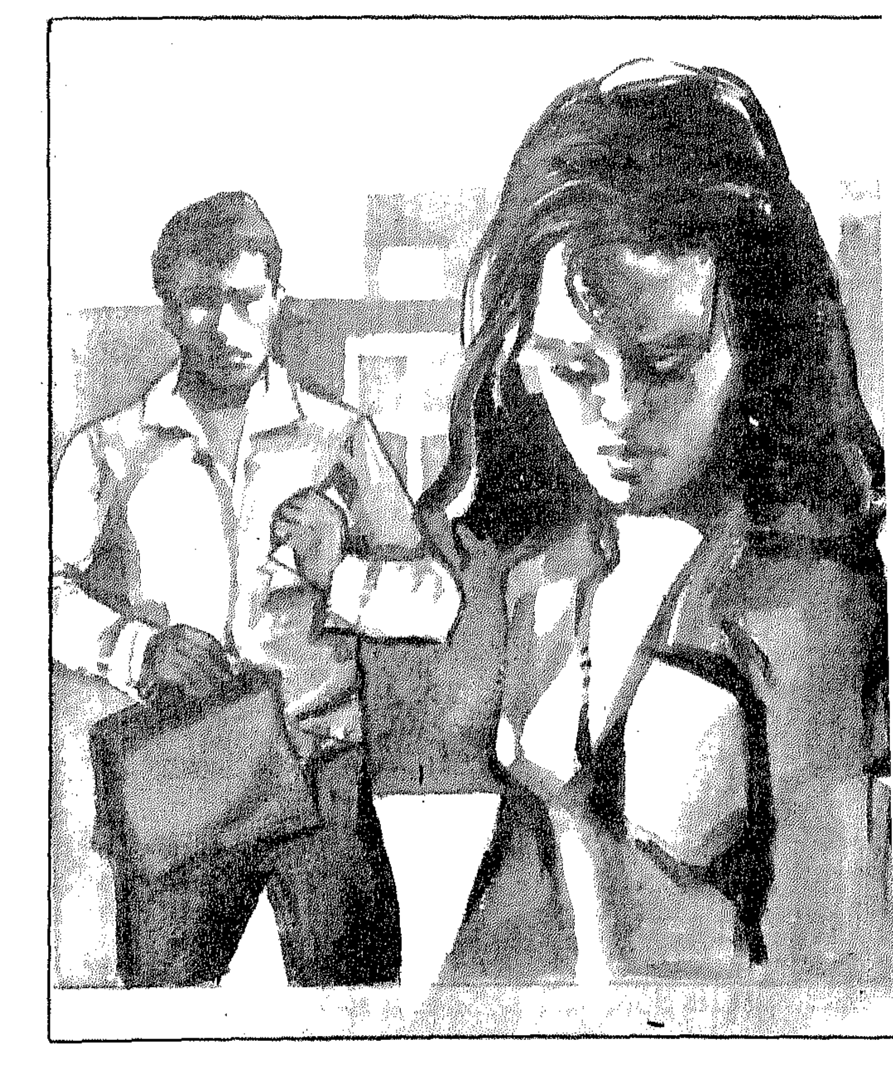
أدرك أن الغد الباسم كشر لى عن أنيابه فاحتمى « بلو » من السقوط دفعة واحدة .. تمطر لى صورته فى الإطار أثواباً وحلياً ونقوداً ودنانير ترن ترن ترن .. كناقوس الكنائس الحزينة وتتجسد المشكلة



لى فى أنه مات قبل أن تأتيه الإعارة فاعاتبه لأنه تركنى أنسحق .. صرت جزءاً من تكوين الغابة .. نبات متسلق لا يجد إلا حافة قبر يمد عليها فروعه .. ؟!

مربية ، مربية مربية .. آنسة حسنة المظهر سكرتيرة تجيد تجيد تجيد كور الصحيفة ويقذفها فى وجهى فأمتص نفس الملح وألقى فى وجه الصفعة قطعة الحلوى التى كان يخفيها فى طيات ثيابه ليلقمها فمى الصارخ بحثاً عن قطعة جديدة .. وأردد خلفه .. خمسة فى خمسة بخمسة وعشرين خمسة فى ستة ..) وتطير دموعه فى سحابات الحزن الكثيفة التى تحجبها قسوة الدخان المتصاعد من ثقبىّ أنفه « الرجل لا يبكى » لكنى ألمح بكاءه فى شتى اللطمات التى يقذفنى بها .. وأشهده كل يوم حين نتركه يؤنس الفراغ فى مساحات البيت ينتحب وتطرف جفونه دماً وصديداً وماء ثم يغرق فى لامبالاته وحين نتضجر يهددنا بجحيم « نار جيله » على مقعد فى مقهى خال فنرضى بوثبات جنونه اتقاءً لخيوط متاهة ينسجها تيار صاخب ، .. وحدى أسير والشوارع غاصة بالباعة وواجهات المحال مزدانه بربيع أناس غيرى .. أتفرس فى الملابس فى الأرقام فى الهيئات الوافدة لتنتقى نفس الحلم الذى اخترته فى منامى ، حلقات الفتايات وهن يتفاوضن حول الأجمل تصيبنى بالهلع والأرقام تسبح كالنمل وتحاصر جسدى .. (مطلوب بائعة .. مطلوب بائعة ..) يتفحص هيئتى فاطرق برأسى مرتجفة من إحســاس ضار بالضآلة .. وأعد الأيام المقبلة لأحتواء أو قطعة عرق تتز من جبينى وتتصهر داخل رقم مرسوم على ورقة خضراء ، .. يشيعنى باللعنات ويستقبلنى بقسم ألا أذهب مرة أخرى ويعدد صور الوحل الذى

مرغت كرامتي فيه .. ، لا. ينقذني إلا صـــوتها .. (اتركها تجهز مصاريف دراستها ..) (الله يصلح حالك يابنتي ويحميك) .. أحلم بثوب وحذاء وغطاء رأس وحقيبة ليس بها ثقـوب ... واحلـم لهـا مثلي .. حتى هو لم أنفه من حلمي .. سأدس في جيبه بقطعة نقود .. خمسة ؟ ! لا .. عشرا .. قميصه صار خرقة قديمة .. تتبخر نقودي التي لم ألمسها بعد ولا تفي بشيء من قائمة الانتظار .. لكن حين لمستها لم أجرؤ على التصرف فيها .. ضممت وجع أقدامي المنتصبة منذ ثلاثة شهور وأبحرت بها نحو البيت لتنهال القذائف .. أحتضن نقودي في صدري وأبكي .. ويجذب في شعري ويلطم وجهي بكل قواه .. (هات الفلوس .. هات هات ..) وتضيع توسلاتها قبل توسلاتي في هدير الركلات أقذفها برعشة الخوف وأتحسس جبيني المنساب عليه شيء لزج .. ساخن يلون صرخاتي بالنحيب .. يركل الباب ويختطف حقيبته المعدة سلفاً ويمضي .. (حسافر ..) (لما أرجع حاجيب لك ياأمه وأجيب لها .. ؟ !) ويعود في البشائر وأنا أنتحب شقاء شهوري الماضية وقطرة الدم التي ما زالت تخضب صراخي ووجهها يفترس الحزن ويدمع .. (أخوك .. معلش أخوك .. أخوك) أتنفس بصعوبة والترام العجوز ينحنى للقضبان الحديدية المسيجة خطواته وأشعر بالجذب والانتظار يطول .. فلا القصاصات تطل ولا هو يعود .



انـا .. اقاصيـص من حيـاتى

سيرة نجمة كبيرة

بقلم : مصطفى درويش

● أمر صاحبة هـذه السيرة التى أحدثك عنهـا عجب من العجب .

فقد ولدت فى بداية القرن العشـرين ، وبالتحـديد سـنة ١٩٠٧ .

وكان مولدها فى عائلة من عائلات نيو انجلاند العريقة ، التى جاء أجدادها الأوائل إلى العـالم الجديد ، مستقلين « الماى فلاور » تمـخر بهم بحر الظلمـات .

نشأت فى بيت كبير ، يقوم على رعاية شئونه خدم وحشم ، وبين أحضان والدين عُرف عنهما النشاط القوى وحدة الذهن ، وحب التقدم .





● حقيقة الاشاعة التى استمرت ثلاثين عاما مع سبنسر تراسي

فأبوها كان جراحا ناجحا ، داعيا إلى تحرير العقل ، وتعليم الناس أسرار الجسم.

وأمها كانت امرأة اجتماعية داعية إلى حصول النساء على حق الانتخاب ، وإلى تحديد النسل . رغم أو ربما، لأنها أنجبت ستة أطفال ، نصفهم من الذكور ، والنصف الآخر من الاناث .

ولكنى نسيت ان اسميها ، وقد كان يجب أن أبدأ هذا الحديث بتسميتها ، فهى كاترين هوتون هيبورن ، وشهرتها كاتى هيبورن النجمة الذائعة الصيت.

النجوم .. أسرار

وكاتى بين النجوم وحيدة نوعها .

فما أظن ان أحدا - رجلا كان أم امرأة - ظل مثلها يعمل فى دنيا التمثيل بلا انقطاع ، على امتداد نصف قرن من عمر الزمان أو يزيد .

وما أظن ان نجما فى سماء هوليود ، أو غيرها من السماوات ، استمر نجما ساطعا مدة طالت أكثر من ستين عاما .

وما أظن ان انسانا فى مصنع الأحلام يستطيع أن يفاخر مثلها بالانتصار فى مضمار أوسكار ، وذلك بالخروج منه متوجا بجائزة أحسن ممثلة رئيسية ، لا مرة ولا مرتين ، وإنما أربع مرات ، آخرها عن أدائها لدور الأم أمام هنرى فوندا فى فيلم البحيرة الذهبية (١٩٨٢) . وكانت قد بلغت من الكبر عتيا .

والسؤال .. كيف استطاعت « كاتى » أن تحقق كل هذا الانجاز ؟

كيف نجحت فى الصمود لعاديات الزمن وأين ؟

فى مدينة يسودها شيطان الربح ، وتموت فيها النجوم ، وهى فى ريعان الشباب .. لا تزال !!

هذا ما أجابت عنه « كاترين هيبورن » قبل أشهر بصراحة ترجع بعض الشىء إلى اختيارها لنفسها قبل ستين عاما ، أى منذ أصبحت نجمة ، أن تعيش امرأة حرة متحررة من قيود الزواج ، وما ينتج عنه من أعباء ، لعل أهمها الأولاد .

وكان ذلك فى كتاب تحت عنوان « أنا .. أقاصيص من حياتى » بثته حصاد ستين طوال ، فى أسلوب سهل ممتنع ، ممتع ، خال من أى تعقيد ، فيه من روحها وطريقتها فى الكلام ، تلك الطريقة التى

أصبحت من العلامات المميزة لشخصيتها في الافلام ، فيه من كل ذلك الشيء الكثير .

الأيام الجميلة

كانت الحياة سخية مع صاحبة ذلك الكتاب ، فقد حباها الحب والعذاب ، وهما المتاع الأمثل لأية ممثلة عظيمة ، وبدونهما لا يتحقق لها طول البقاء .

فحياتها ، وهي طفلة ، كانت رائعة ، بل أكثر من رائعة .

ولم لا ، وقد توافرت لها أسباب الأمان .

فهناك الشعور بالاطمئنان عند العودة إلى البيت إلى وجود والدين يغدقان عليها الحب بلا حساب .

والاحساس بالرضا والهدوء والثقة الباسمة التي تنشأ عن هذا الاطمئنان .

ومن هنا نجد كثرة استعمال صاحبة الكتاب ، وهي تعرض لما مر بها في أثناء مرحلتي الطفولة والصبا ، لعبارات من قبيل « كنت سعيدة الحظ » و « كانت الحياة ممتعة » .

طريق الآلام

أما العذاب ، فقد جاءها هو الآخر مبكرا ، وليس لها من العمر سوى أربعة عشر ربيعا ، باختفاء « توم » أكبر اشقائها ، وأقربهم إلى قلبها ، بواحدة من أغرب حوادث الموت .. كيف ؟

صباح يوم الفصح ، ذهبت إلى المائدة لتناول الأفطار .

أدهشها أن « توم » غير موجود في مكانه المعتاد ، جرت في أنحاء بيت العمة « ماري تاول » بنيويورك حيث كانت تقيم ، هي وشقيقها ، بمناسبة عطلة الأعياد .

وأخيرا عثرت عليه متدليا من حبل مربوط إلى خشبة سقف غرفة علوية ، تلامس قدماه الأرضية ، أو تكادان .

وكان أن فزعت إلى الشارع تستغيث ، ولكن بعد فوات الأوان .

فشقيقها العزيز كانت عيناه بلا رعشة ، ولا ومضة وجسمه بلون الرماد .

فإذا ما صارت شابة في عمر الزهور ، تزوجت ممن مالت اليه « لدلو اوجدن سميث » ، ذلك الزوج العاشق الولهان الذي اضطرته إلى تعديل اسمه بحيث أصبح « سميث اوجدن » ، لا لسبب سوى أنها لم تكن ترغب في أن تحمل اسما دارجا مثل اسم السيدة سميث .

ومع ذلك فقد راعها بعد أشهر قليلة ، انها لا تصلح للزواج ومسئولياته من أمومة ، وما إلى ذلك من آثار الرباط المقدس التي ليس لزوجة منها فكاك ، فكان أن حصلت على الطلاق .

اللعنة والنجاة

وتستمر رحلة العذاب .

فبعد نجاحها في هوليوود بالفوز بأوسكار أفضل ممثلة عن دورها في ثالث أفلامها « مجد الصباح » (١٩٣٢) .

وبعد تعلق الجماهير بها بفضل دورها الرائع في فيلم « نساء صغيرات » (١٩٣٣)

أخذ شبح الفشل يطاردها فيما تمثل من أفلام .



مع كارى جرانت فى أحد الافلام التى جعلت منها نجمة الشباك



كاتى تنال الاوسكار الرابعة عن دورها فى البحيرة الذهبية

فباستثناء « أليس آدمز » (١٩٣٥) كان الفشل من حظ الأفلام الثمانية التى مثلتها على امتداد خمسة أعوام .

وفى مدينة لا حديث فيها إلا عن البيع والشراء وعن الربح والخسارة ، عن اسهم تصعد ، وأخرى تهبط ، اطلقوا عليها « سم الشباك » هذه القسوة المسلطة فوق رأسها الهبتها بسوطها الحامى ، فكان أن غادرت هوليوود بحثا عن خلاص .

حديث المدينة

فى هذه الاثناء ، كانت الحرب الثانية بأهوالها تدق على الأبواب ، سحب عاصفتها المميتة تتجمع منذرة بالاقتراب ، ولا حديث فى طول أمريكا وعرضها إلا عن « ذهب مع الريح » .

ومن بين ما قالته « كاتى » فى كتابها عن هذه القصة ان مؤلفتها « مارجريت ميتشل » ارسلت لها نسخة منها ، ما أن قرأتها حتى وجدتها عملا يصلح للسينما .

تصادف ، بعد ذلك ، أن توجهت بعربتها إلى منزل « دافيد سلزنيك » لاستصحاب شقيقه « مايرون » فى نزهة نهاية الاسبوع .

وعندما دقت الجرس ، وفتح الباب ، أطلّ منه « دافيد » وكان ممسكا فى يده



كاترين هيبورن فى « خمن من هو زائر العشاء ؟ »

كتاب « ذهب مع الريح ».

وما أن رأت الكتاب ، حتى قالت « لا تقرأه يا دفيد .. أسرع بشرائه ».

وفعلا اشترى حق ترجمته إلى لغة السينما ، وأثار حول اختيار النجمة التى تؤدى دور بطلته « سكارليت اوهارا » ضجة كبرى .

وبطبيعة الحال ، كانت « كاتى » من بين أوائل المرشحات .

وفى البدء سارت الأمور كما كانت تشتهى ، فكان ان اختيرت مع مخرجها المفضل « چورج كوكور » الذى كشف عن مواهبها فى أكثر من فيلم ؛ هى لأداء دور « سكارليت » ، وهو لإخراج « ذهب مع الريح ».

ولكن سرعان ما غيرت الاقدار الأدوار ، فإذا « سكارليت » من نصيب ممثلة انجليزية غير معروفة اسمها « ڤيڤيان لى » ، يكتب لها فيما هو قادم من أيام ان تتوج بأوسكار مرتين ، وان تعيش بعد هذه الامجاد حياة قصيرة ممتلئة بالخطوب والعذاب .

وإذا « بچورج » مخرج أجمل أفلامها ، يرفت هو الآخر من « ذهب مع الريح ».

وعن واقعة الرفت الأخيرة ، قالت فى



امرأة السنة أول فيلم
مع سبنسر تراسى

كتابها « لم يفصح لى « چورج » أبداً عن السبب ، وأنا لم أسأله أبداً » وعلى كل ، فبعد هذا الاحباط شدت « كاتى » الرحال إلى نيويورك ، حيث لعبت دور « تراسى لورد » فى « قصة فيلادلفيا » على خشبة المسرح فى برودواى .

اللقـاء السـعيد

أحبهـا النقـاد والنـاس فى الـدور ، فاشترت حق عمل سينمائى من تلك المسرحية ، ثم قفلت راجعة إلى عاصمة السينما فى الغرب ، حيث باعت ذلك الحق إلى شركة « مترو جولدين ماير » بربع مليون دولار ، وهو مبلغ مذهل فى تلك الأيام ، وحيث قامت بأداء الدور فى فيلم أمام كل من « چيمس ستيوارت » « وكارى جرانت » (١٩٤٠) .

وعن « لويس ماير » قيصر تلك الشركة التى جعلت من الأسد شعارا لها ، انتزعت « كاتى » من حافظة السنين صورة مختلفة له عن صور الآخرين ، حين وصفته فى كتابها بأنه أشرف شخص تعاملت معه على مر الزمان !!

ومنذ بداية الاربعينيات ، وهى متربعة على عرش السينما ، تظهر النجوم ، وتختفى ، ونجمها باق يلمع فى السماء .

الصعود والتجلى

وها هى ذى تختار « سبنسر تراسى » الحاصل على أوسكار مرتين ، كى يتقاسم معها بطولة فيلم « امرأة السنة » (١٩٤١) فتحسن الاختيار .

ويتكرر ظهورهما معا فى تسعة أفلام ، آخرها « خمن من هو زائر العشاء » ، ذلك الفيلم المعادى للعنصرية ضد السود (١٩٦٧) عقب حصولها على أوسكار للمرة الثانية عن أدائها لدور الأم أمام «سبنسر» فى الفيلم الأخير ، وبالتحديد فى تمام الساعة الثالثة من صباح يوم العاشر من يونية لسنة ١٩٦٧ ، سمعت « كاتى » ، وهى فى حجرة نومها ، صوت خطوات «سبنسر» متجهة نحو المطبخ ، فقفزت مهرولة اليه ، ولكنها سرعان ما سمعت صوت تحطم كوب وارتطام .

وما أن فتحت باب المطبخ حتى وجدته جثة لا حراك بها .

اشاعة حب

ولست أريد أن ألخص هنا خير ما فى فصل « ترك بيت كاليفورنيا » من الكتاب ، ذلك الفصل الذى خصصته « كاتى » لموت « سبنسر » ووصف بيته الذى قضيا فيه معا أجمل سنوات العمر .

وهو تصوير لقائهما الأول ، وكيف رأى « سبنسر » اظافرها متسخة ، وكيف تصور انها امرأة منحرفة لا تميل إلى جنس الرجال .

ولا أن الخص موقف زوجته « لويز » وابنته « سوزى » وابنه الاطرش « چون » عندما ابلغتهم « كاتى » خبر الوفاة ، والتقوا الثلاثة بها حيث كانت تقيم مع الفقيد .

وانما اكتفى بنقل الحديث الذى جرى تليفونيا بين « كاتى » وبين الزوجة بعد موت « سبنسر » بأيام « انت عارفة يا لويز . انه ممكن انك وأنا نصبح أصدقاء أنت عرفتيه فى البداية ، وأنا في النهاية ، وفى امكانى مساعدتك فى رعاية الأولاد » .

وجاء رد أرملة « سبنسر » مفاجئا « حسنا » ، نعم ، ولكنى كنت أظن ان ما بينكما إشاعة .. » !!

وتعلق كاتى قائلة :

« بعد ما يقرب من ثلاثين سنة ؟ اشاعة ؟ ما الرد على هذا ؟ الجرح كان غائرا لا يندمل حوالى ثلاثين سنة وأنا مع « سبنسر » فى الحلو والمر ويقال اشاعة .

وهكذا ، وبفضل عدم اعترافها ابدا بأنى موجودة ، ظلت الزوجة ، وظلت ترسل بطاقات التهنئة بعيد الميلاد وبقى «سبنسر» المذنب ، وهى الضحية المعذبة . أما انا ، فقد نشأت فى بيئة متحررة ، ولم احطم زواجهما ، فقد كان حطاما قبل ظهورى على مسرح الاحداث بزمن طويل » .

(يلاحظ ان « كاتى » بروتستنتية ، فى حين أن « سبنسر » و « لويز » كاثوليكيان ، أى من طائفة تعتبر الطلاق وتحديد النسل من الذنوب التى يتعين معاقبة مرتكبيها عقابا شديدا) .

وهنا ، تجدر الاشارة ، والحديث عن حب دام حوالى ثلاثين سنة ، إلى واحد من أهم فصول الكتاب ، ذلك الفصل الذى افردته صاحبة السيرة « لسبنسر » تحت عنوان قصير من كلمة واحدة لاغير «حب» .

التعريف المسليم

فيه تقول ان حبها له كان من ذلك النوع الذى يملك على المحب كل شيء ، فيصرفه عن كل شيء حتى ينتهى به الأمر إلى أن يفنى فيه .

عرفته ، ولها من العمر ثلاث وثلاثون سنة .

وهذا يعنى أنها انتظرت طويلا ، حتى التقت بالشخص الذى ترك فى قلبها جذوة لا سبيل إلى اطفائها .

ولعل ما كتبته فى تعريف هذا الحب الجامح الذى لا يترك لصاحبه حظا من اناة أو روية أو تفكير ، لعله خير ختام للحديث .

« احبك ... ماذا تعنى ؟ فكر .

نحن نستعمل هذا التعبير باستهتار .

الحب ليس له أى ارتباط بما تتوقع أن تجنيه ، وانما يرتبط بما تتوقع أن تعطيه .. وهو كل شيء .

ما تحصل عليه مقابل الحب ، يختلف باختلاف الأحوال .

ولكنه فى حقيقة الأمر لا علاقة له بما تعطيه ، أنت تعطى لأنك تحب ، ولا تستطيع الامتناع عن العطاء » .

القصيدة مجلة جزائرية جديدة

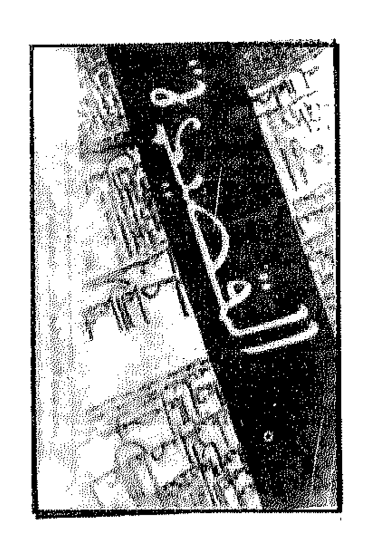
للأسف الشديد إن الإنقطاع قائم بين الشعر الجزائرى الحديث وبين القارىء المصرى ، وبالمقارنة بين معرفتنا بالرواية العربية الجزائرية فإن معرفتنا بالشعر تكاد تكون معدومة .

من هذه المطبوعة الجديدة « القصيدة » يمكننا أن نتأكد أن هناك أصواتا متميزة بين شباب الشعراء الجزائريين ، ومن المعلومات غير الوافية للأسف التى سبقت الصفحات التى خصصتها المطبوعة عن كل شاعر يمكننا أن نستدل على أن أصغرهم ولد فى أواخر الستينات وأكبرهم فى بداية الخمسينات ، وكان من الضرورى فى الحقيقة أن تكون المعلومات وافية فالواضح أن الأغلبية الغالبة من هؤلاء الشعراء لم تصدر لها مجموعات كاملة ومن سبق له النشر فى كتب صدرت له مجموعة واحدة . من هنا فإن التعريف الوافى هو جزء مهم ، وإن كان الأهم بالطبع النصوص نفسها ومدى تحققها .

على أى حال ، وحتى لا نرتكب نحن نفس الخطأ ، نقدم هذا التعريف الوافى بهذه المطبوعة الجديدة فى عددها الأول الذى وصلنا الشهر الماضى ، والواضح أنه ربما يكون قد صدر فى نهاية العام الماضى (١٩٩١) فهكذا يشير تاريخ الطبع ، وهو التاريخ الوحيد الذى أمامنا .

واضح أيضا أن هذه المجلة الشعرية الجديدة تصدر كملحق عن مطبوعة أخرى هى التبيين التى تصدر عن جمعية الجاحظية بمقاطعة عين النعجة الجزائرية ، وعلى الرغم من ورود إسم القاص المعروف الطاهر وطار كمدير لتحريرها فإننا نفهم أن مواد هذا العدد قد تم إختيارها من القصائد التى فازت فى مسابقة « مفدى زكريا » التى نظمتها جمعية الجاحظية عام ١٩٩٠ ، وكذلك تم إختيار بعض القصائد من مئات القصائد التى وصلت إلى الجاحظية فى إطار المسابقة .

لذا ، تقول لجنة التحكيم ، إن « مسئوليتنا فى إعداد وتقديم هذا العدد محدودة ، إلا أنه بين رغبتنا فى أن يعكس هذا العدد الأول مختلف أشكال وتوجهات



ومستويات القصيدة الحديثة فى الجزائر من جهة وقناعتنا بضرورة تقديم المستوى الذى يحترم ويخدم القارىء والشاعر والأدب بصفة عامة من جهة أخرى . إجتهدنا وغيرنا ما رأينا ضرورة تغييره واجبا ، وحرصنا على تقليل الأخطاء التقنية إلى الحد الأدنى .

على أن الإطار الحضارى الذى صدرت هذه المجلة فى ظله تعكسه كلمة التقديم التى هيأها مكتب الجمعية الجاحظية والتى جاء فيها : إننا - نضع بين يديك هذا المولود الجديد ، ونحن نشعر بالغبطة الكبيرة ، لا لأنه المولود الأول الذى تنجبه بلادنا بعد عقم دام ثلاثين سنة، ولكن لأنه مولود شرعى ، جاء نتيجة تضافر جهود شباب السبعينيات والثمانينيات مع جهود لا نقول بعض الرواد ، ولكن نقول كتاب وأدباء الستينات والسبعينات والخمسينات أيضا .

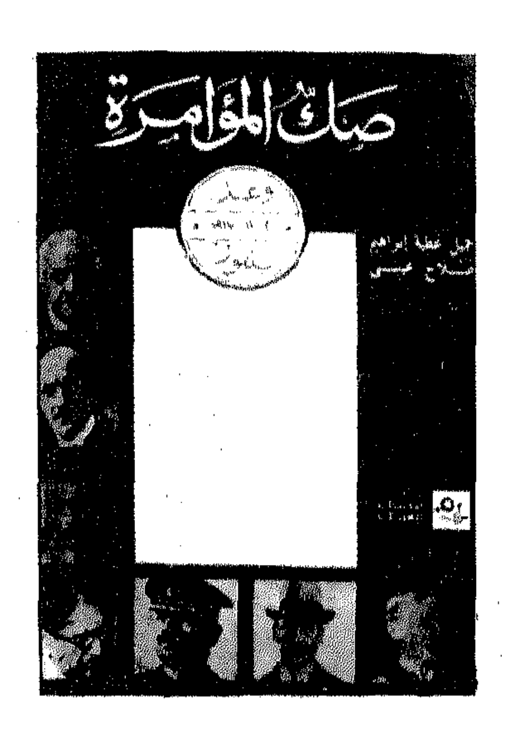
وحتى وإن لم يقدر لهذا المولود أن يعيش ، حتى وإن خنقته الأيدى الأثيمة التى تعودت أن تخنق المبادرات الخلاقة ، فإن مفخرته ومبعث الإعتزاز به ، أنه شرعى ، لم تلده البيروقراطية ، بميزانية ، ومكاتب مكيفة ، ومراسيم تسميات ، وسكرتيرات ، وسيارات تذهب إلى البيوت الشخصية أكثر مما تذهب إلى المطابع . إنه إبننا . ابن جميع الكتاب والأدباء الجزائريين . الذين شاركوا منهم والذين لم يشاركوا الذين يقيمون بالعاصمة وضواحيها ، والذين يقيمون فى أبعد نقطة من ترابنا الوطنى العزيز ، الذين يعيشون فى هذا العصر ، والذين سبقونا ، مفدى زكريا ، ومحمد العيد آل خليفة ، ومالك حداد ، والذين سيأتون بعدنا ، بأجيال وأجيال .

بإصرار وبعناد ، ويتحد للظروف القاسية التى تعيشها بلادنا ، ولأزمة الضمير التى تعترى مجتمعنا نواجه المستحيل ، كى يخرج هذا المولود الجديد إلى النور .

كل هذا لم يثن عزيمتنا ، ولا إصرارنا ، على أن يكون للشعر الجزائرى منبر ، تتعرف فيه الدنيا عليه ، ويتعرف الشعراء على بعضهم البعض ، ويتواصل القارىء مع إبداع أبنائه فيه أيضا .

صك المؤامرة

عن وعد بلفور



هذا كتاب أشبه بالحدث ، فهو وإن كان مكتوبا للفتية العرب ، فإن مؤلفيه جميل عطية إبراهيم ، وصلاح عيسى ، قد جعلا منه موسوعة حية ، عن كل ما يتعلق بهذا الوعد المشئوم ، وما ترتب عليه ، من أحداث ، ومن شارك حول هذه الأحداث من أشخاص بالكلمة والصورة ، والتاريخ والرقم ، حتى ليصبح مرجعا كاملا فى موضوعه .

وتقدم دار الفتى العربى هذا الكتاب الذى يحكى قصة صدور ذلك الوعد من وجهة نظر ممثلين لأطرافه المتعددين .

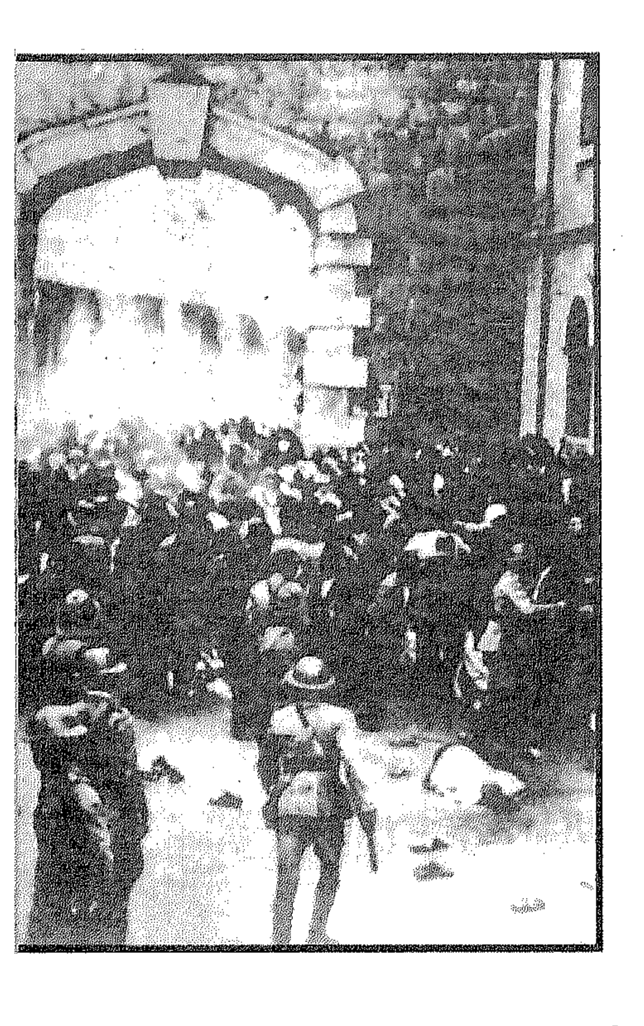
الطرف البريطانى الذى تولى إعداد الساحة العربية لكى تنفذ فيها خطة التقسيم الاستعمارية ، والطرف العربى الذى كان ضحية لهذا الوعد ، والطرف الصهيونى الذى حصد نتيجته المباشرة .

وقصة وعد بلفور هى قصة الصهيونية فى مرحلة من مراحلها ، وهى قصة حلقة من حلقات المؤامرة الاستعمارية لتمزيق الوطن العربى ، ومنح قطر منه - هو فلسطين - للصهاينة ، يقيمون على أرضه (دولة حاجزة) تحول بين وحدة المشرق العربى والمغرب العربى .

وفى هذا الكتاب يروى أربعة شهود قصة هذه المؤامرة :

- فيتحدث السير هنرى مكماهون - المعتمد البريطانى فى مصر عام ١٩٥٢ - عن الظروف التى أحاطت ببريطانيا فى الحرب العالمية الأولى ، وجعلتها تفكر فى مستقبل الوطن العربى بعد الحرب ، وتسعى للتفاهم مع حلفائها ومنافسيها





حول إقتسامه .

– ويقص حاييم وايزمن – أول رئيس للدولة الصهيونية – الدور الذى قام به ؛ حتى استطاع الحصول على وعد من وزير الخارجية البريطانية بلفور – بإنشاء وطن قومى لليهود فى فلسطين .

– ويروى إدوين صموئيل مونتاجو – وزير شئون الهند فى وزارة لويد چورچ – كيف ولماذا عـــارض اليهود البريطانيون غير الصــهـــاينة – وهو منـهم – صدور هذا الوعد .

– ويشهد الشريف حسين بن على – ملك الحجاز – على خديعة الحلفاء – وعلى رأسهم بريطانيا – للعرب ، حين وعدتهم بالاستقلال ، ثم وعدت فرنسا فى إتفاقية (سايكس – بيكو) بمنحها جزء من أقطارهم ، ووعدت اليهود بقسم آخر .

وهى قصة طويلة .. للوعد الذى غير تاريخ الوطن العربى ، برغم أنه لا يزيد عن مائة كلمة ، ترقد الآن بين محفوظات مكتبة المتحف البريطانى .

مكتبة الهلال

الكتـــاب : اقترابات البحث فى العلوم الاجتماعية
تأليف : مجموعة من الباحثين
الناشر : مركز البحوث والدراسات السياسية (جامعة القاهرة)

اقترابات البحث فى العلوم الاجتماعية

يمثل هذا الكتاب العمل الثانى الذى يصدره مركز البحوث والدراسات السياسية (كلية الاقتصاد والعلوم السياسية - القاهرة) ويتضمن البحوث والتعقيبات التى قدمت فى ندوة عقدت فى ديسمبر ١٩٩٠ تحت عنوان « اقترابات البحث فى العلوم الإجتماعية » التى هدفت إلى تبادل الخبرات البحثية بين الباحثين فى مجال العلوم السياسية وعلم الإجتماع حول هذا الموضوع ، وتم فى إطارها مناقشة مجالات استخدام بعض اقترابات البحث فى هذين الفرعين من فروع العلوم الاجتماعية وامكانيات ومجالات استخداماتها المستقبلة .

وكان العمل الأول قد ضم مجموعة الأبحاث التى عقدت فى المركز (ديسمبر ١٩٨٩) تحت عنوان البحث الإمبريقى فى الدراسات السياسية .

ويرجع اهتمام المركز كما يقول تصدير الكتاب بهذا البرنامج إلى مايواجهه البعض من الباحثين من صعوبات فى مراجعة النماذج والنظريات والإستفادة من أطر التحليل المتوفرة وتطريف المفاهيم ووضع الفروض وجمع البيانات اللازمة لإختيارها .

يأتى فى تعريف الاقتراب أنه يتضمن عددا من المفاهيم التى تربطها علاقات معينة فهو يمثل طريقة للتفكير وتنظيم المعلومات وطرح الافتراضات فكل إقتراب يقع فى إطاره العديد من الكتابات النظرية التى تحدد ماهية المفاهيم المستخدمة والعلاقات التى يمكن استنباطها وأساليب جمع وتحليل البيانات الأكثر ملاءمة لموضوع البحث .

الكتـــاب : البلدان النامية وتجديد الفكر الإشتراكى . تأليف : بهيج نصار الناشر : دار العالم الثالث ٢٧٥ ص

البلدان النامية و تجديد الفكر الاشتراكى

يفضل المؤلف أن يسمى كتابه تقريرا استقى مادته من الخبرة الذاتية التى جاءت من مشاركته فى نضال شعب مصر ، ثم خبرة المشاركة في بحث الكثير من القضايا العالمية ومخالفة كثير من مناضلى الأحزاب المختلفة أثناء عمله سكرتيرا لمجلس السلام العالمى منذ أواخر عام ١٩٧٣ .

ويقول :

غير أن الجذور الحقيقية كما ورد فى هذا التقرير هى الخبرة العظيمة لألاف المناضلين من المصريين منذ الأربعينات وحتى الآن ، فذلك تاريخ تواصل خمسين عاما ويحتاج إلى مزيد من الجهد لإستخلاص الخبرة كى تضاف إلى جهد مشكور ومحمود تم فى هذا الشأن .

وأكاد أتصور - يضيف المؤلف - أن معظم ماسجلته هذه الأوراق كان من الممكن أن يكون الفصل الأخير لتاريخ هذه الحقبة ضد نضال أصحاب الاشتراكية العلمية من المصريين فى مختلف مجالات التنمية الاقتصادية والإجتماعية والثقافية - وفى التحالفات السياسية - وفى العمل مع المنظمات الجماهيرية وفى العلاقة بين قوى اليسار ، وفى أشكال عديدة من العمل الجماهيرى - السياسى والمسلح - وفى التعامل مع قوى العالم .

على أن التقرير وإن إستند إلى الماضى من أجل فهم الحاضر فهو يتطلع إلى المستقبل ، وهو محاولة لفهم الحاضر من أجل تغييره نحو هدف مقبل لامحالة ، هو العدالة الإجتماعية بقضية الهيمنة الامبريالية وباحترام حقوق الإنسان وحقوق البيئة حوله - وبتحرير العمل من كافة أشكال الإستغلال والقهر.

الكتـــــــاب :
خروج العرب من التـــاريخ
تـــــأليف :
د. فوزى منصور
ترجمة : ظريف عبد الله وكمال السيد
النـــاشر :
دار الفارابى ، بيروت ٢٤٤ ص .



يقول الدكتور فوزى منصور وهو يقدم هذه الطبعة من كتابه هذا كتيب قصدت به عند كتابته شيئا ، لكننى أرى الآن ، عند العودة إلى قراءته ، تمهيدا لإصدار طبعته العربية ان ما كتبت كان شيئا آخر .

كتب فى أوائل عام ١٩٨٨ ، استجابة لدعوة من جامعة الأمم المتحدة ومنتدى العالم الثالث ، وهو يكون الجزء الذى يخص الوطن العربى من دراسة أشمل تتبناها جامعة الأمم المتحدة عن موضوع : الأمة والدولة والديمقراطية فى مناطق العالم الثالث الرئيسية ، وينشر هذا الجزء بشكل مستقل فى سبتمبر وأكتـــوبر عام ١٩٩٠ باللغتين الفرنســــية والإنجليزية تحت عنوان : مأزق العالم العربى : دراسة تحليلية تاريخية وقـــد شـــجعنى على الإســـتجابة إلى الدعوة التى تلقيتها للكتابة عن هذا الموضـوع ، إدراكى المتزايد لأهمية العنـاصر الثـلاثة التى يتضـــمنها – وللارتبـاطات المتبـادلة بينها – لدراسة وفهم الأوضــاع الراهنـة فى الوطن العربى .

ويضيف الكاتب :

على أننى ما إن عدت في النصف الثانى من عام ١٩٩٠ إلى قراءة ما كتبت فى النصف الأول من عام ١٩٨٨ حتى فوجئت بأن ماكتبت كان فى الحقيقة محاولة غير مقصودة لتقصى المراحل المتتابعة لخروج الأمة العربية من التاريخ ، وأكثر مما هو محاولة لتفسير هذا الوجه أو ذاك من أوجه الواقع العربى المعاصر : دور العامل القومى ، طبيعة الدولة فى أقطار الوطن العربى ، غيبة الديمقراطية عنه ، أو غير ذلك .

إنه كتاب مهم عن واقع العالم العربى .

الكتـــــاب : الأسطورة والتراث
تـــأليف : د . سيد القمنى
النـــاشر : سينا للنشر — القـاهرة ٣٢٨ ص .



فى مقدمة ساخنة لكتابه يقول الدكتور سيد القمنى مشخصا الوضع الراهن لمجريات التطورات الجارية فى البلاد العربية أن هناك ولاشك عوامل متعددة تقف وراء التمسك العنصرى بالجنس والدين والجـذور القوميـة ذلك التمسك الذى يتمثل لدينا فى حنين حاد للمـاضى جـاء كرد فعل طبيعى ، إزاء فترة طـويلة من الإحتـلال الأجنبى . مع ما أنبـأت به مرحـــلة مابعد التحرر الوطنى من فشل مشاريع التحديث . وإقامة مجتمعات عصرية، وما لازمهـــا من فشل آخر منيت به التوجهـات العلمـانية فى إيجـاد مرتكزات جماهيرية لها ، وهو بدوره . ناتـــج عن أسباب ليس هنا مقام مناقشتها ، أما العامل الأساسى فى ذلك التوجه الكاســـح نحــو الماضى – فهـو وجـود الـدولة الصهيونية على التراب الوطنى وما يشكله هذا الوجود من خطر وتهديد مستحدثين ، وجرح نازف غائر دوما فى الكرامة الوطنية والقومية .

وبهذا المنطق السائد – يضيف المؤلف – يتم إغـلاق الدائرة وتصبح خصـــوصيتنا العـرقية والجنسية القومية أدلجة دينية تجد تنظيراتها فى مكتباتنا المزدحمة بما يطلق عليه ذلك المصطلح المجـــازى « التـــراث الإسلامى » بينما تصبح أى محاولة مخالفة ، هى إبتعـــاد عن الإعتصـــام بحبـل الله ، وإبتعاد عن صـــالح سلفنا وتنظيراته وســـــقوط مـــزيد من الإنحطاط .

إن الأســطورة جزء لايتجـــزء من تراثنـــا ، وهى الجـانب الذى لم يحـظ بأدنى قـــدر من الاهتمام ، إزاء صـدور الحكم عليه باللامعقـول الذى ينبغى شـــطبه من تاريخنا وقبـــل درسه الدرس الكافى لإصـــدار مثل هذا الحكم .

أنمـاط المسرحية الكوميدية

بقلم : د. ابراهيم حمادة

يرى كثير من الباحثين فى الأجناس الأدبية ، أن المسرحية التراجيدية تقف عند طرف ، بينما تقف المسرحية الكوميدية عند الطرف الآخر المواجه - وكأنهما يمثّلان وجهين لعملة واحدة .

وهذا التقسيم النوعي - الذى يبدو حاداً - إنما هو أمر من أمور التنظير ، الذى يفرضها النّقد الأدبى إذ يقف قرب منتصف المسافة القائمة بين هذين القطبين الأساسيين ، نوع آخر مهجّن ، يطلق عليه التراجيكوميدى . كما تتوالد أنماط درامية عديدة ، ينطوى كل منها على عناصر معيّنة من خصائص كل قطب . وتختلف كمية هذه العناصر وكيفيتها ، تبعاً للبعد أو القرب من القطبين اللّذين يفترض - نظريًا - أنّهما جنسان دراميا خالصان .

وتقوم المسرحية الكوميدية - والأنواع الأخرى المشتقّة منها على توظيف عوامل السّخرية من التّصرّفات الإنسانية التى يرفضها المجتمع ، بقصد إثارة ضحك المتفرجين ، وإمتاعهم ، أو الترفيه عنهم وتسليتهم .

وتتراوح مظاهر هذه الاستجابات - التى تثيرها الكوميديا - بين القهقهة المتفجّرة التى تهتزّ لها الكروش ، والضحكة الهادئة المتعاطفة ، والرّاحة النّفسية الخفيّة كما تتحقّق تلك الاستجابات - المعبّرة عن السرور والمتعة -عن طريق وسائل حسيّة متعددة : كالضرب ، والصّفع وتغريب الملابس



مسرح شيكسبير

أو تقطيعها ، وإلقاء التورتة بالكريمة فى الوجه ، والحركات الفزيائية الشاذّة ، والتشوهات البدنية بما لا يؤلم - وكذلك من خلال وسائل لغويّة ذات أوجه كثيرة : كالتوريات ، والمواعظ ، والعبارات الحلوة ، والتعليقات البارعة ، واللّعب بالألفاظ ، وتحريف المنطق ، والبذاءات ، وإبداء الملاحظات الخشنة ، والإهانات ، والتناقضات ، والسّب ، والتّهزىء ، والتّنكيت ، والتّبكيت ، والاستعباط ، والتقليد المبالغ فيه .

صعوبة التصنيف

أما الوسائط المستخدمة فى ذلك ، فأهمها مظاهر الشخصيات غير العادية ، ومواقفها ، وسلوكاتها ، وتفكيرها ، وأسلوب كلامها .

ولاشك أن تصنيف المسرحيات الكوميدية فى خانات منمّطة محددة ، أمرٌ جد عسير ، لأن شخصياتها - التى تصدر عنها الأفعال والأقوال الفكهة - تتباين فى تزاوجها بين شخصية الصّعلوك المهلهل الثياب الذى يترنّح وسط القمامة من شدة تأثير الخمر الرديء الذى عبّ منه وشخصية الأمير الوسيم المثقّف المعطّر ، الذى يرتدى ملابس السّهرة الغالية ، وتحتشد حوله كوكبة من الأمراء ينافسونه جاهاً وفطنة وثراء .

والحقيقة ، أن التّنميط الذى يسعى إلى تحقيقه البحث الأكاديمى - المفتون بالفرز والتصنيف والتّعريف - يتجاهله المؤلّفون تماما عند الإبداع ، فهم يطلقون أيديهم فى المادّة الكوميدية ، ويروحون يمزجون بين عناصرها بمقادير متنوعة ، بما يلائم أخيلتهم وأهدافهم ، دونما اعتبار التّنظير النّوعى الذى قد يكون سابقا ، أو حتى ينتظر لحوقه .

براعة التعبير

ولقد كان الشاعر الكوميدى الإغريقى أريستوفان (٤٥٠ - ٣٨٥ ق . م .) ، يستخدم فى بناء كوميدياته ألواناً شتّى من البذاءات اللّفظية ، والحركات البدنية المرحة والخشنة ، ويمزجها بضربات فكرية ناقدة ، أو لكمات عقلية ساخرة ، يوجّهها - عادة - إلى بعض معاصريه من السّاسة والمفكّرين ، فى صياغة شعرية تدلّ على براعة وموهبة فى التّعبير . ولهذا ، حار الدّارسون فى تصنيف دراماته ، واضطروّا إلى أن يلصقوا عليها بطاقة مميّزة ، عنوانها : « الكوميديا الأريستوفانية » .

وكذلك ، يصعب تصنيف كوميديات وليم شكسبير (١٥٦٤ - ١٦١٦) ، التى يبدو وكأنها هزلية ، وروِمنسية ، وسوداء ، بل إنه - فى بعض الأحيان - كان يمزج أساليب مختلفة فى نفس المسرحية الواحدة .

ولقد حاول آلان رينولدز طومسون فى كتابه : « تشريح الدّراما » (١٩٤٤) ، أن يصنّف التّراث الدرامى الكوميدى الذى تناهى إليه ، وأن يفرّقه على درجات سلّم تبعاً لقيمة طبقاته ، يبتدىء من الدرجة السّابعة السّفلى ، ثم يعلو حتى الدّرجة الأولى . ولقد وضع المهزلة (الفارس) فى الدرجة الأدنى لأنها تعتمد على كل ما هو مضحك حتى ولو كان مفحشاً وعبثيا . ثم وضع - فى الدرجة التى تعلوها - الكوميديا الماجنة التى تسخر من العاهات والكوارث الجسمية ، ثم التى تشهد لها حبكاتها بالمهارة فى تدبير الحيل والخدع . ثم تعلو ذلك درجة الكوميديا التى تقوم على الفطنة اللّفظية ، واللّعب الذكى بالكلمات والمعانى، ثم وضع - فى الدرجة السّادسة - الكوميديا التى تتبنى على تصوير الشخصيات المتناقضة . وفى الدرجة الأعلى - والأخيرة فى السلم - كوميديا الأفكار أو الكوميديا الراقية .

وقبل طومسون ، حاول ألارديس نيكول فى كتابه : « نظرية الدراما » (١٩٣١) الذى ترجمه المرحوم درينى خشبة إلي « علم المسرحية » (١٩٥٨) - أن يقدّم سلّماً خاصاً ، ولكنه - كغيره - لم يكن ينطوى على التّدرج التقييمى النهائى الذى يمكن أن يحظى بالإجماع .

ففى الدرجة الأسفل فى السلم ، وضع نيكول المهزلة (الفارس) ، ثم جاء فوقها مباشرة بكوميديا الأمزجة ، ثم وضع أعلاها الكوميديا الرومنسية

الشكسبيرية التى تفرّعت منها كوميديا الفواجع الرّومنسية التى ألّفها شكسبير فى أخريات حياته . وفى نهاية السلّم العلويّة وضع الكوميديا السلوكية التى ألحق بها كوميديا التّظرّف والجنتلة ، التى تتميّز بمناخ عاطفى مبالغ فى تصويره ، وبسلوكات شخصياته الشديدة الرّقة والتأدّب المفتعل

★★★

وتجىء حبكة المسرحية الهزلية (الفارس) مصطنعة ، وتبرئة من أحكام المعقولية ومشاكلة الواقع . وتبذل غاية جهدها فى إثارة جوّ المسرح الذى تجتهد فى تهيئته شخصيات كاريكاتورية ، بحركات جسمية تهريجية ، ومواقف ملفّقة ، ومصادفات غير محتملة ، ونكات خشنة ، وألفاظ يمجّها الّذوق المثقّف ، وكل الأفعال البدنيّة واللّغوية الساخرة التى تهدف إلى التّرفيه والإضحاك - بصفة أساسية - مما يستهلك أدنى طاقة من تفكير المتفرّج .

وتهتم كوميديا التّدسيس - قبل كل شىء - بالتّنكّر ، وحبك الدسائس المرحة ، وتدبير المقالب المضحكة ، والمكائد الفكهة .



نماذج من شخصيات
المسرح الافريقى

أما موضوع الكوميديا الرّومنسية - كما عرف فى بعض ملاهى شكسبير ، وبواكير العصر الإليزابيثى - فإنه يدور حول بطلة مثالية رقيقة الحاشية ، تصادف فى سبيل غرامها عقبات وعراقيل ، ولكنها تتغلّب عليها فى النهاية ، وتحقّق أحلامها الوردية . وتسود الأحداث أجواء رومنسية ، تهيئها ظلال الغابات والبساتين ، ودفء الأقمار الفضية ، حيث يسرح الخيال المشعشع ، وتقطر الكلمات العذبة سحرا وعاطفة .

وتتصف الكوميديا الراقية ، بطابع فكاهى مهذّب ، شبه جاد ، يثير ضحكاً

خفيفاً أو ابتسامات وامضة ، مبعثها الذهن ولأن هذا النوع من الكوميديا (الأفكار) ، ينتقد - غالبا - السّلوك الاجتماعي دون قسوة أو تهجّم ، فقد ارتبط ارتباطا وثيقا بمصطلح « كوميديا السلوك » .

ويتركب هذا النوع الراقي من بعض خصائص الكوميديا التي تعتمد علي بناء المواقف ، والتي تهتم بتصوير الشخصيات ، والأخرى التي تعنى بالأفكار . ولهذا ، كانت شخصياتها من الطبقة العليا التي تتكلّف تصرفاتها وأقوالها . كما تتسم - الى جانب انتقاد السلوك الاجتماعي المصطنع - بالدس ، والتّنّر الذّهني والعاطفي .

أنواع مستحدثة

ومن الملاحظ - بوجه عام - أن تصنيف طومسون ، وترتيب نيكول ، قد ألحقا [illegible] نمط المهزلة (الفارس) في أدنى [illegible] السلّم . وعلى وضع الكوميديا الراقية ، أو كوميديا الأفكار ، أو كوميديا السلوك في أعلاه . إلا أنّ التقسيمات النّوعية الأخرى المدرجة بين طرفي سلّم الباحث الأول ، تختلف عن الترتيب النوعي القائم بين طرفيْ سلّم الباحث الثاني . بل ويجب الاعتراف ، بأن هناك أنواعا أخرى مستحدثة أو قديمة ، يمكن إضافتها إلى الأنماط المذكورة ، لأنها تستقلّ بملامح خاصة ، تميّزها عن أخواتها اللائى جيء بهن في درجات السلّمين .

والحقيقة أن مؤلفي الكوميديا ، يهتمون أساساً بتركيب أعمالهم الدرامية ، ممّا يمكنهم مزجه من العناصر الفكاهية المتاحة ، بل وكذلك من عناصر الشجن الخفيف . ولاشك أن التركيبات المتباينة المقادير والاساليب ، تتجاوز أي تقسيم أكاديمي - في الوقت الراهن - يحاول كبح جماحها ، داخل قوالب محدّدة ثابتة وممنطقة .

ولمّا كانت كل مسرحية كوميدية يتراوح موضعها بين قطبي الرّقي والانحطاط ، وبين ما هو فزيائي وما هو ذهني ، فهي أيضا تختلف عن غيرها من بنات جنسها ، طبقاً لأهداف مؤلفها وقدراته ، لأن العنصر الجوهري المتوافر في كل نمط - مهما كانت مرتبطه - هو وجهة نظر المبدع ، التي تتجلّى في موقفه الكوميدي .

لغويات

● مازالت كلمة « يتواجد » منتشرة فى الصحف المصرية ، وهى كلمة ذاعت على الألسنة منذ استعملها «ضباط ثورة يوليو» فى بياناتهم التى كانت مليئة بالأغلاط اللغوية والنحوية لأنهم لم يكونوا من أصحاب اللغة الفصيحة .. وكلمة « يتواجد » معناها إظهار الوجد ، ولكن قائليها يقصدون بها الفعل المضارع « يُوجَدُ » ويستعملون « يتواجد » بدلا من هذا الفعل ويرفضون تصحيح الخطأ ! ..

● ومثل « يتواجد » فى قبح الخطأ قول الصحف : « فلان وأخوه توأم » .. والصواب : « فلان وأخوه توأمان » .. لأن التوأم للمفرد لا للمثنى ، والجمع « توائم » .. وقد انتشر هذا الخطأ كانتشار خطأ « يتواجد » فى أجهزة الإعلام وعلى ألسنة العامة انتشار النار فى الهشيم ! ..

● وخطأ آخر أدمنته الصحف هو قولهم : « فلان أخ فلان » .. والصواب : « فلان أخو فلان » .. وأخو هنا اسم مرفوع بالواو ، فإذا نصبته قلت : « رأيت فلانا أخا فلان » ، وفى الجر تقول : « ذهبت إلى فلان أخى فلان » وهذه من « بديهيات النحو » التى كان يعرفها الناس قديما ، وصارت الآن خافية على الصحف الكبيرة ..

● سمعت أحدهم فى حديث له بإحدى الإذاعات يقول : « ثم دخلت السيدات القاعة ثُلاَثاً .. ثُلاَثاً » .. بضم الثاء فى أول الكلمة وفتحها وتنوينها فى آخرها ..

والصواب ضم « ثُلاثَ » فى أولها وفتحها فى آخرها بلا تنوين .. فيقال : دخلت النساء ثلاث ، ودخل الرجال ثلاث بضم الثاء فى أولها وفتحها فى آخرها من غير تنوين فى جميع الحالات ، وبلا تكرار « ثلاث » مرتين كما فعل صاحبنا الذى كررها وألحق بها التنوين جهلاً ! ..

روما

موسوعة شخصيات القرن العشرين

« بانوراما » . مجلة ايطالية سياسية أسبوعية . تهتم مثل كل المجلات المشابهة بالفنون والآداب والعلوم والاقتصاد . ربما لجذب أكبر عدد من القراء . أو إيمانا بدور هذه الفنون والمعارف فى صناعة مجتمع أفضل .

لكن دور مجلة بانوراما لم يتوقف عند هذه المتابعات الاسبوعية لما يحدث فى ايطاليا والعالم على المستوى الأدبى والعلمى والفنى . فقد اعتادت المجلة منذ فترة من الوقت على توزيع كتيبات كهدايا على بعض من اعدادها . اغلب هذه الكتيبات عبارة عن مراجع مفيدة جداً للقراء.



على سبيل المثال فقد وزعت المجلة بعض القواميس المبسطة ثنائية اللغة من الايطالية إلى لغات عديدة كالانجليزية والفرنسية والاسبانية والالمانية وغيرها .

وفى الشهر الماضى أصدرت المجلة موسوعة صغيرة وزعتها على ثلاثة اعداد تحمل عنوان « ۱۰۰۰ شخصية صنعت القرن العشرين » . تتضمن تعريفا بأشهر الشخصيات التى اشتركت فى صناعة القرن العشرين فى مجالات إنسانية عديدة منها السياسة والاقتصاد والعلم والفنون والآداب .

والموسوعة صادرة بالحجم المتوسط ، وهى مصورة ويمكن للمرء العادى من خلالها ان يتعرف على الكثير من الشخصيات التى عاشت معه يسمع عنها ويتابعها فى وسائل الأعلام المختلفة ، ورغم ان الكثير من هذه الشخصيات معاصرة لنا فإن الكثير منها غير معروف خاصة البارزين فى مجالات الصناعة والعلوم والاقتصاد .

وتجىء أهمية الموسوعة انها لا تهتم كثيرا بالرصد ..قدر اهتمامها بالتحليل والانطباعية وذلك تبعا لعدد الاسطر المخصصة لكل شخصية على حدة حيث لا تزيد بأى حال على ثلاثين سطرا مهما كانت أهميتها ودورها . ليس تقليلا من

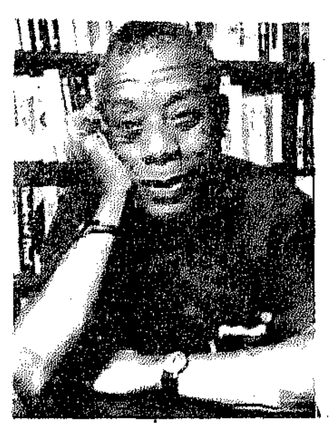
حجمها ، ولكن من أجل اعطاء مساحة أخرى لشخصية يجب الا تسقط من ذاكرة القرن العشرين .

ومقابل هذا العدد الأقل من الاسطر ، فإن الموسوعة تضع الشخصيات الأكثر أهمية داخل براويز بدافع التمييز . وذلك مثلما فعلت مع الكاتب الأمريكى ارنست هيمنجواى والعالم البريطانى ستيفن هوكنج – سبق للهلال ان قدمته فى دراسة مستفيضة – وفريق الخنافس ، والفنان التشكيلى بيكاسو والزعيم الهندى جواهر لال نهرو والرئيس الأمريكى جون كينيدى ، والكاتب المسرحى يوجين ارنسكو

لم تخل الموسوعة من بعض الاهتمام بشخصيات عربية أغلبها عمل فى مجال السياسة مثل جمال عبد الناصر وانور السادات وياسر عرفات . فعبد الناصر كما جاء فى الموسوعة زعيم كبير ناهض الاستعمار فى الخمسينات والستينات وانه اهتم بتصنيع بلاده ولذا سعى لبناء السد العالى . وبحث عن تطوير بلده اقتصاديا، وانه رغم موته يبقى أهم زعيم عربى معاصر .

واشنطن

الكاتب .. والمباحث


جيمس بولدوين

فى عدد شهر مارس الماضى من مجلة « سكواير » الأمريكية . فتحت الكاتبة ناتالى روبنز ملف الحرب السرية ضد الكتاب الأمريكيين المعروفة باسم الحرب الكارثية ضد المثقفين . اشارت ان مئات الملفات قد فتحت فى ادراج المباحث الفيدرالية باعتبار أن أى كاتب يمتلك حق الانتقاد قد أصبح عدواً للشعب .

الآن . يتم فتح هذه الملفات السرية لمعرفة ماذا كتب رجال المباحث عن الكتاب المشاهير . هذه الملفات التى فتحت باسلوب عشوائى . وبدون أى دلائل كافية لادانة أى كاتب من الكتاب ولذا امتلأت هذه الملفات بمغالطات وافتراءات عن الأدباء . فقد جاء فى ملف الكاتب اروين شو مؤلف رواية « الجائزة » انه شيوعى انضم إلى الأنشطة الشيوعية فى عام ١٩٣٥ اما جون شتاينبك فقد كتب على ملفه «سرى للغاية» وجاء

فيه انه قد تم العثور على رسائل فى بريد الكاتب تدينه بتهمة الشيوعية .

أما ارنست هيمنجواى فقد تم فتح ملفه لأول مرة فى ديسمبر ١٩٤٢ وذلك بتهمة التردد على سفارة كوبا ، وقد كتب جون هوفر رئيس المباحث هذه الملفات بقلمه ذكر فيها ان هيمنجواى كان صديقا للسفير الكوبى . وان هذا يعكس فكر الكاتب .

ومن بين هؤلاء الكتاب هنرى ميللر المعروف برواياته الاباحية الذى فتح له ملف لأنه كتب أثناء الحرب أنه يعتقد ان النازيين شعب متعاون .

وفتحت المباحث الفيدرالية للكاتبة جرترود شتاين ملفا لأنها كانت ضد سياسة الرئيس الأمريكى روزفلت ، ولذا اختارت الإقامة فى أوروبا .

نشيد

مائتا عام من الأناشيد القومية

لكل دولة نشيدها القومى الخاص بها . ويمثل هذا النشيد فى وجدان الناس مشاعر وطنية فياضة ، ويحس المرء حين يردده أو يسمعه بزهو خاص بوطنه ونفسه .

لكن ، لعل القليلين هم الذين يعرفون الكثير عن الأناشيد الوطنية ودورها فى صناعة الوجدان القومى .. وقد اثار هذا الموضوع قريحة الكاتب الفرنسى جان بول ريب الذى ألف كتابا عن أشهر الأناشيد القومية العالمية ، ونشر النص الكامل لهذه الأناشيد مع ذكر لمؤلفيها وتواريخها ، وقد جاء فى الكتاب ان النشيد القومى يستثير المشاعر الوطنية وتختزنه الذاكرة ، وأغلب الأناشيد العالمية تقوم على أفكار انسانية عامة لا تفرق بين الأديان وتدعو إلى « الوحدة . والعدالة والحرية » .

ظهر أول نشيد قومى أثناء الثورة الفرنسية عام ١٧٩٢ . أى منذ مائتى عام بالضبط . ألفه روجيه دوليس من أجل زيادة الحماس لدى الجنود المحاربين فى الراين ، وقد صاحبت كلماته موسيقى معروفة باسم « استير » . مأخوذة عن مقطوعة موسيقية مستوحاة من إحدى مسرحيات راسين ، وقد أصبح هذا النشيد نواة للنشيد المعروف باسم « المارسيلليز » أو « فتاة مارسيليا » ، والغريب ان هذا النشيد قد منع من الترديد ابان حكم لويس الثامن عشر عام ١٨١٦ ثم عاد للظهور مرة أخرى عام ١٨٤٨ ، وتقول بعض كلماته :

هيا يا أبناء الحزب
فقد حان يوم المجد

وقد قسم الكاتب الأناشيد القومية إلى أقسام عديدة . اشدها دموية هو النشيد القومى المكسيكى والدنماركى الذى من كلماته «تنبعث الضحكات الجهنمية من المدافع . كى ترقص فى الحفل المرعب» .

اما نشيدا النرويج وبنجلاديش فيعتبران الأكثر بلاغة ويعتبر نشيد اليابان أكثرها بساطة وقد تم تأليفه عام ١٨٨١ .

بيروت - موسكو

نقاط العالم .. الساخنة

فى أحيان كثيرة ، تكون الخرائط والرسوم التوضيحية أكثر بلاغة عشرات المرات من المقالات والبحوث والدراسات ، ولذا فإن الخريطة التى نشرتها مجلة « لونوفيل أوبسرفاتور» عن النقاط الساخنة فى عالم ١٩٩٢ جاءت أكثر بلاغة من أى ملفات فتحتها نفس المجلة أو مجلات أخرى عن نفس الموضوع .. الدراسة منشورة فى صفحتين متجاورتين فى عدد ٩ يناير ١٩٩٢ ، وبدون أى تعليق ممكن ، وبنظرة واحدة فقط على الخريطة يمكن للمرء ان يعرف الاماكن الأكثر سخونة فى العالم ، وإلى أى حد هى أكثر سخونة .

من النظرة الأولى لهذه الخريطة سنرى ان هناك قارات أشد سخونة ، وقارات أخرى أقل حرارة .. وأماكن عديدة باردة تماما حيث الصراعات . أشد هذه المناطق لهيبا هى قارة آسيا . حيث هناك صراعات وقوات أمن دولية وسباق تسلح وحروب أهلية فى الهند وافغانستان وسرى لانكا وبيرمانيا واندونيسيا والفلبين وكمبوديا والأرض المحتلة . ثم فى جورجيا ولبنان وتركيا وارمينيا والعراق .

أما أفريقيا فإنها تشهد مجموعة من الصراعات فى بقاع متعددة بداية من الصومال وتشاد والسودان وليبريا وتوجو وانجولا التى تشهد جميعها حروبا أهلية . أما اثيوبيا وموزامبيق فتشهد صراعات على السلطة . بينما تتعقد الأمور فى الصحراء الغربية . فهناك حروب تحرير وقوات سلام دولية .

وفى أوروبا تخف الصراعات إلى حد كبير . ففى أسبانيا وايرلندا وقبرص هناك حركات تحرر قومى اما يوغسلافيا فتشهد حرباً أهلية ضارية .

مجلة تولد وأخرى تموت

بقلم : د. على شلش

عشت أثناء الحرب العالمية الثانية بقرية قريبة من الصحراء الغربية ، وكان هذا القرب سببا فى أول إنطباع لى عن الإنجليز والألمان معا . فقبلها لم أر انجليزيا واحدا ، مع أن الإنجليز كانوا يحتلون البلاد ، ولكنى رأيت الجنود الإنجليز بكثرة عندما راحت لورياتهم تخترق قريتنا بين يوم وآخر ، وعليها عشرات من الأسرى الألمان الذين أوقعتهم هزيمة روميل فى الأسر . وكانت اللوريات تجمعهم من أطراف الصحراء ، وتنقلهم إلى الإسكندرية عن طريق القرية . وذات يوم رأيت قافلة اللوريات تقترب فوقفت للفرجة مع بعض أطفال القرية . وكنا اعتدنا كأطفال أن نلتقط ما يلقيه إلينا الجنود الإنجليز من حلوى وشيكولاتة ، ثم نصيح بأعلى أصواتنا «هايل هتلر» . ولم أكن أعرف وقتها أن «هايل» الألمانية هذه تعنى التحية والترحيب ، فهكذا تعلمناها من الكبار ، وهكذا كنا نرددها ، ولا نلقى إلا الابتسام من الجنود الإنجليز ، والهتاف بذات العبارة من الأسرى الألمان .



غلاف العدد الأول من مجلة بنش

ولأمر ما حدث فى ذلك اليوم الأخير أن تأخر الإنجليز فى إلقاء حلواهم وشيكولاتاتهم ، فهتفنا هتافنا ، فإذا من نصيبنا هذه المرة لفافة من الورق تصيب رأس أحدنا . ولما فتحناها أدركنا أنها مجلة انجليزية ، فرحنا نهتف من الغيظ ، والأسرى يهتفون وراءنا ، وحراسهم الإنجليز يضحكون عليهم وعلينا !

وكانت المجلة من نصيبى فأخذتها إلى أبى الذى تصفحها ، وأعجب بها قليلا ، ثم تركها لى ، فبقيت عندى حتى منتصف دراستى الابتدائية . وكانت أول صحيفة بتلك اللغة التى بدأت وقتها فى تعلمها بالمدرسة . ومنها التقطت بعض الكلمات ، ولكن ما شدنى إليها كان الرسوم الكاريكاتيرية . وكانت الكلمة الوحيدة التى بقيت فى ذهنى منها هى اســـمها ذاته : Punch . وقد فسره لى أبى وقتها – بعد استشارة القاموس – بأنها تعنى اللكم أو النخس أو الخرم . وعندما أطلعت عليها مدرس الإنجليزية ذات يوم فرح بها ، وسألنى إن كنت أعرف معنى اسمها فرددت عليه تفسيرات أبى، أو القاموس بمعنى أصح، ولكنه لم يقبل هذه التفسيرات، واستشار قاموسه ، فأضاف معنى آخر هو نوع من الشراب المخلوط من عدة عناصر مع الكحول أو بدونه . ثم طلب منى المدرس أن يحتفظ بالمجلة قليلا لقراءتها ، ولم يعدها لى بعد ذلك . ومضت الأعوام حتى أصبحت من زبائن سور الأزبكية فى القاهرة ، وذات يوم من أيام الخمسينيات

رأيت كومة من أعداد المجلة معروضة للبيع فأثارت في نفسي كوامن الذكريات حتى اشتريت بعضها . وللمصادفة اكتشفت أن ما اشتريته يعود تاريخه إلى سنى الحرب العالمية . ولكن الاكتشاف الحقيقى كان مادة المجلة ذاتها ، وهى مادة منوعة تقطر ظرفا وسخرية وهجاء ، ولا سيما فى الرسوم الكاريكاتيرية المصاحبة لها . ولابد أن هذه المادة كانت فى وقتها من منشطات روح المقاومة لغارات هتلر وقنابله المستمرة على لندن وغيرها من مدن الإنجليز .

وعندما زرت بلاد الإنجليز بعد ذلك ، وأقمت بينهم ، كانت مجلة «بنش» هذه على رأس صحفهم التى يشوقنى الإطلاع عليها . ولكنها كانت قد تغيرت كثيرا عن «بنش» القديمة التى رافقت سنوات الحرب . ومع ذلك عرفت - لأول مرة - المعنى الحقيقى لاسمها ، وهو اسم شخصية كاريكاتيرية ظريفة يمثلها رجل أحدب معقوف الأنف ، دائم الشجار مع زوجته المشاكسة التى تحمل اسم «جودى» . ومن اسميهما معا (بنش وجُودى) يتشكل اسم لعبة القراقوز، أو الأراجوز ، عند الانجليز : Punch and Judy وكان رسم الزوجين القراقوزين يتصدر غلاف المجلة عند ظهورها .

وفاة بنش

هذه المقدمة الطويلة من قبيل الحديث ذى الشجون . فقد كثر حديث الإنجليز فى الشهر الماضى عن «بنش» التى أعلنت عن توقفها المفاجئ ، وأذيع الخبر ، ونشر فى نشرات الأخبار المسموعة والمرئية ، ونعى المعلقون المجلة لقرائها الذين يبلغون اليوم ٣٣ ألفا فقط ، وهو رقم لا يعول مجلة أو صحيفة محترمة ، إلا إذا كانت متخصصة فى الأدب أو فى الكلاب ، بعد أن كان ١٧٥ ألفا قبل سنوات قليلة ، مما تسبب فى خسارة كبيرة للمؤسسة المنتجة للمجلة ، وصلت إلى مليون جنيه انجليزى فى السنة !

وكانت المجلة قد صارت منذ عام ١٩٨٩ تخاطب جمهورا من فئة ٢٠ - ٤٠ سنة ، وتزيد فى عنف فكاهتها ووقاحة كاريكاتيرها ، بل عينت شابا عمره ٣٣ سنة رئيسا لتحريرها . ولكن الشباب لم

يعد يقبل عليها ، ولم تعد هى تربى جمهورا جديدا ، فى حين أن جمهورها الأصلى من الكهول كان يمكن أن يعولها ، لولا تصابيها بغير مبرر ولا سند يحميها .

من أطرف ما نشر فى رثاء المجلة نعى صادر من نقابة أطباء الأسنان جاء فيه :

«يحزننا أن نشهد وفاة مؤسسة عظيمة كهذه . فصالات الاستقبال (فى عياداتنا) لن تعود كما كانت» .

والسبب أن عيادات أطباء الأسنان بالذات ، حيث يواجه الانتظار الطويل زبائنها ، درجت على الاشتراك فى المجلة من أجل تسلية الزبائن ، وتخفيف آلام العلاج . ولكن هذه العيادات لم تكن وحدها من مشجعى «بنش» ، فقد انضم إليها كثير من عيادات الأطباء الآخرين وصالونات الحلاقة والتجميل . ومعنى هذا أن الباقى منها للشراء العادى لا يسمن ولا يغنى . وويل لأى مجلة تنزل إلى مستوى التوزيع الذى من هذا النوع .

فى الوقت ذاته نبش كثيرون فى تاريخ هذه المجلة العريقة التى ظهرت يوم ١٧



تشارلز ديكنز

يوليو ١٨٤١ لتكون مجلة أسبوعية هزلية مصورة . ومنذ ذلك التاريخ ، وحتى ظهور آخر عدد يوم ٨ أبريل ١٩٩٢ ، حافظت على شخصيتها الأساسية عموما ، وصمدت لمنافسات طاحنة ، وتوالى على تحريرها عدد لا بأس به من كبار ظرفاء الكتاب ورسامى الكاريكاتير . وكان الكاريكاتير الذى تنشره ينقل أولا بأول فى مجلات وصحف كثيرة فى لغات مختلفة ، أو يستوحيه رسامو الكاريكاتير فى العالم الثالث ، أو ينهب نهبا .

وقبل ظهور «بنش» عرفت انجلترا مجلة أو اثنتين من طرازها عامى ١٨٣١ - ٣٢ . ولكن ظهور مجلة «شاريفارى» الفرنسية فى باريس عام ١٨٤٠ نبه بعض محبى الفكاهة والسخرية من الإنجليز إلى تقليدها . وكانت «شاريفارى» Charivari - التى تعنى فى الفرنسية آلة موسيقية بدائية من الصفيح - صحيفة كاريكاتير ناجحة ، فخطر للرسام وحفار الخشب الإنجليزى إيبينزير لاندلز أن يصدر مجلة مثلها . ولما عرض الفكرة على زميل له تحمس لها الأخير ، وعهد الاثنان بتحريرها إلى الكاتبين ليمون وجوزيف كوين ، ثم اكتفى لاندلز بالرسم لها . وبعد قليل انضم إلى تحريرها الروائى المتعدد الجوانب وليم ثاكرى (١٨١١ - ١٨٦٣) ، وأمدها بكثير من لوحاته القلمية ورسومه الكاريكاتيرية ومقالاته الظريفة . ثم انضم إليها أيضا عدد آخر من الكتاب والفنانين ، من أشهرهم هود وليتش وكين ودوموربيه ودويل وتيدى وسكارف .

عند ظهورها وضعت تحت اسمها عبارة «أو شاريفارى اللندنية» تيمنا بالصحيفة الفرنسية . وفى أول عهدها كانت «بنش» متطرفة فى نقدها ، ولكنها ظلت مجلة الطبقة العالية طوال أجيال . وأشتهرت بنقد الوزراء والسخرية منهم . كما اشتهرت بأنها أول مجلة رفضت النشر للكاتب الروائى - المغمور وقتها - تشارلز ديكنز ، بالرغم من فكاهته المعروفة بل اشتهرت أيضا بتعبيرات ومأثورات معينة مازالت تجرى مجرى الأمثال فى اللغة الإنجليزية . ومن أطرف هذه المأثورات : لا تؤدى اليوم ما تستطيع تأجيله حتى الغد (سخرية من تعبير : لا تؤجل عمل اليوم إلى الغد) ، إذا دفعت فتحمل اختيارك ، نصيحة للمقبلين على الزواج : لا تفعلوا ! ولم يكن أى محرر يعمل بها ، أو يطمح للعمل بها ، يحق له أن يكتب كتابة رديئة أو يكون مغمورا !

وفى سبعينيات هذا القرن عين الصحفى المعروف ألان كورين رئيسا لتحريرها ، فجدد الكثير فيها ، وجعل غلافها ملونا لأول مرة عام ١٩٧٨، ولكنه لم يستطع المساس بسر شهرتها ، وهو الظرف والجرأة . وقد وصف هو نفسه كتاباتها - ذات مرة - بأنها «مقالة

فودفيلية» نسبة إلى مسرح الفودفيل الفرنسى الذى تختلط فيه خفة الظل مع التسلية والفكاهة . أما آخر رؤساء تحريرها ، ديفيد توماس ، فلم يستطع المحافظة على هذا السر ، برغم شبابها ، فرفع عيار السخرية ، واكتفى بجمهور الشباب ، دون أن يصد المساءلات القانونية الكثيرة التى وقعت فيها المجلة بسبب جرأتها ووقاحتها ، ولم يستطع أن يضحك القراء كما كانوا يضحكون فى الماضى .

دورة حياة للبشر والمجلات

ماذا يمكن أن نتعلم من هذه الحياة الطويلة لمجلة عريقة ؟

قبل أن نجيب نعود إلى نص طريف من نصوصها لأحد كتابها الأوائل ، وهو وليم ثاكرى . وقد أعيد نشر النص فى كتاب صدر منذ سنوات بعنوان «روح الشرق» . ولا ترجع طرافته إلى أن صاحبه كاتب ظريف وحسب ، وإنما إلى أنه وثيقة ظريفة ومجهولة أيضا . ففى عام ١٨٤٤ سافر ثاكرى إلى الإسكندرية ، ثم إلى القاهرة ، وزار أهرام الجيزة ، ثم عاد وكتب مقالاً للمجلة ، زوده برسم كاريكاتيرى يمثله جالسا على قمة الهرم الأكبر ، واستهله بقوله :

«نسيت اليوم الذى شهد معركة الجنرال بونابرت بمنطقة الأهرام .. حيث قال لجنوده إن أربعين قرنا من الزمان ترنو إليكم من على قمة هذه البنايات - وهذه عبارة أشك جدا فى صحتها» .

وصور ثاكرى بعض تجربته مع الأهرام فقال :

«عندما صعدت إلى الهرم (الأكبر) لم أستطع التفكير إلا فى جسر ووترلو فى حبيبتى لندن . فهو بناية ضخمة ورائعة وجميلة وغير نافعة بمقدار ما هى وحيدة . لم يمر عليها بعد أربعون قرنا من الزمان ، هذا صحيح ، ونادرا ما عبرها زوج من عربات الأجرة التى تجرها الخيل . ولكنى أشك فى حصول المساهمين فى تشييدها على حصة أفضل لعاصمتهم من حصة حملة الأسهم السمر الذين يشتغلون بالمضاربة فى منطقة الأهرام ، وهى منطقة داست ترابها أجيال لا حصر لها من أبنائهم .» .

ثم تحدث ثاكرى عن مساهمته فى إحياء ذكرى «بنش» على أكبر هرم قائلا :

«إذا كان مر على قمة الأهرام أربعون قرنا كما يقول بونابرت فكل ما أستطيع قوله هو أننى لم أر هذه القمة . ولكن مجلة «بنش» كانت هناك فى الحقيقة ، وأقسم على هذا . لقد قمت بوضع ملصق واحد على أول حجر قابلنى (من يدرى كم من الزمن سوف يحترم الشره البدوى هذه الهيروغليفية المقدسة ؟ !) .

وبعد أن ترك الملصق الذى جاء به ، وشبه الكتابة الإنجليزية التى عليه بالهيروغليفية ، صور كيفية صعوده إلى أحد الأحجار العالية ، وكيف حمله إلى الحجر – وهو ثقيل الوزن – أربعة رجال سُمر أشداء ، ثم ثبت الملصق على الحجر ، ونزل إلى الأرض فرحا بنجاحه والوفاء بوعده للمجلة !

نعود إلى سؤالنا الذى ينتظر الجواب . ولا يوجد درس لهذه التجربة سوى الدرس المعروف تقريبا ، وهو أن المجلات مثل البشر ، لها دورة حياة تنتهى بالنهاية المحتومة . ولكن الذى يطيل حياة مجلة عن أخرى هو درجة إحساس محررها والمساهمين فيها بنبض العصر ، ومدى توفيق هؤلاء فى التعبير عن الخطة التى رسموها للمجلة . ومع أن كل محرر جديد يأتى عادة بخطة جديدة- فالخطة بنت العصر . والحاجة إلى خدمة ثقافية أو إعلامية معينة تفرض على المجلة نوعية الخطة ومجالها . والمحرر الشاطر ، بعد ذلك ، هو الذى يصنع من هذا كله توليفة مقبولة وجذابة ، ومع أن الصحف والمجلات فى بريطانيا سلعة اقتصادية واستهلاكية أساسا فهى أيضا سلعة قابلة للبوار إذا تهاون منتجوها فى أدائهم أكثر من مرة . وهذا ما حدث للراحلة «بنش» على أى حال، حين صار معظم سوقها وقفاً على عيادات الأطباء وصالونات الحلاقة !

وفى الوقت الذى قررت فيه «بنش» الاحتجاب والتوقف ظهرت مجلة جديدة . وهذا شئ طبيعى ، لأن أصحاب خطة المجلة الجديدة لابد أنهم درسوا السوق جيدا ، ولاحظوا أن فيه مكانا شاغرا نتيجة بوار «بنش» .

المجلة الجديدة اسمها «ذا أولدى» The Oldie أى «العجوز» . ومع أنه اسم يحدد سوقها وقراءها فهذا هو المطلوب ، لأنها لا تريد أكثر من العجائز المتقاعدين . وقد وضعت على غلاف عددها الأول كاريكاتيرا طريفا مناسبا للعجائز بالألوان . وعلى امتداد صفحاتها الاثنتين والخمسين ينبض أسلوب «بنش» الظريف القديم الذى كان يخاطب الكهول . أما

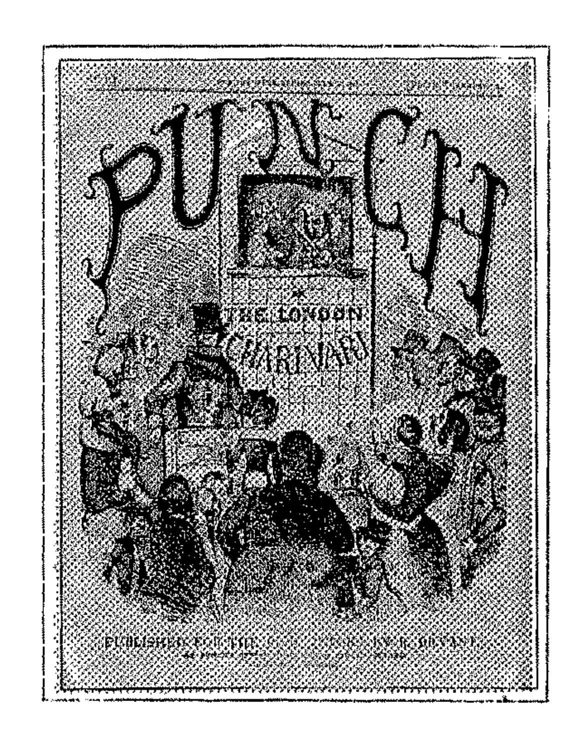
الاستثمار . وقبل أن أعرف ما كان يدور وجدت نفسى أقود حملة صليبية» .

ثم شكر كل من ساعده بالمال أو التسهيلات المكتبية (لأن المجلة لم يكن لها مكتب فى البداية) وعلى رأسهم الناشر الفلسطينى الأصل نعيم عطا الله . كما شكر محرر جريدة «الإندبندانت» على فصله كاتبة عمود شهيرة مما أتاح له توظيفها . واختتم كلامه بأن المجلة «لا يسندها مدد لا ينفد من المال . فإذا أعجبتك (أيها القارئ) فلك أن تساعدنا باشتراك عن طريق ملء الاستمارة المنشورة» .

ومن الصعب التنبؤ بشئ الآن عما سيكون من نصيب «الأولدى» هذه ، ولكن من السهل ملاحظة الفراغ الكائن فى مثل هذا النوع من المجلات الظريفة قبل ظهورها . وظهورها ذاته جاء عندما سقطت زميلتها «بنش» ، وراحت تلفظ آخر أنفاسها .

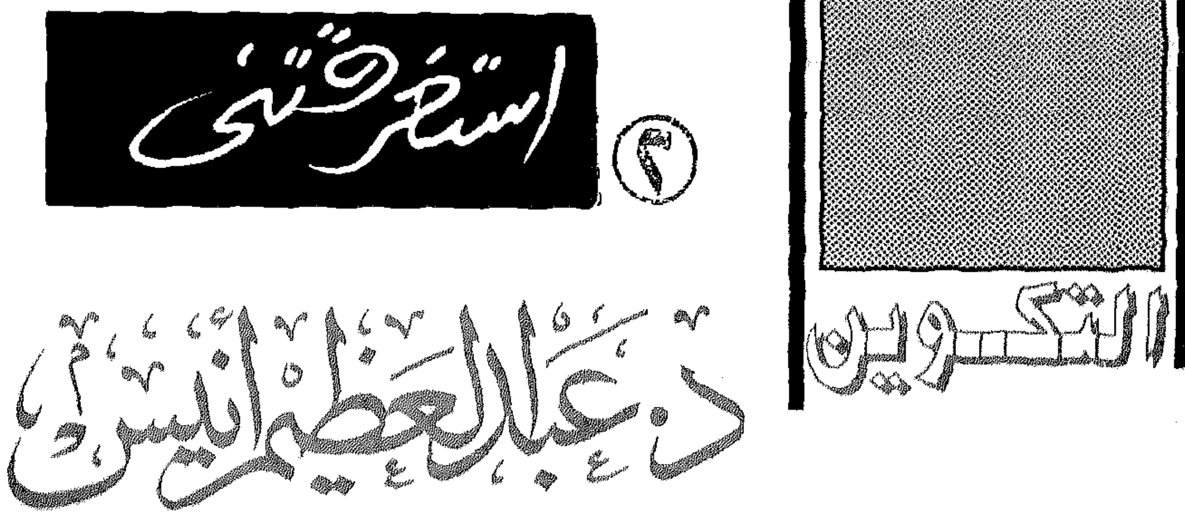
وهكذا الحال فى المجلات :

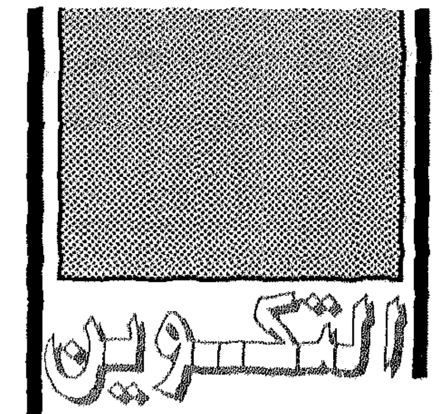
مجلة تولد وأخرى تموت ، ولا يبقى غير حاجة البشر إلى القراءة !



محررها – ريتشارد إنجرامز – فهو محرر مجلة أخرى طريفة رحلت فى السنوات الأخيرة ، كان اسمها «العين الشخصية» . وقد أصبح عمره ٥٤ سنة ، أى على أبواب السن التى يخاطبها ، ولكنه لم يفقد خفة ظله وطرافة أسلوبه . وفى افتتاحيته الموجزة كتب إنجرامز :

«بدأت حياة «العجوز» كنكتة . ولكن الجميع أخذوها مأخذ الجد فور أن أعلنت عنها . وراحت عروض المساعدة تنهال علىّ ، واتصل بى الناس تليفونيا يريدون



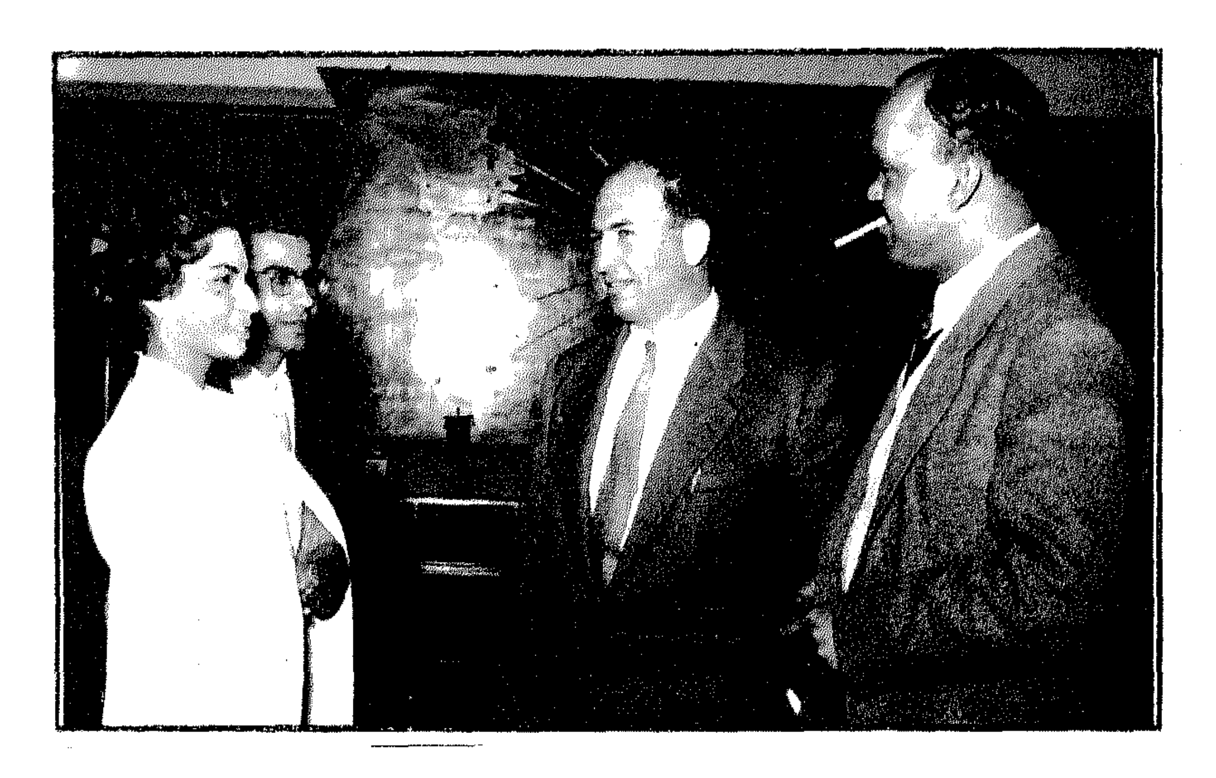


هــذا هــو الجـزء الثـانى من مرحلة « تكوين » الدكتور عبد العظيم أنيس ، وقد تعرض فى الجزء الأول إلى بعض العوامل التى أثرت فى بداية مرحلة تكوينه . ومن هذه العوامل نشأته فى حى الأزهر وجذور عائلته ، وانتقاله إلى حى العباسية وأثر ذلك على تعليمه ومعاناته فى المرحلة الأولى للدراسة ورسوبه فى امتحان القبول الابتدائى ، وقدوة أخيه الاكبر له وانتقاله للمرحلة الثانوية واشتراكه فى المظاهرات ضد الانجليز وبداية تكوينه الثقافى وأثر دار الكتب فى هذا التكوين وكذلك حصوله على التوجيهية ودخوله كلية العلوم قسم الرياضيات والتى كانت نقطة تحول فى حياته .

فى مايو سنة ١٩٤٤ حصلت على الدرجة الخاصة فى الرياضيات بكلية العلوم جامعة الملك فؤاد الأول (القاهرة) وعينت فى أوائل سبتمبر من نفس العام معيدا بكلية العلوم جامعة الملك فاروق (الاسكندرية) . ومع أنه كانت هناك فرصة لتعيينى بجامعة القاهرة إذا انتظرت ، فاننى آثرت عدم الانتظار لأسباب عديدة فى مقدمتها أننى كنت حريصا على أن أعيش حياة مستقلة عن الأسرة خصوصاً بعد وفاة والدتى وبداية تفكك الأسرة بزواج الكثير من أبنائها .

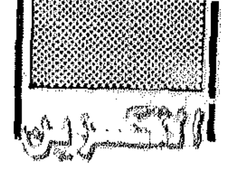
لكنى ذهبت إلى الاسكندرية وأنا أحمل فى داخلى ذكريات علاقات عديدة بالقاهرة لعبت دورا هاما فى تحديد مسار حياتى واهتماماتى بالاسكندرية . لقد ساعدت ظروف تربيتى وما صادفته الأسرة من مصاعب بسبب الحرص على التعليم على اهتمامى منذ وقت مبكر فى شبابى بالعمل العام وعلى توفر إحساس مبكر بالالتزام قبل الآخرين خصوصا إذا كانوا من

السياسة فى عائلتها كل حياتى



د. أنيس مع خـالد محيى الدين رئيس تحـرير المسـاء وزوجتـه عام ١٩٥٧

الفئات المضطهدة والمظلومة والمطحونة اجتماعيا . فمثلا عندما جاءت وزارة الوفد إثر ازمة فبراير سنة ١٩٤٢ بين الملك والانجليز - وسط غارات جوية ألمانية وإيطالية على القاهرة والاسكندرية - وكانت قوات روميل قد وصلت إلى العلمين ، تطوعت للالتحاق بمدرسة الوقاية من الغارات الجوية بالزيتون التى كانت قد أنشئت لتدريب المشرفين على أعمال الوقاية من الغارات ، وكان سنى آنذاك لا يزيد على ستة عشر عاما . وعندما خصصت الجمعية التعاونية للبترول خمسة فى المائة من أرباحها السنوية للخدمة الاجتماعية وقامت بإنشاء مبرتين للأطفال الفقراء (مبرة الاميرة فادية بالدمرداش ومبرة الأميرة فريال بالقلعة) سارعت وأنا طالب بالجامعة بالتطوع للعمل المجانى فى المبرة الأولى التى كانت قريبة من منزلنا ، وقضيت فترات الصيف لثلاثة أعوام متتالية أعمل متطوعا بتلك المبرة فى فصول محو الأمية وفى الطواف على منازل الأطفال الفقراء بالمحمدى لبحث



الحالة الاجتماعية لا . طفل واقتراح معونة مالية لها وكان يشرف على هذا العمل من قبل الجمعية التعاونية للبترول اثنان من كبار المولين فيها .... كامل عبد الرحيم وكيل الخارجية المساعد آنذاك وسفير مصر في واشنطن بعد ذلك والمستشار عبد المنعم رياض الذى كان من قضاة محكمة النقض .

الشباب والخدمة الاجتماعية

ولقد استطعت إقناع بعض زملائى - ومنهم د . محمد عجلان - بالاشتراك فى هذا العمل التطوعى الخيرى خلال فترة الصيف ، ونجحت فى ذلك مما أسعد المسئولين عن هذه المبرة ، خصوصا كامل عبد الرحيم الذى كان يرى فى هذا العمل نقطة تحول فى توجهات الشباب نحو الخدمة الاجتماعية . وساعد على توثق صلتى به أنه قد بدأ يكتشف أن موظفى وزارة الشئون المنتدبين للعمل بالمبرة كانوا يختلسون بعض الاموال المخصصة للانفاق عليها ، فما كان منه إلا كلفنى بمسئولية الانفاق على المبرة يوميا وتقديم كشف حساب له كل شهر . وعندما تخرجت من كلية العلوم وعينت معيدا بالاسكندرية أقام كامل عبد الرحيم حفلة شاى بمنزله بمصر الجديدة لتحيتى وتوديعى وأهدانى باسم المبرة أربعة كتب فى الرياضيات قيل لى إنها سوف تفيدنى فى حياتى العلمية الجديدة .

كانت تلك إذن صورة سريعة لاهتماماتى بالعمل العام - الخدمة الاجتماعية - عندما ذهبت إلى الاسكندرية . ولقد أشرت إلى ذكريات العلاقات الكثيرة مع زملاء لى التى حملتها معى عند ذهابى إلى الاسكندرية . وهنا يجدر أن أشير إلى علاقتى بالدكتور عبد المعبود الجبيلى - وزير البحث العلمى فى السبعينيات ومدير مؤسسة الطاقة الذرية قبل ذلك - كان عبد المعبود معيدا بقسم الكيمياء تخرج قبلى بعامين وكان محل انتباه الانظار بالكلية له لتفوقه العلمى وذكائه واهتمامه بالشئون العامة ولقد حاولت اجتذابه للعمل معنا فى الخدمة الاجتماعية بمبرة الأميرة فادية فلم أجد منه الحماس الذى توقعته ، وأدى بنا هذا إلى حوار طويل حاول فيه إقناعى بأن الخدمة الاجتماعية لن تؤدى إلى تغيير حقيقى فى الاحوال المتردية للمجتمع المصرى وأنها لا تزيد على أن تكون مسكنا من المسكنات مثل الاسبرين ، وأن الحل الحقيقى الجذرى هو الثورة على النظام الملكى القائم ، وأن مثل هذا العمل فى حاجة إلى إعداد طويل .

وشيئا فشيئا بدأت أشك فى أنه مرتبط بشكل ما بتنظيمات ماركسية غير معلنة ، ثم تيقنت من صحة هذه الشكوك عندما بدأ يتحدث معى ببعض الصراحة ويعيرنى بعض الكتب الماركسية الانجليزية مثل « ما هى الاشتراكية » لإميل بيرنز ، وكتاب « الامبريالية أعلى مراحل الرأسمالية » للينين ، وملخص لكتاب « رأس المال » لماركس ، وكتب أخرى ترضى اهتماماتى بالفلسفة مثل كتاب «الايديولوجيا الالمانية»، « ضد دهرونج » لماركس وكتاب « المادية

والنقد التجريبى » للينين . ولقد التهمت ك هذه الكتب وتصورت أننى فهمت وإن كنت قد أدركت فى فترات لاحقة أن الفهم الحقيقى لا يتحقق إلا بمعرفة السياقين الاجتماعى والثقافى اللذين ألفت فيهما هذه الكتب . غير أن أهم كتاب أثار اهتمامى آنذاك هو فى الحقيقة كتاب إنجلز « جدل الطبيعة » ، وهو محاولة من المؤلف – على ضوء اكتشافات العلوم الطبيعية فى القرن التاسع عشر – لاستخلاص قوانين الجدل من تلك الاكتشافات . وهذا الكتاب بالذات كان محل انبهارى الشديد فى تلك الفترة من شبابى لأنه بدا لى أنه يقدم تعميما مثيرا لبعض النتائج العلمية – فى الرياضيات والفيزياء والبيولوچى – لم أسمع به من قبل ، ولقد لفت نظرى على وجه الخصوص كيف اكون رجلا مثل إنجلز يكون على هذا المستوى من المعرفة مع أنه غير متخصص فى العلوم .

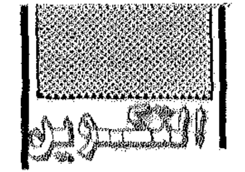
وبالطبع فعندما أنظر الآن إلى هذا الكتاب أشعر أن هذا الاعجاب المبكر كان مصدره جهلى بأشياء كثيرة عن العلم . وقد يكون كتابا جيدا بمعنى تاريخى ، لكن التطورات العلمية للقرن العشرين قد تجاوزت نتائجه دون شك ، وبعض نتائجه فيما يتعلق بالرياضيات التى تبدو لى اليوم ساذجة كان مصدرها معرفة إنجلز السطحية بهذا العلم .

الثورة هى الحل

تلك كانت البداية إذن ... مناقشات مستمرة مع عبد المعبود الجبيلى وغيره من الأصدقاء وقراءة متصلة فى كتب ماركسية كان يعيرنى إياها ، وكل هذا انتهى بى إلى الاقتناع بوجهة نظره بإنه لا يوجد حل لمشاكل مصر الاجتماعية غير الثورة ، وأن خير ما يفعله شاب مثلى هو المشاركة فى الاعداد لها . وهكذا ارتبطت بمنظمة « إسكرا » التى كان الجبيلى أحد قياداتها . وعندما تمت الوحدة بين « إسكرا » وبين « الحركة المصرية للتحرر الوطنى » عام ١٩٤٧ وتكونت منظمة «الحركة الديمقراطية للتحرر الوطنى» (حدتو) أصبحت واحدا من أعضائها .

ولقد كانت مصر – فى ظل الازمة الطاحنة التى كان يجتازها النظام الحاكم – تموج بتنظيمات غير قانونية كثيرة من بينها بالطبع تنظيم الضباط الاحرار الذى كان يقوده البكباشى جمال عبد الناصر ومع أننى لم أكن على علم بتنظيم الضباط الاحرار فقد كنت أشعر بشكل غامض أن هناك شيئا يجرى داخل الجيش بين ضباطه الصغار ، وكان مصدر هذا الشعور أننى قابلت آنذاك عددا من الضباط الصغار ذوى الميول الاشتراكية من بينهم الملازم أول أحمد حمروش ، وقد فهمت أنهم يؤدون بعض الخدمات التنظيمية الثورية مستفيدين من سيارات الجيش .

ولقد كانت هناك حاجة شديدة لدى منظمة « إسكرا » لتكوين مجموعة مصرية قوية من المثقفين بالاسكندرية . لقد كان لها وجود نشيط ضمن أجانب الاسكندرية ، لكن وجودها ضمن المصريين كان قريبا من الصفر ولذا لا أشك أن مجموعة المعيدين بكلية العلوم بالاسكندرية قد لعبت دورا



رئيسيا فى تشكيل تنظيم مصرى فى أوساط طلاب الجامعة وشبابها . وساعد علي ذلك أننا نجحنا فى إنشاء ناد ثقافى بحى الازاريتا بالاسكندرية كان محل لقاء الشباب المتحمسة بالشئون العامة ، وفى تأسيس رابطة للمعيدين تدافع عن مصالحهم النقابية . كما أن صدور مجلة « الجماهير » الاسبوعية بالقاهرة كان عنصرا هاما فى تجنيد العناصر المتحمسة لقضية الثورة .

وبطبيعة الحال كانت هناك خواطر من الحيرة والريبة تلم بنا نتيجة إدراكنا أن هناك تنظيما لإسكرا فى أوساط الاجانب لا نعرف عنه شيئا . ولكن مما خفف هذا الوضع علينا فى الاسكندرية أننا كنا نعمل بنجاح كبير فى أوساط الطلاب العمال وكان الانفصال الكامل بين التنظيمين المصرى والاجنبى يساعد على أن ننسى هذه المسألة على الأقل فى السنوات الأولى .

وكانت تلك الفترة (١٩٤٥ - ١٩٤٨) تتميز بجيشان جماهيرى واسع وتحركات شعبية من السخط والاحتجاج ضد الاحتلال البريطانى الرابض فى القاهرة والاسكندرية وضد النظام الملكى الذى كان قد فقد شعبيته وبالتالى شرعيته تماما . وبشكل عـــام كانت أحوال المعيشة سيئة بالنسبة للغالبية من المطحونين اجتماعيا وكانت الأوبئة تكتسح البلاد - الكوليرا مثلا - وتفتك بالألوف ، وكان الرأى العام - وخصوصا الشباب - معاديا للنظام الملكى ولفاروق خصوصا بالرغم من الجهود الحثيثة التى كان يبذلها الاخوان مصطفى وعلى أمين لتقديم صورة زائفة عن الملك وأسرته أمام الرأى العام .

صراع مع الانجليز

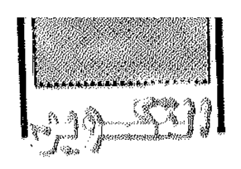
وعندما أتأمل اليوم أحداث تلك الفترة تتدافع إلى ذكرتى أشياء عديدة قد يكون من المفيد أن أشير إلى أهمها باعتبارى واحدا من شهودها أو المشاركين فيها . وأولها بطبيعة الحال اللجنة الوطنية للطلبة والعمال التى قادت مظاهرات ٢١ فبراير سنة ١٩٤٦ ضد الاحتلال فى ميدان التحرير وفى مواجهة ثكنات قصر النيل البريطانية (وكانت محل مبنى الجامعة العربية وفندق هيلتون النيل) ، مما أدى إلى سقوط العشرات من الشهداء برصاص قوات الاحتلال . لقد كان هذا العمل الجماهيرى المجيد حدثا تاريخيا بمعنى الكلمة ، وحتى اليوم ما زال الطلاب فى العالم يحتفلون بهذا اليوم (٢١ فبراير) سنويا باعتباره (يوم الطلاب العالمى) .

ولأنى كنت فى الاسكندرية فلم يكن لى أدنى صلة لا بتشكيل تلك اللجنة ولا بمظاهرات ذلك اليوم المجيد . وإنما ذكرته هنا لأن هذا الحدث الجليل كان له رد فعل غاضب بالاسكندرية يوم ٥ مارس حيث وقعت المصادمات التى كنت من شهودها بين مواقع البوليس الحربى البريطانى بمحطة الرمل والمنشية وأدت إلى مصرع عدد من جنود الاحتلال .

بعد هذه الأحداث بنحو شهرين أو ثلاثة فيما أذكر وقعت مصادمات أخرى بين طلاب جامعة الاسكندرية وقوات البوليس المصرى التى كانت تحاصر مبنى الجامعة فى محرم بك حيث كانت توجد كلية العلوم وكلية الحقوق وانتهت بحادث فاجع وهو مقتل ضابط من قوات الشرطة . وجن جنون قوات الأمن فأمطرت الجامعة سيلا من الرصاص واعتقلت كل من خرج من الجامعة سواء من الطلاب أو هيئات التدريس ، وظل الحصار مضروبا حول الجامعة إلى منتصف الليل عندما حضر وزير التعليم - محمد العشماوى - من القاهرة فى طائرة وأمر برفع الحصار . وخلال فترة الحصار قمت مع مجموعة من معيدى كلية العلوم بكتابة عريضة احتجاج على الحصار وجمعنا توقيعات العديد من أعضاء هيئات التدريس الذين كانوا معنا فى الحصار بما فى ذلك توقيع عميد كلية العلوم - الدكتور حسين فوزى - وعميد كلية الحقوق الدكتور عبد المعطى خيال . واتصلت تليفونيا بأحد الاصدقاء خارج الجامعة وأبلغته نص عريضة الاحتجاج طالبا منه أن يبرق بها إلى صحيفة المعارضة الوفدية (صوت الأمة) . وبالفعل صدرت الجريدة فى صباح اليوم التالى وفى صفحتها الأولى نص البرقية فى برواز كبير موقعا عليه باسمى نيابة عن الموقعين ، وكان ظهور اسمى بهذا الشكل مجرد مصادفة إذ أن موظف التلغراف أصر على وجود اسم يتحمل مسئولية هذه البرقية فكان أن أعطاه صديقى اسمى. واستشاط رئيس الوزراء - اسماعيل صدقى - وكلف وزير التعليم بالتحقيق فى الموضوع ، واعتقد أننى كنت على وشك الفصل من الجامعة بسبب هذه العريضة لولا أن الوزير اكتشف أن عميدى العلوم والحقوق من الموقعين فضلا عن عدد كبير من أعضاء هيئة التدريس ، ولم يكن من السهل إذن تحميلى المسئولية .

محاولة فاشلة لاعتقالى !

ولابد أن تلك الواقعة كانت ذات صلة بوضع اسمى فى كشوف حملة اعتقالات اسماعيل صدقى التى نفذت فجر ١١ يوليو سنة ١٩٤٦ واعتقل فيها العديدون من بينهم محمد زكى عبد القادر والدكتور محمد مندور وعبد الرحمن الشرقاوى وهنرى كورييل وآخرون كثيرون ، والتى قصد بها فى حقيقة الأمر تصفية النشاط الجماهيرى البارز الذى كان اليسار المصرى - بالتعاون مع الطليعة الوفدية - قد نجح فى قيادته . ولم يتمكن بوليس الاسكندرية من اعتقالى لأنهم ذهبوا إلى عنوان كنت قد تركته منذ أسابيع قليلة . وشاء الحظ العاثر للضابط المكلف بالعملية أن يفتش منزل أحد نواب حزب السعديين بحثا عنى ، ورفض أن يعترف أن لهذا المنزل حصانة برلمانية . وفى اليوم التالى تقدم النائب باستجواب فى البرلمان ، وكانت العلاقات بين اسماعيل صدقى والسعديين قد بدأت تتوتر لأسباب أخرى فحمل النواب حملة شديدة على الوزارة واضطر رئيس الوزراء إلى أن يلقى بيانا فى البرلمان يشرح فيه ملابسات خطأ الضابط الذى كان مكلفا باعتقالى ضمن الحملة ، وقدم اسماعيل صدقى اعتذارا



النائب عما حدث وأعلن أن الضابط قد نقل إلى الصعيد عقابا له .

قرأت كل هذا وأنا في مخبئي عند أحد الاصدقاء بالاسكندرية وقد تردد اسمي كثيرا في كل هذه المساجلات البرلمانية . وفي أوائل سبتمبر كانت النيابة قد أفرجت عن جميع من اعتقلوا في حملة يوليو وحفظت التحقيق ، فعدت إلى الجامعة وعند خروجي منها ظهرا في أحد الأيام وجدت ضابطا في انتظاري حيث قضيت في قسم محرم بك ليلة شديدة الطرافة ، وفي الصباح توجهت إلى النيابة بالمنشية ، فما كان من وكيل النيابة إلا أن سألني بضعة أسئلة شكلية وتولى هو الإجابة عليها ثم رجاني أن أذهب إلى الجامعة فور خروجي من مكتبه . ولم أفهم السبب في هذا الطلب إلا عندما علمت عند وصولي إلي الكلية بإضراب الطلاب احتجاجا على اعتقالي .

أما الواقعة الثالثة الجديرة بالإشارة هنا فتتعلق بأحداث ٥ ، ٦ ابرايل سنة ١٩٤٨ المعروفة باسم « إضراب البوليس ». لقد كان لضباط البوليس وجنوده مطالب تتعلق بزيادة الرواتب وتحسين ظروف العمل . وقد فشلوا في إقناع رئيس الوزراء النقراشي الذي كان عنيدا إلى حد الحماقة ، بعدالة تلك المطالب . وعندئذ دعوا إلى إضراب عام لهم في يوم ٥ إبرايل ، وكان لهذه الدعوة إلى الاضراب امتدادات جماهيرية واسعة في الاسكندرية على وجه الخصوص . فقد تزامن هذا الموضوع الخطير - إضراب البوليس - مع مطالب نقابية خاصة بالأجور لعمال الغزل والنسيج وغيرهم ، كما تزامن مع موضوع طلابي آخر عرف آنذاك باسم « قضية سعد فريد » .

كان سعد فريد طالبا بكلية العلوم قبض عليه في حي كرموز وقيل إنه كان يوزع منشورا يساريا عند أبواب شركة الغزل الاهلية . وفي إجراءات حكومية عاجلة ومقصودة للتخويف حوكم سعد فريد وصدر عليه حكم بالسجن ستة أشهر وقد آثار هذا الحكم ثائرة طلاب الجامعة لأنه كان أول حكم يصدر ضد طالب . كل هذا كان قد جرى قبل ٥ ابريل بشهر على الأقل . لكن غياب البوليس في هذا اليوم المشهود كان فرصة مواتية لمظاهرات عارمة التحم فيها العمال مع الطلاب مع جنود البوليس في مظاهرات ملأت ميدان المنشية وكان جنود البوليس يرفعون سناكي بنادقهم وعلى قمتها رغيف عيش إشارة إلى مطالبهم . واتجهت بعض هذه المظاهرات إلى سجن الحضرة لاطلاق سراح سعد فريد . ونزلت قوات الجيش بالدبابات والعربات المصفحة إلى الميادين وأطلقت النيران وسقط العديد من القتلى والجرحى . وفي هذا اليوم - أو ربما اليوم التالي ٦ ابرايل - وزعت منشورات باسم (حدتو) كان عنوانها «تسقط الملكية وتحيا الجمهورية» . وكانت تلك أول مرة توزع فيها مثل هذه المنشورات الثورية بين الجماهير . ولقد أشرت منذ سنوات في مكان آخر إلى هذه الواقعة وذكرت أن كاتب المنشور كان في الحقيقة الشاعر كمال عبد الحليم الذي كان آنذاك المسئول



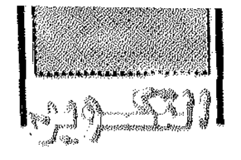
زيارة رشيد كرامى وزير الاقتصاد اللبنانى لمعهد الإحصاء الدولى ببيروت ١٩٥٤

السياسى فى (حدتو) لمنطقة الاسكندرية ، وأن كاتب هذه السطور هو الذى قام بطبع المنشور فى أحد مطابع محرم بك وتنظيم توزيعه ، وكنت آنذاك مسئول الدعاية والتثقيف فى نفس لجنة المنطقة .

اعتقالات بالجملة

لقد كان هذا المد الثورى بالاسكندرية والقاهرة هو السبب الحقيقى لقيام حكومة النقراشى بإعلان الاحكام العرفية فى ١٥ مايو سنة ١٩٤٨ رغم أنها اتخذت من موضوع فلسطين تكئه لهذا الاعلان ، ولعل الدليل الواضح على ذلك أنها لجأت إلى اعتقال كل القوى السياسية المناوئه للنظام بادئة باليسار ثم قوى الطليعة الوفدية ثم الاخوان المسلمين بعد ذلك بشهور . وكنت بالطبع واحدا من المعتقلين الذين اودعوا فى معتقل (أبو قير) بالاسكندرية ثم نقلت بعد ذلك بشهور مع آخرين إلى المعتقل المخصص للقاهرة (معتقل الهاكستيب) ثم نقلت مع آخرين إلى معتقل (الطور) على ساحل البحر الأحمر بالقرب من دير سانت كاترين ، وقد تجمع فى هذا المكان الذى كان أصلا مخصصا للحجر الصحى الآلاف من اليسار والاخوان المسلمين . وكان الهدف هو عزلهم تماما عن القاهرة والعالم الخارجى ، وكانت وسيلة الاتصال الوحيدة بين المعتقل وبين السويس هى الباخرة «عايدة» التى كانت تأتى لنا بالمؤن والمأكولات والخطابات كل أسبوعين .

وقد قضيت فى تلك المعتقلات نحو عام ونصف مرضت فى آخرها ونقلت إلى



مستشفى الدمرداش وبقيت فيه من سبتمبر سنة ١٩٤٩ حتى أفرج عنى فى ١٠ يناير سنة ١٩٥٠ عندما أجريت الانتخابات العامة وعادت الحكومة الوفدية فأفرجت عن جميع المعتقلين .

ومن الضرورى الاشارة إلى أن قصة الاعتقالات هذه قد تزامنت مع الانقسامات العديدة التى وقعت فى صفوف اليسار وأدت إلى تضعضع نفوذه . صحيح أن الخلافات وبداية الانقسامات كانت قد بدأت قبل إعلان الأحكام العرفية والاعتقالات ، وذلك بانقسام شهدى عطية الشافعى الذى عرف آنذاك بـ «تكتل سليمان» . ولكن قضية فلسطين والموقف من مشروع التقسيم وبداية اعتقالات ١٥ مايو سنة ١٩٤٨ ... كل ذلك خلق مناخا مواتيا لانقسامات أوسع بين مؤيدى مشروع التقسيم ومعارضيه فى صفوف اليسار ، وكان من الطبيعى أن يثور فى هذا المناخ وضع الاجانب واليهود داخل قيادة (حدتو) وخصوصا هنرى كوريل .

ولقد حاولنا فى الاسكندرية تجنب انقسامات القاهرة ونجحنا فى ذلك إلى حد كبير فى أول الأمر ، لكن اشتداد حملة الاعتقالات ثم ذهابنا إلى معتقل الهاكستيب حيث الانقسامات كانت مكرسة بالفعل أدى بطبيعة الحال إلى أن أصبحت الاسكندرية جزءا من هذه الانقسامات التى صارت أمرا واقعا . ولقد حلت الحكومة موضوع الاجانب فى معظمه بترحيلهم إلى خارج مصر ولم يعد لهذه المشكلة وجود داخل مصر وأن كان بعض هؤلاء المتمصرين من اليهود قد حاولوا إنشاء تنظيم لهم فى باريس باسم (مجموعة روما) . ولا شك أن الانقسامات قد أضعفت نفوذ اليسار إلى حد كبير وأصبح من الواضح لكل ذى عينين أنه إذا قدر لليسار أن يستعيد حيويته ونفوذه فى يوم من الأيام فإن ذلك سوف يستغرق زمنا طويلا .

عندما أفرج عنى فى ١٠ يناير سنة ١٩٥٠ عدت إلى جامعة الاسكندرية كما عاد زملائى الآخرون من المعيدين ، لكننا وجدنا تقاعسا من الكلية فى تسليمنا العمل من جديد . وعدت إلى القاهرة ساعيا لمقابلة وزير التعليم الجديد بالوزارة الوفدية - الدكتور طه حسين - لشرح الأوضاع له . ولقد نجحت فى ذلك بفضل سكرتيره الخاص (حسين عزت) ومدير مكتبه (سعيد العريان) . ولقد كان موقف الوزير رائعا على الرغم من أنه لم يكن يعرفنى أصلا ... أنصت باهتمام كعادته لكل ما قلته ثم أشار إلى حسين عزت أن يطلب له مدير جامعة الاسكندرية تليفونيا . وبقيت فى غرفة حسين عزت إلى أن استدعانى الوزير مرة أخرى لمقابلته فإذا به يطلب منى أن أذهب إلى الاسكندرية لتسلم عملى ، وقد علمت بعد ذلك عندما عدت إلى الاسكندرية أنه شدد على مدير الجامعة بضرورة عودتنا إلى عملنا .

بداية مرحلة جديدة

ولقد كانت عودتى إلى العمل بكلية العلوم بداية لمرحلة جديدة إنتهيت فيها - بعد مراجعة فكرية طويلة - إلى ضرورة

اتخاذ موقف جديد من النشاط السياسى نتيجة ما استجد من ظروف . لقد تمزقت قوى اليسار إلى كيانات صغيرة بلا وزن حقيقى ، واتضح لى سذاجة تفكيرنا السياسى الذى كان يتوهم أن ثورة بقيادة قوى اليسار هى على الأبواب . ولقد كنا محقين فى الوصول إلى نتيجة أن نظام فاروق قد أصبح كالثمرة العفنة التى على وشك السقوط ، لكن الخطأ كان فى تصور أن اليسار كان قادرا على التصدى لقيادة التحول . ولقد ثبت تاريخيا أن ضباط الجيش بتوجههم الوطنى العام (وإن ضموا عناصر تنتمى إلى اليمين والوسط واليسار) هم الذين كانوا مؤهلين لقيادة معركة التحول فى معركة سرعان ما تم التخلص فيها من عنصر اليسار الموجود فى القيادة (خالد محيى الدين) .

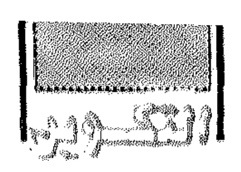
وكل هذا التحليل قد انتهى بى إلى ضرورة السفر إلى الخارج للحصول على الدكتوراه ما دمت سأبقى فى الجامعة . وطلبت من صديق لى كان قد عاد من بريطانيا بعد حصوله على الدكتوراه أن يحجز لى مكانا فى إحدى كليات جامعة لندن ، وعندما تم هذا بدأت أستعد علميا للسفر ، أذ مشاكل العمل السياسى كانت قد أبعدتنى عن اهتماماتى العلمية ، وهكذا سافرت فى أوائل سبتمبر سنة ١٩٥٠ إلى لندن .

ومن المفارقات الغريبة التى وقعت لى قبل سفرى بأقل من شهرين أن وزير الداخلية فى وزارة الوفد - فؤاد سراج الدين - استدعانى إلى مقابلة فى مكتبه بلاظوغلى فى يوليو سنة ١٩٥٠ كما استدعى زميلى د . محمد عجلان . وقد أجرى معنا حوارا سياسيا طويلا حول أفكارنا وبرنامجنا السياسى تحدثنا معه بصراحة حول قضايا الاصلاح الزراعى وبرنامج النهوض بالريف وحول قضايا التأميمات (خصوصا شركة قناة السويس) وحقوق الحركة العمالية النقابية ... الخ ، وكان رأى الوزير أن الكثير مما ندعو له موجود فى برنامج الوفد ولم نوافق بالطبع على هذا الرأى . وقد فهمت السبب الأساسى لدعوته عندما قال إن تقارير القسم المخصوص له تقول إننا مستمرون فى نشاطنا السياسى غير القانونى ، ولم يكن هذا صحيحا بالمرة فقد كنت أستعد للسفر إلى لندن ومشغولا بإعادة تأهيل نفسى من الناحية العلمية .

ولقد أوضحت هذا للوزير الذى فوجىء بنبأ استعدادى للسفر إلى لندن . ولقد ذكرته فى الرد على تقارير القسم المخصوص الزائفة بما كان يهتم هو به عام ١٩٤٩ من نفس هذه الأجهزة بأنه يدبر مؤامرة لاغتيال رئيس الوزراء آنذاك النقراشى - ولم يملك الوزير إلا أن يبتسم ويسكت عند سماعه كلامى . ومن طرائف هذا اللقاء أن ضابط القسم المخصوص الذى حضر هذا اللقاء واستمع إلى هجومى على تقارير القسم المخصوص هو ممدوح سالم الذى صار رئيسا للوزراء بعد ذلك فى عهد السادات .

● ● ●

قضيت فى بريطانيا عامين بالتمام والكمال من سبتمبر سنة ١٩٥٠ إلى سبتمبر سنة ١٩٥٢ لاعداد رسالة



الدكتوراه فى الاحصـ ـصى بإحدى كليات جامعة لندن . ومع أنى قضيت فيما بعد نحو خمس سنوات أخرى فى بريطانيا كمدرس بالجامعة (طوال سنتى ١٩٥٥ ، ١٩٥٩) وكأستاذ زائر لاحدى جامعتها (ثلاث سنوات خلال السبعينيات) إلا أن فترة الدكتـوراه كانت نقطة تحـول شديدة الأهمية فى حياتى العلمية وتكوينى الثقافى .

وفى العادة يستغرق الاعداد للدكتوراه فى الفروع المعملية للعلوم الطبيعية حوالى أربع سنوات أو أكثر ، لكن فى الرياضيات بالذات يصبح من الممكن - ولو أنه نادر - أن ينتهى الطالب من إعداد رسالته خلال عامين ميلاديين إذ ساعده الحظ فى موضوع البحث أرهق نفسه بالعمل المتواصل وهو ماحدث معى إذ رغم سوء حظى فى مناسبات عديدة من حياتى فإن الموضوع الذى اقترح علىَ بحثه كان أصلا قد بدأ على يد المهندسين المدنيين . وقد وصل إلى أستاذى من خلال أستاذ الهندسة المدنية بنفس الكلية التى التحقت بها (الكلية الامبراطورية) . والموضوع يتلخص فى أن مهندسا استشاريا بريطانيا مرموقا - هيرست - عمل فى مصر سنين طويلة وارتبط اسمه بدراساته المنشورة عن نهر النيل كان قد نشر فى مجلة الهندسة المدنية الامريكية بحثا هاما يحاول فيه بناء نظرية للتخزين القرنى (مائة سنة) للمياه فى بحيرة فكتوريا . وقد صادف هذا البحث العديد من المسائل النظرية العامة فى علم الاحتمالات والاحصاء . وكعادة المهندسين فقد حاول هيرست أن يعطى إجابات تقريبية علي مسائل من نوع : كم يكون حجم الخزان إذا أريد له ألا ينضب خلال المائة سنة وعلى أساس تصرف مائى متوسط معين كل عام ؟ ولقد كان المطلوب منى هو معالجة منهجية لهذه القضايا وإعطاء إجابات دقيقة غير تقريبية عليها ، وهذا ما نجحت فيه فى نهاية الأمر وأدى بى إلى علاقة خصبة مع هيرست بعد ذلك .

ولقد اقتضى هذا العمل المتواصل صباحا فى حضور محاضرات لطلبة الدراسات العليا ولطلبة ما قبل البكالوريوس ، وبعد الظهر فى الذهاب إلى مكتبة الكلية ومكتبة المتحف العلمى البريطانى ، وفى المساء فى مواصلة القراءة بالمنزل فى كثير من الاحيان . ولا شك أنها كانت مرحلة أساسية فى تكوينى العلمى .

تكوينى الثقافى

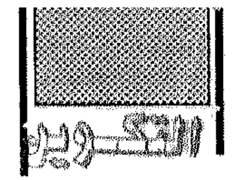
غير أن هذه المرحلة لم تكن أساسية فى تكوينى الرياضى فحسب ، وانما كانت أيضا شديدة الاهمية فى تكوينى الثقافى العام ، إذ انفتحت فيها على الجوانب الايجابية العظيمة فى الثقافة الغربية عموما وفى الثقافة الانجليزية خصوصا . ومن حسن الحظ أن الكلية التى التحقت بها كانت فى أحد أحياء لندن المشهورة (سوث كيننز نجتون) وهو حى المتاحف الكبيرة ... متحف فيكتوريا وألبرت ، المتحف العلمى البريطانى ، متحف التاريخ الطبيعى ... الخ ، كما أن به قاعة ألبرت الشهيرة والتى

كانت تعقد بها الحفلات الموسيقية الكبيرة والاجتماعات الجماهيرية الضخمة ، وكل هذا كان يبعد عن غرفتي بالكلية خطوات . ولا شك أننى مدين لقاعة ألبرت بتذوقى للموسيقى الكلاسيكية خصوصا بيتهوفن وموتسارت وهما أحب موسيقيين إلى قلبى ، كما حرصت فى عطلات نهاية الاسبوع على التردد على المسرح البريطانى والاستمتاع بروائعه ، ولم أفلح مع ذلك فى تذوق الاوبرا والاهتمام بها .

كما كانت إقامتى فى بريطانيا فرصة للقراءة فى الادب الانجليزى وحضور ندوات ثقافية واجتماعية وسياسية وزيارة العديد من المدن البريطانية . ورغم هذا البرنامج الحاشد لم أفقد اهتمامى بتتبع شئون مصر السياسية ومشاكلها وكتبت بين الحين والآخر مقالات لصحيفة ديلى وركر البريطانية باسم (ص . الايوبى) ، كما حرصت على التردد على النادى المصرى يومى السبت والاحد للالتقاء بزملائى الدارسين لمناقشة الاوضاع فى مصر . وقد استطعنا تشكيل « اللجنة الوطنية » لمتابعة الموقف فى مصر والاستجابة له بالعمل الطلابى الصحيح ، وأذكر من أعضاء هذه اللجنة د . حكمت أبو زيد وزيرة الشئون الاجتماعية خلال المرحلة الناصرية ، د . فائق فريد نائب وزير الكهرباء الاسبق .

وقد قامت هذه اللجنة بأعمال مهمة عديدة ومنها أنها كانت تصدر نشرة غير دورية عما يجرى فى مصر سياسيا ونقابيا عرفت باسم « السلام والاستقلال » وكنا نرسلها إلى النقابات والهيئات البريطانية بالبريد . والحقيقة أن هذه النشرة كان يصدرها أصلا د . عبد المعبود الجبيلى فى باريس وكان يرسلها لى فنتولى ترجمتها إلى الانجليزية وطبع أعداد كافية منها وإرسالها إلى النقابات والهيئات .

ولقد نجحت اللجنة الوطنية فى عقد مؤتمرات مختلفة للطلاب المصريين فى بريطانيا بالنادى المصرى فى المناسبات السياسية والاجتماعية المختلفة ، وقد تميزت تلك الفترة فى مصر بأحداث سياسية واجتماعية مهمة ومتدافعة مما ساعد على اهتمام الطلاب المصريين بحضور تلك المؤتمرات فى لندن . غير أن أهم عمل اضطلعت به تلك اللجنة ونجحت فيه المؤتمر الضخم الذى عقد بالنادى المصرى أثر هجوم القوات البريطانية على محافظة الاسماعيلية وحريق القاهرة فى ٢٦ يناير سنة ١٩٥٢ . وكانت نفوس الطلاب تغلى سخطا على الاوضاع فى مصر التى أدت إلى تلك الكارثة الرهيبة ، وفى هذا الاجتماع تحدثت طويلا عن المؤامرة التى دبرها الاحتلال مع الرجعية المصرية لاسقاط وزارة الوفد وحرق القاهرة ، كما تحدث غيرى من الطلاب فى هجوم صريح على النظام الملكى فى مصر محملين فاروق وقوات الاحتلال المسئولية الاولى فيما حدث ، بل لقد وقف أحد الدارسين (د . عبد الحميد أمين) وطالب بضرورة أن يتنازل الملك فاروق عن العرش كبداية لحل الأزمة المستحكمة . ولقد صفق الطلاب طويلا لهذا الاقتراح ولكنه تسبب فى إحراج شديد لمدير مكتب البعثات — د . عبد العزيز عتيق — الذى كان زوج



شقيقة عبد الحميد أمين ، وهو نجل كاتبنا الكبير أحمد أمين .

ولم يمض على هذا المؤتمر سوى شهور قليلة حتى تحول الضباط الاحرار للاستيلاء على السلطة فيما عرف باسم ثورة يوليو سنة ١٩٥٢ . وفى هذه المناسبة دعونا لمؤتمر حاشد من جميع مدن بريطانيا لمناقشة الوضع الجديد . وكانت المعلومات المتاحة شحيحة عن طبيعة وتوجهات هذه الحركة الجديدة ، إلا أن الحدث الذى دفعنا إلى تأييد حركة الجيش بشكل حاسم هو طرد فاروق من مصر وتنازله عن العرش ، فقد كان هذا مطلبا من مطالبنا فى مؤتمر أواخر يناير سنة ١٩٥٢. وأرسلت باسم اللجنة والمؤتمر برقية تأييد للثـورة أذيعت من راديو القاهرة ، وازدادت قناعتى بصحة هذا الموقف عندما أعلنت الجمهورية لاحقا .

قرار بالفصل من الجامعة

بعد وقوع الثورة بشهرين قدمت رسالة الدكتوراه ونجحت فى الحصول على الدرجة وعدت إلى مصر متفائلا ببداية مرحلة جديدة . ولم أذهب إلى جامعة الاسكندرية كما كان مفروضا وإنما صدر قرار وزارى بنقلى إلى كلية العلوم جامعة القاهرة لأحل محل د . طلبة عويضة الذى كان قد أعير إلى العراق . وبقيت فى قسم الرياضة البحتة بالكلية المدرس الوحيد بين عدد من الأساتذة المساعدين وأستاذا واحدا أتحمـل عبء تدريس ١٤ ساعة أسبوعيا حتى وقعت أزمة مارس سنة ١٩٥٤فانحزت إلى دعوة الديمقراطية مع خالد محيى الدين ومحمد نجيب ، وكنت من الموقعين على العريضة التى طالبت بعودة الجيش إلى ثكناته . وكان أن صدر قرار من مجلس قيادة الثورة فى ٢٤ سبتمبر سنة ١٩٥٤ بفصلى مع ٤٢ عضوا من هيئات التدريس بالجامعات معظمهم من الذين اتخذوا هذا الموقف . وكان من بين هؤلاء د . عبد المنعم الشرقاوى ، ود . لويس عوض ، ومحمود أمين العالم . ود . فوزى منصور (من جامعة الاسكندرية) وآخرون كثيرون .

ولقد كان صدور هذا القرار صدمة كبيرة لى فقد كنت قد قضيت عامين فى جامعة القاهرة أدرس وأبحث واكتب مقالات فى الادب والثقافة فى جريدة المصرى ومجلة روز اليوسف . وفى مايو سنة ١٩٥٤طلبت إجازة فى الصيف للسفر إلى بريطانيا لاستكمال بعض الابحاث العلمية هناك ، وقد وافقت جامعة القاهرة وسافرت فعلا وقضيت الصيف كله فى لندن منقطعا لأبحاثى وعدت إلى القاهرة بالفعل يوم ٢٨ سبتمبر سنة ١٩٥٤ ودون أن أعرف أن قرارا من مجلس قيادة الثورة قد صدر يوم ٢٤ سبتمبر بفصلى من جامعة القاهرة . ومن المفارقات الغريبة أن أستاذى فى جامعة لندن الذى أشرف على رسالة الدكتوراه استدعانى لمقابلته قبل ترك لندن بأيام وفاجأنى أنه قد طلب منه أن يرشح أحد تلاميذه لشغل وظيفة محاضر فى

الاحصاء بإحدى كليات الجامعة وأنه قد خطر فى ذهنه أن يرشحنى لشغل هذه الوظيفة . وقد اعتذرت فورا وقلت له إن جامعة القاهرة أولى بجهودى . وبعد هذا اللقاء بأيام عدت فعلا إلى القاهرة لأجد قرار مجلس قيادة الثورة فى انتظارى ، وهكذا أصبحت فجأة فى القاهرة بلا عمل وبالطبع أبرقت إلى أستاذى أخبره أننى قبلت عرضه وأن خطابا فى الطريق يشرح لماذا غيرت رأيى .

ولست أنسى فضل الذين حاولوا مســـاعدتى فى هـذه الظـــروف ومنهـم د . عبد المنعم الشافعى الذى كان آنذاك وكيلا لوزارة الشئون ، والذى رشحنى للعمل فى معهد الاحصاء الدولى (فرع بيروت) . وبالفعل سافرت إلى بيروت فى نوفمبر سنة ١٩٥٤ وقضيت هناك نحو أربعة شهور أدرس فيها لطلاب معهد الاحصاء الدولى . ومن بيروت سافرت إلى بريطانيا فى فبراير سنة ١٩٥٥ وبقيت فيها نحو عامين محاضرا بكلية تشلسى للعلوم والتكنولوچيا حتى تأميم قناة السويس فى يوليو سنة ١٩٥٦ وعندئذ قررت أن أقدم استقالتى من عملى لأتفرغ للدفاع عن قرار التأميم أمام الرأى العام البريطانى . والغريب أن إحسان عبد القدوس - وكنت على صلة به وأبعث له مقالاتى فينشرها فى روز اليوسف - كان قد كتب فى فبراير سنة ١٩٥٥ مقالا طويلا على صفحتين فى مجلته عنوانه « الرجل الذى سرقه الانجليز» يدعو فيه إلى إعادتى إلى جامعة القاهرة ويطالب الثورة بتصحيح هذا الخطأ ، وكان مقالا شجاعا فى تلك الظروف . ثم جاءت مسألة التأميم واستقالتى من عملى فى لندن فوضعت القيادة فى مصر فى موقف حرج والغريب أن الملحق العسكرى فى السفارة المصرية بلندن طلب منى ألا اشترك فى العمل الجماهيرى فى بريطانيا المدافع عن التأميم والمناهض للحرب لأنه كان يتصور أننى سأقف فى هذا العمل معارضا لعبد الناصر باعتبارى مفصولا من الجامعة لكنى رفضت طلبه بالطبع واتخذت الموقف الذى أملاه على ضميرى الوطنى وهو الدفاع عن التأميم وعن عبد الناصر فى موقفه من الجزائر وباندونج .

ولقد تعاونت فى هذا النشاط مع «حركة تحرير المستعمرات» التى كان الجناح اليسارى من نواب حزب العمال هو القيادة الحقيقية لها (تونى بن وآخرون) واشتركت بهذه الصفة فى اجتماعات جماهيرية حاشدة فى المدن البريطانية المختلفة ، انتهت إلى اجتماع ميدان «الطرف الأغر» بعد بدء العدوان الثلاثى على مصر بأيام . وبعد هذا الاجتماع بأيام عدت إلى القاهرة عن طريق الخرطوم التى بقيت فيها حتى حضور أول طائرة من القاهرة فوصلت القاهرة فى أوائل ديسمبر لأجد عرضا من خالد محيى الدين بالعمل معه فى صحيفة المساء . وقبلت العرض وتحولت من أستاذ جامعى إلى صحفى منقطع للعمل فى بلاط صاحبة الجلالة .

لكن تلك قصة أخرى أرجو أن أعود إليها فيما بعد .

● ١ – فى عدد مارس الماضى من «الهلال» مقال للدكتور الطاهر مكى قدم فيه كتاب «مختار الحكم ومحاسن الكلم» لأبى الوفاء المبشر بن فاتك ، من تحقيق الدكتور عبد الرحمن بدوى ، ولأن الاستاذ معروف بدقته فيما يعرض ، فقد ذكر أن الكتاب طبع فى مدريد وأن ما طبع كان محدودا ، وقد نفدت طبعته منذ زمن بعيد ، ومؤكدا أن أحدا فى القاهرة لا يعرف عن هذا الكتاب شيئا ، ولا ريب فى أن النفى أشق على العالم من الاثبات ، فإذا فات الاستاذ الدكتور مكى أن هذا الكتاب بعينه طبعته (المؤسسة العربية للدراسات والنشر) ببيروت قبل ١٩٨٠ ، وأن الطبعة الثانية صدرت سنة ١٩٨٠ ، فلأن الإحاطة أمر بعيد التحقيق ، وجل من لا يسهو .

٢ – الشاعر فؤاد بدوى فى تسجيل رمضانى مع إذاعة لندن ذكر فى الشعر الرمضانى أن الأخطل قال :

أتُوعـد كل جبـــار عنيد   فهأنا ذاك جبـــار عنيد

إذا لاقيت ربك يوم حشر   فقـل لله : مزقنى الوليـد

والبيتان للوليد بن يزيد وموضوعهما لا علاقة له البتة برمضان ، ويعرف موضوعهما كل من قرأ تاريخ الوليد بن يزيد فى كتاب الأغانى وغيره ..

حسان اليمانى - إمام مسجد

● الذكرى الأولى لعبد الوهاب ●

● فى ٤ مايو الحالى تحل الذكرى الأولى لرحيل الموسيقار محمد عبد الوهاب ، وهذه الأبيات من وحى هذه الذكرى :



ذكراك عـادت فالدموع ترقرق • • لجـلالها قلبى يدق ويخفق

لفـراقكم عـام مضى لكنـه • • تتصـاعد الزفرات فيه فتحرق

يا «كليـوباترا» هل دريت بنعيه • • وسـكبت دمعاً ساخناً يتدفق ؟

فى الخافقين أذاع باسمك غنوة • • من وقعهـا «روما» تغار وتشفق

غنيت أوبريتـا «لقيس» رافعا • • من مجـده «للعامرية» يعشـق

متحججـا بالنار سـار لحيها • • فيـرده «المهـدى» لا يتـرفق

أمحمـد فى الخـلد أنت مـكرم • • جـادتك غـادية تفيض وتغـدق

مصطفى محمود مصطفى - كفر ربيع - منوفية

● أقصـوصـة ● هـل تعـودين يا ديانا ؟

● كان ينام على الحشائش الخضراء تتراقص على أطرافها بقايا قطرات للندى باتت الليل وحيدة ، وفى السماء الصافية انتشر أريج الأزهار وعلى أشعة الشمس المنسوجة عبر الأفق كأوتار آلات العزف كانت الطيور تعزف أغنية للصبح الجديد .

كان ينام «ديمونين» ذلك الراعى الأسمر الجميل ، أى سحر فتنك فيه يا ديانا .. يا أجمل آلهات الجمال المقدس عبر الزمان .. اكنت تنسجين أسطورة بأن الحب لا يعرف العرى المادى .. أم كنت ترسلين إلى عالم البشر رسالة تخطين قوانين العشق فيها لعالمك وللعالم .. فكنت تقبلينه كل مساء فعشقته فاستأثرت به وضربت على أذنيه فى الكهف فصار لا يرى سوى نورك أنت .

آه .. يا ديانا العصرية ما أقربك من «ديانا» وما أبعدنى عن «ديمونين» . إن ديمونين الآن يحبك نفس الراعى الأسمر الذى لا يملك سوى ابتسامة على شفتيه ، إنه هو يحبك لكن لما لم تعودى «ديانا» التى تحب بقلبها والتى تحرص على محبوبها .. صرت ديانا أخرى حتى الاسم انتزع منك . أصبحت تحبين الأسرّة والوسائد الحريرية التى ينام عليها ديمونين . لم تقنعى بابتسامته وصفاء قلبه لا تريدين راعيا بل سيداً وجسورا .

آه يا «ديانا» العصرية ما أبعدك عن «ديانا» وما أقربنى من «ديمونين» .

ناصر محمد خليل - كلية الآداب فى قنا

● هلال رمضان - مارس ●

● اسمحوا لى أن أهنئ الهلال بعيدها المئوى مع تمنياتى لها بدوام النجاح والتوفيق ، وقد جاء عدد مارس من الهلال مشرفا لكل قارئ ومثقف مصرى يفخر بالهلال منارة ثقافية .

لاحظت الإخراج الفنى الجديد والطباعة وقد أعطيا للنفس وا.. ن والعين راحة عند متابعة العدد ، وكذا ترقيم الصفحات بالهلال الرمز الذى .ن إيماءة جميلة من الهلال خاصة فى الشهر المبارك الكريم .

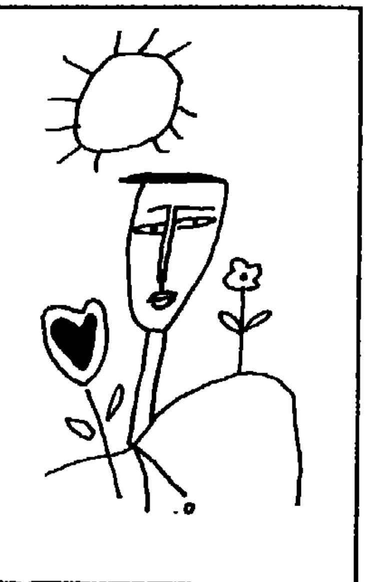
كما جاءت الوجبة الشهية التراثية الفكرية فى عرض بعض .. ب التراث ومقال الاستاذ النجمى والذى يتناسب وروحانية الشهر المبارك وأ.. .. أن يظل تقديم بعض كُتب التراث بأقلام هؤلاء الكُتاب أو غيرهم باب .. أبواب الهلال الثابتة .

كما لا يفوتنى أن أنوه بالإخراج الجديد لباب «أنت والهلال» .. حة المواهب وهمزة الوصل بين الهلال وقرائها .

صلاح عبد الستار الشهاوى دمشيت - طنط

● حبيبتى .. مدينة السكينة ●

رجوتك .. دنياى .. يا غادتى
منامى ، وصحوى ، وإطلالتى
حياتى التى أشرقت شمسها
فى نهار النهار .. وفى الليل
رجوتك .. حقلا ، شهى الثمر
رجوتك .. سقفا ، بديع الصور
رجوتك فى ملك ربى .. مدينة
أنا .. فى رباها .. الهوى ، والسكينة
أنا الناس .. فيها .. النبات ، الجماد
أنا .. كل شئ





لأنى .. فى الحب .. أهـوى (الأنا)
أجئ إليهـــا بشـــبابتى
بكورا .. أصيلا .. عشاء ، وفجرا
فأمضى أغنى .. أغنى .. أغنى
وبالرغم منى أرانى استدرت
وطوقت بالشوق .. ذاك النهارا !!

رمضـان أبو غالية - قويسنا

● تعـليق على لغـويات ●

● من أبواب مجلتنا (الهلال) الهادفة ، خفيفة الظل ، القريبة من القارئ على اختلاف مستوياته العلمية والثقافية : باب (لغويات) ؛ لما يناط به من تيسير لغتنا ، وتصحيحها ، ولفت الأنظار إلى طرائفها وخفاياها .

واعتقادا منى بأننا جميعا يجب أن نشارك فى الحفاظ على مجلتنا بوقارها ، وقوتها .. وحرصا على أن يظل لهذا الباب - على الخصوص - دوره الفعال فى تنمية الثقافة اللغوية ، أرسل إليكم رفق هذا تعليقا صغيرا - أراه مهما - على ما جاء بالباب في عدد مارس عام ١٩٩٢ ، فقد تناول باب (لغويات) معنى كلمة (المضاربة) ، على ما جاء فى لسان العرب ، الذى يقرر أن : «المضاربة أن تعطى إنسانا من مالك ما يتجر فيه ، على أن يكون الربح بينكما ، أو أن يكون له سهم معلوم من الربح» .

ويبدو أن تمنى التقاء أمتنا على ما يوحد صفوفها أعجل الاستاذ محرر الباب ، فلم يشغل نفسه بتحرى الدقة فى المعنى ، وسارع إلى استنتاج أن كلمة (سهم معلوم) تعنى أن تحديد الربح بسهم معلوم منذ البداية ليس حراما ، وأن هذا يعنى إباحة (العائد) أو (الفائدة) فى الاقتصاد المصرفى الحديث، لأنه تحديد للربح بسهم معلوم منذ بداية الإيداع . وتمنى أن يأخذ الفقهاء بالتحديد اللغوى العربى البحت لمعنى (المضاربة) حتى يبطل الجدال الحاد الذى يدور الآن .

ولا ريب فى أن كل غيور على أمته يرجو الله أن يوفق أبناءها إلى البعد عن الجدال الذى يصرف عن مصالحها ، ويرسى دعائمها على الأسس الثابتة الراسخة الملتزمة بشريعتنا الإسلامية الخالصة .

ولكن الاستاذ محرر الباب فاته أن المباح فى المضاربة - كما نقل عن لسان العرب - هو السهم المعلوم من الربح . وأن (العائد) أو (الفائدة) فى الاقتصاد الحديث يعنى : السهم المعلوم من رأس المال ، وليس من الربح .

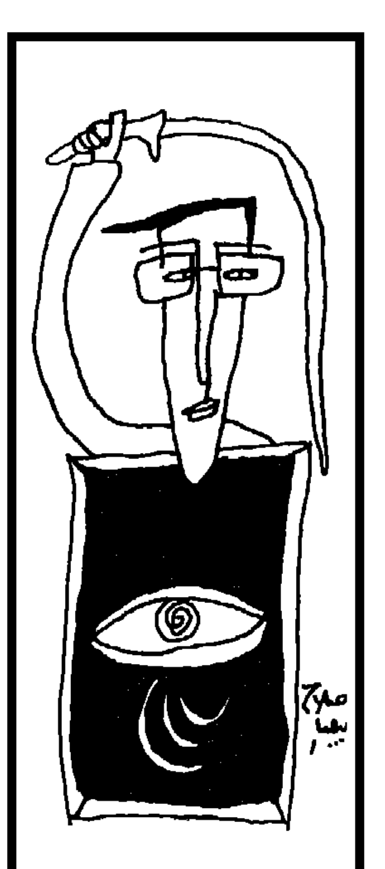
ولا شك فى أن الفارق كبير بين هذا السهم ، وذاك ، وإن أطلق على الاثنين اسم (سهم) وهذا يعنى أن السهم فى المضاربة ليس هو السهم فى المعاملات المصرفية ، كما تبادر إلى تصور الأخ محرر الباب .

هدانا الله جميعا إلى ما فيه مرضاته ، وشرح صدورنا لتقبل الحق والحقيقة ،

الدكتور إبراهيم عوضين - رئيس قسم الأدب والنقدبكلية اللغة العربية - المنصورة

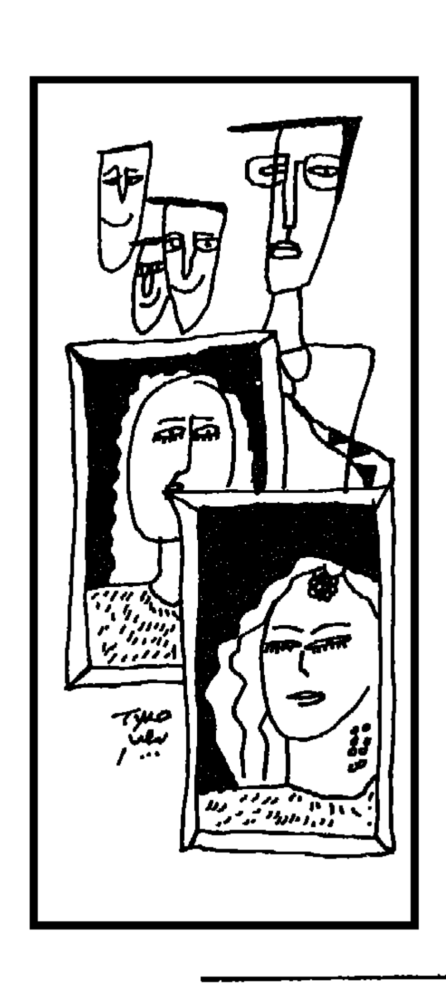
• لوحـــات الزيت •

أحيـانا تقتـلنى الفــكرة !!
تحـــــــرقنى ..
تنثر ذراتى فى وجه الريح .. وتصيح :
أعجــــــزتُ الإنســـــانَ
حولت كيان المســـكين دخانا
أحيـــانا أغــــــدو لغزا ..
أو حجراً معـــدنه الكتمان ..
ما أتعــس هــذا الإنســـان !
وتحط الريح الذرات.. فى أرض دائمة الرى
ترويها عين تنبع من جوف الـ ..
... صـــــدقنى لا أدرى ! ..
لكن يكفى أن المنبــع جـــوف
أرجــع متئداً حيث مــكانى الأول
الســيف المشــرع .. بيمينى ..



وعيـــونى .. شـــاشات ردار ..
الدنيـا قدامى واســـعة .. والوقت نهار
ألمح بعض اللوحات الزيتية تتسمر فوق جدار
بسمات واسعة مرسومة.. فوق وجوه الزوار
وأخيـــــراً ..
أجلس منتظراً ذاك القـــــادم يردينى
ينثر ذراتى فى وجـــــه الريح ..
لأعـــــــود جـديداً .. وأصيح :
« يا هـــــذا الإنســـــــان ..
أنت قـــــــوى إن عـــــــانيت
ووقفت شـــــديداً فى وجه المــوت »
ولعلى أوضحت المعنى فى هذى اللوحة ..
إحـــدى لوحـــــات الـــزيت !!

د. سمير محمد البهواش - أوسيم



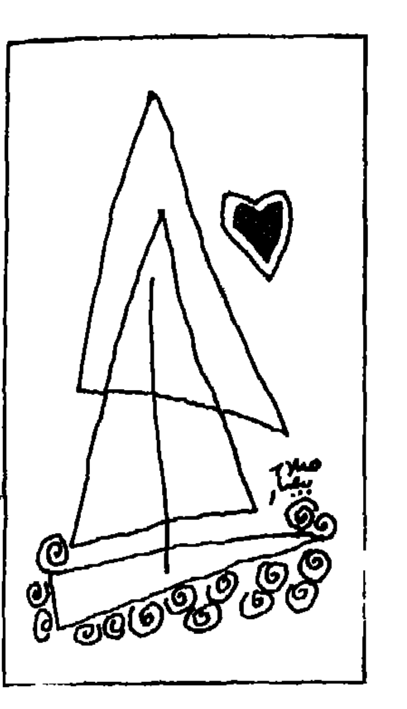
● ٥٠٠ سنة بعد الأندلس ●

● ترقبت طوال الأشهر الأربعة الماضية أن تكتب الصحف المصرية كثيرا أو قليلا عن ذكر ضياع الأندلس العربية لمناسبة مرور خمسمائة عام على استيلاء الأسبان عليها ، وطرد العرب منها بعد أخذهم بالعذاب الوبيل ، والاستئصال والاستعباد ..

إننى أخشى أن يكون هذا هو مصير فلسطين العربية ، فلا يذكرها أحد بعد خمسمائة عام ، بل بعد خمسين عاما ! .. إلا أننى أرجو أن تهبط على العرب معجزة من السماء تمكنهم من تحرير فلسطين ، وإن كان هذا ليس زمن المعجزات ! ..

عبد الراضى أحمد الرملى - القاهرة

● رؤيةُ حبّى ●



ثبتت رؤية حبى فى ســـــماء الراصـدين
فأذاعُوها .. فكانت شَـــرَك القَلبِ الحَزين
كُلما صــــافَحَ أنات الهوى هَزَ صـدَاها
فأضـــاءت فى دم الكون عيونا وشـفاها
لم تَقُل ما كان من نَظرَةِ عَينٍ وابتســـام
فابتِعادٍ قانِعٍ - بالطَّل - من فَيضِ الغمـام
إنمـا قـالت كلاماً عن لقـــاءٍ ووداع
حَجَبَ الرِّيحَ الربيعية عن خُفقِ الشـــراع
فاسـتبَدت بسَفينِ القُربِ آهاتُ الشـتاء
فى مُحيطٍ صــار لا يُفضى لأرضٍ أو سَماء

عبد الرحيم الماسخ - سوهاج.

● شــاعر وشــعره ●

● أكتب الشعر منذ عشر سنوات ، وعمرى الآن عشرون عاما ، وقد شجعنى اساتذتى على كتابة الشعر ، وهذه قصيدة أرسلها إليكم من بين قصائد أخرى اجتمعت عندى فإن كانت لا تصلح للنشر فأنا أريد من سيادتكم أن توضحوا لى مواضع القوة فيها والضعف حتى أتمكن من كتابة قصيدة ذات معنى وقوة فى التركيب .

مـــــــــش «انتى» .... ؟
مـــــــــاذا تـــريدين ....؟
ابتعــــــــدى «لا تقتـــــربين»
فالشــــــــك يراودنى «فيـــــكى»
لأنــــــكى تـــكادى تــــكونين
أقرب إلى الشـــــك منه إلى اليقـــين

فأنتِ عـــــــــــار على بنى جنســـــك
«لأنكى» من الوضاعة «خُلقتى» لا «ليشى» من الطين
ولو كان للحيـــــــــاة «بقـــاءً» بــــدونك
لتمنيـــــــت ألا «تُخـــــــــــــلقين»

ياســـر إبراهيم التحفةشبراخيت - بحيرة

● تعليق الهلال :

– يابنى .. ليس فى «قصيدتك» هذه مواضع قوة ولا مواضع ضعف، لأنها – مع الأسف – خارجة عن الشعر وعن اللغة بنحوها وصرفها، كأنك لا تعرف عنها شيئا .. وقد وضعنا لك كلماتك غير الصحيحة بين أقواس ، كقولك «أنتى» .. وصحتها «أنتِ» بكسر التاء فقط دون مدها بياء بعدها .. ومثل قولك : «لا تقتربين» وهو فعل أمر ، وصحته : «لا تقتربى» .. وقولك : «فيكى» والصحيح «فيكِ» بغير ياء .. وقولك : «لأنكى تكادى» .. وصوابها «لأنك تكادين» .. ومثل «خلقتى» .. ومثل «لو كان للحياة بقاءً» بفتح وتنوين الهمزة وصوابها الضم والتنوين .. ومثل «تمنيت ألا تخلقين» .. والصواب «ألا تخلقى» .. وهناك خطأ إملائى فى السطر الرابع فى كلمة «ليس» فقد جعلتم السين شيناً .. وهكذا أنت – مع الأسف – تحتاج إلى أن تتعلم اللغة العربية من أول سطر فيها قبل أن تكتب أول سطر من الشعر أو النثر ! ..

● مع أصــدقائنا ●

● السادة الشعراء : حسن شراقى .. حنان سلامة البلتاجى .. محمد على بكر .. طارق عرابى .. محمد عبد المنصف .. أحمد الزيبق .. إبراهيم عبد اللطيف منصور .. مفرح السيد عوض .. مصطفى محمد محمد .. سيد يوسف صالح ..

– قصائدكم تحتاج إلى مراجعة فى الأوزان ، ونرحب بتلقى رسائلكم لنعرف مدى التقدم الذى تبلغونه بالمرانة المتواصلة والاطلاع الدائم ! ..

الكلمة الأخيرة

بقلم : د . يوسف خليف

الأمر الذى لا شك فيه أن التليفزيون عبقرية من عبقريات العصر الذى نعيش فيه ، ومعجزة من معجزات العلم الحديث التى حققها إنسان هذا العصر ، ولكنه - وهنا موطن الخطر - سلاح ذو حدين ، له خيره وله شره . ويرجع ذلك إلى تلك القدرة السحرية التى يمتلكها ، والتى تبدو قادرة قدرة غير عادية على اجتذاب من يريد الشهرة والظهور من أيسر سبيل ، ومن يطمح إلى الانتشار السريع من أهون طريق ، ليصبح بين عشية وضحاها ملء السمع والبصر .

ومنذ البداية نحمد له أنه تنبه أخيرا إلى أهمية الدور الثقافى الذى يجب أن يقوم به ولكن هذا الدور - بحكم طبيعة الدور العام المتشعب الذى يقوم به - يبدو سريعا إلى حد بعيد ، وغير مؤثر إلى حد بعيد أيضا ، لأنه - لاعتماده على الكلمة المنطوقة - يختلف اختلافا كبيرا عن الصحيفة أو الكتاب الذى يعتمد على الكلمة المكتوبة التى تكتسب بقاء ها وخلودها من تسجيلها ، ويتحول ببساطة إلى مجرد كلام تبتلعه موجات الأثير ليختفى بعد ذلك .

ولأسباب كثيرة أصبح هذا الجهاز السحرى الخلاب المصدر الأساسى الذى يستمد منه كثير من شبابنا معلوماتهم الثقافية والأدبية ، والمنهل السهل القريب المنال الذى يصل إليهم دون أن يبذلوا جهدا فى الوصول إليه ، والذى يستقون منه مادة تكوينهم العقلى والأدبى ، فقلت حاجتهم إلى الكتاب المتخصص ، وقل اعتمادهم عليه، بل اتجاههم إليه ، وكان الحصاد قشورا خفيفة تتطاير مع الهواء ، وزبدا يذهب جفاء ولا يمكث - ككل ماينفع الناس - فى الأرض . ولذلك أيضا كانت أهم انجازات هذا الجهاز فى المجال الثقافى أنه شارك مشاركة فعالة فى نهضة الفن الروائى والفن المسرحى دون سائر فنون الأدب . وهما - فى غير مجاملة - أهم لونين أدبيين سجلا نهضة رائعة فى حياتنا الأدبية المعاصرة ، كما كان له دوره الأكبر - بل الأوحد - فى إظهار التمثيلية التليفزيونية التى أصبحت أشد ما يشد الجماهير من برامجه ، وهى - فى غير مجاملة أيضا - لا تتصل بالأدب فى مفهومه الصحيح إلا بسبب ضعيف . ولعل هذا أحد الأسباب التى جعلت حياتنا الأدبية والنقدية تتحرك فى بحيرة مسطحة ، ولا تتحرك مع نهر تتدفع تياراته القوية الصاخبة مثيرة حولها ذلك الإحساس بالحياة الذى لاتقوم نهضة أدبية أو نقدية بدونه .

ريتشارد نيكسون

الفرصة السانحة

الترجمة الكاملة

بعد نهاية الحرب الباردة .. هل الإسلام هو الخطر ...؟

التحديات التى تواجه امريكا فى عالم ليس به إلا قوة عظمى واحدة

دار الهلال

أهم ما كتب ريتشارد نيكسون • رؤية للمنهج الجديد

الذى يجب أن تسير عليه أمريكا مستقبلا

ترجمة : أحمد صدقى مراد

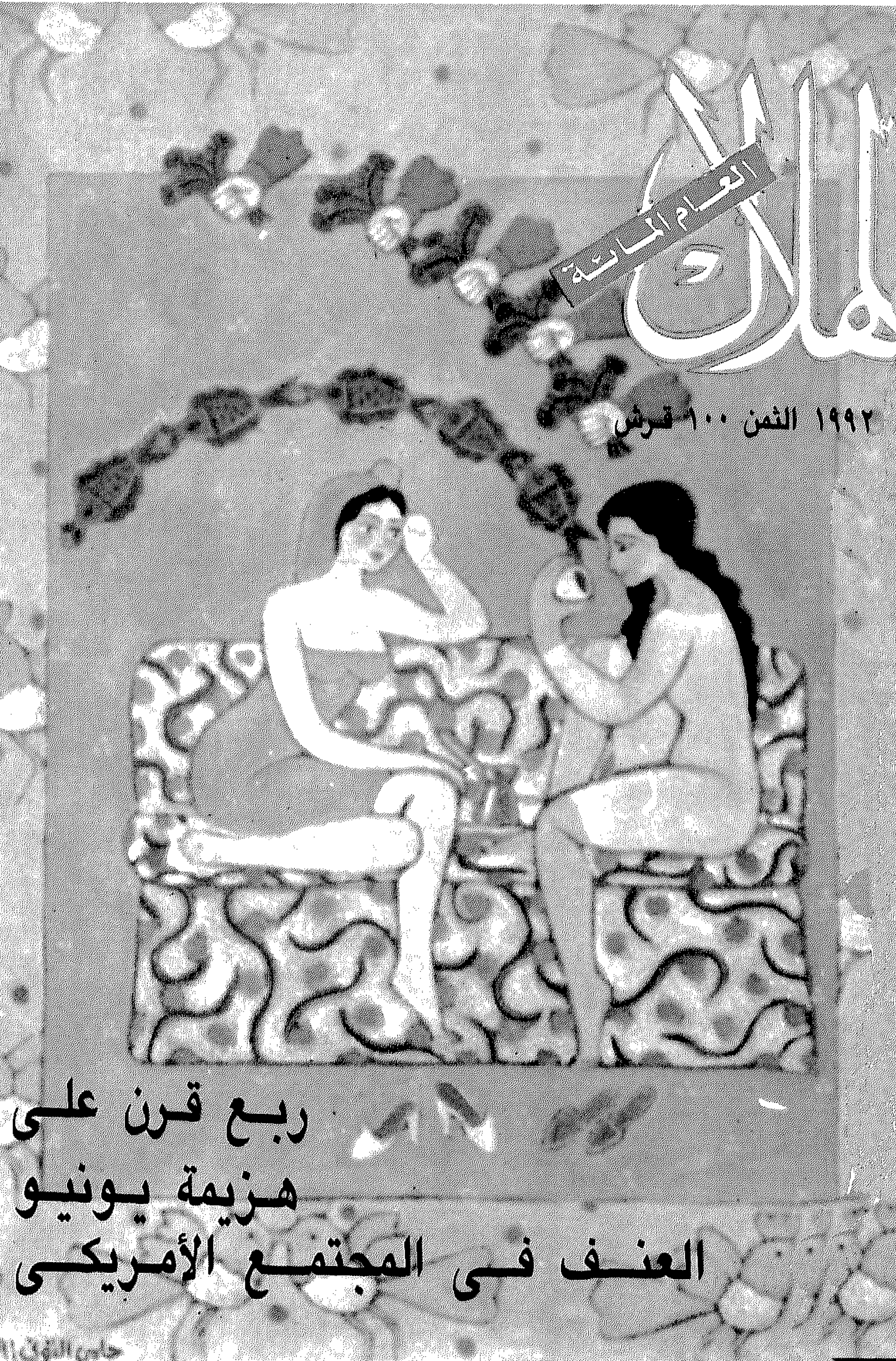
اطلبه من الباعة

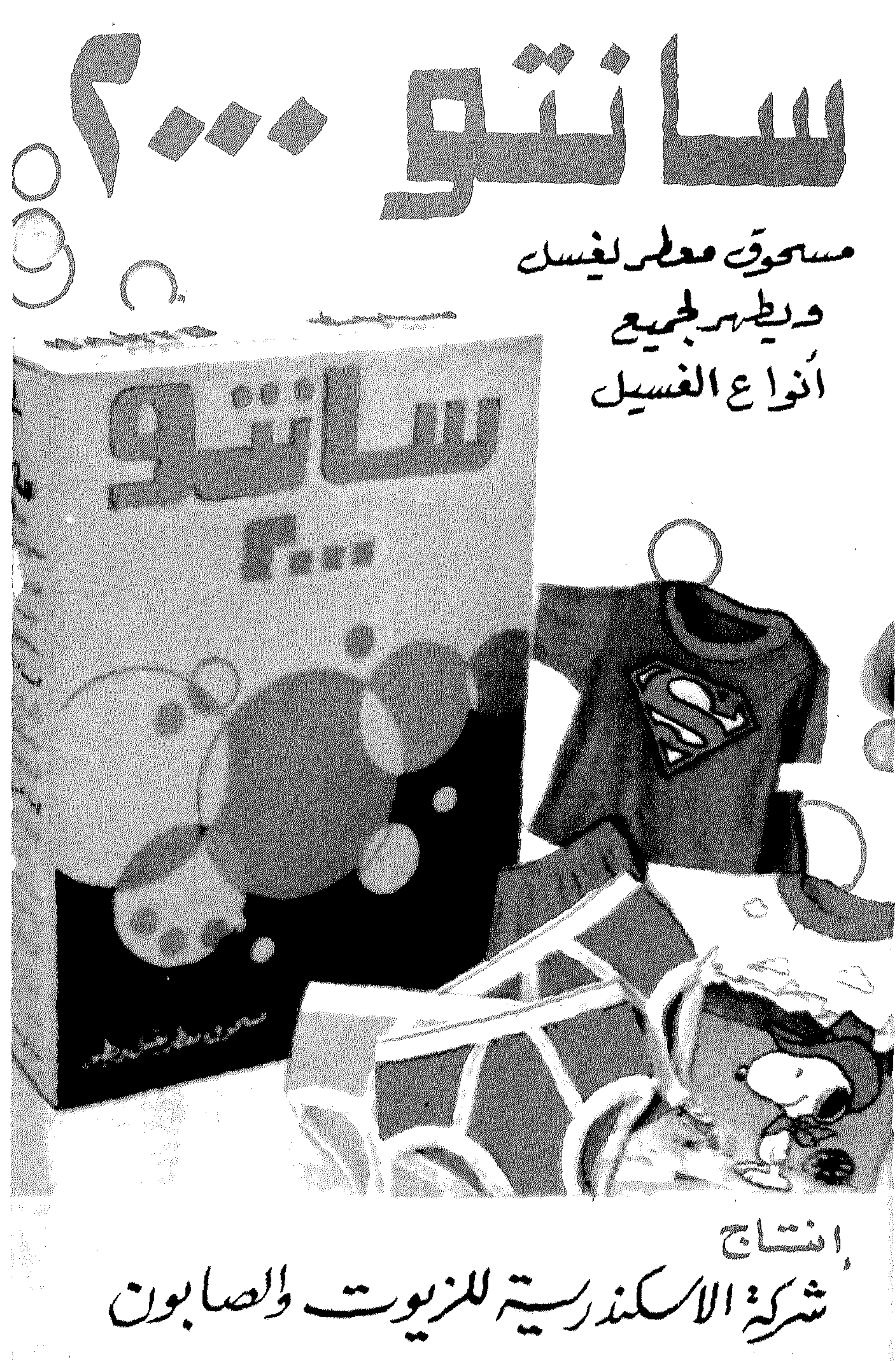
الثمن : ٥٠٠ قرش



مصر للطيران

أهلاً بكم في عالمنا...


الهلال
العام المائة
١٩٩٢ الثمن ١٠٠ قرش
ربع قرن على
هزيمة يونيو
العنف فى المجتمع الأمريكى



سانتو ٢٠٠٠
مسحوق معطر لغسل
ويطهر لجميع
أنواع الغسيل
سانتو
إنتاج
شركة الاسكندرية للزيوت والصابون

ونحن على مشارف الاحتفال بمائة عام على صدور الهلال ، حرصنا على أن نبدأ سلسلة من المقالات التى تضم أغلى الذكريات عن دار الهلال ، وعن مجلة الهلال التى تتم عامها المئوى فى سبتمبر القادم ، تلك المناسبة التى نستعد لها استعداداً ضخما يليق بمجلة حملت عبء هذه السنوات الطوال ، وقدمت أجل وأعظم الجهود فى مجالات الثقافة والأدب والعلم .

كتب الأستاذ مصطفى أمين تجربته مع دار الهلال التى أحبها ، وكيف قرأ ، الهلال فى بيت سعد زغلول ، وأعجب بها وصمم على العمل بدار الهلال ، فتحقق له ما أراد ، وعمل رئيسا لتحرير مجلة الاثنين .. وكيف أن ما جمعه من مكافآته وراتبه ، من دار الهلال أعانه على إنشاء أخبار اليوم .

وعن تكوينها الثقافى تحدثت أمينة السعيد عن تجربتها مع دار الهلال وكيف فشلت فى بداية الأمر ، لتعاود محاولتها مع الكتابة ، ثم لتعين رئيسة لتحرير حواء إلى أن تصبح رئيسة لمجلس إدارة دار الهلال ، وعلى مدى مشوارها نقرأ مواقف وطرائف لم تفت فى عضدها فحققت النجاح .

ويتحدث الأستاذ عبد الحميد الكاتب عن ذكرياته فى مجلة الهلال منذ خمسين عاما ، وكيف تحققت أمنيته وهو يشهد الآن الاحتفال بمرور مائة عام على صدور الهلال .

إنه حديث الذكريات الذى يثبت الحب لمهنة الصحافة ، التى جعلت الهلال تواصل إصدارها بلا توقف ولا مصادرة حتى الآن .

السنة المائة — يونيو ١٩٩٢ ● ذو القعدة ١٤١٢ هـ .

الهلال

مجلة ثقافية شهرية تصدرها دار الهلال
أسسها جرجى زيدان عام ١٨٩٢

رئيس مجلس الإدارة
مكرم محمد أحمد
نائب رئيس مجلس الإدارة
عبد الحميد حمروش
رئيس التحرير
مصطفى نبيل
المستشار الفنى
محمد أبو طالب
مدير التحرير
عاطف مصطفى
المشرف الفنى
محمود الشيخ
سكرتير التحرير التنفيذى
عيسى دياب

الادارة : القاهرة - ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا)
ت : ٣٦٢٥٤٥٠ (٧ خطوط)
المكاتبات : ص . ب : ٦١٠ - العتبة - الرقم البريدى : ١١٥١١ - تلغرافيا المصور - القاهرة ج . م . ع .
مجلة الهلال ت : ٣٦٢٥٤٨١
تلكس : 92703 Hilal un
فاكس : FAX : 3625469

في هذا العدد

الغلاف لوحة للفنان ...ى التونى

● فكر وثقافة ●



قيمة الاشتراك السنوى ١٢ جنيها فى ج.م.ع. تسدد مقدما نقدا أو بحوالة بريدية غير حكومية - البلاد العربية ١٢ دولارا - أمريكا وأوروبا وآسيا وافريقيا ٢٥ دولارا - باقى دول العالم ٣٥ دولارا .

والقيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال - ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد .

الأبواب الثابتة

• فنون •

• قصة وشعر •

• شهريات •



سوريا ٥٠ ليرة ، لبنان ١٠٠٠ ليرة ، الأردن ١٠٠٠ فلس ، الكويت ٧٥٠ فلسا ، السعودية ٨ ريالات ، الجمهورية اليمنية ٢٥ ريالا . تونس ١,٥ دينار ، المغرب ١٥ درهما ، البحرين ٨٠٠ فلس ، قطر ٨ ريالات ، مسقط ٨٠٠ بيسة ، غزة والقدس والضفة ٨٠ سنتا ، ايطاليا ٢٧٠٠ ليرة ، لندن ١٢٥ بنسا ، نيويورك ٤ دولارات ، الامارات العربية المتحدة ٨ دراهم ، الجماهيرية الليبية العظمى ١ دينار .

عزيـــزى القـــارئ

حى السيدة زينب

لم يبق سوى أشهر قلائل على بداية احتفالات « الهلال » بعيده المئوى فى سبتمبر القادم . وقد اتسع معنى هذه الاحتفالات منذ تحدثنا عنها قبل بضعة عشر شهرا، وترامت أطراف الرؤى والأحلام المتعلقة بهذه الاحتفالات ، ومع ذلك مازلنا نراها متواضعة ، ومازال أصدقاء « الهلال » يزودوننا بالاقتراحات ، ومازلنا نحن نصغى إلى كل اقتراح ونحاول أن نستفيد منه ونحوله إلى عمل يتصل باحتفالاتنا المأمولة فى الأشهر القادمة ..

إن الذى جعل الاقتراحات تتسع يوما بعد يوم ، هو أن « الهلال » لا يحتفل فى الحقيقة بعيده الخاص ، ولكنه يحتفل كذلك بعيد الصحافة الثقافية المصرية فى مائة عام ، ويجعل من هذا الاحتفال بابا إلى مائة عام أخرى للصحافة الثقافية العربية ، يتحقق فيها – كما نرجو – أضعاف ما تحقق فى المائة عام الماضية ، فيتصل الماضى بالحاضر بالمستقبل اتصال الأمل والعمل للأجيال الناطقة بالضاد بلا انقطاع طويل أو قصير بينها، وإن لم يمنع الاتصال بلا انقطاع ، اختلاف الأجيال ، وتناقض الأفكار ، وجدل التاريخ بين التقدم ومزيد من التقدم ، ولا نقول بين التأخر والتقدم لأننا نرجو أن تكون المائة عام القادمة مرحلة فى عصر طويل من التقدم المطرد لهذه الأمة التى حوصرت أمدا بعيدا بين التخلف وخيبة الآمال ! ..

عزيزى القارئ

خلال الشهور الماضية ، تابعنا معك أحلام العيد المئوى للهلال فى هذا الباب الذى نلتقى فيه على هذه الكلمة الموجزة فى مفتتح الهلال ، وطال حديثنا إليك ، ولكننا كنا نستشعر أنك مصغ إليه ، لا تمله ولا تنصرف عنه ، حتى استطعنا أن نرسم لك صورة من أفكارنا التى تبلورت حول هذه المناسبة « المئوية » التى يندر أن يتاح مثلها لصحيفة عربية نذرت نفسها للثقافة والفكر والعلم والأدب ..

عزيزى القارئ

هل تتذكر معنا ما تحدثنا فيه طوال الأشهر الماضية فى هذه المناسبة المئوية النادرة ؟ ..

فى المناسبة المئوية

لقد تحدثنا باستفاضة عن أشياء كثيرة يمكن إجمال بعضها - بعضها لا جميعها - فى نقاط مختصرة ..

- الدولة المصرية الحديثة منذ عهد محمد على الكبير إلى عهدنا ، وأين بلغت بعد أكثر من مائة وثمانين عاما ؟ ! .. وماذا أقامت من قلاع فى ميادين الصناعة والزراعة والتعليم والثقافة ؟ ! ..

- الرابطة العربية بين الشعوب المتناثرة بين الأطلسى والفارسى ، وكيف تطورت ، وهل اطرد نموها أم تدهورت وتعثرت ، وأين هى الآن فى عصر القطب الامبراطورى العالمى الواحد ؟ !.

- أين انتهت دعوات التثوير والتنوير من عهد عرابى باشا وجمال الدين الأفغانى ومحمد عبده وقاسم أمين ، ثم العقاد وطه حسين .. إلى ما تموج به أيامنا الراهنة من القيل والقال فى هذا المجال ؟ ! .

- الديمقراطية والحرية والعدالة الاجتماعية والحقوق المدنية ، وحقوق الإنسان ، وتحرير المرأة ، ورفع القيود عن الفكر والفن والأدب ..

كل هذه رءوس موضوعات أو رءوس أسئلة نطرحها فى ندوة موسعة يحضرها أدباء مصريون وعرب فى المناسبة المئوية للهلال ..

وهذه الندوة ستكون ملمحا واحدا من ملامح احتفالاتنا المئوية ..

عزيزى القارئ

إن دار الهلال تقوم منذ خمسين عاما تقريبا فى حى السيدة زينب ، أى أن « الهلال » قضى نصف عمره الذى عاشه حتى الآن فى هذا الحى الشعبى العريق الذائع الصيت ..

وفى المناسبة المئوية ، سيتم - إن شاء الله - ترميم الآثار التاريخية فى الحى، وإنشاء مكتبة عامة ، ومكتبة أخرى للأطفال .. وكل عمل من هذه الأعمال يحتاج إلى حديث مستقل ، فإلى اللقاء فى الأعداد القادمة ، فالحديث موصول بيننا حتى نلتقى فى احتفالاتنا إن شاء الله ..

المحرر

ربع قرن على هزيمة يونيو

بقلم : مصطفى نبيل

يمر هذا الشهر ربع قرن على هزيمة ٥ يونيو ، وهى فترة كافية لتأملها بعد أن ابتعدت مرارة اللحظة وتوترات الواقعة وحيرة العقول أمام هول ما حدث . كما تأتى بعد الانتصار الكبير فى أكتوبر الذى كان بحق معكوس هزيمة يونيو ونقيضها ..

وحان الوقت للوقوف أمام تلك القارعة وتأملها من منظور تاريخى ، لا من أجل تعذيب النفس ولا جلد الذات ولا التعالى على الأمة وإنما لكى تكون دروسها حافزاً للفعل ، ودافعاً لإنهاض الأمة ومواجهة المقبل من الأحداث والأيام .

وبداية .. أى هزيمة مهما بلغ هولها ، ومهما كان حجمها المادى لا تكتمل ولا يمكن لها أن تحقق أهدافها ، إلا إذا أصابت القلوب وكسرت المعنويات ، ونالت من نفوس الناس ووجدانهم .

فلم يعد لائقا تناول هزيمة يونيو من أجل تصفية الحسابات ، ولا لكى نتساءل من تقع عليه المسئولية المشير أم الرئيس ؟ ، أو تصبح موضوع الصراع بين أنصار عبد الناصر وأنصار السادات ..

بل يجب النظر إليها فى سياقها ، كمعركة حضارية ، ترتبط بموازين القوى يحدد النصر أو الهزيمة الأكثر تقدما ، والأكثر إرتباطا بعلوم العصر وقواعده ، بصرف النظر عن الحق والباطل أو الظلم والعدل ، فهذه نواميس الكون .

ولم يكن هذا الحديث ميسراً لولا نصر أكتوبر – وهو بحق معكوس هزيمة يونيو – الذى كشف قدرة شعب مصر على التعامل مع مستحدثات العصر ، وقدرته على حشد قواه فى لحظة التحدى ..

إذن فالنصر أو الهزيمة يرتبطان بالقدرة على إحداث التقدم ورعايته ، وأن يكون

التقدم جزءا طبيعيا من الحياة اليومية للأهالى ، بعد أن أمكن لشعب مصر أن يحقق أعلى درجات الكفاءة ، ولكن لا يكفى أن يحشد المجتمع قواه لمواجهة التحدى ثم يعود إلى التراخى من جديد . !

إن النصر والهزيمة قضية حضارية ترتبط ارتباطا جوهريا بموازين القوى سواء مع الغرب المتقدم أو مع العالم من حولنا فإقامة مجتمع حى عصرى ، هى المسألة الجوهرية التى تحسم أى صراع فى مداه الطويل .

فالمجتمع العصرى هو المجتمع الذى يستطيع أن يصل إلى أقصى درجات التنظيم ، ويحشد أكبر قدر من طاقته فى سبيل تحقيق أهدافه ، وهو المجتمع الذى يعرف قيمة الوقت يحسب الزمن فيه باللحظات لا بالأيام ، ويعرف ثمن الآلة . أى يعرف أنه لا يكفى شراء المعدات والتقنيات الحديثة بل عندما تكون ملائمة لظروفه واحتياجاته ، وأنه لا يكفى نقل العلوم والمعارف بل عندما تصبح جزءا حيا من تكوينه ، فلا نكتفى بأن نكون مستهلكين لمستحدثات العصر ولكن مشاركين فى إنتاج هذه المستحدثات .

والانسان هو اللبنة الأساسية للمجتمع العصرى ، والحداثة تمتد إلى العادات والتقاليد والأخلاقيات والعلاقات الاجتماعية وتنظيم العمل وقيام ذلك المجتمع الذى يكون جزءاً عضويا من منظومة متكاملة ، لا محل فيه لأوضاع تقوم على الطائفية أو أى صورة من صور التفرقة بين مواطنيه ، وهو الذى يتيح الفرصة كاملة لأبنائه من الموهوبين والمبدعين .

إنه المجتمع المدنى القادر على اختيار مشروعه ، الذى يميز خلاله بين الكليات والتفاصيل ، وتتحول فيه الكليات والجزئيات إلى خطة شاملة ، ثم الصبر على تنفيذها ومعالجة قصورها فى زمان لا يتوقف ودنيا تتغير ، وشروط تاريخية تتبدل .

فمع سعى المجتمع المصرى للانتقال من دائرة البلد الزراعى الراكد إلى دائرة المجتمع العصرى ، غفلنا عن فجوات وتخلخلات خطيرة ، فبعد أن عاشت مصر آلاف السنين على رقعة زراعية محدودة أخذت تعبر النقطة الحرجة فى عدد السكان الذين ما زالوا يعيشون على نفس الموارد .

وأخذنا ندفع ثمن الحداثة ولا نحصل على ثمارها ، بعد أن دفعنا فيها ثمنا فادحاً ، عندما بقيت معنا الفردية والشللية والتسلق الاجتماعى ، والاكتفاء بالأداء المظهرى للواجب والنأى عن مضمونه ، ندفع غاليا ثمن ما حملناه من انتقال من عالمنا القديم ، وعندما لم نصل إلى المعادلة الصحيحة فى التعامل مع العالم من حولنا ، وصاحب تطورنا إزدواجية ، بين رفض ما يحدث فى العالم من جانب والذوبان والاندماج فيه من جانب آخر ، والتخلف نصيب من لايتفاعل مع كل الثقافات باعتبارها تراثا للإنسانية جمعاء .

وعندما لم نضع جدولا دقيقا للأولويات ..

واكتفينا أحيانا بالحماسة ومجرد الاستعداد النبيل للتضحية ، ولم ندخل فى اعتبارنا

الحساب الدقيق والخطة المتكاملة وضرورة تحقيق الكفاءة العالية ، ونجحنا أحيانا وفشلنا فى أكثر الأحيان فى إقامة المؤسسات المستقلة القادرة على التحرك الذاتى ، سواء المؤسسات السياسية أو تلك التى ترعى الفكر والثقافة ، والتى ترتفع بقدرة المجتمع على الخلق والابداع ومن قبل على الإنتاج .

ولم نتخلص من العديد من صور الاستبداد الشرقى ، ولم نبن النظام السياسى القادر على تصحيح ذاته واحداث التفاعل الصحى بين فئاته وقواه الاجتماعية والسياسية والذى تشارك فيه المرأة إلى جوار الرجل .

فهذا هو الجهاد الأكبر ، وهذا ماينبغى مراجعته فى هذه الوقفة التاريخية .

وهنا أحاول أن أبدى وجهة نظر ربما تضيف بعداً ناقصاً إلى مسألة النصر والهزيمة ، حان الوقت لطرحها للمناقشة ..

نقطة البدء التى يجب التوقف عندها ، هى أن « الشرق » كما كان يطلق عليه فى الماضى ، فى حالة هزيمة منذ عصر النهضة فى أوروبا ، والتى يؤرخ بعض المؤرخين نقطة البدء فيها ، عند فشل حصار فيينا الثانى سنة ١٦٨٣، وأنه إذا كانت ثمة إنتصارات قد تحققت ، فانها كانت انتصارات مؤقتة ، أو بتعبيرات عصرنا ، يعيش الشرق حالة هزيمة « استراتيجية » تتخللها بعض الانتصارات « التكتيكية » . وهذا لا يقلل من شأن كل من جاهد وضحى فى سبيل الارتقاء بالوطن .

ولن يتغير هذا الحال ، إلا إذا انتصرت البلاد الشرقية على التخلف والأمية والفقر والاستبداد ، عندها فقط يتغير ميزان القوى ويتغير وضعنا داخل العالم الذى نعيش فيه .

فرغبة سيطرة الدول الكبرى على دول العالم « الثالث » ليست ظاهرة جديدة وإنما هى جزء من حقائق العالم الذى نعيش فيه، ولدى كل دولة كبيرة أجهزة جبارة وميزانيات ضخمة، لا هدف لها إلا البحث عن ثغرة بين الدول التى ترى أنها مهددة لها أو مناوئة لمصالحها ، لكى تسعى للنفاذ منها ، ولا يجوز لومها عندما تجد هذه القوى أمامها حاجزا هشا مملوءاً بالفجوات ..

والصراع بين مصر والغرب مثل واضح على ذلك ، فهو تاريخ مرير لم ينقطع ، وإذا توقفنا عند مفاصله الرئيسية فسنجد أمامنا هزيمة معركة الأهرام ، أمام الحملة الفرنسية بقيادة بونابرت سنة ١٨٩٨ ، وسبق ذلك الغزو الفرنسى للجزائر سنة ١٨٣٠ ، وبقية الدول العربية فى الفترة التالية وحتى نهاية الحرب العالمية الأولى ..

فالغرب منذ بداية القرن الحادى عشر يتطلع إلى الاستيلاء على الشرق العربى الذى يضم كلا من مصر وسوريا وفلسطين ، والذى يتوسط البلدان العربية وواسطة العقد للعالم الثالث .

وشهدت مصر في القرنين التاسع عشر والعشرين سلسلة متتابعة الحلقات من فصول هذا الصراع تأتى بعد معركة الأهرام مناصرة الغرب لنظام محمد على ثم القضاء عليه ، وفرض معاهدة ناقارين سنة ١٨٤٠ ، وبعدها عزل الخديو اسماعيل فى يونيو سنة ١٨٧٩، ثم هزيمة عرابى سنة ١٨٨٢ ، ثم محاولة إعادة الاحتلال البريطانى على مصر سنة ١٩٥٦، ولا يمكن تجاهل الحروب العربية الاسرائيلية كأحد فصول ذات الصراع .

فيقيم الأعداء حساباتهم الدقيقة على أن المنطقة العربية قادرة على أن تجتمع وأن تتضامن وأن تنسق فيما بينها ، وهى قادرة بامكانياتها الكبيرة على أنجاز ذلك ..

لذا تسعى هذه القوى إلى نشر الوهن في أهلها ، ومسخ عقولهم ، وعزلهم عن ثقافتهم، وإبعادهم عن طريق التقدم .

وتستطيع أن تلمح إحدى السمات المتكررة ، فكلما وقعت هزيمة أو حدث تراجع ، يحدث ما ينتظره الأعداء بالضبط ، فبدلا من مواجهة أسبابها الحقيقية ، يسعى كل طرف لإلقاء مسئوليتها على غيره ، وهى نسخة لما كان يحدث بين ملوك الطوائف فى الأندلس ، وتوضع المسئولية داخل القطر الواحد أحيانا على نظام الحكم ، وأحيانا أخرى على قوى سياسية بعينها ، أو يلقى كل بلد عربى المسئولية على الآخر ويكون ذلك ذريعة للسلبية والقعود .

وهذا ما وقع بعد هزيمة يونيو ١٩٦٧ ، فبدلا من أن تدفع الهزيمة الدول العربية إلى التضامن جرفتها الهزيمة إلى التناحر والانقسام ، وبدلا من أن تزيد المجتمع صلابة جعلته يتفكك ويتحول إلى شظايا ..

وظهر الذين يرون الصراع ، صراعا بينهم وبين مواطنيهم ومؤسسات بلادهم ، ووجدنا الذين لا يبالون يركعون ويسجدون فرحاً بانتصار الأعداء ، وسروراً بهزيمة الأقرباء . !

ووصلت تداعيات الهزيمة إلى أن استكانت بعض الدول العربية إلى وضع العبء الأكبر على مصر ، وانصرفت هذه الأقطار إلى شئونها وانكفأ أبناء القطر على ذواتهم ، وتجنبت هذه الأطراف النظر فى عين الحقيقة وتأمل مسئولية كل منهم ودوره الهام فى مشروع النهضة ، واستبعدت قيام كل طرف بما يقدر عليه لتعديل ميزان القوى وتغيير مسار الأحداث.

وإذا كان هذا هو منطق تداعى الهزائم ، فطريق النصر هو اقتران الفعل بالقول، وأن يقدر كل طرف ظروف الطرف الآخر ، وأن يقوم تفاعل خلاق بين المدارس الفكرية المختلفة ، وبين القوى السياسية والقوى الاجتماعية ، مع تقدير لطبيعة العالم من حولنا وموازين القوى التى نعيش فى ظلها ..

إن طريق النصر مرهون بالقدرة على بناء الانسان وعمارة الأرض ..

وتلك الأيام نداولها بين الناس ..

لمن يكتب النقاد ؟

بقلم د . شكرى محمد عياد

كنا فى صبانا نقرأ النقد كما نقرأ القصص والشعر . وشباب هذه الأيام يتحدثون كثيراً عن « المعارك الأدبية » ويحسبونها من النقد، ويتوهمون أن النقد والأدب خسرا كثيراً باختفائها أو خفوت صوتها. والحقيقة اننا لم نكن نعدها نقداً ، ولكننا كنا نتسلى بقراءتها كما نتسلى بالفرجة على عركة فى الشارع ، أما النقد الذى كان يستهوينا حقا كما تستهوينا قصص تيمور أو جبران أو شعر المهجريين فهو ما كان يكتبه طه حسين عن الشعراء الجاهليين والأمويين والعباسيين وما كتبه العقاد عن ابن الرومى والمازنى عن بشار ، فقد كنا نشعر أن هؤلاء القدامى أحياء يعيشون بيننا ، فأقبلنا على قراءتهم بلذة لم تفسدها علينا صعوبة اللغة أحيانا ولا غثاثة التعليم المدرسى دائما .

وعندما بدأ أدبنا الحديث يستوى على عوده وتمتد فروعه وينهض ليحتل مكانه بين الآداب العالمية المعاصرة طالعتنا مقالات مندور الأولى فى الرسالة مواكبة لهذه النهضة ومشيرة إلى آفاق جديدة ، فلم يكن احتفالنا بها أقل مما سبقها من كتابات نقدية .

كان الناقد فى تلك الأيام يكتب للقارىء كى يغريه بقراءة كاتب ما أو شاعر ما ، فيعرفه به ويجول معه جولة فى أدبه ، يخرج منها القارىء مسرورا بصحبة النـاقد والمنقود معـا . ثم بدأ عصر آخر شعر فيه قارىء الأدب بأن النقاد تغيرت أساليبهم فى الكتابة وأغراضهم منها ، وكأنهم يكتبون فى الحقيقة عن شىء آخر غير الديوان أو الرواية أو القصص التى يفترض أنها موضوع حديثهم فهم أحيانا يتكلمون عن الشعر فى عمومه أو القصص فى عمومه ، وأحيانا أخرى يتكلمون عن شىء أهم فى نظرهم من كل شعر وكل أدب ، وهو موقف الشاعر أو القصاص







محمود تيمور — د . طه حسين





جبران خليل جبران — د . محمد مندور

أو الكاتب المسرحى من قضايا عصره الاجتماعية والسياسية . وقيل لهم إن هذا ضرب جديد من النقد أسمه النقد الإيديولوجى ، وإنه هو النقد المعتبر فى أيامنا ، لأن الأدب لم يعد كما كان زينة وترفا للطبقات المرفهة ، ومخدراً وضللاً للطبقات الكادحة . ، ولأن وظيفة النقد هى أن يوقظ وعى القارىء بمجتمعه والقوى التى تتصارع فى هذا المجتمع ، من خلال تحليله لأفكار القصاص أو الشاعر ، وتمييزه بين فكر تقدمى طيب ، وفكر رجعى شرير . ومع أن هذه الطبقة الجديدة من النقاد كانوا غالباً مخلصين فى دعوتهم ، وكثيراً ما نجحوا فى كسب فئات من القراء إلى صفوفهم ، فإنهم – فى الوقت نفسه – لم يحببوا إليهم قراءة الأدب ، بل جعلوا الأديب فى نظرهم متهما ، أو على الأقل مشكوكا فى أمره ، إما من جهة نقاء ضميره ، وإما من جهة سلامة وعيه وأصبح قارىء الأدب – بالتبع – لا يستريح إلى هذا النوع من النقد ، حتى وإن وافق أصحابه فى مذهبهم الاجتماعى ، لأنه يشعره بما يشبه أنفصام الشخصية .

ومع أننا لا ينبغى أن نغفل دور وسائل الإعلام ، ولا طغيان المشكلات السياسية والاجتماعية فى تضييق دائرة المتهمين بقراءة الأدب ، فلعلنا لا نغلو إذا عزونا لهذا اللون من النقد بعض « الفضل » فى ذلك . ولكنه ، بكل تأكيد ، لا يضارع أو يقارب « فضل » النقد الذى يكتب فى هذه الأيام .

كلمات جديدة !

لقد انطوى عصر النقد الإيديولوجى ، بل أصبحت كلمة « الإيدلوجية » نفسها ، أو كادت تصبح من الكلمات المنبوذة ولكننا أصبحنا

نقرأ ونسمع كلمات جديدة مثل : البنيوية والأسلوبية والتفكيكية والشكلانية ، وتوابعها من إجرائية ومحاور رأسية وأفقية .. إلخ ، وأصبحنا نطالع فى ثنايا النقد الأدبى معادلات أشبه بالمعادلات الجبرية ، وصيغا أشبه بالصيغ الكيميائية ، وجداول إحصائية ورسوماً تخطيطية ، فازداد اغتراب النقد عن الأدب الإبداعى واغتراب كليهما عن القارىء الذكى . وكثيراً ما طرح الجمهور فى الندوات الأدبية أسئلة حول هذه الأسماء ومسمياتها وتلك الإجراءات وفائدتها . وكثيراً ما قال المبدعون انهم لا يقرءون النقد ولا يهتمون به لأنهم لا يفيدون منه ، وربما كانوا يعنون هذا النوع من النقد ، وربما كانوا مخطئين ، ولكننا لن نلوم القراء ولا المبدعين إذا علمنا أن كاتبنا الكبير نجيب محفوظ أعلن عقب صدور العدد الأول من « فصول » إنه لم يفهم منه شيئا .

وأقطاب هذا النقد الجديد أنفسهم يعلمون ذلك . ولكنهم – فيما يبدو – وقعوا أسرى تلك النظرية البنيوية منذ أغرتهم بأنها سوف تجعل من دراسة الأدب علماً مثل سائر العلوم . فما زال أصحاب العلوم الطبيعية يبحثون فى بنية المادة حتى استطاعوا أن يحطموا الذرة ويسخروا طاقتها ، فلماذا لا يصنع أصحاب العلوم الإنسانية صنيعهم فيبحثوا فى بنية النفس وبنية المجتمع بادئين من اللغة وهى وعاء التفكير فى النفس والمجتمع ، ومستغلين فكرة التناقض أو الاختلاف الذى تمايز به أجزاء المركبات ليتكون من هذه الأجزاء المتخالفة أو المتناقضة كل له نظام يمكن أن توضع له قوانين صالحة للتطبيق لا على أثر أدبى واحد ولا على مجموعة متجانسة من الآثار الأدبية بل على الأدب كله ؟ كانت هذه هى الفكرة الأصلية وراء تلك الأفكار والأسماء كلها ، وهى كما ترون فكرة مغرية ، لولا أنها التزمت تعرية اللغة من الأفكار حتى يسلم لها القالب ، وحتى تحشر فيه الإنسان مهما اختلفت نزعاته وأحواله . وقد انساق اتباع البنيوية وراء اغرائها ونسوا محاذيرها ، كما نسوا أنها بكل ما جاءت به ليست إلا حركة فى مجرى التاريخ تمخض عنها التاريخ ولابد أن يبتلعها كما ابتلع غيرها . لم يعنوا كثيرا بمصادراتها الفلسفية ، ولم يتعمقوا البحث فى جذورها التاريخية ، بل أخذوها جاهزة كمنهج جديد فى النقد الأدبى يستعلى على المناهج السابقة بموضوعيته وعلميته ، ونسوا أن الأدب رؤية قبل أن يكون شكلا ، وأن

النقد الذى يحصر همه فى الشكل ولا يجلو الرؤية يعجز عن عقد الصلة بينه وبين الأثر الأدبى ، ثم عن عقد الصلة بينهما معا وبين القارىء .

المذاهب والموضات الحديثة

والبنيوية - كما لا يخفى على أحد - مذهب فكرى غربى ، ولأهل الغرب فى مذاهبهم الفكرية مسلك حميد وإن تكن المذاهب نفسها مصطنعة كموضات الملابس وموديلات السيارات وغيرها من السلع الاستهلاكية . ذلك أنهم ما أن يذيعوا أسم المذهب ويروجوا له بمختلف ألوان الدعاية حتى يتناولوه بالتعديل والتبديل كل على حسب اجتهاده ، إلى أن يتولد من المذهب القديم مذهب جديد أو مذاهب جديدة ، فيشرعون فى إذاعتها والترويج لها كدأبهم فيما سبقها . وهكذا دواليك . أما نحن فأصحاب حضارة زراعية لايناسبها التغيير والتبديل ، أعمال الحقل عندنا بمواسم ، فإن تغير أوان الحر أو البرد أو المطر فهو الشذوذ الذى يترتب عليه تلف المحاصيل . وهكذا نتوقع ألا تختلف بنيوية هذا عن بنيوية ذاك ، ولا بنيوية - الأمس عن بنيوية اليوم أو الغد . وإن جاءنا اثنان بتعريفين مختلفين للبنيوية اتهمنا أحدهما أو كليهما بالخطأ أو الجهل . فما زالت عقليات معظمنا زراعية وإن استوردنا علوم الغرب الصناعى فيما نستورد من منتجاته . فنحن نرى اختلاط المفاهيم اختلالا ، ولا نحاول أن نميز العناصر المختلفة فى كل مركب جديد ، وإذا تجاوزنا الممارسة الساذجة إلى الجذور النظرية وقعنا فى الارتياب والارتباك .

وقد كان هذا الارتباك سبباً آخر لنفور قراء الأدب من النقد البنيوى ، وتردد النقاد البنيويين أنفسهم فى التسليم بصلاحية منهجه . فلما خلفته سلالات جديدة من المذاهب السميولوچية والتفكيكية كان ذلك مدعاة لانزعاج قوم وشماتة آخرين .

بنيوية عربية

لذلك رأى أحد رسل البنيوية فى العالم العربى أن يبحث قضيتها أصلاً وفروعا ، آملاً أن يخرج من هذا البحث بحكم يكون نبراساً لبنيوية عربية الطابع . والدكتور عبدالسلام المسدى صاحب هذه المحاولة الطموحة (« قضية البنيوية» - دار أمية - تونس) فاضل من أساتذة الجامعة التونسية مختص بعلم اللغة ، أو الألسنية كما يسمونه

هناك ، ولكن أكثر إنتاجه دراسات أسلوبية على المنهج البنيوى ، وهى من أجود الدراسات فى بابها . ولهذا يجب أن يحسب أولاً فى النقاد ، والفصل الذى عقده للنقد الأدبى البنيوى هو بالفعل أقوم فصول الكتاب ، فهو يتناول مشكلات محددة فى النقد البنيوى يقف منها موقف المراجع والمصحح . وفى طليعتها المشكلة التى أدرنا حولها هذا المقال : « لمن يكتب النقاد ؟ » يقول الدكتور المسدى فى الجواب عن هذا السؤال : « إن مما لاشك فيه أن ناقد الأدب قد كان من قبل يتجه ضمنيا أو بالمكاشفة للأديب بذاتة أو للأديب عبر قراء أدبه . فالناقد كان ينتصب وسيطاً بين المؤلف والقارىء أو قل - حسب مصطلحات بعض التيارات الفكرية - بين (المنتج والمستهلك) . وهو فى كل الحالات كالمدافع يرافع دوما وفى كل لحظة عن شىء ما . مرة متجهاً للقارىء باسم صاحب النص ومرة عائداً على الأديب باسم قراء أدبه . ولعل كل هذا الميراث النقدى قد جعل وظيفة الناقد عبر العصور وعبر الحضارات أقرب إلى وظيفة المعلم منها إلى شىء آخر . لذلك اعتبر الناقد مهذباً للذوق وصاقلاً للمدارك وكاشفاً لأسرار الفن .

« أما مع البنيوية فقد تحولت الأمور عن سننها . ولم يكن لها بد من التحول. ونحن إذ نبرز هذا مستقرئين إياه من خفايا النسيج المعرفى فليس من موقع التزكية ولا الاعتراض وإنما من موقع التفسير الموضوعى ، لأن النقد البنيوى قد سعى إلى إقامة صرح الموضوعية الكاملة ، ولكنه فى أثناء حرصه ذلك قد تغافل عن أشياء لم يكن من اليسير التخلى عنها فى الوعى الجماعى ، كما لم يكن ممكناً أن يطول العهد دون أن تعود معالمها مخيمة بظلال من الشك على مؤالفة الناقد للأدب . وأول ما قد نكاشف به فى هذا المضمار هو أن الناقد البنيوى لم يعد يتجه بما يكتبه لا إلى الأديب صاحب النص ولا إلى قارئه الطبيعى وهو الذى يخاطبه الأديب بأدبه ، وإنما أصبح يتجة بنقده إلى رفيقه الناقد مقيماً وإياه حواراً خاصاً قد لا يشارك فى دواله ورموز علاقاته غيرهما . » (ص ٧٤ - ٧٥)

نظرة متعالية

أرجو ألا يقلق القارىء من عبارات مثل « النسيج المعرفى » و «الوعى الجماعى » مما أخذه الكاتب من الفلسفة أو علم الاجتماع . فيجب ألا ينسى أن الكاتب لايزال بنيويا ، ولايزال

يرى أن النقد البنيوى قد فعل ما كان لابد له أن يفعله لكى يصبح النقد علماً ، أى أن يتمسك بالموضوعية الكاملة ، والعالم حين يحلل المادة ليصل إلى سر تركيبها لايستفتى تلك المادة ولا يفترض فيها أنهًا تنتقل من يد بائع إلى يد شار

الناقد البنيوى ليس وسيطاً ولا مدافعاً عن مصلحة البائع أو المشترى ، بل ولا حتى معلما ، إنما هو عالم نزيه . لا غرابة إذن فيما نلاحظه من نظرته المتعالية إلى هؤلاء جميعا . ولا ينبغى أن نتوقع منه أن يكتب كلاماً نفهمه ، مادام زميله الناقد (العالم) يفهمه . (ولو أن المسدى يعود فيلاحظ أن لكل ناقد بنيوى مصطلحاته الخاصة . فهو إذن يتعالى على زميله البنيوى الآخر ، فكيف بنا نحن ؟)

والآفة كلها فى أن مطمح « العلمية » (المقصود فى الحقيقة نوع خاص من العلمية ، وهو علمية العلوم الطبيعية) جعل الناقد البنيوى متخصصاً فى الشكل ، فلم يعد يعنية المعنى أو القيمة ، وهو الرباط الحقيقى بين الكاتب والقارىء ، وجلاؤه هو مهمة الناقد ، ولذلك عُدّ الناقد راعياً للذوق والقيم ، وجاز أن يسمى معلماً لا عالماً ، وفى مقدوره - إن شاء - أن يتعزى بأن الأنبياء كانوا أيضا معلمين ، ولكن العلم بعيد عن شواربه ، ونحن - كما ترى - فى عصر العلم لا فى عصر الأنبياء .

فالعلوم الحديثة لا تعترف بالقيم بمعناها المطلق . والعلوم التى نعنيها هى العلوم الإنسانية كعلم النفس وعلم الاجتماع وعلم الأقتصاد وعلم الأخلاق (وإن أردت الدقة فيجب أن تجعل هذا العلم الأخير فرعاً من الإثنوجرافيا مختصاً بعادات الشعوب) ، لأن العلوم الطبيعية تنتهى عند الوسائل ، ولا شأن لها بالغايات ، أى لا شأن لها بالقيم سواء أكانت قيما مطلقة أم نسبية . العلوم الإنسانية الحديثة تعد قيم الحق والخير والجمال مفاهيم ميتافيزيقية لا وجود لها فى الواقع ، وما لا وجود له فى الواقع لايدخل فى حساب تلك العلوم . فالحب والرحمة والسلام والكرم والعفة وإباء الضيم حفريات لغوية لايتعامل بها إنسان العصر الحديث ، فعنده كلمات أخرى تفضلها لأنها تدل على السلوك الظاهر أو ترتبط به ارتباطاً مباشراً . لماذا تتحدث عن الحب مثلاً وأنت تريد القبلة أو السرير ؟ إنسان العصر الحديث - عصر العلم - لا يؤمن بالقيم المطلقة لأنه لايؤمن بالروح ، ولا يؤمن بالروح لأنه يؤمن بالله ، ويضايقه جداً أن أشياء الروح هذه تلقى بظلالها المزعجة على سلوكه ،

فإذا قبّل أوضاجع شعر مع ارتفاع ضغط الدم بشيء معنوى غير محسوس أسمه الحب ، وإلا ما أستطاع أن يقبّل أو يضاجع . وأنا أستعمل هنا كلمة « الظلال » فى نفس السياق الذى أستعملها فيه الدكتور المسدى ، ولا أظن أني أبتعد كثيراً عن معناه ، وإن كان هو قد آثر أن يتغافل عن حقيقة تلك « الأشياء » التى يسهل التخلى عنها فى الوعى الجماعى (يذكرنى ذلك بكلمة قرأتها قديما فى مذكرات توماس هاردى أو بعض رسائله ، مؤداها أنك لاتستطيع أن تتجاهل فكرة الله لأنك كلما حاولت ذلك وجدتها قابعة لك فى أحد الأركان) . وقد أثرت البنيوية أن تتخلص من « المعنى » جملة ، لتقصر اهتمامها على الشكل ، بحجة أن فيه وحدة تكمن « أدبية الأدب » ، وهذا زعم لايستقيم إلا إذا أنكرت ارتباط « المعنى » بالقيم المطلقة ، ليتيسر لك – من ثمة – إنكار ارتباط الأدب بهذه القيم ، فلا يبقى له إلا الشكل . هذه كلها معان مضمرة فى البنيوية ، لأن البنيوية لاتنفيها صراحة (فقد تولت الحضارة الغربية الحديثة ذلك عنها) بل تتجاهلها . ولكنها تظل تابعة فى الأركان تتربص بها ، كفكرة الله عند هاردى . وهنا ينفض الفكر الغربى يده من البنيوية ويبحث عن لعبة أخرى .

أما صديقنا البنيوى العربى فبعد أن يقبل فكرة الشكلية بلعبة منطقية طريفة إذ يحل « الدلالة » محل المعنى ويلغى فكرة القيمة كسائر البنيويين ، لا يطاوعه عقله أو قلبه على إنكار رباط « القيمة » بين النص وصاحبه ومتلقيه ، ولكن لا يعبر عن ارتيابه صراحة ، إنما يرفض ماتذهب إليه البنيوية من عزل النص عن مؤلفه فيقول :

« على أن مسارعة بعض البنيويين إلى إعلان انفكاك النص عن صاحبه والتأكيد على أنقطاع صلة الرحم بين الأدب وواضعه مع مارافق ذلك من إشادة وتمجيد باسم الحداثة هو الذى جنى على المنهج النقدى وألبسه تبعة الإضمار ، ولا سيما عندما دخل المجاز فى الحلبة وفعل فعله يوم لذ لبعضهم أن يعلن (موت المؤلف) كمتصور ذهنى فى العملية الأدبية . وحقيقة الأمر إذا ما أعدنا إليها أبعادها الطبيعية تتركز فى أن لحظة ميلاد الأدب أدباً إنما هى ساعة يتلقاه المتلقى فيتبناه أدبا . فالذى يوقع على شهادة ميلاد النص ليس هو صانعه وإنما هو متقبله ، ولئن كان الأديب هو الأب الطبيعى فإن (كذا) وليه الشرعى إنما هو قارئه .


عباس العقاد


إبراهيم المازنى

وحقيقة الأمر هذه لاتحتاج إلى بنيوى لينبه إليها ، فهى كلمة شائعة عن كروتشى ، أن الأثر الأدبى لا يتم إلا بتلقيه ، وإن كان المسدى قد أبرزها فى معرض مجازى جميل : ولعلى لا أتجاوز حدود اللياقة حين أقول إنى قدمت مجموعتى القصصية الأولى بكلمة إلى القارىء قلت له فى ختامها « وهذا الكتاب لا شىء حتى تؤلفه أنت » ، ولا أدرى هل كنت قرأت كروتشى قبل ذلك أو لا ، ولكنى بكل تأكيد لم أكن قد سمعت عن البنيوية ، وأغلب ظنى أنها لم تكن قد عرفت فى فرنسا نفسها . ماذا يريد المسدى إذن . بـ « إعادة الارتباط . بين النص وكاتبه ؟ هل هو إلا الاعتراف بالقيمة ؟ فالشكل الأدبى فى ذاته محايد ، لا ارتباط بينه وبين كاتب بعينه (وهذه حجة البنيويين فى تأسيس علم الأدب) ، وإنما يرتبط شكل النص بمبدعه حين يفرض عليه «القيمة» فيصبح شكلا خاصا .

وكلامنا هذا لايتم ولا يستقيم إلا حين نذكر القارىء بأن « القيمة المطلقة» التى نتحدث عنها لا تتحقق فى أية حال بالفعل . سمها إن شئت « المثل الأعلى » الذى نعلم علم اليقين أنه لايتحقق أبداً فى واقع ولا خيال ، ولكن كل إنسان يتصوره على نحو ما فى حال ما ، وعلى نحو آخر فى حال آخر، فوجوده الفعلى نسبى أبداً ، ودائم التغير ابدا ولكن وجوده المطلق ضرورى ، فولا فكرة المطلق ما صح للنسبى وجود .

فقد هدم صاحبنا ، دون أن يدرى ، فكرة البنيوية من أساسها ، لأنه ألزمها فكرة المطلق ، وهى حين حصرت نفسها فى الشكل لم يبق لها سبيل إلى المطلق إلا أن يكون المطلق هو الشكل نفسه فيكون للشكل عندئذ معنى ميتافيزيقى بعيد عن طبيعة العلم التجريبى الذى تحاوله ، وإن نفت حقيقة المطلق من أساسها انتقى الأدب أيضا، فأولى به إذن أن ينفض يده من تعريب البنيوية ، فقد أبت البنيوية أن تتعرب ، وإن بناءها لقائم على جرف هار ، فلينقضها وليأخذ من أنقاضها مايصلح له، وليترك مابقى يسقط فى الهاوية .

أساطير المثقفين العصرية

بقلم : د. صلاح قنصوة

لم يصف مبدعو الأساطير القديمة أعمالهم بأنها أساطير لأن مفهوم الأسطورة مهما تنوعت وتعارضت تفسيراتها العلمية ، وصف لاحق لما كان يعتقده الأولون بصحته وصدقه .

فإذا استخدمناه اليوم فإننا نصف به أوهاما قد تنكرت فى إهاب الرصانة العلمية .

ولا تروج الاساطير العصرية إلا حيث يفتقد الحوار العقلانى الرشيد ، وتسود الأمانى بديلا عن الفعل والمبادرة ، أو تنشط الطموحلت الفردية فى اللهفة على قيادة الغوغاء حيث يتربع الجهل راسخاً مطمئنا .

ولعل ظروفاً معينة قد حالت بين المثقفين وأداء دورهم ، كما أن كثيراً من الشعارات قد هوت على الناس من قمم السلطة ، وتأقلم الناس على تداولها والرطانة بها دون حوار سابق أو اقتناع فقد أدى ذلك إلى الألفة والاعتياد على انفصال خطاب المثقفين عن الواقع الفعلى أو الفكر العلمى معاً على السواء .

وأغرى ذلك بعض المثقفين على أن تكون لهم بضاعتهم الخاصة التى لا يشترط فيها الاشارة إلى الواقع ، أو الالتزام بالأسلوب العلمى ومن ثم أغرقت أسواق الإعلام بأساطير عصرية أكتسبت أهميتها ورواجها من كثـرة الترديد والتكرار ، والالحاح على الأذن والعين .

أسطورة « العصر الذهبى »

لا مفر من الاعتراف بأن التاريخ الفعلى ليس هو بعينه ما دونه المؤرخون . فلا تزال الدراسات التاريخية تحمل طابعا أسطوريا بدرجة أو بأخرى ، فالتاريخ الفعلى شبكة من التفاصيل والوقائع المتعددة مثلما نحياها اليوم فى عصرنا الراهن ، ولكن عند إعادة كتابته أو إعادة النظر يتم اختيار ناظم أو محور يضم هذه التفاصيل والوقائع فى وحدة هى التى تؤلف معناها أو دلالتها التى يرتضيها المؤرخ . فهكذا يجرى « تحويل» الوقائع والملابسات وتقسيمها إلى جوهر ،

● التاريخ الفعلى ليس هو بعينه ما دونه المؤرخون

وأعراض تدور من حوله . ويختار من بين الوقائع والشخصيات والحوادث ما يصلح جوهراً رئيسياً أو نواة أو بنية أساسية يعاد صياغة غيرها من الوقائع حولها بوصفها أعراضا وتجليات .

وتعامل الحوادث التاريخية كما لو كانت برادة حديد تستعيد انتظامها فى دائرة المجال المغناطيسى بقضيب ممغنط هو المحور أو الجوهر ، أو البنية التى يختارها المؤرخ ، وتتباين مؤلفات التاريخ بتباين هذا الجوهر المختار الذى يعده كل مؤرخ حقيقة موضوعية قد فرضت نفسها عليه ، ومن ثم يعاد النظر ، أو تراجع العلاقات بين هذه وتلك من الوقائع وفقاً لكل تصنيف .

بعبارة أخرى ، يمكن القول بأن الماضى كله يصاغ كما تحكى الأسطورة التى توزع الأدوار الرئيسية والثانوية كما يراها المؤرخ ، وتكتسب مصداقيتها بكثرة تكرارها . فذلك ييسر فهم شتات الوقائع وتناثر التفاصيل ، كما يسلم إلى التعامل الهين المريح معها .

فالأسطورة ، بوجه عام ، صياغة أو قراءة لبعض أحداث الماضى فى لغة الحاضر وأمانيه . فهى لا تكتسب دلالتها من المنطق والواقع بقدر ماتستديته من قيم الحاضر ومثله العليا .

ومن هذا التصور الأسطورى تضفى القداسة على بعض الشخصيات أو الحوادث التى تعد جوهراً أو محوراً لتتحول إلى رموز تنزع من سياقها الزمنى والمكانى التى تتشابك معه ، وتفرز وتعزل من بين ركام المفردات الوقائعية لتشكل صورة تاريخية تفرق بجلاء بين الأرضية الباهتة ، وبين تلك المعالم المنتقاة التى تصطبغ حينئذ بألوان حادة مشرقة . ومن ثم يكون الفارق بين مؤرخ وآخر فى انتقاء المتغيرات ، أى المفردات الوقائعية التى يجعلها أرضية محايدة متجانسة ، وإيثار غيرها لتكون معـــالم أو مراحل بارزة مؤثرة .

ويترتب على هذه الصياغة الأسطورية أن يكتسب القديم المختار قداسة تتجاوز بمعاييرها مقاييس العلم الموضوعية ،

وتعفينا من مشقة مواصلة البحث ومايقترن به من معاناة الشك وافتقاد راحة اليقين .

فالعصر الذهبى الموهوم ليس واقعة تاريخية بالمعنى العلمى بقدر ماهو معيار قيمى محتجب غير معلن لأنه خلاصة منتقاة على نحو متميز من وقائع صرفت عن مواقعها المكانية والزمانية الأصلية ، وصفيت من علاقاتهـــا الاجتمـاعية والسياسية والشخصية بحيث أصبحت مثالاً نموذجيا منتزعاً من تفاصيلـه النسبية ، ليعود مقياساً لكل وقائع التاريخ مثلما يستخدم البعض مفهومات مثل «حـــزب الله » ، وحـــزب الشــــيطان » ، « المجـــاهـدين » والمنافقين » (أى أنصار حزب مجاهدى خلق فى ايران) والفتنة ... كما تحتل أمريكا موقع الروم القديم ، والاتحاد السوفييتى السابق موقع الفرس ، أو يدمغ المجتمع المعاصر بالجاهلية ... الخ

وتنتمى أسطورة العصر الذهبى إلى عالم سحرى يستبدله المثقف أو الداعية المعاصر بالعالم الموضوعى الذى يمكن أن تحلل عناصره ومتغيراته وتفسر بمعزل عن رغباتنا تمهيداً للتنبؤ بهـــا . على حين تسود العلاقات الشخصية بين عناصر ذلك العالم السحرى بما تحمل من عواطف وانفعالات تؤلف حركتها الدرامية التى تصنع منها أسطورة فى نهاية المطاف .

ويفترض أصحاب أسطورة العصر الذهبى أن لحظة من لحظات الماضى هى مستودع أو ترسانة علينا أن نتفرغ جميعا لجرد ما فيها ، وتصنيف محتوياتها لاختيار ما يصلح لحل مشكلاتنا المعاصرة كما يفترضون دلالة معينة للزمان تفقده حركته وتدفقه لتجعله مجموعة انقطاعات عن النبع الأصلى الذى يتخذ إطاراً مرجعيا لقياس كل لحظات الزمان . وهنا يضفى طــابع الثبــات والاطــلاق ، بل والتقديس أيضا على كل ماينسب إلى ذلك العصر الذهبى !

أسطورة « الوسطية »

ربما أدى تعدد المواقف إلى شعور بعض المثقفين بالمشقة فى الاختيار من بينها فسعوا إلى تجنبها بالاحتماء بنزعة توفيقية أو تلفيقية تصف الثقافة العربية حينا ، أو الاسلامية حينا آخر (وفقا لمساحة جمهور القراء المتوقع) ، بالوسطية .

فمن الوجهة المنطقية تفترض الوسطية أن الحقيقة تقف فى منتصف الطريق بين ضدين أو طرفين ، هذا إذا كانت توفيقاً ، فإذا كانت تلفيقاً ، فإن الحقيقة سلة نلتقط فيها أفضل ما أنتجته المواقف جميعاً .

وعلى هذا الوجه ، تفترض الوسطية أطرافا سابقة ثم يأتى دورها لتقف فى وسطها . فهى إذن وصف لاحق ، بعدى ، رهين بموقفين سابقين أو مواقف سابقة ، وهى جميعا متعارضة متطرفة ، فتحتل موقعها بين إفراط وتفريط .

والواقع أننا لا يمكن أن نقبل وجود ثقافة عربية متميزة لا تملك من أمرها شيئا إلا أن توفق بين ضدين أو أضداد . فهذا وصف سلبى يعبر عن موقف يؤثر الاعتدال والتوسط بين معسكرين . ولايليق بنا أن ننقل مفهوم عدم الانحياز أو الحياد الايجابى الذى يفترض وجود الاتحاد السوفيتى وأمريكا ، أو المحور والحلفاء من قبل ، إلى شئون الثقافة . فهذا الوصف يفتقد الاطار المرجعى الخاص لأنه يقتات أو يتطفل على أطر مرجعية سابقة خاصة بأوضاع تاريخية وسياسية واجتماعية معينة ، ويحاول أن يقف فى منتصف المسافة بينها .

كما لا يفيدنا فى هذا العدد أن نستعير مفهوم أرسطو الأخلاقى عن الفضيلة بوصفها وسطا بين رذيلتين ، ونطبقه على سائر مجالات الثقافة ببساطة ويسر فهذا نوع من الكسل العقلى الذى يوشك أن يكون نفاقاً سياسياً .

فإذا ما حاول بعض « المستثمرين » للنصوص الدينية أن يفحمنا قائلا : ماذا نصنع بقوله تعالى : « وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس » (١٤٣ البقرة) ، فليس لنا إلا أن نحيله إلى كتب التفسير التى شرحت اللفظ « وسطاً » بما كان يستخدمه الرسول (صلى الله عليه وسلم) وجماعة المسلمين عند نزول القرآن قبل أن يتسلل مفهوم أرسطو عن الوسطية إلى ثقافتنا العربية فعلى سبيل المثال ، لا الحصر ، يفسرها « الزمخشرى » فى كشافه : « خيارا وفضلاً وعدولاً » ويفسرها « ابن كثير » : « خيار الأمم ، والوسط هـهنا : الخيار والأجود، كما يقال قريش أوسط العرب نسبا وداراً ، أى خيرها ، وكان رسول الله وسطا فى قومه ، أى أشـرفهم نسباً » كمـا جاء فى تفسـير « الجلالين » خياراً وعدلاً . أما المفسر المحدث « فريد وجدى » فيقول « خياراً أو معتدلين متحلين بالعلم والعمل » .

ولا أحسب أن وصف ثقافتنا بأنها خير الثقافات يضيف شيئا أو يميزها عن غيرها .

ومهما يكن من أمر معنى الوسط فى القرآن الكريم ، فإنه يشير إلى سياق الايمان والعقيدة الذى جاء فيه الاسلام خاتما ، بعد عقائد أو مواقف سابقة كان ينبغى أن يتحدد موقعه منها . وأغلب الظن

أن نقل اللفظ في سياقه الديني إلى سياق الثقافة المضطرب بالجديد من المتغيرات لن يجدى شيئا .

أسطورة الأصالة والمعاصرة

نوع من الوصف أو اللصق اللفظى الذى يجمع النقائض معا فى صرة أو جراب واحد مثلما نجمع بين مايسمى بالتراث والتجديد ، والاتباع والابداع ، الخصوصية والعالمية .... الـــخ وهو حل يسير هين ككل ضروب التوفيق والتلفيق التى تخلق وهما بالإنجاز ، وتقتصد فى اتفاق الجهد والبحث فى مواجهة الخصومة .

فإذا ما أمعنا النظر فى المفهومين المتلاصقين لوجدنا أنهما لا يميزان شيئا ، ولا يضيفان جديداً ، كما لا يرفضان شيئاً فهما معاً لا يدعواننا إلى أمر دون آخر ، وجمعهما معاً على صعيد واحد لا يمثل موقفاً محدداًينبغى أن نتخذه .

فالأصالة إذا كانت تعنى التمسك بالهوية ، فهذا شئ لا جديد فيه ، والمعاصرة إذا كانت دعوة إلى أن نتواءم مع تغيرات عصرنا فذلك أمر محمود لاخلاف حوله .

ولابد إذن لكى يحمل هذا القول مغزى أو دلالة أن يشير علينا بما ينبغى أن نأخذ أو نترك ، فهذه مسألة ترتد إلى البرامج المختلفة التى يتقدم بها المواطنون فى نطاق المجالات الرئيسية المتعددة للممارسة السياسية والاقتصادية والاجتماعية فحينئذ يصرح بالخلاف فى الاجتهاد ، وهو ما يتجلى فى الأساليب المنوعة لطرح المشكلات الحقيقية ، والبرامج المقترحة لحلها فلسنا فى حاجة إلى ترديد مفهومات نصف بعضها إلى جوار بعض ، ونثير الشغب بينها عوضاً عن مواجهة المشكلات الفعلية والسعى إلى الخروج منها .

وبدلاً من البحث عن دلالة للمفهوم الذى نضعه ، ثم نختلف حول تعريفاته واشتقاقاته ، ونمضى الوقت فى مناقشة دلالاته ، وننفق الجهد والطاقة فى توزيع الأنصبة على مايخص الأصالة ، وتلك التى تنسب للمعاصرة ، بدلاً من ذلك ، علينا أن نتصدى للواقع الراهن نفسه ، ونتنازل مشكلاته فى مجالاتها الأصلية ، وتخصصاتها المحددة ، بعيداً عن اللافتات اللفظية التى لا تعنى شيئا بعينه يمكن الخلاف أو الاتفاق حوله فى حوار جاد .

أسطورة الغزو الثقافى

لا مندوحة عن الاقرار بأن الثقافات جميعا قد تبادلت التأثر والتأثير بطرق متعددة منها السلمى ومنها المسلح . ولا تخلو ثقافة قائمة من عناصر دخلتها عنوة أو طواعية ، وما يدخل عنوة هو ما يجدر أن نطلق عليه الغزو الثقافى أما ما يتسرب

دون سلاح فليس غزوا ، بل اختياراً من فئات محلية تؤثر مصالح مادية أو غير مادية فى وجه فئات ومصالح أخرى .

فالغزو إن كان ثقافيا لابد أن يكون مفروضا بقوى أخرى غير ثقافية لأن الثقافة أمور تخص العقل والوجدان أى الوعى .

وافتراض الغزو الثقافى دون قوى مادية أى دون قهر ، إنما يفترض أموراً غير مقبولة على الاطلاق أهمها :

١ - أن المواطن خامة طيّعة بلا شخصية . أو هو بالأحرى جوال فارغ يمكن لأى عابر سبيل أن يحشوه ببضاعته الفكرية . وبالتالى علينا أن نغلق الحدود دون الفكر « الدخيل » . أو أن المواطن مريض يخُشى عليه من لفحات الهواء ، ومن الخير إغلاق النوافذ تحسبا « للتيارات الوافدة » التى قد تسبب له « التهابا » عقليا أو فكرياً وخيم العاقبة .

٢ - أن الحشو السيىء الذى ينبغى مقاومته هو دائماً وافد من خارج الحدود ، لأن العدو يتربص بنا للتسلل إلى عقولنا « الفارغة » لكى يملأها ببضاعته الثقافية ، أو أن ماتتداوله من وسائط أو معارف ثقافية ليست فى حاجة إلى مزيد، أو أنه أفضل مما يتداوله الناس جميعاً فى كل أنحاء العالم .

٣ - أن هذا العدو الخارجى لاينتج إلا نوعاً واحداً وفاسداً من الثقافة ، ومن ثم فلا يتطلب تصدينا لسبب البلاء والنكبات إلا إغلاق الحدود ، وإعلان الحظر على الفكر المستورد ، ومحاكمة عملائه من المثقفين المشبوهين .

٤ - ويضمر كل ذلك فى نهاية الأمر افتراضاً أخطر وأفدح ، وهو أن جهة ما تعلونا جميعاً ، وتملك الوصاية على عقولنا وهى التى تحظى بتفويضنا الكامل ، هذه الجهة ، أى الحكومة ، هى التى نناشدها ونرفع إليها التماساتنا لأنها وحدها التى ستقوم بكل الاجراءات لدفع هذا الغزو الثقافى الأجنبى ، وليس لنا ، كمثقفين ، أو لعقولنا من الأمر شىء .

وأحسب أن الاتهام بالغزو الثقافى تصور مادى غليظ يقيس كافة الأمور بمقياس السلع والسوق والمنافسة حينما يسعى أصحاب الاتهام إلى المغالاة فى رفع الرسوم الجمركية على مايسمونه أفكاراً مستوردة باستعداء السلطات وغلق أبواب النشر ، وإثارة استنكار الجماهير . فنحن نغتبط ونهلل عندما نكتشف أن أحد مصطلحاتنا أو إحدى أفكارنا قد بلغت الغرب وأفاد منها ، ولكننا نسخط ونستنكر استخدام البعض لمصطلح أو فكرة وافدة . ونحن هنا لانصطنع ميزاناً عادلاً ، إلا إذا كنا نقصد « الميزان التجارى » لأنه وحده الذى يُقدّر السعى إلى زيادة الصادرات على الواردات !

أقــــوال معاصـــرة

● « تربية الأبناء مهمة لا يتصور أن تقوم بها أمهات جاهلات قاصرات ، محرومات من الثقافة » .

الدكتور / كمال أبو المجد
وزير الإعلام الأسبق


د. كمال ابو المجد

● « لا أريد أن أعرف أريد إن أومن ، هذا هو النموذج الثقافى الذى يهيمن على الحياة العربية » .

الشاعر السورى أدونيس

● « الأمم الضعيفة تقودها النساء » .

صبغة الله مجددى
الرئيس المؤقت لافغانستان

● « العدوانية تتناقض مع الابداع » .

الشاعر البلغارى بويكو لاميوفسكى


الشاعر أدونيس

● « هناك ارتباط وثيق بين الموسيقى والمعمار سواء شئنا أم أبينا » .

يانيس خيناكيس
الموسيقار الفرنسى المنحدر من أصل يونانى

● « الفن ليس معصية تستوجب التوبة أو التكفير عنها » .

الفنانة فاتن حمامة

● « الخلود لا يهمنى ابداً » .

جان ماريه
الممثل والرسام والكاتب الفرنسى

● « التفائل سر طول العمر » .

كيم إيل سونج
رئيس جمهورية كوريا الشمالية


كيم إيل سونج

● « إذا لم تكن الأفلام موضوعهـا الناس ، فهى إذن لا تقول شيئا » .

المخرج الهندى ساتيا جيت راى

● « أنا لا أقول شيئا » .

فرانسيس بيكون
الفنان التشكيلى الانجليزى

● تُوفِّيَ فلانٌ إلى رحمة الله فهو « مُتَوَفًّى » بضم الميم وفتح التاء والواو وتشديد الفاء المفتوحة وتنوين الحرف الأخير .. وهذا من بديهيات اللغة التى كانت معروفة عند الصحف المصرية والعربية ، ولكنّ إحدى الصحف المصرية الكبرى كتبت فى صفحتها الأولى منذ أسابيع كلمة « مُتَوَفٍّ » بكسر الفاء وتنوينها بدلا من « متوفىً » التى بيناها ، فكأنما أحدث الرجل الوفاة بنفسه ولم يَتَوَفَّهُ الله تعالى ! ..

● ومن أغلاطهم قولهم : « يذخر البحر » بالذال ، وصحتها بالزاى ، وقولهم : يُزكى النار ، وصحتها « يذكى » بالذال لا بالزاى ، وقولهم : فلان يريد نوال هذا الشئ أو ذاك ، و« النوال » هنا خطأ ، والصواب : « النَّيْلُ » بفتح النون وتشديدها وسكون الياء ، أما « النوال » فهو العطاء .. يقال مثلا : كان هارون الرشيد عظيم النوال ، أى عظيم العطاء للناس ! ..

● ومن أغلاطهم قولهم : فلان ممرور من فلان .. يعنون أنه غاضب حانق عليه واستعمال كلمة « ممرور » فى هذا المعنى بالتحديد خطأ ، لأن « الممرور » هو المجنون ، وليس الذى يشعر بمرارة ! .. وإن كان بين المعنيين قرابة ! ..

● ويستعملون كلمة « مرير » بمعنى « مُر » بضم الميم وهو الشئ ذو المرارة ، ولكن المرير فى اللغة هو : القوى المتين ، كقول أبى الطيب المتنبى منوها بثبات عزيمته :

سهرتُ بعد رحيلى وحشةً لكمُ ∴ ثم استمرَّ مريرى وارعوى الوسنُ

ونتذكر من كلام صفى الدين الحلى :

تشرفت الأقدامُ لما تتابعتْ ∴ إليك خطاها واستمرَّ مَرِيرُهَا

ومريرها فى هذا البيت : عزمها القوى ! ..

● هزيم القنابل : صوت انفجارها ، من قول القدماء : هزيم الرعد ، أى صوته المدوى .. ولكن بعض الكاتبين الآن يكتبون : هزيع القنابل ! .. وإنما الهزيع هو : نحو ثلث الليل أو ربعه ، ولا شأن له بالرعد ولا بالقنابل ، وما أكثر المستعجمين فى هذه الأيام ! ..

العنف فى المجتمع الأمريكى

بقلم : مصطفى الحسينى

عندما تتحدث الولايات المتحدة عن نفسها ، تزهو بأنها مجتمع تعددى تنسجم لحمته بمنظومة من القيم الاجتماعية والسياسية المشتركة ، لذلك يتمتع بقدرة عبقرية على ابداع حلول مقبولة لنزاعاته الداخلية ، لأنها إنما تجرى حول خطوط باهتة من التفاوت والتمايز بين الجماعات الاقتصادية والسياسية والعرقية التى يتشكل منها المجتمع ، ويعلل هذا الزهو كل من عبقرية التسوية وشحوب التمايز بخصوبة الأرض وغناها وبعشق ناسها للعمل والجهد ودأبهم ، أو بأن هذا المجتمع لم يعرف ثبات الانقسامات الطبقية العميقة ، كوجود أرستقراطية وطبقة عاملة (بروليتاريا) على نحو ما تعرف تاريخ المجتمعات الأوروبية ، وبانفتاح المجال فسيحا أمام الحركة الاجتماعية والصعود الطبقى ، أو يعللها بكون المجتمع مجتمع مهاجرين ليس لأى جماعة قومية منها أى دعوى فى أحقية أصيلة بالوطن بينما يوحد بينها بنعمة هذا العالم الجديد عليهم جميعا وسواسية ، والذى أواهم ، الهاربين منهم من الاضطهاد الساعين إلى « المدينة الفاضلة » أو الفارين منهم من الفقر يلتمسون الفرصة ، ولذلك كله فإن أى جماعة متجانسة من السكان إن كان لها حجم معتبر ، ما عليها إلا الالتزام بالقواعد المرعية للتفاعل بين هذا العديد من المكونات ، حتى تنال نصيبها المشروع من السلطة والثروة والرخاء والاحترام جميعا .

وعلى هذه الصورة عن الذات ، تقيم الولايات المتحدة واحدا من أسس دعواها بالجدارة لقيادة العالم .

لكن المفارقة أنه بقدر ما تحظى هذه الصورة بالرواج فى الخارج ، بقدر ماهى محل للنزاع فى الداخل فتتفاوت اليها النظرات وتتنوع منها المواقف على مسافة شاسعة تمتد من وصفها بالكذب الدعائى


بـوش

الفـاضـح إلى التـحـفظ عليـهـا تحـفظـا يدعـمـه أصـحـابه بشـواهد التـاريخ كـمـا بوقائع الحاضر . وإذا كان ما حدث أخيراً فى لوس أنجلوس سـيـضـاف إلى حـجـج التـحفظ ، فإن من شأنه أن يعيد فتح باب الجدل حول هذه الصورة الزاهية المزهوة . والحقيقة أن هذا الجدل لم يتوقف أبداً ، إلا أنه منذ بداية السـبـعـينات أصـابه الخفوت ، وبطء التواتر وتراجع موقعه من الاهتمام العام، داخل أمريكا قبل خارجها

ومـا حـدث فى لوس أنجلوس يمكن تلخيصه كما يلى : ذات يوم منذ شهور قام أربعـة من رجـال الشـرطة البيض بضـرب رجل أسود بقسوة غير مبررة ، وتصـادف أن شـخـصـا من هواة التـصـوير سـجل شريطا كاملا لما حدث ، وأن هذا الشريط وجد طريقه إلى شاشات التليفزيون فى أنحاء البلاد جميعا ، وأن رجال الشرطة الأربعة قدموا للمحاكمة ، لكنهم لم يحاكموا فى لوس أنجلوس حيث وقع الحادث ، إنما نقلت المحاكمة إلى مدينة أخرى صـغـيرة وقـريبـة ، لكنهـا مـعـروفـة باتجـاهاتهـا «المحـافظة» ، وهى كلمـة تعنى فى شـفـرة اللغة السياسية الأمريكية : احتقار الملونين - من السود إلى الصفر - وتكره الأجانب ، وتزدرى الفـقـراء ، وتلقى اللوم فى البطالة على كسل المتـعطلين وافـتـقـارهـم إلى «روح المبادرة الأمريكية» وبالوضاعة التى تجعلهم يفـضلون على العـمل أن يعـيـشـوا على أفضال صدقة المجتمع المنعم بالخير ... الخ . وفى تلك المدينة الصغيرة «المحافظة» شكلت سلطة الاتهام والمحكمة هيئة محلفين ليس بين أعـضـائهـا الاثنى عشـر شخـصـا واحد أسود . ورغم الشريط المصور والذى لا لبس فيه ولا مايدعو إلى الشك ، ورغم أن واحدا من الشرطة الأربعة شـهـد بقسـوة زمـلائه وبتلذذهم بما كـانوا يرتكبـون وأنه حـاول ايقـاظهم وايقـافـهم ، فـقـد حكمت المحكمة ببراءتهم جميعا !

وما أن أعلن حكم البراءة ، حتى انفتح فى لوس أنجلوس «باب الجحيم» على حد وصف أمـريكى مـتـواتر ، انطلقت كـتلة السكان السود التى تعيش شبـه منفصلة فى النصف الجنوبى من وسط المدينة ، تعمل فى المدينة تحطيمـا وحرقا ونهبـا ، وتذيق من تصادف من البيض بعض ماذاق واحـد من أبناء جلدتهم على أيدى رجـال الشرطة الأربعة .

فى مواجهة هذا الانفجار ، الذى اعتبر رغم كل شىء مفاجئا ، تحركت السلطة : عـمـدة المدينة - وهو أسـود - طلب تدخل الشرطة الفيدرالية ، حاكم ولاية كاليفورنيا التى تتبعها لوس أنجلوس ، أمر « الحرس

الوطنى » بالتدخل ، الرئيس الأمريكى أرسل الى المدينة حملة صغيرة من الجيش، انما يقودها الجنرال نورمان شوارتزكوف، قائد «درع الصحراء» ثم «عاصفتها» ثم ، وبعد أن تمت السيطرة على الوضع زار الرئيس الأمريكى المدينة ، وشكل لجنة للتحقيق فيما حدث ، وعين رئيسا لها القاضى ويليام وبستر الذى شغل على التوالى اثنين من أهم المناصب الأمنية وأعلاها : مدير المباحث الفيدرالية ثم رئيس وكالة المخابرات المركزية .

ومهما كانت جسامة الأحداث المباشرة، فإن سلوك الدولة على مستوياتها الثلاثة المتراتبة : المدينة والولاية والحكومة الفيدرالية ، يبدو أكبر من الأحداث ذاتها .

فهل يعنى هذا أن الدولة هناك تدرك أن ما جرى فى لوس أنجلوس ، ومهما كانت جسامته ، أخطر كثيرا من ظاهره ؟

★★★

من بين الأمريكيين الذين يدمغون «حديث الولايات المتحدة عن نفسها» بالكذب الدعائى الصريح ، عديد من علماء الاجتماع والعلوم السياسية ، ومن أبرز هؤلاء«ريتشارد روبنشتين» الأستاذ المتخصص فى فرع من العلوم الاجتماعية، ربما تنفرد به الولايات المتحدة ، ويسمونه هناك «علم حل المنازعات » ، ويعمل فى مركز متخصص فى هذا الفرع فى جامعة چورچ ماسون ، فى ضواحى واشنطن .

وفى دراسة قصيرة ومركزة عنوانها «عنف الجماعات فى أمريكا» نشرها فى خريف ١٩٨٨ ، يقول روبنشتين إن النظام السياسى الأمريكى الذى يصف نفسه على النحو الذى تقدم ، لا يتمتع فى الحقيقة بشىء مما يدعيه !

وقد يكون مهما للقارئ هنا-أى القارئ غير الأمريكى ، والذى يتلقى صورة أمريكا عن نفسها - قد يكون مهما ذكر أن ريتشارد روبنشتين (١) أمريكى (٢) أبيض (٣) يعمل فى واحدة من الجامعات الأمريكية المحترمة (٤) ليس من سمعته أنه « يسارى » أو«راديكالى» أو هامشى » أو أى شىء من هذا القبيل .

وفى هذه الدراسة الموجزة المركزة يطرح مقولة ويدلل عليها ، وخلاصتها أن النظام السياسى الأمريكى والمجتمع نفسه يفتقران إلى أى طاقة فعالة تنظم حل الصراعات الاجتماعية فيه سلميا أو بدون عنف .

وفى هذا السبيل يستعرض تاريخ أمريكا حافلا بالعنف : بدءا بالمهاجرين المستوطنين البيض ضد السكان الأصليين الذين أصبح اسمهم « الهنود الحمر » إلى عنف الدولة ضد هؤلاء الهنود إلى انتفاضات المزارعين إلى ما اقترن بالثورة الأمريكية فى الربع الأخير من القرن الثامن عشر من عنف ، إلى انتفاضات العبيد ، إلى انتفاضة البيض الجنوبيين

إلى الاضطرابات المدنية التى اقترنت بالحرب الأهلية ، إلى موجة الارهاب التى اجتاحت الجنوب تقاوم إعادة صياغته بعد الحرب الأهلية إلى الصراعات العنيفة بين المستوطنين القدامى والمهاجرين الجدد ، إلى ٦٠ عاما من الصراع العنيف فى العلاقات العمالية - الصناعية ، إلى قرن كامل من الصراع العنصرى كانت موبوءة بالاعدام دون محاكمة والمذابح ، إلى الاضطرابات المدنية التى صاحبتها الحروب الخارجية ، إلى عنف الدولة ضد الأقليات العرقية والعنصرية والسياسية .

ويرى روبنشتين أن هذا السجل ، الذى لم يصل إلى نهايته ، يدحض مقولة أن حركة المجتمع الأمريكى محكومة بالتقدم السلمى ، كما يدحض القول بأن هذا العنف الذى ساد التاريخ لذلك البلد لم يكن ضروريا ولم تكن منه فائدة ، ويدحض الادعاء بان الجماعات «الداخلة فى النظام» أى المستفيدة منه ، قد صعدت درجات سلّمه دون عنف . بل يرى العكس ، أنه من جماعة ذات هوية مميزة فى المجتمع الأميركى وصلت إلى موقع من السلطة أو الثروة أو الكرامة داخل النظام ، وأيا كان هذا الموقع ، عزة أو هوانا ، قد جربت «اللعب حسب القواعد» حتى اقنعتها التجربة بأن هذا لن يجديها شيئا ، فلجأت إلى العنف ، وعندئذ أصابت من النجاح قليلا أو كثيرا .

بل أنه يرى أن الحركة والحراك فى المجتمع الأمريكى وفى هيكل السلطة لايجريان بهذه الصورة على قسوتها ، انما الواقع أقسى وأكثر مرارة فالنظام جرى تصميمه تاريخيا بحيث يستوعب قيادات الجماعات المقهورة عندما تتمرد ، ويترك قواعد تلك القيادات صفر اليدين إلا قليلا يسيرا ، وأن الجماعات الاقتصادية أو العرقية المؤتلفة فى السلطة لا تقبل اشراك أى جماعات أخرى إلا عندما يتهددها العنف ؛ فعنف الشماليين هو الذى قضى على امبراطورية الرق فى الجنوب ، وإرهاب الجنوبيين هو الذى أوقف اعادة تنظيم الجنوب وصياغته ليتفق مع بواعث الحرب الأهلية ونتائجها ، والحكومة الفيدرالية لم تعترف بالنقابات العمالية إلا فى غمار الأزمة الاقتصادية فى الثلاثينات وفى خضم موجة اضرابات عنيفة أثارت خوفا عرقيا واسع النطاق من الثورة ، ولم يحقق السود أهم مكاسبهم التشريعية إلا بعد الاضطرابات العنيفة التى اجتاحت المدن الأمريكية فى الستينات .

لكن الكاتب يتحفظ قليلا ليقول إن هذا لا يعنى أن العنف كان دائما مفيدا فى رفع المظالم عن الجماعات المقهورة أو فى

تحقيق مطالبها ، فبعض العنف لم يحقق شيئا ، وابرز الأمثلة هي انتفاضات السكان الأصليين – الهنود الحمر .

أما الأخطر الذي يراه ، فهو أن ما يحققه العنف من مكاسب قليلة أو كثيرة للجماعات التي تمارسه ، فإنه لم يؤد إلى تغيير طبيعة النظام السياسي والاجتماعي سوى في حالة واحدة هي الحرب الأهلية الأمريكية .

ويرد هذا إلى أن حركات العنف كلها ، لم يستهدف أي منها تغيير النظام القائم ، انما الالتحاق به والدخول إلى قسمته .

عنف الجماعات

وعنده أن هذا هو السبب الأهم ، إلى جانب أسباب أخرى ، لتكرار العنف وتواتره ، وأنه سيبقى يتكرر ما بقي مايسميه « عنف الجماعات » في أمريكا مستقرا على خواصه التي لازمته منذ البداية ، وما بقي سلوك السلطة حياله محافظا على نمطه المستقر رغم تغير الأوضاع والظروف .

ما هي الخواص التي لازمت « عنف الجماعات » في أمريكا ، وما هي المعالم المطردة بسلوك السلطات حياله !

أولى خصائص « عنف الجماعات » أنه دائما « محلي » فعلى سبيل المثال الصارخ أن حركة الارهاب التي اندلعت في الجنوب في أعقاب الحرب الأهلية لتعرقل اعادة تنظيمه وصاغته على وفاق مع نتائج تلك الحرب ، لم تحاول الاطاحة ، فالحكومة في واشنطن ، انما حاولت فقط منع ما لاتريد في الجنوب ، وأن حركات العنف تتصف عادة بالموالاة للنظام ، حتى أن منظمة الكوكلوكس كلاف البيضاء المتطرفة والتي كانت تقود هذا الارهاب قد نصت في دستورها الذي أقرته في ١٨٦٨ على الولاء للحكومة الفيدرالية ، وأن الاضطرابات العمالية العنيفة في التاريخ الأمريكي كله كانت تقف عند حد قمع « مخربي الاضرابات » والاضرار بممتلكات الشركة ، وقصارى الأمر أن يتجه عنها إلى الشرطة المحلية ، بل إن حركات العنف التي صاحبت حركة الحقوق المدنية في الستينات ، لم يكن في برنامجها تغيير النظام .

وترجع هذه الخصائص إلى أن حركات التمرد « ترى نفسها أمما داخل الأمة » فهي تعبر عن كيانات ذات ثقافية مشتركة ومتمايزة تناضل من أجل حق تقرير المصير ، أكثر من كونها كيانات اقتصادية مرتبطة عضويا بالجماعة الوطنية . وأن هذا يجعل النظام السياسي الأمريكي الداخلي أشبه بالنظام الدولي ، قواعده الحاكمة هي الفوضى في الأساس ، والقدرة في الحركة ، والاعتماد على النفس من حيث القيمة .

وأن الأسباب المباشرة لاندفاع العنف هي عادة أفعال يقوم بها ممثلو السلطة

المركزية على مجال حياة جماعة من الجماعات التى تعيش فى المجتمع متمايزة ومتفاصلة ، فيأتى عنف الجماعة وكأنه استجابة مباشرة لعدوان أجنبى ، ويكون هدفه طرد ممثلى السلطة المركزية « المعتدية » وعملائهم المحليين ، واستبدال السلطة بعناصر محلية . فالمطلب هو لامركزية السلطة وليس الاستيلاء على السلطة المركزية .

ولهذا السبب فإن ايديولوچيات حركات العنف نادرا ماكانت تشمل خططا لتغيير الاقتصاد والسياسة على مستوى البلاد ، فهى ترى أن مهمتها الطبيعية ، هى الدفاع عن هوية الجماعة التى تعرضت للعدوان ، وتحقيق التغييرات التى تكفل احترام الجماعة ومشاركتها فى السلطة القائمة .

ومن الأمثلة البارزة والدالة على هذه الخواص وبالتالى على محدودية أثرها يسوق الكاتب حالة العنف الذى انتشر فى الولايات المتحدة فى الستينات ، فقد كان زعماء الطلبة والأقليات يطالبون الاعتراف بتجمعاتهم كوحدات سياسية ، يتولى أعضاء منها مهمات الشرطة فى داخلها ، وأن تعترف السلطة المركزية بزعمائها المحليين ، وكان أشد زعماء هذه الحركات العنيفة ثورية ستوكلى كارما يكلى وتشارلز هاملتونى يعتبران أن هذه المطالب لا تتنافى مع رغبة هذه الجماعات فى الاندماج فى المنظومة الأمريكية لجماعات المصالح ، التى هى العمود الفقرى للسلطة السياسية ، وكان أساس هذا التفكير أنه لا يدخل إلى حلبة سياسات الائتلاف الحاكم إلى من بيده رصيد يساوم به وعليه، وكان هدف العنف هو الحصول على هذا الرصيد .

أما رد فعل السلطات على العنف فيراه روبنشتين مزيجا مستقرا من العنف والإصلاح المعتدل بل والرمزى أحيانا ، ففى الستينات استخدمت الشرطة والحرس الوطنى عنفا ضاريا وقف دون حد المذابح، إنما حيال القيادات فقد لجأت الشرطة إلى الاشتباك الفردى بالسلاح ، والتوريط فى الجرائم التى يستدرجهم إليها عملاء للشرطة ، والاغتيال ، فالنمط المستقر هو عنف انتقائى وإصلاح محدود، لأن مطلب حركات العنف يكون إصلاحيا بطبعه ، فعندما طالب «الفهود السود» فى الستينات بأن يدير السود مناطق تجمعهم، كان هذا هو الذى فتح الباب أمام النشاط الانتخابى فى أوساط السود فى السبعينات وهو ما أدى إلى انتخاب عمد سود فى عديد من المدن ذات الكتل السكانية الكبيرة منهم ، مثل لوس انجلوس وكليفلاند وأتلانتا وديترويت ونيويورك .

كـان بطلب «السلطة السـوداء» يعني «الإدارة الذاتية» أي السيطرة على الأرض التي يعيشون عليها ، وتأكيد الهوية المتميزة باعتبار أن هذه هي الأسلحة اللازمة لتنمية الأعتزاز الجماعي بالنفس والمهارات وتعبئة الموارد اللازمة للمنافسة مع الجماعات الأخرى والأقوى .

لكن هذه المطالب ما أن تحققت بدرجة أو بأخرى في الستينات ، حتى تكشف خواؤها في الثمانينات، فقد تحولت السلطات المحلية المستجدة فعليا ، إما إلى طبقة عازلة بين غضب الناس لسوء أوضاعهم وبين سلطات الولايات أو الحكومة الفيدرالية ، وإما أن هذه السلطات المحلية قد اجتذبت إلى مقاعدها أكثر العناصر أهلية لقيادة هذه الجماعات المقهورة ، فحرمت الجماعة من القدرات المعنوية والتنظيمية لهذه الكفاءات ، وعندما لم تتحقق الآمال التي كانت معقودة على هذه الإدارة الذاتية ، تعرض كثير من الزعماء السابقين إلى الخيانة ، وإما أن السلطة المحلية كانت منطلق العناصر المتطلعة من القيادات السابقة إلى مراكز أعلى في هيكل السلطة ، وإجمال هذا كله ، أن الجماعات التي تمردت قد حرمت من قياداتها عندما تحققت مطالبها ، فقد تحقق عزل هذه القيادة بجذبها إلى أعلى ويفصلها عن قواعدها .

وخيبة الأمل ، خميرة جديدة لعنف لابد أن يتجدد.

لكن الملحوظ أن السبعينات كانت عقدا من السلام الاجتماعي ، يعلله روبنشتين بأنها كانت فترة استيعاب ماحققه عنف الستينات من نتائج قبل انكشاف خوائها، وتميز الاستيعاب بقدر من الرضا الشعبي، فقد صدر قانون الحقوق المدنية وقانون حق الانتخاب ، وانفتحت فرص جديدة أمام الطبقة الوسطى السوداء ، كما أن رئيسا من الحزب الجمهوري انهى الحرب التي كانت البلاد غارقة فيها في فيتنام ، وأنهى بذلك أهم أعراض ثورة الشباب ، وفي هذا المناخ انقطعت الصلة بين العناصر الواعية والنشيطة والجماهير ، أي الزعماء ، فإن من لم ينجح النظام في كسبهم، لجأ إلى سجنهم أو قتلهم .

لكن الكاتب يرصد أيضا أنه مع السلام الاجتماعي في السبعينات ، كان العنف مستمرا ، إنما غير ملحوظ : العنف الجماعي تحول إلى عنف فردي يعبر عن نفسه من خلال الجريمة التي استشرت بين الجماعات المقهورة عندما بدأت تكتشف أنها لم تكسب شيئا ذا بال من العنف الجماعي بل وحرمت من عناصرها الفعالة، بينما تزايد عنف الدولة ضد الطبقات الدنيا .

ويرصد روبنشتين في دراسته التي نشرها في أواخر ١٩٨٨ ، تغيرات مهمة

العنف فى المجتمع الأمريكى

فى المجتمع الأمريكى ترشحه لتجدد العنف ؛ ويبدأ من القول بأن « اللامركزية » و« الحكم الذاتى » كانت حلولا جزئية صالحة فى الستينات ، عندما كان الاقتصاد والسلطة والمجتمع تتجه إلى اللامركزية . لكن هذه « الإصلاحات » أبقت على أسباب العنف : فالفصل العنصرى مازال قائما كأمر واقع ، وأن استغلال الطبقات الدنيا أو إهمالها عندما لا يتسع الاقتصاد لاستغلالها يتزايد ، والعلاقات بين مجتمعات الأقليات الفقيرة والمحرومة وبين الشرطة تزداد مرارة ، واعتماد أفراد هذه المجتمعات المقهورة على مؤسسات الرعاية اعتمادا مهيناً يتزايد مع انكماش الآمال فى الفرصة المتكافئة والعدل .

وكان يرى فى سياق هذا الرصد عوامل أربعة تؤجل انفجار العنف ، يكرر من بينها دخول السود وذوى الأصول الأمريكية اللاتينية إلى الأجهزة السياسية والإدارية للمدن الكبرى وبعض المناطق الزراعية .

ويضيف إلى ذلك تجارة المخدرات التى ضخت إلى أوساط الجماعات المقهورة بلايين الدولارات وعشرات الآلاف من فرص العمل فى أكبر شبكة للأعمال المشروعة وغير المشروعة فى التاريخ الأمريكى ، كانت هذه التجارة « حربا على الفقر » حققت ما فشلت فيه البرامج الحكومية فى هذا المجال ، لكنها فى الوقت ذاته نقلت طاقة العنف إلى داخل الجماعات المقهورة فى شكل الحروب بين عصابات المخدرات ، لكن هذا أيضا أدى إلى تدخل الشرطة على نطاق واسع ، فى صورة أخرى من العنف .

وأن تزايد الهجرة إلى الولايات المتحدة بدءا من السبعينات ، حتى أصبحت طوفانا فى الثمانينيات ، جعل الخريطة الديموغرافية معرضة لتغير مستمر ومتواتر ، أضعف تجانس الجماعات ذات الهوية المشتركة ، وشغلها إما باستيعاب المهاجرين الجدد من بين جلدتها ، أو بالصراع ضد المهاجرين الجدد من غير بنى جلدتها والذين يجتاحون أراضيها .

وأن ذكريات انتفاضات الماضى يمكن أن تكون كابحا للعودة إلى اللجوء إلى العنف ، بعد أن رأى الناس أن ماضى العنف لم يحقق نتائج باقية .

لكنه فى المقابل يرى عوامل أخرى أربعة من شأنها أن تؤدى إلى إحياء العنف ، ويلخصها فى :

١ – إبطاء وتيرة الهجرة على نحو يتيح لكل جماعة استيعاب المهاجرين الذين ينتمون إلى هويتها ، وتنظيم نفسها على نحو يعكس وزنها الاجتماعى .

٢ – أن تنخفض بحدة معدلات النمو الاقتصادى .

٣ – أن يتضح فشل السياسيين المحليين .

٤ – زيادة الضغوط على الجماعات المقهورة من خارجها ، إما بتكثيف الاستغلال الاقتصادى ، أو تخفيض الإنفاق الاجتماعى للدولة .

وكأنه كان يتنبأ .

ثم ينهى دراسته بتحذير ذى حدين : الأول أن الجماعات المنبوذة من النظام والتى تبقى الاحتياجات الأساسية لأفرادها دون إشباع " سوف تتمرد على وجه التأكيد ، والثانى أنه إذا كانت تجارب العنف فى الماضى لم تحقق لهذه الجماعات احتياجاتها ، فإنها ستبتكر أشكالا جديدة من العنف ، قد تتعذر السيطرة عليها .

* * *

ويبدو أن ما حدث فى لوس أنجلوس كان مصداقا لما تنبأ به ريتشارد روبنشتين ولما حذر منه .

لكن الذى لا يبدو هو أن رد فعل السلطة ، كما تكشف حتى الآن ، لم يضع أيا من هذه التنبؤات والتحذيرات فى حسابه .

فلقد تبين أن استجابة السلطات ، على ما يبدو فيها من اهتمام و« فخامة » ترجع إلى عوامل غير ما حدث فعليا فى لوس أنجلوس ، وغير العوامل غير الظاهرة الكامنة وراء القتل والضرب والتحطيم والحرق والنهب .

فقد وقعت أحداث لوس أنجلوس فى ظروف دقيقة .

فالرئيس الأمريكى فى خضم حملة انتخابية يدخل إليها بدعوى النصر على طول الخط : من الحرب الباردة إلى « عاصفة الصحراء » وعليها يقيم دعوى تفوق النظام الأمريكى وجدارته بقيادة العالم .

والولايات المتحدة ، تدعى النيابة عن العالم فى إقامة العدالة ، فإذا لوس انجلوس تلقى ظلالا كثيفة على قدرتها على إقامة العدالة القضائية بين مواطنيها .

واللجنة التى عينها الرئيس بوش ، تفتح تحقيقاتها فى بحث حالة القطيعة بين عمدة المدينة – الأسود – وبين مدير شرطتها الأبيض ، وهى قطيعة كان عمرها خمسة عشر شهرا قبل أن تنفجر لوس أنجلوس .

والبداية مؤشر ، على أن السلطات كالعادة ، ستبحث عن أفراد يتحملون المسئولية وعن « كباش فداء » وعن تسوية تؤدى إلى تهدئة الوضع الراهن ، دون أن تحل المشكلة .

وهذه الأخيرة من الخواص التى رصدتها دراسة روبنشتاين



خمسة قرون من فكر التنمية

بقلم : د. جلال أمين

لقد كان موضوع النمو الاقتصادى والتنمية هو أحد الشواغل الأساسية لأصحاب المذهب التجارى منذ نحو خمسة قرون ، ولآدم سميث ، والاقتصاديين التقليديين فى القرن الثامن عشر والنصف الأول من القرن التاسع عشر ، وللاقتصادى الألمانى فريدريك ليست فى العقدين الرابع والخامس من ذلك القرن ، ولمؤسسى الماركسية فى الربع الثالث من نفس القرن ، وليس من المستغرب ، بطبيعة الحال ، أن تتناول كل هذه المدارس قضية التنمية تناولاً مختلفاً عن تناول المدارس الأخرى ، سواء من حيث عوامل التخلف والتنمية التى يجرى التركيز عليها ، أو من حيث نوع السياسة الاقتصادية المثلى التى ينصح باتباعها ، بل وأحيانا من حيث تحديد ما الذى يجرى تنميته . فكل مدرسة عكست بفكرها ، إلى حد كبير ، ظروف المرحلة التاريخية وظروف الدولة أو الدول التى ظهر هذا الفكر فيها ، وكلما تغيرت الظروف تغير منحى التفكير ومحتواه ، لايبدو هذا الاختلاف غريبا البتة بالنظر إلى الفترات الزمنية الطويلة نسبياً التى تفصل بين بعض هذه المدارس وغيرها ، فبين نشأة الفكر التجارى وكتاب آدم سميث نحو ثلاثة قرون ، وبين آدم سميث وماركس نحو قرن ، ومع امتداد الزمن لابد أن نتوقع أن تتغير الظروف وتتغير معها الأفكار . كما ان ظروف إنجلترا عندما كان آدم سميث يكتب (ثورة الأمم) ، كانت

« من الممكن أن يقال إن موضوع النمو الاقتصادى والتنمية ، لم يبدأ فى احتلال تلك المكانة العالية فى الكتابات الاقتصادية ، التى يحتلها اليوم ، إلا منذ أقل من نصف قرن ، على أساس أن الاقتصاديين ظلوا وقتا طويلاً قبل الحرب العالمية الثانية لا يبالون كثيراً ، أو لا يبالون على الإطلاق بموضوع التنمية . ولكن الحقيقة أن موضوع التنمية ، وإن لم يكن يسمى بهذا الإسم ، قديم قدم علم الاقتصاد ، عاصر نشأته والمراحل الأولى من نموه ، وظل يحظى بأهمية كبيرة لدى مختلف المدارس الاقتصادية حتى بدأ إهماله على يد المدرسة النيو كلاسيكية (أو التقليدية الحديثة) حوالى سنة ١٨٧٠ . »

تختلف اختلافا ملحوظا عن ظروف ألمانيا عندما كان ليست يكتب «الأساس القومى للاقتصاد السياسى» ، فكان من الطبيعى أن يختلف منحى هذا عن منحى ذاك .

الأكثر لفتا للنظر وقد يكون مداعاة للاستغراب ، ما طرأ على فكر التنمية من تغير خلال تلك الفترة القصيرة جداً ، نسبيا ، التى انقضت منذ الحرب العالمية الثانية ، وفى نفس العالم الغربى الذى تخرج منه أهم الكتابات فى هذا الموضوع. فخلال هذه الفترة التى لا تزيد على خمسين عاما ، تغير موقف الاقتصاديين أكثر من مرة ، وتغيرت النغمة السائدة فيما يتعلق بالعوامل الأساسية فى التنمية والتخلف ، والجوانب التى يجرى تركيز البحث عليها والاهتمام بها ، والسياسات الاقتصادية التى يشيع النصح بتطبيقها . هذا التقلب الشديد فى الفكر الاقتصادى السائد فى قضية التنمية ، ليس فيه ما يدعو الاقتصادى للزهو أو الإعجاب بنفسه ، بل على العكس ، فيه فيما أظن ما يدعوه إلى الكثير من التواضع ، إذ أنه من هذا التقلب يفصح عن أن «علمه» مازال بعيداً كل البعد عن أن يكون ذلك العلم المنضبط الدقيق وهو ما كان يطمح إليه ويظن أحياناً أنه قد وصل إليه بالفعل، كما يفصح عن أن علم الاقتصاد يخضع للأهواء والتحيزات واتجاه المصالح السائدة بدرجة أكبر كثيراً مما يظن .

● النمو الاقتصادى والتنمية أحد الشواغل الأساسية لأصحاب المذهب التجارى .

الغريب مع هذا . أن هناك من الاقتصاديين من لا يرى أو لا يريد أن يرى هذا التقلب فى فكر التنمية ، الذى يصل أحياناً إلى درجة التقلب بين الشئ ونقيضه، ويصور آخر كلمة قالها اقتصاديو التنمية وكأنها هى الكلمة النهائية والحاسمة، أو كأنها هى ما وصل إليه علم الاقتصاد ونتيجة تطور تدريجى يقترب به شيئاً فشيئاً من الحقيقة ، دون أن يفطن إلى أن الكلمة التى تقال ليست بالضرورة أكثر حكمة مما كان يقال منذ ثلاثين أو أربعين سنة ، أو حتى منذ قرنين أو ثلاثة ، بل قد لاتزيد على كونها «الكلمة المناسبة فى هذا الظرف بالذات ولخدمة مصالح بعينها» .

الغرض من هذا المقال ومقالات تالية (١) ، هو محاولة بيان هذا التقلب الشديد فى فكر التنمية عبر القرون الخمسة الماضية ولكن مع التعرض بدرجة أكبر من التفصيل للتقلبات التى طرأت على هذا الفكر منذ الحرب العالمية الثانية ، يحدونى الأمل فى أن النجاح فى بيان هذه التقلبات وتفسيرها قد يكسبنا درجة أكبر من الحكمة عندما نتعرض لتقييم ما يسود من أفكار عن التنمية وما ننصح به من سياسات اقتصادية فى أيامنا هذه .

* * *

لم تكن التنمية عند أصحاب المذهب التجارى ، الذى ساد أوربا طوال ما يقرب من ثلاثة قرون (١٤٥٠ - ١٧٥٠) هى زيادة ما ينتجه المجتمع من سلع وخدمات ، كما نفهم نحن التنمية الآن ، بل زيادة ما تحوزه الدولة من ذهب وفضة . كان هذا المنحى من التفكير ، الذى قد يبدو لنا شديد الغرابة الآن ، مفهوما وطبيعيا تماما فى تلك الفترة ، كما أنه لم يكن بالحماقة التى وصفه بها آدم سميث فى ١٧٧٦ . كان طبيعيا أن تُعرّف الثروة بالذهب والفضة فى وقت كان المصدر الأساسى للثروة فيه هو التجارة ، وأن يفهم النمو وزيادة الرخاء بمعنى زيادة ما بحوزة الدولة من ذهب وفضة فى وقت كان أكثر مصادر الدخل نموا فيه هو نمو التجارة ، خاصة التجارة الخارجية ، وبالذات فى أعقاب الكشوف الجغرافية منذ نهاية القرن الخامس عشر . كما أن فهم الثروة على أنها الذهب والفضة ، وليست السلع

والخدمات التى تشبع مختلف الحاجات الإنسانية يكتسب درجة عالية من العقلانية إذا تذكرنا أن أخشى ما يخشاه التاجر هو أن تبقى لديه السلع دون تصريف ، وأن نجاحه واستمرار نشاطه يتوقفان على استمرار وسرعة ما تحققه «من سيولة» ، أى سرعة تحويل السلع إلى نقد ، أى إلى ذهب وفضة ، إنه إذا كان رأس مال أرباب الصناعة هو الآلات والمعدات والمواد الأولية ، فإن رأس مال التاجر هو النقود . أما ما اشتهر به التجاريون من التركيز على ميزان المدفوعات ، واعتبارهم أن أهم هدف للسياسة الاقتصادية هو تحقيق فائض منه (ومن ثم أن يدخل إلى الدولة كمية من الذهب والفضة تزيد عما يخرج منها) فهو مفهوم أيضا وطبيعى للغاية فى عصر كان التنافس فيه على المستعمرات الجديدة ، فى أثر الكشوف الجغرافية ، على أشده بين الدول الأوربية ، حيث كانت كل دولة ترغب فى اكتساب موطئ قدم فى الأرض المكتشفة حديثا تحقق من ورائه لتجارها أرباحا مضاعفة . كان التصدير إذن هو أكثر أنواع النشاط الاقتصادى ربحاً ، ومن ثم كان أكثرها تمتعا بثناء الاقتصاديين ، وكان تدفق فوائض الذهب والفضة على الدولة الدليل الأكيد على نجاحها فى التصدير ، ومن ثم اعتبر تحقيق الفائض فى ميزان المدفوعات أولى الأهداف الاقتصادية بالاهتمام .

تنافس حاد وتدخل حكومى

كان هذا التنافس الحاد بين الدول الأوربية على فتح مناطق جديدة لتجارتها ، وكذلك الحاجة إلى توسيع السوق المحلية أمام المنتجين المحليين ، يتطلبان درجة عالية من التدخل الحكومى لأكثر من سبب من ذلك فرض سياسة حمائية تضمن توفير سوق متسقة أمام التجار الوطنيين ، والقيام بمشروعات البيئة الأساسية اللازمة لتسهيل التجارة وتشجيعها كإنشاء الطرق والموانىء وتحسينها ، واستتباب الأمن والقضاء على قطاع الطرق ، وتوحيد الأوزان والمقاييس ، والقضاء على الحواجز الجمركية القائمة بين مقاطعات الدولة الواحدة ، ومنح الاعانات للمصدرين ، بل وتشجيع إنتاج مختلف السلع الصالحة للتصدير وتخفيض نفقة إنتاجها ، وتشجيع صناعة السفن وتجهيز جيش قوى قادر على ضم أراضٍ جديدة والدفاع عن أراضٍ تم اكتسابها . بل لقد كانت الدولة ترى من واجبها أحيانا التدخل بفرض مواصفات معينة على السلع المصنوعة تسهيلا لتصديرها ، كما كان الحال فى ظل كولبير ، وزير مالية لويس الرابع عشر، حيث كانت "الكولبيرية" نموذجا يمثل الفكر التجارى أصدق تمثيل .

كانت أوربا تعيش إذن خلال ذلك العصر ، الذى يكاد يتطابق مع عصر النهضة ، مرحلة يناسبها تماما هذا الفهم

• بيان التقلب الشديد فى فكر التنمية عبر القرون الخمسة الماضية .

لطبيعة الثروة والتنمية ، وهو الفهم الذى يبدو لنا الآن محدودا وقاصرا كما كانت تناسبها تماما درجة عالية من التدخل الحكومى فى النشاط الاقتصادى . بل إن من الشيق جدا أن نلاحظ أوجه الشبه الشديد بين بعض أفكار التجاريين ، وبعض الأفكار والاتجاهات التى شاعت فى الدول المسماة ، اليوم بالمتخلفة أو النامية فى الخمسينات والستينات من القرن الحالى .

وليس من الصعب فى الواقع تفسير هذا الشبه فاقتصاديو العصر التجارى كانوا فى الواقع يرفعون لواء بناء الاقتصاد القومى فى مراحله الأولى ، وقد كان ذلك يتطلب درجة عالية من الاعتماد على النفس - وتشجيع التصنيع ، وحماية السوق من منافسة السلع الأجنبية .

إن من الشيق جدا أن نقرأ القائمة التالية من النصائح التى كتبها أحد كبار التجاريين فى إنجلترا فى كتاب نشر فى ١٦٦٤ ، وهو توماس مان Thomas Mun، الذى وصفه البعض بأنه قد يكون أقرب التجاريين الانجليز إلى نموذج « التجارى المثالى » ، فإذا بنا وكأننا نقرأ مذكرة من المذكرات المقدمة لأحد رؤساء جمهوريات الدول النامية فى الخمسينات أو الستينات من هذا القرن ، حين شاعت القومية الاقتصادية ، وسادت نزعة الاعتماد على النفس . إن توماس مان ينصح الانجليز بالآتى :

١ - لابد أن نستغل كل شبر من أراضينا الزراعية ، حتى نقلل من اعتمادنا على الواردات .

٢ - ونقلل من إسرافنا فى استهلاك السلع الأجنبية .

٣ - ونمنع أن يكون تصدير منتجاتنا على سفن أجنبية .

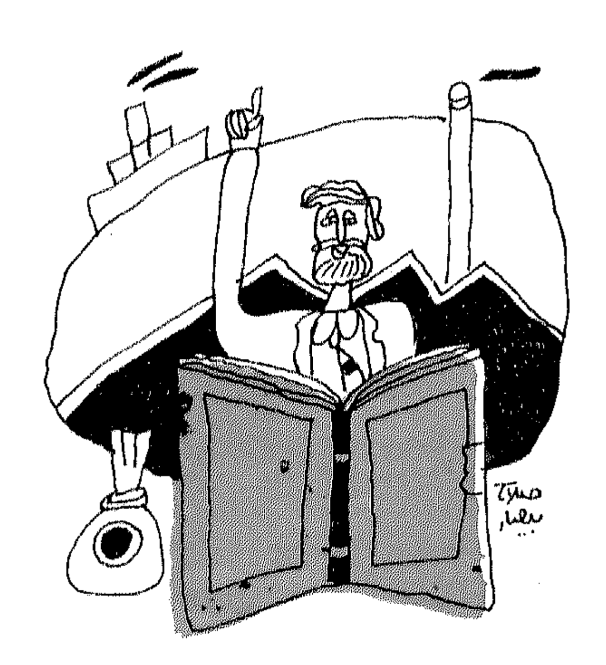
٤ - فإذا أردنا الإسراف فلنسرف فى الإنفاق على سلعنا المحلية ، حتى نخلق فرصاً جديدة للعمالة ، لأبناء وطننا ، ولكن من الأفضل أن يشتغل هؤلاء فى صناعات تتجه إلى التصدير .

٥ - وعلينا أن نزيد من نشاطنا فى المياه المحيطة بنا «بدلاً من أن نترك ذلك للهولنديين» .

ومثل هذا كثير ، حتى يختم توصياته بالدعوة إلى إنه « يجب أن نبذل كل ما فى جهدنا لاستخدام مواردنا وقوانا الذاتية إلى أقصى حد ممكن »[٢] وكأنه واحد من الدعاة المحدثين للاعتماد على النفس .

لاعجب إذن أن استخدم اصطلاح التجارية الحديثة (neo-mercantilism) كثيرا فى وصف ما كانت تتبعه كثير من الدول النامية من سياسات اقتصادية فى الخمسينات والستينات من القرن الحالى ، ومنها مصر فى عهد الناصرية .

وقد أصاب فكر التجاريين نفس الانحصار الذى أصاب « التجارية الحديثة» فى العالم الثالث ، نتيجة أيضاً لتغير الظروف والأحوال فإذا بنا نجد آدم سميث والاقتصاديين التقليديين فى بريطانيا يدشنون مجموعة مختلفة جدا من الأفكار



ابتداء من ١٧٧٦ ، ليس لأن الاقتصاديين كانوا قد اكتسبوا مزيدا من الحكمة مع مرور الزمن (وإن كانوا قطعا قد صاروا أكثر دقة وأكثر ميلا للتحليل والتنظير) ، بل لمجرد أن ظروف بريطانيا منذ نهاية القرن الثامن عشر قد استدعت هذا الانقلاب التام فى مضمون الفكر الاقتصادى واتجاه السياسة الاقتصادية .

* * *

مما يستحق أن يروى فى هذا الصدد، ويؤيد هذا الذى ذهبنا إليه حالات تلك القصة الشيقة عن موقف الاقتصادى الانجليزى الشهير جون مينارد كينز من المذهب التجارى والجدل الذى ثار بينه وبين الاقتصادى السويدى الشهير أيضا ، إيلى هيكشر .

ذلك أن كينز خصص فصلا بأكمله من كتابه المعروف (النظرية العامة) ، والذى نشر فى ١٩٣٦ ، للثناء على التجاريين والإشادة بفطنتهم ، وقال إنهم " دون أن يكون لهم دراية بالأسس النظرية التى تقوم عليها السياسة الاقتصادية ، يبدون وكأنهم قد وفقوا فى الوصول إلى الحكمة العملية.»[٣] ولم يكن هذا الموقف من جانب كينز غريبا ، إذ أن كثيرا من عناصر السياسة الاقتصادية التى دعا إلى تطبيقها فى الثلاثينات من هذا القرن ، لمعالجة الكساد العظيم ، قريبة جدا من عناصر السياسة الاقتصادية التى دعا

• بناء الاقتصاد القومى يتطلب درجة عالية من الاعتماد على النفس .

إليها التجاريون قبله بنحو خمسة قرون . فكلاهما يؤكد على المنافع التى تعود على الاقتصاد القومى من زيادة كمية النقود المتداولة ومن تشجيع الصادرات ، وكلاهما يعتبر الانفاق على الاستيراد من قبيل «التسرب» الذى ينقص من الطلب الكلى على منتجات الدولة ، ومن ثم تحسين تخفيضه ، وكلاهما ، فى نهاية الأمر ، يرى تدخل الدولة فى الاقتصاد شيئا مرغوبا فيه بل وضروريا ، بعكس ما دعا إليه الاقتصاديون التقليديون فى بريطانيا ابتداء من نهاية القرن الثامن عشر .

كان كينز قد اعتمد فى تحصيل معلوماته على التجاريين وأفكارهم ، اعتمادا يكاد يكون تاما على كتاب الاقتصادى السويدى هيكشر عن التجاريين ، وقال كينز ذلك صراحة ، وأضاف أن هيكشر من أنصار الاقتصاديين التقليديين المتحمسين لهم ، وهم ، كما ذكرنا حالا على طرفى نقيض من التجاريين فيما دعوا إليه من حرية اقتصادية وكفّ يد الدولة عن التدخل ومن ثم يقول كينز إن هيكشر لا يمكن أن يتهم باظهار التجاريين فى صورة أفضل من الحقيقة ، فإذا كان كينز قد استخلص من كتاب هيكشر ما يرفع من شأنهم ، فلابد أنه على صواب . (٤)

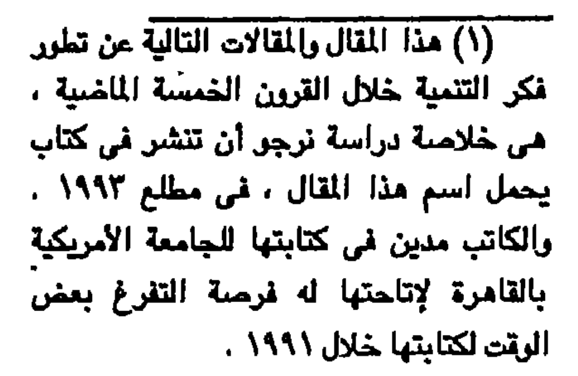
الطريف أن هيكشر عندما نشر الطبعة الثانية من كتابه عن التجاريين ، وكان ذلك بعد أن نشر كينز كتابه ، احتج على كينز احتجاجاً شديدا . لقد بدأ بتوجيه الشكر لكينز على ما عبّر عنه من دين له ولكتابه عن التجاريين ، ولكنه لامه لوما شديدا على ما أظهره من خفّة وتسرع بالثناء على التجاريين إلى هذا الحد ، وعلى زعمه بأن نصيبهم من الحكمة كان أكبر من نصيب آدم سميث والاقتصاديين التقليديين ، لمجرد أن التجاريين دعوا إلى تدخل الدولة والتقليديين دعوا إلى الحرية الاقتصادية ، أو لمجرد أن التجاريين دعوا إلى بعض الاجراءات الاقتصادية التى تصادف أنها اتفقت مع هوى كينز ، وتساءل هيكشر متهكما : كيف نتوقع أن تتوافر للتجاريين درجة عالية من « الحكمة العملية » ، فى عصر لم تكن تتوافر فيه إحصاءات يعتد بها ، بل كانت المعرفة فيه بالمتغيرات الاقتصادية أقرب ما تكون إلى التخمين ؟ وكيف نتوقع أن تسود الحكمة العملية



لبعض الوقت ثم تختفى فجأة فى ١٧٧٦ ، أى وقت ظهور كتاب آدم سميث ؟

الحقيقة فى نظر هيكشر أن التجاريين لم يكن لديهم أدنى اهتمام بالوصول إلى « حقائق نظرية عامة » صالحة لكل زمان ومكان . ومن ثم فوصفهم « بالحكمة » لايناسبهم فى الواقع ، إذ ليس هذا ما كانوا يسعون إليه . كانوا مهتمين بتقديم النصيحة بما اعتقدوا أنه ملائم لفترة معينة ، وليس للعالم بأسره بل لظروف دولة أو دول معينة .

ويختتم هيكشر كلامه بالقول بأن كتاب كينز الذى سمّاه « النظرية العامة » ، لا يحتوى على « نظرية عامة » على الإطلاق ، شأنه فى ذلك شأن مساهمات كل المدارس الاقتصادية الأخرى ، فصحة ما قدمته كل من هذه المدارس مرهون بظروف العصر والمكان اللذين نشأت فيهما . وفى رأى هيكشر أن كينز وقع بهذا فى نفس الخطأ الذى وقع فيه آدم سميث من قبله ، فكلاهما يفتقد " الاحساس بالنسبية (Sense of relativity) حيث ظن كل منهما أن ما يصلح لعصره وبلده يصلح لكافة العصور والبلاد ، وهذا الخطأ هو الذى أدى بآدم سميث إلى أن يقسو على التجاريين كل هذه القسوة وبكينز أن يطريهم كل هذا الإطراء . (٥)



(١) هذا المقال والمقالات التالية عن تطور فكر التنمية خلال القرون الخمسة الماضية ، هى خلاصة دراسة نرجو أن تنشر فى كتاب يحمل اسم هذا المقال ، فى مطلع ١٩٩٣ . والكاتب مدين فى كتابتها للجامعة الأمريكية بالقاهرة لإتاحتها له فرصة التفرغ بعض الوقت لكتابتها خلال ١٩٩١ .

(2) A. Gray : The Develo - pment of Economic Doctrine, Longmans, London, 1957, PP . 86 - 88 .

(3) J.M. Keynes : The General Theory of Employment, Interest and Money, Macmillan, London, 1957, P. 340 .

(٤) المرجع السابق ، ص ٣٤١

(5) E.F. Heckscher : Mercantilism, Mendel Shapiro, London, 1935, Vol.2, PP. 273 - 358 .

مسئولية التركستان من ألبانيا إلى الصين

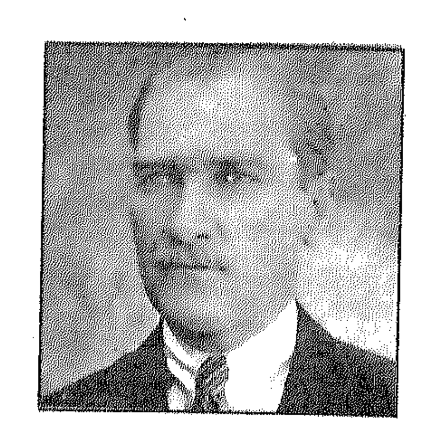
بقلم : عبد الرحمن شاكر

تفرض المتغيرات الدولية على الأمم والشعوب مسئوليات جديدة ربما لم تكن فى حياتها من قبل ، وفى الوقت ذاته تتيح لها فرصا لعلها لم تسع إليها ، ولكن ساسة هذه الأمم يجدون أنفسهم مطالبين بالتصدى لتلك المسئوليات الجديدة ، ومحاولة الاستفادة من الفرص المتاحة ، وإلا وجدوا أنفسهم خارج التاريخ وبعيدا عن مجرى أحداثه

وأحدث هذه المتغيرات وأبعدها مدى هو الانهيار الذى أصاب الكتلة الاشتراكية فى شرق أوربا وانتهى بتفكك الاتحاد السوفييتى ذاته إلى جمهوريات مستقلة ، يضمها « كومنولث » واهى العرى ، مهدد بالانهيار فى أية لحظة ، بل يمتد التهديد إلى كبرى جمهورياته وهى الاتحاد الروسى ذاته ، الذى تحاول بعض الجمهوريات ذات الحكم الذاتى داخله أن تحصل على استقلالها الكامل .

وكان من الطبيعى أن ينعكس إنهيار الدولة السوفييتية على النحو المذكور على أقرب جاراتها إليها ، ومن بينها تركيا ، التى كانت بدورها حتى نهاية الحرب العالمية الأولى امبراطورية ضخمة تسمى الدولة العثمانية ، وشهد التاريخ السابق لتلك الحرب صراعا هائلا ما بين تلك الامبراطورية ، وجارتها الضخمة المتاخمة لها : الامبراطورية الروسية .

وقد أدت الحرب العالمية الأولى إلى تحول واسع النطاق فى كلتا الامبراطوريتين ، وكانت هناك عناصر مشتركة فى هذا التحول تشمل الامبراطوريتين من ناحية ، وعناصر



كمال أتاتورك

اختلاف أملتها طبيعة الظروف الخاصة بكل منهما من ناحية أخرى .

أما عن العناصر المشتركة ففي مقدمتها سقوط الحكم الأتوقراطي القائم على أساس الدين في كل من الامبراطوريتين ، وكانت البداية في روسيا فقد سقطت في عام ١٩١٧ القيصرية التي كانت تحكم « روسيا المقدسة » باعتبارها حامية المسيحية الأرثوذكسية في العالم ووريثة بيزنطة في هذه المهمة ، بعد سقوط هذه الأخيرة في القرن الخامس عشر الميلادي ، في أيدي العثمانيين ، بل تحولها إلى قاعدة حكم هؤلاء ، ومقر الخلافة الاسلامية ، التي تحكم عن طريقها روحيا وعسكريا الشطر الأكبر في العالم الاسلامي .. قام على أنقاض القيصرية نظام علماني متطرف ، لم يكتف بابعاد الدين عن الدولة في الأمور السياسية فحسب ، بل حاول اقتلاع جذوره الثقافية في نفوس أتباع مختلف الديانات ، ليفرض المساواة الكاملة بينهم في كل شيء ، باسم الاشتراكية والملكية العامة لوسائل الانتاج ، وباسم الاشتراكية مارس استبدادا جديدا لا يقل عنفا عن استبداد القياصرة رغم اختلاف الأهداف وتباينها ، فيما عدا هدفا واحدا مشتركا حافظ عليه البلاشفة وهو بقاء « الامبراطورية » الروسية على حالها وحدة متماسكة بكل ما تضمه من قوميات وعقائد مختلفة ومتنابذة ، تحت اسم جديد ، هو اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية ، الذى تفترض فيها المساواة الكاملة بين مختلف مكوناته من الجمهوريات والأجناس وأتباع الديانات .

أما الامبراطورية العثمانية ، فقد سقطت فيها الخلافة الاسلامية وحكم آل عثمان بعد ذلك التاريخ بسنوات قليلة ، وقامت فيها بدورها جمهورية علمانية ، ولكن بعد أن تم تجريد تلك الجمهورية ، من كل أتباع الامبراطورية القديمة ، سواء أتباعها المخالفون في الدين ، من المسيحيين أساسا في شرق أوربا ، أو من المسلمين في العالم العربي ، الذى كان الاستعمار الأوربي قد سبق بالفعل إلى أقتطاع أجزاء كبيرة منه بحيث لم يبق للسيادة العثمانية عليها سوى الاسم ، كما كان عليه الوضع في مصر ، التي احتلها البريطانيون في عام ١٨٨٢ ، وبقيت تابعة رسميا للدولة العثمانية ، حتى قيام الحرب العالمية الأولى فأعلنت دولة الاحتلال الحماية عليها وصدت الجيش العثماني الذى حاول الزحف عليها لتحريرها من الحكم البريطاني .

ورفض أتاتورك زعـيم الثـورة التى أطاحت بالخلافة العثمانية دعوة لينين ، زعيم الثورة البلشفية فى روسيا أن يمده هذا الأخير بالسلاح الذى يكفى لاسترداد الامبراطورية العثمانية وطرد الاحتلال الغربى الامبريالى منها، واكتفى أتاتورك من السلاح والتأييد السوفييتى بالحصول على استقلال بلاده تركيا فحسب ، وهى التى أوشكت لولا هذا التأييد أن تتحول بدورها إلى مستعمرة بريطانية أو بريطانية - يونانية مشتركة ، كما كان عليه الحال فى قبرص التى جلا منها البريطانيون فيما بعد الحرب العالمية الثانية لتبقى حتى الآن فريسة للصراع ما بين قسميها التركى واليونانى !

لم يتخل الأتراك فى عهد أتاتورك ، عن مجرد حلم الاحتفاظ بالامبراطورية التى كانوا يحكمونها بشقيها المسيحى فى أوربا والاسلامى فى آسيا وأفريقيا فحسب ، بل تخلى القوميون الجدد منهم عن فكرة « الجامعة الطورانية » التى تجمع ما بينهم وسائر المتكلمين بالتركية والذين ينتمون إلى أعراق مشابهة لهم ، ومعظم هؤلاء كانوا يعيشون فى منطقة التركستان فى الشمال الشرقى من تركيا أو الأناضول، ويمتد وجودهم البشرى والثقافى إلى سنكيانج فى الصين ، وقد وقعوا فيما قبل الحرب العالمية الأولى تحت سيطرة الامبراطورية الروسية فى سلسلة من الحروب والغزوات آخرها حرب القرم فى عام ١٨٧٠ ما بين الدولة العثمانية والامبراطورية الروسية وانتصرت فيها هذه الأخيرة ، واعتبرتها أوربا انذاك نصرا مؤزرا للمسيحية على الاسلام !

فى أواخر عهد الدولة العثمانية كان هؤلاء القوميون الطورانيون يرون أن تتريك بعض الأجزاء التى يحكمونها باسم الاسلام من العالم العربى ، أسهل من منازعة الروس المناطق التى يحتلونها من التركستان ، والتى سبق لهم أن فرضوا عليها أو على أجزاء منها سياسة الترويس ! وكان التتريك القسرى كما حدث فى الشام ، واحدا من الأسباب التى دعت أجزاء من العالم العربى إلى قبول التحالف مع الغرب الاستعمارى المسيحى ضد دولة الخلافة العثمانية فى الحرب العالمية الأولى .

ولعل أحد أسباب رفض أتاتورك دعوة لينين لاسترداد الامبراطورية العثمانية هو تساؤل صامت لابد أن يكون قد دار فى خلده : هل سوف يسمح لنا لينين بعد ذلك أن نضم إلى امبراطوريتنا « الاسلامية » ، التركستان المسلم الذى يقع تحت سيطرته ؟

كانت علمانية أتاتورك تختلف عن علمانية لينين : فلا هو حريص مثله على تحرير كل الشعوب من قبضة الامبريالية

العالمية ، ولا على المساواة الاقتصادية ما بين أفراد المجتمع الواحد وسائر البشر ، بل يكفيه منها أن يفصل الدين عن الدولة فى كل شىء وأن يحاول أن يجعل تركيا قطعة من أوربا فى لباسها وتقاليدها الاجتماعية ومختلف مظاهر حياتها ، باعتبار أن أوربا هى نموذج المدنية الحديثة .

دورة التاريخ :

ويدور الزمن دورته ، ويسقط الاتحاد السوفييتى ، بل وتسقط فيه الاشتراكية ، ويصبح النموذج الذى تتطلع إليه شعوبه ، ليس أوربا الغربية فحسب ، بل الولايات المتحدة الأمريكية واليابان وسواهما من قادة التكنولوجيا المتطورة ، ويحرص « السلاف » من سكان الاتحاد السوفييتى السابق على ألا يربطوا عجلتهم تماما إلى عجلة « المتخلفين » من سكان المناطق الآسيوية فى الاتحاد السوفييتى ، أو « التركستان » الذى أطلق عليه فترة اسم « التركستان الروسى » والذى أصبح الآن ست جمهوريات مستقلة هى كازاخستان وأوزيكستان وتركمانستان وطاجيكستان وقرغيزيا وأذربيجان ، بالاضافة إلى الجمهوريات الصغيرة ذات الحكم الذاتى فى الاتحاد الروسى والتى تتطلع حاليا إلى الاستقلال مثل شيشن والاغوش ، وتتارستان ، وداغستان .

وبهذا التفكك الذى أصاب الاتحاد السوفييتى ، ثم انهيار الامبراطورية الروسية ، وأصبحت المشكلة التى تواجه الجمهوريات الاسلامية من هذا الاتحاد السابق هى مشكلة الانتماء ، لأن رابطة « الكومنولث » الواهية التى ابتدعها السلاف من أبناء الاتحاد السوفييتى السابق تبدو عديمة المستقبل ، وربما تكون فى طريقها إلى الزوال .

ويتحرك « الجنوب » فى اتجاه تلك الجمهوريات التركستانية ، فيما يبدو تخليا من جانب « الشمال » .. تتحرك إيران وتركيا والعالم العربى ، وكلها لها روابط تزيد أو تنقص مع هذا « التركستان » .

وتتركز الأنظار على تركيا بصفة خاصة : فهى الأقرب للتركستان من الناحية العرقية واللغوية ، كما أن العقيدة التى تسودها ، وهى الإسلام على المذهب السنى ، هى التى تسود معظم هذا التركستان .

وتحت ستار العلمانية ، الذى ساد كلا من تركيا ، والتركستان (الروسى) ، بطرق مختلفة ، يتحرك حنين إلى الدين ، الذى عانى بدوره جوعا متفاوتا لدى كل من الفريقين .

وممن تتركز أنظارهم على تركيا فى هذا المجال الولايات المتحدة الأمريكية القوة العظمى الوحيدة فى العالم الآن بعد الانهيار السوفييتى والتى تتطلع إلى الهيمنة العالمية ، بحكم أن منازعها العسكرى الأول قد انتهى ، ولم يعد ينازعها السيطرة العالمية إلا قوتان اقتصاديتان يحسب حسابهما ، وليس لهما

مسئولية التركستان

وزن عسكرى كبير حتى الآن ، وهما المنهزمان السابقان فى الحرب العالمية الثانية : ألمانيا واليابان ، مع احتمال تصدر الأولى منهما لكيان دولى كبير يتمثل فى أوربا الموحدة أو السائرة فى طريق التوحد .

تحاول أمريكا أن تجعل من تركيا حصان طروادة الذى يكفل للأولى أن تكون لها اليد العليا على التركستان الذى فقده الروس بانهيار الاتحاد السوفييتى ، عن طريق التحول إلى اقتصاد السوق طبقا للنموذج الأمريكى ، وأن تدفع عن هذا التركستان خطر الأصولية الاسلامية على الطريقة الايرانية .

ولكن هذا الهدف يواجه عقبات لا يستهان بها ، من ذلك :

١ – أن الفكرة الاشتراكية لم تسقط تماما فى التركستان أو الجمهوريات الأسيوية من الاتحاد السوفييتى السابق ، فرغم كل شىء ، تدين تلك الجمهوريات للقدر الذى أحرزته من تقدم ثقافى واقتصادى للثورة البلشفية ، بل إنها فى التحليل الأخير ، تدين باستقلالها الحالى إلى تلك الثورة ، وكانت أحرص على بقاء الاتحاد السوفييتى ، من قادته الأوربيين .

ولا يزال الشيوعيون ، باسمهم الصريح يحكمون أجزاء من هذا التركستان ويتمتعون برضا شعوبهم عن هذا الحكم ، ما دام يبدى تسامحا ديمقراطيا إزاء المعارضين ، ولا يتدخل فى موضوع الحرية الدينية ومن الصعب على هؤلاء أن يرتدوا بعلمانيتهم الاشتراكية إلى المفهوم التركى للعلمانية ، الذى لا يعنى عندهم لا ديمقراطية ولا تقدما حقيقيا ، بل مجرد تقليد سطحي للغرب . إن من شاركوا من أبناء التركستان فى ريادة الفضاء والذين يملك بعضهم الآن ، ويستطيع أن يشارك فى صنع الأسلحة النووية ، لا يبدو لهم التقدم الصناعى فى تركيا شديد الجاذبية بحال ! لقد كانوا جزءا من دولة كبرى ولا ينتظر لدولة صغرى أن تقدم لهم الكثير فى هذا المجال .

٢ – من الناحية الثقافية والدينية : بالرغم من اللغة المشتركة ما بين التركستان وتركيا ، فإن الثقافة الأصلية للعقيدة الاسلامية ، هى ما كان منها بالعربية أساسا ، والتراث الذى تعتز به جمهوريات آسيا الوسطى الاسلامية ، هو ما شارك به أبناؤها العظام فى الماضى في إنتاج الثقافة العربية الاسلامية فى أزهى عصورها ، وما دام الحال كذلك ، فإن تطلع أبناء التركستان فى هذا الميدان سوف يتجه أساسا إلى العالم العربى وخاصة مصر بلد الأزهر ، بحيث يكون التزود من الثقافة الاسلامية مرتكزا على

العربية مقترنا بتعلمها ، ولعله يدفع الأتراك – أى أبناء تركيا – إلى التفكير فى العودة إلي كثير من المواقع التى هجروها فى الماضى ، بما فى ذلك ترك بالحرف العربى وكتابة التركية بالحروف اللاتينية . وليس النصر الجزئى الذى أحرزوه فى التنافس مع إيران ، باقناع أذربيجان بكتابة لغتها بالحروف اللاتينى بدلا من الحروف الروسية ، أو العربية كما اقترحت إيران لأنه الحرف الذى تكتب به الفارسية بنهاية المطاف فى هذا الميدان .

٣ – قد تبدو العلمانية التركية فى صورتها الحاضرة وهى الحرص على الانتماء إلى أوربا فحسب ، متناقضة مع كثير من حقائق الأوضاع المعاصرة ، التى دفعت أبناء التركستان بعيدا عن الروس ، والتى تدفع أبناء البوسنة والهرسك بعيدا عن الاتحاد اليوغوسلافى الذى أصبح الاستمرار فيه يعنى القبول بالسيطرة العربية خصوصا بعد خروج كرواتيا وسلوفينيا من هذا الاتحاد ، ومعظم أبناء البوسنة والهرسك من المسلمين من أيام العهد العثمانى وربما يكون بعضهم أتراكا بالعرق أيضا .

انقلاب ديمقراطى

ونفس الشيء ينطبق بصورة أخرى على ألبانيا ، التى كانت دولة شيوعية ، ولكن الانقلاب الديمقراطى فيها حاليا ، سوف لا يجعلها تستمتع بوضع الدولة الأوروبية الديمقراطية ، أو بأنها جزء حقيقى من هذه القارة ، فى الوقت الذى تتصاعد فيه فى أوروبا النزعات الفاشية والعرقية والتعصب ضد ثقافات العالم الثالث وفى مقدمتها الاسلام ، مما قد يجعل الانتماء الى العالم الاسلامى من جديد أقرب إلى نفوس أبناء ألبانيا وأملهم الوحيد فى المستقبل .

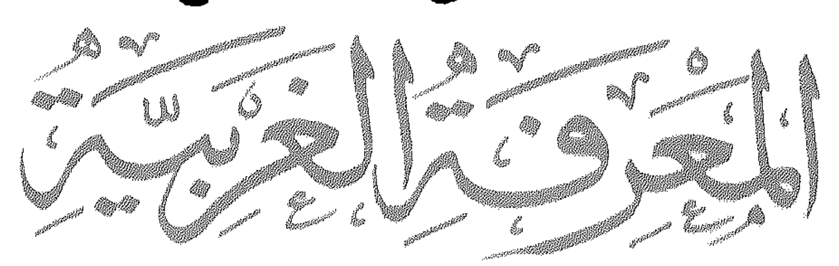
٤ – كان من نتائج انهيار الاتحاد السوفييتى وخروج التركستان الروسى منه أن تحركت النوازع الانفصالية فى الجزء الصينى من هذا التركستان ، ومنطقة " سنكيانج " على وجه التحديد ، حيث أرسلت الحكومة الصينية فرقا مسلحة لقمع هذا التمرد .

ولعل ذلك مما يفسر التقارب الصينى الإسرائيلى المعاصر ، المتمثل فى التعاون بين الدولتين فى مجال التكنولوجيا العسكرية إلى حد اتهام إسرائيل بأنها سربت إلى الصين أسرارا أمريكية فى هذا المجال .

إن تزعم تركيا للتركستان ، الذى أصبح يمتد الآن من ألبانيا غربا إلى الصين شرقا ويضمها فى وسطه لا يمكن إلا أن يتخذ فى الظروف المعاصرة صيغة تضامن إسلامى ، كما دعا الرئيس محمد حسنى مبارك فى زيارته الأخيرة لتركيا ، وسوف يشهد التاريخ القريب ما إذا كان المسلمون فى هذا العالم قادرين حقا على تحقيق هذا التضامن وصيانة مستقبلهم من الضياع فى هذا العالم المضطرب الذى يموج بشتى التيارات .



الخلل فى مناهج



بقلم : د . محمد عمارة

فى منهاج المعرفة الإسلامية - الذى يشيع الحديث عنه الآن تحت عنوان : « إسلامية المعرفة » .. تقوم المعرفة الإنسانية على ساقيها الطبيعيتين :

أ - كتاب الوحى : القرآن الكريم - بما يعنيه من سبيل للعقل الإنسانى يدرك به ومن خلاله ما يمكن له إدراكه من نبأ عالم الغيب .. ومن الأحكام الشرعية التى لا يستقل العقل بادراكها .. أو بإدراك مقاديرها .. أو الحكمة من وراء تشريعها والتكيف بها .

وبما يعنيه هذا المصدر الالهى من إطار يحكم غرور العقل وشططه .. وذلك كى لا يخرج عن رسالته فيتحول إلى « هوى » ! ..

ب - وكتاب الوجود : الكون المخلوق - بما يعنيه من الحقائق والآيات التى هى مجال لإدرك الحواس الإنسانية .. وميدان للتجارب الحسية .

كذلك تميز هذا المنهج الإسلامى فى المعرفة – منهج « إسلامية المعرفة » باعتماد كل سبل الإدراك طرقاً لتحصيل المعارف والعلوم والتصورات .. وليس الوقوف فقط عند الحــــواس .. فمع الحواس.. وملكة العقل .. هناك الأدلة السمعية .. وألذوق .. والوجدان .. إلى آخر ما من الله على الإنسان من سبل التصور والإدراك ..

وبسبب من تكامل مصادر المعرفة ، فى هذا المنهج الإسلامى .. وبسبب من تكامل كل سبل الإدراك والتصور .. كان التوازن والتكامل فى هذه المعرفة الإسلامية .. الأمر الذى عصمها من « الانشطار » .. ومن « الخلل » .. فبرئت من النظرة الأحادية ، « مادية » كانت أو « باطنية غنوصية » ! ..

ولأن هذا هو تميز هذه المعرفة الإسلامية ، كان تميز إنسانها المسلم بالانتماء – الذى حققه له الإيمان – بكتاب الوحى .. والنظر فيه وفى كتاب الكون – والذى عصمه هو الآخر ، من خلل « الانشطار .. والاغتراب » ! ..

صورة سلبية

وإذا كانت هذه هى سمات وثمـرات التـكامل فى منهـج « إسلامية المعرفة » .. وفى المعارف والعلوم التى أثمرها هذا المنهج .. وفى إدراك وتحصيل هذه المعارف والعلوم .. فلقد كان طبيعياً أن تكون الصورة سلبية وشائهة على جبهة الحضارة التى اختل فيها ميزان هذا المنهج ..

ومن هنا لا يدرك ذلك دون كثير عناء إذا هو قارن بين هذا التكامل الذى أشرنا إليه على الجبهة الإسلامية ، وبين واقع النهضة العلمية الغربية ، ذات المنهج الحسى والمادى فى المعرفة ..

★ لقد كان التقدم العلمى ، فى علوم الدنيا ، نقضاً وإنكاراً للوحى والدين .. حتى لقد قادت الاكتشافات العلمية هناك أصحابها إلى « تاليه الإنسان » .. فصاح بعضهم تلك الصيحة المنكرة – المعبرة عن هذا الخلل – فقال : لقد مات الله ؟! – تعالى الله عن ما صاحوا به علواً كبيراً !..

★ وكان الكثير من ثمرات هذا المنهج المختل – القائم على ساق العرفة الحسية وحدها – وخاصة فى العلوم الاجتماعية والإنسانية – ثمرات معتلة .. ففى الوقت الذى زعموا لنا حياد ودقة وموضوعية العلوم الطبيعية والتجريبية ، رأينا اكتساح التطور لها كما تكتسح الصحة والعافية العلل والأمراض .. لقد أثمر هذا المنهج الأعرج مذاهب وفلسفات ونظريات ، كانت

حـــوافز لمـــزيد من ثقتنـــا بمنهجنـــا الإســـلامى المتميـــز فى المعـــــرفة



أقـرب إلى « الأمــراض الفـكرية » وإلى « الفجـر - الكاذب » الذى سرعا ما يتوارى ، حتى وإن بهر بعض الأبصار ! ..

وأثمر ألوانا أخرى من المذاهب والفلسفات ، كانت تعبيراً خاصاً عن أمراض أو ملابسـات غريبة خاصــة .. ومـع ذلك ، فقـد زعمـوا لهـا « العلميــة » و « الموضوعية » و « الحيادية » .. فذهبوا يفرضونها على البشرية جمعاء ؟! .

وبسبب من الطابع الماد والحسى لمناهج المعرفة ى هذه النهضة الغربية الحديثة ، فلقد تصور الغرب أن هيمنته على الشعوب المستضعفة ، وتدميره للبنية الاقتصادية والاجتماعية فى مجتمعاتها ، ومسخه ونسخه وتشويهه لموروثها ومعرفتها .. ظن ذلك « رسالة حضارية » يدفع الرجل الأيض ضريبة نشرها فى العالمين ! ..

الغرب .. ودمار البيئة

وبسبب من هذا الطابع الحسى والمادى أيضاً ، كانت التطبيقات الغربية لثمرات عبقريته فى العلم الطبيعى .. كانت تطبيقاتها فى دمار البيئة وتلوينها والاخلال بتـوازنها .. وكمــا عد قهره للأمم الأخرى « رسالة حضارية » .. فلقد اعتبر العدوان على الطبيعة « رسالة حضارية » أخرى ! جعل من عبارات : « قهر الطبيعـــة » و « الســـيطرة عليهــــا » و « تسخيرها للإنسان » عناوين عليها ؟! .

ولأن هــذا المنهــج الحسى والمــادى ، لا يعترف بغير الواقع المحسوس ، ولا يؤمن بغير عالم الشــــهادة ، فلـقد أثمر « الدهرية » التى لا ترى للحية الإنسانسة مقاصد غير « الوفرة المادية » التى تحقق للإنسان لذاته وشهواته ، التى لا تنتهى عند حدود ! .. وبواسطة القوة الضيفة ، والصراع الذى لا يعرف القيود ! ..

لقد أثمر هذا المنهج فى المعرفة الغربية علوماً ومعـــارف ومذاهب تحقـق للإنســان « قوة المفترس » الذى « يأكل فى سبعة أمعاء » !! « بينما عجزت عن تحقيق الاشباع الروحى لهذا الإنسان ، فاختل توازنه عندما لبت له حاجات الجسد ، دون حاجات الروح .. حتى لقد أدى هذا الخلل إلى تهديد الجسد ذاته بالدمار لغياب نور الروح فى ترشيد الإشباع المادى جسد هذا الإنسان ! ..

★★★

إن ما أشرنا إليه من تحولات جديدة فى فلسفة العلم الغربى المعاصر .. تحولات عن حسية المعرفة وماديتها .. هى حوافز لمزيد من ثقتنا بمنهجنا الإسلامى المتميز فى المعرفة .. لابد وأن تدفعنا إلى مزيد من الجهد ، لبلورة المنهج – منهج إسلامية المعرفة – وصياغة علومنا الإنسانية وفلسفة علومنا الطبيعية وفقا له.

وإن ما نشهده من سقوط وتراجع الكثير من مذاهب الغرب ونظرياته ، التى بهرت الأبصار لعقود عديدة من الزمن .. سقوطها وتراجعها ، كحال الفجر الكاذب ، وكشأن الأمراض التى تكتسحها الصحة والعافية .. لهو حافز آخر لمزيد من الجهد الذى يجب أن يبذل فى هذا الميدان .. وإلا ، فمنذا الذى لا يكتشف فى سقوط وتراجع « الماركسية » .. و« الداروينية » .. و« الوجودية » .. و« الفرويدية » .. والكثير من مذاهب ومناهج البحث والنقد فى الفنون والآداب .. من ذا الذى لا يكتشف فى ذلك ، ووراءه خللا حقيقياً وأكيداً فى المنهج المادى والحسى للمعرفة التى أثمرت هذه المذاهب والنظريات ؟! ويرى فى هذا تأكيدا والحاحاً على ضرورة بلورة المنهج البديل ؟! ..

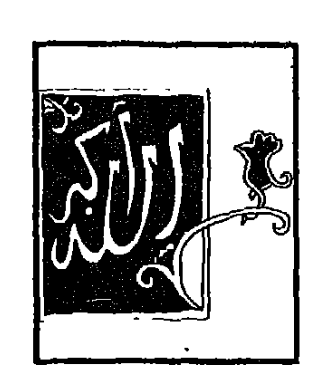
إن إسلامية المعرفة تعنى حضارة مؤمنة تقوم على عقلانية متدينة

لقد ظلمنا بجمودنا وتقليدنا لـ « تخلفنا الموروث » المنهج الإسلامى المتميز فى المعرفة ، عندما وقفنا عند تراث عصر تراجعنا الحضارى .. ولم نول المنهج القرآنى فى المعرفة ، الذي واجه به علماء عصر نهضتنا مذاهب المعرفة الحسية عند الأمم والنحل الأخرى .. لم نوليه ما هو أهل له من الاهتمام .

وظلمنا هذا المنهج الرسلامى ، مرة أخرى ، بتقليدنا « للنموذج الغربى » فى نظرية المعرفة .. فحلت الوضعية والمادية والتجريبية – بمعانيها الغربية – واحتلت المكان الأرفع فى علومنا الإنسانيةوالاجتماعية ، وفى فلسفة علومنا الطبيعية .

ولقد كان هذا التقليد – لتخلفنا الموروث .. وللوافد غير العلمى ، وغير الملائم – السبب الأول فى فقرنا الشديد فى الإبداع ! .

وما كان لأمة أن تبدع فى علوم حضارتها المتميزة ، إلا إذا هى بلورت منهاجها المتميز فى المعرفة .. وإذا كانت اليقظة الإسلامية المعاصرة مدعوة إلى بلورة « بديلها الحضارى » ، كدليل لنهضتها المنشودة ، وذلك حتى لا تسقط فى هاوية « التبعية » و « الاستلاب الحضارى » .. أو تضل الطريق .. فإن المدخل



إلى هذا الانجاز هو « إسلامية المعرفة » ، حتى يأتى هـذا « البـديل إسـلاميا » حقـاً .. فقضـيتنا ، إذن – قضـيـة « إسـلامية المعـرفة » – هى جـزء من « مشروع حضارى بديل » .. وليست مجرد قضية ثقافية خاصة بدوائر المثقفين والمفكرين .

إنها قضية أمة تريد أن تنهض ، فى مواجهة تحديات شرسة .

وقضية دين ، أنعم الله علينا بأن هدانا إلى التدين به ..

وقضية حضارة صاغ أسلافنا العظام علومها معارفها بهذا المنهاج ..

ولن يصلح البديل الحضـارى الإسلامى المعاصر ، الذى نريد به مواجهة الخلل المعرفى الحديث ، إلا بما صلح به البديل الحضارى الإسلامى الأول ، الذى واجه به أسلافنا الخلل المعرفى القديم !

إنها قضية « قديمة – جديدة » .. تمثل واحدة من أبرز القسمات التى تميز ويتميز بها الإسلام .. الدين .. والحضارة .. على غيره من النحل والفلسفات والحضارات !..

***

عـزل المعـرفة من الدين والوحى

إن « إسـلامية المعـرفة » تعنى : « حضارة – مؤمنة » ، تقوم على « عقلانية .. متدينة » ، يبدعها « علماء – هم أكثر الناس خشية له » ! .

★ وإذا كانت « الوضعية الغربية » ، التى عزلت « المعرفة عن الدين .. والوحى .. ونبأ السماء » .. بل وجعلت « الدين : وضـعاً بشرياً » ! .. إذا كـانت هـذه « الوضعية » قد أثمرت – وزثمرها – نموذج فيلسوفها « أوجست كونت » .. ذاك الذى قطع المحـاضرات التى بدأ القاءها سنة ١٨٢٦ م (فى الفلسفة الوضعية) – وهى التى كونت « مؤلفه الرئيسى » – قطعها بسبب إصابته بمرض عقلى ! .. أعقبـه محـاولته الانتـحار غـرقاً فى نهر السين سنة ١٨٢٧ م لفرط اليأس والقنوط ؟! ..

والذى تعرف على « كارولين ماسان » - وهى بغى - فساعدته أثناء احترافها للبغاء ! .. ثم تزوجها ؟! .. فلما انفصل عنها هام حباً بامرأة متزوجة من رجل هارب من مطاردة البوليس - هى « كاوتيلد دى فو » - فكان حبه لها - كما يقول مؤرخو فكره - السبب فى اتخاذ كتاباته طابعا جديداً ؟! فقال بخضوع العقل للقلب ! .. ودعا إلى (تعاليم الدين الوضعى) ؟! (١) .

إذ كان هذا هو حال « علم » و « علماء » المعرفة الحسية ، و « الفصام النكد » بين « الأرض » و « السماء » .. بين « السكون » و « الوحى » .. بين « الدنيا » و « الآخرة » .. بين « المدنى » و « الشرعى » .

★ فإن لإسلامية المعرفة شأناً آخر ، وثمرات مغايرة ، ونماذج من العلماء مختلفين ..

لقد كان عالمنا أبو عثمان ، عمرو بن عبيد (٨٠ - ١٤٤ هـ - ٦٩٩ - ٧٦١ م) : فارساً من فرسان الثورة فى سبيل الشورى والحرية والعدل .. وصرحاً من صروح العقلانية الإسلامية التى واجهت مقولات الشرك والزيغ والإلحاد .. وفى ذات الوقت كان الرجل الربانى الذى تضرب بتقواه الأمثال ؟! .. ويشير الناس إليه ، إذ رأوه ، قائلين : « هذا خير الناس ؟! » .

إنه « الثائر » الذى يقول : « إن ذكر غضب الرب يمنع من الغضب » !

والفيلسوف العقلانى ، الذى يدعو ربه فيقول : « اللهم اغننى بالافتقار إليك ! ولا تفقرنى بالاستغناء عنك ! .. اللهم أعنى على الدنيا بالقناعة ، وعلى الدين بالعصمة ؟! » .

وهو القائد المطاع فى قومه وأنصاره .. والذى يحج إلى بيت الله الحرام ، سيراً على قدميه - من البصرة إلى مكة - أربعين مرة فى أربعين عاماً .. يمشى على قدميه ، وخلفه بعيره ، يحمل عليه الفقراء والضعفاء ؟! (٢) .

هذه هى « بضاعتنا » .. وتلك « بضاعة » الوضعيين - الماديين !

إنه نسق فكرى متكامل .. وبديل حضارى متميز لإعادة التوازن الذى أصابه الخلل بالانحراف « الحسى » و « المادى » ، ذلك الذى أقام « الوضعية .. المادية » العرجاء !

(١) [الموسوعة الفلسفية المختصرة] ص ٢٦٦ ، ٢٦٧ . إشراف ومراجعة : د . زكى نجيب محمود . طبعة القاهرة سنة ١٩٦٣ م

(٢) أنظر دراستنا عنه ، بكتابنا [مسلمون ثوار] ص ١٦٠ - ١٧٥ طبعة القاهرة سنة ١٩٨٨ م .

ذكريات ٥٠ سنة

القُراء على أمواج الأثير

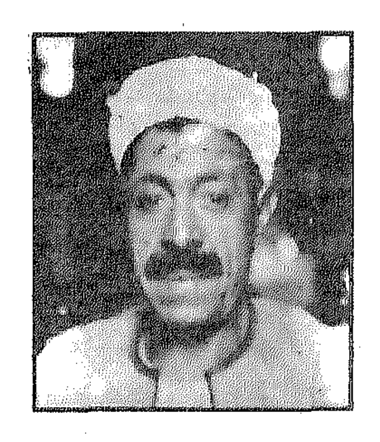
بقلم : د . محمد رجب البيومى

فطنتْ الإذاعةُ اللاسلكية حين بدأتْ إرسالها فى مايو ١٩٣٤م إذ جعلت رمضان المبارك مسرحاً للأحاديث الدينية ، وموسماً رائعاً لتلاوة آيات الذكر الحكيم بأفواه المشهورين من أئمة القراء ، واستروحاً للنفوس بترديد التواشيح والابتهالات ، ولم يكن المذياع حينئذ بهذا الاشتهار العام فى كل منزل ومتجر ومصنع كما هو الآن ، بل كان محدود الانتشار، بحيث لا يوجد إلا فى منازل العلية ، وفى مقاهى الدرجة الأولى ، وكثيراً ما كان العامة يلتفون حول المنازل التى حظيت بهذا المخترع الحديث ، ليسمعوا ما يتردد من آيات القرآن ، وأحاديث العلماء . هذا فى المدن الكبيرة ، أما قرى الريف فلم يكن بالواحدة منها غير مذياع أو مذياعين ، أتى صاحب المقهى العام بأحدهما ليكون مصدر انجذاب العامة ، ولازلتُ أذكر سهرات رمضان فى مقهى قريتى الصغيرة بعد العشاء ، إذ يزدحم المكان الضيق نسبياً بعشرات المتعطشين لسماع القرآن الكريم، وما يليه من أحاديث الوعظ والإرشاد، وكان الشيخ محمد رفعت حينئذٍ قارئ الإذاعة المعلم، وموضع الإعجاب اللانهائى من السامعين، عامة ومثقفين ، كما سيجئ ...

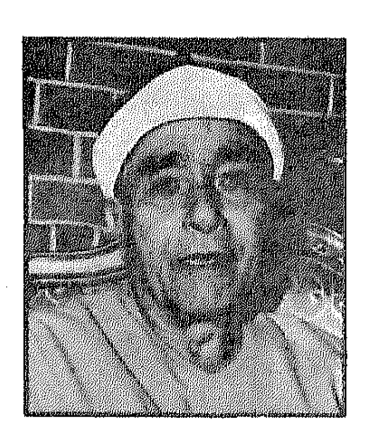
● ● ●



الشيخ محمد رفعت



الشيخ عبد العزيز البشرى





الشيخ مصطفى إسماعيل

على أن قراءة القرآن بالمذياع إذ ذاك، لم تخلُ من نوادرَ طريفة، نذكرها للتسلية الضاحكة، إذ نهضَ فريقٌ من المتشددين يُنادون بتحريم قراءة القرآن في المذياع، احتفاظاً بحرمته وتنزهاً عن مُجارته لعبث الأغاني. ولهو الطقاطيق مما ترسله الإذاعة في فترات متقطعة للترويح، وأذكُر أن مجلة الإسلام الصادرة بتاريخ ٢٧ من مايو سنة ١٩٣٣ وجهت بقلم أحد كتابها الغيورين استفتاءً لحضرات أصحاب الفضيلة علماء الأزهر ، قال فيه :

ظهرت اليوم بدعة جديدة حسنها الشيطانُ الرجيم لمن يتبعون أهواءهم، تذيع كلام رب العالمين صباحاً ومساءً، ومن شر المصائب وأنكاها أننا سمعنا هذه الآلة في شارع الأزهر، تُحرف القرآن تحريفاً لا ينبغي. وخصوصاً عندما تتغير المحطة أو يختلف الهواء!

كما أذكر أن قُضاة محكمة الشرع بالبحرين ، وجهوا سؤالا للاستاذ الكبير الشيخ يوسف الدجوى عضو جماعة كبار العلماء، يقولون فيه : إن راديو مصر قد أعلنَ ثبوت هلال رمضان، ولكننا توقفنا عن الصيام للشك في الخبر عن طريق المذياع، وقد أجابَ الاستاذ الكبير بمقالٍ شاف نشـره بعدد جمادى الأولى سنة ١٣٥٥ هـ قال فيـه بعد أن أفتى بتصديق ما يذاع :

«ولو قلنا إن أخبار المذياع، والبرقيات السلكية واللاسلكية لايعول عليها، لوَصمْنا الدين الإسلامي، البعيد النظر، الواسع الحكمة، بالجمود الذى يبرأ منه، وينعاه على أهله، ولصيرناه مضغةً في أفواه أعداء الدين، وسخرية بين الزنادقة والملحدين، ولكان غير صالح لكل عصر من العصور، وحاشاه من ذلك، إذ وجدت وسائل كثيرة في هذا العصر لم تُعرف من قبل » .

مصر وقراءة القرآن

اشتهرت مصر في العالم الإسلامي باعتنائها التام بقراءة كتاب الله ترتيلاً وتجويداً ، وكان قراؤها الكبار يزورون

ذكريات ٥٠ سنة

العواصم الكبرى فى مواسم مشتهرة مع صُعوبة الانتقال فى العصور السابقة ليؤدّوا رسالةً دينيّة ، قبل أن تكون رسالةً فنيّة ، وكان الحرمان الشريفان فى مكة والمدينة يسعدان كلّ عامٍ بنفرٍ من قرّاء مصر ، يقرءون كتاب الله بأصواتهم النديّة ، وترجيعهم الشجىّ ، فتطير لهم شهرةٌ واسعةٌ من ناحية ، ويجدون من حجّاج بيت الله من يتتلمذ عليهم أثناء أداء الفريضة الحبيبة من جهة أخرى . ولم تكنْ مدّة الحجّ فى الزمن الماضى محصورة فى أيام معدودات كما هى الآن ، بل كانتْ تمتد من شوّال إلى أوائل المحرّم ، وهو زمنٌ يتسع للإشباع والإمتاع ، ونحن نعلم أن القارىء الشهير الشيخ اسماعيل سكّر كان مقرىء السلطان عبد الحميد بالأستانة ، يفد من مصر إلى تركيا فى مواسم خاصة ليقرأ كتاب الله فيسمعه الخليفة فى مجلسه الخاص ، ثم ينتقل إلى العامة فى المساجد الكبرى بالأستانة ليقرأ كلام الله مبتدئاً من بعد صلاة المغرب ، حتى يتنفسّ الليل عن الفجر ، والسامعون خاشعون ، مبتهجون لا يشغلهم شاغل غير كتاب الله ،

أمّا مساجد مصر فقد خصّص لكلّ مسجد قارىء مجيد ، يؤدّى سورة الكهف يوم الجمعة ، ويقوم بالأذان والتبليغ عند الصلوات الخمس ، ومنْ هذه المساجد العامرة طارتْ شهرة المجيدين من القرّاء فى مصر ، فعرفهم الناس ، وسعدوا بهم فى احتفالات المآتم والأفراح ، وأقول الأفراح عن قصد، لأن المصريين فى مطلع هذا القرن وما قبله كانوا يحتفلون بقراءة القرآن فى الأعراس وحفلات الختان، وأسبوع الميلاد، وكان لهذه الاحتفالات دويها الكبير، إذ يُعلنُ عنها قبلَ الموعد المحدّد، فيتعالم الناس أمرها، ويهيئون أنفسهم لقضاء ليلة سعيدة مفردة، ولم يكن الرجال وحدهم قراء هذه الحفلات، بل كان من السيدات القارئات من تجيدُ التلاوة إجادةً ذاتَ خُشوع وحنين، وقد تحدثَ شاعرُ الأقطار العربية الكبير الاستاذ خليل مطران عن قارئة مبدعة ، فقال من حديث بديع :

«كانت ليلةُ الأحد الثانى من هذا الشهر مفتتح ليالى عُرسٍ فى منزل الوجيه الفاضل حسين بك شاهين، وكانت القارئة المجودة فتاةٌ من الفيوم تسمى (اسمهان) وأول ما سمعناه منها سورة يوسف، وكانَ صوتها يُسلسل الآيات كعد الجواهر على صفاء، وكان تلحينها مستوياً كأنه ممهد لما يتلوه، فلما ألقى يوسفُ فى الجب ثم نقله السيارة إلى مصرأخذَ الصوت يتنقل بين الفُرح والحزن والترغيب والترهيب، والقرع والزجر، والوعد والوعيد، وكلما تمادت فى القراءة عَظمَ الشعور فى نفوس الحضور، وكلُهم من ذوى الأدب والمقام، ثم كانَ التهليل والتكبير صدىً لشعورهم فى حشمة ووقار، وأذكرُ أنها لما وصلت إلى قول إخوة يُوسف له (وتصدق علينا) رَق صوتُها وحَنّ ولطُف، حتى طفرت الدمعة من عينى، إذ

كانت تختار لكل موقف آسر النغم، وفى كل هذا لا يضطرب لها منطق، ثم سمعنا بعد سورة يوسف، سورة آل عمران، وانصرفنا ذاهلين تمتلئ النفس سروراً وخشوعاً » .

الشيخ محمد رفعت

فى هذا الجو المؤمن البهيج، نشأت طائفة من كرام القرّاء ، تؤدى رسالتها أكرمَ ما يكونُ الأداء، وقد بزَغ منهم عند ظهور الإذاعة مَن لا نَزالُ نسمع صوته إلى الآن فى تسجيلاته الذائعة مثل المشايخ على حزين ، ومحمد الصيفى، وعبد الفتاح الشعشاعى وعبد العظيم زاهر، وفى مقدمتهم جميعا القارئان العظيمان الشيخ محمد رفعت والشيخ على محمود، وهما من هُما :

والشيخان الفاضلان تلميذان للقارئ الكبير الشيخ أحمد ندا، وهو يومئذ شيخُ القراء بمصر كافة، وكان يتولى القراءة والإنشاد فى مسجد السيدة زينب رضى الله عنها، فيزدحمُ الناس على استماعه من كل ناحية فى القاهرة، قرُبت أو بعدت، ولم تكن المكبرات الصوتية تتخذ حينئذ، ولكن جهارة صوت الشيخ ندا، كانت تحمل صداه إلى المحتشدين فى الميدان خارج المسجد، والقوم صامتون لا يجرؤ أحدٌ علي إحـداث لفظ قليل ، ليبلغ السـحر مداه دون عائق ، فإذا انتهت القراءة فى المسجد، انتقل الشيخ ندا إلى منزلهُ مع القراء من تلاميذه، وهو قريب من المسجد الزينبى ، فيتناوب هؤلاء القراءة والتوشيح حتى يحينَ ميعاد السحور، فينصرف الناس مبتهجين .

وقد رحلَ الشيخ أحمد ندا إلى جوار ربه قبل أن تبدأ الإذاعة بعامين، ورأى القائمونَ عليها أن يختاروا من تلاميذ الشيخ من شاعَ لهم ذكرٌ طيب فى هذا المجال، وفى مقدمتهم الشيخان الكبيران محمد رفعت وعلى محمود .

ومما يذكر أن الشيخ محمد رفعت لشدة ورعه ، قد خافَ مما سمع من بعض المتَشددين ، إذ أفتوا بحرمة قراءة القرآن فى موضعٍ يذيع الأغانى وأفانين الملهيات، فانتظر متردداً، وحين كثر الإلحاح عليه، توجه إلى شيخ المسجد الزينبى، وشارح حديث رسول الله به فى مجالس وعظه، وهو فضيلة الاستاذ الكبير الشيخ محمد إبراهيم السمالوطى عضو جماعة كبار العلماء بالأزهر مُستفتيا فى أمره، فشجعه الشيخُ علي القراءة بالمذياع، وصاح به محذراً أن يَصد عن سبيل الله، حين يحرم الناس من ترتيل آيات الكتاب، وهم إليه متشوقون، فاطمأن قلبه واستجاب.

لم يكن ترتيل الشيخ رفعت مفاجأةً لأهل القاهرة. فهم يَعرفونه حق المعرفة، ولكن المفاجأة الكبرى دوت فى أنحاء الدولة شرقاً وغرباً. وجنوبا وشمالا، إذ سمعَ المصريون فى شتى البلاد ما لم يكن يتوقعونه من جمال الصوت، وكمال الأداء، وكانت لليالى رمضان المتتالية حفلات سرور لمن يحتشدونَ حول المذياع فى شوق لايُحد، ذلك أن الشيخ الكبير قد أُلهم معانى القرآن إلهاماً رائعاً، فكان يؤدى الآية

الكريمة، وكأنه يفسرها للناس بصوته المصقول، وقد تجمعُ الآية الواحدة بين الوعد والوعيد، وبين الجنة والنار، فيختلف الصوت بين الرغبة والرهبة وفق ما تؤديه الألفاظ من معانٍ، هذا فى الآية الواحدة، أما الآيات المنفردة بغرض خاص من الأغراض القرآنية فإن الشيخ يعرف أبعادها النفسية، فيوائم بينها وبين المحتـــوى الفكرى مواءمة تجعـــل الرجل طائراً يصدح ، لا رجلاً يتلو ، وكم خشعت قلوبٌ قاسية ! وكم سالت عيون جامدة ! على صوت الشيخ . إذ جاء مصدقا لقول الله عز وجل «الله نزل أحسنَ الحديث كتاباً متشابهاً، مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ، ثم تلينُ جلودهم ، وقلوبهم إلى ذكر الله، ذلك هدى الله يهدى به من يشاء، ومن يضلل الله فما له من هاد» .

وإذا كانت الموهبة لاخلاف عليها إذ هى الركيزة الأولى فى نبوغ الموهوب، فإن من لوازمها المكملة أن يلم صاحبها بأصول الفن، وعلمُ التجويد فى العربية من أرسخ العلوم فى فن الأداء الصوتى، إذ يقرر قواعد الإظهار والإخفاء والادغام، ويوضح الحروف ترقيقاً وتفخيما حسب موضعها المتعارف من حلقية وجهرية وشفوية، وهو ضرورى لمن يزاول الترتيل والتلاوة، ويضافُ إليه الإلمام الكافى بقواعد النحو، لأنها هى التى تعين الوقوف الصحيحة، وبإعراب الجملة يتضح معناها، وقد كان الشيخ محمد رفعت رئيس طبقة من القراء تتقن هذه القواعد، وتسير عليها فى دربها الصحيح، وله فى هذا المجال لفتات صائبة. تدل على براعةٍ فى فهم الدقائق النحوية، فقد قرأ ذات مرة قول الله عز وجل فى سورة القصص «فجاءته إحداهما تمشى على استحياء، قالت إن أبى يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا» فوقف عند قوله تعالى : فجاءته إحداهما تمشى .. ثم ابتدأ بقوله عز وجل : على استحياء قالت، فاعترض عليه من ظنه قد أخطأ، ولكنه رد عليه، بأن الاستحياء فى القول أشد حضورا من الاستحياء فى السير، وإذن فتكون (على استحياء) حالاً مقدما، وصاحب الحال الفاعل فى قالت ، وذلك غوصٌ دقيق لمقرئ لم يتعمق قواعد النحو .

كما ذكر الدكتور أحمد الشرباصى رحمه الله أن الشيخ رفعت قرأ ذات ليلة قول الله عز وجل «وآتاكم من كل ما سألتموه» فوقف عند قوله «من كل» وبدأ بقوله : ما سألتموه» وهو فهم دقيق لم يطرأ على بال من سمعوه، فاعترضوا عليه، ولكن الشيخ قال : إن المعنى ينتهى عند من كل، وتكون ما فى قوله «ما سألتموه» ما النافيه بمعنى أن الله عز وجل يقول – وهو أعلم بمراده – إنه آتاكم من كل شئ من النعم دون أن تسألوه شيئا، ولهذا جاز الوقف على كل، وكان قوله تعالى «ما سألتموه» استئنافا جديدا ..

هاتان النادرتان تدلان على فهم المتذوق، وعلم الدارس ، كما تضرب المثل لمن يكتفون بحلاوة الصوت، دون أن يعكفوا على دراسة علمى التجويد والقراءات وما يتبعهما من علوم النحو واللغة، وكل ذلك قد أحاط به الشيخُ إحاطةَ الدارس المستوعب، ولستُ مع صديقى الدكتور أحمد الشرباصى حين ذكر فى حديثه عن الشيخ رفعت - نقلاً عن سواه - أن القارئ الكبير كان ينهل من الفن الكلاسيكى الأوربى، إذ أخذ يدرسُ مؤلفات باخ ، وموزارت، وبيتهوفن ولست وباجينى، ويحتفظ بثروة من اسطواناتهم ! وهو شطط لا دليل عليه، لأن الرجل الفقير لم يكن يملك اسطوانات تسجل صوته هو وحين مات لم يجدوا لدىَ أسرته المتواضعة تسجيلاً واحداً، ونهضَ عشاقه يجمعون آثاره ممن سجلوها لأنفسهم من هواة الموسرين، فكيف له باسطوانات باخ وموزارت وبيتهوفن ولست وباجينى مما تخيله المتخيلون، أذكر أن الاستاذ محمود حسن إسماعيل فى رثائه للشيخ الكبير قد عاب على الإذاعة إهمالها تراث رفعت، وقال فى غضب :

جحدته بل جحدت صداه فما

حفظت لـه رنّماً يسجله

لو أنه غَنى لهـا نغمات

متهتـك الصبوات تـأمله

لرأيتهـا حفـرت بمهجتهـا

تمثاله ، ومضت تـدلله

ياقـوم لا طـوبى لما ذهبت

دنياكمو بالفن تفعله

الشيخ على محمود

أما الشيخ على محمود فإن ميدانه فى رمضان كان أفسح جناباً من أى مرتل سواه، لأنه لم يقتصر على ترتيل القرآن بصوته المتميز، بل ضم إلى ذلك إبداعه الإنشادى فى حفلات الذكر، وقراءة قصة المولد، وابتهالات المئذنة ، ولكل موقف من هذه المواقف شروطُهُ المميزة، فهو فى ساحة الذكر يُراعى النسق المتفق عليه، حين يرأسُ حفلة الإنشاد، إذ يأخذُ فى تكرار لفظ الجلالة بصوتٍ خفيضٍ يرتفع شيئا فشيئا، وهى مرحلة التحميس والتهيئة، ثم يأتى ببعض الأبيات المادحة لرسول الله، وكثيراً ما كان يردد :

الله زاد محمـداً تكريمـا ..

صلوا عليه وسلموا تسليما

فإذا توالى الذكر، واشتدت حركة التمايل والانثناء، ترك المنشدون له المجال وحده ، فجعل يجلجل بروائع الأبيات، وصوت الله .. الله .. يقومُ من الذاكرين مقامَ جوقة كاملة، وكثيراً ما كان ينشد قول ابن الفارض :

تِه دلالاً فــأنتَ أهــل لذاكا
وتحكم فالحــسنُ قد أعــطاكا
ولك الأمرُ فاقضِ ما أنت قاض
فعلى الجمــال قــد ولّاكا

ولم تكن الإذاعة بمستطيعة أن تنقل حفلات الذكر، لأنها لا تكمل إلا بالمشاهدة العينية، لذلك كانت سهرات الشيخ على بها ملأى بالتواشيح والابتهالات، وهو استاذ كل من جاء بعده من المبتهلين، والفرق بينه وبين مبتهلى اليوم بإذاعة القرآن الكريم بعيدٌ بعيدٌ ، حيثُ نلحظ أن أكثرهم يُنشد البيت، فلا يقيم له وزناً، ولا يصحح إعراباً، وقد يبدل لفظاً بلفظ غير ملتفت إلى الوزن العروضى ، وهو نشازٌ سقيم ، يستنكره السامعون ، وقد تحدثتُ عن ذلك مع بعض المسئولين دونَ جدوى، ولا أدرى كيف كان يؤدى الشيخ على محمود أبيات البوصيرى وابن الفارض والبرعى أداءً صحيح اللغة، سليم الوزن ، ثم ينشأ جيلٌ بعدَه على هذا النحو الأليم ، مع كثرة المدارس والمعاهد، حتى لأتساءل حائراً : أنتقدم أم نتأخر ؟

فإذا تركنا الابتهالات إلى قصة المولد التى كان على محمود بُلبُلَها الأول، فإننا نجد الساعات الثلاث تمر وكأنها دقائق معدودات، إذ أن الشيخ قد حفظ مولد البرزنجى منذُ صباه، وأخذ يكرره فى مدى أربعين عاما على نمطه المسجوع، وقافيته الهائية التى تتكرر فى الفواصل الممتدة، مُنشداً ما يتخلله من رقائق الأشعار فى نغمٍ مستطاب، وقد لاحظتُ أن حفلات الريف بالدقهلية كانت تؤثر مولد (المنياوى) دون مولد البرزنجى الذى اختاره الشيخ على محمود وهام به فلم يفارقه هذا المدى الطويل، وحَدّثنُ الاستاذ أحمد محمد البيومى فى ذلك، وهومن ذوى الدراية التامة بقصص المولد جميعها، فقال «إن اسلوب (المنياوى) واضح، وغرائب المعجزات به كثيرة، وهى مما تشوق العامة، مهما انخفض أسلوبها البيانى»، وقد وضع الاستاذ عبد الله عفيفى قصة للمولد ذات بيان مطبوع، ولكن الشيخ على محمود لم يرتح لقراءتها. إذ رآها ترتفع عن مستوى مَن يلتفون حوله من السامعين، وإذا كنا نفتقد قصص المولد الآن، ولا نكاد نرى لها أثراً فيما يذيعه الراديو من المسجلات، فليس العيب عيب الشيخ، ولكنه خطأُ من أهملوا التراث الدينى الرائع، ومن بينه قصة المولد بصوت الشيخ وتطريبه البديع.

أما الآذان فقد كان أول درجة ارتقى إليها الشيخ فى سلم حياته الفنية. إذ أن قول هذه الشعيرة فى صباه بمسجد الحسين عليه السلام فكان عليه أن يصعد

إلى المئذنة قبل ميعاد الفجر بأمد متسع، ليفيض فيما يُسمى بالاستغاثات والتسابيح ، وفى شهر رمضان خاصة لا يقتصر الأمر على الساعة الأخيرة قبل الفجر، بل يتهيأ السامعون إلى التمتع بالابتهالات قَبل منتصف الليل، وهى فى أول رمضان ترحيبٌ وابتهاج بمقدم الشهر الكريم، وفى الليلات العشر الأخيرة توديعٌ وبكاءٌ لمفارقة الضيف العزيز، وقد أبدع الشيخ على فيما يُسمى «بالتوحيش» وهو ما يُقال من استشعار الوحشة لفراق رمضان، وللمبتهلين فى هذا المجال رَقائق جميلة، إذ يتصورون الشهر المبارك إنسانا حبيباً حانَ وداعه . فهم يتلطَفون معه غاية التلطف ، وأجمل ما أحفظه مما يقولون فى مُخاطبة رمضانَ هذا البيت المؤثر :

لا تشتكى لله أفعالنا

واصفح فإن الصفح طبع الكرام

وهكذا كان شهر الصيام أفسح مجالاً

لدىَ الرجل الكريم .

كلمة فكرى أباظة

كان الكاتب الفكاهى الكبير فكرى أباظة يرسل تعليقاته الصائبة بمجلة المصور أسبوعيا، وقد قال فى بعضها «إن عمامتين عظيمتين هما اللتان حببتا الإذاعة السامعين، هما عمامتا الشيخ محمد رفعت والشيخ عبد العزيز البشرى ، أما عمامة الشيخ رفعت فقد تحدثت عنها، وأما عمامة البشرى فقد بلغت موضع التأثير بما كان يذيعه الكاتب الكبير من أحاديث أدبية ممتازة ، وأذكر أنه تحدث فى (الراديو) عن جهاز (الراديو) وجعل الحديث على لسان أعرابى بدوى ، جلس فجأة أمام الجهاز السحرى فارتاع منه، وفر هاربا إذ زعمه جنيا لا إنسيا، وكان مما قاله البشرى على لسان البدوى :

«جلست فإذا دُمية من خشب، بُتر ساقها فأقعدوها على منطدة ، لها أنف صغيرة ، وأُذنان دقيقتان وعين واحدة تمزقت حدقتها فتناثرت ، ثم قام صاحبها فحرك أذنها ، وسرعان ما احمرت حدقتها. فاستعذت بالله من الشيطان الرجيم ، ثم سمعت صوتا مالبث أن استحال زمزمة وهمهمة ، فخلت والله أن الأرض قد زلزلت علىّ ، وجعلت ألتمس آية الكرسى استعصم بها من هذا الشيطان، فقال صاحبى لن ينالك منه مكروه، فقد قيدوا ساقه، وشدوا وثاقه، ثم انثنى إلى الدمية فحرك أذنها مرة ثانيةً فسرعان ما سكن هديرها وبطل زئيرها، وإذا العفريت يتحدث فى لين وهدوء كأنه إنسان ! » .

هذا بعض ما يقال عن المذياع، وعن رمضان، وعمن كانوا يرسلون فيه أعذب الأصوات وروائع الآيات !

حكاية الأرمن

فى مصر

بقلم : نجوى صالح

مساعدات مستمرة يتم تجهيزها لإرسالها إلى الوطن الأم أرمينيا



•• ما هى حكاية الأرمن فى مصر ؟ .. كيف جاءوا وكيف استقروا بها وأصبحوا ضمن نسيج المجتمع المصرى يعملون فى جد ويتطلعون إلى اليوم الذى يستعيدون فيه وطنهم الذى أورثهم اللوعة والحزن الدفين فى كل ثقافتهم وأغانيهم ؟ .. إننى هنا أحاول أن اكتشف البقية الباقية من الأرمن الذين هاجروا إلى بلادنا فى عصر التشتت ، حتى جاء عليهم اليوم الذى أصبحت فيه أرمينيا دولة مستقلة ضمن دول الكومنولث الجديد ••

فى واحدة من المدارس الأرمينية بالقاهرة وعددها ثلاث مدارس



● كان محمد على أول من اختار الأرمن للمناصب العليا



بابا الأرمن الأرثوذكس السكندري الأول

● في العصر الفاطمي من ٩٦٩ إلى ١١٧١ م ، وفى أيام الخليفة « المستنصر » على وجه التحديد وصل عدد الأرمن فى مصر إلى ٣٠ ألفا ، منهم ٢٥٠٠ شغلوا مراكز فى حكومة ذلك الوقت ، وقد شارك الأرمن فى النهضة العمرانية ، وعلى سبيل المثال بناء مسجد العطارين وباب النصر وباب زويلة وباب الفتوح .

وفى ذلك الوقت كان فى مصر ٣٥ مكانا للأرمن يمارسون فيها شعائر عباداتهم .

« وفى العصر المملوكى (١٢٥٠ - ١٥١٧) زاد عدد الأرمن فى مصر بسبب الأسرى الذين تم استحضارهم من مملكة أرمينية اسمها « سيلسيا »

وفى العصر العثمانى (١٥١٧ - ١٨٠١) شهدت القاهرة عددا كبيرا من الأرمن وبالذات من الحرفيين المهرة أصحاب الخبرة فى مجال البناء والتجارة وخاصة فن صياغة الجواهر ، واستقروا فى حي الأرمن بخان الخليلى .

عصر التشتت

وكانت سنة ١٨١٥ من الأعوام الفاصلة فى حياة الشعب الأرمنى ، فقد كانت بداية التشتت التى تعرض لها هذا الشعب إلى يومنا هذا ، بسبب المذابح التى تعرضوا لها فى استنبول ، وعلى يد جمال باشا السفاح ذبح ما يزيد على ٣٠٠ ألف من صفوتهم ، وفى الحرب العالمية الأولى قتل منهم مالا يقل عن مليون ونصف ، ومع نهاية الحرب قتل منهم ١٠٠ ألف ، وبانتهائها قتل منهم - أيضا - ١٥٠ ألفا ، فضلا عن الذين دخلوا السجون والذين دفنوا أحياء فى القبور ، ولعنف هذه المذابح وعمليات الإبادة فإن الأرمن يحتفلون بها سنويا فيما يسمى بأعياد « الجيوسثيد » وهو ما يعنى باللغة العربية « الإبادة » .

وفى عهد محمد على باشا مؤسس مصر الحديثة نزح إلى مصر ١٠ آلاف أرمنى ، استطاعوا أن يلتحموا بنسيج

الشعب المصرى ، ومع أن الجالية الأرمنية تعتبر من أصغر الجاليات فى تلك الفترة فإن حاكم مصر اختار منهم أصحاب المواهب للمناصب العليا ، وقد جاء ذلك فى محاضرة ألقاها قنصل فرنسا بالاسكندرية « مسيو باسكال كارمو » فى الاسكندرية عن الأرمن فى القرن التاسع عشر ، أما لماذا اهتم هذا الفرنسى بالذات بتاريخ هذه الطائفة فلذلك سبب عائلى بحت ، وهو أن أمه أرمينية الأصل !

وهناك عدة أسباب لاهتمام محمد على بالأرمن منها أن معظمهم يجيد اللغتين الفرنسية والتركية إلى جانب لغة وطنه ، ولذلك اختارهم فى معظم الأحيان للعمل فى مجال الشئون الخارجية حيث كان يستعين بهم فى مباحثاته مع الدول الأجنبية ، وهذا الاحتضان من جانبه للأرمن يدل على ذكاء شديد ، فقد كان وجود الأرمن بهذه الكثرة فى مصر يشكل نوعا من الحماية له (مثل رهائن العصر الحديث) خاصة وقد كان يسعى جاهدا للاستقلال بمصر .

ويعتبر « بوغوص يوسيفيان بك » أول أرمنى يعمل مستشارا لمحمد على ، ووصل إلى الإشراف الكامل على الخارجية واستمر لمدة ثلاثين عاما ، وقبل رحيله مباشرة عام ١٨٤٤ قدم إلى الوالى ابن اخته « نوبار » وكان عمره فى ذلك الوقت ١٨ عاما ، وبعد موت « بوغوص » صعد نجم « نوبار » وتولى الشئون الخارجية والتجارة مثل خاله ، وظهر بعده « أرتين بك تشاركيان » الذى أصبح مسئول الحربية وتصدر لترجمة المصطلحات الحربية من اللغة الفرنسية إلى التركية ، ليستفيد منها الطلبة الدارسون فى الكلية الحربية فى ذلك الوقت ..

من الوزارة إلى السجن

وفى ولاية عباس الأول الذى اشتهر باغلاقه للمدارس والمصانع وكل نشاط استهدفه محمد على ، قبض على « أرتين » وأودعه السجن ولكنه فر منه بأعجوبة ولجأ إلى فرنسا وظل بها حتى رحيله !

وحين ارتقى الخديو إسماعيل عرش مصر أنعم على نوبار برتبة الباشوية ، وهو أول مسيحى ينعم عليه بهذا اللقب ، وقد أطلق عليه المصريون رجل الوعود الصادقة نظرا لروحه العملية الخالصة ، فقد سماه « بسمارك » المستشار الألمانى فى ذلك الوقت « الأرمنى الصغير الداهية » .. وللعلم فنوبار كان ضخم الجثة طويل القامة .

وقد ظل وجود نوبار ممتدا ومؤثرا فى الشئون الخارجية حتى تسلم منه الراية

إحدى المنمنمات الأرمينية فى القرن الرابع عشر

« تيجران باشا » زوج ابنته ، وكان تيجران جذاب الحديث يملك قوة اقناع بالغة حتى أن « نو الفقار باشا » (من الأعيان) قال عنه : هذا الرجل لابد أن يتولى أهم الوزارات وهى وزارة الخارجية .

الأرمن فى مصر

وكان تيجران هو آخر الأرمن المحترمين الذين تولوا أعلى المناصب فى هذه الوزارة المهمة ، وقد كلفه الخديوى توفيق بالتفاوض مع قائد الأسطول الإنجليزى الذى كان يصوب مدافعه نحو المدينة ، وقد استطاع بلباقته أن يحول لغة المدافع إلى لغة الحوار الدبلوماسى ، ولكن بعد رحيله (١٨٩١) لم يلمع أرمينى آخر فى العمل الدبلوماسى !

الحروب واللغة

إن أكثر ما يميز شعب أرمينيا هو احتفاظه بعاداته وتقاليده ولغته الأساسية بالرغم من الحروب الطاحنة التى تعرضت لها أرمينيا بسبب موقعها الجغرافى والذى كان طريقا للحروب بين الفرس والرومان والبيزنطيين ، ففى سنة ٤٥١ ميلادية حاول الفرس أثناء حربهم مع الأرمينيين إجبارهم على التخلى عن ديانتهم المسيحية والتحول إلى الديانة « الزرادشتية » إلا أن تشبث هذا الشعب بدينه أدى إلى فشل تلك المحاولات !

ولأن اللغة الأرمينية لغة منفصلة ومستقلة بذاتها عن اللغات الهندية والأوربية ، فقد تم اكتشاف حروفها الأبجدية فى سنة ٤٠٤ بعد الميلاد .. وتتكون أبجدية هذه اللغة أساسا من ٣٦ حرفا ، زادت إلى ٣٨ حرفا فى القرون الوسطى ، وفيها تنطق الكلمات مثل الكتابة تماما حتى آخر الكلمة ، وعادة يحتفل الشعب الأرمنى سنويا بيوم اكتشاف الحروف الأبجدية الأرمينية مجسداً فيها سر اتحاده وحفاظه على تراثه وتعبئة أهدافه إلى المستقبل .

الشخصية الأرمنية

وفى لقاء مع الأسقف « زافين شنشنيان » أسقف الأرمن الأرثوذكس والأب الروحى لهم ، بدأ حديثه قائلا : إن هذا الشعب دائما يستشعر الحنين للوطن لهجرته منه منذ آلاف السنين بسبب الحروب المتتالية ، ونزوح كثير من أفراده واشتغالهم بالتجارة فى بلاد بعيدة ، ولكن الحنين إلى الوطن ظل يراودهم طوال سنوات الغربة ، وأدى إلى استشعار الحزن ورهافة الحس فى نفوسهم وميلاد هذا الفن المتقن الدقيق !

وأكثر ما يميز الشخصية الأرمنية النشاط والاتقان والتعقل والإيمان بنجاح الأفراد أكثر منة كمجموعة .

ويستطرد قائلا : بسبب الموقع الجغرافى لأرمينيا والاتصال بالثقافات المجاورة أمثال الفرس والبيزنطيين والعرب ، فقد تمكنوا من معرفة واستلهام فنون هذه الحضارات والتفوق فيها وإدخالها فى الفنون الأرمنية مع الاحتفاظ بالسمات الخاصة لشخصيتهم !

وسألته : ولكن ما هو احساس الأسقف بعد استقلال أرمينيا ؟

ورد قائلا : نحن كمصريين نعيش فى مصر .. نشعر بفرحة وسعادة لاستقلال أرمينيا مثل سعادتنا باستقلال أى دولة أخرى .

إن حصول أى شعب على حريته وتقرير مصيره شئ عظيم ، وفى حالة أرمينيا هو شعور بالتأكيد أكثر دفئا والتصاقا نظرا لعلمنا أن هذه الدولة ظلت سبعين عاما تحت السيطرة السوفييتية ، وقد أثر ذلك على خواص الشعب الأرمنى هناك سواء اجتماعيا أو ثقافيا أو روحيا !

وقال إن تقدم أى شعب حضاريا يستلزم وجود الحرية ، وحينما يوجد كبت للحريات لا توجد حرية للخلق والإبداع ، بل سيطرة أيديولوجيات (نظريات) الدولة لخدمة السلطة ، لذلك لم تتقدم الثقافة أو الإبداع أو الفن أو حرية التعبير منذ الحكم السوفييتى ، فالفن خاصة له ارتباط كبير بالناحية الروحية والدينية للبشر ، وقد كانت السلطة السابقة تحكم القيود على انتشار الأديان ، وأدى هذا إلى أن أصبح الفن فى خدمة أهداف السلطة ، مما أدى إلى الانغلاق النفسى والروحى والسياسى ، ففى مثل هذه البيئة يزيد الرياء والتملق والفساد .

الأرمن والكنيسة

وعن الظروف التى مرت بأرمينيا منذ سبعين عاما تحدث الأسقف زافين قائلا :

● كيف احتفظوا بعاداتهم ولغتهم رغم المذابح الجماعية ؟



د . سيرفارت كيفورك



فاروجان كازاميجيان

لقد أخذت الكنيسة على عاتقها دورا قياديا للحفاظ على اللغة والثقافة والشخصية الأرمنية ، مما أدى إلى وجود علاقة قوية بين الشعب الأرمنى فى جميع أنحاء العالم والكنيسة الأرمنية ، وبالتالى بين رجال الدين فى المهجر والمركز الأعلى للكنيسة الأرمينية أو العرش البابوى فى أرمينيا والذى يرأسه البابا « فاسكين » الأول ، وبالطبع كانت هناك صعوبات شتى للاتصال أو الاجتماعات المختلفة بين الكنيسة الأم ورجالات الدين فى المهجر ورغم ذلك كانت تتم بطريقة أو بأخرى غير رسمية !

لذلك فإن الكنيسة الأرمنية فى ظل الاستقلال ليس لها أى طموحات أو رغبة فى أى سلطة مدنية أو سياسية ، فمن المعروف أن الكنيسة الأرمينية كنيسة قومية لأنها حافظت على ايجاد ما يسمى بالقومية الأرمنية .

وحينما نعيد النظر منذ زمن التشتت بالنسبة للأرمن نجد أنهم هاجروا إلى مختلف بقاع العالم واهتموا ببناء أنفسهم وتأمين حياتهم والجرى وراء لقمة العيش ، ولكن سرعان ما جاء دور الكنيسة ، فقد أنشئت مدارس اللاهوت فى لبنان والقدس ، وكان هذا ضروريا لإعادة التيار الروحى للإنسان الأرمنى .

ورداً على سؤال عن طبيعة وظيفة رجل الدين بشكل عام من وجهة نظره .. أجاب قائلا :

إن البذور حين تزرع بعد فترة تموت ، بعد أن تثمر مئات من الحبوب ، فهى مثل الشمعة التى تحترق وتذوب لتنير من حولها ، ولهذا فإن رجال الدين فى تواضع يخدمون الناس للتخفيف من آلامهم وحل مشاكلهم ، وأثناء تلك الخدمة يقومون بواجبهم تجاه الرب وهذه هى رسالتى فى الحياة .

قلت له : وماذا عن الزواج .. لماذا لم تتزوج ؟!

– قال : ببساطة .. إذا تزوجت سأنشغل عن التخفيف عن آلام الناس بأسرتى !!



زواج فى الكنيســة الأرمنية فى القـاهرة يقوم به الأســقف زافين شنشنيان .

مع الأستاذة الجامعية

وتركت الأســقف لألتـقى مع نمــوذج ناجح للمـرأة الأرمنية يمثـل مدى تفاعلها ومسـاهمتها فى أداء الدور الوظيفى البناء فى خـدمة المجتمـع ، تلك هى السـيدة «د.سيرڤارت كيڤورك» ، التى تشـغل أسـتـاذ مـسـاعد بكلية التـربية - جـامـعـة المنصورة .

ولعل أكثر ما جذب انتباهى إليها أنها صممت على أن تأخذ الطريق الطبيعى فى التـعليم ، إذ ان مـعظم سـيدات الجـالية الأرمنيـة يتـجـهن إلى اتقـان اللغـات فى مـدارسـهن والاشـتـغـال إمـا فـى العـلاقـات العـامـة أوكـسكرتيـرات أو العـمل الخـاص مـثل التـجـارة وخـلافـه ، ولكن هذه السـيدة اختـارت أن تدرس فى الجـامـعـة وتصـبح أسـتـاذًا مـسـاعـدًا ، بالرغم من مصـارحتـها لى بأنها فى البداية أرهقها التعامل مع من حولهـا فى أولى خطواتها الوظيفية لأنها على حــد قــولهــا (خــواجــاية) ولكن بإصرارها اكتسبت الحب واحترام كل من حولها .

● أسقف الأرمن يتكلم عن مشاعرهم بعد استقلال أرمينيا



مبنى الحكومة فى أرمينيا

وتقول د. سيرڤارت : « إننى أتألم كثيرا عندما يقول الناس مافيش فايدة » .. لأن المثل الصينى يقول رحلة الألف ميل تبدأ بخطوة واحدة .. ولو أن كل واحد منا أصلح ما يستطيع اصلاحه من مكانه ، لأصبحت مصر من أرقى البلاد ، ثم ان البث الاعلامى عليه معول كبير فى التوجيه فهو الذى فى امكانه توجيه الأطفال ولاسيما فى مجال الحث على القراءة والخلق والابتكار ، وهذا يندرج أيضا على الكبار ففى مقدورهم نقل هذا الحس للصغير إذا كان البث الاعلامى يخطط لهذا .

إننى كرئيسة أو مديرة أو مربية لقطاع صغير لا أمارس هذا الدور إلا فى النطاق الذى تحتمه الوظيفة ، ولكننى دائما ما أكون صديقة لكل من حولى ، أحاول الاقتراب منهم لأتفهم مشاكلهم وأحلها ، وهذا هو دورى الرئيسى والأساسى .

نجيب محفوظ فى إذاعتهم !

والتقيت كذلك بوجه آخر هو الدكتور فاروجان كازاميجيان ، الحاصل على دكتوراة فى الأدب الإنجليزى ويقوم حاليا بالتدريس فى جامعة طنطا بالإضافة إلى عمله فى الإذاعة الأرمينية كمذيع ومعد برامج متخصص فى تقديم البرامج الثقافية والتى تبث لمدة ساعة يوميا عبر الإذاعة وتسمعها أمريكا .. ويقدم البرامج المتنوعة التى تشتمل على أخبار مصرية وأخرى عن النوادى الأرمنية العديدة بالإضافة إلى الموسيقى الكلاسيكية .. وكذا الاحتفال بالمناسبات القومية الأرمنية وأعياد الميلاد والفصح بما يعد تواصلا بين جميع الأرمن فى مصر والعالم الخارجى ، كما أنه يهتم بالأدب العربى القديم والحديث على السواء فيقول : أقدم الثقافة المصرية بكل دقة ، فقد تركت رسالة الدكتوراة لفترة حتى أتفرغ لاعداد برنامج عن نجيب محفوظ استغرق منى قراءة أعماله كاملة لحوالى خمسين يوماً .. كما قدمت يوسف إدريس ، وعلى مدى ٥٢ أسبوعا قدمت أعمال الشعراء المصريين المحدثين أمثال صلاح عبد الصبور وصلاح جاهين ، وكل هؤلاء ربطتنى بهم

● الدراسات المهمة التى قدمها الأرمن عن نجيب

صداقات وطيدة ، وهذا يدل على أن الأرمن غير منفصلين على الإطلاق عن أوطانهم القديمة ، بل العكس صحيح .

ويستطرد قائلا : إننا معشر الجيل الجديد أكثر ترابطا مع المجتمع نتيجة اتقاننا جميعا اللغة العربية التى نتعلمها فى مدارسنا ، فنحن نأخذ التوجيهية باللغة العربية ، وتوجد ثلاث مدارس أرمنية فى مصر أولها أنشئت فى عام ١٨٥٤ وتقع هذه المدارس فى بولاق ومصر الجديدة والاسكندرية .

زواج الأرمن وأكلاتهم

وحول سؤالى له عن إمكانية زواج أرمينية من مصرى ؟!

صمت قليلا ثم رد على قائلا : « إنها حالة قد تحدث بنسبة واحد فى الألف ، فهى نادرة الحدوث جدا ، ولكن أود أن أوضح أنه يمكن أن تتزوج الفتاة أو الشاب الأرمنى من مسيحى وحتى هذه الحالة لاتزيد عن ١٠٪ من حالات الزواج !

امتد بى الحوار مع الدكتور فاروجيان وكان لى أن أنتهز تلك الفرصة لأسأل السيدة والدته وكذلك خطيبته عن أشهر الأكلات الأرمينية منذ قديم الزمان ، فاستمعت إلى قصة طريفة ملخصها « أنه فى القرن السادس عشر قبل الميلاد مر بأرمينيا مؤرخ اغريقى يدعى « اكسينو فون » وخلال رحلته تلك ذاق البسطرمة مع البيرة ، وأثنى على تلك الأكلة تماما .. ووصفها لأهل بلده فى اليونان ، وهذا يدل أن أصل البسطرمة هو أرمينيا وليس اليونان !!

إن الوجوه الأرمنية المشهورة تطل عليك عبر التاريخ حتى يومنا هذا ، ومن أشهر رساميهم القدامى ، يوحنا الأرمنى وكان يقوم برسم الأيقونات فى الكنائس المصرية ما بين عامى ١٧٤٥ حتى ١٧٨٣ وهى تزين معظم الكنائس القبطية القديمة مثل كنيسة مارمينا ، وأبو سيفين ، وكنيسة « عذراء قصرية الريحان » ، والكنيسة المعلقة وأبو سرجة .

وينحدر التاريخ ويتولى ظهور أرمن إشتهروا على أرض مصر من أمثال « ماهان تكيان » من أشهر شعرائهم وهو مؤسس جريدة « آديف » اليومية ثم الفنان الكبير صاروخان .

ومن الحرفيين پاپازيان أشهر صانع للأحذية و « پايزيان » للآلات الموسيقية .

المنتج السينمائى تاكفور أنطونيان ، المصور الفوتوغرافى « ألبان » ، ثم الملحن الموسيقى « هايج ساركسيان » ، وأخيرا لبلبة والممثلة ميمى جمال ، والمغنية أنوشكا ، ونجمة الاستعراض المرموقة نيللى .

قوس قزح

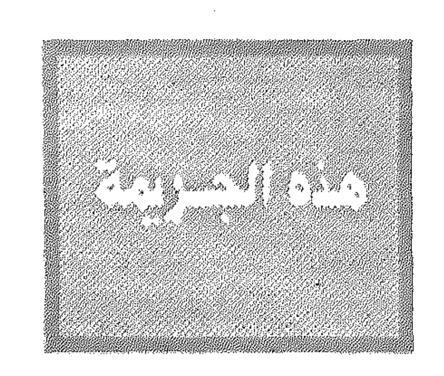
عـرض وتحليـل :عبد المنعم الجداوى



كما يجمع « قوس قزح » كل ألوان الطيف . فإن هذه الجريمة قد جمعت كل الألوان التى تكفل لها إبراز الصورة التى التقطت بالأشعة لمجتمعنا .. صورة يتصارع فيها السقف مع القاع .. فالذين بقوا فى القاع ، وفشلوا فى الانفصال . لأن السقف رفضهم ، ولان القاع لم يتخل عنهم . كهذا الفتى ، وتلك الفتاة فهما همزة الوصل ، والجيل الذى كتب عليه ان يفقد الانتماء إلى القاع ، ويسقط منه الولاء للسقف . الذى يرفض أن يتيح له المأوى ، وكسرة الخبز .. فالهمس فى القاع أحيانا يصل إلى السقف ، ويصدعه ، وكذلك إرهاصات السقف تحدث زلزالا فى القاع .. وينعكس كلاهما على الآخر .. فى كأس مريرة يتجرعها الجيل الجديد .. وتحدد الجريمة درجات الصعود والهبوط.. لضحايا صراعات ولدت قبل مولدهم ، وسوف تبقى بعد رحيلهم.. مادام السقف لا يرحم القاع ، والقاع لا يخفض بصره عن السقف .. !

الانتحار . هو انهيار قبل أن يكون انتحارا ، وخيانة للنفس ، واعتقال للروح قبل أن يكون نهاية لمتاعب زلزلت ثقة الجانى فى كل شئ ، ورسبت فى ذهنه ، وملأت وجدانه بان مأساته هى نهاية العالم ، وآخر أيام للدنيا على قيد الحياة .. وتحت وطأة هذا اليأس الأسود .. يخون الله فى أسمى أمانة منحها له ، وأوصاه بالحفاظ عليها .. فينقض عليها طعناً أو سما أو غرقا أو شنقا ، وهو لا يدرى أنه يرتكب الإثم الأكبر فى حق الله .. ثم فى حق نفسه .. ثم فى حق المجتمع الذى بوأه مكانة ومكانا بشكل أو بآخر .. !!

لقد اجتاز المرحلة الحرجة ، والعمر الافتراضى للانتحار .. تجاوز الثلاثين بعام أو عامين .. فكيف أقدم على الانتحار ؟ ومن أجل ماذا .. ؟ من أجل الحب .. ؟ إنه ليس طالبا ، ولا شاعرا ، ولا فنانا .. فهو تاجر .. نشأ ، وتربى فى « وكالة البلح » .. أقسى مدارس التجارة ، وأقوى مراكز اصطياد الرزق ، واستخراج النقود من جيوب الطبقة المتوسطة .. واستطاع تحت مظلة والده أن



يستقل بحانوت ، وأن يتعامل فى سلع بعيدة عن مجال والده . حتى لا تعلق به شبهة إعانة والده له .. ولكى يؤكد للجميع أن الفشل فى الدراسة - ليس معناه الفشل فى الحياة ، وحتى يشعر أنه ليس أقل شأنا من أخيه الذى نجح فى التعليم ، وحصل على بكالوريوس التجارة .. وهكذا يبدو شخصية قوية .. قادرة على اخضاع ظروفها ، دون أن تخضع لها .. فكيف اجتاحه ذلك الوباء الأسود ، وسد أمامه المسالك والدروب .. ؟!

فى البداية ، وبعد تمرده على الدراسة شق طريقه فى التجارة بقليل من الخبرة ، وكثير من العنف ، وبعض الجدّية التى صرفته وقتها عن كل ما يشتغل به الشبان أمثاله ، فهو لم يركن إلى شبان « وكالة البلح » فقد كان يرى أنه فوقهم بقدر ما نال من تعليم ، ورفضوا هم أن يعترفوا له بهذا التفوق ، ولم يجد لديه الجرأة ليقتحم مجتمع المتعلمين الذين أكملوا وتخرجوا ، فقد كان يرى أنهم يذكرونه بفشله ، ولم يوسعوا له مكانا بينهم . لأنه يزهو عليهم بأمواله ، ويحتقر مؤهلاتهم ، وهكذا وجد نفسه وحيد الوجدان - لا يتلهف على أحد ، ولا أحد يتلهف لرؤياه أو يبحث عنه .. وعزل نفسه داخل جوانحه . كل تفكيره فى التجارة لعله ينسى غربته بين أهله .. !

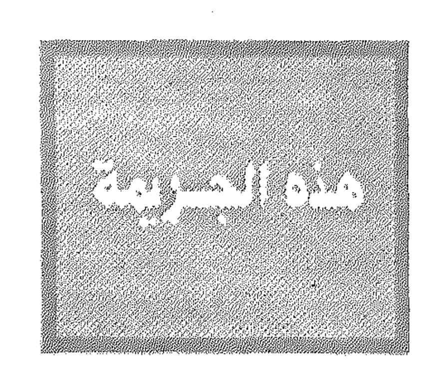
وزاره فى حانوته صديقه ، وزميل له . فشل مثله فى الدراسة ، والتحق بعمل فى إحدى المؤسسات .. لكن المفاجأة لم تكن فى الزيارة .. كانت فى الشكل والموضوع .. هذا الزميل الذى كان شعلة من الشقاوة ، وسوء الخلق ، وابتكار المشاجرات مع خلق الله . فقد حباه الله بجسد متين البنيان .. قد تحول إلى ملاك يمشى على الأرض .. اللحية الجميلة ، والجلباب الأبيض ، ولسانه لم يكف عن الذكر طوال زيارته ، وتواعدا ، وتلاقيا ، ووجد نفسه فى الحقل الجديد . أحب أن يكون جنديا من جنود الله ، وشيئا فشيئا ارتدى الجلباب الأبيض ، وأطلق لحيته ، وأصبح من الذين يصلون الأوقات الخمسة فى المسجد . لا سيما صلاة الفجر ، مما كان موضع دهشة أهل الحى ، وكل وكالة البلح ...!

وكان لابد لجندى الله أن يستكمل دينه . فلم يكن قد فكر فى الزواج حتى الآن ، وبدأ يفكر فى البحث عن « إبنة الحلال » ، ولكن تفاجئه عملية المصران الأعور ، ويدخل المستشفى ، وهناك يشفى من المصران ، وتنجح العملية ليسقط فى رغبة شديدة وأكيدة فى الارتباط بالممرضة

التى كانت أول أنثى تقول له كلمة طيبة ، وأحس بالقنبلة تتفجر داخله .. تصدع أركان شخصيته ، وتحول بعض معتقداته القديمة إلى تراب ، ويضطرب كأنما مسه شيطان ، وإلى وقت قريب كان يؤمن أن الأنثى هى شيطان أو على الأقل حليفة الشيطان .. لكنه كلما نظر إلى عينى المرضة ، لاحت له من خلالها الجنة التى ما خطرت على قلب البشر .. أرغم على الاعتراف بأن هناك إناثا لا يعرفهن الشيطان ، ولا يجرؤ على الاقتراب منهن .. ملامحها كانت تطمئنه ، وجبينها كان يسعده ، وهمسات فمها كانت كالتراتيل ، وكالصلوات ، وكل لحظة تمضى عليها معه .. تزيده رغبة فيها ، وشوقا إليها ، وعانى من الكبح ، ومن قمع مشاعره ، واضطهاد أحاسيسه .. فلا تكاد تدمدم فى حناياه حتى يخنقها . مخافة أن يفتضح أمره ، واستعان بكل قواه الواهنة . حتى ينتهى العلاج ويخرج .. فإذا ما ظلت رغبته متوهجة . وأشواقه متأججة .. تأكد أنها رغبة أصيلة ، وليست نزعة مريض ضعيف فى حالة محنة ، وأنه يحق له أن يتقدم أو يبحث الموضوع .. !

وخرج من المستشفى إلى منزله ، وسأل قلبه ألف سؤال رد عليه بألف نعم إنه يريدها ، ولا يريد غيرها ، وأبدى رغبته فى مجلس من الإخوة كانوا يزورونه ، وعارضوا جميعا لأنها تعمل فى تمريض الرجال ، وتتعامل مع الأطباء . فإذا استطاع أن يحصل منها على تعهد بالا تمرض إلا السيدات ، وألا تتعامل الا مع الطبيبات ، وان تضع « الخمار » على وجهها فلا يراها الا المحارم . ضمها إلى النخبة الطيبة ، وأصبحت جديرة بأن تكون حرم الأخ الطيب المعشر ، ورفيقته فى الجنة ان شاء الله وقدر ..

ولعبت فئران الدنيا كلها فى صدره . فهذه عقبات لا يعتقد أنها سوف تستطيع أن تتخطاها ، واقترح معهم أن تستقيل من العمل . فهو والحمد لله ليس فى حاجة إلى مرتبها ، وبذلك يكون الله قد كفى المؤمنين والمؤمنات شر التمريض ، وهللوا جميعا ، وكبروا للفكر الهادئ النابع من قلب خاشع ، واتفق مع نفسه على أن أول مكان يذهب إليه بعد تماثله للشفاء ، هو منزل أهلها ليعرض عليهم نفسه ، ويكون قد استطلع رأى أهله أيضا ، واستخار الله ، وعرض زواجه من المرضة على أمه ، وأطلقت صرخة من الدهشة ، ، وضربت على صدرها ، وكأن كارثة وقعت ، وأعلنته بانه لن يكون ابنها ، وسوف تتبرأ منه إلى يوم القيامة ، وتوسلت إليه ألا يفتح ذلك مع والده .. حتى لا يطلق عليه رصاصة من بندقيته المرخصة ، وفوجئ بالمظاهرة التى هاجمته بها والدته .. فابتلع رغباته كجمرات تتدحرج من حلقه إلى أحشائه ، وكان ذلك تحذيرا من أن يبدى مثل هذه الرغبة لوالده ، وأحس أنه يأكل بعضه قبل



أن يتكشف طريقه ، فهو لم يسأل صاحبة الشأن رأيها .. قد يكون ذلك لأنه على ثقة من أنها لن ترفضه ، فهو كما يرى تتمناه كل أنثى عاقلة رشيدة ، تريد أن تحيا فى ظل رجل . أخلاقه حسنة ، وأحواله المالية حسنة ، ومن عائلة حسنة .. ولكن لا بأس من استطلاع الأمر . ثم يسأل الله ان يأخذ بيده ، فيتولى عنه إقناع أهله بوجهة نظره ! ..

وذهب يختال فى صحته وعافيته ، والتقى بالممرضة فى المستشفى مدعيا أنه جاء ليشكرها ، وكان ذلك غير عادى . ان يعود مريض ليشكرها على ما قدمته له من خدمة ، وضغطت برموشها ، ونظراتها ليعترف بحقيقة ما جاء من أجله ، ولم يستطع المقاومة ، ولا الإنكار . فخر صريعا ليعترف ، ويسألها رأيها فى أن تكون زوجته .. ؟!

ورغم زلاقة لسانها ، وقدرتها الفائقة على الحديث فى كل شئ . فإنها اضطربت، وسألته أن يعفو عنها إذا لم تجبه فورا بلا أو نعم ، فقد كانت تتوقع أى مفاجأة إلا تلك ، وامتلأت ملامحها بحيرة قلقة ، وحسرة طافت بقسماتها لحظات .. فقتلت طمأنينته ، وقصمت ظهر الثقة التى كان يعول عليها .. واستمهلته بضعة أيام تعطيه بعدها الرد ! ..

وأحس ان الرد لن يكون فى صالحه .. فكل هذه المقدمات يمكن ان تشى بالنتيجة القادمة ، ولم يشأ ان يتراجع ليعيش معلقا بين اليأس والرجاء ، يكفيه ما لديه ، وأصر على ان تجيب الآن أو على الأقل تقول له ما يمكن ان تقوله عن ظروفها . فيشاركها البحث عن الحلول .. فهو أيضا كل ماحوله ضده ! ..

وكأنما مس بعبارته الأخيرة عمق جراحها . فانفجرت فيه تؤكد له ان أهله لابد أنهم رفضوا اقتراحه بالزواج من ممرضة .. فهى على يقين من نظرة المجتمع الظالمة ، وتصاعد غضبها سريعا، وأمسكت بأهدابها على دموع توشك ان تندفع من عينيها ، وأقسمت أنه لولا أن مشاعرها لاتطاوعها لأنهت المقابلة ، وانصرفت عنه .. ففى كل يوم يتقدم إليها عشرات الخطاب . لكنها ترى فى عيونهم الطمع فى دخلها الذى يعتبر بالنسبة إلى خريجى الجامعات فوق المتوسط ، واعترفت أنها ما أصغَت إليه الا لأنه لديها غير الآخرين ، وفرح ان له فى قلبها مكانة خاصة ، فابتلع ثورتها ، ورد يطمئنها أنها إذا ما أصبحت زوجته فسوف يطلب منها ان تستقيل من العمل حتى لاتخدم رجلا غيره .. ومرة أخرى عربدت دهشة على

ملامحها ، وعجزت عن فهم البراكين التى تتفجر داخلها .. هل تلطم وجهها من الحسرة ؟ أم تصيح راقصة من الفرحة .. وتوسلت إليه أن يتوقف عند هذا الحد ، وان يكون رفيقا بها .. وسوف تلقاه بعد أيام أو تتصل به تليفونيا .. فلابد لها أن تخلو إلى نفسها .. إن مثل هذا الزواج يمضى فوق ألغام لابد أن تنتزع من الطريق ! ..

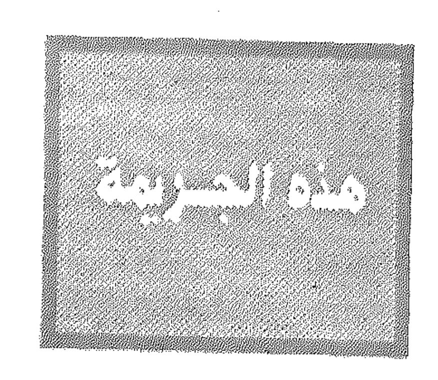
انصرف عنها ، وانصرفت هى إلى نفسها .. كانت تود أن تفرح لولا العراقيل التى تسد عليها الطريق .. إنه يريدها أن تستقيل ماذا يظن .. ؟ أيظن أنها تعمل لتقتل أوقات الفراغ ؟ .. أو تعمل متطوعة .. ؟ إنها عملت وتعمل . لأنها مسئولة عن أسرة بأكملها .. إخوة أربعة فى المدارس ، وشقيقتها كبرى إخوتها فى الجامعة ، واثنين فى الثانوى ، وشقيق فى الاعدادى ، وأمها تقف فى البيت كالطود الشامخ ، والأب مشلول يستنفد وحده نصف مرتبها فى الأدوية ، والأطعمة الخاصة . إنه يريدها أن تستقيل ، وهو لا يدرى أنه يعرض عليها المستحيل . إلى جانب أهله الذين سوف يقاطعونه لأنه تزوج بممرضة ! .. وهو لن يقبل أن تعمل . كما يعتقد ، فلا يجوز لصاحب لحية ان يترك زوجته تعمل مع الرجال ، وفى خدمتهم ، وإذا تركها فسوف تتحول حياتها إلى جحيم . فضلا عن هذا البيت الذى يقوم على ما تكسبه من وظيفتها ..

فهى فضلا عن عملها بالمستشفى ، تعمل عند طبيب فى عيادة خاصة بعد الظهر . كل ذلك حتى تتمكن من مواجهة متطلبات هذه الأسرة التى لا يكف نزيف مصروفاتها ، ولا يتوقف .. إلى جانب معاش والدها الضئيل ! ..

إن المشروع مقضى عليه بالفشل ، وهى لن تحمل الأمر إلى والدتها فسوف تحرضها على قبول شروطه . مادامت تريده ويكفيها ما قدمته من تضحيات ، ولكنها لن توافق على الدفع باخوتها ، والأسرة إلى المجهول .. إن قلبها يحرضها على انتهاز الفرصة التى قد لاتعود .. لكن إنسانيتها فى كيانها تحذرها من تعريض إخوتها وأمها ووالدها للهوان .. فقد تندم لإنها فرطت ، وساعتها لن يجدى الندم .. أما فرصة الزواج فسوف تجدها على طول المدى .. قد تتغير مواصفات العريس فى كل مرحلة . لكنه فى النهاية زواج شرعى من رجل بالغ رشيد .. واستقر رأيها على ان تتناساه . فإذا ما جاءها مرة أخرى صارحته بكل ظروفها ، واعتذرت له ، ودعت له من قلبها أن يجد من تسعده ، ويسعد معها بلا مشاكل !! ..

***

أما هو فقد ظل يترقب اتصالها ، وعلم أن أمه لوحت للأب برغبة الإبن فى الزواج من المرضة ، وهاج الأب ، وماج ، وطلب من الأم ان تنقل إليه تحذيره أو الذهاب



بعيدا عن الأسرة حتى لا يجلب لهم العار ، وليتذكر أنه له إخوة بنات ، وبنينا ، وأنهم لن يشهدوا له خطبة أو فرحا ، ونقلت إليه الأم التهديد ، وزادت عليه أنهم سيعتبرونه مفقودا إذا فعل ذلك حتى يعود ! ..

وطوى جوانحه على عذاب من نوع غريب . لم يعرفه من قبل ، وعرض الأمر على الإخوة ، وتهديد والده ، وطاعة الوالدين ، والإحسان إليهما ، وأجمع الإخوة على أنه لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق ، والزواج طاعة لله ورسوله ، وليس ذنبا فيه معصية الأب ، وانطلق يسعى نحوها يسألها الرد مادامت لم تتصل هى ، وحاولت أن تتهرب منه لكنه أصر على أن تستمع إليه فقد جاءها وهو فى حالة عصيان لوالده ، وعليها ان تقدر موقفه حق قدره .

وزاد ذلك من محنتها ، ونفضت بين يديه همومها . لم تترك شيئا الا شرحته له . فهى ليست كما يراها .. إنها لا تملك نفسها ، ولا أيامها . فهى اليوم ، وفى المستقبل لسنوات طويلة ملك لإسرتها التى تعولها ، وإخوتها يجب ان يتعلموا حتى يضعوا أقدامهم على الطريق السليم ، وهى قد باعت حياتها لهم ، وليس فى نيتها أن تسترد ما وهبته .. فالعمل بالنسبة لها ليس ترفا ، وإنما هو حياة أسرتها ، ولن تستطيع الاستغناء عنه . مهما وفر لها من حياة طيبة .. لأنه ليس مسئولا عن أسرتها ، وإنما تلك مسئوليتها هى وحدها ، ولماذا يضع نفسه وسط كل هذه العواصف ، والمحاذير ، ويخسر أسرته ؟ ..

إنها تريده كما يريدها . لكن عليهما أن يخضعا للظروف ، وليس كل ما يتمناه المرء يدركه .. ان العقل هنا يجب ان تكون له الكلمة .. فالقلب وحده لا يكفى ! ..

إذن فهو الرفض انصياعا لظروفها ، وظروفه ، وليس أمامهما الا أن يدعو كلاهما للآخر أن يجد فى مستقبل أيامه ما ينسيه هذا الحب الذى جاء عن طريق الخطأ فى غير موعده .. و .. و ... !.

ولم يطق الاستماع إليها أكثر من ذلك . أسرع يبتعد دون ان ينطق بكلمة . اختلطت فى ذهنه الخطوط ، وتصادمت الرغبات ، وانحدرت دمعة من عينه فنحاها بأصبعه ، ومضى ، وهى ترمقه فى ذهول ، وظلت جالسة فى مكانها عساه يعود .. يقول كلمة .. يتأسف .. يسب .. يلعن .. لكنه ذهب دون أن يتوقف ! ..

عندما عاد إلى منزل والده .. كانت تتساقط نفسه منه فى الطريق .. كان وعيه يغادره ويعود كأمواج تضرب الشاطئ ثم

تعود ، ويحاول أن يتمسك بالوعى . لكنه يلوى ذراعه ويفلت منه .. كلما صمم على الوصول إلى البيت ضاع منه الطريق ، وهو على مقربة من البيت .. ويظل يدور ويحملق فى الشوارع . لم يحاول أن يسأل أحدا .. خجل أن يعرف أهل الحى أنه ضال .. ! تبدّى له البيت .. أسرع يندس داخله .. طالعته أمه .. أول الأمر ظنت أنه أصيب فى حادث .. سألته عما به .. حملق فيها صامتا .. حاولت أن تكلمه .. لكنه لم يجب .. كان يسمع حديثها لكنه لا يميزه .. دخل غرفته ونام .. بعد قليل دعته أمه للغداء .. لصلاة العصر .. لم يجب .. استيقظ لكنه ظل مكانه .. كل ما يفعله هو أنه يحملق فى لا شئ .. سقط فى بئر بلا قرار .. بكت أمه .. جمعت إخوته .. لكنه أغرق فى الصمت .. وعندما جاء والده ليلا .. كان حوله بعض الإخوة .. لكنه لم يتكلم .. قرأوا عليه قرآنا ، وكبروا فى اذنيه . لكنه لم يتكلم .. ولم تختلج قسماته بمشاعر أو أحاسيس .. وبقى هكذا ثلاثة أيام .. أطعموه بالقوة تارة ، وبالحيلة أخرى .. وفى اليوم الرابع حملوه حملا إلى طبيب .. قال الطبيب أنه يعانى من كآبة شديدة ، وأوصى بالتغذية الجيدة ، وتحقيق أمنياته التى سفحوها ! ..

وكجزء من العلاج وافق الأب على الزواج ، وأسرعت الأم مبتهجة تبلغ الإبن موافقة الأب .. لكنها فجعت فلم يستقبل الخبر بما كانت تتوقع .. نظر إليها طويلا ، ولم يعقب .. كان فى صراع طويل وشاق مع وعيه الذى ينسلخ ، وينخلع عنه بالساعات .. وكان يرفض ان يراه فى محنته أحد من الاخوة ، وحينما حاولوا من أسبوع ان يزوروه رفض ان يدخلوا عليه .. فلم يجد معه من نفسه ما يلقاهم به .. إنه مضيع فى رحلة . لكن مع من .. ؟ ومتى يعود منها ؟ .. لا يدرى ! ..

أحست الأم بفجيعة المأساة .. وبناء على تعليمات الطبيب المعالج ، وفى سبيل أمومتها .. ذهبت إلى الممرضة . فلما التقت بها سألتها سؤالا محددا . هل هى تحبه بالقدر الذى يحبها به ؟ وهل مستعدة لتتزوجه ام لا .. ؟ ، وأجابتها الفتاة بانها قد يكون حبها أضعاف حبه .. لكنها لن تتزوجه . لأنه يريدها ان تستقيل ، وهى لا تستطيع أن تخون أشقاءها واسرتها ، والا فيصبح من السهل عليها ان تخونه أيضا ! ..

ومالت الأم على يدى الفتاة فقبلتهما ، واعتذرت لها عن الظن السيئ بها ، وتوسلت إليها أن تجئ لتزوره معها ، وسوف يقبلون كل شروطها . لإنه يجتاز محنة من الصعب أن يعبرها .. وفزعت الفتاة وأسرعت معها ، وعندما وصلت ، وطرقت الأم باب غرفته .. كان الصمت يخيم على كل شئ .. وضغطت الأم الباب .. لكن .... كان العريس جثة تتطوح فى حبل يتدلى من سقف الغرفة .. !!

الهُوِيَّةُ اليَهُودِيَّةُ

فى أفلام وودى ألين

بقلم : د.عبد الوهاب المسيرى

مخرج سينمائى وممثل وكاتب سينمائى أمريكى يهودى ، ولد فى بروكلين (حى كان يتركز فيه عدد كبير من يهود الولايات المتحدة فى نيويورك) . التحق بجامعة نيويورك ، ولكنه لم يحصل على شهادة جامعية . بدأ حياته المهنية ككاتب نكات يقدمها للصحف أو لمقدمى البرامج التليفزيونية . وفى هذه الفترة ، طور ملامح الشخصية الأساسية التى تظهر فى معظم أفلامه ، شخصية البطل المضاد والمعادى للبطولة ، أو البطل المهزوم الذى يخسر دائماً ويفشل .

وثمة موضوعان أساسيان فى أفلام وودى ألين ، وهما مرتبطان تمام الارتباط ، أما الأول فهو وجود البشر فى الزمان حيث يحصدهم الموت بمنجله ، أما الموضوع الثانى فهو الجنس . والجنس هو وسيلة للمتعة ولكنه أيضاً طريقة للتواصل والتضامن ومعرفة النفس البشرية . ولكن الزمان يؤدى إلى التغير فتصبح كل الأمور نسبية ، ومن ثم ، يصبح العالم خالياً تماماً من أى مطلقات معرفية أو أخلاقية ، ومن أى معنى أو هدف ، وتصبح الحركة آلية رتيبة مكررة ، ويفرغ الجنس من المعنى تماماً ويصبح مجرد مسألة جسمانية لا تحل مشكلة المعنى . ويحاول البطل المهزوم أن يتجاوز كل هذا عن طريق الإيمان الدينى . ولكنه يرتد دائماً على عقبيه فاشلاً ، إذ أنه يدرك استحالة بحثه ، فيظل قابعاً رغم أنفه فى عالمه العلمانى يبين حدوده ومأساته ، ولكنه لا يتجاوزه قط . ولكنه لا يقنع بهذا أيضاً ، إذ نجده يبين حدود الإيمان الدينى كذلك ، ومن ثم فهو فى تصورنا واحد من أهم نقاد المجتمع العلمانى الذى يراه بوضوح ويرى الكارثة المعرفية والأخلاقية الناجمة عن

النسبية ، ولكنه يظل داخل حدود نسقه ، يجلس على عتبات الإيمان الدينى يطلق نكاته المظلمة المنيرة .

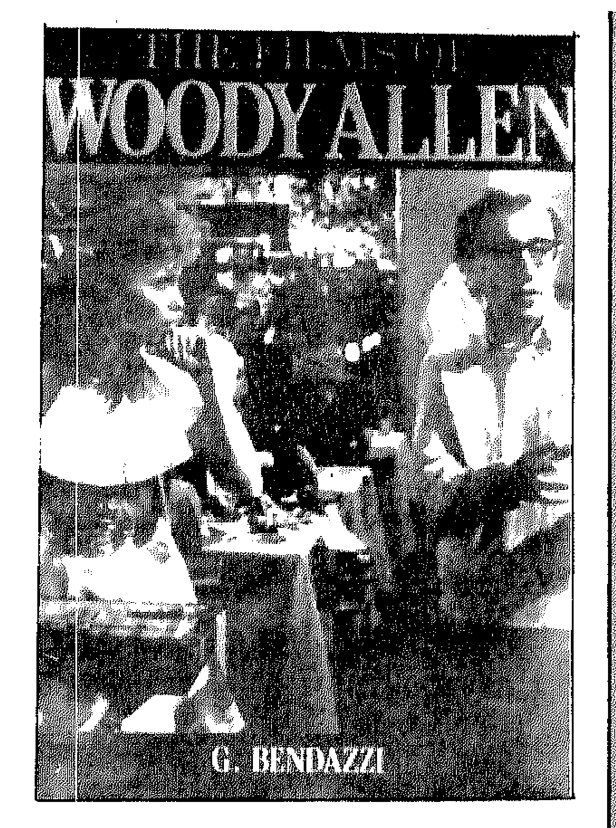
غريب فى عالمنا الحديث

وعادةً ما يتناول وودى ألين هذه الموضوعات من خلال حشد كبير من الشخصيات بعضهم له ملامح إثنية واضحة مستمدة من حياة مهاجرى يهود اليديشية فى الولايات المتحدة (هم وأبناؤهم الذين حققوا قدراً من التأمرك ولكنهم لم يندمجوا تماماً ، مما يجعلهم غير مستقرين لا فى القالب اليهودى اليديشى ولا داخل قالب الواسب ، أى الأمريكيون البيض البروتستانت) . وهم ، فى هذا ، يشبهون الإنسان الغربى الحديث ، الذى فقد عالمه التقليدى ولكنه لم يجد نفسه إلا غريباً فى عالمه الحديث .

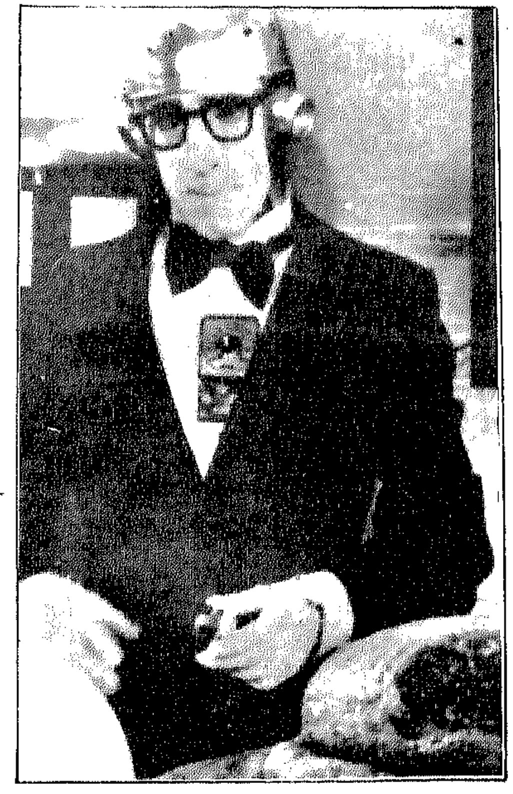
ومن الأفلام الأولى لوودى ألين ، التى تستخدم نمط البطل المهزوم ، فيلم «فلتأخذ النقود ولتهرب» عام ١٩٦٩ ، وهو محاكاة ساخرة للأفلام الوثائقية .

وتدور أحداث فيلم « العبها مرة أخرى ياسام » (١٩٧٢) حول ناقد سينمائى مستوعب تماماً فى أفلام همفرى بوجارت، وفى شخصيته التى تتسم بالذكورة الفائقة ، ولذا بدلاً من أن يبدع هذا البطل تتبدد طاقته فى الحلم بالقيام بغزوات تشبه غزوات بوجارت . فتهجره زوجته ويبحث هو عن حب حقيقى أو عن علاقة غرامية أو جنسية لها معنى .

أما فيلم «النيام» (١٩٧٣) ، فهو يتناول الحياة فى عالم المستقبل الذى



غلاف كتاب أفلام وودى ألين


وودى ألين على هيئة (روبوت) رجل آلى فى فيلم النيام

يشبه الكابوس . فبطل الفيلم لا يمكنه التأقلم مع هـذا العالم المنظم بشكل هندسى ، مما يجعل تجربته تشبه تجربة اليهودى فى الحضارة الأمريكية الحديثة . وتجربة الإنسان بشكل عام فى المجتمع الصناعى الحديث . وفيلم « كل ما كنت دائماً تود معرفته عن الجنس ، وتخشى السؤال عنه » (١٩٧٣) هو محاكاة كوميدية لعدة أنواع ومواضيع أدبية وسينمائية : رواية الخيال العلمى ، وأسطورة فرانكشتين ، وأفلام الإباحية ومشكلة الشذوذ الجنسى فى المجتمع الحديث . والفيلم يتضمن نقداً عميقاً للعقلية الحديثة التى تحاول الوصول إلى الحد الأقصى فى كل شىء .

أهم الأفلام

ويعتبر «الحب والموت» (١٩٧٥) من أهم أفلام وودى ألين ، وتدور أحداثه فى روسيا القيصرية فى أثناء غزو نابليون . وبطل الفيلم هو بطل ألين المعتاد ، الإنسان الصغير الذى يفشل دائماً ، ولكنه يجد نفسه فى هذه المرة بطلاً رغم أنفه . وتدور حبكة الفيلم حول الحب والموت ومحاولة البطل أن يصل إلى الحب وأن يفهم الموت . وهو يحقق شيئاً من النجاح فى محاولته الأولى إذ يتزوج ابنة عمهم سونيا بعد سنوات طويلة من الحب المرفوض ، لكن زواجه هذا يتم عن طريق الصدفة ، أما الموت فيظل هذا الشىء البعيد الذى لا يفهم – إذ يحاول البطل أن يغتال نابليون فيقبض ويحكم عليه بالإعدام ، وفى الليلة المحددة لتنفيذ الحكم يأتيه فى سجنه ملاك يبشره بالنجاة والخلاص فيتقدم البطل إلى الموت دون خوف ، ثم يظهر أن الملاك كان يكذب عليه وينتهى الفيلم بإعدام البطل !

ويعتبر فيلم «آنى هول» (١٩٧٧) نقطة تحول فى تاريخ وودى ألين السينمائى . والفيلم يتناول كثيراً من الموضوعات الأمريكية اليهودية ، علاقة اليهودى بالشيكسا (أنثى الأغيار الشقراء) ، وموقف اليهودى المبهم من حضارة الواسب، إذ هو يحبها ويكرهها فى آن واحد ، يود دخول عالمها والاندماج فيه ولكنه يخشى أن يفعل ذلك . وهناك أيضاً موضوع كره اليهودى لنفسه وعشرات الموضوعات الأمريكية الأخرى مثل البارانويا والتحليل النفسى . وتزداد قضية المعنى أهمية فى هذا الفيلم ، بل وتشغل المركز .

ويعد فيلم «الداخل» (١٩٧٨) من أفلام وودى ألين القليلة المأساوية والتى لا يمثل دوراً فيها . وهى تتناول قصة حياة امرأة تفقد علاقتها بالحياة ، إذ تستوعب تماماً القيم الفنية خصوصاً قيمة التناسق ، إلى درجة أنها تحاول أن تفرضها على الواقع . وحينما ينفصل عنها زوجها ، ثم يطلقها ، لا تتحمل هذه الصدمة وتنتحر .

ومن أهم أفلام وودى ألين فيلم «مانهاتن» (١٩٧٩) ، ومانهاتن هى أهم أحياء نيويورك ومركز المال والتجارة ، وهو الحى الذى يعيش فيه وودى ألين نفسه . وهو فى هذا الفيلم ، يتناول الفوضى الأخلاقية والعاطفية الناجمة عن النسبية ، واختفاء المعنى والقيمة ، وتحول كل شىء إلى جزء من الحياة العامة . فزوجته ، على سبيل المثال ، تتركه لتعيش مع امرأة

أخرى ، وتكتب كتاباً عن حياتهما الشخصية تتعرض فيه لأدق وقائعها . ولكن، فى وسط كل هذا ، توجد فتاة صغيرة تحب البطل وترتبط به . ورغم محاولته الهرب منها ، فإنها تظل تؤكد حتى النهاية ضرورة أن يثق البشر - الواحد بالآخر .

ويتناول فيلم «زيليج» (١٩٨٣) قصة حياة رجل يتلون كالحرباء تبعاً للوسط الذى يعيش فيه حتى يفقد هويته تماماً . ولعل زيليج تعبير عن مأساة الإنسان الحديث الذى يفشل تماماً فى تحقيق الانتماء ، لأى عقيدة ولأى مجتمع ، ولذا يظل دائماً غريباً لا مأوى له . والإنسان الحديث ، فى هذا يشبه المهاجر اليهودى (أو غيره من المهاجرين) حيث يبذل قصارى جهده لأن يصبح جزءاً من مجتمعه ويحاول فى ذات الوقت ألا يفقد هويته ، ولكن المحاولة تبوء عادةً بالفشل إذ أن ما يحدث هو فقدان المهاجر ليهوديته ، ولكنه فى ذات الوقت لا يصبح من الواسب . ولذا فإن محاولته للاندماج تصبح حالة مرضية مثل حالة زيليج .

بين الكوميديا والمأساة

ومن أهم أفلام وودى آلين «وردة القاهرة القرمزية» (١٩٨٥) وهو فيلم لا يظهر فيه هو نفسه ، ويقف ما بين الكوميديا والمأساة ، بطلة الفيلم امرأة متواضعة الحال تعيش حياة كلها بؤس ، حياة لا يوجد فيها نبل أو تجاوز أو تعال ، وزوجها عاطل عن العمل بسبب الكساد الاقتصادى فى الثلاثينيات ، ولا تجد ملجأ من كل هذا الكابوس إلا فى عالم الأحلام الوردية ، عالم السينما . تذهب هى إلى السينما كل يوم تشاهد نفس الفيلم ، المرة تلو الأخرى ، فعالم السينما هو عالم غير حقيقى ولكنه جميل ويعلو على واقعها الردىء . والفيلم الذى تشاهده هو فيلم من الثلاثينيات يسمى «وردة القاهرة القرمزية» - فيلم هروبى ، أبطاله أثرياء ، ينتقلون من القاهرة إلى شرفات شققهم الفاخرة فى شيكاغو وإلى المطاعم التى تغنى فيها أشهر المغنيات . وتستوعب البطلة تماماً فى الفيلم الذى تشاهده إلى أن يزول الخط الفاصل بين الواقع والخيال ، ويقع بطل الفيلم فى غرامها ويترك الشاشة ويهرب معها لتعيش البطلة الحالمة معه حياة مليئة بالمغامرات . ثم يأخذها البطل ويدخل معها عالم الفيلم ذاته حيث تختلط بالنجوم وتحيا حياة المتعة والثراء . ولكن ينتهى الفيلم حين يأتى ممثل الفيلم ويخبرها أن عليها أن تختار بينه (هو الممثل الحقيقى) وبطل الفيلم الوهمى فتختاره هو بطبيعة الحال . ولكن يظهر أنه خدعها ، إذ يعود إلى هوليود وتعود هى إلى حياتها العادية الرتيبة لتشاهد مزيداً من الأفلام وتعيش مرة أخرى فى عالم البؤس تتطلع إلى عالم الأحلام الوردية !

قضية المعنى

وتظهر فى «حنا وأخواتها» (١٩٨٦) قضية المعنى بكل حدة ، فبطلها كاتب تليفزيونى أمريكى يهودى لم يعد يؤمن باليهودية ، ويبدأ رحلة البحث فيعتنق المسيحية الكاثوليكية بضعة أيام ولكنه يتركها ، ثم يجد العزاء والمعنى فى الحب والسينما . وبعد هذا ظهر فيلم «قصص

نيويورك» (١٩٨٨) ، وهو فيلم يتكون من ثلاثة أجزاء ، أخرج وودى ألين ثالثها بعنوان «أطلال الملك أوديب» (لعب على لفظ «ركس»Rex اللاتينية التى تعنى ملك وكلمة «ركس» Wrecks الإنجليزية وتعنى «يحطم» أو «يهدم») وفى هذا الفيلم يعود ألين إلى الموضوع اليهودى ويتناوله بشكل مباشر كما فعل فى «آنى هول» فالفيلم يتناول حياة شاب أمريكى يهودى يحاول أن يندمج فى المجتمع ، فيغير اسمه ويتصرف تماماً مثل الواسب ويحب شيكسا، أى أنثى الأغيار . ولكن أمه اليهودية ذات الشخصية المتسلطة والهوية اليديشية الواضحة ، ترفض هذا الوضع تماماً . وفى يوم من الأيام ، تختفى الأم ولكنها تظهر فى سماء نيويورك حيث تستمر فى مطاردة ابنها إلى أن يرضخ فى نهاية الأمر ويحب أنثى يهودية تشبه أمه تماماً . ولا يتسم هذا الفيلم بكثير من التركيب ربما بسبب قصره . ويعد فيلم «جرائم وسوء سلوك» (١٩٨٩) من أهم أفلام وودى ألين ، إذ تتبلور فيه كثير من الموضوعات وتصل إلى منتهاها ، فقضية المعنى ومصدر القيمة الأخلاقية المطلقة فى المجتمع العلمانى تصبح هنا قضية مركزية. وبطل الفيلم مخرج سينمائى يؤمن بفنه ويشاركه هذا الإيمان فتاة يعتقد أنها تحبه . ويوجد فى الفيلم كذلك طبيب عيون يهودى أمريكى ناجح ، مندمج فى مجتمعه، أحد مرضاه حاخام أعمى . وينتهى الفيلم حين يجد البطل أن صديقته تتركه للتزوج من رجل سوقى متخصص فى العلاقات العامة ويقوم طبيب العيون باستئجار قاتل ليقتل عشيقته التى تهدده بالفضيحة - فكأن العام والبرانى ينتصر تماماً على الخاص والجوانى ، يختفى اليقين المعرفى والإطلاق الأخلاقى . وعلى كل فإن الحاخام أعمى منذ البداية ، أما الطبيب الذى يحاول أن يرجع لعيونه النور فهو مجرم!

وظهر عام ١٩٩٠ فيلم «أليس» ، ويتناول حياة أنثى أمريكية ثرية تعيش حياة رتيبة تماماً ، لا يوجد لها هدف أو معنى . بدأت تشعر بالفجوة العاطفية التى تفصل بينها وبين زوجها ، وبالمسافة التى تفصلها عن أطفالها بسبب اعتمادها على مربية فى تنشأتهم وعلى آلاف الأشياء الأخرى (مثل اللعب والهدايا التى لا تنتهى) وتقرر تغيير حياتها فتستشير طبيباً صينياً يعرف بعض الوصفات السحرية من بينها دواء إن أعطته لشخص فإنه يقع فى غرامها على التو . وبعد أن تجربه ترفض هذا الحل السحرى ، كما ترفض أن تذهب للاستقرار فى الهند بحثاً عن تجربة دينية وإنما تترك زوجها وتأخذ أطفالها وتتفرغ لتربيتهم متخطية المسافة التى تفصل بينها وبينهم .

بروز المكون اليهودى

ويمكننا الآن أن نتناول « يهودية» وودى ألين . وكما أسلفنا ، هناك مكون يهودى قوى فى أفلامه ، فثمة إشارات واضحة أو كامنة إلا أن أبطاله يهود (فى العادة) . ففى «آنى هـول» و «أطـلال الملك أوديب» و «جرائم وسوء سلوك» ، نجد أن يهودية

البطل فى مجتمع الواسب هى الموضوع الأساسى . أما فى فيلم «مانهاتن» فإن يهوديته يشار إليها وحسب ولا تشكل موضوع الفيلم . وفى فيلم «الحب والموت» ، يعرف البطل فى البداية باعتباره يهودياً ، ولكنه يصبح مسيحياً فى النصف الثانى من الرواية . وفى «حنا وأخواتها» ، نجد أن الأسرة يهودية ، ولكنها أسرة أمريكية يهودية يواجه أعضاؤها مشاكل المجتمع العلمانى الأمريكى من تفكك وصراع ومحاولة لتجاوز كل ذلك من خلال شكل من أشكال التضامن . ولكن شخصياته ، سواء أكانت يهودية أم غير يهودية ، فإنها تتجاوز وضعها الخاص لتصبح جزءاً من نمط إنسانى عالمى يمكن للجميع المشاركة فيه والإحساس به . ولهذا ، فإن يهودية وودى ألين (حينما تظهر) ليست استبعادية، وإنما هى رمز لمعاناة الإنسان فى مجتمع فقد المعنى والقيمة ، وهى مجرد ذلك الموضوع المباشر البارز للعمل ، على حين أن الموضوع غير المباشر والكامن موضوع ذا طابع إنسانى عام . وهذا يثير ، ولاشك ، إشكالية يهودية وودى ألين ، إذ أن تناوله للموضوع اليهودى قد لا يختلف كثيراً عن متناول أى مخرج آخر ، إلا إذا أخذنا فى الاعتبار أن ألين ينظر إلى الموضوع من الداخل باعتبار أن الموضوع اليهودى يخصه بشكل شخصى ومباشر ، فأبطاله على علاقة وثيقة بسيرته الشخصية .

وألين لا يختلف كثيراً عن فنانين يهود آخرين ، مثل مارك شاجال وإسحق بابل ، حيث لا يشكل العنصر اليهودى سوى تلك المادة الخام التى يتناولونها فى أعمالهم بشكل إنسانى عام . وهذا يجعل بوسعنا التعاطف مع الضحايا من اليهود والوقوف إلى صفهم ، والتمتع بما فى مثل هذه الأعمال الفنية من جمال .

ومما يجدر ذكره أن وودى ألين كتب مقالاً فى غاية الأهمية عن الانتفاضة ، مستخدماً فيه نفس الصوت الروائى الذى يستخدمه فى أفلامه ، أى صوت البطل الفاشل الذى يحاول أن يأتى بأعمال بطولية ويخفق ولكنه يصر مع هذا على أن يتمسك بموقفه المبدئى . وهو ، فى هذا المقال ، يهاجم الدولة التى تدع جنودها يضربون الناس ليكونوا عبرة للآخرين ، وتكسر أيادى الرجال والنساء حتى لا يلقوا بالحجارة ، وتجر المدنيين من بيوتهم بشكل عشوائى لتحطمهم ضرباً فى محاولة لإرهاب بقية السكان وإرغامهم على الهدوء .

وحينما احتجت المؤسسة الصهيونية ، كتب وودى ألين مقالاً آخر يعلن فيه عن تمسكه بموقفه ، وعن دهشته ممن يطالبونه بعدم الهجوم على الدولة الصهيونية لأنه يهودى . والواقع أن موقف وودى ألين من الانتفاضة هو استمرار لموقفه فى أفلامه وبحثه عن المعنى والقيمة المطلقة على الرغم من إدراكه أن قوى الشر والنسبية مسيطرة تماماً ، بل ومهيمنة .

بدروبات سولدان
رحالة
من بيرو
فى مصر

فى منتصف القرن التاسع عشر

بقلم :
د . محمود على مكى

● الرحلة استغرقت أكثر من شهر فى عام ١٨٦٢ وسجلت فى خمسة فصول كاملة ●

الرحلة من أكثر الألوان الأدبية إمتاعاً وإثارة ، وقد تعددت العوامل التى كانت تدفع إلى خوض غمار الأسفار ما بين مجرد الفضول الذى يغلب على نفس الإنسان الطلعة الولوع باستكشاف حياة الآخرين ، وبين مختلف الأهداف التى قد يطمع الرحالة فى تحقيقها سواء أكانت دينية أم سياسية أم اقتصادية .



بدروبات سولدان

وقد كان شرقنا العربى فى العصر الحديث مثيراً لرغبة الآخرين فى تعرفه والاطلاع على أحواله ، وخاصة من قبل الأوربيين منذ أن وقع الصدام الكبير بين عالم الإسلام والعالم الغربى فى الحملة الفرنسية (١٧٩٨ - ١٨٠١) . فقد لفتت هذه الحملة أنظار أوربا إلى عالمنا ، وكان أسبق الدول الأوربية إلى ذلك هما الدولتين الكبريين آنذاك : فرنسا وإنجلترا ، وكان التنافس على أشده بين الدولتين على التوسع الاستعمارى فى أقطار ما أصبح يدعي الآن بالعالم الثالث : أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية ، وكانت فرنسا هى السابقة فى هذا المجال ، وكأنت منذ البداية ترى أن السيطرة على هذا العالم المستضعف لن تتم إلا عن طريق الدراسة الواعية التى ترصد كل شئ ، ورأينا مظهراً لذلك فى البعثة العلمية الكبيرة التى رافقت حملة نابليون على مصر ، إذ كان من أعضائها عدد من المستشرقين من تلاميذ سيلفستر دى ساسى (١٧٥٨ - ١٨٣٨) نذكر منهم ج . ج مارسيل (١٧٧٦ - ١٨٥٤) ، وهو أول من ترجم خطاب نابليون الموجّه إلى المصريين إلى العربية ، ومؤرخ الحملة الفرنسية والمشرف على طبع كتاب « وصف مصر » ، ويليه دى لابورت (١٧٧٧ - ١٨٦١) الذى رافق الحملة أيضا ثم جاب بلاد الشرق العربى وعمل بعد ذلك قنصلا فى طرابلس على أن الإنجليز - وكانوا يخططون منذ أول القرن التاسع عشر لاحتلال مصر - لم يلبثوا أن أتوا فى أعقاب الفرنسيين ، وتردد رحّالتهم على بلاد الشرق العربى طيلة هذا القرن وأوائل القـرن العشرين ، وكان معظم هـؤلاء هم طليعـة الزحف الاستعمارى والممهدين له ، ولا نبالغ إذا قلنا إن الرحلات التى كتبوها إنما كانت تقارير مرفوعة إلى السلطات السياسية وإلى أجهزة المخابرات فى بلادهم .

وكان فى طليعة هؤلاء چون بوركهارت (١٧٨٤ - ١٨١٧) وهو سويسرى تجنس بريطانيا ، وقد قام برحلات جاب فيها بلاد الشام والجزيرة العربية ومصر والسودان ، ثم اعتنق الإسلام وتسمى بإبراهيم بن عبد الله وتوفى فى مصر ودفن فى قرافتها ، وتعتبر رحلته من أهم ما كتب حول الشرق العربى فى مطلع القرن التاسع عشر .

وأتى بعده إدوارد لين (١٨٠١ - ١٨٧٦) الذى قصد مصر فى سنة ١٨٢٥ وأقام فيها إقامة طويلة على فترات متعددة ، وكان يتزيا بالزى المصرى ويتلقى الدروس فى الأزهر ، وتسمى بمنصور أفندى . ولين هو صاحب معجم يعد من أهم المعاجم العربية الانجليزية وكتاب آخر سجل فيها عادات المصريين ومختلف مظاهر حياتهم . ويشبهه فى ذلك جورج بادجر (١٨١٥ - ١٨٨٨) الذى قام برحلة إلى الجزيرة العربية وألف معجماً عربيا إنجليزيا وضعه مع أحمد فارس الشدياق . ومن أهم كتاب الرحلات الإنجليز بعد ذلك ريتشارد بيرتون



(١٨٢١ - ١٨٩٠) ، وكان قد زار مصر فى سنة ١٨٥٣ وأقام مدة فى القاهرة والسويس ثم حج إلى مكة ودخل المدينة المنورة متنكراً فى زى تاجر عربى ، ورحلته تعد من أغزر الكتب وأحفلها بالمعلومات حول بلاد الشرق العربى ، وهو مترجم ألف ليلة وليلة . وكان يرافق بيرتون فى رحلته إدوارد بالمر (١٨٤٠ - ١٨٨٣) الذى زار شبه جزيرة سيناء وفلسطين وأقام بمصر حتى مصرعه على أرضها . ومن هؤلاء الرحالة وليم بالجريف (١٨٤٠ - ١٨٨٣) وله رحلة إلى الجزيرة العربية متنكراً فى زى طبيب سورى . وفى النصف الثانى من القرن التاسع عشر نلتقى بشخصية تشارلز دوتى (١٨٤٣ - ١٩٢٦) وكان قد بدأ رحلته فى ١٨٧٠ فزار سوريا ومصر وعبر سينا إلى جنوب فلسطين والتحق بقافلة من الحجاج إلى أواسط الجزيرة العربية ، وله كتاب ذائع الصيت عن رحلته فى بلاد العرب .

كل هذا أمر منطقى ليس فيه ما يستغرب ، فمعظم هذه الرحلات سواء أكانت بتوجيه من الحكومة البريطانية أو لم تكن إنما قام بها أصحابها تحقيقاً لأهداف سياسية واقتصادية واضحة . أما الذى لم نكن نتوقعه فهو أن يهتم بزيارة بلادنا - بغير هدف إلا الرغبة فى المعرفة - رحالة ينتمى إلى عالم كان بالنسبة لنا مجهولاً تماماً ، وهو عالم أمريكا اللاتينية . ولم يكن لدول هذا العالم مصالح فى بلادنا تثير عزيمة مفكريه وتحثهم على تعرف أحوال شعوبنا .

ولهذا فقد استوقف نظرنا العثور على هذه الرحلة إلى مصر التى كتبها أديب شاب من بيرو لم يكن عمره يجاوز اثنين وعشرين عاماً حينما قدم إلى مصر فقضى فيها شهراً وبضعة أيام من سنة ١٨٦٢ ، ثم سجل لنا مشاهداته فى بلادنا فى خمسة فصول من كتاب رحلته . وكان يحكم مصر فى ذلك الوقت الخديو محمد سعيد الذى لم يطل به العمر بعد ذلك إلا نحواً من سنة خلفه على ملك مصر بعدها ابن أخيه الخديو إسماعيل بن إبراهيم بن محمد على .

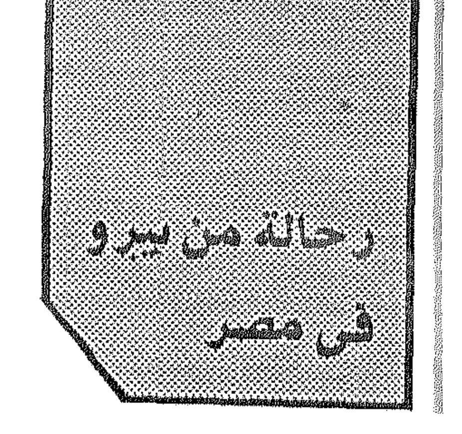
بدرو باث سولدان
سيرة حياة (١٨٣٩ - ١٨٩٥) :

إسم مؤلفنا البيروانى هذا بدرو باث سولدان أونانوى Pedro Paz soldan un-anué . ولنتوقف قليلاً عند الاسمين الأخيرين وهما لأسرتى أبيه وأمه ، أما الاسم الأول « سولدان » وهو لأسرة الأب فإنه ليس إلا الصيغة الإسبانية للاسم العربى « سلطان » على حين أن اسم أسرة الأم « أونانوى » يدل على أنها تنتمى لأصل هندى قديم ، والذى يبدو لنا من عروبة اسم أسرة الأب هو أنه قد يكون

من ســلالة أحد الموريســكيين (بقايا الشعب الأندلسى المسلم) الذين هاجروا إلى أمريكا اللاتينية فى بداية الفتح الإسبانى لها فراراً من اضطهاد محاكم التفتيش ، وهنا نتساءل : أيكون لهذا الأصل العربى البعيد أثر فى توجيه أديبنا البيروانى إلى الرغبة فى تعرف عالم العروبة والإسلام ثم فى اللهجة المتعاطفة التى تحدث بها عن هذا العالم ؟ لسنا نستبعد ذلك وإن كان أمراً يحتاج إلى مزيد من البحث .

كان مولد هذا الأديب فى ليما عاصمة بيرو فى سنة ١٨٣٩ ، وكان أبوه رجلاً ميسوراً يملك ضيعة واسعة فى الريف تــدعى أرونا Arona فى وادى كانيــتى (على اســم قرية أندلسية كان العرب يسمونها قنيط Canete) فى ضواحى ليما ، وفيها قضى بدرو سنوات طفولته وصباه ، كما عاش فى كنف جده إيبوليتو أونانوى وكان هذا طبيباً لم يكتف بممارسة مهنته وإنما كان على قدر كبير من تنوع الثقافة جمّاعا للكتب ، وفى مكتبة هذا الجد بدأت مواهب أديبنا تتفتح ، ونهمه للقراءة يكشف عن روحه الطُّلَعَة الوثابة إلى تحصيل أكبر قدر من المعارف ، وكان قوى الملاحظة يعجبه تتبع تقاليد الفلاحين وعاداتهم وتسجيل ما يسمعه من لغتهم الشعبية البسيطة فى أثناء معايشته لهم فى ضيعة أبيه . على أن حياته تعرضت بعد ذلك لأحداث جعلته يفقد ثروته مما اضطره إلى اتخاذ الكتابة مهنة له ، ولهذا فقد كان يستخدم فى توقيع كتاباته اسماً مستعاراً هو « خوان الذى فقد أرضــه «Juan sin Tierra† أو « خــوان دى أرونا J. de Arona » .

وبعد أن جاوز مرحلة المراهقة بدأت رغبته فى استكشاف العالم المحيط به ، فشرع فى القيام بجولات فى بلده على طول ساحل إيكيكى Iquique (فى سنة ١٨٥١) ثم خارج وطنه : فى كولومبيا وفى تشيلى ، إذ أقام سنة فى عاصمتها سنتياجو مواصلاً دراسته العليا التى أكملها بعد ذلك فى بلده فى معهد سان كارلوس بليما ، على أنه لم يلبث أن استهوته الرحلة من جديد ، هذه المرة إلى أوربا والشرق . واستغرقت هذه الرحلة الطويلة خمس سنوات (بين ١٨٥٩ ، ١٨٦٣) ، قضى منها سنتين فى باريس دارسا خلالهما فى جامعة الســربون وفى « الكوليج دى فرانس » وكان اهتمامه فى هذه الدراسة باللغويات والتاريخ الطبيعى مع استكمال معارفه باللاتينية واليونانية ، وفى سنة ١٨٦١ توجه إلى ألمانيا والنمسا ، ثم المجر وإيطاليا ، ومنها قام برحلته إلى مصر ثم بلاد الشام وتركيا واليونان ، وفى طريق العودة إلى بلاده مر من جديد بإيطاليا وفرنسا وإنجلترا ، وبعد عودته إلى ليما اشتغل بالكتابة فى الصحف ، كما نشر العديد من الدواوين الشعرية والأعمال المسرحية والكتب المختلفة تأليفاً



كان نقده عطوفاً واختلف عما نراه فى كتابات الاوربيين المتغطرسة

وترجمة وفى سنة ١٨٧٢ التحق بالعمل فى وزارة الشئون الخارجية ، فمثل بلاده فى تشيلى (١٨٧٨) ثم فى الأرجنتين (١٨٨٠ – ١٨٨٦) ، وقضى سنواته الأخيرة فى بلده حتى وافته المنية فى ١٨٩٥ .

ومع أن بدرو باث سولدان توفى وهو فى السادسة والخمسين من عمره فإن له إنتاجاً أدبيا غزيراً بدأه وهو فى الثانية والعشرين بكتاب نشره فى لندن سنة ١٨٦١ بعنوان « طرائف لغوية » ثم بديوان شعرى بعنوان « أطلال » نشره فى باريس سنة ١٨٦٣ ، وتوالت بعد ذلك كتبه : « مشاهد وأحداث من بيرو » ، و « السهول » (ليما ١٨٦٧ – ١٨٦٩) ، وفى هذين الكتابين يصور على نحو رومانسى إحساسه بطبيعة بلاده وارتباطه بأرضها ولاسيما هذه المنطقة الساحلية الواقعة فى جنوب ليما حيث قضى صباه وشبابه المبكر ، وأثمرت دراسته فى باريس وعكوفه على الأدب اللاتينى كتابين : « الجورجيات » (١٨٦٧) وهو ترجمة لقصائد ڤرچيل ، و « الشعر اللاتينى » (١٨٨٣) . وفيما بين سنتى ١٨٨٢ و ١٨٨٤ ينشر « معجم الاستعمالات اللغوية فى بيرو . ليما – بوينس أيرس) . وكان فى الوقت نفسه يزاوج بين دراساته اللغوية وما ينظمه من قصائد سياسية ونقدية اجتماعية جمعها بعد ذلك فى ديوانه « سونيتات وتجليات » (١٨٨٥) ، كما كان يواصل نشر مقالات متنوعة فى صحيفة قام هو بإصدارها بعنوان « شرر » (بين سنتى ١٨٩١ و ١٨٩٣) وكذلك فى مجلة أسبوعية تدعى « السهم » . وكان له أيضا نشاط مسرحى ملحوظ بصفته مؤلفا وناقداً . ومن بين مسرحياته التى لاقت إقبالاً عظيماً من الجمهور « عقوبة المتآمر » (١٨٦٧) و « أكثر وأقل ... لا أكثر ولا أقل » (١٨٧٠) و « دعابة ثقيلة » (١٨٨٣) أما عمله الدبلوماسى فقد أثمر مذكراته التى نشرها بعنوان « صفحات دبلوماسية من حياة بيرو » (١٨٩١) و « الهجرة إلى بيرو » .

وأما الرحلات التى استغرقت شطراً كبيراً من حياة پدرو باث سولدان والتى اضطلع بها فى العالمين الجديد والقديم فقد كان ينشر مقالاته عنها فى مختلف الصحف ، وكان ينوى جمعها فى كتاب بعنوان « مذكرات رحالة بيروانى » Memorias de un viagero peruano ، غير أنه لقى نحبه قبل أن يتاح له ذلك ،

وبقيت هذه المقالات مبعثرة مطوية فى الصحف حتى اضطلعت بجمعها ونشرها دار الكتب الوطنية فى بيرو سنة ١٩٧١ . وعلى هذه الطبعة سيكون اعتمادنا فى العرض الذى نقدمه لبعض فصول الكتاب . وهى الفصول التى تتناول وصفه لمصر ومشاهداته فيها ، وكان سفير بيرو فى القاهرة الأستاذ كلاود بواتريكى سوسا قد أهدى إلىّ نسخة من هذا الكتاب النادر ، فرأيت فى الفصول التى كتبها عن مصر ما يستحق أن يعرض فى هذا المقال ، حتى نعرف كيف كانت بلادنا وصورة شعبنا فى نظر هذا الكاتب . وأنا أنتهز هذه الفرصة لكى أقدم جزيل الشكر للسفير البيروانى على هديته القيمة .

كتاب طريف وحيد من نوعه

فالحقيقة أن الكتاب كان بالنسبة لى مفاجأة مدهشة . فقد اعتدنا أن نقرأ كتب رحلات قام بها أوربيون لمصر خلال القرن الماضى ، وكان أكثر هؤلاء الرحالة من الإنجليز والفرنسيين ، ممن كانوا طليعة للتدخل الاستعمارى الذى تعرضت له بلادنا ، فكانت رحلاتهم أشبه بتقارير مقدمة لمخابرات بلادهم وسلطاتها السياسية تمهيداً للغزو العسكرى الذى قُدِّر علينا أن نبتلى به . ومن هنا لم يكن من الغريب أن يكون للإنجليز بصفة خاصة نصيب الأسد من كتب الرحالة الذين جابوا بلادنا منذ أوائل القرن التاسع عشر . أما أن نجد فى غمار هذا النتاج الأدبى كتاباً لرحالة من إحدى بلاد أمريكا اللاتينية وفى مثل هذا الزمن المبكر فهو الأمر الغريب الذى لا يتوقع .

ومع أن مؤلف هذا الكتاب زار مصر وهو لم يبلغ بعد الثالثة والعشرين من عمره فإن أسلوبه فى الكتابة يشف عن ثقافة واسعة ونضج يستكثر على من هم فى مثل سنه . ولما كان هدفه من الرحلة هو السعى للمعرفة بغير ارتباط بأى مطمع استعمارى فإننا نجد لديه تعاطفاً مع شعب مصر وتقديراً له على نحو يندر أن نجدهما لدى كاتب غربى فى ذلك الوقت . ولعل ذلك راجع أيضا إلى أنه كان ينتمى إلى شعب حديث عهد بالاستقلال وإن كان أيضا يعانى من بعض مظاهر التخلف التى جمعت بين شعوبنا الشرقية وشعوب أمريكا اللاتينية فيما أصبح يدعى بلغة العصر « العالم الثالث » . هذا إلى جانب ما وقر فى ظننا من إمكان انحداره من أصل موريسكى أندلسى قديم ! ...

ومع ذلك فإنه لا يخلى مشاهداته فى مصر من نقد لما يراه من عيوبنا ، غير أنه نقد عطوف نحس فيه بالغضب لنا لا الغضب علينا ، فهو يختلف تماماً عما نراه فى كتابات كثير من الأوربيين الذين كانوا ينظرون إلينا فى احتقار وغطرسة غليظة . وهو إذ يتحدث عما فى بلادنا من سلبيات أو عيوب فإنه يقرنها بما يماثلها مما يراه فى بلاده . وهو لايفعل ذلك مجاملة لنا ، إذ لم يكن يقدر أن يطلع قراؤنا على

رحالة من بيرو
في مصر

ما كتب .

لقد قضى مؤلفنا شهراً وبضعة أيام فى مصر فى أواخر عهد الخديو محمد سعيد (من أواخر فبراير إلى أوائل أبريل سنة ١٨٦٢) ، ومع ذلك فقد استطاع أن يجوب مصر من الإسكندرية إلى الصعيد ومن مدن الدلتا وريفها إلى السويس ، وأن يقدم لنا فى دقة وتجرد كل ما يراه سواء فى الطبيعة أو فى نفسيات من كان يتصل بهم من البشر ، فهو طموح إلى المعرفة يريد أن يرى كل شئ ويعرف كل شئ . وفى أحد مواضع كتابه يوضح منهجه فى الكتابة ، فيدعو الأديب الذى يقوم بالرحلة إلى أن يتوقف بين وقت وآخر حتى ينظم أفكاره ويسجل ملاحظاته ، وإلا تداخلت المشاهد فى ذهنه ، فيصاب - على حد قوله - « بعسر هضم فكرى » ويضرب على ذلك مثلا بالجنرال بلسو Belzu دكتاتور بوليفيا السابق الذى التقى به فى إسبانيا ورافقه فى زيارات لبعض مدنها ، إذ يقول إن مشاهد البلاد التى زارها ذلك الرجل قد اضطربت فى ذهنه اضطراباً شديداً ، فأصبح يخلط بين مارآه فى الآستانة وفى سان بطرسبورج ، وإن اللغات قد تداخلت فى ذاكرته فأصبحت أشبه بعجينة تختلط فيها الألفاظ الروسية بالفرنسية والإسبانية ! ..

من مالطة إلى الإسكندرية :

حينما انتهى بدرو پاث سولدان - أو خوان دى أرونا كما كان يسمى نفسه - إلى إيطاليا فى جولته الأوربية استقر عزمه على زيارة مصر ، فاستقل باخرة توجهت به من ميناء نابلى إلى جزيرة مالطة وكانت آنذاك مستعمرة بريطانية . فقضى بها أياماً سجل لنا خلالها وصفاً للجزيرة وأهلها وأعيادها الشعبية . غير أن أهم مارآه فيها كان المكتبة العامة فى « لاڤاليتا » عاصمة الجزيرة ، وكانت مكتبة حافلة أشبع مؤلفنا فيها نهمه إلى القراءة ، فعكف على الكتب التى تصف الشعوب الشرقية والتى كتبها مؤلفون ورحالة إنجليز أو فرنسيون وهو ينص على عناوين هذه الكتب ويوصى بقراءتها من يود التوجه إلى بلاد الشرق العربى وإلى مصر بصفة خاصة ، وهذه قائمة بأهم ما أورده من تلك الكتب :

- كلوت بك : لمحات عن مصر .
- شامبليون : مصر القديمة (العالم العجيب) .
- بارتيليمى : معجم فرنسى عربى (مع تصوير لطريقة النطق الصحيح) .
- إدوارد لين : معجم عربى إنجليزى .
- ادوارد لين : عادات المصريين المحدثين وطريقتهم فى الحياة .
- ويلكنسون : عادات قدماء المصريين وطريقتهم فى الحياة .

- جونسون : معجم إنجليزى عربى وفارسى .

- فارس : قواعد اللغة العربية .

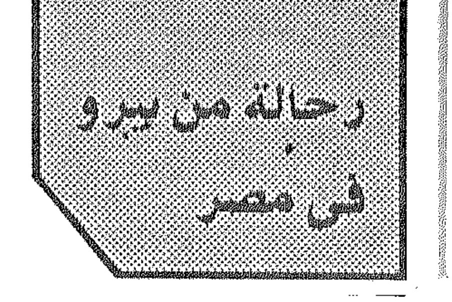
وهو يثنى بصفة خاصة على كتابى ويلكنسون ولين ويقول إنه يجب أن يقتنيهما كل زائر لمصر إذ أنهما متكاملان ، فهما يصوران الحياة فى مصر قديماً وحديثاً ، كما يثنى على الكتاب الذى نشرته أخت لين وصورت فيه حياة المرأة المصرية .

وتحمل الباخرة كاتبنا من مالطة إلى الإسكندرية ، فتصل إلى مينائها فى ٢٤ فبراير ١٨٦٢ فى الساعة السابعة مساءً . ولكن ربان السفينة يؤثر ألا يدخل الميناء ليلاً ، فيظل متلوّماً حتى فجر اليوم التالى ، ويصور لنا المؤلف انفعاله الشديد وهو يطالع منارة الإسكندرية وعمود السوارى الذى يدعى خطأ بعمود بومبيو ، فهذه هى أول مدينة عربية وأفريقية يصل إليها بعد أن قرأ عنها الكثير .

ويصعد مدير فندق « أبات » Abbat بنفسه إلى الباخرة حتى يجتذب السائحين إلى فندقه ، ويسلم مؤلفنا قياده إليه ، ويتوجه إلى الفندق حيث يراه مليئا بضباط فرنسيين قادمين من بكين ، وقد ملأهم الزهو بانتصاراتهم فى الحملة الفرنسية على الصين ، وقد حمل كل منهم شيئا مما انتهبوه من قصور بكين ، وبهذه المناسبة يسجل المؤلف حزنه لأنه الوحيد من بين السياح القادمين الذى لا يستقبله أحد ولا لبلاده البعيدة المجهولة ممثل يعنى بأمره لو حدث له شئ أو ألم به مكروه .

ومع ذلك فهو سعيد بهذا اليوم الأول الذى يقضيه فى الإسكندرية ، وهو لا يضيع وقته ، بل يجوب أحياءها ويسجل انطباعاته حولها : الطعام هنا ممتاز ، ويعده تقدم القهوة العربية . الإسكندرية مدينة جميلة نظيفة لا تقل فى مظهرها عن المدن الأوربية التى زارها من قبل ، والشوارع تضاء ليلاً بغاز الاستصباح (سوف يسجل بعد ذلك عند زيارته لأثينا أن العاصمة اليونانية لم تعرف إضاءة الشوارع ليلاً إلا بعد الإسكندرية بسنوات) . وملامح المصريين والمصريات تكاد لا تختلف عن الصور التى كان يراها فى الكتب لقدماء المصريين منقوشة على آثارهم الفرعونية ، وهو يعجب لهذه الظاهرة : كيف لم يمح الزمن تلك الملامح مع ما تعرضت له هذه البلاد من اختلاط الأجناس والأعراق على مدى آلاف السنين !

وهو يرى فى المدينة كثيراً من السود (نوبيين أو سودانيين) فيقول إنه كثيراً ما يظن نفسه فى بلدة ڤيا Villa من وطنه بيرو ، المشهورة بمزارع قصب السكر ، إذ أن هؤلاء السود المبتسمين دائما يماثلون تماماً أولئك الذين كان يراهم فى تلك البلدة بملابسهم الخفيفة وملامحهم المميزة وجلوسهم وهم يمصون أعواداً من قصب السكر . أما الريف المحيط بالإسكندرية فهو يشبه المناطق الريفية فى بلاده ،



لولا أن حقول الإسكندرية أكثر نضرة وخصوبة .

وبعد قضاء يومين فى الإسكندرية يتوجه فى صباح اليوم التالى إلى محطة السكك الحديدية حتى يتوجه بالقطار إلى القاهرة (كانت القطارات البخارية قد دخلت مصر قبل أن يعرفها كثير من المدن الأوربية والأمريكية) ، وفى المحطة يلتقى بصبيان يلتمع المكر فى أعينهم وهم يساومون السياح على « البقشيش » لقاء حملهم حقائبهم .

الرحلة من الإسكندرية إلى القاهرة تبدو لكاتبنا ضرباً من الأحلام ، والمصريون الذين يلتقى بهم فى القطار يتحدثون الإنجليزية والفرنسية والإيطالية ، وما أسرع ما يقبلون على الحديث معه ، وهم يقدمون له برتقالاً ونرجيلة يتبادلون الأنفاس منها .

فى القاهرة : ويستغرق السفر ست ساعات يصل بعدها إلى العاصمة ، فينزل فى فندق بحى الأزبكية يدعى أوتيل دوريان Hotel d'Orient (فندق الشرق) وهو منذ اللحظة الأولى يشرع فى التجوال لا فى أحياء المدينة فحسب ، بل كذلك فى الريف المحيط بها ، ويعجبه منظر الساقية ، فيصفها وصفاً مفصلاً ، ويقول إن عدد السواقى فى مصر يبلغ خمسين ألفاً ، وبعد أن يصور بشكل دقيق نطق القاف العربية يستطرد إلى الحديث عن اللفظ المقابل للساقية فى اللغة الإسبانية ، وهو Noria، مبيناً أنه تحريف للفظ « ناعورة » العربى ، وهو الذى كان يستخدمه أهل الأندلس فى إشارة إلى الصوت الرتيب الذى تصدره عجلتها فى دورانها (وهى ملاحظة صحيحة تماماً) . كذلك يصف الشادوف ثم النورج ويربط بين هذا اللفظ المصرى القديم ولفظ moreg العبرى الوارد فى إصحاح إشعيا (١٢/١٥) ، ثم يقول « إن من الغريب أن فلاحينا فى بيرو لم يعرفوا كيف يستخدمون الشادوف على بساطته مع أنه كان من الممكن أن تفيد منه الزراعة فى بلادنا » .

من المناظر الشاعرية التى تستهوى المرء وتستحق التصوير مآذن الجوامع الشامخة وغابات النخيل وقوافل الجمال والسواقى بأنينها الحزين الرتيب .

ويعود لوصف الحياة فى القاهرة : مدينة ضخمة شديدة الازدحام بالبشر ، يبلغ عدد سكانها ٨٠٠و٠٠٠ نسمة وأغلب وسائل المواصلات فيها هى الحمير ، تشق الشوارع المختنقة بالبشر ، ويركض معها المكاريون بصياحهم الذى لا ينقطع : حاسب ! رجلك ! حا ! .. يابنت ! .. يولد ! .. (وهو يسجل كل هذه الألفاظ بالحروف اللاتينية) . هؤلاء المكاريون على الرغم من

أن أعمارهم تتراوح بين ثمانية واثنى عشر عاماً يتكلمون شيئا من الفرنسية والإيطالية والإنجليزية وكلمات من الإسبانية ، وهم يرتدون جلابيب زرقاء من القطن وطواقى من الصوف ، ويوجدون فى كل مفترق طرق ويشكل خاص على أبواب الفنادق ، ولا يرون أوربياً حتى يتصايحوا :

- A good donkey, sir . you want a donkey, sir ?

- Un bon baudet ! Voilá le bon baudet, monsieur !

- ... Marche comme tous les diables ! C'est le chem in de fer, monsieur !

ويروقه هذا التشبيه الأخير للحمار الذى « كأنما ركبته الشياطين » أو « الذى يشبه قطار السكك الحديدية » . (فقد كان المثل يضرب آنذاك فى السرعة بقطار السكك الحديدية) . بل لا يخلو الأمر من صبيان يصيحون بالإسبانية :

(حمـــــــار جيـد ياســـــيدى !)

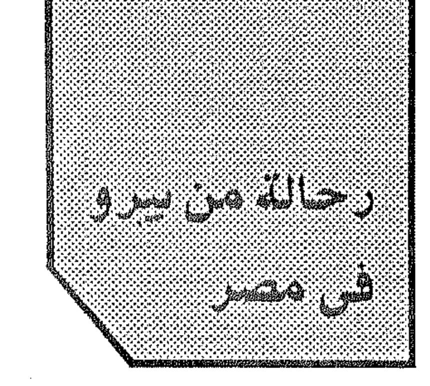
- un buen asno, senor !

ومع طرافة هذه النداءات ومناظر النزاعات بين المكارين من أجل الظفر بركاب لمطاياهم فإن الأجر الذى يطلبونه لقاء خدماتهم متواضع إلى حد بعيد . فهو لا يزيد على فرنك واحد للجولة لمدة ساعتين أو ثلاث ، مما يشجع السائح على أن يستأجر حماراً .

ويذكرنا تصوير باث سولدان لهذه المشاهد بذلك الذى ورد فى حديث الرحالة الأندلسى على بن موسى بن سعيد عن القاهرة ومكاريها فى منتصف القرن الثالث عشر الميلادى ، وكذلك بالمشاهد الفكهة التى قصها علينا المويلحى فى « حديث عيسى بن هشام » والتى تخيل وقوعها فى نفس الفترة التى وافقت وجود رحالتنا البيروانى فى القاهرة .ولا نحس فى تعليق مؤلفنا بضيق أو امتعاض لهذه الحياة المائجة الصاخبة فى القاهرة ، فهو يقول :

« المصريون يكثرون من استخدام أيديهم وأذرعهم فى الكلام ، وهم لا يكفون عن الصياح فى مرح ، ولهذا فإن الغريب هنا يضطر اضطراراً إلى تعلم اللغة العربية . الحياة هنا فى القاهرة تختلف فى ذلك تماماً عنها فى دمشق الصامتة العابسة أو فى الآستانة التى تقاربها فى التجهم القاتم ، وقد يكون من أسباب ذلك الطابع المفتوح لأهل مصر .

كل شئ هنا يحملنى على تعلم العربية، وتأكيداً لذلك أذكر أننى تعلمت خلال الأيام القليلة التى قضيتها هنا من الكلمات والعبارات العربية أضعاف ما تعلمته من الألمانية ، مع أننى قضيت فى ألمانيا مدة أطول ، وللمصريين طريقة فى الكلام تدفع دفعاً إلى التواصل معهم والانجذاب إليهم ، وكما يقال من أن النار تطهر كل شىء فإنه يمكننى أن أقول إن الكلمة هنا فى مصر تجمّل كل شئ وتسبغ على العادى المبتذل من الأمور سحراً خاصاً » .



خارج القهــوة الفنان ←
لودفيج دوتش عام ١٩٠٣

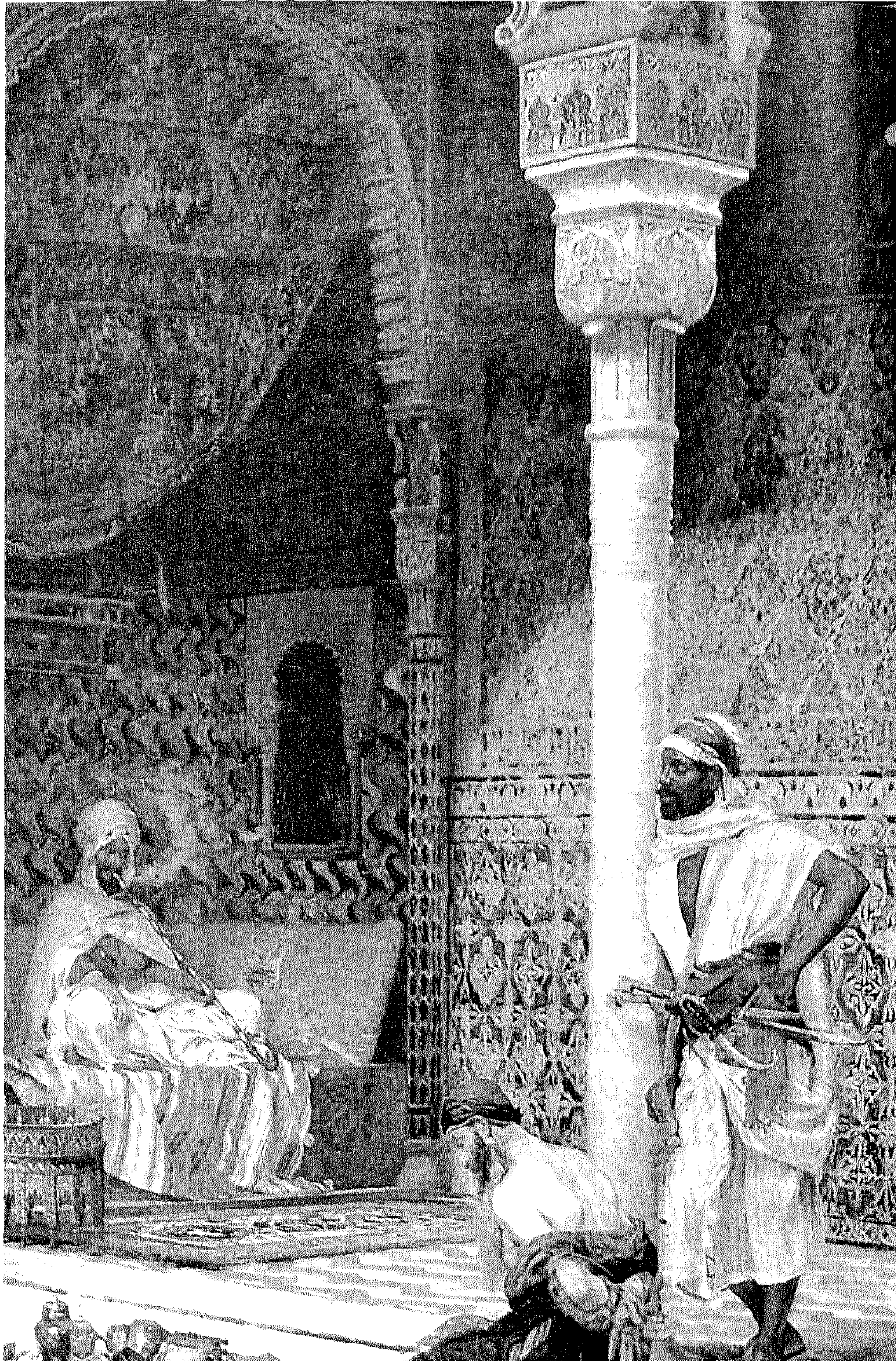
صحن جامع رستم باشا فى اسطنبول
لوحـــة للفنـــان ردولف ارنســـت



الاسير .. لوحة للفنان فيلبيوبا إتى ←

الامير والخـــادمة .. لوحة الفنان
جون فردريك







شعر : د . صابر عبد الدايم يونس

بريشة : الفنان محمد حماد

في زمـان الهــوان أنْتَ الإ بـاء ∴ والمنـــارات من حجـاك تُضاء
أنت أيقظت في الصباح نيـاما ∴ كانت الأرْضُ ليلهـم والسماءُ
أسكنوا الحـرْف هيكلا مرْمريًا ∴ والخيـالات في رؤاهـمُ خواءُ
فجـرت روحـك الفـتيَّة فيهـم ∴ لغـة الضـوء .. وهـى حاءٌ وياءُ
عانقـوا الشمس في الظـهيرة ∴ والحـق خطـاهُ لم تثنها الرمضاءُ
وهـج الصـدق فيك نور ونارٌ ∴ وإلى نـورك المريدون فـاءوا
لغـة النار أنت فيهـا المـرايا ∴ والحـروف العواصف الهوجـاءُ

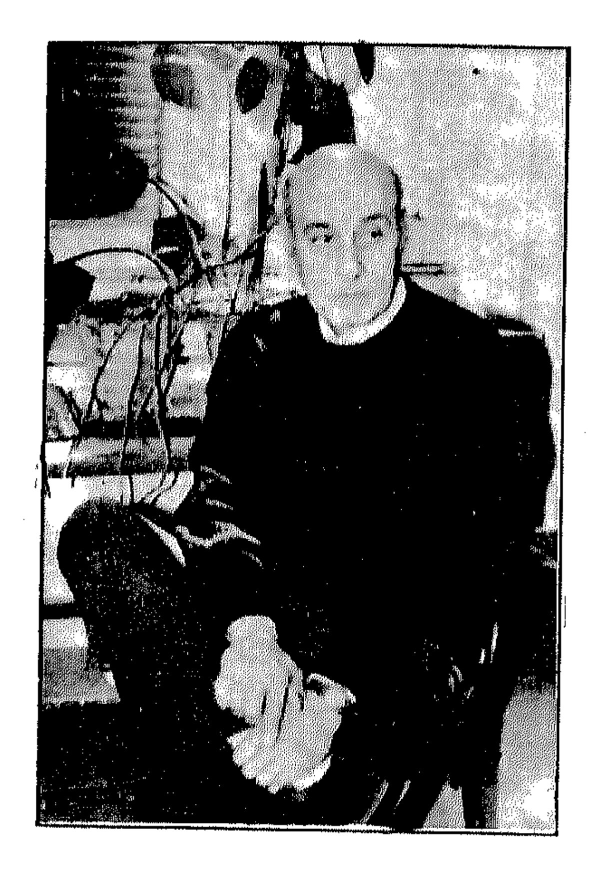
★★★

أيّ ريـح .. أثـرْتها فى فضــاءا ∴ تِ رؤانا فـزلزل الشـعراءُ ؟ !!
أيّ نار .. سكبتها .. في مسـافا ∴ تِ هـوانا فأُحْرق الضعفاء
أى كنز وجدته في كهوف النفس ∴ والنفـس والوجـود سَواءُ
لغـة الضـوء..لم تدَعْك حبًا ∴ غير من أنت في مـداهم رجـاء
لغةُ النار أبعـدتك عن الضـو ∴ ءوفى الضـوء .. تمكُنُ الظلماءُ
في زمـان الهـوان أنت الإباء ∴ والمنـارات مـن حـجاك تُضـاءُ
عبقريٌّ .. سـافرْت في عبقـرّيا ∴ ت التواريخ تصـْطفى مـن تشاءُ

● أستاذ الأدب والنقد بكلية اللغة العربية بالزقازيق

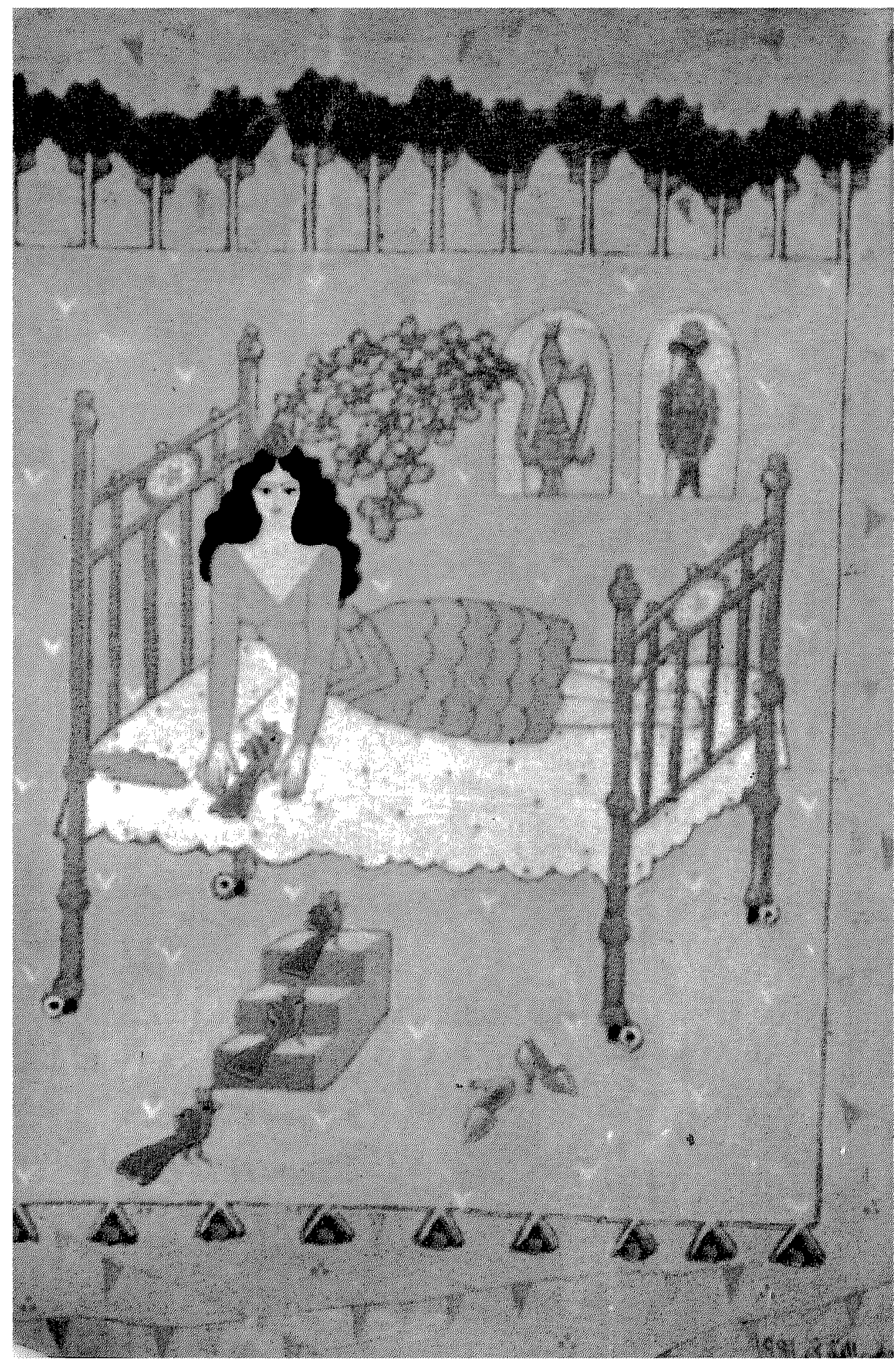
حلمى التونى
والهمس فى العيون

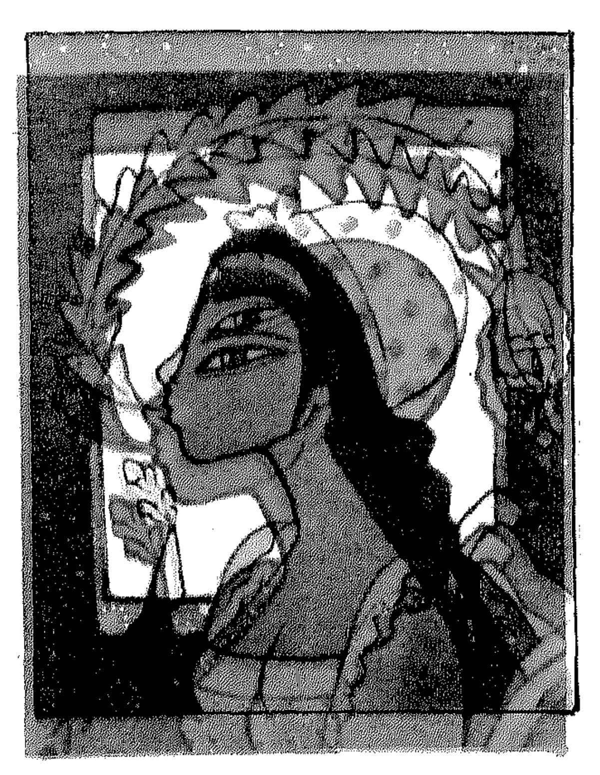
محمد ابو طالب



« ما نراه هنا ، لا هو هذا ولا ذاك ولا غيرهما مما تعودنا أن نراه .. فهو لا يشبه « المتفق عليه » ولكنه شىء آخر يمكن أن نسميه « المختلف عليه » أو حوله .. أو ما لم نتفق عليه بعد .. فأنا لا أتصور أن أرسم عملاً يقف أمامه المشاهد ويشعر أنه ربما قد شاهده قبل ذلك ، أو رأى ما يشبهه ..

هذا هو المعيار عندى ، أن تقف أمام اللوحة وتشعر بصدمة .. مفاجأة .. دهشة .. أو سرور (وهو الأفضل) ، وأنك لم تشاهد ما يشبهه من قبل ، واذا ذكرك هذا العمل بشىء فإنما يذكرك بشىء رأيته فى الطبيعة ونسيته ، أو يذكرك بذكرى لك خاصة .. ولكن أبداً لايذكرك بعمل فنى آخر .. »







● هذه الفقرة من الكلمة المطبوعة فى نشرة معرض الفنان حلمى التونى الذى أقيم بقاعة أخناتون بالقاهرة فى الفترة من ٢٩ أبريل حتى ١٥ مايو السـابق .

وجاءت هذه الكلمة كرسالة موجهة من الفنان إلى زوار معرضه واتسمت بتلقائية محببة وصدق كامل ساعدا على سرعة وصولها وتواصلها مع المتلقى الذى أحس بصدق الفنان وشاعريته .

والفنان حلمى التونى أحد الفنانين المهتمين بالبحث فى أصول حضارتنا والغوص للوصول إلى الجذور ، والأرض التى يحفر فيها هى أرض مصر مهد الحضارات جميعا .

من هذا المعين الغنى المتنوع يستقى الفنان ويستلهم عالمه الفنى ويعثر خلال بحثه الفنى على بوتقة انصهرت فيها كل هذه الحضارات وفنونها وهى الفن الشعبى المصرى .

لن أتحدث عن رحلة الفنان حلمى التونى فى دروب الفن لأنها أولاً رحلة طويلة ومتشعبة بدأت منذ أكثر من خمسة وثلاثين عاماً وثانيا لأن الفنـــان من أشهر

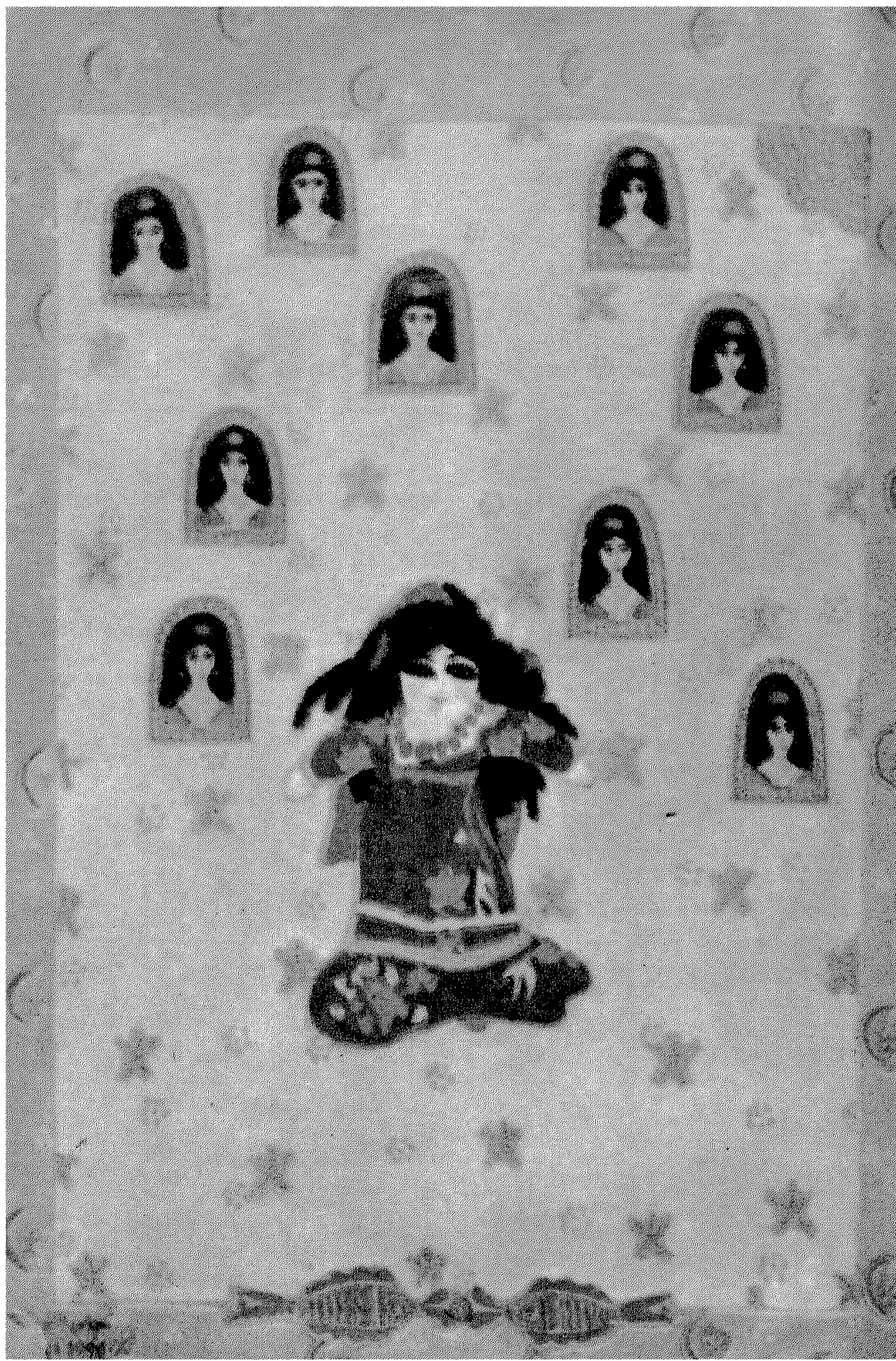

H. EL TOUNI





فنانى العالم العربى حيث أنه أحد رواد فن تصميم الصحف والمطبوعات بكافة أنواعها ، ويذكر له الفضل فى إحداث ثورة فنية لجميع مطبوعات دار الهلال فى ستينيات هذا القرن وضعت هذه المطبوعات فى مصاف المطبوعات العالمية من حيث الشكل والتصميم والرسم بعد أن ظلت لعشرات السنين تخرج بأسلوب فنى متواضع لا يختلف كثيرا عما بدأت به فى نهاية القرن التاسع عشر ، لهذه الأسباب لن أخوض فى رحلة الفنان وبصماته فى كثير من المجالات الفنية فى مصر والبلدان العربية ، فقط سأحاول نقل بعض إحساسى عند مشاهدتى لمعرضه الأخير الذى استطاع أن يبعث البهجة فى نفوس الزائرين على اختلاف ثقافاتهم وأعمارهم .

هذه البهجة أو « الفرحة الفنية » كما أسماها الفنان فى كلمته كانت ومازالت هدفاً يشغل الفنان بالبحث عن شكل وأسلوب يستطيعان تحقيقه فى إطار من الخصوصية التى اهتم بها الفنان وميزت جميع أعماله وهى خصوصية فردية لذات الفنان وخصوصية جماعية للوطن والبيئة



والتقاليد والتراث والحضارة ، والفنان حلمى التونى كان محقاً تماماً عندما اعتبر الخصوصية مصدر الإلهام لأى عمل فنى أصيل وصادق .

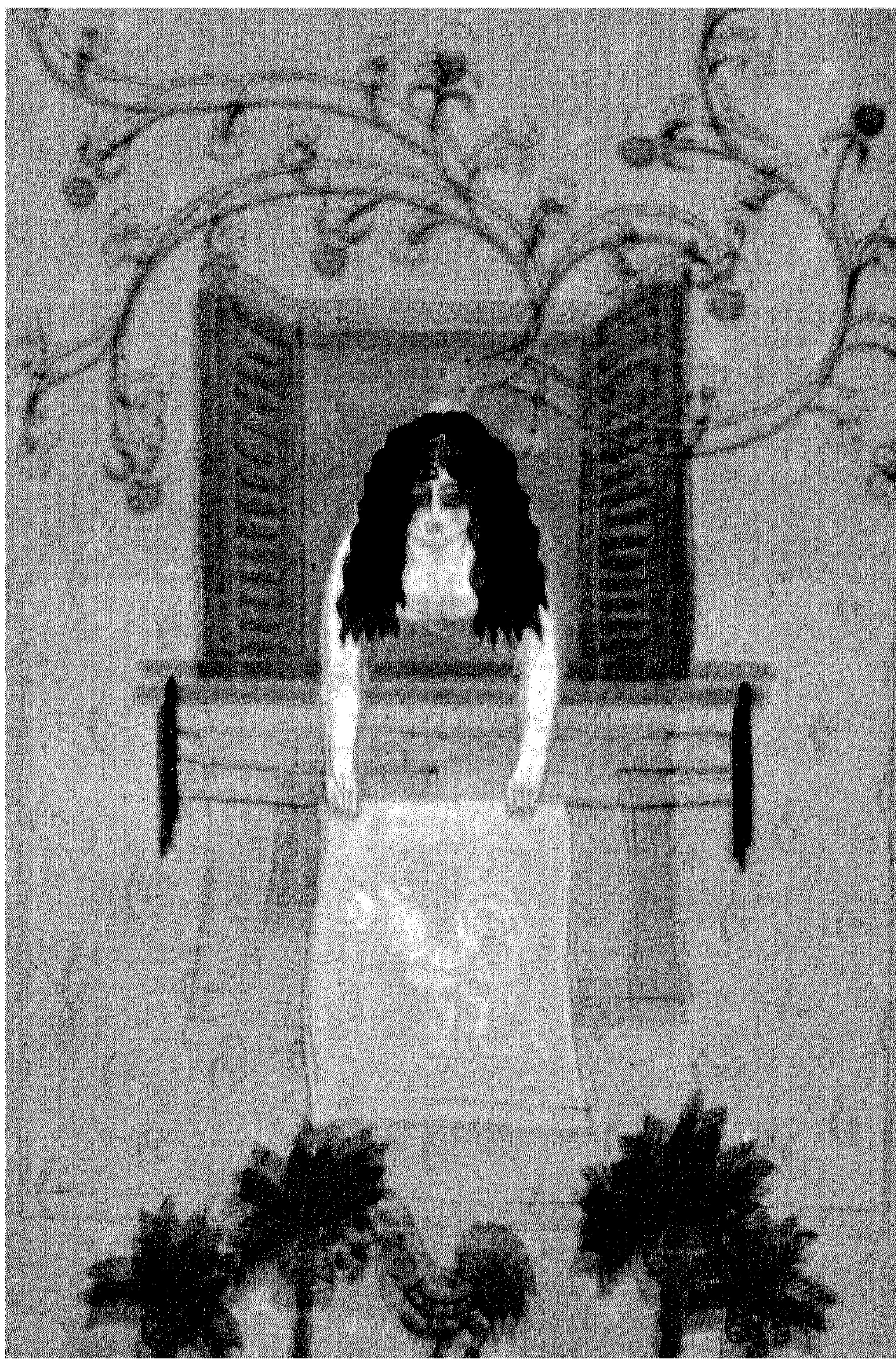
تحدث الفنان عن مشاعره وأفكاره قبل وأثناء وبعد عملية الإبداع وذكر الرسوم الشعبية وألف ليلة وليلة واللعب الخشبية ورسوم المنمنمات الإسلامية وقطع الأثاث وقماش الفساتين المشجرة التى ترتديها الفلاحات وبنات البلد فى مصر ، كما ذكر مساحات الخضرة التى تحتضن الطريق أثناء السفر والنخيل وزخارف عربات الكارو وتذكر رجال الأمس ذوى الشوارب الكبيرة والطرابيش والشماسى ، وتساءل فجأة « أين ذهبت الشماسى ؟ !! » ليكشف عن فيض هائل من النور والبراءة فى أعماقه انعكس على جميع أعماله ، كما أن هذا التساؤل البسيط استطاع أن ينقلنا فجأة إلى الواقع ويشعرنا كم هو مختلف عن الأمس الجميل .

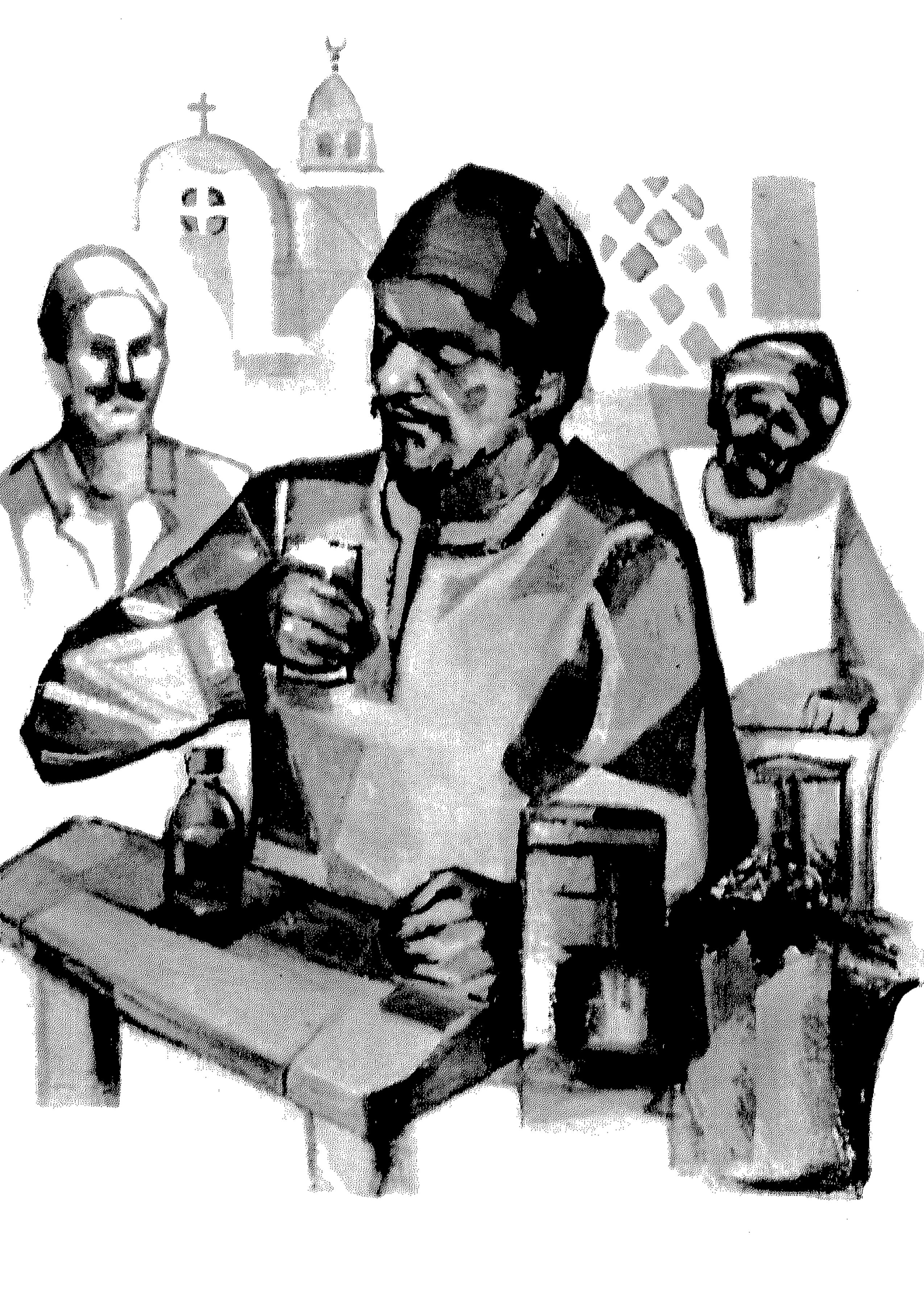
فى هذا المعرض كان الفنان حلمى التونى يهمس فى عيون المشاهدين بألوانه الهادئة الرقيقة العميقة ذات الدرجات المتقاربة والتأثير الساحر الذى استطاع بهدوء شديد أن ينتزع الإنســان من واقعه





المضطرب المشحون بالهموم والمشاكل والرؤى الرمادية إلى عالم الحلم والذكرى والأمل .





قصة قصيرة

أقوى من أهوال الليالي

بقلم :
إدوار الخراط
بريشة :
سميحة حسنين

بعد عودتنا من وادى النطرون ، وانتهائنا من ترحيلة إعادة رصف شقة من الطريق الصحراوى التى أخذ خالى ناثان عهدتها من المقاول الكبير الذى لم أعرف اسمه قط ، كنا أمام دكانة المعلم شنودة البقال ، فى أول الليل . أنا وخالى ناثان ، وأسعد أفندى ابن أخت عمى سلوانس الصراف . أخرج لنا شنودة مقعدين خشب مدورين ، دون ظهر، عملهما له خالى سوريال عندما جاء هنا أول الصيف ، وجلس هو على حَجَرة بيضاء كبيرة ، أمّا كرسى الخيزران فقد عزم وحلف على خالى ناثان ليأخذه .

كنا نواجه الدكان ، فى الحارة الضيقة ، وورانا حائط سدّ طويل متلوٍ ليس فيه منفذ ، حائط بيت الشيخ علوان ، صاحب كُتّاب القرية وإمام مسجدها ومقرئها وكان يحجز أهل بيته عن عيون القرية ويمنعهم زيارة أهلها ، نصارى ومسلمين على السواء ، يحوّط على كنز هشٍ سريع الاشتعال .

كان بيته فى الجانب البَحَرى من الطرّانة الذى يسكنه أقباط البلد تقريبا، فيما عدا بيتين أو ثلاثة .

أما الكنيسة فقد كانت فى الجانب القِبْلى ، فى وسط بيوت المسلمين وأمام السراية .

الجرن المدور الفسيح يربطْ بين شقىْ البلد .

جامع القرية كان أيضاً فى طرفها القْبلى ، يطل على الغيطان من ناحية ، وعلى النيل من ناحية أخرى ، والطلمبة الوحيدة فى القرية كانت فى حوش الجامع ، تمد الميضة بمائها الرائق الذى كان يصعب قليلاً ترغيته بالصابون .

وكنت تأتى إلى الجامع بعد أن تترك دوّار الشيخ عيسىّ وتعريشة الخشب التى تتعلق بها

العتبة العجفاء الناحلة على مطبته العريضة ، ويعد أن تدور حول سور السراية الكبيرة المرشوق بالزجاج المكسور وشقافة القُلَل والزلَع ، طالعاً من ماء النيل مباشرة من الناحية الأخرى ، والسراية ، لايقيم فيها إلا الخواجا أبو أنيس - البقية الباقية من عائلة داود - وخادمه العجوز حمدان . هو أيضا لايزور ولا يُلِمّ به أحد ، لا يفتح الباب الخشبيّ العريض لأحد ، بعد أن جاء ابنه الذى كان طالباً بمدرسة الطب العليا فى القصر العيني فى المسامحة الصيفية التى فاتت ، وجاء معه برقاصة من مصر قال إنها زميلته فى الكلية فلما عاد أبو أنيس من دمنهور ، طرد ابنه من السراية ، واستبقى البنت ، وأطلق أنيس على نفسه الرصاص ، وظلت السراية خاوية على عروشها . لم يكن الشيخ



يسمع فى عزلته الا صوت طلقة نار .

وبعد السراية تأتى إلى قبّة الشيخ أبو طاقية ، خضراء منخفضة ، وحدها على طرف جسر النيل المرتفع، ولها شباك حديدى نرى منه النعش المكسو بحرير أخضر ناصع . الشيخ علوان يوقد المبخرة فى صلاة الجمعة ، ويتبرك به الناس .

أما طرف القرية البَحَرى فقد كان آخر بيت فيه ، يطل على الغيطان ، جنب الساقية القديمة المهجورة ، وهو بيت الست حنينة ، تعيش فيه وحدها، بعد أن مات عنها زوجها عمى ميساك

البنهاوى ، لايعرف لها أحد أصلاً ولا فصلا ، سيرتها على كل لسان ، وكلها غَزّ وتنخّيس .

عَزَم علىّ المعلم شنودة بكأس عَرَقى ، سقسقة بالماء فابيض وكثف قوامه ، زيتيا ، كاللبن الحليب ، وفاحت منه رائحة الينسون النفاذة ، وحثنى خالى ناثان أن آخذه ، من غير كسوف خُد يابنى صُهلل ياما عمك شنودة قَرْبع « خمسينيات » كونياك أوتار معتبر من جدك وياما أكل « زفر » مزغط من إيد ستك ياالله ياعم حد واخد منها حاجة إن شا الله ماحدّ حوش إلى أخره إلى آخره ، وضحك أسعد أفندى بصفاء وصعد العَرَقى قليلاً - كالعادة - إلى رأسى وأحدّ بصرى وتيقظ حسى وتوتر جسدى .

عندما خرج إلينا من الفور ، وفى يده رُبْع

العرقى ، كان لخطواته الثقيلة صدى فى الفراغ، وسط الدكان

الرفوف حوله ، فى عتمة خفيفة ، عليها علب الدخان والسجاير معدن كوتاريللى بالقاروصة ، وبالعلبة ، وفَرْط ، وشاى التموين فى باكوات ورق مسطحة صفطانة صغيرة حمراء ، وعلب أخرى مستطيلة ومكعّبة وطرية الشكل ، وعلى الرف العلوى أقماع السكّر الكاملة فى غلافها الورق الأزرق ، أما الكَسْر منها فجنب البنك يضربها المعلم شنودة بسنجة الوقّة المضلعة فتنبثق منها شرارات حمراء متطايرة من قوة صدمة الحديد بصلابة السكر ناصع البياض . تحتها باكوات الملح فى عبوات ورق رمادى مرسوم عليه أبو الهول . جنبها زجاجات الزيت الفرنساوى . تراكم التراب من الخارج على نَسَم زجاجها ، وأقراص اللوف الخشن الملتف على نفسه . ومن الناحية الأخرى مكعّبات صابون النابلسى فاروق الصفراء الجافة اسودّتْ قليلا من الأضلاع الخارجية . أما صفائح الجاز فكانت بجانب الباب ، بعيد متناولها ورائحتها عن سائر البضاعة . لم تكن الرفوف الخشب الخام عامرة . لمبة جاز نمرة خمسة مدخمسة فى خواء وسط الدكان . على الأرض المتربة أكوام عالية من قوالح الذرة وشوالات الغلّة والشعير والحلبة ، والعيش البتّاو الناشف فى مقطف كبير

صفوف البيض الطازة مرصوصة فى قفص معمول من جريد النخيل ، هذه عُملة أهل البلد ، بنك البلد ياما قايضت كوز الجاز – بالكوبون – بكوز الذرة ، لستى أماليا ، وحق الدخان أبو غزالة بثلاث بيضات لجدى ساويرس . وعندما يخرج المعلم شنودة من الدكانة يرفع البنك الخشب ويتركه يسقط على دعامتيه بخبطة قوية .

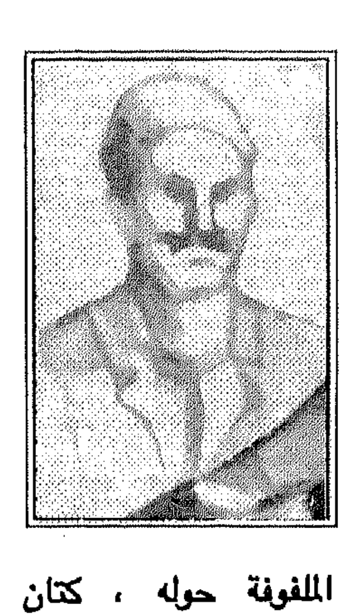
قَدَّرْتَ لى سبيلاً على الأرض ، ليتنى أتألق فى جوهرك .

يا أم الاله ، ياذات الأسماء التى لاتحُصى ، ياموئلى ، لا أعرفك أيتها الغريبة ، أنكرك ،، أنت فى ، كل لحظة ، تعاساتى لا نهاية لها ياسيدة القُرَى المولودة ناضجةً كاملة فى القوقعة نيمفية البحر الكبير إيزه عشتار مريم رامة اشفعى لى ، بحق الأنات التى لاينُطق بها ، دفنت وجهى فى ظلامك الذى يسطع بنور أكثر تألقا من كل أنوار الأرض والسماء .

نور معموديتى الثانية موسيقى الأمواج تصدر عن جدران المقبرة تحت شجرة الدُوم القردُ القدسى لا أراه ، أعرف أنه جاثم بلا حراك بين سَعَفها الدائرى المجدول صلاة تطهير للاثام الثقيلة ماضية وآتية بزوغ القمر الوليد .

وفى حموة العَرَقى الخفيفة كان حضورها الذى يمر أمامنا ، قوياً وكأنه تهديد ، تحت حائط الشيخ علوان الرمادى القاتم ، فى طراوة غبشة أول الليل ، تميل على رجلها وهى تتسرب حافية، قدماها المتربتان نصف أصابعهما قد تآكل وسقط ، غلظت جذوعها الباقية وتكورت . عيناها وحدهما نقيتان متألقتان بنار داخلية ليس فيها غضب ولا مرارة ، أمواج شعرها الناعم المنسدل مسرح ممسد بعناية ، تحت الطرحة المغبرة باهتة السواد ، مفروشة على ظهرها .

طرياً ودافئا ، مع أنه مطمور فى الرمل منذ أكثر من ألف عام ، المجد لك يايسوع قال المعلم شنودة ، كنت هناك وأنا صغير ، مع أبى الله يرحمه ويقدّس روحه ، عندما رفعوه ، قال نضح الجثمان فجأة بالدم وسال الدم على الأكفان



الملفوفة حوله ، كتان أصفر كأنه الحرير ، وكأن جراح الاستشهاد مفتوحة مازالت ، تنزف ، قال ، تحلَّلتْ رقائق الزنك التى تحيط بصندوقه ، وتفتت خشب الصندوق بمجرد أن رُفع فى الهواء ، واستحال مسحوقاً من رماد باهت ، ولكن بقيت علامات الصليب المرسومة على لفائف الكتان لم يمسسها البلى ولا أصاب فتائلها عطب ، قال ، كل الدفائن حوله سقطتْ عظاماً مفككة متناثرة ، وبقى جثمان الشهيد سليما يضىء وجهُه المكشوف بنور ليس من هذه الأرض ، كأن الروح لم تفارقه بعد ، قال ، رأيته عندما أخرجوه وقبل أن يودعوه صندوقه الجديد المعمول من خشب الجوز الثمين ، سراً ، دون أن تعرف الحكومة ، صلّوا عليه صلاة الشهيد، مساء ، على نور الشمع الكبير ، وكانت الكنيسة محتشدة بالناس ، لاينِد عنهم صوت ، والقداس السرّى في عنفوان تقلبه ، رأيته ، قال ، قوىٌ البنيان مازال ، ممتلئا بالنعمة ، مهيبا ، على قسماته آثار الآلام التى لا توصف ، تجاوزها وعبر إلى المسيح ، صَفَتْ ملامحه ، وراقت ، نال إكليل الشهادة ، قال .

عثروا تحت بوبيللو على جثمان القديس بسادة ، محتفظا بكيانه ، قال .

قلت لك : أحتاجُ إلى الشجر ، والسماء ذات الموج الساجى ، والنوارس المنطلقة الصارخة على غَمْر البحر، لكى أعرف الحرية، لكى أخلص من

ثقل الدهور بكل مجده وأكاليله.

ليست حريتي محبوسة داخلية مقطوعة عن جسد العالم عن تجلّيات جسد الله آخذ قرباني في نور الشمس الفسيح في سطوع ليلٍ لا نهائيِّ الأفق .

لا لم أقل لك ذلك

لم أقله

لا أقوله

الا ينتهي القيل والقال؟

عددتُ صياحَ الديك ، مرتين و فقط

أظلّ انتظر الثالثة .

هل أَبحثُ عن جسد العالم ، عن تجليات ، في جسدك وعجينته ؟

أم أبحثُ عن جسدك تحت بشرة السماء الناعمة ، في عَضل الشجر ، وفي زهوره الصفراء الساقطة في تراب الطريق؟

قال كان جسده أبيض اللون ، نضراً ، قال ، وأبونا أندراوس سكب عليه قنينة عطر جديدة غالية ، اسودَّ الجسد على الفور ، كله ، ولكنه ظل على لدونة أعضائه وطراوتها . وبقيت في الوجه المسْوَدّ المنير، آثار كدمات قاتمة ، جرّوه على الأرض أثناء تعذيبه ، جلدوه ، وجذبوه على وجهه من فوق سلّم قصر الوالي وأركبوه بالمقلوب ، دامياً مرضوضا ، على جاموسة ، وطافوا به شوارع المدينة .

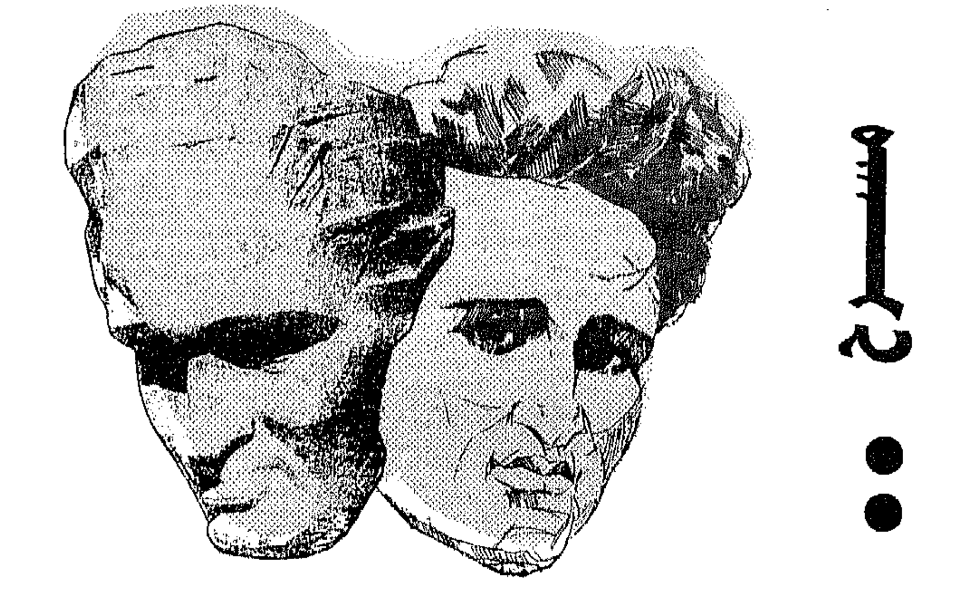
عصبوا عينيه طوال المدة في طُرة ، في أبو زعبل ، وضعوا الأسلاك المكهربة وحول خصيتيه وعلى حلمتى صدره ، وكسروا أسنانه بلكمات قوية ، أوقفوه في الماء البارد عاريا ، وعلقوه من قدميه حتى فقد الوعي ، وقالوا اعترف .. اعترف

في بكين وبرلين ، في روما وقرطاجنة ، في لورنزو ماركيز وبوينس أيرس ، في دمشق وبغداد ، في سيول وهانوي ، كلهم سواء .

الكدمات والتشويهات قد نعمت بالشهادة وكأنها وَسَامة مُضافة ، كانت الذراعان منزوعتين عن عظام الكتفين ، وأثار القطران المغلىّ المسكوب على رأسه تاجا من الشوك حروق في الجسم على هيئة سيور غير منتظمة ، والكلابات الحديد غُرست في لحمه وعظمه غرسا ، تركت فتحات غائرة ثقوب مِلْب مَرْكب حادّ الأسنان في الصدر ، ثلاثة أقانيم العذاب والاستشهاد .

الشهداء بلا اسم ولا عدد . بلا مجد ولا نُصب، هذا مجدهم المركوز .

صفوفهم تتوالى تسقط ترتفع بلا انقطاع بلا انقطاع .



العيد المئوى لمولد فنان الشعب سيد درويش

"السيّد"

سلطان زمانه - ولكل الأزمنة -

بقلم : فوزية مهران

وكان حقا علينا أن نسمع صوته الآن
- فى هذا الأوان العسير - ومن خلال مؤلف مسرحى (جاد ومهموم) يريد ليقول كلمته ..
- وجدها فرصة مواتية أن يقولها خلال فنان مصرى أصيل .. ثائر موسيقى ومنشد وطنى - قائد لأوركسترا النضال .

(صوت يجىء من الدروب الضيقة .. صعايدة وشغيلة .. عمال موانى وفلاحين ومراكبية وبنت مصر بياعه وخبازة ووسط البنائين « والفواعلية »)

صوت مشروخ يتصعد من مقهى ومن أعلى بناية .. ومن نداء الباعة ورؤى العاشقين ومن نوب مياه النيل .. تعكس روح أمة .. مرحها وويلاتها .. ومكرها

الجميل .. وأسباب التحدى والتأهب ليوم عمل جديد .

– موسيقى سيد درويش .. تصدر من عمق القلوب .. وتتصعد من « جوانية » الناس وتعبر عن همومهم وأحلامهم .

وكان حقا على يسرى الجندى .. أن يعود للمسرح ويعيد اكتشاف ذلك المنجم ويحرك كوامن النفس والشجن .. ويوقظ منا الحس وقوى الإدراك والعمل .

– والنوايا الطيبة لاتقيم صرح مسرحية جيدة .. ولكن فى زمن الايقاع الردىء والأغانى الهابطة والجهر بالسوء والمسرح الردىء نجدها « نعمة » أن نلتف حول كلمة طيبة ونعيد صياغة نغمة صحيحة .

كتيبة الثقافة الجماهيرية ترى أن من أسس أعمالها وأهدافها « الوصول بالثقافة إلى الجماهير وتحقيق مبدأ ديمقراطية الثقافة » . ونحن فى حاجة حقا إلى أن نعيد بناء الثقافة الوطنية وإيقاظ الوعى العام وبعث التربية الجمالية وجعل الجماهير مشاركة ومنتجة أيضا لهذه الثقافة وباعثة وملهمة لها .

سيد درويش حقق ديمقراطية الموسيقى .. حررها .. نزل بها من تحت السلاطين والأمراء .. من خدور الغوانى وحرملك السلطان .. لتصبح حقا وأداة تعبير وتغيير .. ووصلها بجيشان العواطف والأحلام التى تسكن قلوب الناس – جعلها تلتقى مع الموسيقى الكامنة بأعماق الشعب وتطلق قوى الخلق والإبداع لديهم .

تجلى المخرج عبد الرحمن الشافعى أدار العرض كعادته دائما بحماس وحب و« صخب » ..

وحاول جاهدا ألا نحس بالفجوة بين مجموعة الموسيقيين والمنشدين في عمق المسرح وبين مايحدث فى المقدمة أو على المستويين الأعلى على جانبى المسرح .

– كانت الأوركسترا فى الوسط .. وفى العمق وكأنها إشارة موحية لعمل موسيقى سيد درويش ونفاذها إلى القلوب .. ونبضها بين الحنايا وتدفق الحياة والعمل .

عبدالرحمن الشافعى وتتابع أعماله وجهوده على مسرح الثقافة الجماهيرية لأكثر من ثلاثين عاما .. يحب دائما المسرح الشامل – العرض الذى يحقق فرجة شعبية يمتزج فيها الرقص بالغناء والأداء التعبيرى ومجموعات الإنشاد والحركة . – حتى صار مثلا لكل أجيال المخرجين من بعده .

وحتى أصبحت أمنية عسيرة أن نجد عرضا بسيطا بدون كل هذا الحشد « والصخب » .

ووجد عبد الرحمن الشافعى بغيته فى فرجة مسرحية وعن فنان الشعب .

– وإن كانت المجاميع أكثر تدريبا وأقل عددا من مرات سابقة .. ويبدو جهد الفنان محمد خليل واضحا .



البساطة كانت صيغة تليق بهذا العرض - فى الاخراج والتأليف .

جو مثالى

من ميزات المخرج أنه يجعل الأشياء تتقابل وتتداخل على المسرح وأحيانا يبرز ثراء الصورة عن طريق التناقض .

وقلنا إن جو المسرحية هو المثالى بالنسبة له .. فلقد تجاور الضحك والغناء وجو المأساة والسخرية والنقد السياسى والاجتماعى اللاذع . نقلنا المخرج والمؤلف إلى الجو الذى خرج منه سيد درويش . وشاهدنا ردود الفعل التى تصدر عنه .. وتدلنا على الظروف مجتمعة التى تحيط به والجميع فى هذه الحقبة .

يسرى الجندى وجد بين يديه مادة تاريخية موسيقية ودرامية - خصبة وثرية كذلك بطل تراجيدى ومن قلب الجماهير - كان من الممكن بناء مسرحية هائلة تاريخية أو عبثية .. لكنه فضل المباشرة .. والمحادثة المسرحية والفرجة ..

- حدد لنفسه مهمة متواضعة منذ البداية « نطمع فقط فى أن نشعل قنديله السحرى لحظة نرى فيها أنفسنا ونراه » .

هذا بالفعل أيسر وأسهل .. ومدد ياسيد .

ومع أنه أعلن هذه الصيغة إلا أنه فى التنفيذ عقد المسألة وركبها أكثر مما يجب ومما تحتمل .. وتحير فى الاختيار بين المواقف والذرى الدرامية المدونة .

يبدأ وشلة الأنس تجلس أعلى المسرح إشارة واضحة وذكية لتوقد العبقرية والجرعة القاتلة لحياة متوهجة

حديث يدور بين حانوتى والسيد فى مقدمة المسرح - ياستر.

يطلب منه جمجمة .. يقلبها بين يديه ويعود ليقول إنه لم يعد بحاجة إليها - فالطب ليس بعلاج للأمراض المستفحلة .

أية بداية .. وحكمة ساذجة .. لمسرحية غنائية أو فرجة شعبية وألحان ملهمة ! وهل كان من سبب لظهور الجمجمة ؟

شلة الأنس تستعجل الحانوتى ليصعد لها - ووجودهم على هذا النحو معبر - ليظلوا فى الذاكرة أو فى خلفية الأحداث ويظل السلم الموصل إلى خشبة المسرح يصل بين الماضى والحاضر .. ويرمز إلى تداعى الصور والذكريات والأحداث .

هنا يجب فنان الديكور أشرف نعيم

صنع مستويين أعلى على المسرح .. وكمنت الفرقة الموسيقية فى العمق واتسعت ساحة المسرح لسيد درويش ومنابع إلهامه ومجرى الأحداث والحياة من حوله .

شلة الأنس فى المستوى الأعلى فى أوهامها ولكنها تنزل كل حين وتشارك وتعلق على الوقائع والأحداث .

ويظهر فوق المساحة أيضا أفندينا وجوقة الطرب .. ويمر من فوقها سيد درويش أحيانا ليتأمل من بعيد ويستلهم رجع الأصوات وإيقاعها - أو ليظل ثابتا حيث تجرى من تحته حركة المؤدين ومجريات الأمور . كان أشرف نعيم ذكيا وبليغا .. إذ لعبت هذه الفواصل دور الكواليس وظلت كل الأشياء مكشوفة أمامنا .

وفى المقابل مستوى آخر تبدو تقسيماته برءوس النغمات وكأنها مسامير غليظة وحشية غرست فى أرض النغم - وتصدر من بينها مشرجات سوقية مثل « كوز المحبة » وغيرها ...

يتصدر عمق المسرح مفتاح صول كبير رمز التطوير سيد درويش للموسيقى الشرقية ووصلها بالموسيقى الحديثة .

تحته تكمن الفرقة الموسيقية يقودها ويقوم بدور سيد درويش مغنيا رءوف حمدى - صوت ساطع صادح لابد من إيجاد مقهى ثقافى له نستمع فيه إلى تلك الألحان الشجية التى توحدنا وتصل بيننا .. ونستعيد قوانا على حسن الاستماع والإدراك والحركة الصاعدة إلى أمام دائما .

كذلك تنطلق موهبة أخاذة « ماجدة ابراهيم » وصوتها العذب يهزنا من الأعماق ويحرك مياهنا الداخلية وموسيقانا الكامنة .

وينطلق صوت الشيخ سيد القاضى .. قويا عريضا منشدا ويعلى من درجة اتقادنا .

وتخرج أيضا من بين رءوس النغمات الغليظة « جميلة » أو جليلة فى الأصل حبيبة سيد درويش ..

- تمثل الصوت الآخر داخله - صوت الغواية والتزييف .. تريده ليستسلم مثل الآخرين - فليس أقل موهبة منهم - أن يغنى للبلاط الملوكى ولجوارى السلطان (عقد مقارنة بين سى عبده وعيشة الترف) بدلا من الفقر والبؤس والغناء لفقراء تعساء .

- نفس المنطق الحديث - وأسلوب البيع والشراء . والغواية الآثم لفنانين ومجاهدين .

جليلة - جعلوها راقصة - لماذا لا تؤدى دورها ممثلة ؟

(لكن الراقصة جاهزة والدنيا رمضان .. ولا رقص فى الملاهى والصالات فلا بأس من أن تعتلى المسرح - مسرح الثقافة بالذات - وتؤدى رقصة كاملة محشورة وفرصة على أنغام سيد درويش)

لماذا إذن كانت المسرحية . ودفاعها عن التطوير والنغم الأصيل ... لماذا كل هذا التعب ؟)

- وهناك أيضا جارية أفندينا عندما استدعى من جبانة الأموات وجاء بالخلفية التاريخية معه .. بقمع الدولة وتابعه .. ورقصت جاريته أيضا .

الموبقات التى تقام ضدها المسرحية .. نجسدها « ونشخلعها » ونفسح فاصلا لها وتبدأ المسألة بحجم راقصة .. وتحتدم بخطب مباشرة عن طول بحثه « عن الصوت الذى بداخله » .



فهمى الخولى ممثل شخصية سيد درويش . كان يبدو أنه يعانى من انفصام طوال الوقت .. لم يساعده النص .. لم يساند نفسه مخرجا .

كان يؤدى شخصية سيد درويش ويروى عنها بالاضافة لإحساسه المتضخم بذاته ورغبته فى أداء بطولة خارقة .

أحيانا يندمج مع الدور ويستهويه جو النغم لدرجة أن ينسى حدود دوره ويغنى بصوته ويصفق الجمهور له - للغناء والصوت .

وحينا يقوم فينا خطيبا يحاضرنا عن سيد درويش .. ثم يتذكر البطولة المنتظرة فيتجهم وينظر إلينا من علياء !

فى حين أن الكلمات شاعرية غنائية وتذوب عشقا وجوى . وتقول بصوت يسرى الجندى . « مكتوب على جبينى أكون درويشك المجذوب مكتوب أكون قنديل يضئ لحظة زمن مكتوب وده عشق موت »

فهمى مخرج متمرس .. ويعرف من أسرار الحركة على المسرح ويرسمها .. فلماذا رضى لنفسه أن يروح ويجىء هكذا .. أمامنا على المسرح - يتمشى طوال الوقت - ولايكاد يغادره ؟

هل كان يود ألا يندمج فى شخصية سيد درويش .ويظل خارجها - وعلى الطريقة البرختية يعلنا أنه يلعب دورا - ويمثل - لذا يجب ألا نتأثر أو نتطهر أو نندمج نحن وعلينا التفكير والتدبر .

- ولكن ذلك لا يتحقق بقطع المسرح ذهابا وإيابا .

(المقهى .. لقاء وود وحوار ومشاركة - وتعينهم على السمع والتعليق وإطلاق نكاتهم اللاذعة - سلاح المصريين ومنطقة صمودهم وعشهم)

ونحس فى المسرح أننا على المقهى بينهم - نسمع ونرى وعندما تحيط بهم الكروب والضغوط تمد أهات عميقة بيننا - وتنزل عليهم الشباك المحيرة المربكة .. ونتخبط بينهم .

الغريب أن يقف سيد درويش خارج الشبكة - كان وسطهم بالطبع - وقلبهم النابض وصوتهم الملىء بالأسى والشجن على المقهى .. يجتمع المسيحى والمسلم الضرير والمفلس وتختلط الاصوات بالطلبات بالترحيب ... والتعليق والحكم على الأحداث والظروف .

نغمات أصيلة

نجحت المسرحية فى إبراز تلك اللحظة الدرامية المتوهجة عندما يلتقط سيد درويش جذوة ألحانه وأنغامه من بين كلماتهم .. مجرد النداء والتعليق .. والنكتة .. كلها تتحول إلى بث موسيقى .. ونغمات أصيلة لها وهج وإيقاع وصدى على طول الزمن .

لحظة تخليق الأغنية .. وانبعاث اللحن كانت موحية على المسرح وأشد حضورا وأكثر نفاذا من كثير من الأفكار الأخرى التى جاءت خطابية ومشوشة وزاعقة .

(وعندما منع ذكر اسم سعد زغلول .. أجراه سيد درويش رغما عن سلطة الاحتلال والقصر) ترنم به الجميع وغناه الباعة والأطفال والنساء « يابلح زغلول حيانى يابلح » .

ورغم الفقر والعناء فإن صورة بائعة التفاح توحى ألوانها وتموجات الغنائية فيها وشاعريتها بوهج لون التفاح وعذوبة مذاقه وجمال من تبيعه .. لوحة مرئية غنائية متحركة .. مثل لوحات رينوار - تخلق جوا من الدفء والتواصل .. « ويانواعم ياتفاح ياحاجة حلوة كويسة » .

ويبرز فى الأداء أبو العينين « يوسف رجائى » كان فى دوره بصيرا طبيعيا وتلقائيا تماما ومعلقا بحكمة عموم المصريين .

مسيحة يقفل دكانه يفلس (محمد عبد المنعم) ويرتجف صوته بالكدر والخواجة يظهر أيضا (طارق فهمى) ناعما .. زئبقيا مراوغا .

(مجدى السباعى) أجاد في دور كبير الياوران وحزنبل (زايد فؤاد) كذلك لم السلطان (محمد حسن) والعمدة (محمد الطوخى) الإضاءة كانت في مسرح السامر مركزة على الجانبين ومقدمة المسرح ، كانت خابية فى العمق إلا عند الغناء الجميل فتركز أشعتها كلها .

- وحتى بضعف الامكانيات - يمكن للفنان المتعب أن يكون معبرا .

« صلاح حفنى » ذكرنا بذلك الرمز والمعنى والتجريد لاسم « زعبلاوى » وجاءت الأغنية العبثية الماكرة .

« الدنيا مالها يازعبلاوى »

لحن سيد درويش يهزنا ويجعل السؤال يتهدج بصدرنا وعيوننا وفوق شفاهنا ..

(وكان السؤال هو الفكرة الأساسية أوالنغمة الرئيسية لواحدة من أروع قصص نجيب محفوظ ..

كانت النغمة العميقة .. ولماذا يوجه السؤال إلى زعبلاوى بالذات .. من هو : وأين نجده .. وكيف نعرف الإجابة ..)

- ولأن الدنيا « حالها حاوى » بالفعل .. بدر .. لاطعم ولا اعتدال أو توازن ..

إنها رحلة البحث عن الحقيقة .. «والنغمة الصحيحة ضرورة العثور عليها بأنفسنا »

رحلة حب وعناء وعمل يصحبنا فيها رواد وأبطال وتضمنا كتيبة المثقفين يداعبنا جوقة المؤدين والمنشدين .. المخرج والمؤلف .. يشعل الدفء بيننا والسؤال أديبنا الساطع نجيب محفوظ ويقود العزف موسيقى سيد درويش ..

ومدد يا « السيد »

الملتقى الفكرى لمنظمة حقوق الإنسان

حول حرية الفكر والاعتقاد والتعبير

بقلم : عبده جبير

ماذا يفعل الكاتب الذى يتوخى موقف «الناقد» حين يجد نفسه أمام عمل أو نص هو متحمس له أشد الحماس ومعجب به أشد الإعجاب ؟

ألا يدفع هذا لوجود شبهة أن هذا الحماس ، ربما دفع إلى التغاضى عما يمكن أن يكون قد ورد من أخطاء فى هذا العمل أو هذا النص ؟

وبداية أعترف أننى متحمس أشد الحماس لمجمل النشاط ، الفكرى والعملى ، الذى تقوم به المنظمة المصرية (العربية) لحقوق الإنسان ، فهى فى اعتقادى «نموذج» وصمام أمان لما ينشده مجتمعنا من تقدم وتحضر وازدهار ، إن كان يدفع أولا لانعتاق الفكر والإبداع من إسار القهر والحجر والتخلف ، وهى معان على غير ما جاءت عليه طبيعة البشر ، ويرمى إلى حرية تنمو خلالها شجرة الفكر ، فهذا لابد أن يؤدى بالضرورة إلى ازدهار «إنتاج» الإنسان ، فهو الذى يبدع ، وطاقته الروحية هى التى تدفعه ، فإن كانت مقيدة خبت شعلة الإبداع فيه ، وإن كانت حرة انطلقت إلى آفاق لا تنتهى .

نقول هذا احتفاء بالملتقى الفكرى الثالث الذى أقامته «المنظمة» لمدة يومين ، فى بداية مايو الماضى ، تحت عنوان «حرية الفكر والاعتقاد والتعبير» بمقر الجمعية المصرية للاقتصاد والتشريع .. ، وكانت المناقشات التى جرت خلالها ، وإن شاب بعض أوقاتها لحظات من «الحدة» ، إلا أنها جاءت فى إطار الحماس للمبدأ : مبدأ حرية الفكر والاعتقاد والتعبير .

وإنه وإن كانت هذه النقاشات قد حظيت بحظ وافر من العرض فى الصحف اليومية والأسبوعية التى صدرت فى أعقاب هذا التاريخ ، فإن مناقشة الأوراق هى التى تحتاج منا إلى قليل من التأمل .





كامل زهيرى



صلاح الدين حافظ

وفى المقدمة فقد جاءت كلمات كل من الاساتذة «كامل زهيرى» (رئيس الملتقى) ، و «محمد فائق» (أمين المنظمة العربية لحقوق الإنسان) ، و «بهى الدين حسن» (أمين المنظمة المصرية) ، و « لياء رافع» مقررة الملتقى ، أشبه ما تكون بأجندة عمل ، والتمنى على الحاضرين بالتمسك بـ «الرصانة العلمية ، والنزاهة الفكرية ، والابتعاد عن التعصب فى الحوار ، والتعالى على المصالح السياسية والأيديولوجية المباشرة» .

فى مجال حرية الفكر والتعبير

وفى هذا الإطار أورد بهى الدين حسن فى كلمته أربع ملاحظات - أو لنقل مفارقات - برزت من خلال المعلومات والوقائع المتراكمة لدى المنظمة المصرية لحقوق الإنسان فى مجال حرية الفكر والاعتقاد والتعبير :

أولا : أن الاعتداءات فى هذا المجال تستند فى جانب هام منها على تشريعات ولوائح لأبسط بديهيات حقوق الإنسان المتعارف عليها ، وتتعارض بشكل صارخ مع نصوص وروح الدستور المصرى والاتفاقيات الدولية لحقوق الإنسان التى أنضمت إليها الحكومة المصرية ، ويستلفت النظر فى هذا المجال أن أغلبية هذه التشريعات تعود إلى حقب تاريخية تجاوزها التطور الإجتماعى والثقافى والسياسى فى مصر ، مثل :

(أ) الخط الهمايونى ، الذى يعود إلى أكثر من قرن من الزمان (١٨٥٦) والصادر بفرمان من السلطان العثمانى ، ويفرض قيودا تعسفية على بناء الكنائس .

(ب) المواد ٩٨ من قانون العقوبات ، التى تجرم أيديولوجيات سياسية بعينها ، والتى استنت فى عهود الاحتلال .

(جـ) القوانين الاستثنائية التى وضعت فى عهد الرئيس الراحل أنور السادات لغرض العزل السياسى على معارضيه من عدة اتجاهات .

ثانيا : إنه فى الوقت الذى شهدت فيه الثمانينيات تطورا إيجابيا على صعيد الممارسة العملية فيما يتعلق بالتسامح السياسى والأيديولوجى تجاه بعض العقائد السياسية (الليبرالية ، الناصرية ، الماركسية) وبدرجة تتجاوز فيها ترسانة التشريعات المنافية لحقوق الإنسان ، فإن التسامح الدينى قد شهد على صعيد الممارسة العملية تطورا معاكسا ، أو بمعنى أدق تراجعا مؤسفا .

ثالثا : إنه فى الوقت الذى شهدت فيه الثمانينيات تطورا إيجابيا فى مجال الحد من الرقابة المباشرة لأجهزة الدولة على الصحافة والفكر والأدب والفن ، وصارت أكثر تسامحا تجاه النقد السياسى، فإن الدور الرقابى للمنابر الإسلامية من مؤسسات وصحف وكتب ، قد شهد صعودا متناميا فى نفس الحقبة ، وأصبح نافذ الكلمة لدى الأجهزة ومؤسساتها المعنية ، بحيث صارت هذه المنابر – من الناحية العملية – الرقيب الأول فى مصر .

هذه على أية حال بعض من الخطوط العريضة التى سارت عليها المناقشات والأوراق ، وإن كان كل دارس قد عكس اهتماماته الخاصة ، واندفع فى اتجاه ابراز مقولاته من خلال هذا الإطار العام .

وقد أكد فهمى هويدى ، بما يتسم به فكره من وضوح على أن رقابة المؤسسات الدينية على النشر وتأثيرها على حرية الفكر «ما هى إلا تعبير عن مسلك وظيفى دنيوى ، وليس بأى معيار من مقتضيات الإلتزام الدينى ، وبتعبير الأصوليين فإننا بإزاء حديث عن السياسة الشرعية ، وليس عن الشرع» .

ويضيف :

«فالذى نعلمه أن حرية التفكير والحوار مطلقة فى المفهوم الإسلامى ، والذى نفهمه أنه ليس فى الإسلام شئ اسمه «مؤسسة دينية» .

ثم نأتى إلى ورقة المحامى الشاب «نجاد البرعى» وهى أيضا كورقة هويدى حملت عنوان «رقابة المؤسسات الدينية على حرية النشر» ، ولنكن صرحاء ، فالمقصود هو مؤسسة الأزهر ، ثم مجمع البحوث الإسلامية الذى قام بما يسميه الكاتب بمذبحة الحرية ، وهو يقصد ما جرى من مصادرات لعدد من الكتب فى معرض الكتاب الأخير ، وقد لاحظ المحامى أن رقابة المؤسسة الدينية على حرية النشر تتميز بعدة خصائص :

(أ) أنها لا تستند إلى أى أساس قانونى معروف .

(ب) أنها تستخدم لخدمة أغراض سياسية فى كثير من الأحوال .

(جـ) أنها تمارس على مطبوعات لا علاقة لها بالدين ، ومن غير المتخصصين فى الفرع الذى يراقبونه .

(د) أنها تتم بشكل لاحق على نشر المطبوع ، مما سبب اضطرابا فى سوق النشر .

أما عن الأساس غير القانونى لرقابة مجمع البحوث فيعود بها لنص الدستور المصرى نفسه الذى صدر فى ٧١/٩/١١ عندما نصت المادة ٤٨ منه على أن «حرية الصحافة والطباعة والنشر ووسائل الإعلام مكفولة والرقابة على الصحف محظورة وانذارها أو وقفها أو إلغاؤها بالطريق الإدارى محظور ، ويجوز الاستثناء فى حالة إعلان الطوارئ أو زمن الحرب ..

كما أن الدستور فى المادة ٤٩ منه ، وبصريح العبارة نص على «كفالة حرية البحث العلمى والإبداع الأدبى والفنى والثقافى» بل نص أيضا على «توفير وسائل التشجيع اللازمة لتحقيق ذلك» ..

ومن هنا فإنه فى الإطار العام تغدو رقابة المؤسسة الدينية ، أيا كان مداها ، أو حجمها متعارضة ومتصادمة مع نصوص المادتين ٤٨ ، ٤٩ من الدستور .

بل إن تلك الرقابة لا تتصدم فقط مع تلك النصوص الدستورية الواضحة ، ولكنها تتأبى أيضا على نصوص قانو ، الأزهر رقم ١٣ لسنة ٦١ ، والذى هو بنص المادة ١٧ من اللائحة التنفيذية له ، والصادرة بقرار رئيس الجمهورية ٢٥٠ لسنة ٥٧ على أن واجبات مجمع البحوث الإسلامية تقتصر على تتبع ما ينشر عن الإسلام والتراث الإسلامى من بحوث ودراسات «للانتفاع بها أو تصحيحها» فقط ، فهذه هى حدود سلطته وغاية ما قام من أجله ، بل إن هناك حكما صادراً لمحكمة النقض ، وهى أعلى سلطة قضائية مصرية صدر فى ٨٢/١٢/٥ أدان بشدة طلب مجمع البحوث التحفظ على أى كتاب مهما كان ، وأيا ما كان موضوعه ..

ولعل أهم وأسوأ خصائص رقابة المؤسسة الرسمية على حرية النشر ، كما يؤكد المحامى النابه ، أنها تأتى لاحقة على صدور المطبوع ، وفى ظل عدم وجود خطوط واضحة لما هو مسموح به أو ممنوع ، مما يضع المبدع طوال فترة إبداعة فى حالة خوف وترقب حتى ليظل مهددا بملاحقته مهما طال الزمن على طرح عمله للناس مما يمنعه من مباشرة إبداعه بحرية كاملة .

وبالفعل - وهنا على كاتب هذه السطور أن يوضح أنه بالفعل ، بدأ عدد كبير من المبدعين التفكير فيما يشبه الهجرة الجماعية بأعمالهم للنشر فى الأسواق الخارجية ، هربا بأعمالهم الإبداعية من هذه الملاحقة ، خاصة وأن أحدا منهم لا يعرف الحدود أو السدود ، وهو ما يعيد للأذهان فترات مظلمة من فترات حجب الأفكار ومطاردتها فى فترات سابقة ، مما سيكون له تأثير خطير على الفكر والفن فى مصر .

على أى حال ، لابد لى أن أعتذر ، وقد وجب أن أنهى هذه المقالة خوفا من الإطالة، لكل من الأساتذة الأفاضل ، الدكتور حسن حنفى ، والدكتور حامد عمار ، والاستاذ صلاح الدين حافظ ، والاستاذة فوزية مهران ، والدكتور فرج فودة والدكتور أحمد صبحى منصور ، والاستاذ حسين أحمد أمين ، والاستاذ مصطفى عامر ، عن مناقشة أفكارهم النابهة ، فهم على أية حال قد ساهموا مساهمات هامة ، وأفكارهم معروفة منشورة مما لا تحتاج معه إلى بيان ، ولعلنا نقرأ دراساتهم صادرة فى كتاب حتى تعم الفائدة .

رسالة جامعيـــة

صورة الرجل

عند كاتبات القصة المصريات

عن موضوع « القصة القصيرة وصورة الرجل عند الكاتبات المصريات (١٩٣٤ - ١٩٨٧) حصلت الباحثة «سوسن ناجى» على درجة الدكتوراة بمرتبة الشرف الأولى من جامعة المنيا ، بإشراف الدكتور عبد الحميد إبراهيم عميد كلية الدراسات العربية ، ومناقشة من الدكتور الطاهر أحمد مكى والدكتور محمد عبد المطلب وقد وجها للباحثة عددا من الإنتقادات الهامة التى نعرض لها بعد أن نعرف جانبا من مضمون الرسالة .

عنيت الدراسة برصد معالم الصور الفنية للرجل - وذلك من منظور الذات الكاتبة - كخطوة تكميلية تمكن من الولوج إلى عالم المرأة / الكاتبة ، ومحور رئيسى يساهم فى الكشف عن رؤية الكاتبة إلى العالم ...

والوعى برؤية الذات الكاتبة يكشف عن مدى إدراكها للعلاقات الكائنة فى الواقع ، ومدى تخيلها « للصورة التى ينبغى أن تسود هذه العلاقات فى المستقبل ... وكلما كانت أكثر عمقا وحساسية وذكاء كانت أقدر على كشف القوى التى تعوق حركة الواقع .. »

وكان المدخل - الأول - إلى دراسة صورة الرجل / الآخر هو الرصد لماهية صورة الذات ، إيمانا بأن « الأنا » امتداد « للآخر » ، وصيرورة له ، و« الآخر » فى كل الحالات يمثل جزءا من وجودنا ذاته «وكل شكل للعلاقة بين «الأنا» ونفسها ، بين « الأنا » والاشياء وبين «الأنا» والمطلق يكشف فى جوهره عن طبيعة الاتصال بوجـود مفارق ، وعن طبيعة الانفصال عنه معا» .

ويثير مدخل الرسالة هذا التساؤل

للإجابة عليه ، وعلى تساؤلات أخرى تنتظر إجابة .... حيث يبدأ برصد منحنى التطور الذى طرأ على صورة الذات الكاتبة ، ومن ثم على رؤيتها ، وذلك عبر إثارته عددا من التساؤلات تتعلق فى مجملها بتخصيص ما يدعى بالكتابة النسائية ، وهل هناك خصائص بعينها للكتابة النسائية ؟ وتلك التساؤلات من شأنها أن تقود إلى الإستفسار عن وجود خصوصية بعينها - فى الذاتية النسائية - تنبع من خصوصية الموقع الذى تشغله هذه الذات ، وماينتج عن هذا الموقع من معاناة تسبب فى إحداث فقدان أو انقسام داخل الذات ساهم فى عزل المرأة اجتماعيا ونفسيا بطريقة أدت إلى اعتمادها المطلق على الرجل . أو وكأن تحديد المرأة لذاتيتها حينئذ غدا مرتبطا بموقعها من عالم الرجل . وظل هـذا الموقع أسيرا لماهية علاقتها به . وهـى غالبا عـلاقة لا تتجـاوز أشكالا ثلاثة :

١ - علاقة خضوع (ينشأ عنها استلاب واضح لهوية المرأة ، مما يفقدها ذاتها فى « الآخر ») .

٢ - علاقة تسلط (تتبنى الذات خلالها شروطا تسلطية تعمل على نفى « الآخر » من عالمها) .

٣ - علاقة توافق (تتنازل الذات خلالها عن كبريائها لتتبادل الاعتراف بالذات الأخرى) .

وعبر هذه المحاور الثلاثة - من العلاقات - تشكل وعى المرأة / الذات بالكاتبة فى رؤى (اتجاهات) ثلاثة ، صنفت لأنماط ثلاثة من العلاقات ، تشكل من خلالها معالم صورة الآخر/ الرجل . وهذه الرؤى / الاتجاهات استندت فى تصنيفها - هذا - إلى الوعى الفردى والثقافة الخاصة بالكاتبة . قبل أن تستند إلى العمر الزمنى لها أو الجيل الذى تنتمى إليه .

وراهنت سمات « الاتجاه الأول » على اندراج كاتباته ضمن إطار محور التقليد ، بمعنى أن كتاباتهن ظلت تعيد إنتاج موقف رجولى تقليدى ، يساير ما هو سائد من قيم أدبية وفكرية - وذلك لانتمائهن إلى منظومة القيم السائدة فى المجتمع - حيث ظلت صورة الذات - لديهم - محددة من خلال منظور الرجل والمجتمع إليهن سلفا ، - وتبع هذا ضياع لملامحها الفردية ، ككاتبة ، وكشخص مختلف .. - ولما كانت الفردية تمايز واختلاف فى « الأنا » عن «الآخر » كان ضياعها مؤشرا دالا على انزواء « الأنا » وذوبانها فى الآخر / الرجل . ومثل هذا التصور - الضمنى - للذات الكاتبة - يفسر سر دوان المرأة / الكاتبة - هنا - فى تيار كتابات الرجل ، أى بتبينها وتقليدها واعادتها إنتاج مواقف تقليدية تتقمص فيها روح الرجل ، فى مقابل عجزها عن الافصاح عن عالمها وتجربتها فى صدق وحرية .

وأدركت كاتبات « **الاتجاه الثانى** »

أن تحقق الذات الأنثوية لايأتى إلا مع تحرر صورة الذات ، وتحرر صورة الذات لا يكون إلا بخروجها - من الداخل إلى الخارج - على الشائع والمألوف ، وتمظهر هذا فى شكل رفض صريح للأدوار التقليدية للجنسين .. والكاتبات - بهذا - يتجاوزن مرحلة الفقدان الكامل للذات أو حتى الوعى بذلك إلى محاولة البحث عنها واستعادتها ، عبر صيغ حداثية تشكل أفكارهن ، وتصوغ للتناقضات التى تحيط أحلامهن ، مما دفعهن إلى التطلع إلى أفق مغاير .

أيضا أيقنت كاتبات « **الاتجاه الثالث** » أن تحررهن لا يكون إلا بتحررهن ضمنيا من منظورهن التقليدى إلى العالم ، وهذا فى حد ذاته يستدعى - منهن - إلغاءهن الانقسام من داخل ذواتهن ، وتحررهن من سجن الصورة التقليدية المرسومة - للمرأة سلفا وذلك بتبنى صورة جديدة عن الذات ، تبعثها رؤية جديدة - من جانبهن - للعالم ، لا تحاول نفى القديم وفى الوقت نفسه لا ترحب بـه ، من جديد ...

بين الثابت والمتغير

وعنيت الدراسة على مدار « **الباب الأول** » بالتحليل لتردد صورة الرجل - فى موقعه بالنسبة للمرأة - بين رحى الثابت والمتغير ، وذلك عبر الرصد للأنماط التى يمثلها وجوده فى الواقع - كرجل «سيد» أو مقهور ، أو « مثال » / حلم ، أو ماجن ، أو حبيب ، أو أب ، أو أخ ، أو زوج ، أو ابن - بناء على اعتبار أن الصورة هى « العنصر الثابت » أما رؤية الكاتبات - عبر اتجاهاتهن الثلاثة - فكانت هى العنصر المتغير ، التابع لتغير شخصية وثقافة وموقع الذات الكاتبة فى المجتمع ..

فلدى كاتبات « الاتجاه الأول » تأثرت صورة الرجل بنوعية العلاقة الكائنة معه فى الواقع ! ولما كانت هذه العلاقة تتسم فى مجملها بكونها « علاقة خضوع » لذا شغل « الآخر » / الرجل موقعا ايجابيا (موقع الفعل والحركة) بينما ظلت « الأنا » (الذات الكاتبة) تشغل موقعا سلبيا (سكونيا ، منفعلا بفعل أو حركة الآخر) .. وكأن النمط السائد المستحسن لديهن هو نمط الرجل « السيد » وقد تمثل هذا « السيد » فى صورة الأب ، والأخ والزوج أيضا .. بكل ما تَنطوى عليه هذه الشخصية من معالم قمعية مباشرة ، أما تمرد الذات الكاتبة / المرأة تجاه الرجل - بصفة عامة - فكان مضمرا ، غير معلن ، ظل يشبه حربا غير واعية - خاصة فى فترة ما بعد الخمسينات - استخدمت خلاله نفس منظومة الفكر التقليدى لتحول الرجل إلى أداة إنتاج أو حافظة نقود ، أو ذكورة فحسب، غير أن الرجل - رغم هذا- ظل يشغل موقعا محوريا ، حيث احتفظ بموقع « الصدارة » بالنسبة لها ، وكان بمثابة القطب أو النواة لاحتفاظه بامتثال

دورانها فى مداره ..

ولدى كاتابات « **الاتجاه الثانى** » بدأ الرجل – بالنسبة إلى المرأة – مهمشا ، لا يملك أى دور فى حياتها، بينما أصبحت هى الطرف الأكثر مقاومة لغبن الواقع ، صاحبة الحركة والفعل والدور المتغير ، لكن الرجل رغم هامشيته هذه ظل مستدعياً طوال الوقت داخل وعى البطلة / الذات الكاتبة ...

ويلاحظ تحقق انسحاب فعلى يصيب دور الرجل . بصرف النظر عن كون هذا الرجل قويا أو ضعيفا ، أخلاقيا أو غير أخلاقى وهذا الإنسحاب لم يكن نتيجة حتمية للظرف الاجتماعى فحسب ، بل أيضا كان نتيجة حتمية للرؤية المهيمنة – الخاصة بالذات الكاتبة – بما تنطوى علية من نزعة تسلطية تبغى نفى « الآخر / الرجل » ، وهذا الظرف / الموقع كان من شأنه أن دفع بالرجل إلى المواقع الخلفية / السلبية ، بينما احتفظ للمرأة بمواقع الصدارة ، أو الهيمنة على الواقع ،

أما صورة الرجل لدى كاتبات « **الاتجاه الثالث** » فتبدو عبر محاولتهن الدائبة لالغاء « الثنائية » داخل ذواتهن ، وذلك لتحقق تطابقا بين الصورة المرئية للرجل ، والصورة المتخيلة له – داخل الوعى – نظرا لاعترافهن بأن هويتهن لا يمكن أن تتحقق إلا عن طريق تبادل الاعتراف بالذوات الأخرى .. غير أن الصورة المرئية – له – من منظورهن ظلت تحمل منظومات الفكر التقليدى ، لذا انطلق وعيهن ليطرح نماذج بديلة له ، انتظار لصورة جديدة تبزغ فى الأفق . وهذا فى حد ذاته يعنى عدم الاعتراف بالنماذج التى يقدمها الواقع للرجل ، لهذا قمن بالفعل (الحركة ، والتجريب) مستخدمات أسلوب المصادمة بهدف زلزلة الألفة – الخاصة بالمفاهيم التقليدية السائدة – عن الأدوار الشائعة للجنسين ، ومن شأن هذا الأسلوب أن يساهم فى خلق المناخ الملائم لتقبل هذه الصور (الأدوار المستحدثة للجنسين) ، كما يساهم فى تحقيق رغبتهن لها فى الاكتشاف الحقيقى للذات فحسب ، بل أيضا فى تحقيق الوحدة داخلها ..

الانتقادات

وبعد أن أثنى الدكتور الطاهر مكى على منهج الباحثة ولغتها الأدبية عاب عليها الخلل الملحوظ فى دراستها بالنسبة لإستخدام علامات الترقيم ، والاستعجال فى رسالتها الذى ترتبت عليه كثير من الأخطاء التى كان من الممكن تجاوزها بالدقة .

أما الدكتور عبد المطلب فقد أبدى عجبه من عدم تسمية الباحثة بشكل مباشر لمنهج البحث الذى اتبعته ، وشكك فى أن تكون غير عارفة به ، وقال عنه إنه «البنوية التكوينية» .

وأشار أيضا إلى وجود الترقيم .

الكتاب : ثلاثون عاما مع الشعر والشعراء
تأليف : رجاء النقاش
الناشر : دار سعاد الصباح ، ٥٧٥ ص ، قطع كبير



لا يكتب رجاء النقاش نقدا باردا يقطع به أوصال القصائد ليعيد صياغة أفكاره الخاصة عن الشعر ، ولكنه يكتب بانفعال وحماس شديدين تجد نفسك وأنت تتابع كلماته ، منفعلا معه نفس الانفعال ، حتى أنك ما أن تبدأ أيا من فصول هذا الكتاب إلا وتجد نفسك غير قادر على تركه إلا لحظة النهاية .

وأهم خصائص هذه الكتابة التى نسردها بتلخيص مخل هى أنها ، وهى تصدر عن قلب دافىء تصدر أيضا عن قلم مثقف عارف بموضوعه ، يدقق فى المعلومة دون إندفاع ، فهو إذا كان متيقنا أكد وإذا لم يكن فإنه يقدم ما لديه موضحا هذا الموقف ، وهذه ميزة من الصدق قلما نجدها الآن فى كتابات المعاصرين .

خاصية أخرى هى هذه الشجاعة التى تدفعه لدخول المعارك ضد من يرى أنه يجب الوقوف ضدهم ، وهو وإن إحتد أحيانا فإن دافعه لذلك هو الهدف الذى يسعى إليه ، وهو إيمانه بالفن من أجل الحياة .

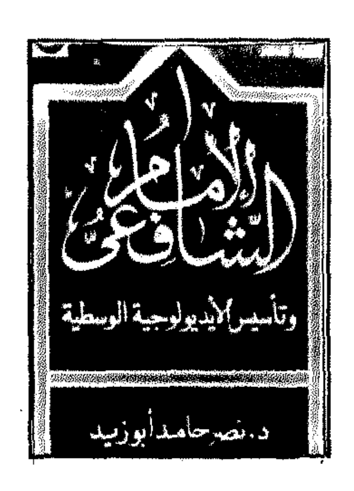
خاصية أخرى يصرح بها هو نفسه فى مقدمته لهذه المجموعة الضخمة من المقالات عن الشعر والشعراء التى كتبها خلال ثلاثين عاما من الكتابة المتواصلة فيقول عما يجمع بينها من وحدة « هى وحدة تنبع من شخصية مؤلفه ، وطريقته فى البحث والتفكير والتذوق ، وحدة تنبع من العصر الراهن الذى تدور حوله الدراسات والفصول المختلفة .. فهذه الخاصية إذن هى كالبصمة لنفس الكاتب ، ما أن تتأملها حتى تكتشف أنها قطعة من ذاته .

أما الخاصية الأخرى فهى تتعلق بمنهجه فى الدرس والتحليل حيث يقول عنه : إننى من الذين يؤمنون بما يمكن تسميته بالمنهج « الجمالى الإنسانى » أى أننى

أبحث دائما فى الفن عن الجمال وأبحث عن الإنسان ، والفن عندى لابد أن يكون ممتعا ومثيرا للفكر والشعور ، ولكن الجمال الفنى وحده لا يمكن أن يكون كاملا إلا إذا إستطاع التعبير عن الشخصية الإنسانية فى صراعها من أجل الحياة والسعادة والبحث عن معنى للوجود ، وكل ما ليس جميلا ، أو كان خاليا من التعبير الصادق عن الشخصية الإنسانية ، لا أتوقف أمامه ، ولا أجدنى قادرا على التعاطف معه أو البحث فيه ، وإذا كان هذا المنهج يحدد ما أحبه ، فهو فى الوقت نفسه يحدد ما أرفضه ولا أرتضيه » .

هذه بعض الخصائص نذكرها سريعا فى هذه العجالة التى لا توفى هذا الجهد الكبير حقه ، وكل ما نملكه هو أن ندعو لقراءته فهو كتاب فى النقد ، لكنه أيضا مثير للأحاسيس والمشاعر .

الكتاب : الإمام الشافعى وتأسيس الأيديولوجية الوسطية
تأليف : د. نصر أبو زيد
الناشر : سينا للنشر
١١٢ ص .



بأسلوبه العذب ودقته العلمية يحدد لنا نصر أبو زيد فى هذا الكتاب الهام الذى يعد حلقة من حلقات بحثه المتواصل فى تراثنا الفكرى والحضارى ، يحدد موقع الإمام الشافعى بالنسبة لمقولة الوسطية وبالنسبة لأقرانه من مفكرى وفقهاء الإسلام فيقول : الشافعى والأشعرى والغزالى ثلاث شخصيات هامة فى تاريخ الثقافة الاسلامية عامة والفكر العربى خاصة . وترجع أهميتهم الى تأسيس الوسطية التى يرى كثيرون أنها أهم خصائص التجربة العربية الإسلامية فى التاريخ ، وهى الخصيصة التى تتجسد فيها « الأصالة » التى يتحتم على المجتمعات العربية والإسلامية الاحتماء بها فى صراعها ضد أعدائها الساعين الى القضاء عليها .

وإذا كانت مسألة الصفة «الجوهرية» الثابتة محل نزاع وخلاف ، فإن الثابت تاريخيا أن الشافعى قد أسس « الوسطية » فى مجال الفقه والشريعة ، وأسس الأشعرى الوسطية ذاتها،

أولكن فى مجال العقيدة ، أما الغزالى فقد أسسها فى مجال الفكر والفلسفة اعتمادا على تأسيس كل من الشافعى والأشعرى ، ولا غرابة فى الأمر على كل حال ، فالغزالى شافعى المذهب فى الفقه، أشعرى المذهب فى العقيدة ، وكلا المجالين مجال أصول قد يسميان الشريعة والعقيدة ، وقد يكونان أصول الفقه وأصول الدين .

وتعتمد هذه الدراسة - منهجيا - على تحليل الأفكار والكشف عن دلالتها أولا ثم الانتقال الى مغزاها الاجتماعى السياسى - الأيديولوجى - ثانيا . وبعبارة أخرى ستكون الحركة من الداخل للخارج ، من الفكر الى الواقع الذى أنتجه ، وذلك لتجنب مزالق التحليل الميكانيكى - الانعكاسى - إذا كانت الحركة المنهجية من الخارج الى الداخل ، ومن الطبيعى والمنطقى أن يوضع فكر الشافعى فى السياق الفكرى العام للعصر الذى أنتجه من جهة ، وفى سياق المجال المعرفى الخاص ، مجال أصول الفقه ، من جهة أخرى .

الكتاب : المرأة الفلسطينية والطفل الفلسطينى فى مواجهة الغزوة الصهيونية
تأليف : عهلة الدجانى
الناشر : المستقبل العربى ١٨٤ ص



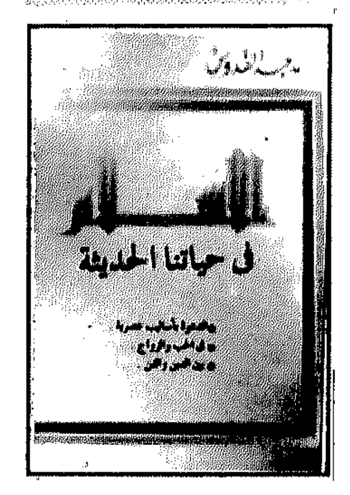
يتضمن هذا الكتاب عددا من البحوث والدراسات التى قامت المؤلفة بإعدادها وتقديمها فى بعض المحافل والمناسبات تلبية لدعوات فى ندوات أو محاضرات ، وتناولت معظم هذه الدراسات أوضاع المرأة والطفل الفلسطينيين داخل الوطن المحتل وخارجه ، وقد جاءت هذه الدراسات متضمنة لمعظم جوانب حياة المرأة والطفل - المظلم منها والمشرق - مبينة الصعوبات والتحديات التى تواجهها الأسرة الفلسطينية منذ بداية الغزوة الصهيونية لفلسطين .

وعلى سبيل المثال فإنها فى دراستها المعنونة « معاناة المرأة الفلسطينية خارج الوطن المحتل » سلطت الأضواء على المشاكل والمعوقات التى تتعرض لها الأسرة فى المنفى من خلال إبراز أشكال معاناتها فى الشتات والناجمة عن فقدان الوطن والحرمان من الهوية ، كما تعرضت الى كيفية مواجهة المرأة

لهذه المصاعب ومحافظتها الدءوب على الشخصية الفلسطينية بتمسكها بالعادات والتقاليد الفلسطينية ونقلها معها الى أماكن الشتات لتضع فى كل مكان تعيش فيه مجتمعا فلسطينيا .

وعن الطفل الفلسطينى نجد هناك دراسة عن تنمية الطفل فى الانتفاضة كشفت فيها عن المشاكل الاجتماعية والاقتصادية والتعليمية التى يواجهها أبناء الشعب الفلسطينى من جراء الممارسات والاجراءات القمعية والارهابية الصهيونية مبينة تأثير ذلك على صحة ونفسية وحياة الطفل وكيف أدى ذلك الى إطلاق مشاعر التحدى والمواجهة للاحتلال الصهيونى التى تجسدت فى الانتفاضة .

الكتاب : الإسلام فى حياتنا الحديثة
تأليف : محمد عبد القدوس
الناشر : مكتبة مصر
٢٤٠ ص ، ٣ ج.م.



ما هو دور الدين فى الحياة ؟

يقول الزميل محمد عبد القدوس مؤلف هذا الكتاب أن هذا السؤال هو فى رأيه من أهم الأسئلة المطروحة على الساحة السياسية الشعبية ، بل يتوقف مستقبل الدول الإسلامية وشعوبها على تحديد دور الإسلام فى حياتنا المعاصرة .

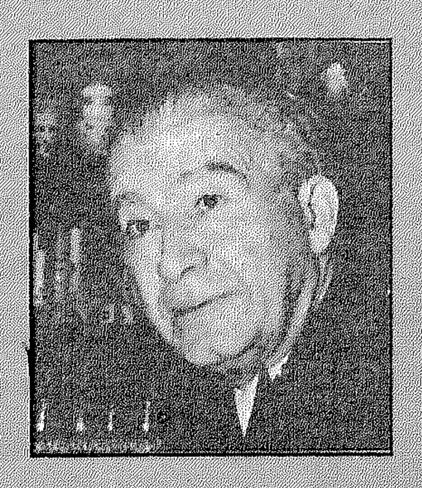
ويرفض عبد القدوس ذلك الفريق من المتدينين الذين يرون أن تكون وظيفة الدين فى المجتمعات المعاصرة هامشية ، محدودة ، تقتصر على العبادات ومكارم الأخلاق ، بل يرى « من المؤكد أن ديننا لا يعرف هذه التفرقة بين الدين والدنيا ، فما أجملهما إذا اجتمعا ، وأن الدور الهامشى للدين فى الحياة قد يكون مقبولا فى المجتمعات الأوربية والأمريكية وغيرها ، لكن الوضع فى المجتمعات الإسلامية على النقيض من ذلك ، وهذا الكتاب هو محاولة لتقديم صورة مشرقة للإسلام ممزوجا بالدنيا ، ودحض ما يحوطه من شبهات .

لم يضعه المؤلف من برج عاجى بل نزل الى أرض الواقع محاورا العلماء والمفكرين والفنانين ليخلص بهذه المجموعة من الدراسات والحوارات القيمة .

نزار قباني والنص الغائب

أحمد عنتر مصطفى


نزار قبانى


عمر ابو ريشة

نحاول هنا أن نتقصى بعض (النصوص الغائبة) فى شعر نزار قبانى. وأن نتتبع هجرة هذه النصوص وتحولاتها ، فى مثيلاتها من شعر الشاعر الكبير . ولا يفوتنا أن نورد ما قاله (رولان بارت) فى هذا المجال ، حيث : (لا نص يوجد خارج النصوص الأخرى ، أو يمكن أن ينفصل عن كوكبها ، وهذه النصوص الأخرى اللانهائية هى ما نسميه بـ (النص الغائب) . غير أن النصوص الأخرى المستعادة فى النص تتبع مسار التبدل والتحول ، حسب درجة وعى الكاتب بعملية الكتابة ، ومستوى تأمل الكتابة لذاتها ...) .

ونتجاوز باستعمالنا مصطلح (النص الغائب) عن ذلك (الإثم الأخلاقى) الذى قذف النقاد به فى وجه النص تحت عبارة : (السرقات الشعرية) ونكون أكثر تحديداً باستعمالنا له بديلاً عن لفظىْ : (التأثير) و (التأثر) الواردين فى مثل هذا المقام ، فى كتاباتنا النقدية ، وعلى وجه الخصوص ، القديم منها .

إن مثل هذه النصوص الغائبة ظلت تتردد أصداؤها فى نتاج نزار قبانى حتى منتصف الستينيات . ولنبدأ بقصيدته (غرناطة) من ديوانه [الرسم بالكلمات] الصادر عام ١٩٦٦ ، فى هذه القصيدة يستيقظ الوجع التاريخى / الأندلس - على حد تعبير الشاعر - حيث يلتقى فى القصيدة بالفتاة / التاريخ ، وتتثاءب المرئيات ، لتفيق من سبات عميق استغرق سبعة قرون :

في مدخل الحمـراء كان لقـاؤنا ∴ ما أطيب اللقيـا بلا ميعـادِ
عينـان سـوداوان فى حجريهمـا ∴ تتوالد الأبعـاد من أبعـادِ
هل أنت إسـبانية ؟ ساءلتهـا ∴ قالت : وفى (غرناطة) ميلادى
غرناطةٌ !! وصحت قرون سـبعة ∴ فى تيك العينين بعـد رقـادِ
وأميـةٌ راياتُهـا مرفـوعة ∴ وجيـادُها موصولة بجيـادِ
ما أغرب التاريخ كيف أعـادنى ∴ لحفيدة سـمراءَ من أحفـادى
وجـهٌ دمشـقيٌ رأيت خـلاله ∴ أجفان (بلقيس) وجيد (سعادِ)

مازالت (أمية) تركض بجيادها ، ويسابقها الشاعر بخياله اللاهث ، ولا تهدأ هذه الدوامة مادام الشاعر يخطو فوق تلك الأرض التى عطر ترابها (عبد الرحمن الداخل) واهتزت فوق روابيها مواكب (بنى عباد) .. وكما تعلق الشاعر طفلاً ، بثوب أبيه ، ولم يصدق بموت ذلك الأب مادامت ملابسه معلقة على مشجب الذكريات . يتشبث الشاعر بالأب / التراث ، ويرحل ، أو لنقل يهرب ، مع الحفيدة السمراء الى مرافىء بعيدة .. ، وتسأله - هى - فيجيب وكلاهما فى واد .. وإن ضمتهما رقعة واحدة :

ودمشق ، أين تكون؟ قلت : ترينهـا ∴ فى شعرك المنساب نهرَ سـوادِ
فى وجهك العربى ، والثغـر الذى ∴ مازال مختزناً شـموسَ بلادى
فى طيب (جنات العريف) ومائهـا ∴ فى الفلِّ ، فى الريحان فى الكبادِ

وكما يكثف الشاعر (الزمن) فى تلك اللحظة ، يصهر المكانين فى بقعة واحدة .. لترفع دمشق لواء الحضور ..

سارت معى ، والشَّعرُ يلهث خلفها ∴ كسـنابلٍ تُرِكت بغير حصـادِ
ومشيت مثل الطفـل خلف دليلتى ∴ وورائى التـاريخ كـومَ رمادِ

ترى أيهما كان دليل الآخر ؟؟!!

.. الزخرفاتُ أكادُ أسمع نبضـهـا . ˚ . والزركشاتُ على السقوفِ تنـادى
قالت : هنا الحمراء ، زهو جدودنا . ˚ . فاقرأ على جدرانهــا أمجَــادى
أمجادُها ..؟! ومسحتُ جرحاً نازفاً . ˚ . وكتمتُ جرحــاً آخـــراً بفـؤادى
ياليت وارثتى الجمـــيلةُ أدركت . ˚ . أنَّ الــذين عنتهمــو أجــدادى
عانقتُ فيها عنــدما ودعتُهـــا . ˚ . رجلاً يسمى (طـارق بن زيادَ ..)

فى شعر عمر أبى ريشة ، ومن قصيدة له بعنوان (فى طائرة) نجد جذور قصيدة (غرناطة) . يصدر عمر أبو ريشة قصيدته بالكلمات التالية :

.. [كان فى رحلة الى الشيلى ، وكانت الى جانبه حسناء اسبانيولية تحدثه عن أمجاد أجدادها القدامى العرب . دون أن تعرف جنسية من تُحدِّث ...] .

ثم يأتى النص الذى هاجر من حيث الموضوع والبناء الى نص (غرناطة) لنزار قباني :

وثبتْ تسـتقربُ النجم مجــالا . ˚ . وتهادت تسحب الذيل اختيــالا
وحيــالى غــــادة تلعب في . ˚ . شــعرها المـائجِ غنجــاً ودلالا
طلعـــة ريا ، وشىء باهــــر . ˚ . أجمالٌ ؟ جل أن يسمى جمـــالا
فتبسـمت لهــــا فابتسـمت . ˚ . وأجالتْ فِىَّ ألحــاظاً كســالى
كـلِ حرف زلَّ عنِ مرشفهــــا . ˚ . نثرِ الطيبَ يمينـــا وشـــمالا
قلتُ : يا حسَـــناءُ من أنت ؟ ومن . ˚ . أى دوحٍ أفـرع الغصنُ وطـــالا
فرنتْ شـــامخة أحسبهـــا . ˚ . فوق أنســاب البرايا تتعـــالى
وأجــابت : أنــا من أنـدلس . ˚ . جنة الدنيــا ســهولاً وجبــالا
وجــدودى ألمح الــدهرَ على . ˚ . ذكرهـم يطوى جنـاحيه جــلالا
بوركت صــحراؤهم كم زخــرت . ˚ . بالمـروءات رياحــاً ورمـــالا
حمــلوا الشرقَ ســناءً وسنىً . ˚ . وتخطوا ملعَب الغــرب نضــالا
فنمــا المجــدُ على آثارهـم . ˚ . وتحدَّى ، بعــدما زالوا ، الزوالا
هـؤلاء الصــيدُ قومى ، فانتسب . ˚ . إن تجـد أكرم من قومى رجــالا
. . . .
. . . .
أطــرق القلبُ وغــامت أعينى . ˚ . برؤاها .. وتجـاهلت السؤالا ..!!

ربما يبدو اختلاف المكانين في النصَّين لصالح (غرناطة) نزار قباني . حيث أتاح له المكان بسطوته التاريخية أن يتجـول ، شعريا ، في (جنات العريف) و (مدخل الحمراء) وأن ينصت الى الزخرفات والزركشات على السقوف ، الا أن الطائرة ، كمكان ، لم تستطع أن تحد من شاعرية أبي ريشة في قصيدته تلك التي كتبها عام ١٩٥٣ ، على حين كتب نزار قصيدة (غرناطة) في الستينيات ، وعلى وجه التحديد تأتي هذه القصيدة ضمن نتاج (التجربة الإسبانية) في مرحلة الانفعال القومي والتاريخي – كما يسميها الشاعر في كتابه : (قصتي مع الشعر) وهي التجربة التي شغلت الفترة من ١٩٦٢ – ١٩٦٦ .

واذا كانت « فتاة غرناطة » تفخر بأمجاد أجدادها الذين لا تعرفهم فإن فتاة أبي ريشة على وعي كامل بدور العرب الحضاري ، وربما كان هذا الوعي هو ما حدا بالشاعر الى أن يتجاهل سؤالها عمن يكون ؟.. إنها ألقت القفاز في وجهه وطلبت منه أن ينتسب أمامها ، إن وعيها بجذورِها جعل موقفه على النقيض من موقف نزار الذي اتخذ سمت الخطيب المصقع ليعدِّد ، ولو بينه وبين نفسه ، أمجاد التاريخ .. ذلك أن مقارنة جارحة ، قفزت الى ذهن أبي ريشة بين هذا الماضي الزاهر المشرق الذي انتسبت اليه الفتاة .. والشاعر أيضاً !!.. وبين حاضر أمته الممزق الذي بدا له ، فآثر أن يلعق جراحه في صمت .. مما أضاف الى القصيدة (حِدَّة النهاية) وهي ملمحٌ من ملامح شعر عمر أبي ريشة .

......

......

نص مهاجر آخر من نصوص عمر أبي ريشة نجده في قصيدة (الحب والبترول) لنزار قباني التي يقول عنها الشاعر في كتابه (قصتي مع الشعر) :

[.. ان قصيدتي : الحب والبترول ، مثلاً ، صورة للإقطاع العاطفي وللعلاقة اللاأخلاقية التي تقوم بين رجل يستملك ، بدفتر شيكاته ، وامرأة تُستملك بسنابل شعرها الذهبي وطفولة نهديها ..] ص ٢٠٠ .

والقصيدة ، كما نقرأها في ديوان (حبيبتي) ، خاصة في مقاطعها الأولى توحي بما أشار اليه الشاعر .. (صورة الإقطاع العاطفي والعلاقة اللاأخلاقية) .. ولكننا حين نستمر في قراءتها تعطينا – بل تحصرنا – في ذلك البعد السياسي الذي لا نستطيع الفرار من قبضته ، في المقطع الأخير منها :

لك البترول فاعصره على قدمَيْ عشيقاتِك ..

كهوف الليل فى باريس قد قتلت مروءاتك ..
على أقدام مومسة ، هناك ، دفنت ثاراتك ..
فبعتَ (القدسَ) ، بعتَ الله ، بعتَ رمادَ أمواتك ..
كأن حرابَ اسرائيل لم تجهضْ شقيقاتكْ
ولم تهدم منازلنا .. ولم تحرق مصاحفنا
ولا راياتها ارتفعت على أشلاءِ راياتك ..
كأن جميع من صلبوا
على الأشجار فى يافا ، وفى حيفا ، وبئر السبعِ ،
ليسوا من سلالاتك ..
تغوصُ القدسُ فى دمها .. وأنت صريع شهواتك
تنامُ .. كأنما المأساة ليست بعض مأساتك
متى تفهم ؟؟
متى يستيقظ الإنسانُ فى ذاتكِ ؟!!
. . . . . .

أشك أن نزاراً ، بإشارته السابقة الى (محاربة الإقطاع العاطفى) ، قد عمد الى أن يذرَّ رماداً فى العيون ، قصداً منه أن ينفى إطلالة (النص الغائب) أو (التناص) بيت قصيدته هـذه وقصيدة عمـر أبى ريشة بعنوان : [هـكذا ...] التى هاجرت الى (الحب والبترول) موضوعاً ورؤية وموقفاً ، يصدِّر عمر أبو ريشة قصيدته (هكذا) بهذه الكلمات :

[.. فى ليلة واحدة ، أنفق أحد رعايا المحميات البريطانية ستين ألف دولار على عشيقته ..!!] .

ثم تأتى القصيدة التى أرَّخ الشاعر كتابتها بعام ١٩٥٤ :

صاحَ : (يا عبـد) فرفَّ الطيبُ ∴ واستعر الكأسُ ، وضجَّ المضـجعُ
منتهى دنيـاه نهـدٌ شرسٌ ∴ وفمٌ عـذبٌ ، وخصرٌ طيِّـعُ
بـدوىٌ أورق الصـخرُ له ∴ وجـرى بالسلسبيل البلقـعُ
فإذا النخـوةُ ، والكبـرُ ، على ∴ ترفِ الأيـام جـرحٌ موجـعُ
هانت الخيـل على فرسانهـا ∴ وانطوت تلك السـيوف القُطَّعُ
والخيـامُ الشمُّ مالت ، وهـوتْ ∴ وعـوت فيهـا الرياحُ الأربعُ
. . . . .

قال : يا حسناءُ ما شئت اطلبى ∴ فكلانا بالغوالى مولعُ
أختُك الشقراء مدّتْ كفّها ∴ فاكتسى من كل نجمٍ إصبعُ
فانتقىْ أكرمَ ما يهفو له ∴ معصمٌ غضٌ وجيدٌ أتلعُ
. . . . . ∴

وتلاشى الطيبُ من مخدعه ∴ وتولاه السُباتُ المتعُ
والذليلُ العبدُ دون الباب لا ∴ يغمضُ الطرفَ ، ولا يضطجعُ
والبطولاتُ على غربتها ∴ فى مغانينا جياعٌ خُشّعُ
. . . . . ∴
هكذا تُقتَحمُ القدسُ على ∴ غاصبيها .. هكذا تُسترجَعُ !!

مرة ثانية تصفعنا تلك النهاية الحادة التى يجيدها عمر أبو ريشة بقدرته الفائقة على التكثيف ، وكما تطالعنا بها قصائده : [.. زاروا بلادى ، إفرست ، هيكلى ، إقرئيها ، قطرة الزيت ، لا تنتقى كلماتك ، مظاهر ..] .. وغيرها .. ربما نلمح قدرة الشاعر على تكثيف رؤيته من اختياره هذا العنوان لقصيدته ، والمؤلف من كلمة واحدة : [هكذا ..] . على حين تأتى تسمية نزار لقصيدته : [الحب والبترول] مترهلة وسطحية ، قياساً الى عنوان قصيدة أبى ريشة .. فضلاً عن المباشرة التى تكتنف التسمية . واذا كانت صرخة المرأة المتكررة : متى تفهم ؟؟ فى قصيدة نزار لها ايقاعها الحاد المنبثق من ايقاع مجزوء بحر (الوافر) فإن هذه الصرخة تترهل بطول القصيدة . على حين تأتى القضية بحدتها وضراوتها وحضورها فى قصيدة [هكذا] – على قِصرها – ولبنائها المحكم أقوى وأمضى تأثيراً .

هجرة النص

واذا كان النصّان السابقان لعمر أبى ريشة قد هاجرا موضوعاً ورؤية الى نصّين من شعر نزار قبانى فإن هناك نصوصاً أخرى يمكن تقصيها للشاعرين تؤكد هجرة النص أسلوباً وبناءً ، من ذلك قصيدة (المنحنى) لعمر أبى ريشة ، ومطلعها :

أمسكتْ بى باسمةٌ لاهيهْ ∴ على حواشى الربوةِ الزاهيهْ

نجدها فى قصيدة نزار التى مطلعها :

ووشوشتنى النسمةُ الحافيهْ .·. لمحتُها تعدو على الرابيهْ

كذلك المقطع الأول من قصيدة (البغىّ) لنزار قبانى ، وإن جاء على إيقاع بحر (الرمل) :

علّقت فى بابها قنديلها .·. نازف الشريانِ محمرَّ الفتيلهْ
فى زقاقٍ ضوأت أوكاره .·. كل بيتٍ فيه مأساة طويلهْ
غرفٌ ضيقةٌ موبوءةٌ .·. وعناوين لمارى وجميلهْ ..
وبباب البيتِ حاكٍ هرم .·. راح يجترهُ التواشيح الطويلهْ

نجد خلال هذا المقطع نصاً غائباً لعمر أبى ريشة هو قصيدته المشهورة (دليلة) - وإن جاءت على إيقاع بحر (الخفيف) ، ونورد هنا من هذا النص قول أبى ريشة :

وأوينا إلى مخابىءِ كهف .·. ردَّ أيدى زمانه مغلولهْ
فى زواياه للمناكبِ مسرىً .·. لم تشأ صحبةُ الأسى أن تُزيلهْ
ومصابيحه وراء دخان الشر .·. ب أو هى من أن تفضَّ فلولهْ
وعلى كلِ مقعدٍ وجدارٍ .·. منه أسماءُ فتيةٍ مجهولهْ ..
وصحْونا على سؤالِ مغنٍ .·. هدَّ من كاهليهِ عبءُ الرجولهْ

يبقى لدينا فى هذه الدراسة المختصرة نصّ آخر بعنوان (حكاية) يقول فيه نزار :

كنتُ أعدو فى غاية اللوز لما .·. قال عنى أماه أنى حلُوهْ
وعلى سالفى غفا زرُّ وردٍ .·. وقميص تفلتت منه عروةْ
قال ما قال فالحرير جحيمٌ .·. فوق صدرى والثوبُ يقطر نشوهْ
أأنا حلوةٌ .. وأيقظ أنثى .·. فى عروقى .. وشقَّ للنور كوهْ

وتمضى القصيدة على هذا النحو من تدفق المونولوج الأنثوى الذى تصف به الفتاة المراهقة مشاعرها أمام أمها الى أن يختتم الشاعر هذه القصيدة العذبة بقوله على لسان الفتاة :

أنتِ لن تنكرى علىَّ احتراقى ∴ كلّنا فى مجامر النارِ نسوةْ

فى هذه القصيدة من ديوان (أنت لى) ينهمر الاعتراف المراهق فى ايقاع (بحر الخفيف) مختلفاً عروضياً عن قصيدة (هند وأمها) للشاعر بشارة الخورى ، الأخطل الصغير التى تأتى فى ايقاع (بحر المتقارب) وتتخذ شكل الحوار . حيث تعترف الفتاة لأمها بوصف متدفق .. يعقبه فى نهاية القصيدة رد الأم الذى يتضمن موقفاً أنثوياً من الحب والحياة فيه الرقة والتعاطف المغلف بالدلال المعروف عن الأنثى .. يقول الأخطل :

أتت هندَ تشكو الى أمها ∴ فسبحان من جمع النيِّرين
فقالت لها : إن هذا الضحى ∴ أتانى .. وقبَّلنى قبلتين
وفرّ .. فلما رآنى الدجى ∴ حبانى من شعره خصلتين

وجئتَ الى الروض عند الصبا ∴ ح .. لأحجبَ نفسى عن كل عيَن
فنادانى الروض يا روضتى ∴ وهمّ ليفعل كالأولين

وتمضى القصيدة فى وصف الليل الذى ذوّب سائلاً منه وكحَّل هنداً منه فى المقلتين ، والغصن الذى انحنى على قدميها وسجد سجدتين ، والبحر الذى ذهبت اليه للابتراد فحملّها – ويحه – موجتين رجراجتين .. ثم ..

فها أنا أشكو اليك الجميع ∴ فبالله يا أم ماذا ترينْ ؟
فقالت – وقد ضحكت – أمها : ∴ ومَاستْ من العجب فى بردتيْن
عرفتهمو واحداً واحداً ∴ وذقتُ الذى ذقتِه مرتين !!

ولا يفوتنا أن ننوه هنا الى أن نزار قبانى اكتفى فى قصيدته (حكاية) بمنولوج الفتاة التى صادفها ذلك الشاب فى غابة اللوز وفجر فيها الأنوثة بمداعبته لها .. على حين نرى الأخطل الصغير بخيال عابث يفجر العلاقة بين الطبيعة والمرأة .. من خلال مجموعة مقارنات – قد تبدو تقليدية ، كالعلاقة بين سواد الليل والشعر والمقلتين ، وبين الورود والخدود ، والغصن والقوام ، إلا أنه يصهر ذلك كله فى إطار عابث متظرف .. ثم لا يفوته فى النهاية أن يورد تعقيباً ذكياً للمرأة الأم التى تعيش تجربة ابنتها المراهقة فى حنو وحدب .. وكأنها تعيش حياتها هى مرة ثانية .

لندن

هال .. يولد هذه الايام

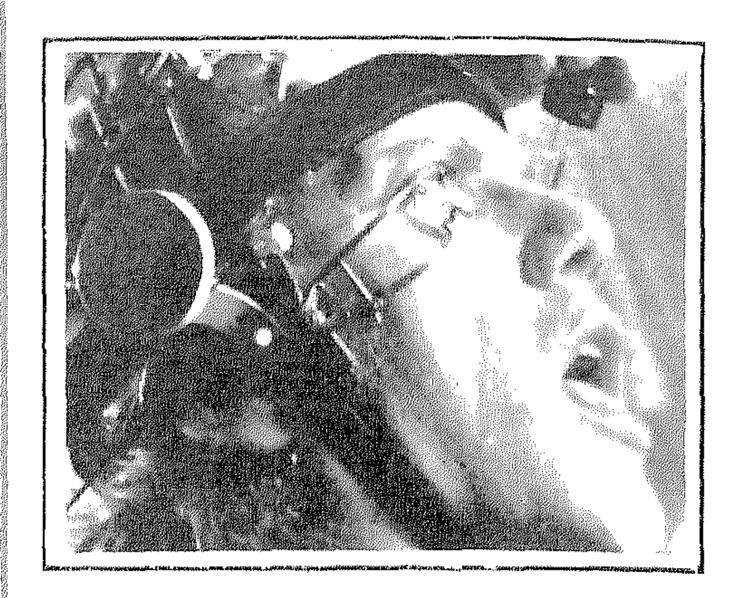
يحتفل المخرج الأمريكى ستانلى كيوبريك هذه الأيام بمناسبتين فى منتهى الغرابة . الأولى هى الاحتفال بميلاد العقل الاليكترونى « هال » الذى ولد هذه الأيام ، أو المفروض أن يولد . والمناسبة الثانية هى مرور عشرين عاما على اخراج فيلمه الشهير « البرتقالة الآلية» .

تبدو غرابة المناسبة الاولى ، فى أن العقل الاليكترونى « هال » قد ظهر فى فيلم «٢٠٠١ اوديسا الفضاء » الذى تم اخراجه عام١٩٦٧ . وحسب أحداث الرواية . فإن هذا العقل الاليكترونى سوف تتم صناعته فى عام ١٩٩٢ ويتم تركيبه فى سفينة الفضاء نوسترومو التى ستدور حول الأرض فى عام ٢٠٠١ ، وفوق هذه السفينة سيدور أول صراع من نوعه بين قائد سفينة الفضاء والبشرى وبين « هال » .. الذى سيصبح بالفعل أول عقل اليكترونى يصارع الانسان ويتفوق عليه فكريا ويتحكم في مصيره ثم يقوده ..

المفروض حسب خيال الكاتب آرثر كلارك الذى كتب الرواية - أن هال سيولد هذه الايام ولعل إحدى الشركات تقوم بتصنيعه فعلا وتتمكن من بعثه إلى الوجود . ليتحول خيال الفنان إلى حقيقة مع العام الأول من القرن الواحد والعشرين .

أما الحدث الثانى فهو فيلم « البرتقالة الآلية » المأخوذ عن رواية للكاتب المعروف انتونى بيرجيس . والتى تدور حول الشاب ماكس الذى ارتكب مجموعة من جرائم الاغتصاب العنيفة فى شوارع لندن فى زمن قادم . وقامت السلطات بالقبض عليه . وبدلا من عقابه قامت باجراء عملية « مسخ مخ » له تحول على أثرها إلى مخ بشرى ، يقبل أحذية أسياده ولاتفه الأسباب . ويتصرف بخنوع وذله باديين .. .. لكن الناس آثرت أن يعود ماكس الى حالته الأولى أفضل من أن يكون بشراً صناعيا ..

لاشك أن لكيوبريك الحق فى أن يحتفل بهاتين المناسبتين ، فهذان الفيلمان قد شاركا فى صنع عقلية العالم فى العشرين عاما الماضية . وخرجت من جعبة الفيلمين ظواهر عديدة حول علاقة



البرتقالة الآلية

الانسان بانجازات العلم ، ومنظوره إلى المستقبل الذى سوف يتسم بعنف ظاهر على كل المستويات .

الجدير بالذكر أن روايات الهلال قد قدمت للقارىء العربى ترجمة كاملة لرواية « البرتقالة الآلية » قبل عدة أعوام .

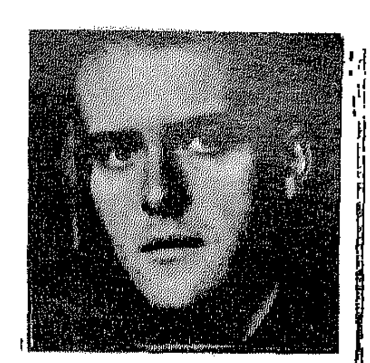
بيان يمن

كاتب يموت على الهواء

استطاع الفرنسيون أن يروا الكاتب ارفيه جيبير وهو يموت لحظة بلحظة . وذلك من خلال البرنامج التليفزيونى الذي أذيع على القناة الفرنسية الاولى وتابع اللحظات الأخيرة فى حياة الكاتب الشاب الذى مات فى شهر ابريل الماضى على أثر اصابته بمرض الايدز.

ظلت الصحافة وقنوات التلفاز الفرنسية تتابع مرض جيبير ورحيله منذ أن أصيب بهذا المرض فى أواخر العام الماضى وحتى لحظة وفاته وجاءت مأساوية الحدث ليس فقط فى أن جيبير صغير السن بل . أيضا لأنه كاتب موهوب صعد نجمه الأدبى بسرعة بدرجة اثارت الانتباه . وأعتبره الكثير من النقاد أحد علامات الرواية فى العقد الحالى.

وبصرف النظر عن موهبة الكاتب . فلاشك أن التلفاز قد لعب دوراً كبيراً فى اثارة الحزن والشجن لدى المشاهدين من خلال تصويره الدقيق لحالة الكاتب الذى مات ببطء شديد والذى وافق على أن يتم تصويره فى فيلم بلغت مدة عرضه عشر ساعات . وصلت بعد المونتاج إلى ساعة واحدة لا أكثر . سمع فيها الناس الكاتب الشاب يقول: « إنه ينخرفى دمى لحظة وراء أخرى وهأنذا أذبل يوما تلو يوم » .



ورغم المرض الذى أصاب الكاتب ، فإن صوته بدا قويا لم يفقد حيويته . وتعمد أن يظهر للناس عاريا تماما كى يروا إلى أى حد ذبل جسده وذبلت عظامه . وقال إنه يتأمل هذا الجسد صباح يوم بيوم أمام المرآة وهو يعرف أنه هالك فى التراب . كما تساءل الكاتب فى البرنامج : هل من الممكن على المرء أن ينتحر لو أصابه مرض ميئوس من شفائه ؟!

ومن أشد لحظات البرنامج تأثراً ذلك المشهد الذى التقى فيه بعمته سوزان (٩٥ سنة) والتى بدت أكثر منه شبابا وحيوية . ورغم ذلك فإن الكاتب لم يحاول أن يستدر عطف الناس على مرضه . ولكنه ود أن يعرى نفسه على الناس مثلما يفعل فى كتبه .

القاهرة

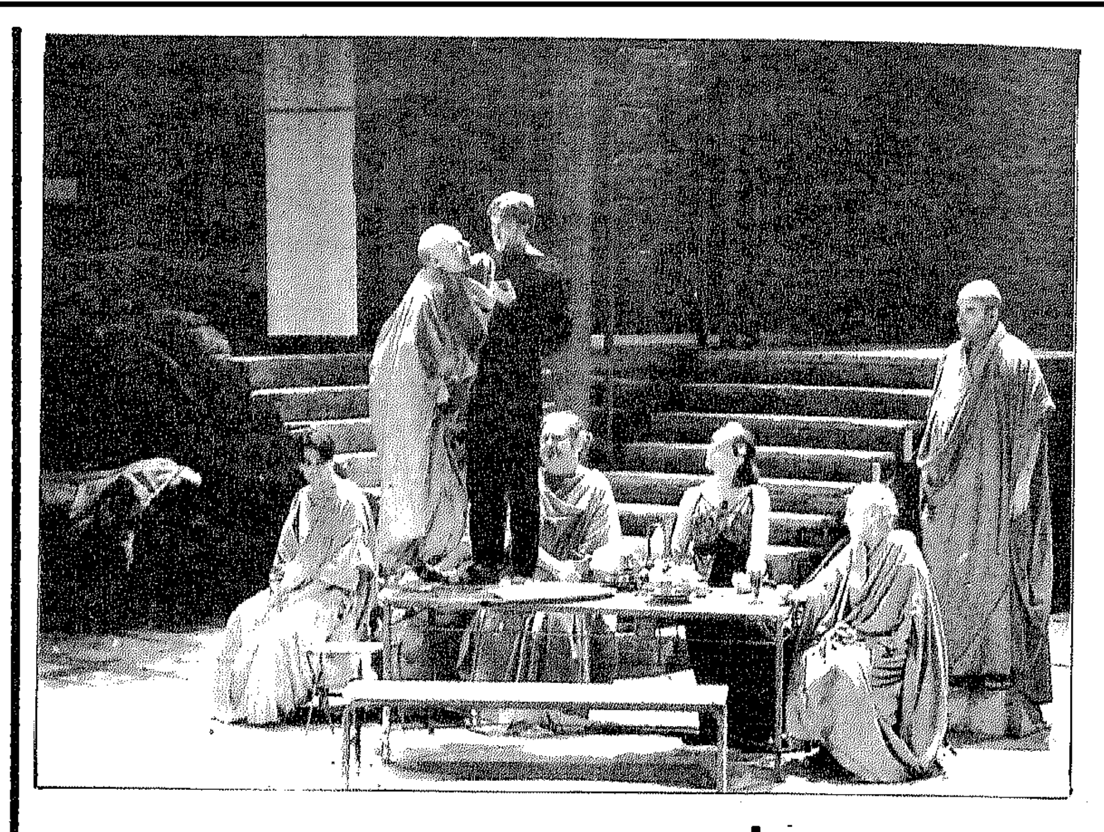
كاليجولا .. وكرباج يوسف شاهين

فى الفترة السابقة تجول كاليجولا فى العديد من العواصم العالمية مرتديا العديد من الأقنعة . لكنه سيظل كاليجولا الطاغية المهووس .

فبينما عرضت المسرحية المصرية كاليجولا بين القاهرة وأسبانيا . فإن باريس لاتزال تشاهد المسرحية التى أخرجها يوسف شاهين لحساب فرقة « الكوميدى فرانسيز » فى باريس وحول هذه المسرحية كتبت الناقدة نيتا روسو لونوفيل اوبسرفاتور مقالا عن شاهين ومسرحيته الاولى شرحت فيه كيفية اختياره لاخراج كاليجولا .

فقد كانت هناك نية فى البداية للاستعانة بمخرج من أفريقيا إلا أنه فى حديث بين يوسف شاهين وصديقه وزير الثقافة الفرنسى جاك لانج طلب الأول أن يمثل شخصية كاليجولا ولم يكن فى تصوره أنه سيكون المخرج وكما جاء فى المجلة فإن شاهين أكد أنه قد بدأ حياته ممثلا وأنه رفض تجسيد هذا الدور اكثر من مرة فى شبابه .

ولان كاليجولا فى مسرحية البير كامى شاب لم يقترب من الثلاثين ، فقد كان من الصعب على شاهين أن يجسد الدور .



ووجد نفسه مستغرقا فى البروفات كمخرج ثلاثة أشهر . كان شاهين معجبا بالعالم المجرد الذى رسمه كامى فى المسرحية مما يوحى أن كاليجولا موجود فى كل عصر وزمن .

وقد واجهت يوسف شاهين مشكلة اختيار الممثلين . واستغرق وقتا طويلاً قبل أن يسند الأدوار إلى ممثلين باعينهم وبالنسبة للممثلين فإننى لا أتوقف عن البوح لهم فهم جزء مني لذا فالامور تسير جيداً معهم . لأن الممثل شئ مقدس بالنسبة لى . وإذا لم يعطنى كل ما اريده قتلته . أنا أحبه من ناحية . ومن أخرى فأننى أمسك له الكرباج » .

وفى نفس المقال الذى كتبته نيتا روسو تحدث المخرج عن فيلمه القادم فقال : « أنا أفعل ما أريد . فلست مخرجا سائقا لسيارة تاكسى . بمعنى أننى لست فى خدمة المنتجين .

فأنا أرفض أن يفرضوا علىّ فيلما مع ايزابيل ادجانى تدور أحداثه فى الهند الصينية فهذا ليس من شأنى . وليس عليها سوى أن تذهب وحدها وليس فى هذا أدنى درجة من الغرور . أنا لا أفعل شيئا لأ صل إلى نهاياتى . ولكننى أفعل شيئا يحسب لى .

الجهاز العصبى مفتاح الصحة والمرض

بقلم :
د: محمد بهائى السكرى

● لكى يكون الإنسان سليما متمتعا لابد أن تعمل أجهزة جسمه فى توازن وانسجام

شرف الله سبحانه جل وعلا الانسان بالعقل وهو القدرة على التدبر والتأمل والتفكير ، والنظر فى الاشياء ، والربط بين الاسباب والنتائج والبحث عن الأصول ، والتحليل والتعليل.

والعقل كلمة مجردة لا يعلم ابعادها الا الاله العلى . ولكن مما لاشك فيه أن للمخ وللجهاز العصبى بوجه عام ارتباطا وثيقا بالعقل وبالحالة النفسية .

ويعتبر الجهاز العصبى الدعامة الرئيسية فى تنظيم وظائف الجسم والتحكم فى أوجه نشاطاته المختلفة .

نصف كرة المخ
المخ الأوسط
القنطرة
النخاع المستطيل
المخيخ
الحبل الشوكى

شكل (١): المخ والحبل الشوكى

ومنذ فجر تاريخ المعرفة الطبية أدرك الإنسان أهمية المخ لصلاحية جسم الإنسان وحياته وحيويته .

وتحـــدث هــيروفيلس Herophilus وتلميــذة أريســتراتس Eristratus مـن مدرسة الإسكندرية القديمة عن وظائف أجزاء مختلفة من المخ مثل نصف كرة المخ ، والمخيخ ، والحبل الشوكى ، والأعصاب ، وذلك قبل مولد المسيح عليه السلام بثلاثة قرون .

وأجرى جالينوس الذى عاش فى القرن الثانى بعد الميلاد تجاربا على حيوانات ثدية بيّن فيها تأثير قطـع أجـزاء من الحبل الشوكى على مناطق معينة من الجسم وحدد المناطق التى يصيبها الشلل من جراء ذلك .

واعتقد ديسكارتس Descartes الذى عاش فى القرن السابع عشر الميلادى أن الانسان فقط دون غيره من الكائنات الحية يمتلك نفسا ذات تفكير منطقى وأن المستودع الذى تكمن فيه هذه النفس هو الجسم الصنوبرى فى المخ . وصنف ديسكارتس مؤلفا فى الطب بين فى بعض اجزائه تصوراته لطريقة حدوث ردود الفعل المنعكسة فى الانسان واستجابته للمؤثرات المختلفة .

ومنذ أواخر القرن السابع عشر بدأت تفاصيل التراكيب الدقيقة فى جسم الانسان تتضح مع اكتشاف المهجر .

وخلال القرن الثامن عشر بدأت الدراسات على النشاط الكهربائى للاعصاب والعضلات .

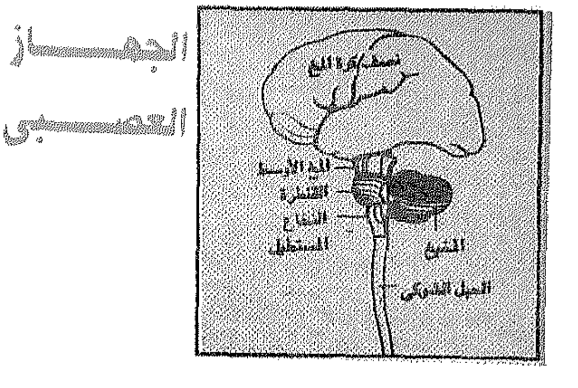
وفى خلال القرن التاسع عشر بدأت وظائف الجهاز العصبى الارادى الذى يتحكم فى وظائف الاحشاء فى الاتضاح . وفى نفس الوقت ايضا بدأت دراسات كثيرة مختلفة لوظائف اجزاء المخ ، وبدأ تحديد اماكن مراكز كثيرة فى المخ تختص بالحـــركة ، والاحســـاس ، والســمع والابصار .

وشهد القرن العشرون تقدما مذهلا فى كل المجالات العلمية والطبية واكبه ابتكار الكثير من اجهزة الفحص والاختبار مثل المهجر الاليكترونى واجهزة الفحص الاشعاعى باستخدام الصبغات والاشعة المقطعية ، ورسام المخ الكهربائى .

ويتركب مخ الانسان من أكثر من عشرة بلايين خلية عصبية تتخاطب فيما بينها عن طريق اشارات كهربائية ، وعن طريق افراز مواد كيميائية معينة .

ويتكون المخ اساسا من نصفى كرة تتحكم اليمنى فى الجانب الايسر من الجسم ، واليسرى فى الجانب الايمن منه . وتشمل بقية اجزائه جذع المخ الذى يربط بين كرتى المخ والحبل الشوكى ، والمخيخ الذى يقبع خلف جذع المخ ويتصل اتصالا وثيقا باجزائه المختلفة (شكل " ١ ") .

ويرتبط السطح الاسفل من المخ



الجهاز العصبى

ارتباطا جيدا بالغدة الصماء القائدة فى الجسم " الغدة النخامية " التى تتحكم فى العديد من الغدد الصماء الأخرى مثل الغدة الدرقية ، والكظرية ، والغدد الجنسية ، مما يجعل الجهاز الهرمونى تحت سيطرة الجهاز العصبى . ويتيح هذا الوضع الفريد للجهاز الهرمونى قدرة التفاعل مع الجهاز العصبى والتكامل معه فى تنظيم وظائف الجسم المختلفة .

الوظائف الإرادية واللاإرادية

ويمكن تقسيم المخ من الناحية الوظيفية إلى قسمين اساسيين : قسم يختص بالوظائف الارادية مثل التفكير والكلام ، والحركة طبقا لارادة الانسان وقسم يختص بالوظائف اللاارادية أو الحشوية مثل التنفس والهضم وتنظيم سريان الدم والاخراج والمحافظة على حرارة الجسم .

ولا يمكن الفصل بين اقسام المخ الوظيفية فبينهما ترابط مثل ترابط التروس التى تحرك عقارب الساعة الواحدة .

وبالتالى تتأثر وظائف الجسم الحشوية، كالهضم والتنفس بالنشاط الارادى مثل التفكير والافعال الصادرة عن رغبة الانسان وبالمثل ايضا تتأثر الاعمال الارادية بحالة الاحشاء وقدرتها على العمل، ودرجة نشاطها أو خمولها .

ويحدث الكثير من الامراض فى الجسم نتيجة اضطرابات فى الحالة العقلية أو النفسية . بل قد يصبح الانسان اكثر عرضة للاصابة بحوادث مختلفة مثل حوادث الطريق أو الحوادث داخل المنزل . كما قد تنخفض المناعة فى الجسم ويصبح اقل قدرة على مقاومة الجراثيم المسببة للامراض .

وفى نفس الوقت يؤدى اختلال الوظائف الحشوية إلى حدوث اضطرابات نفسية ، وتتأثر اعمال الانسان الارادية ، وانحرافها عن المألوف .

ومن امثلة ذلك كله نذكر ما يلى فى تأثير النفس على الجسم :

- يحدث القلق الشديد اختلالا فى نبضات القلب ، وارتفاعا فى ضغط الدم وزيادة فى حموضة المعدة ، وميلا لحدوث قرحة بها أو بالامعاء .

- يحدث الحزن الشديد ارتفاعا فى ضغط العين الداخلى كما قد يحدث اعتاما فى الرؤية نتيجة لقلة شفافية عدسة العين .

- تؤدى بعض الحالات النفسية إلى حدوث اضطراب فى افراز بعض الغدد الصماء : فقد يزيد افراز هرمون الغدة

الدرقية ، وقد تحدث اضطرابات فى الدورة الشهرية فى النساء ، كما قد تزيد القابلية لحدوث مرض السكر .

– تؤدى بعض الحالات النفسية إلى فقد الشهية للطعام مما يفضى إلى حدوث هزال واضح .

وفى مجال تأثير الجسم على العقل :

– تتسبب زيادة أو نقص أفراز بعض الغدد الصماء مثل الغدة الدرقية فى حدوث اضطرابات فى الشخصية وتغير فى المزاج العصبى .

– يحدث امتلاء المعدة أو فراغها ، واحتباس البول ، أو وجود مغص بالامعاء بعض التأثير فى القدرة على التركيز والتفكير .

– تتغير الحالة النفسية لكثير من السيدات اثناء الدورة الشهرية نتيجة لتغير منسوب الهرمونات فى الدم .

ويدعونا استحضار ذلك كله إلى أن نأخذ فى اعتبارنا دائما تأثير العقل والحالة النفسية على الجسم ، وتأثير الجسم على التفكير .

إن الانسان لكى يكون مفيدا منتجا لابد أن تعمل اجهزة جسمه فى توافقا وانسجام . ولا ينبغى أن ننسى أن الانسان يتأثر بالبيئة المحيطة به ، ويتفاعل معها ككائن حى ، فيتأثر بتغيرات العالم الذى يعيش فيه كما أنه يستطيع أن يحدث تغيرات فى الوسط المحيط به .

والانسان لا يفتقد الارادة والحكمة والقدرة على أن يجعل نفسه فى أحسن حالاته إلى أقصى درجات الامكان فهذه واحدة من مواهب الله جل وعلا له ، ونعمه التى لا تحصى عليه . فالانسان يمكنه أن ينأى بنفسه عن مواطن المتاعب والمخاطر ، ويخلد إلى القصد والاعتدال فى مأكله ومشربه وجده ولعبه ، وعمله ونومه . كما أنه يستطيع أن يوفر الطمأنينة لنفسه عن طريق الصلاة وأيضا عن طريق راحة الضمير . وعندما تحيق به الشدائد يلتجىء إلى الله بالدعاء والرجاء فتصفو نفسه وتهدأ سريرته ويزيده الله من فضله فيستجيب له .

ولكن الانسان ايضا قد يسىء إلى نفسه ، ويعرض جسمه للمخاطر والامراض إذا تجاوز حدود قدراته ، أو أساء استخدام بدنه واجهزة جسمه ، أو إذا أفرط فى تناول الطعام ، أو تعاطى من العقاقير والسموم ما يفسد توازنه ، ويخل بنشاطه ، ويحيق به الهلاك والدمار .

فهل لنا أن ندرك فضل الله علينا ، ونشكره حق شكره بحسن استخدام ما اولانا من نعم ؟

" يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا وما يذكر إلا أولو الالباب " .

• نحو صناعة نموذج ثقافى عربى •



نحن لانخاف من أمريكا

محمود قاسم

ترى كيف ستكون المواجهة بعد أن أنحسرت الحرب الباردة والساخنة بين الايديولوجيات ؟ . لا شك أن الحرب القادمة فى العالم ستكون حرب ثقافات بين الشعوب والطوائف على المستوى المحلى فى مناطق عديدة من العالم ، وستكون حرب ثقافات على المستوى العالمى بين شعوب عديدة فى بقاع الدنيا باكملها ..

لن تكون هذه الحرب بين ثقافة معينة وأخرى . ولكن ، بين ثقافات عديدة ، فقد تمتزج مجموعة من الثقافات ، مثلما كانت تتحد الجيوش المحاربة فيما قبل ، لمواجهة ثقافة أكثر سطوة . أو لمناهضتها مثلما يحدث الآن بالنسبة للثقافة الأوروبية التى بدأت تمتزج ببطء مع عام ١٩٩٢ أو عام الوحدة الأوروبية فى مواجهة الثقافة الأمريكية .

وهذه المواجهات كانت موجودة دائما ، لكنها بدأت تتبلور فى الربع الأخير من القرن العشرين ، وقد سبق أن أشرنا إلى بعض من ملامحها فى الهلال - اكتوبر ١٩٨٩ - لكن مع عام ١٩٩٢ تغيرت أشكال المواجهة ..

فى شهر ابريل الماضى بدأت هذه المواجهة تشتد بشكل لافت للنظر ، وذلك بمناسبة افتتاح مدينة ديزنى قرب باريس فى الثانى عشر من ابريل ، فقبل افتتاح المدينة بأسابيع عديدة والمفكرون الفرنسيون يرفعون شعار مواجهة ذلك المد الثقافى القادم من الولايات المتحدة ، والمتمثل فى غزو ثقافى جديد فى شكله ، وقوى فى جاذبيته ، وخطير فى قدرته على طمس الثقافات المحلية ، ومنافستها ..

ومن جديد أثيرت قضية سطوة ثقافة الدولة الأولى الآن فى العالم من ناحية القوة العسكرية والسياسية على ثقافات العالم كله ...

ولم يتأخر المفكرون الفرنسيون فى التصدى لهذا الخطر (!) القادم إليهم فراحوا ينبهون إليه ، لكن هيهات ، فهاهى مدينة ديزنى قد فتحت أبوابها كى تتسع لمئات الآلاف من الزوار يوميا .. وعلى باريس صاحبة أشهر أحياء الأدب والفن والمتاحف أن تسعى قدر الإمكان لجذب هؤلاء الزوار من ديزنى لاند إلى اللوفر ومونمارتر .. لكن هيهات .. فهناك مناطق جذب جديدة لن تقاوم الأماكن التقليدية منافساتها .

تجىء خطورة هذا الحدث أن باريس بؤرة الثقافة الأوروبية المعاصرة ، وإيقاعها وابداعها يختلفان تماما عن الايقاع الأمريكانى AMERICANISMO. فإذا كان المثقفون فى الدول التى عرفت بتاريخها الفكرى الطويل ، والتى أفرزت أهم الأسماء فى مجالات الابداع والفكر والفلسفة طوال قرون قد نبهوا إلى ظاهرة الغزو الثقافى الامريكى الذى تمثل فى سيادة برامج التليفزيون ومحطات البث وقوة وكالات الأنباء وجاذبية أفلام هوليوود. فإن افتتاح مدينة ديزنى كان يستحق كل

نحو صناعة
نموذج ثقافي
غربي



شيرنوبل .. ثقافية

جاءت حساسية هذا الحدث فى أن شخصيات مدينة ديزنى وما تمثله من ثقافات أمريكانية ، كانت تدخل البيوت قبلا عبر شاشات السينما والتلفاز قد أصبح لها مكانا فى قلب أكبر عاصمة ثقافية فى العالم . وأصبحت المدينة كائنا مزروعا يمكن أن يهدد الثقافة الفرنسية التى تتسم بطابع خاص بكل مابه من تقليدية ومدارس تجريبية مرتبطة بنظريات فى المسرح والرواية وسينما الموجة الجديدة .

وقد كتب الكثيرون عن أهمية المجابهة بين هذه الثقافة وبين الامريكانية التى حلت فى قلب أوروبا بكل ثقلها وجاذبيتها وسطحيتها . لكن أهم من كتب فى هذا الأمر هو المفكر والاديب چان فرانسوا ريفل الذى كتب مقالا بالغ العمق فى مجلة لوبوان – ٢١ مارس ١٩٩٢ – تحت عنوان « نحن لا نخشى أمريكا » . يرد فيه على المخاوف التى اعتملت فى أذهان المثقفين الفرنسيين . حيث أكد البعض أن افتتاح مدينة ديزنى أشبه بكارثة شيرنوبل على المستوى الثقافى .

فلا شك أن الثقافة الأمريكانية – حسب هذه المخاوف – سوف تتسرب من حيث لا يدرى الناس مثلما تسربت أشعة مفاعل تشرنوبل إلى الناس وظهرت آثارها الضارة بعد فترة من الزمن .

المثير فى هذا الأمر أن چان فرانسوا ريفل يهدئ من هذه المخاوف مؤكداً أنه لا داع للخوف بالمرة من الثقافة الأمريكية ليس بالطبع لأنه حاول أن يقلل من أهميتها ، أو أن يهون من مخاطرها . ولكن لأنه يركز علي نقطة هامة ، وهى أن الثقافة الأمريكانية لا تأتى لتمحو ثقافة مولودة من فراغ . ولكنها سوف تجد نفسها فى مجابهة صنعت لنفسها هويتها الراسخة . ومن الصعب اقتلاعها من جذورها .

وهذه النقطة هى مربط الفرس فى موضوع مواجهة الثقافات ، فلا شك أن هذا الأمر يهمنا هنا فى عالمنا العربى والاسلامى ، فنحن كثيرا ما نتحدث بحساسية مرهفة عن الغزو الثقافى الاجنبى . وأنه يهدد ثقافتنا البالغة الأصالة والتقدم . وبدا الأمر كأن هذه

الحضارة العريقة لا يمكنها أن تجابه أى ثقافة أخرى أو تقف فى مواجهتها . رغم أنها أقدم الثقافات وأكثرها أصالة ..

شخصيات مقتبسة

يقول جان فرانسوا ريڤل أنه لا خوف بالمرة من الثقافة الأمريكية . فلو نظرنا إلى الشخصيات التى ابتدعتها مؤسسة ديزنى ، على سبيل المثال ، فسنجد أنها مستوحاة من الثقافات الأوروبية ، فقد استوحى ديزنى شخصية زورو الشهيرة من الفولكلور الأسبانى . كما أن شخصيات « الأميرة والأقزام السبعة » و « الحسناء النائمة » مصنوعة فى أوروبا . مع شخصيات أخرى كثيرة . وكل ما قام به الأمريكيون أن أقتبسوها وحاولوا تصديرها إلى كل أنحاء العالم . ومنها بالطبع البلاد التى اقتبست منها مثل هذه الشخصية .

لكن الخطأ الذى وقع فيه جان فرانسوا ريڤل يتمثل فى أنه لا يزال أسيرا لماضى ثقافته . فهو يتحدث عن تاريخ أوروبا الثقافى ، مؤكدا أن اليونان قدمت للعالم المسرح والفلسفة . وقدم الفرنسيون كورنىٍ وموليير والبريطانيون شكسبير . والألمان بيتهوفن وفاجنر .

ولاشك أن هذا اعتراف خطير من ريڤل أن الثقافة المعاصرة أضعف من أن تجابه السطوة الثقافية القادمة من العالم الجديد . ففيما قبل كان الأوروبيون هم الذين يكتشفون الأدباء الامريكيين مثلما فعل بودلير حين ترجم « قصص شاذة » لادجار إلن بو . أما الآن فإن الأمر قد تغير ، إن لم يكن قد إنقلب . فالإيطاليون ، على سبيل المثال ، هم الذين صنعوا ألمانيا . لكن الأمريكيين هم الذين قدموها فى روايات وأفلام مصبوغة بالصبغة الأمريكانية .

ولعل أهم ما أشار إليه ريڤل هو أن الأمريكيين لم يتفوقوا فى كافة الفنون ، بل برعوا فى فنون بعينها . فقد اهتموا بالفنون الجماهيرية مثل السينما والدراما التليفزيونية ، أما بقية الفنون الحقيقية ، و الآداب ، فقد وجدت سيادتها خارج الولايات المتحدة كفن الرواية . والموسيقى والفن التشكيلى ..

فمن الواضح أن اساطين فن الرواية الأمريكية الذين برعوا بين الحربين قد قطعوا شوطا طويلا فى أوروبا وتأثروا بالمدارس البريطانية والفرنسية مثل هيمنجواى وفوكنر وشتاينبك . وسنكلير لويس وبأختفاء هذا الجيل ظهر جيل جديد أقل قيمة رغم العدد الضخم من الاصدارات السنوية فى مجال الرواية .

الآن فإن الصدارة فى عالم الرواية موجودة فى أوروبا وأمريكا اللاتينية واليابان والعالم العربى ..



ثقافة الأموال الضخمة

المهم فى هذه الملاحظات أن خيوط الابداع المتميز ليست فى أيدى من هم الأكثر ثراء . لكن هذا لا يمنع أن هناك علاقة بين فنون الكتابة التى برزت خارج الولايات المتحدة . وفنون التعبير المتمثلة فى السينما والتليفزيون . وقد تحدث جان فرانسوا ريڤل عن ثلاث ملاحظات تتعلق بسيادة النوع الأمريكى فى مجال الفنون من خلال :

– نجح الأمريكيون فى التعامل مع وسائل الأعلام . وسعوا إلى اقتباس الروايات المكتوبة خارج الولايات المتحدة . خاصة الميلودرامى منها . فقاموا بتحويرها وأمركتها . فشخصية « رامبو » هى تحوير لشخصية المغامر روكامبول ، أما شرلوك هولمز فقد تحول إلى المفتش كولمبو . (يهمنا أن نذكر هناك شخصيات فى تراثنا العربى أقدم من هذه النماذج مثل : على الزيبق و الزير سالم) .

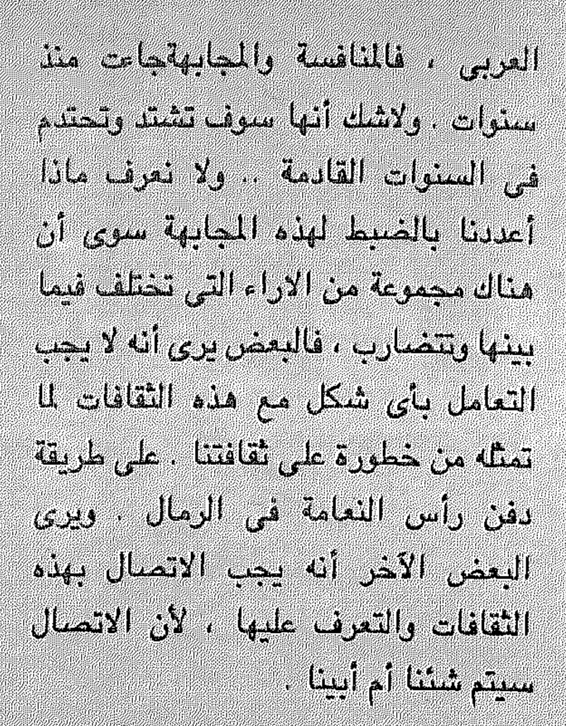
يعترف ريڤل أن السبب الأساسى فى الاعجاب بالنموذج الأمريكانى أنه الأكثر شجاعة وجرأة من النماذج الثقافية الأخرى . فهو يتصدى لكشف الفضائح ولا يحابى أحداً ولا يتعامل مع المجردات . ولعل هذا يعطى مؤشرا قويا على العلاقة بين الابداع والحرية بكافة أشكالها .

ويهمنا أن نعلق على هذه النقطة بأن الرقابة وسيطرة الأجهزة الرسمية على الابداع يساعد فى خنق تكوين هوية ثقافية قومية حقيقية يمكنها أن تجابه الثقافات الأخرى الأكثر حرية ومرونة فى التعبير عن مشاكل المجتمع الذى تمثله . فالرقيب يتعامل مع المثقفين والجمهور على أنهم لم يبلغوا سن الرشد بعد ، ويبدو كمدرس يحمل عصا يعلم الناس ما يجب ومالا يجب أن يقرأوه ويشاهدوه فى الصالات والبيوت ..

أعترف ريڤل أن الأمريكيين لم يتفوقوا سوى فيما أسماه ، بثقافة الفنون المرئية ، وهذه الثقافة تعتمد فى نجاحها الجماهيرى على رءوس أموال ضخمة ، فاستوديوهات هوليوود ومدينة ديزنى لم يكن لها أن تظهر إلا من خلال اعتمادات مالية ضخمة . ثم كبرت هذه المؤسسات من خلال الأرباح الطائلة التى تحققها .

شئنا .. أم أبينا

لعل افتتاح مدينة ديزنى فى باريس يكون بمثابة جرس التنبيه لنا فى عالمنا



العربى ، فالمنافسة والمجابهةجاءت منذ سنوات . ولاشك أنها سوف تشتد وتحتدم فى السنوات القادمة .. ولا نعرف ماذا أعددنا بالضبط لهذه المجابهة سوى أن هناك مجموعة من الاراء التى تختلف فيما بينها وتتضارب ، فالبعض يرى أنه لا يجب التعامل بأى شكل مع هذه الثقافات لما تمثله من خطورة على ثقافتنا . على طريقة دفن رأس النعامة فى الرمال . ويرى البعض الآخر أنه يجب الاتصال بهذه الثقافات والتعرف عليها ، لأن الاتصال سيتم شئنا أم أبينا .

أما البعض الثالث فيرى أنه من المهم تأصيل نموذجنا الثقافى ، ولا شك أن صناعة نموذج ثقافى عربى له قوته واصالته وهويته هو أفضل الحلول . سواء للمجابهة القادمة . أو لمحاولة رد السيادة التى تمثلها ثقافات عربية أكثر ثراء وجاذبية وانتشارا .. وعلى سبيل المثال . ففى عالم ثقافة الطفل ليست لدينا شخصية قومية يمكن التاكيد أنها عربية أو مسلمة يمكنها أن تقف فى مواجهة النماذج الأخرى الموجودة فى القرية العالمية ، ليس فقط من الولايات المتحدة التى صنعت عشرات الشخصيات من طراز ميكى وسوبر مان وتوم وچيرى . بل من فرنسا تان تان وسبيرو ، ومن ايطاليا (پينوكيو) وشخصيات أخرى مصنوعة فى اليابان وغيرها من الدول ..

وإذا نظرنا إلى السينما العربية ، فسوف نرى أن أغلبها خرج من عباءة السينما فى بلدان عديدة ، ولكن هناك نوعا من الانفراج والتميز فى ميدان الرواية . فلا شك أن هناك مجموعة من الأدباء العرب يحظون بأهمية لا بأس بها . سواء الذين يكتبون بالعربية أو بالفرنسية مثل الطاهر بن جلون وأمين معلوف ورشيد بوجدرة .

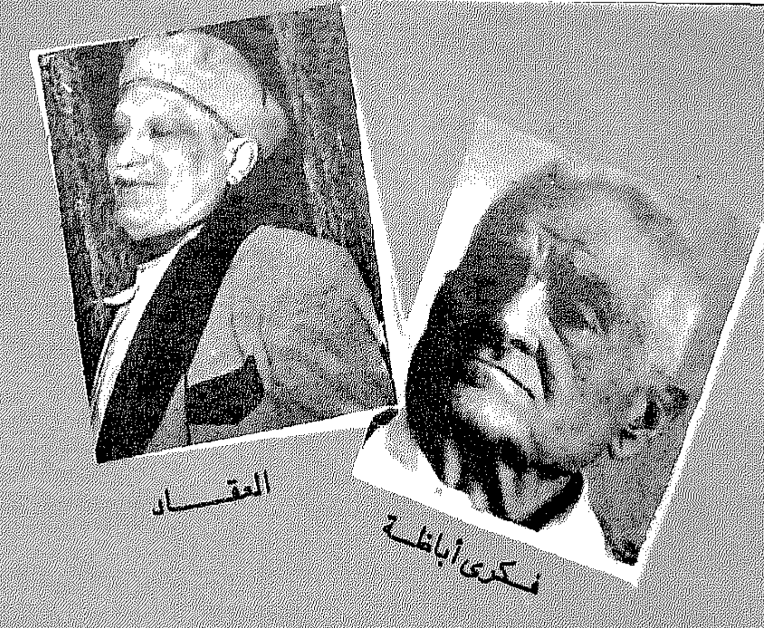


إذا كان چان فرانسوا ريڤل قد ردد : «نحن لا نخشى امريكا » بينما تدخل الأمريكانية بكل قدراتها عرين أوروباالتى صنعت ثقافة العالم طوال قرون . فهل يمكن أن يردد مثقف عربى نفس العبارة ، اللهم إلا إذا كان هناك نموذج ثقافى عربى يمكنه الوقوف صلبا أمام النموذج الأمريكانى . يمكن أن يجابهه وينافسه . وأن يجد قبولا وجاذبية على الأقل على المستوى العربى .. ؟

مجرد سؤال ..



د. محمد حسين هيكل



العقــــــاد

شكرى أباظة

عندما كانت مجلة الهلال فى سن الخمسين

بقلم : عبد الحميد الكاتب

كنت أعمل محرراً بمجلة «الهلال» عندما احتفلنا ببلوغها سن الخمسين ، وأرجو أيها القارئ الكريم ، وأيتها القارئة الكريمة ، ألا تتعجلا فتحسبان أننى بلغت الآن من العمر مائة سنة عتيا .. فقد كنت أعمل محرراً بالهلال وأنا طالب صغير فى الجامعة !

وعندما اقتربت المجلة العظيمة من سن الخمسين رأى رئيس تحريرها ، الاستاذ اميل زيدان ، أن يصدر عدداً خاصاً احتفاء بهذه المناسبة الكبيرة ، وأخذ يفكر فيما ينبغى أن يتضمنه هذا العدد من موضوعات ، وفيمن ينبغى أن يكتبوا فى هذه الموضوعات . واستقر رأيه على أن تكون هذه هى المناسبة لعرض تطور الحياة المصرية والحياة العربية فى شتى جوانبها خلال تلك السنوات الخمسين التى قطعتها مجلة «الهلال» .

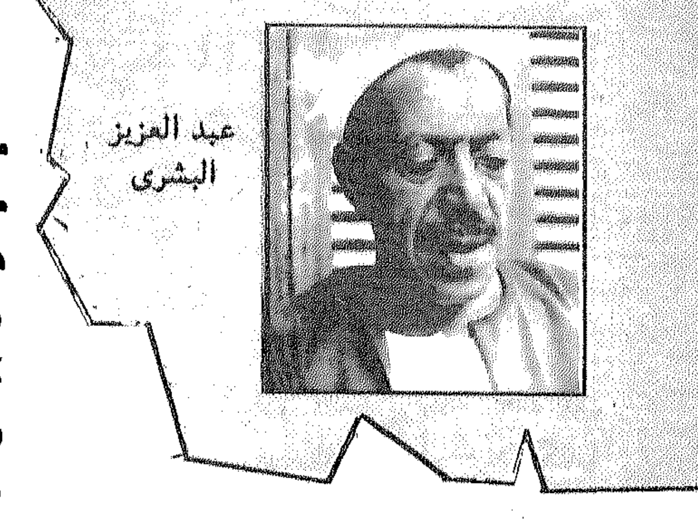
وكنا ثلاثة نعمل مع رئيس التحرير ، الاستاذ طاهر الطناحى والاستاذ إبراهيم المصرى وكاتب هذا المقال .. فوضعنا برنامجاً مفصلاً يتضمن موضوعات هذا العدد الخاص ، فاكتمل أمامنا تصور شامل للحياة المصرية والعربية فى جميع جوانبها وأبعادها ، وتطورها خلال نصف قرن مضى ، وتطورها المأمول فى القادم من السنين .. فوضعنا فى هذا البرنامج أسماء العديد من أكبر وأبرز الشخصيات المصرية والعربية .. رؤساء دول ورؤساء حكومات .. زعماء سياسيين ووزراء بارزين .. قادة فى مجالات الاقتصاد والاجتماع والتعليم والقانون .. اسماء كبار المفكرين والكتاب .. اسماء ضخمة فى عالم الأدب والشعر والفن .. وفى عالم التحرر الوطنى والاجتماعى الذى كنا نعيشه حينذاك .

وأرسل رئيس التحرير خطابا إلى كل من هؤلاء الكبار البارزين ، وراح الاستاذ طاهر الطناحى يتصل بهم ويتابعهم ، حتى تجمعت لدينا المقالات المطلوبة فأخرجنا عدداً من « الهلال » لا أقول أنه كان عدداً «خاصاً» ولا عدداً « ممتازا » ، بل اقول اننا قدمنا للقارىء ثروة من العلم والفكر والأدب لا مثيل لها .

لقد عدت إلى تصفح هذا العدد من مجلة الهلال فقلت ما اظن أن هناك كتابا عن تاريخ مصر وتاريخ العرب فى العصر الحديث يضاهى هذا « السفر » الحافل فى مادته وثروته ، وفى أفكاره وتوجهاته ، وفى مستوى هؤلاء الاعلام الذين شاركوا فى كتابة موضوعاته المتعددة والشاملة . ولهذا فإنى لأرجو ، وألح فى الرجاء ، ان تعيد دار الهلال إصدار هذا العدد من مجلة الهلال الذى صدر فى سبتمبر سنة ١٩٤٢ ، وسيقبل عليه القراء الآن اكثر مما أقبلوا عليه منذ نصف قرن مضى ..

وعلى مر السنين الطوال فإنى لأذكر جيداً أن أحد كبار كتاب الهلال ، وهو المرحوم الشيخ عبد العزيز البشرى الذى طلبنا منه مقالا فى هذه المناسبة ، اتصل بى بالتليفون ليخبرنى بأنه انجز المقال ، وأن أرسل إليه من يحمله إلى المجلة ، ثم يقول ويكرر : كل خمسين سنة يابنى وانت طيب ! .

وشاءت ارادة الله أن يجيب دعاء الشيخ عبد العزيز البشرى ، ابن الشيخ سليم البشرى شيخ الازهر الشريف .. رحمهما الله برحمته الواسعة .. وهأنذا ادعى بعد خمسين سنة للمشاركة فى العيد



المئوى للهلال .. وادعو الله عز وجل أن يشهد أولادنا وأحفادنا الاعياد القادمة لمجلة الهلال العريقة .

☆☆☆

بدأت صلتى بمجلة الهلال وأنا طالب بالسنة الثالثة فى الجامعة ، فقد دفعنى شىء من الثقة بالنفس والتطلع إلى المستقبل أن اطمع فى نشر مقال فى المجلة التى لا يكتب فيها إلا كبار الكتاب أو من اقتــرب من مكانة هؤلاء الكتاب الاعلام .. أن أى تفكير متعقل كان يحتم علىّ ألا يجنح بى الطموح إلى هذا المدى البعيد !

وفعلاً قبعت فى غرفتى اياماً واياماً ، وكل يوم يمتد بى العمل معظم الليل وشطراً من النهار ، وكتبت ثلاث مقالات .. مقالة عن القصصى الروسى تشيكوف ، ومقالة عن الشاعر الهندى طاغور ، ومقالة عن موضوع مصرى اذكر أنه موضوع «قوانين العمل والعمال» التى نحتاج إليها فى مصر وكل مقال كتبته واعدت كتابته مرة أو مرتين أو ثلاث مرات . ثم ذهبت بها إلى دار الهلال وقابلت الاستاذ طاهر الطناحى مدير التحرير .. فقال لى : إن مجلة الهلال مخصصة لكبار الكتاب .. وبدأ يسرد بعض هذه الاسماء الكبيرة .. قلت : نعم ، أعرف هذا .. ولكننى اطمع فى أن تجد فيما كتبت شيئاً مناسباً للنشر فى الهلال .. وخاصة أننى منذ قريب نشرت مقالاً فى مجلة أخرى لا يكتب فيها إلا كبار الكتاب وهى مجلة « الرسالة » وكان المقال عن اسماعيل صبرى ، الشاعر المصرى العظيم .

وبعد أيام لا تتجاوز اسبوعاً وصلتنى رسالة بالبريد .. رسالة من الاستاذ أميل زيدان صاحب دار الهلال ورئيس تحرير مجلة الهلال .. يقول فيها : قرأت مقالاتك واعجبت بها .. وارجو ان تحضر لمقابلتى يوم كذا .. الساعة كذا ..

وذهبت للقاء الرجل الكبير .. وفى الموعد المحدد بالدقيقة خرج من مكتبه واستقبلنى فى الغرفة المجاورة المعدة للمقابلات .. وكان لطيفاً بشوشا .. وأثنى على ما كتبته .. وقال سأنشر مقالك عن تشيكوف، ومقالك عن طاغور ، أما مقالك عن قوانين العمل والعمـــال فهذا موضوع مصرى بحت .. ومجلة الهلال مجلة مصرية للعرب جميعاً .. قراؤها هم قراء العربية فى كل بلاد العرب .. حتى فى مهاجرهم فى أقاصى الأرض .. ثم قال لى ما هو أكثر من هذا : كلما فكرت فى كتابة موضوع لمجلة الهلال .. فأطلب مقابلتى .. وأحضر لنتناقش فيما تريد كتابته .. لنتفق

على الموضوعات المناسبة لمجلة الهلال ، ولغيرها من مجلات دار الهلال .

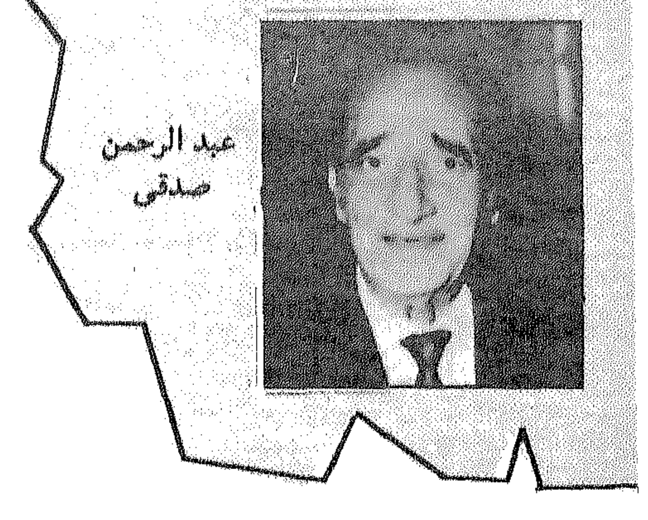
خرجت وأنا لا أصدق أن طالباً لم يتم دراسته بعد قد استقبله هذا الصحفى الكبير بهذا القدر من التشجيع .. وبعد شهر أو أقل صدرت مجلة الهلال وفيها مقالى عن تشيكوف .. ثم ظهـرت مقالتى عن طـاغور .. وبعد النشر بأيام قليلة كانت تصلنى رسالة من دار الهلال أصرف بها من خزانة الدار جنيهين عن كل مقال .. ومع الرسالة بطاقة من الاستاذ إميل زيدان عليها كلمات : مع شكرى وتحياتى .

وقد سئلت فى الاجتماع الذى عقد فى دار الهلال للاعداد للاحتفال بالعيد المئوى لمجلة الهلال عن مكافآت الكتاب عن مقالاتهم فى ذلك الوقت « وكنت أعرف هذا عندما صرت سكرتير تحرير مجلة الهلال»

العقاد وأحمد أمين وعبد العزيز البشرى وفكرى أباظة .. وغيرهم من الكتاب الكبار كانت المكافأة ثلاثة جنيهات عن المقال . أما الطبقة الثانية من الكتاب ، وكانوا عندئذ يقتربون من الصف الأول ، وهم عبد الرحمن صدقى وعلى أدهم وإبراهيم المصرى وحسن الشريف وحبيب جاماتى وغيرهم ، فكانت المكافأة جنيهين عن المقال وكان الكاتب الوحيد الذى يتجاوز هذا القدر هو طه حسين فكانت مكافأته خمسة جنيهات عن المقال .

أذكر فى هذه المناسبة أن العقاد عندما خرج على الوفد وراح يهاجم الحزب ورئيسه ورجاله ، سدت فى وجهه كل أبواب النشر فى الصحف والمجلات .. خرج من صحيفة « الجهاد » الوفدية ، ولم يكن فى وسعه أن يكتب فى صحيفة من صحف الأحزاب الأخرى التى أمضى السنوات وهو يهاجم زعماءها بشدة وعنف .. وأصدرت السيدة روز اليوسف جريدة يومية يدير تحريرها الدكتور محمود عزمى ، ويكتب فيها العقاد المقال الرئيسى كل يوم .. ولكن الجريدة لم تعش إلا قليلاً ، وخاصة أنها ركزت على مهاجمة المعاهدة المصرية البريطانية التى عقدت سنة ١٩٣٦ ، وكان أغلب الناس قد رضوا بها ليستريحوا ويستجموا من مشقة الجهاد الوطنى ومتاعبهم التى استغرقتهم سنين طويلة .. فانصرف الناس عن تلك الجريدة الممتازة من الناحية الصحفية البحتة ، فأغلقت أبوابها ولم يبق للعقاد من مصدر رزق سوى مقالين يكتبهما لمجلة الهلال ، إحداهما يوقعه باسمه ، والثانى ينشر فى نهايته الحروف الأولى من اسمه .. ويتقاضى عنهما ستة جنيهات فى الشهر .

رأيت العقاد فى تلك الفَترة العصيبة مراراً فى « مكتبة نهضة مصر » يتصفح الكتب الأجنبية ويأخذ جانباً منها .. ولقيته مرتين أو أكثر ينتظر الترام فى ميدان العتبة الخضراء وهو يحمل حزمة من هذه الكتب الأجنبية .. وسألت صاحب مكتبة



نهضة مصر المرحوم الأستاذ حسن محمد عن هـذا فقـال .. قلت له : يا أستاذنا خذ ما تشاء من الكتب .. وسأكتب ثمنها على « الحساب » .. وإن شاء الله سوف تفرج وتدفع ثمن الكتب .

فى تلك الأيام كـتب العقـاد قصـة « سارة » .. قصة حب لامرأة لا نعرف حـتى الآن من هى .. قيـل إنهـا ممثلة مصرية كانت ذائعـة الصيت فى ذلك الوقت .. وقيل إنها امرأة لبنانية تعيش الآن فى باريس أو كانت تعيش هناك حتى وقت قريب .. واقترح عليه الأستاذ طاهر الطناحى أن ينشر هذه القصة مسلسلة فى إحدى مجلات دار الهلال ، وبواقع ثلاثة جنيهات عن كل حلقة ..

ووافق العقاد .. ونشرت الحلقة الأولى.. ثم الحلقة الثانية وفى مقدمتها كلمة يقول فيها الطناحى إن العقاد على كثرة ماكتب فى شتى الموضوعات ، فإنه لم يكتب عن الحب فى شبابه .. أما الآن وقد بلغ الأربعين أو جاوزها ، فقد راح يكتب عن الحب ! وكانت كلمة بريئة كل البراءة ..

ولـكن ما أن قرأها العقـاد حتى غضب وثار .. وهاج وماج .. ورفض أن يستمر فى نشر القصة التى تدر عليه اثنى عشر جنيها كل شهر .. واكتفى بمقاليه فى الهلال .. وبالستة جنيهات !

بين العقاد وهيكل

وكان العقاد مريحاً فى شئ ، ومتعباً فى شئ آخر ، كان مريحاً فى الالتزام بالموعد المحدد لتسليم مقاله ومريحاً فى وضوح الخط الذى يكتب به كأنه خطاط .. على النقيض الدكتور محمد حسين هيكل باشا الذى لم أكن أستطيع قراءة خطه بتاتاً ، بل إن عمال المطبعة فى دار الهلال لايستطيعون قراءته ، فكنا نستعين بعامل فى مطبعة جريدة « السياسة » التى يرأس تحريرها ليفك طلاسم هذا الخط .. أما الناحية التى كنت أتعب فيها مع العقاد فهى إذا تجاوزت مقالته الصفحات المقررة لها بسطر أو سطرين .. فأنا لا أستطيع أن أضحى بصفحة كاملة من المجلة لأنشر فيها سطراً واحداً أو سطرين .. فلابد أن أرسل « بروفة » المقال إلى الأستاذ العقاد فى منزله فى مصر الجديدة ، لكى يختصر هو بنفسه هذين السطرين ، وأذكر أنه قال لى مرة أنه تعب كثيراً ليعثر على سطرين من مقاله يمكن الاستغناء عنهما !

ينبغى هنا أن أقول شيئاً .. إن العقاد الذى كان يبدو فى ظاهره ، وفى حديثه على الملأ ، متكبراً متعالياً مغروراً .. والذى

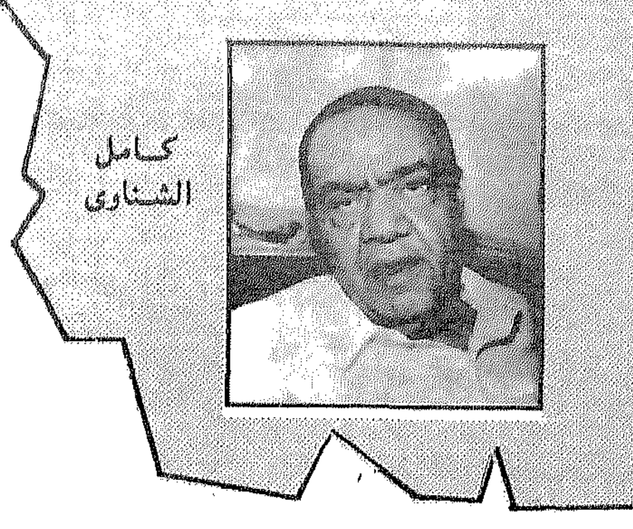
يقف فى مجلس الشيوخ ويقول عن الملك فؤاد : إن المجلس على استعداد لأن يسحق أكبر رأس فى البلاد تعتدى على الدستور .. هذا العقاد نفسه كان على نقيض هذا معنا ، نحن تلاميذه ومريديه ، بل كان يفيض معنا لطفا ورقة وتواضعاً .. أما ذلك التكبر والتعالى والتعاظم فإنه يختص به الكبراء من أمثال جلالة الملك أو زعيم الأمة .. فعندما ذهب مصطفى النحاس باشا إلى العقاد فى بيته ليطلب إليه بصفته « زعيم الأمة » أن يكف عن مهاجمته ومهاجمة الوفد ، قال له العقاد : أنت زعيم الأمة لأن الأمة هى التى جعلتك زعيماً .. أما أنا فكاتب الشرق .. ولا فضل لأحد علىّ فى هذا .. فقد جعلت نفسى كاتب الشرق بفضل مواهبى وجهودى ! .. وعندما ذهب على باشا ماهر بالملك فاروق لزيارة العقاد فى شقته فى مصر الجديدة ، كان العقاد يقول .. ولا يتحرج من القول .. إننى لا أستفيد شيئاً من هذه الزيارة .. ولكن الملك هو الذى يستفيد .. فعندما يكتب تاريخه سيذكر الذين يمدحونه أنه كان يريد أن يتعلم وينفتح عقله .. فذهب إلى زيارة العقاد فى بيته .

أعود إلى مجلة الهلال وصلتى بها منذ نصف قرن مضى ؟

سألنى الأستاذ إميل زيدان فى أحد لقاءاتى معه ، وكنت عندئذ فى السنة الأخيرة فى كليتى الجامعية ، عن المرتب الذى يمكن أن أحصل عليه بعد تخرجى فى الجامعة .. فقلت له إذا وجدت « واسطة » كبيرة وذات نفوذ فسأحصل على وظيفة مرتبها عشرة جنيهات . فقال لى : لماذا لا تأتى الآن إلى دار الهلال ويكون مرتبك عشرة جنيهات ؟ قلت : إننى سأتم دراستى بعد شهور قليلة وآخذ « البكالوريوس » .. فقال : وهو كذلك .. انته من الامتحان ، ولا تنتظر النتيجة ، واحضر للعمل معنا ..

وفعلاً لم أنتظر نتيجة الامتحان .. فقد رسبت فى إحدى المواد .. وأخذت الشهادة فى الملحق !

وعملت فى دار الهلال بمرتب قدره عشرة جنيهات فى الشهر .. وشعرت منذ أول شهر بالاستقلال الاقتصادى عن والدى .. وبعد ثلاثة أو أربعة شهور شعرت بالرغبة فى الاستقلال الاجتماعى عن أسرتى .. وتجرأت وفاتحت أمى وأبى فى هذا .. وكانت عاصفة من الرفض والاستياء .. ثم كلام عن الزواج .. ثم موافقة على مضض، فاستأجرت شقة قريبة من بيت أسرتى وكان إيجارها جنيهين ونصف جنيه .. وكانت من ثلاث غرف واسعة وصالة فسيحة .. وبما لايزيد على أربعين أو خمسين جنيهاً اشتريت الأثاث اللازم بما فيه مكتب وخزانة كتب .. وأنا لا أعرف الطهو فاستأجرت طاهياً بجنيه ونصف جنيه فى الشهر فيطهو الطعام وينظف الشقة أيضاً .. وبثلاثة جنيهات فى الشهر يشترى اللحم والخضار



والفاكهة .. وإذا أردت أن أتعشى مع الاصدقاء خارج البيت فهناك مطعم إيطالى فاخر فى ميدان التوفيقية ، تؤمه الممثلات المشهورات فى ذلك الوقت .. فنراهن .. ونأكل ونشرب الطعام الإيطالى اللذيذ .. ويدفع كل منا عشرين أو خمسة وعشرين قرشاً .

وهذا المستوى للأسعار لا يختلف كثيراً عن مستواها الحالى ! .. كيف ؟ .. نعم ، لقد كانت قيمة الجنيه المصرى أعلى قليلاً من قيمة الجنيه الذهب .. كان هذا يساوى سبعة وتسعين قرشا ونصف قرش .. والذى حدث أن هذا الجنيه الذهب يساوى الان أكثر من مائتين وستين جنيهاً مصرياً .. أى أن مرتبى وقدره عشرة جنيهات يساوى الآن أكثر من ألفين وستمائة جنيه .. ولو اعطتنى مجلة الهلال الآن هذا المبلغ لاستطعت أن أعيش فى المستوى المريح الذى كنت أعيشه منذ خمسين سنة !

وزاد مرتبى من مجلة الهلال مرتين فوصل إلى خمسة عشر جنيهاً . ثم حدث تطور كبير فى الصحافة المصرية وفى مرتبات المحررين ، وذلك عندما صدرت «أخبار اليوم» فى أكتوبر ١٩٤٤ ، وسمعنا عن مرتب قدره مائة جنيه فى الشهر يتقاضاه كل من توفيق الحكيم وأحمد الصاوى محمد وكامل الشناوى وعندئذ فاجأنى الأستاذ أميل زيدان ذات يوم بسؤاله عن مرتبى .. قلت له إنه خمسة عشر جنيهاً قال لى .. هذا لا يناسب .. ابتداءً من الشهر القادم سيكون مرتبك ثلاثين جنيهاً ! .. وفعلاً تضاعف مرتبى من مجلة الهلال دفعة واحدة .

ماذا كنت أؤدى من العمل مقابل هذا المرتب ؟

الهلال والترجمة

كان فى دار الهلال مكتب خاص يتلقى مجموعة كبيرة من الصحف والمجلات الإنجليزية والفرنسية والأمريكية ، فيعكف رئيس المكتب الأستاذ مرشاق على قراءتها .. لكى يتخير منها الموضوعات ، ويستمد منها الأفكار ، التى تصلح لمجلة الهلال ولاخواتها من المجلات وأولاها مجلة «المصور» . ومجلة «ايماج» التى تصدر باللغة الفرنسية .. ثم مجلة «الاثنين» ... وربما مجلات أخرى جعلت من دار الهلال أكبر دار صحفية فى العالم العربى ، وإحدى دور الصحف الكبرى فى العالم .

ولم تكن قراءة مجلة أجنبية شيئاً غريباً عنى .. فعندما كنت تلميذاً فى مدرسة

الزقازيق الثانوية كانت توجد مكتبة فى المدرسة ، وكانت ترد إلى هذه المكتبة مجلة إنجليزية أسمها مترجماً إلى اللغة العربية، «المصور» أو «المصورة» ، وكنت أسرع إلى هذه المجلة يوم وصولها فاطالع صورها الرائعة وأحاول أن اقرأ ماكتب تحت هذه الصور .. وأظن أن صاحبى دار الهلال الأستاذ إميل زيدان والأستاذ شكرى زيـــدان ، رأيا أن يخرجا مجلة عربية تضاهى مجلة «المصور» الإنجليزية ومجلة «المصور» الفرنسية الشهيرة ، فأخرجا مجلة «المصور» العربية ..

وكان هذا المكتب يزود مجلة الهلال بكثير من المقالات التى تصلح للترجمة أو التلخيص أو للاهتداء بها فى كتابة موضوعات عربية مشابهة ، فكنت أنكب على هذه المقالات أترجمها أو أقتبس منها، مثلما أخذت أترجم وأقتبس من الكتب الأجنبية التى كنت ومازلت أهوى أقتناءها .. فأملأ بها صفحات مجلة الهلال .. أقول هذا بلا غرور ولا ادعاء .. فقد تصفحت يوماً عدداً من أعداد المجلة فى تلك الأيام ، فوجدت أن عدد الصفحات التى كتبتها كان ثمانين صفحة من المجلة التى تضم مائة وثمانى وعشرين صفحة .. وكانت هذه الصفحات الكثيرة تضم مقالاً وقعته بأسمى، ومقالاً وقعته بالحروف الأولى من الأسم ، ومقالات عديدة مترجمة أو ملخصة .. وقصة قصيرة لأحد أعلام أدب القصة .. هذا فضلاً عن الأبواب الثابتة للمجلة وفيها باب للأخبار العلمية ، وباب نقد الكتب ، وباب رسائل القراء .

وباب رسائل القراء هذا كان ينشر رسائل قصيرة تأتينا من قراء الهلال فى أقاصى الأرض .. تأتينا من قراء فى أمريكا وفى البرازيل والارجنتين .. وفى شيلى فى أقصى جنوب أمريكا .. ولا أظن أن مجلة الهلال كانت توزع أو تباع هناك .. ولكن أظن أن أهل هؤلاء المهاجرين فى لبنان وسورية كانوا يرسلون إليهم المجلة العربية المحترمة .. وهنا أذكر أن من بين من كانوا يكتبون لمجلة الهلال الشاعر أيليا أبو ماضى الذى رأيته فيما بعد يجلس أمام دكان صغير فى حى بروكلين ومنهم الأستاذ فيليب حتى المؤرخ الكبير وأستاذ الدراسات العربية فى جامعة برنستون الشهيرة .. وفى رحلاتى إلى بلاد أمريكا الجنوبية فيما بعد التقيت بالكثير من هؤلاء المهاجرين الاوائل ، ومنهم من صاروا أغنى الأغنياء فى أوطانهم الجديدة .. ولكنهم يقرءون ما يصلهم من مجلات وكتب عربية ، ومنهم من كان يقرض شعراً عربياً .. ولكن هذا توقف عند جيل المهاجرين ، أما أبناؤهم وبناتهم فلغتهم هى الأسبانية أو البرتغالية . ويتعلمون معها لغة أجنبية هى اللغة الأمريكية طبعاً !

☆☆☆

وأخيراً فينبغى أن أذكر أن من أفضال مجلة الهلال علىّ أننى تعرفت خلال



السنوات الثمانى التى قضيتها معها بكثير من الكتاب والأدباء ، وبكثير من الصحفيين، وفى مقدمة هؤلاء اثنان من أعلام الصحافة هما الاستاذ فكرى أباظة والاستاذ مصطفى أمين .

وعن طريق الاستاذ فكرى أباظة نشأت أول صلة لى بالأمم المتحدة . ففى سنة ١٩٤٥ تقرر عقد مؤتمر سان فرنسيسكو لإقامة المنظمة الدولية الكبرى ووضع ميثاقها . ولم تكن الصحف المصرية حينذاك تستطيع أن ترسل مندوبيها إلى هناك ، فاتفقت معنا على أن ينوب عنها الاستاذ فكرى أباظة .. وأظن أنه كان يومها نقيباً للصحفيين .. فسافر إلى سان فرنسيسكو وأخذ يرسل كل يوم برقية باللغة الأنجليزية يلخص فيها أعمال المؤتمر من وجهة نظر مصرية عربية ، فتوزع على الصحف المصرية جميعا . أما مجلة المصور التى يرأس تحريرها فكان يخصها بمقال أسبوعى طويل يبدى فيه آراءه فيما يجرى فى المؤتمر وفى المنظمة التى يراد إنشاؤها ، وكان رأيه بوجه عام متشائماً من مستقبل هذه المنظمة ، ويرى أن الأمم المتحدة لن تكون أحسن حالاً من عصبة الأمم .

كان يرسل هذا المقال تلغرافيا .. وباللغة الإنجليزية طبعاً .. فلو أرسله بالبريد لما وصل من سان فرنسيسكو إلى القاهرة إلا بعد أسابيع .. واختارنى الاستاذ إميل زيدان لترجمة هذا المقال الأسبوعى .. وكنت أحاول فى الترجمة أن أقلد وأحاكى أسلوب فكرى أباظة .. وأكثر كما كان يفعل من وضع علامات التعجب والاستفهام .. فكان أكثر القراء يظنون أن هذه المقالات بقلم الكاتب الكبير ، وليست ترجمة لما أرسله باللغة الانجليزية .. وكان يعاونه فى كتابتها بالإنجليزية الدكتور على الجريتلى المستشار الاقتصادى لوفد مصر إلى مؤتمر سان فرنسيسكو .. وكان قيامى بترجمة هذه المقالات هو أول علاقة لى بالأمم المتحدة التى أمضيت فيها ومعها بعد ذلك ثلث قرن من الزمان .. أو على وجه التحديد أمضيت فيها ومعها ثلاثا وثلاثين سـنة وأربعة شـهور .. حقا إن الإنسان لا يرسم طريقه فى الحياة .. وإنما ترسمه إرادة الله سبحانه وتعالى .. تلك عقيدتى وهذا هو إيمانى .

أما الاستاذ مصطفى أمين فعندما التقيت به أول مرة فى دار الهلال ، فقد استقبلنى أجمل استقبال ، ورحب بى ترحيباً شديداً ، وأثنى على ما أكتب ثناءً

عاطراً ، وطلب منى أن أكتب فى مجلة «الاثنين» التى كان يرأس تحريرها .. واعتذرت طبعاً فأنا لا أصلح للكتابة فيها .. وقابلته بعد هذا عدة مرات ، وفى كل مرة أجد منه كل ترحيب وحفاوة .. وذات يوم دخلت صالة المحررين فى مجلة «الاثنين» .. وكان على عادته يكتب شيئاً .. فأقبلت عليه لأحييه ، فرفع رأسه قليلاً ، ونظر إلىّ ، ثم تمتم بكلمة رداً للتحية .. فاندهشت .. ماذا جرى ؟ .. لماذا يقابلنى بهذا التجاهل والجفاء ؟ .. وأسرعت إلى مكتب صديقى الاستاذ حسين فريد سكرتير تحرير المجلة، وقلت له وأنا بين الدهشة والاستياء .. إن مصطفى أمين هذا رجل غريب .. إنه كان يقابلنى دائما بالترحيب الحار .. فماله اليوم يقابلنى بهذه الجفوة ؟ .. فقال لى : هذا ليس مصطفى أمين .. هذا على أمين !

وقد ظللت فترة طويلة لا أفرق بينهما .. ثم عرفتهما عن كثب ، وعملت معهما فى أخبار اليوم .. وعرفت ولمست عن قرب أن على أمين ، عليه رحمة الله ، يحمل أصفى وأنقى قلب يحمله إنسان .. وأنه يفيض لطفاً وعطفاً ومودة وكرماً .. وإنه إذا صاح فى إنسان فإنما يصيح لفرط محبته وإعزازه .. ومصطفى أمين هكذا أيضا ولكنه يسيطر على أعصابه ، فلا يغضب ولا يثور ، وهو إذا أحب أحداً بذل فى تشجيعه ومساعدته كل ما يستطيع .. مثلما فعل معى مراراً .. ولكن إذا خاصم ، وهو لا يخاصم إلا فى أمور السياسة ، وإلا على مستوى الرؤساء والزعماء والدول وحتى الايديولوجيات السياسية ، فإنه يسرف فى خصومته !

وألح علىّ الاستاذان الكبيران أن أكتب فى مجلة الاثنين .. فاعتذرت لأننى لا أستطيع أن أكتب لها ما يناسبها ويرضيهما .. وألحا .. وأخيرا وافقت على أن أكتب باباً بعنوان «قرأت» أتخير له أشياء مناسبة مما كنت منكبا على قراءته حينذاك من كتب ومجلات أجنبية .. ولم أكن واثقا من نجاح هذا الباب .. فاخترت لنفسى اسماً مستعاراً أكتب به هذا الباب الأسبوعى . فإن ارتضى القراء هذا الباب وارتاحوا إليه ، قلت إننى صاحب هذا الاسم .. أما إن فشلت فيما أكتب وطوى القراء صفحته دون أن ينظروا فيها قلت إننى لا أعرف من هو كاتب هذا الباب .. وقد نجح هذا الباب ولله الحمد نجاحاً كبيراً .. وطلبت مجلة «الثقافة» أن أكتب لها باباً مثله ومناسباً لها .. وقمت بهذا لبضعة شهور ، ولكن ذخيرتى كانت لا تكفى لتغطية مثل هذا الباب مرتين فى الأسبوع .. واقتصرت على باب «قرأت» أكتبه فى مجلة الاثنين .. وأوقعه باسمى المستعار الذى صرت بعد هذا أوقع به كل ما أستطيع كتابته فى الصحف والمجلات .. وهو على أية حال .. اسم على غير مسمى .

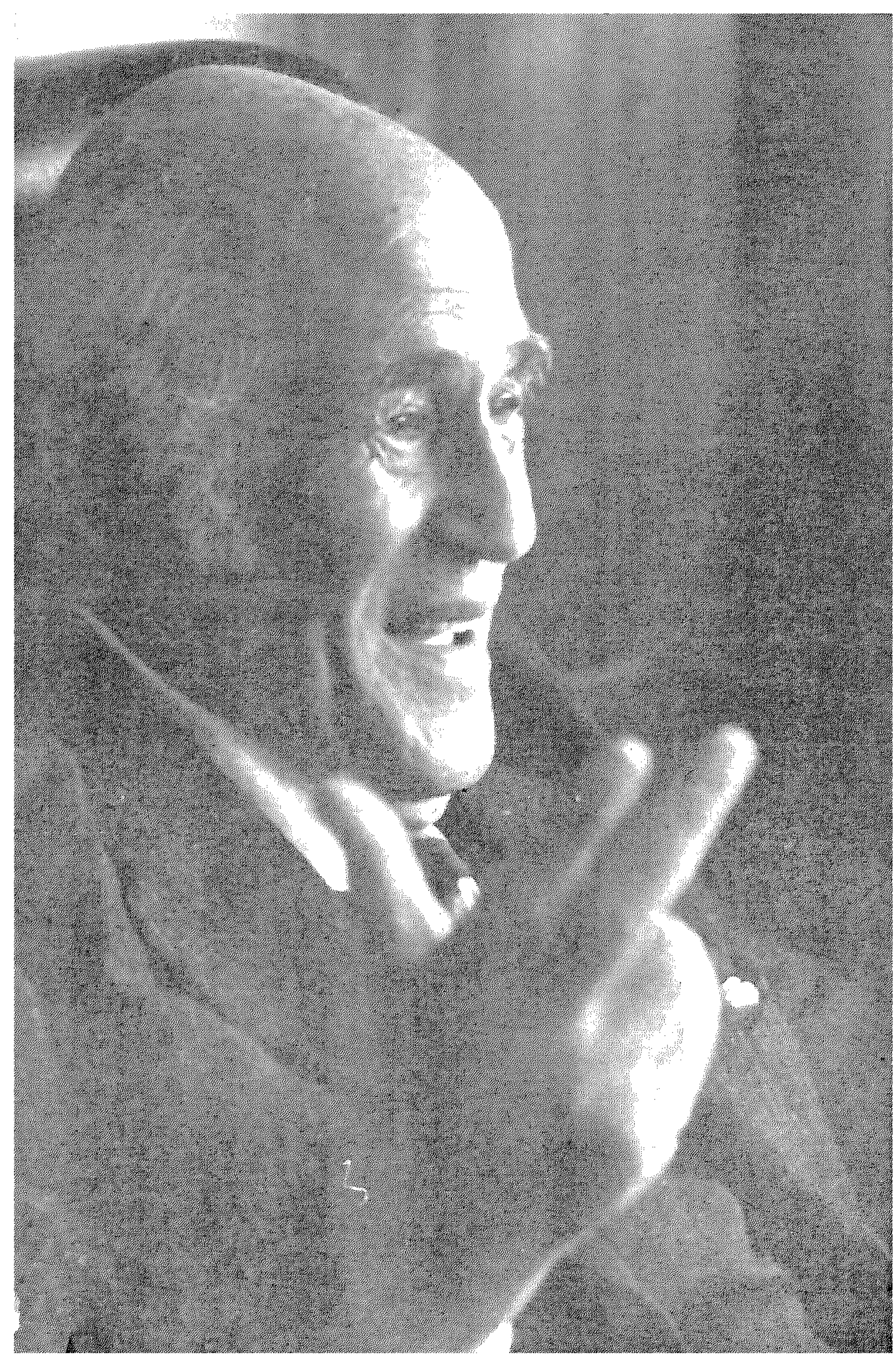
الهلال ١٨٩٢ ١٩٩٢

مصطفى أمين :

تتلمذت على « الهلال » فى بيت الأمة .. وتعجبنى جرأة موضوعاته وآرائه

فى احتفالنا بمرور ١٠٠ عام على صدور الهلال ، نقدم من خلال هذا الباب « شهادات » لعدد من كبار مفكرينا الذين أسهموا فى الحركة الثقافية والأدبية ، وقدموا من إبداعهم ، ما يجعلنا نحرص على نشر ما يقولونه عن «الهلال» التى صمدت أمام الأنواء والعواصف ، واستمرت بلا توقف على مدار قرن كامل من الزمان ، وهو الحدث الثقافى الكبير الذى لم تحظ به مطبوعة فى بلاد عريقة كثيرة من دول العالم المتحضر ..

نلتقى فى هذه الحلقة بالصحفى الكبير مصطفى أمين ، ليروى لنا ذكرياته ، ويدلى بشهادته عن «الهلال» التى بدأ يتابعها من بيت الأمة .. «بيت الزعيم سعد زغلول» سنة ١٩٢٦ وظل يتابعها حتى الآن ..



أعتقد أننى صـديق قديم للهلال ، وصلتى به ترجع إلى سنة ١٩٢٦ ، فقد كانت أمى تشكو أننا لا نواظب على الدراسة على أمين وأنا ، فاتفقت مع السيدة صفية زغلول على أن يذاكر على فى بيتنا ، وأذاكر أنا فى بيت الأمة ، فى مكتب سعد زغلول .

أجلسونى بمكتبه فى الدور الأول ، وأمضيت الوقت أعبث بما فيه من كتب فلم أجد كتابا يستهوينى إلا مجلة الهلال .

أخذت أقرؤها باهتمام شديد ، وكانت هناك عدة أعداد ، وأعجبت كثيرا بمقالات الدكتور أحمد زكى والشيخ مصطفى عبد الرازق والأستاذ على عبد الرازق ، وفكرى أباظة ، والدكتور أمير بقطر ، الذى كان يكتب مقالات عن الاختراعات والحياة فى القارة الجديدة (أمريكا) وكان يستهوينى قراءة هذا النوع من المقالات .

أيضا شدتنى مقالات سلامة موسى والتى يضمنها النظريات الحديثة والآراء الاشتراكية .

أعجبنى كثيرا فى هذه الفترة المبكرة من عمرى تنوع « الهلال » لأنه كان إلى جانب إرضائه للمثقفين ، كان يرضى أيضا الناشئة من أنصاف المتعلمين ، لأننى كنت فى ذلك الوقت نصف متعلم !

كان أسلوب « الهلال » يعجبنى جدا ، كان الأسلوب واضحا ومفهوما ، والكلمات ليست معقدة ، والجمل ليست ملتوية ، ولذا كانت قراءة الهلال متعة .

استمتعت وأنا فى بيت سعد زغلول بقراءة الهلال . وكانت هذه هى المذاكرة الحقيقية التى كنت أقوم بها بعد أن فصلونى عن أخى على أمين !

وأعترف بأننى خرجت من قراءة مجلة الهلال بفائدة ، وشعرت بأننى كنت فى مدرسة ، وأننى دخلت فى هذه المدرسة ، وأحببت دروسها ، وأصبحت مهتما بكل الأفكار الجميلة التى تتضمنها .

تواصل مع دار الهلال

دخلت دار الهلال بعد ذلك فى عام ١٩٤١ ، بعد حبى وعشقى للهلال بخمسة عشر عاما ، بمبناها الجديد (الحالى) ، وأذكر أننى حاولت أن أدخل المبنى القديم قبل ذلك ، فى سنة ١٩٣٠ ، وكنت وقتها

● ذهبت فى عام ١٩٣٠ أطلب عملا بدار الهلال فطردونى وفى عــام ١٩٤١ عينت رئيسا لتحرير مجلة الاثنين .

أصدر مجلات للمدرسة ، صادرتها الحكومة ، فقررت أن أعمل محررا ، وذهبت إلى دار الهلال ، وطلبت مقابلة الأستاذ إميل زيدان وأخذت أنتظره مدة طويلة ، وأخيرا أطل برأسه من الباب وقال لى « أفندم » !

قلت له : إننى شاب ناشىء وأريد أن أعمل بدار الهلال

قال : نحن لا نشغل ناشئين !

قلت له : أنا أريد أن أعمل مجانا !

قال : نحن لا « نشغّل » ناس مجاناً !

قطع الرجل علىّ الطريق ، وخرجت فى ذلك الوقت مهزوما ، ولكننى فى سنة ١٩٤١ دخلت لدار الهلال رئيسا لتحرير مجلة «الإثنين» وكان عمرى وقتها ٢١ عاما ، وأذكر أننا اختلفنا فى أول الأمر ، حيث عرض علىّ الأستاذ إميل زيدان مرتبا قدرهُ خمسون جنيها فى الشهر ، وطلبت أن يكون سبعين جنيها .

وقال إميل زيدان : إننا واثقون بأن مجلة « الإثنين » لن يزيد توزيعها عن التوزيع الحالى ، بعد أن قمنا بعمل التجديدات والترغيب للقراء من خلال يانصيب لمن يكسب من القراء ولم يزد التوزيع قلت له : أوافق على تعيينى بخمسين جنيها ، ولكن بشرط أن أحصل على عشرة بالمائة عن كل زيادة فى التوزيع .

قال إميل زيدان : أحب أن أقول لك بأنك لن تحصل على أى مليم زيادة ، لأن نسبة التوزيع لن تزيد !

ولحسن الحظ زادت السنة الأولى من ١٢ ألف نسخة إلى ٤٠ ألفا وفى السنة الثانية زاد التوزيع إلى ٦٠ ألفا وفى السنة الثالثة وصلت نسبة التوزيع إلى ٩٠ ألف نسخة ، وهكذا قبضت عدة ألوف من الجنيهات من دار الهلال ، وهذه الأموال هى التى بدأت بها أخبار اليوم .

لقد تأثرت كثيرا بالأستاذ إميل زيدان ، ومن رأيى أنه كان صحفيا ممتازا ، وكان فكره متحررا ، ولكنى اختلفت معه لأن عقدى كان يقول بأننى سأكون مستقلا عن الأحزاب ، وقد فسره إميل زيدان بأن أكون محايدا .

وقلت له : هناك فرق كبير بين المحايد والمستقل ، فالمحايد يذكر آراء الآخرين ، ولا يذكر رأيه ، أما المستقل فإنه يذكر

● الهلال هى المجلة الوحيدة التى لم تصادر على مدى قرن كامل من الزمان

رأيه، دون أن ينتسب إلى حزب من الأحزاب ، ولهذا السبب اختلفنا وخرجت من دار الهلال وأصدرت أخبار اليوم عام ١٩٤٤ .

ومن الحكايات الغريبة أن جميع محررى « الاثنين » تضامنوا واستقالوا دون أن يخبرونى أو أطلب منهم ، تضامنا معى ، ولهذا كنت محرجا جدا ، وانتابتنى حيرة شديدة ، فماذا أفعل ، وهذا ما جعلنى أسرع فى إصدار جريدة أخبار اليوم ، لكى يعملوا فيها جميعا .

وأثناء وجودى فى دار الهلال ، كانت «الهلال» هى المجلة الأولى ، حيث كان أصحاب الدار يهتمون بها أكثر من اهتمامهم بأية مجلة أخرى ، وكان يسعدهم أن تكون منتشرة فى كل أنحاء الدنيا .

ثم نقلنى الرئيس جمال عبد الناصر من أخبار اليوم إلى دار الهلال عام ١٩٦٢ وبعد التأميم مباشرة ، وتولى على أمين رئاسة تحرير « الهلال » ، وتوليت رئاسة تحرير المصور ، ثم رئيسا لمجلس إدارة دار الهلال ، وكان ذلك عندما اختلف الرئيس جمال عبد الناصر مع فكرى أباظه واختارنى خلفا له .

كان السبب الحقيقى لهذا الخلاف أن فكرى أباظه كتب فى باب « الملحوس » هذه العبارة «عندما كنت فى إسبانيا رأيت المبانى العظيمة والحدائق الفخمة ، ولكن الناس كانت تنقصهم الحرية ، وكل هذا لايساوى الحرية» وهذه الكلمة هى التى تسببت فى خروج فكرى أباظة من رئاسة مجلس إدارة دار الهلال .

ولقد أمضيت فى دار الهلال أسعد أيام حياتى ، وكان عملى مع فكرى أباظة متعة ، وكنت أنظر لفكرى أباظة على أنه رئيسى برغم أننى رئيس مجلس الإدارة .. وأحببته حبا شديدا .

على أمين والهلال

وإذا تحدثت عن الفترة التى تولى فيها أخى على أمين « الهلال » ، فإننى أشير إلى أنها كانت فترة تجديد «الهلال» ، لأن على أراد أن يحولها إلى مجلة مقروءة ، لأنها كانت تصدر للمثقفين فقط ، وعلى أرادها مجلة للجميع ، وأدخل فيها عدة أبواب جديدة من بينها الكاريكاتير .

وفى هذه الأثناء حدثت حكاية طريفة أشير إليها هنا ، وهى أننا سمعنا بأن هناك مذكرات للأديب والسياسى الكبير أحمد لطفى السيد مكتوبة عن قصة غرامه

بمى زيـــادة ، فكلف على أمين طاهر الطنــاحى ، وكــان مديرا لتحرير الهلال فى ذلك الوقت ، لكى يقنع لطفى السيد بنشر هذه المذكرات فى «الهلال» .

فرفض لطفى السيد ، فاضطر على أمين أن يتصل ببهى الدين بركات باشا وكان صديقا حميما للطفى السيد ، وقال له إن لطفى يعارض فى نشر مذكراته .

وقال بهى الدين بركات إن من رأيى أن ينشر مذكراته وقصة حبه لمى واشترك الدكتور عبدالحميد بدوى فى إقناعه ..

وفعلا عدل لطفى السيد عن قـــراره ونشـــر مـذكـراتـه فـــى «الهلال» ونجحت نجاحا كبيرا ، وكان الفضل الأول لطاهر الطناحى الذى ذهب إليه فى البداية فى محاولة جادة لإقناعه بنشرها .

الهلال تعجبنى

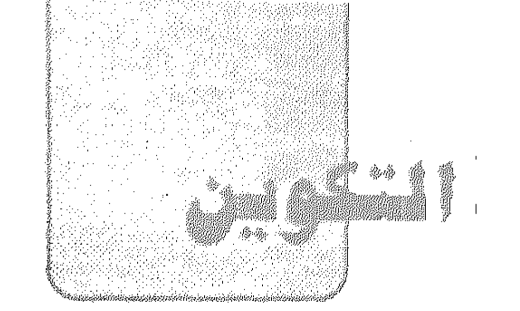
وأنا أقرأ الهلال الآن ، وأقرأ به مقالات عديدة تعجبنى ، صحيح إنها الآن تنشر مختلف الآراء وبحرية تامة ، لكنها فى الماضى ، كانت بعيدة عن السياسة .

وفى السنوات الخمس الأخيرة تقدمت وبدأت تستعيد مجدها وعددها الأخير عن «التصوف» على سبيل المثال عدد جيد جدا ، فقد عرض بهذا الجزء مختلف وجهات النظر ، ورأيى أنه فى الصحافة ينبغى أن تنشر مختلف وجهات النظر ، لارأيك فقط .. أى رأيك والرأى الآخر .

وأن تقوم الهلال بهذا فتلك خدمة ممتازة بحق .

وشىء جميل جدا أن تمر مائة سنة على مجلة «الهلال» ولم تصادر وهى المجلة الوحيدة التى صدرت طوال هذه الفترة ولم تصادر وكل مجلة صدرت طوال هذه الفترة صودرت وذهبت إلى النيابة وجرى تحقيق مع رئيس تحريرها ، أو حبس رئيس تحريرها ، ماعدا الهلال ، لأنها كانت بعيدة عن السياسة .

إننى أرجو أن يكون الأحتفال بمرور مائة عام على «الهلال» بشكل يليق بهذه المناسبة المهمة ، وأن يدعى فى الاحتفال بالهلال أدباء من كل البلاد العربية ، ويقام حفل كبير بالأوبرا ، وتلقى به الكلمات من الأدباء من الدول العربية تحية لها ، ويشاد بجرجى زيدان الذى أسسه وبإميل وشكرى زيدان اللذين توليا بعد ذلك ، كما يحتفل بجميع الذين شاركوا فيها وتولوا رئاسة تحريرها ونهضوا بها .



فشلي في بداية حياتي

أمينة السعيد

رحلتي مع الحياة العملية تزيد علي الخمسين عاما ، تبدأ من المرحلة الثانوية يوم اختارتني السيدة هدي شعراوي للعمل معها ، وفي الجامعة مارست العمل الصحفي ، من خلال المقالات التي كنت أرسلها لبعض الصحف والمجلات باسم مستعار بم التحقت بدار الهلال للعمل بها ، وطردني إميل زيدان ، وجاء زوجي لكي يقدم لي النصح ، ويصحح لي بعض الأخطاء التي وقعت فيها ، ويوضح السبب الذي جعلهم يستغنون عن خدماتي بدار الهلال ، واشتري لي هدية قيمة مازلت أقتنيها وأضعها أمامي في منزلي ، وهي الموسوعة الانجليزية والتي أفادتني كثيرا في حياتي العملية .

وبدأت أقدم برامج إذاعية من خلال قراءاتي في تلك الموسوعة ..

وعدت إلي دار الهلال مرة أخري بعد محاولات من جانب إميل زيدان الذي أعده صحفيا لا مثيل له وأنا مدينة له بالكثير ..

بدأت الكتابة قبل عام ١٩٣٥ وكنت طالبة بالجامعة ، كنت أكتب بإمضاء مختلف (مصرية) ، (مواطنة) وليس بإمضاء أمينة السعيد ، حتى لا يقولوا إننى مازلت طالبة ! وسافرت إلى الهند عام ١٩٤٦ وكانت الحرب الأهلية مشتعلة بين المسلمين والهندوس وأرسلتنى السيدة هدى شعراوى للاشتراك فى أحد المؤتمرات ، كما اشتركت فى مؤتمرات لم تكن هدى شعراوى تستطيع السفر إليها فى بلاد بعيدة خاصة أننى أجيد اللغة الانجليزية .

التنس .. جريمة !

أذكر أن مصطفى أمين له دين كبير فى عنقى . فذات يوم وأنا طالبة بكلية

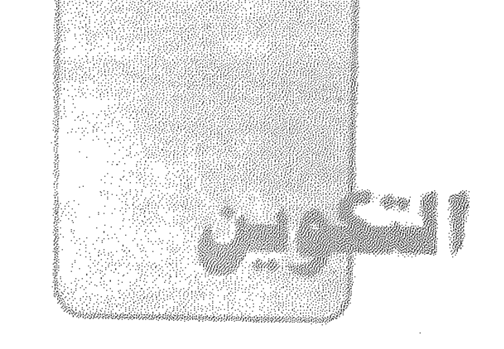
دفعني لاحتلال أرفع المناصب الصحفية

عندما كرمتني الدولة من خلال الرئيس أنور السادات



الآداب ، كنت ألعب التنس فى وقت الفراغ مع مدرب هذه اللعبة بملاعب الجامعة ، وشاهدنى أحد الرجعيين مثل هؤلاء الذين نشاهدهم اليوم ، وعلى الفور ذهب إلى الجامعة وهو يصيح إلحقونا .. وا إسلاماه هناك بنت قد اعتدت على الإسلام ، فجاءت مجموعة من الطلاب تهرول بمن فيهم مصطفى أمين ، ليروا هذا الاعتداء فوجدونى أقف لابسة ثيابا محترمة بأكمام طويلة ، والمدرب يقوم بتدريبى على لعبة التنس .

بعد اكتشافهم هذا الكذب المزعوم ، حاول البعض منهم الحضور لمشاهدة هذه التدريبات ، فكنت أغضب ، وحينما حاولت طردهم غضبوا منى ، واعتبروا ذلك إهانة ، وقاطعونى فى الجامعة ، فلا أحد



يكلمنى أو يجلس بجانبى ، بل إمعانا فى غضبهم كانوا يتركوننى أجلس فى الصف الأول ويجلسون بعدى بثلاثة أو أربعة صفوف ، يعنى (شغل عيال) واستماتة في مضايقتى ومقاطعتى .

ولكننى استمررت فى سياستى ، وكانت النتيجة أنهم تغيروا ، وعادوا إلى طبيعتهم الأولى فى علاقات جامعية جيدة ، وعادت المودة والصداقة بيننا من جديد وقتها أحس مصطفى أمين أن لدى قسطا كبيرا من الشجاعة فأخذنى إلى الأستاذ محمد التابعى وقدمنى إليه ، وكان رئيساً لتحرير آخر ساعة ، وقمت بعمل عدة موضوعات ، ولكنها تسببت فى مشاكل كثيرة واجهتنى فى بداية عشقى وحبى للعمل الصحفى .

من بين هذه الموضوعات أنهم طلبوا منى الذهاب إلى الإسكندرية وأحاول أن أدخل حماما مغلقا للسيدات فى سان ستيفانو لأستمع إلى ما تقوله زوجات الوزراء عن أزواجهن ..

كنت وقتها قليلة الحيلة ، وليس لدى تجربة ، فذهبت بالفعل إلى هذا الحمام ، وظللت أستمع إلى هؤلاء السيدات ، وكتبت

عندما احتفلنا بعيد ميلاد حواء في عام ١٩٥٦

مقالا بدون إمضاء وفور نشره حدث نفور كبير من جانب هؤلاء الوزراء وزوجاتهن ، وصممت الحكومة على غلق « آخر ساعة » وطلبوا أن يعرفوا هذا « المجرم » الذى كتب هذا الكلام الخطير كنت عقب نشر المقال فى حالة سيئة يملؤنى الخوف والفزع ، وقال البعض إن كاتب هذه الصفحة هو أمينة السعيد ، وكان على علوبة باشا صديقا حميما لوالدى .. جاء ليسألنى ، هل صحيح كتبت هذا الكلام ؟ ، ومن شدة الخوف كذبت عليه وقلت له : لا ..

قال لى : أنا أصدقك ، فلا أتصور أن تكتب أمينة السعيد مثل هذا الكلام !

وجعلتنى هذه التجربة أفكر وأوقن بأن من يكتب أسرار الناس ، يعد فى نظرى سارقا لأخبارهم ، ويعد إنسانا غير سوى واحتقرت نفسى بشدة على هذا العمل ، ولم أكرر هذه التجربة على مدى خمسين عاما من العمل فى الصحافة .. لم آخذ أبدا حديثا استمعت إليه فى السر ، ولم أمنع إمضائى عن أى موضوع قمت فعلا بكتابته .

فى هذه الفترة قرأت لعظماء الأدباء والكتاب من الغرب وكانت النتيجة أن تفتح ذهنى بشكل كبير ، وأخذت كثيرا من روح هذا الأدب ، ولذلك فكل مكتبتى تقريبا لهؤلاء الكتاب الكبار .

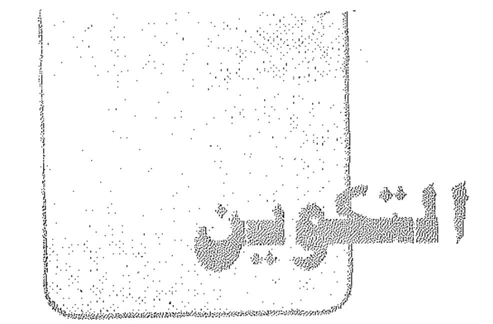
بعد تجربتى مع « آخر ساعة » أقنعنى الأستاذ إبراهيم عبده بالعمل فى مجلة « كوكب الشرق » فذهبت معه لمقابلة أحمد باشا ماهر وكان رئيسا لتحرير المجلة ، والذى رحب بى ترحيبا شديدا وأعطانى صفحة أسبوعية نسائية بذلت جهدا كبيرا فى تحريرها ، وكانوا قد وعدونى بمنحى راتبا ، ولكن فى نهاية الشهر لم تكن لديهم أموال وبعد عدة أشهر اضطررت لتركهم .

وتلقفنى بعد ذلك الأستاذ فكرى أباظه وكان صديقا حميما لوالدى ، وكان تلميذه فى ثورة ١٩١٩ وكنا وقتها بمدينة أسيوط التقيت به بعد وفاة والدى ..

أخذنى إلى إميل زيدان والذى حدد راتبا شهريا قدره ثلاثة جنيهات ، وكنت وقتها اكتب كلاما (هلس) حيث لم تكن لدى الخبرة الصحفية والتى تجعل منى قيمة لدى الآخرين ، واضطر إميل زيدان أن يرسل لى خطابا يذوب رقة وأدبا ورفتنى ، وتضمن خطابه : إن مرتبك الكبير وقدره ثلاثة جنيهات لا يتناسب مع إنتاجك الضئيل ، وحزنت جدا وبكيت لدى تسلمى هذا الخطاب ، وأحسست بأن الدنيا قد اسودت فى عينى .

الموسوعة .. هدية

فى هذه الأثناء كنت مخطوبة للدكتور عبد الله ، وحينما قصصت عليه ما حدث لى فى دار الهلال قال لى إنك مخطئة ، فالصحافة مثل التجارة والصناعة ، ولابد من إنجاز العمل الصحفى بفن وعناية شديدين ، حتى تجنى من وراء ذلك الشيء



الكثير فلو كنت مثقفة ثقافة عالية ، لأعطيت المجلة الجهد الذى تستفيد منه ، لكن بسبب ضعفك الثقافى ، جاء عملك ضعيفا ولا يتناسب مع احتياجاتهم فى هذا العمل المهم .

أسفت جداً على هذا القول وقلت للدكتور عبد الله : كيف تقول لى ذلك وأنا طالبة بقسم اللغة الانجليزية ويدرس لى أســـاتذة عظماء وأكـــدت على « اننى مثقفة » .

قال لى : إن الثقافة ليست هى الجامعة أو الشهادة الجامعية ، والجامعة لا تثقف ، ولكن دورها أن تعلم الإنسان كيف يثقف نفسه إذا أراد أن يتثقف ، الجامعة تضىء لك طريق الثقافة وربما تضعك على أول الطريق ، لكى تواصلى مسيرة الحياة استفدت كثيرا من هذه النصيحة الغالية ، خاصة أنه قدم لى على الفور هدية قيمة هى الموسوعة الانجليزية والمكونة من ٣٠ جزءا ، وتضم آداب العالم منذ العهود المتقدمة حتى وقتنا هذا ، وبدأت أقرؤها لمدة عامين متصلين وساعدتنى كثيرا فى حياتى الصحفية .

وأذكر أن الإذاعى المعروف محمد فتحى رحمه الله - وكان زميلا لى بالجامعة - دعانى إلى تقديم بعض الأعمال التى أترجمها من هذه الموسوعة بالإذاعة ، وكنت أقرؤها بصوت مميز ، وظللت أقدم هذا البرنامج بانتظام كل ثلاثة أسابيع ، وبدأ اسمى يلمع ، وبدأ الناس يتتبعون كل ما أقدمه .

ومرة أخرى عاد فكرى أباظة ليخبرنى بأنهم يريدوننى أن أعمل بدار الهلال والتى طردت منها من قبل !

ورفضت هذا العرض على الفور قائلة لن أذهب إلى هؤلاء الناس الذين طردونى بشكل مزر لا أرضى عنه على الإطلاق فقال لى : تعالى معى ، وقولى لهم هذا الكلام ، وكان فكرى أباظة بالطبع يسر فى نفسه بأننى لن أستطيع أن أفعل ذلك .

ذهبت إلى دار الهلال وقال لى إميل زيدان نحن نريدك .

قلت له : وأنا لا أريد العمل لديكم .

قال لى : لماذا ؟

قلت له : لأنكم عاملتمونى فى المرة الأولى معاملة غير كريمة وأنا لا أود العمل لديكم .

قال لى إميل زيدان : لكنك لم تكونى بمثل هذا المستوى الثقافى والفكرى ، فقد طورت نفسك فى السنتين الماضيتين ، وأصبحت لك شخصية مميزة وثقافة جيدة .

لكننى رفضت برغم كلماته الرقيقة .

وعلى الفور حدد لى مرتبا قدره أربعون جنيها برغم أن راتبى السابق لم يتجاوز ثلاثة جنيهات !

ومع ذلك قلت له : أنا لا أتاجر ! .. أنا لا أريد التعامل معكم !

وتصور الرجل أن المرتب ضئيل ، فقال نزيده إلى ستين جنيها .

ورفضت أيضا .

قال مرة أخرى : ما الذى يرضيكى ؟ !

واتفقنا أخيرا على أن اكتب بالقطعة (أى بالموضوع) وكل ما أقدمه لدار الهلال إذا أعجبهم نشروه ، وإذا لم يعجبهم فلا داعى لنشره ، وكان ذلك فى عام ١٩٣٦ بعد تخرجى مباشرة من كلية الآداب قسم اللغة الانجليزية وبالفعل بدأت أنشر فى " الهلال " وفى مجلة " الاثنين " ، ووجد إميل زيدان أننى أحصل على مبلغ كبير شهريا ، فعاد يقول لى نود الاتفاق على مرتب شهرى ، وكان أكبر مرتب ثابت حصلت عليه من دار الهلال ستين جنيها ، وظل مرتبى يتزايد إلى أن أصبحت رئيسا لمجلس إدارة دار الهلال ولأحصل على أكبر مرتب فى الدولة .

تجربتى مع حواء

وفى حياتى تجربة مهمة ورائدة فى مجلة حواء ..

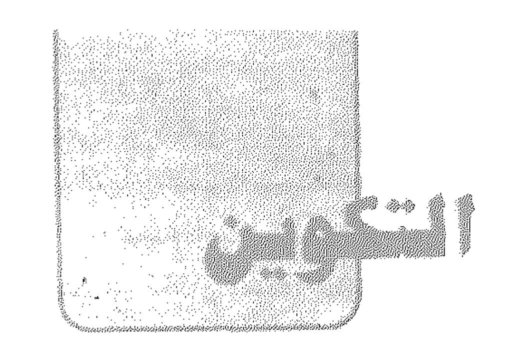
فحينما فكر إميل زيدان فى إصدار مجلة نسائية ، رأيت بعينى مدى الاهتمام الذى كان يبديه مدير الإعلانات ، ورأيت كيف رفض أكثر من فكرة بحجة أن هذا المشروع لا يحقق مزيدا من الإعلانات ..

وطرح اسم درية شفيق لرئاسة تحرير حواء وكانت علاقتها بالأميرة شويكار سببا فى اعتذارها ، وحسم إميل زيدان هذا الأمر بقوله علينا أن نختار أمينه السعيد إبنتنا وابنة دار الهلال ، وفرحت جدا بهذا الاختيار ، وقد ساعدنى على المضى من نجاح إلى نجاح أن الإدارة تذلل كل المشكلات التى يمكن أن تواجهنا فى بداية الأمر ، وكان ذلك فى عام ١٩٥٥ .

ولم تكن الأمور تسير سهلة يسيرة ، بل كان البعض ينتقدنى ، والبعض الآخر يأتى إلى أمى فى منزلنا يحرضونها ضدى ، ويقولون كيف تعمل ابنتك « جرنالجية » ، وكانت تحزن لذلك كثيرا ، وفى المقابل كنت أفتخر بكل قرش أكسبه من مهنة الصحافة .

ثقتى فى النجاح كانت بلا حدود ، وتلك المشكلات والمصاعب لم تفت فى عضدى ، ومع مرور الأيام ، بدأ عدد كبير من كبار رجال الدولة والمستشارين يتصلون بى ، ويرجوننى فى تعيين بناتهم للعمل فى حواء، وأظن أن هذا العدد الكبير من اللائى تعلمن فى مدرسة حواء ، يدل على صدق التجربة ونجاحها ، ومن جانبى لم أكن أبخل عليهم بإعطاء الفرصة والانطلاق فى أول مجلة نسائية فى الوطن العربى ، حملت الفكر المستنير ، وخاطبت المرأة فى كل ميادين الحياة .

لكن النجاح لابد أن يعقبه نجاح ، فقد بدأت فكرة باب « إسألونى » ويعود الفضل فيه إلى الصحفى لطفى رضوان ..



كان من عادة إميل وشكرى زيدان أن يجريا تجديدا فى تحرير المجلات التى تصدر عن دار الهلال ، فى اكتوبر من كل عام ، وحينما حضرت اجتماعا للمصور اقترح لطفى رضوان أن ننشئ بابا عنوانه « اسألينى » تنشر فيه بعض المشكلات النسائية ، ويرد عليها بعض النساء أو الكاتبات المعروفات فى ذلك الوقت .

وبالفعل صدرت الأعداد الثلاثة الأولى، وكتبت المشكلة والرد ، ولم تصل للمجلة خطابات من القارئات !

فعادوا مرة أخرى ليضيفوا إلى أعبائى ، مسئولية هذا الباب ، وبدأت العمل فيه بشكل جاد جدا ، وكنت أضع نفسى فى مكان صاحبة المشكلة ، ووصلتنى ثلاث رسائل مرة واحدة ، وكلها تطلب أن أرد على ما تتضمنها من مشكلات ، وذهبت إلى إميل زيدان أعرض عليه الأمر ، فقال ردى عليهم .

واستمر هذا الباب يصدر ، وبدأت تصلنى مشكلات من الرجال ووصلنى عتاب على اسم الباب ، وأنه يتضمن تخصيصا للمرأة فقط ، فضلا عن أنه من وجهة نظرهم يسخر من الرجال واقترحت أن يتحول إسم الباب إلى « إسألونى » حتى يضم الرجال والنساء سويا .

وقد عرضنى هذا الباب لمشكلات كثيرة من بينها أننى لم أكن أتفق مع صاحبة المشكلة أو صاحبها ، كما أننى كتبت عن التطرف ، وجاءتنى خطابات تهديد بالقتل ، لم أعبأ بها . ولم تفت فى عضدى لأننى دائما أومن بكل كلمة أكتبها ، مهما كلفنى ذلك من متاعب ومشكلات !

كرمتنى ثورة يوليو

أحب أن أشير إلى نقطة مهمة ، وهى أننى لم منذ بداياتى فى العمل الصحفى إلى حزب من الأحزاب السياسية .

ومنذ بداية ثورة يوليو كنت حريصة على ألا أدخل فى صراعات سياسية ، فقط كنت منصرفة إلى الاستغراق فى الصراعات الاجتماعية ومعالجتها وبالطبع كانت آرائى لا تعجب قلة من الناس ، وكثيرا ما وصلتنى خطابات وعيد وتهديد !

وكان الرئيس جمال عبد الناصر معجبا جدا بحواء وبكتاباتى فيها ، وقد قلدنى نيشان الاستحقاق من الدرجه الأولى فى عيد العلم وقد أعطى لأول مرة إلى سيدة بعد أم كلثوم .

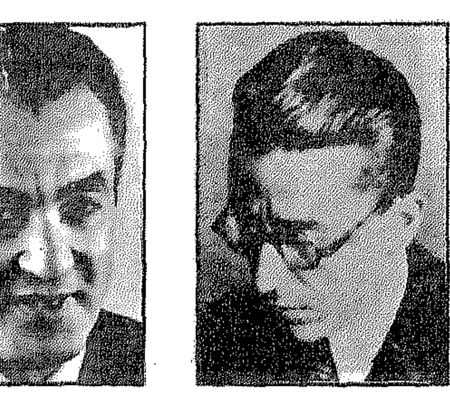
وزادنى تكريما وأنا أستلم منه النيشان ليقول لى إننى أقرأ " حواء " من الغلاف إلى الغلاف ، واعتبرت هذا تكريما آخر .



مع بنات جماعة الصحافة



امينة السعيد .. عام ١٩٥٦



إميل زيدان

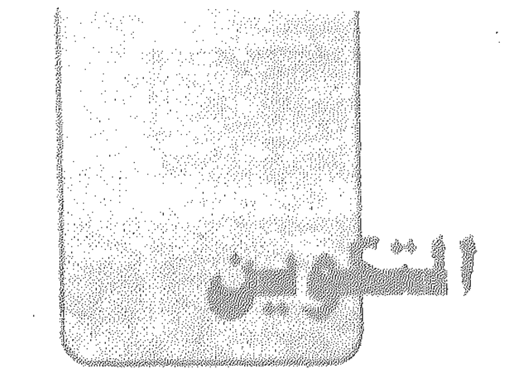
محمد التابعى



د. عبدالله زين العابدين الأستاذ بكلية الزراعة
وزوج أمينة السعيد



أيام زمان



ونفس الشيء حدث فى عهد الرئيس السادات ، فقد نلت إعجابه وتقديره لى ، فأهدانى نيشان الجمهورية من الطبقة الأولى ، وفى عهد الرئيس حسنى مبارك أهدانى وسام العلوم والفنون من الدرجة الأولى .

وبذلك أكون السيدة الوحيدة التى حصلت على أعلى الأوسمة فى عهود ثورة يوليو الثلاثة .

أنا وهدى شعراوى

أعتبر نفسى بنتا لهدى شعراوى .. وهى بمثابة أمى الروحية وقصة تعرفى بها جاءت نتيجة كبرها فى السن ، واحتياجها إلى من يساعدها فى إلقاء خطبها ، ومساعدتها فى العمل الاجتماعى من خلال جمعيتها الشهيرة .

عرفتنى بها السيدة إنصاف زوجة منصور باشا فهمى ، وكانت مديرة المدرسة الثانوية التى تعلمت بها ..

فى بداية اللقاء كانت معى زميلة لى إسمها سعاد بنت شقيقة الزعيم مصطفى كامل ، ألقيت أمامها الشعر وبعض الخطب، وفعلت ذلك زميلتى سعاد ، وأختارتنا نحن الإثنتين ، وبدأنا نقرأ خطبها فى الحفلات الخيرية التى كانت تقيمها .

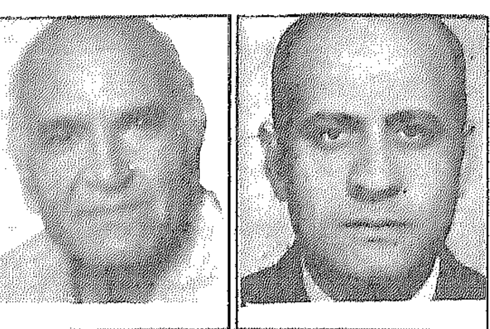
وبعد وفاة سعاد ، تمسكت بى أكثر من ذى قبل ، واعتبرتنى بذرة طيبة من الممكن أن تصبح قيادة جيدة ؛ والتقيت بشريفة محرز وليلى دوس ، وكل هؤلاء اعتبرتهن أخواتى فى الاتحاد النسائى الذى كونته هدى شعراوى ، وظللنا نعمل معها بكل الإخلاص والتفانى حتى آخر يوم فى حياتها ..

ولفرط ثقتها بى أرسلتنى فى عدة مؤتمرات بالخارج فى الهند وفى باكستان نيابه عنها .

لم يحدث بينها وبينى أى خلاف طوال فترة علاقتى بها ، حتى فى الوقت الذى حاولت فيه الأميرة شويكار إغرائى بالانضمام إلى جمعيتها فقد تصورت هذه الأميرة التركية المتعجرفة أن سبب شهرة هدى شعراوى بسببى ، وأن الخطب الرائعة التى كنت ألقيها أنا التى أكتبها وأدبجها .

وفى ذات يوم انتظرت حتى سافرت هدى شعراوى إلى المنيا للإشراف على وقف لأسرتها هناك ، ووصلتنى فى هذا اليوم دعوة رقيقة من الأميرة شويكار ، فسألت أختى كريمة السعيد ، هل أذهب أم أعتذر عن الدعوة ، وشجعتنى على الذهاب، وذهبنا سويا لنعرف السر وراء هذه الدعوة المفاجئة !

وحينما دخلت إلى الباب ، إذا بواحدة من توابعها تضع شارة جمعية شويكار



لطفي رضوان — محمد فتحي

على صدرى ، وكان مندوب الأهرام يقف متحفزا ، وعلى الفور التقط صورة ، نشرها مع خبر انضمامى إلى جمعية الأميرة شويكار .

قرأت هدى شعراوى الخبر لدى عودتها من المنيا ، وكما علمت تألمت بشدة ، وتصورت أننى خنتها وذهبت إلى غريمتها الأميرة شويكار والتى كانت تقوم بأفعال غير لائقة لم نكن نرضى عنها ، وكانت هدى شعراوى تهاجمها بعنف على ذلك !

أسرعت بالذهاب إلى هدى شعراوى ، وذكرت لها كل ما حدث ، ولكنها فاجأتنى بقولها ، إذ كنت فى حقيقة الأمر لا تودين الانضمام إلى جمعيتها فاجلسى الآن ، واكتبى لها استقالة ، وأنك لن تذهبى إليها ، وأملتنى هدى شعراوى بنفسها الكلمات التى تضمنت الاستقالة وبالطبع لم أسلم من التهديدات لى ولأسرتى من هذه الأميرة التركية !

وعادت العلاقة ، وظللت ربيبة وحبيبة لهدى شعراوى ، تلك السيدة العظيمة التى درست الحركة النسائية على يديها ، ورأيت كفاحها ونضالها ، وشاهدت كيف تساعد خريجات الجامعة وتشد من أزرهن ، وتعلى من شأنهن لدى المجتمع .

ورحلتى مليئة بالعمل والإنتاج فلدى ١٧ كتابا ، تضم القصة والرواية وأدب الرحلات ومن بينها « مشاهداتى فى الهند » « آخر الطريق » ، « الثائرة » .

ونشرت فى الهلال موضوعات كثيرة ، ونقلت بعض هذه الموضوعات إلى كتب المطالعة ويدرسها الطلاب والطالبات بسوريا ..

ويحضرنى الاحتفال بمرور مائة عام على هذه المجلة العريقة ، ذات التاريخ العظيم والتى أتمنى أن يتم الاحتفال بالعام الألف على إنشائها ، فهى تستحق كل هذا التكريم .

وأختم مشوارى بأننى عشت محبوبة فى دار الهلال منذ بداية عملى إلى أن وصلت إلى منصب رئيس مجلس إدارة وفى تلك الأثناء أحبنى واحترمنى كل العاملين بهذه المؤسسة العريقة ، وكانت العلاقة طيبة بينى وبين الجميع .. كنت صارمة وحازمة ، ومع ذلك مازلت أشعر بالسعادة والبعض يقول « ولا يوم من أيام أمينة السعيد » ..

وهكذا تتوالى الأيام ، ومازال عطائى مستمرا .

• رابطة أدبية •

● نتشرف نحن أعضاء الرابطة الأدبية بسنهوت مركز منيا القمح ، محافظة الشرقية ، أن نرسل مع رسالتنا هذه نماذج من إنتاجنا من القصة القصيرة والشعر والزجل ، آملين النظر فيها ، طامعين فى التوجيه والإرشاد .

أعضاء الرابطة الأدبية بسنهوت :
طه أحمد مقلد وسامى السيد الذكرى
وأمجد محمود جابر وعبد العزيز رياض
ومحمد النادى وطه أبو عريبية

● تعليق الهلال :

نشكر لكم اجتهادكم وإخلاصكم وحسن ظنكم ، وأما انتاجكم فيبشر بالخير فى الشعر والزجل والقصة ، ولا يتسع المجال لنشر كل ما أرسلتموه ، فنجتزئ منه بقصيدة الشاعر محمد النادى التالية :

• أحبك •

أحـبك رغم أحـلامى التى صـارت بلا مـأوى
ورغم التيه فى الأحـزان يا عمرى بلا جدوى
ورغم صـبابتى الحيرى على آفـاقها الثكلى
أحـبك رغـم أيـامى فأنت الداء والسـلوى
وحين الليل يغرقنى تصـافح أنتى الذكـرى
وأسـبح فى خيـالات بلا شـط ، ولا مرسى
لأنى شـاعر يهـوى حروفـاً مالها مسـعى
سـوى عينيك يا عمرى تعذبنى وما أشـقى
أحبك رغم ما أضحى ورغم الهجر والشكوى
لأنى بالهوى ثمل وكأسـى فى الهوى نشوى
سوى عينيك كاسـاتى فكونى مثلّما أهـوى



محمد النادى
الرابطة الأدبية بسنهوت

● اقتراحات للعيد المئوى للهلال ●

يسرنى كقارئ أن أقدم هذه المقترحات للاحتفال بالعيد المئوى للهلال :

١ – لقد جاءت ندوة « المصور » بناءة وكانت الأحلام كبيرة ولكن أخشى ألا ينفذ منها شئ .. أتمنى أن يكون الإعداد انتهى ودخل طور التنفيذ !

٢ – اقتراحكم بإعادة طبع مجلدات الهلال اقتراح ممتاز لأنه مهم جدا للقارئ الجديد لمتابعة تاريخ الثقافة من خلال الهلال فى القرن الماضى وهذا الاقتراح يأتى متوافقا مع اقتراح الاستاذ رجاء النقاش بإعادة طبع بعض الاعداد المميزة ايضا اقتراح « مختارات الهلال » وهو جدير بالمناقشة .

٣ – أين الاذاعة والتليفزيون ومحررو الصفحات الأدبية العالمية فى التايمز ولوبوان والنيوزويك وتايم وغيرها ولديكم الاستاذ محمود قاسم وهو محرر ذكى ومطلع على الأدب العالمى والصفحات الأدبية والمجلات الثقافية المتخصصة فى انحاء العالم ويمكنه دعوة محررى هذه المجلات لمشاهدة الاحتفال ..... !

٤ – لقد تأخر هذا الاحتفال فيما أعتقد حيث كان يجب الاعداد له منذ العام الماضى وأتمنى ألا يؤثر هذا التأخير على « سلق » الاحتفال فيجب أن يكون جديرا بالهلال .. وإن جيلى ليفخر أنه عاش فى هذه المناسبة الكبيرة .

وفى النهاية فإن الاحتفال بمئوية الهلال مسئولية كل مثقف عربى مصرى أولاً وأخيراً .

فرج مجاهد عبد الوهاب
محلج شربين – دقهلية – ٣٥٦٦١

● دمعة على الشرق ●

سر حيث شئت وحبذ صحبة الكتب

بداية الغيث قطرات من السحب

لا مستحيل بهذا الكون إن وثبت

خطاك بالدرب لا تسأم من التعب

يايعربى لقد أوليتنى شرفاً
إذ جئتنى حاملاً لى نفحة الأدب
إن الألى سادت الدنيا جدودهم
اضحوا مسودين فى هم وفى كرب
الغرب داس نواصيهم فما اعترضوا
لدوسها ، إنما لبوه بالطلب
حنوا الجباه له من عير ما خجل
وسلّموه كنوز الأرض والذهب
يفضلون ملذات على شرف
ويحسنون فنون الرقص والطرب
ناب الأعادى يعض اليوم مهجتنا
ونحن نستنفد الطاقات بالخطب
ودودة الغدر بالأجساد تنخرها
وترتعى بالدم المهراق والعصب
متى نحطم ناباً قد أضر بنا ..
متى على الدود تأتى ثورة الغضب ؟!
واحسرتاه فما بالدار من بطل
حامى الحقيقة للأحرار منتسب
إن كانت الأسود لا تحمى مواطنها
فللثعالب حق الفخر واللقب !!

درهم جبارى – سان فرانسيسكو – الولايات المتحدة

• الأيديولوجية الصهيونية •

الدكتور عبد الوهاب المسيرى حصل على الدكتوراة فى الأدب من جامعات الولايات المتحدة ، وشغل وظيفة (خبير فى الشئون الصهيونية) بمركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام ، وعمل مستشارا ثقافيا للوفد الدائم للجامعة العربية بالأمم المتحدة بين عام ١٩٧٥ – ١٩٧٩ م ويعمل

الآن استاذاً للأدب الانجليزى بجامعة عين شمس ، ومن مؤلفاته : -

١ - موسوعة المفاهيم والمصطلحات الصهيونية - رؤية نقدية ١٩٧٥ .

٢ - اسرائيل وجنوب افريقيا وتطور العلاقة بينهما ١٩٧٨ .

٣ - الايديولوجية الصهيونية جزآن الكويت ١٩٨٢ .

٤ - هجرة اليهود السوفييت دار الهلال ١٩٩١ .

وكتاب الايديولوجية الصهيونية يتحدث عن جذور المسألة اليهودية وكيف بدأت مرحلة التجارة والربا فى شرق أوروبا وأن جزءاً عمل بالزراعة والآخر بتجارة الماس وتقول الموسوعة اليهودية فى مدخل المصارف والصيارفة فأن اليهود فيما بين القرنين الثانى عشر والخامس عشر احتكروا تقريبا عملية الاقراض نظير فائدة .

ويقدم د . عبدالوهاب المسيرى كتاب Among Arol and Jews تأليف ج . ب فاتيكيوتيس (لندن وايد نفلد ونيكلسون ١٩٩١) .

ومؤلف الكتاب عاش فى القدس عام ١٩٢٨ ويتحدث عن المجتمع العربى والمجتمع اليهودى داخل فلسطين ويتحدث عن أعضاء الجماعة الوظيفية .

١ - الحياد والموضوعية والتعاقدية أعضاء الجماعة الوظيفية مجرد أداة فى يد الحاكم والأداة لابد وان تكون موضوعية ومحايدة لاتتخذ مواقف .

٢ - العزلة والهوية المستقلة : - يحتفظ أعضاء الجماعة الوظيفية بهويتهم التى تأخذ شكل عقيدة ، مختلفة ولغة مختلفة وتوجه ثقافى وحضارى .

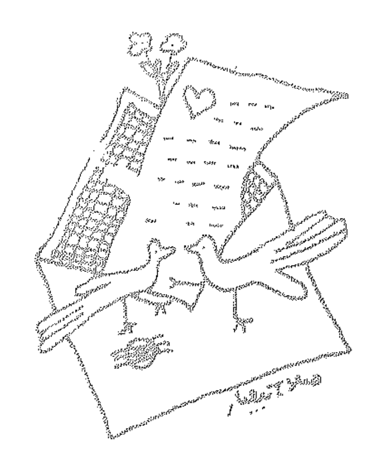
٣ - الارتباط الوهمى بالوطن الاصلى .. نقول وهميا لأن أعضاء الجماعة الوظيفية لايعودون قط اليه وإنما يستخدمونه كنقطة مرجعية تعزلهم .

٤ - الحركية أعضاء الجماعة الوطنية يتسمون بحركية بالغية لانهم غير مرتبطين بالمجتمع الذى يعيشون فيه .

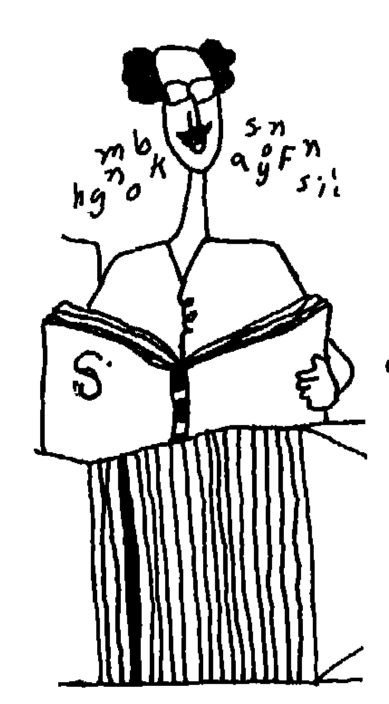
وفاتيكيوتيس المهاجر اليونانى الأزلى ينتمى إلى تشكيل ينكر فلسطين للعرب وهو لا يطالب بإبادة الفلسطينيين .

رجب عبد الحكيم بيومى الخولى

• رسالة •



حبيبتى ..
يا أملاً أعيش له ، يا نجمة السماء
تقبلى احترامى ، وخالص الوفاء
وبعد ..
فأنا لم أشع أننا أسطورة
ولم أكن ذات يوم طيراً من الطيور
وأنت يا وحيدتى
لست كما توهمت عصفورة !! ؛
لأننا لو كنا طائرين ..
لو كنا عصفورين –
كما عشنا – كما نعيش – مشاكل البشر ؟!
لوكنا طائرين .. كنا ائتلفنا وقت التقاء النظر ..
جسماً واحداً
لكنت قد جمعت من دنياهم ،
القش والأوراق ، .. ومستلقظ الطعام ،
وجئت ملأنة الخاطر ، تغازلينى وتنشدى :
« إهدنى بذرة الحياة ..
فأنا أشعر بالحنين لأن يكون بيننا وليد .. »
لكننا يا وحيدتى بشر ..
وختاماً ...
تقبلى تحيتى .. ومطلباً يعادل حبنا الكبير
مع الشروق ، كل يوم ، ترقبى ؛
لعل ذات يوم تكون عودتى



وإن أبطأت فى المجئ ، وأحسست ضيق الانتظار

لا تيأسى ..

فقد أجئ بعد مغرب النهار ..

وخلفى .. ألف ناقة .. تحمل الذهب !!؟ ..

د . سمير محمد البهواش
أوسيم – شارع جامع البهواش

• الشاعر عبد الحميد الديب •

فى أبريل الماضى مرت الذكرى التاسعة والأربعون لرحيل الشاعر عبد الحميد الديب الذى كانت حياته مثالا مجسما للبؤس والشقاء ، ولم يأخذ حقه حيا وميتا ، ولم يزل مجهولا لدى الكثيرين برغم آثاره الشعرية ، وكان كما وصفه الأديب الكبير أحمد حسن الزيات : « نمطا وحده فى شعراء عصره .. كان ظهوره رجعة إلى نوع انقرض من الشعراء الهجائين المستهترين المكدين الذين لم تهيئهم طبائعهم للعمل الكاسب ، فأخلدوا إلى التبطل ، وحملوا عجزهم على لؤم الناس وظلم القدر » ..

ولد عبد الحميد الديب فى إحدى قرى مركز تلا بمحافظة المنوفية ، وهى قرية كمشيش عام ١٨٩٨ .

وبالرغم من أن الشقاء لازمه فى حياته ، إلا أن المحن صقلته ، والخطوب صهرته ، فكان شاعرا مبدعا ، صادق الاحساس ، وكان الشعر هو ميراثه الوحيد الذى خرج به من الدنيا ، أو كما قال :

ملكتموهـــا بالغنى .·. وملكتها شعرا وفنا

أنتم مشيب فى الصبا .·. وأنا الشباب كبرت سنا

لقد غمرت المحنة شاعرنا واخترق الأسى شغاف قلبه وأحس بأن أصحابه ينفضون من حوله ، فيزداد سخطه وحزنه فيقول :

أنا الغريب على الدنيا فعالمها .·. أعدى عدوى يهجونى وأهجوه
فما سمعت على الأعياد تهنئة .·. إلا مداهنــة يلقى بها فــوه
يا قوم مالى من ذنب أدان به .·. مابال نورى إن أظهرت تخفوه
لكنها محنة أنتم طواعية .·. فيهـا لدهرى إن يأمر تجيبوه

وقد بلغ اليأس والبؤس بشاعرنا مبلغاً جعله يتمنى لو كان الناس كلابا فهو يعتقد أن الوفاء لا يوجد إلا فى الحيوان وأن كلبته ترمز لهذا الوفاء بما تحملته من جوعٍ قدر عليها لخلو منزل شاعرنا – بحكم الشقاء الذى لازمه – من القوت ..

ليت العبـاد كـلاب إن كلبتنـا .·. لما تزل لحفـاظ الـود عنوانا
تحملت قسطها فى البؤس صابرة .·. لم تشك جوعاً ولم تستجد إنسانا

ويزداد همّ الشاعر حينما يُسْرَق لحافه الذى يتقى به صولة البرد ولو يكن هو الضحيّة دون لحافه ..

وياليتنى دون اللحـاف ضحيّة .·. فإنى صـديق فى الحياه موافى
فكم ليلة تحت اللحـاف قضيتها .·. أسامر أحلامى وطـيف سلافى
وكم ذا وقانى البرد فى جنح ليلة .·. بها الموت من كل المواجع شاف
لقد ضـاع منـى ذا الغطاء فهل .·. ترى أدثّر شعراً ضافيا وقوافى

وتزداد الأحزان والهموم بالشاعر حتى عندما يتزوج ...

أقام لى الأصـحاب عُرْسًا فمذ رأوا ... به محنتى تشـدو أقاموه مأتما

لقد كان عرسه مأتماً ، ولم لا والشاعر بائس فقير لا يملك قوت نفسه ، فكيف به وهو يتزوج أرمـلة لها طـفلان ؟! مـن أين له بقوتهم جميعاً ؟ .. وما الحل إذن ؟! ..

على الرغم منى أن أطلق زوجتى .·. وما لى بها فى الكون أى بـديل
ولكننى أخشى على الحسن فاقة .·. فما أخضرت الدوحات بين محيل
إذا قلّ مـالى فى هـواها فإنما .·. وفـائى لها فى العيش غير قليل

ثم إن الشاعر برغم بؤسه وحرمانه وهمومه المتوالية مؤمن بالله كأشد مايكـون الإيمان ، راض عن ربّه وعن أحكـــامه كأشد مايكون الرضا فهو يقول :

وفى قسمة الأرزاق عدلٌ وإنما .'. هنالك سرٌ فى السماء وطلسمُ

ويقول :

أأكفر من بؤسى بأحكام خالقى .'. كفى بى رزقاً أننى الدهر مسلمُ

وتبلغ المأساة قمتها حينما يضيق الشاعر بحياته ويناجى ربّه متمنياً الموت ولو كانت نهايته جهنّم :

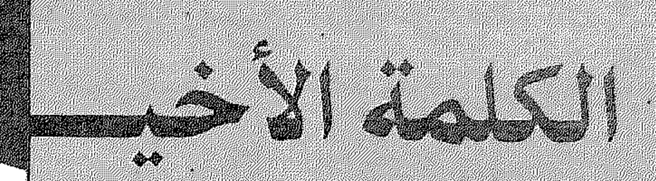
جوارك ياربّى لمثلى رحمة .'. فخذنى إلى النيرن لاجنة الخلد

وتكون النهاية التى يتمناها الشاعر فيلقى ربه فى ٣٠ أبريل عـــام ١٩٤٣ م .

عزت فتحى سعد الدين – كفر ربيع – منوفية

مـع الأصدقاء

السـادة الشعراء : محـمد محمد نعمان الهوى (أبو تشت) السيد التحفة (شبراخيت) محمد عبد الله أحمد (حلوان) حـسام السيد عبد المجيد هلال (سنهور) رمضان الهجرسى (السنبلاوين) سومه خليل حسن (كفر صقر) .. قصائدكم تدل على مواهب متنوعة ومتفاوتة فى النضج ، ولكن الأوزان ليست على مايرام ، وكذلك النحو والصرف ، وحتى الإملاء فى بعض القصائد ، وإن كانت بعض القصائد تكاد تخلو من الأخطاء الإملائية واللغوية ، ولكن أخطاء العروض تشمل جميع القصائد ..



الكلمة الأخيرة

بقلم : محفوظ الانصارى

مائة جديدة .. وعطاء جديد ..

طلب منى الأصدقاء الاعزاء - مكرم محمد أحمد ومصطفى نبيل - وعبد الحميد حمروش - « أصحاب الهلال بلغة قرن مضى - » مشاركتهم جلسة عمل ، تضم عددا من المفكرين والمثقفين والكتاب ..

موضوع الحديث والجلسة .. الثقافة فى مائة عام ..

الموضوع « الهلال .. » فى عامه المئوى ..

الموضوع .. « مائة عام جديدة .. » ، من الثقافة والحضارة والعلم ..

الموضوع نهضة جديدة ، وريادة جديدة ، وتنوير جديد يقوده « الهلال .. » مواصلا دوره وعلى امتداد واتساع « مئوية .. » جديدة .. تبدأ فى سبتمبر القادم ..

□□□

« أصحاب الهلال .. » ، أرادوا أن يجعلوا من عيد الميلاد المئوى .. عيدا مصريا .. عيدا عربيا ..

عيدا للكلمة المكتوبة بالعربية والصادرة من مصر على امتداد المائة عام الماضية .

وعيدا ، أو افتتاحا لنهضة فكرية وثقافية وعلمية متجددة طوال المئوية القادمة .

لقد بدأ الهلال عام ١٨٩٢ .. نهاية قرن ، وبداية قرن جديد ..

اليوم ونحن فى عام ١٩٩٢ .. نودع قرنا .. ونستعد لاستقبال قرن جديد ..

وكما تولى « الهلال .. » رسالة التنوير ، فى نفس اللحظة ونفس الظروف ونفس التوقيت من مائة عام ..

هاهو الدور يتجدد .. والرسالة مطلوبة .. والارادة منعقدة عند أصحاب « الهلال .. » ، بل وعند كل من تعلم وتنور ، قارئا « الهلال .. »

ولهذا فمهمة « الهلال .. » فى المئوية الجديدة أظنها أصعب وأعقد .. ورسالتها أكبر وأعظم .. لقد حمل « الهلال .. » الجديد والنور إلى الناس فى أول القرن .. ومطلوب منه أن يواصل العطاء بالجديد وبالريادة فى العلوم والفنون والثقافة ..

كتاب
الهلال
يقدم

العبقرى والكون

تأليف:
جون بوزلو
ترجمة:
د. مصطفى ابراهيم فهمي

يصدر
٥ يونيه - ١٩٩٢

روايات الهلال
تقدم

الرجل المناسب

الرواية الفائزة
بجائزة بوكر ١٩٨٢

تأليف:
وليم بويد
ترجمة:
عبد المنعم صادق

تصدر
١٥ يونيه - ١٩٩٢



مصر للطيران

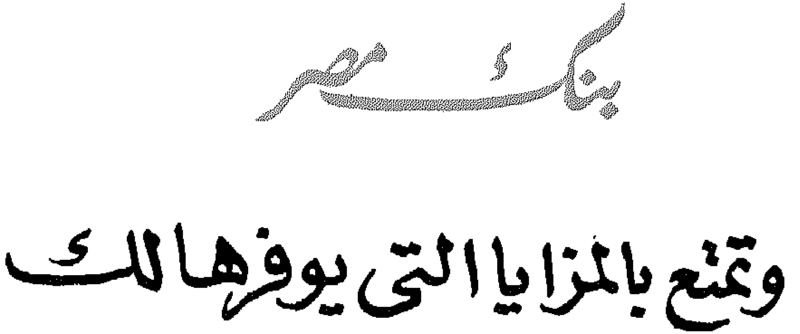
أهلاً بكم في عالمنا...



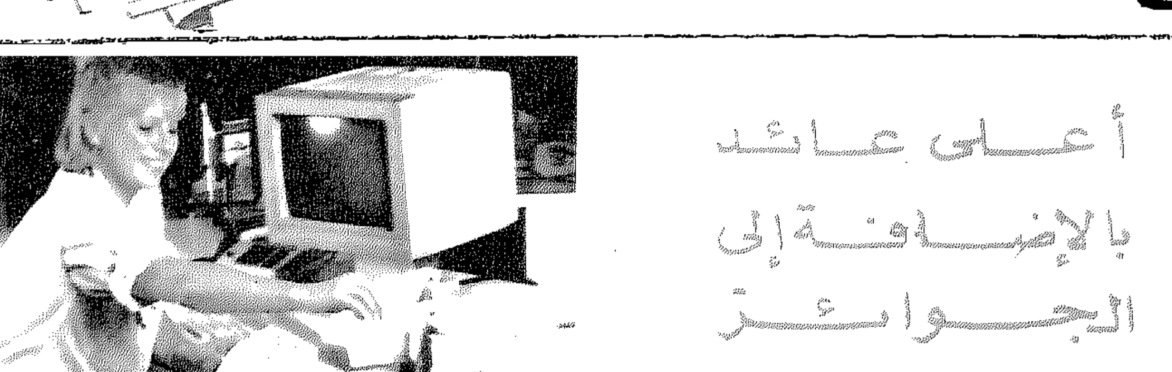
الهلال
العام المائة
يوليو ١٩٩٢ ● والثمن ١٠٠ قرش
القصة القصيرة
ازدهار وانحسار
جزء خاص
شطحات الصوفية

فقط ٥ جنيهات استرلينية

يمكنك فتح دفتر توفير



وتمتع بالمزايا التى يوفرها لك



- السحب والإيداع فى أى وقت ومن أى فرع
  (٣٥٥ فرع فى خدمتك)
- يتيح لك الاشتراك فى دفتر التوفير ذ والجوائز
- لكل ١٠ جنيهات استرلينية فرصة سحب شهرى
- ١٥١ فرصة كل شهر، قيمتها السنوية تعادل ١٤١٩٢٠ دولار
  تصرف بالجنيه الاسترلينى .. بالاضافة إلى العائد المستحق



الهلال

مجلة ثقافية شهرية تصدرها دار الهلال
أسسها جرجى زيدان عام ١٨٩٢

رئيس مجلس الإدارة
مكرم محمد أحمد

نائب رئيس مجلس الإدارة
عبد الحميد حمروش

رئيس التحرير
مصطفى نبيل

المستشار الفنى
محمد أبو طالب

مدير التحرير
عاطف مصطفى

المشرف الفنى
محمود الشيخ

سكرتير التحرير التنفيذى
عيسى دياب

الادارة : القاهرة - ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا)
ت : ٣٦٢٥٤٥٠ (٧ خطوط)
المكاتبات : ص . ب : ٦١٠- العتبة - الرقم البريدى : ١١٥١١ - تلغرافيا المصور - القاهرة ج . م . ع .
مجلة الهلال ت : ٣٦٢٥٤٨١
تلكس : 92703 Hilal un
فاكس : FAX : 3625469

السنة المائة - يوليو ١٩٩٢ ● محرم ١٤١٣ هـ

فى الجزء الخاص عن القصة القصيرة نحرص على إبراز أهمية هذا الفن الجميل بهدف أن يعود إلى مكانته فى نفوس القراء خاصة أن القصة القصيرة فى الآونة الأخيرة تواجه انحسارا على عكس الرواية التى تشهد ازدهارا ملموساً الآن .

والقصة القصيرة عرفت منذ زمن بعيد فى العصور الوسطى كما عرفت القصة القصيرة الحديثة فى القرن التاسع عشر على أيدى إدجار آلان بو فى أمريكا وجى دى موباسان فى فرنسا ، وأصبح لها فرسانها من أمثال كبلنج وتشيكوف وبالرغم من أن القصة القصيرة فن محدث فى الأدب العربى وقد ولدت متأثرة بالأدب الغربى فإنها نمت وتطورت حتى أصبح لها كيانها الخاص وقوامها المستقل ، وموضوعها الأصيل الذى تستقيه من واقعنا بما فيه من آمال وآلام ومن وجداننا بما ينطوى عليه من أحاسيس ومشاعر .

كان روادها محمد ومحمود تيمور وتوفيق الحكيم ومن بعدهم ظهرت المدرسة الواقعية التى مثلها يوسف إدريس ثم المدرسة التأثيرية ومن فرسانها يحيى حقى ومحمود البدوى ثم عشرات من الأسماء التى سطعت فى سماء القصة القصيرة .

أين نحن من تلك الانطلاقة التى شهدتها القصة القصيرة فى مصر منذ بدايتها .. وهل مازالت القصة تحظى بنفس القدر ونفس الأهمية .. وهل فرسانها الآن يؤدون نفس الدور وبنفس الأدوات الفنية المرتفعة ؟

سؤال نطرحه على هذا الجيل أملا فى الإجابة التى تحقق للقصة ازدهارها السابق والمتعة التى يحظى بها القارىء العزيز .

في هذا العدد

• فكـــر وثقافة •

• فنـــون •

الغـــلاف :
لوحة للفنان
بيـــكار

قيمة الاشتراك السنوى ١٢ جنيها فى ج.م.ع. . تسدد مقدما نقدا أو بحوالة بريدية غير حكومية - البلاد العربية ١٢ دولارا - أمريكا وأوربا وآسيا وافريقيا ٢٥ دولارا - باقى دول العالم ٣٥ دولارا .
والقيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال - ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد .

سوريا ٥٠ ليرة ، لبنـــان ١٠٠٠ ليرة ، الأردن ١٠٠٠ فلس ، الكويت ٧٥٠ فلسا، السعودية ٨ ريالات ، الجمهورية اليمنية ٢٥ ريالا ، تونس ١.٥ دينار ، المغرب ١٥ درهما، البحرين ٨٠٠ فلس ، قطر ٨ ريالات ، مسقط ٨٠٠ بيسة ، غزة والقدس والضفة ٨٠ سنتا ، إيطاليا ٢٧٠٠ ليرة ، لندن ١٢٥ بنسا ، نيويورك ٤ دولارات ، الإمارات العربية المتحدة ٨ دراهم ، الجماهيرية الليبية العظمى ١ دينار ، السودان ٤٥ج . س .

عزيزى القارئ،

دار الكتب .. تعود لمصر

فى شهر فبراير الماضى فتح « الهلال » ملف دار الكتب المصرية بعد صمت طويل، وتجاهل مديد ، وقعت تحت نيره هذه الدار العريقة التى كانت أول دار للكتب والوثائق أنشئت فى الشرق كله ، ولم تكن الكتب والمخطوطات والوثائق قبل إنشاء هذه الدار تجد مكانا تأوى إليه ، فكانت تتناثر فى مكتبات الأفراد والجماعات والمساجد وغيرها ، حتى أنشأ الوزير المصلح المرحوم على مبارك باشا دار الكتب المصرية عام ١٨٧٠ فصارت موئلاً للتراث الفكرى العربى والاسلامى ، وفتحت أبوابها للقراء والأدباء والمؤرخين والباحثين ، وقدمت لهم أجل الخدمات .

ولكن هذه الدار العظيمة توقفت مسيرتها عندما أدمجت عام ١٩٦١ فى « دار الكتب والوثائق القومية » ثم أدمجت هذه الدار الأخيرة فى الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ، فانهارت دار الكتب المصرية العريقة وعجزت عن أداء وظيفتها ! ..

وكان هدف « الهلال » من فتح الملف المغلق لدار الكتب إحياء دورها وتطويره وتوسعته وتحديثه ، ومن حسن الحظ أن هذا المسعى قد صادف أذنا صاغية من الجهات المسئولة ، فأصدر السيد فاروق حسنى وزير الثقافة قرارا بتأليف لجنة من كبار العلماء والمثقفين والمختصين ، مهمتها وضع استراتيجية لتطوير دار الكتب المصرية تطويرا شاملا ، بما يحقق استقلالها عن الهيئات التى أدمجت فيها ، ورفع مستوى الأداء والخدمات بها للوصول إلى أفضل مستوى ..

وبعد أن تبنت قرينة الرئيس السيدة سوزان مبارك مشروع القراءة للجميع ، ستضع ثقلها وراء مشروع إحياء دار الكتب وانتشار المكتبات فى كل أنحاء البلاد .

والمهمة المنوطة بهذه اللجنة مهمة كبيرة متشعبة تبدأ بإصلاح وترميم مبنى دار الكتب فى ميدان باب الخلق بالقاهرة ، وإعادة تخطيط الميدان نفسه ليلائم هذا المبنى العظيم الذى كان له أثر عميق فى تاريخ الثقافة المصرية والثقافة العربية والإسلامية فى عصرنا كله ..

والعالم الإسلامى

ويشمل العمل الضخم الذى يستهدف إنقاذ دار الكتب وإحياء دورها على أوسع نطاق وأحدثه ، حصر ما بالدار من الكتب والوثائق والمخطوطات والأجهزة والمعدات ، وقاعات الاطلاع والمعامل والمخازن وأماكن الإدارة ، وما تحتاج إليه عملية التجديد والتطوير من أجهزة كمبيوتر وميكروفيلم وميكروفيش وأجهزة ضبط درجات الحرارة والرطوبة حفاظا على المخطوطات والوثائق النفيسة التى تضررت من الإهمال الطويل ..

عزيزى القارىء

هكذا يتبين أن إنقاذ دار الكتب المصرية يحتاج إلى جهد واسع بعيد المدى يشمل نواحى كثيرة ، لا تقتصر على ترميم الكتب والوثائق والمخطوطات ، وإقامة نظام إدارى ومالى للدار ، وإيجاد الحلول المعمارية اللائمة لمبنى الدار ليتحقق غرضه الأساسى .. بل امتد التفكير إلى التنسيق المعمارى والحضارى لكل المنطقة المحيطة بالمبنى .. واقتضى ذلك دراسة التكلفة المالية الإجمالية والتفصيلية ، لكى يتسنى توفير الميزانية المطلوبة وعناصر التمويل اللازمة لهذا المشروع القومى الحضارى الكبير .

عزيزى القارىء

إن الظروف قد أتاحت للهلال فى عامه المئوى أن يرتاد مجالات متنوعة للثقافة بأوسع معانيها ، وقد حدثناك فى العدد الماضى عن المشروع الخاص بترميم الآثار التاريخية فى حى السيدة زينب وإنشاء مكتبة عامة ، ومكتبة للأطفال فى هذا الحى الذى تقوم فيه دار الهلال منذ أكثر من نصف قرن ..

وها هو ذا مشروع إحياء دار الكتب المصرية ، وهو مشروع قومى ضخم يتطلب تضافر جهود المفكرين والعاملين من جميع الفئات ، مع فتح باب الاكتتاب للمؤسسات الثقافية وغيرها للمشاركة فى هذا المشروع النبيل بما يكفل نجاحه وإعادة دار الكتب المصرية إلى دورها الثقافى والعلمى الرائد اللائق بدور مصر فى العلم والثقافة على امتداد البلاد العربية والإسلامية .

« المحـــرر »

قمة الأرض

وأهل الجنوب أمام المستقبل

بقلم : محمود عبد المنعم مرتضى*

لعل أبرز العلاقات الدولية الراهنة ، أن ثمة اعادة ترتيب للاولويات فيما يتعلق بالقضايا التى تحظى بالاهتمام العالمى ، إذ تتصدر سلم الأهمية قضايا حقوق الانسان والتعددية السياسية ، وحماية البيئة .

وإذ تدرك شعوب الجنوب أهمية هذه القضايا العالمية الملحة ، فانها ترى أن المناقشة الأمثل لها لابد وأن تجرى من منطلق التقييم النقدى الذى تنظر به دول العالم جميعاً إلى هذه القضايا ، كما أن معالجتها ينبغى أن تعكس بصورة سليمة ، تنامى التكامل فى إطار المجتمع الدولى بأسره ، كما ينبغى أن يرتكز تناولها على اتفاق عريض فى الرأى .

فبالنسبة لقضية حقوق الإنسان ، فلابد لنا أن نؤكد من جديد أن حقوق الإنسان لا تتجزأ ، وأن الإهتمام بحقوق الإنسان يجب الا يقتصر على حقوقه المدنية والسياسية ، كما أنه لا يمكن التعامل مع حقوق الانسان بمعزل عن الارتباط المباشر بين حقوق الانسان وبين التنمية الاقتصادية والاجتماعية ، وهى معادلة لا تكتمل إلا بالتنسيق بين جانبيها ، بشكل يمتد إلى أبناء المجتمع ، على اختلاف طبقاته وعناصره العرقية واللونية ، وفى اطار يشمل العلاقات الدولية ككل .

كذلك يتعين التأكيد على ضرورة عدم إثارة قضية احترام حقوق الانسان بصورة انتقائية ، واستخدامها كوسيلة لتحقيق أهداف سياسية محضة . كما ينبغى التسليم بأن الدعوة لاحترام حقوق الانسان

---

* سفير مصر فى البرازيل

وحمايتها هي التزام من جانب الدول كل على حدة ، وفقا لمعتقداتها الدينية وانظمة القيم التي تؤمن بها شعوبها ، واعمالا لروح المواثيق الدولية التي صادقت عليها .

أما عن قضية التعددية السياسية ، فقد دفعت الرغبة الملحة في نفوس عامة الناس ، في جميع أنحاء العالم إلى اطلاق تيار عالمي عارم صوب هذا الاتجاه ، بغية تحقيق الاستجابة للتطلعات السياسية للشعوب ، في نطاق تراثها وتقاليدها الثقافية والانسانية . ومع ذلك ، فان ثمة حاجة إلى التسليم بأن الإستقرار السياسي لا يمكن أن يتحقق في ظل ظروف الحرمان الاقتصادي حتى ولو كان بالنسبة لقطاع أو قسم معين فقط من شعب دولة عظمى أحرزت أعلى معدلات التقدم والثراء في العالم لذا فلابد أن يتركز الاهتمام العالمي على القضاء على الفقر والجوع والبطالة وسوء التغذية والامية .

قلق بالغ

أما فيما يتعلق بالبيئة ، التي هي تراث عام ، فان تدهورها العالمي المستمر والذي كان للشمال القسط الأعظم في أحداثه ، مدعاة للقلق البالغ من جانب كافة شعوب العالم ، كما أن حمايتها تستوجب تعاون المجتمع الدولي بأسره ، انطلاقا من منظور متوازن ، يقوم على مبدأ كل حسب مسئوليته ، وكل حسب طاقته .

ولا شك أن قضية البيئة وقضية التنمية ، هما قضيتان مترابطان ، تدعم كل منهما الأخرى ، ولا يمكن علاجها إلا بالربط بين الاهتمامات البيئية وبين ضرورة النمو والتنمية الاقتصادية . وفي هذا الخصوص ، تتمسك شعوب الجنوب بأهمية التسليم المطلق بحق بلدانها في التنمية ، بضرورة أن تدعم التدابير المتخذة لحماية البيئة العالمية ، النمو والتنمية الاقتصادية في هذه البلدان ، وبخاصة التوجه بكل الالتزام من جانب البلدان المتقدمة للقضاء على الفقر باعتباره عاملا أساسيا للتدهور البيئي في البلدان النامية .

وفي ظل الفجوة الضخمة في مستوى التنمية العالمية لكوكبنا ، ينقسم العالم بين الذين يملكون والذين لا يملكون بما يهدد بانفجار موجات متلاحقة من الاضطرابات الاجتماعية والهجرات الواسعة وملايين اللاجئين والنزاعات الاقليمية والثنائية .

وربما يكون اخشى ما تخشاه شعوب الجنوب الآن ، أن تتمخض عاصفة التطورات التي تجتاح نهاية هذا القرن ، عن نتائج سلبية بالغة تصيب حاضرها وتنال من مستقبلها ، ذلك ان من المفارقات المصاحبة لعاصفة التغيير التي يشهدها زمننا الراهن ، هو أنه في الوقت الذي يتحول فيه العالم المعاصر إلى قرية مكشوفة الاسرار تتسع الهوة الفاصلة بين مستويات تطور هذه القرية ، وتطرد بوتائر أسرع عملية الاندفاع إلى امام لقسم ضئيل من سكانها والاندفاع إلى وراء للقسم الأعظم منهم . فكلما زادتنا وسائل

الاتصال اقترابا ادركنا كم نحن متباعدون .

وإذ يلحظ الجنوب أكثر فأكثر أن عاصفة التغيير تشيح بوجهها عنه هناك ، فمن حقه أن يشعر بالصدمة لصورته التي تفرض عليه دون أن يشارك في رسمها ، صورته القادمة من تاريخ ليس كله تاريخه ، صورته المصنوعة من نتائج حرب عالمية لم تندلع ، ولكنها أسفرت عن عالم يتجه إلى تكريس المظالم التي خلفها لنا نظام الأمس المنصرم .

ومهما كانت الصورة المتبلورة للعالم القادم من هذا المخاض الفوضوى والمنظم في آن ، فإننا نرى بوضوح ساطع مدى غموض مكانتنا هناك في جنوب الصورة !

إن عملية حل التناقض القائم ، تتم للأسف بخلق المزيد من عوامل التناقض القادم ، إذ يقف الجنوب المحروم من المشاركة في الأسئلة الكبرى التي يطرحها الشمال على مستقبل وجوده ، عاجزا عن ترميم القطيعة بين تاريخين متناقضين وخائفا من الوظيفة التي يرشحه لها النظام العالمي الوليد ، لأن هذه الليبرالية المنتصرة لم تفصح بعد عن إنسانيتها وشموليتها وعالميتها لتحمل بشرى الديمقراطية وحقوق الانسان وحق تقرير المصير لكل بقعة من بقاع الأرض .

إن عدم الانسجام بين وتيرة التقدم المادى العالمي ، وبين المنهج الروحي والانساني ، يخلق إمكانيات الهيمنة والاستبداد ، خاصة وأن هذه العاصفة التي تهب على نهاية هذا القرن لا تعدنا - حتى الآن - بتقديم الحلول الواضحة لمشاكل الجنوب المتراكمة ، كالفقر والجوع والأمية والمديونية والعنصرية التي تعاني منها مئات ملايين البشر .

صياغة الشرعية الدولية

إن ما يحدث في التنظيم الدولي الآن ، وفي الحياة السياسية الدولية برمتها ، يتمثل في العصف المنظم بميراث التطور الانساني في مجال القانون والتنظيم الدولي المعاصر ، وذلك من خلال الانفراد المتعسف بتحديد المعايير القانونية لحل النزاعات القائمة ، وصياغة نظام الشرعية القانونية الدولية ، على أسس انتقائية وذاتية بعيدة عن الموضوعية . ولعل أكثر ما يعرى هذا الموقف ويفقده كل مصداقية ، هو تطبيق معايير مزدوجة على القضايا المتشابهة ، انطلاقا من المصالح الضيقة والرؤى المتحيزة . كما أن الاستخدام الفج لمجلس الأمن وللمنظمات الدولية في بسط الهيمنة على أنظمة الجنوب ، والتدخل في شئونها الداخلية ، إنما يهدد بنسف مبدأ السيادة الذى يعد أساس القانون الدولي وجوهر مبادئه جميعا .

ولا شك أن هذا النمط من السلوك السياسي ، يحبط تطلعات دول الجنوب في أن تتم تصفية النزاعات الاقليمية والتوترات الدولية من خلال التسويات السلمية ، وعلى أساس قواعد القانون الدولي . بل إن آمال الانسانية في التطور السلمي ونبذ الحروب، تقف دونها الآن ، تلك الرغبة الجامحة في استخدام العنف والبطش وفرض إرادة القوة والقهر .

إن شعوب الجنوب التى تعلقت بالآمال فى أن يسود العالم نظام يجرى فيه تغليب قوة القانون ، غدت تعيش الآن ولفترة قد تطول لزمن قادم ، تحت وطأة قانون القوة، الذى تسقط فيه كل ضمانة فى أن يكون للأمم المتحدة والمجتمع الدولى ككل ، لا «لدولة عظمى» بعينها ، الكلمة الفاصلة فى تقرير الخطوط الدقيقة التى سوف تفصل بين المشروع وغير المشروع ، والجائز وغير الجائز .

ومن أكثر التناقضات التى تسود حياتنا الدولية حدة فى الوقت الحالى ، أنه فى الوقت الذى تعلو فيه قيمة الديمقراطية كأسلوب لتنظيم المجتمعات ، يفتقد المجتمع الدولى بشدة للديمقراطية ، إذ تشتد الفوارق بين الشعوب وتقوم بينها أفدح التمايزات ، وتهدر كل مالها من حقوق متكافئة فى تقرير مستقبلها .

ومن هنا فإن حاجة الإنسانية إلى ديناميكية أخلاقية ، وإلى مرجعية لضمير المجتمع الدولى تتزايد الآن بشكل ملح لضبط سلبيات المرحلة القادمة وما قد تفرزه من استهتار بالمستوى الروحى والاخلاقى تحت اغراء غطرسة القوة ، والاستغناء عن ضرورة الحوار بين الشعوب وثقافتها ، واستبدال التعددية الثقافية بتكريس مركزية كونية مهيمنة للثقافة ولنمط الحياة والتفكير .

إن البشرية تمر اليوم بتجربة تثير الاعجاب، حيث تعبر فيها الحدود المادية والفكرية والروحية بين ماكان قائما بالامس بخيره وشره ، وبين ما سيكون جديدا فى القرن القادم ، فى العالم على امتداده . ومن ثم فإن هذا العبور لابد وأن تشارك فيه القوى الفكرية والسياسية في كل مكان ، ذلك أن التفاعل سيظل هو العنصر الضرورى ، الذى لاغنى عنه ، لبلورة رؤية واضحة تعبير عن توافق حقيقى فى التوجيهات بين الروافد الرئيسية للفكر العالمى .

ومن المؤكد أن حركة العبور التاريخية هذه سوف لا تكتمل ولا تستقر فى الواقع الدولى ، مالم تشارك الانسانية جمعاء فى انضاجها وتأمين استمرارها ونموها ، حتى تصبح بحق تطورا استراتيجيا فى خطواته وأهدافه ، وليس تكتيكا عابرا ، يقتصر مداه على فترة زمنية محددة ، طالت أم قصرت .

وفى تقديرنا أنه لا مناص ، اذا ما أردنا أن نحول هذا الحماس العاطفى الذى يجتاح اليوم أفئدة الملايين من البشر فى الشرق والغرب ، فى الشمال والجنوب، وتوظيفه لخدمة قضايانا الكبرى ، قبل أن تخمد جذوته أو يصيبها الاحباط ، من تهيئة المناخ للتفاعل الايجابى من أجل بلورة القيمة الجديدة للانسان ، الذى نريده عابرا للحدود ، باقتدار وثبات ، بين قرن وقرن ، وبين تاريخ وتاريخ ، وإلا فلن يقدر لإنسان العصر أن يكون كما نريده ، بانيا لحضارة السلام والحرية ، محققا لحلم البشرية فى العدل والاخاء .

بين الفلسفة والفن

بقلم : د. شكرى محمد عياد

سلخ من عمره - حتى الآن - نيفا وأربعين سنة فى دراسة الفلسفة وتدريسها ، ولكنه مازال وفيا للشعر الذى غازله مدة قبل أن يبلغ العشرين ، ثم صرف الله عينيه وذراعيه عنه وإن لم يصرف عنه قلبه ، فهو لايزال يحن اليه ويناجيه كشأنه مع حبه الأول (العينين الواسعتين السوداوين) التى انعقد لسانه فى اللحظة الحاسمة فلم يعقد حياتها بحياته . والفلسفة عندى وعند أمثالى ممن يتملون طلعتها فى محفل الثقافة ويهابون الاقتراب منها بله أن يتأبطوا ذراعها خارجين (أو حتى أن ينحنوا لها مرة كما فى الأفلام : تسمحين لى بهذه الرقصة !) غادة مغناج تطمعك ولا تعطيك ، ولا تظفر منها بعد السهر والهدايا وشقا العمر إلا بمواعيد كمواعيد هند صاحبة ابن أبى ربيعة ، ولها - مثل كل ذوات الجمال والدلال - وجهان : وجه الى العلم حين تصاحب رجلا كأرسطو أو بيكون أو جيمس ، ووجه الى الشعر حين تؤانس رجلا كأفلاطون أو بسكال أو كامى ، ولها - فى جميع الأحوال - تعلق خفى بالسياسة ورجال السياسة .

وقد وقع عبد الغفار مكاوى فى هوى الفلسفة ، وأقبل عليها جريئا غير هياب وتزوج منها مختارا غير مضطر فتعذب بها طول العمر ، ما غضب منها ولا سلاها ولكن مفزعه كان دائما الى الشعر ، وأخذ عن الوجوديين خاصة شريعة العشـاق

فى ذلك العالم الحافل بالأنمـــاط والأزيــاء وهى أن « التفلسـف » عوض عن « الفلسفة » ، كما أن الذات هى التى تصنع الواقع .

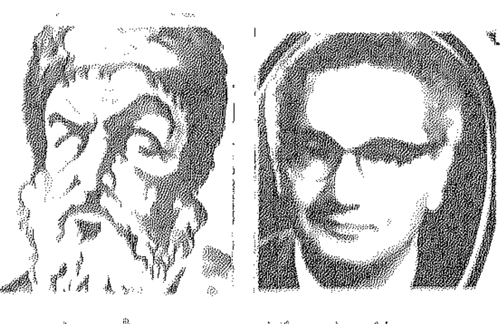
وكذلك استوت لعبد الغفار مكاوى فى حياته وأدبه شخصية فريدة هى مزاج من الحب والسخط واللذة والألم ، والوداعة والغضب . لم يصطنع هذه الشخصية ولكنه اكتشفها فى ذاته ، وجد بذورها كامنة فى نفسه فرعاها ونماها ، و « كل ميسر لما خلق له » . يقول عن طفولته الأولى – وهو يصف كتـاباته كلهـا بأنهـا « اعتراف طويل » – : « ولدت ثالث ثلاثة ، وآثر ضلعا المثلث أن يتركا أضعفهم وأكثرهم هزالا بعد الشهر الثانى من ولادتهم . ولقد طاردنى الشعور بالذنب نحو الشقيقين الغائبين ، أو العاقلين ، منذ أن سمعت القصة من فم أمى وشقيقتى الكبرى . وعرف عنى التحول الرومانسى فى صباى بين قبور جبانة البلدة بحثًا عن قبرى المسكينين ، وعن الشبر الباقى الذى أعده جارنا المقرىء واللحاد ليسع الجسد الثالث النحيل ، فشاء حظه أو مكره – لسبب لا يفهمه ولا يستحقه – أن يبقى بعد المقرىء والأم والأب وشـــقيقين عـزيزين أكبــر منـه » (« التكوين » – الهلال ، سبتمبر ١٩٩٠ ، ص ١٧٨) .

نحن لا نصنع الجحيم

أصبح بعد ذلك أستاذا فى تعذيب نفســه ، فهو يصـور فكره وابداعـه بـــ « الجحيم المحبوب » ، الذى لا يفر منه الى آفاق أخرى أرحب وأجمل إلا ليعود اليه أشد ما يكون وفاء له وتفانيا فيه ! ربما كنا « نصنع هذا الجحيم بأنفسنا » ، كما يقول ، ولكن هل ترانا نصنعه من العدم ؟ أليس « الانتحار الجماعى » – وهو وصفه لحالة أمتنا العربية – جحيما لمن يعى ؟ فنحن لا نصنع الجحيم بأنفسنا إلا لأننا نتشبث بأوطاننـا انتمــاء ، ونرفضهـــا وجودا ، نرى قبورنا الى جوار إخوتنا الذين سبقونا ، ولا ندرى كيف يمكن أن ينجينا المكر – أو أى شىء آخر لا ندريه – من مصير كمصيرهم . نحلم بالجنة – ولو كانت جنة متواضعة جدا – جنة تحترم فيها إنسانيتنا ونتمتع فيها بحرية القول والعمل – ونفيق على واقع مؤلم ، ولذلك أصبحنا نخاف أن نحلم . يقول الناسك الصينى لأهل القرية : « آه يا أبنائى ، هل جربتم سحر الحلم ورعبه ؟ أن يغوص الإنسان فيه كما يغوص فى موجة طرية ناعمة ويفزع منه كأنه يتدحرج فى هاوية مظلمـة ملعـونة ، أن يتشبث به بيــديه وأسنانه ، وأن يخشاه ويفر منه كأنه برق ينذر بالصاعقة ؟ أن يهيم فيه كعاشق مفتون يطوق بذراعه خصر معشوقته وينتفض خوفا منه كأنه قبضة جلاد قبل إحكام حبل المشنقة ؟ » (« القيصر الأصفر » ، ص ١١٣) .

الحلم والكابوس : مركب آخر من المركبات التى تتألف منها حياة عبد الغفار

القفز على الأشواك



مكاوى ، ومنها يصوغ فنه . ولعله أقرب من المركبات السابقة الى الفن . فكثيرا ما استلهم المبدعون أعمالا فنية عظيمة من أحلام وقعت لهم - قصة كولردج مع مطوّلته المشهورة « كوبلاخان » معروفة - فى تاريخ الأدب - وإن كانت العلاقة بين الحلم والفن ذات وجهين : فهل يقلد الفن الحلم أو العكس ؟ إن الفن يحاول أن يضرب بجذوره فى أعماق العقل الباطن ، وهى مادة الأحلام ، ولكنه يأخذ منها بحساب وتقدير ، حتى الفن السيريالى له مصطلح جمالى يميزه عن فوضى الأحلام . ومن جهة أخرى قد يحلم الفنان أنه يكتب قصة أو يصوغ لحنا ، فكأن الحلم يحاول تقليد الفن ، ولكنه فى الغالب لا يحسن التقليد ، ولذلك قال توفيق الحكيم إن الحلم فنان ردىء ، وروى بعض الموسيقيين أنه كانت تخطر له أحيانا وهو يحلم أنغام يخيل اليه فى أثناء حلمه أنها رائعة ، ولكنه ينساها حين يستيقظ من نومه ، فأعد ورقا وقلما بجانب فراشه حتى اذا زاره ذلك الحلم ذات ليلة سارع بتدوين اللحن ، ثم نظر فيه بعد أن استيقظ فلم يجده شيئا . وأغلب الظن أن يد الفنان لابد أن تتناول الحلم بالزيادة والنقص والتهذيب والتثقيف حتى تصوغ منه عملا فنيا .

الكتابة والشكل الفن

واذا كنت أحب أن أتناول رواية عبد الغفار مكاوى القصيرة « الكابوس » (« الدمعة الثالثة » من بكائيات) بشىء من التحليل باعتبارها عملا متميزا بين مجموع أعماله وممثلا له فى الوقت نفسه ، فأنا لا أعدها مجرد « تدوين » لكابوس فعلى « ظلت غرائبه المختلطة تلاحقه فى اليقظة والمنام » كما يقول ، حتى « كان أن دونت الكابوس على الورق فى تسعة أيام لاهثة محترقة الأنفاس » ، فقد يتوهم الكاتب أنه لم يزد على أن « دوّن » الكابوس ، مع أن حالة استحضار الكابوس فى اليقظة تختلف عن حالة الكابوس نفسه أثناء النوم ، وحالة الكتابة تختلف عن الحالتين ، وأهم ما تتميز به الكتابة هو الشكل الفنى ، وهو متحقق فى الرواية وان احتفظت

بالكثير من تلقائية الحلم – الكابوس بحيث أصبح لها شكلها الخاص القريب من الاعتراف ، على أن هذا الشكل « النوعى » الخاص لا يلخص كل الصنعة الفنية فى الرواية ، فهناك صنعة الأسلوب أيضا ، وهو أسلوب مسجوع فى كثير من المواضع ، وكأنه يستحضر جو « ألف ليلة وليلة » بما فيه من خوارق .

تبدأ الرواية بفصل عنوانه « هيجل فوق العرش » ، وتجرى السطور الأولى كما يلى :

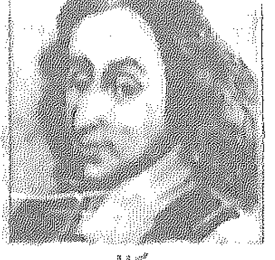
« قصر مهجور ، يبدو كالنسر الهرم الجاثم فوق السفح ، يحتضر وحيدا من ألم الجرح . تحملنى قدماى اليه عبر صحارٍ جرداء ، تحت سماء دهمتها السحب السوداء . جحافل قطعان وجيوش ذئاب ، سفن غرقى يهرب منها البحارة والفئران ويبكى الربان . خيل جامحة تسقط فى الميدان . أقنعة الأبطال المهزومين ، دروع تسقط فى الطين ، وملائكة تنفخ فى الأبواق ، كلاب تنبح فى الآفاق ، ومواكب إنس وشياطين ، ترقص تركع تسجد للتنين . أدخل من باب القصر كأنى أدخل فى قبر ، يهتف صوتى يأتى من فوقى من تحتى أو ينبعث من الصدر : هذا قصر العقل المطلق . حدق فى عين الموت وحدق . فحياتك أن تلقى الخطر المحدق . تتحداه فتنجو من قبضته أو تغرق » .

« العقل المطلق » يكاد يكون مرادفا لفلسفة هيجل ، كما يعرف كل من شدا شيئا من تاريخ الفلسفة ، وهيجل هو الجالس على العرش فى قصر العقل المطلق ، من حوله أشلاء وجماجم نخرة ، تختفى بينها عقرب « التجريد » التى لا يشفى لديغها ، لأن هيجل هو آخر الفلاسفة الكبار الذين حاولوا أن يقدموا تفسيرا شاملا للكون ، اذا استثنينا ماركس الذى لم تكن فلسفته فى جوهرها إلا قلبا لفلسفة هيجل ، أو تصحيحا لوضعها المقلوب فى رأى الماركسيين ، فقد قامت فلسفة هيجل فى جانبها الميتافيزيقى على فكرة المطلق ، أو الله ، وفى جانبيها المنطقى (الديالكتيكى) والتاريخى على فكرة التطور ، أى التجليات المتتابعة والمتناقضة والمتصاعدة للمطلق ، فجاء ماركس وأقام فلسفته على أن أصل الوجود هو المادة لا الروح أو العقل المطلق، ومن ثم أصبح التطور الديالكتيكى عنده هو تطور النظم الاجتماعية القائمة على علاقات مادية ، وليست مظاهر الحياة العقلية أو الروحية بعد ذلك إلا توابع أو « أبنية فوقية » مترتبة على تلك العلاقات المادية .

ولكن عبد الغفار مكاوى لا يتعالى على قارئه بأسماء الفلاسفة أو مصطلحات الفلسفة ، ويستطيع القارىء الذى لا يعنى كثيرا بالفلسفة أن يعبر على هذه الأسماء والمصطلحات ، وسيترسب فى وعيه شعور قوى بما ترمز له أوصاف القصر المهجور وما حوله وما فى داخله : فوضى الحياة

القفز على الأشواك


البير كامى


بسكال

اليومية وقسوتها ، التى نحاول الهرب منها ملتمسين العزاء فيما نسميه القيم الروحية ، ولكننا. نجد أنفسنا نحدق فى الفراغ ، ونشعر بالعجز فنرتد الى أحلام الطفولة ، ثم نجد أنفسنا آخر الأمر أسرى طبيعتنا البشرية ، ضائعين ممزقين بين شهوة الجسد وخوف الموت .

يتغير المشهد فجأة : بينما يفر الحالم من هجمة العقرب محاولا أن يلحق بالنادل الذى يحمل صينية عليها يمامة محمرة تزيد جوعه التهابا ، اذا هو فى بهو فسيح أنيق، وكأنه بهو فندق فخم من فنادق المدن الكبرى وتبدأ خبراته فى ذلك الفندق بهجوم جنسى من إحدى المضيفات ، ثم سؤاله عن أوراقه ، واذا هى قد ضاعت مع حافظته ، ثم يظهر صبى فى يده ناى ، يقدم الحافظة الى الفندقى . وحين يتبين أن بطاقة الهوية بيضاء لا تحمل صورة ولا اسما يهمس الصبى فى أذن الفندقى بكلمات يتغير مسلكه على أثرها من الرفض المهين الى الترحيب الذليل .

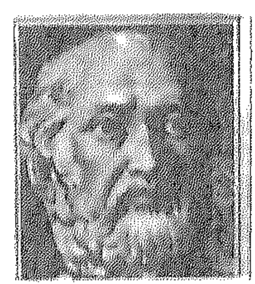
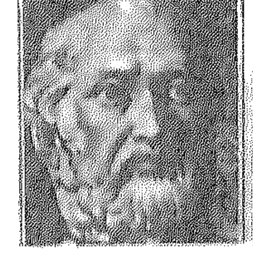
إن الصبى صاحب الناى رمز واضح الشعر الذى سيصبح منذ اليوم رفيق صاحبنا فى تجاربه ، ربما استدرجه الى الخطأ ، أو سهل له الوقوع فيه ، ولكنه فى أكثر الأحيان منقذه من الأزمات ، ومواسيه فى الشدائد . وحين يتجولان معا فى أنحاء الفندق (الحياة) نشعر أننا قد ابتعدنا عن جو الحلم ومنطقه ، وأن القصة (الحلم أو الكابوس) تستحيل الى ذكريات قريبة جدا من الواقع ، حتى لتبدو أشبه بالاعترافات : اعترافات تتمحور حول ثلاث نساء ، أولاهن تنقلنا من جو الحلم الى جو الواقع : « ممددة على الفراش كحورية خرجت من الماء — الشعر الكستنائى منسدل حول رأسها بغير نظام ، والوجه الناصع البياض ، المشوب ببقع حمراء خفيفة ، يشبه وجه ملاك . وجه صغير شاحب كالهلال النائم فوق السحاب ، تشع منه براءة طفل عليل ، مسحوب الى أسفل شبه مثلث حاد ، تشعر من نظرتك الأولى اليه أنك مدعو لحماية يتيم . والعينان ضيقتان، خاليتان من التعبير ، والجفنان بلا رموش، تنظران فى

بلاهة لا تعرف إن كانت مكرًا أو سذاجة أو غباء . توشك أن تهتف حين تنظر فى بحيرتهما الآسنة : هل خلق الله ملائكة عميانا ؟ » .

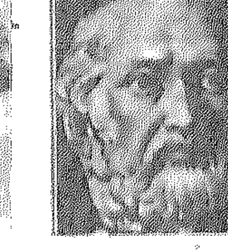
ولكن هذا المكر الأبله يغلب ذكاء الشاعر المتفلسف الحزين ، حتى يخرج من التجربة مضحوكا عليه . أما المرأة الثانية فتتقدم الينا من أول الأمر فى صورة واقعية تماما : « قصيرة ، رقيقة الوجه ، على عينيها نظارة سميكة ، تسبقها ابتسامة تبرز أسنان الفك الأعلى الناتئة الى الأمام . جسـمها الضـئيل كجسم لم ينم ، لا يتميـز فيـه صـدر ولا خصر ولا ردف ، والقدمان قصيرتان ، أقصر مما يسمح به جسم قصير ، فى قدميها جورب أبيض كجورب التلاميذ ، ويداها ، الرقيقتان المتدليتان من ذراعين نحيلتين كأيدى عرائس الأطفال ، لا تتحركان إلا حين يصدر لهما الأمر من الدماغ ، الدماغ الضخم الذى يكسوه شعر أشقر قصير هو كل شىء فى هذا الشبح الأشقر » . وكأن الشاعر يريد أن يتجاهل أنها امرأة ، تريد أن تكون محبوبة مثل كل النساء ، فهو إذ يستجيب لعاطفتها نحوه ، ويحاول أن يتجاهلها فى الوقت نفسه ، يدعوها أمه الصغرى ! الى أن تحين لحظة الوداع فتنهار كبرياؤها وتستسلم لمشاعرها المكبوتة .

وأما الثالثة فمومس فى ماخور ، تؤجر جسمها بالدقائق وتعطى الزبون حقه بأمانة ، وحقه لا يشمل اصطناع العاطفة . فليخرج الشاعر من مخدعها مدحورا ، يضرع الى اله الحب : « يا رب السهم النافذ والقوس ، هبنى أن أجد القبلة : كأسـا تفرغ فى كأس ، عينا تغرق فى عين ، قلبا يدق فى قلب » !

يعـود الصبى صـاحب النـاى الى الظهور، ومن هذه اللحظة يبدأ الكابوس الحق ، وهو يتألف من مشهدين كلاهما مفعم بالشخصيات والحركة : المشهد الأول عند شاطىء البحر ، يتوهم الحالم أن فيه الخلاص فاذا عنده ستة عمالقة سود غلاظ شداد ، وإذا هو قد طرح أرضا وبجانبه بقرة تمضغ فى سكون ، ويأمرون الصبى بأن يقرب مرآة من وجه صاحبنا ، فإذا هو شبيه بوجه البقرة . ويبقرون بطن البقرة فلا يسيل منه دم ولا تخرج منه أحشاء ، بل كتب ! ويقيدونه الى صخرة – مثل بروميثيوس فى الأسطورة اليونانية القديمة، ويأتى نسر ضخم فينهش فى كبده ، ويتطاير ريش يحسبه من ريش النسر ثم يتبين له أنه يتطاير من كبده ! وينشق الأفق عن شخص « فى جلال أبولو وجماله ، كيان أسطورى عالى الجبهة ، شامخ الأنف كبطـل رومـانى ، منسـدل الشـعر على الكتفين ، لا هو بالطويل النحيل الذى يشرئب عبثا للسماء ، ولا بالقصير السـمين الذى تجذبـه العناصر للأرض » . ويفك « البطل الشمس » أغلال صاحبنا ، ويبين له شأن

افلاطون



بيكون

النسر : إنه القلق الذى يدفع ذويه الى الإبداع ، وهذا الدم الذى يسيل من الجرح هو مداد الشعر . أما العمالقة السود الذين يشكوهم صاحبنا الى منقذه فإنهم يعرّفون أنفسهم الى المنقذ : « نحن خرجنا من هذا الصدر كما خرج النسر ، نحن رؤاه ، هواجسه ، أحلام صباه ، ظنون الفكر ، يأمرنا نصدع للأمر ، عشنا معه فى السراء وفى الضراء ، وفى الخير وفى الشر . جعنا وظمئنا معه ، ذقنا الحلو وذقنا المر . ليلا ونهارا ناديناه ودعوناه فى الجهر وفى السر . انهض وتحدَّ القهر . وافتح عينيك وقلبك للشمس وألق بجسدك فى البحر . حتى غضب علينا . نسى ملامحنا . ألقانا فى قاع البئر » .

ينصح البطل صاحبنا وضحاياه - جلاديه بأن يعملوا ، ففى العمل الحر خلاصهم جميعا ، فيخرجون فئوسهم وألاتهم ويعطون صاحبهم فأسًا ، ويشرعون فى شق قناة ليحولوا الأرض الجرداء الى جنة . ولكن صاحبنا لا يحسن استعمال الفأس لأنه مثقف : ميئوس منه ! ولأيًا بلأى ما يفرغ من إعداد حفرة ، وإذا هى قد أعدت له كى يدفن فيها ! ولكنه يجب أن يذبح أولا ، ويقهقه كبيرهم صائحا وهو يمسك برأسه ليذبحه : « رأس هش ! رأس هش ! » .

وأما المشهد الثانى ففى ساحة فى صنعاء ، وصاحبنا واقف بين الواقفين فى انتظار موكب الإمام الذى سيُظهر كرامة على الملأ . يصلى الإمام ويصلى كلبه وراءه . هذه هى الكرامة . يدخل صاحبنا فى جدال مع الإمام ويتهم بالكفر . وفى ساحة الإعدام يلمح زبانيته الستة إلا أنهم فى زى مختلف ، متمنطقون بالخناجر . وقبل أن ينفذ الحكم يرى حبه الأول - حلمه الأول الذى لا ينسى - وقد ظهرت لتلتمس من جلاديه أن يعفوا عنه ، وتقطع أوصاله وهو ينظر فى عينيها ، ثم يزيح السياف الشعر عن الرقبة ، ويسمع مرة أخرى : « رأس هش ! رأس هش ! » .

ويعود المنظر الى بهو العرش ، ولكن صاحب العرش نعسان ! وصاحبنا يخاطبه كلما تنبه ، كما يخاطب أصنام الحكماء

المحيطين به حين تتثاءب وتفتح عيونها : يستنجد مرة ويلوم مرة ويعتذر مرة . ويقول له صاحب العرش ناصحا « لِمَ تقفز من قمة حلم لتغوص فى هوة حلم ؟ عش يومك يا ولدى ... من بؤرة هذا الحاضر تبصر ماضى الأزمان ، وبعين الظاهر تجد اللب الكامن فى الأشياء وفى الأبدان » . ثم إذا بعاصفة تهز أركان البهو ، ويرى صاحبنا أمه ، يشكو اليها ضياع العمر ، فتوصيه بالصبر : « ستدور الدورة يا ولدى ويطل ربيع مفتر الثغر ، وتمر يداه على شجرتك فتخضر » .

ويدوى صوت غاضب : ليس لديه هوية، لا اسم ولا عنوان . أفسد عقل صبى ساذج ، أغوى المشرفة على الحمام ، وأساء لسمعتها ولسمعة هذا الفندق ، فليطرد من حرم المطلق ! فليطرد من حرم المطلق ! لن نقبله حتى يصبح نفسه « حتى يتحقق بالسر الأكبر : كن إياك ومت لتكون!

وبينما هو خارج تلدغه العقرب .

***

وصفت هـــذا العمـــل ، كمـــا وصفه صاحبه ، بأنه « رواية » . ولكننى قلت فى مستهل حديثى عنه انه رواية لها شكلها الخاص ، وأصحاب الحداثة يتكلمون فى هذه الأيام عن أعمال أدبية (أو«نصوص» باصطلاحهم) لا تدخل تحت نوع من الأنواع ، ويسمونها « عبر نوعية » ، وأنا لا أحب الرطـــانة ولا المـــاحكة فى الاصطلاحات ، وأرى تصنيف الأعمال الأدبية - من أساسه - الى أنواع أو مذاهب مقبولا حين يراد التعميم أو التعليم، مخطئا أو خاطئا حين يُطلق على عمل بعينه ، فلماذا نزيد الأصناف صنفا فوق الأصناف أو عبر الأصناف ؟ كل ما أريد أن أقوله هنا هو أن هذه الرواية صورة من صاحبها : عقله ومزاجه وتكوينه ، ومحاولة جاهدة مخلصة ليكون « هو نفسه » . ولكن هذا ليس كل شيء فى الفن ، الفن هو أن تجد فى العمل الفنى صورة من نفسك أنت أيضا ، ولن أسبقك بالحكم أكثر مما قدمته اليك من جمل وفقرات التقطتها من ثنايا الرواية ، أما إن شئت أن أحدثك عن تجربتى فى قراءتها - وأنا أشترك مع كاتبها فى الشعور بالمتناقضات الكثيرة التى تتألف منها حياتنا ، ولكننى لا أشترك معه فى فلسفته المتشائمة ، ولا أدعى أنى أجاريه فى ميدانه الفلسفى أصلا ، وإنما أنا رجل معنى بفن الأدب - ففى وسعى أن أقول إنى رأيت فى هذه الرواية ظل الفيلسوف على الفنان ، كما رأيت فى كتـــابه ، الذى يكاد يكون توأما لهـــا ، وهو « لم الفلسفة » ظل الفنان على الفيلسوف .

وربما جاز لى - من موقعى ناقدا للأدب - أن أقول بتشبيه آخر : اننى كنت أرى مفاصل الفلسفة وفقراتها بارزة فى جسم الرواية الجميل .

عن رواية صنع الله إبراهيم

الجديدة «ذات» (*)

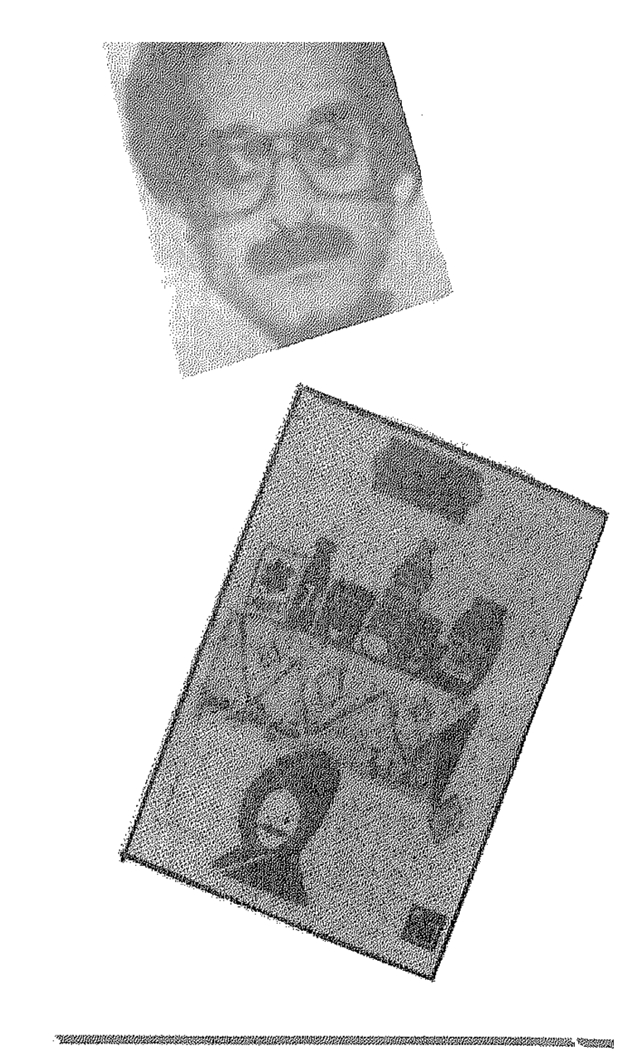
بقلم : د. على الراعى

هو عالم «ذات» فى المحل الأول . وهو عالم عبد المجيد فى المحل الثانى . ذات هى التى تُحرِّك الأحداث ، وهى التى تتحرك حولها الأحداث ، رغم الموقف المتسلط الذى يتخذه عبدالمجيد منها . رغم أنه قد حرَّم عليها العمل بعد التخرج ، ثم عاد ليقول لها : إن قعودها فى البيت لم يعد له معنى . رغم أنه أمرها بالحجاب ، ثم اكتشف من بعد أن الحجاب لم يعد يكفى فأمرها بالنقاب ، فاستجابت له ذات فى كل مرة .

تسلط عبد المجيد على «ذات» تسلطا مظهريا ، يستند إلى القهر التقليدى الذى تجد فيه المرأة المصرية نفسها بإزاء الرجال : آباءً كانوا أم أزواجا أم حتى أبناء . وراء تسلط عبد المجيد ضعف كامن : لم يتم تعليمه الجامعى . لم يستطع أن يجمع ثروة فى عهد انفتاح السادات . لم يفلح فى الحصول على عقد عمل فى السعودية . لم يستطع أن يساير مسيرة الهدم والبناء التى نفخ المعلنون بأبواقهم مؤذنين ببدئها طالبين أن يدمر المصريون مطابخهم وينسفوا حماماتهم ، ويقبلوا على ترف المطابخ المستوردة والسيراميك اللامع، الذى تزحلق عليه عبدالمجيد من بعد وكسر ظهره .

عبدالمجيد صنم من قش . حين تتحداه «ذات» وتوضح له أن سلسلة الأخطاء التى وقع فيها والتى انتهت به إلى العجز التام

(*) دار النشر : «المستقبل العربى» مارس ١٩٩٢ .

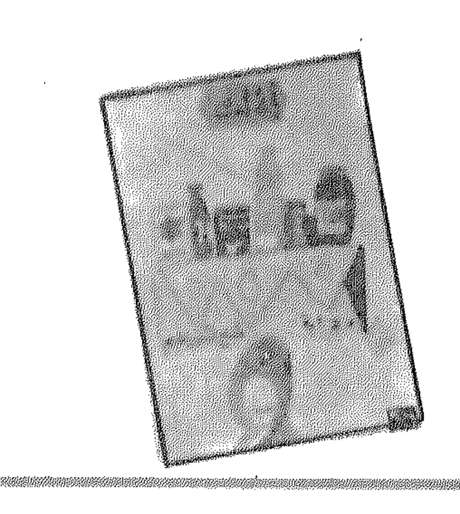


كل من «ذات» وعبدالمجيد يعيش مع رفيقه على مضض . حين ثارت الشكوك القوية حول احتمال إصابة «ذات» بالسرطان ، جعل عبدالمجيد يصلى بانتظام، لامن أجل خلاص « ذات » وإنما من أجل خلاصه هو منها ففى الركن الغربى من رأسه الاصلع تجمعت خيالات غامضة ، احتلت فيها امرأة أخرى مكان «ذات» .. امرأة أكثر قدرة على ارضاء عبد المجيد بغير الوسائل التقليدية للاكتفاء الجنسى .

و« ذات » تتأمل فكرة الاتجار بجسدها ، فلا يصدها عن هذا سوى أفضلية غيرها عليها فى هذا المجال ، والخوف الغريزى الذى أثارته فى نفسها جارتها مدام سهير ، صاحبة الشقة المفروشة التى تستقبل فيها عملاءها . ومع هذا فهى دائمة التوتر ، تحلم بفتاة رائعة الجمال تحدثها فى العلم ، وتتلقى منها لمسة ودية فى مكان معين ثم غزة أصبع مفاجئة ، تجلب لها الرعشة المتمناة !

«ذات» لاتقبل على زوجها جنسيا ، وإنما هى مضطرة إلى تحمله ، لأن هذا هو الواجب التقليدى والشرعى للمرأة المتزوج . وهى تتأمل حالها معه فتقول لصديقتها صفية : «خلاص ماعدتش أطيقه .» ثم تتناقض مع هذا الموقف بعد ثوان فتقول : «أما أسيبه أو أحبل منه» . وعندما تسألها صفية هل هناك «آخر» فى حياتها ؟ تنفى «ذات» ذلك مخفية تطلعها الدائم إلى

عن المشاركة فى مسيرة الهدم والبناء وحرمان ابنتيه من الالتحاق بمدارس اللغات وتبديد ذات لحياتها فى المطبخ وتربية البنين ورعايته هو ، لا يجد عبد المجيد ما يقوله . حينما توضح له أن المسألة لم تعد مجرد مسايرة عملية الهدم والبناء ، دائما هناك مهام عاجلة تتصل بضرورة الأستعداد من الآن لزواج البنتين - يسألها السؤال الدفاعى التقليدى : «أعمل أيه ؟ أسرق ؟ فترد ذات على الفور : «وماله .. فيها أيه ؟»



«عشاقها» من نجوم السينما الذين تغازلهم فى أشرطة الفيديو ، ومتسترة - فى الوقت نفسه . على رغبة خفية حملتها إلى الاسكندرية - حيث تعيش صفية - لمحاولة إشعال جمرة خامدة فى حياتها الروحية القاحلة تمثلت فى عشق عزيز عبدالله الذى أصبح فيما بعد زوجا لصفية .

وسميحة ، جارة «ذات» فى القاهرة ، تجد نفسها فى موقف مشابه لموقف «ذات» متزوجة من رجل قوى كالثور يعاملها - جنسيا بفظاظة ، حتى أصبحت لا تطيق أن يلمسها . سميحة - هى الأخرى - تهرب من جفاف الواقع إلى أحلام الجنس المكبوت التى تدور حول نجوم أشرطة الفيديو . ولكنها أكثر سخطا على زوجها الشنقيطى - هذا اسمه - فهى تسعى إلى الطلاق منه . ومن ثم تصطدم بمقاومة عاتية من أسرتها الأم خاصة ، والأب التابع لزوجته الذى يعلن أن ليس فى الأسرة امرأة تغضب من زوجها ، أو تترك منزل الزوجية ، أو لاتلبى نداء الرجل أو لا تتشرف بأن يضربها زوجها . ومن بعد أضاف الأب : أن ليس فى الأسرة امرأة تطلب الطلاق . وحين ذهبت سميحة فى صحبة «ذات» لتستفتى الشيخ عبدالسلام فى أمر زوجها ، تلا عليها الشيخ آيات من سورة النساء وأوضح لها أن إطاعة الزوج واجبة فى كل الأوضاع ، جالسة ، واقفة ، على ظهرها ، أو على بطنها . والشيخ عبدالسلام هذا كان رجلا عاديا ، ماتت ابنته ، فسمع صوتا يهتف به : قم وصَلِّ. وفعل الرجل فصار من أولياء الله الصالحين وطار صيته بعد أن عاد من السعودية مزودا بلحية طويلة خطها الشيب ، وملابس حريرية على الطراز الباكستانى ، ونظارة مذهبة وصندل جلدى فاخر من طراز صنادل صدر الاسلام ، ومصحف فى غلاف مخملى ، مضموم إلى الصدر فوق القلب مباشرة ، ومشيته مهرولة إلى المسجد الذى أقامه صاحب العمارة الجديدة للتخفف من الذنوب والضرائب ، فتبرع له الحاج عبدالسلام بعدة مراوح كهربائية ، ويفرش من الموكيت وحصائر متينة ، ملونة تبسط فوق أرض الشارع عند اللزوم ومن ثم أصبح من حقه أن يؤذن للصلاة ويؤم الناس ويلقى خطبة الجمعة ويفتى فى شئون العباد . وهكذا أفتى الشيخ بأن المرأة لا حق لها فى عصيان زوجها . أو العزوف عن تلبية طلباته ، مهما كانت مسرفة فى الظلم . وراء هذه الفحولة التى يبديها عبدالمجيد وصديقه اللدود

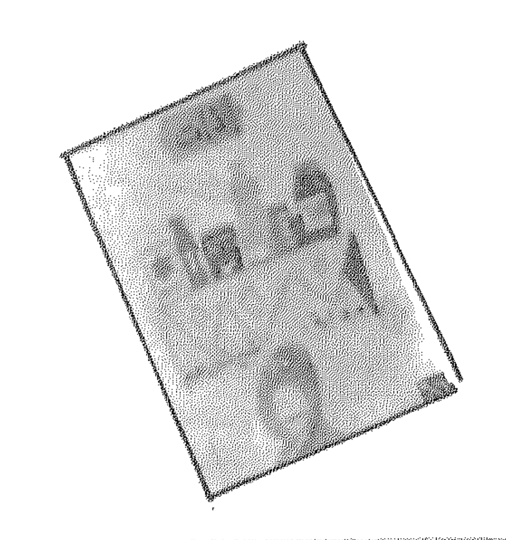
الشنقيطى ضعف جنسى عام، يدفعهما إلى الاستعانة بأشرطة الفيديو الفاضحة للحصول على الإثارة ، ومن ثم يعكف الاثنان على الاعتماد على نفسيهما ، دون حاجة إلى وصال الزوجتين . بل إن العمارة بأكملها تشاهد هذه الأشرطة وينصرفه الرجال والشباب فيها إلى الاعتماد على أنفسهم ، فيستيقظون كل صباح منتفخى العيون محمرة جفونهم .

قهر المرأة

يستخدم صنع الله إبراهيم هذا الحديث عن العلاقة بين الأزواج ليوضح مقدار القهر الذى تتحمله المرأة فى مجتمع ظالم ، يدفع الرجال والنساء معا إلى الانحراف ، ويظهرنا الكاتب أيضا على مدى العجز الذى يعانى منه هذا المجتمع . فالفشل فى التواصل الصحى بين الرجال والنساء هو مظهر لشىء أكبر منه بكثير هو عجز الناس عن التواصل فى أمور الحياة كلها .

وكيف يتواصل الناس تواصلا سويا والفساد يستشرى فى العالم الصغير الذى تعيش فيه «ذات» و« سميحة »و« صفية » و«عبدالمجيد» و«الشنقيطى» ، وحشد كبير من الشخصيات الأخرى التى تعيش على السرقة والنميمة والتلاعب بالجنس مثل الصحفى الذى يحضر ومعه جهاز كمبيوتر يدعى أنه بوسعه أن يجرد صورة المذيعة على شاشة التليفزيون حتى تبدو عارية تماما للمشاهدين . كيف يتواصل الناس فى شرف واستقامة ، وصنع الله يفتح النافذة بعد كل فصل من فصول الجزء الروائى فى عمله المستفز والمحير هذا ، فكأنما يفتح النافذة على غرفات الجحيم . فتقرأ عن ثلاثة شبان ، أحدهم ابن صاحب مصنع كبير ، اختطفوا الطالبة المثالية لمحافظة الفيوم وخدروها والتقطوا لها صورا عارية واعتدوا عليها . ثم نقرأ من بعد أن رئيس شرطة الآداب بالفيوم قد حرر واقعة الاعتداء على الطالبة المثالية على أنها معاكسة فى الطريق العام ، وأدعى فى المحكمة أن الطالبة من الساقطات وتعمل مرشدة لمكتب الآداب .

وكيف تستقيم أمور الناس فى العالم الصغير ، وهذا هو العالم الكبير المحيط بشخصيات الرواية يعج بكل ما يندى له الجبين . وتتحطم له القيم جميعا : رجل أعمال يمثل أمام النيابة بتهمة تسهيل اشتغال ابنته بالدعارة . ابن نقابى بارز شغل منصبا حكوميا كبيرا يهرب إلى خارج البلاد بعد أن استولى على ثمانية ملايين جنيه من أموال الاتحاد العام للعمال ، ثمانية آلاف من جنود الأمن المركزى بالقاهرة يتمردون ويغادرون معسكراتهم صائحين . الرحمة . الرحمة . العثور على جثة سيدة عارية فى حديقة منزل الملحن بليغ حمدى . اكتشاف لحوم فاسدة فى ثلاجة واحد من أفخم مطاعم مصر . رئيس الوزراء يقرر إغلاق مصنع



المهندس للمكرونة ، إحدى شركات المليارديرعثمان أحمد عثمان لاستخدامه خمسة آلاف طن من الدقيق الملوث بالإشعاع الذرى . وزير الأعلام صفوت الشريف يقول : نتائج التحاليل التى تمت لـ ١٢٠ عينة من مكرونة المهندس أثبتت صلاحيتها التامة للاستهلاك . مجلة نيوزويك الأمريكية تنشر : مصر تأكل من سنوات دجاجا ملوثا بمادة ب. سى. ب السامة التى لايظهر اثرها إلا بعد عشر سنوات ، ولاتستطيع المعامل المصرية اكتشافها ، فى حفل عيد ميلاد أميرة عربية تكلف نصف مليون دولار ، تقاضت الممثلة شريهان ١٥٠ الف دولار بمعدل ثلاثة آلاف دولار للرقص فى الدقيقة . أب يشعل النار فى زوجته وأطفاله لعجزه عن تدبير المصروفات المدرسية . غش جماعى فى امتحان الثانوية بمدرسة أبو طشت . الطلبة يجمعون مبالغ طائلة ويوزعونها على المسئولين والمراقبين لتنظيم عملية الغش . جريدة مايو ، لسان الحزب الوطنى الحاكم التى أسسها السادات ويرأسها عبدالله عبدالبارى وأنيس منصور تقول .. فضيلة الشيخ شعراوى يهدى واحدا من الجن الكفار إلى الإسلام .»

هذه عينة مختارة عشوائيا من المادة التى تبديها طاقات الجحيم التى يفتحها صنع الله بانتظام بعد كل فصل روائى . علاقتها بصلب الرواية تبدو ضعيفة لمن لا يدقق النظر ، غير أنها – فى الواقع – على صلة عضوية بالرواية . إنها تمثل «الماكروكوزم» الذى يؤثر بأحداثه وحركاته فى «الميكروكوزم» الذى يتخبط فيه أشخاص الرواية . إنها القدر الكونى الذى يلف أقدار من يعيشون على الأرض قدر لافكاك منه ، ولا أمل فى تجنبه . ولا وسيلة للتفاهم معه أو حتى التهاون ، دع عنك الخلاص .

والطريقة البارعة الشديدة الدقة ، البالغة الحرص التى ينطوى عليها اختيار نماذج الأحداث والتصريحات تجعل الجزء الوثائقى كلا قائما بذاته ، لو شاء الكاتب أن يجمعه على انفراد ، مستقلا عن أحداث الرواية لاستقام له شكل روائى من نوع جديد وفريد هو الرواية الوثائقية الخالصة ، التى يقوم الفن فيها على الانتقاء الذكى ، والترتيب الدال، والإعلان

الموحى ، والصوت الجهير ، والإيماء الخافت ، فيتخلص إلينا عمل فنى لا ضير من اعتماده التام على الواقع ، بل إن فخره الأكبر أنه يقوم بنفسه رغم اعتماده التام على الواقع !

صنع الله إبراهيم هنا يقدم عملين فنيين ، لاعملا واحدا . كلاهما ينجح فى إيصال الرسالة ، وكلاهما يصب فى الآخر عكسا وطردا .

***

بقيت بعض الملاحظات على الجزء الروائى ، لابأس من ايرادها وطرحها للنقاش .

فهذا الجزء مزدحم ازدحاما كبيرا ، واحيانا معوقا - بالأحداث والتفاصيل . وبعض من اجزائه يقتطع من حجم الرواية أجزاء لا يبرر محتواها المساحة التى تخصص لها . مثل «السياحة» التى تقوم بها «ذات» فى سبيل إبلاغ المسئولين عن علبة الزيتون الفاسدة التى اضطرت إلى شرائها ، ومثل المصاعب التى تلقاها «ذات»وأصحابها فى جمرك الاسكندرية فرغم الحشد الكبير من الشخصيات الطريقة التى تطالعنا فى كل من هاتين السياحتين فإنهما لا تخرجان - فى القيمة - عن أى ريبورتاج صحفى يظهر فى المجلات والصحف السيارة ، وبعض برامج التليفزيون .

على العكس من هذا هناك التحقيق فى الطريقة التى تم بها مقتل الطالبة جيهان . فقد انزلقت قدماها فى الأوحال وتشبثت بعامود النور ، فصعقتها الكهرباء . الطبيب الذى استقبل الجثة ، نصح الابوين بأن يتجنبا تشريح القتيلة ، وذلك بالتسليم بأنها ماتت ضحية هبوط فى الدورة الدموية وافق الابوان على مضض ، ثم تبين أن هذا لا يكفى ، فقد أصر قسم الشرطة على أن يحضر الابوان شاهدين يشهدان بأن الأبنة كانت مصابة بمرض قلبى مزمن ! هذا تحقيق أقصر بكثير من سابقيه ، ولكن دلالته أفدح ، وقيمته الوجدانية أفعل فى النفس منهما .

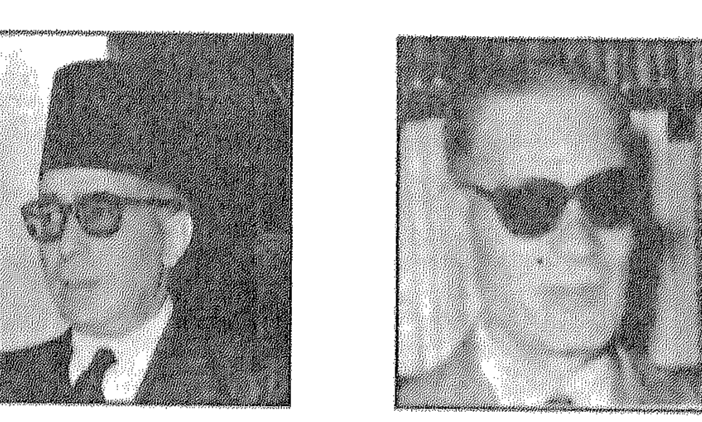
***

يتشوف المرء لمعرفة أى جديد يمكن أن يتقدم به صنع الله إبراهيم بعد هذا فى صدد انشغاله الدائم بالواقع والوثيقة . علينا أن ننتظر ، واثقين أن صنع الله لن تفرغ له جعبة ، ما بقيت له عينان مزودتان بكاميرا فائقة الحساسية تسجل بالصورة وبالصوت ما يحدث لابطاله ، حتى وهم منفردون بأنفسهم فى الحمام ، يخلعون ملابسهم ، ويتأملون اجسادهم ، ويحاولون أن يستنطقوها ما يكون من أمرهم فى قابل الأيام ، كما تفعل «ذات» وهى فى حمام صديقتها صفية !

الطبقة الوسطى

ومشكلة الفردية الجديدة فى الأدب

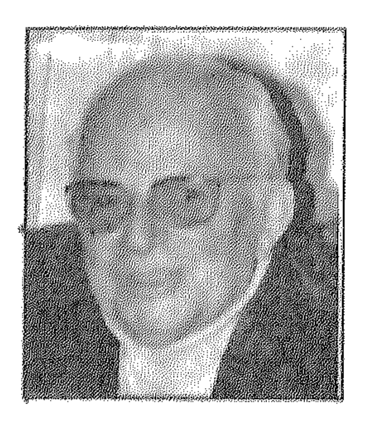
بقلم : إبراهيم فتحى



د. طه حسين



د. محمد حسين هيكل



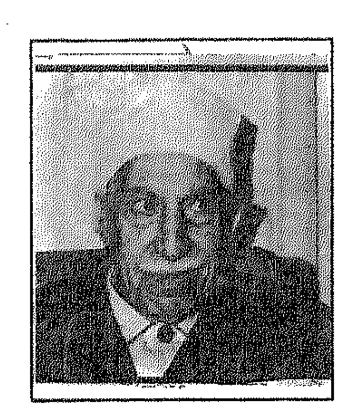
يحيى حقى

كما يشق بطل « الأيام » ، الدكتور طه حسين طريقه من الظلمات إلى النور فى الأعالى . أما «محسن» بطل «عودة الروح» و«عصفور من الشرق» لتوفيق الحكيم فهو الفرد المنتمى إلى الطبقة الوسطى فى طموحنا إلى الإنتقال بمصر المستعمرة المتخلفة إلى الاستقلال واسترجاع المجد القديم . وكذلك الحال مع «إسماعيل» بطل «قنديل أم هاشم» ليحيى حقى ، حيث تواجهه مشكلة الفردية الجديدة التى تحاول التحرر من قيود الجماعة التقليدية وأعرافها الخانقة لتصل إلى توفيق بين القنديل ونور الكهرباء ، وهل تختلف الحال مع شخصيات «إبراهيم» المتعددة داخل بطل روايات إبراهيم عبد القادر المازنى ؟

إن موجة الحداثة الأولى أو التحديث الأول فى مصر قادتها الطبقة الوسطى - كما يقول معظم الباحثين - فى السياسة

الحداثة الأولى

تسيطر «الطبقة الوسطى» فى مصر منذ بعيد على الإنتاج الأدبى من رواية وقصة ومسرحية وشعر . وقد حل أفراد هذه «الطبقة» محل أبطال الأدب القديم من فرسان وأمراء ورحالة وعشاق معاميد . ونرى حامد المحامى من أعيان الطبقة الوسطى فى « زينب » للدكتور هيكل يقلب البصر بين سماء الطموح العملى وتقدم مصر وبين أرض الفلاحين فى تعاستهم وروعة الطبيعة حولهم .


توفيق الحكيم


إبراهيم المازنى


نجيب محفوظ

والاقتصاد والفكر وكذلك فى المجال الأدبى .

وكما كان للطبقة الوسطى من تجار وأصحاب مشاريع مربحة فى الريف والمدينة ومتعلمين فى المهن الحرة والجهاز الحكومى دور هائل فى الحركة القومية وإعادة بناء البلاد لأخراجها من التخلف ، كان لهذه الطبقة الوسطى التى تقع بين كبار الملاك من ناحية ومعدمى الأرض والحرف من ناحية أخرى الهيمنة على التحديث الأدبى فى كل مجالاته .

لقد اكتشفت الطبقة الوسطى الذات الفردية فى محاولاتها لكى تكون مركزا للعالم ، وفى أن تكون معركة المنافسة وصعود السلم الاجتماعى هى الباعث على الفعل والأنفعال بدلا من القيم الجماعية السابقة ، والتصورات اليقينية القطعية . لذلك احتفت الأعمال الأدبية بأبطال

يطرحون المسلمات السائدة للتساؤل ويحاولون الوصول إلى مفاهيم جديدة يمكن اختبارها على أساس من تجـربتهم الشـخصية ووقـائع الحيـاة العيانية .

وقد ظل التأرجح بين النمط الجاهز المحدد سلفا للشخصية (نمط الفلاح «أبو شادوف» . والعمدة والمأمور والشيخ متلوف «الفاسد» ورجل العلم الدينى الطاهر ، والمرابى الجشع ... ألخ) وبين الفردية الحرة وذاتيتها المستقلة فى تحديد أهدافها ومسئوليتها عن اختيارها ، سمة مميزة للكتابة الأدبية بعد ثورة ١٩١٩ .

ولنأخذ شخصية «محسن» عند توفيق الحكيم على سبيل المثال . إنه يشبه روبنسون كروزو على الرغم من زحام الأسرة فى القرية وفى القاهرة حوله ، لأن جزيرته المنعزلة توجد فى أعماقه النفسية والعقلية . إنه يبدأ من «الصفر» رافضا قيم سادة الأرض وسادة الصحراء باحثا فى «قلب» الفلاح عن أسطورة البعث الفرعونية، وفى الثقافة الغربية عن التمجيد الرومانسى للحب والحياة الداخلية الخاصة للفرد ليصل إلى وفاق سعيد متخيل . ومن الملاحظ أن رؤية الطبقة الوسطى كما يمثلها «محسن» تعيد تأليف الواقع كله ، وتبدع الفلاحين على صورة تتخيلها الطبقة الوسطى : إنهم طاقة هائلة نائمة أو كامنة ، تعجز عن الحركة بنفسها ، تنتظر الزعيم المعبود «من الطبقة الوسطى» ليقوم بتفجيرها على النطاق القومى ، وتنتظر «قائدا» اقتصاديا محليا أو زوجته (كما تصرح يوميات نائب فى الأرياف) لتحول الخصب الماثل فى وحدة الوجود بين الأرض والفلاح وبهائمه وزراعته إلى وفرة وعدالة ومجد .

ولا تختلف الحال مع إسماعيل بطل قنديل أم هاشم . إنه مثل محسن – ومثل روبنسون كروزو يجسد الذات الفردية المتحررة أو التى تجاهد للتحرر من أغلال الماضى لكى تبشر بإعادة بناء العالم على أسس جديدة . ذات متنبئة أو مدعية للنبوة لا تدعو الخطاة إلى التوبة بل تدعو الأبرار إلى الهدم والبناء . والأبرار هنا هم متعلمو الطبقة الوسطى . أما الأعماق السفلى من ملايين الشعب مثل فاطمة النبوية أو زينب قبلها ، فهم جميعا من طينة سلبية ، يقع عليهم الفعل ، وينتظرون «فرسان» الطبقة الوسطى يمتطون شهاداتهم العالية ويغزون نساء لندن وباريس وبرلين . ويقررون بتجربتهم الخاصة ما الذى يشفى عيون

● بطل الأيام غنى عن التعريف استطاع بالعلم أن يرى رغم عاهته

الشعب التى كادت تكف عن الإبصار .

أما بطل «الأيام» فهو فى غنى عن التعريف . استطاع بالعلم أن يرى رغم عاهته أبعد مما يرى المبصرون «كما قال عنه جان كوكتو» ، وقدم مشروعا لتحرير الوعى والوجدان يتأرجح بين ثقافة البحر الأبيض اليونانية اللاتينية وبين على هامش السيرة ليحمل الماء والهواء إلى المعذبين السلبيين فى الأرض لاقتلاع شجرة البؤس من جذورها .

ولكن هذه الطبقة التى كانت وسطى بين كبار الملاك وفقراء الفلاحين ، انفصلت شريحتها العليا وقطعت صلتها بوضع «التوسط» . لقد شارك الصاعدون فى مغانم الاستقلال الشكلى بعد ثورة ١٩١٩ وفى مغانم السلطة بعد حركة الجيش فى يوليو ١٩٥٢ . ومع اضمحلال الملكية الكبيرة التقليدية للأرض ، والرأسمالية الكبيرة المتحالفة مع الأنجليز قفزت أعلى مراتب الطبقة الوسطى لتشغل وضع الطبقة العليا أو البورجوازية الحاكمة فى القطاع الخاص والقطاع العام وكل مراكز النفوذ والسيطرة . وأصبح الحديث عن الطبقـة الوسـطى يعنى فئاتها الدنيا فحسب .

ممثلو الانسانية جمعاء على درجـات السلم

إن هؤلاء البورجوازيين الصغار كما جرى العرف على تسميتهم هم سكان العوالم الوسطى بين القمة والقاع ، بين الملكية الكبيرة وانعدامها . وهم يبدون لأنفسهم فى روايات سيد مصوريهم فى الأدب العربى نجيب محفوظ ، كما لو كانوا يقيمون لا فى بين القصرين أو السكرية أو خان الخليلى بل فى منطقة ذوبان الصراع الاجتماعى فى ساحة دوران الأفراد وتبادلهم المراكز فى عملية الحراك الدائم بين الأعالى والأغوار . أنهم سكان الأعراف أو المطهر ، حيث يتحقق على السطح وفى الظاهر ما يبدو عناقا هادئا بين الطبقات المتناحرة .

ولقد كان هذا العناق الهادىء أو الصاخب سمة مميزة لحداثة الطبقة الوسطى منذ ثورة ١٩١٩ . فأفراد هذه «القوة الثالثة» فى عوالمهم الوسطى يحلقون عاليا فوق المعركة الأجتماعية ، ويتخيلوئن أنهم ممثلو «الوطن» فى استمراره التاريخى (فرعونيا كان أم عربيا أم إسلاميا) ، ويمثلون الانسانية الحقة والثقافة الموضوعية التى لا تميل إلى

يمين أو يسار ، ومحور التطور والتجديد .

محل ألوان الطيف

وعالم نجيب محفوظ الذى يضم كل ألوان الطيف السياسى يفصح فى كل جلاء عن أن الطبقة الوسطى الصغيرة على الأخص تكاد أن تنفرد بتقديم ممثلى الاتجاهات السياسية جميعا من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار . فمعظم الشيوعيين سواء فى خان الخليلى والقاهرة الجديدة أم فى الثلاثية والشحاذ وميرامار ينتمون إلى تلك الطبقة ، ولا يختلف الأمر بالنسبة إلى الاخوان المسلمين أو الوفديين .

فكيف كان ذلك ؟ حقا إن الطبقات ليست رفوفا ثابتة فى هيكل اجتماعى ساكن ، بل هى ممارسات اقتصادية وسياسية وفكرية متضادة ، وهى مواقع موضوعية فى التقسيم الاجتماعى للعمل مستقلة عن إرادة شاغليها . ولكن البورجوازية الصغيرة على الرغم من أنها كبيرة العدد لا تتمتع بقدر كبير من رسوخ المواقع وتكاد تنقسم إلى فئتين متميزتين . هناك أمثال السيد أحمد عبد الجواد والمعلم كرشة ووالد محجوب عبد الدايم ينتمون إلى نمط عتيق ، نمط الملكية الصغيرة للأرض والمتجر ووسيلة الانتاج ، وهناك من ناحية أخرى فئة مختلفة حديثة يقوم أفرادها بالأعمال الذهنية فى الأجهزة والشركات ودور العلم والمؤسسات من فنيين ومشرفين وموظفين ومهندسين ولهم مراكز «إشرافية» «رقابية» فى نمط حديث أو شديد الحداثة . وعلى ذلك يبدو التاريخ المعاصر لتلك الطبقة فى الواقع والأدب على السواء وكأنها ملتقى تيارين متضادين : تيار يقوض أشكالا قديمة منها أو يفرض الخضوع والتبعية ، وتيار آخر يعيد خلق أشكال جديدة منها وينتج لها أماكن وأدوارا ووظائف مستحدثة ما تلبث أن تتعرض للمصير نفسه . فلعبة النهاية والبداية دون توقف والطابع الانتقالى دون محطات وصول نهائية نسبيا هما طريقة الوجود التاريخى لتلك الطبقة . ويبدو ذلك فى وعى الشخصيات منسحبا على المجتمع بأكمله وكأنه لا يزال فى مرحلة الصنع والتكوين على عجلة صانع الفخار . فابن الفلاح الصغير بالتعليم أو بالمهارة فى السوق أو بالواسطة والمحسوبية أو بالتسلق على ساق الزوجة أو على العكس بدعاء الوالدين وبركة الصلاة على خير الأنام أو بالعمل السياسى الثورى يصعد إلى أعلى المراكز ويعيد تشكيل المجتمع . وفى الأدب المصرى تصوير رائع لأفراد هذه العوالم الوسطى وهم يرقصون دائما على الدرجات الأولى من سلم الصعود الاجتماعى والسياسى والثقافى ، وما أكثر

الذين يتساقطون وما أقل الذين يصعدون ، إن «فتحى غانم» استاذ فى تصوير العيون والقلوب المشدودة إلى هذا السلم الخرافى الذى يشبه الفوز «بالبريمو» فى لعبة النصيب اليومية . هناك «الرجل الذى فقد ظله» ممثلاً لقمة السقوط والنجاح . وفى «زينب والعرش» و «ست الحسن والجمال» وغيرهما من روائع فتحى غانم نجد لوحة متعددة الألوان لسلم الصعود بكل أنواعه ، وللمصعد الخاطف السرعة ، ولسلم الخدم . وفى الخلفية دائما مشروع للمدينة الفاضلة وكأنه مشروع لأحد الأحياء السكنية معروض للبيع والإيجار . العصر الذهبى القديم بخيره وبركته يتم اختراع نسخة معدلة منه ويبدو على مرمى حجر أو قنبلة أو طلقة مسدس من اللحية والجلباب وشركة الاستثمار . ومن الناحية الأخرى يبدو المجتمع الألفى السعيد الملئ بالعدل مشرقا مع شمس الغد من شرق أحمر لا يفصلنا عنه إلا ألف ألف منشور ومقال وقصيدة واجتماع لتداول الكلام .

وتوضح القصص والروايات والقصائد أن حلم المستقبل وسلم الوصول إليه عند البورجوازية الصغيرة يبدأ فى المدرسة . فقد كان الجهاز التعليمى هو أداة الحراك الاجتماعى الأساسية ، كما استطاعت الحركة الوطنية حيث تحالفت المراتب العليا من الطبقة الوسطى مع مراتبها الدنيا أن تقدم بعض فرص التعليم أمام أبناء هذه المراتب . وقد اتسعت هذه الفرص بعد ما يسمى مجانية التعليم بعد ١٩٥٦ على الرغم من أن معظم أبناء العمال وفقراء الفلاحين لم يستفيدوا كثيرا من هذه «المجانية» ، فقد ظلت نسبة الأمية الأبجدية مخيفة أما الأمية الثقافية عموما فلم تنقص إلا قليلا . ولكن الطبقة الوسطى الصغيرة ، أو صفوتها المتعلمة على الأخص كانت مستفيدة بدرجة ملموسة من سلم الصعود لحركة ٢٣ يولية . وقد خرج منها معظم الكتاب والصحفيين والفنانين ومنتجى الثقافة بل ومستهلكيها بالإضافة إلى جيش من صغار البيروقراطيين يحصلون على مرتبات صغيرة مضمونة دون أن يقوموا بعمل يذكر .

لعبة الكراسى

ويؤكد كثير من الدارسين أن خرافة السلم السحرى للصعود تستند عند البورجوازية الصغيرة إلى خرافة أخرى هى اعتبار الدولة وسلطتها وأجهزتها صنما معبودا . ويعتبر الحصول على مكان فى الجهاز الإدارى أو الصحافى الرسمى أو التعليمى العالى شرطا للفاعلية الثقافية والشهرة أو حتى مجرد الوجود . إن «الجماهيرية» فى الإنتاج الأدبى عندهم لا ترجع فى المحل الأول إلى القيمة الفنية . إن وجدت . ولكنها ترجع إلى «الورنيش» الإعلامى الذى يدهن به الكاتب . تبعا لركونه إلى ظل السلطة الظليل . وقد تفاقم ذلك الوضع بعد حركة

الجيش واستمر حتى الآن بعد أن تحول أبناء الطبقة الوسطى الصغيرة من الأدباء الكبار بجدارة أو أصحاب المواهب المتواضعة والشهرة الزائفة إلى موظفين . وحينما استوزرت حركة الجيش بعض دكاترة الجامعة بعد خنق الحياة السياسية وفرضت بعضهم على الهيئات والمؤسسات والمجالس ، أصبح نفاق الحاكم طالما هو جالس على القمة مبدأً ثقافيا وأدبيا وأكاديميا مسلما به . كما أصبح مصعدا سريعا للمتعثرين على سلم الخدم بحكم ضآلة قدراتهم . وصار لدينا عدد لا يستهان به من أبناء البورجوازية الصغيرة يتربعون على الكراسى الوثيرة فى المكاتب المكيفة ، ويتصببون عرقا فى إنتاج مزابل ضخمة مطبوعة من «الأدب» و«الفكر» .

ومن المعروف فى لعبة الكراسى أن عدد اللاعبين الذين يلهثون أكثر كثيرا من عدد الكراسى ، ولم يكن من المستغرب أن يهرع بعض أبناء البورجوازية الصغيرة إلى كراسى أجهزة حكومية عربية خارج مصر لينشروا أعمالهم ويلتمسوا الحظوة والمكانة والدخل ، بعد أن يدخلوا التعديلات اللازمة حسب المكان والزمان ، ولكنهم يقومون بعد ذلك بإدخال التعديلات على التعديلات ، وتغيير اسم الصنم المعبود والسياسة المطلوبة . ولا يقتصر ذلك على المقالات والدراسات بل نجده فى القصائد ، والروايات «التاريخية» أيضا .

وفى حقبة حداثة معرض الأزياء النقط شد بعض أفراد تلك الطبقة الرجال إلى حيث الدخل ومصادر الاستهلاك الترفى واتسعت الصفحات أمام الكثير من كتابها داخل الضوابط المعروفة . وحينما تجئ مواسم الوفاق تعود الطيور المغتربة من بلابل حقيقية وغربان حقيقية إلى أعشاش وثيرة قد تكون رسمية . فالفكر المستسلم فى كنف السلطة يتوهم أن المثقفين هم دائما ممثلون ثانويون وليسوا مشاركين بحق فى صياغة المصير إلا وراء سلطة ما وإدعاءاتها . وتلك القلة من الطواويس اللامعة ستدعى دائما أنها ثورية وناقدة وتدعو إلى تنوير وتطوير وخلافهما . ونرى الكتابات النقدية لهؤلاء فى بعض الأحوال داعية إلى «حداثة» تفصل بين الفن ومشاكل الشخصية الإنسانية ، وإلى مفاهيم النخبة والحذلقة . والمبدعون على هذه الشاكلة قد يصورون فى قصائدهم مثقف الطبقة الوسطى الصغيرة مغتربا عن العالم ، منكفئا على استبطان حالاته النفسية الملتبسة مقدما أحدث وسائل التعبير المستوردة : مثل صور تجرى فى سرعة «الخنزيرة» و«أناقة التمساحة» لا

● حلم المستقبل وسلم الوصول إليه عند البورجوازية الصغيرة يبدأ فى المدرسة

للوصول إلى مكان أو أداء وظيفة تعبيرية بل لاستعراض الترف الجميل

التعبير عن نبض الإبداع

وبطبيعة الحال ليس هؤلاء إلا قلة لا تعبر عن النبض الحقيقي للإبداع المصرى والحداثة الشعبية فهناك من المنتمين إلى هذه الطبقة كثيرون طرحوا منذ الستينات وصاية السلطات والمراتب العليا وقاموا بمغامراتهم الفنية غير المسبوقة . لقد أعادوا رواية الحكاية من أولها حكاية الشخصية الإنسانية فى مصر وصوروا فى نثرهم وشعرهم كل ضروب الاغتراب والتشويه من زاوية الحلم بمشاركة وتحقق وتفتح . ولابد من الإشادة بكتاب وشعراء ينتمون إلى هذه الطبقة ويصورونها فى فن رفيع .

ولنقل إن بهاء طاهر وجميل عطية ومحمد مستجاب وإبراهيم أصلان ومحمد البساطى مثلهم مثل إبراهيم عبد المجيد وعبد السلام العمرى على سبيل المثال ودون ترتيب لا يقدمون شخصيات مختزلة إلى مجرد رموز مجازية لطبقة معينة ، ولن نجد عندهم خصائص نهائية ملصقة بهذه الطبقة بمعزل عن الفترة والعلاقات واللحظة التاريخية . وهم بالإضافة إلى ذلك لا يقومون بمسح اجتماعى أو تحليل نفسى فى المحل الأول بل يرصدون كل الظواهر من حيث دلالتها وقيمتها أو انعدام معناها وفقر قيمتها بالنسبة إلى الذات الإنسانية فى كليتها وتعدد جوانبها داخل الشروط المصرية العربية ، وأهمية ذلك فى تطور الملامح العامة للإنسانية وإسهام الفن المصرى فى تحقيق ذلك بعد إنتهاء العمر ، فتراضى للموجة الأولى من الحداثة ولكن معظم الكتابات لا تزال ترى فرد الطبقة الوسطى وحدها ممثلا للإنسانية ، ولا تتجاوز رؤيتها تلك الطبقة من حيث الرؤية والحلم والشعور وتعتبره وريثا «للممدوح» التى كانت تتغنى بصفاته القصيدة التقليدية ، بعد أن قفزت المشاعر الذاتية الخاصة إلى المقدسة بدلا من قيادة الفعل الجمعي للعشيرة . ولكن هناك براعم جميلة لتجاوز عالم هذه الطبقة لا بأن يرتدى الشاعر «أو فدول» الصراع الطبقى أو يملأ الروائى كتاباته بأهل الريف الكرام والأحياء الشعبية باعتبارهم مستودعات الوطنية والأخلاق المعلبة كما يفعل بعض حسنى النية . وتلك البراعم على العكس من ذلك تكتشف فى القوى الشعبية وفى صحوتها على الوعى والفاعلية ملامح إنسانية جديدة تقوم على المشاركة وتكامل الشخصية وغناها بدلا من الأنانية والسعى المحموم وراء الاقتناء واقتناص لحظات المتعة والغيبوبة .



اصطلح كثير من مؤرخى الفلسفة الإسلامية على تحديد الموقف الإشراقى بصفة عامة بأنه ذلك الذى يعطينا تفسيراً للأبعاد الوجودية مع بيان مدى ارتباط الحركة الوجودية ومضامينها الروحية بالاتجاه المعرفى بحيث يتحد فعل الإيجاد مع عملية المعرفة من حيث إن الوجود كله بحسب الاشراقيين يعتبر تجمعاً نورانياً ضخماً .. وأن هذا النور الذى يتمثل فى الوجود الكلى العام بما فيه علته الأولى .. أى الألوهية .. إنما تظهر فيه الوحدات الوجودية عن طريق ديناميكية معرفية وجودية على ما سنرى فى أثناء عرض موقف هذه المدرسة .

وقد رأى هؤلاء المؤرخون للفكر الفلسفى الإسلامى أن للمدرسة الإشراقية فرعين : فرعا ينتمى إلى المغرب الجغرافى ويبدأ بابن مسرة الإشراقى .. لينتهى إلى ابن عربى الذى هاجر من الأندلس إلى حلب فى وقت ليس ببعيد عن الفترة التى عاش فيها السهروردى فى حلب بحيث كان من الممكن أن يلتقى كل منهما بالآخر إذا كنا قد

(*) أستاذ الفلسفة وتاريخها ومدير مركز التراث القومى والمخطوطات بآداب الاسكندرية .



● أصحاب المدرسة الاشراقيـــــة لا يعترفون بأى نوع من الوجود العدمى

توصلنا إلى معرفة دقيقة بتاريخ وفاة السهروردى وكذلك بتاريخ وجوده فى حلب .. وترجع أهمية هذا التساؤل إلى أن السهروردى المقتول أو الاشراقى هو زعيم المدرسة الاشراقية فى المشرق .

ومع هذا فإننا لا نسلم كثيراً بصحة هذا التقسيم المبدئى للمدرسة الاشراقية .. ذلك لأن كلتا المدرستين لهما مميزات خاصة يختلف بعضها عن بعضها الآخر من حيث أن المدرسة الإشراقية تلتزم فى تعاليمها بأصول شرقية أو فارسية .. ويتمسك أتباعها بأنهم ينتمـون إلى الفكر الزرادشتى القديم ، بل هم يغلفون مصطلحاتهم النورية بغلاف فارسى مثل قولهم عن النفس الناطقة أنها الاسنهبذ أى النور المهيمن على الانسان وبهمن أى النور الأول واردبيهشت أى النار أو العقل وخرداد صاحب النبات ومرداد صاحب الماء .. الخ . واسفندرامذ أى رب نوع الأرض .. أى هو النور القاهر الذى طلسمه الأرض .

أما مدرسة المغرب الاشراقية فإنها لا تلتزم بهذه الأصول الفارسية .. بل تستمد موقفها من أصول باطنية صريحة .. وذلك على الرغم من أن هذا الطابع الباطنى لهذه المدرسة يوجد أيضاً فى المدرسة الاشراقية فى المشرق .. ولا سيما فى نظرية الإمامة العالمية الباطنية عند السهروردى ، ومدرسته التى تتمسك بفكرة الامامة العالمية .. وفيها يجمع الحكيم الاشراقى بين الحكمتين الذوقية والبحثية وتكون له الرياسة والتبريز فى كل منهما .. ويكون هو القطب الأعظم وخليفة الله فى الأرض .. وذلك تفسيرا للآية الكريمة التى



وردت فى الذكر الحكيم حيث يقول الله عز وجل : « إني جاعل فى الأرض خليفة » .. وكانت مشكلة الخلافة أو الإمامة الكلية .. ومشكلة النبوة .. هما المشكلتان اللتان كانتا سبباً فى الحكم بالحاد السهروردى وصدور أوامر صلاح الدين الأيوبى بقتله لأنه رد على تساؤل الفقهاء عن امكان وجود نبى بعد محمد عليه الصلاة والسلام بقوله أنه لا حد لقدرته تعالى فى هذا الأمر أو غيره .. ففهم هؤلاء الفقهاء من قوله هذا بأنه يسلم بامكان وجود نبى بعد محمد . ولذلك حكموا بكفره وسيَّروا محضراً بذلك إلى صلاح الدين .. وهكذا انتهت حياة صاحب الاشراق إلى هذه الصورة المحزنة التى جعلت منه فى نظر أتباعه شهيداً روحياً وصل إلى مقام الولاية الخاصة على ما يقولون. وكانت وفاته عام ٥٨٨ هـ (أما مولده فقد كان بين سنتى ٥٤٥ ، ٥٥٥ هـ) .

والحقيقة التي ينبغى لنا أن نشير إليها فى مقدمة المقال عن الموقف الاشراقى عند المسلمين .. هى أن الفلسفة الاسلامية قدر لها أن تلتاث منذ نشأتها بتيار روحى اشراقى التزمت به لا سيما بعد أن أقامت من العقل الفعال عقلاً وجودياً تصدر منه المعرفة الاشراقية على العقول الانسانية .. بوصفه عقل فلك القمر على رأى البعض .. أو بصفته عقل النوع الانسانى على رأى البعض الآخر . وهو يعد بذلك آخر السلسلة الوجودية للعقول العشرة أو لمذهب الفيض الذى هو المكون الأساسى للنظرية الوجودية والمعرفية عند المسلمين . بل أننا لنجد أن نظرية الفيض ذاتها ابتداء من الواحد أو الأول عند ابن سينا والفارابى مثلاً .. إنما تترسم خطى النور فى فيضه من الواحد أو نور الأنوار متجهة إلى الترتيب النزولى حيث يصل هذا النور إلى العقل الفعال ثم يتوزع عن طريق الالهام أو البث النوارنى إلى عقول البشر .

وليس معنى هذا أن هناك توحداً بين الموقف المشائى المزعوم عند المسلمين وموقف المدرسة الاشراقية فيما يختص بالبنية الأساسية للموجودات عندهما فى كلا الموقفين إذ أن المدرسة الاشراقية لا تعترف بأى مكون وجودى لوحدات الوجود إلا أن يكون راجعاً ومنبثقاً من النور نفسه . وكذلك فإن عملية المعرفة عند الاشراقيين تلتزم بقواعد الحضور الاشراقى كما يقول السهروردى .. أى أنه يعتبر أن المعرفة لا تحتاج إلى موضوع كما هو الحال عند

المشائين . بل أن فعل المعرفة وموضوع المعرفة أمر واحد .. وان الموضوع يتكون من خلال عملية الحضور الاشراقى المعرفية .

وقبل أن نعرض للموقف الاشراقى الملتزم بالقواعد والأصول الاشراقية عند هذه المدرسة ينبغى لنا أن نشير إلى أن الفكر الاشراقى الفلسفى الباطنى الذى استمد أصوله من الحركة المضادة للاتجاهات السنية فى التصوف نجد أن أصحابه يتمسكون فى دعواهم بالاستناد إلى آيات قرآنية تتحدث عن النور وصلته بالوجود .. والمقصود طبعاً بهذا النور الشحنات الروحية التى ينطوى عليها النور وليست الأنوار المحسوسة التى ندركها عن طريق الباصرة(١) .

وقد كان هذا الخلط الشديد بين المعنى الروحى للنور والمعنى الحسى له سبباً فى أن يقع الاسلاميون فى أخطاء جسيمة نتيجة لعدم ادراكهم للحقائق الأساسية فى فقه الأنوار كما تسوقها أصحاب التصوف الباطنى .. الأمر الذى تأدى بمفكر اسلامى كبير كأبى حامد الغزالى إلى أن يربط بين تفسير آية النور : « مثل نوره كمشكاة فيها مصباح . المصباح فى زجاجة . الزجاجة كأنها كوكب درى يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية . يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار . نور على نور . يهدى الله لنوره من يشاء ... » . ثم يربط هذه المعانى الدينية بالمعانى الباطنية الواردة عند الاشراقيين للأنوار .. كما وردت فى كتاب : أثولوجيا أرسطوطاليس .. وهو كتاب منحول نسب خطأ لارسطو .. وهو فى الحقيقة مقتطفات من تاسوعات أفلوطين .

وجاء كتاب مشكاة الأنوار للغزالى لكى يعبر عن هذا الخلط الذى أشرنا إليه عند الاسلاميين .. وقد اتضح لنا عدم صحة نسب هذا الكتاب إلى الإمام الغزالى لأنه إنما يستند فى حقيقة أمره إلى عقيدة باطنية بعيدة كل البعد عن مذهب أهل السنة والجماعة .

(١) وقد اشتمل القرآن الكريم على آيات كثيرة تشير إلى النور بكل معانيه الحسية والروحية راجع الآيات التالية : البقرة : ١٧ ، ٢٥٧ – المائدة : ١٥ ، ١٦ ، ٤٤ ، ٤٦ – الأنعام : ١ ، ٩١ ، ١٢٢ – الأعراف : ١٥٧ – التوبة : ٣٢ – الرعد : ١٦ – إبراهيم : ١ ، ٥ – النور : ٣٥ ، ٤٠ – الأحزاب : ٤٣ – فاطر : ٢٠ الزمر : ٢٢ ، ٦٩ – الحديد : ٩ ، ١٢ ، ١٣ ، ٢٨ – الصف : ٨ – التغابن : ٨ – الطلاق : ١١ – النساء : ١٧٤ – يونس : ٥ – الشورى : ٥٢ – نوح : ١٦ – التحريم : ٨ التوبة : ٣٢ .

● يقـوم التخطيـط النوراني على أساس ان الوجود كله تغمره أشـعـة نوارنيـة

حقيقة المذهب الاشراقى :

قبل أن نعرض للتخطيط النورانى للمذهب الاشراقى ينبغى لنا أن نشير إلى أن التفسير النورانى للوجود قد ظهر عند بعض فلاسفة اليونان ولا سيما عند أفلاطون وكذلك عند أفلوطين ومدرسته فى الاسكندرية . وكذلك أيضاً وجدناه عند اليهود فى الاسكندرية كان لهم - كما يذكر المؤرخون للمدرسة - كتاب عن فقه الأنوار وهو كتاب الأنوار .. ظهرت فيه المصطلحات الاشراقية التى استخدمها السهروردى ومدرسته الاشراقية .

ومما يثبت صلة المدرسة الاشراقية بفكر أفلاطون أن الاشراقيين أنفسهم يرجعون حكمتهم النورية إلى « رئيس الكل أفلاطون » كما يقولون .. وأنهم يسمون أنفسهم بأصحاب المثل النورية الأفلاطونية .. ومع هذا فانهم يتمسكون بأن أفلاطون قد تلقى حكمته النورية عن أساطين الفلسفة الفارسية القديمة من أمثال زرادشت وغيره .. وتأكيداً لهذا المعنى فانهم يجعلون أفلاطون مع زرادشت وغيره من حكماء الفرس والهند .. ويجعلونهم جميعاً حكماء متألهين .. أى أئمة وأقطاباً أو أولياء لهم الطابع الوجودى المطلق فى دائرة نظرية الإمامة العالمية التى أشرنا اليها فيما قبل .. أى أن السهروردى وأتباعه انسياقاً مع موقفهم الشعوبى إنما يردون الحكمة المتعالية والإمامة الروحية العالمية إلى ينبوع نورانى مشرقى هو الحكمة الخسروانية أى الدين الفارسى القديم .

وحيما يتوجه اليهم النقد بأن هذه الحكمة الذوقية التى يزعمون أنها من أصل فارسى هى نفسها التى اعتنقها أفلاطون وبثها فى محاوراته التى نعرفها .. يذهبون إلى أن أفلاطون نفسه قد استمد تعاليمه من الفرس القدماء.. ولم يثبت لنا تاريخياً صحة هذا الرأى .

ويقوم التخطيط النورانى أصلاً على أساس أن الوجود كله تعمره أشعة نورانية هابطة وصاعدة تتمثل فى وحدات نورية ذات بعد طولى وأخر عرضى ابتداء من نور الأنوار وهو الله عند الفلاسفة والمفكرين الدينيين .. وعن نور الأنوار تستمر الحركات الوجودية الثنائية وأهمها حركتا الاشراق والمشاهدة .. فيصدر عنه أولاً النور الابداعى الأول عن طريق الأشراق من نور الأنوار . وهذا النور الابداعى الأول يقابل الصادر الأول أو العقل الكلى الصادر عن

الواحد عند المشائين الاسلاميين . وحينما يتجه هذا النور الابداعى الأول لمشاهدة نور الأنوار فإنه تصدر عن هذه المشاهدة النور الابداعى الثانى .. وتستمر حركتها الاشراق والمشاهدة .. وهما حركتان إحداهما صاعدة وأخرى هابطة .. وينتج عن هاتين الحركتين وحدات نورانية أخرى تستمر إلى ما لا نهاية طولاً وعرضاً .

ولا يكتفى أصحاب المذهب بالكلام عن الاشراق والمشاهدة بل يدخلون أيضاً علاقات جمة مثل القهر والمحبة والفقر والغنى .. أو غيرها من العلاقات التى هى مجلي للحركة الوجودية حتى تعمر الوجود ديناميكية نورانية ينتج عنها مشهد نورانى واحد ليس له حدود .

وهكذا نصل فى النهاية إلى شبه وحدة وجود نورانية تظل فى تحليلها الدائم وفى دعم الوجود بالرباط الروحى للازمانى إلى ما لا نهاية حتى تذبل هذه الأشعة النورانية فتنتهى إلى الظلام أى إلى الوجود المادى الذى هو عالم الظلمة العدمى .

وهكذا فان أصحاب المدرسة الاشراقية لا يعترفون بأى نوع من الوجود العدمى أى الظلامى .. إذ أن الوجود المادى ليس هو الوجود الحق فى نظرهم مادام عو عدم النور ونقيضه على السواء .

ويلاحظ من ناحية أخرى أنه بينما ينتهى فيض العقول عند الاسلاميين إلى عشرة عقول عند غالبيتهم .. فإننا نجد أن الفيض النورانى عند الاشراقيين لا يقف عند حد .. ويستمر عن طريق الخلق أو الايجاد المستمر ولا يتوقف عند حد معين .. ويمثل السهروردى فعل الايجاد النورانى المستمر بالآية الكريمة : « وما يعلم جنود ربك إلا هو » .

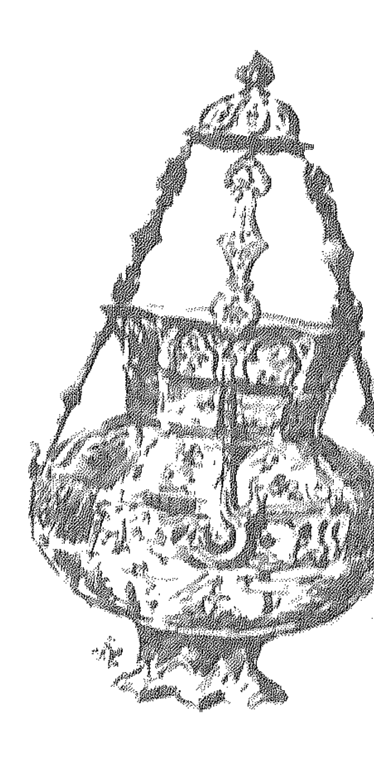
ويعتنق هذا المذهب الاشراقى الذى يقوم على أساس التخطيط النورانى للوجود وسيلة منهجية لعروج الروح وهى فى صميمها نور على نور .. عروجها إلى العالم النورانى الأعلى حيث تسكن إلى جوار الأنوار المجردة العليا وذلك بعد استبعاد العوائق المادية التى تعوق حركة انطلاق النفس إلى موطنها الأصلى فى عالم الروح .

وهكذا نرى أن مذهب الاشراق يعتبر بمثابة سلم للصعود الروحى إلى العالم النورانى المعقول .. ولكننا نتساءل هنا عن حقيقة موقف

الاشراقيين فى المواعيد الدينية التى نجدها فى العقائد الدينية العامة فى الأديان السماوية الثلاثة .. وأعنى بها مواعيد الجنة والنار والحشر والبعث والجزاء الأخروى .

والواقع أن المدرسة الاشراقية تستند فى مجمل تعاليمها إلى الاتجاه الفكرى للاسماعيلية الباطنية .. ولهذا فهم مثلهم مثل السهروردى يتكلمون عن الحشر النورانى وليس عن الحشر الدينى .. ويرجعون مسألة الحشر والآخرة إلى عالم يسمونه العالم الأوسط وهو عالم مؤقت يقع بين عالم المحسوس وعالم المثل .. وبه مدن جابلقا وجايرصا .. وتعمر هذه المدن المثل المعلقة .. أى تلك التى تقع فى موقع الوسط بين الأجسام المادية والمثل النورية . وهم يقولون أن هذه المثل المعلقة انما تخضع لعملية التناسخ فإذا تطهرت صعدت إلى جوار عالم الأنوار وبقيت فيه .. وإذا لم تتطهر تظل مستمرة فى تطهرها دون أن تصعد إلى عالم المثل النورية .

وهكذا فإن مواعيد الثواب والعقاب والحشر الأخرى تقف عند حد عالم البرزخ أو عالم المثل المعلقة .. حيث يوجد ما يسمى بالطباع التامة التى أشار إليها السهروردى فى حكمة الاشراق .. أما الأنوار المصطفاة التى تعمر عالم البرزخ إلى العالم النورى الأعلى فإنها تبقى دائماً فى رعاية الأنوار العليا حيث ينفصل عنها كل ماعدا طبيعتها من الكدورة والظلام لكى تصبح من الوحدات النورية المجردة والمعقولة فى عالم الأنوار .



هذا هو مجمل التخطيط النورانى عند المدرسة الاشراقية والسهروردى يقيم صرح هذا المذهب ويتمسك بالتعاليم الاشراقية .. وهو يرى أن أحداً من المشائين مثل ابن سينا مثلاً لا يمكن أن يعد اشراقياً لأنه لم يتذوق الأصل المشرقى الخسروانى أى الفارسى لأنه لو حصل على هذا الأصل أى على ينبوع الحكمة ومصدر الفلسفة الاشراقية تضوع ريحها عليه كما يقول . وأنه – أى ابن سينا – فى نظر السهروردى – يدعى أن له كتاباً فى الحكمة المشرقية قرأه السهروردى فى كراريس وأثبت أن هذا الكتاب لا ينطوى أصلاً على أى اشارة إلى الحكمة المشارقة أى الفرس .. ولهذا فقد استبعد أن يكون ابن سينا من جملة الاشراقيين .

وكذلك فإن السهروردى يهاجم مفكراً اسلامياً كبيراً هو أبو البركات البغدادى الذى كان أول من انتقد مذهب الفيض الاسلامى

بصورة مباشرة وانتصر لموقف أفلاطون معلناً لأول مرة قيام المدرسة الأفلاطونية في الأسلام .. تلك المدرسة التى انتسب اليها السهروردى فيما بعد .. ومع هذا فإن صاحب الاشراق يهاجم أبو البركات مهاجمة لا تليق بمفكر فى مثل مكانته العلمية المرموقة .. حيث كان من الضرورى أن يستخدم فى الكلام عنه أسلوباً أكثر احتراماً وتأدباً .. فهو يسميه « بذلك اليهودى القذر الذى لم يصح انتسابه إلى الأشعرية ولا هو رجع إلى اليهودية دينه الأصلى » .

وحقيقة الأمر أننى فى بحثى عن أبى البركات البغدادى(١) .. وجدت أنه يعتبر الرائد الأول لقيام المدرسة الأفلاطونية فى الاسلام والتى تعد ارهاصاً للفكر الاشراقى عند المدرسة الاشراقية .

وقد استمر الفكر الأفلاطونى الاشراقى فى معارضته للفكر المشائى المزعوم عند المسلمين وانحصرت دائرته فى إيران إلى القرن التاسع عشر الميلادى . ونجد من تلامذة السهروردى الاشراقى شخصيات مثل السهروردى وابن كمونة الاسرائيلى وقصاب باشى زادة ... الخ . ونجد أيضاً ثبتاً كاملاً للمدرسة الاشراقية عند الحكيم المتأله صدر الدين الشيرازى فى كتابه الأسفار الأربعة الذى حرره فى القرن السادس عشر الميلادى .

وهكذا كان قدر المدرسة الاشراقية أن تستمر إلى القرن التاسع عشر الميلادى فى إيران متخذة صورة أفلاطونية اشراقية بعد أن عانى المسلمون كثيراً من سيطرة المشائية الاسلامية منذ عصر تناول الفلسفة فى عهد المأمون .

---

(١) راجع كتاب المعتبر فى الحكمة لأبى البركات البغدادى - طبع حيدر آباد الدكن - وكان أبو البركات يعتبر متكلماً أشعرياً امتدحه أبو المعالى الجوينى ولكننا بعد دراسة مستوعبة لكتاب المعتبر انتهينا « ولأول مرة فى تاريخ الفكر الفلسفى الاسلامى » إلى أن أبا البركات يعتبر الرائد الأول للأفلاطونية الاسلامية وانه لم يكن أشعرياً بالمعنى الذى وصفه به المتكلمون ونأسف حينما نذكر أن الكثيرين من الذين كتبوا عن أبى البركات فيما بعد لم يسجلوا أى إشارة إلى هذا السبق فى الكشف عن فيلسوف إسلامى حقيقى يمتاز بعقلية نقدية يعلو بها على الكثيرين من مفكرى الاسلام على الرغم من ضآلة إنتاجه . ولم يجد هذا الرجل من يدافع عنه من الاسلاميين سوى الغزالى .. وقد أنكر اليهود صلته بالإسلام واعتبروه مفكراً يهودياً أصيلاً .. الأمر الذى كان موضوع رد عنيف لنا على هذا الادعاء الذى أثارته مجلة الدراسات اليهودية بالجامعة العبرية بالقدس . (راجع ما كتبناه عنه فى كتابنا عن تاريخ الفكر الفلسفى فى الاسلام) .



الشيخ مصطفى اسماعيل

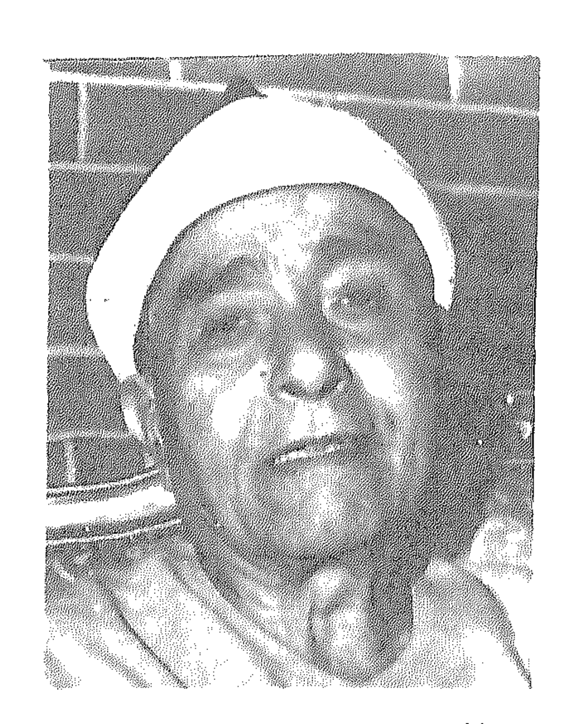
وقــــراء مصــــر

بقلم : د. محمود الطناحى

كانت نفحة عطرة ، تلك التى نشرها قلم الشاعر الناقد (السميع) الأستاذ كمال النجمى - أطال الله فى النعمة بقاءه - وذلك فى كتابه « الشيخ مصطفى اسماعيل - حياته فى ظل القرآن » .

والحديث عن الشيخ مصطفى اسماعيل ، رحمه الله ، يستدعى تاريخاً عريضا ممتداً عن إقراء القرآن وقراءته بمصر، وهو تاريخ حافل بكل عجيبة وغريبة . ولقد سمعنا من أهل العلم فى ديارنا وغير ديارنا هذه الكلمة المأثورة : « القرآن الكريم نزل بمكة وقرئ فى مصر وكتب فى استانبول » . وهى كلمة حكيمة يصدقها التاريخ ويؤكدها الواقع ، ولولا ضيق المقام لكان لى فيها تفسير وبيان .

ولقد أثرت طريقة أداء القراء المصريين فى قرّاء الدنيا شرقاً وغرباً ، وخاصة بعد شيوع آلات الإيصال الحديثة من المذياع والأسطوانات والأشرطة ولقد أذكر أنى دعيت إلى مؤتمر علمى فى الموصل بالعراق سنة ١٩٨٢ م ، وذات يوم كنا نتجول فى شوارع الموصل تلك المدينة صاحبة التاريخ ، فانتهى إلى سمعى



الشيخ مصطفى اسماعيل

صوت الشيخ عبد الباسط عبد الصمد يجلجل من بعض المحلات التجارية ، فقلت بصوت مسموع : الشيخ عبد الباسط هنا ! فرد على العالم العراقى الكبير الدكتور حسين على محفوظ : « ياأخى ، نحن العراقيين كانت لنا لحون خاصة وأداء خاص للقرآن الكريم حتى كان عام ١٩٤٨م وتوفيت الملكة « عالية » وجاءنا قارئان من مصر لإحياء ليالى المأتم : الشيخ عبد الفتاح الشعشاعى ، والشيخ أبو العينين شعيشع ، فأعجب الناس بهما اعجابا شديدا استحال إلى محاكاة وتقليد للأداء المصرى وهجر القراء العراقيون طريقتهم « المأثورة » وفى سنة ١٩٧١ م كنت فى زيارة لمدينة « أدرنة » بشمال تركيا ، وفى مسجد السلطان سليم استقبلنا مقيم الشعائر بالمسجد ، وما أن علم أننا مصريون حتى هش وبش وقال بالحرف : ما شاء الله ، مصر ، أزهر شريف ، أنا الشيخ يوسف ، سلموا على الشيخ مصطفى اسماعيل ، فأنا أحبه كثيراً ، لقد جاء إلينا وقرأ فى هذا المسجد ، ثم انطلق يردد بصوت عال آيات من سورة آل عمران جهد أن يقلد فيها صوت الشيخ مصطفى . واستمع إلى قراء القرآن الآن فى الباكستان والهند والصين ، وبلاد جنوب شرقى آسيا تجد لهذا الذى ذكرته من التأثير المصرى أشباهاً ونظائر ، بل إن التسجيلات التى ملأت مصر الآن لقراء الحرمين الشريفين ، والتى يعجب بها الناس إعجابا شديدا ، للمشايخ : على الحذيفى ، وإبراهيم الأخضر ، وعلى باجابر ، وعبد الرحمن السديس ، إنما يظهر الأثر المصرى فيها واضحا جدا لمن يعرفون الأصوات وتاريخ الشعوب فى قراءة القرآن .

« ولقد يسرنا القرآن للذكر » لكن الأمر كاد يخلص لمصر فى القرنين الأخيرين ، فتربع قراؤها على عرش الإقراء : رواية ودراية ، وصارت الرحلة إليهم من الشرق والغرب ويرجع ذلك إلى أسباب كثيرة : منها بروز الأزهر الشريف قوة كبرى مؤثرة بعد الحملة الفرنسية ، وتأثير رجاله على الحياة العامة : سياسيا واجتماعيا ، ومنها استقرار الأوضاع وازدهار الحياة بمصر أيام محمد على وذريته ، ومنها - وهو الأهم - إنشاء مطبعة بولاق والمطابع الأهلية الأخرى ، وفى هذه المطابع خرجت

منظومات علم القراءات ومتونه : كالشاطبية وشروحها وطيبة النشر ، والمقدمة الجزرية ، وغير ذلك مما لا يحصى الآن . ثم كان أبقى وأثر وأخلده هو «مصحف الملك فؤاد» الذى طبع بمصر سنة ١٣٣٧ هـ وقد قام بتصحيحه ومراجعته على أمهات كتب الرسم والضبط والقراءات : الشيخ محمد بن على بن خلف الحسينى ، وحفنى بك ناصف ، والمشايخ مصطفى عنانى ، وأحمد الإسكندرى ونصر العادلى وهذه الطبعة هى أصح طبعة للقرآن الكريم بشهادة أهل العلم والخبرة .

ثم كانت الوثبة الكبرى فى طريق علم القراءات بمصر هى إنشاء معهد خاص للقراءات تابع لكلية اللغة العربية بالأزهر الشريف عام ١٩٤٣ م ، وفى هذا المعهد تخرجت أجيال حافظة للقرآن ضابطة لقراءاته وعلومه .

ويذكر التاريخ أسماء عظيمة لمعت فى سماء مصر فى القرنين الأخيرين ، وخدمت كتاب الله إقراء وتأليفاً ، ورحل الناس إليهم من كل مكان لمشافهتهم والتلقى عنهم ومنهم .

نعمة من الله

ثم نأتى إلى قراء مصر بالمعنى الثانى ، وهم الذين يقرأون فيسمعهم الناس فيطربون لقراءتهم ويخشعون . وهم طائفة من الناس أنعم الله عليهم بحسن الصوت وجمال الأداء . ويبدو أن لمصر فى ذلك تاريخاً قديما ، تأخرنا كثيراً فى كتابة التاريخ قراء مصر ، ومكتبتنا العربية خالية من هذا اللون من الكتابة إلا شيئاً يسيراً كتبه الأستاذ محمود السعدنى (وهو سميع كبير) فى أواخر الخمسينات سماه « ألحان من السماء » ثم مايكتبه أشتاتاً متفرقات فى بعض المجلات . ثم كنت أقرأ بين الحين والحين كلاماً لأستاذنا كمال النجمى عن الشيخ محمد رفعت والشيخ مصطفى إسماعيل - عرضاً فيما يكتبه عن الغناء والأصوات ، ثم كنت أحدث نفسى : لماذا لايفرد الأستاذ النجمى كتابا عن الشيخ مصطفى إسماعيل ، يقرأه الناس على مكث ، يظهر عظمة هذا الرجل ومكانه الضخم فى عالم القراءة والنغم . حتى كان هذا الشهر الكريم وصدق الأستاذ ماأملناه وجاء كتابه هذا مجلى لحياة الشيخ مصطفى وتقلبه فى العالمين . وزاد على هذا أن ألبس كتابه زاهية من الورق المصقول والزخارف المعجبة ، بما يليق بجلال المقروء وجمال القارىء .

أولى خطوات الشيخ مصطفى

ولقد ردنى هذا الكتاب الممتع إلى أيام غالية عزيزة عشناها فى القاهرة قبل أن يدهمها السيل وتغشاها النوائب « إذ الناس ناس والزمان زمان » .

ولقد ذكر الأستاذ النجمى أن أولى خطوات الشيخ مصطفى فى القاهرة كانت فى حى المغربلين نعم نزل الشيخ هذا الحى العريق وسكن بالمنزل رقم ١٨ بحارة العنانى ، بجوار قريبة له ، وسكن أخوه

الشيخ محمد بحارة قريبة تعرف بزقاق المسك ، والمغربلين تتوسط الدرب الأحمر حيث العتاقة والتراث ، والمساجد والمزارات : مسجد المؤيد والصالح طلائع بن رزيك ، والسيدة فاطمة النبوية ، والماردانى ، وإبراهيم باشا أغا ، وأم السلطان شعبان ، وعلى مقربة الأزهر الشريف والحسين والجمالية وباب النصر وباب الفتوح ، فإذا أنت أيسرت وجدت مساجد السيدة زينب والسيدة سكينة ، والسيدة نفيسة والإمام الشافعى والإمام الليثى وكانت هذه المناطق المتجاورة هى قلب القاهرة الذى يموج بالعلم والمعرفة والفن .

نزل الشيخ مصطفى اسماعيل القاهرة فى أوائل الأربعينات ، وترك وراءه طائفة من مشاهير القراء : الشيخ محمد السعودى ، والشيخ محمد العقلة (بضم العين وسكون القاف) بطنطا ، والشيخ منصور بدار بالمنوفية ، وفى القاهرة كانت هناك طبقتان من القراء : الطبقة الأولى : محمد رفعت وعبد الفتاح الشعشاعى ، ومحمد الصيفى (وهو والد المخرج السينمائى حسن الصيفى) ومحمد سلامة والطبقة الثانية : على حزين ومحمد عكاشة وزكى محمد شرف وأحمد سليمان السعدنى ومدين منصور مدين وعبد الرحمن الدروى ومحمود عبد الحكم وعبد العظيم زاهر وطه الفشنى وأبو العينين شعيشع وعبد السميع بيومى ومحمد فريد السنديونى وكامل يوسف البهتيمى ومنصور الشامى الدمنهورى ومحمد قنديل وعبد الرحمن عبده وهاشم هيبة .

وكان المشايخ فى ذلك الزمان يعرفون للقرآن حرمته وجلاله ، فيقرءون بأدب وخشوع ورعاية لأصول التلاوة ثم كانوا يقنعون بالقليل ولقد حدثنى الشيخ عبد الرحمن الدروى المتوفى العام الماضى (وهو صهر عالم المخطوطات الكبير محمد رشاد عبد المطلب - أبو زوجته رحمه الله) حدثنى أنه دعى هو والشيخان عبد العظيم زاهر وطه الفشنى لافتتاح إذاعة العربية السعودية بجدة ، وكان ذلك فى موسم حج كان معهم من المذيعين الأستاذ عبد الحميد يونس ، والأستاذ على الراعى (الدكتور فيما بعد) وافتتح المشايخ الثلاثة الإذاعة السعودية ، ثم سجلوا لها بعض التسجيلات لإذاعتها .

فيما بعد قال الشيخ الدروى : ثم جاءنا الأستاذ عبد الحميد يونس أو الأستاذ الراعى وقال لنا إن الأخوة السعوديين يتركون لكم تحديد الأجر المناسب لما قرأتموه ، يقول الشيخ الدروى : فبكيت وقلت : كيف نأخذ أجرا على قرآن قرأناه فى البلد الذى نزل فيه القرآن ؟ انتهى كلامه وأقول : أين هذا من بعض قراء هذا الزمان الذين لا يصعدون إلى دكة القراءة حتى يأتيهم إيصال الإيداع على رقم حسابهم بالبنك بالآلاف ؟

وفى القاهرة أدرك الشيخ مصطفى

إسماعيل طائفة من كبار المنشدين ، أصحاب التواشيح الذين خلفوا الشيخين : ابراهيم الفرّان وإسماعيل ، وعلى رأسهم الشـيخ المتقّن على محـمود (صاحب الآذان الشهير) والشيخ درويش الحريرى ، والشيخ سيد موسى ، ثم الشيخ محمود صُبح ، ذلك الرجل العجيب الذى كان يتحدى فى إسطواناته أم كلثوم ومحمد عبد الوهاب ، أن يأتيا بمثل ما يأتى به من الجواب وجواب الجواب ، وكان يقطع إنشاده عقب كل « قفله » ويتحدّاهما .

نزل الشيخ مصطفى إسماعيل القاهرة وهى تموج بهذه الأصوات : قراءة وإنشاداً، أصوات عجيبة مبدعة ، جعل الله لكلٍّ منها شِرْعةً ومنهاجا ، حتى جاء الشيخ مصطفى فزلزلهم زلزالا ، فكان مثل المتنبى الذي جاء فملأ الدنيا وشغل الناس . نعم جـاء الشيخ بأفانين من النغم ، وتصـرفات فى المقامات لاقبل لهـم بها ، وهو لم يتلق أصول النغم عن أحد ، ولم يحاك أحداً من أصحاب الأصوات ، وإنما هى الفطرة والموهبة ، وفضل الله الذى يختص به من يشاء من عباده . ولقد قوبل الشيخ مصطفى بهجوم كاسح من المشايخ القراء وكان أشدهم عليه وأعنفهم به الشيخ محمد سلامة ، وقد رفع عليه عصاه ذات ليلة زاعماً أنه يتلاعب بالقرآن .

حسد الحاسدين

ولقد غَبَّرَ القُرّاءُ فى وجه الشيخ مصطفى ، ورموه بتهم كثيرة ، حسداً من عند أنفسهم وهم وإن كانوا يتلون كتاب الله فهم بشرٌ من البشر وقد رُوى بسند صحيح إلى ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : « استمعوا علم العلماء ولاتُصدّقوا بعضهم على بعض و فوالذى نفسى بيده لهم أشدُّ تغايراً من التُّيوس فى زُرُوبها » وعن مالك بن دينار قال :

« يؤخذ بقول العلماء والقرّاء فى كل شىء إلاّ قول بعضهم فى بعض » .

ومن التهم التى وجّهت إلى الشيخ مصطفى أنه يترخص ويتساهل فى قواعد التلاوة ليستقيم له مايريد من نغم وتطريب . وهذه فِرية كبرى ، فالذى يسمع الشيخ بإنصاف يرى أنه ملتزم غاية الالتزام ، على ماذكر أستاذنا النجمى ص ١٥ ، وأحب أن أضيف إلى ماذكره أن أكبر علماء القراءات فى عصرنا : الشيخ عبد الفتاح القاضى ، سيّدى الشيخ عامر عثمان كانا من أشدّ الناس إعجاباً بالشيخ مصطفى ، وهما مأمونان فى أحكامهما ، ومن حُراس كتاب الله ، ولقد سألت مرّة سيّدى الشيخ عامر عمّا يقال عن تساهل الشيخ مصطفى ، فقال : لاتصدّقهم ، إنه على الجادّه ، ثم أضاف : إن خامة صوت الشيخ مصطفى تشبه خامة صوت الشيخ يوسف المنيلاوى .

ومما قالوه عنه : إنه لايلتزم بالوقوف المنصوص عليها . وهذا غير صحيح ، ونعـم إنـه كان يقف أحياناً على غير وقف لتصـوير معنًى ، كما وقف على قوله تعالى : « فلما رأينه أكبرنه » وليس

موضع وقف ، ولكنه حين وصل بعد ذلك تلا الجملة السابقة ، فيكون وقفه هذا أشبه بالوقف لانقطاع النَّفس ، وهو جائز ، وأحب أن أشير هنا إلى أن الشيخ مصطفى كان أكثر تحرياً للوقوف من الشيخ محمد رفعت - وهو من هو - فالشيخ رفعت مثلا يقف على قوله تعالى من سورة الكهف « فانطلقا » وليس موضع وقف ، يقف على قوله تعالى فى سورة طه « ثم جئت على قدر » ثم يستأنف « ياموسى » وليس موضع وقف .

ومما أخذوه عليه أيضا أنه يكثر من اختلاف القراءات لإثارة مكامن الطرب ، وليس هو وحده الذى كان يفعل هذا ، فقد كان يفعله أيضاً الشيخ محمد رفعت ، والشيخ محمد الصيفى . والجمع بين الروايات فى القراءة الواحدة مكروه عند بعضهم . لكنه جائز عند بعضٍ آخر ، وبخاصة فى مقام التعليم . على أن الحق

يقتضينى هنا أن أشير إلى أن الشيخ مصطفى قرأ مرة آية على وجه من القراءات لم أجده فى القراءات العشر المجمع على تواترها والقراءة بها : وذلك قوله تعالى فى سورة يوسف - فى أحد تسجيلاتها - « وقال نُسوة » بضم النون ، وهى فى القراءة المتواترة بالكسر ، ولم يقرأ بالضمّ إلاّ المفضّل والأعمش والسلَمِى وهى قراءة شاذّة .

تسجيلات نادرة

ومما اتهموه به أيضاً أنه يقرأ سُوراً بعينها . وهذا غير صحيح ، بل إن عكسه هو الصحيح فالشيخ يقرأ من سور القرآن كلّه ، وليس كبعضهم الذى يؤثر السُّور التى تقصُر آياتها ، وتتماثل فواصلُها .

من خصائص صوت الشيخ مصطفى إسماعيل

درج كثير من القراء على أن يخفضوا أصواتهم إلى مايسمّى بطبقة القرار حين يأتون إلى اية من آيات الإنذار أو جهنم أو الموت ، فإذا جاءوا إلى آية بشارة ونحوها رفعوا أصواتهم إلى مايعرف بطبقة الجواب ، كما تسمعهم فى آخر سورة الزمر ، حيث يخفضون أصواتهم فى قوله تعالى « وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمرا » فإذا جاءوا إلى قوله تعالى : « وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا » رفعوا أصواتهم عاليا . ولم يؤثر عن الصحابة والتابعين فى ذلك شىء إلاّ مارُوِى عن التابعى الجليل إبراهيم النخعى أنه قال : « ينبغى للقارىء إذا قرأ نحو قوله تعالى : « وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله » ونحو ذلك من الآيات أن يخفض بها صوته » قال ابن الجزرى : « وهذا من أحسن آداب القراءة » على أن الشيخ مصطفي يخالف قراء زمانه فى خفض الصوت عند آيات الإنذار وذكر الموت .

واستمع إليه فى تسجيل نادر لسورة آل عمران ، فى قوله تعالى : « كل نفس ذائقة الموت » فهو يرفع صوته عاليا فى

«ذائقة » ثم يقف على « الموت » بنفس الطبقة العالية فى صراخ مُزلزل كأنه صراخ تكالى فقدن عزيزاً أو تذكرن غائبا وتكاد التاء المهموسة حين يصرخ بها تنقلب إلى حرف مجهود يكاد يخرق صماخ الأذن ثم تأمل أيضاً وقفه على قوله تعالى فى سورة يوسف « فلما رأينه أكبرنه » كيف وقف على الهاء فى « أكبرنه » وقفا مضيئاً ساطعاً يجسد لك انبهار النسوة ودهشتهن لجمال يوسف عليه السلام .

ويبقى شىء ، أرجو أن يأذن لى أستاذنا النجمى فى مناقشته ، وذلك ماذكره فى ص ٢٤ « أن المسلمين فى العهد النبوى وعهد الخلفاء الراشدين كانوا يقرأون القرآن بحسب لغاتهم المتعددة ، وأفصحها سبع لغات » ثم ذكر حديث « إن هذا القرآن نزل على سبعة أحرف » . ولى على ذلك بعض الملاحظات : أولا – إن سياق الكلام على هذا النحو قد يوحى إلى بعض من لا معرفة لهم بعلوم القرآن أن المسلمين كانوا يقرأون بهذه اللغات السبع باختيارهم ومن عند أنفسهم تبعاً لما ألفُوه من أعرافهم اللغوية . ومعلوم أن القراءة أثر واتباع ، لارأى واجتهاد ، وأن جبريل عليه السلام قد نزل بهذه اللغات كلها فاقرأها الرسول صلى الله عليه وسلم أمّته

ثانيا – أن صحة الرواية « أُنزل على سبعة أحرف » بالبناء للمجهول ، وليست « نزل » ثالثا – أن تفسير الأحرف السبعة الواردة فى الحديث بأنها سبع لغات من لغات العرب ، هو أحد التفسيرات ، وهو مردودٌ عليه . ويرى بعض المحققين أن أمثلَ ماجاء فى بيان معنى الأحرف السبعة هو ماذكره الحافظ ابن حجر العسقلانى ، فقد قال فى فتح البارى ٩/٢٣ (طبعة السلفية) « باب أنزل القرآن على سبعة أحرف : أى على سبعة أوجه يجوز أن يقرأ بكل وجه منها ، وليس المراد أن كلّ كلمة ولاجملة منه تقرأ على سبعة أوجه ، بل المراد أن غاية ماانتهى إليه عدد القراءات فى الكلمة الواحدة إلى سبعة » . رابعا – إن كتاب أستاذنا هذا يقع فى أيدى الخاصة والعامة ، فكنت أحبّ أن يشير هنا إشارة سريعة فى الحواشى إلى أن الأحرف السبعة الواردة فى الحديث ليست هى القراءات السبعة التى اختارها ابن مجاهد فى أوائل القرن الرابع ، وهى القراءات المنسوبة إلى : نافع وابن كثير وأبى عمرو وابن عامر وعاصم وحمزة والكسائى .

وبعد .. فأرجو أن يأذن لنا الأستاذ النجمى فى القول بأن هذا الكتاب لم يُشبع نهمتنا ولم يرو غُلّتنا فى الوقوف على عبقرية الشيخ مصطفى اسماعيل ، ولهذا فسوف نعتبر هذا الكتاب عن الشيخ مصطفى الجزء الأول ، وهو عن حياته كما جاء بحقّ فى عنوانه « حياته فى ظل القرآن » ويأتى الجزء الثانى إن شاء الله تحليلاً ودَرْساً لصوت هذا القارىء العظيم .

أقوال معاصرة

● « أقدم عزائى للجميع . فكلهم ضحايا زمن يستحق اللعنة » .

الأديب نجيب محفوظ

● « عندنا ، وعند أمثالنا ممن ضحلت معلوماتهم الصحيحة فقلّ وعيهم بنفس المقدار ، تكثر عملقة الأقزام » .

الدكتور زكى نجيب محمود

● « عندما يتجرد الناس من القيم ، نراهم وقد أصبحوا أسوأ بكثير من الحيوانات » .

المخرج الروسى فيتا كانيفسكى

● « الموت هو الذى جعل من الحياة حدثا » .

الممثل الأمريكى فنسنت برايس

● « من بين مايمكن أن يجلب للمرء سوء الحظ ، أن يصيبه الغرور » .

بول ماكرتنى مغنى فرقة الخنافس

● « الديموقراطية أهم شىء فى الوجود ، وأى شعب عاقل لابد أن يؤمن بها » .

(أونو) آخر رئيس وزراء منتخب فى بورما

● « الولايات المتحدة محكومة بأغلبية مطمئنة راضية » .

الإقتصادى الأمريكى

جون كينيث جالبريث

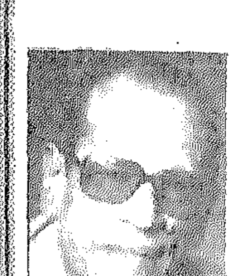
● « إذا كنت تعمل ضد الحدّ من النسل ، فانت تعمل تلقائيا على رفع نسبة الوفيات » .

بول إيرليسن أستاذ علم الأحياء

وصاحب كتاب « القنبلة السكانية »

● « الموت سهل ، الحياة هى التى ترعبنى حتى الموت » .

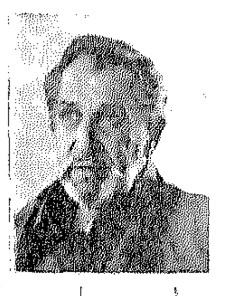
المغنية الإنجليزية آنى لينوكس



نجيب محفوظ



د . زكى نجيب محمود



فنسنت برايس



بول ماكرتنى

جرجي زيدان
حيـــاته وفكـــره

بقلم : توماس فيـليب   عرض : د . أمين العيوطى

● سيرة زيدان :

ولد زيدان فى بيروت ، ٤ ديسمبر ١٨٦١ ، من أسرة متوسطة الحال تنتمى إلى الجالية الأرثوذكسية تلقى تعليما أوليا عشوائيا قبل أن يدفعه أبوه ، الذى لم يكن يؤمن إلا بتعلم القليل من الكتابة والقراءة ، إلى العمل مبكرا . غير أنه ما أن بلغ التاسعة عشرة حتى كان قد تأهل للالتحاق بالكلية السورية البروتستانتية لدراسة الطب (الجامعة الأمريكية فيما بعد) كان رجلا عصاميا تأثر بسير العصاميين وفلسفة الفردية وقدرة الفرد على تحسين وضعه الاجتماعى إذا كان يملك الموهبة والإرادة . وسيرته مثال على كيف يصل الصبى الفقير إلى الشهرة وإن لم يصل إلى الثروة من خلال قيم العمل الشاق والمثابرة والنظام .

رغم تفوقه فى دراسة الطب إلا أنه لم تكد تمر عليه سنة واحدة حتى مرت الكلية بأزمة حادة بين المحافظين والليبراليين حول تسدريس نظرية داروين فى كلية بروتستانتية . انتهى الصراع بفصل بعض الاساتذة الاجانب واستقالة البعض الآخر ورفض الطلبة الاستمرار فى الكلية احتجاجا على قمع حرية الفكر . من بين هؤلاء كان زيدان . كان من أشد المتحمسين لنظرية علمانية توفر له وللمثقفين العرب اجابة عقلانية للتطور فى الطبيعة والمجتمع الانسانى والتقاليد والدين . أثر هذه الأزمة غادر بيروت إلى القاهرة (١٨٨٣) .

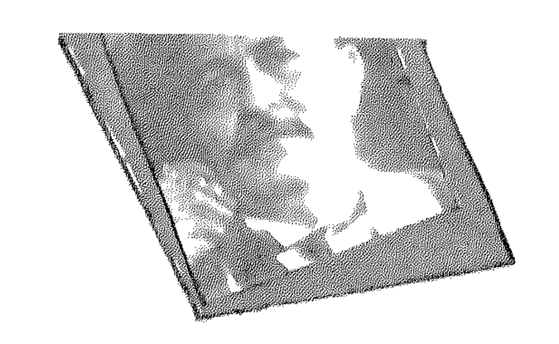
فى القاهرة عمل زيدان رئيس تحرير لمجلة « الأزمان » لمدة عام قبل أن ينضم مترجما إلى حملة ولزلى لانقاذ جوردون فى الخرطوم . بعدها عاد إلى بيروت (١٨٨٥) لدراسة اللغات خاصة العبرية والسريانية التى أسفرت عن كتابه الأول « الألفاظ العربية والفلسفة اللغوية » وفى صيف

حين تحتفل دار الهلال فى سبتمبر ١٩٩٢ بمرور مائة عام على انشائها فلابد أن تذكر مؤسسها جرجى زيدان . لهذا كان اختيار هذا الكتاب تحية لجهد الرجل والدور المستنير الذى لعبه فى الحياة الثقافية العربية لالقاء مزيد من الضوء على حياته وفكره .

١٨٨٦ رحل إلى لندن حيث قضى معظم وقته فى قاعة القراءة فى المتحف البريطانى قبل أن يعود إلى مصر ليجعل منها وطنه الدائم . فى القاهرة عمل مديراً ادارياً لمجلة « المقتطف » كما ساهم فى تحريرها ، ولم يلبث أن تركها ليتفرغ لكتاباته . لكنه كان قد اكتسب خبرة فى إدارة المجلات . أثمرت هذه الفترة عن دراسته التاريخية الماسونية وكتابه « تاريخ مصر الحديث » (١٨٨٩) . وظلت اهتماماته محصورة فى التاريخ بحيث جاء كتابه التالى « التاريخ العام . من الخلق إلى اليوم » (١٨٩٠) .

وفى عام ١٨٩١ أسس زيدان مع نجيب مترى « مطبعة التأليف » كانت مطبعة صغيرة ذات حجرات قليلة ومطبعة يدوية لم تدم الا عاماً واحداً . احتفظ زيدان بالمطبعة التى أعاد تسميتها فى ١٨٩٦ « دار الهلال » ، فى حين أنشأ مترى داراً جديدة للنشر أسماها « دار المعارف » وفى نفس العام (١٨٩١) أصدر زيدان أول رواية تاريخية له « المملوك الشارد » التى لاقت نجاحا هائلا ومنذ ذلك التاريخ ظل كاتبا مستقلا يعمل بالصحافة وتأليف الروايات والأبحاث اللغوية والتاريخية لكنه لم يعش فى ثراء .

ظلت قدرته على العمل الشاق قدرة مذهلة . ففى ١٨٩٢ بدأ أهم مشروع فى حياته بمفرده وهو « مجلة الهلال » فيما بعد ، التى كانت تستهلك معظم وقته ، إذ ظل يعمل لفترة طويلة كاتبها الوحيد ورئيس تحريرها ومديرها وموزعها . ومنذ ١٨٩١ ظل زيدان يصدر رواية كل عام ، ومنذ ١٨٩٩ ظل يصدر كل عام مجلد دراسات عن التاريخ العربي والأدبي . وكل ليلة ثلاثاء كان يعقد فى بيته سهرة



للأصدقاء والزوار وصفوة المثقفين القاهريين من صحفيين وكتاب ومؤرخين وبعض مدرسي الأزهر وفي كل أنشطته لم يشارك في المنظمات السياسية أو المناسبات العامة .

وفي عام ١٩١٠ عرضت عليه الجامعة المصرية التي أنشئت حديثا تدريس مادة التاريخ الاسلامي وحين قبل العرض بعد تردد فوجيء بفصله . وقد ولد هذا في نفسه مرارة ألقت بظلها على السنين الأربع الباقية من حياته . وزاد من مرارته هجوم رشيد رضا على أعماله فعلى الرغم من النجاح الهائل الذي لاقته رواياته واصدارات « الهلال» إلا أنه لم ينجح في ازاحة التحامل عليه . وهنا بدأ حنينه إلى مسقط رأسه بيروت تحت وطأة شعوره بأنه لم يصبح فردا مقبولا في المجتمع الذي اختار أن يعيش فيه . غير أنه حين توفي في القاهرة في ٢١ يوليو ١٩١٤ كان قد أصبح معترفا به بصفته واحدا من أكثر المؤلفين العرب خصوبة واقبالا على كتبه .

● تعليم المجتمع

كان زيدان يؤمن بأن التعليم أهم عامل في تقدم أي شعب وتطوره خاصة أنه أدرك أن الشعب العربي يمر بصحوة ويجاهد كي يصل إلى مستويات تطور جديدة . وقد رأى أن هذه الأهداف يمكن تحقيقها من خلال الاصلاح الاجتماعي الداخلي وتحديث كل جوانبه ، ونظر إلى نفسه بصفته معلما ومصلحا .

لهذا جاءت كل أعماله تعلم وتنير ، موجهة إلى العامة والخاصة . فقد كان يرى أن الكاتب لابد أن يختار موضوعا تحتاجه الأمة ، وأن يصيغه بشكل يسهل فهمه ، وأن يعرض الحقيقة بصراحة وموضوعية . وفي ضوء هذا المفهوم جاءت رواياته التاريخية لتحيط العامة بتاريخهم بشكل مفهوم ومسل. وجاء كتابه « تاريخ مصر الحديث » يقرب الأشياء إلى فهم العامة ويرضي الصفوة في آن واحد . غير أننا إذا أخذنا في الاعتبار أن ١٠ ٪ فقط كانوا يعرفون القراءة والكتابة فإن كلمة العامة هنا لا تعني جماهير الناس بقدر ما تعني هذه الفئة الصغيرة من المصريين .

كذلك كان أحد أهداف زيدان أن يوسع مدى المعرفة لتتجاوز التعليم الديني التقليدي بأن يزود قارئه بمعلومات دنيوية معاصرة يراها هو ضرورية للتعليم الحديث.

وربما تشير « مجلة الهلال »التى كانت «مجلة علمية ، تاريخية ، أدبية » إلى أنه كان يتوجه بكتاباته إلى المثقفين المصريين الذين يشكلون نواة برجوازية صاعدة فى المجتمع العربى . فقد جاء تنوع موضوعات المجلة ليغطى أى جانب حضارى له صلة بالبرجوازية المتعلمة ، خاصة الموضوعات المتعلقة بماضيها والحضارة الغربية المعاصرة التى كانت تلك البرجوازية تشكل هويتها من خلالها . ولهذا لم تتخصص المجلة فى موضوع بعينه ، بل تناولت كل الموضوعات بأسلوب يقربها إلى ذهن الرجل العادى . ولعلها لهذا السبب سرعان ما تجاوزت حدود مصر لتصل إلى سوريا والعراق وفارس والهند واليابان والمغرب وأفريقيا الغربية وأستراليا ونيوزيلند . فقد كانت تخاطب كل من يبحث عن اجابات جديدة فى الحضارة الغربية الدنيوية مع تأكيدها على انجازات أمته الحضارية والثقافية .

وكانت إحدى أفكار زيدان لترويج المجلة هى ادخال الروايات التاريخية المسلسلة فيها لجذب القارىء واحاطته بتاريخه وماضيه . كانت تلك الروايات تتألف من قصص حب ومغامرات ومكائد ومن ملاحظات تاريخية وأوصاف مسهبة للأماكن التاريخية والأزياء . غير أن العلاقة بين الحقائق التاريخية والرواية ظلت علاقة مقحمة مصطنعة . فالحدث وأفكار شخصيات الرواية لا تعكس الخلفية التاريخية . ويرجع هذا إلى اهتمامات زيدان التاريخية وأهدافه الاجتماعية التعليمية أكثر من موهبته الروائية . لكن رواياته تحفل بالحدث الواقعى والحياة والتسلية بكل ما تحويه من عناصر التشويق والمؤامرات والتنوير الخلقى الذى ينشأ من الصراع بين الخير والشر ومن معلومات هامة لجمهور يتزايد بحثه عن هويته . ولهذا صدرت من رواياته طبعات ثالثة ورابعة حتى بعد موته ، وترجمات إلى الفارسية والتركية والأوردية والكردية وغيرها .

● الدين والسياسة فى المجتمع

على الرغم من أن زيدان كان ينتمى إلى الكنيسة الأرثوذكسية إلا أنه لم يعرف عنه التدين . وإذا كان قد تناول خلق العالم فى « التاريخ العام » من وجهة نظر الكتاب المقدس إلا أنه تحول عن هذا التصور لأصل الإنسان إلى تفسير نظرية التصور له ، بحيث تناول هذه المشكلة فى كتابه « طبقات الأمم » (١٩١٢) طبقا لنظرية التطور مفسرا كل يوم من أيام الخلق على أنه فترة تمتد عدة آلاف من السنين . أصبح العلم بالنسبة له يعنى المعرفة المنظمة التى تقوم على الملاحظة وعلى التجارب التى تؤدى إلى نفس النتائج حين تتكرر . ورغم ذلك فإنه لم يعل من شأن



العلم على الدين . فالدين بالنسبة له يحتوى على بعض الحقائق العلمية ، ولم يفضل دينا على دين آخر مما يدل على نظرة متسامحة .

هذه النظرة المتسامحة تبدو واضحة فى تناوله للعلاقة بين الاسلام والمسيحية حين أكد أنه خلال معظم فترات تاريخ الامبراطورية الاسلامية كان المسيحيون يعيشون فى وئام مع اخوانهم المسلمين وأن التسامح بلغ أوجه فى العصر الذهبى للدولة العباسية . بل أنه حين تناول اضطهاد المتوكل (٨٤٢ - ٨٤٧) والحاكم (٩٩٦ - ١٠٢١ م) للمسيحيين أبرز أن هذا الاضطهاد يرجع إلى دوافع شخصية لا إلى الأسرة الحاكمة أو الأمة التى ينتمى اليها هذان الحاكمان .

وعلاوة على هذا اعتبر زيدان الحروب الصليبية أسود فترة تعصب دينى فى التاريخ الأوربى ، وأن التاريخ يخجل من تذكر نتائجها . بل إن الصليبيين فى روايته « صلاح الدين » يلعبون دورا هامشيا فى حين يتعاطف زيدان مع البطل الاسلامى ويدين تدخل المسيحيين الأوروبين الذى أفسد العلاقات الطيبة بين المسلمين والمسيحيين فى العالم الاسلامى .

ويرتبط بهذه النظرة ادراكه للوظائف السياسية والاجتماعية التى قام بها الدين فى الماضى والحاضر . وفى هذا الشأن تشابهت آراؤه عن المجتمع مع آراء الفلاسفة المسلمين فى العصور الوسطى ، وهى أن المجتمع منقسم أساسا إلى فئتين العامة والخاصة ، وأن المرء لايجب أن يتوقع تفكيرا صائبا من العامة . ولهذا فإن الحقيقة التى يصل إليها المتعلمون بذكائهم يجب أن تقدم إلى العامة فى شكل عقيدة . وقد جعله هذا المفهوم يرى أن أى نظام سياسى يجعل الجماهير تشارك فى السلطة السياسية غير مقبول . بل إن الحاكم يجب أن يملك ناصيتى السلطة السياسية والدينية ليحكم الجماهير بحيث يصبح الدين أساس الاستقرار والتضامن من داخل المجتمع . وفى هذا يقترب فكر زيدان مع فكر جمال الدين الأفغانى الذى أطلق عليه زيدان تسمية « فيلسوف الاسلام فى زمننا » .

لكنه فى تطبيقه لنظريات المفكرين الاجتماعيين الداروينيين أدخل أيضا عنصر الحراك الاجتماعى بحيث أصبحت فكرة البقاء للأصلح تعنى أن أى فرد ، بغض النظر عن وضعه الاجتماعى الأصلى ، قادر على صعود السلم

الاجتماعى من خلال العمل الشاق والمثابرة . وترتبط هذه النظرة بنظرته إلى العصامية التى كانت حياته خير مثال لها . ولاتتعارض هذه النظرة مع نظرته إلى أن يكون المجتمع منظما بشكل هرمى وأن تحكمه الصفوة أو الأصلح بلغة داروين .

وبشكل مستتير آمن زيدان بأن التعليم ونشر المعرفة العلمية لابد أن يضمنا تقدم المجتمع واصلاح حال أفراده ، واشراك المزيد من الناس في حكم الأمة . ولهذا كان يؤمن بأن أى تغيير اجتماعى أو سياسى لابد أن تسبقه فترة اعداد طويلة حتى يتلاءم الناس مع الظروف والمتطلبات الجديدة ، أى أنه كان يطلب اعداداً تطوريا متدرجا لاحداث أى تغيير ، هذا الاعداد لا يتضمن فقط نقل المعرفة العلمية ولكن أيضا تشكيل الناس بحيث يصبحون مواطنين مسئولين حديثين .

● الوعى الثقافى والقومى

داخل مفهوم زيدان عن التركيب الاجتماعى عناصر من الفكر الاجتماعى التقليدى والفكر الدارويني الاجتماعى فلم يطرح اجابة عن أى المعايير تحدد هوية الأفراد بصفتهم أفراداً ينتمون إلى جماعة معينة أو مجتمع أو عن الوسائل التى يمكن بها خلق التماسك الاجتماعى ففى رأيه أن تكوين الجماعة والوسائل التى توجد بها أفرادها تتغير طبقا للاحتياجات أو الفائدة . فالمصريون يمكن أن ينتموا إلى الهوية الثقافية العربية فى حين أن الفائدة يمكنها أن تخلق تضامنا مع الامبراطورية العثمانية . فكل وسائل التضامن من مثل الوطن والقربى والدين واللغة ذات قيمة نسبية . كان بهذا يرفض كل القيم فيما عدا فائدة الجماعة بالنسبة للفرد .

غير أنه وإن قلل من أهمية اللغة والدين بصفتهما عاملى تضامن ، إلا أنه من أوائل المنادين بالهوية القومية العربية ، ولم يكن أمامه إلا الفكر الدنيوى ، بحيث انخرط فى الاتجاه السائد فى زمنه الى تشكيل هوية جديدة للمجتمع على أساس قومى ، ورغم هذا فقد استخدم كلمتى « الوطن » و« الوطنية » بمعنيين مختلفين ، فقد يستعمل كلمة الوطن بالمعنى الأوربى الحديث بمعنى أرض الآباء أو أرض محددة ينتمى اليها الفرد وتحدد سلوكه الاجتماعى والسياسى والأخلاقى وقد يستخدمها بمعنى المكان الذى يقيم فيه الانسان . والحقيقة أنه لم يحدد الأرض التى تشكل وطنا معينا فقد يشير إلى الوطن المصرى أو الوطن السورى ، ولكنه لايستخدم أبدا مفهوم الوطن العربى . كان الوطن يعنى بالنسبة له المكان الذى ترعرع فيه المرء ،



وفى بعض الأحيان كانت الكلمة تشير إلى المغزى الأخلاقى الذى يعنيه المعنى الحديث لها . ولهذا ظل مفهوم زيدان للكيان الاقليمى مفهوما غامضا .

وربما يرجع هذا إلى أنه ظل مرتبطا عاطفيا بسوريا لايفرق بين سوريا ولبنان فكان كثيرا مايقضى الصيف فى لبنان وسط أصدقائه وأهله ، كما يرى أن المهاجرين السوريين يشدهم حنين قوى إلى وطنهم . وفى وقت سادت فيه مصر اتجاهات وطنية كان زيدان فى موقف دفاع عن علاقته بسوريا ويؤكد أن السوريين من وجهة النظر العرقية ليسوا عربا بل مزيجا من شعوب مختلفة وإن كانوا عربا تماما بحكم ثقافتهم ولغتهم .

لكن هذا لم يمنع زيدان من رؤية العلاقات التاريخية بين مصر وسوريا وهجرة السوريين الى مصر والتوطن فيها . فهو يشير إلى السياسات الفرعونية والعلاقات التجارية الفينيقية التي تمهد لوحدة قريبة . وعلاوة على هذا فإنه ينظر إلى مصر بصفتها كيانا تاريخيا ومصدرا للعلم حتى الغزو الرومانى ومهد كل الحضارات والحقيقة أنه بصفته مهاجرا سوريا كان يبحث عن هوية تجمع البلدين فى كيان واحد .

يؤكد هذه الحقيقة اهتمامه بفترة الحضارة الاسلامية التى كان العرب يشكلون فيها القوة التاريخية الأساسية . كان فخوراً بتلك الفترة ، ولكن هدفه الأساسى أن يجعل هذا التاريخ ملكاً لكل الناس بغض النظر عن دياناتهم . وقد حقق هذا الهدف بمدخله الدنيوى فلم يكن مهتما بتاريخ الاسلام الدينى بل بانجازات العرب الثقافية . لذلك كان تأكيده الدائم على أنه يكتب عن تاريخ الحضارة الاسلامية بهدف توضيح أن التجربة الاسلامية كانت فى البداية تجربة عربية خالصة توحد كل العرب . وفى نفس الوقت حرص على أن يبرز أن العرب المسلمين والمسيحيين حاربوا معا الفرس والبيزانيطيين . واللغة المشتركة هى العامل الأساسى فى تضامن العرب . وبهذا كان زيدان أول من طرح الهوية القومية لكل العرب فى التاريخ البعيد . ومن خلال مجلته وروايانه وأعماله جعل معاصريه أكثر وعيا بهذه القومية مسهما بذلك فى وضع الأساس الثقافى والعاطفى للقومية العربية فيما بعد.

● أعمال جرجى زيدان .

كان زيدان كاتبا خصبا تراوحت أعماله بين الدراسات التاريخية والأدب وتضمنت اثنتين وعشرين رواية ، واثنين وعشرين عاما من اصدار « مجلة الهلال » الشهرية التى كان يكتبها كلها بنفسه تقريبا . ويكتسب مشروعان من مشروعاته أهمية خاصة ، أولهما رواياته التاريخية ومجلة الهلال وتبرز أهميتهما لا من خلال حجميهما فقط ، بل من اهتمام جمهور القراء بهما . ومن الصعب أن نقلل من الدور الذى لعبته كتاباته فى هذين المجالين لنشر المعرفة وتطوير تذوق الأدب بين القراء العرب .

فى المقال الافتتاحى للمجلة التى بدأها فى سبتمبر ١٨٩٢ أوضح أسبابه لاختيار هذا الاسم ، فهو اشارة إلى ظهور المجلة شهريا ، ولكسب بركات الهلال العثمانى رمز الامبراطورية العثمانية ، كما أن مقارنتها بالهلال ينطوى على نية المجلة أن تنمو لتصبح ضوءا كاملا قويا مثل البدر . وقد قسم المجلة إلى خمسة أقسام : أهم الأحداث ، المقالات ، الروايات المسلسلة ، الأحداث الشهرية خاصة أحداث مصر وسوريا ، أخبار منتقاة ، نقد وفى العدد الثالث من السنة الأولى أضاف باب المراسلات أو بريد القراء . وفى السنة الثانية أضاف باب « أسئلة ومقترحات » وفى السنة الثالثة أضاف باب « أخبار علمية » كان حجم العدد مابين ٣٢ – ٤٠ صفحة . فيما بين السنة العاشرة والرابعة عشرة (١٩٠٢ – ١٩٠٦) أضاف إلى المجلة العديد من الأبواب مثل « ملوك الشرق » ، « صحة العائلة » ، « عجائب المخلوقات » « أحوال الدول » ، « غرائب العادات .» وفى المجلد الثانى والعشرين والأخير الذى نشره أعاد تخطيطها ليبلغ حجمها ٩٦ صفحة . وخلال السنوات الثمانى الأولى زاد التأكيد على الأخبار الثقافية والاجتماعية . ومن اهم أجزاء المجلد جزء « أشهر الأحداث وأعظم الرجال » الذى كان دائما أول جزء من كل عدد كما كان موضوع صورة الغلاف . وبسبب أهميته واتساع مجال موضوعاته يبدو هذا القسم ممثلا لروح المجلة ويستحق بحثا دقيقا فيما يتعلق باتجاهات « الهلال » وتطوراتها .

كان ثلثا المقالات يدوران حول شخص ما ، أفعاله ، واختراعاته وأفكاره مع ربطها بالسياق التاريخى العلمى الذى ظهر فيه . قد يكون هذا الشخص حاكما لأحد البلاد . ولكن بمرور الوقت أصبح التأكيد فى معظم المقالات على موضوعات لا على أشخاص . كما غطت مقالات « الهلال » موضوعات عديدة عن الغرب خاصة الثقافة الاغريقية والعصور الوسطى الأوربية وأوروبا الحديثة والبلاد الاسلامية وثقافتها مع تزايد الاهتمام بالأزمنة

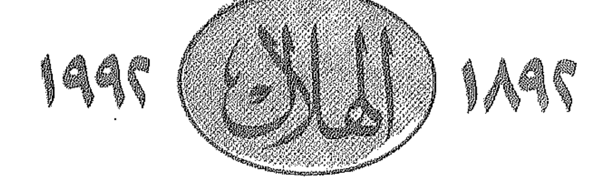


الحديثة والثقافات الشرقية غير الاسلامية مثـل الصـينية واليـابانية والهندية ولاتزال « الهلال » خزانة للمعلومات عن المجتمع المعاصر تواصل تطوير مفهوم زيدان وأفكاره .

الروايات التاريخية

كتب زيدان اثنتين وعشرين رواية جاءت منها رواية واحدة عن المجتمع المعاصر هى « جهاد المحبين » أما الروايات التاريخية فقد بدأها بالمملوك الشارد (١٨٩١) وهى رواية تجرى أحداثها فى مصر وسوريا فى عصر محمد على . غير أن روايته الرابعة « أرمانوسا » فإنها اتجهت إلى التاريخ الاسلامى القديم . ثم شرع زيدان في كتابة متتاليات من الروايات تحيط بكل التاريخ الاسلامى . وظل ينشر رواية تاريخية كل سنة بعد سلسلتها فى « الهلال » . وهكذا غطى فى سبع عشرة رواية من ١٨٩٠ - ١٩١٤ التاريخ الاسلامى منذ بداياته حتى الحكم الأيوبى فى مصر .

وربما كان عدم حذق الحبكة وملل الأجزاء الوصفية نتيجة لانعدام التقليد الأدبى والتجربة فى كتابة الرواية فى عصره . لكنها دليل على طموحات زيدان فى أن يـكون معلما ومؤرخا لا كاتبا روائيا . وفى كل حبكات رواياته تظهر مجموعة من الشخصيات . هناك البطل والبطلة ، شابة متعلمة زكية تحب البطل . ويكمل قائمة الشخصيات خادم أو خادمة يمثلان العنصر الطيب وفى الجانب الشرير نجد أبا الفتاة القاسى الجاهل ، الظالم الذى يحاول أن يزوج ابنته للشرير الذى لايحب الفتاة ويطمع فى مصلحة خاصة ، هناك مثل هذا التقسيم الدائم بين الخير والشر وهذه العناصر ترتبط بشكل واهٍ بالشخصيات والأحداث التارخية . وقد ترتبط شخصية تاريخية بالحدث . لكن تظل شخصيات رواياته ذات بعد أحادى، أنماطها لاتتطور ينقصها التحليل النفسى ولكى يعوض هذا النقص يلجأ زيدان إلى حيلة المؤامرات والمكائد والمصادفات وتنتهى كل رواياته نهايات سعيدة . ومع ذلك لاتزال تقرأ حتى اليوم وتظهر فى طبعـات جديدة .



ماذا بعد ٤٠ سنة ثورة ؟ !

مصطفى نبيل

تأتى خلال هذا الشهر ذكرى ٤٠ سنة على قيام ثورة ٢٣ يوليو ، الثورة التى أحدثت تغييراً جوهريا فى مسار الحياة السياسية المصرية ، سواء أعجب هذا التغيير البعض أو أغضب البعض الآخر ، إلا أنه حدث جلل بما جاء به من إنجازات كبيرة أو أخطاء جسيمه ، وأصبحت هذه الثورة وأحداثها ونتائجها جزءاً هاما من تاريخ مصر والعرب والعالم ..

ولابد لنا أن نلاحظ ذلك الفارق الدقيق فى كل حدث تاريخى هام ، بين الوطن وبين نظام الحكم ، بين القادة وحركة الناس، وما الذى تقع مسئوليته على نظام الحكم وما الذى تقع مسئوليته على حركة المجتمع وحلم الشعب الدائم فى العدل والحرية .

● رجلا التطهير ●

علي ماهر

محمد نجيب



الملك فاروق

وسنقتصر هنا على تقليب صفحات مجلة الهلال فى النصف الثانى من عام ١٩٥٢ ، لكى نرصد استقبال الكتاب والمفكرين لهذا الحدث التاريخى ، وكيف تناولته مجلة ثقافية .. ولعل هذه القراءة تضع ثورة يوليو فى سياقها التاريخى ، بدلا من الحكم عليها بأثر رجعى !

يلاحظ أنه فى عدد يوليو ١٩٥٢ ، مقال هام للمؤرخ عبد الرحمن الرافعى تصدر عدد الهلال ، وأهميته أنه نشر قبل قيام الثورة ، وهو يعكس الشعور العام بعد الأحداث الجسام التى بدأت بإلغاء معاهدة ١٩٣٦ واقرار حكومة الوفد بعدم شرعية الوجود البريطانى ، وبداية العمل الفدائى على طول قناة السويس ، وتدهورت أوضاع الحكم سريعاً والذى انتهى بحريق القاهرة فى ٢٦ يناير وحل المجلس النيابى وإعلان الأحكام العرفية وتعاقب وزارات الأقليات التى أفصحت عن عجز النظام جميعه ، وعرفت الشهور الستة التالية أربع وزارات .

يقول الرافعى فى مقاله بالحرف الواحد .. « إن نصيب مصر من الديمقراطية قليل ، والديمقراطية تتعثر فى سيرها ، ولا يتجاوز نصيبنا منها بعض ظواهر تخفى أوضاعا من الاستبداد والحكم المطلق .. فى الحياة البرلمانية ، وفى الحياة الوزارية ، وفى الانتخابات وفى الحياة السياسية والحزبية ، فالنزعة الغالبة على هذه النظم هى نـــزعة الحكم المطـــلق .. »

ويضيف فى مقاله .. « .. ولئن كان مستوانا العلمى والثقافى قد ارتقى عما كان عليه فى الماضى إلا أن نصيبنا من حرية التفكير قد انخفض .. والطبقة المثقفة يقع عليها عبء أكبر ، ومما يؤسف له أنها تعيش على هامش الحياة السياسية أو بمعزل عنها .. وقصارى مساهمتهم أن ينتقدوا الحوادث والتصرفات فى مجالسهم الخاصة ، أو فى المقاهى .. دون أن يتعاونوا على إصـــلاح ما اعوج من الأمور .. »

ويستدرك مؤكداً أن هذا ليس من طبيعة الشعب المصرى الذى أثبت جدارة وقدرة على الاختيار فى الانتخابات التى أجريت عام ١٨٨١ قبل احتلال الانجليز لمصر ، وتلك التى جرت عام ١٩١٣ قبل

إعلان الحماية على مصر .

وهذا المقال أفضل رد على الذين يؤكدون على أن مصر قبل يوليو ٥٢ كانت جنة الليبرالية ، متصورين « أن آفة حارتنا النسيان » على حد تعبير كاتبنا الكبير نجيب محفوظ ويعبر هذا المقال بوضوح عن المحنة الشديدة التى تعبر عنها أزمة الديمقراطية وأزمة المثقفين وأزمة حرية الفكر .

***

ولم يتمكن عدد أغسطس من الهلال من اللحاق بالحدث التاريخى الهام ، وصدر عدد خاص عن الصيف وقيظه ، كانت أهم مقالاته ، الدنيا حر للدكتور أحمد أمين ، وليالى الصيف لمحمد فريد أبو حديد ، وماذا نقرأ فى الصيف لعباس العقاد ، والمصايف المصرية . لماذا يهجرها المصريون لأمينة السعيد ، وتحقيقا حول .. المصايف الأوربية جنات الفردوس فى الأرض ، ورحلة صيف للدكتورة بنت الشاطىء ، وجنون الصيف لأحمد عبدالقادر المازنى .

وجاء هلال سبتمبر ليتصدره مقال للواء محمد نجيب قائد الثورة ، فى صورة رسالة منه إلى الأجيال الجديد ، وكتبها وأرسلها بخطه وتوقيعه . وتولى المجلة اهتماماً كبيراً بالثورة وتنشر لوحتين على صفحتين كاملتين لكل من اللواء محمد نجيب ورئيس الوزراء على ماهر تحت عنوان « رجلا التطهير » ، ويظهر معظم الكتاب الاحتفاء الشديد بالسلطة الجديدة ، فيكتب عبد الرحمن الرافعى مقالا عنوانه عرابى ونجيب ، يعيد فيه الرافعى الاعتبار للزعيم أحمد عرابى ، ويشبه اللواء محمد نجيب بالزعيم الذى احتل مكانه فى وجدان الأهالى .

يقول الرافعى .. « شهدت مصر فى خلال نيف وسبعين سنة « انقلابين » ، قام بهما رجال الجيش تمثلت فيهما الوطنية الحربية .. أولهما سنة ١٨٨١ على يد أحمد عرابى . والثانى سنة ١٩٥٢ على يد محمد نجيب ..

وعلى الرغم من طول المدة التى تفصل بين « الانقلابين » فإن كثيراً من أوجه الشبه تجمع بينهما .. فالثورة العرابية كانت صدى لرغبات الشعب وسخطه على نظام الحكم الذى كانت تعانيه البلاد ، وقوامه الاستبداد والفساد والمظالم . والحركة التى قام بها الجيش سنة ١٩٥٢ كانت أيضا صدى لشعور المواطنين فى تبرمهم بفساد الحكم وتدخل غير المسئولين فيه ، وتضحية مصالح الشعب فى سبيل أهواء المحظوظين ..

فلا غرو أن قوبلتا من طبقات الشعب بالتأييد والمؤازرة ، والغبطة والابتهاج . ولم يصدر الجيش فى كلتيهما عن نزعات شخصية أو مطامع فردية بل كان ترجمانا لآمال الشعب مدافعا عن حقوقه ، فهما حركتان وطنيتان ، كان الجيش فيهما وكيلا عن الشعب ، فالجيش من الشعب وللشعب..



والعسكريون كالمدنيين فى شعورهم القوى، والروح الحربية خليقة بأن تقوى فى النفوس الوطنية والعزة القومية ...

نجحت « الحركة » التى قاموا بها نجاحاً منقطع النظير .. إذ تم الانقلاب دون أن تراق فيه قطرة دم . وجاء مضرب الأمثال فى تاريخ الانقلابات العسكرية الناجحة .

ويذكر فى معرض مقارنته بين سنتى ١٨٨١ و ١٩٥٢ .. « أن زعماء الجيش سنة ١٩٥٢ هم ولا ريب أكثر ثقافة وكفاءة وأوفر اطلاعا من أسلافهم سنة ١٨٨١ .

وهذه المزايا قد جعلتهم يحكمون وضع الخطط والبرامج لنجاح الانقلاب فى حزم وسرعة ، ويتجنبون بعض الأخطاء التى وقع فيها العرابيون . ويحرصون على الأخص على عدم تدخل الجيش فى السياسة ، واقتصر تدخلهم على خلع الملك السابق . »

سقوط الطغاة

ويكتب محمد فريد أبو حديد عن قصر نظر الطغاة الذين سقطوا عن العرش ، وهم السلطان عبد الحميد والخديو عباس الثانى وأخيرا الملك فاروق .

« .. فبدلاً من أن يكون فاروق وليد ثورة ١٩ وابن الشعب ، انطلق يعبث فى حياته.. وانعكس مسلكه العابث على الشعب ، فإذا موجة هائلة من العبث والانحلال الخلقى تطغى على الناس رجالاً ونساءً .. وها هى ذى أنباء الخطايا والبلايا تملأ الصحف فى كل صباح وكل مساء ... ولم يقتصر قصر البصيرة على الملك وحده ، بل أصاب السادة والقادة .. وصارت الأذناب رؤساء والرؤوس أذنابا ، وأصبحت الفضائل رذائل والمخازى مفاخر » .

وتعيد مجلة الهلال نشر بعض الأقوال الوطنية المأثورة عن الزعيم مصطفى كامل تحت عنوان « وطنيات لا تنسى » .

***

ونصل إلى هلال أكتوبر ١٩٥٢ ..

وترتفع حرارة الاحتفاء بالثورة ، وتقول الافتتاحية ، يصدر هذا العدد ، ومصر فى ثورة إصلاحية فذة ، سيروى التاريخ قصتها للأجيال القادمة .. ولئن

كانت مباذل ذلك « المخلوع » وسياسته الخرقاء ، وعصابته الفاسدة ، قد قوضت عرشه ومكانته وآذنت بسقوطه وزواله قبل أن يزول ، إلا أنه كان يظن أن القوة العسكرية تحمي طغيانه ، ولكنها هي التي هدمت ذلك الطغيان . فهي التي تمثل قوة الشعب وما وجدت إلا للدفاع عن كرامته ..

وتضيف

« ولقد كان بعض الساسة يحرمون اشتراك الجيش في السياسة حتى زعم الشيخ علي يوسف (رئيس تحرير المؤيد ، « أن السيف والحرية والدستور لا تبيت في جراب واحد » ولكن ثبت غير ذلك فطالما أفسد الزعماء السياسيون السياسة .. ولقد فشل ساسة مصر المتحزبون ، وجنوا على مصالحهم بأغراضهم ومنازعاتهم الحزبية منذ ثلاثين عاما » .

ويكتب الأستاذ العقاد عن الشيخ العدوى أحد أبطال الثورة العرابية الذى أفتى بعزل الخديو توفيق .

ويقدم الهلال قصة أبطال الجيش المصرى فى فلسطين ، ويروى قصة البطل أحمد عبد العزيز وبيومي على الشافعي ومحمد رفعت فهمي وصبحي ابراهيم فهمي ومحمد جمال خليفة .

ويكتب فاروق نجل اللواء محمد نجيب عن كيف بعث نجيب من الموت عدة مرات ؟ !

***

ويعود اللواء محمد نجيب فى هلال نوفمبر إلى توجيه نصائحه للشباب ، ويحذرهم من الاشتغال بالسياسة ويطالبهم بالاهتمام بدروسهم .. « على الشباب من الطلبه أن يعلموا أن مقاليد الأمور قد استقرت فى أيد تخاف الله ، وتحرص على كرامة الوطن ، وأن عهد الفساد قد ذهب إلى غير عودة ، فمن الخير لهم وللبلاد كلها أن ينصرفوا إلى تلقى دروسهم حتى يجنى الوطن ثمار علمهم وعملهم ، وأن يتركوا كل شيء بعد ذلك للقادرين على خدمة الأمة من رجالنا الصالحين الذين ينتظرهم طريق شاق طويل من الجهاد .. »

هذا بعد أن كانت الأجيال الجديدة الشابة تلعب دوراً هاما فى الحركة الوطنية، ثم تلاحقت الرسائل إلى الشباب تحضهم على الانصراف إلى دروسهم ! والمدهش أن يجد القارىء على صفحات ذات العدد مقالا آخر للأستاذ فتحى رضوان وزير الإرشاد القومى فى هذا الوقت يرد فيها على الرئيس محمد نجيب، وعنوانه « أيها الشباب .. اشتغلوا بالسياسة » ، .. « لتوسيع الآفاق وانضاج المدارك ، وتقوية الشخصية » ، ويدعو الشبان أن يشتغلوا بالسياسة كما اشتغل بها لينين ونهرو ومحمد فريد وغاندى وديڤاليرا .. »

ويدعو فتحى رضوان وزير الارشاد الشباب إلى الاشتغال بالسياسة والتطلع إلى القيادة ..



الجيش وقائده نجيب

مما أدى إلى أن يحاول الهلال فى افتتاحيته إلى التوفيق بين الرأيين ، فذهب إلى أن فتحى رضوان يدعو الشباب إلى «العناية بالوطنية » وهناك بون شاسع بين السياسة التى تعنى بتدبير شئون الدولة والعمل لمصلحة المجموع ، والوطنية التى يمكن أن تتجلى فى أى عمل يعود على الوطن بالنفع .

وما يجب أن يعنى به الشباب ، الاشتغال بالوطنية لا بالسياسة الحزبية التى طالما جرت على البلاد شقاء ووبالاً .

فهل يعنى ذلك بداية الانشقاق فى صفوف الثورة ؟ !

ومن أهم المقالات وأكثرها أهمية ، مقال كتبه فى ذات العدد الأستاذ عباس العقاد، وما أشبه اليوم بالبارحة ، يطالب فيه الثورة بتطهير صفوف الكتاب ، يقول.. «نعم تطهير لابد منه فى عالم الكتابة ولعله أوجب من كل تطهير وأنفع من كل تطهير ، بل لعل عالم الكتابة عندنا أحوج إلى التطهير من كل بيئة نودى إلى اليوم بوجوب التطهير فيها » ويمضى إلى القول ... « قد تكون الكتابة متأثرة كما تكون مؤثرة ، وأنها قد تكون تبعا لمن حولها كما يتبعها من حولها فى أحيان أخرى ، .. فالكتابة فى الأمة صورة للكاتب والقارىء فى وقت واحد ، فإذا حسنت هذه الصورة فهى علامة حسنة على خلائق الكتاب وعقولهم وعلامة حسنة كذلك على الأخلاق والأفكار بين أنواع القراء ، وما كان صدق الأقلام قط شهادة للكتاب وحدهم ، إذ لا يستطيع الكاتب الصدق إذا كان القراء جميعا معرضين عنه غير قادرين على تمييزه أو تفضيله على الباطل والبهتان ...

« التطهير فى الكتابة دليل على صدق الكاتب ، ويقظة القارىء ، وشهادة حسنة للأفكار والأخلاق بين من يكتبون ومن يقرأون .

ويحزننا أن تقول إن الكتابة فى جملتها لم تكن عندنا قط قامعة للطغيان فى عهد من العهود ، وإنها كثيراً ما كانت عونا للطغيان وسترا له من يقظات العيون والآذان » .

« وتطهير الكتابة تطهيران : تطهير من قبل الحكومة وتطهير من قبل الجمهور ، ويشمل هذا القول كتابة الصحف كما يشمل كتابة المصنفات والرسائل وكل كتابة منشورة . »

وعلى الحكومة أن تراجع أضابير الدواوين وتستخرج منها أسماء أصحاب «الرواتب السرية » فى عهد كل وزارة غابرة، .. بل وتقدر الحكومة على كشف

الأقلام المأجورة من خزائن الأحزاب وخزائن الشركات تنفق الأموال الكثيرة على شراء الأقلام وتسخير الضمائر وترويج النفوذ .

وعلى القراء أن يميزوا قليلا ليطهروا الكتابة من كل قلم لا يعرف غير الثناء على السلطان ، ولا يعرف النقد والمذمة إلا إذا تكلم على السلطان الزائل .

أقلام تسـخرها الـدول الأجنبية جواسيس على أوطانها لتفسد سياسة أوطانها وتخدم سياسة تلك الدول ، ... هى الحملة على كل دولة ما عدا الدولة التى تشترى الأقلام لخدمة مآربها وتسخير الوطنية المصرية لغاياتها . »

***

ويكتب الأستاذ عباس العقاد فى العدد الذى يليه هلال ديسمبر ١٩٥٢ مقالا إفتتاحيا بعنوان « الجيش وقائده »

جاء فيه .. « لا نعتقد أن فاروقا كان يعقل أن يضع لنفسه سياسة يحمى بها عرشه .. ، ولكنى أرجح أنه تلقى من أبيه وصية مكتوبة أو محفوظة تلخص له قواعد السياسة التى يعتمد عليها لحماية العرش وتوطيد دعائم الملك ، ومنها الاحتفاظ بولاء الجيش وولاء الأزهر .. فليس أنفع العروش من ولاء القوة والعقيدة ...

وجاءت الثورة سلمية لم يسفك فيها دم ولم يضطرب فيها حبل الأمور ، وقد كان الخلاص فى عهد فاروق ضرورة لا تستكثر عليها أن تقدم الأمة فى سبيلها على خسارة فى الأرواح والأموال ... فلما تكفل الجيش للأمة بالثورة التى كانت مطلوبة منها عوفيت من جرائرها وأهوالها وانتظمت الأمور فى سياقها وانجلى ملك مكروه عن عرشه بأيسر من جلاء عمدة فى قرية صغيرة .... !

وقبل أن يسأل السائل : وما للجيوش ولهذه الشئون ؟ عليه أن يسأل : كيف كان الخلاص لو لم تخلصنا حركة الجيش من فاروق ؟ .. فلو أنه بقى على العرش إلى نهاية أجله فلا يعلم إلا الله كم سنة تتعاقب على مصر وهى تنحدر من هاوية إلى هاوية، وتتقهقر من نكسة إلى نكسة ، وتتهافت من خراب على خراب ، وتتلطخ بوصمة بعد وصمة من وصمات ذلك الفساد الذى جعلها مضغة فى أفواه العالمين .

ولم يكن كافيا لتمام العمل التاريخى الذى لا يتكرر كل يوم أو كل جيل أن يزول فاروق ويبقى بعده ألف فاروق وأكثر من ألف فاروق فليست نهاية فاروق هى نهاية الحركة ، ولكنها فاتحة عهد لابد أن يستقر على أساس وطيد .

هذا هو ما نشر فى مجلة الهلال حول ثورة ٢٣ يوليو فى النصف الثانى من عام ١٩٥٢ ، وهو يفصح عن الكثير ، ويبن مدى احتفاء الكتاب بالتغيير ، وسبق لهم ويشروا بعصر جديد يرتفع فيه صوت الشعب وصوت الحق .

ونجد أنه بقدر ما أسعدهم التغيير سجلوا تحفظاتهم ، ومنها خطر استمرار تدخل الجيش فى السياسة ، وسلموا بطبيعة الظروف الاستثنائية للتغيير ، ولكنهم حذروا من استمرار هذه الأوضاع ، وكم من المياه تدفقت فى النهر ..

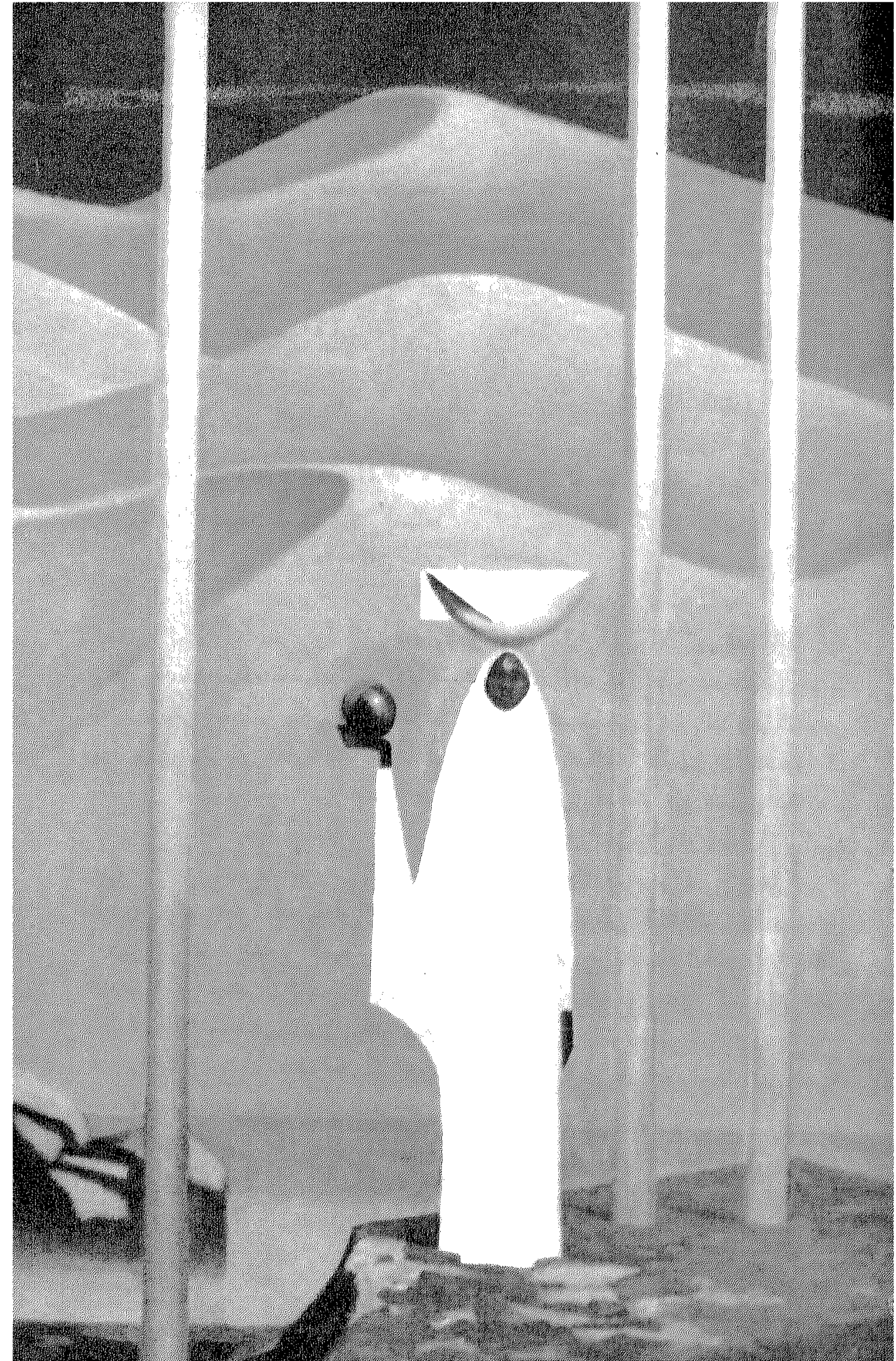
بيكار

الناقد والفنان

بقلم : د . صبرى منصور

لا جدال فى أن حسين أمين إبراهيم المولود عام ١٩١٣ بحى الأنفوشى بالاسكندرية ، والذى اشتهر بإسم بيكار هو واحد من الوجوه الثقافية التى أضاءت - ومازالت تضئ بنورها - سماء الحياة الثقافية المصرية منذ ما يقرب من نصف قرن . وهو واحد من ألمع نجوم الجيل الثانى فى الفن المصرى المعاصر . ولم يقتصر إبداع فناننا الكبير على مجال واحد فقط ، وإنما امتد نشاطه ليغطى نواحى عديدة ، كان يكفيه أى منها ليتبوأ به مكانة فريدة ضمن زمرة رواد التنوير والتحديث .

فى مجال كان جديداً على المصريين فى بدء صحوتهم الثقافية والحضارية المعاصرة . فهو مصور بارع تميزت أعماله برهافة الحس ، وأستاذية الأداء ، وهو ناقد أمين صاحب كلمة موضوعية ، وهو رائد لفن الرسوم التوضيحية وفن الكتاب ، كما أنه فى مناصبه الإدارية التى تقلدها نموذج للنزاهة والحكمة واحترام الرأى الآخر وإنتاجه فى كل هذه المجالات يصدر عن روح نقية ، وضمير مخلص ، ومشاعر إنسانية مرهفة . وبيكار ينتمى إلى جيل تميز بالعطاء الخالص غير المشوب بدوافع



ذاتية ، أو رغبة فى منصب ، أو تزلف إلى سلطان ، بل كان هدفه المنشود إعلاء القيمة ، وانتصار المبادئ ، وتكريس المثل العليا فى الفن والحياة .. هكذا فإن بيكار ليس أستاذاً فى مجالات إبداعه فقط ، وإنما هو معلم رائد لكل من يبحث عن مثل أعلى ، وقدوة صالحة فى زمان تندر فيه القدوة التى يقتدى بها فى دنيا الإبداع الفنى والعطاء الثقافى

الريادة فى رسوم كتب الأطفال

ومنذ الأربعينات أسهم بيكار إسهاماً رائداً فى مجال فن الصحافة - إلى جانب عمله كأستاذ لفن التصوير الزيتى - وكان له دوره الكبير فى تطوير هذا الفن عامة، وكتاب الطفل بصفة خاصة ، وكان لإيمانه الشديد بالرسالة التى يمكن للفن الإسهام بها بدور مؤثر فى تعليم وثقافة الطفل سبب فى تشجيع العديد من تلاميذه من أجل اقتحام هذا المجال الحيوى ، وبصمات هؤلاء واضحة نلمسها اليوم فى الصحافة المصرية ولقد وضع بيكار ثقله الفنى من أجل التأكيد على أهمية الرسوم التوضيحية ، وبعد أن كانت تلك الرسوم بدائية ركيكه ، أضفى عليها بيكار لمسة الفن والإبداع ، وليس خافياً ما تأكد لدى علماء التربية من أن الجانب الفنى فى كتب الأطفال هو جانب مثير لخيال الطفل، إذ يجسد له من خلال الرسوم المادة العلمية التى عادة ما تتصف بالجفاف ، فتسبب نفور الطفل وعدم تقبله لها ، كما أن تلك الرسوم فى تجسيدها للقصص وحكايات الأطفال ، وما تحتوى عليه من شخصيات خرافية ، فإنها تساعد الطفل على تنمية مداركه ومعارفه ، وهى فى أحيان كثيرة تملك تأثيراً أكبر من النص المكتوب فى إيضاح المعانى والأفكار . ذلك أن المادة المكتوبة تستدعى جهداً خاصاً لإستيعابها وتفهمها ، بينما يجد الطفل متعة فى مشاهدة الرسوم ، وسهولة فى فهمها ، لأنها تخاطب بصره وخياله فى المقام الأول.

ولقد لاحظ فناننا الكبير أن الرسوم التوضيحية ينظر إليها على أنها نوع من الفن المنقوص لإرتباطه الحتمى بالنص ، ولكنه لم يلق بالاً إلى تلك الفكرة الخاطئة ، فأولئك الذين يستعملون تعبير الرسام التوضيحى لإهانة الفنان والانتقاص من شأن عمله ، عليهم أن يتذكروا أن الفن الغربى قد نشأ من تصوير الكتب ، وكذلك كان الحال فى الحضارة الإسلامية حيث لا تزال الرسوم التى أنجزها الرسام يحيى الواسطى لمقامات الحريرى خير شاهد على أن القيمة الفنية لا تنتقص حين ترتبط بنص معين كما أن الفن الأوربى الحديث حافل بنماذج من إنتاج الفنانين الكبار كانت لهم إسهاماتهم المميزة فى هذا المجال ..

وهكذا ارتاد بيكار بثقة وإيمان برسالته هذا المجال ليضع لبناته الأولى ، ولقد حور

وناقداً - أصبح وجوده مميزاً وتأثيره واضحاً على ساحة الصحافة الفنية .

العزف بالألوان

فى عام ١٩٢٨ كان بيكار ضمن أول مجموعة تلتحق بمدرسة الفنون الجميلة العليا بعد انضمامها إلى وزارة المعارف العمومية فى نفس العام ، وقد تخرج منها عام ١٩٣٣ متفوقاً على أقرانه ، مبشراً بموهبة فنية واعدة . وكان للفنان أحمد صبرى أحد جيل رواد الفن المصرى (١٨٨٩ - ١٩٥٥) عظيم الأثر على فناننا الذى يعد خليفته وتلميذه النجيب . واستمر هذا التأثير واضحاً فى أعماله لفترة طويلة قبل أن يستطيع الإفلات من سحر أسلوبه . ومن لوحات أحمد صبرى الشهيرة لوحة عازف العود - التى صور فيها تلميذه فى صدر شبابه منحنياً على عوده . ولقد كان يجمع الأستاذ والتلميذ حب الموسيقى ، فأحمد صبرى كان يتمتع بموهبة غنائية وله صوت رخيم وانعكس ذلك على فنه فزاده عذوبة وتألقاً ، كما كان بيكار عازفاً يمتلك رهافة الإحساس بالنغم واللحن الشجى ، وهو عازف ماهر على العود وعلى الطنبور وعلى آلة البزق وهى آلة قريبة الشبه من العود ، يستخرج منها بيكار بحساسيته ألحاناً غاية فى الرقة .

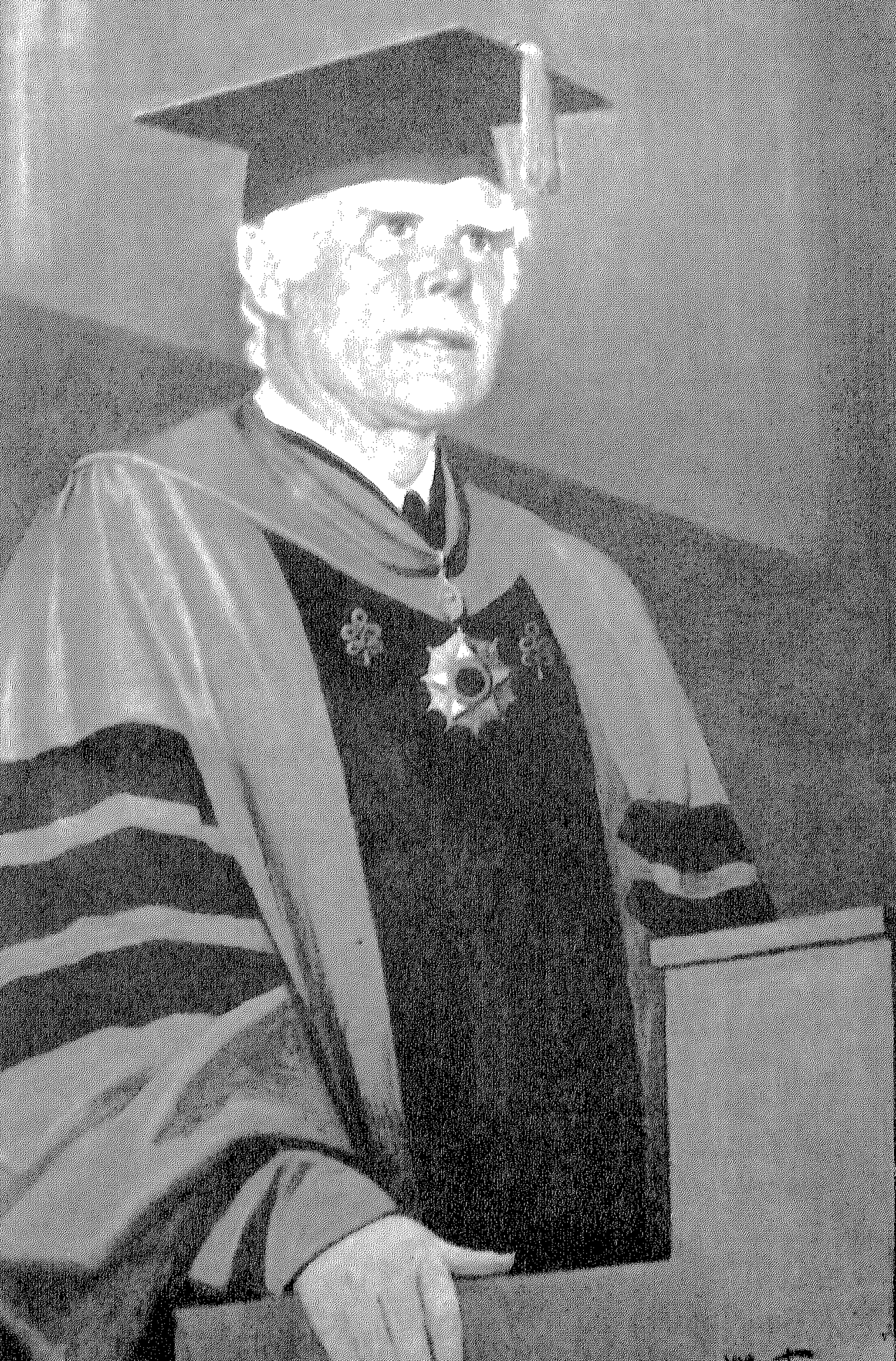
ولقد تنوع إنتاج بيكار الفنى ، فهو بعد أن تخلص من الشكل الأكاديمى الرصين لأستاذه ، متأثراً فى ذلك بقدرته

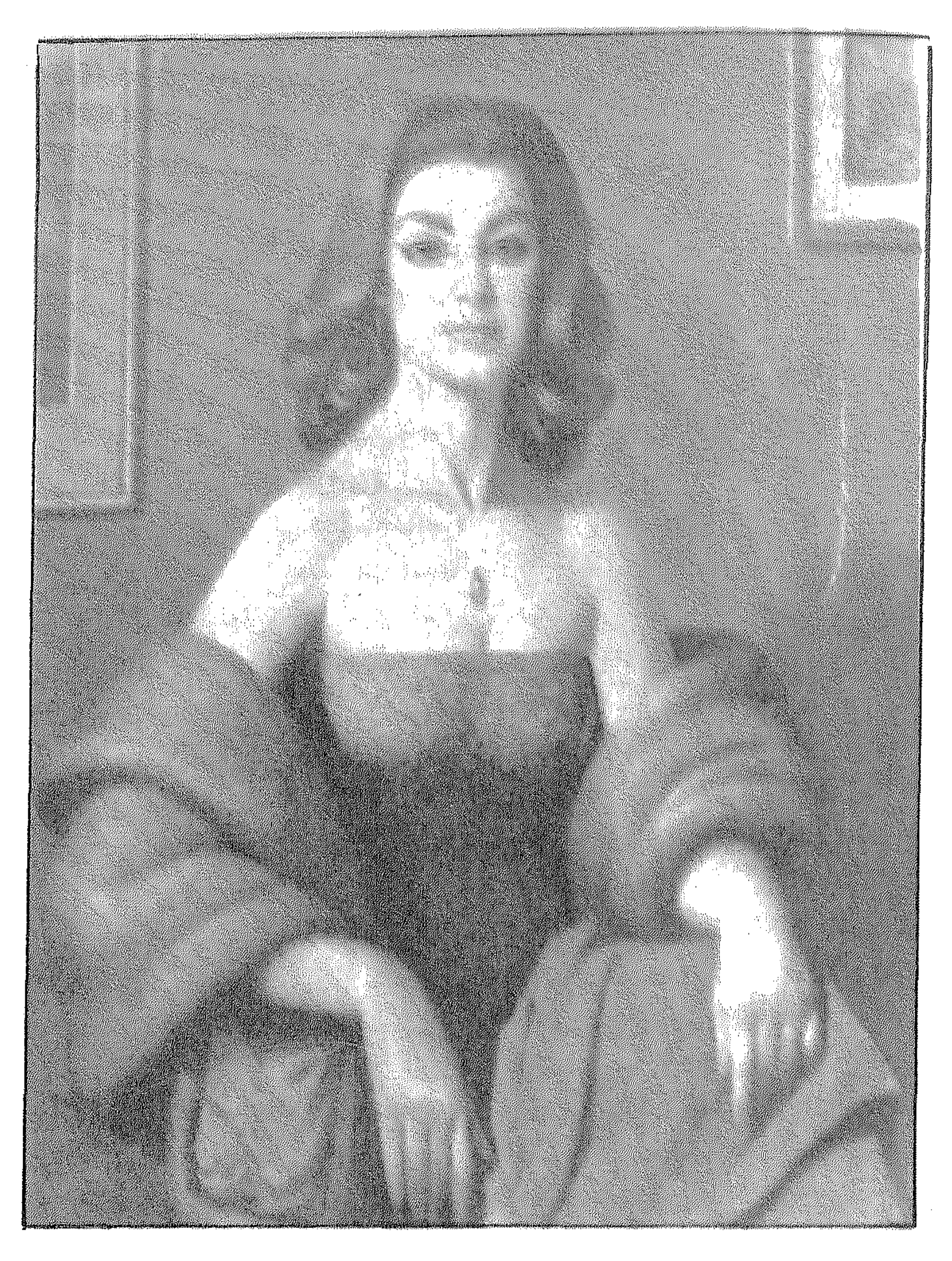


● صورة شخصية للفنان بيكار البساطة والتلخيص ..

فى أسلوبه الفنى ، وجعله أكثر بساطة واعتماداً على الخط حتى يتلاءم مع ذوق الطفل ومستوى إدراكه .

وكان حماس بيكار لأهمية إرتباط الفنان بالمجتمع ، والدور الذى يمكن أن يؤديه لتطوير الحياة الثقافية دافعاً له لكى يستقيل من منصبه كأستاذ ورئيس لقسم التصوير بكلية الفنون الجميلة .. ومنذ عام ١٩٥٩ - ومن خلال عمله الجديد فى دار أخبار اليوم رساماً وكاتباً





● صورة شخصية لسيدة (بورتريه) للفنان حسين بيكار

● صورة شخصية (بورتريه) لمدير الجامعة الامريكية بالقاهرة

على التواصل مع الاتجاهات الفنية الحديثة التى توالت على الفن المعاصر ، وكان لها صداها المؤثر فى مصر ، وتمثلت فى الجماعات الفنية المختلفة التى أثارت صخباً واسع النطاق بين المثقفين مثل جماعة الفن والحرية وجماعة الفن المعاصر وغيرهما ، وربما لا يعرف الكثيرون أن بيكار كان من أوائل الذين قدموا تجارب مفرقة فى التجريد ، وهى محاولات لم يقتنع الفنان نفسه بها فسرعان ما أهملها . وإن كان قد لجأ إلى تبسيط عناصره تبسيطاً شديداً ، وعدّل فى تسبها واختصر تفاصيلها ، وفى أحيان أخرى أدخل على أشكاله المختزلة عناصر رمزية أضفت عليها مسحة صدفية وقربتها من عوالم ميتافيزيقية مدحية . وقد أبدع بيكار تحويراً فنياً أصبح سمة على فنه ، وملمحاً من ملامح شخصيته التى جذبت بسلاستها ورقتها مريدين عديدين .

ومع هذا التنوع فى الاتجاه ، والتنقل بين المدارس ، فإن اتجاه بيكار المميز الذى يضع فيه خلاصة فنه ، ويبدعه بهوى حقيقى ، هو ذلك الإنتاج الذى يعتمد على أسس واقعية ، يستخلص منها الفنان بحساسيته الفائقة أنغاماً لونيه وتشكيلية ، ويستعرض فيها مهارته وحذقاً وأستاذية قل أن يمتلك مثلها الكثيرون .

فن (البورتريه)

بدأ ظهور هذا الفن فى مصر مع قدوم الحملة الفرنسية ، حين قام المصورون المصاحبون لها برسم لوحات لوجوه علية القوم والمشايخ ، وكان رسمهم التسجيلى الذى يهتم بإبراز التفاصيل الدقيقة وتجسيمها سبباً من أسباب انبهار المصريين بهذا الفن الذى يحاكى الواقع فتبدو اللوحة وكأنها ستنطق من فرط محاكاة الواقع . وتخطى المجتمع المصرى حينذاك الحاجز الدينى الذى كان يمنع تصوير الكائنات الحية ، وما لبث الفن الجديد أن انتشر رويداً رويداً حين أكده الفنانون الأجانب المقيمون فى مصر الذين سبقوا ميلاد الفن المصرى الحديث .. وعلى أيدى جيل الرواد تأكدت شعبية هذا الفن وأهميته ، وأسبغ عليه الرعيل الأول طابعهم المصرى والروح المحلية ، فكانت إسهامات محمود سعيد ومحمد ناجى ، وكان هناك أيضاً محمد حسن بقدرته الأكاديمية العالية ، ثم أحمد صبرى الذى كان بحق أستاذاً فى هذا الفن ، ومن منا لا يعرف صورته الرائعة للراهبة وهى من روائع الفن المصرى الحديث . وقد قدم هؤلاء جميعاً نموذجاً لا يقل - روعة وجمالاً وحساسية وقدرة على التعبير عن الوجوه التى رسموها - عن أمثالهم من الفنانين الأوربيين .

وجاء حسين بيكار من فنانى الجيل الثانى فبزغ نجمه وتألق فى هذا الفن ، واستطاع أن يحذو حذو أستاذه أحمد صبرى فى روعة أدائه ونعومته ،



من أعمال بيكار عن دور المرأة فى المجتمع ...

وأصبحت له مدرسته فى هذا الفن التى تؤكد على إبراز سمات العقل والجمال الوقور المنبعث من الوجوه ، مع التسجيل الذكى للملامح فى اختصار بليغ للتفاصيل ، والوضعات الرصينة للنموذج واستقرارها وشموخها .

موضوعية الناقد

كانت وما زالت كتابات بيكار فى نقد الفنون التشكيلية فى ركنه الأسبوعى بجريدة الأخبار (ألوان وظلال) هادياً ومرشداً للقارئ العادى الذى يسعى نحو تنمية تذوقه للفنون التشكيلية ، كما كانت فى نفس الوقت مثار انتباه وموضع تقدير جموع الفنانين الذين يبحثون لهم عن نصير فى الصحف اليومية يقدمهم للجمهور العريض ، ويقرب أعمالهم للمتذوقين ، ويعرضهم فى قاعات العرض الخالية .

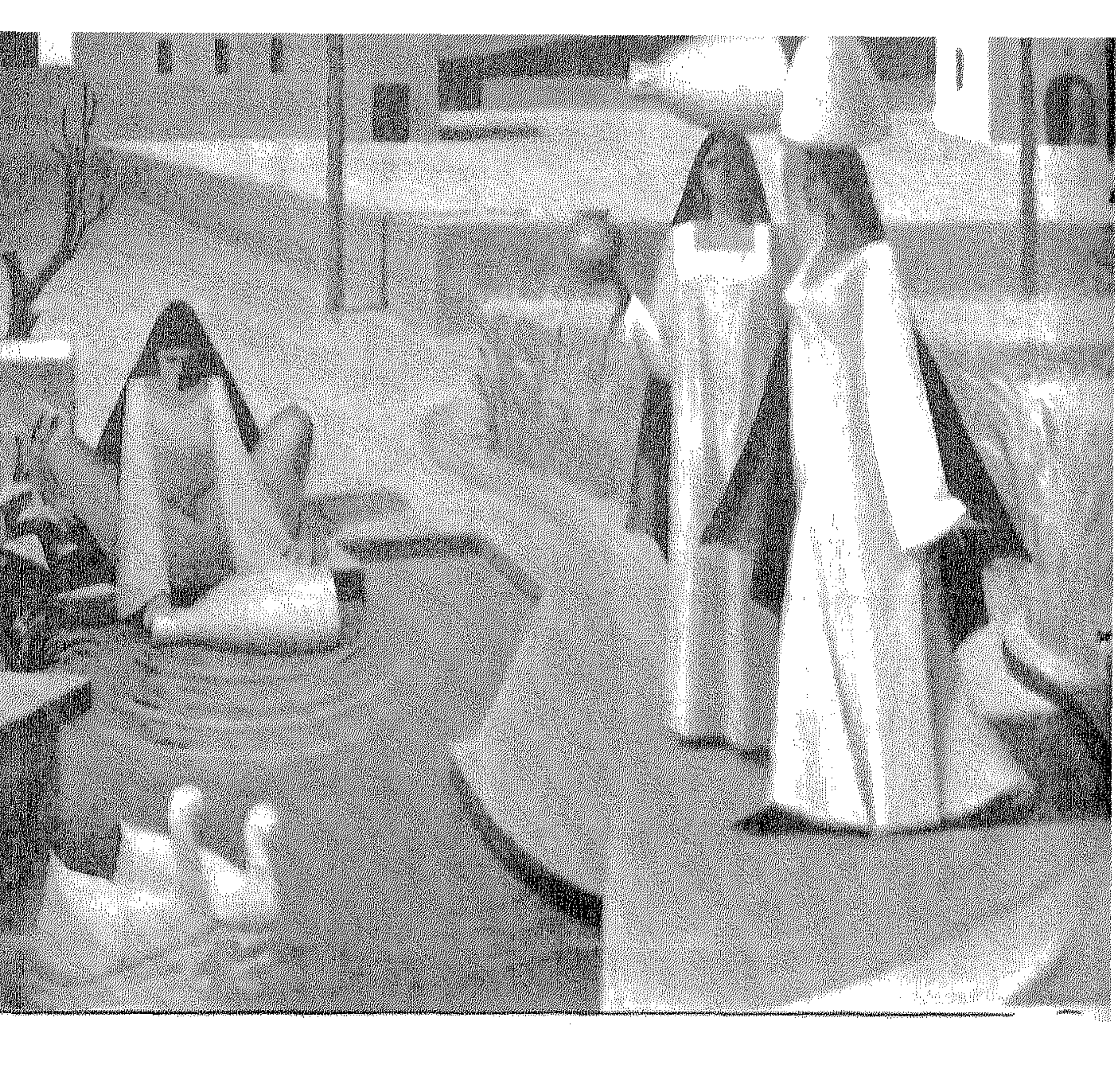
وخلال عشرات السنين كان لبيكار سبق اكتشاف النجوم ، والأخذ بيد المبتدئين من شباب الفنانين ، وكانت كلماته محل جدال ونقاش واسع النطاق فى دوائر الفنانين ، وهو بهذا الدور - الذى خلع فيه رداء الفنان وارتدى قناع الناقد - قد أنار منطقة مظلمة من حياتنا الثقافية قبل أن يطرقها الكثيرون . وكانت موضوعية ونزاهة أحكامه موضع تقدير الجميع ، فمهما اختلفت حول بعض أرائه فى الفن ، إلا أنه لن يخفى عليك أن تلك الآراء لا تصدر عن هوى ، فهو

يعتلى منصة النقد بضمير القاضى النزيه وروح المعلم الأستاذ .

وحين حاورته ذات يوم فى خطورة تشجيعه لبعض المبتدئين الذين ما زالوا فى رأيى يفتقدون إلى مقومات الفنان وضرورة تعميق خبرتهم الفنية قبل عرض أعمالهم ، وأن ذلك التشجيع يمكن أن يعود بالضرر على تكوينهم حين يندفعون إلى الإنتاج المتعجل ، فأوضح بيكار أن حركة الفن التشكيلى فى مصر ما زالت وليدة فى حاجة إلى إحتضان ورعاية وتشجيع ، وأنه ليس من أنصار النقد القاسى الذى يمكن أن يولد الإحباط والنكوص ، وأن الفنانين فى حاجة إلى الكلمة الطيبة الهادئة لأنهم فى جميع الأحوال يفتقدون إلى تقدير المجتمع ورعايته ، فهم كمن يحرثون فى البحر ، فليس أقل على الناقد من أن يزيد من جرعة حماسه فإن ذلك يؤدى بالتأكيد إلى مزيد من الإحساس بالمسئولية ويدعو الفنان - مهما كان مبتدئاً وغير مكتمل - إلى مزيد من الإتقان والإجادة .

وفى هـذه الظروف جاء نقد بيكار نقداً إرشادياً هادياً ومشجعاً ، وهو نقد إنطباعى لا يتبنى وجهة نظر نقدية صارمة ومحددة ، فهو بأسلوب ومنهج المعلم كان قادراً على تبنى عدة اتجاهات فنية متعارضة ، وتشجيع تيارات متباينة . فهو مع مفهوم التجريد والتحديث واتباع أشد الصيحات الفنية تطرفاً ، ويطلق على صاحب هذا الأسلوب وصف الطائر المحلق فى أجواء الفضاء لا تحده أرض أو تعوقه حواجز ، وهو أيضاً مع التأصيل بالاعتماد على الواقع المعاش ، واستلهام فنون التراث الفنى للبلاد عبر حضاراته المختلفة ، ويرى فى هذا التأصيل منطلقاً نحو العالمية . وربما كان ذلك الموقف الذى يحتوى كل التيارات يصدر عن قدرة بيكار الموضوعية على استيعاب كل ما هو جاد بصرف النظر عن قولبته وتحديد اتجاهه . وقد جاء نقده فى صياغة أدبية رفيعة ، فلغته العربية جزلة جميلة ، وإيقاعها مريح موزون ، ومفرداتها ذات معنى واضح مألوف ، وقل أن تجد بين كتابنا ذلك الأسلوب الرشيق إذا كنت عاشقاً لجماليات اللغة العربية وأناقة التعبير بها .

ولقد صدر لبيكار كتابان واحد عن أستاذه المصور أحمد صبرى يعد بمثابة لمسة وفاء لأستاذه ومعلمه ، والثانى عن مجموعة من الفنانين المصريين والأجانب تحت عنوان (لكل فنان قصة) وليته يجد من الوقت ما يمكنه من جمع مقالاته التى صدرت خلال السنوات العديدة الماضية وتناول فيها معارض الفنانين بالنقد والتحليل ، فتكون مرجعاً أميناً لكل من يريد أن يلمّ بتاريخ هذه الفترة الزمنية الممتدة .ومما يثير التأمل أن إنتاج بيكار فى أىّ من المجالات التى طرحها لم يؤثر بالسلب على باقى إبداعه فى



● منظر ريفى يوضح التبسيط الهندسى فى أعمال بيكار

المجالات الأخرى ، فقد ساعدته شخصيته المتوازنة على أن يستخلص من أسلوبه كمصور ما يساعده على تفهم أدق الأسرار التقنية للأعمال الفنية حين يراها ويتصدى لها كناقد ، وعلى صياغة مبسطة لكنها مقتدرة للرسوم التى أنجزها لكتب الأطفال. ومن ناحية أخرى ساعدته تلك الرسوم على تبسيط أسلوبه كمصور فزادته سلامة ونعومة ، وهو أيضاً كناقد إستطاع دائماً أن ينظر إلى نفسه فى الحالتين بموضوعية ، وأن تأتى خطواته دائماً حذرة متمهلة ، فحفظ لنفسه بذلك تلك المكانة الفريدة فى حركة الفن المصرى المعاصر كفنان وكناقد معاً .

القدس عربية

بعبق قداستها .. ورائحة حجارتها !!

بقلم : محمد هيكل

● لماذا القدس الآن ؟

هل لأنها فى القلب تفاصيل أنبياء ، وشهداء ، وهى كتاب البشر ؟

أم لأن الرسول الكريم محمد (صلى الله عليه وسلم) قال عنها : « من صلى فى بيت المقدس ، فكأنما صلى فى السماء » ؟

أم لكونها المدينة الشامخة التى قال عنها عطاء الخرسانى : « بيت المقدس ، بنته الأنبياء ، وعمرته الأنبياء ، والله ما فيه شبر إلا وسجد فيه نبى » .

أم لأنها فى الاجابة الحاسمة عند محمود درويش : « لأننى لم أتمكن من احصاء التلال التى يدخلها الزائر من جرح قديم ، كما يدخل أقبية القلب ، ولأنه لم يولد إلا من دمه ، أمن هذه الحجارة تأتى الريح ؟ ومنها أنحت القلب وأعلقه على هذه الصخرة الطائرة ، لأنسى يمينى إذا نسيتك ياأورشليم !

إذن .. ومن خلال موقف مبدئى : علينا أن ندافع عن وطن الفكرة ، وأرض العرب ، وكتاب البشر .



من هنا : أتوجه إلى القدس ، اغسل قلبى بها ، واضىء عقلى بحجر مقدس منها ، لأن حجارتها أعطت لرائحة البخور لونا ، لأنها بيت الروح .

أتوجه إلى القدس - فى هذه المرحلة العصيبة من كفاح الشعب العربى - لأبحث عن نكهة التاريخ والنار التى تحك الدم فى كتب الأولين ، وأقول مع محمود درويش : « على هذه الأرض ما يستحق الحياة ، على هذه الأرض ، أم البدايات ، أم النهايات ، كانت تسمى فلسطين ، صارت تسمى فلسطين » !

● مبادىء ثابتة

.. وهناك مبادىء ثابتة عند النظر إلى قضية القدس :

- أولا : قضية القدس يجب ألا تدرس إلا فى ضوء القضية الفلسطينية - ككل - والقضية العربية فى صراعها مع الصهيونية .

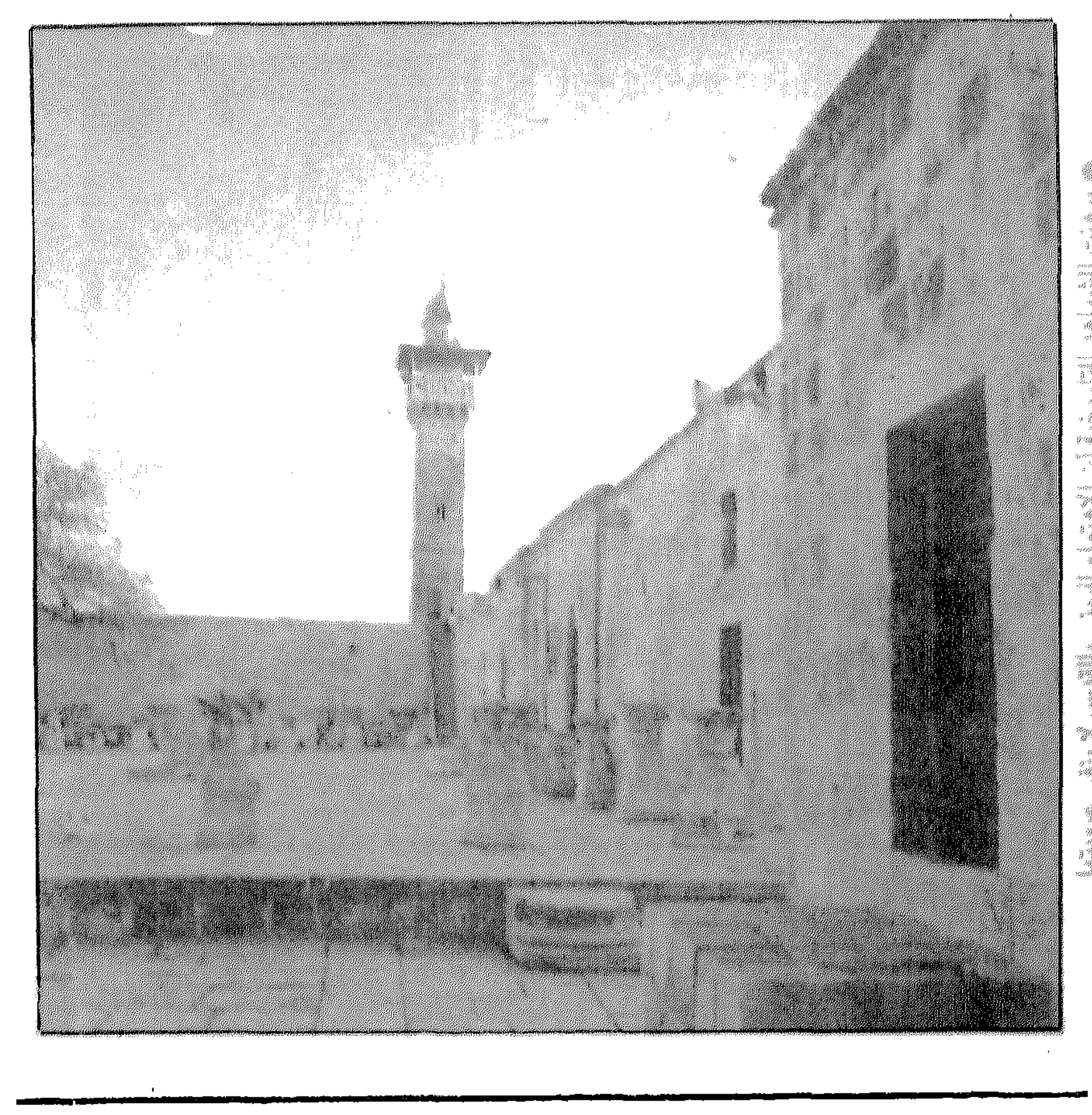
- ثانيا : إن قضية القدس ، قضية قومية وسياسية بالدرجة الأولى ، وفى اتجاهات الصهيونية نحوها بصفة خاصة .

- ثالثا : إن الاهتمام الدينى بالمدينة لا ينفى عروبتها ، كما برهنت الشواهد التاريخية على ذلك .

- رابعا : كما أن الاهتمام الدينى بالمدينة لا يتناقض مع عروبتها ، أسوة بأى مدينة أخرى فى فلسطين أو خارجها .

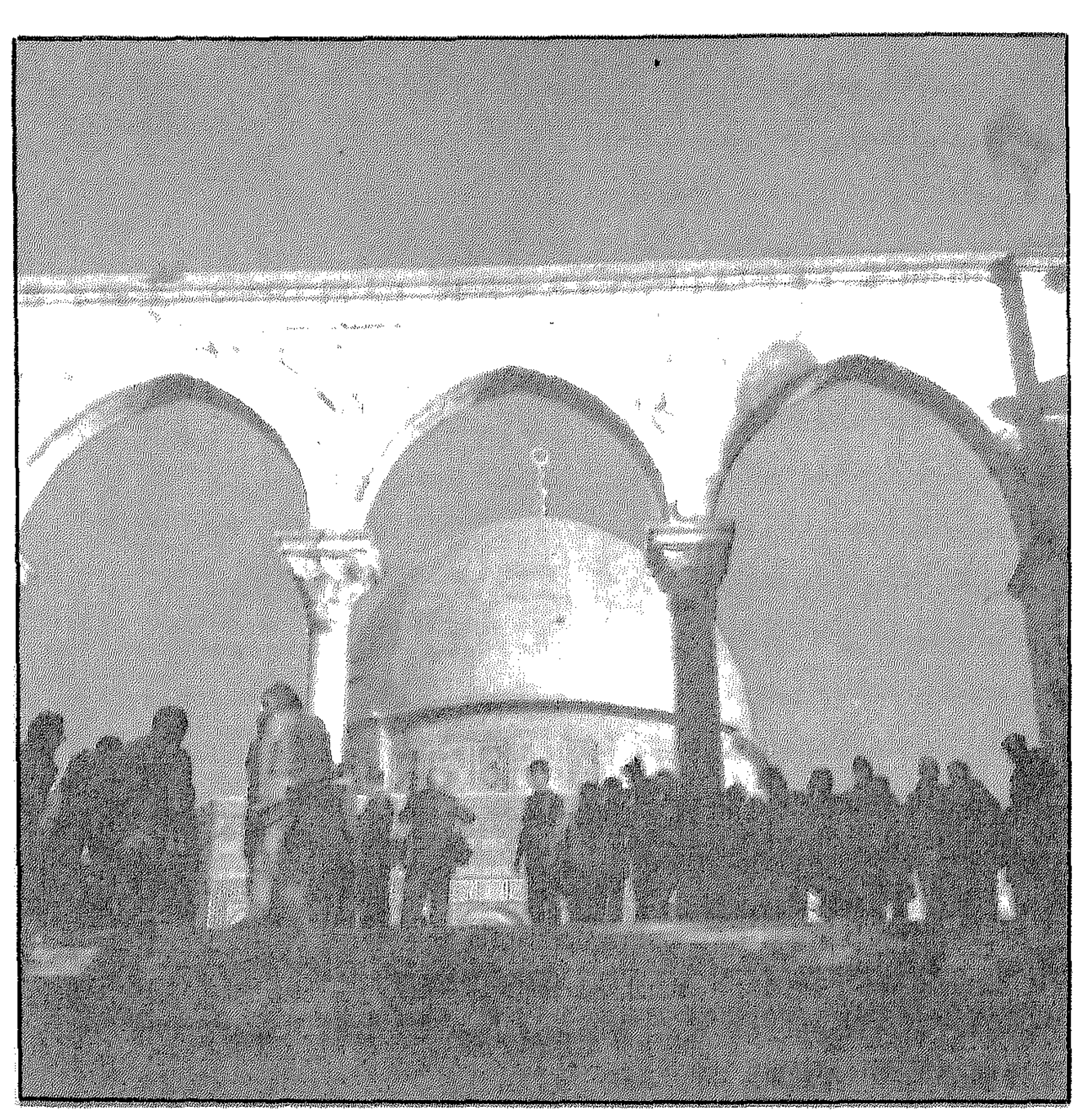
- خامسا : إن الحفاظ على المدينة المقدسة وآثارها الدينية يلتقى - دوما - مع عروبتها .

وإذا كان الإسلام - على وجه الخصوص - يخطب من القدس عروسا - كما يقول عماد الدين الكاتب الأصفهانى - ويبذل لها فى المهر عروسا ، ويهدى بشرا ليذهب عبوسا ، ويسمع صرخة الصخرة المستدعية المستعدية لاعدائها على اعدائها وإجابة دعائها ، وتلبية ندائها ، وإطلاع زهر المصابيح فى سمائها ، وإعادة الإيمان الغريب منها إلى وطنه ، ورده إلى سكونه وسكنه ، وإقصاء الذين أقصاهم بلعنته من الأقصى ، وجذب قياد فتحه الذى استعصى .



لذلك .. فقد ميزت هذه المكانة المقدسة القـدس ، من دون مـدن فلسطين الأخـرى العزيزة هى أيضا ، وبقدر مساو على قلب كل عـربى ، وإن كـان افـراد مـسـألتـهـا وتحويلها إلى قضية شبه قائمة بذاتها ، لم يكن من فعلهم هم ، بل كان نتيجة الاطماع الأجنبية .

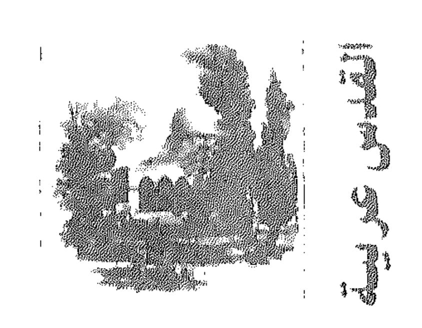
ونود التأكيد على أن القدس لا تنفصل عن بقية فلسطين ، وسائر مدنها وقراها وبقـاعـهـا ، فى أحـلامـهـا وذكـرياتهـا وأشجانها ، وتطلع البشرية إلى مقدساتها، سواء كانت طبرية التى ألقى السيد المسيح بعظاته حـول قـراها ، أو الناصـرة التى انتسب إليها ، أو بيت لحم التى ولد بها .



القدس ، مدينة شجية بتاريخها ، صافية بإيحاءاتها

ومع تفرد القدس التى أصبحت على مر الأجيال مقدسة بترابها ، شجية بتاريخها ، صافية بإيحاءاتها ، فريدة بما يرقد فى ترابها من عظام القديسين والأحبار والشهداء ، ومع ذلك فهى وطن العرب ، شاركت فى صنع التاريخ العربى، لذلك فهى مدينة عربية صميمة ، سواء من ناحية اللغة ، أو السكان ، أو الأرض .

والثابت قبل أربعة آلاف سنة أو يزيد حتى نهاية العام ١٩١٨ - كما يقول د . عز الدين فودة - أن فلسطين كانت بمثابة القنطرة التى تربط بلاد العرب وسوريا من جهة ، ومصر والعراق من جهة أخرى ، ولم تقم على مر التاريخ ككيان منفصل ، أو



كإقليم سياسى له إدارته أو شئونه الخاصة ، إنما كانت جزءا من ديار الشام ، وهى المنطقة التى تحددها مراجع التاريخ العربى .

ويقول مؤرخ الشام الحافظ شمس الدين الذهبى وفقا لما جاء فى كتاب « مثير الغرام بفضائل القدس والشام للعلامة ابن سرور المقدسى الشافعى » أعلم أن حدود الشام أربعة ، فحده من الغرب البحر المالح، وعلى ساحله مدائن عدة ، وحده من، الجنوب رمل مصر والعريش ، ثم تيه بنى اسرائيل وطور سيناء وتبوك ودومة الجندل، وحده من الشرق بعد دومة الجندل برية السماوة وهى كبيرة ممتدة من العراق ينزلها عرب الشام ، فيما يلى الشرق - أيضا - الفرات ، فيخوض إلى بلاد الجزيرة ، فطوله من العريش إلى الفرات عشرون يوما أو أكثر .

● القدس فى التاريخ

وقد عرفت القدس فى بدء نشأتها باسمها القديم « يبوس » نسبة إلى اليبوسيين ، من بطون العرب الاوائل الذين نشأوا فى صميم الجزيرة العربية ثم نزحوا منها مع من نزح من القبائل الكنعانية حوالى ٢٥٠٠ ق . م أو يزيد ، واحتلوا التلال المرتفعة للمدينة القديمة ، وشيدوا على أكمتها الجنوبية « جبل صهيون » برجا لحمايتها والدفاع عنها ضد العبرانيين وغيرهم من القبائل المغيرة بقيادة ملكهم « سالم اليبوسى » الذى زاد فى بناياتها وأقام تحصيناتها ، وكان أول من ذكر أسمه من ملوك اليبوسيين « مليك صادق » الذى استقبل ابا الأنبياء ابراهيم ، وقدم له الخبز والنبيذ ، وعرف عنه أنه كان محبا للسلام ، حتى أطلق عليه « ملك السلام » .. ومن هنا جاء اسم المدينة « سالم » أو « شالم » ومن ثم عرفت المدينة باسمها الكنعانى « أورسالم » أو مدينة السلام كما ذكرت كتب العهد القديم اسمها « اورشاليم » وهو الاسم الذى ما يزال يطلق عليها من قبل اليهود والاجانب .

والثابت تاريخيا : أنه عندما تفككت وحدة اليبوسيين ، وراح العبرانيون فى غزوهم ، لجأ ملوك اليبوس إلى سياسة توازن القوى بالتحالف مع ملوك الكنعانيين المجاورين ، وفراعنة مصر الذين كانوا عونا لهم ، وتشير ألواح « تل العمارنة » إلى أن « عبد حيبا » حاكم يبوس قد وضع نفسه تحت حماية فرعون من غارات

العبرانيين « الغرباء » .. وقد خضعت يبوس لفراعنة مصر منذ عهد تحتمس الثالث ، وأقام عليها حاكما من مصر عام ١٤٧٩ ق . م .. ومن الفراعنة الذين كانت لهم جولات فى هذا السبيل :

- أمنوحتب الثالث ١٤١٣ ق . م .

- إخناتون والتى أصبحت يبوس أهم ممتلكاته ١٣٧٥ ق . م

- توت عنخ أمون ١٣٥١ ق . م

- سيتى الأول ١٣١٤ ق . م .

- رمسيس الثانى الذى أدخلها فى حدود مصر أثر معاهدة قادش ١٢٩٢ق .م

وعندما زحف اليهود على يبوس إثر خروجهم من مصر بقيادة يهوذا واشعلوا فيها النيران ، كان سكانها ومعظم أهالى القرى المحيطة بها من أصل كنعانى ، وكانت اللغة السائدة « الكنعانية » إلى جانب « البابلية » التى كانت اللغة الرسمية للدبلوماسية والعلاقات الدولية حينذاك ببلاد الشرق الأوسط (!!) .

وقد اضطر اليهود إلى اخلاء يبوس تحت مقاومة اليبوسيين ، ولكنهم عادوا واحتلوها مرة ثانية بقيادة داوود الذى أحبها وجعلها عاصمة لملكه بدلاً من حبرون « الخليل » واطلق عليها اسمها الكنعانى « اور سالم » أو « اورشليم » غير أن اليهود لم يستطيعوا الاستمرار فى الاحتفاظ بوحدتهم ، فانقسموا على أنفسهم بعد وفاة سليمان ، وقامت دولتا « اسرائيل » فى نابلس ، « واليهودية » فى أورشليم .

واجتاحت فلسطين بعد ذلك موجات من الغزو استمرت حتى الفتح العربى لها ، ووقعت البلاد خلالها فى قبضة البابليين ، والاشوريين ، والفرس ، واليونان ، والرومان .

وفى فجر هذه الغزوات ، جاءت غزوة

« نبوخذ نصر » الذى دمر هيكل سليمان ، وسبى اليهود إلى بابل ، وأصبحت القدس مستعمرة بابلية بعدها تغلب « كورش » ملك الفرس على البابليين فأخذوا فى التهيؤ لغزو مصر واستعانوا بيهود السبى فى بابل للتعرف على مسالك البلدان ثم سمحوا لهم بالعودة إلى اورشليم ، وأتاحوا لهم فى عهد « دارا » بناء السور والهيكل من جديد . !

ثم جاءت غزوة الاسكندر المقدونى عام ٣٣٢ ق . م ، فترك اليهود على حالهم ، وسار مسيرته خلفاؤه من البطالسة ، ثم جاء الرومان بقيادة بومبى عام ٦٣ ق . م فألفى مجمع اليهود ، وهدم السور ، وفرض عليهم كل يوم ذبيحة أمام الهيكل تكريما للقيصر ، حتى جاء هدريانوس ١١٧ - ١٣٨ ميلادية الذى ضاق ذرعا باليهود ، فدمر المدينة تدميرا كاملا ، وحرث أرضها حرثا ، وطردهم ، وحطم هيكل سليمان للمرة الأخيرة ، وعلى أنقاض



● البيت العربي .. جزء لا ينفصل من مدينة القدس

المدينة القديمة ، بنى الرومان مدينة جديدة اسموها « ايليا » نسبة إلى الأمبراطور « ايليوس هدريانوس » .. وعندما تولى قسطنطين عرش الاباطرة عام ٣٣٠ م .. أصبحت ايليا مدينة بيزنطية ، وبنت أمه « هيلانه » بها كنيسة القيامة عام ٣٣٥ م .

ويرى المؤرخون أن هذه الغزوات قد تركت طابعها على حياة المجتمع القائم حينذاك ، فالبلاد أصبحت جزءا من الحضارة الارامية الهلينية والبيزنطية ، حيث كان الناس يتكلمون الارامية ، ويكتب المفكرون بالاغريقية ، ولكنها كانت الحضارة القديمة التى انبثقت عنها الحضارة العربية اللاحقة ، لهذا فإن حياة

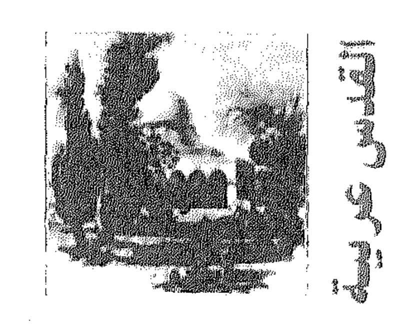


● لا تنفصل القدس عن بقية فلسطين فى أماكنها وبقاعها

الناس فى تلك البلاد لم تكن إلا امتدادا للوضع الكنعانى العربى ، بما له من خصائص ومقومات فى المناخ والتعبير ، أكثر مما اصطبغت بصبغة الفاتحين .

● الفتح الاسلامى

وفى القرن السابع الميلادى ، فكر المسلمون فى فتح القدس لأسباب متعددة : دينية واقتصادية واستراتيجية ، وبعد أن انتصر المسلمون فى معركة اليرموك ، التى مهدت لهم فتح واخراج فلسطين بأسرها من حوزة الرومان ، ولى عبيدة بن الجراح وجهه نحو « إيليا » وحاصرها ، وكان لها أن تستسلم ، فطلب أهلها الأمان ، على أن



يكون المتولى للعقد عمر بن الخطاب نفسه (!!) فكتب ابن الجراح إلى ابن الخطاب بذلك ، فقدم عمر ، ونزل الجابية من دمشق ، ثم اتجه إلى ايليا ، ودخلها ، بعد أن أبلغ بطريرك النصارى بمقدمه ، فجاء حاملا الصليب المقدس على صدره ، فقابله الخليفة عمر بمزيد من الاكبار والتكريم ، وكتب له وثيقة الأمان الشهيرة ، التى أعطى فيها عمر لأهل القدس عهدا وأمانا على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم .. وجاء فى الوثيقة :

" بسم الله الرحمن الرحيم "

« هذا ما أعطى عبد الله أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أهل ايليا من الأمان ، أعطاهم أمانا لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم ، فمن خرج منهم فهو آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم ، ومن أقام منهم فهو آمن ، وعليه مثل ما على أهل ايليا من الجزية ، فمن شاء منهم قعد ، وعليه مثل ما على أهل إيليا من الجزية ، شهد بذلك خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعبد الرحمن بن عوف ومعاوية بن أبى سفيان » .

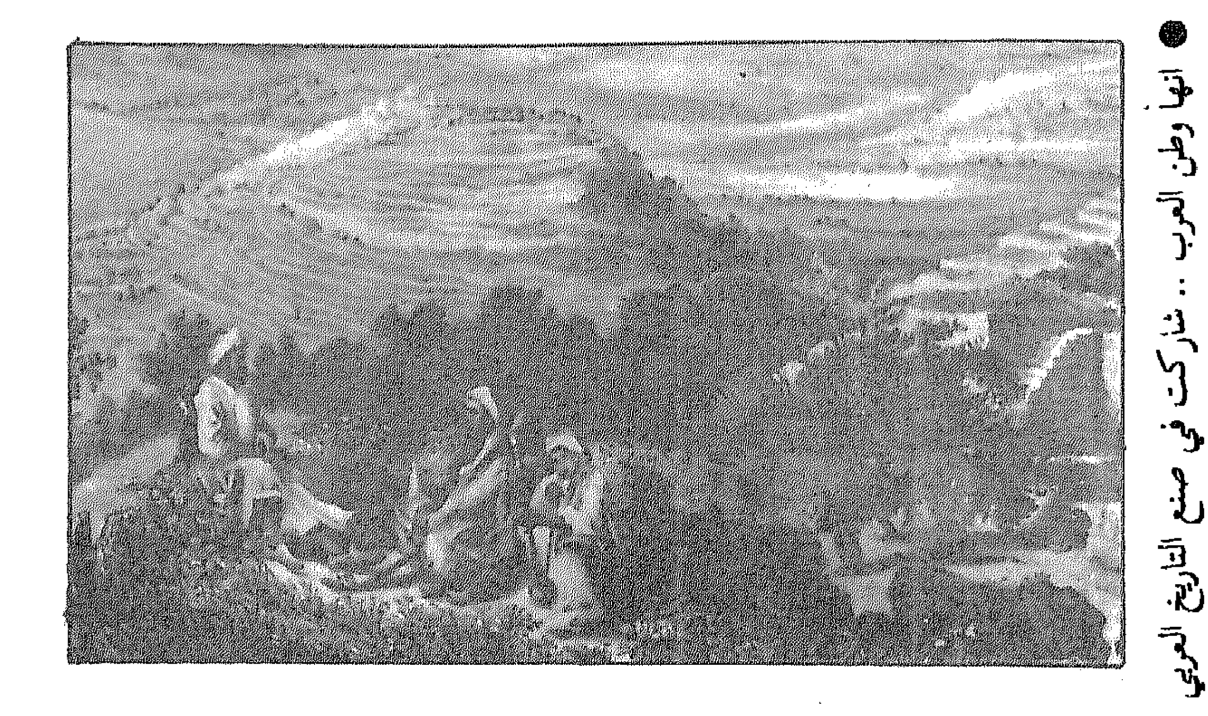
وقد أعرب أهل القدس عن رغبتهم فى ألا يساكنهم اليهود !! ، فاستجاب عمر إلى هذه الرغبة ، مما يثبت أن القدس لم تكن يهودية ، كما لم تكن فلسطين يهودية ، ولم يكن اليهود سوى طائفة قليلة الأهمية .

منذ ذلك الحين سميت القدس أو بيت المقدس ، أى البيت المقدس المطهر الذى يتطهر به من الذنوب ، ودخلت القدس كسائر المدن العربية فى نطاق الدول العربية ، والخلافة الاسلامية تحت حكم الراشدين والأمويين والعباسيين والاتراك والعثمانيين ، واستمرت المدينة المقدسة فى عروبتها ، مشتركة ومشاركة العالم العربى فى مصيره واقداره .

وبعد استيلاء العثمانيين على بيت المقدس ، بعد تغلب السلطان سليم الأول على المماليك فى معركة مرج دابق ١٥١٧ م انتقلت تبعيتها فى عهد الاتراك من ولاية إلى أخرى حتى عام ١٩١٧ ، وإن كان قد تخللها فترة حكم فرنسية وجيزة عندما غزاها نابليون ١٧٩٩ م .

وبحلول ١٩١٧ ، وبدخول الجيوش البريطانية القدس ، دخل معهم اليهود الصهيونيون متسترين بحماية ومساعدة الفاتح الجديد ، فى محاولة لاثبات تاريخ احتجب احتجابا كليا منذ آلاف السنين .

وبصدور وعد بلفور فى الثانى من نوفمبر من نفس العام « ١٩١٧ » انتقلت أوراق القضية ، نقلة كيفية ساعدها على تنفيذ المؤامرة بأحكام التآمر الدولى من خلال شعور الحلفاء بحاجتهم إلى الحركة

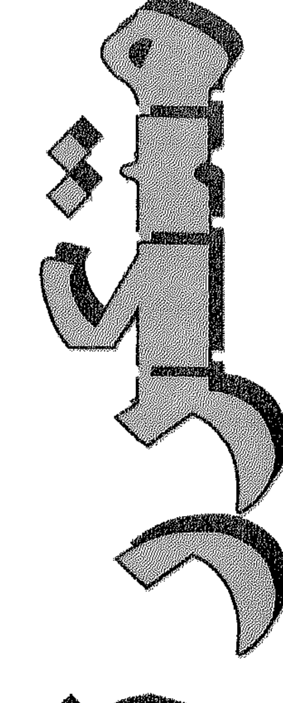


الصـــهيونية ، وبوصــول جيوش الحلفاء « انجليـز ، فـرنسـيين ، ايطاليين ، يهود » إلى القدس فى صبيحة ١١ ديسمبر ١٩١٧ وقف أمام باب الخليل « اللنبى » ليذيع على الناس بيانا أعلن فيه الأحكام العرفية لضـرورة حـربيـة ، وإن كـان قـد ذكـر أن المدينة « مـحـتـرمـة » بأديانها الثـلاثة ، وترابها مقدس فى نظر المتعبدين !

على الجانب الآخر ، لم تتوقف المقاومة الوطنية ضـد الغـزاة ، وارتبطت الحـركـة الوطنيـة الفلسطينيـة منذ هذا التـاريخ ، بالحركة الوطنية العربية فى معظم الأقطار العربية ، والتى عبرت عن نفسها من خلال النهضة الفكرية منذ أواسط القرن التاسع عشر ، والتى سرعان ما اكتسبت طابعها السـيـاسى الأمـر الذى يؤكـد ه الكاتب الليبرالى جيفريز بأن عرب فلسطين كانوا من أبرز منظمى الجـمـعـيـات الســورية السياسية ، والحركة العربية الوطنيـة عمومـا ، وعلى حـــد تعبيره : « صُنّف عرب فلسطين كبقية الشعوب الموضوعة تحت الانتداب باعتبارهم ليسوا بقادرين على أن يقفوا وحـدهم فى ظروف العالم الحديث الفوار بالنشاط » !

.. ومازالت المدينـــة المقـــدسة التى صمدت على مدى ثلاثة آلاف عام فى وجه التـيـارات الغـربيـة ، والقـوات المعـادية ، صـامـدة فى وجه العـدوان الاسـرائيلى ، تدافع عن ترابها العربى بحجارتها ، وعن مقدساتها الدينية بأظافرها ، مادام بها أمهات تلـد الأمـل والحــلم المعقـود على التحرير ، وما دام بالقــدس مطر وأجراس وشـمـوع تنير ظلمـة الحـتلال ، لينقشع ، مـادام هنـــاك فـجر طـــالع على الأرض المقدسة ، لأن بها ما يستحق الحياة .





قصيدة : إدوار الخراط

كان فريد الأطرش
ينوح بشجنه المصنوع
على شاشة التليفزيون .
وكنت محموما أخوض
غمار هذيان شتوى عنيد .
شفتا المطرب الذى
مات من زمان مازالتا
شفرتين لا لحم فيهما
وتسيلان بميوعة عذبة ،
وهو يخرج لنا أحشاء قلبه
المفرغ فى دوزنة العود
وشجى الكمنجة المتهافت .
أحبابنا ياعين
راحوا وفاتونا
كنت أراه ، أحيانا
نادرة جدا ، أحييه فى
السلم النظيف الهادىء ،
فى بيت شارع فرنسا ،
إو يدخل ليسلم وأنا عند
صديقى أنطوان وأختيه
أوديت وأرليت شكر الله .
كانت رائحة الطبيخ
الشامى – الكبيبة أو كباب
الحلة أو الحمص
بالطحينة – تفوح منه ،
ومن البيت كله ، رغم
الكولونيا الثقيلة ،
والبريانتين اللامع وأناقة
الكرافته المعقودة على
سنْجة عشرة والحفلطة
العمومية التى تشى
بشياكة موظفين على قد
حالهم ، فى شركات مثل
كوبانية النور ليبون أو
شركة الملح والصودا . هم
دونچوانات قشرة عِيرة ،
ليس فى دخيلتهم إلا
حِسبة القرش والمليم ،
نقداً وعاطفة على السواء .
لعب البوكر حتى الصباح
ليلة السبت ، الرقص مع
البنت – أى بنت – فى
النادى اليونانى – وليس
فى النادى السورى – أو
كازينو الأمبسادير .
خرج إلىَّ چورچ من
الشاشة المهتزة بخطوط
النور الملونة .
هل كان اسمه چورچ ،
هنرى ، چوزيف ، أم
ماذا ؟
بعد أربعين سنة ،
كان معى ، يغنّى ،
الخالق الناطق فريد
الأطرش ، قامته
القصيرة ، والبنطلون
الواسع أبو حمالات
المشحوط عاليا على
وسطه المتلىء ، جاكتته
الضيقة ، والنظرة الرازحة

بحسابات حسية .

وخرجت معه أوديت ، بعد أربعين عاما .

كأننى رجعت إلى بعد ظُهْريات الشتاء المتأخرة ، أصحو من وخم النومة الدافئة فى بيت شارع ابن زهر ، وأنزل - كما أنزل كل يوم تقريبا - آخذ ترام راغب باشا الذى يتهادى لامعا ونصف فارغ لغاية المنشية ، ثم أمشى محاذرا أن يُترَب حذائى المصقول بالورنيش بعناية، مازالت له رائحة خفيفة ، وانسرب فى الشوارع الجانبية الواسعة ، بعد شركة بيع المصنوعات وقبل زنقة الستات بالضبط ، حتى مدخل البيت الذى أجده منيرا بلمبة كبيرة خافتة ، والزرع اليانع على ناصيتى السلم فى الفسحة الواسعة ، كبير الورق فى أصص نحاسية تنعكس على صفرتها الزاهية بإشعاعات نور السلم .

أوديت تفتح لى الباب، هى التى تفتح دائما تقريبا ، كأنها تعرف وقع خطاى على الدرج ، أو تنتظرنى فى هذا الموعد بالذات . تعطينى يدها الصغيرة الحاذقة الأصابع ، وتضغط على يدى بنصف ابتسامة فى عينيها الصغيرتين الحادتين ، فقط . هذا كل التواطؤ الذى بيننا ، دون افصاح .

كان جورج ، أذن (سوف أسميه جورج) عندما يدخل ينظر الىَّ نظرة متآمر ساكتة . كأنه يقول : نحن نفهم أحدنا الآخر ، أليس كذلك ؟

ما أقل حصاد الحسابات الحسية الذى جنيته من كل هذه الحكاية ، مع ذلك .

وما كان أكثر التحوط والعناية بألا أتورط .

لقاءات ، فى سياق أفلام چان كوكتو وچان ماريه ، فى عتمة سينما فؤاد ، يدى على حجرها . أو الشاى فى حديقة التريانون الصغير أو كأس نبيذ أبيض فى برج الاسكارابيه الذى تحول الآن إلى برج السرايا ، على حافة غواية البحر الزرقاء الضاربة ، وهى ساجية تومض فى آخر الظهر .

فقط .

لم أعرف أبدا طعم الشفتين الحساستين الرقيقتين والفم الذى لم يقل لى أبدا كلمة حب .

لم أعدها قط بشىء من ناحيتى ، ولم ألَح ، حتى ، إلى أكثر من هذه الصداقة الغريبة التى لا هى غرامية ولا هى بريئة تماما ، والتى كنا نداريها ونساتر بها ، مع ذلك .

حبيب العمر حبيتك
وضيعت معاك عمرى

ما وجهك ؟ من أنت ؟

تنهضين من القبر ، قبر الذاكرة أم القبر الأم الرءوم النهمة إلى ثوى كل أبنائها وبناتها فى حضنها الرطيب ؟

رأسها الدقيق مهدل الجلد قليلا ملىء

بالغضون ، رأس خفاش، مدور بعينين لا يغمض جفناهما أبدا .

أما جسمها الذى لم أعرف طلاوته قط فهو الآن بين ساقى ، ناعما ، ناتىء الثديين ، صلب المكسر . عشتار الاسكندرانية رخامية القوام قد غرزت فمها تحت جلدى ، تمتص دمى.

أضرب فى التيه والهذاء ، أكثر من أربعين خمسين سنة ، تقفين إلى سريرى الآن ، لا تتكلمين، وغناء المطرب الجار الموظف الشامى يلفنى بطواياه ، مازال يرثى ضياع العمر .

أنت الآن معى ، فى سوق الطويلة ، بين ضجيج بيروت ونداءاتها . فجأة أجد نفسى أمام هذه السيدة التى تجعد وجهها ، ضربته الأيام ، انحنت القامة المشوقة ، الرشاقة أصبحت جفافا ، لم يعد من أثر فى ملابسها أى أثر لصناعة الأناقة التي كانت – ولعلها مازالت – تكسب منها عيشها ، حروف كتابة لم تكتمل قط ، بالابرة والخيط ومكنة سنجر التي طالما سمعت وشيشها الرتيب فى بيت المنشية الصغيرة .

عيناها مسددتان الىّ ، بلا صوت ، بلا كلمة .

أقف ، جامدا غير قادر على حركة أو على صوت ، فى زحمة الناس، صريع نظرة متّهِمة خرساء . مطوح بى فى بيداء موحشة ، من ألم الخذلان .

مازالت معى ، نفسها قوى على وجهى . حضورها مدمرٌ ، وهى على رأس سريرى ، لا تتكلم ، ولا تنصرف . وجهها شبكة من الخطوط الدقيقة ، فمها كأنه قد أغلق إلى الأبد ، وسقط ، وكانت الوطاويط ترفّ حواليها ، تعلو وتنساب وتنقض بسرعة خاطفة ، تهفّ علىّ قريبة أسمع احتكاك جناحيها ، وتخفى . ·

وجدت العَرقَ يتفصد باردا ، وقلبى ينطبق .

لم أطلق الرقاد ، نهضت والغثيان يأخذ بخناقى ، ويرتفع فى حلقى . أحسست الدم بطيئا فى جسمى كله ، لا يكاد ينبض . أجاهد القىء الذى لا يجىء .

الهواجس القديمة الماثلة أنا فريستها طيعة ومضحاة .

صرختى بالليل أسمعها أنا وحدى . أسمعها . مازلت أسمعها تملأ سمائى الليلية المطبقة .

مركب الفجر مشدود الشراع ، واقف على ثَبَج الموج ، ينشد مرساه بلا وصول . أين نقطة انبثاق الشمس من حد سكين الأفق المسنون ، ملبداً بالاحمرار .

أتعثر وأقع بين حجارة مرمية حوالى على فراشى الذى تندى بأشواقى غير المروية

إثم
متكرر
قديم

أحلام قديمة مكسورة الكتابات عليها قد أمحت .

أريد أن أطلقها أن أطلق هذه الصرخة في الليل الصرخة الطويلة الممتدة حتى الآخر عالية حتى أطباق السماء العلى أطلقها بلا حساب ولا تحوط بلا انتهاء أعلى وأطول ما تكون صرخة بلا قيود ، لا تنتهى ، ملء الحلق ملء الصدر ملء الوجود الساقط تحتها أنقاضا .

أعرف أنني لو أطلقتها ، لو أنها دوت بالفعل في الليل ، لو سمحت لأحد - أي أحد - غيري أن يسمعها ، فلن تتوقف أبدا ، سترتفع كالسيل ، صرختي في الليل ، وتأخذ معها كل الحواجز والضوابط والسدود سوف أفقد فيها كل شيء وسوف أترك عندها كل شيء سوف أضرب بجناحي نسر مكسور في فجر حرية الجنون التي بلا كِبَاح .

احبسها اذن أكتم نارها . سد أذنيك عنها .

راقصة مشهورة تملك طائرة خاصة ، اعتادت أن تذهب إلى باريس لليلة واحدة تزور خلالها الكوافير لعمل بديكير ، ومانيكير .

عندما وصلت إلى مطار النزهة باسكندرية نصف ساعة قبل الموعد ، لم أجد أحدا ، لا موظف من شركة الطيران ، لاطائرة ، لا أحد . جاء جندى حراسة : «الطيران اتلغى يابيه ! » . ثم جاء أفندى يرتدى شبشبا زنوبية : « اجراءات أمن لمدة أسبوع بس ! » .

وتم القبض على محمد المهدى عيسى نصر ٣٨ سنة وهو يعرض ابنه محمود المهدى ٣ سنوات للبيع مقابل ٢٠ ألف جنيه .

وقضت محكمة بولاق الدكرور بحبس سالى طالب الطب الذى تحول إلى فتاة ، هى وزوجها بالحبس شهرا مع الشغل لاعتدائهما على جارهما بالضرب .

رفع عدد من مودعى شركة والى لتوظيف الأموال دعوى قضائية على وزير الداخلية ومأمور قسم العجوزة بتهمة تسهيل هروب صاحب الشركة اللواء والى ، إلى خارج البلاد . كان اللواء قد استولى فقط على ٤ ملايين دولار من ٣٠٠ مودع حرروا ثلاثمائة محضر شيك بدون رصيد في نيابة العجوزة .

قوات الأمن بالدقهلية ألقت القبض على ٦٦٠٥ من الهاربين من تنفيذ الأحكام ، منهم جنايات ٣٨٢٠ ، فقط في بحيرة المنزلة .

وتوفى يوم ١٧ أبريل ١٩٩١ فى باريس رجل الأعمال عبد اللطيف أبو رجيلة زوج السيدة

زيليندا اسكولاتش بايطاليا وحفيد المرحومين متولى أبو رجيلة وحسان باشا عبد المنعم .

وأمرت نيابة الجمالية بإحالة أحمد حسن متولى ٥٢ سنة إلى محكمة الجنايات لأنه قام بحرق سيد متولى ابنه الاكبر ١٤ سنة لسرقته ٢٠ جنيها لشراء أفيون .

وأحصت منظمات الإغاثة الدولية ما بين ثمانية إلى تسعة ملايين سودانى يعانون المجاعة . ولم تُحصِ كم منهم مات جوعا .

عزيزى أحمد

لم أرسل لك قط هذه الرسالة ، هل وصلتك ؟

ليست هناك أبداً نهايات .

ألم نصل بعد إلى هذا اليقين اللا يقين ؟ أم أن هناك فينا ، دائما ، ذلك النزوع الرومانتيكى نحو الفردوس الموعود (أو المفقود) أو حتى نفحة منه ، ترد الروح الصدى ، يراوغنا دائما ، ونراوغه . وحتى وهم الانجاز على ندرته ومشقته التى لا تطاق ، حتى هذا ليس فيه إلا التعرّض للعراء .

فهل نحن نشيخ ؟ أم هى مراهقة لا برء منها - نسميها أحيانا براءة وبكارة متصلة لكى نعطيها نبلا مزعوما ؟

كلامك عن الغربة التى تحملها معك ، لا فى حقيبتك بل بين جنبيك ، يؤرِّث جرحا قديما لا يندمل . هذا يجرى مجرى الطبع الآن .

ولكن ماذا بعد ؟ هل علينا إلا أن نأخذ الثور من قرنيه - كما يقال - حتى لا تطأنا - نهائيا - حوافره ؟

قد وطأنا الميناتور حقا ، وغَرَزَنا ، بعمق ، غصنا تحت ثقله فى أرض الوطن الوحيد الذى نعرفه ، وطن الغربة .

السحب البيضاء الخفيفة ، ممزقة ، قطع من الجسد الأنثوى الذى أعرفه ، هوائية ، تدخل من نافذتك لتخرج إلى سماء منمنمة بالشجر والزروع . النافذة مفتوحة، ومعلقة ، ليس لها إلا إطار خشبى ، لا جدار، لا أرض . لا سقف . كأنها وطنك الوحيد ، غربتك النهائية .

جاءوا إلىّ من وراء أربعين خمسين سنة ، شيوخ لا أعرفهم ، اغتصبوا أسماء أصدقاء الصبا والشباب ، تلبسوا جسمهم وملابسهم وانتحلوا تاريخهم القديم! مهتزين ، متهدمين ، يتباهون - بشكل مثير للغضب - بإنجازات حياتهم المسكينة . أنهم تزوجوا وخلفوا واشتروا شققا لبناتهم ورتبوا وظائف مربحة لأبنائهم ، أنهم وصلوا إلى درجة مدير عام وأن رصيدهم فى البنك لا بأس به وأنهم يقرأون « الاهرام » . عيونهم صدئة ليست فيها نيران الاستبسال والاستشهاد القديمة . كم منهم ضاع منى ؟ هل إذا لقيت انطوان فى أى شارع من شوارع الحياة المتبقية ، أعرفه ؟ أن كان ما زال من أهل هذه الفانية الغرور ؟ شوقى إليه - وما زال فتيا فى



ذاكرتي في الثلاثين من عمره – يعدل أشواقي إلى أولئك الذين اغتصبهم غرباء وضعوا على وجوههم أقنعة محكمة الاتقان درءا لجريمتهم . لكنهم لم يخدعوني لحظة واحدة . عرفت على الفور، وأنا آخذهم بين ذراعي ، أنهم ليسوا هم ، أن هؤلاء الذين جاءوا لصوص ، هم الذين أطفأوا النيران التي كان من شأنها ألا تنطفيء قط ، العنقاء ما زالت رمادا لم تفرد جناحيها بوسع السماء ، بعد ، لم ترفرف بهما فتميد الجبال وتتمايل الصروح المشيدة في المعادى والدقي وزيزينيا والمعمورة، لم تضرب بأجنحتها فتنقض البروج على الخطافين والنهابين والغشاشين ليس بعد، ليس بعد .

فمتى ؟ متى ؟

سحابة سوداء تعبر احمرار السماء المزقة وعناقيد الثمار الحيوانية العطشى للدماء معلقة مقلوبة بمخالبها الحادة ، أغشية الأجنحة المعقوفة سوداء مشدودة مرهفة تتذبذب مع أهوائي وشطحات روحي ، رابضة على حواشيها الذهبية الداكنة .

أما أخته ، جورج ، فقد أنسيت اسمها تماما . أذكر فقط المشية المتقصعة والكعب العالي جدا دائما والحواجب المحرقصة دائما والعينين اللتين تندب فيهما رصاصة . وجهها نبيذي النكهة وشديد النعومة معنيا به عناية كاملة ، هي أيضا كأنما تسألني ، دون كلمة ، ماذا تنوي أن تفعل ، يعني ؟ الحاحها في السؤال ، دون كلمة ، بعينيها فقط ، اقتحام حقيقي .

كأن كل شعرة في جسمها محفوفة ، بالحلاوة .

نعومتها لا تحتمل .

هل دُهن جسمها ، كله ، وهي نازلة من بطن أمها ، بدم وطواط صغير منتزع من بين جناحي أمه، جلده مصقول ولزج وأملط تماما ، يصأى بوصوصة واهنة ، مذبوح بسكين حادة على نور شمعة واحدة وبخور الجاوي والدارعين والصندل . فلن ينبت لها الشعر أبدا .. تظل ملساء كالرخام الحار اللدن .

حجارة أحلامي إذن ما زالت مرمية على سريري ، انقاض العمر ، وعلى أرضية غرفة نومي، أتعثر فيها ، وتجرح أصابع قدمي الحافيتين ، وأنا أعود ، بعد أن تقيأت، أخيرا ، في الحمام .

أحس نفسي مستنفذا ، هالكا .

ألتقط أنفاسي بمشقة .

حجارة من معابد كوم امبو وأبيدوس ودندرة، منقوشة منحوتة بالقلم العتيق . حيات وأمواج ونسور وحدأ تثب خارجة من الحجارة تدور حولى وتملأ علىّ الغرفة أضرب الهواء بذراعى أطردها أصرخ بلا صوت ولا تنزاح بل تتجمع فى سحب كثيفة تلفنى وترتفع ، سوداء تئز وتطن وتتموج بثقل تخترق سقف غرفة نومى فجأة ثم تعود تهبط تنقض علىّ .

أوقدت النار فى حفرة فى أرضية الغرفة وصعد الدخان إلى السقف وترك غيامات جافة من الهباب الأسود المتفتت ولكن السحابة الحية المرفرفة لم تنقشع لبدت فقط فوق رأسى لا تنجاب .

هل نجاتى وملاذى فقط هناك على شط البحر الكبير تحت هفهفة أشجار الدوم الرشيقة عريقة القوام تحت عينى أوزير الحانيتين ، أم أننى لا أعرف أن أقرأ رسالتها ؟

أستيقظنا من نومة الفجر على طقطقة الرصاص وهبدات المدافع فى السماء يتردد صداها العميق بين الجبل القريب وأنفاس البحر البليلة .

كانت الستارة ، بيضاء ، نصف شفافة ، على نافذة غرفتنا المحجوزة ليلة واحدة فى « أطلس » ، ملفوفة بدبابيس إبرة لاتترك فجوة بين فلقتيها يمكن أن يجرحنا منها أحد .

وكان جسمها البرونزى الحار ، عاريا ، لامعا من ندى الشهوة والغيبة ، بين ذراعى ، وتحت ساقى .

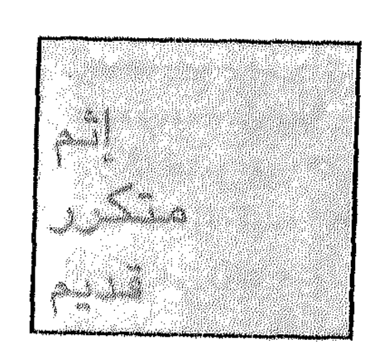
وكانت فوضى الأخبار فى صحف شارع الحمرا فاغرة الأفواه صارخة بصمت مثل جياد الجيرنيكا ضرب الجنون وشطح الحب فى شوارع العالم عربدة العشق العقيم فى سرائر غريبة وعلى سرر مصنوعة ومهوشة وأجنبية وحميمة .

وعشق النعمة الخصيب ؟ هل راعيت عهده وعملت بوعده ؟

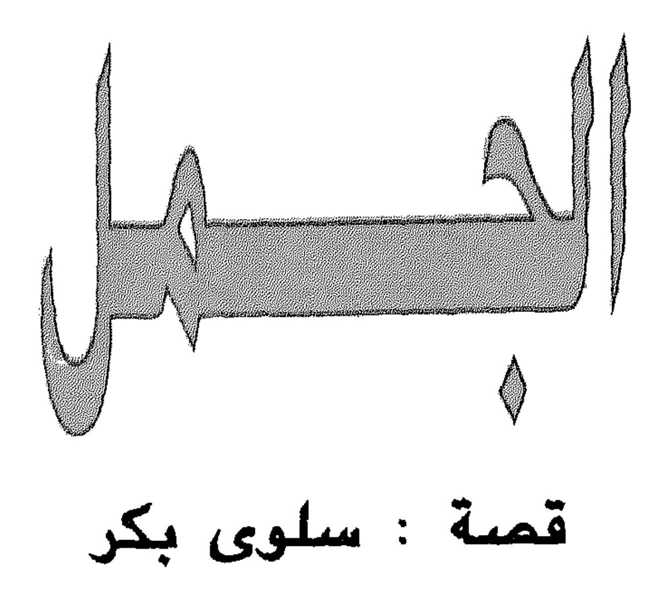
كل عشق غير كامل ، مهما أكتمل ، ومهما كانت لحظته هى الأبد فهو غير قائم فى الأبد . كل عشق خيانة محتومة . ذلك لايعزينى ولا يرحينى ولاشىء .

أما التمساح فقد كان مرميا على جدار شرفة بيتنا فى كليوبترا الحمامات . هائل الأنحاء وحراشيفه جارحة وصلبة ، لا يتحرك ، ذيله الضخم ، مشحونا بقوة منذرة ، ملقى به ، تحت ، على بلاط الشرفة ، مهددا فى جموده ، وأن كانت عيناه الضيقتان ليستا علىّ مباشرة ، بل على النخلة الطويلة الوحيدة فى الحديقة الدقيقة التى لا تتجاوز أمتاراً قليلة بين سور حديدى عال مشغول وباب البيت الذى أمامنا ، عتيقا ثقيل الشكل .

أين أنت الآن . أم أين أنا ؟ هل ضربت أيدى الليالى بيننا ؟ حقا ؟ هوالحلم يبدو كطفل غفا ، على لجة



البحر عند الشفق .
ضحكت ، وسألت نفسي :
هل هو ضحك كالبكا ؟
أضحك ، أو أبكي ،
كالأوتومات ، مبرمجا ،
متوقعا ، أكاد أسمع تكة
التروس الداخلية . على
مضجع النور بين الورود ،
ويبدو كالطير لاح ثم
أختفى ، ويبدو شراعاً
أبيض .. ، قد هفا ،
كأنغام ناى بأفق بعيد .
هاها ! هو الحلم هو
العمر هو الحب هو الشوق
هو الألم أليست يداى
صفرا ، خاويتين ؟ فماذا
كنت تريد وبم كنت نريد
أن تملأ اليدين ؟
رمينا مع قروش
الأماني - ليرات معدنية
على الحقيقة - في ماء
النافورة . كنا بعد
منتصف الليل وكانت
الأضواء لنا وحدنا ،
أحيط خصرها القوى
بساعدى ومن الناحية
البعيدة أمسك بيدها
الرخصة المليئة . لم نكن
نعرف بعد أن الحب قد
قام . كنا ضربنا في
شوارع المدينة النائمة
التي تيقظت لنا وحدنا .
على غير وجهة . لاتقودنا
إلا خطى حب لم يعرف
بعد أنه هناك ، وأنه سوف
ينتزع من بين أجنحة
سوداء . صعدنا ربوات
أسفلت ندية خاوية وجرينا
أمام سفعات ريح باردة
قليلاً منعشة ومحيية
وعبرنا ساحات شاسعة
ونفذنا من تحت بوابات
رومانية عريقة وحدقت
الينا تماثيلهم فاغرة
العينين . مضينا ، ولم
نرجع قط ، حتى الآن .
مامن شيء يرجع قط ،
أليس ذلك ؟ أليست هذه
حكمة القدماء ، دائمة
الجدة . فهل أنقضى
شيء ؟ التماثيل غسلت
بماء النيل في غرفة
نومي، لكنها لم تعد كما
كانت ، عند ساعة
تخلقها، أو لم تتغير قط ،
صانتها من الزمن يداى
« بحر العشق ليس له
شطآن » .
صدقت ياسيدى
الفردوسى .
وحتى إذا لم تكن قد
صدقت ...
ماريتى رامتى نعمتى
التى لم تكن لى قط وما
كان لى قط امرأة أقرب
منها وألصق وأعمق
عضوية إليَّ .
حبيتها كانت تهب بها
أنفاس الريح الليلية
وحذاؤها يبدو ، فى نور
المصابيح القوية العالية ،
متربا من غير تراب ،
جلده غالي الشكل ومرنا ،
قد التصق بجلد قدميها
الغض كأنه ينمو منها أو
جزء لاينفصل منها .
كانت النافورة
مفاجئة ، وكان عشقنا
مفاجئا .
كلاهما أنطلق -
كأنما بالصدفة ؟ أم بحكم
قدر لا يرد ؟ - من قمقم
ألفى ، ليبسط جناحيه
على الروح ، ويستولى
عليها .
الحجارة مازالت
تسقط من سحاب متلبد .



قصة : سلوى بكر



تحولت إشارة المرور إلى الأحمر فتوقفت السيارات الكبيرة والصغيرة، وانتظر الناس بينما دبدب الطفل بقدميه وصاح وهو يشاهد جملا يعبر الطريق :

- ماما .. الجمل .

ردت دون أن تحيد ببصرها عن إعلان لقرية سياحية جديدة ، شغل حائط بناية ضخمة على ناصية الشارع :

- طيب .

تابع بعينيه الكائن الضخم المهيب ، برقبته الممتدة ، وسنامه العالى ، وهو يخطو بخطوات وئيدة، تنهد برضا ثم أعلن :

- ماما .. عاوز الجمل .

- ياسلام !

قالتها وعيناها على بيضاء الإعلان ، ذات الشعر الأصفر ، المستلقية على الرمال فى لباس البحر من قطعتين .

ثنّى مطلبه ، وساق عليها النبى :

- والنبى يا حبيبتى عاوز الجمل .

كانت تمسكه بيد ، وتحمل بيدها الأخرى حقيبته المدرسية وكيس خضار ، أما حقيبتها فقد علقتها على كتفها .

أعلنت مستنكرة بعد أن ملت انتظار نور العبور الأخضر :

- جمل .. معقول ؟!

لم تغب عيناه عن الجمل حتى غاب ، فشرع فى البكاء مؤكدا جديته وإصراره على مطلبه .

- وماله الجمل ؟ ، هاتى لى الجمل وخلاص

اكتشفت جدية الموضوع ، فابتسمت ، وشرحت :

- الجمل كبير ياحبيبى ، مستحيل نحطه فى بيتنا ، شقتنا صغيرة ، والجمل يحتاج لمكان واسع .

دحض منطقها بسرعة :

- خلاص .. نروح ونقعد فى بيت كبير ونشترى الجمل .

- هاهاها .. بيت كبير لأجل الجمل ؟! البيت الكبير تلزمه فلوس كثيرة، أنا فلوسى قليلة .

- طيب خلّى فلوسك كثيرة .

- مستحيل يا حبيبى، لأن مرتبى صغير، على قد الأكل والشرب .

عاود الدبيب على الأرض بقدميه وصرخ :

- لكن أنا عاوز الجمل ، هاتى لى الجمل وخلاص .

الشمس قوية فوق رأسها ، والرطوبة خانقة، أما البيت فما زال الطريق إليه ممتدا ، وصبرها فاض فصرخت هى

الأخرى :

- أنت أهبل ؟! .. حمار ؟! قال عاوز الجمل قال !! .. إخرس خالص ومد ، خلينا نروح البيت وأشوف الطبيخ قبل رجوع أختك من مدرستها

- انفتحت حنفية الدموع عن آخرها ودعمتها صرخاته ، وهو لا يتوقف عن ترديد مطلبه - الذى رآه عادلا وبسيطا - فى اصرار :

- عاوز الجمل ياستى، يعنى ماله الجمل، نفسى تسمعى كلامى مرة وتجيبى لى طلبى .. هئ .. هئ .. هئ .

أبرزت الجانب المظلم من الأمومة ، وشمرت عن أظافر وأنياب ، وزعقت فيه :

- طيب أسكت ساكت، واقطع النفس بسرعة ، وإلا ضربتك لحد ما أعدمك العافية ، ياحمار، يا غجرى .. والله لو سمعت حسك لأضربك هنا فى الشارع وقدام الناس كلها .

بدأ يرعوى تحت وطأة التهديد ، فقد كان مدركاً تماماً إمكانية تحوله إلى تطبيق عملى ، فخفض من حدة بكائه ، لكنه لم ينهه بالكامل ؛ عندئذ رقت الأم قليلا ، وقررت اتباع الشق الثانى من سياسة المفر :

- اسكت يا بنى - الله يرضى عنك - لأنى مصدعة وجسمى يوجعنى كله ، يظهر أنى داخلة على دور انفلونزا ، اسمع ، تعال أجيب لك حاجة حلوة ، عاوز بنبونى ولا شكولاته ؟ .

كاد أن ينفلق غيظا ، إنها تستخف به ، توقف عن المسير وصرخ بغضب :

- قلت لك : جمل ، جمل ، لا بنبونى ولا نيلة .

أوشكت أن تنفجر هى الأخرى ، هل تتوقف وتضربه ، أم تبتلع غيظها وتسكت ؟ .. فضلت الحل الأخير ، لكنه لم يسكت عن البكاء والمطالبة فوقع الانفجار :

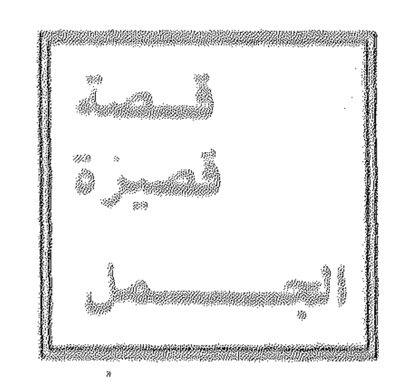
- اخرس ، بلا كلام فارغ ، أنت عبيط والا صغير ؟! عندك ست سنين وتقول عاوز الجمل ؟! ، انسخطت ، ولا انسخطت ؟! ، سخطة لما تسخطك ، هو الجمل لعبة ولا حاجة بسيطة ؟! ، شئ يغيظ ويفلق والله .. يعنى ، ناوى تلعب بجمل ؟! .. هه ؟

فاجأته بسؤالها ، فهو لم يكن لديه تصور محدد لما سيفعله بالجمل حتى هذه اللحظة ، لكنه مازال يمتلك شعورا قويا جارفا تجاه هذا الكائن العظيم الفريد ، الذى توقفت له إشارات المرور والعربات وجميع الناس حتى عبر الطريق .

تذكر السنام والرقبة والعين الجاحظة ، فتنهد فى حرارة ، وتأكد من أحقية مطلبه ، فشتمها فى سره .

وجدته صامتا يفكر ، فأستأنفت هجومها المقنع

- ثم إن الجمل سعره غال يا حبيبى ، لازم



تخلى عندك ذوق وتعقل وتسمع كلام ماما ، حرام تتعب قلبى وتطلع روحى وهى طالعة خلقة من الحر .. الله يهديك ، إمش .

حاول هو استخدام اسلوبها ، فقال بهدوء :

– طيب يا ماما ، لكن الجمل حاجة بسيطة خالص .

أجابته بسرعة مستجيبة لحوار العقل :

– طيب .. أنت عمرك شفت أى انسان عنده جمل ، أولاد عمك مثلاً . هل عندهم جمل ؟ .. الجيران ، أي واحد منهم عنده فى بيته جمل ؟

أعقل يا حبيبى الله يهديك .

دحض منطقها بسرعة :

– الجيران عندهم كلب ، وأولاد عمى عندهم عجلة و ..

لم تعد تحتمل النقاش فزعقت مغتاظة ، حتى أن صوتها جذب انتباه عجوز كان يعبر بجانبها فنظر إليها مليا وهى تقول لابنها :

– اخرس .. خلاص .. يلعن أبو شكلك وغلاستك .

وأكد لنفسه أن أمهات هذا الزمن مسكينات وعصبيات وروحهن فى مناخرهن بسبب الحياة الصعبة ، وقلة الغذاء ، وأكل الفراخ البيضاء واللحم المجمد معدوم الخير ، ثم إنه تصعب ونظر لوالدته فى شفقة وسار .

الولد لم ينتبه للتعاطف الخارجى الذى كان يسير إلى جانبه ، إذ كان يسير محدقا بالأرض ، شاعرا بظلم فادح رغم عدالة قضيته من جميع النواحى من هذه المرأة المفترية ؛ مطلبه بسيط إنسانى جداً : جمل ، لا أكثر ولا أقل هى تتحدث عن الناس ، الناس ليس عندهم جمال، لكن عندهم أشياء أخري كثيرة ليس عنده فى البيت، فلماذا تقول الناس، وتقول أولاد عمه ؟!

قررت أن تشرب حاجة ساقعة تطفئ غيظها وشعورها بالحرارة ، لذلك فإنها بمجرد أن وقع نظرها على زجاجات الساقع وقد تناثرت فوقها قطع الثلج فى صندوق بأحد المحلات توقفت وسألت ابنها :

– تشرب حاجة ساقعة ؟

لم يرد ، واستكمل البكاء والزن وهو ينظر إليها فى حقد ، فقالت له :

– انفلق . إنشاء الله ما شربت .

جاء البائع مبتسما ليفتح زجاجة ليمون ، فلما وجد الولد يبكى أخذ يلاطفه ويخيره بين أنواع

الحلويات التى لديه ، والولد لا يستجيب ، فقالت الأم بعد أن سحبت من الزجاجة سحبة طويلة بشفتيها :

- قطيعة قطعت خلفة الصبيان ، خلى روحى فى مناخيرى ، ونازل يقوق لأنه شاف الجمل في السكة ، وعاوز أجيبه له ؟! شئ يفلق .

ابتسم البائع مرة أخرى ، وأخذ يربت على الولد ، ووجه له الكلام :

- جمل ؟ معك حق والله ، طيب أنا أجيب لك الجمل يا عم ، ولا يكون عندك أى فكر .

دخل الرجل الدكان ، وعاد بعد قليل وفى يده جمل صغير ، جمل من البلاستيك الأحمر الخفيف وضعه بين يدى الولد الصغير .

قلب الطفل الشئ البلاستيكى بيديه ، تأمله، كان على هيئة جمل فعلا قارنه بذلك العظيم ، المهيب ، الذى عبر أمام ناظريه الطريق ، بدا حائرا متردداً دهشاً من غباء الرجل ، كيف يسمى ذلك الشئ الذى بين يديه جملاً ؟! لكنه تردد مرة أخرى ، إذ كان بين يديه شئ على أية حال ، فسكت ولم يقل شيئا .

كانت الأم قد انتهت من زجاجة الليمون ، فلما وجدته هادئا ساكتاً قالت :

- الله .. والله جميل جداً .. وأحمر وحلو .

رمقها الطفل بما يشبه الريبة والاحتقار ، وواصل صمته .

- تعرف .. تقدر تحطه فوق التليفزيون ، أو تخليه ينام جنبك على السرير فى الليل .

قالت ذلك فتصاعد شعوره بالمرارة والخديعة وخيبة الأمل فى هذه الكاذبة التى أمامه ، لكن بما أن هذا الشىء البلستيكى الأحمر كان فى يديه فعلا . فقد واصل سكوته بينما نطق البائع بزهو المنتصر :

- العيال أقل شئ يرضيهم بسرعة ، وأفضل طريقة معهم المحايلة .

أكدت الأم وهى تخرج الفلوس من كيسها :

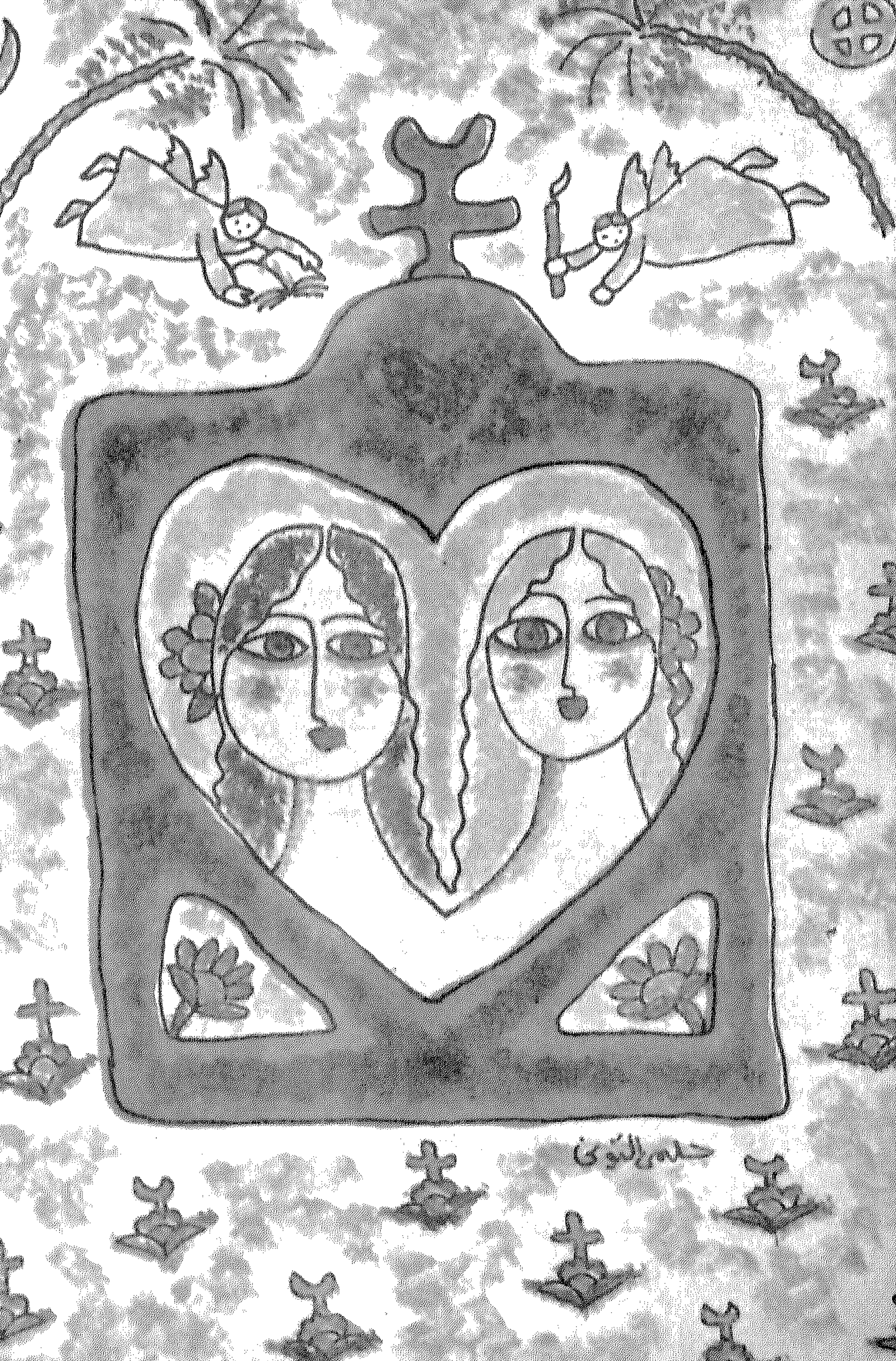
- طلع روحى طول السكة .. عاوز الجمل .. عاوز الجمل ، كنت ناوية أرنه علقة - والله فى الشارع من عزم غيظى ، ومنعت نفسى بالعافية .

نظر البائع إلى الولد فى رضا وحاول مناقشته :

- حصل خير ، لكن يا أخى اطلب عجلة ، طيارة ، إنما جمل ، نوقك غريب جداً ، الجمل كان أيام زمان ، بكره ينقرض ويختفى خالص .

ابتسمت الأم بسعادة من خرج من ورطة ، وسحبت الولد مغادرة المحل ، لكن ما إن ابتعدت قليلا حتى أعلن لها بصوت هادئ واثق :

- ماما .. عاوز الجمل والنبى .


حلمي التوني

قصة قصيرة

صرخة في القرية
عم سلامة

بقلم
سليمان فياض
برشة :
حلمى التونى

اندفع عم « طه » خارجا من دار عم «سلامة» صائحا :

- سلامة مات ياحارة غضنفر . سلامة مات .

يسرع طه السير فى الحارة المتعرجة وهو يكرر صياحه بالنبأ . كأن حدثا كونيا قد وقع ، وأطلت وجوه نساء وأطفال ورجال من بيوت غضنفر، وخضير ، والحاج سليمان، وكاعوه ، وفياض وتسلق رمضان منحدر الحفرة العميقة بالحارة صاعدا إلى أعلاها . وجوه طينية البشرة مخددة الملامح كبيوت الطين فى الحارة . قالت امرأة من آل كاعوه :

- بسم الله الرحمن الرحيم . اللهم اجعله آخر موت .

كان الموت بعيدا عن أهل الحارة ، منذ زمن بعيد ، منذ قتل الأشرار من الأعوان ، فى عذبة معوّض ، رجلين من أهل كاعوه غدرا وغيلة .

ودهش رجل من آل خضير ، لفزع طه لموت سلامة ، وحماسه فى إعلان النبأ ، وسرعة خطوة فى الحارة ، وكأنه قد عزم على إعلان الخبر للقرية كلها ، فقال له :

- الموت حق ياعم طه ، من يسمعك يظن أن سلامة من أقاربك ، وعلى ملتك .

صرخ فيه الحاج سليمان ، وكان قد غادر داره ، حين سمع صراخ طه بالخبر :

- اسكت الموت لايفرق بين ملة وملة . وأهل البلد عشرة وجيرة .

وأوسع الحاج سليمان خطوه ، نحو بيت سلامة ، فى آخر الحارة ، عند « سرّة » البلد .

❊ ❊ ❊

وجد طه امرأته «خضرة» واقفة على الباب، فقالت لطه وهو يدخل البيت :

- على وشك مات سلامة الرجل الطيب .

التفت طه نحوها ، شاعرا بالإهانة ، ومدّ يده وصفعها على خدها الأعجف ، وقال :

– اخرسى ، وجدته ميتا . لو لم أذهب إليه لوجده غيرى ميتا .

فـزعت خضـرة ، وقالت :

– تضربنى يا طه . لو كان سلامة حيا ، ورآك تضربنى ، لقطع لك يدك بقدومه .

طـأطأ طه رأسـه وقال :

– سلامة لم يرفع يده نحو أحد ياامرأة . منذ سقطت أسنانك وأنت تخرفين . تقولين أى كلام

وجلس طه قرب الباب حزينا ، وقال :

– يلطف الله بالبلد . يلطف الله بالبلد . فموت سلامة ليس كأى موت .

ورفع رأسه ، وقال لإمرأته :

– هاتى لى ثوبى الكشمير . المنادى لابد أن يعلن الخبر لأهل البلد .

دخل الحاج سليمان دار عم سلامة . هبط عتبتها إلى الفسحة . كانت الدار بيتا من فسحة صغيـرة ، وغـرفتين صغيـرتين ، مجرد بيت صغير ، لكنه صار دارا ، مثل بيت كبير ، لأنه كان بيتا لعم سلامة . كان يقع فى سـرة البلد ، يعبره كل من يشاء ، فى الليل ، والنهار ، ليجد نفسه يجتاز بابا آخر مفتوحا على النصف الآخر من البلد . وكانت الأخشاب ألواحا وعروقا وأوتادا وخوابير واقفة وملقاة ، وثمة كوة تلقى بضوء نهـارى فى الفسـحة الصغيرة .

ورآه الحاج سليمان ممددا على ظهره ، فى الركن المقابل للكوة ، على حصير قديم . خطا نحوه وجثا على ركبتيه . الوجه منير ، بلا أخاديد ، ملائكى الملامح . وجه بلا خطيئة واحدة ، وكأن الزمن لم يعرف طريقه إليه ، يشيع بسلام عميق، كذلك السلام الذى أحس به وهو فى فلسطين ، وهو يقدس فى بيت المقدس .

وانحنـى الحـاج سليمان ، ولثم جبين عم سلامة ، وجمع بين كفيه على صـدره ، وغطى جسده ووجهه بملاءة بيضاء ، وهمس وهو يرسم صليبا وهميا على الجسد المسجى :

– فى رحـاب القديسين ياسلامة .

وتلفت الحاج سليمان حوله فى دهشة . وحدث نفسه : أين ذهب الأولاد فى هذا الصباح . هذا الصباح بالذات ، لا أحد منهم بجانبك ، لكى تلقى الرب وحيدا . كما جئت إلى الدنيا وحيدا يا سلامة ، ترحل .

وسمع الحاج سليمان أنفاس الصمت ، فتلفت نحو الباب المفتوح أبدا على مصراعيه ، رأى

جمعا من أهل الحارة ، واقفين ، لا يجرؤ أحد منهم على نزول العتبة ، والدخول إلى فسحة الموت. ووقف الحاج سليمان ، وتوجه نحوهم قائلا :

– اذهبوا جميعا ، لا حاجة له الآن بأحد منكم ، فهو بين يدى الربّ .

وأجهشت امرأة بالبكاء ، فأرتفع النواح وهم يبتعدون ، وطأطأ الرجال رءوسهم فى أسى. وردّ الحاج سليمان مصراعى الباب وراءه ، وصعد عتبة الدار ، فوجد طه أمامه واقفا يلهث

قال له « طه » :

– المنادى يعلن الخبر الآن لأهل البلد .

قال له الحاج سليمان :

– جزاك الله خيرا .

قال له « طه » :

– هو ميتنا ياحاج سليمان ، ولن تأخذوه منا .

فزع الحاج سليمان ، وصاح قائلا :

– اقصر الشرّ ياطه سلامة منا ، ونحن أهله .

قال له طه مكررا :

– هو ميتنا يا حاج سليمان ، ولن تأخذوه منا .

❊ ❊ ❊

كان صابر المنادى يسير فى الطريق الدائرى للقرية . معلنا وفاة عم سلامة ، ويتوقف أمام كل حارة زاعقا بالنبأ ، فترتجف الأبدان لخبر الموت ، ويرهف الأولاد والبنات السمع ، وينظر الرجال والنساء بعضهم إلى بعض ، ويغادرون البيوت والدوار ، إلى الأبواب ومداخل الحارات، والنبأ يسرى مع الهواء إلى من فى الحقول ، وأهل العزب والكفور المحيطة . وحين مر المنادى أمام الحاج على ابن الدرينى ، وقف الحاج على . وقال :

– يرحمه الله .

ثم ضرب كفا على كف ، وقد تنبه إلى أمر ، قائلا :

– فليلطف بنا الله . كيف لم نتوقع هذا الموقف الصعب .

تقدم الحاج ابراهيم البلهنية نحو الحاج على قائلا :

– حاج على . سلامة منا . وصلى معنا فى مساجدنا . وأنت تشهد أنه صلى معى ومعك ، فى الجوامع الثلاثة : الشيوى ، وابن عنان ، وشعير .

فقال له الحاج على كأنه يدفع خطرا لا قبل لأحد به :

– لكنه ياحاج ابراهيم ، لم يعلن إسلامة أمام الشيخ أحمد عنتر فى جامع ابن عنان ، على مشهد من الناس .

غضب الحاج ابراهيم البلهنية ، وقال عابسا :

– يعلن إسلامة ، والصلاة فى الجامع ،

معنا ياحاج على ، أليست إسلاما .

قال الحـــاج على بيأس ، ضاربا الهواء بكفه ضربة قصيرة :

– أعــرف . أعرف ياحاج ابراهيم ، لكن ما قيمة ذلك الآن . إنه الآن ميت . والموتى أمرهم إلى الله لا إلينا .

فأكد الحاج ابراهيم قائلا :

– بعد أن يدفن ، يكون أمره إلى الله . لكن، قبل ذلك ، أين يدفن ، فى مقــابرنا ، أم مقابرهم .

جلس الحاج على ، وقال بأسى عظيم :

– فى حياته ، طلبه الكل . من اسمه عيسى ومن اسمه محمد ، ودخل بيوت الكل من اسمها عائشــة ، ومن اسمها مــــريم. حتى فى غيبة الرجال ياحاج ابراهيم . الكل كان يأمن له ، ويأتمنه . وأظنه لهذا السبب ، دخل المسجد وصلى ، وذهب إلى كنيسة ميت غمر وصلى ، وصام صيامهم ، وصام صيامنا ثم نقول نحن : هو منا ويقولون هم : هو منا . الحقيقة أنه حالة فريدة ووحيدة . فهو من الكـــل يا حـــاج ابراهيم .

ظل الحاج ابراهيم واقفا وقال :

– ذلك لا يقدم ولا يؤخر . لنا مقابرنا ، ولهم مقابرهم . فأين يدفن ، عندنا ، أم عندهم .

نهض الحاج على واقفا ، وقال :

– الأمر ليس بيدنا ياحاج ابراهيم ، فلنذهب إلى العمدة . فهو كبير البلد .

❊ ❊ ❊

كان العمدة« شكرى » جالسا على مصطبة الدوار ، ظهره إلى نافذة مسجد الشعايرة . يحيط به أعيان عوائل البلد : شـعير ، ومكنـــس ، وفياض ، والدســوقى ، والشـــيوى . وعلـــى مصطبة متعامدة أعيان العوائل الأخرى : ميترى، وجرجس » والدواودة ، ويوسف . واخترق سياج الخضــر ، عند مدخل الدوار الحاج على ، والحاج ابراهيم . وكان العمدة يقول :

– لا داعى للشقاق والخصام . عشنا أهلا . نتزاور ، ونتهادى ياأهل الخير .

قال رجل من آل جرجس :

– وحتى نظل كذلك



ياشكرى بك . دعوه لنا ، فهو من ملتنا ، ويصلى فى كنيستنا ، وقسيس الكنيسة فى ميت غمر يشهد .

وقال رجـــل من آل « مكنس » :

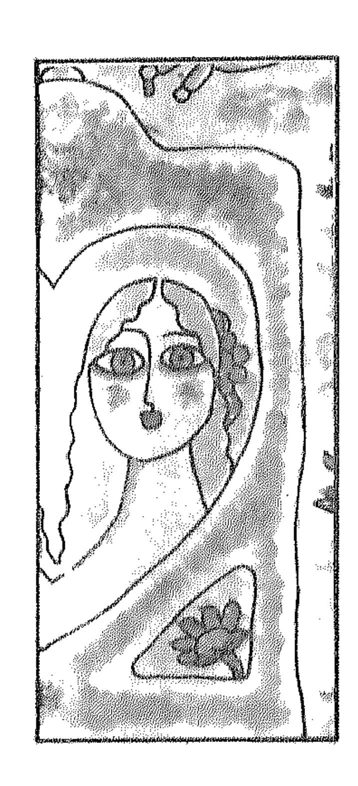
- حتى نظل بخير ، معا ، دعوه لنا ، فهو من ملتنا ، ويصلى فى مساجدنا ، والكل يشهد .

فصاح العمدة :

- كفى . الله واحد . ربنا وربكم واحد .

ودخل المجلس شيخ الغفر مسرعا ، وانحنى هامسا فى أذن العمدة ، فرفع العمدة رأسه ، فرأى النـــاس خارج الدوار، يحملون النبابيت ، وقد انقسموا قسمين ، وبينهم صفان من الخفر يمسكون ببنادقهم . فالتـفت إلى الأعيـــان قائلا:

- هذه هى آخرة الخلاف أيها المجانين . الدم . كيف يسامحكم



سلامة ، كيف يغفر لكم الله . انهضوا وفضوا الناس ، وليعد الكل إلى بيته ، فلن تحدث بيننا فتنة قط .

صاح الرجل من أهل جرجس :

- كيف ؟

تقدم الحاج على وقال :

- إذا أذنت لى ياعمدة ، قلت للأعيان : كيف ؟

فصاح رجل من أهل مترى :

- لا تقل إنه منكم .

وصاح رجل من أهل الحبشى :

- ولا تقل إنه منهم .

فصرخ العمدة :

- كفى . ولنسمع . قل ياحاج على . فقد عهدناك حكيما ، ولم نرك إلا فى المحن .

قال الحاج على :

- لنا شيخنا ، ولهم قسيسهم . تدعو شيخنا ، ويدعـــون قسيســـــهم ويجلسان معـــا . وما يحكمان به . ينفذ علينا وعليهم .

فصــــاح الحـــاج ابراهيم البلهنية ضاحكا :

- لا فض فوك ياحاج على .

فقال له الحاج على :

- لو أكملت تعليمك الدينى لكنت الآن شيخنا .

وضحــــك الأعيـــان جميعا ، وقالوا لأول مرة :

- رضينا .. رضينا .

عندئذ بدت الراحة فى وجه العمدة ، وقال لمين أعيان الشيوى :

- لديكم خيل . أرسل واحد منكم بفرس إلى ميت غمر ، وليأخذ معه فرسا آخر للقسيس . وليكن معه هنا قبل العصر.

وفضّ الأعيان الناس خارج الدوار ، فانصرفوا مطيعين بعصيهم ، وعاد الأعيان إلى المجلس ، وجلسوا . وأقبل الخفراء يقدمون الشاى للأعيان ، وقال العمدة الخفراء :

- قولوا لهم أن يعدوا الغداء لرجال البلد .

وحين التفت العمدة إلى الأعيان ، ابتسم ، ثم ضحك حتى دمعت عيناه فقد رأى الأعيان ، وقد تداخلوا فى المجلس ، وراحوا يتحدثون : اثنين اثنين ، وقال :

- لم يجعل الله فى بلدنا دينين ، وملتين ، إلا لحكمة . فقال الحاج ابراهيم :

- سلامة النجار جمع قلوب البلد فى حياته على الحب والخير ، وروحه ، إن شاء الله ، ستحل فى كل بيت .

* * *

الشاى ، والغداء ، وأحاديث ما بين الشاى والغداء ، أرخت أعصاب الأعيان ، وأزاحت جانبا ، بالشبع والرىّ ، الهواجس والظنون ، والحدة والغضب . هنا الكل بشر من البشر ، وجيرة من الجيرة ، وصحبنا من الصحب ، فاسترخوا فى قاعة الراحة الكبيرة بالدوار ، بين جالس على راحته ، ومضطجع على راحته ، وممدد ساقيه ، والعمدة قد غفا هانئا فى رائحة القيلولة ، ونسائم النوافذ العديدة ، الواسعة، فى القاعة الفسيحة ، تهب من بحرى إلى قبلى ، فى انتظار قدوم القسيس من ميت غمر ، والشيخ عنتر من كفر « العنانى » ، وأثناء هذا الانتظار كان الكل قد غفا غفوة القيلولة ، جالسا ، ومضطجعا ، وممدد الساقين ، ومستلقيا على ظهره ، فوق السجاجيد الحائلة اللون ، وتنافرت أوضاع الوسائد والمساند والمرموس فى القاعة الشرقية .

وكان العصر يقترب ، حين أفاق العمدة من غفوته ، ورأى الكل فى غفوته وقد اختلطت أنفاس الجميع ، فابتسم، وأشعل سيجارة ، وراح يرهف السمع . وتراءى له عم سلامة راقدا ، لايزال، وحيدا كما كان ، منذ ودعت زوجته الدنيا ، وغادر بنوه البلدة إلى العمل فى المدن ، ولسوف يوارى سلامة الثرى وحيدا ، ولا يعرف ابن له أن أباه قد رحل فى غيابه، إلى الأبد .

وراح العمدة يحدث نفسه : ماذا لو اختلف الشيخ والقسيس ؟ وماذا لو عصى الناس ما يحكم به الشيخ والقسيس ؟ ستكون كارثة لا يستطيع أحد لها دفعا ، وكارثة أفظع ، أن يصير لكل عائلة ثأر عند عائلة أخرى ، ثأر أبدى تتوارثه الأجيال ، وبسببه هو ،

بسبب سلامة المسالم ، الذى فضّ فى زياراته للبيوت نزاعـــات بين الأزواج ، وخصومات بين العوائل ، وأخرج أجساد صغار غرقوا فى آبار السواقى ، وطحنتهم تواليبها ، ولم يحدث فى البلدة مأتم ولا فرح إلا وكـــان أحـــد شـــهوده ماذا لو ..؟ وماذا لو .. ؟ وماذا لو .. ؟

بدا له أن الحاج على وحده ، يعرف ما سيحكم به الشيخ والقسيس ، ما يجب أن يحكم به الشيخ والقسيس ، لدفع الكارثة، هو الوحيد ، مثله ، الذى يعرف ، هو الذى لم يقرأ ولم يكتب ، يعرف بالقلب ، والفطـــــرة ، والصـــدر الرحب، والعقل الحكيم المتسامح ، ما يجب أن يحـــكم به الشـــــيخ والقسيس، من قبل أن يقبلا . هو الذى اقترح فكرة اجتماعهما معا ، ولابد أنه ، وحده ، يعلم ، ما سوف يكون عليه قرارهمـــا ، وربما كان بحـــاجة إليه قبـــل اجتماعهما ، وكان بحاجة إليه ، بعد أن يعلن الشيخ والقسيس ذلك القرار المجهول .

نظر العمدة إلى وجه الحاج على ، كان راقدا ، كفاه على صدره ، مثلما رأى سلامة ، تماما ، فى رقدته ، بدا له الحاج على صاحيا ، متغافيا ، فجفنا عينيه يرتجفان ، كأنه يفكر مغمض العينين . توجه العمدة نحوه ، زاحفا ، ومسه فى كتفه بأصابعه ، ففتح الحاج على عينيه لتوه ، وابتسم، فأشار له العمدة برأسه فى صمت كى ينهض ، ويتبعه ، فهو ، وحده ، الرجل الرشيد .

❋ ❋ ❋

قبل أن يؤذن مسجد الشمايرة لصلاة العصر ، كان الشـــــيخ عنتر والقســـيس قد أقبلا ، وجلســـا مع العمدة على مصطبة الـــدوار ، وأخذ الحاج على ينظر إلى الرجلين ، كلاهما فيما يقدر ممتلىء كلاما ، كلاهما يقف على أرض غير التى يقف عليها الآخر ، ينتمى بعقله إلى زمن غير زمن صاحبه ، بينهما مئات السنين ، وها هما جالسان معا فى ســـاعة العصر ، يبتسم أحدهمـــا لصــــنوه ، أكرشــــان، ملغـــدان ، ملتحيان ، معتمان ، مترهلان ، وبينهما من أسباب اللقاء، ما يجعل كلاهما يقدر دور الآخر فى قومه ، وظروفه مع قومه .

قال لهما العمدة :

– اســـــمعا أيها الفاضلان ، قبل أن يأتى الأعيان ، ما سيقوله له لكما الحاج على ، فهو الذى اقترح أن نجمع بينكم هنا .

والتفت الفاضلان إلى الحـاج على . ودهشا ، ونظر إليه .. رجل ريفى ، فارع القامة فى جلسته، واضح الملامح ، هادىء

الوجه ، ذكى العينين . وأدرك الفاضلان معا ، أنه لا يقرأ ولا يكتب ، وأنه، من ثيابه ، مستور البيت . وتحدث الحاج على ، فأصغى له الفاضلان وارتسمت على وجهيهما الدهشة ، والعجب ، وأطرقا مفكرين ، حين ارتفع صوت المؤذن مناديا لصلاة العصر ، فوق سطح المسجد .

وقال العمدة للشيخ عنتر :

– قم لتصلى بنا العصر ، ولندع الحاج على مع القسيس وأعيان قومه ، يتحدث معهم ، ثم يصلى هو وحده .

وابتسم وقال للقسيس عن الحاج على :

– هذا الرجل يامولانا، مثل سلامة ، لو فتحت قلب أحدهما لرأيت فيه قلب الآخر .

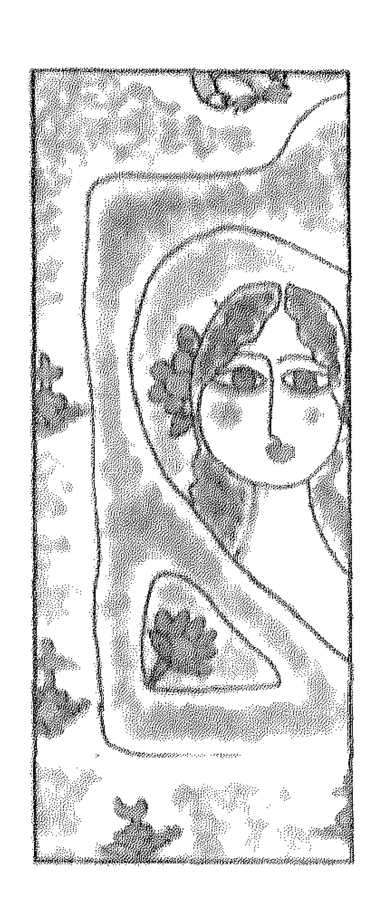
وابتعد الشيخ عنتر ، والعمدة ، وتبعهما أعيان إلى داخل المسجد من باب الدوار ، وجاء أعيان آخرون ، وقبلوا يدى القسيس ، وجلسوا حوله، وجاء شيخ الخفر يتبعه الخفر بأكواب الشاى وأباريقه .

وقال القسيس لأعيان قومه :

– عمدتكم هذا عجيب له عقل من ذهب .

فقال عين آل مترى :

– تعلم فى الجامعة يامولانا . وآثر أن يكون عمدة للبلدة بعده ، وقال



القسيس للحاج على :

– وأنت .. لك عقل من ماس . وأظن أنك لا تقرأ ولا تكتب ، فابتسم على وقال :

– أنظر حولك يامولانا . واسمع . وتأمل . وسوف تعرف .

وبهت الأعيان حين رأوا القسيس ينحنى على يد على ، ويقبلها قبلة خاطفة .

فقال رجل من آل جرجس ، بذكاء وشك :

– كأنكم ياأبانا قد قررتم أمرا .

فابتسم القسيس ، وقال :

– يفعل الرب ما فيه الخير للجميع .

❋ ❋ ❋

من القاعة الكبرى بالدوار ، خرجا من الباب متجاورين : الشيخ عنتر ، وقسيس الكنيسة ، ويد أحدهما فى يد الآخر . وعند درج الشرفة المستديرة ، وقفا ، وأخرج القسيس ورقة من عباءته، وناولها للعمدة . وكانت

ساحة الدوار ، ممتلئة من أولها إلى آخرها برجال العوائل ، وكانت أيديهم خالية من العصى ، وعيونهم تفيض بالترقب ، والخوف .

قال القسيس لمن بالساحة :

– من كانت منكم معه عصـا فليغـادر هذا المكان .

وساد الصمت .

قال الشـيخ لمن بالساحة .

– يـد اللـه مع الجماعة، ومن خرج عليها شق عصا الطاعة .

وقال العمدة :

– من خالف قرار الفاضلين فليغادر هذا البلد ، ولا يعد إليه وأشار الفاضلان إلى العمدة ، فأخذ يقـرأ قـرار الفاضلين :

– يوضع سلامة ابن غـالى فى صنـدوق ، ويصلى عليه فى بيته صلاة آل عيسى ، ثم يحمل إلى المسجد ويصلى عليه فى المسـجد صلاة



آل محمد . ثم يدفن فى قبر وحده ، ويرجأ أمره كله إلى فاطر السموات والأرض .

عندئذ ضجت الساحة بصيحتين :

– رضينا ..

– رضينا ..

وراح الكل يعانق الكل، فيما كان الفاضلان يتعانقان، والعمدة والحاج على ينظر أحدهما إلى الآخر . وحين هدأت الساحة . قال العمدة :

– الحاج على تبرع بربوة على رأس أرضه ، تكون قبرا لسلامة .

وقال القسيس :

– وأنا تبرعت ببناء هذا القبر .

❊ ❊ ❊

وظل أهل البلدة يتحدثون زمنا . كيف أن عم سلامة كان يبتسم حين حمل ليوضع فى الصندوق ، وكيف أنه كان خفيف الوزن ، وهو يحمل إلى قبره الوحيد .

لكن هذا القبر صار بعد سنين ضريحا متواضعا ، يذهب إليه ناس ليقرأوا له الفاتحة ، ويذهب إليه ناس ليضيئوا له الشموع . ولا يعرف أحد من الذى رسم رسما قديما على جدار ضريحه رسما منفرد لصليب ، ثم رسما منفرد لهلال ، ولا من الذى رسم على ذات الجدار ، قلبا ، بداخله هلال ، فى قلبه صليب ، يراه أبدا المارة والزائرون، القادمون دائما من قرى بعيدة ، وكفور نائية ونجوع .



.. عندما اقترح صاحبه المكان هفا وترقرق ، انتفض ما ظنه يباد وأندثر ، استعاد لحيظات مارقات لم يتوقف عندها منذ زمن طويل ، أمور دقاق إذا ما نطق بها وصرح عنها لن تعنى شيئا أبدا عند الآخرين ، بعضها لم يلفت نظره فى أنيته ، إنما استرجع واستدعى بعد الفوت والانقضاء ، كان توالى الظرف يجمع، أما الوقت فلا يسمح ولا يفسر ! ، لكن مع المثول بالذكرى تنتفض حقبة وتتضح مرحلة.

تلك ابتســــــامتها التهادية ، المشرقة ، القادمة من أغوار نائية يعسر فهمها ، تطلعها إليه، لمة عينيها العابرة ، حفيف ثوبها عند اقترابها ، قماش أزرق مرصع بزهور ياقوتية الحمرة ، يشوبها مس من بنفسج ، بسيط حتى ليبدو مما ترتديه أثناء اقامتها المنزلية المنزهة ، حقيبتها المصنوعة من قماش معلقة إلى كتفها ، تبرز منها صحف ، ملف أوراق ، وفى معظم الأحيان كتاب أو اثنان ، لم تخطئ مكانها قط ، تتجه إلى المقعد الوثير مباشرة، تسند مرفقيها إليه ، من موضعها تتطلع، يرى نظرتها نافذة ، ملطفة ، تعبر هذه السنوات كلها فكأنها لم تخب ولم تهن.

معها يستدعى الطرق المؤدية إليها ، عند قدومه مشيا من الأزهر ، ميدان العتبة التى كان عبوره وقتئذ ، يؤدى إلى سور الأزبكية ، يتجاور باعة الكتب والمجلات يعرف الباعة ويعرفونه.

أين ذهبوا الآن بعد اختفاء المكتبات ، وتآكل السور ، وتحول المكان إلى مركز لبيع الاقراص والحقن المخدرة ، والتربص بالعابرين.

كان يجد الوقت ليمر على مهـل مستعرضا العنـاوين ، مقلبـــــا



البهـــو

الصفحات شراء بعضها ؛ خاصـة ما يمكن أن يروق لهـا ، مع أن معظم قراءاتها كانت بالفرنسية التي تعلمتها منذ طفولتها، لكم قالت له باسمة : عرفت العربية من خلالك .

يقول محتجا ، مهونا : لكنك تتقنينها ..

ترفع أناملها فى الفراغ ، أطراف زهرة رقيقة .. تقول موضحة : أقصد جمالها ، سرها !

حرص على الوصول مبكراً يمضى بخطى متمهلة خاصة عند اقترابه من الفندق ، كأنه سعى إلى إطالة زمن ترقبها وانتظارها ، لظهورها حلاوة ، كان يعبر شارع الجمهورية يجتاز المر الفاصل بين جناحى العمارة ، تطالعه لافتات مسرح متروبول ، مع بلوغه مدخل الفندق ينتشى ، يبلغ المدى ، يكون مستعدا لتأدية المهام المستحيلة .

المبنى يدير ظهره إلى شارع الألفى ، جدرانه من طوب أحمر قاتم نوافذه خشبية مستطيلة ، تعلوها شرفات مدببة الحواف ، مزيج من مضمون عربى ، وإطار أوروبى .

المدخل يؤدى مباشرة إلى السلم العريض ، إلى اليمين مصعد عتيق الطراز ، لم يتغير ، واضح أنه معطل ، الأتربة تكسوه وبابه الحديدى منبعج قليلا ، غير محكم .

حـواف الدرجـات متآكلة ، رقت فى بعض المواضع ، ينتهى من ارتقاء الدرجات الأربع عشرة ، لكم احصاها ، ومرت عيناه بكل جزء ، لو يبوح الجماد ! يتوقف ليتلقط أنفاسه .

كان يصعده وثباً ، فارداً قامته ، حريصا على ولوج البهو قبلها ، جلوسه مبديا الهدوء ، مترقبا الدقائق والثوانى الحق .. إنها لم تتأخر عن موعدها قط ، إذا وقع طارئ تبذل الجهد لتنبئه ، أما ظهورها ، اجتيازها الهادئ ، سريانها صوبه فباعث على الترقى !

مكتب الاستقبال إلى اليمـين ، لم يتغيـر موضـعه ، مدخل البهـو إلى اليسار . لم تتبدل الجهات ، لكن ثمة شيئا خفيا يستعصى على الادراك ، لا يمكنه تحديده باللفظ ، ربما احساسه بالمكان .

يبدو البهو مفتوحا ، مباحاً ، لم يعرفه إلا ملموماً ، متدثرا بالضوء الخافت والظلال والتوقع الجميل .

ها هم ..

يجلسون فى الجانب الأيمن ، لكن فوق أريكة أخرى تواجه المقعدين المتقابلين ، لم تتبدل

الأوضاع ، ولكن ثمة أرائك اضافية فى الفراغات الفسيحة .

يصافح اثنان تربطهما به علاقة حميمة، أحدهما زميله منذ سنوات الدراسة الأعدادية ، افترقا عند دخول الجامعة ، لكن اتصلت المودة .

الثانى .. لا يذكر الظروف التى عرفه فيها مع عمق صلتهما ، ربما قابله فى النادى الثقافى للنقابة ، أو جمعية الفيلم ، كان ذلك منتصف الستينات ، عندما نشطت الندوات ، واحتدمت المناقشات وطال السهر الحميم .

الثالث .. اكبرهم سناً ، يراه للمرة الأولى ، استاذ جامعى ، مقالاته منشورة فى صحف ومجلات عديدة ، حجة فى مادته ، تاريخ العصور الوسطى ، عمل لمدة اثنتى عشرة سنة متصلة فى الامارات ، تقاعد بعد عودته بعامين ، لكنه مازال يعمل كأستاذ زائر فى عدد من الجامعات العربية ، وأستاذ متفرغ بجامعة القاهرة ، كما أنه يدعى إلى مؤتمرات تعقد هنا وهناك ، تربطه صلة قوية بصاحبى الثانى ، ولدا فى قرية واحدة لكن فى زمنين مختلفين يتطلع إليه ،وجهه غميق السمرة، متهدل الرقبة وما تحت العينين ، إذ يميل إلى الأمام يهتز رأسه حركة شبه دائرية ، تتزايد إذا ضحك .

يقول إنه سعيد بمعرفتى بعد أن سمع عنه كثيرا ، وأنه تاق إلى رؤيته ، خاصة بعد عودته وبقائه الآن شبه متفرغ ، قال إن صاحب صديقه يعتبر صاحبا له ..

اهتز رأسه بسرعة وهو يقول مداعبا : ويأخذ نفس الأقدمية ، ضحكوا ، صاحبه الأول كان يعرفها ، جاء إلى هنا مرة ، التقى بها كان سعيدا بلقاء من يحب بصاحبه ، كان خصباً ، متدفق المشاعر ، بادى الحماس ، لا يبدو على صديقه أنه يذكر شيئا الآن ، يقول إن الدكتور يقترح عليهم لقاءً أسبوعيا .

يقول أنه يقضى أوقاتا طويلة بمفرده منذ عودته ، عنده مشاغل عديدة ، أهمها مراجعة الرسائل العلمية التى يشارك فى مناقشاتها ، أو التى يشرف عليها .

يشير إلى مجلد أسود يضعه أمامه فوق المنضدة ، تبرز من الورق قطعة مستطيلة من الجلد الرقيق .

يقول إن ذلك لا يأخذ إلا جزءا يسيرا من الوقت ، وأنه جاء قبل الموعد بساعة ، شرب زجاجة بيرة ، وشغل نفسه بقراءة جزء مما سيناقشه بعد أسبوع ..

يميل صاحبه الأول هامساً ، اقتربا من بعضهما ، كان راغباً فى مشاركتهما لكنهما يؤثران



البهـــو

الحوار الجانبى ، مازال لقاؤه بالدكتور يمر بطور المجاملة ، يقتضى ذلك البحث عن أسباب لاتصال الحديث ، وهذا مضن له الآن .

يومئ متظاهرا بالاصغاء ، لكنه يتطلع إلى الأريكتين المتواجهتين لم يتبدلا لكن هل تغيرت الاغطية ، لون القماش بنى غامق ، الخشب المصقول .. المتصل بالخيزران المضفور ، كم تعاقبوا على الجلوس مكانه ، موضعها ، هل من آثار باقية منهما ؟

الاثاث باق ، طراز المصابيح ، السجاد ، لكن .. ثمة شيئا ما بدأ يدرك أول ملامحه ، إنه اتصال البهو بضجيج الطريق ، كل النوافذ مفتوحة ، لا يذكرها إلا مغلقة ، مواربة ، يمثل دائما عنده رطبا ، نديا ، حتى فى شهور القيظ ، فكأنه احتفظ بطقس خاص ، ربما كان مبعثه هى .

لا .. إنما كان عزل البهو عن صهد الطريق وضجيجه يحقق ذلك تبرز من الجدران صناديق أجهزة تكييف ، لا تعمل ، لم يرها من قبل ، حركة السيارات ، وضجيج متعدد المصادر ، والغبار والحر ينفذ مباشرة إلى البهو ، يكاد يطغى على الأصوات المتبادلة ، لم يعرفه إلا بصحبتها ، قالت إنها ستدعوه إلى مكان هادئ جدا فى وسط المدينة ، حميم ، أصحاب الفندق يمتون إليها بصلة قرابة ، قالت إنها اعتادت المجيئ إليه ، تجلس منفردة بدون أن يضايقها أحد ، أو يتطلع إليها انسان فضولى عابث ، تقريبا .. كان الرواد وقتئذ يعرفون بعضهم أما شخصيا أو بالملامح ، بدا البهو كواحة استثنائية فى وسط المدينة مع أن شارع الألفى المطل عليه لا تنقطع منه المركبات ، وقديما كان الترولّى باص قبل وقفه وازالة اسلاكه بعد تعاظم الزحام ، كان الخط رقم ثلاثة وثلاثين ، يصل بين امبابة والعباسية ، يذكر الرقم .. قال إن المكان فريد مثلها ، يشعر داخله كأنه متصل ببيته يألفه المارة منذ اللحظات الأولى .

ابتسمت راضية ، تطلعت اليه بعينيها الخضراوين ، البراقتين ، سريعتى الحركة ، عبر ربع قرن اطلت من ذاكرته هكذا ، دائما حيث لا يتوقع أو يحتسب ، فى ثباته ، فى حركته ، فى اقامته ، فى رحيله ، لا يمكنه ارجاع طلتها إلى وقت محدد ، أو تاريخ بعينه ، إنما تتجاوز محدودية الزمان وتعيينه .

يقول صاحبه الثانى

إن الدكتور ينوى العودة إلى الكتابة فى الصحف والمجلات ، ماذا عن رأيه ؟

الحق إنه لم يعرف بانقطاع الاستاذ أو سبب توقفه ، ولا يذكر آخر مرة قرأ له مقالاً ، لكنه سارع قائلا إن المناخ مناسب ، يسأل الدكتور عما إذا كان الوقت ملائما ؟

يقول إن مساحة الحرية الآن أفضل .

يهتز رأس الدكتور أثناء تساؤله عما إذا كان المناخ حقيقيا ؟

يقول صاحبه الثانى إن الأستاذ لديه أفكار هامة عن قضايا مختلفة ، مثل تعمير الصحارى ، وزيادة السكان ، والطرق الدائرية حول العاصمة ، وتنشيط انتاج وعرض الأفلام التسجيلية ، ونقل ورش الحرفيين فى ضواح جديدة قريبة من العاصمة ، ومشاكل النقل النهرى ..

يتمتم بعبارات استحسان ، إن تعبا مفاجئا يحط داخله ، لم ينم بعد الظهر ، عادة يرجع مرهقا من عمله ، لم يعد جسده يحتمل المشاق المتصلة ، وصل الصباح بالمساء ، عندما أخبره صديقه باللقاء أفاض فى الحديث عن الدكتور ، عن علمه ، استاذيته التى عرفها ، طلابه ، افتقاده بعد سفره إلى الخليج ، لقاء جيد ، لكن ما شجعه اختيار المكان .

رفرف عنده ما خبا وكمن ، دخولها السريع ، اتجاهه اليها مباشرة ، مستحيل تكراره الآن ، كانت تستدير حول المنضدة ، تسند حقيبتها، تجلس فى الموضع نفسه، عند حافة المقعد ، تميل قليلا إلى الأمام ، لا يستعيدها إلا ويرى ما يحيط بها خلو تماما ، فى البهو تتوزع الارائك المستطيلة والمقاعد ، بعضها أصغر حجما ، صممت الجوانب على هيئة انصاف البراميل الخشبية ، الابسطة يغلب عليها اللون الياقوتى المغبر ، كلها من طراز واحد ، منقوشة بوحدات هندسية متساوية باللونين الأسود والأصفر الفاتح ودرجات أخرى من الأحمر القاتم .

يقول الدكتور إنه يخشى استخدام عربات الأجرة ، ولا يتعامل مطلقا مع المواصلات العامة ، أما السيارتان اللتان عاد بهما من الخليج فتقفان تحت البيت ، فى مواجهة المدخل مباشرة، إحداهما من أحدث طراز ، ذات سقف متحرك ، لكنه لا يقود أيا منهما ، فقط يقوم بإدارة المحرك حتى لا تتوقف البطارية .

لماذا ؟

يقول إنه يعانى خوفا غامضا من أمور عديدة ، يخشى شغل مكانهما ، السيارات كثيرة ، والجراجات قليلة مزدحمة ، وأماكن الانتظار مشغولة لكن ..



البهو

يمكن الاتفاق بشكل ما مع أحد الجراجات القريبة .

قال إنه لم يحاول ، الأقرب على بعد ثلاث نواص وأربعة شوارع ، يعبر أحدها خط المترو الرئيسى . يخشى عبوره ، ربما يقع له حادث ما ..

يتراجع إلى الوراء . بحركة مفاجئة من قدمه يتخلص من فردة الحذاء الصيفى . لايرتدى جوربا . يثنى ساقه تحت ركبته ، بعد أن ينحنى مدلكا مابين أصابعه .

فى مساء اليوم نفسه وأثناء اتصاله بصاحبه الثانى أبدى دهشته من أطوار الرجل . ضحك صديقه ، قال إن مالم يعرفه أغرب ، منذ عودته وعنده أحوال شتى من الخوف والحذر ، إنه يمضى معظم وقته فى البيت ، يخشى الخروج خوفا من توقف المصعد فجأة أو انزلاقه فوق الدرج واصابته بكسر يضطره إلى الرقاد فى سنه يتسبب الاضطجاع إلى وهن الرئة ، وينتج عن هذا التهاب يؤدى إلى الوفاة . يحذر أيضا هجوم اللصوص عليه ، خاصة أنه يعيش بمفرده منذ ستة أشهر بعد سفر زوجته إلى ابنتها الوحيدة المقيمة فى كندا والتى تزوجت من أستاذ لبنانى تعرفت إليه أثناء دراستها هناك . يشرب الماء بحذر، يقرأ كثيراً عن تلوثها وما تحويه من ميكروبات ، أما المياه المعدنية حتى المستورد منها . فبعضها يسبب السرطان . لايتناول أكثر من كوبين يومياً ، شتاءً وصيفاً ، مهما أشتدت درجات الحرارة ، طبيب أفغانى نصحه بذلك ، لأن الماء يمثل عبئا على القلب ، ومن الأفضل الاكتفاء بحاجة الجسم الضرورية، إذ يركب عربة الأجرة يجلس فى المقعد الخلفى متطلعا بهلع إلى العربات المارقة ، يمد يديه بين لحظة وأخرى مستنداً إلى المقعد الأمامى راجيا السائق أن يتمهل ، خشية وقوع حادث ما يصيبه بكسر فى العظام ، لا ينزل إلا بصحبة صديق وهذا الموعد تم بالحاح منه فالوحدة ضاغطة ، والصحبة شحيحة آخر ما يقلقه ، الخوف على رصيده فى البنك ، أنه يحمد الله دائما ويشكر فضله إذ ألهمه الصواب ، عندما رفض إيداع قرش واحد فى شركات أصحاب اللحى ، وقد جرى ما جرى بعد انكشاف أمرهم ، لكنه يسمع كثيرا عن فساد البنوك .. يقول الدكتور ..

– هذا مشهد لا يمكن

أن تراه فى الإمارات .. شاب يرتدى قميصا أسود ، فتاة طويلة ترتدى الجينز ، شعرها طويل ، فى ملامحها شهوة خبيثة ، تميل إلى الوراء ، تجلس منزلقة إلى أسفل ، ممددة ساقيها ، تشعل سيجارة تتطلع إلى زجاجة بيرة مثلجة مغبشة وضعت أمامها ، وطبق الفول السودانى ، تجلس فى موضعها .

فى المقعد الذى احتواه دائما واستعاده مرات فى ذاكرته ، وطاف به أثناء نوبات حنينه .

– لكن يقال إن الخمور موجودة ..

يقول هامساً : كل شيء موجود .. لكن فى الخفاء

عمر الفتاة يدور حول العشرين ربما لم تولد عندما جاء إلى هنا آخر مرة ، قبل سفرها النهائى كانا يجلسان متواجهين أحيانا يميل تجاهها بينما تتشابك أصابعها ، تدير ابهاميها حول بعضهما ، ترق ملامحها مع استمرار نظراتها، فتبدو كأنها تتطلع صوبى من إطار أيقونه عتيقة ، أو منمنمة فى مخطوط ثمين ، بمجرد جلوسها تتطلع صوبى ، ثم تطلق آهة قصيرة محملة بالدلالات ، تقلب حقيبتها المصنوعة من القماش ، أحيانا تأتيه ببطاقة مصورة جميلة ، أو مستنسخ للوحة شهيرة ، أو كتاب بالفرنسية تقرأ منه صفحات رأت أن تحطيه بها علماً . كان يصحب معه دواوين شعر قديم ، كانت تصغى إلى قراءته ، تومئ ، تلفظ آهتها المقتصدة ، لكم رددت أنها على يديه عرفت تلك القصائد كما لم تعرفها من المدرسة ..

يميل الدكتور قليلا ، يسند طبق الخيار المقشر فوق المجلدين ..

– هل تعرف الدكتور علاء صدقى ؟

– الطبيب النفسى ؟

– نعم ..

– طبعاً .. ابن عمى ..

يتراجع إلى الخلف مردداً .

– ماشاء الله .. ماشاء الله ..

تتحرك الفتاة ، تتجرع البيرة ، لاتمسح الرغاوى البيضاء التى علقت بشفتيها ، يبدو صاحبها منكمشاً ، أقل حجما وحضوراً ، يحيط عنقه بسلسلة ذهبية ، من شكل الجلسة أو المشية يمكنه الاحاطة بكنه صلة ما .

هل تربطهما صلة قرابة ؟

لايظن

صداقة ؟

لكنه ماله يبدو متخاذلا ، بل مكسور العين؟

تنتبه إلى تحديقه تجاهها ، تتطلع ناحيته ، عيناها واسعتان ، كأنها – تقول بحركة يدها وكتفها ، واخده بالى



البهـــو

منك » ، فى ابتذالها شىء مثير، تضحك ، ابتسامة جانبية موجهة إليه ، صاحباه بمنأى ، لم يلحظا شروده وتردد نظراته ، الآن .. تتطلع إليه مباشرة تتخذ أوضاعاً متتابعة ، يبدو صاحبها لامباليا ، أما هى فتسفر عن تواطؤ علنى .

يقول الدكتور :

– أتمنى لو أتيحت الفرصة لأتعرف به .

يقول إن اسم ابن عمه فى الخليج مشهور جداً ، لاتخلو مجلة من صورته ، يستطلعون رأيه فى مشاكل الزواج والطلاق وأمراض الفنانات ، ومشاكل التربية، والأمور العاطفية، وأحيانا السياسية كما أنه دائم الظهور فى البرامج التليفزيونية ، لهذا حرص على مقابلته اليوم عندما علم بصلة القرابة من صديقيه العزيزين ..

– لكن .. أهم مالفت نظرى إلى مكانته ، اشادة سمو الشيخ وكيل الديوان الأميرى به ، قال على مسمع منى فى اجتماع رسمى إنه أرسل طائرة خاصة إليه ليكشف على ابنه وكان شفاؤه على يديه ..

يهتز رأس الدكتور ، يبدو صوته ممتلئا بالفقاقيع ، يود لو يحيد ببصره بعيدا عنه ، لماذا ينهمك صاحباه فى حوار جانبى ؟ ، قشور الفول السودانى فوق الجلد الضخم كانت تنبئه بما صدر من كتب ومايقام من معارض ، وإذ تنهى ترجمتها الفورية يطلب منها ضاحكا أن تقرأ مقطوعة بالفرنسية ، كان يحب جرس اللغة ، ايقاعها ، تأنقها ، تمهلها، دقتها فى النطق ، مع جرأتها واعتدادها غير أنها تبدى خجلا ، لكنها تلبى .

كان يبدأ حديثه بملخّص الأنباء كما اعتاد تسميته فيذكر أهم ما مرّ به ، فى عمله ، فى محيط سكنه ، مع صحبه ، كان يتحدث عنهم بانفعال ، فكأنهم امتدادات له ، يتحدث عن سهراتهم فى الحسين ، وصلهم الليل بالنهار ذهابهم إلى عملهم بدون رقاد تفيض عيناها فضولا ورغبته فى المشاركة ، لكم حدثها عن صاحبيه المشغولين تماما عنه الآن، كانوا يلتقون فى كل ليلة أو بعد انتهاء أعمالهم ، فى الظهيرة ، يجوبون شوارع القاهرة معا ، من مقهى إلى مقهى ، وفى المساء أما إلى سينما أو إلى مسرح، كانت الأوقات عامرة ، ولا يفترقون إلا مرغمين يصعب تدبير اللقاء الآن ولو مرة فى الشهر ،

يكتفون بالهاتف ، كثيراً ما يرغب فى إنهاء الحديث ، العودة إلى الصمت ، بعد سفرها كانت تذكرهم بالاسم ، لم تنس حتى آخر خطاب وصله منذ خمسة عشر عاما تطلب ابلاغهم السلام ..

– أنت لاتتصور قيمة هذا وتأثيرة هناك ..

– قيمة ماذا ؟

– أن يشيد به سمو الشيخ علانية ..

– إلى هذا الحد ؟

– طبعا .. طبعا .. لكن ألم تنشر الصحف هنا أنه أرسل طائرة خاصة .

– لم أقرأ .. لا أظن ..

– خسارة .. والله خسارة ..

يتقدم النادل ، دون الثلاثين ، قميص أبيض بنطلون أسود ، رباط عنق أفرنجى ، كأنه يعرف الفتاة ، لم تبدل وضعها ، فرطت جسدها ، ساقاها تحت المنضدة . أردافها تلامس حافة المقعد ، على وشك ملامسة الأرض ، زجاجة بيرة ثانية ، يصب الكوب بحذر ، على مهل يتطلع إليها بنظرات تحتية ، على ملامحه ظلال ابتسامة خبيئة لاتسفر تماما ، أما الشاب فينقل البصر إلى اتجاهات شتى ، النادل يغمز بعينه .

– طبعا . ستنقل اليه ماسمعته ..

يومىء بدون نطق ، أنه مكتظ بالشجن ، ترى .. أين ذهب النادل القديم ؟ ، تهلله اذ يراه . كان نوبيا عتيقاً ، يميل إلى بدانة عنده عرج خفيف ، يرتدى جلبابا ناصعاً ، حول خصره حزام أحمر ، يتحدث إليه قبل وصولها ، يخبره عن ابن وحيد يقيم الآن فى ألمانيا ، عشقته شابة جاءت إلى أسوان سائحة ، تبعها ، يعمل هناك سائقا على عربات النقل الضخمة ، يرسل صوراً ملتقطة له فى بلدان مختلفة . عنده طفلان ، الولد أكبر والبنت أصغر ، الصبى أسمر تماما كأن أمه أيضا نوبية، لكن البنت تشبه أمها أكثر . دائما ينهى حديثه بحمد الله وشكره ، مؤكدا أنها مستورة ، وأنه لايهمه إلا سعادة ابنه واستمتاعه بالدنيا ، ابدا .. لايريد منه شيئا ، إذ يلمحها قادمة يبتسم مرحبا ، يفسح الفراغ مابين المنضدة والمقعد ، لم يسألها قط عما ترغب فى شربه ، كان ملما بما تفضله ، عندما أبدأ اسماعها الشعر يقترب ، يقف على استحياء فتدعوه باسمه ، يهز رأسه شاكرا ، يطلب أحيانا تكرار مقطع أو بيت ثم ينصرف فجأة مردداً : ياسلام .. ياسلام ..

– هل يمكننى مقابلة سعادته لأخبره بنفسى ؟

جمال الغيطانى



- ١ -

عندما دلفوا إلى القطار كانوا يعتقدون أن القطار ليس قطارا ، بطن كالح فارغ ، وصوته مكتوم أيضا ، حتى القضبان ذاتها - لم تكن فيما يبدو - منتظمة التوازى ، أو ربما كانت بقايا قضبان مخلوعة من سكك أخرى ، ولما إنخبطت السيقان فى الركب صاح فيهم الشرطى الشرس - له شوارب كثيفة أيضا - بألاّ يستعجلوا لأن القطار سوف يقف بما فيه الكفاية ، وماكانوا يستطيعون مفاداة التخابط ، لأن القيود ظلت تحول دون مرونة حركتهم ، حتى عندما اتضح لهم أن كل مقاعد القطار خالية وتحت أمرهم ، وجلسوا - أحدهم كاد يسقط على الآخر فصلصلت القيود - فى أول مقاعد ، أمرهم الشرطى أن يقوموا ، فقاموا ، وعند منتصف العربة أمرهم بالجلوس فجلسوا ، ونظر الشرطى إلى النوافذ ، كانت كلها محطمة دون خشب أو زجاج ، ودون أية أسياخ أو عوارض تحول دون القفز منها ، فاضطرب الشرطى قليلا وتعمّد ألاّ يترك المقيدين فرصة أن يدركوا ما جال فى خاطره ، وأمرهم من جديد بأن يجلسوا مع أنهم كانوا قد جلسوا ، الثلاثة : الأوسط الذى ظلت ذراعه اليمنى مغلولة من المعصم فى معصم رفيقه الأيمن ، وذراعه اليسرى مغلولة من المعصم فى معصم رفيقه الأيسر ..

وجلس الشرطى قبالتهم ، هكذا تقضى تعليمات الأمن حتى يظلوا فى مجال رقابته ، وأخرج الأيسر علبة سجائره بيده الحرة وحاول أن يخرج واحدة لكن العلبة إنفرطت فوقعت على الأرض سجائر كثيرة وأمرهم الشرطى بجمعها ،

فتحرك الثلاثة حركة قلقة مناسبة ساعدت على أن يجمعوها ، وأن يضعوا بعضها في أفواههم ، وأن يلقوا بواحدة للشرطي ، فوقعت على الأرض ، حينئذ إنحنى الشرطي وتناول السيجارة من فوق الأرض وهو يسب ويبرطم غاضباً .

ومرت فترة طويلة ، قبل أن يصبح القطار قطاراً ، فقد إندفعت جماعة عابثة دخلت العربات وخرجت منها وهي تضحك وتتناهش ، ثم أفراد تفرقوا على المقاعد وهم يسألون عن موعد قيام القطار ، وكانت الإجابة متعددة ومتناقضة وغير ميسور تحديدها ، الآن أو بعد ساعة أو بعد يومين ، فقطار المرح مثله مثل غيوم الشتاء ينقشع في عز البرد ويتواكب في عز الدفء ، يمكن لك - وبالتأكيد فإنك استخدمته - أن تراه ذاهبا آتيا طوال الساعات في ضجة وصخب ومرح ونشاط ، ثم تراه وقد ركن في موقع ، فتعتقد أنه سوف يواصل المسيرة بعد قليل ، وتذهب إلى مشاويرك ومهامك وتعود فتجده لايزال واقفا ، ليس واقفاً فقط ، بل يظل واقفاً وهو يهدر ويصرخ ويملؤك بالإحساس المؤكد أنه في طريقه للقيام لدرجة إنك تلهث جاريا إليه وقافزاً فيه ، ومع ذلك فإنه لا يتحرك ، وأصبح على الذين أجادوا استخدامه أن يتركوا له أنفسهم دون شد وجذب وكلام أو توتر : يطلع .. أوْ لا يطلع ، وتضع رأسك - مثل واحد من المقيدين في الأغلال - على ورك الذي بجوارك وتفرد طولك وتنام .

وبالطبع كان صعباً على المقيدين الثلاثة أن يناموا جميعاً في نفس الوقت ، ولذا تركوا ثالثهم ينام تاركا ذراعه المقيدة بين أحضان الثاني ، وكان واضحاً أن الشرطي تعود على هذا القطار حتى أنه لم ينبس بكلمة ذات معنى ، مرة أو مرتين هش عيالا دخلوا وتقافزوا ، ثم ركن نفسه على مسند القطار فخشى أن ينام ، وحينئذ أنعدل وصلب جسده في يقظة واضحة .

لكن ذلك لم يدم طويلا ، فقد دخلت العربة امرأة ، من أول لحظة شدت العيون الكليلة القليلة ، ضخمة وارفة ترتدي أسود الجنوب أو أسود الفجر أو أسود الأرياف أو أسود المدن ، ورمقت الجالسين أو النائمين بعيون واسعة ثم إنخرطت إلى مكان وجلست في هدوء ، نظر إليها الذي هو نائم والذي يجلس قبالتها والذي يعابث صديقه ، ثم لم يبث الجميع أن استكانوا منصتين لصوت القطار آملين أن يتحرك ، فعاد الشرطي للبرطمة الخالية من الحروف ، وأخرج سيجارة من جيبه

ووضعها فى فمه ، ثم قام ووضع يده فى جيب المكبل بالقيود - وهو الأوسط - وأخرج منها « علبة كبريت » ، وقبل أن يعود إلى مكانه ، أشار له الأوسط أنه فى حاجة إلى دورة المياه ، حينئذ إنفعل الشرطى - بصوت يبرطم أيضاً ، ثم مالبث أن صاح إنهم كانوا فى الخلاء ، فلماذا يريد المرحاض الآن ، وظلت عيون كثيرة معلّقة بالشرطى ، كان إنفعاله مفهوماً ، لكنه ، ماذا يفعل غير أن يحرّك المقيدين الثلاثة ، ويصحبهم إلى دوْرة المياه الضيقة كى ... ، فأشار واحد من الأحرار - أى الجالسين دون قيود - وقال فى نية حسنة : ياأخى فُكّ القيد .. ، ولم يكمل فقد نهره الشرطى أن يلزم حدوده وإلاّ .. ، فلزم الجميع الصمت ، ولم يجد المكبّل وسيلة سوى أن يقف ، ويحاول أن يُنزل ملابسه ، فانزعج



الناس ، وعاد الشرطى إلى غضبه ، وقام فصحب الثلاثة إلى المرحاض ، ليستطيع الأوسط - بقدرة قادر - أن يدخل نصف جسده ، وذراعاه مسحوبتان للخلف - وأن يقضى حاجته على باب المرحاض ، وظل الجميع صامتين ، وحين عادوا إلى أماكنهم وجدوها قد احتلت بآخرين ، فغضبوا جميعاً وكادوا يتماسكون مع المحتلّين ، فى اللحظة التى بدأ القطار يتحرك ، ويزحف ، والتى فيها أيضا إمتلأ القطار بالناس عن آخره ..

- ٢ -

حركة القطار إمتصت كل التوتر والجلبة وقال واحد بصوت عالٍ إنه يستطيع أن يتحمل حركة

القطار وهو يسير يومين ولا يتحمل وقوفه خمس دقائق ، فلم يرد عليه أحد ، وإنزرق رجل معه قرد إلى الداخل مع أن القطار كان فى سرعة لا تساعد على التعلق به ، وإعتقد الناس أن الرجل سوف يبدأ جولة جمع النقود تحت توقيعات الرّق وترقيص القرد ، لكن الرجل جلس فى أرضية العربة – كان يمكنه أن يجلس على مقعد – وأخذ القرد فى حضنه وظل صامتا غير مهتم بالوجل الناتج عن دخولهما ، وعاد الشرطى لإنفعاله حينما طلب منه واحد من الثلاثة المكبلين – أعتقد أنه الأيمن – الذهاب إلى دورة المياه ، ولعن الشرطى أباهم جميعاً وأبا الذى وضعه فى هذا العمل الردئ ، وضحك أناس وسخر أناس ، لكن الشرطى لم يجد مفراً من رفض الطلب وظل متبرما فقام أحدهم بخلع سرواله بيده الحرة دون وجل ، فانتشرت الرغبة فى المهاترة فى كل المكان ، وصرخ واحد محتجاً وواحد مُصدراً أصواتاً من أنفه غير مهذبة ، وقلد واحد صوت بكاء طفل فإنهمرت فى الجميع ضوضاء تقلد الأطفال ، ورمقت المرأة وجه صاحب القرد ، الذى ظل محتضناً قرده والرق فى يده يتذبذب بين حين وآخر ، هذه الذبذبة التى تحولت فى هدوء – رغم الجلبة – إلى إيقاع هامس خافت دقيق ، إيقاع ناعم مثل دبيب شخللة الأطفال أو زقزقة العصافير ، بدأ التوقيع واهناً لكنه كان ملحوظاً ، تسرب إلى الناس فابتلعوا سخافاتهم وبقايا تعليقاتهم ، وانصتوا دون إحترام كبير ، حيث عادت التعليقات فتوقّف الرجل عن التوقيع ، وتململت المرأة الجالسة وظلت صامتة ، وسوّى واحد من المعتقلين ورك جاره وعاد للنوم عليه .

غير أن مجرد عودة الرق للصمت جعل الناس – كل الناس – ينتبهون ، فعاد الرجل من جديد يعابث الرق بأطراف أصابعه ، كان الجو خانقاً وإيقاعات الرق تعلو قليلا ثم تخفت ، ونظر صاحب القرد إلى المرأة طويلا ، فتعلقت عيونهما ، وظل القرد يرمق الجميع بحركات عيونه الدائبة رَمْشاً ، يود لو يخرج من وكره فى حضن صاحبه ، هذا الذى عاد يعابث الرق ، فتبدأ الدّقات تتصاعد ، وكلما تصاعدت إنخفض الضجيج ، حتى القطار بدا أنه يهابر كى يبتلع خبطات ضلوعه فى القضبان ، وكان الشرطى لايزال مشمأنطاً ضيق الصدر ، لكنه – لم يلبث أن استرخى ، حينئذ تسلل صوت أجشّ ذو نتوءات من العذوبة :

أنا اللى جرحنى

برمشه وخلاني أيات مكوى قعدت أعالج فى قلبى والفؤاد مكوى لمّا إنت مش قَدّ الرموش ماكان بلاش النظر وبلاش تعاتب حبيبك جّوه الفؤاد مكوى .

وكاد صوت ساخر أن يقطع هذا البوْح لكن واحداً صاح : هُسْ ، فقد كان الصوت الذى يغنى هو صوت المرأة الجالسة بعيدا ، وعندما عادت لتغيير اللحن عند وصولها إلى – ماكان بلاش النظر – صاح أناس : الله ، وبدأت أصابع صاحب القّرد تَغيرٌ وتنوّع فى إيقاع الرّق ، لتعود المرأة الجالسة بعيدا إلى إرتفاع خجول فى الصوت ، هذا الصوت الذى نثر العذوبة الخشنة فى المكان ، فأعاد الجميع تربيح أجسادهم فى مواقعهم ، وإنتصبت أجساد المقيدين وجلسوا جميعاً دون أن ينام أحد على ورك جاره ، وتلوى القطار على قضبانه .



هادئا قليل الضجيج ، وزاد الرق انفعاله فبدأت إيقاعاته تعلو أكثر ، وتتناثر الدقات الرقيقة مفروشة أمام الصوت المنساب ، وياللّى فرشت لك عيونى فى ضلّها ترتاح ، ساايبنا فى البرد ورايح فى الدفا ترتاح ، ماكانش لازم تغادر والقلب مش ناقص ، ده القلب سلّمك نفسه بالضّبة والمفتاح ، الله ، وعاد الرق إلى صمته ثم اندفع أكثر ، واشرأبّت الرقاب كلها معجبة وممعنة فى المرأة التى تغنى بعيداً ، والرجل الذى يدق الرق فى مكان أبعد ، والنغمات تتضوّع فى جو المكان ممتصة اختناقه لكن الصوت هذه المرة لم يصدر من المرأة ، بل جاء من المقيدين ، بالتحديد

من الثانى الوحيد المكبلة كلتا يديه ، أنا كنت وردة تفتح قلبها لنداك ، حيطان جوامع وزنازين لانت زى الندى لنداك ، ماكنت قاعد فى حالى ألعب مع الأنداد ، إيه بس خلاً القلب يفتح فتحته لنداك ، كان الرجل يغنى وقد أغلق عيونه ، وحاول أن يرفع يده ليضع كفّه على صدغه إتقاناً للعودة فى الغناء ، فاكتشف أن يده مغلولة ، واضطرب الصوت وإختنق بالشجن ، حينئذ رفع يده المغلولة فى معصم جاره ووضعها على صدغه ، ويد جاره معلّقة فى هواء القيود ، وكان المنظر قاسياً وساخراً وهازئاً ومفهوما لكن الرجل عاد إلى إغلاق عيونه مثقلا بإرتفاع يد جاره ، وإندهش الناس وكأنهم لم يكتشفوا أن الرجل مقيد ومكبّل من معصميه سوى الآن ، وعاد الرجل يجلجل بصوته الذى كان محبوساً ، وإنسابت الأغانى من الفم إلى الصدغ إلى المعصم إلى القيود ، والناس يمعنون فى هذه القيود التى تصلصل محدثة أصواتا جارحة مرهقة مع ايقاعات الرّق وذبذبات الصوت ، وعندما عادت المرأة - من جديد - تركب اللحن تخفيفا عن الرجل ، بدا واضحاً أن المكان أصبح تحت سطوة هذه الحناجر المتباعدة ، فقد وقف الرجل شادّاً زميليه بقسوة ، وقف وكأنه لا يستطيع التفاعل إلا إذ غنى واقفاً بل ورفع يده ليضع كفه على صدغه فاستحال عليه الذى كان ممكناً وهو جالس ، والشرطىّ أسقط اشمئناطه فى أرض العربة وظل هائماً فى هذا الشجن المتدفق ، لدرجة أن الرجل عندما ركب لحناً جديداً على إيقاع للرق مغاير ، كان ينظر فى عيون الشرطى ، واللى كواه الليل بالشوق ما يعرف للنهار راحة ، والشفةّ اللى تاكل ماتعرف للعشق راحة ، والايد اللى تتقيد ماتعرف للغرام راحة ، وإن كنت مش فاكر عذابى يبقى أنساك راحة ، بل إن صاحب الرق - أو صاحب القرد - وقف تاركا القرد يلعب بسلسلته بين أقدامه ، وخلص تماماً للنقر على الرق بشكل أكثر راحة وتجاوباً وتفاعلاً ، وحتى الذين وقفوا فى العربة وجدوا الآخرين وقد تزحزحوا ليجلس الجميع ، وتجاوبت أصداء الغناء فى كل ركن وجسد وقلب ، المرأة الجالسة - الوارفة - تستقبل اللحن وتغذى به جوانحها ثم تجتره ليتلقاه الرجل المكبل فيفرده ممتدا على مساحة اللوعة كلها ، وصاحب القرد يزغزغ فى الألحان وتنويع الإيقاع ليرد اللحن للمرأة ، الله ، والناس يمصمصون ويهمسون ويصمتون ، واليد المكبلة

ترتفع لأعلى لكى تصل الكف الصدغ فيحس الجميع بأن كل هذا التفاعل مجروح بصليل القيود ، هذه القيود التى قام العسكرى إليها فأدخل فيها المفتاح ، أدخله فى رقة وحنو لايقطع عن المغنى اندماجه ، وأخذت القيود تصلصل كأنها زارازير تنطلق ، وعاد الشرطى إلى موقعه حيث ألقى القيود بجواره ، وأخذ يصفق فى حبور فصفق الجميع ، وكان الإجهاد قد بدأ يستشرف الطريق على وجه المرأة فأعادت تسوية غطاء رأسها ، وبدأت تركب لحناً جديدا .. وجاويها هذا الذى حرّر حديثاً دون أن يضطرب حينما وجد كفه منصاعة سلسة مفرودة الأصابع فوق الخد والأذن ، فقط إندفع الغناء أكثر شدوا وأعمق شجناً ، يلف الصوت فى منحنيات الغربة والسهد وأرق العشق والهجران ، ويعاتب الزمان والعوازل والذكريات هائماً فى الفلوات ، يحرك ذراعيه كلما تدحرجت الكلمات من لسانه مخترقة الأفئدة المعذبة المستعذبة وتترك فراغات بين كل لحن وآخر كى يبرز صاحب الرق مفاتن إيقاعات الرق ، فتتناول المرأة آخر الإيقاع لتنغمه ناعماً دقيقاً ساخن الشوق كأنها تغسل به ضجيج القطار ، الله ، ويكون الرجل قد تهيأ ويدأ من جديد . ما أنا عارف بساتينك كلها أشواك ، وإيه فايدة الريحة من غير بساتينك ، ده إنت اللى كنت طول العمر بستانى ، صوابعك كلها دامية من الأشواك ، وتنصهر الأنفاس فى القلق الشائك المشتاق المكدود ، والقطار يقف ويستقبل آخرين ويغادره آخرون ، وبين الآخرين والآخرين تتضوع الأنفاس بالغناء والشدو والتصفيق ..

ثم وقف القطار

وجلس الرجل محتضنا قرده ..

ونزل أفراد ...

وجلس الرجل وسط رفيقيه ، وبدأت الضجة تعود والسكوت يعود ، والألفاظ النابية تعود ، والسخرية تعود ..

وامتدت يد الشرطى إلى الأيدى الأربعة اليد اليمنى فى يد الأوسط اليسرى ، ويد الأوسط اليمنى فى يد رفيقه اليسرى ، وأغلق الشرطى القيود جيداً ، وعاد إلى موقعه ، حاول الأوسط أن يخرج سيجارة ، فأخرجها له رفيقه بيده التى بلا قيود ..

وتحرك القطار ، وكان الحزن قد حط على المكان تاركاً أصوات القطار ضاجة تعصف ، وتدك ، ليصبح القطار قطاراً .

المحفظة يا عالم ثالث



قصة :
مجيد طوبيا

.. وهـــذا وجـــه شــــمبانزى ، عينـــان غائرتان تحيطهما تجاعيد عميقـــة . مســتحيل أن يكون وجـه شمبانزى . لســت فى حديقـــة الحيوانات ولا فى السيرك ولا فى الأدغال .. إنه وجه انسان .. وجهان .. ثلاثة .. دائرة من الرءوس .. دائرة علوية وأنا أسفلها .. ماذا حدث لى ؟.. وقعت على الأرض البـــاردة الصلبة .. أنا ممدد فوق البلاط !

الآن ظــلام . ظــلام الآن . أسمع غمغمات ، همهمات . أسـمع كــلاما مضـــغوطا متـــداخلا ، طنينا فى أذنى ، صفيرا .. الشمبانزى يقول : الباشا اللواء .. أنا هو الباشا لواء شرطة متقاعد .. ماذا يفعلون بى ؟.. أحدهم نشالا .. يفتشنى .. نعم يفتشنى .. يجب أن أقاوم .. سأقاومه .. جسدى يعصى أوامرى ، الطنين يعذبنى والصفير يؤلمنى . سوف أفتح عينى وأحدجه بنظرة صارمة ترعبه ، أنا أتقن هذه النظرة .. سوف أفتح عينى .. مازال الظلام .. حتى جفونى تعصيانى !. خِرِع ، صرت خِرعا .. لواء شرطة .. متقاعد .. عبد .. عبد الـ ... أنا يا أولاد الكلاب .. المحفظة .. أعيدوها وإلا .. لن تفلتوا بها .. إسمى يبعث الرعب .. إسمى عبد .. عبد القوى مطاوع .. هل ارتعبتم ؟؟

لكن جسدى يعصى أوامرى .. وكثيرون يريدون الانتقام منى .. الطبنجة الميرى ليست معى .. وحتى لو كانت معى ! الآن أرى ضبابا ، غيوما ضئيلة ، دائرة الرءوس .. كثيرون يريدون قنص حياتى .. وجميعهم مجرمون أولاد زوانى .. هذا الوجه أعرفه .. البواب .. بواب العمارة التى بها الطبيب !.. الظلام يعود من جديد وأنا راقد فوق البلاط البارد أمام عتبة أخصائى القلب .. وجدت الباب مغلقا فوقعت .. أهى أزمة قلبية ؟! أزمتى القلبية الثانية ؟

***

كان لى شباب وحيوية وعزم وحسم .. وفى صدر شبابى كنت بطلا فى رفع الأثقال وهرب منى المجرم عباس .. ويقولون كم فى الحبس مظاليم !.. كل مجرم يزعم أنه مظلوم .. كنت برتبة ملازم ، تسلمت بعض المحبوسين على ذمة قضايا ، لنقلهم الى المحكمة ، فى الطريق هرب عباس ، غافل العساكر الحمير وهرب ، صار مستقبلى على كف عفريت . طلبت من رؤسائى مهلة يومين ، داهمت داره . طبعا لم أجده . أخذت زوجته الى القسم . كانت شابة جميلة. معظم زوجات المجرمين جميلات . معتادو إجرام ويفهمون فى الجمال !.. سألتها عن مخبأ زوجها .. قالت

لا أعرف .. لطمتها بكفى اليسرى . قالت والله لا أعرف . رفستها بقدمى اليمنى . كنت أعرف أنها لا تعرف .. ولكن ؟..

ماذا يفعلون بى الآن ؟!.. أتركوا المحفظة يا أولاد الكلاب . يحملوننى .. ماذا أرقدنى أرضا ؟! رأيت باب العيادة مغلقا على خلاف العادة ، عيادة أخصائى القلب .. ثم كانت الإغماءة .. الآن أتذكر .. أنا فى حالة إغماء .. جسدى خامل خرِع ولكن ذهنى متوقد ، وكثيرون يريدون قنص حياتى ، منهم عزرائيل والعياذ بالله !!

زوجة عباس قالت لا أعرف . لطمتها ثم تركتها متكومة الى جوار الحائط . قبل المغرب أمرت بتعليقها من معصميها . شققت ثوبها من أعلاه الى أسفله . بان جسدها متناسقا تحت قميص غالى الثمن . جميلة فعلاء زوجة الخنزير عباس كانت بديعة الجسد . وقتها كان يشغل بالى انقاذ مستقبلى وإعادة زوجها الهارب . تركتها حتى توافد أصحاب السوابق الموضوعون تحت المراقبة . بينما هم يوقعون أو يبصمون فى دفتر المساء نهضت بالعصا وضربتها على ساقيها وبطنها ثم نهديها ، ضربا خفيفا لكنها تلوت تتأوه . أنكر الآن . تأوهت كأنها فى نشوة الجماع !.. عذاب الألم يشبه لذة المتعة ، وهذا تعبير جميل ، لابد أن أكتب مذكراتى !

فى الصباح الباكر خرج أصحاب السوابق ، وطبعا حكوا ما رأوه ، حكوه فى أوكارهم . وصل الخبر الى رجلها الخنزير فى مكمنه . قالوا له الضابط الصغير أخذ زوجتك رهينة !.. رهينة يا أولاد الكلب يا كذبة ؟ هل نحن فى حرب عصابات ؟!.. لكنه جاء يفتديها وسلم نفسه . رآها معلقة والثوب مشقوق عن بضاعتها الطازجة . حدجنى بنظرة وعيد ، وعيد وتهديد . عاجلته دون تردد بلكمات متتاليات حتى كسرت نظرته . وشاعت سمعتى بين الرؤساء والمجرمين . قالوا هذا الضابط الصغير حازم صارم يتقن مهنته .. صرت أنا رجل المهام الصعبة !

***

المحفظة يا أولاد الكلب . أعيدوها .. ماذا تفعلون بى الآن ؟!.. تحملوننى الى أين ؟!.. تنزلون الدرج ؟!.. بهدوء وحذر يا خنازير . حذار أن أقع منكم وأتدحرج على الدرج .. لو جاء الخنزير عباس الآن لأخذ بثأره منى بسهولة تامة .. لعله مات .. كان ذلك فى الخمسينات ، جمال عبد الناصر يقول : إرفع رأسك يا أخى . حدجنى عباس بنظرته النارية المتوعدة فانهلت عليه ضربا بالعصا حتى تكوم ذليلا ، وخَبَت النار فى عينيه وكسرت نظرته !

الآن أسمع ضجيج الشارع . يضعوننى فوق الرصيف .. يا أوساخ افرشوا ملاءة تحتى .. أين الاسعاف ؟!.. لو مر

عباس الآن مصادفة وأنا راقد رقدة العاجز هذه لقتلني بسهولة . قد يتظاهر بالشهامة والرغبة فى المساعدة ثم يكتم أنفاسى الهزيلة ، أو يخرج من جيبه خلسة قطعة حشيش يدسها فى فمى ، وتكتب الصحف : لواء شرطة يموت بالمخدرات !.. وتقليعة المزاج هذه الأيام هى الأبيض ، كوكايين وهيروين ، أصناف مغشوشة !.. وآخر ما أذكره الإغماء والوقوع . رأيت الباب مغلقا . سألت عن السبب . عرفته فسقطت ، وفى الماضى كنت مثل الفولاذ !

تفانيت فى عملى فتعب قلبى ، وكان قويا دائما .. غرقت فى عالم الإجرام ، أقصد غرقت فى عالم مكافحة الإجرام .. نجحت دائما إلا قليلا . فى كل مكان عملت به كونت شبكة محترمة من المرشدين الأهالى . رغم خوفهم منى خدعنى بعضهم . يأتى المرشد ويهمس لى بسر عملية خطيرة ، شروع فى قتل أو تهريب ممنوعات . يحدد المكان والوقت . أتوجه سرا الى الموقع . أنصب كمينا محكما . تمضى الساعات ولا يقع شيء وأعود محبطا . فتعلمت الشك . تمنيت لو بامكانى الدخول الى عقل المرشد لأكشف صدقه من كذبه !

وحتى عندما التقيت بها ، نجلاء العجيبة الغامضة ، رغبت لو شققت رأسها ، لو أخرجت مخها وراقبت ما يدور فيه .. وقعت فى الحب . كان هذا الوقوع أكبر غلطة .. لكنى وقعت وبدأ إجهاد القلب . بين عالم الإجرام ودنيا الأنثى تعب قلبى !.. كانت متزوجة جميلة عفية فارهة .. بنت الكلب كانت رشيقة متناسقة يانعة ، كأنها خالية من العظام مثل العرسة .. متزوجة من ثرى مثل العجل . كان من أوائل المنضمين الى تنظيم الحكومة ، هيئة التحرير ثم الاتحاد القومى .. ولما صار اسمه الاتحاد الاشتراكى العربى ، اتحاد قوى الشعب العاملة ، سارع العجل بالاندماج فى فرع الرأسمالية الوطنية ، سعى حثيثا وراء أموال الدولة ، وسعيت أنا وراء امرأته الغامضة ، نجلاء وجسدها الطرى العرساوى .. وقعت هى فى غرامى فأخذت تنغص عليه حياته .. جعلت من بيته جحيما فطلقها وتزوجتها أنا .. وخفق قلبى فرحة وفى ظنى أننى دخلت الجنة . لكن المرأة ليست جنة !

وجدتها خبيرة فراش، لها فيه فنون ومجون ، نهشنى الشك ، والشك هو الباب الواسع الى الجحيم – ما هذه البلاغة والتعبيرات الجميلة ؟! لابد أن أكتب مذكراتى – كنت معذورا لأن من غدرت بزوجها الأول تغدر بالثانى .. والقاهرة مكتظة بلصوص الزوجات السفلة .. ولم يكن من الاحترام أن أكلف مخبرا بمراقبتها سرا ، القط يفشل غالبا فى مراقبة العرسة !

صوت سيارة الإسعاف . أخيرا وصلوا . كنت أطلبهم فى حوادث الطرق فيأتون بعد ساعات .. لكننى أختلف . لست عابر طريق .. أنا الباشا اللواء متقاعد عبد القوى مطارع !

***

المحفظة يا أولاد الكلب . قبل أن تضعونى فى سيارة الاسعاف أعيدوا محفظتى . أعرف جميع ما فيها ، كما أنها هدية من نجلاء ، اللذيذة ليلا المشاكسة نهارا ، ونظراتها وقت الغضب تشبه نظراتها لحظة الرضاء !.. مع أول ترقية تالية نقلونى الى الصعيد، مأمورا لمركز صغير مشاغب ، تتنازعه أسرتان ، بينهما ثأر متفجر منذ عام ١٩١٥ .. الأجلاف يتناوبون القتل منذ عام ١٩١٧ .. قتيل من الأولى ثم ضحية من الثانية ، فالأولى فالثانية فالأولى .. وكل رجل منهم يتزوج من امرأتين أو ثلاثة لتعوض فواقد الاقتتال ، يفتمون من انجاب البنات ويفرحون بالذكور ليحولوهم حطب فى نار الثأر .. لابد أن أكتب مذكراتى : يوميات ضابط فى الأرياف .

سيارة الاسعاف تتحرك ، ترتج مثل سيارة نقل المواشى . هل أعادوا المحفظة ؟؟ أف .. رائحة السيارة نتنة .. ذات يوم ضبطت سيارة اسعاف تنقل خراف العيد ! والأجلاف كانوا يتناوبون القتل منذ عام ١٩١٨ ويتباهون بأن اسم مركزهم جاء ترتيبه الأول فى احصائية الأمم المتحدة ، الأول فى مجموع جرائم القتل . وللمأمور فى مركزهم سكن ميرى ، بيت ريفى متواضع محاط بحديقة ليس بها الا خمس نخلات، أقرب الى المعتقل ويسمونه سراى المأمور . على قدر ضيق زوجتى به كانت فرحتى لابتعادها عن شبان العاصمة . لم يعد أمامها إلا الثرثرة مع زوجة طبيب الوحدة الصحية البدينة وقرينة وكيل النيابة المتعجرفة .. وعندما لا تنقطع الكهرباء كانت تتفرج على التليفزيون ومسلسلاته السخيفة وأناشيده الوطنية الفجة !

وصلت وقد سبقتنى سمعتى ، زارنى رءوس الأسرتين المتناحرتين . لم أبش فى وجوههم العكرة .. ثم جمعتهم معا فى اجتماع عابس وأنذرتهم . أمرتهم بالكف عن الثأر أو تأجيل حوادثه طوال فترة عملى فى ناحيتهم ، هددت باعتقال أعزتهم عند وقوع أول عملية قتل .. لكنى لم أمنع نساؤهم من زيارة زوجتى بالهدايا المعتادة من طيور وسمن وبيض . أتحت لهم هذه المجاملة لأن حسن السياسة هى الكياسة .. سوف تكون مذكراتى إن كتبتها تحفة أدبية : يوميات بوليسية فى قرية مصرية !

آخر ما أذكره اليوم ومنذ قليل أننى عرفت السر وراء غلق الباب ، باب العيادة ، عيادة أخصائى القلب ..

فسقطت وحملونى الى الرصيف ، الى سيارة الاسعاف النتنة . مازال بمصر بعض أولاد الحلال. ولكن هل أعادوا المحفظة .. لا أستطيع تحريك يدى للتأكد . لا أقدر على فتح عينى .. لواء شرطة متقاعد على النقالة !

هددت باعتقال أعزتهم من باب التهويش .. لم يكن هذا الاجراء من سلطاتى .. كان يخضع لاعتبارات العزوة الأسرية والانتخابات .. انتخابات يا أولاد الكلب ؟!.. كنا نطبخها من أجل أمنكم يا خنازير .. لكنى كنت أحبس بعض أعوانهم وتوابعهم ، ثم أطلق سراحهم وعلامات الضرب واضحة على أبدانهم الوسخة ، كى يراها البغال فيرتدعون !

المشكلة كانت فى تبرم زوجتى العرسة ، والتبرم هو الطريق المنحدر الى هاوية الغواية .. أحضرت كلبا شرسا



وأطلقته فى الحديقة الخربة لمنع الغرباء من الاقتراب أثناء غيابى . لم أكن أخشى اللصوص .. لصوص الأرياف أمرهم تافه .. إن سرقوا يسرقون بقرة أو خروفا ، الغبى منهم يسرق حمارا ، ولا يجرءون على اقتحام بيت المأمور ، خصوصا أنا .. لكن حدث ذات عصرية وأنا عائد الى الدار أن وجدت هذا الكلب يهز ذيله لصبى ألقى له قطعة عظم

.. ضربت الصبى وشعرت بالغم ، حتى الكلاب الموصوفة بالوفاء تخون ، ومن أجل قطعة عظم !

لماذا توقفت سيارة الاسعاف ؟ .. اشارة حمراء أم زحمة مرور ؟.. أصحاب السيارات هذه الأيام لا يفسحون الطريق لسيارة اسعاف أو مطافىء ، لقطاء محدثو نعمة ، لصوص قوادون شمامون ! .. وبعد خيانة الكلب وقعت أحداث جسام ، أغتيل فرد من احدى الأسرتين . بعد يومين قتل فرد من الأخرى . بعد ثلاثة أيام لم تتحمل زوجة معاون النيابة المتعجرفة هذه الحال وسافرت الجبانة الى أهلها بأسيوط .. صار زوجها المعجب بشبابه ومنصبه وحيدا دون رقابة منها .. ولا يجرؤ ضابط منا على حبس معاون نيابة . لم تعجبنى نظراته وتحركاته فأطلقت رصاصة قتلت بها الكلب الشرس

الخائن ، وأحضرت آدميا يحرس بيت الزوجية ، سلماوى الذى كان دميم الوجه ويستطيع إصابة غراب طائر بطلقة واحدة من بندقيته القديمة ، زعم أنه حفيد « الخُط » أشهر مجرمى الصعيد أيام الملك فاروق . قال انه لم يكن لصا .. لماذا لم يكن لصا؟ لأنه كان يسرق من الأغنياء ليمنح الفقراء ؛ نفس ما فعله عبد الناصر عندما أخذ أرض الأغنياء ومنحها للفقراء ، وهللت له الناس لأنهم يعبدون القوى ، هكذا قال حفيد الخُط !

***

دائما كان قلبى سليما ، ثم عدت ذات مغربية الى سراى المأمور ولم أجد نجلاء . كان سلماوى ذهب لزيارة أسرته فهربت . كيف لم يرها أحد عيونى المبثوثون فى كل مكان وفى المحطة ؟.. سؤال جوابه مريب ! عادت الى أهلها بالقاهرة . أفلتت من منطقة سطوتى .. اضطررت الى تأجيل التعامل مع مشكلتها ، وتفرغت أنكل بالأسرتين المتناحرتين لوقف عمليات الثأر مادمت أنا المأمور .. يبدو أن زوجتى نجلاء هربت فى ثياب امرأة ريفية ، هكذا خدعت جواسيسى وهربت ، لكن من سرب الثوب اليها ؟! بنت الكلب كانت فى أسابيع الزواج الأولى لذيذة وممتعة ، تجيد بالفطرة مهنة السرير ، ولم يعوضنى عنها أمرأة أخرى حتى البغى المحترفة !

فى أولى زياراتى للقاهرة طالبتنى بالطلاق، محتمية بأهلها المنحرفين ذوى الحظوة لدى السلطة، صارت أول امرأة فى التاريخ تنفذ مشيئتها ضد ارادتى ، والعرسة تمتص دماء الطيور ، ديوك وذكور البط والدواجن ، طلقتها وعدت الى عملى لأفرض الأمن وفرضته فى أقصر وقت ، فتم نقلى الى جهاز أمن الدولة بالعاصمة .. وفى شقة القاهرة القديمة رأيت وجهى فى المرآة ، كان غريبا به تجاعيد جديدة ثابتة جعلته دائم الصرامة ، ومشيب خفيف تسلل مثل لصوص الليل الى شعرى . خفق قلبى فى اختلال . لم أتنبه وقتها أنه خفق فى اختلال ، تذكرت ذلك فجأة منذ دقائق وأنا أسقط بغتة أمام باب العيادة المغلق ، عيادة أخصائى القلب !

طلقتها وبعد مدة رأيتها تتأبط ذراع رجل خِرِع يتوجه بها الى سيارة فارهة ، مليونير انفتاحى كان يركب الأتوبيس بالدرجة الثانية، ثم اقتنى الملايين والسيارات فى زمن السادات .. اصطدمت نظراتى بنظراتها ، احتقن وجهى أنا ، ومضت هى كأنها لم تشاركنى السرير من قبل .. أتكون عرفت هذا

الخـــرِع وهى فى عصمتى؟! سؤال أربك قلبى ، فأسرعت دقاته تدفع الدماء الى نافوخى حتى مادت الدنيا بى لثوان ، ثم أبطأت حتى تملكتنى رغبة القىء .. لكن منصبى الجديد عوضنى عن الهزيمة . نجلاء لا تصلح امرأة لرجل واحد ، يلزمها زوج لكل ليلة ، قادرة على انهاك قلوبهم جميعا ، ولم تفلح النسوة الأخريات فى اقتلاعها من قلبى ، رغم أن واحدة منهن كانت راقصة شهيرة ارتمى تحت أقدامها أغنى أغنياء الانفتاح وأحد رموز النظام . كنت أغمض عينى وأتخيلها نجلاء الغامضة اللذيذة الخائنة !

***

لم أتحرك الا والنجاح يزيّن موكبى .. ومعظم الناس حمير يجهلون أن أمن الدولة بالعاصمــة هـــو أمن سياسى ، كان اسمه أيام الملكية القسم المخصوص . نرتدى الثياب المدنية ومهمتنا حماية نظام الحكم أيا كان اسمه ، ملكى جمهورى رأسمالى اشـــتراكى انفتـــاحى انغـــلاقى ديمقراطـــى اســـتبدادى ، لا يهمنـــا نوعه، نحن محترفون ، وحكام أى نظام لا يستغنون عنا ويغدقون علينا . هكذا حالنا فى العالم كله .. جاء السادات بانفتاحه وقال العلم والايمان ، ووصف نفسه بالرئيس المؤمن ، يقصد أن سلفه عبد الناصر لم يكن كذلك ، أمسكت مســبحة وصرت أوجـــه الاتهامـــات المســـبوكة باجراءات قانونية محبوكة .. والمسبحة إما بين أصابعى أو على المكتب .

كل عهـــد جديـــد يستولى على الحكم يرفع ساسته لافتة النزاهة والعدالـــة ، يطيحـــون بوزيرنـــــا وأحيـــانا يعتقلونه ، أو يحجبون عنه الأضواء ويتركونه يتعفن فى الظل ، ويطربلون بعض الرتب الكبيرة ، وقد يشهرون بهم علانية . نفس الأمر يحدث مع قيادات الاعلام ، لكن الهيكل الأساسى يستمر فى جميع الأحوال .. وقبل أن يستقر الوضع نظل نحن أصحاب الرتب الكبيرة فى توتر وترقب ، كل واحد منا ينتظر العزل فى أية لحظة والتشـــهير به، والأفعال التى كافئونا من أجلها فى الماضى هى نفسها التى يحاكموننا بسببها عندما تدور الدوائر !.. كان لابد لقلبى أن يتعب ، وفاض التعب بى أمام باب العيادة المغلق . سألت إن كان أخصائى القلب فى اجازة وسمعت الرد ، فغصت فى ظلام سحيق ، ورأيت دائرة الوجوه وأحسست بمن يفتشنى .. المحفظة يا أولاد الكلب !

***

أخصـــائى القلـــب نصحنى بعدم قراءة

الصحف لأنها تتسبب فى زيادة ضغط الدم وارتفاع السكر وفساد القلوب. بعض الكتاب التافهين يكتبون هذه الأيام عن تقليعة اسمها حقوق الانسان، بدأها بعض مختثى أوربا ثم انتقلت مثل مرض الإيدز الى بعض الإمعات هنا، وأسسوا جمعيات الدفاع عن حقوق الانسان، شكلت عبئا إضافيا على الأمن من مراقبة أعضائها وتليفوناتهم واجتماعاتهم ورسائلهم. عبئا يضاف الى مكافحة أهل الجريمة والتهريب والقمار والسياسة والدعارة والنشاط المتطرف!.. صرنا فى نهاية القرن العشرين ومازلنا نقلد الغرب دون وعى.. حقوق انسان يا أولاد الكلب ياعالم ثالث؟! نحن أول أناس ندافع عنها، ودائما وأبدا باجراءات قانونية محبوكة مسبوكة.. قد أسمى مذكراتى «حقوق الانسان بين التسبيك والتحبيك».. والحمد لله أننى تركت المهنة!

الحمد لله الذى لا يحمد على مكروه سواه.. قبضت مكافآت نهاية الخدمة من الوزارة وصناديق الزمالة. فكرت فى أحسن استثمار لها، أردت ربحا حلالا سريعا كبيرا، وهذا حقى. وضعتها وديعة لدى شركة توظيف أموال، لأصحابها لحى طويلة كثة، وملفات منتفخة لدى المباحث. أحدهم تاجر عملة، الثانى مهرب مخدرات، والثالث شمام هيروين. تحريات وتقارير سرية يعرفون أننى أعرفها منذ أيام الخدمة، وقد يظنون أن فى حوزتى صورا منها، توقعت ألا ينصبوا علىّ. رحبوا بى بالأحضان. عطست مرارا مع ملامسات لحاهم لأنفى. أعطونى أرباحا كبيرة فى مواعيدها الدورية، أضفتها الى أصل الوديعة.. ثم بدأت الصحف تهاجم، مع أنهم اشتروا كثيرين من الصحفيين. ثم دخلوا السجن وطارت الوديعة بأرباحها الحلال، ثمرة شقاء العمر فى التسبيك والتحبيك!

تقبلت الصدمة برضاء المؤمن وبأس الرجال. معاشى يكفينى والحمد لله. لم أنقطع عن الصلاة، ولم أهرع الى الطبيب ومهدئاته. لم أطلب زيارة طارئة. انتظرت حتى حان موعدى الروتينى وتوجهت اليه. فى هذه الزيارة قال لى بين الجد والهزل أننا نحن رجال أمن الدولة مسئولون عن فساد الادارة العليا فى الحكومة والشركات والمصانع العامة.. غضبت فسارع بتغيير الموضوع مترفقا بقلبى.. ما ذنبنا؟! الحكومة تحيل لنا الأسماء المرشحة للمناصب العليا، ونحن مهمتنا الأمن السياسى. نفحص كل حالة بكل نزاهة، ثم نرفع

كشفا الى الحكومة فيه أسماء من نعرف فيهم الولاء والطاعة والانصياع ، وهذا لا علاقة له بالأمانة أو الكفاءة ، هذه أمور لا تدخل فى اختصاصاتنا ، وتقاريرنا استشارية طبعا . بعد أسبوعين أو ثلاثة تنشر الصحف أخبار تعييناتهم ، فيستهلون وظائفهم بنشر اعلانات التهنئة والمبايعة لرئيس الجمهورية ورئيس الوزراء والوزير المختص ، ولا يذكروننا بكلمة شكر أو امتنان . لكننا نعمل فى صمت وانكار ذات .

حقوق انسان يا عالم ثالث .. وعربة الاسعاف تمشى دقيقة وتتوقف عشرة !! وماذا يحدث لو كان عباس الخنزير مات واضطرت زوجته الى العمل ممرضة ، وبالتحديد فى المستشفى التى يأخذوننى اليها الآن، ثم رأتنى ضعيفا وتذكرتنى وتسللت ليلا لقتلى . جسدى ابن الكلب يعصى أوامرى . أعضائى كلها خامدة خاملة خرعة عدا ذاكرتى.. من يحمينى ؟

★★★

قلت لأخصائى القلب قبل أن يغيِّر الموضوع : لتنحط الادارة والشركات والمصانع . ما دخلنا اذا كان الموالون المطيعون المنصاعون حميرا فى الادارة ؟!.. انهم مريحون أمنيا ، ينفذون تعليماتنا بنقل العمال الخطرين ، لكنهم كذلك وبسبب جهلهم يضطهدون الكفاءات ، والمال ليس مال أهاليهم .. ومع فوضى الصحافة التى شاعت فى زمن حسنى مبارك ، وشعاره طهارة اليد واللسان ، فإن بعض هؤلاء المضطهدين يذهبون الى صحف المعارضة ويمدون محرريها الخنازير بالمستندات المسروقة ، ويصورون من أنفسهم شهداء الواجب يضحون من أجل الوطن ! الوطن يا عالم ثالث ؟! نحن حماته .. وأعظم المتعاونين مع الشرطة فى كل العالم ذلك الذى نضبط زوجته تخونه ، أو نمسكه عاريا فى فراش زوجة غيره ، والأفضل أن يكون شاذا جنسيا .. إكسر عين الفرد يستتب أمن الدولة !

إجرام اختلاسات خيانات زنا غدر نفاق ضغائن .. كل هذا ولا يتعب قلبى يا أولاد الكلاب .. طبعا تعب وداهمته الأزمة الأولى . واليوم توجهت الى الطبيب . وجدت باب العيادة مغلقا فسقطت على البلاط فى اغماءة .. قبل السقوط مباشرة أحسست نارا فى صدرى ، ثم رأيت دائرة الوجوه ، وشعرت بمن يفتشني . سمعت طنينا فى أذنى .. لواء شرطة متقاعد : المحفظة يا أولاد الكلب !

رأيت الباب مغلقا وعلمت أن أخصائى القلب الذى يعالج قلبى ، سقط بفعل أزمة قلبية حادة .. ومات .. ابن الكلب .

القصة القصيرة

من الستينات إلى التسعينات

بقلم : د. سيد حامد النساج

يكتب الدكتور سيد حامد النساج دراسة حول القصة القصيرة فى الثلاثين سنة الأخيرة ، وننشر الجزء الأول منها . نتعرف فيها على المعايير التى سارت عليها القصة فى هذه الفترة الزمنية ، والكتاب الذين ظهروا والمعايير الفنية التى اتبعت فى كتابتها نظرا للتغيرات السياسية والاجتماعية التى يشهدها المجتمع .

« الهلال »

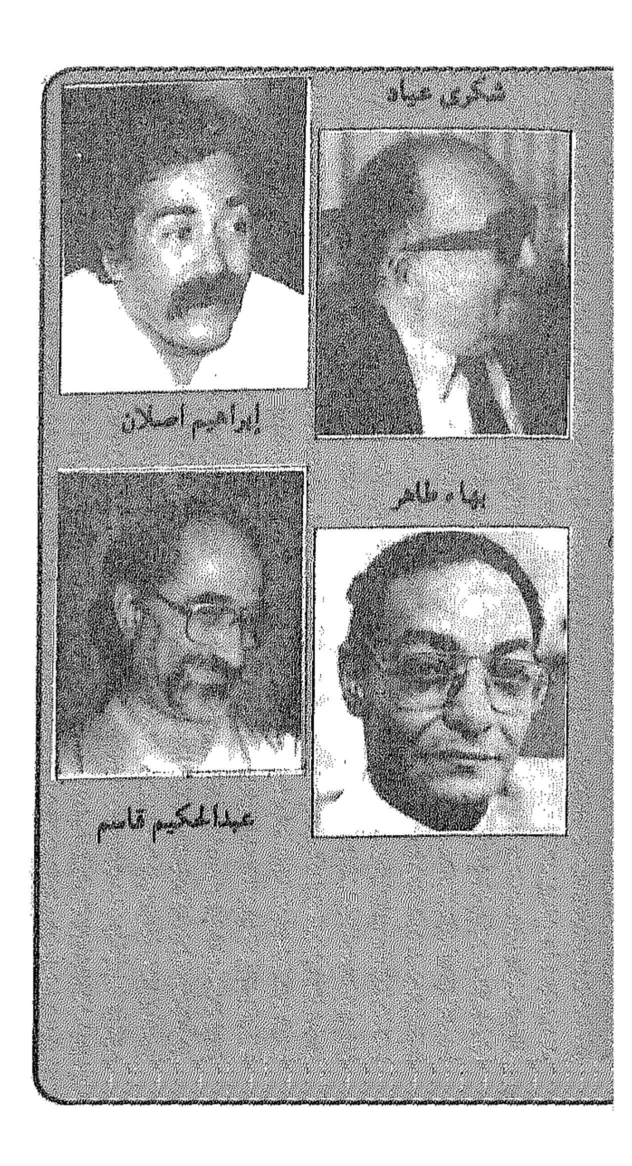
يأتى هذا المقال - بإذن الله - استكمالاً لدراستين سابقتين تناولت فيهما القصة القصيرة فى مصر ، منذ البدايات الأولى حتى ١٩٦١ . صدر الجزء الأول بعنوان « تطور فن القصة القصيرة فى مصر » وقد تعرض لمرحلة التأصيل ١٩١٠ - ١٩٣٣ . ثم مالبث أن تبعه الجزء الثانى حاملاً عنوان « اتجاهات القصة المصرية القصيرة » متوفراً على دراسة الفترة التالية التى شهدت ازدهاراً وتنوعاً فى هذا الفن ١٩٣٣ - ١٩٦١ مصحوباً بعمل ببليوجرافى قدم دليلاً للقصة المصرية - من خلال الصحف والمجلات والدوريات والمجموعات القصصية - فى نصف قرن .

وكان لزاماً أن يواصل باحثون آخرون متابعة هذا الفن فى مسيرته الطويلة بعد سنة ١٩٦١ . نظراً لما يحتاجه مثل هذا العمل من جهد شاق ، ووقت طيب ، وأناة ،

أن كلاً منها قد تسربت إليه جوانب ضعف تجعلها قاصرة عن أداء الفائدة المرجوة .

فى الطبعة الثانية لكتاب « القصة القصيرة فى مصر » التى صدرت فى إبريل ١٩٧٩ ، تأليف الدكتور شكرى عياد صرح قائلاً : « إن القصة القصيرة فى مصر لم تعرف خلال هذه الأعوام العشرة ٦٩ / ١٩٧٩ جديداً ذا بال . فحين فكرت فى إعادة طبع هذا الكتاب وجدت أنه لايحتاج إلى إضافة ما . لقد تم تأصيل هذا الفن فى أدبنا . وإذا بدأ تاريخ جديد ، فسيكون فى حاجة إلى كتاب جديد . ولكننى ألحقت به مقالاً كتبته بعد أشهر من صدوره ورأيت فيه نوعاً من التفصيل للأسطر الموجزة التى ختمت بها الكتاب الأصلى » ص٣ .

وهذا يعنى أنه حكم على عقد كامل بأنه لم يشهد جديداً فى القصة القصيرة . كما أنه أغفل ماقبل ١٩٦٩ . وسوف يلاحظ الدارس المتأمل أن فن القصة القصيرة فى مصر ، اعتباراً من ١٩٦١ ، قد شهد عدداً من الكتاب الجدد ، وأشكالاً من الكتابة الفنية ، واتجاهات متعددة فكرياً وفنياً ، تستحق الخضوع للدراسة النقدية . لكن الدكتور شكرى عياد لم يجد مايضيفه إلى ماسبق أن درسه بدءاً بالمقامة العربية وحتى إحدى قصص يوسف إدريس فى أوائل الخمسينات ، لأنه شغل طويلاً بتأصيل هذا الفن دون التفات لمتابعة مراحل تطوره ، وأشكال هذا التطور ،



وصحة . يضاف إلى هذا أنه ينبغى أن تتعدد الرؤى ، والمناهج ، وأدوات البحث ، وكى لاتصبح الموضوعات حكراً على أحد . لكن ، يبدو أنه لابد مما ليس منه بد .

ذلك أننا إذا نظرنا فيما بين أيدينا من مؤلفات أو دراسات حول فن القصة القصيرة المصرية فى هذه الفترة : فإنا سوف نجدها قليلة جداً ، لاتتناسب مع حجم الإنتاج ، وعدد الكتاب ، وتباين اتجاهاتهم الفكرية والفنية . بالإضافة إلى

والأجيال التى اجتهدت فى محاولة إضافة بعض الملامح الفنية .

أما الملحق الذى أضافه الدكتور شكرى عياد فإنه عبارة عن المقال الذى كان قد نشره فى مجلة « المجلة » العدد ١٥٠ – يونيو ١٩٦٩ تعليقاً على العدد الخاص الذى أصدرته مجلة (جاليرى ٦٨) فى أبريل ١٩٦٩ . والمقال فى سبع صفحات من الكتاب (١٧٦ : ١٨٣) . وفيه نراه يخص الكاتب الواحد بفقرة أو فقرتين ؛ لأن مادته وقفت عند حد القصة القصيرة الواحدة المنشورة ضمن قصص العدد .

ومعظم الذين حظوا بهذه الفقرة ممن يمثلون الجيل الذى سعى من أجل أن يقدم جديداً فى القصة القصيرة ؛ مثل بهاء طاهر ، عبد الحكيم قاسم ، محمد البساطى ، أحمد هاشم الشريف ، إبراهيم أصلان ، جميل عطية إبراهيم ، محمد حافظ رجب ، محمد إبراهيم مبروك ، إبراهيم عبد العاطى ، إبراهيم منصور ، يحيى الطاهر عبد الله .

وفى المقدمة التى اختارها إدوار الخراط للنشر فى العدد الرابع عشر من مجلة (الكرمل) أفاض فى الحديث عن الحساسية الجديدة : مفهوماً وتيارات وتقنيات . وأشار إلى عدد من الكتاب الذين ظهرت قصص بعضهم فى الستينات ؛ وآخرين نشروا لأول مرة فى السبعينات .

اختار نموذجا لبعضهم ممثلاً فى قصة قصيرة واحدة . ولم يختر لبعضهم قصصاً على الإطلاق (خيرى عبد الجواد ، إبراهيم فهمى ، محمد حافظ رجب الذى يستأهل دراسة مستقلة منصفة ، محمود عوض عبد العال ، بهاء طاهر ، جميل عطية إبراهيم) .

قنّن ونظر وقعّد وأرخ فى سبع صفحات ، ثم أردفها بنماذج غير محللة ، ولا تستقيم مع ما وضعه من نظرية ، ولاتستجيب للتصنيف الذى حدده . وقد احتلت بعض النماذج مالا تسمح به طبيعة القصة القصيرة بأى شكل من الأشكال (قصة من مقام الاغتراب لجمال الغيطانى ٤٠ : ٦٥) ست عشرة صفحة . وقصة (رجوع الشيخ لعبد الحكيم قاسم ٩٤:١١٣) عشرون صفحة . وقصة (من يخاف كامب ديفيد ؟ ليوسف القعيد ١٤٦ : ١٦٥) عشرون صفحة ، من القطع الكبير .

كتاب بعينهم

ونحن لا نعرف – موضوعياً – لم كان هذا الاختيار ؟ وعلى أى أساس فنى أو فكرى أو موضوعى ؟ ولماذا هذه القصص بالذات ؟ ولم هؤلاء الكتاب بأعينهم ؟ إذ أنه ليس ثمة مقدمة دالة تجيب عن مثل مايثار من تساؤلات . ولا يخفى أنه أدخل كتاب السبعينات مع كتاب الستينات ، ورغم اختلاف الظروف والدوافع والتوجهات

السياسية والفكرية والمنطلقات الاجتماعية

وعندما اصدر كتابه (مختارات القصة القصيرة فى السبعينات) ١٩٨٢ ؛ وهى الدراسة التى كان قد نشرها فى مجلة «فصول» المجلد الثانى العدد الرابع يوليو - سبتمبر ٨٢ وجدناه يختار نماذج لثمانية من الكتاب الذين سبق له أن ضمنهم مجموعة الكتاب فيما أشرنا إليه . بمجلة (الكرمل) مثل : إبراهيم عبد المجيد، جار النبى الحلو ، سحر توفيق ، عبده جبير ، محسن يونس ، محمد المخزنجى ، محمود الوردانى ، يوسف أبو رية .

ولو أنه حذف نماذجهم من (الكرمل) واختار قصصاً قصيرة بالفعل ، واكتفى هناك بالحديث عن مرحلة الستينات وحدها، واتجه هنا نحو دراسة السبعينات ؛ لأفاد أيما إفادة .

ومن إسهاماته فى مجال بحثنا تلك المقدمة التى كتبها لمجموعة (الدف والصندوق) ليحيى الطاهر عبد الله ، والمقدمة التى كتبها للطبعة الثانية من مجموعة (الخطوبة) لبهاء طاهر . وهى جميعاً - وإن كانت تفتح باب الاختلاف والحوار - تعد لوناً من ألوان المتابعة ، لكتاب بأعينهم قلما يتغيرون ، دون الإلتفات لغيرهم على طول الخط ؛ وكأنهم غير موجودين . ولا مجال هنا لمناقشة الأفكار والرؤى الخاصة به ، إذ إنا نختلف معه فى كثير منها ، وقد يبدو ذلك واضحاً من خلال الدراسة .

القصة القصيرة وتيـار الـوعى

أما الدكتور عبد الحميد إبراهيم فإنه أصدر كتاباً بعنوان (القصة القصيرة فى الستينات) - دار المعارف - سلسلة « اقرأ » العدد ٥٤١ - ١٩٨٨ . يحدد منهجه بالبدء مباشرة من « الشكل » حماية من الواقع فى مقاييس خارجية أو متاهات المضامين ، أو تطبيق المذاهب الوافدة - كما يقول - مستهدفاً القصة القصيرة بطبيعة الحال .

ويحتل التمهيد مساحة كبرى من القسم الخاص بالقصة القصيرة وتيار الوعى . وقد اختار له عنوان « الاتجاهات التجديدية » . مما طغى على تحليل النصوص ونقدها ، والبدء بالشكل الفنى (٣١ : ٥٢) . ويبدا من هذا التمهيد أنه يفرد مفهوماً للتجديد ، وقصصاً للمجددين من خارج الأدب المصرى الحديث ؛ ويبعدا عن فترة الستينات التى يدور حولها الكتاب . وهو مايتعارض تماماً مع خطة البحث التى التزم بها . حيث سيطرت النماذج الأوربية ، كما كان الاستشهاد بالروايات أكثر من الاستناد إلى القصص القصار ؛ وهى موضوع الكتاب .

وفى ثنايا الاحتفال بالنماذج الأوربية أطلق أحكاماً قاطعة باترة ، على محاولات التجديد فى القصة القصيرة المصرية ، قبل البدء فى تحليل القصص ومناقشتها .

بل دون ذكر إسم كاتب واحد أو قصة قصيرة واحدة مثال ذلك قولـه (ص٤٥) (... ولكن هذا التصميم الجديد والحفى ، الذى يتحرك من خلاله عباقرة هذا الشكل قد أفلت عند كثير من كتابنا ... فقد أغرى هذا الشكل فى القصة الكثيرين وتصوروا أن مجرد التحطيم كاف فقدموا لنا مشروعات مجهضة ليست فيها خبرة حرفية ولا موهبة فنية ، فهى إما غامضة هلامية غموض مشاعر مؤلفها ، وهى إما مجرد ثرثرة أقرب إلى ثرثرة الحياة اليومية التى تحدث فوق المقاهى ، خلت حتى من عنصر الانتقاء) .

ويقول ص ٤٧ : (وبعض فنانينا قد ضاع منه التصميم لضياع النغمة الرئيسية التى تسيطر على القصة ؛ فهى نتيجة مشـاعر مبهمة غامضة ونتيجة قراءات شتى ، كل هذا إذا لم يكن وراءه تصميم يصبح مجرد أخلاط لاتؤدى إلى شئ) . ويؤكد ذلك فى ص٤٨ قائلاً : (والتصميم قد يضيع من بعض فنانينا بسبب سوء فهم لطبيعة هذا الشكل) . وفى ص ٤٩ يقول : (ولكن الغموض فهم عند شبابنا فهماً قاصراً ، لم يكن غموضاً واعياً بغموض التجربة ومايقتضيه من عمق ، ولكنه كان غموضاً بسبب اختلاط المفاهيم وسوء الفهم لما يقتضيه الشعر كشعر ، وما تقتضيه القصة حين تستخدم الشعر) .

وهنا نجده يتحدث عن « التصميم » عند يوسف الشـارونى . ويـذكر له قصص « القيظ » و « الوباء » و « الطريق إلى المصحة » وهى قصص كتبت ونشرت قبل بداية الستينات بكثير ؛ إذ أنها تعود إلى الأربعينات . وكاتبها لايمكن اعتباره واحداً من كتاب هذه المرحلة . واللافت أنه يذكر إسم الكاتب ، وعناوين قصصه ؛ فى حين أنه عندما حكم على كتابات الشباب – كما سبق فى الفقر التى نقلناها عنه – لم يذكر إسم كاتب واحد ، ولا عنوان قصة من القصص التى ينطبق عليها حكمه الباتر .

وحين تناول الاتجاهات التقليدية وجدنـاه يتحـدث عن « المضمـون » وليس « الشكل » كما وعدنا فى المقدمة . ورأيناه يعرض لاتجاه واحد وليس « اتجاهات » وهو أمر طبيعى . لكن غير الطبيعى هو أن يتنـاول كلا من بهاء طاهر ، وزهير الشايب ، وحسن محسب ، وحمدى الكنيسى ، وغيرهم ، فى بضع صفحـات (٢٢ : ٣٠ من حيث مضمون القصص والموضوعات التى تتناولها . ومنهم من حظى بفقرة واحدة أو فقرتين . وجدير بالذكر أن وضعهم جميعاً فى دائرة اتجاه تقليدى واحد ، يظلم كاتباً مثل «بهاء طاهر» الذى اسـتهدف التجـديد فى مجمـوعته (الخطوبة) على نحو خاص ، وحمدى الكنيسى الذى يعد واحداً من الذين جددوا بالفعل بعد ١٩٦٧ فى الشكل ، والمضمون ، واللغة . واختيار هذا العدد من الكتاب لايكفى للدلالة على غلبة هذا الاتجاه فى الستينات ؛ لأن غيرهم كتب قصصه فى

ضوئه . مثل محمد البساطي ، وخيرى شلبى ، وجمال الغيطانى ، ومحمد يوسف القعيد ، ومجيد طوبيا .

وعلى نحو ما أقحم يوسف الشارونى ، يدخل ادوار الخراط فى بداية تناوله للقصة القصيرة وتيار الوعى ، ممثلاً لذلك بقصته « حيطان عالية » . وهى الأخرى ليست نتاج المرحلة ؛ ولا الكاتب من أبنائها . وفوق هذا كله فإنا لايمكن لنا أن نحكم على الكاتب بعد تحليل قصة قصيرة واحدة . وهذا ما انتهجه الدكتور عبد الحميد إبراهيم ، عند تناوله لأحمد هاشم الشريف ، ومحمد حافظ رجب ، ومحمد إبراهيم مبروك (الذى تحدث عن لغته دون تناول العناصر الفنية الأخرى) وإبراهيم أصلان ومحمد مستجاب وإبراهيم عبد العاطى وعبده جبير .

وقد يكون هذا الكتاب هو مجموعة المقالات التى كان يكتبها الدكتور عبدالحميد إبراهيم فى الستينات متابعاً لما كان ينشر فى حينه . لكن صدوره فى أواخر الثمانينات كان يستلزم إعادة نظر فى الأحكام ، وفى النماذج ، وفى الكتاب .

وإذا كان الدكتور عبد الحميد إبراهيم قد ذكر أسماء عدد كبير ، واختار نموذجاً واحداً لكل منهم ، وتوقف عند المضمون ؛ ولم يخرج عن دائرة الستينات إلاّ بالرجوع ليوسف الشارونى وادوار الخراط ، فإن تلميذه الدكتور مراد عبد الرحمن مبروك فى كتابه (الظواهر الفنية فى القصة القصيرة



جمال الغيطانى   فاروق خورشيد

المعاصرة فى مصر ١٩٦٧ - ١٩٨٤) وقد وقف عند معظم الكتاب الذين أشار إليهم أستاذه : يحيى الطاهر عبد الله ، جمال الغيطانى ، جميل عطية إبراهيم ، إبراهيم عبد العاطى ، إبراهيم أصلان ، أحمد هاشم الشريف ، محمد حافظ رجب ، محمد إبراهيم مبروك ، زهير الشايب ، محمد البساطى . وابتعد عن دائرة الستينات - هو الآخر - بدراسة يوسف الشارونى وادوار الخراط وفاروق خورشيد ومحمد كهل محمد وعبد الوهاب داود وعبد الله الطوخى وأمين ريان وعبد الفتاح رزق ومحمد أبو المعاطى أبو النجا ، غير أنه حصر بحثه فى إطار محاولات التجديد من حيث تفتيت الحدث ، واللغة ، والتتابع الزمانى والمكانى ، والرمز والحلم ؛ والدلالة الفنية لكل منهما .

وليس ثمة مبرر موضوعى مقنع لتناول عدد كبير من الكتاب الذين

لاينتمون إلى هذه المرحلة ، وإذا سلمنا بأنه وجد مظاهر للتجديد قبيل الستينات ؛ فإننا لا نستطيع التسليم بهذا الاغفال المتعمد ليوسف إدريس الذى قدم أبرز كتاب القصة القصيرة فى الستينات ، وهيأ لهم السعى من أجل التجديد الفنى ، وساعدهم على النشر . ولا أحد ينكر أنه كان رائداً من الرواد الأول فى منتصف الخمسينات وحتى أواخر الستينات (النداهة - بيت من لحم - لغة الآى آى - أقتلها) .

ويبدو الفصل التعسفى الجائر بين « الشكل » و « المضمون » فى ثنايا الكتاب . كما تأتى بعض فصوله ضعيفة المستوى ، تحتاج إلى أناة وعمق حتى تتخذ شكلها العلمى الموضوعى السليم . ولابد من الإلمام بمراجع حديثة جداً فى فنية القصة القصيرة . إن ما جاء خاصاً بالصورة الفنية (٩٠ : ١١٠) ، والمونتاج السينمائى (١٥٥ : ١٦٢) تناوله على عجل ، معتمداً على ماورد فى مقالات ومؤلفات عامة تفتقر إلى الموضوعية ، والمنهج العلمى . ولنا أن نتصور مايمكن أن يكون عليه منهج دارسة تتناول الظواهر الفنية ، وهى تستند فى الدرجة الأولى إلى كتاب الدكتور طه محمود طه (القصة فى الأدب الإنجليزى) الصادر ١٩٦٦ . وكتاب روبرت همفرى (تيار الوعى فى الرواية الحديثة) الذى ترجمه الدكتور محمود الربيعى .

كتاب الحلقة المفقودة

وبمثل ما أغفل يوسف إدريس ، فإنه لم يتناول من كتاب الستينات عز الدين نجيب وبهاء طاهر وضياء الشرقاوى وعبد الحكيم قاسم ومحمد روميش . ولم يرد اسم صبرى موسى وسط تلك الكوكبة من كتاب الحلقة المفقودة الذين بدأوا فى أوائل الخمسينات مادام قد تعرض لملامح تجديدهم . وكأنه لم يجد فى قصص بعض الكاتبات المصريات ملمحاً فنياً أو ظاهرة تقنية يمكن الإشارة إليها . وأظن أن الباحث يوافقنى على أن محمد حافظ رجب اقتحم ميدان التجديد والتثوير فى الأدوات والوسائل ، وواجه تقاليد فنية كانت ثابتة وراسخة ، دون الاستناد إلى عوامل غير فنية . وقد بدا دوره هامشياً وكأنه واحد من المجموع ، لا ريادة له ، ولا تجديد عنده ، حيث اكتفى بمناقشة صيحته المعروفة ، وباقتناص بعض السمات التى ذابت فى خضم من حاكموه .

وثمة كتاب آخر يحمل عنوان (الإتجاهات الواقعية فى القصة المصرية القصيرة حتى عام ١٩٨٠ - دراسة فى المضمون والبناء الفنى) للدكتور محمود الحسينى المرسى ، طبعته دار المعارف ١٩٨٤ . كان من المتوقع أن يقدم لنا الكتاب تطور هذا الفن فى الستينات

والسبعينات ؛ حتى يضيف جديداً إلى عشرات الكتب والدراسات التى تناولت تاريخ القصة فيما قبل ذلك . لكنا نلاحظ أنه توقف عند ١٩٦١ . ولم يشر من قريب أو من بعيد إلى الأجيال الجديدة ، والاتجاهات الحديثة ، والمؤثرات الاجتماعية والفنية التى أخذت تفعل فعلها فى البناء ، والشكل ، والموضوع ، واللغة . ومن ثم فإنه كتاب لايفيد الباحث عن صورة القصة القصيرة فى الفترة التى تدرسها ١٩٦١ / ١٩٩١ .

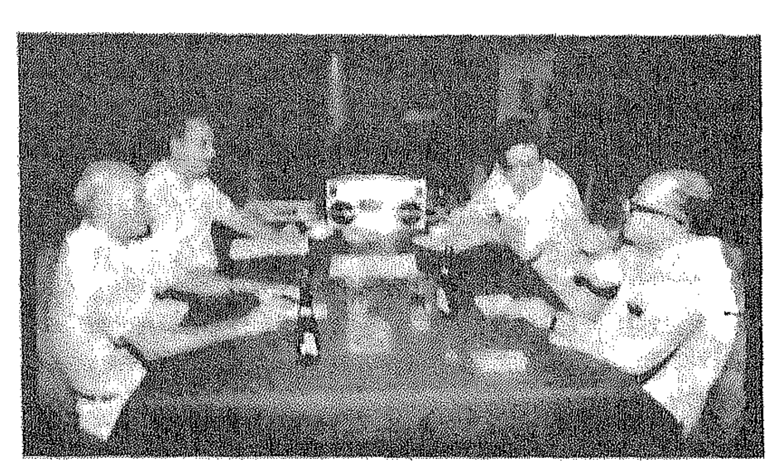
وبالنسبة للظواهر السلبية الأخرى التى تطغى على هذا الكتاب ؛ فإنا قد تناولناها بالتفصيل فى مجلة (الهلال) يناير ١٩٨٥ بعنوان (رسائلنا الجامعية إلى أين ؟!) وحققها باب (أخبار الأدب) يوم الأربعاء الموافق ١٦ من يناير ١٩٨٥ فى صحيفة (الأخبار) . كما ضمها كتاب (بحوث ودراسات أدبية) الصادر فى ١٩٨٧ .

وهنـــاك كتابـــات متفرقة دارت حول القصة القصيرة التى نشرت فى الستينات ، ثم فى السبعينات . لكنها لم تصدر فى كتب مستقلة ، تنتظمها وحدة موضوعية وفكرية وكانت فى حينها – بمثابة المقالات المواكبة . ومع كونها – فى الأغلب الأعم – كانت تجنح نحو اتجاه بعينه أو تنحاز لعدد محدود من الكتاب ، فإنها – من غير شك – ينبغى ألاّ تنفصل عن حركة القصة القصيرة المصرية : إبداعاً ونقداً ، فى الفترة بين ١٩٦١ – ١٩٩١ . فلا سبيل إلى إغفال مقالات رجاء النقاش وإبراهيم فتحى وعبد الفتاح الجمل وصبرى حافظ وغالى شكرى .

والشئ الذى تجتمع كل تلك الدراسات حوله ، هو أنها لم تمتمد على الصحافة وهى تتصدى لدراسة القصة القصيرة فى مصر . وهذا جانب ضعف وقصور فى معظم مايكتب عن هذا الفن . إذ أن القصة القصيرة والصحافة صنوان . وقد ينشر كاتب بعض قصصه فى الصحف والمجلات دون أن تتاح له فرصة طبعها فى كتاب . والصحافة تساعد فى تفسير اتجاه الكاتب: اجتماعياً وفكرياً وفنياً وسياسياً . ثم إنها تسهم فى تقديم صورة واقعية عن حركة الحياة فى المجتمع إبان نشر القصة ونقدها . وبعض الكتاب ينشرون قصصهم فى الصحافة ، لكنهم عند التفكير فى إصدار مجموعة لايتحمسون لضمها إلى إنتاجهم ، لسبب أو لآخر ، إلى غير ذلك مما حللناه فى كتابينا السابقين .

ومن ثم فإنا مازلنا عند رأينا فى أهمية الدور الذى تلعبه الصحافة ؛ مما يحتم ضرورة الإستناد إليها فى تتبع خطوات القصة القصيرة ، وتحديد اتجاهاتها ، وضبط حركتها ، وإذا تأملنا ظروف الصحافة : يومية وأسبوعية وشهرية ، سوف نلاحظ أنها كانت تسمح بأن القصة القصيرة الأرض الخصبة التى تنبت فيها وتزهر وتتفتح وبخاصة طوال الستينات .





● تقديم :عاطف مصطفى ●

★★ أسباب حقيقية أدت إلى إنحسار القصة القصيرة فى مواجهة إزدهار الرواية .

★★ د . سيد النساج : يتزايد عدد كُتّاب القصة القصيرة ونغفل عن دراسة الظاهرة .

★★ د . شكري عياد : قلة نسبة المجيدين فى القصة القصيرة شئ ينبغى أن يتوقع .

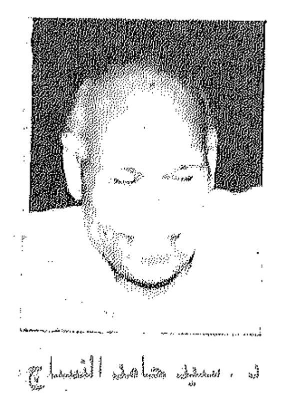
القصة القصيرة .. هل تعانى الانحسار فى مواجهة الرواية ؟. وما هى الأسباب التى أدت إلى هذا الإنحسار، وهل هى وليدة ظروف معينة ، ربما السبب فيها اختلاف المناخ الثقافى عما كان فى الخمسينيات والستينيات ، ودخول التليفزيون الذى غير المفاهيم ووصل إلى حد الإدمان عند البعض .

وهل واصل الأدباء الذين فازوا فى المسابقات عطاءهم ، أم توقفوا بعد نشر قصة أو قصتين ، وما دور اتحاد الكتاب والجامعات فى تسهيل مهمة النشر للأدباء الجدد ؟..

كانت هذه التساؤلات ضمن ندوة الهلال والتى شارك فيها الأديب والناقد د . شكرى عياد والناقد الأديب د . سيد حامد النساج ، وطرح الهلال فى بداية الندوة رؤيته والظروف التى تحيط بحياتنا الثقافية بشكل عام بهدف التعرف على أسباب انحسار القصة القصيرة .



د . شكرى عياد



د . سيد حامد النساج

ماذا يحدث لو توقفت القصة القصيرة ؟!

★★ قال د . سيد النساج : فى الحقيقة أتصور أن الموضوع الذى سيدور حوله الحوار مسألة الرواية والقصة القصيرة ، وأن الرواية فى إزدهار والقصة القصيرة فى إنحسار .

وأنا أرى العكس تماما ، لأنه لم تحدث فى مصر دراسة موضوعية جادة بالنسبة للرواية أو للقصة القصيرة ، على الأقل من بداية الستينيات حتى الآن .

ولكى نحكم هذا الحكم ، لابد من أن تكون هنالك دراسات جادة ومعمقة من جانب ، وإحصائيات من جانب آخر ، وجس نبض الجمهرة القارئة بعمل استبيانات ، وأنا أضيف أن معظم الذين يكتبون الرواية الآن هم فرسان الرواية فى الستينيات .. ومعنى ذلك أن عددهم قليل ومعروفون ، فضلا عن أنهم يعملون بالصحافة اليومية أو الأسبوعية ، وهم بالتالى أقدر على الإعلان عن رواياتهم .

فى حين أننا إذا تأملنا الواقع الحقيقى ، فسوف نجد أن كُتَّاب القصة القصيرة فى ازدياد مستمر وكذلك الإنتاج فى تزايد هو الآخر وفى إزدهار ، لأنه بالقياس إلى عدد كتاب الرواية الذين يكتبون منذ ثلاثين عاما ، سنجد أنه ظهر كتاب قصة قصيرة ، لكن هؤلاء لا يعلن عن أعمالهم ، لأنه ليس من المنطقى أن كل كاتب قصة قصيرة ، يعلن عن إنه سوف يكتب قصة قصيرة فى صحيفة كذا، إنما كاتب الرواية يعلن لأنه موجود فى الصحيفة أصلا .

ولو تأملنا الدراسات التى درست القصة القصيرة والرواية حتى هذه اللحظة ، فسنجد أن معظمها يكرر بعضه بعضا .

ولكى نحكم هذا الحكم لابد أن تكون لدينا مثل هذه الوثائق وعموما فلابد من التنويه إلى أن المساء والأهرام والجمهورية وروز اليوسف والهلال تنشر قصصا قصارا .

بمعنى أن المسألة ليست خاصة بالقصة القصيرة ، وطبعا لا نستطيع أن نقول رأى رئيس التحرير بأن القصة القصيرة تعانى منذ فترة طويلة .

★★ الهلال : نستطيع القول بأن الهلال تخرج عن هذه المعادلة ، لأنها فى نهاية الأمر مجلة ثقافية تعطى مساحة للإبداع .

★★ د . شكرى عياد : هل لاحظتم فروقا فى التوزيع بين الروايات والمجموعات القصصية القصيرة ؟

★★ الهلال : بالطبع هناك فروق ففى روايات الهلال لم ننشر مجموعات قصصية خلال السنوات الأربع الماضية ، لأننى لاحظت أن توزيع المجموعة القصصية ضئيل جداً وقد لا يتجاوز (٥٠٠ نسخة) وحينما عدت إلى الإحصائيات وجدتها ظاهرة متكررة !

وهنا أطرح سؤالا : كان الأدباء فى الماضى يبدأون بالشعر ثم يكتبون قصة قصيرة بعد ذلك .. والذين يكتبون الآن قصة قصيرة يكتبون الروايات .. هل هذا مرتبط باللحظة ، وهل المجتمع حينما يستقر أو يضطر تصبح الرواية هى التى تتناول موضوعات بعينها ، وكذلك يتم ذلك بالنسبة للقصة القصيرة ؟ .

★★ د . شكرى عياد : طالما أن القاعدة الاستقرائية الإحصائية سليمة ، إذن لابد من هذا التحليل الفنى .. يعنى أنك استقرأت التوزيع وحذفت العوامل الخارجية التى لا تتعلق بشخص كاتب أو مدى شهرته أو موضوع الرواية .. إلخ ، وجاءت النتيجة مع ذلك أن القصة القصيرة أبقى بالنسبة للرواية ، وهما ليستا أختين ، أو مثل الضرتين ، فالحقيقة ، واحدة منهما غالبا تبقى على حساب الأخرى، فأصبحت هناك حقيقة، ويبقى المطلوب هو تفسيرها مباشرة .

★★ الهلال : لا أخفى عليك أننى رأيت إمكانية أن تكون ظاهرة غير علمية ، ظاهرة ناتجة من الاتفاق بأن الذى يريد الحصول على الرواية ، يأخذها ليقرأها فى سفره أو

وهو على الشاطئ فى المصيف ، ودوافعه هى الحصول على رواية طويلة تكفى هذا الوقت الطويل الذى يقضيه فى اجازته مثلا !

★★ د . سيد النساج : لى تعليق على ما ذكرته أولاً ، فلا نستطيع أن نأخذ دار الهلال وحدها مقياسا للحكم ، لأن ما قمت به فى دار الهلال لا نستطيع أن نأخذ به لأن هذه مؤسسة واحدة ، ولدينا الهيئة العامة للكتاب والناشرون الخصوصيون ومؤسسة دار المعارف وغيرها هذه كلها أيضا يمكن أخذها فى الاعتبار عندما نحكم على التجربة .

★★ د . شكرى عياد : أنا رأيى أن روايات الهلال مقياس أصلح من أى مقياس آخر فالسلسلة واحدة ، وخذ مثالا فهيئة الكتاب تصدر سلسلة « قصص عربية » وأيضا تصدر مطبوعة تسميها «روايات عربية » أما روايات الهلال فتصدر مرة مجموعة قصص قصيرة ، ومرة أخرى تصدر رواية طويلة فالحقل هنا واحد ، والإشكال الوحيد يظل هو استبعاد العوامل الأخرى التى لا تتعلق بالنوع الأدبى ، كشخص الكاتب أو موضوع الرواية ، أو موضوع القصص ، أو حتى الأسلوب الفنى ، بمعنى أننا إذا استبعدنا هذا كله وبقى الحكم سليما إحصائيا وموضوعيا أن القصة القصيرة متأخرة فى تقبل الناس لها عن الرواية ، إذن يتحتم على وعلى الدكتور السيد حامد النساج أن نجد حلا لذلك .

★★ د . سيد النساج : طول عمر دار الهلال يادكتور تقوم بفرز وإنتاج روايات أكثر من إصدارها مجموعات قصصية ونحن لا نستطيع أن نحكم على القصة القصيرة من خلال المجموعة القصصية والتى قد تصدر فى وقت متأخر جداً عن تاريخ النشر ولا أعتبرها معدلا أساسيا فى هذا الأمر ، ولكننى أرى أن القصة القصيرة هى أنسب الأشكال الفنية الآن ، للتعبير عن واقع المجتمع .

★★ د . شكرى عياد : هناك معايير أخرى فالدكتور يوسف أدريس رحمه الله توقف عن كتابة القصة القصيرة ، أو كاد ينصرف عنها إلى المقالة ، وهذا الأمر له بعض الدلالة بمعنى عمل اختبارات متعددة الأشكال منها اختبار النشر فى سلسلة واحدة ، واختبار كاتب واحد ، واختبار عدد الكتاب الجدد الذين يقدمون أعمالهم وهذا اختبار ثالث ثم اختبار عدد ما ينشر أسبوعيا فى الصحف السيارة والمجلات من القصص القصيرة ، وهذا اختبار رابع ، وكل هذه الاختبارات موضوعية وسهلة جداً ، وينبغى عمل أحصائية بالأرقام ، حتى لا يكون هناك إشكال ونقاش فى وجود الظاهرة أو عدم وجودها ، وينحصر النقاش فى تفسيرها ، فهل نستطيع ؟! لقد أطمأننت لأنكم بالتأكيد قد لفتت نظركم هذه الظاهرة ، كظاهرة موضوعية ومحسوبة بحيث نتعرف على الأسباب .

★★ الهلال : أشير إلى أن الهيئة العامة للكتاب هى التى تنشر قصة قصيرة أكثر ، وما يلفت النظر أنها لا تقدم على أسس اقتصادية ولا تهتم بالتوزيع ، ونفس هذه

الملاحظة قائمة لدى بعض دور النشر والتوزيع ، لدى دار غريب وعند السحار ، والشروق .. والملاحظة هنا تنصب على الإصدار .

★★ د . شكرى عياد : فى الإنتاج الناشر كمسوق مقياس جيد وهذه ظاهرة عالمية .. القصة تنحسر ويحل محلها فى الغرب كتب الرحلات وغيرها ، أما عندنا فإن الرواية انتعشت قليلا عن ذى قبل ، خاصة وأن الناس زمان لم تكن تشترى إلا كتب إحسان عبد القدوس ومحمد عبد الحليم عبد الله وبعض القصص الرومانتيكية .

★★ الهلال : إننى أرى بالفعل أن الرواية فى مصر الآن تنتعش جدا .

★★ د . سيد النساج : وأنا أرى العكس تماما ، لأن الذين يكتبون الرواية الآن آحاد معروفون ، والذين ينشرون الآن وقادرون على النشر والتوزيع هم جمال الغيطانى ، يوسف القعيد ، مجيد طوبيا ، عبد الفتاح رزق ، صنع الله إبراهيم ، وفوقهم نجيب محفوظ ، هذه أسماء تتكرر وتطبع لها دار الهلال وأخبار اليوم وهيئة الكتاب ، وهؤلاء هم الذين يكتبون رواية وقصة قصيرة فى آن واحد منذ بداية الستينات ، ولم يضف إلى كتاب الرواية فى الأعوام الأخيرة إلا عدد قليل جدا ومحدود .. إنما بالنسبة لكتاب القصة القصيرة من حيث الاحصاء الدقيق لهم ، فهم الذين يتزايد عددهم ، وإنتاجهم أيضا يزيد ، ولكننا نغفل عن دراسة هذه الظاهرة ، خاصة ما يصدر فى الأقاليم ، فهناك ٤٠ مجلة اقليمية يصدرها الشبان على نفقتهم الخاصة ، ويكتبون فيها قصصا قصارا ، ويحاولون توزيعها بشكل أو بآخر ، وهذه الملاحظة ينبغى ألا تغيب عنا .

★★ د . شكرى عياد : أنت تحول النقاش الآن إلى اتجاه آخر ، هو أن الجيل الجديد من كتاب القصة القصيرة ، لا يجد الرعاية الكافية ولو وجدها تظهر فى القصة القصيرة انتعاش كبير .

★★ د . سيد النساج : الشبان الجدد موجودون ، لأننا لو تتبعنا أى عدد من أعداد مجلة إبداع على سبيل المثال ، فلم يكن يقل عدد القصص القصيرة المنشورة فى عدد واحد عن ١٢ قصة قصيرة .

وعلى الرغم من عدم وجود صحف بالاسكندرية ، فهناك مجلات يصدرها الشبان على حسابهم الخاص ، وأحيانا يقومون بطبع كتبهم بنفس الطريقة ، لأن أزمة النشر يعانى منها الكبار والصغار وأرى أن حركة القصة القصيرة ، وحجم الإنتاج الذى يصدر فى الرواية ، وقارنا السنوات الأخيرة ، فلن نجد على سبيل المثال سوى سلوى بكر كتبت رواية صغيرة ، وشهرتها تجئ فى أنها كاتبة قصة قصيرة ممتازة .

★★ الهلال : أريد إضافة نقطة هامة .. فنحن على سبيل المثال يصلنا عدد كبير من القصص القصيرة كل شهر ، فى تقديرى أن أغلبها لا يرقى إلى النشر ، ولكننى أقول

إن هناك جيلا لديه طموحاته ، وهو يكتب ويحاول ، وأما تقييم قدرته على الإبداع ، فهذه مسألة أخرى !

ولقد قامت « الهلال » بعمل مسابقة للقصة القصيرة ، اشترك فى تقييم كل ما قدم إليها من قصص الدكتور شكرى عياد ، وذلك فى محاولة اكتشاف عناصر جديدة .

هنا يأتى السؤال : ما هى رؤيتك فى الأجيال الجديدة وكتاباتهم سواء كانت فى مجلات الأقاليم أو هنا وبالطبع فسلوى بكر وحسام فخر متميزان فى وقت نرى فيه المتميزين قليلين ؟

★★ د . سيد النساج : بالطبع نحن لا نستطيع أن نقيم الأعداد كلها مرة واحدة ونحكم عليها ، فلابد من عمل دراسة فنية للإنتاج الذى يقدم ، ولكننا نستطيع أن نضيف إلى سلوى بكر وغيرها ، ونذكر لها على سبيل المثال أنها تكتب رواية وقصة قصيرة ، وهى من جيل الثمانينيات ، إنما هناك محمد عبد المطلب فى سوهاج ومحمد المخزنجى فى المنصورة ، وخيرى السيد ، وسعد القرشى ، وهناك شبان من المحدثين يكتبون قصصا جيدة .

★★ د . شكرى عياد : المسألة فى رأيى ، أن القصة القصيرة مثلها مثل الرجز الذى كان حمار الشعراء ، فالقصة القصيرة هى حمار الكتاب ، وأى واحد خط خطا بالقلم ، يعتبر نفسه كاتب قصة قصيرة .

ومن خلال التجربة وبعض البرامج الإذاعية أقول إن قلة نسبة المجيدين فى القصة القصيرة ، شئ ينبغى أن يتوقع تماما ، أكثر من أى فن آخر ، ويمكن للمبتدئين أن يجترئوا على الشعر ، وربما لو قلنا لأحدهم اذهب وتعلم العروض أو النحو ، يصمت . إنما القصة القصيرة ، فلا أحد يوقف من يود كتابتها ، وعلينا ألا نجزع .. فلا نقيس انتعاشها وازدهارها بالعدد ، وفى مقابل ذلك لا نضيق بالأمر ، ولا نراجع أحكامنا مراجعة أساسية ، عندما يتبين لنا أن من كل عشرة يكتب واحد فقط قصة جيدة ، وهذا شئ متوقع ، ومن هنا فالقصة القصيرة لها هذا الوضع الخاص .

إنما مثلما نقول إن هناك أزمة من جهة الاستهلاك فى القصة القصيرة شئ يبدو أنه حقيقة موضوعية ولا نجادل فيها ، فهذه الأزمة الاستهلاكية لا تعبر عن واقع فى إنتاج القصة القصيرة .

سؤال آخر يمكن أن يطرح فى طريق البحث عن تفسير ، ويمكن أن يكون التفسير عدم الاقبال ، كما أن الجمهور القارئ لم يعد متحمسا للقصة القصيرة ، فأيضا المنتج أو الكاتب ، حتى الناشئ لم يعد متحمسا لكتابة القصة القصيرة .

وعلينا أن نبدأ من هذا الخيط فى البحث عن الأسباب الاجتماعية والفنية ، وعلاقة الشكل الفنى بوضع اجتماعى معين ، أو بظروف أو بمناخ فكرى معين ، وقد نسير فى اتجاه

مختلف كل الاختلاف ، وهو أن هذا التكاسل ، أو هذا الانحسار أو التقلص فى الطلب على القصة القصيرة ، من قبل المستهلكين ، لا يدل على تراجع القصة القصيرة ، تراجعا حقيقيا ، بمعنى أنها لم تعد الشكل الصالح للتعبير عن حقبة معينة ، فهنا يكون قد طرح سؤالان مختلفان :

هل هى تعبير عن حقبة مختلفة ؟

وهل هذا الإنحسار ، وهذه الظاهرة تعبير عن حقبة مختلفة فى المناخ الفكرى ، أو حصل تباعد بين جيل من الكتاب ، وجمهور القراء ، وتصبح المسألة فى حاجة إلى تفسير ، وقد يكون من نوع آخر ، اختلاف أجيال ، أما الأول فهو اختلاف زمن .

★★ د . سيد النساج : مسألة اختلاف القارئ المعاصر ماديا ونفسيا ، وأيضا سيطرة وسائل الإعلام الملحة عليه ، مثل التليفزيون بشكل خاص ، لأن التليفزيون يجمع القصة القصيرة ، والرواية الطويلة ، ويجمع فنونا كثيرة جداً يقدمها للقارئ ، فعدد الإقبال من قبل المستهلك للأدب بشكل عام يدخل فى القصة القصيرة وعدم الإقبال عليها .

★★ د . شكرى عياد : نحن هنا نرى مقارنة بغيرها ، مع التسليم بأن الأدب عموما حالته (تعبانة) بالنسبة للمستهلك ، إنما فى وسط هذه الحالة (التعبانة) فإن القصة القصيرة (تعبانة) أكثر من غيرها !

★★ الهلال : وفى تقديرى فإن الرواية تزدهر ، من خلال التوزيع ، وعدد الروايات الصالحة التي تصل إلينا كناشرين .

★★ د . سيد النساج : سيظلون آحادا أيضا !

★★ د . شكرى عياد : وحينما نحصى كتاب القصة القصيرة المجيدين سيكونون آحادا هم الآخرون !

★★ الهلال : مطلوب أن نتحدث عن انحسار القصة القصيرة ، وعلينا أن نحدد الأسباب ، لكى نصل إلى الوسائل التى يمكن أن توصلنا إلى الانتعاش ، وبالتالى إعطاء فرصة أفضل ، فضلا عن التليفزيون عامل مؤثر على الكتاب فماذا نفعل ؟

★★ د . شكرى عياد : ماذا يحدث لو ماتت القصة القصيرة ؟!!

لن يحدث شئ على الإطلاق !! ..

فالألمان بجلالة قدرهم لم يعرفوا فن القصة القصيرة بهذا الشكل الذى تعارفنا عليه ، والذى كتبه موباسان وتشيكوف ، واستمر بعد ذلك عند همنجواى وغيرهم .. لم يعرف الألمان هذا الفن إلا بعد الحرب العالمية الثانية ، قبل ذلك كانوا يعرفون الحكايات .. فافرض أن القصة القصيرة ماتت !! .. لن يحدث شئ !

★★ د . سيد النساج : لكنك يا دكتور لم تكتب سوى القصة القصيرة !!

★★ الهـلال : مشكلة الجيل الذى لديه الموهبة ، ولا يستطيع أن يجد الفرصة ، ما الذى يمكن عمله ؟!

هذا السؤال يوجه إلى كل رئيس تحرير ولكل ناشر .. لماذا لا تعطى الفرصة للشبان الجدد ، وفى رأيى أن هذا سؤال غريب جدا ، فمهمتى فقط اكتشاف مواهب ، وليس الأخذ بيد شخص عاجز لكى أقدمه ، وأعتقد أن هذه المهمة ينبغى أن توكل إلى جهات أخرى من بينها اتحاد الكتاب ، والجامعة من خلال مجلتها ، وهذه المجلة من الممكن أن تعطى فرصة للخطوات الأولى لبعض الكتاب ، وبالتالى لابد أن توجد صيغة تعطى فرصة للمبتدئين ، بهدف التعبير عن أنفسهم ، خاصة فى فترة الإنضاج .

★★ د . سـيـد النسـاج : الجامعات لها مجلاتها التى تهتم بالبحوث الخاصة بالأساتذة ، إنما من الممكن أن تقوم هيئة الكتاب بعمل ورشة عمل ، يجتمع فيها ناقد كبير مع بعض الكتاب الناشئين ويوجههم ومن الممكن أن يقوم اتحاد الكتاب - أيضا - بعمل ورشة عمل للقصة القصيرة وللشعر ، ويلتقى بالأدباء الكبار لتقديم تجاربهم ، وبعض النقاد يقوِّموا هذه التجارب، ويمكن أن تقوم بذلك بعض المؤسسات الصحفية الكبرى ودار المعارف .

★★ د . شكرى عـيـاد : قصة قصيرة إيه .. وشعر إيه !! الكلام هذا راح وانتهى !! .. أعلمه كتابة قصة قصيرة لماذا ؟ بل أعلمه فن الكتابة ، أيا كانت التسمية أو التصنيف .

أنا أوافق طبعا على أن الشكل الفنى يتغير مع كل كاتب ، وليس مع كل عصر ، وإننى لا أستطيع أن أساعد أحدا إلا لأنه من الجائز أن يأتى إلىَّ وأتحمل مخاطرة شديدة جدا ، حينما أقول له والله إننى أراك تحوم حول فكرة معينة ، وحينما بدأت تنفيذها حصل (كيت وكيت) وهذه بالنسبة لى كناقد ومعلم طوال عمرى مخاطرة شديدة جدا ، ولا أحب أن أقولها ، ومفيش أحسن من أنك تتركه إلى أن يهتدى ويكتشف نفسه ، ولا أظن أن كاتبا له قيمة علمه أحد .

الآن فى الجامعات الأمريكية لديها « كورسات » فى الشعر والنثر والقصة القصيرة والإذاعة ، وكنت أقرأ قريبا « كورس » للإبداع وربما يأتى مبدعون من خارج الجامعة الأمريكية ، ومع هذا لا أظن أن ذلك يخلق كاتبا كبيرا .

★★ الهـلال : ربما المطلوب إعطاء فرصة لاكتشاف العناصر الجيدة .

★★ د. سيد النساج : الموهبة والعبقرية لا تعلم ، ولكن ما أقصده هو محاولة التوجيه إلى المسار الصحيح .

★★ الهـلال : إذن يادكتور هذا يجعلنا نحاول أن نفكر فى كيفية انتعاش القصة القصيرة ؟

★★ د . شكرى عياد : أنا أخشى أن تكون القصة القصيرة أعجز وأضعف ، أنا أود أن يواجه الناس أنفسـهم ، لكن كيف ؟ ياليت تسـتطيع القصـة القصـيرة أن تؤدى هذا الدور .

★★ الهـلال : هل هناك تأثير على القصة القصيرة من التليفزيون والسينما ؟

★★ د . شكرى عياد : بالطبع نعم .. فأول مالفت نظرى أسامة أنور عكاشـة فى تمثيليتين تليفـزيونيتين كل واحدة لا تزيد على أربعين دقيقة ، أى تنتهى فى جلسة واحدة ، كانتا جيدتين جدا ، اهتم فيهما بالحبكة وبالفكرة ، لكن التليفزيون يريد مسلسلات ، أنت تطلب منى أن أفيق الناس ، التليفزيون أداة تخدير للناس ففى ليالى الحلمية – على سبيل المثال – والتى رأيت فيها دقائق ليست عملية اكتشاف للذات ، ولا اكتشاف حتى للعصر ، هذه عملية فرار إلى آفاق ومجتمعات وبيئات مختلفة .

★★ الهـــلال : من الأشـياء التى يتم عملهـا خدمة للقصة القصيرة المسابقات ومن بينها مسابقة نادى القصة .

★★ د . سـيد النسـاج : هذه المسابقة ضعيفة المستوى جدا ، وكانت زمان تكشف عن مواهب عديدة ، لكن الآن يقوم بعملها محترفون عادة ، لأننا ينبغى أن نفرق بين محترف المسابقة والموهوب فأنا أشترك فى مسابقات كثيرة جدا ، وهناك « حريفة » لمراعاة الشروط المنصوص عليها بالنسبة للمتقدم لمسابقة ما ، هذا « الحريف » هو الذى يحقق المركز الأول .

وقد لاحظت أن مجلة القصة فى أعدادها الأولى فى عام ١٩٦٤ ، ١٩٦٥ ، كانت تقدم نماذج جيدة من الفائزين بالقصة القصيرة فى المجلس الأعلى للفنون والآداب ونادى القصة ، وقدمت قصة لأحمد هاشم الشريف كانت فائزة بجائزة ، كما قدمت قصة لمحمد البساطى .

وفى المرحلة الثـانية لنادى القصـة سوف نجد أن عشرات كانت تكتب أسماؤهم فائزين ، ولم يستمر أحد منهم فى الكتابة ، وهؤلاء المحترفون يدخلون العديد من المسابقات ، ومن بينها مسابقات الجامعات والشباب والرياضة .

★★ الهـلال : ننتقل فى المناقشة إلى نقطة جديدة .. فهل اختلفت أدوات التعبير ، وهل من الممكن أن تصبح ظاهرة إيجابية ، ونسـتقبلها ونطورها ، أم هى ظاهرة سلبية ،

خاصة وأن هناك تغيرات تحدث في هذا العصر ، حيث أصبحت أدوات التعبير مختلفة ، وأصبح التطور التقنى مختلفا ، وحينما نواجه ذلك كيف نكون جاهزين له ، ونستقبله ، فضلا عن أننا نرى ضرورة التعامل معه ، وبالتالى ضبط هذاالتعامل بصورة تجعله مفيدا .

★★ د . شكرى عياد : حكاية أن القصة القصيرة تضمحل الآن فهذا عرَض ، وفى نظرى أن دلالته محدودة جداً ..

لماذا ؟ ..

لأننى مشغول بالإنسان فعلا ، والأدب فى نظرى بما فيه من قصة قصيرة يمكن الاستغناء عنه إذا سلم الإنسان ، وأشعر أن الناس يبحثون الآن على مادة بها معلومات وهذا ينطبق على الجمهور القارئ فى مصر ، وأرى شبيها له فى بلاد أخرى ، بقدر استطاعتى لمتابعة حركة الأدب فى هذه البلاد .

وهذا الإنسان يتلمس المعلومات ، لا أستطيع أن أعطى له هذا الفن الأشبه بضوء كاشف وقوى جداً وبه كثير من الشعر ، مع موضوعية غريبة وعميقة وهو القصة القصيرة ، ولذلك لا أعجب إذا كانت القصة القصيرة أصبحت الآن هى والشعر فى سلة واحدة ، والإثنان يمثلان إنسانا منعزلا تماما أغلق على نفسه وهذه ظاهرة فى نظرى غير جيدة ، لأن معنى ذلك أن الإنسان يستسلم ، ويحلم الأحلام التى يمكن أن تسعده وهو فى طريقه إلى الموت ، وما الذى يمكن أن يتم ؟

طالما أننى غير معترف بأن التليفزيون من الممكن أن يكون قوة ثقافية أو فكرية ، وفى نفس الوقت لا سبيل لى إلى تغيره فلا حل إلا الكتابة ، وأن تتطور الكتابة ، وليس دورى أن أطلب من الناس القراءة غصبا ، فالكتابة لابد أن تتطور بشكل يجذب الناس ، ويحاول أن يسلك إلى نفوسهم وعقولهم مسالك أخرى .

و د . لويس عوض على سبيل المثال كتب سيرة حياته بشكل اعتراف ، وكان ذلك بمثابة اكتشاف جديد ، حيث لم يقدم على هذه التجربة من قبل .

وبالطبع فإن ذلك متروك للمستقبل وابتكار المبدعين ولا نقيدهم بشكل معين ، والمهم أن يصل إلى هذا الإنسان الذى أصبح همه الآن أن يعرف شيئا عما حوله ويضلله المضللون، وتؤلف له الكتب المخترعة ، والتى كنا زمان نسميها « فبركة » و « فبركة » الصحافة انتقلت الآن إلى الكتب .. مثل تلك التى نراها الآن عن الملك فاروق وعن الملك فؤاد وعن ناريمان .

والمحاولة التى أقصدها هى أن تعطى له هذه الرغبة فى المعرفة ، بشرط أن تكون معرفة بنفسه أيضا ، وبما يجب عليه أن يعمل فى هذا العالم ، ومسئوليته فى هذا العالم الذى يعيش فيه ، والعالم المحيط به .

شغالات السينما بين الواقع والخيال

بقلم : مصطفى درويش

شاعت المصادفات لفيلمي « سمارة الأمير » و « الزواج على الطريقة المصرية » أن يكونا معروضين في وقت واحد .

الأول في القاهرة على شاشة في دار سينما كبيرة أمام مقاعد خالية من المتفرجين أو تكاد ؛ وذلك رغم وجود صورة للنجمة نبيلة عبيد ، مرتدية بدلة رقص خليعة تزين الملصقات في كل مكان .

أما الفيلم الثاني ، فقد كان عرضه على شاشة متواضعة بقاعة أحد الفنادق الكبرى المطلة على قناة السويس ، أمام حشد من صانعي الافلام التسجيلية ومشاهير النقاد ؛ وذلك بمناسبة مهرجان الاسماعيلية الدولي الثاني والقومي الخامس عشر للأفلام التسجيلية والقصيرة .

والحق أن « سمارة الأمير » و « الزواج على الطريقة المصرية » فيلمان مختلفان تماما ، لا يجمع بينهما حتى النوع السينمائي الواحد .

فالأول روائي طويل مصري ، أما الثاني فتسجيلي قصير بريطاني من إنتاج التلفزيون البريطاني ، ضمن مجموعة من عشرة أفلام تحت عنوان « تحت الشمس » .

وبالنظر إلى ما بين هذين الفيلمين من فروقات سينمائية ، وتباينات فنية عميقة ، فلابدّ لسؤال أن يطرح نفسه علينا .

وهو هل ثمة شيء مشترك بين الفيلمين بحيث يجمع بينهما حديث ؟

والاجابة السريعة على هذا السؤال ، هي أن الفيلمين يشتركان في شيء واحد ، وهو أنهما يعرضان لحياة شغالة في بر مصر : الأول بأسلوب روائي فيه من





ريم سعد صاحبة المادة العلمية



جوانا ميد المخرجة

شطحات ، ولا أقول عربدته ، الشيء الكثير .

والثانى بأسلوب قوامه تسجيل الواقع كما هو بلا أى تزويق قدر الامكان .

غياب البساطة

وقد يكون من المفيد أن أبدأ الحديث بأولهما « سمارة الأمير » المأخوذ عن قصة للأديب العربي الوحيد المتوج بجائزة نوبل « نجيب محفوظ » .

لو ألقينا نظرة طائرة على هذا الفيلم ، لوجدنا أنفسنا أمام عمل سينمائى بعيد كل البعد عن البساطة المستحبة فى الأعمال الفنية ، وبالذات ما كان منها متصلا بابداع الافلام .

والسبب فى ذلك افراط فى الرمزية يصل إلى حد السذاجة المهينة لعقل المتفرج ؛ أيا كان مستواه الثقافي .

فلقد أراد صاحبا الفيلم ، وهما كاتب السيناريو المخضرم « مصطفى محرم » والمخرج « أحمد يحيى » أن تكون بطلته «سمارة» رمزا لمصر .

والفيلم يبدأ بها شغالة اسمها « شلبية الأمير » (نبيلة عبيد) ، تعمل فى قصر أحد الباشوات وفجأة ، وبلا أى مقدمات ، يضبطها أحد الخدم النوبيين الذين يعملون فى القصر المنيف ، متلبسة فى أحضان عشيقها « على جلال » (محمود حميدة) .

تحولات وعلاقات

ويشاء لها السيناريو أن تطرد من خدمة قصر الباشا لهذا السبب ، وألا تجد لها مأوى إلا فى غرفة هذا العشيق ، الذى ما يلبث أن يعمل على استثمار مفاتنها ، فيتحول بها من شغالة إلى راقصة فى ملهى ليلى يمتلكه « وحيد سيف » الذى يختار لها اسم « سمارة الأمير » .

ولأن السيناريو أراد لها أن ترمز إلى مصر ، فإن أيا ممن وقعوا فى حبها ، كان أما من كبار رجالات الدولة فى العهد الملكى البائد أو من كبار الضباط الانجليز فى جيش الاحتلال .

وبطبيعة الحال ، ومن باب الاختصار ، لم يظهر من هؤلاء الضباط العشاق ، سوى جنرال واحد « يوسف داود » ، وقع فى حب سمارة أو بمعنى أصح حب مصر .

وهو لا يتلذذ من علاقته بها ، ولا ينتشى ، إلا إذا أوجعته بالكرباج ضربا !!

ومن بين طابور العشاق المصريين مأمور ضرائب « عمر » (محمد وفيق) .

وباشا جلس على كرسى الوزارة فى إحدى الحكومات (حمدى غيث) .

وصحفى وطنى لا يعيش إلا من أجل مصر « مروان » (سناء الشافع) ، ويرأس تحرير جريدة ثورية تنادى بالجلاء التام والموت الزؤام .

رموز سقيمة

ولأول وهلة لا نشعر بغرابة قيام علاقة عشق بين الشغالة التى أصبحت راقصة وبين ذلك الصحفى الولهان .

ولكننا لا نلبث أن نحس شيئا من الغرابة فى تلك العلاقة بالذات ، وذلك عندما يتبين لنا أن مروان صحفى مريض بالقلب ، ومرضه عضال .

وعندما تخاطبه سمارة فى أحد المشاهد بقولها « شكلك مش مصرى قوى »

فإذا به يرد محتدا « أنا لو مكنتش مصرى ، كنت أتمنى أن أكون مصريا » .

وهنا يحق لنا أن نتساءل ما الذى يريده صاحبا الفيلم بكل هذا الهراء ؟

وسرعان ما يتبين لنا ، ويا للغرابة ، أنهما إنما أراد بهذا الصحفى المعتل ، وبهذا الحوار أن يرمزا إلى الزعيم مصطفى كامل ، وقوله المأثور « لو لم أكن مصريا لوددت أن أكون مصريا » .

والأكيد أن التوفيق خان صاحبى الفيلم إلى حد كبير ، حين اختارا شغالة راقصة اسمها سمارة ، وصحفى ولهان إسمه « مروان » ليرمزا بهما لمصر ، وللزعيم الذى ضحى بحياته من أجلها ، وهو فى عزّ الشباب .

فكلاهما رمز ضئيل نحيل ، رمز لا علاقة له بأدب نجيب محفوظ لا من قريب ، ولا من بعيد .

الأم الشجاعة

فإذا ما انتقلنا إلى فيلم مهرجان الاسماعيلية ، لوجدنا انفسنا أمام عمل فنى من إخراج شابة انجليزية « جوانا هيد » ، وتبين لنا أنه ينهض على مادة علمية أعدتها شابة أخرى مصرية « ريم سعد لوقا » تدرس علم الانسان « الانتروبولجيا » .

وشغالة « الزواج على الطريقة المصرية » من نوع آخر منبت الصلة بشغالة « سمارة الامير » .



نبيلة عبيد شغالة فى سمارة الأمير

إنها تعيش فى إحدى حوارى « نجيب محفوظ » التى تحيط بسيدنا الحسين والأزهر الشريف .

وهى بطبيعة الحال ، ليست فى اناقة وجمال « نبيلة عبيد » ، ولا تسعى إلى أن تكون راقصة ترمز إلى مصر ، أو إلى غير مصر .

أنها باختصار أم شجاعة تذكرنا بأم مسرحية الأديب الالمانى « برتول برشت » ، بل ثمة أوجه شبه بينها وبين «هيلين فيجيل» ممثلة مسرح « البرلينر انسامبل » وزوجة « بريشت » والتى اشتهر عنها الأداء المعجز لدور الأم الشجاعة ؛ ويخلق من الشبه أربعين !!

فهى ، أى الأم فى الزواج على الطريقة المصرية ، تعيش مهجورة من زوج بلا ضمير ، نسمع عنه ، ولا نراه ابدا .

وهى أم تعول ثلاثة أولاد ، بنتا وابنين ، أحدهما متبطل ، والآخر فى التجنيد. وهى أم شريفة تعمل شغالة ، تقيم الصلاة ، ولا تفكر فى امتهان الرقص فى يوم من الأيام .

هى فى كلمات جاءت على لسانها آية فى البيان ، نصف رجل ، نصف امرأة ، لأنها خارج البيت تعمل كالرجال وداخله تقوم بعمل النساء .

الصراحة الأسرة

والفيلم يبدأ بها ، وهى تتحدث بلغة بسيطة عن زوجها الذى تكرهه ، وهو بعيد ، وتحبه ، وهو قريب لماذا ؟

لانه الآن مع زوجته الأخرى .

فإذا ما سألتها المحاورة عن سبب زواجه من امرأة أخرى .

أجابت بصراحة أسرة أنها هى التى سرقته من تلك الزوجة الاخرى ، وليس العكس .

وتصفها بأنها امــرأة طيبة ، بنت حلال ، أنجبت للزوج المتنازع عليه أربعة أولاد .

وما أن تنتهى من ذلك الحديث الشيق ، حتى تقطع المخرجة على جماعة من الموسيقيين فى أحد الشوارع تقوم بزف عروسين .

ومن هذا المشهد القصير تسرع الكاميرا بالانتقال إلى حارة ، حيث تسير الأم بخطى ثابتة نحو صنبور عمومى ، تجلب منه كمية من الماء .

وهنا نسمع اسمها يرد لأول مرة على لسان المعلقة .. أنه « ويزا » .

ونعرف أنها ، ومنذ نعومة أظافرها ، تقيم فى بيت من حجرة واحدة فى تلك الحارة ورثته من أمها .

وتعيــش الآن مع ابنتهـــا الوحيـــــدة « نشوى » التى تعمل فى مصنع ورق سجاير ، وابنها المتبطل .. وليد .

غيوم وهموم

وهى كأى أم ، تحمل همّ تأخر زواج ولديها ، رغم أنهما قد بلغا سن تكملة نصف الدين منذ زمن بعيد .

فنشوى ، وأن كانت فتاة جميلة ، إلا أنها قليلة البخت ، لم يتقدم لخطبتها فى أثنـاء الفيلم سوى رجل مسن جاوز السبعين ، أى أقرب إلى الجدّ ، منه إلى عريس الهنا .

ووليد حائر بين حب فتاتين إحداهما بدينة والأخرى نحيفة اسمها « الهام » .

وسعيا من « ويزا » لتحريره من هذه الحيرة ، تعمل على استصحابه مع تلك الفتاة النحيفة فى رحلة إلى شاطىء فايد ، وذلك للتعرف عليها عن قرب ، ولاستكشاف مدى صلاحيتها لان تكون ست بيت .

الحديث السائد

وهكذا ، بدءا من أولى اللقطات ، وحتى المشهد الأخير حيث نرى فرحا فى أحد الشوارع ، والفيلم لا يتمحور إلا حول موضوع واحد .. الزواج وما يترتب عليه من آثار .

فلا حديث إلا ويدور حوله ، سواء أكان هذا الحديث فى البيت أو فى الشوارع والحوارى أو فى المساجد على لسان المأذون أو الواعظ أو الإمام .

والزواج على الطريقة المصرية فيلم زاخر بمشاهد لا تنمحى ابدا من الذاكرة ، أذكر من بينها لقطات مشهد الزار ، حيث



الأم « ويزا » فى الزواج على الطريقة المصرية

نرى « ويزا » وابنتها فى حفلة زار ، والنساء الممسوسات بالعفاريت والاسياد ، وهن يتمايلن على دقات الطبول ، ووجوههن تعبر عمـــا بداخلهن من صـــراع مع الاوجاع .

ولقطات أخرى لمشهد قوامه حشد من النساء المؤمنات فى رحاب الحسين ، وهن يقمن فريضة الصلاة ، وراء الإمام ويستمعن لدرس دينى مداره واجب طاعة الزوج فى الحلال .

ذلك هـو بعض ما يمكن أن يقـــال عن « الزواج على الطريقة المصرية » ، وهو فى رأيى فيلم اقرب إلى روح نجيب محفوظ من « سمارة الامير » وأغلب الأفلام المستوحاة من قصصه ، وهى كثير .

عودة الروح

ولعلى لست مغاليا إذا ما جنحت إلى القول بأن من أفضال مهرجان الاسماعيلية الأخير علينا ، أنه أتاح لنا فرصة مشاهدة ذلك الفيلم ، وأفلام تسجيلية أخرى قليلة ، أهمها بلا منازع « اللى باع واللى اشترى » رائعة « عطيات الأبنودى » صاحبة ثلاثية «حصان الطين» و« توحة الحـــــزينة » و«الساندويتش» ، تلك الثلاثية التى أعادت الروح إلى السينما التسجيلية المصرية .

والآن ، ربما جاز لنا أن نسأل ، لماذا هذه الضجة الكبرى التى أثيرت حول «الزواج على الطريقة المصرية » فى أثناء عرضه بمهرجان الاسماعيلية ثم على صفحات الجرائد والمجلات اثر انتهاء ايام ذلك المهرجان ؟



شكاوى فلاحة فصيحة فى «اللى باع واللى اشترى»

عطاء وعدوان

ما أن انتهى عرض الفيلم فى قاعة الفندق ، وسط صيحات استنكار تطالب بمعاقبة صانعيه فورا ، وبدون أدنى تأخير ، حتى ابدت « سوزيت جلانادبل » مديرة مهرجان سينما الحقيقة التابع لمركز بومبيدو بباريس دهشتها متسائلة .

هناك رأينا عطاء تقصد عطاء الام «ويزا» فى الفيلم ، وهنا نرى عدوانا ، فأيهما نصدق ؟

وكان الرد « صدقى الاثنين »

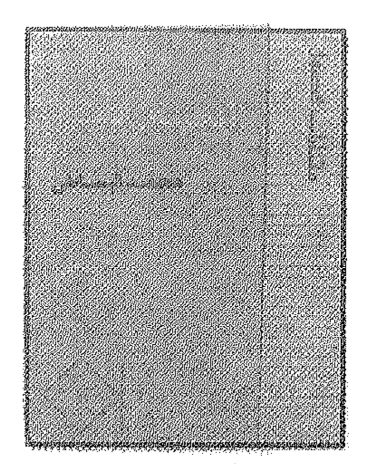
فالعطاء والعدوان كلاهما كامن فينا ، وفى كل الناس على أختلاف الاجناس ، والنجاة من العدوان لا تكون إلا بمزيد من الحب والعطاء .

يبقى أن أقول مع الشاعر «ادونيس » ، أنه ليس لمن لا يتقن الشىء أن يحكم له أو عليه ، تلك الحكمة الأولية البسيطة فى المعرفة ، وفى تقويم الاشياء .

والسينما عموما ، والتسجيلية بوجه خاص ، هى بين الاشياء الاكثر دقة وتعقيداً .

ونحن لم نشاهد من الأفلام التسجيلية إلا أقل القليل .

وإذا كان الذوق نفسه ثقافة فى المقام الأول ، فإن علينا أن ندرك أن تقويم السينما التسجيلية يتجاوز جذريا عبارة «يعجبنى » أو « لا يعجبنى » ، وأنه يتطلب رؤية فنية غنية ، وثقافة واسعة علينا جميعا أن نسعى إليها جاهدين .



الكتـاب : منحنى النهـر
قصص : محمد البساطى
النـاشر : مختارات فصول.
١٠٨ ص ، ٥٠ ق م .

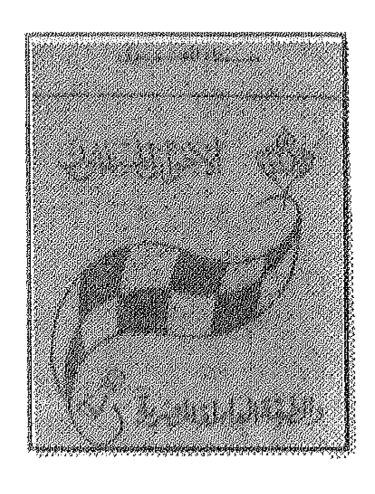
هذه مجموعة قصص جديدة للقاص والروائى المعروف محمد البساطى الذى ظل يعمل دون ضجيج وغبار كما يفعل البعض من الأدعياء الذين بعد أن يـــزول غبار ركضهم المجنون لا نجد لأقدامهم أثرا .

هـــذا كـــاتب فذ وحساس وقادر وموهوب لا يعرف ، مجرد المعرفة ، أن الكتابة هى شىء آخر غير الصدق والإخلاص ، وما هى إلا هدف فى حد ذاته لإضفاء قيمة على الحياة التى قد تبدو للبعض غير ذات قيمة .

تضـــم المجمـــوعة الجديدة إحدى عشـــرة قصة قصيرة ، لا يمكنك أن تخطىء فيها هموم الكـــاتب بـــألم الناس وأحلامهم كما لا يمكنك أن تخطىء حسه السافر ، وقدرته على النفاذ إلى شخصياته ، وهى تجربة يكاد لا يعرفها سوى أولئك الذين التصقوا بالناس عن قـــرب فى الحياة اليومية التى هم لصدق فى نفوســـــهم ، لايصنعـــون قنـــاع «الكـــاتب» بينهم وبين البشـــر .

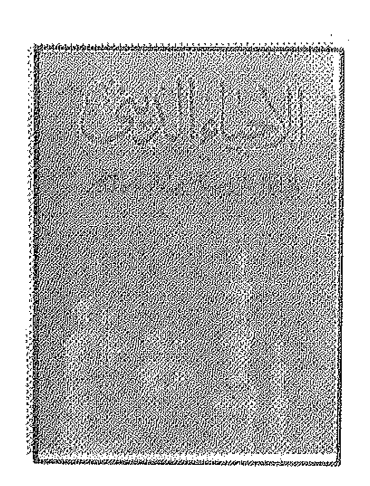
كما تلاحظ أن الكاتب هنا لا يغمض عينيه عما يحيط بالبشر مما فى الطبيعة من غنى : أشجار وحيوان ، طيور وصنوف شتى من المخلوقات ، كما تحس بأن بشره هم أحياء حقا ، يأكلون ويشربون ويمارسون حياتهم ولم يخرجوا من مجرد أفكار مجردة أو متعالية .. تحسن الحذلقة وإن تكن لا تحسن التعبير الصادق عن حياة الناس العاديين البسطاء .

هـــذه القصـــص تستحيل على التلخيص أو سرد مضامينها ، فهى أعمال متكاملة وحية لا يمكنك أن تفصل عظامها عن لحمها ، وإلا انتهت . لذا فإننا لا نستطيع إلا أن ندعو لقراءتها بكل حماس ، فهى مجموعة نادرة حقا .



الكتـاب : الإخوان المسلمون
تـأليف : سناء المصرى
النـاشر : مطبعة الأمل
١٥٦ ص
٥ ج م .

من موقف النقد الشديد تطرح الكاتبة سناء المصرى تاريخ مواقف جماعة الإخوان المسلمين من الطبقة العاملة ، وهى ترى أن موقفهم كان دائما موقف المتحالف من الرأسماليين الكبار ، ولكن الرأسمالية لم تستخدم الإخوان حتى النهاية . فقصفتهم فى منتصف الطريق ، ثم عادت وتركت لهم هامشا جديدا للوجود ، ثم ضربتهم من جديد ، وهكذا فى سلسلة من المتواليات ، ولم تمكنهم حتى الآن من تحقيق حلمهم فى الصعود إلى السلطة ، فقط استخدمتهم فى بعض لحظات الاختناق ، ومن جهة أخرى نمت جماعة الإخوان وتضخمت بفضل مساعدات الحليف وتسهيلاته إلى الحد الذى ظن معه قادة الجماعة أنه لم يعد بينهم وبين كرسى الحكم سوى شعرة رقيقة .. وهكذا تعاملت رموز رأس المال مع الإخوان المسلمين فى وقت استفحال الأزمة وتركوا لهم هوامش عديدة للوجود والنمو ، ولكن حينما إزداد خطر الإخوان أنفسهم بمعدلات أعلى من نسب خطر الجماعات السياسية الأخرى ، فإن نفس رموز رأس المال لم يترددوا فى القضاء على هذا الحليف المستشرى .



الكتـاب : الإحيـاء الدينى
تأليـف : رفيق حبيب
النـاشر : الدارالعربية
٢٤٠ ص

فى مقدمته لهذا البحث يقول المؤلف مفسرا هدفه الرئيسى من دراسته أن العالم يشهد ، منذ نهاية الستينات ، حركة إحياء دينى ، وهو يحاول هنا أن يعرفها ويفسرها بمنهج علمى ، ويرى من هذا المنطلق إن

بالاستطاعة تحديد موضوع الدراسة الحالية « حيث نركز على المجتمع المصرى ، لندرس الحركات الاجتماعية الدينية ، الإسلامية والمسيحية ، ويدور البحث حول استراتيجية (السياسة العامة) الحركة الدينية ، تجاه المجتمع المصرى ، وكيف تحقق الحركة الشعبية والدور المجتمعى ، وعلاقات الصراع والتعاون مع القوى الأخرى ، وأيضا مضمون الخطاب الدينى السياسى للحركة .

ولهذا - يضيف الكاتب - نصنف الحركات الدينية إلى تيارات من الفكر والعمل ، حيث يتميز كل تيار باتجاه فكرى محدد ، وأسلوب عمل خاص ، مع التركيز أساسا على دراسة الاستراتيجية ، وهو تصنيف تحكمى لا يمنع التداخل بين التيارات ، كما لا يمنع وجود الحركة الواحدة فى أكثر من تيار ، سواء لتعدد جوانبها ، أو لتعدد مراحلها ، أو لوجود أكثر من اتجاه داخل الحركة الواحدة .

ودراسة سياسات الحركة الدينية ، تتيح لنا تقييم كل حركة من حيث مدى ملاءمة السياسة لأهداف الحركة ، ومدى ملاءمتها لظروف المجتمع وواقعه .



الكتاب : أرجوك .. افهمنى
تأليف : سعاد حلمى
الناشر : مركز الأهرام
١٨٨ ص

بين دفتى هذا الكتاب تجمع الزميلة سعاد حلمى عددا قليلا من القصص الرومانسية العديدة التى كتبتها بشفافية القصة الواقعية التى تعالج إنسانية المرأة بأسلوب متميز فى مجلة حواء على مدى ٢٥ عاما ، والكاتبة اشتهرت بعمود « همسة صدق » خلال رئاستها لتحرير مجلة حواء التى امتدت بين عامى ١٩٨٠ و١٩٩١ ، وحاصلة على ميدالية المجلس الأعلى للثقافة عام ١٩٧٥ عن مجموعة القصص التى كتبتها عن حرب أكتوبر ، وساهمت أيضا فى ترجمة العديد من القصص الغرامية التى اشتهرت بها مجلة حواء ، كما ساهمت فى سلسلة روايات عبير وقامت بالعديد من التحقيقات الصحفية إلى جانب كتابة عدة قصص إذاعية .

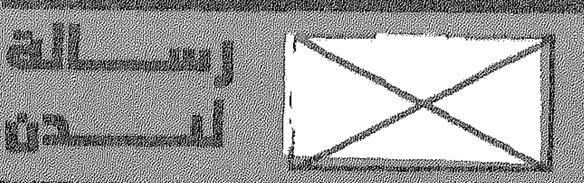
تضم هذه المجموعة عشرين قصة منها قصص : لعبة المرأة ، والحب قضية ، وقالت لا ، وقفزة فى الظلام ، وسره فى بئر ، ولمن كان الحب ، والزمن الصعب وغيرها .

الكتاب : التنمية البشرية فى الوطن العربى
تأليف : د. حامد عمار
الناشر : سينا للنشر
٢٤٦ ص

يقول الدكتور حامد عمار فى مقدمة هذا الكتاب الذى يعكس عمق رؤيته ، وثقافته الواسعة ، وبراعة أسلوبه :

هذا الكتاب لموضوعه بداية ، لكن ليس له نهاية فقضية سعادة الإنسان قد بدأت مع بداية التاريخ البشرى ، وسوف تستمر كتابة فصولها - تحريرا وتعديلا ونضالا مع الإنسان وهو يضع تاريخه من خلال سعيه وصولا إلى الفردوس الموعود ، أو استعادة للفردوس المفقود وموضوع الكتاب لا يقع فى مجال الفلسفة والتأمل فحسب ، بل هو متصل بجوهر الخطاب السياسى فى أعلى مستوياته ، حين يعلن أن خير الإنسان وصلاح أموره هو غاية الغايات وأسمى المقاصد وأنبل المرامى التى تستهدفها جهود التنمية وسياسات الدولة والموضوع أيضا ينفذ إلى جوهر التطلعات الجماهيرية من خلال عملها وكدها . وما ترتجيه جزاء وفاقا كحقها فى توزيع الطيبات من الرزق .

والموضوع هو التنمية البشرية التى ارتبطت ارتباطا عضويا باحترام الإنسان لذاته وفى ذاته ، ويعنى هذا احترام كل إنسان إنطلاقا من التعاليم التى تضمنتها رسالات السماء حين أكدت أن الله قد خلق الإنسان فى أحسن صورة ، وفى أحسن صورة ما شاء ركبه ، لكى يصبح بعد هذا كله خليفته فى أرضه ، أضف إلى ذلك المتطلق الإنسانى الذى تبلور عبر مواقف التاريخ وتجاريه - حلوها ومرها والذى رسخ الايمان بعد طول معاناة بأن طاقات الإنسان هى ثروة لا تنضب ، ومن ثم ينبغى تنميتها إلى أقصى ما يمكن أن تصل إليه من مستويات الإنتاج والإبداع .



كيف تصبح

بقلم : د . على شلش

كلمة مليونير معربة عن الفرنسية . ومن الفرنسية انتقلت إلى الإنجليزية عام ١٨٢٦ بمعنى صاحب المليون ، ثم استعارتها سائر اللغات ، ولكنها أصبحت متواضعة فى قاموس الثروة المعاصرة . كلمة نسبية أيضا ، لأن العملات الرسمية تختلف فى قيمتها من بلد إلى آخر فالمليونير فى إيطاليا يصبح فقيراً فى بريطانيا ، وصاحب الثروة المتواضعة فى بريطانيا يصبح مليونيرا فى إيطاليا أو لبنان ، حيث تنخفض قيمة الليرة وربما تقل عن ثمن الورق الذى طبعت عليه .

ومع أن كلمة بليونير بمعنى صاحب البليون (الألف مليون) اشتهرت فى هذا العصر فمازال الناس يتمسكون بكلمة مليونير ، ويحلمون بأن يكونوا مليونيرات ، لأن الطريق إلى البليون يبدأ بالمليون . وصاحب الملايين يمكن أن يجد نفسه مليونيراً بعد قليل أو كثير من العرق . ولهذا صدقت البلاغة الشعبية فى مصر حين أطلقت اسم الأرنب على المليون . فالناس عندنا يقولون : هذا رجل عنده أرنب ، وذاك صاحب خمسة أرانب . وبلاغة هذه الكناية ترجع بالطبع إلى أن الأرنب أسرع الحيوانات توالدا وقفزاً . وأرنب اليوم قد يصبح ألف أرنب بعد خمس أو عشر سنوات من العرق المتواصل . ولا يمكن الوصول إلى الأرانب الألف ، أى البليون ، دون الأرنب الأول ، وهكذا .

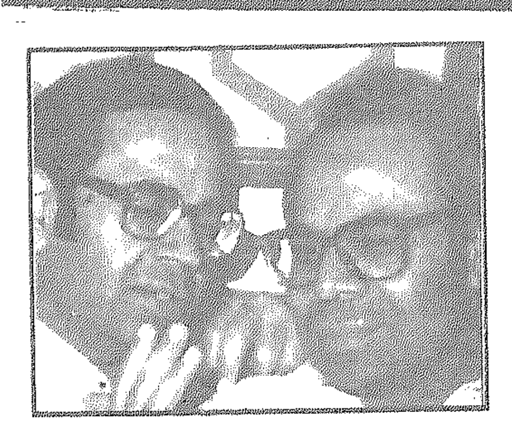
فى مصر مثل شعبى يقول :

أصحاب الملايين فى نعيم !

ولكن الذى ألف هذا المثل أخذ الأمور بالظاهر . ويبدو أنه عاش هو نفسه فى جحيم الملاليم . ولذلك نسى أن المليونير يتساوى مع الملليمير فى ضرورة الكدح لا حجمه ، وفى إمكان الإفلاس أيضا . وحكايات صعود المليونيرات وهبوطهم أكثر من أن تحصى . ولكن المليونير يتميز عن الملليمير فى أنه تحت العين ، ومحط

مليونيرا على الطريقة البريطانية ؟

الأنظار ، دائما ، لا لأنه محسود أو قابل للحسد أو للغيرة ، وإنما لأنه مهم أيضا . وبسبب هذه الأهمية تلاحقه عيون الكاميرات وأقلام الكتاب ، ويحب الناس أن يتتبعوا أخباره ، حتى أصبح المليونير المعاصر فى أوربا وأمريكا يتفنن فى التخفى والبعد عن العيون ، ولكنه لا ينجح فى هذا كثيرا . فالتقدم التكنولوجى فى الإعلام ، الذى يساهم هو نفسه فى تمويله وتحقيقه ، كفيل بالوصول إليه ما دام على ظهر الأرض .



الاخوان جوبى وسرى هندوجا



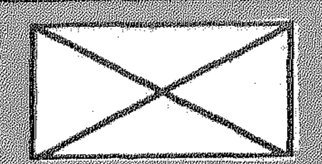
أغنى امرأة فى العالم

أقول هذا كله بمناسبة تحقيق صحفى سنوى طويل عريض درجت على نشره مجلة صحيفة « ذا صنداى تايمز » الأسبوعية عن أغنى ٢٠٠ شخص فى بريطانيا . ولكن المجلة رفعت هذا العدد أخيرا إلى ٣٠٠ ، وزودته بكثير من بيانات المليونيرات الثلاثمائة ، وحذفت أسماء الراسبين فى السلك المليونيرى ، وأضافت أسماء الصاعدين والوجوه الجديدة فى نادى المليونيرات ، وهذا ناد وهمى بالطبع ، ولكنها عبارة مألوفة فى الحديث الإنجليزى عن الأثرياء .



أغنى امرأة فى العالم ...

ويقع التحقيق الصحفى الذى نشرته المجلة لهذا العام فى ٣٠ صفحة مزودة



بالصور ، والتراجم الموجزة ، وبيانات الثروة ، وأرقام العام الماضى وأرقام هذا العام . وبلغ الحد الأدنى الذى وضعته المجلة لعضوية نادى المليونيرات ٥٠ مليونا فى العام الماضى . ومن هذا الحد الأدنى الذى يمثله عدد من الأعضاء ، مثل المغنى الشهير كليف ريتشارد ، يصعد الخط البيانى حتى يصل إلى أغنى امرأة فى العالم ، وهى الملكة إليزابث الثانية ، التى تصل ثروتها إلى سبعة بلايين . ولكن المجلة لم تحدد الحد الأدنى لهذا العام ، وإن كان أقل رقم هنا ٣٦ مليونا .

طريقتان للثراء

من الطريف أن الصحفيين الذين أعدوا هذا التحقيق المجهد اعترفوا بعجزهم عن معرفة بيانات معينة ، مثل الأرصدة السائلة فى البنوك ، وهذه سر بالطبع ، لا يكشف إلا للشرطة أو الضرائب ، بعد الحصول على إذن خاص من الجهات القضائية . كما اعترفوا بأن بعض الأسماء فى قائمة كبار الأغنياء هذه احتجوا على إدراجهم فيها بدعوى أنهم لا يستحقون ، فى حين رجاهم البعض الآخر أن يدرجوا أسماءهم ويسجلوا قصص نجاحهم . ومن الواضح أن الفريق الأول المحتج يريد إخزاء العين كما تقول البلاغة الشعبية ، وأن الفريق الآخر المتلهف يريد الصيت لا الغنى . والصيت فى مثل هذه الأحوال رأسمال وضامن للاقتراض !

والآن .. ماذا يقول هذا التحقيق المجهد الطريف ؟ ماذا يمكن أن نستخرج منه ؟

التحقيق فى مجموعه جواب عن سؤال :

– كيف تصبح مليونيرا فى بريطانيا ؟

هناك طريقتان – لا ثالثة لهما – فى بريطانيا لكى تصبح عضواً فى نادى المليونيرات :

طريقة المليونير بالوراثة

أى أن تولد وفى فمك ملعقة من الفضة كما يقول التعبير الإنجليزى . ومعنى هذا أن يكون أبواك ، أو أحدهما على الأقل ، من المليونيرات . وهذه الطريقة لها مخاطرها ، لأن الضريبة على التركات عالية جدا . ولابد أن تكون التركة من الضخامة بحيث تترك لك بعض الملايين ، أو مليونا على الأقل ، بعد استقطاع نصيب الأسد للدولة . وبهذه الطريقة صارت الملكة إليزابث مليونيرة ، وصار عدد من النبلاء وكبار ملاك الأراضى مليونيرات . فهناك أكثر من ثلاثة ملايين فدان فى بريطانيا

● هناك طريقتان لا ثالث لهما فى بريطانيا لكى تصبح عضواً فى نادى المليونيرات

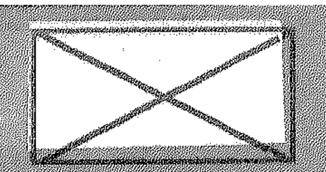
يملكها عدد قليل من الأفراد والأسر . ومعظم هذه الأراضى فى اسكتلندا . وجميع ملاك هذه الأراضى ورثوها عن آبائهم . ويدخل فى هذه الطريقة أيضا نوع خاص من المليونيرات بالوراثة يمثله الأرامل . وهؤلاء يعطيهن القانون الإنجليزى الحق فى حصة كبيرة من التركة ، على عكس الأولاد . ومع ذلك بدأ كثير من الأولاد بحصصهم المحدودة وأصبحوا مليونيرات .

طريقة المليونير بالكفاح

أى أن تولد فقيراً ، وتحلم بأن تكون مليونيراً ، ثم تشرع فى تحقيق حلمك ، وتكافح حتى تصل إلى عضوية النادى بعرق جبينك . وهذه الطريقة لا تكلف أكثر من بعض الأحلام والإصرار على تحقيقها ، مع افتراض حسن الحظ . ومع أن الطريقة الأولى مضمونة ، ولا تسبب ألما ، فهذه الطريقة مملوءة بالمخاطر . والمخاطر عنصر أساسى فى النظام الرأسمالى كله ، ولها لذتها وثمنها الفادح أيضا . فقد تجد نفسك غدا مليونيرا كبيرا ، وبعد غد مليونيراً صغيرا ، أو مليميرا متوسطا على أحد الأرصفة . ولهذا تحتاج هذه الطريقة إلى الحكمة المشهورة التى تمسك بها الزعيم الوطنى سعد زغلول : « لا يأس مع الحياة ولا حياة مع اليأس » وكثيرون من مليونيرات بريطانيا الثلاثمائة من رواد هذه الحكمة وتلك الطريقة ، تنطبق عليهم صفة العصامية ، والبدء من نقطة الصفر أو ما تحتها .

عالم البلايين

تقف الملكة إليزابث على رأس قائمة المليونيرات بالوراثة . ومع أنها ضربت رقما قياسيا فى الثروة ، وانتقلت إلى رأس قائمة البليونيرات ، ببلايينها السبعة ، فهى فى الحقيقة لا تملك كل هذه الثروة الموروثة التى تنمو بالاستثمار وارتفاع أسعار الأراضى واللوحات الفنية النادرة . وقد بدأت جدتها الملكة فيكتوريا عهدها عام ١٨٣٧ وهى مدينة ، ولكن بعض رعاياها الأثرياء تبرعوا لها بالكثير مما يملكون من تحف ومقتنيات ، كما أغدقت عليها الامبراطورية الشاسعة الهدايا . ومع ذلك تحول كل شئ بعد وفاتها عام ١٩٠١ إلى الدولة . ويذكر التحقيق أن دوق وندسور حاول عند تنازله عن العرش عام ١٩٣٦ أن يأخذ معه إلى الخارج ألبومات الطوابع التى جمعها فوقف القانون ضده ، وحكم عليه بإعادتها إلى القصر . ولكن الملكة الحالية أسعد حظا على أى حال ، لأن ممتلكاتها الخاصة تقدر بمبلغ ٥٠٠ مليون



جنيه مستثمرة فى بعض القصور الصغيرة والحلى والأسهم والسندات . وإذا كانت ثروتها هذا العام بلغت ٦٥٠٠ مليون (أى بناقص ٥٠٠ مليون عن العام الماضى) فحر مالها من هذه الثروة هو تلك الملايين الخمسمائة .

وإذا كانت الملكة مليونيرة بالوراثة فهى أيضا مليونيرة بالكفاح ، لأن ثروتها الشخصية بلغت نصف البليون . ولكنها ليست الوحيدة التى توالدت « أرانبها » وتكاثرت فى قائمة الطريقة الأولى ، فهناك أسرة مشهورة احتل اسمها جزءاً من نشرات الأخبار على أثر فضيحة مالية فى العام الماضى ، وهى أسرة جينيس . فهذه الأسرة الأيرلندية الأصل بلغت ثروتها نصف بليون أيضا . وكانت قد بدأت بمعمل صغير للخمور فى القرن ١٨ ثم تكاثرت « أرانبها » بعد ذلك . وهناك أيضا أسرة روتشيلد التى ظهرت فى أوربا فى أواخر ذلك القرن ، ثم تفرعت من ألمانيا إلى فرنسا والنمسا وانجلترا . وأصبحت تملك فى بريطانيا نحو ٤٠٠ مليون جنيه فقط ، وهو رقم متواضع جدا بالقياس إلى أباطرة المال . وبعد أن كان اسم روتشيلد حلم كل مفلس فى العالم كله صار مليونير واحد أغنى من مجموع أفراد الأسرة المنتشرين اليوم فى أوربا وأمريكا . وفى العام الماضى ورث أحدهم ، وهو اللورد جيكوب لقب « اللورد » عن أبيه المتوفى ، كما ورث ٩٣مليونا عن ابن عمه (وبلغت ثروته ١٥٤ مليونا) أما بنك ابن عمه إيفلين دى روتشيلد فى لندن فلم يعد من أغنى بنوك انجلترا . ولم تتغير ثروة السير إيفلين عن ٢٠٠ مليون .

ليست الملكة هى الوحيدة التى تخطت حاجز الملايين . فدوق وستمنستر مثلا تقدر ثروته هذا العام بمبلغ ٣٥٠٠ مليون مقابل ٣٧٠٠ فى العام الماضى أما سر هذا الانخفاض فى ثروته فيرجع إلى هبوط أسعار الأراضى والعقارات التى تتركز فيها بلايينه . فعنده ١٥٠ ألف فدان ، منها ٣٠٠ فدان من العقارات فى حى ماى فير، وهو أغلى أحياء لندن . وليس الدوق هو الوحيد الذى انخفضت قيمة ثروته ، فقد سرى الانخفاض على جميع ملاك الأراضى والعقارات . بل انتقل إلى المكافحين من المليونيرات ، ومنهم الوزير الحالى مايكل هزلتاين الذى كان يساوى ٦٠ مليونا ، فلما دخل الوزارة أصبح يساوى ٤٠ مليونا فقط . والسبب هو أنه لم يعد متفرغا لمؤسسة النشر التى كان يديرها (رفعت المجلة اسمه أخيرا) ولكن الأمور نسبية . فالأخوان جاد وهانز راوزنج – مثلاً – ارتفعت ثروتهما من

١٩٤٠ مليوناً فى العام الماضى إلى ٣٠٠٠ مليون فقط هذا العام . وقد بدأ الأخوان العصاميان رحلتهما مع الملايين منذ ٤٠ سنة ، وتخصصا فى تعليب الأطعمة . ومع أنهما جاءا من السويد فقد أتاحت لهما سوق الثراء المفتوحة فى بريطانيا القفز على غيرهما من البريطانيين الأصلاء أمثال اللورد سينسبرى وأسرته ، أصحاب سلسلة السوبر ماركت المعروفة بهذا الاسم . وقد بدأ جده رحلته عام ١٨٦٩ بمحل صغير لمنتجات الألبان . ولكن الحفيد أسس عام ١٩٥٠ سلسلة السوبر ماركت التى صارت اليوم على قمة محلات التجزئة ، وصار صاحبها يملك ٢٤٢٠ مليونا مقابل ١٨٥٠ فى العام الماضى .

الطعام أضمن وسيلة

من الواضح أن مليونيرات الأطعمة والمشتغلين بالطعام عموما لم يخسروا هذا العام . بل كانوا أكثر ربحا من المشتغلين بالعقارات . ومنهم واحد ، هو جارفيلد ستون ، بلغت ثروته ١٧٥٠ فى العام الماضى ، ثم ارتفعت إلى ٢١٩٠ مليونا هذا العام . وهو ينتج ثلث كمية الخبز الذى تأكله بريطانيا . ومع أنه بدأ رحلته مع الملايين فى انجلترا أثناء الثلاثينات فقد جاء هو نفسه من كندا مليونيرا جاهزا . وكان جده وأبوه قد هاجرا إلى هناك عام ١٨٨٢ ، حيث حققا ثروة هائلة . ثم ضاعفها الحفيد فى بلد أجداده .

وإذا كان غذاء البطون من أضمن وسائل تحقيق الثراء فغذاء العقول أيضا لا يقل فائدة . ولكن أشهر مليونير فى هذا المجال – روبرت ماكسويل – مات بفضيحة . فقد هاجر من تشيكوسلوفاكيا معدما فى سن ١٦ سنة ، أثناء الحرب العالمية الثانية . وبعد الحرب التى تطوع للقتال فيها بدأ رحلته مع المال والنجاح ، حتى صار يملك ١٢٠٠ مليون جنيه وقت غرقه . ثم كشف التحقيق عقب وفاته الغامضة عن فضيحة استيلائه على أموال معاشات موظفى مجموعة صحف « ميرور » التى يملكها . ومازالت الاكتشافات مستمرة ، ولكن المؤكد أن امبراطـوريته الإعـلامية قـامت على « الفهلوة » ، أو كانت الفهلوة أحد أعمدتهـا . وإذا ترجمنـا كلمـة الفهلوة اقتصـاديا لـكان من معانيهـا زيادة الاقتراض مع انخفاض قيمة الأرصدة . وهذا ما حدث لماكسويل وغيره هذا العام . فقد ضمت قائمة « أغنى ٢٠٠ » فى العام الماضى اسم مليونير بين العشرة الأوائل ، ولكن الاسم اختفى هذا العام ، ولم يصل إلى العشرة الأواخر من ٣٠٠ . والسبب أن صاحبه حاول تفادى كساد سوق العقارات

فى بريطانيا ، حيث كان أحد أمرائه ، فانتقل إلى أمريكا ، ولكنه واجه ذات المشكلة ، ولم يستطع الصمود أمام الإفلاس .

لم يكن ماكسويل الوحيد بين مليونيرات العصر فى بريطانيا الذى ولد على غير أرضها . فهناك أكثر من عشرة مليونيرات آخرين غزاة . ومع أن التحقيق لم يورد اسم مليونير عربى واحد هنا ، برغم وجود أكثر من واحد ، فقد أورد أسماء أربعة ذوى أصل هندى . ومن هؤلاء الأربعة شقيقان ، هما جوبى وسرى هندوجا ، بلغت ثروتهما ١٣٠٠ مليون جنيه هذا العام مقابل ١١١٠ فى العام الماضى . والشقيقان يتاجران فى كل شئ ابتداء من السيارات إلى النفط . ولهما نشاط واسع بمنطقة الخليج ، فضلا عن صداقاتهما مع المشاهير وأصحاب القرار مثل جورج بوش ومارجريت تاتشر .

ويتبين من دراسة السير المختصرة الواردة هنا أن التعليم العالى ليس شرطا لدخول نادى المليونيرات أو البليونيرات . فبعض الأسماء الواردة هنا ترك أصحابها الدراسة فى سن ١٥ أو ١٦ . ومع ذلك فبعضها الآخر تعلم بأرقى جامعات بريطانيا (٢٨ بأوكسفورد ، ٢٦ بكمبريدج) وهؤلاء معظمهم من الأثرياء بالوراثة ، ولكن من قال إن العلم لا يحفظ الثروة ؟ ! إذا كانت الثروة بطبيعتها هشة وقابلة للتطاير والزوال فمن باب أولى أن ينميها صاحبها . ولكن مهما كانت سبل تنميتها ، أو حتى المحافظة عليها ، فلابد أن يشعر بوجودها ، لا عن طريق البحلقة أو التغزل فيها ، وإنما عن طريق الانتفاع باثارها فى مسجد ، فى مكتبة عامة ، فى مدرسة ، فى جامعة ، فى مستشفى ، الخ. وهذا ما فعله أثرياؤنا قديما ، وأثرياء أوربا وأمريكا منذ عصر النهضة ، وأثرياء بريطانيا الحاليون أيضا .

فى العام الماضى تبرع مليونير متخصص فى تأجير أجهزة التليفزيون بمبلغ ١٨ مليون جنيه لجامعة كمبريدج ، فى هذا العام تبرع مليونير أخر بمبلغ ٢٦ مليونا لذات الجامعة . ولا نريد أن نحسد الجامعة على ما أعطاها الله ، ولكننا نريد التنبيه على أن فعل الخير هو أهم معالم الوجه المليح للمليونير الأوربى والأمريكى الحديث . أما وجهه القبيح فلا يهمنا التوقف عنده أو التعامل معه ، فهذا من عمل الشرطة والمحاكم والسجون . وما دام الوجه المليح هو الظاهر أمام الناس فمرحبا بكثرته المشروعة ، ومشروعاته الكثيرة ، لأهل بلده ووطنه .

القاهرة

طربوش .. الخواجة بطرخانى



الطربوش


روبير سولى

« الطربوش » عنوان الرواية التى صدرت هذا الشهر باللغة الفرنسية للكاتب السورى روبير سولى وتدور أحداثها فى القاهرة أثناء ربيع عام ١٩١٦ . حول زيارة السلطان لمدرسة الجيزويت فى القاهرة . وقد اثرت هذه الزيارة فى وجدان تلميذ سورى فارتجف . وارتجل قصيدة مستوحاة من حكايات لافونتين أعجبت السلطان كثيرا ..

وهذا الشاب السورى يدعى ميشيل بطرخانى . ينتمى إلى اسرة تتكلم اللغة الفرنسية جاءت إلى القاهرة للإقامة المؤقتة فاستقرت فيها . وعاشت اقسى فترات الاحتلال البريطانى .

وفى الرواية نرى الأب جورج بطرخانى ، صانع الطرابيش . لقد اختار ان يمارس هذه الصناعة . لأن الطربوش ، فى تلك الآونة، كان يعتبر بمثابة شعار وطنى . كما انه نموذج لمجتمع سعيد جاءته القوات الأجنبية كى تهدد كيانه .

وبطرخانى رجل ينتقل مع أسرته من هليوبوليس (مصر الجديدة) إلى مدينة الإسكندرية ويرتاد نفس الأماكن التى كان يزورها الخديو . لذا فلم يكن غريبا على ابنه ميشيل ان ينفعل ويلقى بقصيدته المرتجلة أمام السلطان حين زار مدرسته .

ورواية « الطربوش » مليئة بالاحداث والشخصيات . فهناك ناندو الذى يهتم بدراسة نفوس البشر . وهناك ماجى التى لا تكف عن اصطياد العشاق . وهناك مكرم الذى حمل سلاحه واقسم الا يتركه حتى يتخلص من آخر جندى بريطانى جاء لاستعمار بلاده .

وتدور أحداث الرواية فى سنوات عديدة

متلاحقة . وتنتهى فى بداية الخمسينات حين قامت الثورة . فجاء الضباط الاحرار وعملوا على نزع الطربوش عن الرءوس .. باعتباره رمزاً لعهد بائد .. ويرى الكاتب ان خلع الطربوش كان بداية لترحيل السوريين المصريين وبداية للبحث عن منفى جديد .

روبيرسولى مولود فى القاهرة من اصل سورى . وعاش بها سبعة عشر عاما . ثم رحل إلى باريس وعمل فى جريدة لوموند فى كل من روما وواشنطن . وتعتبر روايته « الطربوش » تجربته الأولى فى عالم الإبداع .



نزوة .. الكتابة لأول مرة ..



آنى دوبريه

آنى دوبرى ممثلة فرنسية ذات جمال ملحوظ . ويمكن ان يجذبك جمالها لأول وهلة . كما انها متزوجة منذ سنوات من الممثل والمخرج برنار جيرادو .

ورغم أن حظ آنى دوبرى فى السينما متميز .. فإنها سعت إلى أن توسع عطاءها الإبداعى . ففى عام ١٩٨٥ نشرت روايتها الأولى «المعجب» . ثم نشرت روايتها الثانية فى عام ١٩٨٧ تحت عنوان « عيون مازران » .

هذا الشهر قامت آنى دوبرى بإصدار البوم ضخم يحمل عنوان : « الشراع الأسود » ضم أكثر من مائة صورة نادرة التقطها ابوها المصور المعروف جان دوبرى .. ووسط هذا الكم من الصور راحت آنى تتكلم عن حبها الشديد لوالديها . فقالت :

« لقد فكرت طويلا فى أن أسطر هذه الصفحات تحية لذكرى والدىَّ . وخاصة أبى « مؤلف » العديد من الصور التى انشر اغلبها هنا فى هذا الكتاب » .

« حقيقة لم اكن أود أن أكتب شيئا عنها فى هذا الكتاب . فالكتابة أشبه بنكتة فى مثل هذه الكتب .. فأنا لم اضع زهوراً قط فوق قبرىَّ أبى وأمى .. ولم أطأ بقدمى منطقة المقابر التى دفنا فيها . بكل بساطة لأنهما قد اختفيا وأنا فى سن صغيرة للغاية . كانا

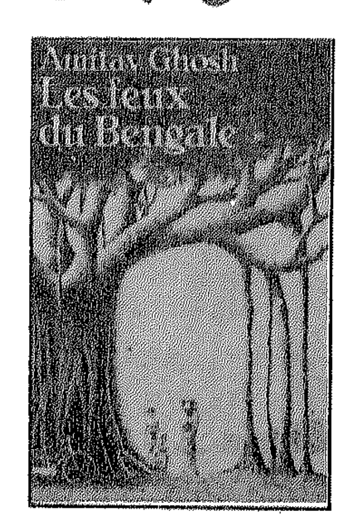
جميلين . وصغيرين ولم يشفع لهما المرض فالتهمهما دون أن تكون لهما رغبة فى ذلك » .

« كان أبى مصوراً . وأنا اجد صوره جميلة . واعتقد أنه كان موهوبا للغاية . وقد انتابتنى الرغبة منذ سنوات ان انشر هذه الصور . وعلى التوازى ، ارتفعت فى داخلى الرغبة فى الكتابة. وان اخلع عن نفسى رداء الإبداع . وان أكتب عن طفولتى التى انشطرت إلى قسمين . وها هى رغبتى المزدوجة فى ان أكتب وان انشر كتابا عن والدى تتجمع هنا .

الجدير بالذكر ان عام ١٩٨٥ قد شهد ظاهرة غريبة . حيث قامت مجموعة من ممثلات السينما الفرنسية بتجربة التأليف الروائى مثل مارى فرانس بيزيه وسيمون سينيوريه وآنى دوبرى وغيرهن . والآن وبعد سبع سنوات من هذه الظاهرة . نجد ان ارفف المكتبات قد زخمت بابداعات أخرى لممثلات اديبات مما يؤكد ان الكتابة لأول مرة لم تكن نزوة .

كلكتا

خطوط الظل .. فى البنغال



قليلة هى الاسماء الأدبية الشرقية التى يمكن ان تصبح نجوما فى الأدب العالمى الحديث . ومن هذه الاسماء القليلة الكاتب الهندى الشاب اميتاف جوش الذى نشر فى الفترة الأخيرة روايته « خطوط الظل » باللغة الإنجليزية .

تجئ أهمية جوش فى انه لم يغادر بلاده الا كى يعود إليها ويعيش فيها . فهو يقيم الآن فى مدينة كلكتا التى ولد فيها عام ١٩٥٦ . والتى قضى بها طفولته . قبل ان يتعلم الرحيل إلى بلاد عديدة فى آسيا فزار طهران ودكا وكولومبو . وصعد جبال الهيمالايا على قدميه . ثم عاد إلى مدينة دلهى حيث درس التاريخ. وحصل على الدكتوراه فى الانثربولوجيا الاجتماعية من جامعة اكسفورد .. وعاد إلى بلاده كى يقوم بالتدريس هناك .

فى عام ١٩٨٨ نشر اميتاف جوش روايته الأولى « نيران البنغال »

باللغة الإنجليزية والتى مالبثت ان ترجمت إلى لغات عديدة . ونالت جائزة مدسيس فى فرنسا كأحسن رواية أجنبية مترجمة .

اما روايته الأخيرة « خطوط الظل » فتدور أحداثها فى منطقة البنغال أيضا . حول مجموعة من الناس عليهم أن يدفعوا كل شئ ثمين يملكونه مقابل أن يمتلكوا القدرة على التذكر .

ونحن هنا أمام راوية يتكلم عن هؤلاء الناس . منهم اخوه الأكبر ترديب الرجل الذى يلعب بالكلمات وكأنه ساحر . وهو رجل لم يبرح غرفته الا قليلا . ومع ذلك فهو قد سافر إلى بقاع عديدة من العالم من خلال قدراته اللغوية .

ويتحدث الراوية عن امرأة إنجليزية تدعى « ماى » إنها طيبة إلى درجة البراءة . اما «ايلا» فهى تملك عصا غير سحرية . وهناك مجموعة من الأطفال انجبتهم الاخت « ميادييى » التى وكلت تربيتهم إلى جدتها .. فأصبحوا كأنهم يتامى .

وهؤلاء الاشخاص يعيشون متقاربين فى الأماكن . ولكنهم يتصرفون كأن حائطا كبيراً من زجاج ، يفصل بينهم . وهم يرون انفسهم فى هؤلاء الآخرين وكأنهم ينظرون داخل مرايا مشروخة .

الجدير بالذكر ان روايات اميتاف جوش قد حققت أعلى المبيعات فى طبعاتها المتعددة باللغات الإنجليزية والفرنسية والايطالية .

موسكو

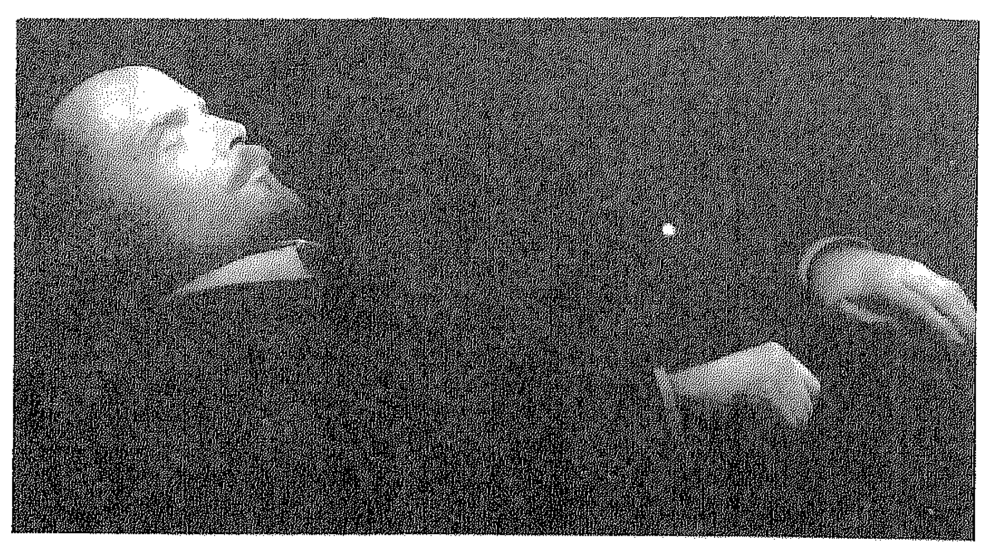
قصص .. مابعد التفكك السوفييتى

أدب الخيال السياسى يعيش حاليا أكبر فترة ازدهار له .. خاصة بعد تفكك الاتحاد السوفييتى .. فلا شك ان هذه الأحداث ، وتمهيداتها ، كانت بمثابة الملهم للعديد من الروائيين ان يلهبوا أفكارهم بما يمكن أن يحدث ، أو ما كان يمكن أن يحدث فى المعسكر الشرقى .

بدا هذا الازدهار واضحا فى روايتين ظهرتا أخيرا . الأولى بالالمانية للكاتب تيلمان شبنجلر تحت عنوان « مخ لينين » . والثانية للكاتب الأمريكى و . د . ويزرل تحت عنوان « شقيقة تشيكوف » .

تحكى رواية «مخ لينين» حول الدكتور فوجت الذى اصابته حالة من الاكتئاب .. فقام بخطف مخ لينين قبل ان يتم دفنه وراح يجرى عليه الابحاث لمعرفة سر عبقريته التى غير بها خريطة العالم . ويتصور الكاتب ان زوجة

لينين سرقوا مخه

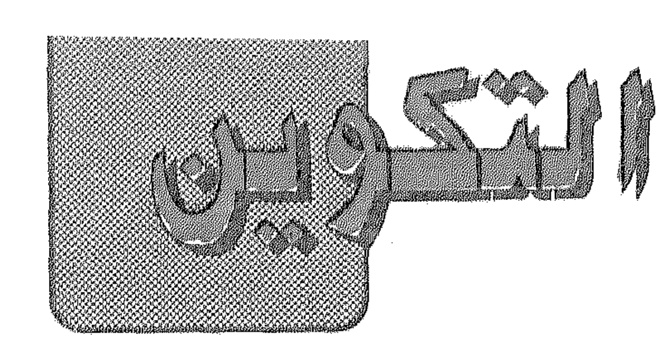


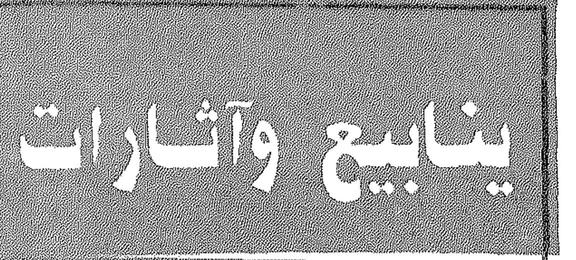
الطبيب قد رمت بالمخ فى صندوق القمامة فتجمعت حولها الكلاب وراحت تتسابق عليه .. وقد كان هذا الحادث كفيلا ان يزيد من حدة الكآبة التى اصابت الدكتور فوجت . والذى كان عليه أن ينتظر سنوات طويلة حتى يموت ستالين وان يقوم بالعملية نفسها .

اما الرواية الثانية ، «شقيقة تشيكوف» فهى مستوحاة من حكاية خيالية عن الأديب المعروف تشيكوف كما انها استعارت اسم احدى مسرحياته . وهى تصور التحالف الأكبر بين الشيوعية والنازية . تدور الأحداث ذات ليلة شتاء مرعبة فى عام ١٩٤١ . حيث نرى اخت تشيكوف الكبرى قد اقتنعت بوجهة نظر ضابط مثقف يؤمن بالنازية والشيوعية معا . ويطلب منها ان تذهب إلى المتحف الذى يحمل اسم أخيها وان تسرق له نص مسرحية « طائر البحر » ، لأن مجموعة من رجال الصاعقة الالمان يودون ان يقوموا بتغيير أحداثها كى تدور فى أحد بيوت الهوى الذى يحتله هؤلاء الرجال .

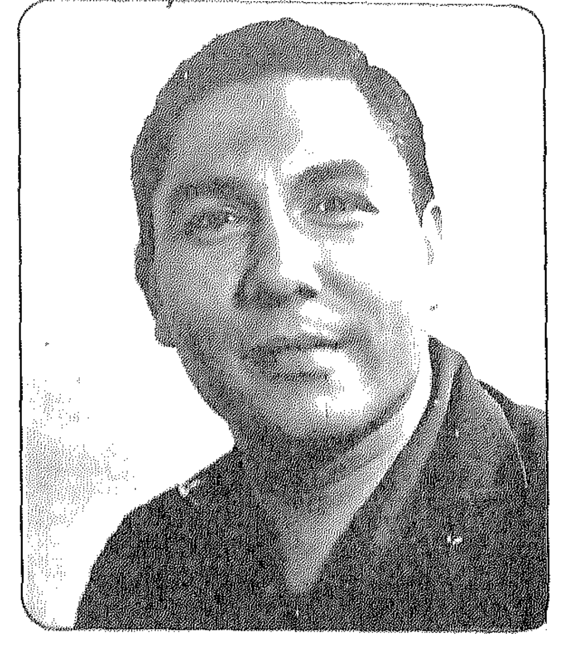
ويصور الكاتب المغامرة التى تقوم بها شقيقة تشيكوف من أجل دخول المتحف الذى يحمل اسم أخيها . ثم قيامها باحضار مسودات المسرحية . وتسلمها إلى الضابط الالمانى مقابل لحظة حب .

لقد تفككت اوصال الاتحاد السوفييتى . ولا شك انه مثلما تكثر مديات الجزارين حين تقع البقرة .. فلا شك ان أدباء الخيال السياسى سوف يتصورون كل ما تقدح به ذاكرتهم .. وأول الغيث قطرة .





فؤاد بدوى



الأطفال ربيع الدنيا
بسمة نور
نسمة سحر تسرى .:. تجرى
يا ربى
يا واهب عمرى
اجعل أيامى أزهارا تنمو بحديقة أطفال .

هذا هو أحساسى بالاطفال .. وهذا هو شعورى نحوهم .. عبرت عنه هذه الكلمات التى ترى الطفولة ربيعا وخضرة وازدهارا وتفتحا وأملا وشبابا ومستقبلا ونورا .. وهى هى الكلمات التى تتمنى ان تصبح الايام أزهار حديقة أطفال .. أعرف أنه تمن ترفى لأن الكثير من أطفال العالم يحتاجون إلى الرغيف قبل الوردة والى الرداء قبل الأغنية والى المسكن قبل كتاب الشعر .. ولكن هكذا تمنت الكلمات .

لم أكتب للاطفال وأنا فى محاولتى الاولى مع الكلمة ولكنى توجهت نحوهم تماما بعد أن صرت كهلا فى الحياة وكهلاً مع الكلمة ..

وأذكر ان الكلمات الأولى فى هذه الورقة التى لا تصلح إطلاقا إلا أن تكون بحثا أكاديميا أو دراسة أو أى شىء من هذا القبيل بل يكفيها شرفا أن تحكى بكل

الرغبة فى كتابة أشعار وأغانى للإطفال



عبد التواب يوسف — كامل كيلانى

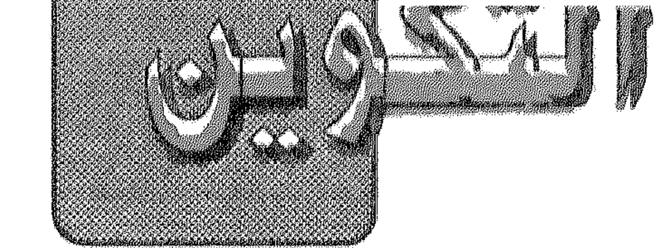
الصدق تجربتى مع الشعر والأغنية متوجهـا بهما إلى الطفولة الأمل والمستقبل .

كانت هذه الكلمات نص برقية بعثت بها إلى الأديب الراحل الأستاذ يوسف السباعى الذى كان يترأس مؤتمرا يبحث شئون الكتابة للأطفال فى الاسكندرية .. ولما كنت لا أدعى إلى ندوات الثقافة فى مصر ولا إلى مؤتمراتها وكأنى غائبٌ أو ميت ولما كنت لا أسعى مطلقا إلى أن أكون حيث لا أدعى أحببت بهذه البرقية أن أقول لهذا المؤتمر ومن خـلال رئيسه إننى هنا وإننى أكتب للأطفال .

لا أعرف كيف وقعت هذه الكلمات أو وصلت إلى يد وعيون وفكر وقلب الإذاعية الكبيرة الاستاذة فضيلة توفيق - رئيس الشبكة الرئيســية باذاعة جمهورية مصر العربية (سابقا) وهى ماما فضيلة التى تتحدث إلى اطفال مصر كل صباح .. عهدت ماما فضيلة بهذه الكلمات إلى الموسيقار الراحل الأستاذ الدكتور يوسف شوقى الذى وضع لها لحنا وأذاعتها السيدة فضيلة وقابلتنى بعدها فى طرقة بالدور الرابع وقالت : -

أذعنا لك كلمات جميلة عن الأطفـال لماذا لا تحضر لنا المزيد من إنتاجك .. حفزنى هذا إلى أن أحمل إلى برامج الأطفال قصيدتى القرآن والقلم اللتين لحنتا وغناهما على الحجار و «اللهم أجعل فى قلبى نورا» التى أنشدها محمد ثروت .

سألت نفسى عن ينابيع الشعر التى روت طفولتى فتذكرت أن أمى - شفاها الله - ربما هدهدتنى أو غنَّت لى وربما لم تفعل فذاكرتى لا تبوح - (تؤكد شقيقتى أنها تصبر على ابنتها الطفلة بوحى من صوت أمها الذى تستعيده وتستعيد معه الحنان والصبر)..



كذلك لا تقول ذاكرتى إن كانت جدتاى قد فعلتا أم لا وان كانت الذاكرة والقلب يحتفظان لجدتى لأمى بقدر كبير جدا من الحب والتقدير والاحترام ومازالا يريانها طائرة خفيفة رشيقة معطاء بسّامة ويريانِ فى جدتى لأبى يرحمها الله وجها قاسيا متسلطا صعبا .

وعشت أيام طفولتى فى مدينة كفر الشيخ وكانت مدينة بسيطة تقطنها ثلاث فئات .

الأولى : السادة موظفو الأوقاف الملكية والحكومة .

الثانية : التجـــار .

الثالثة : الفلاحين .

تغيرت هذه الصورة كثيرا الآن .. عشت أيام الأجازة الصيفية فى دار جدى فى القرية التى كانت قرية جميلة وكان اسمها جميلا « روينا » .. اعتقد ان هذه القرية هى مصدر الشعر الأول فى قلبى وضميرى وعيونى كانت الدار فسيحة ، أمامها مباشرة النخل وشجرة الجميز الكبيرة والحقول والترع وكان غير بعيد عنها الجرن الكبير .. كنا فى الصيف نتطلع إلى البلح أخضر ثم أحمر وأصفر .. وكنا نذهب إلى الجميزة نحاول تختين ثمارها وننتظرها .. ولكن تحت الجميزة أو فوقها الحكايات .. وكنا نفرح كثيراً بما تعطيه هذه الشجرة الكريمة أما الحقول فكانت تعطى لعيوننا لونها الأخضر الجميل الممتد (تزرع محافظة كفر الشيخ ثلث محصول جمهورية مصر العربية من الأرز) كانت الترعة تقدم لنا خدمات ثلاث .. كانت تسمح لنا بالسباحة فيها (كنت أجيد الغرق فكدت أغرق كل مرة) .

وكنا نصطاد منها السمك (لم أوفق كثيرا كصائد للسمك) . كنا نمشى على شاطئها للسمر وهنا كان لى مكان .

كانت شـــهور الصيف هى كل الطفولة .. للأسف الشديد ماتت هذه الأيام بمجرد الانتقال الى المرحلة الثانوية حيث بدأ أبى رحمه الله فى الاعتماد علىّ للمعاونة فى أمور متجره وفى تجارته المنفاتورة ولكن لابد هنا أن أذكر أن شهيتى للقراءة كانت قد انفتحت بشكل كبير وكان أبى - رحمه الله - يشترى لى كل ما أرغب فى قراءته ولا أنسى أنه اشترى لى مجموعات هائلة من مجلدات اللطائف والمصور والهلال وغيرها .

كانت فى كفر الشيخ ترعة أكبر من ترعة القرية وكان هناك أصدقاء أيضا ولكن لم تكن هناك القرية ولا ليلها ولم نكن ننظر الى السماء الا تحريا عن الحرب والغارات على مدينة الاسكندرية التى تبعد عن كفرالشيخ ١٢٠ كم وبالرغم من ذلك كان أبى والجيران يتحدثون عن النيران التى يلمحونها .

عندما انتقلت من كفر الشيخ لأدرس فى جامعة الاسكندرية عاد الشعر من

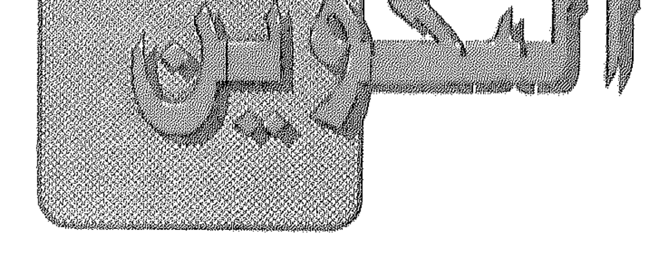
جديد الى النفس .. تمثل هذا أولا فى البحر الممتد والذى ليس له آخر وتمثل فى السماء المزركشة دوما بالسحب .. كانت السحب تمثل لى مثيرات للتخيل هل هذه السحابة جمل ؟ أم أنها حصان ؟ .. هذه الأسئلة لا تكف عيونى عن توجيهها لعقلى طيلة الوقت الذى أتأمل فيه السحاب .. الاسكندرية بحر . وسحاب . وسماء . وقمر (ما أجمل انعكاس ضوء القمر على مياه البحـــر خاصـــــة عند بعض الخلجان فى الاســكندرية قبــل منطقة ستانلى ورشدى) .. كم كان يحلو لى فى ليالي الشتاء القمرية أن أتدثر بالطو مدفىء وأخرج إلى البحر والى القمر ذلك على الرغم من نزول المطر أحيانا أمام مكتبة جامعة القاهرة وعلى الحشيش الأخضر استلقيت على ظهرى ذات مساء أتأمل السماء انتظارا لخروج شقيقتى التى كانت تدرس دبلومها فى الترجمة والتى كان علىّ أن أعطيها توصيلة إلى مكان عملها .. وأنا على هذه الحال تذكرت سحابات الاسكندرية .. هذه السحب الرائقة ووجدتنى أتمتم بكلمات قصيدة السحابة .

قالت لى الســــــحابة
فى نبرة جـــــــــذابة
قـــد كنت قطـــرة مـــاء
صـــــعدتللســـــماء
قابلت أصـــــــــدقاء
صــرنا معـــا غيـــوم
نجـــاور النجــــــوم
والشمـــسروالقمـــــر
تأتى خيـول الريح .. الخ .

(ظهرت هذه القصيدة فى مجموعتى الشعرية الأولى للأعزاء الصغار من أصحابى .

أوقن أن أهم مصادر اللغة والشعر لى كان القرآن الكريم .. فكّر أبى رحمه الله فى أن أدرس فى الأزهر الشريف .. كان المثال الواضح أمامه خالين لى هما الاستاذ محمد حسن حنبل عمدة روينا – مد الله فى عمره – وخالى المرحوم حسن حنبل أستاذ المنطق بجامعة الأزهر وبعض الجامعات العربية سابقا ولذا عهد بى أبى إلى المرحوم الشيخ عبد الحليم – تعسا لذاكرتى نسيت بقية اسم الرجل – ليحفظنى القرآن الكريم كان الشيخ عبد الحليم يحضر الى محل تجارة أبى ويدخل فى المكان المخصوص ويبدأ فى تحفيظى وحفظت الأجزاء الثلاثة الأولى من القرآن الكريم .. تغير المسار بواسطة الشيخ عبد الحليم أيضا إذ اننى فى يوم ما لم أحفظ الواجب فشكانى لأبى الذى عاقبنى عقابا قاسيا اضطر معه خالى إلى أخذى من يدى ليضعنى تلميذا فى مدرسة الأمريكان ببلدتنا كفر الشيخ .

القـــرآن الكـــريم .. الحـــروف .. أ . ل . م . ك . هـ . ى . ع . ص . بسم الله الرحمن الرحيم .. كل حرف .. كل كلمة .. كل آية .. كل سورة كل ما فى القرآن الكريم من إعجاز .. كل هذا أثر فى اللسان والقلب والعقل .. أثر جدا وأعتقد أن القصيدة التى كتبتها عن القرآن فى مجموعة من أصحابى وقصيدة القرآن فى القلب التى وردت فى المجموعة الثانية



«سبحان الله» هما بنات هذه الفترة الهامة من طفولتى . فترة علاقتى التى بدأت فى الطفولة مع كتاب الله الكريم والتى استمرت حتى هذه اللحظة من العمر .

ولاشك أن اللعب مع الاتراب فى الطفولة كان نبعا مضافا .. هذا اللعب فى المدينة يختلف عن السهر فى الجرن فى القرية مع الحواديت التى كان يقصها أخى .

أغبط الاطفال الآن إذ أنهم بالرغم من كل ما يعانون من زحام وتدافع وسباق إلا أن هناك اهتماما كبيرا بهم .. اهتمامات على مستوى عال واهتمامات من المبدعين بالاطفال ومن المثقفين ومن رجال التربية والتعليم .

بالمدارس مكتبات وتشهد مصر حاليا فترة ازدهار مكتبية للاطفال .. المكتبة والحديقة الكتاب والوردة .. واللعبة .. والاهتمام بهم اعلاميا .

أعتقد أن العنصر الرابع الذى ينبغى علىّ ان أشير إليه وأنا احكى عن تجربتى مع الكتابة للأطفال ، بعد علاقتى بالطبيعة وكتاب الله ومرحلتى الطفولة فى القرية والمدينة ، هو عملى فى بدء حياتى العملية مدرسا للأطفال بمدرسة إبتدائية بمدينة كفر الشيخ .. اسم مدينة كفر الشيخ بالكامل هو كفر الشيخ طلحة وهو الشيخ طلحة أبو سعيد من تلمسان بالمغرب والمدرسة التى بدأت حياتى العملية فيها كان أسمها مدرسة سيدى طلحة الإبتدائية . فى المدرسة تعرفت على أبناء الفصل عوض ومحمد ونبيل وحازم أسماء كثيرة جدا ثم بدأت أعرف أسماء تلاميذ فى الفصول الأخرى وكان قد لفت نظرى مدرس رسم فنان هو الصديق الأستاذ عبدالله سعد إلى ضرورة محاولة رسم الناس بالكلمات .. الرسام يرسم الملامح بالخطوط واللون ويضع الأشكال والشاعر يستطيع أن يرسم الناس بدون باليتة فقط يملك آلة التصوير وهى عيناه وغرفة قلبه التى ينفذ إليها ماتراه عيناه ويملك عقله وقدرته على التفكير ومن ثم يكون قادرا على رسم أى شخصية .. قبل تلاميذ الفصل وتلاميذ المدرسة كنت قد بدأت رسم بعض شخصيات المدينة (مدرس مزيكا - الفتاة التى تحمل الحبوب إلى ماكينة طحين والعاملة التى تصنع الأفراح وغيرها .)

بدأت أتأمل الأطفال وبدأت أعرف ملامح كل طفل - الملامح النفسية بدأت فى محاولة التعبير عنهم برسم أسكتشات سريعة .

شـــريف ولد ظريف .
عمره ســبع ســـنين
يروح المدرســـــــة
يرجع م المدرســــة
يمشى فـوق الرصيف
وعيـــــونه مفنجلين

وهكذا فى سنتين من التأمل ومحاولة
م استطعت أن أرسم الأطفال الذين
ف .

المهم عندى هو أن كل قصيدة أو أغنية
وأن تسكب فى عقل وقلب ووجدان
قل المتلقى قيمة ما .. أقول له إنك
ف أن الشمس تنير وان الشمس تدفىء
ى أركز على قيمة أنها لم تخلف
دها ابدا واحاول قدر الطاقة أن
خلص من الظاهرة الطبيعية قيمة
وية هكذا مع النهر الذى ينصحنا بأن
ع خيرا وزهرة عباد الشمس التى
رف الوفاء والانتماء والعمل الذى تنادى
كتب السماوية والصباح .. الخ .

يقى أن أذهب الى التبع الاخير والهام
قع فى اليد من شعر كتب للاطفال مثل
عار أمير الشعراء أحمد شوقى الذى
فى رأيى رائدا على مستويين ،
ستوى الاول الشعر الذى كتبه للاطفال
ستوى الثانى وهو الصعود بالكلمة
اعرة الى خشبة المسرح .. قرأت
بع هانز كريستيان أندرسون وقرأت
بيلى المغنية الامريكية الزنجية التى
ت فى بعض كتبها للاطفال قصة ورقة
جر التى سقطت من على غصن
جرة لتلتقى مع علبة فارغة يسير بها
النهر .

كيف تعرفت الورقة على العلبة وكيف
ارتا صديقتين وتتحدث الشاعرة بعد ذلك
الرحلة . النظر فى اعمال سليمان



إحدى أمسيات فؤاد بدوى الشعرية

العيسى للاطفال ولا أغفل بالطبع اعمال الرائد الكبير كامل الكيلانى ولا أعمال الصديق الذى أهدى مكتبة الطفل العصرية فى مصر والعالم العربى كتبه الهامة عبدالتواب يوسف .

قبل أن أضع القلم يجدر بى ان أشير الى الاثر المهم والعميق الذى حفرته قراءة معظم ما صدر فى مجموعة الالف كتاب الاولى خاصة عن الاطفال وللاطفال .

وبقى ان أقول إن السفر فى الدنيا ومشاهدة الاهتمام الذى ما بعده اهتمام بحديقة الطفل ولعبة الطفل وكتاب الطفل فى العالم شرقا وغربا كل هذا دفع العقل والقلب معا إلى أن يفكرا فى لعب دور بالنسبة لاكبادنا التى تمشى نحو المستقبل على الارض .

• المسلمون اليوم •

• من وحى ما يحدث للمسلمين فى بورما والبوسنة والهرسك وأذربيجان ، فضلا عن فلسطين ولبنان :

أكذا تكونُ الحالُ يا أهلَ الهدَى ∴ القتلُ فيكم لا يُحَدُّ لهُ مَدَى ..؟
يتآمرُ الغربُ الكريهُ عليكمو ∴ ويُذيقكم - بالجَهرِ - ألوانَ الرَّدَى
هل ذاك يُرضى رَبكُم ويَسُرُّهُ ..؟ ∴ هل ذاك يُرضى يا رجالُ محمدا .؟
كتَبَ الإلهُ لأغلِبَنَّ فما لَكُم ∴ ما عُدتمو إلا ضعيفاً مُقعَدا ..؟
كان الأباةُ من الجدود عمالقاً ∴ سادوا الدُّنا مَجداً وجازوا الفرقدا
واليومَ أنتم قد تَفَرقَ أمركُم ∴ لا تملكونَ تَجمُعاً وتَوَحُدا
ما كان عن ضَعفٍ لِعَزم جنودِنا ∴ كلا ، فَهُم دَوماً رجالاتُ الفِدا
لكن لسوءِ قيادةٍ قد أخفقت ∴ أن تُحسِنَ التخطيطَ ، أن تَحمى الفدا
يا أهلَ هذا الدين هذا يَومكُم ∴ فَلتنقِذوا إخوانكم ، مُدوا يدا
لا خَيرَ فينا إن تركنا جَمعَهُم ∴ يغدو على أيدى الطغاةِ مُشَرَّدا
«الله أكبرُ» كان حُر ندائِنا ∴ فَلتَجعَلوه لنا شِعاراً سَرمدا
أهلُ البطولةِ كيف يَخبو بأسُهُم ∴ أهلُ السيادةِ كيف صاروا أعبداً ؟

أحمد قاسم أحمد مدير تعليم سابق - قنا

• جنازة الماركسية •

• على مدى سنى متابعتى لقراءة مجلتكم ، بل مجلة العرب العزيزة على قلوبنا ، تعرفت وعرفت الكثير .. واسمى ربما لا يكون لديكم من الشعراء

المعروفين ، لذلك حرصت على إرسال قصيدتى المرفقة راجيا نشرها ، تعبيرا عما يجيش فى عالمنا العربى فى ضوء ما حصل لقطاع من جيلنا كان مرتبطاً بنوع أو آخر من الأفكار والنظريات التى سادت عالم ما قبل البريسترويكا .. وما قبل عالم اليوم ، الجيل الذى تاه كثير منه ، وهو الآن يبحث عن طريق ، رغم أن الطريق العربى كان ولا يزال موجوداً أمامه .. له كل مقوماته الفكرية والأيدلوجية . وهذه قصيدتى بعنوان «جنازة الماركسية» :

هـدئ من روعك ياصاحبى ... فلا ينفع عند المصاب الـروع

وإن يك مصابك مصابا جللاً ... فلغيرك أملاً طال أن توقعوا

وإن يكن غمك أنك كنت ... تبنى أحلاماً ، فرأيتها تتصدعُ

فيا طالما لفت نظرك إلى ... أنها بالأحرى أوهامٌ خُدعُ

خَدعنا كلنا سرابٌ مخاتلٌ ... و«الضامئ» من السهلِ أن «ينخدع»

كنا «ضماءً» لدواءٍ أو جاعنا ... لكنها كانت من الوجع «أوجعُ»

أكادُ أجزمُ أنهم حتى حياتى ... عاشوها ، فأنا لا أرى ولا أسمعُ

وليس لى عقلٌ وليس لى هوىً ... وعشتُ حسبما أعطوا وما منعوا

ماذا عسى تبكى ، أما كفى أن ... عشت دهراً راهباً تتقوقعُ

تتعبدُ صنماً ظننتَهُ «إلهً» ... أو أنك تكابرُ فيما أثبته الواقع

عباش على الصالح عدن - صنعاء (اليمن)

● تعليق الهلال :

- نشكرك على حسن ظنك بنا ، وأما قصيدتك فإنها طريفة حقا فى لغتها ومعانيها ، وكنا نود أن ننشرها كلها ولكننا اضطررنا إلى اجتزاء هذه الأبيات منها لأنها طويلة لا يتسع لها المجال برغم طرافتها ! .. ونوجه

التفاتك إلى أن كلمة «الضامئ» - فى البيت الخامس - خطأ ، والصواب «الظامئ» بالظاء لا بالضاد ، وكذلك كلمة «ضماء» فى البيت السادس ، وصوابها «ظماء» ولكنكم فى اليمن تنطقون الضاد ظاء ، فاختلط عليك الأمر ، كما أن أوزان أبيات القصيدة كلها «من أولها إلى آخرها» غير صحيحة ، وليس فيها شطرة واحدة صحيحة الوزن ، وإن كانت الأغلاط اللغوية والنحوية ليست كثيرة جداً .. لهذا نرجو أن تعيد النظر فى أدواتك الشعرية كلها إذا كنت تعتزم الاستمرار فى نظم الشعر .. ونكرر شكرنا لك ، ونرحب برسائلك ..

• الذكرى الثانية لوحدة اليمن •

للأرض بات القلب والمقل ∴ للحقل أضحى الحلم والأملُ
صنعاءُ يا مرسى قوافلنا ∴ هذى معانى الحب والقبل
جئناك والأفراح تصحبنا ∴ جئناك والأنغام تكتمل
قد أكمل العامين مولده ∴ والعزم فى أعماقه جبل
إنا هنا بالغرب مسكننا ∴ وقلوبنا بهواك تشتعل
كم حاولوا تشتيت وحدتنا ∴ كم فى سبيل شقاقنا بذلوا
كم شككوا بصحيح نيتنا ∴ لكنهم خسئوا بما فعلوا
ماذا أقول بخاطرى كلم ∴ أبقى عليها فى فمى الخجل
أترين يا صنعاء أمتنا ∴ وقد اعتلاها الخزى والوجل
أضحت تفاوض للسلام فهل ∴ يأتى السلام بما به أملوا
واشنطن جاءت لتنهبنا ∴ والمعتدون ببغيهم وصلوا
يا كعبة الثوار يا عدن ∴ حياك شعب صامد بطل

إن تمتلئ أجـــواؤنا فــــرحا ∴ ويفـــوح ملء حقـــولنا جـــذل
فـــــلأننا وطـــــن بمنهجـــه ∴ لا يعتـــريه الخـــوف والــــزلل

درهـــم جبـــــــارى
مواطن عربى فى سان فرانسيسكو - الولايات المتحدة الأمريكية

• أغـــــلاط مطبعيـــة •

● فى قصيدة الشاعر المهجرى درهم جبارى المنشورة بهلال يونيو الماضى بعنوان «دمعة على الشرق» يقول بيتها الأخير :

إن كانت «الأسود» لا تحمى مواطنها
فللثعالب حق الفخر واللقب

وكلمة «الأسود» فى الشطرة الأولى تكسر الوزن وصوابها «الأسْدُ» جمع «أسَد» .. وهى بضم الهمزة وسكون السين ، فلزم التنويه ..

محمـــد حســـين الشـــاورى - أســـيوط

● تعليق الهـــلال :

- أنت يا عزيزى على حق ، وهذه الكلمة صحيحة فى الأصل المكتوب ، ولكنها بعد أن مرت بالجمع والتصحيح صارت «مغلوطة» ! .. وآفة الشعر الآن - فى جميع الصحف - اختلاف المطبوع عن المكتوب !..

• الشـــاعر الصـــغير •

ولـــدى «أحمـــد» يكتبُ شـــعراً ∴ ويـــذوب هـــواه مع «الكلمـــة»
يتـــوارى منى .. أرقُبـــُـــهُ ∴ فى شـــغف . ممتشـــقاً قلمـــه
يجـــلس فى لحظـــة إبـــداع ∴ وعـــليه البهجـــة مُرتســـمة

ومـــلاكُ الشـــعر يُعـــاوِدُهُ ∴ «بالصـــورة» تنبضُ .. بالنغمة
شـــاعرنا الطفـــلُ ، قصـــائدهُ ∴ «أفـكارًا» جـــاءت منســـجمة
وغـــداً .. ســـنراهُ لدى الإبداع ∴ يُجـــاهدُ .. ويُرَسِّـــخ قـــدمه
ويخـــوض بحـــور الشـــعر إلى ∴ أن يرفـــع فى الـــدنيا عـــلمه

محمدى حسن الشافعى - سامول - المحلة الكبرى

• الرافعى المفترى عليه •

● فى حديث للأديب الناقد إبراهيم فتحى بجريدة الأخبار قال إن الكاتب القصصى إدوار الخراط يرى الأدب حرفة لغوية ، وهو استمرار لمصطفى صادق الرافعى فى الأناقة والبلاغة اللغوية ، وفى تقديم زجاج ملون جميل وتماشيق وأرابيسك !..

ونحن نوافق الأديب إبراهيم فتحى على رأيه فى إدوار الخراط الذى خولط قلمه فلم يعد يعرف شماله من يمينه ، ولكننا نرفض رأى الأديب المذكور فى نابغة الأدب العربى المرحوم مصطفى صادق الرافعى الذى كان يجمع بين جمال اللغة وجمال المعانى ودقتها وعمقها ، وله فى ذلك ما يشبه المعجزات ، ولكن أعداءه افتروا عليه ، وتابعهم على افترائهم من لم يقرأوا الرافعى قراءة عميقة ، فاجتمع على ظلم هذا الكاتب الفنان الرفيع القدر ، أعداؤه والجاهلون بأدبه وفضله ، وهم كثيرون ، وبعضهم من مشاهير الأدباء !..

وإذا كان إبراهيم فتحى يقدر نجيب محفوظ حق قدره ، ويندد بمن يهاجمونه ويقول إن الأدباء العمالقة يفتحون الطريق وإن المساس بهم جريمة ، فكيف فاته أن يطبق هذه « القاعدة » على الرافعى ؟!

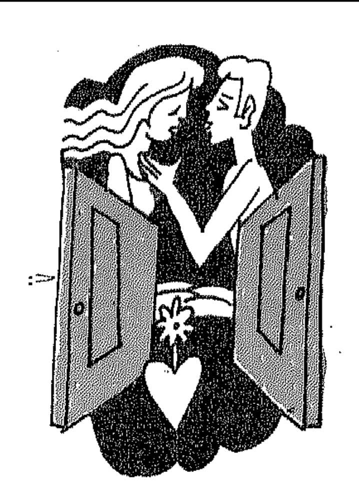
رمضان عبد الجواد رجب - أبو قرقاص

• الهلال فى عيده المئوى •

قرن يمر وأنت إشراق لنا ∴ فبقيت للقراء ياكل المنى
فى عالم متغير .. متقلب ∴ أنت الثبات على الرشاد لمن دنا
الفكر فيك ومنك عم ضياؤه ∴ مازاغ يوماً عن سبيل أو ونى
جُرجى ، أميل ، أحمد يتلوهما ∴ وعلى أمين . صالح .. أسُّ البنا
درجاتك ازدانت بـ «كامل» زهرة ∴ نقاش.. والراعى، رعى الله السنا
والحب مؤنسنا بنجم طالع ∴ يا أيها الشادى اسقنا ثم اسقنا
و «النبل» من شيم الكرام سجية ∴ عين الوفاء لمن أراد طريقنا
يابدر تم فى المعالى قد سما ∴ يذكى مشاعرنا وينعش فكرنا
ربط الوفاق عرى المحبة بيننا ∴ أنت الهلال تشوفا ، وأنا أنا

أبو بكر محمد محمد حسانين
مدرس أول لغة انجليزية - أبو تشت

• الألم المفرح •



إذ قال الشاعر للصمت :
إنا أعطيناك الروح صحارى فامرح
وامنح .. أزهارا لا تذبل ،
وسماء إن دُعيت تهطل
امرح .. وافتح
أبوابا للذبح الناعم
أنهارا للألم المفرح

رمضان عبد اللطيف حامد - قوص

● مع الأصدقاء ●

● أحمد أبو زيد سيد أحمد - مصنع أبو تيج - أسيوط :

- لا يكفى أن تكتب اسمك وعنوانك على «الظرف» فلابد من كتابته فى رسالتك لأنها هى الأصل .. أما صديقك أحمد الشاذلى الذى حدثتنا عنه فيستطيع أن يرسل إنتاجه الأدبى إلى النقاد الذين ذكرتهم فى رسالتك ، وليس من عادتنا أن نكون نحن الوساطة بين الأدباء والنقاد عن طريق البريد ! ..

● وائل محمد سراج الدين - كفر الشيخ :

- شعرك أكثره موزون ، ولكن صياغتك ومعانيك تحتاج إلى صبر للوصول إلى الإجادة ..

● السادة الشعراء : محمد محمد نعمان .. عادل حمزة .. محمد إبراهيم .. محمد عبد العزيز عبد المجيد .. عماد رفعت السيد بكر .. السيد التحفة :

- قصائدكم تحتاج إلى مراجعة أوزانها ، وننصح بالتمكن من علمى العروض والقافية قبل الاسترسال فى نظم الشعر .

● عماد عارف الشيمى - سوهاج :

- أقصوصتك مكتوبة باللهجة العامية .. لماذا لا تكتب باللغة الفصيحة المقروءة ؟ !

● محروس همس - عين شمس الشرقية :

- زجلك العامى جميل المعانى والمبانى ، ولكننا متخصصون فى نشر الشعر العربى فقط لأنه الشعر القومى لجميع الشعوب العربية ، فنعتذر إليك من عدم نشر زجلك ، وتستطيع إرساله إلى إحدى الصحف التى تنشر الأزجـــال ..

كتاب
الهلال
يقدم

مثل وموّال
قراءة فى النفس الإنسانية

بقلم الدكتور
يحيى الرخاوى

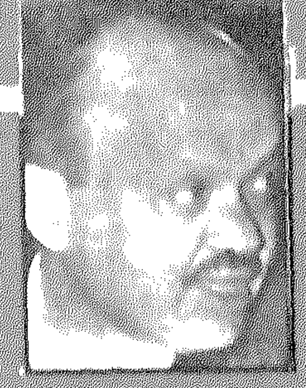
يصدر
٥ يوليه ١٩٩٢

روايات الهلال
تقدم

الأزمنة

بقلم
سعيد سالم

تصدر
١٥ يوليه ١٩٩٢



الوحدة الوطنية والتعليم

بقلم : د. عبد العظيم أنيس

في هذا الزمن الرمادي الرديء ، زمن الفتنة الطائفية والقتل على الهوية في قرى صعيد مصر واغتيال خصوم الفكر في عز النهار في شوارع القاهرة ، يبحث عقلاء هذه الأمة عن الأساليب والحوافز التي تدعم الوحدة الوطنية وتحصن أبناء مصر ضد جرثومة النزاع الطائفي وتوظيف الدين سياسيا بشكل سلبي كما هو حاصل في طول مصر وعرضها في السنوات العشرين الأخيرة .

وضمن هذا البحث عن الأساليب والحوافز ينبه الكثيرون إلى دور الإعلام من صحافة وتليفزيون وإذاعة في دعم الوحدة الوطنية إذا خططت برامجه بعناية ، وإلى النتائج السلبية لبعض هذه البرامج ، خصوصا البرامج الدينية ، في بذر بذور التفرقة الطائفية وإضعاف الوحدة الوطنية ، وكل هذا صحيح وجميل وإن كان يتعلق باللحظة الراهنة ، أو إذا جاز التعبير بالجانب «التكتيكي» من مشروع دعم الوحدة الوطنية .

غير أننا لا نلتفت إلى جانب هام ذي أثر «استراتيجي» عظيم الأهمية في دعم الوحدة الوطنية ، ألا وهو توحيد التعليم في مرحلة «التعليم الأساسي» من السادسة إلى الخامسة عشرة ، فهذا التوحيد في المناهج والكتب .. إلخ كان العنصر الأساسي في دعم الوحدة الوطنية لكثير من الدول المتحضرة التي حققت تقدما كبيرا في ظل التنمية الرأسمالية ، رغم أن شعوب هذه الدول أتت من أصول مختلفة في زمن حديث نسبيا . وبعد مرحلة التعليم الأساسي - حيث يتم التركيز على اللغة القومية والحساب والتربية الوطنية والبيئة المحلية - يجرى التفريع .. إلى تعليم مدني أو ديني ، إلى تعليم ثانوي عام يؤهل للجامعة أو إلى تعليم مهني يؤهل للعمل .. إلخ . أما أن يبدأ الطفل وهو في سن الحضانة في مدارس التعليم الديني فهو خطر عظيم على وحدة الأمة .

كان نابليون يقول إن الوحدة الوطنية للشعب الفرنسي تتحقق من خلال المدرسة والجيش ، وحبذا لو تعلمنا درسا من هذه الحكمة .

إن الدعوة إلى توحيد التعليم في المراحل الأولى ليست جديدة ، فطه حسين هو صاحب هذه الدعوة في كتابه (مستقبل الثقافة في مصر) ، ومنذ أن صدر هذا الكتاب حتى اليوم يؤسفني أن أقول إننا خطونا بضع خطوات في الاتجاه العكسي ، وأن عودة المصروفات في التعليم هي أيضا عنصر في إضعاف الوحدة الوطنية .

المنظف الصناعى

نيول ...٢٠٠٠

ذو الرغوة الوفيرة
والرائحة الذكية

إنتاج:
شركة الإسكندرية للزيوت والصابون



مصر للطيران

أهلاً بكم فى عالمنا ...